الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 54 - July 2003

مجلة شهرية . العدد الرابع والخمسون . السنة الخامسة . يوليو ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

صناعة القرار الأمريكى .. الآن!



«أنتِ بيروت»
«أنتِ لى»
رنا حايك

حروب
السوبر ماركت !
تيم لانج

«خريطة» أمريكية
«طريق» إسرائيلى !
أيمن الصياد

حوار الحضارات
على أرض المغرب
سلامة أحمد سلامة

بعد احتلال العراق :
مستقبل
النظام العربى
أحمد يوسف أحمد

الأهلى والزمالك
ظاهرة رياضية
اجتماعية سياسية !
حسن المستكاوى

عن التعليم والحريّات
والخصوصية والأمل
«قراءة فيما جرى !»
يحيى الرخاوى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الخامسة
العدد الرابع والخمسون
يوليو ٢٠٠٣

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد يوسف أحمد.. مدير معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تيم لانج.. أستاذ السياسة الغذائية بجامعة سيتى
- جوانا بليتمان.. صحفية بريطانية
- حسن المستكاوى.. صحفى.
- رنا حايك .. صحفية لبنانية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد العليم الأبيض.. الوزير المفوض الإعلامى فى واشنطن سابقاً.
- فتح الله الشيخ .. أستاذ علم الطبيعة بجامعة جنوب الوادى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمود عبد الفضيل .. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- محمود الوردانى .. روائى وصحفى.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى. سعد الدين شحاتة. محمد حاكم

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص . ب : ٣٢ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٢٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير. اليمن ٢٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــة..

أمـريكـا ـ العـراق ـ فلسطـيـن

■■ سيظل مثيرًا للانتباه ما تحرص الإدارة الأمريكية على ترديده فى كل مناسبة من أن «الانتصار الأمريكى على العراق قد أوجد فرصة هائلة لإحلال السلام فى الشرق الأوسط». (كوندليزا رايس ٥/١٥)، فحسب المتواتر من أخبار النصف الثانى من القرن العشرين لم يكن العراق يومًا عقبة «حقيقية» على طريق السلام «المفترض» هذا. اللهم إلا إذا كان هناك من يريد أن يذكرنا بأيام السادات وقمة بغداد (١٩٧٨) وكل هذا قد بات فعليًا فى ذمة التاريخ منذ زمن طويل. ولم يبق منه غير ذكرى عنتريات جوفاء بعد أن انشغلت بغداد - أو شُغِلَتْ - وشَغَلَتْ معها العرب جميعًا بحرب «الفرس» تارة وبالـ «المحافظة التاسعة عشرة» تارة أخرى قبل أن تدخل مكبلة بالديكتاتورية سجنًا أمريكيًا إضافيًا من الحصار والتجويع، لم يرحم طفلاً ولا مريضًا، لإثنى عشر عامًا كاملة.

هل هذا هو العراق الذى يريد الأمريكيون أن يفهمونا أنه كان العقبة فى طريق السلام.. وعلينا أن نتفاءل الآن بعد أن سقط تحت الاحتلال ودخل فى دائرة الفوضى لعقد إضافى من الزمان والعذاب؟!

نُذكِّر - ولتصحح لنا السيدة رايس - أن الإسرائيليين هم الذين قصفوا المفاعل العراقى فى حين لم يمَّس العراقيون - ولا غيرهم - مفاعل ديمونة بأى أذى (إذا استبعدنا المذكرات الدبلوماسية وحماس الفضائيات ورسوم الكارتون).

هل علينا إذن أن نصدق مستشارة الأمن القومى الأمريكى ونقتنع بأن الطريق إلى السلام صار مفتوحًا وممهدًا بعد أن نجح الأمريكيون فى إزالة «العقبة العراقية الكئود»؟

إن ذلك يعنى ببساطة أن ننسى حقائق الثلاثين عامًا الماضية (والعرب على أية حال ينسون) كما أن علينا أن ننسى (أو نتناسى) مبادرات السلام «الحقيقية» فى السنوات الأخيرة. وأن الذى رفضها أو التف عليها كان الإسرائيليون. وأن الذى تجاهلها أو أجهضها كان الأمريكيون. وآخرها - ولعلها لم تُنس بعد - مبادرة الأمير عبدالله التى تبناها العرب - بمن فيهم العراق الذى كان - على مستوى القمة فى بيروت قبل عامين. ورد عليها شارون (فورًا) باجتياح رام الله.

هل يمكننا إذن - رغم كل ذلك - أن نفهم تصريحات السيدة رايس من ربط بين الاحتلال الأمريكى للعراق والفرصة التاريخية للسلام فى الشرق الأوسط. والذى مافتئت الصحف العربية على تكرارها، مطمئنة شعوبها ربما، إلى أننا فى سبيلنا إلى الحصول على جائزة سقوط بغداد؟!

نعم. فالسيدة صادقةٌ وتعرف ما تعنيه. ويبقى أن نعرف نحن أيضًا. فالمعنى هنا ليس فى بطن الشاعر. بل فى الأوراق المعلنة الرسمية أو شبه الرسمية لمذكرات وتقارير تحمل شعارات لجهات تابعة للإدارة الأمريكية أو لمراكز استراتيجية قريبة منها. تشرح (لمن يقرأ - ثم يدرك - وهم قليل للأسف) الصلة التى تتحدث عنها رايس ولا نريد أن نراها بين احتلال العراق والسلام/ التسوية فى الشرق الأوسط (حسب المفهوم الأمريكى/ الإسرائيلى) وهو الأمر الذى بات واضحًا - رغم غفلتنا أو حاجة بعضنا إلى تجاهله - كما لم يعد فيه جديدٌ يقال (راجع قراءة الأستاذ هيكل لأوراق الإدارة الأمريكية، فى أكثر من عدد لـ«وجهات نظر». وكذا عرض د. عزمى بشارة للمذكرة المقدمة فى يوليو ١٩٩٦ إلى رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو من مُنَظِّرى السياسة الأمريكية الجدد ريتشارد بيرل ودوجلاس فيث ودافيد وارمز. («وجهات نظر»: يونيه ٢٠٠٣)

الشأنُ الأمريكى - العراقى - الفلسطينى - الإسرائيلى، أو فلنقل شجونُ العرب وهمومهم فى بداية قرن جديد يعود بهم - رغم أن الأرض تدور حول الشمس حكمًا - إلى تحديات ومشكلات منتصف القرن الماضى، لم يغب عن صفحات هذا العدد من «وجهات نظر».

فالأستاذ هيكل يختتمُ تشريحه للإمبراطورية الأمريكية (كيف ولماذا.. وإلى أين؟) والتى كان قد بدأها بـ«مهمة تفتيش فى الضمير الأمريكى» فى عدد فبراير ٢٠٠٣ (مجموعة المقالات تصدر قريبًا فى كتاب عن الشركة المصرية للنشر العربى والدولى الناشرة لهذه المجلة).

ودكتور يحيى الرخاوى «يَنظر» فيما جرى. ويكتب عن «التعليم.. والحريات.. والخصوصية.. والأمل» مؤكدًا ضرورة الإعداد النفسى لمواجهة من نوع آخر «بعد أن فقدت الجيوش التقليدية قيمتها» ومحذرًا من شيوع الإحساس بأنه «لا فائدة من مقاومة من أى نوع أمام تلك القوة الأسطورية الطاغية». ومعتبرًا أن «الكارثة» إنما كانت أيضًا «كاشفة» لحقيقة ما نحن فيه، وما نحن ذاهبون إليه. إن لم نقف لننظر بحق.. ونتدبر بصدق.

ويكتب دكتور أحمد يوسف أحمد دراسة منهجية عن «مستقبل النظام العربى» الذى بدا أنه قد يكون بعناوينه ومنطلقاته وأُطره أحد ضحايا - إن لم يكن أهم ضحايا - ما جرى.

وليس بعيدًا عن الهموم والشجون.. والحال، العرض الذى يقدمه الدكتور عبدالعليم الأبيض لكتاب «ما بعد الجهاد» للقانونى اليهودى الأمريكى الشاب نوح فيلدمان (٣٢ سنة) والذى كان قد أثار عند صدوره قبل أسابيع - كصاحبه - جدلاً واسعًا بين السياسيين والأكاديميين. والذى اعتبر بعضهم (إدوارد سعيد) اسمَه «عنوانًا» على نوع التخطيط الذى يقوم به الأمريكيون للعراق. إذ ذكرت الأنباء أن فيلدمان سيكون المسئول عن إعداد دستور عراقى جديد وأنه خبير لامع فى القانون الإسلامى نشأ يهوديًا محافظًا ودرس العربية منذ أن كان عمره ١٥ سنة. لكنه - يقول سعيد - لم يمارس القانون فى أى بلد عربى، ولم يزر العراق (ذكرت الصحف أن زياراته للمنطقة اقتصرت على زيارات عائلية لأقربائه فى إسرائيل) ويالها من إهانة صريحة، ليس فقط للعراق، بل للألوف من القانونيين العرب والمسلمين الذين يمكنهم القيام بمهمة كهذه خدمة لمستقبل العراق بدلاً من هذا الشاب عديم الخبرة.. «إنه بالتأكيد احتقار ما بعده احتقار» والتعبير للمفكر الفلسطينى والأكاديمى الأمريكى.

وماذا عن الشأن الفلسطينى المتفاعل - دمًا وسياسة - يومًا بعد يوم؟ الـ «قراءة» هذا العدد هى لصورة صحفية مفعمة بالإيحاءات، ترسم ظلالُها ربما «الخريطة الأمريكية.. والطريق الإسرائيلى». أو إن شئت فلك أن تبدِّل مواقع الصفة والموصوف.. لا فرق.

وجهات نظر

صناعة القرار الأمريكى - الآن

محمد حسنين هيكل

أولا: إمبراطورية قطاع خاص!

تظل الإمبراطورية الأمريكية قضية أساسية تستدعى البحث والدرس، وبعدها فإن ما جرى ويجرى فى العراق طوال الأسابيع الأخيرة - عملية ممارسة لقوة هذه الإمبراطورية تثير الألم والوجع، وسوف تظل كذلك حتى يجىء الأوان ويتمالك العالم أعصابه وإرادته - لكنه بدون البحث والدرس فى القضية الأساسية فأى تناول للممارسات سطحى، وكل وصفة لعلاجها مهدئ، يدارى عللها ولا يداويها!

وعليه فإن الوقوف أمام المشروع الإمبراطورى الأمريكى سواء فى ذلك نظرياته المتطورة مع الوسائل الحديثة، أو رجاله المتغيرون مع العصور المستجدة - هو الذى يشرح ما جرى ويجرى فى العراق (وربما فى غيره)، ويكشف كيف جاء رجال من أمثال «ريتشارد تشينى» (نائب الرئيس الأمريكى الحالى)، و«دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع ومهندس حملة العراق)، و«بول وولفويتز» (مساعد وزير الدفاع) و«ريتشارد بيرل» (رئيس لجنة سياسات الدفاع السابق) - فأمسكوا بمفاتيح القرار الأمريكى، ثم فتحوا الأبواب على آخرها واحتلوا واحدة من أغلى العواصم، وأغناها إسهاما فى الثقافة العربية الإسلامية، وأبرزها تأثيرا فى المحيط الحضارى الإنسانى الأوسع والأكبر.

وليس أشد إثارة للملل فى الفكر العربى المعاصر من هؤلاء الذين ينسبون كل وقائع التاريخ إلى تدبير المؤامرة - غير أولئك الذين يتوهمون أن الإمبراطورية مبرة خيرية، وأن مطالب الهيمنة دعوة هداية ورشد تشع من البيت الأبيض الأمريكى، أو من وزارة الدفاع (البنتاجون) - أو من مقار الشركات العملاقة - أو من مراكز الأبحاث والدراسات الاستراتيجية ابتداء من «مجلس العلاقات الخارجية» فى نيويورك وحتى مؤسسة «راند» فى كاليفورنيا.

وداعى الملل أن أصحاب نظرية التاريخ المتآمر، ومعهم أنصار نظرية الهيمنة العذراء - كلاهما يثير الغبار والدخان من حول واقع الحال، ومجمله أن العلاقات الدولية صراعات قوى، ومصالح تمارس فعلها بالنار، وتندفع إلى سباق الحياة بأقصى سرعة يسمح بها العقل والعلم، وهى تجرب فرض إرادتها بكل الوسائل - علنا وسرا - إقناعا وقسرا - حربا مكشوفة أو تربصا فى الظلام. وهنا فإن التاريخ يصعب - جزافا - اعتباره مؤامرة مستمرة، لكنه فى اللحظة نفسها يصعب - إطلاقا - اعتباره فردوسا للأطهار!

والواقع أن تاريخ الإمبراطوريات يكشف أشياءً، كما أن تجربة هذه الإمبراطورية الأمريكية تضيف إلى الكشف القديم أشياءً أكثر، لأن هذه الأخيرة ظاهرة مستجدة، كما أن صنّاعها طراز مختلف عمن سبقوهم على نفس الطريق، فلم يحدث من قبل أن اختلطت المشروعات الإمبراطورية الكبرى بالمصالح الشخصية المباشرة كما يحدث فى حالة المشروع الإمبراطورى الأمريكى اليوم، وأول الأسباب أن التجربة الإمبراطورية الأمريكية فى الجانب الرئيسى منها - مشروع مالى (شبه خاص!) وهنا اختلافه عما سبقه. ومع التسليم بالعلاقة العضوية بين الإمبراطورية والثروة فإن المشروع الأمريكى غيَّر ترتيب العلاقة وبدَّل تركيبتها، وجاء بأحوال غير مسبوقة فى نشأة الإمبراطوريات وقيامها.

....

وهنا يكون مناسبا طرح عدد من البدهيات قبل الاستطراد فى الموضوع:

١ - منها أن «الإمبراطورية» حلم لا يقوم على المزاج الشخصى لأمير أو ملك أو رئيس يستهويه أن يسمى نفسه إمبراطورا، (مثل «هيلاسلاسى» الذى اتخذ لقب إمبراطور إثيوبيا (لعموم أفريقيا) فى أوائل القرن العشرين، أو مثل «بوكاسا» الذى قام بوضع تاج على رأسه فى أواخر نفس القرن إمبراطورا على طريقة «نابليون»، فتلك وغيرها من



ليس هناك وطن أو أمة أو دولة تنام فى المساء وتستيقظ فى الصباح، فإذا هى قوة إمبراطورية غالبة، قادرة على تطويع غيرها وحكمه

نزوات البشر) - بل يقوم الحلم الإمبراطورى على ضرورات أمن وطنى، ومطالب صراع دولى، وحوافز سباق نحو التوسع والثروة على اتساع القارات وعبر المحيطات، كما حدث فى التاريخ الحديث مع إمبراطوريات البرتغال وهولندا وأسبانيا وبريطانيا وفرنسا (وغيرها).

٢ - ومنها أن «الإمبراطورية» لا تظهر وتكبر بطريقة عفوية وتلقائية، وإنما تنشأ وتكبر بدرجة من القصد والجهد تتولى تصميم وهندسة المشروع الإمبراطورى، وتقوم على توجيه حركته، لأنه ليس هناك وطن أو أمة أو دولة تنام فى المساء وتستيقظ فى الصباح، فإذا هى قوة إمبراطورية غالبة، قادرة على تطويع غيرها وحكمه، وإنما يتشكل أى مشروع إمبراطورى بضرورات، ومطالب، ووسائل، وأدوات واعية وفاعلة، وحتى إذا بدت نشأة المشروع الإمبراطورى حلما فإن ظهور الحلم - خلافا للوهم - سعيه الدءوب والمقتدر إلى تجاوز الحدود لتحقيق طلبه خطوة واثقة - بعد خطوة واثقة!

٣ - ومنها أن الإمبراطورية فى تلك الأحوال كانت مشروعات كبرى لشعوب وأمم ودول، تحمل بها الأمراء (مثل «هنرى الملاح» فى البرتغال). والملوك (مثل إليزابيث الأولى فى بريطانيا) - والوزراء (مثل «كولبير» وزير «لويس الرابع عشر» فى فرنسا) - وكان هؤلاء الأمراء والملوك والوزراء هم الذين وجهوا رجالهم إلى ركوب البحر واجتياز البر (مثل «كريستوفر كولمبس» الذى اكتشف أمريكا لحساب ملوك أسبانيا - ومثل «فاسكو داجاما» الذى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند لصالح ملوك البرتغال، وأقام مستعمرة أنجولا على الشاطئ الغربى للقارة الإفريقية ومستعمرة موزمبيق على شاطئها الشرقى - ومثل «كلايف» غازى الهند ومؤسس حكومتها البريطانية فى «كلكتا» ثم فى «دلهى»)، والمعنى أن الإمبراطورية كانت دائما مشروعا عاما يحمل رمزا ملكيا، ويحمل راية وطنية، ويمثل مصلحة عليا، وهو بهذا التكليف يحرك الأساطيل ويوجه الجيوش، ويغزو البلدان، ويحكم الأقوام، ويستولى على الثروات.

٤ - ومنها أن الإمبراطورية على طول الزحف الإمبراطورى من القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين كانت مجلبة للمنافع العامة: الاقتصادية والاستراتيجية، ووسيلة لتكديس تراكم



فى الثروة فاق الحدود فى بعض الأحيان - لكن نسق الحقائق بقى جليا طول الوقت:

. أى ظلت الإمبراطورية مشروعا وحافزا عاما لشعب أو أمة تعبر عنهما إمارة أو مملكة أو دولة تحصلت على أدوات المنعة والقوة.

. وظلت حظوظ الأفراد فى الثروة تالية للإمبراطورية (حتى وإن مشت بعض الطلائع على مسئوليتها تمهد وتجس الأرض وتستكشف) - أى أن المكاسب الرأسمالية الطائلة كانت مثل العربة تجىء وراء القاطرة وليس قبلها.

٥ - وظلت الإمبراطورية موقع القيادة، لا ترضى للقوة أن تتورط وراء الطمع بغير تدبر، ثم إنه بعد أن تؤدى القوة دورها الإمبراطورى المحسوب، يكون للفرصة الشخصية أن تبحث عما تريده حيث تجده!

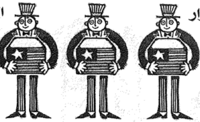
....

....

[وعلى سبيل المثال تظل الإمبراطورية الأسبانية فى أمريكا اللاتينية فى بعض جوانبها قصة تعاد صياغتها وتستعاد روايتها فى تجارب إمبراطورية متعددة، فقد اشتهرت بدايات ذلك العصر الإمبراطورى الأسبانى بأنها «القرن الذهبى لأسبانيا»، وعلى طول ذلك القرن فقد خصص الملوك الأسبان أقوى أساطيلهم فى المحيط الأطلسى لجلب الذهب، وقد عرف هذا الأسطول باسم «أسطول الكنوز»، وكانت سفنه هى الأحدث والأسرع، والحاملة لأقوى المدافع، وقادته أنجح أمراء البحر الأسبان.

وكانت كنوز ممالك «مونتزوما» فى المكسيك «والانكا» وسط جبال «الإنديز» هى نهر الذهب الذى سال وفاض، حتى أُعيد صب قناطير منه - مرة على شكل سرير من الذهب الخالص، تستقبل عليه الملكة «إيزابيللا الثانية» عشاقها فى قصر الأرانخويز (ضاحية مدريد الجميلة).

أى أنه بصرف النظر عن سفاهات الملوك والأباطرة - فإن قواد حملات جلب الذهب الأسبان مثل «كورتيز» (الذى نهب كل ما عثر عليه من ذهب مملكة «مونتزوما»)، ومثل «بالبوا» (الذى نهب ذهب قبائل أمريكا الوسطى) - عملوا باسم الملوك ولحسابهم، حتى أن «بالبوا» عندما عبر برزخ بنما من الغرب إلى الشرق ورأى المحيط الهادى أمامه - قام بسرعة بتنظيم



مراسم احتفال يعلن فيه أن هذا المحيط اللامتناهى أصبح من هذه اللحظة بحرا خاصا مملوكا مباشرة «لصاحب الجلالة الأسبانية»].

....

....

ولعل محاضر مجلس العموم البريطانى - بالذات محضر يوم ١١ فبراير سنة ١٨٦٨، تقدم نموذجا دقيقا لعلاقة العام والخاص فى المشروع الإمبراطورى.

كان اجتماع مجلس العموم يومها مخصصا لبحث نفقات واحدة من الخبطات الإمبراطورية المشهورة فى التاريخ البريطانى، هى صفقة شراء حصة مصر فى شركة قناة السويس، وكان خديو مصر («إسماعيل باشا») قد عرضها للبيع مقابل أربعة ملايين من الجنيهات الذهبية، وبادر رئيس الوزراء البريطانى - وقتها - «بنيامين دزرائيلى» (وهو اليهودى الوحيد الذى وصل لرئاسة الوزارة البريطانية حتى اليوم) إلى قبول العرض، ولأن مجلس العموم البريطانى كان فى إجازة - ولأن الخزانة البريطانية لم تكن تستطيع تدبير وتقديم هذا المبلغ سرا (حتى لا يعرف به منافس أو عدو) - ولأن تدبير المبلغ كان لابد أن يحصل بسرعة (لأن خديو مصر يتعجل وصول الذهب إلى يديه) - فإن «بنيامين دزرائيلى» قام بإقناع عائلة «روتشيلد» بإقراض المبلغ للحكومة البريطانية وتجهيزه فى ظرف ٢٤ ساعة كى تحمله الباخرة «بليموث» قبل أن تبدأ رحلتها العادية إلى الإسكندرية، ويجرى تسليمه إلى خديو مصر مقابل تسلم أسهمه فى شركة قناة السويس.

وطبقا لمحضر مناقشات مجلس العموم (المجلد الثالث - الصفحات من صفحة ٦٥٢ إلى صفحة ٦٦١ بتاريخ ٢١ فبراير ١٨٧٦) - فإن وزير الخزانة طلب من المجلس اعتماد الصفقة وتخصيص المبلغ اللازم لها، وفوقه مقدار العمولة المستحقة عليها (بنسبة ١٥٪) «للسادة روتشيلد» وشركاهم.

كان وزير الخزانة السير «ستافورد نورثكوت» هو الذى عرض مشروع القرار، لكنه عندما احتدمت المناقشات وقف رئيس الوزراء «دزرائيلى» بنفسه يرد على تساؤلات واعتراضات عدد من أعضاء المجلس انتقدوا الصفقة بما فيها دور «روتشيلد»، متسائلين عن سبب الاستعانة ببيت مالى، وتركز الكثير من سخطهم على حجم عمولته:

ولعلعت أصوات المعارضين فى مجلس العموم ذلك اليوم.

• كان بعضهم يرى أن قناة السويس مشروع فرنسى لا يصح لبريطانيا أن تشارك فيه، لكن رئيس الوزراء «دزرائيلى» قال إن ذلك الرأى كان من البداية «قصر نظر إمبراطورى» لا يغتفر للمسئولين عنه فى وقته، لأن قناة السويس أقرب طريق إلى الهند، وعلى بريطانيا أن تعوض الآن ما فاتها بشراء حصة تقارب النصف فى شركة قناة السويس (وهى حصة مصر).

(وكان بعضهم يتخوف من أن شركة قناة السويس اشترطت لكى تعطى حصة لخديو مصر، أن تكون أسهمه صامتة ليس لها حق فى التصويت فى مجلس إدارة الشركة، أى أن ممثلى الخديو أعضاء لهم حق الحضور دون حق الكلام، ورد «دزرائيلى» الإنجليزى بأن «الأعضاء المحترمين الذين أشاروا إلى أن الحصة المصرية صامتة ينسون أنها عندما تصبح فى يد الحكومة الإنجليزية فإنها سوف تكتسب بالضرورة مقدرة النطق، وبالتالى حق التصويت).

• وكان بعضهم يتساءل عن حكمة الاستعانة ببنك خاص لتمويل الصفقة، ورد «دزرائيلى» بأن «مجلس العموم كان فى إجازة ولو دعى لجلسة طارئة لَلَفَتَ ذلك أنظار العالم بما فيه الحكومة الفرنسية، وهى كفيلة بأن تصطنع من العراقيل ما يكفى لإفساد الصفقة، لتحول دون دخول الحكومة الإنجليزية بحصة تقارب النصف فى شركة القناة.

• وأخيرا أبدى بعضهم شكه فى دور «البيت المالى» الذى كُلِف بالمهمة وجهز الذهب فى أربع وعشرين ساعة، ثم تقاضى عمولة مقدارها ١٥٪، ورد «دزرائيلى» متسائلا فى البداية: «هل يتصور الأعضاء المحترمون أن المستر «روتشيلد» أو غيره من الأغنياء يحتفظ تحت يده نقدا - سائلا - بمبلغ كبير من الذهب يوازى المطلوب لشراء حصة النصف فى شركة قناة السويس؟» - ثم رد على سؤاله قائلا: «بالطبع لا يوجد مثل هذا الرجل - لا «روتشيلد» ولا غيره، والذى جرى أن «روتشيلد» فى سبيل توفير ما طلبته الحكومة منه، اضطر إلى بيع كميات كبيرة من أوراقه المالية، وفعل ذلك بسرية وهدوء حتى لا تنخفض أسعار هذه الأوراق، ويرغم ما تحوط به فإنه بسبب ضخامة المبلغ تعرض «روتشيلد» لخسائر، ومع ذلك أنجز الرجل مهمته، وقدم الذهب ودفعته الحكومة البريطانية فى موعده، وبالتالى فإنه خدم الإمبراطورية ولا نملك فى المقابل أن نعاقبه». ■

ثانيا:

تحذير فى الوقت المناسب.. لم يسمعه أحد!

■ يتأكد مع وقائع كل يوم أن الاختلاف الأهم بين الإمبراطورية الأمريكية وبين الإمبراطوريات الأوروبية التى سبقتها هو تلك العلاقة مع رأس المال، ففى التجربة الأوروبية كان رأس المال يتبع الإمبراطورية ويمشى وراءها يلتقط فضلات غزواتها متأكدا من حمايتها. وأما فى التجربة الأمريكية فقد انعكس الترتيب وأصبح رأس المال الأمريكى هو الأسبق على الطريق الإمبراطورى، وقد ساوره الوهم فى البداية بقدرته على حماية نفسه. وغيره أيضا. لكنه لم يلبث أن عرف حدوده فراح يستدعى وراءه جيوش الإمبراطورية وأساطيلها.

....

....

[وربما يتذكر البعض أن شركة «فينيل» التى وقع هجوم إرهابى. فى أوائل شهر مايو الماضى. على المجمع السكنى المتميز لموظفيها فى عاصمة السعودية. بدأت كشركة أعمال حراسة تتولى تأمين حقول البترول والآبار وخطوط أنابيب نقل البترول، وهى بطول عشرة آلاف كيلومتر مكشوفة فى العراء، وبعضها. مثل منطقة «أبقيق». مركز تجمع يتدفق منه أكثر من ثلاثة أرباع ثروة المملكة، كما أن الخطوط منها إلى ميناء ينبع ممتدة عبر الصحراء من الخليج إلى البحر الأحمر. وكانت شركة «فينيل» تعمل بمقتضى عقد مع شركة «أرامكو»، ولتحقيق عقدها استخدمت شركة «فينيل» أكثر من عشرين ألف موظف، ضمنهم ثمانية عشر ألف حارس مسلح. أى أنه نظام أمن خاص. لصالح خاصة.

وفيما بعد أنشأت شركة «فينيل» هيئة عسكرية مستكملة تتولى تدريب قوات الحرس الوطنى السعودى، وكان ذلك قبل أن تهب العواصف على الخليج، وتنزل القوات الأمريكية بكامل سلاحها وعتادها وخططها تعزيزا وتدعيما لشركة أرامكو. وشركة «فينيل» معا (الحارس والمحروس!)].

....

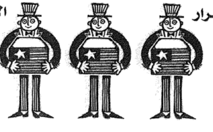
....

وكانت العلاقة بين المال والإمبراطورية متسقة. إلى حد ما. مع روح التجربة الأمريكية، باعتبار أن الجهد الفردى الخاص هو الذى توسع فى القارة الأمريكية وانتشر، وهو الذى مشى بالتركيبة الأمريكية الفريدة من جماعات مهاجرين، إلى تجمعات مستوطنين، إلى مجتمعات مدن وولايات، ثم إلى دولة أمريكية سعت إلى ضم الجميع تحت علم واحد، حتى بوسيلة الحرب الأهلية بغية تعزيز سلطة هذا العلم الواحد، لكى يرفرف على سوق أكبر تضم الشمال الصناعى إلى الجنوب الزراعى.

وعندما انطلق رأس المال الأمريكى بعد الحرب الأهلية إلى مغامراته الخارجية، فإنه بدأ بالأقرب، أى أمريكا الوسطى، وهناك أخذ يستولى على امتيازات الأرض الزراعية الأكثر خصبا كما فعلت شركة «الفواكه المتحدة» فى «بنما» و«كوستاريكا» و«جواتيمالا» وغيرها.

ثم كانت الخطوة التالية بعد الأقرب

صناعة القرار الأمريكي.. الآن!



هى الأقل بعدا أى أمريكا اللاتينية، وهكذا بدأت على سبيل المثال مغامرة «جون روكفللر» الكبيرة فى البحث والتنقيب عن بترول «فنزويلا» ثم فى غيرها، حتى جاء الدور بعد ذلك على البعيد فى آسيا وفى الشرق الأوسط.

وفى «فنزويلا» كان متوسط دخل «روكفللر» من مغامرته عشرة ملايين دولار سنويا، وهو فى ذلك الوقت مبلغ يوازى نسبة ستة فى المائة من الدخل القومى الأمريكى، وعندما طلب «روكفللر» حماية الدولة الأمريكية فإنه كان يعتقد بحق مكفول له. كان «روكفللر» قد استعمل فى تأمين مصالحه فى «فنزويلا» وسائل مرعبة، منها نقل قبائل كاملة من مواطنها، وإبادة مجتمعات بأسرها من وجه الأرض، وعندما تعرضت مصالحه للخطر، أصبحت حاجته ملحة إلى سلاح الدولة الأمريكية يلحق بشركته. وكانت تلك نقلة محورية على طريق الإمبراطورية.

ولم تكن مغامرة «روكفللر» قصة فريدة من نوعها، بل كانت نموذجا تكرر عشرات المرات، ولم تقتصر المغامرات المالية على الزراعة والبترول، وإنما توسع النشاط ليشمل كافة مجالات استغلال الموارد الطبيعية ومصادر الثروة الظاهرة والكامنة إلى درجة الاستيلاء على البلدان والأسواق بكاملها بشكل أثار القلق.

وربما أدرك «روكفللر». وغيره. أن عملياتهم المباشرة تبدو لكثيرين قرصنة عدوانية، وكان اجتهادهم أنها تحتاج إلى قناع، وبدا. لروكفللر ولغيره. أن أفضل وسائل التخفى هو تحويل مصالحهم من شركات استغلال مباشر ومكشوف. إلى بيوت مالية للاستثمار تدير أعمالها من قواعد بعيدة، وتتستر وراء واجهات واسعة تحمل لافتات. أكثر احتراما، وكذلك أنشأت أسرة «روكفللر» مجموعة بنوك اندمجت مع بعضها فيما بعد، والتحفت بغطاء بنك واحد شهير أنشأته هو مجموعة «تشيز مانهاتن بانك»، ومشى آخرون غير أسرة «روكفللر» على نفس الطريق.

وكذلك أصبح بنك الاستثمار واجهة للنشاط الرأسمالى الأمريكى. أكثر ذكاءً وحصافة فى تغطية المصالح من ناحية، وفى تدبير حمايتها من ناحية أخرى بتليين السياسة وتحضيرها لمهام شبه إمبراطورية، ثم إن مجموعات بنوك الاستثمار أصبحت أهم «جماعات الضغط» التى حرضت على التدخل الأمريكى العسكرى فى الحرب العالمية الأولى، وجَرَّت الولايات المتحدة وراءها عبر المحيطات، ودفعتها لإرسال الجيوش عبر القارات تحمى مصالحها، وتفرض لها حقا فى شراكة حيوية مع المصالح الإمبراطورية الأوروبية المتسيدة وقتها (وارثها فى الوقت المناسب).

أى أن الإمبراطورية الأمريكية راحت تتقدم خطوة بعد خطوة. رغم أن الدولة الأمريكية بقيت حتى تلك اللحظة بين إقدام وإحجام. حائرة بين جموح الرغبة وبين محاذير الخطيئة.

كان رأس المال فى التجربة الأوروبية يتبع الإمبراطورية يلتقط فضلات غزواتها، وأما فى التجربة الأمريكية فقد أصبح هو الأسبق على الطريق الإمبراطورى

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى، قدر الرئيس الأمريكى وقتها «وودرو ويلسون»، أن أمريكا ليست مستعدة بعد لمنافسة الإمبراطوريات الأوروبية (فضلا عن إرثها)، واستقر رأيه على إعادة الجيوش الأمريكية من ميادين القتال فى أوروبا دون مشاركة فى النظام الدولى الذى أقامته الحرب العالمية الأولى وهو عصبة الأمم. وكانت تلك العودة خيبة أمل كبيرة لرأس المال الأمريكى، الذى راعه أن «دولته الأمريكية» تأخرت فى إعداد نفسها لمهام الإمبراطورية.

وبطبيعة رأس المال وبالذات فى مناخ التجربة الأمريكية، فإنه رغم تبرمه من ضيق خيال الدولة الأمريكية. أو ربما بسبب هذا التبرم. قرر أن يتصرف على مسئوليته، ويحاول تعويض قصور الدولة الغائبة بجهده السبّاق. وهنا وقع تحول أساسى فى التمهيد والتهيئة والإعداد فى عملية صنع القرار السياسى. مؤدى هذا التحول الأساسى أن رأس المال قرر أن يمسك الضرورة الإمبراطورية فى يده، ويصنع لنفسه أدوات هى بطبيعتها احتكار للدولة (على الأقل فى ذلك المنعطف من التاريخ).

وبدون الدخول فى تفاصيل متشعبة فقد كانت تلك هى اللحظة التى قررت فيها الرأسمالية الأمريكية أن توفر لنفسها قواعدها «شبه السياسية»، وهيئاتها «شبه الحكومية»، ورؤاها «شبه الاستراتيجية»، وكان ذلك تطورا بالغ الأهمية. شديد الحساسية.

فالعادة فى التجارب الإمبراطورية السابقة أن السياسة (حربية وغير حربية) لا مجال لها خارج إطار الدولة (لأن ذلك تكليفها الأهم). كما كانت العادة أيضا أن قرار الدولة واقع تحت المسئولية الدستورية (للحكم). وكذلك كانت العادة أن التخطيط الاستراتيجى اختصاص الأمن القومى (إلا إذا دار البحث فيه داخل نطاق الجامعات وفى مجال فلسفة ودراسة علوم الصراع).

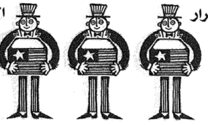
وفى إطار هذه الضرورة (الإمبراطورية) توصلت التجربة الأمريكية إلى اختراع جديد هو مؤسسة الدراسات السياسية والاستراتيجية، وكانت البداية هى «مجلس العلاقات الخارجية فى نيويورك» (Council of Foreign Relations) الذى أنشئ رسميا سنة ١٩١٩، والذى رعته عائلة «روكفللر». ولا تزال ضمن رعاته حتى الآن. وهو مجلس حدد إطار عمله بأنه «متابعة الأوضاع الدولية وإثارة اهتمام الرأى العام الأمريكى بها، وتأسيس موقع نفوذ يدعو إلى دور أمريكى فاعل فى تشكيل القرار الدولى».

ومن الملاحظ أن «مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية» وقت نشأته اعتمد على عناصر من وزارة الخارجية ومن المخابرات العسكرية ومن رجال الأعمال المهتمين بالسوق العالمية، ثم إن قيامه وعمله كان أشبه بما تقوم به الجمعيات السرية، والسبب أن مُنشئيه لم يكونوا بعد واثقين من تقبل الحكومة الأمريكية لدوره ونشاطه، أو من نظرة الرأى العام داخل أمريكا (وخارجها) لصلاته وارتباطاته، وفى الحقيقة فإن هذا المجلس كان ظاهرة مستحدثة تماما فى العلاقات الدولية، وقد استطاع إثبات وجوده بتصميم ومثابرة، وفى البداية كانت وسيلته «مجرد التفكير»، لكن مجرد التفكير ما لبث أن أعطى نفسه «إمكانية التأثير»، إلى حد أن هذا المجلس أصبح مجمعا لنشاط أبرز العناصر الضاغطة على حتمية دخول أمريكا ومشاركتها فى الحرب العالمية الثانية لكى تضمن لنفسها كلمة مسموعة عند توزيع مناطق النفوذ، وتؤكد حقا لها فى رسم الخطوط المستجدة على خريطة عالم سوف يُعاد تشكيله بعد أن تسكت المدافع.

وعندما شاركت الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية قائدة للمعسكر المنتصر. فإنها بهذه المكانة تولت إدارة المواجهة الكبرى التى وُصفت بالحرب الباردة، وفى زمن هذه الحرب الباردة توصل رأس المال الأمريكى. فى مناخ طموحاته. وقبل الدولة الأمريكية. إلى عدة نتائج:

● أولها: أن الحرب العالمية الثانية انتهت بتوازن جديد فى القوى بين الولايات المتحدة (التى تعتبر أنها صاحبة الحق فى إرث الإمبراطوريات القديمة). وبين الاتحاد السوفيتى (الذى يؤسس قوته على النظرية الشيوعية، وهى فكرة لها قوة جذب، خصوصا بالنسبة للشعوب الفقيرة التى تتواجد على أراضيها معظم الثروات الطبيعية فى العالم (وأهمها البترول. وبترول الشرق الأوسط) وبالتالى فإن الصراع العالمى الجديد فى ركن أساسى منه. صراع أفكار اجتماعية وسياسية.

● وثانيها: أنه والحال كذلك فإن هذا الصراع أخطر من أن يُترك لأجهزة الدولة الأمريكية وحدها، فهذه الأجهزة مهما بلغت كفاءتها. مؤسسات بيروقراطية، قد تُحسن «تنفيذ السياسات»، لكنها لا تُحسن «صنع الأفكار القادرة على رسم سياسات». ثم إن الأجنحة العسكرية لهذه البيروقراطية تملك أهلية استعمال السلاح، لكن المأزق أن السلاح الجديد (الذى أصبح نوويا) لم يعد قابلا للاستعمال، فى حين أن قوة الأفكار هى عدة الحرب الجديدة (الباردة) وهذه تمارس دورها بدون عوائق أو روادع. والمحصلة أنه

صناعة القرار  الأمريكي.الآن!

«إذا كان السلاح النووي في يد البيروقراطية العسكرية غير قابل للاستعمال، وكانت البيروقراطية السياسية بطبائعها لا تقدر على صنع الأفكار، إذن فإن الدولة الأمريكية سوف يتبدى عجزها وتضيع منها الفرصة، لأن جهاز الدولة مقيد عسكريا، ومحدود فكريا، وعليه فإن المصالح الأمريكية لابد لها أن تأخذ في يدها زمام المبادرة وتكون هي ظل الإمبراطورية. حتى من قبل أن يتكون ويظهر جسم الإمبراطورية!».

● وكان رأس المال الأمريكي بذكاء المصالح والتجارب قد أدرك أن المفكرين عنصر قلق في مجتمعاتهم، وكان ذلك ملحوظا في الولايات المتحدة نفسها فترة ما بين الحربين العالميتين (الأولى والثانية)، فمعظم المهتمين بشئون الفكر والمستقبل جنحوا تلك الفترة. دون أن يتعمدوا. إلى اليسار، وكانت دلالة ذلك أن بعد الحرب العالمية الثانية. وفي وجود الاتحاد السوفيتي وتأثيره. فإن احتمال «جنوح الفكر في أمريكا» لابد من التحسب له. أي لابد من احتوائه في مرحلة، ثم إعادة توجيهه في مرحلة تالية، وكانت المعضلة في هذه اللحظة الفارقة هي البحث عن إطار مقبول ومحترم يحتوي الفكر المستعد للجنوح، ثم يعيد توجيه طاقته وحيويته «بحيث يضيف ولا يخصم» على حد تعبير «آرثر شلزينجر» (المؤرخ الأمريكي الأشهر الذي أصبح فيما بعد أهم مستشاري الرئيس «جون كنيدي» في البيت الأبيض سنة ١٩٦١).

● وكان الإطار الأمثل هو إطار «المؤسسة» (على مثال مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك)، بحيث يكون هذا الإطار جاهزا لاستقبال وتوظيف مئات وآلاف من المؤهلين لصناعة التفكير، يحصلون فيه على أعلى المكافآت لكي ينطلقوا، ثم تكون أفكارهم من الداخل قابلة للتأثير على الخارج. وليس من الخارج نازلة على الداخل، وذلك وضع وصفه الرئيس «ترومان» (وكانت التجربة مازالت تتشكل) بأن هؤلاء الناس «ذوي الشعر المنكوش يستحسن أن يكونوا في الداخل وتتجه أحجارهم إلى الخارج بدلا من أن يكونوا في الخارج وتتجه أحجارهم إلى الداخل».

ومن ذلك التعليق يبدو أن «ترومان» لم يكن قد رأى بعد غير ظاهر التجربة، ولكن نجاحها. عندما ظهر. تجاوز تقديراته، وبين الدواعي أن «المؤسسة» أحسنت مكافأة المفكر، وساوته بمدير الشركة اعترافا بدوره في الزمن الجديد، وكذلك تم عقد صلح تاريخي بين الرأسمالي وبين المفكر، وخفت بشكل ملحوظ حدة التوتر (الطبيعي) بين الطرفين عبر التاريخ!

....

....

[ونتيجة لهذا المنطق الذكي لرأس المال الأمريكي نشأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية عشرات ومئات المؤسسات تحمل أسماء أصحاب أكبر المصالح («روكفللر». «فورد». «راند». «كارنيجي» وغيرهم وغيرهم)، وتمكنت حتى أصبحت كل واحدة منها «شبه حكومة» تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي وتمارس نشاطات غير محدودة في مجال التفكير الاستراتيجي، ورسم السياسات، ومتابعة الأزمات، وكتابة الأوراق، واقتراح الحلول، والتفاوض أحيانا، وقد وجد الجميع في صيغة «المؤسسة» تحقيقا شديد الكفاءة لهدفين واضحين:

١. اكتشاف ورصد ودراسة الفضاءات التي تريد المصالح الكبرى أن تعمل فيها وتتوسع وتزيد أرباحها.

٢. ثم القيام على علاقة صلة قُرب من دوائر القرار السياسي ومتابعة مداخلها ومخارجها، بما يحقق درجة من التوافق تسمح بتبادل المساعدة وتعظيم الفائدة.

وبالفعل فإنه في أجواء هذه المراكز ظهر وتألق ومارس الفعل الدولي عدد من أكبر نجوم الحرب الباردة، وبينهم على سبيل المثال معظم مستشاري الأمن القومي لرؤساء أمريكا في الزمن الجديد مثل «ماك جورج باندي» مستشار الأمن القومي مع الرئيس «جون كنيدي» (من مؤسسة روكفللر). و«هنري كيسنجر» مستشار الأمن القومي للرئيس «نيكسون» (من مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك). و«زبجنيو برچينسكي» مستشار الأمن القومي للرئيس «كارتر» (من مؤسسة بروكينجز). وحتى السيدة «كونداليزا رايس» مستشارة الأمن القومي للرئيس «جورج بوش» الابن (من جماعة المشروع الأمريكي).

كان التأثير السياسي المتنامي لرأس المال الأمريكي وتحالفاته وأدواته الطارئة، قد لفت نظر واحد من أشهر الرؤساء الأمريكيين بعد الحرب العالمية الثانية وهو «دوايت أيزنهاور» الذي قاد الجيوش الأمريكية (والجيوش الحليفة كلها) إلى النصر ضد ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية.

وعندما أصبح الرجل رئيسا للولايات المتحدة. فإنه بدأ يرى ويتابع الظاهرة الجديدة المتداخلة مع دور الدولة الأمريكية، والضاغطة عليها تدفعها دفعا على الطريق الإمبراطوري. وأحس «أيزنهاور» بالقلق يستبد به خشية عواقب خطيرة وغير محسوبة على الطريق الإمبراطوري.

وكان أكثر دواعي «أيزنهاور» إلى الإحساس بالقلق من الانزلاق (بأسرع مما هو لازم). دور «رأس المال الأمريكي» ونفوذه المتزايد على السياسة الأمريكية، مستعينا في ذلك بدور مؤسسات الفكر وطاقاتها المشعة المتوهجة.

ووجد «أيزنهاور» واجبا عليه مع انتهاء مدة رئاسته الثانية والأخيرة، أن ينبه ويحذر ويجعل من خطاب وداعه للأمة الأمريكية. نوعا من الوصية السياسية. تستحق الآن (وبعد كل ما جرى) دراسة بعمق. موضوعية. ورشيدة!].

....

....

في الساعة السادسة من مساء يوم ١٧ يناير ١٩٦١ (بتوقيت واشنطن)، وجه الرئيس الأمريكي إلى الشعب الأمريكي ما أسماه «خطاب الوداع»، بادئا بقوله:

«بعد ثلاثة أيام من الآن، وبعد نصف قرن قضيته في الخدمة العامة للأمة الأمريكية، سوف أقوم بتسليم مسئوليات منصبي إلى خلفي الذي وقع عليه اختياركم («جون كنيدي»).

وهذا المساء فإنني جئت إليكم مودعا ومستأذنا في الانصراف، وفي نفس الوقت فإن لدي بعض الهواجس التي أريد أن أفضي بها لكم حتى تشاركوني فيها، وتحملوا أمانتها إذا رأيتم صوابها».

وبعد هذا الاستهلال دخل «أيزنهاور» إلى الموضوع الذي ملك عليه مشاعره، قبل مغادرة البيت الأبيض، فاستطرد:

«أريد أن أقول لكم أننا في الأوضاع الراهنة، خصوصا في هذا الصراع العالمي الذي نخوضه ضد عقائد دولية معادية للقيم الأمريكية. سوف نواجه أزمات صغيرة وكبيرة، لكني أريد أن أحذر من غواية التوصل إلى حلول متسرعة واستعراضية للقوة، فتلك غواية مكلفة لأنه ببساطة لا يوجد حل سحري لأي مشكلة من المشاكل».

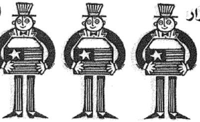
ثم واصل «أيزنهاور» كلامه:

«إن كل قرار نتخذه لابد أن يُقاس بالمعايير اللازمة لحفظ التوازن بين الوطني والدولي، وبين العام والخاص، وبين الحاجة والواجب، وأن يكون قرارنا في كل الظروف برهانا يحفظ السياسة الأمريكية من نزعات الجموح أو الإحباط».

ثم مضى «أيزنهاور» يقول:

«إن دورنا في حفظ السلام العالمي طرأت عليه بحكم مسئوليات الولايات المتحدة. زيادة غير مسبوقة في صناعة السلاح، فقد اضطرتنا الظروف إلى توسع في صناعات السلاح فاق كل الحدود، حتى أننا الآن نملك جيشا قوامه ثلاثة ملايين ونصف المليون رجالا ونساءً، كما أننا نوجه إلى الجانب العسكري في اقتصادنا ما يوازي دخل كل الشركات الأمريكية مجتمعة، وهذه ظاهرة خطرة على حياتنا لأنها أدت إلى نشأة مجمع صناعي عسكري اقتصادي سياسي يصل نفوذه إلى بعيد في وطننا،

أيزنهاور في خطاب وداعه للأمة الأمريكية: «إذا وقع القرار الأمريكي رهينة للمجمع الصناعي العسكري، فإن الخطر سوف يصيب حرياتنا وممارساتنا الديمقراطية، وقد يصل إلى حجب الحقائق عن المواطنين، والخلط ما بين أمن الشعب الأمريكي وحرياته. وبين أهداف أطراف هذا المجمع ومصالحهم»



ويؤثر على بيئته الاجتماعية كما يؤثر على اتجاهه.

وذلك يجعلنى أشعر بالقلق الشديد، وكذلك جئت أعرض الأمر أمامكم.

«وعلى أن أقول صراحة أن هناك الآن مجموعة صناعية عسكرية، مالية، سياسية، وفكرية. تمارس نفوذا غير مسبوق فى التجربة الأمريكية، ومع أننا نتفهم الظروف التى أدت لنشأة هذه المجموعة، فإننا لابد أن نحذر من وصولها إلى موقع التأثير المعنوى والسياسى والعملى على القرار الأمريكى، لأن ذلك خطر شديد على المجتمع الأمريكى قبل أن يكون خطرا على غيره.

إن مواقع القرار الأمريكى فى الدولة الأمريكية لابد من حمايتها ضد النفوذ غير المطلوب، وغير المتوازن لهذا المجمع العسكرى . الصناعى، وإلا تكون العواقب كارثية، لأننا بذلك نضع سلطة القرار فى أيدٍ غير مسئولة لأنها غير مفوضة، وبالتالى لا يصح أن تؤتمن عليه.

وأود أن ألفت النظر إلى أنه إذا وقع القرار الأمريكى رهينة لمثل هذا المجمع الصناعى العسكرى وأطرافه، فإن الخطر سوف يصيب حرياتنا وممارساتنا الديمقراطية، كما أنه قد يصل إلى حيث يملك حجب الحقائق عن المواطنين الأمريكيين، والخلط ما بين أمن الشعب الأمريكى وحرياته . وبين أهداف أطراف هذا المجمع ومصالحهم.

ومن سوء الحظ أن الثورة التكنولوجية التى تتدفق نتائجها على عالمنا اليوم. تساعد أطراف هذا المجمع الخطر وتزيد من قدراتهم وتمكنهم من السيطرة على برامج الإدارة ومخصصات إنفاقها، خصوصا أن قوة أموالهم توفر لهم تأثيرا فادح التكاليف على مؤسسات الفكر والعلم، على أن أملى معلق بوعى الأمة الأمريكية بالخطر، لأن ذلك الوعى هو الذى يحصر أطراف هذا المجمع ويمنع سيطرتهم على الضمير العام وعلى السياسة العامة معا».

....

[وكان «دوايت أيزنهاور» قادرا على هذا المستوى من الإدراك السياسى، لأنه كان آخر الجنرالات الكبار الذين قادوا حروب بشر فى مواجهة بشر، على مستوى التعبئة الشاملة لأمم وشعوب.

وفيما بعد وعندما دخلت الإلكترونيات مجال السلاح وأحدثت ثورتها فى استعماله، فإن الحرب أصبحت ومضات وإشارات على الشاشات تضىء وتبرق دون أن تظهر للعيان مأساة الحياة والموت، وبذلك فإن الطابع البشرى للحرب شحب وغاب لأن قيادات الجيوش راحت تمارس القتل من بُعد مئات الأميال وآلافها.

يُضاف إلى ذلك أن «أيزنهاور» كان قائد أكبر جيش متحالف فى التاريخ، وذلك فرض عليه أن يقوم . إلى جانب دور الجنرال . بدور السياسى الذى يدير علاقات إنسانية متعددة الأطراف وتتعدد فيها الثقافات.

ومعنى ذلك أن «أيزنهاور» عاش التجربة الإنسانية العميقة للحرب فى ميدان القتال، فى حين يعيشها الجنرالات الجُدد على شاشات الصور فى مقار معزولة . كما أن «أيزنهاور» تواجد وسط الناس فى الخنادق، وانشغل بسياسات فرضتها ظروف تحالف واسع تجمعت فى إطاره جيوش جاءت من خلفيات ثقافية متنوعة وسط عواصف النار.

وهنا الفارق بين قادة يعيشون البُعد الإنسانى للصراعات وآخرون تكفيهم لمسات أزرار وصور على شاشات].

....

....

[يزيد على ذلك أن «دوايت أيزنهاور» كان رجلا قابلا للتصديق، فلو أن غيره قال ما قاله (وهو العسكرى المحافظ اليمينى الجمهورى) لاتهم بالأفكار اليسارية، أو بالعداء لأمريكا، أو بالتطرف الدينى، والحقيقة أن «دوايت أيزنهاور» كان نافذ البصيرة إلى درجة لافتة، فى توصيفه لأحوال هذه المؤسسات ونوعية رجالها، وكانت وصيته فى خطاب الوداع شبه نبوءة ثبت بالتجربة صدقها حين بان وتأكد:

. أن الكل فى هذه المؤسسات يفتى بغير مسئولية دستورية أو قانونية، لكن قُربهم من السلطة يوحى لهم بقوة لا تمسك بها ضوابط، وتلك مدعاة إلى الاندفاع.

. وأن الكل يفتى فى «النظرية» دون ممارسة كافية فى «التطبيق».

. وأن الكل يفتى بمنطق يوحى بالعلم، لكنه علم يفرض قوانينه دون اختبار، وإذا وقع الاختبار فقد سبق الفعل مؤثرا على الناس وعلى التاريخ!

. وأن الكل يفتى بمنطق المستجد على القوة والمأخوذ بسطوتها دون إحساس بمأساة الحياة والموت.

. وأن الكل يفتى بمنطق الحل السريع للمشكلة الطارئة، بغير نظر كاف إلى عواقبه.

. وأن الكل يفتى وليست أمامه غير خرائط وصور أو معلومات وإحصائيات، أو تفاصيل وأرقام بدون الحس السياسى والمسئولية المترتبة عليه . فى الغالب مضللة.

. وأن الكل يفتى بادعاء ولاءات عامة، بينما واقع الحال أن الولاء لمصالح وضعت أرباب الفكر حيث هم، ومنحتهم تأثيرا غير محدود.

. وأن الكل يفتى وله دخل مضمون من مؤسسات مصالح مباشرة وعملية، وفى أحسن الأحوال فإنها الفتوى بالحساب البارد محجوبا عن حِس الضمير!

ومن سوء الحظ أن الرئيس الأمريكى الذى لمح الخطر وأشار إليه سنة ١٩٦١، لم يكن فى السلطة، وإنما فى القبر عندما تحققت أسوأ مخاوفه بعد أربعين سنة . أى سنة ٢٠٠١]. ■

....

....

ثالثا:

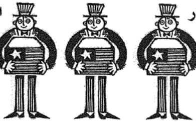
السياسة تنام والتليفزيون يصحو فى أمريكا

■ ■ على مدى أربعين سنة، بعد انتهاء رئاسة «أيزنهاور» أوائل سنة ١٩٦١ . وحتى انتهاء رئاسة «بيل كلينتون» أوائل القرن الحادى والعشرين . اختلف العالم وطالت الخلافات حقائق الأشياء كما طالت حركتها.

ففى مواجهة منافسة عسكرية تقطع الأنفاس بين الولايات المتحدة وبين الاتحاد السوفيتى، ومنافسة اقتصادية . خطرة . بين الولايات المتحدة واليابان، ومنافسة سياسية . حساسة . بين الولايات المتحدة وأوروبا . كان المشروع الإمبراطورى الأمريكى يدرك أنه يخوض معركة حسم ومصير، وقد نجح دون شك فى تحقيق اختراقات عظمى فى مجالات العلم والإنتاج، وتغييرا فى أساليب العيش والراحة أضاف متعا إلى حياة كل يوم، ودرجة من الديمقراطية يصعب إنكارها (على الأقل حتى عهد قريب) . لكنه فى المقابل استخدم أدوات القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية والمعنوية على نحو مكثف وبتكاليف باهظة على الآخرين وعلى نفسه، لأنه على الطريق إلى ما يريد، جرب السلاح حيث ينفع وحيث لا ينفع، وجرب الضغوط الاقتصادية حين يلزم وحين لا يلزم، وجرب العمل الخفى عندما وجد الظروف مواتية للانقلاب أو هيأها بحيث تصبح مواتية.

لكن المشروع الأمريكى وهو يفعل ذلك كله ويقتحم ويتوغل . صرف من الموارد ما فاق قدرته، وكذلك فإنه ارتهن الاقتصاد العالمى . أو الجزء الأكبر منه . فى وعاء عملته حتى أصبحت سلة الدولار وحدها تمثل نسبة ستين فى المائة من كمية النقد المطروح فى العالم، وكان الكثير من محتوى وعاء الدولار ثروة آخرين تصوروا أن القوة الأمريكية أهم ضمان للسلامة والأمن فى عالم مضطرب يموج بالصراعات والمؤامرات والمفاجآت!

وخلال هذه الأربعين سنة فإن علاقة رأس المال بالقرار السياسى راحت تميل أكثر لصالح رأس المال، وإن على استحياء فى البداية.



فقد حدث فى إدارة «أيزنهاور» نفسه أن وزير خزانته «تشارلز ويلسون» الذى كان فى الأصل رئيسا لمجلس إدارة شركة «جنرال موتورز». «انزلق على قشرة موز» وهو واقف أمام إحدى لجان الكونجرس يعرض حيثيات مشروع قانون، فقد سُئِل: أليس صحيحا أن هذا القانون ينفع شركة «جنرال موتورز»؟، وكان رده على سائله بعد تردد لم يطل «لا أشك أن ما هو فى صالح شركة «جنرال موتورز» لابد أن يكون فى صالح الولايات المتحدة كذلك!». وأحدث الانزلاق إلى الاعتراف درجة من الصدمة بمقاييس تلك الأيام، واضطر «أيزنهاور» أن يضحى بوزير خزانته، لكن المقاييس تغيرت كثيرا على مدى الأربعين سنة، لأنه عند بداية القرن الحادى والعشرين كانت العلاقة بين القرار السياسى ورأس المال مسألة «عادية» تعرض نفسها على الساحة فى جسارة، وفى بعض الأحيان فى استعلاء.

والشاهد أن «المؤسسات» أصبحت الساحة التى تلاقت عليها كافة عناصر القوة المستجدة: رأس المال والفكر فى نفس الإطار، لأن قلاع المصالح التقليدية والجديدة (وفيها البنوك والتأمين والنقل والصناعات المدنية وصناعات السلاح والبترول والفضاء والطيران والإلكترونيات. وغيرها). كانت فى حاجة إلى خدمات الخبراء والمفكرين والدارسين للاستراتيجية العالمية والسياسة الدولية ممن يملكون كفاءة التحليل والتقييم والرؤية المبكرة لاحتمالات المستقبل على اتساع أقاليم العالم وبلدانه.

ثم إن الحاجة فى إطار «المؤسسة» استدعت الطرف الثالث، وهو العسكريين. وكذلك وقع أن كل رئيس سابق لهيئة أركان الحرب المشتركة، أو قائد مبرز من قواد الأسطول والطيران والصواريخ، أو باحثا مجددا له فى استخدامات القوة اجتهادات ورؤى. ترك الخدمة العسكرية ليجد لنفسه مكانا جاهزا فى مؤسسة تفكير أو تخطيط أو فريق عمل ينصح ويشير!

كان رأس المال ينشئ ويرتب، وكان أساتذة الفكر يكشفون وينقبون، وكان خبراء الحرب يضعون التقديرات ويحسبون الاحتمالات، ثم كان أن هذه المؤسسات أصبحت حضانة تفريخ وزراء الخارجية (كيسنجر. وشولتز مثلا)، ووزراء الدفاع (براون ورامسفيلد مثلا)، ومستشارى الرؤساء للأمن القومى (برجينسكى، وكونداليزا رايس مثلا)، ووصلت العدوى إلى المراتب الوسطى للإدارة الأمريكية، ومن المفارقات أن مدير قسم الشرق الأوسط فى معهد بروكينجز كان هو السفير «ريتشارد هاس» (مدير التخطيط الاستراتيجى لوزارة الخارجية الآن، ثم إن سلفه فى الوزارة «دنيس روس» يجلس الآن على مقعده السابق فى مركز بروكينجز. وأكثر من ذلك فإن «ريتشارد هاس». مرة أخرى. سوف يترك وزارة الخارجية هذا الشهر إلى مجلس العلاقات الخارجية).

فى هذه الأربعين سنة (من نهاية رئاسة «أيزنهاور» (١٩٦١). إلى مداخل القرن الحادى والعشرين). طرأت أحوال لم يكن للعالم عهد بها، ولعلها فاقت أحلامه وتعدت خياله، وكان السبب الرئيسى أن ظروف الحرب الباردة وضغوطها. فتحت أبوابا وأتاحت فُرصا:

١. لأنه بسبب الثورة الإلكترونية ودخولها إلى وسائل المواصلات والاتصالات والمعلومات. فإن كوكب الأرض ومحيطه وفضاءه أصبح ساحة واحدة مفتوحة للقادرين على السبق بالفكر والمبادرة بالعمل والتعزيز بالقوة.

٢. ونتيجة مباشرة لاستحالة الحرب مع وجود موازين الردع النووى، فإن الصراعات عبرت عن نفسها فى معظم الأحيان بعيدا عن وسائل النار، التى اقتصر استعمال. أو اختبار. وسائلها الجديدة على العالم المتخلف، لأن بلدانه كانت المواقع الأنسب للتجريب دون تكاليف باهظة على الكبار (وكان خبراء المؤسسات يحسبون ويراجعون الجبهات والخطوط!).

٣. ومع كوابح الحرب بين الكبار وتزايد أسباب الاحتكاك بينهم، فإن الصراعات. خشنة أو ناعمة. احتاجت لأعمال المخابرات بأكثر من أى ظرف مضى، ونشاط المخابرات ميدانان فى العادة: ميدان لجمع وتحليل المعلومات وإعداد التقديرات، ثم ميدان لتدبير وتنفيذ العمليات (بالعنف الدموى أو بالتطويع النفسى)، (وكان ميدان المعلومات أقرب ما يكون إلى طبيعة عمل المؤسسات، وفى ذات الوقت فإن ميدان العمليات لم يكن بعيدا).

٤. وعندما أصبحت الأقمار الصناعية أفضل وأسرع وسيلة لنقل الصور والكلمات، فإن التليفزيون والكمبيوتر والإنترنت ومعهما التليفون المحمول. ساعدت جميعا فى ضبط حركة التاريخ على لحظة واحدة وتوقيت جامع يحدث فيه كل شىء فى كل مكان فى نفس اللحظة، وقد أحدثت هذه المستجدات تأثيرها شاملا واصلا إلى كل محيط كوكب الأرض، (وكانت المؤسسات سبَّاقة، فقد أصبح أقطابها أهم النجوم فى البرامج السياسية، وأكبر المساهمين فى المشروع الضخم لشبكة الإنترنت، وأقرب المؤثرين على عوالم الصور وكان التأثير فادحا، وفى بعض المرات فاضحا!).

٥. ووقع أن التليفزيون فى هذه الأزمنة صنع لنفسه عصرا بأكمله، وكان هذا العصر التليفزيونى. الحاضر فى كل بيت وكل ملتقى. هو الأداة التى اغتالت العمل السياسى بأساليبه المعروفة منذ بدأت عهود الديمقراطية بعد الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية أوائل القرن التاسع عشر، (وراح كثيرون يدرسون بجد هل أصبح التليفزيون صانع السياسة. وبأية تكاليف على الوعى. وعلى فرصة الاختيار الحر. وعلى الحقيقة؟!).

....

....

[وكان الزعيم السوفيتى «إيليشيف لينين» يقول: «إن واجب السياسة أن تذهب إلى مواقع تجمع الجماهير لكى تظل على اتصال بها، مؤثرة على فكرها. متوصلة إلى تعبئتها. وفى زمانه كانت الجماهير تتجمع فى المصانع والنقابات وفى المدارس والجامعات وفى اللقاءات المفتوحة والتظاهرات. وكذلك كان الشيوعيون يذهبون إلى هذه المواقع لممارسة التأثير والتعبئة، لكن الزمن الجديد جاء بما لم يتوقعه «لينين»].

....

....

والشاهد أن الجماهير الآن لا تتجمع إلا نادرا فى مكان. والواقع أنها موزعة بين شواغل عملها فى الصباح. وبين راحة بيوتها فى المساء، وفى أغلب الأحيان فإنها مشدودة معظم الوقت تطل على الشاشات حيث لا اتصال ولا حوار، وإنما مشاهد تتوالى ويحل فيها الانطباع بديلا عن الإقناع.

وهنا فإن السياسة سقطت ضحية للتليفزيون لأسباب متعددة:

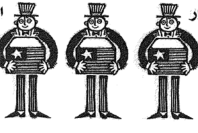
١. فيها أن التليفزيون بغلبة الصورة على الفكرة، وأسبقية الانطباع على الإقناع، نقل السياسة إلى عالم المسرح: وفيه الموقع والمنظر والضوء والحوار المرسوم والمخرج الموجه، وكذلك يتحول السياسى إلى ممثل مشغول بالأداء فى حد ذاته. أولا وأخيرا.

٢. ومعنى ذلك أن الرسالة السياسية مصنوعة على مواصفات يهمها أكبر قدر من التأثير وليس أكبر قدر من الحقيقة. ومع تواصل الأيام حدثت عملية تضخم سياسى يشابه التضخم النقدى، إذ إن تواضع التأثير. بحكم التعود. يوما بعد يوم جرى إلى تعويض نفسه بالزيادة فى العرض، (وذلك أكثر حدوثا فى العالم الثالث بالذات، حيث تتضخم الرسالة بالتكرار حتى تبلغ حالة الإفلاس بالملل).

٣. ونتيجة لذلك فإن السياسة ومعها العملية الانتخابية على كافة المستويات الرئاسية أو السياسية أو التنفيذية، بل وحتى انتخابات هيئات المجتمع المدنى، وفيها الكونجرس وشيوخ ونواب وحكام الولايات، وأعضاء المجالس المحلية التشريعية، والنقابات المهنية والعمالية وحتى الأندية الرياضية. تحولت إلى عمليات مكلفة تحتاج إلى تمويل كثيف

إن التليفزيون بغلبة الصورة على الفكرة، وأسبقية الانطباع على الإقناع، نقل السياسة إلى عالم المسرح: وفيه الموقع والمنظر والضوء والحوار المرسوم والمخرج الموجه، وكذلك يتحول السياسى إلى ممثل مشغول بالأداء فى حد ذاته. أولا وأخيرا

صناعة القرار الأمريكي ـ الآن!



يكفى لشراء وقت كاف لوضع الرسالة السياسية على الشاشة الأوسع انتشارا، وبالتالى الأغلى، ويقدر على توفير الخبراء الأقدر بين المنتجين والمخرجين وخبراء الضوء والصوت إلى جانب الإنفاق على جيش جرار من مؤلفى القصص إلى كُتّاب السيناريوهات إلى المديرين إلى المخرجين إلى مهندسى المناظر وخبراء التجميل.

وهذه الأحوال جعلت العملية السياسية ملهوفة باستمرار على المزيد من المال، وذلك يدفعها. برضاها أو مكرهة. إلى حيث توجد مصادره، وهناك يكون عليها أن تبيع أو ترهن قرارها عند المنبع!.

٤ ـ وبهذه الأوضاع الطارئة على المجال السياسى. حدث تغير نوعى فادح فى مواصفات المؤهلين للانخراط فى صفوفه:

ـ فهُمْ إما أن يكونوا جاهزين أصلا لأداء المطلوب منهم (كما حدث مع الرئيس «رونالد ريجان» وهو الممثل بالحرفة).

ـ أو يكونوا جاهزين للتعامل مع هذا المطلوب بحكم استعداد كامن لديهم (كما حدث مع الرئيس «بيل كلينتون»).

ـ أو يكونوا على استعداد للتأثر بالأقرب إليهم والأعرف منهم بالمطلوب (كما يحدث الآن مع الرئيس «جورج بوش»).

ـ على أن الأهم من ذلك. وفى مطلق الأحوال. أن يكونوا ممن تتوافر لهم وسائل وقدرات جمع التبرعات والهبات والمنح معلنة أو مكتومة، لأن تكلفة حملة الرئاسة بالنسبة لأى مرشح (حسب الانتخابات الأخيرة بين «بوش» و«جور») فاقت ٣ بلايين دولار لكل واحد منهما.

وتلك جميعا مواصفات وأعباء لا يقدر عليها كل الناس، خصوصا إذا أضيف ما اقتضاه عالم الصور فى المنافسة بين المرشحين من تفتيش فى حياتهم الخاصة ماضيا وحاضرا، بحثا عن ما هو مثير وملون ينفع فى لعبة الصور (وبالذات ما يجىء من عالم الفضيحة المدوية أو الجنس المثير!).

٥ ـ ومن عواقب ذلك أن الرجال والنساء الأكثر وعيا وحرصا بقوا فى الشركات الصناعية الكبرى، وفى قلاع المال من بنوك الاستثمار والتجارة الدولية، وبالقرب من حقول وآبار البترول وموانيه ومصافيه. كما ظل الباحثون الدارسون الخبراء فى مؤسسات الفكر الاستراتيجى والسياسى المختلفة المتعددة، يعصفون بالعقول ويستثيرونها، ويكتبون الأوراق والتقديرات والخيارات والمقترحات بما يجب عمله وما لا يجب. ثم إن أصحاب العلم العسكرى والتجربة الحية فى ميادين القتال، وجدوا لأنفسهم مراكز قيادة بديلة، ترسم الخرائط وتلونها، وتحدد عليها مواقع وخطوط الهجوم والدفاع، وتمارس مع الآخرين معها داخل المؤسسات مهام الدعوة والتبشير والضغط.

....

....

وأما العملية الانتخابية. جوهر الديمقراطية و(الدستورية). فقد تُركت للمستعدين لأثقالها، وأهمها السعى لجمع التبرعات بكل الوسائل وما يترتب على ذلك من تبعات. والقابلين لأعبائها وفيها تحمل البقاء طول الوقت تحت الأضواء وأمام العدسات. مهما تدنى المستوى وترخص الأداء!

وفى هذه الأجواء التى اختلط فيها الجوهر مع المظهر، والمخبر مع المنظر. وقعت نقلة طالت صميم الشأن الوطنى فى الولايات المتحدة ولم يسجل أحد تاريخ هذه النقلة بالضبط، والغالب أنها حدثت تدريجيا (وبسرعة أيضا)، فإذا هى تأتى بتغيير جوهرى يمس قضية الحرية فى موضع القلب.

ففى تلك الأحوال وفى هذا المناخ لم تعد الأحزاب الأمريكية الكبرى. وفى مقدمتها الحزب الديمقراطى والحزب الجمهورى. مواقع تطرح فيها الأفكار وتناقش البدائل، وتتكامل البرامج لتُعرض على الناخبين.

بل إن مرشحى الأحزاب فى السنوات الأخيرة (مثل ريجان. كلينتون. وبوش. وجور أو غيرهم) أصبحوا هم الذين يعرضون أنفسهم على أحزابهم، وهم الذين يتولون تدبير التمويل لحملاتهم، وهم الذين يتقدمون الصفوف إلى عوالم الصور، وعليهم هم وليس على الحزب خلق الانطباعات الكفيلة بفتح الطرق إلى البيت الأبيض وكذلك حمل الذى ينتمون له إلى المقاعد النيابية على تل الكابيتول).

ومعنى ذلك ببساطة أن المرشح يجىء معه ببرنامجه الانتخابى يقنع به الحزب، ويكون الحزب على استعداد لأن يقتنع بصلاحية أى مرشح، بمقدار ما لديه من إمكانيات الفوز يوم الاقتراع.

....

....

[والواقع أن النظام الانتخابى الأمريكى يساعد هذه الأحوال، فالقاعدة أن المرشحين يخوضون انتخابات أولية يتقدمون فيها بأسمائهم وبأفكارهم دون مساعدة من الحزب، لأن الحزب لا يستطيع تحمل العبء إزاء أعداد من المرشحين المتنافسين حتى وإن نسبوا أنفسهم جميعا إليه، لكنه عندما يحصل أحدهم فى الانتخابات الأولية على عدد من الأصوات يفوق غيره ويتأهل كى يكون مرشحا معتمدا قادرا على جذب وجلب الدوائر الانتخابية. فإن مؤتمر الحزب الذى يختار المرشح الرسمى. يبدأ من لحظتها فقط. فى تحمل المسئولية، وفى العادة فإن أى مرشح يصل إلى هذا المدى يجىء إلى الحزب حاملا معه ما يكفيه ويزيد من السياسات والبرامج، أو من اعتمادات التمويل التى تكفى وتفيض].

....

....

إن مرشحى الأحزاب فى السنوات الأخيرة أصبحوا هم الذين يعرضون أنفسهم على أحزابهم، وهم الذين يتولون تدبير التمويل لحملاتهم، وهم الذين يتقدمون الصفوف إلى عوالم الصور، وعليهم هم وليس على الحزب خلق الانطباعات الكفيلة بفتح الطرق إلى البيت الأبيض

يترتب على ذلك أن الكوادر النشيطة فى الحياة السياسية لا تلزم مقار الأحزاب، وإنما تلحق نفسها بقوافل المرشحين، لأن الحركة هناك على الطريق وليست هنا فى مقار الأحزاب، ثم إن المكافآت وفيها المناصب الكبرى فى الإدارة الفائزة تدخل فى اختصاص الرئيس المُنْتَخَب. المستعد للمكتب البيضاوى، ولا تدخل فى اختصاص الحزب الذى يهجره الكل بعد العملية الانتخابية ويتركونه معلقا بين الأرض والسماء حتى يحين موعد أول انتخابات قادمة!

....

....

[وفى التقاليد المستقرة أن المناصب العُليا للدولة اختصاص الرئيس الذى يملك الحق فى أربعة آلاف وظيفة يعين فيها مَنْ يثق بهم مِنْ الرجال والنساء، من داخل حزبه أو من خارجه!].

....

....

ومع هذه النقلة الخطيرة فى الشأن الوطنى وفى جوهر العملية الديمقراطية، فإن مؤسسة الدراسات السياسية والاستراتيجية. وهى المركز الجاهز بالأفكار والرجال، تكون بطبائع الأمور وسطا مناسبا تظهر فيه أو تتقدم منه أكفأ العناصر المرشحة لأهم المناصب فى الإدارة الجديدة، وبالتالى فهى تنوب عن الحزب، وتتكفل بدله بخدمة أركان إدارته.

ونتيجة لهذه النقلة الخطيرة:

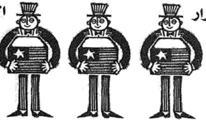
● فإن الأحزاب الكبرى تتحول إلى مجرد لافتات موسمية.

● والبرامج الجاهزة للتنفيذ تكون من إعداد مؤسسات معزولة عن عامة الناس، حتى وإن حاول رجالها أثناء صياغة البرامج أن يزينوها لأوسع درجة من القبول العام.

● والتنفيذ يبيت موكولا بأجهزة دولة تنتظر توجيهات الإدارة الجديدة ورجالها لتتحرك وفق ما يرسم أقطابها ويوجهون.

● وأخيرا يكون الكونجرس متشوقا ليسأل ويسائل، لكن الكثير من عناصر صنع القرار محجوبة. رغم جهود هائلة تبذلها هيئة مستشاريه.

ومعنى ذلك أن مجرى الحوادث يواصل مسيرته دون مسئولية دستورية، ودون رقابة شعبية، وفى حضور إعلام تراجعت الكلمة فيه لحساب الصورة، وأكثر من ذلك فقد أصبح مهما للقائمين عليه



تحسين علاقاتهم مع المصادر المتحكمة في مناصب الإدارة العليا لأنها العارفة بالأسرار والأخبار. وحتى الأفكار!

ورغم ما قد يُقال عن هذا المزيج الفوار من الخاص والعام، والفكر والعقل، والظاهر والخفي، والمدني والعسكري، والصورة والكلمة، والثروة والمال، والبحث والدرس وفي إطار مؤسسات تضج بالحيوية، إلا أن ذلك واصل بالضرورة إلى حافة الخطر لأسباب:

ـ أولها: على حد تعبير «أيزنهاور» «أن نفوذ هذه المؤسسات ينطوي على تفويض لم يصوت عليه أحد، وسلطة لا تخضع لحساب.

ـ وثانيا: لأن المؤسسات على هذا النحو بعيدة عن المساءلة والمسئولية، وهي تصبح ـ بتدافع التيارات نحوها ومن حولها ـ دوامة حركة تلف فيها وتدور جماعات ضغط ومصالح لها قوة جذب وشد لا تتوقف عن الفعل والتأثير.

ـ وثالثا: لأن الحركة الدوارة في هذه المؤسسات تستطيع ممارسة تأثيرات على الرأي العام ومشاعره وعواطفه، خصوصا إذا استثير داعي الأمن ومعه حمى الوطنية!

ـ ورابعا: وعليه فإن هذه المؤسسات عندما تحولت في جزء من نشاطها إلى جماعات ضغط. فتحت المجال في الوقت نفسه لجماعات أخرى غيرها تتوافق معها على نفس المصالح أو قريبا منها في الداخل والخارج.

....

....

[وفي هذا النطاق وقع النفاذ الصهيوني الإسرائيلي إلى قلب العملية السياسية في الولايات المتحدة، وساعدته أسباب قُرب واهتمام مشترك بأمن الشرق الأوسط، ومكن له وجود يهودي كثيف في أوساط المال والفكر والإعلام، وصميم المأزق أن معظم الوجود اليهودي في المؤسسات كان من غُلاة المتعصبين للمشروع الإمبراطوري الذين اختلط في فكرهم هاجس الولايات المتحدة للهيمنة على العالم وعلى البترول، مع هاجس أمن إسرائيل، بمعنى ضمان وحماية توسعها (وكان «ريتشارد بيرل» داعية حملة العراق. يهوديا صهيونيا)].

....

....

[وتجنبا لمزالق التعميم فإنه لا يصح لأحد أن ينسى أن صحفيا من أهم الذين تصدوا لأصحاب المشروع الإمبراطوري الأمريكي وامتداداته الإسرائيلية. كان «سيمور هيرش» وهو. أيضا. يهودي!]. ■

....

....

رابعا:

الأفكار تتحرك بالدبابات!!

■ ولقد أطلق على هذه المؤسسات المشغولة بالفكر الاستراتيجي، والمعنية بتحويله إلى خطط وخرائط. وصف Think Tank، وكلمة Think تعني التفكير، وكلمة Tank كلمة تتحمل أكثر من ترجمة، فهي الوعاء أو الحاوية، وهي «الدبابة الحربية» أيضا، ولعل الوصف أن يكون رمزا بالمصادفة، توافق مع كون المؤسسة السياسية والاستراتيجية الحديثة مهتمة بفلسفات القوة، ومشغولة كذلك باستعمالات السلاح.

ولعل خطورة التحالف الجديد بين الفكر والسلاح. في ظروف عالمية طارئة. هي التي دعت مجلة الأيكونوميست وهي المجلة الرأسمالية المحافظة (والتي تملك أسرة «روتشيلد» معظم أسهمها، وكان اللورد «إيفلين روتشيلد» موجه سياساتها حتى وقت قريب). إلى أن تنشر افتتاحية مهمة يوم ١٥ فبراير الأخير(٢٠٠٣) بعنوان «هجمة دبابات الفكر».

وتصنع افتتاحية الأيكونوميست «هجمة دبابات الفكر» سنة ٢٠٠٣. أن تكون تكملة طبيعية تلحق بتحذير «أيزنهاور» من خطر المجمع الصناعي العسكري (والفكري) يوم ١٧ يناير ١٩٦١، والشاهد أن التحذير القديم. وكذلك التحذير الجديد يلتقيان على نفس الموجة.

بدأت الأيكونوميست افتتاحيتها قائلة بالنص:

«كثيرون في العالم الخارجي يتمنون لو أن الولايات المتحدة ضبطت أعصابها ولو قليلا. إن هناك ضرورة الآن للجم كلاب الحرب التي أطلقتها الرأسمالية الأمريكية «النفاثة» (Jet Capitalism)، بحيث تتصرف الإدارة الأمريكية بمنطق أقرب إلى «جيمي كارتر» (الرئيس السابق الحاصل على جائزة نوبل للسلام)، وليس مثل «جون واين» (بطل أفلام الغرب المتوحش)، لأن المخاوف من الانفلات الأمريكي باتت حديث موائد العشاء كلها في عواصم أوروبا على اختلاف مواقعها.

إن أمريكا أصبح لديها جيش خطر من المفكرين الذين احترفوا تهييج القوة الأمريكية واستثارتها حتى تندفع أبعد كل يوم على طريق الحرب، إن هؤلاء الناس وضعوا لأمريكا جدول أعمال يتضمن الآن خطة لتغيير الشرق الأوسط كله، وفيما هو واضح فإن الرأسمالية الأمريكية تمول وتدعم هذه المؤسسات الفكرية، التي ضلت طريقها وجنحت إلى الإصرار على تطبيق النظام الرأسمالي حتى في عوالم الفضاء الخارجي، ثم يكون مطلوبا من العالم أن يصفق لهذا الجنوح الأمريكي المجنون المتحصن في دبابات الفكر الجديدة!

إن هذه المؤسسات من نوع مؤسسة «التراث» (أنشئت منذ ثلاثين سنة)، ومركز «مانهاتن للدراسات» (أنشئ من ٢٥ سنة)، والمشروع الأمريكي (أنشئ منذ ستين سنة)، ومركز «هوفر» (أنشئ من ٢٥ سنة). أصبحت كلها تمارس نفوذا تعدى دائرة الفكر، ووصل إلى دائرة رسم السياسات وصنع القرارات.

....

....

وتستطرد الأيكونوميست:

«إن النفوذ في بدايته فكرة، وفي الواقع أن الأفكار المحركة للقرار الأمريكي الآن هي ذلك السيل المتدفق من مؤسسات ومراكز الدراسات الاستراتيجية، وعلى سبيل المثال فإن أحد هذه المراكز وهو مركز «دراسات المشروع الأمريكي» (AEI) (American Enterprise Institute) هو الذي صك وأشاع للتداول تعبير «الدول المارقة» وهو تعبير أدبي لم يلبث أن تحول إلى استراتيجية حرب.

إن خطورة القضية تظهر إذا تذكر من يعنيهم الأمر أن «دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع الحالي لجورج بوش) و«كونداليزا رايس» (مستشارة الأمن القومي للرئيس). كلاهما من نجوم مركز «هوفر» للدراسات الاستراتيجية، وأن «ريتشارد تشيني» (نائب الرئيس الحالي)، وكذلك زوجته. كلاهما من نجوم مركز «دراسات المشروع الأمريكي»، كما أن «ريتشارد بيرل» (الذي كان رئيسا لمجلس الدفاع القومي في وزارة الدفاع والمعروف بوصف «أمير الظلام») هو أكبر داعية لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بدءا من الحرب على العراق!

إن أحدا لم يعد في مقدوره أن يناقش أن هذه المراكز أصبحت بذاتها حكومة الظل في أمريكا، بل وتأكد أنها الحكومة الخفية الحقيقية التي تصوغ القرار السياسي وتكتبه، ثم تترك مهمة التوقيع عليه للرئيس ومعاونيه الكبار في الإدارة، وهذا وضع يسيء إلى الفكر في قيمته، ويسيء إلى الإدارة في قرارها!].

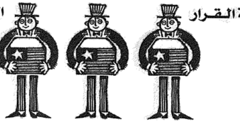
....

....

وتستطرد الأيكونوميست تقول:

«إن علو دور هذه المراكز وسطوتها ونفوذها في عملية صنع القرار السياسي ليس له تفسير إلا ذلك «العقم» الذي أصاب الأحزاب السياسية الكبرى في أمريكا، وترك للمال دور صانع الأفكار وصانع السياسات في

صناعة القرار الأمريكي - الآن!



الدولة الأمريكية العظمى. وكان المال هو الذى وضع الجامعات الأمريكية العريقة فى خدمة هذه المؤسسات، فإذا الغطاء أكاديمى علمى، وإذا الواقع سياسى عسكرى. يمكن أقلية صغيرة خفية من التحكم فى مصائر العالم وشعوبه.

وكان يُقال دائما أن المال هو صانع «الحرب» و«السلام»، وأنه الأرجل والأقدام التى تمشى. وتجرى. بها السياسة، وعليه فإن النظر إلى «مواقع المال» لابد منه قبل النظر إلى «مواقع الصراع»، كما أن البحث عن الرجال مقدمة ضرورية للبحث فى وقائع ما جرى ويجرى!.

> اضطر «ريتشارد بيرل» بعد ما نشره «سيمور هيرش» ووثقه، أن يقدم استقالته من رئاسة مجلس سياسات الدفاع، لكنه احتفظ بموقعه فى مركز «دراسات المشروع»، وواصل منه نشاطه، وإصراره على الدعوة إلى رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط مدخلها «احتلال العراق»!

وكان ما قالته الأيكونوميست دقيقا فى وصف الحال، وإن تأخر بمقدار ما كان تحذير «أيزنهاور» صادقا فى لفت النظر إليه فى الصباح المبكر!

وهنا فإن نظرة سريعة إلى مواقع المال (فيما يتصل بموضوع القرار الأمريكى الراهن والمؤثرات الواقعة عليه). لابد لها أن تتوقف أمام الشركات الأمريكية العملاقة، وحجم مبيعاتها الذى يمثل ٢٥٪ من الناتج العالمى.

ويطرح الاقتصادى الأمريكى الكبير «كينيث جالبرايث». مجموعة أرقام لتقريب الصورة وتجسيدها فيذكر:

- أن مبيعات خمس شركات أمريكية هى (جنرال موتورز. وول مارت. وإكسون موبيل. وفورد. وديملر كرايسلر) تتجاوز الناتج القومى لـ ١٨٢ دولة فى العالم.
- أن دخل شركة «إكسون» للبترول يفوق دخل دول «الأوابك» (مجموعة الدول العربية المصدرة للبترول) مجتمعة!
- وأن شركة «جنرال موتورز» أكبر من «الدانمرك»، وأن شركة «ديملر كرايسلر» أكبر من «بولندا»، وأن شركة «بكتيل» للمقاولات أكبر من أسبانيا، وأن شركة «شل» أكبر من «فنزويلا»، وأن شركة «سونى» أكبر من «باكستان».

....

[والملاحظة الأهم أن هذه الشركات الكُبرى. وهى القوى الصانعة للعولمة. هى الأسخى تبرعا لمرشحى الانتخابات الرئاسية والتشريعية فى الولايات المتحدة، وهى الأكبر إسهاما فى تمويل نشاط مؤسسات ومراكز التفكير السياسى والإستراتيجى.

وفى صدد الحرب على العراق، فإن شركة «هاليبورتن» لمقاولات النفط بدأت قبل أكثر من عام قبل حرب العراق. ترتب وتتعاقد مع آخرين على عقود لإعادة إصلاح وتحديث مرافق النفط العراقى فى حدود ٨.٧ مليارات دولار!

وبعدها فإن شركة «إكسون» هى التى بدأت تضع يدها على عمليات استغلال النفط العراقى وتخطط لإنتاج يصل إلى ٧ أو ٨ ملايين برميل يوميا، كما أن شركة «بكتيل» هى التى حصلت على أهم عقود الإعمار بعد الحرب، مستعينة باثنين وعشرين ألف شركة للمقاولات دعتها للعمل معها من الباطن!

وفى نفس الوقت فإن خبراء مراكز الأبحاث والدراسات السياسية والإستراتيجية وصلوا موجات إلى العراق بعد الغزو يدرسون على الطبيعة مستقبل هذا البلد، وكيف يمكن هندسة مستقبله فى المنطقة. وكان وصول الباحثين السياسيين مع الجنرالات المقاتلين مع مديرى الشركات. موكبا واحدا، والنتيجة زحفا كاسحا من الفكر والمال والسلاح توجهه مؤسسات الدراسات السياسية والاستراتيجية. التى أصبحت حكومة ظل تحولت صلتها بالإدارات المتعاقبة فى واشنطن (جمهورية وديمقراطية) إلى شىء أشبه بالباب الدوار يدخل ويخرج منه رجال ونساء الصفوة الأعلى صيتا والألمع ذكاء والأقرب مباشرة إلى وضع الخيارات والبدائل أمام المسئولين عن قرارات الحرب والسلام فى البيت الأبيض، أو على رأس إدارات الحكومة الفيدرالية، هذا إذا لم يقدر لهم أن يجلسوا بأنفسهم على القمة من هذه الإدارات (كما حدث مع «كيسنجر» و«رامسفيلد» و«بيرل» وعشرات غيرهم).

ولم يكن كثيرون يعرفون ما فيه الكفاية عن جهاز يسمى مجلس سياسات الدفاع القومى للولايات المتحدة، ولا عن تركيبته، ولا عن دوره فى صنع القرار الأمريكى إلا عندما انفجرت قضية «ريتشارد بيرل» الذى كان هو وزميله «بول وولفويتز» أقرب الناس إلى أقوى رجلين فى إدارة «جورج بوش»، وهما «ريتشارد تشينى» (نائبه) و«دونالد رامسفيلد» (وزير دفاعه).

وكان «ريتشارد بيرل» العقل المفكر لاستراتيجية الأمن القومى الأمريكى منذ بداية رئاسة «جورج بوش»، وكان «بيرل» المسئول عن مجلس الدفاع، كما كان فى نفس الوقت رئيسا لمؤسسة «المشروع الأمريكى»، ومديرا لبرنامج «القرن الأمريكى الجديد» وهو البرنامج الرئيسى لتلك المؤسسة، والذى كان دعاته ورعاته أكبر المتحمسين لرسم خريطة شرق أوسط يكون مفتاحها احتلال العراق!

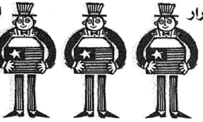
وقد انفجرت قضية «ريتشارد بيرل» عندما كشف الصحفى الأشهر «سيمور هيرش» تحقيقا فى مجلة «النيويوركر» واسعة النفوذ يقول ويثبت فيه «أن ريتشارد بيرل تقاضى مكافآت من موردى سلاح، فيما هو يمارس عمله كرئيس للجنة سياسات الدفاع. تزيد على ثلاثة أرباع المليون دولار سنة ٢٠٠١، وأن تصرفه فى تلك الواقعة انطوى على استغلال للنفوذ، أو على الأقل على «تضارب فى المصالح»، مخالف للأخلاق وفى الغالب مخالف للقانون أيضا».

ولم يكن هناك مجال للطعن فى التهمة، لأن البراهين التى أوردها «سيمور هيرش» كافية وافية، كذلك لم يكن هناك مجال للطعن فى الرجل الذى وجه التهمة إلى «بيرل» لأنه من أكثر الصحفيين احتراما فى واشنطن وأقدمهم عهدا بالمهنة وأكثرهم شهرة (وفوق ذلك فإنه يهودى مثل «ريتشارد بيرل»، ومن ثم فلا يمكن أن تلحقه تهمة «معاداة اليهود» (وإنكار الهولوكست). كما كان يمكن أن يحدث لو أن اتهام «بيرل» جاء من غيره).

واضطر «ريتشارد بيرل» بعد ما نشره «سيمور هيرش» ووثقه، أن يقدم استقالته من رئاسة مجلس سياسات الدفاع إلى «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع، لكنه احتفظ بموقعه فى مركز «دراسات المشروع»، وواصل منه نشاطه، وإصراره على الدعوة إلى رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط مدخلها «احتلال العراق»!

كانت قضية «ريتشارد بيرل» واستقالته كشفا لأهم مواقع القوة فى السياسة الأمريكية، وإشهارا لشخصيات سبعين رجلا وامرأة يؤثرون على القرار الأمريكى ويتركون بصماتهم عليه فى زمن تسعى فيه الولايات المتحدة إلى التفرد بالسيطرة على العالم والبت فى مصائره، ومن ناحية أخرى فقد كانت تلك القضية تذكرة حية بالكابوس الذى حذر منه «أيزنهاور» قبل أربعين سنة، وهو السيطرة غير المطلوبة وغير الشرعية لمجمع مالى. صناعى. عسكرى. فكرى على سلطة القرار والابتعاد به كثيرا (وكثيرا جدا) عن أى رقابة تشريعية وأى مراجعة ديمقراطية (مع أنه لابد أن يحسب للديمقراطية الأمريكية أن رجلا مثل «سيمور هيرش» أطلق رصاصة التحذير الأولى فى قضية «ريتشارد بيرل»).

والغريب أن «ريتشارد بيرل» وجه خطاب استقالته إلى «دونالد رامسفيلد» مصحوبا بحيثيات تكاد أن تكون توثيقا للصلة بين أطراف المجمع الصناعى. العسكرى. الفكرى، الذى حذر منه «أيزنهاور» ونبه



مبكرا إلى خطره على سلامة القرار الأمريكي.

وفي خطاب استقالته وحيثياتها كتب «بيرل» إلى «رامسفيلد» يقول:

عزيزي الوزير:

«إنني أتقدم إليك باستقالتي ليس نتيجة لإحساسي أنني اقترفت خطأ لأني مازلت مقتنعا ببراءتي مما نُسب إلي وسوف أدافع عن نفسي في هذا الأمر بكل الوسائل.

لكن مبادرتي بالاستقالة دافعها رغبتي في عدم إحراجك، وكذلك تجنيب التشويش على سياسة الولايات المتحدة في ظرف تترتب عليها فيه مسئوليات دقيقة، ولست أريد لما يثور حولي أن يلفت الانتباه ولو للحظة واحدة عن التحديات الكبرى التي يقع عليكم مسئولية التعامل معها».

ثم يواصل «ريتشارد بيرل» ليقول في خطاب استقالته:

«إن المسئولين الكبار عن إدارة الدولة يجدون أنفسهم دائما في حاجة إلى طلب النصيحة والرأي من جهات خارجية مستقلة عن إداراتهم، ذلك أن إدارات الدولة في العادة محكومة برؤى تقليدية تكرر نفسها، في حين أن المسئوليات الجديدة التي تتحملها الولايات المتحدة لم تعد تكفيها تلك الرؤى التقليدية.

والهيئات التي يقع عليها واجب تقديم مثل هذه النصائح والآراء لابد أن تكون بعيدة عن رؤى الإدارة التقليدية، ولا يكفل لها مثل هذا الاستقلال أكثر من اتصالها بالمصالح الكبرى للولايات المتحدة.

ولابد من ملاحظة أن النصيب الأكبر من المعرفة والتجربة فيما يخص المصالح الحقيقية المتصلة بمستقبل الولايات المتحدة. متصلة في الواقع بنشاط رأس المال الحر الأمريكي، وعليه فلا مفر من وجود صلات بين النصيحة والرأي، وبين المعرفة والتجربة، وهذا يخلق مجالا لعلاقة ملتبسة وتلك علاقة يمكن التغلب عليها بضمانتين: العلانية في التصرف (Disclosure)، والجرأة في الموقف (Recusal)».

ثم يصل «ريتشارد بيرل» إلى القول:

«إن ذلك هو الذي دعا إلى إنشاء مجلس سياسات الدفاع الذي تشرفت برئاسته طول السنتين الأخيرتين، والذي ناقشنا فيه بـ «علانية» و«جرأة» موضوعات مثل سياسة الولايات المتحدة إزاء العراق وتدمير ما يملكه من أسلحة الدمار الشامل، ومشاكل العلاقات الأمريكية الأوروبية، والحرب على الإرهاب وغيرها، وكانت تلك كلها مناقشات غنية ومفيدة وقابلة للتنفيذ، لأنكم وكما تعرفون فإن مستودع الخبرة لهذا المجلس يضم عددا من وزراء الخارجية السابقين، ووزراء الدفاع والطاقة، ومديرين تولوا إدارة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وعدد من زعماء الأغلبية والأقلية في مجلسي الكونجرس، ومجموعة من ألمع أساتذة الجامعات المهتمين بالسياسة، إلى جانب عدد من الفائزين بجائزة نوبل في الاقتصاد، ومع هؤلاء جميعا عدد من الضباط المتقاعدين الذين خبروا مطالب القوة المسلحة واستعمالاتها في ميادين مختلفة!».

كان «ريتشارد بيرل» نموذجا لنوعية الرجال والمصالح التي تحيط بمجلس سياسات الدفاع الذي ظل يرأسه حتى شهر مارس الأخير (٢٠٠٣)، واللافت للنظر أن «بيرل» زيادة على كل مناصبه كان في نفس الوقت عضوا في مجلس إدارة شركة «هولينجر» وهي دار صحفية تملكها شركة قابضة يملكها المليونير «كونراد بلاك» لكي تشرف على جرائده ومجلاته، وفيها مجموعة التلجراف (الديلي تلجراف، والصنداي تلجراف) الصادرة في لندن، وفيها عدد من الصحف الكندية الكبرى، ومن الغريب أن فيها أيضا جريدة «الجيروزاليم بوست» التي تصدر في إسرائيل!

وقد حدث بعد ذلك أن «ريتشارد بيرل» بدأ في نوفمبر سنة ٢٠٠١ في تأسيس شركة لخدمات الأمن الداخلي، وكان ضمن شركائه فيها زميل له في مجلس سياسات الدفاع هو «هنري كيسنجر» وزير الخارجية الأسطوري من أيام «ريتشارد نيكسون» و«جيرالد فورد» (في النصف الأول من سبعينيات القرن العشرين)، وكان «بيرل» هو الذي رشح «هنري كيسنجر» لكي يرأس لجنة خاصة للتحقيق في وقائع يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بما في ذلك تحديد المسئولية، والبحث عن أسباب القصور الأمني، وكانت تلك لجنة من خارج الكونجرس أُنشئت بعد أن اعترفت لجنته الأصلية ذات الصفة الشرعية (الدستورية) بعجزها عن مواصلة التحقيق، لأن السلطات المعنية. وضمنها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. ووكالة التحقيقات الفيدرالية. تمتنع عن التعاون معها وتحجب عنها الوثائق والمعلومات والشهود. وعندما أعلن الرئيس «بوش» عن ترشيح «كيسنجر» لرئاسة لجنة تحقيق (مستقلة!)، تعالت أصوات تتساءل عن طبائع العلاقات والارتباطات والمصالح، ووجد «كيسنجر» نفسه في غِنى عن مُساءلات وتحقيقات تتعرض له ولنشاطاته وارتباطاته، ولذلك قرر أن يعتذر عن المهمة.

وكذلك فإن مجلس سياسات الدفاع هيئة تستحق نظرة سريعة، ففي داخل هذا المجلس سبعون رجلا وامرأة. كلهم له دور وإسهام بارز في السياسة الأمريكية، وكلهم له مصالح طائلة في قلاع المال والأعمال من البنوك إلى البترول إلى السلاح، وكلهم مدنيون وعسكريون أصحاب تواجد كثيف في المؤسسات الاستراتيجية (مواقع حشد دبابات الفكر)، وكلهم له جدول أعمال ذاتي وعام تختلط فيه المنافع المباشرة بأمن الأوطان وسياساتها!

ومجلس السياسات لا يتكلم كثيرا عن أعماله، ولا ينشر شيئا من مداولاته، ولا يصدر بيانات عن توصياته، وكل ما هو متاح عن نشاطه ورقة أو ورقتان في سجلات البنتاجون لمجرد التسجيل.

وعلى سبيل المثال فإن آخر ورقة متاحة عن اجتماعات مجلس سياسات الدفاع، تجيء على النص التالي:

مجلس سياسات الدفاع

جدول أعمال

جلسة الخميس: ٢٧ فبراير ٢٠٠٣

٩ - ٩.٣٠ بوفيه إفطار خفيف في البنتاجون، غرفة الاجتماعات رقم ٨٦٩.

٩.٣٠ - ١٠.٣٠ مناقشة في الدور المركزي للفضائيات

١٠.٣٥ - ١١.٣٥ مناقشة عن الفيش الإعلامية الشاملة

١١.٣٥ - ١٢.٠٠ استراحة

١٢.٠٠ - ١.٠٠ غداء في القاعة الذهبية ٨٥٩.

١.٠٠ - ٢.٠٠ تقرير مخابرات عن المستجدات (!)

٢.٠٠ - ٣.١٥ كوريا الشمالية: تقرير معلومات

٣.١٥ - ٤.١٥ مناقشة (كوريا الشمالية)

٤.١٥ - ٤.٣٠ استراحة

٤.٣٠ - ٥.٣٠ إيران. مناقشة

٥.٣٠ - ٩ جلسة عمل مفتوح

اليوم التالي: الجمعة ٢٨ فبراير ٢٠٠٣

٩ - ٩.٣٠ بوفيه إفطار خفيف القاعة الذهبية في البنتاجون، الغرفة رقم ٨٥٩.

٩.٣٠ - ١٠.١٥ تقرير مركز دراسات حفظ السلام

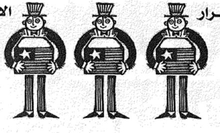
١٠.١٥ - ١١.٣٠ تقرير نائب رئيس أركان الحرب البريطاني

١١.٣٠ - ١٢.٣٠ مناقشات

١٢.٣٠ - ١.٣٠ غداء ومناقشة مفتوحة مع «تنيت باجيت» (وزير الدفاع

مجلس السياسات لا يتكلم كثيرا عن أعماله، ولا ينشر شيئا من مداولاته، ولا يصدر بيانات عن توصياته، وكل ما هو متاح عن نشاطه ورقة أو ورقتان في سجلات البنتاجون لمجرد التسجيل

صناعة القرار الأمريكى. الآن!



لشئون السياسات) (القاعة الذهبية ٨٥٩).

١.٣٠ - ٤.٠٠ مناقشة مفتوحة

٤.٣٠ - ٥.٣٠ عرض من وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» ومن نائبه «بول وولفويتز».

....

....

[وفيما عُرف لاحقا عن المناقشات التى جرت ذلك اليوم بصدد الخطر الذى تمثله كوريا الشمالية، فقد تبين أن مجلس سياسات الدفاع بحث تقريرا أعده «ريتشاردسون» (حاكم تكساس الحالى والمفاوض الرئيسى فى مشكلة كوريا الشمالية). ونتيجة للمداولة خرج بأن الخيار العسكرى غير وارد فى الوقت الحالى (بالنسبة لكوريا الشمالية)، كما هو الحال فى شأن العراق لثلاثة أسباب:

- أولها: أن حربا ضد كوريا الشمالية سوف تكون عملا عسكريا خطرا ضد قوة تملك رادعا نوويا حقيقيا، حتى وإن كان محدودا فى حجمه.

وفى حين أن العمل ضد العراق يمكن أن يكون سهلا، لأنه بلد استنزفته حرب الخليج الأولى ثمانى سنوات، وأنهكته حرب الخليج الثانية بضربة صاروخية قاسية، ثم طوقه حصار اقتصادى ونفسى دام اثنتى عشرة سنة. فإن كوريا الشمالية ظرف مختلف إلى حد كبير.

. ثانيا: إن الجوار العراقى يساعد الخيار العسكرى الأمريكى ويجعله قابلا للتحقيق، فى حين أن الجوار الكورى الشمالى وفيه (الصين واليابان وكوريا الجنوبية) لا يرغب فى ترك القوة العسكرية الأمريكية مطلقة العنان، ويفضل معالجة الشأن الإقليمى. أولا . فى إطار الإقليم وليس من خارجه، وهذا يقيد العمل الأمريكى إلى حد قد يكون مؤثرا.

. وأخيرا: فإن كوريا الشمالية . على عكس الحال فى العراق . ليست فيها جوائز اقتصادية تساوى المخاطرة.

....

....

[ومن المثير أن الوفد الكورى الشمالى الذى اجتمع مع ممثلين لوزارة الخارجية الأمريكية فى «بكين». فى شهر مارس الماضى وبعد أقل من أسبوعين على مناقشات مجلس الدفاع . كان هو الذى أبلغ الجانب الأمريكى رسميا بأنهم بدءوا بالفعل فى تخصيب اليورانيوم، والمعنى أنهم الآن على الطريق السريع إلى أسلحة نووية، وكانت الرسالة مباشرة بما مؤداه أن الولايات المتحدة لابد لها أن تتكلم وأن تتفاوض مع كوريا الشمالية، لأنها ليست غنيمة سهلة].

....

....

وتتكرر اجتماعات مجلس الدفاع مرة كل شهر أو شهرين حسبما تتطلبه مسارات الحوادث، وتتلاقى وتتفاعل أفكار وتوجهات وتتداخل معها رغبات المال والسلاح والسياسة، وتُتخذ توصيات تتحول فى البيت الأبيض ووزارات الدفاع والخارجية ووكالة المخابرات المركزية إلى قرارات، بعضها يمس قضايا الحرب والسلام، وتتعرض أمم وشعوب للعواصف والأعاصير. لكن أمير الظلام وأصحابه فى منأى عن الحساب وبعيدا عن المسئولية، يساعدهم على ذلك أن الإمبراطورية الأمريكية مشروع خاص يتقدم ويسحب الدولة وراءه، ويتصرف دائما من وراء حجاب بغير تفويض شرعى، وبدون مسئولية دستورية، وبدون رقابة أو متابعة، وهذا بالضبط ما حذر منه «أيزنهاور» أوائل الستينيات، وكذلك نقلته الأيكونوميست أخيرا، وكان التحذير السابق ولفت النظر اللاحق خدمة لروح الديمقراطية فى الولايات المتحدة، وليس . بالتأكيد . رغبة فى التشهير بها.

....

....

[وللإنصاف فإن التجربة الأمريكية حافلة بكثير يستدعى الإعجاب (ابتداءً من روح المبادرة إلى روح الحرية)، وبالتالى فإنه من مآسى التاريخ الكُبرى أن يتمكن عدد من الرجال والنساء لا يزيد عددهم عن مائة إلى مائتين. بينهم سبعون عضوا فى مجلس سياسات الدفاع. من الاستيلاء على القرار الأمريكى والاندفاع به إلى «مشروع مخيف وشبه مستحيل» فى طلب الهيمنة على العالم، بغير منافس، وإلى الأبد].

....

....

ويستحق النظر أن كل واحد أو واحدة من هؤلاء الرجال والنساء الذين استولوا على القرار الأمريكى مربوط بهذه العلاقة الثلاثية غير المقدسة للمال والسلاح والفكر، إلى درجة تكاد أن تضع نموذجا واحدا متكررا عشرات المرات:

. كل واحد منهم رئيس مجلس إدارة أو العضو المنتدب لشركة من أهم شركات السلاح أو البترول أو الاستثمار المالى، ويحصل سنويا على ما لا يقل فى المتوسط عن عشرة ملايين دولار.

. وكل واحد منهم له مقعد فى قائمة اجتماعات مجلس السياسات التابع لوزارة الدفاع، أو له صلة وثيقة به عن طريق واحدة من مؤسسات التفكير السياسى والاستراتيجى، وهى بالعشرات.

. وكل واحد منهم يعرف طريقه إلى الباب الدوار أمام معاقل السلطة فى الولايات المتحدة، فهو يدخل من الشركات الكبرى، أو من مؤسسات الفكر إلى أعلى مواقع الإدارة الحكومية، ليقضى مدة فى الممارسة العملية لتنفيذ القرار، ثم يعود من الباب الدوار إلى الشركة الكبيرة أو إلى مؤسسة الدراسات السياسية والاستراتيجية صاحبة النفوذ. وهكذا.

وهناك سؤال يفرض نفسه:

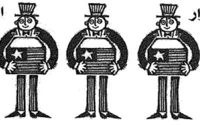
كيف حدث أن قلة من الرجال والنساء تمكنوا من الاستيلاء على سلطة القرار فى بلد بحجم الولايات المتحدة، وقوته، وحيويته؟. وهذا سؤال سوف يتوقف التاريخ أمامه مندهشا ومدققا، وفى الغالب. وبدون استباق للنتائج. فإن ما يمكن تسميته بـ «سياسات الخوف» قد يكون الداعى والسبب، خصوصا إذا جرى قياس الحاضر الذى لم يكتمل. على ماضٍ تمت فصوله وانطوت صفحته.

وفى هذا الصدد فإنه يمكن استعادة ظروف الفتنة الكبرى التى كادت أن تخنق روح الحرية والإبداع فى الولايات المتحدة وقت محاكم التفتيش التى نصبها السناتور «جوزيف ماكارثى» فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية (أواخر الأربعينيات. أوائل الخمسينيات)، حين بدأ حملته (التى أشهرت فى التاريخ اسمه وحملت وصف المكارثية) بدعوى التصدى «للنشاط الخارج من ولائه لأمريكا»، وفى هذه الحملة راح «ماكارثى» يستدعى أمام لجنته ويحاسب ويعاقب كل من تصور أنهم جنحوا إلى اليسار فى أفكارهم، ومن ثم انحازوا للشيوعية، وأصبح نشاطهم غير أمريكى Un American أو مُعاديا للولايات المتحدة بصريح العبارة.

وقد استطاعت هذه الحملة أن تغطى الحياة السياسية والأدبية فى أمريكا بضباب كثيف ضاقت فيه مساحة الرؤية، وشاع الشك، وتعمق الخوف، فقد راح ألمع الفنانين والأدباء وأبرز نجوم المسرح والسينما وأكفأ أساتذة الجامعات فى العلوم الاجتماعية والطبيعية يتساقطون كل يوم تحت مطارق الاتهامات المرسلة يوجهها إليهم السناتور «ماكارثى» ولجنته.

ثم جاء الوقت وتخلصت الولايات المتحدة من كابوس الخوف، وراحت تلتفت وراءها وتتساءل كيف جرى ما جرى؟

من مآسى التاريخ الكُبرى أن يتمكن عدد من الرجال والنساء لا يزيد عددهم عن مائة إلى مائتين. بينهم سبعون عضوا فى مجلس سياسات الدفاع. من الاستيلاء على القرار الأمريكى والاندفاع به إلى «مشروع مخيف وشبه مستحيل» فى طلب الهيمنة على العالم، بغير منافس، وإلى الأبد



وفى هذه المرة يتكرر الكابوس وإن اختلف شكله عن الكابوس السابق، كما أن نهايته يصعب رؤيتها فى الزمن القريب، ذلك أنه مع التسليم بأن قلة من الناس (فى محور المال والفكر والسلاح) خطفوا القرار السياسى للولايات المتحدة الأمريكية، فليس هناك شك فى أن هذه القلة نجحت حتى الآن فى اللعب على مشاعر كتل واسعة فى الولايات المتحدة، وبالتالى فإن هناك أغلبية أمريكية أخذتها حُمى الوطنية (المُدَّعاة)، وراحت تزهو بما تراه من حماقة القوة (المتوافرة!).

ومرة أخرى فإن «سياسات الخوف» تواصل فرض نفسها رغم اختلاف الظروف وبينها:

١. العدو الذى عرفته الولايات المتحدة طوال النصف الثانى من القرن العشرين. اختفى فجأة من أمامها، مع ملاحظة أن الناس يعرفون أنفسهم بالعدو الذى يواجهونه، أكثر مما يعرفون أنفسهم بالصديق الذى يقف معهم.

والغريب فى طبائع القوى أن غياب العدو يحدث «وحشة» أكثر من وحشة يحدثها غياب الحليف.

فالقوى المعنية بالصراعات تكون قد عبأت إمكانياتها المادية، ورتبت استعدادها السياسى والمعنوى على مواجهة عدو ما. فإذا ما اختفى ذلك العدو فجأة فإن حالة التعبئة تظهر وكأنها فقدت توازنها، وضيعت مبرر وجودها ذاته. وفى أحوال اقتصادية واجتماعية ونفسية متداخلة كما هو الحال فى الولايات المتحدة، فإن فقدان التوازن وضياع مبرر الوجود قادر على إحداث خلخلات بعيدة الأثر. خطيرة فى تداعياتها.

٢. وأصحاب المشروع الإمبراطورى لا يريدون شيئا من ذلك كله، بل يجدون فى هذه اللحظة بالتحديد فرصة سانحة لهم، لأن الاتحاد السوفيتى الذى سقط فى الحرب الباردة كان أقوى منافس وأخطر عدو، فإذا وقع اختفاؤه فهذه هى اللحظة المناسبة تماما للمشروع الإمبراطورى يمسك بالقمة الدولية، ويكرس وجوده وحده عليها، ويمنع ظهور قوى أخرى تنافس أو تتحدى.

لكن المشروع الإمبراطورى يحتاج إلى استمرار التعبئة ضد «عدو» حتى تظل القدرات الأمريكية. المادية والسياسية والنفسية. على يقظتها، فلا تنفرط بغياب المنافس أو العدو، ولا يلحق بها ما يحمله الانفراط السريع من اختلالات بعيدة المدى، وعواقب وخيمة على المصالح الكبرى لأطراف المشروع الإمبراطورى الأمريكى (وغيرهم ملايين من العاملين فى مجالات المال والصناعة والبترول والسلاح والفضاء والطيران إلى آخره).

ولم يكن يحفظ اليقظة ويمسك بدرجة التعبئة إلا العودة مرة أخرى إلى «سياسات الخوف»، مع ملاحظة أن التجربة الأمريكية بطبيعتها تنشر المجتمع أفرادا متنافسين فى حالة الطمأنينة، حيث ينصرف كل منهم إلى مشروعه الخاص، لكن الخوف، وتلك مرة ثانية طبيعة التجربة. يُعيد جمع الشاردين لكى يواجهوا معا مخاوف الخطر.

٣. وفى المرة السابقة. على عهد «الخوف الماكارثى الكبير». كان الخطر هو الشيوعية، والآن فهناك خطر مستجد يستعيد الخوف ويسترجعه، وهو «الإرهاب الدولى» و«أسامة بن لادن» و(جماعاته الإسلامية)، و«صدام حسين» (وأسلحته للدمار الشامل).

وكان ضغط أصحاب المشروع الإمبراطورى أن هذه المخاطر المستجدة لا تقل ضراوة عن المخاطر السابقة، وكذلك علت نبرة التخويف، وهو ليس تخويفا للأمريكيين وحدهم، وإنما لغيرهم معهم، وعليه فهى ضرورة حيوية لقيام تحالف «ضد الإرهاب» لا يقل صلابة وحزما عن التحالف ضد النازية والشيوعية.

....

....

[وعندما انقضت صواعق النار على نيويورك وواشنطن، فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فإن ذلك الحدث المروع جاء هدية من السماء (وربما من غيرها) إلى المتشوقين للخوف والتخويف، وظنهم أنها الفرصة المناسبة لاستبقاء بل وتكثيف التعبئة الداخلية (المادية والسياسية والنفسية). وللمحافظة على التحالف الدولى، وفى التقدم بما يكفى من الذرائع الأخلاقية على طريق التوسع والتعزيز الإمبراطورى. وكانت صيحة أطراف المشروع الإمبراطورى (الصناعى. العسكرى. والفكرى). أن الخطر هناك فى الشرق الأوسط، وفى العالم العربى وعلى أطرافه، وليس أمام الولايات المتحدة غير أن تواجه وأن تنتصر.

وبدأت الحرب على أفغانستان، بدعوى ضرب قواعد الإرهاب العالمى، ثم توجهت الأسلحة إلى العراق بدعوى نزع أسلحة الدمار الشامل.

واشتعلت حرب فى أفغانستان غريبة، وتلتها حرب فى العراق أغرب! ■




كاريير.. أول تكييف
تكلمه بالتليفون
Platinium
N2
Tele Carrier
Fortune Promoseven
الآن مع أجهزة تكييف كاريير سبليت الجديدة يمكنك:
● التحكم فى التشغيل والإغلاق من خارج المنزل بالتليفون من خلال تلى كاريير.
● الاتصال عن طريق التليفون العادى أو المحمول .
● التحكم فى أكثر من جهاز تكييف كاريير فى وقت واحد .
كاريير .. خبرة بتطور
كاريير ... أول تكييف فى مصر
تشغله وتقفله من بره البيت بالتليفون
Miraco
Carrier
لاشىء يفوق الخبرة ... لاشىء يفوق كاريير
لخدمة العملاء والمبيعات فى القاهرة الكبرى اتصل ب: ١٩١١١ بسعر المكالمة العادية
ولدى كل الموزعين المعتمدين ..
Carrier
One hundred years of innovation.
شركة مصر لصناعة التبريد والتكييف ش.م.م
المركز الرئيسى : ١٥ شارع مكة المكرمة - خلف نادى الصيد - المهندسين. مصر الجديدة : ٢٠٤ شارع الحجاز. مدينة نصر : ١٨ شارع عبد الله العربى - إمتداد شارع الطيران - القاهرة. شبرا : ٧٠ شارع شبرا - القاهرة. المعادى : ٢/١١ شارع النصر - المعادى الجديدة. الهرم : ٩٨أ شارع الملك فيصل - تقاطع الملك فيصل مع المريوطية - الهرم. الإسكندرية : ٥ شارع ألبرت الأول - بجوار كوبرى كليوباترا - سموحة ت : ٤٢٥٢٠٠٥ (٠٣) الغردقة : شارع المحكمة ت : ٥٤٩١٥٥ (٠٦٥) الأقصر : شارع الروضة الشريفة - العوامية ت : ٣٧٢٩٤١ (٠٩٥)

بعد أن فقدت الجيوش التقليدية قيمتها..

بعد كل ما جرى.. ألا توجد فائدة حقًا؟ وهل البديل الوحيد أمامنا هو الانتحار. بعد «سقوط» بغداد؛ العاصمة العربية. وبعد «اعتقال» زعيم «عربى» حصل يومًا على جائزة نوبل للسلام، فى مقره - لما يقرب من عامين - أمام أنظار العالم أجمع. وبعد المشاهد «الفضائية» للمقابر الجماعية. وبعد أن تمت إذابة أجساد آلاف العراقيين، بالقنابل الحرارية، والذكية.. والميكرويف، وغيرها من الأوصاف العلمية البراقة. وبعد ما بدا - على السطح على الأقل - وفى كثير من الكتابات والتعليقات «أن لا فائدة لمقاومة من أى نوع أمام تلك القوة الأسطورية» الطاغية. وأن لا مكان هذه الأيام للشجاعة والإيمان والوطنية.. أمام الصواريخ الموجهة بالليزر، والقنابل زنة مائتى ألف رطل. وأن «من الحمق مناطحة الصخور». وأن «الأقوى فى تلك الأيام - لا الأكثر عدلاً - هو المنتصر دائمًا».

انتشرت مشاعر الإحباط واليأس.. والانسحاب والاكتئاب. وزاد عدد المترددين على دور العبادة.. وحانات الخمور.. وعيادات الطب النفسى. وبدا أن الهزيمة «النفسية» ربما تكون أفدح وأعمق أثرًا، وأطول أمدًا من تلك العسكرية أو السياسية.

واتضح أنه بعد أن فقدت الجيوش التقليدية قيمتها يصبح ضروريًا الإعداد النفسى لمواجهة «من نوع آخر».

«وجهات نظر» طلبت من الدكتور يحيى الرخاوى أن يكتب لنا فى «سيكولوجيا ما جرى.. وما يجرى»

عن التعليم.. والحريات.. والخصوصية.. والأمل

قراءة فيما جرى!

يحيى الرخاوى

من واقع ما أمارسه فى مهنتى. يعتبر المرض النفسى (العقلى) هزيمة وتناثراً وتراجعاً وانكساراً، وأحيانا يؤدى إلى الجريمة أو الانحراف أو الانتحار. لا أحد يمكن أن يدافع عن المرض لدرجة استبقائه، حتى لو كانت بداياته (بدايات المرض) تشير إلى معنى الاحتجاج والثورة.

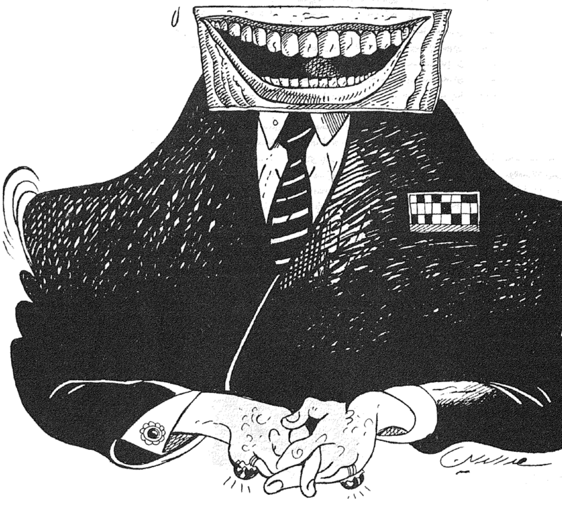
لكن ثمة فرقًا بين التخلص من المرض وبين التخلص من المريض بالمرة. صدام كان مرضًا خطيراً، متأصلاً وحقيراً فى آن، ثم تمادى إلى أن أصبح سرطاناً شائهاً مشوهاً، ينبغى استئصاله، لكن الذى جرى ويجرى هو محاولة استئصال المريض مع المرض. إن الذى يجرى - بموافقة العالم الآن، ولو بأثر رجعى - أنه يتم القضاء على شعب العراق وما يَمثله (من تاريخ ووعود) ضمن استئصال سرطان صدام ومضاعفاته. فكرة الحق الذى يراد به باطل فكرة قديمة وجيهة. التهدئة بالعقاقير المهدئة الجسيمة علاج ناجع لحالات الهياج المرضى والذهان النشط، هذا حق، ولكن إذا تمادينا فى استعمال هذا الحق (العقاقير للتهدئة الدائمة) لصالح شركات الدواء أساسا، دون النظر فى المضاعفات التى تلحق بالمريض ونحن نقضى على أى حركة رافضة أو محتجة مع محاولتنا القضاء على المرض، يصبح الدواء فى هذه الحالة داء جديداً، ربما أخطر.

قرر مجلس الأمن قبل شهر، ربما بعد أن هزته -مثلنا- مناظر المقابر الجماعية، أن أى شر فى الدنيا (حتى لو كان شر الاستعمار) هو أفضل من هذا الذى يراه، فتورط وأعطى ما حدث من جريمة، شرعية ما (برغم تحفظات وتعقيبات السيد دوفيلبان، وزير خارجية فرنسا). أوكَلَ المجلس الموقر الأمرَ كله لأصحاب الفضل فى الاستعمار التحريرى الديمقراطى المبارك، وقد أوصاهم خيرا بناس العراق وبنيته الأساسية. وأيضا أوكَلَهم بالسلامة- للتصرف فى بترول العراق ومعادنه، وكذلك بالعناية بأمور ناسه من تعليم وتدين وثقافة وعمل وزواج، حتى يعيشوا فى التبات والنبات، وينجبوا صبيانا وبنات. لم يبق إلا أن يفوض المجلس الموقر الغزاة فى التحكم فى أحلام هؤلاء المظاليم، وربما أيضا فى موقعهم فى الجنة دون النار. لم ينس المجلس الموقر أن يعطى دورا للأمم المتحدة فى أن تتابع ما يجرى من باب العلم بالشىء، دون اتخاذ اللازم. قرار مجلس الأمن هذا أخطر من الاستعمار ذاته. إن اختراق القانون يظل اختراقا للقانون مهما بدت نتائجه حسنة، وهو لا يسقط بالتقادم. الجريمة تَمَّت علانية، ومقترفها هو أقوى دولة فى العالم وأغناها وأغباها. ومع ذلك فإن الأمر بدا وكأن ضابطاً مصرياً نوبتجيا يقفل المحضر بتأشيرة مصرية واقعية تقول: «يستمر الحال على ما هو عليه، والمتظلم يلجأ إلى القضاء». أى قضاء يمكن أن نلجأ إليه متظلمين بعد ما حدث.

مادام الأمر أصبح كذلك، والاستعمار أصبح مشروعاً بكل هذه الحكمة الدولية، أليس من صميم العقل أن نتعلم ونسمع الكلام بدورنا، ونمشى بجوار الحائط، ونحن على يقين - إن شاء الله - أن تقوم الديمقراطية الأمريكية، الموصى عليها من مجلس الأمن، بالواجب؟

يبدو أن ذلك هو ما يساور كثيراً منا أفراداً وجماعات، حتى لو أعلن غير ذلك. إن ما وصلتُ إليه حالنا، وحال نُظُم حكمنا، وحال تدهور أدائنا، وتمادى كسلنا، وتفاقم كذبنا، واحتمال الجرائم التى يمكن أن يرتكبها بعض حكامنا لمجرد استمرارهم على الكرسى، إن كل ذلك يمكن أن يبرر أى حل حتى لو كان عودة إباحة تجارة العبيد. يبدو أن الحرية المتبقية لنا هى حرية اختيار السيد، لنا كامل الحق أن نختار أن يكون السيد الشارى فى سوق النخاسة هو خواجة يحذق الكذب ويلقى إلينا من فائض موائده ما يقيم الأود أشهى وألذ، أو أن يكون سيدنا الشارى وحشا آدميا يدفننا أحياء بعد الذل والرعب والكذب

يصبح ضروريًا الإعداد «النفسى» لمواجهة من نوع آخر!



والتجويع. بل إنه قد خيل إلىَّ أنه لم يعد أمامنا حتى هذا الاختيار بين الدفن أحياء أو برصاصة واحدة فى هذه المقابر الجماعية، وبين أن نكون تابعين مستعمَرين لأسياد أرقى وأرق، هم الذين يقررون لنا ما هو أصلح لنا.

هل الأمر كذلك فعلا، أم أن ثمة بُعداً أعمق للمسألة؟

قبل الإجابة: نعيد صياغة ما حدث بإيجاز شديد.

أولا: لم يكن فيما حدث مفاجأة، بل تعرية للجارى على الجانبين منذ سنين. لم تكن كارثة، بل كاشفة.

ثانيا: لم تكن حربا أصلا، بل قرصنة لص محترف، للتخلص من قاطع طريق قاتل، للاستيلاء على أسلابه، وأيضا على ما تبقى من فريسته. (ثم تم تعيين هذا القرصان نفسه حاكما للجزيرة التى بها الكنز المرسوم فى الخريطة التى تركها جنِّى مجهول بين أنقاض مركز التجارة العالمى يوم القبض على الأمل والعدل والحياء!!)

ثالثا: لم تكن المسألة أسلحة دمار شامل، فالدمار الشامل الحقيقى قد وافق عليه (ولو بأثر رجعى) مجلس الأمن بالسلامة، ثم إن قارئ قرار مجلس الأمن هذا يمكن أن يطمئن لشرط خفى وضع بين السطور، شرط يسمح باستعمال أسلحة الدمار الشامل لناس دون ناس. شرط مكتوب بالحبر السرى لمن يحسن فك رموزه: «يسمح بممارسة التدمير الشامل دون تمييز لكل من يقسم أنه لا يدمر إلا الأشرار وضحاياهم بالمرة (الشىء لزوم الشىء)، على شرط أن يكون هذا المدمر الشامل أقوى وأغنى وأقدر على الكذب والمناورة، وأن يُثبت أنه امتلك أسلحة الدمار لأكثر من نصف قرن، وأنه سبق له تدمير البشر والأمل والحرية دون أن يؤاخَذ، وأنه رغم كل ذلك ما زال سيد العالم قوة وجبروتا وظلما وتشويها».

أما من لا يتمتع بهذه الميزات الإنسانية الخاصة فعليه أن يسلم ما عنده من أسلحة ونوايا عدوان من أصله، كما عليه أن يسلم مَن عنده من القادرين على إبداع أى شىء أو فكر يمكن أن يهدد هذا السيد الخاص المسموح له بالتدمير دون غيره، باعتباره المحتكر لحق التدمير وإبادة «الشر» بحسب ما يرى هو.

رابعا: لم يكن الصراع بين نقيضين. بل هما وجهان لعملة واحدة، الوجه الأضعف اختفى مؤقتًا على الأقل، والوجه الأقوى افترى نافشا ريشه ليسن قوانين جديدة تحدد معالم الحقوق، والواجبات، والأخلاق، والتدين، والجنة، والنار، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وذلك باعتبار أن أى منتصر على أمين مخازن المقابر الجماعية هو على درجة من الأخلاق والدراية بحيث يقدر على نفعنا أكثر من أنفسنا، حتى لو كنا الضحايا فى الحالين.

مخاطر التسطيح والاختزال

نعرف أن ما نتصوره قد يكون أهم من الواقع ذاته، وعليه فإن أخطر الخطر ليس فيما حدث، فالمتأمل يمكن أن ينتبه إلى بعض الخير فيما تم رغم سوء النية وسوء المآل الأرجح. أخطر الخطر هو أن نتصور أن النصر الظاهر هو دليل أن صاحبه هو من أهل الخير والرؤية الأسبق، لأنه قضى على شر أكيد. ثم هاهو مجلس الأمن يقره، مع همهمة محدودة، وها هى المظاهرات تتوقف متقززة من النهب والمقابر الجماعية. يمكن أيضاً أن يستتبع ذلك تصور أن الديموقراطية بالصورة التى وعد بها الغازى بكل عيوبها ومزاياها وخداعها وألاعيبها، هى نهاية الأنظمة السياسية بلا بديل. إن تعميم قيم المنتصر على العالم، لمجرد أنه انتصر قد تنتهى بنا - خصوصا ونحن بهذا الكسل والاعتمادية - إلى اعتبار هذه الديمقراطية المشبوهة بالذات نهاية الأيديولوجيات، (بل والحضارات والديانات بالمرة)، أليس هذا هو ما حدث بعد انهيار الاتحاد السوفيتى حين راح هذا المنتصر نفسه يعلن نهاية التاريخ وهو يرفع يده على حلقة ملاكمة الحرب الباردة، باعتبار أنه لم يبق فى الدنيا إلا هذا المنتصر الذى هزم بطل العالم الأسبق.

فمن ذا الذى يجرؤ على نزاله بعد ذلك إلا الصحاف ورسامو الكاريكاتير؟ ما المطلوب إذن؟

قبول التحدى:

أى فرد منا يستقبل خبرا أو يعايش مسألة عامة أو يبلغه رقم رسمى أو علمى أو شبه علمى، سرعان ما يعود لقياس ما وصله بالنظر فى حاله، وحال من حوله، وحال ما حوله، ثم هو يتخذ موقفه غالبا من موقع مهنته ولغته، وحاجاته، وتحيزاته، ودرجة نضجه، ومساحة حريته، مع احتمالات الاختزال أو التعميم.

أعترف أننى لم أجد طريقة لقراءة الأحداث وقبول التحدى إلا «قياساً» من واقع مهنتى. هو مدخل شخصى، لكنه واقع يمكن تطبيقه على سائق التاكسى، وعامل الخرسانة، وعالم الذرة، ومصمم الأزياء. كل منا يقرأ الأحداث من زاويته، ويقيس - بوعى أو بغير وعى - مجريات الأمور كما يفهمها من واقع مرجعيته المعرفية العملية، ومصالحه المباشرة كما تتبدى له فى نفسه، وفيمن حوله أولا وقبل كل شىء. (كان سام ماسح الأحذية يصنف نزلاء الخان فى رواية مستر بكويك «تشارلز دكنز» من واقع أحذيتهم). أثرت مهنتى فى قراءتى لنفسى والناس والأحداث على مستويات مختلفة: فمن ناحية أنا أقرأ أخبار الاقتصاد المحلى من قدرة مرضاى على التداوى، كما أقرأ أخبار الاقتصاد العالمى ومناورات الاحتكار وضم الشركات عابرة القارات من خلال ما تقوم به هذه الشركات من شراء العلماء وتسطيح الأبحاث وغسيل مخ الأطباء بالسفر والمؤتمرات الشكلية وأوهام المعلومات المعروضة فى جداول ومقارنات بعيدا عن وعى المرضى الأعمق. ثم إنى أستشعر الخطر على الجنس البشرى كله من مسيرة تدهور مجنون واحد. ضبطتُ نفسى أستلهم من تدهور مرضاى إلى عهود سحيقة من الحياة، رسالة تقول: «.. إن الجارى، ثم الاستسلام لنتائجه، لا يهدد العراق وفلسطين وسوريا والعرب فحسب، بل هو تهديد لبقاء النوع الإنسانى نفسه».

إن الحديث عن دلالة ما حدث من تهديد بالفناء الشامل (الانقراض) لا ينبغى أن يؤخذ باعتباره هربا. إنه المدخل الذى ربما يؤدى بنا إلى محاولة تحديد دورنا جماعة ثم فردا فردا. لقد وصلتُ، من خلال قراءة صديقى المجنون وهو ينسحب من كل إنجازاته، وأغلب إنسانيته إلى ما يلى:

أولا: نحن لسنا إلا نوعاً من الأحياء، صحيح أننا نتصور أننا على قمة الهرم الحيوى الذى نعرفه، لكننا نظل ننتمى إلى الأحياء الذين تحكمهم قوانين البقاء عامة.

ثانيا: إن بقاء نوعنا لا يرتبط بانتصار فى معركة حربية، أو انحراف مجرم قاتل حاكم، بل هو يرتبط بمدى التعامل مع الزمن والمحيط (البيئة - الوسط - الكون) ثم التعامل مع بعضنا البعض، ثم التعامل مع سائر الأحياء والحياة.

ثالثا: كان ذلك التعامل يتم تلقائياً دون حاجة إلى وعى ظاهر، أو عقل مخطط. لكن أزمة الإنسان هى أنه أصبح يمتلك هذا وذاك (الإرادة الواعية والعقل المسيطر)، وبالتالى زادت مسئوليته، و زادت فرصه، وزادت أخطاؤه.

رابعا: إن الانحراف التطورى الذى أدى إلى ظهور صدام على ناحية، ثم دبليو بوش على الناحية الأخرى، يعلن أن ثمة خطأ جسيماً حادث على مسيرة تطور البشر.

خامسا: إن كل هذه الأحداث العابرة (من نصر وهزيمة وظلم وجرائم)، هى أقرب إلى الإنذارات، منها إلى تحديد مَن عنده الحق، ومَن تَجاوَزَ العدل من هذا الفريق أو ذاك.

سادسا: إن المغزى الذى علينا أن نتمعن فيه من هذه الأحداث ذو شقين على طرفى نقيض:

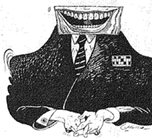
الأول: إن ثمّ تهديداً يلاحق الجنس البشرى من اعتماده على إنجازات أقلية ثرية ناجحة، لكنها متحيزة، وظالمة، وقاصرة، وقصيرة النظر، وقيمها لا تمثل ما يعد به تاريخ الإنسان الرائع.

والثانى: أن ثمة أملاً يتزايد فى أن يتمكن البشر - سائر البشر - من التواصل الإيجابى عبر المنجزات الأحدث للتكنولوجيا، ليتعاونوا فى درء خطر الانقراض الذى تجلى أخيراً ظاهراً للعيان كما لم يتجل من قبل.

من هذا المنطلق

رحت أعيد قراءة موقفنا الخاص لأرى كيف تعلمنا من الدرس الجارى، وماذا يمكن أن نعدله، وماذا يمكن أن نتراجع عنه، وماذا يمكن أن نضيفه. إن الحياة وقتٌ وعمل. يتحدد مصيرنا وأحقيتنا بإنسانيتنا بما نملأ به الوقت، وبما يتوجه إليه العمل. إن الوعى البشرى - محنة ما انتهى إليه النوع البشرى - هو الذى يسمح باختيار ما يملأ به وقته، وما يتوجه إليه عمله. لا بد أن يعاد النظر فى هذه البدهيات بعد كل مأزق وجودى يمر به البشر وينذر بالفناء من خلال ظروف الطبيعة أو أخطاء ومغامرات إبداع الإنسان الحسن منها والسيئ (من الحرب العالمية الأولى حتى تفتيت الذرة، ومن الهندسة الوراثية حتى المقابر الجماعية).

من هذا المنطلق، على كل واحد منا



عبر العالم، دون استثناء، أن يعيد النظر فى موقفه وموقعه من خلال ما حدث. إن تحديد مسئوليتنا عما حدث ليس كافيا بقدر ما هو لازم تحديد دورنا فيما يحدث. علينا أن نبادر بطرح أسئلة قديمة، تحتاج إلى اجتهادات جديدة. ومن ذلك:

أولا: أين نحن تحديداً مما جرى ويجرى؟

ثانيا: ما المقاييس التى نقيس بها ما هو نحن، وما نساهم به، وما ننجزه؟

ثالثا: ما القضايا التى تشغلنا، وهل هى من اختيارنا أساسا؟ أم أننا ننساق وراء ما لم نختَر؟

رابعا: ما ترتيب أولويات هذه القضايا؟

لا يمكن فى مداخلة محدودة المساحة، أن نجد إجابات وافية على أى من هذه الأسئلة حتى بإجمال مختزل. إذا سألت مسئولاً هذه الأسئلة التى تبدو له بدهية لا معنى لطرحها أصلا، قد ينبرى مشكورا بإجابات حاسمة واعدة متفائلة مجاملة. بل إن الأصعب والأخطر أنك لو قارنت إجابات هذا المسئول عن نفس الأسئلة قبل وبعد ما حدث مؤخرا فى العراق ثم فى مجلس الأمن، فإنك سوف تتلقى نفس الإجابات دون أن تهتز فيه شعرة. الأغرب من ذلك (الذى لم يعد غريباً) هو أنك لو طرحت نفس الأسئلة على مثل هذا المسئول أو ذاك فى العهود السابقة مع اختلاف نظام الحكم والحكام، فسوف تجد نفس الإجابات.

هذه هى أولى علامات الخطر. إننا لا نتغير!!

مسئولونا يجيبون جداً، بسرعة، وسلاسة، وبنفس تعبير الوجه، قبل ٥٦ مثل بعدها، وقبل ٦٧ مثل بعدها، وقبل ٧٣ مثل بعدها، وقبل ٢٠٠١ مثل بعده، وقبل ٢٠٠٣ مثل الآن. (مع اختلاف التسميات، وأسماء الأشخاص). إذن ماذا؟

موجز إجابات هؤلاء المسئولين على اختلاف العصور يمكن إيجازها فى: «أننا ‹كُوَيِّســون› فى جميع الأحوال، وأنها مهما تفاقمت، فإنها تقترب من الانفراج، وأن التقرير العالمى الفلانى أقر بأننا على الخط الصحيح للتصحيح، وأن التعليم وصل إلى القدوة الحسنة، وأن البحث العلمى فى أروع مراحله بأمارة أن الدكتور زويل أخذ نوبل، وأن إبداعنا الأدبى وصل إلى أعلى مستوياته بدليل نجيب محفوظ، وأن عنق الزجاجة لم يعد عنق زجاجة، بل أصبح «بطن بقرة».

قضايا زائفة، ولاهية

إن ضياع الوقت فى محاولة معرفة أين صدام، وماذا عن الصحاف، وهل حدثت خيانة، وهل تم اختراق، وهل يتولى الأمر الولايات المتحدة أم الأمم المتحدة، إن ضياع الوقت فيما نُستدرج إليه هكذا، هو أولى علامات أننا لم نتعلم بالقدر الكافى. إن أول ما ينبغى تعلمه هو ألا نستدرج إلى مناطق لا تعنينا، إلى قضايا لم نختَرها، لم نحدد أولوياتها. بعد ما حدث، علينا أن نعيد النظر فى كل قضايانا مهما بلغت قدسيتها أو تصورنا إغلاق ملفها. علينا قبل أن نُستدرج إلى الخوض فى تفاصيل فرعية لأى قضية مهما بدت عاجلة وملحة، أن نتوقف لننظر فى الأساس، فى رأس الموضوع وحقيقة اختيارنا له قبل الاستدراج لما تحته: هل هى قضيتنا نحن أم أنها مفروضة علينا من واقع الشيوع والتقليد؟ بل ينبغى أحيانا أن نتراجع خطوة سابقة لنتساءل قبلا: هل هى قضية أصلا؟

إن ثمة قضايا كثيرة تلقى فى وعينا فندور فيها وحولها مع أنها - لو أمعنا النظر - ليست قضايا أصلا. قضايا أخرى تستغرقنا جملة وتفصيلا مع أنه قد انتهى عمرها الافتراضى، قضايا ثالثة

هى مُسَربة إلينا لتشغلنا عن قضايا أساسية أهم، قضايا رابعة انتهت بموت أحد أطراف النزاع، قضايا خامسة وظيفتها اللعب فى الهوامش بعيدا عن المتن لكسب الوقت. وهكذا كثير.

باجتهاد متواضع رحت أنظر - بصفة عامة - فى القضايا المطروحة على وعينا والمستنفدة لوقتنا وطاقاتنا، والتى لم تتغير لا هى ولا ترتيب أولوياتها قبل وبعد ما حدث. تبينت أن أول ما علينا عمله لنتجنب الإلهاء والاستدراج، هو أن نبدأ بتمييز الغث من السمين، الزائف من الحقيقى، ليس فيما يتعلق بما حدث، ولكن بصفة عامة، لأن مصيبتنا عامة، برغم أن مسئوليتنا فردية وعامة معا.

تحصيل حاصل

أغلب قضايانا هى من قبيل «تحصيل الحاصل»، نضع نهايتها مسبقا قبل أن نبدأها، ومع ذلك نضيع وقتنا وجهدنا فيها ناسين أننا حسمنا نهايتها من قبل. تظهر مثل هذه القضايا فى أهم مجالين محوريين كان يمكن أن يكونا هما المغيِّران لما نحن فيه، ألا وهما: البحث العلمى، والفتاوى الدينية. إن كثيرا مما نسميه البحث العلمى هو تحصيل حاصل، نبدأ من حيث بدأوا أو انتهوا، لنكرر ما فعلوا، ونصل إلى ما أوصوا به، وقد نضيف: «عند المصريين». قضايا تحصيل الحاصل فى الفتاوى الدينية (ليست بالضرورة رسمية) هى بلا حصر. مع المبالغة: إنه لا تثار قضية دينية إلا ويكون الحكم فيها فى نهاية النهاية هو ما أفتى به السلف تحديدا. حتى قضية الحوار بين الأديان تنتهى حيث تبدأ تماما. (نبهنا البابا شنودة مخلصا صادقا أنه لا حوار بين الأديان وإنما بين المتدينين، يا ليت!! هذا أفضل من الكذب المجاملاتى). من أشهر القضايا حسنة السمعة بلا فاعلية مسألة «قبول الآخر»، إن أغلب ما يجرى تحت هذه اللافتة، هو نوع من التصالح قصير العمر (واللى فى القلب فى القلب). إن هذه القضية لا تتم بقبول للآخر بقدر ما تتم بمحاولة «فض الاشتباك». لا بأس، ولكن أليس الأولى أن تُسمى باسمها. نحن والعالم اليوم فى حاجة إلى الالتحام بالآخر المخالف لتخليق ما يخرج منا معا. مجرد فض الاشتباك يسمح باشتعال النيران من أول شرارة.

ثمة قضايا ليست تحصيل حاصل، لكنها استُهلكت حتى انتهى عمرها الافتراضى. قد تكون قد أُنهكت حتى شاخت دون حل، أو تكون قد سُويت بطريقة تلفيقية لا تحمل مقومات بقائها، أو تكون غير قابلة للحل أصلا. ومع ذلك فنحن لا نفعل شيئا إلا أن نعود إليها، أو لا نغادرها ابتداء. على حساب ما هو أولى. خذ مثلا قضية «الأصالة والمعاصرة» (أو التراث والحداثة..إلخ) لا جديد.

ثمة قضايا أخرى سقطت بالتقادم أو بموت أحد أطراف النزاع مثلما سقطت قضية الحرب الباردة بوفاة الاتحاد السوفيتى إثر حادث أليم، لكننا مازلنا نُستدرج بوعى أو بغير وعى إليها، أو إلى ما يعادلها، يبدو أننا مازلنا لا نصدق ما حدث، مازال فريق منا يواصل تطهير الجيوب من عدو مجهول على أحد الجانبين، وكأن أوروبا الشرقية مازالت شرقية، وكأن بلير مازال زعيما لحزب اشتراكى يسمى حزب العمال (تصورا).

القضايا الزائفة هى نوع آخر مما نُستدرج إليه، وهى قضايا مُبتَدعة على أساس واه، أو بغير أساس. ليس المقصود من إثارتها هو حلها، وإنما المقصود هو تبرير أمور أخرى تقع خارجها. مثال ذلك ما ظهر مؤخرا مما يسمى «صراع الحضارات»، وتحديدا: الصراع بين الإسلام والغرب. هذه قضية زائفة من أساسها، ليس لأنه لا يوجد اختلاف بين منظومة الحياة ونوعيتها على الجانبين، إن الاختلاف موجود بين الوجود الإيمانى المرتجى فى الإسلام، وبين الوجود الغربى الذى بدا أنه مكثف فى مركز التجارة العالمية. لكن أين الصراع؟ إن ابتداع قضية تسمى صراع الحضارات هو محاولة لاهثة ومتمادية لتبرير الإغارة والظلم والإبادة. واقع الحال يقول إنه لا يوجد شىء واحد يمكن أن نتفق على أنه «الإسلام» كما نزل الإسلام، كما لم يعد يوجد شىء واحد اسمه الغرب كما يشاع عنه، خاصة بعد أن أصبح وجهه الآخر هو روسيا والصين وهما فى عز الشمال والشرق. الغرب نفسه أصبح أكثر من غرب. هناك الغرب فرنسا، والغرب أمريكا، والغرب السويد بل فى داخل أمريكا نفسها لم يعد الغرب واحدا، هناك غرب لاكوف وغرب تشومسكى. كما أن هناك غرب دبليو بوش، وغرب تشينى، ثم غرب شارون، وغرب بيريز، وغرب اليونان، وحتى غرب تركيا!!

نفس الحكاية بالنسبة للإسلام: إسلام جارودى غير إسلام الشيخ الشعراوى، وإسلام مالكولم إكس غير إسلام القرضاوى، وإسلام إيران غير إسلام المغرب، وإسلام ابن عربى غير إسلام ابن رشد. فأين القضية؟ ومن هم المتصارعون؟

هناك أيضا قضايا خادعة مغلوطة إذا نظرت فى عمقها قبل أن تُستدرج إليها تلاشت تحت الفحص، إذ سوف تكتشف أنه لا فرق بين الجانبين. خذ مثلا بن لادن ضد بن باز، واحد يمثل الأصولية الراديكالية، والآخر يمثل الأصولية الرسمية، ولا فرق إلا فى الوسيلة. لا فرق بين صدام، ودبليو بوش، فى عمق إلغاء الآخر، واختراق القانون وقتل الأبرياء بلا محاكمة، ولا فرق بين الاثنين وبين شارون. فأين القضية؟



نذكر أيضا احتمال خدعة المواجهة بين الصين والولايات المتحدة. لو أنك نظرت أعمق (مع الاعتذار للدكتور أنور عبد الملك وأمله فى طريق الحرير، وعلاقة كونفوشيوس بالإسلام!!)، ثم تأملت الصفقات المعلنة والخفية بين أمريكا والصين، وكذلك نموذج التنمية والحياة الكمية عند كلٍ، فسرعان ما ستتبين أنهما واحد، وليسا على طرفى نقيض.

كذلك علينا أن ننتبه إلى التوحد الظاهر والخفى بين روسيا والولايات المتحدة، خصوصا فى مواجهة الشيشان على ناحية، والقاعدة والفلسطينيين على الناحية الأخرى.

ثمة قضايا مؤقتة مائعة (خادعة أيضا)، مثل تصور المستضعفين لفترة مشرقة آملة أثناء حدة الأزمة أن أوروبا تستطيع أن تختلف مع أمريكا حتى المواجهة، لكن المتتبع للاستسلام اللاحق للكارثة لابد أن يتبين أنه كان اختلافا أقرب إلى عتاب الشركاء منه إلى اختلاف مواقف وجودية جوهرية يمكن أن تحفز جدلاً حقيقيا.

نوع آخر، ليس أخيرا، ما زلنا نُستدرج إليه، وندور حوله مثل المسرنمين. السائرين نياما. ثم لا نفيق إلا بعد انتهاء الوقت الأصلى لدورنا فى الحياة، مع أننا لم نُدرج حتى فى قائمة الاحتياطى. إنها القضايا التى يمكن أن تسمى قضايا الإلهاء، وهى تتم إما بالإزاحة، أو بالتهميش، أو بالإغراق فى التفاصيل التى ليس لها نهاية. إن المتابع لمناورات التفاوض منذ هدنة ١٩٤٨ وحتى خارطة الطريق، يمكن أن يدرك كم قضية أثيرت للإلهاء عن الأصل، وعن المتن، وعن الحق، وعن العدل. كل المفاوضات تقريبا كان هدفها الأول والأخير، كسب الوقت لا حل القضية، كل المفاوضات تقريبا لم تخرج عن أحد هذه الألاعيب الثلاثة (الإزاحة، والتهميش، والتفاصيل التى لا تقدم ولا تؤخر).

هناك ألاعيب أخرى، نقع فيها بمحض غبائنا، فنتلهى عن أصل المواجهة، وذلك حين تلقى إلينا مصيدة إحياء النعرات التعصبية بظاهرها الدينى. انظر كيف وضعوا، فوضعنا، الدين اليهودى (وليس شارون)، فى مقابل الدين الإسلامى (وليس حماس)، وكأن الخلاف على أى الفريقين يدخل الجنة وأيهما يدخل النار. ثم يمتد الإغراء بالتعصب فنجد أنفسنا فى قضية أخرى على مستوى أوسع حين يصدرون دين الإسلام (لا المسلمين) فى مواجهة الأصولية المسيحية الجديدة فى أمريكا. وهى تتلو أساطير الأولين.

هذه قضايا تشعل النار بسهولة، مع أنها قديمة قدم التاريخ، إن إحياءها سرا أو علانية، صراحة أو من وراء ستار. هو أيضا من قبيل الإلهاء.

عند الأزمات المفاجئة، أو الكاشفة، تقفز مثل هذه القضايا الفرعية أو القديمة، كنوع من التسكين للتأجيل إلى ما لا نهاية. إن إثارة مثل هذه القضايا يعيد إحياء القضايا القديمة لنتلهى بالماضى عن مواجهة الحاضر وصناعة المستقبل. بعد هزيمة ١٩٦٧ ظهر شعار يقول إن «الرجوع إلى الدين» هو الحل. المتابع مؤخرا لخطاب كلٍ من صدام ودبليو بوش أثناء حدة المواجهة (ولو لأيام قليلة) لا يخفى عليه المحتوى الدينى للخطاب على الجانبين، ليس فقط بالحديث عن محور الشر فى ناحية، وعن الجهاد

والاستشهاد فى الناحية الأخرى، ولكن فى كثير مما ظهر فى السطور، وأكثر فيما غاب بين السطور.

«نهاية» و«بداية»

ما علاقة كل ذلك بما آل إليه أمرنا بعد حرب العراق، وتوقيع العالم - ممثلا فى مجلس الأمن - على الأمر الواقع (قرار ١٤٨٣)؟ إذا كنا حقًا نريد أن نتحمل مسئولية المواجهة، علينا أن نبدأ بأنفسنا(ولو فرادى)، فى كل مجال، بما يلى، كما يلى:

أولاً: تحمل مسئولية ما حدث، بدلاً من إلقاء اللوم.

ثانياً: إعادة النظر فى واقعنا حالاً بمقاييس أخرى.

ثالثًا: تحديد مبدئى لموقفنا مما يمثله كل من صدام وبوش معا (باعتبارهما وجهين لنفس العملة).

رابعا: تحديد حجم ثروتنا الحقيقية: عمق الوعى ومساحته، مضروب فى حجم الوقت وحركيته، مضروب فى طريقة الأداء (والأدوات). هذه ليست مسائل نظرية.

خامسا: قياس هذه الثروة مقارنة بواقع الناتج اليومى، نوعا وكمًا، لتحديد الفاقد الفعلى لوجودنا البشرى.

سادسا: تجنب القضايا الزائفة لمواجهة قضايانا الحقيقية.

سابعا: تحديد أولويات هذه القضايا الحقيقية.

ثامنا: إشراك كل الناس عبر العالم فيما هو مشترك.

تاسعا: الاستعداد لتحمل مزيد من الهزائم والتعلم منها.

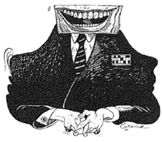
كيف السبيل إلى تحقيق بعض ذلك، أو البدء فى مثل ذلك. لا يكفى أن نعدد الأسباب أو نفسر الأحداث أو نرصد السلبيات أو نتبادل الآراء. الأمر أصبح أخطر من كل ذلك.

أولى بنا أن نتوقف عن الكلام والتفسير والتبرير إذا لم يكن لدينا إلا تكرار ما سبق أن قررناه بحسن نية أو بمثالية عاجزة. أولى بنا أن نعلن أننا قبلنا أن نتبع الأقوى جملة وتفصيلا، من أن ندعى أن «الإسلام هو الحل»، ثم لا نفعل شيئا إلا أن نمارس نفس قيمهم التنموية، ونسعى نفس السعى إلى مجتمع الرفاهية، سواء فى الحياة الدنيا أم فى الآخرة. ولا ننتبه إلى أن النموذج الذى يطرحه هذا الشعار قد يكون هو هو نموذج التنمية الكمية دون اختلاف لما نرفضه إلا فى اتجاه القبلة وشكل الصلاة.

إذا كنا نختلف فلنختلف، ونعمق، وننجح. وإذا كنا نتفق، فلنجتهد، ونتبع، ونتقن. وفى الحالين لن يتكرر ما حدث. أما أن نظل فى موقفنا، نكرر أننا لا نتبع، ونحن لا نفعل شيئا إلا أن نتبع تحت لافتة أخرى، فنحن لا نفعل شيئا إلا أن نبرر لهم ما فعلوه، وما سوف يفعلونه.

القضايا الحقيقية

القضايا الحقيقية ليست ثابتة ولا منغلقة، إنها قضايا تتجدد من واقع إعادة التقييم على أرض الواقع المتغير، حتى لو حملت نفس الاسم. لا بد من إعادة التقييم. ليس من فوق المكاتب أو بالنظر فى الأرقام دون الشارع وداخل البيوت. الجديد أيضا فى تناول قضايا قديمة هو أن المشاركة فيها لم تعد مقصورة على مكان جغرافى بعينه. إن الناس الآن قد انتبهت إلى خطر مشترك. هذا هو الذى سوف يخلق شبكة من الناس تتكاتف وهى تشعر بخطر تهديد البقاء بأسلحة الدمار من قادة الدمار العميان الأقوى. إن هذا الوعى المشترك بالخوف من الفناء هو الذى يمكن أن يدفع الناس من واقع الفعل اليومى إلى العمل على درء هذا الخطر للحفاظ على النوع، مثلما يتكاتف النمل لجر قالب السكر إلى مخزن البيات الشتوى، أو حتى مثل هجرة الطيور معا سعيا إلى التلاؤم مع احتمال الانتحار الجماعى.



وثيقتان

حتى لا يكون الكلام نظرياً تماماً، أشير، بكل الاحترام، إلى وثيقتين اعتبرتهما مدخلين لما أريد توصيله. وقد كتبتا قبل ما حدث، وقيل فى إحداهما أنها تنبأت بما حدث جداً، وقيل فى الأخرى أنها لم ينتبه إليها أحد برغم بالغ خطورتها. لن أتناول أيًا منهما بالنقد أو التعليق بالتفصيل، فقط سوف أورد بعض إشارات يمكن أن تكون المنطلق للمنهج الذى أريد التنبيه إليه.

الوثيقة الأولى: كتاب أصدره وزير التعليم، وهو مسئول كبير فى موقع التنفيذ، باسم «مفترق الطرق». وهو كتاب حظى بتقريظ معظم (إن لم يكن كل) الذين علقوا عليه، وقد وقفت من الكتاب موقفا حذرًا حتى قبل أن أقرأه لعدة أسباب، منها أننى أعرف كاتبه طبيبا حاذقا، وأستاذا جامعيا مرموقا، ولا أعرفه بالقدر الكافى وزيرا أو سياسيا، ومنها أننى قرأت كتابه السابق ولم أجد فيه جديداً، ومنها أن الكاتب فى موقع التنفيذ، ومنها أننى فى ممارستى مهنتى طبيبًا نفسيًا، وأستاذًا جامعيًا، أتابع مستوى التعليم (الرسمى خاصة) وقد وصل إلى أدنى مراتبه، سواء من الناحية الخلقية (الغش الفردى والجماعى)، أو من الناحية الإبداعية (التسميع والانغلاق داخل النص المقرر) أو من الناحية المنهجية (العجز عن الإتقان والسطحية والتقريب وفساد اللغة وغياب الحبكة). ثم قرأت الكتاب والأرقام، والاستشهادات بالشعر، والتفكير الآمل، ولم أغير رأيى. بل زدت حزنًا وتوقعًا للكوارث، خاصة بعد تصريح لاحق للمؤلف منذ أيام يقول فيه إن التعليم عندنا أصبح قدوة للبلاد من حولنا، وأن قيم الحرية والديمقراطية تمارس وتدرس فى كل المراحل باستقلال كامل دون توجيه من أمريكا..إلخ.

الوثيقة الثانية هى التقرير الذى قدمه الدكتور جودت الملط رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات إلى مجلس الشعب حول ملاحظات الجهاز عن الحسابات الختامية للسنة المالية ٢٠٠٠ - ٢٠٠١. فى هذه الوثيقة ملاحظات «رسمية» اقتصادية شديدة الخطورة، خلاصتها أن البنية الأساسية الاقتصادية، حتى منذ سنتين (فما بالك الآن)، قد وصلت إلى درجة منذرة لا تفسر أى مبرر لاستبدال حجارة رصيف لم تتآكل حجارته، أو إعادة تأثيث مكتب مسئول ما. الأخطر من كل ذلك أن هذا التقرير لم ينل أى عناية لا من السلطة التشريعية، ولا من وسائل الإعلام، ولا من الشارع من أصحاب المصلحة الذين يدفعون ثمن ما جاء فيه، وثمن ما يترتب عليه، وثمن إغفاله.

قدرت بينى وبين نفسى، وقد أكون مخطئًا، أن عدم التعلم من هاتين الوثيقتين لا يقل عن عدم التعلم من كارثة/كاشفة العراق، ثم قدرت، وأنا أكثر ألمًا أنه لو حدث أن دخلنا امتحانًا مثل هذا الامتحان العراقى، فسوف يظهر مغزى عدم التعلم من الوثيقتين بما يفسر ما سوف يجرى، لا قدر الله، دون حاجة لاتهامنا بامتلاك أسلحة الدمار الشامل.

بعض القضايا الجوهرية، لإعـــادة النـــظـــر:

(١) قضية التعليم

انطلاقا من الملاحظات العابرة على «مفترق الطرق» الذى لا ننفى عن كاتبه الفاضل حسن النية ووفرة الحماس، نقول: إن التعليم هو المدخل الأول لأى تغيير. حتى الإعلام بجبروته وإغارته، لا يمكن التوقى من أضراره أو مواجهته بما ينبغى إلا من خلال التعليم الصحيح. لكن علينا ألا ننخدع فى مجرد التكرار. المطلوب هو التوقف الموضوعى المسئول عند كل ما يبدو بديهيًا، أو ما يلوح لنا آملين.

خذ مثلا محو الأمية: إنها تتيح لمن يقرأ ويكتب أن يحصل على معلومات مرئية بدلا من اقتصاره على المعلومات السطحية، ثم إنها تتيح له التعبير عما يريد، وإعادة تشكيل ما وصل إليه، بشكل مكتوب، يمكن للآخر أن يصله حتى لو لم يلق صاحبه أو يسمعه.

لكى نقيم قيمة «محو الأمية» فى الحيلولة دون كارثة مثل كارثة العراق، علينا أن نسأل أنفسنا عن تعريف «الأمية» وجدوى محوها من حيث مدى إفادة من تخلص منها فى تحقيق الهدف من تعلمه القراءة والكتابة. هل تعلم طالب الجامعة (المفروض أنه انمحت أميته) كيف يقرأ صحيفة يومية قراءة ناقدة؟ هل نفعه هذا المحو فى قراءة صفحة من كتاب «مفترق الطرق»، مثلا: الجدول (٣) ص ٢١٨ بعنوان «العلماء والمهندسين فى البحث والتنمية»، (لاحظ: المهندسين، لا: المهندسون!) بحيث أتاحت له القراءة المرة تلو المرة أن يتساءل عما يجمع العلماء مع المهندسين تحديدا، ومن هو العالم فى البحث والتنمية؟ وماذا يعمل المهندس فى البحث والتنمية؟ وهل المهندس يعتبر عالمًا أم حرفيًا؟ ولماذا لم يرتب الجدول الأرقام ترتيبًا تنازليًا أو تصاعديًا أو يرتب الدول أبجديًا؟ إذا لم يتساءل القارئ العادى (ناهيك عن الناقد الأريب) مثل هذه التساؤلات حول جدول عابر فى كتاب لمسئول كبير، فما فائدة أنه تعلم القراءة والكتابة؟

بنفس القياس: إذا لم يستفد القارئ من قراءة تقرير الدكتور الملط (الجهاز

المركزى للمحاسبات) المرة تلو المرة. فما فائدة تعلمه القراءة والكتابة؟

هذا عن محو الأمية. فإذا انتقلنا إلى أعلى الهرم لننظر فى ما آل إليه حال ما يسمى شهادة درجة الدكتوراه، فكل أمين متابع لبعض ذلك يمكن أن يعرف مدى الانفصال الذى تم بين هذه الدرجة الأكاديمية الأعلى وبين التطبيق المفيد لمجتمع الحاصل عليها من جهة أخرى.

ثم إذا نظرنا فى الخلفية المشتركة لكل من محو الأمية والحصول على درجة الدكتوراه فيما يتعلق بأمرين: الإتقان، والأخلاق. إذن لوجدنا أن القاعدة فى محو الأمية (تعلم القراءة والكتابة) هى عدم الإتقان، وعلى من لا يصدق أن يقوم بعمل بحث من واقع أوراق إجابة طلبة كلية الآداب أو الحقوق أو غيرهما ليرى عدد التاءات المفتوحة المفروض أن تكون مربوطة وبالعكس. ثم يتساءل: هل هؤلاء هم الذين سوف يتخرجون مدرسين أو أساتذة أو قضاة؟ وهل امَّحت أميتهم أصلا. الإتقان فى أبحاث الدكتوراه أصيب فى مقتل خاصة بعد إسهام ما يسمى بالبحث عبر الإنترنت فى الاختزال، والتسطيح، والتلفيق، والكذب جميعا.

أما ما آلت إليه الأخلاق باعتبارها البنية الأساسية التى ينبنى عليها التعليم والبحث العلمى، فالقاعدة أصبحت هى الغش الفردى والجماعى، بالطول وبالعرض. لم يعد يجرى أى امتحان (تقريبا) إلا على خلفية من الغش المباح من السنة الثانية الابتدائية حتى درجة الدكتوراه. صرت حين أحاول أن أقيم درجة ذكاء بعض مرضاى من خلال تحصيلهم الدراسى لا أكتفى بالسؤال عن تقديرهم المئوى فى هذه الشهادات العامة (دع جانبًا سنوات النقل) بل لا بد أن ألحق ذلك بسؤال إضافى يستفسر عن ظروف أداء الامتحان فى هذه الشهادة أو تلك «..إن كان بغش أو دون غش». الغريب فى الأمر أن الطالب، أو أهله لا يستغربون السؤال. بل إنهم يصلون إلى درجة من «الأمانة» تجعلهم يجيبون بصدق أن ذلك كان «..بغش طبعا»، وبعضهم يبتسم قائلا «..ما سيادتك عارف». وقد أطلب من بعض الحاصلين على الإعدادية أن يقرأ صحيفة يتصادف وجودها على مكتبى، فلا يستطيع قراءة العناوين الكبيرة، وقد أطلب من حاصل على الابتدائية أن يكتب اسمه فلا يستطيع. (راجع بعض ما جاء فى كتاب مفترق الطرق عن روعة ما وصل إليه حال التعليم من إحاطة وإيجابية وكمبيوترية، وإبداع!!).

على القارئ أن ينظر فى بعض ذلك، ويربطه بأحداث العراق، وما يمكن أن يصيبنا مثله حين يشتعل الحريق من «مستصغر الشرر».

(٢) قضية الحرية

يبدو أنه لم تُقدس كلمة فى تاريخ البشرية مثلما قدست كلمة الحرية. كلمة أخرى كادت تكتسب نفس القدسية، هى «الديمقراطية» لنفس الأسباب، مع أنها ليست مرادفة للحرية، برغم كل ذلك، فنحن- عبر العالم- أبعد ما نكون عن الحرية، حتى فى تجليها السياسى فيما هو «ديمقراطية».

كل الاستطلاعات، والتصريحات، والهجوم، والدفاع، والقتل، والسحل، والإذلال، تم ويتم تحت نفس اللافتة «الديمقراطية». التهمة الأولى فى جرائم صدام هى أنه انتهك الديمقراطية، والتجاوز الأكبر الذى قامت به أمريكا وهى تضرب برأى أغلبية مجلس الأمن، وأغلبية مظاهرات الشوارع عرض الحائط هو ضربُ الديمقراطية فى الصميم.



عندنا: ما إن انتهت الإغارة الكارثة حتى راح كل الناس، والصحف، والمثقفون خاصة، يتبارون فى إثبات أن غياب الديمقراطية هو المسئول عن كل ما حدث.

كل هذا يحتاج مراجعة متأنية. علينا أولا: ألا نتصور أن الديمقراطية هى المرادف للحرية، وثانيا: ألا نجعل نقدنا لما يسمى الديمقراطية يساوى رفضنا لها، وثالثا: ألا يدفعنا يقيننا من أنه ليس ثم بديل لها إلى التسليم لها بلا شروط، وبلا وعى، وبلا مراجعة، وبلا نقد. ورابعا: أننا إذا فضلناها بحق، فعلينا أن نستعد لتحمل نتائجها مهما كانت، وأول من يستعد لذلك هو من نادى بها وألح فى النداء باعتبارها الحل الأوحد.

إن ترديد شعار «الديمقراطية هى الحل» دون قبول كل التحفظات والشروط السابقة، يصبح أشبه بترديد شعار أن «الإسلام هو الحل» دون تفصيل كاف يشير إلى «حل ماذا»، و «كيف».

إذا كنا نريد أن نتعلم مما حدث، علينا ألا نغامر بفتح ملف الحرية، وليس فقط الديمقراطية، وأن نسعى جاهدين إلى إبداع ما يتجاوز تقديس ما كان سببا فى إذلالنا سواء بالاستعمال الزائف من صدام أم بالتسويق المغشوش.

(٣) قضية المنهج واللغة:

قضية المنهج ليست قضية أكاديمية بحتة، ولا هى منفصلة عن قضية التعليم أو الحرية. لا توجد معرفة بدون منهج، ولا تستمر حياة بدون منهج. حتى قبول الحياة بدون منهج هو منهج فى ذاته. إن طرح قضية المنهج فى هذه اللحظة لا يعنى الدعوة إلى اتباع منهج محدد، أو تفضيل منهج على منهج، وإنما هو للتذكرة بأن المنطق البسيط، والمنطق العام هو منهج فى ذاته، وأننا نفتقر إلى هذا المنطق بشكل لا جدال فيه.

لابد- خاصة بعد ما حدث- أن نعود إلى النظر فى منهج كل شىء، وأن نقيس جدوى أى منهج ليس بمدى رضاهم عنه، أو شيوع موضوعيته (المحددة بمقاييسهم) ولكن بحقيقة جدواه لنا الآن وبعد. إن مجرد إحياء المنطق البسيط، والحرص على تنويع المناهج، وتعلم حسن قراءتها، يمكن أن يعرفنا كيف كتب تقرير الدكتور الملط، وكيف نقرأه.

أما قضية اللغة فهى أكبر من أن تحتويها هذه المداخلة فى هذا الحيز. اللغة العربية بوجه خاص هى التاريخ الحى لحضارة العرب، ليس فحسب لثراء ألفاظها ووفرة معانيها، وإنما بحركيتها ومرونتها وقدرتها على الإبداع. لا يمكن أن تكون هذه اللغة قد تخلقت حتى صارت بكل هذا الحضور من قوم لا ينتمون إليها. العرب الذين أنتجوا العربية حتى تجلت بصورتها الحالية هم أقدر الناس على إعادة إنتاج حياتهم من واقع الآن مهما كان مظلما أو مرا. ليس مطلوبا التغنى بجمال اللغة العربية أو الغوص للعثور على لآلئها، وإنما المطلوب والمأمول هو أن تجمعنا هذه اللغة مسئوليةً. لا فخرا، وإبداعا لا تفسيرا.

حتى اللهجات العامية، المفروض أن نحترمها لنتعلم الاختلاف ثم نلتقى فى رحاب الفصحى دون استهانة بغيرها.

لن يجمع العرب إلا لغتهم واقتصادهم وإبداعهم، قبل أسلحتهم وخطبهم وجامعتهم، اللغة منهج حياة، ونبض وجود بقدر ما هى أداة تواصل. إن ما لحق بلغتنا العربية ولهجاتنا العامية هو أخطر دليل على مسئوليتنا عن ما وصلنا إليه من هشاشة وتراجع عما نحن عليه. إن لم نستطع أن ندافع عن لغتنا، الكيان، الأصل، فلن نستطيع أن ندافع عن أرضنا ولا عن كرامتنا مهما امتلكنا من أسلحة أو بترول أو أموال.

ضع شعباً فى السلاسل، جرِّدهم من ملابسهم سِد أفواههم، لكنهم مازالوا أحراراً.

خذ منهم أعمالهم، وجوازات سفرهم والموائد التى يأكلون عليها والأسرة التى ينامون عليها لكنهم مازالوا أغنياء.

إن الشعب يفتقر ويُستعبد عندما يُسلب اللسان الذى تركه له الأجداد يضيع إذاً للأبد: (الشاعر الصقلى إجنازيو بوتيتا من قصيدة لغة وحوار اقتطاف عبد السلام المسدى)

(٤) قضية الدين والإبداع والتدين

العودة إلى الدين هى حقيقة جارية عبر العالم، من أول قراءة معنى اندفاع الناس للكنائس بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، حتى انتشار الحجاب عندنا، مروراً بالحركة الأصولية الإنجيلية فى الولايات المتحدة. بل إنه حين لا تفى الأديان التقليدية فى صورتها الكلاسيكية الثابتة بمتطلبات هذه العودة تُخترع ملل صغيرة جديدة هنا وهناك، بنبى يقول بهبوط وحى ما عليه، أو حتى دون ذلك.

الدراسات البيولوجية التطورية الأحدث لا ترى الدين اختراعاً اخترعه الإنسان ليسد به حاجته (كما يزعم فرويد)، بل هى تتناول التدين والإيمان والله سبحانه وتعالى كحقائق بيولوجية كونية تجلت عبر تطور الأحياء حتى وصلت إلى الإنسان فى صورتها الراهنة. إن ذلك لا يُرجع الأديان للطبيعة، ولكنه يؤكد غور الحقائق الأزلية التى جاءت بها الأديان لتعمق إنسانية الإنسان وتطلق إبداعه.

إن إنكار هذه الحقيقة الكونية الإلهية كشرط أساسى ليكون البشر بشراً قد ترتبت عليه مصائب متنوعة تترجح من الضياع الفردى إلى الانهيار الاقتصادى والحربى. يتم هذا الإنكار بطرق مختلفة: إما بنفى صريح مثلما حدث فى أوج ازدهار الشيوعية حين اعتبر الدين مخدرا للشعوب، وقاموا بتدريس الإلحاد فى المدارس للوقاية من أى تخدير، وإما بتزييف حقيقة الإيمان بقشور دينية بواسطة سلطة كهنوتية لصالح السلطة السياسية، أو الطبقة الثرية، وإما باختزال

الدين إلى جزء منه دون كلية حضوره، وإما بابتداع أديان مستحدثة تحل محل الحقيقة الأصلية المنغرسة فى الوجود، وإما بالجمود عند تفسيرات لفظية ساكنة، وإما بحشر ما تصوروه الدين فى قالب لم يصنع له أصلا تحت مزاعم التفسير العلمى للنصوص الإلهية.

لاحظنا أثناء حدة الأزمة وقبلها، وتبريرا لها، وضدها، أن نبرة الخطاب الدينى قد ارتفعت من الجانبين، وهما واحد، لكنها ارتفعت لتستعمل الدين لا لتطلق عنان إبداعاته.

إذا كان لنا أن نتعلم من ذلك، فلندرك أولا أن كل التسطيح والتزييف والاختزال الذى لحق بالدين الحقيقى لم ينجح أن يملأ وعى الناس. إن علينا فتح هذا الملف من واقع ما تجلى لنا فى هذا المشهد الكارثى الأخير بأسلوب آخر لهدف آخر. إفهم -على الجانبين - استعملوا الدين تبريرا للقتل، والتدمير، والانتحار. علينا نحن أن نتحمل مسئولية إحياء الدين والإيمان بالإبداع الحقيقى، إذا كنا نحترم جذور المسألة حقا، ونسعى لنتعلم من المعنى الجذرى للكارثة.

إن جارودى دخل إلى الإسلام من باب الإبداع سعيا إلى تجاوز القيم التى يمثلها الغرب المغترب، وهو يصر على فتح باب الاجتهاد والجدل بين المتدينين حتى لا يكون الحوار فى النهاية من قبيل «فض الاشتباك» كما ذكرنا، أو كما وصف هو الحوار بين الإسلام المغلق، والمسيحية المغلقة بأنه «حوار بين مريضين». إن إسلام جارودى يذكرنا بضرورة النهل من ابن عربى والسهروردى والفارابى أكثر من الاقتصار على ما سجننا فيه الغرب من بعض ابن رشد باعتبار أنها بضاعتهم ردت إليهم، لا أكثر.

هذه قضية تحتاج إلى أن نستلهم جذورها وحقيقة أبعادها ليس من السلطات الوصية، وليس من التاريخ اللاهوتى وتجميد النص لا استلهامه، ولكن من واقع الممارسة على طيف متسع من الإبداع إلى الإيمان ملتزمين. إن عجزنا عن الإنصات للممارسات المتنوعة، وكذلك عن الوفاء بمواكبة طبيعة هذا الأصل الممتدة جذوره إلى ما قبل التاريخ، المفتوحة نهايته إلى الغيب، لن يترتب على ذلك إلا اختزال أى دين إلى ما ليس هو، وبالتالى استعماله فى كل أنواع الدمار والتدمير والقهر ضد الإبداع. وهذا بعض ما حدث.

إذا أحسنا الإنصات لما جرى، وأردنا أن نتعلم، فلا مفر من أن نفتح هذا الملف من مدخله الصحيح، وأن نحسن قراءته بحقيقته، وليس بمنظومة من خارجه، أو وصاية تراثية أو سلطوية؟ إن إغفال هذه القضية أو تهميشها أو تسليمها لغير أهلها سوف يؤدى إلى مثل ما جرى وأكثر.

(٥) عن الإعلام، والمعلومات، والعلم، والثقافة، والتنوير

هل كل هذا قضية واحدة؟

نعم، من المنطلق الذى أرادته هذه المداخلة. إن الذى يجمع هذه المجموعة فى قضية واحدة هو أنها جميعا تمثل إنجازات عصرية لها فاعلية يومية رائعة متلاحقة وملاحقة، كذلك فإنها جميعا تشترك فى أنها تُستعمل من باب التباهى بالتقدم بحيث إن من يتصف بها يعتبر معاصرا، أو عصريا، أو متمدنا، أو متحضرا، ثم إن علاقتها بآلياتها التكنولوجية الأحدث، وثيقة بحيث يصعب فصلهما.

الأمل الحقيقى بالنسبة لدور الإعلام الجديد هو أن تتزايد فرص الإعلام خارج السلطات، أى الإعلام المتجاوز للدول والمال، لا بد أن نحرص على الترويج لحق كل الناس فى التواصل بشبكة عالمية تنقل إنذارات الفناء، وتنظم سبل المواجهة. هذا بعض ما ينبغى أن نستثمره مما تعلمناه أثناء الأزمة وبعدها.

أما بالنسبة لمسألة المعلومات فإن ماجرى لا بد أن ينبهنا إلى خطورة التسليم لـ، أو الفرحة بـ «كمِّ المعلومات» دون التدريب على مسئولية انتقائها وإعادة تشكيلها. إن تواصل عدد أكبر فأكبر من البشر مع بعضهم البعض بعيدا عن السلطات الوصية يمكن أن يسهم فى تنمية الجوانب الإيجابية المتجادلة بالمعلومات على حساب الممارسات السلبية المتلقية للمعلومات. وهو هو الذى يمكن أن ينقذ الجنس البشرى من الانخداع بكم المعلومات على حساب انتقاء الدال منها «معا».

أما عن تقديس العلم، الذى نتباهى به بأقل قدر من المسئولية، فهو دليل على جهل أخطر. العلم كيان متغير مفتوح النهاية لا يحتمل أن يختزل إلى صنم ثابت قابل للعبادة، لاحظنا فى الكارثة الأخيرة أن ما سمَى علما قد استُعمل بشكل سهّل مهمة التكنولوجيا لتوصف القنابل القاتلة بالذكاء مرّة، وبالإبداع مرة، وبالقدرات الخارقة مرات. إن إعادة النظر فى استعمالات معطيات العلم والتكنولوجيا لصالح البشر أم ضدهم لا يكفى بعدما حدث. لا بد أن تمتد المراجعة إلى الانتباه إلى خطورة اختزال المعرفة إلى العلم، وأيضا إلى خطورة تقديس العلم وجعله وصيًا على منظومات أخرى موازية، أقدم، وربما أكثر فائدة. بعدما حدث، علينا أن نقيم موقفنا من العلم ليس فقط من حيث إننا نقدسه حتى نمسخه إلى ما ليس هو، ولكن من حيث إننا لا نعرفه ولا نمارسه غالبا(ومع ذلك نقدسه). إن الناظر الأمين إلى ما يجرى فى مجال البحث العلمى عندنا لا بد أن ينتبه إلى أن كثيرا من ذلك لا يمت إلى البحث بصلة، بل لا يمت إلى العلم بصلة.

إعادة النظر فى هذه الجزئية من هذه القضية يحتاج منا إلى دراسة جدوى الأموال والوقت والعقول التى تستهلك



فى هذا المجال، وأن نكف عن المقارنات مع الأعداء (إسرائيل بالذات) بالأعداد، وبراءات الاختراع، وما ينشر من أبحاث بشكل كمّى إجمالى ننتهى منه إلى الشعور بالنقص الذى لا يترتب عليه إلا مزيد من التقديس دون الفعل، ومزيد من التسطيح دون فائدة تطبيقية حقيقية. إذا كان لنا أن نتعلم مما حدث، فعلينا أن نضع العلم فى موقعه النسبى بين وسائل المعرفة الأخرى التى يمكن أن نتميز بها أكثر (من حيث إن الدين، والإيمان، والحس الكلى، والوعى الشعبى، والتراث الشعبى، والفن والتجربة اليومية كلها مصادر موازية ومتكاملة مع العلم لتحقيق المعرفة). لعل فى ذلك نقطة انطلاق إلى ما يميزنا. ولو على مستوى يبدو بدائيًا أو كليًا أو خبراتيًا، لكنه نوعى ضرورى قد يؤدى إلى أهداف أخرى إذا كنا جادين فى البحث عن فروق دالة بيننا وبينهم.

أما عما يسمى بالثقافة (بمعنى النشاط الثقافى، وليس بمعنى شبكية الوعى الجماعى) والنشاط التنويرى، فإنه يسرى عليه من حيث التحفظات والحرص على عدم التقديس بعض ما سبقت الإشارة إليه فى فقرة العلم مع اختلاف المحتوى والشكل. إن دور المثقف (والتنويرى) لا بد أن يعاد النظر فيه بعد ما كان، حتى لا يصبح عبئا على تطور ناسنا فى اتجاه ما هُم، وما تعد به طبيعتهم. إن لم يتغير دور المثقف بعد ما حدث ليحمل مسئولية مباشرة فى الإسهام فى التصحيح والإبداع، فنحن لم نستفد شيئا.

إننا أحوج ما نكون فى كل هذه القضايا إلى أن نعيد النظر فى دور المثقف المكتبى لحساب المثقف المبدع الملتحم بالناس المخترق للمشاكل (خصوصا المشاكل المستحيلة، أو التى تبدو بلا حل) خذ مثلا قضية الديمقراطية، نحن فى حاجة إلى ديمقراطية أخرى حتى لا يكون البديل هو الشمولية. خذ قضية الدين والإبداع والإيمان، لا أقول إننا فى حاجة إلى دين جديد، ولكننا فى حاجة إلى إبداع يوصل الأديان ببعضها البعض فى توجه ضام، وهو ما كان على مدى تاريخنا كله، بين الأزهر «المصرى» والكنيسة «الوطنية» لا يبعدهما عن بعضهما البعض بما أسميته فض الاشتباك، ولا يعمق تفضيل بعضهما على بعض. من الذى يستطيع أن يغامر بفعل ذلك إلا مثقف مسئول بالمعنى الإبداعى، وليس بالمعنى الموسوعى أو الشكلى من أعلى.

خلاصة هذه الفقرة هى التنبيه على ضرورة إعادة النظر فى خدعة تصور حذق الشكل دون حقيقة الجدوى وصواب التوجه. يمكن أن يوصف بعضنا بأنه مبدع لمجرد حصوله على جائزة أو أن نصًا له قد تمت ترجمته إلى لغة قوم أرقى منا وأسبق. كل هذا على العين والرأس، ولكن بغير أن نتجاوز الفرحة بالمظهر إلى الإسهام فى جوهر قضايانا الملحة فإننا نسهل لهم مهمة استعمالنا طوعا أو كرها. ومن ثمّ تكرار ما حدث.

(٦) قضية الحروب التقليدية

تبدو هذه القضية أقل شمولا من القضايا السابقة، لكنها أكثر ارتباطا بما حدث بشكل يكاد يكون مباشرا. هذه الكارثة التى سميت حربا قد حسمت أمر نتيجة الحرب التقليدية لصالح القوى العمياء المدمرة شمولا. بل إنها جعلت هذه القوى أكثر غرورا وبجاحة. إن ما حدث، خصوصا بعد أن اكتسب نوعا من الشرعية بأثر رجعى (قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣)، يجعل حسابات الحرب والسلام تنتقل من حسابات قوة محلية مقابل قوة محلية (كذا طائرة وكذا دبابة مقابل كذا طائرة ودبابة عند العدو) إلى حسابات تربيطات عالمية، وتجاوزات إجرامية محتملة. أتصور أن النتيجة الحقيقية المباشرة التى ينبغى أن نتوقعها (إذا ما أحسنا قراءة ما حدث)، أن علينا

أن نعيد تسليح أنفسنا للدفاع بشكل مختلف. لم يعد ثَم مبرر أن تخصص البلاد العربية ثلث أو نصف دخلها، لشراء أسلحة تقليدية لن تستعملها إلا بإذن البائع ومشورته (بشكل ما). ما دام البائع قد كشف وجهه هكذا حتى أصبحت تربيطاته وصفقاته ظاهرة للعيان، فإنه لن يسمح لنا أن نستعمل أسلحته ضد حلفائه وشركائه، بل إنه سوف يتدخل بنفسه لحسم المعركة لحساب حليفه متى تجاوزنا شروطه المعلنة أو الخفية. إنه حتى لم يعد بحاجة إلى مبرر.

ليس معنى ذلك أن نسرّح جيوشنا، أو نستغنى عن أسلحتنا قبل أن تصدأ. إن تراجع دور الحرب التقليدية يمكن أن يترتب عليه نتيجتان: إحداهما سلبية، مثلما حدث من تدمير وضحايا فى الرياض والمغرب بعد كارثة العراق مباشرة، بمعنى أنه مادام القانون قد نُحى جانبا، والغدر وارد، والأبرياء ليس لهم اعتبار من جانب الأقوى، والحرب التقليدية أصبحت محسومة قبل أن تبدأ، فلا سبيل للمواجهة إلا بما أسموه الإرهاب الذى يمكن أن يعتبر حربا غير تقليدية بشكل أو بآخر.

الجانب الإيجابى للمسألة قد يأتى حين يدفعنا إدراكنا لضمور دور الحرب التقليدية إلى البدء فورا، وبمنتهى الجدية، فى الاستعداد الدائم لحرب المقاومة المستمرة سنين، وعقودا، وحتى نهاية العالم. هذا لا يتطلب فقط اقتناء أسلحة خفيفة، والتدريب على كل أنواع المقاومة من أول الدفاع الذاتى حتى القنص المحسوب حتى الاستشهاد المستمر، وإنما يحتاج سيكولوجيًا إلى تنمية نوع جديد من الشعور بالكرامة، وعلاقة جديدة بالموت والحياة، وثقة جديدة بالتطور وحتم النصر، ونوع جديد من الثقة فى الزمن والقدرة على تأجيل الحصول على نتيجة سريعة حاسمة. هذا الموقف الذى ينبغى أن يصبح جزءا لا يتجزأ من التعليم والإبداع والتدين والإيمان لا بد أن يغير نوع الحياة من أساسها، هو موقف معلن لا تتبناه جماعات سرية، وإنما يمكن أن يصبح أسلوب الدفاع عن الوطن بشكل واضح ومعروف مسبقا للعدو. وعليه بدوره - لو بلغه مدى جدية الناس عبر العالم فى هذا الصدد - ألا يفرح بنصر مبدئى. لأنه سوف يتيقن أن الملايين الفلانية، فى الأرض العلانية، قد تدربوا من سن ١٦ إلى خمسين (مثلا) على أن يتصرفوا بشكل تلقائى (ربما يصل إلى درجة الانعكاس البقائى) بمجرد أن يطأ أرضهم محتل ما، حتى لو استولى هذا المحتل على ما يشاء من أرض وسلطة خلال ٢٤ ساعة. إنه بفضل هذا الدفاع الجاهز القادر على الاستمرار أربع وعشرين شهرا فأربع وعشرين عاما فمائة فألف..سوف تختلف الحسابات. هذه ليست دعوى أن تنقلب الحكومات الأضعف أعضاء فى نادى الإرهاب، إن حرب الاستنزاف التى تلت هزيمة ١٩٦٧ هى النموذج الباكر لهذه الدعوة، كما أن أغلب المقاومة الباسلة فى فلسطين يمكن أن تكون كذلك.

العائد من هذا التحول لن يقتصر على كسب الحرب على المدى الطويل، بل إنه جدير أن ينقذ اقتصاد كثير من دولنا، وفى نفس الوقت سوف يغير نموذج حياتنا إذ سوف نعيش حالة استنفار لا تتوقف، وأيضا قد ينمى قدراتنا الإبداعية لاختراع أساليب جديدة للمقاومة لا تخطر على بال.

(٧) قضية البنية الأساسية والاقتصاد

أعلم جيدا أنه ما كان ينبغى أن أؤجل هذه القضية حتى تأتى فى النهاية هكذا. كيف يمكن أن نتناول أى قضية مما اعتبرناه قضايا حقيقية وجوهرية دون أن نوفر الحد الأدنى للناس من مسكن ومواصلات وعمل؟ لكن علينا أيضا أن نتذكر أن الاكتفاء بتوفير الضرورة لا يعنى تلقائيا الانتقال إلى ما هو حرية. إن التوقف عند ترديد أن كل سلبياتنا (بل والسلبيات عبر التاريخ) لا بد أن تكون نتيجة مباشرة (أو غير مباشرة) للافتقار إلى الاحتياجات الأساسية، أو سوء التوزيع، أو للاستغلال والاستعمال، هو قول حق لا جدال حوله، أما أن يكون هو كل الحق، فهذا ما جعلنى أضع هذه القضية فى النهاية دون الإقلال من أهميتها.

فى هذا الصدد ثمة أمور خطيرة ينبغى أن تقدم عليها الحكومات من أول سحب الأموال من بنوكهم حتى حتم الاكتفاء الذاتى ثم التبادل من موقع القوة.

ثمة أمور أخطر تنتظر الناس - إذا تيقنوا من ثمن الكرامة والحرية - أمور تتعلق بتغيير نمط الاستهلاك، وعلاقات الإنتاج مما لا مجال لتفصيله هنا الآن وبعد

لا أتصور أننى قلت شيئا جديدا أصلا، وفى نفس الوقت أعتقد أن كل ما قلته جديد.

الأرجح عندى أن هذه الجِدة التى تصورتُها فى هذا التناول لا تأتى من ظهور فكرة كانت غائبة عنى أو عن غيرى، لكن الفكرة إذا اقتربت من الوعى حتى لم تعد فكرة، فإنها تصبح شيئا آخر، لا أملك توضيحه أكثر.

ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد. ■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

لم يكن الزعيم الوطنى مصطفى كامل رجل سياسة وخطابة ونضال فقط، بل كان كاتبًا وصحفيًا ومثقفًا من طراز نادر. وقد استخدم مصطفى كامل كل وسائل النضال من أجل تحقيق هدفه الأثير وهو خروج البريطانيين من مصر. نشر مصطفى كامل مقالاته فى صحف عديدة أهمها «المؤيد» التى كانت وثيقة الصلة بالخديو عباس الثانى. لكنها أبدت نوعًا من الفتور فى نشر بعض مقالاته بعد فتور علاقاته مع الخديو. وقد نجح مصطفى كامل فى إصدار جريدة اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠. وبصدور اللواء دخل نضال الزعيم الوطنى منعطفًا خطيرًا حيث انتقل مصطفى كامل من كاتب وخطيب وطنى إلى زعيم حزب سياسى هو الحزب الوطنى فقد خرج الحزب الوطنى فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ من عباءة صحيفة اللواء.

وقد هدف مصطفى كامل من مقالاته إلى بث الروح الوطنية فى الشعب المصرى وعرض لتاريخ الأمم الناهضة والمكافحة وعمل على تربية الأمة المصرية تربية سياسية وقومية سليمة وتبنى فكرة إنشاء الجامعة وتناول قضايا اجتماعية عديدة، كالصرف على الملذات أو صرف الأموال فى الخارج فى المصايف والرحلات السياسية وتحرير المرأة وإن كان له رأى مختلف عن قاسم أمين الداعى لذلك.

وقد قام فريق من الباحثين المصريين تحت إشراف الدكتور يواقيم رزق مرقس بجمع هذه المقالات ونشرها على أجزاء من خلال مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر. ويتناول هذا الجزء المقالات المنشورة فى الفترة من ١٩٠٠ حتى ١٩٠٤.



مستقبل النظام العربى

تمهيد:

■ مثل العدوان الأمريكى الأخير على العراق والذى انتهى باحتلاله عسكرياً كارثة حقيقية للنظام العربى تهدد بقاءه فعلاً لا قولاً. لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يواجه النظام العربى فيها تحدياً جسيماً ومخاطر فادحة، غير أنها دون شك، كما سيحاول التحليل التالى أن يثبت، تمثل أخطر أزمة تعرض لها النظام العربى منذ نشأته الرسمية فى ١٩٤٥، ولذلك فإن إمعان النظر مطلوب فى الأزمة الراهنة، غير أنه مطلوب بالدرجة نفسها فى دلالات الخبرة الماضية لهذا النظام فى مواجهته للأزمات الخطيرة التى تعرض لها، فمن تلك الدلالات ومن إدخال متغيرات الحاضر عليها نستطيع أن نجرى محاولة لاستشراف المستقبل. وسوف يعرض التحليل التالى أولاً لخبرة النظام العربى فى مواجهة أخطر أزماته الماضية، ثم يتوقف ثانياً عند الأزمة الراهنة للنظام، والتى انتهت بالعدوان العسكرى الأمريكى على العراق فاحتلاله، ذلك أن أداء النظام فى مواجهة هذه الأزمة سوف يكشف عن دلالات مهمة بالنسبة للمستقبل وأخيراً ينتهى التحليل بمحاولة للتفكير فى سيناريوهات المستقبل.

أولاً. النظام العربى وخبرة الأزمات الماضية:

عندما وقعت كارثة احتلال العراق كان من الطبيعى أن يغمر إحباط هائل كل من هو عربى، وأن ينتشر الاعتقاد بأن الضياع والمستقبل كلمتان تحملان المعنى ذاته فى السياق العربى. لا يفكر الناس العاديون فى مثل هذه اللحظات فى الماضى ودلالات خبرته، ولا هم مطالبون أصلاً بذلك، غير أن واجب المتخصصين يتجاوز بالتأكيد منطق لطم الخدود وشق الجيوب وتوزيع الاتهامات واستمطار اللعنات إلى محاولة الفهم واستخلاص الدروس ومن ثم توجيه المستقبل.

لم يكن احتلال العراق هو الأزمة الأولى التى واجهها النظام العربى، ذلك أن سجله حافل بأزمات بعضها بالغ الخطورة، ومن الواضح أنه. أى النظام العربى. قد تمكن من الخروج من تلك الأزمات بشكل أو بآخر على نحو ما سنرى، ولذلك فإن تذكيراً سريعاً بها وبآليات تجاوزها سوف يكون شديد الدلالة بالنسبة للحاضر والمستقبل. وقد يكون ممكناً الاتفاق على أن أخطر الأزمات التى واجهها النظام العربى منذ نشأته الرسمية فى ١٩٤٥ يتمثل فى هزيمة ١٩٤٨ فى الحرب العربية . الإسرائيلية الأولى وآثارها عليه، والشىء نفسه بالنسبة لهزيمة ١٩٦٧، ثم الانقسام المصرى . العربى حول نهج التعامل مع إسرائيل اعتباراً من زيارة السادات للقدس فى ١٩٧٧ ووصولاً إلى توقيع أول معاهدة سلام إسرائيلية . عربية فى ١٩٧٩، وأخيراً تداعيات الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠.

ليست هذه بطبيعة الحال هى كل الأزمات الخطيرة التى واجهها النظام العربى منذ نشأته، ولكن الادعاء ممكن بأنها تمثل أخطرها. ويمكن التذكير على سبيل المثال بأزمتين أخريين أولاهما الأزمة التى ترتبت على الانفصال السورى عن الجمهورية العربية المتحدة فى سبتمبر ١٩٦١ وما ترتبت عليها لاحقاً من تداعيات على النظام العربى عادة والجامعة العربية خاصة، حين وصلت الأمور إلى انسحاب مصر (الجمهورية العربية المتحدة فى ذلك الوقت) من اجتماعات المجلس الوزارى لجامعة الدول العربية المنعقد فى شتورا فى أغسطس ١٩٦٢ بسبب الاتهامات السورية الموجهة لمصر بأنها تتدخل فى شئونها الداخلية، وكذلك بأزمة الصدام بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية فى سبتمبر ١٩٧٠.

وقد يعطى هذا السجل الحافل بالأزمات انطباعاً بأن النظام العربى مأزوم منذ نشأته بحيث يمكن الاستنتاج بأن ما وصل إليه حاله الآن أمر طبيعى، غير أن إمعان النظر فى تطور النظام العربى لا يعزز هذا الانطباع، وقد يكون من الأدق القول بأن النظام العربى كان دوماً معرضاً للهجوم من خارجه فضلاً عن عوامل ضعفه البنيوية الذاتية، ومع ذلك فقد تمكن دائماً من تطوير آليات بشكل أو بآخر للتعامل مع كافة الأزمات التى مثلت تهديداً له بدرجة أو بأخرى، بحيث تمكن من اجتيازها وإن على نحو يستحق التوقف والتحليل.

فى أعقاب هزيمة ١٩٤٨ على سبيل المثال يلفت النظر أن النظام العربى الرسمى حاول أن يصلح من شأنه فتوصل إلى اتفاقية الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى فى ١٩٥٠، وقد أتت هذه المعاهدة بآلية معقولة للحفاظ على الأمن القومى العربى بالنص فى مادتها السادسة على تكوين مجلس للدفاع المشترك من وزراء الخارجية والدفاع الوطنى للدول المتعاقدة أو من ينوبون عنهم، وما يقرره هذا المجلس بأكثرية ثلثى الدول الأعضاء يكون ملزماً لجميع الدول المتعاقدة، عكس الحال فى ميثاق جامعة الدول العربية الذى تتمثل معضلته لدى الكثيرين فى أن قراراته المتخذة بالأغلبية لا تلزم سوى من يوافق عليها، وقد أمكن الاستناد إلى هذه الاتفاقية لدعم حركة النظام لاحقاً فى مواجهة إسرائيل فى قمتى ١٩٦٤ فى القاهرة والإسكندرية على سبيل المثال، وهما القمتان اللتان انعقدتا لمواجهة التهديدات الإسرائيلية لمياه نهر الأردن، غير أنه لا يخفى أن ثمة مواقف أخرى كثيرة لم يمكن فيها وضع هذه الاتفاقية موضع التنفيذ أو حتى التصرف وفقاً لجوهرها وروحها كما يشى بذلك أداء النظام العربى فى مواجهة الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠ على سبيل المثال.

وعندما وقعت هزيمة ١٩٦٧ كانت تداعياتها النفسية شديدة الوطأة ربما لأنها جاءت . على عكس هزيمة ١٩٤٨ . فى ذروة مشروع نهضوى عربى متكامل، وساد الانطباع حينئذ بأن كل شىء قد انهار ومع ذلك فلم تمض سوى أيام حتى بدأت عملية إعادة البناء العسكرى ومقاومة الاحتلال الإسرائيلى فى مصر، غير أن الأهم من منظور النظام العربى أن قمة الخرطوم قد انعقدت فى أغسطس ١٩٦٧

أحمد يوسف أحمد

بعد أكثر قليلاً من شهرين على وقوع الهزيمة، وتوصلت إلى ما يمكن القطع بأنه معادلة سليمة للأمن القومي العربي وظلت هذه المعادلة فاعلة حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣. تمثلت المعادلة في التمييز بين التناقضات الرئيسية وتلك الثانوية من منظور أمن النظام العربي في ذلك الوقت كانت آثار الحرب الأهلية في اليمن ماتزال متمثلة عربيًا في استقطاب مصري. سعودي حاد، وهنا توصلت القمة إلى إنهاء ذلك الاستقطاب بما مكن من تصفية بؤرة التناقض الثانوي في النظام بين مصر والسعودية كي يمكن له مواجهة التناقض الرئيسي المتمثل في الاحتلال الإسرائيلي لأراض عربية.

ينقلنا هذا إلى أزمة العلاقات المصرية. العربية في أعقاب زيارة القدس التي سبقت الإشارة إليها، وفي هذه الأزمة علقت عضوية مصر في جامعة الدول العربية وكافة المنظمات المتخصصة المرتبطة بها، ونقلت مقارها الموجودة في القاهرة، وقطعت كافة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والدول العربية عدا ثلاث رفضت الالتزام بقرارات قمة بغداد ١٩٧٨ هي عمان والصومال وجيبوتي، ومع ذلك فلم تكد تمضي شهور على تلك الأزمة الطاحنة حتى بدأ يتضح أن عوامل التمسك في النظام العربي قد أخذت تؤتي أكلها.

كانت الحرب العراقية. الإيرانية قد نشبت اعتباراً من سبتمبر ١٩٨٠ أي بعد حوالي سنة ونصف سنة من التطورات السابقة، وفي إطار تلك الحرب كان لدى العراق برنامج تسليحي ضخم بالإضافة إلى حاجته لقطع غيار ما هو موجود لديه من الأسلحة، وكذلك للذخائر، وفي ذلك الوقت رفض الاتحاد السوفيتي تزويده بما يحتاجه على أساس تقييمه الإيجابي للثورة الإيرانية ودورها في تصفية النفوذ الأمريكي في إيران، وربما راودته الآمال حينذاك في أن يتمكن حزب توده الشيوعي من تثبيت أقدامه في إيران في هذا السياق، أو كان يتمنى على الأقل أن ينجح الدور الإيراني المعادي للولايات المتحدة في الانتشار خارج حدود إيران. هنا برز دور مصر كمصدر بديل لتزويد العراق ببعض أنواع الأسلحة وقطع الغيار والذخائر التي يحتاجها في إشارة، وإن غير مباشرة، إلى مفهوم الأمن القومي العربي، بمعنى أن العراق الذي قاد حملة مقاطعة مصر لسياستها تجاه إسرائيل بات يدرك أن ثمة حاجة لمؤازرتها له إزاء الخطر الإيراني، ولذلك طرق الباب المصري في ظل حكم السادات للعمل على تلبية هذه الحاجة، وهو ما فعله الرئيس السادات بما غرس بذور عودة الالتحام للصف العربي من جديد منذ عام ١٩٨١.

ثم مثل غزو العراق للكويت أزمة غير مسبوقة في النظام العربي ذلك أنها كانت المرة الأولى التي تغزو فيها دولة عربية دولة عربية أخرى ولتحقها بها. كان قد سبق للنظام العربي أن شهد مطالبات إقليمية من دول عربية تجاه أخرى، وشهد كذلك مصادمات حدودية عسكرية بين دول عربية اتسع نطاق بعضها، لكنها كانت المرة الأولى التي يشهد فيها غزواً كاملاً وإلحاقاً إكراهياً من دولة عربية لأخرى. من ناحية أخرى كان نموذج الصراعات الكبرى بين وحدات النظام قبل الغزو العراقي للكويت يشير إلى أن تلك الصراعات مثلت بأحد المعايير وجهاً آخر من وجوه التماسك والوحدة، فقد كان معظمها يشير إلى حالة توحد للنظام في مواجهة دولة بعينها خارجة عن مألوف سلوك النظام. هكذا كان نموذج الخلاف بين الأردن وباقي الدول العربية حين ضم الأمير عبد الله الضفة الغربية الفلسطينية لنهر الأردن إلى إمارته في ١٩٥٠، ونموذج الخلاف بين العراق وباقي الدول العربية بمناسبة انخراط الأول في مشروع حلف بغداد عام ١٩٥٥، وكذلك نموذج الخلاف بين العراق أيضاً وباقي الدول العربية عندما طالب رئيس وزرائه عبد الكريم قاسم في ١٩٦١ بعودة الكويت. التي كانت تتأهب لاستكمال مقومات الدولة بعد خلاصها من التبعية لبريطانيا. إلى حضن الأم العراقية، ونموذج الخلاف بين الأردن وباقي الدول العربية بمناسبة الصدام بين السلطات الأردنية والمقاومة الفلسطينية في ١٩٧٠، ونموذج الخلاف بين السادات وباقي الدول العربية حين قام بزيارته الشهيرة إلى القدس وما ترتب عليها من تداعيات. أما في حالة غزو العراق للكويت فقد انقسم النظام العربي إلى قسمين متساويين تقريباً على النحو الذي أظهره سلوك الدول العربية تجاه واقعة الغزو وتداعياتها، وهو ما بدا واضحاً في السلوك التصويتي لتلك الدول في قمة القاهرة في أغسطس ١٩٩٠. لم يكن الخلاف بطبيعة الحال يدور صراحة حول الموافقة على غزو الكويت من عدمه، ولكنه كان متعلقاً بكيفية مواجهة تداعيات هذا الغزو بين من يرون بأن مواجهة هذه التداعيات ممكنة في إطار النظام العربي، وهم الذين صنفوا باعتبارهم أنصاراً لصدام حسين، وأولئك الذين اعتقدوا بأن إنهاء الغزو غير ممكن إلا عن طريق الاستعانة بقوات دولية، وهم الذين صنفوا مؤيدين لدولة الكويت. هكذا تبلور معسكران متضادان بمناسبة تلك الأزمة أحدهما يتكون من دول مجلس التعاون الخليجي الست بالإضافة إلى مصر وسوريا وإلى حد ما المغرب والثاني تدخل فيه باقي الدول العربية بدرجة أو بأخرى حيث إنه كان منطوياً على درجة من درجات التمايز في المواقف.

النظام العربي كان دوماً معرضاً للهجوم من خارجه فضلاً عن عوامل ضعفه البنيوية الذاتية، ومع ذلك فقد تمكن دائماً من تطوير آليات بشكل أو بآخر للتعامل مع كافة الأزمات التي مثلت تهديداً له بدرجة أو بأخرى، بحيث تمكن من اجتيازها

في الواقع العملي رجحت كفة المعسكر المناصر للكويت كما هو معلوم، فانتزع قراراً بالأغلبية من قمة القاهرة بالموافقة على الإجراءات التي اتخذتها دولة الكويت والمملكة العربية السعودية لحماية أمنيهما، أي بعبارة أخرى على الاستعانة بقوات أجنبية لإخراج القوات العراقية من الكويت ومنعها من الامتداد خارجها، وهكذا لم يتكون التحالف الدولي الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية استناداً إلى شرعية قرارات مجلس الأمن فحسب، ولكنه تمتع أيضاً بشكل أو بآخر بشرعية عربية وإن مجروحة، ومثل ذلك دون شك خرقاً ثانياً فاضحاً في مفهوم الأمن القومي العربي بعد الخرق الأول الذي مثلته واقعة الغزو ذاتها: بعبارة أخرى انقلبت معادلة الأمن القومي العربي رأساً على عقب: كان مصدر التهديد عربياً وآلية الحماية دولية.

في تلك الأثناء روج البعض لمفهوم نهاية النظام العربي، بل لقد راح فريق آخر يتساءل عما إذا كان مثل هذا النظام قد وجد في أي وقت من الأوقات، لكن الأمر اللافت أن تداعيات الأزمة على الرغم من فداحتها أخذت في التلاشي تدريجياً وإن بوتيرة بطيئة. في البداية حدثت مصالحات بين الأطراف غير المباشرين في معسكري الأزمة، أي بين من صنفوا أنصاراً للكويت ومن كيفت مواقفهم باعتبارهم أعداء لها، فقد كان طبيعياً أن تتوتر العلاقات بين حلفاء الكويت وخصومها (حالة مصر واليمن على سبيل المثال)، وبعد أن تم تجاوز التداعيات على هذا المستوى بدأت تصفية آثار الأزمة على مستوى علاقة العراق بأنصار الكويت كسوريا أو مصر وعلاقة الكويت بأنصار العراق كالأردن واليمن من ناحية أخرى، ثم بدأت بعد ذلك مواجهة جوهر المشكلة العراقية. الكويتية. صحيح أن ذلك قد تأخر لعدة سنوات، لكنه كان تأخيراً مفهوماً بالنظر إلى فداحة واقعة

الغزو. هكذا تعطلت القمم العربية منذ أغسطس ١٩٩٠ وحتى يونيو ١٩٩٦. وعندما عقدت قمة فى ذلك التاريخ فى القاهرة لمواجهة تداعيات وصول اليمين الإسرائيلى إلى الحكم بزعامة بنيامين نتانياهو رأى الداعون لتلك القمة أن حضور العراق لها قد تكون له تداعيات سلبية على مداولاتها، ولذلك لم يدع لها أصلاً، غير أنه دعى فى قمة الأقصى التى انعقدت فى القاهرة فى أكتوبر ٢٠٠٠، وإن لم تناقش المسألة العراقية لإتاحة الفرصة للتركيز على الهدف الأصلى للقمة المتمثل فى دعم الانتفاضة، غير أن محاولة جادة جرت بعد ذلك لإنجاز خطوة نوعية فى طريق المصالحة العراقية. الكويتية فى قمة عمان الدورية الأولى فى مارس ٢٠٠١، وإن لم تتوصل إلى غايتها، وقيل فى حينه أن تشدداً عراقياً قد عوق نجاح تلك المحاولة.

وفى مطلع ٢٠٠٢ قام الأمين العام لجامعة الدول العربية بزيارة إلى العراق وأعلن فى نهاية زيارته أن الرئيس العراقى حمله أفكاراً معينة إلى القادة العرب بشأن النزاع بين العراق والكويت، وعندما عقدت قمة بيروت فى مارس ٢٠٠٢ توصلت إلى أساس حقيقى لمصالحة عراقية. كويتية بإعلان نائب الرئيس العراقى أن بغداد قد تعهدت خطياً بعدم تكرار اجتياح الكويت واحترام سيادتها ووحدة أراضيها، فضلاً عن توصل القمة لعدد من القرارات المحددة بخصوص تصفية القضايا العالقة بين البلدين.

غير أن ذلك الإنجاز المهم الذى تمكنت قمة بيروت من تحقيقه أخذ فى التآكل تدريجياً مع تصاعد النبرة العدوانية الأمريكية إزاء العراق، وكان واضحاً من البداية أن الإدارة الأمريكية لم تكن مستريحة لتلك الخطوة التى تحققت، وأنها تعمل على تخريبها، وفى هذا الإطار شهد الأسبوع الثانى من شهر يونيو ٢٠٠٢ جولة لوزير الدفاع الأمريكى فى دول الخليج كشف فيها بوضوح عن نواياه التخريبية إزاء المصالحة العراقية. الكويتية، فوصف فى تصريحات علنية دولة الكويت بأنها «دجاجة» متعجباً كيف تبيت الدجاجة فى حضن الأسد؟ وبمرور الوقت واتضاح الإصرار الأمريكى على العدوان على العراق، وتمركز القوة الأمريكية البرية الضاربة فى أراضى الكويت ذهب إنجاز المصالحة العراقية. الكويتية أدراج الرياح. صحيح أن الاحتلال العسكرى الأمريكى للعراق بدا وكأنه فتح صفحة جديدة تماماً فى العلاقات العراقية. الكويتية لكنها للأسف لم تمثل إضافة لتماسك النظام العربى وإنما أكدت واقع الهيمنة الأمريكية على المنطقة.

لم يكن التحليل السابق لبعض من كبريات الأزمات التى واجهها النظام العربى سوى وسيلة للتأكيد على أن ما يواجهه النظام العربى الآن من أزمة طاحنة تهدد بقاءه ليس بجديد، وأن ثمة قوى موضوعية داخل النظام العربى كان بمقدورها دائماً أن تدفع فى اتجاه إعادة التماسك والالتحام إلى صفوف النظام، ومن الضرورى أن نستخلص الدروس من الكيفية التى خرج بها النظام من أزماته السابقة، وفى هذا الإطار يمكن تسجيل الملاحظتين الرئيسيتين التاليتين:

مثل غزو العراق للكويت أزمة غير مسبوقة فى النظام العربى ذلك أنها كانت المرة الأولى التى تغزو فيها دولة عربية دولة عربية أخرى سبق للنظام العربى أن شهد مطالبات من دول عربية تجاه أخرى، لكنها كانت المرة الأولى التى يشهد فيها غزواً كاملاً وإلحاقاً إكراهياً من دولة عربية لأخرى

تشير الملاحظة الأولى إلى أن النظام العربى قد تجاوز أزماته السابقة بنوعين من الآليات: الأول آليات تغيير والثانى آليات إصلاح. ومن اللافت أن السبق الزمنى كان لآليات التغيير لتتوقف بعد ذلك وتحل محلها آليات الإصلاح التى يبدو وكأن قدراتها قد أخذت فى التآكل بدورها عبر الزمن مع بروز متغيرات داخلية (عربية) وخارجية (عالمية) جديدة، وسنعود إلى هذه النقطة لاحقاً لكننا نكتفى الآن بقدر من التفصيل عن آليات تجاوز النظام العربى لأزماته.

فى الأزمة التى وجد النظام العربى فيها نفسه فى أعقاب هزيمة ١٩٤٨ جرب النظام فى البداية كما سبقت الإشارة آليات الإصلاح (تقوية النظام العربى باتفاقية الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى) لكن ضآلة الآثار التى ترتبت على هذا الإنجاز أفسحت الطريق تاريخياً لقوى التغيير داخل النظام والتى تزعمتها مصر بالمشروع التحررى القومى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكان لآلية التغيير هذه إنجازاتها الواضحة على نحو ما سبقت الإشارة إليه. ويمكن أن نشير أيضاً إلى أن الأزمة التى واجهها النظام بانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى ١٩٦١، والاستقطاب الحاد الذى نشأ بين سوريا ومصر فى أعقاب نجاح الانفصال وتداعياته على الجامعة العربية قد انتهت بآليات تغيير أيضاً بقيام الثورة فى شمال اليمن فى ١٩٦٢ ثم فى جنوبه لاحقاً فى ١٩٦٣ وصعود الدور المصرى فى النظام العربى من جديد، أو بسقوط النظام الانفصالى فى سوريا فى ١٩٦٣ بما أعاد الشرعية إلى ذلك الدور.

أما أزمة ما بعد هزيمة ١٩٦٧ فقد اتخذ تجاوزها طابعاً إصلاحياً بمعنى أن عوامل التضامن بين وحدات النظام بغض النظر عن التناقضات فيما بينها قد تمكنت من إيجاد معادلة سليمة لمواجهة تداعيات الهزيمة فى إشارة واضحة إلى وحدة النظام فى مواجهة الخطر الخارجى، وحدثت الآلية الإصلاحية نفسها بالنسبة لأزمة العلاقات المصرية. العربية اعتباراً من ١٩٧٧ وحتى ١٩٨٧. فقد وضعت قمة عمان ١٩٨٧ على نحو ما رأينا أساساً لعودة العلاقات المصرية. العربية الثنائية، ثم أكملت قمة الدار البيضاء ١٩٨٩ خطى المصالحة العربية. المصرية بحضور مصر للقمة وعودتها إلى مكانها الطبيعى فى منظومة العمل العربى المشترك. ومن المهم للغاية فى هذا السياق أن نلاحظ أن قوى التغيير فى النظام العربى فى ذلك الوقت حاولت أن تتجاوز أزمة النظام بآليات تغيير سواء بتكوين جبهة الصمود والتصدى من الدول العربية المتشددة فى رفضها للمسلك المصرى إزاء إسرائيل فى حينه، أو بوضع أساس لوحدة سورية. عراقية فى أكتوبر ١٩٧٨، لكن المحاولة باءت بالفشل بتفكك الجبهة وانهيار مشروع الوحدة السورية. العراقية بعد شهور قلائل.

ومن الواضح أيضاً أن الخطوات التى تمت على طريق تجاوز تداعيات الغزو العراقى للكويت ذات طابع إصلاحى، بمعنى أنها انطوت على محاولة لاتفاق وحدات النظام ككل على حلول للأزمة فى إطار الوضع الراهن.

أما الملاحظة الثانية فتتمثل فى أن تجاوز النظام العربى لأزماته لم يكن يعنى دائماً الانتقال إلى حالة من القدرة على الفعل والتأثير، وإنما تفاوتت قدرة النظام فى هذا الصدد، ومن المهم محاولة معرفة الظروف التى تجاوز فيها النظام العربى أزماته منتقلاً إلى حالة من حالات الفعل، وتلك التى تجاوز فيها الأزمة وكفى.

فى الأزمة التى أعقبت هزيمة ١٩٤٨ تمكنت قوى التغيير كما سبقت الإشارة من أن يكون لها فعل مؤثر ترتب عليه إنجاز بعض الخطوات المهمة داخل النظام من جانب وفى مواجهة خصومه الخارجيين من جانب آخر، ويبدو هذا واضحاً بصفة خاصة فى إنجاز تصفية الاستعمار الأوروبى فى الوطن العربى، ويلاحظ بطبيعة الحال أن القدرة على الفعل لم تكن مطلقة، فقد بقى الاستعمار الصهيونى لفلسطين كما أن قوى التغيير لم تتمكن من حماية الوحدة المصرية. السورية، وهكذا.

فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ أيضاً تمكنت الصيغة السليمة التى وضعتها قمة الخرطوم من أن تنجز فعلاً مؤثراً فى ساحة المواجهة مع إسرائيل تمثل فى حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣، غير أنه من الأهمية بمكان أن تجاوز النظام لأزمة العلاقات المصرية. العربية بآلية إصلاحية ما بين عامى ١٩٨٧ و١٩٨٩ قد انطوى على تقديم تنازلات عربية جوهرية فى الصراع العربى. الإسرائيلى، وإن كان قد ارتبط من ناحية أخرى بتفعيل أداء النظام فى الحرب العراقية. الإيرانية، أى أن القدرة على الفعل كانت محدودة أو ناقصة، وبالذات فى اتجاه التهديد الرئيسى للنظام النابع من الكيان الصهيونى. أما فى الحالة الأخيرة (أزمة تداعيات الغزو العراقى للكويت) فإن آليات الإصلاح لم تستطع أصلاً أن تكمل إنجاز غايتها المباشرة.

ويلاحظ أن الخروج الفاعل للنظام العربى من أزماته من عدمه قد ارتبط بشرطين أحدهما داخلى (عربى) والثانى خارجى (عالمى)، أما الشرط الداخلى فهو وجود قيادة واضحة للنظام تمثلت فى حالتى الخروج من تداعيات هزيمتى ١٩٤٨ و١٩٦٧ فى القيادة المصرية للنظام من خلال مشروع تحررى قومى، وعندما حدث انتشار أو تشتت للوظيفة القيادية داخل النظام سواء بتراجع الدور القيادى المصرى اعتباراً من السبعينيات لغياب المشروع القومى والقيادة الكاريزمية، أو لبروز قوى قيادية جديدة بعد طفرة أسعار النفط فى ١٩٧٣ وما بعدها قلت القدرة على الفعل ثم تأكلت. وأما الشرط الخارجى فيلاحظ كذلك أن الخروج الفاعل للنظام من أزماته قد تم فى إطار نظام دولى يتسم بثنائية القطبية،

وبالتالى استطاع النظام العربى الاستفادة ولو نسبياً من الصراع بين القطبين فى إتاحة هامش أوسع لحرية الحركة، وينطبق هذا على الأزمتين الأوليين اللتين تجاوزهما النظام العربى بمد تحررى قومى ضد الاستعمار الأوروبى ثم تضامن حقيقى فى مواجهة الكيان الصهيونى. أما تجاوز أزمتى العلاقات المصرية. العربية وتداعيات الغزو العراقى للكويت فقد تم فى إطار نظام دولى يتسم بوفاق حقيقى بين طرفى قمته، وذلك بعد وصول ميخائيل جورباتشوف إلى سدة الحكم فى الاتحاد السوفيتى فى ١٩٨٥. ويلاحظ أخيراً أن تجاوز أزمة تداعيات الغزو العراقى لم يكتمل على الرغم من إنجاز خطوات حقيقية فى اتجاهه، وأن ذلك قد ارتبط بانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقمة النظام العالمى.

يعنى ما سبق أن تجاوز النظام العربى لأزماته الطاحنة كان ممكناً بل وكان ممكناً فى الوقت نفسه أن يرتبط هذا التجاوز بقدرة واضحة على الفعل والتأثير، لكن ثمة شروطاً داخلية (أى عربية) وخارجية (أى دولية) لهذا التجاوز الفاعل فإلى أى مدى يمكن الاستفادة من دلالات الخبرة الماضية للكيفية التى واجه بها النظام العربى أزماته فى تحليل الأزمة الراهنة للنظام؟

ثانياً: الأزمة الراهنة للنظام بين النمطية والخصوصية:

ينصرف التحليل فى هذا الجزء إلى محاولة الإجابة عن سؤال بالغ الأهمية: هل تمثل الأزمة الراهنة التى يمر بها النظام العربى تكراراً نمطياً لأزماته الخطيرة السابقة بحيث يمكن تطبيق دروس الخبرة الماضية عليها؟ أم أنها أزمة متفردة أو على الأقل بها شىء من التفرد، الأمر الذى يفرض علينا إدخال أثر المتغيرات التى استجدت على هذه الأزمة فى التحليل؟ لاشك أولاً أن الظروف الداخلية (العربية) والخارجية (الدولية) التى ارتبطت بالأزمة الراهنة لا تمثل عودة إلى نمط الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى حين كانت هناك قيادة قادرة على بلورة اتجاه عام لحركة النظام وبنية دولية ثنائية القطبية أكثر مواتاة لحركة النظم الإقليمية مما هى عليه اليوم.

فقد وقعت هذه الأزمة فى ظل انقسام عربى بدت آثاره واضحة على أداء النظام العربى فى مواجهتها، وسواء كان هذا الانقسام يرجع إلى عوامل بنيوية عربية كرواسب تداعيات الغزو العراقى للكويت أو غياب القيادة الفاعلة للنظام، أو إلى عوامل عالمية. على نحو ما سنرى. فإنه. أى هذا الانقسام. قد مثل خروجاً واضحاً على مألوف سلوك النظام العربى إزاء التهديدات الخارجية، ذلك أن الخبرة الماضية لهذا النظام تشير إلى أن العرب قد توحدوا عادة. على الرغم من خلافاتهم أو نزاعاتهم أو صراعاتهم البينية فى وجه التهديدات الخارجية. هكذا فعلوا فى ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ فى مواجهة إسرائيل ومن تحالف معها، وهكذا فعلوا أيضاً فى ١٩٨٧ بمناسبة الحرب العراقية. الإيرانية، لكنهم فى هذه المرة أخفقوا فى التوحد إزاء التهديدات الأمريكية للعراق فالعدوان عليه، على الرغم من أن ذلك قد تم على الصعيد اللفظى على نحو ما سنرى، ويعنى ذلك أن واحداً من أهم الملامح البنيوية الأساسية الإيجابية فى النظام العربى قد تلاشى فى الأزمة الراهنة، وللأمانة فإن بدايات هذا التطور يمكن أن ترد إلى الخلاف العربى. العربى حول الاستعانة بقوات أجنبية لتحرير الكويت، لكن فكرة أن المعتدى الأصلى كان عربياً وهو العراق، وأن ثمة شرعية ما يمكن أن تُنسب لدور خارجى فى تحرير بلد عربى من غزو تعرض له خاصة فى إطار الاستناد لقرارات من مجلس الأمن غطت فى حينه على هذا الخلاف، أما الآن فقد بدا الخلاف صارخاً لأن نية العدوان كانت مبيتة وواضحة وتم وضعها موضع التنفيذ وانتهت إلى احتلال كامل للعراق، وهى أخطر نتيجة ترتبت على صدام للنظام العربى مع القوى المهيمنة فى النظام العالمى منذ نشأة ذلك النظام فى ١٩٤٥. ولذلك فإن الانقسام إزاءها يبدو مخيفاً ومنذراً بأوخم العواقب بالنسبة لمستقبل النظام.

ويمكن فى الواقع أن يرد هذا الانقسام فى المواقف العربية إلى ثلاثة عوامل، أولها عوامل عالمية ترتبط بالولايات المتحدة الأمريكية وسياستها، وثانية قطرية عربية تتعلق بهشاشة النظم العربية أمنياً وسياسياً واقتصادياً. وثالثة عربية. عربية تنبثق من الوضع الراهن للنظام العربى.

أما العوامل العالمية: فتشير إلى الوضع الراهن فى النظام العالمى الذى يتسم منذ العقد الأخير من القرن الماضى بأحادية قطبية من حيث بنية القيادة فيه الأمر الذى أعطى للولايات المتحدة الأمريكية قدرة أكبر على التأثير على مجريات السياسة العالمية مقارنة بمرحلة القطبية الثنائية، ولما كان هدف الاستراتيجية الأمريكية المعلنة فى الشئون العالمية هو إدامة هذه الهيمنة الأحادية فإن ثمة مهام مطلوبة لإنجاز هذا الهدف، ومن ضمن هذه المهام أو ربما فى القلب منها تأمين مسألة النفط بالنسبة للمصالح الأمريكية، الأمر الذى يغرى الإدارة الأمريكية بأن تفعل ما فعلت فى العراق وله ما له من مكانة عالية فى إنتاج النفط وتصديره وكذلك فى الاحتياطى الثابت منه.

ومن المؤكد أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر أياً كانت طبيعتها وحقيقة

إن النظام العربى قد تجاوز أزماته السابقة بنوعين من الآليات: الأول آليات تغيير والثانى آليات إصلاح. ومن اللافت أن السبق الزمنى كان لآليات التغيير لتتوقف بعد ذلك وتحل محلها آليات الإصلاح التى يبدو وكأن قدراتها قد أخذت فى التآكل

تأثيرها فى السياسة الأمريكية قد أعطت الإدارة الأمريكية فرصة ذهبية للمضى قدماً فى تنفيذ خططها العالمية إن لم يكن بإكراه الآخرين دون عنف، فليكن باللجوء إلى أقصى درجات العنف كما حدث بالفعل فى حالتى أفغانستان والعراق.

ويعنى ما سبق أن النظم العربية قد شهدت أولاً مدى عنف السلوك الأمريكى تجاه الدولة التى اعتبرتها الإدارة الأمريكية فى حينه الهدف الأول لاستخدام القوة وهى أفغانستان، ثم تابعت بعد ذلك. أى النظم العربية. التهديدات الأمريكية للعراق، ولم يكن لديها أدنى شك فى صدقية هذه التهديدات، بمعنى أن الإدارة الأمريكية ستلجأ إلى العنف لا محالة فى حالة إبداء العراق أى درجة من درجات التمرد، أو حتى فى غير هذه الحالة، خاصة وقد وضعت الأمور فى سياق يستحيل معه أن يجد العراق طريقاً لقبول الإملاءات الأمريكية، فقد كانت الإدارة الأمريكية تصر على أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، وإزاء عجز لجان التفتيش والتحقق الدولية المكلفة بالكشف عن هذه الأسلحة عن إثبات ذلك أصرت القيادة الأمريكية مجدداً على أنه يتعين على العراق أن يبادر بالكشف عن هذه الأسلحة التى كان يؤكد أنه لا يمتلكها.

وبالفعل وقع العدوان على العراق على النحو الذى تنبأ به الكثيرون منذ شهور عديدة سابقة على وقوعه، وبالتالى أصبحت النظم العربية واثقة من أن التهديدات الأمريكية هى من ذلك النوع ذى الصدقية الكاملة، أى الذى يكون تجاوزه لمرحلة «التخويف» مؤكداً فى حال الإخفاق فى تطويع سلوك المهدَد (بفتح الدال) وفقاً لإرادة مصدر التهديد، ولذلك فإن كلاً منها أصبح واثقاً من مصيره فيما لو أنه اعترض على السياسة الأمريكية، وكان لذلك أثره الواضح على صمت النظم العربية أثناء العدوان على العراق أو تبنيها لمواقف غير مألوفة إزاء القضايا التى أثارها العدوان عليه، بل وتطوع بعضها بمواقف تكشف عن تأييد ضمنى أو غير مباشر للسلوك الأمريكى تجاه العراق.

وأما بالنسبة للعوامل القطرية العربية فيمكن القول بأن الأقطار العربية تنقسم من حيث اعتمادها على الولايات المتحدة الأمريكية إلى ثلاث فئات: فئة أولى تعتمد عليها مباشرة فى الحفاظ على أمنها وذلك وفق اتفاقات معروفة ومعلنة، وفئة ثانية تعتمد عليها بدرجة أقل تتمثل فى الحصول على قدر من المساعدات الاقتصادية يختلف من دولة لأخرى وربما تتمثل أيضاً فى درجة من درجات الاعتماد العسكرى، وفئة ثالثة لا تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية أصلاً من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، غير أن اللافت أن الهشاشة السياسية والاقتصادية للدول الواقعة ضمن الفئتين الثانية والثالثة قد جعلت مواقفها متقاربة بمعنى أنه إذا كانت النظم الحاكمة فى الدول التى تعتمد على المساعدات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية تخشى. بحق أو بغير حق. من أن اختلافها مع السياسة الأمريكية. ولا نقول تحديها لها. قد يسبب لتلك النظم مصاعب اقتصادية وعسكرية هى فى غنى عنها، فإنه من الواضح أن النظم الحاكمة فى الدول التى لا تعتمد على مساعدات أمريكية قد فهمت الرسالة، أى أدركت أن هناك رؤية أمريكية جديدة لمستقبل المنطقة، وأن الإدارة الأمريكية مستعدة للوصول فى تنفيذ هذه الرؤية إلى آخر المدى، ولذلك فإن الانحناء أمام العاصفة أو الاختباء منها أصلاً قد يكون سلوكاً رشيداً. وعليه فإن

الاختلاف الحقيقى بين مواقف الفئات الثلاث تمثل فى أن الدول أعضاء الفئة الأولى، ذات العلاقة الأمنية الواضحة مع الولايات المتحدة الأمريكية، قد قدمت لها تسهيلات، وإن كانت بدرجات متفاوتة، فى عدوانها على العراق، بينما تكاد الدول أعضاء الفئتين الثانية والثالثة أن تكون قد تساوت فى صمتها أو مواقفها الملتبسة الهادئة تجاه العدوان على العراق وتداعياته.

وأخيراً يمكن القول بالنسبة للعوامل المنبثقة من النظام العربى أن هذا النظام لم يكن فى أحسن حالاته عندما نشبت الأزمة بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، ولم يكن هذا وضعاً جديداً على أية حال، فمنذ الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠ لا يمكن القول بأن النظام العربى قد استرد عافيته تماماً، وذلك دون أن ننكر أن ثمة محاولات دءوبة لرأب الصدع فى العلاقات العربية - العربية كانت قد جرت فى العقد التالى على العدوان وبدا أنها تقترب من غايتها مع السنوات الأولى للقرن الواحد والعشرين على نحو ما رأينا.

غير أن هذه التطورات وغيرها لم تكن تعنى بحال أن النظام العربى قد استرد عافيته بمعنى القدرة على التحرك الجماعى المؤثر على أرض الواقع وليس فى عالم الألفاظ، خاصة وقد بقيت العوامل البنيوية فى هذا النظام على حالها من حيث غياب القيادة داخله والهشاشة الملحوظة لوحداته فى علاقتها بمحيطها الإقليمى والنظام العالمى، وزاد من هذا الأمر أن قرارات قمة بيروت قد تزامنت مع بدايات الأزمة الأمريكية - العراقية، الأمر الذى ساعد دون شك على قطع الطريق على أية تطورات إيجابية كان من الممكن أن ترجى من تلك القرارات، ويعنى ما سبق أن النظم العربية التى كان من الممكن أن تفكر فى تبنى سياسات معارضة للسياسة الأمريكية تجاه المنطقة لم تكن لتجد فى النظام العربى سياقاً مساندا لهذه السياسات، لذلك فإن حساباتها بنيت بالضرورة على أسس قطرية، الأمر الذى لاشك أنه لعب دوراً حاسماً فى إجهاض أى تفكير للتمرد على السياسة الأمريكية.

فى ضوء ما سبق بدأ الموقف العربى الجماعى الاهتمام بالعدوان على العراق قبل وقوعه بعام وذلك فى قمة بيروت ٢٠٠٢ عندما تضمن البيان الختامى للقمة فى بنده الثانى والعشرين نصاً يشير إلى أن القادة قد تدارسوا «التهديد بالعدوان على بعض الدول العربية وبصورة خاصة العراق، وأكدوا رفضهم المطلق ضرب العراق أو تهديد أمن وسلامة أية دولة عربية باعتباره تهديداً للأمن القومى لجميع الدول العربية». وعندما اجتمع مجلس الجامعة العربية على المستوى الوزارى فى دورة غير عادية فى ١٥ و١٦ فبراير ٢٠٠٣ قبل قمة شرم الشيخ التى عقدت فى الأول من الشهر التالى أضاف إلى هذا الموقف التأكيد على ضرورة امتناع الدول العربية عن «تقديم أى نوع من المساعدة والتسهيلات لأى عمل عسكرى يؤدى إلى تهديد أمن وسلامة العراق ووحدة أراضيه» وكان ذلك طبيعياً بالنظر إلى أن جميع المؤشرات كانت تشير إلى قرب وقوع العدوان على العراق.

الخروج الفاعل للنظام العربى من أزماته ارتبط بشرطين أحدهما داخلى (عربى) خارجى (عالمى) أما الشرط الداخلى فهو وجود قيادة واضحة للنظام تمثلت خلال فترتى الخروج من تداعيات هزيمتى ١٩٤٨ و١٩٦٧ فى القيادة المصرية

وعندما اجتمعت القمة العربية العادية فى شرم الشيخ فى الأول من مارس ٢٠٠٣ تبلور موقفها على النحو التالى:

- رفض الحل العسكرى للأزمة العراقية باعتبار أن القرار ١٤٤١ الصادر عن مجلس الأمن لا يوفر غطاءً شرعياً لأى عمل عسكرى ضد العراق، وأن مثل هذا العمل سيؤدى إلى مخاطر جمة وتداعيات سلبية تشهد عليها المواقف العالمية المعارضة لاستخدام القوة ضد العراق، لذلك دعت القمة «جميع الدول لمساندة الجهود العربية الهادفة إلى تجنب الحرب» مع طمأنتها بأن ذلك يتحقق «من خلال استكمال تنفيذ العراق لقرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ لعام ٢٠٠٢»، مع العلم بأن قرارات القمة قد رحبت بموقف حكومة العراق من عملية التفتيش، وأشارت إلى التقدم الذى حدث فى هذا الصدد.
- بناء على ما سبق فقد كان طبيعياً أن تؤكد القمة على الرفض المطلق لضرب العراق أو تهديد أمن وسلامة أى دولة عربية باعتباره تهديداً للأمن القومى العربى، وإن خففت الصيغة المستخدمة فى البيان الصادر عن المجلس الوزارى بالامتناع عن تقديم أى نوع من المساعدة والتسهيلات لأى عمل عسكرى ضد العراق إلى «التأكيد على امتناع الدول العربية عن المشاركة فى أى عمل عسكرى يستهدف أمن وسلامة ووحدة أراضى العراق وأى دولة عربية». وكان المفهوم، بغض النظر عن الدقة اللفظية، أن هذا النص لا يتعارض إذن مع تقديم التسهيلات التى قد يفرضها وجود قواعد عسكرية أمريكية فى عدد من البلدان العربية بموجب اتفاقات قانونية، فى إشارة واضحة إلى عدم التجانس فى الموقف العربى.
- أشارت قرارات القمة إلى تشكيل لجنة رئاسية تضم الرئاسة السابقة والحالية والقادمة للقمة والأمين العام للجامعة بالإضافة إلى الدول الراغبة وذلك للاتصال مع الأطراف الدولية المعنية خاصة الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن لعرض الموقف العربى عليها، والتشاور مع الحكومة العراقية لبحث سبل مواجهة التحديات الخطيرة التى يواجهها العراق وما يهدد الدول العربية من مخاطر واحتمالات.
- رفضت القمة بطريق غير مباشر الدعاوى الأمريكية الخاصة بإسقاط النظام العراقى، وذلك عندما أشارت إلى أن شئون الوطن العربى وتطوير نظمه «أمر تقرره شعوب المنطقة بما يتفق مع مصالحها الوطنية والقومية بعيداً عن أى تدخل خارجى. وفى هذا الإطار يستنكر القادة ما يتردد من محاولات رامية إلى فرض تغييرات على المنطقة أو التدخل فى شئونها الداخلية وتجاهل مصالحها وقضاياها العادلة».

وعندما اجتمع مجلس الجامعة العربية فى دورته العادية ١١٩ فى القاهرة ما بين ٢٢ و٢٤ مارس ٢٠٠٣ كان العدوان على العراق قد وقع، وقد خلصت مداولات المجلس بشأن هذا العدوان إلى ما يلى:

- إدانة العدوان الأمريكى - البريطانى على العراق.
- اعتبار هذا العدوان انتهاكاً لميثاق الأمم المتحدة ولمبادئ القانون الدولى وخروجاً على الشرعية الدولية وتهديداً للأمن والسلم الدوليين وتحدياً للمجتمع الدولى والرأى العام العالمى المطالب بحل المنازعات الدولية بالطرق السلمية والاحتكام إلى قرارات الشرعية الدولية.
- المطالبة بالانسحاب الفورى وغير المشروط للقوات الأمريكية - البريطانية الغازية من الأراضى العراقية وتحميلها المسئولية المادية والأخلاقية والقانونية عن هذا العدوان.
- تأكيد الالتزام بضرورة امتناع الدول العربية عن المشاركة فى أى عمل عسكرى يمس سيادة وأمن ووحدة أراضى العراق أو أية دولة عربية أخرى، والتأكيد على ضمان أمن وسلامة ووحدة أراضى الدول العربية كافة.
- تكليف المجموعة العربية فى الأمم المتحدة بطلب عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن لاتخاذ قرار بوقف العدوان وسحب القوات الغازية فوراً خارج الحدود الدولية لجمهورية العراق، والتأكيد على احترام سيادة العراق واستقلاله السياسى وحرمة أراضيه، وامتناع جميع الدول عن التدخل فى شئونه الداخلية.
- تكليف المجموعة العربية فى حالة عدم انعقاد مجلس الأمن أو عدم اتخاذ القرار اللازم لوقف العدوان والانسحاب بدعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة لعقد جلسة طارئة لبحث العدوان على العراق والمطالبة بوقفه الفورى وسحب القوات المعتدية من جميع الأراضى العراقية واحترام وحدة وحرمة أراضيه.

تظهر قراءة هذه القرارات للوهلة الأولى أنها تعبر عن سقف عالٍ للموقف الدبلوماسى العربى، لعله لم يكن ينقصه سوى التحول من مستوى الإدانة والمطالبة بإجراءات معينة والتحرك من أجلها إلى مستوى اتخاذ خطوات إيجابية كما فى استدعاء السفراء أو سحبهم أو التهديد بقطع العلاقات أو حتى قطعها.. إلخ، غير أن إمعان النظر فى القرارات مع ربطها بما هو معروف من سلوك فعلى للدول العربية فى الواقع العملى يفضى إلى الملاحظات التالية:

- لم تكن هذه القرارات موضع إجماع فعلى كما قد يبدو من الإجماع «الإجرائى» عليها إذا جاز التعبير، فقد كان من المعروف أن هناك عدداً من الدول العربية يتناقض فى مواقفه مع روح الموقف العربى الجماعى وجوهره بسبب وجود قواعد عسكرية أمريكية على أراضيه بعيداً عن الجدل اللفظى حول

الفارق بين مفهومي «تقديم التسهيلات» و«عدم المشاركة»، ولعل الكويت كانت هي الدولة العربية الوحيدة التي طابقت بين موقفها المعلن وموقفها الفعلي حين تحفظت «بشدة» على القرار السابق لعدم تضمنه الإشارة إلى الاعتداءات العراقية عليها والمتمثلة في الهجمات الصاروخية، وكذلك لمخالفته من وجهة نظرها قرارات مجلس الأمن ذات الصلة كافة وقرارات القمم العربية المتعلقة باحترام استقلال وسيادة وأمن دولة الكويت.

. يلاحظ كذلك أن دولة عربية واحدة لم تجرؤ على أن تكرر منفردة ما تضمنه قرار المجلس الوزاري في دورته الـ ١١٩ كتعبير عن موقف جماعي، وهكذا اختفت مفردات العدوان والغزو ومطالبات الانسحاب الفوري لقوات الاحتلال.. إلخ من مفردات قاموس الدبلوماسية العربية على المستوى القطري.

. يلاحظ أيضاً أن الفقرات الإجرائية من القرار لم تجد حظها من التطبيق، وعلى سبيل المثال فقد انعقد مجلس الأمن وانفض دون أن يتوصل إلى شيء بطبيعة الحال كما هو متوقع، غير أن أحداً لم يسمع أن المجموعة العربية قد طالبت بعقد جلسة طارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة وفقاً لنص القرار السابق، والتي كان مؤكداً أنها ستتبنى موقفاً قوياً ضد العدوان.

. يلاحظ رابعاً أن عدداً من الدول العربية بدأ يتعامل مع الاحتلال العسكري الأمريكي للعراق باعتباره وضعاً عادياً، بل ويشير مسئولون في هذه الدول إلى بقاء القوات الأمريكية فيه لاستقراره (مع أن الاستقرار يمكن أن يتحقق بقوات عربية أو دولية). ويستقبل هؤلاء المسئولون مسئولين أمريكيين رفيعي المستوى دون أن يشيروا بحرف إلى شيء من مضمون الموقف العربي الجماعي الذي عبّر عنه المجلس الوزاري. وأخيراً يشارك بعض القادة العرب في قمة مع الرئيس الأمريكي، ويتضمن البيان العربي الصادر عنها إشارة إلى أن هؤلاء القادة يعتبرون أن قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ وسيلة مفيدة لتحقيق الرؤية العربية لمستقبل العراق.

. يلاحظ أخيراً أن عدداً من الدول العربية التي قادت فيما سبق جبهة التشدد الدبلوماسي العربي ضد السياسة الأمريكية قد بدأ يُظهر مرونة واضحة في التكيف مع مستجدات المنطقة عقب الاحتلال العسكري الأمريكي للعراق، والاستجابة لمطالب السياسة الأمريكية في هذا الصدد، وليس الغرض من هذه الملاحظة توجيه الانتقاد لمسلك هذه الدول وإنما الإشارة إلى أن التراجع في المواقف العربية مستمر على نحو ينذر بمخاطر شديدة.

يظهر تحليل المواقف العربية على النحو السابق إذن أنها تعبر عن فجوة هائلة بين القول والفعل، وبين الموقف الجماعي والمواقف القطرية وأنها تسير حثيثاً باتجاه قبول الوضع الراهن الذي فرضه الاحتلال العسكري الأمريكي للعراق، خاصة أن التحركات المتواضعة التي تقوم بها في هذا الخصوص لا يمكن أن تؤثر على هذا الوضع، فكيف يمكن التفكير في سياق التحليل السابق في مستقبل النظام العربي؟

ثالثاً: مستقبل النظام العربي:

لعله من المناسب في هذه الظروف أن يطرح سؤال المستقبل بشكل مبسط في محاولة الوصول إلى أكثر الإجابات وضوحاً: نكون أو لا نكون؟ فإذا ترجم هذا السؤال إلى لغة الواقع يمكن أن يتحول إلى سؤال عن كنه المستقبل المنتظر: عربي أم أمريكي؟

لاشك أن الإدارة الأمريكية لها رؤيتها لمستقبل المنطقة، وهي رؤية ترفض ابتداء الإطار العربي لهذا المستقبل، وتستبدل به إطاراً شرق أوسطي، وليس هذا بجديد على السياسة الأمريكية التي لم تر دوماً لمستقبل المنطقة خيراً من الإطار الشرق أوسطي منذ صعود دورها العالمي في أعقاب الحرب العالمية الثانية. تشهد على ذلك مشروعات قيادة الشرق الأوسط في ١٩٥١، ومشروع جونستون للمياه في ١٩٥٣، وحلف بغداد في ١٩٥٥، ومشروع إيزنهاور في ١٩٥٧ وصولاً إلى شرق أوسطية ما بعد أوسلو ١٩٩٣.

ولكي تسوغ السياسة الأمريكية هذا الطرح فهي تحيطه برؤية براقة عن مستقبل ديمقراطي مزدهر اقتصادياً للمنطقة، والواقع أنه ما من منطق يستحق المواجهة السياسية والفكرية في الظروف الراهنة أكثر من هذا المنطق. فالأمة العربية ليست مدعوة للقبول بخيار ديمقراطي تنموي أمريكي بأي حال من الأحوال. وبالنسبة للديمقراطية لاشك أن السجل الأمريكي بخصوصها شديد الالتباس. صحيح أنه يمكن أن ينسب لإدارات أمريكية مختلفة الفضل في بلورة تجارب ديمقراطية ليبرالية في أعقاب الحرب العالمية الثانية في كل من اليابان وألمانيا الغربية وإيطاليا، ومساعدة دول أوروبا الشرقية على التحول إلى نماذج ليبرالية للحكم في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي، غير أن السجل الأمريكي المعادي للديمقراطية ممتلئ بالمقابل بأدوار حاسمة في الإطاحة بنظم ديمقراطية واستبدال نظم استبدادية أو فاشية بها، كما في حالة مصدق في إيران في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، وحالة الإطاحة بالرئيس المنتخب في شيلي سلفادور الليندي في ١٩٧٣. ناهيك عن التحالف - حتى الآن - مع نظم غير ديمقراطية، بما يؤكد أن الديمقراطية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية سلاح وليست هدفاً في ذاته، وإذا كان هذا هو السجل التاريخي للديمقراطية الأمريكية فإن الطرح الراهن لها لا يقل التباساً، ولا توجد على سبيل القطع أية وثيقة أمريكية تتحدث عن رؤية محددة لمستقبل ديمقراطي للمنطقة، وإنما ثمة حديث عام عن الإصلاح السياسي وعن نظم أكثر انفتاحاً، وكلمة للشعوب في تقرير مستقبلها السياسي وعن شروط «أمريكية» للديمقراطية التي لا يجب أن تأتي بديكتاتور من وجهة النظر الأمريكية بطبيعة الحال، ولابد أن تفضى إلى حكومة صديقة للولايات المتحدة الأمريكية، أي محققة لمصالحها، وذلك كله دون أي التزام زمني محدد. ناهيك عن السؤال الأساسي عن إمكانية الحديث عن تطور ديمقراطي أصلاً في ظل الاحتلال العسكري والهيمنة السياسية. أما الازدهار الاقتصادي، فإن الحديث عنه يعد سخفاً بحد ذاته في ظل ما هو مؤكد من أطماع أمريكية في نفط العراق والأمة بأسرها.

إن العرب قد توحدوا عادة - على الرغم من خلافاتهم في وجه التهديدات الخارجية. هكذا فعلوا في ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ في مواجهة إسرائيل ومن تحالف معها، لكنهم في هذه المرة أخفقوا في التوحد إزاء التهديدات الأمريكية للعراق فالعدوان عليه



يبقى الحديث عن «الحل الأمريكي» للصراع العربي - الإسرائيلي أو بالأحرى للصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، ولا يوجد في جعبة الإدارة الأمريكية الآن سوى تلك الرؤية الهزلية المسماة بخارطة الطريق، والتي لا تستحق مجرد مناقشتها طالما أنها مبنية على خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش في يونيو ٢٠٠٢ والذي أعاد فيه تكييف الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي باعتباره صراعاً ضد الإرهاب (أي المقاومة)، ومن ثم فإن نقطة البداية يجب أن تكون هي القضاء على هذه المقاومة أولاً في انتظار الفتات غير المحدد الذي وعد به الخطاب وبنيت عليه خطة الطريق، وللأسف فإن أطرافاً فلسطينية رسمية قد وقعت في شرك تنفيذ التصور بأن عقدة الصراع تكمن في الجانب الفلسطيني وليس الإسرائيلي، وبالتالي فإن إيجاد منصب رئيس وزراء ذي صلاحيات حقيقية كفيل بتمهيد الطريق لتحقيق التسوية وليس المضي في طريق المقاومة.

ولاشك أن الولايات المتحدة الأمريكية أقدر من أي وقت مضى على أن تضع رؤيتها لمستقبل المنطقة موضع التطبيق بعد احتلالها العسكري للعراق، إذ يعرف دارسو النظم الإقليمية التي يفترض أن لها هامشاً أو مساحة ما من الاستقلال في الحركة عن قيادة النظام العالمي أن واحداً من شروط الحديث عن هذه النظم ألا يكون بين أعضائها دولة عظمى، والسبب في ذلك بديهي وهو أن عضوية دولة عظمى في نظام إقليمي يعني أنه صار جزءاً لا يتجزأ من التفاعلات العالمية التي تدخل فيها هذه الدولة، مبتعداً بذلك عن القدرة عن أن يكون له نموذج تفاعلاته المستقلة ولو نسبياً. وعندما أتمت الولايات المتحدة الأمريكية احتلال العراق عسكرياً أصبحت من الناحية الفعلية موجودة داخل النظام العربي وليست قوة تأثير خارجية عليه، ولقد أدلى وزير خارجيتها كولن باول في حينه بتصريح شديد الإيحاء كان مضمونه أن ثمة وضعاً جديداً قد نشأ في المنطقة وأن الدول العربية يتعين عليها أن تكيف نفسها معه، وهو ما رأيناه بالفعل لاحقاً في المواقف الوديعة المعلنة من قبل هذه الدول تجاه قضية احتلال العراق وتداعياتها، ثم في الموقف السوري من المطالب الأمريكية بشأن إغلاق الحدود مع العراق ووقف نشاط المنظمات الفلسطينية في دمشق وكذلك التصويت بالموافقة على قرار نهب

الثروة العراقية الصادر عن مجلس الأمن، وهانحن نرى أن الولايات المتحدة الأمريكية صارت طرفًا أصيلاً فى تفاعلات النظام بانعقاد قمة شرم الشيخ العربية الأمريكية فى يونيو ٢٠٠٣.

غير أن عددًا من الملاحظات يبقى واجبًا على الرغم من ذلك، ولعل أهم هذه الملاحظات اثنتان: أولاهما أن جميع المحاولات الأمريكية الغربية الإسرائيلية لفرض مستقبل شرق أوسطى على المنطقة قد باءت بالفشل حتى الآن على الرغم من الضعف البين للنظام العربى وهشاشته فى كثير من الأحيان وصولاً إلى الطبعة الأخيرة للمشروع الشرق أوسطى فى أعقاب اتفاقية أوسلو ١٩٩٣. أما الملاحظة الثانية فقد يراها البعض ملاحظة قيمية وليست تجريبية غير أنها تتسق مع دروس الخبرة الماضية للاحتلال الأجنبى. فلم يحدث أن مشروعًا واحدًا انطوى على مثل هذا الاحتلال لم يفض إلى تناقض بين قوة الاحتلال وبين الشعب فى الأراضى المحتلة، وقد ولد هذا التناقض عادة مقاومة للاحتلال تنوعت أساليبها، ولا يوجد لدينا مثال واحد حتى الآن على أن تلك المقاومة قد أخفقت فى مسعاها للحصول على الاستقلال. من هنا فإن المشروع الأمريكى لمستقبل المنطقة على الرغم من كل ما يحاوله أنصاره من الترويج له سائر إلى طريق فشل محتوم لأنه مشروع للهيمنة يستخدم شعارات براقة عن الديمقراطية والتنمية وهما منه براء بحكم الخبرة الواقعية سواء للاحتلال بصفة عامة أو لما نعرفه عن دوافع الاحتلال الأمريكى للعراق بصفة خاصة. أو لما رأيناه على أرض الواقع من ممارسات أمريكية منذ بدأ هذا الاحتلال. صحيح أن تكلفة إنهاء الاحتلال تكون عادة عالية بالنسبة للقوى التى تقاومه، وصحيح بالدرجة نفسها أننا لا نستطيع أن نحدد نقطة زمنية قاطعة ينتهى عندها الاحتلال، ولكن الأمر المؤكد أنه سينتهى بالإخفاق، والمرجح أن ذلك سيتم فى مدى زمنى يتراوح من بضع سنين كحد أدنى إلى عقد كحد أقصى أخذًا فى الاعتبار دروس الخبرة المعاصرة لحركات التحرر الوطنى.

وإذا كان الإخفاق هو المصير المحتوم للمستقبل الأمريكى للوطن العربى، فإن المستقبل العربى لهذا الوطن يواجه عقبات موضوعية هائلة. سبق أن رأينا أن نموذج تجاوز النظام العربى لأزماته السابقة يشير إلى أن هذا التجاوز كان يتم من خلال آليات تغيير أو إصلاح، وأنه من ناحية التسلسل الزمنى فإن آليات التغيير قد توارت إلى الخلف وحلت محلها آليات الإصلاح التى أخذت

أحداث الحادى عشر من سبتمبر أعطت الإدارة الأمريكية فرصة ذهبية للمضى قدمًا فى تنفيذ خططها العالمية إن لم يكن بإكراه الآخرين دون عنف فليكن باللجوء إلى أقصى درجات العنف كما حدث بالفعل فى حالتى أفغانستان والعراق



فعاليتها فى إخراج النظام من أزماته تقل بدورها تدريجيًا لعوامل داخلية (عربية) وخارجية (عالمية) على النحو الذى رأيناه فى آخر أزمة واجهها النظام قبل الاحتلال الأمريكى العسكرى للعراق (تداعيات الغزو العراقى للكويت) بحيث بدت قدرة النظام على إصلاح أوضاعه محدودة، وهكذا سار بخطى وئيدة نحو إنجاز مصالحة عربية. عربية عامة وعراقية. كويتية خاصة، وعندما بدا أنه يقترب من إنجاز هذه المصالحة زادت العوامل العالمية (الأمريكية) من وطأتها فأحبطت الوصول إلى خط النهاية بالنسبة لتلك المصالحة.

والمعنى الخطير لما سبق أن النظام العربى يبدو غارقًا فى معضلة حقيقية كونه غير قادر على تجاوز الأزمة التى تهدد بقاءه فعلاً سواء بآليات تغيير أو بآليات إصلاحية، فقوى التغيير قد تكون موجودة ولكنها ليست بالثقل والتماسك ومن ثم الفاعلية التى تمكنها من إنجاز التغيير المطلوب، وآليات الإصلاح تتطلب وجود حكومات عربية مدركة لطبيعة الخطر الذى يحيط بها قبل غيرها، فإن هى أدركت ذلك على نحو سليم يتعين أن تكون قادرة على التحرك الفاعل، وهذا يمثل بحد ذاته معضلة بالنظر إلى ما رأيناه من قيود أمنية واقتصادية وسياسية أصبحت تحيط بحركة النظم الحاكمة العربية دون استثناء.

ليس معنى ما سبق أن النظام العربى يسير فى طريق محتوم إلى نهايته. على العكس فإن الفرصة مازالت قائمة وقوية فى أن يتجاوز أزمته الراهنة، بل وإن يتجاوزها منتقلاً إلى وضع أفضل مما كان عليه قبلها، وهى فرصة لها . موضوعيًا . أكثر من سبب، وأول هذه الأسباب خبرة النظام الماضية التى تشير إلى تمكنه من تجاوز أزمات سابقة من ناحية، وإلى فشل كافة المشروعات البديلة من ناحية أخرى، ومع ذلك فإن هذا السبب قد يُشك فى قيمته بالنظر إلى اختلاف الأزمة الراهنة نوعيًا عما سبقها على نحو ما رأيناه وثانى الأسباب أن دروس الخبرة الأمريكية فى تغيير النظم من الداخل و/ أو التدخل فى شئونها تشير بصفة عامة إلى عديد من حالات الفشل الذريع الذى قد يعود إلى الطريقة السطحية التى يفهم بها الأمريكيون أحوال العالم من حولهم. هكذا كان الإخفاق من مصيرهم فى كوبا وفيتنام ولبنان والصومال وهكذا يبدو أن مصيرهم سيكون على ضوء تردى الأوضاع فى أفغانستان والبدايات القوية للمقاومة العراقية وهو ما ينقلنا إلى السبب الثالث والأهم وهو المقاومة العراقية المتوقعة للاحتلال الأمريكى والتى لابد أن تسير وفقًا لقانون التحرر الوطنى، أى أن تأخذ فى التصاعد بغض النظر عن الخلل فى ميزان القوى بينها وبين قوى الاحتلال إلى أن تصل إلى نقطة تزيد فيها تكلفة الاحتلال ماديًا وبشريًا بالنسبة للولايات المتحدة إلى الحد الذى لا تعود فيه قادرة على تحملها سياسيًا. وإذا أضفنا إلى هذه المقاومة ما تمارسه فصائل التحرر الوطنى الفلسطينى من قدرة معجزة على مواصلة النضال ضد الكيان الصهيونى يتولد الأمل فى روح جديدة للمقاومة فى النظام العربى. ورابع هذه الأسباب أن الأزمة وما قبلها وإن كشفت عن ضعف النظام العربى غير الرسمى ممثلاً فى حركة جماهيرية وقوى المجتمع المدنى فيه، فإنها أكدت فى الوقت نفسه أن هذه الجماهير والقوى على قلب رجل واحد فى التمسك بثوابت النظام العربى وأهمها قيمة الاستقلال الوطنى والقومى، ويعنى هذا أن الجماهير وقوى المجتمع المدنى فى النظام العربى سوف تمثل فى أقل الأحوال بيئة مساندة لأى محاولة للتغيير إلى الأفضل، وربما ضاغطة على النظم الموجودة باتجاه تحسين أدائها، وفى أفضل الأحوال قوة دافعة لتغيير حقيقى خاصة مع التطور المتوقع لمقاومة مشروعات الهيمنة على المنطقة كما تتجلى فى الساحتين الفلسطينية والعراقية وربما غيرهما.

ويعنى ما سبق أن خروج النظام العربى من أزمته الراهنة وتجاوزها إلى وضع أفضل مما كان عليه قبل حدوثها مازال بديلاً ممكنًا، وإن كان من المرجح أن القوى الفاعلة فى إخراجه من أزمته وتجاوزها إلى الأفضل لن تكون ذات طابع رسمى، دون أن يعنى هذا استحالة مشاركة بعض القوى الرسمية فى هذه العملية إذا تطورت الأمور على أرض الواقع على نحو يخفف بعضًا من القيود الواردة عليها كإنجازات باهرة لحركة المقاومة فى فلسطين والعراق، أو صحوة جديدة للرأى العام العربى، أو تغيرات سياسية داخلية محسوسة فى قوى العدوان على الوطن العربى وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية، لكن العبء الرئيسى فى إنقاذ النظام سوف يكون دون شك ملقى على عاتق مثلث المقاومة. الفكر. الجماهير.

فقوى المقاومة سوف تكون وظيفتها رفع تكلفة مشروعات الهيمنة بالنسبة لأصحابها. والمفكرون والمثقفون المخلصون لأهداف الأمة سوف يتصدون لعمليات التضليل والهدم التى تتراوح من الحرب النفسية لكسر إرادة الأمة إلى التبشير بمشروعات الهيمنة إلى التعمية الإعلامية على واقع مقاومة هذه المشروعات، وسوف يبشر هؤلاء المخلصون بالمقابل بإمكانية تجاوز الأزمة ويحددون المتطلبات الموضوعية لهذا التجاوز، والجماهير وقوى مجتمعها المدنى سوف توفر من ناحية البيئة المواتية للمقاومة فكرًا وعملاً وتساهم من ناحية أخرى فى عملية المقاومة بما تمارسه من ضغوط على نظمها الحاكمة كى ترتفع بسقف أدائها إلى أقصى ما هو ممكن.

لم يشر هذا التحليل بحرف واحد إلى تعدد القوى والفصائل المناوئة لمشروعات الهيمنة، أو إلى أكثرها قدرة على إنجاز الخلاص من قيود هذه المشروعات، ذلك لأن أيًا منها بمفرده غير قادر على هذا العمل وإنما يتعين كشرط لا غنى عنه للانتصار فى معركة البقاء التى تواجه النظام العربى أن يتكاتف الجميع فى جبهة واحدة من أجل مستقبل آمن وكريم ليس أمامنا إلا أن نصنعه بأنفسنا وأن نحول دون أن يصنعه لنا الآخرون، ناهيك عن أن يكونوا على شاكلة المستعمرين الصهاينة أو الغزاة الأمريكيين.

«إعـــادة إعمـــار»
أم إعادة فك وتركيب؟

محمـــــود عبد الفضيـــل

[١]

■■ يدور الآن صراع قوى على توزيع الغنائم فى «عراق ما بعد صدام». وهذا الصراع تدور رحاه على مستويين: المستوى الأول: يدور بين الشركات العالمية (وخاصة الأمريكية) للحصول على أكبر نصيب من غنيمة عقود «إعادة إعمار العراق». والمستوى الثانى: يدور حول استغلال وإدارة الموارد النفطية العراقية. ويلاحظ بهذا الصدد أن المندوب الأمريكى فى مجلس الأمن قد اعترض على تعبير «حق الشعب العراقى فى موارده النفطية»، وتم استبدال ذلك بعبارة غامضة تتحدث عن «حق الشعب العراقى فى الاستفادة من استثمار تلك الموارد النفطية». وشتان بين ما يعنيه كلا التعبيرين.

وتهدف الإستراتيجية الأمريكية فيما يخص مستقبل استغلال وإدارة قطاع النفط فى العراق إلى تأمين إمدادات نفط رخيص للبلدان الغربية المستهلكة للنفط. وفى الوقت ذاته تسعى هذه الإستراتيجية فى الأجل المتوسط لكسر قوة منظمة «أوبك» للبلدان المصدرة للنفط، التى ترسم السياسات التسعيرية وتحدد السقوف الإنتاجية لصادرات الخام لبلدان الأوبك. وبهذا الصدد، كتب «لوتز كليفمان» الذى يعمل مراسلاً فى نيويورك لجريدة «دير شبيجل» الألمانية مقالاً لصحيفة «ذى إندبندنت» البريطانية تحت عنوان: «اللعبة الكبرى الجديدة للسيطرة على النفط»، يشير فيه إلى أن ثمة «صراعاً إستراتيجياً مشهوداً يدور الآن لتقرير من سوف يسيطر على إحتياطى الطاقة فى العالم».

ومن المعروف أن مستوى الطاقة الإنتاجية الحالية فى العراق يدور حول ٢-٣ ملايين برميل من النفط الخام يومياً، ولكن بضخ استثمارات قدرها ٢٠ بليون دولار أمريكى، يمكن زيادة الإنتاج فى غضون بضع سنوات إلى سبعة ملايين برميل يومياً. وسوف يشكل هذا الإنتاج نحو عشر الاستهلاك العالمى، الأمر الذى سوف يؤدى إلى انخفاض فى مستوى السعر، وهو ما تحتاج إليه الاقتصادات الغربية المتباطئة.

ومما لاشك فيه أن بترول العراق يشكل الكعكة الكبرى التى يخطط الأمريكيون لالتهامها دون شريك. فمنذ الأيام الأولى لعملية الغزو الأمريكى - البريطانى للعراق كان أحد الأهداف العسكرية الأساسية هو تأمين حقول البترول فى الجنوب والشمال والحيلولة دون إحراقها، كما كانت هناك توقعات كثيرة تشير إلى ذلك قبل بداية الحرب. ويرى فريق من خبراء البترول أنه قد ينسحب العراق فى المستقبل من منظمة أوبك للدول المصدرة للبترول، التى يعد العراق فيها المنافس الأول للسعودية من حيث إمكانيات الإنتاج وحجم الاحتياطى. وبذلك ينضم العراق لفريق تصدير البترول «من خارج أوبك» الذى يضم روسيا على رأسه. وفى هذه الحالة، ستحدث حالة من الإغراق النفطى فى السوق العالمية يمكن أن يدفع بأسعار البترول إلى مستوى شديد الانخفاض قد يصل إلى ١٥ دولاراً للبرميل (بالأسعار الجارية). الأمر الذى سوف يؤدى بلا شك إلى إفقار البلدان النفطية الخليجية.

ومن ناحية أخرى، تقف الشركات البترولية الكبرى مثل: «إكسون موبيل» و«شل» و«بريتش بتروليوم» و«شيفرون تكسكو» فى حالة انتظار وترقب إلى أن تحدث عملية خصخصة متوقعة للبترول العراقى لتدخل كشريك فى عمليات الإنتاج. إذ يقدر الاحتياطى المؤكد من البترول العراقى بنحو ١١٢ مليار برميل، وهو ما يضعه فى المرتبة الثانية بعد السعودية على المستوى العالمى إضافة إلى ٢٢٠ مليار برميل من الاحتياطى غير المؤكد.

ويشير «يحيى سادوفسكى»، الخبير فى شئون الشرق الأوسط، إلى أن الذين يملكون طموحات واضحة فى مجال النفط هم الأكثر حماسة للحرب داخل الإدارة الأمريكية، أى عصبة المحافظين الجدد المتحلقة حول بول وولفويتز، مساعد وزير الخارجية، والسكرتير المساعد فى وزارة الدفاع دوجلاس فايث. إنهم أصحاب المشروع الذى يسعى إلى تحقيق الزيادة السريعة للقدرة الإنتاجية للعراق من أجل إغراق السوق العالمية فى أسرع وقت ممكن. وهم يعرفون أن ذلك سوف يؤدى إلى انهيار أسعار النفط الذى سيصل إلى ما دون الـ١٥ دولارا للبرميل. بعدما كان يدور فى منتصف مارس عام ٢٠٠٣ حول حاجز الثلاثين دولارا. وهم يراهنون على هذا التراجع فى أسعار النفط من أجل تحفيز النمو فى الولايات المتحدة وتدمير منظمة الدول المصدرة للنفط، أوبك، وتخريب اقتصاد الدول «المارقة» (إيران، سوريا، ليبيا) وبالتالى إيجاد شروط جديدة لتغيير الأنظمة (يحيى سادوفسكى، حقائق وأكاذيب حول الرهان النفطى، مايو ٢٠٠٣).

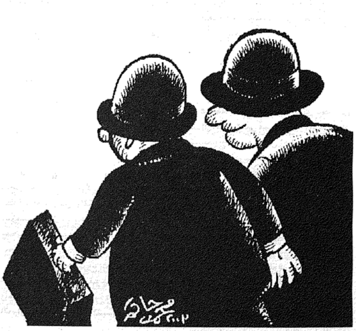
ومن ناحية أخرى، يرى فريق آخر من المحللين أن الرئيس الأمريكى وصحبه قد حافظوا على شبكة من العلاقات الشخصية ليس مع الشركات النفطية الكبرى «المتعددة الجنسية» بل مع عشرات الشركات الصغيرة. والعديد منها متمركز فى تكساس وتقوم باستخراج النفط من باطن الأرض الأمريكية أو من الأعماق البحرية. لكن هذه الشركات بحاجة لأسعار نفط مرتفعة كى تستمر فى نشاطها. ففى السعودية لا تزيد كلفة إنتاج البرميل من النفط عن الدولار ونصف الدولار، بينما تكلفة استخراج البرميل الواحد فى خليج المكسيك قد تزيد على الثلاثة عشر دولاراً. وبالتالى فإن هذه الشركات الصغيرة تخشى قبل كل شىء انهيار أسعار النفط. كما سارعت إلى التحذير من ذلك جماعات الضغط الوطنية داخل الولايات المتحدة، بتأكيدها على أن الولايات المتحدة تكون عندئذ مرتهنة أكثر فأكثر للواردات البترولية الأجنبية «غير الموثوق بها».

ووفقاً لهذه الرؤية، فإن البترول العراقى وارد بلا شك فى حسابات واشنطن العراقية ولكن كمورد إستراتيجى أكثر منه مورداً اقتصادياً. فالحرب على صدام كانت تهدف فى الأساس إلى ترسيخ الهيمنة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط، وفتح الطريق أمام خصخصة شركة البترول الوطنية العراقية.

[٢]

من المعروف للجميع أن الإدارة الأمريكية قد بدأت للتخطيط لعملية إعادة إعمار العراق منذ فترة طويلة، وأنها عهدت إلى اثنتين من الوكالات الحكومية الأمريكية هما: الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) وسلاح المهندسين التابع للجيش الأمريكى (USACE) لتنسيق تلك العملية بعد إسقاط نظام «صدام حسين».

وكانت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية قد اختارت شركة «بكتل»، ومقرها سان فرانسيسكو، كمتعاقد أساسى لإعادة بناء البنية التحتية العراقية فى عقد تبلغ قيمته الأولية ٦٨٠ مليون دولار. ويتم تنفيذ هذا العقد على مدى ١٨ شهراً، ويتعلق بإعادة بناء المطارات والمرافئ والطرقات والسكك الحديدية ومنشآت المياه والصرف الصحى. وكما هو معروف للجميع أن وزير



«المزيد من الدمار» كان يعنى المزيد من العقود وصفقات «إعادة الإعمار» والأرباح الوفيرة للشركات الأمريكية العملاقة. ولعل هذا هو المغزى الحقيقى لما يطلق عليه «التحرير»!

الخارجية الأمريكى الأسبق «جورج شولتز» هو عضو فى مجلس إدارة شركة «بكتل»، كما أن رئيس مجلس إدارتها هو عضو حالى فى «مجلس التصدير» وهو هيئة استشارية تقدم النصح للرئيس الأمريكى فى مجال التجارة الدولية.

وقد بدأت شركة «بكتل» الأمريكية العملاقة مقابلات فى واشنطن لآلاف الشركات فى الواحد والعشرين من شهر مايو الماضى بهدف التعاقد معها لتنفيذ عقود فى مشاريع جزئية (من الباطن) فى العراق، باعتبارها كبير المقاولين الأمريكيين المعتمدين فى مجال «إعادة إعمار العراق». ولقد كان مشهداً مثيراً حقاً حيث اصطف آلاف من ممثلى الشركات فى إحدى الساحات فى واشنطن أمام المبنى الذى تجرى فيه المحادثات، مما اضطر «بكتل» إلى إعادة النظر فى الجدول الزمنى لهذه المداولات وتقرير عقد جلستين مكثفتين، مدة الواحدة منها ساعة ونصف الساعة، عوضاً عن جلسة واحدة مدتها ثلاث ساعات.

ولقد حذر الملياردير الأمريكى المجرى الأصل «جورج سوروس» فى مؤتمر صحفى عقده فى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك من أن القرار الذى مررته الولايات المتحدة فى مجلس الأمن «لعراق ما بعد الحرب» سوف يؤدى إلى وصاية أمريكية دائمة معترف بها من الأمم المتحدة وممولة من الثروة النفطية العراقية. وأضاف سوروس: « أن هناك شعوراً ينتشر فى العالم أن هذه الحرب تم خوضها من أجل النفط، وأن القوات الأمريكية فى العراق لإفادة رجال شركتى هاليبورتون وبكتل العملاقتين، اللتين لهما صلات وثيقة برجال الإدارة الأمريكية.

فكما هو معروف، فإن شركة بكتل لها صلات وثيقة وعميقة برجال الحزب الجمهورى، وبمؤسسة الأمن الوطنى الأمريكى، عن طريق مشروعات ضخمة شاركت فيها، وكذلك عن طريق شخصيات بارزة عملت فى «بكتل» قادة إداريين واستشاريين، أبرزهم وزير الدفاع السابق «كاسبر واينبرجر». كما تشير التقارير إلى أن بعض أركان الإدارة الأمريكية الحالية ساهموا فى الترويج لشركة «بكتل»، وشارك عدد منهم خلال الأعوام الماضية فى صياغة الخطط للحرب على العراق وأبرزهم: «دونالد رامسفيلد» و«جورج شولتز» و«ريتشارد بيرل» و«ريتشارد أرميتاج» و«دوجلاس فايث» و«ريتشارد ألن»، و«روجر روبنسون» الذى كان مسئولاً فى وكالة التنمية الدولية، وشارك عام ١٩٨٨ فى تأسيس مركز الدراسات الإستراتيجية الذى قدم أكثر من بحث يتناول موضوع الحرب ضد العراق.

وقد أكد مصدر فى مجلس الغرف التجارية الصناعية، الذى يتخذ من الرياض مقراً له، أن عدداً كبيراً من المقاولين الكبار كثفوا اتصالاتهم بمقاولى الباطن من جهة، وبالغرف التجارية فى الرياض والدمام، من جهة أخرى، بحثاً عن تنسيق الجهود فى محاولة الحصول على فرص عقود من الباطن لإعادة إعمار العراق.

ولعل الكثيرين يتساءلون الآن: لماذا كل هذا الدمار الذى سببه القصف الوحشى فى العراق، ولماذا تركت المبانى الحكومية والوزارات الرئيسية تُحرق أمام سمع وبصر قوات الاحتلال الأمريكى. ولكن الإجابة بسيطة للغاية: إذ أن «المزيد من الدمار» كان يعنى المزيد من العقود وصفقات «إعادة الإعمار» والأرباح الوفيرة للشركات الأمريكية العملاقة. ولعل هذا هو المغزى الحقيقى لما يطلق عليه «التحرير»!

ولكن بعيداً عن هذا التزاحم المحموم للحصول على بعض الفتات من خلال «عقود الباطن»، فإن مفهوم إعادة الإعمار الحقيقى لا يدور حول الـ (Hardware) أى المبانى والمعدات.. بل حول الـ(Software) ، أى تصميم إدارة ومستقبل العراق الجديد. وهنا يجب ألا تترك الأمور للمخططات الأمريكية، بل يجب أن تشارك الدوائر العربية (الرسمية والشعبية)، وعلى رأسها الجامعة العربية، بكل قوة، لبلورة رؤية محددة «لعراق ما بعد صدام»، يتم على أساسها إعادة بناء العراق الجديد ومؤسساته. إذ أن غياب تلك الرؤية العربية هو فى حد ذاته كارثة تفوق كارثة الحرب على العراق. ويجب الخروج فوراً من حالة الشلل السائدة حالياً نحو بلورة مزيد من المبادرات الفاعلة، واختراق المخطط الأمريكى لمستقبل العراق الجديد، سعياً وراء تقويضه.

[٣]

إن مشروع «إعادة إعمار العراق» ليس مجرد مشروع مقاولات، بل هو مشروع إعادة بناء سياسى واقتصادى واجتماعى ومؤسسى، بكل ما يحمله ذلك من معانٍ ومضامين. وبهذا الصدد، يمكن إبداء بعض الملاحظات:

أ - لا شك أن مشروع إعادة الإعمار فى العراق، إنما يعبر عن توجهات سياسية واجتماعية، فهو عملياً يعيد رسم دور العراق المستقبلى على المستوى الإقليمى والدولى. لذلك، فإن السلطة العراقية القادمة، التى على ما يبدو ستدور فى الفلك الأمريكى، سوف تراعى بالدرجة الأولى المصالح الأمريكية فى المنطقة.

ب. نظراً لأن عملية إعادة بناء وتأهيل العراق بعد الحرب تستلزم وضع خطة متكاملة لمختلف المرافق العامة والمنشآت الحكومية والخدمات الأساسية فى مختلف المناطق العراقية، فالمشروع الإعمارى العراقى ستكون له تداعيات فى كافة المجالات، وعلى كافة المستويات السكانية والمناطق، بما فى ذلك إعادة صياغة عناصر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العراق الجديد.

ولعلنا لو تأملنا ملياً فى القرارات التى اتخذتها سلطات الاحتلال الأنجلو-أمريكى فى المجالات التالية:

١ . حل الجيش العراقى.

٢ . محاولة وضع دستور جديد للبلاد (على غرار دستور «اليابان» بعد الحرب العالمية الثانية).

٣. السعى لإطالة أمد الاحتلال لأطول مدة ممكنة، ومنع قيام حكومة شرعية منتخبة.

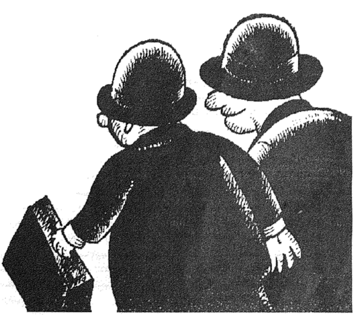
٤ . تغيير نظم الإدارة وأسلوب تسيير الاقتصاد.

٥ . التركيز على الصبغة الطائفية والتركيبة الإثنية للعراق.

نجد أن كلها يشير إلى أن عملية «فك» وإعادة تركيب عناصر البنية السياسية والاقتصادية والمؤسسية فى العراق تجرى على قدم وساق.

[٤]

فى هذا التوقيت بالذات، أى بعد غزو العراق، فإنه ليس من قبيل المصادفة أن يتم طرح العديد من المخططات التى تهدف إلى ضرب مفهوم «الأمن القومى العربى» فى أعماقه. إذ أن فك الارتباط السياسى والأمنى بين العراق، من ناحية، وبلدان المشرق العربى، من ناحية أخرى، يفتح الباب على مصراعيه أمام هيمنة وتقوية نفوذ القوى الأجنبية (الأمريكية - البريطانية - الإسرائيلية - التركية) فى المنطقة العربية، وذلك فى ظل الترتيبات الأمنية الراهنة لبلدان الخليج العربى. وهذا يؤدى بدوره إلى ضرب الوحدة العضوية «للجبهة الشرقية» عن طريق



يجب أن تشارك الدوائر العربية بكل قوة، لبلورة رؤية محددة «لعراق ما بعد صدام»، يتم على أساسها إعادة بناء العراق الجديد. إذ أن غياب تلك الرؤية كارثة تفوق كارثة الحرب على العراق

فصم عرى الوحدة والتضامن بين أهم قوتين فاعلتين فى المشرق العربى وهما: سوريا والعراق. ويتضح ذلك من خلال الطوق الجديد المضروب على «سوريا» و«لبنان»،من ناحية، والذى يكرس عزلة مصر، من ناحية أخرى، كما هو موضح فى الشكل (١).

وتقوم الرؤية الاقتصادية-الإستراتيجية الأمريكية- الإسرائيلية، فى مرحلة «ما بعد غزو العراق»، على عدد من المحاور، يتلخص أهمها فى اختراق وتمزيق «المجال الاقتصادى العربى». فرغم طابع التجزئة وهشاشة البنية الإنتاجية والتكاملية للفضاء الاقتصادى العربى، فإن الإستراتيجية الإسرائيلية الهجومية فى مرحلة «ما بعد غزو العراق»، تقوم على اختراق «المجال الاقتصادى العربى» وتقويض الإمكانات المستقبلية للتكامل الاقتصادى العربى.

وكبداية لذلك، قامت قوات الاحتلال الأمريكى بإغلاق خط أنابيب النفط الممتد من مدينة «كركوك» فى شمال الموصل إلى «ميناء بانياس» السورى، ليحل محله خطط إعادة تشغيل خط «الموصل-حيفا»، الذى كان قد توقف منذ قيام «دولة إسرائيل» عام ١٩٤٨، وهكذا فإنه فى مرحلة «ما بعد غزو العراق» سوف تصبح إسرائيل طرفاً أصيلاً وفاعلاً، وجزءاً أساسياً من النسيج الاقتصادى الجديد للمنطقة، من خلال عدد من المخططات الإستراتيجية، أبرزها:

أ. تقسيم «المجال الاقتصادى العربى» إلى مناطق منعزلة ومفصولة عن بعضها، من خلال اختراقات إسرائيلية، عبر مجموعة من المشروعات العربية-الإسرائيلية المشتركة تلعب فيها إسرائيل دوراً قيادياً وفاعلاً.

ب. تكريس كون «الاقتصاد الفلسطينى» عمقاً مكملاً للاقتصاد الإسرائيلى، وفصم علاقاته الطبيعية مع اقتصادات «بلدان المشرق العربى»، من ناحية، ومصر، من ناحية أخرى، وهما اللذان يشكلان «العمق الطبيعى له».

ج. بناء «مثلث اقتصادى» تكاملى بين إسرائيل والكيان الفلسطينى والأردن، على غرار نموذج بلدان «البنيلوكس»، ليكون هذا «المثلث» بمثابة رأس حربة لمشروع الهيمنة الاقتصادية الإسرائيلية على منطقة المشرق العربى والهلال الخصيب.

د. بناء علاقات اقتصادية ومالية «إسرائيلية-خليجية»، وعلاقات اقتصادية مالية «إسرائيلية- مغاربية»، تخترق شبكة العلاقات الاقتصادية والمالية العربية- العربية: المشرقية - المغاربية، والمشرقية - الخليجية.

ولعل عملية غزو واحتلال العراق هى تكريس لما سبق أن أكد عليه الرئيس الأمريكى السابق «ريتشارد نيكسون» فى كتابه المهم «الإمساك بالفرصة السانحة» (١٩٩٢)[1] من أن المصلحتين الملحتين للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط هما: ضمان إمدادات النفط، وحماية أمن إسرائيل.

ومن ناحية أخرى، يشير برنارد لويس، أحد غلاة المنظرين الصهاينة، إلى أن هدف السياسة الأمريكية فى المنطقة العربية (وفى منطقة الشرق الأوسط عموماً) هو منع ظهور أية قوة إقليمية (بخلاف إسرائيل) تسيطر على مقدرات المنطقة، وبالتالى تفرض نوعاً من السيطرة الاحتكارية على بترول الشرق الأوسط. والقضية الثانية التى تحرص عليها السياسة الأمريكية - وفقاً لبرنارد لويس - هى منع «التعددية النووية» فى المنطقة، أو على الأقل تأجيل ظهور قوى نووية، بخلاف إسرائيل لأطول فترة زمنية ممكنة. وكان كل من العراق وإيران من البلدان التى تسمى «بلدان العتبة» (Threshold countries)، أى من بين الدول التى يمكنها صنع القنبلة الذرية فى غضون سنوات قليلة. ولهذا السبب تم تصنيف البلدين ضمن «محور الشر» فى عرف الإدارة الأمريكية الراهنة.

والقضية الثالثة التى يؤكد عليها «برنارد لويس» هى أن علاقة التحالف القائمة بين الولايات المتحدة وإسرائيل من الخطأ النظر إليها على أنها مجرد علاقة «تحالف إستراتيجى»، بل هى «علاقة عاطفية أو أيديولوجية» (Ideological or sentimental) فى المقام الأول. إذ ترى الولايات المتحدة فى إسرائيل امتداداً لمؤسساتها وقيمها وأسلوب حياتها فى قلب المنطقة العربية[2].

ولعل تلك هى الثوابت التى تحكم السياسة الأمريكية، التى لا تتغير بتغير أو تعاقب الإدارات الجمهورية أو الديمقراطية، مهما كانت الأوهام التى يتم ترويجها من وقت إلى آخر. كما أن تلك «الثوابت» هى التى تحدد بدورها الخطوط الحمراء التى يجب عدم تجاوزها من جانب أى طرف عربى.

ولكنه فى ظل خريطة التطورات وأنماط الصراعات المستقبلية، التى تتسم بدرجة عالية من «السيولة التاريخية»، هناك سؤال ملح يطرح نفسه: ما هو دور العرب فى ذلك «التاريخ الجديد» الذى يجرى رسم خطوطه بواسطة مهندسين «غير عرب». ذلك هو السؤال المركزى الذى يجب أن نجيب عنه بكل وضوح وحزم، ودون إبطاء، حتى نتحسس خطانا المستقبلية لمنع بناء نظام «شرق أوسطى» جديد على أنقاض النظام العربى الذى يتهاوى تحت الضربات المتوالية التى توجه له.

إذ أننا نعيش مرحلة التخطيط وإعادة التقسيم ورسم خرائط الشعوب والدول والكيانات، أشبه ما تكون باتفاقية سايكس-بيكو التى تم توقيعها فى التاسع من مارس ١٩١٦، حيث تم بناء هندسة جغرافية سياسية جديدة للمنطقة فى ظل هيمنة أجنبية جديدة، حيث نصّت تلك الاتفاقية على إعطاء الأفضلية لفرنسا وبريطانيا (كل فى منطقة نفوذه) فى المشاريع والقروض، وكذا الانفراد بتزويد «منطقة النفوذ» بالمستشارين والموظفين الأجانب. ومن الواضح أن الولايات المتحدة وإسرائيل سوف تحلان محل اللاعبين الأساسيين فى مرحلة «سايكس-بيكو» (بريطانيا وفرنسا)، مع مراعاة فروق التوقيت وظروف العصر.

ورغم كل ذلك، لا يصل «برنارد لويس» (وكما قلنا هو من غلاة المفكرين الغربيين المناصرين للصهيونية) إلى حد الحديث عن موت حركة القومية العربية، وإنما يلاحظ انحسار واحتجاب موجتها فى الوقت الحاضر، وتحلل العالم العربى كوحدة سياسية متماسكة، ويؤرخ لذلك منذ غزو إسرائيل لبيروت عام ١٩٨٢، ويشير إلى ذلك بقوله أنه: «من التهور القول إن فكرة الوحدة العربية قد اندثرت، لأن كثيراً من المقومات التى أدت إلى ظهورها مازالت موجودة. ولكنها فى الوقت الحالى، وفى المستقبل المنظور فإنها لا تعتبر قوة سياسية يعتد بها».

إن الوضع الراهن أخطر من أن يترك لمناظرات فكرية مجردة، تدور حول نفسها وترضى غرور بعض المثقفين، وقلما تخرج بخطط وبرامج عمل محددة للتحرك المضاد، وحصار المخططات الجديدة- القديمة التى توضع الآن موضع التطبيق بعد احتلال العراق.

لابد إذن من الخروج من حالة الشلل الراهنة، ولابد من التحرك بسرعة على كافة المستويات وعلى أسس علمية وعملية. فهناك قانون يقول: «لكل فعل.. رد فعل، مضاد له فى الاتجاه»، وإن لم يكن مساوياً له فى المقدار. إن مواجهة هذه التحديات الجديدة، بتعقيداتها وتداخلاتها الإقليمية والدولية، هى مهمة شاقة بطبيعتها يعجز عنها جهاز بعينه أو دولة عربية بمفردها. ولذا لابد من تضافر مبادرات ومجهودات فرق عمل، سواء على مستوى الأجهزة الرسمية المهتمة بقضايا الأمن القومى والمصير العربى، أو على مستوى قيادات القوى السياسية والمنظمات المهنية والنقابية (بما فى ذلك منظمات رجال الأعمال). ■



الهوامش:

1- Richard Nixon, Seize the Moment (New York: Simon and Schuster, 1992), chap. 5: "The Muslim World".

2 -Bernard Lewis, Rethinking the Middle East

أنتِ بيـــروت

■■ بين ألفـة الحنين.. وبريق المعاصـرة، تظل هناك علامة استفهام، أزليـة الوجـود.. أبـدية الإلحـاح. وتظـل هنـاك ـ بيـن القطـــبين ـ «وجهات نظر».

ماذا بعد الحرب.. غير الدمار. سواء جاء رُخ الخراب الأسطورى عبر البحار.. والمحيط، إلى الفرات. أو أفرخت الأفاعى بيضها المطمور فى تربة قلبتها وعبثت بها كل الأصابع، والحوافر.. بل والحناجر.

هكذا بيروت (العروس) كانت لعقد كامل من الزمان. لم تكن فيه تعرف على وجه الدقة، من يحارب من؟ أو بالأحرى من يحارب لمن؟!

وللحروب ثمن. يعرفه من زار تلك المدينة الجميلة بعد الحرب. ويعرفه من شاهد هذا الكتاب.

انتهت الحرب/الملهاة. وعادت بيروت إلى أهلها الطيبين وعادت «أجيال الغربة» إلى وطن، ربما لا يعرفون مذاقه ولم يشموا عبقه الذى عشقه عرب نصف القرن المائج المدعى اختصـارًا : (العشرين): مفكرون، وسياسيون، وأدباء.. وبسطاء. ومدمنون لرائحة الزعتر.. وصوت فيروز.

بيروت تعافت. وكالطائر الفينيقى فى الأسطورة الشهيرة، ها هى تخرج من تحت الرماد.

قبل أشهر صدر كتاب مصور بعنوان «ذاكرة بيروت»
وهنا وجهتا نظر فى المشهد البيروتى «الآن»
صور الكتاب رصدت تغيرًا إيجابيًا حدث فى المكان.
وقلم كاتبتنا شاهد تغيرًا عوليًا حدث فى البشر
وبين الرؤيتين.. ستظل دائمًا علامة الاستفهام. ■

المحــرر



أنتِ لـــــى!

رنـــــا حـــايـــك

■■ فى تلك الليلة لم أنم، وتملكنى ألم فظيع فى المعدة جعلنى أتقلب فى فراشى حتى بزوغ الفجر..

فجر نهار بدأته فى القاهرة وأنهيته فى بيروت بعد غياب دام ثلاثة أشهر، كيف سأراها يا ترى وكيف ستراني؟

هى التى هربت منها بعدما انسابت بين أناملى يوماً بعد يوم حتى فقدتها فى كل شىء إلا فى صوت فيروز تغنى سحر بحرها وخضرتها وبركة مياهها والجبال..

ودّعته وأنا أعده بتوفير مسرحيات فيروز وعاهدت نفسى على أن تكون أول ما أبحث عنه..

وصلت لبنان وتهت فى شوارعه النظيفة، المبتلة بالمطر أفتّش.. قصدت وسط المدينة، بيروت العروس فى أبهى حللها وأرقى تجلياتها فلم أجد فيروز..

غابت فيروز عن مربع منتجع «سوليدير» السياحى فى وسط البلد، حيث تمركزت أفخم محلات بيع الأشرطة والتسجيلات، أُسقطت فيروز «بيت الدين» و«بعلبك»، ولم يحتل الأرفف المنمقة أمامى سوى حفلة واحدة فقط: «فيروز فى لاس فيجاس» هذا بالضبط، وهذا فقط ما يعرفه السائحون ويهمهم..

خرجت أجر ذيول الخيبة ورائى، وقلت ربما يعزينى تجوال حالم فى شوارع وسط المدينة الجديدة الباهرة.

لم أعرف المكان ولم يعرفنى.. باعتنى المدينة.. باعت ذكرياتنا ودفعت الثمن مهراً لقواد تألقت له بأحلى حلة مستوردة.

فرضت عجلة الاقتصاد والسياحة على بيروت نمطًا استهلاكيًا علمها أن تحذو حذو مراهقة أمريكية: لا قيمة للعلاقات مع المكان والإنسان أمام ضرورة التجديد للمحافظة على الموقع الأول فى صف المنافسة فى مباريات ملكات الجمال.

(جدو أبو حسن) الذى كان محطتى لأشترى منه كل يوم مخزونى من منتج شوكولا لبنانى لشركة غندور اللبنانية (رأس العبد) لم يعد موجوداً، وحل محله مطعم فخم ذو زجاج لامع.

ذاكرة بيروت
صور: أيمن تراوى
بيروت: أيمن تراوى، ٢٠٠٣



لم يعد هناك من مجال لبناء تاريخك الشخصى فى مدينتك فهى باعتك بثمن بخس، واستبدلت بك جوقة من المرتزقة يغتصبون جمالها يوماً بعد يوم.

لم أجد بيروت.

قناع الراقصة المتأنقة أخفى تجاعيد الأم الحنون وبت أشعر فى أحضانها بالصقيع.

الجو برد فعلاً، لكن هذا لم يمنعنى من إكمال نزهتى، ربما أجدها تفترش إحدى النواصى على شكل زهرة تقوم يد المستثمر التى ترشها كل يوم بمادة كيميائية لتزهى ألوانها الاصطناعية.

شددت معطفى على جسدى أحايل الهواء الذى يحاول الوصول إلى ضلوعى ومشيت.

ساحة النجمة، البرلمان. شارع طويل يمتد بين رصيفين يعجان بالمقاهى الفخمة يعتلى كراسيها أقرباء لنا يحدجون الفاتنات اللبنانيات بنظرات شبقة، ويستعدون مسبقاً لتمتمة بعض الكلمات وربما لتبادل أرقام التليفونات معهم.

آه يا بلد.

لكننى سأمر.. وسأجد بيروتى، مدينتى، زهرتى، بحرى وأمى. مبان مرممة بتأنٍ، ودقة لا تترك مجالاً للفوضى الجميلة.

مبان وشوارع محت ١٧ سنة من الحرب وشركة استثمارية سعيدة بنجاحها لم توفر على نفسها فرصة التغنى بما اقترفت يداها: معرض صور على طول الشارع زاخر بعرض إنجازاتها بعد الحرب، جسد المدينة المشوة وعمليات التجميل التى أجريت له، غاب عنهم أن الجمال مرتبط بالمعنى، وأن التشوه هو فى كمال الصورة التى تفتقر إلى العمق لا فى عيوبها الإنسانية الحقيقية.

كان المتحف جميلاً حين اعترف بالحرب.

حين دخلته أول مرة بعد افتتاحه، أحببت أن أحتضن جدرانه الوسخة الملطخة بذكريات القناصين والمتحاربين الذين تركوا عليه رسائل حب ووداعات وجمل حشاشين يائسين.

بيروت الجديدة محت تاريخها، وخلت من الذكريات. نظرت إلى اللوحات









بأسى وحنين لماض سرقوه منى قبل أن أعيشه ويعيشنى، ولم ينبهنى غير صوت يرطن بالفرنسية لفتاة بيروتية تعبر بتأثر عن مدى جمال ما آلت إليه بيروت فأحسست بالغربة.

لفظتنى مدينتى ونفتنى، اقتلعت تاريخ أهلى وفتحت يدين مجليتين للوافد الأغر..

لست ضد الترميم لكننى ضد التنميط..

لست ضد الجمال لكننى ضد السطحية..

لست ضد مهرجانات التسوق ومفخرة بيروت سويسرا الشرق لكننى ضد بلد يلفظ أبناءه، ويمزق تاريخه فى سبيل بيع جسده.

أنا لا أنكر أن التحدى كان كبيراً على المرممين، وأعرف أنهم بذلوا مجهودات وطاقات خرافية للحفاظ على نفس الطراز المعمارى للأبنية، مرتكزين على تمويل الشعب الذى دفع من عائداته الشخصية نقوداً على شكل ضرائب للنهوض ببيروت.

لكننى ألوم عيونهم الأوروبية، كيف أنها لم تلحظ تفتت الهوية بين أياديهم البناءة وانسياب الوطن من بين أنامل أهاليه.

وسط بيروت. لمن هو؟

هو بالتأكيد ليس لمن دفع من عرقه ودمائه فى ترميمه، لأنه آل إلى منطقة باذخة ومترفة لا يستطيع رشف قهوته الصباحية فيها دون أن يدفع مبلغاً يفوق طاقته.

(سوق سرسق)، (سوق النورية) وأسواق أخرى اختفت أمام El Parlamento, Diva Bar, Casper and Gambini ومحلات لبيع الألبسة الإيطالية، فمن هو اللبنانى رائد وسط بيروت؟

Cut!!

مشهد آخر، شارع الحمرا الطويل وأصوات باعة الجرائد على الأرصفة. ساحة الشهيد (خالد علوان) بالتحديد. هذا البطل الذى فجر نفسه على ناصية (الومبى)، المقهى الذى كان يشرب فيه ضابط إسرائيلى قهوته أيام الاجتياح، فمات قبل إنهاء فنجاله الساخن.





كلا لن أدخل إلى الومبى، فأنا أشتم فيه رائحة نخبوية رواده. سأدخل المودكا، هذا المقهى ابن العشرين ربيعاً المنفتح على كل أشكال الحياة وأنواع الزبائن..

مناضلو الستينيات تركوا بصماتهم على طاولاته، منظرو كل الأزمان يرتادونه. الفنانون والرسامون، الكتاب والشعراء، البسطاء والناس العاديون يحبون الجلوس على كراسيه المرصوصة على الرصيف المشمس.

سأطلب القهوة وأشترى الجريدة من عم (رمّال) قريب (رمّال رمّال)، ذلك النابغة اللبنانى الذى درس فى الغرب بمنحة، وعمل فى الغرب بلعنة جعلتهم يصفّونه جسدياً عندما طلب زيارة أهله فى لبنان حتى لا يحمل معه أسرار مختبراتهم العلمية.

اعتقدت لوهلة أننى أخطأت الشارع، لكن يا ربى.. هذا لا يعقل.. هذا هو الومبى ثابت فى مكانه. وCafé de Paris على الرصيف المقابل، وبيروت لم يضربها زلزال عن قريب.. فأين المودكا؟

لماذا يحتل زاويته عمال وخشب وتفوح من قبره رائحة تراب وغبار؟

هذا لأن صاحب المودكا المصون باعه



لشخص جديد علّق على بابه يافطة مكتوبًا عليها: قريبًا افتتاح محلات Vero Moda للألبسة.

كادت أن تفلت منى صرخة كبتّها فاستحالت غصة مازالت فى صدرى حتى الآن.

ما هذا التحامل على الذاكرة؟

لم هذا الإصرار على النهج الاستهلاكى؟ ولماذا تدهسنا عجلة الرأسمالية المتوحشة وتطمس عوالمنا وتمحو تاريخنا؟

ومن ألوم؟

عدت أحمل المرارة فى نفسى، وفى يدى جريدة سأقرأها فى المنزل. لن أقرأ الجرائد فى Star Bucks Café إن كان هذا هو ما يريدونه.

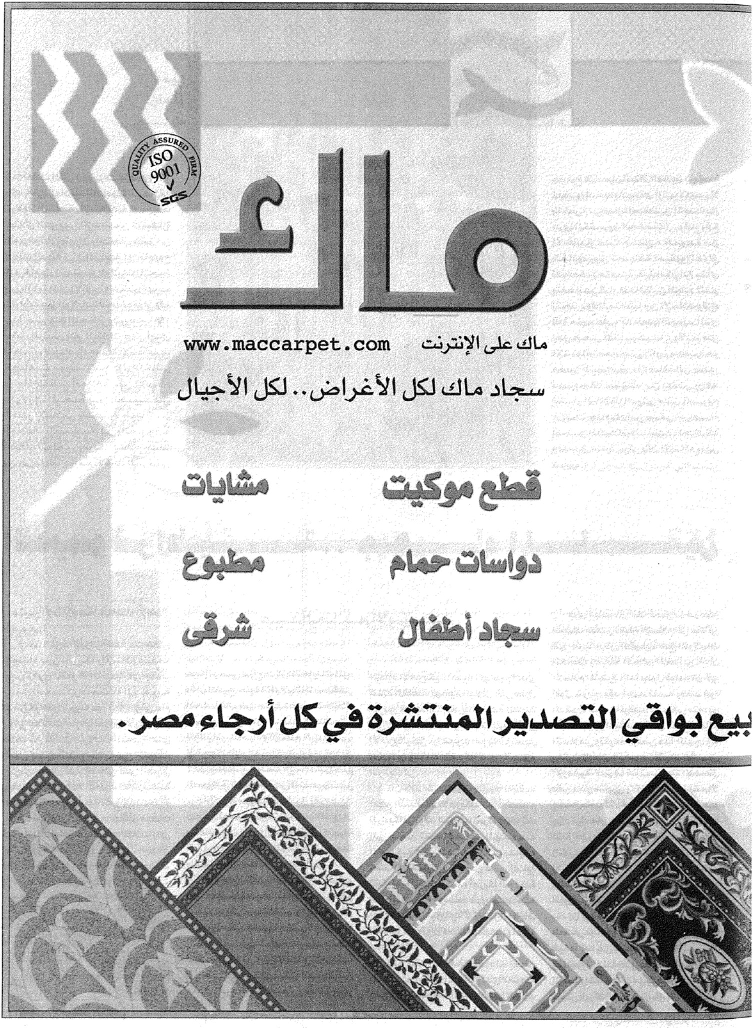
لن يحصل.

وبالمناسبة، لم أعد إلى القاهرة دون أشرطة فيروز، وجدتها فى زقاق قديم بمنطقة حزام البؤس البيروتى فى الضاحية الجنوبية، هناك حيث مازالت تطفو أغنية الصرف الصحى حين تمطر بغزارة..

هناك عاش صوتها ولم يمت بين بشر نجوا من موجة التحديث الهوجاء، فعاش الوطن فيهم، وعاشوا على هامشه.■

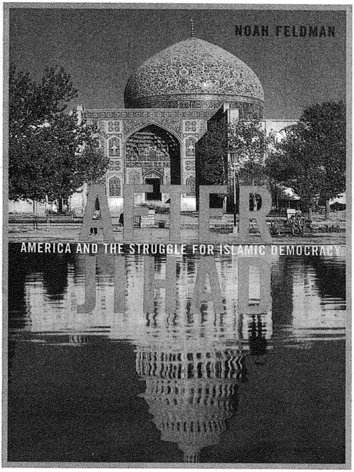



مال
متواجد في مراك


ISO 9001
QUALITY ASSURED FIRM
SGS
ماك
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
مشايات
دواسات حمام
مطبوع
سجاد أطفال
شرقي
بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل أرجاء مصر.

الديموقراطيـــــة.. جهــــاد المسلمين

عبد العليم الأبيض



كانت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ علامة من العلامات الفاصلة فى علاقة الولايات المتحدة بالإسلام، خاصة بعد احتلال الثوريين الإيرانيين للسفارة الأمريكية فى طهران واحتجاز رهائن من أعضاء السفارة.. وبالنسبة للإمام روح الله خامينى أصبحت الولايات المتحدة هى «الشيطان الأكبر» واستعر لهيب الكراهية بين الولايات المتحدة وإيران ولم يهدأ حتى هذه اللحظة. وفى عام ١٩٨١ اغتيل الرئيس أنور السادات على أيدى منظمتى الجهاد والجماعة الإسلامية. وتصاعدت موجة الإسلام الراديكالى وفجأة انقلبت العلاقة بين الإسلام والولايات المتحدة وبدأ الحديث عن الخطر الإسلامى بعد فترة طويلة من العلاقات الطبيعية، بل والحميمة أحياناً.. ألم تعتبر أمريكا الإسلام حليفاً فى حربها الباردة. مع الاتحاد السوفيتى باعتبار الإسلام سلاحاً ضد الإلحاد الشيوعى؟

ومنذ الثورة الإيرانية تسارعت خطى الصدام بين أمريكا والإسلام عندما فجرت قوى المقاومة الشيعية فى جنوب لبنان معسكرات مشاة البحرية الأمريكية فى بيروت عام ١٩٨١. وفى عام ١٩٩١ اندلعت حرب العراق الأولى وما تلاها من تدخل الولايات المتحدة الذى انتهى بطرد صدام حسين من الكويت، وفرض حصار غير إنسانى على العراق بعد أن دمرت آلة الحرب الأمريكية الجهنمية معظم بنية العراق التحتية وعادت بالعراق على حد تعبير مبعوث للأمم المتحدة فى هذا الوقت إلى «العصر الحجرى». وتوالت أحداث العنف. ففى عام ١٩٩٤ فجرت الجماعة الإسلامية المتطرفة بقيادة الشيخ عمر عبد الرحمن أبراج مركز التجارة العالمى، وكان الشيخ حليفاً للولايات المتحدة فى أفغانستان فى حربها ضد الاحتلال السوفيتى. وتسارع مسلسل العنف بين الولايات المتحدة والإسلام الراديكالى، إذ فجر تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن مجمع الخبر السكنى فى السعودية، ثم سلسلة من التفجيرات فى سفارتين لأمريكا فى شرق أفريقيا. أعقبها توجيه ضربات موجعة للسودان وأفغانستان والعراق. ثم كانت الضربة التى غيرت تاريخ الولايات المتحدة والشرق الأوسط، بل والعالم بأسره عندما وجه تنظيم القاعدة هجمات غير مسبوقة باستخدام طائرات مدنية فى تدمير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى مشهد درامى لن ينساه الأمريكيون، ثم ضرب مبنى البنتاجون مقر وزارة الدفاع الأمريكية فى حى أرلنجتون على بعد دقائق معدودة من البيت الأبيض ومعظم مقار الإدارة الأمريكية. شُبِّه الهجوم الذى شنته القاعدة بهجوم اليابان على بيرل هاربور فى بداية الحرب العالمية الثانية فى آثاره النفسية الغائرة على الأمريكيين. وتغيرت أمريكا وتغير العالم، وبدأت المعركة ضد الإسلام الراديكالى.

كان لابد من التعرض لهذه الخلفية لفهم السياسات الأمريكية تجاه الإسلام الراديكالى، وقد اتسعت المعركة وتحولت إلى سعى نشط لفرض الهيمنة الأمريكية على العالم.. كانت بدايته احتلال العراق والعمل على إعادة تشكيله، وربطه بسياسة أمريكا الجديدة فى الشرق الأوسط فى سياسة استراتيجية إمبريالية لا تعتذر الولايات المتحدة عنها، وإن كانت تصمها بأنها دولة إمبريالية.

بعد هذه المقدمة الطويلة بعض الشىء نعود إلى الكتاب الذى نعرضه على الصفحات التالية.. مؤلف الكتاب هو نوح فيلدمان أستاذ القانون بجامعة نيويورك. وهو يهودى أرثوذوكسى لا ينتمى إلى تيار المحافظين الجدد، بل يرى الكثيرون أنه معتدل. وقد وقع الاختيار عليه ضمن مجموعة من القانونيين لصياغة دستور العراق الجديد. وما يميز فيلدمان أنه ينأى بنفسه عن تيار المحافظين الجدد الذى يتخذ موقفاً متصلباً من الإسلام، وتراه فئة منهم على أنه العدو الجديد الذى حل محل الشيوعيين، ولابد من الاشتباك معه حتى يكون مصيره هو مصير الشيوعية!، بالإضافة إلى صدور تصريحات حمقاء من بعض روافد التيار المحافظ الدينى مثل تصريح فرانك جراهام ابن بيلى جراهام أهم القيادات الدينية المحافظة وصديق أسرة بوش بأن الإسلام «دين شرير».

يرى فيلدمان أننا تجاوزنا مرحلة الجهاد، بمعنى تعبئة الإسلام الراديكالى فى حرب حتى النهاية مع الولايات المتحدة زعيمة العالم الغربى، إذ أن الإسلام المتطرف كما يقول فيلدمان فى أفول سريع، وقد أجهد نفسه وفقد قوة الدفع لا بسبب الموقف الأمريكى منه، بل لأن جماهير المسلمين على اتساع العالم الإسلامى وتنوعه ترفض هذا النهج. ولا يعنى ذلك أننا بصدد انتهاء الأعمال الإرهابية، فسوف تستمر هذه الأعمال على نحو متفرق ولكنها ستكون أعمالاً يائسة محبطة. حتى هجوم ١١ سبتمبر يراه فيلدمان على أنه حشرجة يائسة لتيار مهزوم. لقد وهن الحماس للجهاد الثورى، وأينما توجهت أبصارنا، لا نرى إلا هزائم لهذه القيادة فى أفغانستان والسودان وإيران.. لقد فقد الجهاد الثورى بريقه.

إن لُب ما يذهب إليه فيلدمان، هو العكس تماماً مما ذهب إليه فرانسيس فوكوياما فى كتابه «نهاية التاريخ»، وصامويل هنتنجتون فى كتابه «صدام الحضارات»، وحتى ما يذهب إليه برنارد لويس فى كتابه الأخير «أزمة الإسلام»..

After Jihad: America and the Struggle for Islamic Democracy
(ما بعد الجهاد: أمريكا والصراع من أجل الديمقراطية الإسلامية)
Noah Feldman
Farrar, Straus and Giroux, 2003,
$ 24.00

إن لب ما يذهب إليه فيلدمان، هو العكس تماماً مما ذهب إليه فرانسيس فوكوياما فى كتابه «نهاية التاريخ»، وصامويل هنتنجتون فى كتابه «صدام الحضارات»، وحتى ما يذهب إليه برنـــارد لويـــس فى كتابـــه الأخير «أزمة الإســـلام».. إذ يؤمن فيلدمان أنـــه ليـــس هنـــاك تعـــارض جوهـــرى بين الإســـلام والديمقراطيـــة

إذ يؤمن فيلدمان أنه ليس هناك تعارض جوهرى بين الإسلام والديمقراطية، وأن الوقت الراهن هو وقت واعد لإحداث تزاوج بين الإسلام والديمقراطية. فمفهوم العدالة والأخلاق والأمل والالتزام فى الإسلام هو مفهوم يتسم بالعمق. وهو فى الوقت ذاته قوة هائلة يمكن أن تثرى العمل السياسى والاجتماعى.. إن قوة الإسلام فى حياة المسلمين لا تتعارض مع اتجاه مئات الملايين من المسلمين الذين يؤمنون بحكم أنفسهم بأنفسهم. هذه الحقبة الحالية، حقبة ما بعد الجهاد تشهد تكثيفاً فى نمو الحركات الشعبية الإسلامية التى تؤمن بنوع من الديمقراطية وهى ديمقراطية تتطور باستمرار وتنشد سياسة حكم رشيدة. إن مفهوم الجهاد الأكبر، جهاد النفس، الذى ينسب إلى الرسول ﷺ هو فى أدق معانيه للديمقراطية حتى وقت قريب هى تفضيل الولايات المتحدة للنظم الأوتوقراطية، وإن كانت هذه السياسة تخضع لمراجعة واضحة الآن. لقد قدمت هذه النظم نفسها على أنها الحامية للاستقرار الذى يخدم المصالح الأمريكية ضد الخطر الذى يشكله الإسلاميون. فى الوقت نفسه أخلت هذه النظم الساحة السياسية من أى قوى سياسية فاعلة، حتى تبدو للأمريكيين بأنها البديل الوحيد. ويكرر الكاتب هذه النغمة من أول الكتاب لآخره، ويشدد عليها وينصح الولايات المتحدة بالتخلى عن هذه النظم.

ويرى الكاتب أن الثمن الذى ستدفعه الولايات المتحدة إذا ما واصلت دعم هذه النظم سوف يكون باهظاً فى المدى البعيد. هذه السياسة تضع الولايات المتحدة فى موقع العداء لشعوب هذه أخرى قد تعزز من مصداقية الطرح الذى يأتى به كتاب «ما بعد الجهاد». إذ يعترف الكاتب. على عكس المحافظين الجدد. أن إسرائيل وسياسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين هى عامل مهم فى أزمة الثقة بين الولايات المتحدة والشعوب الإسلامية. بل إنه ينتقد بشدة كتابات المحافظين الجدد الذين يتجاهلون العامل الإسرائيلى فى نشوء الإرهاب، بما فى ذلك برنارد لويس وتلميذه النجيب بول وولفويتز فيلسوف الاتجاه.

يقع الكتاب فى ثلاثة فصول رئيسية تنقسم بدورها إلى أجزاء عديدة فرعية. الفصل الأول يتناول فكرة الإسلام وفى إيران أدى نجاح الثورة الإسلامية إلى اعتناق أعداد غفيرة من الإسلاميين عقيدة الإسلام الثورى من خلال الجهاد العنيف.

وعندما اغتيل الرئيس السادات عام ١٩٨١ رفض الإسلاميون إدانة هذه الجريمة. وفى الجزائر لجأ الإسلاميون إلى العمل المسلح وتعددت المنظمات الجهادية فى العالم خلال فترة الثمانينيات، وظهر أسامة بن لادن على المسرح وأصبحت منظمة القاعدة أشهر المنظمات الجهادية التى نفذت أجرأ عمل إرهابى، ولكن كما سبق ذكره كان تدمير مركز التجارة العالمى عملاً يائساً أملاه فشل العمل الجهادى فى الإطاحة بالنظم الأوتوقراطية فى السعودية ومصر. ومن ثم اتجه العمل الإرهابى إلى مهاجمة حامى هذه النظم.

الأكـــبر... رؤيـــة أمريكيـــة!

جهاد من أجل العدالة. كما أن تصارع الأفكار لا ينبغى أن يفضى بالضرورة إلى صراع. إن الخطاب الإسلامى، فى لبه، هو خطاب العدالة وسيادة القانون والشورى والمسئولية.

المعضلة الأساسية للديمقراطية فى العالم الإسلامى كما يراها فيلدمان ليست العقيدة الإسلامية ولكنها فى نظم الحكم الديكتاتورية والأوتوقراطية، والانفصام بين هذه النظم وشعوبها. إنها نظم تستميت فى الدفاع عن أماكنها المغتصبة فى الحكم والاقتصاد والأمن. فضلاً عن ذلك يعترف فيلدمان بالتنوع الشديد بين البلاد الإسلامية فيما يتعلق بالتقدم نحو الديمقراطية والظروف الاقتصادية والاجتماعية، ولكن النظم الديكتاتورية تقف بشراسة ضد الديمقراطية الحقيقية. وفى هذا الصدد يشير الكاتب إلى سوريا وقصفها الوحشى لمدينة حماة وإلى نظام صدام حسين الرهيب. وهناك عقبة أخرى كأداء النظم وإحباط آمالها. وفى النهاية سوف تشيع اليأس فى نفوس القوى الإسلامية الديمقراطية وتعمق أزمة الثقة بينها وبين هذه القوى. وتعرى نفاق السياسات الأمريكية والتشدق بأنها تحمى وتدافع عن الديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة بينما تتنكر لها فى الواقع. كما أن استمرار هذه السياسة سوف يصعب من حل الصراع الإسرائيلى. الفلسطينى حيث سيرفضه الإسلاميون الذين يتهمون حكوماتهم بالانصياع لأمريكا، وسوف تظل أمريكا مرتبطة فى أذهانهم بمساندة الاستبداد والقمع.

هذا هو لب الموضوع فى كتاب فيلدمان، ولكن الأمر يحتاج إلى تفصيل أكثر. فحسب معرفتى فإن فيلدمان يقدم دفاعاً منطقياً ومتسقاً عن إمكانية تزاوج حقيقى بين الإسلام والديمقراطية. فهو يسوق حججاً قوية أكثر من أى كتاب آخر قرأته فى هذا الموضوع. وثمة قضية والديمقراطية، والفصل الثانى يتناول تنوعات الديمقراطية الإسلامية. ويتناول الفصل الأخير ضرورة قيام الديمقراطية الإسلامية والنتائج والتوصيات التى يصل إليها الكاتب، خاصة فيما يتعلق بسياسة الولايات المتحدة تجاه العالم الإسلامى.

وفى الفصل الأول الذى يتناول تفاعل الديمقراطية مع الإسلام، يشير المؤلف إلى محاولة إقامة أول ديمقراطية إسلامية فى العالم الإسلامى عندما اكتسح الإسلاميون عام ١٩٩١ الانتخابات المحلية فى الجزائر، الأمر الذى أصاب حزب جبهة التحرير الوطنى بالرعب فسارع إلى إلغاء نتيجة هذه الانتخابات والبطش بزعماء جبهة الإنقاذ سجناً وتعذيباً. وأيدت كل من فرنسا وأمريكا عملياً هذا الموقف من حكومة جبهة التحرير. وكانت النتيجة أن غرقت الجزائر فى بحر من الدماء من جراء الحرب الأهلية المستمرة حتى الآن. وانتهت أول تجربة إسلامية فى الديمقراطية قبل أن تبدأ.

ديمقراطية الإسلام.. ليست ديمقراطية الإسلاميين:

يميز الكاتب بين الديمقراطية الإسلامية وديمقراطية الإسلاميين. وقد أصبح من الشائع استخدام تعبير الإسلاميين للإشارة إلى العقائد الإسلامية الراديكالية والأصولية. وفى رأى الكاتب، فإن الإسلاميين بهذا المعنى لا يعيرون أى اعتبار للديمقراطية. وهم يروجون لتفسير ضيق للشريعة على غرار إيران الخومينى أو طالبان أفغانستان.. إلخ. أما الديمقراطية الإسلامية فى رأيه فتتسع لتشمل الديمقراطية فى تعريفها التقليدى، أى حكم الشعب وسيادة القانون وضمان الحريات الأساسية ومبدأ المساءلة. وفيما يتعلق بالديمقراطية الإسلامية، فإن من الصعب تصور قيام حركات ديمقراطية شعبية على نحو ما حدث فى بولندا.. السبب فى ذلك هو إمعان النظم الأوتوقراطية فى قمع الإسلاميين

فيما يتعلق بالديمقراطية الإسلامية، فإن من الصعب تصور قيام حركات ديمقراطية شعبية على نحو ما حدث فى بولندا.. السبب فى ذلك هو إمعان النظم الأوتوقراطية فى قمع الإسلاميين الديمقراطيين وغيرهم على نحو ما نعرف فى حالة الجزائر

الديمقراطيين وغيرهم على نحو ما نعرف فى حالة الجزائر. تفعل ذلك النظم الديكتاتورية وتصوره على أنه عمل وقائى ضد التطرف والأصولية. وانطلت هذه الخدعة على الولايات المتحدة وكان من أثر ذلك توارى الإسلاميين الديمقراطيين عن الأنظار اتقاءً لحملات القمع التى شنتها الأنظمة سابقة الذكر.

ويتعرض المؤلف لبعض المفكرين الغربيين الذين يروجون فى نظرياتهم لاستحالة الديمقراطية فى الإسلام. وأشهر هؤلاء المفكرين هو صامويل هنتنجتون. وقد حالف هنتنجتون بعض التوفيق عندما وقعت حوادث ٩/١١ والتى لم تكن إلا هجومًا على الحكومات الإسلامية من خلال الهجوم على الولايات المتحدة. وينتمى برنارد لويس إلى هذه المجموعة التى تذهب إلى عدم إمكانية التعايش بين الإسلام والديمقراطية. وللإنصاف فثمة مفكرون إسلاميون يؤمنون بنفس هذه المقولة. وإن كان هناك اتجاه آخر مؤداه تبنى الأفكار الغربية مع رفضها فى الظاهر، والزعم بأن هذه القيم التى تسمى غربية إن هى إلا قيم راسخة فى الإسلام!

يرفض فيلدمان الأفكار الرافضة لإمكانية التعايش بين الإسلام والديمقراطية، ويؤكد أن كلاً من الفكرتين تتسم بصفتين أساسيتين هما العالمية والتنقلية. هاتان الخاصيتان كانتا وراء الانتشار السريع للإسلام والديمقراطية فى كل أنحاء العالم. إذ من خصائص الأفكار التنقلية المرونة والقدرة على التكيف فى بيئات وحضارات متنوعة جد التنوع. أليس ما يقال عن الإسلام اليوم كان يُقال عن العقيدة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذوكسية فى شرق أوروبا؟ ما علينا إلا أن نتأمل تاريخ الإسلام فى الهند وإسبانيا وانفتاح الإسلام على حضارة اليونان القديمة ونقلها إلى أوروبا. كل ذلك يبرهن على حيوية ومرونة الإسلام، ويقول المؤلف:

«إن التاريخ القصير للإسلام السياسى يدل على أنه من الخطأ دائمًا إقصاء الإسلام. لقد بدا الإسلام ضعيفًا كقوة سياسية منذ ١٠٠ عام، ومرة أخرى منذ ٥٠ سنة، ولكنه بقى حيًا فى كل مرة. وبعد تجربة الإسلام السياسى فى إيران فليس من المتوقع أن يدخل الإسلام فى بيات شتوى حتى تتاح الفرصة لدول أخرى خوض التجربة بأى صورة من الصور. لقد ولد الإسلام كحركة احتجاج ضد الحكومات العربية التى يدعمها الغرب، ومازال يشكل المعارضة فى كل البلاد الإسلامية. وهذا يعنى أن المسلمين الذين يكرهون حكوماتهم لكونها حكومات غير عادلة وباطشة سوف يتعاطفون، ولو على نحو ما مع الأفكار الإسلامية. إذ يتمتع الإسلام ببعض المرونة ويصور نفسه دائمًا كناشر للعدالة، وهو ما يستحوذ على أذهان وقلوب الناس، خاصة فى غياب العدالة المنشودة».

تنوع الديمقراطية:

فى هذا الجزء يشير المؤلف إلى تجربة إيران وتركيا وكذلك تجارب جنوب شرق آسيا وباكستان ثم المنطقة العربية. وفى استعراضه لتجارب هذه النماذج المتعددة يخلص المؤلف إلى أن النتيجة ليست إخفاقًا كاملاً أو نجاحًا كاملاً، بل خليط من النجاح والإخفاق. ولا يخفى فيلدمان تفاؤله بمستقبل الديمقراطية فى تركيا والأردن والمغرب. ولكنه فى نفس الوقت ليس متشائمًا تمامًا بالنسبة لمستقبل الديمقراطية فى الدول الإسلامية الأخرى.

تستحوذ إيران على جزء كامل فى الكتاب للأهمية الواضحة لإيران كأكبر دولة شيعية وكأول دولة إسلامية تخوض تجربة ثورية إسلامية خالصة.. المتفائلون بالنسبة لإيران يشيرون إلى انتخاب محمد خاتمى رئيسًا للجمهورية فى انتخابات حرة نزيهة رغم أنف النظام الثورى الإيرانى المتمثل فى «مجلس الأوصياء» المحافظ والذى مازالت له الكلمة الأخيرة. والمتشائمون يشيرون إلى قوة القوى المحافظة. ولكن تجربة خاتمى هى أهم تجربة ديمقراطية نابعة من صلب العالم الإسلامى فى دولة إسلامية. وما على الولايات المتحدة إلا أن تشجع هذا الاتجاه وتعترف بالتطور الذى حدث فى إيران منذ رحيل الإمام الخومينى فيما يتعلق بنزاهة الانتخابات ومعارضة الشباب للاتجاه المحافظ ومشاركة المرأة المتزايدة فى الحياة السياسية.

فيما يتعلق بتركيا يمكن القول أنها دولة ديمقراطية منقوصة نظرًا للدور الفريد الذى يقوم به الجيش فى حماية الدستور والعلمانية.. ولاشك أن تركيا هى أكثر دول العالم الإسلامى ديمقراطية، بالرغم من نفوذ الجيش وبالرغم من عزل الجيش لأول حكومة يرأسها نجم الدين أربكان رئيس حزب الرفاه بعد انتخابات عام ١٩٩٥ الذى حصل فيها الحزب على نسبة عالية من الأصوات مكنته من تشكيل حكومة ائتلافية. وإنصافًا فإنه فى كل مرة كان يتدخل فيها الجيش كان يقوم بتسليم الحكم إلى حكومة أكثر ديمقراطية. الأمر الآخر هو أن الأحزاب الإسلامية فى تركيا لم تدع أبدًا إلى العنف أو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. والتجربة التركية توحى بشدة بإمكانية قيام ديمقراطية إسلامية.

وما يقال عن تركيا يمكن أن يقال عن تجارب أندونيسيا وماليزيا وباكستان. فعلى الرغم من تعثر التجربة الديمقراطية فى هذه البلاد مازالت هناك إمكانيات لا بأس بها لقيام الديمقراطية. ويؤكد الكاتب الظروف الخاصة لأندونيسيا وماليزيا، أولاً لنوعية الإسلام الذى انتشر هناك. إذ لم ينتشر بالغزو بل بالإقناع. فضلاً عن فضائل التسامح الذى يميز حضارة هذه المناطق. وفى باكستان يشير الكاتب إلى موقف الصفوة الباكستانية التى لم تتخل أبدًا عن مبدأ المواءمة بين الديمقراطية والإسلام. فضلاً عن تجربة الباكستانيين الطويلة فى مداولات العلاقة بين الإسلام والديمقراطية.

ولا ييأس الكاتب من إمكانية قيام ديمقراطية فى دول العالم العربى على ما بينها من اختلافات وتنوعات. إلا أن الكاتب وغيره كثيرون، يرون أن الديمقراطية تواجه أصعب امتحاناتها فى المنطقة العربية. ومما يميز الدول العربية الملكية أو العسكرية الفقيرة أو الغنية هو الحكم الديكتاتورى، وإن اختلفت حدته فى سوريا والعراق مثلاً من ناحية ومصر من ناحية أخرى.

فالديمقراطية فى هذه الدول تواجه محنة شديدة تتمثل فى الحظر على تكوين الأحزاب السياسية وعلى الحريات وغياب الضمانات القانونية. وهناك السجون وتلفيق التهم للمعارضة. ومع ذلك فرياح التغيير بدأت تهب على المنطقة. حيث نشهد تحركات طبقات الأرض التحتية السابقة لقيام الهزات الأرضية. فنرى فى السعودية مهد الحكم الوهابى المتشدد من ينادى بإجراء الانتخابات. وهناك تجربة البحرين المبشرة بالأمل.

اللغز المصرى:

يخصص الكاتب جزءًا كاملاً عن مصر تحت العنوان السابق. ويشير إلى أهمية مصر باعتبارها فى رأيه قلب العالم العربى جغرافيًا وحضاريًا وسكانيًا، وباعتبارها أكبر المصدرين لدول المنطقة لمنتجاتها الثقافية من أفلام وبرامج تليفزيونية ومسلسلات درامية. علاوة على ذلك فإن مصر هى مهد الإصلاح السياسى، والأصولية الإسلامية التى تتبنى العنف فى نفس الوقت. ويشير الكاتب إلى نمو التيار الإسلامى السياسى فى فترة الثمانينيات بعد أن ظل هامشيًا طوال تاريخ مصر المعاصر. ولكن الكاتب يزعم أن تفشى الفساد السياسى والاقتصادى وغياب الديمقراطية يلقى بظلاله الثقيلة على مستقبل الديمقراطية فى مصر. ومع ذلك يرى الكاتب أن الأفق ليس مسدودًا تمامًا فى مصر، فثمة إصلاحات فى الفترة الأخيرة، وثمة حريات أكثر قليلاً فى التعبير عن الرأى. كما أن الانتخابات التى أجريت عام ٢٠٠٠ تعتبر أفضل من الانتخابات التى سبقتها فى عام ١٩٩٧. ولكن الصورة العامة تظل قاتمة لدى المؤلف.

حاولنا جهدنا التركيز على استعراض الكاتب لمشكلة الديمقراطية والإسلام. وعلى عكس معظم أدبيات الدراسات الإسلامية التى صدرت فى الأونة الأخيرة فى الغرب عامة والولايات

المتحدة خاصة. يتميز فيلدمان برؤية إيمانية عميقة فى إمكانية قيام ديمقراطية إسلامية وسط لغط شديد فى بعض الأوساط الغربية الفكرية تحاول أن تثبت أنه لا مستقبل لديمقراطية إسلامية.

ويتعرض فيلدمان الآن خاصة بعد اختياره لصياغة دستور جديد للعراق لانتقادات كثيرة، بعضها موضوعى وبعضها انفعالى. فقد انتقده المفكر الكبير الدكتور إدوارد سعيد بقوله أنه يهودى أرثوذكسى، مع أن الكاتب اعتبر كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» من أهم الكتب التى صدرت فى القرن العشرين. ربما أكثر الانتقادات موضوعية هو ما جاء على لسان شريف بسيونى القانونى المصرى المرموق الذى يحمل الآن الجنسية الأمريكية. إذ يذهب شريف بسيونى إلى أن المجموعة التى اختيرت لكتابة دستور العراق وقوانينها ليست مؤهلة، لذلك فلدى العراق رجال قانون ممتازون. كما أن الدستور العراقى الملغى قد استند إلى الدستور المصرى. والمطلوب فقط هو تنقيح الدستور والقوانين التى صدرت عن البعث العراقى.

ترفض حجج هذه الديكتاتوريات بأن الخيار هو بينها وبين تيار الأصولية. فمصدر العداء الشعبى الجارف فى الدول الإسلامية هو النظم الديكتاتورية ذاتها وإسرائيل إلى حد ما.

ثمة أسلحة عديدة تستطيع الولايات المتحدة نشرها فى التأثير على هذه النظم: منها استخدام المعونة والمنح النقدية التى ترتبط بالإصلاحات الديمقراطية وإذا فشلت هذه الأساليب فيمكن استخدام القوة العسكرية، وعلى رأى كلوزفوتز، فالقوة العسكرية هى السياسة بطرق أخرى. ثم هناك النفوذ القوى الذى يمكن استخدامه لصالح الديمقراطية وبعد ترك بيل كلينتون للحكم دُعى لحضور مؤتمر عقدته جامعة نيويورك حول الديمقراطية. وعندما انبرى عدد من المثقفين المسلمين لتوجيه اللوم إلى الحكومات الأمريكية لعدم تمسكها بالديمقراطية فى الدول الإسلامية نهض كلينتون ليقول: «إننى أعترف بأن ما فعلته لم يكن المطلوب. والحقيقة أننى لم أعرف كيف أفعل ذلك».

ما كان يقصده كلينتون هو وجود تحالفات بين الولايات المتحدة وتلك النظم الأوتوقراطية. وهذا الرد هو ما يرفضه الكاتب.

نعود إلى: ما العمل؟ فى رأى الكاتب أنه لا ديمقراطية فى العالم الإسلامى مالم تنتهج الولايات المتحدة سياسة دائمة للضغط والترغيب على النظم الأوتوقراطية الحاكمة فى العالم الإسلامى. سياسة تراعى ظروف كل بلد على حدة وتكييف وسائل الإقناع المجدية فى كل حالة. وأول ما ينبغى أن تفعله الولايات المتحدة هو أن تتخلى عن حساسيتها المفرطة إزاء بعض الدول البترولية مثل السعودية والدول غير البترولية كمصر وباكستان لمجرد أن هذه النظم صديقة للولايات المتحدة. كما ينبغى أن يكون المبدأ الذى تستند إليه أمريكا فى المنطقة الإسلامية والعربية خاصة هو مصالح الولايات المتحدة وأن هذه المصالح سوف تزدهر فى ظل سياسة تشجع الديمقراطية. وعلى الولايات المتحدة أن تطرح رواسب حقبة الحرب الباردة لتبرير تحالفاتها مع النظم الإسلامية الديكتاتورية. كما أن عليها أن

وختاماً. على حد تعبير الكاتب. فى نهاية الكتاب إن المسلمين لم تلدهم أمهاتهم مبرمجين ضد الديمقراطية أو لقبول حجج الإسلاميين، هذا ما يثبته القرن العشرون. بإمكاننا أن نعرف فقط صدق هذه المقولة عندما توجد حرية سياسية حقيقية فى العالم الإسلامى، وعندما تصبح الانتخابات حرة. فحتى الآن لم يتم تجريب سياسات إسلامية حرة فى أى بلد إسلامى. وأخيراً فإن المراقب للساحة الإسلامية منذ ٩/١١ وبعد حرب العراق يشهد سباقاً لاهثاً بعيداً عن الأنظار على امتداد العالم الإسلامى يعاود النظر فى المسلمات وينظر فى كيفية التأقلم مع النظام الجديد فى المنطقة وفى العالم. وإن كانت الصورة العامة تبدو وكأن الأمور تجرى على ما تعودت أن تجرى عليه. إلا أن الصورة لم تعد كذلك.■

حروب السوبر

تيم لانج

ليست هناك مبالغة فى القول بأن النصف الأخير من القرن الماضى شهد ثورة فى عالم الغذاء. إن كل خطوة على طريق دورة صناعة الغذاء - بداية من زراعته وإنتاجه وتوزيعه، وتوريده وانتهاء بطهيه - قد تطورت بشكل يفوق إدراكنا. التغيير ليس بأمر جديد فى عالم الغذاء، لقد كان دوماً رهناً للتجارة عبر القارات. ولكن الأمر الذى لم يحدث قبل ذلك أبداً أن تتركز مثل هذه السلطة الهائلة على نظام الغذاء العالمى فى يد عدد قليل من المؤسسات العالمية.

فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية، كان المزارعون هم المتحكمون الأساسيون فى تجارة الغذاء. ولكن نهاية سلطة المزارعين بدأت حينما اعتقدوا أنهم فى أوج قوتهم، وذلك فى منتصف القرن العشرين. وفى المرحلة التالية للحرب، كان للمزارعين نصيب من المنح وأشكال الدعم المختلفة، لمنعهم من الانهيار الكامل. فقد كان الدعم يوجه إليهم بشرط قبول إعادة الهيكلة؛ أى فى مقابل التكثيف وزيادة درجة الكفاءة، وتبنى التقنيات الموفرة للعمالة فى شكل الميكنة وعلوم النبات.

وبعد خمسين عاماً، توقفت أشكال الدعم تلك. حتى الاقتصاديات الغنية لدول الاتحاد الأوروبى لم يعد بإمكانها أن تتحمل دعم مثل هذا النظام الباهظ التكاليف، ولهذا فإن الإنفاق على السياسة الزراعية العامة قد أخذ فى التناقص.

إن المستهلكين اليوم ينفقون جانباً أقل للغاية من دخلهم الشهرى على الغذاء. فبالمقارنة بخمسين عاماً مضت، كان الإنفاق على الغذاء يبلغ ثلث ميزانية البيت الإنجليزى، بينما يبلغ اليوم أقل من عشر تلك الميزانية. كذلك لم يعد منتجو الغذاء الخام هم المتحكمون فى دورة الأغذية. بدلاً من ذلك، تركزت القوة بشكل مخيف فى يد مجموعة قليلة من الشركات العملاقة التى تصنع المنتج الخام وعدد قليل من المؤسسات التجارية التى تسيطر على منافذ العبور لأفواهنا والتى تعرف بالسوبر ماركت. وكلها تتوسع دولياً، الغالبية على المستوى الإقليمى، والبعض الآخر أخذ صبغة العالمية.

وبينما وهنت قوة المزارعين مع نهاية القرن العشرين، فإن هذه الكيانات العملاقة المصنعة والموردة للغذاء قد اقتحمت المجال لتملأ ذاك الفراغ. وبدون جدال، كان المصنعون هم الذين حصلوا على مكاسب أكثر من المزارعين فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية والتى تميزت فيها صناعة الغذاء بالاستقرار. إن دعم الحكومة للمزارعين قد أمّن فحسب إمداد المصنعين بالبضائع الخام.

وقد قام جون كونور أستاذ الاقتصاديات الصناعية فى جامعة بورديو بولاية إنديانا الأمريكية ولفترة طويلة بمراقبة دقيقة لعملية الاحتكار فى دورة الأغذية. فذكر مؤخراً فى مؤتمر منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى أن حصص السوق لأكبر عشرين شركة أغذية أمريكية قد تضاعفت منذ عام ١٩٦٧. واليوم تستحوذ مائة شركة فقط على ثمانين بالمائة من كل القيمة المضافة. وسواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة، فإن تركز القوى الصناعية هو نفسه، الأسماء فقط هى التى تتغير. ففى (أوروبا) نستلة ويونيليفر، وهناك كرافت وجينيرال فودز (تم اندماجهما الآن وتملكهما بواسطة شركة آلتريا وقد اختار هذا الاسم الجديد عملاق صناعة السجائر فيليب موريس). إن هذه الشركات تعمل على نطاق واسع. وطبقاً للأرقام الجديدة، فإن نستلة على سبيل المثال، أكبر شركة مصنعة للغذاء فى العالم قد باعت منتجات غذائية بمبالغ تقدر بـ ٤٦,٦ مليار دولار عام ٢٠٠١. وحتى شركة مارز، والتى لا تحتل سوى المرتبة العاشرة فى قائمة أكبر عشرة مصنعين للغذاء فى العالم، فإن مبيعاتها أيضاً تقدر بأكثر من ١٥ مليار دولار.

سيكون من المريح الاعتقاد أن سياسة التركز هذه قد نجمت عن اختيار وتفضيل المستهلك لسلعة عن الأخرى. لكن فى الحقيقة، إن الظاهرة بأكملها هى نتيجة لشراء المصنّعين لبعضهم البعض لكى يضعوا أيديهم على العلامات التجارية. إن عمليات الاندماج واكتساب العلامات التجارية حدثت بكثرة منذ الثمانينيات على جانبى الأطلنطى، حيث إن الشركات الكبرى كانت تطبق بشكل سريع وخاطف على منافسيها.

فمثلاً علامة تجارية «بريطانية» مثل الكيت. كات والتى امتلكها فى يوم من الأيام «كوايكر» صانع حلويات راونتريز فى يورك. قد حولتها نستلة إلى علامة تجارية عالمية.

لقد تركزت العملية الصناعية فى يد قلة صغيرة، وأصبح مستوى الاحتكار هذا أمراً ملحوظاً الآن سواء نظر المرء من الزاوية المحلية، أو الإقليمية، أو العالمية. على سبيل المثال، وفى منتصف السبعينيات، تحكمت أكبر أربع شركات أمريكية لتعبئة اللحوم فى حوالى ربع السوق الأمريكية. لكن اليوم أصبحت هناك عشرون شركة فقط تقوم بتغذية نصف الماشية فى الولايات المتحدة وهى متصلة بشكل مباشر بأربعة مصانع منتجة للحوم والتى تسيطر على ٨١٪ من إنتاج اللحوم، سواء من خلال ملكية مباشرة أو من خلال عقود رسمية. فى هذا النوع من النظام الغذائى، يصبح المزارع متعهداً، حيث يقوم بتوفير العمالة، وغالباً بعض من قيمة رأس المال، ولكن لا يمكنه امتلاك المنتج. إن المزارعين لا يمكنهم أبداً وفقاً لهذا النظام أن يقوموا باتخاذ القرارات الإدارية الكبرى.

ويشبه هذا لحد بعيد ما يجرى فى مجال الكيماويات الزراعية. ففى نهاية الثمانينيات، كانت منتجات أكبر عشرين مصنعاً على مستوى العالم تمثل حوالى ٩٠٪ من المبيعات. ومع نهاية عقد التسعينيات سيطرت عشرة مصانع فقط على هذه النسبة المرتفعة من السوق. واليوم تناقص هذا العدد إلى سبعة فقط. إن اتجاه شركات الكيماويات الزراعية إلى التقنية البيولوجية كان دافعاً آخر للاندماج، حيث ظهرت شركات علوم الحياة والتى تغطى دراسة الجينوم بدءاً من الصيدليات وحتى تربية النباتات.

لكن حتى أكثر المصنعين العالميين ربحية، والذين يمتلكون أشهر العلامات التجارية لم يعد بإمكانهم الادعاء بالسيطرة الكاملة على دورة الأغذية،

بترتيب مع الجارديان
ترجمة: رانية خلاف

أكبر عشرة متاجر تجزئة للغذاء فى العالم

	المبيعات العالمية باليورو	(٢٠٠٢)
١	وال - مارت (الولايات المتحدة)	١٩٩ ملياراً
٢	كارفور (أوروبا)	٨٦ ملياراً
٣	أهولد (أوروبا)	٥٣ ملياراً
٤	كروجر (الولايات المتحدة)	٥١ ملياراً
٥	مترو (أوروبا)	٤٧ ملياراً
٦	ألبرتسونز (الولايات المتحدة)	٣٩ ملياراً
٧	كيمارت (الولايات المتحدة)	٣٩ ملياراً
٨	ريوى (أوروبا)	٣٦ ملياراً
٩	تيسكو (أوروبا)	٣٤ ملياراً
١٠	ألدى (أوروبا)	٣٣ ملياراً

أكبر عشرة مصنعين للغذاء فى العالم

	المبيعات الكلية للغذاء بالدولار الأمريكى	(٢٠٠١-٢٠٠٢)
١	نستلة	٤٦,٦ مليار
٢	فيليب موريس (كرافت)	٣٨,١ مليار
٣	كون أجرا	٢٧,٦ مليار
٤	يونيليفر	٢٦,٧ مليار
٥	بيبسى	٢٥,١ مليار
٦	أى. دى. أم (لطحن الحبوب)	٢٣,٥ مليار
٧	تيسون (إنتاج اللحوم)	٢٣,٤ مليار
٨	كارجيل	٢١,٥ مليار
٩	كوكا كولا	٢٠,١ مليار
١٠	مارز	١٥,٣ مليار

مـــــاركـــــت!



حيث تنازعهم فى ذلك الشركات العالمية ذات الربحية الضخمة التى تسيطر على منافذ الوصول للمستهلك والمتمثلة فى سلاسل محلات السوبر ماركت الشهيرة. وحتى المصنعين الكبار يعتمدون على السوبرماركت لكى تصل بضائعهم إلى المستهلك. ولكى يقوموا بذلك، فإن عليهم أن يوافقوا مقدماً على عقود مع تجار التجزئة، الذين تتطلب أنظمتهم مواصفات دقيقة، وأوقاتًا محددة للتسليم، وهوامش ربح مرتفعة.

وكما هو الحال بالنسبة للمصنعين، أصبح هناك تركز عال لقوة وسلطة البيع بالتجزئة خلال السنوات الأخيرة. ففى المملكة المتحدة، تستحوذ أكبر خمس سلاسل للسوبر ماركت الآن على حوالى ثلثى مبيعات الأغذية، بينما تباع نصف أغذية البلاد من خلال ألف متجر عملاق فقط. وعلى الرغم من ذلك، فإن أرباح السيطرة على مبيعات الداخل ليست بكافية، ولذلك ينظر تجار التجزئة الكبار إلى ما وراء أسواقهم المحلية سعياً وراء مكاسب يمكن نيلها عن طريق التوسع، إقليمياً فى المقام الأول، ثم عالمياً. لقد أصبح وال - مارت، المالك الأمريكى لأسدا، أكبر متاجر التجزئة فى العالم على الرغم من أنه قد توسع خارج الولايات المتحدة منذ عشر سنوات فقط. ويعد وال - مارت جزءاً من مجموعة النخبة بين تجار التجزئة الذين أعلنوا عن طموحاتهم العالمية، ومن بينهما تيسكو. التى أعلنت الشهر الماضى أرباحاً تفوق ١,٣ مليار جنيه استرلينى. وكذلك السلسلة الفرنسية «كارفور» المنتشرة فى عديد من دول العالم.

إن هذه المؤسسات تقسم العالم الآن إلى ثلاث فرق: الاقتصاديات الغنية لأوروبا الغربية وشمال أمريكا، ثم الاقتصاديات التى تنمو بشكل سريع لتلاحق الاقتصاديات الأكبر مثل تايلاند والمجر، ثم أسواق العالم النامى مثل الهند، البرازيل والصين.

وقد صدر العام الماضى تقرير مهم عن آخر ما وصلت إليه صناعة الغذاء فى العالم (State of the Art in Food) يرتكز على مجموعة من المسوح فى ١٩ دولة، وكان آخر ما خلص إليه هو أن اندماج وعولمة تجارة التجزئة وصناعة الغذاء من المتوقع أن تستمر فى المستقبل القريب، وسيكون هناك أربع أو خمس مؤسسات تجزئة كبرى تعمل حول العالم. وعلى الرغم من ذلك، سيكون هناك عدد من تجار التجزئة ذوى النفوذ القوى يعملون على المستويين المحلى والإقليمى. إن حالة مشابهة ستوجد بين المصنعين الكبار وسيعمل حوالى عشرة فقط من مصنعى الغذاء على المستوى العالمى، من خلال عشرين إلى خمس وعشرين علامة تجارية، وعدد من شركات البضائع الاستهلاكية التى ستكون مسيطرة فى دول أو أقاليم معينة. ويكشف التقرير عن عمق الاستياء بين القائمين على عملية صناعة الغذاء بالنسبة للطريقة التى يعمل بها تجار التجزئة بوصفهم البوابة الرئيسية للمستهلك.

ويقول التقرير، «إن ثلاثة أرباع المصنعين الذين خضعوا للمسح أشاروا إلى أنهم يستسلمون كثيراً لنفوذ تجار التجزئة ويشعرون بالتخوف إزاء عواقب تنامى قوتهم». إن مصنعى البضائع ذات العلامات التجارية الكبرى يعلمون جيداً أن تجار التجزئة الكبار يجبرونهم على تقديم تخفيضات إضافية، ويبدو الأمر كجباية الضرائب بالقوة خوفاً من خسارة مميزات تملك موقع على الرف فى متاجر التجزئة الكبرى. إن بعض المشرفين على عمليات التنفيذ وصل بهم الأمر إلى وصف ما يحدث بأنه ابتزاز وتهديد.

ومن الطبيعى أن تكون مشاعر الكراهية تلك متبادلة. وكما يقول التقرير فإن «تجار التجزئة، وليس الأمر من قبيل المفاجأة، لا يتفقون مع هذا التقدير للأمور» بل يقول المديرون التنفيذيون فى مجال التجزئة، إن المصنعين أساءوا استخدام نفوذهم ولا يظهرون احتراماً كافياً للدور المهم الذى يلعبه المتجر. وأشار تجار التجزئة إلى أنه بدلاً من إنفاق الملايين من الدولارات على وسائل الإعلام الجماهيرية من أجل تسويق المنتجات، فإن المصنعين ينبغى أن يوجهوا أموالاً أكثر تجاه تعزيز عمليات الترويج الداخلى للبضائع داخل المتاجر ومن الأفضل أن ينظموا استراتيجياتهم ليعملوا بالاتساق مع مبادرات التسويق التى يقوم بها تجار التجزئة. ولكن مؤلفى هذا التقرير أوضحوا أنه، على المدى القصير على أقل تقدير، فإن المعركة «الملحمية» من أجل السيطرة على سوق الغذاء ستسفر عن فائز واحد فقط، وهو تجار التجزئة خلال السنوات الخمس القادمة.

إن السؤال الذى يطرح نفسه بقوة هنا هو: ماذا يعنى كل هذا بالنسبة للمستهلكين؟ إن التقرير السابق قد توصل إلى استنتاج متفائل مفاده أنه بالرغم من السلطة المتزايدة لكل من المصنعين وتجار التجزئة، فإن المستهلكين هم من سيقودون دورة الغذاء فى المستقبل. على الرغم من أن هذا أمر مرغوب فيه، فإنه من الصعب تصديقه بالنظر للمؤشرات الحالية.

إن احتياجات المستهلك يبدو أنها تلعب جزءاً ضئيلاً فى تطوير المنتجات الجديدة. وفى المرة القادمة لدى ذهابك للسوبر ماركت، قم بجولة قبل أن تبدأ فى الشراء. انظر إلى آلاف المنتجات وتساءل: من قام بطلب كل تلك المنتجات المتكدسة؟ فى الولايات المتحدة، هناك أكثر من ثلاثة عشر ألفاً من أصناف الأغذية الجديدة التى تطرح فى الأسواق كل عام لتنضم إلى المنتجات الموجودة بالفعل والتى يبلغ عددها ٣٠٠ ألف صنف. وفى أوروبا، من بين عشرة آلاف سلعة جديدة تطرح سنوياً، فإن ٩٠ بالمائة منها تخفق قبل انتهاء العام، فقط عدد قليل من العلامات التجارية الغذائية سيبقى بعد عملية طويلة من الصراع ليكون له صفة العالمية، ويلحق بأسماء ثبتت أقدامها بالفعل فى السوق مثل نيسكافيه، بيبسى، كوكاكولا، كيلوجس، ماكدونالدز، هاينز، كنتاكى، مارس وكادبورى. ومن بين أكبر خمسين علامة تجارية استهلاكية فى العالم، فإن الغذاء يمثل الخمس.

ويحتاج الأمر إلى أموال طائلة من أجل أن يصل المنتج إلى ذلك المستوى فى الأسواق العالمية. إن أصناف الغذاء الجديدة لا يمكن أن تطرح على أساس أمل «عقيم» هو أن المستهلك السريع التأثر سيقوم بشرائها بموافقته الشخصية. وأولويات مصنعى الغذاء هى تأمين مساحة على الرف لمنتجاتهم والقيام بحملات إعلانية مستمرة ومكثفة لإقناع المتسوق بشرائها وترك سلعة منافسة أخرى. وهذا يفسر لماذا تقوم شركات مثل ماكدونالدز وكوكاكولا بإنفاق ٤,١ مليار دولار سنوياً على التسويق فى جميع أنحاء العالم، وإنفاق هذا المبلغ الضخم مبرر فى سبيل امتلاك حصة تبلغ ١,٣ تريليون دولار من سوق الغذاء الأمريكى.

هناك حجة أخرى بشأن تزايد نفوذ أصحاب متاجر السوبر ماركت وهى أنهم يتحكمون فى اختيارات وأذواق عشرات الملايين من المستهلكين من خلال عدد ضئيل من متاجر السوبر ماركت. ولذلك يثور السؤال: ما أثر ذلك على المنافسة؟ وكذلك على دورة صناعة الغذاء؟

وخلف كل هذه القضايا تكمن مشكلة أكبر هى أن إعادة الهيكلة التى تمت بشكل جذرى لدورة الغذاء لم يستتبعها تقوية الهياكل المفترض وجودها لحماية مصلحة الشعب. هناك علامات قليلة تنبىء بأن هناك تغيراً ما فى هذا الإطار. فمثلاً حكومة حزب العمال فى بريطانيا وضعت لجنة للمنافسة، وبدأت جماعات المستهلكين تنضم إلى التحالف الجديد الذى كونه صغار المزارعين ليكون معارضاً لنفوذ السوبر ماركت، كما أن المدافعين عن البيئة والنشطاء المدنيين يشكلون ضغطاً على الحكومة لكى تضطلع بشأن المؤسسات العملاقة.

إلا أن الذى يميز سياسة الغذاء هو أن المصنعين وتجار التجزئة يحصلون غالباً على ما يريدون. فسياسات الاندماج والسيطرة على السوق ترتحل تدريجياً من المحلى إلى العالمى، وسيكون من الصعب يوماً بعد يوم كسر هذه النزعة وفى الماضى، كان يتم ترويض هذا النفوذ من خلال الضغط الشعبى والجهود المتكاتفة من قبل جماعات الضغط العاملة لمصلحة المستهلك مثل الحركات الاجتماعية والعمالية والصحة والمحافظة. وكانت هناك مكاسب مهمة ونجاحات فيما يتعلق بالأمن الغذائى والمتاجرة اللاأخلاقية، لكن الاحتكار الضخم الذى يحدث الآن يمثل بكل تأكيد التحدى الحقيقى ■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

كيف يحيى الوطن العزيز؟

لم يأت على مصر حين من الدهر يشتغل فيه أبناؤها بحالها ومستقبلها مثل هذه السنين التى توالت فيها المصائب، وتعاقبت النوائب، وعرفنا حقيقة المقاصد الإنجليزية ضدنا وضد الوطن العزيز. وقد ذهب أبناء الوطن فى أمر مستقبله مذاهب شتى. فأصحاب العقائد الصحيحة والمبادئ القويمة يؤملون له مستقبلاً سعيدًا، وحياة طيبة لأنهم يعلمون أن الأمة المصرية هى أكثر الأمم استعدادًا للتقدم والترقى، وأن اليأس من المستقبل يأس من قدرة الخالق سبحانه وتعالى. ويرى غيرهم أنه قضى عليها إلى الأبد، وأن أبناءها ليسوا أهل إرادة ونشاط وذكاء.

ويرون أن الأمة المصرية مهما بلغت من إصلاح شئونها وترقية مدارك أبنائها لا تقوى على القوة الأجنبية المسيطرة عليها، ولا تجد سبيلاً للخلاص مما هى عليه، لما هو مشهور عن دولة الإنجليز من القوة والدهاء، بل يسخرون من كل العاملين على ارتقائه وإعلاء شأنه. فهم فضلاً عن تقصيرهم فى خدمة الوطن التقصير الأثيم، يعملون على تثبيط الهمم وإقعاد العزائم وفل العواطف المصرية وانتشار كلمات «موت المصريين» و«عدم فلاح المصريين» باعتقاد أن الأمة لا تعرف معنى الوطن والوطنية، آفة دونها كل الآفات وبلية تسهل بجانبها البلايا.

على أننا لو تصفحنا تاريخ مصر نجد أن أبناءها قاموا بأعظم الأعمال وبرهنوا على استعدادهم التام لكل تقدم وفلاح، وأظهروا فى ظروف كثيرة من الشجاعة ما حفظه لهم التاريخ فى صحائف بيضاء فكيف يدعى البعض مع ذلك أنهم أمة ميتة لا حراك بها وأنه يستحيل أن يوجد فيهم شعور وطنى صادق؟

حمى السوبر ماركت.. أعراض جانبية

جوانا بليتمان

أصبح التسوق فى السوبر ماركت متعة بحد ذاته ولم يعد كثير من المستهلكين يذهبون إليه مرة واحدة فى الأسبوع كما كانوا يفعلون قبل سنوات، بل تطور الأمر إلى زيارة يومية لشراء احتياجاتهم. هل يعنى ذلك أن هناك حالة عشق من جانب المستهلكين للتسوق؟

لقد أحكمت متاجر السوبر ماركت سيطرتها على سلة المشتريات فى المملكة المتحدة على سبيل المثال خلال خمسين عامًا فقط، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت المحال المستقلة هى التى تلبى طلبات المستهلكين وكان هناك ما يسمى بمساعد يقوم على خدمة المستهلكين. وفى الخمسينيات، كان هناك فقط عدد قليل لا يتجاوز المائة من متاجر السوبر ماركت ذاتية الخدمة. ومع منتصف الستينيات زاد العدد إلى ٢٠٠٠، واليوم هناك ما يقرب من ٤٥٠٠ سوبر ماركت، يتراكم فيها بشكل نمطى ما يتجاوز ٣٠ ألف مخزون سلعى مختلف وهناك أربع سلاسل ضخمة هى التى تتحكم فى السوق البريطانية وهى تيسكو، سانسبيرى، أسدا (ويملكها الآن متجر وال مارت العملاق الأمريكى) وسيف واى. وفى عام ١٩٨٥، كان هناك حوالى ٢٣ ألف محل جزارة. ومع حلول عام ٢٠٠٠ تبقى منها عدد لا يتجاوز ٩٧٢١ فقط. وفى العام الماضى كانت محال بيع الصحف والمجلات تتعرض للإغلاق بمعدل محل واحد فى اليوم. وفى أيامنا هذه، هناك فقط حوالى ١٥٪ من المستهلكين يستفيدون من المحال المتخصصة مثل محال الجزارة وتجار الأسماك وبائعى الخضر والفاكهة.

وهناك مجموعة من الظواهر ترتبط بإنشاء سوبر ماركت فى أى مكان من العالم وأهمها:

العمالة المؤقتة

فحتى لو كانت هناك عمالة دائمة إلا أنها تتسم بالندرة، وحسب دراسة بريطانية، فإن افتتاح سوبر ماركت جديد فى أحد التجمعات يعنى أن يفقد حوالى ٢٧٦ عاملاً وظائفهم على الفور.

البيع أقل من التكلفة

هناك دول مثل ألمانيا، أيرلندا، وفرنسا لديها قوانين تعارض هذا المفهوم، وذلك لحماية أصحاب المحال التجارية الصغيرة الذين لا يقوون على هذا النوع من المنافسة. وهناك نوع من السلع يسمى سلعًا معروفة القيمة مثل الخبز. لقد اكتشف أصحاب متاجر السوبر ماركت أن وعى المستهلك بسعر السلعة هو أمر جزئى وأن انطباعهم عن القيمة يتشكل بشكل كبير من خلال عدد قليل من الأصناف المعروفة يمكن القياس عليها. إن استراتيجية السوبر ماركت هى تخفيض الأسعار بشدة على تلك السلع وزيادة هامش الربح فى الوقت ذاته على أصناف لا يعرف أحد عنها شيئًا. هل لديك، على سبيل المثال أى فكرة عما يجب أن يكون عليه سعر العنب المزروع جنوب أفريقيا؟

ممارسات قسرية

هى نوع التعامل بين متاجر السوبر ماركت والموردين. وقد قامت لجنة المنافسة البريطانية بالتحقيق مع ٥٢ متجرًا فى عام ٢٠٠٠، وتضمن ذلك مطالبة السوبر ماركت الموردين بدفع فاتورة الحملات الدعائية التى تتخذ شعار «اشتر واحدة واحصل على الثانية مجانًا» أو دعوة الموردين للاشتراك فى أعمال خيرية لترويج سلعة ما دون موافقة المورد ثم مطالبته بدعم هذا العمل، بالإضافة إلى مطالبتهم بتقديم تخفيضات على السلع الرائجة مقابل ميزة وجود السلعة على أرفف تاجر التجزئة.

أسعار مختلفة للسلعة

إن المفهوم الرسمى هنا هو «لى عنق سعر السلعة»، وهو ما يعنى أن سلسلة ما يمكنها أن تضع سعر بيع تجزئة مختلفًا لمنتج فى أى منطقة جغرافية. بكلمات أخرى، يمكن أن ينتهى بك الأمر إلى دفع مبلغ أكبر من المال من أجل شراء البطاطس فى مدينة ما، عما يمكن أن تدفعه إذا كنت تقطن فى مدينة أخرى،



حتى لو كنت تقوم بالتسوق من مجرد أفرع مختلفة للسلسلة ذاتها.

تبديد الطاقة

من خلال الفروع الدولية لمتاجر السوبر ماركت العملاقة. إن كيلو جراماً واحداً من التوت الأزرق الذى يتم استيراده بالطائرة من نيوزيلاندا ينتج الكمية ذاتها من انبعاث أكسيد الكربون والناجمة عن غلى وعاء بالماء لـ ٢٦٨ مرة.

المواقع الساخنة

يتنافس تجار التجزئة من أجل مواقع على الرف حيث تباع السلع بشكل أفضل، مثل تلك التى توازى مستوى النظر، أو تلك التى تقع فى منتصف أزقة السوبر ماركت، وعلى الموردين أن يدفعوا رسوماً خاصة للسوبر ماركت إذا أرادوا أن تعرض بضاعتهم فى هذه المواقع البارزة.

قلة المنتج المحلى

قامت جمعية أصدقاء الأرض البريطانية بفحص أرفف متاجر السوبر ماركت فى أوج موسم التفاح فى بريطانيا عام ٢٠٠٢، وقد وجدت أن أكثر من نصف كمية التفاح المعروضة للبيع واردة من الخارج. الاستثناء الوحيد كان لدى ماركس آند سبنسر، حيث كانت نسبة تقدر بـ ٥٦٪ هى من التفاح البريطانى.

ضمان إرجاع السلعة

إذا لم يرض العميل عن البضاعة التى قام بشرائها فمن حقه إرجاع السلعة. ولكن من يدفع الفاتورة؟ إن المورد هو من يقوم بدفعها مع فاتورة إضافية لإصلاح هذا المنتج. حينما يستعيد المستهلك أمواله، فإن المنتج يصبح ما يطلق عليه «مرتجع للمصنع». لقد أفضت «أسدا» للجنة المنافسة فى عام ٢٠٠٠ بأنها ألزمت مورديها بدفع ٤٠ جنيهاً إسترلينياً لتغطية تكاليف التعامل مع أى شكوى مقدمة من مستهلك ما فى أحد فروع أسدا. وذكرت سيف واى أنها عوضت المستهلك ثم طالبت المورد بدفع ما بين ٢٠ . ٢٥ جنيهاً استرلينياً لكل شكوى.

هوامش الربح الكبيرة

وهى مرادف لأرباح تجار التجزئة فى المملكة المتحدة بالنسبة للمنتجات الغذائية وتعد أعلى من مثيلتها على مستوى القارة الأوروبية. وفى مقارنة مفصلة قامت بها لجنة المنافسة فى عام ١٩٩٩، وجدت أن تجار التجزئة فى المملكة المتحدة قد حققوا أرباحاً تصل إلى ١,٢٥٪ فى مقابل ٢٢,٩٪ لنظرائهم خارج المملكة. وفى العام ذاته كانت أسعار الفاكهة فى المملكة المتحدة أعلى بنسبة تتراوح ما بين ١٢ . ١٦٪ فى مقابل أسعارها فى فرنسا، ألمانيا، وهولندا.

سوبر ماركت ذاتى الخدمة

بدأت ذاتية الخدمة فى الظهور فى المملكة المتحدة منذ الخمسينيات من القرن الماضى فصاعداً، وحرصاً على أن ينظر إليها بشكل عصرى بالمقارنة بمحال البقالة التقليدية، لجأ سينسبرى فى عام ١٩٦٣ إلى مصمم أزياء هاردى آميز لعمل بزات ذات لون أزرق فاتح للمساعدات العاملات بالمتجر أو اللاتى يطلق عليهن فتيات الجوندولا، والجوندولا هى العربة الخاصة بحمل المشتروات داخل المتجر.

الخدمات الإضافية

وهى استراتيجية تلجأ إليها محلات السوبر ماركت لجذب المزيد من العملاء من المتاجر الأخرى والمحال الصغيرة، وهى عادة خدمات لا تتعلق بالخدمة الغذائية، مثل التأمين على الحيوانات الأليفة، الرهن العقارى، أجنحة خاصة بالترفيه، خدمات الإنترنت، الصيدليات، خدمات خاصة لقياس ضغط الدم والسكر، مراكز لطبع وتحميض الأفلام، بيع الذهب، نظارات طبية، وخدمات التجميل. ■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

اتحاد كلمة المسلمين

يشتغل رجال السياسة والأقلام فى أوروبا كثيراً بأمر المسلمين وما يدور بينهم من الأحاديث فى شئون بلادهم وتأخرها واستيلاء الأجانب عليها. وقد ملأ كتاب أوروبا الدنيا بصراخهم ضد الإسلام والمسلمين ونادوا فى كل واد بالويل والثبور وهولوا فى الأمر حتى ظن أهل أوروبا قاطبة أن الإسلام كله مجتمع حول لواء واحد للأخذ بالثأر واسترداد أملاكه من أيدى الدولة الأجنبية.

والذى يطالع كتابات هؤلاء الكاتبين ولم يكن رأى الشرق وأهله وعرف مقدار سوء معاملة أوروبا لأبناء الإسلام يظن لأول وهلة أن المسلمين قوم متوحشون، وأنهم ناكرون لجميل أوروبا عليهم أقبح نكران. على أننا لو ناقشنا أوروبا الحساب وجدناها جنت على الإسلام والمسلمين، بل جنت على العالمين أكبر الجنايات المعنوية. فمم يشتكى المسلمون؟ نشتكى معاشر المسلمين من أن أوروبا المتمدنة لا تعاملنا كما يجب أن يعامل بنو الإنسان. نشتكى من أنها دخلت بلادنا بدعوى الإصلاح فأفسدت، ونشر المدنية فأعادت همجية العصور الأولى، نشتكى من أنها تكرهنا كراهية دينية شديدة، وهى المنادية بمبادئ العدل والحرية والمساواة، نشتكى من أنها تقصد إبادتنا كما تباد الحيوانات الضارة، وكما أبيد الهنود من أمريكا وهم أصحاب البلاد الأولون، نشتكى من كل أعمال التمدن والمدنية، وبودنا لو كنا غير شاكين هذا ما نشتكى منه، فمم تشتكى أوروبا؟ أتشتكى من أننا سلمنا إليها بلادنا ووثقنا بأقوالها ووعودها؟ أتشتكى من أنها سادت علينا بإرادتنا وهضمت حقوقنا واستنزفت أموالنا، وضيقت علينا فى حياتنا؟

الأهلى والزمالك

حسن المستكاوى

يقول أساتذة الدراما: «إن مفتاح الدراما القوية التى تشد أنظار المتفرجين وتحبس أنفاسهم، هى التى يتخاصم فيها طرفان على مستوى واحد من القوة ووجود أى طرف ثالث يشتت انتباه المتفرج ويصب ماء بارداً على الصراع الساخن».

ومنذ قرابة المائة عام تعيش كرة القدم المصرية والعربية ظاهرة الأهلى والزمالك، التى تشد أنظار المتفرجين وتحبس أنفاسهم، كلما التقيا فى مباراة.. وكان يقال إن القاهرة ترتجف فى مباريات القمة، وأن الأمن يستريح بانتهاء اللقاء بالتعادل حتى لايغضب أحد الجمهورين، وهى فى جميع الأحوال بطولة خاصة يحسب فيها كل معسكر عدد مرات فوزه، وعدد الأهداف التى سجلها، وتشهد بعض المباريات أزمات عنيفة، وتشهد مباريات أخرى انتصارات مدوية لطرف على طرف فتعيش القاهرة مظاهرات فرح صاخبة. وقد تداول المصريون هذه النكتة فى السبعينيات وهى أن خرتشوف رئيس الوزراء السوفيتى كان فى زيارة للقاهرة، وتصادف أن انتهت مباراة بين الفريقين الكبيرين بفوز الأهلى، فانتشرت جماهيره رافعة الرايات والأعلام الحمراء فى الطرقات والميادين والشرفات، فألقى خرتشوف نظرة فاحصة تلتها ابتسامة وقال لمرافقيه: لم أكن أعرف أن الشعب المصرى سعيد بزيارتى لهذه الدرجة.

فقيل له: السيد رئيس الوزراء.. الشعب المصرى سعيد بفوز الأهلى على الزمالك!

ومثل الدراما المحبوكة، تتصاعد الأحداث، وتتوتر الأعصاب عندما يشتد الصراع وتكون كفتا القطبين متساويتين فى القوة. وأعتقد أن فترة الستينيات من القرن العشرين شهدت أقصى درجات المنافسة والصراع بين الأهلى والزمالك لأسباب رياضية واجتماعية وسياسية عديدة. وقد جسد الفن هذه الصورة عندما ترنمت الفنانة صباح، وترنم معها ملايين المصريين بأغنية: «بين الأهلى والزمالك.. محتارة والله».. وكانت مصر فى ذلك الوقت تبدو وكأنها تعيش هذه الحيرة، فجماهير كرة القدم منقسمة بين الناديين، ونجوم ومشاهير المجتمع فى الفن والأدب والسياسة والصحافة، حائرون بين الاثنين.. الأهلى والزمالك.. وأصبحت هذه الأغنية نشيداً كروياً يعزف كلما وقعت مواجهة بين الفريقين!

وفى يوم من أيام الستينيات كان أبى نجيب المستكاوى - رحمه الله - عائداً إلى المنزل فى المعادى بسيارة تاكسى، وعندما عرفه السائق، التفت إليه وسأله: أنت أهلاوى ياكابتن؟

فقال أبى: لا.

عاد السائق وقال: أكيد أنت زملكاوى؟!

فقال أبى: لا.

وهنا أوقف السائق السيارة واستدار وقال متعجباً: «إيه يا كابتن.. حضرتك خواجة مش من البلد دى»؟!

وعكس كلام السائق حالة الشارع الكروى المصرى، فكل من لاينتمى إلى الأهلى أو الزمالك يعتبر غريبًا وأجنبياً عن مصر!

النصر السعودى يستبدل هلال المئذنة بلفظ الجلالة!

والأهلى والزمالك ظاهرة عربية وعالمية، وقد تفاوتت حدتها من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة. ففى السعودية هناك النصر والهلال، وهما كبيرا العاصمة الرياض، لكن فى جدة نجد منافسة تقليدية بين الاتحاد والأهلى. وفى المنطقة الشرقية الاتفاق والشباب. وعن طبيعة وشدة المنافسة بين الهلال والنصر رويت لى هذه الرواية: «عندما قرر نادى النصر إنشاء مسجد فى مقره، واجهت إدارة النادى مشكلة، وهى كيف يوضع الهلال على رأس مئذنة المسجد؟!.. وكان الحل أن يستبدل هلال المئذنة بلفظ الجلالة الله. وقد وجد النصراويون أنه من الصعب أن يكون هناك أى هلال من أى نوع داخل مقر النادى!

ويضيف صاحب هذه الرواية: «أن الأمير عبدالله بن سعد - رحمه الله - والرئيس الأسبق لنادى الهلال، رفض أثناء إقامته فى الولايات المتحدة الأمريكية، استخدام لوحات معدنية لسيارته فى الولاية التى يقيم بها، لأن اللوحات بلونى النصر: الأزرق والأصفر، وقد تعرض لدفع غرامات ومخالفات مالية بسبب ذلك!

وظاهرة الأهلى والزمالك موجودة فى الأردن بين الوحدات والفيصلى، وكثير من المشاكل تحدث فى لقاءات الفريقين، وترجع جذور الخصومة بين الوحدات والفيصلى إلى أسباب اجتماعية وسياسية، إذ أن الوحدات يمثل فى الأصل مخيماً فلسطينياً، والفيصلى يمثل الجذور الأردنية.

لكن قد تختلف أسباب الخصومة فى بلد آخر مثل قطر، وهى بين السد والريان، والأول هو النادى الذى ينتمى إليه النخبة من الشيوخ والأسرة الحاكمة وكبار رجال الدولة، والثانى يعتبر نادياً شعبياً. وفى سوريا كانت المنافسة حتى وقت قريب بين فريقى الجيش والشرطة، وأن يكون التنافس بين هذين الفريقين مماثلاً لما بين الأهلى والزمالك، فلا غرابة فى ذلك!

والقطبية الرياضية، أو ظاهرة الأهلى والزمالك موجودة أيضًا فى اليمن، وتعبير القطبية للزميل عبدالله الصعفانى الذى كتب مقالاً فى جريدة الرياضية السعودية قال فيه: «من الواضح أن القطبية فى عالمنا تحولت إلى مشكلة تعكس ظلالها على كل شىء، فكلنا يعرف كيف يهتز الشارع الرياضى فى مصر، وتلتهب البيوت والمقاهى عندما يلعب الأهلى والزمالك. ويضيف: إن أندية كثيرة فى بلادنا العربية انشغلت بالقطبية، وبظاهرة التنافس التقليدى بين الغريمين فى كل مدينة. وعندنا فى اليمن تلتهب الأجواء بين الوحدة والأهلى، وكلاهما من فرق العاصمة، وعندما يلعبان مباراة ضمن الدورى الممتاز، تبرز العناوين والتحليلات التى تقول أن المباراة تساوى بطولة بذاتها، وأن التقليدية فى اللقاء تتطلب حكاماً على مستوى عال، ورقابة اتحادية على درجة عالية، ومتابعة أمنية مركزة، ولا يبقى إلا المطالبة بنوعية خاصة من الجمهور مع تحديد أسماء إعلامية متميزة للقيام بواجب التغطية الصحفية. ومثل هذا الوضع يتكرر عندما تلتقى أندية مثل التلال والوحدة فى عدن، قبل سقوط الأخير، وأيضًا الجيل والأهلى فى الحديدة قبل سقوط الأول.

ونترك اليمن.. إلى العراق، حيث يعتبر الزوراء والشرطة مثل الأهلى والزمالك. وفى سلطنة عمان هناك النصر والعروبة. وفى الإمارات العين والشارقة أو الوصل.

وفى تونس الصراع والقطبية والخصومة بين الترجى والأفريقى، وهى تصل إلى حد أن جماهير الترجى قد تساند أى فريق خارجى وهو يلعب ضد الأفريقى فى تونس، ونفس الأمر يسير على جماهير الأفريقى. وفى

نفس الأمر يتكرر فى الكويت، وإن كان كاظمة والقادسية يمثلان الأهلى والزمالك، ودخل بينهما فريق السالمية. أما فى البحرين، فالقمة تكون بين الرفاع الغربى والمحرق.

... وسياسية !



المغرب تكون القمة بين الجيش الملكى والوداد.

وطبعا أنت تعرف الموقف فى جنوب الوادى، فى السودان فهناك أهلى وزمالك فعلا، أو الهلال والمريخ، ويعتبر الهلال هو أهلى السودان، أما المريخ فهو زمالك السودان، وفى لبنان يعتبر فريقا الأنصار والنجمة الإخوة الأعداء وهما أهل القمة هناك. ومثل الكثير من مباريات القمة فى الوطن العربى، تشهد مباراة الأنصار والنجمة ترتيبات أمنية خاصة بسبب شدة التنافس.

وإذا كان الأهلى والزمالك ظاهرة مصرية وعربية من جهة التنافس والخصومة، فإن للناديين الكبيرين جماهير عريضة فى الدول العربية، وقد قال محمد بن جالون مؤسس نادى الوداد المغربى: كانت لقاءات الأهلى والزمالك بالنسبة لنا منشورا وطنيا يبث فينا روح العروبة التى حاول الاستعمار الفرنسى قتلها، بالضبط كما كانت أم كلثوم هى الوسيلة الوحيدة التى كنا نعلم أولادنا منها النطق الصحيح لكلمات اللغة العربية بعدما فرض علينا المستعمر نسيانها.

وقال محمد بن قاسى المزاواوى أحد المؤسسين لنادى مولودية الجزائرى: الأهلى والزمالك وراء تأسيس الأندية الجزائرية بشكلها العصرى مثلنا مثل كل البلاد العربية الأخرى.

وفى البلدين الشقيقين كانت كرة القدم شأن العديد من الدول العربية مازالت اللعبة فى مهدها، وتشهد مرحلة البدايات بينما هى فى مصر لعبة قديمة وعريقة تعود إلى مطلع القرن العشرين. وفى فترة الستينيات كانت مصر قبلة الحضارة والثورة والسياسة والفن والرياضة فى الشرق برئيسها جمال عبد الناصر وموسيقارها محمد عبد الوهاب ولاعبها صالح سليم!

رسالة دكتوراه فى السوربون عنوانها: الأندية فكرة سياسية إطارها رياضى!

ويؤكد الباحث محمد سالم منصور الذى أعد رسالة دكتوراه فى جامعة السوربون عن موضوع: «الأندية فكرة سياسية إطارها رياضى وعنوانها وطنى»: بأن سر التفاف الجماهير العربية حول الأهلى هو نشأته الوطنية، وأن الزمالك خسر بسبب نشأته الأجنبية فى السنوات الأولى من عمره، وعوضها بدءاً من مرحلة الستينيات!

وهناك توزيع شبه معروف لجماهيرية الأهلى والزمالك فى الدول العربية، فالسعودية والكويت وقطر والسودان والأردن والمغرب والإمارات يشجعون الزمالك، وفى سوريا وتونس ولبنان والبحرين والعراق والجزائر وليبيا يشجعون الأهلى. ومن أهم أسباب شعبية الناديين فى الدول العربية ريادتهما، فلم تعرف الكثير من دول المنطقة - لاسيما الخليج - كرة القدم على المستوى التنافسى بينما كانت المنافسة على أشدها بين الأهلى والزمالك فى الستينيات فجذبت أنظار الملايين من الشرق والغرب العربى!

والعالم أيضاً فيه ظاهرة القطبية أو ظاهرة الخصومة والندية والمنافسة، مثل برشلونة وريال مدريد فى أسبانيا، ومانشيستر يونايتد ومانشستر سيتى، ويوفنتوس وميلان فى ايطاليا واياكس وايندهوفن بهولندا، وباناثيناكوس واوليمبياكوس باليونان، ومرسيليا وموناكو بفرنسا، وسلتيك ورينجرز باسكتلندا، وساوباولو وسانتوس بالبرازيل، وريفربلات وبوكاجونيورز بالأرجنتين. وبايرن ميونيخ وهامبورج فى ألمانيا.

ولكن قاعدة المنافسة فى معظم دول العالم متسعة، إذ تظهر بين الحين والحين الفرق الشابة الجديدة التى تنافس الفرق الكبيرة على البطولات، وليس كما هو الحال فى مصر، السباق دائما بين الأهلى والزمالك، من كرة القدم إلى تنس الطاولة، باستثناء فترات نادرة ولعبات محدودة ظهر فيها الأوليمبى أو الإسماعيلى والترسانة، ويكفى أن الأهلى فاز بالدورى ٢٩ مرة والزمالك ١٠ مرات مقابل ثلاث مرات للإسماعيلى ومرة واحدة لكل من الأوليمبى وغزل المحلة والترسانة والمقاولون!

وفى الفترة التى تلت الثورة، تحولت ظاهرة الأهلى والزمالك وزادت حدتها، وتخطت حدود الرياضة، كما قال الكاتب اللبنانى سليم اللوزى مؤسس مجلة الحوادث: إن الأهلى والزمالك هما الحزبان الوحيدان فى الوطن العربى.

وهو نفس ما كتبه د. يوسف إدريس فى واحدة من مقالاته السياسية إذ قال: إن الأهلى والزمالك هما الحزبان السياسيان الوحيدان فى مصر!

وفى يوم من الأيام كتب الأديب الدكتور حسين فوزى الذى اشتهر بلقب السندباد



المصرى، كتب فى الأهرام: « إن جمهور الكرة عموما ظاهرة اجتماعية، وإن موت الأحزاب عندنا وحاجة الناس إلى شىء يتحزبون له وراء ظاهرة كرة القدم فى مصر»!

والواقع أن حدة التعصب للأهلى والزمالك زادت بصورة واضحة بعد قيام ثورة يوليو، حيث بدأت الجماهير تتحزب إلى الناديين بعد إلغاء الأحزاب وظهور فراغ سياسى، وكانت الأحزاب قبل الثورة. لها وجودها المؤثر فى الشارع خاصة أن قضية الاحتلال والاستقلال كانت مطروحة ، وكانت مقاومة الإنجليز، قضية الحركة الوطنية المصرية الأولى منذ مطلع القرن العشرين.

وإذا كانت كرة القدم درساً فى العمل والأمل والحياة والحرية، فإنها أيضاً درس فى تجسيد الانتماء. والمبالغة فى الانتماء هو التعصب، وقد كتب ذات مرة الصحفى الكبير صلاح حافظ عن الأهلى والزمالك وقال: جماهير الكرة فى مصر وفى خارج مصر تميل دائماً إلى اقتصار المنافسة بين قطبين، وتكره أن تكون بين أقطاب متعددة، وليست هذه حقيقة مصرية وإنما عالمية. فى جميع صورها. لا يبلغ قمة الإثارة إلا عندما يكون بين طرفين.

واسألوا الذين ينظمون مباريات الملاكمة أو المصارعة أو التنس ويرتزقون منها، فهم سيقولون صراحة إن سحر هذه المباريات وسر جاذبيتها يكمن فى أنها تجرى بين طرفين لا بين أطراف متعددة، ولو راقبنا الدعاية التى تسبق أى مباراة ملاكمة كبرى لوجدناها تنصب على تأكيد قوة كل من الطرفين، وعلى نشر ما يقوله كل منهما على الآخر، وعلى تأكيد كل طرف أنه هو الذى سيفوز!

ويضيف الأستاذ صلاح حافظ:وهذا فى اعتقادى السبب فى إصرار الشعب المصرى على ألا يكون له فى عالم الكرة غير قطبين: (أهلى وزمالك). يبزغ نجم جديد، كالاسماعيلى ويسرق الكاميرا منهما ويظهر المقاولون مرة كأنه غول. ويزحف المحلة كأنه حرير، ويتدهور الأهلى أحياناً ويكاد يستجدى تسجيل هدف، ويتدهور الزمالك أحياناً حتى يكاد يستحق (معاش السادات). لكن الجماهير ترفض أن تعترف بغيرهما، لا حبًا فيهما، ولكن حبًا فى متعتها وإصرارها على أن تتفرج على الصراع بين قطبين لا ثالث لهما حتى لا تحرم نفسها من الاستمتاع بدراما ساخنة.

ودراما الأهلى والزمالك إذن من صنع الجمهور. لا من صنع الناديين. والأهمية الخارقة التى تتمتع بها مباريات الفريقين ليس لها سبب رياضى مقنع،

حدة التعصب للأهلى والزمالك زادت بصورة واضحة بعد قيام ثورة يوليو، حيث بدأت الجماهير تتحزب إلى الناديين بعد إلغاء الأحزاب وظهور فراغ سياسى

وإنما هى شىء صنعه الجمهور ليمتّع نفسه. وصاحبها ليس اللاعبون، وإنما المتفرجون. وهؤلاء المتفرجون لا يلعبون أصلاً، ولكنهم يدفعون لكى يلعب الأهلى والزمالك وهم جالسون، ولكى يتهيأ لهم مناسبة ساخنة يلهثون فيها دون أن يتحركوا، وفرصة يعاير فيها بعضهم البعض بانتصار لم يشاركوا فيه. ومناسبة يعيشون بعدها أسابيع وربما شهوراً يتجادلون فيها حول أهداف لم يسجلوها، وأخطاء حسبها الحكام ظلماً ضدهم وهم فى المقاعد.

مهرجان سنوى من صنع المتفرجين، هم الذين يستمتعون به، وهم الذين يختارون القطبين المتصارعين فيه، وحتى الآن لم يقع اختيار المتفرجين على قطبين غير الأهلى والزمالك، وليس لأحد أن يعترض على اختيارهما ما داموا هم الذين يدفعون، وماداموا يُخرجون فى النهاية العداء.

وينتهى هنا المقال الذى كتبه الأستاذ صلاح حافظ فى تفسير ظاهرة الأهلى والزمالك.

ومنذ قرابة الـ ٣٠ سنة، لفت أنظار علماء النفس والاجتماع سلوك جماهير الكرة، وأعصاب جماهير الكرة. وقد توصل علماء النفس فى مصر عام ١٩٧٠ إلى أن كرة القدم متنفس حقيقى لمشاعر الناس وانفعالاتهم. وهذا المتنفس قد يأخذ صورة حية، وقد يأخذ العكس!

ووصف الدكتور يحيى الرخاوى تشجيع الناس للكرة بأنه كالتعبير عن الانتماء ومظهر له، فالإنسان لابد أن ينتمى إلى أشياء معينة أحياناً بإرادته وأحياناً أخرى على الرغم منه، فهو ينتمى إلى أسرة ثم مدرسة ثم عمل ثم أسرة جديدة، وهو منتم إلى وطن وإلى نقابة وإلى ناد. وجمهور الكرة يشعر بدافع الانتماء ويجد مجالاً فى تشجيع ناد معين والتحمس له، وعندما يختلط بناديه ومشجعيه ويصبح ممثلاً له متقمصاً لشخصيته، يفرح بانتصاره، لأنه يشعر بأنه انتصار له هو فى النهاية.

ومما لاشك فيه أن نجاح ناد فى كسب بطولات متتالية هو أكبر حافز لمشجع الكرة على الانتماء إليه، فالمشجع فى هذه الحالة يضمن مكاسب نفسية ترضيه. ثم يأتى بعد ذلك عامل مهم للانتماء إلى هذا النادى أو ذاك، وهو حجم الجمهور الذى يشجعه. فإن المزيد يجذب المزيد، ومادام الانتماء هو الهدف الأول من القرن العشرين .

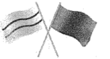
ويؤكد الأطباء النفسيون أن مشاهدة مباريات الكرة لها هدف، فهى عملية إثارة للتوتر وربما تفريغ له. وهذا يكون مفيدا إذا كان فى حدود معينة. لأن الإنسان فى حاجة دائما إلى التمرد على القيود وإلى التصرف الانفعالى المنطلق!

والصراع بين الناديين يختصر تاريخًا طويلاً من الحكايات الرياضية والاجتماعية والسياسية، فليست مباراة الأهلى والزمالك مجرد معركة بين ٢٢ لاعباً يركلون بالونة منفوخة، ولا يمكن التعامل مع كرة القدم على أنها مجرد لعبة رياضية ، لأن تاريخ الأندية فى العالم يرتبط بصورة ما بصراعات سياسية واجتماعية ودينية أيضاً. فعلى سبيل المثال عندما منح الملك ألفونسو الثالث فى عام ١٩٢٠ لقباً ملكياً إلى ريال مدريد فسر ذلك فى مقاطعة كاتالونيا على أنه تحيز إلى ريال مدريد كما استمر ذلك فى أيام حكم الجنرال فرانكو الذى استغل الشعبية العريضة للنادى فى الدعاية لحكمه. وكانت مقاطعة برشلونة خلال الحرب الأهلية الأسبانية فى الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ معارضة لحكم فرانكو واستخدم سكان برشلونة اللغة الكاتالونية خلال مباريات الفريق فى نوكامب للتعبير عن هذه المعارضة!

وأحياناً أخرى تكون الخصومة بين فريقين فى شعب واحد لأسباب دينية ، ففى عام ١٩٤٨ فى أيرلندا الشمالية فى مباراة بين فريق بلفاست سيلتيك ذى الأغلبية الكاثوليكية وفريق لينفيلد الذى تشجعه أغلبية بروتستانتية وقع شغب دينى وسقط الجرحى، ونفس الأمر فى إسكتلندا بين سيلتيك الكاثوليك ورينجرز البروتستانت، وقد تكون المنافسة والخصومة بين فريقين فى مدينة واحدة مثل ميلان فى إيطاليا أو مانشستر فى إنجلترا، فهناك منافسة بين فريقى المدينة الواحدة مانشستر، وهذه المنافسة ليست بسبب السياسة أو الدين أو صراع الغنى والفقر أو السلطة كما هو الحال فى العديد من المنافسات بين أندية أخرى، ولكنها منافسة الجذور الاجتماعية أو طبقة عمال السكة الحديد التى يمثلها مانشستر يونايتد وطبقة الموظفين التى يمثلها مانشستر سيتى !

قصة تأسيس الناديين.. وحسين بك حجازى من أسباب الخصومة بين الأهلى والزمالك!

وقد كانت قصة تأسيس الأهلى والزمالك من أسباب الخصومة الرئيسية بين الناديين وجماهيرهما فى مصر والوطن العربى. ففى مطلع القرن العشرين كانت مصر تعانى من الاحتلال البريطانى وكانت تحت حكم الخديو عباس حلمى الثانى الابن البكر للخديو توفيق، وكان عدد سكان مصر ١١ مليونا، وعدد سكان القاهرة أقل من ٧٠٠ ألف، وكان مصطفى كامل يقود الحركة الوطنية المصرية، ورغم أن القاهرة كانت عاصمة النور فى الشرق، فلم تكن مصر تعرف السينما فى مطلع هذا القرن، ولا تعرف الإذاعة، ولا تعرف الطائرة، ولا تعرف



التلغراف، ولكنها عرفت الأندية الرياضية، ففي عام ١٩٠٣ تأسس نادي هوكي بولاق (السكة الحديد)، ونادي النجمة الحمراء الذي أصبح نادي الموظفين ثم الأوليمبي السكندري وتأسس عام ١٩٠٥، وعدة أندية أخرى انتشرت في العاصمة وفي مدن القناة، وكانت كل هذه الأندية للجاليات الأجنبية ولموظفي بعض الهيئات، وكبار رجال الدولة.

وتأسس النادي الأهلي في أبريل عام ١٩٠٧، تحت اسم (النادي الأهلي للألعاب الرياضية) وكانت عضويته موجهة أصلاً لطلبة المدارس العليا وهم وقود الحركة الوطنية التي كان يقودها مصطفى كامل في مطلع القرن العشرين. والواقع أن الكثيرين اختلط عليهم الأمر بشأن الاسم الذي تأسس به الأهلي، فقيل إنه (منتدى طلبة المدارس العليا)، وسبب هذا الخلط أن الهدف من تأسيس الأهلي في مطلع القرن كان جعله المنتدى الذي يلتقي فيه طلبة المدارس العليا، حسب ما جاء في رواية عبد الخالق ثروت باشا رئيس الأهلي في جمعيته العمومية التي عقدت يوم ٦ فبراير عام ١٩١٩ وقد تغير اسم الأهلي فيما بعد، وتحديداً في عام ١٩٠٨ واختير اسم: (النادي الأهلي للرياضة البدنية) لأن الرياضة البدنية أعم وأشمل من عبارة الألعاب الرياضية. وكان ذلك باقتراح من أمين سامي باشا عضو مجلس ادارة الأهلي في ذلك الوقت. ومازال الأهلي يحتفظ بهذا الاسم.

وكان عمر لطفي بك هو صاحب فكرة إنشاء النادي الأهلي، وكان محامياً وصديقاً للزعيم مصطفى كامل، ورئيسا لنادي طلبة المدارس العليا الذي تأسس عام ١٩٠٥.

وبعد ٤ سنوات، عام ١٩١١ تأسس نادي الزمالك، تحت اسم (نادي قصر النيل) وتغير اسمه ثلاث مرات، ففي البداية حين أسسه المستشار القضائي البلجيكي مرزباخ، الذي كان رئيسا لإحدى المحاكم المختلطة كان الاسم هو نادي قصر النيل، بسبب موقعه، فقد اختارت مجموعة المؤسسين وهم من البلجيك والألمان ضفة نهر النيل في مواجهة نادي الجزيرة، وكان بجوار مقر النادي واحد من أكبر معسكرات الاحتلال البريطاني في الشرق الأوسط وأفريقيا واسمه (ثكنات قصر النيل) ومكانه الآن فندق هيلتون النيل وجامعة الدول العربية. وقد اختار مرزباخ الاسم الأول نادي قصر النيل، بسبب وجوده بجوار ثكنات الإنجليز، ولأن المساحة كانت محدودة وضيقة ومرزباخ يسعى لتطوير النادي، فقد قرر نقل النادي إلى مكان آخر، وحصل باتصالاته وعلاقاته على مساحة كبيرة من الأراضي تشغلها الآن مباني دار القضاء العالي المطلة على شارع رمسيس و٢٦ يوليو، ومعها مبنيا نقابتي المحامين والصحفيين. وانتقل النادي إلى المكان الجديد وتغير اسمه إلى نادي (المختلط) نسبة إلى اسم المحاكم المختلطة وكانت هذه المحاكم نوعاً من القضاء الخاص أنشأه الانجليز في مصر للنظر والفصل في المنازعات القضائية المدنية والجنائية بين الاجانب المقيمين في مصر، وبعضهم البعض من ناحية، وبين هؤلاء الأجانب والمصريين من ناحية أخرى. وأصبح الاسم (المختلط) في عام ١٩١٣، ثم تحول إلى فاروق عام ١٩٤٤، ولم يكن السبب في تغير هذا الاسم (مكان جديد) طبعا، إنما مباراة تألق فيها الزمالك وهزم الأهلي ٦/صفر وجرت بملعب اتحاد القوات المسلحة بالقبة وكان يحضرها الملك فاروق، ومن فرط إعجاب الملك بأداء الزمالك فقد قرر أن يسميه نادي فاروق، هذا علماً بأن ملعب النادي الأهلي بالجزيرة في ذلك الوقت كان يسمى ملعب فاروق أيضاً!

المهم أن التغير الأخير الذي طرأ على اسم الزمالك كان بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، ومازال الاسم قائما حتى الآن . ولاشك أن النشأة الأجنبية للزمالك أثرت على تفسير المنافسة بين الناديين الكبيرين على أنها صراع بين الوطنية والاستعمار، واستثمر الأهلي. بصورة ما. هذا التصور، وعززه لجلب المزيد من الأنصار من خلال آلته الإعلامية القوية في مصر والوطن العربي!



كان عزيز عزت باشا أول رئيس مصري للنادي الأهلي بدءا من ١٩٠٨ حتى ١٩١٦، أما الرئيس الأول للزمالك فهو البلجيكي مرزباخ، أما أول رئيس مصري لنادي الزمالك فهو حيدر باشا وتولى المهمة عام ١٩٢٣

ونعود إلى الأهلي، فقد كان رئيسه الأول انجليزياً، ويدعى ميتشل أنس، ويعمل مستشارا في وزارة المالية، وقد استقال من رئاسة الأهلي عام ١٩٠٨ بعد تعيينه سفيراً لبلاده في واشنطن، وكان عزيز عزت باشا أول رئيس مصري للنادي الأهلي بدءا من أبريل ١٩٠٨ حتى فبراير ١٩١٦، لكن أهم رئيس في تاريخ الأهلي هو أحمد عبود باشا؛ رجل الاقتصاد الذي أمضى قرابة ١٥ عاما في منصبه وقدم خلال تلك الفترة ٤٠ ألف جنيه من ماله الخاص لتمويل مشروعات النادي، وفي عهده أنشيء حمام السباحة والملعب الرئيسي لكرة القدم كما رسم خريطة مقر النادي بالجزيرة أما الرئيس الأول للزمالك فهو بطبيعة الحال البلجيكي مرزباخ، والرئيس الثاني كان فرنسياً ويدعى بيانكي، أما أول رئيس مصري لنادي الزمالك فهو حيدر باشا وتولى المهمة عام ١٩٢٣ وظل لمدة ٢٣ عاما رئيسا للنادي وكان بحكم منصبه كوزير للحربية من مصادر قوة الزمالك، وهو قائد الحركة الرياضية المكشفة للنادي في سنواته الأولى، ويعد أهم وأبرز رؤساء الزمالك على مدى تاريخه.

جذور ألوان الأهلي والزمالك

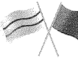
وقد استمد الأهلي لون فانلاته الحمراء من لون علم مصر، وقد كان هو العلم العثماني في فترة حكم الخديو عباس حلمي الثاني، الذي يتوسطه الهلال وفي قلب الهلال نجمة. وكانت ألوان الفانلات حمراء مقلمة طوليا باللون الأبيض، ثم تطورت إلى فانلات نصفها أحمر ونصفها أبيض، ثم إلى فانلات لونها أحمر قاني بحروف بيضاء. وكان شعار النادي مزينا بتاج الملك، وهو رمز الحكم، في الطرف الأعلى، وفي الطرف الأسفل كتب اسم الأهلي، وفي الوسط النسر المحلق. أما الزمالك فقد اختار اللون الأبيض، لأنه لون السلام، وكانت الفانلات لها ياقة حمراء في البداية، واستبدلت بخطين أحمرين على الصدر، باعتبار اللون الأحمر يرمز إلى الكفاح في سبيل النصر، أما شعار النادي فهو عبارة عن رامي السهم في زي فرعوني، والسبب في اختيار هذا الشعار هو أن رامي السهم كالنادي تماما كلاهما له هدف، والزي الفرعوني مستمد من المنطقة، أو من محافظة الجيزة، التي تحتضن أعظم أثر في العالم، وهو أهرامات الجيزة العجيبة الوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع القديمة.

تلك باختصار شديد، نبذة عن بداية الأهلي والزمالك، ولون كل فريق وشعاره، ولكن ماذا عن فريقي كرة القدم في الناديين، ومتى التقيا لأول مرة؟ وكيف ولدت الخصومة بينهما؟!

تأسس فريق لكرة القدم في النادي الأهلي عام ١٩٠٩، وتأسس أول فريق لكرة القدم في نادي الزمالك عام ١٩١٣، ولكن أول لقاء بين الفريقين كان وديا، وذلك يوم ٩ فبراير عام ١٩١٧ وفاز الأهلي ١/ صفر. وفي ٢ مارس من نفس العام لعب الفريقان مباراة على أرض الأهلي بالجزيرة وفاز الزمالك ١/ صفر ومنذ ذلك الوقت التقى الفريقان عشرات المرات في الدوري وفي الكأس، وحتى في بطولة كأس السوبر الأفريقية، وفي حب مصر أيضاً.

كانت المباريات الساخنة بين الفريقين من أسباب ترسيخ القطبية التي بدأت في الواقع عام ١٩١٤ ففي ذلك العام عاد حسين حجازي إلى مصر بعد أن لعب لنادي فولهام الإنجليزي الذي يملكه الآن رجل الأعمال المصري الشهير المقيم في إنجلترا محمد الفايد، وقد لعب حجازي كمحترف هناك ومثل منتخب جامعة كمبردج - حيث كان يدرس - في بطولة الجامعات الدولية. وكان حجازي قد اشتهر كلاعب وهو طالب في المدرسة السعيدية قبل السفر إلى إنجلترا.

المهم عاد حجازي إلى مصر عام ١٩١٤ ولم يشأ أن ينضم إلى أي ناد، وانما شكل فريقا خاصا به عام ١٩١٥ أطلق عليه اسم «حجازي الفن» أي (حجازي ١١) وأخذ يتحدى به الفرق الإنجليزية، وحدث أن تكونت فرقة من





بعض جنود الاحتلال الذين كانوا يلعبون فى أندية انجلترا قبل تجنيدهم، وأشرف عليهم رجل انجليزى يدعى ستانلى، وسمى الفريق باسم (ستانلى تيم) وتحدى بفرقته فرقة حسين حجازى على رهان قدره عشرة جنيهات، وفاز فريق حجازى، فجن جنون ستانلى وصمم على إقامة مباراة ثأرية ارتفع فيها الرهان إلى ١٨٠ جنيها، وكان هذا المبلغ يعتبر ثروة فى ذلك الوقت، وبعد مباراة عنيفة حامية الوطيس. كما يقال. فاز فريق حجازى، وكان هذا الفريق يضم كلا من حسين منصور لحراسة المرمى والظهيرين محمد حسنين زوبة ويوسف وهبة وخط الدفاع عبدالحميد محرم ومحمد جبر وسعيد المهندس ودكتور محمد أباظة أو حسن علوبة وعبدالفتاح طاهر ويوسف محمد.. وكان حسين حجازى يلعب بفريقه فى الشوارع والميادين والأندية، ومنها النادى الأهلى ونادى السكة الحديد، ولعب بفرقته فى الإسكندرية وطنطا، والمنصورة وأسيوط، والمنيا.

ومع تألق حسين بك حجازى سعى النادى الأهلى إلى ضمه لصفوفه، وانضم حجازى بالفعل للأهلى عام ١٩١٧ ولحق به مجموعة من فرقته، بينما انضم الباقون إلى المختلط أو الزمالك، وهذا الانقسام فى فرقة حجازى، بين فريقى الأهلى والزمالك أضفى على الفريقين عناصر قوة وتميز وصنع الندية بينهما، وقد مكث حجازى فى الأهلى لمدة عامين، ثم انتقل إلى الزمالك فى عام ١٩١٩ فأصبح الزمالك أقوى الفرق المصرية، وزادت جذوة المنافسة والخصومة، وفى عام ١٩٢٢ أقيمت بطولة كأس الأمير فاروق وفاز المختلط (الزمالك) بالكأس، وفى عام ١٩٢٤ بعد انتقال المختلط إلى مقره الثالث الجديد قرر حجازى أن يترك الفريق لأن المقر الجديد لايوجد به مكان للعب البريدج والبلياردو، وانتقل حسين حجازى إلى الأهلى، وعلى مدى ٤ سنوات متتالية هبط مستوى فريق كرة القدم فى الزمالك لغياب حجازى، وارتفع مستوى فريق الأهلى لوجود حجازى!

وكان حسين حجازى عندما ينتقل من الزمالك إلى الأهلى أو من الأهلى إلى الزمالك يقول محرر صفحة الرياضة فى جريدة الأهرام: «دارت دورة الفلك». وقد كان الانتقال من أسباب غرس جذور المنافسة ونبتة الغرماء بين الأهلى والزمالك، فكلاهما كان قد بدأ يكون الشعبية والجماهيرية، وكان انتقال حجازى بين الناديين سببًا مباشراً فى غرس مشاعر الغضب والضيق لدى الجمهور الذى كان يحبه ويشجعه، وفى عام ١٩٢٨ عاد حسين حجازى إلى الزمالك غاضبا من الأهلى الذى أوقفه بسبب واقعة عدم تسلم لاعبى الفريق لميداليات المركز الثانى من الفريق صادق باشا يحيى كبير الياوران ومندوب الملك بعد هزيمة الأهلى فى نهائى الكأس أمام الترسانة. وعاد حجازى ليجدد شباب الزمالك (المختلط)، حيث كوّن فريقًا جديداً باسم المختلط الجديد، أسوة بفريق الأهلى الأبيض، وكان دورى منطقة القاهرة يتكون من خمسة أندية تتنافس فيما بينها على البطولة، وهى الأهلى والمختلط والسكة الحديد ونادى البوليس والنادى اليونانى.

والواقع أن حسين حجازى ساهم فى صناعة شعبية وجماهيرية الأهلى والزمالك، وكان انتقاله من هذا النادى إلى ذاك وراء روح التنافس والتحدى التى ظهرت بينهما، فمع انتقال حسين حجازى من الأهلى إلى الزمالك انتقلت معه جماهير كبيرة، وبقى عدد كبير آخر من الجماهير متمسكاً بالالتفاف حول الأهلى، ومع انتقال حجازى من الزمالك إلى الأهلى، يحدث نفس الأمر، تذهب خلفه جماهير وتبقى جماهير ملتفة حول الزمالك، وكان الانتقال فى حد ذاته يصيب الجمهور الباقى على حب فريقه الأصلى سواء الأهلى أو الزمالك، بالغضب من الفريق الآخر الذى انتقل إليه نجم الكرة المصرية الأول، وكان حب الجماهير والتفافهم حول حسين بك حجازى يرجعان إلى أن فريق «حجازى الفن» أرضى الغرائز الفطرية الكارهة للاستعمار بكثرة ما كان يحققه من انتصارات على الفرق الانجليزية،وكان الكثيرون يتبعونه، فإذا لعب حجازى للأهلى فهم يشجعون الأهلى، وإذا لعب للزمالك فهم يشجعون الزمالك!

هكذا وضع حسين حجازى بذرة التنافس والخصومة التقليدية بين الأهلى والزمالك، لكن هذا التنافس وهذه الخصومة أخذا ينموان تدريجيا، ولوقائع متشابهة خاصة بانتقالات اللاعبين بين الناديين أو بسبب أزمات أو مباريات عاصفة!

وضع حسين حجازى بذرة التنافس والخصومة التقليدية بين الأهلى والزمالك، لكن هذا التنافس وهذه الخصومة أخذا ينموان تدريجيا

فى عام ١٩٣٦ كان عبد الكريم صقر طالبا فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية وتألق فى دورى المدارس، وكان ابن عمه ممدوح مختار مديرا للكرة بالأهلى، فأقنعه بالانضمام للنادى ولم يكن عمره قد تجاوز ١٦عاماً. وبعد ٤سنوات انتقل ممدوح مختار إلى المختلط مديراً للكرة، ولحق به عبد الكريم صقر، وأيامها كان حيدر باشا هو رئيس المختلط ورئيس اتحاد الكرة، وعندما نشبت أزمة بين الأهلى والمختلط بسبب عبد الكريم صقر الذى تمسك به الأهلى، قرر حيدر باشا أن يترك الأمر لعبد الكريم صقر ليختار النادى الذى يلعب له فاختار الزمالك.

وزادت الخصومة بين الناديين وبين جماهير الناديين بسبب انتقال عبد الكريم صقر من الأهلى للزمالك، وتكررت القصة لكن بأسماء أخرى. فقد جذب عبد الكريم صقر صديقه محمد الجندى لاعب الأهلى إلى الزمالك، وفى عام ١٩٥١ انتقل يكن حسين وزكى عثمان من الأهلى إلى الزمالك، وكان موسم الاستقالات يسمح بانتقال اللاعب من ناد إلى آخر عقب نهاية كل موسم، غير أن اتحاد الكرة قرر فى عام ١٩٥٧ تطبيق لائحة جديدة، وبتطبيقها أصبح محرماً على اللاعب الانتقال من ناد إلى آخر إلا بموافقة ناديه الأصلى وحصوله على استغناء منه. وحدد الاتحاد نفس العام ليشهد آخر موسم انتقالات فى تاريخ الكرة المصرية، قبل تطبيق الاحتراف فى مطلع التسعينيات، وشهد عام ١٩٥٧ حركة انتقالات واسعة بين لاعبى الأندية، وفشلت محاولات الزمالك فى ضم عادل هيكل حارس مرمى الأهلى، ونجح الأهلى فى خطف ميمى الشربينى وطه إسماعيل قبل أن يقعا فى شباك الزمالك، وقام عبده البقال كشاف النادى الأهلى بإخفاء الشربينى وطه إسماعيل فى رأس البر لمدة أسبوعين بعيداً عن أعين الزمالك حتى تم لهما التوقيع للأهلى.

وفى يوليو عام ١٩٥٧ أجرى الأهلى والزمالك اتفاقاً بخصوص موضوع انتقالات اللاعبين واتفق الناديان على ألا يحاول أحدهما ضم أى لاعب من النادى الآخر إلا بعد الحصول على موافقة النادى التابع له بالاستغناء عنه، وقد تبادل رئيسا الناديين عبود باشا والدكتور محمود شوقى خطابين يتضمنان عدم قبول انضمام أى لاعب من لاعبى الناديين إلى الآخر إلا إذا كان معه تنازل من النادى الذى يتبعه.

لكن هذا الاتفاق لم يستمر، ومضى الناديان يحاولان خطف المواهب والنجوم من الأندية الأخرى ويتنافسان عليها. وفى سنة ١٩٦٦ حاول الأهلى أن يضم لمعى لاعب المنصورة، ودخل الزمالك منافساً له، وقامت الدنيا ولم تقعد فى الوسط الكروى، وباتت حكاية لمعى قصة رئيسية فى صفحات الرياضة، واستدعى الأمر تدخل طلعت خيرى وزير الشباب لإقناع لمعى بالانضمام للزمالك، إلا أن لمعى اختار الأهلى!

وكانت تلك قصة أخرى من القصص التى ساهمت فى زيادة حدة الخصومة بين الناديين وتكررت بصور أخرى وبأسماء أخرى، ولعل قصة رضا عبد العال مازالت فى الأذهان، فقد كان عبد العال نجما من نجوم الزمالك، وفجأة استيقظ شارع الكرة المصرية على خبر يقول أن رضا عبد العال وقع للأهلى. وانشغل الرأى العام بالقصة وبالمزايدة التى جرت على اللاعب، وقام الزمالك بمحاولة الرد على انضمام رضا عبد العال للأهلى بالحصول على توقيع التوءم حسام حسن وإبراهيم فى عام ١٩٩٤، لكن المحاولة لم تنجح إلا فى عام ١٩٩٩!!

أزمة زيارة فلسطين

بين حيدر باشا وفؤاد باشا

وشطب ١٤ لاعبا من الأهلى!

وبطبيعة الحال لم تولد المنافسة التقليدية بين الأهلى والزمالك من بطن الانتقالات فقط، ولكنها زادت بسبب الندية بين الفريقين، وصراعهما المستمر على البطولات، وبسبب الأزمات، ومنها أزمة أحسب أنها أضافت الكثير من أسباب الخصومة بين فرعى الأسرة الكروية الكريمة!

كان ذلك عام ١٩٤٣ عندما طلب ليفون كاشيشيان المحرر الرياضى فى إحدى الصحف الفلسطينية سفر النادى الأهلى للعب ٣ مباريات ودية خلال الصيف، فأجرى الأهلى اتصالا باتحاد الكرة للحصول على الموافقة، فرفض الاتحاد، وتدخل فؤاد سراج الدين باشا، وكان عضواً بالأهلى ووزيراً للداخلية ووافق على سفر الفريق إلى فلسطين، وأرسل الموافقة إلى وزارة الشئون الاجتماعية التى تشرف على الاندية، إلا أن رئيس اتحاد الكرة حيدر باشا ووزير الحربية حصل على هذه الموافقة ومزقها.

ويبدو أن فى الأمر خلافاً بين حيدر باشا وفؤاد باشا، الذى علم بما جرى، فأمر بسفر الفريق واستخرج جوازات سفر للاعبيه، وأن يتشكل الفريق تحت مسمى «منتخب نجوم القاهرة» وليس فريق الأهلى.

وبالفعل سافر فريق الأهلى إلى فلسطين تحت اسم «نجوم القاهرة» فقرر اتحاد كرة القدم برئاسة حيدر باشا شطب ١٤ لاعباً، وتوقف نشاط اللعبة فى الأهلى لمدة شهر، وعندما جاء موعد كأس الملك تدخل أحمد باشا حسنين لكى يعفو الاتحاد عن اللاعبين بشرط الاعتذار للملك رسمياً، وفى يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٤٣ اجتمع مجلس إدارة النادى الأهلى فى منزل جعفر ولى باشا رئيس النادى بمطرية الزيتون، وجرت مناقشة موضوع الإيقاف والشطب، وتناول الحضور مسألة سلطة الاتحاد على الأفراد وحقه فى منعهم من اللعب خارج القطر، وانتهى الاجتماع باقتراح من فكرى أباظة برفع مذكرة إلى اتحاد كرة القدم بملاحظات المجلس، التى تتلخص فى أن العقوبة وهى الشطب، أبدية، وأن السبب لم يذكر فى إنذار الشطب، وأن اللاعبين لم يحقق معهم، فإذا رأى الاتحاد ألا يؤخذ بوجهة نظر المجلس فإن النادى الأهلى مع الأسف الشديد لا يستطيع عملياً أن يدبر بحال إزاء شطب ١٤ من أبرز لاعبيه فريقاً لائقاً لمباريات الموسم.

وانتهت هذه الأزمة بعد أن وصلت للذروة بتهديد الأهلى بالانسحاب من اتحاد الكرة، وتدخل فيها القصر وأمر الملك فاروق وزير حربيته حيدر باشا بإنهاء المشكلة، ولعب الأهلى والزمالك نهائى كأس الملك وفاز الزمالك ٦/صفر وهى المباراة التى أعجب بنتيجتها الملك وبعدها تحول اسم الزمالك إلى فاروق!

وهذه المشكلة بكل جوانبها، وبالنتيجة التى انتهت بها المباراة أثارت جماهير الاهلى ضد الزمالك، قبل اتحاد الكرة إذ تصور جمهور الاهلى أن حيدر باشا رئيس الاتحاد ورئيس الزمالك فى الوقت نفسه لعب دوراً كرئيس للاتحاد لصالح موقعه كرئيس للزمالك، وقد أضافت تلك الازمة الكثير على جذور الخصومة بين الناديين الكبيرين!

وإذا كان السباق بين الناديين على ضم النجوم انعكس على طبيعة المنافسة بينهما، فإن الندية، وهى من قوانين الكون، زادت من حدة المنافسة، والحقيقة أن الجميع تعامل مع الأهلى والزمالك باعتبارهما قوتين متساويتين ومتضادتين والمنافسة بين الفريقين بدأت مبكرا، وقبل بدء بطولة الدورى العام فى ١٩٤٨ إذ كانت هناك كأس السلطان حسين من ١٩١٧ إلى ١٩٣٥ وقد فاز بها الزمالك مرتين عامى ١٩٢١ و١٩٢٢، أما الأهلى ففاز بها ٦ مرات فى أعوام ١٩٢٣، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٢٩، ١٩٣١.. وفى الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٩ كانت قاعدة المنافسة على بطولة كأس التفوق المصرية واسعة وتضم عدداً من الأندية، إذ فاز بها الأهلى ٧ مرات مقابل ٤ مرات للزمالك. ومرتين لكل من الاتحاد السكندرى والأولبى والترسانة، ومرة واحدة للترام، وفى الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٧ فاز الأهلى بكأس الأمير فاروق ٤ مرات مقابل ٣ مرات للزمالك .

وانتقل الصراع بين الناديين من إطار المحلية إلى المستوى الإفريقى، فقد توج الأهلى ناديا للقرن العشرين فى إفريقيا واحتل الزمالك المركز الثانى، وسبق الناديان أندية عربية وإفريقية كبيرة، وتعد الفترة من ١٩٨٢ إلى ٢٠٠٣ من أزهى فترات الكرة المصرية فى القارة. فقد أحرز الأهلى ٨ بطولات وهى بطولة أبطال الكئوس أعوام ٨٤ و٨٥ و٨٦ و١٩٩٣ وثلاث بطولات لأبطال الدورى أعوام ٨٢ و١٩٨٧ و٢٠٠١. وكأس السوبر عام ٢٠٠٢، بعد فوزه على صن داونز الجنوب إفريقى ٣/ صفر وفى المقابل فاز الزمالك بست بطولات ٥ لأبطال الدورى أعوام ٨٤ و٨٦ و٩٣ و١٩٩٦ و٢٠٠٢ وبطولة واحدة لأبطال الكئوس عام ٢٠٠٠.

كما فاز الزمالك بكأس السوبر الإفريقية ثلاث مرات. الأولى فى جوهانسبرج عام ١٩٩٤ بعد تغلبه على الأهلى والثانية بعد تغلبه على المقاولون عام ١٩٩٧، والثالثة عام ٢٠٠٣ بعد تغلبه على الوداد المغربى .

هذه الأرقام والبطولات والمقارنات تعكس حقيقة المنافسة بين الفريقين الكبيرين، والتى تعاظمت فيما بعد نتيجة لبدء بطولة الدورى العام، والانغماس فى البطولات الأفريقية، ونتيجة لظروف سياسية واجتماعية صبغت الشارع المصرى بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ .. ومازالت!■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

حياة الشعب بالشعب

من الشعوب من يسلم زمام أموره إلى حكومته ويجرى طوع إرادتها، ومنها من يجعل للحكومة حدًا محدودًا فى السلطة والنفوذ ويراقبها مراقبة شديدة إن أحسنت كافأتها وإن أساءت قضى عليها . فشعوب الشرق من النوع الأول وشعوب الغرب من النوع الثانى . ولذلك كان الشرق فى تأخر وانحطاط، وكان الغرب فى تقدم وارتقاء لأن الشعب هو فى الحقيقة صاحب البلاد وسيدها وحارس الوطن من كل الأخطار، وما الحكومة إلا وكيل عنه تختار من نخبة أبنائه ومن أشدهم على مصالحه.

وقد قضى تاريخ مصر أن تنقلب الأوضاع فى هذه البلاد ويصير الشعب عبدًا للحكومة . وخادمًا تسخره كيف تشاء وترسل به إن شاءت وتسىء إليه ما استطاعت وهو لا يقدر معارضة أو حراكًا لأنه أعتقد ورسخ فى أذهان بنيه أنه آلة فى يد أفراد يتصرفون فيه وفى مصالحه كما تشاء أهواؤهم وأنه ما خلق إلا لرضاء هؤلاء الأفراد، وبقدر ما اشتهر المصريون بالنباهة والطبيعية والذكاء الفطرى اشتهروا بالخضوع للحاكم وعدم مخالفة الحكومة .

ولا ريب أن الشعب المصرى لا يبلغ ما بلغته شعوب الغرب من التقدم والارتقاء ولا يأخذ من الحياة الحقيقية بنصيب وافر إلا إذا قام بنفسه ونهض بمحض إرادته وبقوة مجهوداته . يومئذ تدوم له الرفعة والسعادة ويدوم له المجد والاستقلال . وإلا إذا اعتمد على الحكومة فى كل شىء يطالبها بتحقيق أمانيه فشقاؤه يكون أبديًا وذله يبقى سرمديًا .

منهاج التاريخ الغربي و هوية مصر ولحظاتها الكبرى

محمود الورداني

■■ ارتبط الاستشراق منذ بداياته الباكرة بتوجهات وأهداف استعمارية، وشكل فى بعض الأحيان الطليعة الاستكشافية التى تسبق الغزو الكولونيالى، وفى أحيان أخرى لعب الاستشراق دورًا استخباراتيًا وتجسسيًا لصالح الإمبراطوريات والدول الاستعمارية.

من جانب آخر لعب الاستشراق دورًا بالغ الأهمية على المستوى الثقافى والأدبى من خلال تحقيق عدد هائل من المخطوطات ونشرها وحفظها من الضياع، فضلاً عن المصنفات الكبرى والفهرسة فى الدين والفلسفة والفكر والأدب العربى التى وضعها المستشرقون، بل أنقذوا جانبًا مهمًا من التراث الصوفى والغنوصى، وأولوا اهتمامًا متزايدًا للحركات الدينية السياسية التى تم فرض ستار من السرية والإلغاء المتعمد لأصولها ومنابعها ووقائعها.. حتى على الرغم من أنه تمت الاستفادة من هذا الدور وتوظيفه لخدمة الغرب وللصورة النمطية التى ظل الغرب ينتجها ويعيد إنتاجها عدة قرون عبر «شرق متخيل».

لعل كل هذا معروف ولا أضيف جديدًا بالسطور السابقة.. غير أن هناك مع ذلك بعض الباحثين والمستعربين الجدد ذوى الرؤية اليسارية. بالمعنى العام والواسع. والمنهج اليسارى فى التناول وقراءة الأحداث وتحليلها قدموا فى واقع الأمر إسهامًا بارزًا، بل وإضافة حقيقية فى تفسير وفهم وتحليل الحركات الاجتماعية والتاريخ والاقتصاد، ومن ثم فى السياسة.

١ . كل رجال الباشا
خالد فهمى
ترجمة: شريف يونس
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

٢ . الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر
جوان كول
ترجمة: عنان الشهاوى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

٣ . الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر
وولتر أرمبرست
ترجمة: محمد الشرقاوى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

واللافت للنظر أنهم استخدموا مناهجهم الغربية وقاموا بتطويعها على نحو اتسم بالانفتاح والاستعداد للتلاؤم مع واقع مختلف، فضلاً عن الدأب والجدية والجهد العلمى المضنى الذى بذله بعضهم على النحو الذى سأحاول توضيحه فى السطور التالية:

من بين هؤلاء اخترت ثلاثة كتب لثلاثة مؤلفين: الأول: «كل رجال الباشا» لخالد فهمى وترجمة: شريف يونس. دار الشروق. والثانى: «الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر» لجوان كول، ترجمة: عنان الشهاوى. المجلس الأعلى للثقافة. والثالث: «الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر» لوولتر أرمبرست، ترجمة: محمد الشرقاوى وصدر أيضًا عن المجلس الأعلى للثقافة.

وعلى الرغم من أن الكتاب الأول لباحث مصرى (نابه بحق) هو الدكتور خالد فهمى الذى درس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، إلا أنه يكتب بالإنجليزية (وكما هو معروف اللغة ليست مجرد اختيار من الكاتب ولا تشمل مجرد الحروف والمفردات وقواعد النحو والصرف، بل هى أعمق وأكثر غورًا من هذا السطح الأملس)، وبعد حصوله على الماجستير فى العلوم السياسية من ذات الجامعة، حصل على الدكتوراة فى التاريخ الحديث من جامعة أوكسفورد، ويشغل الآن منصب أستاذ مساعد تاريخ الشرق الأوسط بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة.

بطبيعة الحال د. خالد فهمى باحث مصرى مرموق، ولا أضمه للباحثين التاليين. جوان كول وولتر أرمبرست. وربما كان السبب الوحيد لتناول كتابه يعود لتبنيه الواعى وتأثره بمنهج وكتابات كل من ميشيل فوكو ومجموعة دراسات التابع الهندية، وإن كان هذا التبنى ليس مصمتًا أو تطبيقًا ميكانيكيًا على واقع مختلف، بل هو امتلاك لمنهج واختبار له وحوار معه، مما شكل فى نهاية الأمر إضافة باهرة فى تاريخنا الحديث.

أما والى مصر محمد على باشا فقد حظى بهالة من السحر والتألق رفعته إلى مرتبة الأسطورة، بعد أن كان مجرد ضابط من ضباط الفرقة الألبانية التى حلت على مصر لفرض الأمن والسيطرة من جانب السلطان العثمانى عشية رحيل القوات الفرنسية عائدة لبلادها بعد احتلال استمر منذ ١٧٩٨ وحتى ١٨٠١. وكان من المنتظر أن يعين السلطان واليًا على البلاد لإعادة السيطرة، إلا أن الضابط الشاب فى الفرقة الألبانية. محمد على. استطاع التسلل والنفاذ لمشايخ الأزهر. أى النخبة فى ذلك الحين، ووثق علاقاته بمختلف القوى والتيارات الناشطة فى وطن كان قد جرى احتلاله لأكثر من ثلاث سنوات، كما وثق علاقاته وصلاته فى نفس الوقت بقوات السلطان العثمانى.

واستطاع فى شهور قليلة أن يصبح واحدًا من أهم الضباط، بل وانعقد عليه إجماع المشايخ ومن ثم بقية الطوائف المؤتمرة بأمرهم، وثار المصريون على السلطان العثمانى ورفضوا قبول الوالى الذى قرر السلطان تعيينه، وفرضوا محمد على فرضًا، وهو أمر كان فى ذلك الحين متجاوزًا لكل ما هو مستقر من شرائع وتقاليد وأعراف. على أى حال انطلق محمد على من مصر ليشيد ما يكاد أن يكون إمبراطورية، ونصّبه البعض بانيًا لمصر الحديثة بسبب مؤسسات الحداثة التى أقامها على مدى سنوات حكمه: الجيش والأسطول ومؤسسات التعليم والإنتاج وإعادة هيكلة الأرض، وبعد ما يقرب من ثلاثين سنة كانت جيوشه بقيادة ابنه (ساكن الجنان) إبراهيم باشا تقف على أبواب القسطنطينية، ولولا التحالف الأوروبى القائم وقتذاك لكان قد دخلها بالفعل، غير أن التاريخ لحسن الحظ لا يعرف كلمة «لو» كما يقولون.

تلك هى الخطوط العريضة لسيرة محمد على باشا، وهى خطوط منحته سحرًا أسطوريًا بوصفه المستبد العادل وبانى مصر الحديثة ومؤسس الجيش وصاحب الإصطلاحات والمسئول عن تشكيل وعى الأمة بذاتها.

هذه الترسانة من الأفكار والمفاهيم التى تشكلت على مدى قرنين من الزمان وأسهم فيها أساطين المؤرخين من القوميين والمستعربين تصدى لها خالد فهمى الذى هدف، كما كتب مترجم الكتاب شريف يونس إلى «إسقاط مجموعة متنوعة من الحصون التقليدية المنيعة فى تقاليد الكتابة التاريخية المصرية» ويضيف «تحت قناع لطيف من الأسلوب السلس والنبرة الهادئة، وبغير أى انفعال زائد فى معظم صفحات الكتاب يقوض خالد فهمى جدرانًا بأكملها من صرح النمط الوطنى السائد فى الكتابة التاريخية المصرية ومسلماتها وضميرها وحججها».

فى ثلاثة كتب لم نكتبها نحن:

بطبيعة الحال لم يكن سهلاً تجاوز ونقض كل هذه الترسانة التى دفعت بمحمد على ليكون مؤسس مصر الحديثة، بل عمد المؤرخون للتغاضى عن الجانب الاستبدادى والقمعى فى شخصيته، ومن ثم إجراءاته وجملة تغييراته، أمام إنجازاته الضخمة. لكن المؤلف تبنى خطابًا ومفهومًا مناقضًا لمجمل الخطاب السائد حول محمد على وحول الحداثة التى أسسها محمد على فى مصر، فالخطاب السائد وقع. حسبما عبّر. فى شرك الحداثة، واقتبس مفهومًا غريبًا لها، وهو المفهوم الذى يعتبرها الامتلاك التدريجي للعقلانية، ويرى التاريخ بوصفه صيرورة عالمية لتحقيق مبدأ العقل. بعبارة أخرى حاول مفكرو الحداثة أن يتحدوا المركزية الأوروبية ليس بنقد المبادئ النظرية التى قامت عليها، بل بتخيل هوية محلية مصرية مركزية تقوم على نفس المبادئ النظرية مع اختلاف مهم، هو اعتبار هذه الهوية مستقلة عن الغرب ومعارضة له.

من جانب آخر يعترف المؤلف. كما يليق بمفكر من طراز رفيع. بأن كثيرًا من الأفكار التى اعتمد عليها فى نقده للحداثة «مستقاة» من بعض أعمال المؤرخ الفرنسى ذائع الصيت ميشيل فوكو، خصوصًا فيما يتعلق بمظاهر التحول فى الأنظمة العقابية وأنماط التعذيب فى فرنسا منذ أوائل القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر. وتكمن العلاقة بين أفكار فوكو وجيش الباشا فى أن المؤلف سعى فى دراسته لنقد الحداثة كما تتجلى فى إحدى أهم المؤسسات الحديثة وهى الجيش النظامى الحديث، الذى يعد وسيلة مثالية لاختبار صحة مقولات فوكو عن السلطة.

لماذا؟

يجيب المؤلف: لأن الجيش الحديث شأنه شأن السجن الحديث مكان تظهر فيه آليات السلطة بشكل واضح وصريح، ويتجلى خطابها على نحو واضح. فجسد الجندى شأن جسد المجرم خاضع على الدوام لنظام صارم من الانضباط والمراقبة، لذلك يسعى خالد فهمى لدراسة الممارسات المختلفة بدءًا من التجنيد وحتى المعارك الحية.

وفى هذا السياق يعبر المؤلف عن استفادته أيضًا من كتابات مجموعة دراسات التابع، وهى أعمال مجموعة من الباحثين أغلبهم من الهنود، نشطوا منذ أواخر الثمانينيات فى إعادة كتابة تاريخ شبه القارة الهندية ممن تأثروا بأفكار إدوارد سعيد وجاك دريدا وجرامشى وفوكو. وتكمن استفادته فى توجيه انتباهه لدراسة تاريخ الجنود لا الضباط والقادة، تاريخ التابعين والمقهورين والوقود الحقيقى للمعارك، بينما احتفظ التاريخ بالنياشين وميداليات النصر ورايات الفاتح على صدور القادة والضباط.

وعلى الرغم من ندرة المصادر. وربما انعدامها. فلم يتعود الجنود. والمقهورون والتابعون عمومًا. على كتابة تاريخهم ولم يخلفوا أثرًا مقروءًا، مما دعا المؤلف لقراءة وتحليل عشرات المصادر العربية والتركية وأرشيف دار الوثائق القومية. خصوصًا منذ عام ١٩٨٩ والدوريات والسجلات وأوامر الجهادية لتعويض نقص المصادر وإعادة بناء التاريخ وتسجيله من خلال وجهة نظر الجنود وليس من وجهة نظر الحكام بغية استخلاص خطاب المقاومة من خطاب السلطة، أو كتابة التاريخ من أسفل حسبما عبر المؤلف فى حوار له فى أخبار الأدب (العدد ٤٦٣. ٢٦ مايو ٢٠٠٢)، فموضوع الكتاب إذن والإضافة الأساسية هى ليس آليات إنتاج السلطة بل كيفية استهلاكها.

«كل رجال الباشا». على هذا النحو. لا يتناول الحداثة والسلطة فقط، بل هو عن الحداثة التى يجب أن ننتقد خطابها لا أن نلهث وراءه، وعن السلطة ووسائلها فى الضبط والقمع. وهو أيضًا عن القومية بوصفها «مجتمعًا سياسيًا متخيلاً» لأن الجيوش الحديثة «وسيلة لإنشاء تخيل الأمة» حسب تعبير الكاتب. وهو أيضًا كتاب عن التاريخ الاجتماعى لا الحربى لجيش الباشا لأن اهتمامه انصب أساسًا على تاريخ الجنود وتفاصيل حياتهم اليومية.

وهكذا تتابعت فصول الكتاب السبعة دون ارتباط بالتتابع التاريخى. فالأخير ليس أحد أهداف الكتاب، فضلاً عن عدم الالتزام بتقديم سيرة ذاتية للباشا ورجاله وضباطه والنخبة ذات الأصول التركية المرتبطة به. ومن بين ركام الفوضى وأطنان المصادر التى لا تحفل إلا بسير القادة وأعمالهم، ووسط التاريخ الرسمى الذى سجله الموظفون والكتبة فى ديوان المعية، اتجه خالد فهمى لصياغة سيناريو آخر مناقض يتضمن







حياة الجنود المهمشين، الذين وقع عليهم عبء المعارك والموت. ليس فى سبيل الوطن. بل فى سبيل الباشا!

فعلى سبيل المثال، وعلى عكس ما هو شائع حول أسباب تجنيد الفلاحين، يتناول المؤلف هذه القضية مؤكدًا أن التجنيد يكاد أن يكون قد جرى فرضه فرضًا على الباشا. والمعروف أن الولايات العثمانية كان يتم السيطرة على الأمن فيها وعلى حدودها من خلال فرق عسكرية مرتزقة تابعة للسلطان العثمانى، ولم يكن مسموحًا لأهالى البلاد بالانخراط فى صفوف الجيش، ولم يكن التجنيد الإجبارى مطروحًا على الإطلاق.

كذلك يؤكد الخطاب الرسمى وسيل الكتابات التاريخية أن محمد على، بإنشائه للجيش وقراره بتجنيد الفلاحين قد دفع مصر خطوة واسعة نحو وعيها بذاتها وهويتها المستقلة، فالجيش الوطنى هو البداية الحقيقية لانخراط الفلاحين وانتمائهم لأمة يدافعون عنها ويستشهدون فى سبيلها.

وعندما يعيد خالد فهمى قراءة المضابط والسجلات وأوامر الجهادية منقبًا فى المسكوت عنه، يكتشف أن الباشا ظل حتى آخر لحظة خالى الذهن تمامًا من فكرة تجنيد الفلاحين، واتجه فى البداية الاتجاه الطبيعى، وهو زيادة الجيش بالمزيد من تجنيد المرتزقة الألبان الذين ينتمى إليهم الباشا فى الأساس، لكن الفرقة الألبانية الموجودة فى المحروسة وقتذاك كانت قد تكاثرت تمرداتها وثوراتها الصغيرة. من جانب كان أفراد الفرقة مازالوا يعتبرونه مجرد واحد منهم وليس حاكمًا أعلى للبلاد. ومن جانب آخر تآمروا عليه، واكتشف بالفعل عدة مؤامرات استهدفت حياته نظمها وعقد العزم على تنفيذها ضابط الفرقة الألبانية المذكورة.

لذلك، وعند أول فرصة لاحت له، قام بالتخلص منهم، ما أن طلب السلطان العثمانى مساعدته فى قمع التمرد الوهابى فى شبه الجزيرة العربية حتى سارع بإرسالهم إلى الفيافى العربية القاحلة، وعلى مدى سبع سنوات من الحرب الطاحنة



منهاج التاريــخ الغــربي

ضد الوهابيين، تخلص الباشا من أغلب الألبان.

وعندما توسع الباشا فيما بعد في الجنوب متجهًا للسودان، لم يكن بعد قد فكر في تجنيد الفلاحين لسبب رئيسي، وهو أنهم القوة المنتجة للمصدر الأساسي لدخله وهو زراعة الأرض، فاتجه لإرسال حملات عسكرية للسودان لتجنيد السودانيين.. نجحت الحملات أول الأمر، غير أن ابنه إسماعيل باشا الذي قاد إحدى الحملات، كان عديم الكفاءة عنيدًا لا يتمتع بشخصية قيادية، وانتهت حملته بمأساة تراجيدية، فلفرط قسوته وتهوره قام السودانيون بحرقه حيًا!

ومع ذلك جمعت قوات الباشا آلاف العبيد من السودان لهذا الغرض تحديدًا: أي لتجنيدهم في مصر وتشكيل جيش للدفاع عنه وتأمين حكمه ونظامه. وحتى هذه اللحظة لم يكن قد لجأ مطلقًا للفلاحين المصريين.. أما عبيد السودان فقد تساقطوا أثناء الرحلة إلى القاهرة، ومات أغلبهم قبل وصولهم بسبب بُعد المسافة وكوارث الطريق، فضلاً عن تفشي الأمراض بينهم، حتى أن الباشا أمر باستئجار عدد من الأطباء الأمريكيين ليعالجوهم من الأوبئة التي أوشكت على القضاء عليهم.

غير أن المصائب لا تأتي فرادى كما يقال، فلم يتكيف الجنود الأتراك والألبان الذين أرسلوا للسودان مع المناخ هناك، وفتكت بهم الأمراض وفي مقدمتها الدوسنتاريا.

ويكشف المؤلف عن خطاب أرسله الباشا في فبراير ١٨٢٢ إلى أحمد باشا مدير مديرية جرجا يقول فيه:

«من الواضح أننا نرسل قواتنا بقيادة أبنائنا إلى السودان ليجلبوا لنا السود لنستخدمهم في مسألة حملة الحجاز وخدمات أخرى مماثلة.. إلا أنه لما كان الأتراك من جنسنا ويجب أن يظلوا قريبين منا طوال الوقت، ولا يرسلوا إلى هذه المناطق البعيدة، أصبح من الضروري جمع عدد من الجنود من الصعيد. ولذلك وجدنا أنه من المناسب أن تجند حوالي أربعة آلاف رجل من هذه المديريات».

وهكذا اضطر الباشا لتجنيد الفلاحين، وبناء الجيش (الوطني) اضطرارًا. أي أنه لم ينطلق من وجهة نظر متكاملة فيما يتعلق ببناء مصر الحديثة، وهو ما تبناه عدد كبير من المؤرخين على مدى ١٥٠ عامًا من الكتابة التاريخية.

أما أحلامه التي (باعها) لنا المؤرخون في فتح فلسطين وسوريا وبناء إمبراطورية مترامية الأطراف تضم السودان ومصر والجزيرة العربية والشام فلم تكن سوى صراع يدور داخل الحدود الفكرية والأيديولوجية للسلطنة العثمانية، بل هي صراع أسري داخل نفس القبيلة!

مثال آخر ورد في مقال للمؤلف نشر في أخبار الأدب في نفس العدد المشار إليه، يكشف فيه عن خطاب أملاه الباشا وعثر عليه خالد فهمي أثناء إعداد كتابه وأورده أمين سامي في كتابه «تقويم النيل» وكان ضمن مقتنيات مكتبة الملك فؤاد الخاصة. في هذا الخطاب يأمر الباشا موظفيه بصرف النظر عن ترجمة قانون ما من إحدى اللغات الأوروبية لكي يطبع ويطبق في مصر لأنه «عُمل بحسب طبائع وأخلاق وعادات أوروبا وأقلامه (أي مواده) لا توافق المصلحة».

وهكذا يبدو من النص السابق أن محمد علي حاكم متنور مهموم بمصالح شعبه ومدرك للهوة التي تفصل مصر عن أوروبا، وهي الصورة التي حرص المؤرخون على (بيعها) لنا، لكن المؤلف عاد للأصل التركي لذات الخطاب وأعاد ترجمته ليكتشف أن ما قاله الباشا أن هذا القانون يجب أن يصرف النظر عنه لأنه «يناسب الأوروبيين وهم شعب متنور متحضر، أما شعبنا فهم مثل بهائم البراري، فلن يكون هذا القانون مناسبًا لهم».

وفي النهاية لابد من الإشارة إلى الإنجاز الأكبر من إنجازات خالد فهمي، والمتمثل في السعي المتواصل عبر كل فصل من فصول الكتاب من أجل نفض الغبار عن الركام الهائل من المصادر والأوامر والسجلات والمضابط للوصول لحياة الجنود وعذاباتهم ومشاكلهم وما تعرضوا له من قسوة مفرطة منذ القبض عليهم في الحقول، ثم تجنيدهم وتغيير ملابسهم وعاداتهم وفرض حياة يرفضونها أصلاً، حتى أن الآلاف كانوا يقومون ببتر أصابعهم أو فقء إحدى عيونهم حتى لا يجندوا!

وهكذا.. في كل فصل يبدأ المؤلف من حياة الجنود المهمشين الذين غفل عنهم المؤرخون وسجلوا انتصارات القادة ونياشينهم، بينما ظل الجنود متوارين يقدمون تضحياتهم ويموتون في صمت.

أما الكتاب الثاني فهو «الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر» لجوان كول (وأغلب الظن أنه أمريكي، على الرغم من أنه فات على المترجم عنان الشهاوي ومراجعه عاصم الدسوقي أن يقدما سيرة ذاتية مختصرة للمؤلف، فهي ضرورية للقارئ العربي وليست مجرد حلية لا أهمية لها لأننا. نحن القراء. نقرأ كتابًا عنا وعن إحدى أهم وأخطر الانتفاضات والثورات في تاريخنا الحديث).

وإذا كانت انتفاضة عرابي قد تناولها عشرات المؤرخين المصريين والأوروبيين بدءًا من الرافعي والخفيف وأحمد شفيق باشا وسليم خليل النقاش وبلنت وبرودلي والجميعي ولطيفة سالم وبركات وغيرهم، بحيث أوسعوها بحثًا وتمحيصًا، فإن جوان كول اختار البحث عن الأصول الاجتماعية والثقافية لمن قاموا بالانتفاضة أو أيدوها أو تعاطفوا معها أو عارضوها. لذلك درس المؤسسات الثقافية والسياسية لنظام الحكم حتى يحدد المسار الذي اتخذه التعبير الاقتصادي والديموجرافي ونمو سلطة الدولة. حسبما أشار د. الدسوقي في تقديمه. والذي أوجد مصالح جديدة للفلاحين والطوائف المدينية والأنتلجنتسيا.

في هذا السياق قام جوان كول ليس فقط بالاشتباك مع من سبقه من المؤرخين المصريين والغربيين، ودرس المخطوطات والوثائق والمضابط والمراسلات والسجلات والمكاتبات ووقائع المحاكمات والمحافظ والدوريات المعاصرة لأحداث الانتفاضة، بل اشتبك أيضًا مع المناهج المعتمدة لدراسة التاريخ لدى علماء الاجتماع والمؤرخين في الغرب، ليختبر مقولاتهم لا ليطبقها كما هي، متيحًا الفرصة كاملة كي تقوده دراسته لنتائج مختلفة مستجيبًا لما تكشف عنه الدراسة والبحث. خصوصًا أن كثيرًا ممن تناولوا حركة عرابي من الكتاب والمؤرخين الغربيين كانوا يبحثون وينقبون عما يتشابه مع ما جرى للبلدان الأوروبية، حتى لو اقتضى الأمر التعسف والتطبيق الأعمى لمناهج لا تصلح إلا لتجارب بلدانهم.

بطبيعة الحال يعرف المؤلف العربية جيدًا حيث أشار إلى مخطوطات أرشيفية اكتشفها للمرة الأولى داخل دار الوثائق أو دار الكتب. إن المادة الوفيرة المتنوعة والغزيرة مكنته من الإحاطة الشاملة بالمؤسسات الثقافية والسياسية لنظام الحكم بطبقاته وقواه وأدواته من ناحية، والإحاطة بالأصول الاجتماعية والثقافية لقوى الثورة العرابية ومعارضيها من ناحية أخرى.

يستهل جوان كول عمله الشامل برسم صورة للمؤسسات المادية والثقافية لمصر الخديوية في ظل الإمبراطورية العثمانية، حيث استمر نفوذ السلطنة العثمانية خلال حكم الولاة ونواب السلطان. ورغم أن إدارتها محلية، بقيت جزءًا من أجزاء الإمبراطورية. تدفع الجزية وتوفر الجند، بينما يعتمد السفراء والتعيينات العليا في اسطنبول. أما فيما يتعلق بالنخبة فإن المؤلف يؤكد «وقد أقنعتني المخطوطات والكتابات الدورية التي راجعتها أن المتعلمين المصريين في أغلبهم الأعم كانوا يرون أنفسهم رعايا موالين للسلطان».

بعد السلطان يأتي الخديو بطبيعة الحال، ويميل المؤلف إلى اعتبار نظام الحكم في مصر بيروقراطية إصلاحية»، ويولي اعتبارًا خاصًا للتغيرات التي رافقت حكم إسماعيل، ففي عهده انتشرت زراعة القطن في كل الأنحاء حتى أصبح محصولاً نقديًا موجهًا للعمل في السوق العالمية، وأنشئ أول مجلس للنواب. غير أن خطأه الأساسي أنه جعل من نفسه خليطًا من الحاكم المطلق القاسي والرأسمالي الزراعي المعتد بذاته والذي يضع مصالحه الخاصة فوق مصالح الولاية التي يحكمها.

أما التقدم المزعوم في عهده فقد استفادت منه مجموعة صغيرة من النبلاء والتجار والأجانب، بينما تفاقمت مشاكل الفلاحين وطوائف الفلاحين وقطاعات من الأنتلجنتسيا.

تولى خدمة الخديو بيروقراطيون وموظفون من العثمانيين والشراكسة وبعض الأرمن والتكنوقراط المصريين من أهل البلاد، ورغم تنافسهم العرقي إلا أن هناك ثقافة «عثمانية. مصرية» واحدة اشتركوا فيها واعتمدت على اللغة والأزياء من إسطنبول والمشاركة في الخدمة بولاية مصر العثمانية، وانقسم هؤلاء الموظفون إلى جماعة مناصرة للأوروبيين تسعى



منهاج التاريـــخ الغـــربى

لتكامل مصر مع أوروبا، وجماعة أخرى تعارض انتهاكات أوروبا لصالح الارتباط بعلاقات أكثر متانة مع الأناضول. ومع أن أغلب أصولهم من الشراكسة وتم جلبهم من وسط الجحافل الزاحفة إلى القوقاز كعبيد ومحظيات وجنود عبيد منذ القرون الوسطى، إلا أنهم سرعان ما ذابوا داخل الطبقة الحاكمة التى تشكلت قطاعاتها الأخرى من أتراك مهاجرين.

بقيت ثلاث فئات هى «الأعيان المصريون» من أبناء البلاد. وقوام هذه الفئات كبار ملاك الأرض، ومن ارتقى فى وظائف إدارية عليا، وكبار العلماء وبعض خريجى المدارس المدنية. وفى الوقت الذى بدأت فيه طبقة جديدة من النبلاء العثمانيين فى انتزاع الأرض الزراعية واحتلال مكانة أعلى من عائلات أعيان الريف المصريين، استحوذت فئة جديدة من العلماء الحنفيين على السلطة فى الأزهر بعد أن كان شيخ الأزهر تقليديًا شافعيًا.

كما بقى الأوروبيون وهى ثانى الفئات التى وصل نفوذ أفرادها إلى حد تشكيل نوع من «المجلس الأعلى» القادر على فرض سلطانه على الخديو والوزراء تدعمهم السفن الحربية الرابضة فى البحر المتوسط و١٣٠٠ أوروبى يعملون فى الخدمة المدنية لدى الخديو ونحو ١٠٠ ألف من اليونانيين والإيطاليين والفرنسيين والإنجليز. وثالث الفئات هى «الشوام» من مسيحيى لبنان الذين تدفقوا على مصر مع ازدهار القطن كتجار ومترجمين فضلتهم الإدارة المصرية بسبب تمكنهم من اللغات الأوروبية وأساليب الحسابات على النمط الأوروبى. انقسم هؤلاء الشوام إلى جناح معاد للأوروبيين يناصر الاتجاه الدستورى، وهى مفارقة لا تخلو من دلالة، وإلى جناح مؤيد للأوروبيين ويناصر الحكم المطلق.

وشق رجال المال من الأوروبيين طريقهم من خلال إقراض المال للوالى أو المضاربة على القطن. وفى عام ١٨٧٦ يشجعهم إنشاء المحاكم المختلطة على الاستثمار فى الأراضى، وبعد ثلاث سنوات فقط يقصى القناصل الأوروبيون الخديو إسماعيل وينصبون ابنه.

ينطلق جوان كول فى الفصل التالى لمعالجة التغيرات الاقتصادية التى لحقت بمصر منذ عصر إسماعيل وتأثيرها الاقتصادى على الفلاحين والطوائف من المدنيين والمثقفين. واقتضى هذا دراسة ملكية الأرض التى خضعت لفورانات



سعاد حسنى



عادل إمام



سناء جميل

زلزالية فى القرن ١٩ تحديدا. وشكلت ثلاث قوى طبيعة ملكية الأرض. الأولى الإدارة المنبثقة من قصر الخديوى حيث تم خلق فئات جديدة موالية من خلال مصادرة الأراضى وإعادة تمليكها فضلاً عن التوسع فى عمليات الاستزراع.. وهكذا تشكلت الحاشية الجديدة المحيطة بالخديو. القوى الثانية تمثلت فى أن القطن وقيمته فى السوق العالمية دخل كعامل أسهم فى التشجيع على إنشاء ملكيات زراعية كبيرة. العامل الأخير هو النمو السكانى المتزايد بعد عام ١٨٥٠ الذى أسهم فى تضخم الأسعار وانخفاض أجور الفلاحين وتفتيت الملكية الزراعية.

تخضع كل قوة من هذه القوى أو العوامل لتمحيص واف ودراسة شاملة موثقة، ويتتبع المؤلف كل منها والتأثيرات المتبادلة بينها مستخدمًا وثائق لم يلتفت إليها من سبقوه من الباحثين والمؤرخين. على سبيل المثال يدرس تأثير التغيرات الاقتصادية، على طوائف الحرف من خلال ما اكتشفه من عرائض مقدمة من الطوائف للحكومة يلتمس فيها هؤلاء الشيوخ (شيوخ الطوائف) تحقيق مطالب معينة مثل شيخ طائفة سائقى العربات الذى تقدم بشكوى من إجبار الحكومة لهم على تحديد أجرة ثابتة يتقاضونها، أو شيخ طائفة الوزانين الذى يتعرض لاحتجاج من التجار المصريين على خصخصة نشاط كان مستقلاً خاضعًا فى السابق لقوانين الطائفة وتحت إشراف الدولة.. والحقيقة أننى أوردت هذا المثل السابق لأبين فقط كيف عالج المؤلف الوثائق الجديدة التى اكتشفها، وكيف أعاد من خلالها تقييم ودراسة التغيرات الاقتصادية المصاحبة لزلزال القطن.

وينتقل لدراسة الموقف فيما يتعلق بالانتلجنتسيا من المهنيين والزعامات الدينية الشعبية والجماعات المتعلمة التى تعمل مقابل الأجر (أى مثقفى العصر الحديث الذين تعلموا فى المدارس الأهلية الجديدة) مستخدمًا وسائل مشابهة للوسائل الجديدة التى أعاد بها قراءة ما اعترى الطوائف وشيوخها بعد زلزال القطن. فهو يورد مثلاً التظلمات التى أرسلها أصحاب الياقات البيضاء إلى نظارة الداخلية فى عصر إسماعيل مثل على راسخ كبير الأطباء بحى الأزبكية الذى أكد فى شكواه أن تصنيفه المدنى توقف عند رتبة الملازم ٢٠ عامًا، أو شكوى العاملات فى مهنة الطب يطلبن الانتقال للإقامة قريبًا من أسرهن. وكشفت العرائض والتظلمات عن واقع يتسم بانسداد الأفق أمام مهن بأسرها ورواتب شحيحة وشروط عمل رديئة وتأخير صرف المرتبات مما أسفر عن انتقال قطاعات مهمة من الانتلجنتسيا لصفوف المعارضة ثم الاشتراك فى الثورة التى اندلعت فيما بعد.

على أى حال ينتهى كول إلى أن الفلاحين وعمال المياومة والمثقفين عانوا من «الاحباطات الاقتصادية»، على حد تعبيره فى سبعينيات القرن ١٩ أكثر مما عانوه من النخبة الحاكمة، وأدى انطلاق القطن كمحصول نقدى إلى تأجيج الصراع بين الطبقات الاجتماعية، خصوصًا مع الطفرة الديموجرافية التى أصابت البلاد.

بهذا المنهج المنفتح على أدوات جديدة للبحث والدراسة قرأ جوان كول فى الفصول التالية التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الممهدة للانتفاضة. فعندما يدرس الأمة والبيروقراطية يشير إلى ازدياد تدخل الدولة فى المجتمع المدنى على نحو لم يحدث من قبل، وفى نفس الوقت ازدياد خضوعها للأهداف الأوروبية.

كما ينتهى إلى أن ازدهار القطن لم يكن العامل الوحيد لهذه التغييرات، بل لعبت ثورة الاتصالات فى ذلك العصر دورًا مهمًا فى سرعة انتشار الأخبار والأحداث السياسية. خطوط التلغراف مثلاً أتاحت استقبال الأنباء العالمية عبر الخدمات السلكية، كما أمكن شحن الصحف والجرائد العثمانية والأوروبية بسهولة من الإسكندرية عبر السكك الحديدية إلى القاهرة، ثم بدأت الصحف الخاصة فى الصدور فى مصر وتوسعت بشدة واستخدمت العامية المصرية فى الكتابة بدلاً من اللغة التقليدية المثقلة بألوان البديع.

من جانب آخر أدى التوسع الهائل فى نظام المدارس الأولية إلى وجود أعداد لا يستهان بها من المتعلمين. ومع انتشار الصحافة التى خلت من اللغة المهجورة واستبدلتها بلغة أقرب للغة الحياة اليومية، تبلور حس جديد وواسع من المشاركة الشعبية الجماعية فى الأحداث الكبرى، ومن ثم





منهاج التاريـــخ الغــربى

غرست بذور نمط جديد من الوعى الوطنى والنقدى.

على هذا النحو يمضى كول لمناقشة دور الصالونات السياسية فى بلورة أيديولوجية المعارضة، والتطورات التى لحقت بتنظيمات الطوائف، ثم انفجار الصراع الأوروبى المصرى. ويلفت النظر فيما يتعلق بهذا الصراع أن الروايات الكلاسيكية له تركزت على دور الأعيان وضباط الجيش والمثقفين ضد التدخل الأوروبى الفج والمباشر، بينما تم إغفال دور الجماهير. ولا يكتفى كول بدور جماهير القاهرة والإسكندرية، بل إن المادة الأرشيفية التى اعتمد عليها أتاحت له أن يطوف فى مدن الدلتا والصعيد والقناة.

ولا تسمح المساحة الآن بعرض ومناقشة الجهد التحليلى الهائل الذى أورده المؤلف فيما يتعلق بأدوار القوى الاجتماعية المختلفة وما لحق بها من تغييرات حاسمة، دون أن يغفل الظروف الدولية المحيطة. غير أننى سأتوقف قليلاً عند مناقشته للأصول الاجتماعية والثقافية لثورة عرابى. والحقيقة أنه من بين مآثر كول اكتشافه لعرائض موقعة وقوائم اعتقال، ومعرفة وظائفهم أتاحت له تحديد القوى الاجتماعية الرئيسية فى الثورة، خصوصًا فيما يتعلق بقائمة اعتقال ضمت ألف شخص على يد حكومة الخديو فى خريف ١٨٨٢، وكذلك الموقعين على بيان ٢٩ يوليو ١٨٨٢.

ولم يكن الضباط فقط وحدهم فى خضم هذا الصراع، بل إن الأعيان فى القرى من ملاك الأراضى المتوسطين والصغار والمثقفين بمختلف فئاتهم ومهنهم وطوائف الصناع والعمال والجماهير.. كل هؤلاء لعبوا أدوارًا فى اشتعال الحريق الثورى.

الأخيرون تحديدًا، أى الجماهير، لا نكاد نعرف عنهم سوى العبارات «الحماسية» العامة، ولم يهتم مؤرخو الانتفاضة العرابية بتوثيق دورهم على هذا النحو الذى قام به كول. يؤكد فى البداية أن الجماهير تصرفت على نحو سياسى وتلقائى فى آن واحد، ولم تكن مشاعر الكراهية التى اندلعت مبعثها أسباب دينية أو عرقية فى المحل الأول، بل لأسباب سياسية واقتصادية فى الأساس.

يعتمد كول للوصول إلى تفسيره الخاص على شهادة المصابين التى أدلوا بها من فوق أسرة المستشفى منذ بداية أحداث «الشغب» فى ١١ يونيو ١٨٨٢، ويتابع بدقة تطور الأحداث فى شوارع الإسكندرية. ووفقًا لقوائم المصريين المعتقلين فى محفوظات الخارجية البريطانية نرى أن ربع المعتقلين ممن ينتمون إلى مهن تنتظم فى صفوف الطوائف الحرفية ومن بينهم شيخ طائفة الخياطين، إلى جانب من يعملون فى مهن بسيطة مثل الحمالين وكناسى الشوارع وعمال الصباغة. كما اعتقلت الشرطة «تسع نساء» لاشتراكهن فى أعمال النهب أو لحيازتهن منهوبات، أو بسبب كلامهن التحريضى. واعتقلت عشر نساء أخريات عند قيامهن ببيع المنهوبات فيما بعد. وبالتالى أصبح العدد تسع عشرة امرأة جرت محاكمتهن، يمثلن ٩٪ من إجمالى المتهمين.

وهكذا تتمثل إضافة كول الباهرة فى ربطه بين المصالح المادية والإمكانات التنظيمية والموارد والمفاهيم والخطاب الثقافى ليفسر كيفية اندلاع الثورة، وإغفال أحد هذه العناصر سوف «يختزل قوة الحجة التفسيرية على حد قوله».

الكتاب الأخير فى هذا العرض يقفز بنا قفزة واسعة نحو مائة عام، وهو كتاب «الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر» لوولتر أرمبرست، ترجمة: محمد الشرقاوى وصدر عن: المجلس الأعلى للثقافة. المؤلف دارس أمريكى زار مصر فى أوائل التسعينيات وأقام بضع سنوات، حيث عمل بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والتحق فى نفس الوقت بصحيفة «الأهرام ويكلى».

مرة أخرى تبرز مشكلة الترجمة فى هذا الكتاب، فبغض النظر عن مستوى الترجمة، فالملاحظ أن المترجم لم يبذل أدنى مجهود من أجل كتابة مقدمة توضح السبب الذى دفعه لترجمة مثل هذا الكتاب، والسياق الذى تم فيه إعداده، إلى جانب الحواشى الضرورية والتعليقات المختلفة، والاتفاق والاختلاف مع الكاتب فى القضايا التى يطرحها.. فالترجمة ليست مجرد نقل كتاب من لغة إلى أخرى، خصوصًا إذا كان الكتاب يناقش قضايا دقيقة وتتصل بنا على هذا النحو المباشر.

على أى حال، إذا كان المستعربون يوجهون عنايتهم وهم يناقشون قضايا الفكر والثقافة، نحو مسائل الهوية والتحديث والقومية، فإن أرمبرست اختار أن يناقش هذه المسائل على نحو مختلف تمامًا، ولا يتاح عادة إلا لمن تمرس واستوعب اللغة العامية والعادات والتقاليد والأفكار «الشعبية» المطروحة خلال السبعينيات.

من جانب آخر، يثير الكتاب العديد من علامات الاستفهام حول ضرورة وأهمية هذا النوع من الكتب والقضايا التى يطرحها، وهو الأمر الذى كانت المقدمة. التى تخلى المترجم عن كتابتها للأسف. كفيلة بالإجابة عليها. ويمكن استنتاج أن الكتاب الذى صدر عن جامعة كامبردج بالولايات المتحدة موجه أساسًا للنخبة الأكاديمية المهتمة بدراسات الثقافة وعلم الاجتماع.

لم يوجه أرمبرست اهتمامه إذن نحو القضايا التى ينشغل بها المستعربون فى العادة، والمادة التى اعتمد عليها فى إعداد كتابه تشمل علاقاته وأصدقاءه والأسر التى تعرف عليها فى القاهرة، إلى جانب الأغانى والأفلام السينمائية والمسرحيات. ومنذ الصفحات الأولى لكتابه يشير إلى أن الثقافة الشعبية لها مكانها المتميز فى حياة المصريين والعرب عمومًا، ومع ذلك فإن «عدم الاهتمام الذى تلاقيه الثقافة الشعبية فى وسائل الإعلام من قبل الأكاديميين أمر محير».

ويضيف أرمبرست أن المانع الرئيسى فى دراسة الثقافة الشعبية أن هناك من يرى أنها ثقافة تجارية يعتقد أنها تمحو الثقافة الأصلية. والمقصود بالثقافة الشعبية: الثقافة التى يحتوى عليها خطاب الأفلام السينمائية ومسلسلات التليفزيون والأغانى الشعبية التى توصف عادة بأنها «هابطة». أى أفلام عادل إمام. الذى يتمتع بإعجاب خاص من جانب المؤلف. ومسلسلات أسامة أنور عكاشة وتحديدًا «الراية البيضاء» وأغانى عدوية.

تلك هى المادة التى عكف المؤلف على دراستها ومحاولة فهم تأثيرها. والحقيقة أن المؤلف لم يجانبه الصواب تمامًا فى إشارته إلى ترفع باحثينا وكتابنا عن هذه الثقافة «الهابطة» حتى إنهم نادرًا ما يلتفتون لها أو يعترفون بوجودها!

غير أن أرمبرست يرى أن التحديث هو مفتاح الثقافة الشعبية فى وسائل الإعلام، وتاريخيًا كانت هذه الثقافة وسيلة لتحقيق الهوية القومية، إلا أنها نشأت مختلفة كيفيًا عن الخطاب الرسمى. وإذا كان التحديث فى الغرب ارتبط بإعادة بعث أو اكتشاف اللغات اللاتينية الكلاسيكية، التى أهملت بمرور الوقت، واتجه الأوروبيون إلى اللغات المحلية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية والبولندية.. إلخ) وأسهم هذا بشدة فى تقوية القوميات الأوروبية المختلفة.. إذا كان هذا هو الحال فى الغرب، فإن مصر والبلدان العربية ليس أمامها خيار، لأن اللغة مرتبطة بالدين، أى لغة القرآن، لذلك ظلت هناك «لغتان»، صحيح أنه ليس هناك سور صينى يفصل بينهما وثمة تأثير وتأثر متبادل فى علاقة كل منهما بالأخرى، الأولى: هى الكلاسيكية المعقدة التى يحتفى بها الخطاب الرسمى والكتاب والمثقفون، والثانية: هى اللغة المحلية الشعبية التى يتحدث بها الناس.

فى هذا السياق يتناول المؤلف فترة السبعينيات، مؤكدًا أنها شهدت تمايزًا حاسمًا للثقافة الشعبية الحداثية، ويدلل على هذا بمثل يستمده من السينما. ففى فيلم «لو كنت غنى» الذى أنتج عام ١٩٤٢ جرى حل مشكلات التحديث من خلال تدخل الأرستقراطى المتعلم الذى لا يملك المال فقط، بل يملك سر المهنة الذى يمكنه من إدارة المؤسسات الحديثة.. وهكذا ينتهى الفيلم وكل فى مكانه الصحيح: العمال السعداء يرقصون فى الشوارع والأرستقراطى المتعلم يتزوج من فتاة متعلمة!! أما فى «شعبان تحت الصفر». النسخة المعدلة لفيلم «لو كنت غنى» بعد أربعين عامًا. يذهب نفس البطل المعدل فى نهاية الفيلم إلى السجن.

وفى هذا السياق أيضًا يتناول مسلسل «الراية البيضاء» الذى كتبه أسامة أنور عكاشة ولعب بطولته سناء جميل وجميل راتب وهشام سليم وسمية الألفى وحقق نجاحًا وشهرة مدوية فى أغلب الأقطار العربية. ولا يكتفى المؤلف بتحليل الشخصيات الرئيسية، بل يسعى للتعرف الشخصى على الممثلين. ولفت نظره مثلاً تحول هذه الشخصيات إلى رموز على ما يجرى، والأكثر أهمية أن بعض العبارات والجمل التى وردت على لسان «فضة». ولعبت دورها سناء جميل



ومثلت قوة ونفوذ المال الجاهل فى السبعينيات. هذه العبارة تحولت فى الشارع إلى «قوة مستقلة» واكتسبت نفوذًا وهيمنة متزايدة. وبدأ الناس فيما بينهم يتبادلون هذه العبارات على نحو مستقل. وهكذا تحول مسلسل تليفزيونى بعد وأثناء عرضه إلى جزء أساسى من الحياة اليومية واكتسب دلالات أكثر اتساعًا.

وكما عبر أرمبرست فإن غرض «التركيبات الإعلامية من أمثال «الراية البيضاء» هو الجمع بين الصورة الحسنة (لابن البلد). الجوهرة فى الطيبة. والأفضل ثقافيًا، ويتم بذلك التوحيد بين ماضى مصر العامى الشعبى ومستقبلها الحداثى».. لكن «المعلمة فضة المعداوى». بنت البلد. تحولت هنا إلى رمز لفساد السبعينيات، بل وتحول الدكتور «مفيد أبو الغار» السفير وممثل الطبقة الوسطى إلى رمز للهوية القومية والقابض على التراث القومى والمدافع عنه.

فى الفصل التالى ينتقل لظاهرة الانقسام اللغوى، ويعرض للآراء المختلفة التى تناولتها، مؤكدًا أن التعليم العام «الموحّد للغة» هو الطريق الرئيسى للتحديث فى رأى الثقافة الرسمية، بينما تحفل الموسيقى الشعبية بإنجازات لا يمكن الاستهانة بها. فمقامات بيرم التونسى مثلاً تؤكد أن الثقافة الجماهيرية أكثر من مجرد فولكلور أو تعبير فنى ساذج شأنها شأن أعمال سابقيه مثل عبد الله النديم، أو لاحقيه مثل فؤاد حداد وصلاح جاهين وأحمد فؤاد نجم.

أما «الموسيقى الموهوب» محمد عبد الوهاب فيحتل الفصلين التاليين بوصفه الأسطورة التى استمرت منذ العشرينيات وحتى التسعينيات، وانتقل عبر علاقته بالشاعر أحمد شوقى من صفوف الطبقات الشعبية التى ينتمى إليها، إلى طبقات أعلى من خلال التحول فى اتجاه الحداثة، ذات التأثير الغربى، حيث قام بتغيير «التخت» والبناء الموسيقى، وبدلاً من الطابع التركى، قدم طابعًا جديدًا يمزج بين الموسيقى الشرقية والغربية. وفى نفس الوقت يقدم المؤلف تحليلاً معمقًا لسلسلة أفلامه التى عبرت فى الثلاثينيات والأربعينيات عن حداثة تطمح للالتحاق بالغرب من خلال ابن الطبقة المتوسطة التى ألقى على عاتقها مهام التحول. غير أن عبد الوهاب كان بالغ الذكاء فى تحقيق هذه المهام، بل إن ذكاءه الشخصى وليس إنجازه الموسيقى هو فى الشهرة المدوية التى حققها.

أما فى السبعينيات فقد تغير كل شىء، لذلك يركز المؤلف على فيلمين لهما دلالة تتجاوز مجرد كونهما فيلمين سينمائيين، وهما «خللى بالك من زوزو» و«كابوريا»، كلاهما تعبير عن نبض جديد وتوجه مختلف. فى الأول تبدو الأحداث امتدادًا منطقيًا لفيلم عبد الوهاب «الوردة البيضاء»، على الرغم من أن تسعة وثلاثين عامًا تفصل بينهما. وبينما يدعو فيلم خللى بالك من زوزو إلى التخلى عن التراث المتخلف واللحاق بركب الحداثة دون إدانة التراث الشعبى إدانة كاملة، نجد فيلم كابوريا منحازًا لرفض الشباب الفقراء للأغنياء الفاسدين، فهم يعودون لحارتهم الفقيرة، وتقدم الأغنية. التى أورد المؤلف نصها. «قزقز كابوريا.. أنا فى اللابوريا» تعبيرًا مختلفًا عن مجتمع جديد ينهض.. أى أن وسائل الثقافة الجماهيرية تلعب دورها الحاسم فى التحولات وكذلك الإجابة على الأسئلة التى يطرحها التطور على المجتمع.

فى هذا السياق يجب مناقشة أمر مختلف لا يجب أن يغيب عن الذهن، وهو أن الباحثين الذين يرسلهم الغرب والولايات المتحدة، لم يعودوا مجرد «خواجات» يرتدون القبعات ويتعاظلون حول نصوص التراث، أو حتى أعمال المفكرين والكتاب القوميين والنهضويين، بل يتوجهون الآن إلى العمق، إلى اللهجات المحلية والثقافة الشعبية ووسائل الاتصال الجماهيرى والأغانى والمسلسلات والأفلام المؤثرة والمطروحة فى الشارع بقوة.

الكتب الثلاثة التى عرضتها فى السطور السابقة، ليست سوى أمثلة وتتوقف عند لحظات تاريخية متباينة تمامًا، غير أنها تكشف لنا عن بدايات تشكل خطاب جديد للمستعربين ولحركة الاستعراب. والمفارقة فى هذا الأمر، أن هناك الكثير مما يمكن الاستفادة منه للباحثين والمؤرخين العرب، وهناك أيضًا وسائل جديدة للدراسة والبحث أغفلناها للأسف■

كتاب الزاوية

أوراق مصطفى كامل

كيف تبلغ الآمال؟

يشعر كل مصرى بأن بلاده متأخرة عن سائر البلدان، وأنها ليست فى المكانة التى خلقت لأن تنالها بين الممالك والأوطان، ويحس كل واحد منا بأن هذا الوطن المصرى الغنى الكثير الخيرات لو كان لنا دون غيرنا لكنا أسعد الأمم وأحسن الشعوب، ويود لو رآه كذلك، ورأى أبناء جنسه أسيادًا فى بلادهم أعزاء فى ديارهم محترمين فى البلاد الأجنبية مبجلين حيث يذهبون. إذا عرف الأجنبى أنهم أبناء مصر انحنى لهم تعظيمًا وإجلالاً لشرف البلاد التى ينتسبون إليها وعظمة المملكة التى هم أبناؤها ولكن هذه الآمال وتلك الأمانى تحتاج ضمائر المصريين وتمر على أنفسهم آنًا بعد آن، لا تستقر عندهم ولا تجد منهم رجالاً يعملون لتحقيقها واحترامًا للوطن، أمناء يسرعون فى إحياء مجده ورد ثروته إلى أبنائه. نعم إنك لو طفت البلاد وجدت أهلها مجمعين على كراهة المحتلين مشغوفين بخلاص مصر من تحت نيرهم الثقيل، رأيت أفرادًا يمتازون عن غيرهم بالحمية الوطنية والغيرة الملية، ولكن لماذا هؤلاء الأفراد مفترقون؟ ولماذا لا نراهم مجتمعين حول لواء واحد لخدمة غرض واحد عاملين بإتقان لتحقيق آمالهم الطاهرة الشريفة موجهين قوتهم فى سبيل مشترك؟

نحن نعرف جميعًا أدواء مصر ومم تشتكى هذه الأم الحنون التعيسة. فكيف يكون الدواء فى أيدينا ولا نعمل لشفائها من هذه الآلام القاسية والأسقام الشديدة؟

لعمرى إن ساعة العمل قد أذنت ولم يبق عذر لأحد فى التقصير عن خدمة الوطن العزيز وقد علم الخاص والعام أن خير سبيل للقيام بالواجب الوطنى هو نشر أنوار العرفان بين أبناء البلاد وتربيتهم على أساس متين.

الزهيمـــــر.. ســـــيرة

ســـوهـــولـــبــــرن

أعماق الظلمات

كتب «جارى سمول» فى كتابه «إنجيل الذاكرة» محذرا وناصحا يقول: «ليس الوقت متأخرا جدا ولا مبكرا جدا لننتصر فى لعبة تقدم المخ فى السن» (إذا كان للسرطان قواعده، فإن لعبة الخرف ستكون أكثر إثارة)

من الغرابة أن تنسب سيرة حياة لمرض «ألزهيمر» وكأن له حياته الخاصة المنفصلة عن حياة ضحاياه، غير أن «للزهيمر» بالفعل حياة خاصة يعيشها فى الرعب الذى يسببه. وقد قامت جمعية «ألزهيمر» فى ربيع سنة ٢٠٠٢م بإجراء استبيان شامل فى جميع أنحاء الولايات المتحدة. جاءت نتيجة الاستفتاء على النحو التالى: قال ٩٥٪ أن «ألزهيمر». مرض الخرف أو الجنون. مشكلة حقيقية تواجه الأمة»، وقال القسم الأكبر من هؤلاء (٦٤٪ منهم) والذين تراوحت أعمارهم بين ٣٥ و ٤٩ سنة أنهم «مهمومون باحتمال إصابتهم بالمرض». يصيب ألزهيمره ٥٪ من الأشخاص فوق سن ٦٥. و هناك الآن أربعة ملايين أمريكى مصابون «بالزهيمر» من المتوقع أن يرتفع عددهم إلى أربعة عشر مليونا بحلول منتصف القرن الحالى. ويقول «جارى سمول» (Gary Small) مدير أحد المراكز المعنية بالتقدم فى العمر. فى كتابه «إنجيل الذاكرة: استراتيجية جديدة للاحتفاظ بالمخ شابا» (The Memory Bible : An Innovative Strategy for Keeping Your Brain Young) «يوما ما سنقترب كلنا من الإصابة بمرض ألزهيمر».

وبنفس المنطق يمكن القول بأننا «يوما ما سنقترب أكثر من علاج مرض الزهيمر». وفى سنة ١٩٩٩ وأثناء انعقاد مؤتمر «الآلية الجزيئية لمرض ألزهيمر» الذى يعقد كل سنتين، قال أحد الباحثين اليابانيين «لدافيد شينك» مؤلف الكتاب الذى نعرضه «النسيان»: «لم يتبق سوى عشر سنوات تفصلنا عن علاج ألزهيمر». كان الباحث اليابانى سطحيا مثل بقية الباحثين الذين التقى بهم «دافيد شينك»، لكن أكثر هؤلاء سطحية كان «إيفان لايبربرج» (Ivan Lieberburg) رئيس البحوث والتطوير فى شركة «إيلان للأدوية»، والذى صرح لدافيد شينك» قائلا: «إننا فى الواقع نقف على أعتاب عصر جديد، وأعتقد أننا قد اقتربنا كثيرا من خط المرمى».

جاء تصريح «لايبربرج» بعد مرور قرن كامل تقريبا على زيارة قامت بها امرأة مريضة للطبيب الألمانى «ألويس ألزهيمر» (Alois Alzheimer). كانت المرأة مضطربة ولم تكن قادرة على تذكر اسمها، لكنها فيما يبدو كانت بصحة جيدة. وصفت المرأة حالتها بدقة قائلة: «لقد فقدت نفسى». وعلى مدى أربع سنوات ونصف بعد ذلك استمرت حالة المرأة فى التدهور ففقدت المقدرة على الكلام ثم على إطعام نفسها وعلى السير وأخيرا فقدت حتى المقدرة على إدراك عجزها. ارتبك «ألزهيمر» ولم يعرف كيف يشخص حالتها التى لم تكن تتسق مع أى مرض معروف. وعندما توفيت المرأة وشاهد «ألزهيمر» قطاعات من مخها اكتشف ما يمكن أن يكون السبب وراء الخرف المبكر الذى أصاب المرأة. ويصف «دافيد شينك» ذلك قائلا:

«لقد شاهد ألزهيمر المرض أخيرا بعد تكبيره مئات المرات تحت الميكروسكوب. كان المرض واضحا فى المخ فيما يشبه بثور الحصبة أو الجديرى. وكان اللحاء ملطخا ومبقعا بتجمعات قشرية بنية اللون على شكل صفائح ميكروسكوبية بأعداد كبيرة. كانت الصفائح مختلفة الشكل والحجم والبنية، وكانت تبدو وكأنها خليط من حبيبات وخيوط قصيرة معقوفة، وكانت كمغناطيسات تجذب إليها النفايات. أما فى الطبقتين الثانية والثالثة من اللحاء فكان ثلث الخلايا العصبية. العصبونات. تقريبا مطموسا من الداخل بواسطة حزم نادرة من الشعيرات المتشابكة والمجدولة بشدة».

ومنذ ذلك الحين أصبحت الصفائح والتشابكات هى العلامات المميزة والمحددة للمخ المصاب بالمرض الذى صار يحمل اسم «ألزهيمر». وليس معروفا بالضبط أى هذه العلامات وراء موت الخلايا العصبية وانكماش المخ وانطواء الجسد على نفسه ثم وفاته؛ هل هى الصفائح أم التشابكات أم كلاهما؟ أم أن كل هذه الأشياء مجرد مخلفات يتركها المرض وراءه فى حطام الخلايا العصبية؟

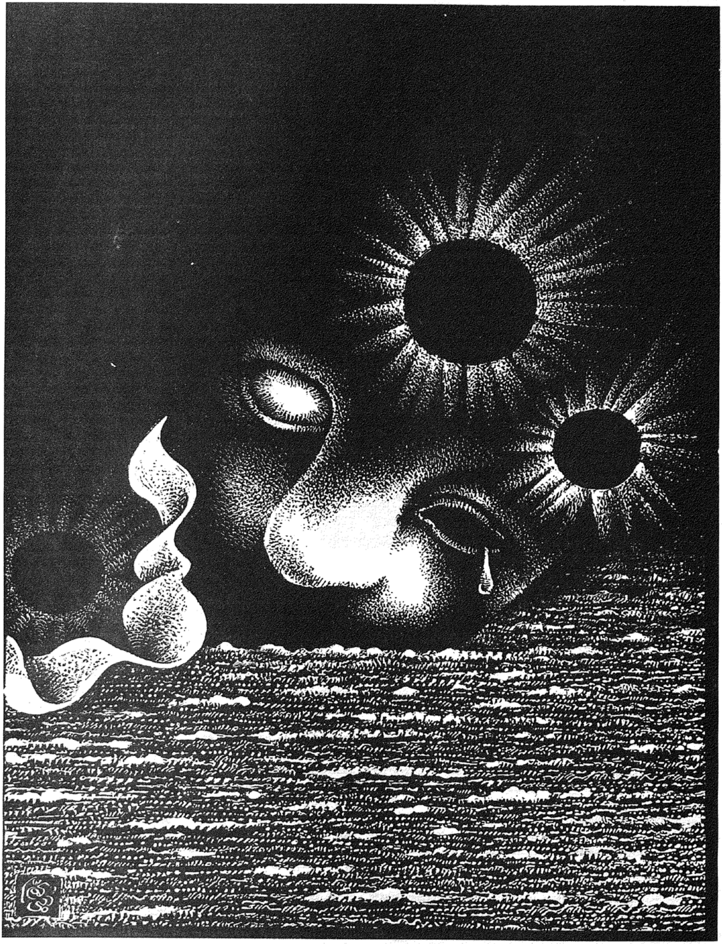
كان الباحثون فى شركة «إيلان للأدوية» مثل معظم الباحثين يعتقدون أن الإجابة على هذه التساؤلات تكمن فى الصفائح. وقد جاء أحد الباحثين من هذه الشركة. اسمه «دال شينك» (Dale Schenk) وهو لا يمت بقرابة «لدافيد شينك» صاحب كتاب «النسيان». بفكرة جديدة وبسيطة تتلخص فى التطعيم ضد تلك الصفائح. قامت الفكرة على أساس أن الصفائح عبارة عن بروتين غريب عن الجسم البشرى اسمه «بيتاأميلويد» (beta-amyloid)، ولذلك إذا حقن المريض بكميات صغيرة من هذا البروتين فستتكون كميات من الأجسام المضادة له تكفى لاقتناصه والتخلص منه فى المخ، تماما كما فى حالة حقن كميات قليلة من فيروس حى ضعيف. مثل فيروس شلل الأطفال. لكى يحث نظام المناعة فيكون الأجسام المضادة للفيروس. وحيث إن نظام المناعة الطبيعى فى المخ (الحاجز الذى يمنع الدم من إغراق المخ) ليس متقنا تماما، فإن عددا قليلا من الأجسام غير المرغوب فيها تتمكن دائما من اختراق هذا الحاجز. لذلك فإن حقن بروتين «بيتا أميلويد» فى الدم سيؤدى فى النهاية إلى عبور عدد من الجسيمات المضادة للبروتين إلى المخ. ولما كان الجسم ينتج الأجسام المضادة بصورة مستمرة، فإن كمية لاتزيد على ثلاثة أجزاء فى الألف تعد كافية من وجهة نظر «دال شينك» لاختراق الحاجز.

بعد فترة وجيزة من تصريحات «إيفان لايبربرج» المندفعة حول انتهاء اللعبة تقريبا فى سنة ٢٠٠٠م، (قرب التوصل لعلاج لمرض «ألزهيمر»)، تأكدت فكرة «دال شينك» ونجحت الأجسام المضادة للبروتين «بيتاأميلويد» فى إزالة الصفائح من مخ فئران التجارب. لم تكن الفئران عادية، فالفئران العادية لا تتكون لديها صفائح فى المخ ولا تتعرض لمرض «ألزهيمر». كانت الفئران معدلة جينيا (Transgenic) بغرض تكوين صفائح فى مخها. وقد أظهرت تجارب «دال شينك» اختفاء الصفائح بعد الحقن باللقاح. كتب «دافيد شينك»:

«كان بروتين بيتاأميلويد المحقون يحث نظام المناعة فى الجسم لينتج الأجسام المضادة المطلوبة والتى كان جزء صغير منها يخترق الحاجز الفاصل بين الدم والمخ ويرتبط مباشرة ببروتين بيتاأميلويد فى المخ. وتتم إزالة المادة المركبة من

ترجمة فتح الله الشيخ
عن: New York Review of Books

حيـــــاة مـــــرض!



البروتين والأجسام المضادة بعد ذلك كنفاية من نفايات الخلايا».

تمكن «دال شينك» وباحثون آخرون من تكرار هذا النجاح مع حيوانات تجارب أخرى مثل خنازير غينيا والأرانب والقردة، ثم جاءت تأكيدات إضافية من الباحثين فى جامعة جنوب فلوريدا، حيث اتضح أن الفئران المصابة لم تشف فقط بل أصبحت أكثر ذكاء. ويبدو أن التخلص من الصفائح قد مكّن الفئران من بناء تشابكات عصبية جديدة أكثر من تلك التى اجتثت بفعل المرض. وقد كتب «دافيد شينك» فى كتابه النسيان»: «لقد شُفيت الفئران تماماً وأصبحت عادية لطيفة ومحصنة ضد الإصابة بمرض الزهيمر».

أحدث النجاح الذى حققته شركة «إيلان للأدوية» دوياً كبيراً، فقد تناقلته وكالات الأنباء فى جميع أنحاء العالم وسار معها فى ركب هذا النجاح المدوى العديد من وسائل الإعلام مثل CNN وBBC ومجلة «التايم». ونشرت معظم وسائل الإعلام ما يفيد أن النجاح لم يكن مقصوراً على حيوانات التجارب فقط، بل تبين أن «بيتاأميلويد» غير ضار بالإنسان. لم يكن ذلك يعنى أن اللقاح يعمل بنجاح فى حالة الإنسان، لكنه كان آمناً ويسمح بتجربته على متطوعين لتحديد فعاليته.

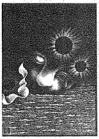
كانت هذه هى لحظة الأمل التى انتهى عندها كتاب «النسيان» فى سرده لسيرة حياة مرض «ألزهيمر»، لكن السباق من أجل العلاج كان لايزال مشتعلاً وبدا وكأنه قاب قوسين أو أدنى من النهاية. انعكس ذلك فى لمسة الحزن التى دغدغ بها «دافيد شينك» أحاسيسنا فى كتابه:

«فى دراستنا للزهيمر نستعرض مراحل حياتنا لندرك ما ينتابها من اهتزازات والتواءات. فعندما يتقدم المرض بلا رحمة نحو الانطفاء النهائى لمن يعانونه، يكون بمثابة ممارسة للموت بصورة يندر أن تتوفر بطريقة أخرى. فاللحظة الفاصلة التى تخفق فيها الروح نراها فى عرض بطىء جدا يمتد لسنوات. إنها شىء مؤلم بشكل أكثر كثيراً مما يمكن أن يتخيله بشر، لكنها كذلك قد تكون أكثر الأمور حدة وتأثيراً فيما يتعلق بالسؤال الحائر: لماذا وكيف أصبحت الحياة الإنسانية أمراً غير عادى؟ وهى . اللحظة الممتدة لسنوات. أفضل ما نملك حتى الآن من وسائل نسلطها على مفهوم الضياع».

كل ذلك حقيقة كانت وما زالت قائمة. فى يناير ٢٠٠٠م وبعد عامين من الإعلان المدوى عن الشفاء الموعود بواسطة لقاح «بيتاأميلويد» وبعد أقل من ستة أشهر من ظهور كتاب «النسيان» اضطرت شركة «إيلان للأدوية» أن تعلن عن شىء آخر لكن فى هدوء ودون ضجة إعلامية أو صخب. ظهر الإعلان على موقع الشركة فى «الإنترنت»: «فجأة وبدون مقدمات أصيب أربعة من المشاركين فى المرحلة الثانية لاختبارات فعالية لقاح «بيتاأميلويد» بالتهاب فى المخ (Encephalitis)، والسبب غير معروف». [التهاب المخ . حالة تصيب المخ نتيجة العدوى بفيروس فى معظم الأحوال أو بالبكتريا فى حالات قليلة، وتختلف أعراضه من مجرد صداع خفيف لفترة محدودة إلى الحمى والغيبوبة ثم الوفاة. المترجم] وبعد شهر أى فى فبراير سنة ٢٠٠٠م أصيب أحد عشر شخصا من مجموع الثلاثمائة المشاركين بنفس الالتهاب فى المخ. وقد صرح «إيفان لايبريج» لمندوب «الواشنطن بوست» بأنه لم يلحظ أبدا أية علامة تدل على أن هذا الشىء الفظيع يمكن أن يحدث، وأن الأمر كله صدمة كبيرة «لإيلان». وفى مارس أوقفت الشركة تجاربها على لقاح «بيتاأميلويد»، لكنها ما زالت تواصل أبحاثها على أدوية أخرى لمرض «ألزهيمر» عن طريق إثارة جهاز المناعة ضده.

وفى مواجهة الإخفاق فى التوصل إلى دواء لعلاج المرض، كما حدث لشركة «إيلان»، وندرة ما يمكن الاعتماد عليه من أدوية أخرى، وفى ضوء التحديات التى تضعها الحياة أمامنا، وفى وجود جيل يتوقع أن يرى أعدادا متزايدة من أبنائه تقع ضحية «للزهيمر» (سواء ضحية مباشرة للمرض أو تكاليف مرتفعة للإنفاق عليه أو مجرد معايشته فى الأهل والأصدقاء)، فى هذا الجو لا بد أن يرتفع توزيع أى كتاب مبسط فى علم الأعصاب. وتخاطب الكتب من هذا النوع المصابين بالمرض من جهة وجمهور القراء المعرضين للإصابة به من جهة أخرى، وهم ببساطة نحن، أى الذين يستشعرون زحف المرض البطىء الماكر بشدة. ولا تمثل هذه الكتب علامات ثقافية فى لحظة معينة من تاريخ الطب فقط بل تمثل كذلك علامات شاهدة على العجز الجماعى الذى تتنامى أعداد المصابين به.

وترتبط هذه الكتب ببعضها بشكل قدرى محتوم، فكلها تلعب على أوتار الرهبة والخوف متاجرةً بالأمل. وقد تورط فى ذلك كتاب «لورانس والى» (Lawrence Whalley) العلمى الأكاديمى بعنوان «الدماغ الذى يتقدم فى العمر» (The Aging Brain)، ومع ذلك فهو مقروء بيسر. قام المؤلف فى هذا الكتاب بعرض وتحليل الأبحاث الحديثة ليرسم خريطة التغيرات الفسيولوجية التى تحدث فى المخ عندما يتقدم العمر بالإنسان. ولا يتناول الكتاب الموضوع بمصطلحات علمية رفيعة فقط بل يستخدم لغة ميسرة لطيفة. كتب «والى» فى مقدمته: «يعتمد هذا الكتاب على التقدم الهائل فى أبحاث البيولوجيا الجزيئية وتقنية الكمبيوتر ويتسلح بهما فى مواجهة التشاؤم السائد حيال ما يخبئه لنا المستقبل». ويقول فى مكان آخر من المقدمة: «تعرض هذه الأفكار الجديدة احتمالات



حدوث تحولات للحياة فى مراحل العمر المتقدم وذلك بإيقاف التلف الذى يصيب خلايا المخ ويدفعه إلى التدهور. وقد يصبح من الممكن توجيه هذه العملية فى الاتجاه العكسى. أى إعادة إحياء الخلايا العصبية التالفة».

وفى الواقع فإن أسلوب كتاب «الدماغ الذى يتقدم فى العمر» أكثر جاذبية من المقدمة. ويميل «لورانس والى»، الذى كان عضوا فى الفريق الذى اكتشف فى سنة ١٩٨٠م الارتباط بين الكروموزوم ٢١ والإصابة المبكرة بمرض «ألزهيمر»، يميل إلى توجيه الأسئلة أكثر من ميله إلى صياغة الاستنتاجات من الأبحاث التى يعرضها، وهو لا يفضل التفسيرات البسيطة والمألوفة للأبحاث. فمثلا، يتسلسل تفكيره على النحو التالى: إننا لا نتوقع أن تؤدى مناقشة تأثير «الشقوق الحرة» (Free Radicals) على تلف الخلايا العصبية إلى اندفاع القراء لتناول جرعات كبيرة من فيتامين (E هـ) ومضادات الأكسدة الأخرى، لكن سيؤدى ذلك بالأحرى إلى استيضاح ما إذا كانت الأكسدة سببا فى تلف الخلايا العصبية أم أنها نتيجة لهذا التلف. وقد يكون بروتين «بيتاأميلويد» هو المسئول عن تكون الشقوق الحرة فى مجرى الدم. ومن الممكن أن تؤدى دراسة الخصائص السمية العصبية لهذا البروتين إلى اقتراح استراتيجيات علاجية تتضمن إضافات من فيتامين (E هـ) الغرض منها الإقلال من التأثيرات السمية العصبية «لبيتاأميلويد».

وفى مكان آخر يتناول «والى» اللدانة (المرونة الأساسية للمخ، أى مقدرة المخ على بناء الوصلات وإعادة توجيه نفسه، الأمر الذى قد يكون حاسماً فى التغلب على أنواع معينة من التلف الذى يصيب المخ، فيقول:

«تنتشر بين الباحثين شكوك لها أساس قوى من الصحة تتعلق برد الفعل المتفاوت تجاه التقدم فى العمر، فبعض وظائف المخ تتأثر أكثر من غيرها. ومن المثير فى الأبحاث الجارية الآن محاولة اكتشاف مصدر هذا التفاوت. فإذا ثبت أن السبب بيولوجى (وهو على الأرجح كذلك)، فإننا نكون قد اقتربنا من اكتشاف الكيفية التى نسترجع بها مقدراتنا العقلية مع تقدمنا فى السن».

كتب «جارى سمول» فى كتابه «إنجيل الذاكرة» محذراً وناصحاً يقول: «ليس الوقت متأخراً جداً ولا مبكراً جداً لننتصر فى لعبة تقدم المخ فى السن» (إذا كان للسرطان قواعده، فإن لعبة الخرف ستكون أكثر إثارة). وتتضمن استراتيجية النصر التى يقترحها «سمول» النوم لفترات كافية (يحتاج المخ للنوم ليعيد رص وترتيب الذاكرة) والإقلال من الضغوط (تدفع الضغوط الجسم ليفرز هرمونات تتداخل مع الذاكرة وتطمسها) وتناول الكثير من ثمار الطماطم والتوت (فهى من المصادر الجيدة لمضادات الأكسدة) وتجنب الدهون الضارة (حان الوقت للبدء فى حمية . ريجيم . منخفضة الدهون لنحتفظ بمخنا شابا وندرأ عن أنفسنا مرض «ألزهيمر») وممارسة التمارين الرياضية بانتظام (تزويد المخ بالمزيد من الأكسجين لأيض أفضل للسكريات)، غير أن أكثر ما ينصح به «سمول» هو التدريبات الذهنية مثل تعلم لغة أجنبية أو حل الكلمات المتقاطعة والمسائل الرياضية أو الاهتمام بهواية معينة. ويؤكد «سمول» أن كل هذه الأشياء ستمكن القارىء من الانتفاع بلدانة . مرونة . المخ.

تمر المعلومات فى أدمغتنا خلال بلايين الزوائد الدقيقة التى تمثل

أطراف خلايا المخ، وهي تشبه فروع وأغصان الشجر التي تصغر في الحجم كلما ازدادت تشعبا وامتدت إلى الخارج. وإذا لم تستخدم هذه الزوائد فإنها تنكمش وتضمر، لكننا إذا مارسنا التدريبات الذهنية الجديدة بطريقة خلاقة ستداوم الزوائد نشاطها كلما عبرت من خلالها معلومات جديدة. والجدير بالذكر أنه بهذه الطريقة يمكن أن تتكون زوائد وأطراف جديدة حتى بعد ضمور الزوائد والأطراف القديمة في خلايا المخ. وتدل الشواهد على أنه يمكننا إنشاء زوائد أو أطراف جديدة وجعلها تمتد بعدة طرق. فالنشاط اليومي العادي مثل العناية بالحذاء أو غسل الأطباق يمكن أن تمثل رحلة «المخلوقات الميكروسكوبية». التي هي خلايا المخ. بأطرافها وزوائدها إلى «صالة الجمنيزيوم».

ويعتمد الأطباء على المفاهيم العلمية الأساسية في ممارسة أعمالهم حتى ولو كانت لهجتهم منفرة ومتهكمة أحيانا. وهم يقومون بتصوير المخ بطريقة المسح الطبقي بالانبعاث الموجب (Positive Emission Tomography) ويرمز لها اختصارا: (PET) وقد أظهرت هذه الصور أن نشاط المخ يزداد عند تعلم شيء جديد أو بالمواظبة على التعليم والتحصيل. وقد بينت الدراسة الشهيرة التي أجراها «دافيد سنودين» (David Snowden) على أكثر من ٧٠٠ (سبعمائة) راهبة لمدة ١٥ عاما أن الأذهان الأكثر انشغالا هي الأقل احتمالا في الإصابة بمرض «ألزهيمر». ومن المعروف أن بعض أجزاء المخ تتوقف عن العمل إذا لم تستخدم، فإذا استعرنا مرة أخرى تعبير«تدريب خلايا المخ في الجيمنيزيوم» فإننا سنجد أن ذلك يؤدي إلى تخليق المسارات العصبية. ويبدو أن هذه المسارات تقوم مقام الخلايا العصبية عندما تموت الأخيرة في منتصف العمر أو في الشيخوخة.

يحذو «جون راتي» (John Ratey) – أستاذ علم النفس بكلية الطب جامعة هارفارد. حذو «جاري سمول» في كتابه «دليل استخدام المخ» (User's Guide to the Brain) في اقتناعه بأن قيمة الكتاب الموسوعي. مثل كتابه. تكمن في كونه مفيدا، ويكتب «فإذا فهمنا كيف يتطور المخ لاستطعنا تدريب مخنا من أجل حياة صحية مزدهرة ومديدة». والأمر الواضح دون موارية خلف هذه الكلمات هو أن أي واحد منا يستطيع أن يدرأ القدر «الإحصائي المحتوم» ويتجنب الجنون أو الخرف. وهو نفس المعنى الذي تناوله كتاب «إنجيل الذاكرة» وبدرجة أقل كتاب «الدماغ الذي يتقدم في العمر». وفي الحقيقة فإن هذه المقدرة تكمن في أدمغتنا نفسها. وكما يقول «جون راتي»: «في نظام معقد مثل المخ يعتمد الأمر علينا كليةً».

ويبين ذلك أهمية وخطورة أن نعرف كل شيء عن المخ، ولنا بعد ذلك الحرية المطلقة. وحيث إن كل ما نفعله يؤثر في كل ما يتبع ذلك فإننا نجد المخ يتطور بطريقة لا يمكن التنبؤ بها. والعامل الجيني (الوراثي) مهم لكنه ليس الوحيد الذي يحدد مسار تطور المخ، فقد يكون لبعض العوامل الأخرى نفس التأثير في حياتنا مثل نوع التدريبات التي نمارسها والنوم وقائمة الغذاء والأصدقاء والأنشطة التي نختارها.

وقد بذل الباحثون الكثير من الجهد خلال العقدين الأخيرين في البحث عن الأساس الجيني لمرض «ألزهيمر» في محاولة لاكتشاف علاج طبي له، وتمييزا للمفهوم الوراثي عن مفهوم «الحرية المطلقة» عند «راتي». وفي هذا الصدد قام «لورانس والي» بإحصاء المحاولات المتعددة والمتداخلة لفك الشفرة الجينية للمرض في أكثر الأجزاء تشويقا وتحديا من كتابه. وقد تضمنت هذه المحاولات أبحاثه الخاصة والتي ساهمت في محاولة الربط بين «أعراض داون» [Down's Syndrome) أعراض تنتج عن خلل في الكروموزومات وتظهر في التخلف العقلي وتفلطح الوجه ووجود انثناءات في الجلد عند حافة العين الداخلية ولذلك كان يسمى «المنغولية» ويمكن اكتشافه في الأجنة قبل ولادتها. المترجم] ومرض «ألزهيمر» وذيل الكروموزوم ٢١ [الكروموزوم. بنية معينة موجودة في أنوية الخلايا الحية تحمل الجينات، ويتكون كل كروموزوم من ضفيرة طويلة جدا من دنا DNA الحمض النووي، ملفوفة، ويملك الإنسان ٤٦ كروموزوما في خلاياه. المترجم] ومن المعروف أن كل من يصاب بأعراض «داون» ينتهي الأمر به مصابا بمرض «ألزهيمر»، كما أنه من المعروف كذلك أن المصابين بأعراض «داون» يمتلكون نسخة إضافية من الكروموزوم ٢١ أو نسخة إضافية من ذيل هذا الكروموزوم ملتصقة بكروموزوم آخر. لذلك من المتوقع أن يكون هناك شيء ما يستحق أن نعرفه عن مرض «ألزهيمر» مختبئاً في داخل الكروموزوم ٢١، وهكذا شرع العلماء في جمع مكتبة جينية خاصة بذيل الكروموزوم ٢١، وأخذوا ينقبون بالذات عن الأسر التي تتكرر فيها الإصابة بمرض «ألزهيمر». وفي نفس الوقت كان هناك باحثون آخرون في معامل أخرى يحاولون فك شفرة (تسلسل) بروتين «بيتاأميلويد».

أدى الفحص الدقيق للمكتبة الجينية لذيل الكروموزوم ٢١ المستخرج من اللحاء البشري إلى اكتشاف التطابق بين جزء من «دنا» (DNA) مع التسلسل في بروتين «بيتاأميلويد». كان ذلك جزءاً من جين مشفر للبروتين المكون من ٦٩٥ حمضاً أمينياً يطلق عليه الآن «سلف بروتين الأميلويد» (Amyloid precursor protein) أو اختصاراً APP . لم تكن الخطوة التالية مفاجأة بالمرة فقد اكتشف الجين APP في الكروموزوم ٢١.



أدى ذلك إلى اكتشاف السبب في إصابة عدد قليل «بالزهيمر» في سن مبكرة، والذي اتضح أنه خلل في بنية APP . وقد بينت البحوث التي جاءت بعد ذلك أن حالات أخرى للإصابة المبكرة بمرض «ألزهيمر» قد تسبب فيها تطفير زوج من الجينات الموجودة في الكروموزومين ١ و ١٤.

وتصل نسبة الإصابة المبكرة «بالزهيمر» إلى ١٠ ٪ من مجموع المصابين. لكن المرض يصبح أكثر انتشارا بعد سن الخامسة والستين وتتضاعف أعداد المصابين به كل خمس سنوات من التقدم في العمر بعد ذلك. وهؤلاء المصابون هم من كان «ألويس ألزهيمر» يظن أنهم يعانون من مجرد التقدم في السن. وبينما يرتبط مرض «ألزهيمر» بالتقدم في السن، فإن العوامل الجينية بلا شك لها تأثير ملحوظ هي الأخرى. ويبدو أن إحدى صور جين معين يقوم بتخليق بروتين ينقل الدهون والكوليسترول عبر الجسم (بروتين APOE 4) تزيد من احتمال إصابة المسنين بمرض «ألزهيمر» بنسبة ٤٠ ٪. وقد لاحظ «والي» أن هذا الجين يظهر في ٢٢ ٪ من حالات الإصابة «بالزهيمر».

لكن كيف ولماذا يحدث ذلك؟ لا يعرف أحد حتى الآن. وتبعاً لأحد الفروض فإن هذا الجين يعمل كمرافق أو وصيف جزيئي يلازم «بيتاأميلويد» عبر المخ. لكن فرضا آخر يقول أن هذا الجين يقلل من مقدرة المخ على تكوين التشابكات.

وقد أصبح من الممكن اليوم الكشف عن (APOE 4) عند الأشخاص لتحديد المعرضين منهم للإصابة بمرض «ألزهيمر». لكنهم ليسوا بالقطع سيصابون بالمرض. وتكمن فائدة الكشف عن APOE 4 ، كما يقول «جاري سمول» في إعداد الأشخاص المعرضين للإصابة ليتبعوا أسلوبا معينا في تدريب المخ وممارسة التدريبات الرياضية وتقليل الدهون في طعامهم. (لاحظ «جاري سمول» أن الأشخاص الذين ثبت وجود APOE 4 لديهم وقاموا باتباع حمية. ريجيم. غذائي منخفض الدهون قد تحسنت فرصتهم كثيرا في تجنب المرض).

من الممكن أن يكون تغيير أسلوب الحياة هو بداية الطريق للفكاك من القدر المحتوم (الإصابة بالمرض) أو حتى تجنبه تماما. وحيث إن وجود الجين عند شخص ما لا يعني بالضرورة أنه سيصاب بالمرض، وحيث إن تسجيل وجود الجين في التاريخ الطبي للشخص سيصمه بعلامة مميزة مما يستوجب السرية التامة، فإن المعهد الوطني للتقدم في العمر وجمعية «ألزهيمر» دأبا على تسجيل اعتراضهما على استخدام الكشف الجيني لتحديد الأشخاص المعرضين للإصابة بالمرض. ولا تجرى عملية الكشف عن الجين APOE 4 الآن إلا في حالات الشك في التشخيص التي يرجح فيها الإصابة (وحتى الآن لا يمكن إجراء التشخيص النهائي إلا بعد الوفاة عندما يمكن تشريح المخ)**، وهو ما يتبعه الباحثون جميعا بمن فيهم «جاري سمول».

وينحاز الباحثون للرأي القائل بأن مستوى التحصيل التعليمي هو أفضل مؤشر لا يمكن التغاضي عنه للتنبؤ باحتمال الإصابة بمرض «ألزهيمر». ويصدق هذا المؤشر على الدراسات التي تجرى على الأعداد الكبيرة مثل راهبات «دافيد سنودين» أو الأبحاث التي أوردها كل من «والي» و«راتي» و«سمول». ولا يستطيع أحد أن يعرف لماذا أو كيف تعمل هذه الآلية؟ لكن من الحكمة البحث عن تفسير لها. وقد وجد «جاري سمول» وفريقه أثناء فحص مجموعة من الشباب الأصحاء أنه :

«عندما درسنا تأثير التعليم العالي بالإضافة إلى العامل الجيني APOE4 للزهيمر،

وجدنا كما توقعنا أن الشباب ذوى النشاط الذهنى الأكبر هم الذين أنهوا دراستهم الجامعية ولا يوجد لديهم الجين APOE 4. ومن المثير أننا اكتشفنا أن تأثير التعليم العالى على مخزون (أو رصيد) النشاط فى مخ الإنسان أقوى من تأثير الجين الخطر APOE 4 ، غير أنه لا توجد أية دلائل تفسر آلية الحماية التى يوفرها التعليم لخلايا المخ».

وقد تكون العلاقة بين التعليم العالى ومرض «ألزهيمر» مجرد علاقة وصفية أكثر منها شيئا يمكن توظيفه لتوقع الإصابة بالمرض. يقول كل من «والى» و«سمول» أن الالتحاق بالتعليم العالى ربما يكون نتيجة لأمور أخرى تؤثر فى حد ذاتها على الصحة عموما وعلى تطور المخ بالتحديد، مثلها فى ذلك مثل التغذية الجيدة أو الحياة الرغدة. وربما يكون الأشخاص الذين اختاروا متابعة التعليم العالى هم الذين يتمتعون بمخ فطن ذكى ومتزن، حتى فى السن المبكرة، يجنبهم الإصابة بالخرف. أما «دافيد سنودين» و«جارى سمول» فمن رأيهما أن عينة من كتابات الأشخاص وهم فى العشرينيات من عمرهم تمثل مؤشرا جيدا لاحتمال الإصابة بالزهيمر عندما يتقدم بهم العمر، فكلما كانت الجمل المكتوبة أكثر تعقيدا فى بنيتها، قلت فرص الإصابة بالخرف بعد أربعين أو خمسين سنة. وعلينا أن نرصد منذ الآن ما سيحدث فى بلدنا (الولايات المتحدة) الذى تتزايد فيه نسبة الشباب الذين يختارون الالتحاق بالتعليم العالى لنرى مدى صحة هذا الرأى.

تصنع الاستثناءات الإحصائية قصصا جيدة مع أنها لا تثبت أى شىء. ومن هنا تأتى قيمة كتاب «دافيد شينك» «النسيان». فهو لم يصبح سيرة حياة لمرض «ألزهيمر» بل أخذ يتتبع مسار المرض فى عدد من مشاهير المفكرين والفنانين مثل «رالف والدو إيمرسون» (Ralph Waldo Emerson) و«جوناثان سويفت» (Jonathan Swift) و«ويلام دى كونينج» (Willem de Kooning) وويلام دى كونينج هو حالة «ألزهيمر» الوحيدة المؤكدة، أما الآخران فقد لقيا منيتهما قبل اكتشاف مرض «ألزهيمر». وقد بنى «دافيد شينك» تشخيصه لمرضهما من واقع السجلات. عاش كل من هؤلاء حياة ذهنية متميزة، وكان كل منهم نشطا ذهنيا حتى حلول اللحظة التى هجره فيها ذكاؤه. (وفى لحظة نادرة وربما غير مسبوقة فى حدة الذهن بالنسبة لشخص يعانى مرض «ألزهيمر» غادر «سويفت» هذا العالم وهو يكتب «إننى غبى»). أما حالة «دى كونينج» فهى تثير أسئلة مهمة حول الفن والعزم والتصميم: ما قيمة العمل الذى ينتج والمخ ملىء بالثقوب؟ غير أن قصة «دى كونينج» أخاذة. أما «إيمرسون» فقد كتب فى مقاله «الذاكرة» سنة ١٨٥٧م يقول: «إننا نقيم الإنسان بقدر ما يتذكره» وبحلول عام ١٨٨١م كان بالكاد يستطيع أن يوقع باسمه، وإذا فعل فإنه كان لا يتذكر ذلك.

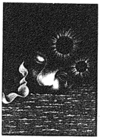
كان التدهور الذى أصاب «إيمرسون» مذهلا للذين من حوله، وتبعا لرواية ابنه «إدوارد» فإن الكاتب نفسه لم يكن يلحظ ذلك. ويظن البعض أن هذا النسيان النهائى بمثابة عزاء أو مواساة لمرضى «ألزهيمر»، فالشخص المصاب لا يعى ولا يدرك ما الذى فقده.

وقد كتب «إدوارد إيمرسون» فى أواخر أيام والده أنه كان يعانى قليلا جداً.

لكن، هل النسيان عزاء ومواساة بالفعل؟ تجىء الإجابة عن هذا السؤال من كل صفحة من صفحات مذكرات «دى باجيو» (DeBaggio) الفظيعة وعنوانها «فقدان العقل». كان «دى باجيو» يكسب عيشه من العمل بستانيا فى واشنطن D.C. ومن الكتابة. أصيب الرجل «بالزهيمر» سنة ١٩٩٩م وهو بعد فى السابعة والخمسين من العمر. وفيما عدا ذلك فقد كان صحيحا وسليما ونشطا من الناحية الجسمانية، وقد أنجز ثلاثة كتب وله تاريخ سياسى حافل وأسرة متماسكة. لكن شيئاً من ذلك لم يشفع فى التغلب على ما يمكن أن نسميه الحظ الوراثى السيئ:

«كنت أغضب... عندما أسمع شخصا ما يتحدث عن هذا المرض وكأنه جاء نتيجة تغذية غير صحية أو سلوك سيئ... يمكنك أن تفعل كل ما هو صحى وجيد لتمتد حياتك أكثر، كما يمكنك اعتناق فكرة أن الإنسان يمكن أن يعيش حتى ٢٠٠ عام، لكن لا تنس أن لك والدين، رجالاً ونساءً جاءوا نتيجة قرون من التبادل الجينى... وعندما تستيقظ من نومك كل صباح فإنك تفعل ذلك وأنت مثقل بحمل من تاريخك الوراثى... وهو حمل لا تشعر به لخفته... وليس خطأك أن يكون لك جين معطوب سيقضى عليك يوما ما، لكنه نصيبك أو قدرك الذى عليك أن تحمله على كاهلك أينما ذهبت... ولا مجال للتأنق وأنت تلاحق صحتك».

ولا يحتوى «فقدان العقل» أى تأنق، فالتأنق مثل أوجه الثقة بالنفس الأخرى ليس متاحا لذهن يعج بالشكوك والصمت. (يكتب «دى باجيو»: عندى إحساس واضح بالتاريخ، لكننى لا أدرى هل هذا التاريخ يخصنى أم لا؟) تختفى الألفاظ (الأسماء) التى تلازم الأشياء ويختفى معها الإحساس بالأماكن وبالحدود الفاصلة. لكن الذكريات البعيدة تبقى. ويجاهد «دى باجيو» أن يجمع سويا قطعا من ذكرياته الخاصة معا (بطريقة التفكيك والتربيط) بلا نظام واضح ليمنح حياته تاريخا. وعلينا أن نتخيل التحديات المعجزة القاسية التى واجهها ليضع الجمل والفقرات فى كتابه دون أن يشعر بذلك. كانت كتابته سلسة على الرغم من الصعوبة البالغة التى كانت تواجهه لمجرد الكتابة. «لقد علمنى «ألزهيمر» أن أبحث فى نفس المكان عدة مرات عن الشىء الذى أريده» كما يقول:



«ترسو الحياة على شاطئ الذكريات». كانت كلماته تشع ذكاء وشوقا إلى الانطلاق والحرية، وكانت كلماته تنير عالما ممتدا من الظلام.

استغرق الأمر تسعة أشهر، لم يكن بعدها «دى باجيو» قادرا على حمل هذا المشعل المضىء. أصبح يتعثر ويتوقف بين الكلمات لكن اللغة لم تعجزه أبدا فقد كان عليه أن ينتهى من الكتاب. «إننى أقف على حافة عالم جديد، وهو مكان لن أتمكن من وصفه» ثم يكتب فى النهاية «إنه آخر الأماكن المختبئة، يقف عليه نصب كأنه شاهد على ضريح... إنه أمر موحش أن تقف فى انتظار الذاكرة، أن تتوقف، وأنا خائف ومرهق». كان الصمت فى آخر صفحة من الكتاب هو صمت الكاتب... وكان رهيبا مدويا.

وتدور آلة التنافس فى البحث العلمى يحركها فناء الأشياء. وقريبا ستختفى من على الأرفف الروائع التى كتبها «لورانس والى» و«جون راتى» و«جارى سمول» ليحل محلها روائع أخرى أكثر حداثة. وفى غيبة العلاج والدواء ستعنى بعض هذه الكتب بتلطيف وتخفيف الرعب والمخاوف التى يفرضها مرض «ألزهيمر». وقد تنجح بعض الكتب فى ذلك، لكن كتاب «فقدان الذاكرة» لن يلعب هذا الدور ولن يسكن مخاوف أى أحد. لذلك، ولهذا السبب بالذات، وللجمال الرهيب والصدق الذى يضمه الكتاب بين دفتيه، لن يصبح هذا الكتاب قديما أبدا.

نهاية الحديث:

تمكن الباحثون فى جامعة «تكساس» فى الولايات المتحدة من استزراع خلايا جذعية (stem cells) فى مخ فئران التجارب وتحويلها إلى خلايا عصبية مستخدمين مواد كيميائية معينة. وهكذا يبزغ أمل قوى أن نتمكن يوماً ما. لعله ليس ببعيد. من تعويض الخلايا العصبية التالفة فى مخ الإنسان للقضاء على أمراض مثل «ألزهيمر». ■

هوامش

The Forgetting: Alzheimer's Portrait of an Epidemic by David Shenk

The Memory Bible: An Innovative Strategy for Keeping Your Brain Young By Gary Small, M.D.

A User's Guide to the Brain: Perception, Attention, and the Four Theaters of the Brain By John J. Ratey, M.D.

The Aging Brain By Lawrence Whalley

Losing My Mind: An Intimate Look at Life with Alzheimer's By Thomas DeBaggio

(*) مواد كيماوية فى غاية النشاط تتفاعل بسهولة جداً وتنتج بصورة طبيعية فى الجسم ولها علاقة بالإصابة بالزهيمر والسرطان وأمراض القلب.

(**) كتب الدكتور «سمول» فى حاشية على كتابه «إنجيل الذاكرة» يقول إن أعضاء فريقه البحثى قد اكتشفوا طريقة حديثة لرصد صفائح «أميلويد الزهيمر» والتشابكات أثناء تراكمها فى مخ أشخاص على قيد الحياة، وذلك بواسطة حقن المرضى بمادة كيماوية تسبب تلوين الصفائح والتشابكات أثناء تصويرها بطريقة PET .

«خريطـــــة» أمريكيـــــة....

متاهـــــة الفلسـطينيين

صغاراً كنا حين جربنا لأول مرة الألعاب المطبوعة على ورق. وكانت أول تلك الألعاب «متاهة الطريق». وكانت فى أيامنا. ما قبل الـ Video Game. تكاد تكون ركنًا ثابتًا فى مجلات الأطفال. ولا أعرف لماذا كانت تنتابنى دائمًا مشاعر الغيظ من مصممى تلك اللعبة. وأتساءل: لماذا لا يكون «الطريق» مباشراً؛ خطًا مستقيمًا بين النقطتين؟ متجاهلاً، عن عمد. أو عجز. أن تلك هى الحكمة من «اللعبة».

وكان أن اطلعنا بعد أسابيع من مبادرة الأمير عبدالله التى اعتمدتها قمة بيروت (مارس ٢٠٠٢) مبادرةً «عربيةً للسلام (شاملةً وواضحةً ومحددة) على ما تسرب من أفكار «أوربية» لخطة سلام لحقتها على مدى أشهر ثمانية تعديلات وصياغات و«تدخلات» عديدة، قبل أن ترتدى ثوبها «الأمريكى» الفضفاض وتنشر رسميًا فى الرابع عشر من الشهر الماضى (يونيو) وباسمها الأمريكى الموحى «خارطة الطريق». ويجرى ترويجها. بالصورة والكلمة. على أنها تجسيد لـ«رؤية» الرئيس. الذى هو فى الحقيقة ذاهب إلى انتخابات قد لا تجعل منه «الرئيس» بعد أشهر.

يومها تذكرت اللُعْبَةَ القديمة: «متاهة الطريق». وأنها هكذا لأن تلك هى الحكمة من اللعبة.

هل تذكرون كم لُعْبَةً تاه فيها الفلسطينيون؟

الملف مزدحم بالاتفاقات والمعاهدات والخطط والمبادرات والخرائط والتفاهمات. والذاكرة مُرهَقَةٌ بأرقام قرارات وتوصيات وأسماء مدن وعواصم ومؤتمرات. وفى النهاية.... لا شىء.

هل تذكرون ١٨١ الذى يتناساه الجميع و٢٤٢ الذى أدمن التواجد فى كل تصريح ووثيقة و١٩٤ الخاص باللاجئين والذى يعتبره كوفى عنان. بحكم وظيفته. مازال سارى المفعول، فى تصريح له قبل أيام.

وهل تذكرون مدريد، أوسلو، واشنطن، كامب دافيد، بلير هاوس، شيبرز تاون، جنيف، شرم الشيخ وطابا.

وهل تذكرون توصيات ميتشيل (ابريل ٢٠٠١) وتفاهمات تينيت (يونيو ٢٠٠١) واتفاقات شرم الشيخ (سبتمبر ١٩٩٩ وأكتوبر ٢٠٠٠) والقاهرة (مايو ١٩٩٤) وواى ريفر (أكتوبر ١٩٩٨). وهل تذكرون مسارات مدريد ولجانه متعددة الأطراف. وهل تذكرون أن اتفاقات أوسلو ١٩٩٣ («سلام الشجعان» ذا الصورة الشهيرة فى حديقة البيت الأبيض) كانت تنص على مرحلة انتقالية لمدة خمس سنوات (تنتهى فى ١٩٩٩) تمهد لتسوية دائمة تقوم على أساس قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ وذلك بافتراض أن المفاوضات حول الوضع النهائى تكون قد بدأت وانتهت أثناء فترة السنوات الخمس الانتقالية.

كل هذا.. وماذا بعد؟

لا شىء. غير فرض حقائق الواقع الاحتلالية على الأرض، تهويد القدس، ومزيد من المستعمرات/ المستوطنات (عدد المستوطنين فى أراضى ٦٧ زاد إلى الضعف خلال الفترة الانتقالية) وآلاف الأفدنة من الأراضى المصادرة، وأشجار الزيتون المحترقة، وجدار مكهرب. ومزيد من طائرات الأباتشى الأمريكية؛ وبالطبع مزيد من مشاعر الإحباط والكراهية والدماء (هنا وهناك). ومزيد من الدموع والهتافات وطوابير الجنازة.

هل هذا فقط؟

لا.. فهناك أيضًا المزيد من الأوراق والخرائط والخطط التى تحمل اسم السلام أو أسماء أصحابها. بدءاً من آرثر داكهوب (١٩٣٤) والى رؤية بوش (٢٠٠٢) مروراً بالكتاب الأبيض (١٩٣٩) وبرنادوت(١٩٤٨) وتيتو (١٩٦٣) وأبا ايبان (١٩٦٨) وجون فوستر دالاس (١٩٥٥) وكارتر (١٩٧٧) ورونالد ريجان (١٩٨٢).. وغيرهم كثير.

هل يختلف الأمر هذه المرة.. ربما. رغم حقيقة أن كلينتون أمضى ١٢ يومًا كاملة فى محاولة الوصول إلى اتفاق فى كامب دافيد. وأن بوش صاحب وعد الدولة فى ٢٠٠٥ قد يخرج من البيت الأبيض فى ٢٠٠٤. وأن شارون «رجل السلام» كما يقول بوش أعلن صراحة أنه لن يسمح بدولة فلسطينية «ذات سيادة» وأن العودة إلى حدود ١٩٦٧ «غير مطروحة» ابتداء. ولكن المتفائلين يرون أن هذه المرة تختلف. فبوش يريد أن يرى «رؤيته» تتحقق. وهو. يؤكدون. جادٌ فى حديثه عن «الدولة». وهنا لا يستطيع السامعون إلا أن يطرحوا السؤال الرئيس: «أى دولة.. وبأى ثمن؟».

يقول البروفيسور الأمريكى ناعوم تشومسكى أن رئيس الوزراء الإسرائيلى إريل شارون، بقبوله. المشروط. لخريطة الطريق الأمريكية، إنما دفع إلى الواجهة ما كان يطالب به عمليًا منذ عام ١٩٩٢. وهو الاقتراح الذى كان يومها مستحيلاً ومتطرفًا. ولكن الآن، بعد أن بدا لبوش أنه يحكم العالم، يظن شارون أنه الوقت الأنسب لكى يضع بقلمه «علامات الطريق» على خارطة الحل النهائى.

ويرى تشومسكى أن «خارطة الطريق» ما هى إلا صدى لخطة آلون عام ١٩٦٨ والتى نصت على احتفاظ إسرائيل بـ٤٠٪ على الأقل من الضفة الغربية.

هناك حديث عن دولتين. ولكن لم يقل أحد ما هى حدود هاتين الدولتين وما هى سلطاتهما (استخدمت الولايات المتحدة حق النقض عام ١٩٧٦ ضد قرار لمجلس الأمن يدعو إلى قيام دولتين «فى إطار الحدود الدولية المعترف بها»!)

ويقارن الفيلسوف الأمريكى صاحب كتاب Middle East Illusion بين الأقوال والأفعال. فالأقوال مجالها التصريحات أما الأفعال فتتولاها الجرافات الإسرائيلية التى تعمل بنشاط لتغير الحقائق على الأرض. الذى نراه الآن. وهنا يلخص تشومسكى رأى كثيرين. هو شىء أكبر مما أصر باراك على الاحتفاظ به فى كامب دافيد. «ستحتفظ إسرائيل بسيطرتها الكاملة على نحو ٥٠٪ من الضفة الغربية إضافة إلى جيوب استيطانية داخل الحصة الفلسطينية من الضفة تقسمها عمليًا إلى ثلاثة كانتونات منفصلة عن بعضها البعض.

وحتى مع افتراض وجود من بإمكانه. يأسًا. القبول بهذا المستقبل. فإن مشكلة الكثيرين مع خارطة الطريق تلك هى فى اختزال مرحلتها الأولى فيما تم تحديده «صراحة» من جانب الإسرائيليين والأمريكيين بضرورة قيام السلطة الفلسطينية باجتثاث المقاومة؛ تنظيمات

«لا تنفذ إسرائيل أى نوع من الهجمات ضد منشآت رئيس السلطة الفلسطينية أو قوات أجهزة الأمن، الاستخبارات، الشرطة الفلسطينية، أو السجون فى الضفة الغربية وفى غزة»

تفهمات تينت
٢٠٠١/٦/١٣

«إذا لم يكن هناك حل بحجم تضحيات الشعب الفلسطينى، فالأفضل الاستمرار بالعمل العسكرى بأشكاله كافة»

محمد.. (مزارع من بيت لاهيا)
٢٠٠٣/٦/٢٠

«لقد مضى عام بالضبط منذ أن تحدث الرئيس بوش عن دولة فلسطينية تعيش جنبًا إلى جنب مع إسرائيل. واليوم أصبح التفاؤل أقل منه عندما تم التصريح بهذه الجملة أمام العالم»

الهيرالد تريبيون
٢٠٠٣/٦/٢٣

و«طريق» إسرائيلى

الجديدة....؟

أيمن الصياد

وأدوات وإمكانات» بل واعتبار الدعوة لمقاومة الاحتلال «تحريضاً» يمثل خروجاً عن «الطريق» الذى رسمته الخريطة. ويعطى الحق بالتالى للإسرائيليين فى التنصل من التزاماتهم اللاحقة والتى هى غامضة أصلاً. وغير محددة فى النص المنشور للمراحل الثلاث.

ما هو مقابل ما يبدو باباً لحرب أهلية فلسطينية؟

لا شىء غير التصوير التليفزيونى لمشاهد تفكيك ما يسمونه بؤراً استيطانية عشوائية، وهى ليست فى الواقع أكثر من علامات توضع على الأرض، وتتخذ شكل كوخ مراقبة مرتفع أو عربة سكنية متنقلة.

أياً ما كان رأى المتفائلين أو المتشائمين (أو المضطرين)، فالحقائق تقول أنه بحسب الجدول الزمنى لخريطة المراحل الثلاث تلك، من المفترض أن تكون المرحلة الأولى قد انتهت فى مايو/آيار (هل ترون شيئاً من ذلك؟!) لا شىء غير الدماء ومشاهد تليفزيونية لإزالة بعض الأكواخ الخشبية، وتحريك بعض المنازل المتنقلة من مكانها إلى مكان آخر فى الأرض المحتلة ذاتها، بدعوى تفكيك المستعمرات غير الشرعية (وهل هناك مستعمرات شرعية؟!).

على الورق، وصلنا إلى المحطة الأولى وبدأت. حسب الخطة. المرحلة الثانية. وعلى الأرض/ الواقع، المشاهد كثيرة ومتباينة: على شاطئ العقبة، صورة باسمة لشارون مع بوش وأبومازن. وفى شوارع غزة صورة لسيارة الرنتيسى المحترقة، وأشلاء الضحايا العابرين بالصدفة. إذن فى الواقع. كما الصورة الباسمة. تستمر الأباتشى فى اغتيالاتها، وقوافل الشهداء المزنَّرة بالمتفجرات فى طريقها إلى الجنة. وتستمر الجرافات فى هدمها للمنازل، وتجريفها للبيارات، وتمهيد الطرق الالتفافية مقطِّعةً أوصال الضفة. وفى الواقع أيضاً يعلن آفى ايتام وزير الإسكان الإسرائيلى (عشية العقبة) إحياء مشروع استيطانى ضخم يشمل بناء نحو ١٥٠٠ وحدة على مساحة لا تقل عن ٣٠ ألف متر مربع من أراضى الضفة الغربية. (تفيد الأرقام بوجود ٤٠٠ ألف مستوطن و١٥٢ مستوطنة فى أراضى ١٩٦٧). وفى الواقع. أيضاً. وعلى شاطئ العقبة نفسه يلبى صاحب «الخريطة» رغبة مخططى «الطريق» فيعلن إسرائيل «دولة يهودية نابضة بالحياة». مصادراً ما تنص عليه الخطة ذاتها من التفاوض غير المشروط حول تفاصيل الحل النهائى فى المرحلة الثالثة. ومدشناً شرعية أول دولة عنصرية «رسمياً» فى تاريخ ما بعد الحرب الثانية. ولا عزاء للمتفائلين، أو المراهنين على الاهتداء بعلامات طريق غطتها باكراً رمالُ المراوغات الناعمة المتحركة.

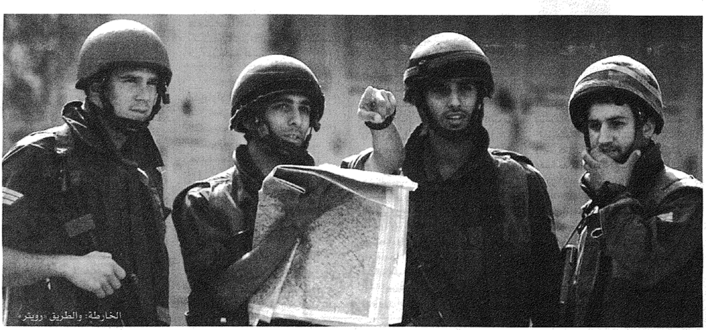
عندما يعلن رئيس شعبة المخابرات العسكرية الإسرائيلية أهارون زئيفى أن واشنطن أعطت الضوء الأخضر لمواصلة إسرائيل اغتيال كوادر «حماس»، وعندما لا يُكذِّب جورج دبليو بوش، ولا أركان إدارته (باول و رايس) ذلك، بل يؤكدون جميعاً حتمية «اجتثاث» أبومازن لحماس والجهاد وكتائب شهداء الأقصى، لا مجرد إيقاف عملياتها (كخطوة أولى على الطريق/ الخارطة) فإن ذلك يعنى عملياً إجهاض الخطة كلها. فلا أبومازن بقادر، ولا براغب (عكس ما قد يقوله البعض). ولا الفلسطينيون على استعداد للدخول فى حرب أهلية (كما يأمل آخرون). ويبقى أمام الجميع حقيقة أن علامة الطريق/ الشرط تلك على الخارطة الأمريكية (اجتثاث منظمات المقاومة) إنما هى علامة تشير إلى «الطريق الإسرائيلى» للتسوية كما يريدها شارون.

يعتبر المفكر الفلسطينى/ الأمريكى إدوارد سعيد. وعلى رأيه دلائل كثيرة. أن خارطة الطريق «ليست خطة للسلام بمقدار ما هى خطةٌ للتهدئة»، وأنه «لولا حقيقة رفض الفلسطينيين العنيد القبول بأنهم شعبٌ مهزوم كما وصفهم أخيراً رئيس الأركان الإسرائيلى، ما كانت هناك خطة سلام». الكثير منها مأخوذٌ من خطط سابقة. وما كان وافق الإسرائيليون (بغض النظر عن حقيقة أنهم بدأوا يعملون فعلاً على إفراغ موافقتهم من مضمونها). وأنه لولا احتياج بوش إلى صورة انتخابية وإلى غطاء عربى. إسرائيلى لما يحدث فى العراق ولمغامراته العسكرية فى أماكن أخرى لما شاهدنا خارطةً ولا سمعنا عن طريق.

علينا إذن أن نضع الخارطة وأوهامها فى مكانها الطبيعى. بعيداً عن أحلام الحل النهائى والسلام الدائم وغير ذلك من كلام جميل. سواء عنى هذا الحل خلاصاً للبعض أو اعتبره سواهم تهديداً لنضالهم ودماء شهدائهم. فهو. فى الواقع. ليس هذا ولا ذاك. بل لحظة من لحظات الصراع، ونقطة على الطريق الطويل. لا طريق الخارطة. لابد من التعامل معها. واعين بالتمسك بثوابت الحق الفلسطينى. وبالذهاب. مرونةً. مع «الكاذب حتى باب الدار». فالطريق الحقيقى خارج الخارطة. والطريق الحقيقى مازال طويلاً.

تعالوا لنصف الموقف على الأرض. ببساطة: يشكو الفلسطينيون من الاحتلال. ويشكو الإسرائيليون من المقاومة/ الإرهاب. والثابت أنه إذا زال الاحتلال توقفت المقاومة. فلماذا «متاهة الطريق»؟ ولماذا لا نصل خطاً مستقيماً بين النقطتين؟!

قد لا يحتاج المرء إلى قراءة ما بين السطور ليدرك أن العيب الرئيس فى «خارطة الطريق» فضلاً عن طابعها الإنشائى وعموميتها المفرطة، وافتقارها إلى الوضوح والتحديد والآلية، إنما يكمن فى أنها قائمة على فكرة أن: «المشكلة تتمثل فى ضراوة المقاومة الفلسطينية.. وليس الاحتلال الذى تسبب فى نشوئها» وسيبقى الجالسون فى منعطفات المتاهة المتشابكة المعقدة يكومون إلى جانبهم أوراق الاتفاقات والمعاهدات والقرارات الدولية.. وخرائط الطرق. ويتحسسون شعر لحاهم الأبيض، ومفاتيح قديمة علاها الصدأ لبيوت ربما لم يبق من أحجارها غير صورٍ فى الذاكرة. يهرمون مكانهم.. يحلمون بـ«هبة الضراغمة».. وينتظرون «العدل».■



الخارطة.. والطريق (رويتر)

«تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.»

كسر شيفرة الموروثات: الجينوم

تأليف: كيفن ديفس
تعريب: د. ياسر العيتى
الرياض: العبيكان، ٢٠٠٣، ٤٨٠ صفحة



أقرت الحكومة الأمريكية سنة ١٩٩٠ خطة مدتها ١٥ سنة وبتكاليف بلغت ٣ بلايين دولار لدعم مشروع قراءة الشريط الوراثى البشرى الرامى إلى تحديد تتابع ثلاثة بلايين رمز يشكلون الحمض النووى الريبى البشرى منزوع الأكسجين DNA كان جيمس واتسون على رأس المشروع، وقد استقال بعد عدة سنوات فقط من بداية المشروع، وذلك بسبب خلاف مع مدير المعهد الصحى القومى برنادين هيالى حول براءة الاختراع المتعلقة باكتشاف الموروثات.

خلف جيمس واتسون فى منصبه عالم الموروثات الشاب المتألق فرانسيس كولينز الذى اكتشف المورثة المسئولة عن مرض التليف الكيسى Cystic Fibrosis gene، وكما ذكر المؤلف فإن فرانسيس كان مؤمنًا حقّ الإيمان بأن تتابع الرموز فى الشريط الوراثى البشرى هو الدلالة الأبلغ على دقة صنع الخالق.

حينما أصبح كولينز مديرًا للمشروع كان كرايج فنتر العالم المتميز المختص بفك شيفرة الحمض النووى الريبى منزوع الأكسجين DNA، والمحارب القديم فى فيتنام قد استقال من المعهد الصحى القومى لينشئ مركزًا خاصًا للأبحاث. ولقد أوجد طريقة سريعة وبسيطة لتحديد المورثات على الحمض النووى الريبى. وقد طبقت شهرته الآفاق حينما نجح للمرة الأولى فى فك الشيفرة الكاملة للشريط الوراثى لإحدى الجراثيم. فى بداية ١٩٩٨ كان ٣٪ فقط من الشريط الوراثى البشرى قد فكت رموزه فى حين انقضت نصف الفترة الزمنية المحددة لإنجاز المشروع. وفى السنة نفسها أذهل فنتر العالم حينما أعلن عن تأسيس شركة جديدة لفك رموز الشريط الوراثى البشرى فى خلال ثلاث سنوات فقط وبكلفة ٣٠٠ مليون دولار.

■

فنون الفرجة الشعبية (دورية)

رئيس التحرير: د. أسامة أبو طالب
القاهرة: المركز القومى للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ٢٠٠٢، ١٦٠ صفحة



يأتى العدد الأول من هذه الدورية استجابة. بحسب الكلمة الافتتاحية. لتحديات تواجهها الثقافة فى عمومها، والثقافة الشعبية على وجه الخصوص، فى زمن العولمة وما بعد الحداثة، وهى تعنى بفنون الفرجة الشعبية، تلك الفنون ذات الصلة الوثيقة بالذاكرة البصرية للناس والتى لا يمكن وأدها أو استئصالها بسهولة، والتى ماتزال ماثلة فى الأفراح الشعبية والموالد والاحتفالات الدينية وليالى المداحين وسير الأبطال ودراما خيال الظل وعشرات غيرها من فنون الفرجة.

وفى هذا العدد يكتب العالم الأنثربولوجى الدكتور أحمد زيد عن ثقافة الفرجة، ثم نطالع دراسات عن الأزجال فى الظاهرة المسرحية الشعبية، والدراما الشعبية، وعرائس خيال الظل فى مصر الإسلامية، والفرجة الشعبية، ودراسات ميدانية عن الرقص الشعبى ومسرح الضريح وليلة حرق اللمبى والمولوية واحتفالات شم النسيم وأسبوع الآلام عند الأقباط، وتجارب تطبيقية لبعض فرق الفنون الشعبية، وشهادات لشوقى عبد الحكيم ومحمد مستجاب. وملف عن فنون الأداء والدراما الشعبية فى منهج عبد الحميد يونس.

■

أسود وأبيض

إملى نصر الله
القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠٢، ١٨١ صفحة



ثلاث عشرة قصة قصيرة، تضمها المجموعة القصصية الجديدة التى صدرت للكاتبة اللبنانية إملى نصر الله.

وهى المجموعة التاسعة فى سلسلة أعمال إملى نصر الله القصصية بعد: جزيرة الوهم، الينبوع، المرأة فى ١٧ قصة، الطاحونة الضائعة، خبزنا اليومى، محطات الرحيل، روت لى الأيام، الليالى الغجرية.

وهى فى هذه المجموعة تحتفى بأصداء الرحلة، وأوجاع السفر، وآلام الغربة، فنراها تجول فى الإسكيمو، وكندا ومصر ولبنان، وألمانيا، وأماكن عديدة من العالم تختزنها وتمثل لها فيضًا ونبعًا، ونقطة ارتكاز أو انطلاق للكتابة والإبداع.

والكاتبة فى هذه المجموعة تمزج فى كتابتها بين القص وأدب الرحلة ونلحظ ذلك بوضوح فى قصص: الإسكيمو ١، الإسكيمو ٢، رحلة فوق النيل، والصور متقاطعة، الجدار، أسود وأبيض، خط الرجاء.

■

النشيد الأبدى

أمل دنقل.. سيرة شعرية ثقافية
حسن الغرفى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ١٣٠ صفحة



فى يونيو ١٩٨٣، رحل أمل دنقل، بعد صراع سنوات مع مرض السرطان، لتنتهى حياته باكرًا، عن ثلاثة وأربعين عامًا، خلف خلالها ستة دواوين شعرية هى: البكاء بين يدى زرقاء اليمامة (١٩٦٩)، تعليق على ما حدث (١٩٧٧)، مقتل القمر (١٩٧٤)، العهد الآتى (١٩٧٥)، أقوال جديدة عن حرب البسوس (١٩٧٦)، أوراق الغرفة ٨ (١٩٨٣).

ويجمع هذا الكتاب المقابلات التى أجريت مع أمل دنقل والتى تتضمن آراءه فى الشعر والشعراء، وفى الواقع السياسى والاجتماعى لمصر والأمة العربية، ويفسر مواقفه التى عبر عنها شعريًا ووضعت فى مواجهة حادة مع السلطة، والتى تعد قصيدة لا تصالح نموذجها الأكثر وضوحًا، وربما تكون شهادة أمل دنقل على شعراء جيله، وحتى السابقين عليه هى الجانب الأكثر طرافة، فهو يرى أن الأدباء المصريين السابقين لجيله انسحقوا أمام الحضارة الغربية، وتمثلوها تمثلاً آخر فيما بعد بالمفاهيم الثورية التى تبنوها (...) وكان من نتيجة ذلك أن تحول كاتب وطنى مثل عباس محمود العقاد إلى مجرد كاتب يكتب لحساب السفارة الأمريكية، كذلك تنقل طه حسين تنقلاً غير مبدئى بين أحزاب متناقضة ومتطاحنة. وأصبح كل همه هو أن يكون دائمًا فى الصورة، أما توفيق الحكيم الذى بدأ كاتبًا مسرحيًا، فقد تحول فى منتصف الطريق إلى مجرد نجم من نجوم مؤسسة أخبار اليوم التى أحاطته برعاية مستمرة تتسم بالابتذال. ويقول عن المثقفين بعد يوليو ١٩٥٢: أصبح عندنا مثقفون يأكلون على كل الموائد. دون أن يحسوا بأية غضاضة أو تأنيب ضمير.

إلى ذلك يضم الكتاب كثيرًا عن بدايات أمل دنقل ومفهومه للقصيدة وموسيقى الشعر واللغة والالتزام فى الشعر والموقف الاجتماعى والوطنى للشاعر ودلالاته، وغيرها كثير مما يرسم صورة وضاءة لهذا الشاعر الذى كان نسيجًا وحده.

■

يوسف إدريس

دراسة فى تكوين المبدع وإبداع الأصالة وأصول النبوغ
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٣، ٣٥٠ صفحة



يرتكز المؤلف على يوسف إدريس كنموذج لدراسة العلاقة بين الأصالة والنبوغ وهو لا يكتفى بتحليل قصص يوسف إدريس فى مراحله المختلفة: البدايات، الانتماء لتنظيم حدتو (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) وهو أحد تنظيمات اليسار المصرى قبل الثورة، قصص مرحلة الانتماء لجوهر الحياة، ثم أخيرًا مرحلة الأفول، هو لا يكتفى بتحليل هذه النصوص والتعاطى معها نقديًا، إنما يبدأ بمحور عن تكوين المبدع، ونظريات علم النفس ذات الصلة بالإبداع واحتياجات الإنسان وخصائص تحقيق الذات الإبداعية، وفى المحور ذاته يدرس بذور عشق إدريس للنجومية وسعيه إليها، والبذور الأولى التى

ساهمت في بزوغ موهبته كواحد من أهم كتاب القصة القصيرة في العالم العربي.

وإلى جانب ما يكشفه الكتاب، وهو في الأصل أطروحة جامعية نال عنها صاحبها درجة الدكتوراة، من وقائع مثيرة عن حياة يوسف إدريس، من قبيل معاملته لسنوات في المدرسة بوصفه لصاً، أو إحساسه بأن أمه متوحشة، أو علاقته بالمرأة، واحتكاكه بعالم الإدمان والمرض النفسي. فإنه يتضمن محاولة جيدة لربط إنتاج يوسف إدريس الإبداعي بسيرته الذاتية ومجتمعه، وكيف تأثر هذا الإنتاج بالممارسة الطبية ومدارس الفكر الجدلي التي شاعت في زمنه.

ويرى المؤلف من زاويته، أن أهمية الكتاب تكمن أساساً في التزامه تصوراً للنبوغ، ينظر إلى الإبداع من خلال تكوين المبدع وظروف نشأته واستجابته الخلاقة بظروف مجتمعه، بما يعني، من ناحية أخرى، ضرورة تهيئة المناخ الملائم للنبوغ والإبداع في المجتمع.

النظر والعمل والمأزق الحضاري العربي والإسلامي الراهن أبو يعرب المرزوقي

حسن حنفي

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣، (سلسلة حوارات لقرن جديد)، ٣٦٠ صفحة



المجادلة هنا بين أستاذين للفلسفة فيما يشبه حوار المشرق الذي يمثله الدكتور حسن حنفي (مصر)، والمغرب الذي يمثله الدكتور أبو يعرب المرزوقي (تونس) والمفاضلة هي بين النظر والعمل، أو النظرية والتطبيق وعلاقة كل منهما بالمأزق الحضاري العربي والإسلامي الراهن، فثمة من يقدم العمل على النظر ويتساءل: هل يواجه الاحتلال بالبيان، والاجتياح بمؤتمر قمة، والعدوان بالشجب والإدانة؟ وثمة من يرى أن النظر أسبق، ويفرد مشكلات العالم العربي إلى خلوه من الفهم والتحليل اللذين يصنعان شروط العمل الجاد.

يبدأ المرزوقي بتبيان الدلالات الحضارية للعلاقة بين النظر والعمل، وبعد سياحة في الفلسفة العربية والإسلامية، ومحاولة إثبات الصلة بين الفكر الفلسفي الحديث وعلوم الكلام والتصوف، وصلة الفكر الفلسفي الحديث بالحدث التاريخي، والإشارة إلى ما ينبه إليه الفلاسفة من أن وراء مداركنا الحسية والعقلية المعرفية، يوجد عالم الطبائع قائماً بذاته بوصفه مرجعاً وحكماً. وما يفترضه الدين الإسلامي من أن وراء مداركنا الخلقية والروحية عالم الشرائع، ينتهي إلى أن غايتي الوجود العمراني الإنساني هما جوهر فعل النظر (الرياضيات والمنطق)، وجوهر فعل العمل (السياسات والتاريخ)، أما واسطتاه فهما الفنون المستندة إلى النظر أي الفن الصناعي والتشكيلي، والفنون المستندة إلى العمل أي الفن التربوي والأدبي، وهكذا فإن العلاقة بين النظر والعمل هي عينها العلاقة بين ضربي الفنون، وهي سدى العمل البشري ولحمته.

من جهته يبدأ حسن حنفي بتأكيد أولوية العمل على النظر، وأن هذا الاختيار هو الذي يدعم بناء الدول وعمرانها وانتشار الحضارة، فإذا ما ذبلت هذه الحضارة وهرمت وتوقفت عن الإبداع، تحول همها العملي إلى هم نظري، ويدلل على ذلك بانشغال اليهود «بالنظر» على حساب العمل في زمن السبي البابلي، وكذلك في المسيحية أثناء سيطرة اليهود والرومان في فلسطين، وعند الصوفية حين استحالت المقاومة الفعلية بعد استشهاد أئمة آل البيت وسيطرة آل عثمان، لكن في لحظات الخلاص. يضيف حنفي. يهبط الناس من الخيال إلى الواقع، ومن عالم التمني إلى عالم الفعل.

باختصار يرى حنفي أن أولوية العمل على النظر أحد متطلبات الواقع العملي المعاصر، أكثر من هذا، يرى أن التمترس حول البحث النظري والتخندق في التحليل الإبستمولوجي والتستر بالغطاء العرفي إنما هو نقص في الالتزام.. «الإبستمولوجيا تنتشر في دور النشر وتؤدي إلى الجوائز العلمية في الخلية، في حين أن الفعل يؤدي إلى السجون والمعتقلات والاغتيالات

مراجعة

أخطاء وأوهام في موسوعة وطنية!

وقع في يدي أحد كتب التراجم المعاصرة، قامت على إصداره وتحريره مؤسسة وطنية وظيفتها في الأساس وظيفة خبرية معلوماتية، وفي نفس الوقت تمثل بلدها في هذا الصدد، إلا أن المرجع الذي أصدرته. للأسف الشديد. حفل بالعشرات من الأغلاط والأوهام البيوجرافية والتاريخية والمطبعية، والآن نحاول رصد بعض ما استطعنا حصره من هذه الأغلاط وتصويبها لكي يتداركها القائمون على المرجع في طبعاته التالية، ولا سيما أنه يضم ما مجموعه (٢٠٠٠) ترجمة لأعلام مصر في القرن العشرين، وإن كنت أرى حذف الكثير منهم خاصة الذين لم يسهموا مساهمة كبيرة في بناء تاريخ مصر الفكري أو الثقافي أو العلمي أو الحضاري في القرن العشرين:

١. ص (٧١) د. إبراهيم أنيس

ورد تحت اسم تاريخ الوفاة فقط ١٩٧٧ والصواب هو ١٩٧٨ ولم يذكر تاريخ الميلاد وهو ١٩٠٦.

٢. ص (٧٣) د. إبراهيم (باشا) الدسوقي أباظة

سبق اسم الاختصار (د.) وهو في الحقيقة لم يحصل على درجة الدكتوراه، كما ورد تحت اسم التاريخ ١٨٨٩ وهو تاريخ الميلاد فقط ولم يرد تاريخ الوفاة وهو ١٩٥٣. ويذكر أن المترجم له هو والد الأديب الراحل ثروت أباظة.

٣. ص (٧٤) إبراهيم زكي قناوي

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩٠١. ١٩٩٢ والصواب ١٩٠١. ١٩٩٩، انظر: (صحيفة الأهرام عدد ٣ أبريل ٢٠٠٣م).

٤. ص (٨٣) د. أبو الوفا التفتازاني

يضاف إلى اسم أبو الوفا الغنيمي التفتازاني

٥. ص (٨٥) أحمد أمين

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٨٦. ١٩٤٨. والصواب ١٨٨٦. ١٩٥٤.

٦. ص (٨٨) أحمد حسن الزيات

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٩٥. ١٩٦٨. والصواب ١٨٨٥. ١٩٦٨.

٧. (١١٣) د. أحمد محمد الحوفي

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩١٠. ١٩٤٨. والصواب ١٩١٠. ١٩٨٣.

٨. ص (١١٦) أحمد مصطفى المراغي

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩٨٨. ١٩٥٢. والصواب ١٨٨٨. ١٩٥٢.

٩. ص (١٢٧) أم كلثوم

يضاف إلى اسمها فاطمة إبراهيم بنت الشيخ إبراهيم البلتاجي.

١٠. ص (١٣١) أمينة السعيد

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩١٢. ١٩٥٥. والصواب ١٩١٢. ١٩٩٥.

١١. ص (١٣٢) أنطون الجميل

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٨٠. ١٩٣٢. والصواب ١٨٨٧. ١٩٤٨.

١٢. ص (١٣٥) أنيس منصور

يضاف إلى اسمه أنيس محمد منصور.

١٣. ص (١٥٥) د. جابر عبد الرحمن

يضاف إلى اسمه جابر جاد عبد الرحمن.

١٤. ص (١٨٤) حسنين مخلوف (الشيخ)

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨١٠. ١٩٥٨. والصواب ١٨٩٠. ١٩٩٠ ويضاف إلى اسمه حسنين محمد مخلوف العدوي.

١٥. ص (١٩٠) حسين كامل (السلطان)

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٩٥٣. ١٩١٧. والصواب ١٨٥٣. ١٩١٧.

١٦. ص (١٩٥) د. أحمد رياض ترك

ورد في ترجمته وزير البحث العلمي عام ١٩٦٣ والصواب ١٩٦٤.

١٧. ص (٢١١) راغب عياد

ورد تاريخ ميلاده ١٨٩٣ والصواب ١٨٩٢ (١٠/٢/١٨٩٢).

١٨. ص (٢٢٥) زكي مبارك الدكاترة

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٩٣. ١٩٥٣. والصواب (١٨٩١. ١٩٥٢).

١٩. ص (٢٣٨) د. السيد مصطفى السعيد والصواب السعيد مصطفى السعيد

٢٠. (ص ٢٥٨) عبادة سرحان

وصواب الاسم أحمد البدوي عبادة سرحان، ويرتب في حرف الألف مع إعداد إحالة النظر من عبادة سرحان إلى أحمد عبادة سرحان.

٢١. ص (٢٩١) عبد الجليل عيسى

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٨٨. ١٩٧٩ والصواب ١٨٨٨. ١٩٨١.

٢٢. ص (٢٩٢) عبد الحكيم الرافعي والصواب عبد الحكيم الرفاعي

٢٣. ص (٢٩٨) عبد الرحمن الرافعي

ورد تاريخ الميلاد والوفاة ١٨٨٩. ١٩٦٣ والصواب ١٨٨٩. ١٩٦٦.

٢٤. ص (٢٩٩) عبد الرحمن زكي

ورد تاريخ الميلاد فقط ١٩٠٤ ولم يرد تاريخ الوفاة وهو ١٩٨٠.

وبعد فهذا بعض ما استطعنا حصره في هذه العجالة، وورود هذه الأغلاط بهذا الحجم في مرجع يمثل مؤسسة قومية تسبقها سمعتها المهنية، يستوجب سرعة مراجعته مراجعة حقيقية مسئولة قبل التفكير في إصداره في طبعة جديدة.

موسوعة أعلام مصر في القرن العشرين

القاهرة: وكالة أنباء الشرق الأوسط، ١٩٩٦، ٥٢٣ صفحة

إبراهيم عبد الموجود حسن

خبير المكتبات والمعلومات بدولة الكويت

والتصفيات (...) وهو نفس مصير الفقهاء القدامى، فريق أخذ الصرة والحلة والجاه والمنصب والرياسة (فقهاء السلطان)، وفريق سُجن وعُذب وصُلب وذبح، (فقهاء الأمة والناس).

بعد ذلك يرد كل من العالمين الجليلين على الآخر مفنداً تصوراته ورؤاه، ونظن أن السجال مازال مفتوحاً لمشاركات أخرى، من داخل حقل الفلسفة أو من خارجه، فى إطار هذه السلسلة فائقة الأهمية.

رسائل مفتوحة إلى الرئيس الأمريكى

تأليف: جيمس جى شيرو وبرايس واتر هاوس كوبر
تعريب: أيمن الأرمنازى
الرياض: العبيكان، ٢٠٠٣، ٣١٢ صفحة



تمثل الحكومة الأمريكية بمؤسساتها وهيئاتها أكبر منظمة فى العالم؛ والرجل الذى يقود هذه المنظمة يضطلع بمسئوليات جسيمة مستمدة من سلطته التنفيذية. فى هذا الكتاب يوجه كبار مديرى الشركات فى أمريكا كلامهم مباشرة إلى الرئيس الجديد، مقدمين له النصح حول إدارة منظمة مؤلفة من أربع عشرة وزارة ومائة مؤسسة حكومية مستقلة بالإضافة إلى مليونى موظف.

بكلمات لا مراء فيها، يدلى مديرو هذه الشركات المرموقة بآرائهم من خلال رسائل مفتوحة موجهة إلى الرئيس الجديد أياً كان. وهذه الآراء تستند إلى خبرتهم التى لا يُستهان بها فى الإدارة، بجوانبها كافة، التى تمس مختلف إدارات الحكومة الفيدرالية. يترك الكاتبون القضايا السياسية للسياسيين ويركزون على تقنيات الإدارة التى ثبتت نجاعتها فى القطاع الخاص، ويلفتون عناية الرئيس إلى أهمية تسخير التكنولوجيا وبصفة خاصة تكنولوجيا المعلومات فى إرساء قواعد إدارة فاعلة، بالإضافة إلى قضايا أخرى مثل المناقبية فى العمل والتعامل مع المتغيرات وتنمية العنصر البشرى.

إن ما كتبه هؤلاء المديرون البارزون، وما يطرحونه من حلول وأفكار على رئيس الولايات المتحدة جدير بأن يقرأ. وسواء أكان القارئ مديراً تجارياً يتوق إلى التعلم، أم مواطناً يهتم بإدارة الدولة أم طالباً يهتم بالعلوم السياسية أو الإدارة العامة، فإنه سيجد مادة الكتاب رائعة ومفيدة.

اللولب المزدوج

جيمس د. واطسون
ترجمة: أحمد مستجير. محمود مستجير
القاهرة: دار سطور ٢٠٠٣، ٢٧٢ صفحة



ولد جيمس واطسون فى أبريل ١٩٢٨، وحصل على البكالوريوس من جامعة شيكاغو عام ١٩٤٧، وعلى الدكتوراة من جامعة أنديانا فى علم الوراثة عام ١٩٥٠، ونال جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب عام ١٩٦٢ لتوصله بمساعدة بروفيسير آخر إلى حل لغز تركيبة جزىء الدنا.

وهو فى هذا الكتاب لا يقدم رواية علمية لحل لغز الدنا، وإنما يقدم روايته الشخصية، بأقل قدر ممكن من التفاصيل العلمية، وبأسلوب بسيط لا يخلو من دعابة.

إلى ذلك فإن المؤلف فى مواضع متعددة يتناول التقاليد العلمية والموروثات الثقافية التى تقود خطى العلماء، فبينما كان فرانسيس ميالاً للخوض فى موضوع الدنا، فإن اقترابه من هذا الموضوع كان سيسبب له حرجاً علمياً بالغاً، إذ أنه كان يعمل فى مجال البروتينات، فى وقت كان صديقه موريس ويلكنز يعمل على موضوع الدنا منذ سنتين، ووفقاً للتقاليد العلمية الإنجليزية، فإن اقتراب فرانسيس من هذا الموضوع يعد تجاوزاً أو خيانة علمية، فيما يشير المؤلف إلى أن هذا ما كان ليطرح فى فرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً.

وهو يشير فى موضع آخر وبلغة مرحة بسيطة، إلى العلاقة المتوترة التى جمعت بين موريس ومساعدته روزى، والتى كانت متخصصة فى علم البللورات، والتى كان يأمل موريس فى أن تساعده بتخصصها الدقيق فى الإسراع بتحقيق نتائج سريعة لأبحاثه، إلا أنها ادعت أنها منشغلة مثله بموضوع الدنا، وبذلك بدت منافسة أكثر منها مساعدة، وبخفة الروح ذاتها يتحدث عن بداية علاقته بموريس ويلكنز، الذى كان سباقاً فى أبحاث الدنا، وكيف أنه استغل إعجاب موريس بأخته اليزابث القادمة من أمريكا، كى يقترب منه ويعرف أكثر عما توصل إليه من نتائج فى موضوع الدنا، لكن توقعاته ذهبت هباء، فقد اكتفى موريس من اليزابث بحديث قصير وموعد غداء، وعاد بعده لينكب على عمله دون إبطاء.

أشياء من هذا القبيل يرويها المؤلف فى كتابه، كاسراً الحواجز بين العلماء وعامة الناس، وليبين أن ممارسة العلم ليست سوى محاولة يقوم بها بشر عاديون، وإن تخفوا خلف نظارات مقعرة ومعاطف بيضاء.

ما بعد إسرائيل

أحمد المسلمانى
القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٣، ٢٠٠ صفحة



عبر ثلاثة فصول، يسرد المؤلف سيرة الدولة العبرية منذ ما قبل الفكرة، وحتى تحولها إلى واقع يمشى على قدمين.

اتكأ الحلم اليهودى فى بداياته على نصوص توراتية مرتبكة، ساعدت طول الفترة الزمنية الفاصلة بين نزولها وتدوينها على تعميق تناقضها وارتباكها. إذ أن الفضل فى تدوين التوراة على ما هى عليه يعود إلى شخص يسمى «عزرا» وقد تم تحريرها وتوحيد الكتاب المقدس على يد أحد الكهنة فى عام ٤٠٠ ق.م، أى أن التوراة استغرقت أربعة قرون كاملة كى تصبح نصاً معتمداً لدى تابعيها، وكانت هذه الفترة كافية لإشاعة قدر غير يسير من الارتباك العقيدى، أما التلمود، وهو الرواية الشفهية الموازية للتوراة والتى تناقلها الحاخامات جيلاً بعد جيل، فيفصلها على التوراة المعتمدة نحو ستة قرون، أى أن ما بين نزول التوراة وتدوين التلمود ألف عام تقريباً، وضمت التوراة ٣٩ سفراً وضم التلمود ٣٥ جزءاً.. «تجاوزت فيها النصوص اليهودية تعاليم العقيدة والمعاملات إلى وصف التاريخ والمغامرات، فاختلطت الأسطورة بالنبوءة وغطت الدراما على حقائق الأشياء».

فى الفصل الثانى من الكتاب يتابع المؤلف المشروع الصهيونى السياسى منذ تيودور هرتزل ومؤتمر بازل فى سويسرا ١٧٩٨، وبعد سرد تاريخى للخطوات العملية التى اتخذها يهود العالم فى هذا الإطار، ينتهى المؤلف إلى هذه الحقيقة المؤلمة: مضت عقود وانتصف قرن ثم طال وإسرائيل تمضى أكثر قوة، والأحلام العربية تمضى صوب البحر.

ويلاحظ أن مشروعات التسوية توالت منذ هزيمة ٦٧ من بن جوريون إلى إيجال آلون إلى ديان إلى بيريز وصولاً إلى مدريد وأوسلو، وبقى السلام هدفاً بعيد المنال.

ويرصد الفصل الثالث أفكار المؤرخين الجدد فى إسرائيل، الذين ينتظمون فيما بات يعرف بحركة ما بعد الصهيونية، وداخلها تمايزات عديدة، وإن اعترف كثيرون منهم بممارسات دولتهم العنصرية وتحولهم من ضحايا للنازى إلى جلادين أكثر قسوة وصلافة، ويشير على وجه الخصوص إلى أفكار «بنى موريس» ودراسته حول مشكلة اللاجئين، والتى اعتبرت البداية العملية لحركة المؤرخين الجدد، ويطالب بحركة فكرية موازية على الصعيد العربى، متوازنة وإنسانية الطابع، أقل انفعالاً وأعمق تأثيراً.

الديمقراطية وحاكمية الأمة

محمد خاتمى
ترجمة: سرمد الطائى
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣، ١٨٤ صفحة



ينظر إلى السيد محمد خاتمى، ليس بوصفه رئيساً لجمهورية إيران الإسلامية ذات العلاقات الإشكالية فى محيطها وخارجه، وإنما أيضاً بوصفه مفكراً إصلاحياً يملك رؤى مستنيرة واضحة، فى مواجهة «استرابة» غربية. أمريكية أساساً. تجاه ما تمثله إيران الإسلامية من مخاطر على المشروع الحضارى والثقافى الغربى.

وهذا الكتاب، يضم محاضرات خاتمى التى ألقاها خلال العامين الأولين من دورته الرئاسية، وفيها رؤاه حول عديد من القضايا منها: دور الشعب فى الحكومة الدينية، العلاقة بين الدين والحرية، أهمية الدستور فى العملية الديمقراطية، دور الصحافة فى تدعيم الديمقراطية، الجامعات والحرية، السياسة الخارجية وحاكمية الشعب، الشيعة والسنة والديمقراطية، التنمية السياسية وحقوق الشعب، الديمقراطية الدينية، وغيرها.

إنها أفكار تستحق التأمل لمفكر بارز، جاء إلى السياسة من باب الثقافة، وعزز الأولى بالثانية.

العلاقات العربية الآسيوية

نحو مستقبل مشرق
تحرير: سامى عبد الله خصاونه
عمان: الجامعة الأردنية، ٢٠٠٣، ٦٤٠ صفحة



أكثر من ثلاثين بحثاً علمياً مدققاً يضمها الكتاب، وهى حصيلة مؤتمر

«العلاقات العربية ـ الآسيوية نحو مستقبل مشرق» الذى عقدته الجامعة الأردنية، وشارك فيه أكاديميون وباحثون من مختلف الأقطار العربية والأسيوية، تناقشوا حول سبل توفير قواعد البناء الصحيحة لعلاقات عربية آسيوية، فى المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية.

من عناوين الأبحاث: العربية جامع مشترك بين ثقافتى العرب وإيران الكبرى، الاستيطان الهندى فى العراق فى أوائل القرن العشرين، الصلات التجارية العمانية الصينية، مكونات العلاقات العربية الآسيوية، العلاقات العربية اليابانية، مستقبل التعاون بين النظام الإقليمى العربى والنظام الإقليمى الآسيوى، التحالفات الاستراتيجية بين الشركات الآسيو ـ عربية، العلاقات العربية الأرمنية، نحو إطار نظرى للحوار العربى الآسيوى.

■

زلزلة فى العولمة وسعى نحو العالمية

تحرير وعدل فسلام

أحمد صدقى الدجانى

القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٣، ٤٨٠ صفحة



العنوان الثانى للكتاب يحدد بدقة فكرته الرئيسية، فلا يمكن أن يقوم سلام قبل أن تتحرر الدول الواقعة تحت ربقة الاحتلال بمعناه المباشر كما فى فلسطين، أو غير المباشر كما فى سطوة العولمة الغاشمة الهادفة إلى السيطرة على العالم كله.

أما الزلزلة التى أصابت العولمة، فيقصد بها المؤلف ما جرى فى الولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١، وما تبع ذلك من إعلان حرب ضد ما تسميه أمريكا الإرهاب، ويسميه المؤلف «حرب العولمة»، التى تستهدف فرض تسلط العولميين، ويميز المؤلف بين العولمة والسعى نحو العالمية، والأخيرة تتجلى مظاهرها فى صور مختلفة، أعظمها وأنصعها، حركات التحرر التى تجابه الاستعمار، وفى مقدمتها انتفاضة الأقصى، وهى حلقة فى سلسلة نضال الشعب الفلسطينى ضد الاستعمار الاستيطانى الصهيونى العنصرى.

كما أن من صور مقاومة العولمة، نضال جماعات كثيرة، وجمعيات مدنية شتى فى مختلف بقاع الأرض، تطمح إلى استتباب العدل بين البشر، والطرفان، الساعى إلى التحرر من الاستعمار، والطامح إلى تحقيق العدل، غايتهما أن يسود السلام فى عالمنا المفعم بالقلق والاضطرابات والمواجهات على أشكالها.

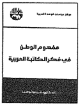
يتألف الكتاب من أربعة أبواب: يحمل أولها عنوان «مزيد من العولمة» ويتناول شروحًا للعولمة ومخاطرها وفوائدها، ويمايز بينها وبين العالمية، ويمنح اهتماماً أكبر لجوانبها الثقافية وحقوق الطفل والمرأة فيها، وتحت عنوان «من وحى الزلزلة» تدور فصول الباب الثانى، ويبحث باب «نهوض» كيفية تحقيق النهضة العربية الإسلامية فى ضوء هذه المخاطر والتحديات، ويخصص الباب الرابع والأخير للتأثيرات المتبادلة بين حرب العولمة، والكفاح الشرعى من أجل تحرير فلسطين.

■

مفهوم الوطن فى فكر الكاتبة العربية

شيرين أبو النجا

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ١٥٢صفحة



عبر عدة نصوص أبدعتها نساء، تناقش المؤلفة هموم الوطن فى الكتابة النسوية، من خلال قراءة نقدية لروايات «أوراق النرجس» لسمية رمضان، و«الفردوس اليباب» للسعودية ليلى الجهنى، و«صهيل النهر» للسودانية بثينة خضر مكى، و«نساء على أجنحة الحلم» للمغربية فاطمة المرنيسى، و«بنت الخان» للعراقية هدية حسين، و«مريم الحكايا» للبنانية علوية صبح، و«البدو» للفلسطينية نعمة خالد.

وتنتهى المؤلفة إلى أن الكاتبات العربيات ينسجن خطاباً يعبرن عن الوطن كما يتمثل فى وعيهن، وفى نسج هذا الخطاب النسوى، لم تسع الكاتبة إلى استعارة أى خطاب، بل شكلت خطابها من مفردات تجربتها الحية، وهى المرجعية التى تنطلق من الخاص لتعيد صياغة العام.

وتلاحظ أن هذا الخطاب فى شكله النهائى ليس منفصلاً عن الموروث الذى شكل الوجدان تجاه الوطن، وهو يعيد صياغة الوطن فى منطقة بينية، إذ تنسج الذات الأنثوية خطابها حول الوطن عبر فضح التناقضات الداخلية أو كشف الفساد أو تكثيف حضور النساء تعويضًا عن الغياب المفترض.

والكاتبات لا يشكلن خطاباً أحادياً متشابهًا، بل ينهلن من مصادر مختلفة لا تتفق سوى فى مرجعيتها الأساسية. وهذه التعددية هى التى تقاوم الأحادية المسيطرة وتزيد من مفهوم ثراء الوطن، وتبلور رؤية نقدية بعيدة عن المنظومة الأبوية التى ترسم صورة ثابتة كاملة للوطن، فوطن الكاتبة يبتعد عن هذه الصورة ليكشف عن هوامش، وتعيد بناء المتشظى.

■

المستقبل العربى

عدد يونيو ٢٠٠٣

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



افتتاحية العدد تحمل عنوان «فلسطين والعراق.. الخريطة ليست الطريق»، وهى تعرض للارتباك الأمريكى فى إدارة العراق المحتل والانحياز السافر لمصالح إسرائيل فى المنطقة.

فى العدد ملف عن تداعيات الاحتلال الأمريكى للعراق، يشير إلى زيف الادعاءات الأمريكية وتجاوزها كافة القوانين والأعراف الدولية، ومقال عن الصراع على العراق وإمكانية بروز مجتمع مدنى.

يتضمن العدد أيضاً دراسة لسلمان أبو ستة عن إسرائيل ٢٠٢٠ وأخرى لفادية سعد الدين عن التغلغل الإسرائيلى فى شرق أفريقيا وانعكاساته على الأمن القومى العربى، وفى باب آراء ومناقشات، مقالة للرئيس اللبنانى الأسبق سليم الحص عنوانها: خريطة الطريق ليست نهاية الطريق، ويكتب عبد العزيز التويجرى عن مستقبل التعليم فى الوطن العربى، إضافة إلى عروض كتب ومتابعات لأهم الندوات والمؤتمرات التى عقدت خلال الشهر.

■

البترول العربى.. دراسة اقتصادية سياسية

حسين عبد الله

القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٣، ٥٢٠ صفحة

بالإضافة إلى التحليل الذى يقدمه المؤلف لاقتصاديات البترول يطرق مواضيع ربما تبحث لأول مرة بهذا التفصيل، ومنها العلاقة بمنظمة التجارة العالمية، ومسألة التغير المناخى وبروتوكول كيوتو، وتأثير ذلك على البترول.

ويتناول الباب الأول التعريف بصناعة البترول موضحًا المنتجات البترولية وتصنيعها واستعمالاتها، كما يشرح أساليب البحث عن البترول فى الطبيعة ومعايير الاكتشاف التجارى وتقدير الاحتياطيات البترولية، ثم الوسائل المستخدمة فى تنمية الحقول المكتشفة والإنتاج منها، وما طرأ على تلك الوسائل من تقدم تقنى خلال السنوات الأخيرة.

ويشرح فى الباب الثانى التغيرات الهيكلية التى طرأت على جانب الإنتاج والعرض العالمى للبترول خلال النصف الثانى من القرن العشرين، ابتداء بالكارتل العالمى القديم الذى كونته الشركات العالمية الكبرى لكى يحمى ويدعم سيطرتها على السوق العالمية للبترول حتى مطلع السبعينيات، ثم تطور هياكل تلك الشركات واتجاهها فى السنوات الأخيرة إلى الاندماج لتكوين كيانات ديناصورية وعودتها مؤخرًا للتنقيب عن البترول والغاز فى دول أوبك، وبخاصة دول الخليج العربى. ويتناول بالشرح الاتفاقيات البترولية التى تنظم العلاقة بين الدول المنتجة للبترول وبين الشركات العاملة فى أراضيها وبصفة خاصة عقود الامتياز التقليدية، وعقود المشاركة، وعقود اقتسام الإنتاج، والنظام الفنزويلى المتفرد.

وفى الباب الثالث يتناول التعريف بدراسات التنبؤ بالطلب على الطاقة موضحًا الصعوبات التى تواجه تلك الدراسات، وشارحاً بإيجاز نماذج ونظم التنبؤ بالطلب على الطاقة لكى يتحول إلى تحليل التوقعات المستقبلية للطلب العالمى على الطاقة.

ويبدأ الباب الرابع باستعراض تاريخى لأسعار البترول منذ الحرب العالمية الثانية، وكيف أن انخفاض الأسعار بقرارات منفردة من الشركات العالمية الغربية قد صاحب زيادة الاهتمام ببترول الشرق الأوسط لتلبية متطلبات إعادة البناء فى أوروبا واليابان وتحول الولايات المتحدة إلى مستورد صاف للبترول منذ ١٩٤٨.

بعد هذا الاستعراض لمنظور سوق البترول القادمة ينتقل المؤلف فى الباب الخامس لمعالجة مسائل البترول العربى فى ظل منظمة التجارة العالمية واتفاقيات الجات ويتعرض لكثير من المسائل الأخرى المرتبطة بمنظمة التجارة العالمية، مثل شروط العضوية، وتطورها، وكيفية الدخول إلى المنظمة، إلى تعدد الاتفاقيات فى إطار المنظمة، كتلك المتعلقة بتجارة الخدمات والملكية الفكرية، والاستثمار، والمشتريات الحكومية، والدعم أو الإعانة المحظورة، والتدابير التعويضية، ومكافحة الإغراق، والتجارة والبيئة، والعوائق

الفنية للتجارة، والاتحادات الجمركية، ومناطق التجارة الحرة، وتدابير الاستثمار المرتبطة بالتجارة. ومن الواضح أن لكثير من تلك الاتفاقات علاقة قوية أو ضعيفة بمسألة البترول، إلا أنها أكثر شمولية ولذا يعتبر هذا الباب تعريفاً أيضاً بمنظمة التجارة.

ويناقش المؤلف في الباب السادس والأخير القضية التي سيطرت على النقاشات المطروحة في مجال حماية البيئة منذ منتصف الثمانينيات وهي قضية التغير المناخي وعلاقته باستهلاك الطاقة من المصادر الأحفورية.

■

البحرين

رئيس التحرير: مي بنت محمد آل خليفة
ربيع ٢٠٠٣



عدد الربيع من هذه الدورية الثقافية يضم دراسات عن أبي الطيب المتنبي (جابر الأنصاري)، والحداثة والعولمة والمجتمع التقليدي (عبد الله إبراهيم)، في معنى الحداثة وترجيعاتها العربية (فخري صالح)، النص العربي والوسائط المتفاعلة (سيد يقطين)، المجتمع العربي في القرن العشرين (مسعود ضاهر).

كما يضم تحليلات نقدية يكتبها صبحي حديدي ومنيرة الفاضل وأوكتافيو باث وبدر عبد الملك ويوحنا دانيال، ونصوص ومراجعات من عواصم عربية عدة.

■

أدب ونقد

رئيس التحرير: فريدة النقاش
القاهرة: حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، يونيو ٢٠٠٣



تواصل أدب ونقد الصدور بإصرار عنيد، برغم ضعف الموارد واشتداد الحصار، وللسنة الثامنة عشرة تقاوم وترفع شعارها الأثير: مجلة الثقافة الوطنية، وهي تقدم في هذا العدد دراسة عن الجهر بالسوء في مصر، وملفاً عن الأديب السعودي الراحل عبد العزيز عشري، يشارك فيه كتاب ونقاد ويعده محمد القشعمي، كما يقدم دراسة عن شاعر الأردية ميرزا غالب ومختارات من شعره، فضلاً عن نصوص لمبدعين عرب والأبواب الثابتة للمجلة.

■

وقفات وتأملات.. رؤى ومناقشات حول قضايا إسلامية معاصرة

صبري قنديل
الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٣، ٢٢١صفحة



تشتبك القضايا التي يثيرها هذا الكتاب مع العديد من القضايا المهمة والمعاصرة ذات الصلة بالتاريخ والفكر الإسلامي، منها قضايا التعليم والتربية والطفولة والمرأة والإدارة والاقتصاد والتطرف والإرهاب، والمؤلف يقارب بمنهجه فكر الداعية الإسلامي الراحل الشيخ محمد الغزالي.

وفي قسم آخر من الكتاب يطرح المؤلف تأملاته لما تفيض به بعض العبادات والفروض على عقل وشخصية الإنسان المسلم، كالصيام والحج، وفي قسم ثالث يحلل برؤية نقدية سبعة كتب لمؤلفين وعلماء مسلمين، ويختتم بحوار فلسفي في معنى الحياة وغاية الوجود.

■

القفز فوق العولمة

محمد رءوف حامد
القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٣، ٢٠٥ صفحات



ليست العولمة شراً خالصاً، ولا هي، خصوصاً بالنسبة لبلدان العالم الثالث خيراً محضاً، لكنها تبقى إحدى مراحل التطور الإنساني التي لا يمكن تجاهلها، ولابد من التعاطي معها بعملية وموضوعية، حتى يمكن قطف ثمارها الإيجابية وتجاوز مخاطرها.

المؤلف يخاطب دول العالم النامي، ونحن منها داعياً إياها للقفز فوق العولمة، مشيراً إلى أن الغلبة في توجيه أدوات العولمة، هي لصالح رأس المال العامل والحكومات المتحالفة معه، وفي المقابل، تبزغ حركة مناهضة لهذا التوجه الأناني الشرس، تقاوم سلبيات العولمة وخطايا منظمة التجارة العالمية، عبر منظمات وتكوينات أهلية عابرة للحدود، مستخدمة ما أتاحته العولمة ذاتها من إمكانيات هائلة في المعلوماتية والاتصالات، وتمثل هذه التوجهات بحسب المؤلف، الأمل الحقيقي لحماية الإنسانية من «غبائيات» العولمة، وسنداً قوياً للجهود التي يبذلها الجنوب في استنهاض ذاته.

يناقش المؤلف هذه الأفكار عبر أربعة أبواب: عولميات، محليات، تصحيح ومتطلبات، وأخيراً معادلة التقدم.

■

أحزان بلدنا

مكرم فهيم
القاهرة: اتحاد الكتاب، ٢٠٠٣، ١٤٠ صفحة



تغوص هذه الرواية في موضوع شائك ومهم في الوقت ذاته وهو العلاقة بين المسلمين والأقباط في مصر، وهي تنسج من هذه العلاقة حكايات عن الوطن وناسه، عبر رحلة أسرة راغب مسعد الذي ترك عائلها الأسرة صبياً ليعمل في محل التاج اليهودي «شوحيط»، وانتقال الأسرة من حي شعبي في القاهرة إلى حي راق وتكشف أنماط جديدة من العلاقات والتوازنات والتعصبات في مصر الثمانينيات والتسعينيات، وصعود التطرف واستقوائه، وتأثير ذلك على أقباط مصر.. من أجواء الرواية:

يعود فوزي إلى الذاكرة، واحة الذات، تنقسم الذات على نفسها، تصبح ذاتاً متأملة وموضوعاً للتأمل، ها هو البيت الريفي الفسيح، حجرات النوم في الدور فوق الأرضي، تفتح الحجرات جميعها على صالة واسعة، لكنها ريفية الطابع.

■

فلسطين والفلسطينيون

سميح فرسون
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٦٦٣ صفحة



كُتب الكثير عن فلسطين والقضية الفلسطينية، بل إنها قد تكون القضية الأكثر إثارة للحبر كما للدم العربي. على أن الأبحاث والدراسات التي نشرت تركزت في أغلبها على فترات معينة، وقليلة هي المراجع التي تناولت القضية الفلسطينية بإطلالة شاملة، أي منذ ما قبل النكبة وما تبعها، مروراً بالأحداث إلى يومنا هذا.

يحاول هذا الكتاب أن يعوض النقص في المكتبة العربية، فهو يتناول الاقتصاد السياسي لفلسطين قبل النكبة وبعدها، والسوسيولوجيا السياسية للمجتمعات الفلسطينية الرئيسية الثلاثة (في الضفة والقطاع وفي داخل إسرائيل وفي الشتات) ومؤسساتها وحركة تحررها الوطني والانتفاضتين اللتين قامتا ضد إسرائيل واحتلالها.

الكتاب يقدم أيضاً تقويماً لاتفاقيات أوسلو التي عقدت بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وعواقب تلك الاتفاقيات على مستقبل فلسطين والفلسطينيين.

وهو إذ يطرح السؤال: فلسطين والفلسطينيون.. إلى أين؟ فإنه يقدم بعض الأجوبة الاستشراقية الجديدة بالتمعن.

يتضمن الكتاب تسعة فصول:

الأول: القضية الفلسطينية والفلسطينيون.

الثاني: قبل النكبة: التاريخ الاجتماعي الحديث لفلسطين.

الثالث: الطريق إلى النكبة: الانتداب البريطاني.

الرابع: بعد النكبة: الشتات الفلسطيني (١٩٤٨-١٩٩٣).

الخامس: بعد النكبة: الفلسطينيون في إسرائيل.

السادس: صعود وهبوط حركة التحرر الوطني الفلسطينية.

السابع: المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي.

الثامن: الاتفاقيات بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل ومستقبل فلسطين والفلسطينيين.

التاسع: فلسطين والفلسطينيون إلى أين؟

■

The Kennedy Assassination
(اغتيال كيندى)

Jensen A .J
Xlibris, 2003, 344PP.



صدرت عشرات إن لم يكن مئات الكتب عن الرئيس الأمريكى الراحل جون كيندى والملابسات التى رافقت سنوات حكمه خاصة عملية خليج الخنازير التى قامت بها المخابرات الأمريكية للإطاحة بحكم الرئيس الكوبى فيدل كاسترو ثم اغتيال كيندى فى واحدة من أشهر حوادث الاغتيالات فى التاريخ.

وفى هذه الرواية التاريخية يتحدث المؤلف عن ذلك كله من خلال إطار قصصى شيق حيث تعتمد القصة على أنه فى عام ١٩٦١ وافق الرئيس كيندى على خطة للتعامل مع الحكومة الشيوعية فى كوبا وتشمل اغتيال فيدل كاسترو. وكانت هناك مواطنة أمريكية علمت بهذه العملية الخطيرة وحاولت أن توقفها. وهذه المواطنة اسمها مارلين مونرو الممثلة الشهيرة وعشيقة كيندى.. فهل تستطيع نجمة هوليوود أن تفعل ذلك وهل أدركت مارلين مونرو حجم العبء الأخلاقى الذى سينوء به جون كيندى من جراء ذلك. وهل لعبت مارلين مونرو دوراً درامياً حقيقياً فى محاولة وقف هذه العملية أن القصة تدور حول كل ذلك.

Syria: Neither Bread Nor Freedom
(سوريا، لا خبز ولا حرية)

Alan George
Zed Books, 2003, 224PP.,
13.95 #



منذ تولى الرئيس السورى بشار الأسد مقاليد السلطة فى بلاده فى يوليو ٢٠٠٢، خلفاً لوالده حافظ الأسد تغيرت أشياء كثيرة فى سوريا. وكما يقول المؤلف فقد تمت إزالة الحواجز الكبيرة الموجودة أمام المبانى الحكومية كما انتشرت مقاهى الإنترنت فى المدن السورية وتم إغلاق سجن المزة السيئ الصيت والذى كان يقبع فيه آلاف السجناء السياسيين دون محاكمة. وجرى إطلاق سراح مئات من هؤلاء السجناء وشجع الرئيس الشاب بشكل غير مسبوق على توجيه نقاش نقدى كبير للاقتصاد السورى وعزلة سوريا عن العالم ودعا إلى مزيد من المحاسبة والتغيير.

وعندما زار الرئيس بشار بريطانيا فى العام الماضى حظى باستقبال كبير وتغطية صحفية واسعة وتطلع المراقبون إلى مزيد من الانفتاح السورى تجاه العالم.

يتناول الكتاب قصة ما يسميه بربيع دمشق وهى فقرة مدتها حوالى ٦ شهور بدأت فى الأيام الأخيرة لحكم الأب وبداية حكم الابن حيث ازدهرت حركات ومنظمات المجتمع المدنى ودارت نقاشات سياسية وتم تداول كلمات مثل الديمقراطية والإصلاح بدون خوف.. لكن المؤلف يقول إن ذلك تغير أو انتهى فى سبتمبر ٢٠٠١، وعادت قبضة حزب البعث الحاكم من جديد وتم سجن ١٠ من العناصر البارزة فى هذه الحركات وفى مقدمتهم عضو البرلمان رياض سيف.

وسبب هذا التحول هو أن سوريا تواجه تحديات وتهديدات خارجية ويمكن أن تضربها التقلبات الداخلية وعدم الاستقرار وهذه هى حجة المتشددين الرافضين للإصلاح.

ويتساءل المؤلف.. هل كانت الآمال المعلقة على إصلاح سياسى كبير فى سوريا مع تولى بشار السلطة مبالغاً فيها.

The Pity of It All: A Portrait of Jews in Germany 1743-1933
(اليهود فى ألمانيا ١٧٤٣-١٩٣٣)

Amos Elon
Allen Lane, 2003, 403PP.,
25.00 #



يقدم المؤرخ الإسرائيلى عاموس أيلون فى هذا الكتاب تاريخاً مليئاً بالدراما والمأساة والحب من جانب واحد حسب وجهة نظره وهو يقول إن اليهود كانوا قبل هتلر معجبين بالشعب الألمانى كما لم يعجبوا بأن شعب آخر كانوا يعيشون على أرضه، وكانوا أكثر استعداداً، كما لم يحدث فى مكان آخر، لأن يكونوا جزءاً من الشعب الألمانى.

ويبدأ المؤرخ كتابه بوصول الفيلسوف اليهودى عاموس من بون إلى ألمانيا عام ١٧٤٣ وكان فى الرابعة عشرة من عمره ورغم أنه لم يكن أول اليهود الألمان إلا أنه دعا اليهود إلى الانخراط فى المجتمع الألمانى وتعلم اللغة الألمانية وكذلك الثقافة. ويشير المؤلف إلى أن القرن الثامن عشر كان واعداً بالنسبة لليهود الألمان حيث زاد دورهم واختلاطهم وبنهاية القرن حدث تحول من اليهودية للمسيحية وفى برلين فقط انتقل نصف اليهود إلى المسيحية.

وتغيرت مكانة اليهود جذرياً وإن بشكل مؤقت مع هزيمة روسيا على يدى نابليون ١٨٠٦ حيث تم منحهم كل الحقوق السياسية لكن هزيمة نابليون حرمت اليهود من تلك الحقوق مرة أخرى، بل وزاد التضييق عليهم. وحمل عام ١٨٤٨ آمالاً جديدة بمزيد من الليبرالية فى ألمانيا وبالتالى مزيداً من الحرية لليهود لكن ذلك أيضاً كان تفاؤلاً قصير الأمد إذ سرعان ما حدث تغيير سياسى زاد من مشاكل اليهود وتم اتهام اليهود عام ١٨٧٣ بالمسئولين عن الأزمة المالية التى حدثت عامذاك ومن يومها كانت كل مأساة تعود فى أسبابها إلى اليهود حسب غالبية الألمان.

Breaking Ranks.. Refusing to Serve in the West Bank
(الخروج عن الصف.. رفض الخدمة فى الضفة الغربية وقطاع غزة)

Ronit Chacham
Other Press 2003. $ 25.00



فى هذا الكتاب تظهر أصوات الجنود الإسرائيليين الذين رفضوا المشاركة فى الخدمة العسكرية فى جيش الاحتلال الإسرائيلى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، ويعرض هؤلاء الجنود وجهات نظرهم وكيف أنهم يشعرون بآلام نفسية كبيرة بسبب ما يحدث من مواقف وأعمال للجيش الإسرائيلى فى مناطق الاحتلال. وقد أدت هذه الانتهاكات لحقوق الإنسان الفلسطينى من جانب قوات الاحتلال إلى رفض عدد من الجنود الخدمة بل بعضهم دخل مصحات نفسية لأنهم لم يعودوا قادرين على تبرير ما يحدث لأنفسهم. وقد أخذت هذه القضية اهتماماً واسعاً داخل المجتمع الإسرائيلى نظراً لأنهم تضع هذا الشعب أمام ما يرتكبه الجيش الإسرائيلى وكيف أن فئة من الإسرائيليين، حتى لو كانت صغيرة العدد، أصبحت ترفض هذه الممارسات. وتعاطف بعض الإسرائيليين مع هذا السلوك من جانب هؤلاء الجنود بينما هاجمه بشدة المتطرفون واعتبروه خيانة لدولة إسرائيل وأن من شأن التساهل معه أن يتفشى بشكل كبير داخل الجيش. وقد انتقلت القصة من ساحة النقاش العام إلى ساحة القضاء حيث هناك قضايا مرفوعة ضد هؤلاء الجنود.

Shattered Dreams.. The Failure of the Peace Process in the Middle East, 1995-2002
(أحلام محطمة.. فشل عملية السلام فى الشرق الأوسط ١٩٩٥-٢٠٠٢)

Charles Ederlin
Translated by Susan Fairfield Other press, 2003. $ 28.00



يتناول هذا الكتاب السنوات الممتدة من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٢ والتى شهدت انهيار عملية السلام بين العرب والإسرائيليين بشكل غير متوقع أو على الأقل بصورة لم يكن المتفائلون يعتقدونها خاصة بعد توقيع اتفاق أوسلو بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

ويعطى الكتاب كشف حساب لهذه السنوات السبع الحاسمة فى تاريخ الصراع بالشرق الأوسط وتحديداً منذ اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين فى نوفمبر ١٩٩٥ وحتى تولى أريبل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى الحالى السلطة بعد ذلك بعامين!

وقد شهدت تلك الفترة تولى شيمون بيريز رئاسة الوزراء فى إسرائيل لفترة قصيرة إلى أن فاز بنيامين نتانياهو بالحكم عام ١٩٩٦ وفى عهده شهدت عملية السلام أسوأ تدهور لها منذ سنوات. لكن نتانياهو لم يمكث فى السلطة سوى فترة قليلة حيث تمكن زعيم حزب العمل ايهود باراك من هزيمته بأغلبية كبيرة إلا أن باراك، الذى تعلقت به آمال كثيرة سرعان ما انهارت بسبب ضعف قيادة باراك ومشاكله التى انتهت بفوز شارون عليه فى الانتخابات.

إصـــــــــــــدارات جـــــــــــديــــدة

Universities in the Marketplace.. The Commercialization of Higher Education

(الجامعة فى السوق.. تحويل التعليم العالى إلى تجارة)

Derek Bok
Princeton University Press,2003 233PP., $ 22.95



يتناول هذا الكتاب قضية خطيرة للغاية وهى تمويل الجامعات فى الولايات المتحدة. والمؤلف رئيس سابق لجامعة هارفارد العريقة ومن ثم فإن لديه خبرة كبيرة فى الموضوع. ويتساءل المؤلف كيف تحصل الجامعة، أى جامعة، على المال الذى تحتاجه؟ إن الرسوم التى يدفعها الطلاب لا تكفى ولذلك لابد من البحث عن وسائل أخرى، وفى ذلك مكمن الخطر لأنه ربما يتعارض مع استقلالية الجامعة ورسالتها خاصة إذا كان الأمر يتعلق بنواح علمية محددة كأن تقوم جامعة ما بتأخير الإعلان عن اكتشاف علمى ما، إلى أن يتم الاتفاق مع شركة على شراء براءة الاختراع أو حتى إنتاجه.

لقد ارتفعت بشدة تكاليف التعليم الجامعى ولم يعد ممكنًا الوفاء بمتطلباته من خلال وسائل تقليدية كالرسوم أو وضع شعارات شركات رياضية مثلاً على الزى الرياضى لطلاب الجامعة أو فى صالات الألعاب الرياضية فيها. إن أعمال «القنص» من أجل الحصول على أموال للجامعة مثيرة للغاية فالمنافسة بين الجامعات شديدة للحصول على دعم من الشركات ورجال الأعمال. ويحذر المؤلف من أن هذه الرغبة المحمومة فى الحصول على أموال من شأنها تحويل التعليم العالى الجامعى إلى تجارة. فمن أجل الحصول على أموال يمكن تأجيل الإعلان عن كشف علمى ما أو تسريب نتائج بحث أو تأكيد عدم وجود أضرار لهذه السلعة أو تلك. ■

Religion in International Relations: The Return From Exile

(الدين فى العلاقات الدولية)

Fabio Petito, Pavlos Hatzopoulos
Palgrave Macmillon, 2003, 296PP., $ 26.95



يتساءل المؤلفان عن جدوى الأسس العلمانية للعلاقات الدولية فى الوقت الحاضر. حيث تبين دراستهما كيف أن تنامى عنصر الدين فى العالم كله أصبح يمثل تحديًا لنظرية العلاقات الدولية التقليدية. ويهدف الكتاب إلى زعزعة الأسس العلمانية للمنهج، وكذلك تحدى الاتجاه الشائع بأن تسييس الدين دائمًا يهدد الأمن ويقف حائلاً أمام التفاوض السلمى فى أى نزاع. وفى النهاية يدعو المؤلفان أصحاب الديانات العالمية بالالتحام السياسى «التقدمى» فى الواقع العولمى الجديد. ■

Searching for John Ford: A Life

(حياة جون فورد)

Joseph Mcfride
Faber & Faber, 2003, 25.00 #



يتنـــاول هذا الكتاب سيرة حياة الممثل الأمريكى الراحل جون فورد أحد الممثلين الكبار فى تاريخ السينما الأمريكية.

مراجعة

مذكرات هيلارى.. الكل مخطئ باستثناء السيناتور الطموحة!

Living History

(معايشة التاريخ)

Hillary Rodham Clinton
Simon & Schuster, 2003, 562PP., $ 28.00



تبدو المذكرات التى أصدرتها السيناتور هيلارى كلينتون زوجة الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون قبل أيام تحت عنوان «معايشة التاريخ» بمثابة إطلاق لحملتها الرئاسية التى طمحت إليها كثيرًا. إنها - أى المذكرات - إعلان سياسى بالاستقلال، لكن للأسف لم يكن فى هذا الإعلان منطق وحجج تقنع القارئ بذلك.

إن المذكرات لا تكشف الكثير عن المشاكل والفضائح التى سادت عصر آل كلينتون فى البيت الأبيض (٨ سنوات) بل إن قضية خطيرة مثل فضيحة مونيكا لوينسكى تأتى بشكل عابر للغاية وفى نهاية الكتاب (٥٦٢صفحة) لتتضمن أن الرئيس اعترف لها بأنه أقام علاقة غير مناسبة مع مونيكا أى تقريبًا بعد ٨ أشهر من نفى كلينتون العلنى الشهير وجود أى علاقة بينه وبين المتدربة السابقة فى البيت الأبيض أو كما اعتاد كلينتون أن يطلق عليها «تلك السيدة»، وتصف هيلارى رد فعلها قائلة: لم أستطع التنفس.. بدأت أصـــرخ وأصيح فى وجهه.. ماذا تعنى؟.. ماذا تقول؟ لماذا كذبت علىّ.

إن هيلارى رغم أنها تكتب مذكرات لكن عينها على المستقبل ولذلك تتحدث عن الماضى مدافعة عن نفسها.. وهى على سبيل المثال تتحدث عن أخطائها فى محاولة إصلاح النظام الصحى الأمريكى فى فترة رئاسة زوجها الأولى مما أصاب هذه الرئاسة بهزة كبيرة وأدى إلى تعرض الديمقراطيين لمشاكل أكبر فى انتخابات التجديد النصفى عام ١٩٩٤.. لكنها لم تكن هى المخطئة.. هكذا تصر، بل إن هناك قوى بالغة الشراسة تحالفت ضدها ثم تقول إنها أساءت تقدير المعارضة التى يمكن أن تلقاها كسيدة أولى لديها مهمة سياسية.

إن إلقاء اللوم على الآخرين سلوك معتاد فى مذكرات هيلارى.. وعندما يحدث شىء معاكس فإن هيلارى توجه غضبها وعنفها وكراهيتها إلى جينفر فلاورز وباولا جونز ومونيكا لوينسكى (اللواتى ساهمن فى تشويه كلينتون من خلال اتهامه بالتحرش بهن أو إقامة علاقات غير شرعية معهن) لكن الغضب الأكبر يتجه إلى أعدائها فى اليمين وفى الصحافة الذين، كما تدعى، كانوا عامدين فى تشويه آل كلينتون سياسيًا والتربح من آلامهم.

وهناك بعض الحقيقة فيما قالت هيلارى كلينتون لكن اعتقادها فى وجود «مؤامرة واسعة النطاق للجناح اليمينى» يقودها المدعى العام كينث ستار ونيوت جينجريتش رئيس مجلس النواب آنذاك عميق للغاية. إن الركيزة التى يقوم عليها الكتاب هى أنه فى الفترة من ١٩٩٢ حتى ٢٠٠٠ (عهد كلينتون) كان هناك مجموعة من المتطرفين الذين امتلكوا الأموال الكافية من أجل القضاء أو تشويه سمعة السيدة الأولى ذات الآراء الداعية لحرية النساء وكذلك تشويه سمعة رئيس شاب ونشط وليبرالى. وكان هدف هذه المجموعة التى ما انفكت تعمل على تحقيقه هو تحطيم شخصية كلينتون وتقويض سياساته وفرض سياساتهم المتطرفة على الولايات المتحدة.

ولحسن الحظ، تكتب هيلارى: «لقد كنت من الذكاء بحيث أدرك سياسات التدمير التى يستهدفها خصومى وكنت جيدة القدرة فى محاربتهم» هذا من ناحية هيلارى، أما كلينتون زوجها فقد كان كما تقول على عكسها فهو شخص من السهل أن يتحول عن رأيه نتيجة آراء مساعديه ولديه من الغرائز التى يريد إشباعها كما أنه كان لطيفًا وساذجًا لدرجة لا يستطيع معها أن يواجه بقوة.

تتذكر هيلارى الأيام الجميلة التى وقعت خلالها فى حب الشاب الوسيم الجميل الذى كان يبدو مثل محاربى الفايكنج بيل فى عام ١٩٧٠ بكلية الحقوق فى جامعة «ييل» وكيف أنها اعتقدت أن قوى الطبيعة هيأته وهى معه لدور كبير فى المستقبل، لكن يبدو أنها لم تقدر جيدًا المشاكل التى يخبئها المستقبل.

إن ما ذكرته هيلارى فى كتابها قد لا يلقى تصديق الكثيرين وعلى سبيل المثال فإن ٥٦٪ من الأمريكيين الذين شملهم استطلاع أجراه معهد جالوب لصالح صحيفة «يو إس إيه تو داى» الأمريكية بالمشاركة فى شبكة سى إن إن، قالوا إنهم لا يعتقدون فى صحة القصة التى أوردتها هيلارى عن اعتراف كلينتون لها بشأن علاقته بمونيكا لوينسكى لكن الشىء الأهم هو أن الاستطلاع وجد أن شعبية هيلارى فى ارتفاع خاصة بين النساء منذ نشر الكتاب والجولات التى قامت بها للترويج له. وإذا سارت الأمور فى صالح هيلارى، فقد توصف هذه المذكرات بأنها البداية شبه الرسمية لحملة ترشيح هيلارى كلينتون لرئاسة الولايات المتحدة.

مارى ليونارد
صحيفة «بوسطن جلوب» الأمريكية

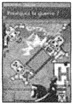
وقد التقى المؤلف مع فورد قبل ٣ أعوام من رحيله وشغله الحديث الكثير عن حياة فورد فى طفولته وشبابه والأسطورة التى كان فورد يحيط بها هذه الملابسات حول المولد والطفولة فقد كان يدعى أنه ولد فى أيرلندا. ويشير المؤلف إلى أن جون فورد لم يولد فى أيرلندا بل فى ولاية مين الأمريكية عام ١٨٩٤ لأب من أصل أيرلندى وكان الطفل جون هو الأصغر بين ١١ طفلاً.

وصل جون فورد إلى هوليوود عام ١٩١٤ وبدأ العمل كمخرج وبرع فى أفلام الكاوبوى ويقول المؤلف أن جون فورد استطاع أن يعرض التاريخ القومى الأمريكى على الشاشة. لكن فورد، حسب المؤلف، كان قاسيًا وفحًا معاديًا للسامية طيلة حياته وكان يفرط فى الشرب وأصيب بأمراض عديدة من جراء ذلك، ورغم أنه عارض القائمة السوداء التى وضعها السيناتور الأمريكى جوزيف مكارثى والتى ضمت من اتهمهم بالتعاطف مع الشيوعية إلا أنه كان يمينيًا داعيًا للحفاظ على ما أسماه المثاليات الأمريكية.

Un Jour, J'arreterai la guerre
(سأوقف الحرب ذات يوم)
Thierry Lenain, Nathan
Demi-Lune, 48PP., 5.57p

Pourqoui la guerre?
(لماذا الحرب؟)
Philippe Andrieu, Autrement Junior
Société, 48PP., 7.95p

On n'aime guére que la paix
(لا نحب سوى السلام)
Éd. Rue du Monde,
collection poemes dans les
yeux, 56PP., 17p



أقدم عدد من الناشرين الفرنسيين على طرح مجموعة من الكتب ذات الطابع التربوى المبسط والموجهة للأطفال من سن ٦ سنوات فأكثر، منها كتاب: Un Jour, J, arreterai la guerre وهو نص قوى وموجز يتميز بواقعية تعترف بقوة آلة الحرب، ولكنها لا تلغى الأمل فى السلام. وكتاب: Pourqoui la guerre? ويدور حول عشرة أسئلة بسيطة، على نمط: ما هى الحرب؟.. ألا يستطيع أحد وقفها؟.. من يصنع الأسلحة؟.. وتهدف تلك الأسئلة إلى زيادة المعلومات المتعلقة بالحرب أكثر منها السعى إلى مناقشة وتحليل منطقيتها. أما كتاب: On n'aime guére que la Paix فيضم مختارات من أشعار كوكتو وجيليفيك ودرويش ورودارى وحكمت وفيان وكثيرين غيرهم، تدور حول غباء وشراسة الحروب، كما يضم الكتاب مجموعة من الصور الفوتوغرافية. أبيض وأسود. للحروب، ترسم لها صورة أشبه بالكابوس فى مقابل عدد من اللوحات الفنية الملونة الناعمة التى تعكس شعورًا بالأمل فى عالم يسوده السلام.

Culture, Civilization and Humanitry
(الثقافة والحضارة والإنسانية)
Tarek Heggy
Frank Cass, 2003, 392PP.



أصدر طارق حجى حوالى اثنى عشر كتابًا باللغة العربية بين عامى ١٩٧٨ و٢٠٠١. وقد قام باختيار مجموعة من الفصول التى ظهرت فى تلك الكتب، وترجمها إلى اللغة الإنجليزية وجمعها فى هذا الكتاب الأخير الذى يصدر من دار نشر بريطانية.

Living Large in Small Spaces: Expressing Personal Style in 100 to 1000 Square Feet
(العيش بفخامة فى مساحات ضيقة: كيف تعبر عن أسلوبك الشخصى فيما بين ١٠٠ و١٠٠٠ قدم مربع؟)
Abrams, Harry Inc, 2003,
$35.00



بقليل من الخيال والإبداع، وبدون اللجوء إلى مصممى الديكور، بوسع أى شخص أن يحول منزله الضيق إلى مساحة تتسم بالذوق والراحة والأناقة. هكذا تؤمن مؤلفة هذا الكتاب الذى يساعد الشخص العادى الذى يمتلك ميزانية محدودة فى اكتشاف ذوقه ثم يقوم بتنفيذه فى منزله.

يحتوى الكتاب على أفكار عديدة مستوحاة من ثلاثة وثلاثين منزلاً صغيرًا من مدن وأحياء مختلفة فى الولايات المتحدة. وهو يضم تصميمات وبعض المبادئ الأساسية فى الديكور، ومجموعة كبيرة من الصور.

La vie intellectuelle en Chine depuis la mort de Mao
(الحياة الثقافية فى الصين منذ وفاة ماو)
Zhang Lun
Fayard, 288PP., 20p



كان للتقلبات التى هزت الصين. منذ أسقط دنج زياوبنج الماوية بعد قيام الثورة الثقافية. أكبر الأثر على الفكر الصينى سلبًا وإيجابًا على حد سواء. فقد أدى الانفتاح على العالم الخارجى. والذى روعى فيه عدم التعرض للسياسة أو لعقيدة الحكم المطلق والدائم للحزب الشيوعى. إلى صحوة وجرأة فكرية واسعة المدى، وكان ذلك حتى وقوع ضربة تيانانمين فى ١٩٨٩، والتى تم على أثرها نفى عالم الاجتماع والاقتصاد زانج لون إلى فرنسا. وفى كتابه هذا، يتعرض زانج لون لعلاقة المثقفين الصينيين بالحداثة منذ أواخر القرن التاسع عشر، بدءاً برفض الكونفشيوسية ووصولاً إلى الشيوعية. وقد برع فى عرض ذلك من المنظور التاريخى.

Life of Pi
(حياة باى)
Yann Martel
Harcourt Brace & Co,
2003(pd), 348PP., $14.00



أشاد العديد من النقاد بهذه الرواية التى حازت عدة جوائز أدبية، منها جائزة بوكر البريطانية وجائزة ماك لينان الكندية. فقد شبهها البعض بقصة همنجواى الشهيرة «العجوز والبحر»، واعتقد أحد النقاد أن المؤلف يان مارتل يعد خلفًا لماركيز.

وتعد هذه الرواية الثانية ليان مارتل الكندى الجنسية، والذى ولد عام ١٩٦٣ فى إسبانيا لأب دبلوماسى يعمل فى عدة بلاد منها كوستاريكا والمكسيك وفرنسا وإيران والهند وتركيا.

وتنعكس خبراته تلك إلى جانب دراسته للفلسفة فى هذه الرواية التى تدور حول شاب هندى فى السادسة عشرة من عمره ينجو من غرق سفينة فى المحيط الهادى، ويظل فى عرض البحر بصحبة نمر لمدة ٢٢٧ يومًا.

هذا الصبى كان يعيش مع والده فى الهند حيث كان يمتلك حديقة حيوان صغيرة. وبالرغم من أن الأسرة هندوسية إلا أن الصبى الذى يدعى «باى» كان مؤمنًا بكل من الكاثوليكية والإسلام.

Gulag: A History
(الجولاج.. تاريخ)
Anne Applebaum
Doubleday, 2003, 677PP.,
$35.00



يتناول هذا الكتاب مرحلة مأساوية فى التاريخ السوفيتى السابق تلك المتعلقة بمعسكرات الاعتقال والتعذيب والتى لم يعد هناك أى اهتمام بها بعكس الاحتفالات التى لا تتوقف بذكرى معسكرات النازى لليهود.

وتشير المؤلفة وهى كاتبة فى صحيفة واشنطن بوست الأمريكية إلى أن معسكرات الاعتقال والتعذيب السوفيتية أسبق زمنيًا من معسكرات تعذيب اليهود وهى كذلك أكثر هولاً وفظاعة وتتناول المؤلفة بالتفصيل كيف لعبت الأيديولوجية دورًا رهيبًا ضد البشر باسم بناء الاشتراكية ودولة البروليتاريا.

إن كثيرين لا يعرفون شيئًا ولم يسمعوا عن الجولاج، الذى نشر عنه أديب روسيا الشهير ألكسندر سولجنستين عملاً شهيرًا بنفس الاسم، لكن المؤلفة تتناول التاريخ الاجتماعى لهذه المعسكرات «الجولاج». وهى تطرح أسئلة منها: هل اعتقد ستالين فعلاً أنها مكان لإعادة تعليم الخصوم ليصبحوا مواطنين اشتراكيين؟

رسائل

وجهات نظر الكتب

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

بين الأساسيات.. والكماليات

عندما ذهبت كعادتى لشراء العدد الجديد من مجلة «وجهات نظر» (يونيو ٢٠٠٣) فوجئت بغلافها ملطخًا بلون أسود، ولما سألت صاحب المكتبة عمن فعل هذا أشار بإصبعه إلى الغلاف وقال: أمعن النظر وأنت تعرف من ولماذا.

قربت عينى بحذر من الغلاف، وهيأت نفسى لرؤية أمر جلل، ولما أعيانى اكتشاف الفاعل ومعرفة دوافعه، أعدت على صاحب المكتبة سؤالى، وأظهرت له حيرتى، وقبل أن يجيبنى مازحته قائلاً: يقولون عن هذه الحالة فى مصر «غلب حمارى»، فنظر الرجل عن يمينه ويساره واقترب من أذنى قائلاً: لقد وضعت وجهات نظر صورًا عارية داخل المجلة واختارت هذا الموضوع على غلافها.

لم أصدق أذنى، وبحركة لا إرادية نظرت مثله حولى، وحتى لا تترامى كلماتى إلى أذن نسائية فتسبب لى ولها وله حرجًا اكتفيت بالتعبير عن دهشتى بأن فتحت فمى عن آخره وقلت «ياآآه».

على عجل أخذت المجلة، وقذفت نفسى بسرعة عجيبة داخل سيارتى، وبحركة انفعالية أدرت زر المكيف عن آخره لعل هواءه البارد يخفف عنى حرارة طقس الخليج التى لا تطاق هذه الأيام، وتحول جزء من انفعالاتى الداخلية إلى شىء آخر خارجى، وعند أول إشارة مرور «حمراء» تصفحت المجلة فلم أجد لما قاله صديقى صاحب المكتبة أثر.

أعدت قراءة عناوين «محتويات العدد» حتى وصلت إلى مقالة «ماتيس وبيكاسو.. الصديقان الغريمان فى معرض واحد» فالتقطت عيناى أرقام الصفحات وحاولت الوصول إليها لكن أيضًا خاب رجائى فلم أهتد إليها.

وقبل أن تغير الإشارة لونها «الأحمر» عرفت أن مقص الرقيب قد تعامل مع الصفحات من ٤٧ إلى ٥٠ فاقتطعها من جذورها تاركًا سنتيمترًا واحدًا فقط من الهامش الأبيض حتى لا تنفصم عرى بقية صفحات المجلة.

حمدت الله على أن وصل الأمر إلى هذا الحد، وقلت سامحكما الله يا عم ماتيس أنت وبيكاسو، كانت «بركاتكما» ستحل على المجلة فتحرم لوحاتكما قراء الخليج منها ومن روائعها السياسية والفكرية والثقافية فى زمن بات البحث عن «أساسيات» الوعى يحتاج إلى فطنة تحريرية تبتعد «الآن» عن «كمالياته».

أعزائى فى هيئة تحرير «وجهات نظر» نثمن اهتمامكم بتلك الموضوعات الجيدة عن الفنون التشكيلية. ولكنكم تعرفون أننا نحتاج هنا (الآن بالذات) فى هذا الزمن المضطرب، لقراءة مجلتكم، وأفكاركم. فلا تدعوا صفحات يمكن الاستغناء (حاليًا) عنها، تتسبب فى حجب مجلتكم كليًا عن قرائها. فتحرموننا مما هو أساسى لتستكملوا ما هو فرعى. ففى عالمنا العربى «بعض الملح قد يفسد الطبخة».

عطية الطيب
قطر

البشرى واستقلال القضاء

كما عودتنا دائمًا مجلتكم الرائدة فى مجال المعرفة (الكتب وجهات نظر)، أن تشتمل على أرقى ما يمكن أن يكتب، فى المجلات الدورية المتداولة، فقد نشر فى عدد مارس ٢٠٠٣، مقال للأستاذ المستشار الكبير/ طارق البشرى، يحمل عنوان (القضاء المصرى بين الاستقلال والاحتواء)، وكم كان هذا المقال الذى هو فى حقيقة الأمر ليس مقالاً، وإنما هو دراسة متأنية ورصينة، تمتاز بشجاعة التناول فى أمر يعزف كثير من الكتّاب عن تناوله، وقد جاءت عباراته مصاغة بإتقان شديد، ومفردات لغة مُحكمة والفاظ منتقاة بشدة وحكمة، وهذا ليس بجديد أو غريب عن كاتبها، الذى يحق هو واحد من عمالقة القضاة فى العصر الحديث، وامتدادًا طبيعيًا لعلامة القانون والفقه المرحوم عبد الرزاق السنهورى، فها هو يصوغ عبارات هى الملاذ الحقيقى لتحقيق استقلال القضاء، منها على سبيل المثال، أنه لا استقلال للقاضى ولا حياد له إلا بروح الاستغناء، ومنها أن القاضى الطبيعى هو القاضى الذى لا تختاره بذاته سلطة بذاتها لنظر قضية بذاتها، والعديد من هذه العبارات المحكمة غاية الإحكام، والجديد الذى جاءت به هذه الدراسة ليس فقط التشخيص الدقيق والتوصيف المتأنى للأوضاع القائمة بشأن القضاء، إنما هو الرؤية المنصفة دون تحيز أو تجنٍ فى العلاقة بين ثورة يوليو ١٩٥٢ والقضاء، وهذه الرؤى المنصفة هى اللافتة للنظر فى هذه الدراسة، لأن كل من تناول علاقة ثورة يوليو بالقضاء، إنما كانت دائمًا لديه وجهة نظر مسبقة، ضد الثورة ومع القانون أو القضاء، وربما يرجع هذا بشكل عام إلى أن القانونيين لديهم موروث قانونى ومفاهيم ثابتة وراسخة، عادة ما تكون ضد التغيير، والغريب فى الأمر أن هذه المفاهيم قائمة ناتجة فى الأساس عن الثورة الفرنسية وما جاءت به من مفاهيم، وهى التى قامت ضد أوضاع قائمة ومستقرة فى المجتمع الفرنسى، حتى وصل الأمر ببعض ممن كتبوا عن الثورة والقضاء، أن يطلب من الثورة أن تحافظ على الدستور وكل القوانين القائمة، وهنا يفرض سؤال نفسه، وأن الثورة يقوم بها رجال ضد الأوضاع القائمة، التى ينبغى لها أن تزول، وتكون أول عقبة تواجه أى ثورة، هى الدستور والقوانين، فلابد لأى ثورة عند قيامها أن توقف العمل بالدستور وأن تلغى القوانين القائمة والمقيدة لحركة الثورة، وأن تضع الثورة لنفسها دستورًا جديدًا وقوانين جديدة تلائم وتتناسب مع الأوضاع الناتجة عن الثورة والمفاهيم والمبادئ والأفكار التى تراها فى حاجة إلى تقنين، من هنا عندما جاءت دراسة المستشار/ البشرى لم تجحف الثورة حقها، ولم تنحز إليها، فكانت دراسة نزيهة تمامًا تعاون أى باحث كى يخرج برؤية عادلة ومنصفة لهذه العلاقة، على أن أمرًا واحدًا أرى أنه فى حاجة للتأكيد عليه، وهو أن السلطة القضائية، ومنذ أن صدر القانون رقم ٦٦ لسنة ١٩٤٣، يحمل اسم قانون استقلال القضاء متغافلاً ذكر كلمة سلطة، رغم أن دستور ٢٣ ودستور ١٩٣٠ قد خلع على القضاء وصف السلطة ورغم أنه كان بمثابة طفرة، ونقلة موضوعية للأمام، إلا أن هذا القانون قد جاء متأثرًا إلى حد بعيد بالقانون الفرنسى، والذى أفرغ مضمون ومحتوى السلطة عن القضاء، بأن جعل فى نهاية الأمر أننا بصدد قضاء بلا سلطة، بأن منح عمليًا كل سلطات القضاء إلى وزير بالسلطة التنفيذية هو وزير العدل، وتوغلت السلطة التنفيذية ممثلة فى وزير العدل فى معظم الاختصاصات المخولة للقضاء، وذلك على حساب استقلاله وأحيانًا أخرى يباشر هذه السلطات رئيس الجمهورية، وقد كان هذا الموروث الذى بدأ منذ الأربعينيات، هو البداية الحقيقية لغياب مفهوم السلطة عن القضاء.

عصام الإسلامبولى
المحامى بالنقض
والإدارية العليا والدستورية العليا

نحن أم هم؟

بقدر ما شدتنى «قراءة» أيمن الصياد المعنونة «مائة بن لادن» بقدر ما أثارت من تساؤلات كنت ومازلت أبحث لها عن إجابة. والكثيرون فيما أعتقد. وتلاها قراءتى للأستاذ سلامة أحمد سلامة فى «نونيته» مما جعلنى أشعر وكأن الحوار. فى الغالب عن غير قصد. كان بينهما، فقراءة الصياد هذه المرة فى الحقيقة تركز على «الآخر»، فى حين يركز الأستاذ سلامة على «نحن». وأنا بطبعى أميل إلى منحى التركيز على «نحن».

يقول الصياد إن الأمريكيين يخطئون حين يصممون أن يفهموا كل الأمور بطريقتهم، وأتفق معه فى الرأى. ولكن المشكلة، فى اعتقادى، أنه فى الحقيقة لم يعد أحد منهم، أو من أوروبا ولكن بدرجة أقل لأسباب، يهتم بكيفية فهمنا نحن لهذه الأمور، لم يعد أحد «من الكبار» يضع فى حسابه فهمنا للأمور، ولا تستطيع نفسى أن

تطاوعنى فى إلقاء اللوم عليهم ولا فى الاستسلام لمنطق المؤامرة على العروبة وعلى الإسلام، لأنى إن فعلت وصمت نفسى فى أحسن الأحوال بالغفلة، لا أحد يهتم لأننا فقدنا موضوعيتنا ومصداقيتنا وفعلنا ولم يبق لنا إلا «لسان».

لقد هُنّا حتى أصبحنا مجرد مواضيع للبحث، فصحفى ـ مع احترامى للجميع ـ يرجع المشكلة للفقر والحسد، وآخر يضع لنا «وصفة» فى مجلة، وهذا يرجع الأمر لغياب الديمقراطية، وذاك لعيوب فى مناهج التعليم، هكذا، والسبب فى اعتقادى حالة الفوضى غير المسبوقة التى نعيشها، فوضى فى القيم والمبادئ الإنسانية والدينية والفنية والسياسية. ومن هنا لا هم ولا نحن فى الحقيقة قادرون على الفهم. ومن يستطيع أن يفهم والجمهوريات أصبحت تورث، والحكام يظلون فى السلطة حتى يموتوا فى دول «ديمقراطية».

نعم تفسيرات معلبة على الطريقة الأمريكية وحالة «سبتمبرية» تطبق على أنفاس الجميع، لأن ما حدث ما كان لأحد أن يتخيل حدوثه على الإطلاق، ولأن تفسيراتنا كانت فى الحقيقة إما شماتة أو تهدئة ولم تكن تفسيرات. فالعمليات الاستشهادية تجرى فى الأرض المحتلة منذ سنوات، وذاقتها أمريكا نفسها من قبل فى لبنان والسعودية، لكنها، سواء اتفقنا على ضرورتها أو لم نتفق، كانت على أرضنا. والعداء للسياسة الأمريكية، الذى لا يحتاج لمن يجيد القراءة والكتابة، ثابت فى الشعور العربى نتيجة الانحياز الأمريكى السافر لإسرائيل لمدة تزيد على نصف قرن. إذن ما الذى جد ودفع الأمور فى اتجاه زلزال سبتمبر؟ أنا بالفعل لا أملك إجابة، فأنا فى التحليل الأخير مجرد قارئ متابع لا محلل سياسى، أنا فقط أشعر أن من الأسباب الأساسية لما حدث حالة الهوان واللافعل العربى خاصة فى ربع القرن الأخير.

إن التحدى الحقيقى فى رأيى هو تحد مع أنفسنا ومعركتنا الحقيقية معركة لابد أن تدار فى الداخل أولاً حتى نستطيع أن نكسب احترام «وفهم» الخارج. والمعارك التى أقصدها ليست من نوعية المعارك الحربية «السهلة» (وكلنا على علم بالمعارك الداخلية التى جرت فى لبنان واليمن وتجرى فى السودان والجزائر، أو الخارجية بين مصر وليبيا، وليبيا وتشاد، والعراق والكويت، والعراق وإيران، والقائمة طويلة). وإنما المعركة الأصعب هى معركة تصحيح مفاهيم وتثبيت قيم وترتيب صحيح للأولويات.

ومن هنا اتفاقى التام مع الأستاذ سلامة فى أنه لابد أن يكون «بيدنا لا بيد عمرو». فهل سيأتى اليوم الذى نرى فيه فى بلادنا رئيسا لفترتين على الأكثر، وأحزاباً تتداول الحكم، ونساء على منصة القضاء، وإعلاما بوسائله المختلفة بعيداً عن ملكية الدولة؟ هل سننعم يوماً بحرية إبداع الفن بعيداً عن الرقيب الحكومى أو الأزهرى؟ وشرطة تحمينا حين نتظاهر وحين نذهب لصناديق الاقتراع ولا نرتعش وهى تطلب منا إظهار بطاقات الهوية؟ ناهيك عن دول أخرى تتمنى فوق ما سبق أن ترى نساءها تسير بحرية فى الشوارع وتذهب لصناديق الاقتراع وتقود السيارة، على المستوى الشخصى، يغلبنى التشاؤم، بكل أسف، وإن حدث بعض ما سبق «بيد عمرو» فلا نلومن إلا أنفسنا.

محمد حلمى محمود

القهوة.. و«ذهنية التحريم»!

نشرتم مقالاً تحت عنوان «التفسير القهوجى للتاريخ» فى عدد مجلتكم الغراء فى أول فبراير والمعروف أن أى مقال أو بحث يتناول تاريخ الطعام والشراب من زواياه المختلفة يضمن إقبال القراء وشغفهم لما فيه من طرافة ومتعة.

ولكن هناك نقطة أرجو أن تسمحوا لى بالتعقيب عليها لأنها صارت من (الكليشيهات) الجاهزة التى يلقى بها فى وجوهنا نحن العرب والمسلمين فى الآونة الأخيرة، من دوائر تخاصم الإسلام، ولا يصح أن نرددها كما يقولونها دون تمحيص، ألا وهى مسألة «ذهنية التحريم» المزعومة. ولا أعتقد أن الكاتبة الفاضلة ستخالفنى الرأى الذى سأطرحه هنا، لأنها هى نفسها احتاطت للأمر ولفتت الأنظار إلى أن «ذهنية التحريم هذه لا تتصل فقط بالعرب أو المسلمين دون غيرهم..».

ولكننى فى الحقيقة أذهب إلى أبعد من ذلك، وهو أن المصطلح أصلاً ينطوى على سوء فهم بعيداً حتى عن افتراض «سوء الغرض». لأنه لا يوجد فى تاريخنا من يسارعون عادة بتحريم المستجدات والمخترعات، ولكن لأن ذلك نفسه لا ينهض دليلا كافيا على صحة المصطلح، أو على القول الذى قالته الأستاذة هديل غنيم عن (رالف هاتوكس) صاحب أحد الكتب التى عرضتها من أنه (من الواجب فحص ذلك المنطق التشريعى الذى حرمها فى وقت من الأوقات ثم المنطق الذى أحلها مرة أخرى)، ثم تعليق الباحثة بأن ذلك يذكرها «بالقضايا التى تتفجر من حين لآخر فى مجتمعاتنا العربية المعاصرة على أشياء مثل مشروعية تأليف وقراءة رواية ما، أو حق المرأة فى قيادة السيارات، أو مشاهدة مصارعة الثيران».

ورأيى باختصار سأوضحه فى هذه النقاط:

(١) ثمة فارق كبير. ويوقع تجاهله فى خطأ منهجى لا يغتفر. بين أن تكون هناك اتجاهات فكرية مختلفة يميل بعضها للتيسير وبعضها الآخر للتشدد. وهو أمر يكاد يكون طبيعة بشرية فى كل زمان ومكان. أو حتى بين أن تسود نبرة التشدد فى تشريعات مجتمع ما فى حقبة تاريخية لها ظروفها، وبين أن نصف «حضارة» بأكملها أو «نظاماً مجتمعياً» بأكمله أن من خصائصه الثابتة ومقومات هويته الدائمة هاجس تحريمى قوى. فالحقيقة أن الإسلام «العقائدى». إذا جاز التعبير. برىء من ذلك، ونصوصه تزخر بالميل لتيسير وتفضيل الرفق والتخفيف، ويكفى أنه أرسى تلك القواعد الذهبية الشهيرة (الأصل فى الأشياء الإباحة) و(لا تحريم إلا بنص) و(لا يعتد بالنص إلا إذا كان ثابتًا وله دلالة قطعية)، إلخ. كما أنه وضع درجات عدة للحلال والحرام يصل عددها إلى خمس، وليس من بينها إلا درجة واحدة فقط للتحريم القطعى وهى (الحرام) وباقى الدرجات كما هو معروف هى (الواجب) و(المستحب) و(المباح) و(المكروه). كما أن هناك دائما حرية الأخذ بفتوى دون أخرى، وحق الاختلاف والاجتهاد مكفول وليس هناك ما يلزم المسلم باتباع رأى متشدد بعينه مادام فى سواه متسع وله فى الدين أصل صحيح. أما الإسلام (التاريخى). وكذلك الإسلام (الشعبى) أو (السلطوى) إلخ إذا جازت هذه التعبيرات التوضيحية. فإن كلا منها يصلح للاحتجاج والقياس، أو لا يصلح، بحسب مدى اقترابه أو ابتعاده عن الإسلام (العقائدى) لأنه هو الأصل الذى يحاسب عليه هذا الدين.

(٢) ليس فينا إذن. أو فى ديننا أو حضارتنا. ما يسمى بالنزعة الجوهرية الأصلية لتحريم كل شىء، أو الذهنية المشغولة بالتحريم، ولكن البعض يسىء أحيانًا فهم حرص المسلم الملتزم على تحرى الحلال فى كل أموره. وهو ذاته أمر إيجابى وليس سلبيًا. فيلجأ لهذا التفسير الاختزالى الظالم لأذى يعكس بدوره «ذهنية تشويهية للآخر» أو «قولبة وتنميطًا له»! وحتى من الناحية «التاريخية» البحتة، لعل هناك جانبًا يجب أخذه فى الاعتبار من باب الإنصاف، وهو موجود فى كل مجتمع.

(٣) ثمة نقطة أخرى وثيقة الصلة وتستحق التوضيح، وهى أن رفضنا للتحريم المطلق غير المبرر لا يعنى الذهاب إلى طرف النقيض الآخر بالادعاء بضرورة (تحليل) كل شىء للتخلص من وصمة (ذهنية التحريم) المزعومة! وذلك ببساطة لأنه لا يوجد نظام عقائدى أو اجتماعى أو ثقافى أو حضارى، ويستهدف صالحا عاما للإنسان، يخلو من (محظورات) إلى جانب (المباحات). ونتحدى من يقدم لنا نموذجا واحدا على ذلك. ولابد أن نتذكر أن (القانون) نفسه. الذى لا يخلو منه أو مما يقوم مقامه مجتمع حتى فى الجماعات البدائية المنعزلة. يدور فى النهاية فى فلك الدرجات الخمس السابق ذكرها للحلال والحرام فى الإسلام! كما لا يجب أن تكون دعوى «ذهنية التحريم» المزعومة تلك هى حجتنا الجاهزة والسهلة لتبرير رفضنا لأى تشريع لا يروق لنا حتى ولو كان يستند إلى أصل صحيح أو منطق محترم.

معتز محمود شكرى
باحث وصحفى مصرى

«نون»

حوار الحضارات على أرض المغرب

■ صراع الحضارات.. تفاعل الثقافات.. حوار الأديان والأفكار.. لقاء الشرق والغرب.. كلها عبارات تصك الأسماع وتملأ أعمدة الصحف ومقالات الكُتّاب وأبحاث المؤلفين، ولكنها تظل مجرد أقوال مموهة وعبارات فارغة من المضمون، حتى يعاينها المرء على أرض الواقع.. متجلية فى حياة الناس وسلوكياتهم، منعكسة فى اختلاط ألسنتهم وامتزاج لغاتهم. تنطق بها طرز العمارة والمبانى، وملابس الناس وأزياؤهم، وتخطيط الشوارع والمدن والحدائق. حتى يكاد التماهى بين العناصر المختلفة أن يكون أمرًا يصعب وضع حدود فاصلة فيه.

ولا يكاد يوجد فى العالم العربى والإسلامى قطر تتجلى فيه هذه الظاهرة بأجلى صورها أكثر من المغرب العربى. وعلى وجه التحديد المملكة المغربية، التى ورثت تراثًا عربيًا إسلاميًا، أوروبيًا أندلسيًا، صحراويًا متوسطيًا، بدويًا حضريًا. ولا يملك الزائر للمغرب إلا أن يلحظ هذه الظاهرة فى معظم مدنها وحواضرها.. ذلك الاشتباك المستمر بين الأصل الأندلسى العريق ونزعة التجديد والتغريب التى تطبع الكتلة العمرانية بطابعها. معظم المدن المغربية التى أقيمت واستمرت وعمرت عبر التاريخ هى فى الأصل قلاع شيدت، إما لمواجهة خطر الغزو القادم من الغرب عبر المضيق، أو تأهبًا لاستعادة الأرض التى ضاعت والممالك التى دمرت والبيوت التى نهبت.. ثم هى فى لحظات الهدوء والاستقرار.. مدن تنعم بالرخاء وراحة البال، أو الانغماس فى الذكر والعبادة، وبناء الصوامع والمساجد، والإبداع العقلى والفنى حفاظًا على الدين والتراث.

وما بين اتخاذ موقع الدفاع وموقع الهجوم، تتلفت الشخصية المغربية حولها فى انتظار ما يأتيها من الخارج أو ما يحاك لها فى الداخل، ولا يملك المغرب فى كل الأحوال أن يلتمس حياة العزلة والانكفاء على الذات أو إغلاق الأبواب على نفسه، فالامتدادات الجغرافية الواسعة، وجبال الريف الخضراء المتماوجة، والسواحل الممتدة من البحر الأبيض المتوسط حتى الأطلنطى.. لا تدع مجالاً للعزلة والتوحد. بل هى دعوة صريحة للاندماج والتداخل والتفاعل. وهذا هو مكمن الخطر، إذ يصبح الموقع مجالاً للإغراء وهدفًا سهلاً للولوج والتأثير والامتلاك، وهو بنفس القدر فرصة للثراء المادى والعقلى والتواصل الحضارى والإنسانى.

فى الرباط سألت عامل الفندق، وهو لا يفتأ يحدثنى بالفرنسية، عما إذا كانوا لا يتعلمون اللغة العربية أو يستخدمونها فى حياتهم.. فرد علىّ بلغة عربية ملثمة بنبرة فرنسية، أن العربية يتعلمونها فى المدارس ولكنهم يستخدمون الفرنسية فى أمور حياتهم وتعاملاتهم اليومية. وقال لى - معتذرًا أو موضحًا - إن المغرب أصبح عضوًا مشاركًا فى الاتحاد الأوروبى، وأن الاستعمار الفرنسى ترك خلفه ثقافة اللغة ومفرداتها، وأنهم يفضلون اليورو على الدولار.. ومع ذلك فلابد أن تلحظ أن معظم الصحف تصدر بالعربية وأن معظم الأغانى المنتشرة بين الشباب هى الأغانى المصرية واللبنانية، ربما بأصوات بعضها مغربية وفرانكوفونية. وفى الفترة الأخيرة بدأت تظهر فى شوارع المدن المغربية معاهد ومراكز لتعليم الإنجليزية، فالنفوذ الأمريكى يحاول أن يجد له موقع قدم فى شعب أمضى عدة قرون يحارب من أجل التملص من النفوذ الإسبانى تارة ثم من النفوذ الفرنسى تارة أخرى!

وحين يتأمل المرء تاريخ مدينة مثل الرباط، التى قامت على يد مؤسس دولة الموحدين فى القرن الثانى عشر.. فسوف يجد نفسه بإزاء تاريخ حافل بالمشاعر المتضاربة. إذ تأسست هذه المدينة لتكون حصنًا ومقرًا لتجمع المجاهدين، وهمزة وصل فى ملحمة الموحدين الزاحفين فى طريقهم لاستعادة الأندلس. وأطلق عليها «رباط الفتح» تذكيرًا بالمعارك المظفرة ضد المسيحيين الإسبان، واستغرق التاريخ ثمانية قرون هى المدى الفاصل بين دولة الموحدين وبين «الإقامة العامة للحماية الفرنسية» فى بداية القرن العشرين.. ظلت الرباط خلالها تستقبل أعدادًا كبيرة من النازحين المسلمين المطرودين من الأندلس.. وتوشك بحكم موقعها أن تواصل مسيرتها وكأنها فى حالة تأهل دائم للجهاد، ولكن سرعان ما جاء الفرنسيون ليعيدوا تخطيط المدينة، فى محاولة لمزج المدينة العتيقة بالامتدادات العمرانية الجديدة، مع المحافظة على طابعها التاريخى القديم.

أكبر الظن أن النفوذ الفرنسى فى المغرب لم ينشأ ويتوطد إلا لمقاومة الأطماع الإسبانية القديمة التى لم تتوقف حتى الآن. فمازالت هناك محميات إسبانية فوق التراب المغربى مثل سبتة ومليلة. ومازالت إسبانيا تعارض التخلى عن هذه المحميات وتفرض فيها وجودًا عسكريًا بغيضًا. وحين ثار أخيرًا نزاع بين المغرب وإسبانيا حول جزيرة صغيرة لرعى الأغنام تقع فى قلب المياه الإقليمية المغربية، لم تتورع إسبانيا عن تحريك أساطيلها وقواتها، وإظهار عضلاتها العسكرية مهددة باستخدام القوة.

ويشعر المغاربة بأن الإسبان مازالوا يقفون للمغرب بالمرصاد ويعتبرونها منطقة نفوذ حيوى لهم بالمنطق الاستعمارى القديم. فهى تحتل سبتة ومليلة فى الشمال، وتحرض، بمساعدة الجزائر، العناصر الانفصالية لجمهورية الصحراء فى الجنوب. وقالت لى صحفية مغربية شابة: إن الإسبان لا يريدون أن ينسوا تلك الحقبة التاريخية التى بسط فيها أهل المغرب سلطانهم ونفوذهم وحضارتهم ولغتهم على إسبانيا وأقاموا فيها تلك الحضارة الأندلسية الباهرة سبعة قرون أو يزيد. وهم على استعداد لفعل كل شىء من أجل ألا يعود للمغرب وضعه القديم؛ حتى لو أدى الأمر لتقديم سبتة ومليلة كقواعد عسكرية لحلف الأطلنطى أو لأمريكا.

وحين قطعت الطريق بالسيارة من الرباط إلى تطوان ثم طنجة فى أقصى الركن الشمالى من المغرب على ساحل البحر المتوسط، أدركت لماذا أغرت مناطق الريف الجبلية بسهولها وهضابها الخضراء الغنية بالأمطار والموارد المائية بعض الحركات الانفصالية كتلك التى قادها عبد الكريم الخطابى. وإن كانت القرى السياحية التى تتناثر على شطآنها قد جعلتها مصدر إشعاع دولى ومحلى، تظاهرها ثروات طبيعية من الأراضى الزراعية والحدائق والغابات التى تغطى مرتفعاتها المتماوجة وتضفى على الطبيعة فيها سحرًا خلابًا.

وعلى عكس الرباط، تبدو كلٌّ من تطوان وطنجة وكلتاهما تحمل بصمات حضور إسبانى أندلسى لا شبهة فيه.. بمبانيها البيضاء، وعمارتها المميزة، وفضائها الممتد عبر الأفق، وقصبتها التقليدية ذات الشوارع الضيقة الرطبة، وأسواقها القديمة، وباحاتها العامرة بالأشجار.

ولتطوان تاريخ طويل مع الاستعمار الإسبانى والبرتغالى.. ومنذ القرن الخامس عشر تداولتها الأيدى بين الاستعمار الإسبانى تارة والعودة إلى الأحضان العربية المغربية تارة أخرى. واحتلها الإسبان فى بداية القرن العشرين وجعلوها عاصمة لمنطقة الحماية الإسبانية. ومازال عدد كبير من سكان تطوان يتكلمون اللغة الإسبانية إلى جانب العربية. ولم أخف دهشتى حين حضرت حفلاً لفرقة إسبانية للرقص الإيقاعى الحديث فى المسرح الكبير بتطوان، امتلأ عن آخره بجمهور مختلط من المغاربة والأجانب.

ولكن إلى جانب هذه المظاهر الحديثة، بقيت المدينة القديمة جزءًا من نسيج عمرانى متوحد. يقودك بمنتهى اليسر إلى القصبة بأزقتها الضيقة.. حيث تتمركز المساجد والزوايا والأضرحة والسقايات. وإذا قادتك قدماك إلى أحد البيوت القديمة التى تحولت إلى مطعم تقليدى.. فسوف تحيا بضع ساعات فى أجواء عابقة بعطر التاريخ.. تتناهى إلى أسماعك أصوات المؤدين للموشحات الأندلسية والمدائح النبوية وأشعار الغزل العربى القديم. تعيد إنتاج مرحلة من التاريخ ذهبت فى طوايا الماضى البعيد، ولا يوجد من الدلائل ما يشير إلى أنها قد تعود. ولكنها فى كل الأحوال تطرح قضية التفاعل بين الحضارات والثقافات. وتبرهن على أن حروب الحضارات والغزو الاستعمارى الثقافى بأشكالها القديمة ربما تكون قد انتهت، ولكنها تتخذ فى عالمنا المعاصر أشكالاً جديدة وأطوارًا أخرى أكثر تعقيدًا، تعيد صياغة حاضرنا ومستقبلنا كأفراد وجماعات وشعوب!

سلامة أحمد سلامة

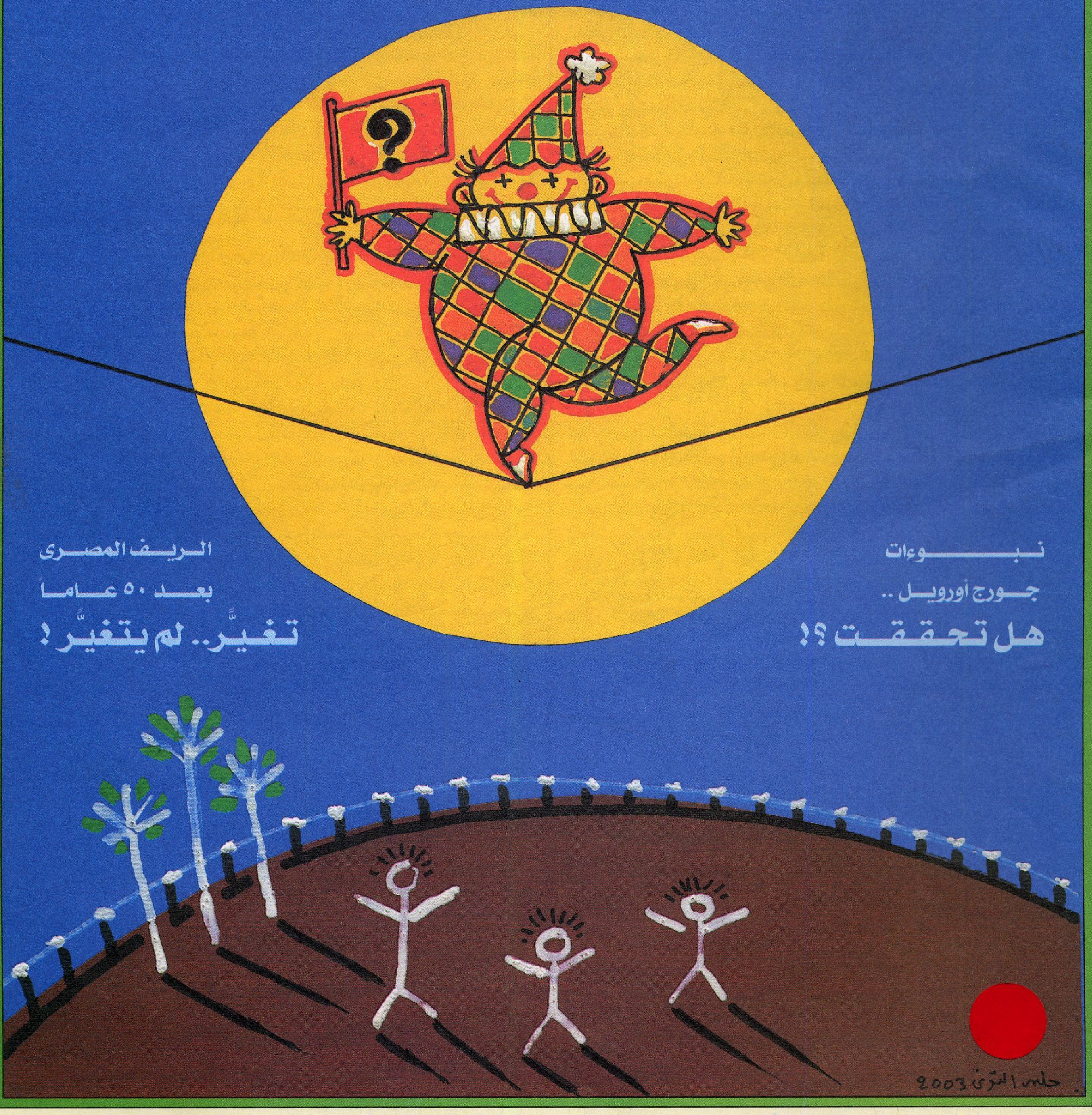
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 56 - September 2003

مجلة شهرية . العدد السادس والخمسون . السنة الخامسة . سبتمبر ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

القوات المسلحة فى السياسة الأمريكية

محمد حسنين هيكل



الريف المصرى
بعد ٥٠ عاماً
تغيَّر.. لم يتغيَّر!

نبوءات
جورج أورويل..
هل تحققت؟!

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الخامسة
العدد السادس والخمسون
سبتمبر ٢٠٠٣

تصدر عن: الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد عثمان .. باحث في التاريخ المصري القديم.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- حسن حنفي.. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- سهير إسكندر.. صحفية.
- صبري حافظ .. أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة لندن.
- عاصم الدسوقي.. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة حلوان.
- عزالدين كامل.. مستشار تحرير جريدة التعاون.
- فاروق شوشة .. شاعر وإذاعي.
- ليلى إبراهيم أبو المجد.. أستاذ الدراسات العبرية بجامعة عين شمس.
- مارجريت اتوود.. أديبة وناقدة أمريكية.
- محمد حسنين هيكل .. صحفي.
- يوسف الشريف .. صحفي.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ - e-mail: weghat@alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

تراجيديا «الأخ الأكبر»

فيما يعترف العالم. أو يستسلم. لحقيقة وجود «الأخ الأكبر»، الذى بات مفرطاً فى ممارسته للدور والمعنى، تحتفل الأوساط الثقافية بذكرى مرور مائة عام على ميلاد جورج أورويل؛ مبتكر اللقب فى روايته الشهيرة «١٩٨٤». وإن كان يظل مثيراً ودالاً على تحولات مابين القرنين انتقال اللقب بين القطبين الأكثر تنافراً. من ستالين؛ رمز الشيوعية والشمولية، والذى قصده أورويل فى روايته الشهيرة، إلى الولايات المتحدة الأمريكية: رمز الرأسمالية والحرية الفردية. والتى لم توفر جهداً (تقنياً أو غيره) فى ممارسة الدور الذى صار اتساقاً مع مقتضيات قرن جديد «عولمياً».

مفارقة مآل إليه اللقب، والذى قفز من أقصى الشرق الى أقصى الغرب، لايعادلها ربما غيرمفارقة ماتكشف. وبغض النظر عن الأسباب والنتائج. من أن الأديب البريطانى لم يختتم حياته العاصفة إلا بعد أن صار، هو نفسه، ترسا فى الألة الجبارة للظاهرة التى انتقدها.

فى مناسبة الاحتفال بمئويته، كتب الناقد الإنجليزى تيموتى آش مقالاً فى صحيفة «الجارديان» البريطانية، يؤكد فيها الشائعات المتعلقة بأورويل، ويقدم أدلة تثبت أن الروائى البريطانى الكبير وقع بالفعل فى مصيدة الـ«الأخ الأكبر»، وتحول، بسبب امرأة أحبها ولعبت بمشاعره، إلى كاتب تقارير. وأنه خان بذلك المبادئ التى دعا إليها، بعد أن وشى بالآخرين بحماسة، تفوق حماسة شخصياته الروائية.

تقول القصة ان جورج أورويل دون قائمة بأسماء شخصيات أدبية وثقافية بريطانية وأمريكية شهيرة، ومنهم أصدقاؤه، مثل جورج برناردشو وتشارلى شابلن (٣٨ اسماً) اعتبرهم «المشتبه فيهم كشيوعيين»، وأرسل بالقائمة إلى معشوقته الجميلة، «الأخت الكبرى» سيليا كيروان، التى طلبت منه أن يقوم بذلك العمل، وهو يعرف أنها كانت تعمل فى وزارة الخارجية البريطانية، فى قسم البحث عن المعلومات Information Research Department ، الذى هو بمثابة وكالة استخبارات بريطانية.

الاتهام أكده كتاب فى عشرين مجلداً، حرره د. بيتر ديفيسون، وساعدته زوجته شيلا ديفيسون، ويان انجوس. واستغرق إعداد كتاب ديفيسون سبع سنوات، والجديد فيه إضافة إلى أهميته الأدبية والتاريخية، نشره وثائق عن تحولات أورويل الأخيرة، من الفكر الاشتراكى إلى التعاون الصريح مع المخابرات البريطانية.

إلى جانب علاقته بالحسناء سيليا، والتى كان راغباً بمساعدتها حين طلبت منه أن «يخبرها» بأولئك «الضارين المحتملين»، يقول ديفيسون، أن أورويل الذى كان مرض السل قد استفحل فيه، كان خائفاً من أن يموت قبل أن يكشف عن «التهديد الذى يشكله أصدقاء ستالين فى بريطانيا وأمريكا». كان يريد أن يترك شيئا وراءه يحذر سلطات هذين البلدين. ويبدو - حسب ديفيسون - أن أورويل كان قد أخذ على عاتقه مهمة واحدة اعتبرها مهمة مقدسة: أن ينقذ الاشتراكية البريطانية من خطر انتهاج المثال السوفيتى فى بناء الاشتراكية، وضمان حرية التعبير للمختلفين والمعارضين.

ولد جورج أورويل، واسمه الحقيقى «اريك بلير» عام ١٩٠٣، تعلم فى إيتون وخدم فى البوليس، وأقام فى باريس بضع سنوات، خلال الثلاثينيات من القرن الماضى، عرف خلالها التشرد والجوع وفى روايته «مشرداً بين باريس ولندن»، يكتب اورويل عن الناس المطحونين والمسحوقين فى المدن الكبيرة، سواء كان ذلك فى فرنسا أو فى انجلترا. ويصف عذابات تلك المرحلة الصعبة من حياته، التى هام فيها على وجهه فى عواصم أوروبا العجوز ومدنها.

وللكاتب البريطانى المثير للجدل مؤلفات أخرى كثيرة منها: و«الطريق إلى ديكابير»، وفيها أعطى وصفاً جيداً لتجاربه الشخصية المتعمقة فى دراسة البؤس والفقر. «تكريماً لكاتلونيا» التى ينتقد فيها السياسات الرسمية الشيوعية وتطبيقاتها، قبل ان يعبر عن موقفه العدائى ضد الستالينية فى روايته الشهيرة «مزرعة الحيوانات» ١٩٤٥، أما فى روايته الأشهر «١٩٨٤» فهو يعرى، بشكل صارخ، انظمة الرقابة والهيمنة للسلطة المتفردة والتى أسماها اسما صار مثلا: «الأخ الأكبر». وبروايته دخلت ألفاظ مثل «الكلام الجديد»، «الغرفة ١٠١»، «وزارة الحقائق»، قاموس مصطلحات الكتابات الصحفية والفكرية فى النصف الثانى من القرن العشرين.

انضم أورويل إلى قائمة الكتّاب الذين أرّخوا لفترة ما بعد الحرب. ويجدر القول إن حوالى أربعين مليون نسخة قد نفدت من كتابيه «مزرعة الحيوانات» و«١٩٨٤» وتُرجما إلى غالبية اللغات الحية. ومن المفارقات ان جورج أورويل كان مكروها من قبل اليمين واليسار على حد سواء. فاليمين يعتبره اشتراكياً، واليسار يعتبره غير شيوعى. أم هو فقد كان يدين استعباد الفكر.

يقول عنه الفيلسوف الفرنسى جان كلود ميشيل، والذى له دراسة من أهم الدراسات الفرنسية عن الروائى البريطانى: «إذا ما كان جورج أورويل يعد بحق واحداً من أهم الروائيين السياسيين خلال القرن العشرين، فلأنه كان يجسد أفضل تجسيد الفكر الحر، الذى كان القرن الماضى يكرهه ويحاربه بشدة.

.. كان جورج أوريل يقول فكرته ثم يمضى فى حال سبيله، غير مهتم إن كانت منسجمة مع الخط العام أم غير منسجمة معه، ذلك أنه كان يرى أن الفكر الحر لا يمكن أن يسجن داخل الأنظمة الفكرية والأيديولوجية المغلقة، ثم إنه أدرك مبكراً، أى ابتداء من مطلع الثلاثينيات، الطبيعة الحقيقية للقمع الشمولى، وذلك ما لم يدركه أقطاب اليسار فى ذلك الوقت، لذا هم لا يغفرون له ذلك. من ناحية أخرى كان جورج أورويل يتحول معنى الحرية عنده، وأيضاً ارتيابه ازاء أى جهاز من أجهزة الدولة، إلى نقد حاد للرأسمالية، وهذا ما أثار حفيظة اليمين ضده».

فى الذكرى المئوية لجورج أورويل يكتب الدكتور صبرى حافظ لـ «وجهات نظر» دراسة مطولة عن الكاتب البريطانى الذى وصف تقرير صحفى أخير قصته بحق انها « تثير العديد من التساؤلات، ابتداءً من أسماء كل أولئك الذين وضعهم اورويل على قائمته، وانتهاءً بمرارة معرفة الحقيقة التى تبين المدى الذى وصل إليه نظام الـ«الأخ الأكبر». لدرجة أن شخصاً مثل أورويل يشى بأصدقائه وزملائه. إنها قصة إنسانية مخيفة. جورج أورويل، الذى هاجم الوشاية فى أهم رواياته، تحول فى السنة الأخيرة من حياته إلى أحد الوشاة... يالها من تراجيديا. ويالَه من مخيف؛ هذا «الأخ الأكبر».

وجهات نظر

القـــوات المســلحة

ملاحظة

■■ هذا الحديث يتعرض لمسألة شديدة الأهمية والحساسية، وهى العلاقة بين «السياسة والسلاح» فى الحالة الأمريكية الراهنة - أى بين إدارة الرئيس «جورج بوش» (الابن) وبين هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية فى شأن ما جرى ويجرى فى العراق - وفى غيره بعده.

● وسبب الأهمية مفهوم - ومرجعه أنه فى مشروع إمبراطورى يهدف إلى تثبيت التفوق الأمريكى وتحويله إلى سلطة عالمية تفرض سطوتها على القرن الحادى والعشرين (على الأقل) - فإن السلاح له الدور الرئيسى فى كافة مراحل التخطيط والتنفيذ والتأمين، وتلك طبيعة الامبراطورية، ومعنى ذلك أن حوار السياسة والسلاح فى واشنطن - أخذا وردا - شدا وجذبا - له تأثيرات مهمة وواسعة لا تقتصر على واشنطن وحدها، وإنما تمد انعكاساتها ونتائجها إلى الساحة العالمية الأوسع.

● وسبب الحساسية مفهوم أيضا - وملخصه أن هذه العلاقة بين السياسة والسلاح - سواء فيما جرى ويجرى فى العراق وبعده - مسألة مُحاطة بالسرية والصمت. ومع أن الكثير من التفاصيل فى هذا الشأن تسربت، فإن المشكلة أن بعض التسريب كان مقصودا لكى تسبق الانطباعات وتؤثر، ثم إن بعضه الآخر كان مغلوطا حتى تتداخل الروايات، وتهتز الصور، ويختلط السياق، وتمتلئ الأجواء بضباب يتم تحت ساتره ترتيب الأشياء، ومن ثم تستقر القواعد الطارئة كأمر واقع يصبح بدوره قانونا يعطى للمؤسسة العسكرية الأمريكية دورا مختلفا فى مشروع إمبراطورى شديد الجرأة - جامح القصد!.



محمد حسنين هيكل

وبسبب هذه «الأهمية» وهذه «الحساسية» - فإن أى كاتب صحفى يجد نفسه أمام مأزق مزدوج:

- أهمية العلاقة بين السياسة والسلاح فى الشأن الإمبراطورى القادم - لا تسمح بتجنب الموضوع.

- والحساسية التى تحيط به سرية وصمتا - لا تمكن بسهولة من النفاذ بعيدا فيه بثقة متأكدة مما تقول (خصوصا بالنسبة لصحفى عربى عابر مهما بلغ حسن ظنه فى قيمة مصادره.

وإزاء هذا المأزق - ومن باب الإنصاف للحقيقة وللقارئ معا، فقد كان واجبا أن توضع لسياق هذا الحديث حدود ظاهرة تفرق على سياقه بين ثلاثة عناصر:

١ - معلومات أكيدة - تتلاقى عندها درجة من الإجماع أو يعززها ظهور أوراق ترجح وأحيانا تقطع.

٢ - شهادات مسئولة - يمكن قبولها اعتمادا على إطلاع أصحابها وصلاتهم - حتى وإن تعذر لأسباب بدهية إسنادها إلى مصادرها.

٣ - استنتاجات - يقع التوصل إليها بالنظر فى المنطق الداخلى للوقائع - ويكون منها ما يكفى بقدر من الحدس المأمون جسورا بين المعلومات والشهادات، بحيث تتسق الصور وتتكامل.

وهدف هذه الحدود فى النهاية أن يكون أمام قارئ هذا الحديث حقه فى المعلومات، وحقه فى تقدير ما يُعرض منها عليه، وحقه فى وزن الحوادث بمعياره المستقل ومنظوره، وكذلك كان الحرص على الإشارة خلال السياق لنوعية كل عنصر من عناصر الحديث - تنبيها مسبقا - يحاول أن يكون مسئولا.

هيكل

أولا: الجنرال يقفز بالباراشوت لتهدئة أعصابه

خلاصة

■■ من ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحتى ٢٩ يناير ٢٠٠٢ . كانت القوات المسلحة الأمريكية تخوض حربا فى أفغانستان هدفها إسقاط نظام طالبان وزعيمه «الملا عمر» وتصفية تنظيم القاعدة وزعيمه «أسامة بن لادن».

ومع ذلك فإن رئاسة هيئة أركان الحرب المشتركة فى واشنطن ظلت تعتقد أن إدخالها فى الحرب على الإرهاب إقحام لها فيما هو خارج اختصاصها ووسائلها، فالإرهاب. فى تقديرها . اختصاص أصيل لوكالة المخابرات المركزية ولمكتب التحقيقات الفيدرالى، وأما القوات المسلحة فإنها تستطيع على أحسن الفروض أن تساعد بضربات صواريخ موجهة من بعيد تزعج وتخيف، وقد تزيد على ذلك . تطوعا . بدفع مجموعات من القوات الخاصة إلى بعض المواقع تبعثر أو تدمر . لكن تلك تظل عمليات جانبية ذات مقاصد محدودة، يصعب اعتبارها مجهودا رئيسيا فى حرب.

وبصرف النظر عن الاختصاصات فإن القوات الأمريكية المسلحة استُدرجت - ليس فقط . خارج اختصاصها، وإنما أيضا خارج عقيدتها المعتمدة منذ حرب الخليج سنة ١٩٩١، والتى اشتهرت «بعقيدة باول» على اسم واضعها الجنرال «كولين باول» رئيس هيئة الأركان المشتركة (ووزير الخارجية الآن).

والحاصل أن هيئة الأركان المشتركة «تهاودت» مع الاستدراج بظن أنها مضطرة إلى قدر من المرونة يستجيب لدواعى السياسة. وضغوطها بعد مفاجأة سبتمبر ٢٠٠١ . فلم يكن معقولا بعد حدث من ذلك الحجم أن تظل القوات الأمريكية المسلحة بعيدة عن «ردود أفعاله» بدعوى أنه ليس اختصاصها، ولا أن تتمسك «بعقيدة باول» بظن أنها شرط العمل العسكرى فى الزمن الجديد.

كانت هيئة أركان الحرب المشتركة تدرك منذ البداية أن حربها فى أفغانستان معركة مع أشباح، وضد عدو يصعب الإمساك به، لأن القتال معه بلا جبهة - وبلا خطوط - وبلا منشآت اقتصادية وعسكرية وعقد مواصلات يمكن التركيز عليها. ومع ذلك فإن رئاسة الأركان قبلت بشىء مما طلب منها، وفى تقديرها أن المهمة «غطاء بالسلاح لجهد تقوم به وسائل العمل السرى لبلوغ المقصود سياسيا».

ثم حدث أن هيئة الأركان المشتركة وجدت نفسها فى موضع اللوم بادعاء أنها لم تقدم للسياسة ما يسترها، ورغم أن نظام طالبان اختفى فقد كان واضحا لمن يريد أن يرى أن ذلك النظام تفكك وتفرق، لكن أعضاءه وأنصاره تحولوا من تجمعات فى الجبال إلى ذرات رمل على السفوح والوديان، كما أن «أسامة بن لادن» نفسه تبخر وانقلب من زعيم إرهابى إلى شخصية تليفزيونية تشد اهتمام الرأى العام فى الحالتين، وذلك فى حد

فى السياسة الأمريكية!

ذاته يكفيه، لأن الإرهاب بالدرجة الأولى فعل يعتمد التأثير النفسى المدوى أكثر مما يقصد إلى العمل العسكرى المنظم.

....

....

وكان وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» هو الذى عرض موقف رئاسة الأركان المشتركة أمام الرئيس «بوش» فى اجتماعات مجلس الأمن القومى، بمقولة أنه لا يستطيع مع الظرف الموضوعى الراهن فى أفغانستان أن يطالب القوات المسلحة بأكثر مما فعلته، ومع أنه كان أول من ضغط عليها لكى تحقق نتائج أكثر إبهارا، إلا أنه الآن أول من يدرك استحالة مطالبتها بالزيادة، لأن «أفغانستان» ليس فيها هدف واحد يثير خيالا أو يغرى بجائزة. فقد كانت فى «أفغانستان» تسعة أهداف تم ضربها، وجرت العودة إليها مرة ومرات، والآن أصبح التكرار أضحوكة، وإذن فلابد من ميدان آخر غير «أفغانستان» تثبت فيه القوة الأمريكية اقتدارها، وكان «رامسفيلد» ومعه مجموعته الإمبراطورية - يضع عينه على العراق، وكان تعبيره فى محضر مجلس الأمن القومى (١٤ - ١٥ سبتمبر ٢٠٠١) «إننا كلما رفعنا الـ «بير سكوب» (منظار الغواصة) فوق سطح الماء، وأدرنا البصر على عرض البحر حولنا، لا نجد هدفا أنسب من العراق»، وفى تأكيده لرؤيته ذكر «رامسفيلد»:

١ - الدول المساندة للإرهاب هى الأهداف الأولى بالعقاب، لأنها أساس البلاء ومصدر التهديد.

٢ - أن هناك ذريعة مشروعة لحرب العراق تتمثل فى أسلحة الدمار الشامل التى يملكها ذلك البلد ويمكن أن تصل عن طريقه إلى أيدى الإرهابيين.

٣ - أن العراق فى قلب المنطقة الحيوية للمصالح الأمريكية (الموقع والبترول وإسرائيل!)، وهو من موقعه فى هذه المنطقة يهدد أصدقاء تقليديين للولايات المتحدة، وكذلك فهو بكل المعايير يستحق وصف «الدولة المارقة»!

٤ - أن العراق منهك ومعزول ويسهل الاستفراد به وإسقاط نظامه، كما يمكن للولايات المتحدة أن تعتمد فى جهدها على تحالف دولى وإقليمى يتعاون أطرافه معها بقواتهم وأموالهم وقواعدهم ومخابراتهم.

٥ - وأن فى العراق أهدافا كبيرة يمكن ضربها بعمليات مبهرة، كما أن فى العراق جوائز هائلة يمكن الاستيلاء عليها بأقل تضحيات متصورة.

وحتى شهر يناير ٢٠٠٢ لم يكن «دونالد رامسفيلد» - رغم جهده «التبشيرى» بأفضلية نقل المعركة من «أفغانستان» إلى «العراق» - قد لقى الاستجابة التى توقعها. وكان الجميع فى مجلس الأمن القومى يرون وجاهة ما يُطرح ويوافقون عليه، مع خلافهم على التوقيت، أى أن ما يطلبه «رامسفيلد» ليس الآن وقته، بل موعد لاحق، بحسب ما تجىء به التطورات.

....

....

ثم وقع أواخر سنة ٢٠٠١ أن «كارل روفى» مستشار الرئيس الأقوى للشئون الداخلية، ومسئول حملته الانتخابية - تَحَسَّب مبكرا إلى أن «أفغانستان» لن تنفع الرئيس فى الانتخابات القادمة للتجديد سنة ٢٠٠٤، خصوصا أنه لا يتوقع مفاجآت سارة فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وعليه فإن العثور على نجاح ساحق خارجى يصبح مسألة ضرورية، وعندما راح «كارل روفى» يبحث ويستقصى - توصل هو الآخر بعد لقاءات مع «دونالد رامسفيلد» إلى أن العراق هو المسرح المهيأ.

وكذلك فإن خطاب حالة الاتحاد الذى قدمه الرئيس «جورج بوش» أمام مجلس الكونجرس يوم ٢٩ يناير ٢٠٠٢ أطلق شعار «محور الشر». موجها أصبع الاتهام بالتحديد إلى العراق وقائلا بالنص: «إن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح للنظام الأشد خطورة فى العالم أن يهددها بواسطة أسلحة الدمار الشامل التى يملكها ويطورها ويقدر على استخدامها».

وكذلك رُفعت من فوق الشاشات خريطة «أفغانستان»، وظهرت خريطة «العراق»، وغامت صورة «أسامة بن لادن»، ولمعت صورة «صدام حسين»!.

....

....

معلومات

كان خطاب الرئيس «بوش» عن حالة الاتحاد يوم الثلاثاء (٢٩ يناير ٢٠٠٢) - وصباح يوم الجمعة أول فبراير تجمع رؤساء أركان الحرب فى مكتب وزير الدفاع على موعد معه فى «البنتاجون»، ويبدأ



«رامسفيلد» حديثه معهم «بأن اللعبة الآن فى ساحة العراق، والقوات المسلحة الأمريكية - وليس أى طرف غيرها - هى اللاعب الأساسى، وعليها أن تكسب المباراة هناك وتفوز بالجائزة!».

ولم يكن ما قاله وزير الدفاع مفاجئا للقادة وبالذات لرئيس الأركان الجديد الجنرال «ريتشارد مايرز»، فقد كان (مثل سلفه الجنرال «هيوشيلتون") - يتابع كواليس السياسة فى «واشنطن» ويعرف أن مهمة غزو العراق فى طريقها إليه (وكان الجنرال «مايرز» أهدأ أعصابا من سلفه الذى كان مستشارا معظم الوقت من رئيسه (وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد")، بما يسوقه بعد كل لقاء بينهما للذهاب إلى قاعدة جوية قريبة من واشنطن ليقفز بالباراشوت (وتلك هوايته)، حتى تهدأ أعصابه بينما هو ينزلق من الجو عشرين أو ثلاثين دقيقة - ويلامس الأرض وقد استعاد لطف مزاجه، وأصبح مستعدا لتحمل كل الناس بمن فيهم «دونالد رامسفيلد»!).

ومضى وزير الدفاع - ذلك الصباح فى واشنطن - يشرح لرئيس أركان الحرب المشتركة وزملائه رؤيته للضرورات ويطلب منهم الاستعداد لحملة عسكرية على العراق، يريدها فكرا جديدا بالكامل وعملا يناسب المسرح المُهيأ هناك، مع وجود إمكانيات أمريكية لم تكن متاحة من قبل، ضد عدو لا يملك وسائل سلاح فعال، لأن ما لديه من عتاد (بما فى ذلك الطيران والدفاع الجوى والمدرعات ووسائل الاتصالات). عمره ما بين خمسة عشر إلى عشرين عاما.

وتوسع «رامسفيلد» فى شرح تصوره فى التحضير للعمل المحتمل، مركزا على مجموعة نقط مجملها:

- أن الولايات سوف تعمل فى إطار الشرعية الدولية بأن تطلب عودة المفتشين الدوليين إلى العراق ليكملوا مهمة نزع أسلحة الدمار الشامل التى لم يتمكن السفير الاسترالى «ريتشارد بتلر» من إتمامها، وفى نفس الوقت تحرى ما قد يكون العراق أضافه إلى ترسانته من أنواع هذه الأسلحة خلال أربع سنوات توقفت فيها عمليات التفتيش.

- أن العراق سوف يرفض استقبال بعثة مفتشين جُدد يرأسها «هانز بليكس» وزير خارجية السويد السابق، وشاهده أن الحكومة العراقية رفضت مجرد السماح لـ «بليكس» بزيارة «بغداد» للتباحث مع المسئولين فيها، ومعنى الرفض أن النظام العراقى سوف يتم ضبطه متلبسا فى حالة تمرد على الشرعية الدولية، وعندها يقوم تحالف دولى يفرض على «بغداد» احترام إرادة مجتمع الدول.

- أن الولايات المتحدة سوف تكون المسئول الرئيسى عن «العمل الدولى بالقوة»، كما حدث فى المرة الأولى أيام حرب الخليج، فتلك طبائع الأمور.

زاد «رامسفيلد»:

«إنه يريد طمأنة هيئة الأركان المشركة إلى أن الحرب سوف تكون مشروعة، بقرار من الأمم المتحدة وإعلان صادر عن مجلس الأمن.

كذلك فإن أسلحة الدمار الشامل التى يملكها العراق، والتى توقف التفتيش عليها قرابة أربع سنوات تمثل خطرا مؤكدا يوفر للولايات المتحدة حقها القانونى والأخلاقى فى استعمال السلاح.

أى أن الولايات المتحدة لن تنفرد بقرار الحرب وحدها، وإنما سوف تكون هناك على رأس تحالف دولى يمثل إرادة أوسع - تضم عددا من الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن.

أضاف «رامسفيلد» متحفظا بما مؤداه:

● أنه ليس مؤكدا أن كل الأطراف الدولية سوف تدخل المعركة الجديدة بنفس «الحماسة» التى دخلت بها سنة ١٩٩١ لعدة أسباب:

- لأن بعض الدول اعترتها الوساوس بعد انتهاء الحرب - ١٩٩١ - بأن الولايات المتحدة كانت هى التى تفردت بالمنطقة ومواردها.

- كما أن بعض الدول قد لا ترى فى الخطر العراقى ما تراه الولايات المتحدة، ومن ثم تميل نحو الانتظار حتى تجىء نهاية النظام العراقى بالسقوط من الداخل نتيجة للحصار وعواقبه.

- ثم إن دول الإقليم الصديقة للولايات المتحدة سوف تكون جاهزة لما يطلب منها، لكنها فى الغالب لن تكون مندفعة للحرب بنفس المقدار الذى كانت عليه سنة ١٩٩١، حين كانت مستفزة بغزو العراق للكويت.

ومعنى ذلك أن كل دول الإقليم الصديقة سوف تقدم قواعدها وتسهيلاتها لأى عمل أمريكى، لكن من المشكوك فيه أن تكون بينها دولة مستعدة للمشاركة عمليا بقوات على الأرض.

وهو يتذكر أن زعماء هذه الدول كانوا فى المرة الأولى سبَّاقين للحرب باسم تحرير الكويت، لكنهم عندما تحقق ذلك تحفظوا على تقدم قواتهم فى أرض عراقية!

- أضاف «رامسفيلد"»: «أن لدينا حلفاء داخل العراق نفسه، وربما يقاتل بعضهم معنا لأسبابه الخاصة"»:

● «تركيا» موجودة فى الداخل وعلى أى حال فإن «تركيا» لديها حسابات.

● «الأكراد» لهم شبه دول مستقلة فى الداخل وهم حريصون على تدعيمها، وقد يفضلون المراقبة قبل المشاركة.

● «المعارضة العراقية» وأنصارها فى الداخل وسوف يتحركون بالتأكيد، لكن المسألة هى حجم قدرتهم بالتحديد.

ومعنى ذلك فى النهاية (كذلك استخلص «رامسفيلد») أن أى تخطيط واقعى لعملية عسكرية عليه أن يأخذ فى حسابه أنها سوف تستند إلى تحالف دولى وعربى وعراقى عريض، لكن الفعل على الأرض سوف يكون إلى حد كبير أمريكيا. ثم زاد «إننا متأكدون أن بريطانيا سوف تشارك معنا، ولكن بقوات محدودة!».

....

....

وقرب نهاية حديثه قال «رامسفيلد» وهو يضغط على العبارات والكلمات إنه «يريد أن يحذر هذه المرة من الخطأ الشائع الذى يقع فيه التخطيط العسكرى دائما، وهو التفكير فى «الحرب الماضية»، لأن الظروف فى السنوات الإحدى عشرة بين الحربين تغيرت على نحو يجعل «التماثل» مستحيلا».

أضاف «رامسفيلد» أنه لا يريد أن يزيد على ما قال لأنه يخشى أن يصادر أفكارا خلاقة لدى الجنرالات، لكنه يشدد على أن الظروف تستدعى خيالا يتجاسر على ما لم يسبق التفكير فيه، وهو من جانبه يستطيع أن يتصور عملية «رشيقة القوام» Lean تنجز المهمة المطلوبة فى الظروف المعروفة، وترسمها معركة خاطفة تحقق هدفها دون أعباء فادحة وخسائر بشرية كبيرة - ولا يكون لها صدى فى الداخل يسمح لبعض المترددين (وهم هناك دائما) - بأن يستعيدوا ذكريات «فيتنام» وعقدها التى مازالت مترسبة فى الوعى الأمريكى!

وكان آخر ما قاله «رامسفيلد» للقادة فى ذلك الاجتماع أنه «يرجوهم أن لا يركزوا جهدهم على تحريك جبال من الفولاذ بلا داع (وكان يقصد حشد الفِرَق المدرعة)».

وفى الأيام والأسابيع التالية كان بعض ما توقعه «رامسفيلد» بشأن رفض العراق لعودة المفتشين إليه يتحقق فعلا:

- يوم ١٣ فبراير (٢٠٠٢) أعلن نائب الرئيس العراقى «طه ياسين رمضان» أن العراق لن يسمح بعودة المفتشين الدوليين إلى أراضيه، لأنه ليس هناك سبب لعودتهم غير التجسس على العراق، فالكل يعرف أن العراق خال من أسلحة الدمار الشامل، «وأنه إذا أرادت الأمم المتحدة إرسال جواسيسها إلى العراق لصالح الولايات المتحدة، فإن العراق - ممارسا لسيادته - لن يسمح لهم بالعودة».

ولم يكن ذلك منصفا للأمم المتحدة ولا لأمينها العام «كوفى أنان»، الذى كانت علاقاته واتصالاته تمكنه من متابعة ما يجرى فى واشنطن، وكان بعض ما سمعه يثير قلقه، وقد كشف «كوفى أنان» عن مخاوفه لبعض الدول ذات العلاقة القريبة من «بغداد»، وضمنها «روسيا» و«فرنسا» طالبا تدخلها لإقناع الحكومة العراقية بقبول التفتيش الدولى على منشآتها العسكرية والمدنية التى يمكن أن تكون موضع اشتباه فى صناعة أسلحة كيماوية أو جرثومية!

وفى قول «كوفى أنان»: «أنه فى تلك اللحظة لم يكن يمارس حرب أعصاب على «بغداد»، وإنما كان رجلا يلمح الخطر من بعيد ويحاول تجنبه، ثم إنه حين أبلغته باريس أن المشكلة الحقيقية ليست فى الأمم المتحدة، وإنما فى «شك مستحكم» لدى النظام العراقى بأن الولايات المتحدة تتقصَّده، وأن رئيسها الحالى (چورچ بوش) مصمم على افتعال الذرائع لضربه - فإن الأمين العام للأمم المتحدة وجد من حُسن التصرف أن يطمئن العراق علنا، فأصدر يوم ٢٤ فبراير تصريحا قال فيه: «إن أى عملية لغزو العراق وإزاحة نظامه سوف تكون عملا غير حكيم Unwise».

وكان «كوفى أنان» يريد بذلك أن يؤكد لبغداد استقلاليته، ويطمئنها إلى أن المفتشين العائدين لن يكونوا جواسيس «المنظمة الدولية» لحساب الولايات المتحدة الأمريكية.■

كان الجنرال «مايرز» أهدأ أعصابا من سلفه «هيو شيلتون» الذى كان مستشارا معظم الوقت من رئيسه «دونالد رامسفيلد»، بما يسوقه بعد كل لقاء بينهما للذهاب إلى قاعدة جوية قريبة من واشنطن ليقفز بالباراشوت، حتى تهدأ أعصابه بينما هو ينزلق من الجو عشرين أو ثلاثين دقيقة - ويلامس الأرض وقد استعاد لطف مزاجه، وأصبح مستعدا لتحمل كل الناس بمن فيهم «دونالد رامسفيلد»!

ثانيا:
نظرية «رامسفيلد»
لـ: نصف الحرب!

■■ مضت الحوادث فى واشنطن ترسم لنفسها مسارا مستقلا لا ينتظر أحدا، ويوم الاثنين ٨ أبريل (٢٠٠٢) كان وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» على موعد (الساعة ٨ صباحا) فى «البنتاجون» مع هيئة أركان الحرب، ومع عدد من كبار مستشاريها، وكانت رئاسة الأركان قبلها بأسبوع قد أرسلت إلى مكتبه مقترحاتها فى شأن التكليف الذى أعطاه لها (أول فبراير ٢٠٠٢).

وطبقا لرواية أحد كبار المستشارين (لزميل له فى قيادة حلف الأطلنطى بعد عشرة أيام من الاجتماع). فإن وزير الدفاع «رامسفيلد» دخل إلى القاعة «المؤمنة» و«المعزولة» فى مبنى «البنتاجون» ـ يحمل ملفا كبيرا يضم مشروع خطة «غزو العراق» كما أرسله إليه الجنرال «ريتشارد مايرز»، وفوق الملف مجموعة أوراق كبيرة صفراء كتب عليها «رامسفيلد» ملاحظات بخط يده. لكنه طوال الاجتماع لم ينظر فى أوراقه وإنما تدفق فى الكلام، ومن الواضح أنه كان معبأ بما لديه.

ولم يضيع وزير الدفاع وقتا فى المداخل والمقدمات، وإنما تكلم بطريقته المميزة التى تعكس باستمرار إيحاءً بنفاد الصبر، وبدت على وجهه ملامح تشى بأنه يريد «تلقين قادته درسا»، لأنه قام بعملية «تفكيك منظم» لكل ما أعدوه وقدموه له.

بدأ فقال ما مؤداه: «لسوء الحظ أن ما كان يخشى منه وقع. لأن خطة هيئة الأركان المشتركة كما قدمت إليه نسخة منقحة لخطة «عاصفة الصحراء» القديمة مع بعض التعديلات».

وملاحظاته المحددة كما يلى:

● أولا: حجم القوات المطلوبة بقوة ١٣ فرقة (مشاة ومدرعات وقوات خاصة)، و٦ حاملات طائرات غير القواعد الجوية الجاهزة فى المنطقة: وهو يسأل: هل المهمة فى الظروف الحالية تقتضى هذا الحجم من القوات؟ (أكثر من ثلاثمائة ألف جندى باحتساب العناصر المساعدة).

وعلق: «بأن الرئيس لا يفكر فى إعلان تعبئة عامة أو جزئية، والخطة بهذا الحجم سوف «تأخذ» نصف القوة الأمريكية العادية أو أكثر، ومعنى هذا أنه حتى طبقا «لنظرية باول» التى «يرى من حوله أصدقاء كثيرين لها». فإن الولايات المتحدة عندما تخصص ذلك كله لمسرح العراق ـ لن يكون لديها ما يمكنها من مواجهة احتمالات قد تطرأ على جبهة أخرى فى أى لحظة (كوريا الشمالية)».

● ثانيا: الخطة فى رأيه أخذت بالافتراضات القديمة التى شكلت حرب الصحراء (سنة ١٩٩١)، ولم تأخذ فى حسابها أوضاعا جديدة.

وعلق: «أن حرب عاصفة الصحراء كانت على نحو ما من فصيلة التفكير التقليدى، وأما الحرب الجديدة فإن لديها إمكانيات جديدة لم تكن هناك قبل عشر سنوات، وهو يتحدث بالذات عن ثلاثة مجالات:

● مجال الدقة الشديدة فى التصويب، وهذا مجال ركزت عليه القوة الأمريكية وجعلته هدفا أساسيا لها، ففى حين كانت دقة التصويب فى صواريخ «توما هوك» أثناء حرب ١٩٩١ بنسبة ٢٦٪ فإن هذه النسبة ارتفعت إلى قرابة ٧٠٪، وذلك فارق مهول فى فاعلية السلاح.

● مجال السرعة الفائقة فى جمع المعلومات وتوصيلها: فالحروب كانت دائما ثلاثة أبعاد: بر وبحر وجو، والآن فإن هناك بعدا رابعا دخل الساحة وقلب الموازين وهو بعد الفضاء، ذلك أن أى ميدان قتال يمكن تغطيته الآن بأقمار صناعية ترصد أى حركة وهمسة عليه وترسلها فى لمح البرق إلى القيادات الميدانية على الأرض، ومعنى ذلك أن دخول الفضاء لا يكشف المعلومات العسكرية فقط ـ ولكنه يتيح على الفور كافة البيانات الضامنة لكفاءة المعارك (بما فى ذلك الطقس وتغيراته المحتملة فى كل بقعة، والحركة على الطرق المؤدية إلى كافة المواقع، وأحجام الحشود وأنواع السلاح لدى الوحدات المعادية فى أى اشتباك)، وذلك يزود القوات بكفاءة مذهلة لم تكن متصورة من قبل.

● والمجال الثالث هو مجال التفاعل واختصار المسافة بين الدقة والسرعة، وكانت المعلومات فى عاصفة الصحراء تصل من مواقع جمعها إلى مواقع الاستفادة منها فى ظرف ساعات، وأما الآن فإن التقدم فى مجال التنسيق جعل الوصول فوريا فى نفس اللحظة، بمعنى أن أى معلومة يمكن أن تكون لدى قوات المواقع الأكثر تقدما فى ظرف دقائق، وذلك يجعل الاستجابة بالفعل فورية أو شبه فورية».

يواصل «رامسفيلد» كلامه (وفق شهادة المصدر الذى نقل عنه):

فى صلب الخطة (المقدمة إليه) حسابات لقوة العراقيين مبالغا فيها بضراوة Fiercely، لأنه اطلع على تقدير لحجم الحشد العراقى يقول أن لديهم نصف مليون رجل تحت السلاح فى الجيش وفى الحرس الجمهورى.

اطلع أيضا على تقديرات لقوات المتطوعين: سواء من مقاتلى حزب البعث ـ أو من فدائيى «صدام» ـ أو من الحرس الوطنى المحلى تشير إلى عشرات الألوف!

وتعليق «رامسفيلد»:

«أن هذه الأرقام لا تعنى شيئا لأنه ليس لدى العراقيين سلاح جوى يمكن أن يؤدى دورا فعالا، لديهم طائرات من ٣٠٠ إلى ٣٥٠، لكننا اختبرنا كفاءة هذه الطائرات فى مناطق الحظر الجوى شمالا وجنوبا فى العراق ـ وقد تأكدنا أنه ليست لديهم فرصة لمواجهة طيران حديث، طائراتهم كلها عجوزة ـ ليس لدى طياريهم نوع التدريب اللازم لمواجهة طيراننا ـ ليست عندهم الوسائل الأرضية التى تخدمهم فى أى معركة، وفى كل الأحوال فإنه يبدو واضحا أمامنا أن القيادة العراقية لا تريد دفع سلاحها الجوى إلى معركة يائسة بل تريد ادخارها، لأن هذه القيادة تحت وهم حاجتها للطيران تتمكن من السيطرة به على الداخل كما وقع فى المرة الأولى (١٩٩١)».

استطرد:

ـ «بالطبع ليست هناك قوة بحرية عراقية.

ـ علينا فوق ذلك أن نلاحظ أن العراق فى أى معركة قادمة سوف يكون داخل صندوق مقفول، لأن كل من حوله يقفون ضده: إيران فى الشرق ـ تركيا فى الشمال ـ سوريا والأردن فى الغرب ـ الخليج فى الجنوب.

ميدان المعركة مغلق حولهم تماما، وهذه مسألة مهمة.

سوف نقرأ جميعا عن تحرك «ما يسمونه» الشارع العربى، ومعلوماتنا أن أى تحرك عاطفى فى شوارع المدن العربية سوف يكون مما تقدر حكومات الدول العربية الصديقة أن تضبطه وتسيطر عليه.

نحن إذن فى حالة تفوق كامل: برى ـ جوى ـ بحرى ـ فضائى ـ وسياسى أيضا.

والعراقيون فى حالة عجز وعزلة كاملة سواء فيما عندهم أو فيما هو محيط بهم.

وهذه حقائق لا يصح أن تنسى».

يواصل «رامسفيلد» كلامه:

«سؤالى الآن هل نحن فى حاجة إلى خطة من هذا النوع الذى جاءنى منكم؟

ـ جوابى مؤكدا بالنفى.

ثم جاء تعليقه بأن:

«أى جيش فى العالم هو أول من يحس بنقط الضعف عنده، لأن الساسة يستطيعون ـ خصوصا فى العالم الثالث ـ أن يتحدثوا كما يشاءون، لكنه حين تصل الأمور إلى نهاياتها ويصبح الاختبار الحاسم مرهونا بالقتال، فإن كل الأطراف تستطيع أن تدعى كما تشاء إلا القوات المسلحة.

وهو هنا (رامسفيلد) يريد أن يتحدث عن الجيش العراقى».

«التقديرات تقول أنه ٥٠٠ ألف فى الجيش



والحرس الجمهورى، ومعهم عشرات ألوف من المتطوعين. والسؤال المهم هو ما هى مقدرة الفعل لدى هؤلاء جميعا؟

أولا: هناك الجيش أو ما بقى منه، نحن نعرف يقينا أنه لم يتلق إضافات على سلاحه، ولم يجدد شيئا كان عنده، ومعنى ذلك أنه نفس المستوى الذى عرفناه سنة ١٩٩١، مخصوما منه النصف أو أكثر.

ثانيا: الحرس الجمهورى تلقى إضافات فى السلاح من كوريا الشمالية، ومن الصين، ومن روسيا، ومن بعض الدول العربية، لكن ما حصل عليه محدود - متخلف - وكان الذين باعوه للعراقيين يريدون التخلص منه.

ما الذى يبقى؟:

جماعات المتطوعين من «الحزبيين» ومن «فدائيى صدام»، وهؤلاء يصعب قياس قيمة تأثيرهم إلا عند التجربة العملية، وفى ظروفها، لكن فعلهم - مهما كان - محدود. كذلك تقول مصادرنا!».

يواصل «رامسفيلد» (وفق شهادة المصدر الذى نقل عنه) - داعيا المشاركين فى الاجتماع معه إلى النظر بدقة أكثر فى أحوال القوات العراقية: الجيش والحرس.

ودخل «رامسفيلد» عميقا فى تحليل أوضاع الاثنين (الجيش والحرس)، وعماد تحليله أن أى قوة فى مثل هذا الوضع الحرج لا تستطيع أن تقاوم بكفاءة إلا إذا وجدت مددا معنويا يلهم تشكيلاتها وأفرادها حتى درجة الموت - أو حافة البطولة».

وقرر «رامسفيلد» «أنه يصعب عليه تصور وجود مثل هذا المدد المعنوى لدى القوات العراقية النظامية سواء فى الجيش أو فى الحرس الجمهورى - ومضى يشرح رأيه، ومؤداه أنه «فى المرة الأولى - أثناء حرب الخليج بين العراق وإيران - كان دافعُ الحرب المعنوى تناقض تاريخى قديم بين العرب والفرس، يرجع إلى أيام كانت الإمبراطورية العثمانية (السنية) تواجه الإمبراطورية الفارسية (الشيعية)، ومنذ ذلك الوقت وهناك بين إيران والعراق ثأر نائم، لكنه جاهز كى يستيقظ فى أى وقت.

«وقد أيقظه صدام!

وفى حرب الخليج الثانية - حرب الكويت - كان الجيش العراقى مدفوعا بالجائزة الكبرى لإقليم يعتقد كثيرون فى العراق أنه جزء من وطنهم، كما أنه مخزن كنز عظيم.

أما فى المرة القادمة فما الذى يمكن أن يحرك الجيش العراقى؟!».

أفاض «رامسفيلد» فى الشرح:

«فى العادة فإن الجيوش يحركها الدافع الوطنى لاستقلال بلادها، لكن الجيش العراقى وكذلك الحرس يعرفان من الحقائق ما هو أكثر.

يعرفان أن منطقة الحظر الجوى فى الجنوب - أخرجت جنوب العراق فعلا من مسئولية الجيش، ثم إن الشمال تقوم فيه الآن إدارتان كرديتان لكل منهما استقلالها الذاتى، وإذن تبقى منطقة الوسط وحدها تحت سيطرة النظام - وهذه المنطقة هى ثلث البلد، وهى الثلث الفقير لأن الثروة النفطية للعراق موزعة بين الجنوب (الشيعى حول البصرة) والشمال (الكردى حول كركوك).

ويزيد أن الجيش العراقى يعرف تماما أن الثروة النفطية لشعب العراق لم تعد ملكه، لأن قرارات الأمم المتحدة بفرض الحصار مبكرا عليه (١٣ أغسطس ١٩٩٠) - حجزت على النفط، ثم سمحت للعراق بتصدير جزء محدود منه على أساس برنامج النفط من أجل الغذاء، والبرنامج كله فى يد الأمم المتحدة، فهى التى تحصل على العائدات، وهى التى تصرح بالعقود، وهى التى تجنب نصيبا منه لتعويضات الحرب، وتقتطع نصيبا آخر للنفقات الإدارية لهيئاتها وبعثاتها العاملة فى العراق، وبينها هيئة التفتيش على أسلحة الدمار الشامل.

وإذن فإن الأرض العراقية مكشوفة، والنفط العراقى مصادر، والسيادة العراقية منزوعة.

وإذا لم يكن هناك تراب وطنى - وإذا لم تكن هناك ثروة وطنية - وإذا لم تكن هناك سيادة وطنية فمن أجل أى شىء يحارب الجيش العراقى ويضحى ضباطه وجنوده بحياتهم فى معركة يعرفون أنها يائسة - إذا دخلتها الولايات المتحدة بقوتها.

ليست مسألة شجاعة، لأن الشجاعة لا تكون إلا دفاعا عن مبدأ أو عن سيادة.

فى هذه الحالة الراهنة - ليس أمام الجيش العراقى مبدأ، وإنما هناك حزب وهناك مجموعة حكم وهناك رجل واحد فقط.

فى هذه الحالة كذلك - لم تعد هناك سيادة عراقية على شىء: لا أرض ولا موارد.

هذه أوضاع لا يموت الجنود دفاعا عنها مهما كانت الأوامر الصادرة لهم.

طبقا لكل معلوماتنا فإن الجيش العراقى لن يحارب، ولن يشعر أحد من قادته - فى أعماقه - أنه يخون وطنه إذا امتنع عن الحرب - بالعكس سوف يشعر أى قائد عراقى أنه يخون جنوده إذا أمرهم بالقتال حتى الموت فى هذه الظروف!

يواصل «رامسفيلد» (وفق شهادة المصدر الذى نقل عنه):

قد يسألنى البعض لماذا نرى الجيش والحرس حتى هذه اللحظة متمسكين بالولاء للنظام، وردى أن ذلك لا تفسير له إلا:

١ - قسوة إجراءات الأمن الداخلى ووجود مندوب حزبى فى كل وحدة يمنع أى «جنرال» من مُفاتَحة زملائه أو مساعديه بما يدور فى عقله وضميره.

٢ - القوات العراقية معزولة عن أى اتصال خارجى، وهنا فإن قادتها لا يعرفون كيف يتصرفون على فرض أنهم وجدوا فرصة للقيام ضد النظام.

٣ - هناك سبب أهم هو ما يظهر لنا أحيانا من أن معظم جنرالات الجيش العراقى الحاليين ليسوا واثقين من أن الولايات المتحدة مصممة هذه المرة على شن الحرب والمضى فيها حتى إسقاط النظام، وهم إلى هذه اللحظة - وفق معلوماتنا من الداخل - يتصورون إما أننا غير معنيين - وإما أننا نفضل بقاء «صدام» فى السلطة شبحا نخيف به بقية دول الخليج - وإما أننا غير جادين لا نريد أن ندفع تكاليف تغيير النظام - أو أننا سوف نتعثر فى النهاية أمام عقبات دبلوماسية تثيرها دول مستفيدة من الوضع الحالى فى العراق (روسيا أو فرنسا مثلا).

استطرد «رامسفيلد» (وفق ما نقل المصدر):

هذه النقطة الأخيرة هى البداية التى يلزم أن نبدأ منها: كيف نقنع جنرالات الجيش العراقى والحرس الجمهورى بأن الولايات المتحدة قررت هذه المرة بشكل قاطع ونهائى أنها سوف تضرب بكل قوتها.

كيف نفعل ذلك - هذا هو السؤال؟

هناك مدرستان فى الإجابة عليه:

- إما أن نحشد قوة هائلة - على طريقة حرب الخليج التى سبقت، ثم نخوض حربا نمزق فيها الجيش العراقى - تلك هى المدرسة الأولى، ولست (رامسفيلد) من أنصارها.

- وإما «وهذه هى المدرسة الثانية التى أعتقد بصحة منهاجها وذلك بإشهار موقفنا بأسلوب تركيز قوة التأثير النفسى - وتركيز قوة النار - وتركيز قوة الحركة السريعة».

بمعنى أن فصل الخطاب يكون بضربة «صدمة ورعب» يفهم منها الجيش العراقى ويستوثق أننا نقصد ما نقول، ومصممون على تنفيذه، وقادرون من أول لحظة على قطع رأس هذا النظام (وكانت تلك أول مرة يُذكر فيها تعبير قطع الرأس «Decapitate»، قد أصبح هذا الوصف فيما بعد اسما رمزيا للمرحلة الأولى من الحرب على العراق).

استطرد «رامسفيلد»:

«لابد أن تكون ضربة قطع الرأس عنيفة إلى درجة ترغم الجنرالات - فى الجيش وفى الحرس - على النظر إلى الحقيقة فى وجهها بحيث يعرفون أنه لم تعد هناك فائدة، وأن دعاوى الشجاعة انتحار، وأن إلقاء السلاح ليس خيانة، لأن الأهداف الوطنية ضائعة من الأصل، ولأن ما بقى من النظام لا يستحق الموت فى سبيله.

سوف أضيف ملاحظات أخيرة لابد من اعتبارها، وأنتم تعيدون النظر فى الخطة:

- لا نريد أن نضرب المدنيين فى العراق، لأنه يهمنا أن نؤكد لهم أننا نقصد النظام ولا نقصدهم.

- ولا نريد تخريب المرافق العامة، لأننا سوف نستعملها بعد سقوط النظام ودخول العراق، وليس منطقيا أن نهدمها اليوم ونعيد إصلاحها غدا.

- وإضافة إلى ذلك لا نريد تدمير الجيش العراقى، لأننا قد نحتاج إلى بعض تشكيلاته وأفراده لحفظ الأمن وضبط استقرار الأوضاع بعد سقوط النظام.

«رامسفيلد» لهيئة أركان الحرب:

«إذا لم يكن هناك تراب وطنى - وإذا لم تكن هناك ثروة وطنية - وإذا لم تكن هناك سيادة وطنية فمن أجل أى شىء يحارب الجيش العراقى ويضحى ضباطه وجنوده بحياتهم فى معركة يعرفون أنها يائسة - إذا دخلتها الولايات المتحدة بقوتها؟

كان رؤساء أركان الحرب ومستشاروهم يسمعون فى صمت. يريدون أن يصلوا إلى السطر الأخير المهم فى كشف الحساب. وقد وصل إليه «رامسفيلد» فعلا وقال (طبقا لشهادة المصدر الذى نقل عنه):

- ما أتصوره هو حرب ذكية ورشيقة (Smart and Lean)، ولا تحتاج عملية من هذا النوع إلى أكثر من ثلاث فرق وليس ثلاث عشرة فرقة كما تفترض الخطة ١٠٠٣ (التى قدمتها له رئاسة أركان الحرب المشتركة).

- فرقتان تزحفان من الخليج إلى جنوب العراق دون تهديد تخشاه، لأن مهام الحظر الجوى فى المنطقة أكدت لنا تردى أحوال وأوضاع القوات العراقية.

- فرقة واحدة فى الشمال، مع فرقة إضافية من الجيش التركى، ووحدات كافية من «البشمرجة» (القوات الكردية) للزحف على «الموصل».

- ضربة أولى بالصواريخ «لقطع الرأس» وتأكيد الرسالة بحيث يفهموا «أننا مصممون إلى النهاية».

- وتكثيف صاروخى وجوى من قواعدنا فى المنطقة وبواسطة أربع أو خمس حاملات لا يترك للعراقيين وقتا ليفكروا فى شىء آخر.

- وعلينا فى النهاية أن نتذكر ما يؤكده لنا أصدقاؤنا من أن القوات الأمريكية الزاحفة سوف تجد حولها ووراءها - وربما قبلها - كتلا من الجماهير العراقية تنقض على النظام عندما توقن أن لحظة الخلاص قد دنت.

وسكت «رامسفيلد» ونظر حوله وبدأت المناقشات.

وكان مدار المناقشات «أن ما قاله وزير الدفاع مفهوم ومنطقى، لكنه بالدرجة الأولى يعتمد على افتراضات، وشأن أية افتراضات، فهو قابل لأن يكون صحيحا، وقابل فى نفس الوقت أن لا يكون، وهذا أساس يصعب أن تبنى عليه خطط عسكرية تمس مصالح حيوية للولايات المتحدة، فى الشرق الأوسط وهو منطقة مجهودها الرئيسى سابقا ولاحقا فى إطار مشروعها العالمى المطروح الآن للتنفيذ.

والعنصر الحرج فيما عرضه وزير الدفاع هو حجم القوة التى اقترح الوزير تخصيصها للخطة، ذلك أن التقدير المبدئى لهيئة أركان الحرب المشتركة أن هذا الحجم غير كاف، لا لضمان النجاح ولا للحفاظ على الهيبة، وكذلك فإن هناك اعتبارين إضافيين:

● حجم القوات ليس كافيا لإقناع البلدان التى سوف تنطلق منها قوات الغزو (فى الخليج) بأن النصر مضمون، بحيث تطمئن هذه البلدان وتتعاون دون تحفظ.

● ثم إن حجم القوات على هذا النحو ليس كافيا لتوفير احتياطى حاضر على الأرض لدخول المعركة فورا إذا ظهر أن الافتراضات التى قامت عليها الخطة تحتاج إلى تعزيز.

ورد وزير الدفاع - موجها كلامه مباشرة إلى الجنرال «تومى فرانكس» (قائد المنطقة المركزية المسئولة مباشرة عن غزو العراق): «إن ما قام بعرضه على المشاركين وكبار القادة فى هذا الاجتماع هو بالدرجة الأولى محاولة فى لفت النظر إلى أننا أمام واقع جديد يقتضى تفكيرا متجاوزا للمألوف. جربنا يتعدى التصورات التقليدية التى لم يعد لها الآن لزوم - بسبب مستجدات هائلة دخلت على فكرة (إدارة الحرب). وهناك أيضا مسألة لابد أن تأخذوها فى الاعتبار مؤداها «أن هناك ظروفا اقتصادية وتشريعية لا تسمح للرئيس أن يذهب إلى الكونجرس مسبقا فى طلب اعتمادات تثير وساوس أعضائه وتستنفر قلق الرأى العام عندما يشيع الإحساس بأن المعركة القادمة باهظة التكاليف».

وعلى أى حال فإن ما يطلبه الآن من القادة «أن يعيدوا النظر فى تقديراتهم، ويعاودوا التخطيط آخذين فى اعتبارهم مجمل ما عرضه عليهم».

وحين تسربت بعض التفاصيل مما جرى فى هذا الاجتماع أحست العاصمة الأمريكية أن «البنتاجون» عاد إلى منطقة الزلازل مرة أخرى بعلاقة مشدودة بين مكتب وزير الدفاع وبين هيئة أركان الحرب المشتركة، (مع ملاحظة أن بعض القادة بدا لديهم استعداد لتجربة نظرية «رامسفيلد» التى طلع بها الآن، حتى لو اختلفت مع نظرية «باول» التى استقر قبولها حتى الآن).

ثالثا:

افتتاحية الحرب: معركة سياسية مع أوروبا

استنتاجات

طوال شهور صيف سنة ٢٠٠٢ - لم يكن ما يجرى فى واشنطن خافيا على عواصم العالم الكبرى (والصغرى أيضا)، وربما أن بعض التفاصيل كانت غائبة، لكن الخطوط العريضة للنوايا الأمريكية بدت واضحة، كما بدا واضحا أيضا أن العراق ليس الهدف النهائى لمشروع أمريكى إمبراطورى، لكنه افتتاحية البداية. والحقيقة أن جماعة المشروع الإمبراطورى الأمريكى لم يبذلوا جهدا فى تغطية مطالبهم، بل على العكس كشفوها ولعلهم أرادوا استجلاب التأييد بـ «دغدغة» أعصاب أطراف داخل الولايات المتحدة، خصوصا فى مجالات الإعلام والنشر، وبالفعل فإن قوى كثيرة راحت ترى أن اللحظة قد حانت للجهر علانية بالحلم الإمبراطورى وتثبيته وفرضه.

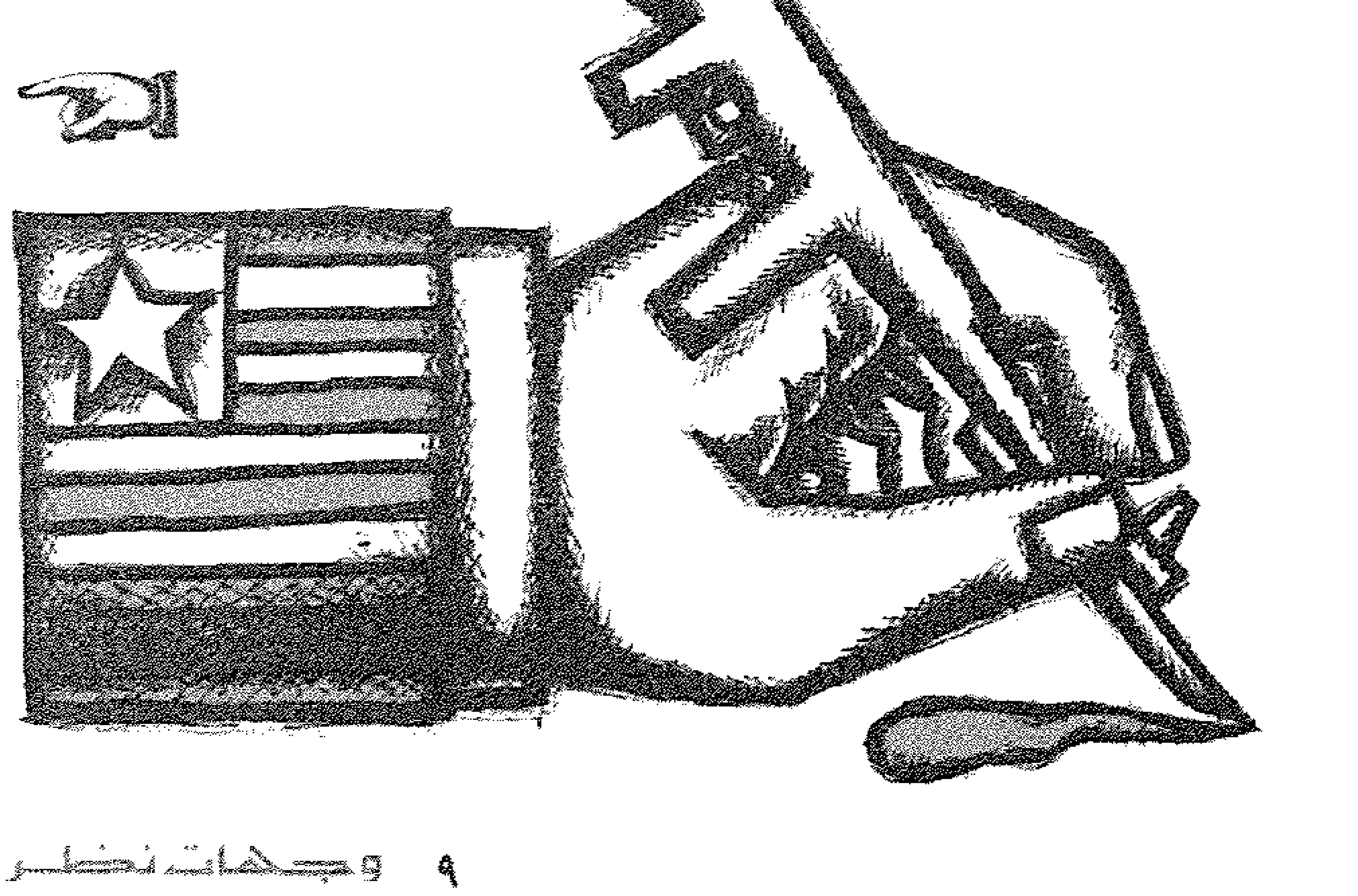
وفى «موسكو» و«باريس» و«برلين» وحتى فى «بكين» (التى أبدت إيثارا للعزلة) - سرى شعور بالقلق والتوجس من المشروع الأمريكى الإمبراطورى ومن أسلوب تنفيذه، وبدا مؤكدا أن الدورة الجديدة للأمم المتحدة وموعدها سبتمبر (٢٠٠٢) ستكون موقعة صاخبة، لأن الولايات المتحدة سوف تحاول من خلال الجمعية العامة ومجلس الأمن أن تمهد لتحالف دولى يقف معها شكليا فى شن حرب على العراق، لكنها فى القصد الحقيقى تسعى لكى تنتزع من الأمم المتحدة تفويضا يضفى الشرعية الدولية على تصرفها فى العراق (كيفما تشاء).

وكانت العواصم الأوروبية الكبرى تلك اللحظة تجرى حساباتها - عارفة أنها مقبلة على لحظة حرجة ومحيرة، فهذه العواصم لا تريد لأمريكا أن تنفرد، وفى نفس الوقت لا تريد لأمريكا أن تنعزل، ومع أن العواصم الأوروبية الكبرى وأولها «باريس» و«برلين» تدرك أنها لم تعد فى حاجة إلى المظلة النووية الأمريكية تحميها - فإنها فى نفس اللحظة ليست مستعدة لعواقب انقسام فى الغرب الذى مازال يعتبر أن الاقتصاد الأمريكى والتكنولوجيا الأمريكية والقوة الأمريكية بعموم هى قاطرات النمو فى العالم، وعليه فليس فى مصلحة أوروبا أن تتصادم مع إدارة أمريكية مستفزة أو غاضبة.

وقد زادت الهواجس فى «باريس» و«برلين» عندما أعلن فى أواخر شهر أغسطس (٢٠٠٢) أن الرئيس «جورج بوش» سوف يحضر بنفسه افتتاح دورة الجمعية العامة، ويلقى خطابا هاما حول أزمة العراق.

ثم أعلن فى نفس الوقت أن رئيس وزراء بريطانيا «تونى بلير» سيقضى عطلة نهاية الأسبوع فى «كامب دافيد» لخلوة مع الرئيس الأمريكى - وحدهما - فيما وصف بأنه: «قمة قرار».

وتأكدت «باريس» و«برلين» و«موسكو» أن «تونى بلير» قرر أن يلقى الورقة البريطانية فى نفس المربع مع «جورج بوش».



القوات المسلحة فى السياسة الأمريكية

معلومات

ولم يكن القرار سهلا في «لندن»، فالفكرة الإمبراطورية هناك قديمة استهلكت نفسها ولم يبق انتظار نفع منها أو حنين، وخطط السلاح والغزو ثقيلة على الرأي العام البريطاني، خصوصا إذا كانت بالشراكة مع الولايات المتحدة، لأنها فيما سبق من التجارب. شريك صعب يريد أن يحصل على كل شيء ولا يترك لشركائه بعده كثيرا ـ أو قليلا.

ومبكرا ـ ووسط أسابيع الصيف قبل أن يذهب «بلير» إلى لقائه مع «بوش» في «كامب دافيد» لقمة قرار ـ قام رئيس الوزراء البريطاني بعملية استطلاع للرأي واسعة:

ـ دعا عددا من كبار مسئولي شركات البترول وضمنهم بالتحديد أعضاء في مجلس إدارة شركة «داتش شل» (أهم شركات البترول الإنجليزية)، وسمع منهم جميعا دون استثناء تقريبا «أنهم لا يحبذون حربا في العراق، لأن ما بقى لهم من امتيازات في الخليج مأمون، وأية تغييرات على الوضع الراهن بالسلاح قد تأتي بمفاجآت مفتوحة العواقب، خصوصا إذا انتهت التغييرات إلى احتلال أمريكي عسكري للعراق، وهو أمر لا شك فيه إذا صممت الإدارة الأمريكية على خيار الغزو العسكري.

ـ والتقى «توني بلير» مع عدد من كبار قادة حزب العمال، وكان معظمهم يعارض الحرب لأسباب عملية وقانونية وأخلاقية، وكان أخطر ما سمعه رئيس الوزراء البريطاني ما ذكره له صديقه القديم وزير خارجيته السابق وزعيم الأغلبية بمجلس العموم الآن «روبين كوك»، وطبقا لرواية «روبين» نفسه فإنه قال لصديقه «توني»:

«إنه في دهشة من مقولة أن العراق يملك أسلحة دمار شامل، وأن تجريده من هذه الأسلحة المدمرة هو المبرر القانوني والأخلاقي للغزو.

فهو يعلم أن العراق كانت لديه مثل هذه الأسلحة في حرب الخليج التي سبقت ـ قبل ١١ سنة ـ لكنه مقتنع بأنها لم تعد موجودة الآن، والأسباب متعددة:

• العراقيون لم يستعملوا هذه الأسلحة في الحرب السابقة (١٩٩١)، لأنهم أدركوا أن عواقب استعمالها كارثية بعد أن تلقوا إنذارا بأن الرد على استعمالها سيكون ضربهم بالقنابل الذرية.

ـ وبعد الحرب وعندما صدر قرار تشكيل لجنة «أونسكوم» برئاسة «ريتشارد بتلر» التي ذهبت للتفتيش على أسلحة العراق ونزعها، فإن العراقيين بادروا إلى تدمير معظم ما لديهم من هذه الأسلحة، ثم إن لجنة التفتيش السابقة («أونسكوم») قامت بتدمير الباقي.

• وعلى فرض أن العراقيين أخفوا أشياء ـ وذلك ما تقول به التقارير ـ فإن الخبراء البريطانيين يقررون أن هذه الأنواع من الأسلحة لها مدة صلاحية لا تعود نافعة بعد انقضائها.

مدة صلاحية الأسلحة الكيماوية خمس سنوات.

ومدة صلاحية الأسلحة البيولوجية ثلاث سنوات.

وذلك معناه أن هذه الأسلحة حتى على فرض أن بقاياها مازالت موجودة ـ لم تعد نافعة!

• ومن المحتمل نظريا أن يسعى النظام في العراق إلى إعادة تصنيع وتعبئة الحمولات (الصواريخ والقذائف) الكيماوية والبيولوجية ـ لكن المصانع التي يمكن بها تنفيذ ذلك وقع تدميرها، وهو (روبين كوك) واثق من أن العراقيين لم يتمكنوا من إعادة بناء وتشغيل هذه المصانع (لتجديد صلاحية أسلحتهم الكيماوية والبيولوجية)، وهو بنفسه كان يتابع هذا الموضوع عندما كان وزيرا للخارجية، بحكم تبعية هيئة المخابرات الخارجية M.I.6 لوزارته، وقد كان يجتمع بالمسئولين عنها مرة كل أسبوع، ولم يسمع ولم يقرأ ورقة واحدة تشير إلى إعادة بناء تلك المصانع أو تشغيلها، بل العكس فقد كان تقدير خبراء «M.I.6» أن النظام في العراق بعد أن أدرك عدم قدرته على استعمال هذا النوع من السلاح في حرب سنة ١٩٩١ ـ وبعد اضطراره إلى تدمير ما لديه منها في أعقاب الحرب ـ وبعد مجيء «الأونسكوم» لتكمل مهمة التدمير ـ لم يعد حريصا ولا كانت لديه الوسائل اللازمة ولا الاستثمارات الفائضة ليعيد استيراد مصانع تعبئة يجدد بها أسلحة الدمار الشامل».

....

....

معلومات

[والحاصل أن «روبين كوك» كان قريبا من الحقيقة بأكثر مما قدر، ذلك أن العراقيين عندما وجدوا أن صلاحية ما أخفوه من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية استنفدت صلاحيتها ـ وجدوا أنفسهم أمام خيارات مستحيلة:

فهم لا يستطيعون تجديدها، وهم لا يستطيعون الاحتفاظ بها في حالة تآكل وتهالك، لأن بعض هذه الأسلحة (خصوصا في المجال البيولوجي) قابلة للتسرب بحركتها الذاتية، لأنها في الواقع من أنواع الجراثيم، ومعنى ذلك أن خطرها على الشعب العراقي بسبب التسرب يصبح أكثر احتمالا من خطرها على أي عدو مهاجم على الأقل باستحالة استعمالها.

وفي الحالتين فإن استمرار بقاء هذه الأسلحة في هذه الأحوال يعرض أمرها للانكشاف بواسطة بعثات التفتيش، وبالتالي يؤخر رفع العقوبات عن العراق.

وهنا وفي وقت ما بين ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ تقرر التخلص من تلك الأسلحة تماما والانتهاء من أمرها، مع الاعتماد على وجود ما يكفي من العلم بأمورها في عقول الفنيين وفي أوراق أبحاثهم].

....

....

معلومات

ـ واستطلع مكتب «توني بلير» آراء عدد من الرجال والنساء المؤثرين على اتجاهات الرأي العام ـ وبينهم زعامات في الحركة النقابية، ولم يجد تأييدا واسعا لحرب على العراق بالشراكة مع الولايات المتحدة، ومن اللافت أن معظم التأييد الذي لقيه «بلير» جاء من أعداء تقليديين لحزب العمال وافقوه على ضرورة ـ !ـ امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل ـ وكان بينهم «روبرت مردوخ» مالك مجموعة صحف «التيمس»، و«كونراد بلاك» صاحب مجموعة «التلجراف».

وفي نهاية المطاف فإن رئيس الوزراء ظل مقتنعا بأنه لا يملك خيارا غير «الالتحام» بالموقف الأمريكي ومنطقه قائم على عدة أسباب:

• إن غزو العراق سوف يقع سواء شاركت بريطانيا أو امتنعت (ولهذا فالأفضل لها أن تشترك).

• إن العمل الأمريكي القادم بالسلاح في منطقة الخليج العربي ـ وهي منطقة من العالم مازالت تعترف ببقايا نفوذ إمبراطوري بريطاني (ولذلك يُستحسن أن تكون بريطانيا هناك).

• إن أوروبا الغربية مازالت تشك في بريطانيا المترددة في اعتبار نفسها جزءا لا يتجزأ من القارة، فإذا زاد على الشك الأوروبي ـ شك آخر أمريكي ـ فإن بريطانيا تصبح في عُزلة كاملة عن كافة «القوى في العالم».

• إن هناك مواريث ثقافية ـ بحكم اللغة الإنجليزية على الأقل ـ تربط بريطانيا مع الولايات المتحدة بعلاقة خاصة، ومن واجب بريطانيا أن تحرص على هذه المواريث، لأنها في النهاية تقبل الترجمة إلى لغة المصالح.

وهكذا في أوائل سبتمبر ٢٠٠٢ قام «توني بلير» بإبلاغ «جورج بوش» أنه يستطيع أن يعتمد على بريطانيا كائنا ما كان قراره، فذلك الحلف بين البلدين لا يتزعزع، ثم هو صداقة مبرأة من انتهازية الآخرين!!

«روبين كوك» زعيم الأغلبية بمجلس العموم موجها حديثه إلى «توني بلير» رئيس الوزراء: «أنا في دهشة من مقولة أن العراق يملك أسلحة دمار شامل، وأن تجريده من هذه الأسلحة هو المبرر القانوني والأخلاقي للغزو. فالعراق كانت لديه مثل هذه الأسلحة في حرب الخليج التي سبقت ـ قبل ١١ سنة ـ لكنه مقتنع بأنها لم تعد موجودة الآن، والأسباب متعددة

رابعـــا:

قـــــرار وخطــــة الحــــرب!

يوم الخميس ١٢ سبتمبر وقف الرئيس «جورج بوش» على منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة، يلقى بيانه المُنتَظر وكان ملخصه: «أنه إما أن يقبل العراق عودة المفتشين إليه للبت فى موضوع أسلحة الدمار الشامل، والعثور عليها، والخلاص منها نهائيا مع بقاء نظام دائم للرقابة - وإما أنها الحرب، وليس بين الاحتمالين مجال لحل وسط، كما أنه ليس مستعدا لسماع شروط، وإنما طلبه الوحيد هو الانصياع الكامل بلا قيد ولا تحفظ».

وفى اليوم التالى أعلنت الحكومة العراقية رفضها لطلب الرئيس الأمريكى، مؤكدة فى الوقت نفسه أنها لا تملك أسلحة دمار شامل من أى نوع: لا نووية ولا كيماوية ولا بيولوجية.

والحقيقة أنه كان هناك شبه إجماع دولى على أن العراق فقد قاعدة إمكانياته النووية عندما قامت إسرائيل بتدمير مفاعله (أوزيراك) فى غارتها الشهيرة عليه (ربيع ١٩٨١)، وكان كثيرون فى العالم على قناعة بأن النظام فى العراق توصل إلى أن الخيار النووى يتعدى قدراته الراهنة، وكان ذلك - أيضا - رأى لجنة الطاقة النووية، التى كان رئيسها فى ذلك الوقت هو رئيس فريق المفتشين الجديد: الدكتور «هانز بليكس»، لكن منطقة الظل الرمادى ظلت قائمة إلى حد ما فى مجال الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، لأن أمرها يحتمل الالتباس، خصوصا أن الرأى العام العالمى - على مستوى المتابعة الإخبارية السريعة - لا يتذكر أن هذه الأنواع من الأسلحة لها مدة صلاحية لا تتجاوزها - إذا لم تتوافر وسائل تجديدها مرة أخرى!

وكان هناك أطراف دوليون على استعداد لتصديق العراق فى نفيه لوجود أسلحة كيماوية وبيولوجية لديه، وكان بين هؤلاء الأطراف من أبدى استعداده لمواجهة سياسية فى مجلس الأمن حول هذا الأمر مع الولايات المتحدة - والشرط أن يقبل العراق بالتفتيش: باعتبار أنه إذا لم يكن لديه ما يخفيه فما الذى يخيفه من استقبال «بليكس» وفريقه فى العراق وتمكينهم من أداء مهمة تكشف براءته بشهادة الخبراء؟

لكن النظام فى العراق ظل يحاول أن يجد مخرجا، ولم تُجدِ المحاولات، وبينها دعوة لـ «بليكس» إلى زيارة فى العراق «للتباحث فى الموضوع»، وأعلن «بليكس» أنه يرفض الدعوة.

ولم تكن الولايات المتحدة راضية. ولا كان لديها الوقت لتسمع، لأن اهتمامها كان من الأول للآخر محصورا فى الخطط العسكرية، وزادت عليه تلك الخلافات التى احتدمت حولها داخل «البنتاجون» بين مكتب وزير الدفاع وبين هيئة رئاسة الأركان المشتركة، خصوصا عندما دخل الجنرال «تومى فرانكس» قائد المنطقة المركزية المكلفة بالحرب - على الخط معتمدا على صداقة قديمة تربطه بالرئيس «جورج بوش».

معلومات

كان «جورج بوش» هو الذى دعا قائد المنطقة المركزية - المكلف «بعملية العراق» إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع الثالث من شهر أغسطس (٢٠٠٢) معه، فى مزرعته (كراوفورد) فى تكساس، وكان الرجلان - وكلاهما من ولاية تكساس (كان «تومى فرانكس» من مواليد بلدة ميدواى - تكساس) - قد عرفا بعضهما من زمن طويل، ثم حدث أن علاقاتهما توثقت عندما تقابلا عدة مرات فى فلوريدا، لأن «جيب بوش» شقيق الرئيس هو حاكم فلوريدا، وفلوريدا هى مقر قيادة قوات المنطقة المركزية (التى يقودها «تومى فرانكس»).

وقد سُئل الجنرال «فرانكس» وهو يغادر مزرعة الرئيس بعد الغداء يوم الأحد (٢٥ أغسطس)، وكان رده على الصحفيين الذين سألوه:

"إنه جاء إلى هنا مع زوجته بوصفهما أصدقاء لأسرة «بوش»، وهو يعرف الفارق بين الاجتماعى والوظيفى، وهو لم يفاتح الرئيس مبتدئا فى شىء لأنه لا يستطيع أن يتكلم مع القائد العام بدون حضور وزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان».

لكنه طبقا للذين يعرفون التفاصيل (بحكم مواقعهم) - فإن «بوش» بالفعل أثار موضوع العراق، مبتدئا بقوله للجنرال «فرانكس": «إنه يراجع الآن نص خطابه أمام الأمم المتحدة (بعد ذلك بثلاثة أسابيع)».

واتسع باب الكلام ووصل إلى مسألة الخلافات بين وزير الدفاع وهيئة أركان الحرب، وعندها اعتبر الجنرال «فرانكس» أن من حقه أن يشير إلى النقطة الحيوية بالنسبة له وهى حجم القوات المتاحة المخصصة لعملية العراق، وأبدى «فرانكس» أن وزير الدفاع حاول أن يتوصل خلال اجتماعات أخيرة إلى صيغة حل وسط مع هيئة أركان الحرب المشتركة، إلا أن الحد الذى عرضه لا يزال - فى تقديره - (تقدير الجنرال «فرانكس») دون الكفاية، ومع أن هيئة أركان الحرب تحاول بكل وسيلة أن لا تثير مشاكل مع الوزير ومعاونيه، فإن هناك مسائل معلقة لا يمكن أن يحسمها غير القائد العام (أى الرئيس نفسه).

كان «رامسفيلد» فى تلك الاجتماعات قد وافق على قوة توازى ضعف ما كان عرضه أولا، أى قرابة مائة ألف جندى، ولم تكن رئاسة الأركان مع تقديرها لنظرية الوزير عن معركة تدور بأقصى سرعة وأقصى خفة Fighting Fast and Fighting Light - تعتقد أن ما يعرضه «رامسفيلد» الآن يكفيها، وأبدى «فرانكس» أنه «فيما يتعلق به شخصيا كقائد مسئول عن الحرب القادمة فهو يريد أن يساعد، ولكنه لا يريد أن يغامر، ولكى يسهل الأمور على الوزير ومعاونيه فإن ما يستطيع أن يساعد به هو تقليل مدة بقاء القوات فى الميدان إلى أقصى حد ممكن. وهو لا يريد الآن أكثر من أن يطمئن على هياكل القوات وعلى خطوط إدارة العمليات، لكنه لا يريد وصول القوات إلى مسرح العمليات إلا قبل ساعة الصفر بأسابيع قليلة، هذا مع أنه لا يرغب فى تدفق مكشوف للقوات على المسرح فى آخر وقت».

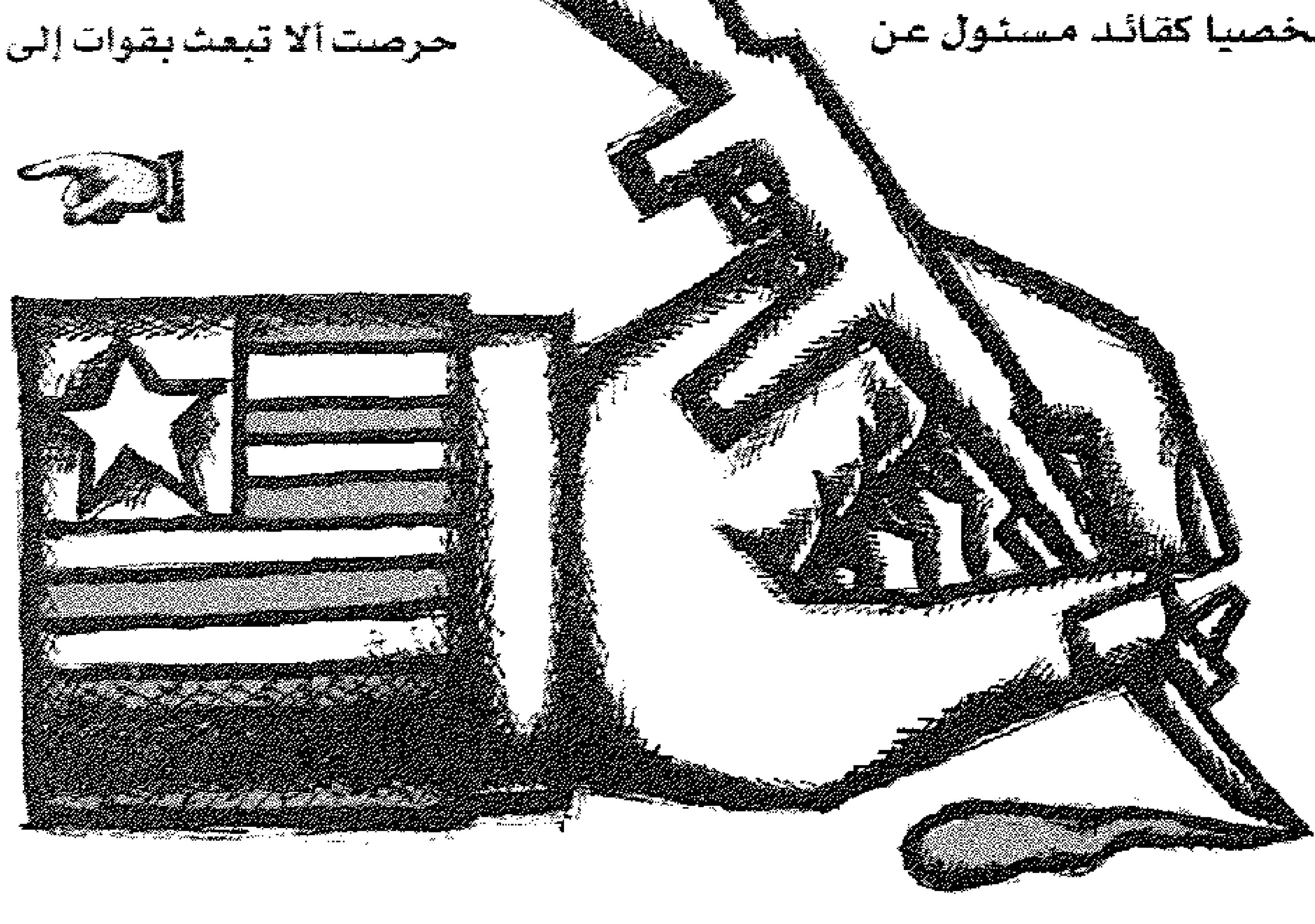
وأبدى الجنرال «فرانكس» تقديره لأن القوات البريطانية أبلغته أنها سوف تسبق فى الوصول إلى مواقع الحشد، لأن قواعدها جاهزة، ولأنها لا تريد زحاما فى اللحظة الأخيرة يُحدث للحكومة حرجا سياسيا إذا بدت فى موقف عناد مستفز للرأى العام البريطانى، وبالطبع فإنه مما يساعد البريطانيين على ذلك أن مشاركتهم محدودة بأربعة ألوية من المدرعات والقوات البرية والقوات الخاصة - (ما بين خمسة وثلاثين إلى أربعين ألف رجل)، وذلك يريحه (الجنرال فرانكس) على نحو ما، لأن معناه درجة من الانتشار حول مسرح العمليات وعلى مداخله، خصوصا وهو شبه واثق أن العراق ليس بمقدوره أن يوجه ضربة استباقية للقوات حتى وهو يراها تحتشد أمامه. وطبقا لما لديه من معلومات فإن مواقع القوات العراقية لم تتغير خلال السنوات الأخيرة وهو أمر يدهشه، ثم إن التركيز الرئيسى لهذه القوات فى الشمال بتوقع أن تكون الضربة الرئيسية فى اتجاه «بغداد» مباشرة عن طريق كركوك (الموصل).

....

....

معلومات

[وثبت أن الجنرال «تومى فرانكس» كان دقيقا فيما أورده عن تحركات القوات البريطانية، لكن الذى تكشف فيما بعد هو أن القيادة البريطانية السياسية والعسكرية - ورغبة منها فى التستر على تحركات قواتها نحو العراق سبتمبر ٢٠٠٢ - حرصت ألا تبعث بقوات إلى



مسرح العمليات فى الخليج من القواعد البريطانية ذاتها، بل آثرت إرسال تشكيلات من قواتها العاملة فى ألمانيا تحت لواء حلف الأطلنطى، وكذلك بدا أن القوات التى تتحرك من الجزر البريطانية قاصدة إلى أوروبا (بالتوافق مع قوات بريطانية تغادر أوروبا فى نفس الوقت إلى الخليج). وإمعانا فى الإخفاء فإن هذه القوات المتحركة من أوروبا إلى الخليج توجهت إليه فى البداية دون عتادها بل ودون مهماتها، وقد ظهر عند التجربة العملية (وطبقا لتقرير صادر عن الجيش البريطانى أواخر شهر يونية ٢٠٠٣ - أى بعد انتهاء العمليات بثلاثة شهور) «أن فرقة المشاة الخفيفة الأولى شاركت فى القتال حول البصرة بغير أسلحتها القتالية الثقيلة والعادية، وبغير ملابسها الصيفية، وبغير خوذات الميدان على رؤوس أفرادها، وبغير قنابلها اليدوية، وبغير مناظير الرؤية الليلية، وبغير حتى أحذية الصحراء».]

....

....

معلومات

وفى نهاية لقائه مع الرئيس «بوش» فى مزرعة «كراوفورد» (تكساس) أبدى الجنرال «فرانكس» أنه سوف يسافر إلى منطقة قيادته ويغيب هناك فترة لا تزيد عن أسبوعين ثم يعود ومعه آخر صورة على الطبيعة، لكنه حتى ذلك الوقت يرجو الرئيس بوصفه القائد العام أن يهتم بقضية العلاقات بين هيئة رئاسة الأركان وبين وزير الدفاع وأعضاء مكتبه من المدنيين (وفى الغالب فإنه كان يشير إلى «بول وولفويتز» مساعد الوزير، و«ريتشارد بيرل» رئيس مجلس سياسات الدفاع)، «ذلك أن هذه العلاقة لاتزال خشنة، وتحتاج إلى عملية «تزييت» تجعلها «سلسة»».

وقبل أن يتوجه الجنرال «فرانكس» إلى مركز قيادته، دعاه نائب الرئيس «ريتشارد تشينى» إلى إفطار معه لأنه أراد أن يسمع منه مباشرة (وفى الغالب أن ذلك تم بطلب من الرئيس «بوش»).

وبعد أيام كان الجنرال «تومى فرانكس» فى طريقه إلى المنطقة قاصدا أن يتفقد مركز قيادته فى «قطر»، ويحضر تجربة عملية لمراكز الربط بين القوات فى الميدان ومع مركز الإدارة الجديدة لنقل المعلومات الفورية إلى مستوى «السرايا»، بما فى ذلك سرايا القوات الخاصة حيث تكون، وقد أنشئ لهذا الربط جهاز إدارة خاص، أدخل الفضاء عنصرا لأول مرة فى الحرب. وكان مقر ذلك الجهاز قاعدة الأمير «سلطان» فى «السعودية».

متابعة

فجأة يوم الاثنين ١٦ سبتمبر - أى بعد أربعة أيام من خطاب الرئيس «بوش» أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وبعد ثلاثة أيام من رفض عراقى قاطع لعودة المفتشين الدوليين - تلقى الأمين العام للأمم المتحدة تبليغا بأن الحكومة العراقية غيرت رأيها، وقبلت استقبال المفتشين الدوليين - «هانز بليكس» وفريقه، وكذلك الدكتور «محمد البرادعى» (رئيس الوكالة الدولية للطاقة النووية).

وقام «دوفيلبان» (وزير خارجية فرنسا) بإخطار السكرتير العام للأمم المتحدة أن وزير خارجية العراق السيد «ناجى صبرى» سوف يطلب مقابلة فى دقائق لينقل إليه رسالة حُسن نية، يعلن فيها نزول العراق على إرادة المجتمع الدولى وقبول تفتيش كافة منشآته وقواعده وأى مكان فى أرضه، بما فى ذلك القصور الرئاسية - وبدون قيد أو شرط.

وكان ذلك منعطفا رآه معظم أعضاء مجلس الأمن بابًا إلى انفراج الأزمة، وجرى التعبير عن ذلك فعلا فى «باريس» و«موسكو» و«برلين».

لكن ردة الفعل فى «واشنطن» بدت مستغربة، ومؤكدة لأسوأ مخاوف هؤلاء الذين تشككوا من البداية فى النوايا الأمريكية مهما فعل العراق، لأن القضية لم تعد وجود أو عدم وجود أسلحة للدمار الشامل، وإنما القضية هى «الاستيلاء على العراق» وإسقاط النظام فيه واحتلال البلد.

معلومات

وبالفعل فإنه يوم الاثنين ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٢، كان الرئيس «جورج بوش» يجلس فى قاعة مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض ومعه نائبه «ريتشارد تشينى»، وحول المائدة من ناحية جلس وزير الدفاع ومساعدوه، وعلى الناحية الأخرى جلس رؤساء هيئة أركان الحرب ومعهم مجموعة محددة من المستشارين - فقد جاء الآن وقت عرض خطة العمل العسكرى، وكان على رئيس الأركان الجنرال «ريتشارد مايرز» أن يشرح هيكلها العام، وبعده يجىء الدور على الجنرال «تومى فرانكس» قائد القيادة المركزية المكلفة بالحرب على العراق - ليتحدث عن تفاصيل العمليات والتحركات.

....

....

شهادات

[وطبقا لرواية «بول وولفويتز» (مساعد وزير الدفاع) فى شهادة مسجلة بصوته فى حديث للملحق الأسبوعى لمجلة «نيويوركر» فإن «الاجتماع بدأ بملاحظات سريعة حول اتجاهات الرأى العام، بما فيها مظاهرات جرت فى نيويورك، وتعليقات نشرتها الصحف، وتدخل الرئيس فى المناقشة قائلا وهو يهز رأسه بأسف: «إن هؤلاء «الكُتّاب اليساريين» لن يرضوا عنى مهما فعلت»، ثم راح يروى نكتة تشرح وجهة نظره. روى:

«أن بابا الفاتيكان كان ضيفا على عائلته فى عطلة نهاية الأسبوع فى «كينيبنكبورت» على شاطئ ماين، وأخذه هو (بوش) فى نزهة بحرية فى قارب سريع راح يشق الموج وسط الريح، وفجأة إذا بقوة الريح تخلع قبعة البابا وتقذف بها وسط الأمواج.

يستكمل «بوش» النكتة:

النكتة تقول إننى أوقفت القارب ونزلت إلى الماء ماشيا على سطح الموج واستعدت قبعة البابا وعُدت بها إليه.

الصُحُف فى اليوم التالى لم تقل فى عناوينها أننى حين مشيت على الموج قمت بمعجزة، لكن خرجت تقول:

«هذا الرئيس الغبى لم يتعلم درس السباحة، ولم يتقن فن العوم!».

واستطرد «بوش» معلقا:

«هذه النكتة لها معنى بالنسبة لى - هو أن ليس علىّ أن أهتم بأى شىء يقوله هؤلاء المغرضون. ومهما فعلت فإننى لن أعجبهم، ولا يهمنى أن أعجبهم!»].

....

....

شهادات

كان وزير الخارجية «كولين باول» مشاركا فى الاجتماع بوصفه عضوا فى مجلس الأمن القومى، وقد قال لمستشارة الأمن القومى «كونداليزا رايس» قبل الاجتماع «أنه سوف يقلص تدخله عند مناقشة الشئون العسكرية إلى أقصى حد، لأنه يقدر أن ذلك الآن ليس اختصاصه، ثم إنه يريد للاجتماع أن يكون «مناقشة عسكرية راهنة» معلقة بهذه اللحظة وليس بما قبلها، وفى إطار ما يراه المسئولون عن تنفيذها وليس فى أى إطار آخر. وفيما بعد أشار «كولين باول» إلى أن ذلك الاجتماع كان من أصعب ما شارك فيه، «فهو بحكم تجربته يعرف أكثر من آخرين، لكنه بحكم مسئوليته الحالية يرد نفسه». وقد سمع أثناء المناقشات إشارات إلى آرائه التى شكلت الإستراتيجية الأمريكية العسكرية خلال السنوات العشر الأخيرة - لكنه برغم ذلك منع نفسه من التعليق، وإن اضطر للتدخل عدة مرات خلال المناقشة حتى لا يثير حساسيات أو مشاكل جانبية.

....

....

[روى «كولين باول» هذه التفاصيل فى إطار جلسات مخصصة لتسجيل سريع لوقائع وانطباعات حية لا تزال فى ذاكرة وناظرة أصحابها، وذلك أسوة بما فعله الرئيس «جون كنيدى» أيام أزمة الصواريخ، إذ أمر بتسجيل كل اجتماعات مجلس الأمن القومى بالصوت والصورة أثناء وقوعها لكى يمكن الإمساك بالتاريخ حيا «مرئيا ومسموعا».]

....

....

فى نهاية لقاء الجنرال «فرانكس» مع الرئيس «بوش» رجاه بوصفه القائد العام أن يهتم بقضية العلاقات بين هيئة رئاسة الأركان وبين وزير الدفاع وأعضاء مكتبه من المدنيين (وفى الغالب فإنه كان يشير إلى «بول وولفويتز» مساعد الوزير، و«ريتشارد بيرل» رئيس مجلس سياسات الدفاع)، «ذلك أن هذه العلاقة لاتزال خشنة، وتحتاج إلى عملية «تزييت» تجعلها «سلسة» »

معلومات

كان ذلك الاجتماع فى ٢٣ سبتمبر (٢٠٠٢) هو الفرصة التى تمكنت فيها هيئة الأركان المشتركة من إقناع الرئيس بزيادة حجم القوات المخصصة للعملية، بحيث زادت من حدود الخمسين ألفا التى اقترحها «رامسفيلد» فى البداية، إلى حدود مائة ألف التى قبل بها كحل وسط مع هيئة الأركان - إلى مائة وخمسين ألفا فى حضور الرئيس، وبعد ذلك عرض الجنرال «تومى فرانكس» العائد لتوه من منطقة الحرب القادمة تقريره عما لاحظه.

وكان إطار الخطة المعروض فى الاجتماع - (طبقا لتقرير أعده «مركز دراسات الأمن العالمى» برئاسة الجنرال المتقاعد «جون بيت») - على النحو التالى:

- ٩ قواعد فى منطقة العمليات وحولها، منها سبعة فى سبع دول عربية، واثنتان إحداهما فى تركيا والثانية فى جزيرة «دييجو جارسيا» (يحدد التقرير الأصلى مواقع هذه القواعد فى الدول العربية، ولم أشأ أن أنقلها فى هذا الحديث حتى لا يتصور طرف أن إحراجه مقصود).

- ٦ حاملات طائرات تتواجد فى المنطقة على أهبة الاستعداد للاشتراك فى العمليات، تتوزع من الخليج إلى البحر الأحمر إلى المحيط الهندى.

- ٤ مناطق حشد للقوات المتقدمة على الأرض من ثلاثة بلدان عربية، واحدة منها تُخصَّصُ لتحركات القوات الخاصة الأمريكية - ومبكرا قبل ساعة الصفر بأسابيع.

- حجم القوات المشاركة فى العملية:

٧ - ٨ فرق أمريكية (حوالى مائة وخمسين ألف رجل).

٤ ألوية بريطانية (ما بين ٣٥ إلى ٤٠ ألف رجل).

فرقتان من الجيش التركى (بحجم خمسين ألف رجل).

- قوات خاصة غير نظامية تابعة لفرق عراقية معارضة:

١٥٠٠٠ من قوات الحزب الديمقراطى الكردى (مسعود برزانى).

١٠٠٠٠ من قوات الحزب الوطنى الكردستانى (جلال طالبانى).

٦٠٠٠ قوات شيعية (تابعة لجماعات معارضة).

٥٠٠٠ قوات تابعة لأحزاب عراقية فى المنفى، وقد توجه بعضها للتدريب فى معسكر خاص فى المجر.

وكان تقدير التحركات (طبقا لنفس التقرير الذى وقعه «جون بيت») - كما يلى:

١٠ أيام لحشد المعدات فى مواقع الهجوم.

١٠ أيام لدخول القوات إلى الخطوط استعدادا لساعة الصفر.

١٠ أيام للوصول إلى بغداد وتجاوز المدن دون خشية، لأن أى محاولة عراقية لقطع الخطوط يمكن تثبيتها والقضاء عليها بالطيران.

وكان هناك اتفاق عام على أن الخطة يمكن تنفيذها فى هذه التوقيتات، ولم تكن هناك خشية من حرب على نطاق واسع فى المدن، لأن هذا النوع من الوقفات الباسلة (على طريقة ستالينجراد ولينينجراد) فات وقته، وأنهته أسلحة الصواريخ والليزر والقنابل العنقودية.

وكان المنطق الرئيسى للخطة هو أنه عندما تبدأ «ضربة الصدمة والرعب» الأولى وتشعر القوات العراقية (الجيش والحرس) أن الموضوع جد لا هزل فيه، وأن القتال إلى النهاية محتوم - وفى ظروف ينعدم فيها التوازن بين الطرفين المتحاربين، وفى غيبة هدف وطنى يستحق التضحية - فإن هذه القوات لن تخوض معركة يائسة من أجل لا شىء، لأن العسكريين يموتون فى المواقع دفاعا عن وطن، وأما إذا ضاع الحافز الوطنى فأى عسكرى يعرف أن التضحية بالدم انتحار لا فائدة منه، ثم إنه لا يسجل تاريخا لأن دافع المبدأ وداعى الوطنية وراءه ضائع.

وكانت كل المعلومات الواردة من الداخل خصوصا بواسطة شبكة استطلاع تصغى إلى كل همسة تجرى فى القواعد العراقية والمعسكرات - تزكى الافتراض الأمريكى بأن الحرب سوف تكون بالفعل سريعة وخفيفة - عنيفة وقاسية فى نفس اللحظة.

ويوما بعد يوم - ساعة بعد ساعة كانت الخطة العسكرية تتكامل، بينما انتقلت بؤرة الحركة إلى الساحة السياسية: واشنطن ونيويورك ولندن - باريس وموسكو وبرلين، وتصادمت وتراشقت السياسات والمواقف والبيانات والتصريحات ألسنة لهب (بارد!) تشتعل وتنطفئ ثم تعود إلى الاشتعال مرة أخرى ■

خامسا:

قوة الشرعية
أو قوة السلاح!

متابعة

■ كانت الصورة فى مجلس الأمن فوضى عارمة، فالمعلومات الواردة من واشنطن إلى نيويورك تكشف للوفود جميعا أنه برغم استعداد العراق لقبول عودة المفتشين إليه لاستئناف مهمتهم بلا قيد ولا شرط (حتى فى القصور الرئاسية) - فإن الولايات المتحدة وبريطانيا تقومان الآن بالتعطيل بادعاء عدم الجدوى، لأن النظام فى العراق لم يقبل بعودة فريق المفتشين إلا بعد أن تمكن من إخفاء ما لديه من أسلحة الدمار الشامل.

وفى أوائل أكتوبر كان الملحقون العسكريون لسفارات فرنسا وروسيا وألمانيا فى واشنطن يحضرون يوميا إلى نيويورك لإحاطة وفود بلادهم علما بمدى تقدم الاستعدادات للحرب، وبتصميم الرئيس الأمريكى على إسقاط النظام فى العراق واحتلال البلد، وباعتبار أن الولايات المتحدة وبريطانيا لديهما من الذرائع ما يكفى - دون حاجة لقرار من مجلس الأمن تصدره وفود لا تعرف ما فيه الكفاية، وتعبر عن حكومات ليست معنية بغير ما يمسها مباشرة - ثم إن معظمها حكومات لا تنوى المشاركة مهما كان فى العمليات العسكرية المقبلة، لأنها مرتبطة مع النظام العراقى إما بمستحقات ديون تنتظر تحصيلها، وإما بعقود استغلال للبترول آجلة تتمسك بها ولا يضمن تسليمها غير النظام الحاكم فى العراق الآن.

وبدا أن المواجهة السياسية فى نيويورك تجرى على عدة مستويات:

- مستوى وفود الدول الكبرى فى مجلس الأمن، ومعها الأمانة العامة للأمم المتحدة، وطلب هؤلاء المُلِح إعطاء المفتشين الدوليين تفويضا من مجلس الأمن يمنحهم سلطة فوق حكومة العراق ذاتها.

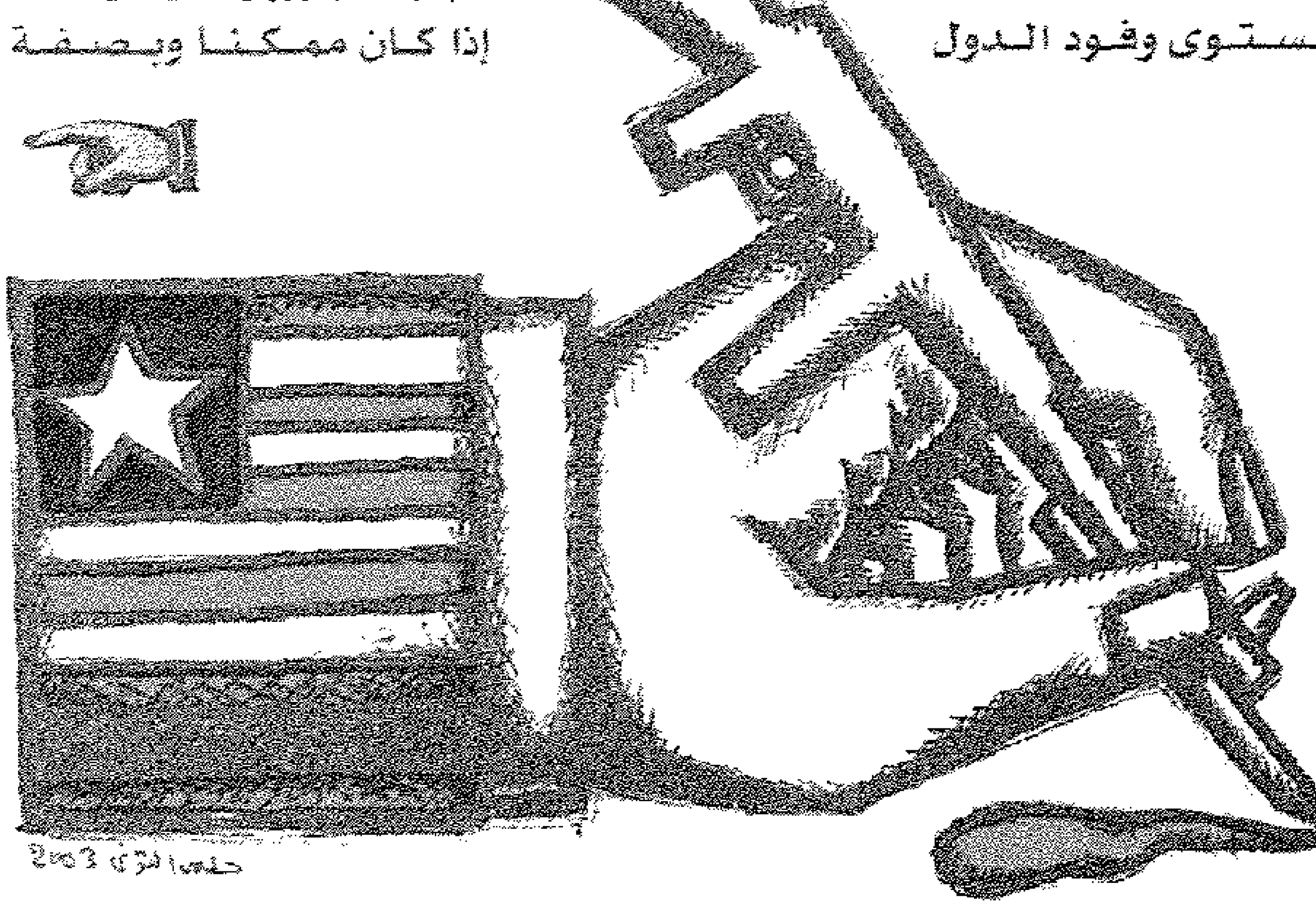
- ومستوى آخر شعبى تولاه فكر وإعلام مستنير خصوصا فى أوروبا، وساندته قطاعات ضخمة من الرأى العام الدولى - حتى فى الولايات المتحدة - لأن الكل بدأ يرى نوايا العدوان ظاهرة ويبادر إلى إدانتها، بظن أن فى الإمكان إيقاف العملية قبل أن تدور تروسها!

- ومستوى ثالث من المواجهة - حشدت فيه الإدارة الأمريكية أقطابها من الإمبراطوريين الجُدد - صروحا من الصخر لا تتأثر، وتطل على ما ترى أمامها وتسمع دون استجابة، وبدا أنه عناد تحكم فى العقل، وأنه غرور القوة وأخذ أصحابه إلى منتهاه.

شهادات

على أن قصارى ما كانت الإدارة فى واشنطن على استعداد له هو إلحاحها المستمر على امتلاك معلومات سرية عن أسلحة الدمار الشامل كيماوية وبيولوجية (وربما نووية أيضا) يملكها العراق، ومن المدهش أن وكالة المخابرات المركزية فى ذلك الوقت كانت أول من يشكك فى صدق المعلومات التى تدعى الإدارة الأمريكية بامتلاكها.

وحدث بالفعل أن السكرتير العام للأمم المتحدة «كوفى أنان» انتهز فرصة لقاء مع المندوب الأمريكى الدائم السفير «جون نجروبونتى»، وسأله إذا كان ممكنا بصفة



القوات المسلحة فى السياسة الأمريكية

شخصية وسرية أن يحصل على ملخص معلومات من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. يؤكد امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل.

وكانت هناك سوابق لمثل هذا الطلب في مناسبات سابقة حين أرادت واشنطن أن تكون الأمانة العامة للأمم المتحدة على علم بدواعيها في تصرف معين أو ظرف طارئ، وفي تلك المناسبات السابقة تلقى الأمين العام بصفة شخصية ملخص معلومات. وفي بعض الأحيان جاء إلى مكتبه مندوب خاص من الوكالة يقدم له مباشرة «إيجازا» يحوى ما يلزم له أن يطلّع عليه.

ومع أن المندوب الأمريكي الدائم السفير «جون نجروبونتي» وعد «كوفي أنان» بنقل طلبه إلى واشنطن، إلا أن السكرتير العام للأمم المتحدة لم يتلق ردا، وقد يئس من تلقى الرد عندما شاعت في أروقة مجلس الأمن- (نقلا عن المُلْحَق العسكري لإحدى القوى دائمة العضوية في المجلس) - روايات مؤداها «أن وكالة المخابرات المركزية اضطرت إلى عقد صفقة تراضي مع المجموعة الإمبراطورية في الإدارة، وبمقتضى الصفقة تسكت الوكالة وتكتم شكوكها - وفي المقابل فإن الآخرين يسكتون ويكتمون على إهمال الوكالة وتقصيرها في شأن حوادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

....

....

متابعة

في الوقت نفسه كانت رئاسة الوزارة البريطانية منهمكة في عملية «دعاية سوداء» مماثلة، فقد أصدر مكتب «تونى بلير» رئيس الوزراء «بيان معلومات» لما تملكه الحكومة البريطانية من أدلة على امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، وأحدث ذلك البيان توترا ملحوظا في «هوايتهول»، داعيه أن أجهزة المخابرات المسئولة وفيها جهاز المخابرات الخارجية (M.I.8) راحت تسرب معلومات بأن ما أذيع عن طريق مكتب رئيس الوزراء لم يكن من عندها، وإنما جاء من مصادر أخرى لا يعلمها غير مكتب رئيس الوزراء، لأن ما لديها هي (M.I.6) يتناقض مع ما صدر رسميا عن مكتب «تونى بلير»، ووصل الأمر إلى حد أن بعض المسئولين في جهاز المخابرات اتصلوا فعلا - في سابقة قل نظيرها - بأعضاء في الوزارة (منهم وزيرة التعاون الدولي «كلارا شورت» وفق روايتها) كي يبرئوا ساحتهم من مسئولية هذه المعلومات وما قد يترتب عليها من عواقب.

يوم ٧ أكتوبر (٢٠٠٢). وكانت عملية المواجهة السياسية تتطور بسرعة - دفع الرئيس «جورج بوش» عجلة الحوادث إلى الدوران أسرع بإعلانه في بيان لـ: الأمة الأمريكية «أن صدام حسين يستطيع مهاجمة الولايات المتحدة أو حلفائها الأقربين بأسلحة الدمار الشامل في أي «يوم يختاره»، وأن إدارته سوف تؤدي الواجب العاجل المفروض عليها لمواجهة أسوأ الاحتمالات».

وطلب الرئيس «بوش» تفويضا من الكونجرس باستعمال القوة المسلحة إذا وجد ذلك ضروريا، وبالفعل حصل على هذا التفويض يوم ١١ أكتوبر (٢٠٠٢)، وفي ظرف ساعات كان وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» يطلب من هيئة أركان الحرب المشتركة أن تتحرك مجموعة الجيش الخامس وفرقة جنود المارينز الأولى إلى منطقة الخليج.

وفي هذه اللحظة (منتصف أكتوبر ٢٠٠٢) وقع «إشكال من نوع ما» لا يستطيع أحد أن يقطع في تفاصيله، بين مكتب وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» وبين هيئة أركان الحرب المشتركة وعلى رأسها الجنرال «مايرز».

كان الإشكال فيما يبدو متصلا بصياغة التوجيه السياسي إلى القوات المسلحة بشن الحرب على العراق.

كانت العلاقات من الأصل متوترة بين وزارة الدفاع وبين رئاسة أركان الحرب، والأسباب معروفة:

- فيها رغبة وزير الدفاع الجديد في وضع العسكريين في مكانهم الصحيح بعد نوع من «الشرود» زمن إدارة «كلينتون» (كذلك تقدير «رامسفيلد»).
- وفيها نوعية الرجال الذين جاءوا مع «رامسفيلد» إلى وزارة الدفاع وأحاطوا به معتبرين أنفسهم خبراء في الإستراتيجية، ولهم مشروع إمبراطوري عالمي شامل.
- وفيها اعتقاد الوزير ورجاله بأن المؤسسة العسكرية الأمريكية (جنرالات «كلينتون») ترهلوا وفقدوا شهية القتال، وأعفوا أنفسهم من مسئوليته.
- وفيها خلاف «رامسفيلد» مع عقيدة «باول» التي حددت شروطا لاستعمال القوة، تقوم على أساس أن ظهور تفوقها قد يغني عن استعمال سلاحها.
- وفيها ما وقع خلال التحضير لعملية العراق من خلافات حول حجم القوات الضرورية لتنفيذها.
- وفيها أيضا ما يتصل بالخطوط الإستراتيجية العامة التي يقترحها «رامسفيلد»، والتي تعتمد على ضربة أولى بالصدمة والرعب، يعقبها تقدم سريع مباشرة إلى بغداد دون اهتمام كبير بتأمين المؤخرة والحفاظ على خطوط المواصلات والإمداد وتأمينها.

والآن وإزاء كل ما كان يجري في «واشنطن» و«نيويورك» و«لندن»، وفي «باريس» و«موسكو» و«برلين». فإن رئاسة القوات عاودها ما استوجب «إشكالا» «من نوع ما» مع وزير الدفاع.

معلومات

في يوم من أيام الأسبوع الأول من أكتوبر (٢٠٠٢) اتصل وزير الخارجية «كولين باول» بمستشارة الأمن القومي للرئيس «بوش» السيدة «كونداليزا رايس»، ورتب معها اجتماعا على غداء لا يحضره غيرهما. وبالفعل وقع الاجتماع على الغداء في الجناح الخاص بوزير الخارجية في مبنى الوزارة المشهور باسم ("فوجي بوتوم").

وفيما هو متاح من التفاصيل - فإن وزير الخارجية قال لمستشارة الأمن القومي ما مؤداه «إنه يشعر بأزمة تضارب ولاءات. فولاؤه للرئيس لا يحتاج منه إلى تأكيد، وولاؤه لعمله يستطيع الرئيس تقديره، كما أن ولاءه لوطنه يشهد عليه تاريخ طويل في الخدمة العامة، وأخيرا فإن ولاءه للمؤسسة التي أفنى فيها عمره (يقصد القوات المسلحة) مستغن عن أي شرح.

ومضى إلى «أنه حاول منذ أُسندت إليه وزارة الخارجية أن يؤدي واجبه، لكنه هذه اللحظة يشعر أنه وصل إلى موقف قد يضطره إلى ما لا يريد، وأنه لو كانت الظروف عادية لقدم استقالته للرئيس حتى يحافظ على ولاءاته كلها سليمة ومتسقة، مع علمه بأنه إذا قدم استقالته يرتاح ويريح آخرين يتصورون أنهم انفردوا بالمكتب البيضاوي وحجبوا غيرهم عن الوصول إليه - إلا أنه الآن (باول) لا يجد كملاذ أخير. إلا أن يطلب مقابلة الرئيس وحده لحديث من القلب إلى القلب، وهو يطلب - بصداقة وثقة متبادلة بينهما (باول وكونداليزا رايس) - أن ترتب لإجراء مثل هذا الاجتماع، وأن تبلغ الرئيس «جورج بوش» نقلا عنه: «إنه في حاجة إلى جلسة خاصة معه لا يحضرها غيرهما»، ويظهر أن «باول» شرح لكونداليزا رايس بعض أسبابه، وأنها اقتنعت على الأقل بضرورة حديث مباشر بينه وبين الرئيس.

وبعد أيام (وعلى الأرجح يوم ١٦ أكتوبر) اتصلت «كونداليزا رايس» بـ«كولين باول» تبلغه أن «الرئيس ينتظره الليلة على العشاء في الجناح الخاص للبيت الأبيض، وأنهما سوف يكونان وحدهما، وأن الرئيس على استعداد لسماعه بعقل مفتوح وتمنت له حظا سعيدا».

ومساء (الأربعاء) ١٦ أكتوبر (على الأرجح) وفي الساعة السادسة والنصف كان «كولين باول» يدخل بابا جانبيا للبيت الأبيض يؤدي مباشرة إلى الجناح الخاص الذي يعيش فيه الرئيس مع أسرته!

وفيما هو مُتاح من التفاصيل - فإن الرئيس «بوش» بادر وزير الخارجية حين دخل عليه غرفة المعيشة المجاورة لغرفة الطعام الخاصة - مبديا ملاحظة عن نتائج استفتاء جرى في العراق على «تجديد» رئاسة «صدام حسين»، وكانت

بادر الرئيس «بوش» وزير خارجيته «باول» مبديا ملاحظة عن نتائج استفتاء جرى في العراق على «تجديد» رئاسة «صدام حسين»، وكانت النتائج تفيد أن «صدام» حصل على ١٠٠٪ من أصوات الشعب العراقي»، ثم أضاف أنه لا يعرف «كيف يصنع هؤلاء الناس مثل هذه النتائج؟» - وزاد ضاحكا «علينا في المرة القادمة (انتخاباته هو للرئاسة سنة ٢٠٠٤) أن نطلب خبراء من عندهم!!

هذه النتائج قد وصلت إليه قبل قليل، وكانت ملاحظة «بوش» بما معناه «هل رأيت مثل هذا الجنون؟!...«صدام» حصل على أصوات ١٠٠٪ من أصوات الشعب العراقى»، ثم أضاف أنه لا يعرف «كيف يصنع هؤلاء الناس مثل هذه النتائج؟». وزاد ضاحكا «علينا فى المرة القادمة (انتخاباته هو للرئاسة سنة ٢٠٠٤) أن نطلب خبراء من عندهم!!»، وضحك الاثنان عاليا (ويبدو أن «جورج بوش» أراد تخفيف توتر «باول» لأنه أحس «أنه مشحون بما يريد قوله له»!).

وبدأ «باول» بمقدمة قريبة مما سبق وقاله لكونداليزا رايس، وأبدى «بوش»، «أنه سمع من «كوندى» وأنه من جانبه يريد أن يؤكد ثقته بوزير خارجيته الذى اعتبره دائما عمودا قويا راسخا «Pillar» من أعمدة إدارته، وهذا أيضا رأى «ديك تشينى» نائب الرئيس» (ولم يكن ذلك دقيقا، لأن «ديك تشينى» كان باستمرار أقرب إلى «رامسفيلد» ومجموعته الإمبراطورية).

....

....

وقال «باول» ما مؤداه: «إنه يريد أن يتحدث مع الرئيس فى موضوع واحد وهو «القيمة المعنوية المطلوبة ضروريا» لأى عمل عسكرى تقوم به الولايات المتحدة فى العراق، وهو بصفة عامة يفهم ويقدر ويؤيد الأسباب التى تدعو إلى التعامل بشدة وحزم مع نظام «صدام حسين»، فهذا النظام بالتأكيد لابد له أن يسقط. وذلك موضوع لا يختلف هو عليه مع أحد وإنما الخلاف على الأسلوب.

واستطرد «باول» «بأنه كان فى «نيويورك» طوال هذا الأسبوع يشارك فى مداولات الدورة الجديدة للجمعية العامة للأمم المتحدة، وقد رأى أشياء وسمع أشياء تخص موقف الولايات المتحدة فى مجتمع الدول، ثم إنه بعد ذلك عاد إلى «واشنطن»، وفى العاصمة رأى وسمع أشياء أخرى تخص موقف القوات المسلحة الأمريكية والمهمة الموكولة إليها فى العراق».

وفى رأيه أن هناك صلة بين الاثنين، بل إنهما فى الواقع موضوع واحد وليسا موضوعين منفصلين!».

استطرد «باول» يحكى عما رأى وسمع فى «نيويورك» وملخص ما عنده فى هذا الصدد:

«أن الولايات المتحدة بتصميمها على المضى فى حرب ضد «صدام حسين» دون قرار من الأمم المتحدة. وفى وجه معارضة ظاهرة فى مجلس الأمن تلح على وجوب صدور قرار جديد عن المجلس يُظهر حزم المجتمع الدولى إزاء النظام العراقى إذا اعترض عملهم.

بينها: أن الولايات المتحدة سوف تبدو فى حالة تحد لمجلس الأمن وللميثاق، وذلك يؤثر على مشروعية عملها فى العراق، ويأخذ من قيمته، ويظهره وكأنه مسألة طمع إمبراطورى فى ذلك البلد أو فى موارده، وذلك مسىء للولايات المتحدة.

وبينها: أن ظهور مثل هذه المعارضة من جانب أصدقاء للولايات المتحدة وحلفائها، سوف يؤثر على «أخلاقية» التصرف الأمريكى، إلى جانب التأثير على قانونيته، وذلك يغذى موجات المعارضة الشعبية للسياسة الأمريكية، وهى الآن تزداد اتساعا حتى فى أقرب العواصم الأوروبية إلينا ("لندن").

وبينها: أن هؤلاء الأصدقاء والحلفاء الذين يظهرون المعارضة ضدنا فى مجلس الأمن لا يفعلون ذلك «لأنهم اكتشفوا مرة واحدة أنهم يكرهوننا»، وإنما هم يفعلون ذلك بتأثير حرص يبدونه (سواء كانوا صادقين فيه أو منافقين) على قواعد استقرت فى ممارسات النظام الدولى، وفى تقديره وهذا حساب خبراء وزارته (الخارجية) «أن هؤلاء جميعا يمكن أن يتماشوا مع قرار أمريكى صارم ضد العراق إذا جريا اتباع الإجراءات التى استقرت عليها الممارسات فى الأمم المتحدة ووفق الميثاق».

وبينها: أن الولايات المتحدة لا تحتاج إلى «لوى» ذراع أحد، بل إنها تستطيع بقليل من الجهد أن تحصل على القرار الذى تريده من مجلس الأمن، وهو شخصيا (كولين باول) يضمن بعد كل ما أجراه من مشاورات مع زملائه من وزراء الخارجية الذين شاركوا فى دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة أن المجلس يمكن أن يصدر بالإجماع - وبموافقة فرنسا وروسيا وألمانيا وحتى سوريا، وهى العضو العربى الوحيد فى مجلس الأمن - قرارا قويا حازما يعطى الرخصة القانونية للقوة الأمريكية تتصرف كما تشاء.

وبينها: أنه يتفهم عدم حاجة الولايات المتحدة إلى حلفاء معها لشن الحرب، لكن الأفضل (وهذا رأى خبراء الخارجية) أن يتم ما يلزم إتمامه فى العراق بواسطة تحالف دولى واسع، ويرى أن ذلك هو الإطار الأمثل رغم كل ما يعرفه هو بالتجربة الشخصية من صعوبة «إدارة العمل فى نظام تحالفات».

قال «باول»: إن ذلك سوف ينقله إلى النقطة الأخرى وهى متصلة به، لكنها تخص القوات المسلحة للولايات المتحدة الأمريكية.

ثم استطرد فى هذا الصدد بما مؤداه:

«إنه لا يريد أن يتدخل فى الشأن العسكرى - بوصفه محاربا قديما - لكنه الآن وكسياسى يجد نفسه مضطرا إلى استذكار ماضيه القريب، والاعتماد على التجربة التى تعلمها - وإنما يثير قلقه أنه أحس بأصداء قوية فى واشنطن نتيجة لما يجرى فى «نيويورك»، وفى بقية العالم من معارضة للسياسة الأمريكية فى أسلوبها الراهن».

استطرد «باول»:

«إن أول درس تعلمه فى الخدمة العسكرية «أن القوة الأمريكية دائما فى خدمة مبدأ، وهذا المبدأ يلزمه دائما غطاء قانونى وغطاء أخلاقى».

ثم إن الولايات المتحدة حاربت باستمرار من أجل مبادئها ومع حلفاء لها يشاركونها نفس المبادئ.

وكان اتحاد هذين العنصرين: المبدأ والتحالف - هو الذى أعطى للقوات المسلحة الأمريكية أفضل أسلحتها - أى معنوياتها وإيمانها بما تفعل.

وأشار «باول» إلى أمثلة:

- فى الحرب العالمية الأولى كنا نحارب من أجل الحرية، ومع حلفاء لنا، وانتصرنا. وفى الحرب العالمية الثانية كنا نحارب ضد النازية والفاشية ومع حلفاء لنا وانتصرنا - وحتى فى «كوريا» - بعد الحرب العالمية الثانية - فإننا حاربنا تحت علم الأمم المتحدة.

أضاف «باول» «أنه حين انفردنا بالعمل وحدنا فى «فيتنام»، فإن النتيجة كانت ما يعرفه الجميع.

وأمامنا هذه المرة فى العراق خيار صعب، من ناحية نحن نستطيع شن الحرب على العراق وحدنا. لكننا فى هذه الحالة سوف نكون بغير عنصرين أساسيين:

- غطاء قانونى وأخلاقى يغطى العمل العسكرى.

- وتحالف معنا تبدو فيه الحرب مسئولية مشتركة مع أصدقاء لنا فى الموقف.

أضاف «باول» أنه خلال الأسبوع الأخير فى «واشنطن» - بعد عودته من «نيويورك» - أحس بالقلق الذى يساور هيئة الأركان المشتركة بسبب «الانكشاف المعنوى للتدخل العسكرى».

وأكد «أن أحدا من هيئة أركان الحرب المشتركة لم يتصل به ولم يصارحه بهمومه، لكنه من تأثير خبرة عمره شعر بأن القوات لديها أزمة».

أضاف «باول»:

«إنه بالنسبة للسياسة فإن الغطاء القانونى والأخلاقى لعمل عسكرى يكون مطلبا مرغوبا فيه، لكنه بالنسبة للعسكريين قضية أكثر دقة وحساسية، لأنه بدون الغطاء القانونى والأخلاقى يتحول القتال إلى مجرد قتل، لا يختلف فيه جنرال على كتفه أربعة نجوم عن مرتزق يمسك فى يده بسكين، وهذه مسألة بالغة الدقة - ويتعين عليه ("بوش") بوصفه القائد العام للقوات المسلحة أن يضعها فى اعتباره، لأن الغطاء القانونى والأخلاقى بالنسبة للقوات المسلحة ليس مسألة إجراءات شكلية، لكنه مسألة ضرورة تميز (فى أداء المهمة) بين أن يكون المحارب مقاتلا، وبين أن يكون المحارب قاتلا، أى أن



القوات المسلحة فى السياسة الأمريكية

المشروعية هنا هى المبرر الحقيقى لكل ما تفرضه الحرب على الرجال!

عندما انتهى «باول» من كلامه، كان واضحا أنه استطاع إقناع «جورج بوش» بما عرضه عليه، وفى تقدير أقرب مساعدى «باول» أن النقطة التى تخص القوات المسلحة الأمريكية كانت العامل الحاسم فى تحول موقف الرئيس».

....

....

روايـــة

[هناك رواية أخرى ترددت أمامها، فقد أحسست بشىء من الافتعال فيها حتى باعتبار حساسية العلاقات بين «كولين باول» (وزير الخارجية) و«دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع) ومع ذلك فقد وجدتها دالة فى حد ذاتها على أجواء واشنطن السياسية ذلك الوقت وإلى الآن - بصرف النظر عما إذا كانت التفاصيل كاملة أو أصابها التحريف.

وملخص الرواية أن «كولين باول» بعد أن طلب من «كونداليزا رايس» (مستشارة الرئيس للأمن القومى) ترتيب مقابلة خاصة بينه وبين الرئيس، بعث لها قصاصة بمقال رآه فى جريدة. ويحتوى على عرض لديوان شعر تنشره «دار سيمون وشوستر» الشهيرة بنيويورك، والشاعر هو «دونالد رامسفيلد» نفسه الذى لا يعرف كثيرون أنه شاعر له ديوان يصدر فى موسم النشر الجديد (أكتوبر ٢٠٠٣).

وفى هذه القصيدة التى نُشرت مبكرا من الديوان فى جريدة «كريستيان ساينس مونيتور» يقول الشاعر - «دونالد رامسفيلد» بالنص:

«كما نعرف
فهناك أشياء لا نعرفها
بعضها نعرف أننا لا نعرفه
وبعضها الآخر لا نعرف أننا لا نعرفه
الأشياء التى لا نعرفها - لا نعرفها
والأشياء التى نعرفها قد لا نعرفها!».

وبجوار هذه القصاصة كتب «كولين باول» بخط يده (ولعله أراد تذكير «كوندى» بطلبه):

«إذا كنا لا نعرف ما يجرى فى رؤوسنا، فكيف لنا أن نزعم معرفة ما يجرى فى العالم!»]

....

....

منافسـة

فى الأسبوع الأول من شهر نوفمبر كان «كولين باول» يقود ما أسماه هو «معركة مصداقية» فى مجلس الأمن.

وقد يختلف الناس هنا فى نسب هذه المصداقية: وهل مصداقية «كولين باول» أمام الأمم المتحدة (القانون والمبدأ)، أو أنها مصداقية «كولين باول» أمام الرئيس «جورج بوش» (الغطاء والملاءمة).

وعلى أية حال فقد بدا «كولين باول» فى مجلس الأمن مقاتلا شديد المراس فى طلبه إلى مجلس الأمن إصدار «قرار قوى» إلى درجة الصرامة ضد العراق. ومع أنه واجه معارضة شديدة أثناء إعداد مشروع قرار يحظى بموافقة إجماعية - فإنه مارس جهدا امتزج فيه الحزم والمرونة مع فنون الصياغة - مع تلميحات إلى عهود ووعود يمكن تفسيرها باعتبارها نوعا من التعهد بالرجوع إلى مجلس الأمن مرة أخرى قبل التصرف النهائى - وقد نجح فى النهاية.

وفى هذه الأجواء يوم ٨ نوفمبر صدر قرار مجلس الأمن ١٤٤١ الذى يفرض على العراق عودة المفتشين، ويأمر النظام فيه بفتح كل الأبواب أمامهم «دون عوائق»، ويعطى لرئيسهم «هانز بليكس» مهلة ثلاثة أسابيع لا تزيد لكى يعود بتقرير إلى مجلس الأمن عن مهمته الأولية فى العراق، وهل وجد تعاونا كاملا وأبوابا مفتوحة فى أى لحظة وأى مكان، أو أن هناك عراقيل توضع فى وجهه، وفى وجه زميله الدكتور «محمد البرادعى» (رئيس الوكالة الدولية للطاقة النووية) - وكان التلويح باستعمال القوة يرن فى كل فقرات القرار وتعبيراته.

وكان اللافت للنظر أن «سوريا» وهى العضو الوحيد العربى فى مجلس الأمن - وافقت على القرار.

....

....

[ويقول الوفد السورى أن دمشق وافقت بعد أن تلقت تأكيدات بأن صبغة الحزم الطاغية على القرار كانت تهدف إلى «تخويف العراق» بحيث ينصاع، وتمر الأزمة هذه المرة بسلام كما حدث فى مرات سابقة، ولم يكن فى الحسبان ووفق التطمينات التى أعطيت للوفد السورى أن القرار تفويض مفتوح للولايات المتحدة تتصرف بالسلاح كما يحلو لها].

....

....

وفى اليوم التالى لصدور قرار مجلس الأمن (١٤٤١)، أُعلن فى بغداد أنه سوف يُعرض على المجلس الوطنى العراقى ليرى فيه رأيه.

ووقف الرئيس «جورج بوش» فى مؤتمر صحفى ليعلن أن انصياع العراق دون قيد أو شرط لقرار مجلس الأمن مسألة لا تتعلق بإرادة أحد فى العراق يقبل أو يرفض. وأن أمام «صدام حسين» أسبوعا واحدا لكى يعلن امتثاله بالكامل لقرار مجلس الأمن ودعوة المفتشين ليقوموا بمهمتهم دون عوائق، وإلا فإن الولايات المتحدة تحتفظ لنفسها بحق التصرف بالقوة دون انتظار.

وفى واقع الأمر فإن الرئيس «جورج بوش» فى تلك اللحظة لم يكن يوجه إنذارا إلى «صدام حسين»، وإنما كان يوجه رسالة إلى القوات المسلحة الأمريكية، وإلى هيئة أركان الحرب المشتركة، بأنه يعمل جاهدا ليوفر لها الغطاء القانونى والأخلاقى الذى تحتاج إليه.

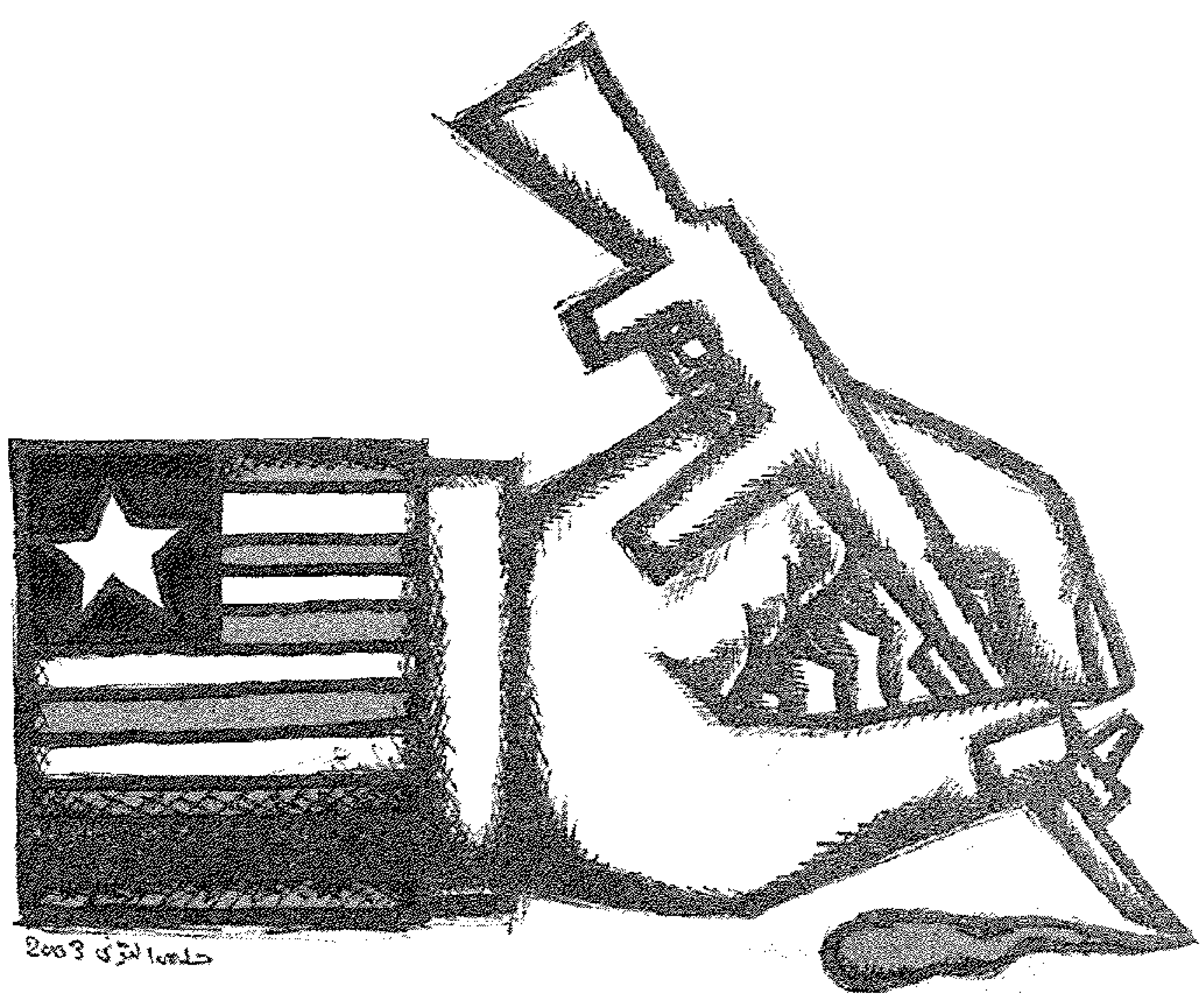
كان قد اتخذ فعلا قراره بالحرب.

لكن همه الآن كان أن يشعر الضباط والجنود الأمريكيون أنهم فى العراق لمهمة قتال - وليس لمهمة قتل!

....

....

وكانت تلك لحظة تستحق إطالة النظر فى التأثير على المستقبل، وبما هو أوسع من حرب على العراق! ■



صبــــري حــافـــظ

جورج أورويل

نبوءاته التحذيرية

ودلالة الاحتفال بذكراه المئوية

ثقافتنا تميل عادة عندما تحتفى بذكرى كاتب كبير للجوانب الاحتفائية وحدها، والمهرجانات التى تعقد وتنفض دون أن تتمخض عن أثر ذى بال، يبقى فى الثقافة ويعمق فهمها بدور الشخص المحتفى به ويعيد تمحيص إنتاجه، واختبار مواقفه، وتحديد مكانته من جديد فى ماضى الثقافة وحاضرها على السواء.

لاشك أن احتفال بريطانيا خلال هذا الشهر، بمئوية الكاتب الكبير جورج أورويل له دلالات عديدة بالنسبة للقارئ الإنجليزى، تختلف اختلافا بيّنا عن تلك التى ينطوى عليها تذاكر القارئ أو المثقف العربى له. ولاشك أن من المفيد للقارئ العربى معرفة ما تفعله الثقافة الإنجليزية فى احتفالها بواحد من أعلامها، بقدر ما هو ضرورى أن نعيد نحن، ومن منظور ثقافتنا العربية الراهنة، النظر فى تصورنا لهذا الكاتب وفق ما توفره لنا هذه المناسبة من مادة إضافية عنه. لأن التعرف على ما تفعله بريطانيا فى مناسبة كهذه، أى الاحتفال بمئوية كاتب مهم؛ قد يفيدنا فى الاحتفال بمئويات مثقفينا المهمين فى قابل الأيام، ويقدم لنا بعض الأفكار القيمة فى هذا المجال، لأن ثقافتنا العربية فقيرة فيه إلى حد كبير. ليس فقط لضعف الذاكرة العربية التاريخية، ومثل هذه الاحتفالات مناسبات لإرهاف وعى هذه الذاكرة بذاتها وإعادة النظر فى عناصرها المختلفة. ولكن أيضا لأن ثقافتنا تميل عادة عندما تحتفى بذكرى كاتب كبير للجوانب الاحتفائية وحدها، والمهرجانات التى تعقد وتنفض دون أن تتمخض عن أثر ذى بال، يبقى فى الثقافة ويعمق فهمها بدور الشخص المحتفى به ويعيد تمحيص إنتاجه، واختبار مواقفه، وتحديد مكانته من جديد فى ماضى الثقافة وحاضرها على السواء. كما أن ثقافتنا، إذا ما كان لها أن تتخلص مما تعانى منه من ركود وانحدار، فى أمس الحاجة إلى إعادة النظر لا فى أدوار كتابها وإعادة تمحيص مكاناتهم فحسب، وإنما فى معلوماتها عن كتاب الثقافات الأخرى، وإعادة فهمهم وفق متغيرات هذه الثقافات من ناحية، ووفق حاجات ثقافتنا نحن من ناحية أخرى.

ولنبدأ بمعرفة ما قامت به الثقافة الإنجليزية فى احتفالها بمئوية أورويل، حيث حرصت على ما يمكن دعوته بجوانب الاحتفال التنويرية والنقدية والتمحيصية معا وتحقيق التوازن بينها جميعا. فظهرت بعض الطبعات الشعبية لأعماله المشهورة. وأذاعت الإذاعة البريطانية BBC قراءة مسلسلة لأشهر أعماله وأكثرها شعبية ألا وهى (مزرعة الحيوانات Animal Farm). كما أعاد المسرح عرض المسرحية المأخوذة عن هذه الرواية فى أكثر من فرقة. وأفردت صحيفة (الأوبزرفر) على مدار أسابيع - وهى الصحيفة التى عمل فيها لعدة سنوات - أكثر من صفحة للحديث عن دوره فى الارتقاء بلغة الخطاب الصحفى وتخليصه من الركاكة والترهل.

واستكتبت الصحف الأخرى كتابا مرموقين، لا فى انجلترا وحدها، ولكن فى العالم الناطق بالإنجليزية، لتقييم أثر أورويل عليهم، وتحديد ما بقى منه فى واقع الأدب المكتوب بالإنجليزية اليوم. وقد كتبت الكاتبة الكندية المعاصرة، والتى حصلت قبل عامين على جائزة البوكر البريطانية المشهورة، مقالا مهما فى هذا المجال تكشف فيه عن تأثيره الطاغى عليها منذ قرأت روايته (مزرعة الحيوانات) وهى فى التاسعة من عمرها. كما كلفت الدوريات الأدبية المتخصصة نقادا مرموقين، مثل تيرى إيجيلتون أو فرانك كيرمود، بتناول دوره فى الأدب الإنجليزى المعاصر بالتمحيص وإعادة التقييم. وصدر كتابان جديدان عنه، يقرب كل منهما من الخمسمائة صفحة، حظيا بمراجعات واسعة فى معظم الصحف والمجلات الإنجليزية: هما (جورج أورويل لجوردون بوكر Goerge Orwell by Gordon Bowker) و(حياة أورويل لد. ج تايلور Orwell: The Life by D. J. Taylor). كما نقبت الصحافة الأدبية فى ملفات المخابرات البريطانية، واستخرجت الوثيقة التى لم تنشر من قبل، ونشرتها (الجارديان) فى أسبوع ميلاده، والتى تثبت وشاية أورويل بعدد كبير من كتاب اليسار آنذاك، وأدارت حول هذه الوثيقة حوارا تقييميا واسعا لاتزال أصداؤه تتردد فى الواقع الثقافى حتى اليوم. فأين هذا كله من احتفالاتنا التى تنعقد وتنفض فى غيبة الجمهور؟ تنفق فيها الميزانيات الطائلة دون أن تتمخض عن ثمار، ولا يتم فيها إدارة حوار واسع حول الكاتب ومواقفه، وإعادة تقييم دوره فى الثقافة التى استكانت عندنا إلى تراتباتها القديمة؟

والواقع أن الخلاف حول دور جورج أورويل وتقييمه ظل محل جدل كبير يطفو على السطح ويخبو بين فترة وأخرى. وقد كان آخر احتفال واسع به، وتمحيص لرؤاه ومقولاته عام ١٩٨٤ بمناسبة مقدم العام الذى جعله عنوانا لروايته الأشهر والأكثر إثارة للجدل والنقاش. كما أن هذه المناسبة كانت هى التى أدت إلى طبع أعماله الكاملة لأول مرة فى عشرين مجلدا، ظهرت عام ١٩٨٦. ولم تقتصر على أعماله العشرة المنشورة فحسب، وإنما ضمت كل مقالاته المتفرقة بالصحف والدوريات، ومراسلاته. فقد ظل هذا الكاتب محل جدل طويل فى ثقافته أو فى غيرها من الثقافات التى ترجمت لها أعماله. وخاصة روايتيه الشهيرتين (١٩٨٤) و(مزرعة الحيوانات). لأنه استطاع أن يخلق عبر كل منهما أمثولة سردية تدير حوارها العميق والخلاق مع الواقع السياسى فى منتصف القرن العشرين، ومع أكثر القضايا الحضارية فيه إلحاحا على العقل والوجدان. وتوشك المعرفة الإنسانية الواسعة بجورج أورويل فى كثير من الثقافات أن تقتصر على هذين العملين، برغم أن لكاتبهما كتباً عديدة أخرى وآلاف المقالات والقصائد والمحاكاة الساخرة. لكن هذين العملين بالتحديد هما المسئولان عن شهرته فى الثقافة الإنجليزية وفى غيرها من الثقافات. ويرجع ذلك إلى ما أود دعوته بسحر الأمثولة الرمزية Allegory عامة، والأمثولة السياسية political allegory خاصة. لأن الأمثولة بشكل عام - وليس فى أدبنا العربى نماذج كثيرة منها، وإن كان أشهرها هى رواية كاتبنا الأكبر نجيب محفوظ (أولاد حارتنا). تتسم ببساطتها الخادعة من ناحية، وبنصاعة دلالاتها الرمزية من ناحية أخرى، وبانفتاحها على حقل ألغام من التأويلات من ناحية ثالثة. فما بالك إذا ما كانت هذه الأمثولة - كما هو الأمر فى حالة أورويل — قد موضعت نفسها فى قلب أكثر الفضاءات الفكرية إشكالية وخلافية، ألا وهو فضاء الحرب الباردة التى اندلعت بين المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، واستمرت معاركها دون توقف طوال نصف قرن من الزمان تقريبا. بل إن مصطلح «الحرب الباردة cold war» نفسه كان من صياغة أورويل، وهو الآن مسجل باسمه فى قاموس أوكسفورد للغة الانجليزية.

لا غرابة إذن إذا كان هذان العملان - (١٩٨٤) و(مزرعة الحيوانات) - اللذان كتبهما أورويل فى أواخر سنوات حياته القصيرة العاصفة هما اللذان حظيا بالشهرة، ووضعا اسمه على خريطة الجدل الفكرى والأيديولوجى الحاد. ولاغرابة أيضا فى أن يتأثرا بالجدل الآن، وخاصة بعدما وضعت الحرب الباردة أوزارها، وبدأت الرأسمالية المنتصرة فى هذه الحرب تكشر للعالم عن أنيابها، وتظهر لمن كان واهما سوءاتها. بل أخذت مع تجليات هذا الوجه البشع الجديد للرأسمالية المنتصرة مجموعة جديدة من التأويلات النقدية لروايته الشيقة (١٩٨٤) فى الظهور. تكشف لنا عن أن الرأسمالية المنتصرة والمسيطرة تستخدم نفس اللغة المشوهة الجديدة التى دعاها أورويل «الرطانة الجديدة newspeak» والتى طالما فسرها البعض بأنها لغة

الأنظمة الشمولية الاشتراكية وحدها، وتجعل الكذب نبراسها فى تبرير هيمنتها على العالم، وعدوانها علينا. وها هى الوثائق تكشف لنا هذا الشهر كيف كذبت الولايات المتحدة وبريطانيا على العالم أجمع فى حملتهما المسعورة لتبرير حربهما العدوانية على العراق. وأنهما استخدمتا استراتيجيات الدعاية والتضليل والكذب التى كان الغرب يتهم الكتلة الاشتراكية بها. كما كانتا تدركان أنه ليس لدى العراق أسلحة دمار شامل ـ وأن أكبر ترسانات أسلحة الدمار الشامل فى المنطقة ـ وهما تعلمان ذلك وتخرسان عنه لدى الدولة الصهيونية فى فلسطين المحتلة ـ ولكن الكذب كان مواتيا ومقبولا لتسويغ هذه الحرب العدوانية القذرة، وتمكين المستعمر الجديد من وضع يده على ثروات العراق النفطية واحتياطيه الذى يعد ثانى أكبر احتياطى نفطى فى العالم، لإطالة عمر الامبراطورية الأمريكية الظالمة.

وقبل الاسترسال فى استقصاءات نبوءات هذه الرواية الدالة، أو الدخول فى شبكة التأويلات المتناقضة لها على مر السنين، علينا أن نتعرف أولا على حياة هذا الكاتب المهم الذى تحتفل بريطانيا بمئويته. فقد ولد جورج أورويل ـ واسمه الحقيقى هو إيريك آرثر بلير ــ فى ٢٥ يونيو عام ١٩٠٣ فى موتيهارى فى البنغال بالهند، حيث كان أبوه موظفا انجليزيا رسميا فى إدارة مكافحة الأفيون فى الهند. لكن أمه سرعان ما عادت به إلى بريطانيا وهو فى الثالثة من عمره، وما أن بلغ السادسة حتى ألحقه والده بمدرسة «إيتون» الداخلية الشهيرة، وهى مدرسة الطبقة الأرستوقراطية الإنجليزية. ولكنها كانت تسمح كذلك بقبول أبناء موظفى الإدارة الانجليزية فى المستعمرات بدخولها حتى ولو كانوا من الشرائح الدنيا فى هذه الطبقة، كى ينشأ أبناء الأرستوقراطية وهم على وعى مبكر بأهمية المستعمرات كحقيقة ملموسة فى واقعهم من واجبهم إدارتها. وكان من المأمول أن يدخل إيريك الشاب جامعة عريقة مثل أكسفورد أو كيمبريدج بعد انتهاء دراسته الثانوية فى «إيتون»، لكن لا أحد يعرف على وجه اليقين إذا ما كان انحداره من طبقة متوسطة نسبيا هو الذى حال بينه وبين ذلك، أم أنه فضل الانصراف عن التعليم الجامعى، والعمل منذ سن مبكرة. فما أن أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٢١ حتى التحق عام ١٩٢٢ بوظيفة من وظائف وزارة المستعمرات، هى وظيفة ضابط فى الشرطة الإنجليزية فى بورما. مكنته من أن يعيش حياة أقرب إلى حياة الأرستوقراطية الإنجليزية فى المستعمرات. وقد استمر فى هذه الوظيفة لخمس سنوات، وحتى عام ١٩٢٧. حينما قادته قراءاته الأدبية والفكرية الواسعة، وضيقه بعدم مبالاة الإدارة الاستعمارية الإنجليزية بثقافة بورما وأهلها، إلى التمرد على ما يتمتع به: هو وأمثاله، من امتيازات طبقية مجحفة لم يعد فى طاقته احتمالها. فقدم استقالته من هذه الوظيفة وعاد إلى بريطانيا للعمل بالصحافة واحتراف الكتابة التى طالما حلم بها منذ صباه.

وبرغم تمرده على الوضع الاستعمارى الذى خبر تفاصيله الدقيقة بشكل شخصى ومباشر، ورفضه الواضح لمبدأ أن تفرض ثقافة ما هيمنتها وسلطتها الكاملة على ثقافة أخرى، ومعرفته الواسعة بالفكر الاشتراكى فى هذا الوقت، وبمقولاته حول استغلال الإنسان الاقتصادى للإنسان، فإنه لم يعلن فى شبابه إيمانه بهذا الفكر. بل كان عادة ما يجيب فى فترة شبابه ككاتب بين عامى ١٩٢٧ و١٩٣٤ على سؤال زملائه له «ما هو موقفك؟» بتعبير شاع عنه وقتها «فوضوى محافظ A Tory anarchist». فقد كان شديد الولع بالحفاظ على فرديته، وبالرغبة فى إثبات ذاته ككاتب مستقل. وقد بدأ أورويل فى كتابة الرواية مباشرة عقب عودته من بورما، ولكن الرواية التى كتبها فى هذا الوقت المبكر لم تصلنا، ويبدو أنها فقدت كلية، وإن كانت روايته الأولى المنشورة



أورويل

تسجل لنا تجربته فى بورما بين ١٩٢٢-١٩٢٧. وكان يكتب الشعر والمقالات والقصائد الساخرة التى يعارض فيها قصائد شهيرة شائعة، ومراجعات الكتب فى عدد من الصحف والمجلات. وكانت صدمة تعرفه على معاناة شعب بورما تحت وطأة الاستعمار الإنجليزى من الدوافع التى تحدوه لاكتشاف حقيقة الوضع الذى تعيشه الطبقة العاملة الإنجليزية. فقرر عقب عودته أن يجرب حياة التشرد ليتعرف حقيقة على الفقر فى مجتمعه. فعاش بين المشردين والعاطلين على العمل سنين. وجرب بشاعة الاستغلال حينما عمل فى عدد من المدارس الخاصة وبأجر زهيد. ثم انتقل إلى باريس مقررا تكريس حياته للكتابة، وكانت باريس كعبة الكتاب الشبان فى هذا الزمن، ولاتزال. ولكنه قصدها مفلسا، وعاش حياة الفقراء والمشردين فيها أيضا. وعمل فى غسل الصحون فى المطاعم، وسكن فى أحد أحيائها الفقيرة، وواصل الكتابة فى هذا المناخ المعتم المثير معا.

فقد كانت هذه التجربة الباريسية هى التى نتج عنها كتابه الشهير (التصعلك فى باريس ولندن Down and Out in Paris and London) عام ١٩٣٣، وأدى نجاح هذا الكتاب النسبى إلى عودة أورويل من جديد إلى أيام تصعلكه فى بريطانيا، وتعميق قراءاته الأدبية وتوسيعها. وفى العام التالى لفراغه من هذا الكتاب المهم، نشر روايته الأولى (أيام فى بورما Burmese Days) عام ١٩٣٤، التى يعدها الكثيرون أهم روايات ما قبل الحرب، وأكثر رواياته تعبيرا عن نزعته الاشتراكية، بسبب موقفها المناهض للاستعمار الانجليزى فى بورما، ونقدها الجارح للممارسات الاستعمارية عامة. وقد وصفها هو نفسه فى خطاب للكاتب الأمريكى الشهير هنرى ميلر بأنها أحب كتبه إليه. وقد جسد فيها تجربته فى بورما، ومعرفته الوثيقة بآليات عمل الآلة الاستعمارية فيها. وتبعها برواية تالية هى (أبنة قس A Clergyman's Daughter) فى العام التالى ١٩٣٥. وهى رواية عن سعى ابنة قس انجليزى للتحقق العاطفى، استقى مادتها من تجربته فى جنوب انجلترا أثناء عمله فى المدارس الخاصة. ولم يرض عن هذه الرواية بعد نشرها بفترة قصيرة، إلى الحد الذى منع فيه إعادة طبعها طوال حياته.

أما روايته الثالثة (اهتموا بالزنابق Keep the Aspidistra Flying) عام ١٩٣٦ فيعتبرها الكثيرون من دارسى أورويل من أعماله الأقل توفيقا وبصيرة. لكنها فى الوقت نفسه من أكثر أعماله كشفا عن حقيقة تكوينه الأدبية ودوافعه للكتابة. وهى فى الوقت نفسه نقيض روايته السابقة من حيث أنها رواية مترعة بالتوتر والأفكار والغضب من المجتمع المادى والشغف بالمال. لأنها تستمد تجربتها الأدبية من فترة عمله كمساعد فى مكتبة للكتب المستعملة فى هاميستيد Hampstead بين عامى ١٩٣٤-١٩٣٦، وتتناول أبعاد عملية تكوينه الثقافى والأدبى، ومعاناته فى التدريب على الكتابة وفى تكوين أسلوب واسم له فى باريس ولندن. وتستمد الرواية اسمها لحدة المفارقة من اسم أحد نباتات فصيلة الزنبقيات Aspidistra التى تعد رمزا للانصياعية الاجتماعية البريطانية، إلى الحد الذى قال معه «لن تكون ثمة ثورة فى إنجلترا طالما بقيت الزنبقيات فى النوافذ». وهذا هو سر الغضب على كل الرواسى الاجتماعية التى تحول دون التغيير والثورة فى انجلترا الذى يسرى فى كل أنحاء هذه الرواية. ويرى بعض النقاد، أنه برغم الإخفاق الفنى النسبى لهذه الرواية فإن فيها الكثير من جذور الغضب، والصراع ضد ضيق الأفق الذى تبلور فيما بعد فى (١٩٨٤). وبعد نشر هذه الرواية مباشرة مع مطلع العام كلفه الناشر فيكتور جولانز بالقيام برحلة إلى قلب انجلترا الفقيرة ودراسة أحوال العاطلين عن العمل فى تلك المناطق من بريطانيا. وقد فهم أورويل من هذا التكليف أن ما سيكتبه نتيجة لهذه الرحلة سينشر فى كتاب، وأن هذا الكتاب سيقدم ضمن مختارات (نادى الكتاب اليسارى) الشهرية التى كان الناشر نفسه قد طرحها فى السوق.

وبدأ أورويل رحلته فى يناير ١٩٣٦ بالتجول فى منطقة البلاد السوداء، وهى المنطقة الواقعة وسط بريطانيا إلى الغرب من برمنجهام، نسبة إلى منطقة الثورة الصناعية واستخدام الفحم المكثف الذى لون هذه المنطقة من انجلترا باللون الأسود، ثم لانكشير واختتمها فى يوركشاير فى أواخر مارس من العام نفسه، وزار خلالها عدد من المدن الصناعية المهمة فى انجلترا من برمنجهام وولفرهامبتون إلى ليدز ومانشيستر وشيفيلد وويجان وليفربول وبارنزلى، وهى المناطق التى اندلعت منها الثورة الصناعية وعانت من قسوتها معا. وتعرف أورويل فى هذه الرحلة على حياة عمال المناجم ونوعية مساكنهم، وآثار سوء التغذية على حياتهم وبصمة الفقر على سلوكهم. كما تعرف على المسؤولين عن مكاتب البطالة، وعلى عدد من العاطلين عن العمل وكيف أثر هذا الوضع عليهم ودمر حياتهم. وقد دون يومياته عن هذه الرحلة وعن كل المقابلات التى أجراها مع العمال والعاطلين عن العمل هناك. وهى اليوميات التى ظلت ضمن أوراقه ونشرت بعد ذلك ضمن أعماله الكاملة. لكنه اعتمد عليها فى كتابة كتابه التالى وهو (الطريق إلى مرسى ويجان The Road to Wigan Pier) الذى صدر عام ١٩٣٧ ضمن مختارات (نادى الكتاب اليسارى) وطبع منه أربعون ألف نسخة. وهو كتاب يعتبره الكثيرون نموذجا للريبورتاج الأدبى الاجتماعى الجاد. يعتمد على الوقائع ولكنه يرتفع فوق تفاصيلها، ويسعى لاقتناص الخلل الذى تنطوى عليه بنية الواقع الانجليزى الطبقية. ويتضمن وصفا دقيقا ومؤثرا لحياة الانجليز العاطلين عن العمل فى قلب انجلترا الصناعية، ولما يعانونه من شظف العيش، وتحلل المجتمع من مسؤوليته تجاههم. كما أن القسم الثانى منه، وهو مجموعة من المقالات الفكرية، ينطوى على ما يمكن اعتباره وثيقة اعترافية مهمة فى تحول أورويل الفكرى. لأنه يعلن فيه اعتناقه للاشتراكية، وينتقد فيه فى الوقت نفسه لامبالاة كثير من الكتاب والمفكرين الاشتراكيين بقضية الحرية. فقد كان ثمة تعارض فى هذا الوقت بين القضيتين.

مصطلح «الحرب الباردة cold war» نفسه كان من صياغة أورويل، وهو الآن مسجل باسمه فى قاموس أوكسفورد للغة الانجليزية

وبعد انتهائه من هذا الكتاب، وتقديمه للنشر، انطلق أورويل إلى أسبانيا ليتعرف على حقيقة ما يدور فيها عقب اندلاع الحرب الأهلية بها فى يوليو ١٩٣٦. ووصل برشلونة فى ديسمبر من نفس العام باعتباره مراسلا صحفيا، ولكنه سرعان ما انضم إلى الذين تطوعوا للدفاع عن الحرية فيها أمام زحف الفاشية واليمين الرجعى، الذى دعمه فى هذا الوقت للأسف اليمين العربى. ولأنه كان قد جاء مراسلا لجريدة «حزب العمال الإنجليزى المستقل»، فقد ألحق بكتيبة الماركسيين، مع أنه لم يكن عضوا بهذا الحزب بعد. وأمضى الشهور السبعة التى قضاها هناك بين الحرب فى الجبهة، حيث أصيب برصاصة فى زوره كادت أن تودى بحياته، وزيارات قصيرة لبرشلونة. ووجد نفسه وسط حقل ألغام الخلافات الأيديولوجية التى كانت تمور بها ساحة هذه الحرب. وقد تمخضت هذه التجربة عن كتابه الجميل (تقديرا لكتالونيا Homage to Catalonia) عام ١٩٣٨، كتالونيا هى القسم الجنوبى الشرقى من أسبانيا، ومن أكثر أجزائها ثراء ماديا وفكريا وفنيا وإنسانيا، والذى كان سقوطها إيذانا بنهاية الجمهورية الأسبانية كلها. وهو كتاب يعد من أهم نصوص هذه المرحلة. ليس فقط لأنه استوحاه من تجربة الحرب الأهلية الأسبانية المأساوية، وسجل فيه بأسلوب مشرق وتجسيد أدبى قوى تفاصيل هذه الحرب ووقعها على الضمير الأوروبى ــ فقد استوحى منها إرنست همنجواى «لمن تدق الأجراس» وأندريه مالرو «الأمل» وغيرهم كثيرون ـ ولكن أيضا لأنه يعد من أول النصوص التى طرحت على العقل الأوروبى إشكالية التناقض بين الاشتراكية والحرية، وموقف المثقف المستقل إزاء الإرث الستالينى فى هذا الوقت المبكر. فقد انتقد فيه بشدة المحاولات الستالينية للهيمنة لا على الجمهورية الأسبانية التى كانت تعانى تحت وقع ضربات الفاشية المصمية، ولكن على اليسار الأوروبى بأكمله. إنه وثيقة أدبية ناصعة تجسد لنا نضال الأسبان لتحقيق العدالة والمساواة فى وجه قوى اليمين العاتية، وتكشف عما تنطوى عليه

الحرب من قسوة وبشاعة من ناحية أخرى.

وقد أدت تجربة أورويل المريرة فى الحرب الأهلية الأسبانية والتى نقرأ تفاصيلها الدقيقة والمستبصرة فى كتابه الجميل هذا إلى دعوته المناهضة للحرب بشدة إلى الحد الذى وصفه البعض فيه بالسلبية أو الدعوة للنزعة اللاعنفية Pacifism، ونعته الآخرون — خطأ — بالتروتسكية، بسبب هجومه الشديد على قطيعية المثقفين الاشتراكيين وقبولهم للهيمنة الستالينية. وخاصة أنه انضم عام ١٩٣٨ إلى «حزب العمال المستقل». وهو حزب صغير اتسم بيساريته الواضحة من ناحية، وبمعارضته الشديدة لكل من «حزب العمال» والحزب الشيوعى» فى بريطانيا وقتها من ناحية أخرى. وهذا ما عزز اتهام الكثيرين له بالتروتسكية. وقد أثرت هذه الاتهامات، وعدم نجاح كتابه عن الحرب الأهلية الأسبانية عليه نفسيا، وكانت صحته قد أخذت فى التضعضع بسبب إصابته بمرض السل. ونصحه الأطباء بالسفر إلى مناخ دافئ، فسافر فى سبتمبر ١٩٣٨ إلى مراكش وعاش بها حتى مارس عام ١٩٣٩. وفى هذه الفترة كتب روايته (بحثا عن نسمة هواء Coming Up for Air أو شهقة الحياة) ونشرت عقب عودته مباشرة فى يونيو ١٩٣٩، قبل اندلاع الحرب بشهور ثلاثة. وهى من الروايات القليلة التى يواصل فيها ميراث ديكنز الواقعى والتى حظيت بتقدير نقدى واسع. كما أنها تنطوى على كثير من الرؤى والمخاوف التى تبلورت فيما بعد فى روايته الشهيرة (١٩٨٤) إذ يتوقع بطلها وراويها «جورج بولنج» أن تندلع الحرب، ويعقبها عالم شديد الصرامة مترع بشعارات الكراهية وملىء بالحواجز والأسلاك الشائكة، بالازدواجية والتعذيب، بقمع الحريات وتكميم الأفواه، وبتزييف اللغة والخداع. وهى فى الوقت نفسه رواية عن عالم يتحلل ويوشك على الانهيار، وعن ضرورة إيقاظ بريطانيا من سباتها على ما يدور فى العالم من فظائع، وعلى ما توشك أن تنزلق فيه هى الأخرى من مخاطر، لأنها رواية مشحونة بخطر وشيك، وكارثة محدقة، استثارتها فيه دون شك تجربته المأساوية فى كتالونيا.

وفى هذا العام نفسه اندلعت الحرب العالمية الثانية بالطبع، وسقطت معها كل دعواته ضد الحرب وعدم العنف. لأنه وهو الذى جعل قضية الحرية نبراسه الهادى فى معمعة الخلافات الفكرية والأيديولوجية، سرعان ما أدرك ضرورة الدفاع عن الحرية فى وجه زحف الفاشية الحثيث. وكرس قلمه للهجوم الضارى على الفاشية والدفاع حتى عن أقل الديموقراطيات مصداقية. وعمل جاهدا فى مقالاته العديدة والقوية بسبب لغته الإنجليزية المشرقة، وبيانه المقنع على فصل النزعة الوطنية عن النعرة القومية التى كانت تستغلها النظم الفاشية، والإجهاز على أى شكل من أشكال التماهى بين الاثنين. وتمييز الثورة الاشتراكية التى رأى أنها تتخلق بين الجنود فى الجيش البريطانى، عن الاستغلال الفاشى لها باسم النعرة القومية. وحاول أن يبرهن على أن جذور الوطنية تتغلغل بشكل أساسى فى الواقع الاجتماعى، ولا تتناقض حتى مع أكثر النزعات المحافظة فى المجتمع. وتتجلى هذه الأفكار بوضوح فى كتابه (الأسد والخرتيت The Lion and the Unicorn) عام ١٩٤١ والذى يضم أهم مقالاته التى كتبها فى مطلع الحرب. وحينما حاول جورج أورويل الانخراط فى الخدمة العسكرية أثناء الحرب للدفاع عن بلاده، رفضه الجيش لأنه مصاب بداء السل، ولذلك لم يقبل فى الخدمة العسكرية. وكان يتوهم أنه قد شفى من هذا الداء الوبيل نتيجة إقامته العلاجية فى المغرب. فانضم إلى الحرس الوطنى Home Guard ووصل فيه إلى درجة «سارجنت» كما التحق بهيئة الإذاعة البريطانية BBC ككاتب للأحاديث فى إدارة الشرق الأقصى وعمل بها لمدة عامين حتى ١٩٤٣، قبل الالتحاق بجريدة (التريبيون) Tribune كمحرر أدبى، بينما كان أنورين بيفان Aneurin Bevan — والذى أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية — هو رئيس التحرير. وهى الوظيفة التى تلاءمت مع مواهبه الأدبية وظل يعمل بها، وبجريدة (الأوبزرفر) الإنجليزية حتى وفاته.

وكان أورويل قد خطط قبل بداية الحرب لرواية اجتماعية طويلة من ثلاثة أجزاء يريد فيها أن يحلل الواقع الاجتماعى الإنجليزى وأن يقدم رؤيته له بصورة تبلور مدى ما فى النظام القديم من تحلل، وتستشرف بزوغ أنوية التغيير والواقع الجديد تحت إهاب هذا القديم المتهالك والآيل للسقوط. وكيف خان الكثيرون الثورة الثاوية فى رحم هذا الواقع وأجلوا تحققها، وكيف يمكن لنظام إنجليزى شمولى أن يتخلق لإجهاض هذا التغيير، وتصوره لطبيعة هذا النظام الشمولى ولخصائصه الإنجليزية. ومع أن هذه الخطة الروائية لم يتح لها التحقق بسبب الحرب التى غيرت أجندة أولويات الكاتب وانشغالاته، وأخذته بعيدا عما أراد إنجازه، ناهيك عن عبء المرض عليه، فإن شيئا من هذا التصور ألهم روايته القصيرة الساخرة التى ظهرت عقب الحرب مباشرة (مزرعة الحيوانات) عام ١٩٤٥. وهى الرواية التى حققت له شهرة واسعة. وبدأ يفكر فى كتابتها منذ تجربته فى الحرب الأهلية الأسبانية، ورغبته على حد قوله فى إنقاذ الاشتراكية من قبضة شمولية الاتحاد السوفيتى، وخيبة أمله فى النظام الستالينى، والكشف عن أسطورته الخاوية. ولذلك أراد أن يكتب قصة أو أمثولة رمزية يستطيع القارئ فهمها فى كل مكان، ويمكن ترجمتها بسهولة لأى لغة. وما أن انتهى من كتابتها عام ١٩٤٤، وعرضها للنشر حتى رفضها ثلاثة ناشرين تباعا. لكن المناخ وقتها لم يكن مواتيا لنشر رواية يمكن أن تفهم على أنها هجوم على الاتحاد السوفيتى الذى كان حليفا لبريطانيا أثناء الحرب، وكان جنوده يقاتلون ببسالة على الجبهة الشرقية. وكان عليه أن ينتظر نهاية الحرب عام ١٩٥٤ حتى يعثر على من يقبل نشر أمثولته الرمزية الساخرة.

و(مزرعة الحيوانات) كما يقول عنوانها هى رواية ساخرة من قصص الحيوانات تدور كلها على ألسنتها كما هو الحال فى (كليلة ودمنة). وسر نجاحها أنه من الممكن فى مستوى بسيط للتلقى قراءتها على أساس أنها من قصص الحيوان، أو على أساس أنها أمثولة رمزية عن التسلط والاستبداد. ولكنها من حيث البنية السردية الأعمق أمثولة عن لسان الحيوانات فى مزرعة ريفية إنجليزية، عن الواقع السياسى الذى تمخضت عنه الثورة الاشتراكية. يمكن ترجمة الكثير من شخصياتها إلى نظائرها الواقعية والتاريخية بسهولة. بحيث يعد السيد جونز معادلا للقيصر نيقولاى الثانى، وميجور ممثلا لماركس، والحصان بوكسر ملخصا للطبقة العاملة، والخنزير نابليون مجسدا لستالين، وبقية الخنازير كأعضاء للحزب البولشفى، والمهرة موللى تمثل الروس البيض، وسكويلر ملخصا لبوق الدعاية «برافدا»، وموسى ممثلا للكنيسة الروسية، وفريدريك للألمان، وبيلكينجتون للإنجليز وهكذا. كما أن أحداثها تناظر عددا من الأحداث فى التاريخ السوفيتى، حيث يناظر «تمرد الدجاج» انتفاضة البحارة عام ١٩٢١، و«إخفاق المحاصيل» التحول صوب المزارع الجماعية بين ١٩٢٩-١٩٣٣، و«اعتراف الخنازير» محاكمات موسكو بين ١٩٣٦-١٩٣٨، و«مؤتمر الخنازير والبشر» مؤتمر طهران عام ١٩٤٣. وتكشف لنا الرواية كيف أن مطامح الثورة الإنسانية وأهدافها النبيلة سرعان ما تنقلب على ذاتها، وتتحول إلى أداة لتبرير واقع استبدادى لايقل بشاعة عن الواقع الذى ثارت عليه. ويتحول الشعار السياسى «كل الحيوانات متساوية» إلى شعار ساخر «كل الحيوانات متساوية، ولكن بعض الحيوانات أكثر تساويا من البعض الآخر». وتكشف لنا كيف تنقلب حركات التحرر الإنسانية على ذاتها، وتتحول إلى نظام شمولى صارم للقمع والانصياع.

وقد دفعه الصدى الواسع والنجاح الكبير الذى حققته هذه الرواية القصيرة إلى العكوف على روايته الساخرة التالية (١٩٨٤) أو أمثولته الرمزية الكبرى التى كرست اسمه كواحد من أهم أدباء القرن العشرين. وقد أكمل أورويل كتابة هذه الرواية عام ١٩٤٨، فما كان منه إلا أن عكس الرقمين الأولين فى التاريخ، وجعل هذا التاريخ المستقبلى عنوانا لروايته التى أثارت، ولاتزال تثير الكثير من الجدل حتى اليوم. لأنها تمثل نوعا من اليوتوبيا المقلوبة وتسجل نبوءة أورويل التحذيرية مما سيئول إليه حال النظام السياسى، وحذر من فساد اللغة. وإذا كانت كل



أعمال أورويل وكتابته تصدر عن وعى بآليات الواقع الأوروبى وتناقضاته فى السنوات الممتدة من الأزمة الاقتصادية الطاحنة فى نهاية العشرينيات وحتى اندلاع الحرب الباردة فى نهاية الأربعينيات، فإن روايته الشهيرة (١٩٨٤) تنطوى على حركية هذه الآليات التى بلورتها كتاباته الأدبية والصحفية الأخرى قبلها. كما تستشرف مستقبل أوروبا القاتم بعد زلزال الحرب العالمية الكبير. وقد أكمل أورويل هذه الرواية عام ١٩٤٨، وكان قد بدأ كتابتها عام ١٩٤٥، وقد قرر وقتها أن يكون عنوانها المبدئى هو «الرجل الأخير فى أوروبا The Last Man in Europe» وهو تعبير يقوله المحقق لبطلها أثناء تعذيبه فى «وزارة الحب» فى نوع من تأكيد نهاية عصر النزعة الإنسانية، ومركزية الإنسان الفرد. وقدوم عصر الدولة الشاملة الحديثة، وآليات تهميش الفرد والإجهاز على فرادته. ولكنه قرر فى نهاية الأمر أن يقلب تاريخ عام كتابتها ويدعوها ١٩٨٤. لأنها أمثولة خيالية ساخرة عن المستقبل، وهى فى الوقت نفسه نص واقعى شديد التجذر فى سياق كتابته، وحياة كاتبه، وشروط الواقع الذى صدر فيه.

فقد كان السياق الذى شهد بداية كتابته لهذه الرواية هو سياق مجموعة من المتغيرات المحلية والدولية التى كان لها دور كبير فى صياغة بنية الرواية وعالمها معا. فقد شهد عام ١٩٤٥ نهاية الحرب العالمية الثانية التى عانت فيها بريطانيا من الغارات والفقر وتقنين استهلاك المواد الغذائية وتوزيعها بالبطاقات. وشهد إلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما ونجازاكى، وانتحار هتلر، وانتصار الحلفاء فى أوروبا. كما كان هو عام انتخاب حكومة عمالية فى بريطانيا بزعامة أتلى. وكانت السنوات التى استغرقتها كتابتها سنوات محفوفة بالصعوبات الشخصية والقومية. فقد عانى فيها أورويل من مرض السل الذى استأداه حياته بعد نشرها بعامين، وعانت فيها بريطانيا من الضرائب الباهظة التى فرضها حزب العمال حتى يمول برنامجه الطموح فى الرعاية الاجتماعية والسكنية وإنشاء الخدمات الصحية القومية والمجانية لكل المواطنين. وتأميم السكك الحديدية ومناجم الفحم. كما شهدت محاكمات نورمبرج وما كشفت عنه من مذابح النازى البشعة، وإعلان استقلال الهند: درة التاج البريطانى، ثم اغتيال المهاتما غاندى. واجتياح الصهاينة العسكرى لفلسطين، وتأسيس دولة صهيونية لهم فى أرضها المحتلة. كما أن انتصار التحالف فى الحرب العالمية الثانية لم يؤد إلى استقرار السلام، بل إلى اندلاع الحرب الباردة، والجدل العقائدى الحاد بين المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى. وكان أورويل لايزال يؤمن بالاشتراكية أثناء كتابته لها، ولكنه أصبح أكثر شهرة بعد روايته السابقة (مزرعة الحيوانات) وسخريته اللاذعة من النظام الستالينى. ولذلك فإن هذه الرواية شديدة التجذر فى سياق كتابتها هذا. لأنها تبلور كل تناقضات هذا الواقع فى أمثولتها الرمزية الساخرة. وتخلق واقعا من المواضعات المقلوبة والقوانين الشائهة والتشريعات الكابوسية الغريبة، والمؤسسات الممسوخة التى تتربع على قمتها مؤسسة الحزب.

لكن أحد أسباب سحر هذه الرواية وبقاء تأثيرها، ليس تجذرها فى السياق الذى صدرت عنه فحسب، ولا نبوءتها التحذيرية الحساسة التى أثبت الواقع صدق الكثير من مقولاتها، ولكن أساسا لأنها تنطوى فى داخلها على وعى تناصى بعدد من كبريات النصوص والروايات الغربية. فهى فى مستوى من مستويات التأويل تنتمى إلى روايات اليوتوبيا، وإن انتهت إلى نوع من الكابوس أو اليوتوبيا المقلوبة. ولذلك فإن أولى علاقاتها التناصية هى علاقتها الأساسية مع (الكوميديا الإلهية) لدانتى. فإذا كانت الكوميديا تنتقل بالإنسان من الجحيم عبر الأعراف إلى الفردوس، فإن هذه اليوتوبيا المقلوبة تبدأ من الأعراف وتنتهى إلى الجحيم الأبدى. أو هى بالأحرى تبدأ من الجحيم العرضى، وتنتهى إلى الجحيم الأبدى، وقد أجهزت على كل أمل لبطلها فى الخلاص. وهى رواية بحث تستفيد من روايات البحث فى الأدب الإنجليزى من (رحلات جاليفر) لجونثان سويفت، وحتى (يوليسيز) لجيمس جويس. وهى أيضا رواية أخلاقية يوشك مشهد التعذيب/النقاش الطويل الذى ينطوى عليه قسمها الثالث، ويدور بين المحقق «أوبراين» وبطلها «وينستون سميث» أن يكون إعادة إنتاج معاصرة لمشهد المدعى الأكبر فى محاكم التفتيش فى رواية ديستويفسكى العظيم (الإخوة كرامازوف). فـ«براين» المسئول الحزبى والمحقق الأول مع البطل، شديد الاقتناع بأنه يقوم بدور أخلاقى تعليمى لصالح الفرد والمجتمع معا. وبأن انتزاعه الاعتراف من «وينستون» لا يقل أهمية عن اعتراف المسيحى الكاثوليكى للقس ـ فليس صدفة أن اسمه «براين» كاثوليكى الوقع ـ من أجل تحقيق خلاصه الفردى والروحى معا.

يقول أورويل «كل الكتب اليوتوبية هى أمثولات رمزية أو ساخرة. ومن الواضح أنك إذا ما ابتدعت بلدا متخيلا فإنك تفعل ذلك كى تعالج بعض مؤسسات بلد حقيقى، ربما بلدك أنت» (الأعمال الكاملة جـ١٧ ص ١٦٩)، ومع أن كثيرا من المقالات التى استقبلت هذه الرواية بالترحيب، وأدت إلى تحول كاتبها بين عشية وضحاها إلى بطل من أبطال اليمين إبان استعار رحى الحرب الباردة، فسرتها على أنها أهجية لاذعة للنظام الستالينى، فإن أورويل كان يكتب روايته أساسا عن بلده كما يقول لنا فى هذا المقتطف. وعن خيبة أمله فى حزب العمال الذى حكم بريطانيا عقب الحرب. ولذلك جاءت روايته نبوءة تحذيرية صادقة. لأنه استطاع أن يوائم فيها بين الرؤية الفكرية النقدية التى يطرحها وبين البنية الروائية التى يستخدمها فى روايته. ويحقق أورويل نبوءته التحذيرية من خلال بنية روائية دائرية وبطل مضاد. ومع أن هذه الرواية تنطلق من وعى أورويل بخيط سردى مهم فى التراث الروائى الأوروبى يمتد من دانتى وسويفت حتى ويلز وهكسلى وجويس، إلا أن دين هذه الرواية الكبير هو بلاشك لرواية الكاتب الروسى الشهير يفجينى زامياتين Yevgeny Zamyatin (نحن We) التى كتبت عام ١٩٢٠ ومنعت من النشر فى روسيا ولم تظهر لأول مرة إلا عام ١٩٢٤. وهى رواية يمكن اعتبار عالمها ويوتوبياه المقلوبة هو السلف المباشر لرواية أورويل. لأنها تدور فى دولة تسمى بـ«الدولة الواحدة One State»، وليس لمواطنيها أسماء بل أرقام، وكل حركاتهم يترصدها «أوصياء guardians» أو حراس. وحاكمها يدعى «المحسن Benefactor» والشخصية الأساسية فيها كل ذنبها أنها تسجل يومياتها، وتقع فى الحب وهما أمران محظوران، كما أنها تفكر فى التمرد والتآمر ضد الدولة. ومن الطبيعى أن يقبض عليها، وأن تجرى لها عملية غسيل مخ تنتهى بخيانتها لحبيبتها، ثم إعدامها أمام نظرها، وهى تراقب فى نوع من السادية والإحساس بالذنب معا.

لأن حبكة هذه الرواية الروسية الرائدة لهذا النوع من اليوتوبيات المقلوبة شديدة الشبه بحبكة (١٩٨٤) إلى الحد الذى يمكن معه اعتبار رواية أورويل إعادة لكتابة رواية زامياتين. إذ تدور هى الأخرى فى دولة خيالية تدعى «أوشانيا Oceania» وهى أكثر الأسماء ملاءمة لدولة بريطانيا ذات التاريخ البحرى الشهير، لأن الاسم مشتق من كلمة محيط الإنجليزية. وهى دولة يحكمها حاكم فردى هو «الأخ الأكبر» يتربع على قمة الحزب الذى يتكون من طبقتين هما طبقة الحزب الداخلى، أو التنظيم الأعلى للحزب، وطبقة الحزب الخارجى أو الجموع المنخرطة فيه. وتدير شئون الدولة مجموعة من الوزارات ذات الأسماء الغريبة مثل «وزارة الحقيقة» و«وزارة الحب» و«وزارة السلام» و«وزارة الوفرة». وفى «وزارة الحقيقة» يعمل بطل الرواية المضاد «وينستون سميث» وهو اسم مركب من أسماء التضاد هو الآخر، لأن الاسم الأول «وينستون» من أسماء الطبقات الراقية، يستدعى بالطبع اسم وينستون تشرشل، والاسم الأخير هو الاسم الشائع بين أفراد الطبقة العاملة (لأنه يعنى صانع أو عامل) بلا نزاع وأكثر الأسماء شيوعا فى بريطانيا. وتبدأ أحداث الرواية حقا عندما يكتشف «وينستون» أن ثمة كذبة أساسية فى التاريخ الذى تصوغه «وزارة الحقيقة» التى يعمل فيها، ومهمتها بالطبع نشر الكذب. واكتشاف وينستون لدليل الكذب الذى يتغلغل فى جوهر النظام نفسه من خلال قضية رفاق الأخ الكبر «جونز» و«آرونسون» و«راذيرفورد» يزلزل يقينه فى كل رواسى النظام، ويطرح الأسئلة المقلقة عليه وعلى الرواية ككل. لأن الدليل الذى اكتشفه والذى ينفى بشكل قاطع الاتهامات التى اعترفوا قهرا بارتكابها، هو

إذا كـــان هـــذان العمـــلان ـ (١٩٨٤) و(مزرعة الحيـــوانات) ـ اللـــذان كتبهما أورويل فى أواخر سنوات حياته القصيرة العاصفة هما اللذان حظيا بالشهرة، إلا أنهما وضعا اسمه على خريطة الجدل الفكرى والأيديولوجى الحاد

أن ثلاثتهم كانوا خارج البلاد فى رحلة حزبية رسمية حين وقوع ما اعترفوا بارتكابه فيما بعد، وما ترتب عليه إعدامهم.

وهو دليل يشبه كما يقول أورويل فى روايته العثور على عظمة فى حفرية فى طبقة أرضية جيولوجية مغايرة للطبقة التى نتوقع وجودها فيها، مما يعرض نظرية جغرافية بأكملها للتهاوى. وهكذا تتهاوى نظرية «أوشانيا» فى نظره، ويبدأ فى البحث عن شىء آخر يتسم بالصلابة والصدق يتعلق به، فلا يجد إلا أن يخلق بنفسه هذا الدليل من خلال كتابته لمذكرات أو يوميات يسجل فيها «الحقيقة». وهو أمر محظور قطعيا. وكما هو الحال فى رواية زامياتين، يتم القبض على «وينستون» ويتعرض للتحقيق والتعذيب فى «وزارة الحب» ويعيش تجربة غرفة التعذيب «الغرفة رقم ١٠١» على يدى أقرب أصدقائه إليه، والذى كان يعده مرشده وراعيه «أوبراين». إن علاقة «وينستون» بـ«أوبراين» هى علاقة تضادية. ففى البداية يصمد «وينستون» ويرفض خيانة صديقته وحبيبته «جوليا» أو الاعتراف عليها. لكن مثابرة «أوبراين» وبراعته فى التحقيق، تقوده إلى اكتشاف أن لكل فرد وسيلة التعذيب الخاصة به، أو بالأحرى نقطة ضعفه وكعب أخيل الخاص به والتى تقهر قدرته على المقاومة. وكانت الفئران هى أكثر ما يخافه «وينستون». وما أن وضعه فى زنزانة مليئة بالفئران الجائعة حتى تحطمت قدرته على الصمود وصرخ صرخته الشهيرة التى أصبحت مثلا بعد ذلك «لاتفعلوا ذلك بى افعلوه بجوليا» واعترف على حبيبته هو الآخر فى غرفة التعذيب «الغرفة رقم ١٠١»، حيث يسلمهم فى النهاية جسد حبيبته «جوليا».

فى هذه الغرفة ينكسر «وينستون» ويضطر إلى خيانة حبيبته وتسليمها. ويتحول إلى «يهوذا» معاصر يحقق نجاته بتسليم جسد حبيبته، كما سلم يهوذا المسيح، وظل يحمل بعدها عبء الخيانة الفادح. ويمكن اعتبار هذه الغرفة هى غرفة إعادة الإنتاج أو التأهيل recycling للبشر كى يمكن إعادة استخدامهم من جديد، وإن بعد استلابهم وتحويلهم إلى خرق رثة. وتقدم لنا طبيعة البنية الدائرية للرواية، لأن الرواية لا تنتهى إلا بعد أن تعترف «جوليا» هى الأخرى على «وينستون» وتنكره، كما أنكرها. وهى بنية مقلوبة ترهف حدة التأثير من الجهل إلى الوعى ثم من الوعى إلى الجهل والانخراط فى القطيع مرة أخرى. حيث ينتهى إلى حال أسوأ من تلك التى بدأ بها. وكأن الإنسان يسير - فى منظور أورويل - نحو التدهور المستمر، وليس نحو الارتقاء والتطور. وكيف أن تدمير «أوبراين» للدليل الذى يعتمد عليه وينستون ينطوى على تدمير لأى يقين ممكن يستطيع «وينستون» أن يتشبث به. إذ يصفه أوبراين بأنه «الرجل الأخير» أو بأنه «أقلية من واحد» لاقيمة لها. فالرواية تضع العقل الجمعى فى مواجهة العقل الفردى الخطاء. لأن العقل الفردى - كما يقول له أوبراين - يقع فى الخطأ ويزول، أما عقل الحزب الجمعى فإنه معقل الحقيقة، وأبدى. ولذلك فمن المستحيل رؤية الواقع إلا من خلال عيون الحزب ومنظوره الأبدى.

لكن المشكلة أن «وينستون» اكتشف أن منظور الحزب ليس أبديا ولكنه متغير ومتذبذب كمنظور أى فرد خطاء. لأن الحروب المستمرة، وما يترتب عليها من تغير التحالفات الأساسية، حيث عدو الأمس يصبح حليف اليوم، وحليف الأمس يتحول بقدرة المناورات الحزبية إلى عدو اليوم. تؤكد تذبذب الحزب وتغير منظوره للواقع باستمرار. إن أحد أهم إنجازات هذه الرواية أنها استطاعت أن تقيم تناظرا عميقا بين بنيتها ومحتواها، وأن تجعل محتوى الشكل الروائى نفسه تجليا أساسيا من تجليات موضوعها الأساسى. فسطحية الحياة فى «أوشانيا» فرضت على البنية الروائية هذه الشخصيات ذات البعد الواحد، ولا أقول الشخصيات النمطية. لأن من المستحيل فى عالم كابوسى مثل عالمها أن يخلق شخصيات إنسانية متكاملة. بل إن الرواية نفسها فى مستوى من مستويات الدلالة فيها هى رواية عداء هذا العالم الشائه الغريب لتخلق شخصية إنسانية سوية فيه، لها استقلالها ولها القدرة على التحكم فى حياتها ومشاعرها. لأن الرواية تؤكد لنا أن الإنسان المقاوم فى مجتمع مشوه يصيبه حتما قدر من تشوهات هذا المجتمع، وينتهى به الأمر إلى التشوه مثله. فحتى «وينستون» الذى يريد أن يحقق استقلاله وفرديته فى هذا المجتمع القطيعى، يقع فى خطأ الشك فى حبيبته «جوليا» وأنها قد تكون من «شرطة الفكر» والثقة الكاملة فى «أوبراين» وهو أحد أعمدة «شرطة الفكر» وجهاز «وزارة الحب» الجهنمى. بالرغم من أن جوليا هى المرأة الوحيدة التى تقدم له الجانب الإيجابى لعلاقة الرجل بالمرأة، من خلال علاقة حب حقيقية يصبح فيها الجنس ممارسة للحب وتعبيرا عن إنسانية الإنسان وفرديته. بعدما أخفقت زوجته الباردة جنسيا «كاثرين» فى أن تحقق له ذلك، ولم تستطع العاهرة القبيحة أن تعوضه عن الإخفاق فى حياته الزوجية.

والأمر الذى يؤكد لنا قتامة الصورة التى تقدمها لنا هذه اليوتوبيا المقلوبة هو تصوير أورويل للشعب فى هذه الدولة. لأن ٨٥٪ من أهل «أوشانيا» من البرول Proles وهى من الكلمات التى اخترعها أورويل أو اختصرها من الكلمة الأصلية الأطول Proletariat أو الطبقة العاملة. ويعتبرهم الحزب من طبقة أدنى من البشر، أو بالأحرى من الرعاع الذين لا يحسب لهم أى حساب، أن الحزب يقرنهم بالحيوانات ولا يعبأ بهم كثيرا. ولا يتصورهم إلا بشكل جمعى أو قطيعى. فهم جماعة من السكارى أو الشحاذين أو العاهرات أو اللصوص، ليس لهم أى كيان فردى يستحق الذكر أو الاهتمام. ولا يرى الحزب فيهم أى خطر، وإن أبقى على بعض عناصر من شرطة الفكر بينهم، يحددون من باستطاعته أن يشكل خطرا منهم ويستأصلون شأفته أولا بأول، وينشرون الخوف بين صفوفهم والقناعة بأن قائد الحزب «الأخ الأكبر» لايخطئ أبدا. ويحافظون على الإبقاء عليهم فى حاجة دائمة إلى الغذاء والمأوى والدواء واللهاث وراء كل ضروريات الحياة. يلهثون وراءها باستمرار دون إشباع حاجاتهم الأساسية منها أبدا، لأنهم يعيشون فى واقع من الأزمات المتواصلة. وبالتالى لا يبقى لديهم الوقت للتفكير فى السياسة، أو مخالفة تعليمات «الأخ الأكبر» الذى يطل عليهم من شاشات التليفزيون المنزلية. ولم يفكر الحزب أبدا فى توعيتهم أو فى ضمهم إلى صفوفه. وكان يكتفى بنشر الشائعات المطلوبة بينهم. وكل المطلوب منهم أن يكونوا على قدر من الوطنية البدائية اللازمة للهيمنة عليهم، أو إقناعهم بقبول زيادة ساعات العمل أو نقصانها لمصلحة البلد كما تقتضى أوامر الحزب. وهى طبقة تتميز بالجشع والأنانية واللامبالاة وضيق الأفق، والغرق فى تفاهاتها اليومية، وعدم القدرة على الارتفاع فوق مستوى حاجاتها الوضيعة. ألا يبدو كل هذا معاصرا لنا حتى اليوم فى أغلب مجتمعات عالم العولمة الغريب؟

وكان من الطبيعى أن نجلب هذا التصور السلبى للطبقة العاملة، من كاتب اشتراكى مثل أورويل، الكثير من النقد، فقد اعتبر الكثيرون أن تصويره المبسط للطبقة العاملة ذاك من أشد عيوب روايته خطورة، ومن عوامل فقرها الفكرى فى آن. بينما اعتبره البعض الآخر تعبيرا عن خيبة أمل أورويل فى حكومة أتلى العمالية بعد الحرب العالمية الثانية. كما أن ثقة «وينستون» فى «كارينجتون» الذى ينتمى إلى هذه الطبقة، ويؤجر لوينستون الحجرة التى يلتقى فيها مع «جوليا» هى ثقة فى غير مكانها. إذ نكتشف فى نهاية الأمر أنه من عملاء «شرطة الفكر». لكن قتامة هذه الصورة تعوضها نصاعة اللغة وقدرة النص على الكشف عن جدلية العلاقة بين الفساد اللغوى والفساد السياسى. لأن فساد اللغة هو احد الشروط الضرورية لإحكام قبضة الفساد، وهو السبيل إلى تسهيل هذا الفساد وتسويغه. فاللغة هى الأداة الأساسية للهيمنة السياسية والإقناع والسيطرة. وهى وسيلة تحقيق الهيمنة الشاملة على الواقع وعلى عقول المواطنين معا. إن هدفها النهائى ليس تحقيق السيطرة على ما يستطيع الإنسان الجديد التعبير عنه، بل أن تصوغ كلية ما يستطيع قوله، وما يمكنه التفكير فيه كذلك. إن اللغة الجديدة Newspeak هى التجسيد للغة المنتهكة، لغة الحزب العارية من قدرة اللغة التمثيلية أو التصويرية، والوالغة فى وظيفتها الإقناعية وتحقيق الهيمنة. إن الخطاب السياسى المعاصر يتغيا الدفاع عما لايمكن الدفاع عنه كما يقول لنا أورويل فى تعبيراته الجميلة التى أصبحت الآن دليلا على بصيرته فى آليات الفساد



(رواية ١٩٨٤) قد تكون نموذجًا لأى حكومة شمولية. فقد استخدمت كمعادل للاتحاد السوفيتى إبان الحرب الباردة. ولكن أى قراءة جديدة لها اليوم تكشف لنا كيف أنها تنطبق كلية على الولايات المتحدة الأمريكية

السياسى واستخدام الكذب وشتى صيغ ما يدعوه بالرطانة المزدوجة doublespeak والتفكير المزدوج doublethink والتى نشهد كل يوم المزيد من تجلياتها فى استخدام الكذب فى اللغة السياسية الراهنة. لا فى المجتمعات التى كان يقال عنها شمولية فحسب، بما فى ذلك جل مجتمعاتنا العربية، وإنما فى المجتمع الرأسمالى نفسه فى كل من بريطانيا وأمريكا. وما الجدل الشائع عن الكذب واستخدام شتى صيغ التضليل والتزييف فى الحديث عن أسلحة الدمار الشامل لدى العراق لتسويغ الحرب عليه، إلا حالة كلاسيكية من حالات ما يدعوه أورويل فى روايته بالكلام الفاسد أو الكلام الجديد newspeak. وهو كلام ينطوى بالقطع على تفكير إجرامى crimethink أصبح لسوء الحظ هو الخطاب الشائع فى هذا الزمن الردىء الذى نكتشف فيه يوما بعد يوم أن نبوءة أورويل التحذيرية كانت صادقة، وأنها يوتوبياها المقلوبة هى ما نعيشه اليوم فى المجتمع الغربى لا فى أوروبا الشرقية كما توهم البعض لزمن طويل.

إن حكومة «أوشانيا» أو حكومة «المطار رقم ١ Airstrip One» فى الرواية قد تكون نموذجا لأى حكومة شمولية. فقد استخدمت كمعادل للاتحاد السوفيتى إبان الحرب الباردة. ولكن أى قراءة جديدة لها اليوم تكشف لنا كيف أنها تنطبق كلية على الولايات المتحدة الأمريكية. فى قسوتها، وتحكمها المستمر فى تدفق المعلومات، وحاجتها الدائمة لأعداء حقيقيين أو متوهمين، واستخدامها للولاء للأعداء فى تخويف الناس، وتوحيدهم فى الكراهية المنظمة ضد الآخر، وتشويهها للغة واستخدامها الملتوى للشعارات والأفكار، وإلغاؤها للكلمات التى لا تناسبها أو تثير حفيظتها مثل الاستعمار أو الاستعمار الجديد، ولى الألفاظ حتى تعنى عكس دلالاتها الأصلية، وفى تجريمها للفكر، واستخدامها لسلاح عدم الولاء للنظام الأمريكى، ووضع أسماء المعارضين فى قوائم سوداء وغير ذلك من تجليات الواقع الجديد فى النظام العالمى الذى تترأسه الولايات المتحدة الآن. وهذا كله ما يمنح هذه الرواية قدرتها على الفاعلية والاستمرار فى عالم متغير. تصبح فيه وزارة التعذيب هى وزارة الحب، ووزارة المعلومات هى وزارة محو المعرفة وحذف الماضى، ووضع الأفكار فى ثقب الذاكرة مع كل ما لاتريد الوعى به فيه وتدميره. ومثل هذا النص القادر على الفعالية فى عالم متغير من النصوص التى ستبقى من أورويل برغم دينه الكبير لزمياتن. والتى يمكن الاستفادة منها وقراءتها على ضوء جديد فى واقعنا العربى فى هذا المنعطف التاريخى فيه عقب سقوط بغداد من جديد فى براثن الاستعمار. ودخول الشعب العربى فى حالة جمعية من الإحباط الأليم. الذى يضعنا جميعا فى الغرفة رقم ١٠١.

يبقى أخيرا واحد من أهم الدروس التى يمكن استنتاجها من مسيرة هذا الكاتب، والتى يصلح الكثير منها لعالمنا المعاصر، وهى العلاقة الشائكة والمعقدة بين المثقف والسلطة. فقد كشف الواقع الثقافى الإنجليزى مؤخرا صفحة سرية من حياة هذا الكاتب تم التعتيم عليها لزمن طويل. وهى استخدام المخابرات البريطانية لامرأة جميلة هى «سيليا كيروان Celia Kirwan» كان أورويل مغرما بها، فى حثه على الوشاية بعدد من أصدقائه من كتاب اليسار البريطانى. وقد تم أخيرا الكشف عن وثائق هذه الصفحة المجهولة فى تاريخه بمناسبة مئويته. وقد حدثت وقائع هذه الوشاية فى العام الأخير من حياته عام ١٩٤٩، وبعد نشر روايته الأخيرة (١٩٨٤). وكان يعانى وقتها من مرض العزلة وهجوم عدد من كتاب اليسار عليه بسبب أمثوليته الأخيرتين ضد النظام الاشتراكى. وهذا كله ما دفع البعض لالتماس العذر له فى هذه الوشاية. ولكن دعنا نتعرف على قصة هذه الوشاية أولا. كانت سيليا كيروان، واسمها قبل الزواج «سيليا باجيت» فتاة بالغة الجمال والحيوية تتحرك فى أوساط اليسار الإنجليزى، وكانت صديقة لمامين التى تزوجت من آرثر كوستلر صاحب الكتاب الشهير أو سيئ السمعة (ظلام فى الظهيرة). وكان أورويل قد قابل سيليا عام ١٩٤٥ وأعجب بها عندما أمضيا معا عطلة رأس السنة فى ديسمبر من هذا

كتاب الزاوية

مذكراتى فى نصف قرن

أحمد شفيق باشا

صاحب هذه المذكرات سياسى مصرى بارز لعب دورًا مهمًا فى الحياة السياسية المصرية فى نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد كان رئيس الديوان الخديوى ووكيل الجامعة المصرية الأهلية. ولد فى ١٨ مايو ١٨٦٠ بالقاهرة لأب شغل عدة وظائف مهمة خلال عهود سعيد وإسماعيل وتوفيق. تلقى أحمد شفيق تعليمه الابتدائى فى مدرسة المبتديان ثم مدرسة القبة التجهيزية وتدرج فى عُدة وظائف صغيرة ثم عمل فى الديوان الخديوى فى عهد توفيق وفى ١٨٨٥ سافر إلى فرنسا لإتمام دراسته وعاد إلى مصر عام ١٨٨٩ حيث واصل العمل فى معية الخديو وتولى وظائف عديدة.

وتعد مذكرات أحمد شفيق باشا من أهم المذكرات التى صدرت لسياسيين مصريين فى تلك الفترة من تاريخ مصر. وقد صدرت فى ٣ أجزاء: الأول من ١٨٧٣ إلى وفاة الخديو توفيق فى يناير ١٨٩٢، والثانى من ١٨٩٢ إلى ١٩١٤، والثالث من ١٩١٥ إلى ١٩٢٣ عن الخديو عباس والحرب العظمى.

وقد أفاض أحمد شفيق فى الحديث عن الجوانب السياسية والتعليمية والاقتصادية والفكرية فى تلك الفترة إلا أن الجوانب الاجتماعية كانت من أكثر الموضوعات متعة وثقافة فى هذه المذكرات. فقد تحدث عن التعليم والرقيق والمنتديات والمجالس والمتنزهات العامة والتمثيل والموسيقى والغناء والزواج والمآتم وغيرها.

وقد اخترنا بعضًا من الموضوعات التى تضمنها الجزء الأول من المذكرات من طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٩.

جورج أورويل

العام فى بيت كوستلر. وبدأ يكتب لها خطابات عاطفية فى يناير عام ١٩٤٦ يبدأها بحبيبتى سيليا، ويقترح عليها فيها الزواج أو إقامة علاقة عاطفية، ولكنها صدته برقة. ثم غادرت بريطانيا بعد ذلك إلى باريس.

ولم تعد «سيليا» إلى بريطانيا إلا فى عام ١٩٤٩ وذلك للعمل فى إدارة جديدة بوزارة الخارجية سميت «إدارة البحث والمعلومات» مهمتها الحد من نفوذ دعاية الكومنفورم اليسارية الناجحة. وكان أورويل وقتها فى مصحة للاستشفاء من مرض السل، وذهبت «سيليا» لزيارته فى مارس عام ١٩٤٩، حيث أعرب لها عن تأييده لأهداف هذه الإدارة الجديدة وغاياتها. وطلبت منه مساعدة هذه الإدارة الجديدة فى اقتراح أسماء يمكن الثقة فيها من الكتاب، بل طلبت منه الكتابة لإدارتها. ولكنه اعتذر بسبب مرضه، واقترح عليها عددا من الأسماء التى يمكن الثقة فيها. وفى ٦ أبريل ١٩٤٩ أرسل إليها عددا آخر من المقترحات، لكن أهم ما تضمنته هذه الرسالة الأخيرة هو أن لديه قائمة طويلة من الذين لايمكن الثقة بهم ممن وصفهم بالشيوعيين المستترين أو رفاق الطريق، وأنه سوف يطلب من بيته الكراسة التى تتضمن هذه القائمة، وأنه لو أرسلها لها فلابد أن تتعامل معها بأقصى قدر من السرية. وقد حولت «سيليا» الخطاب لرئيسها «آدم واطسون» الذى أشر عليه بضرورة الحصول منه على قائمة بأسماء الشيوعيين المستترين ورفاق الطريق، فالإدارة تعرف أسماء معظم الشيوعيين المعلنين، وأن تتعامل معها بسرية مطلقة وتعيدها إليه بعد يوم أو يومين. وقد كتبت له «سيليا» ما أمره بها رئيسها، وعلى ورق وزارة الخارجية المطبوع فى ٣٠ أبريل قائلة أن إدارتها مهتمة أشد الاهتمام برؤية قائمته، وأنها ستكون ممتنة جدا لو أتاح لها رؤية قائمته بالشيوعيين المستترين ورفاق الطريق، وستتعامل معها بسرية مطلقة. وقد طلب أورويل فى ١٧ أبريل، وقبل أن يصله خطابها ذاك، من صديقه «ريتشارد ريز» أن يرسل له الكراسة المذكورة من البيت النائى الذى كان يقيم فيه فى جزيرة جورا الأسكتلندية والذى كتب فيه روايته الأخيرة.

وما أن يصله خطابها حتى يرسل لها القائمة وهى قائمة طويلة تتضمن ١٣٥ اسما، شطب منها على عشرة أسماء لاتزال مقروءة، ووضع فيها علامة استفهام أمام عدد آخر من الأسماء. وقد تضمنت هذه القائمة أسماء كتاب وصحفيين مثل جون أندرسون مراسل صحيفة (الجارديان) العمالى، وجون بيفين رئيس تحرير صحيفة (مانشيستر) المسائية، ومارتن كينجزلى رئيس تحرير (نيوستيتسمان)، وإسحق دويتشر الذى يكتب فى (الأوبزرفر) و(الإيكونوميست) ومايكينزى نورمان، وكتاب الشئون الخارجية توم دريبرج وأليريك جاكوب، ومارجورى كوهين، وولتر دورانتى، وألكسندر ريث، وستيفن ليتور، وأيريس مورلى، وسيدريك دوفر لعدائه الشديد لأمريكا، وتايبور ميندا، ورالف باركر، وبيتر سموليت، ومارجريت ستيوارت، وعدد لابأس به من الروائيين مثل آرثر كولدر مارشال، د. جولدريدج، ون. ميتشيسون، و ر. نيومان، وكاتب المسرح الشهير ج.ب. بريستلى، والشعراء نيكولاس مور، وهيو ماكديرميد، وممثلين مثل تشارلى شابلن، ومايكل ريدجريف، والناقد المسرحى نورمان ماكينزى، والناقد بيدر أونيل، وأساتذة جامعة مثل بروفيسور بيرتراند راسل، وبروفيسور ب.م. بلاكيت، وبروفيسور أ.ه. كار، وبروفيسور جوردون تشايلد، وبروفيسور جون ميرى، وغيرهم. وهى قائمة دامغة بأى حال من الأحوال، تتضمن أسماء عدد من ألمع كتاب بريطانيا وأساتذتها وصحفييها. صحيح أن البعض الآن يعللها بأن دافع أورويل لكتابتها هو حرصه على إنقاذ بريطانيا من الوقوع فى شرور الحكم الشمولى، وحرصه على إنقاذ الجمهور من الرطانة الاشتراكية المضللة. ولكننا فى نهاية الأمر لا يمكننا إلا أن نعتبرها وصمة عار، وتقريرا بوليسيا يشى فيه بعدد ممن اعتبرهم أصدقاءه فى فترات سابقة من حياته، وسقطة من كاتب كبير وهو على فراش الموت. لأن أورويل مات بعدها بشهور معدودة فى ٢١ يناير عام ١٩٥٠. وها هى الحقيقة تظهر الآن ولو بعد أكثر من نصف قرن، لتدفع الكثيرين إلى إعادة النظر فى الكثير من مواقفه ونصوصه ■

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

الرقيق

كان الرقيق يكاد يعتبر يومئذ جزءًا من الأسرة. وكانت تجارة الرقيق منتشرة فى البلاد، سواء منه الأسود أو الأبيض.

وكانت توجد فى القاهرة بيوت خاصة ببيع الرقيق تعرض بواسطة (يسرجيات أو يسرجيين)، فكان يرتاد هذه البيوت من يريد اقتناء الجوارى أو المماليك أو العبيد.

وكان المعتاد أن يكشف عن الجنسين وهم عرايا. وقد يبالغون فى ذلك، خصوصًا بالنسبة للإماء، فيوضعن فى طسوت ملأى بالماء. ثم يخرجن. فإن نقصت كمية الماء دل ذلك على الصحة.

وكان يوجد بين الجراكسة عائلات بتمامها، ذكورًا وإناثًا، كبارًا وصغارًا: وقد اقتنى أبى عائلة مؤلفة من رجل وامرأة وولد وبنت صغيرين.

وكان مالكو الرقيق يستمتعون بالإناث منه (الجوارى) وخصوصًا البيض منهن. وكن يملأن بيوت الكبراء. وبذا اختلط الدم المصرى بدم الجراكسة فى بعض الأسر. وكان المصريون يعاملون الرقيق معاملة حسنة. فيرسلون الذكور للمدارس ويعتقونهم. ومن هؤلاء من وصل إلى وظائف مهمة فى الجيش والإدارة، حتى أن شوارع حلوان قد سمى أكثرها بأسمائهم: ومنهم من كان يزوج بناته منهم. أما الإناث فكان يعنى بتزويج الكثيرات منهن.

وقد ضعفت تجارة الرقيق على أثر المعاهدة التى عقدت فى شأنه فى عهد إسماعيل ثم انقطعت تجارته بعد ذلك بتاتًا.

شريعة البقرة الحمراء.. التوظيف

ليلى إبراهيم أبو المجد

إن أية محاولة لهدم وتدمير المساجد الإسلامية الموجودة على جبل المكبر، من أجل بناء «الهيكل الثالث» وإقامة دولة دينية تحكم بالشريعة فى إسرائيل، ستهدد ليس فقط الديمقراطية فى دولة إسرائيل، ولكن ستهدد وجود وكيان الدولة ذاته!!

دأب بنو إسرائيل منذ تاريخهم القديم على استغلال الدين وتوظيفه بما يخدم أهواءهم وأطماعهم، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً وتمتلئ بها أسفار العهد القديم، وأبواب المشنا Mishna[1]، وسنكتفى هنا بتناول نموذج منها وهو شريعة البقرة الحمراء[2]، التى علقوا إعادة بناء الهيكل على إقامة هذه الشريعة التى وردت فى سفر العدد الإصحاح التاسع عشر، وهو من أسفار التوراة الخمسة التى تنسب إلى موسى عليه السلام، ووردت هذه الشريعة فى المشنا فى كتاب الطهارة، باب البقرة.

وقد وقع اختيارى على هذا النموذج لارتباطه بقضية الصراع العربى ضد الصهيونية ومشروعها الاستعمارى فى فلسطين، ولارتباطه بالمحاولات التى تقوم بها الجماعات الدينية المتطرفة فى إسرائيل من أجل هدم المساجد الموجودة على جبل المكبر بما فيها المسجد الأقصى، تمهيداً لإقامة «الهيكل الثالث»، والتى عرضها The Center for the Protection of Democracy in Israel «مركز الحفاظ على الديمقراطية فى إسرائيل»، فى «بحث على الإنترنت فى الموقع www.Keshev.org.il باللغة العربية تحت عنوان: «الهدف. جبل البيت (أى جبل بيت الرب ويقصدون به جبل المكبر) نظرة حالية على التهديدات التى يتعرض لها جبل البيت من عناصر قنائية ومسيحانية «ويكون مقدساً وعقبة وحجر عثرة لبيتى إسرائيل وفخاً وشركاً لسكان أورشليم».

سفر إشعيا ٨/١٤

استخدم هذا البحث عدة مصطلحات ذات دلالات دينية وتاريخية، تربط بين ما تقوم به الآن الجماعات الدينية المتطرفة فى إسرائيل فى سعيها المحموم من أجل إقامة «الهيكل الثالث» لأغراض سياسية، وبين الجماعات اليهودية المتطرفة التى عاصرت ظهور السيد المسيح عليه السلام، ومنها «القناءون» وتعنى بالعبرية الغيورون، قد اشتهرت هذه الجماعة بالغلو والقسوة فى تطبيق الشريعة، واللجوء إلى استخدام العنف والإرهاب لدرجة أنهم لُقبوا بـ «سيقارين» وتعنى بالعبرية إرهابيون أو سفاحون، وكانوا يفضلون الخروج على القانون، بل يفضلون الموت لهم ولذويهم على الانصياع إلى الآخر المخالف لهم فى العقيدة.

لقد تسببت تلك الجماعة ومن انتهج نهجها فى العنف والإرهاب والتطرف الدينى، فى القضاء على الوجود اليهودى فى فلسطين، وذلك عندما قام القائد الرومانى «تيتوس» بالانتقام منهم كرد فعل لما قاموا به من جرائم وفظائع، وقام بتدمير «الهيكل الثانى» سنة ٧٠م، وطرد البقية الباقية منهم من فلسطين، وتشتتوا منذ ذلك التاريخ فى سائر أرجاء المعمورة وظلوا هكذا حتى منحهم الاستعمار البريطانى «وعد بلفور» وتحالف مع الصهيونية حتى تم تنفيذ هذا الوعد بإقامة إسرائيل على قسم من أرض فلسطين العربية.

والبحث الذى يقدمه «مركز الحفاظ على الديمقراطية فى إسرائيل» يقرع ناقوس الخطر ويضع أمام الحكومة الإسرائيلية، ومن يهمه أمر بقاء دولة إسرائيل، النتيجة التى توصل إليها وهى: أن أية محاولة لهدم وتدمير المساجد الإسلامية الموجودة على جبل المكبر، من أجل بناء «الهيكل الثالث» وإقامة دولة دينية تحكم بالشريعة فى إسرائيل، ستهدد ليس فقط الديمقراطية فى دولة إسرائيل، ولكن ستهدد وجود وكيان الدولة ذاته!!

فلقد رصد البحث تزايد نشاط الجمعيات والمنظمات الداعية إلى إقامة الهيكل خلال التسعينيات من القرن الماضى، وخصوصاً فى السنوات الخمس الأخيرة منها، بعد أن اتسعت دائرة النشطاء والمؤيدين والقاعدة الجماهيرية المؤيدة عقدياً لفكرة هدم المساجد الموجودة فوق جبل المكبر (فى سنة ١٩٩٠م بلغ عدد أعضاء «دعاة الهيكل» ٦٠ شخصاً وفى أغسطس عام ٢٠٠٠م بلغ ٥٠٠٠٠ شخص). كما رصد البحث دور المؤسسات الحكومية فى هذا النشاط (دور وزارة الأديان، الوزراء، القضاة، رئيس لجنة التشريع فى الكنيست).

وقد أرجع البحث هذه الظاهرة إلى عاملين: خارجى وهو الخوف من توقيع الحكومة الإسرائيلية اتفاقية تضفى على الوضع القائم الصفة الشرعية، وهو سيطرة الفلسطينيين الفعلية على «جبل الهيكل».

أما العامل الداخلى فقد ألمح إليه البحث فى عنوانه، وهو توقعات اليهود بقرب مجىء المسيح المخلص مع اقتراب حلول الألفية الثالثة، لإقامة مملكة الرب، وهو ما أدى إلى زيادة الاهتمام والتفكير فى موضوع الهيكل. لقد أصبح الأمل فى مجىء المسيح المخلص ركناً من أركان العقيدة اليهودية، وأصبح يسمى عند كثير من المؤرخين باسم «المسيحانية». والواقع أن الحلم المسيحانى لم يكف عن مداعبة خيال اليهود منذ السبى البابلى وحتى مطلع القرن الحادى والعشرين، فظهر العديد من اليهود الذين ادعى كل منهم أنه المسيح المنتظر، وآمن بهم الآلاف، وفى كل مرة يثبت فيها كذب هذا المسيح أو ذاك كانت العاقبة وخيمة ليس فقط على هذا المسيح الكذّاب، ولكن على جمهور المؤمنين فهم يتعرضون لبطش السلطة الحاكمة فى البلد التى ظهر فيها المسيح، ثم تتفشى فيهم حالة من اليأس والإحباط تؤدى بالكثيرين منهم إلى التخلى عن اليهودية برمتها والكفر بها.

ونظراً لأن المستهدف والمتلقى لهذا البحث هو الحكومة الإسرائيلية، التى يتوجه إليها باقتراحاته فإنه تعمّد فى مواضع كثيرة التلميح دون التصريح مستخدماً مصطلحات ذات دلالات دينية وتاريخية وسياسية لتوصيل ما يريده من رسائل، والتى لن يفهمها إلا من يقصدهم بهذا البحث أو المتخصصون فى التاريخ والديانة اليهودية، لذلك فقد أخذت على عاتقى مهمة عرض أهم النقاط التى أبرزها البحث، بالإضافة إلى توضيح وشرح الجوانب التى سكت عنها دون فصل بينهما.

رصد البحث حوالى عشر هيئات تعمل فى مجال الإعداد للهيكل، وكل واحدة من هذه الهيئات التى يذكرها تعمل فى مجال تخصصها ولكنها ترتبط بالأيديولوجية العامة «لدعاة الهيكل» التى تقوم على نظرية التدرج، والتى تعتبر دراسة وإحياء الخدمة فى الهيكل والطقوس، هى البداية أما المرحلة النهائية فهى إقامة الهيكل فى المكان الذى توجد فيه المساجد على جبل المكبر.

يدعم هذه الهيئات جماعة مساندة تشمل هيئات تشريعية، مثل «دار القضاء المجاورة لجبل الهيكل»، الجمعيات التى تقوم باستيطان «احتلال» شرق القدس، مثل «عطرت كوهنيم» التى تركز على شراء المبانى والأراضى المجاورة لحائط البراق وأسوار «جبل البيت»، معاهد دينية متطرفة مثل معهد «شوفوبانيم»،.. وحاخامات وقادة طوائف:

١. أولى هذه الهيئات «دعاة الهيكل» وهى هيئة عليا تضم المنظمات المهتمة بجبل الهيكل. وأحد الناشطين الأساسيين فيها هو الحاخام باروخ كهانا، ابن زعيم حركة كاخ الذى تم اغتياله، وله سجل معروف فى ممارسة العنف والإرهاب.

٢. «حركة إعداد الهيكل» تهتم بالناحية العملية لإحياء طقوس تقديم القرابين، وغيرها من الطقوس المرتبطة بالهيكل. وتقوم بإعداد زى الكهنة وأدوات الهيكل.

٣. «معهد الهيكل» أُقيم عام ١٩٨٣م، ويركز على إعداد الأدوات اللازمة لإحياء مائتى شريعة، والتى لا يمكن إقامتها إلا بعد إعادة بناء الهيكل، ويضم المعهد متحفاً لأدوات الهيكل: العطور، وملابس الكهنة وغيرها. والمعهد يتلقى تمويلاً دائماً ومساعدة من السلطات القومية، ويؤكد الناشطون فى المعهد أنهم يتلقون مساعدات من هيئات بروتستانتية مسيحية.

٤. «حى وموجود» أُقيمت سنة ١٩٩٠م، وتصف تلك الحركة نفسها بأنها مسيحانية «حركة الخلاص من أجل إحياء مملكة إسرائيل» وأهدافها هى:

أ. تحويل إسرائيل إلى دولة دينية تطبق الشريعة اليهودية.

ب. تفجير ونسف المساجد الموجودة فوق «جبل المكبر».

٥. «إلى جبل المر» وهى هيئة فكرية.

٦. «نساء تعمل من أجل بيت المقدس» وتهتم بجمع الحلى الذهبية والأحجار الكريمة من النساء وذلك من أجل بناء الهيكل.

٧. «منذ البداية» والموضوع الأساسى الذى يدور حوله النقاش فى دوائر هذه الهيئة هو الصراع حول «جبل البيت» وإقامة الهيكل، ويتمحور حول أن إعداد بيت المقدس يتم بيد الإنسان، وذلك تطبيقاً للفريضة «اصنعوا لى مَقْدساً» أى أن إقامة الهيكل ليست معلقة ولا مرهونة بمجىء المسيح.

٨. «حراسات الكهنة» وينتسب أعضاؤها للكهنة، من سبط لاوى، وهم ذوى سجل بشع فى الإجرام والإرهاب، ولديهم القدرة على القيام بأعمال تخريبية. ولكن فى كل الجمعيات والهيئات حتى الصغيرة منها والمؤقتة، نظراً للتنظيم والتخطيط والتناغم الذى تعمل هذه الجمعيات فى إطاره ويجعلها فى النهاية تصب جميعاً فى هدف واحد هو:

أ. إقامة الهيكل الثالث فى المكان الذى تقوم عليه المساجد الإسلامية فوق «جبل المكبر».

ب. إقامة دولة يهودية تحكم بالشريعة.

والمحاولات التى تتم من أجل تحقيق هذه الأهداف، لا تشكل خطورة أو تهديداً، كما يرى كاتب البحث، على الديمقراطية فى دولة إسرائيل فقط، ولكنها تهدد كيان الدولة ذاته ووجودها. فإذا كانت المرويات الدينية ترى أن «الخلاص» أمر حتمى، قدَّره الرب ولا تدخل للإنسان فيه، فإن هذه الجمعيات والهيئات تتبنى وجهة نظر مرويات هامشية متطرفة ترى أنه من الممكن استعجال «الخلاص» عن طريق القيام بخطوات فعلية تمهيدية منها:

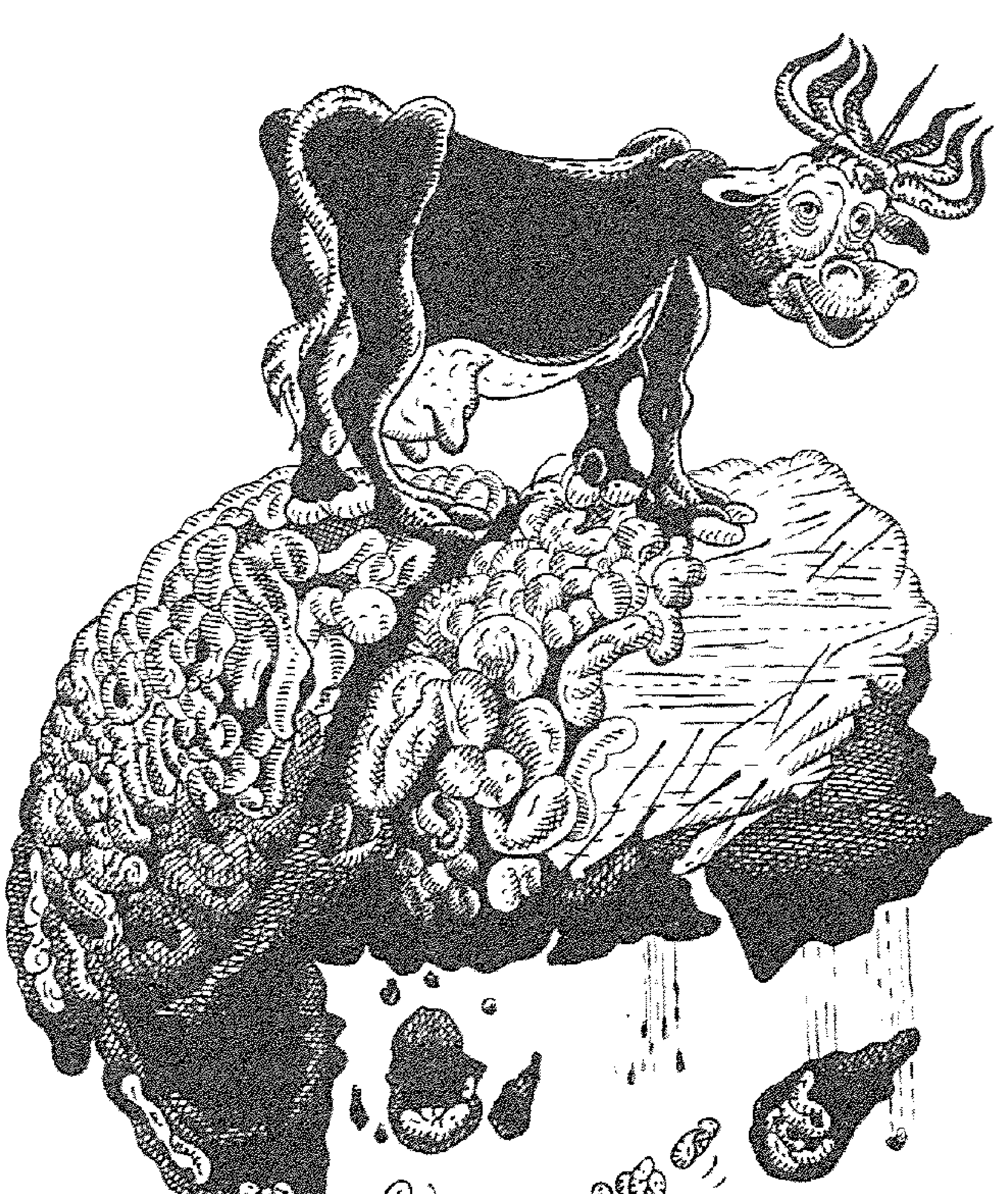
١. إحياء السنهدرين (الهيئة القضائية الدينية).

٢. البحث عن بقرة حمراء من أجل التطهر.

«فدعاة الهيكل» يرون أن إقامة «الهيكل الثالث» تُوجب إحياء عمل «السنهدرين». وقد توصل البحث إلى أن «دعاة الهيكل» قد أحيوا فى الأونة الأخيرة فى هدوء وسرية «السنهدرين الصغير» وهى هيئة قضائية دينية تضم ثلاثة وعشرين عضواً، والاسم مأخوذ عن الكلمة اليونانية التى تعنى «مجلس الشيوخ». وقد شكل اليهود «السنهدرين» فى فترة الحكم اليونانى للمنطقة وكان بمثابة مؤسسة دينية تشريعية وسياسية. وهناك «السنهدرين الكبير» ويتألف من واحد وسبعين عضواً. والمؤسستان بمثابة دار قضاء لها صلاحية إصدار أحكام إعدام وفقاً للشريعة. وكان مقر السنهدرين فى فترة الحكم اليونانى للمنطقة، فى قاعة من قاعات الهيكل. وقال بروفيسور هليل فايس وهو أحد أعضاء «السنهدرين الصغير» الذين تم تعيينهم، فى حديث لمندوب كشف بتاريخ ١٦/٨/٢٠٠٠م: «يدور الحديث حول إيجاد قيادات دينية بديلة لقيادات الدولة العلمانية».

ثم يرصد البحث بعد ذلك، المحاولات والجهود المبذولة من أجل تربية «البقرة الحمراء» والتى سوف يستخدم التراب الناتج عن حرقها فى تطهير الكهنة لكى يكونوا صالحين ويسمح لهم بالقيام بالطقوس والخدمة فى الهيكل. فتطهير

السياسى للنص الدينى عند اليهود



المكلفون بالخدمة وإقامة الطقوس والشعائر فى الهيكل. ومن أجل الإعداد الفعلى والتمهيدى لبناء الهيكل تم تقسيم إسرائيل إلى مناطق، يُعين على كل منها مسئول عن الكهنة فى هذه المنطقة. والمهام اليدوية التى ستناط إليهم تشمل أعمال البناء، والتطهير، ذبح وتقريب القرابين، العزف. وفى مستوطنة «مصفة أريحا» يجرى الإعداد لبناء الهيكل فى تكتم شديد كما يتم تدريب الكهنة على القيام بالطقوس.

٩. «أمناء جبل الهيكل» وتعمل هذه الهيئة خارج سيطرة المنظمة العليا، ويتلقى رئيسها مساعدات من طوائف مسيحية بروتستانتية فى أمريكا. وهى الطوائف التى تؤمن بأن حرب يأجوج ومأجوج(٣) وإقامة الهيكل، مرحلة لاهوتية لابد أن تحدث قبل قيامة المسيح عليه السلام.

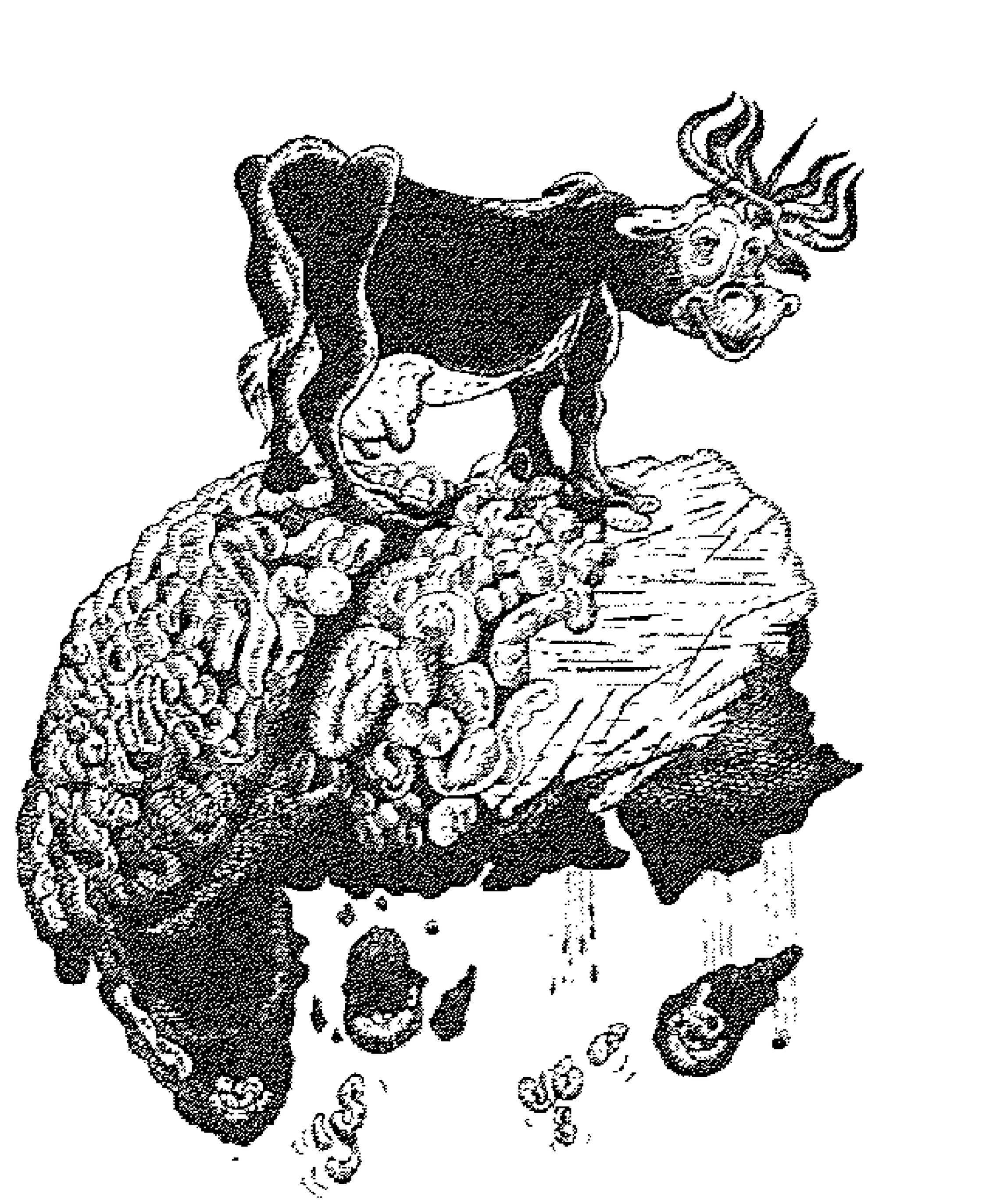
وقد صرح رئيس الهيئة لمندوب كشف موقع الإنترنت فى حديث بتاريخ ٢٨/٦/٢٠٠٠م: أنه فى الأونة الأخيرة انضم لتلك الحركة نصارى من كافة أرجاء العالم، بما فى ذلك، دول إسلامية مثل مصر، واندونيسيا، وبلدان أفريقية، وبلغ إجمالى الأعضاء عشرة آلاف، أما فى إسرائيل فيبلغ عدد أعضاء هذه الحركة ما يربو على عشرة آلاف.

وبعد أن عرض البحث نشاط الهيئات والجمعيات والمنظمات الداعية إلى إقامة الهيكل، يؤكد البحث على النتيجة التالية: أن الخطورة لا تكمن فقط فى الجمعيات والهيئات التى تضم نشطاء

الكهنة شرط ضرورى لإحياء الطقوس والشعائر المتعلقة بالهيكل. وسوف نتوقف عند هذه النقطة من البحث الذى يقدمه «مركز الحفاظ على الديمقراطية فى إسرائيل» لنناقش الإشكاليات التى أوقع اليهود أنفسهم فيها نتيجة توظيف الدين وتأويله معان لم يقصدها، فشريعة البقرة الحمراء فريضة أمر بها موسى عليه السلام. وقد تضمن النص سبب فرض هذه الشريعة (العدد/١٩/١٣) «كل من مس جثة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجس مَسْكن الرب..» فالوحى كان ينزل على موسى عليه السلام فى خيمة الاجتماع، لذلك أمرهم الرب بالتطهر، فالإنسان النجس، بدخوله خيمة الاجتماع ينجس «المكان الذى يحل عليه الرب» ويسمى فى النص (العدد١٩/١٣) «مشكان»، وهو اسم مكان من الفعل العبرى «سكن» ويسمى أيضاً فى موضع آخر (العدد ١٩/٢٠) «مقداش»(٤) وهو اسم مكان من الفعل العبرى «قدس» ويعنى المكان الذى تحل فيه القداسة أو القدوس.

وتتلخص شريعة البقرة الحمراء فى أنه إذا مات إنسان فى خيمة فقد تنجست الخيمة، وتنجس كل من فيها من أشخاص وكل ما فيها من متاع وأدوات. ويظل الفرد نجساً طيلة سبعة أيام، ولكى يطهر يجب أن يُنثر عليه ماء مخلوط بتراب البقرة الحمراء فى اليوم الثالث لحدوث النجاسة وفى اليوم السابع ثم يغسل ملابسه ويغتسل بالماء ويصبح طاهراً فى المساء.

وتنحصر شريعة البقرة



الحمراء كما نصت عليها التوراة فى ثلاثة أركان:

١. مواصفات البقرة
٢. كيفية حرق البقرة
٣. كيفية إعداد ماء التطهير

فالبقرة يجب أن تكون صحيحة، لا عيب فيها، لم تحمل على ظهرها شيئًا قط، وأن تكون حمراء داكنة، ويجب أن تُذبح أمام كاهن (من أبناء هارون الذين اختارهم الرب لخدمته) ويأخذ الكاهن من دمها بإصبعه وينثره فى اتجاه باب خيمة الاجتماع سبع مرات. ثم تُحرق البقرة على مرأى منه. ثم يجمع رجل طاهر الرماد الناتج عن حرق البقرة ويضعه فى مكان طاهر خارج مكان سكنى وإقامة الناس. ويتم حفظه من أجل إعداد ماء التطهير.

ولإعداد ماء التطهير يؤتى بماء جار فى إناء وينثر عليه قليل من رماد حرق البقرة، ثم يمسك رجل طاهر بنبات عطرى (زوفا) ويغمسه فى هذا الماء ثم ينثره على الخيمة التى تنجست، وعلى جميع الأمتعة، وعلى كل من تواجد داخلها، وعلى كل من مسَّ العظم، أو القتيل، أو الميت، أو القبر. ينثر الطاهر على النجس فى اليوم الثالث وفى اليوم السابع من حدوث النجاسة.

والنص كما جاء فى التوراة لم يشترط أو يحدد مكانًا بعينه لإقامة تلك الشريعة، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى أرض كنعان، بل على العكس اشترط أن تقام بعيداً عن مكان إقامة وسكنى الناس، ولم يشر إلى خيمة الاجتماع، إلا فى نقطة فرعية. وهى أن ينثر الكاهن بإصبعه من دم البقرة فى اتجاه باب خيمة الاجتماع سبع مرات.

فلماذا علق اليهود إذن بناء الهيكل على جبل المكبر، الذى لا علاقة له بموسى عليه السلام بإقامة شريعة البقرة الحمراء؟

لماذا تذكر اليهود الآن وبعد مرور ألفى عام تقريبًا على تدمير الهيكل أنهم نجسون؟

فى واقع الأمر لا توجد أدنى صلة لموسى عليه السلام بأرض كنعان فقد مات ودفن فى أرض مواب ولم تطأ قدماه أرض كنعان (سفر التثنية ٤٩/٣٣، ٥٠، ٥/٣٤، ٦) وليس لموسى عليه السلام صلة بهذا الهيكل أو بعقيدة الخلاص التى يؤمن بها اليهود الآن. ففكرة «الخلاص» أخذها اليهود عن الزرادشتية أثناء السبى فى بابل (٥٨٦ ق.م) حين دفعتهم محنة السبى واليأس الذى انتابهم إلى التفكير فى الغيبيات، فأضفوا على فكرة الخلاص الزرادشتية، وهى فكرة لاهوتية، طابعًا ماديًا سياسيًا، للخروج من محنتهم، ومع

رصد البحث تزايد نشاط الجمعيات والمنظمات الداعية إلى إقامة الهيكل خلال التسعينيات من القرن الماضى، وخصوصًا فى السنوات الخمس الأخيرة منها، بعد أن اتسعت دائرة النشطاء والمؤيدين والقاعدة الجماهيرية المؤيدة عقديًا لفكرة هدم المساجد الموجودة فوق جبل المكبر

الحوادث الجسام التى تعرض لها اليهود إبان السبى البابلى، وما كان قد سبقه من فساد فى ملوك إسرائيل ويهوذا، أصبح حلم الأنبياء والمصلحين والكثرة الكثيرة من اليهود أن يأتى ملك فذ من نوعه، مخلِّص، معه القوة والبركة، يعيد الأمجاد السالفة، فيكون هو الملك بحق، وهو «المسيح»، ولا تظهر هذه الفكرة فى أسفار التوراة الخمسة، ولكن الباحثين، واليهود منهم بوجه خاص، تأولوا ذلك من خلال جملتين فى كل التوراة، مع كثير من التكلف والتعسف، الأولى وردت فى (تكوين ٤٩/ ١٠)، والثانية وردت فى (العدد ٢٤/ ١٧) وهى ليست أقل غموضًا عن سابقتها، ولم يرد فيهما ذكر المسيح أو الخلاص صراحة.

أما الهيكل فقد ارتبط بناؤه بمفهوم «العودة أو الإعادة» الاستعمارى، فالملك قورش الفارسى هو الذى أصدر الأمر بإعادة بناء الهيكل (بيت الرب) الذى كان قد دمره نبوخذ نصر الملك البابلى، كما قرر قورش إعادة آنية وأدوات «بيت الرب» التى نهبها نبوخذ نصر من أجل إعادة عبادة الإله «يهوا»، وهو المعبود القديم الذى كان يُعبد فى أورشليم. كما قرر إعادة سبايا اليهود من بابل إلى أورشليم، ومهما كان الشعب الذى نُقل أو أُعيد إلى فلسطين، فهم بالتأكيد لم يكونوا من بنى إسرائيل، ورغم ذلك اعتبرتهم المرويات التوراتية التى ظهرت، كما اعتبروا أنفسهم سكان إسرائيل العائدين «إليها» من منفى مرير بعد أن خلصهم منقذهم الملك قورش(٥).

ولقد قوبل هذا الاستيطان الاستعمارى الذى زرعه قورش فى هذه المنطقة بين سكان وشعوب مستقرة منذ زمن، بمقاومة شديدة، مما دفع «العائدين» إلى التركيز منذ ذلك التاريخ على دور الهيكل فى الطقوس والشعائر من أجل تثبيت أقدام هذا الاستيطان الغريب، فاستبدل حكماء «المشنا» الهيكل بخيمة الاجتماع فى التوراة، وغالوا فى العنت والتشدد، فشريعة البقرة الحمراء التى شغلت إصحاحًا واحدًا فى التوراة (العدد/ ١٩) أفرد لها كتاب المشنا بابًا كاملاً يتكون من اثنى عشر فصلاً ويتضمن خمسة وتسعين تشريعًا وتشددوا فى كل طقوسها.

ونظرًا لارتباط الاستيطان اليهودى فى فلسطين، فى العصر الحديث، بالمخططات الاستعمارية أيضًا، لذلك نراه يستخدم مفهوم «العودة» أو الإعادة، فالمهاجر إلى فلسطين هو «عائد إلى أرض الآباء» وإقامة الهيكل هى «إعادة بناء بيت الرب» أو «إعادة المقداش» أى إعادة المكان الذى تسكن فيه القداسة. لذلك فليس غريبًا أن تلتزم الجماعات الدينية المتطرفة فى إسرائيل، فى إحياء الطقوس والشعائر، بالتشريعات التى وضعها حكماء «المشنا» لتثبيت الاستيطان، على الرغم مما تتسم به من عنت وتشدد، فالبقرة يجب أن يتراوح عمرها من ثلاث إلى أربع سنوات، ويجب ألا يكون بها لون يخالف لونها الأحمر الداكن، فإذا ظهرت شعرتان بيض أو سود فى بصيلة واحدة تعد البقرة غير صالحة (وهذا هو ما حدث فى «كفار حسيديم» فى مارس ١٩٩٧م فقد ولدت بقرة حمراء من تلقيح صناعى تم أخذه من ثور أمريكى أحمر ووُضع فى رحم بقرة إسرائيلية ولكن بعد عدة أشهر ظهر فى ذيلها شعرتان بيضاوان، وبالتالى فلا تصلح لإقامة الفريضة، وغيرها من المحاولات، التى تكلفت مبالغ طائلة.. ولكنها جميعًا باءت بالفشل).

وقرر كتاب «المشنا» ألا تكون تلك البقرة الحمراء قد جاءت إلى الحياة عن طريق شق بطن البقرة الأم، أى بولادة غير طبيعية. يجب ألا يكون قد ركب عليها أحد، أو استند إليها، أو تعلق بذيلها ليعبر نهرًا، أو لف الحبل ووضعه فوق ظهرها، أو وضع وشاح الصلاة الخاص به فوق ظهرها. ويجب ألا تكون عشارًا.

كما فرض كتاب المشنا على الكاهن الأكبر أن يعتزل بيته قبل حرق البقرة بسبعة أيام، وهذا ما لم تنص عليه التوراة، وإنما من تأويل الحكماء، وألزم الكاهن أن يقيم طوال هذه الأيام فى حجرة إلى الشمال الشرقى من الهيكل، وكلها مصنوعة من الحجر بما فيها من أدوات وأوانى لأنه لا يتنجس. ويجب أن يُنثر على الكاهن طيلة تلك الأيام السبعة من ماء التطهير المخلوط بتراب بقر قديم.

ويبلغ كتاب المشنا ذروة الغلو والتزمت عندما يحدد مَن الذى سيأتى بالماء الجار الذى سيُخلط بتراب البقرة؟ ومن أين سيأتى به؟ وكيف؟

فينص كتاب المشنا أنه قبل الشروع فى شريعة البقرة بثمانى سنوات يؤتى بنساء ذوات أحمال، ويقمن فى أفنية مخصصة لهذا الغرض، فهى مقامة فوق صخور بينها فراغات لكى تكون بمثابة عازل بين أرضية تلك الأفنية وما قد يكون فى باطن الأرض من قبور أو رفات، لكى يضمنوا طهارة تلك الأفنية!!

وتضع النساء أحمالهن فى تلك الأفنية ويقمن بتربية الأبناء فيها حتى يبلغوا ثمانية أعوام، ويقوم هؤلاء الأطفال بجلب الماء الجار اللازم لعملية التطهير من نهر (شيلوه)، ولكن لكى يبلغوا هذا النهر يجب ألا تطأ أقدامهم الأرض، خشية أن يتنجسوا لوجود رفات قديم مدفون فى باطن الأرض، لذلك يؤتى بثيران توضع عليها ألواح خشبية (لتكون عازلاً) ليجلس عليها الأطفال، ويمسكون فى أيديهم كئوساً مصنوعة من الحجر، وإذا بلغوا النهر، اختلف الحكماء هل ينزلون ويملأون الكئوس؟ أم يدلونها وهم على ظهر الثيران؟ وهكذا تتمادى تشريعات المشنا فى الغلو، فواضعو التشريعات يعتقدون أن سير الإنسان على الأرض من الممكن أن ينجسه، لاحتمال وجود رفات قديم فى باطن الأرض، وهذا غلو من واضعى المشنا ولم يأت به نص فى التوراة.

وقد اكتفينا بهذا القدر من تشريعات البقرة فى المشنا، ولم نأت بها كاملة، لكى ننقل للقارئ مقدار ما فى نص المشنا من مغالاة، ولكى نمهد القارئ للنتيجة المتوقعة، فقد تسبب حكماء المشنا بتطرفهم وتشددهم وغلوهم فى عدم التزام الجمهور بهذه الشرائع وبالتالى توقفت هذه الطقوس قبل ظهور دعوة السيد المسيح عليه السلام وقبل تدمير الهيكل (المشنا، كتاب النساء، باب الجانحة ٩/٩). فلا ارتباط بين وجود الهيكل أو غيابه بالتزام اليهود بالشرائع والطقوس، وهذا يفضح أغراض «دعاة إقامة الهيكل» السياسية التى يغلفونها بستار دينى، والدين براء منهم.

وكما ذكرنا فى سياق الحديث عن المواصفات التى وضعها حكماء المشنا ويجب توافرها فى البقرة الحمراء، لم تتمكن الجماعات الدينية المتطرفة للآن وعلى الرغم من ثورة الاتصالات، وسهولة تبادل الأخبار والمعلومات، وعلى الرغم من التقدم العلمى الهائل فى علم الهندسة الوراثية، وعلى الرغم من التمويل السخى الذى ينهال عليهم من جميع أنحاء العالم، كما رصد البحث، على الرغم من كل هذا لم يتمكنوا من تربية بقرة واحدة بمواصفات «المشنا».

الإشكالية الأولى:

وإذا كان الحال هكذا مع بقرة واحدة، فمن أين سيؤتى بالأعداد الهائلة من الحيوانات والطيور اللازمة للتقديم كقرابين يومية، والتى تخضع هى الأخرى لمواصفات وشروط مثل البقرة الحمراء.

الإشكالية الثانية:

إذا كانت الجماعات الدينية المتطرفة فى طريقها إلى إحياء الطقوس والشعائر المرتبطة بالهيكل، والتى من بينها تقديم القرابين، فماذا سيفعلون بالصلاة؟ فموسى عليه السلام كان يتقرب إلى الله بالقرابين، لا بالصلاة، والصلاة فى اليهودية من وضع الحكماء، اضطروا إليها أثناء السبى البابلى، وتأثروا فيها بالديانة الزرادشتية، وجعلوا كل صلاة من الصلوات بديلاً لقربان من القرابين اليومية وفى ميقاته، لذلك فالتفكير يدور الآن فى هذه الأوساط اليهودية لمحاولة الوصول إلى حل يوفق بين وجود الصلاة، التى أصبحت تشكل جزءاً مهماً فى حياة اليهودى، وبين تقديم القرابين، ومازال البحث متواصلاً!!

أما الخطر الحقيقى، الذى استشعره «مركز الحفاظ على الديمقراطية فى إسرائيل» فيتمثل فى: أن الجماعات الدينية المتطرفة لا تقبل الآخر بمفهومه الواسع الذى يشمل المخالف فى العقيدة والمخالف فى الرأى.

لذلك فإن التسمية التى أطلقها عليهم البحث فى العنوان وهى «قناءون» لم تأت عبثاً ولكن لأنهم ينهجون نفس نهج هذه الجماعة المتطرفة التى عاصرت السيد المسيح عليه السلام، وكانوا يفضلون الموت لهم ولذويهم على الخضوع للآخر المخالف لهم. وحتى تشريعات المشنا التى تلتزم بها الجماعات الدينية المتطرفة فهى لا تقبل الآخر إلا إذا قبل فكرهم، ورضى أن يكون مجرد خادم وتابع، والنموذج الذى يقدمه حكماء «المشنا» هم سكان جبل جبعون أيام يشوع بن نون، الذى دخل أرض كنعان ببنى إسرائيل بعد وفاة موسى، وحارب سكان المدن الكنعانية، فتحايل عليه سكان جبل جبعون لكى يسالمهم ولا يحاربهم، فطلب منهم لكى يسالمهم أن يقوموا بالسقاية وجمع الحطب لبنى إسرائيل. أى القيام بالخدمة مقابل العيش فى سلام!!

وكما ذكرت فى بداية حديثى أن هذه الجماعة بما اتسمت به من قسوة وغلو فى التشريع واللجوء إلى العنف والإرهاب فى التطبيق، ورفضها التام للآخر، قد تسببت فى القضاء على الوجود اليهودى فى فلسطين فى القرن الأول الميلادى، لذلك فالدافع الحقيقى للبحث الذى يقدمه هذا المركز هو خشيته أن يعيد التاريخ نفسه، ويكون نهاية الوجود الإسرائيلى فى المنطقة على يد هذه الجماعات الدينية المتطرفة.

ونختتم هذه السطور بالمقترحات التى يتقدم بها «المركز» للحكومة الإسرائيلية، وللمسئولين وللقيادات الدينية فى إسرائيل:

١. يجب أن تكف الدولة عن تمويل هذه المعاهد والمؤسسات الداعية إلى إقامة الهيكل.

٢. لدولة إسرائيل مصلحة حيوية فى إشراك عناصر دولية فى المسئولية عن حماية الأماكن المقدسة الإسلامية، ففى حالة عدم وجود مثل هذه القوة الدولية وتعرض المساجد الإسلامية لأى خطر فسوف تُلقى المسئولية كاملة على إسرائيل ومن المحتمل أن يفجّر هذا العمل قوى تدمير «أبوكاليبسية»(٦) هائلة.

٣. يقترح «المركز» أن تبادر حكومة إسرائيل دون تأخير بدعوة عناصر دولية (الأمم المتحدة أو قوى من دول متعددة) وتشركها معها فى مسئولية أمن الأماكن الإسلامية المقدسة على «جبل المكبر».

٤. فى المقابل يجب على حكومة إسرائيل أن تبذل جهوداً قصوى من الناحية الأمنية والمعلوماتية فى منطقة «جبل الهيكل» والمناطق المحيطة. ويجب أن تراقب قوات الأمن، النشطاء من الجماعات الداعية إلى إقامة الهيكل المذكورين، فنحن نتوقع الخطر من هذه العناصر المتطرفة، فيقوم أحد الإرهابيين من جماعة «شوفو بانيم» ويكون مستعداً للتضحية بنفسه مثل ييجال عامير (قاتل رابين) وباروخ جولدشتاين (صاحب مذبحة الحرم الإبراهيمى والذى أطلق النار على المصلين فى صلاة الفجر).

٥. يتوجه «المركز» للمسئولين والموجودين فى السلطة بأن يوقفوا كل نوع من أنواع التأييد والتمويل للمنظمات والمؤسسات الداعية لإقامة الهيكل.

٦. يطلب المركز من الحاخامات والزعماء الدينيين ذوى الجماهيرية أن يتراجعوا ويعلنوا على الملأ تخليهم عن النداءات التى سبق ووجهوها والتى تدعو إلى «تدمير المساجد»، فالأمر بأيدينا.■

الهوامش:-

(١) المشنا كتاب تشريع وضعه الحكماء العائدون من السبى البابلى، وهو الأساس الذى تقوم عليه الديانة اليهودية. ويتألف من ستة أجزاء أو كتب يسمى كل منها باسم مستقل: كتاب النساء، الزراعة، الطهارة، الجنايات، الأعياد، المقدسات. ويضم كل كتاب عدة أبواب تدور حول نفس الموضوع، وينقسم كل باب إلى عدة فصول، ويشتمل كل فصل على عدد من التشريعات.

(٢) وهى تختلف كلية عن البقرة الصفراء التى وردت فى سورة البقرة فى القرآن الكريم، وقد أمر الله بنى إسرائيل أن يذبحوها لمعرفة القاتل، وهناك شريعة مشابهة لها فى سفر التثنية ٢١/١-٩، لكن دون تحديد للون البقرة المذبوحة.

(٣) ورد ذكر جوج وماجوج فى سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتى (٢٠/٧-٨) وهو آخر أسفار الكتاب المقدس، (متى تمت الألف سنة يُحَلّ الشيطان من سجنه، ويخرج ليُضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض جوج وما جوج ليجمعهم للحرب..).

وهو ما تم تفسيره على أنه حرب بين قوى الخير والشر تسبق قيامة السيد المسيح وتكون مع حلول الألفية.

(٤) وهو الاسم الذى استخدمته المنظمات والجمعيات الدينية المتطرفة للدلالة على الهيكل.

(٥) راجع: توماس ل. طومسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى، ص ٢٨٩.

(٦) أبوكاليبس Apocalypise كلمة من أصل يونانى وتعنى كشف أو إظهار. ويطلق هذا المصطلح على أدب «الرؤى» الذى ظهر بين بنى إسرائيل بعد انتهاء النبوة، فى القرن الثانى ق.م. ويطلق أيضاً على رؤى يوحنا اللاهوتى، وهى تشير إلى حروب عظيمة وخراب ودمار هائل سيحدث قبل قيامة المسيح عليه السلام.

نموذج واحد أم نماذج متعددة؟

١ ـ هل النموذج الغربى هو النموذج الوحيد؟

«لاهوت التحرير» وإن كان حديثا كمصطلح فى الستينيات، مواكبا لحركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث خاصة فى أمريكا اللاتينية، بعد الثورة الكوبية، وحلم جيفارا، ووجود بعد شاسع بين العقائد اللاهوتية والأيديولوجيات السياسية، بين الكنيسة والجبهات الشعبية فإنه قديم بقدم الإنسان على الأرض ونشأة الأيديولوجيات والديانات والفنون. فكونفوشيوس أنزل الدين الصينى التقليدى فى كتاب «تغيرات» من السماء إلى الأرض، من عالم الآلهة إلى عالم البشر. وبوذا تجاوز تعدد الآلهة فى الهندوكية إلى ضبط النفس والسيطرة على الأهواء. وذلك يعنى فى كلتا الحالتين أن الدين فى خدمة الإنسان. والشنتوية التى تعبد الإمبراطور تجعل الدين عماد الدولة والجماعة. وكذلك كان الحال فى دين مصر القديم، والزرادشتية دين فارس، الأمة والدولة. ودين إبراهيم كان ثورة اجتماعية منذ نوح، ثورة على الجهل والرذيلة دفاعا عن العلم والفضيلة. لاهوت التحرير إذن أحد أشكال الدين الطبيعى السابق على دين الوحى. وهو قديم بقدم الزمان كما كان يقال عن المسيحية كدين طبيعى فى القرن الثامن عشر، عصر التنوير. ينشأ فى كل المجتمعات فى ظروف متشابهة.

والسؤال هو: كيف يعرض «لاهوت التحرير» فى ثقافتنا المعاصرة؟ هل هو نتاج غربى منذ الستينيات يروج له بالترجمة والعرض والتأليف كما هو الحال فى باقى المذاهب والأيديولوجيات الغربية بناء على موقف شائع من الغرب، إنه مصدر العلم وليس موضوعا للعلم، أم أن الباحث العربى متعدد الثقافة، فهو على الأقل ذو ثقافتين، ثقافة غربية حديثة وثقافة عربية إسلامية قديمة، ويمكن الاستفادة منهما كرصيد علمى فى ظاهرة الصلة بين الدين والتحرر؟ إن عرض لاهوت التحرير على أنه تجربة غربية أولا انتشرت بعد ذلك فى أفريقيا وآسيا وإن لم تنتشر بعد فى الوطن العربى، وأمريكا اللاتينية فى نشأتها هى جزء من الثقافة الغربية المسيحية بعد أن استأصلت ثقافات الشعوب الأصلية ولغاتها، هو ابتسار لتجربة قديمة قدم البشر بآلاف السنين فى خمسة وثلاثين عاما عمر تجربة لاهوت التحرير فى الغرب. فلا يكفى عرض تجارب لاهوت التحرير فى الغرب أو الشرق دون مزاوجتها بمادة جديدة عربية إسلامية من لاهوت التحرير فى الثقافة العربية الإسلامية. تعريب المادة ضرورى من الثقافات المحلية والتجارب الخاصة. عرض المادة وتجارب الآخرين ضرورى سواء فى مرحلة الترجمة مثل «لاهوت التحرير الأسيوى» لألويزيوس بيريس حتى ولو كانت الترجمة تعريبا بتصرف. ولماذا يكون النشر فى بيروت فى دار المشرق وليس فى القاهرة مثل «وثيقة الحرية المسيحية والتحرير» للمجمع المقدس



للعقيدة الإيمانية. وفى المراجع العامة للكتاب الأول «لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية» مازالت تغلب المصادر الغربية باللغات الأجنبية.

وظروف أمريكا اللاتينية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية خاصة فى الستينيات مشابهة لظروفنا فى الوطن العربى. فأمريكا اللاتينية محاصرة بين قوى ثلاث: الأولى الولايات المتحدة الأمريكية فى الشمال وما تمثله من هيمنة على الجنوب إما مباشرة بالتعاون مع نظم سياسية عسكرية أو مدنية تابعة أو عن طريق غير مباشر، الشركات الاقتصادية الكبرى التى تستغل الثروات الاقتصادية للجنوب. والثانية الجيش الذى يمثل سلطة القهر المتعاونة مع سلطة الهيمنة فى الشمال. والثالثة الإقطاع وملاك الأراضى الكبار المتعاونين مع الأمريكيين والعسكر ضد الفلاحين من أجل نهب محاصيلهم والاستيلاء على أراضيهم. والكنيسة الرسمية متعاونة مع هذه القوى الثلاث ضد الشعب، والشعب مطحون بالفقر والجهل والمرض والمخدرات والجريمة وشتى ألوان الحرمان. ولم يعارض هذه الصور المختلفة للهيمنة إلا الماركسيون كبؤرة لتجمع كل الوطنيين كما حدث فى الثورة الكوبية والثورة الفيتنامية. فظهر الرهبان الشبان مثل كاميو توريز لينضم إلى القوى الوطنية باسم الدين وليس باسم الأيديولوجيا، وباسم الله وليس باسم الماركسية، وبدافع الإيمان وليس تطبيقا للمادية التاريخية أو المادية الجدلية. فنشأ لاهوت التحرير كأيديولوجية ثورية تحررية شعبية للجماهير تربط بين الدين والثورة، والإيمان والعدالة، والله والشعب، والعقائد والمطالب الاجتماعية: والوحى من ناحية، والحرية والإخاء والمساواة من ناحية أخرى. لاهوت التحرير إذن هى أيديولوجية ثورية شعبية تنبثق من بؤرة الثقافة الوطنية. فالنخبة المثقفة وحدها مع طليعة الطبقة العاملة هى القادرة على فهم الماركسية. أما جماهير الشعب فلا يحركها إلا تثوير التراث كما فعل الأنبياء والمصلحون والثوريون الشعبيون والمثقفون العضويون.

وهى ظروف مشابهة للوطن العربى قبل الثورات العربية الأخيرة فى منتصف الخمسينيات، سيطرة الاستعمار البريطانى والفرنسى بقوات احتلال، والنظام الملكى القاهر المتعاون مع كبار قواد الجيش والشرطة وأجهزة الأمن، والإقطاع والباشوات الذين كانوا يتوالون على الحكم. ورجال الدين كانوا مع النظام، وكبارهم معينون من الدولة، موظفون رسميون فيها، يفتون بما يريد الحكام، أقرب إلى «فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس». والشعب مطحون، يرزح تحت الفقر والقهر والتسلط. فقامت الثورات العربية كما قامت الثورة الكوبية والثورة الفيتنامية باسم الحركات الوطنية والتى كان الماركسيون أحد عناصرها مع مصر الفتاة والوفد والإخوان المسلمين. ونشأ لاهوت التحرير عند الأفغانى من قبل فى صياغات بسيطة «الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل» مستعينا بأقوال السابقين مثل: «عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه» أو بقوله هو: «عجبت لك أيها الفلاح، تشق الأرض بفأسك ولا تشق قلب ظالمك». ومع ذلك ظلت الصياغات النظرية تقليدية فى «الرد على الدهريين» واتهام الاشتراكيين والشيوعيين بأنهم ماديون وملحدون ووضع العدميين معهم. وتكون من تلاميذه مثل عبد الله النديم وأديب إسحق من يستأنف الإسلام الثورى أو الدين الوطنى. وقوى ذلك كتابات سيد قطب الأول صاحب «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»، «معركة الإسلام الرأسمالية»، «السلام العالمى والإسلام»، قبل أن يعذب فى السجون ويكتب «معالم فى الطريق»، وهى أيضا صرخة برئ لمقاومة الظلم والطغيان. واستأنف «اليسار الإسلامى» لاهوت التحرير على مستوى الثقافة الشعبية من أجل تحويله إلى تيار شعبى عام يقلل المسافة بين الدين والثورة، بين التقليدية والتقدمية، بين الإخوان والشيوعيين.

وإذا عقدت مقارنات فإنها تكون بين تجربتى أمريكا اللاتينية وأفريقيا دون آسيا أو الوطن العربى والعالم الإسلامى. هناك فى الخاتمة فحسب بعد الحديث عن التحولات الأساسية فى القارة الأفريقية، وأنه من المطلوب تحرير قارة، يظهر فى آخرها «وماذا عن مصر؟» بلغة المانيفيات، والإحالة إلى إخناتون فى مصر القديمة والديانات التوحيدية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام. وكان من الممكن أن تتم الإشارة إلى لاهوت التحرير الإسلامى فى جنوب أفريقيا وقد ساهم فى لاهوت التحرير فى أفريقيا، وبرز قادتهم مثل الإمام هارون شهيد العنصرية، ورابطة العلماء المسلمين فى جنوب أفريقيا، وحركة الشبيبة الإسلامية، ونداء الإسلام، والقبلة. كان يمكن تحليل كتابات هذه

فى التفسير الاجتماعى

حسن حنفى

التيارات الإسلامية فى لاهوت التحرير الأفريقى وكما عرض فريد إسحق أول مؤسس لحركة «نداء الإسلام» فى كتابه «القرآن ولاهوت التحرير». بل إن الأمير يوسف هذا البطل الذى حارب الاستعمار الهولندى فى ماليزيا قد أخذه الهولنديون أسيرا مكبلا بالسلاسل فى القرن السابع عشر فى مستعمرتهم الثانية فى جنوب أفريقيا. فكان أول من نشر الإسلام هناك، الإسلام المقاتل المجاهد مؤسسا بذلك لاهوت التحرير الإسلامى. ويقدسه المسلمون كأحد أبطال النضال الوطنى لاستقلال الشعب باسم الإسلام. بل إن ديزموند توتو حالة واحدة من حالات أخرى ساهم فيها المؤتمر الوطنى الأفريقى ANC، ومؤتمر أفريقيا الواحدة PC وحركات الوعى الأفريقى. هى حالة واحدة مركزة على التفرقة العنصرية أكثر من الفقر والاستقلال كما هو الحال فى أمريكا اللاتينية.

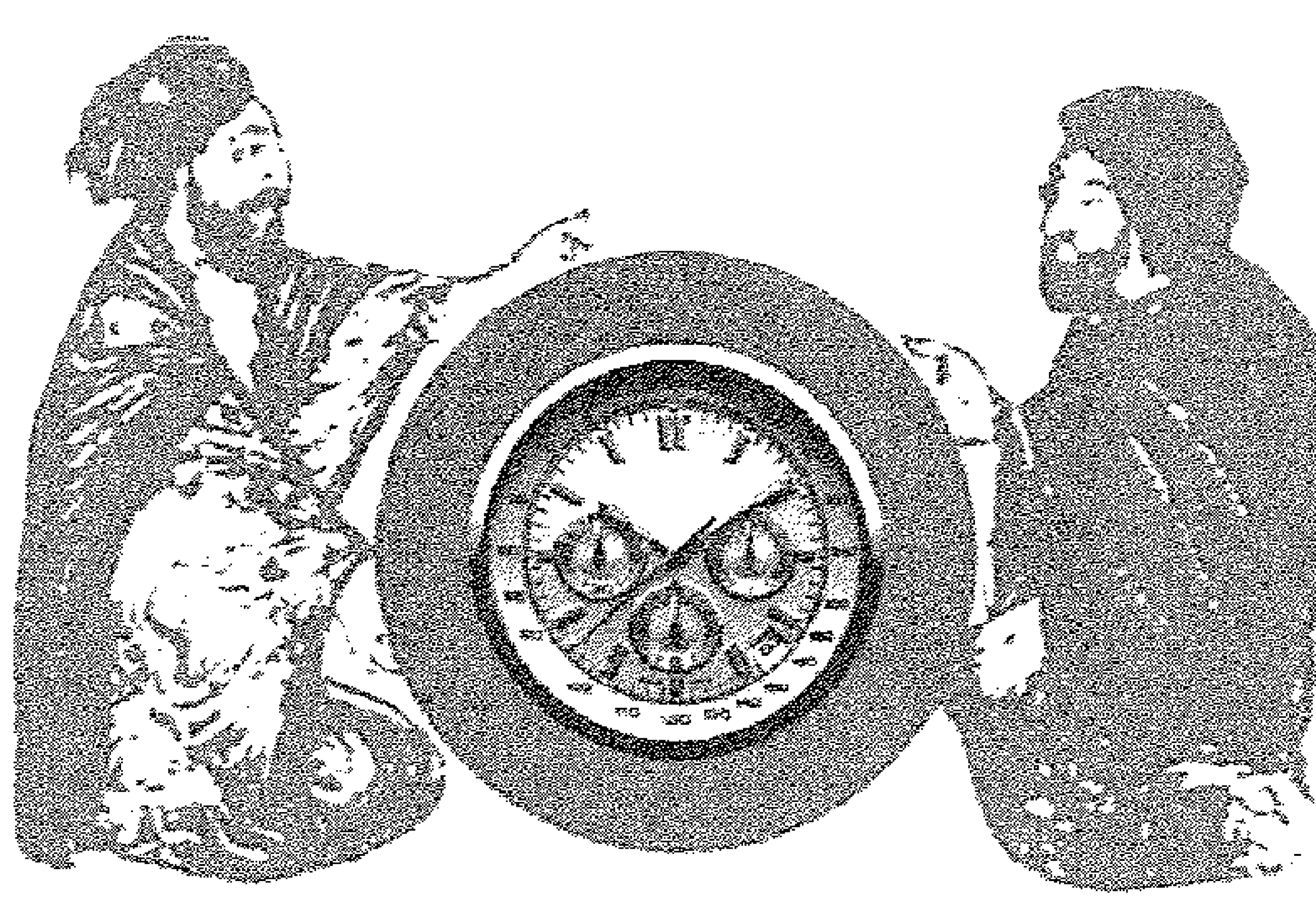
٢. لاهوت التحرير بين النقل والإبداع.

لذلك تتراوح الأعمال الرائدة الأربعة فى العقد الأخير ١٩٩٣-٢٠٠٣ فى «لاهوت التحرير» بين الترجمة والعرض والتأليف. والترجمة بتصرف أى مع الحذف أو الإضافة أو التعليق تجاوزا للترجمة الحرفية أسوة بالقدماء. الترجمة فى «لاهوت التحرير الآسيوى» لألويزيوس بيريس، ليست ترجمة حرفية بل بتصرف. ولا يقتصر التعريب على الترجمة بتصرف فقط بل بزيادة مقدمة عن «لاهوت التحرير الآسيوى» تبين أهميته وأهم قضاياه. وتضيف خاتمة «نحو لاهوت تحرير مسيحى إسلامى لعالمنا المعاصر» لإيجاد دلالة عربية للاهوت التحرير. والغريب تجاهل الإسلام فى الكتاب مع إنه دين آسيوى، والدين الثانى فى آسيا من حيث عدد السكان. وإشارات المترجم لا تتجاوز إشارتين فى المقدمة والخاتمة.

وفى داخل العرض يكون التلخيص، تلخيص مع أن العرض مرحلة متقدمة عن التأليف. والتلخيص نوع أدبى فلسفى قديم. وفى داخل العرض قد تكون الترجمة. بل قد تفوق الترجمة كما العرض كما هو الحال فى «لاهوت التحرير فى أفريقيا»، ديزموند توتو واللاهوت الأسود». إن الاكتفاء بالنقل، ترجمة وعرضا دون التحول إلى التأليف والإبداع هو قصر للاهوت التحرير على الثقافة الغربية بوجه عام والمسيحية بوجه خاص. والتأليف المزدوج بين ثقافتين من أجل التحليل والتأصيل، والعرض والنقد هو خطوة نحو التحول من النقل إلى الإبداع.

ثم يأتى التأليف فى «كلام فى الدين والسياسة» وهو عنوان صحفى عام، وعنوان فرعى أدق «نحو لاهوت تحرير مصرى عربى»، ومطبوع فى دار المحروسة فى مصر، وتقديم جمال البنا مما يوحى بمصريته وعروبته وثقافته الوطنية. وهو آخر المجموعة الرباعية. وهى مقالات متفرقة مجمعة تمت تحت أربعة أجزاء، ولكل منها فصول، والجزء الرابع ملاحق.

ويعرض لثلاث قضايا رئيسية نظرية فى لاهوت التحرير، الأول التحول من الخلاص الفردى إلى الخلاص الجماعى، يجمع بين النظرية والتطبيق، النظرية فى الاشتباه فى لاهوت التحرير بين الدينى والسياسى، وفى تعدد نماذج لاهوت التحرير بين الغربى، ومحاولة تأصيل لاهوت تحرير مسيحى إسلامى لعالمنا العربى. والتطبيق على القضية الفلسطينية، الانتفاضة الأولى، والكنيسة فى فلسطين المحتلة، وقيامة المسيح وتحرير فلسطين، وتطبيق حقوق الإنسان فى الكنيسة فى مصر. والثانية، إشكالية الهوية بين الالتزام الدينى والالتزام الوطنى والإنسانى وتعبر عن قضية التعددية الطائفية، وقضية الطائفية والمواطنة والأقلية والأغلبية وهو ما يتعارض مع التصور الكيفى للتعددية الثقافية، والكنيسة الكاثوليكية وجماعة الكاثوليك فى مصر نموذجا. وهو أكبر من الجزء الأول إن لم يكن ضعفه. والثالثة التعددية وقبول الآخر كشرط ضرورى للخلاص وموضوعاتها تبدو خارج الموضوع مثل التأويل عند ابن رشد، وتجديد الحياة الروحية فى الرهبنة المصرية فى مائة عام، الأب متى المسكين نموذجا، والتيارات السياسية فى مصر. وملاحق الجزء الرابع تبدو كتابات مناسبات مثل مصر والفاتيكان، العلاقات التاريخية، وكلمتى الرئيس والبابا. وهو، خطاب عام للناس تنقصه مواصفات الخطاب الفلسفى. لاهوت التحرير فى أسسه النظرية وتأويلاته الفلسفية المعاصرة للعقائد. ويبنى على تراكم انتقائى سابق. والمقدمة من مفكر مجدد، يغلب عليها المنهج النصى القرآنى ولا تضع المحاولة فى إطار لاهوت التحرير باعتباره علما وليس ثقافة.



ويمكن عرض لاهوت التحرير بطريقتين: الأولى مراجعة الأدبيات التى تمت فى اللغات الأجنبية وفى اللغة العربية سواء العارضة منها للأدبيات الغربية أو المستقلة عنها على درجات متفاوتة. والثانية بناء نموذج للاهوت التحرير مستقلا عن النموذج المسيحى أو الآسيوى المعروض فى الأدبيات الأجنبية أيضا من أجل إبداع نماذج متعددة وعدم تكرار نموذج واحد عرف به فى نشأته. ويمكن الجمع بين الطريقتين، المراجعة والإبداع، النقد والبناء، بداية بالتاريخ وليس انتهاء إليه، بداية بالأدبيات السابقة ثم عدم الوقوف عندها من أجل تطويرها.

٣. لاهوت التحرير من التاريخ إلى الفكر.

«لاهوت التحرير» ليس مجرد تجربة تاريخية عامة لدى كل الشعوب منذ قديم الزمان أو خاصة لدى الغرب الحديث منذ ثلاثة أو أربعة عقود من الزمان بل هو نسق عقائدى أو بنية فكرية تتجاوز التسلسل التاريخى للأحداث والشخصيات والمؤلفات.

ولاهوت التحرير ليس مرتبطا بالمؤسسات الدينية بالضرورة، الكنيسة أو المحكمة أو اليهودية (السانهدرين) أو «السانجا» فى الهندوكية لأن الدين باعتباره تحررا إنما نشأ ضد المؤسسة الدينية التى ارتبطت بالملك أو برجال الدين وارتبطت مصالحها بالنظام السياسى الإقطاعى أو القبلى القائم. وكان الدين أولا ثورة ضد المؤسسة الدينية ورجال الدين. فتصدى أنبياء بنى إسرائيل للأحبار المتعاونين مع الملوك، والملوك المتحالفين مع الإقطاع، خاصة النبى عاموس. كما نقد السيد المسيح الفريسيين والكتبة والأحبار الذين تعاونوا مع السلطة الرومانية وحولوا الدين إلى أشكال ورسوم خارجية دون تقوى باطنية وإيمان صادق بعيدا عن النفاق والمصالح الشخصية. ولا يوجد رجال دين فى الإسلام ولا سلطة دينية متوسطة بين الإنسان والله، تحتكر التفسير، وصياغة العقائد، والفصل بين الصواب والخطأ. تلك مهمة العلماء. وكل مسلم يستطيع أن يكون عالما. فالإسلام والبروتستانتية بالنسبة لحق التفسير، ورفض التوسط بين الإنسان والله، واعتبار الكتاب وحده مصدر الإيمان وليس أقوال آباء الكنيسة، والإقلال من أهمية الطقوس والمراسم، والخلاص بالإيمان وحده متشابهان فى التجربة التاريخية. لاهوت التحرير استئناف للبروتستانتية القديمة فى بروتستانتية جديدة طبقا لظروف العصر ومصادر القهر. فقد كتب لوثر «فى حرية المسيحى» ودافع عن حق كل إنسان فى حرية تفسير الكتاب المقدس ضد احتكاره من الكنيسة. وكيركجارد، لوثر الثانى، أراد العودة إلى الذاتية، والتحول من الوجود إلى الصيرورة، ومن اطمئنان الإيمان إلى قلق الوجود الإنسانى.

ولاهوت التحرير ليس فقط مجموعة من الممارسات الاجتماعية لخدمة جماعة المؤمنين داخل المؤسسات الدينية أو خارجها أو حتى النضال الثورى لبعض

الرهبان الشبان مثل كاميو توريز، فالممارسات الاجتماعية والأفعال الثورية تعبير عن رؤى للعالم ونظريات فلسفية. لاهوت التحرير له أسسه النظرية الخالصة قبل أن يكون ممارسات عملية وإن كانت الممارسات العملية تعيد إحكام النظرية وتبلورها، وتجعلها أكثر مطابقة وقدرة على تحقيق المثال في الواقع.

ولاهوت التحرير ليس من إبداع أشخاص فقط بل هو تأسيس جاد وأصيل للاهوت جديد يأخذ بعين الاعتبار أنه لا يوجد لاهوت واحد عبر العصور. اللاهوت جزء من العلوم الاجتماعية، في علم اجتماع الثقافة مثل باقي الأنشطة الذهنية في الأيديولوجيات والفلسفات والعلوم والفنون. والتركيز على الأشخاص يجعل لاهوت التحرير مرتبطا بها أكثر من ارتباطه بالواقع الاجتماعي والسياسي للشعوب التراثية المضطهدة. كذلك ركز في «لاهوت التحرير في أفريقيا» على شخصية واحدة، ديزموند توتو.

لاهوت التحرير ممارسة فعلية للتأويل، ومنهج جديد، فيه قراءة الحاضر في الماضي، وتفسير النص الديني بالعودة إلى التجربة الذاتية التي نشأ فيها. فالنص الديني ليس له معنى تاريخي ثابت يتجاوزه الزمن وإلا أصبح قديما ليس صالحا لكل زمان ومكان. بل له بنية ثابتة يمكن ملؤها بمادة من كل العصور. وما أكثر الآيات من العهدين القديم والجديد التي أصبحت شعارات للاهوت التحرير في اليهودية والمسيحية. فقد ارتبط النص التوراتي بتحرير بني إسرائيل من المادة وعبادتها إلى عبادة الله وحده، وتحريرهم من الأسر الفرعوني والبابلي. كما قال السيد المسيح «ما جئت لألقي سلاما بل سيفا». وما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في «لاهوت التحرير» والتي أحسن استعمالها في الثورة الإسلامية في إيران (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين)، وارتباط الإيمان بالله بالأمن ضد الخوف وبالإشباع ضد الجوع (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). وتنهار المجتمعات الإقطاعية، عند بناء القصور للأغنياء، وتعطيل الآبار للفقراء (وبئر معطلة وقصر مشيد). بل يجوز القتال بالسلاح دفاعا عن النفس ودفعا للعدوان (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق). لاهوت التحرير تأويل للثنائيات الدينية التقليدية التي أرست قواعدها المانوية القديمة: الصراع بين النور والظلمة، الخير والشر، الحق والباطل، الصواب والخطأ والتي استمرت في الثنائيات الدينية المسيحية والإسلامية، العالم والله، الدنيا والآخرة، الخير والشر، الجنة والنار، النعيم والعذاب، الثواب والعقاب، الذكر والأنثى، الملاك والشيطان.. إلخ. إلى ثنائيات حديثة الصراع بين القاهر والمقهور، الغني والفقير، الظالم والمظلوم، الحاكم والمحكوم، المركز والأطراف...إلخ.

ويمكن القول بأن أركان الإسلام الخمسة ومقاصد الشريعة الخمسة التي من أجلها وضعت الشريعة ابتداء هي نوع من لاهوت التحرير بفعل التأويل كما مارسه ابن رشد في «قانون التأويل» في آخر «مناهج الأدلة». فالشهادة إعلان وقول وبيان على العصر وأزماته، باللسان وبالفعل وبالقلب طبقا لدرجات تحمل الواقع لفعل التغير الاجتماعي. والشاهد والشهيد من نفس الاشتقاق. الشهادة بالقول والفعل في البداية، والشهادة بالحياة في النهاية.

والصلاة أداء فعل في الوقت في الحال لا إرجاء ولا قضاء، إحساس بالواجب اليومي، فعل في الزمان وشهادة في الخلود. والصيام مشاركة للفقراء، وتربية للنفس. والزكاة مشاركة في الأموال بين الأغنياء والفقراء، وتداول للمال ضد الاكتناز والاحتكار والاستغلال. والحج موقف إعلان المساواة بين البشر، وإجماع عام على حال الأمة ونضالها في التاريخ.

ومقاصد الشريعة ابتداء هي رعاية المصالح العامة التي هي أشبه بإعلان عالمي لحقوق الإنسان والشعوب معا وليس فقط لحقوق الإنسان، بل لحق كل شعب في تقرير مصيره. وهي خمسة:

الأول، الدفاع عن الحياة، فمن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا، (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت). والثاني: الدفاع عن العقل، فالعقل أساس النقل، ومن قدح في العقل فقد قدح في النقل، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول. والثالث: الدفاع عن الدين أي الحقيقة المطلقة الشاملة ضد النزعات الشكية والنسبية واللاأدرية والعدمية، يحتكم إليها الناس جميعا، معيارا إنسانيا واحدا ضد ازدواجية المعايير. والرابع: الدفاع عن العرض والكرامة (ولقد كرمنا بني آدم في البر والبحر). والخامس: الدفاع عن الثورة الوطنية التي كانت في عرف القدماء المال، وهي الآن الثروات الطبيعية والبشرية، المادية والمعنوية.

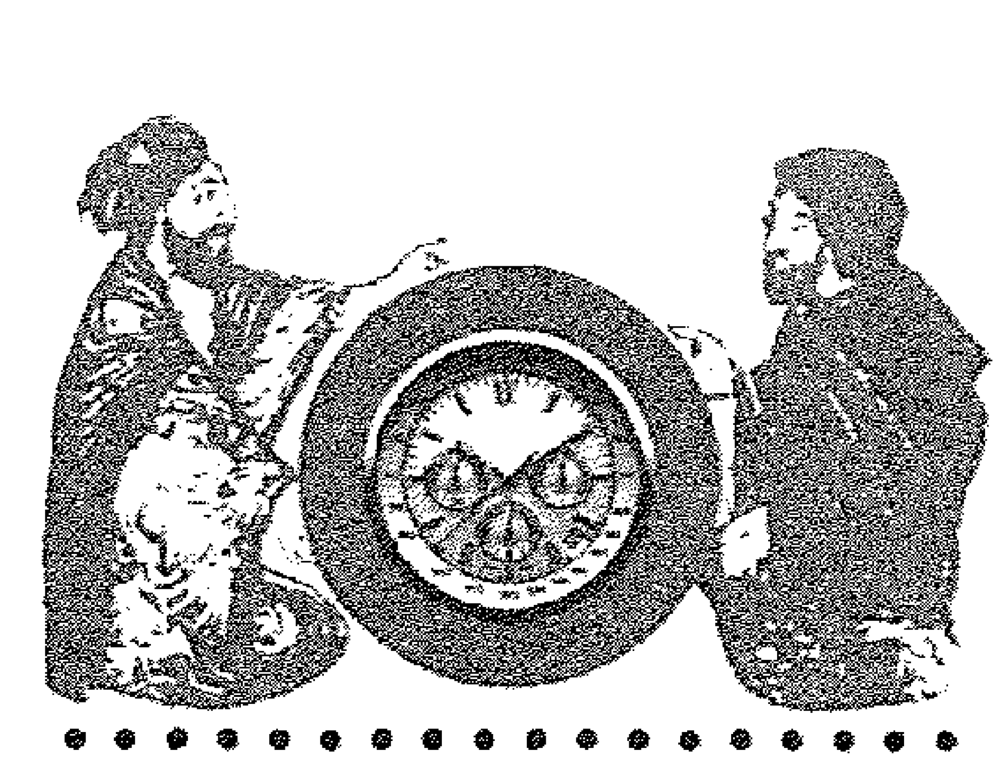
٤ - المنطلقات الرئيسية للاهوت التحرير.

ويبدأ لاهوت التحرير من منطلقات أساسية وهي أن الدين ظاهرة اجتماعية ينشأ في المجتمع تعبيرا عن قوى اجتماعية وسياسية جديدة. فالدين في هذه المسألة «زفرة المضطهدين». هكذا نشأت اليهودية في مواجهة موسى لفرعون، الحرية ضد التسلط، والتحرر ضد القهر. كما نشأت المسيحية تعبيرا عن الطبقات المهمشة في المجتمع الروماني، العبيد والمرضى والضعاف ضد جبروت القوة وسلطان الجسد. ونشأ الإسلام في شبه الجزيرة العربية تعبيرا عن القوى الضعيفة، العبيد والفقراء في المجتمع المكي ضد الأغنياء والأقوياء من أشراف مكة. ثم يقوم الدين بعد ذلك بعد أن يفقد دفعته الثورية الأولى ويتحول إلى مؤسسة ورجال دين وطبقة مصالح وأداة في يد السلطة إلى أن يصبح «أفيون الشعب» وحقنة مخدرة لتسكين المضطهدين والمهمشين والغاضبين وجعل طاعة أولي الأمر من طاعة الله، والرزق مقدر، والغنى والفقر قضاء وقدر مقسومان قبل أن يولد الإنسان، وأن الجنة والنعيم والرخاء والغنى كل ذلك موعود للفقراء يوم القيامة.

كما يبدأ لاهوت التحرير من مسلمة ثانية وهي أن اللاهوت من الطبقة، وأن كل لاهوت يعبر عن مصلحة طبقة بعينها. وهي طبقة سياسية واجتماعية واقتصادية في آن واحد، سياسية لأنها تمثل سلطة جديدة صاعدة أو قديمة متهاوية، واجتماعية لأنها طبقة العبيد المهمشة التي بيدها السلطة الجديدة أو طبقة الأشراف القديمة المتهاوية، واقتصادية لأنها تمثل الحرفيين والصناع أو كبار التجار. وهكذا نشأت الفرق الإسلامية في بداياتها إما تعبيرا عن السلطة السياسية القادمة مثل أهل السنة أو عن سلطة المعارضة مثل الشيعة. وداخل أهل السنة نشأت فرقة السلطة مثل الأشاعرة وفرق المعارضة مثل المعتزلة والخوارج. ونشأت الفرق المسيحية بنفس الطريقة بعد تحول قسطنطين إلى المسيحية، مسيحية السلطة التي كان يمثلها أوغسطين في روما وسلطة المعارضة في المستعمرات الرومانية مثل دوناتوس في شمال أفريقيا، وآريوس في مصر.

«لاهوت التحرير» تعبير عن العقل البديهي ولا يحتاج إلى جدل لاهوتي مجرد أو انتصار على الخصوم أو الدخول في سجال مع اللاهوت التقليدي الخالص. هو أقرب إلى اللاهوت الطبيعي الاجتماعي التلقائي مثل «الموعظة على الجبل» أو التأمل في العالم وفي النفس (وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون). والتجارب التاريخية ما هي إلا تعيينات لهذه البداهات العقلية. فالعقل والتاريخ شيء واحد.

ولغة لاهوت التحرير ليست اللغة العقائدية المدرسية كما هو الحال في «الخلاصة اللاهوتية» لتوما الإكويني بل هي لغة عادية تخاطب عامة الناس لتجنيد الجماهير جمعا بين الحمية الدينية وأزمة العصر. لذلك يصعب استعمال الألفاظ المعربة حتى لا يبدو الخطاب الديني الاجتماعي غريبا على الناس مثل «الافخارستيا». وما أسهل استعمال الألفاظ العربية النصرانية في المسيحية العربية مثل المناولة أو القربان المقدس. وكذلك تعبير التيار «المسيحاني الكريستولوجي» ويعني التيار الذي يتعلق بشخص السيد المسيح باعتباره مخلصا. فالترجمة لا تعني بالضرورة لفظا بلفظ أو عبارة بعبارة بل قد تعني لفظا بعبارة وعبارة بلفظ طبقا لدرجة التركيز في اللغتين، المترجم منها والمترجم إليها. وكذلك استعمال تعبير «العقلية الميثولوجية» وقد استقر في



الأسلوب العربي الحديث لفظ «الأسطورية»، ولفظ «الأنثروبولوجي»، وقد استقر في العربية الحديثة أنه «الإنساني» أو ما يتعلق بالإنسان.

٥ - أنــواع الــلاهــوت وأنساق لاهوت التحرير.

ولا يوجد نوع واحد من اللاهوت بل هناك عدة أنواع أشهرها، ومرتبة طبقا لأبعدها عن لاهوت التحرير ثم نهاية بأقربها وهي:

١ - اللاهوت العقائدي أو القطعي Dogmatique، وهو أكثر أنواع اللاهوت غرورا، لا يفرق بين التصورات الذهنية لله والله في ذاته، ويعتبر العقائد حقائق ثابتة ومطلقة، غايات في ذاتها وليست وسيلة لهداية البشر وإسعادهم.

٢ - اللاهوت الوضعي Positive، ويعتبر العقائد أشياء مادية موجودة بالفعل مثل التجسد والصلب والخلاص وليست دلالات وبواعث على فعل الخير، ويخضع لأثر الوضعية.

٣ - اللاهوت الطبيعي Naturelle، ويعتمد على نتائج العلم الطبيعي والنظريات الكونية لإثبات وجود الله وخلق العالم وخلود النفس. ويتغير بتغير النتائج العلمية وتقدم العلم.

٤ - اللاهوت الجدلي Dialectique، ويقوم على جدلية الله والإنسان فلا يمكن تصور الله دون الإنسان ولا تصور الإنسان دون الله، وأحيانا يسمى لاهوت الكلمة كما هو الحال عند كارل بارت.

٥ - اللاهوت العقلي Rationelle، ويقوم على العقل وحده وليس على الإيمان أو النص أو سلطة الكنيسة كما هو الحال عند المعتزلة وابن رشد.

٦ - اللاهوت النقدي Critique، الذي يقوم على نقد النصوص الدينية وعدم إصدار حكم على عقيدة قبل تحليل نصوصها تحليلا تاريخيا ومن ثم تظهر العقائد مرتبطة بنشأة النص وتكوينه.

٧ - اللاهوت السلبي Negative، ويقوم على تطهير العقائد كمثل عليا مفارقة من كل الصياغات البشرية المحدودة في الزمان والمكان طبقا للحديث المشهور «كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك».

٨ - اللاهوت الرعوي Pastoral، وهو نوع من اللاهوت الأخلاقي يبدأ بالنفس قبل الآخر بناء على التفسير الشائع لآية (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، وهي نظرة فردية للتغيير، من الفرد إلى المجتمع.

٩ - لاهوت التحرير Liberation Theology أو Theology of Liberation وهو الذي يربط اللاهوت بقضية العصر الرئيسية في الستينيات في العالم الثالث خاصة في أمريكا اللاتينية مساعدة ثقافية لحركات التحرر الوطني ابتداء من ثقافة الجماهير.

وقد صدرت مجلات عديدة في الشرق والغرب ولدى كل الحضارات والشعوب وفي كل الثقافات تحت عنوان «اللاهوت الجديد» New Theology وفي العالم الإسلامي أيضا مثل «قضايا إسلامية معاصرة (قم)»، «الفكر الإسلامي المعاصر (دمشق)»، «المسلم المعاصر (الكويت، القاهرة)»، «المنهاج»، «المنطلق» (بيروت)... الخ.

وهناك أنساق عديدة للاهوت التحرير وليس نسقا واحدا أهمها:

١ - النسق الأخلاقي الفردي الذي يقوم على القيم الأخلاقية أو النزعات الصوفية.

٢ - النسق الأخلاقي والاجتماعي الذي يقوم على قيم الجماعة والمشاركة والتضامن والعدالة وإعادة توزيع الثروة بين الأغنياء والفقراء.

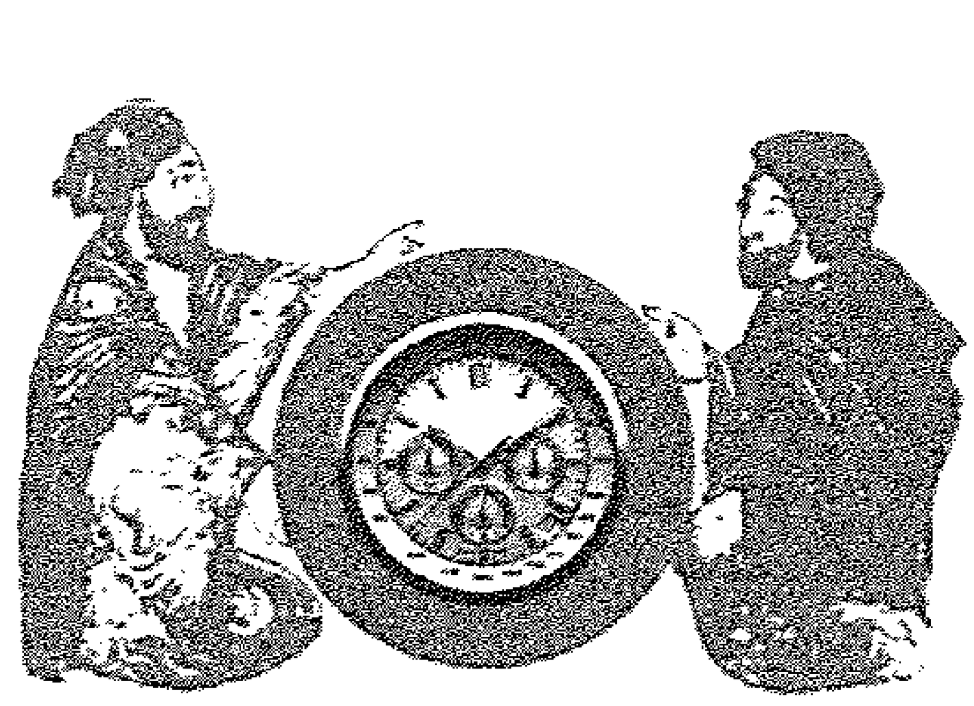
٣ - النسق العملي من خلال فعل الرهبان الاجتماعي وسعيهم في مصالح الناس أو من خلال دور الكنيسة كمؤسسة اجتماعية تحل مشاكل المجتمع.

٤ - النسق العقائدي التأويلي لإيجاد معان تحررية للتجسد، المسيح في العالم وليس بعيدا عنه، أو للخلاص، خلاص البشر من الآلام أو الصلب، الشهادة في سبيل الآخرين.

٥ - النسق الفلسفي الخالص لدراسة تصورات العالم وأيها أكثر فعالية في التغير الاجتماعي والفعل التاريخي.

وقد تم عرض نموذج نظري في الوطن العربي ابتداء من علم العقائد الإسلامية في «من العقيدة إلى الثورة»، كجزء من مشروع أعم هو «التراث والتجديد» للمؤلف. بل لا يقتصر الأمر على علم العقائد وحده بل يتسع ليشمل كل العلوم التراثية من أجل إعادة بنائها كاستجابة لتحديات العصر من أجل تأسيس لاهوت الإبداع في «من النقل إلى الإبداع»، ولاهوت المصالح العامة في «من النص إلى الواقع»، ولاهوت إثبات الوجود التاريخي والوعي القومي في «من الفناء إلى البقاء»، ولاهوت العقل في «من النقل إلى العقل»، من أجل نقل المجتمع كله من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى وليس اللاهوت فقط. فاللاهوت عصب التاريخ، ومحور التغيير فيه.

والهدف من هذا اللاهوت العصري الشامل هو تطوير لاهوت التحرير النسبي إلى لاهوت تحرير جذري، من اللاهوت الأخلاقي إلى اللاهوت السياسي، ومن اللاهوت الفردي إلى اللاهوت الجماعي، ومن نظرية الذات والصفات والأسماء والأفعال إلى الإنسان الكامل، ثم من الإنسان الكامل إلى الإنسان المتعين، ومن النبوة والمعاد إلى التاريخ، الماضي والمستقبل، ومن الخلود إلى الزمان، ومن الآخرة إلى الدنيا، ومن الإمامة إلى الدولة، ومن الإيمان والعمل إلى المواطن، ومن التاريخ المنهار، خير القرون قرني، إلى التاريخ الصاعد من أجل التقدم والنهضة.



إن «لاهوت التحرير» ليس لاهوتا أبديا كما هو الحال في اللاهوت العقائدي بل هو متغير بتغير الأزمات في كل عصر. ربما هو جزء من «لاهوت الأزمة» Predicament ولا يكاد يخلو كل عصر من أزمات. تعرض الأزمة أو القضية أو التحدي في علاقتها باللاهوت أي بالفكر الديني باعتباره مكونا رئيسيا من مكونات الثقافة الشعبية بعد أن تحولت العقائد إثر تراكمها الطويل عبر السنين إلى أمثال شعبية وحكم للشعوب. وأصبحت الدراسات اللاهوتية الآن تتعرض لموضوعات العصر باسم لاهوت التقدم، لاهوت العدالة، لاهوت المساواة، لاهوت الوحدة، لاهوت التنمية، لاهوت الأرض، لاهوت الألم، ولاهوت حقوق الإنسان... الخ.

ولا يعني أن لاهوت التحرير ليس لاهوتا أبديا بل لاهوتا يعبر عن مرحلة تاريخية محددة هي مرحلة التحرر الوطني أنه مرتبط بالتغير في العلاقات الدولية، وأنه كان مرتبطا بعصر الاستقطاب. وبعد انهيار أحد القطبين فإنه يتغير طبقا لنظام القطب الواحد، والتحول من الاشتراكية إلى الليبرالية، ومن الماركسية إلى الرأسمالية. ولا يعني تراجع النظم الاشتراكية في العالم الثالث نهاية لاهوت التحرير إلى لاهوت آخر مرتبط بالخصخصة والانفتاح الاقتصادي. فالتحرير غاية دائمة للجنس البشري بالرغم من تعدد صور القهر والتسلط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وليست قيمة «الحفاظ على الحياة» بديلا عن قيمة «التحرير» بل تعد أحد مظاهره. ويمكن توسيع مفهوم الطبقة الدنيا دون الوقوع في الدفاع عن الطبقة المتوسطة. فقد ازداد الفقراء فقرا والأغنياء غنى في عصر القطب الواحد في دول العالم الثالث وفي دول العالمين الأول والثاني أيضا. والمجتمع المدني ليس بديلا عن المجتمع السياسي، فالسياسة أحد مظاهر التعبير في المجتمع المدني وإلا كانت الدعوة إلى مجتمع مدني غير مسيس أساس الانفتاح الاقتصادي وركيزته الأولى في دول العالم الثالث. والمقاومة تتعدد أشكالها من المقاومة المسلحة إلى المقاومة الثقافية. كما تشمل المقاومة السلبية الممثلة في العصيان المدني، والمقاومة الشعبية بنزول الملايين إلى الشوارع، والمقاومة الاقتصادية بمقاطعة البضائع الأجنبية. وهي أشكال تتكامل فيما بينها ولا تتعارض.

٦ - هل هناك شبهات حول لاهوت التحرير؟

إن الشبهات التي أحيطت بلاهوت التحرير غير صحيحة والاتهامات التي ألقيت عليه باطلة وأهمها:

أ - لاهوت التحرير ماركسية مقنعة أقرب إلى الماركسية منها إلى الدين. فهذا إعطاء للماركسية أكثر مما تستحق وللدين أقل مما يستحق. فلا يمكن اختزال كل تحليل اجتماعي تاريخي جدلي وكل تحليل طبقي لصراع الطبقات إلى الماركسية. كما أن هناك نماذج من لاهوت التحرير بعيدة عن التحليل المادي التاريخي والتحليل الطبقي ويقوم على نزعة مثالية، ومثالية فعل

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

أزياء السيدات

نساء الطبقة العالية كن يرتدين لباسًا يسمى «الشنتيان» ـ وهو عبارة عن سراويل واسعة جدًا تضيق عند القدمين أحيانًا بحيث تتمكن السيدة من الجلوس على الشلتة «الحشية» ـ وهى عبارة عن مرتبة أرضية؛ وقد كانت مستعملة قبل انتشار الأثاث الأفرنجى ـ وفوق الشنتيان «السلْطة» أو صدار بدون أكمام. ثم «اليلك» وهو رداء طويل وكان هذا الزى غالبًا من الحرير المزركش. أما حين يخرجن للزيارات، فكانت الفراجية ذات الأكمام المفتوحة.

وفوق الرأس ما يسمى «خوطوز» أو عزيزية، وهى غطاء للرأس مبطن من الداخل بقماش فوقه ورد صناعى يسدل عليه «التل» بحيث يرى الورد، ثم تحته «اليشمق» وهو من القماش الشفاف، ومنه تظهر العينان فقط. وكان هذا الزى منتشرًا فى السرايات وعند كبار الأهالى ولا سيما التركيات.

أما نساء الطبقة الوسطى فكن يرتدين الشنتيان والسلْطة ولكن من قماش متوسط. وعند الخروج للزيارة يرتدين «السبلة» وهى عبارة عن قميص من الحرير بدون أكمام. وفوقها «حبرة» تغطى الجسم من الرأس إلى القدم؛ وهى فى الغالب من الحرير الأسود. و«البرقع» الأبيض للوجه، والمناديل مطرزة بإطار من «القوية» كغطاء للرءوس تحت الحبرة؛ ويحتذين خفًا أصفر من قطعتين: قطعة تغطى القدم والأخرى تلبس داخل الأولى وتغطى الساق. وعند الخروج يركبن الحمير بعد أن يوضع فوق البرذعة سجادة ويرفع الركاب بحيث تجلس السيدة القرفصاء ويتولى «المقدم» الخادم قيادة الحمار.

ومقاومة «الأنا تضع نفسها حين تقاوم» كما هو الحال فى فلسفة المقاومة عند فشته. فهو فيلسوف قبل أن يكون لاهوتيا. كما أن الوحى متحقق فى التاريخ، والنبوة متطورة طبقا لمراحله. والمكان والزمان حاضران فيه بفعل «أسباب النزول» و«الناسخ والمنسوخ». ولولا التدافع بين الناس لما قامت حضارة ولا نشأ تاريخ إنسانى. وقد نشأت عدة حوارات بين المسيحية والماركسية (ابتكر Apteker) استئنافا لما قاله كاوتسكى من قبل فى «المسيحية البدائية».

ب ـ يقول لاهوت التحرير بالصراع الطبقى ولا يمنع من ممارسة أنواع العنف المختلفة بما فى ذلك الصراع المسلح كما فعل كاميو توريز. فالإيمان فعل وقول، ممارسة وإيمان. وحمل البندقية لا يقل أهمية عن حمل الصليب. يدفع المؤمنين إلى نيل الشهادة فى سبيل الحق تأسيا بصلب المسيح ولكن بنضال إيجابى دون الاكتفاء بالشهادة على العصر وبالبقاء فى العالم كأسطورة خالدة للخلاص، وفداء خطايا البشر.

جـ ـ لاهوت التحرير إلحاد صريح، فقد استبدل بالله الإنسان وبالوحى التاريخ، وبالأنبياء قادة الشعوب، وبالملائكة زعماء حركات التحرر الوطنى، وبالآخرة الدنيا، وبالإيمان الثورة، وبالصليب البندقية، وبالقداس الخلية، وبالكنيسة الحزب الثورى، وبالتجسد الشعب والأرض، وبالمؤمنين العمال والفلاحين. وهو اتهام غير صحيح إنما هو عود إلى الدين إلى مساره الطبيعى بعد القضاء على اغترابه خارج العالم. ومن ثم يُعد فيورباخ هو المنظر الفعلى للاهوت التحرير. ولاهوت «موت الإله» أحد فروع اللاهوت المعاصر Death of God Theology أو اللاهوت بلا إله Atheistic Theology عند جابريل فاهانيان G. Fahanian والتزير Altzier. بل لقد تبناه عديد من القساوسة والأحبار والرهبان مثل روبنسون فى «مخلص لله» :Robinson Honest to God.

د ـ لاهوت التحرير علمانية صريحة فهو دين بلا إله، وأرض بلا سماء، وبدن بلا روح، وهو اتهام غير صحيح لأن الوحى كلام الله إلى الإنسان، ورسالة من السماء إلى الأرض. فالغاية الإنسان فى العالم وليس الله خارج العالم. لاهوت التحرير متفق مع مقصد الوحى ومساره فى التاريخ. واللاهوت العلمانى Secular Theology أحد فروع اللاهوت الجديد كما عبر عن ذلك هارفى كوكس فى «المدينة العلمانية» The Secular City.

هـ ـ لاهوت التحرير تسييس للدين وخلط بين ملكوت السماء وملكوت الأرض مع أن السيد المسيح فصل بينهما «أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». وهو تفسير غير صحيح للدين. فالوحى نظام حياة للإنسان فى الداخل والخارج، وللجماعة فى علاقاتها ونظمها. غرضه تحقيق السعادة فى الدنيا قبل مثيلها فى الآخرة. وقد كانت دعوة كل النظم التسلطية الفصل بين الدين والسياسة حتى لا يتحول الدين إلى ثورة ضد الطغيان.

ولا تأتى الشبهات فقط من اليمين الدينى والاتجاهات المحافظة بل يأتى أيضا وإن كان بدرجة أقل من الاتجاهات اليسارية الجذرية وأهمها:


أ ـ لاهوت التحرير لاهوتا أكثر منه تحريرا، ودين أكثر منه دنيا. وهو نوع من التبشير الاجتماعى الجديد يستعمل المجتمع وسيلة، والدين غاية. ويبدأ من مآسى الناس كى يعيدهم إلى الإيمان. السياسة وسيلة، والدين غاية. مازالت مقولاته فى التجسد والخلاص والصلب والخطيئة والإيمان والكنيسة هى مقولات اللاهوت التقليدى حتى ولو أخذت دلالات جديدة.


ب ـ لاهوت التحرير فى النهاية نوع من المعارضة الفكرية والثقافة العالمة أكثر منها معارضة سياسية فعلية فى الدولة. لا تكوّن حزبا سياسيا معارضا فى مواجهة السلطة القائمة بل تكتفى بالوعى الدينى السياسى، وتقوم بدور التنوير العام بالحقوق والواجبات. ترفضه الكنيسة الرسمية ولا يعترف به مجموع اللاهوتيين بل وكتبت الكنيسة ضده بيانا تبين مخاطره وإن لم تحرّمه.

جـ ـ لاهوت التحرير أقرب إلى النزعة الأخلاقية الفردية، فخلاص العالم يبدأ بخلاص الفرد. هو «إحياء ذكرى» صلب المسيح كما يقول جوتيريز. والنزعة الفردية أقرب إلى التيار اليمينى فى السياسة.

د ـ لاهوت التحرير انتهى منذ الستينيات، وطغت عليه فى العقد الأخير روح العولمة والسوق ومقولات حقوق الإنسان والمجتمع المدنى والأقليات والمرأة وهى الموضوعات الأثيرة فى المجتمعات الغربية فى عالم ذى قطب واحد ضد النظم الشمولية «لا للنظم الشمولية»، «من أجل ديموقراطية تخدم حقوق الإنسان وترفض النظم التسلطية».

ومع ذلك تظل مجموعة «لاهوت التحرير» الأربع، فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا والوطن العربى بين الترجمة والعرض والتأليف خطوة رائدة للتعريف به فى الوطن العربى كنموذج لعبور هذه الهوة الواسعة التى شقت الصف الوطنى بين الخطاب السلفى والخطاب العلمانى، وقد وصل إلى حد الاقتتال وسفك الدماء فى الجزائر، وكلف مائة ألف قتيل، من أجل إبداع خطاب ثالث يحقق أهداف الخطاب العلمانى بآليات الخطاب السلفى. فتتحقق وحدة الصف الوطنى ووحدة الثقافة الوطنية بل ووحدة الأمم والشعوب عبر التاريخ. ■


It's all about trust
The First Arab Communications Community
Because every one who deals with us, discovers time and time again that we never let them down, we were able in two years to gain the trust of more than 5 million customers who rely on us for their mobile communications needs. OT has been expanding its customer base at an ever-increasing rate and enjoying market leadership in the countries of operations in the Middle East and Africa. Our mission is to provide the best quality service to our customers and we have always delivered that...
You too can put your trust in us!
ORASCOM
TELECOM
The First Arab Communications Community
www.orascomtelecom.com



■ ثمة عمل فنى قديم بات يمثل الآن إدراكاً معرفياً عالمياً متجدداً، يشى بما لمصر من علاقات راسخة فى عمق التاريخ وسجل الحضارات بالشعوب الأفريقية، وأعنى أوبرا «عايدة» التى وضع ألحانها الموسيقار الإيطالى الشهير «فردى» فى القرن التاسع عشر احتفالاً بافتتاح قناة السويس، واحتفاء من الخديو إسماعيل كذلك بحضور «أوجينى» ملكة فرنسا لهذه المناسبة العظيمة.

لم تكن علاقة مصر بأفريقيا فى العصر الفرعونى مقصورة فحسب كما جسدتها أحداث أوبرا «عايدة» على صراع الإرادات عبر تأمين مصالحها فى تخومها الجنوبية فحسب، وإنما كانت التجارة وتبادل المنافع والتلاقح الاجتماعى والاحتكاك الثقافى أهم إفرازاتها وثمارها.

مصر فى أفريقيا

الأزهر والكنيسة والتعليم والتجارة

يوسف الشريف

وتروى البرديات وكتابات وصور المعابد والمقابر الفرعونية الكثير من الحقائق التاريخية الموثقة حول العلاقات المصرية الأفريقية، ودور النيل كشريان للحياة وهمزة وصل جغرافى وديمجرافى بين مصر والشعوب والممالك والسلطنات التى كانت حاضرة آنذاك على حوض النهر، وكيف كان ملوك مصر الفراعنة يتبادلون الحكم مع أقرانهم السودانيين على ربوع وادى النيل شماله وجنوبه وفقاً لمعايير القوة والمصالح والعلاقات الروحية بالآلهة المعبودة آنذاك وبينهم الملك «باعنخى» السودانى الهوية والجذور وكذلك الملك «طرهاقة» الذى حكم وادى النيل موحداً من جنوبه إلى شماله وهو أيضاً من أسرة «باعنخى». لكأن تاريخ شعوب وادى النيل فى تقدير المؤرخين الثقاة منذ الأزل واحداً متشابكاً وممتداً لم ينقطع ولم يتجزأ!

بوابة مصر على أفريقيا ومعبدا «أبو سمبل» لوحة للفنان چيوڤانى بالتيستا بالدونى ١٨٢٠

حضارة كوش ومروى

والشاهد أن اللغة المصرية القديمة تميزت بكونها أكثر اللغات الحامية تأثراً بالسامية أو العربية القديمة، وذلك بحكم موقع مصر الجغرافى، واتصالها بالشعوب العربية القديمة مثل الكنعانيين والسريان، وكانت الشعوب التى يسميها الغربيون بالسامية مرادفاً للشعوب العربية القديمة، وهى التى زحفت إلى مصر فى العصر الفرعونى من الجزيرة العربية إلى سيناء وفرع النيل البيلوزى، ولعل قصة سيدنا يوسف عليه السلام التى رواها القرآن الكريم، وكذا قصة سيدنا موسى عليه السلام شاهد على ذلك.

وإذا كانت اللغة المصرية القديمة مزيجاً ونتاجاً للهجرات البشرية القادمة من الجزيرة العربية، فقد كانت أيضاً وسيلة مصر الفرعونية للتخاطب مع الشعوب الأفريقية منذ زحف المصريون على مهل صوب الجنوب عهد الأسرة الأولى ٣٠٠٠ ق.م، حيث مدوا عمرانهم ولغتهم وثقافتهم على جانبى نهر النيل جنوبى الشلال الأول ثم الشلال الثانى وأنشأوا حصوناً وقلاعاً وقرى ومدناً فيما بين الشلال الثانى والثالث إبان حكم الدولة الوسطى، واتصلوا بالشعوب الأفريقية القديمة فى منطقة دنقلا وتزاوجوا معهم، وبعدها تكونت حضارة مصرية سودانية فى بلاد النوبة تسمى «حضارة كوش» لها نفس السمات المصرية فى بناء المعابد والأهرامات الفرعونية ولكنها سودانية أيضاً، وعندما تعرضت مصر لغزو الآشوريين هبت لنجدتها الجماعات السودانية، وكونوا معاً الأسرة الحاكمة لوادى النيل وهى الأسرة الخامسة والعشرين التى استمرت من (٦٦٣ إلى ٧١٢ق.م)، وكانت كوش ومروى عهدئذ منارتين للحضارة والثقافة التى امتد إشعاعها إلى أوغندا جنوباً والحبشة شرقاً وحتى عرب أفريقيا غرباً، وهكذا فى كل العصور والعهود كان السودان مرحباً ومستوعباً للمؤثرات الحضارية الوافدة من مصر عبر النيل، كما كان مُصدراً لهذه المؤثرات. بعد سودنتها. إلى القارة الأفريقية، وهكذا أيضاً دخلت المؤثرات الإغريقية الرومانية إلى أفريقيا عبر البوابة المصرية السودانية، وهو نفس المسار الذى دخلت المسيحية والإسلام عن طريقه إلى أفريقيا.

فإذا تجاوزنا العام إلى الخاص والعموميات إلى التفصيل والأقدم فالقديم فالحديث، نجد أن العلاقات الثقافية التى كانت تربط مصر بدول حوض النيل خلال العصر الفرعونى قد تجاوزت حوض النيل إلى ما وراءه من التخوم، وأنها امتدت عبر البحر الأحمر إلى «بلاد بونت» أو ما يعرف الآن ببلاد الصومال والقرن الأفريقى برمته من خلال التبادل التجارى، وأن التوابل والبخور والكولا والزيوت العطرية واللبان الذى كان من العناصر الرئيسية التى تعتمد عليها عملية التحنيط، فى مقدمة أهم واردات مصر من أفريقيا. بينما كان المردود الثقافى لهذه العلاقات موصولاً بوسائل الاتصال ولغة التخاطب بين أرباب التجارة بشكل خاص.

ويذكر التاريخ أن الملكة «حتشبسوت» لم تكن أول امرأة تحكم مصر فى العصر الفرعونى، فقد سبقتها الملكة «ميريت تيت» من الأسرة الأولى، والملكة «حتب حيرس» من الأسرة الرابعة قبيل حكم الملك «خوفو»، ثم الملكة «خنت» من الأسرة الرابعة. لكن «حتشبسوت» كانت الملكة الفرعونية التى خرجت من مصر فى رحلة طويلة إلى «بلاد بونت»، ولم يكن ليتأتى لها الغياب شهوراً عن ملكها إلا لأنها محبوبة من شعبها ولأنها قوية كذلك عبر نظام متقدم للحكم ازدهرت فيه الفنون والثقافات والعلوم ووسائل الإنتاج، ومن ثم راق لها أن تلقى نظرة معايشة ومتأنية على واحدة من دول التخوم آنذاك فى إطار رحلات الفراعنة البحرية التى كانت تجوب الآفاق ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً!

الكنيسة الأرثوذكسية

مع دخول المسيحية إلى مصر، وبناء الكنائس والأديرة فى الصحراء بعيداً عن بطش حكام الإمبراطورية الرومانية، ونشأة أول حركة للرهبنة فى التاريخ بوادى النطرون، ثم رحلة السيدة العذراء والعائلة المقدسة إلى مصر منذ ألفى عام تقريباً، نجد أن تعزيز مكانة مصر القبطية المسيحية قد انعكس بشكل مباشر عبر انخراط بعض الشعوب الأفريقية تباعاً فى هذه الديانة. وفى مقدمتهم النوبيون والأحباش الذين ظلوا حتى وقت قريب تابعين للكنيسة الأرثوذكسية المصرية، حتى تقرر انفصالهم عنها إبان حكم الإمبراطور «هيلاسلاسى» لأسباب سياسية بحتة. ومن هنا يمكن استقراء مدى التأثير الإيجابى للثقافة المسيحية المصرية على روابط مصر السياسية والاجتماعية والثقافية مع دول حوض النيل. بينما نشطت بعثات التبشير المسيحى الكاثوليكية والإنجيلية والبروتستانتية بعدئذ فى مناطق أفريقية أخرى فى ركاب الاستعمار الأوروبى للقارة السوداء.

وهكذا نجد أن المسيحية القبطية قد دخلت إلى شمال السودان عبر التجار المصريين «الجلابة» الذين اختاروا حى «المسالمة» فى أم درمان مكاناً لهم فيما بعد وحتى اليوم، بينما استأثرت المسيحية الأوروبية بتنوعها المذهبى بجنوب السودان، بعد أن تحول على يد الاستعمار البريطانى إلى «مناطق مقفولة» ومعزولة ممنوع دخولها على أبناء شمال السودان وعلى

المصريين كذلك رغم الحكم الثنائى الذى انفرد الإنجليز بمصائره دون المصريين، كما انفردت جمعيات التبشير الأوروبية بأبناء الجنوب الوثنيين دون أن تفسح إلى جوارها دوراً للقساوسة والرهبان الأرثوذكس من المصريين والسودانيين، الأمر الذى كان وراء الازدواجية الثقافية الحالية فى شمال السودان ومنطقة جبال النوبة فى الغرب الموروثة عن المسيحية القبطية الأرثوذكسية بينما استأثرت الثقافة الأنجلوسكسونية بتنوعها المسيحى الأوروبى الوافد مع الاستعمار البريطانى بالجنوب مع احتفاظ بعض أبنائه حتى الآن بدياناتهم الوثنية والطوطمية الأفريقية التى ظلت على فطرتها.

كذلك تفاعلت الحضارة المصرية وثقافتها مع حضارات وثقافات الشرق وأفريقيا وفى مقدمتها الحبشة ومن ثم تلاقحت الحضارتان الأفريقية والعربية على الصعيد الثقافى بشكل خاص منذ أقدم العصور، وتشاء تصاريف القدر أن تستيقظ القارة الأفريقية بعد كفاح طويل، فى الوقت الذى استيقظت فيه الأمة العربية أو قبلها بقليل، لتجد نفسها كما وجد العرب أنفسهم أمام تحول فكرى كبير وتقدم علمى هائل يهب عليهما من أوروبا، ويلاحظ أنهما وقفا معاً فى تحدٍ للغزو الثقافى بينما سعيا إلى استيعاب الجانب العلمى فحسب، ومرد ذلك أن العرب والأفارقة يرتبطان بتاريخ مشترك وفلسفة إنسانية واحدة، وكلاهما ينتمى إلى الإيمان بالقيم الروحية، وبفطرة الإنسان وقدراته وإمكاناته لتحقيق التطور الطبيعى، ولذلك كانا وهما يستشعران ضرورات الأخذ بالعلم الحديث ثم بالتكنولوجيا الغربية يصران فى نفس الوقت على الاحتفاظ بالمبادئ والقيم الثقافية والروحية الموروثة، لأن خصوصيات الإنسان العربى هى ميزات الإنسان الأفريقى، ومن ثم كان الطريق ممهداً بينهما للتلاقح الحضارى منذ دخول الإسلام إلى أفريقيا، وربما كانت تلك الخصائص الأصيلة المشتركة بمثابة الحصن الواقى للعرب والأفارقة من الانهيار وسداً منيعاً أمام الاختراق الثقافى الخارجى مع زحف الاستعمار الأوروبى إلى المنطقة العربية وأفريقيا.

لقد ربط الإسلام منذ الفتوحات الإسلامية الأولى على يد عقبة بن نافع فى القرن الأول الهجرى بين أجزاء القارة الأفريقية برباط العقيدة الدينية وبروح قوية تضم خصائص مشتركة ومميزة بين مجموعات بشرية متماسكة، فما أن دخل ملك غانا الإسلام حتى انبرت قبيلة «الفلانى» إلى نشر الإسلام فى غرب أفريقيا، وأنشأت عدة مراكز إسلامية فى القرن الثانى الهجرى بينها مركز «فوتا تون» غرب مالى وآخر فى «فوتاجالون» بغينيا، فيما نهض عبد القادر الفلانى بتأسيس أول دولة إسلامية فى قلب أفريقيا، كذلك المركز الإسلامى الذى أنشأه عمر الفوتى والذى امتدت إشعاعاته الروحية والثقافية من السنغال إلى النيجر ونيجيريا، وبعدها كان تأسيس المراكز الإسلامية فى سكتو والكاميرون وإنجامينا عاصمة تشاد.

والثابت أن قبائل الفلانى تأثرت إلى حد كبير بالثقافة العربية الإسلامية فيما أسهمت الطرق الصوفية بالتوازى كالقادرية والتيجانية فى تعميق الالتزام بالعقيدة ونشر الدعوة الإسلامية، ومازالت كتابات محمد بيلو تفيض بالدعوة الإسلامية الملتزمة، وقد وضع عشرات الكتب التى تضم حواراته المفتوحة مع مريديه، مما مكن للثقافة الإسلامية عبر هذه المؤلفات الإسلامية السهلة التداول والاستيعاب من الحيوية والاستمرارية والانتشار!

لم يكن العامل اللغوى حائلاً دون التواصل بين أفريقيا والعروبة، وخاصة أن ثقافة الإسلام لا تعتمد على اللغة إلا لكونها أداة للتواصل، بينما اعتمادها الأساسى على العقيدة المتمكنة من عقلية المسلم كيفما كانت لغته ولهجته، الأمر الذى مكن أو سهل للأفارقة المسلمين تدوين تعاليم الإسلام بلغاتهم، بينما سجلوا بالحرف العربى إنتاجهم الفكرى واعتبر وافياً بأداء الكلمة ونقلها بأمانة، وهو تأكيد آخر على القيم الروحية والتأثير الثقافى الإسلامى فى أفريقيا، وذلك لأن الإسلام يعتمد العقيدة فقط ولا يعتمد العرقية ولا اللونية ولا اللغة، فدعوته تكمن فى السلام وتآزر البشرية مصداقاً لقوله تعالى: «فكلكم لآدم وآدم من تراب»، وقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

فما كادت دعوة الإسلام تصل إلى أفريقيا، حتى وجدت فيه ما يؤكد شخصيتها، وأن الإسلام ليس استغلالاً للشعوب ولا استيطاناً للأرض، وإنما رسالة توحيد وسلام تحافظ على القوميات فى إطار وحدة التوحيد، أو هو وحدة عقائدية داخل التعدد القومى، وتلك هى عبقرية الإسلام وخلوده على حد تقدير الأستاذ عبد الهادى بوطالب المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

ومما لا شك فيه أن البلاد الأفريقية ساهمت كذلك بقسط وافر فى دراسة الإسلام وإشاعة الثقافة الإسلامية ذاتياً، فكان من بين أبنائها العلماء والفقهاء والكتاب الذى أثروا الفكر الإسلامى مثل أحمد بابا السودانى الذى يعتبر من أعلام المذهب المالكى، وكذلك ابن فرحون الذى أتم أعمال سلفه التى لاتزال تحظى باهتمام الفقهاء والمحققين، والقاضى السعدى والقاضى محمود كنت وغيرهم.

أيضاً ساهمت أفريقيا فى نشر الإشعاع الإسلامى مبكراً عبر العديد من المراكز الأفريقية التى تعنى بالثقافة الإسلامية فى مدينة «تمبكتو» التى نشأت فى عهد المرابطين وامتد إشعاعها إلى السنغال والنيجر ونيجيريا وتشاد وزنجبار والصومال وغيرها فى بقاع القارة الأفريقية، كما لا يفوتنا التنويه إلى الدور الحيوى الذى لعبته طرق التجارة القديمة التى سلكها التجار العرب والدعاة الذين حملوا على عاتقهم نشر الإسلام بين قبائل وجماعات وقوميات أفريقية وبينهم التكرور والفلاتة والولوف والسوتكة والديولة والهوسا والصنغاى والماندقو والكانورى والكانيون.. إلخ.

ويلاحظ أنه بعد فترة قصيرة من فتح عمرو بن العاص مصر ظلت اللغة القبطية حية ومتداولة ثم اقتصرت على طقوس العبادة فى الكنائس، وحتى أصبح المصريون تدريجياً عرباً فى اللسان والفكر والروح والتقاليد، وقد انعكس هذا التحول على تعزيز لغة التخاطب بالعربية مع أفريقيا.

لكن سرعان ما تهاوت النصرانية وثقافتها فى بلاد النوبة وغيرها من مناطق السودان وأفريقيا حين افتقدت دعمها من مصر، وتحولها إلى الإسلام تدريجياً مع هجرات القبائل العربية نحو سهول السودان الشرقية والغربية وأرض الجزيرة وبين النيلين ودنقلة وكردفان، وقد لعبت القبائل السودانية العربية الأصل والمنبت مثل جهينة والجعلية والقحطانية دوراً ملموساً فى نشر تعاليم الإسلام بالدول الأفريقية المتاخمة للسودان حيث تكونت قاعدة عريضة للثقافة العربية الإسلامية.

إن العـــرب والأفارقـــة يرتبطـــان بتاريخ مشـــترك وفلســـفة إنســـانيـــة واحـــــدة، وكلاهمـــــا ينتمـــــى إلـى الإيمــــان بالقيـــــم الروحيـــــة، وبفطـــرة الإنســـان وقدراتـــه وإمكاناتـــه لتحقيـــق التطـــور الطبيـــعى

الأزهر.. الطرق الصوفية

إذا كانت مصر فى تقدير المؤرخين مهد الحضارات الإنسانية، بحكم موقعها الجغرافى العبقرى، وسبقها الريادى إلى حرفة الزراعة التى تعتمد على الرى والملازمة بالضرورة للاستقرار والنظام ونشأة المجتمعات وسيادة القانون وقيام السلطة المركزية، الأمر الذى يتولد عنه تلقائياً توحيد لغة التخاطب المشتركة وتلاقح الثقافات والعادات والتقاليد والانسجام المزاجى والوجدانى، فقد تضافرت كل هذه العوامل وتفاعلت فى تأهيل مصر للقيام بدور همزة الوصل الثقافى بين أفريقيا وآسيا وأوروبا عبر النيل والصحراء والبحر الأبيض المتوسط، وأن تظل أرض مصر مفتوحة الذراعين لاستيعاب الهجرات البشرية والأفكار والفلسفات والعقائد الدينية، عبر تعاقب العصور الفرعونية والإغريقية والرومانية والقبطية والمسيحية والإسلامية!

يقول المؤرخ السودانى عبد العزيز أمين عبد المجيد فى كتابه «التربية فى السودان فى القرن التاسع عشر» إن محمد على كان متحمساً لنشر العلوم الحديثة والثقافة العربية فى السودان، ولكنه تحاشى أن يملى إرادته على السودانيين وحملهم على ذلك فوراً، ويقول محمد محمد على فى كتابه «الشعر السودانى فى المعارك السياسية» أن محمد على وأسرته الحاكمة من بعده كان همهم تقدم السودان وإسعاد أهله، وقد لجأ محمد على فى البداية إلى

تشجيع السودانيين على طلب العلم فى مصر، وقد تولى رفاعة الطهطاوى عبر رحلته النيلية المشهودة اختيار النجباء من أبناء مصر والسودان فى العديد من المدن والقرى التى زارها خصيصاً لهذا الغرض، كما أشرف بنفسه على شئونهم التربوية والروحية ورعايتهم دراسياً وثقافياً. وبعضهم رُشح لبعثات دراسية فى الخارج، كما اختار بعناية هيئة التدريس لأول مدرسة مصرية فى السودان تحت رئاسته، حيث توفى أربعة من المصريين تباعاً بسبب الأجواء والظروف المعيشية القاسية وإصابتهم بالأمراض، وعبر هذه المدرسة تخرج كبار الموظفين السودانيين والضباط والموظفون ورجال الدين والكتبة والمدرسون.

على أن الدور الثقافى للأزهر الشريف امتد إلى السودان قبل محمد على، وكان أول خريجيه من السودانيين الشيخ محمود أحمد العركى، الذى نهض بإنشاء ١٥ مدرسة لنشر التعليم والثقافة العربية والإسلامية فى منطقة الكوة جنوب الخرطوم، وأولاد الشيخ جابر الذين قاموا بتدريس المذهب المالكى كما مارسوا القضاء الشرعى فى السودان، بينما حمل عبء تدريس العلوم الدينية والثقافية العربية فى السودان من بعد عدد كبير من العلماء المصريين بينهم المشايخ محمد المصرى القناوى ومحمد بن على بن قرم الكيمانى وإبراهيم بن عبودى، فى الوقت الذى كان الحكم العثمانى يعانى من حالة الانحطاط الثقافى. وقد شهد السودان إبان ولاية محمد على توسعاً فى بناء وإعمار المساجد والزوايا وخلاوى حفظ القرآن والمدارس الدينية، وبعدها نشأت المدارس المدنية التى كانت تعنى بتدريس اللغة العربية إلى جانب الفرنسية والتركية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ وفقاً لنظام التعليم المتبع فى مصر، وقد ظل التعليم المصرى المدنى قائماً فى السودان حتى قيام الثورة المهدية (١٨٨٥ . ١٨٩٨م) بينما ظل السودانيون يواصلون دراستهم الدينية فى الأزهر وكان من أبرز خريجيه فى ذلك الوقت المشايخ محمد نور البنا ولد نعمة والفكى أحمد عوض الله والأمين الضرير وحسين إبراهيم الزهراء والقاضى أحمد جبارة. وهم الذين نهضوا بعملية التنوير الثقافى ونشر علوم الفقه والشريعة الحديثة وعلوم اللغة العربية فى السودان!

وعلى غرار الأروقة الملحقة بالأزهر التى كانت تؤوى الطلبة الدارسين من كل بقاع العالم الإسلامى رعاية ومأوى ودراسة، أنشأ محمد على أول رواق لأبناء السودان سمى «رواق السنارية» للطلبة الوافدين من سنار ثم «رواق دارفور» وبعدها تعددت الأروقة التى كانت تضم المئات من الطلبة المبتعثين من مختلف ربوع السودان، وبينهم من نهض بإنشاء المراكز الدينية والثقافية فى السودان آنذاك وفى مقدمتها مركز «الدامر»، ومن السودان امتد الدور الثقافى لخريجى الأزهر والمراكز الإسلامية فى السودان إلى دول الجوار.



وقد عزز وجود الجيش المصرى فى السودان نشر الثقافة العربية الإسلامية المصرية، وكان من بين ضباطه وجنوده أدباء وشعراء وفنانون وكانت لهم ندوات للحوارات الثقافية مع أقرانهم من السودانيين، وهم الذين أدخلوا الآلات الموسيقية إلى السودان مثل العود إلى جانب الآلات الموسيقية النحاسية وموسيقى القِرَب التى أصبحت لها فرق موسيقية ملحقة بالتشكيلات العسكرية السودانية فيما بعد.

كان انضمام أبناء السودان إلى الجيش المصرى فرصة للسفر إلى مصر والإقامة بها. حيث تعلموا فنون القتال والعلوم الحديثة، والذين عادوا منهم إلى السودان لعبوا أدواراً طليعية مهمة فى نشر العلم والثقافة المصرية بين ذويهم، خاصة فى المناطق المتخلفة والمنعزلة مثل الجنوب وجبال النوبة، ومن المعروف أن الضباط أبناء الجنوب الذين تشربوا الثقافة العربية الإسلامية عبر المدارس والمدرسين المصريين ومعظمهم ينتمون لقبيلة الدينكا من أمثال على عبداللطيف وعبدالعزيز عبدالحى تزعموا فيما بعد ثورة اللواء الأبيض التى تجاوبت مع ثورة ١٩١٩ المصرية ومقاومة الإنجليز بسحب الجيش المصرى من السودان فى أعقاب واقعة مقتل السردار «سير لى ستاك».

كذلك شجع محمد على الطرق الصوفية على دخول السودان، وظلت العلاقة بين الطرق الصوفية فى مصر والسودان منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، مثالاً ونموذجاً رائعين للتآخى الإسلامى بين الشعبين، وحرباً على التعصب وعوناً على حل الخلافات القبلية فى السودان، علماً بأن دعاة الطرق الصوفية ومشايخها كان لهم سبق الريادة فى نشر الإسلام بالسودان ومقاومة نشاطات المبشرين وأسلمة الآلاف من الوثنيين، يقول الباحث المؤرخ البريطانى «ج. سبنسر تريمنجهام» فى كتابه القيم «الإسلام فى السودان» وترجمه للعربية الأستاذ فؤاد محمد عكود أن الطريقة «التيجانية» دخلت إلى مصر من بربر لأول مرة قبل المهدية عبر محمد بن المختار المعروف

بود العليا المتوفى عام ١٨٨٢، وبعدها انتشر فى دارفور وكردفان عبر عمر جانيو الذى ينتمى إلى الهوسا وآخرين.

ومن المعروف أن السودان فى مقدمة الدول والشعوب التى دخلها الإسلام لا عبر الفتح وإنما عبر الحوار والإقناع والقدوة الحسنة، ولعله يفسر إصرار الشعب السودانى على الخيار الديمقراطى وثوراته فى مواجهة النظم الديكتاتورية.

على أن عناية محمد على ببسط نفوذ السلطة المركزية على ربوع السودان، استدعى بالتالى عنايته بشق الطرق وبناء المستشفيات والثكنات العسكرية والموانئ الحديثة ومبانى الحكومة والمدينة الصناعية فى «فازوغلى»، وقد نهضت هذه المشاريع بسواعد المصريين والسودانيين، وعبر تلك المشاريع وهذا الاحتكاك انتشر الكتاب والثقافة المصرية وصحيفة الوقائع المصرية «الجازتية» فى السودان، الأمر الذى يؤكد على أن حملة محمد على إلى السودان لم تكن غزواً عسكرياً وإنما حملة حضارية بالأساس، وكل إنجازاتها كانت على نفقة الخزانة المصرية، ويحسب لمحمد على أنه كان أول من اكتشف منابع النيل فى أدغال التخوم الاستوائية قبل المكتشفين الأجانب الذين استكملوا المهمة من بعد (١٨٦٩ - ١٨٧٢م) عبر بعثتين بقيادة صمويل بيكر وجوردون وبعثة ثالثة بقيادة البكباشى المصرى سليم قبطان الذى اكتشف منابع النيل الأبيض الاستوائية (١٨٣٩ - ١٨٤٢م) وشتان بين أهداف محمد على التى تصب فى مصلحة شعبى وادى النيل والأمن القومى المشترك، وبين الأهداف الأجنبية المشبوهة التى استثمرت تلك الاكتشاف فى بسط النفوذ الاستعمارى على القارة الأفريقية.

لقد انتشر الإسلام والثقافة العربية بشكل واسع فى حوض النيل والقرن الأفريقى فى عهد الخديو إسماعيل، ولأن الناس على دين ملوكهم - كما يقولون - نجد أن إسلام «أمتيسا» ملك أوغندا كان فاتحة لدخول الشعوب الخاضعة لحكمه فى الإسلام وتوقيع معاهدة وضع بمقتضاها مملكته تحت الحماية المصرية، وبناء على طلبه عسكرت قوة مصرية بقيادة الضابط السودانى «نور بك محمد» فى «روباجا» عاصمة ملكه التى كانت تقع على ساحل بحيرة فيكتوريا، فى الوقت الذى أرسل ابنته إلى مصر وأقامت ثمانى سنوات وكادت تتزوج ضابطاً مصرياً ولكن تغير الأحوال حال دون ذلك.

ولعله من سخريات القدر أن ما فشل فيه الاستعمار البريطانى لفصم الروابط الثقافية بين شعبى وادى النيل كان محور عناية الجبهة الإسلامية التى تحكم السودان الآن عبر إلغاء التعليم المصرى فى السودان فجأة من طرف واحد ومصادرة نادى ناصر الثقافى والاستيلاء على مقرات المدارس المصرية وفرع جامعة القاهرة بالخرطوم، ثم احتفاء الجبهة بهذا الحدث كما لو أنه إنجاز وطنى وسياسى للتحرر من الاستعمار الثقافى المصرى فى السودان، وإزالة أهم العقبات التى تعترض أيديولوجية الجبهة ومشروعها الرامى إلى أسلمة دول الجوار وزعزعة أمنها عبر إيواء وتصدير الإرهاب إبان كان الدكتور حسن الترابى مفكر النظام وعرابه!



الأمير عمر طوسون

وتظل هناك علامات مضيئة وباقية حول ماضى العلاقات الثقافية بين مصر والسودان وعلامات استفهام حول حاضرها ومستقبلها الغائم، وبينها فترة السنوات الخمس التى قضاها رائد الفكر والتنوير رفاعة رافع الطهطاوى منفياً بالسودان بقرار تعسفى من الخديوى عباس، ورغم أنه خفض من وظيفته إلى مجرد ناظر مدرسة ابتدائية، ورغم أن أقرانه من أعضاء البعثة التعليمية المصرية مات معظمهم من قسوة المعيشة، إلا أنه ظل صامداً يواصل دوره فى نشر التعليم والثقافة والترجمة، ورعايته للنجباء من أبناء السودان، كذلك دور الإمام محمد عبده فى اختيار المدرسين المصريين الذين قاموا بنشر الوعى التحررى والثقافة العربية الإسلامية فى السودان على هدى مبادئ جمال الدين الأفغانى خاصة بين طلبة كلية جوردون والدور الذى قام به جعفر مظهر حكمدار السودان فى عهد الخديوى إسماعيل الذى جمع حوله علماء وأدباء السودان فى أول ندوة حوارية منتظمة بالخرطوم مع أقرانهم من المصريين، بينما ظلت الصحف المصرية اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية التى ظلت تعنى بأوضاع السودان بوعى ومعايشة ميدانية عبر مراسليها فى الخرطوم وبقية مدن السودان، كما كانت تهتم بألوان الأدب والفكر السودانى وتنقل بعض ما تنشره الصحف والمجلات السودانية ومنها «روضة الشعر» و«الرائد» التى كانت وأمثالها تنهض بنشر الأدب والشعر والفكر السودانى، لذلك كان الاستعمار البريطانى يجرم ويعاقب على تهريب الصحف المصرية وتداولها فى السودان.

فيما صدرت العديد من الصحف السودانية التى كانت تعنى بقضية العلاقات السودانية المصرية وتسعى إلى ترسيخها أو الدفاع عنها، وفى مقدمتها جريدة «الحضارة» ومجلة «الفجر» وجريدة «النيل»، وكان السياسى والأديب المصرى المرموق محمد حسين هيكل قد زار السودان وكتب سلسلة مقالات تحت عنوان «عشرة أيام فى السودان» فى جريدة «السياسة» المصرية فانبرى له بالنقد الشيخ عبدالرحمن أحمد فى مقالين بصحيفة «الحضارة» السودانية، وبعدها صار من كتّابها.

ومن الصحف السودانية التى تأثرت فى نهجها وأسلوبها بالصحافة المصرية صحيفة «النيل» التى وقع اختيار رئاسة تحريرها على الكاتب والثرى المصرى حسن صبحى، كما اختير لمراسلتها من مصر فكرى باشا أباظة.

والطريف أن حسن صبحى الذى كان يعشق الأناقة، فرض على طاقم المحررين تفصيل بدل «إسموكنج» لحضور الاحتفالات العامة، وحين تأكد من أن الكوادر السودانية باتت قادرة على تسيير الصحيفة قفل راجعاً إلى مصر، وترك رئاسة التحرير للأستاذ أحمد يوسف هاشم.

فى المقابل كانت «رسالة السودان» باباً ومادة مستدامة فى مختلف الصحف والمجلات المصرية، وعبرها كان الاهتمام الواعى والدءوب بقضايا السودان ومتابعة شئونه وشجونه، ويرصد الدكتور إبراهيم عبده أخطر المواقف فى تاريخ الصحافة المصرية التى ارتبطت بالسودان ومنها على سبيل المثال لا الحصر واقعة منع دخول جريدة «العروة الوثقى» إلى القطر المصرى بسبب متابعتها لأحداث السودان عبر دعوة جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده للمصريين بتأييد الثورة المهدية والقيام بثورة مماثلة لها فى مصر، وقضية جريدتى «الفلاح والبسفور إجيبشيان»، وتناولت منشور الإمام المهدى الذى حرّض فيه المصريين على الثورة بعد هزيمة الأنصار لجيش الإنجليز بقيادة جوردون، وهاجم فيها زيارة المندوب البريطانى «اللنبى» للسودان وقال فيها:

ويح قلبى ماذا يروم اللنبى
يوم وافى يجر سيفاً صقيلاً
أتراه يريد يفصم حبلاً بين
مصر وبيننا موصولاً
جل من ملك الدخيل فجر الذيل
واستمطر العذاب وبيلاً

ويقول الدكتور حسنين عبدالقادر أول أستاذ لتدريس مادة الصحافة بالسودان: إن الصحف شكلت أهم جوانب الاتصال والاستمرارية فى العلاقات المصرية السودانية، خاصة فترات الجمود السياسى بين البلدين على الصعيد الرسمى، بينما يقول المناضل الوحدوى المرحوم الدرديرى أحمد إسماعيل الأمين المساعد الأسبق بالجامعة العربية: «إن الصحافة كانت النافذة السياسية التى أطل منها جيلهم فى الثلث الأول من القرن العشرين على معنى ارتباط القطرين ارتباطاً واعياً لمصلحة تطورهما معاً، وأنها - كما قال - لاتزال أهم

حملة محمد على إلى السودان لم تكن غزواً عسكرياً وإنما حملة حضارية بالأساس، وكل إنجازاتها كانت على نفقة الخزانة المصرية، ويحسب لمحمد على أنه كان أول من اكتشف منابع النيل فى أدغال التخوم الاستوائية قبل المكتشفين الأجانب

دعامات تحقيق هذا الهدف الذى استخدم نفس الأسلوب المنطقى الذى يناسب الجيل الجديد وفكره القائم على الموضوعية.

والحقيقة أن مدارس الأقباط والكلية القبطية المصرية لعبت دوراً شعبياً فى نشر التعليم والثقافة المصرية مما شجع زعامات السودان الروحية والإسلامية ومن بينهم السيد عبدالرحمن المهدى والسيد على الميرغنى والشريف الهندى على دعمها مالياً ورعايتها أدبياً.

كذلك فى ذروة الوجود المصرى فى السودان كان عدد ضباط وجنود الجيش ٢٢٦٣٥ بينهم ٧٣٧٩ مصرياً والباقى من السودانيين، ومعظمهم من قبائل الدينكا والشيلوك الجنوبية وقبائل الفور والشكرية والكواهلة والجعليين والبقارة من شمال وغرب السودان، وقد ورث جيش السودان الحديث روابطه ونهجه القومى عقيدته وثقافته العسكرية عبر مرحلة التحامه بالجيش المصرى، وربما من هنا أدرك الإنجليز خطورة هذه العلاقة على وجودهم.. ومن ثم كان قرار الحاكم العام البريطانى فى السودان يوم ١٤ يناير ١٩٢٣ بإنشاء قوة الدفاع السودانية وبدأ تنفيذ الفكرة إثر انسحاب الجيش المصرى من السودان.

ومع بداية هيمنة بريطانيا على السودان ظل الشغل الشاغل لأجهزته الأمنية تعقب السياسيين والمثقفين والأدباء السودانيين الوطنيين ومنع اتصالهم بأقرانهم المصريين، وكشفت وثائق الخارجية البريطانية عن سلسلة التعليمات المشددة التى وجهها رئيس الحكومة البريطانية «ونستون تشرشل» إلى الحكام والمفتشين الإنجليز للعمل على موات منطقة النوبة فى السودان ومصر وحرمانها من الخدمات والتنمية، كونها همزة الوصل الجغرافى والديموجرافى بين البلدين، وإدراكاً منه لارتباط ارتفاع مستوى المعيشة والحياة الاجتماعية بالثقافة، خاصة أن الثقافة المصرية كانت الأكثر انسجاماً مع النوبيين والأقرب للنوبة وأهل السودان عموماً عهدئذ!

وكذلك كان للأمير عمر طوسون اهتمامات ثقافية واسعة بالسودان، عبر تعليم المئات من أبنائه على نفقته الخاصة فى مصر والخارج، وتزويد المدارس فى السودان بالكتب، وإصدار العديد من الكتب المهمة التى تعنى بشئون السودان ودول حوض النيل والقرن الأفريقى.

فإذا استقرأنا واقع العلاقات الثقافية المصرية مع دول حوض النيل والقرن الأفريقى منذ الاستعمار البريطانى لوادى النيل ثم استقلال السودان عام ١٩٥٦.. نلاحظ ندرة زيارة المثقفين والفنانين المصريين للسودان من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد عبدالوهاب، وغياب الاهتمام الصحفى المتخصص فى شئونه، وهو ما انعكس بالسلب إزاء الغياب المعرفى المصرى بمتابعة ما يجرى فى السودان سياسياً وثقافياً واجتماعياً، حتى لا يكاد المصريون يعرفون من أدباء السودان سوى الروائى الطيب صالح والشاعر محمد الفيتورى، ومن الفنانين سيد خليفة وأغنيته الشهيرة «المامبو السودانى» بينما لا يزال كتاب محمد حسين هيكل باشا «عشرة أيام فى السودان» ودور رفاعة الطهطاوى فى تعليم أبناء السودان، وإقامة عباس محمود العقاد فترة من الوقت فى الخرطوم ومساجلاته مع المثقفين من أبناء السودان علامات مضيئة لكنها متواضعة على درب التواصل بين البلدين.



فى المقابل نجد أن السودانيين حتى بسطاءهم يعرفون الكثير عن مصر رغم عدم زيارتهم لها، عبر السينما والإذاعة والصحافة والكتاب، بينما أخفق السودانيون فى المقابل فى التعريف والإعلام عن واقعهم بسبب ضعف أو تخلف آليات السودان الإعلامية والثقافية، ولعل زيارة السيدة أم كلثوم للسودان وغناءها على المسرح القومى فى أم درمان فى إطار دعم القوات المصرية وإعادة بنائها بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م تمثل فتحاً وجدانياً للأغنية والموسيقى الشرقية فى السودان الذى تعتمد موسيقاه على السلم الموسيقى السداسى، بينما الأغنية والموسيقى السودانية تعتمد على السلم الموسيقى الخماسية. ومن هنا كانت عبقرية أم كلثوم فى تلوين أداء أغنياتها وهو ما نوهت عنه فى مقال منشور فى مجلة روزاليوسف «أم كلثوم تسودن أغانيها».

ومن المؤسف حقاً أن يتكاسل أهل الموسيقى فى مصر عن تعهد المواهب الغنائية فى السودان أسوة بالمطربين والمطربات العرب، وكذلك إهمال القائمين على تنظيم مهرجانات الموسيقى العربية والأغنية العربية وليالى التليفزيون عن دعوتهم للمشاركة أسوة بغيرهم من العرب والأجانب، ومن المؤسف ثالثة عدم الاستفادة بنحو مليونى سودانى يقيمون الآن فى مصر وبينهم خيرة المثقفين فى التنوير بشئون السودان الثقافية عبر الكتابة فى الصحف والمشاركة فى الحوارات الإذاعية والتليفزيونية، ولماذا لا تنهض الهيئة المصرية للكتاب ومصلحة الاستعلامات بطبع الإنتاج السودانى وتوزيعه بأسعار رخيصة دعماً لواجب الإدراك المعرفى بشئون وشجون السودان على نحو ما بادر إليه المجلس الأعلى للثقافة مؤخراً إزاء نشر ترجمات لكتاب «حرب النهر» لوستن تشرشل، وكتاب «السيف والنار» لسلاطين باشا، وكتاب «الإسلام فى السودان» لسبنسر تريمنجهام.

والحقيقة أن إذاعة ركن السودان سابقاً وإذاعة وادى النيل لاحقاً تكرس النظرة القطرية للسودان التى لم تجذب إليها المستمعين المصريين والعرب، بينما المطلوب توزيع مادتها السودانية تحديداً على مختلف الإذاعات المصرية، وعبر هذا الأسلوب يمكن للمستمع المصرى والعربى استيعابها، وتذوق الموسيقى والغناء السودانى على سبيل المثال جنباً إلى جنب مع الأغنية والموسيقى المصرية واللبنانية والخليجية، ومن واقع خبرتى أستطيع التأكيد على أن تذوق الموسيقى والغناء السودانى المدخل الطبيعى لفهم الشخصية السودانية والاقتراب من الوجدان السودانى.

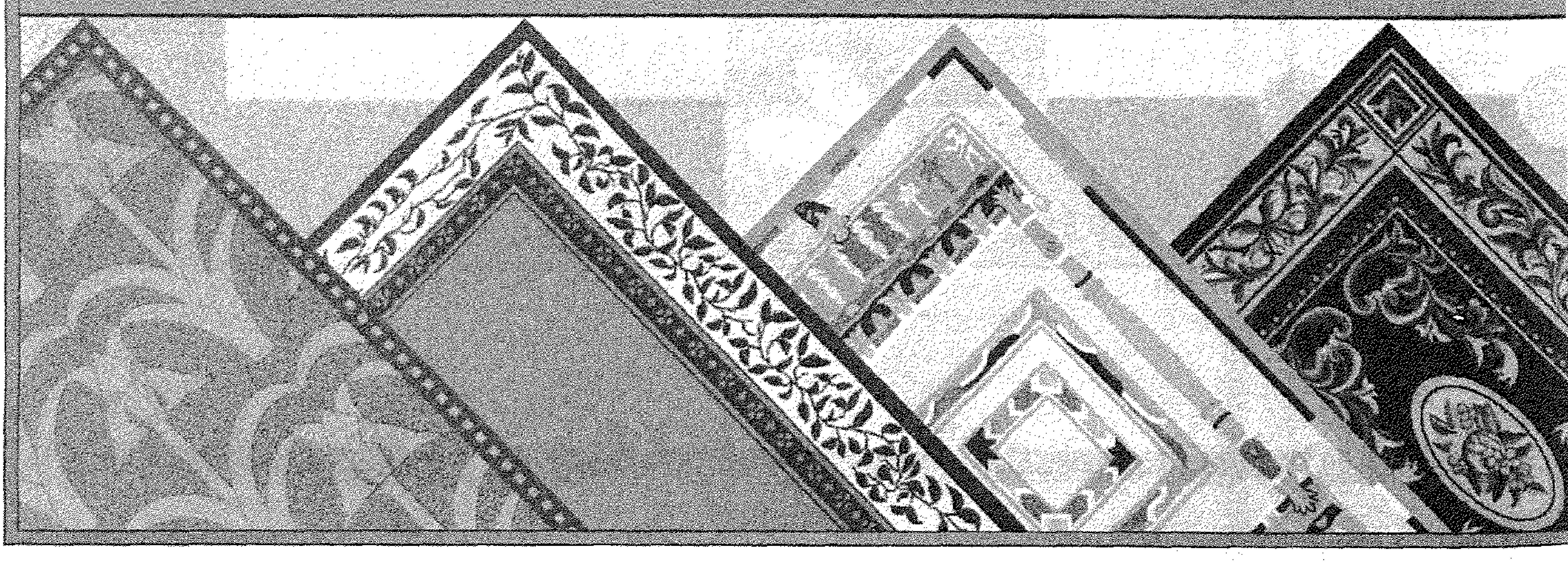
ولعل أخطر ما يواجه علاقات مصر والسودان، اتجاه السودان الآن حثيثاً نحو أفريقيا بأكثر من تحليقه فى سرب العروبة نتيجة لغياب الاهتمام العربى بشئون السودان، فأين الدور المصرى. على سبيل المثال. من الدور الأفريقى الذى استأثر بالوساطة لرأب الصدع السياسى وإحلال السلام فى السودان عبر رعاية دول الإيقاد.

ولا أحد يعرف حتى الآن السبب وراء إلغاء معهد شئون السودان الذى كان يعنى بتخريج الكوادر والخبراء فى مختلف شئون السودان، وإسناد المهمة وهذا الدور الثقافى الحيوى للمعهد الأفريقى.. كأن أهمية السودان الاستراتيجية القصوى بالنسبة لمصر توازى أهمية أفريقيا الوسطى مثلاً، بينما غاب عن أساتذة الدراسات العليا فى الجامعات المصرية توجيه طلبة الماجستير والدكتوراة إلى اختيار رسائلهم فى شأن من شئون السودان، ولماذا لا توجه الرحلات الطلابية المدعومة من الجامعات للاطلاع على أحوال أشقائنا فى السودان وحوض النيل والقرن الأفريقى، وإتاحة الفرصة أمامهم لعقد الصداقات مع أقرانهم فى تلك الدول، كونهم معا طليعة المستقبل؟

ثم نشيد بالأهمية السياسية والاقتصادية والأمنية لصيغة منظومة دول «الأندوجو» التى بادرت إليها الدبلوماسية المصرية فى عهد الثمانينيات، فلاشك أنها كانت تمثل الآلية الواقعية والعملية للتعاون والتكامل الخلاق بين دول حوض النيل العشر اتساقاً مع روابطها الأفريقية التاريخية.. ومن المتعين إذن على مصر القيام بدور فاعل ورصد الإمكانات الكفيلة بإحيائها، بحيث لا تقتصر نشاطاتها على الصعيد السياسى أو الرسمى فحسب، وإنما المطلوب كذلك استيعابها للدور الثقافى وتطويرها لاستيعاب الدور الشعبى للأحزاب والنقابات ومنظمات المجتمع المدنى! ■

مدارس الأقباط والكلية القبطية المصرية لعبت دوراً شعبياً فى نشر التعليم والثقافة المصرية مما شجع زعامات السودان الروحية والإسلامية ومن بينهم السيد عبدالرحمن المهدى والسيد على الميرغنى والشريف الهندى على دعمها مالياً ورعايتها أدبياً


متواجد في مراك



أسطورة مملكة إسرائيل

بين بلقيس وسليمان والهدهد

أحمد عثمان

هناك عدد من الروايات ذات طبيعة أسطورية، عن الثروات الهائلة التي وجدت في اليمن وعن ملكتها الشهيرة «ملكة سبأ»، التي أثارت قصتها خيال الملايين من الناس عبر العصور. وقد حاول المؤرخون ورجال الآثار خلال القرن الماضي التحقق من تاريخ هذه الملكة الشهيرة، وهل هو مجرد أسطورة خيالية أم يمثل حقائق من أحداث الماضي. إلا أن محاولة البحث عن ملكة سبأ في التاريخ، أثارت تساؤلات أخرى حول الملك سليمان ومدى صحة الأساطير التي وردت عنه، وهل حقا كانت له دولة تمتد حدودها بين النيل والفرات؟

بلقيس والهدهد

وردت قصة ملكة سبأ في القصص اليهودية والإسلامية والحبشية، حيث يعتقد أنها حكمت مملكة كبيرة في جنوب غربي الجزيرة العربية، في ذات الفترة التي عاش فيها الملك سليمان منذ حوالي ثلاثة آلاف عام. وبينما تطلق عليها المصادر الإسلامية اسم بلقيس، فهي تعرف في المصادر الحبشية باسم مكيدا. وبحسب الرواية التوراتية سافرت ملكة سبأ من بلادها في قافلة كبيرة من الجمال، ومعها هدايا غالية من الذهب والمجوهرات والتوابل. وجاءت إلى قصر الملك سليمان، لتختبر حكمته عن طريق توجيه بعض الأسئلة إليه تتضمن الألغاز والأحاجي. ورغم أن القرآن الكريم لا يذكر بلقيس بالاسم، إلا أن اسم سبأ ورد في عدة مواقع بالقرآن الكريم حيث يبين مدى ثراء هذه البلاد: «لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور» (سورة سبأ، ١٥).

وتحكي القصة القرآنية كيف أن طائر الهدهد جاء إلى سليمان عليه السلام بخبر ملكة سبأ، التي تعبد وقومها الشمس من دون الله. وعندما أرسل إليها سليمان طالبا منها عبادة الله وحده، ردت عليه بهدية مما أغضب الملك الذي هدد بمعاقبتها: «وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون... .... قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون». (النمل: ٢٠، ٣٥)

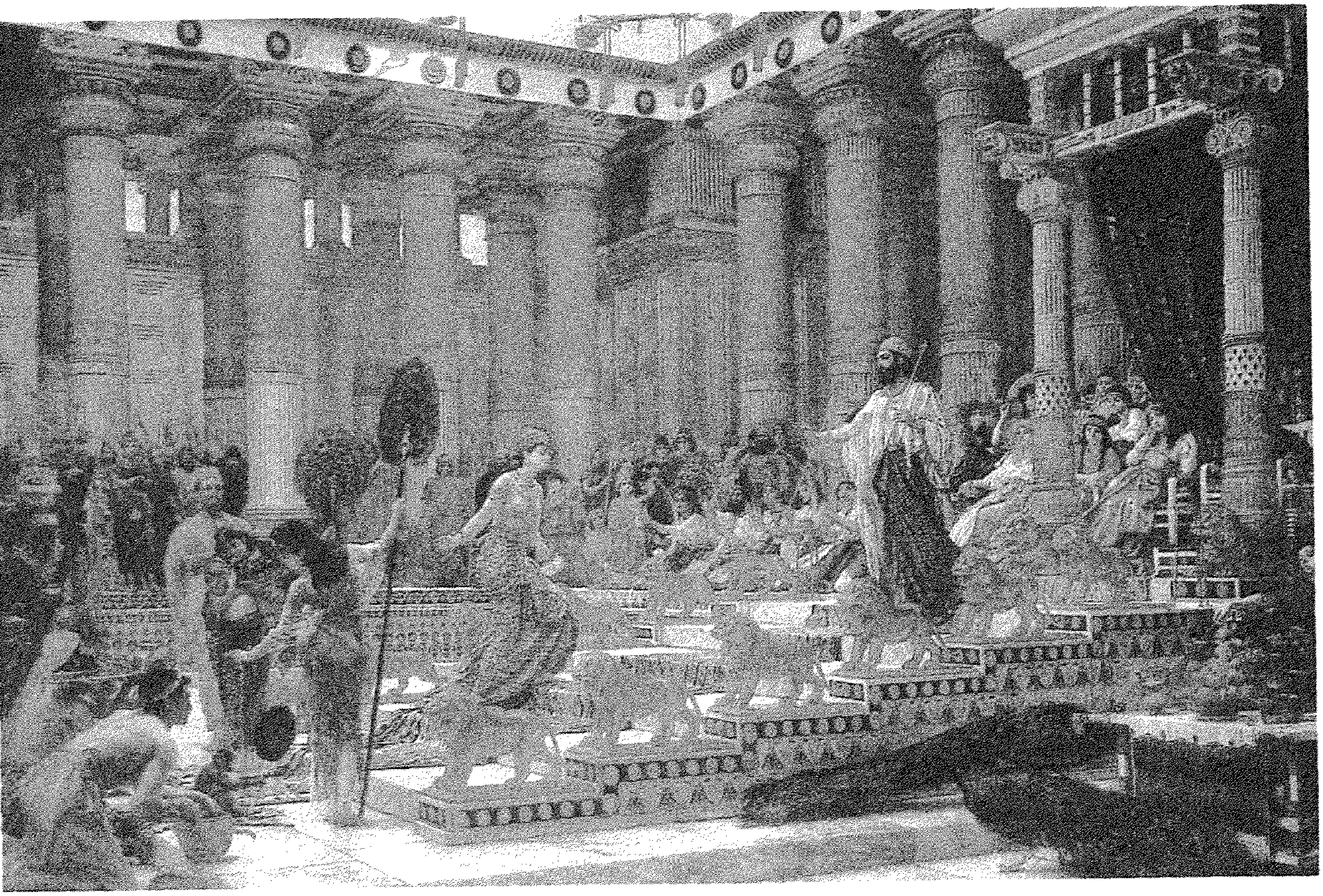
فجاءت بلقيس لزيارة سليمان في قصره. وبحسب بعض الروايات الإسلامية، خشي مساعدو سليمان أن يقع الملك في غرامها ويتزوجها، فأخبروه أن رجليها مليئة بالشعر. وأراد سليمان التأكد من صحة هذا الكلام فبنى قاعة لعرشه جعل أرضها من الزجاج، فرفعت بلقيس ذيل ردائها عند دخولها اعتقادا منها أنها تسير فوق الماء، فشاهد سليمان سيقانها وتأكد من وجود الشعر. وهناك قصة مختلفة في التراث الإيراني عن ملكة سبأ، تجعلها ابنة ملك الصين ولم تأت من بلاد اليمن. وتظهر أهمية ملكة سبأ في العقائد الدينية والقومية لبلاد الحبشة، حيث ساد الاعتقاد بأنها هي التي أدخلت المسيحية إلى هذه البلاد، كما أسس ابنها منيليك من الملك سليمان دولة النجاشي التي انتهت في القرن الماضي بموت هيلاسيلاسي.

في معرض «ملكة سبأ وكنوز اليمن القديمة» الذي نظمه المتحف البريطاني في لندن قبل شهور، اصطف آلاف البريطانيين والسائحين لمشاهدة آثار اليمن، والتعرف على أسرار ملكة سبأ التي جاءت قصتها في القرآن والكتاب المقدس، وسحرت خيال الملايين. وقد نظم المتحف البريطاني عدة محاضرات عن ملكة سبأ كما صورها الفنانون الغربيون منذ عصر النهضة في القرن الخامس عشر، التي صورها الشعراء والكتاب كامرأة تغري الرجال بجمالها. كما تم استعراض الروايات الإسلامية واليهودية والحبشية التي تحدثت عن هذه الملكة التي يسميها المسلمون بلقيس، ويعتقد الحبشيون أنها تزوجت الملك سليمان وأصبح منيليك ابنها منه مؤسسا لعائلة النجاشي، التي كان هيلاسيلاسي آخر ملوكها في القرن العشرين. أسطورة ملكة سبأ هي المدخل الذي اعتمد عليه المتحف البريطاني بلندن في العرض واحتوى على روائع الآثار التي تم الكشف عنها في بلاد اليمن، بينها تماثيل من الرخام والبرونز ونماذج من عناصر الزخرفة المعمارية والمجوهرات الذهبية وأعمال الزجاج والفخار، تم تجميعها من متاحف بريطانيا وأمريكا واليمن. ومن أهم القطع رأس لثور صغير مصنوع من الذهب، يرمز إلى «المقة» معبودة السبئيين التي تم عرضها للمرة الأولى منذ العثور عليها. وهناك رأس مرمرية جميلة لامرأة سبئية اسمها مريم، جرى عرضها مع ما عثر عليه في قبرها من أدوات.

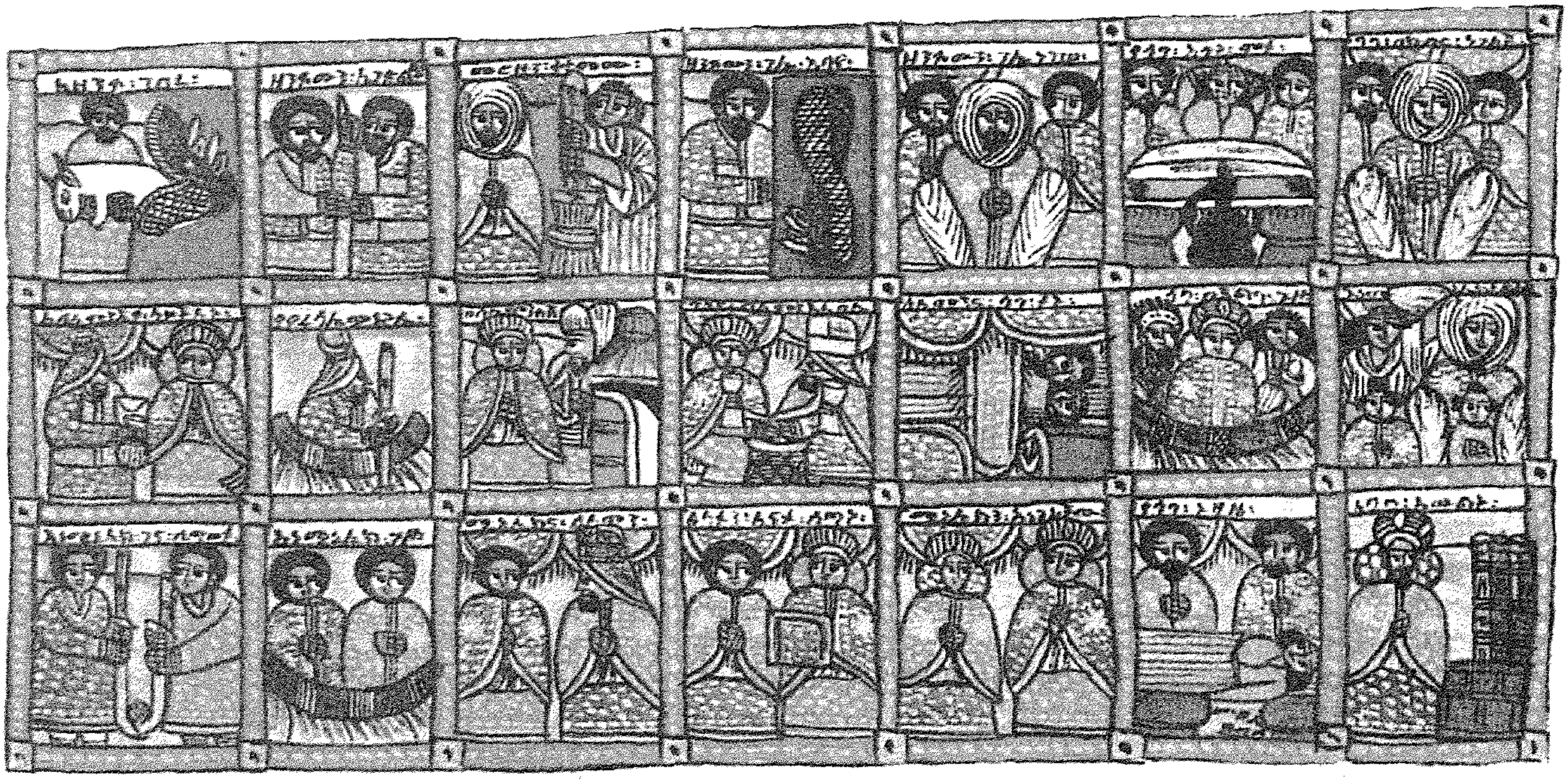
الملك سليمان

جاء في سفر الملوك الأول التوراتي أن الملكة جاءت في قافلة للقاء سليمان في قصره، وأحضرت معها الكنوز من ذهب وأحجار كريمة: «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب لم يبق فيها روح بعد. فقالت للملك صحيحا كان الخبر الذي سمعته في أراضي عن أمورك وعن حكمتك. ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي فهو ذا النصف لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك ...وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة. لم يأت بعد مثل الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان. وكذا سفن حيرام (الفينيقي) التي حملت ذهبا من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيرا جدا وبحجارة كريمة... وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها». (الإصحاح العاشر: ١، ١٣).

اختلف رجال الآثار حول الوقت والمكان الذي عاش فيه الملك سليمان، فبينما تقول القصة التوراتية إنه عاش في بداية القرن العاشر قبل الميلاد، تبين أن الاستحكامات والبنايات التي نسبت إليه، ترجع إلى تاريخ آخر. وبينما حاول بعض الباحثين الذين اجتمعوا في المتحف البريطاني بلندن في ٢٩ يونيو (حزيران) الماضي للتعرف على طرق قوافل البخور في جزيرة العرب، تحديد عصر ملكة سبأ ليتفق مع عصر سليمان منذ ثلاثة آلاف عام، نفى آخرون وجود سليمان في تلك الفترة. لم يذكر القرآن شيئا عن الزمان الذي عاش فيه الملك سليمان، الذي وردت قصته في سور «الأنبياء» و«النمل» و«سبأ» و«ص». ولا عن حجم مملكته أو مكانها، لكن الروايات التوراتية تذهب إلى أن سليمان عاش خلال النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد. وبحسب ما جاء في سفر الملوك الأول التوراتي، فإن سليمان كان «متسلطا



زيارة ملكة سبأ للملك سليمان كما رسمها السير إدوارد جون.. موجودة بمتحف كارت جالارى بسدنى . استراليا



رسم حبشى لقصة ملكة سبأ مع الملك سليمان

من النيل إلى الفرات



بلقيس عندما وصلها الهدهد ـ رسم إيرانى موجود بالمتحف البريطانى

بـــين بلقيـــس وســـليمـان...

على جميع الممالك من النهر (الفرات) إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر، (حيث) كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته».

فاجأ «جوناثان طاب» رئيس قسم آثار الشرق الأدنى فى المتحف البريطانى، المؤتمرين بقوله:

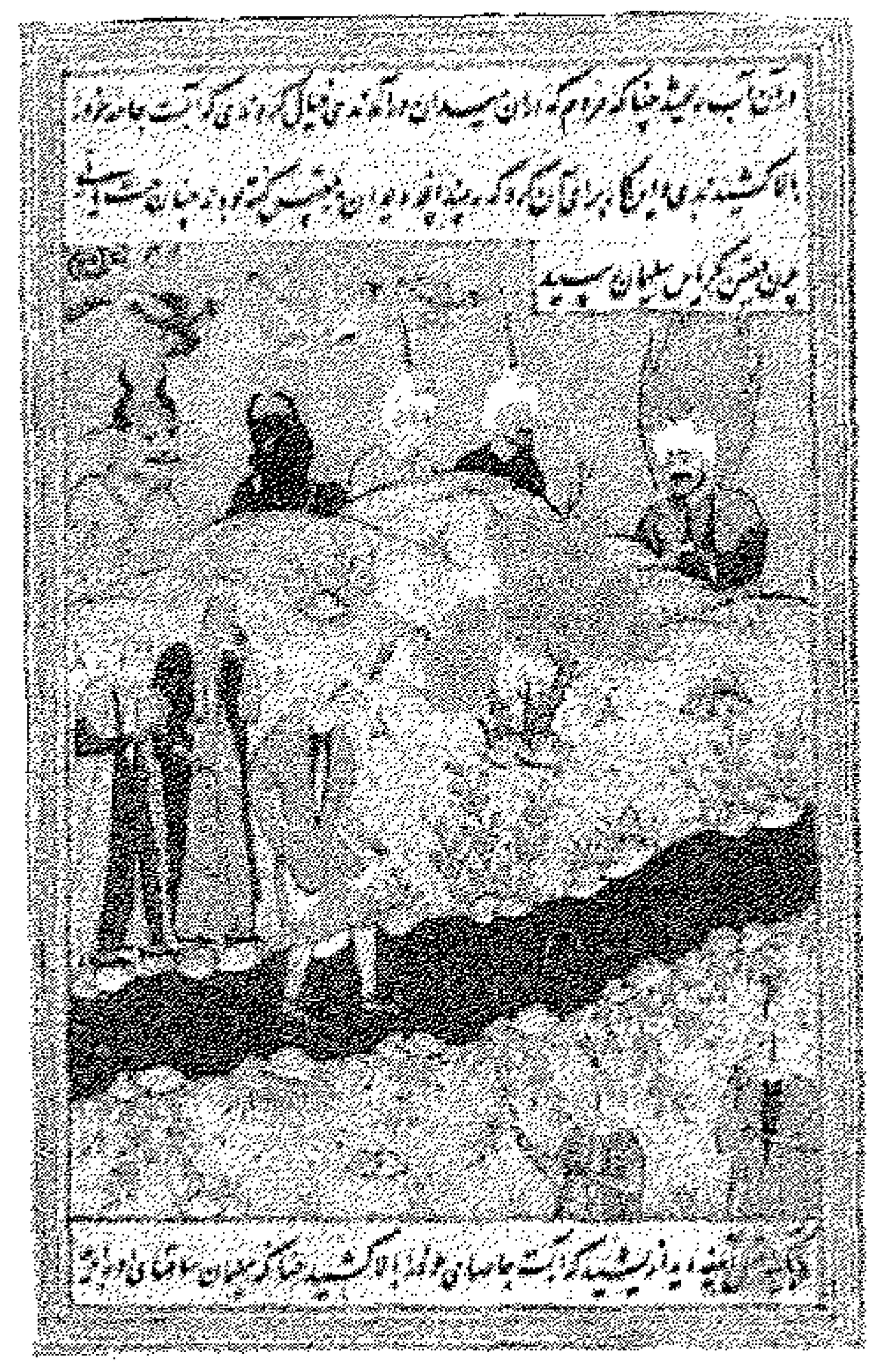
«لما كان العرف قد جرى على اعتبار حكم سليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد، فقد تم تحديد تاريخ ملكة سبأ فى نفس ذلك الوقت. والآن يحاول الباحثون الذين يقبلون بتحديد وقت معين لحكم سليمان، البحث عن حكم (مملكة) سبأ التوراتية، والعثور على مملكة مناسبة فى اليمن تصلح (لهذا الغرض) فى القرن العاشر... (إلا أن) آثار بلاد الشام خلال العشرين عاما الماضية تقريبا، لم تتوقف عند الشك فى تاريخية سليمان (نفسه) كحاكم مهم فى بداية تاريخ إسرائيل، بل إنها تتعارض مع حقيقة وجود مملكة (إسرائيل) المتحدة (نفسها)، بالشكل الذى قدم فى الرواية التوراتية». وقال جوناثان إن البقايا الأثرية التى تنسب عادة إلى سليمان، عبارة عن «مجموعة من البنايات الأثرية، بنايات عامة أو قصور فى مجيدو، أبرزها أربع بوابات ضخمة مدعمة يتبعها أسوار محصنة للمدينة، تم العثور عليها فى مجيدو وحازورة وجيزر. ولمجرد أن هذه الآثار حدد لها تاريخ فى القرن العاشر، اعتبرت (كما لو كانت) شاهدا على برنامج سليمان الواسع فى البناء... (و) عندما تمت أعمال الكشف فى تل جزريل الذى قامت به جامعة تل أبيب والمدرسة البريطانية للأركيولوجى فى القدس فى تسعينيات القرن العشرين، أخرج هذا الموقع الذى شيدته عائلة عمرى خلال القرن التاسع عشر... فخارا مماثلاً للفخار (الذى عثر عليه فى) المستويات السليمانية فى مجيدو وحازورة... مما أدى فى السنوات الأخيرة، إلى إعادة فحص ما يسمى بالمعمار السليمانى».

مملــــــــكة داود

بحسب الرواية التوراتية فإن داود بن يسى من قبيلة يهودا، كان يرعى الأغنام ويحسن العزف على العود، جاء ليعيش عند شاؤول، وهو الذى خلفه فى قيادة قبائل بنى إسرائيل. وتتضمن الرواية التوراتية معلومات متناقضة عن هذا الملك. فنحن نجد داود ومعه جيش مكون من ٦٠٠ رجل يحاربون فى صراع داخلى بين القبائل الإسرائيلية أو مع الفلسطينيين، وفجأة نجد تفاصيل معارك كبيرة تخوضها جيوش منظمة فى مواقع محصنة عديدة من أرض الهلال الخصيب. لم يكن صدق الرواية التاريخية يهم الكهنة فى شىء إذ كان هدف الرواة الأساسى من ادعاء هذه الانتصارات الجبارة هو حث بنى إسرائيل على ترك عبادة الأصنام والعودة إلى ديانة موسى، حتى ينصرهم ربهم على أعدائهم. وبحسب هذه الرواية، مات داود تاركا لخليفته سليمان إمبراطورية تمتد حدودها ما بين النيل والفرات، دون أن يعرف أحد من أين جاءت هذه الإمبراطورية؟

وحتى هذه اللحظة لم يتمكن الأثريون من العثور على أى دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان فى فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثانى وسفر الملوك الأول بأن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات، أورثها لسليمان بعد موته، فإن رجال الآثار لم يتمكنوا من العثور على ذكر واحد لأى من الملكين الإسرائيليين، رغم وجود ٣٠٠ موقع بأرض فلسطين تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، فى إسرائيل والضفة والقطاع. وأدى عدم ظهور أدلة أثرية تتفق مع قصص التوراة إلى الاعتقاد بأنها روايات أسطورية لا تعبر عن الأحداث التاريخية. يقول توماس تومسون أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة كوبنهاجن الدنمركية، إن الاعتقاد الذى كان سائدا حتى القرن التاسع عشر، كان يذهب إلى اعتبار القصص التوراتية تمثل أحداثا تاريخية حقيقية. ثم تغير هذا الموقف تماما الآن، بعد أن أظهرت نتائج الاكتشافات الأثرية عدم وجود أدلة تؤيد ما جاء فى هذه القصص من أحداث وتواريخ. فليس هناك دليل من الآثار على وجود مملكة إسرائيلية متحدة أيام شاؤول وداود وسليمان، كما لم ترد أية إشارة لهؤلاء الملوك فى المصادر التاريخية. ويعتقد تومسون أن قصص التوراة تضمنت أحداثا تاريخية قديمة لشعوب وممالك أخرى فى الشرق الأوسط، تم اقتباسها لتكون جزءا من تاريخ مملكة بنى إسرائيل. بل إنه يذهب إلى أن دولة يهودا التوراتية لم تظهر إلا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، فى زمن الحكم الفارسى، ولم يكن لهذه الدولة أية علاقة بدولة إسرائيل التى قامت حول السامرة قبل ذلك بأربعة قرون ودمرها الآشوريون عام ٧٢٢ ق.م.، ونقلوا سكانها إلى مناطق أخرى، وأحلوا أقواما عربية مكانهم.

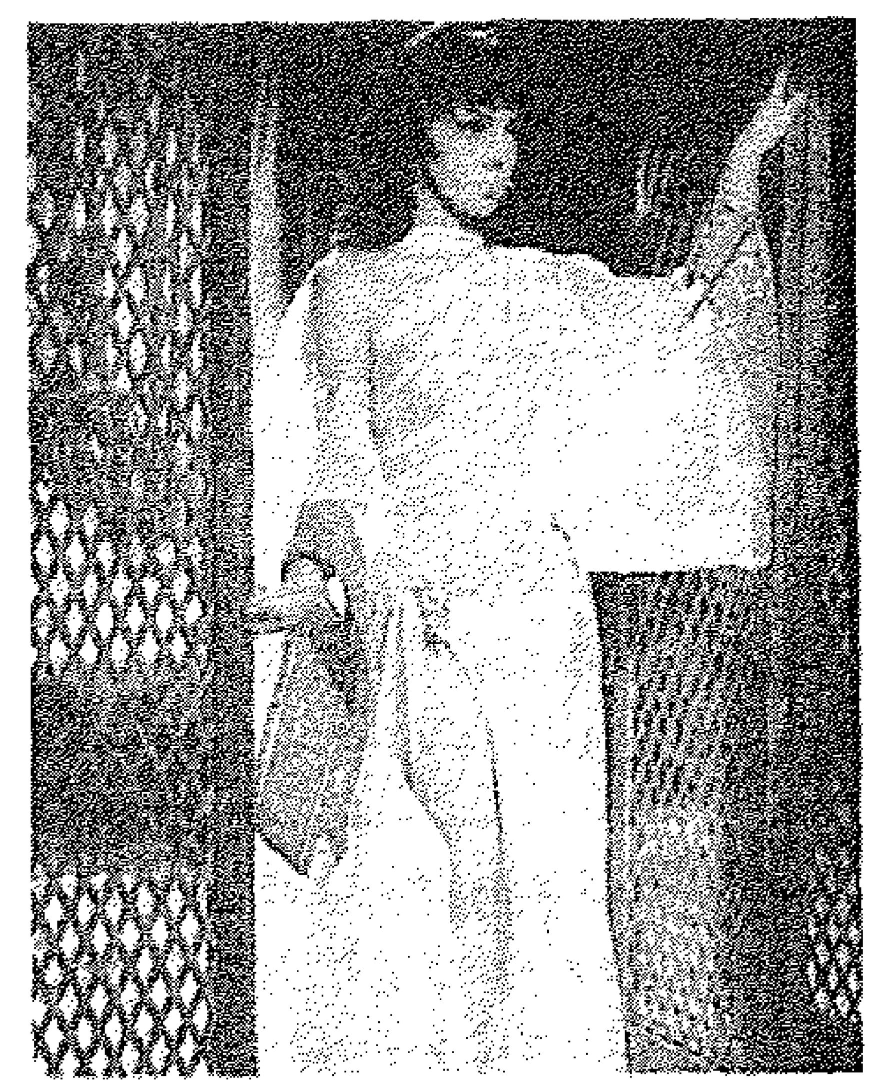
تحكى لنا قصة سليمان. ويدعى «شلما» فى العبرية. أنه جلس «على كرسى داود أبيه وتثبت ملكه جدا... وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها». وبينما فشل الأثريون فى العثور على أية بقايا للبنايات التى ورد ذكرها فى قصة سليمان ضمن طبقات الأرض التى ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد، فإنهم عثروا على بقايا نفس هذه البنايات فى الشرائح التابعة لعصر أمنحتب الثالث قبل ذلك بأربعة قرون. ويبدو أن كتبة الرواية التوراتية استعاروا بعض القصص المتعلقة بالإمبراطورية المصرية بين النيل والفرات. قبل عصر



الملكة بلقيس تنظر إلى الأسماك أسفل الزجاج . وترفع ذيل فستانها . رسم فارسى فى كتاب موجود بمتحف اللوفر بباريس



ملكة سبأ والملك سليمان . فى فيلم أمريكى عام ١٩١٤



جينا لولو بريجيدا الممثلة الإيطالية فى فيلم أمريكى عام ١٩٥٩

سليمان بخمسة قرون. ونسبوها إلى ملكهم. هناك تشابه كبير بين هذه الروايات، خصوصا مع ما نعرفه من تاريخ آمنحتب الثالث والد إخناتون. كان أمنحتب الثالث يسيطر على معظم أجزاء العالم المعروف فى زمانه، امتدت حدوده شمالا عبر نهر الفرات فى جنوب آسيا الصغرى وجنوبا عند شلال النيل الرابع وسط السودان فى أعماق أفريقيا. رغم أنه لم يخض معركة حربية واحدة فى حياته، حيث قام أجداده من ملوك الأسرة ١٨ بتكوين هذه الإمبراطورية. وعندما توفى والده تحتمس الرابع كانت الأمور قد استقرت للملك الصغير الذى تولى الحكم وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، فلجأ إلى الدبلوماسية فى علاقاته مع ملوك الإمبراطورية. عمد أمنحتب الثالث إلى الزواج من أميرات ممالك الإمبراطورية وتبادل الهدايا مع الملوك، خصوصا الذهب الذى كانت مصر تحصل عليه بكثرة من مناجم أفريقيا، لبناء علاقات صداقة مع الدول التابعة له. وعندما جلس أمنحتب الثالث على عرش مصر كان الثراء قد وصل إلى درجة لم يصل إليها من قبل، ولا هو وصل إليها فى أى عصر لاحق. واستطاع هذا الملك الذى ساد السلام فى عصره، أن يستخدم هذا الثراء فى البناء والمعمار سواء فى مصر أو فى بلاد سورية وكنعان، حيث شيد المعابد والقصور والمدن المحصنة، وكان لوجود عدد كبير من أسرى الحروب فى ذلك الزمان أثر فعال فى ازدياد القوى العاملة التى تم استخدامها فى أعمال قطع الحجارة والبناء.

مدينة القدس

تقول قصة العهد القديم من الكتاب المقدس إن داود بعد أن صار ملكا على قبائل يهودا وإسرائيل قام بالاستيلاء على مدينة القدس عندما «ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض... وأخذ داود حصن صهيون. (و) هى مدينة داود... وأقام داود فى الحصن وسماه مدينة داود». ولم نحصل على تفاصيل هذه القصة المنسوبة إلى داود، فى أى مصدر تاريخى ولم ترد الإشارة إلى داود نفسه فى المصادر المصرية أو البابلية، فكان من الطبيعى أن يحاول الأثريون فى العصر الحديث العثور على الأدلة للتأكد من صحة هذا الجزء من القصة تاريخيا، كما وردت عنه فى سفر صموئيل الثانى من كتب العهد القديم. ومع أن عمليات البحث عن البقايا الأثرية القديمة فى القدس ازدادت بشكل ملحوظ منذ وقوع هذه المدينة فى أيدى السلطات الإسرائيلية فى يونيو ١٩٦٧. إلا أنه تبين عدم وجود مدينة ولا أسوار فى الفترة التى تقول الرواية التوراتية بأن القدس كانت فيها عاصمة لداود وسليمان.

وكانت بعض المصادر التاريخية التى جاء بها ذكر أورشليم قد أوحت من قبل بوجود مدينة القدس المحصنة، على الأقل منذ القرن الرابع عشر السابق للميلاد. فهناك ستة خطابات من بين رسائل العمارنة التى وجدت فى مصر قبل نهاية القرن الماضى، كتبها «عبدى خيبة» إلى الملوك المصريين والذى وصف نفسه بأنه كان «حاكم متاتى (أرض) أورشليم». واستنادا إلى هذه الرسائل قال المؤرخون بوجود مدينة كبيرة فى منطقة القدس خلال حكم الملك إخناتون وأمنحتب الثالث، فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وجاءت نتائج الكشف الأثرى الأخيرة متعارضة تماما مع هذا الاعتقاد، حيث لم يتم العثور على بقايا أية مدينة قديمة فى موقع القدس ترجع إلى تلك الفترة الزمنية. ويبدو الآن أن أورشليم هذه لم تكن مدينة سكنية، وإنما كانت مزرعة أقيمت عندها نقطة للحراسة العسكرية لتأمين الطريق المؤدى إلى بيسان فى الشمال. وبحسب ما ذهب إليه توماس تومسون فإن عدد سكان منطقة أورشليم فى عصر داود كان أقل من خمسة آلاف، مما يصعب معه القول بأنها كانت عاصمة لإمبراطورية كبيرة، وهو يرى أن علاقة اليهود بالقدس لم تبدأ إلا منذ القرن الرابع قبل الميلاد فقط.

تجارة البخور واللبان

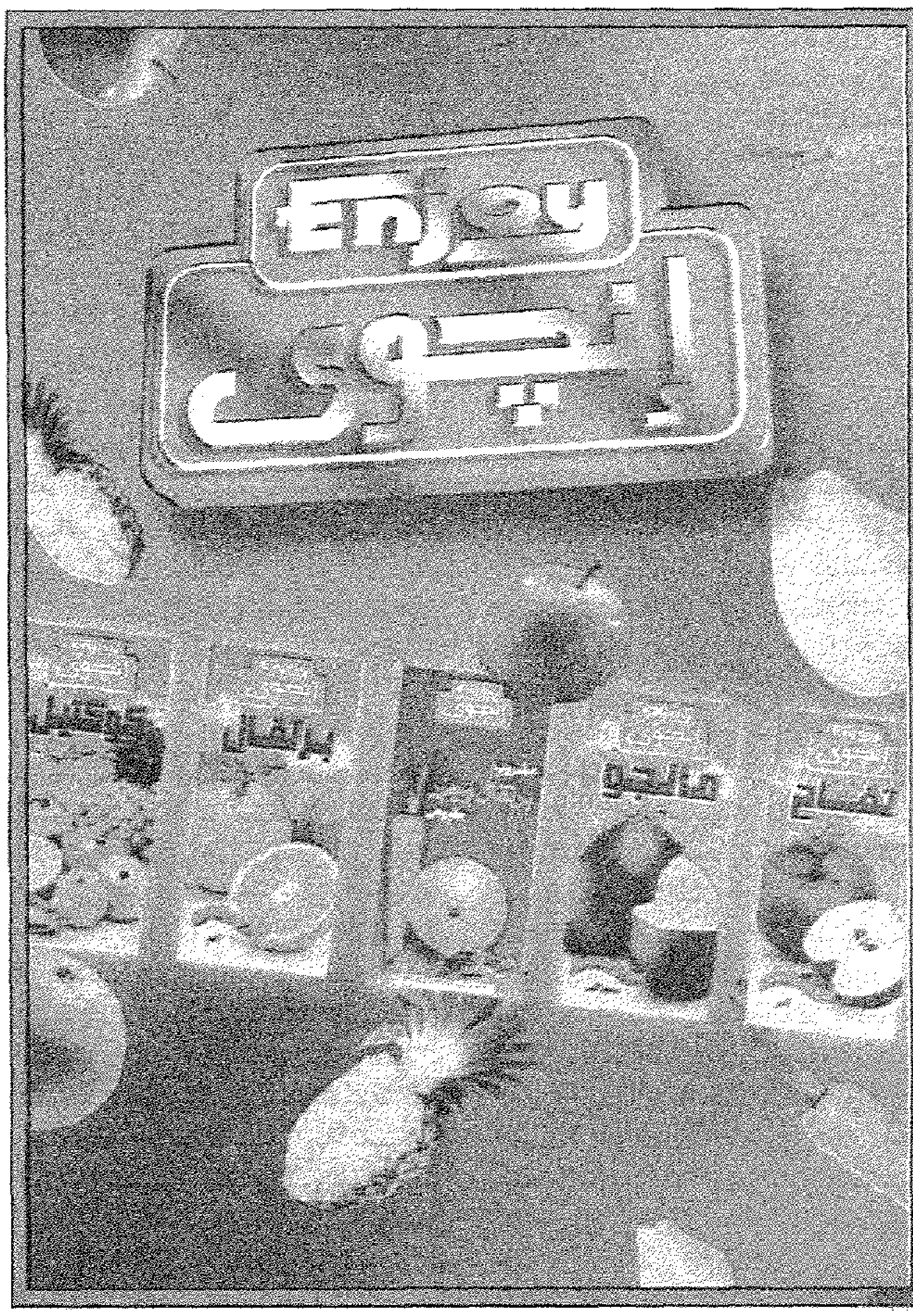
هنالك أدلة كتابية تتحدث عن السبئيين منذ القرن الثامن قبل التاريخ الميلادى، فى مصادر الدولة الآشورية، تشير بوضوح إلى أن مملكة سبأ فى اليمن كانت لها قوافل تجارية منتظمة إلى بلدان الهلال الخصيب. أقدمها نص يصف كيف قام حاكم مدينة مارى بشمال العراق بالقبض على قافلة من الجمال. ويذكر النص أن مائة شخص من تيماء وسبأ كانوا مع القافلة، أوقفها الحاكم الآشورى وهى فى طريق عودتها من بلاد الرافدين، بسبب عدم دفع ضرائب المرور. كانت القافلة تتكون من مائتى جمل عائدة بالبضائع التى قايضتها، حيث أخذت مقابل البخور الذى جاءت به، الصوف والحديد والمرمر والأقمشة المصبوغة بالأزرق والأرجوانى. وتتحدث النصوص الآشورية عن الضرائب التى حصل عليها سارجون الثانى وسناخريب من التجار السبئيين خلال القرن السابع قبل الميلاد، على شكل عطور وذهب وأحجار كريمة. كما ذكرت النصوص الآشورية أسماء الحكام السبئيين: «يتأمارا السبئى» و«كريبئيل ملك سبأ».

معظم ما نعرفه عن مراكز تجارة البخور فى جنوب الجزيرة العربية، يأتى عن طريق الكتابات والروايات الكلاسيكية القديمة. وهناك كتيب كتب فى الإسكندرية فى منتصف القرن الأول للميلاد، يذكر أن كل البخور الذى يزرع فى جنوب الجزيرة العربية تجلبه قوافل الجمال والقوارب إلى قانى لتخزينه هناك. وقد كشفت أعمال بعثة أثرية روسية مؤخرا على شاطئ ميناء قانى القديمة بخليج عدن، عن كميات كبيرة من البخور داخل أكياس من ألياف النخيل تحت الرمال. بعد تجميعه فى قانى، كان البخور ينقل إلى شبوا ثم تمنع ومأرب قبل أن يتجه شمالا إلى نجران ومنها إلى البتراء وغزة. وكانت المواد الرئيسية لهذه التجارة تعتمد على البخور الذى يوجد بين حضرموت وعسير وصمغ المر الذى يخرج من شجرة اللبان. كتب الرحالة اليونان عن مصدر البخور والصمغ الذى يخرج من شجرة المر، وقالوا إنها تأتى من «بلاد العرب المباركة» (Arabia Eudaimon). وتحدث هيرودوت الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد قائلا: «الشجيرات التى تنتج البخور، تحرسها ثعابين ذات أجنحة لونها أرقط وهناك عدد كبير منها حول كل شجيرة». أما الرومان فقد أطلقوا على بلاد العرب اسم «بلاد العرب السعيدة» (Arabia Felix)، وعندما فشلت حملتهم سنة ٢٥ قبل الميلاد فى الاستيلاء عليها، أقاموا خطوط التجارة عبر البحر الأحمر منذ القرن الميلادى الأول، مما حرم الممالك العربية من عائد نقلها بقوافلهم.

بينما بدأت أعمال البعثات الأثرية عملها فى مصر وبلدان الهلال الخصيب منذ منتصف القرن التاسع عشر، لم تبدأ عمليات الكشف الأثرى فى الجنوب العربى إلا بعد الحرب العالمية الأولى. وأول بعثة علمية قامت فى العصور الحديثة بالتعرف على تاريخ الجزيرة العربية، جاءت من الدانمرك إلى اليمن سنة ١٧٦٢، إلا أن أربعة من أعضائها الخمسة لاقوا حتفهم هناك. وفى القرن التاسع عشر قام بعض السائحين الغربيين بنسخ صور لبعض الكتابات القديمة التى وجدوها منقوشة فوق الصخور، وقام الباحثون بدراستها ومحاولة التعرف على طبيعتها. كان أول من عمل هناك فى ثلاثينيات القرن الماضى عند معبد «حقا» شمال صنعاء، قام به اثنان من الألمان هما المستكشف كارل راثينز والجغرافى فون ريسمان. وكانت البريطانية جيرترود كاتون طومسون أول من عمل فى حضرموت، حيث عثرت على معبد لسايين ومقبرتين فى الحديدة قبل عامين من نشوب الحرب العالمية الثانية. وبعد نهاية الحرب جاءت بعثة أمريكية بقيادة وندل فيليب، عملت فى تمنع عاصمة مملكة قتبان القديمة وكشفت عن مقابر المدينة فى منطقتى ابن عقيل وابن حميد.

قـــوم عـــاد

يتحدث الرواة المسلمون عن أقوام سابقة على ممالك سبأ وحمير، بادت واختفى أثرها بعد ذلك من بين هذه الأقوام عاد وثمود التى ورد ذكرها فى القرآن. وكان موطن عاد فى حضر موت شرقى اليمن جنوب المملكة السعودية بجانب منطقة أحقاف الرمل. ولا يعرف أحد أصل قوم عاد كانت لهم مدينة ورد اسمها فى سورة الفجر: «ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها فى البلاد». وتقول الروايات إن الملك شداد هو الذى قام ببناء مدينة إرم فوق الأعمدة. وتذهب الرواية كما وردت فى تاريخ الطبرى إلى أن قوم عاد كانوا أشداء ضخام القامة، يعبدون الأصنام ويرتكبون الفواحش. وعندما أرسل إليهم ربهم نبياً اسمه هود يدعوهم إلى التوبة وترك عبادة الأصنام، سخروا منه ولم يستجيبوا له. ثم بعثوا بوفد من رجالهم إلى مكة ليقوم بالصلاة طلبا للمطر الذى تأخر فى بلادهم، فاستقبلهم أميرها معاوية بن بكر بالترحاب وأقام على شرفهم حفلة غنائية كبيرة. وما كاد رئيس وفد عاد أن ينتهى من أدائه لصلاة الاستسقاء، حتى ظهرت ثلاث سحابات فى السماء تختلف فى ألوانها، ما بين البيضاء والحمراء والسوداء. وسمع صوتا فى السماء ينادى طالبا منه أن يختار أى من السحابات الثلاث لبلاده، فاختار السوداء متوقعا أن تكون مليئة بالمطر. فسارت السحابة السوداء من موقعها عند مكة إلى أن وصلت فوق أرض عاد، ثم خرج منها ريح صرصر عاتية قضت على كل أهل البلاد عدا قليل منهم من أتباع هود. وبعد مرور الزمن ظهر قوم جدد فى عاد، من سلالة القلة التى تبعت نبيهم هود وتركت عبادة الأصنام. وتقول الرواية إن أهل عاد الجدد كانوا يقيمون بمنطقة سبأ من بلاد اليمن، وهم الذين تولوا بناء سد مأرب الشهير فى أيام ملكهم لقمان بن عاد. ويقال إن النبوءة أخبرت الملك لقمان هذا بأن حياته سوف تمتد مدة أعمار سبعة نسور، لهذا أطلق عليه لقب «ذو النسور». ■



كاريير.. أول تكييف تكلمه بالتليفون



الآن مع أجهزة تكييف كاريير سبليت الجديدة يمكنك:

- التحكم فى التشغيل والإغلاق من خارج المنزل بالتليفون من خلال تلى كاريير.
- الاتصال عن طريق التليفون العادى أو المحمول.
- التحكم فى أكثر من جهاز تكييف كاريير فى وقت واحد.

كاريير... أول تكييف فى مصر
تشغله وتقفله من بره البيت بالتليفون

كاريير .. خبرة بتطور

Miraco Carrier

لاشئ يفوق الخبرة ... لاشئ يفوق كاريير

لخدمة العملاء والمبيعات فى القاهرة الكبرى اتصل ب: **١٩١١١** بسعر المكالمة العادية

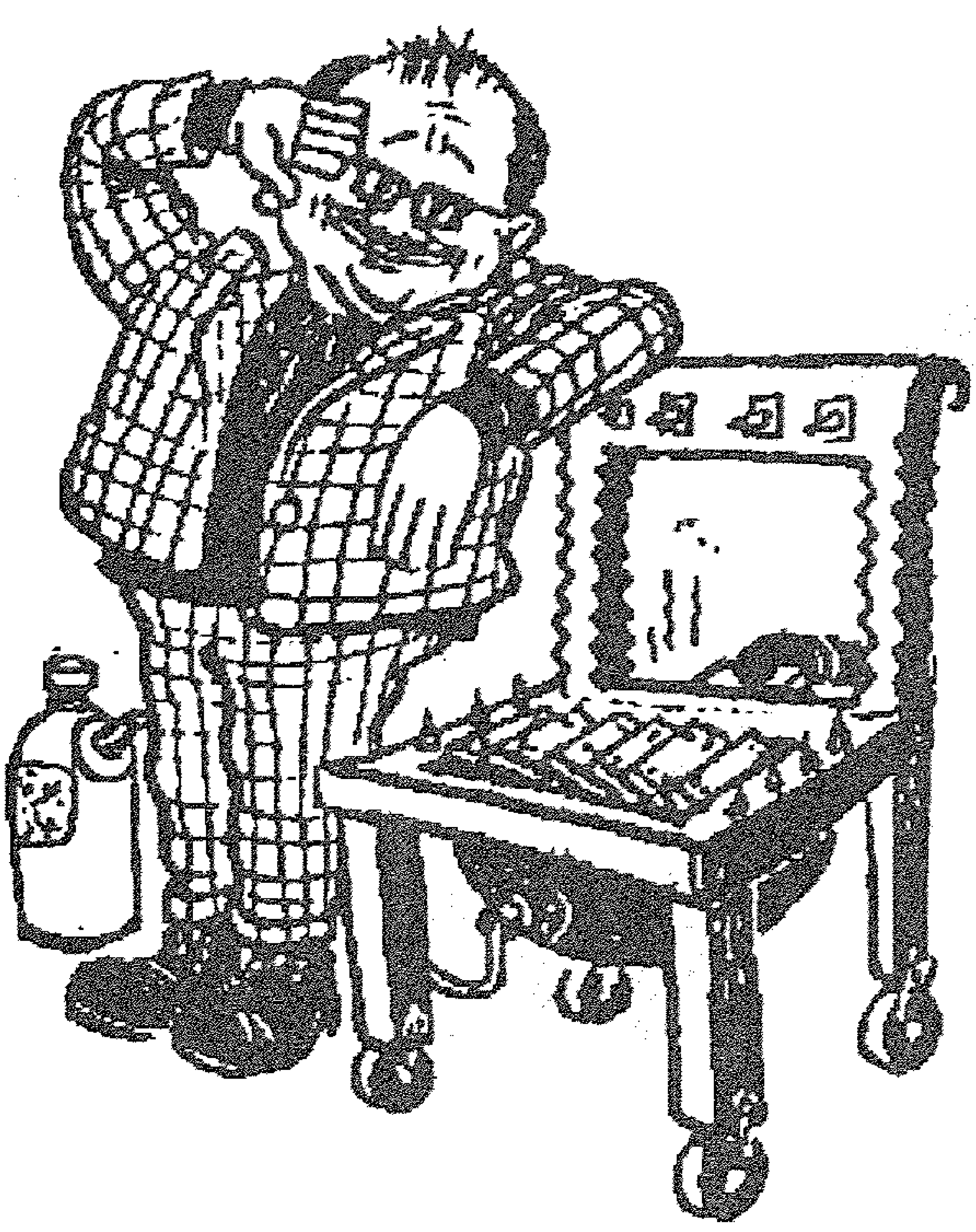
ولدى كل الموزعين المعتمدين ..

Carrier — One hundred years of innovation.

Fortune Promoseven

شركة مصر لصناعة التبريد والتكييف ش.م.م

المركز الرئيسى : ١٥ شارع مكة المكرمة - خلف نادى الصيد - المهندسين. **مصر الجديدة :** ٢٠٤ شارع الحجاز. **مدينة نصر :** ١٨ شارع عبد الله العربى - إمتداد شارع الطيران - القاهرة. **شبرا :** ٧٠ شارع شبرا - القاهرة. **المعادى :** ٢/١١ شارع النصر - المعادى الجديدة. **الهرم :** ٩٨أ شارع الملك فيصل - تقاطع الملك فيصل مع المريوطية - الهرم. **الإسكندرية :** ٥ شارع البرت الأول - بجوار كوبرى كليوباترا - سموحة ت: ٤٢٥٢٠٠٥ (٠٣) **الغردقة :** شارع المحكمة ت: ٥٤٩١٥٥ (٠٦٥) **الأقصر :** شارع الروضة الشريفة - العوامية ت: ٣٧٢٩٤١ (٠٩٥)



صلاح جاهين

الاكتواء بنيران الموهبة

سهير اسكندر

كل ما نبع من صلاح جاهين وما أحاط به كان يؤهله للثراء الفنى والإنسانى.. بل كان يرشحه أيضاً لمعاناة تصنعها نيران الموهبة.

حظى بحب جماهيرى جارف فلم تشهد مصر إلا فيما ندر هذه الموهبة المتسعة الأرجاء شعراً ورسماً وغناءً وتأليفاً وتمثيلاً.

ولد صلاح جاهين سنة ١٩٣٠ فى بيت كان بطله وفارسه واحداً من تلاميذ مصطفى كامل وزملائه فى الثورة الوطنية.. ذلك هو أحمد حلمى رئيس تحرير جريدة اللواء وهو جد صلاح جاهين.. عاش صلاح طفولته وتربت فيه الحاسة الشعبية فى هذا الجو.. كان أيضاً ابناً لرجل يشتغل بالقضاء مما أسهم فى إمداده بثقافة حية تتصل بقيمة العدل.

قبل الثورة كان صلاح جاهين أحد العناصر النشطة فى حركة التحرر الوطنى. لم يكن عضواً فى حلقة ضيقة أو تنظيم حزبى لكنه تغذى من التيار اليسارى بشكل عام.

إذا كان بيرم التونسى هو بمثابة علم الشعر الشعبى لثورة ١٩١٩، فقد كان صلاح جاهين علامة فارقة فى تطور هذا الشعر معبراً عن ثورة ١٩٥٢.

يعد صلاح جاهين واحداً من رواد اليسار.. كان كبيراً له نفسية طفل وإبداع روح حافظت على نقائها الجياش. تجلى ذلك فى فنه المترامى الأطراف.. بدا كمن يلهو بالفرشاة والكلمة النابعة من قاموس العادى من الناس. لم يعرف عنه أنه دخل فى خصومة شرسة أو ثعبانية.. وكان جارف الحب للزعيم عبدالناصر. مؤمناً أصيلاً بنظامه الفردى.

يعد ديوان (كلمة سلام ١٩٥٥) أول مجموعة شعرية لصلاح جاهين تعبر عن القضايا الوطنية من المنطلق الماركسى الكلاسيكى فى الأربعينيات والخمسينيات. كانت قصائده المعروفة فى فترة الثورة تتغنى بالعمال والفلاحين والمناضلين والثورات العالمية.

ألف (موال عشان القنال ١٩٥٦).. ثم (القمر والطين ١٩٦١).. ثم (قصاقيص ورق ١٩٦٦) وأخيراً (أنغام سبتمبرية ١٩٨٤).

أثرت نكسة ١٩٦٧ على صلاح جاهين وتغير إنتاجه.. بعدها لجأ إلى معينه الفنى يبحث عن ألوان أخرى تبحث عن الشفاء من الواقع المأساوى لمصر.

كانت هذه المرحلة محل نقد قاس من اليسار. فى حوار أجراه قبل وفاته ١٩٨٦ مع د. عمرو عبدالسميع أجاب على كثير من التساؤلات عن موقفه بين اليمين المتطرف واليسار..

سأله: كيف يهاب الشاعر الرقيب السياسى؟

قال: ينطبق علىّ تعبير خادم سيدين. لى سيد اسمه الجمهور وسيد آخر من أعمل عنده مثل الجريدة.. ثم اكتشفت أن لى سيداً آخر اسمه (المتطرفون) هؤلاء لا يعتقون. النوع الأول منهم مثلاً يثير ضجة كبرى حول مقطع من إحدى أغنياتى «تفوت على الصحرا تخضر» يحرفها ويقول إننى حاولت فيها إلصاق صفة الإتيان بالمعجزات على جمال عبدالناصر قائلاً: تفوت على الصحرا تخضرا». النوع الثانى من المتطرفين الذين أحبهم «اليسار» هؤلاء يتربصون بى باستمرار لكى يصرخ أحدهم أنه قد ضبطنى سياسياً أو فنياً متلبساً فى حالة ردة.

ويعقّب صلاح جاهين فى النهاية: «لقد كنت مضرباً فى السبعينيات وحمدت الله أننى لم أكتب شيئاً حتى لا أدخل طائفة المطبلين».

أما فى الستينيات فقد سار جاهين لا يلوى على شىء فى امتداح الثورة وزعيمها «قول ما بدا لك احنا رجالك».. «ريسنا ملاح ومعدينا عامل وفلاح من أهالينا ومنا فينا الموج والمركب والزفة والريس والزينة».. «سيبنا فى ايدك مصر أمانة».

يبرر صلاح جاهين هذا الحماس قائلاً: «لم يكن تطبيلاً لعبدالناصر بل دعماً بكل ما أملك لتحالف عبدالناصر بوصفه يسارياً. إن أغانى الستينيات التى تحدثت عن منجزات وأهداف الاشتراكية لم تكن توحداً مع الفرد بقدر ما كانت توحداً مع المبدأ والنظام».

غير أنه فى فترة الستينيات ومنذ قيام الثورة أصبح فن الكاريكاتير السياسى باهتاً بسبب المناخ الرقابى الشائع. اضطر صلاح جاهين إلى تعويض الجاذبية السياسية بالتركيز على المشكلات الاجتماعية، بذل جاهين جهداً كبيراً حتى يجعل رسمه طريفاً رغم البعد النسبى عن السياسة. قدم فى «صباح الخير» شخصيات كاريكاتيرية حية مثل قيس وليلى، ونادى العراة، والعيادة النفسية، وضحكات مكتبية.

حالة تناقض

بدأت حرية النقد الاجتماعى التى أتاحتها حكومة الثورة تصطدم مع التيار الدينى حثيثاً ثم بشكل حاد فى مراحل الثورة الأولى والمتوسطة لم يكن التطرف الدينى مسموحاً له بالتعبير. كان مرتبطاً فى ذهن حكومة الثورة بحركة الإخوان المسلمين التى كان ينظر إليها باعتبارها عامل تهديد للنظام. خلال هذا المناخ المتحرر اجتماعياً أطلق صلاح جاهين قلمه وريشته معوضاً غيبة الحرية السياسية.

غير أن هذه الحرية الاجتماعية التى أتاحتها الحكومة للفن ما لبثت أن اصطدمت مع التيار الدينى النامى. تعرض صلاح جاهين لغضبة هذا التيار حين هاجم الشيخ الغزالى فى الستينيات فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية بالكاريكاتير.. أدى هذا إلى خروج مظاهرة من الأزهر كادت أن تؤذيه.

اتسع الخلاف بعد نكسة ١٩٦٧ وتنامى هذا التيار فى عهد أنور السادات حيث كانت لصلاح جاهين مواقف ضد الحجاب والنقاب وضد المجازر التى حدثت فى إيران.

أما مع اليسار فقد بدأ الخلاف بعد ١٩٦٧.. تقول رضوى عاشور أن هزيمة ١٩٦٧ قد ألقت بصلاح جاهين فى هاوية من الحزن لا قرار لها. يحلل بكر الشرقاوى متسائلاً أن هناك من لا يرضى عن صلاح جاهين ولا يذكر إلا سنواته الأخيرة التى باعدت بينه وبين منهجه. لقد رأوا فيه مهادناً حائراً بعيداً بعض الشىء عن المجالات الملتهبة للنضال الوطنى.

بينما يدافع سعد كامل عن يسارية صلاح جاهين قائلاً: «أولئك الذين

ينظرون إلى السياسة كعملية حسابية بسيطة عليهم أن يعلموا أن الفنان مرهف الحس رقيق الشعور لابد أن يمضى وقتًا ليعيد حساباته بدرجة أبطأ مما يفعل السياسيون».

ظل صلاح جاهين على تمزقه ما بين حب عبدالناصر ويأسه من النظام ككل. كتب «أنغام سبتمبرية» تحت وطأة الإحساسين المتناقضين. مع هذا فقد ظل صوت الشاعر يقاوم الاستسلام مرة بمحاولة بعث الفرحة والأمل فى الجسد الوطنى الجريح ومرة بالصدق الفنى والوطنى المبهر كما فى «عودة الابن الضال».

فى حين وجد الكتاب إنقاذهم فى كتابة المقالات التحليلية والتبريرية لنكسة ١٩٦٧، فلم يستطع صلاح جاهين الفنان أن يمسك بطوق نجاة من هذا النوع تعتمد حرفته على الصدق والشفافية والإحساس التلقائى، لذا حاول تجاوز الهزيمة بمحاولة إشاعة الفرحة والأمل عبر وسائل فنية مختلفة لم ترق للبعض الذين افتقدوا فيه المناضل الثائر.

قال صلاح جاهين فى أحد حواراته الأخيرة مع عبلة الروينى: «لقد ظلوا يلومونني سياسياً وفكرياً وأخيراً أصبحوا يلومونني شعرياً.. ثم استطرد بعناد طفولى: سأفعل عكس الشيء.. سأفعل عكس ما يريدونه».

دافع البعض هل نلوم جاهين إذ تحول من «والله زمان يا سلاحى» إلى فوازير رمضان.. من «حانحارب» إلى «خللى بالك من زوزو»؟ لقد ألقى صلاح سلاحه مبكراً ليتفرغ لفن إفراح الجماهير بدلاً من تنوير الجماهير.

كان صلاح جاهين يضحك ضحكته الطفولية ويقول: إن معنى كلمة نكسة أنه يجب أن ننكس رؤوسنا خجلاً وعاراً. هكذا حكى عنه مصطفى أمين فى أحد أحاديثه لجريدة «الأهالى» فى إصدارها الأول حيث قال: «إنه شعر أنه شارك فى كذبة وأن له نصيباً من الذنب فى هذا».. غير أن عمق إيمانه بالفردية جعل نجاته النفسية صعبة بعد أن هزم عبدالناصر الذى علّق عليه الأمل كله.

لغة صلاح جاهين

اختار صلاح جاهين اللغة العامية. حقق بها المعادلة الصعبة إذ جعل شعره جيداً وجماهيرياً فى آن واحد. خلع عن الأغنية أناقتها المزيفة جعل منها ثوباً جميلاً فضفاضاً يرتديه كل الناس.

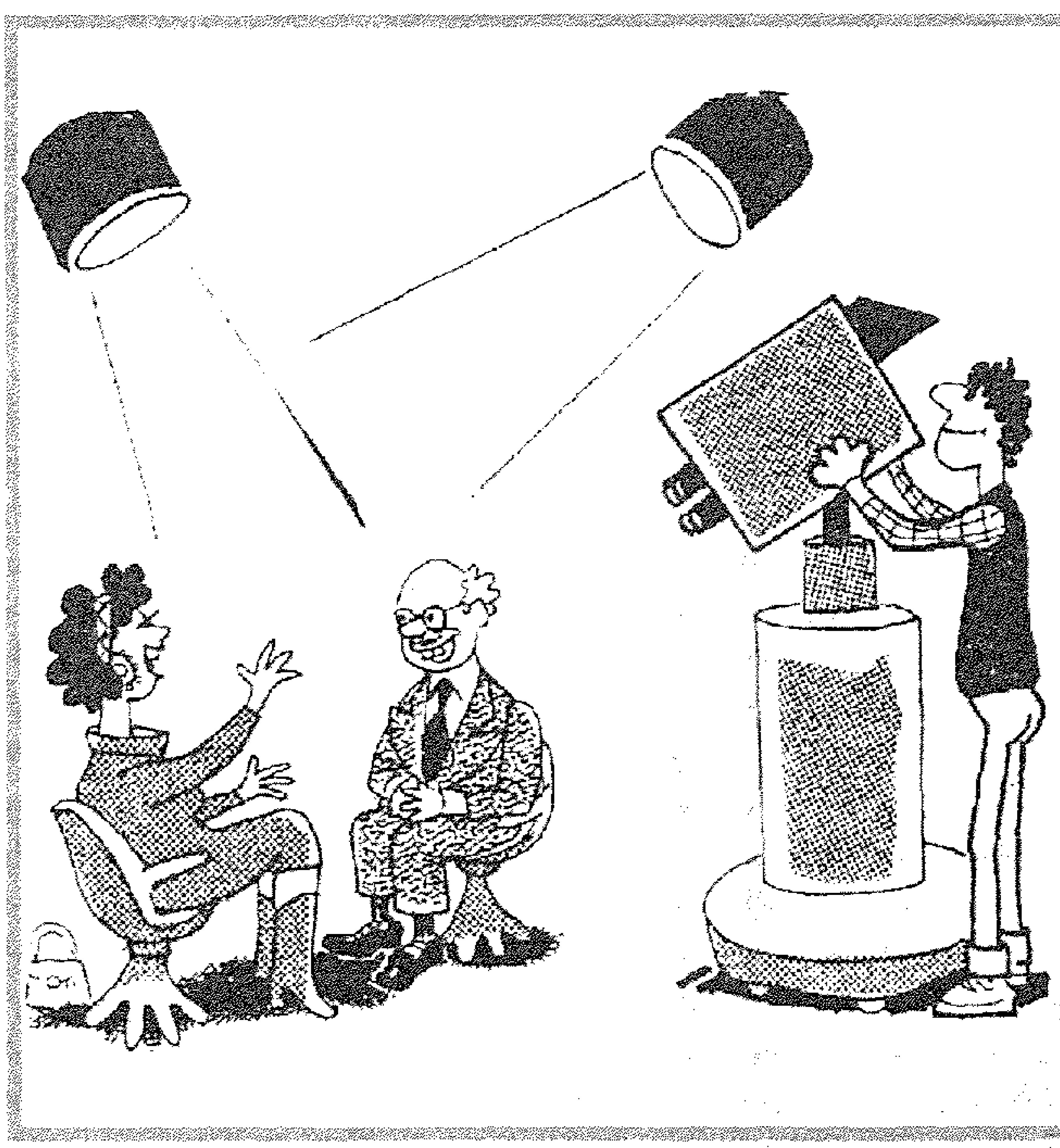
يقول عنه الأديب الكبير يحيى حقى: كان صلاح يكتب بالعامية ولكنه كان واسع الاطلاع وصلته بالشعر العربى موجودة بعمق. ولما كانت اللغة العامية دائمة التطور إلا أن صلاح قفز فوق فروق اللغة العامية ونقلها من جيل إلى جيل واستصفى لها روحها الخالصة.

وقد سمح صلاح لنفسه أن يحدثنا من خلال فنه عن صفاته ومخاوفه وأوهامه والنكتة التى يحبها. يقول يحيى حقى (وهو من عشاق الفصحى): «لم يهدد أحد اللغة الفصحى كما هددها صلاح. حتى بيرم التونسى لم يشكل خطراً على الفصحى لأنه اقتصر على المحاكاة والوصف، أما صلاح فقد رفع العامية بعد أن طعمها بالفصحى وثقافة المثقفين وهذا خطر عظيم».

امتلك صلاح جاهين الحاسة الشعبية العميقة إنه مثل الشاعر الشعبى القديم ينظر إلى موضوعاته نظرة العاشق إلى حبيبته. نجده يتحدث عن أسوان عند بناء السد كأنها فتاة سمراء بضة:

أسوان بنت بنوت　　المجد خاطبها
لها معاد متبوت　　توفى حبايبها
أسوان نشوانة　　وقلبها بيدق
بزنود عرقانة　　بين الصخور تنشق

بعد نكسة ١٩٦٧ طرح صلاح جاهين أسئلة فلسفية دامغة تجلت فى رباعيات كثيرة.. كما خاض فى موضوعات حسية لكنه جعلها راقية لا تجرح بل تسمو بالأحاسيس. إن رباعيات جاهين وليدة الخلوة والاستعبار والحزن الرقيق..



والنبى يا دكتور لا انت قايل.. نسبة الأمية دلوقت قد إيه؟



مش شايفة حاجة اتغيرت فى الدنيا خالص.. الموضة بقالها ثلاث سنين زى ما هى!

تحدث فيها عن تجاربه ولحظات حياته. إنه كما يقول يحيى حقى يختلف عن المؤلفين الذين يجيئون لنا بالنتيجة النهائية على بلاطة.. وهذا الأسلوب المترفع من الشعراء أدى إلى ظاهرة خلو أدبنا من وصف أزمات الضمير.

ما أكثر ما جال بنا صلاح جاهين فى رحلات إبحاره فى ذاته:

«مرغم عليك يا صبح مغصوب يا ليل
لا دخلتها برجلى ولا كانلى ميل
شايلينى شيل دخلت أنا فى الحياة
وبكره ح اخرج منها شايلينى شيل» ..
عجبى.

إن أسلوب صلاح هو صلاح جاهين نفسه..

«فتحت شباكى لشمس الصباح
ما دخلشى منه غير عويل الرياح
وفتحت قلبى عشان أبوح بالألم
ما خرجشى منه غير محبة وسماح»..
عجبى.



وح نعرف منين إذا كانت القاهرة اتجملت والا ما اتجملتش.. هو احنا شايفين حاجة؟

صلاح جاهين الإنسان

لا أزعم أنى كنت على علاقة وثيقة بالفنان صلاح جاهين لكنى عرفته شخصيا بشكل طبيعى فى موقعين كنت أتمرن فيهما على الصحافة.. الأهرام ثم صباح الخير.

فى صفحة الرأى فى مبنى الأهرام القديم كنا نتحلق حوله ونشاهده وهو يرسم بالريشة، وكأنما يلعب.. وأحيانا يغنى بصوت سوبرانو مرح.. وكثيرا ما كنا نجاذبه الحديث أو نثرثر بجانبه دون أن يضيق بنا.. من وقت لآخر قد يخرج بتعليق ودود: ما هذا الكلام الجميل.. أنتم أولاد شطار.

الكاريكاتير كما يقول عنه صلاح جاهين هو مصدر رزقه الأساسى وعمله اليومى. كانت رسومه ككل أشعاره تأملات تتسم بالعمق والنفاذ والملاحقة فهذه تأملاته كاريكاتيرية فى المسألة الفلانية أو العلانية.

يقول د. لويس عوض أن صلاح جاهين استخدم الكاريكاتير فى الشعر السياسى وفى الشعر المأساوى والتصوير. كذلك استخدمه فى الهجاء الاجتماعى والأدبى.

كان صلاح جاهين كما رأيته بسيطا فى تعبيراته وفى ملبسه وفى الغرفة التى يمكث بها. وقد كان فى هذه المرحلة من الستينيات فى حالة حب جارف للفتاة الجميلة منى قطان التى تزوج بها.

عرفت صلاح جاهين كذلك فى مرحلة صباح الخير حيث كنت أتدرب على الكتابة. أذكر واقعة طريفة حين عزمت على كتابة موضوع تحليلى كامل بينما كان رأى الأستاذ لويس جريس وقتها أننى يجب أن أجعله على شكل حوارات أو ريبورتاج. أصررت على وجهة نظرى حيث كنت واثقة من معرفتى بالموضوع. بعد نقاش معهما قال صلاح جاهين ضاحكا للويس جريس: دعها تفعل ما تشاء يا لويس لقد وقعنا فى كاتبة ديكتاتورة! وبالفعل كتبت موضوعا استغرق صفحات طوالا بالأسلوب الذى أردته. هكذا كان صلاح جاهين مشجعا وودودا ومتعاطفا مع الشباب.

أراد صلاح جاهين عندما استدعاه أحمد بهاء الدين لرئاسة تحرير صباح الخير وقتها.. أراد أن يجعلها مجلة خالصة للكاريكاتير.. عبر عن هذا فى أول افتتاحية له فى ٢٣ يونيو ١٩٦٦.. قال إن صباح الخير ستنذر نفسها كلية للضحك والتنكيت والتشويح والتشليت مثل مجلة بانش فى إنجلترا ومجلة كروكوديل فى روسيا وماد فى أمريكا.

وقد صور نفسه عند دخوله لرئاسة التحرير مثل قطة تتسلل.. ورسم القطة على شكله تقف على باب صباح الخير الكبير، وتحت الرسم رباعية:

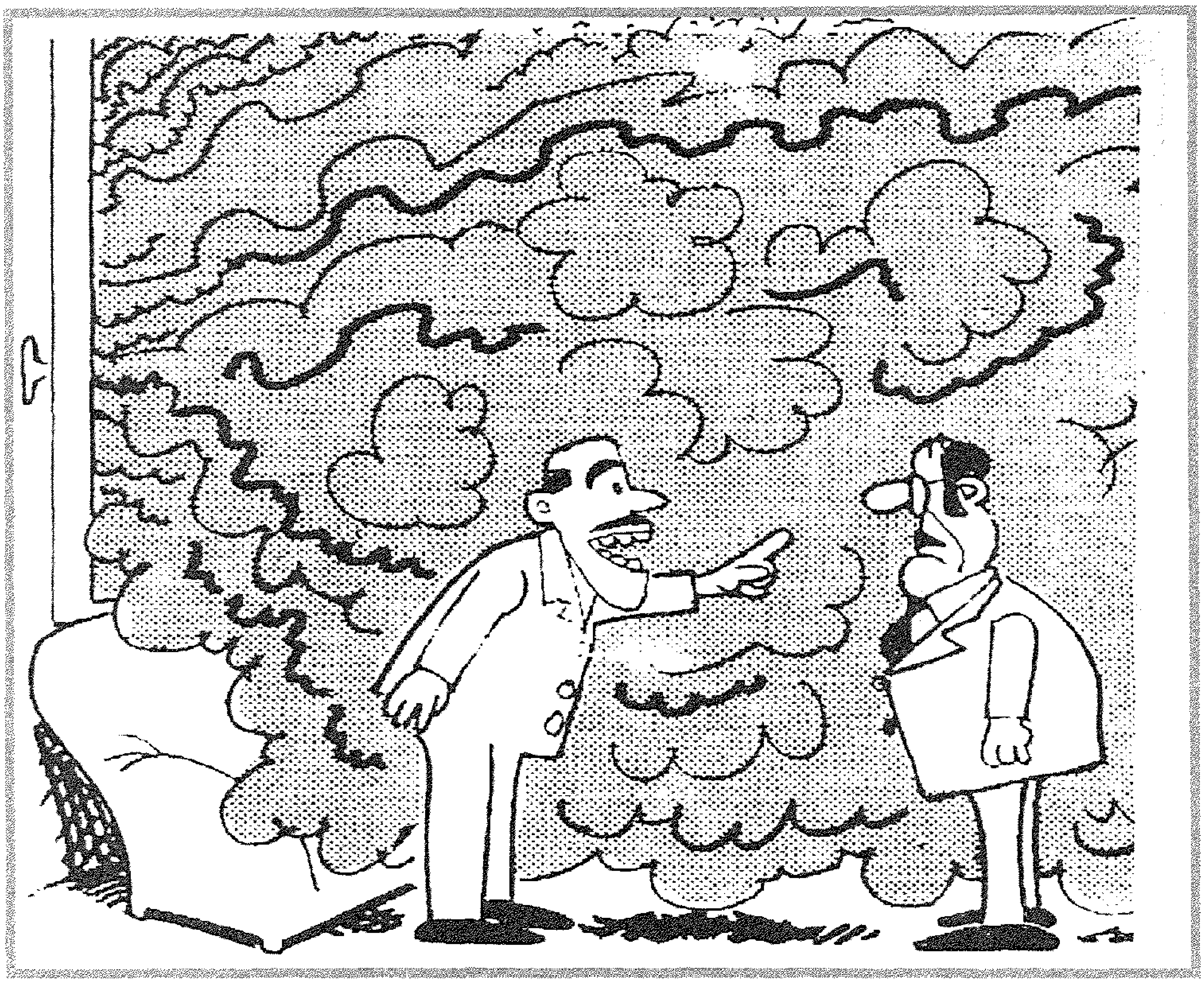
يا باب أيا مقفول إمتى الدخول
صبرى ياما واللى يصبر ينول
دقيت سنين والرد يرجع لى مين
لو كنت عارف مين أنا كنت أقول
عجبى

غير أن تجربة صلاح جاهين فى تحويل صباح الخير إلى الكاريكاتير البحت قد فشلت كما يعترف هو وأضيفت إلى نهر تجاربه الفنية والإنسانية.. فهو القائل:

أنا اللى بالأمر المحال اغتوى
شفت القمر نطيت لفوق فى الهوا
طلته ما طلتوش إيه أنا يهمنى
وليه مادام بالنشوى قلبى ارتوى

رأيت صلاح جاهين مرات فى بيته مع زوجته منى وحماته الصحفية جاكلين خورى.. كان يطل علينا من وقت لآخر ليرحب بنا ويحدثنا ثم يعود إلى غرفة مكتبه البسيطة. كان صلاح يتسم بمودة ناتجة عن ثراء إنسانى شديد.. دائما

وفى قصيدة «صديق عمرى» يتحدث عن عبد الناصر:
«علمنى مشية الرجال / سلمنى راية النضال /
ولحد هذا اليوم بيلهمنى /
وخياله كل ما أقع يقومنى»



سيادة المحافظ موجود فى الأوضة دى.. بس أنت عارف الدخان إللى مالى البلد

هو أكبر مما يصل إليه من نجاح أو شهرة.

كتب صلاح جاهين فى مقدمة لديوان (لم ينشر) من شعر جاكلين خورى والذى نشرته الكاتبة صافى ناز كاظم فى المصور مؤخراً هذا الكلام الرقيق:

«الشعر صعب طويل سلمه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه هوت به إلى الحضيض قدمه.. غير صحيح أنا كنت أكثر شاعرية عندما كنت أقل علماً بهذا السلم الطويل الصعب، فالشعر يحتاج منا إلى البراءة والعفوية. إنما أنا الآن أقل براءة وأقل عفوية وأقل إيماناً مع الأسف الشديد».

مع هذا فقد ظل صلاح جاهين عفوياً وبسيطاً فى كلماته وأسلوبه. كتب موسى صبرى بعد وفاة جاهين أنه عندما قرر على أمين أن يجدد شباب صحف أخبار اليوم كان صلاح جاهين فى مقدمة الأسماء التى قرر جذبها إلى أخبار اليوم. عرض عليه مرتباً مغرياً تجاوز المائتى جنيه، قبل صلاح جاهين وأعد له مكتباً خاصاً لكنه شعر بالملل وقرر الاستقالة والعودة إلى روزاليوسف بمرتب أقل.

لماذا يا صلاح أنت هنا فى صحف توزع أرقاماً خيالية مرتبك ضخم وحولك ألمع أصحاب الأقلام؟

أجاب بكل الصدق والبساطة: لقد شعرت أننى غريب فى أخبار اليوم.. أنا لم أعتد على هذا الجو المنشى لا أطيق حياة القصور، أريد أن أكون فى مكتب مع عدد من الزملاء نأكل ساندوتشات الفول والطعمية ونتخاطف قرون الفلفل.. أريد أن أصيح بأعلى صوتى لجرسون البوفيه هات واحد شاى كشرى وصلحه! منظر الجرسون بملابسه البالية يريحنى ويكفينى ابتسامته من القلب.

الحق أن ابتسامة صلاح جاهين لمن رآها وتأملها تعبر عن سماحة وحب ووداعة نادرة.. كتب ابنه بهاء جاهين حواراً مع «يحيى حقى عاشق صلاح جاهين» قال يحيى حقى: كانت عند صلاح جاهين القدرة الشديدة على الإشعاع.. تشعر أنك أمام إنسان لديه قوة روحية. كانت هذه القوة الروحية الفنية تشع من عينيه.. أنا لم أر فى حياتى نظرة بهذه الوداعة.. كان يشع وداعة وطيبة يقول لك وجهه أنه رجل مسالم وأنه يكره الشر والظلم والدمامة.

يسجل يحيى حقى ملحوظة مهمة فى تحليل أعمال صلاح جاهين الشاسعة، فهو يؤكد أن صلاح جاهين فى كل تاريخه وإبداعاته لم يمس إنساناً بكلمة جارحة أو يستهزئ به. فهناك فرق بين السخرية والدعابة.. مع صلاح لا تجد السخرية. بل الدعابة مع أن نكاتنا للأسف مليئة بالسخرية.. كان صلاح كأنما يعيش فى عالم آخر كونه لنفسه وليس له مع عالمنا أى التحام. بهذه الوداعة التى شملت مواهبة العظيمة التقى صلاح جاهين بالتنين: «الاكتئاب».

صلاح والتنين

للموهبة الطاغية أثرها الذى يلتهم الكيان النفسى والجسدى.. وكان اتساع موهبة صلاح جاهين شعراً ورسماً وتمثيلاً وكتابة ذا أثر كبير على نفسه الحساسة الشفافة.. رغبته الدائمة فى معانقة الجمال واغترافه من نفسه ليعطيه جعله غير مزود بسلاح العدوان والإسفاف.. قال فى حوار أخير له مع مصطفى عبد الغنى إن المشكلة فى مصر باتت مع «الأميين» ولم تعد كما كانت بين أنصار الفصحى أو العامية!

نكسة ١٩٦٧ حطمت الفنان المتوحد مع رمز الثورة وعلمها جمال عبد الناصر. وقبل هذا كان لديه ما يخفيه وما يخشاه. كان صلاح يسمع عن أصدقائه ونظرائه من الأدباء والمثقفين وكيف يعذبون فى السجون كان يعرف أنه لا قبل له باحتمال كل هذه الآلام.

يوم قلت آه سمعونى قالوا فسد
ده كان جدع قلبه حديد وانحسد
رديت على اللايمين أنا وقلت آه
لو تعرفوا معنى زئير الأسد

لجأ صلاح جاهين إلى الرباعيات التى توخى أن يترك فيها فوازيره الكونية وفوازيره الاجتماعية بلا حل عملاً بالمثل السائر (العاقل من اتعظ بغيره) أما بعد النكسة فقد عدل صلاح جاهين عن هذا إلى حد كبير

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

المتنزهات العامة

كانت جهة شبرا بمزارعها النضرة، ومناظرها الجميلة، هى المكان المطروق للتنزه والرياضة عادة. فكان يقصد إليها المرتاضون مشاة وركبانًا؛ وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح. وأحيانًا واقفة فى انتظار أصحابها ممن حضروا إليها للرياضة. مكبلة فى اللجم. صفوفًا على جوانب المزارع. كذلك كانت ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة تحمل أفراد العائلة الخديوية ومن يدانيها من كبار السراة والأعيان؛ يتقدم هذه العربات قمشجية «سياس» لإفساح الطريق وإتمامًا لمظاهر الأبهة. ويظلل شارع شبرا وقتئذ صفوف من شجر الجميز العتيق المزروع من عهد محمد على باشا.

وكانت مقر كثير من العائلات الكبرى وبها غير قصر. من ذلك: قصر زينب خانم أفندى بنت محمد على باشا؛ وقصر اينجو خانم أفندى أرملة سعيد باشا والى مصر وقصر شيكولانى البديع الزخرفة. الحافل بالتماثيل النادرة. وغير ذلك من قصور كانت تحيط بها حدائق غناء شاسعة.

وكانت شبرا مشهورة كذلك بقهوة سى خليل، التى يقصدها ذوو «الكيف» ومنهم بعض السراة فيجدون فيها ما يشاءون. وقهوة خليل هذه هى التى قال فيها أحد الظرفاء:

كل شىء فى مصر يوجد ... إلا قهوة سى خليل
الكيوف فيها نضيفه ... والحشيش مالوش مثيل

وكان هناك طريق الجيزة: ولكن كان يقصدها القليلون لبعدها عن المدينة. وكانت خالية من الأبنية تقريبًا. وكان إسماعيل قد عنى بهذه الطريق قبل فتح قناة السويس ليسهل للمدعوين زيارة الأهرام.



ربنا يابنى مدينا سما حلوة زرقا صافية زى البنور.. ليه ما نلوثهاش!

واهتم بفوازير نيللى وسعاد حسنى وشريهان عبر التليفزيون عسى أن يتحمل الناس مشقة الحياة فى هذه الفترة الموحشة.

غنى للأم:

صباح الخير يا مولاتى
يا ماما.. يا أمة.. يا أماتى
أبوس الإيد وقلبى سعيد
يا أول حب فى حياتى
ما نساش الابتسامة
ومش ح أنسى يا ماما
الشخطة اللى بتعلم
وما تهينش الكرامة

.. وسط هذا كله وبسبب ما عانى داهم صلاح جاهين الاكتئاب.

كتب عنه بحب جارف أحمد بهاء الدين قال سنة ١٩٨٦:

عرف صلاح جاهين حالات الاكتئاب لأنه من الطينة النادرة الشفافة.. هؤلاء لا تكسر قلوبهم التحديات الكبيرة فهم أبطالها ولكن قد يكسر قلبه بؤس طفل صغير. رسم كاريكاتيرًا وحيدًا أشار فيه إلى ديوان ابنه الوحيد أخذوه ولاموه وقرعوه على هذه الخطيئة وانكسر قلبه الكسرة التى لا تلتئم.. هاجمه التنين المخيف ذو الأذرع المتعددة.. القسوة.. الغلظة.. عدم الحساسية.. عدم العرفان.. عدم إدراك خبايا النفس الإنسانية لنفس أسعدت الجميع».

مات صلاح جاهين متأثرًا بالاكتئاب فى أبريل سنة ١٩٨٦ نعاه كل كتاب مصر وفنانيها حبًا ملتاعًا.. أما قصيدة ابنه الكاتب الشاعر بهاء جاهين فقد أدمى بها القلوب من فرط الحب والصدق والجمال.

عندما نقل جاهين إلى غرفة الإنعاش أراد «بهاء» إيقاظ والده من غفوته بشكل فنى.. جعل المستشفى تذيع بميكروفون عال (الليلة الكبيرة).. لكن صلاح لم يستيقظ.. وقف بجانبه يحدثه بصوت عال عن حبه واحتياجه لكنه لم يبعث.

فارق الحياة صلاح جاهين وغنى له بهاء قصيدة «الحضن الكبير».. جاء فيها:

جاية عروس الشعر م البغالة
تسأل على اللى ملا لها كاس وسقاها
كانت يتيمة فقيرة واتبناها

علمها تكسب اسمها بيمناها
عادت عروس الشعر عانس قاصر
من يوم ما رحت لحضن عبد الناصر
وسبتنا فى المستحيل الحاصل
شحتت عروس الشعر حق عشاها

جاهين يقول كلمته

فى أنغام سبتمبرية وفيلم «عودة الابن الضال» سنلتقى بالكلمة الأخيرة لصلاح جاهين.. لقد أدين صلاح على موافقته على كامب ديفيد وعدم معارضته لاتجاهاته المهادنة فى فترة السادات.

كتب فى مقدمة ديوانه الأخير «أنغام سبتمبرية» أنه اختار هذا الاسم «لأن عبد الناصر مات كمداً فى سبتمبر». يقول فى أول قصائد الديوان بعنوان «أمر الله»: «حتى الرسول مات وأمر الله لا بد يكون/ بس الفراق صعب واحنا شعب قلبه حنون/ وحشتنا نظرة عيونك للبلد يا جمال/ والحزم والعزم فيها وحبها المكنون.

وفى قصيدة «صديق عمرى» يتحدث عن عبد الناصر كأنه لم يمت فى داخله «علمنى مشية الرجال/ سلمنى راية النضال/ ولحد هذا اليوم بيلهمنى/ وخياله كل ما أقع يقومنى.

وفى نفس الديوان قصيدة كبرى بعنوان «على اسم مصر» يستعرض تاريخها ويستشرف مستقبلها.

يعلى صلاح جاهين من شأن الزعماء وعلى رأسهم مصطفى كامل ومحمد فريد الذى يعتبره أحد صناع ثورة ١٩١٩ «مين اللى نظم فلول الشعب ده بحاله/ إزاى جميع البلد تنهض فى نفس الآن/ القاهرة إسكندرية منفلوط أسوان/ وبعيد يا ولداه فريد مرمى وحيد شرقان/ على اسم مصر.

فى أحد المقاطع من هذه القصيدة يفضى صلاح جاهين بمكنونه فى بؤس رهيب بعيداً عن ظل الزعيم الفرد

«يا ميت ندامة على أمة بلا جماهير
ثورتها يعملها جيشها ومالها غيره نصير
والشعب بيرقص كأنه عجوز ومتصابى

أما العمل الثانى الذى يعتبر آجرأ أعمال صلاح جاهين فهو فيلم «عودة الابن الضال». كتب رؤياه وحواره وأشعاره. يعد الفيلم علامة فى السينما المصرية رغم التجاهل والصمت اللذين فرضا عليه. كذلك يعتبر هذا الفيلم وثيقة على صدق صلاح جاهين مع نفسه ومراجعة شجاعة لتأييده المطلق السابق لثورة يوليو. يلجأ الفيلم إلى رمزية صريحة لا تغيب معانيها يرمز إلى مصر من خلال أسرة متفاوتة الأعمار يسيطر عليها صاحب المصنع أو الطابونة. يمسكها بيد من حديد وهو ينتمى إلى أصول عسكرية.. الكل يكرهه ولكن لا أحد يجرؤ على معارضته. قام بهذا الدور شكرى سرحان رامزاً للنظام العسكرى. ثم نجد الجد الذى يقوم بدور متفرج هامشى يرمز إلى التاريخ وهو محمود المليجى ثم تقوم بدور الانتهازية التقليدية «هدى سلطان» الجدة التى توائم بين كل الأوضاع.. ثم هناك الطلبة والعمال.. كلهم فى انتظار عودة الابن: البطل الماركسى المسجون كى يعود من سجنه وينقذ الأسرة من الطغيان العسكرى.

يعود البطل الدونكيشوتى تائهًا ناسيًا حتى حبيبته التى ظلت تنتظره سنوات (سهير المرشدى) يطالبه الجميع بالمساندة لكنهم يفاجئون به وقد تحالف مع صاحب المصنع العسكرى.. ركب سيارته وحاول العيش بطريقة أكثر رغداً بعد أن رأى مصرع أفكاره النظرية على أرض الواقع.

بعد أن ييأس الجميع من عودة الابن الضال يشتد الصراع.. وفى لحظة غضب يائس يعصف صاحب المصنع بالجميع فيحرق المكان كله. لا يبقى سوى الطفلين (هشام سليم وماجدة الرومى) يمثلان الأمل، يهربهما الجد الذى ينتمى إلى النضال الوطنى ضد الإنجليز.

يرسم نهاية الفيلم صورة مظلمة لنهاية الدكتاتورية التى عجزت جميع الأطراف عن مقاومتها وتقويمها: تركت فى الساحة حتى أشعلت النار فى الجميع. يخرج المستقبل هارباً من براثن الواقع المحطم.. تحتفظ ذاكرة المشاهد بمقاطع متفرقة من كلمات صلاح جاهين بصوت ماجدة الرومى «آدى اللى كان.. آدى القدر.. آدى المصير.. نودع الماضى وحلمه الجميل.. وتطلع الشمس من الضباب الغميق..■

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

الفنون والملاهى

الخديو إسماعيل، هو أول من عنى بالفنون، حتى تصبح مصر قطعة من أوروبا. وقد قال إنها أصبحت كذلك بعد الذى أقامه فى القاهرة من المنشآت الحديثة: وبعد أن افتتح قناة السويس فى عظمة وبهاء وبذخ. وكانت الأوبرا أول منشآته الفنية: وقد استدعيت بعض الفرق الأوروبية للتمثيل فيها: وأول رواية ظهرت على مسرحها هى «عائدة» التى ألفها ماريت باشا ولحن أنغامها «فردى» الموسيقار الإيطالى الأشهر. أما تمثيل الروايات غير الغنائية فقد أنشأ له «الكوميدى فرانسيز» (المسرح الفرنسى الهزلى) وكان موقعه مكان دار البريد الحالية فى شارع طاهر.

ثم بدأت تفد على مصر بعض الفرق السورية: فكان ذلك منشأ المسرح العربى الأهلى: وأولى هذه الفرق هى فرقة (سليم النقاش) وتلتها فرقة (يوسف خياط) التى مثلت فى الأوبرا أمام إسماعيل. ولكن التمثيل فى هذا الوقت لم يكن قائمًا على أصول فنية. لأن المشتغلين به احترفوه من تلقاء أنفسهم دون تعلم لقواعده.

ومما يذكر عن فرقة يوسف الخياط أنها لم تجد سيدات يقمن بالأدوار فى الرواية فعهدت بذلك إلى غلمان لم يتقنوا أدوار النساء بطبيعة الحال. وكذلك فعل القبانى. وهو فى سن متقدمة. فإنه كان يقوم بدور المرأة فى تمثيله: وذلك لما كان مفهومًا عن التمثيل من أنه تهريج لا يليق بامرأة أن تشترك فيه.

وكان إسماعيل، لعطفه على التلاميذ، يرسل تذكرة سنوية لتلاميذ الفرقة الأولى من المدارس العالية للتناوب فى حضور الأوبرا.

مقدمة

في ٩ سبتمبر الحالي تمر الذكرى الحادية والخمسون لإصدار قانون الإصلاح الزراعي الذي كان أحد «المشروعات القومية» لثورة يوليو ١٩٥٢. وقد ترك القانون بصماته المؤثرة على المجتمع المصري بصفة عامة وعلى مجتمعه الريفي بشكل أخص.

عاصم الدسوقي يرصد التغيرات التي حدثت، بينما يلقي عز الدين كامل نظرة تاريخية على الإصلاح الزراعي في المجتمع المصري.

وجهات نظر

تغيَّر .... لم يتغيَّر!

عاصم الدسوقي

■■ يعتبر قانون الإصلاح الزراعي الذي أصدرته ثورة يولية في ٩ سبتمبر ١٩٥٢ بعد أقل من شهر ونصف من قيامها أخطر الإجراءات التي قلبت الأوضاع في الريف المصري وغيرت كثيرا من علاقاته الاجتماعية وجعلت للفلاحين قيمة اجتماعية وإنسانية لم يشعروا بها طوال قرون عديدة، وهم أولئك المستأجرون وعمال الزراعة وصغار صغار الملاك الذين يعرفون بالفلاحين اصطلاحا وهم من ارتبطت حياتهم ومصيرهم بفلاحة الأرض وليس غيرهم من كبار الملاك الذين خلعت عليهم صفة الفلاح لمجرد أنهم يعيشون بالقرية. فهؤلاء الكبار كانوا يمثلون صفوة اجتماعية ليس فقط في القرية وإنما في المدينة حيث عالم السياسة الذي شاركوا فيه ودنيا التجارة والصناعة التي اقتحموا مجالاتها وما صاحب ذلك من سعي دءوب للوصول إلى مقاعد السلطة التشريعية لحماية المصالح، وإدارات السلطة التنفيذية للسهر على تطبيق التشريعات وصيانتها من العبث.

ولكن.. هل نجح قانون الإصلاح الزراعي والتشريعات ذات الصلة التي تلته في إحداث التغيير المستهدف في المجتمع الريفي؟ الاعتقاد الغالب أن تلك القوانين لم تنجح تماما في القضاء على التقاليد الاجتماعية القديمة في يوم وليلة، وهي تقاليد جعلت من الكبار قوة مهيمنة على مقدرات مجتمع الريف. ومن هنا فقد سيطر أغنياء الفلاحين على توجيه سياسات الجمعية الزراعية بالتنسيق مع المشرف الزراعي في القرية. ثم نجح هؤلاء في عام ١٩٦٩ في أن يرفعوا حد الملكية الصغيرة المؤهلة لعضوية الجمعية إلى عشرة فدادين بدلا من خمسة، فانتقلت أغلبية إدارة الجمعية إلى شرائح من الملاك أقرب إلى أغنياء الفلاحين منهم إلى صغارهم، وأصبح في قبضتهم الاتحاد العام للجمعيات الزراعية الذي تشكل في العام نفسه ليكون بمثابة السلطة العليا للجمعيات.

وعلى هذا لم يتمكن صغار الفلاحين من أن يكونوا مؤثرين في مجريات الشئون الزراعية من خلال مجلس إدارة الجمعية ذلك أن أغنياء الفلاحين سيطروا على جميع الوحدات الإنتاجية والإدارية في القرية، ليس فقط في صورتها القديمة التقليدية المتمثلة في وظيفة العمدة وشيخ البلد، بل في السيطرة أيضا على مجلس القرية وعلى الوحدات الأساسية للتنظيمات السياسية من الاتحاد القومي إلى الاتحاد الاشتراكي، إذ بلغت نسبتهم في تلك التنظيمات ٧٠٪. وقد تمكنوا من تحقيق هذه السيطرة عندما نجحوا في تمييع مصطلح «الفلاح» عند وضع ميثاق العمل الوطني في ١٩٦٢ حين تم تعريف الفلاح بأنه الذي يملك خمسة وعشرين فدانا فأقل مما جعل عضوية الهيئات التشريعية والسياسية تقتصر على هؤلاء الأغنياء، وتم إقصاء صغار الملاك الذين هم أصحاب المصلحة الحقيقية والذين قصدهم الإصلاح الزراعي، فبدا الأمر وكأن الذي يملك أكثر يعلم أكثر.

وقد استطاع هؤلاء الأغنياء أن يحولوا كل إجراءات الإصلاح الزراعي لمنفعتهم الخاصة بدلا من أن تكون لمنفعة صغار الفلاحين، فمثلا كانت شروط الاشتراك في مشروع الحكومة للتأمين على الماشية أن يمتلك الفلاح خمسة رءوس ماشية على الأقل ليكون من حقه الحصول على ٢٥٠ كيلوجراما من الكسب بأسعار مدعمة، وأن يكون مالكا لأكثر من خمسة عشر فدانا إذا أراد الحصول على التقاوي المنتقاة المدعمة. وكان هذا معناه أن الفلاح الصغير إذا أراد الحصول على تقاوي منتقاة فعليه أن يشتريها من المالك الأكبر حجما وبأسعار السوق السوداء، وكذا الحال إذا ما احتاج إلى كمية إضافية من الكسب علفا لماشيته. وهكذا تكرر بشكل آخر أسلوب التسليف الزراعي الذي كان قائما عند تأسيس بنك التسليف الزراعي عام ١٩٣١ حين لم تكن القروض قصيرة الأجل تقدم لصغار الحائزين لخدمة المحصول إلا بعد موافقة مالك الأرض أصلا، على حين كان البنك يقدم مثل هذه القروض لكبار الملاك وتجار الصادرات. ومن هنا كان صغار الملاك والمستأجرون يضطرون إلى الاقتراض من المرابين بفوائد عالية.

ولم تستطع الحكومة ضبط أجر عمال الزراعة عند ثمانية عشر قرشا كما حدده القانون بسبب قانون العرض والطلب فقد ظل خلال الخمسينيات في حدود ١١ قرشا يوميا أصبح ١٢ قرشا في ١٩٦١ ثم بلغ ١٨ قرشا في منتصف الستينيات. وربما يرجع هذا إلى استيعاب مشروع السد العالي وكذا مشروعات استصلاح الأراضي للعمالة الريفية ومن ثم قلة العمالة المعروضة عن الطلب.

كما لم تستطع لجان تشغيل عمال التراحيل (الأنفار) التي تشكلت في ١٩٦٢ إلغاء دور المقاولين نظرا لطبيعة علاقات التبعية التي نسجوها حول الأنفار كما يتضح لاحقا، الأمر الذي جعل جمال عبد الناصر يقول في خطابه (٢٦ مارس ١٩٦٤) إن «أمامنا مشكلة ثلاثة ملايين من العمال الزراعيين في الريف ليس هناك ضمان للأجر المنتظم المستقر الذي يحمي يومهم، وليس هناك قدر من التأمين الاجتماعي يحمي مستقبلهم ولا تصلهم حتى الآن إلا أقل الخدمات». وأكثر من هذا فإن لجان نقابات عمال الزراعة التي كونتها وزارة العمل (٤٢٠٠ لجنة نقابية) خضعت لمقاولي الأنفار ولم تضم إلا ١٥٠ ألف عامل زراعة من أصل ثلاثة ملايين. وقد نبهت حوادث كمشيش في ١٩٦٥ إلى سيطرة هؤلاء المقاولين والملاك الكبار على نقابات عمال الزراعة ومن ثم بدأ تطهيرها من سيطرتهم. وقد قدرت النقابة العامة لعمال الزراعة والتراحيل عدد اللجان التي جرى فيها التطهير بأربعمائة لجنة كان يقودها مقاولو الأنفار.

كما هيمن أغنياء الريف (أعلى شرائح الملاك) على العمل السياسي في القرية واجتهدوا كثيرا للحيلولة دون مشاركة الفلاحين في الإفادة من الثمرات الحقيقية المستهدفة للإصلاح الزراعي. وكان هؤلاء الأغنياء موضع نقد من الأعمال الروائية التي تناولت حياة صغار الفلاحين وأنفار التراحيل والأجرية مثل قصة يوسف إدريس «الحرام»، ورواية عبد الرحمن الشرقاوي «الأرض»، وروايتا يوسف القعيد «أخبار عزبة المنيسي» و«الحرب في بر مصر».

ورغم الجوانب السلبية التي رافقت تطبيق الإصلاح الزراعي في مصر بسبب قوة التقاليد وبسبب خربي الذمة من رجال الإدارة في قرى الريف لإبقاء الأوضاع على ما كانت عليه وكأن شيئا لم يكن على نحو ما رأينا، إلا أنه لا يمكن إنكار أن ثمة تحولات حدثت في المجتمع الريفي بفعل الإصلاح الزراعي الذي أقال الفلاحين من عثرتهم التاريخية في المقام الأول، وجعل لهم كيانا ملحوظا. غير أن كثيرا من الكتاب لم يلتفتوا كثيرا إلى هذه الظاهرة وانشغلوا بتقييم الإصلاح الزراعي في ضوء نظريات التحول الاجتماعي ونظريات الاستغلال الاقتصادي الأمثل، فذكر البعض أن تفتيت المساحات الكبيرة إلى مساحات صغيرة بتوزيعها على صغار الفلاحين بواقع خمسة فدادين فأقل أدى إلى عدم إمكانية استخدام الميكنة في الزراعة، وكأن جميع أصحاب هذه المساحات الكبيرة قبل ١٩٥٢ كانوا يستخدمون

فى خمسين عاما

الزراعة الآلية وهذا أمر غير صحيح، فكثير من كبار الملاك كانوا يؤجرون أراضيهم فى قطع صغيرة مختلفة المساحة لمستأجرين صغار.

ويمتد النقد إلى ملامح أخرى حين يقول البعض من باب التهوين إن الإصلاح اعترف بالعلاقات الإنتاجية السابقة فى الزراعة مع تعديل بعضها لصالح المستأجر، وأنه ليس إجراء اشتراكيا لأن توزيع أراض على صغار الفلاحين ليس هدفا تسعى إليه الاشتراكية بقدر ما تسعى لتحقيق التمليك الجماعى للمنتجين الزراعيين.

ومن الملاحظ أن نقد تجربة الإصلاح الزراعى فى مصر جاء من ثلاثة مصادر أساسية يختلف كل منها عن الآخر وإن التقت جميعها على النيل من جملة سياسات عبد الناصر: الأول جاء من المستشرقين الأجانب فى معرض التقليل من شأن الدور الاجتماعى لثورة يوليو. والثانى من المدرسة الماركسية التى تتخذ من التغيير الأساسى لعلاقات الإنتاج معيارا للنظر، وهؤلاء غفلوا عن أن القانون صدر تحت اسم «الإصلاح الزراعى» وليس «الثورة الزراعية»، ومن تنظيم سياسى لم يكن يملك نظرية اجتماعية ثورية، ويعتمد فى إجراءاته التشريعية والتنفيذية على نخبة سياسية لم تتعلم إلا الاقتصاد الحر سواء فى جامعات مصر أو أوروبا، ثم كان عليها أن تنفذ سياسة اشتراكية دون أن يكونوا مؤهلين لها. والمصدر الثالث للنقد تشكل بعد رحيل عبد الناصر ويتمثل فى المثقفين من أبناء بعض كبار الملاك الذين خضعوا للإصلاح الزراعى ومن سايرهم من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة الذين وضعوا أقلامهم فى خدمة أبناء النظام القديم فى ظاهرة من الانخلاع الطبقى تستحق التأمل والدراسة راحوا يجندون أقلامهم فى حملة ضارية لشطب هذه الصفحة من تاريخ مصر.

يحدث هذا النقد منذ سبعينيات القرن الماضى وبعد رحيل عبد الناصر ولايزال قائما دون أن يلتفت هؤلاء وأولئك إلى ما حل بالريف بعد أن توقفت سياسات الإصلاح الزراعى وتخلت الدولة عن دورها الاجتماعى. فالحاصل أنه مع زوال دور الدولة والتخطيط الزراعى وترك أمر الزراعة لحرية المزارعين، أقبل المزارع على زراعة المحاصيل التى لا تكلفه مستلزمات كثيرة. كما توقفت الدورة الزراعية الثلاثية، وتوقف التوريد الإجبارى للمحاصيل وأصبح اختياريا مما نتج عنه فوضى فى الإنتاج وعدم توازن بين العرض والطلب مثلما حدث من قبل بعد القضاء على نظام الاحتكار الذى أقامه محمد على حيث حدث نقص فى بعض المحاصيل وتكدس فى أخرى وخاصة فى القطن مما نتج عنه عجز فى التسويق ووقوع المزارعين فى الديون، الأمر الذى دفع الحكومة للتدخل واشترت المحصول من المزارعين ووضعته فى خزائنها إلى أن تتيسر الأمور. والنتيجة النهائية لحرية الإنتاج والتسويق أن محصول القمح فى مصر الآن لا يغطى إلا ٣٠٪ من حاجة السوق المحلية والباقى يتم استيراده فى ضوء اعتبارات سياسية.

وكانت باكورة تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى فى قطاع الزراعة



تغيَّر لم يتغيَّر



أرقـــام

إنشاء بنك القرية تابعا لمؤسسة الائتمان الزراعى ابتداء من ١٩٧٧ انتقلت إليه مهام نشاط الجمعية التعاونية الزراعية ولكن فى إطار علاقات رأسمالية. فلم يعد للجمعية تأثير يذكر فى مسار الإنتاج الزراعى ونموه وتوفير حاجات الزراع من مستلزمات الإنتاج. ثم إن بنك القرية طبق فى معاملاته المالية نظام البنوك الاستثمارية مما أوجد صعوبة فى تعامل صغار الزراع معه فضلا عن تعامله فى مجالات استثمارية غير تقليدية بعيدة عن متطلبات الحائز الصغير وإن أراد الإفادة منها فإنها ترهقه ماديا. وقد بلغ معــدل الفائدة على القروض الزراعية التى يقدمها البنك من ١٣-١٥٪ عام ١٩٨٩ إلى ٢٠,٣٪ عام ١٩٩٢، وعلى القروض الاستثمارية ١٨-٢١٪ حسب مدى القرض.

واعتباراً من عام ١٩٨٧ ألغى الدعم على مستلزمات الإنتاج الزراعى نهائيا فارتفع سعر طن سماد اليوريا من ١٥٩ جنيها إلى ٥٠٥ جنيهات عام ١٩٩٢ وطن النشادر من ٥٨ جنيها إلى ٣٠١ جنيه، وطن السوبر فوسفات من ٧٥ جنيهاً إلى ٤٠٠ جنيه وبالتالى أخذت أسعار المحاصيل فى الارتفاع تدريجيا مما كان له أثر على ارتفاع سائر المنتجات والخدمات وبدأت دائرة التضخم فى الاتساع. كما أدى تعديل العلاقة الإيجارية بالقانون رقم ٩٦ لعام ١٩٩٢ الذى طبق اعتبارا من أكتوبر ١٩٩٧ إلى ارتفاع إيجار الفدان إلى٢٢ مثلاً للضريبة السارية خلافا لقانون الإصلاح الزراعى الذى حددها بسبعة أمثال الضريبة كما سبقت الإشارة فضلا عن إقدام بعض الملاك على طرد المستأجرين مما أدى إلى وقوع معارك دامية بين المطرودين وطارديهم. وارتفعت من جديد نسبة الأسر المعدمة فى الريف فوصلت إلى ٣٣٪ فى منتصف السبعينيات وكانت ٢٨٪ عام ١٩٦٥.

وتكشف دراسة ميدانية حديثة أجراها مركز البحوث الاقتصادية الزراعية ١٩٩١-١٩٩٢ شملت سبعمائة مزارع وثلاثمائة عامل زراعى فى خمس محافظات عن تدهور الدخول الحقيقية لمعظم المواسم الزراعية عام ١٩٩٢، وعن انخفاض أيام العمل الزراعية للمشتغلين من المعدمين مقارنة بما كان عليه الحال عام ١٩٨٧، وانخفاض أجورهم الحقيقية بمعدل يتراوح بين ٥٠-٦٠٪ فى ضوء التغيرات المختلفة خلال الفترة من ١٩٨٥-١٩٩٣.

وفى مؤتمر استراتيجية الزراعة المصرية المنعقد فى التسعينيات طرحت بعض الآثار الاقتصادية-الاجتماعية الناجمة عن تطبيق الدولة لسياسة التكيف الهيكلى وهو الاسم الحركى لسياسة تخلى الدولة عن دورها الاقتصادى باسم تحرير الزراعة. ومن بين هذه الآثار زيادة حدة تركز الملكية الزراعية، وزيادة أعداد صغار الفلاحين والفقراء الذين سيحل بهم الخراب وهم يمثلون ٩٣٪ من جملة الحائزين، وستكون الوطأة أشد فيما يتعلق بحائزى أقل من فدان ويمثلون ٣٩٪ من جملة الحائزين بسبب ارتفاع نسبة التكاليف الثابتة (إيجار وضرائب وموارد) مما سوف يجردهم من حيازتهم ويدفع بهم إلى سوق العمل أجراء، وقد يعود مرابى القرية ممولا للإنتاج ومشترياً له بشروطه.

كل هذه التحولات والتراجعات دفعت صغار الفلاحين إلى البحث عن مصادر تقيم أودهم فلم يكن أمامهم سوى العمل فى سوق دول النفط العربية التى تصادف استقلال معظمها حديثا مع مطلع السبعينيات من القرن العشرين وبدأت فيها حركة تنمية شاملة احتاجت إلى أيد عاملة مدربة فكانت العمالة المصرية. على أن العمل فى الخارج لم يحل مشكلات الإنتاج الريفى بل زادها تعقيدا ذلك أن العامل الزراعى (الأجير) بعد أن تراكمت فى يده بعض الأموال أراد أن يشترى أرضا زراعية يرد بها اعتباره فى قريته فحدث ارتفاع فى أثمان الأرض نظرا لزيادة الطلب، وأراد أن يبنى بيتا بالطوب الأحمر والأسمنت المسلح فلم يجد إلا الأرض الزراعية يبنى عليها فانكمشت مساحة الأرض الزراعية. وكل ما هنالك أنه عاد إلى بلاده محملا ببعض الأجهزة الكهربائية الحديثة، وبكثير من قيم المجتمع الذى كان يعمل فيه وهى قيم مغايرة لمجتمعه الأصلى مما أوجد فى النهاية مشكلة اجتماعية أخلاقية وتلك قصة أخرى.

تجمع كل الدراسات التى تناولت المسألة الزراعية فى مصر قبل عام ١٩٥٢ على حقيقة واحدة ألا وهى التركز الشديد فى الملكية الزراعية. ففى عام ١٩٥٢ عشية الإصلاح الزراعى كان المالكون لأكثر من ٢٠٠ فدان أقل من ٠,١٪ من إجمالى عدد ملاك الأراضى الزراعية ويملكون ٣٠٪ من إجمالى مساحة الأرض الزراعية فى مصر، على حين بلغت نسبة الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة ٩٤,٣٪ بنسبة ٣٥٪ من إجمالى المساحة. أما نسبة الـ ٣٥٪ الباقية من مساحة الأرض الزراعية فتتوزع بين الملكيات أقل من ٢٠٠ فدان إلى أكثر من خمسة أفدنة وتبلغ نسبتهم ٥,٦٪.

أما الأسر المعدمة فى الريف فقد بلغت نسبتها ٤٤٪ فى عام ١٩٥٠ من إجمالى عدد الأسر الريفية حسب مقاربة الإحصاءات المتوفرة، وهى نسبة كانت فى ازدياد ففى عام ١٩٢٩ كانت نسبتهم ٢٤٪ ارتفعت إلى ٣٨٪ فى عام ١٩٣٩، وكانت أحد أسباب الفقر شروط الإيجار التى كان المالك يفرضها دون مراعاة لأية ظروف بيئية طبيعية قد تضر بالزراعة. فقد كان الإيجار الفعلى للفدان فى الغالب الأعم خمسة وعشرين جنيها، وفى بعض الجهات بلغ ستين جنيها. وكانت وزارة الأوقاف تؤجر أراضيها فى الوجه البحرى بمتوسط ثلاثين جنيها لكبار الملاك الذين يؤجرونه بدورهم لصغار الفلاحين من الباطن، وتؤجره الوزارة لصغار المزارعين بثمانية وثلاثين جنيها ونصف. وفى الوجه القبلى بلغ إيجار الوزارة ستة وأربعين جنيها بسبب زيادة الطلب على العرض. وفى الوقت نفسه كان الدخل الصافى للفدان يتأرجح حول عشرين جنيها، أى أن المستأجر كان عليه أن يدفع خمسة جنيهات كحد أدنى عن كل فدان فوق الإيراد الفعلى للوفاء بقيمة الإيجار (يخسرها فى الواقع). وبالتالى لا يتبقى له ما يصرفه على احتياجاته الخاصة وعلى العمليات الزراعية نفسها مما أوقعه باستمرار فى دائرة الديون المستديمة. فإذا عرفنا أن لجان ضرائب الأطيان قدرت إيجار الفدان فى عام ١٩٤٨ بثمانية عشر جنيها وكان إيجاره الفعلى كما رأينا من ٢٥-٦٠ جنيها أدركنا مدى الخسارة الدائمة التى كان الفلاح المستأجر يتعرض لها دوما.

وبسبب ارتفاع قيمة الإيجار على ذلك النحو كان الملاك يفضلون تأجير أراضيهم بدلا من زراعتها على الذمة نظرا للعائد المالى المضمون وفق شروط الإيجار التى تعفى المالك من تحمل نتائج الكوارث الطبيعية التى تتلف المحصول، بل كثيرا ما كان المالك يطرد المستأجر من الأرض إما بدافع التنكيل بالفلاح، وإما طمعا فى إيجار أعلى بالاتفاق مع آخر. ومن هنا بلغت نسبة الأراضى المؤجرة فى عام ١٩٥٢ عشية الإصلاح ٦٠,٥٪ والأرض المزروعة على الذمة ٣٩,٥٪.

أما النوع الثانى من طرق استغلال الأرض فكان يتمثل فى المزارعة التى تعرف أيضا بالمشاركة، وهى علاقة قديمة وأكثر تخلفا من علاقة الإيجار لأنها متروكة للعرف والفلاح المستأجر هو الطرف الأضعف فى هذه العلاقة. وبمقتضاها يقدم المستأجر قوة عمله مقابل رأس المال وتمويل العملية الزراعية من جانب المالك. ولم تكن للمزارعة حدود معينة فى التعامل ففى زراعة القطن يحصل المالك على معظمه خاصة إذا كان سعره مرتفعا، وفى القمح يحصل على نصف المحصول، ويترك الذرة والبرسيم للمستأجر. وكانت هذه العلاقة سببا لمشكلات كثيرة بين الطرفين كانت مطروحة دوما على الرأى العام فى صحافة هذه الفترة.

أما عمال الزراعة (الأجرية) فقد خضعوا لسوق العرض والطلب بشكل متعسف حيث كانت يوميتهم لا تزيد على سبعة قروش بحال من الأحوال وليست متوفرة يوميا وإنما حسب مواسم العمل الزراعى. والشريحة الأسوأ من هؤلاء الأجرية هم عمال التراحيل (الأنفار) الذين وقعوا فى قبضة المقاولين. وكان نفر الترحيلة عادة يعمل حوالى سبعة أشهر فى السنة فى المتوسط على فترتين، واحدة مدتها ثلاثة أشهر، والثانية أربعة أشهر، وباقى السنة يكون فى بطالة.

ثم صدر القانون الأول للإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ (رقم ١٧٨) الذى جعل الحد الأقصى للملكية الزراعية ٢٠٠ فدان للفرد ومائة أخرى للأولاد وتوزيع ما يزيد على هذا الحجم على صغار المستأجرين وصغار الملاك

.. وقوانين

لأقل من خمسة فدادين. وقد حددت المادة التاسعة من القانون شرائح الفلاحين الذين يستفيدون من الأرض الزائدة، فكانت الأولوية عند التوزيع لمن يزرع الأرض فعلا سواء بالإيجار أو بالمزارعة، يليه الذى أسرته أكثر أفرادا بالنسبة للأسر فى القرية، ثم لمن هو أقل مالا من أهل القرية، ثم أخيرا لغير أهل القرية.

ومن الواضح أن هذه المادة لم تضع فى الحسبان عمال الزراعة الذين لا يستأجرون أرضا ويعيشون على العمل المأجور كما سبقت الإشارة مما أدى فى النهاية إلى زيادة عددهم تدريجيا، وكان من المتصور أن يقل إذا ما امتدت مظلة الإصلاح لتشملهم. ويبدو أن تحديد شرائح المستفيدين طبقا للمادة التاسعة جاء مراعاة لتقاليد الخبرة الزراعية وللحياة فى مجتمع الريف التى لا تسمح بنزول «غريب» فى الأرض. فإذا كان هناك من يقوم بالزراعة فعلا فى الأرض الخاضعة سواء بالإيجار أو المزارعة فيكون من حقه أن يصبح مالكا لها، وهو أمر قريب إلى حد ما من حق الشفعة للجار عند بيع الأرض. ومن ناحية أخرى فإن الذى يباشر الأرض فى الزراعة بنفسه يعد أكثر خبرة من عامل الزراعة الذى يؤدى عملية معينة يتركها إلى غيرها فى أرض أخرى وهكذا.

أما تحديد مساحة الأرض التى توزع على المنتفع وأسرته بحيث تصل إلى خمسة أفدنة حداً أقصى ولا تقل عن فدانين، فقد تم على أساس أن ما تحتاجه الأسرة الريفية المكونة من سبعة أفراد (متوسط الأسرة فى الريف عموما) كحد أدنى لمواجهة متطلبات المعيشة ١١٦ جنيها فى العام بأسعار ١٩٥٢، وأن إيراد خمسة فدادين فى الظروف العادية آنذاك يبلغ ١٢٠ جنيها سنويا. وإذن فإن الأسرة العادية فى الريف (٧-٨ أفراد) تحتاج إلى خمسة أفدنة لتعيش على إيرادها.

وهكذا وخلال الفترة من عام ١٩٥٣-١٩٧٠ التى طبقت فيها قوانين الإصلاح الزراعى تم توزيع حوالى ١٢،٥٪ من الأراضى على حوالى ٣٤٢ ألف أسرة تضم حوالى ١،٧٪ مليون فرد بنسبة ٩٪ من سكان الريف. وهذه الأراضى خاصة بالعائلة الملكية وبكبار الملاك فوق السقف المحدد مصريين وأجانب، وكذا أراض تابعة لشركات وبنوك، وأراضى طرح البحر. وهناك من يقلل من شأن هذا التوزيع بأسلوب غير مباشر على أساس أن ٩٪ نسبة قليلة، وأن نسبة من يملكون أقل من فدان نسبة كبيرة بلغت ٧٠٪ وتمتلك فقط ١٤٪ من إجمالى الأرض. لكن هؤلاء لا يفرقون بين فلسفة الإصلاح وبين التغيير الجذرى، ولا يرون فى الكوب إلا النصف الفارغ.. فهل كان الأفضل أن يبقى الحال على ما كان عليه؟!.

والثابت من كل هذا أن نصيب صغار الملاك من الأرض زاد بنسبة ملحوظة من ٣٥٪ عشية الإصلاح الزراعى إلى ٥٧،١٪ عام ١٩٦٥، كما زادت ملكيات شريحة الملاك من ٢٠ - ٥٠ فدانا إلى ٣٣٪ من الأرض فى عام ١٩٦٥ بتأثير قوانين الإصلاح الزراعى التى سمحت للملاك الكبار ببيع المساحات الزائدة عن السقف المحدد بدلا من خضوعها للاستيلاء، فأقبلت على الشراء عناصر هذه الشريحة وكان ذلك بإمكانها بفضل ما توفر لديها من تراكمات مالية. أما شريحة من يملكون أكثر من خمسة فدادين إلى أقل من ٢٠ فدانا فقد ظلت ثابتة لأن المطروح من الأرض للبيع كان فى مساحات أكبر من قدرتهم المالية، فضلا عن قاعدة «الجار أولى بالشفعة» التى لا تسمح للغريب بنزول الأرض (تعرف فى الريف بركوب الأرض)، وهى تقاليد صارمة ما تزال قائمة وتحول دون حرية المالك فى بيع أرضه لغير مستأجرها حتى فى ظل قانون «تحرير العلاقة بين المالك والمستأجر الذى صدر فى ١٩٩٢ وطبق اعتبارا من أكتوبر ١٩٩٧.

ورغم النقد الشديد الذى يوجه لمبدأ إعطاء المالك حرية التصرف فى الأرض الزائدة تفاديا لخضوعها للاستيلاء، إلا أن جوهر قانون الإصلاح الزراعى فى هذا الشأن جاء متسقا مع التكوين الاجتماعى للضباط الأحرار جعلهم يأخذون بالإصلاح وليس بالطفرة، الأمر الذى غاب عن النقاد. فالضباط الأحرار لم يلجأوا للعنف وكان بإمكانهم وقد امتلكوا السلطة أن يستولوا على الأرض الزائدة عما تحدد أو على كل الأرض وإعادة توزيعها. لكن العنف لم يكن طريقهم حتى ولو اضطروا إليه، وكل القصد كما صرح جمال عبد الناصر أكثر من مرة أن الهدف تجريد كبار الملاك من سلاح قوتهم الاقتصادية والسياسية وإنهاء سيطرتهم على آلة الحكم والإدارة، وليس تصفية حياتهم. وهكذا تم التصرف فى الأرض الزائدة فى إطار آلية العرض والطلب.



ورغم أن المادة الرابعة من القانون الأول تسمح للملاك ببيع المساحة الزائدة على الحد الأقصى فى قطع صغيرة لا تزيد كل منها على خمسة فدادين ولا تقل عن فدانين تمشيا مع نص المادة التاسعة الخاصة بالتوزيع، إلا أن قدرة الكبار على الالتفاف حول القانون وتفريغه من مضمونه بإتمام بيع صورى لصغار الفلاحين الذين تحت إمرتهم وسلطتهم، جعل الحكومة توقف العمل بهذه المادة اعتبارا من أكتوبر ١٩٥٣ ووضعت يدها على المساحات الزائدة.

كما حدد قانون الإصلاح إيجار الفدان بسبعة أمثال الضريبة (أى واحداً وعشرين جنيها على أساس أن ضريبة الفدان ثلاثة جنيهات آنذاك) مما كان له أثره على صغار المستأجرين خاصة، إذ تمكنوا من الانتفاع الحقيقى بجزء من ناتج قوة عملهم ينفقونه على احتياجاتهم الاجتماعية وكان يذهب إلى جيب المالك. فقد توفرت لكل منهم أربعة جنيهات عن الفدان الواحد كحد أدنى إذا ما كان الإيجار خمسة وعشرين جنيها، وحوالى أربعين جنيها كحد أقصى إذا ما كان الإيجار ستين جنيها، وهو مبلغ لم يكن ضئيلا إذا أدركنا أن المستأجر كان يدفع ضعفه وفاء للإيجار العالى أو يصبح دينا عليه للسنة التالية كما رأينا.

ومما يؤكد أن تحديد الإيجار بهذا الشكل جاء فى صالح المستأجر بدرجة ملحوظة أن نسبة كبيرة من الملاك عادوا إلى زراعة أرضهم بأنفسهم (على الذمة) بدلا من



تأجيرها معتمدين في زراعتها على العمل المأجور فزادت نسبة الأراضي المزروعة على الذمة من ٣٩.٥٪ عام ١٩٥٢ إلى ٤٩٪ عام ١٩٦٢.

كذلك فإن القانون ضمن للمستأجر عدم الطرد من الأرض التي يزرعها طالما أنه يدفع الإيجار، وضمن له أيضا مدة إيجار لا تقل عن ثلاث سنوات كحد أدنى تمشيا مع الدورة الزراعية حيث يستطيع أن يعوض خسارته في محصول بمكسب من محصول آخر حسب مقتضى الحال. والحق أن النص على عدم طرد المستأجرين من الأرض أدى إلى استقرار الفلاح فضلا عن شعوره بالأمان. وقد تزامن معه قرار آخر بمنع الفصل التعسفي للعمال من المصانع فكان ذلك بداية سياسة حماية الطبقة العاملة بجناحيها الزراعي والصناعي.

كذلك حدد القانون أسلوب المزارعة (المشاركة) ولم يتركها للأعراف فتقرر أن يقدم المالك رأس المال الثابت (الأرض والمباني) ونصف ثمن البذور والمخصبات الكيماوية ومصاريف الري ومقاومة الآفات وتكاليف الحصاد وضريبة الأرض، ويقدم المزارع (المشارك) قوة عمله ونصف تكاليف الزراعة فضلا عن صيانة قنوات الري والمصارف، ويقتسم الطرفان المحصول مناصفة.

أما عمال الزراعة (الأجرية) الذين لم يشملهم توزيع الأرض تطبيقا للمادة التاسعة من القانون كما سبقت الإشارة فقد اهتم القانون بهم عندما اشترط أن يكون الحد الأدنى لأجر العامل الزراعي في اليوم ١٨ قرشا.

على أن قانون الإصلاح الزراعي لم يترك الفلاح الجديد تحت سيطرة المالك القديم الكبير في إدارة أحوال الزراعة. وفي هذا الخصوص بدأت تجربة جديدة بإنشاء جمعيات تعاونية زراعية فيما عرف بقرى الإصلاح الزراعي. وتضم هذه الجمعيات المنتفعين بالإصلاح وتحددت مهمتها في تقديم الخدمات ومستلزمات الزراعة فضلا عن تسويق الحاصلات الرئيسية. وفي عام ١٩٥٢ تكونت ١٧٢٧ جمعية أخذت في الازدياد حتى بلغت ٥٠١٣ جمعية في عام ١٩٧٠ تضم ٣.١ مليون عضو. وهذا التسويق التعاوني الإجباري لم يؤثر على دخل الفلاح المزارع، وكل ما هنالك أن الدولة حلت محل الوسطاء السابقين في التمويل وأوقفت تلاعبهم بسوق البيع والشراء من حيث رفع الأسعار أو خفضها رغم ما شاب هذه العملية من تجاوزات بفعل خربي الذمة من موظفي الجمعيات أساءت إلى القانون في نهاية الأمر. وحتى لا يسيطر كبار الملاك الخاضعون للإصلاح الزراعي (أغنياء الفلاحين في بعض الأدبيات) على مجالس إدارة تلك الجمعيات تقرر في ١٩٦١ ثم في ١٩٦٣ أن يكون أربعة أخماس أعضاء مجلس الإدارة ممن يملكون خمسة فدادين فأقل (صغار الفلاحين). كما اهتمت الحكومة في عام ١٩٦٠ بأحوال عمال التراحيل (الأنفار) فتدخلت لمنع تشغيلهم عن طريق المقاولين وكونت لجانا حكومية عام ١٩٦٢ تقوم بمهمة التشغيل.

وقد ترافق مع قانون الإصلاح الزراعي العمل على تنمية الريف تنمية شاملة اجتماعيا واقتصاديا حتى لا يكون منتجا فقط للمادة الخام. وقد جاء ذلك مع التحولات الاقتصادية الكبرى في مطلع الستينيات وصدور قانون الحكم المحلي في ١٩٦٠ الذي نص على نشر الصناعات الريفية، واستغلال الخامات المتوفرة في القرى، وإجراء الدراسات التي تتطلبها تلك الصناعات.

وفي ذلك الشأن قام المجلس الدائم للتنمية الاقتصادية بدور واضح في مواجهة العمالة المعطلة في الريف وذلك عن طريق رفع المستوى التعليمي. وفي ١٩٥٤ بدأ تنفيذ إنشاء الوحدات المجمعة كل وحدة منها تخدم خمسة عشر ألف نسمة. واتبعت وزارة الشئون الاجتماعية نظاما لا مركزيا لتأدية الخدمات على المستوى المحلي. ومع الانتهاء من بناء السد العالي في ١٩٦٥ بدأت مشروعات استصلاح الأراضي، وشعر الفلاح بشكل عام بالاستقرار لأن السد العالي قضى على إمكانية تهديد المحصول الزراعي بالبوار سواء في حالة الفيضان العالي أو في حالة انخفاضه، ففي ١٩٧٢ وفي سنوات أخرى تالية جاء الفيضان منخفضا ولو لم يكن السد قائما لخسرت الزراعة المصرية ثلث محصول القطن والأرز على الأقل. وبفعل مياه السد العالي زادت مساحة الأراضي المنزرعة حوالي مليوني فدان. وحدث تغير ملحوظ في خريطة المحاصيل الزراعية فزادت مساحة المحاصيل النقدية والتجارية مثل الخضروات والفواكه والأعشاب والزهور وغيرها وتراجعت المحاصيل التقليدية.

وبفعل سياسة الإصلاح الزراعي انتعشت حالة صغار الملاك (خمسة فدادين فأقل) وأصبحوا أكثر قدرة ووعيا بمصالحهم حتى لقد أخذوا يطالبون بإلغاء أسلوب المزارعة، وبتوسيع الخدمات التعاونية. وبوضع حد لسيطرة الأغنياء على مقدرات الحياة في القرية، وتحمسوا لفكرة الملكية التعاونية كوسيلة لتنظيم الإنتاج وزيادة استخدام الآلات في الوقت الذي كان كبار الملاك يحاربون فيه فكرة التسويق التعاوني ويعملون على إفشالها.

وامتدت الخدمات التثقيفية إلى الفلاحين حيث تأسست مراكز الثقافة العمالية ابتداء من عام ١٩٦١ في مدن الأقاليم، وتم تنظيم دورات تثقيفية لهم وللعمال عن تاريخ مصر ونضال الطبقة العاملة ضد الرأسمالية والاستغلال والاستعمار. وكان لهذا كله أثره في تنمية الوعي بالمصالح مما ظهر جليا في الحركة السياسية الشعبية منذ السبعينيات.

كما انتعشت الشرائح الأعلى من صغار الملاك (شريحة ٥-٢٠ فدانًا) وتمتعت بوضع معيشي أفضل حيث ساعدتهم المساحة الواسعة نسبيا على زراعة محاصيل السوق الأكثر ربحا، ومن ثم تمتعوا بفائض ساعدهم على الوفاء بحاجاتهم الترفيهية. أما شريحة الملاك من ٢٠-٥٠ فدانا فأكثر وأساسها الخاضعون للإصلاح الزراعي ومن لحق بهم ممن اشتروا من تصرفات كبار الخاضعين اقتحمت مجالات الأنشطة الرأسمالية النوعية مثل إقامة مرابي الماشية ومعامل منتجات الألبان ومزارع الشتلات ومعامل التفريخ البلدي والصناعي ومعاصر القصب لإنتاج العسل. كما أصبح بإمكانهم استخدام الآلات على نطاق واسع مثل الجرارات وآلات الري وكانوا يقومون بتأجيرها لصغار الفلاحين. ■

المراجع:

المعلومات الأساسية الواردة في هذه الدراسة اعتمدت على المراجع الآتية:

- الان ريتشاردز، التطور الزراعي في مصر ١٨٠٠-١٩٨٠، كتاب الأهالي رقم ٣٤/ القاهرة يوليو ١٩٩١.
- عاصم الدسوقي، كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري ١٩١٤-١٩٥٢، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٦.
- فتحي عبد الفتاح، القرية المصرية: الملكية وعلاقات الإنتاج ١٩٥٢-١٩٧٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١.
- محمود عبد الفضيل، التحولات الاقتصادية والاجتماعية في الريف المصري ١٩٥٢-١٩٧٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨.
- محمود عودة (مشرفا)، مستقبل القرية المصرية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة ١٩٩٩.

Assem el-Dessouki, Land tenure-policy in Egypt, 1952-1969, and its effects on the reformation of the Peasantry. In "Land Tenure and Social Transformation in The Middle East, edited by Tarif Khaldi, American University in Beirut, 1984.

بفعل سياسة الإصلاح الزراعي انتعشت حالة صغار الملاك (خمسة فدادين فأقل) وأصبحوا أكثر قدرة ووعيا بمصالحهم حتى لقد أخذوا يطالبون بإلغاء أسلوب المزارعة، وبتوسيع الخدمات التعاونية، وبوضع حد لسيطرة الأغنياء على مقدرات الحياة في القرية

و.. الإصلاح الزراعى.. نظرة تاريخية

عز الدين كامل

■ مصر بلد زراعى.. حقيقة جغرافية، واقتصادية.. وبالتالى تاريخية. فحقيقة أن الاقتصاد المصرى. تاريخياً. اقتصاد زراعى أدت إلى محاولات متعددة ومتصلة عبر زمن طويل للتعامل مع حقائق هذا الاقتصاد. أهم هذه المحاولات هى ما اصطلح على تسميته فى نهاية المطاف «الإصلاح الزراعى».

علينا أن نرجع بذاكرتنا إلى أوائل القرن العشرين لنتتبع مشاكل الريف والفلاح المصرى حيث كان الاستعمار البريطانى يجثم على صدر الشعب المصرى وحول مصر إلى مزرعة للقطن المصرى لتصديره كخامة أساسية للمصانع الإنجليزية.. وليحقق الاستعمار أهدافه استخدم أسلوب القمع والترويع للفلاحين وأمامنا نموذج مجسم لأسلوب معاملة الفلاحين وهو حادثة دنشواى فى ١٣ يونية ١٩٠٦.

يومها نجح مصطفى كامل فى أن يستثمر مقاومة الفلاح من أجل أرضه وعرضه وحول قضية الفلاحين من المحلية إلى العالمية وهز الضمير العالمى ليتعاطف مع كرامة الفلاح المصرى وحقه فى حياة حرة كريمة.

وما أن قامت الحرب العالمية الأولى إلا ورفض الفلاحون التعامل مع سلطات الاحتلال مما جعل الإنجليز يعملون على تسخير الفلاحين فى فرق متطوعين عنوة وبالقوة.. واصطيد الفلاحون من بيوتهم وسيقوا إلى جبهات الحرب وميادين القتال.. وهم تحت الحراسة الشديدة، وفى ظهورهم حراب الجنود.. وصودرت المحاصيل بأبخس الأثمان، وتم الاستيلاء على المواشى لاستخدامها فى الحرب والتموين.. وبنهاية الحرب العالمية الأولى كانت البلاد حبلى بالثورة فما أن وجدت الفرصة مواتية لإعلان الثورة فى مصر حتى هب الفلاحون للنضال ضد الاستعمار الإنجليزى ومن أجل «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

ولم تهدأ الثورة إلا بصدور دستور سنة ١٩٢٣ وإقامة النظام البرلمانى.

لقد سار الفلاحون خلف الوفد وأعطوه أصواتهم فى الانتخابات لاستجابته لبعض مطالبهم وإقرارها.. فكان هذا سبباً لمضايقة الكثيرين.. فحاولوا مسخ الدستور وإحالته إلى لعبة فى أيديهم ورغم هذا لم يجد أمثال هؤلاء أى استجابة من الفلاحين وقاوموا أعداء الدستور بأشكال مختلفة.

ففى عهد صدقى مثلاً تجاهله الفلاحون مما اضطره إلى تزييف حفلات ومواكب لاستقباله فى القرى فكان يلبس الخفراء النظاميين العمائم وملابس الأعيان ويسوقهم إلى استقباله.. وبعد صدور دستور صدقى سنة ١٩٣٠ امتنع العديد من العمد والمشايخ عن القيام بمهام وظائفهم وتقدموا باستقالات جماعية رغم العقوبات القاسية التى فرضها صدقى عليهم.

وكان صدى هذا الكفاح أن بدأت الحكومات تعمل من أجل الفلاح ومن أجل اكتسابه فى صفها.. فمن أجل الفلاح تم العديد من المشروعات الاقتصادية والخدمات التى كان محروماً منها مثل:

* إنشاء بنك التسليف الزراعى لحماية الفلاح من المرابين.
* نشر التعليم بالقرى.
* إنشاء المستشفيات ومد القرى بالمياه الصحية.
* تحديد حد أدنى لأجور العمال الزراعيين فى مديريتى قنا وأسوان.
* إلغاء السخرة نهائياً.

كل هذه العوامل ساعدت على خلق وعى جديد فى الريف وشخصية جديدة للفلاح المصرى. أدت إلى أشكال من المقاومة والكفاح (حوادث كفر نجم وبهوت وغيرهما).

وفى ١٩٤٩ دعا عبدالرحمن الرافعى فى كتابه «فى أعقاب الثورة المصرية» إلى ضرورة تدخل المشرع فى أمرين مهمين فى حقل العمل الزراعى:

* أولاً: تحديد العلاقة بين المالك والمستأجر وقد حددها عبدالرحمن الرافعى بنسبة إيجارية ملائمة للمالك والمستأجر على حد سواء.. كما طالب بمنع التأجير من الباطن حيث إن هذا النوع من الإيجار يوجد طبقة من الفضوليين تثرى على حساب الملاك والمستأجرين.

* ثانياً: تحديد الملكية الزراعية بوضع حد لزيادة الملكيات الزراعية الكبيرة مطالباً بتشريع اجتماعى واقتصادى لعلاج الفروق الهائلة بين أبناء الأمة وسوء توزيع الملكية الزراعية وما يقترن به من ظلم وإجحاف للفقراء.

وفى عام ١٩٤٥ تقدم «محمد خطاب» عضو مجلس الشيوخ إلى المجلس بمشروع قانون يتضمن تحديد نصاب الملكية الزراعية. فيحيله المجلس إلى لجنة الشئون الاجتماعية التى قامت بفحصه ودراسته، ثم انتهت إلى وضعه فى صورة تهدف إلى التوفيق بين حقوق الملاك ومقتضيات المصلحة العامة، حيث رفعت الحد الأدنى للملكية الزراعية إلى ١٠٠ فدان بدلاً من ٥٠ فداناً كما اقترحها المشروع.

على أن أبرز ما يتضمنه هذا المشروع عدم المساس بالحقوق المكتسبة للملاك الحاليين، ولا يسرى على ذريتهم. ولكن بالرغم من التعديلات التى أجرتها اللجنة لصالح الملاك، فإن المشروع لم يكتب له النجاح لأنه عندما نظر بالمجلس بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٤٥، عارضته الحكومة، وقالت أنها معنية بتوزيع الأراضى الأميرية الصالحة للزراعة على صغار المزارعين، وفى تقديرها أن هذا يغنى عن المشروع.

* وفى عام ١٩٥٠ تقدم النائب الشاب ابراهيم شكرى عضو حزب مصر الفتاة بمشروع قانونى بتحديد الملكية الزراعية بحد أقصى ٥٠ فداناً، وقد رفض المشروع من أعضاء البرلمان ولاقى المشروع مصير مشروع محمد خطاب وهو التعثر فى اللجان البرلمانية والرقاد الطويل حبيس الأدراج لأنه لم يكن يتسق وطابع هذا العهد الذى يعتمد فى بنيانه العلوى على طبقة كبار الملاك للأراضى الزراعية.

وجاء مشروع الدكتور إبراهيم رشاد والذى يقوم أساساً على فكرة المزارع الجماعية وإلغاء الملكية الفردية وإبدالها بالملكية الجماعية للعاملين فيها كقنبلة أزعجت كبار الملاك وأشعرتهم بأن هناك خطراً يهددهم خاصة أنه صادر من رجل واسع العلم إلى جانب أنه من أغنياء الملاك ويحمل لقب الباشاوية إلى جانب أنه من كبار موظفى الدولة ووصل إلى أعلى المناصب الحكومية.

نجح مصطفى كامل فى أن يستثمر مقاومة الفلاح من أجل أرضه وعرضه، وحول قضية الفلاحين من المحلية إلى العالمية، وهز الضمير العالمى ليتعاطف مع كرامة الفلاح المصرى وحقه فى حياة حرة كريمة





قانون الإصلاح الزراعى:

«فى يوليو ١٩٥٢ قامت الثورة وحسب ما تحكيه الروايات نشر الأهرام مقالاً للدكتور راشد البراوى أستاذ الاقتصاد عنوانه: اقتصادى يقترح إعادة توزيع الثروة الزراعية، وتحديد الملكية. وفى اليوم نفسه استدعى جمال عبدالناصر كاتب المقال، وكلفه بتحويل أفكاره إلى مشروع ما أن طرحه على زملائه حتى قرروا تبنيه وتكليف زميلهم جمال سالم بالتفرغ لدراسته وإعداده فى صورته النهائية مع الدكتور عبدالرزاق السنهورى رئيس مجلس الدولة، ونائبه المستشار سليمان حافظ».

كانت مساحة الأرض الزراعية عام ١٩٥٢ أقل قليلاً من ستة ملايين فدان تتوزع ملكيتها بين ثلاث كتل.. الأولى أقل من نصف فى المائة، وتملك وحدها ٣٥٪ من كل الأرض بمعدل ٢٠٠ فدان فأكثر لـ ١١٨٠٠ مالك، ونحو ١٤٥ ألف مالك يملكون ٦٠٪ من الأرض بمتوسط ١٢ فدانًا، وأكثر من مليونين يملكون باقى الأرض بمتوسط ٢١ قيراطًا. مما يدل على الخلل الشديد فى هيكل الثروة الزراعية فى مصر.

❖ وارتبط بذلك خلل واسع فى الهيكل الاقتصادى والاجتماعى للدولة، ففى القطاع الزراعى الذى كان له السيادة فى التنمية الاقتصادية، أصبحت الأرض الزراعية تمثل سلعة سوقية تخضع لعمليات التداول والمضاربات، مما ترتب عليه تضخم غير حقيقى فى أسعارها، وترتب على ذلك أن مالك الأرض كان يحصل على ريع من استثمارها يزيد كثيراً على ما يجب أن يحصل عليه طبقاً للمقاييس الاقتصادية والاجتماعية الصحيحة. وكان ذلك على حساب جهد وشقاء المستأجر الذى لم يكن يحصل على دخل يوازى ما يؤديه من عمل طوال السنة، وبالتالى أهدرت قيمة العمل كعنصر من عناصر الإنتاج، وأصبحت الغلبة لرأس المال. فأصبح صاحبه يحصل على معظم الريع من عوامل الإنتاج.

❖ وتوافق أيضاً مع هذه الأوضاع عدم توافر الرعاية للطبقة العاملة وطبقة المستأجرين، الأمر الذى تلاشت معه الحوافز والدوافع الباعثة على زيادة الإنتاج. فقد كان إهمال هذه الطبقات والضغط عليها باستمرار مؤدياً إلى ضعف قدرتهم على الإنتاج كما حال ذلك دون مساهمتهم بشكل فعال فى عملية التنمية وضآلة حرصهم على صيانة الموارد الزراعية أو المحافظة على خصوبة الأرض ومرافقها.

وفى ظل هذه العوامل الضاغطة على جماهير الشعب صدر قانون الإصلاح الزراعى على ثلاثة محاور رئيسية يمكن أن نجملها فى التالى:

❖ تحديد الملكية الزراعية.

❖ تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر.

❖ وضع حد أدنى لأجور عمال الزراعة.. والسماح لهم بتكوين تنظيم نقابى. لذلك فإن القانون قد عاد بالفائدة على خريطة عريضة اختلفت الآراء حول عدد المستفيدين به، فمن أرقام تقول أنهم مليون ومائة ألف.. وأرقام أخرى وصلت إلى المليونين وعموماً فلا يستطيع أن ينكر أحد أنه كان مؤثراً فى الاقتصاد المصرى ويعتبر مفترق الطرق فى اقتصاد القلة والانطلاق إلى الاقتصاد المجموع الأعظم.

ولم يكن قانون الإصلاح الزراعى يعنى فقط توزيع الأرض على المعدمين. بل كان توسيع طبقة صغار الملاك وانصاف المستأجرين بتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر تمشياً مع مبدأ «الأرض لمن يزرعها» وكذلك الاعتراف بالعمال الزراعيين بوضع حد أدنى لأجورهم إلى جانب السماح لهم بالتنظيم النقابى وعمل اتحاد عام للعمال الزراعيين يدافع عن حقوقهم ويفتح أمامهم فرصاً أكبر للعمل للارتقاء بمستوى عيشتهم.

لقد أدت الزيادة فى دخل هذه الطبقات الثلاث إلى ارتفاع مستوى معيشتهم وزيادة القوة الشرائية عندهم، نشأ عنه ارتفاع ملحوظ فى استهلاكهم من السوق المحلية.. ونتيجة لذلك اتسعت الطاقة الإنتاجية فى ميادين الصناعة والتجارة والخدمات لمواجهة الزيادة فى الطلب وتلبية احتياجات هذه الطبقة الجديدة والتى كانت متدنية فى استهلاكها مما أدى إلى خلق ظروف ملائمة للتنمية والاستثمار.

فالأرقام تقول إن هناك ثمانى عشرة محافظة توجد بها مناطق للإصلاح الزراعى وتغطى هذه المساحات سدس مساحة الأرض الزراعية فى مصر ووصلت جملة مساحة زمام أراضى الإصلاح الزراعى «٧٠٨» آلاف وستمائة وستة وستين فدانًا، ووصل عدد الجمعيات التعاونية التى تدير هذه الأراضى إلى ٦٨٧ جمعية محلية تجمعها ٧٠ جمعية مشتركة تضمها ١٨ جمعية مركزية ويتحدون جميعاً فى جمعية عامة على مستوى الجمهورية.

وتشير الدراسات الميدانية التى تمت على فلاحى الإصلاح الزراعى أن الفلاح فى مناطق الإصلاح لم يعد يولى اهتمامه إلى الأرض فقط ولكنه اتجه إلى المشاريع الزراعية سواء تربية الماشية أو تصنيع المنتجات الزراعية والحيوانية أو امتلاك وسائل نقل المحاصيل والآلات الضخمة التى تساعد فى الزراعة أو مناحل العسل كل ذلك من أجل مزيد من الدخل.. حيث إن ٢٦٪ من المنتفعين يمتلكون مشروعات زراعية صغيرة أى أن رأس مالها أقل من ٥٠ ألف جنيه بينما يمتلك ١٤٪ مشروعات زراعية متوسطة رأس مالها أكثر من ٥٠ ألف جنيه.

وإذا انتقلنا للجانب الاجتماعى نجد أن نسبة ٨٥٪ من المنتفعين يقطنون بيوتاً مبنية بالطوب الأحمر وتحتوى على أحدث الأجهزة التى تساعد على المعيشة.

تطور الملكية الزراعية:

بنظرة موضوعية لنظام حيازة الأرض عام ١٩٥٢ نجد أن هرم الملكية الزراعية كان يمثل الهرم المقلوب فالقاعدة العريضة من الملاك والذين يملكون أقل من ٥ أفدنة ٩٤٪ من مجموع الملاك ويملكون ٣٥٪ من الأرض الزراعية فى حين أن الذين يملكون أكثر من ٥٠ فدانًا كانت نسبهم ٠,٤٪ ولتوضيح الرقم يمكن القول إن ٤ فى الألف يملكون ٣٣٪ من جملة المساحة المنزرعة أما اليوم بعد مرور ٥٠ عامًا فإن الهرم أصبح أكثر اعتدالاً، فالقاعدة أصبحت تمتلك ٦٦,٥٪ من جملة الأراضى والتى أصبحت تمتلك ١٩,٦٪ من المساحة المنزرعة.

والظاهرة الواضحة هى اتساع قاعدة أصحاب الملكية الزراعية الصغيرة والمتوسطة وهما من أشد الطبقات فاعلية فى النمو والتوازن، وعليهما يعتمد الاستثمار والإنتاج وخاصة فى ظروف مصر حيث إن التربة الزراعية من أخصب الأراضى فى العالم وتحتاج إلى التعامل معها بأسلوب التوسع الرأسى ويظهر هذا واضحاً فى زيادة إنتاجية العديد من المحاصيل، وأحسن مثالين على ذلك القصب الذى ارتفعت إنتاجيته بنسبة ٩٥٪ والأذرة الهجين التى زادت بنسبة ١٨٠٪ لاستخدام تقاوى محسنة إلى جانب الارتفاع بالمعاملات الزراعية وزراعة الأذرة فى الميعاد الملائم وتطبيق العمليات الزراعية المتقدمة.

وكان من شأن التطور الجذرى الذى صاحب تغيير هرم الملكية فى مصر وأصبحت قاعدته عريضة وقمته محدودة أن يكون تقدير المواطن على أساس شخصه وعمله وما يبذله من جهود مستمرة فى عمليات التنمية والإنتاج وليس على أساس ما يملكه من أرض زراعية أو موارد رأسمالية. فقد نشأ عن هذا التغيير أن أصبح للفلاح صوت مسموع فى تقرير سياسات البلاد. وبدأ يساهم إيجابياً فى برامجها المختلفة مما فتح الباب على مصراعيه لديمقراطية جديدة لطبقة الفلاحين عامة والتى كانت محرومة كلية من أن تشارك فى الحياة النيابية.. حيث تقرر بالميثاق أن لا تقل نسبة التمثيل للعمال والفلاحين فى المجالس الشعبية والتشريعية عن ٥٠٪. وكان طبيعياً أن ترتفع مكانة الفلاح ووزنه الاجتماعى بصدور قانون الإصلاح الزراعى وزوال كل عوامل الضغط والإذلال الذى كان يتعرض له كما زال عنه كل ما كان من شأنه خنق إرادته أو التحكم فى رزقه ورزق أولاده.

بنظرة موضوعية لنظام حيازة الأرض عام ١٩٥٢ نجد أن هرم الملكية الزراعية كان يمثل الهرم المقلوب فالقاعدة العريضة من الملاك والذين يملكون أقل من ٥ أفدنة ٩٤٪ من مجموع الملاك ويملكون ٣٥٪ من الأرض الزراعية

إن التقييم المنصف للإصلاح الزراعى.. اليوم.. وبعد مرور ٥٠ عاماً على صدور القانون يقول إن الإصلاح الزراعى قد نجح وحقق النتائج المرجوة منه..



فعند إصدار القانون كان أعداء تقدم الفلاح وبخاصة الموتورون يشككون فى إمكانية نجاح الفلاح فى أن يتملك الأرض ويجدد زراعتها ويزيد إنتاجها ولكن كان المشرع للقانون ذا نظر ثاقب بأن نص على أن تعاونيات الإصلاح الزراعى حتمية لمساعدة المنتفعين فى إدارة الأراضى الموزعة والتى استولى عليها من كبار الملاك ودفع عجلة الإنتاج بها.. وقد نجحت هذه التعاونيات فى اجتياز مرحلة انتقال ملكية وإدارة هذه الأراضى والتى بذل أعداء الإصلاح الزراعى كل ما لديهم من وسائل غير مشروعة لعرقلة مسيرة هذا الاتجاه الإصلاحى للمجتمع الزراعى أملاً فى العودة إلى القديم.. لكن المطلوب اليوم نظرة موضوعية لتقوية بنيان الإصلاح الزراعى وتعظيم جوانب الاستفادة منه.

جمعية تعاونية واحدة:

إن المشرع عندما جعل الانضمام للجمعية التعاونية للإصلاح الزراعى شرطًا للانتفاع بالأرض كان يهدف فى ذلك الوقت إلى نجاح المنتفعين فى استمرار زراعة الأراضى وتوفير الحماية اللازمة لهم للاستمرار فى زيادة الإنتاج وقد كانت فعلاً تجربة ناجحة مكنت المنتفعين من المحافظة على إنتاجية الأرض بل وزيادة الإنتاج واضحة إلى جانب إقامة بنيان تعاونى قوى أمكنه إقامة مشروعات اقتصادية عملاقة ساهمت بصورة فعالة فى حماية الأمن الغذائى للبلاد.

وينص قانون التعاون صراحة على عدم جواز إقامة جمعيتين لهدف واحد فى القرية الواحدة فلابد من أن نصحح هذا التجاوز الذى وافقنا عليه لظروف خاصة وفى مرحلة معينة كان لها مردود كبير فى ذلك الوقت، أما اليوم وقد أصبح فلاح الإصلاح الزراعى مالكًا للأرض بعقد ملكية لا يختلف عن فلاح خارج الإصلاح الزراعى فلابد من دمج الجمعيات داخل القرية الواحدة والالتزام بقانون التعاون.

هيئة عامة للتنمية الريفية:

إن الريف المصرى يحتاج إلى آلية نابعة من واقعه ولها خبرات ميدانية صادقة لدراسة مشاكله ووضع خطة تنفيذية محكمة يقوم بتنفيذها وتقود العمل الجماهيرى لحل المشاكل المتراكمة فى الريف المصرى بأسلوب علمى متسلحين بالخبرة التنفيذية المكتسبة من واقع الاحتكاك الطويل بجموع الفلاحين.

فهناك العديد من المشاكل فى الريف تقف حائلاً دون انطلاقه والارتفاع بمستواه الحضارى لتضييق المسافة بين القرية والمدينة.. ويمكن أن نجمل أهم ثلاث قضايا رئيسية تعتبر من المشاكل الحيوية والتى تحتاج إلى أسلوب غير تقليدى فى حلها والتخلص منها فى التالى: الانفجار السكانى وتفتت الملكية وتنمية ريفية متكاملة.

وهى قضايا لن نستطيع أن نخطو فيها خطوات ملموسة دون أن نتعامل معها معاملة خاصة. فهى مشاكل ريفية وذات طابع زراعى ولن نستطيع أن نحلها بدون مؤسسة ذات طابع خاص لها جذور ريفية وحققت إنجازات ملموسة فى تغيير وجه الريف.. وأعتقد أننا لن نجد مؤسسة لها بصمات فى الريف ونجحت فى تحقيق إنجازات رائدة كالهيئة العامة للإصلاح الزراعى.

المالك والمستأجر:

كانت العلاقة بين المالك والمستأجر قبل الثورة غير منصفة للمستأجر بعد أن ارتفعت قيمة الإيجار لأسعار خيالية جعلت الملاك يحصدون كل ناتج الأرض والفلاح لا يسترد قيمة عمله وجهده طوال العام.. فكان القانون منصفًا بأن حدد القيمة الإيجارية وجعل العلاقة ثلاثية: المالك.. المستأجر.. الجمعية التعاونية ووفر للمستأجر كل الضمانات لإيقاف أى تلاعب أو غش فى تطبيق القانون واستمر الحال إلى بداية الثمانينيات حيث بدأ العمل بنظام السوق الحر وأطلقت أسعار المحاصيل الزراعية فأصبح الفلاح المستأجر مستفيداً بزيادة الأسعار للمحاصيل الزراعية دون أى استفادة تذكر للمالك وأخيرًا تم عمل فترة انتقالية انتهت عام ١٩٩٦ حيث تركت القيمة الإيجارية لقانون العرض والطلب وآليات السوق.

إن ترك القيمة الإيجارية لقانون العرض والطلب يشترط فى تطبيقه ألا تكون هناك ندرة فى أحد عناصر العلاقة الإيجارية وكلنا نعرف أن الأرض الزراعية فى مصر محدودة المساحة فى حين أن طالبى التأجير أعدادهم غير محدودة فإن ذلك يتسبب عنه اتجاه العلاقة لغير صالح المستأجر وبالتالى إهدار حقوقه فى الحصول على دخل عادل من العملية الإنتاجية ويتمشى مع ذلك تضاؤل أو انعدام الحوافز المؤدية إلى استغلال زراعى كفء، والنتيجة المتوقعة هى سوء استخدام الموارد الزراعية، وتقع آثار ذلك بصورة مباشرة وأشد وطأة على المستأجرين كطبقة تمثل الطرف الضعيف بسبب عدم حيازتها لموارد رأسمالية ثابتة، تدعم مكانتها وتقوى من طاقاتها التنافسية فى منوال الاستثمار الزراعى، وثمة فرق واضح بين من يملك ومن لا يملك فى مجال الحيازة الزراعية مما يستوجب أن نعمل لإزالة المساوئ والشرور التى تحيط بالنظم الإيجارية والتى تهدد حقوق أحد أطراف العلاقة الإيجارية.

العمال الزراعيون:

صدر قانون الإصلاح الزراعى متضمنًا بابًا خاصًا لهذه الطبقة المهضومة الحق ونص القانون على إنشاء لجان لتحديد حد أدنى لأجورهم وكذلك حقهم فى تشكيل نقابات لهم إلى جانب نقابة عامة على مستوى الجمهورية لترسم لهم خطوات المستقبل وتدافع عن حقوقهم المهضومة.

وجاءت فترة الستينيات وتمت العديد من التجارب للأخذ بأيديهم وتنظيم طرق تشغيلهم إلى جانب الجديد من الرعاية الاجتماعية والثقافية ثم كانت الثمانينيات والهجرة المكثفة للعمل فى الدول العربية وأصبحت العمالة فى الريف من العملات النادرة وارتفع أجر العامل بشكل ملحوظ غير أنه بعد حرب الخليج الأولى انقلب الميزان وتمت عودة الأغلبية من معظم الدول العربية وأصبحت العمالة الزراعية تعانى من مشكلتى البطالة والبطالة المقنعة لذلك فمن الواجب أن تتضمن خطة النقابة العامة لعمال الزراعة النقاط التالية لحماية مستقبل عمال الزراعة:

. تنشيط خطة التوسع الزراعى الأفقى والخروج من الوادى الضيق ومن مساحة ٤٪ إلى تعمير الصحراء باستثمارات زراعية وصناعية وسياحية.

. تشجيع تصنيع المعدات الزراعية ونشر استخدامها فى الريف وذلك فى ورش صغيرة داخل المناطق الريفية وكذلك الورش الخاصة بصيانتها وذلك فى إطار التعاون مع معهد بحوث الزراعة الآلية وحتمية استصلاح الأراضى لتقديم العديد من المشروعات الرائدة وفى ظل برامج التدريب المتكاملة معها بعد دراسة تفصيلية لحاجة الأسواق.

. الاتجاه إلى تشغيل المرأة الريفية فى الأنشطة غير الزراعية بالأرض الجديدة وكذلك فى مشروعات النسيج وتصنيع المنتجات الزراعية بهدف التصدير للأسواق الخارجية.

. التوسع فى التصنيع الزراعى المرتبط بإنتاج الأرض مما يحقق امتصاص جزء من فائض العمالة الريفية.

. إعطاء عمال الزراعة الأولوية فى استئجار أو تملك الأرض الجديدة وتوفير الحوافز المادية لهم للاستقرار فى المجتمعات الجديدة.

. وضع خطة طويلة المدى لتدريب الأعداد المتزايدة من عمال التراحيل تدريبًا مهنيًا وفنيًا على استخدام الآلات الزراعية والأساليب الحديثة فى الرى والتسميد وتطهير الترع باستخدام الآلات وصيانتها ثم بعد ذلك تدريبهم تدريبًا فنيًا متقدمًا للعمل بمشروعات التصنيع الزراعى ■

ثمة فرق واضح بين من يملك ومن لا يملك فى مجال الحيازة الزراعية مما يستوجب أن نعمل لإزالة المساوئ والشرور التى تحيط بالنظم الإيجارية والتى تهدد حقوق أحد أطراف العلاقة الإيجارية

لغتنا الجميلة.. وإطلالة

مدخل

«هذه شهادة على واقع لغوى أعيش فيه وأتعامل معه شاعراً وكاتباً فى المقام الأول، وعضواً فى مجمع اللغة العربية، وباحثاً مهتماً بقضايا «لغتنا الجميلة». التى أعطيتها ستة وثلاثين عاماً متصلة من خلال البرنامج الإذاعى اليومى «لغتنا الجميلة» الذى بدأت أولى حلقاته فى أول سبتمبر عام ١٩٦٧. هى إذن شهادة، وعصارة تجربة وخبرة، أكثر من كونها بحثاً أو دراسة».

أسئلة واجبة:

لا يمكن تأمل المشهد اللغوى الراهن، بعيداً أو منعزلاً عن الواقع السياسى والاجتماعى للأمة، وواقع الإنسان العربى نفسه صاحب هذه اللغة، والمرتبط بها ارتباط حياة ومصير. تقوى بقوته وتضعف بضعفه، وتتوهج بإبداعاته ومنجزاته، وتنطفئ وتذبل بانطفائه وذبوله.

وعلى ضفاف المشهد، ومن حوله، تتداعى أسئلة كثيرة واخزة على ألسنتنا وأقلامنا جميعاً، نحن الذين نتخاطب بها ونتفاهم ونتواصل ونبدع: الكاتب والصحفى والعالم والمدرس والموظف والسياسى والأديب والفنان وغير هؤلاء ممن يواجهون مواقف الكتابة أو التعبير:

. إلى أى حد أصبحت هذه اللغة قادرة على النهوض باحتياجات العصر، وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها وانفجارها المعرفى، ملائمة للإنسان العربى وهو يواجه تبعات الواقع الراهن ومسئولياته؟

. إلى أى حد يستطيع الأديب العربى، والمبدع العربى، مواجهة العديد من مشكلاته مع اللغة وهو يكتب ويبدع، محاولاً أن يجد الحلول السريعة لكل ما يعترضه وهو فى حُميا إبداعه من فجوات دلالية وحرفية وبنيوية فى مفردات اللغة وهندسة تراكيبها ومعايير الصواب والخطأ فيها؟

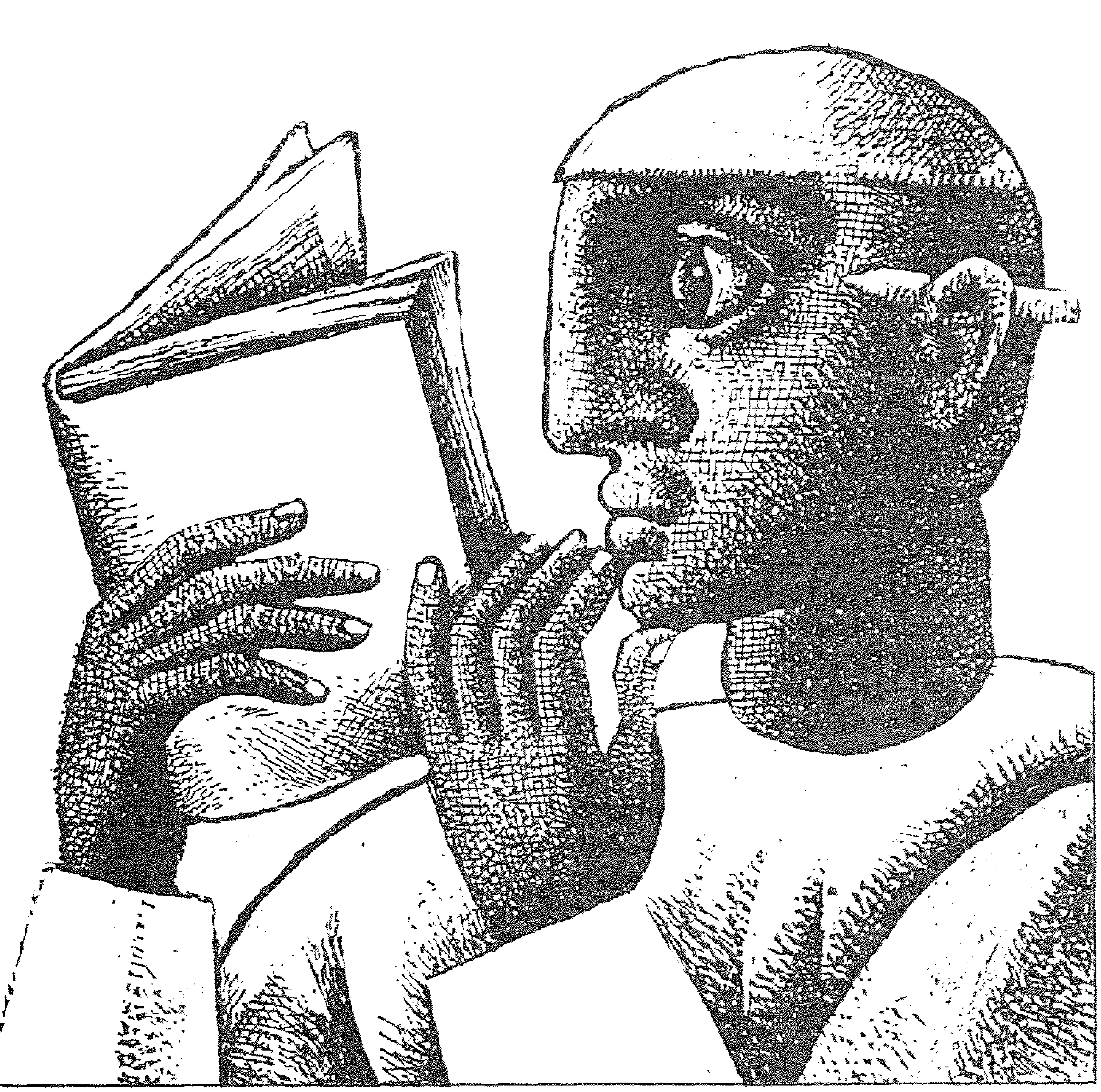
. إلى أى حد يقوم النظام التعليمى والتربوى بدوره المفترض أن يقوم به فى إلغاء حاجز الكراهية بين النشء المتعلم ولغته القومية، وتحبيبه فيها، ومساعدته على تعلمها وإتقانها، واكتشاف أسرارها ومواطن جمالها، ومجالات حيويتها وانطلاقها؟

. إلى أى حد تستطيع هذه اللغة. فى عصر حوار الثقافات والحضارات. كما يقول البعض. أو عصر صراع الثقافات والحضارات. كما يقول البعض الآخر. أن تمارس دورها الطليعى فى حركة الترجمة والتعريب والاتساع لألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم وتنمية المجاز اللغوى، وفتح أبواب التيسير والتطوير والأخذ بأسباب التهذيب والتعديل والتنقيح؟

هذه الأسئلة، وغيرها كثير، تدل على أن وعينا بالمشكلة قائم وحاد، وعلى أن الرغبة فى تجاوز صيغة المشهد القائم. فى جوانب سلبياته وضعفه. عميقة وصادقة. وهى مشكلة تتوزع المسئولية فيها على عديد الهيئات والمؤسسات، فى مقدمتها بالطبع الجهاز التعليمى. بدءاً من المدرسة وانتهاء بالجامعة. وأجهزة الإعلام بدءاً بالصحافة والإذاعة والتليفزيون، والمجامع اللغوية، والأجهزة الثقافية فى المجتمع، والممارسون للغة: كُتاباً وعلماء ومبدعين وباحثين.

خريطة الواقع اللغوى:

هذا الوعى بالمشكلة، ينضجه وعى تاريخى يرى فى رحلة اللغة العربية عبر القرون علامات وإشارات دالة، وعناصر أسهمت فى تشكيل هذه اللغة وتغييرها وتطويرها مخاضاً وتفاعلاً. فى مقدمتها أسواق العرب التى عرفت لدى سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكانت بمثابة مؤسسات عامة اجتماعية ولغوية وسياسية وتجارية وأدبية، يلتقون فى ظلالها ويخضعون لمتطلباتها، وينتهون إلى قيمها ومواصفاتها. ثم تلا هذه الأسواق. التى كانت تقام فى عكاظ والمربد وذى المجنة والمجاز وهجر وقطر وغيرها. ظهور الإسلام ونزول القرآن دستوراً له، أصبح بمثابة المثل والنموذج والقدوة للتعبير العربى والبيان اللغوى، وعندما بدأت موجة الفتوح الإسلامية للأمصار، أخذاً وعطاءً، وسيطرة على مرافق الحياة، وتعبيراً عن متطلباتها، وانفتاحاً على ثقافات القدماء وعلومهم من خلال حركة الترجمة النشيطة فى العصر العباسى، واتساع متن اللغة العربية للمصطلح الأجنبى وألفاظ الحضارة الوافدة من بلاد الروم وفارس والهند ومصر وسائر بلاد العالم القديم. ومع انهيار الإمبراطورية الإسلامية وتفككها، وخضوع الأقطار للتمزق والضعف، وانهارت الحياة الثقافية والعلمية والفكرية، وانهارت بانهيارها اللغة، حتى جاء الغزو الأوروبى للبلاد العربية فى مطالع العصر الحديث، وبدأت مواجهات جديدة، وصراع فكرى وثقافى ولغوى مازلنا نعيش موجاته المتلاحقة حتى اليوم. هذا الوعى التاريخى يكشف عن مستويين من العربية يتجاوران ويتفاعلان فى واقعنا اللغوى الآن: أحدهما هو فصحى التراث أو العربية التراثية، مثلها الأعلى قائم فى الماضى حيث إبداعات الأدب العربى القديم وإنجازاته الشعرية والبلاغية



على قرن جديد: الآفاق والتحديات

فاروق شوشة

الضخمة، ومحاولاته الذاتية للاقتراب من النموذج الأسمى المتمثل في لغة القرآن والحديث النبوي ووصايا البلغاء والخلفاء وكتابات القدماء. وثانيهما هو فصحى العصر أو العربية المعاصرة، مثلها الأعلى قائم في المستقبل، وهو فكرة أكثر منه مثالاً مادياً محدداً، وبحث دائم عن إمكان التعبير الأوفى عن احتياجات الإنسان في واقع جديد متغير، من خلال هموم وأشواق ومطالب ومطامح مختلفة، يفرضها تغير الإنسان وتغير الزمان والمكان ومن ثم تغير العقل والوجدان.

والذين يتحدثون عن فصحى العصر أو العربية المعاصرة، يشيرون إليها باعتبارها السجل المكتوب لعلوم العصر الحديث ومعارفه، تتنوع موضوعاتها ومجالاتها بتنوع حضارة المجتمع ومجالات اهتمامه، فهناك العلم بفروعه من طب وحيوان وهندسة وكيمياء وطبيعة وزراعة وفلك ونحت ورسم وتصوير وزخرفة إلى آخره.

وهناك الدراسات الإنسانية من تاريخ وجغرافيا وأجناس واجتماع ولغات واقتصاد وسياسة وقانون إلى آخره. وهناك الأدب من شعر وقصص وروايات ومسرحيات وخيال علمي ورحلات إلى آخره.

وهناك الصحافة والإذاعتان المسموعة والمرئية بموضوعاتها المختلفة وبرامجها المتنوعة تنوع المجتمع نفسه.

وإذا كانت الفصحى التراثية تشبه كتاباً أغلقت صفحاته وتمت كلماته فلم يعد ثمة مجال لإضافة أو تعديل، فإن العربية المعاصرة تغتني في كل يوم بالجديد من المادة اللغوية في شتى المجالات، وتتسع صفحاتها لفيض هائل من حصاد الترجمة والتعريب والاشتقاق والقياس.

بالإضافة إلى هذين المستويين من مستويات العربية: فصحى التراث وفصحى العصر، يزدحم الواقع اللغوي بثلاثة مستويات من العامية، هي عامية المثقفين وعامية المتنورين وعامية الأميين. وهي مستويات مختلفة من حيث تعبيرها عن فئات وشرائح اجتماعية معينة، ومن حيث قربها أو بعدها عن المستويين الفصحيين ومن حيث علاقة من يتكلمون بها بالتعليم والثقافة وحظهم من المعرفة. هذه المستويات الثلاثة من العامية تكمل خريطة الواقع اللغوي، وهي بحاجة إلى دراسة مستقلة لا مجال لها الآن.

ثراء العربية المعاصرة

يمثل مستوى العربية المعاصرة أو فصحى العصر، المستوى الأكثر حيوية وتفاعلاً وخوضاً لصراع الحياة والوجود وحملاً لملامح الهوية الثقافية واتساعاً للجديد أو الدخيل. كما كان يسميه القدماء. الوارد من لغات أخرى، بينما يظل مستوى الفصحى التراثية محتفظاً بكل صفات الفصحى القديمة في معجمها من المفردات وطريقة نطقها وصوتياتها ونظام جملها وهندسة تراكيبها. ونحن نطالعها في الكتابات والأحاديث الدينية ونستمع إليها من خلال التمثيليات والمسلسلات الدينية والتاريخية التراثية، التي يحاول مؤلفوها أن يتمثلوا عربية القرون الغابرة وأن يصطنعوا لغة شبيهة أو محاكية بهدف إضفاء الصدق على أعمالهم الفنية.

أما الفصحى المعاصرة. التي يشيع استخدامها الآن. فهي مستودع المعارف والعلوم والفنون والآداب في زماننا تأخذ من الفصحى التراثية نظامها اللغوي نحواً وصرفاً وإعراباً، لكنها تتجاوزها وتزيد عنها في معجمها اللغوي، وفي نظامها الصوتي وفي بنيتها التركيبية وحقولها الدلالية.

ولا شك أننا مدينون لهذه الفصحى العصرية بكثير من الأساليب الشائعة الآن على ألسنة كتابنا وأقلامهم، نتيجة للترجمة عن اللغات الأجنبية، مثل:

بالنظر إلى كذا، جرى كذا وكذا. وفي الوقت نفسه جاء فلان. فلان يعمل ضد فلان. هو يقتل الوقت. هو يمثل بلده في المحافل الدولية. هم عشرة على الأقل (أو على الأكثر). أعطى رأيه في القضية. طرح المسألة على بساط البحث. المسألة الآن تحت البحث والدراسة. تكهرب جو السياسة. ذر الرماد في العيون. يكسب خبزه بعرق جبينه. لا يرى أبعد من أرنبة أنفه. هو يلعب بالنار. لا جديد تحت الشمس. أعطاه فرماناً (تفويضاً) على بياض. أعطاه صوته في الانتخابات. هذه نقطة ارتكاز. يقبض على دفة الأمور. وضع النقط في الحروف. يلعب دوراً في هذا الموضوع. فلان يؤيده الشارع. هو رجل الساعة. كلمة بطرف شفتيه. توترت العلاقات بين البلدين. تلبد جو السياسة بالغيوم. هو حجر عثرة في سبيل كذا. يصطاد في الماء العكر. يشرب في صحة فلان أو على شرف فلان. يضحك ضحكة صفراء. يفعل كذا بصفته كذا. قال ذلك بكل بساطة. هو ينطق بلسان الحال. هذه ترجمة سطحية. موضوع وارد أو غير وارد. دسائسه تغذي الفتنة. تضحية المحل التجاري. هو عظيم بمعنى الكلمة. قام بالمساعي الحميدة. يفعل كذا على ضوء كذا. لا محل له من الإعراب. تأثر بمدرسة فلان في الكتابة. يتمتع بالحصانة النيابية. هو صاحب كرسي في الجامعة. على قدم المساواة. مات ولم يعرف امرأة. يحرق البخور بين يديه. ذهب ضحية مبادئه. ضحى على مذبح أغراضه. أخذ زمام المبادرة. صب عليهم جام غضبه. طلب يد فلانة. أغرق التاجر السوق. من أكبر العاملين في حقل الوطنية. فلان دودة كتب. أحيل إلى التقاعد. أصاب عصفورين بحجر واحد. تصعيد الموقف أو الأزمة. سيولة نقدية. ساعة الصفر. تغطية الحوادث. جمد المال في المصرف. فاتهم القطار. جلسوا إلى مائدة مستديرة. هو على مستوى المسئولية. ينظر إلى المسألة من جميع أبعادها. تبلورت الفكرة. يذرف دموع التماسيح. يعمل على ضوء كذا. يرفع رأس أمته عالياً. أتى على الأخضر واليابس. تحيط به هالة من الرهبة. يضرب الرقم القياسي في كذا. يستغل الموقف. هو كمية مهملة. جرياً على خطته التقليدية. يخلق جواً من الشبهات. حدث هذا في جو يسوده الود. فلان يلعب بالنار. هذا من سر المهنة. من الشخصيات البارزة. يلعب دوراً على مسرح السياسة. يشق طريقه إلى الحياة. رمى له القفاز والتقط القفاز.

هذه الأساليب والتعابير التي لم تعد تستوقف أحداً عند استخدامها، لشيوعها وانتشارها، كان بعض ما يشبهها مثار استنكار وموضع مؤاخذة من بعض علماء اللغة العربية المتشددين في وقت مولدها. في بحث للعالم اللغوي محمد كرد علي ألقاه في الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٤٦. جمع عدداً من التراكيب التي وصفها بأنها «ما أنزل الله بها من سلطان» قائلاً. على سبيل السخرية والاستهجان: جاءنا متفاصحو المترجمين بهذه التراكيب: النزعة الواقعية. القوة الوجدانية. الذاتي. الموضوعي. الإقليمي. الفكرة الأساسية. الطريقة الاعتباطية. السبب المباشر. العناصر التقدمية والعناصر الرجعية. وطن معنوي مثالي. من حيث الأساس. ضرب الرقم القياسي. النزعات السياسية السائدة. رفع رأس أمته عالياً. استغل الموقف. الحل الحاسم. الروح الوثابة. الرغبة المسلحة. فشلت المناورة. إلخ. ثم يعلق محمد كرد علي بقوله: «لا تصابون بالبرداء. وقاكم الله شرها. إذا سمعتم مترجماً يقول: هذا الشعور ليس سلبياً، بل إيجابياً. وتربية فلان الإيجابية العالية، والمركز الاستثنائي.. إلخ؟

مثل هذا الموقف المتصلب المتزمت منذ ستين عاماً، يقابله اليوم انفتاح على آلاف التعابير والأساليب والمفردات التي تثري عربيتنا المعاصرة وتزيدها قدرة على الوفاء باحتياجات العصر، ومطالب الإنسان المعاصر.

الدور اللغوي لوسائل الإعلام:

اعتاد كثيرون أن ينظروا إلى علاقة وسائل الإعلام باللغة نظرة سلبية ترى فيما تقوم به هذه الوسائل جناية كبرى على اللغة العربية وتشويهاً لصورتها الصحيحة وإشاعة للأخطاء التي تمس قواعد النحو والصرف والإعراب وهندسة التركيب وقواعد النطق والأداء الصوتي، بل يرون فيها ما يشبه المؤامرة على لغتنا القومية: لغة القرآن الكريم والشعر العربي، ومن ثم فهي مؤامرة على حاضر الأمة ومستقبلها. فما أكثر الأخطاء التي تجري على ألسنة المذيعين والمذيعات ومقدمي ومقدمات البرامج وكثير من ضيوف الإذاعتين المسموعة والمرئية والفضائيات، فضلاً عن الأخطاء التي تحملها الصحف في مادتها الإخبارية ومقالاتها وتحليلاتها وحتى في بعض عناوينها الرئيسية، دون أن يواجهها تصحيح أو تصويب!

وقد لا يتسع المجال لنماذج وعينات من هذه الأخطاء التي عني بجمعها وتصنيفها عدد من علمائنا اللغويين في مقدمتهم

العالم الراحل الدكتور أحمد مختار عمر فى كتابيه «العربية الصحيحة» و«أخطاء الكتاب والإذاعيين». لكن لا بأس من الإشارة إلى بعضها مثل الخلط بين المفرد وجمع المؤنث السالم فى انتهائه بألف وتاء مثل «رفات» التى هى مفردة وليست جمعًا مؤنثًا سالمًا، ومثلها: فُتات وسُبات وسُكات وفرات.

ومثل الكلمات المفردة المنتهية بألف وتاء مربوطة حين تضاف إلى الضمير مثل: مداواة ومساواة ومناجاة، فهى تلتبس لدى هؤلاء بجمع المؤنث السالم مثل: مداواته، مساواته، معاداته، مجاراته، مناجاته، مناداته، معاناته، مضاهاته إلى آخره.

كما يقع الالتباس. المؤدى إلى الخطأ. فى جموع التكسير التى تنتهى بألف وتاء مربوطة حين تضاف إلى الضمير، فتلتبس بجمع المؤنث السالم مثل: قضاتنا، هُداتنا، نحاتنا، طغاتنا، دُهاتنا، رُواتنا، رُعاتنا، حُواتنا. كذلك المفردات التى تنتهى بتاء حين تجمع مثل: وقت وأوقات، وبيت وأبيات، وثبت وأثبات، وصوت وأصوات، وقوت وأقوات.

ومثل منع كثير من المفردات من الصرف لانتهائها بألف وهمزة مثل: أبناء، أنباء، أثناء، أجزاء، أجواء، أحشاء، أخطاء، أعداء، أعضاء، أكفاء، أضواء، وهى كلمات غير ممنوعة من الصرف وحقها التنوين.

وصرف كثير من الكلمات التى تستحق منع الصرف مثل: أطباء، علماء، أبرياء، أذكياء، أسوياء، أشقياء، أنبياء، أحباء، أذلاء، أرقاء، أشحاء، أعزاء، ومثل: بخلاء، حكماء، حلفاء، رحماء، زعماء، سعداء، سفراء، شركاء، شعراء، شهداء، صرحاء، ندماء، فصحاء، إلى آخره.

ويقولون: أمر ملفت والصواب أمر لافت، لأن الفعل لفت لا ألفت.

وضوء مبهر، والصواب ضوء باهر، لأن الفعل بهر لا أبهر.

ويقولون: عرض مصان وصوابه مصون.

ورجل مهاب وصوابه مهيب.

وشىء مباع وصوابه مبيع.

وأمر مشين وصوابه شائن.

وأمر هام وصوابه مهم.

وشىء مصاغ وجوابه مصوغ.

ويقولون اعتذر عن الحضور والصواب اعتذر عن عدم الحضور.

ويقولون عامود والصواب عمود.

ويقولون خارطة والصواب خريطة.

ويقولون كنا سويًا والصواب كنا معًا (لأن سويًا معناها مستويًا لا عيب فيه).

ويقولون فى تثنية «دعوى» دعوتان والصواب: دعويان.

ويقولون مشتروات والصواب مشتريات

ويقولون: أجهزة التصنت بمعنى الاستماع والتسمع على الآخرين، وليس فى اللغة تصنت أو صنت، لكن فيها نصت وأنصت، فيكون صواب التعبير، أجهزة تنصت.

ويخطئون فى التفرقة بين: رَوع ورُوع، وخُلد وخَلَد، وعِلاقة وعَلاقة، وخَصلة وخُصلة، وحَمل وحِمل، وسِجن وسَجن، وأذان وآذان، وغَداء وغِذاء، وعَشاء وعِشاء، وجُزم وجِزم، وشيق وشائق، ووفيات ووفَيات إلى آخره.

والذين يركزون على سلبيات الأداء اللغوى فى أجهزة الإعلام مُحقون، لكنهم يهتمون بنصف الكوب الفارغ، ولا يقتربون من نصفه الممتلئ. ولقد كتب الأديب الكبير نجيب محفوظ ذات يوم معلقًا على هذه السلبيات بقوله: «من حين لآخر تثار مشكلة اللغة العربية فى الإذاعة والتليفزيون، وكيف تلقى على الناس متعثرة بأخطاء النحو والنطق، وكيف تعمل على نشر الخطأ على أوسع نطاق بقوة التليفزيون وهيمنته على الحواس والأذواق، كما كتب الكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين يقول: «بعض المسئولين فى التليفزيون يعتبرون مأساة اللغة العربية فى التليفزيون غير مهمة، كلا يا سادة. مفهوم أن يخطئ وزير أو موظف كبير مثلاً، ولكن الذين وظيفتهم الكلام باللغة العربية يجب عليهم أن يتلقوا الدروس وأن تكتب لهم المادة التى يقدمونها مع الضبط الصحيح والتشكيل الدقيق».

ويطالب العالم اللغوى الراحل الدكتور أحمد مختار عمر بضرورة التدريب اللغوى على أسس جديدة، لا تركز فقط على قواعد النحو. ففى رأيه أن أخطاء الضبط النحوى هى أقل ما يقع فى كلام المذيعين، أما أكثره فيعود إلى أخطاء الاشتقاق الصرفى وأخطاء الضبط لبنية الكلمة. كما يطالب بإلزام المتحدثين الضيوف المشاركين فى حوار معين أو برنامج خاص، أو الذين يجيبون عن أسئلة المستمعين والمشاهدين، باستخدام العربية الصحيحة فى أحاديثهم وإجاباتهم. فمن العار. كما يقول. أن يتكلم كثير من أصحاب الأسماء الكبيرة المعروفة فى السياسة أو الاقتصاد أو الأدب بالعامية المصرية أو بلغة عربية مشوهة.

نقترب الآن من نصف الكوب الملآن، من الوجه الآخر للصورة المتضمن للعديد من الآثار الإيجابية للغة المستخدمة فى وسائل الإعلام: الصحافة والإذاعة والتليفزيون. اللغة التى تحرص على أن يفهمها أكبر عدد من أفراد المجتمع على اختلاف مستوياتهم وأفهامهم وأذواقهم. لذا، فهى تتميز بالبساطة والوضوح وتنأى عن التعالى والإغراب وعن الحوشى والمهجور والمُمات من اللغة. وتميل إلى الإيجاز والتشويق، فضلاً عن محاولاتها الدائبة. لاستعادة الشكل المنطوق والمسموع للعربية عبر قنوات الاتصال الإذاعية والتليفزيونية على ألسنة العاملين فيها، وبالتالى على ألسنة المواطنين. هى. إذن. المجال اللغوى الوحيد فى مصر الذى يُقدم الفصحى فى صورتها الحية المنطوقة، من خلال منظومة صوتية وصرفية ونحوية. وهو مجال لا ينافسها فيه منافس فى مدرسة أو جامعة أو أى مكان آخر.

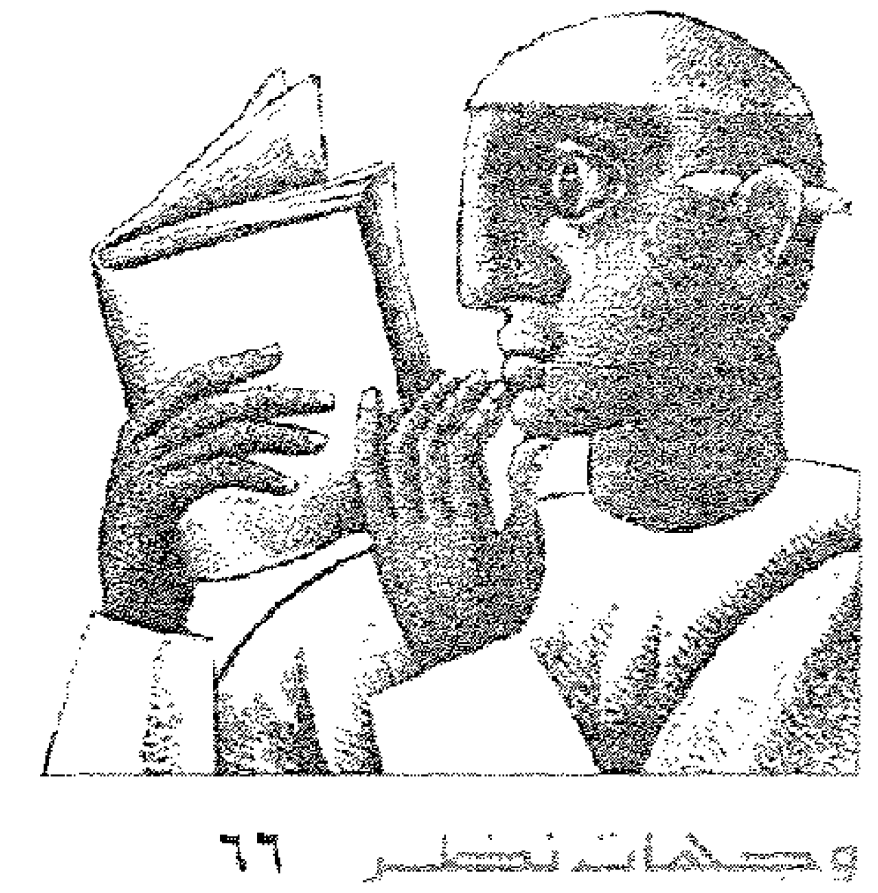
إنها. فى تعريف بعض علمائنا اللغويين. المستجيب الأول لاحتياجات الجماهير التعبيرية، والمبتدع الأساسى لمعظم المادة اللغوية المستحدثة، والمضخة التى تقذف فى شرايين اللغة العربية، من حين إلى حين، بآلاف الكلمات والتعبيرات الضرورية، التى قد تعجز المجامع عن ملاحقتها ومتابعتها، وحين تتنبه المجامع لهذا الجديد المستحدث يكون قد فرض نفسه على أبناء اللغة. فكأن أجهزة الإعلام الآن تقود حركة المجامع وتتقدم مسيرتها.

من بين ما يشيع الآن على الألسنة والأقلام بفضل هذه الفصحى المعاصرة فى أجهزة الإعلام: برنامج النفط مقابل الغذاء. رسم خريطة جديدة للمنطقة. خريطة الطريق. الخصخصة. الاستنساخ. العقوبات الذكية. القنابل الذكية. القنابل الصديقة. القتل الرحيم. اللجوء السياسى. الإقامة الجبرية. التطهير العرقى. غسيل الأموال. المُدخلات والمخرجات. إعادة الهيكلة. الازدواج الضريبى. الشراكة الأوروبية. الناتج المحلى والقومى. التضخم. اليورانيوم المستنفد والمُنضب والمنزوف والناضب. العولمة. الكونية. عقدة الخواجة. دول الطوق. تجميد الأموال. جماعات الضغط. الحرب الباردة. اقتصاد السوق. خفض مُعدل التضخم. الممارسات القمعية. هندسة وراثية. التلاعب بالجينات. التصحر. مصادر الطاقة البديلة. التقنية الحديثة. الإغراق الاقتصادى. هشاشة العظام. النشطاء (جمع ناشط). الجمرة الخبيثة، إلى آخره.

التأمل فى هذه العربية المعاصرة فى وسائل الإعلام مكتوبة ومسموعة ومنطوقةً. يكشف عن توسعها فى القياس، فكأنها سارعت إلى فتح أبواب الاجتهاد اللغوى على مصراعيه، مثل الإكثار من توليد أفعال على صيغ فعل وفوعل وفعلن، والإكثار من صوغ المصدر الصناعى من كل اسم جامد أو مشتق، والتوسع فى صيغة جمع الجمع، والنسب بزيادة الألف والنون وزيادة الواو، والنّسب إلى ألفاظ الجموع وإلى جمع المؤنث السالم، والتوسع فى الاشتقاق من الأعيان والأسماء المزيدة، واشتقاق اسم المفعول من الفعل اللازم بعد إسقاط الجار والمجرور وهكذا.

لابد. كما يقول الدكتور أحمد مختار عمر. من إلقاء الضوء على أولئك الجنود المجهولين فى هذه الأجهزة الإعلامية فى الصحافة والإذاعة المسموعة والإذاعة المرئية، الذين يقبعون خلف الكواليس، يسابقون الزمن فى ملاحقة آخر المستجدات على الساحتين المحلية والعالمية، ويجتهدون فى التعبير عن متطلبات العصر، ويتولون الترجمة من لغة المرسل إلى لغة المتلقى فى وقت قياسى، يستوجب أخذ القرار الفورى، وابتداع اللفظ لحظة التفكير فيه، دون أن يُسعفهم عامل السرعة وضغط الحاجة المُلحة بالرجوع إلى المعاجم، أو استفتاء أهل الاختصاص أو استشارة المجمع اللغوى.

إنهم. كما قال عنهم الدكتور أحمد مختار عمر بحقّ. يشكلون ورشة عمل



إذا كانت الفصحى التراثية تشبه كتابًا أُغلقت صفحاته وتمت كلماته فلم يعد ثمة مجال لإضافة أو تعديل، فإن العربية المعاصرة تغتنى فى كل يوم بالجديد من المادة اللغوية فى شتى المجالات

تطرق الحديد وهو ساخن، وتطرح اجتهاداتها فى اللحظة المناسبة، وتعمل بحكم التفويض الجماهيرى على التعبير عن الأحداث والأشياء وكل المستجدات المفاجئة. فتسد بذلك فراغات ما كان ينبغى أن يُترك لأهل اللغة أو المجامع اللغوية يتداولون فى أمرها طويلاً، فيختلفون ولا يتفقون. وقد كانت مرجعية هؤلاء المبدعين للغة فى وسائل الإعلام ذوقهم اللغوى المتميز، وحساسيتهم التعبيرية الفائقة، واستغلال قدرات اللغة وطاقاتها الكامنة، واستفادتهم من عبقريتها فى الاشتقاق وتوليد آلاف الجُمل والعبارات. فكان التوفيق. فى كثير مما يبدعونه. حليفهم.

لا يُنسى لهذه الوسائل الإعلامية أيضاً قيامها بدور فعال فى التنمية اللغوية لدى المتكلمين والمستخدمين للغة، وفى إثراء معجمهم اللغوى الذى يتسع يوماً بعد يوم للجديد من أمور الحياة العامة وشئونها المختلفة. وفى القضاء على حاجز الأمية بالنسبة للملايين الذين لم تعقهم أميتهم عن المتابعة والمشاركة فى كثير مما تقدمه هذه الأجهزة الإعلامية من خلال الاستماع والمشاهدة. الأمر الذى يزيد من مساحة الوعى والقدرة على المشاركة والانتماء. فضلاً عن قيام هذه الوسائل بمهمة التقريب بين اللهجات والمستويات اللغوية المختلفة، مما يتطلب دراسة ميدانية تعكف على البحث فى الواقع الميدانى وتحليل ما يحدث فيه من تغير وتطور.

إن اللغة فى وسائل الاتصال ناقلة وخالقة. فهى ناقلة لصورة المجتمع اللغوى بكل ما يضطرب فيه من إيجابيات وسلبيات، وبالتالى فهى ليست مغايرة لما يحدث بالفعل فى المجتمع كله: مؤسساته التعليمية والتربوية والثقافية والسياسية والاجتماعية وغيرها، من اختلاط وضعف وتدنٍ واتساع وتطور وإضافة.

وهى خالقةٌ للجديد من المادة اللغوية التى تلبى احتياجات وضرورات يومية وعاجلة، من خلال توسعها فى القياس والاشتقاق والنحت والتعريب وفتح أبواب الاجتهاد على مصاريعها. وبين الأمرين معاً: النقل والخلق تكمن أبعاد الدور والمسئولية، أمام الباحثين عن السلبيات والإيجابيات.

صيحات تجديدية:

لاشك فى أن مطالب المثقف المعاصر وهمومه مع اللغة، أصبحت تتمثل فى مواجهة عصرية لمشكلات بالغة التعقيد والتغير، ومواقف مصطبغة بإيقاع العصر وحس الحداثة ونبض التطور. واللغة. بهذا المعنى. وعاء حضارى تتجسد من خلاله المطامع والأشواق والفنون والعلوم والمعارف والإنسانيات وغيرها، كما تتمثل فى هذا الوعاء جهود المجتمع فى اللحاق بغيره من المجتمعات التى سبقته، وجهوده فى تطويع الأفكار الجديدة لبنية اللغة ومفرداتها.

هل نبدأ من الحديث عن مناهج اللغة العربية فى مدارسنا، وعما تعانيه من قصور وابتعاد عن الهدف والغاية؟! إن كلاماً كثيراً يقال أيضاً عن مدرس اللغة العربية ومستوى إعداده وتهيئته لواجبه الخطير، والظروف التى يمارس من خلالها عمله اليومى الشاق، وعن البنية المدرسية التى يُفترض قيامها بتعزيز ما يقوم به هذا المدرس الكادح من جهود، وهو أثر قائم بالسلب، يهدم فى معظم الأحيان ما يبنيه مدرس اللغة فى ساعات المكابدة والمعاناة، ثم هناك البيئة الكبرى للمجتمع، وكيف تتضافر عناصرها ومجالاتها لتقويض ما تحاول المدرسة أن تغرسه من دروس اللغة والتعبير. يتسع مدار المسئولية بحيث يشمل البيت ومكان العمل ودواوين الحكومة والإذاعة والمسرح والسينما والتليفزيون، ويتسع أكثر ليشمل التربية اللغوية على مستوى المجتمع كله، ويتسع أيضاً لتندر البعض واصطيادهم لأخطاء المذيعين والمذيعات وغيرهم من العاملين فى أجهزة الاتصال.

لكننا لا نلتفت. فى زحام القفشات والانتقادات. إلى ما هو أجلّ وأدهى، إلى طبيعة علاقتنا كمجتمع بلغتنا القومية، وإلى ضرورة قيام تخطيط على مستوى قومى، يبحث الظاهرة فى زواياها ومجالاتها كافة، دارساً لها فى محاورها وأبعادها الثلاثة: طبيعة العربية المعاصرة ونوعيتها ومدى تمايزها واختلافها عن العربية التراثية، وقدرتها على الوفاء بتحديات الحضارة ومتطلبات العصر. ثم الدائرة التربوية بما تتسع له من حديث المناهج والمعلم والمدرسة وطرق التعليم والنشاط اللغوى فى المدرسة، وأخيراً دائرة المجتمع التى تؤدى فيها وسائل الإعلام دوراً رئيسياً، فضلاً عن أجهزة الثقافة ومؤسسات الدولة الأخرى باعتبارها جميعاً مسئولة عن وضع لغتنا الجميلة فى المجتمع.

ذلك أن كثيراً من أزمة تعلم هذه اللغة، وحب النشء المتعلم وإتقانه لها، يعود إلى عُقم المنهج الدراسى وسوء اختياراته، وتخلف طرق التدريس وتخلى المعلم عن دوره، والعجز عن تيسير القواعد، وتدريس تاريخ الأدب مستنداً إلى فكرة العصور الأدبية المرتبطة بالعصور التاريخية. وتيسير الكتابة وقواعد الإملاء، والوضع الراهن لموضوعات البلاغة العربية ودورها الوظيفى فى الإبداع الأدبى، وغيرها من الموضوعات التى تستلزم ابتداء نظرة عصرية موضوعية، ورؤية منصفة. غير جامدة أو متعصبة. وفكراً متفتحاً، يتكىء على دعائم من وعى التراث واستيعابه وتجاوزه والانطلاق إلى آفاق المُعاصرة والحداثة، والانغماس فى ثقافة العصر وروحه. مشاركين ومضيفين. دون أن تنبت الوشائج الحية بين الماضى والحاضر.

بهذه النظرة تستقيم المسيرة، ولا تصبح لغتنا الجميلة بما تحمله وتمثله، بمثابة القافلة تسير وعنقها إلى الوراء، بحثاً فى زوايا الماضى البعيد عن قيم الازدهار ودستور البلاغة والفصاحة وأسس التفاضل فى التعبير.

ولقد كان عميد الأدب العربى الراحل الدكتور طه حسين من أسبق الذين التفتوا إلى حقيقة هذه النظرة العصرية المتكئة على الوعى بالتراث واستيعابه وهو يقول: «الظاهرة التى يمتاز بها أدبنا والتى تمكننا من درسه وتتبع أطواره هى أنه قديم جداً وحديث جداً، قد اتصل قديمه بحديثه اتصالاً مستقيماً لا انقطاع فيه ولا التواء، ففيه خصائص الآداب القديمة وفيه خصائص الآداب الحديثة، وفيه ما يمكننا من استخلاص حديثه من قديمه، وما يغنينا عن كثير من الفروض.

أدبنا العربى (وأيضاً لغتنا العربية) كائن حى أشبه شىء بالشجرة العظيمة التى نبتت جذورها وامتدت فى أعماق الأرض، والتى ارتفعت غصونها وانتشرت فى أجواز السماء، والتى مضت عليها القرون والقرون، ومازال ماء الحياة فيها غزيراً ويجرى فى أصلها الثابت وفى فروعها الشاهقة فى السماء.

ولا يغيب عن طه حسين الالتفات إلى عبقرية لغتنا الجميلة الموسيقية، وكيف أصبحت هذه «الموسيقية» روحاً منسابة فى شرايين الإبداع الأدبى، حين يقول: «فأدبنا العربى لا يهمل الأسماع إهمالاً قليلاً أو كثيراً، وإنما يعنى بها أشد العناية. فهو أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدباً مكتوباً مقروءاً. وهو من أجل هذا حريص على أن يلذ اللسان حين ينطق به، ويلذ الأذن حين تسمع له، ثم يلذ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تصغى إليه.

وليس أدل على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشىء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقة الأسلوب ورصانته. وقد جعلوا الإعراب واصطفاء اللفظ والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسِّر على اللسان منطقه، ويزين فى الأذن وقعه، أساساً لكل هذه الخصال.

ويقدم العالم اللغوى الراحل الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه الرائد «دلالة الألفاظ» تفسيراً لذلك: فقد عُنى العرب القدماء بموسيقية الكلام لأنهم لم يكونوا أهل كتابة وقراءة، بل أهل سماع وإنشاد. والموسيقى لازمة لمن يصغى فيحسن الإصغاء، أو ينشد فيحسن الإنشاد ويستحوذ على الأسماع. فهى إذن لغة أذن وليست لغة عين، ولغة الأذن تخاطب دائماً الجوانب الموسيقية فى النفس وتعتمد على الجرس: جرس الكلمة واللفظة وجرس الجملة والعبارة. ومن هنا كانت المحسنات اللفظية والبديعية، وكان السجع: السجع اللفظى والسجع الذهنى، فى مجتمع تسوده الأمية، وينتقل فيه التراث من جيل إلى جيل بالرواية والرواة.

فى مقابل هذا الفيض

العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشىء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقة الأسلوب ورصانته



كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

الأفـــــراح

كان أكابر القوم يبالغون فى نفقات الأفراح ويبذرون المال بغير حساب، سواء فى المآدب أو الزينات ومعالم الأفراح، ولا يكتفون بليلة واحدة، بل يحيون فى العادة ثلاث ليال، منها ليلة الخضاب «الحناء» وهى التى تقام قبل ليلة الزفاف بمنزل العروس.

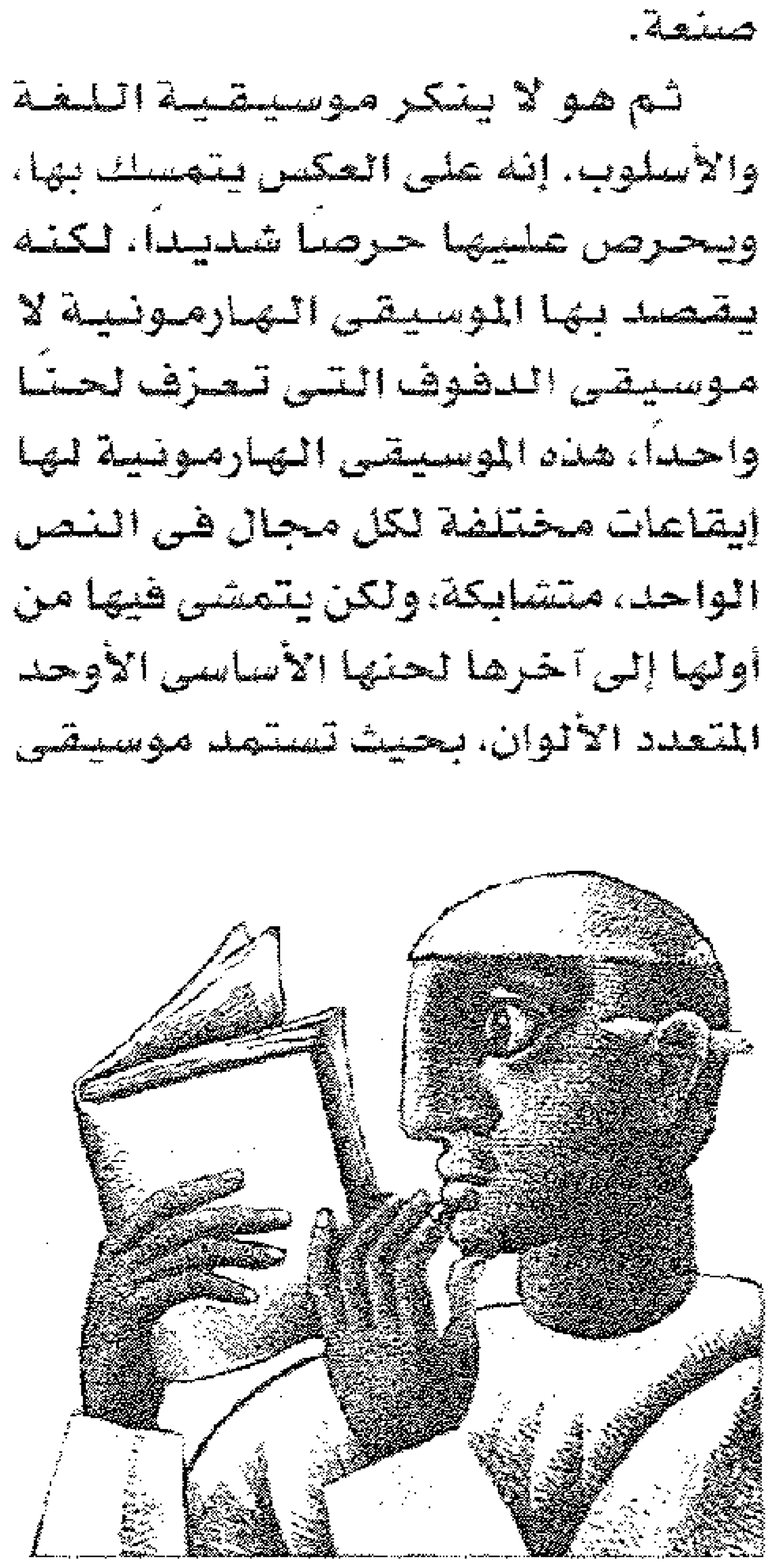
وفى ليلة الزفاف كان العريس يرسل العربات الفخمة مع والدته، لأخذ العروس من بيت أهلها. وتكون العربة المخصصة لها مزينة بالشيلان الكشميرية، يجرها اثنان أو أربعة من جياد الخيل، ويخفرها اثنان من الأغوات على الجياد، «والمقدم» التابع للعروس، وهو يسير على قدميه بجانب العربة. وكان هؤلاء الثلاثة والسائس يرتدون «شيلانًا» من الكشمير تهدى إليهم من العريس. وكان المتبع فى سير الموكب أن تتقدم والدة العريس على العروس لتقودها إلى المنزل، ثم تتلوهما والدة العروس. ويسير هذا الموكب خلف الموسيقى فيطوف بعض الشوارع المهمة حتى يأتى إلى منزل العريس، فيتقدم هنالك لاستقبال عروسه، فتأبى وتتمنع، ولا تنزل إلا بعد إلحاح كثير. وعندئذ تنحر الذبائح على عتبة باب المنزل ويسير العريس مع عروسه حتى باب الحريم بين صفين من الأغوات فى فناء المنزل يمسكون بالشيلان الكشميرية لمنع الرجال من رؤية العروسين. ثم يستقبلهما المغنيات «العوالم» ويسرن أمامهما فى وسط المدعوات إلى «الكوشة». وفى أثناء ذلك تبذر «البدرة». وهى عبارة عن نقود ذهبية صغيرة من ذات الخمسة القروش. أو فضية من ذات القرش الواحد. يبذرها أهل العروسين على رأسهما والغرض منها صرف الحاضرات عن النظر للعروسين منعًا للعين».

من المحسنات. الذى نبَّه إليه العالم اللغوى الدكتور إبراهيم أنيس. تجىء صيحة أديبنا الكبير يحيى حقى تحت عنوان «حاجتنا إلى أسلوب جديد» مناديًا بما أسماه بالأسلوب العلمى الذى يعتمد على تحديد المعانى، ومن ثم اختيار ألفاظ محددة لها. ألفاظ حتمية، بحيث لا يكون المكان صالحًا إلا للفظ واحد، ويتعذر أن يستبدل به لفظ آخر. فإذا فعلنا ذلك أزلنا. دفعة واحدة. عن أسلوبنا كل علل الزيف والتبرج الفارغ والتزويق الذى لا طائل تحته.

وفى رأى يحيى حقى، أنه متى تحددت الألفاظ وأصبحت حتمية، زال الاستطراد، وعيب الإضافة. ومال الأسلوب إلى الجمل القصيرة التى ترتبط برباط ذهنى لا لفظى، فتقل بذلك الزيادات. وهى عوائق لاداعى لها. من كثرة حروف العطف فإن سير الذهن فى الأدب ليس خطوًا متتابعًا رتيبًا، بل هو توثب يفرض على ذهن القارئ توثبًا مثله يخرجه من سكون إلى حركة، وستخرج أيضًا من الإطالة والإفاضة إلى الإيجاز النبيل الكريم، وهو سر البلاغة فى العربية.

ويحيى حقى. فى دعوته هذه. يؤكد أنه لا يقصد بهذا الكلام الأسلوب (التلغرافى) الذى نادى به آخرون منهم سلامة موسى، إنه يتكلم عن الأسلوب الأدبى، الجمال من شروطه الأساسية التى لا غنى عنها، ولا يوجد فن بلا صنعة.

ثم هو لا ينكر موسيقية اللغة والأسلوب. إنه على العكس يتمسك بها، ويحرص عليها حرصًا شديدًا، لكنه يقصد بها الموسيقى الهارمونية لا موسيقى الدفوف التى تعزف لحنًا واحدًا، هذه الموسيقى الهارمونية لها إيقاعات مختلفة لكل مجال فى النص الواحد، متشابكة، ولكن يتمشى فيها من أولها إلى آخرها لحنها الأساسى الأوحد المتعدد الألوان، بحيث تستمد موسيقى



الأسلوب لا من الأثر البدائى الآلى الذى يولد ويموت عند التلفظ بالكلمات والانبهار بأول رنينها، بل تستمد من روح الكاتب أو الشاعر: من نفسه، مزاجه، شعوره، فيضه، انطلاقه.. موسيقى تسمو على الأثر الساذج الفقير البسيط إلى لحن غنى أعمق متشابك، ينشأ بالتأمل الشامل والصبر. ستكون هذه الموسيقى فى حقيقة الأمر. لا الألفاظ مهما حذقت. هى المعبرة عن المعانى!

لقد جاءت دعوة يحيى حقى إلى أسلوب جديد، مستندة إلى ركائز أساسية فى رأيه، هى التحديد والحتمية والعمق فى مواجهة ظواهر مرضية شائعة، هى الميوعة والسطحية والسذاجة!

لغتنا الجميلة..

ولكن أى جمال؟

هل يكمن هذا الجمال فى كل ما اتسعت له فنون البلاغة العربية. كما يضمها موروثها العربى. فى دوائر علوم المعانى والبيان والفصاحة والبديع، بحيث تستوقفنا منظومة هذه البلاغة تشبيهًا واستعارة وإيجازًا ومساواة وكنايات ورموزًا وملاءمة لمقتضى الحال ومراعاة للموقف والسياق؟

هذا المفهوم البلاغى الجمالى التراثى ارتكز على مفهوم الفصاحة واللَّسن الذى جسده بيت الشاعر زهير ابن أبى سلمى:

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده
فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدم

والمقولة العربية المأثورة: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

والحديث الشريف: «إنَّ من البيان لسحرا».

غير أن المفهوم العصرى لجمال العربية يأخذنا إلى «عصرية» اللغة، وإلى جمالها الوظيفى، فى كونها قادرة على الوفاء باحتياجات العصر، متسعة لكل جديد فيه من ألفاظ الحضارة. أى ألفاظ الحياة العامة الجديدة والمستحدثة. ومصطلحات العلوم. من هنا، يصبح للجمال معنى مغاير وفضاء مختلف. إنه القدرة على استيعاب الجديد وهضمه وتمثله، والقدرة على إيجاد الحلول للعديد من المشكلات والمواقف المستجدات، من منطلق أن هذه العربية المعاصرة هى السجل المدون والمكتوب والمنطوق لعلوم العصر الحديث ومعارفه، تتنوع مجالاتها بتنوع حضارة المجتمع وعلومه وفنونه. الجمال هنا يتجلى فى مفهوم وظيفى وحقول دلالية مغايرة، وضخ الآلاف من المفردات والتعابير

والتراكيب التى تتطلبها حياتنا العربية الجديدة، المتلئة والمتفجرة بالمعرفة الإنسانية يومًا بعد يوم، ولا نستطيع ملاحقتها . مهما حاولنا . بأية صورة من الصور.

يكفى أن نتأمل الآن نماذج تسيل بها أقلامنا وتنطق بها شفاهنا حين نقول: عقلنة العمل العربى، عصرنة المجتمع، شخصنة الأزمة (أى التركيز على الجوانب الشخصية على حساب القضايا الحقيقية)، قرصنة الموقف (أى فرض صيغة قرصاى فى أفغانستان على بلاد أخرى)، المناداة بالوطننة قبل العولمة.

وأن نتأمل العديد من المصادر الصناعية التى صيغت من أسماء جامدة أو مشتقة مثل: «الندية، الحتمية، العفوية، العقلانية، الإشكالية، التلقائية، الانقرائية (أى القابلية للقراءة)». ومثلها من المصادر: التبادلية، التراجعية، التواطؤية، التعادلية، التصادمية، التراجعية. ومن الظرف: التحتية، الفوقية، الخلفية، الدونية، الوسطية.

ومن اسم الفاعل: الجاذبية، العائلية، الهامشية، التابعية، الفاعلية.

ومن اسم التفضيل: الأحقية، الأفضلية، الأسبقية، الأهمية.

ومن الجموع: الجماهيرية، الحدودية، الرجالية، الشبابية، الاستخباراتية، العملياتية، المعلوماتية.

ومن الضمائر: الأنانية، الهوية (الأولى من «أنا» والثانية من هو).

والنسب من الجموع (والقاعدة القديمة تنص على أن يكون النسب من المفرد لا الجمع): درس أخلاقى، اتحاد طلابى، تدريب مهنى، بحث وثائقى، رسائل إخوانية، مدن سواحلية، مطلب جماهيرى، روابط أسرية، تقارير صحفية، صوت ملائكى.

واشتقاق مصادر جديدة من أسماء جامدة: أسلمته من إسلام، تطبيع من طبعه، أقلمة وتأقلم من إقليم، أرجحه من أرجوحة، تلفزة الحفل، بلورة الفكرة، حوسبة ملف القضية، تسييس الدين، جدولة الديون، تحجيم الخصوم، تسيد الموقف.

ومثلها الأفعال الجديدة: يتموضع، يتمفصل: يتمحور، يتمسرح، يتمدين، يتأنسن (أنسنة المعلومات).

فتـــح بـــاب

الاجتهاد اللغوى:

إن فتح باب الاجتهاد فى اللغة . اشتقاقًا ونحتًا وتعريبًا وقياسًا ومجازًا وتيسيرًا . هو طريقنا الوحيد إلى المستقبل ومعنا لغة عصرية قادرة على اقتحام هذا المستقبل والإسهام فيه علمًا وإبداعًا وقيامًا بالمسئوليات ووفاءً بالاحتياجات. هو طريقنا الوحيد إلى عربية معاصرة تتسع للثقافة العلمية وتطور العلم والتكنولوجيا، وعربية معاصرة تتسع لمغامرات الإبداع الأدبى وفنونه، وفضاءاتها التى لا نهاية لتخومها وأبعادها، وعربية معاصرة تصبح عروة وثقى لهويتنا وثقافتنا فى حوار الثقافات والحضارات واللغات، عربية معاصرة تسد الثغرات المعجمية حين نبحث عن كلمة فلا نجدها، أو عن دلالة عصرية لمفردة معجمية فنفتقدها، ونضطر . تحت ضغط الحاجة الملحة فى كثير من الحالات . إلى القبول بالكلمة الأجنبية. هنا يصبح جمال العربية . فى تجلياته الوظيفية العصرية . دفاعًا عن عروبة القلم واللسان، عن «الهوية» التى لا نريد لها أن تضيع أو تهتز أو تتلاشى فى هذا الفيض الكونى الهائل، مما تضمه الكيانات العظمى من ثورة معلوماتية ومصطلحات علمية وألفاظ حضارة فى شتى فروع المعرفة.

فى إطلالة لغتنا الجميلة على مستهل قرن جديد، لابد لنا من وقفة قومية مع الواقع اللغوى الراهن والمأمول، وفتح باب الاجتهاد فى اللغة (اللغة التى هى فى حقيقتها انتماء وهوية) وعدم ترك أمور اللغة وقضاياها للغويين وحدهم، لأنها قضية المجتمع كله، وقضية الحياة الجديدة كلها، لا تتحكم فيها هيئة أو مؤسسة أو مجمع، ولا تدير شئونها وزارة أو وزارات، لأنها مسئولية كل المواطنين، وبصفة خاصة: كل المثقفين والعلماء والكتّاب والمبدعين.

هــامــش أخـيـر:

من المفيد الرجوع إلى كثير من الأبحاث اللغوية العصرية التى تركز على «العربية المعاصرة» لعدد من علمائنا اللغويين: الدكتور إبراهيم أنيس، الدكتور السعيد محمد بدوى، الدكتور كمال بشر، الدكتور أحمد مختار عمر، الدكتور محمود فهمى حجازى، الدكتور محمد حسن عبدالعزيز.. بالإضافة إلى وثائق المؤتمر الأخير لمجمع اللغة العربية فى القاهرة (أبريل ٢٠٠٣) ووثائق المؤتمر الأول لقسم علم اللغة فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة (ديسمبر ٢٠٠٢) وأبحاث الموسم الثقافى الحادى والعشرين لمجمع اللغة العربية الأردنى (مايو ويونيو ٢٠٠٣) وقد أفدت منها جميعًا فى التوثيق العلمى وفى التزود بالنماذج لهذه الشهادة.■

كتـــاب الـزاويـــة

مذكرات أحمد شفيق باشا

المــآتم والجنــائز

كان نظام الجنازة بالنسبة للأسر الغنية أن يتقدم الموكب «الضحايا» من الجاموس أو البقر، ثم «الكفارة» وهى جمل يحمل صندوقين «صحارتين» مملوءتين بالخبز. وقد اقتعد غارب الجمل رجل يوزع طول الطريق مما عبئت به الصناديق من الخبز؛ كما يتبعه جمل آخر على نفس الصورة لتوزيع التمر الجاف والفاكهة ثم طائفة من عسكر البوليس ركبانًا أو مشاة: ثم أرباب الطرق المختلفة والمولوية. وقراء دلائل الخيرات، وحاملو القماقم والمباخر ينثرون ماء الورد وأريج البخور فى الطريق وقد حزمت أوساطهم بقماش رقيق من الحرير «الزردخان»: ثم غلمان المكاتب ينشدون قصيدة البردة المعروفة. فالنعش يتبعه أهل المتوفى والمعزون؛ ثم السيدات وتنحر الذبائح على باب القبر عند وصول النعش، وتوزع لحومها على الفقراء.

أما المآتم فكانت مظاهر الحزن فى الأسر الكبيرة رزينة: وفيها حشمة ووقار؛ وكانت ليالى المآتم فى العادة ثلاثًا؛ ثم تقام بعد ذلك حفلات متعاقبة فى الأخمسة الأربعة التالية: وكانت تنصب السرادقات. وتمد فيها الموائد الكثيرة للمعزين فكانت حالة ينطبق عليها المثل العامى «موت وخراب ديار» يختم ذلك بليلة الأربعين.

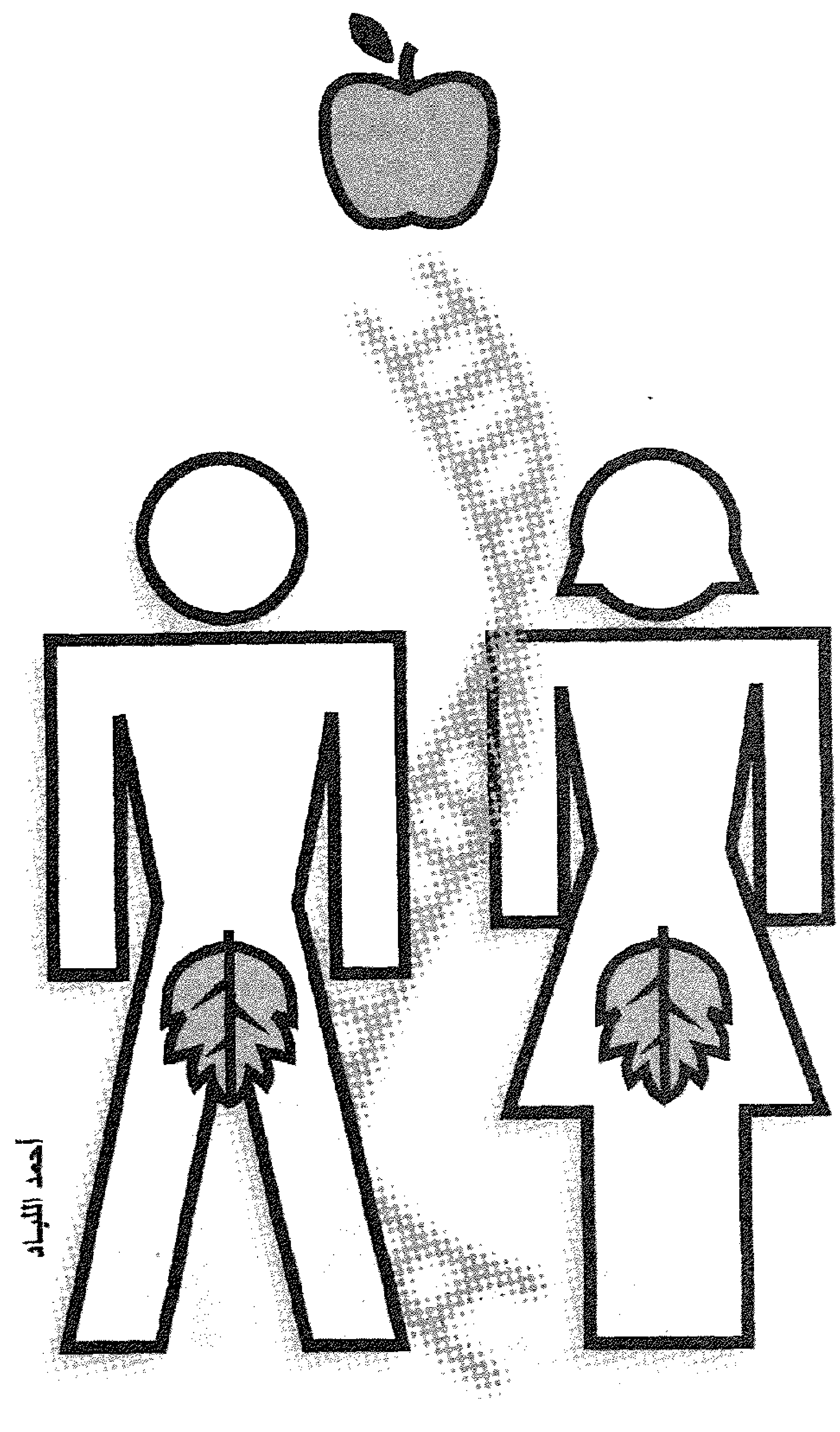
أما المظاهر المفجعة الشديدة فكانت تبدو فى الطبقات المتوسطة والدنيا، حيث كانوا يشيعون الميت بالندب، والعويل، ولطم الخدود حتى المدافن. ثم يحضرن النادبات فى الأيام الثلاثة والأخمسة. وكان المتبع عندهم أن تصبغ الملابس بالنيلة وأن يغطى الأثاث بالسواد. وظلت هذه العادة حتى ألغيت بأمر الخديو توفيق.

فى المستقبل، سنكون بالفعل «آلات من لحم» كما يقول بعض العلماء، وفى الوقت الراهن بإمكان آبائنا كافة أن يختاروا أسماءنا ولكن ماذا لو أمكنهم اختيار كل شىء يخصنا

حلم الخلود

يحول الإنسان إلى مسخ

مارجريت أتوود



[١]

كتاب Enough (كفى) لبيل ماكيبن ملخص عاطفى ومقتضب وفاتر، ومحصور فى نقطة ضيقة، ومثير للضحك فى بعض الأحيان، وحَسَن النية بطريقة مؤثرة، وضرورى للمستقبل الذى يقترحه «العلم» للجنس البشرى. وهذا هو نفسه بيل ماكيبن الذى كتب The End of Nature (نهاية الطبيعة) وتناول فيه كيفية إعادة الإنسان العاقل Homo sapiens لترتيب محيطه الحيوى بمساعدة النباتات المعدلة وراثياً بحيث تتلاءم مع ما يعتقد أنها مصالحه، وكذلك كتاب Long Distance (المسافة الطويلة) عن سباقات الماراثون.

يبدو أن بيل ماكيبن شخص ذكى ومفكر، إلا أنه فى الوقت ذاته رقيق القلب ومتفائل طبقاً لما تشى به كتاباته. فهو يحب المشى فى الغابات، ويبدو أنه رشيق جداً، وتشبه صورته التى على الغلاف شخصاً لا تود أن يلعب ضدك مباراة بريدج لأنه يعرف بالفعل ما هى الأوراق التى فى يدك. بعبارة أخرى، فهو قد يؤهل لعضوية فرع قوى من البشاعة ذات المستوى المرتفع من الذكاء، ولا يمكن رفضه فقط لكونه معارضاً أقل من العادى للتطورات التكنولوجية على قدر من الغباء يمنعه من فهم أجزاء الجسم والمخ العظيمة المعدلة التى ستكون عما قريب معروضة عليك وملكاً لك.

ستكون هذه الأجزاء معروضة مقابل ثمن بالطبع. نعم بالفعل، مقابل ثمن. فقد كانت الأتعاب التقليدية التى تدفع مقابل هذا النوع من الأشياء هى روح الشخص، ولكن من ذا الذى يعير أى اهتمام الآن لتلك الأسمال اللاهوتية البالية التى لا يمكن تحديد موضعها باستعمال مسبار المخ؟ ولكن انتظر، فالصفقة المميزة حزمة فائقة! فكيف لك إذن أن ترفضها؟ إنها تتضمن الكثير مما تصنع منه أحلام البشر.

كان فاوست يرغب فى شىء من هذا القبيل، وكثيرون غيره يرغبون فيه. إنه الشباب الدائم، والجمال الإلهى، والذكاء المفرط، وجسم أبطال كمال الأجسام.

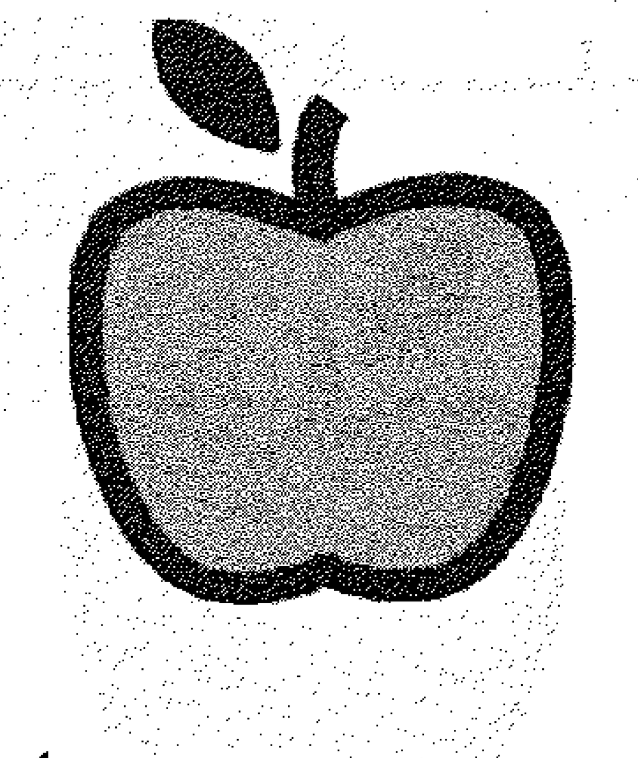
Enough: Staying Human in an Engineered Age
كفى.. الإنسانية فى عصر الهندسة الجينية
ترجمة: أحمد محمود
مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس
By: Bill Mikibben
Times Books, 271 PP., $ 25.00

ويعرف الذين تربوا منا على الصفحات الخلفية من المجلات المصورة جاذبية ذلك. وهم لن يضحكوا مرة أخرى حين تجلس على البيانو لأنه ستكون لديك أصابع أمهر العازفين وعبقرية موتسارت. ولن يجرءوا على ذر الرمال فى وجهك على الشاطئ لأنه سيكون لك جسم هرقل. ولن ترفض لك فتاة موعداً لأن البثور السوداء القبيحة التى فى وجهك ستكون قد اختفت ومعها الكثير من الملامح الأخرى التى يمكن أن تعيش بدونها. وإذا ما اتجهنا إلى بعض هموم الكبار مثل الموت، فإنك لن تضطر لدفع أموالك لعمل حاوية تابوت من الأسمنت، ليس فقط لأن من تحب سيكون آمناً الليلة، بل سيظل على قيد الحياة، وإلى الأبد! وكذلك أنت.

ويتشكل الخيط بالطريقة الصحيحة، وسوف يصبح خيطاً طويلاً. (يذكر كتاب «كفى» أن اثنين من فنانى كاليفورنيا أقاما قطعة من الفن الخيالى فى هيئة بوتيك أسمياه Gene Genies Worldwide مع كتيبات مطبوعة توضح ما يمكنك شراؤه من الجينات وتفيض بالاستفسارات الجادة). وأى إنسان يظن أنه لن يكون هناك طلب على ما يُفترض أنه معروض للبيع يكون مخرفاً. ولكن بيل ماكيبن يأتى حاملاً لافتتى الوعاظ الذين يقفون على قارعة الطريق مستنكراً المشروع برمته ومتنبئاً بنهايته المحتومة. فسوف تكون هناك صيحات استهجان من مفسدى البهجة ومعكرى صفو الأفراح، ناهيك عن سكان الكهوف والمعترضين والقلقين. وكما قيل للأمير تشارلز الذى عارض للتو تكنولوجيا النانو على أساس أنها قد تحيل العالم إلى كتلة رمادية لزجة، سوف يقال لماكيبن أن يبعد أنفه عن الموضوع لأنه ليس من شأنه.

إلا أن بيل ماكيبن يقول إن البشرية من شأنه. وهو يخاطب ذلك البخيل الصغير داخل كل منا، ويوضح لذلك البخيل الصغير الجشع لماذا لا ينبغى له أن يرغب فى المزيد والمزيد والمزيد، بل والمزيد.

المزيد من ماذا؟ هناك استخدامان رمزيان لكلمة «المزيد» يردان على الذهن. أحد هذين الاستخدامين هو بالطبع



كلمة «المزيد» التى نطقها أوليفر تويست حين جوعه المسئولون الفاسدون فى إحدى دور المشردين. وكلمة «المزيد» هنا هى الرد المشروع لعبارة «لا يكفى».

ويوحى ماكيبن بأننا سنجد كلمة «كفى» التى هى عنوان الكتاب متعة بالغة إذا نحن نظرنا إليها النظرة الصحيحة. إنها نحن كما نحن عليه، ربما مع القليل من التحسينات المسموح بها. وما يزيد على ذلك فهو أكثر من اللازم. وهذا العدد المغرى من «المزيد». ذلك أن هناك الكثير منه. الموجود على المزيد والمزيد من أشجار المعرفة التى تزحم الفضاء العلمى الحديث بكثافة تمنعنا من رؤية الغابة. ويحمل ماكيبن فأساً ويخرج ليشق طريقاً. فأى التفاح يقطف وأى التفاح يترك؟ وما مقدار شدة تفكيرنا قبل أن نقضم القضمة المحتومة؟ ولم لا ينبغى لنا أن نفرط فى الأكل، وما هو دافعنا إلى ذلك إن نحن أفرطنا؟ هل هى القصة القديمة ذاتها: أى أننا نريد أن نكون كالآلهة؟ ولو كان هذا هو الحال، فقد قرأناه فى صوره الكثيرة. ولم تكن نهايته سعيدة فى يوم من الأيام، وحتى الآن.

تنقسم الأصناف الموجودة على بوفيه التغيير الإنسانى إلى ثلاثة أصناف تقريباً. أولاً: التغيير الجينى، أو توصيل الجينات، مما يجعل الأب الأصلع الذى يبلغ طوله خمسة أقدام ينجب ابناً طوله ستة أقدام أشقر الشعر يشبه الجار الملاصق له. وسوف يوفر ذلك عذراً جديداً للتشابه. (إذ ستقول الزوجة: «لقد اخترنا هذا يا حبيبى! هل تذكر ذلك؟») ثانياً: تكنولوجيا النانو، أو صنع أجزاء مكونة من طبقات أحادية الذرة يمكنها استنساخ نفسها وتجميع المادة وتفكيكها. قد يجرى إدخال بعض من هذه فى أجسامنا لإصلاحها، تماماً كتلك الغواصة المصغرة التى ظهرت فيها الرائعة راكيل ولش فى فيلم Fantastic Voyage (رحلة خيالية) ثالثاً: السيبرنيطيقا «علم التحكم الآلى» أو دمج الإنسان بالآلة، كشخصية «رجل بستة ملايين دولار». على الأقل سيكون بمقدورنا كشف المستور.

وهناك فكرة رابعة ينظرون إليها نظرة خاطفة، وهى «تجميد نفسك» أو رأسك تجميداً سريعاً جداً إلى أن يحين الوقت الذى يشق فيه الطريق إلى الخلود. وحينذاك يخرجونك من حالة التجميد ويعاد لك شبابك وصحتك، وإذا كان خيارك هو الرأس فقط فيمكن زراعة جسم لك من بضع كشطات من الحمض النووى الخاص بك أو بغيرك. إن استثمار ولو القدر القليل من هذا المخطط يضعك فى نفس فئة من يشترون وهم سعداء كوبرى بروكلين من رجال يبدو عليهم أنهم نصابون يرتدون معاطف المطر، لأن الشركة. نعم ستكون شركة. المسئولة عن رأسك المجمد لن يكون عليها فقط أن تظل قادرة على الوفاء بالتزاماتها المالية. فالإفلاس معناه الذوبان. بل أن تكون كذلك على قدر من الأمانة لا تشوبه شائبة.

سيكون لدى كل جيل من الأطفال أحدث التحسينات؛ فلا بد أن يكون أكثر ذكاء من الجيل الذى قبله، وأكثر منه جمالاً، وأكثر منه خلواً من المرض، وأطول منه عمراً. وبذلك سيكون كل جيل نسيجاً وحده؛ حيث سيكون منعزلاً ومكتئباً، كموديل سيارة العام الماضى

يجتذب كل مجال من مجالات الجهد البشرى حصته من المخادعين وفنانى التلاعب والغش، غير أن هذا قد يبدو مجالاً يتمتع بكل مؤهلات النجاح. فما الذى يمنع القائمين عليه من إيداع أموالك فى البنوك، وإخضاعك للتجميد المبدئى، وبعد ذلك يلقون بذاتك المنصهرة فى القمامة مع إلقاء اللوم على انقطاع الكهرباء، أو يكون من الأفضل. إذا كان المساهمون ينتظرون تحقيق أرباح كبيرة، إعادة تصنيعك لتصبح طعاماً للقطط؟ إن أهرام الملوك المصريين المحنطين، التى نهبت تماماً بمجرد أن أدار أقاربهم ظهورهم لها، تقف دليلاً ساطعاً على هذا النوع من التفكير، تماماً مثل جبانة هاى جيت فى لندن، وهى جنة الخلود التى قُسِّمت إلى قطع غالية الثمن أصبحت أدغالاً من النباتات غير المشذبة بعد أن جف نبع الأموال.

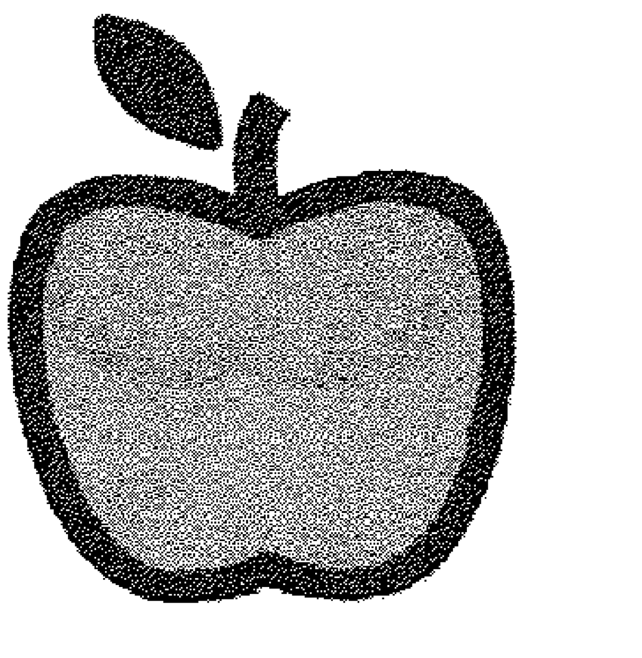
أما حجج ماكيبن المتحمسة فمن نوع أكثر تحديداً؛ فهو ليس روائياً أو شاعراً، ولذلك فهو لم يهبط كل المسافة إلى داخل دكان كراكيب القلب الكريه. وهو يفترض وجود قدر معين من الإخلاص فيمن هم أقل غرابة بين من يدعون إلى تلك التطورات، وهو يوجه دعواه إلى ملكاتنا العقلية والأخلاقية. وهو يعتقد أنه يجب علينا العمل بدافع من احترام التاريخ الإنسانى والجنس البشرى.

إنه يتناول فى البداية الهندسة الوراثية الموجودة بالفعل فى فول الصويا وليست ببعيدة عن الإنسان العاقل، حيث أصبح لدينا الأرنب الأخضر الزاهى والعنكبوت العنزة. كما أن توصيل الجينات هو الرد الحديث على الرغبة الأزلية فى صنع نموذج أكثر كمالاً من أنفسنا. والرواية التى حققت الرقم القياسى هى «فرانكنشتاين» لمارى شيلى؛ فنحن لا يمكننا التوقف عن التجريب، لأنه مسل من ناحية، ولأننا نعتز جداً بقدراتنا من ناحية أخرى. إلا أننا نغامر بخلق مسوخ.

ويعتمد توصيل الجينات على الاستنساخ. حيث يشرح ماكيبن كيف يتم ذلك. ولكنه ليس الاستنساخ نفسه. إنه يشمل حقن جينات مختارة. غير جينات الوالدين. فى البويضة التى تُزرع بعد ذلك بالطريقة المعتادة (أو التى ستظل كذلك إلى أن يظهر الأطفال الموضوعون داخل الزجاجات فى رواية «عالم جديد رائع»، وساعتها يمكننا الاستغناء تماماً عن الرحم). ويقول ماكيبن إننا إذا أصبحنا محسَّنين وراثياً بهذه الطريقة. أى حسننا آباؤنا قبل أن نولد. فسوف تفقد الحياة بهجتها وغموضها لأننا لن نكافح لبلوغ الكمال. ومنجزاتنا لن تكون «منجزاتنا»، وإنما ستكون مبرمجة داخلنا. ولن نعرف إن كانت مشاعرنا هى بالفعل «مشاعرنا»، أو إن كان. كما هو الحال بالنسبة للذكريات المزيفة التى جرى زرعها فى النسخ فى فيلم Blade Runner. بإمكان أى شخص الحصول عليها. لن تكون ذواتنا الفريدة، بل سنكون تجسيداً إجمالياً لنزوات السوق. وسنكون بالفعل «آلات من لحم» كما يسمينا بعض العلماء. وفى الوقت الراهن بإمكان آبائنا كافة تقريباً أن يختاروا أسماءنا، ولكن ماذا لو أمكنهم اختيار كل شىء يخصنا؟

الأدهى من ذلك أننا سندخل فى منافسة مع الآخرين، وبالتالى سيكون لدى كل جيل من الأطفال أحدث التحسينات؛ فلا بد أن يكون أكثر ذكاء من الجيل الذى قبله، وأكثر منه جمالاً، وأكثر منه خلواً من المرض، وأطول منه عمراً. وبذلك سيكون كل جيل نسيجاً وحده؛ حيث سيكون منعزلاً ومكتئباً، كموديل سيارة العام الماضى، حتى قبل أن يبلغ العشرين، حيث يكون كل رد فيه ملتصقاً بإحدى أوراق التحسين الطافية التى تقل بضع خطوات عمن يليه. يضاف إلى ذلك أنهم سيكونون مقطوعين عن التاريخ. عن شجرة عائلتهم. لأنه من ذا الذى سيعرف الشجرة التى كل منهم استمرار لها. فسوف يحملون القدر اليسير من الصلة التى تربطهم بمن يسمون أسلافهم. وقد تكون الوحدة والإحساس بالانقطاع شديدين.

ولا يمضى ماكيبن قدماً ليبحث الجحيم النهائى الذى يمكن أن يخلقه هذا الموقف. تخيل المراهقين المنتحبين والعابسين الذين سوف يصبون جام غضبهم على آبائهم الذين اختاروا ملامح أطفالهم من أحد الكتالوجات. وسوف يكون اختيارهم. حتماً. اختياراً خاطئاً. وسوف يستعاض عن عبارة «لم أطلب أن أولد» بعبارات غاضبة من قبيل «لم أطلب أن تكون لى عينان زرقاوان» أو «لم أطلب أن أكون بارعاً فى الرياضيات». احرقوا كتيب الجينات هذا! إذا كان طفلك ينتحب لأنه ليس محسَّناً بالقدر الكافى، يمكن فقط أن تقول له إن ذلك لم يكن فى مقدورك. (قد يرد دعاة التحسين الجينى بأنه مادمت ستكون قادراً كذلك على اختيار



لكن ما الذى سنفعله اليوم بطوله حين نصبح فى حالة جيدة وخالدين بحق؟ ألن يصيبنا الملل بسبب الأبدية والرتابة وعدم وجود حدث مهم؟ ألن يصيبنا الضجر؟

الميول. فمن الطبيعى أن تختار نوعاً لا ينتحب انتحاب المراهقين أو يعبس عبوسهم أبداً. ولا تهتم، فهؤلاء الناس لن يتحدثوا عن أطفال من لحم ودم، ولكن عن أطفال مجهزين).

وكذلك لم يقطع ماكيبن كل الشوط نزولاً إلى مجالات الحسد والغش والرشاوى وانتقام جنون العظمة. فما الذى يمنع عدوك من رشوة طبيب الجينات الخاص بك كى يجعل طفلك مثل هانيبال آكل لحوم البشر؟

ولكنك قد تسأل: وماذا عن الأمراض الوراثية؟ لماذا ينبغى أن يصاب أى طفل بالشلل المخى، أو التوحد، أو الشيزوفرينيا، أو مرض هنتنجتون، أو الكثير من العلل الأخرى التى ترثها الجينات؟ إنها لا ينبغى أن تحدث ما دام هنالك علاج، وهناك بالطبع علاج. فماكيبن يشير إلى أن هذه الحالات يمكن القضاء عليها دون اتخاذ أقصى إجراء. (بعد أن طبع كتاب «كفى» وقبل أن يكتب هذا العرض، توصل علماء كنديون إلى الجين المسبب لمرض التوحد. والبقية تأتى). وما إن يجرى تحليل جينوم الآباء المحتمل أن ينجبوا أبناءً مصابين بأمراض حتى يمكن إبلاغهم بأية عيوب. ويمكنهم فى هذه الحالة أن يسلكوا طريق أطفال الأنابيب، حيث تختار للزرع البويضات المخصبة الخالية من الجين المسبب للمرض. ولن يتضمن «علاج الجينات الجسدية» هذا إضافة جينات أى شخص آخر. ويقول ماكيبن إن جراحة التجميل والهورمونات وأقراص الفيتامينات وعلاج الجينات الوراثية فيها الكفاية. أما توصيل الجينات فهو أكثر مما يجب.

بعد ذلك يبحث ماكيبن بعمق فى تكنولوجيا النانو، التى قطعت هى الأخرى شوطاً كبيراً من التقدم. فمنذ أسبوعين فقط تحدثت الأخبار عن تكنولوجيا جديدة يمكنها تجميع الماء من الأكسجين والهيدروجين الموجودين فى الهواء، وهو أمر مفيد جداً فى الصحراء. والحكاية الشعبية المتصلة بتكنولوجيا النانو هى «تلميذ الساحر»؛ ماذا لو جعلوا العملية تبدأ بينما يهرب الإنسان الآلى الميكروسكوبى المتكاثر ذاتياً ولا يمكنهم إيقاف ذلك الشىء اللعين؟ فى حالة آلة الماء ستكون النتيجة هى أننا سوف نموت خنقاً، حيث سيجرى تجميع كل الأكسجين المتاح فى هيئة ماء. وقد نخلق مجمعاً يصنع الطعام. تدخل القاذورات من ناحية وتخرج البطاطس من الناحية الأخرى. أو شيئاً يقضى على الأشكال الحيوية المعادية لنا. ولكن ماذا لو أن هذا الإنسان الآلى الميكروسكوبى جن جنونه وهاجم كل الأشكال الحيوية؟ هنا يظهر ما أسماه الأمير تشارلز «المادة الرمادية اللزجة». إنه خوف حقيقى، وهو خوف يناقشه ماكيبن.

وتحظى السيبرنيطيقا والذكاء الصناعى كذلك بنظرة سريعة، حيث يشغل الجمع بين الإنسان والآلة بعض عقولنا ذات الدخل المرتفع. ذلك أن رؤى الرقائق متناهية الصغر المزروعة فى مخك تلمع فى رؤوسهم؛ إن لدينا الآن منظم ضربات القلب، فما هو الفرق إذن؟ لماذا لا نُعمِّد آلات الذكاء الاصطناعى التى لا اسم لها، لأنه بالإمكان صنعها بحيث تشبهنا بالقدر الذى يجعل فيها ما نظن أنه يستحق التعميد؟ أهنالك ما يمنع من تسميتها روحاً؟ ربما يمكننا الحصول على قدرة محسنة على الشم، ورؤية كأشعة إكس. كما أن بلوغ ذروة النشوة الجنسية الاصطناعى أفضل من الطبيعى. كل شىء سيكون أفضل من الطبيعى! لم لا تكون لنا عيون فى أقفيتنا؟ لماذا يكون لنا فم واحد يقوم بكل الوظائف: الكلام والأكل والتصفير؟ إذا كانت لدينا فتحات فمية عديدة سيكون بإمكاننا عمل كل هذه الأشياء فى وقت واحد!

هناك كلام كثير عن العيوب التى تحملناها بفضل أمنا الطبيعة، تلك البقرة الخائنة القذرة. وهذا هو المعنى الخفى الذى لم يجر إخفاؤه بشكل جيد لقدر كبير من تفكير العالم الجديد الرائع. فهؤلاء الناس يكرهون الطبيعة، وهم يكرهون أنفسهم باعتبارهم جزءاً منها. ويورد ماكيبن كلمة عجيبة ألقاها ماكس مور (والاسم الأخير من اختياره هو) أمام مؤتمر الإفراط الحرارى (اشتقت كلمة إفراط حرارى extropy لتكون العكس لكلمة القصور الحرارى entropy). واتخذت تلك الكلمة شكل إهانة وتوبيخ للطبيعة الأم، وقال فى الأساس لا شكر على شىء ووداعاً. فالطبيعة ارتكبت أخطاء كثيرة جداً أهمها الموت. فلماذا نشيخ ونموت؟ لماذا يكون الإنسان هو المخلوق الذى يعرف مقدماً أمر موته؟

وكما هو الحال فى ديانات كثيرة، لا بد أن يكون هناك ميلاد ثان، وهو الميلاد الذى يجتاز إهانة الخروج من جسد. وهو جسد أنثوى. والحصول على جسد بنفسك. كل ذلك الطين والدم والخلايا والموت. لم يجب أن نأكل و.ضمنياً. نخرج الفضلات؟ أمر شديد القذارة. ربما أمكننا تعديل قنواتنا الهضمية بحيث نبتلع حبة صغيرة، مرة كل شهر مثلاً. وربما يمكننا أن نولد من جديد، هذه المرة من رأس اصطناعى بدلاً من أن يكون ذلك من جسم بشرى، ونحمل محتويات أدمغتنا فى آلات، ونبقى فى الفضاء الإلكترونى، كما هو الحال فى روايات ويليام جبسون. ومع ذلك، فإنك إذا قرأت ويليام جبسون فسوف تعرف أن المكان كابوس مثير للغثيان.

[٢]

كل التحسينات التى يناقشها ماكيبن تتجمع حول أمر منهم ليس سوى السخرية القصوى من الخلود. ولا يتحقق الخلود بشكل جيد فى الأساطير والقصص. فإما أن يحصل عليه المرء ولكنه ينسى أن يطلب معه الشباب الدائم كذلك، وبذلك يصبح رعباً قائلاً، وإما أن يحصل على الخلود والحيوية، ولكنه يفقد روحه ويضطر للعيش على دم الأبرياء (ميلموث الجوال، ومصاصو الدماء وغيرهم). والقصص واضحة؛ وهى أن الآلهة خالدون والبشر يموتون. حاول أن تغير ذلك وسوف يزداد حالك سوءاً.

ولكن هذا لا يمنعنا من الرغبة الشديدة فى الخلود. ويعترف ماكيبن بالدافع وراء ذلك؛ فهو يقول، ومعه الحق فيما يقوله: «الاعتراض ولو بصورة بسيطة على الخلود يشبه إلى حد ما الاعتراض على الأيس كريم؛ فقد كان الخلود حلم البشرية الكبير منذ اللحظة التى أصبحنا واعين فيها». ولكن على عكس الأجيال السابقة كافة، قد يتمكن جيلنا من تحقيق هذا الحلم. وقد يغيرنا هذا بحيث لا يمكن التعرف علينا. إذ قد نصبح جنساً مختلفاً؛ جنساً يعيش فى نعمة أبدية، من وجهة نظر مؤيديه. شىء أشبه بالملائكة أو الكائنات السوبر بشرية بصورة من الصور. وقد يعنى ذلك بالتأكيد نهاية السرد. فإذا كانت الحياة لا نهاية لها، فما جدوى رواية الحكايات؟ لن تكون هناك بداية ووسط، لأنه لن تكون هناك نهاية. لن يكون لدينا شكسبير، أو دانتى، أو أى فن من الفنون فى واقع الأمر. فكل ذلك يعج بالفناء وتشيع فيه رائحة الدنيوية. إن ذواتنا الملائكية الجديدة لن تكون بحاجة إلى فهم الفن كما نعرفه. فقد يكون لها فن آخر، مع أنه ربما يكون فناً خالياً من المشاعر الإنسانية إلى حد ما.

ولكن ما الذى سنفعله اليوم بطوله حين نصبح فى حالة جيدة وخالدين بحق؟ ألن يصيبنا الملل بسبب الأبدية والرتابة وعدم وجود حدث مهم؟ ألن يصيبنا الضجر؟ لا. فسوف نتحلق ونتأمل مشاكل من قبيل «من أين جاء الكون؟» و«لماذا يوجد شىء وليس لا شىء؟» و«ما معنى الوجود الواعى؟» ولكن هل ستكون هذه هى نتيجة ما يجمعون على أنه علم ساحر. يقول ماكيبن: «إننا نشترى هذا بإنسانيتنا».

هذه هى الصورة الحسنة من العقل الخالد. وقد قابلت الصورة السيئة الشهر الماضى فى كتاب تلقيته من خلال ناد للكتاب بإحدى المدارس الثانوية. وكان عنوان الكتاب «مخ دونوفان»، والمخ موضوع

الكتاب يجرى حفظه حيًا فى حوض سمك كبير ويغذى بغذاء العقول. وكان أمل العلماء الذين يقومون بهذا هو أن ينمو المخ من حيث القوة والقدرة ويحل مسائل مثل «لماذا يوجد شيء وليس لا شيء؟» ويفيد البشرية. ولكن دونوقان حين كان له جسم كان يتلاعب فى الأسهم أو ما شابه ذلك، وقد وجه قدرات مخه الذى عثر عليه حديثًا فى اتجاه السيطرة على العالم، والقضاء على من يعترضون طريقه. والمخ الكبير ليس معناه مخًا لطيفًا. وقد اتضح ذلك لى فى سن الثانية عشرة، وازداد وضوحًا فى كتاب «كفى». فهناك بعض الأشخاص الذين يملكون قدرًا كبيرًا من المهارة يعملون فى الأجزاء التى سوف تدخل فى تكوين خلودنا، وما يقومون به رائع فى مستويات معينة. مثل اللعب مع أكبر صندوق لعب رأيته فى حياتك. ولكنهم ليسوا الأشخاص الذين ينبغى لهم أن يقرروا مستقبلنا. وسؤال هذا الصنف من العلماء عما ينبغى أن تكون عليه الطبيعة البشرية المحسنة أشبه بسؤال النمل عما ينبغى أن يكون لديك فى فناء منزلك الخلفى. فإنه سيقول لك بطبيعة الحال «المزيد من النمل».

وبينما نتناول هذا الموضوع، فإن المسألة هى من هم «نحن» على وجه التحديد؟ إنهم «نحن» الذين يوعدون بكل هذه الأشياء الحسنة الجذابة. سيكون «نحن» هم «الأغنيجينات»، أى هؤلاء الأغنياء الذين لديهم ثروة من الجينات، ومن المؤكد أن «نحن» ليسوا الستة مليارات من البشر الموجودين بالفعل على كوكب الأرض، ولا العشرة ملايين المتوقعة حتى عام ٢٠٥٠؛ ذلك أن هؤلاء هم «الفقراجينات». إن «نحن» حين يظهرون سيكونون قلة مختارة، وبما أن جيناتنا المحسنة وخلودنا أمر سيكون مكلفًا جدًا، ولن تنجو. على سبيل المثال. من سحق الدبابات، فلا بد أن نتخذ خطوات لحماية أنفسنا. ولا شك فى أن «نحن» سوف يصممون جدرانًا يكاد لا يخترقها شيء، كما فى رواية زامياتن التى تحمل نفس الاسم، أو سوف يعيش «نحن» فى إحدى القلاع بينما «هم»، أى الأقنان والفلاحين الأغبياء والفانون. يموتون بغيظهم فى الخارج. وسوف نتحدث مثل جيمس ديوى واطسون؛ حيث سنقول أشياء من قبيل «لا يسرنا كثيرًا أن نكون فى معية الأغبياء». والواقع أننا سوف نتصرف إلى حد كبير مثل أرستقراطيى العصور القديمة، مقتنعين بحقنا الإلهى. وسوف يكرهنا الأجراء والفلاحون. ولن يظل الوضع هادئًا؛ بل إن الأقنان والفلاحين سوف يحملون عاجلاً أو آجلاً المذارى والمشاعل ويقتحمون المتاريس. ولكى نتحاشى الفلاحين، سوف نضطر للذهاب إلى الفضاء الخارجى. فهل أنتم راضون الآن؟

يتحدى ماكيبن التوءم السحرى، وعلى الأخص «الحتمية». وهو يقول إنه مازال بإمكاننا الاختيار. فلا يعنى مجرد اختراع شيء ما ضرورة استخدامه. وهو يقدم القنبلة الذرية كمثال، ورفض الساموراى اليابانيين للبنادق، وتخلى الصين عن القوة البحرية المتقدمة، وطائفة الأميش التى تدرس كل تكنولوجيا جديدة وترفضها أو تقبلها طبقًا لمعايير اجتماعية وروحية. وهو يقول إن بإمكاننا كذلك أن نرفض أو نقبل أى شيء بناء على معايير اجتماعية وروحية. إن هذا بإمكاننا وينبغى القيام به. فلا بد أن نقرر باعتبارنا أنفسنا؛ أى باعتبار ما نحن عليه بالفعل ككائنات بشرية. لا بد أن يكون القرار من واقع بشريتنا الحالية، رغم ما فيها من عيوب. وكما قلت من قبل فإن ماكيبن متفائل. وأنا أتفق معه بشأن ما ينبغى أن نفعله، غير أننى لست متأكدًا تمامًا من أننا سنفعل ذلك.

الحقيقة هى. وهذا ليس الخط الفكرى الذى يتبعه ماكيبن. أن الحجة المؤيدة لقابلية بلوغ البشرية للكمال تقوم على فكرة منطقية خاطئة. فالإنسان بطبيعه غير كامل، وهو ما يقوله من يريدون استكماله. ولكن من يريدون استكماله هم أنفسهم غير كاملين بطبعهم. ولا يمكن للكائنات غير الكاملة اتخاذ قرارات كاملة. فالقرار الخاص بما يشكل الكمال البشرى لا بد أن يكون قرارًا كاملاً، وإلا فإن النتيجة لن تكون الكمال.

وربما ينبغى أن يتخذ سعينا لبلوغ الكمال شكلاً مختلفًا أكثر روحانية. وربما يمكن رؤية الأبدية فى حبة رمل، والخلود فى ساعة زمن. وربما لا تكون السعادة هدفًا وإنما طريق، وربما يكون السعى لبلوغ السعادة هو السعادة نفسها. وربما نأخذ ما يتعين علينا القيام به، حيث نفصل بين الحكمة والمعرفة، ونعترف بأن الحكمة لا يمكن استنساخها أو تصنيعها. وربما يكون هذا الاعتراف حكمة. وربما ينبغى أن يكفينا ما يكفى. وربما ينبغى ألا نحاول تغيير ما يكفى. ■

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

سراى عابدين

الروايات التى تتناقلها الألسن عن أن سرايات إسماعيل كانت مملوءة بالآلاف من الجوارى والراقصات والمغنيات والعازفات على الآلات الموسيقية النحاسية أو الوترية، مبالغ فيها، بل لم يكن موجودًا فى سراى إسماعيل إلا جوقة وترية خاصة بالزوجة الثالثة له ومعها مغنيات.

كان إسماعيل يقيم أغلب أوقاته فى عابدين مع البرنسيسات، زوجاته الأربع حتى زواج ولى عهده توفيق باشا، فقد انفصلت والدته بعد زواجه وأقامت فى سراى القبة وذلك عقب صدور الفرمان السلطانى بجعل ولاية مصر وراثية فى أكبر أولاد إسماعيل. وقد أشار السلطان على الخديو بأن يعقد على والدة توفيق فصدع بالأمر فصارت الزوجة الرابعة.

أما البرنسيسات الثلاث فكانت تقيم كل واحدة منهن فى «بلك». وهو مسكن خاص مستقل. ولكل منهن «قلفاوات» توزع عليهن الوظائف المختلفة من «خازندارة وجماشرجية.. إلخ» وكان للقلفاوات خادمات خصوصيات من الجوارى السود، وفتيات شركسيات، أما إسماعيل فكان له «بلك» تقفل أبوابه عند دخوله فى المساء وكانت له أيضًا حاشية خصوصية من المحظيات والجوارى.وكان سموه يتناول الطعام مع البرنسيسات على الطراز الأوروبى.

وكانت تقدم الأطعمة فى أوان من الفضة، إلا فى المناسبات الخاصة فكانت من الذهب. ومن الأطعمة المشهورة فى السراى صنف «الرز الخديو» المصنوع بخلاصة الرءوس الضأن أو البقرى، والديكة الرومية.

حين لا يصبح هناك

■■ ها قد عدنا إلى نقطة البداية.

اغتال الإسرائيليون - الذين كانوا قد أعلنوا أنهم غير معنيين بالهدنة - اثنين من رجال «حماس» في مخيم عسكر ثم قائداً ميدانياً لـ«الجهاد» في الخليل. فرد الفلسطينيون - الذين يعتبرون حق الرد فضلاً عن مقاومة الاحتلال مشروعاً - بعمليتين في رأس العين لفتح، وفي القدس لحماس (أوقعت عشرين قتيلاً ومائة من الجرحى). وسرعان ما بدا أن الجميع قد دخلوا الدائرة القديمة ذاتها. فالصواريخ التي طاشت عن سيارة الرنتيسي قبل أشهر لتقتل من تصادف مرورهم بالشارع، أصابت سيارة مهندس الهدنة ذاته «إسماعيل أبوشنب» هذه المرة، ليخرج جثمانه متفحماً مع رفيقيه. ويمشي في جنازته مائة ألف يطالبون بالثأر.

انهارت الهدنة. رغم كل الأمنيات. وبدا أن «خارطة الطريق» قد وجدت طريقها الطبيعي - الذي كان متوقعاً - إلى ملف متخم بالمبادرات والخطط التي لم تنفذ أبداً.

قبل شهرين فقط، وعشية إعلان منظمات المقاومة الفلسطينية هدنتها «المشروطة»، سادت أجواء من التفاؤل؛ وعود جورج دبليو بوش «اللفظية» المنمقة. وابتسامات دحلان/ موفاز الصحفية. ومانشتات الصحف العربية «الانتقائية».

ولكن.. لأن الأمنيات لا تُزهر بالضرورة واقعاً. ولأن التفاؤل وحده لا يطعم جائعاً. فقد بدا المشهد (على الأرض) يومها مختلفاً. كما كانت «قراءته» كذلك.

يومها. قبل شهرين. ذكّرنا في هذا المكان بأن بوش صاحب وعد الدولة في ٢٠٠٥ قد يخرج من البيت الأبيض في ٢٠٠٤. وأن شارون «رجل السلام» - كما يصفه بوش - أعلن صراحةً أنه لن يسمح بدولة فلسطينية «ذات سيادة» وأن العودة إلى حدود ١٩٦٧ «غير مطروحة» ابتداءً. فضلاً عن إعلان أركان إدارته أن «الهدنة من جانب واحد.. وأن الجيش الإسرائيلي غير معني بها».

ها قد عدنا إلى نقطة البداية. أو بالأحرى إلى «الدائرة» التي لا تعرف - بحكم التعريف الهندسي - نقطة بداية ولا نهاية.

ولمن يجيد قراءة الرموز أن يعرف أن إسماعيل أبوشنب، خريج جامعة المنصورة في مصر هو الاسم الثالث في «حماس»؛ التنظيم الأقوى فعلياً في القطاع. وهو الأكثر اعتدالاً بين قادتها جميعاً. (والتعبير ليديعوت أحرونوت الإسرائيلية ذاتها). كما أنه مهندس الهدنة الأول. بل إنه - كما علمت من مصادر اقتربت من المشاورات التي سبقت إعلانها، إن في القاهرة أو غزة - ساعد في إقناع آخرين بقبولها، رغم قناعتهم التي بدت الآن صحيحة بأن الإسرائيليين الذين يعتقدون أنهم الأقوى لن يحترموها. وأن الأمريكيين؛ الرعاة المفترضين لن يضمنوها.

ولمن يجيد قراءة الواقع أن يعرف أن رائد مسك (٢٩ عاماً) منفذ عملية القدس كان صديقاً حميماً لمحمد سدر الذي اغتاله الإسرائيليون في منزله في الخليل. وأنه أقسم على الانتقام لمقتل رفيقه بعد أن شاهد الجنود الإسرائيليين وهم يجرون جثته بعد قتله قبل أيام. هل تمنح هذه الحادثة بعضاً من الضوء يهدي التائهين في دروب «خارطة الطريق» يبحثون عن تفسير لعودة دائرة العنف؟

صحيفة «معاريف» الإسرائيلية قالت في افتتاحيتها أن منفذ عملية القدس لم يعلن الحرب على «خارطة الطريق» من خلال عمليته. ولكنه حاول التدليل على «توازن الرعب»، وإظهار «بطاقة السعر»: «مقابل كل فلسطيني يغتاله الجيش سيكون هناك رد فلسطيني وقتلى إسرائيليون».

لماذا انهارت الهدنة؟

لأنها - حسب التعريف - لم تكن هناك أصلاً.

هل تذكرون التصريحات الإسرائيلية عشية إعلانها من جانب الفلسطينيين؟ يومها قال شاؤول موفاز وزير الدفاع الإسرائيلي: «لا علاقة لنا بالأمر.. نحن لم نعلنها.. وغير معنيين بها».

في التاريخ.. لا يوجد وقف لإطلاق النار من جانب واحد، إلا إذا كانت هناك قوة دولية تعمل فعلياً على فرض الهدنة. والحال هنا في ظل معادلة أمريكية إسرائيلية معقدة، ومجتمع دولي ضعيف، ومرتبك، ومنشغل.. يختلف.

انهارت الهدنة حين بدا أن شارون يريد نتائجها في شوارع تل أبيب وحافلات القدس. ولكنه لا يريدها بحال في أزقة غزة أو بيوت الخليل. أراد شارون أن ينعم مواطنوه بالهدوء في حين يمارس هو سياسته الدموية. وبشرط ألا يرد الفلسطينيون (التزاماً منهم بالهدنة) ودون أن تجد إسرائيل نفسها متورطة بعملية سياسية. وهذه معادلة لا يمكن تحقيقها.

لم توجد «الهدنة»، إذن إلا في مانشتات الصحف، وفي رغبة الفلسطينيين في تجاوز الظرف الحرج الذي وضعتهم فيه الدبلوماسية الإسرائيلية بخلطها للأوراق، ونجاحها في خلق حالة من التماهي بين سلوكها العدواني من «المقاومين لاحتلال أرضهم» وبين ما يعتبره الأمريكيون حملة ضد الإرهاب.

لماذا أُعلنت الهدنة إذن؟ ولماذا سقطت؟

لأنها في لحظة معينة. أصبحت كالفاكهة المُحرَّمة. الكل يريدها.. ولا يريدها. أو بالأحرى، الكل يريدها على طريقته.

أرادها الفلسطينيون (الذين أعلنوها من جانب واحد) مشروطة بأن يلتزم بها الطرف الآخر. وأملاً بأن يجنوا عن طريقها بعض ثمار انتفاضة طالت أعواماً ثلاثة وحصدت آلافاً من الشهداء.

واعتبرها الإسرائيليون - أو أرادوها - إعلاناً لهزيمة الفلسطينيين، وإن بالنقاط. لتبق إذن الجولة الأخيرة: «الضربة القاضية».

وأرادها الأمريكيون، تهدئة مطلوبة، ليفرغوا لنار لا تريد أن تَخمَد شرقاً في العراق. ولاستحقاقات انتخابية اقتربت في واشنطن.

وأرادها الأوروبيون، وبعض العرب، تأكيداً على أننا «مازلنا هنا».. لنا دور مطلوب.. ورقم لا يصح حذفه من المعادلة.

أرادها محمود عباس، أو تمنى أن يعتبرها الآخرون، وبالأخص في

«لا توجد مع أعدائنا طريق مختصرة، فمصر عقدت سلاماً مع إسرائيل بعد هزيمتها في حرب الغفران (أكتوبر).. وهذا ما سيحدث مع الفلسطينيين»

شاؤول موفاز
وزير الدفاع الإسرائيلي

«لم تكن مبادرتنا تعليق العمليات العسكرية تعني أبداً أن تذبحنا العصابات الصهيونية، ثم تبقى بعد ذلك آمنة مطمئنة مستقرة، لا يمسها سوء»

د. عبدالعزيز الرنتيسي
الناطق باسم حركة «حماس»

«الحل موجود. وقد جُرِّب بنجاح مع مصر ومع الأردن، وحتى مع لبنان عندما انسحبت إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ توقف الأطفال عن الموت، عندنا وعندهم»

ب. ميخائيل
إيديعوت أحرونوت

شـــــروط الهـــدنة:

أعلنت المقاومة الفلسطينية تعليق العمليات العسكرية مقابل شرطين اثنين:

١ - الوقف الفوري لجميع أشكال العدوان الصهيوني بما في ذلك الاعتقالات والمصادرات والاعتداء على المقدسات.

٢ - إطلاق سراح جميع الأسرى والمعتقلين (نحو من ثمانية آلاف معتقل).

الانتهاكات الإسرائيلية خلال الشهر الأول للهدنة:

١ - عدد القتلى والجرحى الفلسطينيين = ١٦٣ (منهم ٥٣ طفلا ورضيعا)

٢ - عدد الذين اعتقلوا من على الحواجز الأمنية أو من البيوت = ٢٧١ (بينهم نساء وصبيان لم يبلغوا الخامسة عشرة من العمر)

٣ - عدد المنازل التي هدمت = ١٣١ (لم يضبط في واحد منها سلاح أو ذخيرة)

٤ - عدد أشجار الزيتون والموالح التي اقتلعت = ٦٢٩٧ شجرة مثمرة

٥ - مساحة الأراضي التي صودرت = ٥٤٠٠ دونم (حوالي ٢٧٠٠ فدان)

٦ - عدد السيارات التي دُمرت = ٨٦ سيارة (بينها سيارة إسعاف)

مكان للحمائم

أيمن الصياد

واشنطن، «نهاية لعسكرة الانتفاضة» فيقطعون خطوات «حقيقية» لا لفظية على «طريق الخارطة». وأرادها عرفات. كعادته. إمساكًا بالعصا من المنتصف «على أمل». وهل بيده غير ذلك، بعد الحادى عشر من سبتمبر.. والعراق.. والحصار.. والدماء. وأرادها شارون إعلانًا لنجاح سياسته التى لم يقلع عنها يومًا: «تكسير العظام» وإيهامًا لمواطنيه بأن «الانتفاضة انتهت».

هكذا أرادها الجميع. ولم يكن ممكنًا أبداً أن تحدث «كل المتناقضات». فالفلسطينيون مع الممارسات الإسرائيلية «اليومية» لا يرون أمامهم «أى ضوء فى نهاية النفق». والإسرائيليون لا يريدون أن يضيعوا ما يعتبرونه «فرصة تاريخية» لحل نهائى يضمن «دفنًا أبديًا» للقضية الفلسطينية. وجورج بوش تحت هاجس الإرهاب «الحقيقى أو المبالغ فيه» لا يبدو أن بإمكانه أن يرى «الطريق واضحًا». وأوروبا «القديمة» والعرب ليس بيدهم غير الأمنيات، والزيارات.. والاتصالات الهاتفية.

لماذا انهارت الهدنة.. ولماذا تبدو مستحيلة؟

«الإرهاب الإسرائيلى المقدس» كتاب من تأليف ليفيا روكاخ، ابنة إسرائيل روكاخ، وزير الداخلية فى حكومة موشى شاريت فى الخمسينيات. عرضت له دورية The Link فى عددها الأخير. وذكر به جهاد الخازن فى «الحياة». وتنقل المؤلفة فى الكتاب من المفكرة الخاصة لرئيس الوزراء الإسرائيلى موشى شاريت، ما يثبت أن إسرائيل منذ تأسيسها وقبله، وحتى اليوم، مارست الإرهاب «لاستفزاز الطرف الآخر واستدراجه إلى الرد...». ولخدمة هذا الغرض تقول ليفيا روكاخ أن القادة كانوا مستعدين للتضحية بأرواح اليهود أنفسهم فى عمليات الاستفزاز المدبرة لاستدراج الرد. ثم الرد على الرد.

هل نجح الاستفزاز الإسرائيلى فى استدراج منظمات المقاومة الفلسطينية لدائرة العنف الذى يحسبونه (أى الإسرائيليون) محسومًا مقدمًا لصالحهم؟!

يقول قادة المقاومة: «لم يترك الإسرائيليون أمامنا خيار آخر. فما الفرق بين أن تموت بحزام ناسف أو أن تموت فى سيارتك أو بين أهلك بصاروخ أباتشى؟». ويالها من مفارقة ثقافية حين يبدو أن اليهود فى القرن الواحد والعشرين يدفعون أعداءهم دفعًا إلى الخيار الوحيد: «خيار شمشون».

هل يريد شارون السلام؟ وهل يعمل الساسة الإسرائيليون حقًا على ذلك؟

جدعون ليفى فى «هاآرتس» يجيب على السؤالين بالنفى. موضحا أن لا عناء كبيرًا يستوجبه اكتشاف تمسك شارون بتدمير أى رغبة فى السلام لدى الفلسطينيين وتشبثه بالكذب سلاحًا لتيئيس خصمه. فبعد «مسرحية» إطلاق الأسرى، يأتى تخريب خطة الانسحابات من المدن، وبينهما استمرار مسلسل الاغتيالات والتصفيات الجسدية. يجتهد ليفى فى تشخيص داء خارطة الطريق: «المشكلة كما فى أوسلو، ليست فى الخطة بل فى التطبيق.. بعد الهدنة كل الخطوات الإسرائيلية مجرد مسرحيات، حياتنا تغيرت ولم تتبدل حياة الفلسطينيين، وخيبة آمالهم ستكون كارثية.. يريد زعيم الليكود كل شيء من خصمه بلا مقابل».

على الناحية الأخرى، هناك من يعبر عن المزاج العام فى إسرائيل. فيكتب آريه الداد فى «إيديعوت أحرونوت» مشدداً على كون الحرب مع العرب أبدية «حتى يتنازلوا عن أى مطلب فى شبر واحد من أرض فلسطين..»! ويسخر الكاتب الإسرائيلى من أولئك الذين يتحدثون عن «العدل». موضحًا أنه «فى عالم مثالى يسود العادل.. ولكن فى عالمنا الواقعى يسود القوى» مضيفًا «يجب على إسرائيل أن تعلن أنها لن تسمح أبداً بقيام دولة فلسطينية غرب نهر الأردن.. ومن لا يعجبه ذلك فليشرب من من بحر غزة».

وقد يكون مثيراً للمتفائلين أو الذين يملأون الدنيا صخبًا لأن العرب يضيعون الفرص المتاحة، أن يقرأوا ما ذهب إليه «الداد» وهو يعبر عن قطاع لا يستهان به فى إسرائيل من أن «الإرهاب الفلسطينى» ليس المشكلة إذ يمكن هزيمة الإرهاب، كما أن طلب عودة اللاجئين ليس المشكلة إذ يمكن توطينهم فى دول عربية أخرى.. إذا لم يكن هناك إرهاب وإذا لم يكن هناك لاجئون فالمشكلة أن العرب يعتقدون أن لهم حقًا فى جزء مما يعتبرونه أرض فلسطين.. يجب إعلان أنه لن تقوم أبداً دولة فلسطينية غرب الأردن حتى وإن اقتضى الأمر نقض كل الاتفاقات بيننا وبين العرب. منذ اتفاق وايزمان/ فيصل وحتى تفاهمات الهدنة».

هاقد عدنا إلى نقطة البداية. رغم كل المحاولات والادعاءات. فماذا بعد؟

كولين باول الذى تتجاهل إدارته وجود عرفات أصلاً، تَوجه إليه بالخطاب «المباشر» ليطلب منه الضغط على «حماس».

أسامة الباز الذى هرع إلى هناك فى محاولة إطفاء حريق، لا أحد يضمن المدى الجغرافى لشراراته، حذر من «كارثة قادمة».

الفلسطينيون الذين عيل صبرهم والذين كانوا اقتربوا كثيراً من حافة صدام داخلى «ربما كان يحاك لهم»، وحدتهم صواريخ الأباتشى على سيارة أبوشنب. وشعارات المائة ألف فى جنازته.

الإسرائيليون الذين وضعوا عرفات والشيخ ياسين وحسن نصرالله على القائمة أعلنوا أنهم سيوقفوا «برنامج الاغتيالات» ٢٤ ساعة (!) واعتبروا فى استطلاع للرأى أن الهدنة قد انتهت.

وفى كل الأحوال يبدو أن الجميع قد بات يعد لمرحلة ما بعد أبومازن. والذى صار كل الذين أضعفوه يتحدثون عن ضعفه. ليصبح الضعف ذريعة، والرجل كبش فداء لفشل مبادرة أمريكية أخرى.

وسواء تم إحياء الهدنة «المستحيلة».. أو ماتت، يبقى من المفارقات (وهى كثيرة، ربما بعدد من ذرفوا دماءهم على تلك الأرض المقدسة منذ فجر التاريخ) أن نهاية هدنة الأشهر الثلاثة، إذا وصلت الهدنة - فعلياً - لنهايتها، تصادف التاسع والعشرين من سبتمبر الحالى. وهو اليوم الذى تكمل فيه الانتفاضة الفلسطينية عامها الثالث.

ماذا إذن تخبئه لنا المصادفة/ المناسبة؟

فى شأن آخر، قال عمرو موسى أمين الجامعة العربية، عشية الحرب على العراق أنها (أى الحرب) ستفتح أبواب جهنم على المنطقة.

قبل أسابيع، التقط مصور وكالة «رويتر» صورة لأسراب حمام «فلسطينية» تَفْزَعُ واجِفَةً أمام مجنزرة «إسرائيلية».

المكان (حسب البيانات المرفقة مع الصورة): قطاع غزة.

والزمان (الذى بات شعارُه «القُوةُ فوق العدل»): هو هذا الزمان الذى يبدو أن لا مكان فيه لوداعةٍ، أو سكينةٍ، أو سلامٍ.. أو حمام. ■

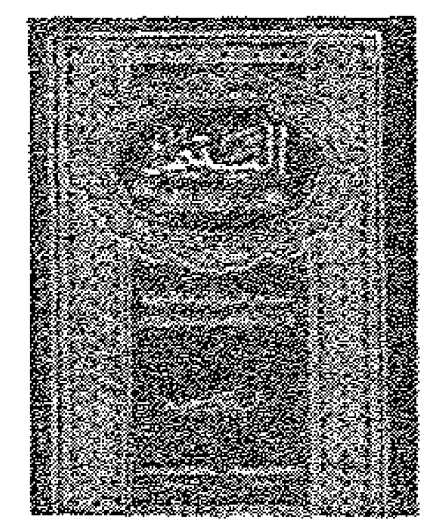


تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

اليتيم.. الوعد والخلاص الموعود

محمد سامح سعيد

القاهرة - بيروت: دار الكتاب المصري واللبناني، ٢٠٠٣، ١٠٣١ صفحة



يهدف الكتاب إلى إبراز شخصية الرسول الكريم بأسلوب مبسط، وهو موجه إلى العالم أجمع، لذا كتبه المؤلف باللغتين العربية والإنجليزية في نفس الوقت، وهو يسرد سيرة النبي محمد ﷺ في ضوء البشارات ووحدة الرسالات التي نبأت بقدومه وبشرت بخلاص البشرية على يديه.

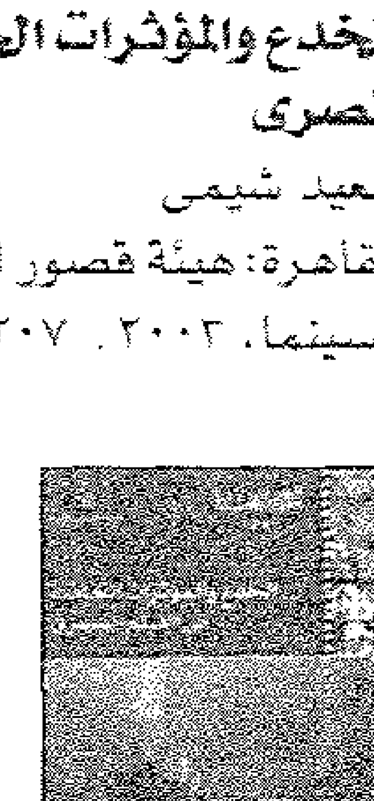
المؤلف يقدم عبر سيرة الرسول القدوة التي يحتاجها الشباب في عالم يموج بالمادية والانتهازية وتغيب عنه الأخلاق التي وقفت خلف كل فعل أتى به الرسول الكريم، والتي مكنته من إتمام رسالته ووضع أسس دولته وإرساء دعائم حضارة سادت الدنيا وعلمتها الكثير.

الكتاب يتألف من ٥٢ فصلاً تتابع سيرة الرسول الكريم منذ الميلاد وحتى انتقاله إلى جوار ربه.

الخدع والمؤثرات الخاصة في الفيلم المصري

سعيد شيمي

القاهرة: هيئة قصور الثقافة/سلسلة آفاق السينما، ٢٠٠٣، ٢٠٧ صفحات



هذا هو الجزء الثاني من كتاب المصور سعيد شيمي الذي أدار تصوير عشرات الأفلام المهمة في مسيرة السينما المصرية، عن الخدع والمؤثرات الخاصة في السينما المصرية، وهو هنا لا يتطرق إلى الخدع والمؤثرات في عمومها وإنما إلى تلك التي استخدمتها السينما المصرية بمحدودية قدراتها المادية والتقنية، ومنها استخدام الأسلحة البيضاء والأسلحة النارية والمعارك الحربية والانفجارات ومؤثرات الحرائق والأشخاص المشتعلين، والمخاطر التي يواجهها الدوبلير والمجاميع المحتشدة في التحامات قوية وسط النيران؛ فضلاً عن خدع ومؤثرات الطبيعة من سقوط أمطار وثلوج ورياح وعواصف وغيرها، والكيفية التي تستخدم بها الدمى بديلاً عن الأشخاص الحقيقيين.

والمؤلف الذي صور نحو ٧٦ فيلماً تسجيلياً وقصيراً ونحو ٩٨ فيلماً روائياً طويلاً وحصل على ٣٧ جائزة في التصوير والإخراج، يقدم نماذج تطبيقية لأفلام شارك فيها، وأخرى صورها آخرون.

مواجهة الإرهاب

جابر عصفور

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ٤٠٠ صفحة



القمع الفكري والمادي الذي تمارسه الدولة البوليسية في بقاع عدة من الوطن العربي ضد مواطنيها، ومثقفيها بالأخص، هو الوجه المقابل لعملة الإرهاب الذي تمارسه الجماعات المتسربلة بغطاء الدين، والتي بات وجودها ضاغطاً وفادحاً في غير بلد عربي.

من موقعه كمتخصص في النقد الأدبي، يبحث المؤلف في المواجهة الإبداعية لظاهرة الإرهاب، التي أطلت برأسها بقوة منذ أواسط السبعينيات، وبلغت ذروتها - في مصر - في اغتيال الرئيس السادات في أكتوبر ١٩٨١، ومازالت تجلياتها تترى، وهو يركز بشكل أساسي على الرواية، التي بدت مهمومة بالظاهرة أكثر من الأجناس الأدبية والإبداعية الأخرى، وإن كان ذلك لم يمنع المؤلف من الإشارة إلى قصيدتين لأحمد عبد المعطي حجازي وحسن طلب، ودراما أسامة أنور عكاشة خصوصاً ليالي الحلمية التي ظهر فيها نموذج لمتطرف، وقدمت نموذجاً لكيفية تكوينه وصعوده وطبيعة علاقاته، وكذلك فعل وحيد حامد في «العائلة» و«أرابيسك» وفيلم «الإرهابي». ولم ينس المؤلف أن يشير إلى مسرحية الكاتب السوري الراحل سعد الله ونوس «منمنمات تاريخية» التي كشفت عن جانب مهم من ظاهرة صعود التطرف.

وتستحوذ رواية «الزلزال» للأديب الجزائري الطاهر وطار (بيروت ١٩٧٤) على اهتمام المؤلف أكثر من غيرها وهي برأيه رواية «علامة» في هذا الإطار كونها تغوص في وعي المتطرف وتضعنا في حضرة عقلية التطرف من داخلها، حيث نرى آلياتها الدفاعية وسياقات تبريرها لما تفعل.

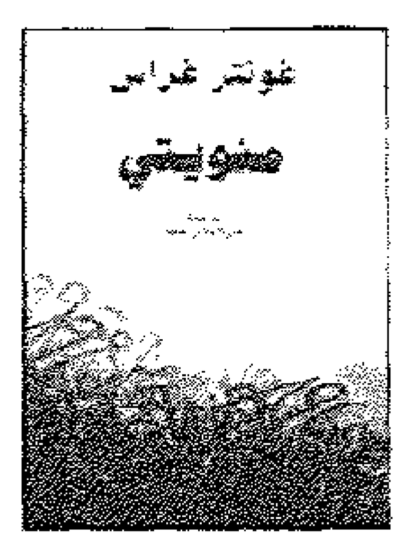
ومثلت قصة يوسف إدريس «اقتلها» (١٩٨١)، والتي نشرت قبل اغتيال السادات تنبؤاً حاسماً بما يمكن أن تصل إليه الأمور، وكانت رواية «الأفيال» لفتحي غانم تشريحاً للأسباب التي أدت إلى شيوع التطرف. يتعرض المؤلف أيضاً لرواية الراحل عبد الحكيم قاسم «المهدي» ورواية لويس عوض «العنقاء»، ومسرحية محمد سلماوي «الزهرة والجنزير» وغيرها من الأعمال الإبداعية التي واجهت التطرف والإرهاب، سواء بتشريح أسبابه، أو بالتحليل النفسي والاجتماعي للإرهابي نفسه، وكشف البنى الفكرية التي تمكنه من «عقلنة» جرائمه.

مئويتي

جونتر جراس

ترجمة: جيزلا فالور حجار

كولونيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٣، ٣٣٢ صفحة



مائة عام (١٩٠٠-٢٠٠٠) يرصد صاحب «الطبل الصفيح» تحولاتها في بلاده والعالم، وهو يعنون فصول كتابه بتواريخ فاصلة جرت فيها أحداث مهمة، بعضها كان بسيطاً لكنه ذو دلالة، يلتقطها الكاتب الألماني الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٩٩، وجراس ليس فقط كاتباً غزير الإنتاج، وإنما أيضاً عميق التجربة، وهو ما يمنح تلك الأوراق أهميتها، فقد التحق بالجيش الألماني جندياً في سلاح الجو في عام ١٩٤٤، أي إبان الحرب العالمية الثانية، ووقع في الأسر الأمريكي، وكان عمره وقتها سبعة وعشرين عاماً، وحين أطلق سراحه مارس العديد من المهن في الزراعة والمناجم، ثم تعلم الحفر على الحجر والنحت وفنون الجرافيك في أكاديمية الفنون بدوسلدورف وأكمل دراسته في كلية الفنون ببرلين، وفي العام ١٩٥٥ نشر أولى قصائده، ثم رحل إلى باريس وبقي فيها حتى العام ١٩٦٠ حيث أنجز «الطبل الصفيح».

يقول «جراس» في أحد المقاطع متندراً من الوحدة الألمانية: «ماذا تقولون؟ مسيرات؟ مئات الألوف تظاهروا بالشموع ضد كره الأجانب؟ دعوني أسألكم: وما الفائدة؟ حصل ذلك عندنا أيضاً، كميات هائلة من الشموع، وبعد ماذا استفدنا؟ صحيح سقط الحائط وبعد؟ فجأة يتكاثر هنا اليمينيون المتطرفون يوماً بعد يوم.. شموع شموع، الشموع لا تحل المشكلة، روحوا واسألوا الناس: ماذا يحس الإنسان الذي يصير بين ليلة وضحاها عاطلاً عن العمل؟

لو لم يظهر الإسلام ما حال العرب الآن؟

شاكر النابلسي

بيروت: دار الآفاق الجديدة، ٢٠٠٣، ٣٨٤ صفحة

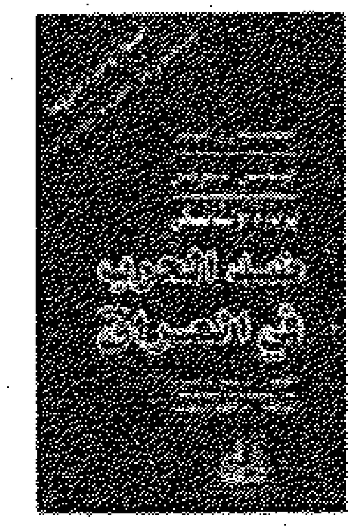


تستند الدراسة التي اضطلع بها المؤلف، والذي سبق له أن قدم دراسات نقدية في النظريات الأدبية والسياسية والاقتصادية، إلى ما بات يعرف في النظريات العلمية باسم نظرية الواقع المعاكس أو الواقع المضاد أو نظرية الاحتمالات العلمية، وهي التي تقوم أساساً على تصور الواقع المفترض، فيما لو لم يكن الواقع الذي نعيشه قائماً، وهي نظرية علمية تتصل بعلم الرياضيات وعلم المنطق ولا تفترض واقعاً سوياً أو طوباوياً لا يقوم على أساس.

يقدم المؤلف هنا ثلاثة سيناريوهات محتملة لكل من الواقع الديني والثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي العربي فيما لو لم يظهر الإسلام، ويبقى العرب وثنيين أو اعتنقوا اليهودية أو المسيحية، إنها دراسة لحالة العرب في القرن السابع الميلادي، حين ظهر الإسلام، ترى ماذا سيكون عليه حالهم لو لم يظهر الإسلام؟

ضد الحرب في العراق

المحرر: جريج روجيرو
ترجمة: إبراهيم الشهابي
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣، ١٠٨ صفحات



يضم الكتاب بعضًا من أصوات الضمير الإنساني الجمعي، مثقفون من أمريكا وقفوا ضد حرب بوش على العراق، ورأوها على حقيقتها: ظالمة ولا إنسانية. والمؤلفون الثلاثة هم «ميشيل راتز» رئيس مركز الحقوق الدستورية الذي رفع عشرات الدعاوى متحديًا صلاحية الرئيس الأمريكي، و«جيني جرين» المتخصصة في القضايا القانونية المتعلقة بحقوق الإنسان العالمية، وباربارا ولشانسكي، ولها إسهامات مهمة في قضايا متعلقة بحقوق المهاجرين والمساجين والتمييز العنصري، وهم يجيبون عن تساؤلات مهمة من نوع: هل هناك حاجة للحرب، وما هي مشروعية الحجج التي قدمها بوش للعالم ليشن حربه القذرة، ثم ما هو موقف القانون من هذا الاندفاع الإجرامي نحو القتل والتدمير، وأخيرًا: هل ثمة بدائل لما أقدمت عليه الإدارة الأمريكية المتطرفة، وما حسابات المكسب والخسارة في الحالين.

الحوارات الأمريكية

عمرو عبد السميع
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٤٩٢ صفحة



بعد أحاديثه البريطانية، عن السنوات التي أمضاها المؤلف مديرًا لمكتب جريدة الأهرام المصرية في لندن، يقدم المؤلف الأحاديث الأمريكية مع عديد من صناع القرار في واشنطن أو من القريبين من صناعته والعالمين ببواطنه، بينهم جيمس زغبي رئيس معهد العرب الأمريكيين، خليل جهشان رئيس الرابطة القومية للعرب الأمريكيين، د. هالة مقصود رئيس لجنة مكافحة التمييز العنصري، نهاد عوض مدير مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامي، د. كلوفيس مقصود، علي أبو زعلوك المدير التنفيذي للمجلس الإسلامي الأمريكي، د. وليد الخالدي، د. هشام شرابي، د. رشيد الخالدي، رئيس الجمعية العربية الأمريكية للقدس، روبرت سايبل السفير فوق العادة للحرية الدينية في الخارجية الأمريكية، مايكل شيهان رئيس مكتب مكافحة الإرهاب بالخارجية الأمريكية، دافيد شيفرز رئيس قسم جرائم الحرب بالخارجية الأمريكية، ثم دنيس روس منسق عملية السلام في الشرق الأوسط السابق، وغيرهم.

والمؤلف في هذه الحوارات يصور الملامح العامة للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط والمؤثرات والعوامل التي تحكم هذه السياسة، وتجيب عن أسئلة مهمة من نوع: كيف تنظر أمريكا للعرب وكيف ينظرون إليها، ما أصل المعايير المزدوجة، ما العلاقة بين العرب والواقعية السياسية الأمريكية، ما حقيقة لعبة الإرهاب وكيف تتم عملية توزيع الأدوار فيها؟

عشرات الأسئلة تجد إجاباتها في ثنايا هذه الحوارات المهمة.

آيات الصمود

فاني كولونا
ترجمة: لطيف فرج
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٣، ٤٠٧ صفحات



تقدم المؤلفة هنا من خلال ٤ قصص تطور قرن كامل من الأحداث في الجزائر، بأسلوب يجمع بين علم النصوص وعلم الاجتماع، وتكشف عن أهمية النصف الأول من القرن العشرين في فهم أحداث الجزائر المعاصرة وتأثير مجرياته على ما يحصل فيها اليوم، وتعتمد في تحليلها للأوضاع على الثوابت والمتغيرات في المجال الديني، وتقدم «أسلاف الآخرين» ليس بوصفهم أشرارًا شرسين، وإنما كصانعي ثقافة كان الدين فيها كل شيء، وهي تشير هنا إلى جانب مفتقد من الرؤية للدين في جزائر اليوم، الجانب الإيجابي الذي يرى الدين قوة هائلة للتعبئة، طريقة لتصور العالم في تحولاته المتسارعة، إنها تبين كيف أن نصًا غير قابل للتغيير والتعديل بحكم قداسته يمكنه أن يمنح - من خلال فهم جديد لهذه النصوص ذاتها - قوة دفع هائلة للتواصل مع العالم وتحولاته، فهذا النص قدمه علماء أفذاذ في عصور خلت، وهو فهم يختلف بالضرورة عن ذاك الذي يسيطر على عقول ساكني جبال الأوراس من الفلاحين الجزائريين.

ثروة المعرفة وصناعة الثروة

محمود محمد حسين
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٣، ٢٣٦ صفحة

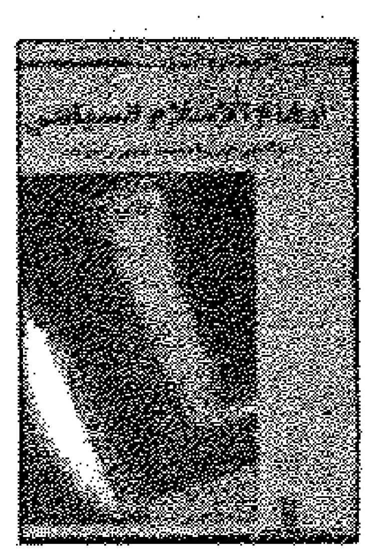


يقدم الكتاب معلومات أساسية تفيد غير المتخصص في فهم الأنشطة الاقتصادية، وهو يتألف من ثمانية فصول، الأول تعريف بالمشكلة الاقتصادية وعنصريها وهما الحاجات الإنسانية والموارد، ويتطرق بالضرورة إلى مصادر الثروة وخصائصها والنظم المختلفة في كيفية تعاملها مع المشكلة الاقتصادية.

ويناقش الفصل الثاني الناتج المحلي الإجمالي وطرق قياسه وعلاقته بالناتج القومي، ويدرس الفصل الثالث كيفية إنتاج الثروة في المجتمع، شارحًا عناصر تلك الثروة من موارد بشرية وطبيعية، ويعرض الفصل الرابع لقوة السوق من عرض وطلب وكيفية تحديد ثمن الثروة، وفي الفصل الخامس يناقش المؤلف كيفية تقييم جدوى المشروعات الاستثمارية، ومراحل دراسة الجدوى، ويركز السادس على الاستثمار وكيفية اتخاذ قرار استثماري، ويتناول السابع موضوع التجارة الدولية والأسس التي تقوم عليها، أما الأخير فيهتم بموضوع ميزان المدفوعات الدولية وأقسام وبنود هذا الميزان.

أوهام الإسلام السياسي

عبد الوهاب المؤدب
الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٢، ١٨١ صفحة



ترد معظم الكتابات العربية ما جرى للعرب والمسلمين إلى الآخر الغربي، الكولونيالي بما تنطوي عليه النزعة الاستعمارية من ابتزاز وتسلط، فالفقر والجهل والانحطاط وأوجه التخلف في عمومها، مردها إلى سنوات القهر التي عاشتها دولنا في ربقة هذا الاحتلال.

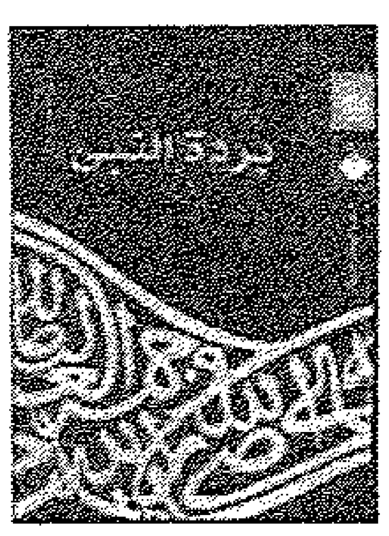
هذا جانب واحد من الصورة، الجانب الآخر هو ما يركز عليه المؤلف هنا في كتابه الذي كتبه في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهو يلقي باللائمة فيما جرى على ذلك الفهم الأصولي الضيق شديد التطرف الذي صنع هؤلاء الـ «بنلادنيين»، الذين لا يهددون - برأيه - حضارة الغرب فحسب، وإنما قبلها، حضارة الإسلام، ويقلصون قدرتها على التعاطي مع العالم من حولها، وهو ينهي بأدل آيات التسامح في القرآن الكريم: «لا إكراه في الدين»، «ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

وعبر استقرائه للتاريخ الإسلامي وتحليله لدوافع الحركات الإسلامية في غير بلد عربي، ينتهي إلى.. «ليس الإسلام أصل الداء، فأولئك الذين اعتنقوا الإسلام عملوا على إبدال حتى بنية الحضارة، فليس الإسلام بالتالي هو أصل المصيبة، بل المصيبة هي ما فعله المسلمون أنفسهم بالإسلام».

يفتح الكتاب على كل حال أفقًا للتفكير والخلاف وتوسيع دوائر المناقشة، وهي ميزة نفتقدها كثيرًا.

بردة النبي

روى متحدة
ترجمة: رضوان السيد
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ٤٤٣ صفحة



ما جرى في إيران منذ بدايات العام ١٩٧٨ من تظاهرات واحتجاجات أدت في النهاية إلى اندلاع الثورة الإيرانية مثل بالنسبة للمؤلف، وصفًا مألوفًا وجديدًا في الوقت نفسه في مجرى التاريخ الإيراني، هو مألوف لأن الدافع الأخلاقي الذي حرك آيات الله من أئمة الشيعة، لم يكن مغايرًا للدوافع التي أثارت فقهاء الشيعة ذاتهم قبل ألف عام، وجديد لأن تلك الأخلاقيات ذاتها، التي أفضت إلى الثورة، عرفت خلال القرنين الأخيرين ثورة فكرية مهمة، تجاوزت «الحوزة» في قم إلى مدن إيران الكبرى وحتى ريفها.

وبرغم أن الثورة الإيرانية هي موضوع هذا الكتاب بفصوله العشرة، إلا أنه يختار لفهمها منهج التاريخ الثقافي، ولذا يحتل رجال الدين بتسمياتهم وتراتباتهم المختلفة حيزًا مهمًا في الدراسة، فمن هؤلاء صار آية الله الخميني، الذي قاد ثورة أثرت كثيرًا - ومازالت - في العالم كله.

الفقر والإحسان فى مصر

آدم صبرة

ترجمة: قاسم عبده قاسم

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ٣٠٠ صفحة



موضوع الكتاب فى الأصل رسالة جامعية تقدم بها المؤلف - الذى يعمل أستاذاً مساعداً زائراً للعصور الوسطى الإسلامية فى جامعة ميتشجان بالولايات المتحدة - للحصول على درجة الدكتوراة.

ويقدم الكتاب معالجة طويلة لموضوع الفقر والإحسان فى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك، ودور الأوقاف فى تقديم الطعام وفى التعليم والرعاية الصحية للفقراء فى العصور الوسطى، وهو يقدم مقارنات عن الفقر والعوز فى أوروبا والصين فى الفترة ذاتها، وهى مقارنات دالة. وبحسب ما يشير المترجم فى تقديمه، فقد سعى المؤلف إلى رسم حدود دقيقة بين الفقر كمفهوم دينى والفقر فى المفاهيم الصوفية وفى المصطلح الاجتماعى. ثم يدرس فى فصول تالية المؤسسات التى لعبت دوراً فى التقليل من آثار الفقر على الناس، وكذلك تأثير نظام الأوقاف فى شيوع أعمال الخير والإحسان، واستعرض المجاعات وحالات الفقر القصوى التى مرت بالبلاد فى تلك الفترة، وهذه جميعاً ترسم صورة للعلاقة بين الدولة ورعاياها، فى إطار المفاهيم السياسية السائدة آنذاك.

الثقافة العالمية

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (يوليو) ٢٠٠٣



العدد ١١٩ (يوليو) من هذه الدورية المهمة يتضمن عديداً من المقالات التى تهم القارئ والمثقف العربى. فيقدم مقال «عندما يثبت هوس الارتياب جدواه» أفكاراً جديدة تتعلق بالعلوم الإنسانية، وعن جديد علوم الفلك والفيزياء يدور مقالا «أين تقع حدود الكون» و«هل العالم موجود حين لا ننظر إليه». وفى السياسة والاقتصاد يبرز مقالان: «العولمة والحادى عشر من سبتمبر» و«قطع الطريق على تمويل الإرهاب».

فضلاً عن مقالات عديدة فى علوم وفنون مختلفة.

طروحات عن النهضة المعاقة

عزمى بشارة

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣، ٢٧٧ صفحة، ٨ دولارات.



لا تقتصر هذه الطروحات عن النهضة المعاقة على العرب وحدهم، وإن كانت تعالج ظواهر قائمة فى المجتمع العربى، وليس الهدف هو نقد هذه الظواهر فحسب، وإنما فتح أبواب الأمل، والتأكيد على أن عوائق النهضة اجتماعية ناشئة تاريخية وليست متأصلة فى الجسد العربى بحيث يكون الانفلات منها مواتاً وانسحاقاً.

فى هذا الإطار يضع المؤلف - عبر التجربة والنظرية معاً - فكرة بلورة مشروع قومى يقف على قدميه: الهوية الوطنية والديمقراطية. نصب عينيه، وهو لا يرى مفاضلة بين الاثنين، ولا ينفى إحداهما لحساب الأخرى، والفصل على هذا النحو برأيه، يحول القومية إلى مجرد شوفينية تستر التخلف بالمزايدات الوطنية الجوفاء، والمطلوب أن تكون قوميتنا ديمقراطية أيضاً، كى يكون التوجه القومى عقلانياً مستنيراً، وكى لا يتحول - بغياب الوجهة الديمقراطية التنويرية - إلى أصولية لا تبعد كثيراً عن الأصولية الدينية، ومن مسلمات هذا التوجه الذى يدعو إليه ويبشر به المؤلف، أن ينظر إلى القومية بوصفها رابطة سياسية ثقافية حداثية تؤسس لعلاقة بين الفرد والمجتمع، يكون فيها الفرد مواطناً والمجتمع صاحب سيادة.

وهكذا تفهم القومية الديمقراطية «كرابطة حداثية ذات مخزون ثقافى وتراثى تقف عليه بقدميها، ولا تغرق فيه عبر إسقاط ذاتها عليه لتحوله إلى أسطورة». فى إطار السعى إلى عملية النهضة تلك وتحقيق الحداثة تبرز الحاجة إلى ثقافة ومثقفين، وكلاهما لا ينشأ دون معرفة تجعل للنقد قيمة على مستوى الممارسة والنظرية معاً. وبحضره لاكتشاف الفروق والتمايزات بين الفكر والتطبيق.

من معيقات النهضة أيضاً شيوع ما بات يعرف بحوار الطرشان. وفيه ينبرى كل طرف فى الدفاع عن وجهة نظره متجاهلاً وجهة نظر الطرف الآخر، ومعلناً - بعلو الصوت مع ذلك - أنه يؤمن بحق الطرف الآخر فى الخلاف، ومردداً المقولة البالية المفتقدة لأى معنى: «الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية».

وفى جدال من هذا النوع الذى تشيعه «ثقافة الديوانية»، ينتصر أصحاب الصوت العالى بصرف النظر عن قيمة ما يقولون، وتتلاشى تماما القضية. وفى مجتمعاتنا - وهذا جانب آخر من الصورة - يحتل الود مكانة تتجاوز أهمية القضية والأهلية والكفاءة.

فى موضع آخر يشير المؤلف إلى أن أصالة الحداثة تتحقق إذا انطلقت من وعى الذات الثقافية، وتوافرت لديها القدرة على الانفتاح وإعادة إنتاج ذاتها عبر التفاعل مع الثقافات الأخرى ومتطلبات العصر والمجتمع الحديث.

ثمة إعاقة أخرى ينبه الكاتب إليها، وهى تتعلق بتدهور العلوم الطبيعية فى المؤسسات البحثية العربية، وسبب ذلك هو غياب عملية الإنتاج العربية، وغياب الاقتصاد الشامل المعتقل نسبياً، وغياب البرجوازية العربية المنتجة أو الباحثة عن استثمارات إنتاجية.

وضمن إطار عمليات التعليم والتعلم، يطرح المؤلف سؤالين مهمين ويجيب عليهما:

الأول: لماذا لم تنشأ فئة من خريجى الدراسات العليا بمستوى معقول فى العلوم الاجتماعية؟، والثانى: لماذا بات خريج الجامعة يعود إلى بيته بعد الدراسة دون أن يزداد تنوراً من الناحية الاجتماعية؟

وهو يرجع السبب فيما يتعلق بالسؤال الأول إلى «السلوك الأقلياتى الذى يحدد خيارات الدراسة الجامعية بالمهنة وفرص العمل»، بما يعنى أن الطلاب المتفوقين سيتوجهون إلى كيات تؤمن لهم - عملياً - فرصاً للتوظف، فيما يبقى للكليات الأدبية الطلاب الأقل تفوقاً.

وفى الدعوة إلى انشغال المثقفين بالسياسة لا كأصحاب ألقاب وإنما كمثقفين ذوى رؤى فى الممارسة السياسية تكمن إجابة الثانى.

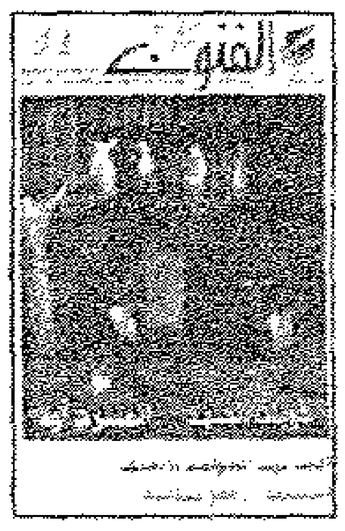
وفى سياق آخر يشير المؤلف إلى جناية شيوع الغيبة، وما تؤدى إليه من ثنائيات تحول دون تحليل المجتمع واتخاذ مواقف بشأن النظام السياسى والاجتماعى القائم، وهذه الحالة فى مداها الأقصى تتحول من معيقة للنهضة إلى كارثة تعادى قيم التنوير الأساسية.

هذه «عينة» من معيقات عدة للنهضة العربية تناولها المؤلف فى نحو عشرين مقالاً نقدياً.

ورغم أن الطروحات التى يقدمها الكتاب لا تتجنب الخوض فى النظرية إلا أنها كما يؤكد المؤلف تنطلق من الواقع الاجتماعى الملموس من أجل تغييره. «باتجاه النهضة والتنوير والتحديث والديمقراطية».

جريدة الفنون

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب يوليو ٢٠٠٣



«ذوبان الجليد.. المسرح أولاً» هو العنوان الرئيسى الذى حمله غلاف عدد يوليو من جريدة «الفنون» ليؤكد على ريادة وأسبقية الفن فى إعادة العلاقات الطبيعية بين الشعبين الكويتى والعراقى بعد إزاحة نظام صدام حسين من الحكم.

و«ذوبان الجليد» هى المسرحية التى قدمتها لجنة التآخى الكويتية مع الشعب العراقى وساهم المجلس الوطنى فى رعاية عروضها على مسرح الشامية».

ضم العدد موضوعات أخرى فكتب نزار شاهين عن جائزة الأغاخان فى العمارة الإسلامية، وهو يلقى الضوء على بعض المشاريع التى فازت بالجائزة مثل أبراج الكويت المائية، وترميم قبة الصخرة، بينما راح عبد العالى بن زهرة يبحث عن العلاقة بين الجمالى والوظيفى فى الفن الإسلامى.

فى دراسته المهمة عن الفنون الشعبية فى واحات وادى درعة، قدم محمد البوزيدى عرضاً شاملاً لأهم أنواع الرقصات الشعبية، وطريقة أدائها والآلات الموسيقية المستخدمة فيها. فى حين تساءل شربل داغر عن العلاقة بين الفن والعولمة والعنف. وكتب بندر عبد الحميد عن رائد الجداريات الملحمية الحديثة دييجو ريفيرا (١٨٨٦ - ١٩٥٧) أحد أضلاع المثلث الأكبر فى حركة الفن التشكيلى المكسيكى الحديث. وحول العلاقة التى أبرزتها الفلسفة الجمالية الغربية بين أنواع الفنون كتبت ريتا عوض عن علاقة الشعر بالتصوير. واحتفت «الفنون» هذا العدد بالفنان العراقى كاظم الساهر.

فى باب المتاحف قدمت «الفنون» عرضاً لثلاثة متاحف الأول هو متحف جيفرى الإنجليزى المتخصص فى عرض مقتنيات البيوت العريقة فى الفترة من عام ١٦٠٠ حتى عام ٢٠٠٠، والثانى متحف زكريا الخنانى فى منطقة سقارة الأثرية فى القاهرة، والثالث يقدم إطلالة سريعة على بعض الكنوز العربية التى تزين متاحف ومعارض أسبانيا.

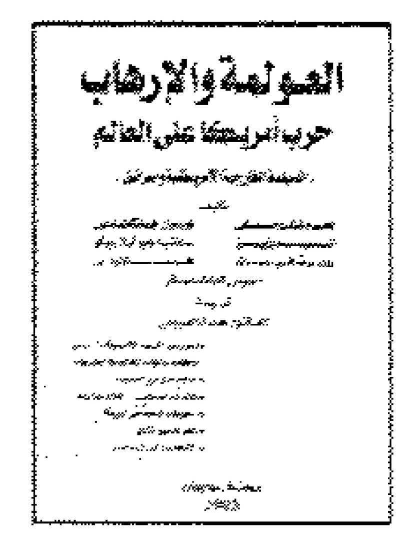
وكتب حسن خاك رند المستشار الثقافى للسفارة الإيرانية فى الكويت، عن تاريخ الموسيقى الإيرانية منذ بدايتها المعروفة فى العهد الساسانى، وحتى الآن. وعن مواقع الإنترنت التى تهتم بالأعمال الفنية المرسومة على الزجاج، كتبت هبة الغريب عن الإبداع اللامتناهى فى عالم الزجاج.

نظرة تحليلية لمسيرة الفنان السورى بسام كوسا رصدها الكاتب راسم المدهون تحت عنوان «قوة الموهبة ومصداقية الأداء»، بينما كتبت ميس العثمان عن رؤيتها لمسلسل «حنين» إخراج باسل الخطيب وبطولة أيمن زيدان وسوزان نجم الدين.

فى باب السينما قدم د. جهاد عطا نعيسة دراسة نقدية لفيلم المخرج السورى عبد اللطيف عبد الحميد «قمران وزيتونة»، بينما ترجم عز الدين الخطابى دراسة نقدية لفيلم «لغز بيكاسو» الذى يرصد علاقة هذا الفنان الكبير بالسينما.

العولمة والإرهاب حرب أمريكا على العالم

نعوم تشومسكى - نورمان فينكلشتاين
ترجمة: حمزة المزينى
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣



منذ أن وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، يسعى اليمينيون المتطرفون فى الإدارة الأمريكية وأنصار إسرائيل فى الولايات المتحدة، إلى تعميم الانطباع بأن الشعب الأمريكى يناصر بالكامل سياسات حكومته فى المنطقة العربية، بما فيها انحيازها السافر لإسرائيل بحجة محاربة الإرهاب، وكأن هؤلاء يدفعون العرب دفعاً إلى عداء أمريكا، كى يبرهنوا للأمريكيين على كراهية العرب لهم، فإذا ما برز موقف مناهض لتوجهات الإدارة الأمريكية، يوصم صاحبه بالغباء وعدم الفهم.

ومن المدهش أن أمريكا التى تحارب الإرهاب خارج حدودها، بدأت تمارسه فى الداخل بفرضها قيود صارمة على حرية الحركة والكلام، وهى الحريات التى كان يفاخر بها الأمريكيون، لهذا كله تكتسب ترجمة هذه المقالات أهميتها، كى نقف بجانب هؤلاء الكتاب الشجعان من ناحية، وكى نتعرف على حقيقة موقف قطاع عريض من المثقفين الغربيين الذين يدركون حقيقة المأساة.

الشافعى الإمام الأديب

محمد إبراهيم الفيومى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٨٦ صفحة



برز الشافعى فى الثقافة العربية والإسلامية بجانب إبداعى لم يعرف قبله، وهو تأسيسه علم «أصول الفقه»، ضمنه فى كتابه «الرسالة». والإمام الشافعى ولد فى مدينة غزة، أو عسقلان، كما روى عن نفسه.

وكانت ولادته عام ١٥٠ هـ، وهى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حنيفة، وكان أبوه قد خرج إلى فلسطين لحاجة فتوفى، وعادت به أمه إلى مكة وهو ابن سنتين خوفاً من ضياع نسبه، وعاش بشعب الخيف حياة فقر وإملاق، لأن عائلته كانت فقيرة. وقد قال الشافعى عن نفسه: «كنت يتيماً فى حجر أمى، ولم يكن لها مال، وكان المعلم قد يرضى منى أن أخلفه إذا قام، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد. وكنت أكتب فى العظم، فإذا كثر طرحته فى جرة عظيمة وخرجت من مكة ولزمت هذيلاً فى البادية أتعلم كلامها، وآخذ اللغة العربية. وكانت أفصح العرب».

قدم الشافعى مصر ١٩٩هـ، وتوفى بها ٢٠٤هـ. ويقول ابن عبد الحكم: الشافعى علم أهل مصر الاحتجاج. ولم تطل إقامته فى مصر أكثر من أربع سنوات، حيث وافته المنية وهو فى القاهرة.

فالشافعى كان فيلسوفاً معبراً عن نزعته العربية وتراثه الإسلامى، فهو فيلسوف فى اللغة، واختلاف الناس، والمعانى، والفقه، وتلك عمد الثقافة العربية والإسلامية، بيد أن تأمل الشافعى موجه إلى مشكلات الثقافة والفكر، ومنهج ارتباطهما بالإسلام، والبحث عن الحلول الكفيلة لبقاء مسايرة الإسلام لمتغيرات المجتمع ومشكلاته.

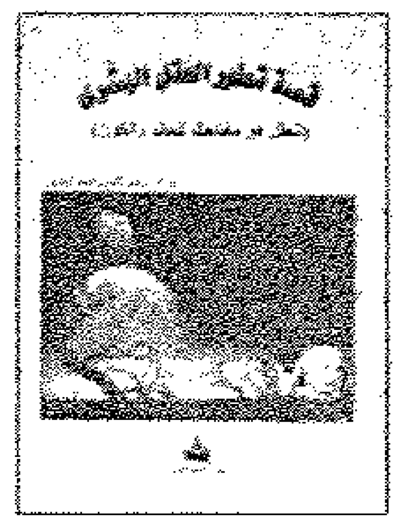
يمثل كتاب الرسالة الذى وضعه الإمام الشافعى نمطاً جديداً فى التأليف الإسلامى، وطرازاً فريداً فى المنهج العلمى، ويعد من أشهر كتبه على الإطلاق، والأمر الغريب فى كتاب الرسالة أنه ألف مرتين:

. المرة الأولى فى مكة، وقد ألفه استجابة لطلب عبد الرحمن بن مهدى، الذى كتب إليه أن يضع له كتاباً فيه معانى القرآن، ويجمع فيه فنون الأخبار وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة.

. المرة الثانية فى مصر، عندما استقر فيها، وكان آنذاك يناهز الخمسين عمراً، ويطلق على الرسالة الأولى الرسالة القديمة ويطلق على الرسالة الثانية المصرية: الرسالة الجديدة.

قصة تطور العقل البشرى

محمد عبد الحميد محمد أبو زيد
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٣، ٢٥٦صفحة



عبر استعراض قصة تطور العقل البشرى، والتطور الإنسانى فى عمومه، يسعى الكتاب إلى تأكيد مفاهيم عدة منها، أن الحضارات الإنسانية على تنوعها متواصلة، تسلم إلى بعضها البعض، وأن الحضارة الإسلامية بعلمائها الأفذاذ كانت هى النبع الذى نهلت منه حضارة أوروبا، فانتعشت وازدهرت فى الوقت الذى أفلت فيه حضارة المسلمين.

وأن العلم قوة رائعة وهو الوسيلة الوحيدة للتقدم الحضارى، وأن تطوير القانون الأخلاقى وتفعيله هو الذى يمكننا من قطف ثمار العلم وتجنب شروره، ويمنح الحضارات والثقافات الإنسانية القدرة على التواصل والحوار، ويقضى على أسباب الصراع.

المؤلف، وهو طبيب بشرى مخضرم، يمنح العلم والتقدم التكنولوجى أهميته المفترضة فى قصة تطور الإنسانية وشروط بقائها.

سادة العالم الجدد

جان زيجلر
ترجمة: محمد مستجير مصطفى
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٣، ٤١٢ صفحة



يبدو عالم اليوم محكوماً بأوليجاركيات مالية عابرة للقارات، تسيطر على الكون ومقدراته، خطابها وممارساتها تتعارض جذرياً مع مصالح الأغلبية الساحقة من سكان الأرض.

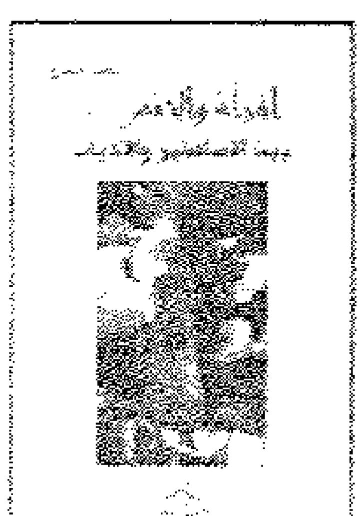
العولمة، هى التجلى الأكثر بروزاً فى هذه المسألة، حيث تدمج الاقتصاديات الوطنية الصغيرة، فى إطار نظام اقتصادى عالمى لا قدرة لها على مقاومته، وبرغم التراكم الرأسمالى الضخم الذى جرى فى العقود الأخيرة، وبرغم تضاعف الإنتاج العالمى، وبلوغ حجم التجارة العالمية قدراً غير مسبوق، فإن من يموتون كل يوم بسبب الحرب والجوع فى قارات العالم الفقيرة فى زيادة.

المعادلة التى يطرحها عالم اليوم بسيطة: من لديه مال يأكل ويعيش، ومن ليس لديه يموت.

هذا الكتاب يواجه تلك المعادلة القاسية فى أجزاء أربعة، يستكشف الجزء الأول العولمة والدور الذى تلعبه الإمبراطورية الأمريكية فى كل هذا الذى يجرى، أما كيف يفعلون ذلك، وطرقهم فى الإفساد والتخريب وتدمير البشرية، فيختص بها الجزء الثانى، ويحلل الجزء الثالث نشاط المرتزقة الذين يعملون فى خدمة هذا النظام: مشعلو الحرائق فى صندوق النقد الدولى، ومتعصبو البنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية. لكن يبقى الأمل فى مجتمع مدنى كوكبى جديد ينازع هذه الإمبراطورية ويقاومها عبر جبهات رفض عديدة، تولد أملاً فى المستقبل، وهذا هو موضوع القسم الرابع من الكتاب.

المرأة والجنس.. بين الأساطير والأديان

كاظم الحاج
بيروت: مؤسسة الانتشار العربى، ٢٠٠٢، ١٦٠ صفحة



يثير الاستغراب فعلاً أن التمييز الجنسى لا يظهر إلا فى المجتمعات البشرية حصراً، فالدارسون لعالم الحيوان لم يؤثروا استعلاء للذكر على أنثاه، بل ربما كان العكس هو الصحيح فى بعض الحالات.

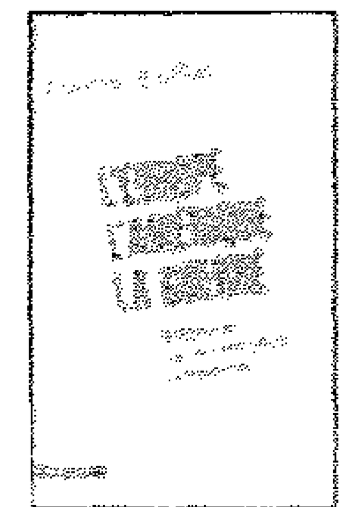
فالتمييز الجنسى إذن، بحسب ما يذهب المؤلف، هو ابن ثقافة الوعى بالمكانة عند الذكر، فكأن الارتقاء المعرفى والفكرى والدينى للمجتمع الإنسانى، أضافوا للذكر وحققوا سيادته، خصماً من مكانة الأنثى وموقعها.

وتفسير المظاهر الذكورية تجاه المرأة فى المجتمع العربى الإسلامى، يكشف عن أن حجبها ارتبط بدوافع اجتماعية تاريخية، أكثر من ارتباطه بتفسير النصوص الدينية، وهذه المسألة تتجلى فى أوضح صورها فى عصور الانحطاط والتأخر، إذ يتم استبعاد «النساء شقائق الرجال» لحساب «ناقصات عقل ودين»، وبتر الأخيرة من سياقها، بما يعنى أن النظر إلى جسد المرأة كخزين مغريات ومحرمات، هو وليد ثقافة اجتماعية وكهنوتية.

Europe, l'Amérique, la guerre. Réflexion sur la médiation européenne

(أوروبا.. أمريكا.. الحرب)

Etienne Balibar, 2003, Eur 15,00
La Decouverte,



منذ أن أعلنت أمريكا الحرب الأبدية على الإرهاب وبلاد «محور الشر»، ارتفعت أصوات عديدة في الولايات المتحدة تطالب أوروبا بلعب دور الوسيط، لشد زمام التسلح الأمريكي وإقناع أمريكا بإعادة النظر في الحقوق الديموقراطية الأساسية، وحماية العالم أجمع من مصير مدمر من الصراع والعداء بين الحضارات. وفي هذا الصدد، يرى الخبراء أن التفاوت الضخم بين وزن أوروبا الاقتصادي وضعفها العسكري، يطيح بأي أمل في إمكانية تأثيرها في الشئون الدولية.

وفي ضوء الدروس المستفادة من التاريخ، يطرح مؤلف الكتاب اقتراحات لإعادة النظام العالمي:

- تأصيل أمن جماعي دولي.
- الدعوة من جديد لنزع السلاح العالمي بشكل مرحلي محكم.
- إنشاء اتحاد أوروبي- متوسطي كوسيلة لتقليل عوامل التفرقة بين الحضارات المختلفة.

Gazelle

(غـــزال)

Rikki Ducornet
Knopf, 2003, 208PP., $ 21.00



تدور أحداث الرواية في قاهرة الخمسينيات، حول فتاة أمريكية في الثالثة عشرة تعيش بين أبوين غير متوافقين.

يعمل الأب أستاذاً في جامعة أمريكية في الوقت الذي يتعذب فيه من جراء تصرفات زوجته التي تترك الأسرة لتعيش حياة مستهترة في فندق مع عشاقها.

يهرب الأب من عذابه بالتعمق في دراسة تاريخ الحرب ولعب الشطرنج. أما الفتاة المنطوية إليزابيث بطلة الرواية فتقوم برعاية والدها وتتأزم علاقتها بأمها، بينما تجد الراحة في هوسها بشخصية «رمسيس رجب» صديق والدها الوسيم، الرقيق، الذي يعمل في صناعة العطور الشرقية.

يذكر أن ريكي ديكورنيت روائية أمريكية وفنانة تشكيلية، عاشت لمدة سنة في مصر أثناء طفولتها.

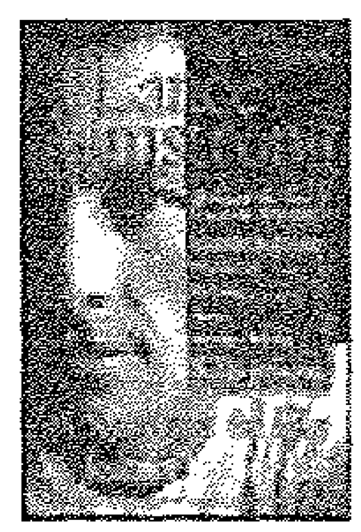
كما قضت بعض الوقت في الجزائر وفي كوبا. موطن أبيها.

ولها رواية سابقة عن مصر بعنوان «اللبان المصري».

It's Not About the Bike: My Journey Back to Life

(ليس عن الدراجة: رحلتي في العودة إلى الحياة)

Lance Armstrong
Penguin Putnam, 2000, (2003 Paperback) $ 8.40



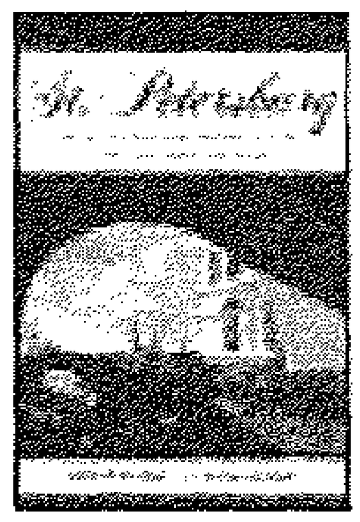
يعرف المتابعون لرياضة سباق الدراجات، وخاصة بطولة فرنسا الدولية الشهيرة، صاحب هذه السيرة الذاتية لانس أرمسترونج. ولكن قصة هذا الرجل لا تكمن فقط في كونه بطل العالم في سباق الدراجات، فإن بطولته الحقيقية تتكشف حين يعرف القارئ أنه أصيب بمرض سرطان البروستاتا وهو في أوج البطولة، وظل يحارب المرض المميت بأمل في الحياة لا يتعدى الأربعين في المائة كما قال له الأطباء. وفي ظرف عامين، عاني خلالهما آلاماً قاسية، تغلب لانس أرمسترونج على السرطان، وعاد مرة أخرى إلى سباق الدراجات بعد توقف. وكانت عودته إلى البطولة بعد المرض أكثر توهجاً وقوة، حيث فاز ببطولة فرنسا الدولية لسباق الدراجات لخمس مرات متتالية كان آخرها بطولة العام الحالي.

في هذا الكتاب يقوم لانس أرمسترونج بسرد قصة حياته بمساعدة أحد الكتّاب الصحفيين، وبالرغم من أنه لم يتخط الثانية والثلاثين من عمره إلا أن لديه دروساً كثيرة عن الإرادة والتحدي والصمود والتعامل مع الأزمات المؤلمة، وصناعة النجاح.

St. Petersburg: Russia's Window to the Future: The First Three Centuries

(سان بطرسبرج: نافذة روسيا على المستقبل.. القرون الثلاثة الأولى)

Arthur George
Taylor, 2003, 632PP., $ 35.00



لعبت مدينة سان بطرسبرج دوراً مركزياً في الحياة الروسية على مدى سنوات طويلة تغير خلالها لقبها من بطرسبرج إلى بتروجراد إلى لينينجراد ثم إلى بطرسبرج مرة أخرى.

ويوافق هذا العام احتفال روسيا بمرور ثلاثمائة عاماً على إنشاء هذه المدينة التي بناها بطرس الأكبر في أوائل القرن الثامن عشر لتكون مدينة روسيا «الغربية». أي الحديثة.

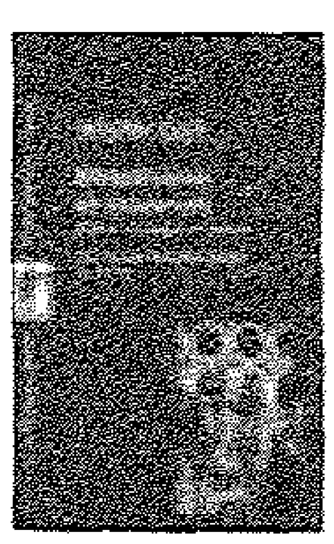
يسرد الكتاب التاريخ الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي لهذه المدينة العريقة عبر القرون الثلاثة الماضية، من دورها الثقافي الرائد في القرن التاسع عشر، مروراً بالثورة البلشفية عام ١٩١٧ والحرب العالمية الثانية (عندما عانت لينيجراد من حصار نازي رهيب).

ويقول المؤلف إنه لا توجد مدينة معاصرة عانت ما عانته بطرسبرج في النصف الأول من القرن العشرين، من عنف وتشتيت وثوران مستمر.

Musulmanes et modernes. Voile et civilization en Turquie

(مسلمات عصريات. الحجاب والحضارة في تركيا)

Nilufer Gole La Decouverte, 2003, Eur 8,00

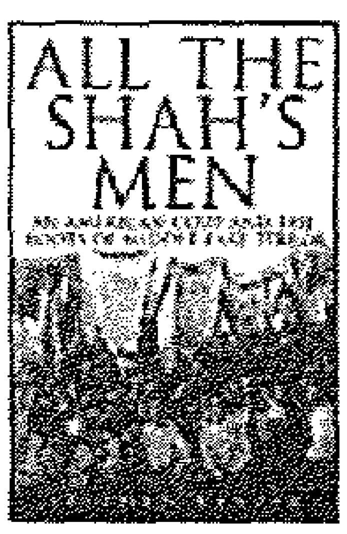


عصرية غربية من ناحية، وتقاليد إسلامية من ناحية أخرى: يبدو اجتماع هذين العالمين غير منطقي وغير ممكن في ظل الظروف الراهنة. فالحجاب الإسلامي الذي يغطي المرأة المسلمة يبدو للكثيرين رمزا على قدر كاف من القوة للفصل والتمييز بين العالمين. ويرى الكاتب نيلوفر جول في ذلك ضيقا للرؤية والفكر، من وجهة نظره كمفكر يحاول تقريب صورة المجتمعات المسلمة المعاصرة والحركات الإسلامية للآخرين. وفي هذا الإطار لم يجد الكاتب أفضل من تركيا مثالا لاختبار الملاحظات والاستفاضة في التحليلات: فهي دولة تشكلت بقدر كبير بفعل التحديث والعلمانية، وعلى الرغم من ذلك الاتجاهات الحديثة فيها، تنمو على أرضها مثلها مثل أي مكان آخر تيارات إسلامية قوية. ومن داخل ذلك المزيج العجيب، يظهر نمط جديد للمرأة.. فمن خلف الحجاب نجد امرأة مسلمة.. متعلمة.. متمدنة.. وفي الوقت ذاته محافظة. فالمرأة في تركيا، مشاركة في الحياة السياسية والعملية. فقد خرجت من النطاق الخاص، لترسي من جديد أسس تنظيم المجتمع المسلم والتعاون بين طرفيه: المرأة والرجل، في محاولة عصرية لوضع خط النهاية للفكر الذي ساد طويلا بأن مرادف الإنسان المتحضر هو الإنسان الغربي.

All The Shah's Men.. An American Coup And the Root of the Middle East Terror

(كل رجال الشاه.. انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط)

Stephen Kinzer
John Wiley and Sans, 258PP., $ 24.95



تمر العلاقات الأمريكية الإيرانية حالياً بمرحلة جزر شديدة ويرشح بعض الخبراء هذه العلاقات لمزيد من التدهور. ويحاول مؤلف هذا الكتاب ستيفن كينزر استكشاف جذور هذه العلاقة من خلال التركيز على الانقلاب الذي رتبته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ضد رئيس الوزراء الإيراني الدكتور محمد مصدق بسبب تأميمه لصناعة البترول التي كانت تسيطر عليها بريطانيا. وهو التأميم الذي أرعب الولايات المتحدة خوفاً من امتداد النفوذ الشيوعي إلى إيران. ولم يكن انقلاب المخابرات الأمريكية هو الأول في محاولات واشنطن تغيير الأنظمة. وقد نجحت بعض هذه المحاولات ومنها الانقلاب على مصدق وفشل البعض الآخر إلا أن كل هذه المحاولات كان لها نتائج كبيرة وبالطبع في مقدمتها الانقلاب على مصدق. ويركز المؤلف وهو مراسل صحفي

للنيويورك تايمز على هذا الانقلاب ويعيد ترتيب الصورة للقارئ ومن خلال هذا الترتيب لايترك مجالاً للشك بأنه تعتقد أن هذا الانقلاب كان عملاً خاطئًا وهو يظهر تعاطفاً كبيراً مع مصدق فهو زعيم متعلم يتحدث عن المضطهدين ويخاطر بحياته لتحسين أحوال شعبه. ويشير المؤلف إلى أن شركة البترول الإيرانية البريطانية والتى أصبحت بعد ذلك تسمى شركة بريتش بتروليوم، كانت تدير شئون إيران عديداً من السنوات وإن كانت المزايا والأرباح كانت تذهب إلى مالكى الشركة والحكومة البريطانية ولا يستفيد منها الشعب الإيرانى.

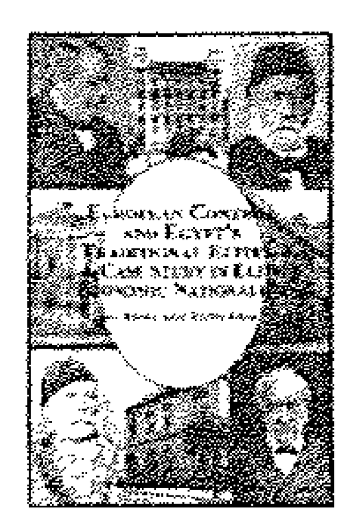
لقد أزال الانقلاب حكم مصدق ووضع إيران بحزم فى المجال الأمريكى إلا أن المؤلف يقول إن النتائج على المدى القصير كانت جيدة لأمريكا لكن على المدى الطويل كان لابد من دفع ثمن كبير. وهذا ما حدث بعد ذلك وخاصة مع قيام الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ ثم انهيار العلاقات تقريبًا خلال السنوات الماضية.

■

European Control and Egypt's Traditional Elites-A Case Study in Elite Economic Nationalism

(السيطرة الأوروبية والنخب التقليدية فى مصر. دراسة حالة فى الوطنية الاقتصادية لدى النخبة)

Abdel Aziz Ezzelarab
Edwin Mellen Press, 2003,
272PP., $ 109.95



تتناول هذه الدراسة مرحلة مهمة من التاريخ الوطنى والاقتصادى فى مصر، حيث تركز على تفاصيل الحركة الوطنية التى قامت بها النخب الاقتصادية المصرية فى مواجهة التدخل الأوروبى فى الفترة التى سبقت الاحتلال الأجنبى وبالتحديد فى عام ١٨٧٩. فبينما تعددت الدراسات التاريخية التى رصدت ثورة أحمد عرابى (١٨٨١-١٨٨٢)، إلا أنه لم يلتفت كثيراً للحركة السياسية التى قام بها كبار ملاك الأرض والأعيان والتى تضمنت صياغة ما عرف بمشروع «اللائحة الوطنية»، الذى كان بمثابة برنامج سياسى ومالى للخروج من أزمة الديون الأجنبية وحماية مصر من خطر السيطرة الأوروبية. كذلك تكشف الدراسة عن الدعاوى المبكرة لإنشاء بنك وطنى مصرى تسبق دعوة طلعت حرب بما لا يقل عن أربعين سنة.

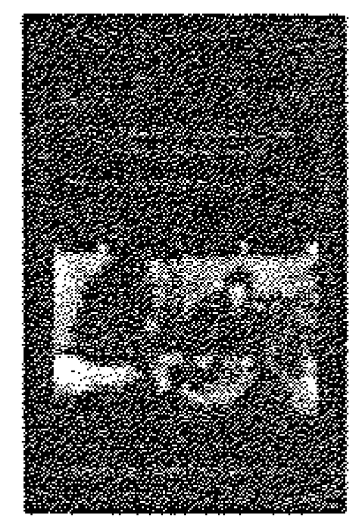
الكتاب للدكتور عبد العزيز عز العرب الذى درس فى جامعتى تورونتو وماكجيل، والآن هو يدرس الاقتصاد فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

■

The Abuse of Man: An Illustrated History of Dubious Medical Experimentation

(إساءة استخدام الإنسان: تاريخ مصور للتجارب الطبية المشبوهة)

Wolfgang Weyers
Ardor Soribendi, 2003,
756PP., $ 35.00



يتناول الكتاب قضية مخيفة، هى الاستخدام المنظم والمسىء للبشر كحيوانات تجارب فى خدمة الأبحاث الطبية. وهو يقدم مسحاً تاريخياً لمثل هذه الممارسات الشنيعة منذ عصر التنوير وإلى يومنا هذا.

وأثناء العرض التاريخى يناقش الكتاب قضايا عديدة متعلقة بتفاعل الطب مع المجتمع، مثل تسبب الديانة المسيحية فى توقف الأبحاث الطبية لمدة ألف عام، وظهور فكرة «حقوق المرضى» فى عصر التنوير، وإنشاء قواعد نورمبرج عام ١٩٤٧ المتعلقة بالتعامل الأخلاقى مع المرضى، ثم بداية الوعى بحقيقة استغلال الأقليات العرقية كفئران معامل.

ولسوء الحظ يقول المؤلف «إن هذه الحركات لم تنشأ إلا بعد أن ظلت مثل هذه الجرائم الإنسانية تمارس على مدار القرنين التاسع عشر والعشرين دون مقاومة تذكر». وهو يكتب قائمة مفصلة بعمليات مؤسفة من حقن الأيتام والمرضى العقليين بمواد مسببة للوفاة تمت فى القرن التاسع عشر، إلى تجارب على الأطفال استمرت حتى الستينيات من القرن العشرين. ويضم الكتاب صوراً للأطباء الذين ارتكبوا هذه الجرائم، ويصدم القارئ حين يعرف أن كثيراً منهم أفلت من العقاب، مثل العشرون طبيباً الذين تعرضوا للمحاكمة بسبب تورطهم فى تجارب طبية مورست فى الحرب العالمية الثانية، وذلك فى إطار ما سمى «بمحاكمة نورمبرج الثانية. محاكمة الأطباء».

■

A Problem from Hell

(مشكلة من الجحيم)

Samantha Power
9.99 £ Flamingo, 656PP.,



يطرح هذا الكتاب أسئلة كثيرة عن المذابح التى وقعت فى العالم خلال السنوات القليلة الماضية ولم تستطيع الدول القوية منعها أو الحد من آثارها وعندما كانت تتدخل كان ذلك يحدث بعد فوات الأوان حدث ذلك فى البوسنة ورواندا وغيرهما.

ونتيجة لهذا الفشل فى وقف المذابح خاصة خلال العقد الأخير يتساءل عمال الإغاثة والصحفيون والأكاديميون والسياسيون.. ما الخطأ الذى حدث؟ ولماذا تحدث هذه المجازر البشعة فى هذا العالم «المتحضر»؟

لقد اعتقد كثيرون أنه مع نهاية الحرب الباردة فإن المجتمع الدولى سيكون قادراً على التحرك بكل الوسائل بما فى ذلك القوة العسكرية لوقف هذه الانتهاكات غير المسبوقة إلا أن ما حدث كان مخيباً للآمال.

والمؤلفة التى عملت مراسلة صحفية فى البلقان وهى حالياً المدير التنفيذى لمركز «كار» لحقوق الإنسان فى جامعة هارفارد، تبدأ عملها بالحديث عن مصطلح المذبحة وتتحدث عن تلك المذابح التى وقعت خلال القرن العشرين مثل مذابح الأرمن على أيدى الأتراك والهولوكوست ضد اليهود ثم مذابح الخمير الحمر فى كمبوديا، ثم ما حدث فى العراق خلال الثمانينيات والمشكلة فى بعض الأحيان تتمثل فى أن بعض الدول لا تعترف بمثل تلك المذابح.

وعلى سبيل المثال فإن الخارجية الأمريكية ظلت ترفض إطلاق وصف المذبحة على قتل ٨٠ ألف شخص فى رواندا عام ٩٩٤.

وقبل ذلك لم تبد الولايات المتحدة اهتماماً بالمذابح التى ترتكبها الخمير الحمر فى كمبوديا نظراً لأنهم كانوا يواجهون الفيتناميين أعداء واشنطن.

وتستنتج المؤلفة بأن الولايات المتحدة رفضت بشكل مستمر أن تتحمل المخاطر لمواجهة المذابح بل إنها أيدت فى بعض الحالات الأنظمة التى نفذت تلك المذابح كما فى حالتى الخمير الحمر وصدام حسين بعد حملة الانفال ضد الأكراد فى نهاية الثمانينيات من القرن العشرين.

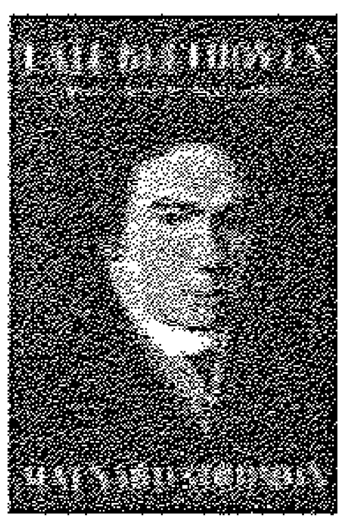
وتعيد المؤلفة إلى الأذهان كيف أن اليمين الأمريكى له تاريخ طويل فى رفض أن ترتيبات تقوم بها الأمم المتحدة ويوجد بها قضاة أجانب أو مسئولون غير أمريكيين يتخذون قرارات وموقف إدارة الرئيس الحالى جورج بوش ضد المحكمة الجنائية الدولية معروف.

■

Late Beethoven.. Music, Thought, Imagination

(بيتهوفن.. الموسيقى والأفكار والتخيل)

Maynard Solomon
University of California
press, 327PP., $ 29.95



وضع مؤلف هذا الكتاب عدة مؤلفات عن بيتهوفن الموسيقى العبقرى أشهرها كتاب «بيتهوفن» الصادر عام ١٩٧٧ و«مقالات بيتهوفن» الصادر عام ١٩٨٨ والكتاب الجديد يقدم تحليلاً ودراسة معمقة عن السنوات الأخيرة لبيتهوفن أى فى الفترة من ١٨١٣ حتى وفاته عام ١٨٢٧.

وهو يركز على تحول الموسيقى الأشهر فى التاريخ الإنسانى إلى آفاق جديدة من الرومانسية بعد سنوات من الكلاسيكية.

إلا أن المؤلف، وهو أستاذ جامعى أمريكى، يرى أن من الصعب وضع تصنيفات جامعة مانعة لتوجهات بيتهوفن فى مرحلة من المراحل. حيث إنه حتى فى مرحلة الرومانسية يقول المؤلف أن بيتهوفن تجاوزها أى الرومانسية إلى الحداثة.

ويرسم المؤلف صورة شخصية لبيتهوفن تظهر فيها تناقضات هذا الموسيقى بل والفوضى التى ألمت بحياته لكنه استطاع رغم ذلك أن يبدع فنًا موسيقياً مازال يمتع الملايين ويستمر كذلك فى المستقبل. كما يقدم شرحاً عميقاً لأعمال بيتهوفن فى هذه المرحلة المتأخرة من عمره والتى سبقها مباشرة وضعه السيمفونية السابعة (١٨١١-١٨١٢) التى تمثل ذروة أعماله. ورغم كل المعلومات التى فى الكتاب وكذلك الكتب الأخرى التى وضعها المؤلف عن بيتهوفن إلا أنه مازال يشعر أن لديه الكثير عنه.

■

"نون"

أصوات من الصمت

* تغرينى أصوات الصمت المطبقة من حولى.. تستدعينى، تستدرجنى، تلح علىّ كلما أصخت السمع التماساً لما يؤنس الوحشة ويقطع السبيل على آلاف الأصوات الزاعقة من كل اتجاه. كل إنسان يتطلع إلى لحظات يتحرر فيها من قيد الحصار المفروض عليه.. من الأوامر والنواهى التى تحدد له هويته وعلاقاته بالآخرين.. هذا السعى الإنسانى المطلق الى الحرية، إلى الخروج من إلف العادة وروتينية الحياة اليومية إلى التمسك بفرديته والإبقاء على ذاتيته وخصوصيته، لا يتأتى بغير الارتماء فى أحضان الهدوء الشامل، والانفراد بالذات. هنا يغوص الإنسان داخل نفسه. ويتحرر من عبودية الآخر. ينفصل عن البيئة المحيطة به ليعيد الاتصال بنوازعه الداخلية ومشاعره الحميمة. وفيما بين الوصل والفصل تتبدى حقائق الأشياء. ويتعرى الإنسان من طبقات الزيف المتراكم فوق مشاعره كما تتراكم الأدران فوق جسم الدابة. وما بين المحو والإثبات تتجلى مفردات الحياة ومظاهر الطبيعة فى أعماقها الحقيقية وأبعادها غير المرئية. وويل للإنسان الذى تحرمه ظروف الحياة ووطأة العيش من فسحة الروح وقدرتها على الانطلاق من سجن الأحاسيس والمشاعر والأفكار الجاهزة السهلة التى تعيش داخله كل يوم وكل ساعة وكل لحظة! وويل للإنسان الذى تغتصب ضجة الحياة اليومية أحاسيسه، وتغرقه أصوات الزحام، وينهكه الجرى المتواصل فى دروب الحياة بغير لحظة توقف وتأمل!

ولكن من الذى يستطيع أن يلغى المسافة بينه وبين الآخرين.. أن يحتفظ بعقله ومداركه سليمة، وهو فى نفس البقعة من الزمان والمكان؟ إن أسوأ عقاب ينزله المجتمع بالإنسان حين يحكم عليه بالبقاء داخل مساحة ضيقة مغلقة مع آخرين. إنها أسوأ من السجن الانفرادى.. فمع الآخر يصبح السجن مضاعفاً: سجن الروح والجسد. وأكثر الثورات والمذابح الوحشية التى تقع فى السجون تنشأ من احتكاك الأجساد واختلاط الأصوات وامتزاج الروائح والأبخرة المتصاعدة من اكتظاظ البشر واختناقهم فى زنزانة واحدة. هنا يفقد الإنسان كرامته وإنسانيته وتتفجر أحط ما فيه من غرائز حيوانية. وربما كان أسوأ أنواع التدمير والتخريب هو ما ينجم عن إطلاق العنان للجموع الهادرة المتلاحمة التى تتملكها غريزة القطيع. وإذ يفلت الزمام منها، فإنها ترتكب من أعمال القتل والتدمير وإشعال الحرائق ما يصعب تصور صدوره عنهم كأفراد فى الظروف العادية. وذلك على نحو ما يحدث فى أعقاب مباريات كرة القدم من أحداث شغب. غير أن انفلات السجين المكبل بقيود الحرمان من الحرية وتمرده على سجانيه، يختلف عن انفلات الفرد المكبل بقيود الروادع القانونية والاجتماعية. كلاهما فعل من أفعال التحرر من الآخر.. ولكن الأول تحركه آلة قمع عمياء لا تعرف العدل. والثانى تحركه الرغبة فى اختبار حدود حريته التى قد تصطدم بحرية الآخرين. الأول يشيع فى مجتمعات التخلف والقهر والطغيان، والثانى يظهر فى مجتمعات أكثر التزاماً بالقانون والنظام. فى الأول تظهر المعتقلات الجماعية، والسجون الجماعية، والمقابر الجماعية التى يكون الموت فيها هو فعل التحرر الوحيد الممكن. وهو ما يشيع فى عالمنا الثالث. حيث التشبيه الوحيد للصمت هو صمت القبور. أما صمت الهدوء الذى تعرفه الذات الحرة القادرة على الاحتفاظ بمسافة بينها وبين الآخرين، واللواذ بالطبيعة، واستئناس الوحشة، واصطناع الوحدة، فهو ما يبلغه الفرد فى المجتمعات المتقدمة بدرجات متفاوتة من التحقق.

وعندما أقدم دافيد كيلى خبير التسلح البريطانى على الانتحار، بعد أن ضاقت حلقات الحصار حوله لتكشف عن مسئوليته فى إزاحة الستار عن التأويل المتعمد لخلق الذرائع لشن الحرب ضد العراق، لم يكن الانتحار فعلاً من أفعال التمرد على السلطة، بقدر ما كان انعتاقاً من مشاعر الذنب وتحرراً من عذاب الضمير، ونقضاً للروابط التى ألزمته أمام رؤسائه بالاشتراك فى تزييف الأدلة.. كان تحريراً متعمداً للذات، ورأباً للصدع الداخلى، ولملمة للشظايا التى تناثرت تحت وطأة صراع نفسى عميق، ولم يكن ذلك ليتحقق إلا فى أجواء الحرية وامتلاك الإرادة التى لا يستمدها صاحبها إلا من داخله. وهنا تصبح إرادة الصمت الذى يمليه الموت بمثابة تعبير قوى عن الاحتجاج. فهو ليس صمتاً أخرس مقطوع اللسان عاجزاً عن الكلام، بل هو صمت زاعق يخرق الآذان.. يقدم احتجاجاً سياسياً وإنسانياً بليغاً إلى العالم كله.

هذا النوع من الحرية يبدو غامضاً غير مفهوم لنا فى معتقداتنا ومجتمعاتنا. ولكنه يتكرر فى المجتمعات الأخرى التى توازن بين الحرية والمسئولية، وتكافئ بينهما، وتحاسب عليهما. وباستثناء حالات فردية فى التاريخ العربى، التزم المثقف العربى الصمت إما خوفاً من السلطان أو طمعاً فى هباته. وفى كلا الحالين كان الصمت إمعاناً فى العبودية وليس فعلاً من أفعال التحرر والاحتجاج.

لا شىء يقارب هذا النزوع الكامن إلى الحرية.. إلى التحرر من عبودية الآخر غير التجربة الحزينة للتوأم الإيرانى: هاتين الفتاتين الملتصقتين: لاله ولادان، اللتين أمضيتا ٢٩ عاماً ملتصقتين، لا تملك إحداهما فكاكاً من الأخرى. كل منهما لها شخصيتها المستقلة التى تختلف عن شقيقتها اختلافاً كاملاً.. حتى فى لحظات الفرح والحزن، والجوع والعطش. فيما تفضله هذه من طعام وتعافه تلك. إحداهما تكتب باليمنى والأخرى باليسرى. ولكن الطبيعة التى لا يملك الإنسان وضع نواميسها حكمت عليهما بالبقاء متلازمتين، لا ترى الواحدة منهما وجه شقيقتها إلا فى المرآة. إذا تحركت إحداهما فلابد أن تتحرك الأخرى. وإذا غلب النعاس أو الصحو إحداهما فلابد أن تنصاع الأخرى.. أى نوع من العبودية والخضوع والاستسلام للآخر، حكمت به الطبيعة على هاتين الفتاتين؟ وأى طريق للخلاص يسلكانه لتحرير الجسد والروح والعقل؟! إنها علاقة ملتبسة غريبة. هى مزيج من الحب الشديد والكره العميق المتزامن: أشبه بروحين تتصارعان داخل نفس واحدة!

ومن هنا يمكن فهم الرغبة الدفينة الجامحة التى تملكتهما للخروج من سجن الجسد، وتصارع الرغبات والمشاعر، والتطلع إلى الفردية والتفرد والانفراد. كلتاهما كانت تبحث عن الخلاص من الأخرى والارتباط بها فى وقت واحد.. ولكن بطريقة أخرى. ولهذا لم يكن غريباً أن تتفق الفتاتان على المخاطرة بالعملية الجراحية لفصلهما، على الرغم من التصاق الدماغين إلى درجة الاندماج.. وعلى الرغم من اليقين شبه القاطع بأن فصلهما قد يعنى التضحية بإحداهما أو بكلتيهما معاً.

عرفت الأختان التوأم هذه الحقيقة، وأصرتا على الانفصال فى رحلة قد تفضى بهما إلى الصمت النهائى والموت بعد رحلة تعيسة فى الحياة. وما تعرضت له الشقيقتان فى هذه المسيرة المضنية هو مثال صارخ على أن سعى الإنسان للتفرد والتحرر من عبودية الآخر هى رحلة شاقة مترعة بالمعاناة والألم.

حين يتأمل المرء فجيعة موت الشقيقتين، وفجيعة انتحار عالم الأسلحة البريطانى كيلى، فى ظرفين مختلفين أشد الاختلاف، ولأسباب وبواعث لا علاقة بينها، فلا ينبغى أن ننسى أن سعى الإنسان الشاق إلى التفرد يقابله فى الحياة العادية سعى لا يقل معاناة وألماً للاقتراب من الآخر والارتباط به ارتباط الشفتين فى فم الإنسان.. هذا الآخر هو نفسه الذى قد يضع حدوداً وقيوداً صارمة على حريتنا، أو يكون سبباً فى التحرر والانطلاق والانفصال، بأساليب غير جراحية.. ولكنها، على الأرجح، أشد قسوة ودموية!

سلامة أحمد سلامة

الكتب وجهات نظر

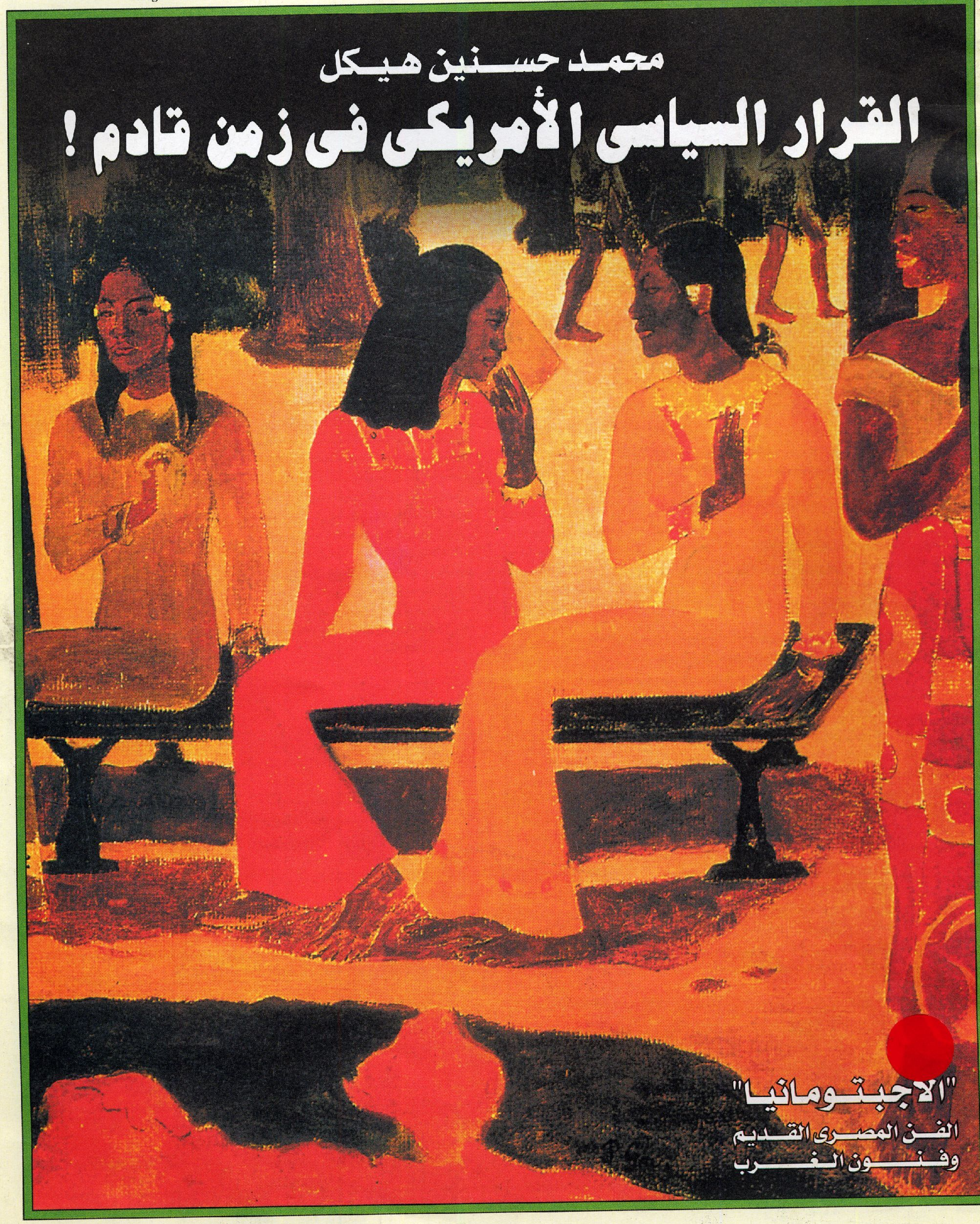
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد السابع والخمسون . السنة الخامسة . أكتوبر ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 57 - October 2003

محمد حسنين هيكل

القرار السياسى الأمريكى فى زمن قادم !



"الاجبتومانيا"

الفن المصرى القديم

وفنون الغرب

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

السنة الخامسة
العدد السابع والخمسون
أكتوبر ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم عبدالكريم.. باحث فلسطينى.
- أحمد إبراهيم محمود.. باحث فى مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- بى دابليو سنجر .. باحث أمريكى فى السياسة الخارجية والأمن القومى.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- حسين زهدى.. رئيس هيئة الأرصاد المصرية الأسبق.
- دنيس داتون.. أستاذ فلسفة الفن بجامعة كانتربرى بنيوزيلاندا.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- السيد يسين.. مستشار مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- صفوت الزيات.. محلل عسكرى.
- طارق البشرى.. كاتب ومؤرخ.
- عزالدين نجيب.. ناقد وفنان تشكيلى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حاكم - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى . ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية . السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير . اليمن ٣٠٠ ريال . فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

"نون"

زيـــارة جديدة لهيكل...

بين الصحافة والسياسة والثقافة

يُعرِّفه معاصروه وتلاميذه بأنه صحفى وسياسى بلغ القمة بين أقرانه.. ولج السياسة من باب الصحافة، وخرج من السياسة أيضًا من باب الصحافة.. ولكنه ظل يمارس حرفة الصحافة منذ أدركته فى بواكير شبابه، فابتنى بقلمه وموهبته صرحًا شاهقًا من الشهرة التى غطت أرجاء العالم العربى والمحيط الدولى، لا يكاد ينازعه فيها أحد إلى هذه اللحظة وفى المستقبل المنظور.

ويقول عنه ملايين القراء والمتابعين للشأن العام: إن عيونهم وعقولهم تفتّحت على ما صاغته مقالاته وكتبه من أفكار وآراء، ومن تحليلات ومعلومات، شكّلت الوعى السياسى والاتجاه الفكرى لأجيال عديدة تتابعت على امتداد نصف قرن.. ومازالت كلماته وآراؤه تُبدد ظلام الحيرة والعتمة التى تُخيِّم على العقل العربى؛ فى ظروف غاب عنها المنطق واضطربت فيها الأحكام.

أما هو فيقول عن نفسه - لو سُئل - إنه صحفى.. أتاحت له الظروف أن يكون شاهدًا على الأحداث فى مرحلة تاريخية معينة. ولكنه قبل ذلك وبعد ذلك لا ينسى صميم مهنته، وهى التعامل مع الأخبار والحقائق والمعلومات. وأن مهمته فى النهاية أن يقول كلمته ويمضى.. تاركًا للتاريخ أن يُصدر أحكامه، وقتما تسمح الظروف وتنزل الأستار وتتكشف الحقائق.

ولا يوجد من تنطبق عليه هذه المقولات من الشخوص والرموز والأسماء التى تحيط بنا غير شخص واحد، حكمت عليه المقادير بالظروف والموهبة والعمل الشاق؛ أن يكون مصدرًا للإشعاع والتنوير فى الفضاء الإعلامى السياسى الواسع للمنطقة العربية وهو الأستاذ هيكل.. الذى عرفه القاصى والدانى بهذا الاسم، فأصبح علامة على نزاهة القلم، وعمق الرؤية، والإحاطة الدقيقة بما يجرى فى العالم من أحداث وتطورات، مع قدرة لا تبارى فى تحليلها واكتناه أعماقها واستشراف آفاقها، والتنبؤ الواعى بما يحمله المستقبل من إرهاصات!

يحتفل الأستاذ هيكل ونحتفل معه بعيد ميلاده الثمانين - أمد الله فى عمره - وهو يقف فوق قمة هرم شامخ من العمل المثمر، والإنتاج المتدفق، والعلاقات الإنسانية الرحبة.. التى وضعته فى مصاف كبار الصحفيين العالميين. فتحولت الصحافة على يديه إلى فن للتثقيف السياسى، يُثريها بالحوار والنقاش والترحال، وبالاطلاع الواسع والملاحظة المباشرة، وبالفهم العميق لطبائع الأمور واحتياجات البشر. وقد حافظت له الصحافة برغم ذلك على موقع فريد فى عالم السياسة، الذى وجد نفسه يخوض معمعته فى ظروف غير عادية من تاريخ مصر والعالم العربى، وذلك من موقع المسئولية الأخلاقية التى يمليها الضمير الصحفى: مسئولية وضع الحقائق والمعلومات أمام الناس بأمانة ونزاهة. وحين وجد نفسه - كصحفى - طرفًا فى عملية مخاض لثورة تطمح لتغيير أوضاع سياسية فاسدة، لم يتردد فى الوقوف إلى جانبها والانغماس فى تيارها الجارف.

وعلى امتداد أكثر من ٢٢ عامًا (١٩٥٢ - ١٩٧٤) هى عمر مشاركته السياسية المباشرة فى أحداث ثورة يوليو وتقلباتها، حمله تيارها إلى لحظات الصعود والهبوط فى مسارها. واتفق واختلف مع الأجنحة المتصارعة فيها، فأسهم فى صياغة الجانب الفكرى والثقافى من تحولاتها. واصطدم كثيرًا بممارساتها التى لم يكن يرضى عنها. ولكنه بقى مخلصًا ومؤمنًا بعبدالناصر، الرجل الذى قادها وصنع نجاحها وفشلها، وانتصاراتها وهزائمها.. وهو لم يكن إيمانًا أعمى، بل كان إيمانًا يقوم على فهم وإدراك كاملين بأن القادة والأبطال الذين تُلقى على كاهلهم صناعة التاريخ هم أيضًا بشر، وليسوا قديسين لا يجوز عليهم النقد.

لم يحظ الدور الذى قام به هيكل - الصحفى - فى ثورة يوليو بالتقييم الموضوعى المحايد حتى الآن. بل اتخذ الكثيرون من موقعه الفريد إلى جانب عبدالناصر سبيلاً إلى الطعن عليه، واتهامه بأنه احتكر دور الصحفى الأوحد.. على الرغم من وجود عدد من كبار الصحفيين الذين اقتربوا بنفس الدرجة من عبدالناصر.

ولكن واقع الأمر هو أن هيكل - ربما بحكم الموهبة والخبرة والاطلاع على تجارب الصحافة الغربية المتقدمة واحتكاكه المباشر بعدد من كبار الصحفيين العالميين، واتساع نطاق الرؤية لديه - ارتفع بفن الممارسة الصحفية إلى مستوى الفعل الثقافى، وحرص على أن ينأى بالصحافة عن أساليب الابتذال السياسى والمهنى التى أصبحت الآن للأسف مدخلاً للاقتراب من السلطة والحصول على عطاياها والصعود فى سلم العمل الصحفى؛ وبينما نجح هيكل فى أن يجعل الصحافة مدخلاً وهدفًا نبيلاً للثقافة السياسية. فقد بقى إنتاج المعرفة لديه من خلال تقديم قراءة نظرية للممارسة السياسية، أو عن طريق استباق القرار السياسى، أو تحليله وتبريره فى ضوء الضرورات والظروف الواقعية والمعلومات التى يجهلها أو يحجبها صانع القرار أحيانًا استهانة بذكاء الناس أو خوفًا منه. هو شغله الشاغل، وهمه الأول، وموئل تميزه، ومجال تفوقه. بحيث أصبحت حاجة صانع القرار إليه أكثر وأشد من حاجته كصحفى إلى صانع القرار.

ولعل هذا هو مصدر تفرده. ولهذا لم يكن غريبًا أن تظل علاقاته متصلة بمعظم الرؤساء والملوك والحكام العرب الذين عرفهم وعرفوه، يسعون إليه بقدر سعيه إليهم، وأن تمتد علاقاته وصداقاته إلى دائرة واسعة من كبار الصحفيين والمفكرين والمسئولين فى عواصم الغرب ممن تتاح لهم فرصة الاطلاع على دقائق السياسة وأسرارها. وأن يعرف بحكم اطلاعه ومتابرته كيف يصل إلى المعلومات فى مظانها ومصادرها حتى وهو بعيد عن السلطة. ليكون هو صانعها ومنتجها أو أول من يعرفها فى سياق رؤية شاملة وتحليل علمى دقيق، غالبًا ما تصدق فيه التوقعات وتصيب النتائج والتنبؤات.

لعل هذا ما يجعل هيكل بحق صحفيًا أوحد، نسيج وحده، تعلو قامته فوق قامات عشرات ممن أضفوا على أنفسهم لقب الصحفى الكبير والكاتب المعروف.. يضاعف من هذا التقييم، خلو الساحة الصحفية من النماذج المضيئة والقدوة الرفيعة، فضلاً عن الانهيار الشديد الذى لحق مستوى المهنة فأشاع روح الابتذال والانتهازية، وروَّج للنفعية والسطحية.

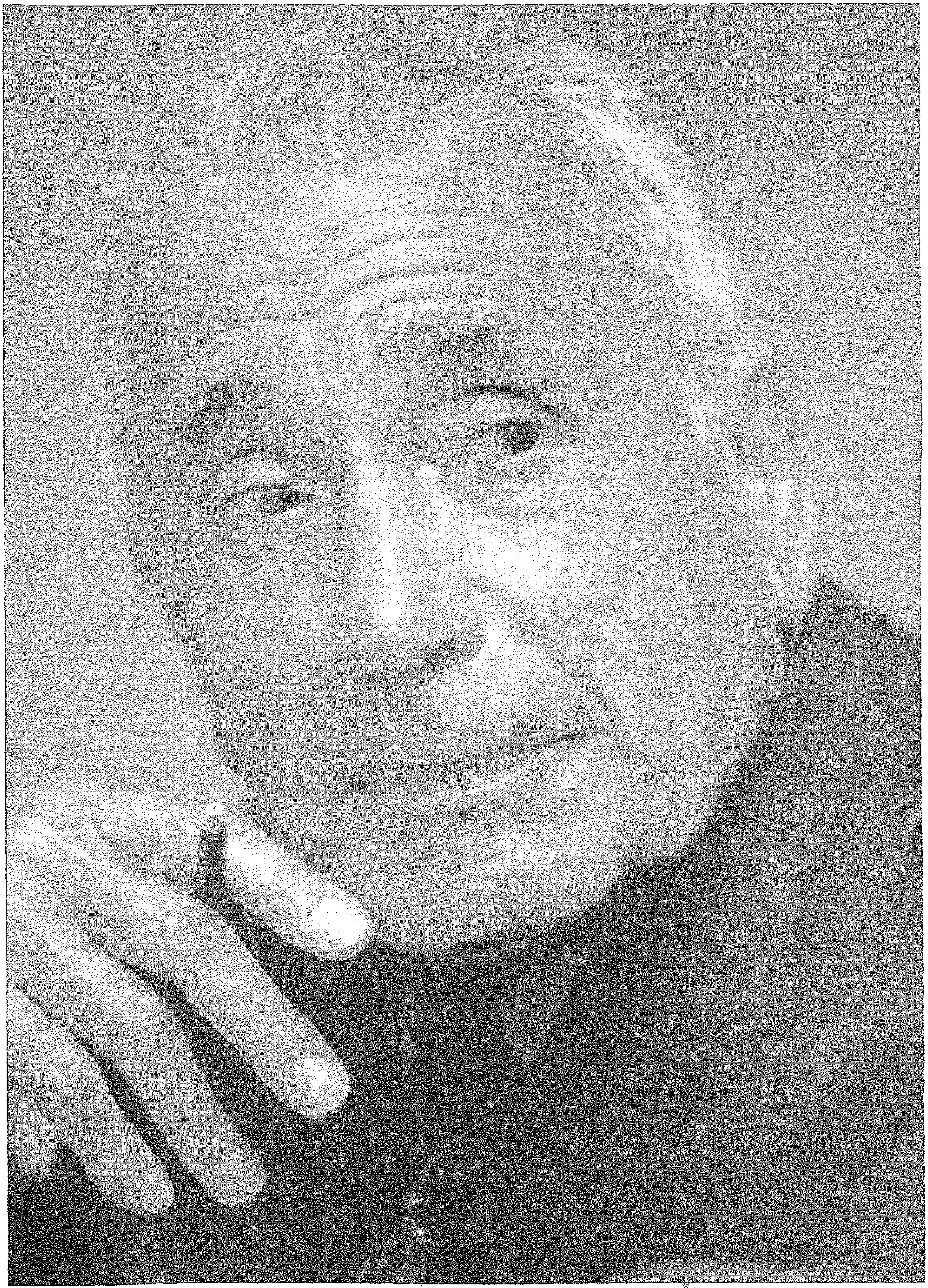
وحين أنجز هيكل مهمته إلى جانب عبدالناصر ونفض يده من السياسة باختياره وكامل إرادته، بعد خلاف حاد مع الرئيس السادات، اتسع أمامه أفق الصحافة ليصنع جسرًا للتأثير فى ميدان السياسة، يعبر فوقه بالفكر والعلم والمعرفة، ويصل بتأثيره فى مجريات الأمور إلى ما تعجز الممارسات السياسية المحترفة عن الوصول إليه.

ولا يُذكر هيكل إلا ويُذكر له ارتقاؤه بأسلوب الكتابة الصحفية والعناية بجمال اللغة وموسيقى التعبير، واحتفاؤه الشديد بالأدب العربى قديمه وحديثه، وبالآداب والكتابات العالمية التاريخية. وهو يدرك أن الصحافة العربية لن تستطيع أن تقف على قدميها فى مجال المنافسة والتأثير إلا إذا اكتملت لها أسباب الحرية سواء فى الحصول على المعلومات أو فى التعبير عن الرأى، إلا إذا توافرت لها أدوات التقدم التقنى. وقد شهد المقال الصحفى على يديه فى هذه المجلة تطورًا مثيرًا، فيما يُعرف بـ«المقال المستطرد» الذى يجمع بين المعلومة والقصة والتحليل والتعليق والتقرير وسائر أشكال الفنون الصحفية المعروفة. ولكنه يرى دائمًا أن المعلومات تسبق الرأى. ويستشهد فى ذلك بمقولة للصحفى الأمريكى الكبير آرثر سولزبرجر مؤسس «نيويورك تايمز» يقول فيها: «إن رأى أى إنسان فى أى قضية لا يمكن أن يكون أفضل من نوع المعلومات التى تُقدَّم فى شأنها». وتلك باستمرار كانت ميزة هيكل ومناط تفوقه.

خاض هيكل معارك سياسية وصحفية عديدة. واختلف واتفق معه كثيرون. وبعض الخلافات كانت مع أقرب أصدقائه. وبعض الاتفاقات كانت مع ألد خصومه. ولكنه أبقى على الجانب الإنسانى فى علاقاته بعيدًا عن نوازع الانتقام والثأر. وقدر فى بعض الأحيان أن حدة المنافسة، وبعض الغيرة والحسد قد تعمى المرء عن الالتزام بالحد الأدنى من أدب الحوار وثقافة الخلاف والاختلاف. وحاول فى ظروف عاصفة أن يحمى أصدقاءه وتلاميذه من تعسفات السلطة وصراع الأجنحة التى مالت بالثورة فى أواخر أيامها.

بقى هيكل حتى بعد خروجه من الأهرام ومن مواقع السلطة، أكثر شموخًا من الذين استذلوا أنفسهم لها. محافظًا على شبكة واسعة من الأصدقاء والتلاميذ، لا يبخل عليهم بالنصح والمشورة والرأى وفى زمن حافل بالعواصف والتقلبات، وتتساوى فيه الرءوس والقامات إلا فيما ندر، لا يملك المرء إلا أن يحيى عطاء هذا الصحفى الكبير والمفكر السياسى العملاق، الذى قدم ومازال يقدم للملايين من قرائه عُصارة عقل مثقف مستنير؛ ارتفعت حرفة الصحافة على يديه إلى مستوى الفعل الثقافى. ولا يملك المثقف مهما تقدمت به سنوات العمر أن يضع قيودًا على حصاد فكره. وهو ما لا يسع هيكل إلا أن يلتزم به أمام الملايين من قرائه ومحبيه وأصدقائه مادام الله قد وهبه نعمة الصحة والعافية والعمر المديد.

سلامة أحمد سلامة



تصوير: محمد مسعد

محمد حسنين هيكل

.... لمــــــاذا؟

طــارق البــــشـــرى

[١]

■■ يمثل الأستاذ محمد حسنين هيكل قدراً من الثبات فى الموقف الفكرى والرؤية السياسية. لا أظن أحداً يفوقه فيه فى حياتنا السياسية الثقافية المعيشة، وهو ثبات لم يضعفه ما يلحظ من تنوع فى كتاباته ومن تعدد لزوايا المعالجة ومن مرونة أملتها تغيرات الأحداث. ولعل هذا القدر من الثبات هو ما جعل أعماله على هذا القدر من القابلية للتراكم، تراكم الخبرات فى مجال التكوين الذاتى للكاتب، وتراكم التأثير والفاعلية فى مجال الحياة السياسية الثقافية. لذلك صارت كتاباته أو محاضراته عندما تظهر للرأى العام المتابع تمثل حدثاً من أحداث السياسة الجارية، بما لا نجد له مثيلاً بهذا القدر، فى زماننا ومكاننا هذين.

وهيكل يعتبر كاتباً يعبر للمستويات الثقافية المختلفة، أقصد أنه ليس محصوراً فى مستوى ثقافى محدد من القراء، لأنه تمرس على أن يجمع قراءه من بين قارئى الصحيفة السيارة وقارئى الكتاب. لذلك نجد كتبه وكل منها ضخم يدور حول الأربعمائة صفحة، نجدها فى واجهات المكتبات المتخصصة التى يقصدها طلاب المعارف العميقة، كما نجدها فى أكشاك المطارات ومحطات السكك الحديدية والمصايف. فهو من القليلين الذين جمعوا بين القارئ العام والقارئ الخاص.

وأنا أقصد بالقارئ الخاص هنا القارئ الذى تخصص فى متابعة الجهود الفكرية والحركية المتعلقة بالشئون السياسية والاجتماعية وتتشكل منه نخبة المثقفين فى هذا المجال. أما القارئ العام، فلا أقصد طبعاً كل من يعرف القراءة والكتابة، ولا أقصد كل من حصل على شهادة عالية، إنما أقصد نخب المهنيين والمشتغلين بالأعمال الذهنية فى مجالات المعارف المختلفة بعلومها وفنونها التطبيقية، سواء من رجال المهن ورجال الأعمال، وهم أولئك الذين تستغرقهم تخصصاتهم المهنية وأعمالهم التى يمارسونها فى تخصصات معينة أو فى مجالات عمل محددة، تستغرقهم عن المتابعة الدءوب لقضايا السياسة والشئون العامة فى المجتمع. ومن هؤلاء فى المدى الطويل أو المتوسط تتشكل توجهات الرأى العام وتتحدد مسيرة المجتمع. ومن يصل إلى هؤلاء ويتكون جمهور قرائه منهم أو جمهور المتلقين عنه، إنما تكون إسهاماته ذات أثر كبير فى تشكل فكر النخب الاجتماعية كلها.

هذا النوع من القارئ العام، هم أذكياء ومتعلمون تعلماً رفيعاً وهم متمرسون فى أعمال عقلية وعلمية ويتعاملون مع الواقع الحى، والغالب فيهم أنهم طُلَعة يتطلعون للمعارف الخاصة ببلدهم وجماعاتهم، ولكن تشغلهم تخصصاتهم عن المتابعة اليومية الدقيقة والنشيطة لما تستوجبه الشئون العامة من متابعات فنية وعلمية ترضى مستوياتهم العقلية وعادات نظرهم فى شئون الواقع والحياة. و«هيكل» يصل إلى هؤلاء دائماً بإشباع ثقافى يبقيهم دائماً مشكلين القاعدة الأساسية لجمهوره.

وقد يسّر «لهيكل» هذا الوصول أنه اشتغل بالصحافة السياسية من بداياته العملية، والصحافة من فنون الإخبار، ولكن ثمة درجات من «الإخبار» تتراوح لدى الصحفيين، من حيث اختيار الحدث المُخْبَر عنه ومن حيث ربطه بأحداث أخرى، تتراوح فى مدى الدلالة ونوعها التى ينقلها الخبر للقارئ. وكما أن الأديب أو الفنان يعبر بالحركة الواحدة أو بالعبارة الواحدة أو بالخط واللمحة الواحدة، يعبر بأى من ذلك عن معنى عام وعن وضع يكون متكاملاً أحياناً، كذلك فإن المفكر أو الكاتب المتمرس يمكنه أن يعبر «بالخبر» المختار فى السياق المختار عن معان كثيرة يشرح بها الواقع الحاصل أو يحدد بها الموقف المطلوب.

وإن أنسى لا أنسى محاضرة ألقاها هيكل فى معرض الكتاب بالقاهرة فى ١٩٩٥ وطبعت فى كتيب من أربعين صفحة عن «باب مصر إلى القرن الواحد والعشرين» تضمنت عدداً قليلاً من المواد كان أحدها أن نسبة النمو الاقتصادى فى مصر تدنت فى ١٩٩٠ إلى ٢,٥٤٪، ثم فى ١٩٩١ إلى ٢,٢٧٪، ثم فى ١٩٩٢ إلى ١,٨٪، ثم فى ١٩٩٣ إلى الناقص بنسبة ١٪. أما الخبر الثانى فهو يتعلق بتركز الثروات فى مصر إذ يملك ٥٠ فرداً كل منهم ما بين ١٠٠ . ٢٠٠ مليون دولار، و١٠٠ فرد كل منهم من ٨٠ إلى ١٠٠ مليون دولار، و١٥٠ فرداً كل منهم ما بين ٥٠ إلى ٨٠ مليون دولار.. إلخ. وذلك مقارناً بما ذكره من أن نسبة النمو كانت فى المتوسط بين عامى ١٩٥٦ . ١٩٦٦ هى ٦,٧٪، ومقارناً بأن متوسط دخل الفرد فى مصر فى بداية الثمانينيات كان ٦٧٠ دولاراً فى السنة. وصار فى بداية التسعينيات ٦١٠ دولارات فى السنة.

ثم تكلم عن العنف فى إدارة الشئون السياسية الداخلية، تكلم عنه بلغة الأرقام أيضاً باعتبار أن مصر فى ١٩٩٤ كان لديها خمسون معتقلاً بين الناس كل يوم، وخمسة قتلى كل أسبوع بسلاح الإرهاب أو سلاح الدولة، وثلاثة يعلقون على حبل المشنقة كل شهر «ممن حكمنا بتطرفهم». ثم تكلم عن «الباب» وهو رئاسة الجمهورية كمنصب وموقع تزيد خطورته فى مصر عن مثيله فى أمريكا أو فى فرنسا، وأشار أن فى البيت الأبيض الأمريكى ٢٤٠ مستشاراً للرئيس كل منهم معروف بإسهامه العام ومسئوليته رغم أن الرئاسة فى أمريكا يساندها ويقف بجوارها برلمان من مجلسين فيه حزبان متوازيان، ثم أشار إلى نظام الخلافة فى الرئاسة وضرورة أن توضع له قواعد فلا يجرى بالوصاية إلى الأبد.

وهكذا فى هذا العدد المحدود من البيانات أوضح ملامح وضع كامل ومشاكله السياسية والاجتماعية.

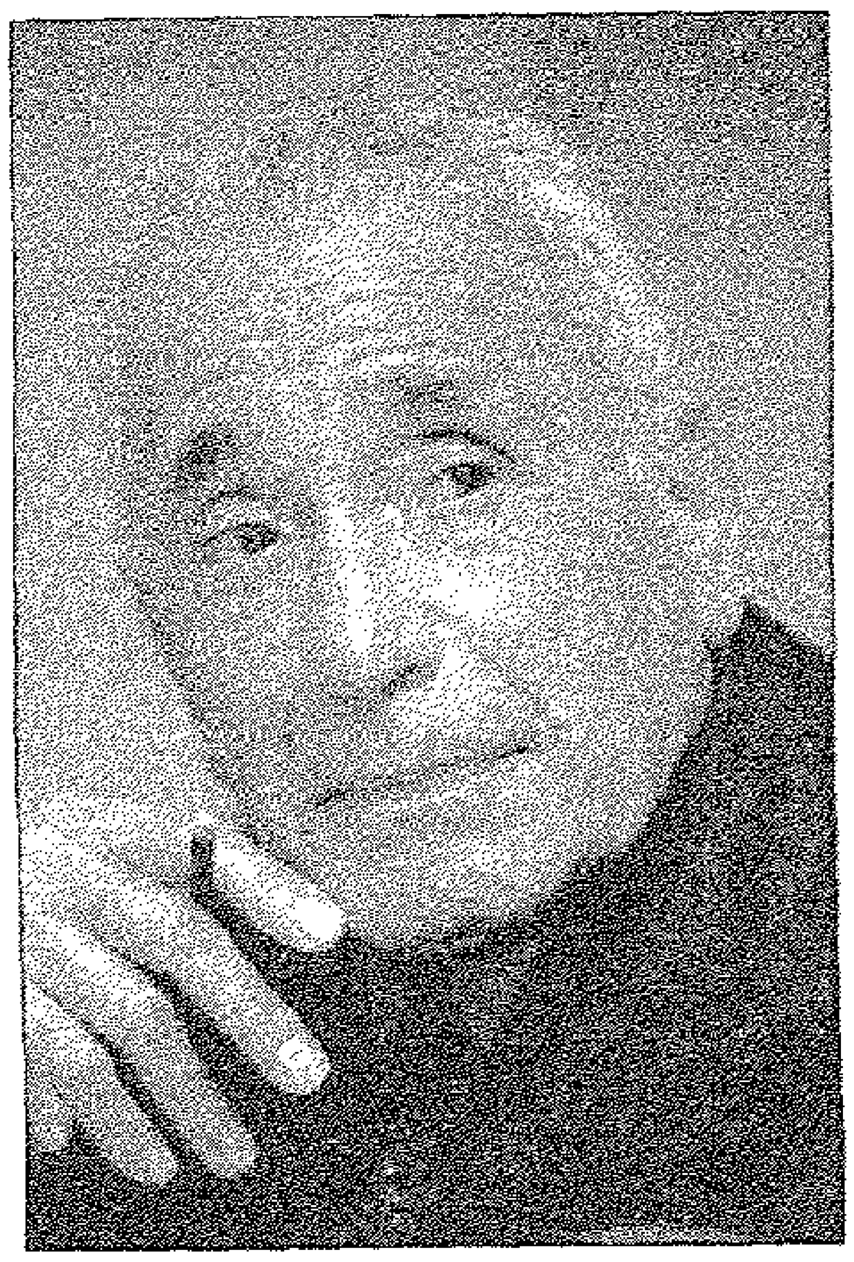
إن التقاط الملامح العامة للوضع الاجتماعى السياسى كله فى ترابط أوضاعه الاجتماعية والسياسية والأمنية والمؤسسية التنظيمية هو عملية ليست مجرد عمل صحفى إخبارى وليست مجرد تقديم خدمة جارية للقراء، وليست عملاً تاريخياً رغم غزارة ما يمكن أن يعتبر مادة تاريخية فى كتبه ومؤلفاته، ولكنها كل ذلك بوصفها وسائل لتحديد موقف ولبيان توجه وللإشارة إلى وجوه أزمات المجتمع وطرائق حلها، وهذا موقف سياسى وممارسة سياسية أصيلة، وهذا أهم ما يميز كتابات محمد حسنين هيكل.

[٢]

وهيكل بهذا ظاهرة سياسية فى حياتنا الثقافية والسياسية، وهو شديد الشعور بواقع الأمة الحاضر، وهو يوظف كل ملكاته الفكرية والفنية والمهنية فى تتبع مجريات الأحداث، وفى بيان حال الأمة، ويشرح بيان الحال هذا بما يكاد يصل بالقارئ وبالمتلقى إلى حكم صريح على سياسات تتبع ومواقف تتخذ وأوضاع تطرأ. ومع هذا الحضور الشديد، الذى أرجو من الله سبحانه أن يبقيه، لم أكد أتبين دلالة واضحة عن خبر اعتزاله. وآثرت أن أتعامل مع هذا الخبر وفقاً لما أتمناه من أن يكون «سحابة صيف عن قليل تقشع» كما يقول الشاعر الأندلسى.

ولا يملك أحد أن يثنيه عن قرار يتخذه فيما أظن، ولا أظن أحداً من قبل ملك عليه أمراً من هذا النوع، سيما قراراته المهمة، وأولها ما نعرف من اعتزاله العمل الرسمى فى إدارة الصحف القومية وذلك فى ١٩٧٤، ثم قراره ذو الطبيعة المستمرة وهو ألا يترك مصر رغم موقفه المعارض للحكومة فى السبعينيات، الذى بلغ قدراً من الحدة شديداً، وهو قرار كان يستوعب الخصائص العميقة المندسة فى لفائف الحالة المصرية من تاريخ قديم، فمنذ قامت الدولة المصرية الحديثة، لم ينجح معارض سياسى فى استبقاء أثره السياسى والمعنوى على جمهور الرأى العام المصرى، إذا كان ترك مصر وأعمل نشاطه السياسى من خارج حدودها.

ومن جهة أخرى، فإن شدة الحضور من حيث الاهتمام بقضايا الأمة ومتابعة وقائعها، ومن حيث اتخاذ المواقف الفكرية والسياسية، أو الإرشاد إليها، هذا الحضور الفعال لا يفضى إلى الاعتزال ولا يتناسب معه، إلا أن يكون الاعتزال موقفاً يتخذ، أو علامة على رفض واقع أليم، إن بلوغ سن معينة لا يعنى شيئاً فى ذاته، قد يكون له أثر فى



محمد حسنين هيكل

نظم لوائح الحكومة والعاملين، ونظم القوانين التى يستبدل بها موضوع الحالة ببلوغ عدد سنين محدد لسهولة التعامل بين الناس، بمثل ما تقول أن بلوغ الرشد يكون بتمام بلوغ الشاب اليوم رقم ٣٦٥ من السنة الشمسية رقم ٢١ من مولده، وهو فى اليوم السابق مباشرة لم يكن رشيداً، وكما صرنا نحترم جداً وصول أى عدد إلى رقم عشرى يرد به أحد الأصفار على يمين رقم صحيح، ونرتب على ذلك آثاراً كما لو كان الرقم حدثاً فى ذاته. ولكن كل ذلك إن جاز فى تحرير القوانين فهو لا أثر له فى قياس الفاعلية وأحجام التأثير.

والحاصل أننا مادمنا نتكلم عن «هيكل» بوصفه ظاهرة سياسية، فقد وجب علينا أن نتحدث عن الظاهرة لا عن الشخص، أو على الأقل لا يصرفنا الاحتفاء به شخصاً عن أن نهتم بدراسته «كظاهرة»، ولا شك أن من حقه علينا أن نحتفى به، وقد صرنا به أوسع معارف وأدق تبيناً، ولكن الأهم فى ظنى أن ندرسه.

وكنت تساءلت فى مقال لى «بالهلال» فى مارس ١٩٩٩ عما إذا كان قد آن الأوان لكى ننظم دورة علمية يعد لها بما يناسب من موضوعات وباحثين ومن فترة إعداد تمكن من الإعداد الجاد للموضوعات العلمية، ندوة من هذا النوع الثقيل والعميق الذى اعتاد مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت على الحشد العلمى المنظم له، وذلك لدراسة أعمال هيكل عبر العقود الخمسة الماضية، وقلت أنه فى ظنى لقد آن أوان ذلك، لأن ذلك واجب علينا لأنفسنا ولفكرنا السياسى العربى. ثم أثرت الدعوة لذلك مرة أخرى فى سبتمبر سنة ٢٠٠٠ بذات المجلة، ولعل صوتى الخفيض لم يصل إلى الأسماع، لأنى لم أعتد على الحديث فى مكبرات الأصوات.

إن وجه اللزوم هنا يرد أيضاً من أننا نريد أن نستجمع لبلادنا العربية عناصر الموقف الوطنى الذى يمكن من الذود عن حياض شعب صارت نهباً للمعتدين، وصار بعضها كما يقول عمرو بن العاص «كبيت الزانية يؤتى من كل مكان». نحن نريد أن نستجمع لا عناصر المقاومة فقط، ولكن أن نستعيد لأنفسنا ولبلادنا ولشعوبنا أركان العصمة والمنعة. وعندما نزمع على ذلك يكون مستحيلاً ألا نستفيد مما أفصح عنه «هيكل»، وبوجه خاص ما كتبه فى السنوات الخمس الأخيرة، وبوجه أخص ما كتبه فى الأشهر الستة الأخيرة، وما يستجد إن شاء الله تعالى.

[٣]

اختص هيكل مجلة «الكتب وجهات نظر» بكتاباته منذ صدورها وعلى مدى ستة وخمسين عدداً شهرياً حتى الآن. وما اكتمل منها فى إطار معين جمع فى كتاب، فصارت أربعة كتب حتى الآن، والخامس تحت الإكمال فيما يبدو. ومن يتابع هذه الكتابات يعرف إلى أى مدى كانت صفحة الحاضر مبسوطة، حتى بالنسبة لما يتعلق بأحداث تاريخ قريب مضى وشخصيات طواها الموت. فعندما كتب عن الحسين ملك الأردن بعد وفاته، ذكر أدواراً له قام بها فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى، وكان لها أثر فى الإضرار بالجانب العربى، ثم ذكر أن الملك كان يتقاضى مليون دولار سنوياً من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وفى حديثه عن الملك الحسن الثانى ملك المغرب ذكر مدى حرص الملك على أن تنعقد مؤتمرات القمة العربية والإسلامية على أرضه، وأن هذه المؤتمرات كانت تسجل مداولاتها بواسطة جهاز الموساد الإسرائيلى، وإن انعقدت لديه مؤتمرات القمة العربية فى ١٩٦٥، ١٩٦٩، ١٩٧٤، ١٩٨١، ١٩٨٢، ١٩٨٥، ١٩٨٩، كما انعقدت لديه مؤتمرات القمة الإسلامية فى ١٩٦٩، ١٩٨٢، ١٩٩٤. ونحن هنا لسنا أمام تاريخ مضى، إنما نحن أمام حاضر معيش وأمام احتمال أن يكون من رؤساء الدول من يتقاضى راتباً شهرياً من وكالة مخابرات ومن يكون أداة تجسس من الأعداء، ولا أتصور إن كان الظن قديماً يتجاوز حدود الارتباط بالمصالح السياسية والاقتصادية بين رؤساء ما ومصالح دول استعمارية طامعة.

وكانت المرة الوحيدة فيما أعرف، التى رأينا فيها هيكل يعرض رواية قصصية، هى رواية «العملية هبرون»، وقد عرضها لأنها قصة أغرب من الخيال ومن ثم وجدها «أقرب إلى الحقيقة». وقد كتبها أحد رجال المخابرات الأمريكية بحسبانها «رواية» وهى تحكى كيفية تجنيد الموساد الإسرائيلية لأحد الرؤساء الأمريكيين، لأنهم لا يكتفون أن يكون مؤيداً، إنما من الضرورى أن يكون عميلاً تحت الأمر، وبهذا تجرى صناعة رئيس والسيطرة عليه. وهى قصة ينقل بها الخيال السياسى فى الشئون الدولية إلى رؤى وتصورات لم يكن يبلغها من قبل.

ونحن بهذا التاريخ الحقيقى لقادة ورؤساء حكموا شعوبهم عشرات السنين وبهذه الإضافة الخيالية التى هى أقرب إلى الحقيقة نكون أدق إدراكاً لواقع أحوالنا، فيكون ثمة احتمال واقعى أن تكون دول وشعوب فى العالم تحكمها أجهزة مخابرات أجنبية حكماً مباشراً، وأن من بلادنا العربية من تحقق فيه هذا الاحتمال، وعلينا أن نعد أفكارنا فى ضوء احتمالات تتضمن هذا الأمر، فتتعدد أمامنا مجالات الرؤية وإمكانات التفكير فى الحلول.

فمثلاً، عندما يكون النفوذ الأجنبى معتمداً على هذه العلاقات الشخصية من السيطرة المنفردة، فهو فى الغالب يعتمد على الإفساد وتسلسل حلقاته، ولهذا الأمر نوع مواجهة. أما عندما يكون مستنداً إلى علاقات موضوعية بعيدة المدى لفئة طبقية أو لتكوين مؤسسى، فإن معالجة هذا الأمر تحتاج من المعنيين به إلى أساليب أخرى وأدوات عمل مختلفة. ويكون هذا ما يتعين أن ينشغل به المعنيون من ذوى الفكر وأصحاب الحركات السياسية والاجتماعية. ومن هنا ترد وجوه النفع وأعمال الفكر.

ومن جهة أخرى، فنحن مثلاً نعرف من عناصر قيام المشروع الصهيونى فى أرض فلسطين ما نعرف، وهيكل على مدى تاريخه الفكرى والسياسى قدم أغزر ما قدم من المواد التاريخية والسياسية فى هذا المجال، ويمكن القول إنه ينتمى إلى هذه المرحلة التاريخية التى صار فيها الصراع العربى الإسرائيلى هو الصراع الحاكم لتاريخ المنطقة العربية كلها ومصر منها على مدى النصف الثانى من القرن العشرين، وإلى مدى لم نستطع بعد أن نتبين نهاياته. وهو فى هذا المجال أدى دور جماعة بأسرها، وأدى ويؤدى من فروض الكفاية فيه ما تنوء به العصبة أولى القوة من الرجال.

ونحن نجد مثلاً فى «الكتب.. وجهات نظر» قراءته للوثائق الإسرائيلية التى أفرج عنها وعرضت للباحثين، ويفرد لها مائتين وخمسين من صفحات الكتب، للعرض والتحليل لهذه الوثائق، وبخاصة محاضر مجلس وزراء إسرائيل من ١٩٥١ إلى ١٩٦٦، وبهذا يذكر من نسى من ساستنا وأولى الأمر فينا، «أن مصر كانت ولاتزال هى طَلِبة إسرائيل، وهى الطرف المركزى فى الصراع العربى الإسرائيلى من بدايته وحتى الآن».

«وذلك بصرف النظر عن تباين التوجهات والسياسات والخيارات التى اعتمدتها مصر على امتداد أربعة عهود: مرحلة النظام الملكى، ثم المراحل الثلاث لثورة ٢٣ يولية وبعدها، من جمال عبد الناصر

عندما نريد أن نحتفى بشخص فليس أكثر احتفاءً به من التذكير بأعماله. وعندما نريد أن نقدر شخصاً فلننتفع بأعماله. وعندما نريد لشخص أن يفرح، وهو من حقه أن يفرح، فلنذكره بأعماله

إلى أنور السادات، وأخيراً حسنى مبارك».

وإن مصر حتى أيام فاروق كان الإسرائيليون يتحسبون لها، لأنها إن لم تكن تهديداً متحققاً فهى تهديد كامن، ويذكر أن بن جوريون وضع استراتيجية إسرائيل إزاء مصر فى أربع نقاط، أولها أن تلزم مصر حدودها وتظل وراءها، ثانياً أن تمنع مصر عن عقد تحالفات مع بقية العالم العربى وخصوصاً سوريا ثم السعودية والعراق، ثالثاً ضرورة توسيع العازل الصحراوى بين مصر وإسرائيل ليشمل سيناء المصرية؛ رابعاً «عندما تقبع مصر وراء حدودها وتترك إسرائيل وشأنها فإن إسرائيل يتحتم عليها أن تعطى نفسها كل المزايا المتوفرة استراتيجياً لمصر»، وهى الموقع بين القارات الثلاث والبرزخ بين البحرين.

ونحن عندما نقرأ ذلك ونشاهد أحداث الحاضر، نعرف أين نحن الآن وأين نقف منذ وقع رؤساؤنا معاهدة كامب ديفيد فى ١٩٧٩ وحرصوا على الإطاعة الكاملة لكل ما وضعت من خطوط حمراء، ونعرف لماذا خفض الليث المصرى رأسه ووضع ذيله بين رجليه. ولماذا لم نعد نستعمل لفظ «الأمة العربية» فى أى من تعبيراتنا الرسمية رغم النص عليها فى الدستور، ولماذا استعملنا بدلاً منها لفظ «الشرق الأوسط».

والحديث يوضح إلى أى حد يعتبر السلام مستحيلاً، وبوجه الخصوص بين مصر وإسرائيل، والحديث يوضح إلى أى حد وقعت مصر فى إطار المخطط الاستراتيجى الإسرائيلى، ونحن عندما نقرأ ما كتبه هيكل فى موضوع آخر يتعلق «بالعربى التائه» الذى حل فى ٢٠٠١ محل اليهودى التائه، نجده يشير إلى درس الحرب العالمية الثانية الشهير، إذ كانت سياسة التهدئة التى اتبعها شمبرلن رئيس وزراء بريطانيا مع أطماع هتلر التوسعية فى ميونخ هى السبب الرئيسى لقيام الحرب العالمية الثانية التى دامت ست سنوات وراح ضحيتها ٦٢ مليون قتيل (كنت أظن قبل ذلك أنهم ٣٢ مليوناً فقط)، وأن الدرس السياسى المتخذ هنا هو أن سياسة التخاذل تطمع المعتدين للمزيد من العدوان فيقوى احتمال الحرب الأشد.

المثل معروف مشتهر ولكن إثارته بالنسبة لسياسة التخاذل العربية تجاه إسرائيل هى المهم الجديد، وهو الذى يثير أوجاع الجسم العربى فى حالته الراهنة، وشرح كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية رأت ألا ينعقد مؤتمر قمة عربى بعد مؤتمر ١٩٩٠ الذى أعقبه تحول معركة إخراج العراق من الكويت إلى عملية مقصودة ومنظمة لتدميره. وأن الولايات المتحدة لم تأذن بقمة عربية أخرى إلا فى سنة ١٩٩٦ لامتصاص مفاجأة العرب باعتلاء المتشددين الصهاينة حكم إسرائيل ثم «لتمرير» قرار عربى باعتبار السلام خياراً استراتيجياً لكل شعوب المنطقة، ثم لم ينعقد إلا مؤتمر سنة ٢٠٠٠، انعقد ليوم واحد ليقرر الانعقاد الدورى السنوى للمؤتمر. ويذكر أن القصد المطلوب من الشعب الفلسطينى هو الكف عن المقاومة والقبول بأى سلام. بما يعنى - إن حدث - عزل الشام تماماً عن وادى النيل وبه يتحقق الهدف الاستراتيجى الأعلى لإسرائيل.

[٤]

الموضوع الثانى فى اهتمامات هيكل الحاضرة، أى خلال السنوات الخمس الأخيرة، هو موضوع الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن لنا أن نقول إنه الموضوع «الأول مكرر». ونحن ننتقل من خصوص الصراع العربى الإسرائيلى إلى عموم الصراع العربى الأمريكى، بحسبان ذلك تتحدد به ملامح التاريخ العربى المعاصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية النصف الثانى من القرن العشرين. وأقصد بالصراع العربى الأمريكى، حركة العدوان الأمريكى المباشر على بلادنا العربية وحركته الداعمة للعدوان الإسرائيلى وما يواجه ذلك من تحركات المقاومة العربية.

وإن السنوات الخمس الماضية شاهدت اشتداداً فى هذا الصراع واحتداماً له على نحو يتميز بزيادة معدلات التصاعد، وبوجه خاص منذ قامت انتفاضة الأقصى فى سبتمبر سنة ٢٠٠٠، وعلى وجه أخص منذ الأحداث الأمريكية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ التى اتخذت ذريعة إلى غزو أفغانستان وتأسيس الوجود العسكرى الأمريكى فى وسط آسيا، ثم غزو العراق الذى بدأت مقدماته من سنة ٢٠٠٢ وتم فى ٩ أبريل سنة ٢٠٠٣.

أذكر القارئ بهذه «الخريطة الزمنية» لأنها تشرح لنا المناخ السياسى الذى كان هيكل يكتب فيه دراساته، مختاراً لموضوعاتها من هذا السياق ومستجيباً لوقائع الحاضر المعيش، ومقدماً خبراته لجمهور رأى عام يعيش بالمعاناة هذه الأحداث وتلتوى به السبل والطرق ودروب الحركة، وتتقاذفه أدوات الإعلام الحكومية الرسمية فى غالب نشاطها المخطط لتصرفه عن موجبات المواجهة والتصدى، ويبلغ بعضها إلى محاولة القول بأن المخاطر ليست من الأخطار، وأن التبعية هى صميم التحقيق للمصالح الوطنية، وأن الاستسلام هو ما به ندافع عن الأمن القومى. هكذا يكتب فى صحف قومية واسعة الانتشار ومن مؤسسات المفروض أنها علمية ومن أقلام لديها الكثير من المعارف والقليل من الشعور بالحرج.

ولهيكل بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية موقف يجاوز الإدانة لسياستها «الإمبراطورية». ويصل إلى نقد أسلوب التفكير الأمريكى ذاته وطرائق التعامل، ويصل حتى إلى بيان «الجلافة الأمريكية» فى التصرفات والتصورات. (وتعبير الجلافة من عندى)، ويحكى عن كيسنجر أنه عندما أراد أن يسمع منه عن أزمة الشرق الأوسط طلب إلى هيكل ألا يحدثه عن التاريخ ولا عن الأمة العربية. أى أنه يريد أن يسمع عن مصر بغير تاريخ لها وبغير عروبة هى منها.

ثم هو يضع الولايات المتحدة فى إطار خصائص حضارية هى أنها ليس لها تاريخ، وهى موطن وليست وطناً. ونشأت كملجأ وفضاء مفتوح وليس كدولة، ولم يشعر المهاجرون إليها أن السكان الأصليين يشكلون عقبة أمامهم فقاموا بإخلاء الأرض منهم، وظنوا أن الله خلق هذه الأرض لينتفعوا هم بها، فهى حق لمن ينتفع بها، وحازت العلم والمعارف شراء بالمال، وحققت وحدة أراضيها ودولتها شراء بالمال أيضاً.

إننا عندما نستعيد كتابات هيكل من خريف سنة ٢٠٠١ حتى الآن، نلحظ أن «الإمبراطورية الأمريكية» حصلت على أكبر الحصص من جهوده فى الشرح والإبانة، وباستثناء ما كتبه عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بمناسبة مرور خمسين سنة على قيامها، وهى كتابات استغرق نشرها عدداً من الشهور، باستثناء ذلك لا يكاد اهتمامه مع قرائه أن يكون انشغل بأمر آخر غير هذه «الإمبراطورية الأمريكية» من بدء تكوينها إلى أساليب سياساتها إلى أطماعها الحاضرة، وطور فى ذلك الكثير من أطروحاته السابقة تعميقاً وإيضاحاً.

وأنا هنا لست فى مجال عرض أفكاره، فهو باليقين أقدر منى ومن غيرى على عرضها، ولكننى أحاول أن أوضح أن هذه الكتابات على مدى السنين الخمس الماضية التى اخترت أن أركز عليها فى هذا الحديث، كانت من أهم ما يمكن للعقل السياسى الوطنى العربى أن ينتفع به فى موقفه المقاوم للعدوان الحاصل عليه من الولايات المتحدة الأمريكية ومن دولة إسرائيل الصهيونية.

وهو فى كتاباته هذه يلقى أضواء عديدة على ما أسماه «مهمة التفتيش فى الضمير الأمريكى». ورغم أنه فى بداية حديثه هذا يرسم أضلاع المأزق الذى نحن فيه، فنحن بحق لا نستطيع أن نقيم صداقة مع الإمبراطورية الأمريكية، ومن الخطر أن ندخل فى «عداء مطلق» معها لأن الاصطدام بها لا تستطيع الأمة احتماله فى لحظتها الحاضرة وبطاقتها ومواردها اللحظية، وإن الاندفاع فى العداء يصل إلى كراهية عاجزة كما أن تجاهل الإمبراطورية يستحيل الصبر عليه. رغم وجوه هذا المأزق الذى يترسمه الكاتب فإن عرضه لخصائص «الضمير الأمريكى» يكشف عن أنه لا أمل لنا فى إدراك أى من وجوه التفاهم مع السياسات التوسعية للولايات المتحدة، لأنها لا تدرك معانى المفاهيم بمثل ما تعارفنا عليها. فلا الشرعية لها ذات المعنى، ولا الدين له ذات الأثر فى تكوين الإنسان، ولا النصر والهزيمة لهما ذات الدلالة بل هما عندهم بمعنى الربح والخسارة. ومفهوم السيادة الوطنية ليس له لديهم ماله لدينا من معان.

وعندما نقرأ هذا الكلام وندرك مغزاه يميل بنا الظن فيما يبدو لى، إلى إدراك أن لا طريق للحوار يمكن أن يقوم بين طرفى الصراع العربى التحررى والأمريكى العدوانى، بمعنى أنه لا يقوم حوار أساسه إثارة وجود الحق، وإنما «الحوار المادى» إن صح هذا التعبير هو الأسلوب الوحيد للأخذ والرد، فالعدوان يواجه بالسعى للإضرار أو السعى لإفشال النفع المادى الذى ينتظره المعتدى من عدوانه. ومراعاة موازين القوى تجرى فى إطار الاستخدام الأمثل لأساليب الحوار المادى وليس المعنوى. أو بعبارة أخرى فإن هذا الحديث يثير وجه جدل بين فصائل الحركة الوطنية يتعلق بأساليب العمل وممكناته، وأنا أقصد بهذا المثل أن أحرك الحديث إلى ما يمكن لنا به أن نستفيد من هذه الرؤية لواقع الخصم السياسى الأمريكى فى تبين وجوه المواجهة والتعامل معه.

[٥]

لست أريد أن أستطرد فى عرض كتابات يتابعها القراء بمثل ما أتابعها، وقراؤها أكثر كثيراً من قرائى، وصاحبها أقدر على عرضها منى. إنما أنا أكتب عن هيكل الظاهرة وليس عن هيكل الكاتب. وكما سبق أن

أشرت أن الظاهرة يتعين أن تدرس. فهو وطنى المشرع، وموازينه وتقويماته تصدر عن الصالح العام بعيد المدى للجماعة الوطنية. وقد يرد الاختلاف لدى بعض التيارات الوطنية أو أجنحتها العديدة حول تفاصيل وجوانب مما يقول به أو يدعو إليه أو يتوقعه. وقد يختلف البعض فى تقدير الجوانب النسبية لموازين القوى فى الصراعات الدائرة، وقد تكون الإمكانات المتوقعة للحركات الشعبية مما يعدل فى هذه الموازين، مما تزيد به احتمالات الرجاء لدى الطرف العربى فى الصراع. ولكن يظل لتقويمات ما يذكره «هيكل» قدر معلى فى التقدير، ويظل الاحتياج العام لكتاباته فى تبين أوضاع الصراع وحركاته احتياجاً ملحاً، وتظل موازينه ذات ضبط، ويظل مشرعه الوطنى ذا جاذبية وذا سعة فسيحة فى تجميع ذوى النظر الوطنى مع اختلاف تياراتهم وتعدد رؤاهم.

أنا لا أقول إنه حركى يعمل بالسياسة الجارية أو يضع برنامجاً سياسياً لأحد، ولكننى أقول إن كتاباته هى مما يؤسس البنية التحتية للنظر الحركى بالنسبة لحقائق الصراع الدائر وأوضاع أطرافه. وهو يتميز بأمرين أساسيين فى تقديرى، أولهما أنه يركز بصره على خصائص الطرف الآخر فى الصراع، وثانيهما أنه يركز بصره أيضاً على امتدادات ذلك الطرف الآخر فى أجهزة التقدير والتنفيذ التى تلتبس بمؤسسات العمل الوطنى العربى.

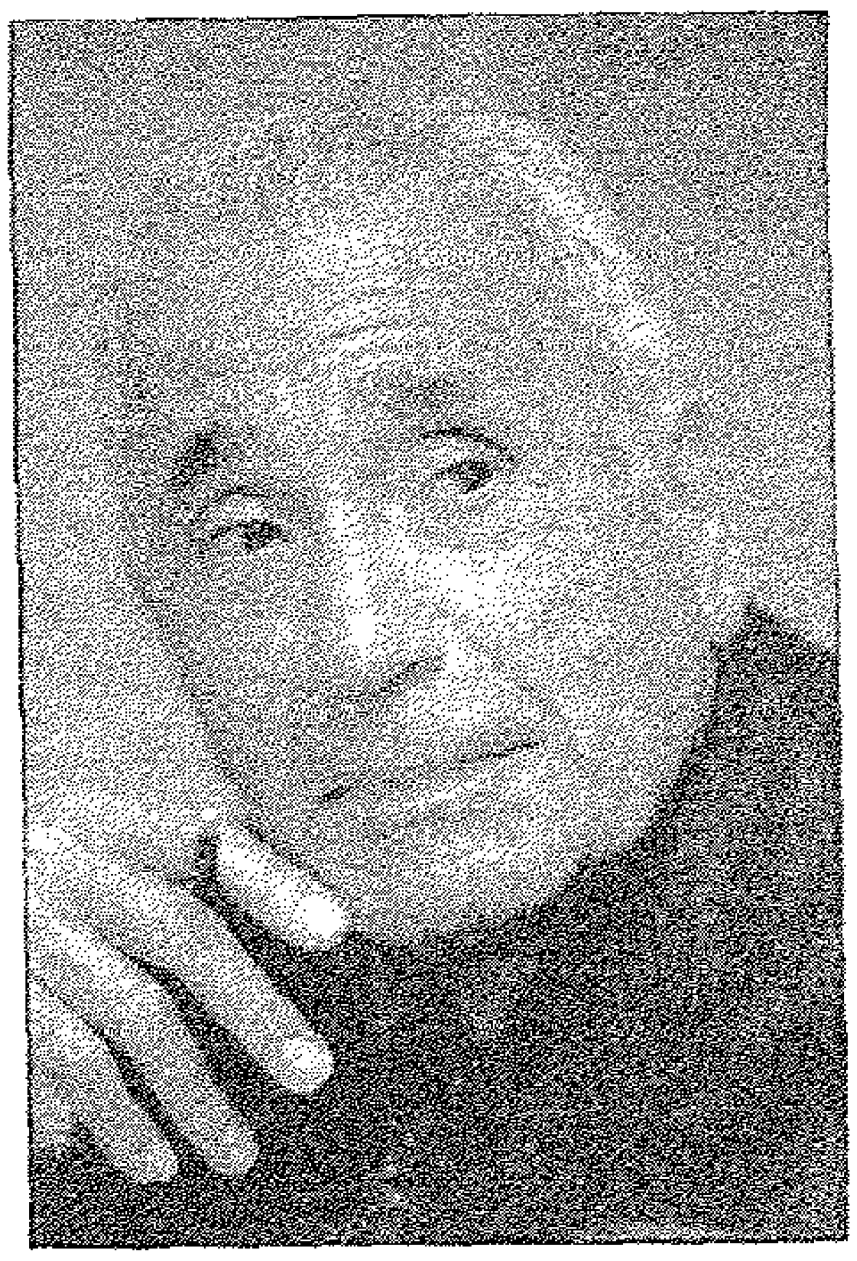
ونحن معه ولا ننسى طبعاً توصيفه الحاضر للوضع الذاتى الراهن، إذ صار ضياع الفرصة أكثر أماناً من عمل المخاطرة وصار الانتظار طبيعة سياسية والتبست الهوية، فلم تعد وطنية تلزم حدودها ولا قومية تحمل مسئوليتها، وبقيت ٩٩٪ من أوراق حل أزمة الشرق الأوسط فى يد الولايات المتحدة مع الشعور بالحرج من تزايد انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل، والتبست الثوابت بالمتغيرات وتبادلا موقعها، مع المخاطر الآتية لمصر من حوض وادى النيل، والمخاطر الآتية إليها من حدودها الشمالية الشرقية ومع تحقق أحلام بن جوريون وشحوب الدور الثقافى المصرى فضلاً عن مسألة الخلافة الدستورية، وهو توصيف يظهر إلى أى مدى هو حاضر فى الساحة العربية الحالية.

إننا عندما نريد أن نحتفى بشخص فليس أكثر احتفاء به من التذكير بأعماله. وعندما نريد أن نقدر شخصاً فلننتفع بأعماله، وعندما نريد لشخص أن يفرح، وهو من حقه أن يفرح، فلنذكره بأعماله.

وبهذه الروح كتبت هذا المقال. ■

عالمية مبكرة وتجدد معرفى خلاق!

السيد يسين



محمد حسنين هيكل

■■ كيف يمكن لى فى صفحات موجزة أن أحكى الوقائع البارزة فى مجال علاقتى الطويلة بالكاتب الصحفى المرموق والمؤرخ المبدع والمفكر الاستراتيجى الأستاذ محمد حسنين هيكل؟

علاقة طويلة ممتدة، مرت بمراحل متعددة.

بدأت بعلاقة غير مباشرة بين قارئ شاب متطلع إلى المعرفة بأحوال العالم وكاتب صحفى متألق استطاع فى سن مبكرة حقاً أن يجوب الآفاق، ويرصد الوقائع والأحداث العالمية ويحللها بأسلوبه الرشيق الممتع، ثم تحولت فى عام ١٩٦٨ إلى علاقة مباشرة بين باحث ورئيس تحرير مبدع، واستقرت أخيراً لتصبح صداقة فكرية عميقة تقوم على أساس الحوار.

[١]

القارئ الشاب والصحفى المتألق

منذ مطالع الصبا وتأثراً بأسرتى التى كانت أسرة قارئة. إن صح التعبير. واقتداء بشقيقى الأكبر الذى أصبح من بعد اللواء فؤاد يسين مساعد قائد الحدود، حرصت على متابعة الصحف والمجلات المصرية. ومن خلال هذه المتابعة رصدنا ظهور أول عدد من «أخبار اليوم» والتى كانت حدثاً صحفياً بارزاً بحكم تجديدها فى القوالب الصحفية، وإسهام كبار الكتاب فى تحريرها. من خلال «أخبار اليوم» و«آخرساعة» تعرفت على التحقيقات الصحفية اللامعة التى كان يكتبها الأستاذ هيكل.

ويمكن القول إن هيكل دخل دائرة العالمية منذ شبابه المبكر وهذه مسألة نادرة فى تاريخ حياة الصحفيين اللامعين. فقد أتيح له من خلال عمله صحفياً بجريدة «الإجيبشيان جازيت» أن يتعرف على جيل كامل من الصحفيين الأجانب الشبان الذين أصبحوا بعد ذلك صحفيين بارزين فى بلادهم. وأتيح له أن يغطى الحرب الكورية والحرب الأهلية اليونانية ومعركة مصدق لتأميم البترول الإيرانى. وهكذا نفذ منذ وقت مبكر لدوائر السياسة العالمية، وحرص منذ هذا الوقت المبكر على تتبع تطوراتها أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم فى عصر الحرب الباردة حتى اليوم بعد أن تحولت الولايات المتحدة الأمريكية القطب الأعظم إلى إمبراطورية.

تاريخ طويل حافل، زاخر بالتجدد المعرفى لصحفى تحول منذ سنوات طويلة وخصوصاً بعد أن ترك رئاسة تحرير الأهرام إلى مفكر استراتيجى قادر على تحليل أعقد الأوضاع الدولية. من خلال منهج متكامل. ويكشف عن ذلك على وجه الخصوص كتاباته اللامعة فى مجلة «وجهات نظر» والتى تشير فيها دراساته الطويلة عن النزوع الأمريكى إلى الإمبراطورية، وقدم بصدده تحليلات بالغة العمق.

فى المرحلة الأولى حيث كنت مجرد قارئ شاب متطلع إلى المعرفة، قرأت بعمق كتابه الشهير «إيران فوق بركان» الذى حكى فيه قصة المناضل الإيرانى العنيد مصدق الذى قام بتأميم البترول وأحدث بذلك هزة عالمية. تأملت كثيراً أسلوبه المنطلق، وقدرته التحليلية الفذة، التى تستطيع إضاءة المواقف المعقدة، وتفسر الأزمات الدولية.

[٢]

الباحث العلمى ورئيس التحرير المبدع

رجعت من بعثتى العلمية إلى فرنسا أواخر عام ١٩٦٧. أرسلنى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية الذى كنت أعمل به باحثاً منذ عام ١٩٥٧ إلى باريس للحصول على الدكتوراة فى القانون الجنائى وهو تخصصى العلمى الدقيق. كنت قد حصلت قبل سفرى على دبلوم معهد العلوم الجنائية الذى يعادل

يمكن القول أن أعمق الصداقات الفكرية هي التي تنشأ بين التلميذ والأستاذ. يمر الزمن ويكبر التلاميذ ويحققون إنجازاتهم. ولكن يبقى الأستاذ صاحب الحيوية الفكرية والحريص على التجدد المعرفي

درجة الماجستير، وتتلمذت بعد تخرجي في كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية عام ١٩٥٧ في جامعة القاهرة على يد الأستاذ العميد محمود مصطفى رحمة الله عليه وعلى الأستاذ الدكتور نجيب حسني الذي أصبح من بعد رئيساً لجامعة القاهرة. وسجلت قبل سفري إلى فرنسا رسالة للدكتوراة موضوعها «النظرية العامة للخطأ غير العمدي».

أمضيت ثلاث سنوات في ديجون وباريس وفشلت بعد نضال عظيم في اجتياز عقبة دبلوم الدراسات العليا الفرنسي لأن مواده كانت زاخرة بمقررات عقيمة لم أستسغها من المواريث الفرنسية وغيرها من مواد القانون المدني التي كانت منذ بداية دراستي للقانون ثقيلة على قلبي! تركت دراسة القانون وانصرفت في فرنسا لدراسة علم الاجتماع، وركزت بصفة خاصة على علم الاجتماع السياسي.

كنت بعد عودتي تعرفت على الدكتور جمال العطيفي في إطار نشاط الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، ونشأت بيننا صداقة وثيقة. وفي إحدى زياراتي للأهرام أخبرني أن زميلة لي من أيام الدراسة هي الدكتورة عفاف مراد تسأل عني. كنا قد تقابلنا في باريس من خلال النشاط الثقافي للمبعوثين المصريين في السفارة المصرية. وعادت الدكتورة عفاف من البعثة وعملت باحثة في مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بالأهرام والذي تحول من بعد إلى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.

قابلت الدكتورة عفاف وعرفتني بالأستاذ حاتم صادق مدير المركز في هذا الوقت.

وأعترف أنه منذ زيارتي للأهرام فتنت بالمبنى الذي كان مختلفاً حقاً عن كل المباني في القاهرة. ولفتت نظري اللمسة الجمالية التي تتبدى في لوحات الفن التشكيلي المعلقة على الجدران.

قامت علاقة علمية بيني وبين المركز بعد أن اقترحت على إدارته تأسيس وحدة بحوث لدراسة المجتمع الإسرائيلي، وتمت الموافقة وبدأت عملي كخبير منتدب من المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية. لم أكن قد قابلت الأستاذ هيكل شخصياً في هذا الوقت. وحدث أنني قمت ببحث متعمق وأعددت على أساسه مقالة طويلة بعنوان «قراءة سياسية في خريطة الشخصية الإسرائيلية»، وقدمتها للمركز للنشر في الأهرام. جمعت المقالة ثم أخطرت أنه ليست أمامها فرصة للنشر لضيق المساحة المتاحة للمركز.

لأمر ما أحسست أن الأستاذ هيكل لو قرأها سيأمر بنشرها. كتبت له خطاباً موجزاً وقلت له إن هذه المقالة محفوظة «بمتحف» المقالات المجموعة، وأرجو أن يقرأها ليقرر صلاحيتها للنشر. أعطيت الخطاب للأستاذة نوال المحلاوي مديرة مكتب هيكل ووعدت بعرضه عليه. في اليوم التالي طلب الأستاذ محمد سيد أحمد - وكان وقتها مشرفاً على صفحة الرأي في الأهرام. مقابلتي وبادرني قائلاً: ماذا حدث؟ قلت له ما هو الموضوع؟ قال لي: لقد حول لي الأستاذ هيكل مقالتك وطلب مني أن تنشر على مرتين السبت والأحد، مع أنه يرفض دائماً نشر مقالات مسلسلة، وتم النشر فعلاً وكان للمقالة صدى طيب لأنها ألقت بالأضواء على الجوانب المعتمة للشخصية الإسرائيلية.

وهكذا قرر هيكل - بدون أن يعرفني معرفة شخصية - أن ينشر المقال تقديراً منه أنه يتضمن إبداعاً من نوع متميز، تشجيعاً لباحث شاب يعرف بالطبع أنه يعمل في المركز، ولكنه لم يقابله من قبل. تشجيع المواهب ودفعها إلى الصدارة فن خاص لا يتقنه إلا الرواد أصحاب الرسالات.

وكان هيكل في الأهرام رائداً للتحديث الصحفي، وصاحب رؤية حضارية واسعة ظهرت في كوكبة المبدعين من كبار الكتاب والأدباء الذين أثروا الأهرام بكتاباتهم، ليس ذلك فقط ولكنه بإنشاء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية كان سباقاً في العالم العربي لمعرفة خطورة الدراسات الاستراتيجية. ولم يكتف بذلك ولكنه حرص على دعوة كبار الخبراء الاستراتيجيين الأجانب لعقد ندوات مشتركة مع خبراء المركز. ولا أنسى أنه دعا مرة خبيراً أمريكياً من أصل عراقي هو الدكتور الساعاتي وكان متخصصاً في منهج تحليل النظم لإجراء تطبيق على الصراع العربي الإسرائيلي وحضر معنا الأستاذ هيكل كافة الجلسات.

جده للمعرفة لا مثيل له، وحرصه على التجدد المعرفي أحد عناصر تفوقه الفكري، وتواضعه العلمي يعد نموذجاً لأجيال الشباب. ومرة أخرى يدعمني الأستاذ هيكل - بدون معرفة شخصية - حين انتهيت من إعداد مخطوطة كتابي «الشخصية العربية بين مفهوم الذات وصورة الآخر». وكنت قد اقترحت على المركز ضرورة عقد ندوة لمناقشة مخطوطات الكتب التي يعدها المركز قبل نشرها. ونظمت ندوة لمناقشة المخطوطة وعرفت أن هناك مؤامرة صغيرة تهدف للنقد غير الموضوعي للكتاب. أرسلت يوم انعقاد الندوة مذكرة للأستاذ هيكل قلت له فيها: اليوم الساعة السادسة ستناقش مخطوطة هذا الكتاب، ولم أزد، وأرسلت له نسخة من المخطوطة.

في السادسة مساء تماماً فوجئ أعضاء الندوة بالأستاذ هيكل يدخل القاعة ويسأل ماذا تناقشون اليوم؟ وطلب بدء الاجتماع وتمت مناقشة نقدية عميقة في حدود آداب الحوار العلمي. جاء الأستاذ هيكل ليدعم موقفي تقديراً منه للجهد الذي بذل، وللإضافة المعرفية التي تمت.

وإذا كنت قد تعلمت أساسيات العلوم الاجتماعية في رحاب المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، فقد تعلمت أساسيات العلوم السياسية والاستراتيجية في مركز الدراسات بالأهرام لتصل الرؤية العلمية الثقافية للأستاذ هيكل، وإيمانه العميق بأهمية الحوار الحضاري الخلاق، حيث أتاح لنا التفاعل مع قمم الفكر السياسي والاستراتيجي في العالم.

لقد غير ارتباطي بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية حياتي كلها، وخصوصاً بعد أن عينت عام ١٩٧٥ مديراً للمركز، حيث أعدت تأسيسه وضممت إليه مجموعة منتقاة من شباب الباحثين الواعدين الذين أصبحوا اليوم خبراء مرموقين على الصعيد المصري والعربي والعالمي.

وإذا كنت قد أصدرت عام ١٩٨٥ «التقرير الاستراتيجي العربي» بدوائره العالمية والإقليمية والمصرية والذي أصبح من بعد المرجع الاستراتيجي العربي الأساسي والذي اكتسب سمعة عالمية، ومازال يصدر حتى الآن، فإن الفضل في الأفكار التي أوحت به، يعود إلى ما تعلمناه من الأستاذ هيكل في ندوات المركز التي كان يحرص على حضورها، ويدون بدقة ما يدور فيها من أفكار.

ولا أنسى ملاحظاته النقدية على إعداد التقارير المختلفة، والتي كنا نستفيد منها في تطويره.

[٣]

صداقة فكرية عميقة

من خبرتي يمكن القول أن أعمق الصداقات الفكرية هي التي تنشأ بين التلميذ والأستاذ. يمر الزمن ويكبر التلاميذ ويحققون إنجازاتهم. ولكن يبقى الأستاذ صاحب الحيوية الفكرية والحريص على التجدد المعرفي ونموذجه البارز الأستاذ هيكل هو صاحب الخبرة الأعمق، والقادر من خلال الحوار الفكري الخلاق على تصحيح المسار. ولفت النظر إلى الثغرات في النسق الفكري الذي قد يصدر عن التلميذ.

ترك الأستاذ هيكل رئاسة تحرير الأهرام، وظن الكثيرون أنه بحكم ابتعاده عن دوائر السلطة انتهى مشواره الصحفي. ولكنه فاجأ الجميع بأنه - إن صح التعبير - أعاد اختراع نفسه!

فقد ارتبط بتأليف عدد من الكتب الأساسية المتعلقة بالمشكلات العالمية وبالتاريخ المعاصر لمصر خصوصاً وهو العالم بأسرار. المطلع على وثائقه. وصدرت الكتب تباعاً لترسم مستقبلاً زاهراً لهذا الكاتب الصحفي المتألق الذي تحول إلى مؤرخ بارز ومفكر استراتيجي مرموق.

حرصت ومازلت على زيارة الأستاذ هيكل بشكل منتظم، وكانت تدور بيننا حوارات شتى. كنت أسأله عن قراءاته وأعجب لحرصه على متابعة أحدث الإصدارات في تخصصات شتى. لأنه صاحب ثقافة موسوعية. وكنت أعرض عليه أفكاري في موضوعات تشغلني وكان يبدي رأيه النقدي بصراحة ووضوح. فيقبل بعضها، ويتحفظ على البعض الآخر، وقد يرفض تماماً بعض الأفكار.

وقد سمحت لي هذه الصداقة الفكرية العميقة، أن أنقد بعض آرائه، ليس شفاهة فقط في لقاءاتي معه، ولكن كتابة وعلى صفحات الأهرام. وهو لا يضيق إطلاقاً بالنقد الموضوعي. بل يرحب به.

وأذكر أنني علقت على محاضرة مهمة ألقاها عن تطور الديمقراطية في مصر. وكتبت سلسلة مقالات في الأهرام أعرب فيها عن خلافي معه في وجهات النظر. وسألته بعد أول مقالة ما رأيك؟ قال لي بابتسامة: سأنتظر إلى أن تنتهي من كل المقالات. ودار بيننا بعد ذلك حوار خلاق حول نقاط الاتفاق والاختلاف.

الأستاذ هيكل نموذج بارز ليس فقط للكاتب الحريص على التجدد المعرفي، كما تظهر ذلك مقالاته المسترسلة في «وجهات نظر»، ولكن أيضاً للتواضع العلمي النادر. وهل يمكن أن يصدق أحد أنه وهو في أوج تألقه وسمعته العالمية، عرف أنني أقوم في الجامعة الأمريكية بتدريس مقرر مشترك مع أستاذ آخر عن المجتمع المصري. فبادر وسجل نفسه كدارس مستمع! وحرص على حضور كافة محاضرات المقرر. وأذكر أنني ألقيت مرة في إطار هذا البرنامج محاضرة عن «الناصرية»، وبعد أن انتهيت طلبت منه التعليق فقال لي مبتسماً: أعتذر عن التعليق لأنني كنت مشاركاً في التجربة.

أستاذ هيكل بمناسبة وصولك لعتبة الثمانين أتمنى لك عمراً مديداً، وستظل دائماً الأستاذ والقدوة والنموذج.■

أولا:

جيوش تبحث عن غطاء!

محمد حسنين هيكل

القرار السياسى الأمريكى فى زمن قادم!



■ تبدو الإشارات المتكررة - فى هذه الأحاديث - إلى دور متزايد للقوات المسلحة فى صنع القرار السياسى الأمريكى أمرا مستغربا - لكن سبب الإشارات المتكررة مما يمكن شرحه (وذلك موضوع هذا الحديث) - كما أن دواعى الاستغراب مما يمكن فهمه، لأن الولايات المتحدة الأمريكية - ليست واحدة من «جمهوريات الموز» التى عرفتها دول أمريكا الوسطى فى عصر من العصور - أو «نظم قشر الموز» التى تزحلقت عليها أوطان عربية كثيرة - (ملكية أو جمهورية - فردية أو عائلية) - إلى حيث لا تعرف ولا تريد!

ومع ذلك - وبرغم كل شىء - فأى مراقب جاد للحياة السياسية الأمريكية يستطيع أن يلمح (حتى خلال زيارة عابرة) - إشارات تومئ إلى أن القوات المسلحة الأمريكية تتجاذبها عوامل تدفعها أكثر وأكثر إلى جدل مع القرار السياسى لم يكن مألوفا من قبل!

وكما يظهر - فإن إدارة الرئيس «جورج بوش» وهى تشق طريقها لغزو العراق - خاضت معركتين فى نفس الوقت:

• معركة محدودة التكاليف - حتى الآن - بدعوى إسقاط نظام الرئيس «صدام حسين».

• ومعركة مجهولة التكاليف - مازالت مستمرة - بدعوى خلافها مع رئاسة القوات المسلحة الأمريكية حول «مشروعية» و«معقولية» المطالب الإمبراطورية الملهوفة التى طرحتها ومكنت لها مجموعة قليلة العدد (بضع مئات) من الرجال والنساء - سيطروا على البيت الأبيض وعلى الإدارة وعلى الحزب الجمهورى، أى على القرار الأمريكى، ثم قاموا بتوظيفه - بمنطق «الاستيلاء» - على طريقة بارونات شركات النفط، والسلاح، والصناعات الإلكترونية والاستهلاكية، واحتكارات الإعلام والإعلان، وبورصة الأوراق المالية وغيرها - وتوصلوا لاستدراج السلاح الأمريكى نحو منحدر يتنازل بفكرة «القوة» - حتى تصبح «ظاهرة عنف»، ويهبط بإستراتيجيات الحرب لتصبح «ممارسة قتل»، وتلك هى النتيجة المحققة إذا تخلت السلطة عن القانون، وتلاعب أصحاب القرار بالمشروعية، وسخروا قيمة العمل العام ستارا للمصالح، متسببين بذلك فى أزمة ضمير تستهلك كرامة الدول، وتهين وعيها، وتقسم المجتمعات على نفسها، وتبدد الثقة الضرورية فى الضمانات الدستورية والأخلاقية التى تمنح السلطة هيبتها وتفرض طاعتها!

ذلك أن الجيوش تحارب وتضحى راضية تحت رايات أوطانها حفاظا على مصالح وأمن شعوبها، لكنه عندما يطلب من الجيوش أن تقاتل - ثم تنكشف وتتجلى دوافع الحرب، ويبين أنها جاءت خديعة للمواطنين وكذبا عليهم - إذن فهناك مراجعات، وهناك حسابات، وهناك عواقب، وذلك بالضبط ما يجرى اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية - (وفى بريطانيا).

....

....

[وكانت فضيحة ووترجيت التى أطاحت برئاسة «ريتشارد نيكسون» فى السبعينيات من القرن الماضى هى الخديعة والكذب على الشعب الأمريكى - ولم تكن مجرد أمر «نيكسون» بوضع أجهزة تنصت فى مقر الحزب الديمقراطى لكى يعرف الخطط الانتخابية لخصومه السياسيين - مسبقا ويفسدها عليهم!

كذلك لم تكن فضيحة «مونيكا لوينسكى» التى كادت تطيح بالرئيس «بيل كلينتون» - علاقته بمندوبة شابة فى البيت الأبيض مارس معها نوعا من الجنس فى مكتبه (والحقيقة أنها هى التى اعتدت عليه ولم يكن هو الذى بدأ) - وإنما كانت خطيئة «كلينتون» أنه عندما سئل خادع وكذب - وأمعن فى الإنكار طويلا، مسيئا بذلك إلى منصبه، ومستهترا بأصوات الناخبين التى وضعته فى مكتبه].

[وبالطبع فإنه يصعب حتى هذه اللحظة تصور أن تؤثر خديعة الشعب الأمريكى والكذب عليه فى موضوع العراق بمثل ما أثرت فضيحة ووترجيت وفضيحة «مونيكا لوينسكى» - لأن قضايا الداخل مباشرة وحساسة، فى حين أن قضايا الخارج تخالطها اعتبارات كثيرة - لكنه الحساب العسير فى أقل القليل - وقد تنعكس آثاره على انتخابات الرئاسة نهاية العام القادم - (خصوصا إذا تفاعلت مع أزمة الاقتصاد الأمريكى)].

....

....

ومن الطبيعى أن أى مشروع إمبراطورى يطرح نفسه على الأزمنة الحديثة - يتعين عليه أن يتقدم إلى مقصده على مراحل - واحدة بعد الأخرى.

ثم إن أى مشروع إمبراطورى عليه أن يعرض نفسه فى كل مرحلة بما يتوافق معها، فقد انقضى الزمن الذى كان فيه الغزاة (من الإسكندر الأكبر - إلى جنكيز خان) يظهرون بجيوشهم فجأة على حافة الأفق، حاجبين عين الشمس بجحافلهم، تاركين الأعنة لجيادهم، شاهرين السيوف على أعدائهم - عواصف من النار والدم.

وعليه فإن المشروع الإمبراطورى الأمريكى - الحديث - طرح نفسه على زمانه خلال مراحل - لكل واحدة منها لبوسها:

■ فى مرحلة أولى كان الأسلوب هو «الغواية» (نموذج الحياة الأمريكية وحرية كل فرد فى السعى وراء الفرصة و«السعادة»!).

■ وفى مرحلة ثانية كان الأسلوب هو الاستعداد «لمشاركة» العالم مقاديره (كما حدث فى الحرب العالمية الأولى حين جاءت الجيوش الأمريكية من وراء البحار طرفا فى معركة الإمبراطوريات العجوزة أو الطامعة).

■ وفى مرحلة ثالثة كان الطرح الأمريكى استجابة لنداء «المبدأ» (كما حدث فى حالة النقاط الأربعة عشرة التى أعلنها الرئيس «وودرو ويلسون» بعد الحرب العالمية الأولى (حقا لكل شعوب الأرض فى تقرير مصائرها).

■ وفى مرحلة رابعة كان الأسلوب هو تحمل العبء الأكبر من ضريبة الحرية (فى الحرب العالمية الثانية ضد الفاشية والنازية).

■ وفى مرحلة خامسة كان الأسلوب بلوغ مرحلة قيادة العالم فى المواجهة ضد الشيوعية، وكانت لأمريكا فيها وسيلتان: المساعدات الاقتصادية من ناحية، وأعمال المخابرات الخفية من ناحية أخرى.

■ وأخيرا حلت المرحلة السادسة، ولم يعد للمشروع الأمريكى أن يتخفى أو يدارى، لأن «تفوق القوة، وتفردها أدى إلى اعتبار السلاح أداة للمشروع تسبق غيرها من الأدوات وتتقدمها دون تردد!

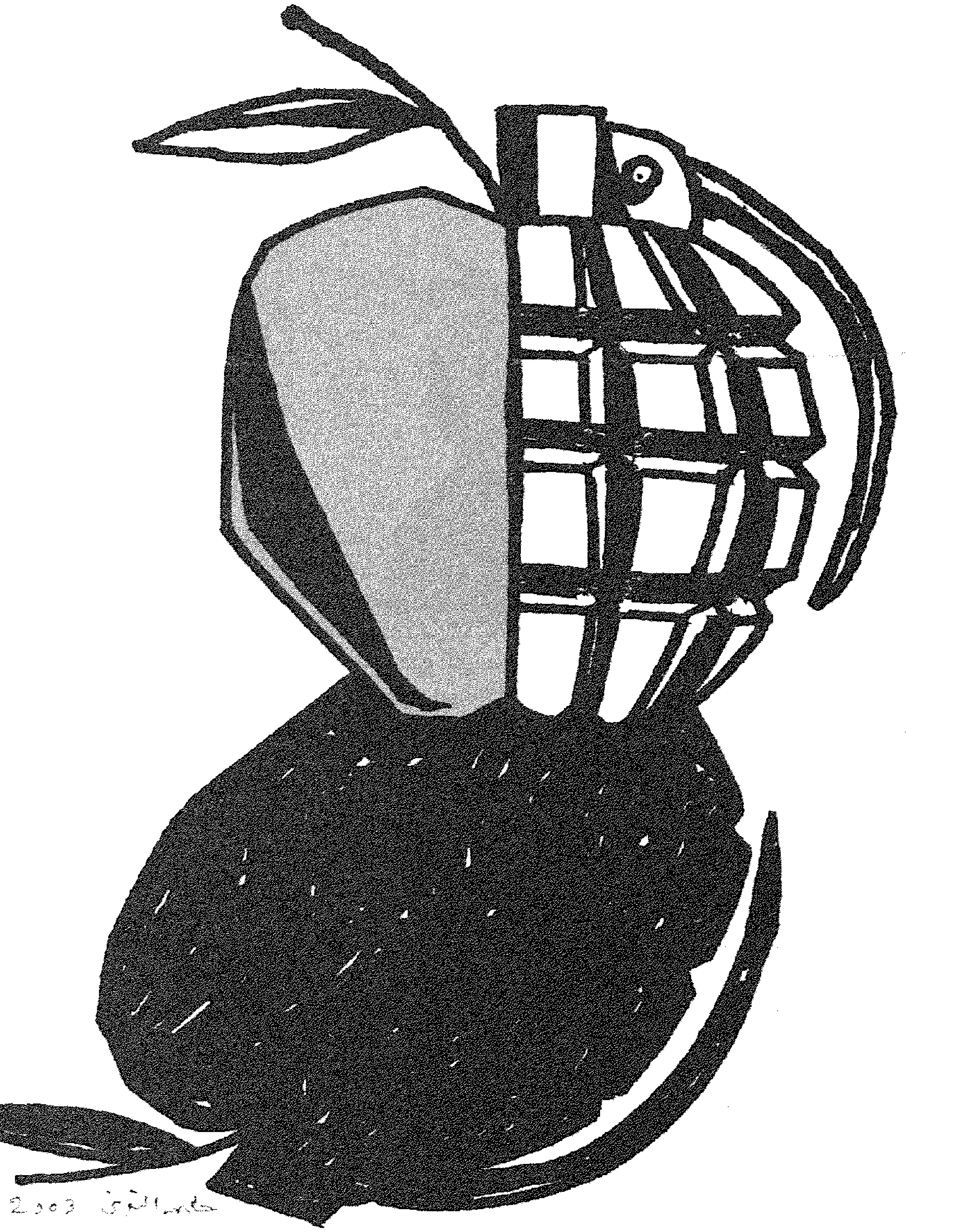
ومن حسن حظ الإمبراطورية الأمريكية أن قواتها المسلحة كانت جاهزة لمشروعها . عندما علا شأنه وحان أوانه فى نظر الحالمين به والملهوفين عليه. فقد كانت مؤسسات التفكير الإستراتيجى قائمة . وقوة السلاح حاضرة - وخطط الحرب جاهزة - والتواجد العسكرى الأمريكى مبسوط على قارات الأرض ومحيطاتها وسمائها وفضائها أيضا - وأكثر من ذلك فإن الهدف الافتتاحى كان هناك مكشوفا . معزولا . مهيأ لأن يتحول إلى ميدان لضرب النار، بالتحديد فى العراق.

لكن العقدة أن ما كان جاهزا لم يكن كافيا، لأن الجيوش (خلافا لغيرها من أدوات الفرض والإجبار) تحتاج إلى شىء آخر مع السلاح، هو مشروعية الأخلاق والقانون - ولو كغطاء مقنع على نحو ما - وإلا سقط الفارق بين الراية الوطنية وألوانها . وبين المنديل الأسود الذى يضعه أى قرصان فوق رأسه!

وكان ذلك بالضبط ما دفع «كولين باول» وزير الخارجية الأمريكية . للذهاب (بشعور ومسئولية محارب قديم) كى يقول للرئيس «جورج بوش» - مع تصاعد أزمة العراق (خريف سنة ٢٠٠٢) - إن الولايات المتحدة تقدر بالتأكيد أن تستولى غزوا على العراق، لكن قواتها المسلحة تحتاج بشدة إلى غطاء أخلاقى وقانونى تمارس تحته عملها هناك. لأن ذلك هو الضمان الأساسى لثقة القوات فى مهمتها، إلى جانب إحساسها بتأييد شعبها ومساندته!

ويمكن القول إن معظم ما جرى فى واشنطن ونيويورك ما بين خريف سنة ٢٠٠٢ إلى ربيع سنة ٢٠٠٣ . كان حوارا بين السياسة والسلاح فى طلب مشروعية الأخلاق والقانون اللازمين للقوات المسلحة الأمريكية حتى يتوفر الاحترام الواجب لدورها فى غزو العراق. وبكل الشواهد فإن القوات المسلحة الأمريكية لم تكن راضية عن التحضير محليا ودوليا لذرائع ذلك الغزو، وكان إلحاحها شديدا على إضافة أخلاقية وقانونية تكون غطاء لكل الأجواء.

وفى المقابل فإن السياسة المؤثرة فى الإدارة - (كما عبر عنها نائب الرئيس «ريتشارد تشينى»، ووزير الدفاع «دونالد رامسفيلد»، ورئيس مجلس سياسات الدفاع «ريتشارد بيرل») - واصلت الإصرار (بصلف!)



على حتمية التقدم (بجسارة!) إلى العمل المطلوب دون النظر إلى «الشكليات». باعتبار أن النتائج فى حد ذاتها تعطى القتال ذرائعه، كما أن النصر يمحو من ذاكرة الشعب الأمريكى أى اعتبار غيره، وبالتالى يضيع مع النسيان قصور الحجج إذا عراها الالتباس ـ قبل نشوب القتال!

وكان ملخص رأى هؤلاء المؤثرين فى الإدارة أنه حين تصحو أمريكا والعالم ذات صباح ليكتشفوا أن نظام «صدام حسين» اختفى، وأن العلم الأمريكى يرفرف فوق أعلى الذرى فى «بغداد» ـ فإن صفحة ما سبق ـ سوف تُطوى، لتظهر بدلها صفحة جديدة ملؤها صور مضيئة:

ـ أمريكا ـ مأخوذة باستعراض نصر وزهو (إمبراطورية تسيطر على المستقبل وتحكمه).

ـ والعالم ـ مشغول بأمر واقع له سطوته (إزاء قطب واحد يملك سلطة القرار الدولى).

ـ والدول التى ترددت وتقاعست ـ معزولة، مكسورة الخاطر (ليس أمامها غير أن تعود ذليلة إلى الملكوت الأمريكى).

ولم تكن الأمور بهذه البساطة. وكان صعبا أن تكون.

ثانيا:

حقوق السلاح على السياسة!

عندما تكلف القوات المسلحة فى بلد متحضر بمهمة يصعب تحقيقها بغير العمل العسكرى ـ فإن السلاح يتوقع أن يحصل على تأكيدات وتوجيهات هى بكل المعايير حقه على السياسة:

١ ـ هدف واضح يلزم بلوغه لتحقيق مصلحة حقيقية أو أمن وطنى مؤكد.

٢ ـ مشروعية تكفل التوافق (على نحو يمكن التراضى عليه) بين المصلحة والأمن من ناحية ـ وبين الأخلاق والقانون من ناحية أخرى، لأن ذلك حق القوات وسلام عقلها وروحها عندما يُطلب منها أن تواجه الموت (وكان الجنرال «تومى فرانكس» قائد غزو «العراق» هو الذى قال: «لا يمانع أحد من جنودى أن يذهب إلى قبره فى كفن من الصدق، لكنه يستشعر الجحيم إذا ذهب فى كفن من الكذب!»).

٣ ـ ضمان أوسع تأييد شعبى للعمل العسكرى، بحيث يرضى المواطنون بالتكاليف طواعية، ويرضون بالصبر على مصاعب الظروف وتقلباتها!

٤ ـ توفير حجم الإمكانيات المادية اللازمة لأداء المهمة بأكبر قدر من الاقتدار والكفاءة.

٥ ـ تحضير المسرح السياسى إقليميا ودوليا لقرار الحرب وتبعاته.

٦ ـ البحث عن حلفاء فى المصلحة والأمن لتحقيق أفضلية أن تكون الحرب عملا مشتركا مع آخرين حتى لا يوحى ظاهرها بأنها عمل تعسفى من طرف واحد.

٧ ـ بيان النقطة التى يكون بلوغها ـ إشارة متفقا عليها بأن العمل العسكرى أوفى بعهده وأكمل مهمته.

وطوال صيف سنة ٢٠٠٢ ـ وبينما الرئيس «چورچ بوش» يجتمع بقادة القوات المسلحة ـ وبينما خطط الحرب على العراق يجرى وضعها وتمويلها ـ وبينما الكونجرس بمجلسيه يسأل ويستفسر ـ وبينما الرأى العام على طول البلاد وعرضها تتنازعه الآراء ـ لم تكن القوات المسلحة الأمريكية قد تلقت أيا من التأكيدات والتوجيهات التى يتحتم على السياسة أن تقدمها للسلاح.

وكان البند الأول أى «تحديد الهدف الواضح الذى يلزم بلوغه للصالح والأمن الوطنى» ـ عقدة العقد جميعها.

والواقع أن الرئيس «چورچ بوش» وأقطاب إدارته طرحوا عددا من الأهداف مختلطة ببعضها إلى درجة غيبت عنها اليقين:

كان أول ما جرى طرحه «أن إسقاط النظام فى العراق جزء أساسى من الحرب ضد الإرهاب». على أساس معلومات ذكرت أن أحد «المتهمين» بالضلوع فى أحداث ١١ سبتمبر (٢٠٠١) على نيويورك وواشنطن، وهو «محمد عطا» كان على صلة بالمخابرات العراقية ـ التقى مسئولا فى السفارة العراقية بالعاصمة التشيكية «براج» فى مارس سنة ٢٠٠١ ـ ولم يقم دليل على صحة أى تفصيل فى هذه «المعلومات» (وتكشف فيما بعد أن المخابرات الإسرائيلية هى التى روجت لها بقصد ربط العراق بحوادث ١١ سبتمبر).

وجاء الطرح الثانى بأن النظام فى العراق لابد من عقابه على تهديد جيرانه ـ والدليل غزو الكويت (١٩٩٠)، ولكن هذا الطرح كان مردودا، لأن ذلك ذنب عوقب عليه العراق فعلا (بحملة عاصفة الصحراء)، ومن الصعب أن يعاقب متهم مرتين على نفس الذنب: مرة فى أوانه (١٩٩١)، ومرة ثانية بعد انقضاء اثنى عشر عاما (أى سنة ٢٠٠٣).

وتلاه الطرح الثالث بأن النظام فى العراق لم يقم بغزو الكويت فقط (حيث وقع عقابه فعلا)، لكنه قبل الكويت غزا إيران، ولم يقم أحد بحسابه، وكان هناك من قاموا بتذكير وزير الدفاع (مهندس عموم خطط الغزو) بأن هذه الحجة قد يكون لها رد فعل عكسى، لأن غزو إيران تم بتحريض ومساعدات أمريكية ـ ومن أصدقاء لأمريكا ـ أشرف عليها وأدار مجهودها فى ذلك الوقت «دونالد رامسفيلد» شخصيا، بوصفه وزير الدفاع (أيضا) فى إدارة «رونالد ريجان» (معظم الثمانينيات من القرن الماضى) ـ وعليه فإن إعادة فتح ملف إيران طردا ملغوما ينفجر فى وجه من يفتحه.

وجرى دفع طرح رابع بأن النظام فى العراق طغى واستبد بشعبه ولذلك وجب إسقاطه «باسم الشعب العراقى ولصالحه»، وكان المنطق الطبيعى أن مثل هذا الادعاء يعطى الولايات المتحدة حقا وسلطة ليس لهما سند فى القانون الدولى، ثم إن إعلان مثل هذا الهدف يثير هواجس نظم صديقة للولايات المتحدة يأخذها الشك إلى أن استهداف النظام فى العراق بداية لها ما بعدها ـ واصلة إلى نظم موالية بعد نظم مارقة!

وكان الطرح الأخير أن امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل ومعها وسائل صاروخية تنقلها إلى بعيد ـ هو الخطر الداهم على الإقليم وجواره، إلى جانب أن مثل هذه الأسلحة قد تنتقل من العراق إلى جماعات إرهابية متعاونة مع نظامه.

وفى مرحلة الحيرة بين العِلل والذرائع، وبالتوازى مع ذريعة امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل ـ حاول وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» أن يجرب طرح المشروع الإمبراطورى ظاهرا وصريحا ـ لعله يغرى!

وطبقا لشهادة الجنرال «داڤيد ماكيرنان» (قائد القوات البرية الأمريكية فيما بعد فى العراق) ـ فقد حدث فى اجتماع بين «دونالد رامسفيلد» وبين هيئة أركان الحرب المشتركة، وبحضور قائد المنطقة المركزية الجنرال «تومى فرانكس» وعدد من معاونيه ـ أن وزير الدفاع أشار إلى خريطة تملأ جدارا كاملا لقاعة الاجتماعات السرية، عارضا ما مؤداه: «إن نظرة على الخريطة تؤكد أن الولايات المتحدة محيطة من كل ناحية بالعراق، فهى تملك قواعد على تواصل دائرة كاملة تبدأ من الخليج ـ إلى باكستان ـ إلى أفغانستان ـ إلى أوزبكستان ـ إلى قيرجستان ـ إلى تركيا ـ إلى إسرائيل ـ إلى الأردن ـ إلى مصر ـ إلى السعودية، وبجانب ذلك فإنها تملك محطات وتسهيلات مفتوحة لها دون قيود فى مياه الخليج والبحر الأبيض والبحر الأحمر، ومعنى ذلك أن العراق بالضبط نقطة فى مركز دائرة واسعة، وهذه فرصة تاريخية:

أولا ـ للسيطرة على مركز الدائرة (فى «بغداد») ليكون النقطة الثابتة فى الدائرة الأوسع المحيطة به.

ثانيا ـ لتصفية ما تبقى من مواقع المقاومة أى إيران وسوريا ـ دون حاجة لاستعمال السلاح ـ لأن وجود قوات أمريكية فى العراق يعنى حصار إيران من ناحيتين: ناحية أفغانستان التى تحتلها بالفعل قوات أمريكية، وناحية العراق إذا وقع احتلاله بقوات أمريكية ـ كما أن سوريا فى وضع أصعب، لأنها بعد احتلال «العراق» «مفتوحة» من الشرق بوجود

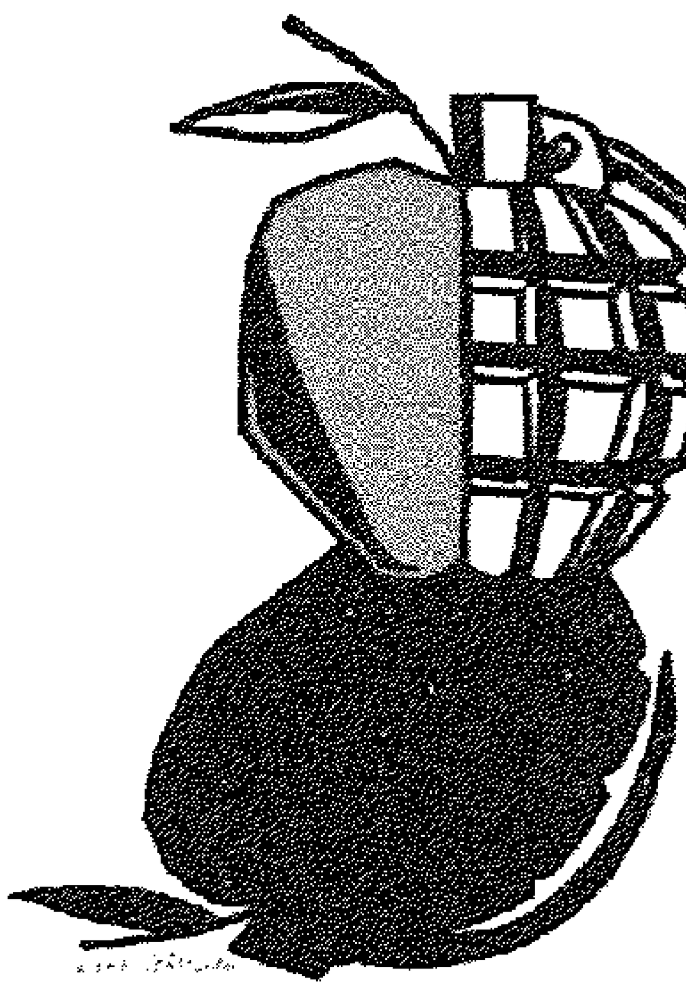
أمريكى فى الجوار المتصل بها إلى درجة الالتحام، ومحاصرة من الشمال بتركيا والوجود الأمريكى القائم فعلا على أرضها، ومناطق الأكراد شمال العراق والولايات المتحدة هناك معهم. إلى جانب إسرائيل من الجنوب - إلى جانب أن النظام فى الأردن ليس صديقا مغرما بالنظام فى دمشق. إلى جانب أن هناك عناصر فى لبنان لا يرضيها تحكم سوريا فى القرار اللبنانى.

«وإذن فهذه وبضربة واحدة خريطة جديدة «مثالية» تماما للشرق الأوسط، تقوم الولايات المتحدة بـ«تشكيلها» و«رسمها» وأيضا «تنظيفها» من جيوب كارهة لأمريكا مازالت تجادل وتعاند».

وطبقا لشهادة الجنرال «ماكيرنان» فإن الخريطة كانت ملء الحائط، وقد شرح «رامسفيلد» تصوراته بالإشارة إليها، وكان شرحه منطقا إستراتيجيا محكما تصعب مناقضته، وخصوصا أن محيط الدائرة الواسعة مطبق على كل مواقع إنتاج البترول «العربى والإيرانى وبحر قزوين»، وذلك أكثر من نصف موارد العالم من الطاقة، وعليه فإن الجائزة الإستراتيجية والاقتصادية تستحيل مقاومتها».

ومع ذلك فإن محاولة إغراء هيئة أركان الحرب المشتركة الأمريكية بحلم إمبراطورى صريح لم تؤد غرضها، لأنه «حلم يستحيل إعلانه صراحة على الملأ»، لا فى مجلس الأمن ولا فى أوروبا ولا فى العالم العربى - ولا حتى للشعب الأمريكى نفسه، فليس معقولا أن تعلن الولايات المتحدة للجميع أن هدفها إمبراطورى فج ومستهتر، لا يعنيه أن يدارى نيته للسيطرة على قلب العالم وعلى موارده الاقتصادية. بل إن مثل هذا الإعلان كفيل فى حد ذاته بخلق مقاومة شديدة خصوصا فى مجلس الأمن، وعندها فإن الولايات المتحدة تكون قد حرمت نفسها من أى غطاء أخلاقى وقانونى لابد منه.

وزاد أن بعض حضور الاجتماع من هيئة أركان الحرب المشتركة - كان تقديرهم أن الهدف الإمبراطورى الأمريكى يزحف بهدوء ويحقق طلبه بحركته الذاتية، ولا يحتاج إلى صدمة استعمال السلاح بالجيوش. لأن النظام العراقى يختنق بالحصار الاقتصادى والسياسى - والدولى - والعربى - يوما بعد يوم دون حاجة إلى إزعاج المنطقة والعالم بدوى الصواريخ والقنابل. لأنها بالكاد سنة أو سنتين وتسقط «بغداد» فى هدوء!



وزير الدفاع الأمريكى «دونالد رامسفيلد»: «إن الناس يصنعون التطورات ولا يضعون أيديهم على خدودهم فى انتظار حدوثها!»

لكن ذلك لم يكن مقنعا لوزير الدفاع الذى كرر قوله «إن الناس يصنعون التطورات ولا يضعون أيديهم على خدودهم فى انتظار حدوثها!».

وفى نهاية طواف طويل حول الأسباب والذرائع والحجج والأسانيد - تبدى خطر امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل. طرحا يحوز القبول ويستوفى المطلوب، شريطة أن تقوم عليه أدلة تقنع الكونجرس والرأى العام الأمريكى، وكذلك حلفاء وأصدقاء الولايات المتحدة فى أوروبا (بالذات باريس وبرلين وموسكو).

وكان المهم أن تكون الأدلة مختومة بقرار من مجلس الأمن يفوض أمريكا باستعمال القوة العسكرية لتغيير النظام فى العراق، وتدمير ما يملكه من أسلحة الدمار الشامل (نووية وكيماوية وبيولوجية)، بما فى ذلك نظم الصواريخ القادرة على حمل هذه الأسلحة إلى مداها حتى لا يعيش العالم تحت رحمة «ديكتاتور صغير» «منحته موارد العراق قوة تدمير أكبر من تفكيره» (وذلك تعبير «ريتشارد تشينى» نائب الرئيس).

وقبل بداية موسم سياسى نشيط معبأ بالاحتمالات (أوائل أكتوبر ٢٠٠٢) كانت الروافد المتعددة فى واشنطن تصب ما عندها فى مجرى واحد (أو كذلك بدا للمراقبين):

- استقر القرار نهائيا على اعتماد ذريعة «امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل» يستعملها بنفسه عند لحظة يأس أو تنتقل منه إلى منظمات إرهابية برغبة فى الكيد والانتقام. فهى نقطة التوافق القادرة على جمع كل الأطراف الدولية والمحلية، كما أنها الأقوى أخلاقيا وقانونيا - فى شدة التأثير.

- وتمكن «كولين باول» من إقناع الرئيس «جورج بوش» (فى لقاء خاص بينهما) - أن يعطيه الفرصة ليحصل من مجلس الأمن - وبالإجماع - على قرار يقضى بضرورة نزع أسلحة الدمار الشامل من العراق، والبداية عودة المفتشين إليه أولا، والتدخل العسكرى إذا وقع اعتراض مهمتهم من جانب نظام «صدام حسين»، (وكذلك صدر القرار ١٤٤١).

- ثم إن أوروبا تبدو مستعدة لمقابلة إدارة «جورج بوش» على منتصف الطريق، لأنها لا تريد صداما علنيا معها يقسم وحدة الأطلسى (وربما أنها لا تريد لأمريكا أن تنفرد وحدها بغنيمة العراق).

وبقيت النقطة المحورية فى ذلك كله أن يتم العثور على دليل يثبت وجود أسلحة دمار شامل فى العراق، ويكشف مخابئها ويعرضها أمام الدنيا - وعندها تقوم القيامة.

كانت البؤرة الحرجة فى أروقة القوة الأمريكية أن رئاسة الأركان المشتركة لديها وسائل جمع المعلومات المستقلة لتعرف دون انتظار غيرها، وأجهزة التحليل لتقدر ولا تسلم فكرها لغيرها. ومع ذلك فإن وزير الدفاع فى تلك الفترة (أكتوبر ٢٠٠٢) أصدر أمرين فى نَفَسٍ واحد:

- أمر إلى جهاز مخابرات الأمن القومى A.S.N وهو تابع لوزارة الدفاع ومكلف بمتابعة الاتصالات والرسائل والإشارات (فى كل ما يخص الحكومات والجيوش فى العالم، والمؤسسات الدولية وأولها الأمم المتحدة). بأن يرسل تقاريره فى الشأن العراقى إلى مكتبه (مكتب رامسفيلد) ولا يوزع منها شيئا إلا وفق «توجيهات» يصدرها إليه.

- والأمر الثانى تشكيل جهاز مخابرات خاص ملحق بمكتبه مباشرة. يكون جزءا من سكرتاريته يقدم له مباشرة كل ما عنده (إضافة إلى عشرات أجهزة المخابرات الأمريكية غيره).

وبدت تلك حسب تعبير منسوب إلى «ريتشارد أرميتاج» (مساعد وزير الخارجية) تصرفات «تفعلها» «أجهزة الحكم فى العالم الثالث، وليس مؤسسات الإدارة فى الولايات المتحدة الأمريكية».

وطبقا لتقارير متداولة فى ذلك الوقت (أكتوبر ٢٠٠٢) فى رئاسة أركان الحرب المشتركة (نُشر بعضها فيما بعد) - فقد كان اهتمام العسكريين موزعا على شواغل تداخلت وتشابكت، ذلك أن رئاسة الأركان ظل لديها شك فى شأن ما يُحتمَل أن يكون لدى العراق مما ينطبق عليه وصف أسلحة الدمار الشامل، فقد كان معروفا على نحو مؤكد (سواء بتحقيقات وكالة الطاقة النووية الدولية - أو معلومات أجهزة المخابرات الأمريكية نفسها) - أن العراق لا يملك إمكانية نووية، ثم إنه ليس هناك دليل مقنع على أن العراق لديه (الآن) أسلحة كيماوية أو بيولوجية لها قيمة، فما كان لديه جرى تدميره سواء

بقرار من النظام العراقى نفسه أو بجهد من بعثة التفتيش الأولى (التى قادها «ريتشارد بتلر») - ثم إن أى شىء يحتمل أن النظام فى العراق قصد إلى إخفائه، فقد صلاحيته - بالتأكيد - (بعد انقضاء أجل مفعوله وهو من سنتين إلى ثلاثة). مع غيبة دليل على أن العراق استطاع الحصول على المصانع اللازمة لإعادة تصنيع «المواد» أو «التجهيز» لاستعمالها.

وبرغم ذلك فإن وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» راح يؤكد لرئاسة الأركان المشتركة - أن جهاز المخابرات الجديد الذى أنشئ فى وزارته لديه معلومات أكيدة تشير إلى النقيض تماما.

وهنا فإن رئاسة الأركان راحت تتابع فريق «هانز بليكس» عندما توجه إلى «بغداد» بحثا عن الحقيقة القاطعة والدامغة، وكان موقفها «أن هذه المهمة هى القول الفصل فى أخلاقية ومشروعية أى عمل أمريكى»، والاحتمالات هنا ثلاثة:

- إذا لم يتعاون العراق «بإخلاص وشفافية» مع فريق المفتشين، فلن تكون هناك مشكلة، لأن عدم التعاون فى حد ذاته يصبح غطاءً للحرب (مع ثقة الولايات المتحدة لحظتها فى رئيس فرق التفتيش الدكتور «هانز بليكس»).

- وإذا تعاون العراق وظهر لديه ما حاول - أو يحاول - إخفاءه، فإن الذرائع الأخلاقية اللازمة لشن الحرب تستوفى نفسها بنفسها.

- وإذا ظهرت براءة العراق فإن الحرب لا تعود ضرورية ولا مبررة، بسبب نقص مشروعيتها القانونية والأخلاقية (مع استمرار تساقط النظام وانتظار نهايته طبيعيا).■

ثالثا:

الشكوك تتكاثف على كل المواقع!

■■ فى هذه الأجواء بدا مستغربا من الجميع - وفيهم رئاسة أركان الحرب المشتركة الأمريكية - صدور إعلان الرئيس «بوش» يوم ١٠ نوفمبر (٢٠٠٢). (أى بعد يومين اثنين من صدور قرار مجلس الأمن ١٤٤١). بأن «الولايات المتحدة لن تنتظر حتى يوافق مجلس الأمن على تفويضها بالعمل العسكرى ضد العراق «لأن الخطر الذى تمثله أسلحته داهم، ومهمة التفتيش لا ينبغى لها أن تتسبب فى تعطيل إجراء تراه الولايات المتحدة واقيا من هجوم مفاجئ لأنها تعلمت الدرس من بيرل هاربور ولا تزال تذكره». (وكان التصريح استباقا للحوادث لا لزوم له، كما أنه كان استثارة غير ضرورية لأغلبية واضحة فى مجلس الأمن تتشكك من الأصل فى النوايا الأمريكية - إلى جانب أن المقارنة بين ما استطاعت اليابان أن تفاجئ به أمريكا فى بيرل هاربور سنة ١٩٤١ - لا تجوز مع أى شىء يستطيعه العراق الآن - أو كان يستطيعه من قبل).

ولم تكن رئاسة الأركان حريصة على العراق والنظام فيه، وإنما كان شاغلها أن تجاهل مجلس الأمن على هذا النحو يحرم الولايات المتحدة من فرصة إقامة «تحالف واسع»، والنتيجة أن قواتها سوف تخوض الحرب وحدها (ومعها بريطانيا وحدها، وهو ما يصعب وصفه بتحالف دولى).

وكانت أهمية خوض الحرب بتحالف دولى واسع من وجهة نظر هيئة الأركان المشتركة عائدة إلى اعتبارين:

- اعتبار عملى: وهو أن رئاسة الأركان لاتزال مُصِرَّة على أن حجم القوات المرصودة للعملية غير كافٍ - لكنه إذا قام حلف دولى واسع، فإن وجود وحدات أوروبية (مثلما وقع سنة ١٩٩١) يضيف إلى جيوش الغزو مددا يسد الفجوة بين اللازم من وجهة نظرها، وبين المطلوب من وجهة نظر وزير الدفاع.

- واعتبار معنوى: إن العراق هو على وجه اليقين (وبنسبة ٩٥٪ على الأقل) - لم تعد لديه أسلحة دمار شامل، ومعنى ذلك أن الغزو سوف يؤكد للجميع أن تغيير النظام هو الهدف الحقيقى للسلاح. وذلك يثبت أمام الدنيا أنها حرب على غير أساس شرعى (غير مشروعة)، وأما إذا تواجدت فى الميدان قوات أخرى غير القوات الأمريكية (والبريطانية) - ثم اكتشف الرأى العام الأمريكى والعالمى أن الهدف كان تغيير النظام - فإن شراكة جمع من الدول تكون - فى حد ذاتها - إعلانا جماعيا بأن فكر هذه الدول تلاقى على اعتبار النظام العراقى تهديدا عاما للسِّلم رآه كثيرون، وتوافقوا لدفع خطره بعمل مشترك بينهم، وهذه الإرادة الدولية الواسعة لها مشروعية كافية ومقنعة.

وفى الوقت الذى بدأ فيه مفتشو الأمم المتحدة يتوجهون إلى بغداد (٢٧ نوفمبر ٢٠٠٢) - لأول مرة بعد غياب أربع سنوات - رفعت الولايات المتحدة وتيرة استفزازها إلى سقف جديد أعلى!

كان «هانز بليكس» (طبقا لأقواله) قد رجا السكرتير العام للأمم المتحدة - أن يبذل نفوذه لدى الإدارة حتى توقف الغارات على مناطق الحظر الجوى فى العراق أثناء عمل فرق التفتيش هناك، وحجته «الحرص على سلامة المفتشين بالدرجة الأولى، إذا كان مطلوبا منهم أن يدخلوا فجأة دون إخطار، إلى أى موقع على طول العراق وعرضه، فى أى وقت من الليل والنهار» - ومع أن «كوفى عنان» وعده، فإن «بليكس» رأى أن يتوجه بنفسه إلى واشنطن، بعد أن تلقى دعوة لمقابلة مستشارة الأمن القومى للرئيس السيدة «كونداليزا رايس» - وفى البيت الأبيض وجد «بليكس» أن الأجواء «محمومة ونافدة الصبر»، وحاول التهدئة بكل جهده ولم ينجح، بل إنهم أبلغوه بأن كثافة الغارات سوف تزيد، وتلك خدمة لمهام التفتيش تساعد فى الضغط على النظام فى «بغداد». وأما فيما يتعلق بسلامة المفتشين، فقد تلقى «بليكس» تأكيدا بأنه سوف يكون هناك تنسيق من «مستوى خاص» بين فريقه وبين «القيادة المتقدمة فى الكويت»، بحيث يمكن المحافظة على سلامة المفتشين فى أى مكان يتوجهون إليه، وفى أى وقت!

وانتهز «بليكس» الفرصة (حسب روايته) فطلب من مستشارة الأمن القومى - مساعدة الولايات المتحدة لفريقه «بما تستطيع تزويدهم به من معلومات»، (وكرر الطلب مع «كولين باول» (وزير الخارجية))، وطبقا لبليكس فإنه تلقى وعدا أكيدا بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تضع تحت تصرفه معلومات كافية تقود الفريق الدولى إلى مخابئ أسلحة الدمار الشامل. وقالت «كونداليزا رايس» لبليكس صراحة: «لك أن تثق أن لديهم أسلحة دمار شامل، وأنهم تمكنوا من تحويل ما لديهم من مواد كيماوية وبيولوجية إلى أسلحة جاهزة (Weaponized)، بل إننا نعرف ونملك الدليل على أن لديهم برنامجا لتطوير سلاح نووى»، ثم قامت مستشارة الأمن القومى بتسليم كبير المفتشين تقريرا سريا وضعته إدارة مخابرات وزارة الدفاع A.I.D، عنوانه «المنشآت الهامة لمواقع الأسلحة العراقية!» - وفى نهاية لقائها مع «هانز بليكس» طرحت «كونداليزا رايس» أهمية أن يقوم فريقه (على نحو عاجل) بحصر العلماء العراقيين واستجوابهم خارج العراق، مع استعداد الولايات المتحدة لقبولهم - وعائلاتهم - فى الولايات المتحدة، ومنحهم الجنسية الأمريكية، إذا هم «اعترفوا» بما لديهم من أسرار، وكان «بليكس» مستعدا للتجاوب وإن رأى الاقتراح «مستفزا» للنظام العراقى فى اللحظة الراهنة، وفضل أن يُرجئ طرحه علنا إلى مرحلة لاحقة حتى لا تتعقد الأمور مبكرا جدا!».

وحدث (يوم ١٢ ديسمبر ٢٠٠٢) - أن النظام العراقى رغم محدودية الفترة المتاحة له، وانصياعا لطلب أمريكى أضيف إلى قرار مجلس الأمن ١٤٤١ - سارع بتقديم تقرير تفصيلى عن كل ما كان لديه من أسلحة الدمار الشامل، وكان التقرير من أحد عشر ألف صفحة بينها مئات من صور الوثائق والمستندات وفيها قوائم وحسابات فواتير الشركات الدولية التى باعت للعراق ما حصل عليه من المواد والمعدات.

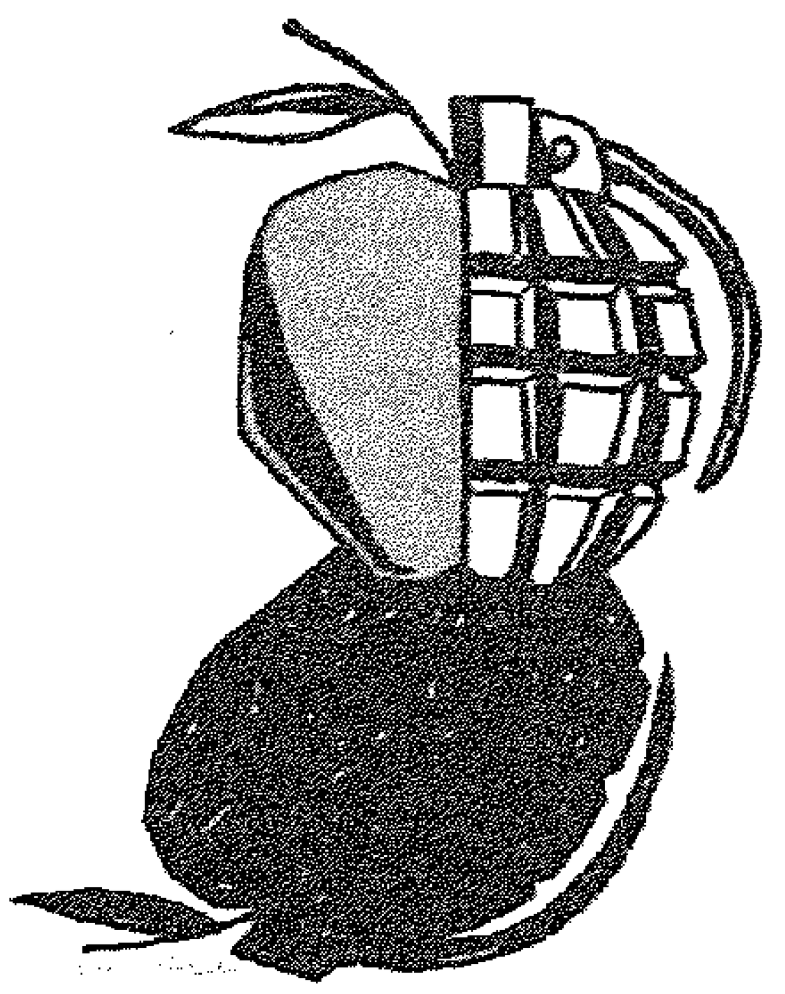
وحمل الوفد العراقى الدائم لدى مجلس الأمن ثلاث نسخ من التقرير الضخم إلى مبنى الأمم المتحدة، وجرى تسليمها إلى رئيس مجلس الأمن لذلك الشهر، لكنه لم تكد تنقضى دقائق حتى جرى اقتحام مكتب رئيس مجلس الأمن بواسطة مجموعة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، يصحبها ضابط اتصال من وزارة الخارجية الأمريكية، وطلبهم - بإصرار - أن تُسلَّم إليهم النسخ الثلاث التى قدمها الوفد العراقى من «تقرير الأسلحة الذى ورد «الآن» من بغداد»، وحاول رئيس مجلس الأمن أن يناقش، لكنه أبلغ بأن الموضوع لا يحتمل حلا وسطا، وأن عليه تسليم النسخ الثلاث، وحاول رئيس المجلس أن يتصل بالأمين العام للأمم المتحدة (وليس معروفا إذا كان تمكن من ذلك أو أنه تعذر عليه الوصول إلى «كوفى عنان») - وفى

كل الأحوال فقد خرجت مجموعة «الإغارة» على مجلس الأمن من مبنى الأمم المتحدة، ومعها النسخ الثلاث من تقرير «بغداد».

وكانت تلك صدمة لكل الوفود (خصوصا وفود فرنسا وألمانيا وروسيا والصين)، وحين اتصل سفراء هذه الدول بمكتب المندوب الأمريكى الدائم السفير «نجروبونتى»، كان رده: «أن «ما وقع» كان إجراء مؤقتا وضروريا للمراجعة، وما هى إلا ساعات قليلة حتى تصل إليهم نسخ من التقرير - كافية لكل أعضاء مجلس الأمن، وهم خمسة عشر، لأن العراقيين لم يقدموا غير ثلاث». (ولم تكن هناك جدوى من الرد بأن طبع نسخ كافية من التقرير يمكن أن يتم بواسطة جهاز الأمانة العامة، وهو المختص - لأن الجميع أدركوا أن هناك سببا خفيا وراء هذه التصرفات «المستفزة» لمجلس الأمن نفسه!).

على أن الوفود تلقت صباح اليوم التالى «نسخا من التقرير ملعوبا فيها». فقد خضعت لرقابة حذفت أجزاء كبيرة منها، وكان التفسير الذى قدمه الوفد الأمريكى أن «النظام العراقى فى إحساسه «بالحقد والغل» إزاء ما فرضه عليه مجلس الأمن، قصد إلى تضمين «تقريره» تفاصيل دقيقة عن الوسائل التى جرى بها تصنيع أسلحته الكيماوية والبيولوجية (وكذلك عن محاولاته النووية فى مرحلة سابقة) - وكان النظام العراقى (طبقا للتفسير الأمريكى) - خبيثا فى مقاصده بكثرة ما أورده من التفاصيل، فقد أراد فى الظاهر أن يثبت صدق استجابته، لكنه فى الباطن يضمر نية أخرى - هى العمل على توزيع ونشر تكنولوجيا تصنيع «أسلحة الدمار الشامل» بحيث تستفيد منها «دول مارقة غيره» أو «جماعات إرهابية» تجد الأسرار كلها مكشوفة أمامها وتحت تصرفها، وذلك كان ينبغى الحيلولة دونه (بأى ثمن)!

ولكن الملحقين العسكريين لهذه الوفود فى واشنطن ما لبثوا أن أخطروا سفراء بلادهم لدى مجلس الأمن بأن ذلك لم يكن القصد الحقيقى من «التلاعب بالتقرير» العراقى، وإنما كان القصد إخفاء دور الشركات الأمريكية (وأهمها خمسة وعشرون شركة عملاقة) - هى التى باعت للعراق ما ساعده على بناء إمكانياته العسكرية، وضمنها «أسلحة الدمار الشامل» (أيام حربه على إيران)، والغريب أن عددا من مجالس إدارات هذه الشركات ضم رجالا من صنّاع السياسات الراهنة (أمثال «ريتشارد تشينى»، و«دونالد رامسفيلد»، و«جيمس بيكر»، و«ريتشارد بيرل» وعشرات من



أحد رؤساء أجهزة المخابرات للصحفى البارز «نيكولاس كريستوف» «أن وزير الدفاع تحول إلى غوريلا متوحشة تخيف المؤسسات المؤهلة لجمع المعلومات وتدقيقها سياسيا وعسكريا

أعضاء مجلس سياسات الدفاع وغيرهم!).

وكان هدف الرقابة الأمريكية على التقرير طمس هذه الحقيقة وإلا أضعفت موقف «الإدارة» فى مجلس الأمن، إذ يسهل على وفود الدول - حينئذ - أن تقف فى وجه الوفد الأمريكى، وتذكره بأن ما لدى النظام العراقى جاءه بالدرجة الأولى من شركات أمريكية. وهذه الشركات هى التى قامت على توريد المواد والمعدات وعلى تركيبها وتجهيزها. وبالتالى فإن واشنطن لابد أن تعرف كل الحقائق والتفاصيل بما فى ذلك: مواقع السلاح العراقى ومخابئه، وتستطيع أن تدل عليها فريق المفتشين دون عناء وبغير انتظار.

وبالفعل فإن أجواء الشك فى مجلس الأمن تكاثفت.

ومن منظور رئاسة هيئة الأركان المشتركة للقوات الأمريكية فإن ذلك من أوله إلى آخره - لم يكن تمهيدا كفؤا يساعد على إقامة تحالف دولى واسع يخوض الحرب على العراق.

وزادت الهواجس عندما تلقت رئاسة الأركان المشتركة توجيها بتوقيع الرئيس «بوش» (يوم ٢١ ديسمبر) «يطلب فيه تمركز خمسين ألف جندى أمريكى فى منطقة الخليج الفارسى».

وتلا ذلك (يوم ٢ يناير ٢٠٠٣) قرار من وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» بالبدء فى تحريك مجموعات من هذه القوات (٣٥ ألف جندى) فعلا إلى مناطق الحشد فى الكويت (وفى الوقت نفسه أعلنت الحكومة البريطانية رسميا «استدعاء ١٥٠٠ جندى من الاحتياط إلى الخدمة، وتحريك مجموعة عمل عسكرية تقودها حاملة الطائرات «أرك رويال»، تصحبها المجموعة التابعة لها والمكونة من سبع عشرة قطعة بحرية - وأن تتوجه القوة - برية وبحرية - إلى منطقة الخليج حاملة ثلاثة آلاف من جنود البحرية».

وفى اليوم ذاته وقف «هانز بليكس» ومعه «محمد البرادعى» (رئيس هيئة الطاقة النووية) - يقدمان تقريرهما إلى مجلس الأمن، وكان ختام ما قاله كبير المفتشين:

«لقد مضت علينا الآن فى العراق عدة أسابيع، وقد مسحنا مناطق شاسعة فى ذلك البلد، لكننا حتى هذه اللحظة لم نعثر على سلاح الجريمة «Smoking Gun»، وتقديرنا أن فرق التفتيش تحتاج إلى وقت إضافى لإنجاز مهمتها». ثم قام الدكتور «البرادعى» بعد «بليكس» يقول: «إننا نحتاج إلى ستة شهور حتى نتأكد من الحقائق فى شأن المهمة التى كلفنا بها بعين الأمر».

وفى تلك اللحظة دخل على الخط فى واشنطن طرف آخر لا يستهان بنفوذه، لأنه من عناصر أجهزة المخابرات (وكالة المخابرات المركزية - ووكالة الأمن القومى). وراحت هذه العناصر تهمس فى لجان الكونجرس، وفى بعض مؤسسات الإعلام بما مؤداه «أن وزير الدفاع يتلاعب فى المعلومات التى تقدمها له الأجهزة المعنية، وهدفه إيجاد مبررات الحرب على العراق».

ومرة أخرى فإن هذه العناصر من أجهزة المخابرات لم تكن معنية بأمر العراق أو شعبه، وإنما كانت خشيتها على سمعتها المهنية، وهى ترى التشويه يتعمد تزييف تقاريرها بما يسىء إليها إذا انكشفت الحقائق، وهو ما كانت هذه العناصر تراه قادما دون أدنى شك بسبب «هشاشة» التفكير والتدبير، (ولعل هذه العناصر كانت مهمومة كذلك بما تراه من تجاهل دورها فى القرار الأمريكى الجارى، وتحسبه خطرا على مستقبل منطقة حساسة كانت من قبل حكرا على أجهزة العمل السرى، ثم استولى عليها وزير الدفاع وضمها إلى اختصاصه!)».

ووصل الأمر إلى حد أن واحدا من رؤساء أجهزة المخابرات قال للصحفى البارز «نيكولاس كريستوف» الذى نقل عنه (فى نيويورك تيمس) «أن وزير الدفاع تحول إلى غوريلا متوحشة تخيف المؤسسات المؤهلة لجمع المعلومات وتدقيقها سياسيا وعسكريا، وأن تفاقم نفوذ مكتب الوزير (رامسفيلد) زاد عن اللازم - حتى أصبح خطرا على عملية صنع القرار الأمريكى بأسرها».

ومن الظاهر أن عددا من أجهزة المخابرات ضاق صدرها بالسيادة التى وضعها وزير الدفاع على مجال المعلومات - كبساط مفروش من الحائط للحائط! - وذلك (فى تقديرها) وضع خطير.

والملاحظ أن عددا من عناصر هذه الأجهزة راحت تلوم «جورج تنيت» (مدير وكالة المخابرات المركزية)، وتصفه بأنه «رجل باع روحه للإدارة حتى يحتفظ بمنصبه»، مع أنه كان يملك فرصة استعادة نفوذه كاملا بعد صدمة ١١ سبتمبر (٢٠٠١)، التى كشفت غفلة وكالته.

ثم يشير هؤلاء اللائمون إلى توصيات

قدمتها لجنة خاصة رأسها «برنت سكوكروفت» (مستشار الأمن القومي في إدارة «جورج بوش- الأب»)، وهذه اللجنة كُلِّفت بالبحث في ضرورات التنسيق بين هيئات المخابرات المختلفة، وجاءت توصياتها مشددة على أهمية «تركيز وتسييل» تدفق المعلومات عن طريق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وكان ذلك منطقيا، وكذلك كان في صالح «جورج تنيت» شخصيا، لكن الرجل لم يبذل أي جهد في إقناع أحد باعتماد توصيات لجنة «سكوكروفت»، وبدلا من ذلك فإنه «ألقى نفسه عاريا في أحضان «دونالد رامسفيلد»»!

وكان شاهد ارتماء «تنيت» في أحضان «رامسفيلد» ملابسات تحقيق له حساسية خاصة قام به السفير «جوزيف ويلسون» بطلب من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وكانت وراء التحقيق قصة مثيرة، فقد حدث مبكرا (سنة ٢٠٠١) أن معلومات وردت من مصادر متعددة (بريطانية - إيطالية - عربية - إسرائيلية!!) عن مسعى يقوم به العراق في جمهورية النيجر الأفريقية لشراء صفقة (ثلاثمائة طن) من اليورانيوم ٢٣٥، وهو «الكعكة الصفراء» «Yellow Cake» التي تُصنع منها الأسلحة النووية، وزاد أن بعضهم أبرز صورة خطاب رسمي من أحد وزراء حكومة النيجر يتحدث عن صفقة اليورانيوم بغير لَبس، واهتمت الإدارة الأمريكية بالمعلومات، واختار «جورج تنيت» واحدا من أكثر خبرائه اتصالا بالشئون الأفريقية (وسبق له العمل سفيرا في عدد من بلدانها)، وأمره أن يذهب بنفسه إلى «النيجر» (٢٠٠٢) ويعود بالخبر اليقين.

كان الرجل المكلف بالمهمة هو «جوزيف ويلسون» الذي شغل إلى وقت قريب منصب السفير الأمريكي في الجابون، وبالفعل فإن «ويلسون» ذهب إلى النيجر وراح يتقصى ويبحث وخرج بعد شهرين بأن القصة كلها ملفقة، وأن الخطاب المُشار إليه بتوقيع أحد الوزراء مزور، بل إن ذلك الوزير المنسوب إليه توقيع الخطاب الرسمي لم يكن يشغل أي منصب في التاريخ الذي ورد أعلى الخطاب!

....

....

[وفي الغالب فإن الخطاب كان من صُنْع عصابات «من الهواة» احترفوا تزييف الوثائق بطرق بدائية في بعض الأحيان، وهم يجدون زبائن مستعدين لدفع الثمن، وبعضهم يجهل - وبعضهم يعلم! - أن ما يشتريه «مطبوخ»!].

....

....

وقد كشف السفير «ويلسون» هذا الخطاب من أول أسبوع قضاه في «نيامي» (عاصمة النيجر)، ولكنه مع ذلك مضى يستوثق ويستوفي، وأكثر من ذلك فإنه عندما كتب إلى رئيس المخابرات المركزية عن نتائج مهمته، أضاف: «إنه بحث «المسألة» مع سفيرة الولايات المتحدة الحالية في «نيامي»، وأنها قالت له (بنص ما نقل عنها) «إننا سمعنا كلاما كثيرا عن مساع بذلها العراق للحصول على يورانيوم ٢٣٥، وقد تابع خبراء السفارة هذا الموضوع، وهم يتابعونه بتكليف دائم لأن اليورانيوم في النيجر ليس مسألة هينة، لكنهم جميعا لم يعثروا على أي دليل، بل إن ما عثروا عليه ينفي نفيا قاطعا محاولة العراق من الأصل شراء يورانيوم من هنا».

وقالت السفيرة - أيضا - وفق ما نقل عنها المبعوث الخاص للمخابرات المركزية، «إن هذه السفارة كتبت إلى واشنطن عشرات المرات عن هذا الموضوع، لكنه يبدو أنهم في واشنطن لا يصدقون إلا ما يريدون تصديقه - وهذا أمر غريب!».

وبرغم ذلك فإن حكاية «يورانيوم النيجر» ظلت حجة مستعملة في واشنطن إلى درجة أن الرئيس «بوش» خصص لها فقرة خاصة ومستقلة في خطابه عن حالة الاتحاد الذي ألقاه أمام الكونجرس في أواخر شهر يناير ٢٠٠٣، وفي اليوم التالي لإلقاء هذا الخطاب أصيب السفير «جوزيف ويلسون» بنوع من «الصدمة» (وفق تعبيره)، واتصل بجورج تنيت مدير المخابرات المركزية يلفت نظره إلى «أنه لا يليق أن تظهر في خطاب حالة الاتحاد وعلى لسان الرئيس وأمام الكونجرس وعلى مسمع من الشعب الأمريكي والعالم - معلومات أثبت خبراء الولايات المتحدة نفسها أنها غير صحيحة»، وكان رد «تنيت» عليه «بأن لا يشغل نفسه لأن الإدارة تعرف ما تفعل!».

ولم يكن صحيحا أن الإدارة تعرف ما تفعل، وإذا كانت تعرفه فإنها أخطأت في تقديراتها، فقد حدث في هذه الفترة أن وكالة الطاقة النووية الدولية سمعت عن حكاية «يورانيوم النيجر»، وظنت الوكالة أن «الحكاية» تدخل في اختصاصها، وقد يكون وراءها تلميح مقصود إلى تقصير وقعت فيه وهي المسئولة عن «الانتشار النووي»، وهكذا استطاعت الحصول على صورة من خطاب وزير «النيجر» الذي يشير إلى «الكعكة الصفراء» المرعبة ومحاولة «العراق» شراءها، ولم يمض أسبوع واحد حتى كان الدكتور «محمد البرادعي» يكتب إلى السكرتير العام للأمم المتحدة يبلغه «أن ذلك الخطاب على وجه التأكيد مزور»، ثم يرص قائمة الأسباب في بيان التزوير.

ومع ذلك فإن الإدارة الأمريكية («دونالد رامسفيلد» - مؤيدا بنائب الرئيس «ديك تشيني») صممت على أن الخطاب مازال يمكن اعتباره دليلا دامغا يبرر غزو العراق، لأن الحكومة البريطانية أبلغتها أن لديها ما يعززه!

والأغرب من ذلك أن مكتب «ريتشارد تشيني» تلقى من مكتب مدير المخابرات المركزية الأمريكية «جورج تنيت» نسخة من نتائج مهمة «ويلسون»، وهي قاطعة على أن الموضوع من أوله إلى آخره ملفَّق، ومع ذلك فإن «تشيني» أصر على اعتماد الخطاب، بل وأصر أكثر على أن تقبل المخابرات المركزية بعدم مناقضة استعماله علنا، خصوصا «عندما يستعمله الرئيس في أيٍ من أحاديثه العامة».

ومارس «تشيني» في ذلك ضغطا على وكالة المخابرات المركزية إلى درجة أنه قام بزيارة مقرها في «لانجلي» (ضاحية واشنطن) لبحث الموضوع مع مديرها - ثلاث مرات في ظرف عشرة أيام.

وفيما بعد وحين انكشف الموضوع بكافة تفاصيله، واضطرت الإدارة الأمريكية إلى الاعتراف بالخطأ - فإن الرئيس «بوش» لم يجد مهربا غير أن يعلن «أن رئيس المخابرات المركزية اطلع على نص خطابه عن حالة الاتحاد وفيه الفقرة الخاصة بالكعكة الصفراء - وأقره».

ورضي «جورج تنيت» أن يقوم بدور كبش الفداء بعدما أخطره «تشيني» أن أركان الإدارة ارتأوا - حفاظا على مصداقية الرئيس - «أن يضعوا المسئولية عليه («تنيت»)، وقَبِلَ الرجل على نفسه وعلى وكالته أن يصبح كبش فداء للبيت الأبيض، ناسيا أن القضية أكبر من ذلك لأنها قضية ثقة ومصداقية (ووقع تجديد مدة خدمته رغم أنه من بقايا تعيينات إدارة «كلينتون»).

....

....

وكانت رئاسة أركان الحرب المشتركة تتابع ذلك، وقد تحولت هواجسها إلى مخاوف لها دواعيها!

....

....

[وفيما بعد وحينما صدرت عن البيت الأبيض اعتذارات تعددت مستوياتها عن استعمال معلومات «غير مؤكدة» في خطاب الرئيس عن حالة الاتحاد، فإن ذلك لم يكن مطمئنا، لأن من يعتذر مرة يستطيع أن يعتذر مرة ثانية، لكنه حين يُقْتَل جندي أو ضابط، فإن حياته لن تعود مرة أخرى بكلمة أو كلمات!]

رابعا:

قطار وقضبان ومحطة!

بعد أن ألقى الرئيس «جورج بوش» خطابه عن حالة الاتحاد (٢٩ يناير ٢٠٠٣) - لم يبق لأحد في رئاسة أركان الحرب المشتركة سببا يدعوه للشك في أن الحرب على «العراق» قادمة دون تأخير، فقد كان الخطاب في صُلبه - درجة من الأمر الإنذاري إلى القوات المسلحة الأمريكية بأنه الضوء البرتقالي، وأنه سوف يتغير إلى الأحمر في أي لحظة - أمرا فوريا ببدء التنفيذ!

وكان ملفتا - أن الرئيس في خطابه قرر أن المعلومات المتاحة لدى الأجهزة المختصة في الولايات المتحدة تبين أن أسلحة الدمار الشامل العراقية على اختلاف أنواعها «جاهزة للتشغيل في ظرف ٤٥ دقيقة بأمر يصدر من «صدام حسين»، الذي هو «أخطر رجل في العالم» لأنه يهدد الجميع، وبالتالي فإن مثول الخطر على هذا النحو يعطي الآخرين حق المبادرة دفاعا عن النفس بالردع قبل أن يداهمهم عدوهم!».

ومع أن الرئيس (فيما يظهر) حاول توقي اعتراض من يعرفون الحقيقة،

ونسب المعلومات إلى الحكومة البريطانية - فإن تلك لم تكن رغبة فى التزام الصدق وإنما فى التشويش عليه.

وترافق مع ذلك شعور من التبرم والشكوى من أن هناك تلاعبا فى معلومات المخابرات، بمعنى أن «معلومات المخابرات» عندما يجرى تداولها بين أجهزة صنع القرار، أو إعلانها رسميا - كليا أو جزئيا - يتحتم أن تكون صادقة، بصرف النظر عن طريقة استغلالها السياسى أو العسكرى، لكن الذى يحدث الآن هو أن التقارير نفسها يجرى التلاعب بها وتغيير طبيعتها، وهو الأمر الذى لا يجوز السماح به.

وكان جوهر المشكلة أن رئاسة الأركان المشتركة حتى هذه الساعة لم تكن مقتنعة بالهدف المطلوب منها تحقيقه، وحدث فى ذلك الوقت أن وزير الدفاع «رامسفيلد» قال فى برنامج إخبارى ظهر فيه على شاشة وكالة الأخبار الأهلية «N.B.C» إن قطار الحرب بدأ رحلته على القضبان فعلا ولم يعد ممكنا إيقافه» وسأله الصحفى الذى يحاوره وهو «تيم راذرز» «ولكن هل نحن واثقون أن ذلك القطار الذى يمشى على القضبان هو بالضبط ذلك القطار الذى يصل بنا إلى المحطة التى نريد الوصول إليها؟».. ورد «رامسفيلد» باقتضاب: «أظن ذلك!».

والشاهد أن رئاسة الأركان المشتركة (وكذلك قيادة المنطقة المركزية المكلفة بالعمليات المقبلة فى العراق) - ساورها قلق شديد تعددت أسبابه:

بينها مظاهر الفوضى السائدة فى مجلس الأمن، والتى تبدى من خلالها أن حلف الأطلنطى نفسه لم يعد توافقا سياسيا بين أطرافه، وإنما أصبح فجأة خلافا علنيا أمام العالم صورة وصوتا.

وكان افتراق الطرق فى مجلس الأمن أن غالبية أعضائه رأت إفساح مدة. أو مدد إضافية - لفريق التفتيش يؤدى مهمته فى العراق. لكن الولايات المتحدة قطعت بالرفض، وفى حين أن غالبية من المجلس أبدت اقتناعها بضرورة أن لا تتحرك القوة المسلحة قبل قرار من المجلس يعطيها إشارة الحرب - إلا أن الرئيس «بوش» بنفسه «بادر وأعلن أن الولايات المتحدة لن تنتظر ولن تقيد نفسها بقرار جديد من المجلس يبيح لها حرية العمل العسكرى».

وكان أن حكومة المستشار «جيرهارد شرودر» أعلنت رسميا «أنه حتى إذا صدر من مجلس الأمن قرار يبيح للولايات المتحدة حرية استخدام السلاح، فإن «ألمانيا» لن تشارك فى أى عمل عسكرى فى العراق».

وبينها - أسباب القلق - أن المظاهرات الشعبية التى جرت فى واشنطن ونيويورك وعواصم غربية عديدة - اشتدت إلى درجة دعت الجنرال «ريتشارد مايرز» إلى القول فى اجتماع رسمى فى «البنتاجون» «إن رسم الحرف «V» يتراءى له فى الظلام عندما يغمض عينيه، و«V» هو الحرف الأول من «فيتنام»!

وبينها أن كل ما يدور فى مجالس الحرب لا يدل بوضوح على وجود خطوط إستراتيجية عليا، وإنما يدل على «أحوال طوارئ تتحول إلى خطط حرب لها بداية ولا يظهر لها سياق يؤدى خطوة بعد خطوة إلى نتائج واضحة تمثل مطلبا متكاملا للقوة الأمريكية!».

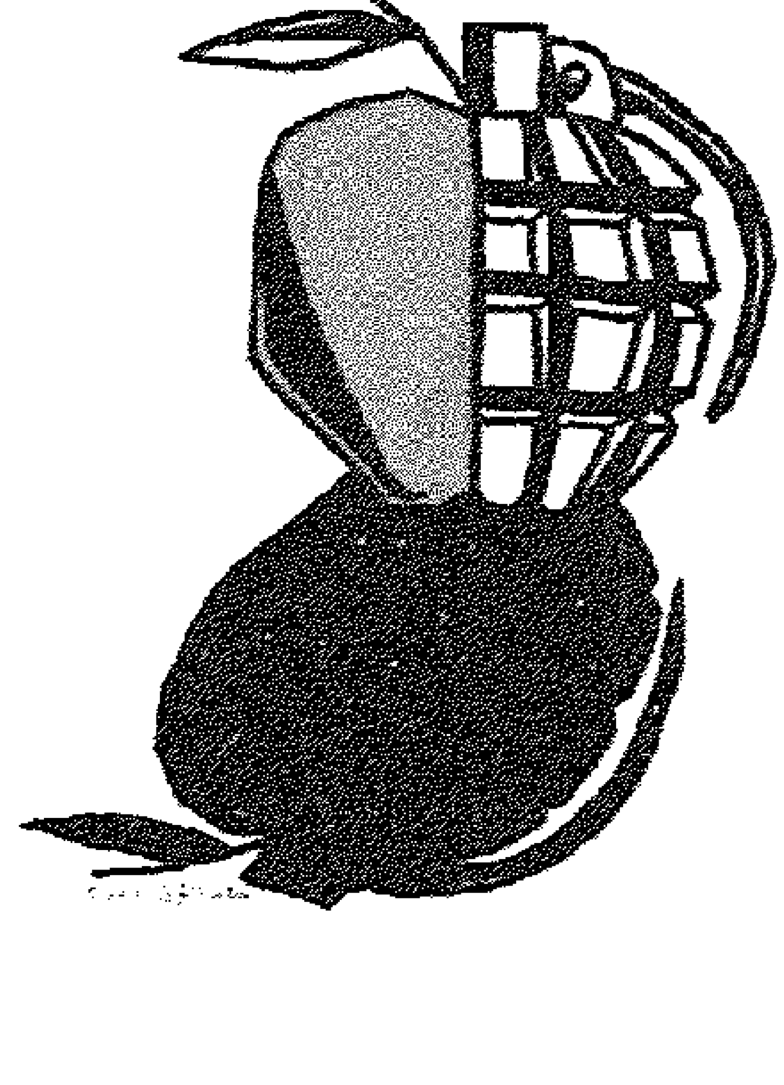
وبينها أن اجتماعات مجلس سياسات الدفاع راحت تسمع أقوالا مرسلة يصعب اعتبارها إستراتيجية عليا، ومن ذلك ما ذكره «فرانك كارلوتشى» وهو من أبرز أعضاء المجلس ومن المقربين بشدة إلى وزير الدفاع «رامسفيلد» «أن الذين يسألون عما إذا كانت لدينا إستراتيجية عليا يصح لهم أن يعرفوا أن لدينا إستراتيجية عليا، وأن هذه الحرب القادمة خطوة على طريقها». ثم يستطرد «كارلوتشى» (وفقا لتقرير صدر فيما بعد عن مجلس العلاقات الخارجية فى نيويورك) «لدينا إستراتيجية عليا غاية فى البساطة، نحن نريد فى المنطقة نظما موالية لنا، لا تقاوم إرادتنا، ثم إننا نريد ثروات هذه المنطقة بغير منازع، ونريد ضمانا نهائيا لأمن إسرائيل لأنها الصديق الوحيد الذى يمكننا الاعتماد عليه فى هذه المنطقة!».

ثم يستطرد «كارلوتشى» قائلا: «لابد من تغيير النظام فى العراق بالسلاح، وبعده فى «إيران» و«سوريا». وبعدهما فى «السعودية» و«مصر»، وفى الغالب فإن ذلك ممكن بغير استعمال السلاح، والواقع أن هذه كلها نظما محسوبة علينا وهى تحملنا أعباء مكلفة بغير فائدة!».

ولم يكن فى ذلك كله ما يمكن وصفه بأنه إستراتيجية عليا لا لأمريكا ولا لعالم يهتم ويتابع مفزوعا بما يرى!

وأخيرا وصلت رئاسة الأركان المشتركة - راضية أو غير راضية - إلى أن:

- الحرب قادمة بلا محالة فى العراق.
- وهى حرب سوف تخوضها الولايات المتحدة وحدها.



«فرانك كارلوتشى»: «لدينا إستراتيجية عليا غاية فى البساطة: «نحن نريد فى المنطقة نظما موالية لنا، ثم إننا نريد ثرواته بغير منازع، ونريد ضمانا نهائيا لأمن إسرائيل لأنها الصديق الوحيد الذى يمكننا الاعتماد عليه

- ثم إن القوات المرصودة للعمليات غير كافية (وهذا موضوع يعنيها أكثر من غيرها. وليست فيه تلك السيادة المطلقة للقرار السياسى بحكم الدستور!).

وفى تلك اللحظات المضطربة راج فى «واشنطن» - على غير انتظار اقتراح بدا نغمة شاذة وسط دقات طبول الحرب العالية (ولعل مقصده الحقيقى كان الرغبة فى طمأنة القيادات العسكرية) - وقد ورد ذكر الاقتراح لأول مرة (يوم ١٩ يناير ٢٠٠٣) - على لسان «دونالد رامسفيلد» - حين قال بالنص: «إن الولايات المتحدة على استعداد لأن تمنح الرئيس «صدام حسين» حصانة من أى مساءلة سياسية أو قانونية، إذا قرر الخروج مع أسرته ومن يريد من أعوانه وأسرهم إلى خارج «العراق»، وفى هذه الحالة فإن الولايات المتحدة على استعداد لأن توفر لهم ملجأ كريما، وحياة سخية، وراحة موفورة!».

وأضاف «رامسفيلد» «إننا من أجل تجنب مأسى الحرب، رأينا أن نتقدم بهذا الاقتراح ونأمل أن يقبله «صدام»، ويجنب بلاده والعالم خطر عمليات عسكرية لسنا متحمسين لها إلا بمقدار ضرورتها للدفاع عن أنفسنا وعن العالم الحر».

وبدا الاقتراح مثيرا للدهشة وسط إلحاح الإدارة الأمريكية على امتلاك العراق أسلحة دمار شامل (فيها أسلحة نووية) - واستعداد النظام الحاكم فى «بغداد» لاستعمالها فى ظرف خمس وأربعين دقيقة - وبأمر من رئيس يوصف بأنه أخطر رجل فى العالم، وأفدح تهديد يواجه أمريكا نفسها وكذلك أوروبا (فضلا عن المنطقة التى يعيش فيها).

....

....

[والمتوافر من المعلومات كما هو محقق منها (حتى هذه اللحظة) - أن ذلك الاقتراح لم يكن مجرد بالون اختبار، وإنما كان إشارة على الأفق وراءها شىء - وكان هناك بالفعل شىء يجرى فى العاصمة التركية فى وقت ما من أواخر شهر يناير ٢٠٠٣.

كانت «أنقرة» فى مرات كثيرة - وعلى نحو يكاد أن يكون منظما - ملتقى اتصالات سرية بين أجهزة الإدارة الأمريكية وبين أجهزة النظام فى «بغداد»، عندما يكون لدى أحد من الطرفين - برغم كل شىء - رسالة يرغب فى تمريرها بطريقة «موثوقة» إلى الطرف الآخر.

وفى الواقع فإن هذه الاتصالات لم تنقطع قط، وإن تغير مكانها مرات:

ـ كانت بداية هذا النوع من الاتصالات فى القاهرة (لكن الطرفان كلاهما اتفق رأيهما على أن القاهرة لا تكتم السر ـ ولذا يستحسن تجنبها ـ وقد كان!).

ـ وفى مرحلة ثانية جرى هذا النوع من الاتصالات فى «لندن» ـ لكن «لندن» كانت مزدحمة بفصائل المعارضة العراقية، (والطرفان لا يريدان عيونا وأرصادا ـ وبالفعل تحولوا).

ـ وأخيرا وقع اختيار الطرفين على العاصمة التركية، وبدت أحوال «تركيا» أكفأ فى حفظ السر من القاهرة، وأنجح فى توفير فرص الخفاء من «لندن».

وفى شهر يناير وصلت «رسالة» من واشنطن باقتراح لقاء فى «أنقرة» أواخر يناير (٢٠٠٣).

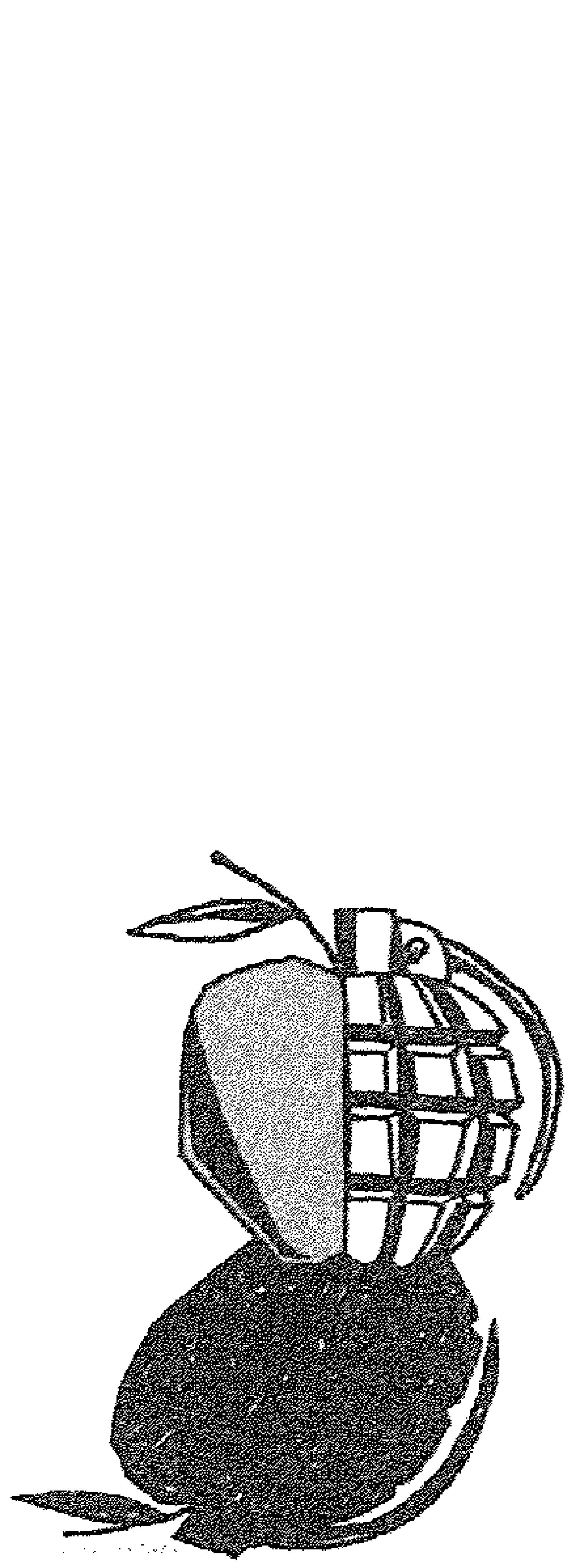
وكانت الرسالة فى الواقع نص ذلك الخطاب الذى ألقاه الرئيس «بوش» عن حالة الاتحاد، وفيه التصميم على غزو العراق، وكان الجديد الذى زاد، تعليق على نص الخطاب يلفت نظر القيادة العراقية «إلى أنها لا تملك حقا فى الشك أو فرصة له ـ لأن ذلك بالفعل هو «عزم الرئيس»، والولايات المتحدة تملك «الوسائل القادرة عليه».

وتلى ذلك عرض اقتراح «خروج الرئيس صدام حسين» وعائلته وأعوانه إلى ملجأ آمن تتوافر لهم فيه كل ضمانات القانون ووسائل الحياة كريمة وموفورة.

وكان المندوب الأمريكى فى هذا الاجتماع مسئولا بارزا فى وكالة المخابرات المركزية، وقد صحبه هذه المرة «رجل ثان» من الأمن القومى للبيت الأبيض، ومن الواضح أن الأتراك كانوا يعرفونه جيدا، وقد أوصوا بحسن الاستماع إليه والاهتمام بما يقول جديا ـ إلى أبعد مدى (ولم يكن الأتراك بعيدين، ففى لقاءات من هذا النوع يكون مرغوبا فيه باستمرار أن تكون «أجهزة» البلد المضيف على علم ـ وربما على مقربة ـ ولو من باب تجنب أن تتعقد الأمور بحرص أجهزة المضيف على معرفة ما يقوله ضيوفها داخل بيتها).

وفى ذلك الاجتماع ختم المندوب الأمريكى عرضه للافتتاح (وكان قاطعا) بما معناه «أنه يتفهم حاجة «الطرف الآخر» إلى مهلة يعود فيها إلى «بغداد» ويعود برد «عاقل ومعقول».

وعندما عاد المندوب العراقى فإن الرد الذى حمله معه كان فيه ما يستوقف النظر، فقد ورد فيه «أنه مع الاحتفاظ بكافة الحقوق القانونية والشرعية ـ معززة بالأمر الواقع فى «بغداد» الآن ـ فإن لدى «الطرف العراقى» سؤال مؤداه:



«كارلوتشى»: «لابد من تغيير النظام فى العراق بالسلاح، وبعده فى «إيران»، و«سوريا» ـ وبعدهما فى «السعودية» و«مصر»، وفى الغالب فإن ذلك ممكن بغير استعمال السلاح

«هل هم مستعدون للتعامل مع «قصى صدام حسين» ـ إذا تنازل له والده عن الرئاسة؟ وهل تعترف «واشنطن» به فى هذه الحالة وتتعامل معه على أساس جديد فى علاقات البلدين».

«وطبقا لمصدر تركى (لا مجال للشك فى حسن اطلاعه) ـ فإن المندوب الأمريكى أبدى «استعداده لنقل الاقتراح «إليهم» فى واشنطن، وإن لم يكن واثقا من جوابهم»، وفيما بعد وفى مناقشة بين الأمريكيين والأتراك ـ جرى بحث بالعمق فى مدلول الرسالة التى نقلها المندوب العراقى من «بغداد»، وهل تعنى ضمنا ـ بل وصراحة ـ أن مبدأ خروج «صدام حسين» من السلطة (ولو لصالح ابنه قصى) مقبول الآن من جانبه، بعد أن رأى الخطر المحدق ولم يعد لديه شك فى أنها النهاية؟!».

....

....

[ولابد من إشارة هنا إلى أن هذه الاتصالات تسرب شىء عنها إلى دوائر «الحزب» و«الحكم» فى بغداد، وفيما يظهر فقد كان لها أثرها على عدد من ساسة النظام الكبار، وكان بين هؤلاء من أحسوا بضغط الأزمة وقدروا عواقبها الوخيمة.

ولعل بينهم من رأى النهاية تقترب ـ كما أن بعضهم راح يعانى من أزمات ضمائر حائرة وولاءات متضاربة بين النظام والوطن ـ وبين العام والخاص (العائلى أيضا)].

....

....

[وفيما بعد وحين كانت التقارير ترد ساعات سقوط «بغداد» ـ عن صفقات وخيانات وعمليات حرب ـ فقد كان باديا أن ذلك كله يحتاج إلى «غربال»، وأن المحنة أشد تعقيدا من الصفقات والخيانات، والشاهد أن بعض الذين تناولتهم شائعات الصفقات والخيانات موجودون الآن فى سجون الاحتلال الأمريكى تحت ظروف بالغة القسوة والإهانة ـ ومع ذلك فإنه من الصعب ـ واقعيا ـ استبعاد وقوع اتصالات بين بعض المسئولين فى الحكم والجيش (والحرس الجمهورى) ـ مع عناصر خارج العراق، خصوصا بصلات قرب (عائلية وعشائرية) مع ساسة وضباط عراقيين فى المنفى].

....

....

والمهم ـ فى السياق الأصلى ـ أنه لم تكد تمضى أيام حتى تحركت الحكومة التركية ورئيسها فى ذلك الوقت «عبد الله جول» تعرض على دول الجوار العراقى: الأردن والسعودية وسوريا وإيران ـ ومعها مصر باعتبارها مقر جامعة الدول العربية ـ اقتراحا بعقد مؤتمر فى «إستانبول» لبحث أمر يتصل بأمن المنطقة وينقذها من شر مستطير. وكان جدول الأعمال التركى المعروض هو نفسه اقتراح «رامسفيلد»، أى «ترتيب خروج «صدام حسين» من العراق ومعه عائلته وكبار معاونيه وعائلاتهم ومعهم حصانة قانونية وسياسية وإمكانيات مادية تكفل لهم رغد العيش والأمن مدى الحياة».

ولم يقدر للمسعى التركى أن يبلغ غايته لأن عددا من الدول العربية ـ بينها مصر ـ تصورت «أنه إذا كان الأمر كذلك، فالأولى أن تتم إجراءاته عربيا، لأن عروبته قد تمنحه فرصة قبول أكبر من جانب الرئيس العراقى، والشعب العراقى أيضا».

وكان ذلك أساس العرض الذى تقدمت به دولة الإمارات العربية المتحدة أثناء مؤتمر على مستوى القمة فى شرم الشيخ (أول مارس ٢٠٠٣).

....

....

[وكان العرب طوال تصاعد أزمة غزو العراق بدون سياسة لها شكل ـ أو لها مضمون، وربما أن شهادة «مارتن إنديك» (رئيس قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية، وسفير الولايات المتحدة بعد ذلك فى إسرائيل) ـ تكشف «حال» السياسة العربية، فقد قال «مارتن إنديك» وكتب أنه أثناء ضربات الصواريخ التى جرى توجيهها على العراق بمقتضى حملة «ثعلب الصحراء» بإذن من الرئيس «كلينتون» (سنة ١٩٩٨) ـ أنه حضر اجتماعا لبحث ضربات الصواريخ على العراق: وهل تستمر أكثر أو تتوقف الآن ـ وفجأة قال «كلينتون»:

«إننى حائر فى شأن هؤلاء العرب!».

إذا ضربنا العراق ـ غضب الرأى العام العربى، وصاح فى وجوهنا لماذا تضربون شعب العراق؟!

وإذا أوقفنا الضرب ـ غضب الحكام العرب، وهمسوا فى آذاننا لماذا ـ إنكم بذلك تقوون مركز «صدام»!

ولعل الأمور لم تكن مختلفة سنة ٢٠٠٣، عما كانت عليه قبل خمس سنوات (١٩٩٨ ـ أيام «كلينتون») ـ وربما أن اقتراح خروج «صدام حسين» ومن معه من «بغداد» جاء إنقاذا للحد الأدنى من وجود ـ مجرد وجود ـ سياسة عربية، فإذا خرج «صدام حسين» من العراق ـ فالنتيجة مرضية للساسة العرب وغير العرب، وإذا

لم يخرج فهو المسئول. والساسة العرب بُرآء من دمه!].

....

....

ويستحق النظر أن اقتراح الإمارات الذى قدم إلى مؤتمر القمة العربية جرت صياغته فى «أنقرة»، وشارك فى الصياغة «خليل زاماى»، وهو مندوب وزارة الدفاع الأمريكية لدى المعارضة العراقية (وقبلها لدى الحكومة الأفغانية - قبل وبعد سقوط نظام طالبان). والغريب أن هذا الاقتراح وصل لوفد الإمارات إلى القمة العربية، وهذا الوفد على وشك الصعود إلى الطائرة متجها إلى «شرم الشيخ».

وأثناء الاجتماع الصباحى للقمة جرى توزيع نسخة من ذلك الاقتراح، لكن التباسا نشأ لأن أحدا لم يطلب إدراجه رسميا على جدول الأعمال، وبالتالى تعقدت الإجراءات، وعندما وصلت نسخة من الاقتراح إلى الوفد العراقى (وكان يتزعمه السيد «عزة إبراهيم»). توجه أحد أعضائه إلى حيث يقف مسئول من الإمارات يبلغه إنذارا «بأنه سوف يجرى تقطيعكم إربا إربا» إذا «تجاسرتم» على طلب إدراج هذا الاقتراح على جدول الأعمال، وبُهت الرجل وكان قصارى ما استطاع أن يرد به «أنه لم يطّلع على هذا الاقتراح إلا الآن. وفى هذه الجلسة!».

والشاهد أنه كان يمكن لاقتراح دولة الإمارات العربية المتحدة أن يلقى فرصة معقولة لو أنه استكمل نفسه بضمان تعلن فيه الولايات المتحدة الأمريكية أن قواتها لن تدخل العراق مقابل إعلان «صدام حسين» قبوله بالعرض الأمريكى (التركى - العربى) - «لأنه يريد تجنيب شعب العراق مصائب حرب مدمرة تودى بما بقى من اقتصاده ومرافقه» - لكن الذى حدث أن «رامسفيلد» نفسه صرّح أثناء انعقاد القمة العربية بأن خروج «صدام حسين» ومن معه لا يعنى العدول عن دخول الجيوش الأمريكية إلى العراق واحتلال أراضيه، ولم يبق لاقتراح من هذا النوع «معنى»، لأن مؤداه عمليا: خروج «صدام حسين» ومن معه من العراق، ودخول القوات الأمريكية إليه «بسلام»، ووضعه بالكامل تحت السيطرة دون طلقة واحدة، وذلك بموافقة عربية على مستوى القمة!

....

....

[ومن المفارقات أنه فى تلك الظروف تبدى كرم الأغنياء العرب فى التلويح بالمبالغ التى يمكن أن يدفعوها لصدام حسين ومن معه إذا خرجوا، لكن أحدا لم يحاول أن يناقش مستقبل العراق - وما إذا كان العرب مستعدين لتطوير اقتراح الخروج وتكليف الجامعة العربية بالتعاون مع الأمم المتحدة فى مساعدة الشعب العراقى، دون حاجة إلى احتلال أمريكى لواحد من الأوطان العربية المؤسسة للنظام العربى (بصرف النظر عن نوعية الحكم المسيطر عليه فى لحظة عابرة من لحظات تاريخ طويل). مع ملاحظة أن الأوطان المؤسسة للنظام العربى ثلاثة بالتحديد: هى مصر وسوريا والعراق، ومعنى احتلال أمريكا للعراق أن المثلث المؤسس للنظام العربى فَقَدَ أحد أضلاعه الرئيسية وانفك تماسكه، (مع اعتبار أن الأوطان أهم من النظم الحاكمة، فالأوطان (على نحو ما) أشبه ما تكون بحاملات الطائرات العملاقة، وأما النظم فمجرد «حمولات» يتصادف وجودها على السطح لحظة عابرة، وليس مهما أن تُصاب إحدى الطائرات بالعطب، وإنما الكارثة أن تغرق الحاملة!)].

....

....

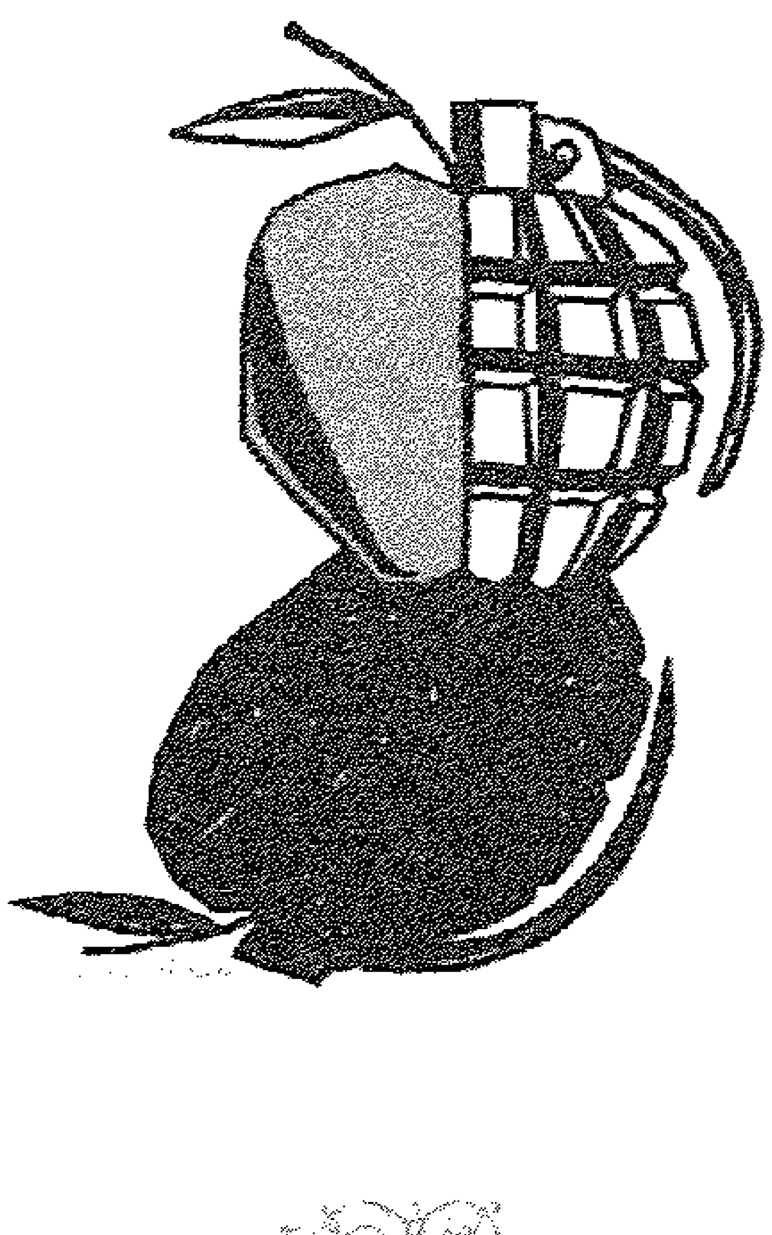
[وعلى أى حال فإن النظام فى العراق أعرض عن اقتراح الخروج (ولعله لم يكن جادا فى سماعه من الأصل أو أنه غيّر رأيه بعد تطورات الظروف). ذلك أنه حين توجه «يفجينى بريماكوف» رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى الأسبق إلى «بغداد» - سرا لمقابلة «صدام حسين»، وإعادة طرح الاقتراح عليه بتكليف من الرئيس «فلاديمير بوتين». فإن «صدام حسين» (وفق رواية «بريماكوف» نفسه) لم يقض معه غير ربع ساعة، قال له فى بدايتها أنه «استقبله كصديق قديم». ثم لم يكد «بريماكوف» يبدأ حتى قاطعه «صدام حسين». إذ هَمَّ واقفا قائلا له: «إننى سمعت منك اقتراحا مماثلا سنة ١٩٩١ ورفضته، ومنذ ذلك الوقت حتى الآن مرت اثنتا عشرة سنة وأنا مازلت هنا والآن تعود لى باقتراح مماثل!».

وقبل أن يخرج «بريماكوف» سأله «صدام حسين»: «هل لديكم تأكيد بأن الأمريكان لن يحتلوا العراق إذا أنا استمعت إلى كلامك؟». ولم يتوقف «صدام حسين» لكى يسمع الرد!].

....

....

وفى سياق التطورات فإن هذه المحاولات بدت أمام رئاسة الأركان المشتركة جهودا «مقبولة» تبذلها الإدارة حتى تستجيب لهواجس العسكريين وتُحسّبُهم من استخدام القوات المسلحة الأمريكية فى عمليات «سياسة» ليست وراءها ضرورات إستراتيجية عليا.



الأوطان المؤسسة للنظام العربى ثلاثة بالتحديد: هى مصر وسوريا والعراق، ومعنى احتلال أمريكا للعراق أن المثلث المؤسس للنظام العربى فَقَد أحد أضلاعه الرئيسية وانفك تماسكه

وكان الملاحظ أن الإدارة مضت خطوات أبعد على طريق طمأنة قواتها المسلحة:

- منها أنه عندما عاد «هانز بليكس» إلى مجلس الأمن (يوم ٢٨ يناير) يطلب منح فريقه مدة إضافية لاستكمال عمليات التفتيش قائلا «إنه يلقى استجابة فى الإجراءات من جانب العراق، وسوف يطلب استجابة أكثر فى الموضوع». فإن الإدارة اشترطت لموافقتها على مهلة ثلاثة أسابيع إضافية. أن تعلن الحكومة العراقية فتح أجوائها بالكامل أمام طائرات الاستطلاع من طراز «يو ٢» لتمسح وتصور وتتابع كل حركة على الأرض، وانصاع النظام العراقى. وكذلك فإنه فى اللحظات الحاسمة كان العراق أرضا مفتوحة بالكامل - طول الوقت - للكاميرات الأمريكية تجوب سماءه دون قيود.

وكانت الصور تذهب إلى رئاسة الأركان تؤكد - بالزيادة - أن أرض المعركة مُباحة، وأن الدخول العسكرى للجيوش الأمريكية لا يواجه احتمالا غير محسوب!

- وعندما توقفت هيئة التفتيش الدولى أمام ما يملكه العراق من صواريخ صمود (٢)، واعتبرت أن مداها يتعدى الحد المسموح به بمقتضى اتفاق وقف إطلاق النار (سنة ١٩٩١). فإن النظام فى العراق اضطر - بعد جدل لم يطل - إلى البدء فى تدمير نظام الصواريخ الوحيد الباقى لديه. وتدخلت الولايات المتحدة الأمريكية لمنع تصوير عملية التدمير (حتى لا ينشأ انطباع لدى الرأى العام الدولى بأن النظام فى العراق يستجيب ويتعاون ويتخلص بنفسه مما بقى لديه، حتى لو لم يكن مخالفا للمتفق عليه والمسموح به).

ومع ذلك فإن فريق تصوير أمريكيا (تابع لهيئة المفتشين) تولى المهمة، وفى اليوم التالى كانت الصور تتساقط من منشورات أمريكية موجهة إلى الضباط العراقيين، ضمن حملة حرب أعصاب موجهة إليهم تنبههم إلى أنه يجرى تجريدهم من «أهم أسلحتهم» قبل بدء القتال.

ويظهر أن «رامسفيلد» كان مغرما باستعمال الصور، ففى أحد اجتماعاته مع هيئة الأركان (وطبقا لرواية الجنرال «تشيمسكى» قائد القوات البرية) أخرج من ملف أمامه صورا لاجتماع عسكرى عقده الرئيس «صدام حسين» مع قادة القوات المسلحة العراقية وقادة الحرس الجمهورى (خلال شهر فبراير ٢٠٠٣)، وسأل. وهو يشير إلى جلوس نجلى «صدام» (عُدى

وقصى) حول المائدة مع القادة العسكريين. وسأل «رامسفيلد»: «أريدكم أن تفكروا لحظة فيما يمكن أن يشعر به أى ضابط عراقى يشارك فى مثل هذا الاجتماع أو يرى صورته على تليفزيون «بغداد» أو جراندها! . هل يمكن له فى أعماقه أن يواصل اعتقاده بأنه يدافع عن وطن أو أنه سوف يفتح عينيه ويكتشف أنه حام لعائلة؟. أضاف «رامسفيلد»: إننا سألنا بعض من نعرف من الضباط العراقيين اللاجئين هنا وفى بريطانيا. عن رأيهم فى تأثير مثل هذه الصورة على معنويات الضباط؟ - وكان رأيهم بغير استثناء أنه «تأثير مدمر» يفقد القوات إرادة الحرب واستعداد التضحية بالنفس!».

وكان قطار الحرب يجرى على القضبان بأقصى سرعة! ■

خامسا:

منحنى على الطريق التركى!

■ على غير انتظار، وفى الوقت الذى بدأ فيه قطار الحرب يتحرك على قضبانه، وتزداد معدلات سرعته يوما بعد يوم - ظهر منحنى على الطريق فى الشمال - التركى.

كان المقدر وفق الخطة أن الفرقة الرابعة الميكانيكية سوف تدخل إلى شمال العراق من «تركيا». وكان باديا أن «تركيا» لا تمانع، بل على العكس تحبذ، خصوصا إذا كان هناك مقابل - وكان المتصور أن المقابل مساعدات مادية: مالية وعسكرية يسهل الاتفاق عليها مهما اشتدت المساومات. لكنه مع تقدم المفاوضات بدأت الريب تداخل بعض الأطراف فى أن المقابل المادى الذى يطلبه الأتراك ليس مالا وليس سلاحا، وإنما شيئا آخر مضمرا فى النوايا أكثر مما هو معلَن على الموائد، وكانت جماعات الأكراد العراقيين هى التى بادرت وألحت، ورأيها أن الأتراك يسعون إلى أهداف إقليمية وإستراتيجية، ويرون الفرصة سانحة لتحقيقها:

١ - يريد الأتراك تصفية بقايا حزب العمال الكردى (التركى) التى لجأت إلى المناطق الكردية العراقية، على اعتبار أن حركتهم المنادية بنوع من الاستقلال الذاتى لأكراد تركيا - وهم ما بين ١١ إلى ١٨ مليون كردى (أى أكبر مجموعة من الأكراد بين جميع بلدان المنطقة) - تهديد خطير لوحدة الوطن التركى نفسه تتعهد به المؤسسة العسكرية (وهى الأقرب فى علاقتها مع الأمريكيين)، باعتبارها المسئولة - بنص فى الدستور - عن وحدة وعلمانية «الأمة التركية» و«الوطن التركى»!

٢ - وفى سبيل تحقيق هذا العهد فإن السلطة التركية لديها العزم على تصفية الدويلات الكردية التى قامت بالأمر الواقع فى شمال العراق بعد حرب سنة ١٩٩١، واحدة برئاسة السيد «مسعود البرزانى»، والثانية برئاسة السيد «جلال الطالبانى». ومن وجهة نظر تركية فإن هذه الدويلات «نماذج سيئة» أمام أكراد تركيا وخصوصا أن أكراد العراق يعتبرون أكراد تركيا «عمقا إنسانيا وتاريخيا» لهم بمقدار ما يعتبر أكراد تركيا الشىء نفسه بالنسبة لأكراد العراق، وفى رأى قادة الجيش التركى أن الحرب الآن «فرصة سانحة» لوضع الأمور فى نصابها على الجانب الآخر من الحدود التركية.

٣ - وفى النهاية فإن الأتراك يحلمون بمنطقة «الموصل»، وفى خيالهم أنها جزء من «تركيا» فُصل عنها (بمعاهدة «مونترو» سنة ١٩٢٣)، وكان الفصل تعسفيا فرضه الإنجليز عندما استقروا فى العراق وأنشأوا فيه مملكة هاشمية موالية لهم، ومعنى ذلك أنه إذا دخل الجيش التركى إلى شمال العراق، فإنه لن يخرج سواء بالدعاوى التاريخية القديمة (الباقية من إرث الخلافة العثمانية) - أو بعلة حماية الأقليات التركمانية هناك، وهى مرتبطة بالدم مع الوطن التركى.

وعندما بدا أن المفاوضات مع تركيا تتلكأ دونما سبب مقنع، قصد «كولين باول» (وزير الخارجية الأمريكية) إلى «أنقرة» يظن أن مسئولية التأخير تقع على حكومة «طيب رجب أردغان» (ذات التوجه الإسلامى) - لكنه فوجئ هناك بأن التأخير الحقيقى - موقف جنرالات «أنقرة» (مجلس الأمن الوطنى)، وكان اعتماد الولايات المتحدة دائما عليهم.

واكتشف «باول» أيضا أن التأخير لا يرجع إلى خلاف حقيقى حول دواعى غزو العراق أو المساعدات المطلوبة من الأتراك - وإنما يرجع لشىء أو أشياء أخرى - نوايا وأحلام تراود سادة البوسفور!

وفى هذه اللحظة المحفوفة بالشكوك حول النوايا، ألقى زعماء الأكراد العراقيين ورقتهم الأخيرة والحاسمة، ومؤداها ببساطة:

«أنه إذا دخل الجيش التركى إلى شمال العراق شريكا فى المعركة ضد نظام «صدام حسين» - فإن مقاتلى الأكراد من الجماعتين (البرزانى والطالبانى) سوف يتصدون بالسلاح للجيش التركى، باعتباره الخطر الداهم - وليس الجيش العراقى.

فالجيش العراقى بالنسبة لهم «خطر الأمس الذى انتهى». وأما الجيش التركى فهو «خطر اليوم الذى يوشك أن يطلع صبحه». وبالتالى فإن على الولايات المتحدة أن تختار.

وكان الاختيار المتاح للإدارة الأمريكية:

• مع الأكراد (وهم ملء شمال العراق فعلا حتى ضواحى «كركوك»).

• أو مع الأتراك واحتمال تصدى الأكراد لهم، وبالتالى فهى معركة إضافية فى الشمال العراقى بحرب داخل الحرب (وضد الهدف الأمريكى فى كل الأحوال).

وفى ذلك الوقت كانت الفرقة الرابعة الميكانيكية الأمريكية قد وصلت بالفعل إلى قرب الموانئ التركية المطلة على شواطئ البحر الأبيض - تنتظر إذنا بالنزول إلى البر، والانتقال عبر الأراضى التركية إلى شمال العراق، ودخول «الموصل».

ومع حقيقة أن شمال العراق «جاهز» كرديا لاستقبال قوات أمريكية محمولة جوا إلى أرض مؤمنة وصديقة، ومع الشك فى النوايا التركية المضمرة - فإن الخيار مع صعوبته - فرض نفسه على السياسة الأمريكية.

وكذلك وجدت هيئة أركان الحرب المشتركة نفسها فى اللحظة الأخيرة أمام توجيه إستراتيجى بغير خطة الغزو على نحو لم يكن منتظرا، بل إنه يثقل عليها بخلل إستراتيجى أساسى!

وهنا وقع ما يسميه عدد من الخبراء الأمريكيين (بينهم «أنتونى كوردسمان») نصف تمرد عسكرى فى أمريكا («Mini Mutiny»).

وكان التمرد محصورا، لكنه وفقا لكل الشهادات - كان مثيرا.

ووفقا لشهادة نائب رئيس الأركان المشتركة الجنرال «كين»، فقد تبودلت بين الأطراف عبارات حادة.

قال «رامسفيلد» (موجها كلامه دون تحديد لشخص بالذات): «أنتم مازلتم مصرين على أن تحاربوا المعركة التى «تعرفونها» من قبل، وأنا أريدكم أن تحاربوا المعركة المستجدة الآن - على الأرض!

وقال الجنرال «ماير» رئيس الأركان: «إن هناك إجابة مطلوبة عن سؤال: هل نخترع علما جديدا للحرب فى مناخ معركة - أو نحارب بالعلم المستقر مضافا إليه ما استفدناه من التجربة؟».

ويضيف رئيس الأركان: هذا سؤال لابد من رد واضح عليه.

كانت الخطة العسكرية الأمريكية لغزو العراق تعتمد على ما أسماه خبراء «البنتاجون» «الصخرة والثعبان».

■ «الصخرة»: ضربة تنقض من الشمال، فرقتان من الجيش الأمريكى ومعهما فرقتان من الجيش التركى، إلى جانب مجموعات (ما بين ١٥ إلى ٢٠ ألفا من قوات «البشمرجة» الأكراد، وهذه الصخرة تتدحرج من مرتفعات «كركوك»، ثم تطبق على «بغداد».

■ «والثعبان»: عملية تزحف من الجنوب، وبدايتها أن تبدأ قوة المهام الخاصة البريطانية (ثلاثة ألوية) بالتقدم فى اتجاه البصرة على شكل قوس، يطوق الفرقة العراقية المدرعة (الواحدة والخمسين)، ويزيحها إلى الشرق - محصورة بين الحدود الإيرانية ومدينة البصرة.

وفى الوقت نفسه تقوم المجموعة الأمريكية رقم ٧٠ (لواءين)، واللواء الخامس المدرع - بالزحف على شكل قوس أيضا يعزل قوات «منطقة غرب الفرات» العسكرية العراقية، ونتيجة ذلك ينفتح فى ظهر القوسين طريق سالك إلى وسط العراق وقلبه.

ولحظتها يتحرك «الثعبان» نفسه وهو ثلاث فرق تتقدمها فرقة المشاة الأمريكية الثالثة - وهذه القوة تنطلق من

الجنوب (الكويت)، وتمضى مسرعة مباشرة إلى «بغداد»، وهى فى زحفها الخاطف نحو العاصمة العراقية تتجنب المدن الرئيسية فى جنوب العراق، وتتلوى فى طريقها (كالثعبان)، على أن تعود فيما بعد إلى تطهير أية مقاومة تبقى فى مدن مثل «البصرة» و«النجف» و«كربلاء» و«الرمادى» و«الحلة» وغيرها.

والتقدير أن انقضاض «الصخرة» على «بغداد» من الشمال - ووصول رأس الثعبان من الجنوب إلى نفس الهدف - يشل تفكير القيادة العراقية التى تُفاجأ بوصول قوات الغزو إلى مشارف وضواحى العاصمة.

■ وكان أهم تفصيل فى المفاجأة التكتيكية للعمليات العسكرية - «أنه لن تكون هناك حملة جوية طويلة تمهد لقوات الغزو (وهو ما كانت تتوقعه القيادة العراقية على أساس تجربتها السابقة فى حرب تحرير الكويت، حين تواصل الضرب الجوى أكثر من أربعين يوما، وكذلك على أساس ما رأته هذه القيادة (العراقية) فعلا فى حرب أفغانستان التى استمر التمهيد الجوى قبل نزول القوات البرية على الأرض مدة مماثلة».

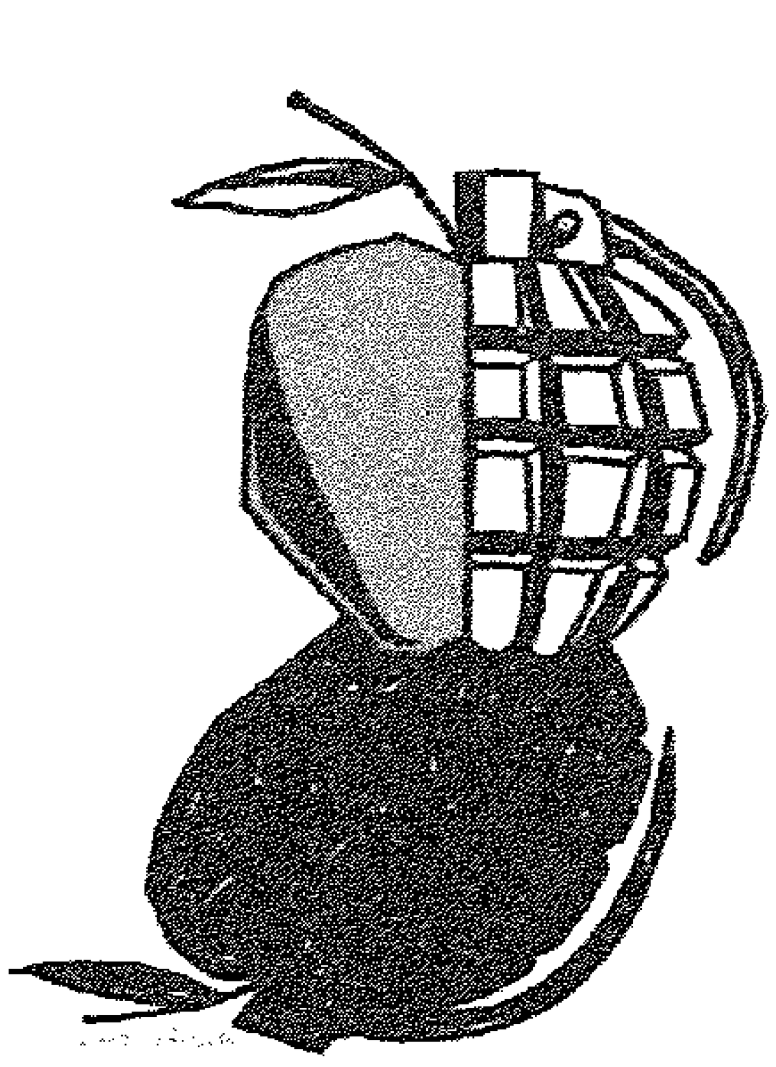
أى أن المفاجأة ضربة صدمة ورعب، وبالتوافق معها اقتحام للأرض العراقية فى اندفاعة لا تتوقف - حتى وإن تلوت على طريق الجنوب - حتى العاصمة العراقية، وكذلك تنقض «الصخرة» - ويزحف «الثعبان».

وفى هذه اللحظة المتأخرة - النصف الثانى من فبراير - وجدت هيئة الأركان المشتركة نفسها أمام تغيير جوهرى فى بنيان الخطة:

- «الصخرة» لن تنقض من الشمال على الأقل بالقوة التى كانت مقدرة - وأول الأسباب أن «تركيا» ليست هناك!

- ومعنى ذلك أن «الثعبان» سوف يكون وحده يتلوى فى جنوب العراق مكشوفا من أجنابه لمدن كان التقدير تجاوزها - لكنها الآن يمكن أن تتحول إلى «أشواك» حادة تجرح - على الأقل - جسم الثعبان وهو بالطبيعة أملس وناعم!

وكان أول ما خطر لهيئة الأركان المشتركة أن ذلك «المنحنى على الطريق التركى» يفرض تأجيل «ساعة الصفر» حتى تصل الفرقة الميكانيكية الرابعة من البحر الأبيض عبر قناة السويس إلى الخليج العربى، وتتخذ مواقعها الهجومية هناك مع بقية القوات - أى تغذية «ثعبان الجنوب» لكى يؤدى مهمته باعتبارها



عندما لاحظ «رامسفيلد» أن «القادة» لم يقتنعوا بمنطقه، ثار غضبه وقال ما مؤداه: «إننى أحاول أن أطرح عليكم «قضية الحرب فى زمن المعلومات» - لكنكم لا تفهمون غير القديم الذى تعودتم عليه!

«المجهود الرئيسى فى الحرب»، مع غيبة «صخرة الشمال» النازلة على «بغداد».

ورفض وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» طلب التأجيل، ووقعت فى مكتبه مواجهات حادة - انضم إليها من «الدوحة» الجنرال «تومى فرانكس» الذى ظهر ميله هو الآخر للتأجيل فى انتظار وصول الفرقة الرابعة على الأقل - أى أن القيادة المركزية على أرض المعركة تضامنت مع هيئة أركان الحرب المشتركة فى واشنطن - لكن «رامسفيلد» صمم على رأيه عارضا:

■ أن التأجيل لا مبرر له لأنه لا توجد مقاومة حقيقية يُخشى خطرها من جانب الجيش العراقى أو الحرس الجمهورى (فكلاهما - فى رأيه - فقد إرادة القتال!).

■ أن المدن التى يجرى تجنبها يمكن تدبير أمرها بالضرب الجوى المكثف عليها.

■ أن أى تأخير - الآن - يؤدى إلى وهن يصيب معنويات «عناصر» متصلة بالمعارضة العراقية صبرت طويلا وعملت فى السر - إلى جانب عناصر أخرى «غامرت واتصلت فى اللحظة الأخيرة»، والخشية أنها ساعات ويكشف النظام أمرها، وبالتالى يصب عليها نار غضبه وانتقامه!

■ أن أى تأخير سوف يفتح فجوات على جبهة مجلس الأمن والرأى العام العالمى، إلى جانب أن حالة التعبئة النفسية والسياسية قاربت ذروتها، بصرف النظر عن كل أصوات الاحتجاج، فإذا طال انتظار العمليات عن هذا الحد - تعرضت الولايات المتحدة «لتطاول على إرادتها» مارسه كثيرون ولا داعى لتشجيعهم أكثر على التزيد فيه!

- أن بقاء موعد الخطة كما هو (بدون تأجيل) يضيف إلى «المفاجأة التكتيكية»، ذلك أن القيادة العراقية وهى تتابع ما يجرى على «المنحنى التركى» سوف تتصور - وتتصرف - على أساس أن العمليات مؤجلة على الأقل إلى حين وصول الفرقة الرابعة إلى الكويت، فإذا خابت توقعات العراقيين - عانوا من خلل نفسى مُضاعَف!

وعندما لاحظ «رامسفيلد» أن «القادة» لم يقتنعوا بمنطقه، ثار غضبه (وفق رواية أحد المشاركين) - وقال للجنرالات ما مؤداه:

«إننى أحاول منذ عُدت إلى البنتاجون أن أطرح عليكم «قضية الحرب فى زمن المعلومات» - لكنكم لا تفهمون غير القديم الذى تعودتم عليه. إن فكرة «الثعبان» لم تدخل عقولكم، وأنتم تريدون الانتظار حتى يتضخم «الثعبان» ويتحول إلى «تمساح» له أنياب ضخمة - لكنه بطىء الحركة إلى درجة تسمح لفريسته أن تهرب من فكه!».

واضطر البيت الأبيض إلى الدخول مباشرة لفض الاشتباك بين وزير الدفاع وهيئة أركان الحرب المشتركة، وكان وسيط الرئيس إلى ساحة «التمرد المحدود» - «ريتشارد تشينى»، فهو إلى جانب كونه نائبا للرئيس - رجل يعرف المؤسسة العسكرية الأمريكية عن قرب من زمن توليه منصب وزير الدفاع أثناء حرب تحرير الكويت.

....

....

[وليس فى مقدور أحد أن يزعم معرفته بالمقترحات التى عرضت لتخفيف حدة التوتر، ولا بالأجواء التى سادت الاجتماعات والمناقشات، بل إن المحاولات جرت لنفى «وقوع التمرد من الأصل»، وإيحاء إلى من تحدثوا عنه بأنهم بالغوا فى تقدير حجمه، على أنه كان ظاهرا أن «تشينى» ساعد فى طمأنة رؤساء الأركان بزيادة فى استخدام قوة النيران بأكثر مما كان مقترحا بمقتضى مشروع الخطة الأصلى (وكانت تلك إضافة ترتبت عليها نتائج فيما بعد)].

....

....

ففى الخطة الأصلية كانت الضربة الأولى «صدمة ورعبا» ليوم واحد، وبعدها تكون العمليات الجوية متوازية مع التحركات لا تزيد عليها، حتى يكون ضررها محصورا على الجيش العراقى والحرس الجمهورى من ناحية، وكذلك على بنية العراق الأساسية من ناحية أخرى.

وكانت التقديرات المُصاحبَة للخطة ترى أن وحدات من الجيش والحرس يمكن تحويل ولائهما بمنطق إنقاذ العراق من دمار لا لزوم له.

وكانت التقديرات كذلك أن مرافق العراق لا يصح تدميرها، لأن القوات الأمريكية والإدارة فى العراق - بعد النصر - تحتاج إلى استعمالها - وليس معقولا أن تدمرها اليوم ثم تكتشف أنها تحتاجها غدا»!

والآن كان «تشينى» لا يمانع فى زيادة عيار التدمير، مع تصاعد العمليات، حتى يحصر خطر المقاومة العراقية فى أضيق نطاق ممكن (ولم يجر حساب ذلك - سياسيا - بدقة)! ■

سادسا:

ثم ماذا بعد الآن؟

■■ خلال النصف الأول من شهر مارس ٢٠٠٣ - زاد تخوف «المجموعة الإمبراطورية الأمريكية» من أن هناك تحولا فى الرأى العام العالمى تزيد به معارضة غزو العراق.

فقد أظهر استطلاع للرأى العام - (أجرى يوم ٢٩ فبراير وأذيعت نتائجه كاملة يوم ١ مارس، وقامت عليه جريدة «الواشنطن بوست» بالاشتراك مع قناة أ. بى. سى A.B.C وهى أكبر شركات التليفزيون الأمريكية) - «أن ٥٦٪ من الرأى العام الأمريكى تحبذ إعطاء فرصة مفتوحة لمفتشى الأمم المتحدة فى «العراق»، يكملون مهمتهم. فى حين أن ٣٩٪ فقط يؤيدون الرئيس «بوش» فى توجيه ضربة للعراق دون انتظار».

وفى الوقت نفسه كانت استطلاعات الرأى العام فى «بريطانيا» تكشف أن ٥٢٪ ممن أعطوا أصواتهم فى استفتاء جرى على عينة حجمها خمسة آلاف بريطانى من الرجال والنساء (أجرتها مؤسسة «هاريس») - يعارضون غزو العراق مهما كانت الظروف.

وحتى فى «أستراليا» كشفت الاستفتاءات أن ٦٤٪ من الرأى العام تشترط لدخول الحرب - موافقة الأمم المتحدة بقرار لا اعتراض عليه فى مجلس الأمن.

وأصبحت المجموعة الإمبراطورية فى واشنطن أكثر عصبية، بينما قطار الحرب يتحرك على القضبان - بطيئا وينتظر زيادة السرعة، وليس استعمال الكوابح - إلى حد التوقف!

ووقع مشهد له دلالته فى مكتب الرئيس «بوش» فى البيت الأبيض، فقد كان الموعد المقرر لبدء خطة غزو العراق آخر ضوء من يوم ٢٠ مارس (٢٠٠٣)، ومع ذلك فإن الرئيس «بوش» وقّع أمرا رئاسيا بقتل «صدام حسين» بضربة عاجلة، ولو أدى الأمر إلى استباق ساعة الصفر، وذلك على أساس معلومات قيل له: إن مصدرها الآن فى موقعه يتابع عن قرب تحركات «صدام حسين» داخل «بغداد».

وقال الرئيس «بوش»، وهو يوقّع الأمر الرئاسى بالقتل المسبق:

«إن صاروخا واحدا «يقتل» هذا الرجل الآن، كفيل بأن يوفر حربا بأكملها! وعاد يؤكد لنفسه: «أليس صحيحا أن طمأنة جيش كامل تساوى قتل رجل واحد؟!».

وكانت الملاحظة موحية.

ولم تمض ساعات حتى كان «تنيت» يتصل على عجل بالبيت الأبيض، فهم يعرفون الآن بالضبط أين يوجد «صدام حسين».

وأعطى «جورج بوش» موافقته، وكذلك بدأت ضربة الحرب الافتتاحية قبل موعدها المقرر بأربع وعشرين ساعة. والأمل أن يُقتل «صدام حسين»، بحكمة أن «قتل رجل واحد يطمئن جيشا كاملا»!

والحقيقة أن هيئة أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية لم تكن لديها شكوك من أى نوع فى نتيجة عمل عسكرى ضد العراق، فقد كانت الدفاعات العراقية أمامها واهية، وقلب العراق مفتوح، والطريق إلى «بغداد» مهما كان أو يكون سالكا، وأية مقاومة «لحركة الثعبان» محدودة، حتى لو تأخر مجىء الفرقة الرابعة القادمة بحرا من تركيا. ولم يكن الجنرال «ريتشارد مايرز» متواضعا حين قال لرامسفيلد: «أنا أعرف أن ما نحن مُقبِلون عليه معركة بين طائرة من طراز ف ١٥، وطائرة من «الورق» (Kite) التى يلهو بها الأطفال، لكن ذلك ليس من شأنه أن ينسينا أننا سوف ننزل من أعالى الجو إلى تراب الأرض». (وفى الغالب فإن قيادة الأركان المشتركة لم تكن تريد خسائر فى أرواح جنودها يمكن توفيرها، علما بأن هناك جماعات غير نظامية (فدائيو صدام) تملك فرصة التعرض لأجناب طابور متدفع إلى أمام لا يلتفت يمينا أو يسارا!).

والواقع أن الخشية الحقيقية للقيادة المشتركة كانت أوضاع ما بعد الغزو، لأن الصور والمعلومات والمتابعة تكشف ظاهر ما يجرى فوق الأرض، لكنها لا تعرف ما فيه الكفاية عن دخائل النظام وأجنحته ورجاله. ثم حقيقة المشاعر فى عقول وقلوب أهله، وفى كل الأحوال فإن رئاسة القوات المشتركة تقبلت حقيقة أن قطار الحرب مشى على القضبان، لكن هذه القيادة كانت تريد الوصول إلى «بغداد» ثم تنقل مسئولية ما بعد ذلك إلى غيرها، وفكرها أنه مادام ذلك ما طلبوه منها، فهى توفره لهم لكنها تترك البقية على عهدتهم!، والمنطق أن قواتها «أداة حرب»، وليست «أداة حفظ نظام». ووسيلة غزو وليست مهمة حفظ أمن.

وفى رغبتها الجارفة للحسم العسكرى سريعا، فإن قيادة القوات استعملت رخصة كثافة النار بأكثر مما كان مقدرا فى الخطة الأصلية، وهكذا فإن ضربة الصدمة والرعب على «بغداد» تكررت. وزادت، وفى بعض الليالى كان الضرب الجوى مروعا فوق «بغداد» وحولها، وطبقا لتقرير هيئة عمليات القيادة المشتركة، فقد قامت الطائرات الأمريكية فوق ميادين الضرب بـ ٤١٤٠٤ طلعة جوية، وأطلقت ١٩٩٤٨ قذيفة مُوَجَّهة، إلى جانب ٩٢٥١ قذيفة غير موجهة، تغطى بالنار دوائر واسعة دون هدف بالذات، وكان ذلك مخيفا - وفى المحصلة فإن هذه الكثافة فى النيران لم تهدأ لتترك الفرصة لمن يريد أن يراجع أو يفكر أو يتصل سواء: من قادة الجيش والحرس الجمهورى، وبالتالى فإن غضب النار المنهمر من السماء لم يترك لأحد من الزعماء والقادة المحليين - (كالمرجعيات الدينية والقبائل والعشائر) - مجالا لأمل: فهذه النار غضب عدو ويصعب اعتبارها تحية صديق.

....

....

[ومن الواضح الآن أن السياسة العراقية فى «بغداد» لم تكن تعرف ما فيه الكفاية عن معنويات قواتها (الجيش والحرس الجمهورى). ولا عن المراجعات التى تزحم الآن مشاعرها وأعصابها وإرادتها، خصوصا وقد تفجرت الحقائق وبانت نتائجها المحتومة. وفى الغالب فإن القيادة العسكرية العراقية آثرت أن تتظاهر بتنفيذ ما لديها من أوامر (ولعلها آثرت أن تعفيها التطورات المتسارعة من حرج العصيان المكشوف فى تلك الظروف)، وعلى الناحية الأخرى فإن السياسة فى «بغداد» بدت وكأنها لا تريد أن تطل على الحقائق وجها لوجه، والغالب أنه كان نوعا من «القدرية» تأمل فى معجزة لن تجىء.

ووسط دخان أوهام معزولة عن الواقع - فوجئ الجميع بأن القوات الأمريكية فى مطار «بغداد» فعلا، وتبددت الأوهام].

....

....

ثم لمعت شرارة فى أجواء «بغداد» (وغيرها من المدن الكبرى). ذلك أن قوات الغزو العسكرى المتقدمة، فشلت فشلا ذريعا فى إدارة لحظة اللقاء الحرجة بين جيش غريب غاز وأصحاب وطن ينتظرونه بحذر على الأقل! وفى العادة فإن لحظة لقاء الغرباء، وبينهم قوى وضعيف، وغالب ومغلوب. لحظة شديدة الحساسية، وإذا فلت عيارها فإن الانطباعات والتشوهات التى تُوَلَّد منها تعيش طويلا مهما تنوعت عقاقير علاجها.

ولعل القيادة المركزية أحست بأن اللحظة أفلتت، وكذلك كان قول الجنرال «فرانكس»: «إن قواتى كانت تشكيلات محاربة، واجبها البحث عن العدو وقتله، وليس الابتسام فى وجهه وأخذه بالأحضان».

وكان الجنرال «فرانكس» محقا، وكانت المسئولية واقعة بالكامل على نقص الأداء السياسى للخطة حين انتهاء القتال.

ومع ذلك فإن «المجموعة الإمبراطورية فى واشنطن». ظهر لديها الميل إلى تغطية قصورها فى التخطيط السياسى لما بعد الحرب - بتوجيه المسئولية إلى غيرها من الذين لم يستطيعوا التفريق بين مهام القتال - ومسئوليات الاحتلال.

ولم تمض أيام على الاحتلال حتى كانت قوات الغزو فى موقف يسمح لها برؤية الحقائق كاملة، مكشوفة على الأرض، وأول الحقائق أن جميع الذرائع القانونية والأخلاقية التى دفعت بها «إلى هنا» غير صحيحة، بل إن القائلين بها كانوا أول من يعرف أنها كذلك (غير صحيحة):

- ليست هناك أسلحة دمار شامل (نووية أو كيماوية أو بيولوجية).
- ليست للنظام الذى سقط فى العراق إمكانية من أى نوع لتهديد الولايات المتحدة (أو أوروبا أو جيرانه) فى ظرف ٤٥ دقيقة!.

- ليست للنظام العراقى صلة بتنظيم القاعدة (وبالتالى بما جرى يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١).

- وأسوأ من ذلك فإن الشعب العراقى لا يبدو سعيدا بهذه القوات التى جاءت لكى تحرره.

وعلى نحو ما فإن القوات المسلحة ورئاسة أركان الحرب المشتركة - بدت ضيقة الصدر فى تعاملاتها مع كل الأطراف.

- تشعر من ناحية أن السياسة فى «واشنطن» لم توفر لها الغطاء (الأخلاقى والقانونى) الذى يحفظ لها «قيمة وكرامة العلم الوطنى».

- وتشعر أن المجموعة الإمبراطورية تأخرت فى إيجاد بديل يأخذ عن عاتق القوات عبء القيام «بدور بوليس محلى» فى العراق، ثم إن هذه المجموعة تخبطت فى خياراتها من عسكرى سابق مثل الجنرال «جاى جاردنر» - إلى موظف دبلوماسى مثل «بول بريمر» - إلى عرض «المهمة» على سياسى عجوز مخضرم مثل «جيمس بيكر».

- وتشعر أن الرأى العام فى الولايات المتحدة - وفى العالم - لم تعد فيه حماسة للمهمة التى قامت بها والتى تزداد تكاليفها - ولا تقل بعد أول يوم - وذلك يضايق ولعله يجرح!

- وتشعر أخيرا - وهذا هو الأمر المزعج - أن الشعب العراقى ليس راضيا وليس جامدا، بل إنه ساخط وناقم على الكل بغير استثناء.

وفى هذه الأجواء اتخذت قرارات عصبية ومتسرعة:

■ جرى حل الجيش العراقى ووزارة الداخلية، والخارجية، والإعلام، مع ظن بأنه من الأفضل إعادة الخلق من جديد.

■ ولم تكن مصفحات القوات الأمريكية تملك - ولا كان ذلك واجبا - كفاءة مراعاة التضاريس التاريخية والدينية والاجتماعية والنفسية للشعب العراقى، وكذلك وقعت أخطاء مهولة.

والغريب أن الإمبراطورية الأمريكية عند ذروة علوها - تصرفت بثقافة تجربتها الأولى مع الهنود الحمر بعد أن تمكنت من قتل «عدى» و«قصى» نجلى الرئيس العراقى السابق، وتصرفت كما كان يفعل قواد جماعات المهاجرين الزاحفين إلى قلب القارة الأمريكية فى القرن الثامن عشر - أى أن قوات الإمبراطورية الأمريكية أوائل القرن الحادى والعشرين أرادت أن تثبت للهنود الحمر على الناحية الأخرى من النهر أن الزعيم الكبير قتل، وها هى جثته على ظهر حصانه تعود إليهم ليروا بأنفسهم ويتحققوا!

وتكرر المشهد بعد قرون، لأن الموروث الثقافى لديه فرصة الكمون حتى تستدعيه المستجدات، فإذا هو يعيد نفسه على المثال الذى تشكل به ابتداء.

وعلى نحو ما فقد تبدى حرص شديد فى «واشنطن» على احتواء كل الشكوك، وعلى كتمان توترات وتقلصات عاشتها العاصمة الأمريكية بين السياسيين والعسكريين.

وظهرت أسئلة لعلها تعثر على إجابات فى المستقبل:

- لماذا ترك قائد القوات البرية الجنرال «تشيمسكى» منصبه ولم يجدد مدة خدمته كما عرض عليه؟

- ولماذا اعتذر قائد القيادة المركزية الجنرال «تومى فرانكس» عن قبول منصب وزير الجيش الذى عرضه عليه «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع (الذى يعاونه ثلاثة من الوزراء: للجيش والبحرية والطيران)؟

- ولماذا صمم «فرانكس» على الاعتزال دون أن ينتظر لكى يسبح وسط أضواء النصر بعد غزو العراق؟

- ولماذا عهد بالقيادات الميدانية الكبرى إلى جنرالات ينحدرون من أقليات عرقية هاجرت عائلاتهم أخيرا إلى الولايات المتحدة: مثل الجنرال «ريكاردو سانشيز» الذى عين قائدا لقوات الاحتلال فى العراق (وهو من أسرة مهاجرة من أمريكا اللاتينية) - والجنرال «جون أبو زيد» (وهو من أسرة مهاجرة من لبنان) الذى عين قائدا للقيادة المركزية الأمريكية - بينما المعروف أن عماد قيادة القوات المشتركة باستمرار يقوم بها العناصر التقليدية ذات الأصول الأوروبية (الواضحة).

ولماذا؟ - ولماذا؟ - ولماذا؟!

ومن الواضح فى واشنطن أن المستقبل يلزمه - من وجهة نظر هيئة الأركان المشتركة - كلام كثير وكلام جديد!

وكذلك تواجه الإمبراطورية الأمريكية - أواخر سنة ٢٠٠٣ - لحظة شديدة الحساسية والأهمية، وذلك منطق الأشياء طالما أن القوات المسلحة أصبحت وسيلة المشروع الإمبراطورى وعليها مسئوليته!■

كتاب الزاوية

بصراحة

محمد حسنين هيكل

على مدى زمنى يقارب العقدين، وتحديداً من ١٠ أغسطس ١٩٥٧ وحتى أول فبراير ١٩٧٤، ظل الأستاذ محمد حسنين هيكل يكتب مقالته الأسبوعية «بصراحة» فى جريدة الأهرام. وخلال تلك السنوات تحولت المقالة لتصبح الأولى والأهم فى الصحافة العربية. فما من مسئول عربى أو دولى مهتم بقضايا مصر والمنطقة وما من مراسل صحفى أو باحث يتابع الأحداث فى تلك الفترة إلا وحرص على قراءتها سواء باللغة العربية أو مترجمًا.

القارئ والمواطن العربى كان حريصًا أيضًا على قراءة المقالة أو الاستماع إليها عبر أثير الإذاعة المصرية حيث كان يتم بثها فى نفس يوم الصدور. فقد أصبحت مقالة «بصراحة» التى انتظم ظهورها أسبوعيًا اعتبارًا من ١٩٦٠ أشبه ببوصلة تحدد من خلال أسلوب شديد العمق والسلاسة، أين تسير الأحداث وكيف ولماذا ومن هم اللاعبون الأساسيون والهامشيون.

لم تكن «بصراحة» مجرد مقالة اجتهد كاتبها فى أن يكشف فيها للقارئ عن أخبار جديدة تدخل فى باب السبق الصحفى والانفرادات، بل كانت أيضًا بمثابة شاهد على عصر حاول فيه العرب اللحاق بالركب وحاول آخرون الحيلولة دون ذلك.

«بصراحة» هى بنت عصرها، ولكن ما يكتبه هيكل يظل موضوعًا للقراءة والفهم ليس فقط فى الخطوط الاستراتيجية وإنما فى التفصيلات الصغيرة ومن ثم فى القدرة على استشراف المستقبل.

«وجهات نظر» اختارت من بين مقالات «بصراحة» عبارات تقرأ واقعنا العربى المعاصر والذى يبدو أنه مازال يراوح مكانه.

مستقبل الرأسمالية.. رؤية

جلال أمين

[١]

■ من أشد المتحمسين للنظام العالمى الحالى، والذى تتزعمه اليوم الولايات المتحدة الأمريكية، بيل إيموت (Bill Emmott) رئيس تحرير مجلة الإيكونومست البريطانية، أهم مجلة اقتصادية فى بريطانيا، وربما كانت أيضًا أهم المجلات الاقتصادية فى العالم. وقد نشر له منذ شهور قليلة كتاب بعنوان غير مألوف هو «رؤية ٢٠ : ٢١» وبعنوان فرعى «الدروس المستفادة من القرن العشرين للحياة فى القرن الواحد والعشرين».

وهذا العنوان الفرعى يدل بالضبط على مضمون الكتاب، أى يحاول المؤلف أن يستخلص أهم الدروس من القرن الماضى التى تصلح مؤشرًا لما يمكن أن يحدث فى القرن الواحد والعشرين.

ويتضح من الصفحات الأولى من الكتاب، وحتى نهايته، مدى إعجاب المؤلف وحماسه لما يجرى فى العالم اليوم، وعلى الأخص إعجابه بإنجازات الولايات المتحدة فى مختلف المجالات. وهو مستعد للرد على أى نقد يمكن أن يوجه إلى التجربة الأمريكية، وأن يدافع عن أى موقف تتخذه الإدارة الأمريكية فى الداخل أو الخارج، فكل هذا ليس فقط أفضل الأشياء لأمريكا بل وأفضل الأشياء أيضًا للعالم ككل.

ويقول المؤلف فى بداية الكتاب إنه يريد بالكتاب أن يجيب عن سؤالين أساسيين. السؤال الأول: هل يستشف من تجربة القرن العشرين أن النظام الرأسمالى فى حالة ضعف وانهيار أم أنه سيصمد ويبقى فى القرن الواحد والعشرين؟ والسؤال الثانى: هل ستظل الولايات المتحدة هى قائدة هذا النظام، وتحتفظ بمكانتها كقوة عظمى على قمته، أم أنها بدأ يعتريها الضعف والذبول، كما سبق أن حدث لبريطانيا من قبل، بحيث لا يمكن أن تحتفظ الولايات المتحدة بهذه المكانة خلال القرن الجديد، بل ستحل قوى أخرى محلها؟

وإجابة المؤلف عن كلا السؤالين لصالح الرأسمالية والولايات المتحدة على السواء. إنه متفائل بمستقبل الرأسمالية، وبمستقبل الولايات المتحدة، ولا يرى فيما حدث خلال القرن العشرين ككل، أو خلال العقود الأخيرة منه، ما ينبئ بسقوط النظام الرأسمالى أو ضعفه، أو بفقدان الولايات المتحدة لمكانتها على رأس هذا النظام.

ليس غريبًا أن يكون وقع هذا الكلام البريطانى على الآذان الأمريكية كوقع الموسيقى الجميلة، إذ ما الذى يجب أن يسمعه «السلطان» أفضل من هذا؟ «نظامك أفضل نظام، وهو مستمر وليس هناك ما يهدد بسقوطه، وحكمك أفضل حكم ممكن فى ظل هذا النظام» ولكن مثل هذا الكلام هو أيضًا ما يتوقع صدوره من حاشية السلطان، فهم يعيشون على ما يتفضل السلطان عليهم به، ومصيرهم متوقف على مصيره. وقد كانت مجلة الإيكونومست البريطانية دائمًا من «حاشية السلطان». كانت دائمًا تتخذ موقفًا يمينيًا متطرفًا من قضايا العالم الاقتصادية والسياسية، تؤيد النظام الرأسمالى القبيح، وتستهزئ وتسخر من كل حركة مناوئة له أو كتاب ينتقده أو دولة تخرج عليه. فلما قويت شوكة الشركات متعددة الجنسيات فى السبعينيات، تبنت مجلة الإيكونومست شعاراتها وتكلمت بلسانها. ولما خرجت الولايات المتحدة منتصرة من الحرب الباردة أصبحت هذه المجلة من أهم المدافعين عن سياستها وشعاراتها. فحاربت بلا هوادة فى الدفاع عن «العولمة»، حتى فى أكثر صورها توحشًا، وسخرت سخرية مرة من المتظاهرين ضدها فى مدينة سياتل وغيرها. ولما وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تبنت الإيكونومست البريطانية القصة الرسمية الأمريكية بحذافيرها، وصبت جام غضبها على الإرهاب والإرهابيين. ولما أعلنت الإدارة الأمريكية أن عدوها الآن هو الإسلام والمسلمون، وخاصة العرب منهم، رددت الإيكونومست نفس الاتهامات بلا تحفظ. ونشرت مقالاً للترحيب بالتقرير الصادر عن برنامج الأمم المتحدة عن (التنمية الإنسانية العربية لسنة ٢٠٠٢) وهو تقرير غريب لم يترك سيئة إلا نسبها إلى العرب، وكان عنوان مقال الإيكونومست عن هذا التقرير: «كيف يجلب العرب الفشل لأنفسهم».

ليس غريبًا إذن أن يكتب الآن رئيس تحرير هذه المجلة كتابًا ينتصر فيه للرأسمالية بهذه الحماسة، سواء فيما يتعلق بما فعلته خلال القرن العشرين أو ما ينتظر أن تفعله فى القرن الواحد والعشرين، وأن ينتصر للولايات المتحدة إلى هذه الدرجة، سواء فيما فعلته أو ما يمكن أن تفعله.

لا شىء يمكن أن يفت فى عضد النظام الرأسمالى، فى نظر بيل إيموت، لا تعاقب الأزمات الاقتصادية، ولا تدهور توزيع الدخل فى داخل الدول الرأسمالية، ولا تدهور توزيع الدخل بين البلاد الفقيرة والغنية، ولا تدهور البيئة، ولا ازدياد قوة السخط وعدد المعارضين للعولمة.. إلخ، كما أن كل مظاهر الضعف التى قد يراها البعض فى النظام الأمريكى هى مظاهر خادعة، والدول الكبرى الأخرى، التى قد يظن البعض أنها مرشحة لخلافة الولايات المتحدة، هى على أى حال أضعف وأشد عجزًا عن استعادة نشاطها ونموها من الولايات المتحدة.

والكتاب ينقسم إلى قسمين: الأول مخصص لدحض أى ظن بأن الولايات المتحدة ستفقد مركز الصدارة فى العالم، والثانى مخصص لمناقشة مختلف الانتقادات الموجهة للنظام الرأسمالى والرد عليها. وسوف أركز فى هذا المقال على عرضه لنقدين من هذه الانتقادات، وهما المتعلقان بتدهور توزيع الدخل داخل الدول الغنية وبتدهور توزيع الدخل بين الدول الغنية والفقيرة، ثم أتناول حججه الأساسية لتوقع استمرار الزعامة الأمريكية وتفوق الولايات المتحدة على الجميع.

[٢]

المؤلف يقر ويعترف بأن توزيع الدخل فى معظم بلاد العالم، وعلى الأخص فى البلاد الأكثر ثراء، مال إلى الابتعاد عن المساواة خلال العشرين أو الثلاثين عامًا الماضية. فبعد عقدين أو ثلاثة من ارتفاع درجة المساواة، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، بدأت درجة التفاوت بين الدخول تزيد فى الولايات المتحدة ابتداء من سنة ١٩٧٠، وفى بريطانيا منذ أواخر السبعينيات، وفى ألمانيا منذ الثمانينيات (أى حتى قبل إعادة توحيد ألمانيا).. إلخ. ولكن هذا الاتجاه نحو الابتعاد عن المساواة لا يسبب أى قلق للمؤلف، وذلك لعدة أسباب.

أولها أننا إذا نظرنا نظرة أطول مدى، فأخذنا فترة أطول، كالقرن العشرين كله مثلاً، نجد أن الاتجاه العام هو قطعًا نحو المزيد من المساواة وتخفيض الفجوة بين الدخول. والسبب الثانى أن النجاح الذى تحقق خلال القرن العشرين فى الارتفاع بمستوى شرائح الدخل الدنيا، جعل قضية توزيع الدخل تتخذ الآن شكلاً مختلفًا وأقل قسوة. فبعد أن كانت القضية فى الماضى هى قضية استئثار حفنة ضئيلة من الناس بطيبات الحياة، مع حرمان الغالبية الساحقة منها أصبحت قضية توزيع الدخل الآن هى حرمان حفنة ضئيلة من الناس من طيبات الحياة، بينما تتمتع غالبية الناس بها. بعبارة أخرى، أصبح المحرومون الآن أقلية صغيرة بعد أن كانوا هم الأغلبية. والسبب الثالث يتعلق بالحراك الاجتماعى. فإذا بدا أن هناك فجوة تميل إلى الاتساع بين قلة فى أعلى الهرم الاجتماعى، من الأغنياء غنى فاحشًا، وبين جماهير واسعة تعيش عيشة ميسورة ولكنها أقل ثراء بكثير

كانت مجلة الإيكونومست البريطانية دائمًا من «حاشية السلطان». تتخذ موقفًا يمينيًا متطرفًا من قضايا العالم الاقتصادية والسياسية. تؤيد النظام الرأسمالى القبيح، وتستهزئ وتسخر من كل حركة مناوئة له أو كتاب ينتقده أو دولة تخرج عليه

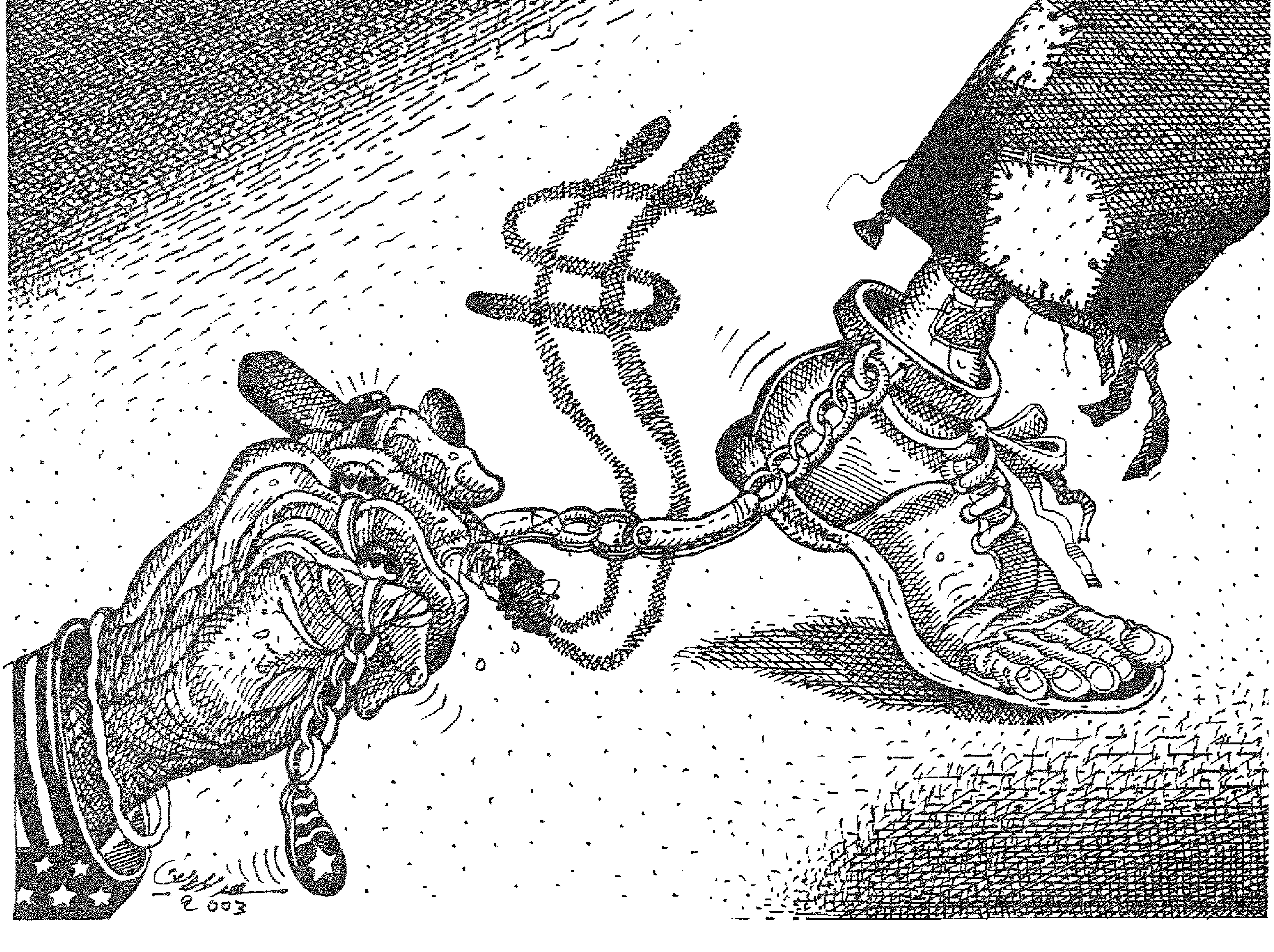
20: 21 Vision.. Twentieth-Century Lessons for the Twenty-Frist Century

(رؤية ٢٠ : ٢١.. الدروس المستفادة من القرن العشرين للحياة فى القرن الواحد والعشرين)

Bill Emmott

Farrar, Straus and Giroux, N.Y 2000

بريطانيــة بعيــون أمريكيــة!



ممن هم فى أعلى الهرم، فإن شعور هذه الجماهير بالضغينة أو الحقد يخفف منه إلى حد كبير الشعور العام بأن الطريق مفتوح أمام هذه الجماهير الواسعة للصعود إلى أعلى وتحقيق ما حققته القلة المحظوظة من نجاح، إما عن طريق الجدارة والاستحقاق أو لمجرد الحظ السعيد، ولكن المهم أنه ليس هناك شعور بوجود «احتكار» من جانب قلة ضئيلة يقف عائقًا ضد أى اختراق من جانب الجماهير.

الصورة على هذا النحو تبدو وردية حقًا: فى المدى الطويل يميل توزيع الدخل إلى المزيد من المساواة، حتى لو حدث غير هذا فى المدى القصير، والمشكلة هى مشكلة أقلية صغيرة بعد أن كانت مشكلة الأغلبية الكادحة، وسهولة الحراك الاجتماعى كفيلة بالقضاء على أى شعور بالحقد أو اليأس.

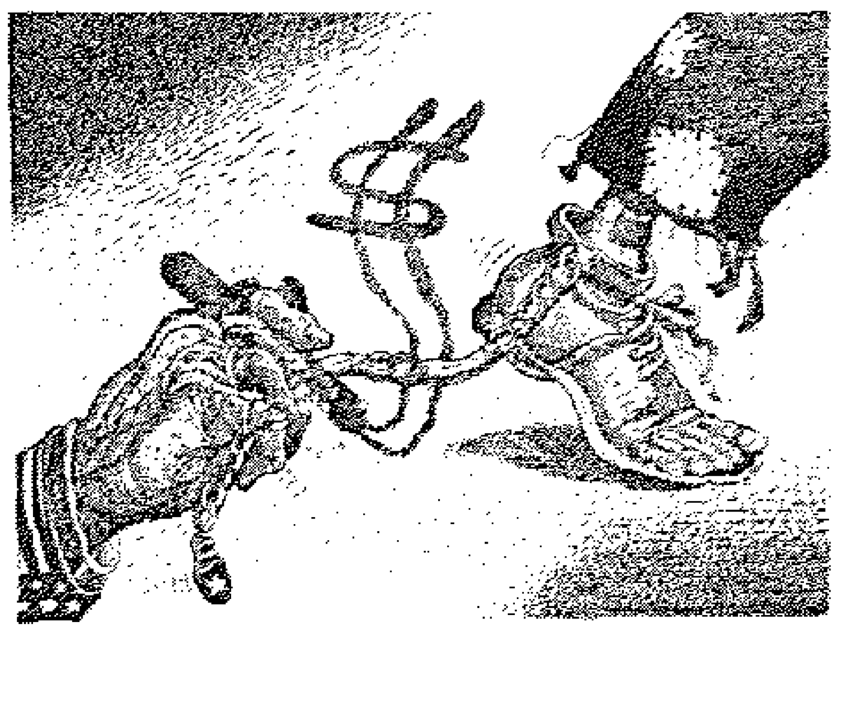
ولكن الحقيقة، كما تبدو لى، أكثر تعقيدًا من هذا بكثير. لا أحد يستطيع بالطبع أن ينكر ما حققته الدول الرأسمالية من نجاح خلال القرنين الماضيين فى الارتفاع بمستوى معيشة الجماهير الغفيرة.

والمؤلف يشير إلى حقيقة لا يمكن إنكارها عندما يقارن بين ما كان العامل الصناعى ينفقه على الضروريات والكماليات فى أواخر القرن التاسع عشر، وبين ما أصبح ينفقه على هذا وذاك الآن.

بينما كان متوسط ما تنفقه أسرة العامل الصناعى فى الولايات المتحدة على ضروريات الحياة (من مأكل وملبس ومسكن) يمثل ٧٥٪ من إجمالى دخلها فى سنة ١٨٨٨، انخفضت هذه النسبة فى سنة ١٩٩١ إلى ٣٨٪ فقط، مما يدل على نحو قاطع على مدى ما حققه العمال من ارتفاع فى مستوى المعيشة. ولكن هذا شىء ومقدار ما يشعر به العمال وغيرهم من طبقات المجتمع الدنيا من ضغينة أو تعاطف نحو بقية المجتمع شىء مختلف تمامًا، واستقرار النظام ومستقبله يتوقفان على مثل هذه المشاعر أكثر مما يتوقفان على مدى ما تحقق من ارتفاع فى مستوى المعيشة. وطبيعة هذه المشاعر نحو المجتمع ككل، أو نحو الطبقات العليا أو المحظوظة فيه، تتوقف على أشياء أخرى مهمة لم يذكر المؤلف كلمة واحدة منها.

هناك مثلاً مدى إدراك المرء لحقيقة التفاوت نفسها. فالتفاوت فى الدخول بين الناس قد يكون كبيرًا دون أن يدرك المرء حجمه الحقيقى، فيظل ضعيف الشعور به، وتضعف بالتالى استجابته له أو غضبه بسببه. نعم قد يكون التفاوت فى الدخول فى سنة ١٩٠٠ أكبر بكثير منه فى سنة ٢٠٠٠، كما يقول المؤلف، ولكن كم كان إدراك الناس لحقيقة التفاوت فى ١٩٠٠ ومداه، بالمقارنة بإدراكهم لحقيقته ومداه فى سنة ٢٠٠٠، بعد انتشار التعليم وازدياد قوة وسائل الإعلام وزيادة الميل إلى التفاخر والتباهى بمستوى الاستهلاك العالى.. إلخ؟ ألا يجوز أن تكون درجة الضغينة التى يحملها أصحاب الدخل المنخفض فى سنة ٢٠٠٠ أكبر مما كانت قبل مائة عام، لهذا السبب، رغم انخفاض درجة التفاوت فى الحقيقة؟

هناك أيضًا مدى ارتباط التفاوت فى الدخول بالانتساب إلى أقلية بسبب اللون أو الأصل العرقى، بعد أن كان انخفاض الدخول أمرًا أكثر شيوعًا وأقل تطابقًا مع اختلاف اللون أو الأصل. ألا يمكن أن يكون اتساع الفروق بين الأسود والأبيض، أو بين ذوى الأصل المكسيكى أو الآسيوى وبين ذوى الأصل الأوروبى سببًا من أسباب زيادة الشعور



بالاضطهاد والسخط؟ هناك أيضاً درجة الاستحقاق والجدارة وراء التفاوت فى الدخول، أو بالأحرى ما يعتقده المرء فيما يتعلق بدرجة الاستحقاق والجدارة. فالمرء على استعداد بالطبع لأن يقبل تفاوتاً فى الدخول مبنياً على التفاوت فى الاستحقاق أكثر من قبوله لتفاوت ظالم فى توزيع الدخل. فهل التفاوت فى الدخول والثروة الآن أكثر أم أقل ارتباطاً بدرجة الاستحقاق ومستوى الكفاءة؟

كل هذه الأمور وأمثالها لم يتعرض لها الكاتب مكتفياً بتعليق الأمل على انخفاض درجة التفاوت فى الدخول، فى داخل المجتمعات الغربية، أو الصناعية، فيما بين بداية القرن العشرين ونهايته، مستنتجاً من ذلك ليس فقط «نجاح» النظام الرأسمالى، بل أيضاً قابليته للبقاء والاستمرار.

[٣]

ما مدى نجاح النظام الرأسمالى فى التخفيف من صورة أخرى من صور التفاوت فى الدخل، وهى التفاوت فيما بين الدول والشعوب؟ وهل يسبب هذا مصدراً من مصادر القلق على مصير هذا النظام فى المستقبل؟ المؤلف متفائل هنا أيضاً، وشديد التقدير والإعجاب بما أنجزه وسوف ينجزه النظام الرأسمالى فى هذا المجال كما فى غيره من المجالات.

لا يستطيع المؤلف أن يفاخر هنا بأن التفاوت فى مستوى المعيشة بين الدول والشعوب خلال القرن العشرين قد مال بدوره إلى الانخفاض كما حدث للتفاوت فى داخل الدولة الواحدة. فالعكس هو الصحيح، ونمو الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة كان صارخاً ولا يستطيع أحد إنكاره. والمؤلف يقدم الأرقام الدالة على ذلك. فبعد أن كان متوسط الدخل للفرد الواحد، فى أغنى الدول الصناعية فى ١٨٧٠ أكبر تسع مرات منه فى أفقر بلاد العالم، أصبح متوسط الدخل فى الولايات المتحدة فى ١٩٩٠ أكبر منه فى دولة مثل تشاد أو أثيوبيا ٤٥ مرة. فإذا قارنا متوسط الدخل فى أغنى عشرين دولة الآن بمتوسط الدخل فى أفقر عشرين دولة، وجدنا أن الفجوة بينهما هى الآن ضعف ما كانت عليه قبل ٤٠ عاماً.

كيف يمكن أن نفسر هذا النمو والتفاوت بين الدول، وإلى أى حد يمكن أن يعتبر هذا وصمة عار فى جبين النظام الرأسمالى، وإلى أى مدى يمكن أن تهدد هذه الفجوة مستقبل النظام الرأسمالى أو تخلق المشاكل له؟ يقدم المؤلف إجابات غير متوقعة على هذه الأسئلة. ربما كانت هى الإجابات المتوقعة من كاتب مثله لديه كل هذا التحيز للرأسمالية، ولكنها غير متوقعة من حيث اصطدامها بالمنطق والتاريخ على السواء.

الإجابة التى يقدمها المؤلف على السؤال الأول هى أن هذا النمو فى التفاوت بين مستويات معيشة الدول والشعوب يعد فى الأساس إشارة إلى ما حققته الدول الغنية من «نجاح»، وحيث إننا لا يمكن أن نطالب الدول الناجحة بأن تقلل من نجاحها، فليس هناك من حل إلا أن تحاول الدول الفاشلة التغلب على فشلها (ص٢٧٠). فما سبب هذا الفشل ياترى؟ إنه ليس وجود بعض العقبات الطبيعية، ولا هو تصرفات غير عادلة من جانب الدول الغنية، بل السبب يعود إلى نظام الحكم فى البلاد الفقيرة، فحكوماتها إما حكومات عاجزة أو غير موجودة أصلاً، كما فى حالة البلاد التى تعمها الفوضى أو حروب أهلية أو خارجية، أو حكومات فاسدة أو خانقة للحريات، إذ أن النجاح الاقتصادى يدور وجوداً وعدماً مع نظام الحرية الاقتصادية (ص٢٧٣).

هناك طبعاً بعض الحقيقة فى هذا الكلام، ولكنها حقيقة منقوصة لدرجة مؤسفة. فالكاتب لا يبدى أى استعداد للاعتراف بوجود علاقة بين «نجاح» الدول الغنية و«فشل» الدول الفقيرة، وكأنهما يعيشان فى عالمين منفصلين. ولا يخطر بباله أن النمو السريع فى البلاد الغنية خلال المائة عام الماضية قد يكون قد اعتمد على صورة أو أخرى من «استغلال» البلاد الفقيرة، وأن الحكومات العاجزة أو الفاسدة أو الفاشلة قد تكون ثمة علاقة بين عجزها أو فسادها أو فشلها وبين طبيعة العلاقات الاقتصادية بين البلاد الغنية والفقيرة، بل قد تكون هذه الحكومات العاجزة أو الفاسدة أو الفاشلة نفسها تتمتع بدعم قوى، مالى أو عسكرى، من الدول الغنية. كذلك لا يخطر ببال الكاتب التساؤل، ما دامت الحرية الاقتصادية مفيدة لهذه الدرجة للتنمية الاقتصادية، لماذا لم تحقق الدول الفقيرة نمواً اقتصادياً باهراً فى ظل نظام الحرية الاقتصادية الذى فرضه عليها الاستعمار الأوروبى أولاً ثم هيمنة الولايات المتحدة ومؤسسات التمويل الدولية بعد هذا؟ فالمائة عام التى يذكر الكاتب أن التفاوت فى الدخول بين الشعوب تضاعف خلالها عدة مرات، تقع الخمسون عاماً الأولى منها فى عصر الاستعمار الأوروبى، والخمسون عاماً التالية فى عصر الهيمنة الأمريكية أو السوفيتية، وقد فرضت الهيمنة الأمريكية بمساعدة صندوق النقد الدولى والبنك الدولى نظام الحرية الاقتصادية على الكثير من بلاد العالم الفقيرة، كما سبق أن فرضه الاستعمار الأوروبى، فلم تنجح هذه الهيمنة أو تلك فى تضييق الفجوة بين مستويات المعيشة، ولم تضق هذه الفجوة إلا بين عدد محدود من البلاد الأسيوية وبين البلاد الصناعية فى الثلاثين سنة الأخيرة، ولكن هذه البلاد الأسيوية اعتمدت التنمية الاقتصادية فيها إلى حد كبير، خلال هذه الفترة، على الدور الفعال الذى لعبته الدولة.

إجابة المؤلف عن السؤال الثانى هى إذن جاهزة وواضحة: فليس هناك فى نظره أى وصمة عار على جبين النظام الرأسمالى من جراء هذه الزيادة فى التفاوت فى مستويات المعيشة، إذ ليس هناك أى شبهة للاستغلال أو القهر أو التدخل من جانب الدول الغنية فى شئون الفقيرة، وإنما البلاد الفقيرة هى المسئولة عن فقرها لأنها لم تستطع أن تختار حكومات نظيفة وفعالة وتطبق مبدأ الحرية الاقتصادية بهمة ونشاط، بل شنت هى نفسها حروباً أهلية وخارجية بددت مواردها دون أن يكون للدول الغنية دور فى الأمر.

وأما السؤال الأخير عما إذا كان اتساع هذه الفجوة بين مستويات المعيشة بين الدول والشعوب يهدد مستقبل النظام الرأسمالى أو يخلق مشاكل له، فإجابة المؤلف عليه أغرب وأعجب. إذ يقول:

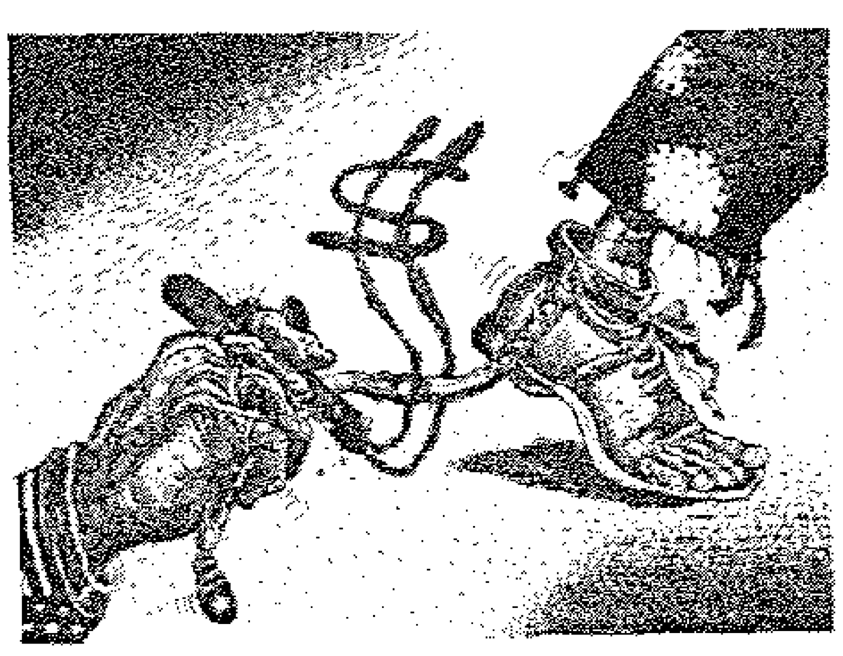
«إن الزيادة المستمرة فى حجم هذا التفاوت لا تعنى زيادة أهميته كخطر يهدد الاستقرار فى العالم، بل بالعكس يدل على قلة أهميته» وهو يفسر هذا الاستنتاج الغريب بقوله: «إنه لو كان هذا التفاوت فى مستويات المعيشة بين الشعوب والدول مهماً فى الحقيقة، لكان قد ولد من الضغوط ما يؤدى إلى تصحيحه أو على الأقل إلى التخفيف منه». (ص٢٦٩)

لابد أن يشعر القارئ بغرابة هذا المنطق، فمعناه أنك لا يجب أن تهتم بأى ظاهرة تزداد نمواً وقوة مع الوقت، مهما كانت سيئة وخطرة، فنموها وزيادة قوتها دليلان على عدم أهميتها، إذ لو كانت مهمة لحدث لها من ردود الفعل ما يكفل القضاء عليها. فإذا وجدتها، على العكس، تميل إلى الضعف والتضاؤل مع الوقت، فلا يجب أن تهتم بها أيضاً إذ أن معنى هذا أن مصيرها إلى الزوال.

فما هو المطلوب منا عمله إذن؟ لا شىء. وما هى أفضل سياسة يمكن اتباعها؟ اترك كل شىء يسير سيره الطبيعى، فهذا يؤدى إلى أفضل النتائج: إذا كانت الظاهرة حسنة فلماذا تفعل شيئاً قد يقضى عليها؟ وإذا كانت سيئة فإنها ستولد من القوى ما من شأنه أن يقضى عليها.

من الواضح أن الرجل سعيد جداً بما يرى وليس لديه ما يشكو منه بالمرة: لا تفاوت الدخول فى داخل البلد الواحد، ولا تفاوت الدخول بين البلاد. ولكن لديه سبباً إضافياً للتفاؤل وهو العولمة. صحيح أن العولمة بما تعنيه من زيادة إدراك العالم المتخلف لمستوى المعيشة فى العالم المتقدم وسهولة التنقل والاتصال

بينما كان متوسط ما تنفقه أسرة العامل الصناعى فى الولايات المتحدة على ضروريات الحياة (من مأكل وملبس ومسكن) يمثل ٧٥٪ من إجمالى دخلها فى سنة ١٨٨٨، انخفضت هذه النسبة فى سنة ١٩٩١ إلى ٣٨٪ فقط، مما يدل على نحو قاطع على مدى ما حققه العمال من ارتفاع فى مستوى المعيشة



بين أجزاء العالم المختلفة قد تؤدى إلى زيادة أعمال الإرهاب والتخريب وأسلحة الدمار الشامل وظهور الديكتاتوريات الشريرة فى الدول المارقة (مما كان لابد أن يجعل المؤلف يهتم بظاهرة التفاوت بعكس ما قاله حالاً) ولكن العولمة سوف تحمل فى طياتها أيضاً عوامل التخفيف من هذا التفاوت فى الدخول.

ولكن هل هذا صحيح؟ من حقنا أن نشك كثيراً فى هذا، إذ لابد أن يتوقف مصير هذا التفاوت على الشكل الذى تتخذه العولمة، بل أيضاً على نوع السياسات التى تتخذها حكومات الدول الفقيرة إزاء العولمة. فالاستعمار الأوروبى فى القرنين التاسع عشر والعشرين كان أيضاً صورة من صور العولمة، ولكنه أدى كما رأينا إلى زيادة التفاوت بين مستويات الدخول فى الدول الاستعمارية والدول الخاضعة للاستعمار. وحدث شىء مماثل فى معظم مناطق العالم الفقيرة نتيجة لارتفاع معدل العولمة خلال العشرين عاماً الأخيرة. الاستثناء المهم كان جنوب شرقى آسيا، حيث صاحب ارتفاع معدل العولمة فى العشرين سنة الأخيرة انخفاض فى حجم التفاوت بين متوسط الدخل فيها وبينه فى الدول الغنية. ولكن من الصعب الحكم بما إذا كان السبب فى هذا التحسن هو ارتفاع معدل العولمة فى حد ذاته، أو ما صاحبه من سياسات حكومية اتخذت عمداً لتوجيه العولمة فى اتجاه أقل إضراراً بمعدلات النمو. يرجح هذا التفسير الأخير أن ترك الحرية الكاملة لانتقال رءوس الأموال قصيرة الأجل، كما يقضى بذلك منطق العولمة المتحررة من أى قيد، أدى إلى كارثة ١٩٩٧ فى نفس هذه البلاد وما تلاها من تدهور معدلات النمو بدرجة خطيرة.

وربما كان الأهم من هذا التساؤل عما إذا كان ازدياد التفاوت فى الدخول بين الشعوب سوف يهدد أو لا يهدد مستقبل النظام الرأسمالى واستقراره، التساؤل عما إذا كان هذا التفاوت سوف يفرض على هذا النظام تغيرات مهمة. نعم إن النظم الاقتصادية والاجتماعية تسقط أحياناً وتحل محلها نظم أخرى، ولكن الأكثر حدوثاً أن تطرأ بالتدريج تغيرات مهمة على النظم القائمة، بحيث يصبح من الصعب مع مرور الوقت اعتبارها مجرد امتداد لما كانت عليه، حتى لو استمر إطلاق نفس الأسماء القديمة عليها. الذى أقصده بذلك أن زيادة حدة التفاوت فى الدخول ومستويات المعيشة بين الشعوب قد لا تطيح بالنظام الرأسمالى وتأتى بغيره، ولكنها قد تطيح فقط بالنظام الرأسمالى فى الصورة التى نراها الآن.

لتوضيح هذا دعنا نبدأ بشىء حدث بالفعل وهو العولمة. فالعولمة، أو على الأقل ارتفاع معدلها فى العقود الأخيرة، تمثل تغيراً مهماً طرأ على الرأسمالية فجعلها تتجاوز حدودها بصور ودرجة لم نر مثلها من قبل، مما أحدث آثاراً بعيدة المدى فى الاقتصاد والسياسة والثقافة.. إلخ، قد يعتبرها البعض أبعد غوراً وأشد أهمية من حلول النظام الاشتراكى فى بعض البلاد محل الرأسمالية. ولكن ألم يكن من بين العوامل المؤدية إلى تسارع معدل العولمة ذلك التفاوت الكبير بين مستويات الأجور (ومن ثم مستويات المعيشة) بين مناطق العالم المختلفة، الأمر الذى أدى ببعض الشركات العملاقة إلى أن تغلق أبواب مصانعها فى مكان لتفتحها فى مكان آخر من العالم، وإلى هروب رءوس الأموال من دولة لاستثمارها فى أخرى، وإلى زيادة الميل إلى الهجرة من البلاد الفقيرة إلى الغنية وحلول العمال الآتية من آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية، أكثر فأكثر، محل العمال الوطنيين فى داخل البلاد الغنية؟ هذا التفاوت بين الدخول بين الدول الغنية والفقيرة لم يسقط النظام الرأسمالى، هذا صحيح، ولكن ألم يحدث من الآثار ما يكاد يعادل الآثار الناتجة عن حلول نظام محل آخر؟

ثم ألا يجب أن نتوقع أن تكون الآثار الناجمة عن ازدياد هذا التفاوت خلال القرن الواحد والعشرين أهم وأكبر مما رأيناه بالفعل من آثار؟ كيف ستستجيب الدول الغنية فى أوروبا وأمريكا مثلاً لهذا الميل المتزايد، عن شعوب العالم الفقيرة، إلى الهجرة إليها لتحسين مستويات معيشتها؟ هل ستحكم إغلاق الأبواب فى وجوه هذه الأعداد الغفيرة من طالبى الهجرة، أم ستضطر إلى فتح الأبواب أمامهم، خاصة مع التغير السريع فى التركيب العمرى لسكان هذه الدول الغنية، واستمرار الانخفاض فى نسبة القادرين والراغبين فى العمل منهم؟

وما أثر هذا أو ذاك، أى إحكام إغلاق الأبواب أو فتحها، على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الدول الغنية والفقيرة على السواء؟ وإذا كان ما شهدناه منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من شن هجمات جديدة، من جانب زعيمة النظام الرأسمالى وحلفائها، لإعادة فتح بعض البلاد فى العالم الفقير، هو مجرد مقدمة لظاهرة جديدة تشبه الاستعمار القديم وتختلف عنه فى نفس الوقت، فما هى بالضبط هذه الظاهرة الجديدة وما آثارها المحتملة على طبيعة النظام الرأسمالى وعلى العلاقات بين الدول الرأسمالية وبعضها البعض، وعلى العلاقات بينها وبين بقية مناطق العالم؟

لا يهتم الكتاب بإثارة مثل هذه الأسئلة مكتفياً بتطمين القراء بأن زيادة حدة التفاوت بين الدخول ومستويات المعيشة لن تشكل تهديداً للنظام الرأسمالى، أو على حد قوله: «إن التفاوت فى مستويات المعيشة بين الدول لن يؤدى إلى مخاطر واضحة أو حاسمة تهدد العالم فى القرن الحادى والعشرين» (ص٢٧٠). وهو قول لا يختلف كثيراً، فى المبالغة فى التفاوت، عما كان يمكن أن يقوله شخص سعيد جداً بالسيطرة التى كانت تتمتع بها بريطانيا على العالم فى سنة ١٩٠٠، فقال فى تلك السنة يطمئن الناس على مستقبل العالم فى القرن العشرين: «إن ما يحدث من نمو سريع فى ألمانيا واليابان لن يؤدى إلى مخاطر واضحة أو حاسمة تهدد العالم فى القرن العشرين»، ومع ذلك قامت حرب عالمية مدمرة بعد ذلك بأقل من عقدين، ثم قامت حرب أخرى أكثر تدميراً، انتقاماً من الأولى قبل أن ينتصف القرن.

لا يستطيع المؤلف أن يفاخر هنا بأن التفاوت فى مستوى المعيشة بين الدول والشعوب خلال القرن العشرين قد مال بدوره إلى الانخفاض كما حدث للتفاوت فى داخل الدولة الواحدة. فالعكس هو الصحيح، ونمو الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة كان صارخاً ولا يستطيع أحد إنكاره

[٤]

الأكثر غرابة من كل هذا هو ما يذهب إليه المؤلف لتبرير اعتقاده بأن الولايات المتحدة ستظل خلال القرن الواحد والعشرين، أو على الأقل خلال الجزء المنظور من هذا القرن، تحتل موقع الصدارة والزعامة فى العالم. لإقناعنا بذلك يبدأ المؤلف بإثارة الخوف فى نفوسنا من حجم الإنفاق الحربى الأمريكى، فيذكرنا بأن خطة الولايات المتحدة للإنفاق على الدفاع خلال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين هى أكبر عشر مرات على الأقل من المقدر لأى دولة أخرى فى العالم، وأنها تفوق مجموع الإنفاق المخطط للأربع عشرة دولة التالية (أى التالية مباشرة فى حجم إنفاقها للولايات المتحدة) مجتمعة. (ص٣٤).

قد يتساءل البعض، كما تساءل بول كيندى فى كتابه المعروف عن صعود وسقوط الدول العظمى، عما إذا كان لدى الولايات المتحدة من القوة الاقتصادية ما يضمن تغطية هذا الإنفاق الكبير فى المستقبل: أى عما إذا كانت الولايات المتحدة تستطيع أن تتحمل استمرار هذا العبء الكبير فى المستقبل. فيقول المؤلف: إن البعض قد يشير إلى بعض مظاهر الضعف التى طرأت على الاقتصاد الأمريكى، وعلى الأخص فى السنوات الأولى من القرن الجديد، من تكرار حالات الإفلاس بين الشركات، وتوالى الكشف عن حالات التدليس والغش فى بعض الشركات الكبرى، وارتفاع معدل البطالة، وانخفاض أسعار الأسهم أو ميلها إلى الركود، وتدهور مستوى الثقة فيما يتمتع به رجال الأعمال من نزاهة، وتزايد أعباء الديون على كاهل الشركات والمستهلكين على السواء (ص٤٧-٤٨). وقد يشير البعض إلى تدهور المركز النسبى للاقتصاد الأمريكى، من عدة جوانب مهمة، فى الاقتصاد العالمى،

كتـــاب الـزاويــــة

بصـراحــة

صباح الخير أيتها الأوهام

الصورة الساخرة.. والحقيقة الواقعة!

إن الرئيس أيزنهاور، فى بيانه عن الشرق الأوسط، أشبه ما يكون بجندى نشيط، أمسك بندقيته بحزم، ووقف على باب بيت ليمنع اللصوص أن يتسللوا إليه، ولكن ناراً شبت فى البيت، وانتقلت من غرفة إلى غرفة، وبدأت ألسنة اللهب المشتعل تطل من النوافذ تعوى وتصرخ، ولكن الجندى النشيط ببندقيته المتحفزة، ما زال واقفاً فى مكانه على الباب.. متأهباً للصوص!

صورة ساخرة.

ولكنها حقيقة إلى آخر تفصيل فيها.

الرئيس أيزنهاور يريد أن يأتى بقوات عسكرية لتحمى مداخل الشرق الأوسط من أى هجوم روسى مسلح، والنار تندلع فى الشرق الأوسط نفسه فى كل مكان فيه، ولكن الرئيس أيزنهاور مصمم على أن يحرس الأبواب حتى لا تدخل منها قوات حمراء.

إن الجندى النشيط ـ فى الصورة الساخرة ـ سوف يجد نفسه بعد قليل يحمى كومة من الأطلال والرماد، وكذلك سيجد رئيس جمهورية الولايات المتحدة.. سيجد أن الشرق الأوسط أصبح هو الآخر كومة من الأطلال والرماد!

أليست تلك قصة الجندى النشيط ببندقيته على باب البيت المحترق.. يريد أن يحميه من اللصوص؟!

إن الذى كان يجب أن يعرفه الرئيس أيزنهاور هو أن هناك فى قلب الشرق الأوسط.. فى هذه الدقيقة مصدرين للخطر:

المصدر الأول: صراع الحياة والموت بين العرب وإسرائيل.

والمصدر الثانى: صراع الحياة والموت بين الاستقلال والاستعمار.

الأهرام ١٦/١/١٩٥٧

إذ كان متوسط الدخل فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٥٠ ضعف متوسط الدخل فى أوروبا الغربية وخمس مرات قدره فى اليابان، فأصبح الآن يزيد على أوروبا الغربية بنسبة ٢٠٪ فقط وعلى اليابان بنسبة لا تتجاوز ١٠٪ (ص٤٩).

وقد يشير البعض أيضاً إلى سابقة تاريخية مخيفة عندما أدى الإنفاق العسكرى الأمريكى الكبير على حرب فيتنام إلى ارتفاع معدل التضخم وتدهور معدلات الاستثمار وانخفاض معدلات النمو (ص٥٤).

كل هذا صحيح، ولكن المؤلف لديه إجابة واحدة عن كل هذا، المفروض أن يكون لها مفعول السحر، وأن تقضى على كل التوجسات والانتقادات، وهى تلك الميزة الكبرى التى يتمتع بها الاقتصاد الأمريكى والكفيلة باستمرار تفوقه على كل ماعداه، وهى ميزة «عدم التدخل» أى تحرر الاقتصاد من ربقة التدخل الحكومى الكبير والمستمر، وهى ميزة كفيلة بتمتع الاقتصاد الأمريكى بتلك القدرة المدهشة على التجديد والابتكار واقتناص أى فرص جديدة تنشأ للنمو وزيادة الثروة (ص٥٠ ـ ٥١).

هذا الكلام لابد أن يبدو مدهشاً حقاً لكل من يعرف مدى ارتفاع درجة التدخل الحكومى فى الاقتصاد الأمريكى، كلما احتاجت مصالح رجال الأعمال الكبار إلى مثل هذا التدخل، سواء تعلق الأمر بتقديم الدعم للسلع الزراعية، أو لشركات أمريكية تهددها منافسة جادة من قوى اقتصادية أخرى، أو بالتمويل الحكومى الكبير لمشروعات التوسع فى الصناعات الجديدة وبحوثها، أو بوضع الجيش الأمريكى فى خدمة هذه المصالح لإخضاع بعض الدول المارقة، أو لتسهيل مدّ أنابيب البترول بين دولة وأخرى لخدمة نفس المصالح.. إلخ.

صحيح أن المواطنين الأمريكيين العاديين قد لا يستفيدون كثيراً من كل هذا التدخل الحكومى، بل وقد يضارون منه، ولكن النظام الأمريكى له فى نظر المؤلف ميزة أخرى كبيرة تميّزه عما عداه، وهو درجة اللامبالاة التى يتميز بها هذا النظام إزاء ما قد يولده من آثار اجتماعية سلبية، أو طبقاً لتعبير المؤلف «إن السمة المدهشة المهمة للولايات المتحدة هى الافتقار النسبى لأى اهتمام (Relative lack of concern) بتلك السلبيات المترتبة على ما يسميه المعارضون برأسمالية السوق غير الموجهة، وما يسميه الأنصار بكلمة واحدة هى «الرأسمالية»(ص٥٠). أى قلة الاهتمام بما قد يعانيه الناس العاديون، من حين لآخر من أعباء الأزمات الاقتصادية، حين تتزايد حالات الإفلاس وإغلاق المصانع وارتفاع معدلات البطالة.. إلخ.. فإذا سأل البعض: وهل تضمن أن يستمر تحمل الأمريكين لهذه السلبيات؟ فإن الإجابة هى «إنه حتى الآن على الأقل لا يبدى الأمريكيون أى شواهد تدل على رفضهم لها.. وإذا كان افتقاد أمريكا لنظم (الحماية الاجتماعية) شيئاً فظيعاً حقاً، فلماذا إذن نرى هذه الأعداد الكبيرة من الناس الذين لايزالون يرغبون فى الذهاب للعيش فى أمريكا؟»(ص٥١)

المؤلف إذن لا يميّز بين استمرار رغبة الكثيرين من سكان الدول الفقيرة فى الهجرة إلى أمريكا لتحسين مستوى معيشتهم، وبين استمرار تحمل المواطنين الأمريكيين العاديين لما تفرضه عليهم مصالح الشركات الأمريكية الكبرى من أعباء متزايدة، بما فى ذلك أعباء فرض الهيمنة الأمريكية على مناطق جديدة فى العالم. ألَم تسبب حرب فيتنام متاعب حقيقية للنظام الأمريكى فى الستينيات والسبعينيات رغم استمرار رغبة غير الأمريكيين فى الهجرة إليها؟ أولا يتصور أن تزيد هذه المتاعب بحيث تفرض قيوداً حقيقية على حرية الإدارة الأمريكية فى التصرف، رغم استمرار هذه الرغبة فى الهجرة؟

على أى حال يبدو المؤلف واثقاً كل الثقة من أن هذا لن يحدث، وإذا كان الشعب الأمريكى قد تعتريه أحياناً بعض حالات التذمر فإنه بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ يبدو «على أتم الاستعداد لتحمل الأعباء ودفع الثمن»، وهى ـ على حد تعبير المؤلف ـ أعباء وثمن «تنظيف العالم وإعادة النظام إليه»(ص٥٥). قد تبدو الأحوال فى العالم الآن أكثر صعوبة وأقل استقراراً من ذى قبل، ولكن أحوال العالم «كانت ستصبح أكثر صعوبة وأقل استقراراً فى غياب الزعامة الأمريكية» (ص٦٦).

«لقد عانى العالم بشدة خلال النصف الأول من القرن العشرين بسبب غياب أى قوة عالمية كبيرة تسيطر على العالم وتقوم بقيادته (ص٣٨)، أما الآن فإن العالم يجب أن يعتبر نفسه سعيد الحظ، لأن الولايات المتحدة مستعدة وقادرة فى نفس الوقت على تولى هذه الزعامة.

قد يكون كل هذا أقرب إلى محاولة تملق الولايات المتحدة الأمريكية منه إلى محاولة للتنبؤ بمستقبل العالم، أو مستقبل الرأسمالية، ولكنه على أى حال نموذج جيد لحالة الكتابة السائدة عن أحوال العالم فى مطلع القرن الواحد والعشرين، ومن المؤكد ـ فى رأيى ـ أن هذه الحال، لحسن الحظ، لن تستمر طويلاً. ■


أقل سعر للدقيقة محافظات
فقط من المصرية للاتصالات
توفير يصل الى
٩٠٪
على مكالمات المحافظات
عندما تستخدم خطوط المصرية
للاتصالات لاجراء مكالمات
المحافظات تتمتع بتوفير يصل الى
٩٠٪ عن اى شبكة تليفونية اخرى
سعر الدقيقة
يبدأ من ٨ قروش و يصل الى ٢٠ قرش
حسب المسافة
غير وقت الذروة
وقت الذروة
سعر الدقيقة ٨ قروش ١٠ قروش
غير وقت الذروة
وقت الذروة
سعر الدقيقة ١٦ قرش ٢٠ قرش
اشترك الآن في خاصية النداء الآلي محافظات
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ٢٢٢٢٢٢٢ ٠٨٠٠
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا
BATESEQUITY



"الاجبتومانيا"

والمؤثرات المصرية القديمة في الفنون الغربية

محمد المهدي

قد لا يعلم الكثيرون أثر الفن المصرى على مدارس الفن الحديث المدونة فى القرن التاسع عشر وهو ما تهدف هذه الدراسة إلى تبيانه. وذلك من خلال ثلاثة محاور هى:

أولا: تواصل حلقات التاريخ الفنى المصرى من فرعونية، إلى هيلينستيه بطلمية قبطية، إلى عربية إسلامية، واشتراك هذه المراحل فى رؤية فنية واحدة لا تهتم بموضوع البعد الثالث أو الظل، أو الواقعية التى تسعى إلى تقليد مرئيات الطبيعة كما تراها العين بصورة مباشرة، بل تهتم فى مرحلة أولى بإعطاء رموز لهذه المرئيات، أو خطوط مجردة سواء فى العمارة، أو رسم الاشخاص، أو رسم الكائنات الأخرى.


وتهتم فى مرحلة ثانية بالتجريد الكامل من خلال رسم وحدات زخرفية تجريدية هندسية، أو نباتية تحمل نفس المواصفات على أدوات الاستخدام اليومى، أو عمارة المدينة، وصولاً إلى تكوينات هدفها (دون إعلان ذلك) إشعار المتلقى بالجمال يحيط به من ست جهات هى:

الجدران الأربعة، والأرضية والسقف. وهو ما أطلق عليه مصطلح (فن الإحاطة).

ثانياً: اكتشاف الغرب لهذه الرؤية الفنية فى الفن المصرى تركز فى القرن التاسع عشر. فاتصال الغرب بمصر والمؤثرات الفنية، أو التاريخية المتبادلة خلال مراحل التاريخ السابقة كانت قد انقطعت بحكم سيطرة الدول العثمانية عليها وفرضها العزلة الحضارية على نفسها وعلى الشعوب التى سيطرت عليها منذ عام ١٥١٦م. ثم بدأت بشائر العودة للتعرف على مصر عن قرب قبل الحملة الفرنسية فى محاولات غير مباشرة، إلى أن كانت الحملة عام ١٧٩٨، وكان الاتصال المباشر واكتشاف ليس تاريخ مصر فقط ولكن فنونها من فرعونية، إلى هيلينستيه بطلمية قبطية، إلى عربية إسلامية ووضع علماء الحملة سفرهم الكبير (وصف مصر) Description De l'Egypte. ليضم نماذج من هذه الفنون.

ثم تواصل التعرف على هذه المراحل بشكل شبه متتابع طوال القرن التاسع عشر فشمبليون Champolion حل رموز اللغة المصرية القديمة فى عام ١٨٢٢، وجرى الاهتمام بالدراسات العربية الإسلامية تاريخية كانت أو فنية والتى لعبت فيها مصر دوراً أساسياً فى أواخر القرن التاسع عشر.

ثالثاً: هذا الاكتشاف المتتابع من الناحية التاريخية والفنية لمصر، أى من الفنون الفرعونية الرمزية شبه



«السوق فى تاهيتى» لوحة بول جوجان ١٨٩٢.. تأثير الفن المصرى القديم الواضح

التجريدية، إلى الفنون العربية التجريدية الخالصة. واكب تتابع المدارس الفنية الغربية من الكلاسيكية التى كانت تسعى بشكل واضح إلى فن يحاكى الواقع أو يتمثل به، ويلتزم بقواعد المنظور أى الأبعاد الثلاثة، إلى المدرسة الرومانسية التى اعتمدت أيضاً على مرجعية المرئيات بطريقتها الخاصة. وتأكدت نظرة الالتزام بالواقع فى المدرسة الواقعية، واستمرت إلى حد ما فى المدرسة التأثيرية مع مؤشرات جديدة، إلى أن بدأ إغفال البعد الثالث مع رواد الفن الحديث، سيزان، وجوجان، وفان جوخ. ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت مدارس الفن الحديث قد أقرت التجريد الكامل الذى اعترف بمكانته فى بداية القرن العشرين. ثم كانت مرحلة إعادة الاعتبار للعمارة كفن متفرد بما أعطى فرصة إعادة قراءة العمارة المصرية فى المراحل الثلاث.

هذه المواكبة أى اكتشاف أوروبا لفنون مصر بمراحلها الثلاث، مع تدرج مدارس الفن الحديث من التقليد للواقع، إلى التجريد الخالص، كان من أسبابها الأساسية التأثر بالفن المصرى الفرعونى، ثم الهيلينستى البطلمى القبطى، ثم العربى الإسلامى. وهذا ما نتبينه عند تتبع هذه الحلقات القديمة من تاريخ مصر، وأثرها على مدارس الفن الغربية خلال القرن التاسع عشر.

جرت محاولات لتبين ارتباط حلقات مصر من الناحية التاريخية لعل أبرزها كتاب الدكتور حسين فوزى وعنوانه (سندباد مصرى)، وبرغم مكانة المؤلف الكبيرة إلا أنه لا يعد دراسة أكاديمية بقدر ما هو محاولة لإثبات اتصال حلقات التاريخ المصرى من خلال انتقاء لبعض أحداث التاريخ من الفرعونى، أو البطلمى أو القبطى، أو العربى الإسلامى. وجرت دراسة الشخصية المصرية من خلال هذه الحلقات منها على سبيل المثال كتاب (شخصية مصر) للراحل الكبير د. جمال حمدان وركز بحكم تخصصه فى علم الجغرافيا على الدور الأساسى لموقع مصر جغرافياً داخلياً وخارجياً. كما جرت محاولة ثالثة حملت نفس الاسم، فكتبت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد كتابها (شخصية مصر) وتحكمت فيه الروح الأدبية والاهتمام بالعوامل الروحية فجاء انطباعياً أكثر منه دراسة أكاديمية.

وهناك أيضاً كتاب الدكتور ميلاد حنا وعنوانه (الأعمدة السبعة للشخصية المصرية) وهو أيضاً لقطات سريعة من التاريخ المصرى تحاول أن تثبت وحدة العقائد داخل مصر من أيام الفراعنة، إلى أيام العرب.

هذه الكتب مع اختلاف اهتماماتها بالجوانب التاريخية، أو الجغرافية، أو الأدبية، أو العقائدية، إلا أنها لم تلمس موضوع تواصل الحلقات الفنية المصرية إلا من بعيد.

وقد عنى كتاب (محيط الفنون... الفنون التشكيلية) الذى صدر عن دار المعارف بمصر عام ١٩٧٠ بأن يتولى عدد من المتخصصين فى مراحل التاريخ المصرى دراسة كل مرحلة على حدة، إلا أن عنايتهم جاءت دون نسق واحد، أى أنها عبرت عن عدة وجهات نظر فى تناول فنون كل مرحلة من العصر الفرعونى، إلى العربى. كما أنها عنيت بتقديم مادة الفن لكل مرحلة دون الاهتمام بتقييمها من الناحية التشكيلية، أو الجمالية الخاصة، ففى المرحلة الفرعونية، تم استعراض التماثيل، أو المعابد، أو الرسوم التى أنتجتها كل مرحلة دون إدراك أو انتباه لأهمية تطور خطوطها الرمزية وسبب إغفالها البعد الثالث.

واهتم كتاب (الفن والمجتمع عبر التاريخ) لأرنولد هاوزر Arnold Hauser بإثبات أهمية الدور الاجتماعى فى مرحلة (أخناتون)، دون الانتباه إلى أن مرحلة (أخناتون) اختلفت فقط فى العقيدة، أما من الناحية الفنية فمقدمات تغيير الشكل كان قد سبق عصر (أخناتون). كما أن هذا التغيير لم يخرج. عند تأمله. عن النسق العام الذى ساد الفن الفرعونى، كما أغفل تحليل دور الرسم الجانبى Profile فى تأكيد الرمزية أو الاهتمام بالتعبير التجريدى، وكذلك دلالة الاختيارات اللونية من الأحمر أو الأصفر، وكذلك كيفية تبين الجانب التجريدى فى المعابد المصرية من عصر الدولة الحديثة.

وفى المرحلة الهيلينستية لم يتم فى كثير من الدراسات عقد مقارنة بين فلسفة الفن المصرى الفرعونى، والفن اليونانى حتى يمكن تبين دور الفن الفرعونى وما استمر منه فى مراحل الفن بعد ذلك، أو توضيح دلالة ما بقى من خطوط تجريدية فى التكوينات الزخرفية النباتية، أو الهندسية.

أما المرحلة العربية الإسلامية فقد اعتبرتها غالبية الدراسات الفنية منفصلة بشخصية خاصة.

وبمنطق التواشج الزمنى مع التداخل الفنى أراها امتدادا للمراحل السابقة، وربما كان السبب فى الابتعاد عن إثبات الاتصال بينها وبين السابق عليها، التخوف من القول بتأثير الوثنية على الإسلام.

علاقة مصر بالغرب

وفى مجال عودة اللقاء بين الشرق والغرب من خلال مصر فى القرن التاسع عشر، جاء كتاب الموسوعى الكبير الدكتور ثروت عكاشة وعنوانه (مصر من عيون الغرباء) ليقدم عدداً من الأدباء والفنانين أو الرحالة الذين زاروا مصر. أو على حد قوله (فليس كتابى هذا غير باقة اجتمعت زهراتها من حدائق الأدب، والفن المختلفة. قطفت أوراقها على هواى). قصد الدكتور عكاشة إذن القراءة الأدبية لا التتابع التاريخى، وبالتالى كان من الطبيعى وهو المهم فى موضوعنا أن يخلو من التقييم لموقف هؤلاء الزوار من الفن المصرى فى مراحله المختلفة،كما تناوله معمقاً فى موسوعته الرائعة (العين تسمع والأذن ترى).

إن تداخل مراحل الفن المصرى من الفرعونية إلى العربية جاء نتيجة لتطوير فكرة التجريد فى الفن من رمزية فرعونية تستبعد البعد الثالث إلى تجريدية عربية خالصة.. وهذا التطور فى الفن المصرى هو الذى أحدث أثره المهم على مدارس الفن الغربية الحديثة

وقد سبق كتاب د. عكاشة كتاب جان مارى كاريه وعنوانه (رحالة وكتاب فرنسيون فى مصر) ويعطى مساحة زمنية أكبر من مساحة كتاب الدكتور عكاشة، إلا أنه يخلو أيضاً من عرض الآراء حول الفن المصرى.

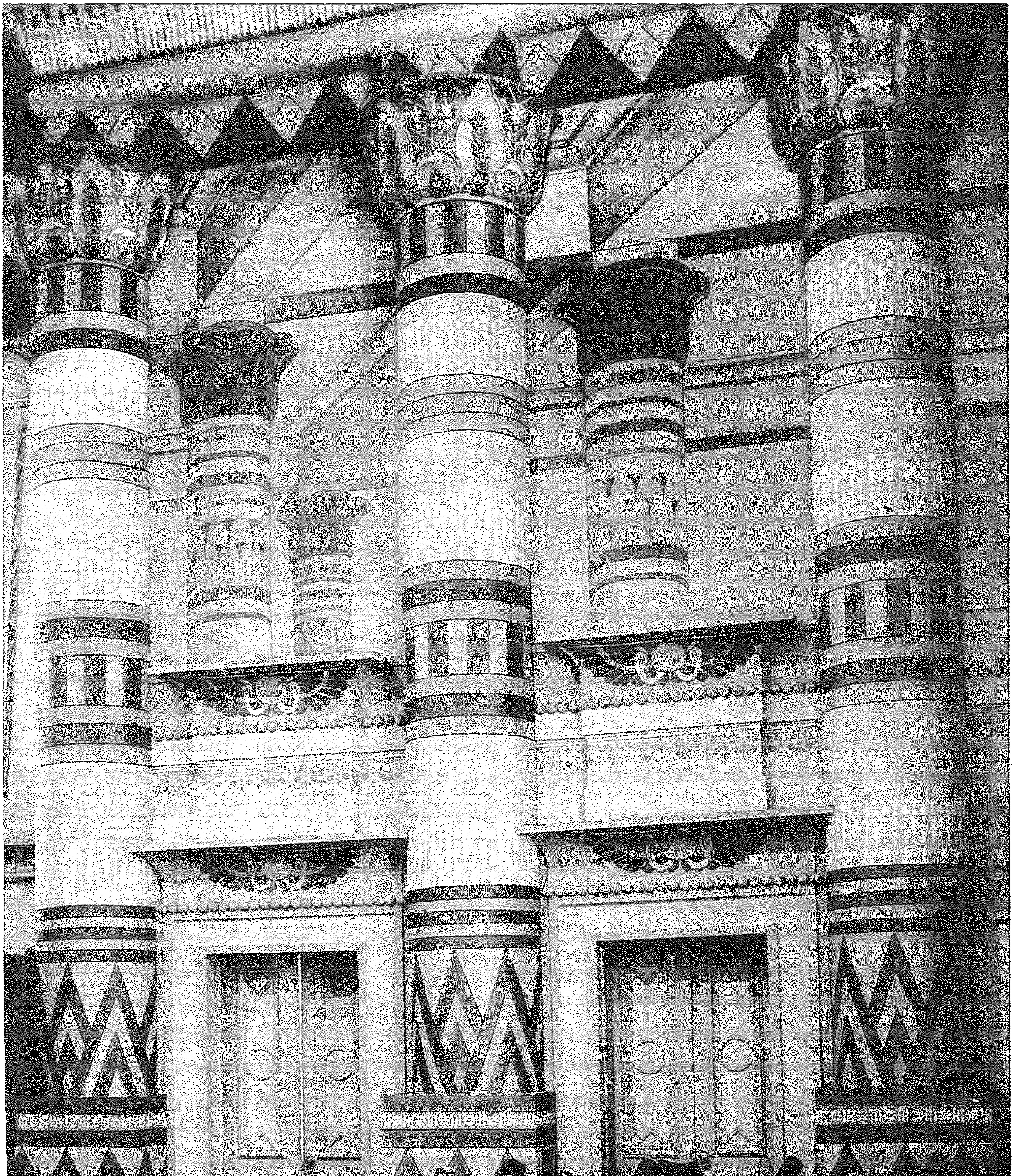
وفى مجال مناقشة دور الفنان الفرنسى (ديلاكروا) لم يوضح كتاب (الفن والاستشراق) للدكتور عفيف بهنسى أن الشرق العربى كان بالنسبة لديلاكروا مجرد أداه من أدوات التعبير عن ذاته الرومانسية، وأرى أن خطوة (ديلاكروا) لقراءة الضوء والطبيعة ووصوله لفكرة الخلق الخاص بالفنان مستقلاً عن المرئيات المباشرة، كانت من نتاج احتكاكه بالشرق العربى، وهى خطوة اقتراب غير مقصودة من مفهوم الفن المصرى فى مراحله الثلاث، ومهدت فى تاريخ الفن الغربى للوصول إلى مدارس الفن الحديث فى الزمن البعيد، كما واكبت فكرة أو موجة الرحلة إلى مصر للاستلهام من عالم الاكزوتيك Exotique فترة كانت مصر بدورها فى عهد محمد على تبحث عن الغرب فى سبيل النهضة وأنتج هذه اللقاء ما يعرف بالاستشراق الفنى.

وتناول كتاب الكاتبة (لين تورنتون) وعنوانه (المستشرقون الرسامون الرحالة) جانباً من علاقة الغرب بالشرق. أوردت فيه المؤلفه عدداً ممن زاروا الشرق العربى وخاصة مصر خلال القرن التاسع عشر (١٨٢٨ /١٩٠٨) إلا أنها: أولاً: اقتصرت فى عرضها على الجانب السردى أى رحلات كل فنان فى عدة مناطق، ولم تتناول انتاجهم الفنى بالنقد التشكيلى الذى يكشف عن مدى تأثر هؤلاء الفنانين الرحالة بفنون مصر.

وثانياً: لم تقدم نقداً لظاهرة الاستشراق الفنى التى سادت خلال القرن التاسع عشر.

وقدمت الكاتبة (رنا قبانى) فى كتابها (أساطير أوروبا فى الشرق) نقداً لظاهرة الاستشراق الفنى ولكن من جانب سياسى اجتماعى، أى انتقاد ما ورد فى لوحات بعض الفنانين مما يسىء إلى الشرق العربى، كإبراز عالم الحريم، والعرى، والشذوذ الجنسى، والرقيق، وسطوة الرجل الشرقى وعنفه. وغاب عن الكاتبة ضرورة النظر للاستشراق الفنى من خلال ما عاصر سواء فى الغرب، أو الشرق العربى، أى التعالى فى الجانب الغربى، والتخلف فى الجانب العربى. بالإضافة إلى أن الاستشراق الفنى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان ابن زمانه من الناحية الفنية فقد خرج بشكل عام من المدرسة الرومانسية، بما حوت من

كنيسة «عمارة فرعونية» فى ناشفيل «ولاية تينسى الأمريكية» بنيت ١٨٤٩ وكان آخر ترميم لها ١٩٦٩



مبالغة أو بحث عن المثير، وكانت مجموعة الفنانين المستشرقين على صلة وثيقة بكافة الأدباء، والفنانين رواد الرومانسية الغربية، بل أن بعضهم ممن لم يذهب إلى الشرق كان يكتب بهذه المبالغة أو في حدود ما انتهجوه. بمعنى أنهم كانوا يقدمون أنفسهم ومذهبهم على حساب الحقيقة بشكل عام. وهذا ما حصر إنتاج مجموعة الفنانين المستشرقين الذين تأثروا بمصر في حدود الشكل الخارجي دون المضمون.

ومن أحدث الدراسات كتاب (الولع بمصر في الفن الغربي) لمؤلفه جان مارسيل هامبير في استعراضه لظاهرة التمثل بالفن الفرعوني فيما يعرف بـ Egyptomanie منذ القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، التمثل بالفرعونية في العمارة، والديكور، والنحت، والأيقونات، والأثاث، وأدوات الزينة، والفنون الحديثة من سينما وتليفزيون.

وفي هذا السياق لا يجب أن تدغدغ عواطفنا كثيراً هذه الظاهرة، إنها كانت مجرد تقليد للفنون الفرعونية بصورة شبه تسجيلية، أي محاولة إحياء ما ذهب زمانه شكلاً دون محاولة فهم المضمون، أو الرؤية التشكيلية الخاصة كما أن محاولة إرجاع الزمن للفنون في الجانب الشكلي فقط سواء الفرعونية أو غيرها، يؤدي إلى قصور تبين تأثير هذه المرحلة، على المراحل اللاحقة لها، وبالتالي تطويرها. وهو ما يعطي فرصة تبين أن تداخل مراحل الفن المصري من الفرعونية، إلى العربية جاء نتيجة لتطوير فكرة التجريد في الفن، من رمزية فرعونية تستبعد البعد الثالث أو التمثل بالواقع، إلى تجريدية عربية خالصة تعتني بقدرة الخطوط والألوان على إثارة المعنى الذي يسعى إليه الفنان، وأن هذا التطور في الفن المصري هو الذي أحدث أثره الهام على مدارس الفن الغربية الحديثة.

ورغم مكانة دراسات (هربرت ريد) الخاصة بمدارس الفن الحديث خاصة كتابيه (معنى الفن) و (الفن اليوم) إلا أنهما لم يخصصا فصولاً تتعلق بأثر الفن المصري بصورة مباشرة على هذه المدارس، واقتصر حديثها على أثر الروح الشرقية على هذه المدارس بشكل عام.

ولعل من النقاط الجديرة بالبحث مستقبلاً موضوع أعمال الفنان التعبيري (كيس فان دونجن) وأثر الفني المصري المباشر عليها، وقد ألمح لأعماله كتاب (الفن والاستشراق). وكذلك اقتصر حديث كتاب (هنري ماتيس) لمؤلفه مؤرخ الفن الكبير رينيه ويج عن هذا الفنان، على أثر فن الأرابيسك على أعماله دون إعطاء أمثلة مقارنة. ومن المهم بحث نماذج محددة لأثر الأعمال الفنية العربية الفاطمية المصرية على لوحات (ماتيس) مع العودة لأقوال (ماتيس) من طموحه إلى خلق فن من رؤيته الخاصة وبمقاييسه على طريقة الفن المصري. وكذلك تأثر الفنان (بيكاسو) بالمخطوطات العربية في بعض أعماله خاصة لوحتي (الصداقة) و (آنسات أفينيون)، أو تأثره بالفن الفرعوني في لوحة (السوق) ورسم البروفيل أي الوجه الجانبي في لوحة (جاكلين الورود) Jacqueline aux Fleurs.

وقد درس كتاب (كلية في تونس) Klee en Tunisie لمؤلفه (جان ديفنوود) أثر رحلة تونس على الفنان السويسري (بول كلية)، ويبقى أن يدرس أثر رحلته أيضاً إلى مصر، وتتبع هذا الأثر في لوحات يظهر فيها الحرف العربي، والحرف الفرعوني.

وتحتاج أيضاً المدرسة التعبيرية ودعوتها للفن الشامل إلى دراسة مستقلة من ناحية صلتها بالفنون الشرقية العربية، وصلتها بالعمارة القليلة الزخارف، أو التجريدية الطابع كالمملوكية المصرية، بهدف إحاطة الزائر لها بحالة وجدانية شاملة من ناحية أخرى.

وهنا تجدر الإشارة لنقطة التقاء هامة بين مدارس الفن الحديث وعلى رأسها التجريدية، وبين الفن التجريدي المصري القديم، التقاء حول الطموح للوصول بالإنسان إلى الحالة الوجدانية المجردة كالموسيقى، أي الوصول إلى لغة عالمية تلغي الفواصل الإقليمية، والنزاعات القومية العنصرية.

حلقات التاريخ المصري

تبين الخيط الخفي الواصل لحلقات التاريخ المصري يقتضي دراسة مراحل ثلاث:

أولاً: الفرعونية:

قسم مانيتون Manethon التاريخ المصري إلى عصور هي: الدولة القديمة، والدولة الوسطى، والدولة الحديثة، وعهد الأسرة السادسة والعشرين، وعهد الفوضى. ويتراوح هذا التاريخ من عام ٣١٠٠ ق.م إلى ٣٣٢ ق.م ونكتشف المنظور المصري عندما نتأمل نماذج الإنتاج الفني في الدولة القديمة كتمثال أبو الهول أو تمثال خفرع Chephren، أو تمثال رع حتب Rahotep وزوجته نفرت Nefert أو تمثال شيخ البلد Cheikh el Beled وفي الدولة الوسطى أعمال ما يعرف بالفنون الصغيرة، وفي الدولة الحديثة مرحلة أخناتون Akhenaton التي لم تخرج أيضاً عن المنظور المصري القديم، ثم مرحلة إقامة المعابد الضخمة في عهد الرمامسة Ramesside.

تتميز الرؤية الفنية الفرعونية بالقوة والتماسك، فالنحت، والرسم الفرعوني لا يهتمان بالظل وكأن الأعمال الفنية قد أنجزت جميعاً في الساعة الثانية عشرة ظهراً حيث يختفي الظل، وبالتالي يختفي البعد الثالث، أو التجسيم، أو التمثل بالواقع كما تراه العين، وبالتالي يصبح العمل الفني أو وجهة نظر الفنان هما الأساس بعيداً عن قواعد الفيزياء. وكانت هذه الرمزية بذرة الاتجاه إلى التجريد الفني الذي اتفق مع العقيدة المصرية الفرعونية التي آمنت بخلود الانسان أي اتصال حياته الدنيوية، مع ما تصوره لعالمه الآخر.

وقد تعرض هذا الأسلوب الفرعوني للإهمال أو النقد من قبل المدرسة الكلاسيكية، أو المدارس الغربية الملتزمة بالقاعدة الذهبية Sectiond'or اعتقاداً منها أن إهمال الفنان الفرعوني للبعد الثالث قد جاء عن ضعف في قدراته الفنية. إلى أن تطورت دراسة علم الفرعونيات وكشفت عن مراحل جديدة أنتجت فناً واقعياً بما يدل على عدم عجز الفنان الفرعوني، ولكن تبين الباحثون أيضاً أنها مرحلة عابرة لم تؤثر على النسق العام في مرحلة الفن الفرعوني. هذا النسق هو الرغبة في التعبير بأسلوب رمزي او تجريدي لا يلتزم بقوانين المرئيات.

ثانياً: الهيلينستية البطلمية القبطية:

تحقق فيها لقاء فنون حضارات البحر الأبيض. فنون التجريد في مصر، وفنون الواقعية المثالية اليونانية.

لقد تأثر الفن اليوناني بالفن المصري في فترة قوة الأخير، وفي المرحلة الهيلينستية تأثر الفن السكندري بالفن اليوناني وعلى الاخص في القرن الرابع قبل الميلاد. وبرغم ذلك ظهر للفن السكندري شخصيته في كثير من النواحي وكانت له صفاته الخاصة به، أو ما يطلق عليه مصطلح Sfumato أي التفاعل بين الظل والضوء، ويقصد به عدم تحديد ملامح الوجه بدقة فيكفي أنه مستدير لا تظهر به العظام إطلاقاً، ولا توجد به زوايا حادة، هذا مع عدم الاهتمام بالأجزاء القليلة الأهمية كالشعر.

وسيلعب عنصر عدم تحديد الملامح بدقة والذي نشأ من تزاوج الفن المصري الفرعوني بالفن اليوناني دوراً أساسياً في فن المرحلة القادمة، أي القبطية (كلفة) والتي ستتفق مع طبيعة الواقع الجديد الذي أضيف بعد ذلك على حركة التاريخ، وهو العقيدة المسيحية، وبالتالي حركة الفنان ليكون سعيه الدائم هو قراءة الباطن، فلم يكن الظاهر لكيفية تعبيراً عن الشخصية أو المشاعر.

ولما كانت اللغة طريقة تفكير، وليست وسيلة تفاهم فقط، لذلك كان سبق اللغة القبطية على العقيدة المسيحية في مصر يعني استمرار الشخصية الفنية الفرعونية، لذلك مصر

(من التمصير) الفنان القبطي المسيحي كثيراً من موضوعاته كرسم مفتاح الحياة الفرعوني وبداخله الصليب. كما استمرت تقاليد العمارة الفرعونية في الكنائس القبطية، واستمرت عادة وضع الصور الملونة على وجوه المومياء كعادة الفراعنة، أو رسم الزخارف النباتية، والأشكال الهندسية مع تغليب العنصر التجريدي سواء في طريقة معالجة الوجوه، أو الأجسام، أو توزيع الشخصيات بغير الالتزام بالمنظور، والألوان بغير تقليد للواقع، مع ميل إلى التكوينات الزخرفية والهندسية، أو النباتية والتي ستستمر لتنمو بشكل واضح في المرحلة العربية الإسلامية من تاريخ مصر.

ثالثاً: المرحلة العربية الإسلامية:

الملاحظ انه بينما كانت الدولة البيزنطية في القرن الثامن الميلادي مشغولة بقضية تحريم الصور Iconoclasme لم تنشغل مصر في مطلع الحكم العربي بهذه القضية. كما أنها لم تتبن أيضاً إدراج الصور في فنونها كما



الفنان الفرنسى ماتيس فى مرسمه يحيط جدرانه بزخارفه «الإسلامية»

حدث فى الشام بشكل واضح فى العصر الأموى، وذلك إلى جوار انشغال مصر الدائم برسم الزخارف النباتية أو الهندسية.

ومع ذلك لا نستطيع خلال هذه المرحلة من تاريخ مصر أن نتحدث عن تبلور شخصية أو أسلوب فنى متميز وذلك للاختلافات المذهبية الإسلامية والاضطرابات السياسية التى استمرت ما يزيد على ٣٠٠ سنة. إلى أن كان اللقاء فى العصر الفاطمى (القرن العاشر الميلادى) بين اللغة المصرية القديمة والعربية عبر اللغة القبطية.

استمر الفن القبطى بما يحمل من ملامح فرعونية وهيلينستية، وبالتالى استمر تصوير الأشخاص من خلال الأيقونات القبطية، وقد ساعد استخدام اللغة العربية فى مصر على التفاهم بين القبطى والمسلم، وساعد استخدام الحرف العربى كتشكيل على الالتقاء حول المفهوم التجريدى فى التعبير الفنى، فتم الجمع بين التعبير بالصور الآدمية، وصور الطيور والحيوانات بمحفل رمزى، وبين التكوينات التجريدية فى وحدات نباتية هندسية، وبالتالى تم تجاوز مرحلة الركود الفنى.

تميزت العمارة المملوكية فى العصر المملوكى (١٢٥٠ م إلى ١٥١٦ م) أو ما يسمى العصر الذهبى فى العمارة العربية الإسلامية فى مصر. ونجد فى هذه المرحلة أن الحرف العربى هو العنصر الجديد الذى أضيف إلى عناصر الفن المصرى التى كانت قبل دخول العرب. ولأنه استند على مراحل سابقة بنائية تجريدية الطابع سواء فى الرسم، أو الزخارف أو العمارة، لذلك حرص الفنان أيضاً على معمارية الخط سواء بصورة مستقلة، أو مضافاً إلى الفنون التطبيقية، أو العمارة نفسها.

مصر بوابة الشرق

حدثت القطيعة الحضارية بين الشرق والغرب من القرن الخامس عشر الميلادى، إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، بدأت هذه المرحلة بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م، وانتهت بالنسبة لمصر بوصول حملة نابليون إلى الإسكندرية عام ١٧٩٨، وكانت مقدمات الصلة بين الطرفين أدبية بعد ترجمة المستشرق الفرنسى (جالان) Galland لألف ليلة وليلة عام ١٧٠٤ واعتبرها البعض من أهل الغرب هى الشرق بكل ما فيه من غموض، وسحر. واعتبر مصر هى البوابة الطبيعية لهذا الشرق، وهكذا تحدد اللقاء بين الشرق والغرب من جديد من خلال مصر.

بدأ التأثر بالفنون المصرية القديمة بعد إصدار الحملة الفرنسية للكتاب العظيم (وصف مصر) فى ٢٣ مجلداً ضخماً ما بين ١٨٠٩ و ١٨٢٨، وكان على رأس المؤثرات الآثار الفرعونية خاصة بعد كشف (شمبليون) لحروف اللغة الهيروغليفية عام ١٨٢٢، ثم ما انتبه إليه الرحالة من آثار وفنون عربية إسلامية.

فى هذه المرحلة تعرضت الطبقة المتوسطة المصرية المتعلمة تعليماً دينياً لصراع تجاه الحضارة الغربية. صراع بين الإعجاب الخفى بالفنون الغربية، وبين مشاعر دينية متراكمة مغلوطة تنفر من الصور والتصوير وتضعه فى قائمة الكفر، وبالتالى جاءت دهشة المصريين من إعجاب الأوربيين بالرسوم الفرعونية والتى كانت فى نظرهم تعود لعهود الكفر. وينفرد المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى الذى سجل أحداث هذه المرحلة من تاريخ مصر بحس متقدم بالمقارنة مع أقرانه من المتعلمين الأزهريين. فهو لا يكفر الرسم، أو اللوحات حينما يشاهدها.

وفى المقابل لظاهرة التعاطف المتوجس من علماء مصر تجاه الفن كانت ظاهرة الإعجاب بالآثار والفنون الفرعونية تتنامى داخل الغربى الزائر، والتى تحولت من مجرد التسجيل للغريب إلى الاستلهام منه، إلى التعاطف والإعجاب بالمعاصر من عادات وتقاليد بما اتفق مع بحث الرومانسية الغربية النامية عن أجواء غريبة، أو ما عرف آنذاك بالأكزوتيك exotique . ويعتبر الفنان الفرنسى فيفان دينون أول المبشرين بهذا الاتجاه... فقد صحب الحملة الفرنسية على مصر وقام برحلة فى جنوب مصر، ورسم وكتب عنها، واستعان الفنان أنطوان جان جيرو بهذه الرسوم وبكتاب (وصف مصر) ليرسم أوائل اللوحات الاستشراقية.

وفى مرحلة لاحقة بحثت الرومانسية الغربية بشكل عام عن الشرق القريب، فكان من الطبيعى أن يثير خيال عدد من روادها زيارة مصر بوابة الشرق العربى آنذاك، ورغم أن الفنان الفرنسى (ديلاكروا) لم تكن له زيارة لمصر إلا أن الأسس التى صاغها وسار عليها للمدرسة الرومانسية أوجدت صلة مع مبادئ الفن المصرى القديم من حيث بحث (ديلاكروا) عن خلق خاص بالفنان مستقلاً . إلى حد ما . عن المرئيات المباشرة.

وقد ولدت هذه المرحلة ما يعرف بالاستشراق الفنى الذى تبع المدارس الغربية الفنية بشكل عام. فقد بدأ رومانسياً، ثم انتقل إلى الواقعية التسجيلية، ثم كان فى مرحلة من المراحل تأثيرياً مع بعض الاستثناءات. وبين عامى ١٨٢٥ م و ١٨٣٥ تمت الزيارة الأولى والثانية للعالم والفنان الإنجليزى إدوارد وليم لين لمصر. وقد ساهمت كتاباته ورسومه بالتعريف بمصر، كما ساهمت رسوم وكتابات العالم الفرنسى بريس دافين فى الكشف عن القيم الجمالية فى الفنون المصرية من فرعونية، عربية.

وواكب الرومانسية، والاستشراق الفنى ظهور ظاهرة التمصر، أو الولع بمصر



قماش مخمل من تصميم (ج. جوشيه) ١٩٢٦

Egyptomanie مع مطلع القرن التاسع عشر، وكانت تعنى إشاعة النموذج الفرعونى فى مظاهر الحياة المعاصرة آنذاك من عمارة وديكور، وفنون عملية، ونحت، ورسم، ومسرح، وأزياء، وتصميم للميادين العامة، والنافورات، والجدران وغيرها. وشاع على وجه الخصوص تقليد أبوالهول، والأهرامات، والمسلات، والمعابد، والأعمدة، والرسوم الفرعونية.

والملاحظ أن الملكة مارى أنطوانيت لعبت دوراً هاماً فى إشاعة التمصر قبل الثورة الفرنسية، ولكنها استمرت إلى ما بعد الثورة ووصلت إلى فنون القرن العشرين.

والتمصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، هو النظر إلى مصر على أنها من منابع الاستلهام للتشكيل ولكن بأسلوب أوروبى. وقد مهدت الرومانسية الباحثة عن الضوء الشرقى لمرحلة خروج جماعة الباربيزون Barbizon إلى الطبيعة، والتى مهدت بدورها لاهتمام التأثيرية بحوار اللون مع الضوء، وبالتالى استقلال العمل الفنى عن التسجيل المباشر، أى مناقضة ما استقرت عليه المدرسة الواقعية.

يعد النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى أوروبا انقلاباً على النصف الأول من حيث الاتجاهات الأدبية والفنية، ويعد أيضاً انقلاباً فى علاقة الشرق بالغرب. فإذا كانت صلة الكلاسيكية والرومانسية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بالفنون الشرقية بشكل عام، والفنون المصرية بشكل خاص قاصرة، فإن هذه الصلة ستقوى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، أو أنها ستتحول إلى لون آخر من العلاقة أعمق من مجرد استلهام الغرب من الشكل الخارجى للشرق، ستتحول العلاقة إلى قراءة الباطن أو البعد الحضارى، أو الرؤية الخاصة بها.

وبرغم أن المدرسة الواقعية كانت تناقض فكرة استقلالية العمل الفنى عن المرئيات المباشرة، إلا أن ملامح التغيير نلمحها حتى عند اثنين من كبار المدرسة الواقعية، عند (دومييه) aumier و(كوربيه) Courbert حيث نشهد عندهما درجة من التكتيل اللونى، وإن ظلت فكرة النقل عن الطبيعة و محاكاة ظلالها، وألوانها، وتجسيماتها راسخة فى أذهان الفنانين، وبالتالى كانت قيمة التجديد الذى أدخله (مانيه) Manet التأثيرى بابتعاده عن فكرة تكوير الأجسام للإيهام بالبعد الثالث، وكذلك استخدام اللون بتسطيح يعتمد فقط على بعدين هما الطول والعرض، هيأ ذلك للاقتراب من الفنون غير الأوروبية. وكان نصيب فنون مصر من ذلك التطور هو البحث فيها من ناحية الشكل عن منابع الضوء، والبحث فيها من ناحية المضمون عن معنى الخروج من التبعية للمرئيات المباشرة كما فى فنون مصر الفرعونية.

بائعات الماء والبرتقال بالقاهرة
فليكس كلمنت.. ايحاء بحركة المرأة
فى الرسوم المصرية القديمة



وقد أخرجت التأثيرية مجموعة فنية عرفت بالنابية Nabisme ارتبطت بالفلسفة الشرقية، وبحثت مجموعة منها زارت مصر عن منابع الفنون المصرية الفرعونية، أو العربية، وكان من المجموعة التأثيرية التى زارت مصر فيكتور هيجو (غير الكاتب الذى يحمل نفس الاسم) Victor Huguet و(ملفيل) Melville و(كيلى) Kelly ولمبلوج Lamplough. ومن المجموعة (النابية) التى زارت مصر إميل برنارد Emile Bernarde و(موريس دينيه) Maurice Denis.

واستمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الاستشراق الفنى، وكان من أهم أقطابه الذين زاروا مصر (جيروم) Gerome، وفرمنتان Fromentin الفرنسيان و(مولر) Muller و(دويتش) Deutsh النمساويان.

كما استمرت ظاهرة (التمصر) التى اقتصرت على الاعتماد على الفنون الفرعونية، وساعدها على الانتشار احتفالات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م.

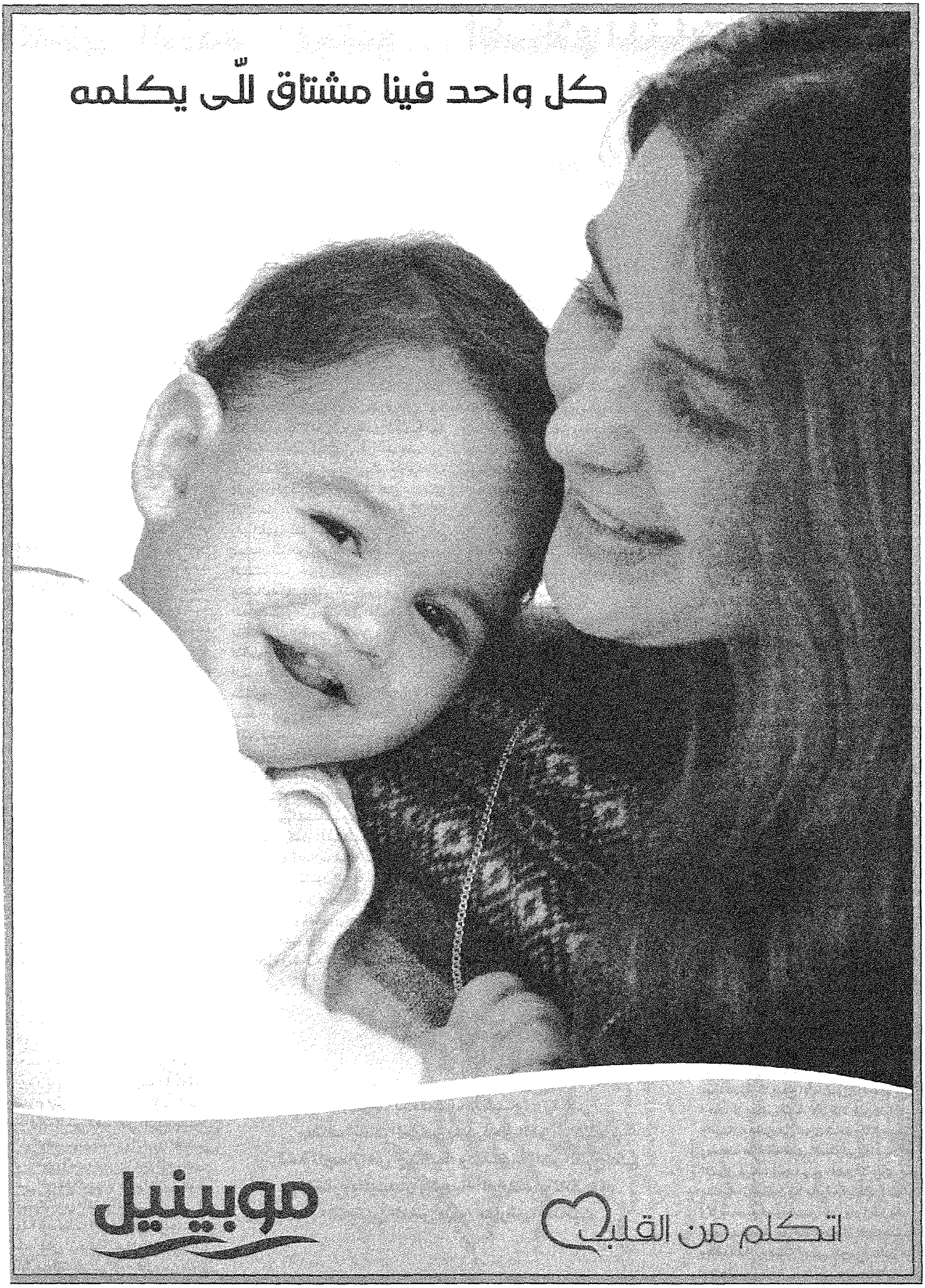
وبعد المدرسة التعبيرية التى تلت التأثيرية اكتمل اللقاء بين الفن المصرى ومدارس الفن الحديث الاوروبية، حول الفن التجريدى، فقد اعتمدت هذه المدارس أسلوب إغفال البعد الثالث اكتفاء بالبعدين الطول والعرض لتأكيد استقلالية اللوحة عن مقاييس المرئيات المباشرة.

وبرغم اقتراب الفن الأوروبى فى هذه المرحلة من مفاهيم الفن الفرعونى، أو العربى المصرى، إلا أن الفنانين الكبار الذين زاروا مصر كانوا قلة بالمقارنة مع مرحلة الاستشراق الفنى، ولعل سبب ذلك من ناحية انحسار موجة الاكزوتيك Exotique وموجه الاستشراق الفنى التقليدية، أى انحسار مرحلة مجرد الانبهار بالشكل الغريب، ومن ناحية ثانية الاتجاه الغربى لمحاولة فهم فلسفة الحضارات الشرقية، ومنها المصرية بالدراسة النظرية المقارنة. فأقطاب الاتجاه لإلغاء الشكل المباشر، أو هجر البعد الثالث على اللوحة هم سيزان Cezanne و(جوجان) Gauguin و(فان جوخ) Van, Gogh لم تكن لهم زيارة احتكاك مباشر مع مصر، وماتيس Matisse من المدرسة الوحشية Fauvisme لم تتح له أيضاً فرصة زيارة مصر، وإن تحدثت زخارفه التى وزعها على الجهات الست بـ(فيلته) مسكنه فى نيس عن سعيه لتحقيق فن الإحاطة. وكان لبعض أقطاب المدرسة الوحشية فرصة زيارة مصر مثل (دونجن) Dongen.

وقد أحدث التطور العلمى المتلاحق فى القرن التاسع عشر دوره الهام فى اقتراب الفن الغربى من مفهوم الفن المجرد فى التراكيب الهندسية كما صاغها (براك) Braque و (بيكاسو) Picasso فى التكعيبية Cubisme مع احتكاك بيكاسو بشكل مباشر فى تفكيره وفى إنتاجه بالفن الفرعونى والعربى المصرى.

وجاءت زيارة الفنان السويسرى (بول كليه) Paul Klee لتونس ثم مصر مع تأثره بالخط العربى والفرعونى ورموزهما، إضافة جديدة للتأثر بالفن الفرعونى والعربى المصرى. ثم نشهد المؤثرات الفرعونية مستمرة فى المدرسة التعبيرية الألمانية.

وتأتى قمة اقتراب وتأثر مدارس الفن الغربية فى القرن التاسع عشر بالفن المصرى العربى فى تكوينات هندسية تجريدية عند الفنان (كاندنيسكى) Kandinisky و(موندريان) Mondrian بما بلور فى نهاية القرن الـ١٩ وأوائل القرن الـ٢٠ تصاعد الحوار ثم انتقال التأثر بالفن المصرى من مجرد الشكل الغريب على أوروبا آنذاك، إلى عمق المضمون الفلسفى فى الرؤية التجريدية. ■



كل واحد فينا مشتاق للّى يكلمه
موبينيل
اتكلم من القلب

الفنان . الناقد . المجتمع . . . أضلاع المثلث المنفصلة

عـــز الـــديـن نجـــيـب

منذ فجر الضمير ومصر هى بلد الاندماج بين الفن والحياة والكون، كان الفن سبيلها إلى فهم الوجود وما وراءه، وأداتها لتجسيد القصيدة وأنساق القيم، وسجلها المفتوح لأحداث التاريخ والواقع المعاش، وساحة الصراع بين الخير والشر، وصحيفة الأعمال لإثبات جدارة الإنسان بالبعث يوم الحساب، كل ذلك بلغة الأشكال والألوان والحجوم وبتجليات الخيال والمجاز، حتى الكتابة كانت صوراً تشكيلية جميلة، ما يعنى أن الكاتب كان أيضاً فناناً على نحو ما.. أهناك اندماج أكمل من ذلك بين الفن والإنسان والعالم؟!

ولو تتبعنا الحضارات المتعاقبة لمصر .من قبطية وإسلامية بل حتى عبر الحياة الشعبية بامتدادها إلى عهد قريب، لوجدنا شواهد جمة على مثل هذا الاندماج ، وعلى أن الفن ضرورة لا غنى عنه للإنسان، من العبادة إلى الحياة اليومية، فهو داخل فى نسيجها، موحد بين كافة الطبقات الاجتماعية والثقافية. وحتى عندما أصبح عند مطلع القرن العشرين مجالاً تخصصياً له مدارس أكاديمية منذ عام ١٩٠٨، وله رموزه من الفنانين الدارسين، ومعارضه التى ترتادها النخب الفوقية من الأجانب وأبناء الطبقة العليا، كان الفن موجوداً فى حياة المجتمع بشكل أو بآخر، من خلال حصص الرسم والهوايات الفنية بمراحل التعليم، وعبر ملامح العمارة ذات الطابع الجمالى التى تقابلك أينما وليت وجهك، وتماثيل الميادين والحدائق وجداريات النحت البارز على واجهات المبانى، بل عبر الأزياء الشعبية والحرف التقليدية بأصالتها التاريخية، والأدوات الاستعمالية التى لم تكن تخلو من لمسة الجمال.

وعلى الصعيدين الفكرى والإبداعى فى أوساط الفنانين، كانت الجماعات الفنية التى يشكلونها تجمعات بالغة الأهمية فى بلورة القضايا والاتجاهات والمفاهيم الفنية والفكرية المشتبكة مع الواقع والمؤثرة فيه، ما جعل من الفنان صاحب قضية لا تنفصل عن قضايا الحرية والنهضة والتقدم، وهو ما انعكس بوضوح فى إبداعات فنانى تلك الجماعات التى لمعت فى الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن الماضى مثل «الفن والحرية»، و«الفن المعاصر»، و«الفن الحديث». ولو قفزنا إلى فترة الستينيات من القرن الماضى ستجد أن الدولة قد أولت الفن رعاية واضحة، وعملت على أن يكون غذاءً ثقافياً فى متناول المواطنين فى كل مكان، من خلال قصور الثقافة والمعارض الطوافة بأعمال الفنانين التى تنقلها السيارات المجهزة بعناية إلى كافة المحافظات، وعبر مشروعات التجميل المعمارى للمبانى العامة مثل محطات السكك الحديدية ودور القضاء ومراكز الاتصالات، كما عنيت الوزارة بإنشاء المراكز الفنية المتخصصة لإحياء الفنون الشعبية والتراثية، وبتخصيص المراسم للفنانين فى الأماكن التاريخية، وبإقامة قاعات العرض للفنون الجميلة فى مناطق الازدحام الجماهيرى مثل قاعة ميدان باب اللوق وقاعة مبنى الاتحاد الاشتراكى بميدان التحرير، وبتنظيم المسابقات بين الفنانين حول موضوعات قومية وجمالية قادرة على التواصل مع القاعدة العريضة، وعلى تعميق التعايش بين المبدعين والجماهير من ناحية وبين المشروعات المصيرية للوطن مثل بناء السد العالى وقناة السويس وأحداث دنشواى، إضافة إلى ما كانت الدولة تصدره من الكتب والمطبوعات الفنية التى تشيع الذوق الجمالى والثقافة البصرية بأسعار متاحة للعامة.. ومنذ إنشاء التليفزيون أوائل الستينيات كان مهتماً بتخصيص برامج ثابتة لتقريب الفن إلى المشاهدين، وكان يعدها ويقدمها كبار الفنانين والنقاد، أما الصحف والمجلات فكانت تعنى بنشر المقالات عن الفنون الجميلة، ليس بأقلام النقاد والفنانين وحدهم بل كذلك بأقلام كبار الكتاب والمفكرين أمثال لويس عوض ويحيى حقى وزكى نجيب محمود.

كان من شأن ذلك كله أن تظل الجسور مفتوحة بين الفنان والمجتمع، وأن تتاح للناقد مساحة للقيام بدوره التقييمى والتوجيهى للجمهور، فانعكس ذلك عند الفنان بامتلاكه الثقة بنفسه وبما يقدمه بالأسلوب الذى يختاره، حتى ولو كان بالغ الحداثة والمواكبة للحركات الفنية العالمية وبإيمانه بدوره فى المجتمع وفى استلهام أعماله من منابع تراثه وملامح بيئته، وهو ما انعكس أثره على الطابع العام للفن كتعبير عن «الشخصية المصرية»، بغير حاجة إلى طرح ذلك كسؤال أو كقضية جدلية، أو إلى طرح السؤال المزمن حول التناقض بين المحلية والعالمية، لأن حلهما كان متحققاً على أرض الواقع بشكل صحى بعيداً عن مركب النقص.

المشـهـد الـيـوم

لكن.. أين الفن فى حياتنا اليوم وقد دخلنا الألفية الثالثة بعد الميلاد؟

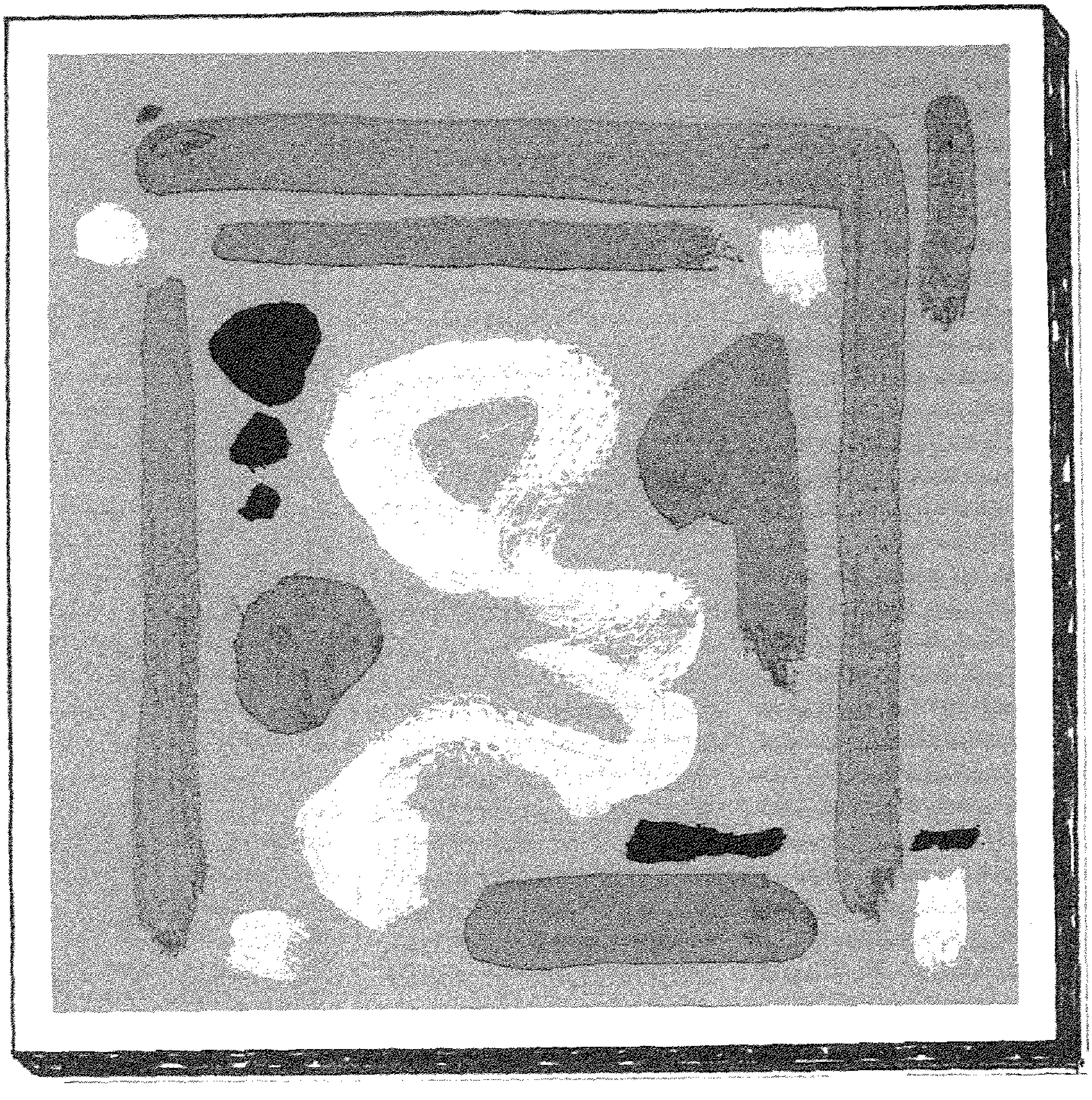
المشهد . للأسف . مأساوى، يعكس جفاف جسد المجتمع بأسره من الفن، واختفاء لمسة الجمال من أرجائه، وطفح مظاهر القبح على الشارع والميدان والحياة العامة، والانقطاع التام بين الناس وبين معارض الفنانين، بعد أن تزايد عددها أضعافاً مضاعفة مقارنة بفترة الستينيات، ويأتى هذا التزايد نتيجة لمضاعفة أعداد الفنانين الممارسين وخريجى الكليات الفنية، ويتزامن مع تضخم الجهاز الإدارى المعنى بالفن، والمنشآت التى تشبه القلاع حتى أصبحت الناس تخشى الاقتراب منها، كما يتزامن مع الإسراف فى الجوائز المخصصة لتشجيع الفنانين الشباب على التجريب، فانتهوا إلى الجرى اللاهث لملاحقة آخر تيارات الحداثة وعجائبها فى الفن الغربى، ويتزامن ثالثاً مع زيادة المهرجانات الدولية التى يقيمها ذلك الجهاز، ولا يرتادها غير آحاد الزائرين ثم ينسون أمرها بعد انتهائها، رغم الدعاية المكثفة التى تبثها الصحافة وأجهزة الإعلام ليل نهار عنها وعن الأنشطة المشابهة مصحوبة بصور وتصريحات كبار وصغار المسئولين، أما المقالات النقدية فى الصحافة والبرامج الجادة فى التليفزيون فقد تضاءلت إلى حد الندرة، استناداً إلى أن الفن التشكيلى مادة لا تهم القراء والمشاهدين، وأخيراً فإن كل ذلك يتواكب مع اختفاء قوافل الفن التى تنقل المعارض إلى المحافظات، وتصفية مراسم الفنانين بالمواقع التاريخية، وانكماش مراكز إحياء التراث الحرفى، واختفاء الجماعات الفنية المحركة للحياة الراكدة، واقتصار نشاط الجمعيات القائمة على حيازة المقار والأثاث وطلب المعونات من الوزارة بدون فاعلية ثقافية تذكر.

وهكذا انتهى الأمر بالفن والفنانين إلى أن يتحصروا فى جزيرة الزمالك التى توجد بها أغلب قاعات الفن، منعزلين عن الجمهور الذى لا يبالى بما يعرض بداخل القاعات، باستثناء قلة من المهتمين من الأجانب ومن المشتغلين بمجال الفن أو من دارسيه، فضلاً عن حالات فردية من الأثرياء . القدامى والجدد . المولعين باقتناء أعمال المشاهير، كنوع من الاستثمار طويل المدى فى بعض الأحيان، أو كاستكمال للوجاهة الاجتماعية والتقليد الطبقى فى أغلب الأحيان.

أما النقد . الضلع الثالث للمثلث . فإنه يمر بنفس الأزمة، وقد تخندق منطوياً على علله المزمنة، مكتفياً بإطلاق صيحات الاستغاثة بين الحين والآخر: أنقذوا الفن!.. أنقذوا الذوق العام! أنقذوا الأجيال الجديدة من العبث بهم!.. لكن صيحاته التى تأتى من قاع جب عميق لا تبلغ الآذان، وإن بلغتها فإن أحداً لا يبالى بها، لأن كلا من الناقد والفنان يعانى من هوان شأنه وقلة حيلته وضعف مكانته لدى المسئولين وأصحاب القرار، بينما الجمهور الذى لا يرى ما ينتجه الفنانون ولا يقرأ ما يكتبه النقاد ولا يسمع صراخهم. فى واد آخر وقد ابتلعته ضرورات الحياة اليومية وهمومها.. وهكذا يبقى الوضع على ما هو عليه!

المشـهد . للأسـف . مأسـاوى، يعكس جفاف جسد المجتمع بأسره من الفن، واختفاء لمسة الجمال من أرجائـه، وطفـح مظاهر القبح على الشارع والميـدان والحياة العامـة، والانقطـاع التام بين الناس وبين معارض الفنانين

... هل يقوم النقد بوصل ما انقطع؟!



أزمة النقاد

تلك هى الأزمة المركبة التى دفعت الجمعية المصرية لنقاد الفن التشكيلى إلى أن تقيم مؤتمرها الأول للنقد فى مصر فى أواخر شهر يونيو الماضى بالإسكندرية، بالتعاون مع جماعة أتيليه الإسكندرية للفنانين والكتاب تحت عنوان: النقد التشكيلى بين الفنان والمجتمع. وقبل أن نعرج على فعاليات هذا المؤتمر، الذى استمر يومين وناقش عشرات الأبحاث الجادة، دعونا - أولاً - نتعرف عن قرب على ملامح أزمة النقد اليوم.

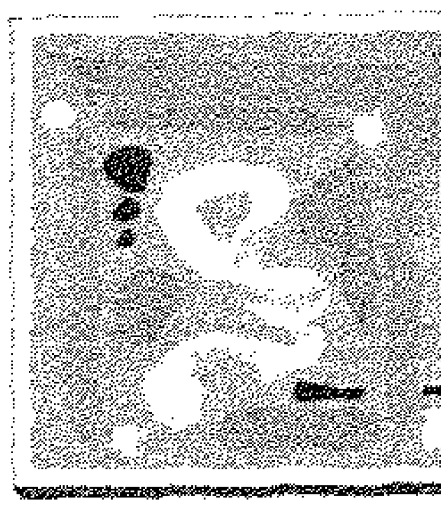
أول مظاهر الأزمة هو القلة الملحوظة لعدد النقاد الذين ينطبق عليهم هذا الوصف، فهناك ناقد لكل مائة فنان، ما يضع على كاهل هذه القلة عبئًا فوق طاقتها لمتابعة الكم الهائل من المعارض والأنشطة الفنية المتلاحقة، ويجعل النقاد دائمًا فى قفص الاتهام أمام الفنانين، حتى لو بذلوا أقصى ما فى وسعهم فى حدود الإمكانات القليلة المتاحة أمامهم.

وثانى مظاهر الأزمة هو غموض مفاهيم النقد ومعاييره وضوابطه واتجاهاته القديمة والحديثة لدى نسبة غير قليلة من المشتغلين بالنقد، ما يعكس غلبة النظرة الأدبية أو الانطباعية، التى تقود إلى الأحكام القيمية المطلقة، أو إلى التحليلات السطحية الدارجة التى قد تنطبق على أى فنان آخر ببعض «المكياج»، أو تقود إلى استسهال الأخذ بتفسير الفنان لعمله أو بما قيل عنه فى مناسبات سابقة. وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى المجاملات حرصًا على العلاقات الشخصية أو مراعاة لموقع الفنان الرسمى أو الاجتماعى.

وثالثها هو غلبة النظرة النقلية المستعارة من النموذج الغربى بمصطلحاته ومفاهيمه النقدية، دون قدرة على ابتكار أو توليد النموذج المصرى والعربى من داخل خصوصية التجربة الفنية فى سياقها التاريخى والثقافى والذوقى، وقد ساعد ذلك فى دفع الممارسة النقدية إلى الانفصال عن هذا السياق، وإحالة النص النقدى إلى نوع من الاستعراض اللفظى أو السفسطة الجوفاء داخل إطار مغلق متعال، ليس على القارئ فحسب بل على العمل الفنى ذاته.

ورابعها هو ضيق المنابر والقنوات التى يمكن للناقد







أن يتواصل من خلالها مع الفنان والجمهور، وتهميش الفن على خريطة الحركة الثقافية وعلى ساحة الصحافة والإعلام.

مسئولية النقاد

وفوق ما تعكسه هذه المظاهر من نتائج سلبية، ثمة نتائج أكثر ضرراً بمسار الحركة الفنية فى ارتباطها بالمجتمع وبالمتغيرات المتراكمة، فقد أدى غياب النقد بمفاهيمه الصحيحة وكثافته الكمية وقنوات الاتصال الجماهيرية اللازمة له، إلى تعويق الارتقاء بذوق المواطنين من مستوى الصورة الفوتوغرافية أو الحكائية للواقع، إلى مستوى الصورة التركيبية للفن الموازية للواقع أو المتجاوزة له بصياغة جمالية بصرية مغايرة للمألوف والدارج، بمعنى آخر فإن النقد لم يقم بمسئوليته التاريخية فى بناء ذائقة جمالية حديثة للشعب حتى بين مستويات المثقفين، عبر لغة خطاب سلسة تتناسب مع كل مستوى، وتضرب بجذورها فى مكونات «الخصوصية» لثقافة هذا الشعب، وتسعى بفاعلية لاختراق المؤسسات المختلفة الضالعة فى تشويه الذوق العام، كى تقنعها بتبنى مناهج جديدة للتربية الذوقية تضع الفن فى مكانه اللائق به كإحدى ركائز التنمية البشرية والتقدم الإنسانى، مثل مؤسسات التعليم والإعلام والصحافة والتخطيط العمرانى وغيرها، ولم يكن ذلك ليتأتى إلا بوجود حركة نقدية قوية تتواكب مع حركة الإبداع الفنى، وتملك من الحضور والنفوذ المعنوى ما يجعلها صوتاً مؤثراً تنتبه إليه هذه المؤسسات وتأخذ برأيه، وكان غياب هذا الصوت أو خفوته عاملاً مؤثراً. ضمن عوامل أخرى. فى بقاء الفن فى بلادنا. على مدى الأجيال المتلاحقة. نشاطاً نخبوياً منعزلاً، لا يعنى غير أصحابه ومن فى دوائرهم الضيقة، ما جعل منه هامشاً ضئيلاً على خريطة النشاط الثقافى العام بالرغم من تفوقه النوعى والكمى على سائر الفنون الأخرى، والنتيجة الطبيعية لذلك هى غموض صورة الفنان أمام المجتمع وتدنى مستواه الاقتصادى لعدم الإقبال على اقتناء أعماله، ووضعه فى ذيل قائمة المكرمين والحائزين على جوائز الدولة كل عام، لجهل أغلب أصحاب الأصوات فى لجان منح تلك الجوائز بإنجازات الحركة الفنية وبرموزها المبدعة.

ويحسب على النقاد كذلك تراخيهم فى طرح هذه القضايا طوال عشرات السنين على الرأى العام، من خلال مؤتمرات تحلل هذه الظاهرة المركبة وتستجلى جوانب النقص النظرى فى العملية النقدية، وتعمل على استنبات أجيال جديدة من النقاد على أسس منهجية، وتعبر الطريق أمامها لأخذ دورها فى استكمال المسيرة، إنهم لم يلتفتوا بالقدر الكافى إلى خطورة إفقار الساحة الفنية من عناصر جديدة شابة من النقاد، أو إعداد من يوجد منهم على الساحة إعداداً يجابه المسئولية المرشحين لها، وإنه لأمر يدعو للدهشة أن يمر على قيام أول جماعة فنية فى مصر ثمانون عاماً، نشأ خلالها عدد غير قليل من الجماعات والجمعيات دون أن تفكر إحداها فى عقد مؤتمر للنقد الفنى، وعلى الرغم من انقضاء ما يقرب من خمسة عشر عاماً على تأسيس الجمعية المصرية لنقاد الفن التشكيلى فإنها لم تطرح هذه القضية إلا فى العام الماضى فقط، وكانت الفكرة فى البداية هى أن يكون المؤتمر على مستوى النقاد العرب، كى يستمد قوة مضاعفة ورؤية قوية شاملة للقضايا والهموم المشتركة، لكن حاجز التمويل وقف دون تحقيق ذلك، بعد أن تراجعت وزارة الثقافة عن موافقتها على تمويله ودعوة النقاد من شتى الدول العربية إلى القاهرة للمشاركة فى المؤتمر، فكان أن امتدت أيدى الزملاء الفنانين بجماعة أتيليه الإسكندرية إلى جمعية النقاد بالقاهرة مبدية الرغبة فى المشاركة فى إقامة المؤتمر بالإسكندرية على مستوى النقاد المصريين.

هكذا انعقدت إرادة الطرفين على تحقيق تلك الغاية، وبدأ التحضير للمؤتمر منذ شهر يناير الماضى بشكل منهجى متكامل، وبروح التحدى الثقافى لكافة المعوقات والإحباطات بغير مظلة رسمية، وهو ما أعطى للحدث قيمة مضاعفة كثمرة لإرادة أهلية تتجاوز السلطة الأبوية التى أصابت المثقفين على امتداد نصف القرن الماضى بالعجز عن المبادرة والاستقلال، اعتماداً على أن الدولة هى المسئول الأول والأخير عن كل شئونهم، لكن الأمانة تقتضى الاعتراف بأن ما أنفقته الجمعية على إقامة المؤتمر كان بعضاً من الإعانة المالية التى دعمت وزارة الثقافة الجمعية بها منذ عام مضى، وهو ما يحسب لها فى النهاية.

المـــــواجـــــهـــــة

وانعقد المؤتمر أخيراً يومى ٢٦ و٢٧ يونيو ٢٠٠٣ بمبنى أتيليه الإسكندرية، وشارك فيه ٤٢ باحثاً حول أربعة محاور رئيسية هى: إعداد الناقد المحترف، وقنوات الاتصال بين الناقد والجمهور، وتوثيق الكتابات النقدية خلال القرن الماضى، ودراسة الحركة النقدية ونقادها وكتبها ومناهجها فى ذلك القرن.

والواقع أن تلك المحاور تستحق اربعة مؤتمرات مستقلة لاتساع أبعاد كل محور، وارتباطها بتشابكات الأزمة، مما يستدعى مواجهة مستفيضة لكل جانب.. لكن هكذا شأن البدايات دائماً: طموح زائد وتعجل لبلوغ كل الأهداف فى قفزة واحدة!.. وكان من الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى بعض الخفة والاستسهال فى عدد من الأبحاث، والخلط بين البحث العلمى وورقة العمل، وخاصة أن الباب كان مفتوحاً بغير قيود أمام اشتراك كل من يبدى استعداداً لذلك، وكانت فرصة لعدد كبير من الشباب ليجربوا كتابة الأبحاث لأول مرة، وأن يختبروا. ويختبر النقاد الراسخون. مدى تحصيلهم الفكرى والثقافى، لكن الأهم من ذلك هو حرص منظمى المؤتمر على الكشف عن مواهب واستعدادات كامنة لم تجد الفرصة من قبل لإثبات وجودها، وهو ما اعتبره شخصياً أبرز إنجازات المؤتمر وأولاها بالحفاوة، لما تحمله من بشارة بميلاد جيل جديد من النقاد.

وإلى جانب هؤلاء الشباب تجمعت كوكبة من الأسماء الراسخة والفاعلة فى الحركة النقدية والفنية، بين مشارك ببحث أو ورقة عمل، وبين مشارك بالتعقيب والمداخلة والنقاش.

كانت الأبحاث والمداخلات فى مجملها جريئة فى اقتحام المشكلة النقدية: بتحديدها أولاً تحديداً منهجياً، كأزمة معرفية حول معنى النقد وآلياته ومناهجه، ثم طرح إشكالياته على أرض الوقع ورصد متطلباته وجوانب القصور فيه، كما كانت جادة فى تلمس السبل لفتح القنوات المسدودة بين الناقد والجمهور، ولبناء الذائقة الجمالية التى يفتقر إليها المجتمع من خلال المؤسسات القائمة والغائبة: من مناهج التعليم وبرامج الإعلام ودور الصحافة والنشر والمعاهد الأكاديمية والمجلات المتخصصة، وأخيراً تم إلقاء الضوء على تاريخ الحركة النقدية فى مصر منذ بدايات القرن الماضى، والكشف عن خفاياها المنسية وعن رموزها النفيسة التى سقطت من الذاكرة أمثال أحمد راسم وصدقى الجباطنجى ورمسيس يونان وكامل التلمسانى وإيميه عازار وبدر الدين أبو غازى ومحمود بقشى، فأعيد إليهم الاعتبار كآباء شرعيين للأجيال اللاحقة من النقاد. لكن الهاجس الذى خيم على الجلسات هو ضرورة تأكيد الخصوصية الثقافية عبر منظورنا النقدى، وتعميق الروح الإبداعية المشبعة بالإحساس لدى الناقد، وقدرته على استشفاف ما تحت الظواهر والمدارس والنظريات، بما يكسبه صفة الكاشف الملهم وليس مجرد الحرفى الذى يطبق القواعد.

ولم يخل المؤتمر من قضايا خلافية، مثل ثنائية التراث والحداثة، وظاهرة (الناقد الفنان) بين السلبية والإيجابية، وصراع الأجيال بين أفكار الشباب والنقاد، والنظرة إلى الغرب بين اعتباره مرجعية لحركتنا الفنية والنقدية أو اعتباره خطراً على هويتنا.. وبقدر سخونة المناقشات التى بلغت أحياناً درجة الاشتعال، فقد كانت ظاهرة صحية أكدت إخلاص الجميع فى البحث عن منابع جديدة وآفاق رحبة وسبل مفتوحة للتواصل والتجاوز.. وقد لا يكون الحوار قد ابتعد كثيراً عن المسارات المطروقة فى مؤتمراتنا الثقافية المشابهة، بمعنى أنه لم يستطع أن يتجاوز الأفكار والقناعات شبه المستقرة حول القضايا الخلافية المشار إليها، مثل عدم التناقض فى إشكالية التراث والحداثة، بعد أن نجحت أجيال الحركة الفنية من الرواد السابقين فى حلها بغير صراع حضارى، أو عدم التناقض بين الفنان والناقد فيما لو اجتمعا فى شخص واحد، وهو ما أثبتته العديد من الحالات بمصر وخارجها، ومثل حق الشباب فى الاختلاف مع النقاد وفى انتقاد موقفهم من أعماله، بشرط احترامهم لجهود من سبقوهم

وامتلاكهم ثقافة تؤهلهم للتصدى للنقد بندية الفكر المخالف وليس بالهجوم المتجاوز، وربما لم يستطع الحوار أيضاً أن يضيف جديداً إلى ما استقر من عدم جدوى التمييز العنصرى أو الحضارى بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب، ومن عبثية تحصن كل منهما خلف أسوار عازلة عن الأخرى، أو من عبثية الموقف النقيض لذلك.. بانسلاخ ثقافتنا من جلدها لتذوب فى ثقافة الغرب وتقتفى أثرها مستلبة الهوية ناظرة إليها كمرجعية وحيدة، لأن التطور التاريخى لفننا الحديث يثبت جدارتنا بالتواصل الثقافى المتكافئ مع الغرب واعتباره «إحدى المرجعيات» للحداثة والتقدم نحو المستقبل وليس المرجعية الوحيدة.

أقول أنه ربما مر المؤتمر على هذه المسائل والقضايا عبر نفس الممرات التى باتت أقرب إلى المسلمات، لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة للمشاركين والحاضرين من الشباب نقاداً وفنانين، فقد كانوا فى أمس الحاجة إلى مثل هذه المداخلات التى ربما لم يستمعوا إلى مثلها من قبل، فأخرجتهم من حالة البلبلة التى كانوا غارقين فيها منذ ما يقرب من عقدين من الزمان، وسط خلط المفاهيم والشحن الفكرى غير المسئول الذى تعرضوا له على يد اتجاه أحادى النظرة، دأب على استقطابهم نحو التسابق لملاحقة المفاهيم الغربية المناقضة لثقافتنا ومزاجنا، تحت دعوى أن الحداثة لغة عالمية بلا وطن، فقد أدركوا .بعد المؤتمر. أهمية أن يكون للفن بطاقة شخصية وجنسية شأنه شأن الأفراد، وأن الحداثة موقف فكرى وليست أنماطاً شكلية فارغة، كما أنها بنت الأصالة والصحة النفسية وليس الجنون وخرق المألوف، وأن الثورة بنت الانتماء للوطن وقوة لتقدمه وليس لتدميره.

ولعل البيان الختامى الذى أصدره المؤتمر قد ترجم هذا المعنى حين أكد فى مقدمته على أنه ينطلق من موقف حضارى ينبع من الخصوصية الثقافية للفن العربى والمصرى التى تؤدى إلى المشاركة الفاعلة فى الثقافة الإنسانية على مستوى العالم، وأنه لا تناقض بين الخصوصية الثقافية وعالمية الثقافة لا عولمتها.


طرح الأمانى!

أما التوصيات العشرون التى خرج بها المؤتمرون فقد طرحت مجموعة من الأمانى تمثل الدعائم الغائبة لربط أضلاع المثلث المنفصلة (الفنان/ الناقد/ المجتمع)، وحملت كلا من جمعية النقاد ومؤسسات الدولة المختلفة مسئولية بنائها، إذ حددت مهام الجمعية فى استئناف إصدارها سلسلة كتب الفن التشكيلى التى توقفت منذ سنوات، وكذلك إصدار مجلة دورية للفنون التشكيلية لبناء جسر يربط بين الأضلاع الثلاثة، وإعداد موسوعة بمصطلحات الفن التشكيلى لإجلاء غموضها بالنسبة للفنان والناقد والجمهور، وتنظيم موسم ثقافى سنوى لتوعية الجمهور ومناقشة القضايا الفنية.. وجميعها مهام فى حدود الإمكانات الذاتية لجمعية النقاد . لو تم تفعيل جهودها . بالتعاون مع بعض الهيئات الرسمية والأهلية الداعمة.

كما توجهت التوصيات إلى وزارة التربية والتعليم مطالبة إياها بتخصيص مساحات مناسبة فى مناهج التربية الفنية لغرس أسس التذوق الفنى فى نفوس التلاميذ منذ الصغر، باعتبارهم نواة الذوق العام فى المجتمع، وإلى رؤساء المؤسسات الصحفية والإعلامية تطالبهم بزيادة المساحات المخصصة للفنون التشكيلية، وإلى المحافظين تطالبهم بدعم التوجه نحو تجميل الميادين العامة بالأعمال الفنية عن طريق المسابقات بين الفنانين، وإلى عمداء الكليات الفنية للاهتمام بالدراسات الميدانية حول الفن والتراث الحضارى، وإلى أجهزة وزارة الثقافة لتخصيص منح دراسية ومنح للتفرغ للنقد الفنى، وزيادة إصدارات الكتب الخاصة بقضايا الفن، وترجمة الكتب الهامة عن الفن العالمى، وإنشاء معهد متخصص للنقد التشكيلى أو قسم بمعهد النقد الفنى بأكاديمية الفنون لتخريج نقاد دارسين، وأخيراً توجه المؤتمر بتوصية إلى وزير الثقافة ليتبنى إقامة المؤتمر العام للنقاد العرب الذى كان مقرراً عقده هذا العام، تعميقاً للحوار الحضارى وللخصوصية الثقافية على الصعيد القومى، خاصة وقد بتنا مستهدفين للذوبان داخل آلة العولمة.

لكن.. هل تكفى الأمانى لبلوغ الآمال؟، أم أن الأمر يتطلب. فوق الجهود المكثفة. تغييراً جذرياً فى عقليات كل من الجهات التى توجه المؤتمر إليها بتوصياته، بدءاً من الجمعية التى بادرت بإقامته، كى يتحمل كل منها مسئوليته التاريخية؟

ذلك هو السؤال الأكثر تعقيداً من أزمة الأضلاع الثلاثة المنفصلة للمثلث! ■


سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
متواجد فى مراكز بيع بواق

من يخاف إيران النووية؟!

أحمد إبراهيم محمود



ظلت المسألة النووية الإيرانية مصدرا للتوتر منذ منتصف التسعينيات، حيث أثيرت شكوك من جانب الولايات المتحدة والعديد من القوى الدولية والإقليمية الأخرى منذ ذلك الحين بأن برنامج التعاون النووى الإيرانى ـ الروسى يشتمل على مكونات عسكرية أساسية، ويهدف إلى صنع السلاح النووى، فى حين ظلت إيران وروسيا الاتحادية تؤكدان من جانبهما على أن هذا البرنامج يقتصر فقط على أغراض توليد الكهرباء والاستخدامات السلمية للطاقة الذرية. وظل التباين فيما بين هذين الموقفين قائما على امتداد الفترة المذكورة، وتعرض الجانبان الإيرانى والروسى لضغوط عديدة لوقف هذا البرنامج وتقييده، وبالذات من جانب الولايات المتحدة، ولكن بدون جدوى.

هذا التباين شهد قدرا عاليا من التصعيد فى الفترة الحالية عقب اكتشاف ما تعتبره الوكالة الدولية للطاقة الذرية «انتهاكا» من جانب إيران لالتزاماتها المفروضة عليها بموجب توقيعها على معاهدة منع الانتشار النووى، وهو الانتهاك الذى تمثل فى قيام إيران بإنشاء وحدة للطرد المركزى لتخصيب اليورانيوم بالقرب من مدينة نتانز، وكذلك اكتشاف آثار لليورانيوم عالى التخصيب فى عينات مأخوذة من البيئة الإيرانية، وهو ما اعتبر مؤشرا على وجود مكونات سرية فى البرنامج النووى الإيرانى.

وبينما تلقفت الولايات المتحدة هذه التطورات، واعتبرتها دليلا على صحة اتهاماتها المتكررة لإيران منذ منتصف التسعينيات بأنها تحاول صنع السلاح النووى، فإن إيران نفت من ناحيتها هذه الاتهامات، وبذلت محاولات نشطة لتفنيدها، ولكن بدون جدوى، مما دفعها إلى التحول من سياسة الاحتواء إلى سياسة المواجهة. فقد حاولت إيران فى البداية تبديد الشكوك المحيطة ببرنامجها النووى من خلال توسيع تعاونها مع وكالة الطاقة الذرية والاستجابة لكافة طلباتها، ومن خلال محاولة حشد التأييد داخل مجلس أمناء الوكالة لمنع صدور قرار فى غير صالحها، ولكن مع صدور قرار المهلة المذكور، تحولت إيران إلى سياسة المواجهة عبر الانسحاب من المفاوضات، وعبر التهديد بوقف تعاونها مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالكامل.

إن فهم مختلف أبعاد الأزمة النووية الحالية بين إيران والوكالة الدولية للطاقة الذرية يتطلب الرجوع قليلا إلى الوراء للتعرف على جذور البرنامج النووى الإيرانى، ومناقشة دوافعه والجدل المحيط بها، ثم الوقوف على المراحل المختلفة لتطور هذا البرنامج، وهو ما يساعد على معرفة كيف دخلت المسألة النووية الإيرانية إلى مرحلة الأزمة الحالية، ثم محاولة استشراف سيناريوهات التطور المستقبلية المحتملة للأزمة الحالية.

تتمثل نقطة الانطلاق الرئيسية لمختلف القادة الإيرانيين فى تبرير الاهتمام بالطاقة النووية فى أن لإيران الحق الكامل فى الاستفادة من التطبيقات السلمية للطاقة النووية، بموجب معاهدة منع الانتشار النووى التى وقعت عليها إيران، وفى مقدمتها الفوائد الاقتصادية. وينصب التركيز الرئيسى فى الخطاب السياسى الإيرانى المتعلق بالمسألة النووية منذ أواخر الثمانينيات على أن هدف البرنامج النووى الإيرانى ينصب على بناء مفاعلات تكفى لتوفير نسبة هامة من الطاقة الكهربائية للبلاد، علاوة على التأكيد على أن إيران كانت قد استثمرت بالفعل أموالا طائلة منذ عقد السبعينيات فى إقامة بنية أساسية نووية فى العديد من المناطق، وأن من الضرورى استكمال الجهود المبذولة فى هذا المجال حتى لا تضيع الأموال التى سبق استثمارها فيه.

وتتبنى الحكومة الإيرانية منذ فترة مبكرة خططا طموحة للاستفادة من الطاقة النووية لتوفير ٢٠٪ من الطاقة الكهربائية المستخدمة فى البلاد. ومع أن إيران تعتبر من أكبر الدول المنتجة للنفط والغاز الطبيعى فى العالم، مما قد لا يجعلها فى حاجة إلى الطاقة المولدة من المفاعلات النووية، فإن الحكومات الإيرانية بررت ذلك بأن إنتاج الطاقة عن طريق المفاعلات سوف يساعد على خفض استهلاك النفط والغاز الطبيعى، خوفا من أن تؤدى الزيادة السكانية العالية وخطط التنمية الاقتصادية إلى زيادة استهلاك الطاقة فى إيران، وبالتالى تبديد جزء كبير من احتياطى النفط والغاز المتاح لإيران. ويذهب المسئولون الإيرانيون أيضا إلى أن العقوبات النفطية التى تفرضها الولايات المتحدة على إيران بموجب

يؤكد المسئولون الإيرانيون على أن البرنامج النووى الإيرانى يندرج بالكامل فى إطار الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية، وأنه ليست لإيران سياسة سرية فى مجال التكنولوجيا النووية أو محاولة بناء أسلحة نووية

قانون داماتو منذ عام ١٩٩٥ قد تسببت فى الحد من قدرتها على زيادة قدراتها الاستخراجية والإنتاجية والتصديرية فى مجال النفط والغاز الطبيعى. ولذلك، تسعى إيران ليس فقط إلى منع حدوث زيادة كبيرة فى الاستهلاك المحلى من النفط والغاز فى المستقبل، ولكن أيضا خفض نسب الاستهلاك الحالية من أجل امتلاك قدرة أكبر على توجيه نسبة أكبر من إنتاجها من النفط نحو التصدير، من أجل الحصول على عائدات مالية أكبر.

والواقع، أن خطط إيران فى المجال النووى لم تتبلور دفعة واحدة، ولكنها ظلت تتطور تدريجيا، لتصل إلى الهدف الاستراتيجى الإجمالى للبرنامج النووى الإيرانى، وأصبحت تقوم الآن على وضع هدف يتمثل فى محاولة الوصول بإنتاج إيران من الطاقة الكهربائية النووية إلى ما بين ٦ . ٧ آلاف ميجاوات سنويا، وذلك على مدى العشرين عاما القادمة، عبر بناء العديد من محطات الطاقة النووية ومنشآت الوقود النووى.

ويؤكد المسئولون الإيرانيون أن البرنامج النووى الإيرانى يندرج بالكامل فى إطار الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية، وأنه ليست لإيران سياسة سرية فى مجال التكنولوجيا النووية أو محاولة بناء أسلحة نووية، وأن الخطط والمشروعات الواردة ضمن البرنامج النووى الإيرانى كانت قد عرضت مرارا على الوكالة الدولية للطاقة الذرية، التى أقرتها ووافقت عليها، وتقوم بالإشراف والرقابة على ما يجرى فى المنشآت النووية الإيرانية. ويؤكد المسئولون الإيرانيون على أن جميع المنشآت النووية الإيرانية تخضع لعمليات الإشراف والرقابة من جانب وكالة الطاقة الذرية، بل إن الوكالة شاركت فى البرنامج النووى الإيرانى عبر تقديم المشورة العلمية والفنية بشأن كيفية تحقيق سلامة البناء فى محطة بوشهر.

وفى المقابل، يقوم التيار الكاسح فى الإعلام الغربى على أن الهدف الرئيسى للبرنامج النووى الإيرانى هو امتلاك السلاح النووى، وذلك استنادا إلى عدد من الحجج النظرية والمؤشرات العملية. فمن الناحية النظرية، تسود قناعة واسعة فى الغرب بأن الدوافع الاقتصادية لا يمكن أن تصلح إطلاقا كمبرر للنشاط الإيرانى فى المجال النووى، لأن اللجوء إلى المفاعلات النووية للحصول على الطاقة الكهربائية يعتبر مسألة غير مجدية اقتصادية لدولة غنية بالنفط والغاز الطبيعى، حيث لا تتعدى تكلفة توليد الكهرباء عن طريق النفط والغاز ما بين ١٨ . ٢٠٪ من تكلفة الكهرباء النووية فى ظل أسعار السوق. ومع أن إيران حصلت على المفاعلات النووية من روسيا بأسعار منخفضة جدا عن أسعار السوق العالمية، فإن تكلفة إنتاج الكهرباء تظل غير اقتصادية بالنسبة لإيران. ويذهب باحثون غربيون أيضا إلى أن إيران ركزت إنشاء مفاعلاتها النووية فى منطقة واحدة جنوب البلاد بعيدا عن المدن الإيرانية والمنشآت الصناعية فى شمال البلاد، وهو ما يقلل من إمكانية الاستفادة من هذه المفاعلات فى توليد الطاقة لخدمة الاحتياجات الاستهلاكية للمدن والمصانع الإيرانية.

وفى ظل عدم كفاية الدوافع الاقتصادية لتبرير النشاط النووى الإيرانى من وجهة نظر الكثير من الباحثين الغربيين، يذهب الكثيرون منهم إلى أن الدوافع العسكرية تعتبر بمثابة المحرك الرئيسى للبرنامج النووى الإيرانى. وقد قدمت التطورات الأخيرة فى المسألة النووية الإيرانية ذريعة إضافية للقائلين بوجود دوافع عسكرية للبرنامج النووى الإيرانى، حيث اكتشفت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن الحكومة الإيرانية قامت ببناء منشأتين نوويتين جديدتين فى منطقتى آراك وناتنز، من أجل إنتاج يورانيوم على درجة عالية من التخصيب، فيما يشتبه أنه بهدف صنع الأسلحة النووية، كما عثر مفتشو الوكالة على آثار لليورانيوم المخصب فى منشآت الطرد المركزى فى منطقة نتانز الواقعة جنوب طهران فى يناير الماضى، مما عزز الشكوك بشأن محاولة إيران امتلاك السلاح النووى.

على الجانب الآخر، ترفض إيران كافة هذه الاتهامات، وتؤكد على أن الدوافع الاقتصادية تعتبر هى المحرك الوحيد للبرنامج النووى الإيرانى. وبشكل عام، يؤكد المسئولون الإيرانيون على أن بلادهم كانت من أوائل الدول التى وقعت على معاهدة منع الانتشار النووى، حيث وقعت عليها فى ١ يوليو ١٩٦٨، كما صدقت عليها عام ١٩٧٠، وأن بلادهم أظهرت التزاما طويلا بمعاهدة منع الانتشار النووى.

فى ضوء هذا الجدل العنيف، فإن الأمر المؤكد أن البرنامج النووى الإيرانى يبدو أوسع نطاقا وأكبر حجما بكثير من مجرد الاقتصار على الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية. وبصرف النظر عن حقيقة أن إيران ليست فى حاجة إلى المفاعلات النووية لإنتاج الطاقة الكهربائية، بحكم امتلاكها لثروة نفطية ضخمة، فإن بعض مكونات البنية النووية الأساسية فى إيران لا ترتبط تماما بالاستخدامات السلمية للذرة، ولاسيما محطة الطرد المركزى فى نتانز، ومعمل إنتاج الماء الثقيل بالقرب من مدينة آراك.

ومن حيث الدوافع، فإن هناك طائفة متنوعة من العوامل التى ربما تكون قد حفزت الحكومة الإيرانية على التفكير فى الخيار النووى العسكرى: جاء فى مقدمتها أن إيران كانت تشعر فى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات بقلق شديد من المستوى المتطور للغاية الذى كان البرنامج النووى العراقى قد بلغه فى تلك الفترة، مما كان بمثابة حافز لإيران وقتذاك على امتلاك قدرات نووية مماثلة. ومع أن البرنامج النووى العراقى تم تفكيكه لاحقا بواسطة فرق التفتيش الدولية خلال الفترة ١٩٩١ . ١٩٩٨، ومع أن الخبرة العراقية ذاتها تدل على أن محاولة امتلاك السلاح النووى كانت العامل الرئيسى وراء استعداء الولايات المتحدة وتحرشها المستمر بالعراق، وهو ما قد يتكرر بالضرورة مع إيران، فإن كثيرا من الباحثين الإيرانيين يعتقدون أن الولايات المتحدة لم ترتدع عن الهجوم على العراق فى حربى ١٩٩١ و٢٠٠٣ لأن نظام صدام حسين لم يكن يمتلك أسلحة نووية، فى حين أن سيناريو الصراع كان سيختلف تماما فيما لو كانت بغداد تمتلك هذه الأسلحة، وهو ما يقدم درسا بالغ الأهمية لإيران. وفى الوقت نفسه، فإن الساسة الإيرانيين ربما يكونون قد تصوروا أن من الممكن تفادى المصير العراقى عبر تحسين علاقات إيران الإقليمية والدولية، وعبر تفادى تكرار الأخطاء الفادحة التى وقع فيها النظام العراقى، ولاسيما غزوه لدولة مجاورة وتهديده للأمن الإقليمى.

ويرتبط بما سبق أيضا أن السياسة الإيرانية ربما تكون قد وجدت فى الخيار النووى أداة الردع الرئيسية للتصدى للتحرش الأمريكى والإسرائيلى المستمر بها منذ بداية التسعينيات، وهو التحرش الذى ازداد عقب هجمات ١١ سبتمبر فى الولايات المتحدة، ثم تصاعدت حدته بقوة عقب الاحتلال الأمريكى للعراق.

تطور النشاط النووى الإيرانى

تعود جذور البرنامج النووى الإيرانى إلى عقد الستينيات، حينما بدأ نظام الشاه رضا بهلوى وقتذاك مساعيه الرامية إلى إقامة بنية أساسية نووية متطورة فى إيران، وهو ما كان يمثل جزءا من جهود الشاه الرامية إلى تحويل إيران إلى قوة إقليمية عظمى، وهو ما دفعه إلى الاهتمام بتطوير قدرات إيران فى كافة مجالات القوة الشاملة، بما فيها الطاقة النووية، وكانت الحجة المعلنة لهذه الجهود تتمثل فى الرغبة فى زيادة قدرة إيران على إنتاج الطاقة الكهربائية بالمفاعلات النووية.

هذه الطموحات الواسعة لشاه إيران كانت الأساس وراء إنشاء منظمة الطاقة النووية الإيرانية فى بداية السبعينيات، والاتفاق على البدء فى إنشاء مفاعلات نووية كبيرة الحجم فى البلاد. وقد لقيت طموحات الشاه فى هذا المجال تجاوبا واسعا من جانب الولايات المتحدة والغرب، بشرط أن تكون الأنشطة الإيرانية مقصورة على الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية. وقد وقع اختيار نظام الشاه على شركة سيمنس الألمانية لإنشاء محطة ضخمة تضم مفاعلين نوويين فى منطقة بوشهر جنوب البلاد، بطاقة ١٢٠٠ ميجاوات. وبدأت الشركة عام ١٩٧٦ فى عملية الإنشاء، واستثمر نظام الشاه حوالى ٦ مليارات دولار فى هذه المسألة. وكانت الشركة الألمانية قد انتهت من إنشاء الأبنية الأساسية ووعاء الاحتواء الفولاذى لأحد المفاعلات فى بوشهر، أى بنسبة ٨٥٪ من العمل المطلوب قبل سقوط الشاه، كما كانت قد انتهت جزئيا من أعمال إنشاء المفاعل الآخر أيضا.

غير أن البرنامج النووى الإيرانى دخل مرحلة من الجمود عقب قيام الثورة فى عام ١٩٧٩، حيث لم تكن المسألة النووية ضمن أولويات قادة الثورة، كما أوقفت الشركة الألمانية تعاونها مع نظام الحكم الجديد فى إيران، وفرضت الولايات المتحدة والدول الغربية حظرا شاملا على إيران فى كافة مجالات التسلح، كما تعرضت المنشآت النووية الإيرانية للقصف الجوى والصاروخى العراقى أثناء

من يخاف إيران النووية



الحرب. أما بالنسبة للمنشآت النووية الإيرانية القائمة بالفعل، فقد استمرت أعمال الصيانة والتشغيل بها، وظل يقيم بمحطة بوشهر النووية عادة ما بين ٣٠٠ - ٤٠٠ عامل وموظف إيرانى، للقيام بأعمال التشغيل الأساسية والصيانة الدورية.

ومع منتصف الثمانينيات، عاد اهتمام الحكومة الإيرانية تدريجيا بالنشاط النووى. ومن غير الواضح على الإطلاق طبيعة الدوافع الكامنة وراء تجدد هذا الاهتمام، إلا أن من غير المستبعد أن يكون الإيرانيون قد علموا بصورة أو أخرى بالمستوى المتقدم نسبيا الذى كان البرنامج النووى العراقى قد وصل إليه فى تلك الفترة. ولذلك، فإن القيادة الإيرانية عاودت وقتذاك الاهتمام بالبرنامج النووى، حيث جرى الاهتمام بإنشاء مركز جديد للأبحاث النووية فى جامعة أصفهان، علاوة على الاهتمام بدفع وتنشيط البحوث النظرية فى المسائل النووية الأساسية.. وغير ذلك. إلا أن الانطلاقة الحقيقية جاءت فى فترة ما بعد وقف إطلاق النار فى الحرب العراقية - الإيرانية، حيث حاولت إيران فى بادئ الأمر التعاون مع دول أوروبا الغربية فى المجال النووى، إلا أن هذه الدول لم تتجاوب قط مع هذا المسعى الإيرانى، مما اضطر النظام الإيرانى وقتذاك إلى اللجوء للتعاون مع روسيا الاتحادية والصين وكوريا الشمالية.

ويمثل التعاون الإيرانى - الروسى حجر الزاوية فى البرنامج النووى الإيرانى. والثابت أن مباحثات الجانبين بدأت قبيل انهيار الاتحاد السوفيتى السابق، وجاء هذا التعاون ضمن صفقة عسكرية ضخمة تراوحت قيمتها ما بين ٢ . ٤ مليارات دولار، إلا أن الاتفاق على بنود التعاون النووى استغرق فترة طويلة، ولم يتوصل الجانبان إلى اتفاق متكامل فى هذا المجال إلا فى أواخر عام ١٩٩٤، وجرى التوقيع الفعلى على هذه الاتفاقية مع روسيا فى ٨ يناير ١٩٩٥، وتتألف اتفاقية التعاون النووى بين روسيا وإيران من شقين، يتألف الشق الأول من بناء محطة نووية مدنية فى بوشهر يفترض أن يبدأ تشغيلها فى أواخر عام ٢٠٠٤ بقدرة ألف ميجاوات فى البداية، على أن تزداد قدرتها فى الشق الثانى بقوة ألف ميجاوات أخرى. وتبلغ قيمة عقد بناء الشق الأول من محطة بوشهر النووية حوالى ٨٠٠ مليون دولار. وفى الوقت نفسه، تعاقدت أيضا مع الآف العلماء والفنيين الروس سرا للعمل فى المنشآت النووية الإيرانية. وربما بدون علم الحكومة الروسية.

وحسب الاتفاق الأصلى بين إيران وروسيا، فقد كان المفترض أن تنتهى روسيا من إنشاء وتركيب المفاعل الأول عام ٢٠٠٠، إلا أن هذا الموعد تعرض للتأجيل عدة مرات. ويبدو أن التأجيل يعود فى الأساس إلى ضعف مستوى التكنولوجيا النووية فى روسيا، حيث وجد المهندسون والفنيون الروس صعوبات كبيرة فى الاستفادة من المنشآت التى أقامتها شركة سيمنس الألمانية فى محطة بوشهر، بحيث تتلاءم مع المفاعل الروسى طراز (فى فى اى ار ١٠٠٠) ليلائم تلك المنشآت، حيث إن هذا المفاعل يختلف عن المفاعل الأصلى الذى كانت شركة (سيمنس) الألمانية تعتزم إقامته فى محطة بوشهر.

وقد حصلت إيران على مساعدات مكثفة فى المجال النووى من كل من الصين وباكستان وكوريا الشمالية، حيث حصلت من الصين على حوالى ١,٨ طن من اليورانيوم عام ١٩٩١، كما يعمل العديد من العلماء والفنيين الكوريين فى المنشآت النووية الإيرانية. وتشير التقارير إلى أن هناك تعاونا نوويا متطورا للغاية بين إيران وباكستان، حيث تشير بعض التقارير الغربية إلى أن باكستان تعتبر ثانى أكبر مصدر لتكنولوجيا الأسلحة النووية لإيران. وقد ساعد عبد القادر خان، الذى يعتبر العمود الفقرى للمشروع النووى الباكستانى، إيران على مدى عدة سنوات فى مشروعها النووى، حيث شارك فى تطوير تكنولوجيا أساسية لصنع مضخات الطرد المركزى وتطوير جمع معلومات عن اختبار الأسلحة فى أواخر التسعينيات.

غير أن الإشكالية الرئيسية المحيطة بالبرنامج النووى الإيرانى ظلت تتركز حول ما إذا كان هذا البرنامج يقتصر على الاستخدامات السلمية، أم أنه يشتمل على مكونات عسكرية. وقد تمحورت المزاعم الخاصة بوجود مكونات عسكرية فى هذا البرنامج حول ما تردد من أن روسيا زودت إيران بمحطة للطرد المركزى منذ منتصف التسعينيات، للقيام بعملية تخصيب اليورانيوم، وهو ما نفاه الطرفان. وفى فترة لاحقة، ارتكزت هذه التكهنات على أن إيران أنشأت محطة للطرد المركزى فى منطقة نتانز، فيما قدم حجة إضافية للقائلين بوجود مكونات عسكرية سرية فى البرنامج النووى الإيرانى.

وقد مارست الولايات المتحدة دائما ضغوطا عنيفة ومستمرة على روسيا الاتحادية لوقف تعاونها العسكرى عموما، والنووى خصوصا، مع إيران، بحجة أن إيران تسعى إلى إنتاج السلاح النووى. ويقوم الموقف الأمريكى على أن إيران تستغل بناء مفاعل بوشهر كغطاء وذريعة للحصول على التكنولوجيات النووية. وبينما يكون مفاعل بوشهر خاضعا للتفتيش من جانب الوكالة الدولية للطاقة الذرية، فإن هناك مرافق أخرى حساسة فى البرنامج النووى الإيرانى سوف تكون مخبأة ومدفونة جزئياً تحت الأرض.

ومع ذلك، فإن هناك خلافات فيما بين المسئولين والمراقبين الأمريكيين والغربيين بشأن تقييم مدى التقدم الذى تحقق فى البرنامج النووى الإيرانى، حيث يتبنى مسئولو وزارة الدفاع الأمريكية منذ شهر مايو الماضى تقويما مفاده أن إيران أصبحت قادرة على صنع القنبلة النووية بدون أى مساعدة أجنبية، بعد أن أصبحت قادرة بصفة خاصة على صنع أجهزة الطرد المركزى، فى حين أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لا تتفق تماما مع هذا التحليل. وقد وجد مسئولو وزارة الدفاع ومجلس الأمن القومى ووكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية فى الولايات المتحدة صعوبة فى حل الخلافات القائمة فيما بينهم من أجل إعداد وثيقة مشتركة بشأن هذه المسألة.

عبر هذه المراحل المختلفة، وصل البرنامج النووى الإيرانى فى الفترة الراهنة إلى المرحلة الأكثر تطورا فى تاريخه. ومن الممكن أن نفترض هنا أن هذا البرنامج ربما يكون فى الواقع أكثر تقدما حتى مما هو معروف فى الغرب. ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أن معلومات الاستخبارات الأمريكية والغربية، سواء بالنسبة لأنشطة إيران أو غيرها، كانت دائما متأخرة عدة خطوات عن الحقيقة. فالاستخبارات الأمريكية لم تكن على دراية بحقيقة قدرات العراق النووية فى أواخر الثمانينيات، كما لم تكن على إطلاع كامل بحقيقة قدرات كوريا الشمالية، بل ولم تكن حتى على معرفة بحقيقة قدرات إيران ذاتها فى فترة ما قبل زيارة مفتشى وكالة الطاقة الذرية لإيران فى فبراير الماضى، والتى ثبت خلالها أن البرنامج النووى الإيرانى أكثر تطورا مما كان معروفا لدى الغرب، مما يعنى أن هذا البرنامج ربما يكون نتائج أكثر تقدما مما هو معروف بالفعل الآن.

التصعيد الأمريكى والدولى

لم تكن الأزمة النووية بين إيران والولايات المتحدة التى بدأت منذ أواخر العام الماضى هى الأولى من نوعها، بل كان البرنامج النووى الإيرانى مصدرا لتوتر مستمر بين الجانبين منذ منتصف التسعينيات. وبينما تصر إيران على أن برنامجها النووى يندرج بالكامل فى إطار الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية، فإن الموقف الأمريكى يقوم على أن هذا البرنامج يهدف إلى إنتاج

فى ظل عدم كفاية الدوافع الاقتصادية لتبرير النشاط النووى الإيرانى من وجهة نظر الكثير من الباحثين الغربيين، يذهب الكثيرون منهم إلى أن الدوافع العسكرية تعتبر بمثابة المحرك الرئيسى للبرنامج النووى الإيرانى

من يخاف إيران النووية



الأسلحة النووية، وترى الولايات المتحدة أن الجهود الإيرانية المبذولة فى المجال النووى تعتبر أكبر مشكلة للانتشار النووى فى العالم فى الوقت الحالى.

وقد بدأت الأزمة الأخيرة مع توجيه الاتهامات لإيران بأنها قامت ببناء منشأتين نوويتين جديدتين فى منطقتى آراك وناتنز، من أجل إنتاج يورانيوم على درجة عالية من التخصيب، تمهيدا لصنع الأسلحة النووية. وقد تمحورت هذه الاتهامات على أن إيران كانت تقوم بإنشاء مصنع كبير لتنفيذ عمليات فصل الجسيمات عن اليورانيوم، ثم تخصيبها. وكانت الولايات المتحدة قد حصلت على المعلومات الخاصة بهذا الموقع من فصيل من المعارضة الإيرانية يعرف بـ «المجلس الوطنى الإيرانى للمقاومة». ومما أثار الشكوك حول هذا الموقع الذى كان ما يزال قيد الإنشاء أن الفنيين الإيرانيين أقاموا جدرانًا أسمنتية سميكة تحت الأرض، فيما كان يوحى بأن أجزاء من منشأة ناتنز النووية سوف تكون فى نهاية الأمر تحت الأرض. وقد رفضت إيران مراراً طلبات الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالسماح لها بزيارة الموقعين المشتبه فيهما، حيث كان من المفترض أن يقوم المدير العام للوكالة محمد البرادعى بزيارة الموقعين المشتبه فيهما فى منتصف ديسمبر من العام الماضى، إلا أن الحكومة الإيرانية أجلت موعد الزيارة إلى شهر فبراير ٢٠٠٣.

وبرر المسئولون الإيرانيون هذا الموقف وقتذاك بأن منشأتى ناتنز وآراك سوف تستخدمان فى المستقبل فى تزويد المحطات النووية الإيرانية بالوقود، كما أكدوا أنهم كانوا قد زودوا وكالة الطاقة الذرية بمعلومات كاملة بشأن موقعى ناتنز وآراك، ولكنهم لم يسمحوا لمفتشى الوكالة بزيارة الموقعين لأن التفتيش يبدأ فقط مع وصول أول شحنة للمواد النووية إلى المنشأة، وهو ما لم يتحقق حتى مطلع عام ٢٠٠٣.

وقد سمحت السلطات الإيرانية لمفتشى الوكالة الدولية للطاقة الذرية بزيارة هذه المنشآت فى فبراير الماضى، إلا أن هذه الزيارة أدت إلى تعاظم الشكوك، حيث عثر المفتشون فى مدينة ناتنز على ١٦٠ جهازا للفصل عن طريق الطرد المركزى، وأجزاء ١٠٠٠ جهاز آخر، وكانت هذه الأجهزة مخبأة فى مخابئ أرضية على عمق ٧٥ قدما وجدران سمكها ٨ أقدام. وكان اكتشاف هذه الأجهزة دليلا على أن إيران قطعت شوطا طويلا للغاية فى تطوير أجهزة الطرد المركزى، وحققت نجاحا وتقدما أكبر بكثير مما كان العراق قد حققه فى هذا المجال فى أواخر الثمانينيات. وكان هذا الاكتشاف مثار دهشة لكل من الولايات المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية، حيث كان ذلك مؤشرا على التطور السريع والضخم لقدرات إيران فى المجال النووى، وأشار محمد البرادعى مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية إلى أن إيران أصبحت واحدة من ١٠ دول قادرة على صناعة أجهزة الطرد المركزى لغاز اليورانيوم.

ومما زاد من حدة الأزمة أن الوكالة الدولية للطاقة الذرية أعلنت أيضا فى أغسطس الماضى اكتشاف آثار مشعة فى عينات مأخوذة من البيئة فى إيران، مما قد يعنى أن طهران تقوم بتنقية اليورانيوم دون إبلاغ الوكالة، حيث أظهر تحليل هذه العينات وجود مستويات عالية لإخصاب اليورانيوم، بصورة تتطابق مع المستويات الموجودة فى المواد المستخدمة فى إنتاج السلاح النووى، وكانت مستويات الإخصاب مرتفعة بدرجة تثير قلق الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وهو ما زاد الشكوك الأمريكية والدولية من أن الطموحات النووية الإيرانية تتجاوز مجرد الاستخدامات السلمية لها.

وقد نفت الحكومة الإيرانية بشدة أن تكون قد أجرت أنشطة لتخصيب اليورانيوم. وبررت وجود الآثار المشعة بأنها كانت عالقة بآلات مستوردة من الخارج لصنع أجهزة الطرد المركزى، ولم تكن هذه الآثار مرتبطة بعمليات تخصيب قامت بها إيران، إلا أن هذا التفسير لم يكن مقنعا للوكالة، لأن المسئولين الإيرانيين رفضوا الإفصاح عن الجهة التى اشترت منها هذه الأجزاء، كما أن أجهزة الطرد المركزى كانت محلية الصنع تماما.

فى ظل هذا الوضع، كانت الولايات المتحدة تتبنى منذ البداية موقفا يقوم على ضرورة نقل الملف النووى الإيرانى إلى مجلس الأمن، لأن ما كشفته تقارير الوكالة الدولية للطاقة الذرية يمثل «دليلا عن أن إيران انتهكت معاهدة منع الانتشار النووى»، مما يتطلب دعوة مجلس الأمن لمناقشة هذه الانتهاكات الإيرانية، من وجهة نظرها. وزعم مسئولون أمريكيون أنهم لا يحاولون إخراج المسألة النووية الإيرانية من أيدى الوكالة، وإنما يسعون فقط إلى مجرد تكثيف الضغوط على الحكومة الإيرانية من خلال فرض عقوبات عليها من جانب مجلس الأمن، لضمان إذعانها لمطالب الوكالة. أما دول الاتحاد الأوروبى، فقد تبنت موقفا يقوم على إبقاء الملف النووى الإيرانى داخل وكالة الطاقة الذرية، وتفعيل دور الوكالة فى هذه المسألة، بهدف حصرها فى المجال العلمى والفنى لفترة زمنية معقولة، دون الانتقال بها إلى المستوى السياسى المتمثل فى مجلس الأمن.

ورغم أن إيران زادت تعاونها مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى الشهور الأخيرة، إلا أن الوكالة ظلت تثير تساؤلات بشأن العديد من مكونات البرنامج النووى الإيرانى، وفى مقدمتها مصير كميات اليورانيوم التى استوردتها إيران من الصين فى أوائل التسعينيات، وعدم كشف إيران عن كافة منشآتها النووية، وعن مدى التقدم الذى حققته فى مجال تخصيب اليورانيوم. ولذلك، فإن موقف الوكالة يركز على أن هناك العديد من الخطوات الإضافية التى يتعين القيام بها من أجل التأكد من صحة البيانات الإيرانية، وهذه الخطوات ربما يتعذر القيام بها بدون قيام إيران بالتوقيع على البروتوكول الإضافى الذى يتيح لمفتشى الوكالة القيام بعمليات تفتيش مفاجئة واقتحامية للمواقع النووية الإيرانية المشتبه فيها.

ولذلك، فإن التفاعلات الدولية الخاصة بالمسألة النووية الإيرانية أصبحت تتمحور بالكامل حول ممارسة الضغوط على إيران للتوقيع على البروتوكول الإضافى باعتباره المفتاح الرئيسى للخروج من الأزمة. ومع أن إيران لا تمانع من حيث المبدأ من التوقيع على هذا البروتوكول، إلا أن هناك عددا من المخاوف التى تطرحها إيران فى هذا الصدد، وبالذات فيما يتعلق بنقطتين رئيسيتين، الأولى تتعلق بحماية سيادة إيران على أراضيها، بحيث لا تستغل عمليات التفتيش المفاجئ على المنشآت النووية الإيرانية فى انتهاك سيادة إيران أو استغلالها كستار للتجسس على إيران، وبالذات التجسس على برنامج الصواريخ الباليستية الإيرانية. والثانية تتمثل فى ضمان حق إيران فى الحصول على التكنولوجيا النووية المتطورة الخاصة بالاستخدامات السلمية للطاقة الذرية، وإسقاط الولايات المتحدة للعقوبات المفروضة على إيران فى هذا المجال.

كثيرا من الباحثين الإيرانيين يعتقدون أن واشنطن لم ترتدع عن الهجوم على العراق فى حربى ١٩٩١ و٢٠٠٣ لأن نظام صدام لم يكن يمتلك أسلحة نووية، فى حين أن السيناريو كان سيختلف فيما لو كانت بغداد تمتلك هذه الأسلحة

سيناريوهات تطور الأزمة

أصبحت المسألة النووية الإيرانية بمثابة الذريعة الرئيسية التى تستغلها الولايات المتحدة فى الضغط على إيران. فعلى الرغم من أن الإدارة الأمريكية تشعر بالفعل بقلق شديد من احتمال امتلاك إيران لسلاح نووى، لما يمثله ذلك من تهديد لهيمنتها على منطقة الخليج، ولما قد



من يخاف إيران النووية

يمثله ذلك من تهديد للاحتكار النووي الإسرائيلي في الشرق الأوسط، فإن ما يزيد من حدة الأزمة النووية الإيرانية أنها تتداخل أيضا مع رغبة أمريكية جارفة في الضغط من أجل إحداث تحولات سياسية داخلية في إيران، على الأقل من أجل تمكين الإصلاحيين من فرض نفوذهم بالكامل على النظام السياسي الإيراني، بما قد ينطوي عليه ذلك من تغيير في التوجهات الاستراتيجية للسياسة الخارجية الإيرانية، بحيث تصبح أقل تشددا وأكثر اقترابا من السياسة الأمريكية.

في ظل هذا الوضع، يمكن القول أن هناك ثلاثة سيناريوهات أساسية سوف تحدد تطور الأزمة النووية بين إيران والوكالة الدولية للطاقة الذرية، وهي:

١. سيناريو استمرار الوضع الحالي، وهو سيناريو يقوم على استمرار إيران في تبني موقف غير حاسم، سواء من حيث عدم التوقيع على البروتوكول الإضافي أو من حيث عدم وقف التعاون نهائيا مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، مع استمرار الجدل الداخلي في إيران بالنسبة للموقف من البروتوكول المذكور. والواقع، أن هذا السيناريو كان يمثل الخط الرئيسي للسياسة الإيرانية أثناء الأزمة منذ بدئها عقب زيارة مفتشي الوكالة لإيران في فبراير الماضي. وكانت هذه السياسة تقوم على افتراض أن التعاون الواسع مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، حتى بدون التوقيع على البروتوكول الإضافي، ربما يساعد على تبديد شكوك مسئولي الوكالة، ومن ورائهم العديد من الدول الغربية. كما اشتملت هذه السياسة على تكثيف الاتصالات المنفردة مع أطراف الأزمة (المدير العام لوكالة الطاقة الذرية، وروسيا الاتحادية، وبعض الدول الأوروبية) في محاولة لتحييدها أو تقليل حدة مواقفها إزاء المسألة النووية الإيرانية.

غير أن استمرار هذا السيناريو أصبح متعذرا في ظل «الإنذار النهائي» الذي وجهه مجلس أمناء الوكالة الدولية للطاقة الذرية لإيران وإمهالها حتى أواخر أكتوبر الجاري للكشف عن مختلف عناصر برنامجها النووي، بحيث أصبح أمام إيران إما قبول التوقيع على البروتوكول الإضافي والخضوع للتفتيش الشامل وغير المشروط من قبل الوكالة أو رفض قبول هذه الصيغة ككل، وتبني موقف متشدد يقوم على وقف التعامل مع الوكالة، بما في ذلك إمكانية الانسحاب من معاهدة منع الانتشار النووي تماما.

٢. سيناريو التوقيع على البروتوكول الإضافي، وهو سيناريو يقوم على قبول إيران بالخضوع الكامل للرقابة والتفتيش المفاجئ من قبل الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وهناك العديد من المحفزات والقيود التي تحكم موقف الحكومة الإيرانية من هذا السيناريو. فمن حيث المحفزات، فإن العديد من الإصلاحيين داخل الحكومة والبرلمان في إيران يطالبون بالفعل باتخاذ هذه الخطوة باعتبارها مخرجا من الأزمة، ولأنها يمكن أن تساعد إيران على كسب تأييد العديد من الدول الكبرى، إلا أن القيد الأساسي هنا يتمثل في أن الولايات المتحدة لم تبد تجاوبا يذكر مع الشرطين اللذين حددتهما إيران لقبول التوقيع على البروتوكول، بل وليست هناك حتى آلية واضحة ومحددة تضمن الاستجابة لشروط ومطالب إيران في هذه المسألة. وليس هناك من شك في أن عدم حصول حكومة خاتمي على أي شيء مقابل التوقيع على البروتوكول سوف يضعف موقفها الداخلي، ولاسيما في مواجهة المحافظين المتشددين، مما قد يفرض سقفا على موقفها في الأزمة.

ولكن هذا الخيار سوف يكون مكلفا للغاية بالنسبة لإيران، حيث يبدو في حكم المؤكد أن التوقيع على البروتوكول سوف يؤدي إلى الكشف عن كافة المعلومات الحيوية المتعلقة بحقيقة النشاط النووي الإيراني.

٣. سيناريو انسحاب إيران من معاهدة منع الانتشار النووي. وهذا السيناريو يبدو محتملا للغاية في حالة تصاعد الأزمة النووية بين إيران والوكالة الدولية. فإذا كانت إيران تنفذ بالفعل برنامجا سريا لإنتاج السلاح النووي، فإنها لن تقبل التوقيع على البروتوكول الإضافي والكشف عن حقيقة أنشطتها النووية، لأن ذلك سوف يقضي عليها تماما، بل وربما الانسحاب تماما من المعاهدة. ومن المنطقي أيضا أن نتصور أنه إذا كانت إيران تنفذ بالفعل برنامجا نوويا سريا، فلابد أن تكون مدركة منذ فترة طويلة من الزمن أنه لابد أن تحين لحظة المواجهة في وقت ما، عندما يكتشف العالم الخارجي هذه الحقيقة، ولابد أن يكون الإيرانيون قد استعدوا وتحسبوا طويلا لهذه اللحظة. صحيح أن موقف إيران سوف يكون أقوى في حالة نجاحها فعليا في إنتاج السلاح النووي مما لو كانت لاتزال في مرحلة البحث والتطوير، إلا أن من غير المتوقع في جميع الأحوال أن تتخلى إيران بسهولة عما حققته في هذا البرنامج، ولاسيما أنها لن تكون بمنأى في تلك الحالة عن العقوبات الدولية حتى لو تعاونت بالكامل مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وربما تكون المناورات الدبلوماسية التي تقوم بها إيران منذ بداية الأزمة النووية الحالية محاولة لتأجيل وتأخير لحظة المواجهة لأطول فترة ممكنة.

وربما تجد إيران. في ظل هذا السيناريو. أن نقل الملف إلى مجلس الأمن وفرض عقوبات اقتصادية على إيران لن يكون مكلفا لها بنفس القدر الذي يمكن أن يحدث في حالة التوقيع على البروتوكول والكشف الكامل عن البرنامج النووي الإيراني وإجهاض فرص إيران في امتلاك السلاح النووي، بل واحتمال تعرضها لعقوبات اقتصادية، إذا ما ثبت لاحقا أنها انتهكت معاهدة حظر الانتشار النووي، ناهيك عن أن العقوبات الاقتصادية التي قد تتعرض لها إيران في حالة الانسحاب الكامل من المعاهدة لن تكون أسوأ أو أكثر تأثيرا مما سبق أن تعرضت له إيران بالفعل منذ قيام الثورة.

ومما يمكن أن يشجع إيران على تبني هذا السيناريو أن خيار العمل العسكري الأمريكي ضدها يبدو غير وارد في المديين القصير والمتوسط على الأقل. فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة تنشر قوات عسكرية ضخمة على الحدود الجنوبية والغربية لإيران، في كل من أفغانستان والعراق، وأيضا في العديد من دول المنطقة، وكذلك وجودها العسكري البحري المكثف في مياه الخليج، فإن انغماسها الكامل في الشئون الداخلية العراقية وبدء حملة الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، جنبا إلى جنب مع قدرات إيران العسكرية، كل ذلك قد يحد من قدرة الولايات المتحدة على القيام بعمل عسكري ضد إيران. وسوف تتضاءل فرص العمل العسكري الأمريكي ضد إيران تماما في حالة ثبوت امتلاك الأخيرة للسلاح النووي أو اقترابها من ذلك.

والخلاصة أن المؤشرات المتاحة تدل على أن التصعيد الذي شهدته المسألة النووية بين إيران والوكالة الدولية للطاقة الذرية ربما تكون مجرد بداية لأزمة عنيفة بين الجانبين. فإيران لن تتخلى بسهولة عما تحققه في برنامجها النووي، ولاسيما إذا كانت قد اقتربت الآن بالفعل من امتلاك السلاح النووي، في حين أن الولايات المتحدة بالذات لن تسمح لإيران بدخول النادي النووي لما يمثله ذلك من تهديد لمصالحها الإقليمية في منطقة الخليج والشرق الأوسط، وهو ما قد يفتح الباب أمام أزمة ممتدة لا تقل ضراوتها وحدتها عن أزمة أسلحة الدمار الشامل العراقية. ■

يتبنى مسئولو وزارة الدفاع الأمريكية تقويما مفاده أن إيران أصبحت قادرة على صنع القنبلة النووية بدون مساعدة أجنبية، في حين أن وكالة الاستخبارات المركزية لا تتفق تماما مع هذا التحليل



إسرائيل والمشروع النووي الإيراني

إبراهيم عبدالكريم

يحتفظ الذهن السياسي الإسرائيلي بصورة محددة لإيران، تبدو فيها دولة معادية وتهدد إسرائيل وجوداً ومصيراً. ويرجع تكوين هذه الصورة إلى الخطاب الأيديولوجي. السياسي والمواقف العامة لإيران منذ الإطاحة بنظام الشاه وتكوين الجمهورية الإسلامية عام ١٩٧٩، وتركز إسرائيل في نهجها إزاء إيران على المواقف التي تتخذها طهران من موضوعات شتى تتعلق بالصراع والمواجهة مع إسرائيل، ومنها دعم حزب الله ومنظمات المقاومة الفلسطينية والتعاون مع سورية في مجالات عدة، فضلاً عن مناهضة إيران للسياسة الإسرائيلية. ومسألة التسلح الإيراني وتطوير القدرات العسكرية الاستراتيجية.

لهذا تتابع إسرائيل بقلق وتحفز كبيرين ما يجري في إيران، بطرق استخبارية ودراسية أساساً، لتكون معلوماتها في خدمة التخطيط الأمريكي. الإسرائيلي المشترك. وتبدي إسرائيل حساسية مفرطة لتطورات المشروع النووي الإيراني الذي تعتبره ـ لدى اكتماله ـ أنه يفقدها احتكار الأسلحة النووية ويقوض مبدأ الردع القائم على هذا الاحتكار، وترى في القنبلة النووية الإيرانية الخطر الأكبر على الأمن الإسرائيلي.

في سياق التحريض ضد إيران، وكتلخيص للتوجهات الإسرائيلية في هذا المنحى، يوحي سيل المواد المنشورة في إسرائيل حول «الخطر الإيراني» أن هناك مسعى واضحاً لوضع إيران في مقدمة الأطراف المستهدفة أمريكياً بعد العراق. والاعتبارات الرئيسة لذلك، كما حددها وزير الخارجية الإسرائيلي سلفان شالوم خلال زيارته لواشنطن، أن إيران تمثل خليطاً خطراً من الأيديولوجيا المتطرفة، وتأييد «الإرهاب»، والمحاولات المستمرة لحيازة أسلحة الدمار الشامل (معاريف١/٤/٢٠٠٣). واعتبر سلفان شالوم . خلال كلمة ألقاها أمام أعضاء اللوبي اليهودي الأمريكي (إيباك) في مدينة تل أبيب (يوم٤/٧/٢٠٠٣). أن إيران تُشكل تهديداً حقيقياً على استقرار المنطقة، وأن إسرائيل ليست الدولة الوحيدة التي تعاني جراء ذلك (يديعوت ٤/٧/٢٠٠٣). والمقصود هنا . ضمن أمور أخرى . دعوة مبطنة للتعاون بين إسرائيل والدول التي يتهددها الخطر الإيراني المزعوم إسرائيلياً.

توصيف الخطر:

تعتبر الأخبار والتقارير والتحليلات المتعلقة بالمشروع النووي الإيراني من المواد التي يتواتر نشرها في الصحف الإسرائيلية، ويسهم المسئولون الإسرائيليون بقسط كبير من الحديث عنه، في سياق محاولة تحديد المستوى الذي تبلغه إيران في مشروعها النووي. وقد أكدت صحيفة هآرتس في العام الماضي أن إيران تحاول امتلاك سلاح نووي في مسار مزدوج/ بناء مفاعل نووي لإنتاج الكهرباء في بوشهر، يستطيع إنتاج البلوتونيوم وإقامة منشأة لإخصاب اليورانيوم، والمفاعل الذي تقيمه شركات روسية هو منشأة مكشوفة، تخضع لرقابة دولية، ولكن منشأة الإخصاب سرية. وتعتقد إسرائيل والولايات المتحدة أن إيران ستحرز قدرات نووية أولية في العقد الراهن، ولكن ثمة خلافات بينهما حول الجدول الزمني. وحذر شارون في زيارته لواشنطن من أن إيران ستتحول إلى قوة نووية عظمى في ٢٠٠٥. أما وزير الدفاع الإسرائيلي السابق بنيامين بن إليعيزر فقال. في ختام كلمة ألقاها أمام مؤتمر قيساريا الاقتصادي الذي عقد في مدينة القدس.: إن إيران ستمتلك قدرة نووية خلال ثلاث سنوات، وإنها تشكل الخطر الأكبر على إسرائيل، وهي تمتلك صواريخ «شهاب ٣» التي يصل مداها إلى إسرائيل، وتعمل على تطوير صواريخ من طراز «شهاب ٤» (يديعوت٣/٧/٢٠٠٢).

وتحدث المعلق العسكري الإسرائيلي اليكس فيشمان عما أسماه «استعداد الجيش الإسرائيلي للقنبلة النووية الإيرانية في العام ٢٠٠٥» وقال: إن التهديد النووي لم يعد مسألة نظرية، فللمرة الأولى يقوم الجيش الإسرائيلي بإعداد خطة عمله للسنوات الخمس القادمة في ظل خطر نووي ملموس من جانب دولة معادية هي إيران، التي يقدر خبراء الذرة والاستخبارات في الغرب بأنها حسب الوتيرة الحالية ستمتلك القنبلة النووية حتى عام ٢٠٠٥، وذكر فيشمان أن رئيس قسم الأبحاث في شعبة الاستخبارات العسكرية في حينه العميد عاموس جلعاد طرح في صيف ١٩٩٦ القنبلة النووية الإيرانية على جدول الأعمال الأمني الإسرائيلي، وحذر من أن النظام الإيراني يقوم بتطوير ذراع استراتيجي يجمع بين عائلة صواريخ أرض - أرض بعيدة المدى مع السلاح النووي. وصار الشعور في شعبة الاستخبارات العسكرية هو أن هناك سباقاً مع الزمن، وأن إسرائيل لن تكون قادرة على منع الخطر المحدق وحدها، خلافاً لمسألة المفاعل النووي العراقي. ومن جهتهم، يحاول الإيرانيون كسب الوقت في موضوع التوقيع على «البروتوكول الإضافي»، ويطالب المحافظون في الدوائر الإيرانية الحاكمة بالخروج من معاهدة حظر نشر السلاح النووي، فهم يعتبرون أن أمريكا تنوي مهاجمة إيران، ولذلك يتوجب استكمال المشروع النووي بسرعة مع تجاهل الضغوط. وينتصب أمام ناظريهم نموذج كوريا الشمالية حيث تتمخض القنبلة عن الردع، أما العراق فلم يكن يملك قنبلة ولذلك تعرض للهجوم. وأضاف فيشمان: عندما ستحصل إيران على السلاح النووي ستستكمل الصورة من وجهة نظرها، حيث ستفقد إسرائيل أحد عناصر قوتها الردعية الأساسية. فالعالم العربي يعتقد اليوم أن لدى إسرائيل ٤٠٠ قنبلة نووية يمكنها من خلالها أن تدمر الشرق الأوسط مئات المرات، وظهور قوة ردعية نووية إيرانية يمكنه أن يزيل هذا التفوق؛ وفي مثل هذا الوضع سيتسبب ذلك بازدياد إقدام الجهات الأصولية للمس بإسرائيل لأن قدراتها على الرد ستصبح محدودة (يديعوت٨/٨/٢٠٠٣).

وفي تحليل بعنوان «ماذا يخفي الإيرانيون؟» قال البروفسور جيرالد شتاينبرغ (رئيس قسم الإدارة وحل النزاعات في جامعة بار إيلان): في وضعنا الحالي، لا يشكل المفاعل الإيراني بالنسبة لنا تهديداً حقيقياً، ولكن الإيرانيين يواصلون تطويره، ولديهم البنية التحتية التكنولوجية لتحويل قسم من المواد ومن المنشآت المرافقة الموجودة تحت تصرفهم لإنتاج قنبلة نووية، وعلينا أن نكون قلقين جداً من التقدم الحثيث في المسيرة الجارية الآن في إيران، ففي غضون سنة حتى ثلاث سنوات بإمكان الإيرانيين أن يستكملوا إقامة البنية التحتية لإنتاج مواد إشعاعية تشكل عناصر لإنتاج القنابل النووية (يديعوت١٥/٨/٢٠٠٣).

وازداد التركيز الإسرائيلي على الموضوع بعد مصادقة الحكومة الإيرانية (في آب/ أغسطس ٢٠٠٣) على تنفيذ

تحرص إسرائيل على التنسيق مع الولايات المتحدة فى شئون المشروع النووى الإيرانى، على نحو يكاد يفوق العديد من موضوعات الاهتمامات الخارجية الإسرائيلية. ويتخذ هذا التنسيق مناحى متعددة

المرحلة الثانية من مشروع إنشاء محطة طاقة نووية فى بوشهر، حسب ما أفادت به وكالة الطاقة الذرية الإيرانية، وستتيح هذه المصادقة للوكالة البدء فى إجراء القياسات والتوقيع على عقود فى هذا الشأن، وذلك بعد أن تم إنجاز المرحلة الأولى من المشروع النووى الذى تقدر قوته بنحو ألف ميغاوات، بمساعدة من روسيا. ومن المنتظر أن يبدأ تشغيل المحطة النووية خلال العام ٢٠٠٤ (يديعوت إنترنت ٢٠٠٣/٨/١٤)

على الرغم من أن الإيرانيين أكدوا مراراً أن محطة الطاقة النووية تقتصر على الأغراض المدنية، إلا أن إسرائيل ظلت على طول الخط تصرخ بأعلى صوتها محذرة من الهوية العسكرية للمشروع النووى الإيرانى الذى يكاد يصل إلى هدفه، وبالتالى إلى فرض ذاته كأمر واقع على الساحة الدولية، الأمر الذى يغذى لدى إسرائيل التطلع إلى وأده قبل فوات الأوان.

الموقف الأمريكى:

تحرص إسرائيل على التنسيق مع الولايات المتحدة فى شئون المشروع النووى الإيرانى، على نحو يكاد يفوق العديد من موضوعات الاهتمامات الخارجية الإسرائيلية. ويتخذ هذا التنسيق مناحى متعددة، ابتداء بالتزويد بالمعلومات، ومروراً بسبل العمل على الساحة الدولية، وانتهاء بمسألة التصدى العملى لذلك المشروع. ومن المحطات التى يمكن الوقوف عندها، أن «الخطر الإيرانى» كان فى صلب المحادثات التى أجراها فى إسرائيل (فى ٢٠٠٣/٢/١٧) نائب وزير الدفاع الأمريكى لشئون الأمن ومراقبة الأسلحة جون بولتون (المعروف بكونه أحد الصقور فى إدارة بوش والمقرب من البيت الأبيض والصديق الداعم لإسرائيل). حيث خصصت زيارته للبحث فى منع انتشار أسلحة الدمار الشامل. وأعرب المسؤولون الإسرائيليون فى هذه اللقاءات عن قلقهم من زيارة مدير الوكالة الدولية للطاقة النووية محمد البرادعى إلى إيران، الذى دعى إلى جولة فى منشأتين جديدتين كشفت المعارضة الإيرانية عنهما، هما مصنع لتخصيب اليورانيوم ومصنع لإنتاج المياه الثقيلة. ورأت إسرائيل فى هذه الدعوة محاولة إيرانية للحصول على شرعية دولية أو ما وصفته بأنه «شهادات ترخيص». وأعاد الإسرائيليون إلى الأذهان إعلان الرئيس الإيرانى محمد خاتمى بأن بلاده تعتزم استخراج اليورانيوم من مناطق محلية بهدف استخدامه فى إنتاج وقود نووى لتشغيل مفاعلاتها، وأن إيران تريد أن تكون لها سيطرة تامة على «دائرة الوقود النووى»، أى على استخراج اليورانيوم وتخصيبه. واعتبر الإسرائيليون أن السيطرة على «دائرة الوقود» ستدفع بإيران نحو إنتاج السلاح النووى وستخلصها من التعلق بعناصر خارجية (هآرتس٢٠٠٣/٢/١٨).

ونشر تقرير آخر جاء فيه أن الإدارة الأمريكية غيرت تقديراتها المتعلقة بالوقت الذى سيستغرقه تسلح إيران بأسلحة نووية. وحسب التقرير، ترجح التقديرات الآنية الصادرة عن مسئولين أمريكيين، حصول إيران على مثل هذه الأسلحة فى غضون سنتين فقط، وليس عدة سنوات، كما أكدت تقديرات سابقة. وكان الوزير نتان شرانسكى قد استمع إلى هذه التقديرات خلال سلسلة من اللقاءات التى أجراها مع مسئولين فى وزارة الدفاع والخارجية والأمن القومى الأمريكية. وأشار التقرير إلى أن الوزير شرانسكى تحاور أيضاً مع مسئولين روس رفيعى المستوى، وكان انطباعه من تصريحاتهم بأنه «لأول مرة يساور الإدارتين الأمريكية والروسية قلق مماثل بخصوص التهديد الإيرانى».

العمل على الخط الروسى:

على خلفية المساعدة التى تقدمها روسيا للمشروع النووى الإيرانى، اعتبر الإسرائيليون أن خط علاقتهم مع موسكو يمكن أن يتيح لهم عرض وجهة نظرهم حول خطر ذلك المشروع على الأمن الإسرائيلى، والحلم بدفعها إلى تقليص المشاركة الروسية فيه. ومما ظهر فى هذا الشأن، عرض رئيس الحكومة الإسرائيلية أرئيل شارون أمام الرئيس الروسى بوتين قلق إسرائيل من الإمكانية بأن بناء المفاعل النووى فى بوشهر فى إيران من قبل روسيا سوف يساعد إيران فى إنتاج السلاح النووى. ولكن بوتين أكد الموقف التقليدى لروسيا والذى يحدد بأن هذا المفاعل سوف يستخدم لإنتاج الطاقة لأغراض سلمية، وهذا المفاعل يخضع لمراقبة مشددة من قبل الخبراء الروس والوكالة الدولية للطاقة الذرية (هآرتس٢٠٠٢/١٠/١).

وطالب وزير الخارجية الإسرائيلى سلفان شالوم نظيره الروسى إيغور إيفانوف، خلال لقائه به فى العاصمة الروسية موسكو، بأن توقف بلاده دعمها لمشروع بناء المفاعل النووى الإيرانى. وأكد شالوم خلال مؤتمر صحفى عقد فى ختام اللقاء بين الاثنين أنه «يحظر علينا أن نسمح لإيران بتطوير سلاح نووى لأغراض عسكرية، لأن هذا السلاح يمكن أن يهدد الأمن والسلام فى العالم». وقالت مصادر سياسية إسرائيلية أدلت بتصريحات ذات صلة بالموضوع، إن إسرائيل ترى أن ثمة مخاطر تكمن فى التعاون الروسى الإيرانى. وحسب ما تقوله هذه المصادر، فإن المفاعل النووى الإيرانى فى بوشهر طور لأغراض عسكرية، وعليه يحظر على أية دولة تقديم الدعم لمثل هذا المشروع، وإن المشروع النووى الإيرانى يمكن أن يهدد جميع الجمهوريات الرئيسية فى ما كان يعرف سابقاً بالاتحاد السوفيتى. ويشار إلى أن إسرائيل كررت هذه الادعاءات فى السابق، لكنها تأمل أن يبدى الجانب الروسى هذه المرة انتباهاً أكبر، على ضوء الأحداث التى شهدتها الساحة الدولية (يديعوت٢٠٠٣/٦/٩). وذكر سلفان شالوم، خلال كلمة ألقاها أمام أعضاء اللوبى اليهودى الأمريكى (إيباك) فى مدينة تل أبيب(يوم٢٠٠٣/٧/٤). أنه حذر نظيره الروسى إيغور إيفانوف أثناء اللقاء الذى جرى بينهما مؤخراً من أن الصواريخ التى تعمل إيران على تطويرها بمساعدة من موسكو يمكنها أن توجه إلى جنوب روسيا (ديانا بحور، يديعوت ٢٠٠٣/٧/٤).

غنى عن البيان أن الحديث الإسرائيلى عن الخطر الإيرانى على روسيا، الذى يعد بمثابة تحريض مباشر، يرمى إلى دفع موسكو للعدول عن نهج التعاون مع إيران والمرابطة فى الخندق الإسرائيلى ـ الأمريكى.

الـــردع المـــزدوج:

ضمن محاولات إسرائيل بدعم من الولايات المتحدة لبلورة ضغط دولى لوقف البرنامج النووى الإيرانى، كرر المسئولون الإسرائيليون فى اللقاءات الثنائية وفى المحافل الدولية دعوتهم لتشكيل حشد دولى فى مواجهة إيران. وقد عبر وزير الخارجية الإسرائيلى سلفان شالوم، خلال كلمة ألقاها أمام أعضاء اللوبى اليهودى الأمريكى (إيباك) فى مدينة تل أبيب(يوم٢٠٠٣/٧/٤)، عن شعوره «بالتشجيع الكبير» إزاء المطالب التى طرحتها أوروبا أمام إيران، والمتعلقة بالتوقيع على «البروتوكول الإضافى» لمعاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية. ويعنى توقيع إيران على هذا البروتوكول سماحها لمراقبى اللجنة الدولية للطاقة الذرية بتفتيش المواقع النووية الإيرانية، وحتى القيام بتفتيش مفاجئ. وتعليقاً على تصريح نائب الرئيس الإيرانى بأن بلاده توافق على الطلب الأوروبى، قال شالوم: هذا لا يكفى، وطالما كان النظام الحاكم هناك متطرفاً، فإن التوقيع على البروتوكول مجرد بداية للعملية، لأن النظام الإيرانى سيصبح أكثر تطرفاً فى المستقبل (يديعوت ٢٠٠٣/٧/٤).. ماذا يريد الإسرائيليون إذن؟!

حول النهج الإسرائيلى فى هذا الخصوص، كتب شمعون بيرس (وزير خارجية إسرائيل السابق والزعيم المؤقت الحالى لحزب العمل) مقالاً بعنوان «ما الذى ينبغى توضيحه لإيران» ذهب فيه إلى أن إيران تقيم فى داخلها «محور شر» مضاعفاً، فهى أكبر مركز للإرهاب فى الشرق الأوسط، وتقوم بتطوير خيارات نووية منوعة وتقترب من تطبيقها من خلال استثمار مبالغ ضخمة. وأضاف: لقد أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية، أن إيران تخرق شروط الرقابة التى وافقت عليها، فهى لم تبلغ عن امتلاكها لمواد نووية وعن تصنيعها وطرق تخزينها، كما أنها لا تسمح بمراقبة منشآتها النووية. وقال بيرس: ليس هناك ما هو أسوأ من الدمج بين النظام المظلم والسلاح النووى، وإن آيات الله الذين يؤيدون أعمال القتل ويمنحون رعايتهم للتنظيمات الإرهابية ويمتلكون السلاح النووى، يشكلون خطراً رهيباً على العالم كله. وحول ما الذى يجب عمله لمواجهة هذا الخطر، بعد الحملة العسكرية فى أفغانستان، والحرب فى العراق، ذكر بيرس أن الخيار الصحيح يكمن فى توجيه تحذير جدى إلى إيران، من قبل الدول ذات الشأن (بما فيها أمريكا وروسيا والاتحاد الأوروبى) كى تتخلص من الإرهاب وتوقف الجهود التى تبذلها لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، ويجب أن يتم التوضيح لإيران الآن بأنه لا يمكنها

البرنامج النووي الإيراني لا يتركز في مكان واحد، بل في عدة مواقع، وجميعها محمية جيداً، ومن أجل تصفية هذا المشروع، لا يمكن الاكتفاء بطلعة قصف واحدة أو اثنتين، بل يلزم الاستعداد لحملة عسكرية واسعة

مواصلة ما تفعله، لأن صبر العالم يقارب على الانتهاء. ورأى بيرس أنه طالما كانت إيران تعتقد بأنه يمكنها التلاعب بالعالم المنشق وتعميق هذا الانشقاق فستواصل الإنكار وتسريع تقدمها الخطير نحو خلق حالة غير محتملة. وشدد بيرس على أن التحذير المشترك، المدعوم بالتهديد بفرض عقوبات اقتصادية، هو أفضل ما يتيح إنقاذ إيران من أخطائها، وتوفير الحاجة إلى انتهاج الخيار العسكري مرة أخرى، وأن المطلوب فوراً توفر استراتيجية سياسية موحدة وقوية في سبيل التخلص من التهديد المتزايد يومياً (يديعوت ١٩/٦/٢٠٠٣).

الخيار الإسرائيلي:

لم تقتصر مسألة العمل الإسرائيلي المباشر ضد المشروع النووي الإيراني على المداولات السرية مع الولايات المتحدة والدول الحليفة، وإنما طرحت بصراحة في الأوساط الصحفية، وأصبح الحديث عن ذلك أمراً اعتيادياً. وعلى سبيل المثال، في صيف ٢٠٠٢، ذكرت صحيفة «واشنطن بوست» أن إسرائيل بعثت بتهديدات عديدة لإيران، لأنها ترى بالمفاعل النووي في بوشهر تهديداً أمنياً عليها. وأفادت الصحيفة بأنه خلال السنوات السبع الأخيرة، صورت أقمار تجسس أمريكية وإسرائيلية السواحل الإيرانية والتقطت صوراً لطواقم بناء روسية وإيرانية، وهي تستكمل بناء المفاعل النووي. وقد ظهرت في الصور التي التقطتها أقمار التجسس قبة مستديرة تميز المفاعل النووي، وأنابيب تبريد، وأجهزة ضخ، وأجهزة تعتقد مصادر استخبارية أنها بطاريات صواريخ مضادة للطائرات. وسئل مصدر في واشنطن يعلم بالموقف الإسرائيلي: هل يوجد لإسرائيل خيار عسكري؟ فأجاب: نعم. ويتعرض الرئيس بوش لضغوط أوساط مسئولة في وزارة الدفاع الأمريكية، تدعي أنه يجب تدمير المفاعل النووي في بوشهر، قبل أن يتم إنتاج قنابل نووية. وقال الخبير في شئون الشرق الأوسط أنتوني كوردسمان: «هناك تأييد في الإدارة الأمريكية لعملية وقائية» (يديعوت ٣٠/٧/٢٠٠٢).

تشير هذه الأقوال الصريحة إلى أن قصف المفاعل الإيراني يحتل على مستوى التفكير الإستراتيجي الأمريكي جزءاً من مساحة الترجيح الذي يصل إلى مرتبة القناعة الجازمة. ومن المتوقع أن يكون الطرف الذي يقوم بالمهمة مدار بحث، في ضوء تطورات الأحداث والحسابات المشتركة. ولهذا أكثر المسئولون الإسرائيليون من طرح الموضوع مع إدارة الرئيس بوش بشأن التوصل إلى موقف موحد. ففي الصيف الماضي، خلال زيارة رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية أهرون زئيفي فركش لواشنطن، التي وصفتها محافل إسرائيلية بأنها عادية فصلية في إطار التعاون الاستخباري بين إسرائيل والولايات المتحدة، تبين أن فركش تحدث خلالها عن التهديد النووي من جانب إيران. وأفاد تقرير صحفي أن إسرائيل قدمت للولايات المتحدة معلومات كثيرة عن المخططات النووية الإيرانية وعن مدى تقدم طهران نحو تحقيق السلاح النووي. وبالمقابل، طلبت إسرائيل من الإدارة الأمريكية زيادة العمل على الصعيد الدبلوماسي والدولي لوقف المساعدات الروسية للمشروع النووي الإيراني (هآرتس ٢٥/٦/٢٠٠٣). وجاء في تقرير لاثنين من كبار الصحفيين الإسرائيليين أن شارون خلال زيارته لواشنطن عرض على بوش صوراً جوية للمشروع النووي في إيران. وكشف التقرير أن الجولة الثانية من مباحثات شارون بوش جرت خلال وجبة الغداء وبمشاركة جميع الطواقم حيث كرست هذه الجولة كلها للحديث عن القضايا الإقليمية وليس عن القضية الفلسطينية. وقال التقرير إن بوش سأل شارون عن تقديرات إسرائيل لمسألة التسلح النووي في إيران، وعندها طلب شارون من مستشاره العسكري الجنرال يوآف غلانت إطلاع بوش على الملف الأكثر سرية للمسألة الإيرانية. فقام الأخير بتسليم بوش صوراً جوية للموقع النووي الإيراني في بوشهر وغيره، وهي صور تثبت. كما ورد في التقرير، أن المفاعلات الإيرانية هي لأهداف عسكرية وليس بهدف توليد الكهرباء كما تدعي إيران. وأضاف التقرير: لقد تمعن بوش في هذه الصور، وقال: إن هذه المعلومات تتفق مع المعلومات الاستخبارية التي تملكها الولايات المتحدة، ثم أضاف: يجب أن نوقف هذا الأمر (ناحوم برنيع وشمعون شيفر، يديعوت ٣٠/٧/٢٠٠٣).

كما ظهرت تحليلات إسرائيلية متعددة بخصوص تحذير المتحدث باسم وزارة الخارجية الإيرانية حميد رضا آصفي لإسرائيل من مغبة مهاجمة منشآت إيران النووية، وقوله إن الكيان الصهيوني سيدفع ثمناً باهظاً إذا ما سولت له نفسه تنفيذ ما يفكر به. ومما يجدر التوقف عنده، اعتقاد بعض المهتمين الإسرائيليين بالصعوبة البالغة التي تعترض الهجوم على المشروع النووي الإيراني، والتشكيك بإمكانية نجاح إسرائيل في تحقيق هدفها. وكمثال، تحدث المعلق العسكري عميت كوهين عن مغزى التهديدات الإيرانية لإسرائيل من مغبة قصف المشروع النووي الإيراني، وقال: في الوضع الحالي للأمور، فإن قدرة إيران على ضرب الجبهة الداخلية الإسرائيلية تفوق قدرة إسرائيل على إحباط البرنامج النووي الإيراني، وإن الخطر الفوري هو الصواريخ بعيدة المدى لحزب الله، والتي تشكل ذراعا إيرانياً بكل معنى الكلمة، فقد بعثت طهران بهذه الصواريخ إلى لبنان، ضمن أمور أخرى، كي «تقصر المدى» لإسرائيل. وإن حراس الثورة الإيرانية الذين يمكثون في لبنان، يحوزون صواريخ يصل مداها إلى نحو ٢٠٠ كيلو متر وتحمل ٦٠٠ كيلو جرام من المواد المتفجرة، وتستخدم هذه الصواريخ كسلاح استراتيجي يرمي إلى خلق ردع ضد هجوم إسرائيلي في العمق الإيراني. ويجدر بالذكر أن إسرائيل ستجد صعوبة في تصفية البرنامج النووي الإيراني في حملة «جرة قلم وانتهينا»، فدرس تفجير المفاعل العراقي في العام ١٩٩١ استوعب جيداً لدى الإيرانيين، فالبرنامج النووي الإيراني لا يتركز في مكان واحد، بل في عدة مواقع، وجميعها محمية جيداً، ومن أجل تصفية هذا المشروع، لا يمكن الاكتفاء بطلعة قصف واحدة أو اثنتين، بل الاستعداد لحملة عسكرية واسعة (معاريف ١٩/٨/٢٠٠٣).

هنا يتجلى الدور الذي يريد الإسرائيليون للولايات المتحدة القيام به، بالنيابة عنهم، بذريعة الخطر المشترك الذي يتربص بالطرفين. وبطبيعة الحال تدرك الإدارة الأمريكية أن سياسة المراحل في التعامل مع إيران لا تزال تتيح وقتاً كافياً في مواجهة الأزمة، خلافاً للإلحاح الإسرائيلي على ضرورة التحرك اليوم قبل الغد. وبين هذين النهجين لوحظ أن هناك مهتمين يدعون إلى أخذ الوضع الداخلي الإيراني بعين الاعتبار.

التحولات الداخلية:

عبر الإسرائيليون عن مشاعرهم المتعلقة بطريقة التخلص من الخطر الإيراني، وأخذ هذا التعبير أشكالاً تتراوح بين التحريض السافر والأمنيات المحتقنة. فمثلاً، خرجت هآرتس (٥/٦/٢٠٠٣) بعنوان عريض «رئيس الأركان: نضجت الظروف في إيران لإسقاط حكم آيات الله»، ونقلت عن موشي يعلون قوله: في أعقاب الحرب في العراق فإننا في ذروة هزة أرضية إقليمية تنبع من استراتيجية أمن قومي أمريكية حددت أهدافاً للمعالجة في مجال مكافحة الإرهاب والسلاح غير التقليدي والأنظمة غير المسئولة. وإن استقرار نظام ذي سمات ديمقراطية في العراق كفيل بالتأثير على حكم آيات الله في إيران، حيث ثمة نضج للإطاحة بالملالي. على حد قوله. وفي مقال مطول بعنوان «بين الثورة والقنبلة» يرى المعلق عوفر شيلح أن الجري الإيراني وراء القنبلة النووية يعتبر اليوم الكابوس رقم واحد لإسرائيل، إذ يعتبر الجمع بين النظام الإسلامي المتعصب والقنبلة النووية والقدرة الصاروخية التي تصل إلى أراضي إسرائيل خلاصة لكل المخاوف الأمنية بالنسبة لإسرائيل. ويذكر المعلق أن إسرائيل تتابع جهود إيران التسلحية وترصد تيارات التغيير المكشوفة والأقل ظهوراً في داخل إيران، والاستخلاص هو أن في إيران عمليتي سباق اثنتين هما: محاولات الحصول على السلاح النووي، وتطورات داخلية قد تغير الصورة جذرياً قبل الوصول إلى القنبلة. ومن المحظور على إسرائيل أن تظهر كعدو بارز للنظام الذي يهاجم صباح مساء من القوى الداخلية. فالتغير الديمقراطي الداخلي في إيران والممكن حدوثه بالتأكيد خلال السنة القادمة سيغير وجه العالم الإسلامي كله، وفي هذا السياق من المحتمل بالتأكيد أن «ينتصر الأمل»، حسب تعبيره (يديعوت ١٥/٨/٢٠٠٣).

وهكذا تكتمل حلقة اتجاهات التفكير الإسرائيلية المتعلقة بالمشروع النووي الإيراني، إذ تترابط أجزاؤها في مجالات العمل الذاتي والتحالفي والدولي مع التقديرات الخاصة بإمكانية تغيير قواعد اللعبة، جراء التفاعلات التي قد تشهدها الساحة الإيرانية، والتي ليس من المستبعد أن تتدخل فيها وتنشطها إسرائيل بالتعاون الوثيق مع الولايات المتحدة.■

التصحر المجاعات

فــزَّاعة البيئيــين الجـدد

دنـــــيـــــس داتـــــون

لا جدال فى أن الجنس البشرى يواجه مشاكل بيئية، وأن علماء البيئة يحاولون باستمرار إخافتنا وإبعادنا عن التفكير السليم عن طريق نشر أفكار عن قرب انتهاء العالم. فى الستينيات ساد الاعتقاد بأن زيادة السكان ستتسبب فى مجاعة عالمية بحلول عام ١٩٨٠. بعد ذلك بعقد من الزمان قيل لنا أن البترول سيختفى من العالم بحلول التسعينيات، وكان هذا التصور مخيفًا بشكل خاص، وذلك . كما قالت مجلة نيوزويك عام ١٩٧٥ . لأننا نعيش فى مناخ متجه للبرودة مما سيسبب انخفاضًا فى كمية المحاصيل الزراعية حتى آخر القرن مما قد يؤدى إلى عصر جليدى جديد.

بيورن لومبرج، أستاذ إحصاء شاب وعالم سياسى بجامعة آرهوس بالدانمارك، يعرف الكثير عن هذه القصص الشبيهة بالسحر. خاصة بالنسبة للصحفيين والسياسيين والجمهور. والذى تحتويه قصص نهاية العالم بيئيًا. فهو شخصيًا قد صدق العديد من تلك القصص واقتنع بها.

فى عام ١٩٩٧، قرأ لومبرج . الذى وصف نفسه بأنه يسارى وعضو سابق بمنظمة جرين بيس (السلام الأخضر) . مقالة فى مجلة «ويرد» لجوليان سيمون وهو مدرس اقتصاد بجامعة ميرلاند.

سيمون ادعى أن مخاوف مجموعة الخضر . مثل مخاوفهم من زيادة السكان واختفاء فصائل الحيوانات كل ساعة والتصحر . ماهى إلا هيستريا لا معنى لها مضيفًا أن نوعية الحياة على كوكب الأرض هى فى تحسن جذرى. لومبرج صُدم بهذا المقال ورجع إلى الدانمارك ليبدأ البحث الذى سيفند فيه ما قاله سيمون.

واكتشف لومبرج وفريقه حقيقة متوازنة ومبهجة ألا وهى أن سيمون كان على صواب فى كل ادعاءاته. بالإضافة إلى ذلك فقد وجد لومبرج بعد التحليل الواقعى أن كل الأسس التى بنى عليها مروجو فكر نهاية العالم من البيئيين أفكارهم هى أسس ضعيفة جداً وممتلئة بالمبالغات والمراوغة والكذب الأبيض والأخطاء المطبعية المناسبة وقد تشبع الفولكلور الخاص بسيناريوهات الكوارث البيئية بهذه الأفكار بلا منازع.

ورغم أن لومبرج مازال يؤيد المطلب الأساسى لمجموعة الخضر ألا وهو إننا يجب أن نصل إلى عالم أنظف وأصبح للجميع بما فيهم الحيوانات (فهو نباتى ويؤمن بالمانع الأخلاقى ضد تناول اللحوم)، إلا أن هدفه فى هذا الكتاب الجديد عن الموضوعات البيئية هو أن يواجه الصورة القائمة الموجودة حاليًا بصورة أكثر وضوحًا مبنية على أساس علمى للحالة الحقيقية للأرض وأن يلقى نظرة متأنية على ما نستطيع توقعه فى القرن القادم.

فى كتابه الذى تعدى ٥٠٠ صفحة بها حوالى ٣٠٠٠ هامش و١٨٢ جدولاً ورسمًا توضيحيًا قدم لومبرج وجهة نظره بشكل شامل وشديد التدقيق حيث راجع عدداً من الاكتشافات المشجعة التى تمت فى الفترة الأخيرة على هذا الكوكب، أهمها انخفاض معدلات الفقر والمجاعات حول العالم، المجاعات مازالت موجودة ولكنها أقل من ذى قبل حيث إن قدرتنا على إنتاج كميات وفيرة من الطعام فى تقدم مستمر. وهذا ينطبق أيضًا على السيناريوهات الرهيبة الأخرى التى تتحدث عن نضوب مصادر الحياة: فنحن بالتأكيد لم نستنزف كل مخزون الطاقة والمصادر المعدنية والقنبلة السكانية لم تنفجر والمبيدات والكيمائيات لم تقتلنا بل إنها حسنت من نسبة طول الأعمار ونوعية الحياة، كما أنه لا يوجد أى مانع للخوف من أى شىء بخصوص التطوير الجينى للكائنات العضوية ورغم أنه كتاب معرفى يضم معلومات، فإن له قيمة ترفيهية هائلة خاصة الطريقة التى استخدمها لومبرج لتقصى الأساطير المدنية عن أصول حركة الخضر.

فمثلاً الادعاء الكثير التكرار بأن ٤٠ ألف فصيلة تنقرض كل عام، يؤكد لومبرج أن مثل هذه الخسارة السنوية ستكون كارثة لمستقبل الحياة على الأرض فهى قد تعنى تقريبًا خسارة ٢٥ إلى ٥٠٪ من كل الفصائل بحلول النصف الثانى من القرن. وقد استطاع لومبرج تحديد مصدر هذه القصة وهو مجرد تخمين غير مبنى على أساس علمى قاله عالم فى عام ١٩٧٩ واستمر الناس فى ترديده بلا توقف منذ ذلك التاريخ، وفى ١٩٨١ زاد هذا التخمين عن طريق مؤيد نظرية نهاية العالم بول أهرليش الذى أوصل الرقم إلى ٢٥٠.٠٠٠ فصيلة فى السنة (أهرليش تنبأ أيضًا أن نصف الفصائل الموجودة على كوكب الأرض ستنقرض بحلول عام ٢٠٠٠).

لومبرج يفند هذه التنبؤات ويذكرنا أن الوثيقة العلمية الحقيقية الوحيدة بخصوص انقراض الفصائل هى ضمن الأرقام المتوفرة فى الأمم المتحدة والتى تبين أن الخسارة الحقيقية هى ما بين ٠.١ و ١٪ من كل الفصائل فى فترة الخمسين سنة القادمة، وهذا يشمل الزواحف والنمل والديدان والبكتريا والفطر وهو ما يكوّن ٩٩٪ من كل الفصائل بالإضافة لعدد صغير ولكن غير معروف من الثدييات والطيور بالانقراض. ويستطرد لومبرج قائلاً: مشكلة تحتاج أن تُواجه بموضوعية ويتم حلها وليست كارثة ننتحب بسببها.

لنأخذ مثالاً آخر مثل التصحر. لقد ادعى البعض أن العالم فقد ثلثى غاباته منذ بداية فجر الزراعة. ويؤكد لومبرج أن الرقم الحقيقى هو حوالى ٢٠٪ وهذا الرقم بالكاد تغير تغييراً طفيفًا منذ الحرب العالمية الثانية.

فالغابات الاستوائية تقل بنسبة سنوية ضئيلة وهى ٠,٤٦٪ إلا أن تلك النسبة توازيها زيادة فى الزراعات والتجارة والتى يجب أن يتم تشجيعها لأن منتجاتها تقلل الضغط على الغابات الاستوائية. وفى الواقع، فإن احتياجات العالم من الخشب والورق من الممكن الوفاء بها للأبد عن طريق ثلاث مزارع توازى مساحتها ٥٪ فقط من غطاء الغابات العالمى.

وهناك أيضًا موضوع التخلص من النفايات، فهل نحن حقيقة لا توجد عندنا مساحات كافية لإلقاء نفاياتنا؟ لومبرج يوضح أن كل ما تحتاجه الولايات المتحدة الأمريكية على مدار القرن الكامل لإلقاء نفاياتها (بافتراض أن عدد سكان الدولة قد تضاعف) هو مساحة تصل إلى ١٠٠ قدم ارتفاع و١٨ ميلاً مربعاً فقط. وهذه كمية كبيرة من النفايات ولكن على اعتبار أن كل نفايات الشعب الأمريكى المتزايد على مدار مائة سنة، فبالتأكيد من الممكن التصرف فيها، وإذا تم التعامل معها بشكل صحيح فهذه النفايات لن تمثل أى خطر بيئى للهواء أو الماء.

وبمناسبة الحديث عن النفايات فإن لومبرج يفضل إعادة التصنيع (Recycle) ولكن فقط عندما يكون من المعقول استخدامها. وهو يعطى فى كتابه تحليلاً هزليًا لفكرة اقترحتها مجلة «البيئة»، بأن يُرسل الناس فرش أسنانهم المستخدمة لشركة ستقوم بإعادة تصنيعها وتحويلها إلى أثاث

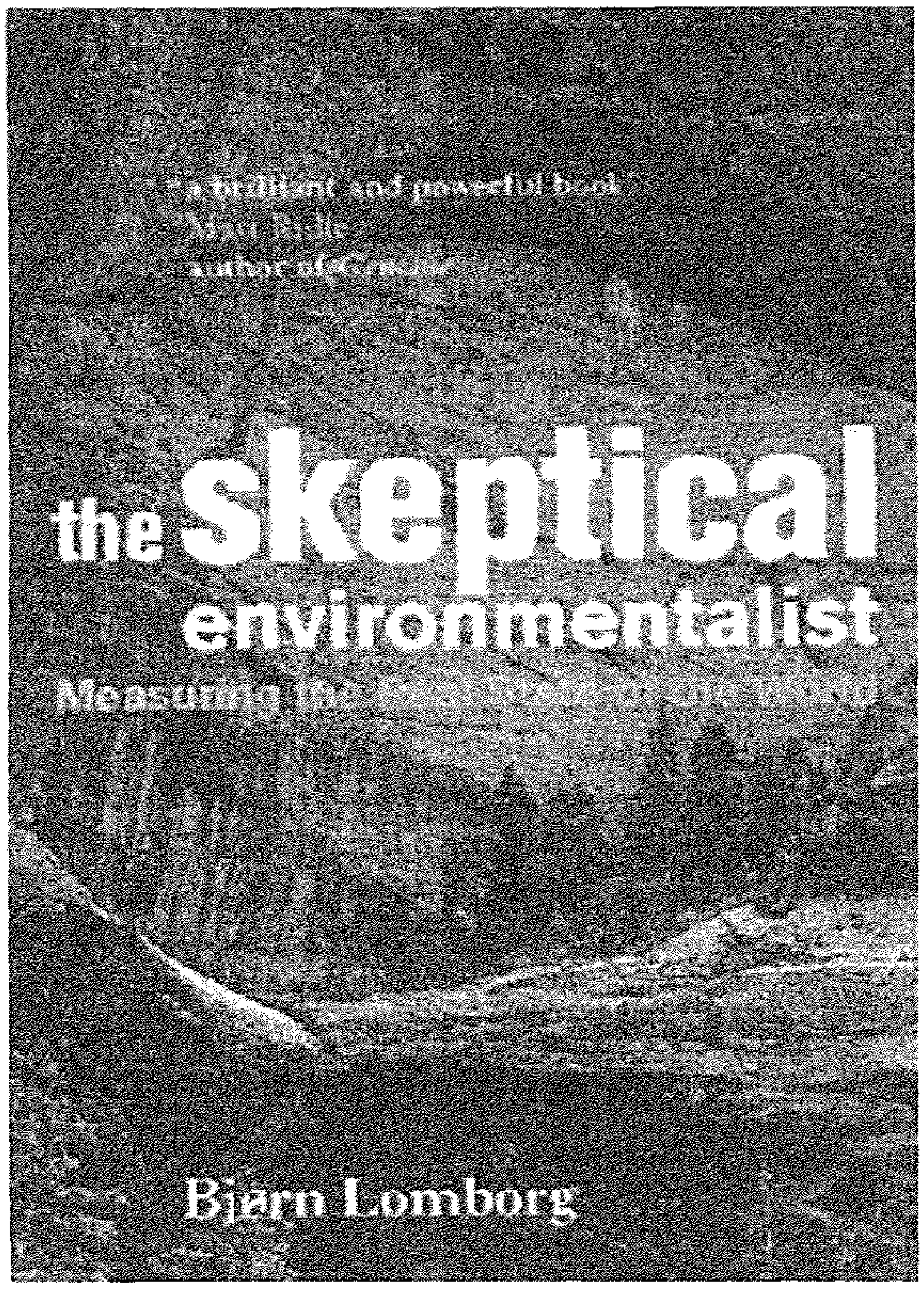
The Skeptical Environmentalist: Measuring the Real State of the World

(البيئى المتشكك: قياس الحالة الحقيقية للعالم)

Bjorn Lomborg
Cambridge Up. 2001, 540 p.

نشر هذا المقال فى صحيفة واشنطن بوست

ترجمة: إنجى غنام



للأماكن المفتوحة. إعادة التصنيع فى هذه الحالة ستتكلف ٤ مليارات دولار لتنفيذها للشعب الأمريكى، وهذا بدون الأخذ فى الاعتبار تكاليف البريد التى ستقوم بالتعامل مع حوالى مليار طرد من فرش الأسنان الجديدة والمستخدمة التى سيتم إرسالها سنوياً. وأمثلة كهذه توضح أن علاج إعادة التصنيع من الممكن أن يكون أسوأ من وباء الاستهلاك (رغم أنى أعتقد أن خدمة البريد فى الولايات المتحدة ستجد هذه الفكرة كمصدر دخل كبير). فالكثير من السياسات البيئية الحسنة النية قد تكون لها نتائج مفاجئة. فلنقل مثلاً أن نقطة صغيرة عالقة من أى مبيد قادرة على التسبب فى إصابة عدد صغير جداً من الناس بمرض السرطان. لنقل مثلاً أنها ستصيب حوالى ٢٠ شخصاً كل عام فى الولايات المتحدة الأمريكية. (وهذا لا يعتبر عدداً كبيراً فى دولة يموت فيها ٣٠٠ شخص سنوياً فى أحواض الاستحمام). وبالتالى فنحن نستطيع منع استخدام المبيدات، إلا أن ذلك، على حد قول لومبرج، سيؤدى إلى ارتفاع حاد فى أسعار الفواكه والخضروات التى تمنع الإصابة بمرض السرطان وبخفض معدلات الاستهلاك من هذه النوعية من المأكولات، خاصة بين أفراد الطبقة الفقيرة. وبناء على ذلك فإن منع استخدام المبيدات سيؤدى إلى إصابة عدد أكبر من الناس بمرض السرطان (حوالى ٢٦,٠٠٠ حالة سنوياً) أى عدداً أكبر مما كانت تسببه المبيدات أساساً.

ففى بعض الحالات كحالة فرش الأسنان مثلاً، يكون أفضل شىء نفعله فى «مشكلة» نواجهها هو بالتحديد لا شىء.

يتمتع لومبرج بالقدرة على وضع ما قد يبدو أنه مشكلة بيئية جادة فى إطار مقارنة مما يؤدى غالباً للتقليل من منظور الخطورة هذا. فمثلاً موضوع تسرب البترول من إزون فالداس كان يعتبر كارثة ليس لها مثيل، حيث قتلت ٢٥٠ ألف طائر.. أوضح لومبرج أن الآثار البعيدة المدى لهذا التسرب كانت أقل ضرراً بكثير مما توقعه علماء البيئة، كما أنه وضع عدد الطيور التى ماتت بسبب التسرب فى إطاره الصحيح موضحاً أن حوالى ٣٠٠ ألف طائر تقتلهم الثديبات، خاصة القطط، فى بريطانيا كل ٤٨ ساعة، وأن ٢٥٠ ألف طائر يموتون بسبب اصطدامهم بألواح زجاج المنازل والمكاتب فى الولايات المتحدة كل ٢٤ ساعة.

وكيف عرف لومبرج ذلك؟ أنا نفسى تساءلت عن هذا، فتتبعت هذا الادعاء من خلال هوامش كتابه ووصلت إلى المصدر بنفسى ووجدتها مصادر صحيحة تماماً. وفى الحقيقة فمنذ أن صدر كتاب البيئى المتشكك فى بريطانيا الشهر الماضى، وجيش من البيئيين الغاضبين يزحف حول الكتاب من كل اتجاه فى محاولة لتفنيده، إلا أن جميع ادعاءات لومبرج قد صمدت أمام هذا الهجوم.

وأطول فصول الكتاب وأكثرها تفصيلاً يتناول موضوع ظاهرة الاحتباس الحرارى واتفاقية كيوتو. لومبرج يوافق على أن هناك بالفعل اتجاهاً نحو مناخ أكثر دفئاً ولكنه يرى أن اللجنة الحكومية المسئولة عن مناقشة التغير المناخى قد بالغت فى تقدير الأخطار المحتملة والنسب الحالية لظاهرة الاحتباس الحرارى فى حين أنها قد أهملت ذكر فوائد وجود نسبة أكبر من ثانى أكسيد الكربون فى الجو وفوائد ارتفاع درجات الحرارة فى الليالى. فهذه التغيرات ستؤدى إلى تحسن الإنتاج الزراعى فى كل من الولايات المتحدة والصين وستزيد من إنتاج كندا وروسيا الزراعى. وفى كل الأحوال فإن لومبرج يؤيد فكرة الطاقة الشمسية التى يعتقد أنها ستحل محل البترول كمصدر طاقة أساسى لنا فى الخمسين سنة القادمة.

الخلاصة المذهلة التى خرج بها لومبرج هى أنه حتى لو تم تفعيل اتفاقية كيوتو بشكل كامل، فإن هذا سيؤخر التأثير الحرارى لمدة ست سنوات فقط، أى يؤجله من عام ٢١٠٠ إلى عام ٢١٠٦، وعليه فما جدوى تحميل الاقتصاد العالمى هذا العبء فى مقابل هذه الفائدة غير المرئية تقريباً التى نمنحها إلى أحفاد أحفادنا. وتصل هذه التكلفة إلى ما بين ٨٠ .٣٥٠ مليار دولار وهذه الأرقام تزعج لومبرج جداً حيث إنه يرى أن التحدى الحقيقى الذى يوجه الجنس البشرى الآن هو تحسين الصحة خاصة المكاسب الهائلة التى من الممكن تحقيقها ضد الفقر والأوبئة لو تم توفير مياه شرب نظيفة وتم تحسين الصحة العامة فى الدول النامية. إن تكاليف تطبيق اتفاقية كيوتو لمدة عام واحد كافية لتوفير مياه نظيفة وصحة عامة أفضل لجميع دول العالم النامى مما سيؤدى لإنقاذ ٢ مليون إنسان من الموت وإبقاء نصف مليار نسمة بعيداً عن المرض.

وبدلاً من أن ننتظر أن تحدث فى المستقبل فوائد كيوتو غير المعروفة أو قد تكون غير موجودة أساساً، فإن الأموال التى ستهدر على كيوتو يجب أن تستخدم فى الحال للتعامل مع مشاكل حقيقية تهدد حياة الإنسان. وحسابات لومبرج شديدة الدقة وحجته تفرض نفسها: إن تطبيق اتفاقية كيوتو سيكون خطأ لا يغتفر، وملهم لومبرج الأساسى هو الراديكالى جوليان سيمون الذى كان إلى حد قليل سابقاً لزمنه. ورغم ذلك فهذا الاقتصادى الأصلع الرأس صاحب الاتجاه اليمينى الغامض كان يحتاج إلى المال ولكن فى أواخر القرن العشرين ومع سيطرة مروجى أساطير الخطر، لا أحد يريد أن يعلم ذلك.

بول اهرليش كوفئ على كونه أخطأ فى كل توقعاته المخيفة عن السكان والبيئة بسيل من الجوائز بما فيها منحة ماك آرثر «للعباقرة». فى الوقت الذى قال فيه سيمون عن نفسه بسعادة: «لا أستطيع حتى أن أشترى سندويتش ماكدونالدز».

وهذا العالم الذى لم يستطع أحد كبحه نجح فى استفزاز شاب دانمركى فى محاولة إثبات خطأ مزاعمه وهى عملية نتج عنها التشكيك فى الأساس المعرفى للحركة البيئية بأكملها. وعلى عكس سيمون، فإن لومبرج يمتلك الهالة الثقافية المناسبة: فهو شاب يسارى أوروبى له هيئة نجم سينمائى. وسيمون الذى توفى فجأة عام ١٩٩٨ كان بالتأكيد سيسعد لرؤية كيف سارت الأمور فى هذا الموضوع.

والأخبار السعيدة التى نقلها لومبرج عن البيئة فى كتابه هذا هى بالتأكيد أخبار سيئة بالنسبة لأصحاب الأيديولوجية الخضراء.

كتابه الغنى بالمعلومات ذو النظرة المشرقة هو المرجع الذى يجب أن تناقش على أساسه القرارات الخاصة بالبيئة. وفى الواقع، فإن كتاب «البيئى المتشكك» هو أهم عمل قدم عن البيئة منذ صدور نقيضه وهو كتاب «الربيع الصامت» بقلم راشيل كارسون فى عام ١٩٦٢.. إن هذا الكتاب هو إنجاز رائع. ■

الاحتباس الحراري: «نظرة باردة»

في صيف العام الماضي غمرت الأمطار الغزيرة وسط أوروبا وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا إلى درجة أن المياه اكتسحت ليس فقط المحاصيل، بل أيضاً مباني وشوارع بأكملها، كما فاض نهرا الدانوب وبو أغرقا العديد من المدن التي تقع على ضفافهما مما أدى لأضرار جسيمة غير قابلة للإصلاح لمبان تاريخية عريقة وتدمير معظم الإنتاج الزراعي للعام الماضي.

أما هذا العام، فإن هذه المناطق نفسها تعاني من الجفاف، فمستوى المياه في نهر بو،وصل إلى أدنى مستوى في بعض المناطق لدرجة أنه أصبح من الممكن عبوره سيراً على الأقدام. وفي لندن وميلان وبعض المدن السويسرية والفرنسية سُجلت درجات الحرارة الأكثر ارتفاعاً منذ بداية العمل بنظام تسجيل درجات الحرارة.

كما اشتعلت النيران في الغابات ودمرت منطقة بروفنس (في فرنسا) ومناطق أخرى في جنوب أوروبا. وأصبح نقص المياه حاداً وبالطبع لم يكن من المفاجئ أن تمتلئ الجرائد والتليفزيونات بموضوعات عن الكارثة المناخية. ورسالة الإعلام في هذا الصدد بسيطة: إن الطقس يتغير للأسوأ وهذا راجع إلى خطئنا نحن، وهذا ادعاء لم يصدر فقط عن الجرائد التي كل همها البحث عن موضوعات تصلح للنشر في الصيف، بل إنه امتد إلى السياسيين والعلماء أيضاً، فالأسبوع الماضي مثلاً قام السيرجون هرتس بمقارنة الطقس المتطرف (شديد الحرارة أو شديد البرودة) بأسلحة الدمار الشامل وطالب بتحرك سياسي. وهذا التحليل قد يبدو مُقنعاً تماماً حين يسمعه إنسان وهو يتصبب عرقاً بسبب هذه الحرارة العالية غير المسبوقة. وذلك يجعل الناس تُرجع هذه الحرارة العالية التي نعاني منها إلى ظاهرة الاحتباس الحراري الأمر الذي يؤدي بنا إلى المطالبة بعمل فوري لمواجهة ذلك الأمر. ورغم ذلك فإنه فيما يخص هذا الموضوع فإن الأشياء الواضحة ليست بالضرورة حقيقية. فالتغيرات المناخية تتسم بصعوبة تحديدها وبالتالي صعوبة تفسيرها بدقة، وصيف واحد حار في أوروبا لا يعني أن المناخ العالمي قد تغير بشكل أبدي للأسوأ.

ومن المفاجئ أن لجنة الطقس الخاصة بالأمم المتحدة لم تستطع أن تجد أي دليل ذي أهمية يفيد أن الطقس أصبح أكثر عنفاً على مدار المائة عام الماضية فظاهرة الاحتباس الحراري هي بالتأكيد ظاهرة مثبتة بالأرقام والإحصائيات إلا أن تأثيرها الوحيد

هل تغير المناخ في مصر؟!

الحرارة لم ترتفع ولكننا لم نعد نطيقها!

حسين زهدي

تغزو الأراضي المصرية في كثير من الأحيان موجات حارة متطرفة قد تصل فيها درجات الحرارة إلى ما يزيد على أربعين درجة مئوية خاصة في فصل الربيع والصيف وأوائل الخريف. وغالباً ما يكون الجو جافاً خلال هذه الموجات مما قد يسبب فقد توازن الجهاز العصبي لدى بعض الناس عند تعرضهم لهذه الموجات لمدة طويلة. ولكن ما هو مدى درجات الحرارة الذي تستطيع تحمله لفترة قصيرة؟ إن أقصى درجة حرارة عرفتها الكرة الأرضية لم تزد على ٧٥ درجة مئوية وقد سجلت في مكان ما بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية يطلق عليه اسم وادي الموت (Death Valley)، وقد قيست درجة الحرارة المشار إليها في الظل. وهذا يعني أن الترمومتر الذي سجلها وضع في مكان ظليل بعيداً عن أشعة الشمس.

أما إذا وضعنا الترمومتر تحت أشعة الشمس مباشرة فقد يؤدي ذلك إلى تسخينه إلى درجة تزيد كثيراً عن حرارة الهواء المحيط به. ولا تمثل درجة الحرارة المقاسة في هذه الحالة درجة الهواء المحيط بالفعل.

ويستطيع جسم الإنسان أن يقاوم الموجات الحارة بإفراز كميات كبيرة من العرق الذي يتبخر من على سطح الجلد فيعمل على تبريده موضعياً ويحافظ بالتالي على درجة حرارة جسم الإنسان الثابتة (٣٧ْ مئوية تقريباً). وخطورة الموجة الحارة تتمثل في أن الهواء الحار الذي تكون درجة حرارته أكبر من درجة حرارة الجسم يقوم بتسخين جسم الإنسان عند تعرضه للموجة الحارة لفترة طويلة، مما قد يسبب الإصابة بضربة الشمس المعروفة.

ولنا أن نتساءل: ما هو الحد المريح لدرجة حرارة الجو؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعلم أن درجة حرارة جسم الإنسان ثابتة وهي ٣٧ْ مئوية تقريباً، أما درجة حرارة جلد الإنسان الذي هو وسيلة الاتصال بالجو المحيط فتكون في حدود ٣١ْ مئوية، أي أقل من درجة حرارة الجسم الداخلية بحوالي ٦ درجات مئوية. وقد أجرى الباحثون بحوثهم على هذا الأساس ووجدوا أن الإحساس المثالي بالجو المريح يكون عند درجة حرارة مقدارها ٢٢ْ مئوية ورطوبة نسبية مقدارها ٥٥٪. وتلعب سرعة الرياح دوراً مؤثراً في الإحساس المريح بالأحوال الجوية، ففي وجود نسيم معتدل السرعة (١٥- ٢٠ كم/ ساعة) يمكن أن يمتد مدى الإحساس المريح بحرارة الجو حتى ٣٣ْ مئوية.

وهناك إحساس لدى الكثيرين في الآونة الأخيرة بأن هناك زيادة في درجة حرارة الجو في مصر خلال السنوات الأخيرة وأن جو مصر قد أصبح جواً خليجياً (أي أصبح يماثل الجو في منطقة الخليج العربي المعروفة بارتفاع درجة الحرارة والرطوبة). وهذا الإحساس له ما يبرره، ولكن لكي نتعرف على ذلك بطريقة علمية لابد لنا أن نرجع إلى الأسباب والعوامل التي أدت إلى الإحساس بزيادة الحرارة.

تقع مصر من حيث التصنيف المناخي في المنطقة تحت المدارية في نصف الكرة الشمالي وهذه المنطقة تنحصر بين خطي عرض ٢٠ْ. ٣٠ْ شمال خط الاستواء، ويحدها من الشمال منطقة العروض الوسطى (٣٠ْ. ٦٠ْ شمالاً) التي تتميز باعتدال الطقس في جنوبها والبرودة في شمالها، كما يحدها من الجنوب المنطقة المدارية (التي تقع بين خطي عرض ٢٠ْ شمال خط الاستواء وخط عرض ٢٠ْ جنوب خط الاستواء) وهي المنطقة التي تتميز بارتفاع الحرارة والرطوبة على مدار العام.

وتعتبر المنطقة تحت المدارية من أكثر مناطق العالم استقراراً في الأحوال الجوية وأكثرها ارتفاعاً في درجة الحرارة مع قلة الأمطار التي تسقط عليها وهو ما يفسر احتواء هذه المنطقة على معظم صحاري العالم ومنها الصحراء الأفريقية الكبرى وشمال شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج وشمال الهند. ويتسبب الاستقرار في الأحوال الجوية فوق المنطقة تحت المدارية في هبوط الهواء من طبقات الجو العليا إلى سطح الأرض مما يؤدي إلى حدوث الجفاف وارتفاع درجات الحرارة في هذه المنطقة حيث يؤدي هبوط الهواء من أعلى إلى أسفل إلى عدم تكون السحب وارتفاع درجة حرارة الهواء خلال هبوطه نتيجة لما يعرف بالتسخين الذاتي للهواء نظراً لتضاعفه خلال الهبوط.

وتعتبر مصر بحكم موقعها المناخي مسرحاً لتصارع الكتل الهوائية الباردة

المشهود هو هطول أمطار بشكل أكبر قليلاً.

والذين يحذرون من أمطار بدون داع من أمثال سيرجون هوتن يستشهدون بتقرير منظمة الأرصاد العالمية الذى يقول إن ظاهرة الاحتباس الحرارى كشفت عن نفسها الآن بقدرتها على التسبب فى مناخ متطرف مثل موجة الحر الحالية، إلا أنه من المؤسف لسيرجون بالطبع. أن هذا التقرير ما هو إلا بيان صحفى صادر عن المنظمة وهو لا يعتمد على أى بحث علمى، وحين سئلت المنظمة عن هذه النقطة فاعترفت بأن النتائج التى اقترحت حدوث مناخ أكثر عنفاً أو تطرفاً ما هى إلا إحصائيات صناعية وأنه من الممكن تفسير هذه النتائج. على حد قولهم. «بطرق مراقبة وتسجيل أكثر تقدماً».

وهذا بالتحديد ما لا يحب أن يسمعه مروجو فكرة قرب نهاية العالم، فهو تفسير لا يتفق مع ادعائهم أن ظاهرة الاحتباس الحرارى أصبحت «سلاح دمار شامل» ولكن ببساطة فإن فكرة أن ظاهرة الاحتباس الحرارى هى التفسير الرئيسى لنوعية الموجة الحارة التى نمر بها الآن هى ادعاء غير صحيح، فالإحصائيات توضح أن ظاهرة الاحتباس الحرارى لم تتسبب فى زيادة الفترات الشديدة الحرارة، بل إنها قد أدت فقط إلى انخفاض عدد فترات البرودة الشديدة. فالولايات المتحدة وشمال ووسط أوروبا والصين وأستراليا ونيوزيلندا قد مروا بأيام تجمد وصقيع أقل فى حين أن أستراليا ونيوزيلندا فقط شهدتا أقصى ارتفاع حرارى لهم. أما فى الولايات المتحدة فلا يوجد أى اتجاه لوصول درجات الحرارة إلى أقصى معدلاتها وفى الصين بل إنها فى الحقيقة تنخفض.

وكما أخطأنا فى اعتبار ظاهرة الاحتباس الحرارى هى السبب الرئيسى وراء الموجة الحارة الحالية، فإننا نرتكب خطأ آخر وهو اعتقادنا أن زيادة دفء المناخ تؤدى إلى إحساسنا بالحر وبالتالى إلى موت العديد من الناس بسبب موجات الحر الشديد، لأن التغير فى المناخ العالمى لا يعنى أن كل شىء يصبح أكثر دفئاً وذلك لأن هذه الزيادة فى الغالب تقوم برفع درجات الحرارة الدنيا بشكل أكبر من رفعها لدرجات الحرارة القصوى (العظمى).

ففى شطرى الكرة الأرضية وفى جميع المواسم، تم تسجيل ارتفاع فى درجات الحرارة بالليل بشكل أكبر بكثير من درجات الحرارة بالنهار، وبالمثل فإن معظم الارتفاع فى درجات الحرارة قد حدث فى فصل الشتاء وليس الصيف. وأخيراً فإن ثلاثة أرباع ارتفاع درجة الحرارة أو الميل إلى الدفء قد حدث فى المناطق شديدة البرودة فى سيبيريا وكندا.

وكل هذه الظواهر هى بالتأكيد مفيدة للزرع والبشر على حد سواء إذا بقيت فى حدود معينة.

بيورن لومبرج

أغسطس ٢٠٠٣

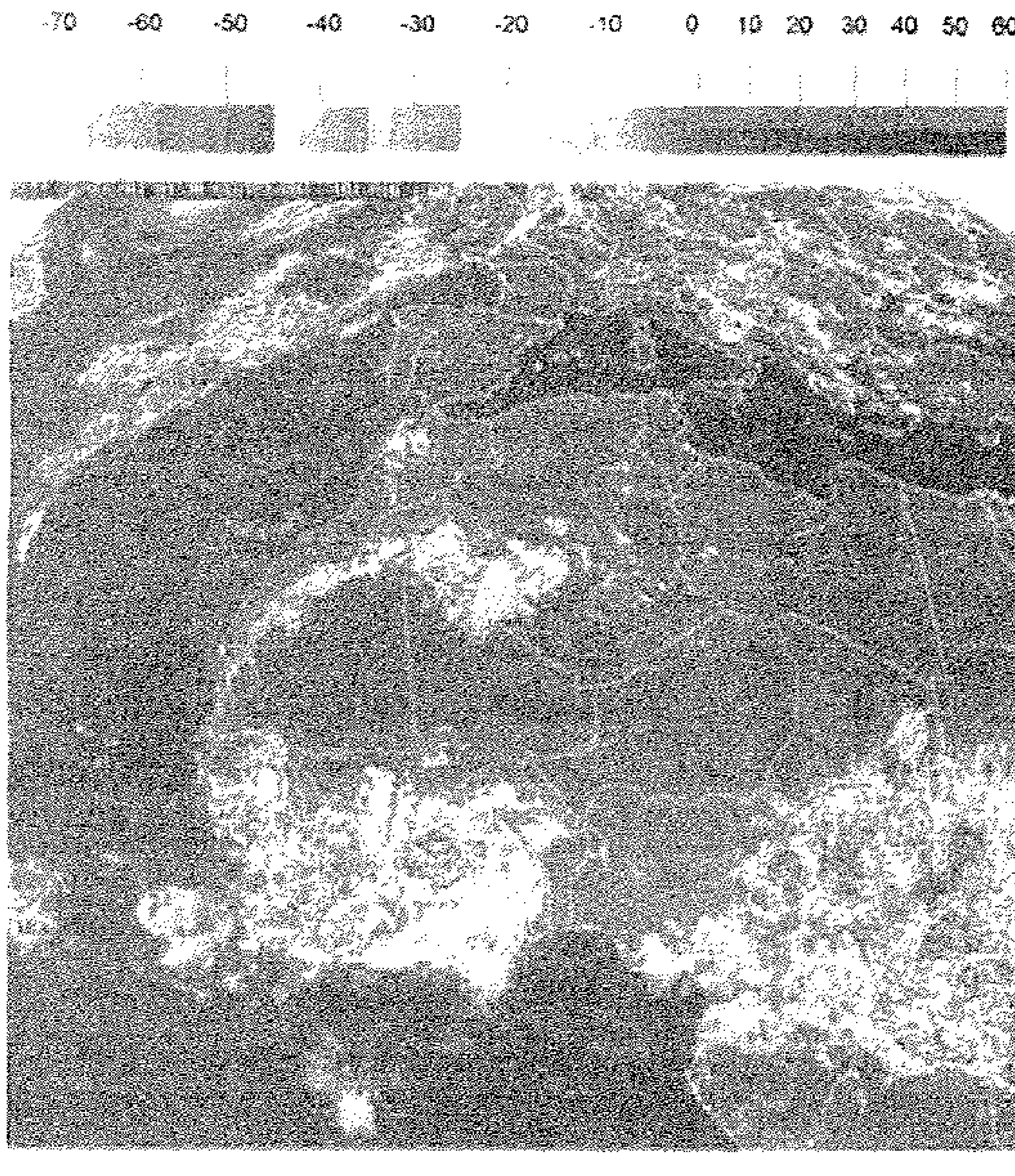
القادمة من المناطق الباردة فى الشمال (من أوروبا وشمال روسيا) والكتل الهوائية الساخنة القادمة من المناطق المدارية فى الجنوب والشرق (من وسط أفريقيا ومن الهند). ويتوقف ذلك على الحركة الظاهرية للشمس، ففى فصل الصيف تتعامد الشمس على مدار السرطان (خط عرض ٢٣ْ شمال خط الاستواء) فتحرك معها الكتل الهوائية الساخنة والرطبة إلى الشمال وتؤثر تأثيراً فعالاً على جو مصر من حيث ارتفاع الحرارة والرطوبة. وفى فصل الشتاء تتعامد الشمس على مدار الجدى (خط عرض ٢٣ْ جنوب خط الاستواء) فيندفع معها الهواء البارد القادم من الشمال إلى الأراضى المصرية ويتسبب فى برودة الجو وتكون السحب وسقوط الأمطار خاصة على الساحل الشمالى لمصر.

وهناك عوامل كثيرة تتحكم فى مناخ نصف الكرة الشمالى وتؤثر على مناخ مصر نذكر منها عاملين بارزين لهما خاصية الاستمرار على مدار العام. هذان العاملان هما منطقة التجمع بين المدارى والتيار النفاث تحت المدارى.

وتتكون منطقة التجمع بين المدارى فى المنطقة المدارية نتيجة لتلاقى الرياح التجارية القادمة من نصف الكرة الشمالى مع الرياح التجارية القادمة من نصف الكرة الجنوبى وينتج عن تلاقى هاتين الكتلتين تكون حزام من السحب الرعدية المطيرة يلتف حول الكرة الأرضية بصفة دائمة ومستمرة طوال العام، ويعتبر حزام السحب المطيرة المدارى المصدر الرئيسى للمياه العذبة التى تجرى فى معظم أنهار العالم ومنها نهر النيل. ويتحرك حزام السحب المطيرة إلى الشمال والجنوب وفقاً للحركة الظاهرية للشمس حيث يبلغ أقصى موقع له فى الشمال عند خط عرض ١٥ْ شمالاً فى فصل الصيف فوق شمال السودان والحبشة ويتسبب فى حدوث فيضان النيل نتيجة للأمطار الغزيرة التى تسقط منه فوق هضبة الحبشة وشمال السودان. كما يتحرك جنوباً خلال فصل الشتاء حتى خط عرض ٥ْ جنوباً ويتواجد بالقرب من خط الاستواء خلال فصلى الربيع والخريف فوق هضبة البحيرات فى وسط أفريقيا حيث توجد منابع النيل.

ويعتبر التيار النفاث تحت المدارى إحدى السمات الرئيسية لمناخ نصف الكرة الشمالى ويتكون من رياح عالية السرعة تصل سرعتها إلى أكثر من ٤٠٠كم/ساعة. ويقع هذا التيار على ارتفاع حوالى ١٢كم من سطح الأرض ويلتف حول الكرة الأرضية بصفة دائمة ومستمرة على مدار العام، ويتذبذب موقعه شمالاً وجنوباً وفقاً لفصول السنة المختلفة فيبلغ أقصى موقع له فى الجنوب فى فصل الشتاء فوق خط عرض ٢٧ْ شمالاً وأقصى موقع له فى الشمال فى فصل الصيف فوق خط عرض ٣٥ْ شمالاً. ويوجد التيار النفاث تحت المدارى على شكل ثلاث موجات متصلة شبه ثابتة تحيط بالكرة الأرضية على ارتفاع ١٢كم فوق سطح الأرض بحيث تقع قمم هذه الموجات فوق القارات وقاعها فوق المحيطات، ويقع فى جنوب قمم هذه الموجات معظم المناطق المطيرة من حزام السحب المدارية الذى يحيط بالكرة الأرضية.

ونظراً للسرعة الكبيرة للرياح فى محور التيار النفاث واتجاهها الذى يتوازى تقريباً مع خطوط العرض (اتجاه الرياح فى التيار النفاث يكون بشكل عام من الغرب إلى الشرق) فإنها تعمل كحاجز يمنع الهواء البارد من المناطق التى تقع شمال التيار النفاث من الوصول إلى المناطق الساخنة التى تقع جنوبه. ويفسر ذلك الحرارة الشديدة التى تتعرض لها المنطقة العربية خلال فصل الصيف والتى من أهم أسبابها وجود التيار النفاث تحت المدارى فوق خط عرض ٣٥ْ شمالاً وموازياً له مما يحجب تماماً وصول أى هواء بارد إلى المنطقة



حزام السحب المطيرة فوق المنطقة المدارية

الدراسات المناخية لا تدل على تغير يذكر فى الأحوال المناخية فى مصر ولكن الإحساس بالارتفاع فى درجة الحرارة الذى يعانى منه المصريون خلال فصل الصيف يمكن أن يعزى إلى أسباب أخرى تتعلق بتغير أسلوب الحياة فى مصر

العربية التى تقع جنوب خط العرض ٣٥ْ شمالاً. كما أن موقع التيار النفاث تحت المدارى خلال فصل الشتاء فوق خط العرض ٢٧ْ شمالاً يسمح بغزو الهواء البارد القادم من شمال أوروبا وشمال آسيا للأجزاء الشمالية من المنطقة العربية التى تقع شمال خط عرض ٢٧ْ شمالاً ونادراً ما يحدث هذا الغزو للأجزاء الجنوبية من المنطقة العربية التى تقع جنوب هذا الخط.

ونعود الآن إلى الإجابة عن السؤال الخاص بتغير المناخ فى مصر والإحساس بارتفاع الحرارة والرطوبة خلال فصل الصيف خلال الأعوام الأخيرة.

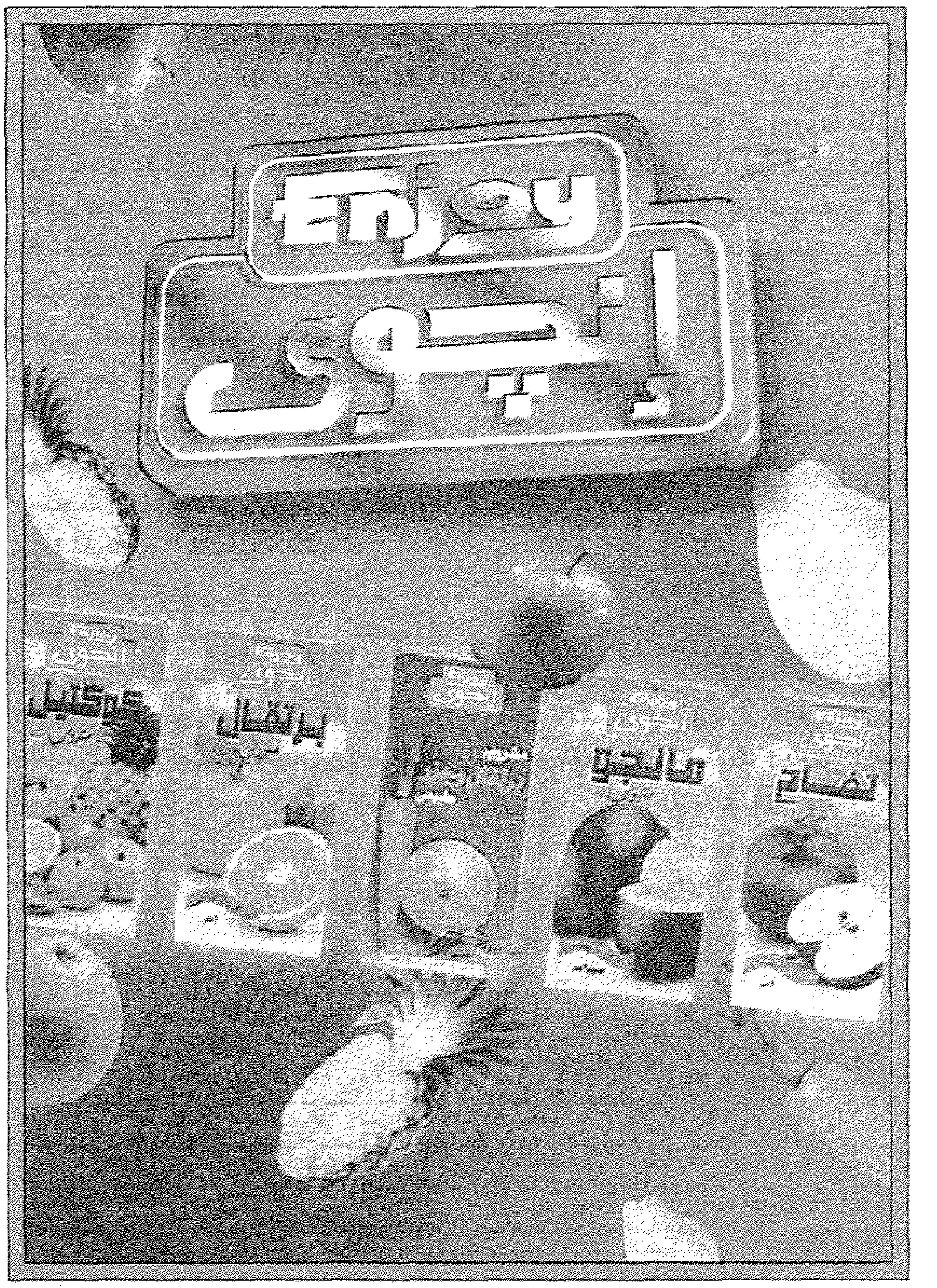
وتفسير ذلك أنه قد حدثت إزاحة هائلة للمنطقة المدارية إلى الشمال خلال صيف نصف الكرة الشمالى نتيجة لضغط الكتل الهوائية الباردة القادمة من الجنوب من شتاء نصف الكرة الجنوبى والمندفعة بقوة إلى الشمال مما أدى إلى إزاحة التيار النفاث تحت المدارى إلى الشمال فوق وسط أوروبا متخطياً بذلك الموقع المعتاد له فى فصل الصيف (فوق البحر الأبيض المتوسط) بحيث أصبح حاجزاً بين الهواء البارد شماله والهواء الساخن الرطب جنوبه، وقد سمح ذلك الوضع لكتلة الهواء المدارية الساخنة والرطبة بالتقدم إلى الشمال لتغطى كافة منطقة الشرق الأوسط وتصل إلى جنوب ووسط أوروبا. وقد تكرر حدوث هذا الوضع خلال فترات كثيرة من فصول الصيف فى الأعوام السابقة وحتى هذا العام حيث عانت هذه المناطق ومنها مصر من ارتفاع الحرارة ونسبة الرطوبة فى الجو طوال فصل الصيف الطويل الحار الرطب.

إلا أن هذه الظاهرة السلبية كان لها أثر إيجابى مهم لمصر خاصة خلال صيف هذا العام حيث تزامنت فترات الحر الشديد فى أوروبا مع زيادة ملحوظة فى مياه فيضان النيل.

وتدل الدراسات التى تمت مؤخراً على مناخ مصر على أنه قد حدث تغير طفيف فى بعض العناصر المناخية خلال السنوات الأخيرة، فهناك اتجاه للانخفاض الطفيف فى المتوسط السنوى لدرجة الحرارة العظمى بمعدل ٠,٠٠٢٨ْ مئوية فى السنة وهناك اتجاه للارتفاع الطفيف فى المتوسط السنوى لدرجة الحرارة الصغرى بمعدل ٠,٠٣١٢ْم فى السنة وهو الأمر الذى يوضح الزيادة المطردة فى الرطوبة النسبية نظراً لميل الجو إلى الاستقرار فى السنوات الأخيرة على مصر والتى تبلغ حوالى ٠,١٣٣٪ كل عام.

هذه الدراسات المناخية لا تدل على تغير يذكر فى الأحوال المناخية فى مصر ولكن الإحساس بالارتفاع فى درجة الحرارة الذى يعانى منه المصريون خلال فصل الصيف يمكن أن يعزى إلى أسباب أخرى تتعلق بتغير أسلوب الحياة فى مصر. فالزيادة السكانية الكبيرة والازدحام الشديد فى المدن مع انحسار المساحات الخضراء وزيادة الغابات الأسمنتية التى تسمى أبراجاً سكنية والزيادة الكثيفة فى وسائل النقل من عربات خاصة وحافلات عامة وما ينتج عنها من عوادم تؤدى إلى درجة عالية من التلوث فى سماء المدن.

كل هذه العوامل تؤدى بلاشك إلى الشعور بالحرارة الشديدة الخانقة خاصة إذا كان هناك استقرار فى الأحوال الجوية يعمل على تركيز الملوثات وبخار الماء فى الطبقة السفلى من الغلاف الجوى القريبة من سطح الأرض. ■




كاريير.. أول تكييف
تكلمه بالتليفون
Platinium
N2
Tele Carrier
Fortune Promoseven
الآن مع أجهزة تكييف كاريير سبليت الجديدة يمكنك:
• التحكم فى التشغيل والإغلاق من خارج المنزل بالتليفون من خلال تلى كاريير.
• الاتصال عن طريق التليفون العادى أو المحمول .
• التحكم فى أكثر من جهاز تكييف كاريير فى وقت واحد .
كاريير ... أول تكييف فى مصر
تشغله وتقفله من بره البيت بالتليفون
كاريير .. خبرة بتطور
Miraco
Carrier
لاشئ يفوق الخبرة ... لاشئ يفوق كاريير
لخدمة العملاء والمبيعات فى القاهرة الكبرى اتصل ب: ١٩١١١ بسعر المكالمة العادية
ولدى كل الموزعين المعتمدين --
Carrier
One hundred years of innovation.
شركة مصر لصناعة التبريد والتكييف ش.م.م
المركز الرئيسى : ١٥ شارع مكة المكرمة - خلف نادى الصيد - المهندسين. مصر الجديدة : ٢٠٤ شارع الحجاز. مدينة نصر : ١٨ شارع عبد الله العربى - إمتداد شارع الطيران - القاهرة. شبرا : ٧٠ شارع شبرا - القاهرة. المعادى : ٢/١١ شارع النصر - المعادى الجديدة. الهرم : ١٩٨ شارع الملك فيصل - تقاطع الملك فيصل مع المريوطية - الهرم. الإسكندرية : ٥ شارع ألبرت الأول - بجوار كوبرى كليوباترا - سموحة ت : ٤٢٥٢٠٠٥ (٠٣) الغردقة : شارع المحكمة ت : ٥٤٩١٥٥ (٠٦٥) الأقصر : شارع الروضة الشريفة - العوامية ت : ٣٧٢٩٤١ (٠٩٥)

لا يوجد رئيس لأركان الجيش

لم تكن حرب أكتوبر مجرد رقم فى قائمة الحروب العربية - الإسرائيلية أو مجرد نصر سريع حققه العرب بعد هزيمة «مذلة» لكنها الحرب التى أعطت العرب نصراً تاريخيًا وروحًا جديدة وقدرة على الانطلاق بثقة إلى المستقبل، وهى أمور سرعان ما تناساها العرب بعد ذلك.. مع الذكرى الثلاثين للحرب يعود كاتب المقال إلى مذكرات قائده وأستاذه المشير محمد عبدالغنى الجمسى، الذى شاءت الأقدار أن يرحل قبل أسابيع من حلول هذه الذكرى، محاولاً التعرف على أسباب ما حدث.. نصراً ونتائج و.. تراجعاً.

(وجهات نظر)



صفوت الزيات

في خريف العام ١٩٨٩ تواجدت وسط حشد من الجمهور العربى امتلأت به القاعة الرئيسية لمبنى المجمع الثقافى فى مدينة أبو ظبى للاستماع إلى محاضرة المشير محمد عبد الغنى الجمسى حول خواطره عن حرب أكتوبر ٧٣، باعتباره واحداً من أبرز الفاعلين والمشاهدين على أحداث هذه الجولة العنيفة والصعبة من جولات الصراع العربى الإسرائيلى الممتدة منذ أكثر من نصف قرن مضى وربما لحقبة زمنية قادمة تبقى حدودها وتحدياتها مرهونة بما هو قادم من أحداث وإن كانت شواهدها لا تؤشر لنهاية قريبة فى الأفق.

كان الرجل فى محاضرته موجزاً ومنظماً ومدققاً فى تسلسل هادئ لأحداث تلك الحرب وانعطافاتها الرئيسية والحادة سواء فى إيجابياتها الافتتاحية التى حملت نشوة الأمل مع ملامح الانتصار، أو فى سلبياتها الختامية التى خيمت بظلالها وبشكوكها حول إدامة الإنجاز الباهر والمبهر للعسكرية المصرية على جبهة القناة، وأشهد أن الرجل لم يتجاوز دور المحلل والمحقق فى عرضه لعملية العبور البالغة الدقة والجسارة للفرق المصرية شرقاً على مواجهة تعدت الـ(١٠٠) كيلو متر اتساعاً عابرة فيها المانع المائى لقناة السويس ومخترقة الخطوط الدفاعية الخصبة الإسرائيلية وصولاً لأعماق تراوحت بين (١٥.١٢) كيلو متراً على الضفة الشرقية للقناة كما لم يتجاوز الرجل فى حيادية واضحة ذات الدور وبواقعية وإنصاف شديدين للعملية العسكرية الإسرائيلية التى هدفت عبوراً مضاداً إلى الضفة الغربية لقناة السويس - أو إلى القارة الأفريقية كما يجب أن يذكرها بعض الإسرائيليين. والتى وفرت تواجداً إسرائيلياً ممتداً فى القطاع الجنوبى من الجبهة من الدفرسوار شمالاً ووصولاً إلى الأدبية جنوباً.

عندما غادرت القاعة فى أعقاب المحاضرة والمناقشات التى تلتها حملت ذاكرتى انطباعاً عن الرجل جاء خليطاً من التقدير ومن الإشفاق معاً، جاء التقدير ليس فقط لأدائه العلمى المرتفع فى تناوله للشأن العسكرى فى مستوياته الاستراتيجية والعملياتية. وإنما لمصداقيته الشديدة التى تميزت إلى جانب القيمة الإنسانية لها بدرجة من النبل الشخصى الرفيع التى تعطى لصاحبها تلك المكانة التى يفتقدها أو يسقط عنها الكثيرون من الرموز الذين فى سعيهم لأداء دور ما فى حدث تاريخى بحجم تلك الحرب ربما يتجاوزون الحقيقة أو على الأقل يصيغونها بألوانهم. فعندما سُئل الرجل عن صحة ما ذكره السادات فى مذكراته عن واقعة عودة الفريق الشاذلى منهاراً من جبهة القتال يوم ٢٠ أكتوبر ٧٣ مما دفع الرئيس لعزله وتعيينه هو. أى الجمسى. بدلاً منه. أجاب الرجل على سائله عقب فترة صمت متلهف شملت الحاضرين جميعاً.. «أريد أن أقول لك شيئاً عليك أن تتذكره.. لا يوجد رئيس لأركان الجيش المصرى ينهار».. ووجدتنى أصفق، وأصفق بشدة ولأنتزع معى تصفيق كل الحاضرين تحية لرجل محترم يحمل فى أعماقه الإنسانية تقديراً كبيراً لزميل عمل وشريك واجب أدى أمانة المسئولية وطرح أفكاراً لمسار العمل العسكرى فى تلك الأوقات العصيبة التى واجهت فيها القوات المصرية الاختراق الإسرائيلى غرب القناة، وقد تكون هذه الأفكار على خلاف مع أفكار القائد العام آنذاك الفريق أول أحمد إسماعيل ولكن الخلاف يبقى فى دائرة الاجتهاد فى كيفية مواجهة الموقف العسكرى، وهو اجتهاد قد يصيب وقد يخطىء لكنه لا ينحدر إلى درجة الانهيار، وعندما قرأت مذكرات المشير الجمسى التى صدرت بعد ذلك وجدت الرجل على نفس شهادته بأن الفريق الشاذلى عندما عاد من جبهة القتال لم يكن منهاراً ومعبراً عن ذلك بقوله: «لا أقول ذلك دفاعاً عن الفريق الشاذلى لهدف أو مصلحة، ولا مضاداً للرئيس السادات لهدف أو مصلحة، ولكنها الحقيقة أقولها للتاريخ». رغم أن الجمسى والذى كان يشغل حتى تلك اللحظة منصب رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة كان يرى أن القرار الذى اتخذه القائد العام فى هذا الموقف العصيب «كان صحيحاً وسليماً لمواجهة الموقف الذى كان يواجهنا».

وعلى الجانب الآخر فقد كان إشفاقى على الرجل نابعاً من دائرة الحيرة ومحيط التساؤلات التى طرح جزءاً منها فى محاضرته ثم أفرد لها فى مذكراته مساحة عريضة بعرض كل الأحداث التى عاصرها مسئولاً كان أو شاهداً، والتى تدور فى بؤرتها حول طبيعة ارتباط العمل السياسى بالعمل العسكرى فى مصر تأثيراً وتأثراً، وهى الطبيعة التى اتسمت بخلل عميق انعكس فى نتائج تراوحت بين المأساوية وبين ضياع الفرصة، الأمر الذى بدد موارد وطنية

عيزرا وايزمان فى شهادته عن الجمسى: «رجل مثقف وموهوب.. مصرى يعتز بمصريته كثيراً.. صاحب موقف متصلب.. رجل ذو طباع هادئة ودائم التفكير.. حلو الحديث ولكنه حازم جداً.. ولم يظهر أى استعداد لتقديم أى تنازل مهما صغر حجمه»

المصرى ينهار .. الجمسى

وأطاح بهيبة قومية وقبل ذلك وبعده عمق جراحاً إنسانية تبدو امتداداتها واضحة فى ملامح وسلوك الشخصية المصرية على نحو خاص.

أستأذن القارئ الكريم فى البدء بتحديد المنطقة التى كانت مثار الحيرة وبؤرة تساؤلات الرجل. ونحن أيضاً. وهى منطقة التواصل المفترض بين العمل السياسى والعمل العسكرى فى الدولة. أى دولة. والتى يطلق عليها رجال الفكر السياسى والاستراتيجى على حد سواء ما يُعرف بالاستراتيجية العليا Grand Strategy فعندما تكلف الأمة قواتها المسلحة بخوض حرب، فعليها أن تحدد لها بوضوح الحالة النهائية العسكرية التى تود تحقيقها.. وهى الشروط التى إذا تم تحقيقها عسكرياً فى ميدان القتال تكون الأمة قد أحرزت أهدافها السياسية من الحرب أو أصبح استكمال إحرازها منوطاً بوسائل أخرى من عناصر القوة الوطنية سياسية كانت أو دبلوماسية أو اقتصادية. إن دور الاستراتيجية العليا التى تتولاها القيادة السياسية فى الدولة هى ترجمة هذه الحالة النهائية العسكرية المرغوبة إلى أهداف استراتيجية تتم صياغتها فى صورة توجيهات استراتيجية صادرة إلى القيادة العسكرية وعلى أساس هذه الأهداف والموارد المتاحة تشرع القيادة العسكرية فى صياغة الهدف أو الأهداف الاستراتيجية العسكرية وإعداد خطط العمليات، ومن الواضح فى هذا السياق خطورة وأهمية منطقة الاستراتيجية العليا للدولة، فعلى قدر مستويات الإضاءة فيها تتحدد درجة التواصل والفهم المشترك بين القيادتين السياسية والعسكرية. فالأولى تقرر الأهداف المرغوبة وتخصص الموارد الوطنية اللازمة للقوة العسكرية، والثانية تضع الأهداف العسكرية للقوات وترسم مساراً منطقياً للعمليات فى ميدان القتال لا يتجاوز ما حددته الأولى.

والشاهد أن منطقة التواصل المفترض بين العمل السياسى والعمل العسكرى فى مصر اكتنفها ضباب كثيف حجب الرؤية فى معظم الأحيان عدا فترات عابرة تسرب فيها شعاع ضوء أضاء المنطقة وأتاح فرصة لتحقيق إنجازات عسكرية على الأرض على نحو ما جرى فى المرحلة الأولى الرائعة من حرب أكتوبر ٧٣.

ويمثل المشير الجمسى حالة فريدة بين شهود عصر النصف الثانى من القرن العشرين فى مصر حول ما اعترى الاستراتيجية العليا للدولة إبان تلك الفترة. فالرجل كان أحد ضباط الأركان الرئيسيين فى مركز القيادة المتقدم فى سيناء فى حرب يونيو ٦٧، ثم رئيساً لهيئة عمليات القوات المسلحة وهو جهاز التخطيط العسكرى فى حرب أكتوبر ٧٣، ورئيساً للوفد العسكرى المصرى فى مباحثات فك الاشتباك مع الجانب الإسرائيلى أو ما عُرف بمباحثات الكيلو ١٠١ التى جرت فى أعقاب توقف العمليات القتالية فى ٢٨ أكتوبر ٧٣، ثم رئيساً للأركان، وعضواً فى الوفد المصرى الذى تباحث مع الجانب الأمريكى فى أسوان بشأن اتفاق فك الاشتباك مع الجانب الإسرائيلى برعاية وزير الخارجية الأمريكى كيسنجر فى يناير ٧٤، ثم وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة فى ديسمبر ٧٤ وهو المنصب الذى جعله إلى حد ما شاهداً أكثر منه فاعلاً فى الشأن السياسى الذى شهد زيارة السادات إلى القدس والأحداث التى تلتها حتى توقيع اتفاقية كامب ديفيد فى ١٧ سبتمبر ٧٩ وخروجه من الوزارة فى أعقابها مباشرة وقبل يوم واحد من أول احتفال لمصر بذكرى حرب أكتوبر ٧٣ فى ظل هذه الاتفاقية.

لقد كرر الجمسى كثيراً فى شهادته عن هذه الحقبة من منظور المناصب العديدة التى تولاها قوله: «لم يكن العمل السياسى متمشياً مع العمل العسكرى فى ميدان القتال»، وقوله: «إن الهدف السياسى الذى يؤثر أو يتأثر بالعمل العسكرى، لا يجب أن تحجبه القيادة السياسية عن القيادة العسكرية فى حدود السرية الواجبة»، وقوله: «لا ينبغى حجب الهدف السياسى الذى فى ذهن القيادة السياسية عن رئيس أركان حرب القوات المسلحة وأجهزته الرئيسية المختصة حتى تتاح لهم فرصة التفكير والبحث المبكر عن تأثير القرار السياسى على العمل العسكرى». وهى أقوال فى مضمونها تؤشر لتلك الضبابية التى فرضت أجواءها على الأداء السياسى والعسكرى المصرى وبصورة كثيفة منذ الفترة التى سبقت حرب يونيو ٦٧ وحتى توقيع اتفاقيات كامب ديفيد فى سبتمبر ٧٩. وقد وجدت نفسى. وكذلك الكثيرون. ممن تشغلهم أمور



إن منطقة التواصل المفترض بين العمل السياسى والعمل العسكرى فى مصر اكتنفها ضباب كثيف حجب الرؤية فى معظم الأحيان

الاستراتيجية العليا - منحازاً لاعتماد مصداقية شهادة المشير ربما لحرصه الشديد على حرفيته العسكرية ورؤيته الواضحة لخطوط التماس بين العسكرية والسياسية مدعماً ذلك بقوله «لقد كنت جندياً محترفاً طوال مدة خدمتى. وأعتز بذلك كثيراً إيماناً منى بأن السياسة إذا وصلت الجيش أفسدته». إلا أن ذلك الحرص لم يمنعه من تلمس اتجاهات الريح ورؤية تراكم الضباب.

عندما تتلاشى الاستراتيجية العليا:

يطرح الجمسى رؤيته لحقائق ارتباط العمل السياسى بالعمل العسكرى فى مسار الأزمة التى قادت إلى هزيمة يونيو ٦٧ فى حقيقة أن الدولة فى مصر لم تكن لها استراتيجية عليا تربط وتنسق العمل السياسى والعمل العسكرى معاً. الأمر الذى وضح فى التقلب المستمر للهدف الاستراتيجى المطلوب إنجازه من قبل القوات المسلحة المصرية وهو ما أدى . إلى جانب عوامل ضعف أخرى شابت قيادة هذه القوات . لغياب استراتيجية عسكرية معتمدة لها، ولعل أبرز دليل على ذلك . كما يشهد الجمسى . أن مهمة الجيش الميدانى فى سيناء تغيرت فى تلك الفترة أكثر من مرة، فخلال الأيام الأولى من الأزمة عندما كان الهدف السياسى من حشد القوات المصرية فى سيناء هو معاونة سوريا فى حالة اعتداء إسرائيل عليها. مما يفترض بالتبعية أن الهدف الاستراتيجى العسكرى كان هجومياً وأن قواتنا تتخذ أوضاعاً تسمح بتنفيذ عمليات هجومية مخططة ومنسقة مع سوريا، وهو مالم يكن موجوداً. فأوضاع القوات دفاعية فى إطار خطة موضوعة مسبقاً للدفاع عن سيناء وهى الخطة «قاهر»، وعندما صدر القرار السياسى بإغلاق مضيق العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية اعتباراً من ٢٣ مايو ٦٧، كان ذلك بداية تغيير جوهرى فى الخطة الدفاعية عن سيناء حيث فتح محور جديد لعمل القوات المسلحة فى جنوب سيناء. وبدأ التفكير آنذاك فى القيام بأعمال تعرضية محدودة داخل النقب، ثم ازداد الموقف غموضاً أمام القيادة العسكرية فى ٢٦ مايو ٦٧ بإعلان القيادة السياسية أن مصر لن تكون البادئة أبداً بالهجوم، الأمر الذى تعدلت معه مهمة الجيش الميدانى فى سيناء لتكون الدفاع ضد

هجوم العدو مع قبول تلقى الضربة الجوية الأولى. وتعبيراً ليس فقط عن تلك الضبابية التى غلفت منطقة الاستراتيجية العليا للدولة المصرية آنذاك بل انعدام هذه المنطقة تماماً يقول الجمسى: «فى تقديرى أنه منذ بدء الأزمة فى ١٤ مايو ٦٧ حتى صباح يوم ٥ يونيو، كان هناك انفصال بين الفكر السياسى والفكر العسكرى.. إن هذا الخلل جاء نتيجة لعدم وجود استراتيجية عليا للدولة لمواجهة هذه الأزمة. وبالتالى عدم وجود استراتيجية عسكرية». ويستطرد الرجل بقوله «لقد وجدت القوات المسلحة نفسها تستعد للحرب، دون أن تكون هناك استراتيجية عليا للدولة تربط وتنسق مع العمل العسكرى وتُقحم فى حرب فى وقت غير مناسب لها». وفى تصورى أن مصر الدولة عانت فى تلك الفترة من قرارات سياسية متسرعة وغير مدروسة غُيبت فيها مؤسسات صناعة القرار وطرح البدائل أمام القيادة السياسية لاتخاذ القرار الأنسب. حيث لم تعقد أية اجتماعات لمجلس الدفاع الوطنى، ولم يحدث أن التقى عدد ولو محدود من المتخصصين فى وزارة الخارجية والقيادة العامة للقوات المسلحة. وهى الجهات التى يمكنها وضع تقدير موقف سياسى عسكرى سليم واقتراح بدائل مناسبة أمام رئيس الدولة لاتخاذ القرار الصحيح. لقد اقتصرت إدارة الأزمة نحو المأساة على شخص الرئيس ونائبه (المشير عامر) بصورة أساسية، بينما كان اللجوء إلى بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ورئيس الوزراء آنذاك فى اجتماع على هيئة لجنة تنفيذية عليا فى ١٧ مايو ٦٧ لاتخاذ قرار غلق مضيق العقبة أمراً صورياً بدا فيه غالبية أعضائه على جهل شبه تام بجاهزية القوات المسلحة لمواجهة احتمالات الحرب، وحتى الصوت الذى تحفظ على القرار وكان رئيس الوزراء، والمدنى الوحيد فى الاجتماع، المهندس صدقى سليمان كان صوتاً غير مسموع لم يعره رئيس الدولة اهتماماً.

الطريق إلى أكتوبر ٧٣:

استوعب السادات درس غياب الاستراتيجية العليا فى مصر قبيل وأثناء حرب يونيو ٦٧، وربما لعوامل مثل افتقاده آنذاك لكاريزمية القيادة التى كان عليها عبدالناصر. ولخطورة الأوضاع السياسية والعسكرية على المستويات المحلية والإقليمية والدولية. إضافة إلى آثار هزيمة يونيو على الرأى العام الداخلى وعدم استعداده لتقبل عثرات أخرى. فإن السادات فى طريقه لاتخاذ قرار الحرب اهتم بمنطقة الاستراتيجية العليا التى تربط العملين السياسى والعسكرى معاً بصورة ملحوظة أكد فيها على منهجية اتخاذ قرار الحرب ووزع فيها الأعباء والمسئوليات بالشكل الذى تبدو

الجمسى



ذكر الجمسى فى مذكراته أن الرئيس السادات وصل فى اجتماع ٢٤ أكتوبر ٧٢ إلى حد القول: «إننا إذا لم نحارب فستنتهى القضية وتموت وتتآكل فى عام ١٩٧٣»

فيه القيادة العسكرية العليا فى الدولة مشاركة فيه كاملاً، فى الوقت الذى ترك فيه لنفسه. كقيادة سياسية. مساحة للمناورة السياسية سيعمد لاستغلالها فور بدء أعمال القتال وتحقيق أى نجاح ملموس دون إبطاء، وهو التوجه الذى عبّر عنه فى اجتماعه الشهير مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى ٢٤ أكتوبر ٧٢ بقوله: «بما لدينا يجب أن نحكم أمرنا. نخطط لغاية ما نحرك القضية..

بمعنى نولّع حريقة.. عندئذ الكلام يكون له معناه الكامل وله قيمته». وفى تقديرى أن هذا الاجتماع جاء فى وقت استنفد فيه السادات جميع أوراق الحلول السلمية وتيقن فيه آنذاك بحتمية القيام بعمل عسكرى، فمبادرة روجرز الأمريكية سقطت فى فبراير ٧١ بعد رفض مصر استمراراً آخر لوقف إطلاق النار. ومبادرة الرئيس السادات نفسه التى طرحها فى اليوم التالى ٥ فبراير ٧١ أهدرتها إسرائيل، وفى مطلع العام ١٩٧٢ بدا أن سياسة الوفاق بين القوتين العظميين أصبحت خطأ استراتيجياً فى سياستهما الدولية انعكس فى بيان قمة موسكو فى مايو من نفس العام بالدعوة إلى استرخاء عسكرى فى منطقة الشرق الأوسط، الأمر الذى صعّد فيه السادات من موقفه تجاه الاتحاد السوفيتى على خلفية بيان القمة وتعثر الإمدادات السوفيتية لمصر بالسلاح على مدى عامين سابقين بإنهاء مهمة المستشارين السوفييت فى مصر فى يوليو ٧٢. فى هذا الاجتماع المشار إليه والذى أعقبه خروج الفريق أول محمد صادق من وزارة الحربية وتعيين الفريق أول أحمد إسماعيل، كان تقدير الجمسى الذى حضر الاجتماع كرئيس لهيئة عمليات القوات المسلحة «إن الرئيس اتخذ قرار الحرب بالإمكانيات المتاحة لدينا.. وفى رأيى أن قرار الرئيس فى ذلك الوقت كان قراراً صحيحاً وسليماً»، وربما يعود رأى الجمسى فى ذلك إلى قناعته بالعوامل والاعتبارات التى سردها الرئيس فى الاجتماع والتى دفعته لاتخاذ قرار الحرب، إضافة إلى أن هذا الاجتماع شمل أسئلة واستفسارات وإبداء آراء تحولت لتصبح عاصفة مثيرة بين الرئيس وبعض القادة. خاصة نائب الوزير الفريق عبدالقادر حسن وقائد القوات البحرية اللواء بحرى محمود فهمى. أدت إلى حالة غضب وانفعال لدى الرئيس فى هذا الاجتماع ودفعت بعد ذلك إلى التغييرات التى أشرنا إليها فى القيادة العسكرية العليا، ولعلى عندما أسترجع أحداث هذا الاجتماع واجتماعات أخرى ترأسها الرئيس للمجلس الأعلى للقوات المسلحة فى الفترة التى سبقت شن حرب أكتوبر ٧٣ أرى أن مصر أسست آنذاك لمنطقة عمل للاستراتيجية العليا ربطت فيها العمل السياسى والعمل العسكرى معاً بصورة جيدة وأتاحت بشكل غير مسبوق للقيادات العسكرية العليا الاقتراب من فكر ورؤية القيادة السياسية فى الدولة، الأمر الذى جاء فيه الهدف الاستراتيجى العسكرى والتخطيط الاستراتيجى للعمليات من جانب الأولى متمشياً ومتسقاً مع الأهداف السياسية التى حددتها الثانية، وهذه شهادة تأتى من رئيس هيئة عمليات هيئة القوات المسلحة آنذاك. اللواء الجمسى. الرجل الذى يرأس جهاز التخطيط العسكرى الاستراتيجى فى تلك المرحلة والذى فى سرده لوقائع اتخاذ قرار الحرب يبدو ملماً بتفاصيل دقيقة لهذه الوقائع التى تصب جميعها لصالح منهجية سليمة شهدها على نحو خاص العام السابق لشن الحرب، فالرئيس. كما ذكر الجمسى فى مذكراته. قد وصل فى اجتماع ٢٤ أكتوبر ٧٢ إلى حد القول: «إننا إذا لم نحارب فستنتهى القضية وتموت وتتآكل فى عام ١٩٧٣» وعبّر فى نهاية الاجتماع عن حتمية المعركة بقوله «للتاريخ، اعتبر هذه جلسة تاريخ المعركة تنتهى على أى وضع». ويعلق الجمسى على ذلك المؤتمر بقوله: «كان الرئيس واضحاً فى إعلان نواياه أمامنا بأنه قرر دخول الحرب، ولكن قرار الحرب لم يأخذ الصيغة الرسمية التى تستتبعها إجراءات تنفيذية على مستوى الدولة والقوات المسلحة، وإن كان إعداد الدولة للحرب استعداد وتجهيز القوات المسلحة لخوضها مستمراً».

وأود هنا أن أنبه القارئ بأن الجمسى كان يعنى بكون قرار الحرب «لم يأخذ الصيغة الرسمية التى تستتبعها إجراءات تنفيذية على مستوى الدولة والقوات المسلحة» أن القرار السياسى بشن الحرب فى توقيت زمنى محدد، وترجمة الحالة النهائية العسكرية المطلوبة من القوات المسلحة فى صورة توجيه استراتيجى يتضمن الهدف الاستراتيجى من الحرب لم تكن قد اكتملت بعد.

فى الطريق إلى اتخاذ قرار الحرب فى صيغته الرسمية على الجانب السياسى جاء اجتماع مجلس الوزراء برئاسة الرئيس السادات فى ٥ أبريل ٧٣ والذى عرض فيه الرئيس تقييمه للموقف وأدار نقاشاً. شارك فيه وزير الحربية. تعرض لجميع جوانب الموقف فى نواحيه السياسية والعسكرية. وانتهى بقرار بالإجماع. مع تحفظات محدودة. بحتمية الدخول فى معركة عسكرية. وفى أعقاب اتخاذ القرار السياسى للحرب فى صيغته الرسمية فى اجتماع الرئيس السادات والرئيس السورى حافظ الأسد فى دمشق يومى ٢٨ و٢٩ أغسطس ٧٣ والذى اتفقا فيه أن يكون يوم ٦ أكتوبر هو يوم بدء الحرب. رأس الرئيس السادات اجتماعاً لمجلس الأمن القومى. وهو الجهاز

المختص ببحث الجوانب العسكرية فى الاستراتيجية العليا للدولة. عرض فيه وزير الحربية باعتباره ممثل القوة العسكرية فى المجلس تصوره للمعركة واستعرض عدداً من الاعتبارات العملياتية وأجاب عن بعض ما أثير من ملاحظات، كما أبدى أعضاء المجلس آراءهم فى الوضع. وفى نهاية الاجتماع أجمل الرئيس الموقف بحتمية المعركة والانتقال من الدفاع إلى التعرض وبأن مصر «لن تقطع خيط الحوار مع الولايات المتحدة ولكنها ستواصله بينما تكون قد كسرت وقف إطلاق النار». ولم يفصح الرئيس عن يوم بدء الحرب لمجلس الأمن القومى وذكر فى مذكراته حول الاجتماع «هكذا أعلمت المسئولين عندى بالموقف ثم أنهيت الاجتماع». فى اليوم التالى لانعقاد مجلس الأمن القومى. أول أكتوبر ٧٣. ترأس الرئيس اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة واستمع إلى تقارير القادة وأصدر قراره بالحرب فى صورة «توجيه استراتيجى حدد فيه الهدف الاستراتيجى للقوات المسلحة، والذى ذكر فيه: «إن الهدف الاستراتيجى الذى أتحمل المسئولية السياسية فى إعطائه للقوات المسلحة المصرية وعلى أساس كل ما سمعت وعرفت من أوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلى: تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى وذلك عن طريق عمل عسكرى حسب إمكانيات القوات المسلحة يكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو وإقناعه بأن مواصلة احتلاله لأراضينا تفرض عليه ثمناً لا يستطيع دفعه..». وقد عاود الرئيس. بناء على طلب من وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة. إصدار توجيه استراتيجى ثان فى ٥ أكتوبر ١٩٧٣، ويذكر الجمسى أنه عندما سأل الوزير عن الأسباب التى من أجلها طلب هذا التوجيه رغم وجود توجيه سابق فى الأول من أكتوبر ٧٣. رد الوزير بقوله: «حتى تكون الأمور. للتاريخ. محددة بوضوح. ففى الوثيقة الجديدة نص صريح بكسر وقف إطلاق النار اعتباراً من يوم ٦ أكتوبر ولم يكن ذلك محدداً من قبل..

كما أن الوثيقة الجديدة تنص صراحة بالعمل على تحرير الأرض على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة، حتى لا يفهم مستقبلاً أنه كان مطلوباً تحرير سيناء بالكامل». إن ذلك فى تصورى كان يعبر عن حالة من القلق المسئول الذى غلف سلوك القيادة السياسية والعسكرية العليا على السواء فى مصر، وهو نوع من القلق الحميد الذى يقدر خطورة الموقف وقبول التحدى والأهم من ذلك أن فى مصر آنذاك كانت هناك منطقة استراتيجية عليا كاملة الإضاءة فى تلك الأيام الخطرة التى سبقت اندلاع العمليات القتالية أدركت فيها القيادة السياسية تماماً قيود وحدود العمل العسكرى للقوات المسلحة المصرية فى عملياتها المقاومة، كما أدركت فيه القيادة العسكرية العليا. أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة. فكر القيادة السياسية ورؤيتها فى المدى الذى ستذهب إليه إبان تلك الحرب.

استكمالاً لصورة الموقف فى الاستراتيجية العليا لمصر فى الطريق لحرب أكتوبر، فإن الرئيس باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة كان ملماً بالخطوط الرئيسية لخطة العمليات ومستوعباً على نحو كامل بالهدف الاستراتيجى العسكرى الذى وضعته القيادة العسكرية والذى نص. كما ذكر الجمسى. على «هزيمة التجمع الرئيسى للقوات الإسرائيلية فى سيناء والدخول إلى خطوط استراتيجية تحقق الهدف السياسى من الحرب». وكان ذلك يعنى «أن المهمة المباشرة للقوات المسلحة المصرية عقب عبور القناة وتدمير تحصينات خط بارليف هو إنشاء الجيشين الميدانيين الثانى والثالث لرؤوس كبارى بعمق (١٢ . ١٥كم)، وأن المهمة النهائية هى التقدم شرقاً والوصول إلى خط المضايق واحتلاله. ويورد الجمسى فى تأكيده على إلمام الرئيس التام بتلك المهام بما ذكره السادات فى كتابه البحث عن الذات عند حديثه عن الموقف فى اليوم الرابع للحرب «لقد عبرنا وحققنا المرحلة الأولى بالاستيلاء الكامل على خط بارليف، ولم يعد أمامنا إلا المرحلة الثانية وهى الوصول إلى المضايق».

عندما بدأ أزيز الطائرات المصرية يقتحم فضاء قناة السويس ومناطق جنوب سيناء مدعوماً بهدير دوى صاخب للمدفعية المصرية على امتداد جبهة القناة فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر كان ذلك إيذاناً ببدء جولة صعبة وعنيفة فى سلسلة جولات الصراع المسلح العربى . الإسرائيلى، لكنها جولة أحسن فيها الطرف العربى صياغة استراتيجية عليا ربطت بين الأهداف السياسية من شن الحرب وبين القدرات العسكرية المتاحة فى مجال المعركة، فالتوجيه الاستراتيجى (الهدف الاستراتيجى) الذى أصدره الرئيس فى الأول من أكتوبر ٧٣ وأعاد إصداره. بناء على رغبة وزير الحربية. فى الخامس من أكتوبر ٧٣ نص على كسر لوقف إطلاق النار والقيام بعملية هجومية تستهدف «إهدار نظرية الأمن الإسرائيلية»، والهدف الاستراتيجى العسكرى الذى وضعته القيادة العسكرية العليا ووافق عليه الرئيس تضمن الوصول إلى خطوط استراتيجية تحقق الهدف السياسى من الحرب. وكانت تلك الخطوط الاستراتيجية هى خط المضايق كمهمة نهائية للقوات المسلحة، تسبقها مهمة مباشرة تصل فيها القوات المسلحة إلى عمق (١٢ . ١٥كم) بعد تدميرها لخط بارليف الدفاعى الحصين للعدو.



لجأ الرئيس السادات إلى نهج الاستراتيجية العليا الذى يعنى مشاركة أجهزة سياسية وعسكرية فى صناعة القرار وذلك لتوزيع المسئوليات والواجبات تحسباً لأى نتائج كارثية قد تنجم عن هذه الحرب

تغييب الاستراتيجية العليا:

فى شهادة المشير الجمسى على الأحداث التى واكبت اندلاع العمليات القتالية على الجبهة المصرية فى السادس من أكتوبر ٧٣ وحتى وقف إطلاق النار فى ٢٨ أكتوبر ٧٣ بدا واضحاً أن الضباب عاود تراكمه الكثيف على منطقة الاستراتيجية العليا للدولة، وأن هذه المنطقة أصبحت هوة سحيقة تفصل فى أحيان كثيرة بين العمل السياسى والعمل العسكرى الجارى فى ميدان القتال. ولم تكن هذه الضبابية وليدة رياح مفاجئة أو تغيرات حادة فى المناخ. بقدر ما كانت تعبيراً عن حقائق كامنة فى صناعة القرار السياسى فى مصر وشروخ فى العلاقة الإنسانية فى مستويات القيادة السياسية والعسكرية العليا لعبت دورها فى إهدار الاستراتيجية العليا للدولة إبان هذه الحرب، وربما تكون قد بددت موارد وأضاعت فرص انجاز كامل للعسكرية المصرية إبان هذه الحرب، يمكن استعراض أبرزها على النحو التالى:

١ . حقيقة استمرار إرث شخصية القرار السياسى فى مصر، وانفراد الرئيس باتخاذه وتحمل مسئوليات نتائجه. وإن كان فى حال مصر التى تغيب فيها ثقافة المسئولية لدى الحاكم والمحكومين على السواء فإن مسألة المحاسبة على النتائج تبدو غائبة بكاملها. وفى حالة حرب أكتوبر فقد كان لجوء الرئيس السادات إلى نهج الاستراتيجية العليا الذى يعنى مشاركة أجهزة سياسية وعسكرية فى صناعة القرار على نحو ما أوردنا بمثابة لجوء مؤقت لتوزيع المسئوليات والواجبات تحسباً لأى نتائج كارثية قد تنجم عن هذه الحرب يمكن عندها آنذاك إلقاء مسئولياتها على أشخاص ووظائف بعينها. ولعل دلالة ذلك عودته السريعة إلى الانفراد بالقرار السياسى بعد الإنجازات الأولى الرائعة للقوات المصرية فى جبهة القتال، وهو الانفراد الذى انعكس سلباً على محصلة الأداء العسكرى إبان الحرب مما أعاد التأكيد على مسألة شخصية القرار السياسى فى مصر.

٢ . حقيقة حجب النوايا السياسية التى لدى رئيس الدولة عن أجهزة التخطيط الاستراتيجى فى القوات المسلحة والتى تشمل

رئيس الأركان وأجهزته الرئيسية المختصة وعلى رأسها هيئة العمليات التى كان يترأسها آنذاك (اللواء) الجمسى، ويبدو ذلك واضحًا فى شهادة الجمسى حول مسألة الدفعة المعنوية وعدم استغلال النجاح الذى حققته القوات المصرية فى مرحلة المهمة المباشرة لسرعة تطوير الهجوم شرقًا واحتلال خط المضايق كمهمة نهائية، حيث يشير الرجل إلى وجود توافق فى الرأى بين الرئيس السادات ووزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة الفريق أول أحمد إسماعيل فى الاكتفاء بوصول القوات إلى عمق المهمة المباشرة. (١٢ . ١٥كم) شرق القناة. وعدم تعميق الهجوم وصولاً إلى خط المضايق. (٣٠ . ٤٥كم) شرق القناة. كمهمة نهائية. وأن هذا التوافق والاتفاق بين الرئيس والوزير قد حُجب تمامًا عن باقى أعضاء القيادة العسكرية العليا بدءًا من رئيس الأركان ومرورًا برئيس هيئة العمليات، وفى هذا الصدد يقول الجمسى: «لم أكن أعلم أثناء الحرب . بحكم عملى العسكرى. بالعمل السياسى الذى يتم بواسطة القيادة السياسية دعمًا للعمل العسكرى أو استغلالاً لنتائجه.

٣ . حقيقة الخلل فى العلاقات الإنسانية فى مستوى القيادتين السياسية والعسكرية، وأود أن أشير هنا إلى أن هذا الخلل لم يكن يحمل معنى الصراع على السلطة بين القيادتين كما كان الأمر إبان حقبة (عبدالناصر. المشير عامر) حيث يبدو أن مثل هذا الأمر قد انتهى فى مصر اعتبارا من يوم ١١ يونيو ٦٧ وهو اليوم الذى استعادت فيه القيادة السياسية سيطرتها على القوات المسلحة باعتزال المشير عامر منصب القائد العام وتعيين عبدالناصر الفريق أول محمد فوزى قائدًا عامًا للقوات المسلحة، وهو الأمر الذى أصبح ممارسة دستورية شائعة بعد هذا التاريخ: إن ما أقصده من خلل هنا هو انعكاسات العلاقة الشخصية على شفافية صناعة القرار السياسى فى جانبه العسكرى، فالثقة الكاملة بشخص وزير الحربية من قبل الرئيس والولاء التام فى المقابل من الأول للثانى (لاحظ استدعاء الرئيس لأحمد إسماعيل من التقاعد. بعد إعفائه من منصبه كرئيس للأركان عام ١٩٦٩ خلال فترة الرئيس عبدالناصر. وتعيينه رئيسًا للمخابرات العامة إبان أحداث إجراءات التصحيح التى قادها السادات ضد رجال الحقبة الناصرية فى مايو ١٩٧١، ثم قيام السادات بتعيينه وزيرًا للحربية وقائدًا عامًا للقوات المسلحة فى ٢٦ أكتوبر ٧٢ بعد يومين من مؤتمر ٢٤ أكتوبر ٧٢ الشهير للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، قد وضعت حجابًا ستر النوايا السياسية التى اتفق عليها الرجلان عن باقى أعضاء القيادة العسكرية العليا كما أوضحنا آنفًا، إضافة إلى ذلك فقد وضح النفور المسبق



يذكر الفريق الشاذلى أنه عندما أخطره السادات بقرار تعيينه لأحمد إسماعيل وزيرًا للحربية علق الشاذلى قائلاً: «سيادة الرئيس. إن هناك تاريخًا طويلاً من الخلافات بينى وبين أحمد إسماعيل.. وأعتقد أن التعاون بيننا سيكون صعبًا

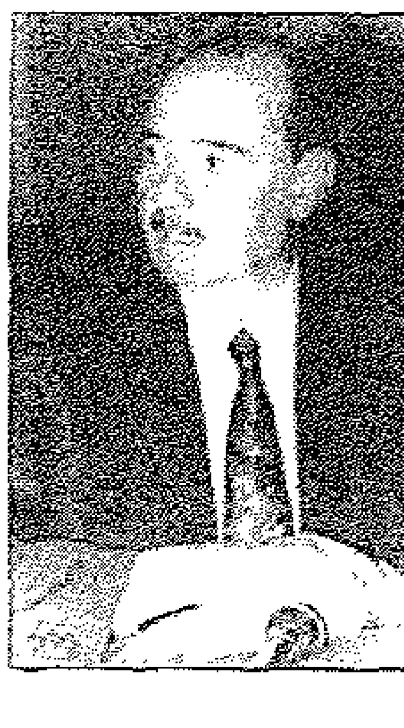
بين شخص الوزير المعين ومساعده الأول فى قيادة القوات المسلحة وأعنى به شخص رئيس الأركان آنذاك الفريق الشاذلى، الأمر الذى أكده الأخير فى مذكراته المنشورة بقوله «لم أكن قط على علاقة طيبة مع أحمد إسماعيل، لقد كنا شخصيتين مختلفتين تمامًا لا يمكن أن يتفقا»، كما يذكر الفريق الشاذلى أنه عندما استدعاه الرئيس يوم ٢٦ أكتوبر ٧٢ لإخطاره بقرار تعيينه لأحمد إسماعيل وزيرًا للحربية وقائدًا عامًا للقوات المسلحة علق الشاذلى بطريقة فورية قائلاً: «سيادة الرئيس. إن هناك تاريخًا طويلاً من الخلافات بينى وبين أحمد إسماعيل يمتد إلى حوالى ١٢ سنة مضت منذ أن تقابلنا فى الكونغو عام ١٩٦٠، وعلاقتنا حتى الآن تتسم بالفتور والبرودة، وأعتقد أن التعاون بيننا سيكون صعبًا، ويستطرد الشاذلى فى مذكراته بأن السادات قال له: «أنا أعلم تمامًا بتاريخ هذا الخلاف وتفاصيله، ولكنى أؤكد لك أن علاقته بك ستكون أفضل بكثير من علاقتك بصادق». ويتقدم الجمسى بشهادته حول تلك العلاقة المشروخة بين الرجلين اللذين يشغلان أهم منصبين على رأس القيادة العسكرية العليا قائلاً «برغم الخلافات التى كانت قد ترسبت فى نفس الرجلين، إلا أننى أُقرر أن الاستعداد للحرب كان يستنفد جهد كل منهما، كما كان الشغل الشاغل لكل القوات المسلحة، لذلك لم تظهر أمامى خلافات مهمة بينهما تؤثر على التحضير والإعداد للحرب. أما إنقاذ إدارة العمليات الحربية خلال حرب أكتوبر، فقد اختلف رأى كل منهما عن الآخر فى معالجة المواقف التى واجهتنا فى المرحلة الأخيرة من الحرب.. وأصبح واضحًا تمامًا أن كلاً منهما فقد ثقته فى الآخر، الأمر الذى كان له أثر سلبى. عسكريًا. فى الأيام الأخيرة من الحرب».

كان أول ما طرحه الجمسى نقدًا للإدارة السياسية فى الحرب موقف القيادة السياسية فى مصر فى اليوم الثانى للحرب السابع من أكتوبر ٧٣، ففى صباح ذلك اليوم كانت قواتنا قد نجحت فى عبور القناة وحطمت الخط الدفاعى الحصين للعدو. خط بارليف. وأنشأت خمسة رؤوس كبارى بواسطة خمس فرق مشاة مصرية بعمق (٦ . ٨)كم، ومع نهاية اليوم نفسه كانت هذه القوات قد أفشلت الهجوم المضاد لفرقة مندلر المدرعة الإسرائيلية ودمرت أكثر من ٢٠٠ دبابة من قوة دبابات هذه الفرقة (حوالى ٣٠٠ دبابة)، كما فشل سلاح الجو الإسرائيلى فى محاولته ضرب القواعد الجوية الرئيسية فى العمق المصرى وكذلك فى محاولته شل شبكة الدفاع الجوى الكثيفة فى منطقة القناة، وعن هذا الموقف يقول الجنرال اليعازر رئيس الأركان الإسرائيلى فى مذكراته «أقول بمرارة عن الموقف بعد ظهر هذا اليوم ٧ . أكتوبر. كنا فقدنا سيطرتنا على توجيه قواتنا فى المنطقة الشرقية كلها، فقد كان تقدم القوات العربية على الجبهتين الشمالية (الجولان) والجنوبية (سيناء) يسير بمعدل واحد، لقد كنا أمام خطة محكمة تنفذ على جبهتين عريضتين، وكأنها تنفذ على جبهة واحدة، أما دايان فلم يكن عصبيًا أو منفعلاً بل كان منهارًا محطمًا»، كما يقول دايان فى مذكراته عن يوم ٧ أكتوبر: «خلال طيرانى عائدًا من سيناء إلى تل أبيب، لا أتذكر لحظة فى الماضى شعرت فيها بالقلق الذى شعرت به الآن، لو أننى كنت أعانى جسمانيًا وأواجه الخطر شخصيًا لكان الأمر أهون، أما الآن فثمة شعور آخر ينتابنى.. كانت إسرائيل فى خطر، فى مساء هذا اليوم وفى اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى المصغر اقترح دايان الارتداد عن خط القناة إلى خط جديد» كانت نقاطى الرئيسية تقضى بأن نترك خط القناة، وننظم أنفسنا فورًا عند خط جديد، ونتمسك بهذا الخط بكل ثمن».

وفى هذا اليوم أيضًا وضح للولايات المتحدة أن تقديراتها بقدرة الإسرائيليين على تحطيم رؤوس الكبارى المصرية وتدمير شبكة الدفاع الجوية المصرية فى الساعات الأولى من صباح يوم ٧ أكتوبر كانت غير سليمة على إطلاقها، ويستشهد الجمسى فى هذا الصدد بما أورده اليعازر فى مذكراته، كانت نصيحة أمريكا أن تحاول إسرائيل بكل جهد تحطيم رؤوس الكبارى المصرية خلال الساعات الأولى من يوم ٧ أكتوبر وأن تقوم بتوجيه ضربة قوية لشبكة الصواريخ وأن تتجنب القتال المباشر»، وكانت هذه النصيحة (أو الخطة الأمريكية. قد طلبتها إسرائيل فى اليوم الأول للحرب كما اعترف بذلك اليعازر نفسه بقوله: «طلبنا يوم ٦ أكتوبر من أمريكا إبداء الرأى العاجل فيما حدث وتزويدنا بالخطط التى يراها البنتاجون صحيحة ومناسبة لمواجهة هذا الموقف». فى خضم هذا الإنجاز العسكرى المصرى فى اليوم الثانى للقتال ووسط حالة التردى التى كان عليها الإسرائيليون ووضع التخبط الذى أصبحت عليه الحسابات الأمريكية الخاطئة لمسار العمليات، فتحت القاهرة طريقًا مباشرًا للاتصال مع واشنطن وأرسل مستشار الرئيس للأمن القومى رسالة إلى هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية. بناء على تعليمات الرئيس. توضح الموقف السياسى المصرى من هذه الحرب، جاء أخطر ما فى الرسالة الملاحظة الرابعة التى أفصحت فيها مصر عن نواياها فى العمل العسكرى بأنها «لا تعتزم تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة»، وهى الجملة التى التقطها ذهن كيسنجر وفسرها كما جاء فى مذكراته عن سنواته فى البيت الأبيض بقوله: «إن هذه الجملة الواردة فى المذكرة، لا تخلو من التنويه بأن مصر غير راغبة فى متابعة العمليات العسكرية ضد إسرائيل بعد الأراضى التى كسبتها.. إن مذكرة إسماعيل أعطت الدليل على إمكانية إجراء محادثات مع بلاد هاجمت حليفنا، وربما لن يكتب لها

النصر بسبب الأسلحة الأمريكية»، ويعلق الجمسي بمرارة على ذلك: «في اليوم ٧ أكتوبر أرى أن العمل السياسي لم يكن في صالح العمل العسكري عندما نصت البرقية المصرية على أن مصر لا تعتزم تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة»، ويفسر الرجل رأيه بأن ما ورد في الرسالة المصرية لكيسنجر «فيه إفشاء لنوايانا للعدو الإسرائيلي عن طريق حليفه المضمون الولايات المتحدة.. ومن الطبيعي أن تتصرف السياسة الأمريكية وتتصرف إسرائيل عسكرياً على أساس أن قواتنا لن تقوم بتعميق وتطوير الهجوم في سيناء اكتفاء بالخطوط التي وصلت إليها في اليوم الثاني للقتال». وربما كان ذلك دافعاً لبدء تركيز الجهد العسكري الإسرائيلي على الجبهة السورية بوتيرة متسارعة مقارنة بما كان عليه الحال على الجبهة المصرية.

في اليوم الثالث للقتال . ٨ أكتوبر . كان الفشل العام سمة العمليات العسكرية الإسرائيلية على جبهات القتال المصرية والسورية، فالضربة المضادة التي شنتها إسرائيل بقوة (٣) فرق مدرعة معبأة لتصفية رؤوس كباري الجيشين الثاني والثالث في الشرق قد تمت هزيمتها، ففرقة أدن تورطت في قتال فاشل أمام الجيش الثاني، وفرقة مندلر لم تحقق جديداً في قطاع الجيش الثالث، بينما بدت فرقة شارون تائهة بين دعم القطاعين الشمالي والجنوبي دون مشاركة جوية في المعارك. ويرى الجمسي في هذا اليوم أن الإنجاز العسكري على الجبهة المصرية قد مهد الطريق لتحقيق المهمة المباشرة للقوات المسلحة صباح ٩ أكتوبر من خلال الأداء القتالي القوي لقوات رؤوس الكباري التي نجحت في صد الضربة المضادة الرئيسية قائلاً «بانتهاء هذا اليوم حوالي الساعة الثامنة مساءً كانت قواتنا المسلحة قد حققت نصراً وألحقت هزيمة أخرى بالقوات الإسرائيلية وأصبحت رؤوس كباري الفرق الخمس بالعمق الكافي والقدرة القتالية لتحقيق مهامها في تطوير وتنظيم مواقعها لتكوين رؤوس كباري جيوش»، وهو ما يعني تحقيق المهمة المباشرة للقوات المسلحة «كما هو مخطط لها في اليوم التالي ٩ أكتوبر» وهو ما حدث بالفعل، وربما لاستكمال صورة الموقف من الجانب الإسرائيلي فقد ذكر ديان في مؤتمر صحفي عقده مساء نفس اليوم «لقد أدرك العالم كله أننا لسنا أكثر قوة من المصريين.. إني لا أستطيع أن أضمن ما سوف يحدث، ومن المحتمل أن نفكر في الانسحاب إلى خطوط أقل تبعثراً وأكثر أمناً تضم عوائق طبوغرافية تمكننا من تنظيم خطة دفاعية أفضل». وربما كانت تلك إشارة إلى تفكيره في الارتداد إلى خط المضايق وهو نفس التفكير الذي ذهب إليه اليعازر رئيس الأركان في اجتماع تم مساء يوم ٨ أكتوبر حضره في رئاسة الأركان وزير الدفاع ديان ومسئول عسكري أمريكي حضر على عجل من واشنطن للمشاركة في التخطيط العسكري الإسرائيلي، حيث ذكر اليعازر في مذكراته أنه اقترح في نهاية الاجتماع «بعد أن سقط خط دفاعنا الأول، وتصدع خط دفاعنا الثاني لم يصبح أمامنا إلا الانسحاب والتمركز في خط دفاع الممرات». وهكذا جاء صباح التاسع من أكتوبر شاهداً على اطمئنان عميق للموقف العسكري المصري في جبهة القناة بتحقيق القوات المسلحة مهمتها المباشرة وتواجدها على عمق يتراوح بين (١٢ . ١٥كم) برؤوس كباري جيشين ميدانيين قادرين على تكسير كل الهجمات المضادة الإسرائيلية والتي كان أخطرها تلك الضربة المضادة يوم ٨ أكتوبر، بينما بدا الموقف على الجبهة السورية شاهداً على توقف زخم الهجوم السوري غرباً، حيث وضح استعادة الإسرائيليين للمبادأة وقيامهم بشن هجمات مضادة تراجعت معها القوات السورية إلى الخلف، بينما بدأ الطيران الإسرائيلي في قصف أهداف مدنية في سوريا شملت منشآت اقتصادية ومراكز القيادة في العاصمة دمشق. كما من المهم أيضاً ذكر حالة الهلع التي كان عليها الإسرائيليون في طلبهم لإمدادات أمريكية بالأسلحة والذخائر، ففي هذا اليوم أيقظ السفير الإسرائيلي في واشنطن وزير الخارجية كيسنجر مرتين في الساعة الثانية إلا الثلث صباحاً ثم في الساعة الثالثة صباحاً لتكرار رسالة من رئيسة الوزراء جولدا مائير تطلب فيها مساعدات عسكرية عاجلة، وعن هذا الهلع الإسرائيلي ومعرفة الوزير الأمريكي بموقف الخسائر الإسرائيلية التي عرضها السفير في اجتماع عقد على عجل في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم بغرفة الخرائط بالبيت الأبيض يقول كيسنجر: «إن كل ما أخطرنا به السفير دنيتز يوجب علينا إعادة النظر في الأسس التي وضعناها لاستراتيجيتنا، فقد كانت إجراءاتنا الدبلوماسية وسياستنا في إعادة تسليح إسرائيل ترتكز على انتصار لها. وقد تجاوزنا هذه الادعاءات وحدث شيء لم نكن ننتظره». ويستطرد معبراً عن مخاوفه وآماله في آن واحد عن الموقف الحالي والقادم: «لم يخالجني الشك أبداً في أن هزيمة إسرائيل بفضل التسليح السوفيتي، ستكون كارثة جغرافية سياسية بالنسبة للولايات المتحدة، لذلك حرضت إسرائيل على الحصول على انتصار في إحدى الجبهتين قبل أن يتخذ دبلوماسيو الأمم المتحدة مكاسب العرب حقاً يثبتونه في اجتماعاتهم القادمة».



ديان في مذكراته: «خلال طيراني عائداً من سيناء إلى تل أبيب، لا أتذكر لحظة في الماضي شعرت فيها بالقلق الذي شعرت به الآن، لو أنني كنت أعاني جسمانياً لكان الأمر أهون، أما الآن فثمة شعور آخر ينتابني.. كانت إسرائيل في خطر

ويشير كيسنجر في مذكراته عن تلك الساعات إلى مدى استغلال أمريكا ما كشفت عنه مصر في نيتها عدم تعميق الاشتباكات لدعم تحقيق إنجاز إسرائيلي على الجبهة السورية. حيث يقول «أخذنا نركز جهودنا الآن على انتزاع نصر على السوريين، أما على المصريين فهذا أمر يطول، كما قال السفير دنيتز». وفي مساء هذا اليوم أبلغ كيسنجر السفير الإسرائيلي بقرار الرئيس نيكسون إرسال جميع قطع الغيار والمعدات المطلوبة لإسرائيل وموافقته على تعويضها عن كل ما تفقده من طائرات ودبابات حتى وإن اضطرت الولايات المتحدة لإرسالها على طائرات أمريكية (حتى الآن كان الأمر مقصوراً على استخدام أسطول النقل العسكري والمدني الإسرائيلي في عملية الإمداد). على الجانب السوفيتي في هذا اليوم يذكر السيد حافظ إسماعيل في كتابه أمن مصر القومي أن السفير فينوجرادوف، والذي استمرت لقاءاته العاجلة مع الرئيس السادات يومياً منذ اندلاع الحرب تركز على طلب وقف إطلاق النار بهدف «توطيد النجاح العسكري وتحويله إلى قاعدة قوية لمواصلة النضال السياسي» وهو الأمر الذي كرر السادات رفضه له في كل هذه اللقاءات قبل أن يتحقق الانسحاب الإسرائيلي إلى خطوط ٥ يونيو ٦٧، كان قد عرض في لقاء مع الرئيس السادات تدهور الأوضاع على الجبهة السورية وأن «فشل الجيش السوري سيتيح للإسرائيليين تركيز قواتهم على جبهة سيناء وحدها، مما يؤدي إلى تعقيد الوضع.. ومن ثم فمن الضروري التوصل إلى قرار لوقف إطلاق النار في ظروف فعالية الجبهتين». إلا أن الرئيس رفض الاستجابة لطلب السوفييت مرة أخرى، وحتى هذا الوقت بدا أن الجمسي مؤيد لهذا القرار معتبراً «أنه من وجهة نظري كان قراراً سليماً وحكيماً حيث لم يكن هناك ما يدعو مصر لقبول وقف إطلاق النار في الوقت الذي كانت فيه قواتنا المسلحة تحقق النجاح تلو الآخر.. لقد حققت هذه القوات المهمة المباشرة تمهيداً لاستكمال مهامها في العملية الهجومية». إلا أن الجمسي استطرد قائلاً في جملة شرطية تالية: «وكان لابد من استمرار الهجوم» وهو الأمر الذي سيقودنا إلى نقده الثاني للعمل السياسي الذي صاحب الأداء العسكري في تلك اللحظات الحاسمة من عمليات القتال والذي يتركز حول مسألة توقف القوات المصرية على الخطوط التي وصلتها يوم ٩ أكتوبر والتي استمرت حتى صباح يوم ١٤ أكتوبر عندما استأنفت تطوير الهجوم شرقاً في اتجاه المضايق، وهو التوقف الذي سمي «الوقفة التعبوية» والتي جرى بشأنها . ولازال . اختلاف في الآراء وتتعدد في الاجتهادات باعتبارها من وجهة نظر الكثيرين سبباً

مباشراً فى التحول الحاد الذى شهدته الحرب مقارنة بسير أحداثها الأولى.

عندما كان التقدم شرقًا واجبًا. وقبول وقف إطلاق النار ملائمًا:

كان (اللواء) الجمسى يرى بحكم منصبه رئيساً لهيئة العمليات ومسئولاً مباشراً عن التخطيط «إن مبدأ التطوير شرقًا إلى المضايق هو مبدأ مقرر لا خلاف عليه ويصبح السؤال فقط.. متى يستأنف الهجوم»، وكان يرى ضرورة استئناف هذا الهجوم بسرعة لتحقيق المهمة النهائية للقوات المسلحة حيث يقول: «كان من الواضح أنه كلما طال وقت الانتظار. الوقفة التعبوية. بعد يوم ٩ أكتوبر كان لدى العدو فرصة تدعيم موقفه العسكرى»، وأن «ترك العدو دون ضغط مستمر عليه معناه انتقال المبادأة له»، كما يبرر رأيه بقوله: «القوات الإسرائيلية فى سيناء فى وضع سيئ الآن من الناحية المعنوية والقدرة القتالية، وعلينا ألا ننتظر أن تتخذ هذه القوات أوضاعاً دفاعية حتى نهاية الحرب وستحاول اختراق أحد القطاعات بالجبهة حتى يكون دفاعها إيجابياً نشطاً، وقد تصل بعض قواتها إلى خط القناة، لذا يجب حرمان العدو من القيام بذلك بالمحافظة على المبادأة فى أيدينا ولا يتحقق ذلك إلا بتطوير العمليات الهجومية شرقاً».

ويقول الجمسى أنه وجد حذراً شديداً من وزير الحربية فى مسألة سرعة التقدم شرقًا بعد حوارات طويلة أجراها معه داخل مركز العمليات على مدى يوم ٩ أكتوبر، فالوزير كما يشهد الجمسى كان يرى «الانتظار لتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة من الأوضاع الحالية لقواتنا فى رؤوس الكبارى قبل استئناف الهجوم»، كما كان يرى «أن القوات البرية ستتعرض للتهديد من الطيران الإسرائيلى، وأن مقاتلاتنا وشبكة الدفاع الجوى المصرية لن تتمكن من توفير حماية كافية لهذه القوات عند تقدمها». ويعبر الجمسى عن أن الوزير «كانت تسيطر على أفكاره الخسائر المتوقعة من الطيران المعادى، ويردد دائماً: لابد من المحافظة على القوات المسلحة سليمة»، ويعود الجمسى إلى تذكيره بقوة «إن خطة الحرب التى لا خلاف عليها. عسكرياً وسياسياً. قد وضعت للوصول إلى خط المضايق كهدف نهائى للحرب»، وأن الخطة «لم تحتم وقفة تعبوية بعد اقتحام القناة وإنشاء رؤوس كبارى للجيوش، بل نصت على تطوير الهجوم شرقًا للاستيلاء على المضايق بعد وقفة تعبوية أو بدونها حسب الموقف». ويأخذنا الرجل إلى تساؤل كبير حول سبب هذا التوقف الطويل الذى كان يرغبه الوزير ثم ذلك التحول المفاجئ من الوزير أيضاً بالإسراع فى توقيع أوامر تطوير الهجوم بعد أن أصدر الرئيس السادات قراراً بذلك فى الساعات الأولى من يوم ١٢ أكتوبر «لتطوير الهجوم بعد تدهور الموقف العسكرى فى الجبهة السورية»، حيث أمر الوزير بأن يبدأ الهجوم صباح اليوم التالى ١٣ أكتوبر (تأجل بعد ذلك لاعتبارات عملياتية ليكون صباح يوم ١٤ أكتوبر)، فى مقدمة تساؤله يطرح الجمسى قناعته بأن «عبء إدارة العمليات الحربية لتنفيذ الخطة يقع على القيادة العسكرية دون تدخل من القيادة السياسية وهو الأسلوب الصحيح لإدارة العمليات»، ثم يتساءل الرجل: «حاولت خلال الحرب معرفة مبررات البطء فى تطوير الهجوم شرقاً، وهل كان هناك قيد سياسى على القائد العام يتطلب ذلك، إلا أن الفريق أول أحمد إسماعيل لم يفصح لى عن هذا القيد لو كان موجوداً»، ويجيب الجمسى عن تساؤله بقوله: «اتضح لى بعد إسراع القائد العام بإصدار أوامر تطوير الهجوم بعد قرار الرئيس بذلك أن الوقفة التعبوية من ١٠. ١٣ أكتوبر كانت باتفاق وموافقة الرئيس والقائد العام أحمد إسماعيل، كما أن قرار تطوير الهجوم. بعد الوقفة. كان قراراً سياسياً».



يطرح الجمسى تقييمه لشخصية القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل بقوله: «كان حذراً أكثر مما يجب، وأبطأ مما يجب، الأمر الذى دعاه إلى الانتظار الطويل، وكان عليه أن يغامر بعد أن ضاعت منا فرصة استغلال النجاح»

ويطرح الجمسى تقييمه لشخصية القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل بقوله: «كان حذراً أكثر مما يجب، وأبطأ مما يجب، الأمر الذى دعاه إلى الانتظار الطويل، وكان يرى ألا يغامر، وكان عليه أن يغامر بعد أن ضاعت منا فرصة استغلال النجاح بسرعة لتحقيق الهدف الاستراتيجى»، وفى محاولته لتكامل منهجه النقدى فى هذا الموقف الذى مهد بلاشك لحدوث الثغرة الإسرائيلية غرب القناة فيما بعد، يطرح الجمسى بقوة سؤاله: «هل هناك علاقة بين فكرة الرئيس بعدم تعميق الاشتباكات كما جاء فى الرسالة التى بعثتها مصر لوزير الخارجية الأمريكية كيسنجر فى ٧ أكتوبر وبين قراره بالبطء فى تطوير الهجوم فى اتجاه المضايق وعمل وقفة تعبوية؟»!

ومن المهم القول أن هذا التطور المتأخر للهجوم مثّل نقطة تحول مثيرة فى حرب أكتوبر ٧٣ لصالح الطرف الإسرائيلى، فالجمسى. كما جاء فى مذكراته. تناول خطورة التأخير الذى حدث فى تطوير الهجوم والذى كان يرى أن الاستباق به أمر ضرورى، إلا أنه وبطبيعته الحذرة العسكرية استعرض أوضاع القوات عند بدء الهجوم بصورة عابرة ربما باعتباره مسئولاً فى هذه اللحظة مع القائد العام عن خطة التطوير. رغم معارضته لتأخرها. دون التعرض لأخطائها الواضحة التى عرضها بصورة أكثر تفصيلاً الفريق الشاذلى فى مذكراته والتى أراها أكثر موضوعية من ناحية تناول الأوضاع العملياتية وتحليلها، ربما لاختلافه الشديد مع القائد العام فى أسلوب مواجهة الموقف العسكرى منذ اللحظة التى بدأ فيها التفكير فى تطوير الهجوم شرقاً، فالشاذلى يرى «أن دفع الاحتياطيات المدرعة المصرية. عدا لواء مدرع واحد هو كل ما تبقى لدينا غرب القناة. إلى الضفة الشرقية للقناة لتطوير الهجوم فى اتجاه المضايق بقوة حوالى (٤٠٠) دبابة فى مواجهة (٨) لواءات مدرعة إسرائيلية بقوة حوالى ٩٠٠ دبابة، والأخطر من ذلك عمل هذه القوات خارج حماية الدفاع الجوى الصديق فى الغرب، وفى المكان الذى اختاره العدو كان خطأ كبيراً بعد لاختلال الموازين، وأتاح موقعاً مثالياً لكى يقوم العدو بعد ذلك بمحاولة اختراق مواقعنا».

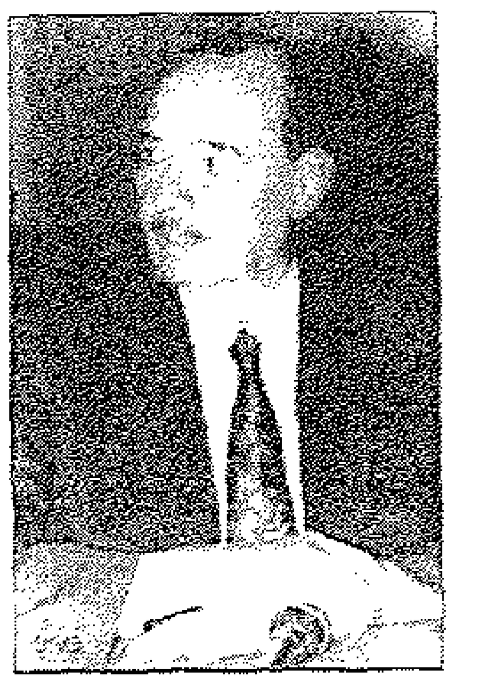
وفى قراءتنا لاستراتيجية مصر العليا فى اليوم الذى قررت فيه القيادة السياسية تطوير الهجوم شرقاً وكان ذلك القرار فى الساعات الأولى من صباح ١٢ أكتوبر: هل يمكن القول أن مصر أضاعت فى هذا اليوم أيضاً فرصة وقف إطلاق نار مشرف على جبهة القتال، ربما لم يطرح الجمسى هذا الأمر بقوة وإن كان أشار فى معرض نقده للإدارة السياسية آنذاك أنه قد حدثت خلال الحرب «مواقف رئيسية مهمة كانت تستدعى التشاور والاستماع إلى وجهات النظر المختلفة حتى يمكن الوصول إلى أفضل القرارات» وعدد من تلك المواقف مسألة «تحديد الوقت المناسب لقبول وقف إطلاق النار». إن سير الأحداث السياسية خلال الوقفة التعبوية للقوات المصرية تؤشر إلى تساؤل مهم يمكن طرحه على النحو التالى: «هل أضعنا فرصة قبول مشرف لوقف إطلاق النار فى ١٢ أكتوبر واستبدلنا به مغامرة عسكرية غير محسوبة بقرار تطوير الهجوم شرقاً الذى اتخذ فى نفس اليوم؟!». إن الإجابة على ذلك من واقع سير الوقائع السياسية خلال الفترة من ١٠. ١٢ أكتوبر تشير إلى أننا حقيقة قد أضعنا هذه الفرصة بسبب ضبابية الاستراتيجية العليا فى مصر وعلى نحو خاص انفراد القيادة السياسية بإدارة الموقف دون تشاور كاف مع أجهزة التخطيط الاستراتيجى العسكرى العليا فى القوات المسلحة، والتغييب المتعمد للنوايا السياسية خاصة فى مسألة عدم تعميق الاشتباكات إلى الشرق وقصرها على شخص الرئيس ووزير الحربية، كما أشار الجمسى، وللتأكيد على هذه الحقيقة حول الاستراتيجية العليا المصرية فى تلك الفترة الحاسمة، فإن حال الاتصالات السياسية آنذاك كان يؤشر إلى أن الاتحاد السوفيتى قد وصل فى ١٠ أكتوبر إلى قناعة مؤداها قبوله بأى وقف لإطلاق النار بصرف النظر عن مواقف الأطراف العربية، ويقول كيسنجر فى

مذكراته عن ذلك «اتصل بى السفير السوفيتى برنين وأبلغنى أن المشاورات السوفيتية مع مصر وسوريا قد تأجلت حيث ظهر أنها غير مرضية.. وتستطيع موسكو الآن أن تثبت لنكسون أن الاتحاد السوفيتى مستعد الآن لعدم الوقوف فى وجه قرار لوقف إطلاق النار يتخذ فى مجلس الأمن». وفى نفس الوقت بدا أن كيسنجر قد أصبح أكثر اطمئنانًا على تحسن الموقف العسكرى الإسرائيلى خاصة بعد قرار الرئيس نيكسون فى اليوم السابق ٩ أكتوبر بإمداد إسرائيل بالسلاح وتعويضها عن كل ما فقدته من الطائرات والدبابات حيث يذكر كيسنجر فى معرض رده على رسالة شكر وامتنان حملها السفير الإسرائيلى فى واشنطن إلى الإدارة الأمريكية قوله للسفير: «طالما أن إسرائيل قد اطمأنت لإعادة إمدادها، فإنها ليست فى حاجة للاحتفاظ باحتياطيها..! كل ما يهم إسرائيل الآن العودة إلى خطوط ما قبل الحرب بأسرع ما يمكن، أو تتجاوزها فى إحدى الجبهتين. فنحن لا نستطيع تأجيل تقديم الاقتراح إلى مجلس الأمن لوقف إطلاق النار وقتًا طويلاً». ونتيجة للاتصالات المستمرة بين أمريكا والسوفييت من جهة، وبين أمريكا وإسرائيل من جهة أخرى قبلت الأخيرة وقف إطلاق النار على الخطوط التى وصلت إليها القوات وأرسلت جولدا مائير رسالة مساء يوم ١٢ أكتوبر إلى كيسنجر تفوضه التقدم بمشروع القرار إلى مجلس الأمن. إذا كان كيسنجر يرى أنها خطوة حكيمة.

ويعقب الجمسى على تلك الرسالة بقوله «كانت هذه الرسالة تعكس الموقف العسكرى العام الذى تواجهه إسرائيل». واستطرادًا لتطور الأحداث السياسية سأل كيسنجر البريطانيين تلمس موقف مصر من هذه المسألة، الأمر الذى دفع السفير البريطانى بالقاهرة إلى طلب مقابلة عاجلة مع الرئيس السادات فجر يوم ١٣ أكتوبر يسأل فيها. بناء على طلب كيسنجر من مستر هيث رئيس الوزراء البريطانى. عن مدى موافقة الرئيس على وقف إطلاق النار قائلاً: «إذا ما اقترح أحد فى مجلس الأمن إيقاف القتال على الخطوط الحالية.. فإن الحكومة الأمريكية لن تعترض، وأن كيسنجر لديه من الأسباب ما يشير إلى أن إسرائيل ستقبل ذلك». وكان رد الرئيس السادات كما جاء فى مذكراته على هذه الواقعة: «إننى لن أوافق على وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهام التى تضمنتها الخطة». كانت مصر فى هذه الساعات التى سبقت تطوير الهجوم شرقًا تفتقد مرة أخرى فن الاستراتيجية العليا التى تربط العمليين السياسى والعسكرى معًا، كانت القيادة السياسية قد أدارت ظهرها تمامًا لآراء القادة العسكريين فى مركز عمليات القوات المسلحة وكذلك قادة الجيوش الميدانية والذين تحفظوا جميعًا على مسألة تطوير الهجوم شرقًا وطرحوا مخاطره وعددوا محاذيره وكان على رأس هؤلاء رئيس الأركان وقادة الجيشين الثانى والثالث الميدانيين، بينما احتفظ الجمسى برأيه الذى أفصح عنه منذ ٩ أكتوبر وهو ضرورة الإسراع بتطوير الهجوم وأن التأخير ليس فى صالح القوات المصرية وهو ما كان يعنى دون إشارة واضحة منه «أن الوقت الآن قد أصبح متأخرًا وليس فى صالحنا». لقد اكتفت القيادة السياسية آنذاك متمثلة فى شخص الرئيس وحده برأى وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة الذى بدا منفذًا لقرار الرئيس أكثر منه مناقشًا أو طارحًا لتوصية أو على الأقل ناقلاً لحالة القلق والحذر والتخوف من عواقب الهجوم التى كان عليها كبار القادة العسكريين المصريين آنذاك مؤكدًا ماذهب إليه قول الجمسى عنه. وفى تصورى أن التشاور بين القيادة السياسية والقيادات العسكرية العليا فى مصر كان مطلوبًا فى يوم ١٢ أكتوبر ٧٣ أكثر منه فى أى يوم آخر من أيام مصر، وربما كان ذلك تكرارًا ليوم آخر فى تاريخ مصر وهو يوم ١٧ مايو ٦٧ عندما قرر الرئيس عبدالناصر غلق مضيق العقبة دون تشاور كاف بين القيادة السياسية والقيادات العسكرية العليا فى مصر.. هكذا كتب علينا فى مصر وتحت رحمة شخصنة القرارات السياسية المصيرية للأمة أن نهمل دائمًا طوق نجاة احتفظ به آخرون وأجادوا استخدامه.. ذلك هو الاستراتيجية العليا التى تصل العمل السياسى فى دهاليز الحكم وأروقة الدبلوماسية مع هدير المدافع فى ميادين القتال.

مشاعر حزينة
لجندى محترف:

ذلك كان مبعث إشفاقى الذى خرجت به بعد محاضرة المشير الجمسى فى خريف العام ١٩٨٩، والتى أكدتها قراءتى لمذكرات الرجل عن حرب أكتوبر ٧٣ ومذكرات آخرين عن وقائع تلك الحرب منهم عرب وأمريكيون وبريطانيون وإسرائيليون. وما زاد على ذلك من الإشفاق ما كتبه الرجل معاتبًا فى خجل العسكرى المحترف عن واقعة خروجه المفاجئ من الوزارة ومنصب القائد العام للقوات المسلحة بعد عودة الرئيس السادات من أمريكا فى أعقاب توقيع اتفاقية كامب ديفيد فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨، وقبل يوم واحد من احتفالات مصر بالعيد الخامس لحرب أكتوبر ٧٣ وتحديدًا يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٨.. يقول المشير: «شعرت بالضيق والأسف لاختيار يوم ٥ أكتوبر لإجراء التغييرات فى القيادة العسكرية بحيث تكون القيادة الحالية التى كان لها دور رئيسى فى حرب أكتوبر بعيدة عن القوات المسلحة فى ذكرى الاحتفال بالنصر يوم ٦ أكتوبر ٧٨.. ويستطرد الرجل فى عتابه الحزين الذى يعبر عن نبل جندى مصرى محترف خدم وطنه فى أصعب الأوقات وأدى الأمانة كما أقرها الله واحتاجها الوطن.. «ألم يكن من الأفضل والأنسب أن يتم ذلك فى أى يوم آخر غير اليوم الذى حققت فيه مصر وقواتها المسلحة النصر الذى كان لنا شرف المساهمة فيه؟.. إن من سلطة رئيس الدولة تعيين وتغيير الوزارة والقيادات العسكرية العليا فى أى وقت ولكنى كنت آمل فقط أن يكون هناك حسن اختيار للتوقيت مراعاة للناحية المعنوية التى تعتبر عاملاً مهمًا فى حياة كل مقاتل».



تساؤل مهم:
«هل أضعنا فرصة قبول مشرف لوقف إطلاق النار فى ١٢ أكتوبر واستبدلنا به مغامرة عسكرية غير محسوبة..؟»

سيدى المشير.. فى مكان بعيد عن أرض الوطن جلست أتابع عبر شاشة التلفاز مشهد وداعك الأخير. كان بالنسبة لى وربما للكثيرين بمثابة عرض عسكرى أخير تقوده أنت بجسدك الذى أنهكته سنوات العمر وأحداث الوطن.. محاربًا شجاعًا ومخططًا بارعًا ومفاوضًا لا يلين وربما تكون الصفة الأخيرة هى ما جلبت عليك سيدى ذلك الخروج السريع والمفاجئ من منصب الوزارة والقائد العام للقوات المسلحة المصرية، وهو ما سنحاول أن نفرد له مقالاً آخر.

الراحل الكريم.. لن أجد أبلغ من شهادة وزير الدفاع الإسرائيلى عيزرا وايزمان الذى فاوضك فى الفترة التى سبقت اتفاقية كامب ديفيد عن انطباعاته فى الساعات التى سبقت أول لقاء بينكما.. «بعد اطلاعى على التقارير والوثائق أدركت أنه رجل مثقف وموهوب ومنطو على نفسه، وعلمت أنه مصرى يعتز بمصريته كثيرًا. وقد تذكرت أننى لم أشاهده فى جميع الصور الصحفية والتليفزيون وهو يبتسم». وخلال المفاوضات الصعبة التى دارت بين الرجلين فى أواخر عام ٧٧ عاود وايزمان شهادته عن الجمسى قائلاً: «ظهر الجمسى كصاحب موقف متصلب. إن الرجل ذو طباع هادئة ودائم التفكير، وهو حلو الحديث ولكنه حازم جدًا. ولم يظهر أى استعداد لتقديم أى تنازل مهما صغر حجمه».

هكذا غيب الموت فى ٧ يونيو ٢٠٠٣ الرجل الذى كانت حياته العسكرية كلها منذ تخرجه فى المدرسة الحربية فى الأول من نوفمبر ١٩٣٩ وحتى خروجه من الوزارة فى أكتوبر ١٩٧٨ فى ظل العداء بين إسرائيل والعرب، والحروب المتتالية التى دارت منذ إنشاء هذا الكيان عام ١٩٤٨.. وكان السؤال الذى ظل يراوده حتى مشهده الأخير: «هل اقتنعت إسرائيل بأهمية تحقيق السلام؟!».

شركات لحفظ السلام!

بى دابليو سنجر

الخصخصة من أى نوع لها من الناحية الاقتصادية آثارها الخارجية الإيجابية والسلبية. ولا يصدق هذا على شىء صدقه على المجال العسكرى، حيث تزيد دوافع الربح ضباب الحرب كثافة



يندلع العنف فى إحدى الدول الأفريقية الصغيرة. تنهار الحكومة المحلية وتشير التقارير إلى ذبح عشرات الآلاف من المدنيين. يتدفق اللاجئون إلى الخارج فى صفوف تدعو للأسى. وحين يعاد عرض المشاهد التى تذكرنا بالإبادة الجماعية التى شهدتها رواندا على شاشات التلفزيون فى أنحاء العالم، يتعاظم الضغط من أجل عمل شىء ما. ولا تلقى نداءات الأمم المتحدة لاتخاذ إجراء ما آذانًا مصغية. وفى الولايات المتحدة تظل القيادة مشغولة بالحرب ضد الإرهاب والعراق وتقرر أن المخاطر السياسية الخاصة بعدم القيام بشىء ما تقل كثيرًا عن مخاطر فقدان أرواح الجنود الأمريكيين فيما تعد فى المقام الأول مهمة من المهام الخيرية. وتحذو حذوها دول أخرى، فلا يكون هناك من لديه الاستعداد للمخاطرة بقواته.

هنا تتقدم شركة خاصة بعرض مبتكر: فسوف تستخدم الشركة قواتها المستأجرة فى إنشاء ملاذات آمنة محمية يلجأ إليها المدنيون ويتلقون فيها المساعدات من وكالات الغوث الدولية. حيث قد ينقذ ذلك آلاف الأرواح. وكل ما تطلبه الشركة شيك بمبلغ ١٥٠ مليون دولار.

ما الذى سيفعله المجتمع الدولى حين يواجه بهذا الاختيار؟ هل سيسمح لحفظ السلام بأن يكون ممارسة لتحقيق الربح؟ أم أنه سيختار رفض اقتراح الشركة، ولكن على حساب المخاطرة بالأرواح على الأرض؟ من المؤكد أن هذه معضلة خيالية، ولكنها معضلة تبدو غير محتملة بالقدر الذى لا يجعل أحدًا يفكر فيها بجدية. أما الواقع فهو أنها ليست كذلك.

هناك عدد من الدول على شفا السقوط فى هاوية الفوضى (كبوروندى والكونغو وزيمبابوى على سبيل المثال لا الحصر). ورغم مرور عشر سنوات من الخروج فى أزمة والوقوع فى غيرها، لا يبدو العالم فى موقف أفضل يمكنه فيه التصدى لذلك، إن هو أراد. والمشكلة الكبرى هى أن الأمم المتحدة لا تزال منظمة تطوعية تضم دول العالم. ولذلك تعتمد خيارات حفظ السلام الخاصة بها على تحمس الدول الأعضاء فيها لإرسال

بترتيب مع Policy Review
ترجمة: أحمد محمود

قواتها إلى مكمن الخطر. ويقل وجود ذلك فى مناطق خارج مجالات نفوذها، وبالأخص بين الدول المتقدمة التى تكون جيوشها أفضل استعداداً لمثل هذا العمل الطيب. وتنطبق المشكلة ذاتها على المنظمات الإقليمية التى هى فى الغالب أضعف ما تكون فى مناطق العالم التى فى أشد الحاجة إليها. وفى بعض الأحيان يمكن إقامة التحالفات للتصدى للمشاكل، غير أنها تتطلب الوقت والتماسك والاستعداد والقدرة على التدخل، وهو ما قد لا يتوفر دائماً. وبذلك فإنه حين تسقط دولة من الدول أو تعمها الفوضى لا يجيب النداء أحد فى أغلب الأحيان. وحتى حين تتوفر قوات حفظ السلام فإن الوحدات كثيراً ما تكون بطيئة وثقيلة فى انتشارها، أو يكون تدريبها سيئاً، أو تكون غير مجهزة بما يكفى من معدات، أو تفتقر إلى أى دافع، أو تعمل طبقاً لتفويض به خلل ما.

وفى الوقت ذاته هناك تجارة عالمية متنامية فى الخدمات العسكرية الخاصة المعروضة للإيجار، المعروفة باسم الصناعة العسكرية المخصخصة. وتتراوح هذه الشركات بين الشركات الاستشارية الصغيرة التى يكونها الجنرالات المتقاعدون، والشركات الكبيرة متعدية القوميات التى تعرض تأجير كتائب من القوات الخاصة. وكان لهذه الشركات، التى غالباً ما تعمل بعيداً عن أعين الجماهير، دور فاعل على مدى العقد المنصرم فى عدد من الصراعات، من أنجولا إلى ما كان يعرف بزائير. بل إن الجيش الأمريكى أصبح أحد كبار عملاء هذه الصناعة، حيث توفر الشركات الخاصة الآن الخدمات اللوجيستية لكل انتشار عسكرى أمريكى كبير. فهى تتولى صيانة أنظمة الأسلحة الاستراتيجية مثل القاذفة الشبح B-٢ والطائرة «جلوبال هوك» التى تطير بلا طيار، وتتولى برامج تدريب ضباط الاحتياط فيما يزيد على ٢٠٠ جامعة أمريكية. والواقع أنه منذ عام ١٩٩٤ حتى عام ٢٠٠٢ وقعت وزارة الدفاع الأمريكية ما يزيد على ٣ آلاف عقد مع شركات عسكرية تتمركز فى الولايات المتحدة تقدر قيمتها بما يربو على ٣٠٠ مليار دولار. وسوف يؤدى الدور الذى تقوم به فى حرب العراق إلى زيادة هذه الأرقام.

وكانت نتيجة ذلك أن آخذ كثيرون طيلة السنوات العديدة الماضية يطالبون بحل تجارى خاص بالقرن الحادى والعشرين لمشاكل العالم الأمنية التى ظهرت فى القرن العشرين. فإذا كان كل شىء من السجون حتى الرعاية الاجتماعية قد جرت خصخصته، فلم لا نحاول أن نسند حفظ السلام إلى السوق الخاصة؟ ومن الواضح أن مؤيدى بحث هذه الفكرة بينهم الشركات التى تستعد لجنى الأرباح منها. إلا أن دائرتهم تتسع كثيراً لتشمل ليس فقط الحكومة البريطانية التى أصدرت من فترة قريبة «كتاباً أخضر» يبحث المسألة، بل كذلك الكثير من المؤيدين التقليديين لحفظ السلام الذى تقوم به الأمم المتحدة، ومنهم السير برايان يوركارت نائب السكرتير العام للأمم المتحدة السابق الذى يعتبر الأب المؤسس لحفظ السلام. وأعرب أحد الضباط التابعين للأمم المتحدة عن مشاعره تجاه الشركات فى مقابلة أجرتها معه «أوتاوا سيتيزن» (٦ أبريل ١٩٩٨) قائلاً: «لسنا بحاجة إليها ولا نريدها فى عالم يتسم بالكمال. ولكن العالم ليس كاملاً». وتقدم خصخصة حفظ السلام الوعد والخطر. وقد حان الوقت كى يواجه المجتمع الدولى بعض الاختيارات الصعبة، قبل أن تفرض الكارثة التالية معضلة أشد سوءاً.

الصناعة العسكرية المخصخصة

مع أن قليلين هم من سمعوا عن الصناعة العسكرية المخصخصة، فهى صناعة كبيرة إلى حد يدعو للدهشة. ذلك أنها تضم مئات الشركات، وتعمل فيما يزيد على مائة دولة فى ست قارات، وتزيد عائداتها العالمية السنوية على مائة مليار دولار. والواقع أنه بعد شراء شركة «إل ثرى»، وهى إحدى شركات قائمة مجلة «فورشن» الخمسمائة الكبرى، لشركة «إم بى آر آى» (شركة استشارية مركزها فيرجينيا) أصبح كثير من الأمريكيين يملكون شرائح من الصناعة فى خطط معاشاتهم التقاعدية. وفى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر مباشرة كانت الصناعة إحدى صناعات قليلة ارتفعت قيمة أسهمها بدلاً من أن تنخفض. والسبب هو أن الهجمات فرضت فى المقام الأول «ضريبة أمن» على الاقتصاد كانت الصناعة العسكرية الخاصة على أهبة الاستعداد لتحقيق الأرباح منها.

وقد بدأت الصناعة انتعاشها منذ عشر سنوات تقريباً. وكان فتح السوق أمام الخدمات العسكرية الخاصة نتيجة لتعاون ثلاث قوى لها نفوذها. وكان المحفز المباشر حدوث ارتباك ضخم فى العرض والطلب الخاصين بالقوى العسكرية التى تتسم بالكفاءة منذ نهاية الحرب الباردة. ولم يخلق الانكماش العسكرى العالمى تجمعاً عمالياً جديداً يضم ما يزيد على ٦ ملايين من الجنود المتقاعدين حديثاً وحسب، بل كانت هنالك فى الوقت ذاته زيادة فى الصراعات العنيفة فى أنحاء العالم، وإن كان ذلك أقل أهمية من الناحية الاستراتيجية. وبما أن القوى الكبرى كانت أقل استعداداً للدخول فى تحالفات محلية أو دعمها. فقد كانت النتيجة وجود فجوة فى السوق الأمنية التى وجدت الشركات الخاصة نفسها قادرة على ملئها.

وفى الوقت نفسه هناك تحولات فى سبيلها للحدوث فى طبيعة الحروب. فبينما أدى تبسيط الأسلحة الصغيرة وانتشارها إلى زيادة قدرة الجماعات المتحاربة الصغرى على إرباك المجتمعات كافة، فكذلك أصبحت الحروب. بخلقها لقدر أكبر من الطلب. أكثر تكنولوجية فى أعلى مستوياتها. وكما أوضح القدر الكبير من دعم المقاولين العسكريين فى حرب العراق، تعتمد أكثر القوات حداثة أكثر من أى وقت مضى على المتخصصين المدنيين فى إدارة الأنظمة العسكرية المتقدمة تقدماً كبيراً.

وأخيراً، فإن العقود القليلة الماضية تميزت بتغير معيارى تجاه تحويل المجال العالمى السابق إلى اقتصاد السوق. ولم يوفر ما حققته برامج الخصخصة واستراتيجيات الإسناد الخارجى لبعض الأعمال المشروعية للحل القائم على اقتصاد السوق وحسب، بل أعطى كذلك دفعة لخصخصة أى عمل يمكن القيام به خارج الحكومة. وتميزت العشر سنوات الماضية على سبيل المثال بالإسناد المتزايد لعدد من الأعمال التى كانت فى يوم من الأيام ضمن الصفات المحددة للدولة القومية، ومنها المدارس، وبرامج الرعاية الاجتماعية، والسجون، والصناعات الحربية. والواقع أن نظير إسناد الخدمات العسكرية يتجلى بالفعل فى سوق الأمن الداخلى، حيث نجد أن دولاً مختلفة مثل بريطانيا وألمانيا والفليبين وروسيا والولايات المتحدة يفوق فيها عدد قوات الأمن الخاصة وحجم ميزانيتها إلى حد كبير عدد وكالات تنفيذ القانون العامة وحجم ميزانيتها. فالمسألة باختصار هى أن صناعة الإسناد الخارجى استمدت هذه السوابق والنماذج والمبررات من «ثورة الخصخصة» الأكثر اتساعاً.

وهنالك ثلاثة قطاعات أعمال أساسية مناظرة لصناعة الإسناد الخارجى الأكثر اتساعاً فى الصناعة العسكرية المخصخصة، حيث تتميز الشركات بمجموعة الخدمات التى تقدمها. وتقدم شركات الإمدادات العسكرية، التى تعرف كذلك بالشركات العسكرية الخاصة، خدمات على جبهات القتال. فالعاملون بها يشاركون فى القتال الفعلى. وتقدم شركات الاستشارات العسكرية الخدمات الاستشارية والتدريبية القتالية والاستراتيجية. وتوفر شركات الدعم العسكرى، وهى شبيهة بشركات إدارة الإمداد والتموين، خدمات أنساق المؤخرة، مثل الخدمات اللوجيستية والدعم الفنى والنقل.

ويعنى نمو الصناعة أن أية قدرة عسكرية على وجه التقريب يمكن استئجارها من السوق العالمية. وبعد أن تحصل الشركات على عقود من العملاء، الذين يتراوحون بين حكومات الدول والشركات متعددة الجنسيات وجماعات المساعدات الإنسانية، بل وبعض الجماعات الإرهابية المشبوهة، تجند الاختصاصيين الذين ينفذون تلك العقود. وهى تبحث عن العاملين بها من خلال إعلانات الوظائف الرسمية فى الدوريات المهنية ومن خلال الشبكات غير الرسمية لخريجى الجامعات والكليات الخاصة بالوحدات النخبوية. والغالبية العظمى الآن من المتقاعدين، وهو ما يعنى أن جهة أخرى تتحمل تكاليف التدريب، الأمر الذى يعنى المزيد من توفير النفقات. وبينما كان إنشاء قوة عسكرية يتطلب فى يوم من الأيام استثمارات ضخمة من حيث الوقت والموارد، يمكن فى الوقت الراهن الحصول على الطيف الكامل من القوات التقليدية خلال أسابيع، إن لم يكن خلال أيام. وبذلك انخفضت الحواجز التى تحول دون الحصول على القوة العسكرية، مما جعل القوة أكثر قابلية للإحلال. بعبارة أخرى، يمكن للعملاء تنفيذ بعض العمليات عن طريق كتابة شيك وحسب، وهى العمليات التى ما كان لهم أن ينفذوها لولا ذلك.

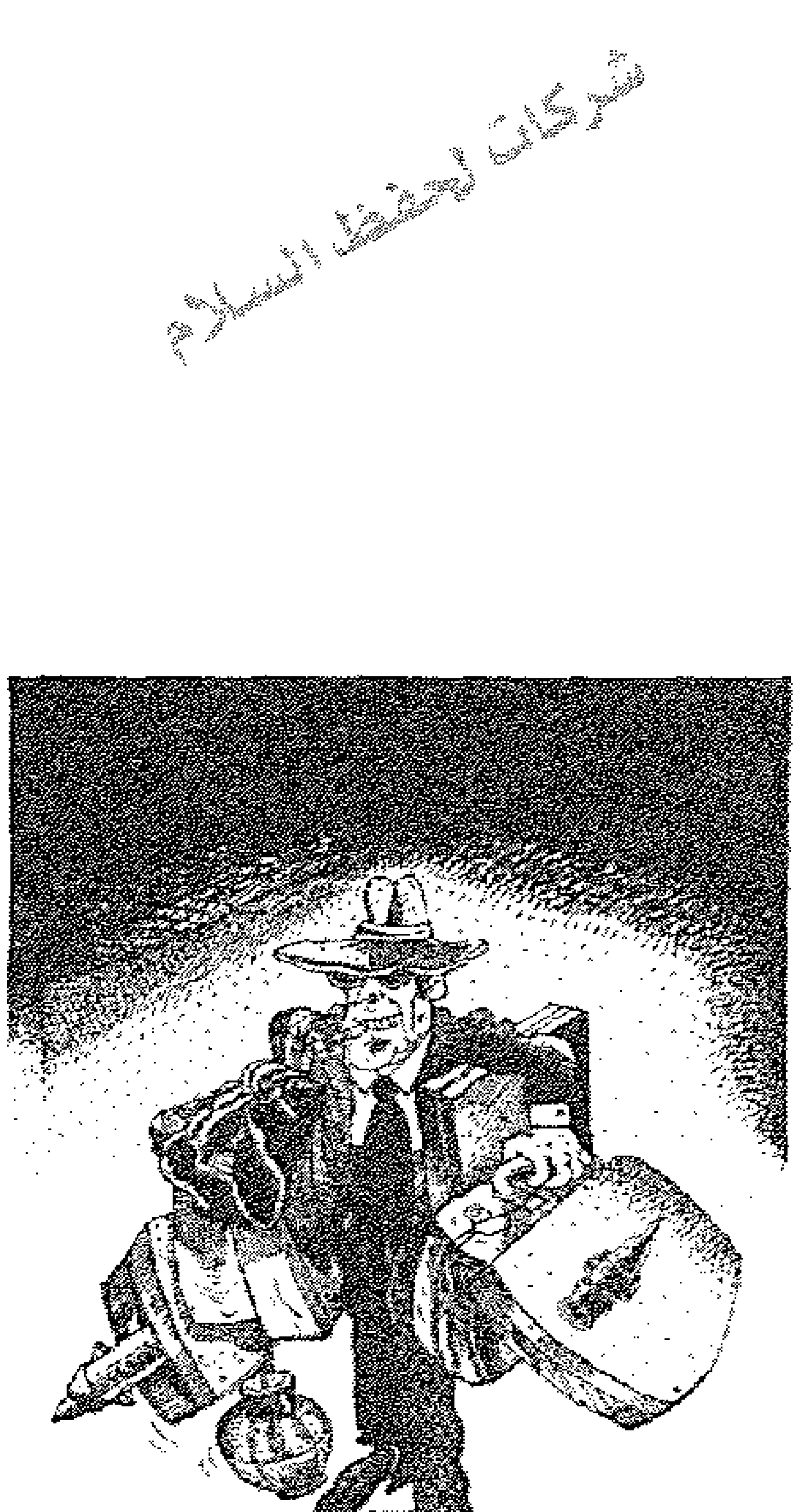
هناك تجارة عالمية متنامية فى الخدمات العسكرية الخاصة المعروضة للإيجار، المعروفة باسم الصناعة العسكرية المخصخصة. وتتراوح هذه الشركات بين الشركات الاستشارية الصغيرة التى يكونها الجنرالات المتقاعدون، والشركات الكبيرة متعدية القوميات التى تعرض تأجير كتائب من القوات الخاصة

ليس هذا مجرد ضرب من الخيال، بل إنه تحقق بالفعل فى عدد من الحالات. فعلى سبيل المثال، تفتقر الجيوش فى الجماعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا جميعها إلى تخصصات بعينها مثل الدعم الجوى والخدمات اللوجيستية اللازمة للقيام بعمليات التدخل الفعالة. ومع ذلك، وبفضل التسهيلات التى تقدمها شركات مثل «إنترناشونال تشارترز إنكوربوريشن» بولاية أوريجون الأمريكية، استطاعت قوات المنظمة التدخل فى الحرب الليبيرية فى أوائل التسعينيات. وباستخدام خليط من القوات الخاصة الأمريكية السابقة والضباط السابقين بالجيش الأحمر السوفيتى، قدمت الشركة طائرات الهليكوبتر المهاجمة والناقلة التى أتت بالقوة الإقليمية ونشرتها فى المواقع القتالية. والواقع أنه فى الوقت الذى كان المتمردون يسيطرون فيه على العاصمة مونروفيا وكانت طائرات الهليكوبتر التابعة للشركة تتحطم فى القاعدة الجوية، انسحب أفراد «إنترناشونال تشارترز» إلى السفارة الأمريكية وساعدوا فى الدفاع عنها لكيلا تُحرق. وكذلك فى عام ١٩٩٨ استأجرت أثيوبيا وحدة من أحدث الطائرات المقاتلة طراز (Su-٢٧) التى تساوى تقريباً الطائرة (F-١٥) من شركة سوخوى الروسية، إلى جانب الطيارين الذين يقودونها والفنيين الذين يتولون صيانتها ومخططى المهام الذين يوجهونها. وساعدت القوة الجوية الخاصة هذه أثيوبيا على الانتصار فى الحرب مع جارتها إريتريا.

احتمالات حفظ السلام

فى مجال حفظ السلام، حققت قطاعات صناعة الاستشارات والدعم العسكرى تقدماً (مثال ذلك الشركات التى تمد بعض القوات الوطنية فى عملية تيمور الشرقية بالدعم اللوجيستى). إلا أن فكرة حلول شركات الإمدادات العسكرية محل ذوى البريهات الزرقاء على الأرض كانت أحد المقترحات الأكثر إثارة للجدل الناتجة عن نمو الصناعة. فالمؤيدون يعتقدون أن مثل هذا الإسناد الخارجى لحفظ السلام سوف يزيد من فاعلية عمليات السلام وكفاءتها. وعلى عكس اعتماد الأمم المتحدة على أية قوات تتبرع بها الدول الأعضاء فيها، يمكن للشركات الخاصة أن تجعل تجنيدها يستهدف أفراداً أكثر كفاءة وأن تفتش الأسواق بحثاً عن أفضل المعدات. كما أن الشركات لن تعانى من المعوقات والعراقيل الإجرائية التى تقف فى سبيل عمل المنظمات الدولية؛ فهى تتعرض لقدر أقل من أخطار التوترات الداخلية التى تصيب القوات متعددة الجنسيات ويمكنها أن تكون أسرع وأكثر حسماً فيما تقوم به من أعمال. باختصار، قد تكون الشركات الخاصة قادرة على حفظ السلام بصورة أسرع وأفضل وأرخص.

والتجارب المتناقضة فى سيراليون بين شركة الإمدادات العسكرية «إكزيكيتيف أوتكمز» وعملية حفظ السلام الخاصة بالأمم المتحدة نموذج كثيراً ما يُستشهد به لجدوى الخصخصة. ففى عام ١٩٩٥ كانت حكومة سيراليون على وشك أن تتعرض للهزيمة على أيدى الجبهة الثورية المتحدة، وهى جماعة متمردة شرسة جعلتها عادتها الخاصة بقطع أذرع المدنيين كتكتيك إرهابى واحدة من أكثر الجماعات شراً فى أواخر القرن العشرين. فقد استأجرت الحكومة، بدعم من شركات التعدين متعددة الجنسيات، شركة عسكرية خاصة تضم جنوداً سابقين من القوات النخبوية فى نظام جنوب أفريقيا العنصرى كى تساعد فى إنقاذها. واستطاعت «إكزيكيتيف أوتكمز» هزيمة الجبهة الثورية المتحدة خلال بضعة أسابيع بعد نشر وحدة مشاة مهاجمة فى حجم الكتيبة (يبلغ عدد أفرادها بضع مئات) تدعمها طائرات هليكوبتر مقاتلة والمدفعية الخفيفة وبضع مركبات مدرعة يعمل عليها أفراد تابعون للشركة. وحقق انتصار الشركة قدراً من الاستقرار سمح لسيراليون بإجراء أول انتخابات فيها منذ عشر سنوات. إلا أنه بعد انتهاء



عقدها تجددت الحرب. وفى عام ١٩٩٩ أُرسلت قوات تابعة للأمم المتحدة، ومع أن القوة التابعة للأمم المتحدة كان لديها ما يزيد حوالى عشرين مرة عما كان لدى الشركة الخاصة من ميزانية وأفراد، فقد احتاجت إلى سنوات عديدة من العمليات، وإلى عملية إنقاذ من الجيش، كى تحقق نتائج قريبة من تلك التى حققتها الشركة.

وهناك ثلاثة سيناريوهات محتملة لخصخصة قوات حفظ السلام. أول هذه السيناريوهات هو الحماية المخصخصة. فمشكلة توفير الأمن لعمليات الإغاثة كبيرة ومتفشية. والواقع أن عدد العاملين فى الصليب الأحمر الذين قُتلوا أثناء العمليات فى التسعينيات يزيد على من قتلوا من أفراد الجيش الأمريكى. وبذلك فإنه بينما تكون قدرة العاملين فى مجال المساعدات الإنسانية على أن يخلقوا بأنفسهم بيئة متفقاً عليها محدودة جداً، قد يكون بإمكان شركات الإمداد العسكرية توفير الحماية لموقع جماعات المساعدات وقوافلها. وقد يسمح هذا بأعمال مساعدات أكثر كفاءة بكثير فى المناطق التى انهارت فيها الحكومة المحلية. وبالإضافة إلى الفائدة المباشرة للعاملين على الأرض، قد تمنع الحماية الأفضل كذلك المتمردين المحليين من السيطرة على الإمدادات وتخفف الضغط على الحكومات الخارجية كى تشارك فى الأوضاع التى تتسم بالفوضى، ومنها سيناريوهات مثل عملية الصومال فى عام ١٩٩٢، وتتعاقد المنظمات الإنسانية التى لا تزال تعمل فى أماكن خطرة مثل مقديشو على الحماية مع أمراء الحرب المحليين، ولذلك فإن البديل التجارى الأكثر رسمية قد يكون مفضلاً. والواقع أن هذا السيناريو ليس مستبعداً بالمرة، حيث إن العديد من الوكالات التابعة للأمم المتحدة تستخدم بالفعل تلك الشركات لتوفير الأمن لمكاتبها.

والاحتمال الثانى هو الوحدات المستأجرة التى يجرى تشكيلها على أنها «قوة تفاعل سريع» فى إطار عملية شاملة لحفظ السلام. وحين تخرق الأطراف المحلية المتمردة اتفاقيات السلام أو تهدد العملية، يمكن استئجار الشركات العسكرية لتوفير القوة التى ليس لدى ذوى البريهات الزرقاء القدرة أو الاستعداد لتقديمها. وقد يكون الإقحام السريع لقوة أكثر استعداداً للقتال، حتى ولو كانت قوة خاصة صغيرة نسبياً، ضرورياً لردع الخصوم المحليين وتقوية ظهر عملية السلام الشاملة. وبذلك قد توفر الشركات مدفوعة الأجر القمع قصير المدى اللازم فى الظروف الحاسمة من العملية.

والسيناريو الأخير والأكثر إثارة للجدل هو الإسناد الخارجى الكامل للعملية. فحين تحدث إبادة جماعية أو مشكلة إنسانية ولا يكون لدى أية دولة الاستعداد للتقدم بإرسال قواتها، يمكن إسناد التدخل نفسه للشركات الخاصة. وعند استئجار الشركة (عن طريق الأمم المتحدة أو أى طرف آخر لديه الاستعداد لدفع الأجر) فإنها تنتشر فى منطقة جديدة، وتهزم أية معارضة محلية، وتنشئ البنية التحتية اللازمة لحماية اللاجئين ودعمهم، وبعد ذلك تتخلى عن السيطرة للقوات النظامية بمجرد أن يستقر الوضع. قد تبدو هذه الفكرة غير قابلة للتصديق، ولكنها كانت فى واقع الأمر خياراً بحثه واضعو السياسات فى الاجتماعات المغلقة التى عقدت أثناء أزمة اللاجئين التى وقعت فى شرقى زائير عام ١٩٩٦، فقد ناقشت إدارة حفظ السلام فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن القومى الأمريكى فكرة استئجار شركة لإنشاء ممر آمن للمساعدات الإنسانية بدلاً من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة. ورُفضت الخطة عند إثارة مسألة من سيدفع الحساب فى واقع الأمر.

وتوضح السيناريوهات الطريقة التى يمكن بها لمفهوم تولى القطاع الخاص عمليات حفظ السلام أن يغير طبيعة حفظ السلام ذاتها تغييراً جذرياً، ويفتح الباب أمام أشكال الاحتمالات الجديدة كافة. فعلى سبيل المثال، اقترح مديرو الشركات إمكان الحصول على أجر مقابل استعادة مدن مثل مقديشو التى سقطت فى أيدى أمراء الحرب وغياب الشرعية. كما يمكن للشركات إعادة الاستقرار للمدن ومن ثم تسليمها للإدارة المحلية أو الإدارة التابعة للأمم المتحدة، وربما تسمح بذلك للدول المتخاذلة بالانضمام من جديد للنظام الدولى. وبالمثل أجرت شركة «إكزيكيتف أوتكمز» سالفة الذكر بحثاً تجارياً لمعرفة ما إذا كانت لديها القدرة على التدخل فى رواندا عام ١٩٩٤ أم لا. وتزعم الخطط الداخلية أنه كان بالإمكان وجود قوات مسلحة تابعة للشركة على الأرض خلال ١٤ يوماً من استئجارها، على أن يتم نشر ما يزيد على ١٥٠٠ جندى، إلى جانب الدعم الجوى والنيران المساندة (وهو ما يساوى تقريباً قوة المارينز الأمريكية التى انتشرت أول الأمر داخل أفغانستان)، خلال ستة أسابيع. وقُدرت تكلفة العملية التى تستمر ستة أشهر لتوفير ملاذات آمنة من الإبادة الجماعية بمائة وخمسين مليون دولار (حوالى ٦٠٠ ألف دولار يومياً). وتقل تكلفة هذا الخيار الخاص إلى حد كبير عما تكلفته عملية إغاثة الأمم المتحدة اللاحقة التى لم تُنشر قواتها إلا

بعد أعمال القتل. فقد بلغت التكلفة الإجمالية لعملية الأمم المتحدة ٣ ملايين دولار يومياً (ولم تفعل أى شىء لإنقاذ مئات الآلاف من الأرواح).

ومنذ فترة قريبة اقترح كونسورتيوم يضم عدداً من الشركات العسكرية يحمل اسم «اتحاد عمليات السلام الدولية» استئجاره للعمل نيابة عن عمليات حفظ السلام فى شرقى الكونغو المعروفة باسم «مهمة منظمة الأمم المتحدة فى جمهورية الكونغو الديمقراطية» التى تتسم بعدم الكفاءة إلى حد كبير. وعرضت الشركات العسكرية الخاصة التى تتراوح بين شركة للمراقبة الجوية وشركة من مقاتلى قبائل جورخا السابقين فى نيبال، إقامة «ستار أمنى» (منطقة منزوعة السلاح طولها ٥٠ كيلومتراً) فى واحدة من أكثر مناطق القارة الأفريقية افتقاراً إلى الشرعية. وكان أجر اتحاد عمليات السلام الدولية يتراوح بين ١٠٠ و٢٠٠ مليون دولار تبعاً لحجم العملية. وحتى الآن لم يجد الاقتراح من يتبناه، غير أن مستوى العنف فى المنطقة مازال فى تصاعد.

مخاطر الخصخصة

من الواضح أن تلك الاقتراحات تعد بشىء عظيم، وهو ما يفسر التحمس لها. ولكن قبل أن يندفع المجتمع الدولى إلى ثورة الخصخصة عليه كذلك أن يبحث مخاطرها. فالسوق الكاملة لا وجود لها إلا من الناحية النظرية، ولذلك فإن تحويل الخدمات العامة إلى اقتصاد السوق له مزاياه وعيوبه. والخصخصة من أى نوع لها من الناحية الاقتصادية آثارها الخارجية الإيجابية والسلبية. ولا يصدق هذا على شىء صدقه على المجال العسكرى، حيث تزيد دوافع الربح ضباب الحرب كثافة. وبينما أظهرت التجربة أن هذه الأعمال العسكرية الخاصة قد تكون قادرة على العمل بكفاءة وفاعلية أكثر من المنظمات العامة، فإن استئجارها كثيراً ما يثير مجموعة من القضايا المثيرة للقلق. ومن الأفضل تسوية هذه التحديات قبل إسناد حفظ السلام إلى السوق الخاصة.

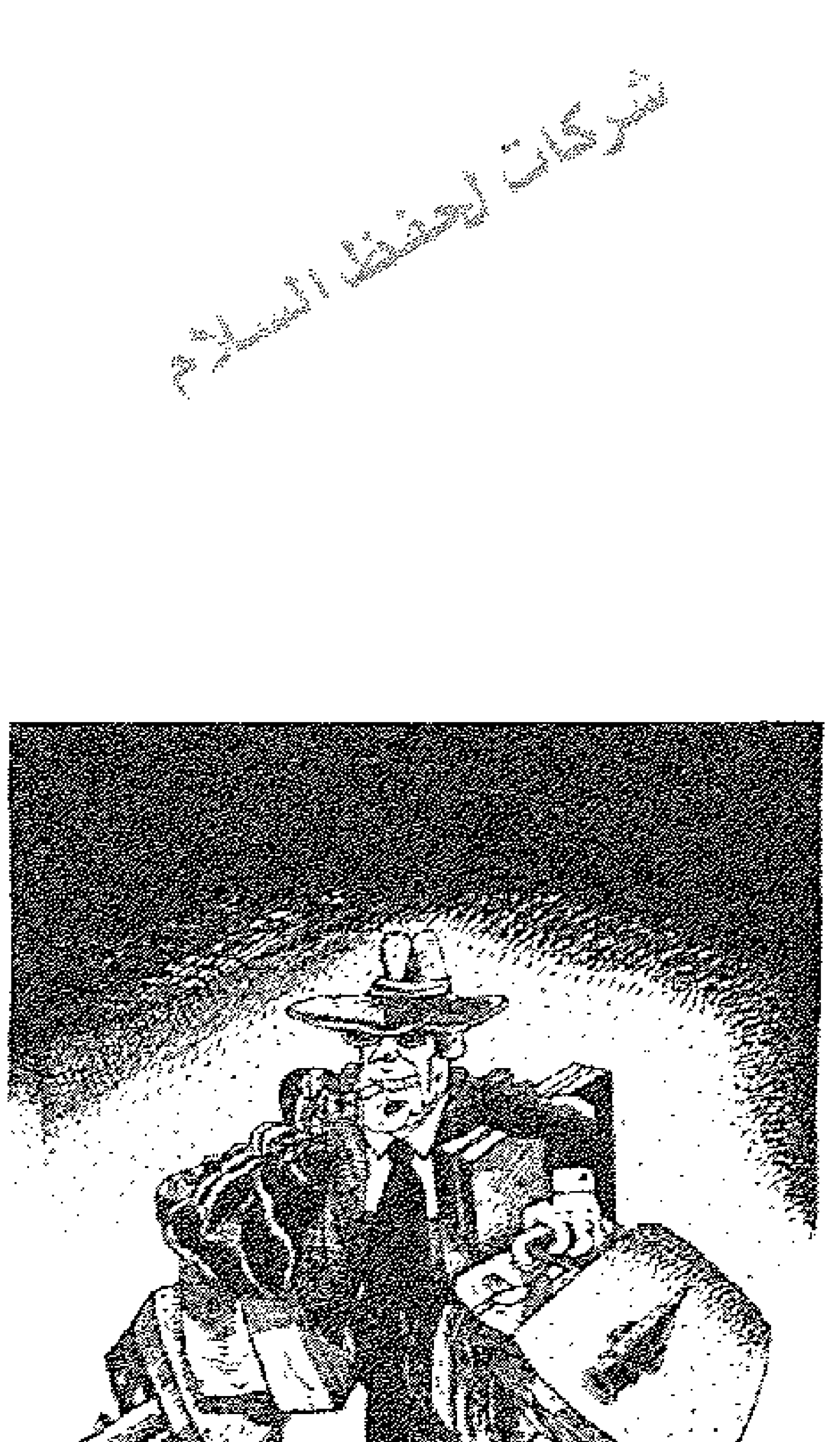
القضية الأولى هى المعضلات التعاقدية التى تنشأ مع الخصخصة. فهنالك حوافز اقتصادية واضحة تجعل الشركات تعمل لمصلحة عملائها. ذلك أن أية شركة تفعل خلاف ذلك تخاطر بعدم استئجارها مرة أخرى. والمشكلة هى أن القيود الاقتصادية ليس لها تأثير إلا على المدى الطويل. فواقع الأمر أنه فى كثير من الأحيان تكون هناك علاقة توتر بين أهداف العملاء وهدف الشركة الخاص بتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح. والنتيجة هى أن مصلحة الشركة الخاصة لا تتطابق دوماً مع المصلحة العامة. وبالنسبة لحفظ السلام المخصخص، تشمل الأخطار الناجمة عنه كل المشاكل التى نجدها فى التعاقد القياسى والإسناد الخارجى للأعمال. فالشركات المستأجرة لديها حوافز لزيادة ما تطلبه من أجر، وإطالة قائمة الأفراد، والتغطية على الإخفاقات، وعدم العمل بأقصى قدر من القدرة، وهلم جرا. إلا أن ما يقلق هو أن هذه الأمور كلها يجرى نقلها فى الوقت الراهن إلى المجال الأمنى، حيث تكون حياة الناس فى خطر.

إلا أن أكثر المعضلات التعاقدية إثارة للقلق هى أن الإسناد الخارجى يستلزم كذلك إسناد السيطرة على الإمداد الفعلى بالخدمات. ويعنى هذا بالنسبة لحفظ السلام أن القوات الموجودة فى الميدان ليست جزءاً من الجيوش الوطنية، بل هم مواطنون من القطاع الخاص مستأجرون من السوق يعملون لدى شركات خاصة. وهنا يكون الأمن تحت رحمة أى تغيير فى التكاليف والحوافز الاقتصادية. وينبع أحد نماذج الخطر الناتج عن ذلك من عادة التدخلات الإنسانية السيئة الخاصة بتزايد تعقدها بمرور الوقت. فقد تجد الشركة المستأجرة لإقامة ملاذ آمن أن الموقف أكثر صعوبة مما كانت تتوقعه فى البداية. وقد تصبح العملية غير مربحة، أو ربما تصير أكثر خطورة مما كان منتظراً بسبب أية زيادة فى المعارضة المحلية. وهكذا قد تجد الشركة أن من مصلحتها الانسحاب. بل إنه حتى فى حال بقاء الشركة نتيجة للقيود الاقتصادية فإن العاملين فيها قد يقررون أن المخاطر الشخصية التى يواجهونها نتيجة الاستمرار فى العملية كبيرة مقارنة بما يحصلون عليه من أجر. وبما أنهم غير مقيدين بأى قانون عسكرى، فإن بإمكانهم فسخ عقودهم وحسب دون خوف من العقاب والبحث عن عمل أكثر أمناً وأحسن أجراً فى مكان آخر. والنتيجة واحدة فى أى من الحالتين؛ وهى التخلى عمن كانوا يعتمدون على الحماية الخاصة دون أى اعتبار للعواقب السياسية أو قدرة العميل على استبدالهم بسرعة.

ثانياً: تثير الخصخصة كذلك مخاطر معينة تنشأ عن مشاكل الاختيار السيئ وتقليل المحاسبة. فشركات الإمداد العسكرى لا تبحث دائماً عن القوة العاملة الأكثر تجانساً ولياقة؛ بل إنها تجند من يتسمون بالفاعلية، وهذا أمر مفهوم. فعلى سبيل المثال وجد الكثيرون من أفراد أسوأ وحدات النظامين السوفيتى والعنصرى سمعة وأكثرها وحشية وظائف فى هذه الصناعة. وهؤلاء الأفراد كانوا يعملون دون اكتراث بحقوق الإنسان فى الماضى، ومن المؤكد أنهم قد يسلكون السلوك ذاته من جديد. وفى أى الحالتين لا يمكن وصف الصناعة بأنها مشبعة بثقافة حفظ السلام.

وحتى إذا كانت الشركات حريصة فى تمحيص من يتقدمون للعمل بها (وهو أمر يصعب تحقيقه بما أن القليلين من العاملين المحتملين قد يفكرون فى تضمين قسم خاص بـ«الفظائع التى ارتكبت» فى بيانات السيرة الذاتية الخاصة بهم)، فمن الصعب عليها كذلك مراقبة قواتها فى الميدان. بل إنه فى حال ارتكاب العاملين لانتهاكات، لا يكون هناك حافز كبير يجعل الشركة تسلمهم للسلطات المحلية. فهى إن فعلت ذلك تفزع كلا من العملاء والعاملين المحتملين. وكان ذلك هو ما حدث فى البلقان، حين تورط العاملون بشركة «داينكورب» المتعاقدة على القيام بأعمال الشرطة لمصلحة الأمم المتحدة وصيانة الطائرات مع الجيش الأمريكى فى عصابات لدعارة الأطفال. بل إن المشرف على موقع الشركة فى البوسنة صور نفسه وهو يغتصب امرأتين. وقد نُقل هؤلاء العاملون إلى خارج البلاد ولم يجر أى تحقيق جنائى مع أى منهم.

ويرد مسئولو الصناعة بأنه من المؤكد أن قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تورطت فى جرائم ارتكبتها فى الماضى، ولذلك فإن احتمال وقوع انتهاكات لحقوق الإنسان أثناء عمليات حفظ السلام ليست بالأمر الجديد. إلا أن الفرق فيما يتعلق بالخصخصة هو أنه بينما يتحمل الجنود فى مهام الأمم المتحدة المسئولية طبقاً لقانونهم العسكرى الوطنى، تخضع قوات حفظ السلام المتعاقدة لقوانين السوق وحسب. فقد اتضح أن القانون الدولى الحالى لا يمكن تطبيقه على أعمال هذه الصناعة، حيث تقع الشركات خارج نطاق المعاهدات القانونية التى عفى عليها الزمن ولا تتعامل إلا مع المرتزقة الأفراد. وحينئذ لا بد أن يأتى التنظيم الممكن الوحيد إما من قانون الدولة التى تجرى فيها العملية أو قانون الدولة التى تقع الشركة على أرضها.



شركات لحفظ السلام

وبما أن انهيار حكم القانون هو فى الأصل ما يخلق الظروف الخاصة باستئجار الشركات فى أغلب الأحيان، فإن البديل الأول لا يكاد يكون خياراً بحال من الأحوال. كما أن طبيعة الصناعة المتعدية للقوميات تجعل الخيار الثانى الخاص بتنظيم الدولة الأم صعباً كذلك. وبالإضافة إلى أن المراقبة من خارج حدود الدولة (أى الشركات التى تعمل خارج الحدود القومية) شديدة الصعوبة، فإنه حين تجد الشركة أن التنظيم يفرض عليها أعباء أكثر من اللازم يكون بإمكانها الانتقال وحسب إلى مكان أكثر وداً. بل إنه لا يزال هناك تضارب حول دوائر الاختصاص حتى بين الشركات التى تظل متمركزة فى الدول القليلة القادرة على التنظيم ولديها الاستعداد لذلك. فعلى سبيل المثال لا يطبق القانون الجنائى الأمريكى خارج حدود الولايات المتحدة ودوائر الاختصاص البحرية الخاصة، ولذلك فإنه حين يرتكب أحد العاملين فى شركة من الشركات العسكرية الأمريكية جرماً فى الخارج يكون احتمال المقاضاة ضعيفاً إلى أقصى حد. وبالتالى فليس هناك سوى فرض القيود والموازنات الفعلية على الشركات العسكرية التى تضمن المحاسبة التامة.

والتحدى الثالث الخاص بالخصخصة هو الآثار طويلة المدى على الأطراف المحلية. فأساس أى سلام دائم هو استعادة الشرعية. ويتطلب ذلك بصورة خاصة إعادة السيطرة على العنف المنظم إلى السلطات العامة. ومما يؤسف له أنه فى حال خصخصة حفظ السلام قد تصبح الشركات آلية مؤقتة للحفاظ على السلام ولكنها لا تفعل الكثير لمعالجة أسباب القلاقل والعنف الأساسية.

ونظراً لوجود جهات كثيرة، أهمها إدارة الأمم المتحدة لحفظ السلام (التى ربما كانت لها مصلحة بيروقراطية ثابتة فى فرض خصخصة القوات)، فإن تحول الشخص إلى فرد ضمن قوات حفظ السلام مسألة تتعلق بما هو أكثر من

كتـــاب الـزاويـــة

بصـــراحـــة

هذا ما تريده أمريكا

وللخديعة الكبرى بقية!

ولربما كان خير ما يشرح «حكاية» البقية الباقية من الخديعة الكبرى أن نبدأ الحديث عنها بسؤال. نتخذه أول الطريق. ثم نمضى معه. ومع الطريق، حتى نصل.

هذا السؤال هو:

هل تريد أمريكا ـ مثلاً ـ أن تحقن الدم الزكى الذى يسيل، ويتدفق مثل ذوب الثلوج المنحدرة من الأعالى، إلى السفوح؟

أنا أقول: لا.

بل ربما كان العكس هو الصحيح، فإن الدم المراق، لم يكن يعنى قليلاً أو كثيراً فى حساب أمريكا، وإنما الذى يعنيها أن لديها خطة وأن هذه الخطة لابد أن تنجح، أما الثمن؟ فأى ثمن رخيص، وأما من يدفعه؟ فلتكن الضحية من تكون. تلك مسألة ثانوية!

هل تريد أمريكا ـ مثلاً ـ أن تحافظ على السلام فى المنطقة، وتعزز إمكانياته؟

أنا أقول: لا.

بل ربما كان العكس هو الصحيح. فالظاهر حتى الآن من رأى أمريكا فى السلام، أنه ما لم يكن السلام فى الشرق الأوسط ـ أو فى غيره ـ سلاماً أمريكياً ـ فإن أمريكا لا تتردد لحظة فى أن تضع البارود بيدها من تحته، وتشعل عود الكبريت فى فتيل التفجير، بقلب بارد وأعصاب من حديد.

الأهرام ١٩٥٨/٦/١٧

مجرد تغييره للون ما يلبسه من خوذة أو بيريه. فأدوار قوات حفظ السلام ومسئولياتها تختلف اختلافًا بيّنًا عن العمليات العسكرية النظامية. فهى تتطلب نظرة ثقافية جديدة تمامًا تتركز على الهموم الإنسانية، وهو ما يمكن أن يتعارض فى بعض الأحيان مع المواهب العسكرية العادية ويعوقها. ولا يجب أن تعمل قوات حفظ السلام فى ظل قواعد اشتباك شديدة الاختلاف وحسب، بل إن التوجيه الأكثر أهمية هو خَلْق الحياد الهادى، أى عدم الانحياز لطرف من الأطراف.

وهكذا فإن أنجح عمليات حفظ السلام (كالتجارب التى شهدتها موزمبيق وناميبيا وجواتيمالا) لا تتعلق بوضع قوات تابعة لطرف ثالث على الأرض وحسب، بل إنها تتضمن كذلك مجموعة كبيرة من أنشطة «بناء السلام» التى يُقصد بها إصلاح النسيج الاجتماعى الممزق وتعزيز التعاون فيما بين الأطراف المحلية. وتتراوح هذه الأنشطة بين مراقبة وقف إطلاق النار ونزع أسلحة القوات وتسريح المقاتلين وبين إعادة الإعمار ومراقبة الانتخابات. وهكذا فإن عمليات الأمم المتحدة غالبًا ما تكون غير عملية لنفس السبب، بحيث يتحتم عليها القيام بتلك الأنشطة الأساسية كذلك. ولكون الشركات العسكرية الخاصة غير مدربة أو مهتمة بثقافة حفظ السلام، فهى قد تكون غير معدة الإعداد الكافى للتعامل مع هذه الأنشطة. كما أن الاعتماد على قوة خاصة خارجية ليس له تأثير كبير على إحياء العقد الاجتماعى المحلى. إذ يبدو من الأرجح أنه يعزز فكرة أن السلطة لا تكون إلا لمن لديهم القدرة على تحمل نفقاتها.

وأخيراً فإن التفاصيل الدقيقة الخاصة بالتنفيذ غالبًا ما تربك وعد الخصخصة فى تعاقد الحكومة النظامية والصناعة العامة؛ ومن المحتمل أن تفعل هذا مع حفظ السلام كذلك. فعلى سبيل المثال ليست هناك إجابة واضحة للسؤال الخاص بمن ينبغى أن تكون له سلطة استئجار الشركات العسكرية الخاصة. فالسيناريو الأول الخاص بالحماية المتعاقد عليها لا يتحدى معايير حياد جماعات الإغاثة وحسب، بل ربما يوسع كذلك سلطات تلك المنظمات الخارجية المسئولة فقط أمام مانحيها بصورة خطيرة. كما أن وجود قوات الحماية هذه يستتبع مضاعفة القوات المسلحة على الأرض، وهو ما لا يعد الشىء الأفضل وسط هذه العملية المعقدة. وبالمثل فإنه إذا كانت سلطة استئجار الشركات العسكرية لحفظ السلام مقصورة على الأمم المتحدة، يظل من غير الواضح أى جهاز من أجهزة هذه المؤسسة ينبغى له تقرير ذلك. فمن المؤكد أن عملية اتخاذ القرار الخاصة بالجمعية العمومية غير عملية وتنحاز كذلك ضد دول بعينها. كما أن قصر السلطة على مجلس الأمن يجعل العالم النامى ـ وهو نفسه المكان المحتمل أن تجرى فيه عمليات نشر القوات المخصخصة ـ أقل تمثيلاً. والنتيجة هى أن نفس الحجج التى كانت تُساق ضد أن يكون للأمم المتحدة جيشها الدائم تنطبق كذلك على أن تكون لها قوتها المتعاقد معها.

وهناك كذلك مخاوف مشابهة على المستوى العملياتى. ففى سيناريو قوة التفاعل السريع، على سبيل المثال، من المحتمل أن تكون هناك صعوبات خاصة بإدماج قوة خاصة تحصل على أجور مرتفعة ضمن قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة. فقد يعرّض السخط المحتمل فيما بين القوتين التماسك العملياتى للخطر. وبالمثل فإنه من الصعب تحديد من ينبغى أن تكون له قيادة العمليات. ذلك أن القليل من الشركات العسكرية لديه الاستعداد لقبول قادة خارجيين لوحداتهم، وخاصة من الأمم المتحدة، فى حين أنه من الواضح أن العملاء يفضلون أن يكون رجالهم على القمة. وعوضاً عن ذلك، أعربت بعض الشركات عن استعدادها للسماح لمراقبين خارجيين بالتواجد أثناء العمليات. غير أنه ليس هناك استقرار على السلطات المحددة لهؤلاء المراقبين. فعلى سبيل المثال، من الذى سيأتى بهم ويضمن استقلاليتهم؟ هل سيكونون بمثابة كتبة تقارير، أى يقدمون تقارير مستقلة عن العمليات، أم بمثابة حكام لديهم القدرة على الاعتراض على عمليات بعينها أو تعليق العمليات بعد أن تكون قد بدأت بالفعل؟

اختيـــارات صعبـــة

لا بد أن يقر المجتمع الدولى بأن نقاط ضعفه جعلته يواجه اختيارا صعبًا. فما هى إلا مسألة وقت حتى تقع الأزمة الإنسانية التالية فى منطقة خارج مصالح الدول الكبرى. وحينما يحدث ذلك يكون هناك احتمال قوى بأنه على الأمم المتحدة إما الصبر على مخاوفها بشأن عدم صحة حفظ السلام المخصخص أو مواجهة احتمال رؤية آلاف الرجال والنساء والأطفال وهم يموتون بينما كان بإمكان اقتصاد السوق إنقاذهم.

إن من الضرورى التعامل مع هذه القضايا الآن قبل أن تدفع الأزمة التالية

بهذا المأزق إلى الصدارة. ويتطلب هذا العمل على جبهتين. فعلل حفظ السلام الذى تقوم به الأمم المتحدة معروفة منذ ما يزيد على العشر سنوات. والأمر باختصار هو أنه ليس من مصلحة المؤسسة وحدها، بل كذلك من مصلحة الدول المانحة الأساسية أن تفعل شيئا حيال تلك العلل فى نهاية الأمر. وقد تكون نقطة البداية الجيدة هى التأييد التام لتنفيذ تقرير الإبراهيمى، وهو بيان بالتوصيات الخاصة بإصلاح حفظ السلام كتبته العام الماضى مجموعة من الخبراء. ومن أبرز تلك المقترحات رفع الحظر المفروض على تجنيد وفحص وحدات حفظ السلام الدولية.

ويجب على الأمم المتحدة كذلك أن تبحث بجدية إمكانية استغلال السوق الخاصة للحصول على أداء أفضل من وحدات حفظ السلام الموجودة بالفعل. فشركات الدعم العسكرى توفر بالفعل النقل والاتصالات والخدمات اللوجيستية الخاصة بالعمليات بالنسبة لجيوش كثيرة من الدول الغنية. فعلى سبيل المثال تقدم شركة «براون أند رووت سيرفيسيز» هذا الدعم للقوات الأمريكية التى جرى نشرها فى البلقان ووسط آسيا والخليج. وتتسم الوحدات الآتية من العالم النامى، التى تمثل غالبية قوات الأمم المتحدة، بضعف واضح فى أداء هذه الوظائف. وعن طريق الإسناد الخارجى لهذه الخدمات ووضع معايير قياسية لها فى نظام حفظ السلام الخاص بالأمم المتحدة ككل، قد يصبح التعاون بين القوات العامة والدعم الخاص ممكنا.

شركات لحفظ السلام



وبالمثل فإن شركات الاستشارات العسكرية قد تتمكن من توفير التدريب والمساعدات التى تُحسن المَخرج العملياتى للأمم المتحدة.

وربما كانت الجبهة الثانية أكثر صعوبة من إصلاح الأمم المتحدة. فقرار مشاهدة الإبادة الجماعية دون تحريك ساكن ليس مرفوضا أخلاقيا وحسب، بل قد يكون من المستحيل الدفاع عنه فى عالم لا ينقطع فيه الاهتمام الإعلامى. ولذلك فإنه إذا كان المجتمع الدولى غير مستعد لدفع تكلفة توفير قوات حفظ السلام القادرة الخاصة به، فحينئذ يكون أفضل له أن يبدأ من الآن فى البحث عن طرق لتهدئة المخاوف الأساسية المتعلقة بالتعاقد على التدخل الإنسانى. فهذا أفضل من رد الفعل العشوائى حين توشك أزمة ما على الوقوع.

إن الأمم المتحدة ليست مستعدة فى الوقت الراهن الاستعداد الواجب لدخول مجال الأعمال التجارية الذى تستلزمه الخصخصة. وإذا اتخذ قرار بسلوك هذا السبيل، فسوف يكون عليها عمل التعديلات المؤسسية لحماية كل من مصالحها والمصالح العامة. ونقطة البداية الجيدة هى وضع سلسلة من عمليات المراقبة والتعاقد القياسية. وتتضمن الأولويات الأخرى وضع معايير تعاقدية وبرامج حوافز واضحة، وأنظمة الاختبارات الخارجية للأفراد، وتشكيل فرق من المراقبين المستقلين (ليست لديها سلطات للمراقبة وحسب، بل كذلك للتحكم فى دفع المستحقات المالية، لتأكيد سلطتها على الشركة). إلا أن الأمر الأكثر أهمية هو إخضاع الشركات العسكرية للقانون مثلها مثل أية صناعة أخرى. وسوف يتطلب هذا توسيع سلطات محكمة العدل الدولية لتشمل أنشطتها، مع النص بوضوح فى العقود على أن أفراد الشركة العسكرية يدخلون فى مجال اختصاص المحاكم الدولية.

من طائرات الركاب التى تعمل عمل صواريخ كروز إلى الشركات الخاصة التى تتاجر فى الجيوش، نحن نعيش زمنا يشهد فيه المجال الأمنى الدولى تغيرا ضخما. فمنذ عشر سنوات فقط كانت فكرة تولى الشركات الخاصة مسئوليات حفظ السلام ضربا من العبث. أما الآن فهى إمكانية حقيقية. إلا أن هذه الشركات لا تتسم بالنزعة الغيرية بحال من الأحوال، وهو ما يعنى أنه من الأفضل ترك حفظ السلام للجنرالات الحقيقيين. ولكن إذا لم يكن القطاع العام على استعداد لترتيب بيته، فإن القطاع الخاص يقدم طريقة جديدة لحماية من قد يصبحون عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم لولا ذلك. ■

كتاب الزاوية

بصراحة

٢٨ سبتمبر

الأربع والعشرون ساعة الأخيرة...

وكنت عندما استحكم الخلاف بين الأطراف قد قلت له مرة:

- لقد فعلت كل ما تطيقه البشر... ويكفيك ما فعلت. وعلى كل جانب أن يتحمل مسئوليته.

ثم أضفت وقتها مستشهداً ببيتين من الشعر الجاهلى. يقول فيهما الشاعر:

أمرتهمو أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد.

وما أنا إلا من غزيه إن غوت غويت وإن ترشد غزيه أرشد.

وكان عندما سمع منى البيتين أول مرة قد علق بقول:

«مع الأسف، فإنى لا أستطيع أن أقول، إن غوت غويت وإن ترشد غزيه أرشد».

وأعدت عليه فى التليفون تلك الليلة بيتى الشعر كما طلب.

وقال وصوته يحمل نبرة الارتياح:

«ألا يجب أن نحمد الله لأنهم رأوا الرشد الليلة. ولم ينتظروا عليه إلى ضحى الغد».

ثم قال بصوت خفيض، يحمل أثقال الجهد... وأحسست به يتنهد ويقول:

ـ من يعلم ماذا سيأتى به الغد؟.

الأهرام ١٦/١٠/١٩٧٠

هــوامش علــى

كان الظلامُ دامساً في هذا المساء الرطب البعيد، عندما كنت وزميلي المصور نتسلل محتمين بأستار الظلمة، وبعشوائية المنطقة الفقيرة، عائدين من زيارة صحفية - هي الأولى وقتها - لمنزل الشيخ عمر عبدالرحمن المتواضع في الفيوم جنوب القاهرة. والذي كان محاصراً ومراقباً من قوات الأمن السرية المصرية. ورغم أنه «عالمٌ ثالث» متهمٌ من الغرب - كلاسيكياً - بتقييد حرية الصحافة والصحافيين. فقد كان «أقصى» ما نخشاه يومها هو أن يكتشفنا أحدهم، فيصادر أفلام التصوير التي كنا أخفيناها في جواربنا وأحذيتنا.

لم يكن الاعتقالُ وارداً، ولا الاتهام بـ«الاتصال بقادة الإرهابيين».

بعد أيام نشرنا التحقيق والحوار والصور.. وكان كل ما حدث أن صودرت المطبوعة. ولكننا (ودون مبالغةٍ أننا عشنا أو نعيش جنة الديمقراطية) عدنا إلى بيوتنا. ونمنا في أسرّتنا. وذهبنا إلى مكاتبنا صباح اليوم التالي نعد لقصة صحفية جديدة. وفي أسوأ الأحوال. وأندرها. نستعد لمصادرة جديدة.. ليس أكثر.

لا أعرف لماذا تذكرت القصة القديمة كلها عندما نقلت وكالات الأنباء قبل أيام من غرناطة الأسبانية الأوروبية (الأندلسية سابقاً) خبر اعتقال تيسير علوني مراسل الجزيرة الشهير الذي انفرد بلقاءات بن لادن المثيرة للجدل. والذي نجا من الموت مرتين تحت القنابل الأمريكية في كابول (نوفمبر ٢٠٠١) وفي بغداد (أبريل ٢٠٠٣). متهماً بالعلاقة مع قادة تنظيم القاعدة وكوادره.

كان الخبر القادم من بلد أوروبي «يقولون أنه تحرر من ربقة الاستبداد الإسلامي قبل قرون»، مباشراً وصادماً ومفاجئاً.. وإن لم يكن للجميع.

قد يكون علوني بريئاً، وقد لا يكون. فلسنا هنا جهة ادعاءٍ أو دفاعٍ أو تحقيق. كما أن هذه الكلمات ليس مقصوداً بها، ولا منتظراً منها أن تكون سطوراً في عريضة اتهام أو مرافعة دفاع أو أوراق تحقيق. ولكن أياً ما كان الأمر. وأياً ما كان منطوق الحكم الذي سيَصدر في النهاية «أسبانياً»، تبقى على هامش تلك «القضية» - المبعثرة الأوراق - ملحوظاتٌ ثابتة.

(١)

ستطبق على علوني - بالطبع - مواد القانون الأسباني وإجراءاته. والقانون - أي قانون - يأتي في نهاية المطاف ليعكس، أو ليراعي واقعاً ثقافياً معيناً. ولأن الثقافات - بحكم الطبيعة والتاريخ والموروثات - تختلف، بل وتتباين. ولأن الله «خلقكم شعوباً وقبائل..»، فإن الباحث في القانون المقارن سيجد - ربما - لكل سلوك إنساني مفترض مادة تُجرِّمُه وتعاقب عليه. فما هو مباحٌ هنا مُجَرَّمٌ هناك، والعكسُ بالضرورة صحيح.

فتعدد الزوجات - مثلاً - جريمة يعاقب عليها بالسجن في بعض القوانين. كما أن مضغ العلكة قد يؤدي بك إلى الحبس - إن أصررت عليه - في سنغافورة.

وكان المثل الدارج يقول: «مادمت في الصين افعل ما يفعله الصينيون»، وعليه فكانت الحكمة تقتضي أن تحترم قوانين البلد الذي تزوره أو تعيش فيه. وكان هذا يكفيك. أما في «الزمن الأمريكي» فكل شيء يختلف. السجن يصير «عولمياً» في جوانتنامو. حيث يحتجز - دون محاكمة - معتقلون من ٤٢ دولة. ولأنه لا توجد محاكمة، فقد تكون - ولو نظرياً - كل جريمة بعضهم أنه «تصادف أن كان هناك».

والقاضي يصير «عولمياً» (فقط إن كان أمريكياً) فنقرأ قبل أسبوعين كيف أن أحدهم لم يستنكف أن يقضي في محكمة «أمريكية» بتغريم الحكومة «الإيرانية» مئات الملايين من الدولارات. لأنها تساند حزب الله «اللبناني» الذي يشجع إعلامه منظمة حماس «الفلسطينية» التي قام أحد أفرادها بعملية في القدس «المحتلة» راح ضحيتها أحد أقرباء العائلة التي رفعت دعوى التعويض. كما لم يتردد زميله في أن يقضي بمصادرة أرصدة منظمة «زكاة» خيرية لأنها تتصدق «من أموال المسلمين على أسر شهداء المسلمين».

هل هي «عولمة» للعدالة والقانون إذن؟ وهل نحن بصدد عالم جديد تتساوى فيه الحقوق والواجبات. ويكون فيه الجميع أمام القانون سواء؟

للأسف لا. إذ يبقى مثيراً لمشاعر عديدة أن أمريكا؛ رائدة العولمة فكراً وتطبيقاً، عرقلت أي اتجاه لعولمة القانون. ومحاولاتها الفجة لإجهاض المحكمة الجنائية الدولية التي ارتضاها المجتمع العالمي معروفة. كما انها لم تتردد، وهي بمثابة الحاكم الفعلي للعالم الآن، في أن تتخذ كل خطوة ممكنة، لكي يصبح مسؤولوها وعسكريوها معفيين من الملاحقة القانونية لتلك المحكمة مهما ارتكبوا من أفعال.

وللتذكرة فقط، ففي أدبيات المسلمين المتهمين من مثقفي واشنطن بالتحيز والتعصب والعنصرية، ما يناقض قاعدة «إذا سرق شريفهم تركوه. وإذا سرق فقير منهم أقاموا عليه الحد...».

والخلاصة أنه - ومع حفظ الحق في الاختلاف حول تعريف البراءة والإدانة وتكييف الاتهام - وسواء كان تيسير بريئاً فيما نعرف، أو مداناً بما لا نعرف، فعلى الحالين تظل هناك أسئلة مهمة؛ حول المعايير والقاضي ومفاهيم العولمة القانونية الملتبسة. فما يراه الأسبان، الذين كانوا ثالث ثلاثة خالفوا العالم أجمع بإعلانهم الحرب على العراق في قمة الأزور خروجاً على القانون والشرعية الدولية، ربما يختلف عن مايراه القاضي الشرعي في صنعاء، أو ذلك الذي يرتدي الشعر المستعار في «أولد بيلي».

(٢)

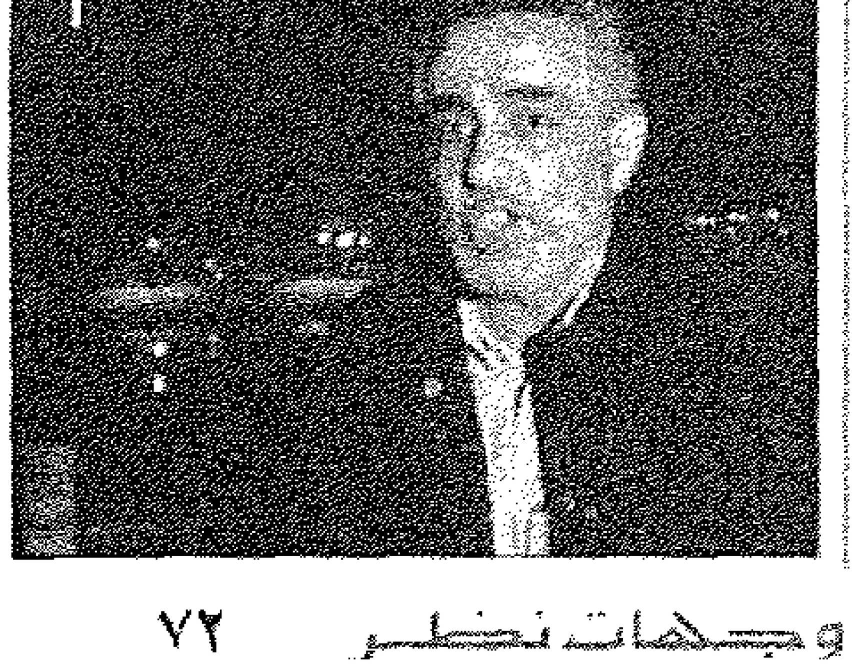
في عالم اليوم.. ربما كان بإمكانك - أو بإمكان غيرك إن أردت - أن تُشَكِّكَ حتى في وجود الله. دون عقاب على الأغلب. لكن أن تتساءل عن الأرقام الحقيقية لضحايا المحرقة (بدون حتى أن تنفي حدوثها أو تتحدث عن أهميتها) فستتعرض غالباً للعقاب في بلاد تتباهى بديموقراطيتها.

أما أن تشكك في - أو تتساءل حول - المسؤول الحقيقي (بالفعل أو المساعدة.. أو الدفع) عن عملية الحادي عشر من سبتمبر، المتقنة كما لم يحدث في التاريخ، والغامضة كما في أفلام هوليوود وأساطير ألف ليلة وليلة، فأنت في أحسن الأحوال مجنون. وستدفع حتماً ثمن جموحك - أو جنوحك - الفكري. أما أن تصل درجة تهورك إلى المقارنة بين مقاومة الفلسطينيين أو بعض العراقيين للاحتلال، بالمقاومة الأوروبية للاحتلال النازي قبل ستين عاماً، أو أن تحاول أن تضع تعريفاً لما اصطلحوا على تسميته «بالإرهاب»، أو أن تبحث عن التوصيف القانوني لما تفعله (الدولة) حين ترسل طائرات الـF١٦ لتقصف مجمعاً سكنياً من سبعة أدوار في غزة أو كابول أو حي المنصور. فأنت مدانٌ - وليس فقط متهماً - بالتحريض. بموجب قوانين «عولمية» جديدة. طالت قائمتها. واستعرضت جغرافيتها. وتمطّت نصوصها. على غير ما يستوجبه القانون حكماً من دقة (جامعة مانعة) للتعريف والتوصيف.

هو الإرهاب الفكري إذن. والذي يهدد في جوهره أفضل ما أتت به حضارة العرب. وأهم ما تتباهى به حضارة الغرب؛ «حرية الفكر».

ومع افتراض - مفرط في التفاؤل

تيسير علوني مراسل الجزيرة الشهير نجا من الموت مرتين تحت القنابل الأمريكية في كابول (نوفمبر ٢٠٠١) وفي بغداد (أبريل ٢٠٠٣) فهل ينجو من قنبلة اتهامه بالتعامل مع القاعدة









أيمن الصياد

ـ بأن اتهام علوني لا يعدو أن يكون اتهامًا لعلوني، فإن الحملة الدعائية لإثبات التهمة والتي تحدثت عن تقارير للموساد والـFBI (يضمها ملف القضية) لابد أن تُذكِّر بتصريحات نائب وزير الدفاع الأمريكي بول وولفيتز والتي هدد فيها الفضائيات العربية، معتبرًا أنها تتحمل مسؤولية دماء الأمريكيين في العراق بتغطيتها الإخبارية التي يراها المسؤول الأمريكي «تُحرِّض على المقاومة».

يتصور نائب وزير الدفاع الأمريكي إذن أن من حقه ـ بلا منازع ـ أن يحدد للإعلام العربي الطريقة التي يعالج بها ما يجري في العراق. وإلا فعليه ـ أو بنص التصريح ـ على الدول التي تنتمي إليها تلك الفضائيات أن تتحمل النتيجة(!)

نسمع هذا في بداية القرن الحادي والعشرين. وعلى لسان مسؤول كبير في الدولة «الأكبر» التي تضع على بوابتها تمثالاً «للحرية».

لا نُبرئ هذه الفضائية أو تلك من شبهات ديماجوجية. ولكن هل شاهدتم كيف احتفلت «فوكس نيوز» بعيد الحب Valentine's Day مع الجنود الأمريكيين المتمركزين في الكويت قبل أيام من اجتياح العراق؟!

(٣)

ماذا حدث لقيم الغرب التي كنا ـ كليبراليين ـ نتغنى بها. وكمشرقيين نحسدهم عليها؟!

في أوراق قضية علوني ـ سواء حُكم له بالبراءة أو عليه بالإدانة ـ تفصيلات كثيرة تدفع بالسؤال حتمًا إلى الواجهة.

١ ـ في الملف الضخم (٧١٠ صفحات) ما يشير إلى تسجيلات لجميع محادثاته الهاتفية على مدى أعوام ثلاثة. رغم أنه لم يكن وقتها متهمًا. ولا حتى مشتبهًا به. (تُحرِّم القوانين وكذا مواثيق حقوق الإنسان التنصت على الهواتف إلا بإذن قضائي، ولمدة محددة ومحدودة، وبناء على تحريات جدية وقرائن قوية).

٢ ـ مطالعة نصوص تسجيلات التنصت (٥٠٠ ساعة)، والتي يعتبرها الادعاء الأسباني دليلاً قويًا، تدعو للأسى لعدم إدراك البُعد الثقافي لمحيط المتهم الاجتماعي. فعلى سبيل المثال يتضمن تسجيل تم يوم ٢/٢١/ ٢٠٠٠ اتصالاً من تيسير بمواطنه السوري المغترب مثله في أسبانيا «أبوالدحداح» يقول له أنه سيسافر ليعمل مع «الجزيرة» في أفغانستان، وأنه اتصل به ليودعه. ويسأله إذا كان يريد شيئًا من هناك. فيطلب أبوالدحداح أن يبلغ أبوخالد ـ مواطنهم الثالث الموجود آنذاك في أفغانستان ـ أنه سيرسل إليه المال في غضون عشرة أيام.

هذه المكالمة ـ ومثلها كثير ـ اعتبرها الادعاء الأسباني دليلاً على علاقات علوني بالقاعدة. والواقع الثقافي يقول أن كل عربي جرَّب الاغتراب اقترف مثل تلك الجريمة (السؤال عن الأحوال وحمل الأموال والرسائل، بل والحقائب) كثيرًا.

٣ ـ وأسمح لنفسي هنا أن أنقل عن عبدالرحمن الراشد رئيس تحرير «الشرق الأوسط» اللندنية ـ وليس عن غيره ـ إذ يعرف الجميع أننا لا يمكن أن نحسبه متحيزا لتيسير علوني أو «الجزيرة».

يقول الراشد: «الاتهام يدعي أن علوني دفع أموالاً لأعضاء في «القاعدة»، في نظري إن كان ذلك صحيحًا فهو أمر مبرر ومقبول في الظروف الصعبة التي عمل فيها مراسل «الجزيرة»، فالكثير من التقارير والأشرطة لا تُعطَى للصحافيين مجانًا، وبعض المؤسسات تغض النظر وتسمح لمراسليها بدفع الأموال لشراء هذه الوثائق. وما خرجت به محطة «الجزيرة» في تلك الفترة يستحق الثمن المدفوع، إن كانت هناك حقًا أموال دُفعت، لأهميته الصحافية. وبالتالي فهي تهمة ظالمة حتى وإن أفادت الأموال «القاعدة» لاحقًا. علوني أيضًا له الحق في مهمته الخطرة حينذاك بالتعامل مع أعضاء «القاعدة» طالما أنه تعامل لم يشمل حمل سلاح أو الإضرار بأحد طرفي الحرب. له الحق في كل الاختلاط الذي قام به مع كبار أعضاء التنظيم في العديد من الدول إذا لم يوجد دليل على عضويته الكاملة، فمهمته تتطلب منه استمرار الاتصال والإبقاء على علاقة حسنة مع مصادره، وإن بدت في نظر محققي الأمن أنها حميمية جدًا».

وبعد أن ينبِّه الراشد إلى أن أخطر تهمة في العالم يمكن أن توجَّه لإنسان اليوم هي المشاركة في هجمات ١١ سبتمبر (وهي التهمة الأسبانية الموجهة لتيسير) يقول أن على المحققين الأسبان ألا يتوقعوا من الإعلاميين بغض النظر عن ميولهم، القبول بها دون أدلة دامغة لا مجرد ظرفية، «مثل الاجتماع بأبو الدحداح أو تناول الغداء مع أبوزبيدة أو دفع أموال لابن لادن أو ورود اسمه في دفتر هواتف الزمار».

أين ذهبت قيم الغرب الليبرالية في هذا الزمن الأمريكي؟!

لاشيء هناك غير هيستيريا الإرهاب التي أفرخت ترسانة من قوانين تكميم الأفواه باسم الوطنية والأمن القومي.

قبل أسابيع كانت القناة الرابعة في التليفزيون البريطاني تغطي مظاهرة احتجاج أمام معرض للأسلحة أقيم في لندن. حيث لجأت قوات الشرطة إلى العنف في التعامل مع المتظاهرين متذرعة بالمادة ٤٤ من قانون مكافحة الإرهاب. يومها أعلنت منظمة «ليبرتي» عن عزمها مقاضاة الشرطة لتفعيلها تلك المادة في مناسبة كتلك. ويومها طاف مراسل التليفزيون البريطاني أليكس تومسون بالمتظاهرين يسأل كل واحد منهم بنبرة جادة تحمل قدرًا من السخرية المفهومة: «هل أنت إرهابي؟!».

حتى لو كان تيسير مُدانًا، يظل الصحافيون متهمين بالشبهة، ويظل صحيحًا أنه يُخطيء من يعتقد أن المقصود رأس «الجزيرة» وحدها. فرامسفيلد هاجم معها «العربية» (التي ظهرت أصلاً لتقديم إعلام يختلف عن الجزيرة) واتهم كلتيهما بالتحريض على الإرهاب في العراق.

ويخطيء من يفصل بين اتهام علوني، واتهام سبقه قبل أشهر استهدف ملاحقة رئيس اتحاد الصحافيين العرب ذاته «رمزًا ربما».

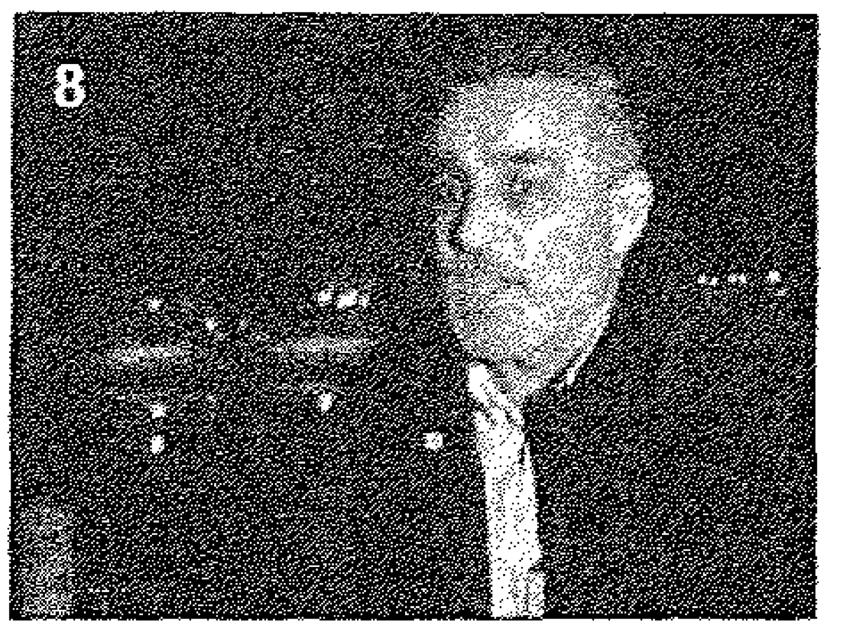
يطلقون في عاميتنا المصرية تعبير «الحيط المايل» على ما ـ أو مَن ـ تُكال إليه الاتهامات، بحق أو بدونه، فيصبح مرشحًا دائمًا لأن يكون كبش فداء. تُغلق صحيفة ـ رغم أنف القانون ـ لأن طلابًا تظاهروا. ويُوجَّه إنذار إلى مراسلي الفضائيات في بغداد، لأن مجهولاً أطلق رصاصًا ـ لا خبرًا صحفيًا ـ على عضو بمجلس الحكم الانتقالي، في بلد يُطلَق من الرصاص فيه أكثر مما يُباع من الخبز. ويعتقل تيسير علوني لأنه وطّد علاقته مع مصادره المنتمية إلى تنظيم القاعدة. ويُقصف طارق أيوب بصاروخ أمريكي لأنه استمر يزاول عمله رغم كل شيء. ويموت مصور «رويترز» مازن دعنا على باب سجن في بغداد، لأن جنديًا أمريكيًا متهورًا اعتقد أن عدسة الكاميرا مدفع للمقاومة.. ولعلها ـ حقيقة ـ كذلك.

مثير أن تصبح الصحافة مسكينة. وأن يصبح الصحافيون مساكين في عالم يطل عليه من كل ناحية تمثال أمريكي «للحرية». ■





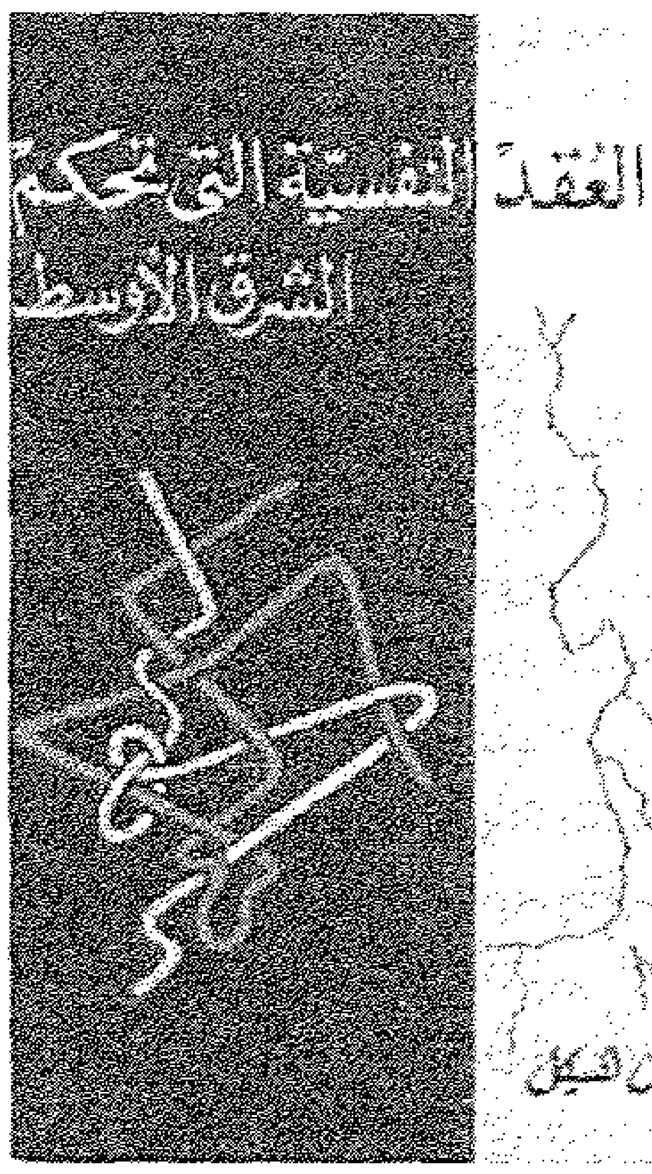




مؤلفات محمد حسنين هيكل

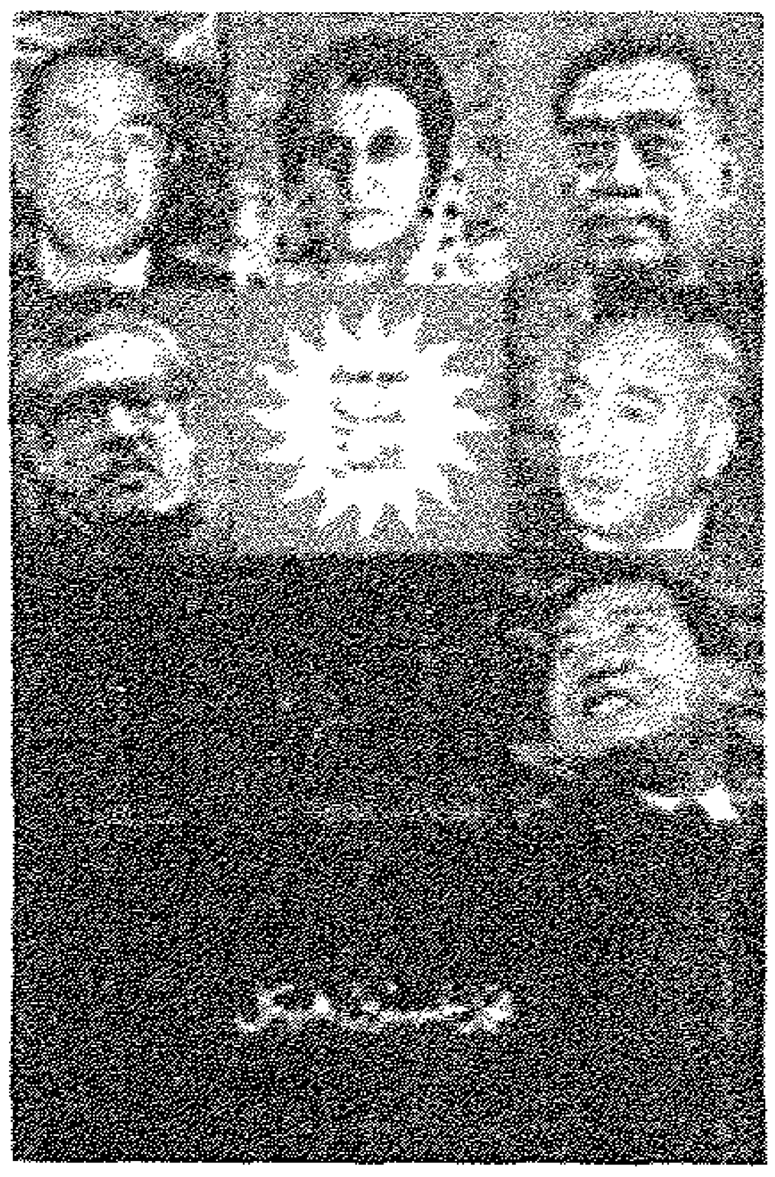
إيران فوق بركان
مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٥١

هذا هو أول كتاب أصدره هيكل فى حياته، وهو حصيلة رحلة قام بها إلى إيران حين كان يعمل مراسلاً متجولاً لمؤسسة أخبار اليوم، وفيه يكشف عن علاقات القوى فى إيران، متنبئاً بما صارت إليه الأحوال بعد ذلك بسنوات قلائل.



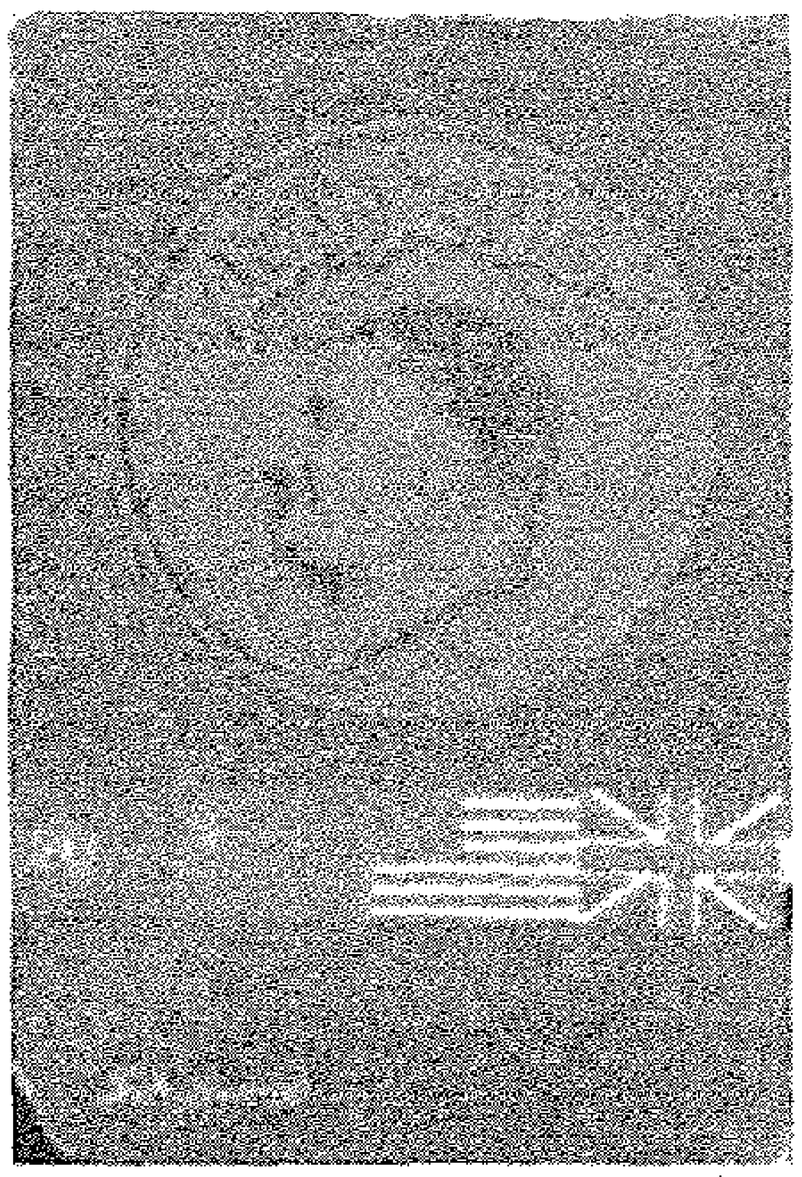
العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط
الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨، ١٦٦ صفحة

مجموعة من الصور القلمية كتبها هيكل عن الأحداث السياسية فى منطقة الشرق الأوسط كما رآها فى مطلع عام ١٩٥٨، وهو يحاول على طريقة المحلل النفسى أن يشخص أمراض المنطقة والهواجس التى تتحكم فى زعاماتها، يكتب عن لبنان أو عقدة الذنب، جون فوستر دالاس أو مجموعة عقد فى رجل الولايات المتحدة الأمريكية أو مجموعة عقد فى سياسة دولة، عزلة مصر أو جمعية ضحايا دالاس فى الشرق الأوسط، عقد الاضطهاد أو هرقل والعروش الهاشمية، عقدة أوديب أو بريطانيا التى كانت عظمى، عقدة الخوف أو دور روسيا فى هذا العقد.



أزمة المثقفين
الشركة العربية المتحدة، ١٩٦١، ١٦٣ صفحة

شغل الرأى العام فى مصر بمناقشة امتدت ثلاثة شهور ما بين مايو ويوليو سنة ١٩٦١، وتنوعت الآراء إلى حد التضاد والتناقض، وامتدت المناقشة على مساحات صفحات فى جريدة الأهرام، وبزغت على السطح سجالات عن أهل الثقة وأهل الخبرة، ودور المثقفين فى التغيير فى هذه المرحلة الانعطافية من تاريخ مصر، ولم يشأ هيكل أن يتناول فى مداخلاته أزمة المثقفين بمعزل عن قضايا مصر الداخلية، وهكذا جاء حديثه عن أزمة المثقفين متشابكاً مع أزمة الوطن ومشكلاته.



ما الذى جرى فى سوريا
الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٢، ١٩٨ صفحة

تمثل هذه المقالات تفاعلاً تلقائياً مع المشهد العنيف الذى شهدته دمشق فجر ٢٨ سبتمبر ١٩٦١.

يقدم هيكل هنا رؤيته كصحافى عاصر التطورات فى تجربة الوحدة المصرية السورية عن قرب، وأبدى فيها آراء تحتمل الصواب والخطأ، ولهذا تأتى روايته لما جرى رؤية مراقب ومتابع يقدم شهادته للتاريخ لتجربة الوحدة والانفصال.

خبايا السويس
دار العصر الحديث، ١٥٨ صفحة

تعليق على دراسة كتبها المؤرخ البريطانى الشهير هيوتوماس بتكليف من جريدة «الصنداى تيمس»، وقد نشرت الدراسة بالعربية فى مصر بعد ذلك باتفاق بين الأستاذ هيكل ورئيس تحرير الصنداى تيمس آنذاك دنيس هاملتون وحينما صارت متاحة لقراء العربية كتب عليها هيكل تعليقاته.

ودراسة توماس تجلو كثيراً من خبايا أزمة السويس التى أحاطت بها كثيراً من المشاعر المكبوتة والقابلة للانفجار. آنذاك . فى العاصمة البريطانية لندن.

الاستعمار لعبته.. الملك
دار العصر الحديث، ٢٦٣ صفحة

موضوع الكتاب هو المعركة الجديدة فى الحرب الممتدة بين القوى الثورية الوطنية والاجتماعية لحركة القومية العربية من ناحية، وبين حلف الاستعمار والرجعية من ناحية أخرى، ومحاولات القوى الرجعية التدثر بأردية عدة لتبرير أفعالها، وبينها الإسلام على سبيل المثال.

نحن وأمريكا
دار العصر الحديث، ١٩٦٧، ١٩٠ صفحة

هذا الكتاب بعض من قصة العلاقات المصرية الأمريكية خصوصاً فى مرحلة ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، فعبر ثلاثة عشر فصلاً يحكى هيكل قصة العلاقات المصرية الأمريكية التى مرت بأربع مراحل أساسية:

١. محاولة الولايات المتحدة ترويض الثورة المصرية.
٢. محاولة الولايات المتحدة عقاب الثورة المصرية بعد أن تمردت على الترويض.
٣. محاولة الولايات المتحدة احتواء الثورة المصرية وحصارها.
٤. محاولة الولايات المتحدة استخدام العنف ضد الثورة المصرية.

عبد الناصر والعالم
بيروت: دار النهار، ١٩٧٢، ٤٧٥ صفحة

بين اختيارات متعددة، اختار هيكل أن يكتب عن عبد الناصر وعمالقة عصره، وقد نشر الكتاب أولاً بالإنجليزية ثم ترجمه بالعربية، ومن بين عمالقة عصر عبد الناصر الذين يربط هيكل بينهم وبينه . أى عبد الناصر . دالاس وايدن وخروشوف وكيندى، وجونسون وتيتو ونهرو وشواين لاى وجيفارا.

أحاديث فى آسيا
بيروت: دار المعارف، ١٩٧٣، ٤٢٠صفحة

مجموعة من الحوارات أجريت فى بداية عام ١٩٧٣ مع مجموعة من القادة والزعماء الآسيويين فى وقت كانت أحداث هذه القارة تشغل الصفحات الأولى من صحف العالم.

حوارات مع الزعيم شواين لاى رئيس وزراء الصين، وتاناكا رئيس وزراء اليابان والشيخ مجيب الرحمن رئيس وزراء الهند وذو الفقار على بوتو رئيس جمهورية باكستان والأمير سيهانوك الذى كان يقود كفاح شعبه من منفاه بالصين والسيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند، وعشرات غيرهم من وزراء الخارجية والدفاع والتخطيط وقادة الجيوش وأساتذة الجامعات والصحفيين، مما يقدم صورة كاملة عن الأوضاع فى آسيا فى تلك السنوات المهمة.

الطريق إلى رمضان
بيروت: دار النهار، ١٩٧٥

صدرت الطبعة الأمريكية لهذا

مؤلفات محمد حسنين هيكل

الكتاب قبل العربية بسنوات، وفيه يروى هيكل قصة حرب أكتوبر ١٩٧٣، بادئًا من سنوات مهدت لها وبشرت باندلاع شرارتها، وعبر لقاءات مع قادة وزعماء عرب، يكشف عن أدوار لعبوها لإعداد مسرح العمليات، وكيف كان دور القوى العظمى فى هذا الصراع.

لمصر لا لعبد الناصر
مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٧، ١٦٦ صفحة

شهد منتصف السبعينيات ولشهور طويلة، حملة هجوم ظالمة ضد شخص الرئيس عبد الناصر وكل ما يمثله من سياسات ومثلت أحاديث هيكل تلك، والتى نشرت بالعربية أولاً خارج مصر، ردا على هذه الحملة الظالمة. يقول هيكل فى مقدمة الطبعة العربية: «لم يكن هدفى أن أرد أو أدافع أو أسجل للتاريخ، فذلك كله لم يجىء أوانه بعد، وإنما كان هدفى أن يعرف الشعب فى مصر، وتعرف شعوب الأمة العربية، أن الحقيقة ليست ما يدعى به اليوم فيما يقال أو ينشر فى القاهرة.

قصة السويس
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٧٧، ٣٠٤ صفحات

كتب هيكل هذا الكتاب فى مناسبة مرور عشرين سنة على حرب السويس التى جرت يومياتها من يوليو إلى ديسمبر ١٩٥٦، وبعد انتهاء هذه الحرب التى يعد هيكل الانتصار فيها هو أكمل انتصار فى تاريخ العرب الحديث، حيث كانت قناة السويس وصحراء سيناء وقطاع غزة فى يد مصر، وبرأيه أيضًا فقد كانت حرب السويس تجربة هائلة من تجارب العمل القومى العربى وقدرته.

الحل والحرب
القاهرة: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٧٧، ٢٢٢ صفحة

مجموعة من المقالات كتبها هيكل فى الفترة من بدايات ٧٦، وبدايات ٧٧، وهى تنقسم إلى أربع مجموعات: الأولى مقالات تحت عنوان «إلى أين من هنا؟» والثانية مقالتان عن الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر تحت عنوان «كارتر وأولوياته»، ثم «كارتر وأزمة الشرق الأوسط»، والثالثة ٦ مقالات تحت عنوان «عالم بغير هنرى كيسنجر» وقت أن كان وزير الخارجية الأمريكى الأشهر يستعد لمغادرة موقعه. والرابعة مجموعة من ٦ مقالات عن الموقف التفاوضى العربى، وقد كتبت فى فبراير ٧٧، فى وقت اشتد فيه الجدل حول مؤتمر جنيف.

حديث المبادرة
شركة المطبوعات للتوزيع، ط٨، ١٩٨٧، ٢٨٧ صفحة

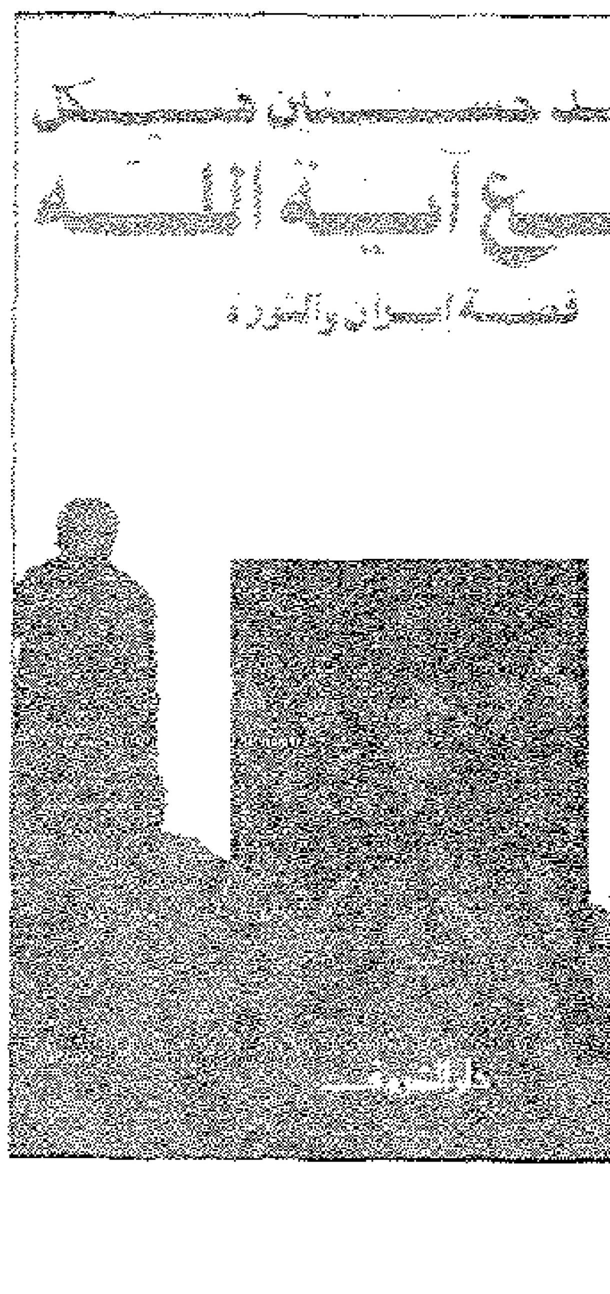
يضم الكتاب مجموعة وجهات النظر التى أسهم بها الكاتب فى الحوار العام الذى احتدم حول زيارة الرئيس السادات لإسرائيل فى نوفمبر ١٩٧٧، وبينها هذه العناوين: العرب بين القبول والرفض والصمت، أمريكا بين غير المقبول وغير المحتمل، الاتحاد السوفيتى أفكاره ومشاعره، بن جوريون: ليس هناك حل.. الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان، مناحم بيجن: إسرائيل وأرض إسرائيل شىء واحد.

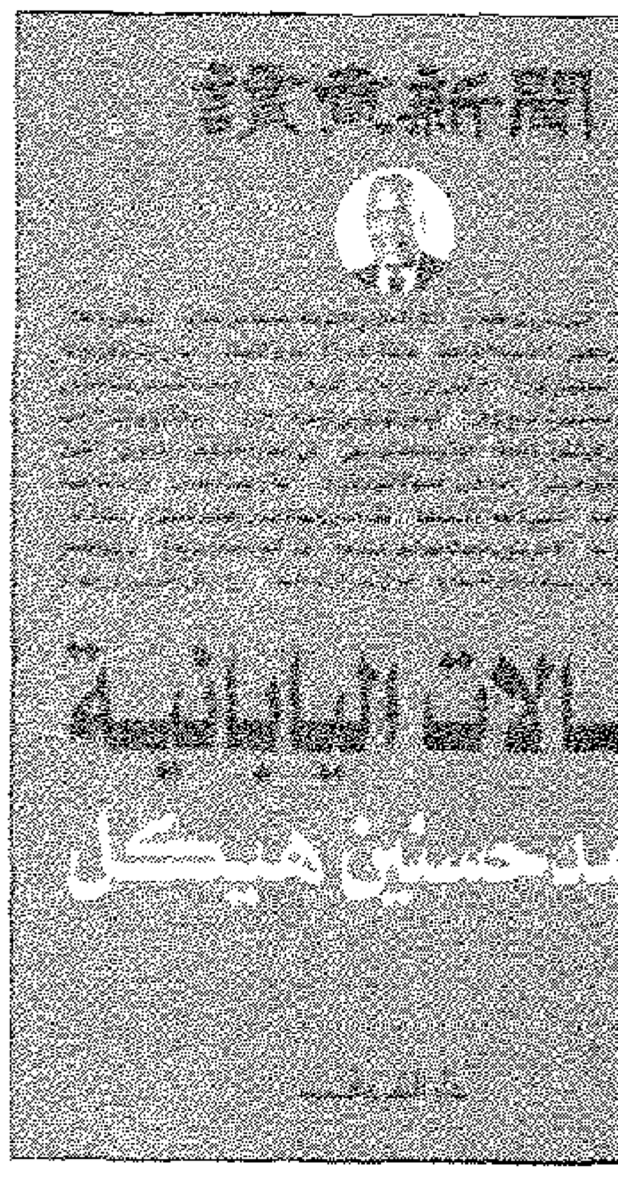
حكاية العرب والسوفييت
شركة الخليج للنشر ١٩٧٨.

لأسباب مختلفة، لعب السوفييت دورًا مهمًا فى منطقة الشرق الأوسط، وارتبطوا بسياساتها لعقدين تقريبًا، وبحكم عمله، وبعمق صلاته وصداقاته على الجانبين، يروى هيكل قصة هذه العلاقة بين العرب والسوفييت، وخصوصًا مصر والسوفييت، فى أفضل المراحل وأسوئها.

وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى
بيروت: شركة المطبوعات، ط٧، ١٩٨٥، ٣٢٠ صفحة

فى صيف ١٩٧٨، استدعى المدعى الاشتراكى فى مصر هيكل لتحقيق طويل استغرق ثلاثة شهور كاملة هى يونيو ويوليو وأغسطس، وكانت التهمة هى أن هيكل كتب خارج مصر وأساء إلى سمعتها، وقد سحب جواز سفره ومنع







من مغادرة البلاد لحين انتهاء التحقيق، حتى أبلغ رسميًا بأن قرار المنع من السفر لم يعد له وجود.

هذا الكتاب يحكى وقائع وملابسات هذا التحقيق.

السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة
شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط٥، ١٩٨٦، ٢٣٥ صفحة

مقالات تأخذ شكل الرسائل إلى صديق ما هناك، هذه الـ «هناك» نقطة على خط طويل يمتد بين محيط وخليج، والرسائل تبحث فيما آل إليه حال الخليج الثائر وما جرى للمحيط الهادر، والرسائل تنظم فى جزءين: أولهما عن السلام المستحيل بين العرب وإسرائيل، ثانيهما عن الديمقراطية الضائعة، وتحت هذين العنوانين الكبيرين مقالات عديدة تبحث فى حال الأمة وأزمتها.

آفاق الثمانينيات
شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ١٩٨١، ٢١٢ صفحة

كتبت هذه المقالات فى خريف ١٩٧٩، ونشرت فى نهاية السنة نفسها وفى الأسابيع الأولى من الثمانينيات، وهى حصاد رحلة إلى أوروبا شمالاً وجنوبا، ثم إلى أمريكا شرقًا وغربًا، والمفارقة أن هيكل ذهب إلى هناك كى يكتب، مستعينًا بالوثائق والمستندات، عن الشرق وقضاياه، مستشرفًا آفاق عقد قادم، متفائلاً بجيل عربى جديد قادر على الوثوب فوق أسباب عديدة تدعو للتشاؤم، لفت جيلاً انتصر، لكنه تصرف كأنه مهزوم.

مدافع آية الله
دار الشروق، ١٩٨٢، ٢٧٣ صفحة

نشر الكتاب فى الأصل باللغة الإنجليزية قبل أن يترجم إلى العربية بعدها بسنوات قلائل.

وقد نشر هيكل كتابه الأول «إيران فوق بركان» عام ١٩٥١، وظل يتابع الأحداث فى إيران باهتمام طيلة ثلاثين عاما تقريبًا حتى أصدر كتابه هذا الذى يروى قصة الثورة الإسلامية فى إيران:

مؤلفات محمد حسنين هيكل

مقدماتها ومجرياتها وانعطافاتها المهمة، عبر حوارات مطولة مع كافة الأطراف، من الإمام الخميني نفسه إلى معارضيه إلى أركان نظامه، وحتى هؤلاء الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية، في تحد دال لأقوى دولة في العالم.

▪

عند مفترق الطرق
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٣، ٤٠٨ صفحات

كانت هذه المقالات هي مفترق الطرق بين الرئيس الراحل أنور السادات وهيكل، بعد سنوات قلائل كان خلالها من أقرب المقربين له. وهي تمثل المقالات الأخيرة التي نشرت لهيكل في الأهرام في الفترة من ٥ أكتوبر، أي قبل الحرب بيوم واحد، وحتى أول فبراير ١٩٧٣، وبعدها صار مبعداً عن السلطة ومقصياً عنها.

تروي هذه المقالات قصة الخلاف وترسم حدوده، وتشير إلى دوافعه، وهي قصة تستحق أن تروى وتستأهل الإنصات.

▪

خريف الغضب
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١١، ١٩٨٥، ٥٧١ صفحة

يروي هذا الكتاب قصة بداية ونهاية عصر السادات، بدءاً من دوره داخل تنظيم الضباط الأحرار، وانتهاء بحادث المنصة الشهير الذي أودى بحياته في عيد احتفاله بالنصر، وبالزي العسكري الذي كان يروق له أن يرتديه في هذه المناسبة.

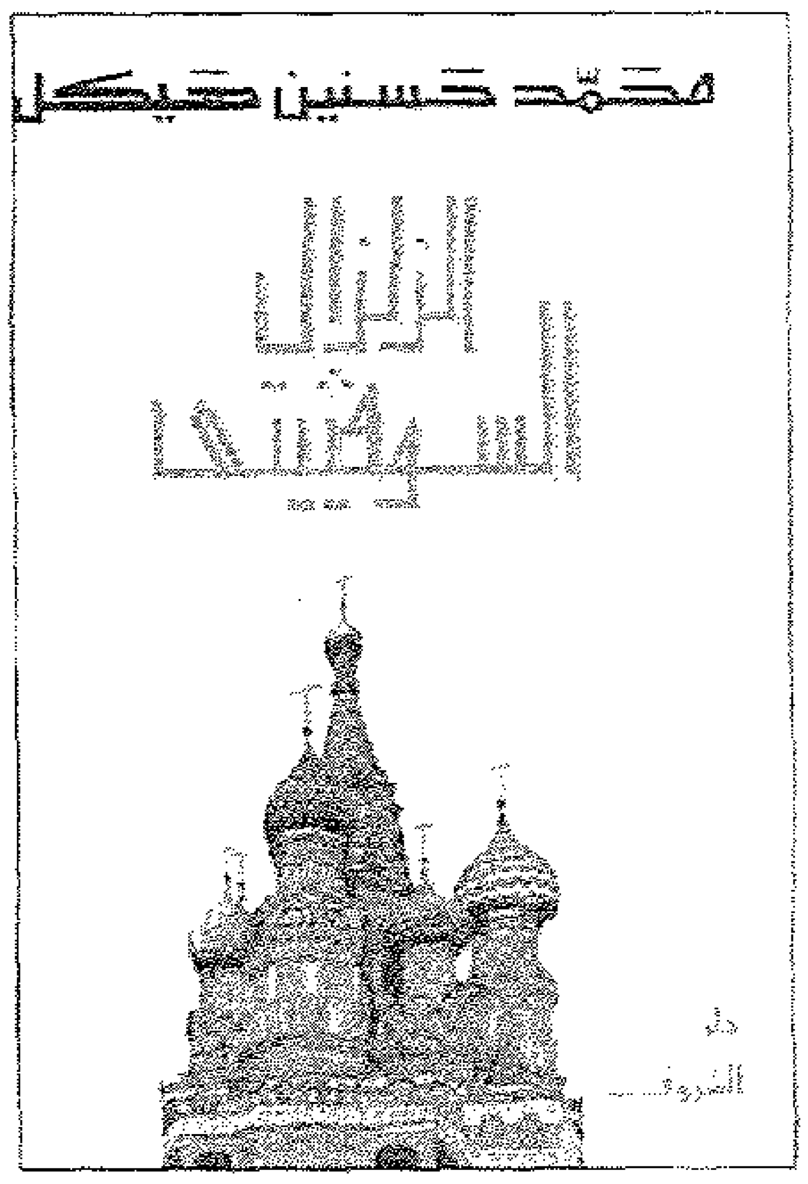
▪

بين الصحافة والسياسة
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ١٩٨٥.

كتب هيكل هذه الصفحات عام ١٩٨٤، وفيها يروي قصته مع الصحافة، كيف دخل إلى هذا العالم، وكيف ارتقى فيه إلى الذروة منذ شبابه المبكر، كيف التقى بعبد الناصر واقترب منه كصحفي ثم كصديق حتى نهاية حياته، وأين كانت النقلات وكيف، في حياته المهنية والسياسية معاً، سيرة ذاتية تتوقف عند تاريخ بعينه، لكنها ترسم حياة حافلة بالكفاح والجهد والعطاء.

▪







زيارة جديدة للتاريخ
ط٢، ١٩٨٥، ٤٤٩ صفحة

سبع شخصيات اختار هيكل أن يعاود معها زيارته للتاريخ، وقد جاء اختياره لهم لارتباط أدوارهم التاريخية بعدد من القضايا الكبيرة التي شغلته وقت كتابة صفحات الكتاب بينها قضايا الديمقراطية والحرب والسلام واحتمالات الحرب النووية، يتضمن الكتاب حوارات مع ملك أسبانيا خوان كارلوس، والزعيم السوفيتي أندروبوف، والقائد الإنجليزي الذي انتصر في العلمين مونتجمري، والعالم الفيزيائي الشهير أينشتين، والزعيم الهندي جواهر لال نهرو، والإمبراطور الإيراني محمد رضا والمليونير الأشهر دافيد روكفلر.

▪

أحاديث في العاصفة
دار الشروق، ١٩٨٧، ٦٩١ صفحة

مجموعة من الأحاديث الصحافية التي أجرتها صحف عربية وأجنبية مع هيكل ونشرت خارج مصر، في وقت لم يكن مسموحاً له أن ينشر عنه داخلها، وتناولت الحوارات على اختلاف المنابر التي نشرت بها قضايا شائكة ومهمة بينها: أصل خلافي مع السادات، أين مصلحة مصر، عمق حادث المنصة، لماذا اختار عبد الناصر السادات نائباً له، قصة طرد الخبراء السوفييت من مصر، السياسة خذلت السلاح في حرب أكتوبر، قصة عرفات مع عبد الناصر والسادات، لا أراهن على تسوية شاملة للقضية الفلسطينية.

▪

سنوات الغليان
الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨، ٩٥١ صفحة

هذا هو الجزء الثاني من مجموعة حرب الثلاثين سنة بعد ملفات السويس، وفيه يتعرض هيكل لمعركة سيناء ١٩٦٧، ولكن في هذا الجزء الأول من الكتاب (قبل الانفجار) يعرض هيكل للمقدمات، أي يمد الجسور إلى ساحة المعركة قبل حرب الأيام الستة في يونيو ١٩٦٧، كيف صارت الأمور في البيئة الإقليمية العربية، كيف صارت في مصر، كيف تفاعل الطرفان مع محيطهما ليقودا في نهاية المطاف إلى حرب الأيام الستة (الانفجار).

▪

حرب الثلاثين سنة (١٩٦٧ الانفجار)
مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠، ١٠٨٩ صفحة

الجزء الثالث من مجموعة حرب الثلاثين سنة، سبقه جزءان هما «ملفات السويس» و«سنوات الغليان»، وهذا الجزء ينصب على المرحلة الدقيقة والحساسة من معركة سنة ٦٧، وبحسب الأستاذ هيكل فإن هذا الجزء هو أصعب فصول القصة وأشدها تعقيداً، وهي أكثرها استحقاقاً واستدعاء لتنشيط الذاكرة.. «فهذه بالضبط لحظة الخبطة على الرأس».

▪

الزلزال السوفيتي
دار الشروق: ١٩٩٠، ١٢٧ صفحة

مجموعة من التقارير عن زيارة قام بها هيكل إلى الاتحاد السوفيتي في لحظة فارقة من حياته، وأثناء عملية تاريخية هائلة، امتدت آثارها إلى أوروبا الشرقية فالغربية ثم العالم كله.

وما يؤكد عليه هيكل هنا هو أن هذه المشاهد التي بدت «خرافية» لم تهبط من السماء فجأة، فالتحولات الكبرى في التاريخ لا تحدث بأسلوب الانقضاض من الهواء على غير انتظار، وإنما تحدث بقوانين التطور ذاتها».

إن ما يجري الآن في الاتحاد السوفيتي، بحسب ما كتب هيكل وقتها، هو قصة لازالت في بدايتها، وفي الغالب فإن بداية أي قصة تختلف عن نهايتها.

▪

أكتوبر ١٩٧٣، السلاح والسياسة
مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣، ٨٨٣ صفحة

هذا هو الجزء الرابع من مجموعة حرب الثلاثين سنة، فهو يركز على معركة أكتوبر، ويعتبرها عملاً عسكرياً باهراً لكنه يميز بين الحرب والقتال، فالحرب صراع سياسي بكل وسائل القوة، في حين أن القتال مرحلة معينة من الحرب يكون فيها الاحتكام إلى السلاح، وهيكل هنا شاهد يطرح أدلته وبراهينه،

مؤلفات محمد حسنين هيكل

فقد كان قريباً من السادات فى معركة أكتوبر ٧٣ كما كان قريباً من قبل، من عبد الناصر فى معركتى ١٩٥٦ و١٩٦٧.

اتفاق غزة أريحا أولاً: السلام المحاصر بين حقائق اللحظة وحقائق التاريخ

معهد الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤، ٤٠ صفحة

قراءة فى اتفاقية غزة أريحا، وفى الظروف والأسباب الموضوعية التى قادت إليها، يعتقد هيكل أن الصراع العربى الإسرائيلى هنا يمر بما يسميه «المرحلة الإسرائيلية»، إلا أن حقائق الجغرافيا والتاريخ سوف تعود لتفرض نفسها من جديد.

مصر والقرن الواحد والعشرون

دار الشروق، ١٩٩٤، ٥٥ صفحة

ورقة بحثية ساهم بها هيكل فى المؤتمر الثلاثين لجماعة خريجى المعهد القومى للإدارة العليا الذى عقد بالإسكندرية فى أكتوبر ١٩٩٤.

أزمة العرب ومستقبلهم

دار الشروق، ١٩٩٥، ٦٣ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل فى باريس يوم ٧ ديسمبر سنة ٩٥ بقاعة المؤتمرات بمتحف جيميه. وبقدر ما تنطوى عليه المحاضرة من تحليل ورصد دقيق للواقع العربى وأزمته على محيطه العالمى، بقدر ما ترفض الاستسلام لأصحاب مقولات الواقعية السياسية الداعية إلى الرضوخ الكامل، بحجة عدم القدرة على المقاومة.

١٩٩٥ باب مصر إلى القرن الواحد والعشرين

دار الشروق، ١٩٩٥، ٤٠ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل على رواد معرض القاهرة الدولى للكتاب فى يناير ١٩٩٥، وطرح فيها تصوره عن أن سنة ١٩٩٥ ستكون سنة فارقة، بل هى مدخل مصر إلى القرن الواحد والعشرين.

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل (الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية) الكتاب الأول

دار الشروق: ١٩٩٦، ٢١٠ صفحات

هذا الكتاب محاولة واسعة للرد على سؤال من بين الأسئلة التى أحاطت بالصراع العربى الإسرائيلى منذ بداياته، والسؤال هو: لماذا كانت الحرب قريبة وظل السلام بعيداً طوال قربه من الأمان؟ ولماذا جاء السلام فى هذه الظروف وبهذا الشكل وبهذه الوسائل؟ ولماذا كان يجب أن تكون المحاولات من أجل السلام فى الخفاء، وفى هذا الجزء بالذات، محاولة لقراءة تاريخ الاتصالات بين العرب وإسرائيل من قبل إنشاء الدولة اليهودية وأثناء الإعداد لنشأتها وبعده بقليل.

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل. عواصف الحرب وعواصف السلام (الكتاب الثانى)

دار الشروق، ١٩٩٦، ٤٦٢صفحة

فى هذا الجزء يتابع هيكل الحوادث، بعدما توقف الجزء الأول عند تصوير الخلفية التى قام عليها الصراع العربى الإسرائيلى بما فى ذلك محاولات الاتصال والتفاوض.

هذا الجزء يسعى للإجابة عن سؤالين مهمين:

لماذا لم يفاوض جمال عبدالناصر؟

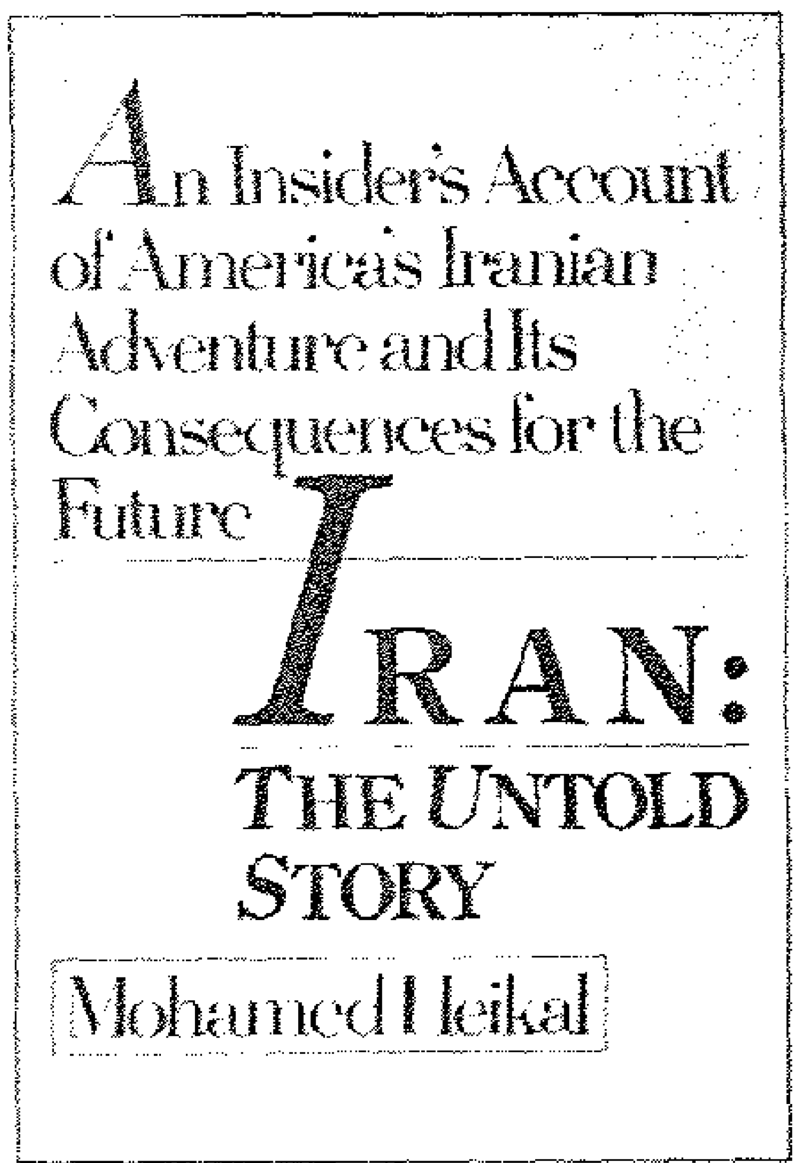
كيف فاوض أنور السادات؟

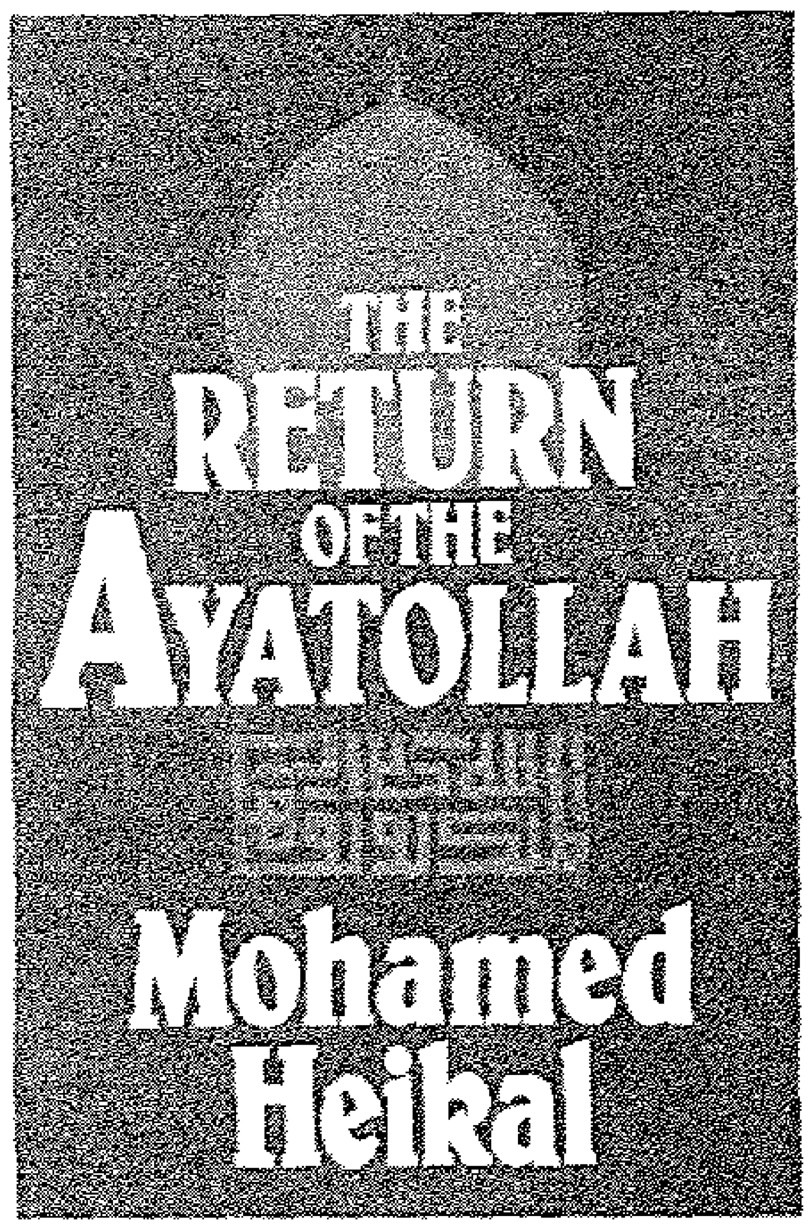
المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل أوسلو. ما قبلها وما بعدها (الكتاب الثالث)

دار الشروق، ١٩٩٦، ٤٦٥ صفحة

هذا الجزء يركز بالدرجة الأولى على الدور الذى قام به الفلسطينيون فى التفاوض بأنفسهم ولأنفسهم، وهو يمسك بخيوط الدور الفلسطينى من أوله إلى آخره عبر محطات تتباعد المسافات بينها على خريطة العالم: القاهرة، عمان، بيروت، طهران، جنيف، ستكهولم، أوسلو، واشنطن وغزة.. وهى تسعى إلى الإجابة عن أسئلة أخرى من نوع آخر: كيف وقع التغيير؟ ومتى وقع؟







ولماذا وقع، ومن الذى تغير؟ ثم ما الذى تغير؟ والأهم: ما الذى بقى؟

المقالات اليابانية

دار الشروق ١٩٩٧، ٢٢٥ صفحة

مجموعة من المقالات نشرها هيكل فى جريدة «يوميورى شيمبون» اليابانية ضمن باب ثابت يحمل عنوان «نظرات على العالم» تناول فيه موضوعات وقضايا ساخنة شغلت العالم فى حينها.

العروش والجيوش.. كذلك انفجر الصراع فى فلسطين (الجزء الأول)

دار الشروق: ١٩٩٨، ٤٥٨ صفحة

يمثل هذا الكتاب بما يضمه من وثائق يوميات الحرب، شهادة تاريخية عن تلك الأيام التى شهدت قيام الدولة اليهودية على أرض فلسطين فى مايو ١٩٤٨، وقد عاش هيكل تجربتها شاباً مراسلاً متجولاً لجريدة أخبار اليوم فى مناطق ملتهبة من العالم بينها فلسطين التى عاش يوميات الحرب فيها وكتب عنها مجموعة تحقيقات بعنوان «النار فوق الأرض المقدسة».

يضم هذا الجزء رسائل ويوميات الحرب حتى أكتوبر ١٩٤٨ وثلاث شهادات وثائقية للحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وعبد الرحمن عزام أول أمين عام لجامعة الدول العربية، واللواء أحمد محمد المواوى القائد العام للقوات المصرية فى فلسطين.

الخليج العربى مكشوف

دار الشروق ١٩٩٨، ٣٨ صفحة

نص محاضرة ألقاها هيكل فى بيروت حتى السابع والعشرين من شهر يونيو ١٩٩٨ بدعوة من نقابة المحامين فى لبنان.

حرب من نوع جديد

دار الشروق، ١٩٩٩، ٥١ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل فى مناسبة تكريم لجنة «جائزة جمال عبد الناصر»

مؤلفات محمد حسنين هيكل

له ومنحه جائزتها التقديرية فى دورتها الأولى ١٩٩٩.

■

العروش والجيوش.. أزمة العروش.. صدمة الجيوش
دار الشروق: ٢٠٠٠، ٥٦٢ صفحة

ينتهى الجزء الأول من العروش والجيوش عند إشارة أخيرة وردت فى ١٨ أكتوبر ١٩٤٨، تسجل بلاغًا عن غارات قامت بها الطائرات العسكرية الإسرائيلية على القصور الملكية فى القاهرة، وهنا، بحسب ما يشير الأستاذ هيكل، يختلف الجزء الثانى عن الأول. فقد أصبحت مصر، هى النقطة الحرجة فى هذا الصراع وليس فلسطين. وهو ما تنبته يوميات الحرب كما يوردها هيكل فى نهاية ديسمبر ١٩٤٨.

■

قضايا ورجال: وجهات نظر مع بداية القرن الواحد والعشرين
المصرية للنشر العربى والدولى: ٢٠٠٠، ٤٥١ صفحة

فصول الكتاب مقالات كتبها هيكل طوال سنة ١٩٩٩ وأوائل سنة ٢٠٠٠ عن قضايا ورجال. بطريقة مبتكرة جديدة على الصحافة العربية وهى طريقة المقال المستطرد المسترسل، والذى يقع فى منطقة بين سرعة إيقاع المقال وسعة إحاطة الكتاب.

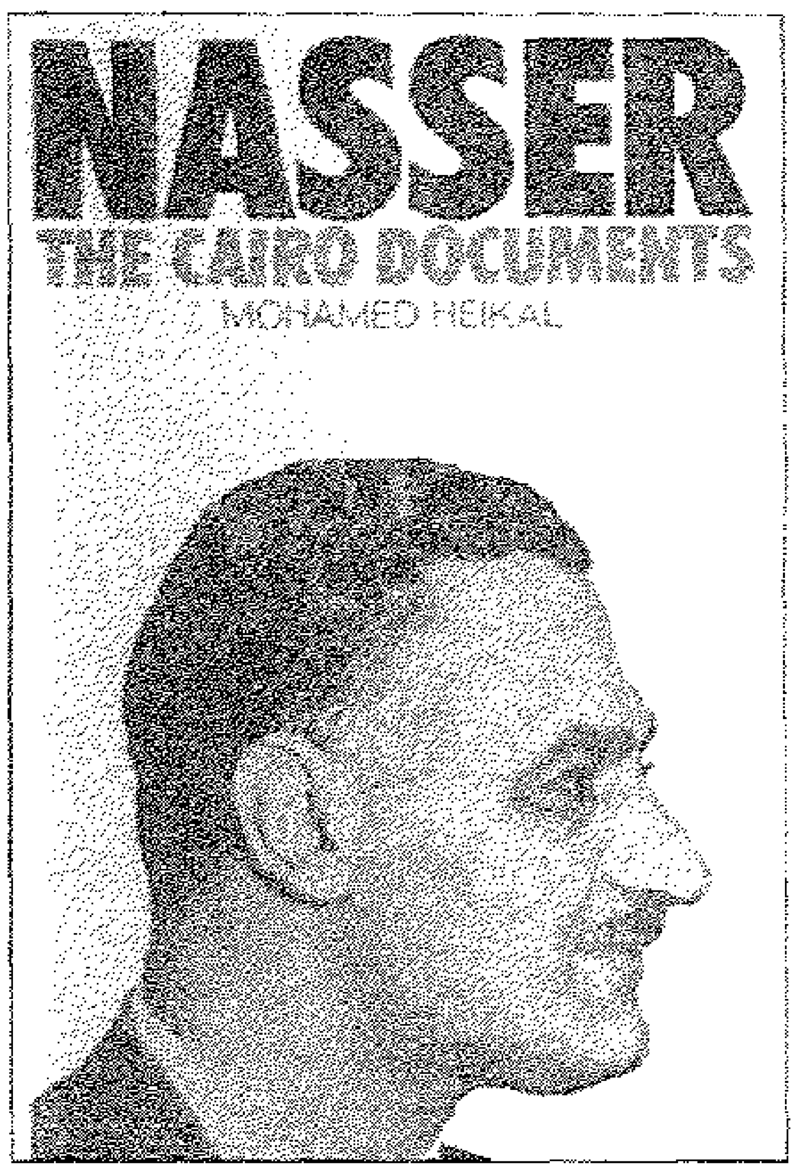
يكتب هيكل هنا عن كلينتون وبطرس غالى والملك الحسن والملك حسين والقذافى، كما يكتب عن بقايا يوغوسلافيا وعن مفاوضات سوريا وإسرائيل.

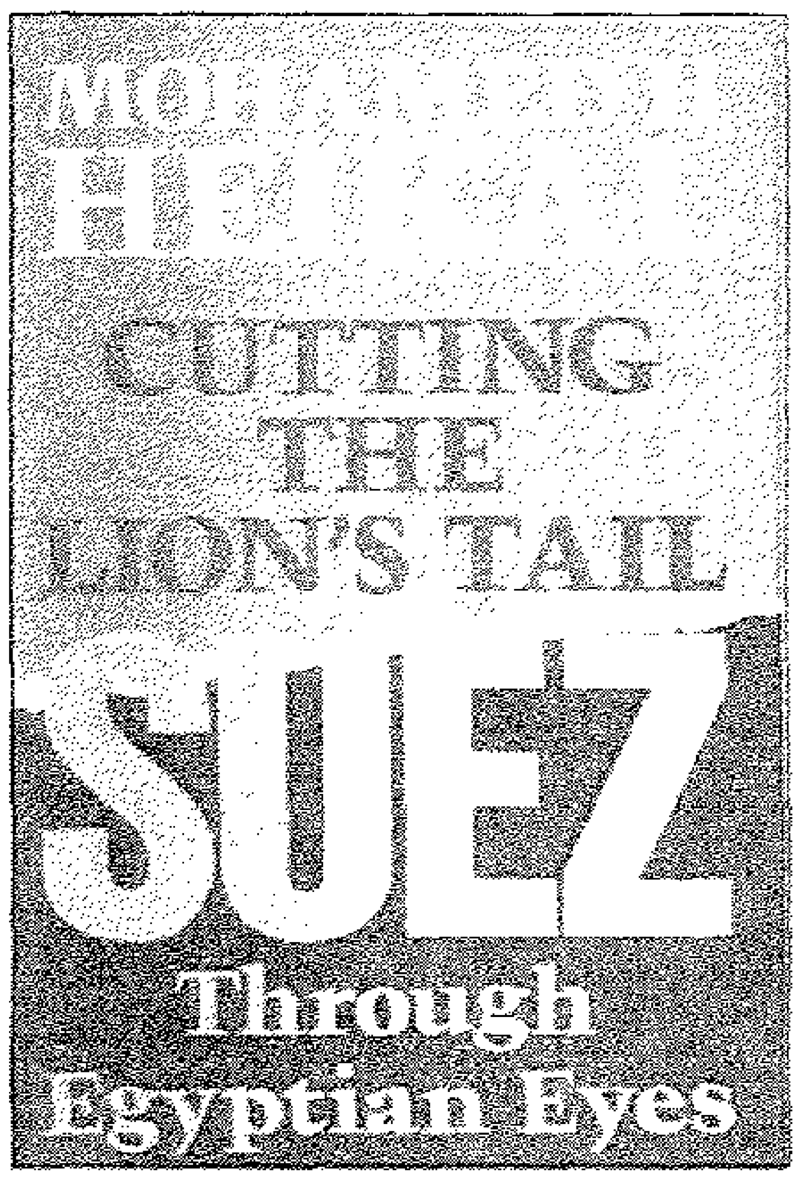
■

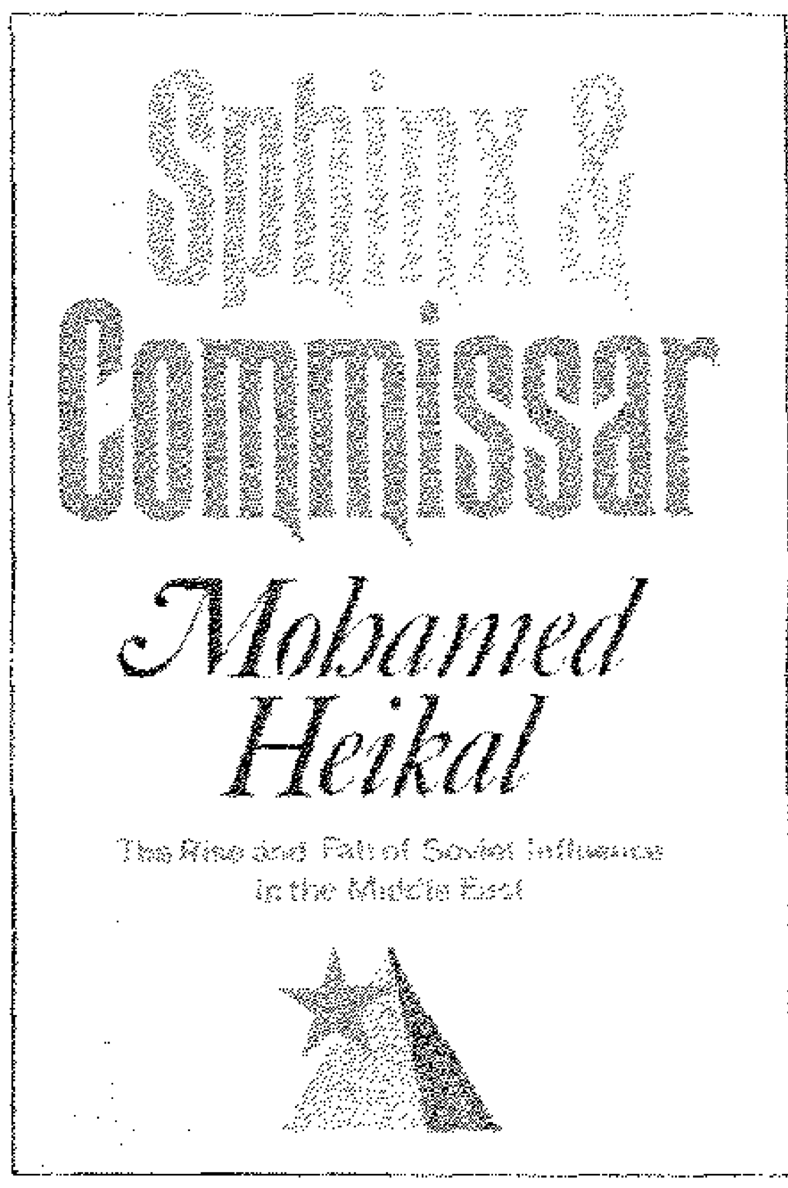
نهاية طرق: العربى التائه
المصرية للنشر العربى والدولى، ٢٠٠١، ٢٩٠ صفحة

فى قرن سبق، وجد اليهودى التائه لنفسه مكانًا حط فيه رحله وحصّن موقعه، فيما اختلطت على العربى الأمور وبدا كأنه ضيّع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، وارتحل بحاضره تائهًا بين الحقيقة والوهم.

وبدأ القرن الحادى والعشرون، واليهودى الذى كان تائهًا صار متحصنًا







فى المشروع الصهيونى على أرض فلسطين، فى حين أن العربى الذى كان راسخًا فى الطبيعة والتاريخ، أصبح هو الشارد فى التيه: قد يعرف من أين، لكنه لا يعرف إلى أين؟

■

الزمن الأمريكى.. من نيويورك إلى كابول
المصرية للنشر العربى والدولى: ٢٠٠٢، ٣٠٢ صفحة

فصول هذا الكتاب عن الزمن الأمريكى، بمعنى نشأة الولايات المتحدة الأمريكية وصعودها الاقتصادى الباهر أواخر القرن التاسع عشر ثم عبورها إلى المحيط عائدة إلى العالم القديم، تفرض على الدنيا زمانها وفيه تقدمها وقوتها وهيمنتها.

وهكذا صار القرن العشرون قرنًا أمريكيًا، فهل ما تعيشه البشرية اليوم مع بدايات القرن الحادى والعشرين ينبئ بأن هذا القرن سيكون هو الآخر قرنًا أمريكيًا.

هذه قراءة للزمن الأمريكى.. بحسب تعبير هيكل: قراءة بأبجدية المجهول على سماء غائمة.

■

سقوط نظام
دار الشروق، ٢٠٠٣، ٦٠٥ صفحة

يجيب الكتاب عن سؤال: هل كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ لازمة؟ عبر محاولة لقراءة التاريخ القريب تنبيهًا للوعى المصرى والعربى من شوائب وظلال تتقصد أن تغطى على المستقبل حتى يرتبك ويتعثر.

وهو يبدأ من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ بوصفه المسرح الخلفى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وينتهى بساعة سقوط الملكية فى مصر.

■ ■ ■

Nasser: The Cairo Documents
(ناصر: وثائق القاهرة)
New English Library,
1972,1973

The Cairo Documents: The Inside Story of Nasser and his Relationship With World Leaders, Rebels and Statesmen
(وثائق القاهرة: القصة من الداخل لعبد الناصر وعلاقته بزعماء وثوار وساسة العالم)
Doubleday, 1973

Das Kairo- Dossier
(ملفات القاهرة)
Molden, Munchen, (1984)

فى هذا الكتاب يكتب هيكل عن الزعماء الذين التقى بهم عبد الناصر خلال فترة حكمه، فيقدم صورًا من قريب لشخصيات مثل كيندى وخروشوف وأنتونى إيدن وتيتو وأيزنهاور وكاسترو، بالإضافة إلى الزعماء العرب أمثال الملك عبد العزيز ونورى السعيد والملك حسين. يبين هيكل طبيعة العلاقات التى ربطت عبد الناصر بكل من هؤلاء الزعماء، كاشفًا عن خلفية الكثير من التوترات التى شهدها مسرح الأحداث فى الشرق الأوسط.

■

The Road to Ramadan
(الطريق إلى رمضان)
Quadrangle/ New York
Times, 1975
Ballantine Books, 1976
Collins, 1975
Fontana 1976

October War
(حرب أكتوبر)
Mass Market
Random House, 1980

كان الانتصار المصرى فى حرب أكتوبر محصلة رحلة طويلة بدأت منذ هزيمة ١٩٦٧، من المفاوضات والعمل الصبور فى مجال إعادة البناء. يروى هيكل فى هذا الكتاب قصة تلك السنوات المهمة، بما خبره من وقائع غير منشورة وأحاديث ومشاهدات ووثائق. وهو يلقى الضوء على الأدوار التى لعبها كل من بريجينف وبودجورنى والملك فيصل ونكسون وكيسنجر وكذلك القذافى، إلى جانب ما كان يجرى بين عبد الناصر ووزرائه وقائد جيشه. يبين الكتاب كيفية عمل العالم العربى من الداخل ودور القوى العظمى فى الصراع العربى الإسرائيلى.

■

مؤلفات محمد حسنين هيكل

Sphinx and Commissar
(أبو الهول والكوميسار)
Collins, 1978

The Sphinx and the Commissar:The Rise and Fall of Soviet Influence in the Middle East
(الكوميسار وأبو الهول: صعود وهبوط النفوذ السوفيتى فى الشرق الأوسط)
Harper Collins, 1979

Sphinx und Kommissar
Ullstein TB-Ng, (1984)

Le Sphinx et le Commissaire
Jaguar/ Jeune Afrique (1980)

ما بين القاهرة والكريملين (وبصفته صحفياً ومستشاراً ووزيراً أحياناً) حضر هيكل تقريباً كل الاجتماعات المهمة التى ضمت القادة المصريين والسوفييت.

وهو خلال هذا الكتاب يلقى الضوء على أهداف الروس فى المنطقة ومنهجهم السياسى، من خلال استعراض العلاقة المصرية السوفيتية فى جميع مراحلها. يحلل هيكل أسباب انهيار العلاقة، وهو يرى أن للسوفييت دوراً حيوياً فى المنطقة ولكن ليس سيادياً.

The Return of the Ayatollah: The Iranian Revolution from Mosadeq to Khomeini
(عودة آية الله: الثورة الإيرانية من مصدق إلى الخومينى)
Andre Deutsch, 1981,
WM Collins & Sons, 1982
Andre Deutsch, 1984,
(reissued 1986)

Iran: The Untold Story
(إيران: القصة التى لم ترو)
Pantheon Books, 1982

Iran: The Untold Story
(Audio Cassette)
Books on Tape

Khomeiny et sa revolution
(الخومينى وثورته)
Editions Jeune Afrique

قام هيكل بتغطية أزمة تأميم البترول ١٩٥١ - ١٩٥٣ بالكتابة وهو مازال صحفياً شاباً. ثم زار إيران عام ١٩٧٥ وقابل الشاه وعدداً آخر من كبار الضباط والسياسيين. كما قابل الخومينى فى باريس قبيل عودة الخومينى إلى طهران مع انتصار الثورة. وبعد الثورة رحب به مرة ثانية وأتيحت له فرصة نادرة لمقابلة الطلبة المسلحين الذين قاموا بحصار الرهائن الأمريكيين.

يتضمن الكتاب وثائق وأسراراً نشرت فيه لأول مرة مثل قضية (نادى السفارى) الذى تكون عام ١٩٧٢ بين إيران وفرنسا والسعودية والمغرب فى مجال الاستخبارات.

Illusions of Triumph: The Gulf Crisis: An Arab View
(أوهام النصر: أزمة الخليج. رؤية عربية)
Harper Collins, 1992
Flamingo, 1993

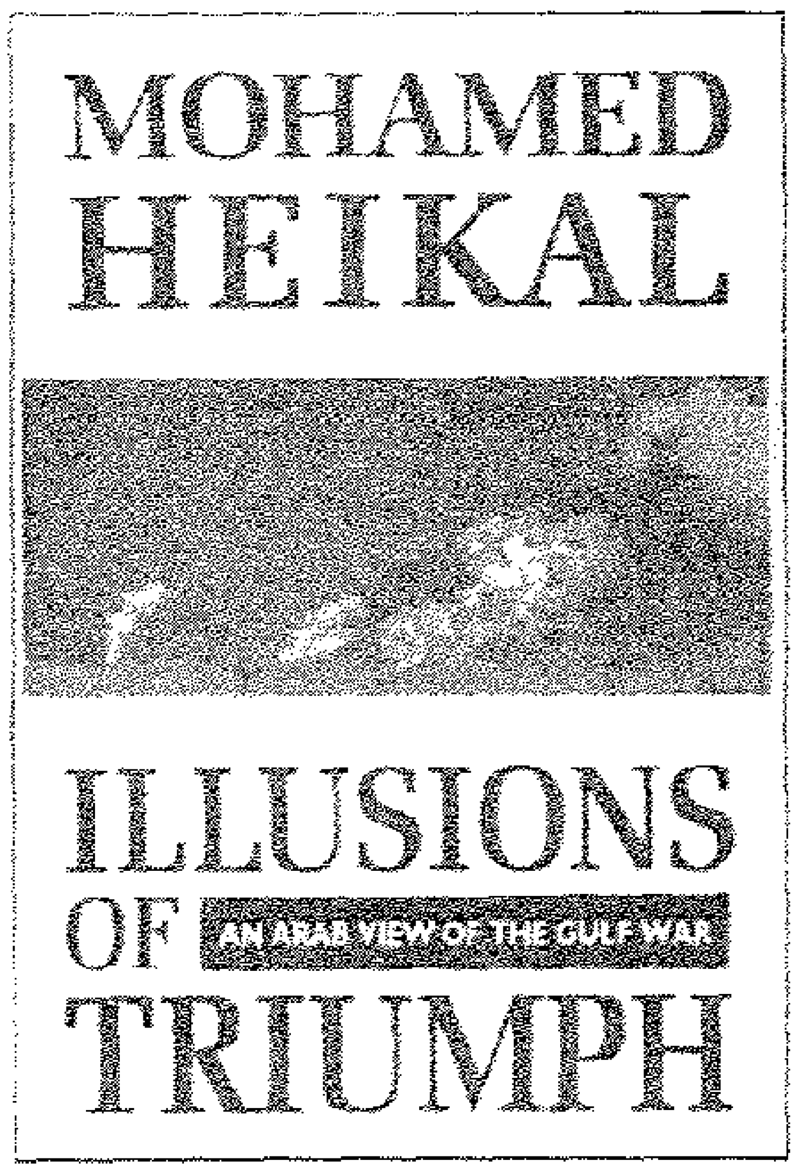
بخلاف الرؤية التبسيطية التى قدمتها وسائل الإعلام الغربية لخلفية حرب الخليج الأولى والأسباب التى قادت إليها، يقدم هذا الكتاب المنظور العربى الذى يفسر تعاطف كثير من العرب مع الشكاوى العراقية ضد الكويت بالرغم من رفضهم للغزو. كذلك يطرح هيكل أسئلة أساسية ويحاول الإجابة عليها، مثل: لماذا أعطى بوش العرب ٤٨ ساعة فقط لإيجاد حل للأزمة؟ وهل كان من الممكن تجنب الحرب؟ هل كانت هزيمة العراق هزيمة نهائية؟ وما هى دوافع بوش الحقيقية من وراء محاربة العراق؟

يحلل هيكل هذه الأسئلة وغيرها فى ضوء ٤٠ سنة من الصراع فى الشرق الأوسط.

Cutting the Lion's Tail: Suez Through Egyptian Eyes
(قطع ذيل الأسد: السويس بعيون مصرية)
Andre Deutsh, 1986
Arbor House Pub Co, 1987
Corgi, 1988

قبل هذا الكتاب، كانت كل التحليلات الغربية التى عالجت أزمة السويس تركز على أسباب ونتائج سوء التخطيط الأنجلو - فرنسى الذى دفعهما للاشتراك فى العدوان الثلاثى، ولم يكن للدور المصرى ذكر إلا فى أضيق الحدود. أما هنا فإن هيكل يقدم رؤيته للأحداث من الزاوية المصرية. ومن داخل الأحداث معتمداً على أوراقه الخاصة وأوراق عبد الناصر ووثائق أخرى مهمة. وقد اقتبس عنوان الكتاب من عبارة قالها خروشوف فى حديث مع السفير المصرى فى السفارة الرومانية بموسكو أثناء العدوان الثلاثى. يحلل الكتاب الحدث من منظور نهاية الإمبراطورية البريطانية وبداية الدور الأمريكى الذى جاء يستبدل بالإمبريالية القديمة نوعاً جديداً من الهيمنة. هكذا فإن قضية قناة السويس لا تعرض هنا كفصل فى كتاب فى التاريخ، وإنما كمشهد فى دراما حية لم تنته بعد.







Autumn of Fury: The Assassination of Sadat
(خريف الغضب: اغتيال السادات)
Andre Deutsch, 1983
Corgi, 1984

Sadat, Das Ende eines Pharao, Eine Politische Biographie
(السادات: نهاية فرعون، سيرة سياسية)
Econ, Munchen (1984)

حول دراما اغتيال السادات وخلفية هذا الحدث من خلال رؤية هيكل لسياسات السادات فى الداخل والخارج.

Secret Channels: The Inside Story of Arab-Israeli Peace Negotiations
(القنوات السرية: مفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل)
Harper Collins, 1995, 1996
Trafalgar Square/ 1997

عقود طويلة من الاتصالات السرية بين القادة العرب والإسرائيليين يتم الكشف عنها لأول مرة فى هذا الكتاب.

كتاب الزاوية

بصراحة

عبد الناصر ليس أسطورة!

- أولاً: إنه ليس من حق أحد بيننا، أن تراوده - على نحو أو آخر، بقصد أو بغير قصد - فكرة تحويل جمال عبد الناصر إلى أسطورة...

إن الأسطورة تشتمل على إيحاء غيبي، كما أنها تحمل لمسة مما وراء الطبيعة، وليس من ذلك كله أثر في جمال عبدالناصر. ولقد كان أعظم شيء في جمال عبد الناصر، أنه كان حياة إنسانية زاخرة، عاشت على الأرض، وبين الناس، وتحت أشعة شمس مصر الباهرة.

وكان أكثر ما ينفر منه جمال عبد الناصر في حياته، هو عبادة الفرد، ولهذا فإنه ليس من حق أحد بعد الرحيل أن يجعل منه إلهاً معبوداً في هرم آخر على أرض مصر.

إن جمال عبد الناصر لا يسعده أبداً أن يجد نفسه تمثالاً شاهقاً من الحجر، وإنما يسعده أن يظل دائماً مثالاً نابضاً للإنسان...

إنني مع الذين يؤمنون بأن علم التاريخ هو علم فهم المستقبل، باعتبار أن التاريخ هو وعاء التجربة الإنسانية.

ولكن هناك فارقاً كبيراً بين حالتين:

- حالة التاريخ كعلم لفهم المستقبل.

- وحالة التاريخ كفن للتحكم في المستقبل!

الحالة الأولى مقبولة، بل ومطلوبة، على أن لا تكون امتيازاً لأحد، وإنما يشارك فيها كل الذين رأوا منه وسمعوا عنه، حتى ولو كان لقاؤهم معه دقائق وثواني.

والحالة الثانية غير مقبولة، بل وهي مرفوضة لأنها تحمل شبهة تحويل ذكرى جمال عبد الناصر إلى كهنوت، والكهنوت له كهنة، والكهنة لهم حجاب، والحجاب لهم حراس، والحراس وراء أسوار، والشعب خارج الأسوار سينتظر الوحي... وهذا كله أبعد الأشياء عن جمال عبد الناصر وشخصيته وطبيعته ثم هو أكثر ما يكون تصادماً مع معتقداته الأساسية.

الأهرام ١٩٧٠/١١/٦

وجهات نظر الكتب رسائل

رسائل إلى هيكل

طالما كنت وستظل مدرسة يتعلم فيها كل صحفي لازال يتحسس خطواته الأولى على بلاط صاحبة الجلالة: ماذا تعني الصحافة. كنت أكتب لصحيفة «الراية المصرية» طالبت لجنة نوبل بتخصيص جائزة في الصحافة وإهدائها لك نظراً لأنك ظاهرة صحفية عالمية غير مسبوقة. كل عام وأنت بخير وكل عام والصحافة المصرية بخير.

علاء حمودة
بكالوريوس إعلام
جامعة القاهرة

كل سنة وأنت طيب وعقبال ١٠٠ سنة. تابعت بعض المقالات التي تحدثت عن احتمال اعتزالك الكتابة، وأرجو ألا يكون هذا صحيحاً فأنت معلم الأجيال الأول بحق وأرجو من الله أن يديم عليك الصحة والعافية.

محمد قطب أحمد
طالب بكلية الطب

أود أن أسألك سؤالاً أرجو الإجابة عنه: ما هو تحليلك أو ما هي رؤيتك المستقبلية لمستقبل حزب الله اللبناني في الصراع العربي الإسرائيلي؟ هل تتوقع منه دوراً رائداً أم تعتقد أن دوره انتهى بعد تحرير الجنوب؟

علي فضل الله
طالب جامعي

كيف نخرج من المأزق أنا وغيري من ملايين الشباب؟ ماذا يمكن أن نفعل حتى نضمن وضعا أفضل لهذا البلد لأنه ببساطة مكان حياتنا وحياة أولادنا؟

تامر
طالب

كما عودتنا يا أستاذ هيكل.. مقال الشهر الماضي رائع وأود أن أشكرك بصفة شخصية على كمية التوعية التي تساهم شخصياً ببثها في ذهن القارئ العربي في ظل عالم تضاربت فيه الحقائق واختلطت فيه الأوراق.. أقله أن تعرف حقيقة ما يدور من حولنا.. من خلال قراءة وافية لمقالاتك التي ننتظرها مثل هلال العيد كما يقولون.. وقد أسعدني كثيراً أن أجد مقالتك على صفحات الجزيرة نت حيث إن مجلة «وجهات نظر» لا تصلني هنا في الخليج إلا بعد عشرة أيام من صدورها لذا فإن قراءة مقالتك يوم صدورها تروي ظمأنا.

محمد السيد
صحفي

أنت علم من أعلام الكتاب العرب العظام وأنا فخور بك أقرأ لك كثيراً وأتابع أخبارك ومستمع جيد لتحليلاتك الصائبة، وأشكرك جزيل الشكر لما تقوم به من دور في إنارة العقل العربي في مجال الفكر السياسي وأطلب منك وجهة نظر في سقوط وانهيار النظام العراقي، وهل أمريكا جاءت للعراق من أجل النفط أم من أجل حماية إسرائيل؟

فرج رضوان الفقهي
إعلامي

لقد شكلت كتاباتك وآراؤك القيمة

وجهات نظر

رسائل الكتب

وجداننا وثقافتنا الوطنية على مر السنوات السابقة وأدعو الله أن يطيل فى عمرك لإثراء مكتبتنا بكتبك القيمة والعظيمة التى تزيل الضباب والعتمة التى سادت أجواءنا الثقافية والسياسية لأسباب تعلمها ونعلمها جميعاً، وأتمنى أن نقرأ قريباً كتاباً بقلمكم العظيم يشرح لنا حقيقة ما جرى والأطراف التى شاركت فيه وما يجرى حالياً ومقدماته وتوقعاتكم لمستقبل الأمة العربية الذى نراه مظلماً.. أدامكم الله ذخراً لنا وللأمة العربية.

هشام عبد الشافى
مدير مالى وإدارى

على مدى متابعتى للوضع الراهن والتحليلات التى يصدرها المفكرون العرب، فإن غالبيتهم ينتظرون من الأمريكان أن يصنعوا «يابان» جديدة فى العراق ولكن لم أسمع أحداً يقول التالى وهى معادلة بسيطة تقول إنه فى وجود شعب عنصرى ليس له حدود فى التعامل مع جيرانه فإن الأمريكان واليهود لن يسمحوا بقيام دولة ديمقراطية ذات اقتصاد قوى، فإن مثل هذه الدولة أو شعب هذه الدولة لن يسمح ولن يسكت على ظلم ما يسمى بإسرائيل وبالتالى فستهدد هذه الدولة. إذاً فإن العقل يقول إن الأمريكان واليهود ليسوا بالأغبياء ليضعوا أنفسهم فى وضع كهذا.

نبيل العماوى
خريج

هل وصل السلاح الأمريكى برأيك إلى المستوى الذى يحيد فيه أى سلاح لقوى أخرى فى العالم وبالتالى هو المعيار الذى تستند إليه الإدارة الأمريكية فى خطواتها السابقة واللاحقة حيث لم تحسب حساب أية قوة أخرى أم أن السياسة الأمريكية وصلت من الدهاء أو من يقف وراءها بحيث كانت الأمهر فى استخدام لعبة السلاح لتنفيذ مشروع عال من حيث الطموح بالنسبة لأمريكا وهو السيطرة والنفوذ فى ظل وجود قوى أخرى قد تكون متقاربة معها؟؟

أستاذنا جميعاً.. آسف كونى بدأت بسؤالى مباشرة.. ولكن كان من وحى ما قرأته فى مقدمة الصفحة وأن أتمكن من سؤال الأستاذ محمد حسنين هيكل فهذا شرف عظيم لى على المستوى الشخصى وسيكون شرفاً أكبر لى لو تكرمت بالإجابة.

وليد حمدونى
صحفى

يسعدنى أن أستطيع الكتابة لك، فأنا من أشد المعجبين برصدك للمتغيرات على الساحتين العربية والعالمية وأتمنى أن تجدد إشراقتك على قناة دريم للحديث حول المتغيرات بعد احتلال العراق وانهيار أحد الأنظمة الديكتاتورية العربية. والسؤال الذى أود أن تسعدنا بالحديث حوله: هل سنشهد فى الفترة القادمة المزيد من الأنظمة الديكتاتورية التى سوف تسقط تباعاً أم سنشهد تغيرات فى النظم الديكتاتورية الكلاسيكية لتصبح أكثر رسوخاً بالديكتاتورية ولكن بمباركة النظام الدولى بقيادة أمريكا؟ وهل ستستغل هذه الأنظمة الهجمة الأمريكية على الإرهاب للتخلص من كافة أشكال المعارضة بدعوى أنها إرهابية أو أصولية؟

نادر المهدى

كانت مفاجأة سارة لى عندما كنت أتصفح مجلة «وجهات نظر» على الإنترنت لأول مرة أن تعطى المجلة قراءها فرصة مراسلة الكاتب بشكل

كتاب الزاوية

بصراحة

تأملات حول الصراع الكبير

يكاد هذا الحديث أن يكون مجموعة تأملات حول الشكل العام لأزمة الشرق الأوسط ـ كما نسميها ـ فى المرحلة الراهنة.

وهذه التأملات، شأنها شأن أى طواف بالفكر حول الأفق، لا تركز كثيراً على تفصيلات الوقائع الجارية، بقدر ما تحاول التحليق «بنظرة طائر» ـ كما يقولون على مدى البصر.

ومثل هذه الرياضة العقلية ـ تأملاً وطوافاً بالفكر حول الأفق ـ لازمة من وقت لآخر كنوع من المراجعة المفتوحة للمسائل، تقصد إلى التثبت من دقة الاتجاه نحو الهدف، والتأكد من صحة المسار الذى تندفع عليه حركتنا السياسية، خصوصاً وأن هذه الحركة لا تجرى فى الفضاء كاندفاع مراكب القمر ذاهبة إليه، أو عائدة بعد المشى فوق ترابه، والإطلاق على فوهات براكينه!

وأمضى إلى ما أريد أن أقوله...

يخطر ببالى أن أقول أن نجاح أى سياسة، أو أى معركة أو حرب مواجهة، يرتهن ويرتبط بأربعة عوامل محددة:

أولاً: الإيمان بهدف.

ثانياً: الاقتناع بإمكانية تحقيق الهدف.

ثالثاً: الثقة فى سلامة القرار الصادر لتنفيذه.

رابعاً: الاطمئنان إلى كفاءة المكلفين بهذا التنفيذ.

هذه هى العوامل الأربعة القادرة على كفالة وضمان النجاح، وأعترف أننى ـ على طول ما تأملت ـ لم أستطع أن أعثر على خامس أضيفه لها، وفى ظنى أن هذه العوامل الأربعة تحوى فى داخلها ـ تقريباً ـ كل شىء.

الأهرام ١٩٧١/٢/١٩

رسائل

مباشر من خلال إعطاء عنوانه الإلكتروني.

وكإنسان عاش بين كتبك القيمة لفترة طويلة في الغربة كانت لدي دوما أمنية أن أتمكن من التعبير لك عن مشاعري تجاه ما تكتب.

إن كتبك القيمة أيها الأستاذ العظيم تعطي أبناء جيلي أنا المولود في الستينيات من القرن الماضي فرصة نادرة للاطلاع على وجهة نظر موضوعية تجاه أحداث جسام حصلت في تاريخ أمتنا العربية خلال فترات مهمة. والتعرف إلى تلك الفترة في رأيي هو أمر ضروري في معرفة أي مواطن عربي من أين أتى وإلى أين يذهب. ولن أذكر هنا أيضاً متابعتك الدائمة بالتحليل المفصل لما حصل ويحصل في الفترات التي تلت تلك المرحلة التي عايشتها عن قرب. ولن أذكر هنا أنك لست ممن بحث عن الراحة والمجد الرخيص بقدر ما بحثت عن الحقيقة وما صممت أن تقولها مهما كان الثمن.

أنا أعرف أنك لست ممن ينتظر الشكر، ولكنني أجد لزاماً علي أن أشكرك باسمي وباسم أبناء جيلي لما قدمته ومازلت تقدمه لأبناء أمتك العربية في كل أنحاء العالم.

د. باسل الخطيب

ديربورن . ميشجان

الولايات المتحدة الأمريكية

أستاذ هيكل.. إنني من المتابعين لما تكتبه كلما أتيحت لي الفرصة لذلك. ومؤخراً كنت في العراق لعام ونصف وعشت الحرب هناك من زاوية لم تنقلها وسائل الإعلام، وكانت مقالاتك تستنسخ ليتم بيعها، وحقيقة لا أرى جريمة في ذلك في أماكن الشح الثقافي أو التوزيعي.

فرحتي بوجود مقالاتك على الإنترنت أجبرتني على تحيتك قبل أن أقرأ ما هو متاح. ولست أدري إلى أي مدى يمكن لي الاستفسار أو التعليق على ما تكتب، ولعل سؤالاً دائماً يحضرني لم أتلق الإجابة الشافية عليه جدير بأن يطرح على سيادتكم. لعل وعسى يصل إليك، قبل أن أصل أنا إليك يوماً وجهاً لوجه لأطرحه مباشرة، ألا وهو: وسط هذا الزخم الهائل من الأحداث والمستجدات وفي خضم التقدم التقني الذي يجعلنا نلهث دون أمل في استيعابه، كجموع، وليس مواكبته بالمعنى الحقيقي للكلمة، وأمام صلف الأمم وجبروت الدول، واستعلاء الحكام عربياً قبل الأجانب، وبتذكر تاريخ التآمر علينا وبيننا وباستحضار حقائق المخططات للمستقبل وما سيلحقنا من جرانها. هل تعتقد بأنه سيكون لنا نحن العرب مكان ناهض في التاريخ القادم؟ أو على الأقل مستور.. وذلك أضعف الإيمان الذي نتمناه؟ إن كان ذلك كذلك فكيف ومتى باختصار؟

السؤال الآخر، أعلم بأن لكل مقام مقالاً بالنسبة لك، وأحس بأنك تطمح لإيقاظ الأموات، ولكن إرجاء الكشف عما تعرف بحجة أن لكل مقام مقالاً، ألن يوقعك هذا في مغبة المشاركة في التستر على مؤامرات وطواغيت على الجميع معرفة حقائقها؟

عز الدين عبد الكريم

إعلامي ليبي

صحفي، مخرج ومنتج تليفزيوني

كلما قرأت لك.. ورأيت مدى تأثير ما تكتب على الرأي العام.. سواء في مقالاتك أو في كتبك.. يخطر في ذهني سؤال لا أدري إن كان سؤالاً مشروعاً أم لا.. ألا وهو من أين تستمد شرعيتك ومن أين تستمد كلماتك كل هذه السلطة.. هذا ليس إطراء ولا استنكاراً. ولكنه سؤال يحمل هذياناً مشروعاً حين يتعلق سؤال كهذا بشخص كشخصكم.

محمد حنون

مصور وقاص

أستاذنا الكبير أدام الله لنا قلمكم، فدائماً أبحث عنه في أي مكان لأسمع منه صوت حقيقة ما يدور حولنا، وإلى توقعات المستقبل لأبنائنا، ونحن جميعاً نعرف أن مستقبلهم سوف يكون غارقاً في الضياع، تعبث به أمريكا وإسرائيل لسنوات طويلة قبل أن تشرق شمس يوم تصحو فيه الأمة، وتفرض سطوتها وحريتها من جديد.

محمد علي البحراوي

مهندس

إعجابي الشديد بالأستاذ المعلم الذي تعلمنا وتربينا على مقالاته ولي تعليق أرجو أن يتسع له صدرك. باختصار سيادتك حتحكي الحكاية من الأول؟؟ عاوزين تقييم لما حدث تقييم مباشر. كل الأحداث اللي سيادتك بتسردها عشناها لحظة بلحظة وبكل الملل ماذا حدث؟؟ من يوم ٨ إلى يوم ١٠ أبريل إيه اللي حصل باختصار خيانة ولا خيبة ولا مسرحية؟؟ نفسي في وصف مباشر ومختصر من الأستاذ المعلم مع كل حبي وتقديري.

حسن الفضالي

مهندس معماري

أنا معجبة جداً بآرائك وأفكارك، وتحليلاتك المنطقية والواقعية، لكنني أتساءل عن موقفكم من بعض الكتاب أو أشباه الكتاب من الوطن العربي الذين يتشدقون ويهللون لأمريكا وأتباعها من الصهاينة والمنحرفين وأريد منكم أن تبحثوا معي عن معنى الإرهاب عند جورج بوش الذي حير العالم كله بهذا اللفظ. وأين اختفى الإحساس بالعروبة والإسلام وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير وأرجو ألا تعتكفوا عن الكتابة والتحليل لأننا بأمس الحاجة إليكم خاصة ونحن نعاني من اندثار المفكرين العرب.

سميرة

صحفية

مساء الخير لدى ملاحظتان: لماذا لم يشترك الشيعة في المقاومة حتى الآن؟ وما هي بقية المخطط الأمريكي والدور على من؟ باختصار هل تتوقع نجاحه إلى النهاية؟

خالد سعيد

مهندس

سعادتي غامرة وأنا أكتب إليك لأعبر عن عظيم تقديري ولأشكرك على المساهمات المتميزة والكبيرة لأيديولوجية القومية العربية التقدمية. وأنا مؤمن أشد الإيمان بالقومية العربية طبقاً لأفكار الزعيم الراحل جمال عبد الناصر. أتمنى أن تُكثر من الظهور في وسائل الإعلام حتى لا تترك المجال للانهزاميين. إن لديك دوراً أكبر من الإسهام الكبير في تطوير الصحافة العربية خلال عقود.

نجيب الحاتوم

فلسطيني مقيم في أمريكا

الأستاذ

انظر فمجدك نافس العظماءَ
وصدى كلامك يُسمعُ الجوزاءَ
أستاذ عصرك رائداً ومفكراً
مازال فكرك يُرشدُ العقلاءَ
وترى الأمور بحكمة وبصيرة
مازال رأيك يُبهر الحكماء
الكلُّ يعرف قدر ما تأتي به
أنت الذي قد شارك الزعماء
لك في عقول مثقفينا ما ترى
تقديرهم لك يُلهمُ الشعراءَ

محمد أمان

القاهرة



أحدث الإصدارات من
دار الشروق
سقوط نظام
محمد حسنين هيكل
هوجة أفندي!
عبد الناصر والمثقفون والثقافة
الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان
العرب في مواجهة العدوان
طارق البشري
تاريخ الوفد
يقول المثل العربي
ابن القرية والكتاب
ملامح سيرة ومسيرة
الدكتور يوسف القرضاوي
قطعة من أوروبا
رواية
رضوى عاشور
الكوكب الأزرق
حيوانات السافانا
الماء
كلماتي الأولى
MY FIRST WORDS
تطلب من
دار الشروق : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق : ١ ميدان طلعت حرب تليفون : ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق : مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون : ٥٧٣٥٠٣٥
كما يمكنكم شرائها إلكترونيا www.e-kotob.com

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 58 - November 2003

مجلة شهرية . العدد الثامن والخمسون . السنة الخامسة . نوفمبر ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات



الخطأ الأمريكي في العراق / ويزلي كلارك

العنصرية من المهد .. ماذا يقرأ أطفال إسرائيل ؟! / أنطوان شلحت

كيف نأكل دون خوف ؟! / مصطفى نوفل

عن الحرية والإبداع .. والقهر الداخلي / يحيى الرخاوي

حديث الانصراف ومأزق الإعلام العربي / سلامة أحمد سلامة


إنتشار شبكة صرافاتنا غطى فوق الأرض...
و تحت الأرض.
ARAB BANK
FAST CASH
لأول مرة
خدمة صراف آلي بمحطات سكك
حديد رمسيس والجيزة والإسكندرية
لأول مرة
خدمة صراف آلي بمترو الأنفاق
محطة السادات
FAST CASH
RESALA
صرافاتنا تقبل البطاقات التي تحمل العلامات الآتية:
MasterCard
Maestro
Cirrus
VISA
VISA Electron
PLUS
AMERICAN EXPRESS
Diners Club International
NAPS
الشبكة القطرية
بنفيت
BENEFIT
مع إمكانية التعامل على شبكة
123
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
ARAB BANK
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
www.arabbank.com

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الثامن والخمسون
نوفمبر ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أنطوان شلحت .. كاتب ومترجم من عرب ٤٨.
- أورينيل أوفك .. باحث وناقد أدبى إسرائيلى.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- حمدى عزام .. دبلوماسى مصرى سابق.
- رضوى عاشور .. روائية، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة عين شمس.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- فهمى هويدى .. صحفى.
- مريدى النحاس .. باحثة عصرية فى العلوم السياسية تقيم فى ألمانيا.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- محمود يوسف خضر .. مستشار قانونى بالمجمع الثقافى بأبو ظبى.
- مصطفى البرغوثى .. سكرتير المبادرة الوطنية الفلسطينية ورئيس الإغاثة الطبية.
- مصطفى عبدالرزاق نوفل .. أستاذ علوم وتكنولوجيا الأغذية بجامعة الأزهر.
- وحيد عبدالمجيد.. مساعد مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- ويزلى كلارك .. جنرال أمريكى متقاعد.
- يحيى الرخاوى .. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة ـ أحمد اللباد

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٢ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

"نون"

حديث الانصراف ومأزق الإعلام العربى



■ واحدة من أهم الظواهر التى أفرزتها حرب العراق، بروز ظاهرة الإعلام أو الميديا بمعناها الواسع كسلاح للحرب، يستخدم فى الإعداد والتخطيط والتعبئة، كما يستخدم فى الدفاع والهجوم والمراوغة، على نحو لم يسبق له مثيل فى الحروب والصراعات السابقة. وبينما ظهرت دراسات كثيرة عن التغيرات والتشوهات التى لحقت بالإعلام الغربى فى ظل الأحداث العالمية خلال السنوات الأخيرة، وبالأخص بعد زلزال سبتمبر وتوابعه: فى أفغانستان ثم فى العراق والشرق الأوسط وما قد يستجد، وفى ظل حكومة يمينية محافظة فى واشنطن.. لم يحظ الإعلام العربى بنظرة فاحصة على الرغم من التطورات المثيرة التى وجد نفسه مندفعاً إليها مع متغيرات داخلية وخارجية متسارعة، بحكم الدفاع عن النفس أحياناً، أو لأن الأنظمة العربية التى تسيطر بطريقة مباشرة وغير مباشرة على وسائل الإعلام. أطلقت لها العنان فى لحظات اليأس واستجابة لغريزة حب البقاء من ناحية أخرى، وذلك دون أن ترفع يدها عن التدخل فى حرية التعبير كلما عنّ لها ذلك.

ولا يمكن وصف حالة الإعلام فى العالم العربى إلا بأنه ضحية لأوضاع وأنظمة وحكومات، هى بدورها وبطبيعة تاريخها ونشأتها وتكوينها ضحية لتراكمات تاريخية وحضارية صعبة ومعقدة. وحين يصبح الشىء ضحية لضحية أخرى فإن الأمر يزداد صعوبة وتعقيداً.. الأمر الذى جعل صورة الإعلام العربى تنعكس معتمة غير مجلوة ولا ناصعة فى تطورين مهمين تقاطعا فى لحظة تاريخية واحدة من لحظات التقهقر واليأس التى هبطت على الأمة العربية.

وليس غريباً أن يكون أحد التطورين علامة على الآخر وقرينة له، وربما كان سبباً من أسبابه. بحيث أصبحنا نرى حرية مصطنعة للتعبير والإعلام موجهة إلى الخارج، حطمت كثيراً من القيود والتحفظات التى اعتادت أن تحجزها وراءها. ونرى فى الوقت نفسه قيوداً وسدوداً مفروضة على هذه الحرية حين تكون موجهة إلى الداخل.. مما خلق حالة من عدم التوازن الإعلامى بين الداخل والخارج، أو حالة من ازدواج الشخصية الإعلامية إن صح التعبير. وأصبح الانتقال من حالة إلى أخرى يتطلب قدراً كبيراً من الالتفاف والاستهداف والتخبط.

التطور الأول الذى أحدث نوعاً من الصدمة والدهشة على امتداد العالم العربى وربما خارجه، جاء فى حديث الاستئذان بالانصراف، الذى وجد كاتب كبير بحجم محمد حسنين هيكل وتاريخه وموقعه الفريد فى الإعلام والسياسة نفسه مسوقاً إليه بدوافع عديدة، تراوحت بين انقطاع حبل الحوار، وازورار عن مواصلته، ويأس من جدواه فى ظل ضغوط سرية وعلنية. وبين شعور عميق بأن الكاتب قد أدى ما عليه من واجب، فقال كلمته وأطال فى القول حتى أصيبت الآذان بالصمم والعيون بالعمى وبلغت الروح الحلقوم عند بعضهم، فلم يعد أمامه من سبيل إلا أن يلزم الصمت ويمضى لحال سبيله لا يلوى على شىء.. مردداً قول أبى العلاء المعرى:

خذى رأيى وحسبك ذاك منى
على ما بىَ من عوج وأمت
وماذا يطلب الجلساء عندى
أرادوا منطقى وأردت صمتى

ومثل هذا الانصراف الذى يمثل حالة نفسية أو شعورية يمر بها الكاتب أو الشاعر أو المفكر لا ينبغى أن تترك دون محاولة لتفسيرها وفهمها.. أن يطوى الكاتب صفحاته ويرفع أقلامه، ويتخلى عن وظيفته، بينما الكتابة بالنسبة له حياة متصلة لم تتوقف. لم يضق بها يوماً فى ظروف أشد عسراً، ولم ينقطع عنه قراؤه أو تنحسر من حوله دوائر الاهتمام والمتابعة سواء بين من رضوا عنه أو سخطوا عليه، ولم يعجزه المرض أو يقعده عن التفكير، ولم تحتوه جدران أو قضبان تحول بينه وبين جمهوره الواسع، فلابد أن تكون هناك أسباب أخرى من خارجه أو على الرغم منه هى التى أوهنت رغبته فى مواصلة الكتابة، وزينت له الحاجة إلى الانصراف أو الابتعاد لأمد قد يطول أو يقصر.

لا يمكن وصف حالة الإعلام فى العالم العربى إلا بأنه ضحية لأوضاع أنظمة وحكومات، هى بدورها وبطبيعة تاريخها ونشأتها وتكوينها ضحية لتراكمات تاريخية وحضارية صعبة ومعقدة

ولا يستطيع المرء أن يسرف على نفسه وعلى الناس بتكهنات واستنتاجات قد تكون أقرب إلى الظنون منها إلى الحقيقة، ولكن الأمر لا يخلو فى تقديرى من أجواء الإحباط الشديد التى باتت تخيم على المزاج العربى بصفة عامة وعلى المفكرين وقادة الرأى بصفة خاصة، فالإحباطات السياسية التى تضاعفت شدة وتأثيراً بسبب حرب العراق وانسداد أفق القضية الفلسطينية والهروب من مواجهة الحقائق والأخطار على مستوى الدول والحكومات، وتضليل الشعوب عن أهدافها، وتشويه قواعد اللعبة السياسية.. قد خلق انطباعاً قوياً بأن مجتمعاتنا العربية يجرى إقصاؤها بأساليب

وحيل مختلفة خارج لعبة السياسة، إلا فى إطار هامش يضيق أكثر مما يتسع، ويختفى أكثر مما يظهر، ويتحول إلى سراب فى معظم الأحيان..

يجرى إلهاء الشعوب العربية بإغراقها فى أشكال وألوان من الفنون الرخيصة والتسلية المنهكة للعقل والخيال، ومباريات ليست لإذكاء روح المنافسة الرياضية بل لتحويل الطاقات والهوايات بعيداً عن الانشغال بالهموم الحقيقية للمجتمع والاشتغال بها. فإذا استيقظت على وقع الأحداث الجسام التى تحيط بها، وأفاقت إلى صراخ الضحايا القريبين منها فى فلسطين أو العراق أو أفغانستان أو غيرها فلا بأس من أن تتجاوب وسائل الإعلام معها، وتفتح الفضائيات عدساتها، وتسلط الأضواء عليها.. والمهم هو أن يظل الأفق السياسى مغلقاً فى الداخل عند مستوى الرؤية القريبة والاحتكاك المباشر، فلا يتجاوزها ولا يتعداها إلى التعمق فى شئون تتصل بحياته اليومية ومسئولياته كمواطن وعضو فى المجتمع سواء بالمشاركة فى تحمل حق المواطنة وتقرير مصيره بنفسه، أو بالمحاسبة والتعبير عن القلق وعدم الرضا التى يحق للمحكوم أن يتوجه بها إلى الحاكم.

ولهذا تناسلت وتكاثرت أنواع من الفضائيات التى تخصصت فى لفت أنظار الشعوب عن المشاكل والتحديات التى تحيط بها، لتغرق الجميع فى فنون التسلية السهلة والرقص الفاضح والأغانى البذيئة والاستعراضات شبه العارية. وأدى التنافس فيما بينها إلى إقامة مسابقات لاختيار نجوم للغناء والرقص، وهو نوع من النشاط لا بأس فيه إذا أعطت هذه الفضائيات إلى جانب ذلك بعض الاهتمام بما يجرى على صعيد العالم من تقدم فى الفنون والعلوم وفى الارتقاء بأذواق الأجيال الناشئة ونشر الثقافة الجادة



والتحريض على ممارسة الفكر. وهو ما لم يحدث. بل حدث العكس رغبة فى الهروب من حالة اليأس والاندحار التى عادة ما تعقب الهزائم فى الحروب والمعارك القومية حين تنخفض الروح المعنوية إلى درجات تقترب من القاع.

ولكن فى مقابل ذلك ظهرت فى أفق الإعلام العربى فضائيات أخرى تبدو فى ظاهرها وكأنها قد تمردت على قبضة السيطرة الحكومية والرقابة الرسمية.. انطلقت بسرعة صاروخية خلال سنوات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة إلى منافسة الفضائيات العالمية، لتحقق نجاحاً ملموساً فى التغطية الإخبارية ومحاولة السبق، وعدم تهيب الانطلاق إلى ميادين الحرب والقتال، وإنفاق الملايين فى إرسال أطقم المصورين والمحررين لتقديم خدمة تليفزيونية تتسم بالواقعية والصدق على نطاق واسع، مع استخدام بارع لأحدث تقنيات نقل وبث الحدث والصورة.. مصحوبة بجهد واسع من التحليل والتعقيب والتدقيق وتقديم الخلفية الإخبارية اللازمة للمشاهد.. جربت هذه الفضائيات نفسها فى حرب أفغانستان فأثبتت أنها ندٌ منافس لوسائل الإعلام الأمريكية والغربية، ثم اقتحمت حرب العراق فتفوقت على السى. إن. إن والفوكس نيوز وال بى. بى. سى وغيرها.. ولم تخضع للقيود التى خضعت لها وسائل الإعلام الأمريكية وبعض الوسائل الأوروبية من الامتناع عن نشر أخبار أو تصريحات أو وقائع لا ترضى عنها الأجهزة الحربية مثل رسائل بن لادن، أو خطب الظواهرى، أو مشاهد القتل والحرق والتدمير التى ارتكبتها القوات الأمريكية مخالفة بذلك قوانين الحرب واتفاقيات جنيف. بل إن هذه القنوات العربية عززت خدماتها الإعلامية بعشرات من الندوات والحوارات والتوك شو التى انفتحت على مصراعيها أمام عشرات المفكرين والمثقفين والسياسيين والصحفيين، إلى جانب عدد لا بأس به من أدعياء المعرفة والراغبين فى حب الظهور.

ولقد تساور المرء بعض الشكوك حول مدى تمرد هذه الفضائيات على سيطرة الحكومات والدول التى تصدر منها، وما هى حدود الحرية التى تتمتع بها.. فقد بدت هذه الحرية أشبه بنوع من الاتفاق الضمنى أو الترتيب المتفق عليه بين القناة التليفزيونية وبين الدولة التى ترعاها أو تحتضنها مادياً وأدبياً وسياسياً. ولهذا السبب اصطدمت قناة «الجزيرة» مثلاً فى سنواتها الأولى بمعظم الدول العربية فأغضبتها واضطرتها بين وقت وآخر إلى مقاطعتها أو منعها أو إغلاق مكاتبها.

ولكن يبقى أن يقال إن أحداث سبتمبر والمآسى التى أعقبتها، والهجوم الضارى الذى تعرضت له الدول والشعوب الإسلامية، سواء فى صورة الحروب التى وقعت فى أفغانستان والعراق، أو فى الحروب السياسية التى شنتها الإدارة الأمريكية ضد الإسلام وضد المجتمعات الإسلامية باعتبارها مسئولة عن إفراز العناصر الإرهابية التى دبرت الهجوم الذى وقع على واشنطن ونيويورك، قد أسهمت بشكل خطير فى تغيير شروط المشهد الإعلامى السائد فى العالم العربى.. مما حرض دولاً عربية عديدة على تسهيل ولادة قنوات فضائية أخرى مثل «العربية»، و«أبو ظبى»، و«الـ بى. سى»، و«اللبنانية»، و«المنار» الناطقة بلسان حزب الله، وكلها اقتحمت ميدان المنافسة الإعلامية التى وضعت أزمة العالم العربى من جميع جوانبها فى قلب الحوار والمناقشة، والنقد والثناء، والهجوم والدفاع!

والحاصل هو أنه برغم الحرية المنطلقة بغير حدود لوسائل الإعلام الفضائية والمطبوعة، والتى عبرت عن نفسها فى تغطية حرب العراق بدرجة غير مسبوقة، فإن سياسات الإعلام الرسمية فى العالم العربى كله وبدون استثناء مازالت تفرض قيوداً صارمة وخطوطاً حمراء على ما يتصل بالشأن الداخلى فيها.. قد تسمح بقدر لا بأس به من الشفافية وكشف الأسرار وممارسة النقد إذا تعلق الأمر بدولة عربية أو أجنبية أخرى لا يصيبها منها أذى أو ضرر، ولكنها تكون شديدة الحساسية والانتباه والتربص، إذا تعلق الأمر بالنظام السياسى فيها أو بالأسرة الحاكمة أو بممارسات الفساد واستغلال السلطة عند مستوى معين من الحكم. بل إن بعض التفاهمات والاتفاقات الدولية الحساسة مع دول كبرى فى مجال التعاون العسكرى والأمنى والمخابراتى تظل بعيدة عن الرأى العام العربى لا يحق له مناقشتها. ولو وجدت برلمانات فلا يحق لها بحثها أو إقرارها والتصديق عليها. مع أن كثيراً من هذه الاتفاقات والمساعدات تجد طريقها إلى النشر والعلن فى دراسات المراكز المتخصصة والدوريات والوثائق الأجنبية التى تذاع بعد أن يفض عنها خاتم السرية أو حتى قبل أن يرفع عنها الحظر، بهدف إحراج أطراف أخرى أو ابتزازها. وكثيراً ما أذاعت أجهزة المخابرات المركزية قوائم بأسماء شخصيات تعاونت معها أو حصلت على دعمها المالى والمخابراتى.

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى ما ورد فى تقرير التنمية الإنسانية الذى صدر أخيراً عن وسائل الإعلام العربية، عندما وصفت الصحافة العربية بأنها محكومة ببنية تتسم بالتقييد الشديد لحرية التعبير، مصحوبة بالعديد من الانتهاكات التى تتراوح بين الإغلاق والضبط والتعطيل.

ومن هنا تبدو الاتهامات المتبادلة بين بعض الحكومات وفى الإعلام الرسمى العربى حول مسئولية بعض وسائل الإعلام عن ممالأة النظام العراقى البائد والدفاع عنه حتى اللحظات الأخيرة قبل سقوطه، اتهامات زائفة ولا تستند إلى أساس، فى ظل ثقافة الاستبداد الإعلامى السائدة فى العالم العربى.. والتى دأبت حكوماته على أن تنظر للأمور بعين واحدة دفاعاً عن أوضاع ونظم قائمة. وفى غياب قوانين تضمن لوسائل الإعلام من الصحافة والتليفزيون استقلاليتها وحريتها كاملة، كما تضمن لها حق الحصول على المعلومات.

ويكفى أن نعرف. وهناك من يطالب هيكل بالإفراج عن وثائق تاريخية يزعمون أنها فى حوزته، وربما كان هذا سبب الاعتداء الغامض على أوراقه. أنه لا توجد دولة عربية واحدة، من بين نحو ٥١ دولة كان آخرها الهند، تملك قانوناً يبيح لمواطنيها الحق فى الحصول على المعلومات أو الاطلاع على الوثائق الرسمية والأوراق الحكومية. ليس الآن وليس بعد ثلاثين عاماً ولا بعد نصف قرن. ولذلك تظل معرفتنا بتاريخنا الوطنى، بوثائقه وأسراره وأحداثه، مرهونة بما يكشف عنه الآخرون، خصوماً كانوا أو أصدقاء أو أعداء. وتظل رؤيتنا لذاتنا معكوسة فى مرآة ليست من صنعنا بل من صنع الآخرين، وتصبح شمس الحقيقة حكراً فى أيدى من يملكون حجبها أو تزييفها بما يعمق ثقافة الاستبداد والجهل والتخلف، ويزرع اليأس فى قلوب المؤمنين بأوطانهم، الساعين إلى إيقاظ الوعى ونشر الحقيقة.. فلا يعود يجدى غير منطق الصمت والرغبة فى الانصراف.

سلامة أحمد سلامة

الخطـــأ الأمـــريـــكى



يعد الجنرال ويزلى كلارك أحد أبرز القادة العسكريين الأمريكيين المعاصرين. وقد تولى قيادة قوات حلف شمال الأطلنطى فى أوروبا فى الفترة من ١٩٩٧ حتى عام ٢٠٠٠، ثم عمل محللاً عسكريًا لشبكة «سى. إن. إن» وهو الآن مرشح بارز لنيل ثقة الحزب الديمقراطى لخوض انتخابات الرئاسة الأمريكية فى العام المقبل.

وهذا المقال خلاصة لأفكار كلارك عن الحرب الأمريكية فى العراق والتى نشرها فى كتاب بعنوان «النصر فى الحروب الحديثة.. العراق والإرهاب والإمبراطورية الأمريكية» والذى صدر الشهر الماضى فى الولايات المتحدة عن دار نشر «بابليك أفيرز».

«المحرر»

■ كانت المرحلة الحاسمة من الحملة الأمريكية لغزو العراق والاستيلاء على بغداد ناجحة نجاحًا ملحوظًا. ويرجع نجاح الحملة فى المقام الأول إلى قدرة الوحدات المحاربة، وخاصة الرجال والنساء الذين يتعاملون مع الأسلحة والمعدات. فبدون التفوق الذى وفرته قدراتهم لما استطاعت القوات الجوية ضرب القوات العراقية بفاعلية على الأرض. ولما تمكنت قواتنا البرية من التقدم مخترقة الحرس الجمهورى بهذه السرعة وبتلك الخسائر الطفيفة. وكان دور القادة الأمريكيين هو تشكيل تلك القدرة وتطبيقها على الوضع الوشيك. وهو ما فعلوه ببراعة.

إلا أنه كانت هناك كذلك مشكلات لا ينبغى تجاهلها. أولاً: أوجدت الخطة العسكرية مخاطر لم يكن لها أى داع، لأنها اتسمت بالشُح بشأن عدد القوات التى جرى توفيرها للقادة. ورغم ثبوت أن مستوى القوات ملائم لهزيمة الجيش العراقى، فإن الفكرة الأساسية فى العمليات العسكرية هى الفاعلية، وليست الكفاءة. فلا ينبغى إدارة العمليات العسكرية كالأعمال التجارية التى لها متطلبات يمكن التنبؤ بها وتهدف إلى تقليل نفقات تلبية تلك المتطلبات. فالقتال، وخاصة القتال البرى، واحد من أكثر الأنشطة البشرية غير المتوقعة نتائجها. فهو ينطوى بطبيعته على المخاطر، حيث تنتج المخاطر فى العادة عن عوامل غير محتملة أو لا يمكن التنبؤ بها. لذلك يفرض المنطق السليم ضرورة تقليل الأخطار المتوقعة قبل بدء أية أعمال عسكرية.

كانت القوات الإضافية متاحة؛ بل كانت مكلفة بالاستعداد للقتال فى العراق. وكانت هناك فرقة قتالية أخرى، وقوة إضافية لتأمين خطوط الإمداد، والمزيد من الشاحنات ووحدات التموين لتوفير الغزارة التى تتطلبها العمليات الحربية؛ حيث يقلل كل منها المخاطر. وكان بعض المخططين يعلم أن استخدام تلك القوات أو عدمه هو المسألة الأساسية داخل التوترات المستمرة أثناء عملية التخطيط. إلا أنها لم تُنشر إلا بعد فوات الأوان.

فى أوائل شهر مارس، فى الوقت الذى بات فيه واضحًا أن تركيا لن تسمح بمرور القوات الأمريكية، كان الوقت قد فات بالنسبة لتمركز فرقة قتالية رابعة فى الكويت. ولكن على الأقل كان من الممكن نقل فوج الفرسان الثانى أو الشرطة العسكرية الإضافية جوًا إلى داخل العراق، بدلاً من تأخير وصولها إلى ما بعد الأزمة التى حدثت على طول خطوط الإمداد بعد بداية الحرب بخمسة أيام. ومن الصعب تصديق أن القوات الإضافية على طول خط الإمداد ما كانت لتساعد فى الحيلولة دون الخطأ الذى كلف بعض جنود فرقة الصيانة ٥٠٧ حياتهم.

أصبحت مخاطر خطة الحرب الزائدة عن الحد واضحة فى مرحلة ما بعد القتال، فقد كانت القوات والقدرات الأمريكية غير متكافئة مع المهمة. فقد كان من واجب المخططين أن يتوقعوا الأمور الطارئة المختلفة، بما فى ذلك احتمال مقاومة الاحتلال الأمريكى بعد الحرب، وتحديد ما يتناسب معها من إمدادات. ما جعل ذلك مستحيلاً هو فلسفة «البداية المتدحرجة» الخاصة بكبار القادة، التى بدا أنها ناشئة عن مشاكل نشر القوات المستمرة بقدر نشوئها عن أية

ترجمة: أحمد محمود

في العراق

ويزلي كلارك

حسابات استراتيجية. وكانت النتيجة عند انتهاء الأعمال القتالية الرئيسية هي أن القوة الأمريكية كانت عاجزة عن توفير الأمن ووقف أعمال السلب والنهب والتخريب وخلق حضور جدير بالتصديق في أنحاء البلاد؛ حتى داخل بغداد. وقضى ما نتج عن ذلك من فوضى على بعض التنامي في المصداقية الأمريكية التي اكتسبت على أرض المعركة، كما فتح الطريق أمام مقاومة أشد وأكثر تنظيماً في الأسابيع التالية.

في العشرين من مارس، حين بدأ القتال، كان لدى مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) أربعة أفواج مستعدة للحرب. وكان لدى الجيش الأمريكي سبعة ألوية مقاتلة فقط موجودة في الكويت. ثلاثة ألوية من الفرقة الثالثة مشاة، وثلاثة من الفرقة ١٠١ المحمولة جواً، ولواء من الفرقة ٨٢ المحمولة جواً. وكان البعض في ١٠١ غير مستعد للذهاب. وبحلول الحادي عشر من أبريل، حين سقطت الموصل وتكريت، كان عدد ألوية الجيش في العراق قد ازداد إلى تسعة بوصول الفوج الثاني فرسان واللواء ١٧٣ المحمول جواً. وفي الأول من مايو أعلن الرئيس بوش انتهاء أعمال القتال الرئيسية. وبنهاية مايو كان عدد الجنود على مسرح العمليات قد بلغ سبعة عشر لواء من الجيش. وفي ذلك الوقت جعلت الفوضى المنتشرة النجاح النهائي للمهمة معرضاً لخطر متزايد، رغم القوات الإضافية التي وصلت متأخرة.

قد يقول قائل إن هذه «البداية المتدحرجة»، حيث تجرى إضافة الوحدات على مدى شهور، حتمية في الحرب الحديثة؛ ذلك أن بناء قوة أشد بأساً، أو البدء في تجميع القوات مبكراً، كان سيخرّب محاولات البحث عن حل دبلوماسي. إلا أن بيانات الحكومة تكذّب هذا الأمر. فقد كان من المعتاد الإعلان عن نشر القوات قبل وقت طويل من بدء القوات تحركها الفعلي، وكان يبالَغ في حجمها، مما يعطي انطباعاً بوجود أعداد أكبر كثيراً مما هو مشارك بالفعل في القتال.

أشار آخرون إلى أن قوة مشاة أقل عدداً نسبياً كانت أمراً غريباً، ذلك أن أسئلة وزير الدفاع رامسفيلد المستمرة عن الخطة ونشر القوات أربكت العملية وحسب، إلى حد أنه لم يمكن توصيل القوات المطلوبة؛ وأن القادة تكيفوا في النهاية مع هذا الوضع، حيث لم يكونوا يرغبون في مواجهة غضب الوزير بإثارة الاعتراضات. ومع ذلك فقد أشار آخرون إلى أن القوة البرية كانت صغيرة نسبياً بسبب إصرار رامسفيلد على تقليل التكاليف المالية. ويعني هذا أن القوات الإضافية كان ستحتجز إلى أن تكون هناك حاجة واضحة إليها. ورأى البعض أن رامسفيلد بتحجيمه القوة البرية كان يثبت رأيه بشأن المزايا النسبية للقوات الخاصة والقوة الجوية مقارنة بالجيش التقليدي. وكما قال أحد الضباط، فإنه «كان يريد دائماً تقليل عدد قوات الجيش البرية؛ كما حدث في أفغانستان». ربما ساهمت هذه العوامل كلها في عدم نشر القوات على الوجه الصحيح.

الانتقاد الرئيسي الثاني لخطة الحرب يتعلق بالمرحلة الأخيرة؛ فقد جعلت التخطيط لما بعد الحرب أقل مما يجب أن يكون عليه. والواجب على من يخططون العمليات العسكرية الخاصة بأية حرب أن يأخذوا في اعتبارهم ما بعد انتهاء تلك العمليات. وهناك أربع خطوات لابد من أخذها في الاعتبار: نشر القوات، وحشد القوات، والقتال الحاسم، وعمليات ما بعد الصراع. ويخلق تدمير قوات العدو على أرض المعركة ظرفاً ضرورياً للنصر، ولكنه ليس بالظرف الكافي. فليست هزيمة الجيش المقابل وحدها هي التي تحقق أهداف الخطة الشاملة ونواياها، بل هو النجاح في العمليات التي تلي ذلك. وفي هذه الحالة كانت الأهداف، كما أعلن وزير الدفاع رامسفيلد، تتضمن القضاء على نظام صدام حسين، وطرد الشبكات الإرهابية المزعجة، والعثور على أسلحة الدمار الشامل وتدميرها، والقضاء على أية أنشطة إرهابية أخرى، وخلق الظروف لانتقال العراق السريع إلى حكومة نيابية «لا تهدد جيرانها».

يتطلب النصر تخطيطاً، حيث يبدأ بتعريف لنجاح ما بعد الحرب يليه تحديد كل من طبيعة العمليات اللازمة والقوات الضرورية. وهنا قوض تركيز الحكومة وتصميمها على كسب الحرب من الناحية العسكرية احتمالات النجاح بمجرد احتلال البلاد.

فسرت حكومة بوش الوضع داخل عراق ما بعد الحرب بأنه مسألة افتراضات لم تتحقق، فقد «كانت تميل إلى الاستهانة بالمشكلة». ومن الواضح أنها كانت تعتقد أن القضاء على صدام حسين سوف يقضي على تهديد حزب البعث، وأن أعداداً كبيرة من الجيش والشرطة سوف تنضم إلى الأمريكيين، وأن الموظفين العراقيين سيبقون في أعمالهم.

الواقع أن قلة الاستعدادات كانت من ناحية نتيجة للقيادة واتخاذ القرار داخل حكومة بوش، ومن ناحية أخرى نتيجة لقوى واتجاهات أشد قوة تعمل مع الحكومة الأمريكية والجيش الأمريكي. فمنذ البداية كانت «العمليات الحاسمة» (كيفية هزيمة القوات العراقية) لها الأولوية على خطة ما بعد الحرب (كيفية تحقيق الأهداف الحقيقية لخلق عراق آمن ومسالم). ركزت هيئات البنتاجون العسكرية على الاستفادة من خبرتها الأساسية. تطبيق القوة العسكرية. بدلاً من المتطلبات الأكثر اتساعاً الأصيلة في هذا الوضع. وقد أضيف إلى ذلك صراع بيروقراطي مستمر بين وزارتي الخارجية والدفاع، حيث كانت الأولى حذرة وحكيمة، بينما الثانية عاقدة العزم على المضي قدماً متجاهلة المسائل على ما يبدو. وكان ذلك صراعاً لم يحسمه حتى يناير ٢٠٠٣ إلا قرار من البيت الأبيض بتخويل وزارة الدفاع مسئوليات ما بعد الحرب بالكامل.

لا يعني هذا أنه كانت هناك بنية حقيقية أو تنظيم حقيقي لدعم التخطيط العسكري داخل الحكومة الأمريكية. فالوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID، وهي جزء من وزارة الخارجية، تبرم عقوداً مع منظمات خارجية؛ وهي ليست هيئة تخطيط وتنفيذ. فقد مضى زمن طويل على أي أثر لبنية كانت تسعى وراء بناء الأمة في فيتنام. وقد أنشأ الجيش معهد حفظ السلام في كلية الحرب التابعة له في كارلايل باراكس بولاية بنسلفانيا، ولكن المجموعة الصغيرة من المحاضرين المخلصين هناك خُفِّض عددها مراراً وكانت تحارب ضد قرار الميزانية الذي كان سيؤدي في واقع الأمر إلى إغلاق المعهد. وأنشأ الكونجرس المعهد الأمريكي للسلام في فورة من المثالية المناوئة للحرب في السبعينيات، وكان بمثابة مركز مهم للنقاش والبحث؛ ولكنه لم يكن نظيراً حقيقياً لمركز الأبحاث والتطوير التابع للقوات الجوية، أو مركز التحليلات البحرية التابع للبحرية، أو مركز الأبحاث والتطوير في أرويو التابع للجيش، وكل منها يموّل تمويلاً فدرالياً كي يبحث القضايا الصعبة المرتبطة بمهام القوات المسلحة. كما أنه لم تكن هناك بنية بيروقراطية مخصصة لاستثمار المليارات في كل عام لتحسين قدراتنا كي ننفذ عمليات ما بعد القتال. ولم تكن هناك نظائر للصناعات الحربية بما لديها من جيوش من الاستشاريين وأعضاء جماعات الضغط للحصول على المخصصات الكافية.

إدراكاً من حكومة

كانت القوات والقدرات الأمريكية غير متكافئة مع المهمة. فقد كان من واجب المخططين أن يتوقعوا الأمور الطارئة المختلفة، بما في ذلك احتمال مقاومة الاحتلال الأمريكي بعد الحرب، وتحديد ما يتناسب معها من إمدادات

أظهرت تجربة ما بعد الحرب العالمية الثانية مزايا العمل، فى إطار تحالفات ومؤسسات متعددة الجنسيات. وتجعل الولايات المتحدة نفسها، بتجاهلها تلك الدروس، معرضة للمخاطر القانونية والمالية والعسكرية

كلينتون للمشكلة، حاولت على أقل تقدير خلق آلية للتنسيق بين الوكالات لتجميع كل الوسائل المتاحة للحكومة الفدرالية ووضع منهج شامل للتعامل مع مشاكل ما بعد الصراع. ولأن سلسلة من الإجراءات الإدارية قد اتخذت بطريقة براجماتية نتيجة للاستعدادات الموسعة لتوفير استراتيجية خروج لقوات الجيش الأمريكى من هايتى عام ١٩٩٤، فقد جعلت كل وكالة مسئولة عن التعاون مع الأخرى على مستوى النواب. وكان هذا المنهج فى المقام الأول توسيعاً لإجراءات تخطيط أركان الجيش وأمراً لوكالات الحكومة الأخرى، حيث كُلِّفت الوزارات المدنية والعسكرية بتنظيم مهام بعينها وإنجازها. وقد صيغت العملية فى هيئة الأمر الرئاسى رقم ٥٦ المنشور فى عام ١٩٩٧. ولكن حتى الأمر الرئاسى رقم ٥٦ لم يكن كافياً بالنسبة لاتساع وكثافة التحديات الموجودة فى التعامل مع مشكلة الدول المتخاذلة مثل هايتى.

حين عدت إلى البنتاجون لمراجعة الحقائق قبل الإدلاء بشهادتى أمام مجلس الشيوخ بشأن مشكلة العراق فى سبتمبر من عام ٢٠٠٢ خاب أملى عندما علمت أنه جرى القليل جدا من المناقشات حول تخطيط ما بعد الحرب الخاص بالعراق. فقد أبلغونى أنه «ليس موضوعاً محبوباً فى الطابق الثالث، حيث تقرر القيادات المدنية سياسة وزارة الدفاع. وحين بدأ التخطيط أخيراً فى ذلك الخريف، كان يقوم على افتراض أن الغزو الأمريكى سوف يلقى ترحيباً من معظم أهل العراق باعتباره تحريراً. فقد أساءوا تقدير قوة حزب البعث والقومية العراقية القطرية، وكذلك الحال بالنسبة لدرجة الروح الحزبية بين الشيعة. وحدث الشىء نفسه بالنسبة لاحتمالات المشاركة المستترة من جانب سوريا وإيران، وغيرهما، إلى جانب الاحتمال الأساسى وهو أن القوة الأمريكية المسيحية فى معظمها لن يقبلها الشعب العراقى، خاصة إذا شقت طريقها إلى داخل البلاد بالقتال.

هكذا ركزت كل استعدادات عراق ما بعد الحرب من جانب مكتب التعمير والمساعدات الإنسانية بقيادة اللفتنانت جنرال جاى جارنر على المهام الأقل أهمية. لقد كان من الأولى معالجة المشاكل الأساسية، وهى استعادة النظام والإحساس بالشروعية، قبل بداية إعادة التعمير. وعلاوة على ذلك لم يتركوا لجاى جارنر ما يكفى من الاتصالات والنقل والأمن والموارد البشرية لمواجهة هذه المشكلة وحسب، بل إنه بدلاً من أن يعمل مباشرة تحت إمرة الرئيس أو وزير الدفاع، كان مرؤوساً كذلك لقادة الجيش الأمريكى فى المنطقة.

كان أثر ذلك انعزال مهمة جارنر، بينما كان هناك أقل أثر لسلطة الأمم المتحدة، واندفاع لإقناع الحلفاء والدول الصديقة المترددين لتوفير قوات الشرطة والجنود والمترجمين ومساعدات إعادة الإعمار المدنية التى يمكن أن تقلل المخاطر بالنسبة للقوات الأمريكية وتشارك فى عبء إعادة البناء وبناء الأمة. ولم يكن هناك وجود لأى برنامج يحظى بشرعية السلطة الدولية كى يحل محل قوانين صدام حسين البائدة، أو لنشر قوات حفظ السلام فى المحافظات. وكذلك لم تكن هناك آلية، بخلاف المناشدة المباشرة، لجذب الدول الأخرى إلى المهمة. وفشلت حكومة بوش فى اجتذاب القدر الكامل من الموارد والدعم الذى كان من الممكن توفيره.

المفارقة هى أن بعض أعضاء الكونجرس، الذين كانوا يشكون مر الشكوى لسنوات من الجيش بشأن مشاركته فى بناء الأمة، وكانوا يشكون من «ذعر المهمة» و«المشاركة فى الأعباء»، مضطرون الآن لدعم الجيش الأمريكى وهو يقوم بهذه المهمة بمفرده فى واقع الأمر. لقد كانت (ولا تزال) مهمة أكثر صعوبة وخطورة وعدم تحديد لموعد انتهائها من أية مهمة سابقة.

يعيدنا هذا إلى الانتقاد الأساسى الثالث لخطة الحكومة، وهو أنه أثناء محاولة الاحتفاظ بالسيطرة التامة، زادت الحكومة تكاليف المهمة ومخاطرها بمنعها استفادتنا من نفس الحلفاء والموارد الذين كان من الواجب أن يتوافروا للولايات المتحدة. فلم تكن حكومة بوش حتى ذلك الوقت على استعداد للاستفادة من الشرعية والدعم الدوليين اللذين كان يمكنها الحصول عليهما من المؤسسات الدولية كالأمم المتحدة وحلف الناتو. فبدلاً من كسب النفوذ عن طريق الشرعية الدولية، رفضت الولايات المتحدة، حتى خلال صيف ٢٠٠٣ الطويل، التخلى عن السلطة السياسية للأمم المتحدة أو منح سلطة مهمة لأية مؤسسة دولية أخرى. ومع ذلك كان لتلك الشرعية أهميتها إذ كان للحكومات الأوروبية أن توفر القوات والموارد للمساعدة فى جهود ما بعد الحرب فى العراق. ففى ظل قدر أكبر من المشروعية الدولية، وخاصة فى أوروبا، كان من الممكن الاستفادة من المزيد من التأثير على الحكومات فى أماكن أخرى. ذلك أن سلطة الأمم المتحدة لها ثقلها المهم فى ميدان الرأى العام العالمى. وكان من الممكن أن يتوفر هذا كله للولايات المتحدة، لو أن حكومتنا أدركت وحسب أنه من الضرورى السعى للحصول عليه.

أظهرت عملية تحرير العراق الحاجة إلى قدر أكبر من التخطيط والمشاركة متعددى الأطراف، وخاصة أثناء مرحلة ما بعد الصراع. وهذه بعض الأسئلة المتواترة التى لم تُبحث البحث الواجب. فمن الذى سيوفر قوات الشرطة ويؤمن الأمن العام؟ وعلى أى أساس من السلطة؟ هل سيكون هناك نظام قضائى، بما فيه من محامين وقضاة وسجون؟ قانون من هو الذى سيحكم؟ كيف سيكون التعامل مع مسلسل الجريمة المنظمة والفساد والسلطة شبه الحكومية من جانب القيادات الدينية وغيرها من القيادات؟ إن طرح الأسئلة الصحيحة وإيجاد الحلول المناسبة ليس من المهام التى تقوم بها قوة واحدة بمفردها، حتى ولو كانت قوة فى عظم حجم الولايات المتحدة. فقد أظهرت تجربة ما بعد الحرب العالمية الثانية التى تمتد لأكثر من خمسين عاماً مزايا العمل، حين يكون ذلك ممكناً، فى إطار تحالفات ومؤسسات متعددة الجنسيات. وتجعل الولايات المتحدة نفسها، بتجاهلها تلك الدروس لمصلحة التعاون الثنائى فى غالبه، معرضة للمخاطر من الناحية القانونية والمالية والعسكرية. وبغض النظر عما تقوله اللغة العسكرية عن «العمليات الحاسمة»، فإن الأحداث على الأرض فى العراق، بعد نجاح العملية العسكرية فى هزيمة قوات صدام، كانت ستصبح حاسمة بالفعل على المدى الطويل.

انطوت رؤية وزير الدفاع رامسفيلد الاستراتيجية الخاصة بتغيير استراتيجية الحرب الأمريكية على قدر أكبر من الاعتماد على الضربات المُحكَمة والقوات الخاصة، على أن يصاحب ذلك تقليل للاعتماد على القوات البرية الكبيرة. وأكدت العمليات التى جرت فى العراق حكمة عدم التوقف عن تعديل استراتيجيتك فى ذلك الاتجاه، إلى حد معين. إلا أن تلك لم تكن رؤية جديدة بحال من الأحوال. فالقوات المسلحة



الأمريكية يجرى تغييرها باستمرار منذ خروجها من حرب فيتنام فى منتصف السبعينيات. وكانت القوات التى حاربت فى عام ٢٠٠٣ إلى حد كبير من إنتاج خمسة رؤساء أمريكيين وعملية تطوير مستدامة زادت سرعتها بالفعل بعد حرب الخليج فى عام ١٩٩١.

أعدت قيادة الأركان المشتركة الأمريكية فى عام ١٩٩٦، بمساعدة فروع الخدمات، أول مشروع لخوض الحرب بصورة مشتركة، وهو «الرؤية المشتركة ٢٠١٠». وشرحت تلك الوثيقة غير السرية مفاهيم السيطرة العسكرية باستخدام كامل الموارد العسكرية، والضربات المُحكمة، والحماية عالية التطوير للقوات، والأعمال اللوجستية دقيقة التركيز، وقد نُفذت جميعها على أرض المعركة فى العراق. وبما أنه كانت هناك رؤية تنطوى على التغيير الأساسى، فمن المؤكد أنها كانت سابقة على تغيير الإدارات فى عام ٢٠٠١، وكانت قد أصبحت رؤية جماعية. إذ كانت تُدرَّس فى مدارس الأفرع، وتناقش فى التدريب والمناورات، وتُدمج فى مبادئ التعليم، وشروط المعدات، والأبحاث والتطوير، والمشتريات.

أكدت الرؤية بشدة أهمية السيطرة من خلال التحكم فى المعلومات والضربات المُحكمة. وقال أحد كبار الضباط: «تخيل صندوقًا من أرض العدو عرضه ٢٠٠ كيلومتر وعمقه ٢٠٠ كيلومتر. ينبغى علينا تحديد كل هدف معاد هناك، وأن نضرب كل هدف نريده ونقتله». كانت رؤية مقنعة بما تميزت به من بساطة ووضوح. وقد جرى تأملها فى البرامج والميزانيات وجلسات استماع الكونجرس، وحتى الثقافة الشعبية. إذ كانت الإرادة الجماعية التى خلف رؤية التغيير كاسحة.

ولابد بطبيعة الحال من استمرار التغيير الأوسع مجالاً للدفاع وجعله أكثر قوة وحيوية. فمن بين التجديدات الكثيرة الأخرى، ينبغى أن يكون لدينا أجهزة إحساس أفضل، واتصالات أكثر حماية، ومدى أبعد للنيران، وصواريخ أسرع، و«آثار أقدام» أمامية أصغر حجمًا للقوات، وتكامل أفضل للأفرع والعمليات الخاصة، واعتماد متزايد على شبكات الاتصال لتركيز العمليات. إلا أن جوهر المهمة. الكشف المتقدم تكنولوجيًا عن قوات العدو وتدميرها على أرض المعركة بأقل مخاطرة بالنسبة للقوات الأمريكية. لن يتغير.

لابد أن تحذرنا تجربة العراق من أن كلاً من الخطة والتغيير. أو على الأقل ما سمعناه عن رؤية وزارة الدفاع لها. لم يكونا كاملين، حيث كانا يركزان فقط على «العمليات الحاسمة»، وغاية «الكثافة العالية» الخاصة بسلسلة الصراعات المحتملة. وفى منتصف التسعينيات، حين وضعنا «الرؤية المشتركة ٢٠١٠» على الورق لأول مرة، كان كثيرون معنيين بضرورة موازنة إيقاع القتال السريع ورؤيته عالية الكثافة بواقع ما يجرى قبل وبعد. ولم يكن ذلك ضيق أفق من جانب الجيش وحسب، فالأرجح أن الجيش لابد له من التعامل مع ذلك الواقع وكان بذلك الفرع الأكثر تمكينًا من التعبير عن المخاوف. ورأينا مرارًا أن تدمير القوات المعادية لم يكن وحده كافيًا لـ«الفوز» فى معظم الأوضاع التى قد تجد القوات الأمريكية نفسها فيها. فقد كانت هزيمة القوات العسكرية ضرورية لكسب المعركة، ولكنها لم تكن كافية لكسب الحرب.

شهدنا الصعوبات فى القتال وسط السكان المدنيين فى بنما أثناء البحث عن الرئيس البنمى مانويل نورييجا، ومشاكل التعامل مع اللاجئين وعدم الاستقرار وأسرى الحرب فى أعقاب حرب الخليج الأولى، والفشل فى الصومال والصعوبات فى هاييتى والتحديات الكثيرة الخاصة بالعمليات فى البلقان. وكان معظم تلك الصراعات ينطوى على المواجهة العسكرية المكثفة القصيرة والعملية اللاحقة طويلة المدى الأقل كثافة ولكنها ليست أقل أهمية. ولابد من تدريب القوات المسلحة وتزويدها بالمعدات كى تتعامل مع هذه المتطلبات.

هناك القليلون داخل الحكومة وخارجها الذين يدعون إلى نوع أكثر اتساعًا من التغيير للتعامل مع هذه الأوضاع الصعبة. وبدلاً من التشبث بهذه الأنشطة باعتبارها المهام الجوهرية، يقاوم الجيش منذ فترة طويلة الاستثمار والمشاركة فى عمليات ما بعد الصراع والعمليات السلمية. ويرتبط جزء من هذه المقاومة بمجموعة قوانين الولايات المتحدة الحالى (وخاصة القانون العسكرى Title 10)، التى تحدد أدوار الأفرع والمهام وتنص على أن يدرب الجيش الأمريكى قواته وينظمها ويزودها بالمعدات «من أجل القتال البرى المستدام».

إلا أنه للإنصاف أقول إن كثيرًا من التردد يعود إلى المجمع العسكرى الصناعى وسياسة البقاء كتنظيم. فقد جعل الجيش، بعد وقوعه لسنوات فى شرك الرؤية القوية الخاصة بالتغيير العسكرى التى هبطت بأنشطة ما بعد الصراع وحفظ السلام إلى مرتبة أقل من الأولوية، وجوده معتمدًا على تجديد التكنولوجيا الفائقة ووضع برامج مشتريات مثيرة للإعجاب وبعيدة النظر مصممة من أجل القتال عالى الكثافة فى الشرق الأوسط أو فى كوريا. شأنه فى ذلك شأن سائر الأفرع. وفى ظل أولويات الدفاع الأمريكية العامة، كان يُنظر إلى تلك البرامج على الأرجح على أنها تنافس بنجاح للحصول على التمويل. وما إن تحصل على التمويل حتى تنال التأييد المهم من المقاولين ومقاولى الباطن فى كثير من دوائر الكونجرس.

كان يعزز تلك الاتجاهات الجو شديد الحزبية داخل واشنطن فى أواخر التسعينيات حيث كان متوقعًا أن يكون رد فعل الكونجرس الذى يسيطر عليه الجمهوريون قويًا ضد أى شىء يرون أنه «بناء أمة». وكانت الحقيقة أن أبحاث عمليات ما بعد الصراع والإعداد لها لم تكن تحظى بالدعم السياسى. وقد قال جورج بوش أثناء مناقشات الحملة الانتخابية فى عام ٢٠٠٠، وكان وقتها حاكم تكساس: «لا أظن أنه ينبغى استخدام قواتنا فيما يسمى بناء الأمة. بل أظن أنه ينبغى استخدام قواتنا للقتال وكسب الحرب. وأظن أن قواتنا ينبغى أن تُستخدم للمساعدة فى الإطاحة بأى دكتاتور... حين يكون هذا أفضل مصالحنا».

مما يؤسف له أن هذه على وجه الدقة هى الطريقة التى جرت بها مقاربة المهمة. ففى العملية تحرير العراق، سرعان ما اتضح على الأرض ما حققته الخطة الحربية والتغيير العسكرى من نجاح وما أصابهما من فشل على الأرض. فقد أبلى الجيش بلاء حسنًا فى «العمليات الحاسمة» التى قام بها. إلا أنه فى مجهود التخطيط الأوسع مجالاً، وفى التفكير فى الطبيعة الحقيقية للحرب الحديثة، أساء المدنيون فهم ما كنا بحاجة إليه. ربما كان من السهل جدًا التركيز على القتال وقتل العدو وتدمير قواته. إلا أن كل طالب جاد من طلاب الكلية الحربية يعلم أن الحرب تسعى إلى تحقيق أهداف سياسية؛ وأن القوة العسكرية مجرد وسيلة ضمن وسائل عديدة تشمل الدبلوماسية، وأنه لابد من تعزيزها جميعًا تعزيزًا مشتركًا.

لا يمكن أن يكون التناقض مع حملة الناتو الخلافية فى كوسوفو، التى خدمت فيها قائدًا عسكريًا، أكثر وضوحًا. فقد استعين هناك بالسلطة الدولية فى مسعى دبلوماسى للحيلولة دون حدوث المزيد من التطهير العرقى. واستمرت المفاوضات والتخطيط شهورًا وهى تسير بسرعة. وقد أشركت الأمم المتحدة فى مرحلة مبكرة واستمر إشراكها. وتولى الناتو وليس الولايات المتحدة أمر المشكلة. وفى البداية كان هناك نقاش حول إصدار إنذار، ثم استخدمت الإنذارات الحقيقية لممارسة التأثير الدبلوماسى. ولم يكن هناك حد زمنى محدد سلفًا للقيام بعمل عسكرى؛ فالواقع أن الناتو قطع شوطًا غير عادى فى تحاشى الاضطرار إلى القيام بعمل عسكرى. وحاول العديد من قادة الدول بشكل منفرد الوساطة للتوصل إلى حل، وقد عقدت هذه الدبلوماسية التخطيط العسكرى.

لقد استخدمت القوة باعتبارها الملاذ الأخير، ولم يحدث ذلك إلا بعد وضع التخطيط للفترة التى تعقب القتال والالتزام

هزيمة القوات العسكرية ضرورية لكسب المعركة، ولكنها لم تكن كافية لكسب الحرب

كتاب الزاوية

الإشارات الإلهية

لأبى حيان التوحيدى

لأبى حيان التوحيدى علاقات وثيقة جدًا بالتصوف وللمتصوفة، التصوف كسلوك شخصى وكعلم لدنى، والمتصوفة كأقطاب يتشكل فيهم التاريخ الصوفى، وكثيرًا ما كان يروى عن أولئك الأقطاب أقوالاً مأثورة وحكمًا تُحتذى. وقد وُصف أبو حيان التوحيدى بأنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة لأنه إذا كتب فى الأدب كان أديبًا خالصًا وإن كتب فى الفلسفة ظننته لا شىء إلا فيلسوفًا. وقد كتب مناجيات روحية فذة بين كتابات المتصوفة جميعًا. وأشهر هذه الكتابة كتابه (الإشارات الإلهية) الذى يشرف بنا أن نختاره كتاب الزاوية لهذا العدد.

يضم هذا الكتاب حوالى ستين رسالة موجهة إلى شخص مجهول، وتأخذ شكل الشكوى أو الدعاء (المناجاة). تبدأ الرسالة بالدعاء وتنتهى بالدعاء، وما بين الدعاء والدعاء يبدو التوحيدى كأنه يطلب الهداية والنجاة لشخص ما، يغريه بسلوك طريق التصوف.. وتتلون الرسائل بأحوال نفسية بين اللين والشدة والحدة والترفق والعقلانية أحيانًا والوصول إلى حالة من الوجد أحيانًا أخرى. وقد حار محققو التوحيدى فى معرفة كنه هذا الشخص الموجهة إليه الرسائل والذى يخاطبه دائمًا بـ: يا هذا، ولكننا نرى الأمر أبسط من ذلك إذا تذكرنا أن التوحيدى يؤمن ـ كما نؤمن جميعًا ـ بأن النفس البشرية نفسان: النفس الأمَّارة بالسوء، والنفس البريئة المفطورة على الخير والصلاح والتقوى. وفى اعتقادنا أن هذه النفس الطيبة تخاطب النفس الأمارة بالسوء فى هذا الكتاب الفريد العظيم، وكأن التوحيدى يخاطب نفسه بنفسه متلمسًا لها طريق الهداية، فكان هذا الفيض الدافق: الإشارات الإلهية.

بذلك. وقد جرى قياس تطبيق القوة فى البداية. وبعد ثمانية وسبعين يومًا من القصف، والتهديد بشن غزو برى، أذعن الرئيس اليوجوسلافى سلوبودان ميلوسيفتش لشروط الناتو. وسُمح لحوالى مليون ونصف من ألبان كوسوفو الذين أُبعدوا بوحشية بالعودة إلى ديارهم. وانسحبت القوات الصربية، ودخلت القوة التى يقودها الناتو (حيث أسهمت الولايات المتحدة بحوالى خُمس تلك القوة فقط). واليوم يُحاكَم ميلوسيفتش على جرائم الحرب فى لاهاى، ويوجوسلافيا ديمقراطية ناشئة. ولم يقتل جنود أو طيارون أو أفراد مارينز أمريكيون أثناء العمل العسكرى فى تلك الحملة.

أما فى العراق، وفى بداية عام ٢٠٠٣، لم يكن أحد ليخطئ أمارات المقاومة الحازمة. كانت الولايات المتحدة تواجه الكمائن وأعمال القناصة، وخاصة شمالى بغداد وغربيها. وكانت تلك مناطق لم تخض فيها القوات الأمريكية الصغيرة قتالاً بريًا قط: فقد ظهرت على المسرح فقط وسط انهيار حكومة صدام حسين الذى أعقب الحرب. وفى داخل بغداد، ورغم العودة التدريجية إلى النظام المدنى، ظلت هناك أعمال متفرقة من القنص وإطلاق النيران والتخريب. وكان يبدو أن حركة بعثية غير واضحة المعالم أطلقت على نفسها اسم «العودة» قد ظهرت. أوقفت الولايات المتحدة بعضًا من



إعادة نشر القوات وقامت بعمليات عسكرية كبيرة لتعزيز المناطق المهددة والهجوم. وأعلن القائد العام للقوات البرية: «هذه الحرب لم تنته بعد». وبحلول الحادى والعشرين من سبتمبر كان أكثر من ثمانين أمريكيًا قد قُتلوا وجُرح ما يزيد على خمسمائة فى الصراع منذ الأول من مايو.

لقد نجحت حملة العراق فى الإطاحة بنظام صدام حسين، إلا أنه حتى أواخر سبتمبر ٢٠٠٣ لم يكن قد عُثر بعد على أسلحة الدمار الشامل. وكان الاحتمال لا يزال هو أن نظام صدام كان لديه قبل سقوطه على أقل تقدير بعض البرامج الجاهزة لصنع تلك الأسلحة أو تحسينها، وخاصة فيما يتعلق بالأسلحة البيولوجية؛ بل ربما كان هناك مخزون من الأسلحة ونحن لم نعثر عليها وحسب. إلا أنه كان من الواضح بعد استيلاء قواتنا على البلاد أنه يجرى تشكيل شبكات إرهابية جديدة أو استيرادها لمقاومة الجهد الأمريكى. لذلك كان لابد لأى تحول ديمقراطى فى العراق أن يدخل فى صراع مع تهديد إرهابى جديد، بالإضافة إلى كثرة التحديات الثقافية والسياسية والإقليمية والاقتصادية.

لم يكن ليصدق أحد عند تلك النقطة أن إحداث التحول الديمقراطى سيكون سهلاً أو سريعًا أو رخيصًا. صحيح أنه إذا كان الهدف الأساسى للحملة العسكرية هو إظهار مهارات القوات الأمريكية وشجاعتها ولكنه غير معلن، فحينئذ يكون ذلك نجاحًا بالتأكيد. فقد بنت ثلاثون سنة من الجهد المخلص جيشًا أمريكيًا لا مثيل له فى قدرته على هزيمة العدو على أرض المعركة. ولكن القوة تخلق خصومها، وهؤلاء الذين عقدوا العزم على الدخول فى صراع مع القوة الأمريكية سوف يبحثون عن الطرق التى تقلل من المزايا العسكرية التى تجمعت لدينا. ولا يزال هناك عمل أكبر لابد من القيام به إذا كان للولايات المتحدة أن تحقق نجاحًا فى تعزيز قيمنا وأمننا ورفاهيتنا. وبما أن كل ما عدا ذلك يتساوى؛ فالمنطقة والشعب العراقى أفضل حالاً بعد ذهاب صدام. إلا أن الأعمال الأمريكية ضد الخصوم القدامى مثل صدام لها ثمنها وعواقبها التى قد تجعلنا لا نكاد نكسب الحرب الجديدة ضد الإرهاب. بل إن آثار الحرب قد تعوق بالفعل جهودنا لتحقيق ذلك الهدف الأكبر. ■

حكاية إدوارد

كانت هزيمة ١٩٦٧ وما ترتب عليها نقطة تحول واضحة فى المسيرة الفكرية والعملية لإدوارد سعيد، طرحت عليه تلك اللحظة من بين ما طرحت، تصورا مختلفا لدوره حمل له إجابة على أسئلته الوجودية

فى البحرية الإنجليزية، يتحدث بالفرنسية وهى لغته الثانية بعد البولندية، وإن أصبح فى نهاية المطاف كاتبا بالإنجليزية، وأحد الروائيين الأكبر الكاتبين بها فى مطلع القرن العشرين.

لا أضيف جديدا حين أشير إلى أن اهتمام الشاب إدوارد بذلك الكاتب البولندى الأصل يرجع إلى المشتركات بينهما: فكلاهما غادر بلاده إلى بلد آخر فى سن المراهقة، ووجد نفسه يكتب بلغة غير لغته الأم ويعيش موزعا بين تجربتين. لاحقا سيقول سعيد إن كونراد سيلازمه كأنه لحن أساسى حاضر باستمرار فى خلفية كل تجاربه.

فى كتابه الأول هذا يقتبس سعيد رسالة وصلت كونراد من الروائى الأمريكى هنرى جيمس، يشكره فيها على النسخة التى أرسلها له من كتاب «مرآة البحر»، يقول له فيها: «لم يستخدم أحد من المثقفين ما لديك، فلا أحد منهم يعرف ما تعرفه عن هذا الموضوع كله، لديك كفنان سلطة لم يقربها أحد بعد».

ويقول سعيد تعليقا على تلك الرسالة المكتوبة فى ١ نوفمبر عام ١٩٠٦ إن المعنى الذى قصده جيمس، وفهمه كونراد، لم يكن إشارة إلى تجربة البحر والملاحة التى عاشها الكاتب البولندى الأصل، وكتب عنها العديد من نصوصه الروائية. يقرأ سعيد فى رسالة هنرى جيمس إشارة إلى تجربة المنفى والتوزّع بين ثقافتين ولغتين ولذلك فإنه يخلص إلى أن الألم والعمل المضنى المكثف هما العنصران الأبرز والأكثر عمقا فى المسيرة الروحية لكونراد وهو ما تشهد عليه رسائله، وأن المغامرة الأهم فى حياة ذلك الكاتب الذى عركته حياة مليئة بالمغامرات كانت محاولة لاستنقاذ المعنى والقيمة فى وجوده. يقول سعيد إن كونراد كان رجل أفعال تلح عليه الحاجة لإيجاد دور يلعبه ويتيح له أرضا صلبة يقف عليها، ومكانا له فى هذا الوجود، وكأنه شخصية من شخصياته الروائية على مفترق طريقين، طريق السقوط والضياع فى فوضى مفزعة، أو طريق يحمله إلى انكفاء على الذات يجمدها ويحجّرها ويحولها إلى أنانية شيطانية. وأمام مأزق الاختيار بين التسليم بالضياع والرضوخ لأنانية مطلقة وجد كونراد مخرجا فى إبداعه الروائى وفى تلك الشخصيات التى رسمها وهى تحاول مواجهة ما تتعرض له من مأزق أخلاقية.

الآن حين نعود لذلك الكتاب الأول لإدوارد سعيد يسهل علينا قراءة مشكلة وجودية واجهها إدوارد الشاب وهو على مفترق الطرق، وكأنه يواجه السؤال: أكون أو لا أكون، وما فحوى «أكون» وما الطريق إليها؟ ومن أين لى بأرض صلبة أقف عليها لكى «أكون»؟

كان اللبس طبيعيا والأسئلة صعبة، والأجوبة مراوغة ليس فقط لأن إدوارد سعيد غادر القاهرة إلى الولايات المتحدة وهو فى الخامسة عشرة من عمره، ولكن أيضا لأنه فى القاهرة كان تلقى تعليما كولونياليا بامتياز: مدرسة «الجزيرة بريب» ثم «فكتوريا كوليدج»، وفى البيت «هاملت» يقرأها مع أمه، ودروس البيانو على يد مدام تيجرمان، وفى وقت الترفيه «نادى الجزيرة». ثم إن والده وديع وإن كان فلسطينيا من القدس إلا أنه هاجر فى شبابه إلى الولايات المتحدة وحصل على جواز سفر أمريكى، ثم عاد إلى القدس ومنها انتقل إلى مصر، واستقر فى القاهرة حيث أسس «ستاندرد ستيشنرى» وهو محل لبيع الأدوات المكتبية والآلات الكاتبة، يحتفل فى المناسبات برفع علم أمريكى صغير فوقه. كان وديع الأب الذى سمى نفسه وليام، منح ابنه اسم إدوارد، وسمى بناته: روزمارى، وجين، وجريس وجويس.

فى هذا السياق نشأ إدوارد، يتحدث بالعربية الدارجة المصرية أو الفلسطينية، ويتعلم بالإنجليزية. وصار قادرا، وهو بعد مراهق صغير السن، على قراءة عيون الأدب الإنجليزى وإن لم تتح له معارفه باللغة العربية قراءة عيون الأدب العربى، القديم أو الحديث منه.

كانت الأسرة تقيم فى حى الزمالك فى القاهرة، تتردد بين حين وآخر على القدس، ثم لسبب أو آخر انتقلت للإقامة فى حى الطالبية فى القدس عام ١٩٤٧ ولكنها اضطرت حين سقطت الطالبية فى أيدى الصهاينة إلى العودة إلى القاهرة.

بدايات:

فى عام ١٩٦٦ نشر إدوارد سعيد كتابه الأول بعنوان: «كونراد ورواية السيرة الذاتية» Conrad and the Fiction of Autobiography وهو نسخة منقحة من رسالة الدكتوراه التى أجيزت له من جامعة هارفارد قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات. يقدم الكتاب قراءة مفصلة لرسائل الروائى الإنجليزى جوزيف كونراد (ثمانية مجلدات جمعت كل ما توفر من رسائله إلى أصدقائه ومعارفه وناشريه...إلخ) قرأها سعيد مستعينا بأدوات مدرسة جنيف النقدية ساعيا إلى كشف عناصر وعى الكاتب وأشكال التفاعل بين تجربته كمهاجر ومشروعه الإبداعى. كان كونراد مهاجرا بولنديا ترك بلاده فى سن المراهقة، عمل طويلا

1- Representations of the Intellectual

صور المثقف

Edward Said
Vintage, Random House, NY, 1996.

2 - Culture and Imperialism

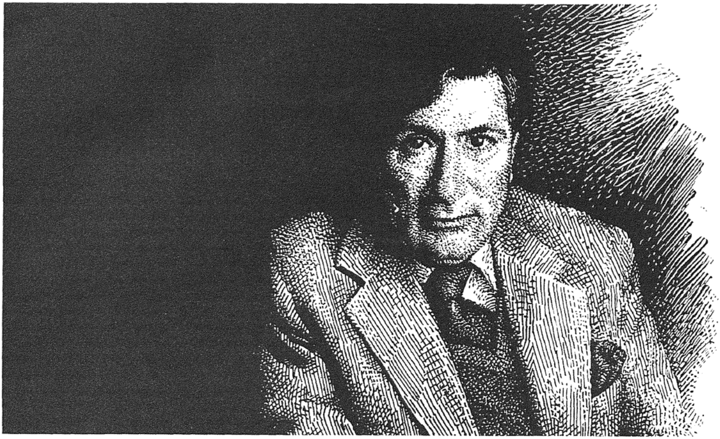
الثقافة والإمبريالية

Edward Said
Alfred A. Knopf, NY, 1993.

3 - Orientalism

الاستشراق

Edward Said
Vintage, Random House , NY, 1979.



لم تكن أسرة سعيد تنتمى لمهاجرى النكبة بقدر ما تنتمى لمن كان يطلق عليهم «شوام مصر» الأكثر تفرنجا وقربا من الشرائح العليا من الطبقة الوسطى المصرية. ومن هذا السياق سافر إدوارد لمواصلة تعليمه الثانوى فى الولايات المتحدة ثم ضمن له ذكاؤه وتفوقه الالتحاق بجامعتين من الجامعات الأكبر مكانة فى سلم الجامعات الأمريكية. درس فى جامعة برينستون حيث حصل على الليسانس، ثم انتقل إلى جامعة هارفرد لمواصلة دراساته العليا ومنها حصل على الدكتوراه عام ١٩٦٣.

صدر كتاب إدوارد سعيد الأول عام ١٩٦٦

سؤال الهزيمة:

كانت هزيمة ١٩٦٧ وما ترتب عليها نقطة تحول واضحة فى المسيرة الفكرية والعملية لإدوارد سعيد، طرحت عليه تلك اللحظة من بين ما طرحت، تصورا مختلفا لدوره حمل له إجابة على أسئلته الوجودية.

وهنا أقفز قفزة كبيرة تحملنى إلى كتاب «صور المثقف» (١٩٩٤)، وهو مجموعة من المحاضرات ألقاها سعيد عام ١٩٩٣ فى الإذاعة البريطانية، فى إطار سلسلة «محاضرات ريث» Reith Lectures وهى سلسلة بدأها برتراند راسل سنة ١٩٤٨، وشارك فيها أرنولد توينبى عام ١٩٥٠ واكتسبت بهذين الاسمين وغيرهما مكانة كبيرة.

عندما أعلنت الإذاعة عن محاضرات سعيد انهال الهجوم بدعوى أنه لا يستوفى شروط المشاركة، فهو يفتقد الموضوعية، معروف بانحيازه إلى الفلسطينيين والدفاع عنهم، ينقصه الموقف المتوازن المتوقع من المشاركين فى السلسلة.

ورغم الهجوم، ألقى إدوارد سعيد محاضراته الست، وبعد عام أضاف إليها مقدمة قصيرة ونشرها فى كتاب.

تتناول المحاضرات تعريف المثقف كما صاغه الكتّاب الأبرز فى الثقافة الغربية فى القرن العشرين ومنهم أنطونيو جرامشى وجوليان بندا وميشيل فوكو وريجى دوبريه وثيودور أدورنو وغيرهم. يعرض سعيد أفكارهم عن دور المثقف ويحاورها ويتفق ويختلف ويعدّل وصولا إلى بلورة مفهومه هو للمثقف.

ينتصر سعيد لمفهوم المثقف المعارض إذ يرى أن أبرز ما يميز المثقف هو «مواجهة السلطة بالحقيقة»، والانتصار للضعفاء والمضطهدين، من لا حول لهم ولا قوة ولا صوت، فيضطلع بالتعبير عنهم وتمثيلهم. المثقف الحق، فى رأيه، منشق على الأوضاع القائمة يسعى إلى تغييرها بإشارة مناخ أخلاقى يرفض الظلم والزيف والتسليم بالأمر الواقع. ليس المثقف فى نظره جزءا من نخبة منعزلة بل يتوجب عليه أن يسعى إلى الوصول إلى جمهور واسع عبر المتاح من المنابر، عليه أن يجذب اهتمام هذا الجمهور ليثير لديه الأسئلة ويخلخل المستتب من الأفكار والمسلمات. والمثقف فى مفهومه يجمع بين الموهبة والعمل الدءوب الصارم لتوسيع وتعميق معارفه إذ أن من مهامه التنقيب عن الوثائق المطمورة، وإحياء التواريخ المهملة والمنسية، وإثارة الخلاف والسجال وطرح الأسئلة، وتحطيم الأصنام وفضح الصور الزائفة وكسر القوالب الجامدة والأفكار الجاهزة القاصرة دائمة عن الإحاطة بالواقع.

ويرى سعيد أن دور المثقف يتطلب منه إنتاجا فكريا وممارسة عملية، يستتبع الشق الأول إعمال العقل النقدى فى كل ما يتناوله من مواضيع، أما الشق الثانى فيتطلب منه العمل المؤثر فى الواقع. المثقف، بهذا المعنى، معارض بامتياز يختار طريق مواجهة الطغاة و«المنتصرين»، ولذلك فهو هامشى بالضرورة، مسافر وحيد، مهاجر وإن عاش فى بلاده. باختصار المثقف، فى مفهوم سعيد، شخص موهوب، واسع المعرفة، يُشرع الحقيقة فى وجه القوة الغاشمة مستندا إلى قاعدة عريضة من الجمهور يتواصل معها ويؤثر فيها. وهو، رغم ذلك، مغترب تغلب عليه تجربة الوحشة.

ورغم ما تتسم به هذه المحاضرات من عمق المعرفة وسلاسة الأسلوب، ورغم استلهامها لجوانب هامة من فكر من سبقوه وإفادته منهم فى بلورة مفهومه الخاص (أخذ عن بندا أخلاقية المثقف وتضحياته وصلابته وأسقط مثاليته ونخبويته، وأفاد من مفهوم المثقف العضوى لدى جرامشى مع إسقاط ارتباطه بطبقة اجتماعية. فالمثقف لدى سعيد مستقل لا يلتزم بحزب أو مدرسة أو خط إيديولوجى، واعتمد كراهية أدورنو لكل الأنساق والأنظمة وإصراره على الاستقلال التام والتركيز على تجربة اغترابه، وتبنى ممارسة فوكو الفعلية فى كتاباته فيما عرف بحفريات المعرفة وهو عنوان كتابه الأشهر كما أفاد من مقولاته حول العلاقة بين المعرفة والسلطة) أقول، رغم ذلك رأى العديد من النقاد أن مفهوم المثقف الذى تبناه سعيد لم يكن سوى صورة مثالية لنفسه ولأدائه الشخصى.

وفى تقديرى أن الكتاب وما يطرحه عن المثقف والصورة التى يقدمها له لم تكن لتكتسب ما لها من مصداقية لو لم تكن محمولة على ما قدمه سعيد فكرا وأداء عمليا على مدى ربع قرن، أعنى الفترة الممتدة من عام ١٩٦٨ (تاريخ كتابته لأول مقالة مفصلة عن التجربة الفلسطينية) إلى عام ١٩٩٣، (تاريخ إلقاء هذه المحاضرات من الإذاعة البريطانية). نشر سعيد فى هذه الفترة ١٣ كتابا أتى فيها بالجديد وأثارت كلها دوائر واسعة من النقاش والسجال وخلفت له أنصارا عديدين وأعداء كثرا، كما حرص ألا يشغل دوره كأستاذ جامعى وباحث متخصص إلا جانبا من حضور مكثف فى الواقع السياسى والثقافى. أصبح عضوا فى المجلس الوطنى

حـــــكـــايــــة إدوارد

الفلسطيني، (هو الذي كتب النسخة الإنجليزية من أول خطاب يمثل فلسطين في الأمم المتحدة، الخطاب الشهير الذي ألقاه ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٤، وهو الذي لاحقا سيهاجم اتفاقيات أوسلو وينشر عشرات المقالات ينتقد فيها ياسر عرفات. سيقف إدوارد على العديد من المنابر العلمية والثقافية في الجامعات وفي غيرها من المحافل في الولايات المتحدة وأوروبا، والهند وجنوب إفريقيا والعالم العربي ليطرح فكره ومواقفه بشأن فلسطين والعرب والمسلمين. سيكون عضوا في قيادة نادي القلم الدولي، ويرأس إحدى الجمعيات الدولية الأبرز في الدراسات الإنجليزية وهي Modern Language Association، ويواصل الكتابة في مجلة Nation بصفته الناقد الموسيقي للمجلة.

الاستشراق والثقافة والإمبريالية:

أما بالنسبة لإنتاجه الفكري فقد قدم سعيد أولا ثلاثيته الكبيرة: «الاستشراق» (١٩٧٨)، و«مسألة فلسطين» (١٩٧٩)، و«التغطية الإعلامية للإسلام» (١٩٨٠) حيث تناول العلاقة بين الغرب الإمبريالي والشرق: العرب والمسلمين، ودور الثقافة والإعلام في ترسيخ الهيمنة الاستعمارية. في هذه الكتب الثلاثة طرح سعيد نظريته في «التمثيل» كما واجه الصورة المشوهة للعرب والمسلمين وتغييب الوجود الفلسطيني أو تشويهه.

وفي مقال محدود من هذا النوع لا يتسع المجال لعرض هذه الكتب تفصيلا ولا لمناقشة جسارتها وما أضافته أو قصرت عن إنجازه، ولكنني أتوقف قليلا أمام الكتاب الأهم في هذه الثلاثية، والذي حقق لسعيد شهرة واسعة ورسّخ مكانته بصفته أحد النقاد الأبرز في الولايات المتحدة وأوروبا، واعتبر عملا رائدا فتح الباب لاتجاه جديد في الدراسات الأدبية والإنسانية، أقصد كتاب «الاستشراق» وهو كتاب على أهميته كثيرا ما يساء فهمه، ليس لصعوبته فهو كتاب ممتع وسلس نسبيا ولكن إساءة الفهم راجعة لتداول فكرته دون قراءته، وربما أسهم في ذلك أيضا أن الترجمة العربية الوحيدة المتوفرة للكتاب متعثرة، غامضة يشوبها العديد من المشاكل، لعل أبرزها تحويل كتاب سلس وممتع إلى نص صعب مثقل باصطلاحات غير مفهومة.

يمكن تلخيص الكتاب وفرضيته الأساسية على النحو التالي:

ليس الشرق والغرب في الفكر الأوروبي السائد مجرد موقعين جغرافيين بل مفهومان أُنشئا إنشاءً، كل مفهوم منهما له تاريخ فهو محمّل بموروث سابق ودلالات ومفردات وصور تقسم العالم إلى قسمين غير متكافئين غير متعادلين هما الشرق والغرب. يتحول الشرق في كتابات الأوروبيين من مكان جغرافي إلى صورة تعكس حاجات صاحبها ومصالحه وموروثه، وتتناقل من جيل لجيل.

قبل ظهور كتاب سعيد كان المقصود بالاستشراق حقلاً معرفيًا يسهم فيه الباحثون في مجالات اللغات الشرقية وفلسفات الشرق وتاريخه ...إلخ وبدءاً من ظهور الكتاب اكتسب المصطلح معنى مغايراً دالاً على الإسهامات التي شكلت صورة الشرق بما يمهد للسيطرة الاستعمارية ويتوازى معها ويعزز استمرارها. الاستشراق بهذا المعنى مؤسسة هائلة لها السلطة والمرجعية، أسهم في تشكيلها وترسيخها أجيال من الشعراء والروائيين ورجال السياسة والمؤرخين والباحثين في مختلف المجالات، والعاملين في الإدارات الاستعمارية. الاستشراق مُخيِّلة ونظرة وأسلوب في التمثل والتمثيل تتعلق بصاحب النظرة أكثر مما تتعلق بموضوع النظر. إنها «معرفة» بالآخر تتضمن الوعي بدونيته و تفوق الأنا، كما تتضمن علاقة القوى بينهما. ومن هنا فإن الاستشراق ليس مجرد سلسلة من الأكاذيب أو الأساطير أو المؤامرات الشيطانية بل خطاب يعيد إنتاج الواقع بإعادة تشكيله بما يعبر عن موقع صاحبه ومصالحه. يؤكد سعيد أنه لا وجود لمعارف صافية متجردة فالمعارف وثيقة الصلة بعلاقات القوى، والسلطة القابضة التي تَرْشَحُ متغلغلةً نافذةً فيها، مشكِّلةً لبنيتها.

الاستشراق نسق معرفي متكامل، جملة من المعارف والممارسات ترسخت في الوعي الغربي على مدى أجيال، حاضرة نافذة في معاهد العلم، في المتاحف، في الدراسات التاريخية الاقتصادية والاجتماعية واللغوية والأنثروبولوجية والبيولوجية، وفي الروايات والقصائد والخطب البرلمانية وتقارير الموظفين في الإدارات الاستعمارية.. إنه شبكة من المصالح مترجمة في شكل خطاب مهيمن ذي مرجعية يمتد من السلطة السياسية إلى الذائقة الفنية مرورا بالمعايير الأخلاقية.

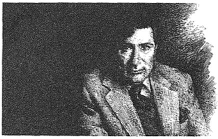
باختصار يقول سعيد إن فكرة الشرق تكشف عن الغرب أكثر مما تعبر عن الشرق. ويدلل سعيد على دعواه باقتباسات وإشارات لعدد هائل من

المثقف الحق، في رأيه، منشق على الأوضاع القائمة يسعى إلى تغييرها بإثارة مناخ أخلاقي يرفض الظلم والزيف والتسليم بالأمر الواقع. ليس المثقف في نظره جزءا من نخبة منعزلة بل يتوجب عليه أن يسعى إلى الوصول إلى جمهور واسع عبر المتاح من المنابر

النصوص السياسية والأدبية والعلمية من القرن التاسع عشر أساسا، نصوص لم ير أي من الباحثين السابقين أي رابطة بينها، يدرسها سعيد ويكشف عن ترابطها فتنتظم واضحة أمام القارئ في إطار خطاب الاستشراق، خط الإسناد الدائم للهيمنة الاستعمارية، خطاب يسمح ببعض الفروق الفردية، أو خصوصيات هنا وهناك، كما يتيح تعديلات يدخلها جيل لاحق على من سبق، ولكنه يبقى في عناصره الأساسية نفس الخطاب، يتوالد عبر الأجيال.

في مقدمة كتابه عن الاستشراق نبه سعيد إلى أنه إزاء خطاب متغلغل ونافذ لم يتناول سوى بعض جوانبه، رأى في كتابه مجرد دفعة أولى من دراسات واجبة، وقال إنه يعي النقص في كتابه، ويترك لسواه من الباحثين استكمال هذا النقص و تتبع جوانب أخرى من هذا الخطاب، وأضاف سعيد أن هناك أيضا حاجة لكتابة مقال عام يتناول مجمل العلاقة بين الثقافة والإمبريالية. هذا الشق الثاني من المهمة يضطلع به سعيد نفسه لاحقا في كتاب «الثقافة والإمبريالية» (١٩٩٣). يتناول الكتاب العلاقة بين الصراع على الأرض ومواردها والأرشيف الثقافي في حالة القوة الاستعمارية، وعلى الجانب الآخر، في حالة المقاومة الوطنية (ولم يكن سعيد تطرق لهذا الجانب في كتاب «الاستشراق»). في الحالة الأولى يدلل سعيد على طرحه النظري بدراسات متنوعة تشمل أساطين الرواية الإنجليزية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين: جين أوستن وديكنز وكونراد وكيبلنج. ويضيف فصلا ممتعا يتناول فيه أوبرا «عايدة»، الموسيقى والديكور والعرض المسرحي... إلخ. يستكمل سعيد درس العلاقة بين الثقافة والهيمنة الاستعمارية، ويطور فكرته على النحو التالي:

كان للمعركة من أجل امتلاك الأرض ونهب مواردها أبعاد ثقافية واضحة وحاسمة، وحظي التوسع الاستعماري بقوة إسناد هائلة من قبل الكتاب والمفكرين والباحثين الأوروبيين ومن هنا



كان إنتاج الصورة وتسويقها جزءا من مشروع الهيمنة الاستعمارية. ويضيف سعيد، وهذا ما أعتقد أنه من جديد الكتاب، أنه يصعب علينا فهم كبار الكتاب الأوروبيين من أمثال جين أوستن وشارلز ديكنز وأندريه جيد وألبير كامو خارج هذا السياق.

ويذهب سعيد إلى حد الربط بين نشأة الرواية والواقع الاستعماري (من المعروف أن دارسي الأدب الأوروبي والمؤرخين لنشأة الرواية قد ربطوا بين ظهور هذا الشكل الأدبي المستجد وصعود الفردية ونشأة الرأسمالية حتى وصفت الرواية بأنها «ملحمة البورجوازية»)، ولكن سعيد يطرح جديدا حين يربط نشأة الرواية بواقع التوسع الاستعماري، فالرواية الأولى في الأدب الإنجليزي مثلا وهي «روبنسون كروزو» (١٧١٩) رواية مغامرات تستلهم رحلات الكشوف البحرية في القرنين السابقين وتحكمها إيديولوجية الاستيطان الاستعماري: امتلاك الأرض واستغلال مواردها واستعباد الساكن الأصلي. ولما كانت الإمبراطورية هي الحقيقة المركزية في تاريخ بريطانيا في القرن التاسع عشر فقد ازدهرت الرواية وانتشرت وحظيت بشعبية لم تحظ بها في أي من البلاد الأوروبية الأخرى، وأصبحت الرواية الإنجليزية في القرن التاسع عشر مؤسسة قوية تحظى بحضور مؤثر في الحياة الثقافية.

لا يذهب سعيد إلى القول إن الرواية نتاج التجربة الاستعمارية بل يطرح فكرة وجيهة مفادها أنه يصعب فهم هذه الرواية مغفلين حقيقة التوسع الاستعماري الذي يفسر لنا الكثير من عناصرها ومجريات أحداثها بل وأيضا بعض تقنياتها. ويرى سعيد أن كبار الروائيين الإنجليز في ذلك الزمان أسهموا بشكل أساسي عبر الرواية في ترسيخ مشاعر ومواقف ومرجعيات إذ شكلوا «فكرة إنجلترا» بمعنى هويتها ومفهومها عن نفسها. إنجلترا في نصوصهم هي «هنا»: المكان المعلوم المألوف الذي تتناوله الرواية تفصيلا، تبحث في ثناياه وتعرض لعناصره وتعرفه وتقيمه وتشكل ملامحه في ضوء «هناك»: المكان الغامض، المتوحش غير المحكوم بسنة أو قانون أو ضوابط، تشير إليه الرواية دائما بدون تفاصيل وإن بقي وجوده ضروريا لتحديد ملامح الذات.

ولا يقتصر سعيد على تناول هذه العناصر في الرواية الإنجليزية بل يتتبع أثر الواقع الاستعماري في مفهوم الزمن وأنماط القص، في مسار البطل وفي غيرها من العناصر التقنية، ويدلل على ذلك بالنصوص الأهم في تيار الحداثة في مطلع القرن العشرين ومنها نصوص لجويس (رواية أوليس) واليوت (قصيدة «الأرض الخراب»)، وبروست (رواية «البحث عن الزمن المفقود») وكامو (رواية «الغريب» التي لا يقرأها كما درج النقاد بصفتها نصا وجوديا، بل يقرأ في صفحاتها علاقة كاتبها المستوطن الفرنسي في الجزائر).

ولأن العلاقة الاستعمارية تفسر جوانب مضمونية وبلاغية في هذه النصوص فإن إدوارد سعيد يقترح نوعا جديدا من النقد (وهنا أيضا إضافة من إضافات سعيد في هذا الكتاب) يطلق عليه اسم «النقد الكونترابنتالي» والمصطلح مستمد من التأليف السيمفوني حيث يقابل اللحن لحنٌ مضاد، وحيث تتآلف الأصوات وهي تتقدم وتتأخر في تقاطعها وتعاكسها وتوازيها. من هنا تصبح وظيفة النقد الأدبي هي قراءة النص في سياقه والسياق المقابل أيضا، في ضوء رواية المستعمِر (بالكسر) لتاريخه ورواية المستعمَر (بالفتح) لحكايته، مما يمكّن من فهم تلك العناصر التي قد نمر عليها مر الكرام.

أشار سعيد كما أسلفت في مقدمة «الاستشراق» إلى ضرورة كتابة مقال عام حول الثقافة والإمبريالية وهو الكتاب الذي لخصت بعض أفكاره في الفقرات السابقة. ويشير سعيد كذلك في هذه المقدمة إلى ضرورة مواصلة الباحثين لدراسة الجوانب الأخرى من الاستشراق. فتح كتاب سعيد الباب للباحثين بلا حصر لا لدراسة الاستشراق وحده بل لكافة أشكال العلاقة بين المستعمر والمستعمر في تجلياتها الثقافية، هو مبحث في الدراسات الإنسانية صار يعرف لاحقا باسم الدراسات ما بعد الكولونيالية ومنها النقد ما بعد الكولونيالي. واتجه الكتاب والدارسون على اختلاف تخصصاتهم إلى تناول جوانب هذا الموضوع، منهم من طوّر المفاهيم النظرية لسعيد وأضاف إليها، ومنهم من اختلف معه وإن انطلق من نصه الملهم، ومنهم من استخدم ما وفره سعيد من أدوات في دراسات في التاريخ والثقافة والأدب والتعليم...إلخ. باختصار خرج من معطف سعيد العديد من النقاد والدارسين.

النص والعالم:

كان سعيد بحكم الدراسة والتكوين العلمي والعمل الوظيفي متخصصا في الدراسات الأدبية المقارنة ولكن نظرة سريعة على مجمل إنتاجه: الكتب والدراسات والمقالات تكشف أن ثلاثة فقط من كتبه تدخل في نطاق تخصصه المباشر، هي كتابه الأول عن كونراد (١٩٦٦)، وكتاب «بدايات» (١٩٧٦) وكتاب «العالم والنص والناقد» (١٩٨٣)، وتمثل هذه الكتب ثلاث مراحل في تطور سعيد النقدي كما تمثل مجتمعة مرحلة من مراحل أدائه الثقافي إذ أنه أخذ ينتقل تدريجيا في البداية ثم بحسم ووضوح لاحقا إلى نقد ثقافي لا ينحصر في إطار النقد الأدبي بمعناه الشائع وإن وظف معارفه وقدراته في قراءة الأدب في خدمة هذا النقد الثقافي.

كتاب البدايات نص انتقالي حمل سعيد بعيدا عن النقد الفينومينولوجي الذي وظفه في كتاب كونراد (تأثير مدرسة جنيف بتركيزها على العناصر المكونة لوعي لكاتب). يستفيد سعيد في كتاب «البدايات» من بعض الأدوات التي وفرتها المدرسة البنيوية الفرنسية ولكنه يخطو في شيء من الوجل في اتجاه نقد ثقافي ذي توجهات اجتماعية، ويستلهم كتابات الفيلسوف الإيطالي جامباتيستا فيكو، وهو من مفكري القرن الثامن عشر.

أما في كتابه الثالث «العالم والنص والناقد» فيبلور سعيد مفهومه الخاص بالأدب ودور الناقد الأدبي. يرفض بحسم الاتجاهات الشكلانية في النقد (وكان هذا الرفض قائما ضمنا منذ البداية حيث لم يوظف سعيد في رسالته التي انتهى منها عام ١٩٦٢ أيا من أدوات مدرسة «النقد الجديد» وهي المدرسة المعتمدة آنذاك والمهيمنة في الأوساط الأكاديمية الأمريكية منذ مطلع الأربعينيات حتى نهاية الستينيات. رفض سعيد «النقاد الجدد» وفصلهم التعسفي بين النص ومؤلفه والواقع التاريخي الذي أفرزه، كما رفض الاتجاهات الشكلانية الأحدث وأبرزها البنيوية الفرنسية، إذ رأى أن هذه الاتجاهات النقدية دائما ما تؤدي إلى قراءة للنصوص محكومة بالبحث عن إثبات مقولاتها النظرية وغالبا ما تنتهي إلى ترويض النص الأدبي وتجميده وفصله عن الواقع وعن جمهوره الواسع. وهي دائما ما تدفع بالمعنى إلى مكانة ثانوية، تهمّش ما يقوله النص وتمنح جل الاهتمام للعناصر اللغوية وبنية النص والأدوات البلاغية المستخدمة فيه.

يدعو سعيد في كتاب «العالم والنص والناقد» إلى «نقد علماني» وهو المصطلح الذي اختاره لنقد وثيق الصلة بهذا العالم

ليس الشرق والغرب في الفكر الأوروبي السائد مجرد موقعين جغرافيين بل مفهومان أُنشئا إنشاء، كل مفهوم منهما له تاريخ فهو محمّل بموروث سابق ودلالات ومفردات وصور تقسم العالم إلى قسمين غير متكافئين غير متعادلين هما الشرق والغرب

حــــكـايـــة إدوارد

الذى هو منه وفيه وموجه إليه. نقد شاغله الأول استكشاف علاقة النص الأدبى بالواقع الذى أنتجه وبقضايا هذا الواقع. ولا يقتصر دور الناقد على «العلمانية» بهذا المعنى إذ لا يكتمل دوره إلا بموقف نقدى يطرح الأسئلة ويخلخل النظم السائدة بما ذلك النظم النقدية نفسها التى يتعين على الناقد قراءتها وتقييمها فى ضوء الواقع الذى أنتجها، وضرورات هذا الواقع واحتياجاته. كذلك يولى سعيد جمهور الأدب انتباها خاصا فى طروحاته عن النص الأدبى والنقدى.

ولعلها من المفارقات الدالة أن سعيد الناقد الأدبى بحكم التخصص والوظيفة لم يقدم نظرية أدبية متكاملة بالمعنى الدارج للمصطلح. وإن قدم إسهاما نظريا لا شك فيه يفتح الباب واسعا أمام إسهامات أخرى فى نفس الاتجاه نظريا وفى التطبيق. كان سعيد ومجموعة أخرى من الرواد يسقطون الحدود الفاصلة بين حقل الدراسات الأدبية وغيره من الحقول المعرفية ويمهدون الطريق لاتجاه يزداد قوة وحضورا فى المشهد الثقافى الإنجليزى والأمريكى بدءا من منتصف الثمانينيات ثم فى التسعينيات. اتجاه يجمع بين الثقافى والسياسى، ويستوعب تخصصات متعددة داخل نطاقه البحثى.

باختصار كان كتاب «الاستشراق» الصادر عام ١٩٧٨ بداية مبكرة لاتجاه فى النقد الأدبى سيعرف لاحقا بمدرسة النقد ما بعد الكولونيالى، كما كان عملا رائدا فى اتجاه واسع سيغلب على الدراسات الأدبية منذ النصف الثانى من الثمانينيات ستتفرع عنه ثلاث «مدارس» تربطها وشائج قوية وإن تميزت عن بعضها فى التفاصيل، هى النقد ما بعد الكولونيالى، والنقد الثقافى فى إنجلترا، والتاريخية الجديدة فى الولايات المتحدة. اشتركت هذه المدارس الثلاث فى رفض فصل النص عن سياقه أو اعتباره عالما مغلقا تحكمه قوانين تخصه وحده أو اعتباره تعبيرا عن تجارب إنسانية مطلقة وقيم عامة وبشر خارج التاريخ. واستبدلت بذلك مفهوما للنص الأدبى يراه مفتوحا على الواقع التاريخى محكوما بعناصره، لا لأنه يعكسه بل لأنه إفراز من إفرازاته وموقع من مواقع الصراع فيه، يتمثل فى بنيته علاقات القوى المشكلة له.

وفى تقديرى أن مفهوم سعيد للنص الأدبى ودور الناقد كان متسقا مع الدور الذى اختاره لنفسه بدءا من تلك الواقعة المزلزلة فى يونيو ١٩٦٧. قرر سعيد، وهو ما تؤكده كتاباته، ألا يكتفى بدوره كمدرس وناقد للأدب بالمعنى المعتمد بل سعى إلى دور فاعل فى المشهد الثقافى العام. ولما كان سعيد حاد الذكاء فقد التقط الدرس الكامن فى تلك الرسالة التى اقتبسها فى كتابه الأول، أقصد رسالة هنرى جيمس إلى كونراد والتى أوردتها فى مطلع هذا المقال، اقتبسها للمرة الثانية: «لم يستخدم أحد من المثقفين ما لديك، فلا أحد منهم يعرف ما تعرفه عن هذا الموضوع كله، لديك كفنان سلطة لم يقربها أحد بعد».

حول سعيد غربته من «معوق» إلى «محرك»، ليصبح الاقتلاع والمنفى والازدواج الثقافى عناصر أساس فى تشكيل نظرة جديدة إلى الثقافة أغنى بها زمانه وضمنت له موقعا متميزا فيه.

سعيد والقضية الفلسطينية:

بعد عام واحد من هزيمة ١٩٦٧ بدأ سعيد فى كتابه نصه الأول عن القضية الفلسطينية وهو مقال سياسى طويل كتبه بين عامى ١٩٦٨ و١٩٦٩ ونشر عام ١٩٧٠ بعنوان: «التجربة الفلسطينية» (سيضمنه لاحقا كتابه «سياسة الاقتلاع» The Politics of Dispossession)

قال سعيد مرارا أنه لم يكن مسيسا قبل عام ١٩٦٧، قال: «للمرة الأولى منذ غادرت وجئت للإقامة فى الولايات المتحدة (كان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره) استعادنى عاطفيا العالم العربى عموما، وفلسطين خصوصا».

ترجم سعيد هذه العودة العاطفية بثلاثة أشكال: أولها عمله الفكرى الذى وظف فيه ذلك الذى يعرفه دون غيره من نظرائه من المثقفين الأمريكيين فكانت بدايته كتاب «الاستشراق»، أما الثانى فكان قيامه بتمثيل الفلسطينيين تحديدا، والعرب عموما فى الولايات المتحدة وفى مختلف الدول الأوروبية. قرر أن يكون ناطقا باسم شعب مقهور تشوه صورته بانتظام أو تغيب ويتم بالتالى إسقاطه من الحساب. ولم يقتصر ذلك على مقالاته ومحاضراته وتصريحاته ومشاركاته فى مختلف الندوات، بل أراد سعيد وهو الذى صرف جزءا من جهده الفكرى فى تعريف «التمثيل» بمعنى الصورة ودلالاتها ووظائفها أن يكون أينما حل نموذجا إنسانيا مدهشا فى حضوره، دائما وفى كل الحالات يبدو واسع المعرفة، ذكيا لامعا، سريع البديهة. كان قد قرر أن يكون صوتا للمقهورين ولكنه وبمفارقة مدهشة كان قد قرر أيضا أن يواجه صورة توحش العرب والمسلمين بوسامته وأناقة مظهره وسلوكه، وزاد على ذلك أنه كان عازفا موهوبا للبيانو واصل لسنوات طويلة كتابة مقالات فى النقد الموسيقى، كما كان وهو المدرب فى حقل الأدب المقارن يتقن الفرنسية والألمانية ويعرف بطبيعة الحال شيئا من اللاتينية التى يتوقع من الدارس الجاد للآداب الأوربية أن يصيب شيئا من المعرفة بها.

وهكذا بدا سعيد فى «الريف الأمريكى» وفى نيويورك، حاضرته «الكوزموبوليتية»، مثقفا على أعلى مستوى، يفوق المثقفين الأوروبيين الذين عادة ما ينظر إليهم الأمريكيون بعين الإعجاب والغبطة. وربط بين هذه الصورة التى اختارها لنفسه وبين الاسم الفلسطينى الذى صار ناطقا به. أما الشكل الثالث الذى عبر به سعيد عن عودته فكان الاندراج بشكل أو بآخر فى الواقع السياسى والثقافى العربى. صار عضوا فى المجلس الوطنى، يتردد بانتظام على العالم العربى، ينشر مقالات أسبوعية فى جريدتين عربيتين، «الحياة» و«الأهرام ويكلى»، ويدخل فى معارك مباشرة كانتقاده الحاد والمتكرر لاتفاقيات أوسلو، ولفساد السلطة الفلسطينية وما يراه من مآخذ على ياسر عرفات. وجاء كتابه عن اتفاقيات أوسلو (١٩٩٤)، الكتاب الأول الذى يصدر بالعربية قبل صدور نسخة إنجليزية منه.

وأعتقد أن سعيد لعب دورا مهما جدا فى خدمة القضية الفلسطينية فى الولايات المتحدة وأوروبا، عبر كتبه ومقالاته ومداخلته من على مختلف المنابر، وإن اختلفت بعض طروحاته عن المواقف المعتمدة من قبل غالبية المثقفين العرب الساعين إلى خدمة القضية الفلسطينية فى موقعهم فى الداخل، سواء الداخل الفلسطينى، أو العربى.

واجه سعيد بسبب دفاعه المستمر عن القضية الفلسطينية وهجومه على الصهيونية هجوما شرسا، اتهم بمعاداة السامية (التهمة الجاهزة لكل من يجرؤ على انتقاد إسرائيل، وسمى «بروفسور الإرهاب»، وتعرضت حياته للتهديد، كما واجه غضب السلطة الفلسطينية بسبب موقفه من اتفاقيات أوسلو التى انتقدها تفصيلا فى مقالات متتالية نشرت فيما

كان سعيد ومجموعة أخرى من الرواد يسقطون الحدود بين الدراسات الأدبيــة وغيره من الحقـول المعرفيـة ويمهدون الطريق لاتجاه يزداد قوة وحضورا فى المشهد الثقافى الإنجليزى والأمريكى، يجمــــع بين الثقــافى والســياسى، ويستوعب تخصصات متعــددة



بعد في كتابين بالعربية، وكتاب بالإنجليزية.

وأخيرا، هامش شخصي:

تعرفت على إدوارد سعيد أول ما تعرفت عام ١٩٧٩، كان مجرد اسم أثار فضولي على غلاف كتاب عن كونراد تصفحته وأنا أجلس في قاعة الاطلاع بمكتبة أكاديمية العلوم المجرية في بودابست. كنت أكتب دراسة عن رواية «قلب الظلام» لجوزيف كونراد تحاول الإجابة على سؤال طرحته على نفسي قبل ذلك بسنوات، وإن لم يتح لي الوقت اللازم للبحث عن إجابته. في النصف الثاني من الستينيات درسنا الرواية في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة بصفتها نصا يفضح الاستعمار ويقدم الإدانة الأعنف للممارسات الاستعمارية في إفريقيا، ولم يكن هذا رأي أساتذتنا وحدهم بل رأي بعض النقاد الأبرز ممن تناولوا الرواية الإنجليزية. وفي مايو عام ١٩٧٥، قبل شهر واحد من حصولي على درجة الدكتوراه، ألقى الروائي النيجيري تشينوا آتشيبي محاضرة عامة في جامعة ماساشوستس حيث كنت أدرس وحيث كان أستاذا زائرا. تناول آتشيبي رواية كونراد بصفتها نصا استعماريا وعنصريا بامتياز. لم يتح لي إعادة قراءة الرواية ولا مناقشة آتشيبي بشكل مستفيض (رغم أنني كنت قد درست معه في العام السابق مقررين دراسيين في الأدب الإفريقي). كانت المناقشة تحتاج قراءة جديدة فاحصة للنص. وكنت أستعد لمناقشة الدكتوراه والعودة إلى مصر. بقي السؤال معلقا إلى أن أتيحت لي الفرصة في أجازة لمرافقة الزوج أن أبدأ البحث. في قاعة من قاعات أكاديمية العلوم في بودابست وقع كتاب إدوارد سعيد في يدي، ولكني على طريقة الباحثين المدربين على سلوك الطريق السريع إلى مقصدهم، لم أجد في الكتاب ما يفيد بحثي بشكل مباشر. قلت أعود له لاحقا.

لم أعد للكتاب إلا بعد سنوات وقد تحول سعيد من مجرد دارس متمكن للأدب الإنجليزي إلى ذلك النجم المتألق في عالم المعذبين في الأرض، يتيح بما طرحه أدوات لآلاف الباحثين المنشغلين بالمشروع التحرري. (قصدت استخدام تعبير المعذبين في الأرض ربطا ضمنيا لسعيد بفرانز فانون المفكر المارتينيكي وبكتابه الأشهر الذي يحمل هذا الاسم، فدور «الاستشراق» في زمانه وشعبيته الهائلة بين الباحثين من أبناء العالم الثالث والأقليات المضطهدة لا يضاهيه سوى شعبية كتاب فانون «المعذبون في الأرض» في الستينيات والسبعينيات).

لم أعرف معنى إدوارد سعيد إلا في مطلع الثمانينيات عندما قرأت كتاب «الاستشراق». أسرني الكتاب، وأذكر أنه أسر كل طالب أو طالبة أشرت عليه بقراءته. وحين درّست أجزاء منه ومن «الثقافة والأمبريالية» لطلاب الفرقة الرابعة وطلاب السنة التمهيدية للماجستير في درس النقد الأدبي أدهشني أن غالبية الطلاب ترغب في مواصلة الدراسة مستخدمة «منهج» إدوارد سعيد. ولا أذكر الآن إن كنت قلت ذلك لسعيد حين التقيت به للمرة الأولى، أم أشرت له وأنا أقدمه لطلاب الفرقة الرابعة في زيارته الأولى لجامعة عين شمس (وهي على ما أعلم لقاؤه الأول بطلاب جامعة عربية)، كان ذلك في عام ١٩٨٨، علمت بوجوده في القاهرة وبدون أي معرفة شخصية اتصلت به تليفونيا وعرّفته بنفسي وسألته إن كان يقبل أن يقدم محاضرة لطلابي في القسم. أدهشني قبوله السريع، أدهشتني أكثر فرحته وإقباله على الطلاب والمحاضرة. بدا أنه أستاذ أجنبي زائر يستمع له الطلاب بهدوء ويحجمون وجلا عن طرح الأسئلة. كسر سعيد حاجز الغربة بيسر غريب، أو ربما كسر أولئك الطلاب والطالبات المصريون في جامعة عربية غربته. راحوا يطرحون عليه الأسئلة بالإنجليزية، وبدأ يجيبهم بالإنجليزية، ثم أخذ يخلط الإنجليزية بالعربية، ثم ذهب إلى العربية بشكل كامل. تألق سعيد، وتألق الطلاب في حضرته وسرى في قاعة الدرس ذلك الوهج الأسر بين أستاذ وطلاب أو أساتذة صغار السن وطالب منصت وإن اعتلى منصة المحاضر.

تكررت التجربة في مطلع عام ١٩٩٤في النصف الأول من التسعينيات كان إدوارد سعيد كثير التردد على القاهرة. حاضر في جامعة القاهرة وجامعة عين شمس والجامعة الأمريكية، واشترك في مؤتمر الدولي للأدب المقارن الذي يعقده قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب بجامعة القاهرة. وشارك في عدة ندوات بعضها عقد في جريدة الأهرام.

كان يصل المطار مزودا بأدويته، وأحيانا يحمل في يده تلك الحقيبة المعدنية المليئة بالأمصال التي يتعين عليه أن يحقن بها. مرات يكون في لندن لجلسات العلاج الكيماوي فيقرر أن يأتي إلى القاهرة في طريقه إلى نيويورك! كان قد بدأ الإعداد لكتابة سيرته الذاتية وكأن الشروع في الكتابة عن طفولته استحضرت له المكان وارتباطه به، أو كأنه وهو يعي تهديد الموت أراد أن يعاود الارتباط بأول منزل، المكان الأليف والأكثر قربا لقلبه.

قالت دعاء إمبابي بعد أن استمعت لمحاضرة إدوارد سعيد في مدرج ١٢٢ في قسم اللغة الإنجليزية في آداب عين شمس، سأكتب بحث الماجستير عن إدوارد سعيد. في العام التالي بعد تخرجها، وكانت الأكثر تفوقا في الدفعة، فاتحتني في موضوع إشرافي على بحثها. حاولت إثناءها، بدا لي الموضوع صعبا. ولم تكن دعاء أكملت عامها الحادي والعشرين. أصرت. لاحقا أنجزت دعاء رسالة ماجستير ممتازة في النقد النظري بعنوان «مفهوم إدوارد سعيد للتمثيل» بعدها حصلت على منحة دراسية لمدة عام، وقبل إدوارد سعيد أن يشرف عليها ذلك العام الدراسي في جامعة كولومبيا.

حول سعيد غربته
من «معوق» إلى «محرك»،
ليصبح الاقتلاع والمنفى
والازدواج الثقافي عناصر أساس في تشكيل نظرة
جديدة إلى الثقافة أغنى بها
زمانه وضمنت له
موقعا متميزا فيه

حين سافرت دعاء إلى كولومبيا كان هاني حنفي قد عاد إلى مصر وناقش رسالته للدكتوراه التي أعدها بإشرافنا المشترك: إدوارد سعيد وأنا.

كان هاني المعيد في جامعة طنطا أنجز رسالة الماجستير بإشرافي، واستقر رأيه بعد ذلك أن يكون كونراد موضوع رسالته للدكتوراه. بعد بضعة شهور من البدء في بحثه حصل على منحة دراسية في إطار القنوات العلمية المشتركة (وهو شكل مستحدث نسبيا من البعثات يتيح للدارس أن يفيد من الدراسة في الخارج لمدة عام أو عامين دراسيين ويحظى بخبرة مشرفين، مشرف من جامعة مصرية وآخر من جامعة أجنبية). قلت لهاني: ما رأيك أن نقترح على إدوارد سعيد أن يكون المشرف المشارك؟ قال هاني: لن يقبل. قلت: نحاول. رجحت أنه سيقبل. في يوليو عام ١٩٩٣ التقيت بسعيد وكان عائدا في نفس اليوم من غزة في دعوة أقامها السفير الأيرلندي لأعضاء المؤتمر الدولي للدراسات الأيرلندية الذي استضافه قسمنا بجامعة عين شمس. كان سعيد وصل من غزة في نفس اليوم، ولكنه حضر الدعوة، لم يفوت فرصة الحديث لذلك الحشد الكبير من الباحثين الأجانب والعرب. وقف في حديقة بيت السفير أوتول حيث أقيم حفل الاستقبال، وفي ميكروفون مرتجل دبره له السفير نقل سعيد إلى الحضور مشاهداته في غزة المحتلة.

في نفس الليلة سألته: ما رأيك في الإشراف على طالب من جامعة طنطا؟

تدخلت أستاذة كبيرة بمزيج من الدهشة والاستنكار: طنطا؟!

قلت له: طالب ممتاز.

تطلع فى، قال: موافق.

فى اليوم التالى، على ما أذكر، التقينا فى إطار نفس المؤتمر لحضور عرض خاص لمسرحية للكاتب الأيرلندى براين فريل على خشبة مسرح الهناجر. قلت وأنا أضحك: ستمنحك البعثات ما لا تتخيل من مزايا. فندق نجمة ونصف، وأموالاً طائلة!

ضحك، قال: ولكن أين هانى؟

اتفقنا أن يلتقى به هانى فى الثامنة صباح اليوم التالى فى الفندق الذى ينزل فيه.

حين عاد هانى من كولومبيا وانتهى من رسالته وأرسل نسخة منها لإدوارد سعيد لكى يكتب له تقريره عن صلاحية الرسالة للمناقشة، قال هانى: لن يأتى إدوارد، لا أتصور أنه مع مشاغله ووضعه الصحى يأتى خصيصا من نيويورك للمشاركة فى مناقشة رسالتى. ولكنى كنت واثقة أنه سيأتى. قلت لنفسى: عينا إدوارد لا تخطئان أبدا فى التقاط القيمة. سيقرأ الرسالة فيأتى. لن يفوت هذه المناقشة.

فى نوفمبر ١٩٩٨ جاء إدوارد سعيد إلى القاهرة وانتقلنا بالقطار إلى طنطا، بصحبة الدكتورة هدى جندى والدكتورة فريال غزول العضوين الخارجيين فى لجنة الامتحان. تمت المناقشة فى كلية الآداب جامعة طنطا، فى مدرج مكتظ بطلاب الجامعة، وطلاب وباحثين وصحفيين قدموا من القاهرة والإسكندرية وغيرهما.

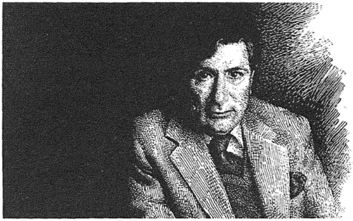
حصل هانى على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة وتبادلها مع الجامعات.

باحثة ثالثة من طلابى، كنت أتمنى أن يشارك سعيد فى تقييم رسالتها. كتبت له. قال: لن أستطيع. كررت، ولكن هذه رسالة تخصك جدا، إنها بمعنى من المعانى رسالتك. حالت الظروف دون أن يشاركنا إدوارد فى مناقشة تلك الرسالة التى تناولت فيها منى عبد الوهاب تمثيل القدس فى نصوص الصليبيين فى المناقشة كان إدوارد سعيد الحاضر الغائب، فلم يكن الموضوع، ولا النتائج المبهرة التى توصلت لها منى عبد الوهاب ممكنا بدون ما وفره إدوارد سعيد ومن واصلوا طريقه من توجه وأدوات منهجية.

التقيت بإدوارد سعيد مرات عديدة فى القاهرة، وبيروت ونيويورك فى إطار عام وإطار أسرى ومن بين مئات اللحظات اخترت هذه اللمحات من علاقتى به لأبرز جانبا آخر من حضوره المتعدد: كان أستاذا ملهما يطرح على شباب الباحثين شيئا مثيرا معديا، نوعا من التحدى العقلى والنفسى، كأنه يركض بشكل آسر ويراهنهم إن كان باستطاعتهم اللحاق به. كان ملهما لهم بعلمه، وحضوره الإنسانى وهذا المزيج المركّب من نجم كبير وألفة وبساطة وحنو وقسوة ومشاكسة صبيانية، ومطالبة صارمة بالذكاء والتميز المعرفى.

فى مارس الماضى، جاء إدوارد إلى القاهرة. التقينا به بشكل مكثف، فى أيام متتالية أحيانا. اللقاء الأول على مائدة منى أنيس وفى صحبة عبد العظيم أنيس ومحمود العالم وإسماعيل صبرى عبد الله وزوجته، ومحمد فائق، وجلال أمين، وجمال الغيطانى وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم وفايزة حسن ومريد البرغوثى وأنا، واللقاء الأخير فى بيت رفيقات صباه، هدى ونادية وشادية جندى بالزمالك، نفس البناية التى عاش فيها جزء من طفولته. جاء مودعا على يبدو. اتصل تليفونيا صباح الأحد.

ثم رحل. ■



إدوارد سعيد المنتمي

مصطفى البرغوثي

ليس من المبالغة القول أن أفضل من مثل قضية الشعب الفلسطيني ومعاناته وطموحه للحرية الحقيقية والكرامة، هو إدوارد سعيد.

مع أن إدوارد سعيد لم يصل لفلسطين عبر بوابة الانتماء القومي أو المعاناة بحكم التواجد في الموقع الجغرافي أو الفعل السياسي البحت.

لقد وصل إدوارد سعيد لفلسطين من بوابة الانتماء العريض والواسع للفكر والقيم الإنسانية الرفيعة وللقيم الأشمل والحس المرهف تجاه العدالة والحق. وقد رأى بوعيه قبل قلبه مدى فداحة الظلم الذي يعيشه شعبه وعمق الجريمة التي ارتكبت بحقه، واستثاره أكثر الصمت المنافق للكثير من الأقلام والأطراف والجهات الدولية عما جرى له، إما حرصاً على مصالح أو رهبة من إرهاب اللوبي الإسرائيلي أو تقاعساً عن القيام بواجب قد يكون مكلفاً ولن يكون بالتأكيد مربحاً.

كان لدى إدوارد سعيد حساسية متوقدة دون انقطاع تجاه الظلم ولذلك انتمى بكل جوارحه لفلسطين.

ولذلك أيضا كان تمثيله لفلسطين هو الأفضل. لأنه استمد طاقته من قيم إنسانية راقية تصعب معارضتها، ولأنه أيضا كان مستقيماً، لم يخادع ولم يراوغ بل قال الحقيقة، قالها دائماً وقالها كاملة وقالها للنهاية أياً كان الثمن. قالها للإسرائيليين وضد الحركة الصهيونية بنفس القوة التي قالها عند انتقاد أخطاء السلطة الفلسطينية.

وقد دفع إدوارد سعيد ثمناً باهظاً لمواقفه ولجرأته ولشجاعته الفكرية.

وقاوم بشجاعة هجمة الحركة الصهيونية واللوبي الصهيوني وأنصاره في الولايات المتحدة، وكان يعرف أنه ضحى بالكثير من المكتسبات من أجل قول الحق في قضية فلسطين، كما كان يعرف أنه قد ضحى إلى الأبد بما يسمونه «راحة البال» و«السكينة»، وقد فعل ذلك عن إدراك ودون تردد.

وكان ذلك كله طبيعياً. فحياة إدوارد سعيد كانت تجسيداً لفكرة «انتماء المثقف»، وإن كانت قد تميزت بالجمع المذهل بين انضباط الملتزم والاندفاع الكامل نحو حرية البحث والتنقيب عن الحقيقة دون خوف من نتائج هذه الحرية ودون محاولة التغطية على نتائجها، الأمر الذي قاد إدوارد سعيد إلى موقف المعارضة الديمقراطية الفلسطينية، وخاصة بعد اتفاق أوسلو وإلى المساهمة بجرأة في تأسيس المبادرة الوطنية الفلسطينية كحركة معارضة ديمقراطية تسعى لإعادة استنهاض الشعب الفلسطيني والوصول بقضيته إلى لحظة الإنجاز.

وقبل الخوض في تفاصيل كل ذلك، لا بد من استذكار بعد ثالث لعلاقة إدوارد سعيد بفلسطين وبعمله عموماً، وهو ذلك الشعور الملح واليومي بالواجب، وبأنه يستطيع أن يعمل أكثر وأحسن وأن عليه واجبا في كل حقول المعرفة التي خاضها ولكن خاصة تجاه فلسطين. وكان تفاقم الأحداث وتعاظم التحديات التي تواجهها وفداحة الخسائر الفلسطينية خلال الانتفاضة في ظل تجل مريع للعجز العربي والفشل القيادي الفلسطيني يثير لديه ألماً حاداً كجرح سكين لا تتوقف عن الحركة لتذكره بأن عليه أن يعمل اكثر، رغم أنني لم أر في حياتي شخصا لا يتوقف عن العمل مثله.

كان آخر حديث لي معه قبل وفاته بثلاثة أيام، لدقائق سمح بها وضعه الصحي المتردي، وجاء صوته ضعيفاً عبر الهاتف وقلت له - استرح قليلاً، استرح حتى تسترد قواك، وقال لي، كيف أستريح، أريد أن أنهض، أريد أن أكتب. أريد أن أعمل، أنا لم أعمل شيئاً حتى الآن!!!

لم يعمل شيئاً حتى الآن!! ليت الكثيرين يتعلمون من ذلك!

لقد تبارى بعض المثقفين بعد وفاته في محاولة إظهار أنه محايد وغير منتم وأنه أسمى من الانتماء، وبرأيي أنهم كانوا يدافعون عن سلبيتهم وخوفهم من فكرة الانتماء سواء لفكر أو لقضية، أو للنشاط السياسي الذي انهمك فيه مؤخراً. وكأن المثقف يجب أن يعيش في برج عاجي أسمى من البشر العاديين وهمومهم وقضاياهم. وهؤلاء إما لم يعرفوا إدوارد سعيد أو لم يفهموه.

ولا أعرف كيف استفحل هذا المرض بالخوف من الالتزام سواء كان فكرياً أو ثقافياً أو إنسانيا أو سياسياً، وإن كنت أجد له تفسيراً بأنه وجد عبر التاريخ تعبيراً عن ضعف بشري يتعمق دائما في ظرف الأزمات والإحباط. فالانتماء والالتزام مكلف، والبرج العاجي يوفر الأمان والسكينة. ويستطيع أصحابه الادعاء بما سماه إدوارد سعيد «العقلانية والفكر» والتي ربطت كلمة مثقف ذهنيا بـ «برج عاجي» و«استهزاء» بالآخرين. مستشهدا في محاضرات ريث التي قدمها عام ١٩٩٣ والتي جمعت في كتاب «صور المثقف» بما قاله رايموند وليامز «ظلت الاستعمالات السلبية للكلمات مثل المثقفين والنزعة الفكرية والصفوة من المثقفين، سائدة في الإنجليزية حتى منتصف القرن العشرين ومن الواضح أن التشبث بها مازال مستمراً».

ويتعرض سعيد في ذلك الإطار لرأي جوليان بندا بأن «المثقفين يجب أن يتحلوا بالموهبة الاستثنائية وبالحس الأخلاقي الفذ، وأن يشكلوا ضمير البشرية، مؤكداً عدم الموافقة على الفكرة القائلة، بوجود مثقفين منفصلين كلياً عن العالم الواقعي، منصرفين بكليتهم إلى الاهتمامات الخيالية، مقيمين في أبراج عاجية، يعيشون في عزلة شديدة ويكرسون حياتهم للمواضيع المبهمة.... فالمثقفون الحقيقيون لا يكونون أبدا في أفضل حالاتهم النفسية إلا عندما تحركهم مبادئ الحق والعدل النزيهة فيشجبون الفساد ويدافعون عن الضعيف، ويتحدون السلطة المعيبة أو القمعية.

ليقترب أكثر في نهاية المطاف من تصور غرامشي باعتباره أقرب للواقع ثم لينتهي باستحالة وجود المثقف الخاص، فكل عمل للمثقف هو مزج معقد بين الخاص والعام، «لأنك تدخل العالم العام منذ اللحظة التي تكتب فيها كلماتك ثم تنشرها» ومن حق البشر كلهم توقع معايير سلوكية لائقة من القوى الدنيوية أو الأمم، وأن الانتهاكات المتعمدة أو الناجمة عن إهمال هذه المعايير يجب أن يشهد ضدها وأن تحارب بشجاعة».

ولا تكتمل الصورة دون الإشارة هنا إلى أن إدوارد سعيد كان حازما في موقفه ضد التعصب، فهو لم ير الانتماء لقضية ما دافعا للتعصب بل تشدد في المطالبة بالموضوعية والانفتاح الفكري وإخضاع كافة المسلمات للفحص والتمحيص وحتى النقد.

وفي نقده المباشر لاتفاق أوسلو يتقدم إدوارد سعيد من ذات المسألة التي أثرناها، مشكلة الخوف من الالتزام وقول الحقيقة لدى بعض المثقفين الفلسطينيين وسبب التناقض الصارخ بين أقوالهم في الدوائر المغلقة وتلك في العلن على شاشات التلفزيون ليتساءل «أيكون الأمر أن أغلبنا يحمل تحت جلده الموروث السائد حتى الآن في معظم بلدان العالم العربي، حيث يجد المثقف نفسه في خدمة السيد والراعي، فيدافع عنه

ويهاجم من يهاجمه، ويحرص دائما على تجنب ما يضير مستقبله المهنى ويقلص من حجم المكافأة التى ينالها جزاء لخدمة هذا السيد».

«أنا أزعم أن هذا الإحساس بانعدام الأمان وثيق الصلة بالاختراق الأمريكى والإسرائيلى لصفوفنا. وما أعنيه بالاختراق هنا، هو ذلك الهوان الثقافى والأخلاقى حين يصبح الهدف الرئيسى للمثقف الفلسطينى والعربى ليس النضال من أجل الاستقلال الوطنى، وإنما الفوز بقبول أى من الساسة أو الأكاديميين الإسرائيليين أو الحصول على دعم مالى من الاتحاد الأوروبى أو أن تتم دعوته إلى مؤتمر ما فى باريس أو نيويورك. لماذا ينبغى علينا دوما أن نعود إلى البديهيات، وأن نكرر بأن ثمة فارقا كبيرا بين الحوار والإذعان، وبين التعامل مع الواقع والاستسلام لشروط الطرف الأقوى».

هذا ما قاله إدوارد سعيد فى معرض استعراضه لاتفاق أوسلو وهو برأيى ينطبق اليوم حرفيا على ما سمى «بوثيقة جنيف» ودعاتها الذين لم يعودوا يستطيعون التمييز بين الواقعية، باعتبارها فهمًا للواقع من أجل تغييره، وبين الاستسلام المحزن للواقع الأليم.

وقد سبق إدوارد سعيد زمنه فى كثير من الأحيان. ولعل منظومة أفكاره فى نقد الاستشراق والفكر الغربى، قد سبقت بالنقد والتحليل ما نواجهه اليوم بثلاثة عقود، وكم تبدو كلماته التى كتبها قبل عشرة أعوام بالضبط دقيقة إلى حد النبوءة عندما كتب «كان الله فى عون العديد من حكام العرب الذين أراهم اليوم فى وضع لا يحسدون عليه، فقد اشتروا من خلال التودد لإسرائيل والولايات المتحدة مهلة زمنية ليست طويلة، فى الوقت الذى سيجدون فيه أنفسهم قريبا جدا مضطرين لمواجهة المشاكل الاجتماعية والمعنوية الحادة التى أرجأ التعامل معها وتجاهلوا وجودها لزمن طويل».

رفض أوسلو

لعل أبرز محطات علاقة إدوارد سعيد بالقضية الفلسطينية كانت رفضه المباشر، الحاد والقاطع لاتفاق أوسلو، وتوافق ذلك مع استقالته من عضوية المجلس الوطنى الفلسطينى. ومثلما هو متوقع فإن رفضه لم ينطلق من اعتبارات التعصب القومى الذى عارضه دوماً، بل من زوايا عديدة أولها إدراكه بأن هذا الاتفاق سيلقى الفشل بسبب عدم منطقيته، وغياب الانسجام فى نصوصه ومعانيه، مما أدى إلى تنازلات مبدئية مريعة من الجانب الفلسطينى، حين تقدم «حركة تحرر وطنى لأول مرة فى القرن العشرين على التفريط بإنجازاتها الضخمة وتقبل التعاون مع سلطة احتلال، قبل أن تجبر هذه السلطة على الاعتراف بعدم شرعية احتلالها للأراضى بالقوة العسكرية».

لقد رأى إدوارد سعيد فلسطين فى محيطها العالمى ودون انفصال عنه. ودافع عن حقوق شعبنا من زاوية التمسك بحقوق وكرامة كل الشعوب، مثلما كان بعيدا عن كل أشكال التعصب وضيق الأفق

وقد تشارك سعيد مع الكثيرين من القياديين الفلسطينيين فى ضيقه من مستوى عدم الكفاءة والاستهتار واللامسئولية التى رافقت المفاوضات ونتائجها، وتذمر دون انقطاع من تعلق القيادة الفلسطينية بالمظاهر الشكلية - وخاصة مظاهر السلطة الزائفة - دون إيلاء الاهتمام للمضمون، فتصبح الرموز بديلا للسيادة الحقيقية والألقاب الوزارية بديلا للصلاحيات السيادية والتبعية الاقتصادية بديلا للتخطيط المستقل، ويغدو نهج تجزئة القضايا وتأجيلها «الغلاف المحكم» لتبرير تنازلات حتمية مؤجلة، اصطدمت بها السلطة الفلسطينية عندما حانت لحظة الحقيقة فى كامب ديفيد.

ولو كان إدوارد سعيد معنا لأشار هنا إلى البراجماتية المنفلتة التى تتحول إلى انتهازية خطرة وضارة لخدمة المصالح الشخصية على حساب المصلحة العامة للشعب.

لقد قاد انتقاد أوسلو، كما يقودنا انتقاد سلوك «ازدواجية الخطاب السياسى للقيادة الفلسطينية» إدوارد سعيد إلى الاستنتاج الرئيسى بحتمية اعتماد الديمقراطية الداخلية كحكم لحسم الخلافات الداخلية، ولإنقاذ مستقبل الشعب الفلسطينى من الهوان وانعدام الكفاءة.

فقد رأى عن حق الترابط الوثيق بين عناصر الضعف الداخلى فى انعدام بنيان المؤسسة وغياب مبادئ المساءلة وسيادة القانون والشفافية أمام الشعب وبين الضعف أمام العدو الخارجى، ولذلك غدا من أشد المكافحين من أجل الديمقراطية الداخلية الفلسطينية وتكريس الانتخابات الديمقراطية الحرة والنزيهة كوسيلة للتغيير الإيجابى وتقوية القدرة على الصمود فى وجه الاحتلال والاستيطان والتهويد.

انتفاضة الاستقلال

لقد أمدت الانتفاضة الشعبية الثانية من أجل الاستقلال إدوارد سعيد بطاقة مليئة بالحماس والحيوية وهو يواصل صراعه مع مرضه بشجاعة لا توصف. ولعل تحسسه الشديد لقيمة الوقت الثمين سواء بالنسبة لحياته الشخصية أو للمخاطر التى تعيشها القضية الفلسطينية والحاجة الملحة لعمل كل ما هو ممكن، هو ما جعله يكرس جل عمله وكتاباته الأخيرة للقضية الفلسطينية وهو ما دفعه للمشاركة الفعالة بجرأة وإقدام معنا فى الداخل فى تأسيس المبادرة الوطنية الفلسطينية باعتبارها أداة تغيير وتطوير لبناء قوة شعبية تعبر عن حقوق ورأى الأغلبية الصامتة المتطلعة للحرية الحقيقية والكرامة الوطنية والسيادة الفلسطينية الكاملة والديمقراطية.

وفى ذلك امتزج حرص سعيد المفرط على الوقوف إلى جانب الحق مع خبرته الطويلة فى الكفاح ضد انعدام الكفاءة والتسلط والتخلف إلى جانب الإيمان الكامل بفكرة انتصار العدالة والتمسك بالديمقراطية وحقوق الإنسان، محاولا أن يكرس مقولته بأنه لا يكفى أن ندعو للحق، بل علينا أن ننخرط أيضا فى العمل من أجله.

وقد وصف فى آخر كتاباته المبادرة الوطنية الفلسطينية «بأنها المجموعة الواعدة التى تضم نشطاء يعملون على مستوى القواعد ولا يتضمن نشاطهم الرئيس العمل وراء مناضد أو التلاعب بأرصدة مصرفية، أو البحث عن صحافيين كى ينتبهوا إليهم بل جاءوا من صفوف المهنيين وفئات العمال والمثقفين والنشطاء الشباب والمعلمين والأطباء والمحامين والعاملين الذين مكنوا المجتمع من الصمود وفى الوقت نفسه صد الاعتداءات الإسرائيلية اليومية وثانيا هؤلاء أشخاص ملتزمون بذلك النوع من الديمقراطية والمشاركة الشعبية الذى لا تحلم به «السلطة» وتعنى فكرة الديمقراطية لديهم الاستقرار والأمان لذاته. وأخيرا، انه يقدمون خدمات اجتماعية للعاطلين عن العمل وخدمات صحية لمن لا يتمتع بتأمين وللفقراء تعليما علمانيا لائقا لجيل جديد من الفلسطينيين الذين يجب أن يعلموا حقائق العالم الحديث وليس فقط القيمة الفريدة للعالم القديم.

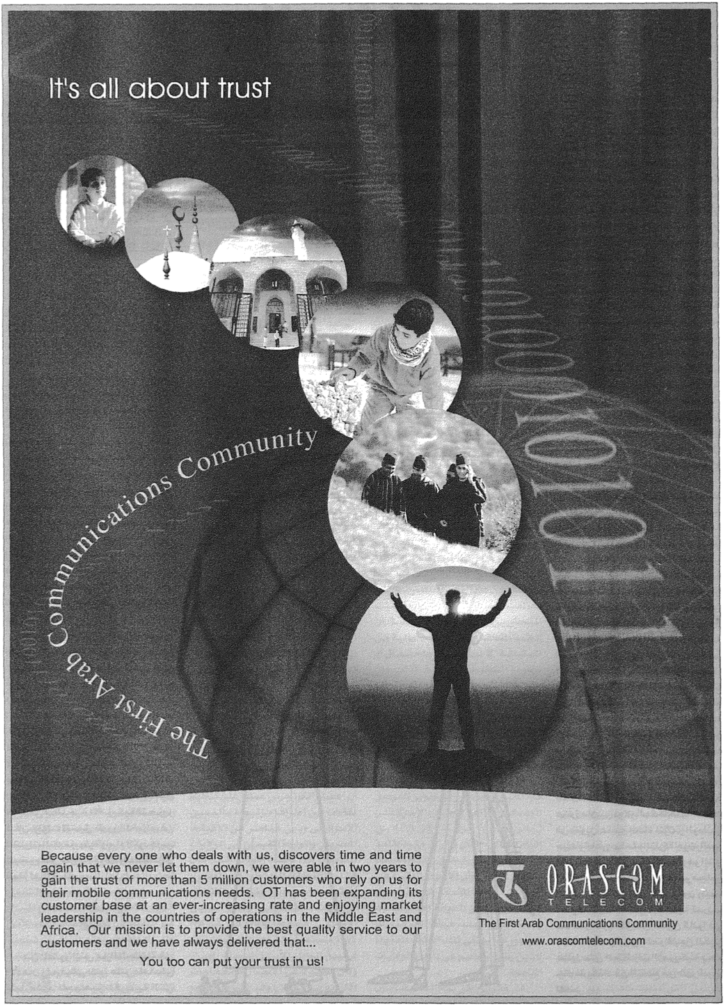
لقد جادل إدوارد سعيد كثيرا حول مستقبل القضية الفلسطينية، وساهم بجرأة فى تحديد البديل الوحيد الصحيح فى حال نجاح إسرائيل فى تدمير إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة وحقيقية، بطرحه لفكرة الدولة ثنائية القومية - دولة واحدة ديمقراطية يتساوى فيها الجميع. وإذا كان من الخطأ سياسيا التخلى الآن عن هدف الدولة المستقلة، فإن التمسك بخيار الدولة ثنائية القومية كخيار بديل يتيح للشعب الفلسطينى هامشاً واسعاً للمبادرة ورفض الضغوط الرامية إلى تزوير فكرة الدولة المستقلة واستبدالها بفكرة حكم ذاتى هزيل يلعب دور الشاويش أو الشرطى تحت إشراف الاحتلال ويقوم بدور القامع للشعب الفلسطينى فى جيتوات ومعازل تلغى عنصر التفوق الديموجرافى فى مجابهة فرض الحقائق الجغرافية بالاستيطان.

ويصبح الخيار إما إنهاء الاحتلال وإزالة الاستيطان بالكامل وقيام دولة مستقلة كاملة السيادة بالكامل أو دولة ثنائية القومية ديمقراطية بالكامل لا مكان فيها للتمييز العنصرى ونظام الأبارتهايد. وفى الحالتين فإن الخيار واحد... التمسك بقيم الكرامة والحق والتصميم على نيل الحرية.

لقد رأى إدوارد سعيد فلسطين فى محيطها العالمى ودون انفصال عنه. ودافع عن حقوق شعبنا من زاوية التمسك بحقوق وكرامة كل الشعوب، مثلما كان بعيدا عن كل أشكال التعصب وضيق الأفق. وحمل فلسطين إلى العالم كما حمل العالم وثقافته وفكره وحضارته إلى فلسطين.

واكتسب مكانة قيادية رائدة فلسطينية وعربية وعالمية، ليس بقوة السلاح أو التحكم بالموارد المادية أو السلطة، بل بقوة الفكر، وبقوة النفوذ الأخلاقى الذى صنعته استقامته وحبه للناس وتعطشه دون حدود للمعرفة واكتشاف كل ما هو جديد.

ولن يغيب إدوارد سعيد، فالذين يغيبون هم الذين يمثلون الماضى حتى وهم أحياء. أما هو فيمثل المستقبل، المستقبل الذى نحلم به لنا ولأولادنا وأحفادنا ولوطننا المكتوى بآلام تبدو كأنها لا تنتهى. ■


It's all about trust
The First Arab Communications Community
Because every one who deals with us, discovers time and time again that we never let them down, we were able in two years to gain the trust of more than 5 million customers who rely on us for their mobile communications needs. OT has been expanding its customer base at an ever-increasing rate and enjoying market leadership in the countries of operations in the Middle East and Africa. Our mission is to provide the best quality service to our customers and we have always delivered that...
You too can put your trust in us!
ORASCOM
TELECOM
The First Arab Communications Community
www.orascomtelecom.com

التحالفات السرية تهدد باختراق العالم العربى

فهمى هويدى

إن أنظمة المنطقة تتمتع بدرجة عالية من الهشاشة، لا تسمح لها باحتمال أو مقاومة الضغوط الخارجية. لذلك فإن الوسيلة الناجحة لابتزازها، أو حتى تغييرها، تكون بمد جسور التفاهم أو التحالف مع عناصر المعارضة والأقليات ومنظمات المجتمع المدنى فى داخل كل دولة

حين دُعىَ السيد حسين الخُمينى حفيد الإمام الخُمينى إلى واشنطون، والتقى هناك ببعض أعضاء الكونجرس، ورُتب له لقاء مع على رضا ابن الشاه المخلوع، فأغلب الظن أنه لم يكن يعرف من الذى رتب تلك اللقطات. وأخرجها على ذلك النحو المثير. ويقيناً فإنه لم يكن يدرى أن استقدام ابن «الرهبر». القائد بالفارسية. إلى عرين «الشيطان الأكبر» لكى يطلب العون من الأمريكيين، فى مشهد اعتذارى لا تخفى دلالته، تكمن وراءه منظومة تبلورت فى أعقاب النجاح النسبى الذى حققته الولايات المتحدة بإسقاطها نظام طالبان فى أفغانستان، والنظام البعثى فى العراق.

غياب مثل هذه الخلفيات منه ليس راجعاً فحسب إلى أنه اختار أن يشارك فى لعبة يجهل قوانينها وأبعادها، ولا إلى أنه كثيراً ما ينفصل عن العالم المحيط به، فما بالك بالبعيد عنه، بحكم إدمانه للمخدرات منذ اضطر للالتحاق بالحوزة العلمية فى «قم» امتثالاً لرغبة جده، فى حين أنه كان عازفاً عن التعليم ومتطلعاً إلى دور وموقع خارج الحوزة. إنما غابت عنه تلك الخلفيات لأنها ببساطة تنتمى إلى الجزء الغامض فى السياسة الأمريكية الذى لا يكاد يراه أحد، وتقوم فيه شركات العلاقات العامة بالدور الرئيسى فى الترتيب والإخراج، على نحو تفوقت فيه على مخرجى أفلام الإثارة فى السينما.

خلفيات زيارة السيد حسين الخُمينى إلى الولايات المتحدة. وسط أجواء الضغوط التى تمارسها واشنطون على طهران. هى ذاتها الخلفيات التى رتبت دعوة الجنرال ميشال عون إلى العاصمة الأمريكية للشهادة ضد سوريا أمام الكونجرس، فى وقت كانت دمشق فيه هدفاً للقصف السياسى الأمريكى، الذى مهد لموافقة الكونجرس على مشروع قانون «محاسبة سوريا». ذلك أن إحدى شركات العلاقات العامة هى التى دعمت تشكيل ما سُمى باللجنة الأمريكية لتحرير لبنان، وتولت تنسيق ظهور «الخبراء» فى القنوات التليفزيونية وأمام الكونجرس للهجوم على سوريا وإيران، وتعبئة الرأى العام لصالح «تأديب» البلدين.

من الصور التى مازالت ماثلة فى الأذهان رغم مضى اثنى عشر عاماً على بثها، مشهد الجماهير الكويتية التى احتشدت رافعة الأعلام الأمريكية، أثناء دخول قوات التحالف الدولى، التى تولت تحرير الكويت من الاحتلال العراقى تحت القيادة الأمريكية. ذلك أن أحداً لم يسأل آنذاك. من أين حصل هؤلاء على الأعلام الأمريكية، رغم أن الكويت ظلت تحت الاحتلال القاسى طيلة سبعة أشهر متصلة. والمفاجأة فى إجابة السؤال أن هذه «اللقطة» كانت من ترتيب إحدى شركات العلاقات العامة، التى أُنيط بها إخراج مشهد الدخول بحيث يبدو فيه.



من تلك الصور أيضاً مشهد إسقاط تمثال الرئيس صدام حسين بعد سقوط بغداد وسط تهليل الجماهير. وهو المشهد المثير الذى احتل الصدارة فى مختلف وسائل الإعلام لعدة أيام. وكانت صورته تجسيداً لحقيقة سقوط النظام البعثى. وقد تبين لاحقاً أن الأمر كله كان من ترتيب وإخراج إحدى شركات العلاقات العامة، التى استقدمت ١٢٣ شخصاً. بعضهم كانت قد ظهرت صورهم ضمن حرس أحمد جلبى رئيس المؤتمر الوطنى حينما قدم من الولايات المتحدة. وقد أدى هؤلاء دور «الكومبارس» فى إخراج اللقطة.

سلط الضوء على مثل هذه الخلفيات كتاب جديد صدر فى واشنطون فى شهر سبتمبر الماضى، عنوانه «أسلحة الخداع الشامل» وموضوعه هو الدور الذى تقوم به شركات العلاقات العامة فى خدمة أهداف السياسة الأمريكية ومخططات المخابرات المركزية، وهو من تأليف اثنين من الكتّاب الليبراليين الساخرين هما: شلدون رامبتون وجون ستوبر. وقد تتبع المؤلفان فيه طبيعة العقود التى أبرمتها الجهات المعنية فى الحكومة الأمريكية. وزارة الدفاع والمخابرات المركزية بالدرجة الأولى. مع شركات العلاقات العامة، والتى انصبت على مهام معينة تحقق مآرب السياسة الأمريكية. وكان تنظيم المعارضة العراقية لحكم الرئيس صدام حسين ونظامه واحداً فى تلك العقود التى وقعتها المخابرات المركزية مع شركة «راندوم» للعلاقات العامة. وقد بلغت قيمة العقد عشرة ملايين دولار، استخدمتها الشركة فى تمويل عملية إنشاء المؤتمر الوطنى، حيث يتباهى صاحب الشركة جون راندوم الآن بأنه هو الذى صاغ الاسم، وهو الذى اختار السيد أحمد جلبى (عضو مجلس الحكم الانتقالى الآن) لكى يكون رئيساً له. وقد تولت الشركة عملية تدريب عناصر حزب المؤتمر، الذين كانوا فى مقدمة «المعارضين» العراقيين الذين عادوا على الطائرات الأمريكية بعد سقوط بغداد فى التاسع من شهر أبريل الماضى.

شركة راندوم للعلاقات العامة هى التى باعت قيادة «المؤتمر الوطنى» العراقى إلى اللوبى الإسرائيلى فى واشنطون. وكان ذلك اللوبى هو قناة الوصل بين أحمد جلبى والقادة الإسرائيليين، وقد تحولت القناة إلى جسر أوصل الرجل إلى تل أبيب، التى زارها مرات عديدة وأقام فى فنادقها تحت اسم مستعار. كما ذكرت صحيفة (يديعوت أحرونوت) فى عددها الصادر فى ٢٠٠٣/٥/٢ وهى التى كشفت عن أن العلاقة بين قيادة المؤتمر العراقى وبين إسرائيل بدأت فى عام ١٩٩٠، حين رتب لقاء فى لندن بين أحمد جلبى وبين أحد موظفى وزارة الدفاع الإسرائيلية.

قبل غزو العراق تولت شركة أخرى للعلاقات العامة باسم «بنادور»، صاحبتها هى السيدة الينا بنادور. عملية حشد الرأى العام لتأييد الحملة العسكرية بالاتفاق مع وزارة الدفاع بطبيعة الحال. ولجأت فى ذلك إلى توقيع عقود مع مجموعة من معاهد ومراكز البحوث المؤيدة للحرب فى الولايات المتحدة. حيث توزع هؤلاء على مختلف المنابر العامة. من شاشات التليفزيون إلى الصحف ولجان الكونجرس للقيام بالدور المنوط بهم.

أما عملية الدعاية للحرب ضد «الإرهاب» فتقوم بها شركة «شاندويك» للعلاقات العامة، ومديرها صديق قريب من الرئيس بوش هو جاك ليسلى. وهى التى تتولى بث التقارير والصور عبر وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية والعربية التى تبالغ فى حجم الإرهاب وتصوره خطراً يهدد البشرية، الأمر الذى يسوغ مختلف الممارسات التى تقوم بها الولايات المتحدة باسم مكافحة تجليات ذلك الخطر واستئصاله من أرجاء الكرة الأرضية.

الخلاصة التى يخرج بها المرء فى نهاية الكتاب هى أن المرء ينبغى أن يتخلى عن البراءة فى قراءة الكثير من الأخبار السياسية، خصوصاً تلك التى تأتى من الولايات المتحدة، لأن بعضها على الأقل أقرب إلى «الأفلام» التى قامت شركات العلاقات العامة بالدور الرئيسى فى إخراجها، وتوفير عناصر الإثارة والإبهار، فضلاً عن القبول بها من جانب الرأى العام.

فى العالم السرى الذى يتمدد فيه الجزء الغاطس من السياسة الأمريكية تنشط اللجنة العسكرية المشتركة مع إسرائيل، التى أنشئت منذ عشرين عاماً، وتعمل فى صمت وبعيداً عن الأضواء، حيث تعقد اجتماعات منتظمة منذ ذلك الحين، بالتبادل بين واشنطون وتل أبيب. وقد كان تقييم نتائج إسقاط نظام طالبان فى أفغانستان والنظام البعثى فى العراق من بين الموضوعات التى حظيت بقسط وافر من الدراسة والمناقشة فى اجتماعاتها ولم يكن الحوار حول تقييم النتائج هو أول تعامل للجنة مع الملفين الأفغانى والعراقى بطبيعة الحال، لأن عملية تبادل المعلومات ظلت جارية على قدم وساق طوال الوقت، قبل العمليات وأثناءها وبعدها. لكن عملية التقييم هى التى تهمنا بقدر أكبر فى السياق الذى نحن بصدده، لأن الخلاصة التى انتهت إليها المناقشات تشكل مفتاحاً لفهم بعض الأحداث الجارية فى المنطقة، ومنها تلك الزيارات المثيرة إلى واشنطون التى يقوم بها نفر من المعارضين السياسيين، بترتيب من شركة العلاقات العامة التى تظهر فى الواجهة، فى حين تؤدى دورها بناء على عقود موقعة مع المخابرات المركزية فى الأغلب.

لأن إسقاط نظام طالبان تم بترتيب بين المخابرات المركزية وقيادة التحالف الشمالى، ولأن ما جرى فى العراق سبقه ترتيب مماثل مع بعض فئات المعارضة العراقية، ولأن واشنطون حققت مرادها فى السودان من خلال ترتيب آخر مع جماعة جون قرنق وأحزاب المعارضة التى تحالفت معه، فإن هذه الخبرات أوصلت المتحاورين إلى النتيجة التالية: أن أنظمة المنطقة تتمتع بدرجة عالية من الهشاشة، لا تسمح لها باحتمال أو مقاومة الضغوط الخارجية. لذلك فإن الوسيلة الناجحة لابتزازها ولى أذرعها والتأثير فى قراراتها السياسية، أو حتى تغييرها، تكون بمد جسور التفاهم أو التحالف مع عناصر المعارضة والأقليات ومنظمات المجتمع المدنى فى داخل كل دولة.

ما يلفت الانتباه فى هذا الصدد أن هذا المعنى ورد بوضوح فى تقرير للمراسل العسكرى لإذاعة الجيش الإسرائيلى (جالى نساهل) جرى بثه فى ٦/١٦ من العام الحالى، الذى قال أن فكرة إقامة التحالفات المذكورة جرى إحياؤها بعد احتلال العراق، وأن الأجواء المواتية فى الولايات المتحدة المتمثلة فى التنسيق شبه الكامل بين الدوائر الإسرائيلية والمحافظين الجدد، هيأت الفرصة لمد الجسور مع ممثلى تلك الفئات المعنية، الذين يقيم بعضهم فى داخل الولايات المتحدة.

فى تقرير آخر بثه التليفزيون الإسرائيلى فى ٦/٢٦ حول استنتاجات ما بعد غزو العراق، أن الدوائر الأمنية والسياسية فى إسرائيل أدركت أهمية تنشيط العلاقات مع الفئات المعارضة والناقدة للأوضاع فى دول المنطقة، للضغط على حكوماتها، وجرت الإشارة فى هذا الصدد إلى دول مثل مصر وسوريا ولبنان وإيران. وكان ذلك التنشيط من بين التوصيات التى خلصت إليها تلك الدوائر.. وتضمنت التوصيات أيضاً ضرورة العمل على توثيق العلاقات مع أنظمة حكم قائمة.. خص التقرير بالذكر منها أريتريا وتركيا والهند.

إسرائيل لها مصلحة مباشرة فى المضى قدماً فى ذلك الاتجاه لأسباب مفهومة، بل ربما جاز لنا أن نقول بأنها أكثر حماساً من المخططين الاستراتيجيين فى الولايات المتحدة لمد تلك الجسور، وممارسة الضغوط لابتزاز حكومات المنطقة والتأثير على القرارات السياسية فيها. وليس خافياً أن هيمنة الأصوليين المتطرفين ذوى الميول الصهيونية على مفاتيح القرار فى الولايات المتحدة وفرت فرصة ذهبية للائتلاف الليكودى الحاكم فى إسرائيل لتوسيع نطاق التفاهم والتنسيق فى أمور كثيرة، كان من بينها تنشيط الاتصال مع العناصر المقيمة فى الولايات المتحدة من أبناء المنطقة، التى يمكن أن تمارس الضغط والابتزاز المنشود على حكوماتها. (لاحظ أن الحديث يدور عن تنشيط العلاقات، وليس إقامة تلك العلاقات، لأن ثمة دلائل عدة تشير إلى أن العلاقات بين أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية مع تلك العناصر قائمة منذ زمن).

إننا إذا تابعنا ما يُبث ويُنشر فى إسرائيل فى هذا الصدد سنجد أن رحبعام زئيفى الوزير الإسرائيلى السابق قال فى حديث بثته شبكة الأخبار الثانية الإذاعية فى منتصف شهر مايو عام ٢٠٠٠ أن أعضاء الكونجرس عملوا على تنظيم لقاءات بين أطراف مرتبطة باليمين الإسرائيلى وبين عناصر من الأقباط المصريين والموارنة المقيمين فى الولايات المتحدة. وقد تحدث زئيفى الذى كان قائداً للمنطقة الوسطى فى الموضوع باعتباره صاحب خبرة سابقة فى الاتصال مع جهات مختلفة فى العالم العربى الإسلامى. خصوصاً بعدما عُيّن فى عام ١٩٧٤ مستشاراً لشئون الاستخبارات لرئيس الوزراء الأسبق إسحاق رابين. وكان مسئولاً عن الاتصال بالجماعات الكردية فى العراق. وقد نشرت جميع الصحف صوراً له وهو يفترش الأرض فى شمال العراق، يصحبه بعض القادة الأكراد، كما أنه تطرق فى حديثه إلى العلاقة الوثيقة بين إسرائيل والمتمردين فى جنوب السودان بقيادة جون قرنق.

فى حديثه الذى نحن بصدده قال زئيفى إن الدولة العبرية لها مصلحة فى توثيق علاقاتها مع عناصر الأقباط المصريين فى المهجر والموارنة اللبنانيين، للضغط على مواقف الحكم فى البلدين. وفى أكثر من حديث للإذاعة كشف الصحفى الإسرائيلى أدرى دان الذى كان مستشاراً إعلامياً لشارون وقت أن كان وزيراً للدفاع، وبعد أمين سره الآن، عن جهود إسرائيلية حثيثة للاتصال ببعض الأقباط والموارنة فى واشنطون جرت منذ أن كان بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء فى عام ٩٦.

على صعيد آخر، فقد رصدت تل أبيب ظاهرة تودد بعض أنظمة الحكم فى المنطقة العربية لجماعات الضغط اليهودية فى الولايات المتحدة لكى تساعدها على تحسين علاقاتها بواشنطون. وقد طرح هذا الموضوع للمناقشة فى اجتماع اللجنة الخارجية مالان المتفرعة عن البرلمان.

ونقل التليفزيون الإسرائيلى فى (٢٠٠٣/٥/٢٤) تصريحات أدلى بها وزير الخارجية سيلفان شالوم أمام اللجنة قال فيها: مثل هذه الاتصالات مهمة ومفيدة لإسرائيل، وينبغى أن تستثمر إلى أبعد حد. فى وقت لاحق (٧/٢٤) بث التليفزيون تصريحاً للوزير عوزى لانداو المسئول عن الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية (كان وزيراً سابقاً للأمن الداخلى) قال فيه: إن على إسرائيل ألا تتردد فى توثيق علاقاتها مع أى طرف عربى أو إسلامى بإمكانه أن يؤثر سلباً على تماسك الأنظمة المعادية لإسرائيل.

منذ أيام رئيس الوزراء الأول ديفيد بن جوريون طرأت تعديلات كثيرة على العقيدة الأمنية الاستراتيجية للدولة العبرية، اختلفت باختلاف الظروف، فضلاً عن تباين الخلفية الأيديولوجية للائتلاف الحاكم. ففى آخر حكومتين لحزب العمل كانت العقيدة الأمنية تقوم (إلى جانب الاحتفاظ بأسباب التفوق النووى الإسرائيلى، بالذات فى المجال غير التقليدى) على تخفيف أعباء الأمن على الدولة، عبر عقد اتفاقيات تسوية على العالم العربى. من ثم كان التوجه قائماً على اندماج إسرائيل الانتقائى فى معظمه عبر ما

التحالفات السرية



أطلق عليه شمعون بيريز اسم «الشرق أوسطية» بمنطلقاتها المعروفة.

اختلف الأمر حين صعد بنيامين نتنياهو إلى سدة الحكم فى عام ٩٦، حيث وجدها فرصة لتطبيق ما كان ينادى به قولاً وكتابة منذ عشر سنوات، فقد كان مصراً على رفض فكرة الشرق أوسطية وفى رأيه أن البديل الأمثل هو إقامة تحالفات إقليمية مبنية على المصالح، والنموذج الذى كان حاضراً فى ذهنه هو أن يبدأ التحالف بين إسرائيل وكل من المملكة الأردنية وتركيا، بدعم من الولايات المتحدة، وتصوره هذا كان قائماً فى بعض جوانبه على نظرية «الجدار الحديدى» لرائد المدرسة التصحيحية الصهيونية زئيف جابوتنسكى (أبو الليكود). وتقدير نتنياهو كان يأخذ فى الحسبان وجود دول عربية إقليمية قوية. لكن الآن، وبعد احتلال العراق وهرولة الكثير من الأنظمة للدفاع عن نفسها وتبرئة ذمتها أمام الهجمة الأمريكية، فإن العقيدة الأمنية الاستراتيجية لإسرائيل خضعت للمراجعة والتغيير. إذ أدركت حكومة الائتلاف الليكودى الحاكم أنها أصبحت فى موقف أفضل سياسيًا واستراتيجيًا يمكنها من الضغط على الدول العربية والحصول منها على مكاسب إما بالمجان أو بأقل ثمن ممكن.

«النظام الرسمى العربى نمر من ورق»

هكذا لخص رؤيته وزير الدفاع الإسرائيلى شاؤول موفاز فى أعقاب احتلال العراق. وهى رؤية ستتطابق أو تعبر عن الخلاصة التى انتهت إليها مناقشات اللجنة الأمريكية الإسرائيلية التى سبقت الإشارة إليها.

قال موفاز كلامه هذا وهو يرى إسراع النظام فى سوريا إلى تغيير الزى المدرسى للطلاب، من الزى الأزرق شبه العسكرى إلى الزى العادى، فضلاً عن تغير اللهجة السورية تجاه حركات المقاومة الفلسطينية، وإقدامها على إغلاق مكاتبها فى دمشق، وسحب القوات السورية من بعض المناطق فى لبنان. شىء من هذا القبيل حدث فى دول عربية أخرى، التى أوقفت عدداً كبيراً من خطباء المساجد الذين اتهموا بالتطرف، وجرى ترتيب برنامج لإعادة تأهيل أكثر من ألف خطيب وداعية. مثل هذه الاستجابات أثارت انتباه الدوائر المعنية فى إسرائيل، واعتبرتها المخابرات العسكرية مظاهر «مشجعة» أثبتت أنه من المهم للغاية الاستجابة للضغوط الخارجية وتكثيفها، لأن ذلك يحقق بالمجان بعض الأهداف المطلوبة.

أورى ساغيه، الرئيس الأسبق للشعبة السورية فى المخابرات العسكرية الإسرائيلية، الذى يوصف بأنه أفضل متخصص فى الشأن السورى، قال أنه فوجئ باستجابة دمشق السريعة لما طلبت الولايات المتحدة منها، ورغم أنه اعتبر تلك الاستجابة «علامة مشجعة»، إلا أنه ومعه عدد غير قليل من المستشرقين ورجال الاستخبارات حذروا من المبالغة فى مساندة المنظمات الأهلية التى تتبنى الدعوة إلى الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. ودعوا إلى الحد من استخدام ورقة تلك الجمعيات فى مواجهة الأنظمة العربية. لسبب جوهرى هو أن الدولة العبرية لها مصلحة أكيدة فى الإبقاء على معظم الأنظمة الحالية.

إفرايم هليفى، الرئيس السابق لجهاز الموساد، صرح مؤخراً بأنه يجب على الولايات المتحدة أن تحذر فى ممارسة الضغوط على الأنظمة العربية. وحسب منطقه، فإنه يجب ألا تكون الضغوط بالحجم الذى يدفع الأنظمة العربية للعودة إلى أحضان شعوبها، ولا يتردد هليفى فى القول أنه لا مشكلة لديه فى أن يصبح التوريث هو الأساس فى انتقال السلطة فى العالم العربى. وقد حذر زملاءه المتحمسين للتحالف مع المنظمات التى ترفع شعار حقوق الإنسان والديمقراطية مشدداً على أن تطبيق الديمقراطية بشكل حقيقى فى العالم العربى يعنى كارثة حقيقية للدولة العبرية والغرب، منوهاً إلى أنه لا يكاد يرقى أى شك إلى حقيقة فوز التيارات الإسلامية فى أى انتخابات حرة فى العالم العربى.

فى كتابه الشهير «حلف البريفيرا» تحدث الصحفى الإسرائيلى شلومو نكديمون، الذى عمل مستشاراً إعلامياً لرئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن كثيراً عن خفايا العلاقات التى ربطت إسرائيل مع الكثير من الجماعات والأنظمة فى المنطقة بغرض زعزعة الاستقرار فى العالم العربى. وأفاض فى الإشارة إلى العلاقات السرية الحميمة التى ربطت الأكراد بزعامة مصطفى البرزانى (والد مسعود البرزانى)، كان الهدف من توثيق العلاقة هو زعزعة الاستقرار فى العراق، ووصلت الأمور إلى حد أن قام ليفى اشكول رئيس الوزراء الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧ بتنظيم لقاء بين البرزانى ومحررى الصحف، أثناء زيارته للدولة العبرية. كما أن عدداً غير قليل من قادة الجيش توجهوا إلى شمال العراق لتدريب الأكراد.

يعكوف غرودى ضابط الموساد الشهير وصاحب صحيفة (معاريف) تحدث كثيراً فى كتابه «قصة حياتى» الذى صدر حديثًا، عن دوره فى مد الجسور بين تل أبيب ونظام الشاه فى إيران. وقال أن الهدف من ذلك لم يكن الحصول على النفط فحسب، وإنما كان للعلاقة هدف آخر هو تقوية نظام الشاه فى مواجهة العراق ودول الخليج. وفى الصحافة الإسرائيلية كتابات عديدة تحدثت عن نماذج أخرى من العلاقات السرية التى أقامها العملاء الإسرائيليون مع شخصيات وجماعات فى المنطقة المحيطة. من هؤلاء أسياسى أفورقى، الذى نُصب رئيساً لأريتريا، ويشير إليه رجال الموساد عامة بوصفه «رجلنا فى أتون الأفريقى»، وقد اعتمد كثيراً على المساعدات الإسرائيلية، وبالمقابل فإن الإسرائيليين اعتبروه شوكة قوية فى ظهر السودان، وامتدحوه حين استولى على بعض الجزر اليمنية فى البحر الأحمر، وهم دائمو الإطراء لموقفه المعادى للعروبة والإسلام. من هؤلاء أيضاً جون قرنق قائد التمرد الجنوبى بالسودان، الذى زار إسرائيل عدة مرات. وقد خصصت إسرائيل لأمثال هؤلاء القادة منتجعاً سياحياً بالقرب من إيلات لاستضافتهم بين الحين والآخر، تمهيداً لاستثمارهم فى المستقبل.

اللعب الإسرائيلى على التمايزات أو التناقضات فى المجتمعات العربية والإسلامية استمر حتى فى داخل الأرض المحتلة ذاتها.

ذلك أن حكومة شارون أقدمت على هدم مسجد كان قيد البناء فى موقع وقف «شهاب الدين» فى قلب مدينة الناصرة.

وتم ذلك رغم أن حكومتين إسرائيليتين سابقتين أقرتا بناء المسجد، إلا أن حكومة شارون صممت على هدمه، وفسر القرار بصورة لا تنقصها الصراحة وزير السياحة الإسرائيلى الحاخام بين ايلون، الذى قال:

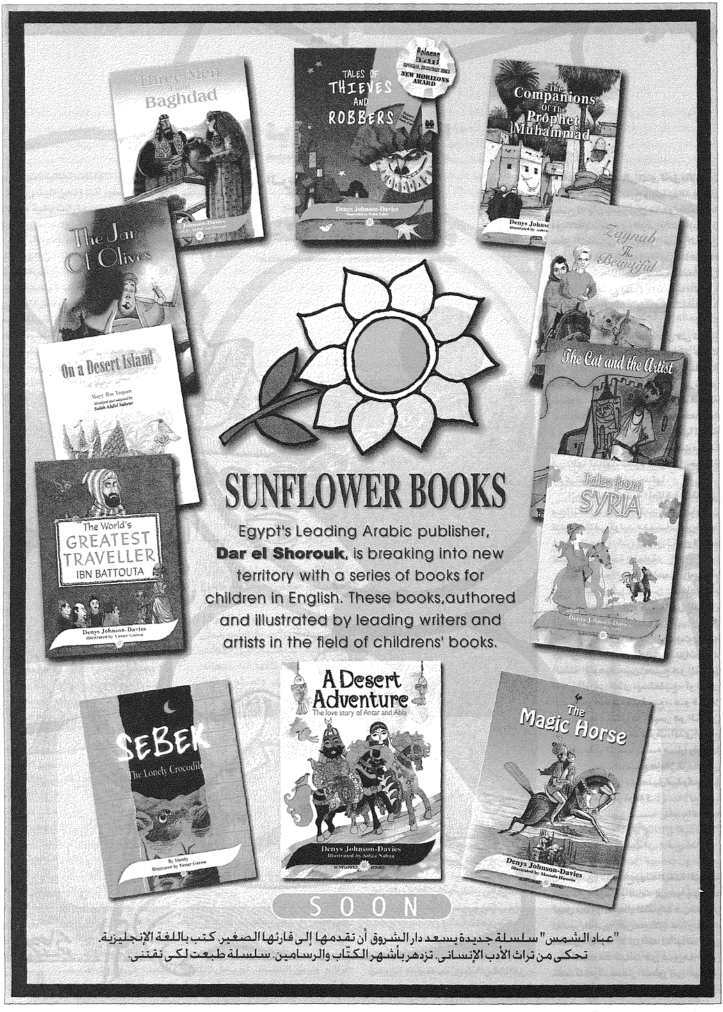
لنا مصلحة أكيدة فى سيادة أجواء من الشحناء والتوتر بين المسلمين والمسيحيين فى داخل إسرائيل.

وأضاف بوضوح أمام اجتماع للكتلة النيابية لحزب الاتحاد الوطنى الذى يعد أحد أقطابه فى (٧/٨)، علينا أن نقف إلى جانب المسيحيين لكى نكسبهم إلى صفنا بكل الطرق.

ما قامت به حكومة شارون أبعد ما يكون عن العفوية. ذلك أنه خلال العامين الماضيين، أعدت وحدة «الأبحاث فى جهاز الاستخبارات العسكرية المعروف بـ(أمان)» تقريراً مفاده أن على الدولة العبرية أن تحاول التأثير على أى خلاف يمكن أن ينشب بين المسيحيين والمسلمين داخل فلسطين ٤٨، من أجل استغلاله لصالح الدولة العبرية.

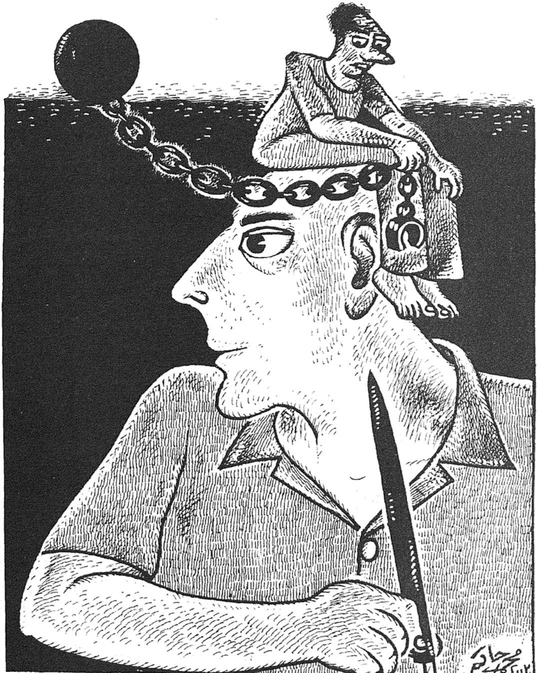
الخطة أبرزت أهمية محاولة التأثير على مضامين الهوية الجماعية والوطنية للمسيحيين الفلسطينيين داخل ٤٨، لكى يتم دفعهم للقيام بما قام به جزء كبير من الدروز، بحيث يتم سلخهم عن الأغلبية الفلسطينية، بحيث ينتهى بهم الأمر بتجنيد شبابهم إلى الجيش الإسرائيلى كما حدث مع الدروز (القناة الثانية فى التليفزيون الإسرائيلى أشارت إلى أن التقرير وضع على طاولة شارون بعد انتخابه لأول مرة رئيساً للوزراء فى ٢٠٠١). بأن تقوم الحكومات الصهيونية بتبنى أى موقف يمكن أن يكون لصالح المسيحيين على حساب المسلمين، لكى يجد المسيحيون فى الدولة حليفاً يمكن الوثوق به والارتكان إليه.

والهدف من الخطة واضح لكل ذى عينين: إضعاف وحدة الشعب الفلسطينى داخل الخط الأخضر، وإيجاد قطاعات شعبية مستعدة للتعاون مع الدولة العبرية، ومطمئنة إلى حمايتها لها. ■


Three Men From Baghdad
TALES OF THIEVES AND ROBBERS
NEW HORIZONS AWARD
The Companions Of The Prophet Muhammad
The Jar Of Olives
Zaynab The Beautiful
On a Desert Island
The Cat and the Artist
SUNFLOWER BOOKS
The World's GREATEST TRAVELLER IBN BATTOUTA
Tales from SYRIA
Egypt's Leading Arabic publisher, **Dar el Shorouk**, is breaking into new territory with a series of books for children in English. These books,authored and illustrated by leading writers and artists in the field of childrens' books.
SEBEK The Lonely Crocodile
A Desert Adventure
The love story of Antar and Abla
Denys Johnson-Davies
The Magic Horse
Denys Johnson-Davies
SOON
"عباد الشمس" سلسلة جديدة يسعد دار الشروق أن تقدمها إلى قارئها الصغير. كتب باللغة الإنجليزية. تحكى من تراث الأدب الإنسانى. تزدهر بأشهر الكتّاب والرسامين. سلسلة طبعت لكى تقتنى.

تعـــــليم تلقــــــينى

يحـــــيى الرخـــــاوى



■■ الطارئ الإشكالى الذى لحق بالإنسان الإنسان: هو أنه أصبح واعيا بذاته بشكل سمح له بأن يميز بين ما هو «ذات»، وما هو «لا.ذات». مع بزوغ الوعى بالذات (بتميز عمل النصفين الكرويين أصبح الكائن البشرى يمارس حياته فارقا بين ما هو«أنا» وما هو ليس «أنا»، ثم ينقسم الـ «ماليس أنا» إلى «موضوع بشرى» (نسميه «الآخر» عادة)، ثم «الطبيعة» بامتداداتها التصعيدية المفتوحة.

هذه النقلة الرائعة هى فى نفس الوقت محنة أصيلة، ذلك أنها قد هيأت لهذا الكائن الجديد مساحة غير مسبوقة من الحركة المتنوعة التى عرفت فى ظاهر السلوك باسم «الحرية». من فرط فرحته بها، وأيضا من فرط عماه عن حدودها وخداعها، راح يتغنى بما تصور أنها تعنيه حتى قدسها، وإذ تقدست أصبحت صنَماً فى ذاتها لذاتها، فحرَم نفسه من حقيقة حركيّتها، وتنويعات جدلها.

الحرية الحقيقية المطلقة لا تتفق مع التقديس، حتى تقديس ذاتها، وإن كانت لا تنفى توليد مقدسات مرحلية لمسيرة الجدل، شريطة أن تكون قابلة للتطور، مفتوحة النهاية.

هذا الوهم الجميل المسمى «الحرية»، أوقع الإنسان فى عدد من المضاعفات، بقدر ما أعطاه قدراً متزايداً من الفرص للتطور المسئول، الخطِر فى آن.

بالَغَ إنسان العصر الحديث بوجه خاص فى تقييم معنى وقدرات هذه النقلة النوعية حين أصبح هو الكائن الحى الواعى الذى «يستطيع»، أو الذى «يتصور أنه يستطيع». هو فعلا «يستطيع» بشكلٍ ما. أليس هو الكائن الوحيد ـ فى حدود ما نعرف ـ الذى أصبح قادرا أن يقرر لنفسه بنفسه مسارا وتوجها واختيارا، بحيث أصبح عاملا فاعلا فى تحديد كثير من تفاصيل سلوكه، بما يمتد إلى مصير نوعه؟

تجلى الانخداع بهذه النقلة النوعية (اكتساب الوعى بالذات، فى مواجهة ما ليس ذاتا، واحتمال المشاركة فى تقرير المصير/الحرية) فى مجالات عدةّ وبآليات متطورة قادرة. إلا أن تلك الآليات، على حداثتها، قد تمادت فى غرورها حتى كادت تنحرف بمسار التطور إلى الهلاك. أهم تلك الآليات هو ما سمى «العقل»

.. وسلطات قامعة

عن الحرية والإبداع والقهر الداخلي

على طاولة في مقهى استغلت المُدرسة السابقة والمطلقة العاطلة عن العمل K.J Rowling فترات إخلاد أطفالها للنوم لتكتب الجزء الأول من سلسلة كتبها المحلقة في عالم الخيال الرحب «هاري بوتر» والتي حطمت كل المقاييس المعروفة في عالم الكتاب والنشر. بعد أن وزعت أجزاؤها الأربعة الأولى أكثر من ١٩٢ مليون نسخة. ثم جاء الجزء الخامس ليوزع ليلة صدوره وخلال ٢٤ ساعة فقط ٦ ملايين من النسخ.

لماذا هذا الانتشار الكاسح غير المسبوق؟ ولماذا بين الأطفال بالذات رغم أن الكتاب الضخم (٨٧٠ صفحة للجزء الأخير وحده) خال من صور أو رسوم أو ألوان. مما اعتقدنا أو بالأحرى اعتدنا أن نصفها بالبهجة. ونعتبرها الأكثر جاذبية للأطفال؟! وهل يمثل هذا الانتشار - أو هذا الخيال - ظاهرة صحية.. أم لا؟

الإجابة متعددة الطبقات والأبعاد. وربما كان من المناسب للاقتراب منها البدء بمعالجة القضايا «الأساسية» ذات الصلة بالعقل والحرية.. والإبداع.

في مقال فيه من الفلسفة والصوفية.. وعلم السيكولوجيا. الشيء الكثير، يبحث د. يحيى الرخاوي هذه الجوانب «الأساسية». متجاوزًا «جدلية» ما بين الطفل والبالغ، لتصبح ما بين الخيال الذي هو حر وفطري و«بشري» بطبيعته. وبين ذلك «القهر الذي يحرم الكائن البشري من هذا الثراء الجاهز للحركة والإبداع، والذي يبدأ عادة بتحجيم المساحة الرحبة.. عن طريق تعليم كمي حشري، وسلطات متنوعة قامعة. ثم تستمر الرقابة الداخلية التي تكونت نتيجة هذا وذاك في كف أي محاولة توسيع للمساحة كما خلقها الله سبحانه وتعالى، حتى تضيق إلى ما يعيق تشكيل أو تخليق أي جديد. وتصبح الرقابة الداخلية.. أخطر.

«المحرر»

(وهو ليس إلا جزءا حديثًا من تاريخنا الرائع) حيث راح يختزل التاريخ الحيوي بكل زخم عطائه وفخر نجاحاته إلى ما يدخل في اختصاصه تحديدا (اختصاص العقل كما صنفوه)، كما راح هذا العقل نفسه يختزل الغريزة الإيمانية (الحنين الفطري إلى العودة إلى رحم الكون الأعظم) إلى ما هو دين، وأيضا كاد يختزل زخم الحرية وهيراركية الوعي وتفريعاته إلى ما يسمى «الديمقراطية». وهكذا أصبحت المعارف حكرا على ما يقره العقل، كما أصبح تفسير الأديان بالعقل بديلا عن حركية الإيمان إبداعا.

.. وبعد

هذه المقدمة التي طالت بدت لي ضرورية من حيث المبدأ لعلها تذكرنا أننا لكي نتعرف على مفهوم أعمق للحرية، علينا أن نغامر بمراجعة ما يسمى ديمقراطية (بما في ذلك تفريعاتها الفرعية، وتداخلها مع حقوق الإنسان، وخاصة حق التعبير)، و أن ننتبه إلى آليات تزييف الوعي بما يقال له الإعلام (المختلط بالإعلان)، وإلى استغلال التعليم (وبعض العلم)، لتشكيل الوعي البشري بما ليس هو، وأخيرا وليس آخرا إلى ما أدى إليه اختزال السلطة الدينية للغريزة الإيمانية وحبسها في تفسير جامد. لكن كل ذلك يحتاج لتفصيل آخر، فنكتفي الآن بما يخص الإبداع.

الفرض

الفرض في هذه المداخلة هو لتحديد وضع الحرية بما هي (لا بما شاع عنها، ولا بما اختزلت إليه)، في علاقتها بالإبداع على مستويين: العملية الإبداعية، والناتج الإبداعي.

الحرية في الإبداع لا تبدأ كما يعتقدون بحرية التعبير، ولا تنتهي بحرية النشر فالنقد. صحيح أن كلا من حرية التعبير وحرية النشر هي إعلان جيد عن حجم المساحة التي تتجول فيها حركية الإبداع لمجموعة من البشر في وقت بذاته في موقع بذاته، لكن لاينبغي أن نقبل هذا الاختزال بشكل يعمينا في النهاية عن أساسيات أعمق وألزم وأخطر فيما يخص العملية الإبداعية ذاتها.

لا إبداع بلا حرية حقيقية. ولا حرية بغير حركية مرنة مغامرة، ولا حركية مرنة مغامرة بغير جدل غامض، ولا جدل إلا في حضور عدد من المتناقضات المتضفرة في رحاب وعيٍ خلاّق، يتخلق مع «آخر» يمارس نفس العملية من زاويته بطريقته، وهكذا...

إن المجال الجوهري الذي يمكن أن تُختبر فيه، وأيضا تتحقق فيه، بعض حرية الكائن البشري بما تميز به من وعي وإرادة، هو مجال الإبداع.

إبداع الطبيعة، وإبداع الإنسان

الكائنات قبل البشر حققت إبداعها على مسار التطور بطفرات تنسلخ بها من طور إلى آخر. واقع الأمر أن قوانين الطبيعة هي التي حققت هذا الإبداع الرائع وليس الكائنات. لم يحل الكائن الأرقى محل كل الكائنات التي طفر منها وانسلخ عنها. الكائنات الحالية التي تزعم نظريات التطور أننا (نحن البشر) نمثل الصورة الأرقى منها ما زالت باقية حولنا. (تذكر أن البكتريا، والقرد، والغوريلا ما زالوا يعيشون معنا كأبناء عمومة.

الكائن البشري هو الكائن الوحيد- فيما نعرف - الذي أمكنه، أو يمكنه، أن يمارس إبداعه ذاته، بما يشير إلى إمكانية إبداعه لما يعد به. يفعل ذلك من خلال تلك النقلة النوعية التي أكسبته الوعي والإرادة اللذين سمحا له باستعمال العقل ومنتجاته. ليمارس - فيما يمارس - ما أسماه الحرية: وقود الإبداع البشري وشرطه. من هذا المنطلق تصبح مسألة الحرية وعلاقتها بالإبداع إشكالية تطورية بشرية غير مسبوقة عند الأحياء قبل الإنسان.

ليس معنى أن الإنسان قد اكتسب الوعي والإرادة أن تطوره الذاتي، أو النوعي أصبح مستقلا عن آليات التطور الطبيعية التي أفرزته. إن هاتين الميزتين تجعلان الإنسان - شخصيا أكثر من المحيط والظروف - متضامنا في المسئولية عن الطفرات التالية: إما تطورا وإما انقراضا.

الإبداع عند الإنسان تجاوز هذه الخطوة التطورية التي لا تعلن وجودها إلا بحدوث الطفرة فعلا. اكتشف الكائن البشري، بوعيه البصيري المتميز، أن كثيرا مما يحفز تطوره، ويرسم خطى ارتقائه لا يمكن تحقيقه بمجرد أن يصل إلى وعيه مهما كان واضحا ومؤكدا. لا يكفي أن يلم الوعي البشري بما «يجري»، وما «يهدد»، ثم ما «يمكن»، فيقرر الأفضل والأنجح، أو يختارهما، تحقيق الطفرة القادمة لا يتناسب مع الرؤية مهما صدقت أو اخترقت. من هنا ظهرت الوظيفة الرائعة لضرورة تسجيل ناتج الإبداع إذ تُمكّن هذه الوظيفة التنبؤية من تسجيل الواعد، بقدر ما تُمكّن من الإنذار بالمخاطر الممكنة.

مرة أخرى: الإبداع البشري هو عملية تطورية أصلا، وما الناتج الإبداعي إلا إعلان عن عجز مرحلي عن تحقيق بعض رؤى هذه العملية «حالا»، فكأنما يقوم هذا الناتج بالاحتفاظ بـ «حق التطور» كما سجلَه في الوقت المناسب.

يبدو الحديث عن الحرية

فيما يتعلق بالناتج الإبداعي دون الاهتمام بالحديث عن الحرية فيما يتعلق بالعملية الإبداعية نوعا من الاختزال والتسطيح. إذ يؤدى إلى الانشغال بقضايا فرعية، ليست ثانوية، عن الأساس والجوهر.

شروط وفاعليات العملية الإبداعية، وناتجها:

الإبداع البشري كما نعرفه ونمارسه أصبح محنة الإنسان وشرف تمتعه بالوعي في آن، وهو في نفس الوقت اختبار لأحقية الإنسان في المشاركة في مسار تطوره.

الشروط الواجب توافرها لحرية حركية العملية الإبداعية غير الشروط اللازمة لإمكان الإعلان عن ناتج العملية وتسويقه. لكن العلاقة بينهما وثيقة دالة.

حتى تتحقق العملية الإبداعية في رحاب الوعي والإرادة، ثمة شروط وفاعليات لا بد من تحققها بدرجة مناسبة، نورد أهمها كما يلي:

١- مساحة كافية لاستيعاب حركية الوعي.

٢- تنشيط لأكثر من مستوى من الوعي«معا».

٣- القبول بدرجة من المخاطرة.

٤- حركيةٌ مناسبة ذات توجه جدلي ضام.

٥- قدرة على التناوب بين الكمون والبسط.

تختلف هذه الشروط والفاعليات عن تلك التي يجب توافرها لتحقيق حرية تبادل وتسويق والحفاظ على الناتج الإبداعي (والتي تكاد تحتكر الحديث عن الحرية والإبداع). يتحرك الناتج الإبداعي بحرية بشروط أخرى، وفاعليات مختلفة نكتفي بتحديد عناوينها (للتمييز) فيما يلي:

١- أبجدية كافية وقادرة (قدر كاف من الموضوعات، المعلومات، المعارف، الخبرات).

٢- محيط من السماح ممتد من العملية الإبداعية حتى إعلان ناتجها.

٣- أداة (أو أدوات) للأداء (التعبير/ التفعيل/ الإخراج، إلخ...).

٤- فرص مناسبة لاستعمال هذه الأدوات، وفرص لإعلان ناتج استعمالها.

٥- إمكانية توصيلها لأصحابها، وإمكانية الحوار حولها لمراجعتها (وخاصة بمايسمى «النقد»).

ضرورة التمييز، حتى الفصل، بين حرية وحرية

أهمية هذا الفصل بين الحرية الضرورية لتحريك عملية الإبداع، والحرية اللازمة لتسويق ناتجه ليست أهمية نظرية. إن الاهتمام بالأخيرة دون الأولى (أو أكثر من الأولى) يمكن أن يترتب عليه مضاعفات كثيرة، حتى لو بدت كأنها إنجازات بشكل أو بآخر. نورد بعض هذه المضاعفات. كأمثلة. فيما يلي:

١- لو أن حرية التعبير أصبحت كاملة (مائة بالمائة. وهذا مستحيل حتى في أكثر الدول زعما بإطلاق الحريات) مع قصورٍ في توفير حرية العملية الإبداعية. فإن الاحتمال الأغلب هو الحصول على قدر هائل من الأصوات والكتابات من أقصى أطراف الاستقطاب دون إضافة حقيقية تدل على معنى الحرية التي تخدم الإبداع، وترسم الطريق إلى «الآتي».

قد تتناسب حرية التسويق والسماح بإعلان ناتج الإبداع تناسبا عكسيا مع عمق حركية (حرية) عملية الإبداع ذاتها. ذلك أن هذه الأخيرة تتعمق أكثر فأكثر وهي تحاول اختراق الحواجز الخارجية (بعد، ومع الحواجز الداخلية) بشكل أو بآخر. فإن لم توجد تلك الحواجز والمحظورات، فقد تنساب خيالات كثيرة، وتنطلق شطحات طافية، تثبت أغلبها أنها «كنظام» الإبداع، وليست إبداعا.

٢- على الرغم من احتمال السماح غير المحدود بحرية التعبير (والنشر) أحيانا (من الناحية الرسمية، أو القانونية، أو الحقوق المعلنة) إلا أن ذلك لا يمنع من قيام مؤسسات أخرى بتشويه هذه المساحة من الحرية، أو توجيهها الوجهة التي تريدها دون إدراك كامل من جانب المبدع يحميه من مغبة ذلك. بل



إنه في كثير من الأحيان تقوم هذه المؤسسات باختلاق قضايا زائفة، أو فرعية، تغري المبدع بخوضها، وهو يتصور أنه يصارع من أجل حريته، في حين أنه لا يخدم إلا تشويهها، وتزييفها. (تذكر مثلا سماح السينما الأمريكية بشجب حرب فيتنام لتفريغ طاقة معارضيها، فتستمر الحرب أطول).

٣- من ذلك أيضا (وبرغم أنه يندرج تحت التحذير السالف الذكر إلا أنه يحتاج فقرة مستقلة) ما يجري قصدا أو مصادفة من تصنيع غرائز مانعة للحرية مسايرةً لما يغلب عند القطيع البشري في وقت بذاته. ثم العمل على تقديسها تسليماً، حتى أن هذه الغرائز المانعة للحرية قد تحمل أسماء تغري بأنها تنتمي إلى ما هو حرية وتحرر (مثل منظومة العقل، ومنظومة العلم، ومنظومة الديمقراطية ومنظومة احتكار تفسير الدين، ومنظومة الطب التقليدي. في حدود الشائع عن كلٍّ.

إن الاقتصار على الحديث عن حرية تسويق أو إعلان الناتج الإبداعي، وبالتالي قصر مفهوم الرقابة على المؤسسات الرسمية والسلطوية الخارجية هو اختزال لقضية الحرية وعلاقتها بالإبداع.

الرقابة الداخلية أخطر:

توجد رقابة داخلنا، هي الأخطر والأهم، وهي تقوم بتحجيم حركية العملية الإبداعية، بشكل أخفى وأخطر. وهذا هو ما يهمني توضيحه تحديدا في هذه المداخلة من خلال النظر ببعض التفصيل للفاعليات والشروط الواجب توافرها لعملية الإبداع، ثم الإشارة إلى ما يحول دون توافرها، مما اخترت تسميته بـ «الرقابة الداخلية».

حتى نتعرف بالقدر المتاح على ما هو رقابة داخلية، سوف نحاول تناول شروط حركية (حرية) العملية الإبداعية الواحد تلو الآخر.

أولا: مساحة كافية لاستيعاب حركية الوعي

الحديث عن المساحة التي يتحرك في رحابها الوعي البشري، غير الحديث عن عمق الوعي أو حركيته، برغم التداخل الضروري. مجرد ذكر لفظ «مساحة» في هذا المقام يحتاج وقفة. المساحة ليست سعة مكان بقدر ما هي عدد من الوحدات (المشتبكة، والجزيئية) مضروب في عدد من احتمالات التربيطات. (تصل إلى البلايين في حالة الإنسان، إذا اكتفينا بمشتبكات دماغه فحسب).

يولد الطفل (البشرى) وهو يحمل تاريخا من خبرات كل الأحياء التي أفرزته، كما أنه يحمل تركيبا معرفيا تشريحيا ووظيفيا شديد الكثافة والكفاءة (في الدماغ خاصة، دون استبعاد سائر الجسد). يمثل هذا وذاك أعظم وأضخم ما عُرف من تركيبات بيولوجية مشتبكية وجزيئية، تتضاعف مساحتها مع تضاعف احتمالات أنواع تشابكها، والتفاعلات فيما بينها.

إن الطبيعة بفضل الحق سبحانه وتعالى لم تبخل على الكائن البشري منذ ولادته بهذه المساحة البيولوجية المعرفية المترامية الرحبة.

خيال الأطفال الحر هو خير دليل على مدى اتساع هذه المساحة البدئية، لكن هذا الخيال الحر ليس مرادفا للإبداع بحال. بل إن استمرار هذا النوع من الخيال بطلاقة غير محدودة في كل هذه المساحة يعتبر ضد الإبداع، بل ضد النماء، والتعلم، والتحصيل، والتفكير«لحل مشاكلي» أيضا.

لظروف تنظيمية مبرمجة، تضفُراً مع ظروف خارجية متاحة، يتحدد الجزء من هذه المساحة المسموح فيه بالحركة بالغرض من التحرك في لحظة بذاتها.

إن التنشئة الأساسية هي التي تسمح (أو تمنع) أن يحافظ الطفل (فالناضج) على أكبر قدر من هذه المساحة، وفي نفس الوقت هي التي يمكن أن تحميه من التيه فيها إلى غير رجعة.

الخيال الطليق (الطفلي، والجنوني أيضا) يتميز برحابة مثل هذه المساحة حتى الإعاقة، ما لم يتم التنظيم المناسب.

هذا النوع من اتساع المساحة ليس إبداعا في ذاته، ولا هو ضروري هكذا للإبداع، بل لعله ضد الإبداع في نهاية النهاية، مع أن رحابة المساحة هي شرط إطلاق رحابة العملية الإبداعية.

يتوقف الحفاظ على المساحة المناسبة لتحقيق أي غرض حياتي بما في ذلك الإبداع، على نوع التربية (والتعليم)، وكذلك على مدى حرية المربي (/المعلم)، وليس فقط موسوعيته أو مهارته أو حتى عواطفه.

إن ما نسميه هنا حرية المربي هو نوع وجود قادر سمح صارم في آن. هي أقرب

إلى الحرية التى تلزم فى العملية الإبداعية منها إلى التحرر فى التعبير والنشر، بمعنى أنها تشمل شجاعة التجريب، ونشاط تحرك مستويات الوعى فى المساحة الممتدة، دون مبالغة فى السماح، ولا ملاحقة بالوصاية. إذا لم يتوفر ذلك، فإن الناتج السلبى هو عملية تضييق الخناق، لتحديد المساحة أضيق فأضيق، حتى يموت الإبداع قبل أن يولد.

القهر البدئى الذى يحرم الكائن البشرى من هذا الثراء الجاهز للحركة والإبداع، يبدأ بتحجيم المساحة أكثر من اللازم دون مبرر كاف، عن طريق تعليم كمىّ حشرىّ، وسلطات قامعة. ثم تستمر الرقابة الداخلية التى تكونت نتيجة هذا وذاك فى كف أى محاولة توسيع للمساحة كما خلقها الحق سبحانه وتعالى، حتى تضيق إلى ما يُعيق تشكيل أو تخليق أى جديد.

هذه هى أولى خطوات الرقابة الداخلية، وهى رقابة وقائية من «مخاطرة الإبداع»، إن صح التعبير.

ثانيا: تنشيط لأكثر من مستوى من «الوعى» معا

لا جدوى من رحابة المساحة (بالمعنى السابق) لتسع حركية مستويات الوعى مهما بلغت، إلا إذا تم التنسيق المناسب للتحرك فيها. الحركة فى المساحة المتاحة لا تسير عرضا فى رحابة امتدادها فحسب، وإنما هى تغوص طولا إلى أغوارها الحاملة للتاريخ (الفردى، والنوعى)، أعنى إلى مستويات الوعى البشرى المُرتبة هيراركيا حاملة تاريخ الحياة برمتها، مستعيدة تاريخ النمو الفردى فى نفس الوقت.

حين نتحدث عن مستويات الوعى لا نقصد ما يسمى الشعور فى مقابل اللاشعور، ولا حتى اللاشعور الجمعى. الإنسان منتظمٌ دماغه خاصة، ووجوده عامة، فى مستويات لها أسماء مختلفة حسب المدرسة النفسية أو العصبية أو الفلسفية التركيبية التى تصفها. هذه المستويات يمكن أن يُنظر إليها باعتبارها حالات ذات (ذوات) متنوعة، كما يمكن أن ينظر إليها باعتبارها منظومات دالة على مرحلة بذاتها من مراحل التطور الحيوى، وأيضا النمو الفردى. كل منظومة (مستوى) من هذه المستويات هى تركيبة كيانية متكاملة قائمة بذاتها، لكنها منتظمة، هيراركيا، مع سائر المنظومات الأخرى، الأقدم والأحدث.

فى لحظة بذاتها يقوم أحد مستويات الوعى بالتفوق والقيادة (وعى اليقظة الظاهر هو المتقدم البادى عادة). فى حين تكمن مستويات الوعى الأخرى حتى يتغير الموقف والموقع والوقت (أثناء النوم مثلا) فتنتقل القيادة إلى مستوى آخر، وهكذا.

هذا التبادل يدل على سلامة وكفاءة ومرونة التركيب البشرى، وهو يتيح فرصة للتنظيم والأداء الراتب للعمل العادى والتكيف معا.

فى حالة الإبداع، تزيد الكفاءة والمرونة حتى يتم السماح بتنشيط أكثر من مستوى معا فى نفس الوقت، هذا ما يحدث أيضا فى حالة الجنون (أو بعض الجنون على الأقل)، لكن بصورة سلبية، وناتج سلبى.

إن طريقة تنشئة معينة هى التى تسمح بهذا التنشيط الإيجابى معا. تنشئة ليس فيها تقسيم حاسم نهائى للأسود والأبيض (الحسن والسيئ، الصواب والخطأ)، تنشئة تحدد خطوطا حمراء متحركة، وليس مساحات حمراء ثابتة ومحظور الاقتراب منها أصلا، ودائما.

أيضا: التربية المهيِّئة لطلاقة الإبداع هى التى تسمح بطرح الأسئلة بنفس القدر، وأحيانا أكثر، من ذلك القدر الذى تعطى به إجابات حاسمة، وهى التربية التى تحترم الجهل والمجهول، بما فى ذلك الأحلام والشطح الغامض.

كل ذلك هو الذى يعطى ذلك القدر من الحرية اللازمة لتحقيق هذا المطلب الثانى لحرية العملية الإبداعية.

الرقيب هنا: هو الحاسم الثابت المطلق من الإجابات الجاهزة، ومن المسلمات، ومن التنظيمات الجامدة، ومن الأخلاق المغلقة المُعطاة، ومن التفسيرات المنتهية.

حين نستسلم تماما لكل محتويات هذا المعجم المبرمج المتجمد، لا يُسمح إلا لمستوى واحد من الوعى أن يسود أثناء اليقظة، وبالتالى نفتقر إلى شرط الحرية الداخلية السامحة بالإبداع.

إن الرقيب هنا يتكون بشكل منتظم وجاثم وصلد منذ البداية، بحيث يصل التسليم له إلى داخل الداخل، فهو القهر الذاتى الممتد. يترتب على ذلك أن يصبح اختراقه مصاحباً بمخاطر غير مأمونة تماما.

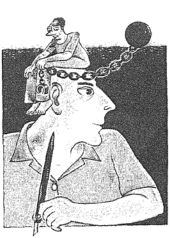
ثالثا: القبول بدرجة من المخاطرة

لا يوجد إبداع بدون مخاطرة. حتى فى الظروف التى وفرت المساحة الرحبة، والسماح لأكثر من مستوى من الوعى معا. حتى فى تلك الظروف. فإن الإبداع الحقيقى لا يتم إلا من خلال درجة ما من المخاطرة. تأتى المخاطرة من مصدرين أساسيين:

الأول: إن عملية الإبداع هى خطوة إلى مجهول ما. كثيرا ما تبدأ العملية فى اتجاه بذاته، لتحقيق فكرة ما، أو للكشف عن منطقة ما، لكن المبدع الحقيقى عادة ما لا يواصل المسير فى نفس الاتجاه الذى بدأ به ليحقق ما أراد. إنه عرضة دائما (ما دامت المساحة رحبة، و«الوعى معا» واردا) أن يجد نفسه فى طريق لم يقصده، سائرا إلى مآل لا يعرفه.

الثانى: لا يقتصر الخطر على اختلاف المسار عن المخطط المبدئى، ولا على انتهاء المآل إلى هدف جديد غريب لم يقصد إليه ابتداء، وإنما يتمثل أكثر فى احتمال «إجهاض العملية» الإبداعية بحيث لا تصل إلى أى غاية أو تنجح فى أى توليف. هذا الإجهاض. فضلا عما يحمل من إحباط، هو خطوة خطيرة فى ذاتها، إذ منها قد يبدأ مزيد من التفكيك والتعدد غير المتبادل أو المتجادل، الذى قد ينتهى إلى مآلات سلبية ليس أبسطها ما يسمى الجنون.

الإبداع إذن هو مخاطرة نحو مجهول مرعب، وهو فى نفس الوقت منزلق إلى جنونٍ محتمل. لا يوجد مبدع - لحظة الإبداع - مهما تماسكت شخصيته، وترسخت قواعده، إلا وهو يخاطر بما لا يعرف، بما فى ذلك احتمال خبرة الجنون، حتى ولو كان ذلك للحظات محدودة.



فى الإبداع الأصيل لا يوجد سقف للمخاطرة، حيث لا توجد قيم محظورة أصلا.

قد يأتى الحظر لاحقا حين تنتقل العملية الإبداعية إلى مستوى الناتج الإبداعى المعلن.

إن الأخذ بالمخاطرة فى مراحل العملية الإبداعية التى هى شديدة الخصوصية ليس له سقف. المخاطرة هنا تقتحم أى محظور من أى نوع مهما تقدّس: دينيا، أو أيديولوجيا، أو علميا، أو عرفا، أو تقاليد، أو محرمات، أو وعيا عاما، أو رأيا غالبا، أو ديمقراطية أو قانونا. المبدأ الأساسى فى هذا الموقف هو أن «كل شيء قابل للتناول، وكل مسلّمة قابلة للمراجعة، وكل مقدس قابل للفحص والنقد».

لا يستطيع المبدع عادة، مهما بلغت قدرات وتجارب إبداعه، أن يعيش هذه المرحلة من المخاطرة ببصيرته الكاملة اليقظة، لكنه أيضا - لكى يكون مبدعا - لا مفر من أن يعيشها فى مستوى ما من مستويات وعيه، رضى أم لم يرض. البعض يعى احتمالات المخاطرة بشكل أو بآخر فيتحمل مسئوليتها باختيار نسبى، والبعض يسمح بها (حتى لنفسه) من وراء ظهره.

الذى يعيها قد يتمادى فيها حتى يخرج منها لنفسه بما تيسّر، ثم يعاود التنظيم والانتقاء حتى يخرج مما خرج به لنفسه بما يمكن أن يصل إلى الناس فى إطار المتاح (الحرية الأخرى).

هاتان عمليتان مكمِّلتان لبعضهما البعض، لكن الحذر كل الحذر يلزمنا أن نتذكر أنه إذا طغى الاهتمام بالعملية الثانية، (النقلة إلى ناتج إبداعى) بوعى أو بدون وعى، على حساب العملية الأولى (العملية الإبداعية ذاتها)، فلا يخرج منها إلا ما هو ليس إبداعا أصلا. (كما ألمحنا).

عادة ما يحتاج الأمر إلى خطوة إبداعية توسطية تقوم بالتوليف بين المخاطرة الأولى غير المحدودة، وبين المراجعة التالية التى تحيل العملية الإبداعية إلى ناتج إبداعى متاح.

الرقيب المترجم هنا هو رقيب مبدع مشارك بشكل ما.

مثل أى رحالة مغامر (سفارى مثلا) تقل المخاطرة مع تكرار المحاولات، وتكرار الوصول الآمن إلى الهدف بشكل أو بآخر، لكنها أبدا لا تنعدم.

إذا انعدمت المخاطرة بإطلاق، مات الإبداع، أو تسطح على أحسن الفروض.

الرقيب هنا أخطر وأكثر تحفزا.

فقد يكون رقيبا جاهزا قديما معيّنا في داخلنا منذ الولادة فيما هو جينات ووراثة.

وقد يكون رقيبا لحق بنا منذ بداية التنشئة، وهو يمسك بيده المعجم القديم الثابت لتحديد المسموح من الممنوع.

وقد يكون رقيبا من واقع سلطة دينية، (وليس الدين في ذاته). سلطة تمادت في التفسير والتحجيم والوصاية، بما يعوق لا بما يخلق.

وقد يكون رقيبا معينا (داخليا أيضا. وليس فقط في الخارج) من قبل أيديولجية شاعت وتمادت، حتى أصبحت من المسلمات، باعتبارها النهاية القصوى. (مثل الماركسية حول منتصف القرن العشرين. والعولمة المأمركة بديمقراطية موصى عليها حالا).

وقد يكون رقيبا مؤلفا من كل ذلك.

المصيبة في شأن كل هؤلاء الرقباء هي أننا نحن الذي نعينهم في الداخل، بل إننا كثيرا ما نحتفل بمراسم تسلّمهم صولجان الرقابة. المصيبة الأخرى هي أننا، لذلك، ولغير ذلك، لا نحاول مقاومة هؤلاء الرقباء أو مواجهتهم، ناهيك عن مخالفتهم، أو تحجيمهم (اللهم إلا في طفرة إبداعية غير مأمونة العواقب)

الرقابة في هذا المستوى الداخلي أشد وأخطر.

بل إن رقابةً قد تُعيَّن من قبل المنظومة التي تسمى «الحرية» حين تصبح قيمة مقدسة، لا حركية نابضة. نفترض مثلا أن مبدعا خطر له أثناء طلاقة إبداعه أن يقر بمشروعية بعض الحواجز المدخلة في كل أكبر لا يعرفه، يبدو مثل هذا المبدع أنه قد تجاوز «تقديس الحرية». فلا يستبعد أن يقفز إليه رقيب من داخله يمنعه من التمادي في هذا السبيل خوفا من الحكم عليه بالهرطقة في حق الإله المسمى «الحرية». هنا يصبح الرقيب المعيَّن من قبل الحرية هو نفسه الحائل دون ممارسة حقيقة وحركية الحرية، بما يترتب عليه فساد أصالة العملية الإبداعية.

رابعا: حركية مناسبة ذات توجه جدلي

بعد الطمأنينة إلى المساحة، والسماح بالتنشيط لمستويات الوعي معا، والأخذ بالمخاطرة بكل أبعادها، لا يكون الإبداع إبداعا إلا إذا اتصف بحركية نشطة، لا تلتزم باتجاه بذاته، اللهم إلا المثابرة حتى تمام التوجه (وليس تحقيق هدفٍ محدد مسبقا).

إن مجرد الحركة قد تمثل رعبا يفسَّر بما جاء عن المخاطرة في الفقرة السابقة، يكون الأمر أكثر صدقا وأخطر إرعابا حين تكون الحركة طليقة نسبيا (لا كليا).

لا إبداع بدون حركة، ولكن ليست كل حركة إبداعا. ثمة حركة في المحل، وثمة حركة مشتتة، وثمة حركة زائفة، وثمة حركة ظاهرية فحسب.

الحركة التي تجعل التنشيط في المساحة «معا» إبداعا هي حركة ضامة جدلية. إنها حركة تحتوي الأضداد دون تسوية، وتلملم الشتات دون محاولة الرجوع إلى التنظيم القديم مهما بدا أكثر أمنا. فرط الحركة قد يكون - في نهاية النهاية - ضد الإبداع، وضبط السرعة ليس عملية سهلة، أو جاهزة، أو ممكنة طول الوقت.

الرقيب على هذا المستوى هو قريب من الرقيب المختص بالتحذير من المخاطرة (الفقرة السابقة)، ذلك أنه عادة ما يبالغ في مخاطر الحركة (سواء من الإفراط فيها، أو من العجز عن ضبط توجهاتها). هذا الرقيب يحد من حركية الإبداع ملزما بقواعد «تهدئ اللعب» كما يقولون. (المقصود هنا بالإلزام هو الإلزام الداخلي المسمى في العادة «الالتزام».)

إذا كنا نفترض ضرورة ضبط جرعة الحركة خصوصا في مرحلة الانتقال من العملية الإبداعية إلى الناتج الإبداعي، فإن مثل هذا الضبط أو الالتزام يصبح رقيبا خطيرا في المرحلة السابقة لو أنه تدخل أكثر مما ينبغي في نشاط العملية الإبداعية الأولية.

إن كثيرا من النقلات الجذرية من مرحلة إلى مرحلة من مراحل وأطوار



أنواع الإبداع المختلفة، تُحدث ما يشبه الصدمة نتيجة لتجاوز حركتها «السرعة المقررة». (مثلا: النقلة من الشعر العمودي إلى شعر التفعيلة، ومن شعر التفعيلة إلى قصيدة النثر، وهكذا).

الرقيب الداخلي هنا هو بمثابة كاميرا الرادار التي تحذر قائدي السيارات على الطرق السريعة بأن «السرعة مراقبة بالرادار». أحيانا يصل الأمر إلى أن تنقلب الرقابة على الحركة إلى نوع من الضوء الأحمر الذي لا يتغير وكأن الجندي الرقيب قد أضاءه ثم نسيه.

خامسا: القدرة على التناوب بين الكمون والبسط

العملية الإبداعية ليست محدودة بوقت بذاته، إن لم تتم فيه ألغيت لتأخرها عن الموعد مثلا.

قد يخضع الناتج الإبداعي لاحتمال تحديد زمن بذاته لإنجاز ما اتفق عليه في عقد ما، أو التزام ما، أما العملية الإبداعية نفسها فهي مطلقة متراوحة في الظهور والاختفاء، بين الكمون والإعلان.

لكي تكون الحرية التي نعنيها هنا متوافرة فعلا للعملية الإبداعية دون ربط مباشر بما هو إنجاز إبداعي محدد، علينا أن نحترم الكمون بقدر ما نحترم الظهور، كما أنه علينا ألا نطمئن طويلا إلى كمون طال، حتى لا ينقلب إلى نشاط توقف.

التراوح بين الكمون والنشاط كصفة لازمة لحركية الإبداع ينتمي إلى فرض يربط بين «الإيقاع الحيوي ونبض الإبداع».

الكمون جزء لا يتجزأ من تخليق الإبداع إذ يسمح بقدر من حرية التخمر والتوليف الداخلي، مثلما يهيئ للبسط في طور آخر. لكي يتحقق إبداع لا يمكن تفضيل طور عن طور حيث يكمل أحدهما الآخر. إن من لا يعطي لحركية العملية الإبداعية حقها في الكمون إنما يفرض عليها قهرا قد يشوهها أو يسطحها بشكل أو بآخر، كذلك إذا اقتصرت العملية الإبداعية على مرحلة الكمون فهي إبداع يتباطأ حتى يصمت، أو على أحسن الفروض إبداع مؤجل إلى أجل غير مسمى.

الرقيب هنا هو ذلك المفهوم التسلسلي الذي قد يترتب على تنشئة تُعلي من قيمتي «التربيط الخطي» و«الثبات على المبدأ». يقوم هذا الرقيب بالتخويف من التغير الذي يصاحب السماح بالوعي بنوبات إيقاع الكمون/البسط باعتبار أن الثابت الخطي آمن وأضمن.

تجليات العملية الإبداعية:

إن فصل العملية الإبداعية عن ناتجها المعلن، في شكل معروف من التشكيل المحكي أو المسموع أو المرئي، له فضل التعرف على الطبيعة البشرية في جوهرها المبدع بذاته. إنه يؤكد موقفا أساسيا لصاحب هذه المداخلة من حيث إن:

«كل إنسان هو مبدع بما هو إنسان، حتى لو لم ينتج ناتجا يسمى إبداعا أصلا».

العملية الإبداعية، بعد فصلها عن الناتج الإبداعي الشائع، تحتاج إلى مزيد من التعرف في تجلياتها الأخرى. إن هذا قد يساعد على قبول هذا الفصل بينها وبين ناتجها الشائع، بما يتيح لنا قبول التفرقة لطبيعة ما يسمى الحرية كما وردت في هذه المداخلة.

دعونا نتعرف أكثر على بعض نتائج العملية الإبداعية بعيدا عما يسمى الناتج الإبداعي المسجل تشكيلا. إن الإبداع يكون إبداعا حتى لو لم تصحبه إنجازات محددة معلنة، جديدة أو مضافة. صحيح أنه قد يكون إبداعا منقوصا أو قصير العمر (مثل إبداعات خيال الأطفال) لكنه يتصف بأغلب مقومات الإبداع.

إن مسار النمو الذاتي ليس إلا إعادة تشكيل المادة الجينية بما أتيح لها من مناهج تربوية سلوكية تسمح بهذا التشكيل المتجادل طول الوقت مع ما يصلها من معلومات وخبرات من خارجها (المحيط).

لا تحتاج عملية الإبداع، حتى نعترف بها - إلى أن نحذق أدوات محددة للتعبير عنها. قد تكون أدوات التعبير ليست كافية لإتاحة الفرصة للتعبير الإبداعي المناسب، لكن يظل الإبداع إبداعا.

إن حذق استعمال الأداة قد يسمح بتنمية مهارةٍ ما، لكن المهارة. في ذاتها. مهما بلغ إتقان ناتجها، ليست مرادفة للإبداع. إنك حين لا تمتلك الأداة قد تستطيع أن تبدع بدونها ولكن ذلك عادة لا يسمى إبداعا. أنت تحلم، وتتغير، وتتذوق الأكل بشكل آخر، في حين أنك لا تلعب الموسيقى أو تكتب الشعر أو

الرواية، ولكنك مبدع بالضرورة. من ذا الذى يستطيع أن يمنعنى أن أشاهد قرص الشمس مختلفا فى كل مرة بحيث أعتبرها شمسا جديدة تماما كل صباح، إن معايشتى لكل شروق باعتباره خبرة جديدة تكفى لدخولى نادى المبدعين حتى لو عجزتُ عن صياغة ذلك فى قصيدة معلنة.

إبداع الذات فى خبرات التصوف فى رحاب الحق سبحانه، سعيا إلى وجه العدل تعالى، كدحا للقاء المحيط احتواءً، هو نوع من العملية الإبداعية الذاتية الخلاقة. الخلاصة:

إن الاقتصار على التركيز على أن الحرية فيما يخص العمل الإبداعى هى ما يتصل بحرية التعبير أو حرية النشر هو تجاوز لمفهوم أعمق للحرية يشمل الحركة والمرونة والجدل والمخاطرة والمسئولية جميعا.

إن الحرية الضرورية لحيوية العملية الإبداعية غير الحرية اللازمة لإعلان الناتج الإبداعى.

إن حرية العملية الإبداعية هى ممارسة جدلية مرنة، لها مواصفات خاصة، ليس من بينها التقديس أو اللامحدودية.

ثمَّ خطر يمكن أن يترتب على هذا التركيز على هذا المفهوم للحرية الخاصة بعملية الإبداع أكثر من العمل على ضمان حرية إعلان ناتجها، ذلك الخطر هو أن يُختزل مفهوم الحرية إلى عملية ذاتية داخلية أكثر منها ممارسة طليقة معلنة تسمح بالحوار والنقد. لا توجد حرية فى السر بصفة دائمة. ليس فقط لأن الحرية هى موقف مُواجهى بالضرورة، ولكن لاحتمال الانخداع بما لا يُختبر. إن سرية الحرية تجعلها بعيدة عن الاختبار بما يعرضها أن تفتقد فى النهاية فرصة التحقق والمراجعة.

أيضا: لا توجد حرية فى فراغ. الحرية لا تتواجد إلا فى مواجهة آخر حقيقى، والآخر لا يتواجد إلا إذا حل فى وعينا كيان منفصل عنا، مختلف فعلا، وليس ادعاء. يحل فى وعينا لنحسن التعرف عليه منفصلا، لا لنسقطه إلى الخارج بديلا عنه. لا توجد حرية بشرية إلا فى مواجهة «آخر»، سواء بالحوار، أم بالصراع، بالاتفاق أم بالاختلاف.

إن الزعم بأن حريتك تنتهى عند بداية حرية الآخرين هو زعم أقرب إلى التسوية التى تحدد منطقة محايدة بين الطرفين، هو زعم يعلن فض الاشتباك أو هدنة دائمة متجددة، وهذا أبعد ما يكون عن مناخ تنشيط الحرية واختبارها بالحوار الخلاق. فض الاشتباك هذا يلغى حركية الحرية من أساسها. إن حريتك لا تبدأ إلا وهى تتصارع جدلا مع حرية الآخر. هذا النوع من الصراع، ليكون دليل حرية، لا ينتهى بقاتل ومقتول. إنه ينتهى بتخليق آخرين مختلفين إبداعا نتيجة إثراء كل منهما للآخر باحتواء إبداعى متبادل، يتأكد أكثر وهما مفترقان. الحرية التى تتم بالحذف، أو بالانسحاب، أو بالتسوية الماسخة، هى حرية منقوصة أو معكوسة.

إنه فى مجال الحديث عن الحرية لا توجد محاذير مطلقة، ولا مقدسات ثابتة. مع أن الحرية لا تزدهر إلا فى مواجهة المحاذير والسدود، فى الداخل والخارج، تواجهها لتخترقها فتحتويها، هى لا تستسلم لها، ولا تنسحب أمامها، وهى حتى لا تحطمها فتخف وتطفو هلامية القوام على أنقاضها. إن المحاذير والسدود هى التى تجعل لحركية الحرية زخما متفجرا خلاقا.

فى مجال الإبداع، تبدأ الحرية من الداخل للخارج، كما تتدعم من الخارج للداخل باستمرار. نفس التبادل بين الداخل والخارج تتنامى فيه كل من القيود والقهر باطراد.

الخطر الأكبر يتمثل فى احتمال أن ينتقل قهر الخارج المعلن الذى يمكن رفضه واختراقه وتجاوزه، إلى قهر الداخل الخفى المستسلم المدعى للحرية. إن الرقيب الداخلى قد يكون أعمى وأقسى من كل الرقباء الخارجيين.

أخيرا، فإن الحرية ليست قيمة إيجابية فى ذاتها بشكل مطلق، فحرية الجنون، إذا لم نلحق بها لنحول مسارها إلى مشروع إبداع، قد تكون تدميرية للذات أو للآخرين، وحرية الطفل لا تضمن أى بناء قادر على الاستمرار بما هو.

كل هذه المحاذير تنبه إلى أن حرية العملية الإبداعية، هى التمهيد الضرورى (وليس البديل) لممارسة الحرية إبداعا بما يميز الكائن البشرى بحضور وعيه «معا» فى جدل مع «الآخر» أبدا.

ثمَّ تنويه أخير لا مجال لتفصيله هنا يقول: إن الحديث عن حرية الإبداع (عملية، وناتجا) غير الحديث عن حرية الشخص الذى أفرز إبداعا ما (لا أصفه دائما بالمبدع طول الوقت). إن حركية الإبداع تتكون وتنشط وتتحرك وتُنجز عبر ذات بشرية ما، حتى لو كان صاحبها يتصف فى الحياة العادية بصفات هى أبعد ما تكون عن الحرية: حركية وسماحا وجدلا ومسئولية وأخلاقا جميعا.

لكن هذا حديث آخر. ■

كتاب الزاوية

الإشارات الإلهية

يا هذا: إنك لن تقف على حدود هذه المرامى. وعلى عواقب هذه الأسامى. إلا بعد أن تخلع نفسك من نفسك. كما تخلع قميصك من جلدك. وكما تخلع جلدك من لحمك. وكما تخلع لحمك من عظمك. وإنما قلت هذا لأن المراد عزيز، والمرام بعيد، والفهم قاصر، والهوى متناصر، والقوة المسعدة غائرة، والطبيعة الحاضرة خائرة، والشهوة بين الإنسان وبين سعادته حائرة وبضاعته فى طلب الربح بائرة. فإن لم تكسب هيئةً لنفسك غير هذا الذى ورثته بمزاجك. ونشأت عنه بضروب حركتك واختلاجك. لم تظفر بما يكون سببًا لسرورك وابتهاجك. وهذه نصيحة قد كررتها لك وعليك، وأردت بها النجوع فيك والهجوع منك. وأن تقبل على نفسك الشريفة بإدبارك عن نفسك، أعنى: أن تقبل على نفسك الشريفة الفاضلة المقتبسة من نور عقلك. الحائلة بينك وبين جحيم طبعك: وأعنى بإدبارك: عن نفسك الأمارة بالسوء، الوثابة بالعتو، الطارحة لك بيد العدو. فافطن لهذه العويصة التى هى إقبالك على نفسك وإدبارك عن نفسك. فإن ظاهر هذا القول يحدث تناقضًا ويورث صدورًا. وباطنه يحدث اتفاقًا ويورث شهودًا.

اللهم: إنا قد تقلقلنا فى نصبنا حياءً من التعذير فى قضاء حقك، واضطربنا فى أحوالنا لنكولنا عن حيازة نصيبنا منك فى طلب مرضاتك. وإحساسنا بهذا القدر قد أوقد على قلوبنا جمرات الحسرة وحسرات الفُرقة.

كاتب ألمانى:

لماذا تظلم أمريكا

هذا الكتاب بلسم على جراح كل العرب والمسلمين الذين يجدون أنفسهم منذ أحداث ١١ سبتمبر، التى سببتها قلة إرهابية، هدفًا لسياسة أمريكية عسكرية خرقاء تضرب بلا هوادة وتهاجم بدون تمييز وتستهين بأرواح العزّل الذين لا ذنب لهم حتى من الأطفال مثل «عبدالقاهر» الأفغانى «وثنايا» العراقية ضحايا الحرب الأمريكية على الإرهاب.

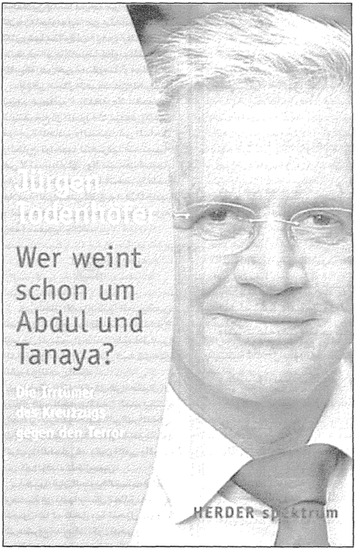
إن النظر إلى الحملة الشعواء التى يشنها الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، منذ هذا التاريخ المشئوم، قد يجعل البعض يتصور أن الغرب فى كرهه واحتقاره للحضارة العربية والإسلامية وفى عدائه لشعوب هذه المنطقة يتكلم بصوت واحد ويصب جام غضبه، ليس فقط على مظاهر التطرف الإرهابى والتدهور أو القصور السياسى والاجتماعى فى المنطقة العربية والإسلامية فحسب، بل يشن حملة تعصبية عنصرية تستحل كل ما هو عربى ومسلم ولا تعرف فى غضبها رحمة حتى مع المدنيين العزل والأطفال الأبرياء.

لكن الكتاب يمثل صرخة إنسانية تستنكر الاستهانة بقيمة حياة الإنسان العربى والمسلم وتسلط الضوء على المصير المأساوى للمواطنين والأطفال العرب والمسلمين الذين يرمز لهم عبدالقاهر وثنايا، أبطال عنوان الكتاب.

ومؤلف الكتاب يحمل دكتوراه فى القانون وكان قاضيًا وعضوًا لمدة خمس دورات فى البرلمان الألمانى عن الحزب الديمقراطى المسيحى. وهو حاليًا مدير دار نشر بوردا المعروفة. إن صدور مثل هذا الصوت من ألمانيا - وهى بدورها من أقطاب العالم الغربى - له دلالته.

إن احتجاجه على سياسة القوة والبطش وعدم الاكتراث بحياة المدنيين والأطفال العزل تثبت أن الغرب لا يواجهنا بقناع واحد متجمد الملامح ممعن فى الكره والاحتقار، والأهم من ذلك أن الرجل ليس صوتًا وحيدًا ينادى فى الصحراء. والدليل على ذلك هو رد الفعل الشعبى الكبير على الكتاب ورسالته الإنسانية. ويحتل الكتاب منذ صدوره فى مطلع هذا العام مكانة مرموقة فى قائمة أكثر الكتب المباعة وتلقى الكاتب سيلًا من البريد يعبر مرسلوه عن تأييدهم لرسالته وتعاطفهم مع ضحايا العالم العربى والإسلامى. وقد تبرع المؤلف تودنهوفر بدخل كتابه لبناء دار للأطفال اليتامى فى كابول ومركز للتأهيل المهنى لأطفال الشوارع فى بغداد. وحذا بعض الفنانين والمطربين حذو المؤلف وتبرعوا بالمال لأطفال أفغانستان والعراق ونظم أطفال المدارس ورجال الدين ندوات ولقاءات للترويج للكتاب ورسالته الإنسانية.

إن الاستجابة الشعبية الكبيرة للكتاب تفند نظرية تآمر الغرب مجتمعًا على كل ما هو عربى وإسلامى وتؤكد أن هناك قطاعات كبيرة من الرأى العام الأوروبى بالذات تحترم آدمية الإنسان العربى والمسلم ولا تشترك فى الأحكام الجماعية الظالمة له والمستهينة بقدرة الكتاب الذى قدم له السياسى الألمانى البارز هانز ديتريش جنشر وزير خارجية ألمانيا الكبير فى عهد كول والمعروف بمهندس الوحدة الألمانية. وأهم ما يميز الكتاب فى نظر جنشر أنه يضع الاعتبارات الأخلاقية والإنسانية فى موضع الصدارة عند معالجة المشاكل الدولية. ويريد تودنهوفر أن يسرى المبدأ الدستورى الألمانى «إن كرامة الإنسان لا يجوز أن تنتهك» على العلاقات الدولية أيضًا. وهو ينتقد أمريكا مع صداقته لها لأن الحرب الوقائية (الهجومية فى الواقع) انتهاك لحقوق الإنسان ولأن القانون يجب أن يكون فوق القوة. ويتفق جنشر مع تودنهوفر على أن العلاقات بين الدول القوية الغنية والدول الفقيرة الضعيفة يجب أن تبنى على حكم القانون والعدل وليس على أساس القهر والإكراه لأن الاستجابة لإغراء القوة هو فى نفس الوقت خيانة لمبادئ الغرب ويغذى روح الانتقام والكراهية بما يهدد أجيال الغرب المستقبلة.



والذى يجعل قراءة هذا الكتاب سلسة وحججه مقنعة أن الكاتب لا يكتفى بعرض جاف لوجهة نظره أو بهجوم خطابى وعاطفى على سياسة صقور واشنطن، بل إنه يمزج هذا كله بعرض شيق لرحلاته الميدانية إلى أفغانستان والعراق وحواراته ولقاءاته مع المواطنين العاديين، ومع المقاتلين والعائلات والأطفال ومع هيئات الإغاثة والمعونة فى هذين البلدين المنكوبين. ومع معارضته الشديدة للسياسة الأمريكية فإن الكاتب لا يترك مناسبة لإبعاد شبهة العداء لأمريكا عن نفسه. إنه محب لأمريكا ومؤسساتها ومبادئها، مقدر لفضلها على بلده بعد كارثة الحرب العالمية الثانية.

ويبدأ تودنهوفر كتابه بسرد تجربته الشخصية مع ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ففى هذا اليوم كانت ابنته فاليرى (١٩ سنة) تحضر حفلًا موسيقيًا فى نيويورك. للتأكد من سلامة ابنته قضى الكاتب وزوجته لحظات قلق وخوف مثل كل العائلات الأمريكية فى هذا، ومع مشاركته لمشاعر الأمريكيين وتضامنه معهم فى محنتهم فقد أدرك الكاتب فورًا أن خطرًا جسيمًا يحيق بالعالم العربى والإسلامى نتيجة موجة الغضب والكراهية والرغبة فى الانتقام التى اجتاحت العالم الغربى. فبين يوم وليلة أصبح الإسلام رمزًا للتعصب الدينى والعنف والإرهاب والحضارة المضادة للغرب وأصبح عدوًا مثاليًا يحمل كل الصفات التى تؤهله لأن يكون مصب جام الغضب والعداء الغربى. وبالذات توجس الكاتب شرًا لما يبيته الأمريكيون لأفغانستان بسبب إيواء نظام حكم الطالبان لحركة القاعدة. إنه بطبيعة الحال لا يدافع عن الإرهاب ومن يؤويه ولكنه يخشى إذا ضربت أمريكا بغير

Wer Weint Schon Um Abdul und Tanaya?
(من يبكى حقًا على عبده وثنايا؟)
Jurgen Todenhofer
Freiburg: Herder, 2003, EUR 9.90

الحرب والإسلام؟

مريدى النحاس

حساب أن يعانى الشعب الأفغانى العادى الذى عانى ما فيه الكفاية على يد السوفييت ثم الحرب الأهلية.

وتودنهوفر لمس معاناة الشعب الأفغانى شخصيًا من خلال زياراته المتعددة فى أغسطس ١٩٨٠ وفبراير ١٩٨٤ وديسمبر ١٩٨٤ وأخيرًا أبريل ١٩٨٨.

لقد سوى السوفييت قرى أفغانستان بالأرض وقتلوا وشردوا ملايين الأفغان. ويذكر تودنهوفر أنه لم ير قط ظروفًا أسوأ مما شاهده فى مخيمات اللاجئين فى بيشاور، وقد جمع الكاتب عن طريق الدعاية التليفزيونية تبرعات للاجئين قيمتها أكثر من ٢٠ مليون مارك. وخلال إحدى زياراته لأفغانستان التقى بالشاب عبد القادر الذى جعله رمزًا لآلام الأفغان العاديين، ضحايا بطش الدول الكبرى.

مثل آلاف الأطفال والشبان الأفغان، أصيب عبد القادر (١٨ سنة) بعاهات وتشوهات جسيمة عندما قصف السوفييت قريته بالقنابل الحارقة وعندما زاره تودنهوفر فى مستشفى فى بيشاور كان قاب قوسين أو أدنى من الموت ووزنه لا يزيد على ٢٧ كيلو جرامًا وقد أسهم الكاتب فى إحضار الشاب الأفغانى إلى ألمانيا حيث تطوع الأطباء لعلاجه وأنقذوا بمعجزة حياته.

يخصص تودنهوفر القسم الثانى من كتابه للعراق. فهو يأسف لأن الولايات المتحدة تكرر الآن فى العراق نفس الأخطاء التى ارتكبتها فى أفغانستان. مرة أخرى تعتمد السياسة الأمريكية على العنف والقوة بدلاً من تسعى إلى التفاهم مع خصومها وقت كتابة هذا الكتاب (خريف وشتاء ٢٠٠٢) كانت الاستعدادات الأمريكية للحرب على العراق على قدم وساق ومع سبق الإصرار والترصد، ولكن الحرب ضد العراق لم تكن قد توقفت فى الواقع منذ ١٩٩١ كما يقول تودنهوفر فإن نظام العقوبات الذى فرض على العراق بعد حرب الخليج الأولى كان وبالاً على الشعب العراقى ليس أقل من الحرب ذاتها ويصف تودنهوفر بتفصيل كبير معاناة العراق نتيجة العقوبات التى لمسها بنفسه خلال زيارة لمدة أسبوع فى ربيع ٢٠٠٢. فمنذ فرض العقوبات لم يعد العراق سيدًا لحياته الاقتصادية فقد منع العراق من ١٩٩١ وحتى ١٩٩٧ من بيع بتروله فى الأسواق الدولية وحرم بالتالى من المصدر الرئيسى لدخله. وقد تدهورت حالته فى هذه السنين الحالكة وسادت فيه ظروف هى أشبه بالمجاعة وبعد ١٩٩٧ أصبح العراق عبدًا لما سمى ببرنامج «البترول فى مقابل الغذاء» الذى سمح للعراق ببيع بعض البترول بشرط أن تحصل الأمم المتحدة على دخله وتستخدمه فى إطعام العراقيين وفى تسديد تعويضات العراق للكويت وغيرها من الدول والأفراد والمنظمات. وبعد دفع هذه التعويضات لم يبق للعراقيين سوى الفتات الذى لا يكاد يكفى لسد شدة الحاجة وحدة الجوع. وأصبح العراق الذى كان أحد أغنى البلاد العربية وأكثرها تطورًا شعبًا من الشحاذين والمتضورين الذين ينتظرون مع مطلع كل شهر «سبتًا» يحتوى على احتياجاتهم من الطعام لمدة شهر (وتحتوى هذه السلة على ٩ كيلو دقيق، ٣ كيلو أرز، ٢ كيلو سكر، نصف كيلو عدس، ربع كيلو فاصوليا وكيلو وربع زيت). ولا يحتوى «السبت» على لحم أو خضار أو فاكهة.

ويقدر الكاتب أنه من مبلغ ٥٧,٥ مليار دولار التى حصلتها الأمم المتحدة من ديسمبر ١٩٩٦ وحتى أكتوبر ٢٠٠٢ من مبيعات البترول العراقى حصل الكويت وغيره على ١٤ مليارا ولم يبق لتغطية الاحتياجات الأساسية للعراقيين نتيجة عراقيل بيروقراطية سوى ٢٥ مليار دولار. وهذا يعنى أن رصيد الفرد لم يزد على ٥١ سنتًا فى اليوم وهو ما يعادل استهلاك المواطن الأمريكى اليومى للكوكاكولا.

وأدت هذه العقوبات القاسية إلى انتشار الفقر والجوع والمرض والبطالة فى العراق، والأطفال هم أكبر ضحية لهذه الظروف. ويقدر هانز فون سبونيك منسق برنامج «البترول مقابل الغذاء» من سنة ٢٠٠٠ حتى سنة ٢٠٠١ عدد الأطفال الذين ماتوا نتيجة العقوبات بحوالى خمسة آلاف فى الشهر. وأرجعت اليونيسيف وفيات الأطفال إلى ثلاثة عوامل هى: نقص التغذية، المياه الملوثة، نقص الدواء، وقد تسببت العقوبات إجمالاً فى وفاة مليون من البالغين ونصف مليون طفل تحت سن خمس سنوات.

ومن الآثار الوخيمة لتدمير البنية الاقتصادية والأسرية للعراق انتشار أطفال الشوارع وهؤلاء أطفال فقدوا ذويهم أو دمر الفقر والمرض حياتهم الأسرية فأصبحوا هائمين على وجوههم فى شوارع بغداد وغيرها من المدن. وأحد أطفال الشوارع أولئك هى ثنايا التى تشارك عبد القادر الأفغانى بطولة هذا الكتاب. وقد ألقى تودنهوفر بثنايا فى دار الرحمة وهى ملجأ لأطفال شوارع بغداد ترعاه يونيسيف، وقصة ثنايا التى تشردت بعد أن ماتت أمها وتفككت أسرتها هى مع الأسف القصة المحزنة لآلاف من أطفال العراق. ويأسف تودنهوفر لأن حرب أمريكا الثانية ضد العراق ستضاعف معاناة وآلام الشعب العراقى التى لمسها عن قرب خلال زيارته، ووجده شعبًا بعيداً كل البعد عن أن يكون فظًا غليظ القلب. وقد تأثر الكاتب بمشاعر العراقيين وطيبة قلبهم كما يقول فى أكثر من مناسبة ويشير تودنهوفر إلى أن مشكلة العراق كان يمكن حلها بكل سهولة بعد موافقة العراق على جميع مطالب الأمم المتحدة. ويفند الكاتب، كما فعل غيره كثيرون، ادعاء أن العراق كان يمثل تهديدًا يشمل أسلحة الدمار الشامل. إن ورقة التوت الوحيدة الباقية لتبرير هذه الحرب وكسب تأييد لها هى اعتبارها أداة لإسقاط نظام ديكتاتورى وإدخال الديمقراطية وحكم القانون إلى العراق. ومن خلاله إلى بقية البلاد العربية، بما يخدم نهضة هذه الشعوب المتأخرة كثيرًا عن الركاب العالمى. وفى الواقع فإن معظم المراقبين الألمان والأوروبيين الذين عارضوا الحرب لم يجدوا بدًا من الثناء على نية أمريكا فى إحداث تغيير ديمقراطى كما عبر عن ذلك الكاتب الألمانى الكبير هانز ماجنوس انزنبرجر فى مقال بجريدة «فرانكفورتر ألجماين»، ولكن تودنهوفر يترك الجميع يتساءل سؤالاً لا يسهل حتى على أصدقاء أمريكا الإجابة عليه وهو: هل يمكن بناء الديمقراطية وحكم القانون على أساس حرب غير قانونية؟ وهل بوسع الغرب أن يزرع قيمه فى قلوب المسلمين عن طريق إلقاء القنابل؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات فى نظرى حاسمة بالنسبة لإمكانية الحكم على حرب العراق الثانية ونتائجها وتفاعلاتها إن كتاب تودنهوفر هو فى النهاية إدانة أخلاقية وإنسانية للحرب ودعوة إلى احترام حياة وحقوق العرب والمسلمين وحقهم فى تقرير مصيرهم بأنفسهم. ويمكن اعتبار هذا الكتاب جزءًا من تيار فكرى كبير فى أوروبا يرى فى معارضة الحرب تعبير أوروبا عن شخصيتها الأخلاقية والمعنوية المستقلة عن الولايات المتحدة الأمريكية. والمتحدث الأول باسم هذا التيار هو الفيلسوف الألمانى الكبير يورجن هابرماس الذى أعلن أن سلطة أمريكا المعنوية فى الحضيض واعتبر المظاهرات المناهضة للحرب التى اجتاحت المدن الأوروبية لحظة ميلاد أوروبا الموحدة، أوروبا المتمسكة بالشرعية والتعددية واحترام حقوق الإنسان. وبالذات حقوق الضعفاء. وقد أثار هابرماس عاصفة مازال صداها يتردد بين الكتاب والمفكرين بين مؤيد ومعارض عندما دعا لأن تتحول أوروبا الموحدة إلى قطب دولى قادر وحده أو بالتحالف مع أقطاب أخرى، مثل روسيا والصين، على موازنة الولايات المتحدة ولجم شططها وجنوحها إلى العمل المنفرد وإلى الإسراف فى العنف.

إن القسم الأعظم من مفكرى أوروبا وسياسييها والرأى العام فيها يميل إلى رأى هابرماس. وتودنهوفر بطبيعة الحال القائل بأن فرض الديمقراطية بالإكراه ينافى روح الديمقراطية القائم على الإقناع والتسامح والمساواة. والصورة فى أمريكا مختلفة، وربما كان كشف هذا الاختلاف، الذى لا ينبغى فهمه على أنه قطيعة، هو أهم نتائج حرب العراق الثانية على الصعيد العالمى. أما النتيجة التى يخشاها تودنهوفر فهى أن إهانة العرب مرة أخرى ودعك أنفهم فى التراب ستؤدى إلى تأجيج مشاعر العرب والمسلمين ضد الغرب وإلى توهج نار الإرهاب. ويخشى تودنهوفر أن تحول سياسة العصا الغليظة التى تتبعها أمريكا القرن الحادى والعشرين إلى قرن للإرهاب.■

الإرهاب الدولى ودور المخابرات المركزية



حمدى عزام

أثار كتاب صدر باللغة الألمانية صيف هذا العام ضجة ومناقشات حادة لما تضمنه من اتهامات خطيرة لدور الأجهزة السرية الأمريكية فى عملية تفجير أبراج مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

صدر الكتاب من ٢٦٠ صفحة عن دار النشر المرموقة بيبر Piper Verlag تحت عنوان «وكالة المخابرات المركزية CIA وأحداث الحادى عشر من سبتمبر» وعنوان جانبى «الإرهاب الدولى ودور الأجهزة السرية» للمؤلف أندرياس فون بيلوف. وقد وجهت إليه أجهزة الإعلام الأمريكية انتقادات حادة تصفه بعدم الموضوعية وعدم تقديم أدلة ثبوتية عما جاء به من اتهامات.

لقى الكتاب إقبالاً وانتشاراً واهتماماً واسع النطاق فى ألمانيا وأجهزة الإعلام الأوروبية إذ أن المؤلف يتهم صراحة وكالة المخابرات المركزية CIA بتدبير أحداث الحادى عشر من سبتمبر تمهيداً لتطبيق مخططات الهيمنة التى وضعتها الإدارة الأمريكية قبل الحدث بوقت طويل ليقوم الرئيس بوش بتنفيذها تحت شعارات «مقاومة الإرهاب ونزع أسلحة الدمار الشامل وتطبيق الديمقراطية».

ورغم أننى لا أميل إلى اعتماد «نظرية المؤامرة» وعمليات الأجهزة السرية لتبرير المشاكل والأحداث التى قد لا نحيط بكل جوانبها أو نفشل فى حلها، فقد لفت انتباهى أن الأمر لا يتعلق هنا بقصة جاسوسية تقليدية مثيرة بل باتهام أكبر قوة فى العالم بالسعى للهيمنة على العالم. ومن شخصية مرموقة لها وزنها. فمؤلف الكتاب ليس باحثاً مغموراً أو صحفياً ناشئاً يبحث عن الشهرة بل هو واحد من الخبراء الألمان فى موضوع الأجهزة السرية وعملياتها. ووزير اتحادى سابق فى الحكومة الألمانية.

ولد الدكتور أندرياس فون بيلوف فى مدينة درسدن الألمانية عام ١٩٣٧ وحصل على درجة الدكتوراة فى القانون وانتخب عضواً فى البرلمان الألمانى - البوندستاج - فى الفترة من ١٩٦٩ - ١٩٧٤ واختير عضواً فى اللجنة البرلمانية المشرفة على أجهزة المخابرات لمدة خمس سنوات. تبوأ منصب وزير الدولة البرلمانى فى وزارة الدفاع من ١٩٧٦ - ١٩٨٠ ثم تولى منصب وزير البحث العلمى والتكنولوجيا فى الحكومة الفيدرالية من ١٩٨٠ وحتى ١٩٨٢ حتى ترك العمل الحكومى عام ١٩٩٢ ليؤسس مكتباً للمحاماة فى مدينة بون. وقد سبق له تأليف كتاب بعنوان «وكالة المخابرات المركزية CIA وجهاز المخابرات الألمانى BND».

أعمال غير مشروعة للأجهزة باسم الدولة:

ويسرد المؤلف على مدى ٢٦٠ صفحة مجموعة كبيرة من الملاحظات والأسئلة المفتوحة عن البيانات والمعلومات التى صدرت حول أحداث سبتمبر ليصفها بأنها غامضة وغير مقنعة تدعو للشك. وأن مثل هذه العملية الضخمة والمعقدة وما تمت به من درجة عالية من الدقة والتنسيق تخطيطاً وتنفيذاً لا يمكن أن تتم دون أن يكون للمخابرات المركزية دور أساسى بها.

ومن بين ما يورده من ملاحظات أن طائرات البوينج الضخمة ذات التقنيات العالية تحتاج إلى تدريب مكثف وعدد كبير من ساعات الطيران ليتمكن الطيار من قيادتها والتحكم فيها بدقة وسلامة ويستبعد أن يتمكن شبان صغار من هواة الطيران تلقوا دراسات محدودة على طائرات رياضية ذات محرك واحد من اختطاف أربع طائرات من هذا النوع الضخم والمعقد فى نفس الوقت ثم قيادتها بدقة وثبات وتنسيق كامل بعد تحويل مسارها للاصطدام بمبانٍ محددة وفى نقاط محسوبة مسبقاً. ويتساءل عن سبب إخفاء أدلة الإثبات والمواد المتحفظ عليها حتى يومنا هذا وعدم تقديم بيان للكونجرس بها دعماً للبيانات الرسمية وهو التقليد المتعارف عليه والمطبق فى الولايات المتحدة.

ويشير إلى أن الولايات المتحدة تملك أحدث نظم الأمان والحماية الجوية فى العالم ورغم ذلك تنطلق أربع طائرات ضخمة تغير مسارها وارتفاعاتها وتحلق فى الأجواء لمدد طويلة متجهة إلى وزارة الدفاع - البنتاجون - والبيت الأبيض ومدينة نيويورك دون أن تنطلق إشارة إنذار واحدة أو تتحرك الطائرات والصواريخ الاعتراضية المعدة لمثل هذه الأحوال. ويزيد الطين بلة أن يقال أن أنظمة الدفاع الجوى كانت معطلة لمدة ساعتين. هكذا بالصدفة. أثناء حدوث العملية.

ويضيف فون بيلوف أن بيانات وتصريحات الإدارة والأجهزة الأمريكية أجمعت على أنها لم تكن تملك أية معلومات عن العملية ومنفذيها، وبعد فترة قصيرة جداً تفاجئنا نفس الأجهزة بنشر بيانات مفصلة بأسماء من قاموا بالعملية ومن أى البلاد حضروا وأين سكنوا وتدربوا وعلاقاتهم بتنظيم القاعدة وبن لادن وصدام حسين.

ثم يتندر على رواية خطف الطائرات بواسطة شبان لا يحملون أية أسلحة أو متفجرات بل استعانوا بالشوك والملاعق والسكاكين البلاستيكية الصغيرة التى توزع على الركاب أثناء تناول الوجبات فى تهديد طواقم الطائرات الأربع ومساعديهم والسيطرة على الطائرات دون التمكن من إرسال استغاثة أو إشارة إلى حدوث مشاكل أو محاولة مقاومة الخاطفين وكل ما ذكر هو أن أحد الركاب اتصل بعائلته بواسطة الهاتف المحمول علماً بأن المحمول لا يعمل على الطائرات.

ويستغرب عدم العثور على أجهزة التسجيل والصناديق السوداء للطائرات الأربع وعدم الإعلان عن العثور على أجزاء الطائرات وجثث الطيارين والركاب كالمعتاد فى حوادث الطيران بالنسبة للطائرة التى اصطدمت بالبنتاجون والأخرى التى هوت على الأرض. وبالنسبة لإصابة مبنى البنتاجون المنخفض والمكون من طابقين يستبعد قدرة أى طيار مهما بلغت حنكة الاتجاه بهذه الطائرة الضخمة لإصابة الدور الأول من المبنى دون الاصطدام بالأرض أو تجاوز سطح المبنى فى مثل هذه العملية شبه المستحيلة تقنياً ويستطرد المؤلف قائلاً إنه بعد اصطدام الطائرات ببرجى مركز التجارة العالمى بفترة سمعت أصوات انفجارات أدت إلى انهيارهما الكامل. وسقطت مئات الأطنان من مواد البناء واشتعلت الحرائق وقتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص.. ومع ذلك لم تتمكن السلطات من العثور على أى شىء أو دليل تحت هذا الحطام والركام سوى جواز سفر واحد فى حالة جيدة.. هو جواز سفر محمد عطا الذى قاد الطائرة الأولى. ويذكر دون تعليق أن السيد سيلفر ممثل ملاك البرجين قام قبل الحادث ببضعة أسابيع بإبرام عقد جديد للتأمين على البرجين قيمته ٣,٢ مليار دولار.

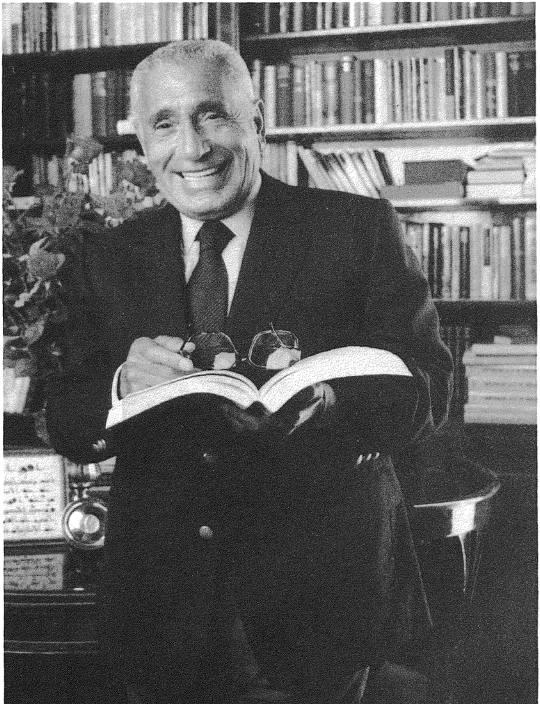
وينتهى الدكتور فون بيلوف بعد سرده للعشرات من الملاحظات والأسئلة إلى استنتاجات وفرضيات غير عادية مفادها أن وكالة المخابرات المركزية CIA خططت وأشرفت على عملية الحادى عشر من سبتمبر تمهيداً لتنفيذ خطط الهيمنة المعدة مسبقاً واستحالة القيام بمثل هذه العملية الضخمة والإعداد لها شهوراً طويلة فى الولايات المتحدة وأوروبا وآسيا وبمثل هذه الدقة والتنسيق دون مشاركة الأجهزة السرية.

وأن وكالة المخابرات المركزية استعملت تقنيات عالية فى تعطيل سيطرة الطيارين على الطائرات ثم قامت بتوجيهها الكترونياً للاصطدام بالأهداف المحددة وقامت بإشعال متفجرات فى برجى مركز التجارة العالمية.

إن الخبير الألمانى فون بيلوف لم يقدم أدلة حاسمة وقاطعة على استنتاجاته واتهاماته ولكن مجموعة الملاحظات والتساؤلات التى أوردها تثير جدلاً حول بعض جوانب التقارير التى صدرت عن الحادث.. ولا شك أن مواقف وتصرفات الإدارة الأمريكية العنيفة فيما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر تفتح المجال لتزايد التكهنات والفرضيات عن مخططات الهيمنة الأمريكية ودور الأجهزة السرية ونظرية المؤامرة الدولية خاصة فى منطقتنا العربية التى استهدفتها التحركات العسكرية الأمريكية والتصعيد العسكرى الإسرائيلى وحملات تشويه سمعة العرب والمسلمين.

Die CIA and Der 11. September
(وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وأحداث الحادى عشر من سبتمبر)
Andreas von Bülow
piper, 2003, 271 seiten. EUR 13,00

انصراف هيكل



■■ أثار قرار الأستاذ محمد حسنين هيكل بالانصراف عن الكتابة لدى بلوغه الثمانين فى ٢٣ سبتمبر الماضى، أطال الله عمره، ردود فعل لا سابقة لها، تماما مثلما يمثل هو ظاهرة غير مسبوقة.

لم تقتصر أصداء قراره على مصر. وكيف ذلك وهو أكثر الكتاب العرب شعبية فى بلاد أمتنا على امتدادها. وأخذت هذه الأصداء صورا عدة فى الإعلام العربى المرئى والمكتوب والمسموع. فمن برامج تليفزيونية متنوعة إلى تغطيات وتحقيقات صحفية مختلفة إلى مقالات تضمنت وجهات نظر متباينة، انشغل العقل العربى بانصراف الأستاذ الذى أثبت مجددا أنه الصحفى والكاتب الذى يعرفه القارئ العربى أكثر من غيره.

كان هيكل، ومازال، ظاهرة عربية وليست فقط مصرية. ومن هنا أهمية متابعة ومناقشة نظرة كتاب عرب إليه عندما كتبوا عنه فى مناسبة انصرافه عن الكتابة، مع التركيز على عدد من كبارهم لكل منهم إسهامه وتجربته الصحفية المتميزة ورؤيته الخاصة، مثل :

❖ سمير عطا الله الذى خصص زاويته فى «الشرق الأوسط» لهذا الموضوع لستة أيام متوالية تحت عنوان (رجاء قبل أن تنصرف).

❖ غسان الإمام فى مقالته فى «الشرق الأوسط» أيضا : (هيكل : باشا الصحافة المصرية بلغ الثمانين) مع عنوان ثان (أخطأ هيكل فى تجاهله انتقال مركز الثقل الاقتصادى والسياسى إلى الخليج).

❖ خير الدين حسيب فى افتتاحيته لعدد أكتوبر من مجلة «المستقبل العربى»، والتى نشرتها صحيفة «الخليج» أيضا.

❖ فؤاد مطر فى مقالته فى «الشرق الأوسط» بعنوان (التنحى الأكبر : والتنحى الآخر) مع عنوان ثان (محمد حسنين هيكل المنصرف بالاختيار إلى الذاكرة).

❖ د. كلوفيس مقصود فى مقالته (هذا وقت الأستاذ هيكل) فى صحيفة «العربى».

❖ أحمد الربعى فى زاويته فى «الشرق الأوسط» بعنوان (حزب الأبيض والأسود).

❖ محمد العربى المسارى فى مقالته فى «الشرق الأوسط» : (هيكل.. كاتب ورؤية) والعنوان الثانى (تقمص النخوة

.. فى عيون كتاب عرب

وحيد عبدالمجيد

التى فجرتها الناصرية)، ووجد نفسه كأنه المتحدث الوحيد بفصاحة).

❖ خالد البسام فى مقالته فى «الأيام» الكويتية بعنوان (ثمانون هيكل).

❖ د. على بن محمد الرباعى فى مقالته فى صحيفة «المدينة» السعودية بعنوان (ليس دفاعا عن هيكل بقدر ما هو احترام للتاريخ).

وتضمن كل من هذه المقالات نظرة نقدية لم يخل بعضها من قسوة حينا ومبالغة حينا آخر. ولكنها تميزت فى مجملها بإدراك كاتبها قدر هيكل ومكانته، فجاء النقد إلا قليلا منه موضوعيا بناء. وهذا أمر متوقع من كتّاب كبار، إذ لا يهبط إلى رذيلة النقد غير الموضوعى والهدام إلا الصغار الذين لا يأبهون للمعايير والقواعد والقيم ولا يعرفون عمن وعم يكتبون. ولم نر من هؤلاء، فى مناسبة انصراف الأستاذ، إلا قلة قليلة ممن لا ذكر لهم ولا قيمة لما يكتبون.

وعندما يكون النقد موضوعيا، ومقترنا بتقدير واحترام، فهو يشجع على المناقشة التى تستحق ظاهرة هيكل الكثير منها، على أن يتجه أكثر هذا الكثير إلى اطلاع الأجيال الجديدة على مدرسته التى يعترف له بها حتى كثير من خصومه الشرفاء الذين يصدرون عن أن الخلاف فى الرأى لا ينبغى أن يغير الوقائع أو يزيف الحقائق.

خطأ فى فهم المناسبة:

وأبدأ بإشارة لها صلة بالشكل أكثر من المضمون وهى تتعلق بالأصداء الواسعة لقرار الأستاذ الانصراف عن الكتابة. فقد أثارت هذه الأصداء انطباعا غير صحيح لدى البعض، فظن أن هناك حملة لتكريم الأستاذ هيكل فى مصر. ونجد ذلك فى مقالة غسان الإمام، الذى ربط ما اعتقده تكريما للأستاذ بحفلة تكريم الكاتب اللبنانى الكبير غسان توينى فى دبى ملاحظا أن الفرق بينهما فى العمر ثلاثة أعوام.

لم يتحر الإمام ما حدث فى مصر جيدا. ولو كان فعل لعرف أن الاحتفال هو تحديدا ما اعترض عليه الأستاذ هيكل أشد الاعتراض عندما لاحظ أن ردود الفعل على قراره اعتزال الكتابة يمكن أن تصب فى هذا الاتجاه. فكانت رسالته إلى صحيفة الأسبوع التى أدمت قلوب كثير من قرائها لما انطوت عليه من تعبير مكثف عن طابع هذا الرجل الذى ارتبطت مشاعره على مدى عمره بقضايا وطنه، ولم يحفل أبدا بمجد شخصى إذا كان قليل نادر من رجال الأمة فى هذا العصر يستحقونه فهو فى صدارتهم.

وقد قدر د. على بن محمد الرباعى، فى مقالته، اعتذار هيكل عن أى احتفال بذكرى مولده، وقال: (أما رفض هيكل الاحتفال بمولده الثمانين واستئذانه للانصراف فربما كان أجمل ختام فى هذه الظروف المتردية).

إن هيكل آخر من يمكن أن يشعر بحاجته إلى تكريم جديد، لأنه لقى منه ما لا يحلم غيره بمثله، ومن أولئك الذين يفخر أى كاتب بتكريمهم له وهم قراؤه. كما أنه صار الأكثر شهرة فى الصحافة العربية على مدى تاريخها، مثلما قال سمير عطا الله فى آخر فقرة فى آخر حلقاته عن هيكل، وهو أنه (أشهر رجل فى الصحافة العربية).

على نحو ما ذهب خالد البسام فى مقالته عندما قال أنه حصل على تألق وعظمة ومكانة لم يحصل عليهم أى صحفى عربى. ويقر سمير عطا الله بذلك صراحة فى مستهل الحلقة الرابعة قائلا: (لم يبلغ صحفى عربى ما بلغه هيكل) وإن ربط ذلك بعلاقته مع عبدالناصر، وهو ما ذهب إليه أيضا غيره، وسنناقشه بعد قليل. ولكن أبعد ما ورد فى حلقات عطا الله، عن الحقيقة هو ما ذكره عن تعاليه على زملائه وقسوته على مصطفى أمين. ولا أذكر أننى قرأت لعطا الله، الذى أهوى متابعته، ما هو أكثر إثارة للدهشة من قوله أن هيكل (دمر رموز الصحافة المصرية من حوله أو تركهم يدمرون أنفسهم) دون أن يقدم أى دليل من أى نوع. وإذا كان يعتبره مسئولاً عما حدث لمصطفى أمين، كما يبدو من بعض إشارات هنا وهناك، ففى هذا ظلم لكليهما لأن هيكل لا يحتاج لتدمير منافس له كى يتفوق عليه وهو الذى كان التفوق شيمته. كما أن مصطفى أمين لم يكن صحفيا صغيرا ينتظر من يهرع إليه لينقذه من أخطائه.

لقد اقترب مصطفى أمين من عبد الناصر مثل هيكل، فى لحظة معينة. ولكن الدور الذى كان يؤديه غلب عليه طابع السياسة المباشرة وفى أكثر جوانبها خطورة أو مخاطرة، بخلاف هيكل الذى ارتبط مع عبد الناصر بعلاقة قامت على رؤية مشتركة تتصل بالسياسة والاستراتيجية وبدور ارتبط أساسا بالتفكير والتنظير.

اختلف دورا الصحفيين الكبيرين فى علاقتهما مع عبد الناصر. كان لهيكل دور جوهرى فى التخطيط السياسى تفكيرا وتحليلا ونصحا وتصحيحا فى بعض الأحيان. أما دور مصطفى أمين فكان له طابع ميدانى أكثر فى بعض جوانب السياسة الخارجية، وخصوصا فى العلاقة مع الولايات المتحدة. وهى كانت علاقة مضطربة مرشحة للتدمير فدمرت مصطفى أمين معها لأنه لم يأخذ حذره، فغاصت قدماه فى أوحالها. وكان هذا خطأ منه، وليس من غيره. كما كان خطأ من النوع الذى يستحيل تصحيحه. وإذا أراد الأستاذ عطا الله أن يتثبت من ذلك فليسأل من توسطوا لدى السادات بعد توليه الرئاسة لإطلاق مصطفى أمين، وكيف كان يرد عليهم قبل أن يقبل فى النهاية وبعد أربع سنوات إطلاقه ولأسباب صحية أى دون إعادة الاعتبار إليه.

وهكذا لم يكن الأستاذ سمير عطا الله منصفا فى هذه المسألة، مثلما جانب الأستاذ أحمد الربيعى الإنصاف ثلاث مرات فى حديثه عن استقطاب حاد بين أنصار هيكل وخصومه.

المرة الأولى عندما اعتقد أن هناك انقساما بمعنى خلاف بين قسمين متساويين أو متقاربين، بينما الحقيقة أن تلاميذ هيكل ومحبيه هم أكثر بكثير من خصومه وأعدائه. والمرة الثانية حين أجرى مشابهة بين الخلاف بين أنصار كل من عبد الناصر والسادات من ناحية، وبين محبى وخصوم هيكل من ناحية أخرى. فهذا صحفى وكاتب جمع بين تلاميذه ومحبيه كل الاتجاهات والآراء والمواقف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. ومن بين أكثرهم تقديرا له وقربا إليه من يختلفون مع بعض آرائه وأفكاره. ولذلك كان خير الدين حسيب محقا عندما لاحظ أنه (رغم أن كثيرين يختلفون مع هيكل فى مواقفه أو فى خياراته، فإن أكثرهم لا يسعه غير أن يحترم فى الرجل الالتزام لديه بما يؤمن به وأن يسلم باقتداره فى طريقة التعبير عن مواقفه). أما المرة الثالثة التى جانب الإنصاف فيها الأستاذ الربيعى فعندما قال أن خصومه لا يرون فيه شيئا إيجابيا وأن محبيه يرون أن لا أستاذ غيره ويكيلون له المديح ليل نهار. وإذا كان صحيحا أن معظم خصومه يفتقدون أى موضوعية، وأحيانا أى معايير، عندما يهاجمونه، فليس صحيحا أن محبيه من نوع الدراويش أو المريدين. ولا يصح الاعتماد على ما يقال ويكتب فى مناسبة من نوع انصراف الأستاذ لأنها مثيرة للمشاعر والعواطف بطبيعتها وتخلق ردود أفعال خاصة بها تصلح لها. ولكن لا يجوز الوقوف عندها باعتبارها هى المؤشر

إن هيكل آخر من يمكن أن يشعر بحاجته إلى تكريم جديد، لأنه لقى منه ما لا يحلم غيره بمثله، ومن أولئك الذين يفخر أى كاتب بتكريمهم له وهم قراؤه. كما أنه صار الأكثر شهرة فى الصحافة العربية على مدى تاريخها

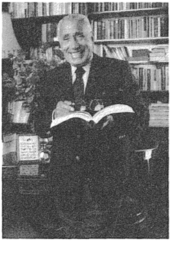
الوحيد على نوع العلاقة بين هيكل ومحبيه.

أسطورة العلاقة مع السلطة:

من بين الانتقادات التى كان يحلو لبعض خصوم هيكل السياسيين أن يرموه بها، منذ أن ترك الأهرام، هو أنه فقد مصادره الإخبارية التى كان يستمدها من قربه إلى السلطة. ولكن كنا نفهم أن يصدر مثل هذا الكلام عمن لا صلة وثيقة لهم بهذه المهنة أو ممن لا معرفة كافية لديهم بالأستاذ.

ولذلك فمن عجب أن يأتى كلام كهذا من كتاب كبار يفترض أنهم يعرفون ما يتيح لهم حسن التقدير فى مثل هذا الموضوع الذى ينطوى على شقين: أولهما العلاقة بين هيكل والرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وثانيهما كيفية وصول صحفى وكاتب كبير إلى المصادر الإخبارية ذات الأهمية القصوى وأثر علاقته مع السلطة فى ذلك. وغريب مثلا أن يكتب الأستاذ فؤاد مطر، وهو أحد أكثر من عرفوا الأستاذ، وعرفوا عنه، أن هيكل وجد نفسه فى محنة حقيقية بعد رحيل عبد الناصر لأنه على حد تعبيره (فقد من كان يكتب من أجله وله). وقد كتب سمير عطا الله فى حلقته السادسة عن علاقة فؤاد مطر بالأستاذ هيكل قائلا: (كان لهيكل تأثير عميق فى عمل مطر الصحفى). ولذلك فالأكيد أن مطر يعرف أن هيكل لم يستمد مكانته عن عبد الناصر، الأمر الذى يجعل مقالته تثير شديد الاستغراب لأنها من بدايتها إلى نهايتها توحى بأن الأستاذ لم يكن إلا ظلا للرئيس الراحل. بل يخصص قسما كبيرا منها لمقارنة تبدو مفتعلة بين تنحى عبد الناصر عام ١٩٦٧ و«تنحى» هيكل الآن، يصل فيها - فى افتعال أكبر - إلى أن (روحية التنحيين الاثنين واحدة، والعقل الذى صاغ مقتضيات الأول هو نفسه الذى صاغ مقتضيات التنحى الآخر مع فارق أن تنحى عبد الناصر كان بفعل الاضطرار فى حين أن تنحى هيكل كان بفعل الاختيار واستباق لحظة لا يتمناها لنفسه ولقلمه).

إن هيكل كتب دائما من أجل مصر والأمة العربية وللقارئ فى كل مكان من بلاد العرب. صحيح أنه آمن بأن عبد الناصر هو الذى جسد حلم العرب والعروبة. وهذا حق له يتفق معه فيه من يتفق ويختلف من يتفق. ولكن أن يؤمن بسياسة عبد الناصر ودوره التاريخى شيء وأن يكتب من أجله شيء آخر.



لعب هيكل دورا كبيرا فى إنارة الطريق أمام عبدالناصر، إن فى الحوار الثنائى بينهما، أو من خلال كتاباته فى «الأهرام»

والفرق كبير، إذ كتب هيكل من أجل ما طمح إليه عبد الناصر وشاركه هو طموحه فيه، بل يعرف كثيرون إن مشاركة هيكل تجاوزت ذلك إلى القيام بدور يعتد به فى صنع هذا الطموح منذ أن وضع الأفكار الأساسية التى قام عليها كتاب «فلسفة الثورة». وهناك فرق شاسع بين أن يكتب الكاتب من أجل هدف يؤمن به ويشارك فى صنعه ويعتقد أن زعيما بعينه هو المؤهل للعمل من أجل تحقيقه، وبين أن يكتب من أجل هذا الزعيم.

ولكن إذا جاز الاختلاف على تحديد مساحة كل من الموضوعى والشخصى فى العلاقة الثلاثية (عبد الناصر - هيكل - القضية أو الهدف)، فلا يصح أن يبقى ثمة جدل فى شأن العلاقة المثلثة الأخرى (عبد الناصر - هيكل - القارئ). ففى قول مطر إن هيكل كتب من أجل عبد الناصر وله رائحة ما ردده بعض خصوم الأستاذ عن أنه فرض نمطا شموليا فى الصحافة المصرية جعل لزاما على الكاتب أو الصحفى «الحكومى» أن يكتب لقارىء واحد. وهذا قول مدفوع بنقيض له ردده بعض آخر من خصوم هيكل، وهو أنه كان يكتب بصوت الزعيم الواحد، من أجل تنميط القراء أى خلق نمط واحد من الاستجابة الشعورية أو العاطفية لما يكتبه تحقق ما أسماه البعض (الكل فى واحد). وهذا هو ما قصده من تحدثوا عن أنه كان مجرد صوت لعبد الناصر. ولكن خالد البسام عارض فى مقالته هذا الاعتقاد - ضمنيا - عندما خلص إلى أن هيكل كان أكثر الصحفيين والكتاب ولاء لمهنته أولا ثم لأفكاره ولذكائه فى كل العصور منذ عصر الملك فاروق، ورغم صداقته العميقة مع عبد الناصر وارتباطه به حتى بدا وكأنه الناطق باسم الثورة ومفكرها. وعندما تحدث الأستاذ محمد العربى المسارى عما أسماه (زمن مقالات بصراحة)، قال أن هيكل كان فى هذا الزمن (صوت المؤسسة.. و«بصراحة» كانت تقرأ على أنها بيان سياسى يعكس النبض الرسمى لمصر عبد الناصر).

والمشكلة فى هذه النظرة، سواء ركزت على أن هيكل فرض طريقة الكتابة لقارئ واحد، أو كان صوت الزعيم الأوحد إلى قراء أراد حشدهم وراء هذا الصوت، هو أنها نظرة لا تاريخية تغفل السياق التاريخى.

والملاحظ أن معظم الكتاب العرب الكبار، الذين كتبوا فى مناسبة انصرافه عن الكتابة، مدركون أنه صاحب رؤية. وقد أصابوا فى ذلك كبد الحقيقة. ولكن جانب بعضهم الصواب فى تحديد جوهر هذه الرؤية، وفى إدراك مدى ارتباطها بعلاقته مع عبد الناصر. لقد وجد الأستاذ فى الزعيم الراحل تجسيدا لرؤيته لمستقبل الأمة العربية ودور مصر فيها.

فلم تكن العلاقة بينهما مجرد صلة بين رئيس دولة ورئيس أكبر صحيفة فى هذه الدولة. كانت علاقة سياسة وفكر وحوار. ولعب هيكل دورا كبيرا فى إنارة الطريق أمام عبد الناصر، إن فى الحوار الثنائى بينهما، أو من خلال كتاباته فى «الأهرام»، لم يكن صوتا لعبد الناصر، بل للرؤية التى شاركه فيها. كما كانت له مبادرات فى تطوير هذه الرؤية اعتمد فيها على مكانته ككاتب وليس على علاقته مع الرئيس.

ويمكن الإشارة على سبيل المثال إلى دوره فى الإصطلاحات الداخلية المحدودة عقب حرب ١٩٦٧ ليس فقط من خلال صياغة بيان ٣٠ مارس، ولكن أيضا عبر مبادرته لإنهاء تجاوزات بعض أجهزة الأمن. فكان هو، مثلا، صاحب تعبير «زوار الفجر» الذى شاع استخدامه على نطاق واسع، مثلما كان له الفضل فى صك عدد كبير من العبارات والمصطلحات التى صارت معلما بارزا من معالم اللغة السياسية على امتداد العالم العربى. وتعد هذه واحدة من قدرات لا يجاريه فيها أحد.

وكان د. كلوفيس مقصود هو من تطرق إلى دور هيكل التصحيحى الذى لا يراه إلا من يتجاوز السطح إلى الأعماق. فقد رأى - أولا - كيف أن حرص هيكل على دوره كصحفى ورفض أى منصب آخر (جعل من الصحافة واقعا لمقولة السلطة الرابعة. وكان هذا إنجازا مهما فى مرحلة من الحياة السياسية العربية كادت فيها معظم الصحف أن تكون امتدادا للسلطة الأولى، وفى أغلب الأحيان السلطة الوحيدة). كما لاحظ مقصود - ثانيا - كيف أن هيكل (تمكن من إقناع السلطة عندما كان فيها ومنها بأن تنفتح على النقد). ولذلك فهو يستغرب أن هيكل رغم هذا كله (لم ينج من تصنيفه كملمع للسلطة وكخصم لممارسة الحرية). ويفسر هذا الخطأ فى فهم دور هيكل بعوامل عدة لعل أهمها أن الخطأ قام على انطباع بأنه كان أكثر التصاقا بسياسات السلطة من كونه مصححا لانزلاقاتها، بالإضافة إلى تجاهل ما أسماه د. كلوفيس دور هيكل المستنير الذى شمل (إنشاء ورشات فكر كمركز الدراسات ومجلات الطليعة والأهرام الاقتصادى والسياسة الدولية، حيث كانت الحوارات والندوات تمهد لإنضاج التعددية المطلوبة فى مرحلة لاحقة). ويعنى ذلك فى المحصلة أن هيكل لعب دورا مهما فى تصحيح القرار ولكنه ساهم أيضا فى صنع القرار.

وهو ما لاحظه خير الدين حسيب فى قوله إن هيكل كان محط ثقة الرئيس الراحل وأنه قدم مساهمات فى بناء قرار مصر فى قضايا بالغة الأهمية، وهو دور استمر ينهض به بعد وفاة عبد الناصر لفترة وجيزة. كما أشار إلى أن رأى هيكل

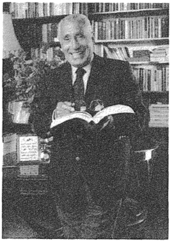
بقى مطلوبا لدى عواصم عربية قليلة أدرك قادتها أهمية أن يستمعوا منه إلى تحليل يقدرون به المواقف.

لقد كانت الرؤية المشتركة هى أساس العلاقة بين الرئيس والأستاذ. ولذلك تغير الوضع تماما عندما لم تعد ثمة رؤية يشارك فيها الرئيس الراحل أنور السادات بعد حرب ١٩٧٣. لم يكن الأمر يقتضى أكثر من أن يبدى هيكل بعض المرونة كى يبقى صاحب حظوة لدى السادات. ولو أنه كان مجرد صوت لرئيس مصر، لسهل عليه أن يدير العلاقة مع السادات بشكل يحفظ له مكانه على رأس أكبر مؤسسة صحفية فى العالم العربى. ولكن الأمر لم يكن كذلك، لأن الأستاذ أكبر من ذلك. فأصر وقتها، عام ١٩٧٤، على الانصراف الأول.. الانصراف عن المشاركة فى صنع سياسة كان شريكا فيها حتى حرب ١٩٧٣. فهو لا يستطيع أن يكون صوتا لسياسة لا يشارك فى صنعها لأنها تمثل خروجا على رؤيته. وبذلك الانصراف أكد انه أكبر من أى منصب، وأن الصحفى الكاتب هو قلم قبل كل شىء وبعده.

وقد رأى كل ذى عينين أن مكانة هيكل ازدادت بعد أن ترك المنصب وتخفف من أعباء الإدارة. كما اتسع نطاقها ليشمل العالم كله، بعد أن كانت بلاد العرب هى «مملكته» التى توجه الرأى العام فيها على عرش الصحافة والكتابة. أصبح فى إمكانه أن يكتب كتبا أكثر بخلاف مقالاته الصحفية. وأقبل ناشرون غربيون كبار عليه فكتب بالإنجليزية. ولم تكن مفاجأة لمن عرفوه أو عرفوا جيدا عنه أن كتبه بالإنجليزية حققت انتشارا فاق أعمال غيره من الكتاب بهذه اللغة من غير أهلها بمن فيهم عرب عاشوا معظم عمرهم فى الغرب ودرسوا فى جامعاته.

.. وأسطورة فقدان المصادر:

وفى الوقت الذى صار للأستاذ قراء جدد فى بريطانيا وأمريكا فضلا عن القارئين بالإنجليزية فى بلاد أخرى على امتداد العالم، ظل قراؤه فى عالمنا العربى ينتظرون بكثير من الشوق أى مقال يكتبه أو يترجم له عن صحيفة عالمية، قبل أن يكون لـ «وجهات نظر» الفضل فى إتاحة الفرصة لهم فى متابعته بانتظام، وخصوصا ممن يحبون ويقدرون على قراءة نوع «المقال المستطرد» الذى اختاره لهذه المجلة. وهذه إضافة جديدة إلى أسلوب كتابة المقال قدمها قبل انصرافه الثانى ليناسب مجلة شهرية رصينة.



إذا توفرت المعرفة والقدرة، صار ممكنا للصحفى أو الكاتب الوصول إلى مصادر الأخبار حتى إذا لم يتيسر له مصدر عظيم بالقرب منه

وإذا كان الأستاذ يرتاح إلى المقال الطويل الذى يلائم طريقته فى معالجة القضايا التى يتصدى لها، فهذا لا يعنى أنه لا يقدر إلا عليه. ولذلك كان أكثر ما أخطأ غسان الإمام تقديره هو أن هيكل يفعل ذلك لأنه لا يستطيع اختصار الجملة والعبارة والفكرة. وقد قفز من هذا الاستنتاج الخاطىء إلى آخر أكثر خطأ وهو أن (هيكل كاتب مقالة وليس بكاتب عمود). فهذا تصنيف مصطنع خصوصا حين يتعلق الأمر بكاتب يرى فيه الإمام نفسه مدرسة صحفية. وقال أن هيكل (مؤسسة صحفية متكاملة أو بالأحرى مدرسة صحفية يستفيد منها الصحفيون المحدثون فى صقل تجربتهم وخبرتهم ويتعلم فيها ومنها هواة الصحافة كيف يمكن اكتساب تقنية المهنة الصعبة).

فقد تميز الإمام، فى مقالته، بإدراك سليم لقيمة الأستاذ ومكانته فى عالم الصحافة العربية بوجه عام. ولكنه لم يحسن، فى الوقت نفسه، تقدير بعض الأمور. ولذلك بدت نظرته الكلية أكثر إيجابية وسلامة من معالجته لبعض التفاصيل التى يظل أهمها هو حديثه عن فقدان الأستاذ مصادره الإخبارية بعد أن ترك «الأهرام». فكان أقل استنتاجاته دقة هو أن (اهتمامات هيكل السياسية تبدو أيضا بعيدة نسبيا عن اهتمامات القارىء العربى المباشرة. والسبب فقدان هيكل مصادره الإخبارية التى حظى بها يوما لدى عبد الناصر). صحيح أن الأستاذ عرف أكثر مما عرفه غيره من الصحفيين فى مصر بحكم قربه من عبد الناصر. ولكن من التبسيط الزائد الاعتقاد فى أن الأمر يتوقف فقط على المكان. فإذا كنت قريبا لابد أن تعرف أكثر ممن هو أبعد منك.

وهذا تقدير تعوزه الدقة لأن الأهم من القرب أو البعد هو القدرة على معرفة ما هو مهم فى اللحظة المناسبة. وليس سرا أن اثنين على الأقل من الصحفيين المصريين أصبحا بعد ترك هيكل «الأهرام» قريبين جدا إلى السادات بل كان أحدهما على الأقل شديد القرب إليه. ومع ذلك لم يحصل أى منهما على معلومات تصنع من أى منهما نجما ينافس هيكل أو حتى يقترب من «نجوميته». والأكيد أن السادات كان لديه ما يمكن أن يتيح لصحفى يقترب منه أن يحقق «خبطات» كبرى. ولكن المهم هو أن يكون هذا الصحفى قادرا على تحديد ما يريد أن يعرفه وكيفية الوصول إليه خلال الحديث مع «المصدر» الكبير وفى اللحظة المناسبة قبل أن يصبح الخبر الخاص عاما أو مشاعا.

ويقتضى ذلك أن يكون الصحفى على أعلى درجة من الإلمام بمسارات الأحداث، وهو ما يثير مسألة المعرفة التى كانت هى طريق هيكل للحصول على المعلومات التى افتقدها آخرون. فهو لم يحصل على ما لم يحصل عليه غيره إلا لأنه كان يعرف أكثر من غيره.

وكان هذا هو أحد الأسباب الأساسية التى أدت إلى قوة علاقته مع عبد الناصر منذ البداية. فقد وجد الرئيس الراحل فيه مصدرا للمعرفة وليس فقط طالبا لها. ومن القصص التى صارت معروفة أن هيكل كان يزود عبد الناصر خلال مؤتمر باندونج الشهير بمعلومات حصل عليها بمجهوده عما كان يدور فى بعض كواليس هذا المؤتمر. فلم يكن يكتفى بانتظار خروج عبد الناصر من الجلسات ليركض وراءه طلبا لمعلومات بل كان يستثمر الوقت فى جمع معلومات مهمة، الأمر الذى أكد لعبد الناصر أنه إزاء صحفى يختلف عن غيره. وكان الرئيس الراحل يعرف ذلك مسبقا، ويدرك أن هيكل ليس مجرد صحفى متميز ومتفوق على أقرانه، بل وجد فيه شريكا له فى الرؤية.

ونسى معظم من أثاروا موضوع العلاقة بين هيكل وعبد الناصر أن الأستاذ كان حاضرا فى قلب الأحداث الكبرى فى ذلك العهد باعتباره شريكا للرئيس الراحل فى الرؤية وليس فقط بحكم كونه صحفيا أو رئيس المؤسسة الصحفية الأكبر فى مصر والعالم العربى. لقد سجل هيكل وحلل أحداثا كان شاهدا عليها بحكم موقعه فى القلب منها، وليس مجرد مراقب لها.

ومع ذلك فقد حرص فى كثير من الأحيان على أن يدعم روايته بهذه الأحداث التى كان شاهدا عليها بوثائق بذل جهودا كبيرة فى الحصول على بعضها ولم تتوفر له كلها بسهولة بخلاف ما يعتقده البعض. وسأعود إلى مسألة التوثيق هذه لاحقا.

ولكن المهم الآن توضيح أنه من الخطأ الاعتقاد أن صحفيا ينتظر ما يقوله له المصدر، أى مصدر، لكى أن يكون نجما ناهيك عن أن يصبح ظاهرة فى حجم ما يمثله هيكل. فالمهم هو أن يكون الصحفى عارفا ما يريد الحصول عليه، وأن تتوفر لديه القدرة على تحديد الأسلوب الملائم لنيله. وعندما يكون المصدر رئيسا أو زعيما، يحتاج الأمر إلى معرفة أعمق وقدرة أكبر.

وإذا توفرت المعرفة والقدرة، صار ممكنا للصحفى أو الكاتب الوصول إلى مصادر الأخبار حتى إذا لم يتيسر له مصدر عظيم بالقرب منه، وخصوصا حين يتمتع أيضا بمكانة متميزة. وهذا هو ما أتاح للأستاذ أن يبقى على صلة بالمصادر الحية الرفيعة للأخبار بعد أن ترك «الأهرام»، بل وبات مغضوبا عليه وممنوعا من الكتابة فى مصر خلال الفترة الباقية من عهد السادات.

فإذا كان قد أثبت أن ما يحتاجه الصحفى والكاتب هو القلم وليس الكرسى، فقد أكد أيضا أن مكانة الصحفى والكاتب أهم من مثل هذا الكرسى. صحيح أن رؤساء الصحف والمجلات، خصوصا المهمة منها، يتيسر لهم الحصول

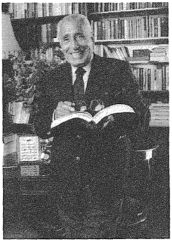
على المقابلات مع رؤساء وملوك ومسئولين وصانعى قرار بسهولة أكثر مما يتاح لصحفى أو كاتب بشخصه. ولكن هيكل كسر هذه القاعدة لأنه كان هو خير تعبير عنها فى العالم العربى. فعندما كان رئيسا لصحيفة «الأهرام» حصل على شهرة لم يحظ بها غيره فى هذا العالم، ولم ينلها إلا قليل من كبار الصحفيين فى العالم. كما أن تميزه المهنى مقترنا بموقعه فى السياسة المصرية خلق له مكانة فاق بها غيره أيضا.

وإذا امتزج هذان العنصران مع معرفته الواسعة وإمكاناته الفائقة صار فى إمكانه أن يظل قادرا على الوصول إلى المصادر الحية للأخبار حتى اليوم. فعلى سبيل المثال، عندما وافق على طلب قناة «دريم» فى خريف العام الماضى للحديث فى موضوع الأزمة العراقية عندما تصاعدت واشتدت سخونتها، حدد موعدا عقب زيارة كان مقررا أن يقوم بها إلى بعض العواصم الأوروبية. وخلال هذه الزيارة، التقى عددا من المسئولين فى عدة دول أوروبية. وكان لدى بعضهم معلومات كانت جديدة فى حينها.

وكان فى إمكان هيكل بشهرته ومكانته أن يلتقى هؤلاء ويسألهم ويحاورهم. كما كان فى مقدوره أن يحصل منهم على ما يريده أو بعض منه حسبما توفر لهم أو رغبوا فى إعطائه لأنه كان يعرف ما يود الحصول عليه. ولا بد من وضع خطوط كثيرة تحت الفعل «يعرف» لأنه هو أكثر ما نفتقده فى عالمنا العربى الآن وعلى كل المستويات وفى أوساط النخب والصفوات السياسية والإعلامية والثقافية كما فى صفوف الجمهور.

ويذكر كل من تابع مسيرة الأستاذ، بعد أن ترك «الأهرام» عام ١٩٧٤، أنه قابل رؤساء وقادة ومسئولين فى بلاد عربية وشرق أوسطية وأوروبية وآسيوية أكثر ممن التقاهم رؤساء ومديرو كثير من الصحف العربية.

ولكن يظل تميز هيكل هو فى معرفته الفائقة ما يريد الحصول عليه فى أى مقابلة. كما أن سعيه للحصول على معلومات لا تنشر فى صورة مقابلة صحفية أتاح له حرية حركة أوسع وقدرة أكبر على نقل الحديث مع من التقاهم إلى آفاق أبعد مما يمكن نشره منسوبا إلى الشخص المسئول. فالصحفى الذى يرأس أو يدير صحيفة يفضل الحصول على مقابلة للنشر حتى إذا كان فيها ربع أو ثلث ما يمكنه الحصول عليه بعيدا عن النشر. وعادة يكون المسئول الكبير أكثر حذرا من الحديث على هامش المقابلة out of record



وجـــود متميزين لا ينفى أن هنـــاك دائما الأول بين المتفوقين، مثلما لا ينفـــى وجـود الأكثـر تمـيزا أن هناك متميـــزين

عندما يكون الحديث مسجلا للنشر كمقابلة.

ولكن ظل تميز هيكل فى معرفة ما يريد الحصول عليه، انطلاقا من إلمامه الشديد للموضوع بكل تفاصيله، هو العامل الأكثر أهمية وراء احتفاظه بمصادر إخبارية حية.

وفضلا عن هذا كله، فقد أحسن الأستاذ استخدام ما عرفه عن الأحداث الكبرى فى حياة أمتنا عندما كان فى قلبها. ولم يكتف بذلك كما سبقت الإشارة، بل حرص على دعم ما يرويه بوثائق أمريكية وبريطانية وفرنسية وليست فقط مصرية مما توفر له. فقد سعى من أجل الحصول على وثائق أمريكية وبريطانية قبل أن يحين موعد الإفراج عنها، أو على الأقل معرفة مضمونها. وبذل فى سبيل ذلك جهدا يندر أن يبذل مثله باحث أكاديمى عربى لا شغل له إلا توثيق عمل علمى أو أطروحة أكاديمية.

وقد فعل ذلك لحرصه على الدقة والتوثيق بغض النظر عن بعض الهنات هنا وهناك مما لا يمكن أن يخلو منه عمل بشرى وليس (ليستعرض أن يده طويلة وقدرته على التنقيب ملحاحة) كما كتب الأستاذ محمد العربى المسارى فى مقالته عنه.

لم يكن الأستاذ فى حاجة إلى أن يستعرض، وهو الذى حقق فى فترة مبكرة من حياته مجدا لا يطمح إليه كثيرون فى أواخر حياتهم. غير أن إشارة الأستاذ المسارى إلى قدرة هيكل الفائقة على التوثيق تظل مهمة. فإذا استبعدنا منها موضوع الاستعراض، تصبح شهادة كبيرة من رجل كبير: (فى كتبه غرف هيكل من المصادر بيانات عن حروب مصر استقاها من وثائق غميسة ليستعرض أن يده طويلة وقدرته على التنقيب ملحاحة لا يكل حتى عن قراءة ما بين السطور فى افتتاحيات الجرائد الأنجلوساكسونية. ويعتبر ذلك بدوره وثائق يلجأ إليها ليدعم بها الحدوتة التى هى محور حكيه).

قبل عبد الناصر.. وبعده!

لم يكن الأستاذ هيكل ظاهرة مصنوعة فى عهد عبد الناصر، بل كان وظل ظاهرة حقيقية يصعب تكرارها. وفى الحديث عن أثر علاقته مع عبد الناصر على دوره فى الصحافة العربية وقدرته على الوصول إلى معلومات حجبت عن غيره تجاهل لحقائق التاريخ التى تقول إن تألق هيكل بدأ قبل ثورة ١٩٥٢، واستمر بل ازداد وتوسع بعد رحيل عبد الناصر.

وكل من لديه إلمام بسيط بتاريخ هيكل فى الصحافة المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ يعرف جيدا أنه بدأ كبيرا. فقد أظهر منذ بداية عمله المهنى أنه يتمتع بموهبة فذة لم يكتف بها بل عمل على صقلها وتعظيمها اعتمادا على العلم والمعرفة والمتابعة فضلا عن العمل الشاق الذى لا يكل صاحبه. ومن أكثر أجزاء مقالة غسان الإمام موضوعية الجزء الذى رصد فيه تألق هيكل المبكر. وتوقف أمام أحد أعماله المهنية الكبيرة التى أنجزها فى وقت مبكر للغاية ولم يمض على عمله فى الصحافة أربع أو خمس سنوات، وهو تحقيقاته من ميدان النار فى حرب فلسطين. وقال عنها: (مضت على هذه التحقيقات ٥٥ سنة. لكنها مازالت جديدة ومبتكرة وصالحة للدراسة ولتدريس فن الريبورتاج فن الرواية الميدانية. فأنت تشاهد فيلما تسجيليا، قصة سينمائية حافلة بالتشويق والإثارة، ووراءها مخرج صحفى موهوب).

هذا عن تميز هيكل الشاب الصغير كمراسل ومحقق صحفى. أما عن تفوقه كمحرر محترف، فقد أشار غسان الإمام إلى إنجازه التاريخى فى (تقنية إخراج الصفحة الأولى وكيفية عرض الأخبار والتحقيقات والصور فيها). وكان يشير بذلك إلى التطوير الشامل الذى أحدثه هيكل فى «الأهرام» والذى اختار غسان الإمام طريقة مقارنة موحية لتوضيحه، فقال: (قاتلت أهرام هيكل بأفضل مما قاتلت فرق المشير عامر فى حرب ١٩٦٧. مضت على تلك الحرب المشئومة ٣٦ سنة. لكن تقنية هيكل التحريرية أيضا مازالت تصلح للتدريس والدراسة).

غير أن هذا العرض الموضوعى، فى بداية المقال، لم يظهر أثره عندما تحدث الإمام بعد ذلك فى المقالة نفسها عن افتقاد هيكل مصادره الإخبارية. فصحفى وكاتب بهذا التميز المبكر للغاية على النحو الذى رصده الإمام، لا يفقد مصادره لمجرد أنه ترك رئاسة صحيفة.

ومع ذلك يظل ثمة سؤال يثيره بعض خصوم هيكل حينا وخصوم عبد الناصر أحيانا وهو: ألم يكن فى هذا العصر صحفيون متميزون غيره؟ بالقطع كان هناك. فهذا جيل من الأجيال الرائدة. ولكن وجود متميزين لا ينفى أن هناك دائما أو فى كثير من الأحيان الأول بين المتفوقين، مثلما لا ينفى وجود الأكثر تميزا أن هناك متميزين على مستوى رفيع.

فعلى سبيل المثال كان أحمد شوقى هو الأمير بين كوكبة من الشعراء يستحق كل منهم أن يكون ملكا متوجا على عرش الشعر. وكذلك الحال بالنسبة إلى محمد عبد الوهاب فى الموسيقى وأم كلثوم فى الغناء، والأمثلة كثيرة. فظاهرة الأول أو الأكثر تميزا بين المتميزين معروفة وشغلت اهتمام مفكرين وفلاسفة متعددين وظهرت نظريات مختلفة

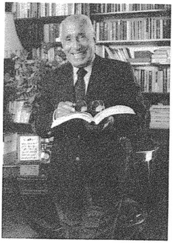
لتفسيرها أبرزها، من وجهة نظر كاتب السطور، نظرية ماثيو أرنولد عن التفاعل بين الإبداع الفردي واللحظة التاريخية.

ولذلك يعتبر هيكل ظاهرة يصعب تكرارها وتحتاج إلى دراسة متأنية لجوانبها المختلفة، وهو ما دعا إليه د. على بن محمد الرباعى فى مقالته، إذ قال (إننى كأحد المتابعين لهيكل كاتبا ومفكرا وإعلاميا أرى أن دراسة هيكل باعتباره ظاهرة نادرة لم تقع حتى الآن. وأعنى الدراسة العملية الهادئة).

مصرية هيكل.. وعروبته:

غير أن أغرب ما فى بعض المقالات موضع المناقشة هو النظر إلى هيكل - العروبى من رأسه حتى قدميه كما لو أنه يعبر عن رؤية تعتبر مصر هى مركز الوطن العربى وما دونها هوامش. وذهب الأستاذ محمد العربى المسارى إلى أن هيكل (أدمن على أنا مركزية لا تخلو من فضاضة). ولكن حينما أراد أن يستشهد على ذلك لم يجد إلا محاضرة من محاضرات الأستاذ الكثيرة ركز فيها على تاريخ مصر فى ما كان عليه أن يتحدث عن تاريخ العرب كلهم! فقال : (حينما دعى إلى أن يتحدث فى باريس فى منتصف التسعينيات عن أزمة العرب ومستقبلهم، انساق يتحدث عن تاريخ الأمة فى نحو مائتى سنة فجعله سلسلة أحداث محصورة فى ما بين قوسين : محمد على وعبد الناصر). ولكن الأستاذ المسارى يعرف أن هيكل لم ينظر أبدا إلى تاريخ مصر معزولا عن التاريخ العربى. وهذا هو ما أدركه خير الدين حسيب فى مقالته عندما تحدث عن هيكل المؤرخ و(جهده المميز فى كتابة تاريخ سياسى جديد للمنطقة العربية). فقد أشار إلى أنه (لا ينتقص من قيمة هذا التأريخ السياسى إنه انطلق من مصر فى المقام الأول وتكرس لحوادثها ووقائعها أكثر من غيرها. ذلك أن مصر كانت فى قلب أحداث المنطقة والمسرح السياسى الرئيسى لهذا التأريخ).

والحق أن دور مصر الريادى وجدارتها بقيادة الأمة هى من الأمور المتفق عليها بين معظم العروبيين فى كل مكان. والمسارى نفسه يتفق مع ذلك ويقول : (ليس هناك ادعاء فى القول إن مصر سباقة وإنها مركز). إذن فيم المشكلة ولماذا يعتب المسارى على الأستاذ؟



المقتنعون بأن مصر هى المركز يعنون أنها القلب الذى ينظم حركة الدم فى مختلف أنحاء الأمة

ربما نجد الإجابة فى قوله أن (مقولة المركز والهامش طرأ عليها تعديل وحدث شىء ما فى التاريخ العربى المعاصر يقول لنا إنه بدل المركز أصبح هناك عدة مراكز). ولكن هذا التطور، بدوره، ليس مختلفا عليه ولا يتعارض مع الانطلاق - ابتداء - من أن مصر هى المركز الذى إذا نهض قام بدور القاطرة التى تشد الأمة إلى التقدم. ولا يختلف هيكل، هنا، على هذا الشىء الذى يقول الأستاذ المسارى أنه حدث فى التاريخ العربى المعاصر لأسباب إقليمية وأخرى تتعلق بالسياسة الخارجية المصرية. ولذلك تظل فكرة أنه «كلما نهضت مصر تقدم العرب» صحيحة. ولا يبدو من سياق مقالة الأستاذ المسارى أنه يختلف عليها، بخلاف سمير عطا الله وغسان الإمام اللذين يستحق ما كتباه فى هذا المجال وقفة. فقد رأى الأستاذ عطا الله فى حلقته الثانية أن (هيكل لا يرى حوله دورا عربيا لأحد سوى مصر). وهذه نتيجة لا مقدمات تؤدى إليها، لأن ثمة فرقا شاسعا بين اعتبار مصر الأكثر قدرة على قيادة العرب المحفوظة أدوار كل منهم وإلغاء هذه الأدوار لصالحها فلا يبقى دور إلا لها وحدها.

والأهم من هذا كله أن هيكل حين يتحدث عن مصر والعرب إنما يعنى رابطة أكبر من قياس دور كل بلد كبر أو صغر. إنها الدائرة العربية التى ورد ذكرها فى كتاب «فلسفة الثورة» الذى كان ثمرة حوار مع عبد الناصر أكد الرؤية المشتركة بينهما. وقد قال عنها (إن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا لا مجرد كلام). وإذا كانت مصر، فى هذه الرؤية، هى البطل الذى كان دور هائم على وجهه يبحث عنه ليقوم به، فإن هذا الدور (ليس دور زعامة) وفق كلمات «فلسفة الثورة»، وإنما هو (دور تفاعل وتجاوب يكون من شأنه خلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة). والإيمان بدور هذه معالمه لا يمكن أن يفهم أبدا باعتباره تفضيلا لمصر أو عجزا عن رؤية دور عربى سوى دورها.

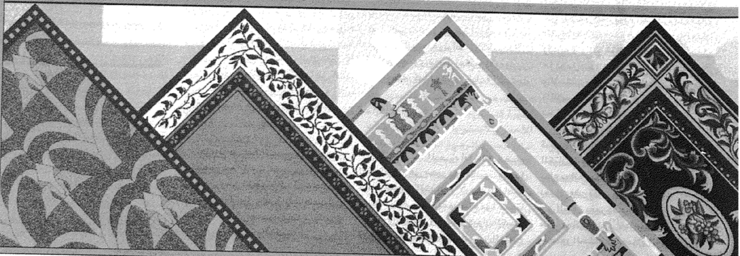
وكثيرا ما كان هيكل يربط حديثه الأساسى، فى هذا العمل من أعماله أو ذاك، عن مصر بالوضع العربى الحالى. وقد أشار إلى ذلك خير الدين حسيب فى مقالته قائلا : (ما كان هيكل يقصر حديثه عن مصر، وهو ما انفك يدافع عن أطروحة مفادها أن مصر لا تستطيع العيش ولا حفظ أمنها القومى خارج محيطها العربى، وهذا هو ما وجه نظرته إليها وكتابته عنها).

وإذا انتقلنا إلى مقالة غسان الإمام نجد أنه ذهب أبعد بكثير من الأستاذ العربى المسارى فى حديثه عن المركز والهامش. فقد تجاوز مقولة تعدد المراكز وقفز إلى القول إن مركز الثقل الاقتصادى والسياسى انتقل إلى الخليج العربى. ولكن لأنه ذهب إلى موقف قصى يصعب أن يجد من يتفق معه عليه فهو لم يتهم هيكل وحده بأنه لم يدرك وربما يتجاهل أن الخليج وليس مصر هو مركز الثقل. فقد اتهم المصريين كلهم تقريبا أو ما أسماه «الرؤية المصرية المبسطة» بعدم إدراك هذا التغيير الذى حدث أو تجاهله. ولو أنه وجه هذا الاتهام إلى معظم العرب لكان أكثر صدقية. والمسألة الجوهرية هنا لا تتعلق بموقع مركز الثقل أو المركز الجديد بل بالمنهج المتبع فى النظر إلى موقع مصر فى عالمها العربى.

فالمقتنعون بأن مصر هى المركز يعنون أنها القلب الذى ينظم حركة الدم فى مختلف أنحاء الأمة وأنها تؤدى بذلك دورا ضمن مجموعة أدوار. ويرى هؤلاء وإن عبروا عن هذا الرأى بصيغات مختلفة، أن تعدد المراكز العربية هو تطور طبيعى وله أهميته فى لحظة تاريخية صعبة تعانى الأمة فيها محنة. ولكن الخروج من هذه المحنة يبدأ بنهوض مصر ونهضتها وبالتالى قيامها بدورها الريادى الذى يجعلها - موضوعيا - مركز الثقل حتى إذا لم ترغب هى فى ذلك. وهذا هو ما يراه معظم العروبيين على امتداد العالم العربى وليس هيكل وحده.

فمركز الثقل الآن ليس مستقرا فى الخليج أو غيره، بل موزع بين عدة دول بخلاف ما ذهب إليه غسان الإمام واتهم هيكل بأنه إما لا يراه أو يتجاهله. فمن ملكات هيكل التى يعترف له بها معظم خصومه قدرته الفائقة على أن يرى الأحداث فى تطورها وقبل أن تتبلور أو تكتمل. وليقرأ الإمام ما كتبه د. على الرباعى وما ختم به الأستاذ المسارى مقالته. فقد كتب الرباعى إن (هيكل نوع نادر من الكتّاب يستشرف المستقبل ويحلل الواقع. ومن قرأ كتابه «آفاق الثمانينيات» قبل ٢٥ سنة ويعيد قراءته اليوم سيجد أن عقلية هذا الكاتب استباقية وراصدة بشكل واع). أما ما ختم به الأستاذ المسارى فهو خير ما نختم به هذا الموضوع الذى يصعب الانتهاء منه. فقد تحدث عن قدرة هيكل على التفرس فى الحقائق الجديدة ضاربا المثل على ذلك بما كتبه منذ عشر سنوات عن أن أمريكا عازمة على أن يكون القرن الواحد والعشرون قرنا أمريكيا. وقال : (منذ عقد أو يزيد، استنبط هيكل من أوراق أمريكية ارهاصات أصبحت اليوم هى الكلام الدارج على لسان المحافظين الجدد. كل الناس قرأوا ذلك. لكن هيكل قرأه بعين فاحصة). ■


متواجد في



قطعة من نسيج القطن عليها حمّال يجري وعلى ظهره حمولة



"اللى بنى مصر

صناعة النسيج فى مصر الفاطمية

مع استقرار الخلافة الفاطمية فى مصر وإنشاء قاهرة المعز قبل أكثر من ألف عام، بدأت مصر تستعيد شخصيتها ومركزيتها بعد قرون طويلة تقلبت خلالها ما بين الخضوع للمحتل الرومانى أو التحول إلى ولاية بعد الفتح الإسلامى لمصر. استعادة شخصية مصر سياسيًا ترافق معه ازدهار كبير فى شئون عديدة أبرزها تطور الصناعات المعروفة فى ذلك الوقت خاصة الصناعات النسجية وتواصل التطور خلال سنوات حكم الأيوبيين ثم المماليك. فقد كان النسيج المصرى محط اهتمام الأوروبيين الذين استوردوا منتجاته لاقتنائها فى كنائسهم ومتاحفهم، كما أن فنون طباعة الأنسجة فى مصر انتقلت إلى أوروبا وخاصة ألمانيا.

هنا صفحة من «تاريخ صناعة النسيج فى مصر».

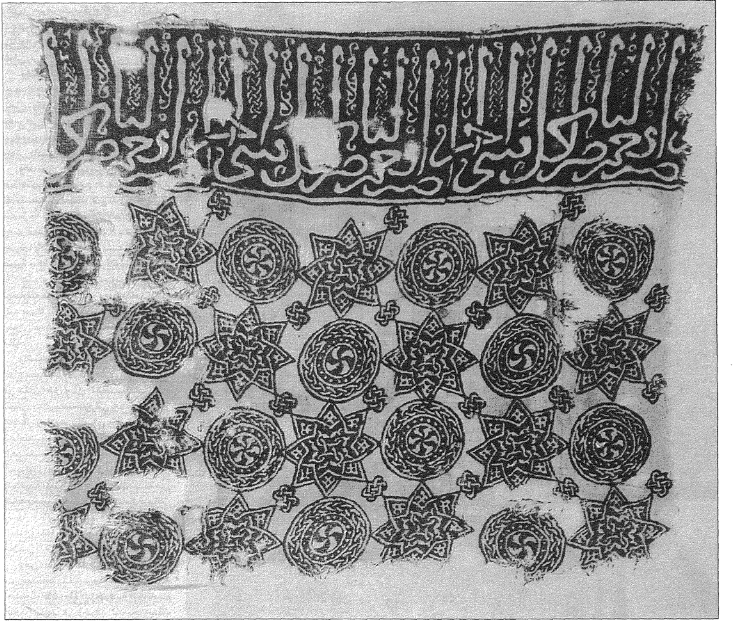
محمود يوسف خضر

■■ تطوَّرت صناعة النسيج فى العصر الفاطمى عمّا كانت عليه فى العصر الطولونى من ناحية الدقّة وجمال الزخارف ورقّتها. وعُنى الفاطميون بالنسيج وكأنّ فى مصر معيناً لا ينضب من الحرير والكتّان والذهب.

وقد أنشأ المعزّ أول الخلفاء الفاطميين فى مصر دار الكسوة، وفيها كانت تفصّل الثياب والأردية الخاصّة بكبار موظّفى الدولة وتُصنع بها كسوتا الشتاء والصيف. وخصّص ديوان الكسوة للإشراف على ما فى الخزائن من الديباج الملوّن على اختلاف ضروبه والذّوق الخاص الدبيقى والسقلاطون (وهو نوع من الملابس الحريرية الفاخرة بالألوان القرمزية كان يصنع فى بلاد الروم وبغداد وتبريز). وإلى خزائن الكسوة كان يحمل ما يعمل بدار الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية من مستعملات الخاصّة (الملابس التى يأمر بها الخليفة، وما يحتاج إليه من الخلع والتشاريف)[1].

وكانت مصانع تنيس تنسج أثواباً تسمّى «البدنة»، وهى صناعة محكمة من الكتّان المخلوط بالذهب، كان الثوب منها يباع بمائة دينار، وكانت تُحمل منها إلى بغداد. وفى تنيس أيضاً كانت تصنع طُرُز من الكتّان بغير ذهب، بيع الثوب الواحد منها بمائة دينار[2]. ويصف القلقشندى حضور الخليفة لصلاة الجمعة فى

قطعة من النسيج المطبوع كُتب عليها: «الصبر نعم الناصر ولكل شيء آخر»



كان فى الأصل نسّاج

رمضان، فيقول: «يفرش بالمحراب ثلاث طراحات، إما شاميان أو دبيق أبيض منقوشة بالحُمرة، ويفرش واحدة فوق واحدة (لجلوس الخليفة) ويعلّق ستران يمنة ويسرة، فى الستر الأيمن مكتوب برقم حرير أحمر سورة «الفاتحة» وسورة «الجمعة»، وفى الأيسر سورة «الفاتحة» وسورة «المنافقون» بكتابة واضحة مضبوطة.

وفى متحف الفن الإسلامى قطع من النسيج عليها اسم الخليفة المعز، وأخرى عليها اسم الحاكم بأمر الله، وعلى بعضها كتابات بالخط الكوفى المورق. والأقمشة غالية الثمن التى كانت تخصص للخليفة، فقد كان نسيجها من الذهب والفضة والخيوط متعددة الألوان، وقد وجدت أقمشة عليها أسماء الوزراء.

وتدلّ كسوة الكعبة الشريفة على مدى ما وصلت إليه صناعة النسيج من الدقّة والتقدم. فقد أوصى المعز لدين الله بنسج كسوة للكعبة العام ٣٦٢ هـ/٩٧٢م، فصنعت من ديباج أحمر وبلغ قياسها اثنى عشر شبراً فى مثلها ودورها عشرة أهلّة ذهباً، وفى كل هلال أترجة ذهب مشبّك، فى جوف كل منها خمسون درة كبيرة كبيض الحمام، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، ومنها كتابة آيات الحج بالزمرد الأخضر، وحشوة الكتابة درر كبار لم يُر مثلها وحشو الشمسية (كسوة الكعبة) المسك المسحوق. ويقوم على نصبها عدة فراشين لثقل وزنها(٣).

وذكر ابن ظهيرة أن مدينة تنيس كانت مركز تصنيع ثياب الكتّان الدبيقى والمقصور والشفّاف، والأردية وأصناف المناديل والمناشف الفاخرة للأبدان والأرجل، والمخاد والفرش القلمونى المعلّم (المخطّط) والمطرّز. وبلغ سعر الثوب المقصور (الأبيض) منها نحو خمسمائة دينار. ووحدها الأثواب المصنوعة فى مصر بدون الذهب كانت تباع بأسعار تزيد على مائتى دينار، فى ذلك الوقت. وفى دمياط كان يصنع القصب البلخى، وبيع الثوب الأبيض الذى خلا من الذهب بثلاث مائة دينار. وإذا كانت دمياط لا تنتج المصبوغ، فقد ابتعدت تنيس عن صناعة الأبيض. وكانت الإسكندرية موطن مناسج الكتّان والغلائل والمعتب (نوع من الحرير) الذى يحمل منها إلى الآفاق، وفى مدينة البهنسا طراز المستور الذى يحمل إلى الآفاق من سائر البلاد، ولا يخلو منه مجلس ملك ولا رئيس. وفى أسيوط مناسج الأرمنى والدبيقى والمثلّث. وسائر أنواع الملبوس لا يخلو منه ملك إسلامى ولا جاهلى. وفى أخميم، صُنعت طرز الصوف الشفاف والمطارف والمطرّز والمعلّم الأبيض والملوّن، ومنها كانت تحمل إلى أقصى البلاد، وبلغ ثمن الثوب منه عشرين دينارا.

وبرع المصريون فى فن التطريز، حتى إن دور الطراز كانت تقوم بصنع الحواشى الذهبية والأشرطة المشغولة بزخارف الحرير على قاعدة من القصب أو من الحرير. وظلّت صناعة التطريز فى أيدى العرب فى كل من مصر وصقلية.

وكانت اللحمة والسداة فى النسيج القباطى السادة منسوجة من خيوط الكتان بلونه

الطبيعى، مع قدر بسيط من التبييض، وكان يزخرف بشريط أو أكثر من الكتابة المنسوجة فى معظمها من خيوط الحرير بالألوان الأزرق أو الأحمر أو الأصفر أو البنى.

وقد أجاد المصريون فى استنبات أجود أنواع الكتان وإعدادها لعملية الغزل. وكانت مراكز إنتاجه المهمة فى مصر فى العصر الإسلامى: محلة بنها، أبوصير، سمنود، شطا، سنور، دلاص، وبوش بالفيوم.

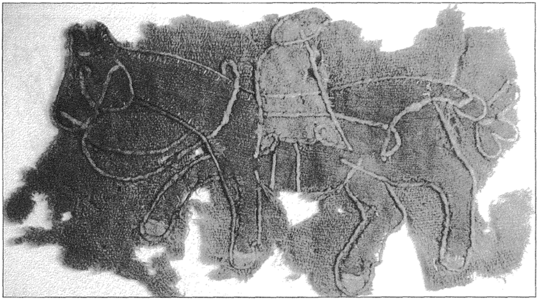
وقد تفنن النساجون المصريون فى صناعتهم، حتى إنهم صنعوا للخليفة المستنصر معطفًا من الحرير الأزرق منسوجًا بالذهب وسائر ألوان الحرير، وفيه أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها وطرقها بأسمائها، وعليه صورة مكة والمدينة. وقد كتبت الأسماء بالذهب أو الفضة أو الحرير، ودون فى نهاية المعطف «مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقًا إلى حرم الله وإشهارًا لمعالم رسول الله فى سنة ثلاث وخمسين وثلاث مائة»(٤).

واشتهرت دور الطراز الحكومية بصنع أنواع معينة من النسيج لا توجد ولا تباع فى مكان آخر، مثل القصب الملون فى تنيس، الذى يستخدم فى عمائم رجال الجيش وملابس النساء. وكانت الخلافة الفاطمية تقوم بكسوة موظفيها فى الصيف والشتاء، من العمامة إلى السراويل وما دونه من الملابس. وكان للخليفة المستنصر ثمانى مائة بدلة من ثيابه بجميع مستلزماتها كاملة. وكان وصول ملابس الخليفة على يد ناظر الطراز، يقام له احتفال كبير، إذ كانت ملابس الخليفة مقدسة مثل شخصه.

ومن المعروف أنه فى المرحلة الأخيرة من صناعة المنسوجات الفاطمية أصبحت الأشرطة الزخرفية الكتابية عنصرًا ثانويًا فى زخرفة النسيج، وبدأت تظهر فى زخارف النسيج الفاطمى، الجامات والأشرطة المضفورة فى أشكال مختلفة.

وكانت دور الطراز (مصانع النسيج) توضع تحت إشراف الخليفة الذى كان يعين ناظرها.

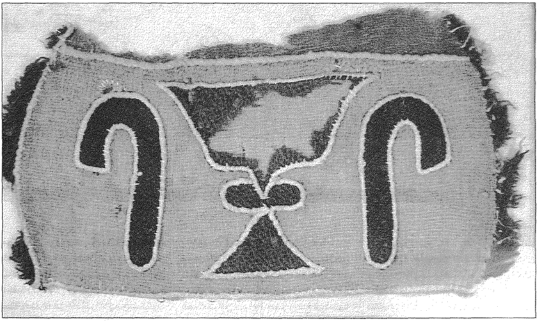
ويذكر صاحب «الفهرست» أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم الوراق البغدادى أن الفلكى المشهور ثابت بن قرة (توفى العام ٢٨٨هـ. ٩٠١م) نسب لنفسه رسمًا للأرض، وقد أبصر مؤلفنا هذا الرسم بأم عينيه على نسيج دبيقى خام (دبيق: بلدة بمصر بين الفرما وتنيس خربت الآن، وكانت تشتهر بصناعة الثياب) وقد ثبتت ألوانه بالشمع. وهناك رواية مماثلة لهذه مؤداها أنه لما نهبت خزينة الخليفة الفاطمى المستنصر، وجدت خارطة كانت قد طرزت على نسيج تسترى (تستر أو شستر: بلدة بإيران) فى العام ٣٥٣هـ. ٩٦٤م للمعز لدين الله الفاطمى، وقد طرزت عليها مواقع وأسماء مختلف البلدان والجبال والبحار والأنهار والمدن والطرق بالذهب والفضة



قطعة نسيج من الصوف عليها رسم بغل البريد بلجامه وعلى ظهره حمل

قطعة نسيج من الحرير وتمثل الزخرفة رسم نسر ذى رأسين فى اتجاهين متعاكسين

قطعة نسيج من الصوف وعليها الكأس وهى شارة المسؤول عن شراب السلطان، وعصوي البولو وهو المسؤول عن لعبة البولو، في البلاط السلطانى



والحرير. وكانت تقدر. على ما يقال. باثنين وعشرين ألف دينار.

وكانت المصانع الأهلية تقوم بإنتاج الشيلان والأردية والأحزمة والعمائم وغيرها من الثياب، وتطرزها بأشرطة من الحرير السميك المشغول بالإبرة فى دقة وبراعة منقطعة النظير. وفى متحف الفن الإسلامى الكثير من نماذج القطع المنسوجة وعليها كتابات مطرزة بالحرير. وكانت الأقمشة تزخرف بشريط عريض يحيط بالقماش، ضم أشكالاً هندسية وحيوانات داخل جامات، فيما أحيط الشريط بكتابات بالخط الكوفى المورق (الذى تنتهى أطراف حروفه بورقة زخرفية) أو بخط النسخ اللين سهل الاستدارة.

وتطور طبع المنسوجات عما كانت عليه الطباعة فى العصر الطولونى، فقد صنعت أختام من الخشب وخصص لكل لون ختم، وكان الطبع بالذهب من ضمن الطبع بالألوان. ووجدت منسوجات مطبوعة سريعًا على وجه واحد من النسيج، وكتابات هذا النوع من النسيج مرسومة بالذهب ومحددة باللون الأسود. وقد انتقلت فنون طباعة الأنسجة من مصر فى العصر الفاطمى إلى أوروبا، وألمانيا بوجه خاص.

ووجدت بعض الأقمشة مرسومة بالفرشاة. وفى متحف الفن الإسلامى قطعة من النسيج مكتوب عليها اسم أحد



أمراء اليمن من أسرة بنى رسول بالخط الكوفى الجميل. وهذه القطعة تشبه الأقمشة القطنية التى كانت تصنع فى دار الطراز باليمن، والتى كانت تطرز عليها أسماء الخلفاء العباسيين. ومن القطع المرسومة بالفرشاة واحدة عليها رسوم طيور وكتابات كوفية.

ولما كانت مصر تصدر منسوجاتها إلى مختلف أنحاء العالم، فقد كان النساجون يراعون صناعتها وزخرفتها بالأسلوب المسيحى. وتوجد عباءة كانت مصنوعة منذ العام ٥٤٨هـ للملك روجر الثانى فى پالرمو، مدوَّن اسمه باللغة العربية على حاشيتها. وقد حليت هذه العباءة بنخلة مطرَّزة فى الوسط، وعلى حافتيها أسد يصرع جملاً. وتدلّ تفاصيل الرسم على مطابقته للطبيعة تطابقاً تاماً مع دقة الرسم والتطريز.

وكانت زخارف العصر الفاطمى عادة ما تنحصر فى شرائط ملوّنة عليها رسوم طيور وحيوانات داخل جامات. وهذه الطيور والحيوانات إمّا متقابلة وإمّا متدابرة، تفصلها عن بعضها مراوح نخيلية محورة، وعلى أجنحة الطيور أدعية مكتوبة أو مرسومة أو مطرّزة. وفى متحف الفن الإسلامى قطعة من نسيج الكتّان والحرير عليها صور طيور، كل اثنين متقابلين تفصلهما زخارف نباتية، والرسم محصور بين سطرين متعاكسين من الكتابة الكوفية باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، ويقرأ أحد السطور «الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين... بن» وفى السطر الآخر «وخليفة أمير المؤمنين ابن....». والقطعة ملوّنة بالفيروزى (المخضر) والأحمر والأسود.

ولم تكن أقمشة الشام الحريرية تقلّ فى مستواها عمّا كان يصنع فى مصر، وفى أخميم وجدت منسوجات على درجة من الجمال والدقّة وحسن الذوق، بينها قطعة، أرضيّتها خضراء وعليها زخارف منسوجة بلون برتقالى.

الزخارف المملوكية:

تدلّ أساليب صناعة النسيج فى العصرين الأيوبى والمملوكى على أنها استمرار لأصول الصناعة والزخرفة فى العصر الفاطمى، وإن كان اهتمام المماليك بالحرير وتفضيله على سائر المنسوجات واضحاً ممّا تركوه لنا، أو وُجد فى جهات متعدّدة من العالم، وبلغ من شغفهم وعنايتهم بفن التطريز أن كثرت حوانيت التطريز والغزل والنسيج، وأتقن المصريون صناعة الحرير والبُسط والثياب بأنواعها كافة.

ويلاحظ أن مراكز الإنتاج قد انتقلت من مدن الدلتا إلى الإسكندرية ودمنهور ويعود ذلك إلى التخريب الذى لحق بمدن دمياط وتنيس خلال الحملات الصليبية. واستمرّ أسلوب زخرفة المنسوجات الحريرية بالجامات البيضاوية والدائرية التى تحصر بينها رسوم حيوانات أو طيور متقابلة أو متدابرة. ويبدو على المنسوجات الحريرية حبكة النسيج ودقّة الزخرفة. وغالباً ما كان لون الأنسجة الحريرية أخضر، وتلوّن الزخارف بألوان متعدّدة، وكانت بعض الأنسجة الحريرية لونها برتقالى أو بنّى وزخارفها بألوان مغايرة.

ولشدّة عناية المماليك بالتطريز كانت الثياب الكتّانية توشّى بالحرير بطريقة دقيقة تعمل بوساطة غرزة متتابعة حتّى تبدو على شكل سلسلة، وسمّيت هذه الغرزة فيما بعد بغرزة هولباين. كانت الزخارف المطرّزة بهذه الغرزة من الدقّة والحبكة حتّى كان يظن أن الزخارف منسوجة فى القماش، وذلك لمتابعة خيط الغرزة لُلحمة النسيج. وقد انتقلت الزخارف المطرّزة فى العصر المملوكى إلى شرق أوروبا وشمالها، وظلّت هذه الزخارف حتّى اليوم دون أى تغيير وأصبحت من الزخارف الشعبية هناك.

واهتمّ النسّاجون فى العصرين الأيوبى والمملوكى بالزخرفة الكتابية التّى كانت تبدو أحياناً مساوية للمساحة المخصّصة للزخارف النباتية والحيوانية، وتُنسخ الكتابة داخل أشرطة موازية لأشرطة الزخارف الأخرى وتتبادل معها. وكان خط النسخ هو الغالب على طريقة الكتابة وإن لم يمنع ذلك من الكتابة بخط الكوفى

أحيانًا. كما ظهرت الكتابة الزخرفية المضفرة، وتتضمن الكتابة اسم من صُنعت لهم قطع النسيج وأدعية لهم والكلم الطيب.

وابتكرت فى هذا العصر طريقة إبراز الزخارف على النسيج بحياكة قطعة نسيج أخرى ذات لون مغاير للون النسيج الأصلى.

وكانت الحياكة على درجة من الإتقان، تبدو معه القطعة (الرقعة) كما لو كانت مرفوةً فى النسيج، وقد استخدمت هذه الطريقة لإظهار رنوك الأمراء المماليك وشاراتهم.

وقد عرفت مصر منسوجات الحرير منذ عصر البطالمة وكانت من أهم السلع التجارية فى الإسكندرية كما استخدم الحرير فى العصر الرومانى.

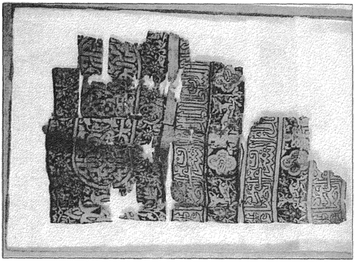
وفى أوائل العصر الإسلامى كان استخدام الحرير مقيدًا من الناحية الدينية، فكانت الأشرطة الزخرفية الحريرية ضيقة. وفرضت قيود صارمة على استخدام الخيوط الحريرية وسمح فقط بقدر معين من الحرير يباح نسجه فى الثوب، لا يجاوز قدر أربعة أصابع.

ولم يدم هذا التحديد الصارم طويلاً فقد تعددت أشرطة الحرير المزخرفة فى الثوب الواحد فى العصر الفاطمى حتى شملت الثوب كله. وعرفت مصر الأقمشة الحريرية الخالصة فى عصر المماليك.

ونظرًا لفخامة الأنسجة المصرية، وخاصة الحريرية منها اقتنت الكنائس والمتاحف الأوروبية الكثير منها المنسوجة بخيوط الذهب أو المطرزة بخيوط الذهب وعليها كتابات بخط النسخ كما أن على بعضها اسم الملك الناصر واسم الصانع.

وقد ذكر القطن فى نصوص حجر رشيد على أنه نبات يعرف باسم الجوسيبون. أما فى العصر الإسلامى فمن الثابت أن العرب كانوا يزرعون القطن فى اليمن والعراق وأنهم أدخلوه إلى مصر إما بالزراعة أو الاستيراد.

وتأثرت زخارف المنسوجات فى العصر المملوكى بالزخارف الصينية وذلك فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر حيث توثقت العلاقات التجارية بين العالم الإسلامى وبلاد الشرق الأقصى فتأثرت صناعة النسيج بعناصر رسوم زهور اللوتس وزهور نبات عود الصليب والزخارف النباتية الحلزونية بالإضافة إلى استخدام رسوم لحيوانات خرافية شائعة فى الفن الصينى وإن لم تتخل عن أساليبها الأصيلة الموروثة، وقد شاهدنا هذه التأثيرات الصينية على الزجاج والخزف.



برع المصريون فى فن التطريز، حتى إن دور الطراز كانت تقوم بصنع الحواشى الذهبية والأشرطة المشغولة بزخارف الحرير على قاعدة من القصب أو من الحرير. وظلت صناعة التطريز فى أيدى العرب فى كل من مصر وصقلية

وقد تنوعت فى العصرين الأيوبى والمملوكى زخارف النسيج المطبوعة من زخارف نباتية وهندسية وأشكال مضفرات وتصوير ومناظر تمثل الحياة عامة على الخزف. وكان الطبع يجرى بوساطة أسطوانات من الخشب محفور عليها الزخارف ولكل أسطوانة لون لطبع الزخرفة، وكان الطبع يجرى على الأقمشة الكتانية.

واستخدم العرب فى صباغة النسيج مواد نباتية وحيوانية. ومن المواد النباتية النيلة وهى صبغة زرقاء، والجهرة ولونها أصفر مائل إلى الخضرة وحجمها كحبة الحمص، والفوه عود وهى صبغة حمراء يحصل عليها من جذور نبات عشبى، والكركم وهو من الصبغات المباشرة التى لا تحتاج إلى مثبت على النسيج. والصبغات الحيوانية كانت تؤخذ من الدودة القرمزية وهى صبغة حمراء قرمزية، واللعلى وهى صبغة حمراء تؤخذ من حشرة تنمو على أشجار صمغية. وإلى العصر المملوكى يرجع ظهور أسلوب عمل قوالب لطبع الرسوم والزخارف على المنسوجات الكتانية والقطنية.

وكانت مصانع الطراز قد انتشرت فى إيران منذ بدء العصر الإسلامى وأصبحت مرو ونيسابور والرى من مراكز النسيج المهمة فى إيران. والزخارف ذات طابع إسلامى أصيل وإن كانت تحمل بعض المؤثرات الساسانية. وفى العصر السلجوقى أصبحت الزخارف النباتية وتفريعاتها تزين المنسوجات الحريرية وخطوطها متكسرة لمسايرة الخطوط الزخرفية لخيوط اللحمة. ويعتبر العصر الصفوى فى إيران هو العصر الذهبى لازدهار صناعة النسيج. وتزيين المنسوجات المخملية والحريرية الإيرانية بالزخارف النباتية داخل جامات بيضاوية أو زخارف الحيوان والطير والزهور وبعض المناظر الأسطورية المستمدة من شاهنامة الفردوسى. ولهذه الزخارف مثيل على الخزف الإيرانى فى العصر نفسه.

وقد تميزت المنسوجات الصفوية الإيرانية بالرقة والدقة فى أسلوب الصناعة وفى تنفيذ الموضوعات الزخرفية دون تحوير كبير على الطبيعة. واستخدم النساجون بكثرة الزخارف النباتية من الزهور والفروع والمراوح النخيلية، كما استخدموا مناظر الحدائق ورسوم الطيور والحيوان وخاصة الغزال. وظهرت فى زخارفهم مناظر من الشاهنامة، ومناظر تمثل أمراء الأسرة الصفوية فى رحلات الصيد والحفلات الملكية فى الحدائق.

وكانت صناعة النسيج فى سوريا تساير صناعتها فى مصر، وزخارفها تكاد تكون مثل زخارف الأنسجة المصرية حتى ليصعب نسبة قطعة من النسيج إلى أى من القطرين ما لم يكن مدونًا عليها محل صناعتها. وتنوعت الزخارف السورية الدمشقية الصنع على الحرير وكانت المنسوجات السورية مرغوبة فى العالم الأوروبى لجمالها ورقة زخارفها. ويأتى الصوف فى المنسوجات الإسلامية فى المرتبة الثانية بعد الكتان. وقد تخصصت مراكز النسيج فى مصر العليا بإنتاج المنسوجات الصوفية فى البهنسا وأسيوط وأخميم والشيخ عبادة والقيس وتخصصت الأخيرة فى إنتاج الأقمشة الصوفية الناعمة.

وفى العصر المملوكى تقدمت صناعة المنسوجات فى مصر. وقيل إن الأشرف خليل عندما احتفل بختن أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح بن قلاوون، بلغت النفقة فى عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء ثلث مائة ألف دينار.

وفى عصر المماليك اضمحل نسج الكتان وزادت العناية بالمنسوجات الحريرية كما تأثر نسج الحرير فى عصر المماليك إلى حد كبير بمنتجات الشرق الأقصى التى أدخلها المغول.

وفى العصر التركى فى آسيا الصغرى الذى ورث حكم السلاجقة استمرت صناعة الحرير والمخمل. وكانت زخارف هذه المنسوجات تشبه الزخارف الإيرانية غير أن الأتراك فضلوا منها زخارف النباتات والأزهار. وقد نشطت هذه الصناعة فى هذا العصر وظهرت (بورصا) العاصمة كمركز مهم من مراكز صناعة النسيج. وكانت المنسوجات التركية فى القرن التاسع متأثرة بالزخارف والأساليب الإيطالية غير أنه فى القرن السادس عشر استطاعت المنسوجات التركية أن تنافس المنسوجات الإسبانية والإيطالية من فينسيا بفضل التأثيرات الإيرانية واستخدام الزهور المحورة وكثافة الزخارف وتنوع الألوان وكثرتها فى الزخارف، كما كانت أقمشة الخيام السميكة المصنوعة من الكتان تُزخرف بزخارف بديعة جعلتها من أفخر أنواع الخيام فى ذلك العصر. ■

الهوامش

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى.

(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

(٣) كتاب تاريخ مصر لابن ميسر.

(٤) كنوز الفاطميين - د. زكى محمد حسن.


مصر للطيران
روح جديدة .. بعد جديد .. مفهوم جديد
الأيرباص ٣٢٠
تدعم امكانيات الأسطول الجوى
فى خدمة السياحة و الأقتصاد القومى
طائرات جديدة تنضم قريبا لأسطولنا الجوى
مصر للطيران
EGYPTAIR
وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
UNITING PEOPLE
EGYPT 2010 BID
توحيد للشعوب
أهلا بك ضيفا عزيزا
www.egyptair.com.eg
الداعم الرسمى لملف
مصر لمونديال ٢٠١٠

كيـــــف نـأكـــــل دون



خـــــوف؟!.. الطعام على الطريقة الفرعونية

مصطفى عبدالـــرزاق نوفـــل

من المتوقع أن تتجه الدراسات العلمية قريبًا إلى محاولة تطبيق خبرة وبراعة علم قدماء المصريين، فى مجال تنفيذ أحدث ما وصلت إليه الدول المتقدمة من قواعد استراتيجية، لحماية الصحة العامة من مخاطر أخطاء التغذية

شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين، تقدمًا وتطورًا كبيرًا فى مجالات زراعة وإنتاج وتصنيع وتعبئة وتجارة الأغذية ومنتجاتها المتعددة. ومع أن هذا التقدم قد حقق فوائد كثيرة للإنسان، من توفير احتياجاته الغذائية الهائلة، التى تتناسب مع تضاعف أعداده، وتحضير هذه الاحتياجات على صور منتجات متطورة ومبتكرة، بل ومريحة فى طريقة استخدامها واستهلاكها، إلا أنه قد أحدث أيضًا مشاكل غير متوقعة من ناحية السلامة الصحية لتلك الأغذية، مما جعلها مصدرًا لتعرض الإنسان للإصابة بالأمراض.

وتأكيدًا على ذلك، أشارت المجلات العالمية المتخصصة فى علوم وتكنولوجيا الأغذية إلى تزايد عدد الحالات المرضية الناتجة عن تناول أغذية غير مطابقة للاشتراطات الصحية ومخالفة لقواعد الإنتاج الصحى، بالرغم من أن إنتاجها قد تم باستخدام التكنولوجيا المتطورة. ووصلت أعداد هذه الحالات المرضية، خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين فى أمريكا وحدها إلى أكثر من ٨٠ مليون حالة سنويًا، تضمنت وفاة أكثر من ٥ آلاف مريض منهم، بالإضافة إلى ما أحدثته من فقد فى الإنتاجية الاقتصادية بلغ أكثر من ٦,٥ مليار دولار سنويًا.

وكنتيجة لهذه المخاطر الصحية والاقتصادية التى تسببها التغذية الخاطئة على منتجات مخالفة للجودة، وضعت الدول المتقدمة فى أولوية مهامها المطلوب تحقيقها، ضرورة التخلص من كل العوامل المؤدية إلى إنتاج وانتشار تناول الأغذية ومنتجاتها المخالفة لقواعد التغذية السليمة، حماية للصحة العامة وتفاديًا للخسائر الاقتصادية التى تسببها الإصابة بالأمراض.

ولتحقيق ذلك، اتجه اهتمام الدول المتقدمة قبل بداية القرن الحادى والعشرين إلى ضرورة اتباع كل الوسائل الممكنة لضمان السلامة الصحية لكل ما يعرض للمستهلك فى أسواقه التجارية من أغذية ومنتجاتها المختلفة المنتجة محليًا أو المستوردة من الخارج.

وحققت هذه الجهود بعض النجاح فى المحافظة على السلامة الصحية لما تعرضه الدول المتقدمة فى أسواقها للمستهلك من أغذية ومنتجاتها. وتأكد ذلك مما ذكرته المجلة العلمية لإدارة الغذاء والدواء الأمريكية، من انخفاض عدد الحالات المرضية التى أصيب بها المستهلك فى أمريكا نتيجة التغذية الخاطئة على طعام مخالف للاشتراطات الصحية. حيث وصل عدد هذه الحالات إلى أكثر من ٦٧ مليون حالة سنويًا (بعد أن كانت ٨٠ مليون حالة سنويًا)، ونتج عنها وفاة أكثر من ٥ آلاف حالة سنويًا (بدلاً من ٩ آلاف حالة كانت مسجلة من قبل سنويًا).

ومع أن هذه البيانات المعلنة خاصة بالوضع الغذائى فى أكثر الدول المتقدمة صحيًا، والتى تخضع فيها الأغذية لاشتراطات قاسية للتأكد من تمام سلامتها، بل وتمارس فيها أدق إجراءات الرقابة الصحية على كل ما يتناوله المستهلك من أطعمة محلية ومستوردة، إلا أنه يمكن اتخاذها أيضًا مؤشرًا على مدى خطورة وسوء الحالة الصحية المتوقعة فى الدول النامية التى تعانى أصلاً من ضعف وقصور فى وسائل رقابة وفحص وتحليل الأغذية، وتكثر فيها أخطاء التغذية التى منها تناول أطعمة محتوية على مكونات عديدة، غير مطابقة للاستهلاك الآدمى.

وإذا كانت الدول النامية لم تظهر بعد الاهتمام الكافى بهذه المشكلة، فالدول المتقدمة قطعت شوطًا كبيرًا فى جهودها العلمية للتخلص من كل مصادر أخطاء التغذية التى مازالت قائمة فيها، وذلك لضمان تحقيق السلامة الكاملة لكل ما يتناوله المستهلك من أغذية ومنتجاتها المختلفة، وتم بلورة هذه الجهود العلمية فى صورة استراتيجية حديثة للتغذية الصحية لتحمى صحة المستهلك من مخاطر الإصابة بالأمراض.

ومن المثير للانتباه، أن اهتمام الدول المتقدمة بوضع هذه الاستراتيجية الحديثة لتصحيح مسار التغذية فيها وتحقيق أقصى مسئولياتها الصحية الآمنة للمستهلك، قد تواكب مع ظهور اتجاه يدعو لإعادة دراسة الأسس والقواعد التى كانت قائمة فى نظم تغذية قدماء المصريين، على أساس أن البشرية قد سبق وتعلمت منهم الكثير فى كل علوم الحياة والمعرفة، وأن ما يتعرض له الإنسان الآن فى الدول المتقدمة من أمراض ومخاطر ناتجة عن التغذية الخاطئة، بالرغم من عصر التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يعيش فيه، يستلزم محاولة علمية جادة للاستفادة من براعة وعلم قدماء المصريين فى هذا المجال، والتعرف على أفضل ما توصلوا إليه من نظم غذائية صحية، ليتعلم منها إنسان القرن الحادى والعشرين كيف يتخلص من أخطاء تغذيته، ليحمى صحته من الأمراض.

ومن المتوقع أن تتجه الدراسات العلمية قريبًا إلى محاولة تطبيق خبرة وبراعة علم قدماء المصريين، فى مجال تنفيذ أحدث ما وصلت إليه الدول المتقدمة من قواعد استراتيجية، لحماية الصحة العامة من مخاطر أخطاء التغذية.

ولاشك أن هذا الاتجاه الحديث سوف يجعل مصر، على قمة قائمة الدول، التى يسهل عليها سرعة تطبيق هذه الاستراتيجية الصحية لتحقيق التغذية السليمة، بشرط أن تبدأ مصر فى إعادة إظهار وتنمية عاداتها الغذائية الصحية القديمة التى كانت سائدة من قبل، والتمسك بكل ما كانت تحتويه من مكونات محلية، مع التخلص من كل البدع والمفاهيم الخاطئة فى التغذية والتى ساعدت على نشرها المنتجات الغذائية الأجنبية بما تقدمه من نظم تخالف أبسط قواعد التغذية الصحية التى كانت قائمة فى عصور قدماء المصريين.

لذلك فإن اتخاذ كافة الإجراءات الفعلية المناسبة، للتخلص من كل المفاهيم الغذائية الخاطئة السائدة فى مصر، وتفادى الاستمرار فى إنتاج وتداول أى مواد غذائية مخالفة لاشتراطات الجودة الصحية، من أهم خطوات بداية تطبيق مصر لإحداث استراتيجية للتغذية، توصلت إليها الدراسات العلمية فى الدول المتقدمة.

وتضم هذه الاستراتيجية، ست قواعد أساسية تتكامل فيما بينها، لتحقيق هدف التغذية الصحية للمستهلك، وحمايته من المخاطر والأمراض المختلفة. ويمكن اعتبارها أساسًا لخطة تصحيح مسار التغذية فى مصر.

التكنولوجيا.. ضرورة!

إن استخدام التكنولوجيا المتطورة والمتقدمة فى إنتاج الأغذية، ليس بالضرورة أن يحقق دائمًا أعلى درجات الجودة الصحية للأغذية المنتجة. فمثلاً، أدى استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة فى تحمير الأغذية إلى تعرضها لدرجات عالية من الحرارة مما ساعد على تكوين كمية كبيرة من مادة الأكريلاميد الضارة بالصحة فيها. ولقد أثار ذلك مخاوف المستهلك فى العالم خلال الشهور الماضية، وأحدث تأثيرًا كبيرًا على نظم تغذيته، ونوعية ما يتناوله من أطعمة.

لذلك لم يكن غريبًا أن تتجه الدول المتقدمة إلى ابتكار نظم جديدة تستبدل فيها بعض المعاملات التكنولوجية عالية التطور، بأخرى يقل فيها تعرض الأغذية إلى ظروف تصنيعية قاسية من الحرارة العالية وغيرها. والجدير بالملاحظة، أن مثل هذه الأغذية المنتجة بالتكنولوجيا الأقل تطورًا، سوف تتميز بارتفاع فائدتها المغذية وبالتالى مناسبتها لقواعد التغذية الصحية، التى تهدف الدول المتقدمة إلى تطبيقها.

وحيث إن الطعام المرتفع فى قيمته المغذية، تقل مدة صلاحيته للاستهلاك الآدمى، فإن مثل هذه الأغذية المفيدة صحيًا والمنتجة بالتكنولوجيا الأقل تطورًا، لن تصلح للتصدير لمسافات بعيدة، فتظل بالتالى داخل نطاق الاستهلاك المحلى فى الدول المتقدمة، وبعيدة عن متناول أسواق الدول النامية.

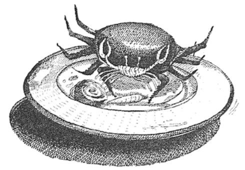
ومع زيادة تدعيم نتائج الأبحاث الحديثة فى الدول المتقدمة لإنتاج الأغذية الأقل تصنيعاً والأبسط فى نظم تعبئتها، يجب أن تبدأ مصر. ومن خلال برنامجها الطموح الخاص بتحديث الصناعة. فى اختيار أفضل وسائل التكنولوجيا الأكثر ملاءمة للهدف المطلوب تحقيقه غذائياً، وهو المحافظة على المحتوى المغذى للطعام، ليتناسب ذلك مع اشتراطات التغذية الصحية، مع البعد عن إنتاج النوعيات الغذائية، عالية التطور التكنولوجى، والفارغة فى محتواها المغذى، والتى تعتبر على قائمة المنتجات التى تعمل على انتشار أخطاء التغذية الأكثر ضرراً على الصحة العامة فى الدول النامية.

تحدٍ مطلوب!

أدى التغير الحاد الذى حدث فى طبيعة الواردات الغذائية فى مصر ودول العالم إلى ظهور نظم التغذية الخاطئة. ففى الماضى كانت الواردات تتركز أساساً على المواد الخام التى تخضع فى الدول المستوردة للمزيد من الفحص والتقييم، قبل استخدامها فى إنتاج الأغذية، مما يسهل من التأكد من جودتها ومطابقتها للاشتراطات الصحية، وبالتالى دخولها عمليات الإنتاج الغذائى المدعم للتغذية السليمة.

بينما تزداد حالياً نوعيات الواردات الغذائية الجاهزة تماماً للاستهلاك والتناول المباشر، وهو ما يعنى صعوبة اكتشاف حقيقة جودتها الصحية، وما تحمله من مكونات قد تتعارض مع قواعد التغذية السليمة التى تهدف كل دولة إلى تحقيقها. وبهذا أصبحت طبيعة الواردات الجاهزة من المصادر المحتملة المحدثة لأضرار التغذية الخاطئة.

وبعيداً عن نوعية الواردات الغذائية، فإن زيادة استيراد المنتجات الغذائية من جميع دول العالم. وهو الملاحظ الآن فى مصر. يؤدى إلى احتمال تزايد مصادر الخطورة الصحية للمواطن الذى يتناول هذا الكم الكبير من المنتجات الغذائية المستوردة. وقد يرتبط ذلك بالقدرة المعملية المحدودة لجهات الرقابة الصحية، مما يعنى انخفاض نسبة المنتجات المستوردة التى تستطيع معامل الفحص. فى الدول النامية. اكتشاف مخاطرها الصحية، بسبب تزايد كمياتها وتعدد نوعياتها المعروضة للمستهلك فى أسواقها المحلية.



زيادة استيراد المنتجات الغذائية من جميع دول العالم . وهو الملاحظ الآن فى مصر . يؤدى إلى احتمال تزايد مصادر الخطورة الصحية للمواطن الذى يتناول هذا الكم الكبير من المنتجات الغذائية المستوردة

وبالرغم من ضآلة الواردات الغذائية للدول المتقدمة، وبالتالى ضعف احتمال تعرضها لنفس مشكلة الدول النامية الخاصة بعجز قدرة معامل الرقابة الصحية على اكتشاف المنتجات المستوردة المخالفة، فإن أسس الاستراتيجية الحديثة للتغذية، ضماناً لسلامة المستهلك، تعتمد على عدم التوقع الدائم لتمام قدرة جهات الرقابة الصحية فى أى دولة فى العالم، من اكتشافها لكل الأغذية المخالفة عند منافذ الدخول المحلية للدولة.

وكنتيجة لذلك، يوصى حديثاً بضرورة العمل على تواجد جهات الرقابة الصحية المحلية، فى الدول التى يتم منها الاستيراد الغذائى، بهدف القيام بفحص ورقابة الأغذية فى مواقع إنتاجها، والتعرف فعلياً على مدى تطبيق قواعد السلامة الصحية فى الإنتاج المصدر للدولة المستوردة له.

ومن الطبيعى أن تواجد الرقابة الصحية المحلية، فى دول الاستيراد الغذائى، ضمن قواعد استراتيجية التغذية الصحية، سوف يتركز أساساً على نوعيات محددة من المنتجات الغذائية التى تمثل أعلى درجات مصادر الخطورة على المستهلك. أما باقى أنواع الأغذية المستوردة، فيكتفى بالإعلان على أفضل درجات جودتها الصحية، التى يتم من خلالها تقرير مدى قبولها من الدولة الموردة.

ولاشك أنه بتواجد مثل هذه المواصفات المحلية عالية الجودة الصحية، فإن كل مورد أجنبى سوف يحاول بذل أقصى جهوده لكى تتوافق مواصفات منتجاته مع هذه الاشتراطات عالية المستوى، لكى ينجح فى تسويق منتجاته فى كل دول العالم، وهو ما يحمى صحة المستهلك من مخاطر التغذية الخاطئة بنوعيات غير سليمة من الأغذية المستوردة.

وبالرغم من الاستراتيجية الحديثة للتغذية الصحية، تؤكد على أهمية تحقيق مفهوم حماية المستهلك، وهو ما سوف تتعرض له هذه الاستراتيجية فى نقطة مستقلة قادمة، إلا أنها هنا، وارتباطاً بسلامة الأغذية، تركز على أهمية ضمان الجهات الصحية فى كل دولة للجودة التامة لجميع المنتجات الغذائية المحلية والمستوردة المعروضة للمستهلك. ومن غير المقبول، أن يجهد المستهلك نفسه فى التعرف على أفضل ما يعرض فى أسواقه من أغذية مطابقة للاشتراطات الصحية، لأن ذلك يعتبر من مهام الجهات الصحية المحلية، فكل ما يتواجد فى الأسواق التجارية من أغذية، يجب أن يكون متساوياً تماماً فى مدى صلاحيتها وسلامتها، ولا تقل عن الحدود المقبولة عالمياً للاستهلاك الآدمى.

وبهذا يتم فعلياً المحافظة على صحة وسلامة المستهلك، وعدم استنزاف قدراته الشرائية، فيما لا يحقق له الفائدة المغذية المطلوبة.

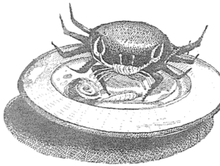
طعام صحى.. كيف؟

تضمنت أحدث استراتيجية للتغذية الصحية، ضرورة وضع برامج قوية لمنع الإصابة بالأمراض التى تسببها الأغذية المخالفة لاشتراطات السلامة الصحية. ولقد بدأت دول أوروبا وأمريكا فى وضع وتنفيذ هذه البرامج، لتفادى أى حالات مرضية من تناول الأسماك، والأغذية البحرية الأخرى، والفواكه، والخضروات، والعصائر، والبيض، واللحوم، والدواجن، وغيرها من المنتجات الأخرى، بما فيها أغذية التسالى والأغذية المنبتة مثل الحبوب والبقول.

وتعرف برامج منع حدوث الأمراض الناتجة عن التغذية الخاطئة عالمياً، باسم «هاسب» HACCP، وهو اختصار للمصطلح الإنجليزى تحليل مصدر خطر نقط التحكم الحرجة. وفى هذه البرامج يتم تحديد كل مصادر الخطر الصحية التى من المحتمل أن تتسبب فى الإصابة بالأمراض الغذائية، ويجرى التعرف على أماكن تواجدها فى خطوات عملية الإنتاج والتسويق الغذائى، وغيرها من أى عمليات تكنولوجية تتعرض لها الأغذية حتى تمام استهلاكها. ثم توضع الأساليب والوسائل المناسبة للتخلص من هذه المصادر الخطرة وإزالتها من خطوات الإنتاج الغذائى، مما يعنى عدم تواجدها فى أى غذاء منتج، فتصبح كل الأغذية خالية تماماً من مصادر الأضرار الصحية.

وللقضاء على أى فرصة قد يتكرر منها خطأ ظهور أى مصدر خطر فى إنتاج الأغذية، يجب ضرورة وضع برامج إضافية تكون خاصة بالإنذار المبكر، لضمان سرعة اكتشاف أى احتمال قد يجعل من غذاء معين، مصدر خطر يسبب إصابات مرضية للمستهلك.

وهكذا يؤدى تطبيق نظام «الهاسب» فى إنتاج الأغذية الزراعية والحيوانية ومنتجاتها المصنعة، إلى ضمان سلامتها وصحيتها، وخلوها من أى مواد ضارة سواء كانت هرمونات، أو مبيدات حشرية، أو مستحضرات بيطرية، أو مضادات حيوية، أو سموم، أو ميكروبات، أو فيروسات، أو إضافات غير مصرح باستخدامها أصلاً فى المجال الغذائى



من غير المقبول، أن يجهد المستهلك نفسه فى التعرف على أفضل ما يعرض فى أسواقه من أغذية من الناحية الصحية. لأن ذلك من مهام الجهات الصحية، فكل ما يتواجد فى الأسواق من أغذية، يجب ألا يقل عن الحدود المقبولة عالميا

مثل الفورمالين والصبغات الصناعية وغيرها.

وكنتيجة لبدء تطبيق هذا النظام العالمى فى دول الاتحاد الأوروبى وأمريكا وغيرها من الدول المتقدمة، لتحقيق استراتيجية التغذية الصحية، تم إجراء الفحص الصحى الدقيق لكل الخطوات التى تتبع فيها خلال زراعة وإنتاج وإعداد وتحضير وتصنيع المنتجات الغذائية، بما فيها عمليات ذبح حيوانات اللحوم والدواجن، وتجهيز منتجاتها المختلفة.

وعند مقارنة نتائج هذا الفحص الصحى الدقيق، بالاشتراطات الواجب توافرها فى الأغذية الخالية من الأضرار، تم بسهولة تحديد أماكن تواجد مصادر الخطورة الصحية فى إنتاج الأغذية، مما ساعد على اتخاذ الإجراءات التكنولوجية المناسبة والفعالة للتخلص من هذه المصادر الخطرة، مع وضع أساليب ونظم القياس والمعايرة التى تمكن أجهزة الرقابة من سرعة اكتشاف أى تكرار لمصادر الخطر، لتصبح كل الأغذية الناتجة خالية تماماً من الأضرار.

وتتكامل هذه الإجراءات، بوجود النظم الحديثة الأكثر فاعلية والأسرع تنفيذاً، للكشف المبكر عن أى حالة مرضية تسببها الأغذية، قبل أن تنتشر تأثيراتها الضارة على الصحة العامة. ومن هذه النظم، ما بدأته أمريكا وأوروبا فى استخدام ما يعرف ببصمة الحمض النووى (دى. إن. إيه DNA) لعينة تؤخذ من المريض، وتقارن ببصمة الحمض النووى للبكتيريا التى توجد فيها، مع عينة مريض آخر، أو عينة غذاء، بهدف سرعة التعرف على مصدر العدوى لأى حالة مرضية، قبل زيادة انتشار الإصابة بها.

ويؤدى تحديد بصمة الحمض النووى، على سرعة اكتشاف الجهات الصحية لأى حالة مرضية تسببها الأغذية، وبالتالى تتمكن من سرعة اتخاذ الإجراءات الفعالة السليمة لتفادى انتشار هذه الحالات المرضية.

وعند بداية تطبيق نظام «الهاسب» لإنتاج الأغذية الخالية من الأضرار، يجب تحديد أهم الأغذية ومنتجاتها التى تحمل أكثر مصادر الخطورة الصحية على المستهلك، وبالتالى تصبح مناطق إنتاجها على قائمة أولوية التنفيذ الفعلى لنظام الهاسب.

ومع وضوح الأهمية الصحية لكى يصبح النظام العالمى الحديث «الهاسب» أساساً للإنتاج الغذائى فى مصر، فإن له أيضاً فائدة اقتصادية مهمة، تتركز فى عدم إنتاجه لأى كمية من أى غذاء تخالف اشتراطات السلامة الصحية.

وهذا يعنى عدم إنفاق أى تكاليف فى زراعة أو إنتاج أو تصنيع منتجات غذائية تكون غير صالحة للاستهلاك الآدمى، مما يمنع الفاقد الاقتصادى للأغذية، فضلاً عن حماية الصحة العامة، والمحافظة على البيئة.

لذلك لم يكن غريباً، أن تلتزم حديثاً دول الاتحاد الأوروبى بعدم عرض أى مادة غذائية للبيع للمستهلك (حتى لو كانت مجرد رغيف خبز)، إلا إذا كان إنتاجها قد تم باستخدام النظام العالمى الجديد للإنتاج الغذائى (الهاسب)، تأكيداً على ضرورة إنتاج الغذاء خالياً من الأضرار، وضماناً لجودته العالية، وحماية للبيئة من تأثير عمليات الإنتاج غير الصحى للأغذية الضارة.

ومن المتغيرات الجديدة التى ظهرت مؤخراً فى مجال التجارة العالمية، وجود تشريعات تجارية أجنبية، تهدف إلى إيقاف استيراد الدول المتقدمة للمنتجات الغذائية (وبخاصة الفواكه والخضروات)، من أى دولة لا تتبع فى إنتاجها نفس اشتراطات ومعايير السلامة الصحية المطبقة فى الإنتاج الأوروبى والأمريكى المستخدم لنظام الهاسب، وذلك لتفادى مخاطر دخول أى أغذية ضارة إلى أسواقها التجارية.

ولعل ذلك يعنى سرعة تطبيق مصر لنظام الهاسب الخاص بضمان السلامة الصحية للإنتاج الغذائى، مما يتيح للمنتجات المصرية سهولة القبول فى أسواق الدول المتقدمة. فضلاً عن تحقيقه للفوائد الصحية والاقتصادية للمستهلك المصرى.

مخاوف المستهلك.. إلى متى؟!

مع أن تناول الطعام، يحقق متعة طبيعية للإنسان، إلا أنه أصبح يمثل مصدر خوف وقلق كبير على صحته، بعد أن نجح الإعلام فى ربط الطعام بكل ما يتعرض له المستهلك من أمراض ومشاكل صحية. وتزداد حالياً درجة خوف المستهلك من تناول طعامه، بسبب كثرة ما يعلن عن المخاطر التى يحملها الطعام، ولا يقابلها، من جانب آخر، ردود كافية من جهات الرقابة الصحية لإعادة الثقة بالطعام، أو لإيضاح مدى حقيقة ما ينسب للطعام من مخاطر وأضرار.

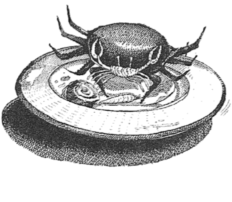
ومن أمثلة مخاوف المستهلك، التى أعادت له مؤخراً الحيرة والارتباك، ما أثاره الإعلام حول تلوث الأسماك بالزئبق، ودعوته للحوامل والمرضعات والأطفال الصغار إلى عدم تناول أسماك التونة والماكريل وغيرها لتفادى الإصابة بالتسمم بالزئبق. ونظراً لعدم تصدى جهات الرقابة الصحية لهذه المشكلة، بالتصحيح أو الإيضاح، تحولت منتجات التونة والماكريل التى تمثل وجبات مغذية غير مكلفة للمستهلك، إلى مشكلة غذائية تزيد من مخاوفه وحيرته حول نوعية مهمة. وحول هذا الموضوع، كان يجب سرعة إزالة مخاوف المستهلك بتقديم المعلومة الصحيحة ليعرف أن تعرض أسماك المحيطات والبحار للتلوث بمادة ميثيل الزئبق ليس بأمر جديد. فمنذ أكثر من ٢٠ عاماً وبعض الدول المتقدمة توجد بها تحذيرات للنساء اللاتى فى سن الحمل، والمرضعات، والأطفال أقل من سن ١٥ عاماً، من تناول أكثر من وجبة واحدة أسبوعياً من بعض أسماك المحيطات والبحار.

كذلك كان يجب سرعة إعلان نتائج ما تم تحليله من منتجات الأسماك المتوافرة فى الأسواق المصرية، وحدود ما يوجد فيها فعلاً من مادة ميثيل الزئبق، ومدى توافق ذلك مع الاشتراطات الصحية لهذه الأسماك، لمساعدة المستهلك على حسن اتخاذ قراره الصحيح فى التغذية السليمة الآمنة، بدون مخاوف.

ومن المثير للانتباه، أنه منذ أكثر من ٣٠ عاماً، وفائدة المكون الغذائى السيلينيوم ضد أضرار الزئبق معروفة تماماً. وقد تكون مفاجأة للمستهلك، أن يعرف أن العديد من الأسماك التى تحتوى أنسجتها على نسب عالية من الزئبق الضار، يوجد بها أيضاً مستويات مرتفعة من السيلينيوم قد تصل إلى حدود ١ : ١، وهو ما يساعد على بقاء هذه الأسماك، بالرغم من وجود الزئبق المرتفع فى أجسامها.

ولعل ذلك يوضح أن مخاطر الزئبق فى الأسماك، تقل بتأثير محتواها الطبيعى من السيلينيوم المضاد للزئبق ويساعد ذلك على تفسير تحذير الدول المتقدمة، منذ ٢٠ عاماً، بعدم زيادة تناول أسماك المحيطات والبحار لبعض الفئات الحساسة من الحوامل والمرضعات والأطفال، بحيث يتم تناولها مرة فى الأسبوع، وليس الامتناع عنها كلية.

وهكذا يتضح مدى أهمية سرعة تقديم المعلومات الصحيحة لإزالة مخاوف المستهلك الناتجة عن متابعته لما تتعرض له وجباته الغذائية من اتهامات متكررة. لذلك تركز استراتيجية التغذية الصحية على حق معرفة المستهلك بكل المعلومات المؤكدة عن كل ما يتصل



بطعامه من مشاكل، حتى يتعرف بنفسه على أفضل الأغذية المناسبة له، فيتم تناولها بدون خوف أو مخاطر مرضية.

وفى هذا المجال، فإن المستهلك يتعرض بصورة متكررة إلى إثارة مخاوفه من احتواء أغذيته المحلية والمستوردة على الهرمونات المستخدمة فى إنتاج الدواجن واللحوم وأيضًا الأسماك، والمبيدات والكيماويات المستخدمة فى زراعة المحاصيل والخضروات والفواكه، والمواد الحافظة والمكسبات الصناعية للون والطعم والرائحة المضافة فى المنتجات الغذائية والمشروبات المختلفة، والمواد الضارة المخالفة للصحة مثل الفورمالين وغيره من الإضافات الممنوعة صحيًا فى الألبان والجبن وغيرها، والأغذية المهندسة وراثيًا بمخاطرها الصحية واحتمال تواجدها فى المنتجات المحلية والمستوردة.

ومن الصور الأخرى لمخاوف المستهلك وعدم ثقته بطعامه، ما يتعرض له من خداع وغش فيما تحمله بيانات بطاقة العبوات الغذائية المحلية والمستوردة، وما تقدمه إعلاناتها التجارية من مخالفة لحقيقة تركيبها وما تحتويه من مكونات مغذية.

وتزداد درجة هذه المخاوف، مع غزو الأسواق المصرية بمنتجات العولمة الغذائية، التى تم إنتاجها بتكنولوجيا متطورة، يصعب على النظم العادية للرقابة الصحية، كشف ما بها من مكونات مخالفة وتحديد درجة خطورتها على صحة المستهلك.

وللقضاء نهائيًا على هذه المخاوف الغذائية التى تتعارض مع تحقيق قواعد التغذية الصحية للمستهلك، تعتمد الاستراتيجية الحديثة فى الدول المتقدمة على ضرورة الكشف الدائم عن مستوى ما قد يوجد فعلاً فى الأغذية من هرمونات أو مبيدات أو ملوثات أو مواد صناعية أو مواد غير مسموح بإضافتها أو مكونات منتجة بالهندسة الوراثية وغيرها، وذلك باتباع الطرق والأساليب العلمية الصحيحة.

وتطبيقًا لذلك، يجب تحليل عينات من جميع المنتجات الغذائية الخام والمصنعة، المحلية والمستوردة فى مختلف مناطق محافظات مصر، بما يضمن أخذ الكفاية من عدد العينات، وتكرار الحصول عليها على فترات زمنية طوال العام، بما يعطى صورة حقيقية عن الوضع الصحى للأغذية فى الأسواق المحلية، وإعلام المستهلك بذلك، ليمارس حق معرفته بالأغذية الضارة ليتفادى تناولها.

ولعل ذلك يوضح خطأ الحكم على صلاحية أى غذاء من نتائج تحليل عدد قليل من عيناته التى أخذت فى فترة زمنية واحدة ومن منطقة استهلاكية محدودة. كما يفسر خطأ تعميم نتائج الدراسات البحثية التى تقوم بها جهات علمية على عدد قليل ومحدود من العينات الغذائية، سواء كانت نتائجها تشير إلى صلاحيتها أو خطورة استهلاكها.

تركز استراتيجية التغذية الصحية على حق معرفة المستهلك بكل المعلومات المؤكدة عن كل ما يتصل بطعامه من مشاكل، حتى يتعرف بنفسه على أفضل الأغذية المناسبة له، فيتم تناولها بدون خوف أو مخاطر مرضية

الرقابة على وجبات المحمول!

شهدت نظم التغذية فى العالم تغيرات أساسية لها تأثير كبير على صحة المستهلك وسلامة أغذيته. ومع مسايرة جهات الرقابة الصحية فى الدول المتقدمة لهذه التغيرات بما يحافظ على سلامة الغذاء، فإن الاستراتيجية الحديثة فيها تدعو أيضًا المستهلك إلى ضرورة تغييره لطبيعة تعامله مع المواد الغذائية بما يتمشى مع متغيرات سلامتها الصحية، حماية له من مخاطر الإصابة بالأمراض. كما تدعوه أيضًا إلى ضرورة الحذر والاحتراس فى كل ما يتناوله خارج منزله من طعام ومشروبات، ولكن بدون أن يصل إلى درجة الخوف الغذائى، حيث يكفى اتخاذه الاحتياطات الصحية المناسبة، التى تماثل تمامًا أهمية التزامه بربط حزام الأمان فى السيارة.

ومن أهم العوامل المتغيرة والمؤثرة الآن بقوة على سلامة الأغذية مقارنة بالماضى، كثرة وتعدد أنواعها المتناولة، واختلاف مصادرها حيث تأتى من جميع أنحاء العالم، وانخفاض نسبة ما ينتج منها محليًا فيصعب التحكم فى جودته الصحية، وتزايد معدل تناولها جاهزة خارج المنزل مما يعنى انتقال مسئولية ضمان سلامة الأغذية من المنزل إلى المنشآت التجارية التى تقوم بإنتاجها وتصنيعها واستيرادها، وخروج جودتها الصحية من نطاق الجهود الشخصية للمستهلك إلى الوسائل والأساليب البشرية لكل من يتعامل مع الأغذية قبل أن يتناولها.

وفى ظل هذه العوامل فإن تأثير أخطاء التغذية على الصحة العامة لا يرجع فقط إلى تزايد وجود الإنتاج الكمى الهائل من الأغذية المستوردة وتعدد منتجاتها فى الأسواق المحلية، بل أيضًا إلى تضاعف أعداد المتناولين لهذه الأغذية على صورتها الجاهزة خارج المنزل، فى المطاعم والمنشآت التجارية المختلفة.

ومع زيادة انتشار نوعيات المطاعم الجاهزة وما تقدمه من وجبات سريعة، تتضاعف أهمية دور جهات الرقابة الصحية، ليس فقط على ما تقدمه هذه المطاعم من وجبات يتم تناولها فيها بواسطة أعداد كبيرة من فئات المجتمع فى مراحل عمر مختلفة، بل أيضًا إلى ظهور وانتشار خدمة نقل وتوصيل الوجبات الجاهزة إلى المنازل والمكاتب وجهات العمل المختلفة، والتى أصبحت تعرف فى بعض الدول باسم وجبة المحمول، تعبيرًا عن سهولة طلبها تليفونيًا، وسرعة حملها وتوصيلها للمستهلك فى أى مكان يحدده، بواسطة عامل المطعم الذى يعرف باسم الطيار.

وإذا كان المطلوب زيادة درجة الرقابة الصحية على ما يتم تناوله من وجبات جاهزة فى المطاعم السريعة للتأكد من اشتراطات سلامة التغذية الصحيحة، فإن المهمة تزداد خطورة بالنسبة للرقابة على الوجبات المحمولة التى تمثل حاليًا نمطًا استهلاكيًا متزايدًا. ويرجع ذلك إلى أن هذه الوجبات تحضر سريعًا داخل المطعم وتخرج منه بسرعة لتجوب أرجاء المدن، معبأة فى عبوات لا تحمل أى ضمان للمستهلك، ولا توجد عليها أى بيانات تحدد له أدنى مسئولية عما قد يتعرض له من مخاطر صحية، أو مخالفات لاشتراطات التغذية السليمة.

لذلك تشترط استراتيجية التغذية الحديثة ضرورة الاهتمام بنظام دقيق للرقابة الصحية على الوجبات المحمولة السريعة الجاهزة، وأن تعامل فى رقابتها بأساليب مقارنة لما يتم على أى عبوات غذائية تعرض للمستهلك فى الأسواق التجارية، ضمانًا لسلامة الصحة العامة.

وبالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية هى أول دولة فى العصر الحديث، تطبق فكرة تسويق وجبات الطعام السريع فى سلسلة مطاعمها المختلفة، وذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين، إلا أن جذور هذه الصناعة، بدأت فى مصر منذ أكثر من ٣٥٠٠ عام، حيث كانت الفنادق الصغيرة (الخانات) تقوم بتوفير خدمة تقديم الغذاء والشراب للتجار على طرق سفرهم وتنقلهم المستمر.

وبينما تواجه الآن، المطاعم الأمريكية السريعة، حالات كثيرة من الرفض والانتقاد حتى من داخل أمريكا، فى صورة دعاوى قضائية رفعها مجموعة من المواطنين الأمريكيين ضد أربع من أشهر سلسلة شركات المطاعم السريعة، بسبب ما أحدثته وجباتها من أضرار صحية

لهم، فإن مصر القديمة منذ آلاف السنوات، كانت تقدم الوجبات الصحية الجاهزة فى صورها المختلفة.

لذلك فإن مصر، تاريخياً، هى الأجدر للقيام بتقديم وجبات جاهزة، باستخدام المكونات المحلية المتوافرة، لتمثل نماذج صحية للوجبات السريعة المحمولة، التى يقبل عليها حالياً المستهلك داخل وخارج منزله.

رسالة مطلوبة للمستهلك!

من الجوانب الأخرى لاستراتيجية التغذية الصحية فى الدول المتقدمة، زيادة برامج توعية المستهلك التى تمكنه من التعامل الصحيح مع كل ما تقدمه وسائل الإعلام، والإعلانات التجارية، وبطاقات العبوات الغذائية، من معلومات، لقوة تأثيرها على مفاهيمه بما قد يغير من اتباعه لقواعد التغذية السليمة.

ولتحقيق هذا الهدف، وضعت استراتيجية التغذية الحديثة فى الدول المتقدمة مواصفات يستخدمها المستهلك بنفسه لتقييم أى معلومة غذائية يعرضها الإعلام، والتى عند مخالفتها لأى شرط من هذه المواصفات، يجب إهمالها لتفادى مفهومها الخاطئ الضار بقواعد التغذية الصحية. كما يفيد تطبيق المستهلك لهذه المواصفات، على حل مشكلة التعارض فى المعلومات الغذائية التى يكثر وجودها إعلامياً، وتسبب صعوبة اختياره الصحى للوجبات الغذائية.

وعلى قمة مواصفات توعية المستهلك لتعريفه بالمعلومة الغذائية الصحيحة التى يجب أن يتعامل معها عند وجودها فى الإعلام، أن يكون مصدرها الأساسى المعلن مجلة علمية عالمية متخصصة فى علوم التغذية والصحة، وأن تكون ناتجة عن دراسات عديدة وليس مجرد دراسة واحدة فقط، وأن تكون هذه الدراسات قد أجريت فعلاً على الإنسان وليس الحيوان فقط، وتم فيها تغذية أعداد كبيرة جداً من الرجال والنساء لمدة زمنية طويلة بالكمية المألوفة والمعتاد تناولها من الغذاء موضوع الدراسة.

وإلى جانب وسائل الإعلام المعروفة من صحافة وإذاعة وتليفزيون وفضائيات، فإن معلومات الإنترنت أصبحت تمثل مصدراً آخر له تأثير قوى على مدى اتباع المستهلك لقواعد التغذية الصحية، لأنها لا تكتفى فقط بتقديم معلومات، بل وتعرض معها منتجات غذائية يعتمد تسويقها على فوائد مرتبطة بهذه المعلومات، التى غالباً ما يكون أساسها العلمى ضعيفاً أو غير مؤكد تماماً.

لذلك فإن استراتيجية التغذية الحديثة فى الدول المتقدمة، لا تكتفى بضرورة اتباع مستخدمى الإنترنت لنفس قواعد التعرف على صحة المعلومة الغذائية المقدمة للمستهلك إعلامياً، بل وتقدم لهم أيضاً بعض الإشارات التى غالباً ما يستخدمها الإنترنت فى تسويق منتجاتها القائمة على معلومات غير مؤكدة علمياً. وهكذا يتم توعية المستهلك لتفادى تعامله مع مواقع الإنترنت التى تبث معلومات خاطئة وتعرض منتجات لم تثبت فائدتها الصحية، بل وقد تخالف فى حقيقتها ما ينسب لها من فوائد.

وفى مجال توعية المستهلك، ليكون حذراً من المعلومات الخاطئة لمنتجات الإنترنت، يجب أن يتفادى التعامل مع أى معلومة تسويقية يوجد بها إشارة من الإشارات الآتية:

١. التأكيد على أن ما يعرض من منتجات تكون (طبيعية) أو (غير سامة) أو (ليس لها أى تأثيرات جانبية). حيث إن هذه الصفات لا تعنى بالضرورة أن المنتج آمن وغنى بالفوائد الصحية.

٢. الادعاء بأن المنتج المعلن عنه جاء (نتيجة للتقدم العلمى الكبير)، وأنه (معجزة فى العلاج)، وأنه (يحتوى على مكونات سر العلاج)، وأنه (يمثل الصيحة الجديدة لأسرار العلاج القديم)، وغيرها من الإشارات التى تهدف لجذب انتباه المستهلك لمنتجات المعلومات الخادعة.

٣. تعدد الفوائد المعلنة للمنتج الغذائى، ووصفه بأنه (علاج فعال للعديد من الأمراض) مع استخدام مصطلحات طبية لها صدى مثير لدى المستهلك، وبخاصة فى علاج أمراض شائعة وخطيرة.

٤. تدعيم المعلومات المعلنة عن فوائد المنتجات الغذائية بشهادات تقدير من بعض المواطنين، تشيد بالنتائج المذهلة التى تحققت لهم بتناولهم لهذه المنتجات. فمثل هذه الشهادات لا يمكن اعتبارها بديلاً للمعلومات المطلوب علمياً التأكد من صحتها.

٥. يعتبر عدم وجود بيانات كاملة عن اسم الشركة المنتجة للأغذية المعلن عن فوائدها الصحية، وعنوانها، وأرقام تليفوناتها، وغيرها من البيانات التى تحقق سهولة الاتصال بها، من الإشارات الإضافية على أن منتجات الإنترنت المعلن عنها مجهولة المصدر وأنها تعتمد على معلومات خاطئة تضر بصحة المستهلك، فيجب تفاديها. ■

كتاب الزاوية

الإشارات الإلهية

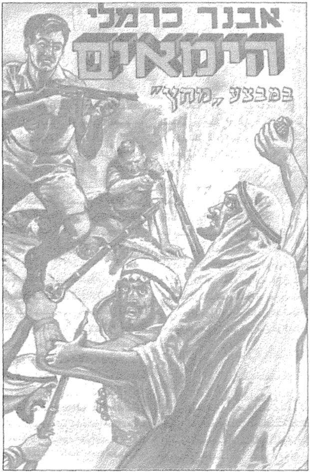
اللهم: كَثُر غَلَطُنا فينا، وطال لغطُنا علينا، واشتد الضعف بنا، ونادى منادى العز بذلنا، ودلَّ دليل الهتك على فضائحنا، وامتدت حيرتنا فينا، وترادفت حسرتنا منا، وارتد نظرنا إلينا، وشمت بنا عدُونا، ووجد السبيل نحونا حاسدُنا، وأصبحنا بين خلقك ملحوظين بالمقت والشنآن، موطوئين بالقسوة والعدوان، مقروفين بالكذب والبهتان.

اللهم: فجُدْ علينا منك ما يسلينا عما حرمتنا منهم، وميزنا بلطيف لطفك عنهم، وعززنا بعزيز عزك حتى لا نرى عز العزيز بغير عزك، وقد هممنا إليك. واصرف مهمنا عما لديك، وافعل معنا فى الآخر نظير ما بدأت به فى الأول، إنك المجيد الكريم ذو الفضل العظيم.

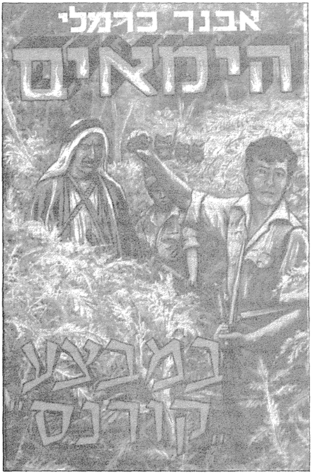
يا هذا: إنى أرى ما ترى، فهل ترى ما أرى: أم أنت من هذا الورى، تديم السُّرَى، ولا تحمد صباح المَسْرَى: أرى جملةً: أنوار الخالق عليها ساطعة، وأخبار الخلق عنها قاطعة، وذلك أنها تُضْحِى مصدوقة بلسان التزويق، وتُمسى مكذوبة بلغات التحقيق، تمر فى التهم كالريح، وتقف حروننا فى مساكن التطويح، متوقعة لعلامات التصريح، أو أمارات التلويح. ومن أعاجيب نعتها، فى كل مكانها ووقتها، أنها تتحرك على نفسها، وتُرى الزيادة فى نقصها. إن فعلت فعلت سرفًا، وإن تركت تركت صلفًا، وإن نطقت نطقت تمويهًا وإن سكتتْ سكتت تيهًا، إن أمنتْ أمنت اغترارًا، وإن خافتْ خافت اعتذارًا؛ وإن أبتْ أبت اقتدارًا، وإن أجابتْ أجابت اضطرارًا..

يا هذا: اسمع حديثى، وخذ من طيبِّى وخبيثى. زيِّن حقيقتك بالحق.


אבנר כרמלי
הימאים
הימאים במבצע "גרזן"


אבנר כרמלי
הימאים
במבצע "מחץ"


28
יגאל מוסינזון
"חסמבה"
מול כנופית פוטשניק
המסוכנת מאד
SCHALGI BOOKS LTD
ספרי שלגי


אבנר כרמלי
הימאים
במבצע
"קורנס"



ماذا يتعلم أطفال إسرائيل؟!

أنطوان شلحت

صدرت فى إسرائيل، مؤخراً، طبعة جديدة من سلسلة قصص الفتيان «حسمبا» لمؤلفها يغئال موسينزون. وهى من أوائل سلاسل قصص الفتيان المكتوبة باللغة العبرية بعد ١٩٤٨ ويمكن إدراجها ضمن «جانر» كتب المغامرات المثيرة، الذى كان شائعًا إلى أقصى الحدود فى تلك السنوات. وقد صدر أول كتاب من هذه السلسلة فى ١٩٥٠ وظلّ مؤلفها يكتب حلقات جديدة منها حتى قبيل وفاته (فى ١٩٩٤ عن ٧٧ عامًا)، بسنوات قليلة. وأظهرت استطلاعات للرأى، أجريت فى الخمسينيات من القرن العشرين، أن قصص «حسمبا» تبوأت مرتبة متقدمة جدًا فى قائمة أكثر الكتب الشعبية التى يستهويها «القراء الصغار» بين اليهود الإسرائيليين، إلى درجة أنها تفوقت على أشهر القصص الأجنبية للفتيان مثل «روبنسون كروزو» و«جزيرة الكنز» و«أليس فى بلاد العجائب» و«ماكس وموريتس» و«توم سوير» و«ثمانون ألف ميل تحت سطح المياه» وغيرها. وكان للإنسان العربى حضور بارز فى قصص «حسمبا» تلوّن بالصبغة العامة، العنصرية فى جوهرها، التى تميزت بها عموماً «النظرة الثقافية» الصهيونية حياله، بل إن ثمة أبحاثًا كثيرة تشير، دون مداورة، إلى كون هذه القصص أرست «الدعامة الأولى» فى تشييد الموقف التنميطى المقولب من العربى، لمجرد كونه كذلك، وهو ما واصلته سلاسل قصص أخرى يصعب حصرها، خصوصًا فى الخمسينيات والستينيات وحتى أواسط السبعينيات من القرن المنقضى.

وهناك دراسات عديدة ترصد تأثير تلك السلسلة علي الطفل الإسرائيلي والتأثيرات العميقة التي تركتها عليهم من عنصرية وكراهية بالغة العمق للعرب لمجرد كونهم عرب مع ملاحظة أن هؤلاء القراء اليهود الصغار أصبحوا في الوقت الحالى هم الجيل المتحكم في مختلف مؤسسات الدولة الإسرائيلية عسكريًا ومدنيًا.

استطلاعات الرأي التي جرت في إسرائيل حول هذه السلسلة من كتب الأطفال علي مدى زمنى طويل تشير هى الأخرى إلى مدى التأثير العميق الذي تمارسه على أطفال إسرائيل.

لعل أكثر «ميزان» يمكنه أن يفحص النمط المعين هذا من الإدراك والتفكير هو الموقف من الانسان العربي، من حيث أن هذا الموقف يتربى عليه كل يهودى إسرائيلى منذ الصغر ويكبر معه (ويتكرس، كذلك، بتأثير من الواقع السياسى - الاجتماعى الإسرائيلى). فما هى أحكام هذا الموقف؟ وكيف تتولد، بتأثير من الأدب العنصرى، لدى الأجيال الفتية؟ هذان السؤالان شكلا موضوع الاستطلاع الذى أجراه الأستاذ الجامعى والباحث فى أدب الأطفال، البروفيسور ادير كوهين، بين طلاب الصفوف الرابعة والخامسة والسادسة فى مدارس حيفا. وقد أرفق الباحث نتائج الاستطلاع بمقدمة كتاب له حول «انعكاس شخصية العربى فى أدب الأطفال العبرى» (صدر فى ١٩٨٥، عن منشورات «رشفيم»). شارك فى الاستطلاع (٥٢٠) طالبًا حيفاويًا من الصفوف المذكورة طلب إليهم أن يكتبوا حول خمسة مواضيع، وهى: أولاً: ما هى التداعيات التى يثيرها سماع كلمة: عربى؟! ثانيًا: كتابة قصة أو وصف قصير أو موضوع إنشاء حول لقاء مع عربى. ثالثًا: تلخيص كتاب قرأوه وينطوى على وصف للعربى، وشرح مؤثراته عليهم. رابعًا: محاولة شرح أسباب النزاع مع العرب. خامسًا: المجاهرة بآرائهم فيما إذا كان إحراز السلام ممكنًا، وفيما إذا كان ممكنًا قيام حياة صداقة وتعاون مع العرب.

أظهرت نتائج الاستطلاع ما يلى:

١. مستوى الخوف من العربى عال بشكل مذهل، ففى أكثر من ٧٥ بالمائة من الإجابات ترافقت شخصية العربى مع «خاطف الأولاد» و«القاتل» و«المخرب» و«المجرم» وأشباه ذلك.

٢. تجريد شخصية العربى تجريدًا سلبيًا (قولبتها)، وهو تجريد مكرّس فى أدب الأطفال العبرى. طاغ على الأسئلة الخمسة التى طلب إلى الطلاب الإجابة عليها. ففى حوالى ٨٠ بالمائة من الإجابات تأطرت تشابيه العربى فى العبارات التالية: «يعيش فى الصحراء» و«صانع الخبز» و«يلبس الكوفية» و«راعى بقرة» و«ذو سحنة مخيفة» و«فى وجهه ندبة» و«قذر ونتن» و«تنبعث منه رائحة كريهة» وغيرها.

٣. الجهل التام، بين أوساط الطلاب اليهود، لشكل العربى وهيئته وهندامه وتاريخه وعاداته. فبعض الطلاب قال إن العرب «أصحاب شعر أخضر» فيما أكد البعض الآخر أن «العرب لهم ذيول»!

٤. تسعون بالمائة من الطلاب يتنكرون لحق العرب فى البلاد ويؤمنون بأنه ينبغى قتلهم أو شنقهم أو ترحيلهم.

٥. فقط قلائل من الطلاب حاولوا شرح أسباب النزاع مع العرب بقدر مناسب من التفصيل، فيما اكتفى الباقون بجمل مقتضبة ومبتسرة من

سياق التاريخ مثل: «إنهم. أي العرب. يبنون قتلنا.. وتشريدنا من البلاد.. واحتلال مدننا. وقذفنا إلى البحر»!!

٦. غالبية الطلاب الذين يرغبون بالسلام يرون أن «السلام» ينبغي أن يعني تسليم العرب بالسيادة الإسرائيلية على «أرض إسرائيل الكاملة»، بما في ذلك الضفة الغربية وقطاع غزة.

بيد أن هذه النتائج هي النصف الأول من العنصرية التي تضعها الصهيونية في «منبت رؤوس» مريديها منذ الصغر. يبقى النصف الآخر، الذي لا يقل أهمية، وهو ما ورد في إجابات الطلاب على أسئلة الاستطلاع ومواضيعه. ولتقديم أمثلة على هذا «النصف» نقدم، تاليا، نماذج مقتطعة من الإجابات: ردا على السؤال الأول بشأن (التداعيات التي يثيرها مجرد الاستماع إلى كلمة عربي) رد (ر.ش) بقوله: «مجرم، وسخ، نتن، راعي بقر، مختطف، لص، غريب، فلاح، عامل بناء». وكتب (ي.ع): إن «سحنته غريبة، عصبي المزاج وحاد، ذو شعر أخضر، شرير، مخبول، متشرد». وكتب ثالث، رفض توقيع اسمه: إنه «عدو، خنزير، لص، مخبول، جلده غامق». وكتب رابع، رفض هو الآخر توقيع اسمه: «يجب أن نقتل العرب.. وأن نجلسهم على كرسي كهربائي. وأن نعلقهم على أعواد المشانق. وأن نطردهم من البلاد. أنا كهانا».

وجوابا على السؤال الثاني (كتابة قصة أو وصف أو موضوع إنشاء عن لقاء مع عربي)، كتب أحد الطلاب ما يلي: «صعدت إلى الباص.. جلست. صعد إليه عربي. وجلس بمحاذاتي. فكرت فورا أنه يجدر بي أن أنتقل إلى مقعد آخر. انتقلت. وانتقل العربي إلى المقعد ذاته، وفكرت أنه يخطط ضدي شيئا ما. هم العربي بالنزول. لكن السائق منعه وقام باستدعاء البوليس، الذي ساقه إلى السجن». وكتب الطالب (ي.ع): «عندما سافرت إلى القدس جلس بمحاذاتي صبي عربي كان ينتعل حذاء ممزقا ويرتدي ملابس رثة. كان لونه أسود وتنبعث منه رائحة كريهة. فقمت من جواره لأنني لا أريد أن أجلس بمحاذاته». وكتب (ج.ل.): «سافرت في الباص، وفجأة جلس بمحاذاتي صبي عربي.. هممت أن أقوم. فقال أنه سيمسني بسوء. رأيت أن بحوزته سكينا حادا. فجأة وقفت على قدمي. فأخرج الصبي العربي السكين وحاول أن يقتلني. أسقطته أرضا وأخذت السكين. فجأة لمحت شيئا مشبوها. فنقلت الأمر إلى سائق الباص، الذي اتصل فورا بالبوليس، وجاء البوليس فطلبت منه أن يحقق مع الصبي العربي. وفي التحقيق كشف العربي عن مكان سكناه. وقام البوليس بسجنه وأفراد عائلته لمدة عشر سنوات ثم أخلى سبيلهم».

ولدى توقف الباحث عند أدب الأطفال العبري وتأثيره على القراء (وهو موضوع السؤال الثالث في الاستطلاع) يخلص إلى القول إنه ضمن حصيلة كتب الأطفال المعروضة في السوق حتى تاريخ إجراء الاستطلاع والتي يقبل عليها «القراء الصغار» لا تزال غالبية هذه الكتب تشوه شخصية العربي وتنمي بين أوساط قرائها مشاعر الكراهية للعرب والاستخفاف بقوتهم وبمقدرتهم العقلية. ويرد الباحث ذلك إلى واقع أنه في الخمسينيات والستينيات كان الاتجاه الطاغي، بشكل تام، على أدب الأطفال العبري هو اتجاه تشويه شخصية العربي. أما في السبعينيات (وتحديدا في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣)، والثمانينيات، فبتنا نجد بعض القصص النادرة التي تحاول أن تقدم بطلا عربيا يمكن أن يكون ذاته الإنسانية، فاتحة الباب بذلك لتحول بسيط صوب التعامل مع شخصية العربي كإنسان وصاحب حق. ومن هذه الكتب النادرة أعمال دفوره عومر وبنيامين تموز ودوريت أورغاد وموشيه بن شاؤول. إلا أن هؤلاء الكتاب. يؤكد الباحث. حاولوا في قصصهم أن يتعاملوا مع العربي بضوء إيجابي في مواجهة نوع من حالة توبيخ الضمير (شعبهم يضطهد شعبا آخر)، أو في سبيل دفع ضريبة كلامية والتظاهر بالليبرالية. ولهذا طغت على نتاجهم سمات الصنعة والافتعال. وبدا العربي في هذا النتاج شيئا من أشياء الطبيعة يحبه البعض كما يحب زهرة برية. ولم تحمل شخصيته خصائص الحركة الفردية المستقلة، بل ظل يتحرك في إطار الشخصية العربية المستحضرة لأغراض إسرائيلية محضة. أغراض انتقاد المجتمع الإسرائيلي. مقابل هذا الاتجاه، وعلى النقيض منه، بدأت تتغلغل في قصص المغامرات الرائجة أفكار «أرض إسرائيل الكاملة»! فالبطل المحوري لقصة «الرياضيون الصغار عائدون» لأفنير كرميلي هو صبي يعيش مع والديه وإخوته في مستوطنة كولونيالية في الضفة الغربية المحتلة. والأمنية الخفية، التي يطوي اضلاعه عليها، هي أن يزداد هنا وهناك، في الضفة الغربية، انتشار المستوطنات الكولونيالية بحكم أن «أية قوة في العالم ليس بمقدورها أن تقتلع شعبا من وطنه»!

ويشير بحث البروفيسور كوهين إلى أن غالبية كتاب قصص المغامرات اليهود يحملون أفكارا مماثلة لأفكار أفنير كرميلي. والبعض منهم، الذي لا يوظف شخصية عربية، يضمن قصصه تشابيه مهيأة سلفا توحي بموقفه من العربي.

من أطفال إسرائيل.. مع التحية

■■ هذه عينة من رسائل كتبها أطفال إسرائيليون وتخيلوا أنهم يبعثون بها إلى أطفال فلسطينيين.

رسائل أطفال المدينة:

❖ أتمنى لك أن تموتي وأن تصبحي مريضة. أنتظر أن تموتي، وليت كل عائلتك تموت.

❖ تحية إلى العربية النتنة. أنا لا أحب ما تفعلونه بنا البتة ـ البتة ـ البتة. وسنرد لكم الصاع صاعين. ليتكم تموتون!

❖ تحياتي لطفلة من شعب شرير. أرغب في أن أطلب منك أن تقولي لوالدك أن يكف عن القصف وأن يحل السلام. أتمنى لك أيضا أن تموتي وأن تشيخي.

❖ «تحية الى محمد المقرف»، كتب أحد الأطفال الذي رسم فلسطينيا في ربيعه الثامن يبدو ملتحيا وذا أسنان حادة. وأضاف: بودي أن أتمنى لك الموت وأن تفتقر إلى حياة جيدة. أنا لا أحبك وأكرهك بسبب كل العمليات التي تقومون بها ضدنا وآمل بأن تحترق!

❖ تحية إلى ياسر البشع. إذا كنت تعتقد بأنك ستنتصر فإنك ترتكب خطأ جسيما، إليك نصيحتي: خذ سكينا حادا واغرزه فيك وفي أمك البشعة وفي أبيك وأختك وفجر نفسك بقنبلة!

❖ إلى يافا العزيزة، أتمنى أن تموتي وتصبحي مريضة. أنتظر أن تموتي سوية مع جميع أفراد عائلتك.

أطفال المستعمرات:

❖ لا توجد هنا فراشات، فقط انتفاضة. إنكم تحبون الحروب كثيرا. وهذا أعتبره كراهية الإخوة، إذ أننا جميعا بشر. أنت عديم الأهمية في نظري. إنكم برابرة، أغبياء، متخلفون. وسنظل نقصفكم حتى لا تقوم لكم قائمة.. أفليس هذا هو ما تطلبونه. تفضلوا، كلوا ما طهت أيديكم!

❖ حرب! أشد ما نكرهه هو أنتم العرب، رجالا، نساء وأطفالا، أولادا وفتيانا، واحدا، واحدا، أكرهكم جميعا. وسنريكم المزيد، سنقتحم ونفجر ونقتل!

❖ إلى محمد النتن، أتمنى أن تموت على أيدي الإسرائيليين وبأن تحترق أسرتك جميعا (وأنت أيضا) بنار جهنم. ليتك تمرض بالإيدز وتموت. تحيا حتى عمر ٢١ سنة وتموت. الموت للعرب. ليت ذلك يتم!

❖ أعتقد بأنك غبي، متخلف، وأريد أن أقول لك إنك قمامة.

❖ قتلة. ليتكم تموتون أيها النتنون. طابعكم خرائي ولديكم وجوه ساحرات شريرات وأجساد عرب بشعين ومقرفين. أتمنى لكم الموت يا أبناء الكلاب الضالة. فقط الموت!

أطفال «الكيبوتس»

❖ سأبدأ رسالتي بما يلي: لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ قولوا لي لماذا؟ لماذا؟ لماذا ليس في مقدوركم أن توجهوا إلى حكومتكم رسالة تكتبون فيها أشياء عن السلام وعن أرض إسرائيل. ولماذا يرسلونكم، أنتم الأطفال، إلى الحرب؟ الأمور عندنا ليست على هذا النحو، إنني أشفق عليكم.

❖ أعتقد أنه آن الأوان لعقد هدنة بين إسرائيل والفلسطينيين لكي نتدبر أمورنا معا، الواحد مع الآخر.

❖ إلى طفل فلسطيني، يبدو لي أنك تعرف ماذا يحدث في المناطق بيننا وبينكم. نحن نريد سلاما وربما أنتم كذلك. على الأقل أنا أريد السلام، لأن هناك أناسا يموتون. فهل توافق أنت أيضا، على الأقل، على صنع سلام؟ ■

ومن هذه التشابيه: «الرائحة العربية» و«العمل العربى» و«التصرف مثل العربى» وغير ذلك. ويؤكد ان تأثير تلك التشابيه على تكوين وعى الأطفال الصغار مماثل للتأثير الذى يمارسه اتجاه تشويه شخصية العربى بشكل مباشر. ويضيف كوهين إن قراءة هذا الأدب الفاسق هى ظاهرة عامة. ويكاد كل فتى يهودى فى إسرائيل يقرأ هذه القصص، وتتكون لديه فكرة مسبقة، وحشية وخطيرة، عن الإنسان العربى، تكبر معه وتتكرس.

أما بالنسبة للسؤال الرابع (أسباب النزاع مع العرب) فقد أبدى الطلاب اليهود جهلاً مطبقًا فى معرض الإجابات عليه. ويؤكد الباحث أن الجهل هو دفيئة جيدة لنمو الأفكار المتطرفة الجامحة. وأخطر ما فى هذه الأفكار المتطرفة الموقف من السلام، وهو موضوع السؤال الخامس والأخير فى الاستطلاع.

كتبت إحدى الطالبات الإسرائيليات: «حسب رأيى يستحيل أن نتوصل إلى سلام، لأن العرب يكرهون اليهود». واللافت للنظر، فى هذا الصدد، أن عشرة بالمائة فقط من الطلاب قالوا إنهم يريدون السلام. واستنكفوا عن تفصيل شروطه ومواصفاته وإمكانات تحقيقه. أما الرأى المناقض لذلك، فهو ما عبر عنه الطالب (ع.ك) الذى كتب يقول: «حسب رأيى يجب طرد العرب من البلاد، إذا استمروا فى سفك دم اليهود لمجرد كونهم يهودًا. يجب طرد عائلة العربى ومن ثم طرد قريته برمتها. العرب هم بغالبيتهم كارهون لنا ولا نستطيع التوصل إلى سلام معهم لأنهم يعتقدون بأننا أخذنا أرضهم. أعتقد أنه يجب نقلهم إلى أية دولة ممكنة، لأن لهم عدة دول عربية ولنا فقط دولة واحدة. وبسبب سفك الدماء فى هذه البلاد يظهر أشخاص مثل كهانا ويطالبون، بحق، بطرد العرب من البلاد».

وفى نهاية الاستطلاع يقول الباحث إن الواقع الذى أظهره يحبطه ويبهظه. ويعلن كفره بمقدرة الأساليب التربوية المتبعة فى المدارس اليهودية على أن تشكل «بديلاً إنسانيًا» لهذا الأدب الفاسق. إن مرد إحباطه. حسبما يؤكد. هو أن أدب الأطفال العبرى يفرض على الأطفال اليهود واقعًا يتربون فى ظله، دون عيشهم طفولة ساذجة بريئة. فضلاً عن أنه ينمى فى نفوسهم مشاعر القلق والخوف من المستقبل.



وإذا كان بحث كوهين المذكور سالفًا قد توقف عند العام ١٩٨٥، فإن «مياهًا كثيرة قد جرت فى النهر» منذ ذلك التاريخ، كما يقولون. لكن من أجل إطلالة، ولو إشارية، على موضوع موقف الأطفال والأولاد اليهود من العرب سأنوه ببحثين آخرين:

١- فى العام ١٩٩٨، وارتباطًا بالذكرى السنوية الثالثة لمقتل اسحق رابين، رئيس وزراء إسرائيل الذى اغتيل على خلفية توقيع «اتفاق أوسلو» للتسوية مع الفلسطينيين، نشر البروفيسور «دانييل بار- طال»، من جامعة تل أبيب ورئيس «الشركة العالمية لعلم النفس السياسى»، خلاصة بحث نفسانى لما يمكن احتسابه تمديدًا للواقع الإسرائيلى على أريكة التحليل النفسى. وقد تطرق بحثه، ضمن أشياء أخرى، إلى التأثير السلبى الذى تمارسه مناهج التعليم الإسرائيلية وكتب الأطفال على مواقف الطلبة اليهود من العرب ومن «السلام» معهم، طوال نصف قرن من عمر «الدولة العبرية»، وعلى رغم انقضاء خمس سنوات، فى ذلك الوقت تحديدًا، على ما يعتبر «صراعًا من أجل السلام».

لعل الخلاصة الأهم التى يتوصل إليها هذا الباحث هى أنه حتى التاريخ المذكور، فإن الأطفال اليهود فى «إسرائيل» يبدأ يتكون لديهم، منذ سن الثانية والنصف، ما يسميه «تصور سلبى» عن العرب (لمجرد كونهم كذلك). ونتيجة لذلك يتوصل إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الأطفال «يفتقرون إلى مرحلة السذاجة البريئة» ويظل العربى فى تصورهم «مفردة ملازمة لصفات سلبية وشريرة». أما بالنسبة لكتب التدريس العبرية فقد وجد هذا الباحث أنها لا تزال تعانى ما يصفه بأنه «تثبيت على الماضى» من غير أدنى تغيير «يتناسب، على الأقل، مع مستجدات عملية السلام». وكتب فى هذا الصدد يقول:

«يبدو أن السلام بقى خارج حدود المدرسة (الإسرائيلية)، وظل من ينظر إليه يفعل ذلك بوصفه شيئًا ما ينتمى إلى السياسة وتختلف الآراء حوله، أو بوصفه انحرافًا طفيفًا عن المسار الطبيعى للتاريخ (الإسرائيلى) الحافل بالحروب... ولسان الحال هنا يقول: ما جدوى تغيير كتب إذا كان السلام، وفق المنظور السالف، فصلاً قصيرًا لن يصمد طويلاً؟!».

٢- ما أكده «بار- طال» برهن عليه، بالدليل الحى والملموس، بحث آخر غير منشور حول موقف الأطفال اليهود فى إسرائيل من العرب ومن السلام، من حيث إشارته إلى كون هؤلاء الأطفال يقيمون حدًا فاصلاً على أساس من التضاد والاستقطاب بين الموقف حيال العرب (الفلسطينيين تحديدًا) والموقف حيال السلام. فبينما يؤيدون هذا المصطلح الأخير لا يعتبرون أن السلام ينبغى أن يترتب عليه مد جسور من التواصل الحميم مع العرب.

ومع أن معد البحث «آسى شرعبى» يجهد كثيرًا - فى المقابلة المطولة التى أدلى بها للصحفى «بوعز غاؤون» فى ملحق «معاريف» الأسبوعى يوم ٢٤/٨/٢٠٠١- لكى يثبت أن أحداث السنة الأخيرة (قبل تلك المقابلة)، وبشكل خاص فشل محادثات «كامب ديفيد» وانفجار الانتفاضة، تشكل الدافع الرئيسى وراء النأى عن اعتبار السلام «غاية نبيلة» تشمل متضمناتها، ضمن ما ينبغى أن تشمل، التأسيس لعلاقة مغايرة مع الآخر، فإنه لا يمكن، فى الأحوال جميعًا، إسقاط تأثير العملية التربوية على تفكير هؤلاء الأطفال، إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن هذه العملية لم تتكيف ولا تظهر فى الأفق المنظور أية علائم تشير إلى أنها سائرة فى طريق التكيف مع «وقائع السلام».

ولذا تلتقى دلالة الخلاصة التى يتوصل إليها «شرعبى» مع دلالة الخلاصة التى سبق أن توصل إليها «بار- طال» بشأن ثنائية المجتمع والسلام. فهو يقول:

«من ناحية نفسانية لم يكن توجهنا نحو اتجاه التوقيع على اتفاق سلام مع الفلسطينيين اتجاهًا حقيقيًا. لقد كان وفقًا لمفهوم «هيا نتوصل إلى هدوء، بعد طول تعب»، خلافًا للفهم المعمق بأنه حدث هنا غبن تاريخى ما للطرف الآخر ويتعين علينا إصلاحه لمصلحتنا... بلاغة السلام كانت جوفاء. وعندما نفهم ذلك على هذا النحو فإن انهيار اليسار الإسرائيلى لا يغدو مفاجئًا».

ارتكز بحث «شرعبى»، الذى جاء فى إطار إنجاز أطروحة دراسته الجامعية فى قسم علم النفس الاجتماعى فى كلية لندن للاقتصاد، على لقاءات أجراها مع ٨٤ طفلاً يهوديًا فى إسرائيل فى الثامنة والتاسعة من عمرهم يدرسون فى مدارس خاضعة لجهاز التعليم الحكومى فى ثلاثة أنماط تجمعات سكنية (مدينة، كيبوتس ومستوطنة كولونيالية). خلال هذه اللقاءات طلب إلى الأطفال اليهود أن يشرحوا كيفية فهمهم للنزاع الإسرائيلى-الفلسطينى وكيفية معايشتهم له على مستوى الحياة اليومية.

وقد انطلق من الأساس الفكرى لنظرية «أنماط التمثيل الاجتماعى»، التى تفترض أن المجتمعات البشرية تبتكر لنفسها بنفسها سلم قيم يمكنها من «هضم» الواقع المحيط بها، مهما تبلغ درجة جنون هذا الواقع.

وقد كانت الخلاصة الرئيسية التى توصل إليها هى ما يلى:

نمط التمثيل الاجتماعى الذى يتيح لأطفال إسرائيل، فى الوقت الراهن، أن يتعايشوا مع الواقع الصعب المحيط بهم يتمثل فى كراهية مشتعلة، مضطرمة، وأحيانًا وحشية، حيال الفلسطينيين. هؤلاء الأطفال يرون أن مجايليهم فى الطرف الآخر هم بشر مشوهون، أصحاب شعور شعثاء، ذوو أسنان حادة، ينبغى أن يموتوا ومن المحبذ بمرض «الإيدز»، وقدرهم أن يحترقوا بنار جهنم عن بكرة أبيهم!

من ناحية أخرى، ووفقما يشير هذا الباحث، فإن جميع الأطفال اليهود أبدوا رغبتهم بالسلام، غير أنه «سلام أجوف». وواجب صنع السلام مع العرب لا يعنى -فى قراءتهم المخصوصة- أنه لا ينبغى قتلهم عن بكرة أبيهم.

فضلاً عن ذلك - يؤكد «شرعبى» - أن تعبير الأطفال عن التطلع إلى السلام دون تحديد مواصفاته وقيمه يشكل وسيلة نفسانية تسعف التصور الذاتى الإيجابى للأنا توخيًا لمقولة: «أنا أريد السلام، إذاً أنا إنسان أخلاقى».

بيد أنه فور سؤال الأطفال عن معنى السلام ودلالته لم يعرف أى منهم ماذا يجيب، ما يعنى من باب أولى لكن فائق الأهمية أن السلام الذى يؤكدون تمسكهم به هو «سلام فارغ من أى مضمون».

كان فى صلب الأشياء التى طلبها الباحث من هؤلاء الأطفال اليهود أن يكتب كل منهم رسالة متخيلة إلى طفل فلسطينى مجرد فى مثل عمره وأن يرسم هذا الفلسطينى على الوجه الثانى من الورقة. ولدى طلبه هذا جوبه، من طرف الأطفال، بسؤالين - الأول: هل نرسم عربيًا جيداً أم عربيًا شريراً؟ والثانى: هل يسمح باستعمال الشتائم والكلمات النابية؟

فى بحثه عن هذه المسائل وجد «شرعبى» أن كراهية الفلسطينى لدى أطفال المدينة (فى وسط البلاد) أكثر حدة منها لدى أطفال المستوطنة الكولونيالية، وأن هذه الكراهية أقل حدة لدى أطفال «الكيبوتس» لكنها ليست منتفية تماماً.

العديد من أطفال المدينة عادوا إلى توكيد المقولة العنصرية القديمة أن «العربى الجيد هو العربى الميت!». ■

امنعوا هذا الغذاء الروحى الفاسد!

أوريئيل أوفك

■ «هذه هى لحظاتنا الأخيرة، لن نستسلم للأسر. الموت أفضل من أن تصبح عبيداً. هل صدقت؟». فى أكثر الأشكال دهشة، دون أن يتبادلوا الحديث فيما بينهم، انطلقت من أفواه الفتيان الأبطال صرخة الحرب الشهيرة بمعنويات عالية يندر أن يحظى بها إنسان فى حياته: حسمبا! حسمبا! حسمبا!

هذه السطور المقتبسة من قصة «حسمبا فى أسر الجيش العربى» ليجئال موسينزون هى مثال نموذجى لـ«مواقف الذروة» التى تعج بها مئات الكتب من إنتاج معمل قصص المغامرات والمكائد ذى الماركة الإسرائيلية المسجلة. ورغم أن سلسلة «حسمبا» كانت «أولى الطلائع» فى هذا المعمل، التى جرت وراءها سيلاً لم ينقطع من عمليات تقليدها السيئة والفاسقة، فمن الأجدر بنا أن نبدأ الكلام حول خطورة منتوج هذا المعمل بحديث مقتضب حول سلسلتين مترجمتين من قصص المغامرة سبق صدورهما بدء صدور «حسمبا»، وما زالتا مقروءتين بغلواء شديد، من جانب الفتيان هواة المغامرات المثيرة. لم يكف أولاد إسرائيل وفتيانها، مثلهم مثل فتيان العالم كافة، عن كونهم قراء متحمسين لمختلف القصص حول الهنود الحمر. ومن بين جميع الكتّاب، الذين ألفوا هذه القصص، بقيت كتب «كارل ماى» فى رأس سلم الشعبية ضمن هذا «الجانر» الأدبى.

«ماى»، الذى كتب قصصه الأولى خلف قضبان السجن، نشر على مدار عشرين سنة أكثر من سبعين كتابًا تحكى الغالبية الساحقة منها، إن لم تكن جميعها، بضمير المتكلم، عن الوقائع المدهشة فى سيرة حياة مغامر ألمانى الجنسية يواجه ظروفًا خطيرة ويفلح، بفضل قوته الجسدية الخارقة التى لا



تخور وبفضل خصائصه النبيلة، فى أن ينجو بجلده منها جميعًا. وليس هذا فحسب، وإنما يفلح أيضًا فى أن ينقذ أصدقاءه وزملاءه وفى أن يحقق العدالة.

وكثيراً ما تعرض «ماى» لهجوم حاد بسبب أسلوب كتابته. غير أنه عندما كان عرضة لذلك وهو على قيد الحياة ردّ على هذا الهجوم باستخفاف عبّر عنه قوله التالى: «ثمة من يقول إننى أكتب بأسلوب يعتبر مثالاً يحتذى به. وثمة من يقول إننى أفتقد أى أسلوب فى الكتابة، بينما يقول آخرون إننى أمتلك أسلوبًا كهذا، لكنه سيئ. أنا شخصيًا غير منشغل أبداً بقضايا أسلوب الكتابة، وأواصل كتابة الجمل التى تخرج من دماغى». وبسبب الشعبية المستمرة لقصص «ماى» أجرى باحث الأدب الألمانى «راينر جاجلمان»، فى ١٩٦٥، استفتاء فى أوساط الأدباء ورجال الفكر طلب إليهم من خلاله أن يجيبوا عن السؤال التالى: «هل يتوجب على الفتيان أن يقرأوا كارل ماى؟». غالبية الذين شملهم هذا الاستفتاء اعترفوا بأنهم، فى سنوات فتوتهم، قرأوا قصص «ماى» ورغم أن آراءهم حوله تغيرت فهم يعتقدون أنه لا ينبغى فرض رقابة على قراءة الأطفال والفتيان.

ومن بين الأجوبة جميعًا على هذا الاستفتاء تميّز، أكثر شىء، الجواب القصير والمتشكك الذى أدلى به «أريك كاستنر» حين كتب (بعد التماس العذر من السائل على تأخره فى الردّ عليه) ما يلى: «إننى أنتمى إلى الكائنات البشرية التى لا تكنّ الود لكارل ماى. فى صغرى تصفحت كتابًا أو ربما اثنين من كتبه، وبكل بساطة لم يعجبنى. وعليه فلا تدع لكتب ماى أن تفسد عليك متعك وذوقك». لكن يبدو أن النقيصة الرئيسة فى كتب «ماى» ليست منحصرة، بالذات، فى أحداثها المفتقرة إلى الصدقية والتى تدور فى أماكن لم تطأها قدم الكاتب فى حياته قط. كما أنها ليست منحصرة فى أسلوبها الشعاراتى، وإنما بمنأى عن ذلك كله فى الطريقة التى يعرض بواسطتها الذوات الفاعلة فيها من بنى البشر: الهندى الأحمر فينتو والصيّاد أولد شورهاند، وفى الأساس المغامر الابيض الأسطورى. هذا البطل الأخير يتم عرضه ليس كإنسان من لحم ودم وإنما كإنسان متفوق (ألمانى!) شديد القوة والبأس، قادر على كل شىء وعارف لكل صغيرة وكبيرة، مجبول من طينة خاصة لا تشوبها شائبة، عديم المأوى والأسرة، يتكلم بكل لغات الأرض، يطبّب المرضى وملم بتقصّى الأثر، زاهد عن الجنس والنساء، طيب القلب ونبيل النفس، قنّاص ماهر لا تحركه غريزة القتل، لا يخطئ المرمى بتاتًا ويتخلص من كل مشكلة تواجهه وتكون كفته راجحة على الدوام. أفليست رائحة العنصرية هى التى تنبعث من هذا التوصيف لإنسان أبيض متفوق كامل الأوصاف والخصائص؟ ما العجب إذاً فى أن تحوز قصص «ماى» شرعية رسمية فى ألمانيا النازية وأن يتم ارسالها كهدايا إلى جنود «الفيرماخت» فى جبهات القتال؟ وما الغرابة فى أن

أوصافه ساهمت فى تكريس مصطلحات مشوهة حول الجنس البشرى، كما اعترفت فتاة قارئة فى ربيعها الثانى عشر حين قالت: «الرجل الأبيض فى كتب كارل ماى على حق دائما»؟

حوالى ثلاثين من كتب «ماى» ترجمت إلى اللغة العبرية فى فترات متباعدة. نذكر من بينها «الرئيس الهندى الأحمر» (ترجمة م.ز. وولفوبسكى، ١٩٤٢)، «لصوص الصحراء» (ترجمة أ. أ. عقيبا، ١٩٤٨)، «يد الانفجار» (ترجمة ى. هيرشبرغ، ١٩٥٢)، «الغرب المتوحش» (ترجمة ح. ترسى، ١٩٥٣) «فينتو» (ترجمة نوح مان، ١٩٥٧) «أولد شورهاند» (ترجمة عوديد أفيسار، ١٩٦٨)، «قصص كارل ماى» (ترجمة ب. فيكسلير، ١٩٦٨) وغيرها. بيد أن أغلبية المترجمين أضفوا على قصص «ماى» أسلوبا أكثر تشذيبا ورقيا مما هو فى الأصل. ومع ذلك لم يكن فى الإمكان تنظيفها بالكامل من لغة الأبطال ذات النبرة التفوقية، ومنها مثلا: «لا تتكلم مع هذا الكلب! هو أيضا سيموت لا محالة. وربما مع كل ذلك لن يموت. صاحب الوجه الشاحب المسن هذا هو مجرد قط بائس، وينبغى عدم إماتته عمليا وإنما طرده بلسعات السوط، هذا الجبان!» (من قصة «فينتو ويد النار»، ترجمة ح. ترسى، ص١٣٧) ونظرا لكون كتب «كارل ماى» لا تزال شعبية للغاية فى أوساط العديد من الفتيان والفتيات، فلا غرو أن يجيب فتى فى العاشرة والنصف من عمره، من أحد «الكيبوتسات»، على استفتاء حول القراءة أجرى فى ١٩٦٨، بما يلى: «البطل الذى كنت راغبا بأن أكونه هو: يد الانفجار (لقب البطل الرئيسى، المتفوق). لماذا؟ أ. لأنه قناص بارع. ب. لأنه قوى جدا. كنت راغبا بأن أكون زعيما، لأن الزعيم يعرف كثيرا، كل شىء». فتى آخر، هو أيضا من أحد «الكيبوتسات»، ابن ثلاثة عشر عاما، تطلع فى جوابه على الاستفتاء نفسه إلى أن يكون «مثل» إنسان متفوق آخر، لكنه بدوره أبيض البشرة وينشر سلطته على مناطق وحشية. ومما قاله فى هذا الشأن: «يعجبنى طرزان، وأرغب بأن أكون مثله، إنه قوى، بطل، شجاع، عاقل وسريع». قصص طرزان، إذا، هى السلسلة المترجمة الثانية التى استأثرت بإعجاب أولاد إسرائيل وفتياتها، بالإضافة إلى كتب «كارل ماى». ورغم أن هذه السلسلة، التى ألفها «إدغار رايس بورواز»، تعرضت لحملة انتقاد حادة اعتبرت، ضمن أشياء أخرى، أنها لا تمت إلى الأدب بصلة ورغم فرض حظر على إدخالها إلى المكتبات العامة الأمريكية والبريطانية، إلا أن ذلك لم ينتقص من شعبيتها. ويثبت ذلك أن العديد من القراء الصغار، الذين رأوا فى طرزان تجسيدا لأحلامهم فى العودة إلى الفردوس المفقود والحياة فى الأدغال بين القردة والفيلة وتسلق قمم الأشجار والغوص فى أعماق الأنهار وخوض القتال ببطولة وتحقيق النصر بقوة العضلات (أو بمساعدة الخنجر)، أخذوا يطالبون بالمزيد والمزيد من هؤلاء الطرزانات. واستجاب الكاتب، برغبة شديدة، مع هذا المطلب فاعتكف فى عزبته «طرزانه» (فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية)، وخلال نصف يوبيل من السنوات كتب خمسا وعشرين قصة فى سلسلة طرزان، بمعدل قصة جديدة كل سنة، دون أن يكلف نفسه عناء تفحص صحة الكثير من التفاصيل الجغرافية والمتعلقة بعلم الحيوان. ولهذا عادة ما تعج قصصه بالحقائق الكاذبة والمعلومات المشوهة. لدى كتابة هذا المقال بلغ ما ترجم من قصص طرزان إلى اللغة العبرية أربعة عشر كتابا. وألهبت هذه الكتب خيال أجيال كثيرة من القراء الصغار فى إسرائيل. شخصيا ما زلت أذكر حتى الآن كيف كنا، أنا وصديقى، نلعب سوية مع «طرزان» بين أغصان الشجر من خلال قراءة فصول قصته التى نشرت على حلقات متتابعة فى صحيفة «عيتونينو» (جريدتنا) فى ١٩٣٣. وفى الحالة التى نحن بصددها أيضا حاول المترجمون «رفع» المستوى الهابط لأسلوب الكتابة الأصلى، لكن لم يكن فى مقدرتهم لجم سيل المغامرات العنيفة المتلاحقة فى اثر بعضها البعض، أو تهذيب توصيفات فظة ووحشية مثل التوصيف التالى: «جر طرزان صاحب البشرة السوداء نحو غصن مرتفع وعلقه عليه. بعد ذلك نزل إلى غصن واطئ وغرز فى قلبه نصل سكين الصيد الذى كان فى حوزته» (من قصة «طرزان ملك القرود»، ص٦١) أو مثل هذا التوصيف: «ظلت حربة طرزان منغرزة فى قلب عدوه، ولهذا حارب بسيفه. وساعدته قوته الشديدة وسرعته المدهشة فى التغلب على عدوين آخرين (...) لم يسبق أن صادف طرزان فى حياته أناسا فى مثل هذه الوحشية، قساة القلوب متعطشين للمعارك. وكان طرزان شديد الإعجاب بهم. لكن، هل مثل هؤلاء هم أبطال! هل مثل هؤلاء هم مقاتلون!» (من قصة «طرزان المنقذ»، ص٦٧).

أفنير كرميلى.. البحارة يطردون العرب الغرباء!

«أفنير كرميلى» هو الاسم المستعار للكاتب الإسرائيلى شراغا غفنى. ألف عشرات الكتب الخاصة للأطفال والفتيان الممهورة بتوقيعه الصريح وبخمسة أسماء مستعارة هى: «أفنير كرميلى» (وهو الاسم المستعار الأكثر شهرة له بين سائر أسمائه المستعارة) و«إيتان درور» و«أون شريغ» و«يغئال غولان» و«إيتان نوتيف».

فى مقابلة مطولة أجراها محرر مجلة «مونيتين» الإسرائيلية الشهرية، رون مايفرغ، مع شراغا غفنى بالتزامن مع تزايد وتيرة الاهتمام بالعنصرية فى أدب الأطفال (نوفمبر ١٩٨١). يقول المحرر عن غفنى أنه أحد رجال «أرض إسرائيل الكاملة». فى سن ١٦ عاما، تطوع للخدمة فى صفوف منظمة «الليحى» (إحدى المنظمات الإرهابية الصهيونية التى انشقت عن «الاتسل»). وقد حفر تأثير ابراهام شتيرن (يائير)، قائد هذه المنظمة الذى مات مقتولا، بصماته العميقة عليه. يقول غفنى إن مقومات رؤيته السياسية مصدرها فى رؤية شتيرن الأصلية وبوحيها يكتب قصصه ويبنى أنماط شخوصها. يرصد كرميلى فى حكاياته دولة إسرائيل كما لو أنها أرض العبرانيين القديمة. «إنه يتطلع إلى قيام البعث العبرانى فى أرض العبرانيين كلها من الفرات حتى النيل. إنه يرى فيها مصدر الحياة للإنسانية جمعاء ومنارا للأغيار».

وقرأ كرميلى على مسامع محرر «مونيتين» مقطعا من مقال يختزل رؤيته السياسية كان كتبه ابان دراسته الأكاديمية وضمنه بعضا من أفكاره. وجاء فى هذا المقطع: «أرض العبرانيين، وأرض إسرائيل هى جزؤها الجنوبى، الممتدة على ضفتى الفرات وعلى ضفتى نهر الأردن فى مفرق العبور واللقاء بين آسيا وأوروبا وأفريقيا وفى قلب الإنسانية، هى فى تمامها وحدة ثيوقراطية وسياسية. ما معناه وحدة سياسية طبيعية واحدة. هى مركز العالم. إذا أصبحت موحدة يصبح بمستطاع شعوبها التى تعيش فيها أن تستثمر كل منافعها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والثقافية من أجل عظمة وازدهار الوطن المشترك لصالح كل أبنائه والمخلصين له».

بوحى هذه «الرؤية» كتب شراغا غفنى حكاياته للأطفال، وبوحيها أيضا قال إنه يستعد لكتابة غيرها.. ولكتابة حكايات للكبار أيضا. والمقصود بـ«الكبار» هنا، كما يوضح ذلك بنفسه، أولئك الصغار الذين كبروا على حكاياته ويعتمد على أنه عباهم «رؤياه» التى سيضمنها مؤلفاته القادمة.

يمكن الغوص فى «أفكار» كرميلى من خلال التعرض إلى بعض كتب سلسلة قصصه حول «فرقة البحارة» التى ترصد مغامرات «أفراد الفرق السرية العبرية من أجل إقامة إسرائيل وعملياتهم الماحقة ضد العرب». وتسرد كل قصة «عملية بطولية» تقوم بها هذه الفرقة ويرى الكاتب أنها تجلب الفخار للنشء الإسرائيلى الجديد وتبرز أمامهم الخلفية التى مهدت لإنشاء دولة إسرائيل. ■

بعد «طرزان» انتقل أولاد إسرائيل لتقدير مجموعة «حسمبا» الصبارية، التى تعمل معًا كجسم واحد. ولقد اعترف مؤلف «حسمبا»، يغئال موسينزون، على مسامعى بأن تحمس أولاد «الكيبوتسات» لشخصية طرزان هو الذى دفعه لكتابة قصص مغامرات بلغتهم الأم تكون بمثابة «بديل مناسب» لقصص المغامرات الأجنبية. فضلاً عن ذلك، أضاف موسينزون، فإن المناخ العام لتلك السنوات الذى تميّز بـ «النضال اليهودى والحرب من أجل استقلال إسرائيل» أتاح المجال لتقبل قصص المغامرات. هكذا ولد الكتاب الأول فى هذه السلسلة الذى حمل عنوان «حسمبا أو مجموعة السر المطلق بالتمام» (١٩٥٠، وقبل ذلك نشر على حلقات فى جريدة «مشمار للأولاد»). تدور أحداث القصة حول ثمانية أولاد أعضاء فى مجموعة «حسمبا». وهم القائد يارون زهافى وتمار نائبته وايهود السمين وعوزى امين المستودع وموشيه يرحمئيل «البروفيسور» ومنشيه اليمنى وزملاؤهم. يحاربون الشرطة البريطانية ويخلصون مخبأ الأسلحة التابع لـ «الهاغاناة»، وينقذون فى عملية جسورة قائد الحركة السرية من المعتقل ويوفرون الحماية لسفينة مغامرين ويحوزون أوسمة تقدير من القيادة العامة. وحظى هذا الكتاب بنجاح باهر (ومفهوم طبعًا!). وظهرت فى أعقابه على فترات متقطعة أربع وعشرون قصة أخرى من سلسلة «حسمبا». وفى الكتب الأخيرة من هذه السلسلة، التى صدرت قبيل كتابة هذا المقال بسنوات قليلة، وبينها «حسمبا فى غزوة قناة السويس» (١٩٧٠) و«حسمبا فى مواجهة الخاطفين أو فرسان الليل يضربون ثانية» (١٩٧٧)، ظهر جيل جديد من الحسمبائيين يقوده يوآف تسور ونائبته راحيل. وبديهى أنهما يتعاونان مع يارون زهافى، مؤسس «حسمبا»، الذى أصبح الآن قائد دائرة المهمات الخاصة فى الجيش الإسرائيلى.



خلقت سلسلة «حسمبا» ما يمكن اعتباره «موجة جديدة» فى أدب الأطفال العبرى، حسبما بشرت بذلك صحيفة «هآرتس» فى ملحقها الاسبوعى حين كتبت تقول: «لقد ظهر عندنا أخيرًا أبطال شبان عبريون، مثل يارون زهافى، القائد الشجاع لمجموعة حسمبا، مع سلاح عبرى وحتى مع محتالين عبريين» (١٠/٤/١٩٧٠). وفى مقابلة مع صحيفة «دفار» (نشرت فى ١٧/٦/١٩٧٠) شرح موسينزون سرّ نجاح «حسمبا» بقوله: «استجابت كتب حسمبا مع غريزة المغامرة المتأصلة فينا جميعًا، وخصوصًا لدى الأولاد. يصعب أن تجد ولدًا لا يتماثل مع فتيان فى مثل عمره ينفذون عمليات عادة ما يكون تنفيذها من نصيب البالغين. عمليات منسجمة تمامًا مع قدر كبير من الخيال والدقة فى تطبيقها وفى قيمها المقدسة مثل الصداقة والتضحية وحب الوطن». وعلى أية حال ففى جميع القصص الخمس والعشرين، التى صدرت حتى الآن، يخوض أولاد حسمبا (غالبًا بواسطة السلاح) معارك مختلفة ويتغلبون على مجهول يرتدى قناعًا أسود وسائر الأنذال ويتخلصون من أسر الجيش العربى ويتعاركون دون وجل مع من هم أشد منهم بأسًا وعنفًا، كما يعبر عن ذلك المقطع التالى: «... فى أثناء ذلك كان مسعود قسيس ويارون زهافى متعانقين ومتلاصقين يوجه كل منهما إلى الآخر ضربات موجعة ودقيقة. غير أن عوزى هبّ لمساعدة يارون، وسدد صوب الجاسوس لكمة جانبية جعلته يركع ويسقط أرضًا» (من قصة «حسمبا والجواسيس فى سلاح الجو»، ص١٤٤). عند هذا الحد يجدر ذكر أن الكتابين الأول والثانى فقط من سلسلة «حسمبا» كتبهما موسينزون بأسلوب ساخر فيه قدر من المعقولية، لكنه بعد ذلك انتقل لتسلية جمهور قرائه بواسطة سخرية هابطة ورخيصة وضعها على ألسنة الأخيار والأشرار على حد سواء. وهذا المستوى الهابط والرخيص من أسلوب كتابته أخذ فى الازدياد سوية مع جعل كل فرد من أعضاء مجموعة حسمبا أشبه بسوبرمان صغير، ومع جعلهم جميعًا يجيزون لأنفسهم أخذ زمام القانون فى أيديهم ضد الأعداء وتوجيه سهام استخفافهم نحو عالم الكبار وحتى نحو عالم الأهل.

وإليكم هذا النموذج بشأن الاستخفاف بعالم الأهل: فى أحد لقاءات المجموعة، التى تجرى فى مقبرة (لماذا مقبرة بالذات؟) يقول ايهود لدانى (الذى حظر عليه أهله المشاركة فى عمليات حسمبا): «إذا كنت راغبًا بسماع الحقيقة فإن العديد من الأولاد يتملكهم الحسد منك ومنّا جميعًا لأننا أعضاء حسمبا وهم ليسوا كذلك! لكن إذا كان لديك أهل... إذا كان لديك أهل... إذا ربيت أهلاً مثل هؤلاء... ولم تمنحهم تربية معقولة... هل تريد القول إنهم جبناء؟، سأل دانى بحزن بالغ.. غير مهم، غير مهم، غمغم دانى!». (من قصة «حسمبا فى أسر الجيش العربى»، ص٩). النتيجة المطلوب استخلاصها من ذلك ضمنًا هى: إذا حظر عليك أهلك، أيها القارئ الصغير، المشاركة فى عمليات تنطوى على أخطار ففى ذلك إثبات على أنك «ربّيت» أهلاً خطرين، ومن حقك أن تتمرد عليهم وأن تذهب إلى عمليات كهذه، على رغم حظرهم. وهذا هو ما فعله دانى حقًا، إذ انه تمرد على أهله وانطلق إلى القيام بعمليات يقف لها شعر الرأس.. و«بعد ثانية ستسدد اللكمات ويسمع أزيز الرصاص من المسدسات فى فضاء الكهف».

تتمثل الخطورة الرئيسة من هذه السلسلة فى كونها حظيت ولا تزال بأكبر شعبية فى صفوف القراء الصغار. وفى استفتاء أجرته إحدى المربيات فى ١٩٦٧ حول أكثر الشخصيات الأدبية شعبية فى أوساط الأولاد تبين أن الشخصية التى حازت أكبر نسبة من المعجبين هى شخصية يارون زهافى من حسمبا، فى أوساط الفتيان، وشخصية تمار، من حسمبا أيضًا، فى أوساط الفتيات. وحسبما أشير فى سياق سابق كانت «حسمبا» الطليعة الأولى التى فتحت الطريق أمام نبع عكر من سلاسل مماثلة مختلفة غمرت حوانيت بيع الكتب واحتلت صدارة قائمة كتب المطالعة لدى الأولاد. وهى، فى غالبيتها، أدنى مستوى من «حسمبا»، وبينها على سبيل المثال: «مغامرات أولاد البلدة القديمة» (١٩٥٢ـ ١٩٥٨) تأليف حاييم الياف و«حبو عوز» تأليف حاييم غيبورى و«جماعة تشوبتشيك» تأليف أرنونا غدوت و«جماعة الزملاء» تأليف ت. أورجيل وغيرها وغيرها. لكن لا شك أن أكثر الكتاب غزارة فى إنتاج مثل هذه السلاسل هو شراغا غفنى، الذى كتب أيضًا بأسماء مستعارة مثل أفنير كرميلى وأون شريغ وإيتان درور، وقد دفع إلى السوق خلال سنوات معدودة سلاسل رائجة وهابطة يفوق عدد كتبها حتى الآن المائة كتاب.

منذ الخمسينيات فى القرن العشرين تحاول عشرات من

مجموعات البحث فى دول أوروبا وأمريكا دراسة مدى تأثير أدب المغامرات والعنف على سلوكيات القراء الصغار. وعلى رغم عدم التوصل إلى إثباتات قاطعة فى هذا الشأن، يسود فى أوساط رجال التربية رأى عام يقول بوجود علاقة متبادلة بين قراءة هذا الأدب وبين ارتفاع نسبة الجريمة والجنوح بين الشبان الأحداث. بل إن باحثًا تربويًا إسرائيليًا نشر فى ١٩٥٥ دراسة حول هذا الأدب وتأثيره على تربية الأجيال تحت عنوان صارخ هو «معمل لإنتاج مجرمين صغار». وفى الستينيات أشارت لجنة تحقيق رسمية عينها مجلس الشيوخ الأمريكى إلى وجود رابطة وثيقة بين الانتشار الواسع لكراريس الـ «كوميكس» الصارخة (وبالأخص تلك التى تصف بإبراز شديد العنف الوحشى وتدعو إلى تقديس شخصية الزعيم) وبين تواتر محاولات عصابات للفتيان من أجل فرض هيمنتها على أحياء كاملة فى عدة مدن أمريكية، حتى أنها أوصت بحظر توزيع هذه الكراريس. لكن السلطات الأمريكية قررت فى نهاية المطاف أن تلزم ناشرى تلك الكراريس بعرضها على لجنة رقابة خاصة من أجل فحصها ومن ثم إقرارها. وتجرى فى إسرائيل أيضًا، بين الفينة والأخرى، أبحاث تتناول تأثير كتب المطالعة على سلوكيات الأولاد والفتيان. وفى استطلاع للرأى أجرته «مؤسسة سالد» بعد مرور عقد من السنوات على قيام الدولة، تبين أن «قراءة الأدب الفاسق هى ظاهرة عامة. وتقريبًا كل فتى وفتاة يقرآن هذا الأدب، ونسبة قراءته تزداد طردًا مع تقدم الجيل. وبينما تشكل هذه القراءة لدى فئات اجتماعية عليا ظاهرة عابرة وبنسبة ضئيلة مقارنة مع نسبة قراءة الكتب الجيدة، فإنها لدى الفئات الاجتماعية الدنيا تشكل ظاهرة مستمرة وتعتبر القراءة الأساسية». لكن إذا نحينا كل ذلك جانبًا فإن هناك مجالاً واسعًا للاعتقاد بأن هذا الأدب، على شاكلة سلسلة «حسمبا» وما تلاها من سلاسل أكثر فسقًا وسوءًا، تمارس تأثيرًا كبيرًا على قرائها من خلال مواجهتهم مع واقع حياة وعلاقات إنسانية يتم تصويره بضوء كاذب ومشوه. تكفى الإشارة إلى الفوارق الحادة، التى تجهد هذه الكتابة فى توصيفها، بين الأبطال الإيجابيين وهم دائمًا يهود ذوو خصائص نبيلة لا تشوبهم شائبة ومتفوقون ويعملون معًا، وبين الأبطال السلبيين، وهم دائمًا نماذج وحشية، ظلامية، متعطشة للدم، جبانة، خائنة، مبتذلة، مختلسة، ذات مظهر منفر، زاعقة، بذيئة اللسان، وطبعًا تحمل أسماء مثيرة للهزء. مثل زكى خلطورة ومسطول بندورة وطورطورة وكوكورتشا ومارملدا.. وما إلى ذلك. ولا حاجة للإضافة أن هذا التوصيف لـ «الأشرار المتعطشين للدم» من شأنه أن ينمى فى أوساط القراء الصغار كراهية عمياء للعرب واستهتارًا بقوتهم وفهمهم. وهذه الكتب لا تربى هؤلاء القراء على الاستهتار بالعرب فقط وإنما أيضًا على الاستخفاف بحياة الإنسان لمجرد كونه إنسانًا.

السؤال، إذًا، هو: كيف يمكن أن نلجم مثل هذا الخطر الذى يتم تعريض أولادنا له؟ منذ أن بدأت هذه السلاسل العنصرية، الخطيرة والفاسقة، تغمر السوق وتأسر قلوب القراء الصغار علت أصوات قليلة بين الأهل والمربين تدعو إلى خوض حرب ضدها. بعض المربين طالب بفرض رقابة جماهيرية على أدب الأطفال. أنا شخصيًا نشرت فى صحيفة «دفار» (عدد ١٩٦٥/١٠/٣٠) مقالاً «حول الغذاء الروحى الفاسد المقدم إلى صغار القراء» أنهيته بالعبارات التالية التى أعتقد أنها لا تزال صالحة حتى الآن: «الأغلفة الملونة. لهذه الكتب تصرخ: الحذر. سم قاتل! لقد حان الوقت لكى يستفيق الرأى العام على خطورة هذا «المعمل». فى جميع الأقطار تندرج أمثال هذه الكتب فى عداد «القوائم السوداء» للمجلات التربوية والأدبية. وهذا الأمر ينبغى أن يتم العمل به عندنا أيضًا. وربما حانت الساعة التى يتعين فيها تشريع قانون خاص يحظر إنتاج وتسويق هذا «الغذاء» الروحى الخطير والفاسد». ■

فصل من كتاب أعطوهم كتبًا صدر عام ١٩٧٨ عن منشورات «سفريات بوعليم».

كتاب الزاوية

الإشارات الإلهية

يا هذا: توقف قليلاً، وتفكَّر طويلاً، فإن توقفك يُحضرك بالك، ويصقل فهمك، ويشحذ بصيرتك، ويُحدّ ما كَلّ منك، وفكرُك يبحث عنك، ويعرضُك عليك، ويريك من أنت، وما أنت، وكيف أنت، ومن أين أنت، وعمَّاذا أنت، وعلى ماذا أنت. فإن فكرًا نتائجه هذه الأمور الشريفة، وهذه الأحاديث الطريفة، وهذه الإشارات اللطيفة، لَفِكر قد صافحه الله بيد التوفيق، ونظر إليه بعين التأييد، وليس أحدٌ هداه الفكر إلا فاز قدحُه، ووجب مدحُه. فإن هذا من عنوان نجاته، ومن دلائل نيله لمرضاته.

اللهم: ارحم رَوْعاتنا فى أطراف هذه الإشارات. من اختلاف هذه العبارات. فوحقِّك ما ندرى كيف ندعوك، وبأى شىء نتقرب إليك، وعلى أى وجه نطلب رضاك، وأى باب نقرعُ حتى يؤذن لنا بالوصول إلى حضرتك. فارفع عنا هذا الرَّوغان، وتعب هذا الطوَفان، واهدنا إلى سواء السبيل، إنك على ذلك قادر وجواد به. قد طال بنا النَّصَب، واشتمل علينا الوَصَب، وأنت المرجو لفك هذا القيد، والمأمول لتعديل هذا الميد.

يا هذا: أما يعطفك علىّ من فضلك عاطف؟ أما يبعثك على الرحمة لى من فنونك باعث؟ فتقول: والله لأسمعنَّ قول هذا القائل ولأسبرن عقل هذا العاقل، حظيتُ بقبوله وسبقتُ إلى الزُّلفة عند الله به؛ فإن كان رشدًا، يخرج من أذن، وإن كان غيًا، فما ضاق مخرجُ كلامٍ دخل من أُذُن. ولو فعلت - عافاك الله - هذا به، وقلته لنفسك فى خلوتك، أرحْتَنى من تعب كثير، ورقيت معى إلى محل كبير، لأنَّا كنَّا نتعاون على رفض هذه الخسيسة التى قد جعلت على أبصارنا غشاوة وضربت على أرواحنا إتاوة، فنحن هالكون بها لأنا متهالكون فيها.

جارية في مدن الرماد

مدخل:

■■ توظيف الأسطورة في الخطاب الشعري العربي المعاصر جزء أساسي من مثاقفة حضارية متنامية في امتدادها بين الماضي والحاضر، وبين الحاضر والثقافات الأجنبية بمختلف تياراتها، وقد أدت هذه المثاقفة بدورها إلى صياغة أشكال شعرية جديدة، تتباين تبايناً واضحاً مع النموذج الشعري التقليدي وإحداث فجوات في الأنماط الخليلية، وبالتالي تغيير جذري أو جزئي في شكل القصيدة أو مضمونها، فالمضمون الجديد يخضع للتحول التاريخي والحضاري الذي يعمل عمله في الواقع، بالإضافة إلى تأثير الفلسفات والأدبيات الأجنبية، والشعرية على الذهنية العربية، ولا يعني أن يكون هذا التحول الجديد منقطعاً أو متبايناً مع القيم الحضارية والتراثية الفكرية للإنسان العربي المعاصر، وتوظيف الأسطورة نزعة تتضافر قيم نفسية وروحية وجمالية في تأجيجها والدفع بها صوب الماضي الذي كان مضيئاً ومشعاً في بعض قسماته، ومظلماً وكابوساً في قسمات أخرى. وعندما يكون الواقع المعاصر مظلماً وقاسياً، فإنه يحيل إلى حقل تاريخي مظلم، ومهمة الأسطورة حين توظف في القصيدة أن تشير وتدل على ما هو مظلم في الحاضر انطلاقاً من بنية الماضي نفسه.

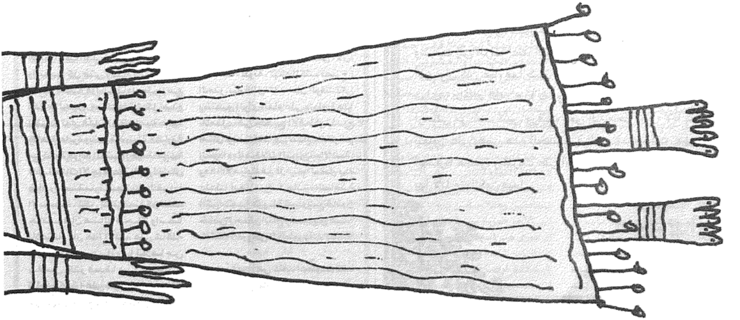
إن ذاكرة التاريخ لهي حاضرة في الوعي الجمعي للجماعات البشرية في حاضرها ومستقبلها، و«الإنسان المتحضر يحتفظ دون وعي منه بمعارف مما قبل التاريخ أدرجها بصورة غير مباشرة في الأسطورة. فإن صح ذلك، فإن هذا التخمين يفسر الرغبة الغامضة بعض الشيء في الاستماع إلى القصص الأسطورية على الرغم من أن ما فيها من عناصر خارقة لم يعد لها أية سيطرة تعبدية» كما يرى كارل يونج.

و البطل الأسطوري باعتباره بنية معرفية من التاريخ فإنه في القصيدة المعاصرة شاهد إدانة لكل العثرات والسوءات من مآس وفجائع مرت بها الأمة، ولا تزال تمر، وهو معر وفاضح لبنية خطاب السلطة التاريخية والمعاصرة وبطشها وتجاوزاتها، هذا الخطاب «الذي يولد الخطأ عند كل من يتلقاه وبالتالي الشعور بالإثم (...)، ينتظر منا البعض نحن المثقفين أن نقوم، في كل مناسبة، ضد السلطة بصيغة المفرد. بيد أن معركتنا تدور خارج هذا الميدان، إنها تقوم ضد السلطة في أشكالها المتعددة. وليست هذه بالمعركة اليسيرة: ذلك أنه إن كانت السلطة متعددة في الفضاء الاجتماعي، فهي في المقابل، ممتدة في الزمان التاريخي. وعندما نبعدها وندفعها هنا، سرعان ما تظهر هنالك، وهي لا تزول البتة. قم ضدها بثورة بغية القضاء عليها، وسرعان ما تنبعث وتنبت في حالة جديدة. ومرد هذه المضايقة والشدة والظهور في كل مكان هو أن السلطة جرثومة عالقة بجهاز يخترق المجتمع ويرتبط بتاريخ البشرية في مجموعه، وليس بالتاريخ السياسي وحده». على حد تعبير رولان بارت.

إن تاريخ السلطة السياسي والاجتماعي في توجهاته ورؤاه هو تاريخ القمع والممارسات اللا إنسانية واللا أخلاقية على أفراد الجنس الإنساني، وضماناً لاستمرار السلطة وامتيازاتها الاجتماعية والطبقية داخل القطاعات البشرية التي تحكمها، فإنها تعتقد أن القمع والسطوة الاستبدادية هما من أهم الوسائل التي تكفل لها استمراريتها، وهي تلجأ إلى خلق وضعية اجتماعية وأخلاقية، وإنسانية مشوهة. سواء على مستوى العلاقات الإنسانية والتواصلية أم الأنظمة الفكرية التي تحكم طبيعة هذه العلاقات وتوجهاتها، وقانون السلطة في حقيقته هو قانون قمعي واستبدادي. فإذا كانت عصور الرق والعبودية قد انتهت على المستوى الظاهري المعروف منذ زمن بعيد، فإن الإنسان المعاصر لا يزال يرزح تحت وطأة أصناف عديدة من العبوديات الجديدة، إذ يجبر الناس جميعاً على أن يصبحوا أبناء للسلطة، ومن حقها عليهم أن يدينوا لها بالأبوة والولاء والطاعة، وبالتالي تصبح جميع ممتلكات الجنس الإنساني من اقتصاد وفكر وثقافة وفن هي ملك للسلطة المتوجة إما بفعل إلهي، كما يدعي بعض الحكام لشعوبهم بأن أنسابهم تنتمي إلى نسب الأئمة والرسل، وإما بحق السلطة المكتسب باعتبارها لنفسها حامية لهؤلاء الناس من الأخطار الداخلية والخارجية، وبالتالي ادعاؤها تأمين الأمان والسعادة والطمأنينة لهم. و«لأنهم يزعمون الاعتناء بسعادة المجتمعات، ينتحل الحكام حقوق المرور عن طريق حسابات منفعة، دون اعتبار للخسارات وشقاء البشر الذي تسببه قراراتهم أو تسمح به إهمالاتهم»، وفق رؤية ميشيل فوكو. وأمام الحالة هذه يستلب الكائن الإنساني سياسياً وثقافياً واقتصادياً وتسير كل العلاقات الاجتماعية وفق رؤية السلطة وتفكيرها.((إذ يعزل الفرد ويزداد رفض العالم له)). كما يرى آرنست فيشر.

إن عصر شهريار الذي ذكرته ليالي ألف ليلة وليلة، يحيل إلى ممارسات سلطوية، لم تنته بعد، إنها مستمرة في الواقع المعاصر، فكم من شهرزاد مقموعة تبتز يومياً ؟. وكم من الغلمان والعبيد والوصيفات والإماء والسراري يرزحون تحت وطأة القهر ؟ صحيح أن أسماءهم قد تغيرت بفعل التحولات الحديثة المعاصرة، لكن أدوارهم ومواقفهم وأفعالهم هي نفس مواقف العبيد والإماء بتحويرات جد طفيفة، وبالرغم من التحولات المهمة في تاريخ القرن المعاصر، فإن جذور شهريار بأبعاده الذكورية، والسلطوية والسادية لا تزال تتوغل في فضاءات الحياة العربية المعاصرة.

إن فعل السلطة فعل شمولي ومتنام،



... شهرزاد شعراً

محمد عبدالرحمن يونس

ومتوالد، إنها . أى السلطة . « متعددة مثل الشياطين. متغيرة كالحرباء. إنها يمكن أن تعرف نفسها بكونها ذات أسماء عديدة، وتوجد فى كل الأمكنة والخطابات من الأسرة إلى الدولة، من التابو إلى الليبيدو، من العلم إلى الأيديولوجيا، من المستشفى إلى السجن، من العقل إلى الجنون، من المدرسة إلى الكنيسة»، على حدّ تعبير عمر أوكان. وحضور شهريار المستمر فى أمكنة السلطة وبنيتها المعرفية، يعنى حتمية الذل والعبودية للنموذج الأضعف، من شهرزاد، حتى أبسط رجل وامرأة، وشهرزاد باعتبارها طرفاً مُستلباً، فإنها مجبرة لاستحضار ليالٍ جديدة، وتشكيلها تشكيلاً سحرياً بفعل القصّ إرضاء لسطوة شهريار ورجولته.

إنّ شهرزاد الأسطورة والتى تمثّل معاناة جنسها من حرائر ووصيفات وجَوار تقف مسلوبة الإرادة أمام استغلال شهريار لجسدها وروحها ولياليها. وبالرغم من بعض الدراسات التى تؤكد أنّ شهرزاد تمثل وعياً متفوقاً على بنات عصرها، من خلال قدرتها السحرية على تقديم العلاج الشافى لشهريار، عن طريق تناغم القصّ وسحريته، وانقطاعه، وسحر حبكاته إلاّ أنها تظل مجبرةً لأن تحكى، لا حباً فى الحكى، بل هروباً من سيف السيّاف.

أذكر أنى قرأت مقالاً قبل عدة سنوات، ومفاده: أنّه فى لحظة احتضار الجنرال الأسبانى «فرانكو»، تجمعت الجماهير الأسبانية فى باحة قصره، فسأل الجنرال أحد معاونيه:

لماذا يحتشد الشعب هنا ؟.

فأجاب المعاون: جاء لتوديعك يا سيدى ؟.

فاستغرب الجنرال قائلاً: وإلى أين يسافر الشعب ؟.

ويمثل هذا التصور والرؤية تفهم الشهريارية الحديثة، أو السلطة المعاصرة حركية الزمن والتاريخ. إنّ واجب الزمان والتاريخ ومهمتهما يتجسدان فى كونهما أمينين لاستمرارية بقاء السلطة. إنّها المطلق الأبدى الحاضر المتواصل، وباقى الوجود الإنسانى بأحلامه وطموحه وحركيته، ما هو إلاّ ظلّ زائف أو حالة عرضية طارئة على خارطة الزمان.

ومن أهم رموز خطابات السلطة التى ارتبطت بتاريخ البشرية وأساطيرها شخصيتا شهريار وشهرزاد، إذ أثّرت هاتان الشخصيتان فى الفكر والفن والأجناس الأدبية كافة، إنهما تمثلان طرفى علاقة استلابية بين الحاكم والمحكوم، بين السيد والعبد، وبالتالى فى بنية الحياة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً فى زمن الليالى. شهريار القامع بأدوات سلطته، وشهرزاد المقموعة بخوفها ورعبها وجسدها وكرامتها، تاريخياً وأسطورياً لهما ما يماثلهما فى بنية الحياة العربية.

« فزمان الليالى واحد لا يختلف كثيراً فى المؤثرات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التى تتحكم فيه، زمان الاستلاب وشعور الفرد بالعجز أمام كل ما يحيطه سواء أكان هذا الزمان أموياً أم عباسياً أم غير عربى، والمكان إذا اتسع وتشعب فإنّ ثمة بنيات وقسمات مشتركة تسم هذا الاتساع والتشعب حتى يبدو واحداً بخصوصيات متقاربة جداً» .

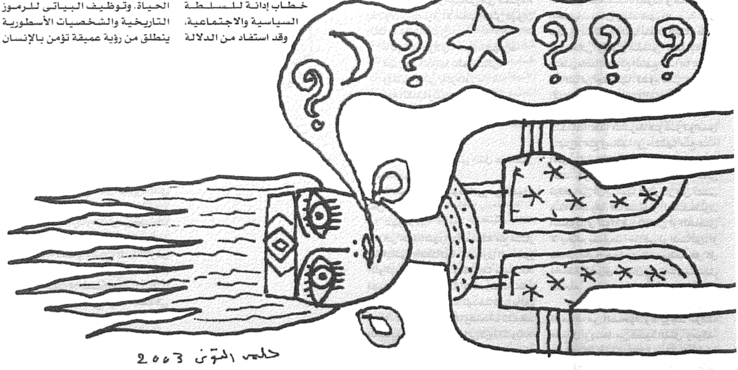
هذا الزمان لا يزال يفعل ببنيته الاستلابية فى جسد الحياة العربية المعاصرة، إذ قلّما نجد سلطة معاصرة إلاّ وتتجسد فى سلوكها ومواقفها الرؤية الشهريارية سطوة وبطشاً ونفوذاً، والشاعر العربى كان مرآة عصره، وكثير من الشعراء لا يزالون هذه المرآة بشفافيتها وقدرتها على التعرية، وعلى تجسيد الملامح الدقيقة لما يسم العصر، ويكشف تناقضاته، ولذا فإنّ الخطاب الشعرى العربى المعاصر كان خطاب إدانة للسلطة السياسية والاجتماعية، وقد استفاد من الدلالة العميقة لطبيعة العلاقة بين شهريار وشهرزاد، وبالتالى بين السلطة وجماهير المضطهدين، بفتح الطاء ..

ومن الشعراء الذين وظّفوا أسطورة شهريار وشهرزاد فى أعمالهم الشعرية: خليل حاوى من لبنان، وعبد العزيز المقالح من اليمن، وأمل دنقل وكمال عبد الرحمن من مصر، وعبد الوهاب البياتى من العراق، وسعاد الصباح من الكويت، وسوف عبيد من تونس وغيرهم كثيرون جدا.

وتأتى هذه الدراسة لتدرس بعض النماذج الشعرية المعاصرة لبعض هؤلاء الشعراء محاولة أن تظهر السمات الأسطورية فيها، وعلاقة بعضها بالتاريخ من جهة، وبالواقع المعاصر من جهة أخرى.

شهرزاد عند عبد الوهاب البياتى

لعلّ عبد الوهاب البياتى من أكثر الشعراء العرب المعاصرين الذين استفادوا من الدلالات الرمزية العميقة لشخصية شهرزاد الأسطورية، فهو يركز على استخدامها فى أعماله الشعرية، وبخاصة فى دواوينه: أباريق مهشّمة، والمجد للأطفال والزيتون، والموت فى الحياة. وتوظيف البياتى للرموز التاريخية والشخصيات الأسطورية ينطلق من رؤية عميقة تؤمن بالإنسان



هدفاً أسمى، وقضية أساسية. ولذا فالقصيدة عنده ذات توجه إنسانى وأيديولوجى، يهدف إلى تعرية نظام المجتمع ونظام السلطة بعلاقاته المتردية، وإدانة الزيف الكامن فى بنياته، إن للشعر عند البياتى وظيفة اجتماعية تحريضية، تسهم فى تثوير الواقع وإعادة صياغته انطلاقاً من التزام الشاعر بحاضر مجتمعه والإيمان به. يقول البياتى: « فالشاعر الذى لا يعلن ولاءه للحاضر، ولا يحدد موقفه منه بصورة واضحة صريحة. ولا يأخذ مكانه بين صفوف كادحيه وجماهيره، لن يكون له شرف منح المستقبل مثل هذا الولاء».

و يقول فى قصيدة الجرادة الذهبية من ديوان الموت فى الحياة:

«رأيتُ شهرزاد
جاريةً فى مدنِ الرماد
تُباع فى المزاد
رأيتُ بؤسَ الشرق
ونجمة الميلاد فى دمشق
رأيت مجدَ فقراء الأرض فى الفيتنام
وفى خيام اللاجئين سيد الآلام
منتظراً خيلَ صلاح الدين
وصيحة الفرسان فى حطين»(١).

من خلال الرؤية الشعرية تظهر ثنائيات: الظلام والضياء، البؤس والفرح، الذل والمجد، هذه الثنائيات تسم فضاء النص الشعرى، ومن خلالها يستحضر البياتى صفحات مضيئة من تاريخ العصور الذهبية التى مرت بها الأمة العربية «خيل صلاح الدين. الفرسان فى حطين». وصفحات أخرى قاتمة، من بيع الإنسان فى أسواق الرقيق العربية، وفقره وبؤسه.

إن شهرزاد الجارية فى القصيدة تخرج من حقلها الأسطورى ودلالتها الرمزية فى ليالى ألف ليلة وليلة لتصبح واقعاً أسود، إنه واقع العصر الحالى، واقع بيع الإنسان وانتهاك كرامته وحريته وإنسانيته، فشهرزاد فى القصيدة، والتى تُباع فى مدن الرماد تشير على مستوى البنية الرمزية إلى كل امرأة فاقدة كرامتها وكبرياءها. ولا ينحصر وجود هذه المرأة فى مدينة بعينها، إنها فى فضاءات المدن العربية جميعها، «مدن الرماد» مدن الشرق المحترقة، المدن التى احترقت فيها كل رؤى الفرح والثورة، فأصبحت أسواقاً للرقيق، وللمزادات، وحمى البيع، على أن شهرزاد لا تعنى تحديداً المرأة العربية فقط، إنها الكل الإنسانى المحترق فى مدن الشرق، الذى انطفأت فيه جميع جمرات الثورة وطموحاتها، وصارت رماداً، وهى فضاءات الشرق بكامله، باعتبار أن المرأة كثيراً ما ترمز فى الأدب والفن، إلى الأرض والوطن والأمة، والولادة والثورة، وأمام فضاءات الشرق السوداء، وبؤسها، يستشرف البياتى سطوع نجمة مشعة فى سماء هذا الشرق. واستخدام الشخصية الأسطورية شهرزاد فى القصيدة، ركز على حس الإنسان المعاصر بالفاجع والمأساة، وامتهان إنسانيته، وبيعه فى المزاد،

وتشرده فى الخيام، وشقائه فى مجتمعه ومدنه السوداء الرمادية. وهنا تكمن «مهمة الفنان (فى) أن يلتقط اللحظات الأهم والأعمق فى هذا التيار الواسع والمستمر من الشقاء»، فالقمع والسجن والهزيمة حالات يعيشها كل مواطن لأنها تغلغلت فى دمه، كما يرى عبد الرحمن منيف.

وعندما تفك عقدة الحكاية يدخل شهريار على المستوى النفسى فى عالم سحرى غرائبى منعش، ويخرج من فضاء حيوانيته مؤقتاً، إنها تؤجل فعل قتلها، وإذا ما انتهت الحكاية، فإن شبح القتل يلوح من جديد، وكأن الحكايات السابقة التى سهرت الليالى وهى تسردها، لم تفعل شيئاً، ولم تهذب سلوك شهريار.

شهرزاد شعراً

يوظف البياتى أسطورة شهرزاد فى قصيدته «العراق الأعمى» ليوضح رؤيته. فبعد أن تنتهى الحكاية تعيش شهرزاد حالة موت، وإذا ما انتهى فعل الحكى والقص، فإن تابوتاً ينتظرها، وهى تموت على المستوى الروحى والنفسى كل ليلة

وإذا كانت مهمة الشاعر. كما يرى البياتى. الكشف عن جوهر الإنسان، والانتماء بشرف إلى كادحى العالم، فطبيعى أن يؤمن بميلاد نجمة نور، تسطع لتنير ليل هذا الإنسان، وطبيعى أن تنتصر ثورة الإنسان فى فيتنام، ويبنى الفقراء مجد انتصارهم، وأن تنطلق خيول صلاح الدين المعاصرة، بأصوات فرسانها لتزرع الفرح فى خواء الصحراء، ولترد المعتدى المعاصر وتدحره.

إن استخدام البياتى لأسطورة شهرزاد يشير إلى واقع معاصر يتقاطع فى كثير من حالاته، مع عصور الاستبداد والظلم، عصور الرقيق فى مدن ألف ليلة وليلة، فالأسطورة ظاهرة معرفية جسدت تجربة الإنسان وعلاقته بما حوله منذ العصور القديمة، وهى لا تزال قادرة على تجسيد تجربة الإنسان المعاصر، وعلاقة هذه التجربة بماضيه التاريخى والثقافى. إن « الأساطير بأشخاصها وحركتها تجسد نواحى نفسية، عميقة الجذور فى الإنسان وعظيمة الخطر فى حياته. لقد غدت الأساطير مع الزمن رموزاً لتجربة الإنسان الأولى للحياة، هذه التجربة الطويلة التى رسبت إلى أعماق اللاوعى الجماعى عند كل واحد منا»، على حد تعبير جبرا إبراهيم جبرا.

ويقول الشاعر البياتى فى قصيدة بعنوان « العراق الأعمى»، من ديوان الكتابة على الطين:

« لم تقل مولاى، شيئاً، شهرزاد
فهى فى تابوتها نائمة تبكى،
ولكنى المغنى والرماد.
ودم القلب وثلج الظلمات
لم يزل يسقط فوق المدن الكبرى،
فيخفى
وجهها تحت القناع
ها أنا أشنق نفسى مثل عصفور بخيط من شعاع
تحت مصباح عمود النور فى الليل،
لكى تُبعثَ بعدى
شهرزاد ».

فى حركة شهرزاد العميقة مع مسار حكاياتها وأبطالها، وجوارى العصور اللواتى تسرد عنهن، تظل أماً مقموعة، تهدهد رجلاً شرساً، لا تعرف لحظة انقضاضه، إنها فريسة تهدهد ذئباً بألف حيلة، لتكبح وحشيته، وعندما تتعقد الحكاية، ويصل الحدث إلى ذروة تشويقه، يضطر شهريار لأن يلغى فعل القتل، أملاً فى أن تفك شهرزاد حبكة الحكاية،

ومن هذه الرؤية يوظف البياتى أسطورة شهرزاد فى هذه القصيدة. فبعد أن تنتهى الحكاية تعيش شهرزاد حالة موت، وإذا ما انتهى فعل الحكى والقص، فإن تابوتاً ينتظرها، وهى تموت على المستوى الروحى والنفسى كل ليلة. « لم تقل مولاى، شيئاً، شهرزاد.. فهى فى تابوتها تبكى »، وهنا تستمر السطوة الشهريارية، ويجد الفعل الإنسانى نفسه، سواء أكان من شهرزاد أم من غيرها، عاجزاً عن خلق الحكايات، وبالتالى عاجزاً عن ردع شهريار، وإيقاف سلوكه الهمجى وشهوته للقتل. وفى الحالة المعاصرة لا تستطيع شهرزاد أن توقف بطش شهريار المعاصر، مهما حكت له، ويظل القلب ينزف دماً، وتظل فضاءات الأمكنة والمدن العربية الكبرى مسكونة بكابوس الدم، والظلام، والثلج الذى يشير رمزياً إلى موت الحياة وتجمدها، فى حين أن لفظة «الظلمات» تدل على التخلف والاستعباد، والحرية المُغتالة، فى فضاءات هذه المدن.

و ها هى شهرزاد العربية المعاصرة انتهت من حكاياتها، وكأنها لم تقل شيئاً، فاستسلمت لقدرها المحتوم، ودفنت نفسها فى تابوتها انتظاراً لتعليمات السيّاف القاضية بدفنها. إن انتهاء الحكايات معناه الموت، واستمرار الحكايات يعنى بقاء شهرزاد حية. لأن شهريار سيتكرم عليها بنعمة البقاء طالما هى تحكى. ويبقى منطق الحكاية هو منطق المصالحة مع القمع، هذا إذا عرفنا أن الليالى جميعها، تقوم على منطق الإرهاب والاضطهاد، والقمع الشهريارى لإنسانية شهرزاد. «احكى حكاية وإلا قتلتك»، هذا الشرط هو سر تواصل شهرزاد مع زمانها، ورحلتها مع هذا التواصل رحلة كلها مخاطر، إنها على حافة جرف، ما إن تنتهى الحكاية حتى ترتعد من أن يرميها شهريار من أعلى هذا الجرف. فالبطر السلطوى الشهريارى سواء فى الماضى أو الحاضر، لا يحكم بضابط أخلاقى أو إنسانى، أو ثقافى يكبح جماحه، إنه مستعد فى كل لحظة لإغراق المكان والزمان بسيل الدماء.

«احكى حكاية وإلا قتلتك»، هو موقف السيّاف من الضحية، ولا يوجد موقف معتدل أو وسط من قضية القتل. وموقف شهرزاد الفاقدة قدراتها موقف مهادنة وتصالح وذل، واسترحام من واقع البطش

لكى يبقيها حيّة، موقف الجسد الذى يجترّ لياليه مُستباحاً عاجزاً عن القيام بأى فعل بديل من شأنه التغيير والتثوير، وانطلاقاً من إيمان البياتى بقدرات الإنسان على التغيير وصنع المستقبل، فإنه يرى أن حالة العبودية والذل المعاصرة حالة مؤقتة، فالانبعاث الحضارى ضرورة حتمية، ولتأكيد فكرة هذا الانبعاث يوظف بشكل غير مباشر أسطورتى أورفيوس والعنقاء فى نفس القصيدة: «فهى فى تابوتها تبكى، ولكنى المغنى والرماد». إذ تشير لفظة المغنى إلى أورفيوس، وكلمة الرماد إلى الرماد الذى ينبعث منه طائر الفينيق أو العنقاء متجدداً بعد أن يحرق نفسه، وبالتالى إلى الفعل الإنسانى القادر على المغامرة واقتحام المجهول، وتبديد ظلام العالم، وبعث هذا العالم وتجدده، هذا الفعل هو الكفيل بتحرير شهرزاد. الإنسان المُستلب، ومساعدتها على تخطّى حواجز الأسر، وكسر توابيتها المفروضة عليها قبل موتها. «فرغم كل القهر والاضطهاد والقسوة وحتى الموت الذى يمكن أن ينزله الجلاد فى الضحية تبقى الضحية هى الأقوى، وهى القادرة أن تتحدى، والضحية لا تعنى الفرد الذى انتهى، وإنما تعنى الفرد الذى نشأ وظهر وسيواصل الطريق»، وإذا كانت شهرزاد نائمة تبكى فى تابوتها منتظرة مصيرها الأسود، فإنّ الوعى الشعرى يستنهض «أورفيوس» الموسيقى الذى يشيع بقيثارته الحياة فى الصخر، ويستنفر الإخاء الإنسانى فى تعامله مع بنى جنسه، ويثبت غير هيّاب أمام أقسى حراس جهنم، ويصمم على لقاء «بلوتو» إله الجحيم، مصراً على استرجاع زوجته «يوريدس» من الأسر.

إنّ شعر عبد الوهاب البياتى فى مجمل توجهاته والقضايا الفكرية والإنسانية التى يركّز عليها، يأتى دفاعاً عن الإنسانية المُعذّبة، وضرباً من ضروب الالتزام، والإيمان بدور الطبقات الفقيرة والمظلومة التى «تساهم مساهمة هائلة فى التوجه الإنسانى العام للإنسان (...)، والتى لا تناضل من أجل مصالحها الطبقية فحسب، بل هى مدعوة لحل مهمات تاريخية». هذه الطبقات التى استمدّ الشاعر عبد الوهاب البياتى من حياتها وتاريخها وصراعها مع جلاديها، أجمل قصائده خلال رحلته الشعرية الطويلة.

شهرزاد فى شعر خليل حاوى

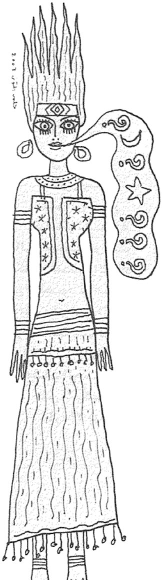
نلاحظ أن خليل حاوى مقل فى استخدام رمز شهريار فى أعماله الشعرية إذ يذكرها مرة واحدة، وذلك فى قصيدة بعنوان عودة «سدوم».

يقول الشاعر خليل حاوى فى هذه القصيدة:

«عدت فى عينى طوفان من البرق
و من رعد الجبال الشاهقة،
عدت بالنار التى من أجلها
عرضت صدرى عارياً للصاعقة،
جرفت ذاكرتى النار وأمسى
كل أمسى فيك يا نهر الرماد:
صلواتى سفر أيوب وحبى
دمع ليلى، خاتم من شهرزاد
فيك يا نهر الرماد
و ليمت من مات بالنار
حملت النار للفندق، للبيت المخرّب
فيه أطمار أبى، عكّازه
ويضىء، البيت خفّاش مذهّب
دونه يخشع أهلى، إخوتى،
نسل السبايا
خلّفتهم غزوات الشرق والغرب
لصوصاً وبغايا» (٢).

عندما يعود الشاعر خليل حاوى وفى عينيه طوفان من البرق، فإنه يعود عودة الرائين، إذ تهبط عليه رؤيا الكشف من الجبال الشاهقة، حاملة بشائر الخلاص ليطهّر بها سدوم، وهو رمز تاريخى وأسطورى يرد مراراً فى أعمال خليل حاوى. وإذا كان هذا الرمز يشير إلى هلاك القوم الفاسقين والناكلين والمتعبدين للأصنام، فى حقبة تاريخية ماضية، فإنه من خلال التوظيف المعاصر يشير إلى فضاءات المدن العربية، السوداء التى هى بحاجة إلى التطهير ليعود إليها نقاؤها وعلاقاتها الإنسانية الأخلاقية والنبيلة، والتطهير عند خليل حاوى يكون بالنار التى تحمل بذرة الخلاص الجديدة للبشرية، وبالتالى رؤيا الانبعاث الحضارى للمدن العربية الجدباء، وتتجلى وظيفة النار عند خليل حاوى فى إبادة كل ما هو معكّر من أدران متراكمة فى فضاءات المدن العربية ومن قيم بالية رثّة لا تزال تتراكم من أيام شهرزاد حتى التاريخ المعاصر. فرؤيا خليل حاوى هى رؤيا الأبطال الأسطوريين، الذين وقفوا مع بنى الجنس الإنسانى ضد الآلهة، والنار هنا تشير إلى نار بروميثيوس الذى سرقها لخدمة بنى البشر.

إن «خليل حاوى يسعى عبر الرموز المكثفة والشفافة إلى التعبير عن مكامن العطب والتخاذل فى الوجود ليحل من دونها رموز القوة والخصب والفعل الفاعل والخلق وتلك الحرية التى لا يكون المرء إلا بها. وها أنه يبدو، الآن، غير حافل بأهله ولا بذويه ولا بصحبه ولا بأى أمر آخر. وستحرق نار الرفض الشعرية «الخفاش المذهب» الذى يقدسه باحترام عميق الأهل والإخوة والأقارب وسكان سدوم المعاصرة. وهذا الخفاش يشير دلالياً إلى المصادفات الذهبية التى تؤمن بها الذهنية العربية من تعاويذ الحظ، وقدوم الفرص الذهبية بطريقة سحرية وأسطورية وغيبية، وقد أشارت إليه الفكرة الشعرية سابقاً فى «خاتم من شهرزاد». بحيث يصبح الواقع فى «سدوم» المعاصرة - من خلال الرؤية الشعرية - واقعاً انهزامياً يعتمد على الحظ والمصادفات والغيب، ويلغى منه الفعل بحركيته الخلاقة. وداخل فضاء هذا الواقع المنحط تتناسل السبايا والبغايا واللصوص، إنه واقع ألف ليلة وليلة، واقع الغزو والسطو، واقع تتلاقى فيه كل أخطاء الشرق وغاباته المظلمة، مع شهوات ونزوات الغرب المتهتكة. واقع الوصيفات والجوارى والإماء والخصيان الذين ذكرتهم شهرزاد فى الليالى، والذين لا يزالون مستمرين فى بنية الواقع المعاصر الذى تطمح الرؤيا الشعرية إلى حرقه وبعثه مشرقاً وإنسانياً.



إن «القصيدة تقدم ترجمة للعالم، إنها العالم خلال وقت ما. ومثلما أن لغة القصيدة واسطة رمزية مرنة تبرز فيها العناصر الذاتية والموضوعية ككل متكامل، فإن كل كلمة فى القصيدة منطلق ممكن وتقاطع طرق رمزى يمكن من خلاله أن تنظر إلى القصيدة بأجمعها». كما يقول تشارلز فيدلسون الابن. وقد كانت قصائد خليل حاوى عبر دواوينه الثلاثة: نهر الرماد، والناى والريح، وبيادر الجوع، ترجمة لواقع العالم العربى المعاصر فى رماده واتكاليته ومآسيه، وكان اعتماد خليل حاوى على الرموز الدينية والأسطورية والتاريخية قادراً على إثارة مزيد من إشكاليات هذا العالم فى سلبيتها، إذ تقاطعت هذه الرموز وتداخلت فى فضاءات النصوص الشعرية عنده، وكانت تؤسس لهدف واحد بالرغم من تعدديتها، وهو إعادة تشكيل الحياة العربية المعاصرة نضرة مشرقة قوية وقادرة على تخطى ماضيها الأسود، وواقعها المحبط فى كل توجهاته وآماله.

شهريار وشهرزاد وأمل دنقل

ويوظف الشاعر أمل دنقل أسطورة شهرزاد وشهريار فى قصيدة بعنوان: «حكاية المدينة الفضية». وهى القصيدة الوحيدة فى كل أعماله التى تذكر هاتين الشخصيتين. وبالرغم من اتكائه الشديد على معطيات التراث الفرعونى أحياناً، والعربى الإسلامى أحياناً كثيرة، إلا أنه لم يستند كثيراً على ألف ليلة وليلة. وفى أعماله تبرز الرموز التاريخية والتراثية الأسطورية بشكل واضح، إذ لا يخلو عمل واحد منها، ابتداء من ديوانه «مقتل القمر»، مروراً بالبكاء بين يدى زرقاء اليمامة، وتعليقاً على ما حدث، والعهد الآتى، وأقوال جديدة عن حرب البسوس، حتى

أوراق الغرفة ٨، وهى مجمل أعماله الشعرية. وفى قصيدة «حكاية المدينة الفضية» تبرز الشخصيات الآتية: شهرزاد، شهريار، سليمان، بدر البدور، مسرور السياف، وهى شخصيات ذكرتها ألف ليلة وليلة.

تبتدئ القصيدة بملمح سندبادى خفى، إذ يغامر الشاعر السندباد طارقاً باب المدينة، لكنه لا يحمل تجارة أو مالاً ولا جواهر ولا حريراً، إنه صاحب قلم يفتح به مدينة مقفلة، طالباً ظلاً وفيئاً وأماناً وطمأنينة. يقول الشاعر:

«كنت لا أحمل إلاّ قلماً بين ضلوعى
كنت لا أحمل إلا.. قلمى.
فى يدى: خمس مرايا
تعكس الضوء (الذى يسرى إليها من دمى)
.. طارقاً باب المدينة:
- «افتحوا الباب»
فما ردّ الحرس
- «افتحوا الباب.. أنا أطلب ظلاً..»
قيل: «كلاّ. ».

لكن المدينة العربية الغارقة فى حمى الاستهلاك والبيع والتجارة والتجهيل - ومن خلال الرؤية الشعرية - ترفض أصحاب الأقلام الذين يكتبون تاريخها المفجوع، ويصورون واقع طرقاتها القذرة. وعموماً تأخذ المدينة فى الأدب العربى شعراً وقصة ورواية ومسرحاً أهمية واضحة جداً، إذ تبدو فضاء أساسياً من فضاءات النصوص الأدبية، لكنها لا تبدو من خلال هذه النصوص فضاء جمالياً للحلم والفرح والحرية، بل تبدو عالماً قاتماً تشرّش فيه كل الأوبئة والأمراض ولوثات السلطة. يقول جبرا إبراهيم جبرا عن المدينة:

« المدينة العربية الجديدة، بكل ما فيها من متناقضات وتيارات وآمال ومخاوف. المدينة اليوم ليست مجرد « قصبة » فيها دار للحكومة: إنها ملتقى سيول بشرية من الريف وشبه الريف. ملتقى الأجناس والطوائف والنحل. المدينة بوتقة هائلة لم تنصهر فيها العناصر انصهاراً تاماً بعد. هل من موضوع أعظم من ذلك ؟ فى المدينة يشتد المحافظون محافظة والمتمردون تمرداً. فيها سلطة القانون وسلطة الشرطى وسلطة المخبر الرهيبة. فيها صوت الله وصوت الشيطان يبثان على نفس الموجة. المدينة هى ساحة الصراع على المستوى الفردى والمستوى الجماعى، فيها يصب التاريخ سيولاً من الحضارات المتعاكسة المتشابكة، ومنها تنطلق قوى الهدم والبناء إلى هدف وغير هدف. المدينة مازالت تسحرنى وتستحثنى على الكتابة وتصوير الشخصيات الناهشة المنهوشة فيها، كما تسحر البدوى القادم إليها من الصحراء لأول مرة. ولكننى قد أبكى عليها، كما بكى المسيح على القدس، لأننى أريد لها الخصب والصحة، لا الجدب والمرض».

وعبر مرايا الشاعر السندباد المغامر، الداخلية والخارجية، التى تطمح إلى اكتشاف عالم المدينة، تنعكس صورة قاتمة لهذه المدينة وسكانها وقمامتها وكلابها. يقول أمل:

«يا طريق التل (حيث القبة الملساء
تبدو صنماً ضخماً تحدى المستحيلا)
يا طريق التل:
مازالت على جنبيك آلاف النفايات..
لسكان القباب المصمتة
من قمامات البقايا الميتة
وزجاجات خمور فارغة
وكلاب والغة
و رماد، وورق !
آه.. يا ذكرى الحنين المحترق
آه، كم كنا - كما كنت - نرش النور والشوق النبيلا
وتهدجنا غناءً..
وتهدجنا بكاءً..
وتهدجنا فضولا
ثم.. لم نلق من الحبِّ عدا: بابا بخيلا !!» (٣).

وبعد هذا الملمح السندبادى، وهذه الصورة القاتمة للمدينة تبرز صورة أخرى للمدينة الحلم بشفافية نسائها، وحياة الرفاهية والدعة فيها، وسحر حكاياتها، وتظل المدينة هاجساً، وحلماً بالنسبة للذين لا يملكون مقومات العيش فيها، ولا يخلو هذا الهاجس من دافع جنسى وانتقامى من نساء المدينة الأرستقراطيات، لكن هذا الهاجس يعود تحديداً إلى المكبوت السياسى القمعى وإلى المكبوت الاجتماعى الذى يحاصر الشاعر فى أحلامه وحريته، ومن فضاء هذا الهاجس يبدو للسندباد الذى أراد أن يفتح المدينة بالعلم والمعرفة والقلم، أنه حصل على أجمل وأرفع امرأة فى المدينة، إنها ملكة المدينة ذاتها، وهى الملكة بدور، أو شهرزاد نفسها، ويعتقد السندباد المعاصر أن هذه الملكة ستمنحه الأمان والطمأنينة والظل وسحر الليالى. وتقف العربة الملكية وتطلب منه الملكة بدور أو شهرزاد أن يصعد معها. يقول الشاعر:

« فرقعت فى الصمت حولى عجلات المركبة،
- «أوقف الخيل»
أطلت:
- «من ترى أنت ؟»
فأومأت مجيباً
قالت: «اصعد»..
- آه يا ذات العيون الطيبة
كل شىء يتنهد
كل شىء فى دمى.. لا يتحدد
أنا لا أملك حتى كلمات الشكر.. ولّت!
- «أغريب ؟»
قلت: ما عدت غريباً
بيتنا كان على ربوة نجمة
كم قرأنا فيه عن سحر لياليك كثيراً
عن جبين يهب العمر تناهيد ورحمة
ورسمنا وجهك المعبود فوق المنزل
وعلى صدر الربيع المقبل
وتعشقناك: حزناً أرجوانياً أميرا
وتعشقناك: شعراً كستنائياً غزيرا
وتعشقناك: ثوباً جدلته الحور..
وعشقنا فيك: حتى خفك المجلوب من وادى القمر !».

شهرزاد شعراً

إن « خليل حاوى يسعى عبر الرموز المكثفة والشفافة إلى التعبير عن مكامن العطب والتخاذل فى الوجود ليحل من دونها رموز القوة والخصب والفعل الفاعل والخلق وتلك الحرية التى لا يكون المرء إلا بها

من خلال المقطع السابق تتضح رؤية العشق واللهفة لاقتحام المدينة، ومعرفة خباياها وأسرار نسائها، ولا تتحدد الملكة بدر البدور أو شهرزاد بالجسد الأنثوى فقط، بل هى ترمز إلى المدينة كلها، بتناقضاتها وعلاقات طبقاتها وسلوك سلطتها، ويتوهج حلم الرؤية الشعرية عند الشاعر ليدخل فى الفضاء الحميمى لشهرزاد، إذ تأخذه شهرزاد إلى قصرها الأسطورى الذى تتضاءل أمامه قصور النبى سليمان. وينزاح القصر هنا من حقله الأسطورى، ليصبح مشيراً إلى قصور الحكام وأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم، وما وصلت إليه من بذخ وترف وثراء أسطورى، وهنا «ربما وجبت معاملة النص لا كموضوع مقدس (موضوع لفقه اللغة)، ولكن كفضاء لغوى وكمعبر لعدد لا متناه من الاستطرادات الممكنة. ينبغى الانطلاق إذن من عدد من النصوص لإبراز مجموعة من القواعد المعرفية التى تعمل فيها». كما يقول رولان بارت.

ومن خلال هذا العدد اللامتناهى من الاستطرادات يمكن أن نعتبر بدر البدور هنا أية امرأة سلطوية معاصرة سواء أكانت زوجة حاكم، أو أية امرأة أخرى تقف فى أعلى سلم السلطة، ويمكن أن نعتبر قصرها إشارة رمزية إلى قصور المدن العربية التى تنتمى تحديداً إلى طبقات السلطة.

وتتجلى تقنية الرمز الأسطورى عند أمل دنقل فى أنه يبدل الحادثة القصصية فى ألف ليلة وليلة، فشهريار هو الذى كان يقتل كل يوم مواطنة من نساء مدينته بعد أن يقضى لذته معها، أما فى القصيدة فإن شهرزاد هى التى تقتل مواطناً بسيطاً ومثقفاً ومبدعاً بعد أن تسقيه من خمورها وجسدها، فسلوك السلطة فى بنيته العميقة ذو توجه واحد سواء أكان ذكورياً أم أنثوياً. ومن يقرأ الليالى جيداً سيلاحظ أن سلوك زوجات السلاطين ونساء السلطة بصفة عامة هو سلوك عدوانى ومتعطش للدماء، ولا يتوانى عن القتل لأى سبب كان، إذ كانت هاته النسوة تفتك بالعبيد والخدم. فالملكة بدور فى الليالى الأسطورية، والتى استفادت منها الرؤية الشعرية فى هذه القصيدة ووظفتها تحت اسم بدر البدور وشهرزاد معروفة بشراهتها للقتل، فقد كانت تريد أن تقتل ابن زوجها الأمير الأسعد لأنه رفض أن يكون عشيقاً لها باعتبارها زوجة لأبيه الملك قمر الزمان، وقد قتلت قهرمانتها لمجرد أن القهرمانة أكدت أنها لم تشاهد غلاماً جميلاً دخل القصر، فأجابتها بدور: «يا خائنة تكذبين

على وتقولين ما كان أحد بائتاً عندك وتحلفين لى بالله باطل، فقالت القهرمانة والله ما كذبت عليك، ولا حلفت باطلاً، فاغتاظت منها الملكة بدور، وسحبت سيفاً كان عندها وضربت القهرمانة فقتلتها(٤)، كما تؤكد حكايات ألف ليلة وليلة. ونقرأ فى الليالى كيف أن السيدة دنيا البرمكى أخت جعفر البرمكى وزير الخليفة هارون الرشيد أمرت بقتل زوجها محمد بن على الجوهرى لأنه غاب عنها فى لحظة تريد فيها دنيا أن تحقق تواصلا جسديا معه، ولولا شفاعة جواريها ووصيفاتها به لما نجا من القتل، عندئذ تكتفى بجلده جلداً وحشياً يبقى شاهداً أبدياً على جسده لأنه خرج من المنزل، ثم تطلقه بعد ذلك. وبدر البدور أو شهرزاد المعاصرة، أو المدينة العربية المعاصرة هى الأخرى تستلذ بمرأى القتل، وبدلاً من أن تمنح هذه المدينة الوعى الشعرى والثقافى الأمان والحرية، فإنه ما إن يلوح الصباح حتى تأمر سيدة المدينة السياف بقتل صاحب هذا الوعى.

يقول الشاعر:

«.. قد أتى الصبح.. فقم»
شدنى السياف من أشهى حلم
حاملاً أمر الأميرة
- «أنا يا مسرور معشوق الأميرة
ليلة واحدة تُقضى.. بدم؟ !
يا ترى من كان فينا شهريار؟ !
أنا يا مسرور..»
مسرور على الباب: رخام
- «أنا يا مسرور لم أسعد من الدنيا بفرحة
أنا لم أبلغ سوى عشرين عام
خذ ثيابى.. خذ مراياى المنيرة..»(٥).

وبدّل الشاعر أمل دنقل من الفكرة الأسطورية والتاريخية حينما يوظفها فى القصيدة، فإذا كانت ليالى ألف ليلة وليلة تؤكد أن مسروراً سياف الخليفة هارون الرشيد لا يخالف للخليفة أمراً، بل يقتل كل الذين أصدر الخليفة عليهم حكماً بالقتل، فإن مسروراً داخل القصيدة الشعرية يعفو عن صاحب القلم ويترك له فرصة لأن يهرب ولا يعود أبدا إلى المدينة: «حسنا، فاهرب من الباب الذى فى آخر الممشى ولا ترجع هنا».

وفكرة العفو عند الجلادين فى ألف ليلة وليلة هى واردة أيضاً، لكنها ليست عفواً عن الثائرين على السلطان، والناشرين بذور الوعى والتحريض ضده، بل إن العفو تحديداً يقع على المقرّبين من الجلاد نفسه، إذ يعمل على تهريب هؤلاء المدانين خارج أسوار القصر، شرط ألا يعودوا إلى المدينة، ولا يقوم الجلاد بتهريب هؤلاء المدانين، إلا إذا تأكد أنهم تعرضوا لمكيدة وأنهم أبرياء، أو قدموا رشوة كبيرة لهذا الجلاد.

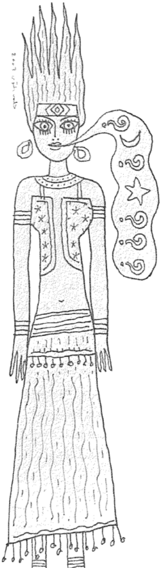
وتنتهى القصيدة ليُطرد صاحب القلم أو حامل الوعى الثقافى والتنويرى خارج المدينة المعاصرة المسطحة الرافضة لحركات التغيير والتجديد، ليعود إلى حالة الحزن والضياع، متشرداً خارج أسوارها المحاطة بالنفايات والكلاب الوالغة. فاقداً كل آماله فيها، بعد أن كانت قائمة فى ذهنه كحالة حضارية يمكن أن يتحقق فيها الأمان والحرية والطمأنينة.

ولا يكتفى الشاعر أمل دنقل بإدانة مدينته المعاصرة، بل تقف أشعاره من خلال تركيزه الشديد على الرمز التاريخى والأسطورى شاهد إدانة وتعرية للمجتمعات العربية بهزائمها وانتكاساتها ماضياً وحاضراً، ولذا فإن الرمز عنده يخرج من حقله الماضوى ليشير إلى حالة معاصرة تتعلق بوضع اقتصادى أو اجتماعى أو سياسى يرفضه الشاعر باعتباره وضعاً مشوهاً لا إنسانياً.

إن شعر أمل دنقل «يعتبر شاهداً حياً صادقاً على عقدين.. عقد الستينيات.. وعقد السبعينيات.. سنوات التفسخ والاهتراء الاجتماعى والسياسى فى الأمة العربية، وهو شعر عف وعلا على الهبوط إلى مشاركة جوقات الاستجداء.. والاستثمار.. وإحناء الرؤوس وإراقة ماء الحنايا والوجوه. وهو شعر ينتصر للقيم الإنسانية وللحرية.. حيث يمتد كيان الفرد إلى الوطن.. ويمتد كيان الوطن إلى المجتمع الإنسانى العام. وهو شعر «لتراث العربى والإسلامى». بل شعر «التراث الإنسانى».. استرفده أمل، وجعل منه عصارة حية.. تسرى فى أعطاف قصيدة بمفاهيم جديدة، ودلالات عصرية متوهجة. على حد تعبير جابر قميحة.

كمال عبد الرحمن
وخطاب إلى شهرزاد

ويكتب الشاعر كمال عبد الرحمن قصيدة بعنوان «خطاب إلى شهرزاد». لا تبدو فيها شهرزاد بنية أسطورية أو رمزية تشير إلى حقل تاريخى أو أسطورى، يرتبط بدلالات قريبة من الواقع المعاصر، بل تعتبر مدخلاً لقصيدة تشير إلى حالات عشق وهوى ورومانسى مع امرأة معاصرة يطلق عليها الشاعر اسم شهرزاد، وليس لهذه المرأة المعاصرة من حقول مرجعية أسطورية تتعلق بشخصية شهرزاد الأسطورية إلا مستواها اللفظى فقط، وكونها امرأة غنية كشهرزاد. وإذا كانت شهرزاد الأسطورة امرأة تابعة منقادة لشهريار، ولا إرادة لها أمام رغباته، لأنها مجبرة لأن تمنحه الحب والحكايات متى شاء، فإن المرأة المعاصرة التى يحبها الشاعر امرأة متفوقة عليه مركزاً وطبقة، وهو أسير لحالات عشق عميقة يحسها نحوها، يقول الشاعر:



لست بشهريار...
ستدركين أبداً بأننى لا أملك الآن سوى هواى...!
و ما احتويت منذ مولدى
سيفاً ولا جارية...
ولا اعتصمت بالقصور والرياش.
ولا ملكت مركباً يموج فى باطنه الياقوت والذهب...!
ولا انتصرت للغنى ضد عبده...!
لست سوى عاشق روح هاجرت...
صوب الولايات التى قد آمنت بالعشق قبل موتها...
فارتفعت فى سوحها...
رايات أهل الأرض حين يعشقون...!»(٥)

إن هذا المواطن البسيط الذى يحب امرأة أرفع منه مالا ومكانة طبقية، يتقدم بخطابه فارداً كل أوراقه، طالباً حباً وظلاً منها، بالرغم من أنه يفتقر إلى الملكية والقوة، فلا سيف ولا جارية له، وينتمى منذ ساعة ميلاده إلى فضاء اجتماعى يتحدد بالطبقة الفقيرة التى لا تعرف القصور الوثيرة، وهو يفتقر إلى أى شكل من أشكال الثراء، أو إلى أى احتمال أن يكون ثرياً يوماً ما، لأنه لن يكون يوماً ما سندباداً يملك «مركباً يموج فى باطنه الياقوت والذهب...!». وإذا كان مستلباً أمام هذه المرأة المهيبة الثرية، فإنه لم يفقد حسه الجمالى والإنسانى، إذ لم يقف مع غنى ضد فقير، بل وعى حقيقة التباين الطبقى، وكونه لا يملك ما يجعله فى طبقتها، لم يمنعه من أن يغامر فى عشقها، طالما أنه يملك شفافية الروح العاشقة التى تهاجر إلى كل مكان، وقد يبتعد مفهوم العشق هنا عن دلالته القريبة، ليكون عشقاً لكل مفاهيم الحق والخير والحرية، وقد تشير الولايات التى تؤمن بالعشق إلى فضاءات بعيدة يتحقق فيها كل ما تصبو إليه الروح. وتبلغ حالات العشق بالشاعر أوجها ليتحدد إبحاره وحركته داخل فضاء مكانى يمتد من عينيها وينتهى بعينيها.

وهنا تصبح هذه المرأة قضية كليّة بالنسبة إليه، فهى الأميرة التى من أجلها يصرخ فى سكان الأرض منبهاً إلى أهميتها، وعندما لا يصل إليها بالرغم من عشقه الراعف لها، فإنه يطلب من هؤلاء السكان أن يوصلوا خطاب حبه إليها. يقول الشاعر:

«ستدركين أبداً أيتها الأميرة...
بأننى موزع ما بين عينيك وعينيك...!!
أبحر فى يسرهما.. كيما أرى جنونى القديم.
أطوف حول قصرك الناهض من مراراتى..

أصرخ يا أهل الأرض... وسعوا المدى
أميرتي آتية لا ريب... !
وطيبوا الدروب بالروائح الزكية...
وأطلقوني عاشقاً من شرفة الحياة.
وأوصلوا وصيتي بسر هذا الخطاب... !!».

ويتساءل الباحث: هل يتحدد مدلول الأميرة هنا، بكونه يشير إلى مجرد امرأة غنية ومتفوقة وتملك صفات خاصة تتفوق بها على بنات جنسها من النساء، يحبها الشاعر، ومن شدة ولهه بها يسميها أميرة، أو يشير إلى رؤية شمولية أكبر من ذلك، تتعلق بقضية كبرى في الحياة. يبدو أن الاحتمالين قائمان هنا، «إن العمل المعين يستعمل في آن عدة أنماط من علاقات وحداته فيما بينها، وهو تبعاً لذلك يخضع إلى عدة أنظمة». حسب تعبير تزفيتان تودوروف. والعمل الشعري هو أكثر الأعمال الأدبية التي تستعمل عدة أنماط من الإيحاءات والدلالات المتباينة التي تنمو داخل حقول معرفية جد مختلفة، وهذه الحقول بدورها تفرز رؤى مغايرة، ومن ميزة النص الشعري الحديث أنه لا يخضع لتفسير نهائي، بل يظل أي تفسير له ناقصاً، وقابلاً لأن يعارض بتفسير جديد قد يتباين معه، وقد يلغيه نهائياً. «إن النص الأدبي لا يمثل بنية لغوية متسقة منطقياً، تخضع لتقاليد ثابتة يمكن الكشف عنها، بل يمثل (تركيبة) لغوية تعارض نفسها من الداخل، وتعج بالكسور والشروخ والفجوات على نحو يجعل النص قابلاً لتفسيرات وتأويلات لا نهاية لها». كما يرى كريستوفر بطلر.

وإزاء التفسيرات التي لا نهاية لها والتي يفرزها النص الشعري يمكن التكهن بمجموعة من الحالات اللا نهائية، فربما تكون هذه المرأة مجرد حالة وهمية أو تخيلية، أو مجرد نزوة من نزوات العشق، أو امرأة حقيقية كان لها وقع خاص في نفس الشاعر فشكّل منها أميرة، وحلماً ذهبياً، أو حالة جمالية خاصة بالشاعر، أو رؤية تتعلق بأيديولوجيا معينة يؤمن بها الشاعر، ويسعى إلى تحقيقها. لكنها تبقى في كل الأحوال معزولة عن سياق المرأة الأسطورية شهرزاد، وحتى لو افترضنا أنها ليست معزولة، فإن الرؤية التي تطرحها القصيدة غير قابلة لأن تدخل في حقل معرفي أسطوري، وتجد مقابلاً لها في حقل الواقع. إنها رؤية رومانسية خاصة، قريبة إلى الوهم أو الحلم، لكنها بعيدة عن الرمز التاريخي أو الأسطوري، يقول الشاعر:

«في تلك الساعة من نزوات العشق أتيت
أستجلي أوهام الحلم الذهبي.
وأدور بصحراء العريان.. وألهث
يتبعني شيء من بعض بكاء مطلق...!
فأخط بدمعي دائرة للغفران..
وأصحو مخموراً
بلقاء خادع».

شهرزاد شعراً

تتجلى تقنية الرمز الأسطوري عند أمل دنقل في أنه في ألف ليلة وليلة، كان شهريار يقتل كل يوم مواطنة بعد أن يقضي لذته معها، أما في القصيدة فإن شهرزاد هي التي تقتل مواطناً بسيطاً ومثقفاً ومبدعاً بعد أن تسقيه من خمورها وجسدها

ونلاحظ أن المقطع الشعري السابق يتناص مع قصيدة مظفر النواب «وتريات ليلية»، من حيث الفضاء اللغوي، يقول مظفر النواب:

«في تلك الساعة من شهوات الليل
وعصافير الشوك الذهبية
تستجلي أمجاد ملوك العرب القدماء.
...
في تلك الساعة حيث تكون الأشياء بكاء مطلق.
كنت على الناقة مغموراً بنجوم الليل الأبدية.
استقبل روح الصحراء
يا هذا البدوي الممعن بالهجرات تزوّد بلقاء الربع الخالي بقطرة ماء».

خاتمة

وأختتم هذا الفصل بقصيدة قصيرة بعنوان «شهريار» للشاعر التونسي «سوف عبيد»، ويشير فيها إلى عبثية وعدم جدوى الفعل الشهرياري الأسطوري في علاقاته الكثيرة مع نساء مدينته، والتي هي علاقة انتقامية وقمعية لهن. ومهما كانت محاولاته الكثيرة الرامية للوصول إلى رأس النبع العذب، وبالتالي تحقيق أمنيته في الحصول على امرأة لا تعرف الخيانة، بعد أن فقد كل ثقته بنساء مدينته، فإن هذه الأمنية تصبح سراباً أيضاً لتهرب في فضاء خاوٍ «الجيب، المثقوب»، وما نساء مدينته غير أذناب أفاع وحراشف، وبالتالي من الصعب الحصول على امرأة نقية لم تعرف الخيانة بعد، داخل المملكة الشهريارية، ويصبح شهريار هو نفسه «جيفة»، أي حالة دونية تافهة أو «ذاتاً» بواراً خاوية في زمن بور مالح، وستصبح حكايات شهرزاد عبثاً في عبث، وتفقد قيمتها الجمالية والحكائية، وبالتالي تفقد فعلها في تهذيب طبائع شهريار، وسيظل الليل طويلاً وينتهي ألق الليالي، فشهرزاد أمست خرساء، أي أن الفعل وتأثيراته داخل الرؤية الشعرية المعاصرة يلغى، ويصبح الزمان خاوياً لا وفاء ولا نماء فيه.

لقد كان لكتاب ألف ليلة وليلة الصدارة بين الأعمال العربية والعالمية الكبرى، في الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والأساطير والخرافات والسحر والقصة والرواية. وقد «ساهمت في المقام الأول حكايات ألف ليلة وليلة في خلق الصور الرومانسية الخيالية عن الشرق، إذ حملته معها ونقلته إلى الغرب. وتسنى للغرب من خلال حكايات شهرزاد اكتشاف الشرق. ولا يوجد مؤلف شرقي أثر تأثيراً قوياً في الأدب الأوروبي مثل تلك الحكايات الشعبية الرائعة والجذابة.

وبين ليلة وضحاها أصبح هذا الكتاب جزءاً لا يتجزأ من الأدب العالمي تماماً مثل «الإلياذة Ilias» - هوميروس، و«آينيز Aeneis» و«فرجيل Vergil»، و«ديكاميرونة Decamerone»، و«بوكاتشيو Bocaccio»، والملحمة الألمانية القديمة المسماة Nibelungenlied كما ترى أردموته هللر.

وإذا كان لهذا الكتاب مثل هذه المكانة المتميزة فإن لشهرزاد الفضل الأول في جعله يتخطى حدود الإقليمية، ليأخذ صبغة عالمية بين آداب شعوب العالم.

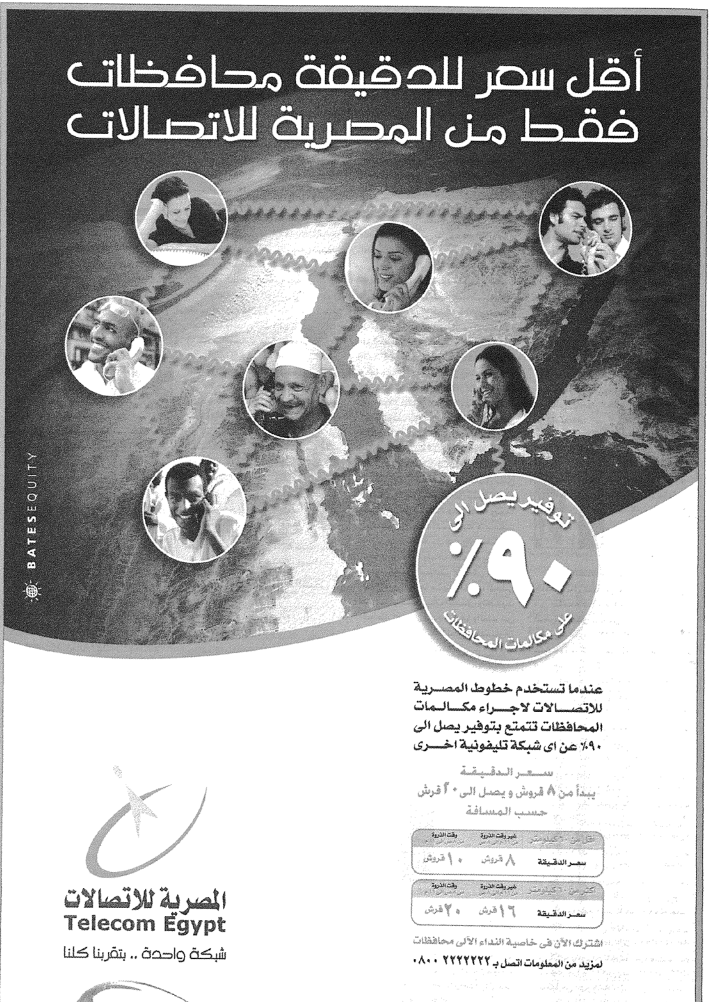
ويرى البروفسور «جون جو ميير» أن لشهرزاد أثراً في تاريخ المرأة الأوروبية، يقول بهذا الصدد: «إن شخصية شهرزاد أثرت تأثيراً حاسماً في تاريخ المرأة الأوروبية، وجعلت القرن الثامن عشر أعظم القرون في حياتها، وكان لجمالها وثقتها بنفسها، وتصديها وحدها لشهريار الذي عجز كل الرجال عن أن يوقفوه، واستخدامها لسلاح الأنوثة والمعرفة معاً، كان لهذا كله أثر كبير في تكوين شخصية المرأة الأوروبية».

ولم تتأثر القصيدة العربية المعاصرة بشخصية شهرزاد فحسب، بل تأثرت القصيدة الفرنسية والانكليزية والألمانية والفارسية بهذه الشخصية الأسطورية التي تدفع الخيال إلى مزيد من الجموح والأحلام والإبداع، «إن قصص شهرزاد شبيهة بالأحلام، إذ أنها لا تبعدنا عن الواقع ولكنها تعطينا صورة مغايرة له، تلك الصورة التي لا يقدر على إدراكها العقل»، كما يرى كولريدج، ومن خلال هذه الصور التي لا يدركها العقل تشكلت أجمل الرؤيات الشعرية التخيلية والإبداعية في شعر العالم المعاصر.

وعلى صعيد الأدب العربي والعالمي لم تتأثر القصيدة الشعرية وحدها بشخصية شهرزاد فحسب، بل تعدى ذلك إلى الأجناس الأدبية النثرية كافة، وإلى الرسم والموسيقا والمسرح والسينما، ولا تزال هذه الأجناس تتأثر باستمرار بحكايات ألف ليلة وليلة، باعتبارها منبعاً ثراً لا ينضب من حيث طاقاتها التخيلية القصوى التي قلما نجدها في أي عمل أسطوري أو قصصي آخر سواء أكان عربياً أم عالمياً ■

هوامش الدراسة ومراجعها

(١) عبد الوهاب البياتي، ديوان عبد الوهاب البياتي، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى.
(٢) خليل حاوي، ديوان خليل حاوي، (مجموعة نهر الرماد)، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩.
(٣) أمل دنقل الأعمال الشعرية الكاملة.
(٤) ألف ليلة وليلة، المجلد الثاني، المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ.
(٥) كمال عبد الرحمن، مجلة الأقلام، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.


أقل سعر للدقيقة محافظات
فقط من المصرية للاتصالات
توفير يصل الى
٪٩٠
على مكالمات المحافظات
BATES EQUITY
عندما تستخدم خطوط المصرية للاتصالات لاجراء مكالمات المحافظات تتمتع بتوفير يصل الى ٪٩٠ عن اى شبكة تليفونية اخرى
سعر الدقيقة
يبدأ من ٨ قروش و يصل الى ٢٠ قرش
حسب المسافة
أقل من ٦٠ كيلومتر
غير وقت الذروة
وقت الذروة
سعر الدقيقة
٨ قروش
١٠ قروش
أكثر من ٦٠ كيلومتر
غير وقت الذروة
وقت الذروة
سعر الدقيقة
١٦ قرش
٢٠ قرش
اشترك الآن فى خاصية النداء الآلى محافظات
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ٢٢٢٢٢٢٢ ٠٨٠٠
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الغرب والآخرون.. قصة هيمنة

صوفى بيسيس
ترجمة: نبيل سعد
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٣، ٤٢٠ صفحة



من الذى أعطى الغرب تلك المكانة المهيمنة ليفرض رؤيته لكيفية تسيير العالم، كيف توصل إلى امتلاك هذا التوقف؟ وهل ثمة نماذج أخرى يمكن أن تحتذى؟ هل ثمة وسيلة للتقدم مع الاحتفاظ بالشخصية الوطنية على حالها، أى دون أن تتغرب.

تلك هى بعض الأسئلة التى تطرحها المؤلفة، وهى فى الخلاصة تشير إلى أن هذا التوقف ليس حتميًا ولا نهائيًا، خصوصًا وقد بزغت تفوقات فى أماكن أخرى من العالم، فى آسيا مثلاً، والغرب لا يمكنه أن يتجاهل حالات التفوق تلك. وستتولد عن ذلك صراعات قوى جديدة تأخذ أشكالاً مختلفة، قد لا تتمكن من إيقاف حالة الهيمنة الغربية، لكنها بالتأكيد ستخلق اضطرابات تؤثر عليها، فالعولمة ذاتها لا يمكن أن تحقق أهدافها دون مشاركات من هؤلاء الواقعين تحت سطوة الغرب وهيمنته. هذا يعنى أن ثمة لاعبين جددًا مشاركين فى مسيرة العالم، حتى لو لم يكن الغرب مدركًا لذلك.

■

آخر أخبار المسألة الشرقية

مايزال الرجل مريضًا
محمد كامل الخطيب
دمشق: وزارة الإعلام، ٢٠٠٣، ٨٠صفحة



يدل العنوان مباشرة على المحتوى، إذ يتابع المؤلف فى سرد تاريخى حالة المسألة الشرقية، ويصف الدواء للرجل الذى امتد مرضه المزمن حتى قارب المائتى عام، وهو فى هذا كله يقارب حركات التجديد والإصلاح، سواء كان دينيًا أو مدنيًا، ويقدم نماذج لهذه الحركات من خلال من عايشوها، وكيف آل حالهم إلى ما آل إليه، ثم ينتقل إلى مفاهيم غطرسة القوة التى صارت سمة العصر، وبرأيه فإن افتقاد هذه القوة هو أحد أعراض الرجل المريض مثلما هو أحد أسبابه وأحد مصادر عذابه الآتى من الداخل والخارج معًا.

حركات التحرر الوطنى لا تفلت من الصورة، فقد كان تاريخ صعودها سلم السلطة وممارستها لها، هو تاريخ الانقلاب العسكرى والتسلط الاجتماعى والسياسى، وإرهاب السلطة فى المجتمع، وتكامل انغلاق الدائرة بالتعصب الذى مارسته حركات نسبت نفسها إلى الدين، وبالضغوط الخارجية الاستعمارية وزرع إسرائيل فى المنطقة.

وهكذا دخل «الرجل المريض» فى دائرة مفتوحة على كل الاحتمالات مع قدوم القرن الحادى والعشرين، وهو إما أن يدفن ونواريه التراب، أو يسترد عافيته ووعيه ويعود لممارسة دوره، فما الذى سيجرى خصوصًا مع الحل السحرى الأمريكى الذى يخلط الداء بالدواء معًا؟

■

نظرية السلطة فى الفقه الشيعى

توفيق السيف
الرباط: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٢، ٣٢٠ صفحة



مسألة السلطة فى الفقه الجعفرى هى الموضوع الرئيسى للكتاب، والهدف هو اختبار إمكانية الوصول إلى نظرية جديدة لشريعة السلطة فى الإسلام قوامها سيادة الأمة على الدولة، انطلاقًا من أن الشريعة الإسلامية لا تقتصر على الجانب العبادى والأخلاقى، وإنما تشمل بتعاليمها وقواعدها الشأن العام، ومن ثم تناقش الدراسة فرضيات عدة وتطرح تساؤلات عديدة عن فكرة الإمامة وهى التعبير الذى استخدمه أهل الشريعة للتعبير عن نظام الحكم المفترض، وكيفية ممارسة السلطة فى إطار الفقه الجعفرى: هل السلطة التى ترجع إليها حق أم تكليف، وما الذى يقابلها من واجبات، ومن الذى يحاسب على صحة القيام بالتكاليف. ويصبح السؤال الرئيسى هنا: مع القول بالولاية العامة للإمام، ومع القول بأن الولاية العامة بعد المعصوم للفقيه الجامع للشرائط، فهل ثمة احتمالات فى الفقه الجعفرى لتأسيس سلطة شرعية خارج إطار ولاية الفقيه؟

ويشار هنا إلى أن الثورة الإيرانية وما أحدثته من تحولات فى محيطها جعلت الموضوع مطروحًا بقوة، فقد بنت الثورة فكرة نظرية ولاية الفقيه، باعتبارها عمود الخيمة فى النظام السياسى الإسلامى، مع تطعيمها بمفاهيم مستمدة من الأدلة العقلية ونظريات أخرى، شكلت فى معظمها الدستور الذى وضعه فقهاء ومفكرون وطرح للاستفتاء الشعبى، وقدم أول نموذج نظرى للسلطة وشرعيتها.

والمؤلف يؤكد فى هذا الإطار على معنى بالغ الأهمية هو أن ولاية الفقيه نظرية ذات طبيعة تاريخية، وهى نتاج عمل اجتهادى من شأنه أن يصيب أو يخطئ، وهى محصلة للتفاعل بين الإنسان والزمن، وهو تفاعل يعيد إنتاج المعرفة فى كل مرحلة على حدة، وبهذا الوصف فإن هذه النظرية لا يمكن اعتبارها نهائية، بل هى رأى يحتمل الصواب والخطأ، وقيامه مشروط بتحقيق قيم فى العمل السياسى لا يمكن تحقيق العدل دون إقرارها منها، العرف المحلى كمحدد لمقتضيات العدل، وتحديد السلطة لضمان عدم جورها والحد من استبدادها، والمشاركة الشعبية باعتبار أن الشعب هو مانح السلطة.

■

مختصر تاريخ العرب

محمد إبراهيم حلمى
القاهرة: دار المنار المصرية، ٢٠٠٣، ٤١١ صفحة



يبسط المؤلف عبر كتابه، الذى يوزع مصحوبًا برسم بيانى توضيحى جانبًا من تاريخ العرب وحضارتهم، وهو يصفى كتب التراث وكنوز الأقدمين، ويخرج علينا بقصص وتراجم ونوادر نثيرها عبر سياحة تشكل فى مجملها عقدًا واحدًا وإن بدت متفرقة لا جامع بينها.

وهو إلى ذلك يضعها فى إطار واسع يشمل أنساب العرب وبطون قبائلها الأساسية وأفخاذها والأصول التى انحدرت منها، والهدف هو أن يقدم تاريخ الأمة العربية منذ ما قبل التاريخ وحتى اليوم فى أربعة أبواب تبدأ من الجزيرة العربية فى فجر التاريخ، وتنتهى بالعولمة العثمانية، مرورًا بعشرات القبائل فى الوطن العربى كله، وبالغزاة والمناوئين من فرس وإغريق ورومان وصليبيين وتتار.

■

تأثير المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية على المسرح الخليجى

حبيب غلوم العطار
أبو ظبى: المجمع العلمى الثقافى، ٢٠٠٢، ٢٧٢ صفحة



يقدم الكتاب وهو فى الأصل أطروحة جامعية نال عنها المؤلف درجة الدكتوراة من جامعة مانشستر دراسة تحليلية للحركة المسرحية فى الخليج العربى، وتأثير المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية عليها، وكما كان للطفرة فى أسعار النفط فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ تأثيرها على أوجه الحياة فى دول الخليج العربى اقتصاديًا واجتماعيًا، فقد كان لها كذلك تأثيرها الثقافى المهم، إذ انفتحت دول الخليج على العالم المحيط بها، لكن تأثير ارتفاع عوائد النفط على المسرح كان سلبيًا بدرجة ملحوظة، إذ انصرف الناس إلى المسرح التجارى الذى يقدم الكوميديا المبتذلة والتهريج المسف، خصوصًا. كما يقول المؤلف. فى قطر والكويت، فيما بقيت المشكلات التى واجهت المسرحيين فى دول الخليج الأخرى على حالها، فى السعودية مثلاً لم تطرح بدائل لغياب العنصر النسائى عن المسرح، وفى الإمارات لم تواجه مشكلة تعدد اللهجات، وفى البحرين لا يوجد بناء مسرحى واحد. لكن المؤلف رغم هذه المآخذ الباعثة على التشاؤم، يرى بقعة ضوء فى المسرحيين الشباب ممن حصلوا على شهادات علمية من أكاديميات ومعاهد متخصصة، وقدم بعضهم عروضًا تجريبية واعدة، مثلت بلدانها فى المهرجانات المسرحية المختلفة، ويلاحظ المؤلف أن القضايا التى يطرحها

هؤلاء الشباب، هى قضايا إنسانية بالدرجة الأولى، ومن خلالها تناقش أفكار ورؤى سياسية ودينية جريئة، وحين يعود هؤلاء لممارسة ما درسوه فى بلادهم، فإن غداً مشرقاً ينتظر المسرح فى الخليج.

■

المناطق الخالية من الأسلحة النووية بين الشروط النظرية والخبرات العملية

محمد عبدالسلام

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٣، ٥٣٠ صفحة



بعكس ما كان متوقعاً، لم يؤد ضرب هيروشيما ونجازاكى بالقنابل الذرية، وكم الخراب والدمار الذى شهده العالم لهذه النوعية من الأسلحة التدميرية، والجراح النفسية العميقة التى سببتها والتى مازال تأثيرها حاضراً حتى اليوم، لم يؤد ذلك كله إلى الإحجام عن إنتاج هذه النوعية من الأسلحة بل على العكس، زادت مجالات تطويرها، ومثلت لدول وقوى عديدة صاعدة خياراً أساسياً لبناء مكانة إقليمية ودولية، وهو ما أدى إلى انتشار تلك الأسلحة فى عدد كبير من الدول، ومع انهيار الاتحاد السوفيتى وزوال نظام القطبية الثنائية، سعت دول كثيرة إلى امتلاك سلاح نووى برغم سعى المجتمع الدولى إلى تحجيم هذا التوجه بفرض شبكة من الضوابط ذات الطبيعة القانونية.

وهذا الكتاب فى الأصل أطروحة علمية نال عنها صاحبها درجة الدكتوراة فى العلوم السياسية، وهى تهتم بالمفاهيم النظرية وتطورها التاريخى فى مجال ضبط التسلح ونظم الأمن، وتحديد العناصر التى يمكن من خلالها تحديد مفاهيم المناطق الخالية من الأسلحة النووية وأهداف إقامتها والالتزامات المرتبطة بها، ويحلل الخبرات العملية لإقامة تلك المناطق فى حالات أمريكا اللاتينية والكاريبى وجنوب المحيط الهادى وجنوب شرق آسيا وأفريقيا، ومواقف الدول الكبرى تجاهها، بهدف التوصل إلى معادلة واضحة حول الشروط الموضوعية اللازمة لإقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط.

■

المنار الجديد

المشرف العام: جمال سلطان

القاهرة: دار المنار الجديد للنشر والتوزيع، صيف ٢٠٠٣، ١٧٦ صفحة



ملف العدد الجديد من هذه الدورية خصص لتركيا، ومن عناوينه: ورقة السياسة الخارجية عند حزب العدالة التركى، البنية الثقافية والفكرية لحزب العدالة التركى، حزب العدالة التركى بين الواقعية والوقوع السياسى، قراءة فى تجربة الحركة الإسلامية بتركيا.

وفى منتدى المنار تكتب الدكتورة ماجدة مخلوف عن تركستان الشرقية فى نسيج الحضارة الإسلامية.

وفى الافتتاحية يكتب الدكتور كمال السعيد حبيب وهو أحد رموز التيار الإسلامى فى مصر عن تحولات الحركة الإسلامية المصرية ومستقبلها، ويكتب الدكتور محمد رجب البيومى عن حرية التفكير فى الأزهر الحديث، ومحمود سلطان عن العلمانيين العرب من محنة التنوير إلى محنة الحداثة، بالإضافة إلى دراسات عدة فى الواقع الإسلامى وتحولاته سياسياً وثقافياً واجتماعياً، ومتابعات الإصدارات الحديثة فى المجال ذاته.

■

عروسة بالكمبيوتر

صلاح المعداوى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ٣١٣ صفحة



لم يكن أحد يتصور أن يتدخل الكمبيوتر فى حياة الناس إلى هذا الحد، مجرد «حاسب آلى» بحسب تسمية مجامع اللغة العربية، لكنه شيئاً فشيئاً، ومع الثورة المتسارعة فى عالم الاتصالات اكتسب أهمية متزايدة، هذه الأهمية دفعت المؤلف لأن يكتب هذه السلسلة عن الزواج بالكمبيوتر فى شكل دراما إذاعية ذات طابع فكاهى شعبى، يقوم فيها الكمبيوتر بدور «الخاطبة» القديم، فهل ينجح، وهل يمكن أن تقوم علاقة إنسانية ناجحة وفق هذه الطريقة، وماذا يمكن أن تكون نتائج الزواج بواسطة الكمبيوتر.

هذه بعض أسئلة يطرحها المؤلف مستعيناً بالقالب الشعبى وبشخوص من صميم الحياة، وبتقابلات بين رؤى وأفكار تقليدية وأخرى مستحدثة.

■

العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة

عبد الرحمن على الحجى

أبو ظبى: إصدارات المجمع الثقافى، ٢٠٠٣، ١٤٢ صفحة



عشر سفارات أحصاها المؤلف من بيزنطة إلى قرطبة، حظى بعضها باستجابات من الأندلس، وقد تتبع المؤلف خط سير هذه السفارات فى الذهاب والإياب، وألقى الضوء على ما تم فيها والموضوعات التى ناقشتها والمهمات التى أنجزتها.

ويلاحظ المؤلف أن الإمبراطورية البيزنطية كانت هى الساعية إلى المبادرة بخطب ود الأندلس، نظراً لما ارتآه البلاط البيزنطى من منفعة يمكن أن تتحقق بتطوير هذه العلاقات، وقد كان لهذه الإمبراطورية مواجهات وعلاقات مع الدول الإسلامية منذ وقت مبكر من تاريخها، وكانت كثير من البلدان الخاضعة لبيزنطة ميداناً للفتوحات الإسلامية، لكن النصوص المتوفرة لم تؤكد وجود نشاط دبلوماسى من أى نوع، وإنما علاقات ودية أنتجت سفارات متقطعة، هى التى يرصدها المؤلف.

■

مضارب الأهواء

إدوار الخراط

القاهرة: دار البستانى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ١٦٢ صفحة



مجموعة قصصية جديدة لصاحب «رامة والتنين» و«ترابها زعفران» و«أمواج الليالى»، وغيرها من الروايات والقصص، بل والقصائد التى أبحر المؤلف فيها فى سنوات عمره الأخيرة. ليقدم ٦ مجموعات شعرية، كان بعضها تنويعاً على نغمات لونية لأصدقائه من الفنانين التشكيليين مثل عدلى رزق الله وأحمد مرسى وسامى على، فضلاً عن عشرات الدراسات النقدية والترجمات.

تضم المجموعة ١٤ قصة قصيرة، يقف فيها الراوى أمام جمال الوجود وأهواله وأقدار الناس، فى شوارع الإسكندرية أو قرى الصعيد، فى القاهرة أو فى صحراء وادى النطرون، أمام الألم والرعب والمتعة بالحياة، تتسق جميعها فى كيان فنى متفرد تلهمه رؤية جمالية وفكرية خاصة.

■

الوسواس القهرى

وائل أبوهندى

الكويت - عالم المعرفة ٢٠٠٣، ٥٢٥ صفحة



يصيب الوسواس القهرى واحداً من كل خمسين من البشر على مستوى العالم، والمعدل فى زيادة مستمرة، وبحساب أكثر التقديرات تفاؤلاً، فإن نحو ستة ملايين عربى مصابون به، وإزاء انتشار المرض على هذا النحو، يركز المؤلف على التمييز بين الوسواس الخناس والوسواس القهرى، مصححاً المفاهيم الخاطئة فى مجتمعنا، ومميزاً بين ما هو من فعل الشيطان الرجيم، وما هو اضطراب نفسى له علاج دوائى أو معرفى سلوكى.

ومشكلة الوسواس القهرى، أنه اضطراب كثيراً ما يعتبره المريض سراً يعمد إلى إخفائه كى لا يتهم بالجنون أو قلة الدين أو قلة الثقة بالنفس، إضافة إلى أن كثيرين من المرضى لا يعرفون أنهم مرضى، ويستسلمون له اعتقاداً منهم أن هذا هو قدرهم وأن الله سبحانه وتعالى خلقهم على هذا النحو لحكمة يعلمها.

إلى ذلك يتابع المؤلف إسهامات الباحثين العرب المعاصرين فى هذا المجال، وخصوصاً فى مصر والكويت والسعودية والبحرين، فضلاً عن إسهامات العلماء العرب القدامى وتأثيرهم فى توجهات العلم الحديث حول هذا المرض، ويعرض كذلك التواريخ المرضية لتسع وثلاثين حالة وسواس قهرى من المرضى العرب.

■

الإغـــراء بالقراءة

فاروق شوشة

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ٤١٨ صفحة



يضم الكتاب، المقالات التى نشرها المؤلف فى زاويته الأسبوعية بجريدة الأهرام، والتى تنوعت موضوعاتها، بين نقد أدبى ومتابعات فكرية ورثاءات تلقى أضواءً على إبداعات راحلين من مفكرين وأدباء ونقاد، بالإضافة إلى نصوص شعرية تتخلل الدراسات يختارها المؤلف بعناية وحذق، وهو شاعر كبير ورئيس سابق للإذاعة المصرية.

يكتب المؤلف عن على الراعى وعبدالقادر القط وطه حسين ويحيى حقى وعبدالرحيم منصور ونازك الملائكة وصلاح جاهين ومصطفى سويف وسيف الرحبى والفيتورى ونجيب محفوظ، يكتب عنهم من خلال أعمال يحللها ويغرى الناس بقراءتها.

■

حياة المصريين القدماء فى عصر الفراعنة

نبيل عيد - حمدى عمر

القاهرة: دار البستان، ٢٠٠٣، ١٥٧ صفحة



أول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب أن مؤلفيه من المختصين فى المجال الطبى أى أنهما ليسا باحثين فى المصريات، لكنهما مع ذلك، نجحا فى أن يقدما باختصار وسلاسة، صورة مبسطة عن الحياة فى مصر القديمة منذ أكثر من خمسة آلاف عام، وقد كان للحضارة المصرية منذ هذا التاريخ الموغل فى القدم، دورها المهم والفاعل فى نشر العلم والنور وأسباب الحياة فى كل أرجاء المعمورة، ساعد على ذلك مناخ معتدل وخصوبة فى التربة ووفرة فى المياه، وموقع جغرافى متميز.

الكتاب يصف الحياة اليومية للمصرى القديم: غذاءه، لباسه، صناعته، الحرف التى أتقنها، عبادته، رحلاته، فنونه، رياضته، أفكاره عن المرأة وحقوقها، أفكاره عن العدالة وروح القانون، أعياده، أدبه، ميله إلى الفكاهة والمرح.. وذلك عبر عشرات الصور الجدارية والمجسمات والفنون التى زينت جدران المعابد.

■

قضايا نحوية

مهدى المخزومى

أبوظبى: المجمع الثقافى، ٢٠٠٢، ٢١٣ صفحة



يشعر الدارسون بثقل وطأة قواعد اللغة العربية (النحو) عليهم، ربما بأكثر مما تصعب عليهم قواعد اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، أما السبب، فهو، بحسب المؤلف، الحصار الذى فرضه أصحاب الفكر المحافظ المشدود إلى الوراء على اللغة واستعمالاتها بدعوى تقديس القديم، لكن اللغة أبسط وأجمل وأقدر على الإحاطة، هذا ما يؤكده المؤلف فى دراسته المبسطة المعمقة فى الوقت نفسه، إنها مجادلات المناطقة، التى نفرّت كثيراً من الدارسين، وهو فى مسعاه يقدم نماذج تطبيقية وإشارات دالة، مستعيناً برأس البلاغة: القرآن الكريم.

■

سامبين روائيًا ومخرجًا سينمائيًا أفريقيًا

وجدى كامل صالح

أبوظبى: المجمع الثقافى، ٢٠٠١، ٩٥ صفحة



يمثل عثمان سامبين ظاهرة فريدة فى الثقافة الفنية الأفريقية، وهو بدأ أديباً وروائياً قبل أن يتجه إلى السينما، وكانت إبداعاته فى الحالين، مرآة صادقة لطاقات التغيير والتحول فى القارة السوداء. خرج سامبين من السنغال التى شغلت موقعاً متميزاً بين سائر المستعمرات الفرنسية، مكنتها من تشكيل نخبة واسعة من السنغاليين التابعين للسياسة الفرنسية، وقد استطاع سامبين الذى اختزنت ذاكرته عشرات الأساطير والحكايات الشعبية عن

بلاده، أن يفلت من هذا المصير، وأن يراكم خبرة إنسانية ومعرفة علمية، جعلت منه قائداً لاتحاد نقابات العمال الأفارقة فى مرسيليا التى ارتحل إليها ليعمل حمالاً، وليشارك عشرات الألوف من الأفارقة فى الأعمال الشاقة التى يتأفف الفرنسيون من الإقدام عليها، وقد عبّر عبر الأدب والسينما عن هذه الحال، وكان صوته مع اشتداد عود حركة التحرر الوطنى فى أفريقيا، باعثاً على الصحوة والانفلات من أسر الاستعمار والتخلف فى آن معاً.

هذا الكتاب يتناول سيرة هذا الفنان المناضل فى نحو ثمانية فصول، عارضاً لإنجازاته الأدبية والسينمائية.

■

النفس المفككة.. سيكولوجية السياسة الأمريكية

محمد أحمد النابلسى

لبنان: طرابلس، مركز الدراسات النفسية، ٢٠٠٣



يبدأ المؤلف كتابه بتقديم تحليل نفسى للشخصية الأمريكية ويخلص إلى أن التفكك يميز هذه الشخصية بسبب الموزاييك العرقى والثقافى الأمريكى. ويؤكد على أن المادة اللاصقة لهذا الموزاييك هى الرخاء المادى الذى أدمنه الأمريكيون. ويكمل الدراسة بمناقشة نظرية للبراجماتية ولثغراتها. كما يلاحظ أن الاقتصاد الأمريكى يشارف على الانهيار ويكاد يصل بالعالم إلى حافة الهاوية. وربما عجّل الثلاثاء الأسود الأمريكى فى تحقيق توقعات المؤلف.

أيضاً يحتوى الكتاب على عروض نقدية لقائمة من أهم كتب الاستراتيجية الأمريكية، التى تطلع القارئ على الاتجاهات الفكرية المتنافسة لرسم الاستراتيجية الأمريكية، ومن الكتب التى يعرضها المؤلف: «نهاية التاريخ» و«رقعة الشطرنج الكبرى» و«سياسة المعرفة. الحرب الافتراضية» و«أزمة الرأسمالية العالمية» و«بن لادن يعلن الحرب على أمريكا» وكتاب بطرس غالى «خمس سنوات فى بيت من زجاج» و«سيرة حياة مادلين أولبرايت» و«المخابرات فى سوق الثقافة. من يدفع للمزمرين» وكتاب تشومسكى «الدول المارقة» وغيرها من الكتب التى تضع القارئ فى أجواء صناعة القرار فى الولايات المتحدة. بحيث يخرج بفكرة حول الخلفيات الفكرية والاستراتيجية الموجهة للقرار الأمريكى. لكن الفائدة الأهم للكتاب تكمن فى قدرته على قراءة دوافع السلوك السياسى الأمريكى. وذلك بتقديمه تحليلاً أنثروبولوجيا ونفسياً للشخصية الأمريكية.

■

الاتصالات والمعلوماتية فى مصر

المحرر . عبدالمنعم يوسف بلال

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٣، ٢٢٤ صفحة



يأتى الكتاب فى إطار مشروع منتدى العالم الثالث «مصر ٢٠٢٠» الذى قدمت فيه دراسات عديدة تستشرف الواقع المصرى فى عام ٢٠٢٠ وتحدد السبل الداعمة لمسيرة التطور طوال هذه الحقبة، فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع والفنون وجميع مجالات الحياة. وتهدف هذه الدراسة إلى إرساء دعائم مستقبل الاتصالات والمعلومات والصناعات المغذية لها فى مصر، آخذة فى الاعتبار ظروف المجتمع المصرى والتطورات العالمية فى مجال الاتصالات والمعلوماتية والتجارب المقارنة مع الدول الأخرى، خصوصاً مع الزيادة المطردة للشركات المشتغلة بتوفير السلع والخدمات لهذا الاقتصاد الجديد.

الكتاب يتألف من ثمانية فصول، تهتم آخرها بسيناريوهات المستقبل، كما يقدم قائمة بالمصطلحات ذات الصلة بمجتمع الاتصالات والاختصارات الدالة عليها.

■

الثقافة النفسية المتخصصة

مجموعة من الباحثين

طرابلس. لبنان: مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية، ٢٠٠٣، ١٦٠ صفحة



يتضمن العدد الجديد من هذه الدورية المتخصصة مشاركات لباحثين ومختصين من دول عربية عدة فى ملف يحمل عنوان «سيكولوجية الحروب العربية»، كما يتضمن مقالات متنوعة بينها «ثورة المجنون» للدكتور يحيى الرخاوى ونحو مشروع معلوماتى نفسى

عربى، يكتبه الدكتور جمال التركى وتحت عنوان «التعاطف فن الإحساس بالآخر» يكتبه هايكو أرنست، وتضم مكتبة العدد عروضاً لأهم كتب الطب النفسى التى صدرت أخيراً، بينما كتب لعادل صادق وهايدى توفلر ومحمد أحمد النابلسى.

■

من ميشال عفلق إلى ميشال عون تجارب فى علاقة مستحيلة

فايز قزى

بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٣، ٢٧٠ صفحة



عانت لبنان لعقدين أو يزيد من حروب أهلية، غذتها مصالح خارجية ومشاعر أنانية مدفوعة بعصبيات قبلية ودينية وعرقية، أثرت هذه الحروب، ومازالت ربما، فى جسد الدولة، التى كانت حلماً كوزموبوليتانيا، ونموذجاً للتعايش بين أضداد يضمهم وطن واحد.

المؤلف مارونى الولادة والمنشأ، لكنه عربى العقيدة والانتماء، عانى، بحسب قوله، من التكاذب الذى نطق به الأصوليون وأشباه التقدميين فى كل الطوائف اللبنانية وأحزابها، وتخلفها عن تكريس نظام التعايش بين الأقليات شعاراً ونهجاً سياسياً لحل هذه الإشكالات.

والعلاقة المستحيلة التى يقصدها المؤلف فى سيرته تلك، التى تتضمن بالضرورة تجارب سياسية وعلاقات متشابهة ذات دلالة، هى بين المسيحيين والعروبة، وهل ينتقل هنا بين تجارب عديدة عاشها مثله ملايين من الشباب فى لبنان والوطن العربى كله، متنقلاً بين حزب البعث العربى الاشتراكى، إلى الحركة الوطنية اللبنانية، إلى الثورة الفلسطينية إلى ميشال عون.

والهدف هو فتح ملف الاجتهاد والتجديد لصياغة عقد التعايش مؤسساً على علاقة ممكنة، بعد أن حولها الفشل المتكرر إلى علاقة شبه مستحيلة. ثمة إحباط، لا يغيب أبداً بين السطور أو حتى بالتصريح المباشر يلحظه القارئ للكتاب، فالمؤلف لا يرى بديلاً لمسيحيى لبنان إلا الرحيل عن وطنهم وهجرانه، إذا لم يصل لبنان إلى صيغة تعايش فى مجتمع مدنى مؤسس على قيم علمانية حداثية، وإذا ما استمر ارتداد المجتمع نحو الأصولية، وعلى المسلمين من مواطنى لبنان، أن يضطلعوا بدورهم فى الإسراع بالتمكين لهذا الخيار، إن أرادوا للبنان أن يبقى لكل أبنائه.

■

الاتجاهات الحديثة فى إدارة وتنمية مقتنيات المكتبات ومراكز المعلومات

ناريمان إسماعيل متولى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ١٧٠ صفحة



فى عشرة فصول يتناول الكتاب المفاهيم الأساسية فى إدارة المقتنيات ومحتوياتها، وهو يركز على القضايا المعاصرة ذات الصلة بتنمية المقتنيات، مثل الإتاحة مقابل الملكية، والإنترنت وإدارة المقتنيات، والتقييم والمشاركة فى المصادر، ودور النشر الألكترونى فى العالم المعاصر، والعلاقة بين الرقابة والحرية الفكرية، وإعادة هيكلة الميزانيات، والدور الجديد لأخصائى تنمية المقتنيات.

وتعتبر المؤلفة أن تنمية مجموعات المكتبة من أهم أنشطتها، ومن مقومات نجاحها فى تأدية وظائفها، وهى لا تقتصر على المجموعات الموجودة فعلاً داخل المكتبة، وإنما تمتد لكل المواد التى تستطيع المكتبة أن تصل إليها لتلبية احتياجات روادها.

■

الأحزاب الصغيرة والنظام الحزبى فى مصر

تحرير: عمرو هاشم ربيع

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٣، ٢٧٤ صفحة



لم تخضع الخريطة الحزبية المصرية لدراسات أكاديمية رصينة إلا فيما ندر وعبر طروحات جامعية غالباً، وفى معظم الأحيان، فإن الخطاب السياسى حول الأحزاب بقى خاضعاً لاعتبارات أيديولوجية وانطباعات ذاتية.

ومن أبرز جوانب ضعف المعرفة بالأحزاب، أن التركيز يدور دوماً على الأحزاب الكبيرة ذات التمثيل فى مجلس الشعب والشورى، والتى تمتلك جرائد تعبر عن وجهة نظرها فى القضايا المختلفة، لكن توجد أحزاب صغيرة لا يعرفها حتى بعض المشتغلين بالعمل السياسى والمثقفين، وهى تعانى من مشاكل داخلية، ومن غلبة الطابع العائلى أو القبلى على تكوينها، ومن غياب التقاليد التنظيمية والحزبية التى تنظم عملها، وهذه الدراسات فى مجملها تبحث فى النشأة التاريخية لهذه الأحزاب وبرامجها وسياساتها وأزماتها وعلاقاتها بالأحزاب الأخرى، فى محاولة لتأصيل هذه الظاهرة من ظواهر الحياة الحزبية المصرية التى لاتزال ترزح تحت قيود عديدة، قانونية وأمنية وسياسية.

■

أضواء على التسامح والتعصب

عاطف على

بيروت: دار الفكر اللبنانى، ٢٠٠٣، ١١٠ صفحات



يطرح المؤلف تساؤلاته المبدئية على هذا النحو: ما هو التسامح ومتى ظهر وأين ولماذا هو ضرورة وكيف يمكننا الأخذ به.

وفى سعيه للإجابة ينهل من رؤى فولتير ودراساته حول التسامح، ومن كتاب أليكس هالى «الجذور»، وهو لا يقصر دعوته ومجال بحثه على العالم العربى ولا على لبنان فحسب، وإنما يمنحها بعداً إنسانياً عالمياً، ويشير فى هذا الإطار إلى ما يجرى فى الكثير من بلدان العالم، من بينها: أيرلندا وكوسوفو والشيشان والبلقان والباسك وكورسيكا والسودان والمغرب وفلسطين ومصر، حيث لا حل إلا بقبول الآخر، بالتسامح.

وهو يرى أن النزاعات القومية والعرقية والدينية منتشرة فى كل قارات العالم، والعالم فى عصر العولمة سيكون له شكل آخر، ولن يمكن لبلاد العالم النامى الاستفادة من الفرص التى تمنحها العولمة إلا بشيوع قيم التسامح، فى العالم كله كما فى كل البلدان العربية.

وحين يشدد المؤلف على قيم التسامح، وعلى العقلانية كضمانة لها، فإنه يشدد أكثر على الديمقراطية والحرية بوصفها صمام أمان للتعايش الخلاق.

■

على عبد الرازق.. الإسلام وأصول الحكم

كامل سعفان

الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٩٥ صفحة



ولد الشيخ على عبد الرازق فى عام ١٨٨٨، وهو من بيت عريق فى العلم والقضاء، وقد أثار بكتابه «الإسلام وأصول الحكم»، الذى أصدره عام ١٩٢٥ زوابع لم تهدأ ربما حتى الآن، وحرك بهذا الحجر الذى ألقاه مياهاً راكدة فى مصر والشرق كله، فقد هز عرش الملك فؤاد الذى كان يطمح فى أن يرث خلافه المسلمين بعد سقوطها على يد أتاتورك فى تركيا، كما أزعجت دعوته عمائم حصدت عديداً من المكاسب باستقرار الأوضاع على ما هى عليه، وعطل منافعهم فى الإتجار بالدين.

وبرغم نشأته وميوله المحافظة، فقد كان الشيخ على ثورياً بطبعه، ميالاً إلى الإصلاح والتجديد دون جور على الأصول التى تربى عليها، وقد جاء كتابه الصغير هذا مثل قنبلة، فقد أسقط وزارة وفض ائتلافاً وأحدث تحولات خطيرة فى السياسة المصرية.

■

عرب أوروبا بين القاضى والجلاد

سعيد السبكى

هولندا: Benelux Middle East، ٢٠٠٣، ١٩٣ صفحة



ملايين العرب يعيشون فى أوروبا اليوم، بينهم علماء ومفكرون وباحثون فى مجالات عديدة، هؤلاء يضيفون قطعاً إلى الحضارة الإنسانية.

لكن هؤلاء، خصوصاً بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر يواجهون مشكلات عديدة، وينظر إليهم بريبة وتوجس شديدين، والمؤلف الذى يقيم فى هولندا منذ عقدين تقريباً، يرصد حياة مجتمعات عرب أوروبا، وعمليات الشد والجذب والاستمالة بالترغيب والترهيب التى يتعرضون لها من قبل حكوماتهم ومن قبل الحكومات الأوروبية ذاتها، كما يكشف عن أسباب ضعف جماعات عرب أوروبا وحالات التشرذم التى يعانونها، ويتعرض لحالات النجاح والفشل لهؤلاء.

■

Parting the Desert: The Creation of the Suez Canal
(فرق الصحراء: إنشاء قناة السويس)
Zachary Karabell
Alfred A. Knopf, 2000,310PP., $ 27.50



جسدت عملية حفر قناة السويس حسب ما يقول المؤلف طموح الإنسان فى العصر الحديث فى السيطرة على العالم والطبيعة من حوله، فها هو ينجح فى ربط البحار وسد الأنهار، كما اكتسبت قناة السويس أهمية خاصة فى عصر القوى الأوروبية الاستعمارية فى تثبيت النفوذ وتوحيد الإمبراطوريات.

يروى الكتاب قصة إنشاء قناة السويس مركزًا على جهود فرناند ديليسبس وحنكته الدبلوماسية فى تنفيذ فكرته العبقرية، كما يسرد عملية انتقال السيادة على القنال إلى يد بريطانيا بفضل الصفقة التى قام بها الوزير البريطانى بنجامين دزرائيلى، عندما اشترى حصص الخديو المصرى المدين بمبلغ ٤ ملايين استرلينى، بمساعدة المليونير روتشايلد.

ويتوقف المؤلف عند عام ١٩٥٦، ذلك العام الحاسم فى تاريخ القناة، وأيضًا فى تاريخ صعود وهبوط الإمبراطوريات العالمية. فقد شهدت أحداث ١٩٥٦ على زوال نفوذ بريطانيا وفرنسا وحقيقة النفوذ الأمريكى البازغ، والتغيرات التى حدثت بعد الحرب العالمية الثانية وظهور قوى الاستقلال الوطنى، والتى تمثلت فى الزعيم جمال عبد الناصر.

لا يكتفى المؤلف بذكر تاريخ القنال، وإنما يقوم بتوضيح أهمية قناة السويس الرمزية فى سياق التطور الثقافى والسياسى والاقتصادى الذى مر على تاريخها. ومن وجهة نظره، فإن قناة السويس اكتسبت هالة وسحرًا خاصًا يفوق أهميتها التجارية والاقتصادية، لأن قناة السويس «كفكرة» وخيال، كانت تعنى ربط الشرق والغرب، العالم القديم والعالم الجديد، أوروبا وآسيا.. إلخ. مما جعل أهميتها وتكلفتها السياسية تعلو كثيرًا على قيمة أرباحها المتواضعة نسبيًا.

يحفل الكتاب بأمثلة عديدة من الأعمال الفنية والروائية الغربية التى ذكرت فيها قناة السويس، من لوحات وأفلام وروايات وأشعار، بل وكلمات درجت فى القاموس اليومى الإنجليزى يرجع أصلها لشىء متعلق بقناة السويس، مثل كلمة «Posh» التى تشير إلى الأناقة، حيث كانت تطلق على بضائع الدرجة الأولى الفاخرة.

وعن الواقع الحالى لقناة السويس، يرى المؤلف أنه واقع مؤسف، حيث فقدت قناة السويس الكثير من أهميتها بسبب سوء إدارتها والتطور التكنولوجى الذى لحق بالنقل البحرى، مما يجعل طريق رأس الرجاء الصالح أقل تكلفة، وأيضًا يجعل إجراءات توسيع القناة مطلوبة بشكل دائم بسبب الأحجام المتزايدة للناقلات والسفن.

وهو يرى أن المدن التى تحيط بالقناة مثل مدينة السويس وبورسعيد والإسماعيلية فى حاجة لتطوير كبير لكى تعود إلى جاذبيتها الأولى.

■

Support Any Friend: Kennedy's Middle East and The Making of the U.S- Israeli Alliance
(شرق أوسط كينيدى وتكوين التحالف الأمريكى الإسرائيلى)
Warren Bass
Oxford Univ, 2003, 336PP., $ 30.00



لأكثر من ١٠ سنوات بعد قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ظلت العلاقات بينها وبين الولايات المتحدة باردة وفى بعض الأحيان صقيعية. وعندما أرادت إسرائيل أن تحسم أمرها وتتجه للغرب، كما يقول مؤلف الكتاب، فإنها اتجهت إلى أوروبا وليس أمريكا.

وكان الرئيس الأمريكى دوايت أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس ينظران إلى إسرائيل باعتبارها «صداع» سيعقد علاقات أمريكا مع العالم العربى ويعيق عملية احتواء الاتحاد السوفيتى.

وقد بدأت ذلك فى التغيير بعد فوز جون كيندى بالرئاسة عام ١٩٦٠ إلا أنه كما يقول الكاتب، فإن هذا التغيير لم يكن دراميًا أو فوريًا فقد كانت إدارة كيندى تنتقل من أزمة إلى أزمة فمن كوبا إلى لاوس ثم الكونغو وكان لديها قليل من الوقت للتفكير فى مشكلات الشرق الأوسط.

وعندما بدا الاهتمام من جانب كيندى بالشرق الأوسط فإن ذلك انصب على مصر باعتبار أنها مركز الثقل فى أى تحرك، ويعتقد الكاتب أن هجوم عبد الناصر على الصهيونية وخططه لإقامة دولة عربية موحدة ساعدت على اهتمام أمريكا بإسرائيل وتعاطفها معها.

ويتحدث المؤلف عن التحول الأمريكى الذى حدث فى العلاقات مع إسرائيل من خلال صفقة صواريخ هوك المضادة للطائرات التى وافقت واشنطن على بيعها لتل أبيب رغم الاحتجاجات المصرية وكذلك البريطانية. وقد تم تقديم الصفقة باعتبارها أسلحة دفاعية بادعاء أنه ليس لإسرائيل نوايا عدوانية. حدث كل ذلك بينما كان هناك شك فى أن إسرائيل تقيم مصنعًا لإنتاج الأسلحة النووية فى ديمونة بالنقب وتمكن الإسرائيليون بذكاء من فرض ستار على الموضوع.

■

When the King took Flight
(عندما طار الملك)
Limothy Tackett
Harvard, 288PP., # 16.50



يتناول المؤلف بشكل عميق دراسة وأسلوبًا لحظة حرجة فى عمر الثورة الفرنسية وتحديدًا فى يونيو عام ١٧٩١ عندما فر الملك لويس السادس عشر وزوجته ذات الأصل النمساوى مارى أنطوانيت من باريس متجهين فى ليلة مظلمة إلى الحدود الشرقية لفرنسا. وقد تحول الهروب إلى مهزلة بسبب عدد العربات التى رافقت الأسرة الملكية عند الهروب، وكذلك بسبب سلوك الملك.. قبل أن يصل الملك إلى هدفه بوقت قصير تم توقيفه لفحص الأوراق فى إحدى نقاط التفتيش ثم تورط الملك بحسن نية مما أدى إلى كشف هويته فقد تعرف عليه أحد القضاة وصاح قائلاً:

صاحب الجلالة. فما كان من الملك الساذج إلا أن رد قائلاً:

نعم أنا مليككم وقد جئت لأعيش معكم أنتم أطفالى المؤمنين الذين لن أخذلهم أبداً.

ويقول المؤلف أن ذلك كان لحظة رمزية للغاية فى عمر الثورة، فالملك يكشف عن طبيعته غير الديمقراطية وعدم تقبله لأى فكرة تعتبر حكمة بعيدًا عن الحكم المطلق. وهو أمر يصب فى قلب المواجهة بين المواطنين العاديين الذين ثاروا على الملك وبين أسرة البوربون التى تعتقد أن حكمها مستمد من السماء.

■

Farewell, My Queen
(وداعًا ملكتى)
Chantal Thomas
Translated by Moisheblack
Gearge Braziller, 2003, 239PP., $ 22.50



اختارت مؤلفة هذا الكتاب، وهى مؤرخة فرنسية متخصصة فى شئون فرنسا فى القرن الثامن عشر، شخصية ربما كانت حقيقية أو متخيلة لتكون بمثابة الراوى إنها أجاثى سيدون لابور إحدى وصيفات الملكة مارى أنطوانيت زوجة لويس السادس عشر اللذين أعدمتهما الثورة الفرنسية.

لقد تم اعتبار مارى أنطوانيت المولودة فى النمسا كبش فداء لكل مشاكل فرنسا لكن هذه المساعدة أو الوصيفة ترى أن مارى أنطوانيت لم تفعل شيئًا خاطئًا.

وقد عملت مع ملكة فرنسا لمدة ١١ عامًا وتمكنت من الهرب من ١٦ يوليو ١٧٨٩.

وبدأت تروى قصتها فى فيينا عام ١٨١٠ حيث أصبح عمرها ٦٥ عامًا وقد واتتها الشجاع أنئذ لتسجل ذكرياتها عن هذه الأيام الأخيرة المرعبة.

إن هذه الشخصية سواء كانت حقيقية أو متخيلة وهى على الأرجح متخيلة بارعة فى سرد ما يحدث داخل قصر فرساى وكانت تسمع أكثر مما تتحدث. كانت تمضى معظم وقتها فى حجرتها تسافر عبر الكتب التى تحكيها بعد ذلك لسيدتها الملكة. وكان دورها أن تقرأ للمرأة حتى تنام. لقد وصلت إلى القصر عام ١٧٧٨ وفى السنوات التى تلت كيفت نفسها لطقوس القصر.

وفى اليوم التاريخى أى ١٤ يوليو ١٧٨٩ عندما اقتحمت الجماهير سجن الباستيل عقب طرد الملك لوزير ماليته بثلاثة أيام لم تكن الراوية تتوقع ما سيحدث. كان كل ما يشغلها هو موعدها الصباحى مع الملكة ثم أمضت بقية اليوم وذهبت إلى سريرها دون أن تدرك أن الثورة مندلعة بالفعل.

وتعطى الراوية تفاصيل الـ ٤٨ ساعة أمضتها بعد ذلك بدون نوم تحكى فيها ماذا حدث داخل القصر وكيف قلبت الثورة الأمور رأسًا على عقب والشائعات التى أصبحت على كل لسان، وهل هى بداية النهاية للعرش الفرنسى؟

إن الكتاب هو من الخيال لكنه يعتمد على حادثة وقعت بالفعل ثم

تسبح المؤلفة من خلالها وبحكم تخصصها فى هذه الفترة من تاريخ فرنسا، صورة حية عما حدث للملكة مارى أنطوانيت.

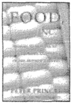
■

Food, inc.: Nundelta Mansanta.. The Promises and Perils of the Biotech Harvest

(وعود ومخاطر الأغذية الوراثية)

Peter Pringle

Simon and Schuster, 2003, 224PP.,$ 25.00



يخوض هذا الكتاب فى قضية شائكة للغاية مازالت حتى الآن تثير جدلاً شديداً فى الغرب. هذه القصة هى الأغذية الوراثية التى أصبحت منتشرة على أرفف محلات السوبر ماركت وبعضها يتم الإعلان عنه صراحة بأنه أغذية وراثية على الأغلفة والبعض الآخر لا يعرف المستهلك عنه هذه المعلومة.

ويشير الكتاب إلى مدى تعقد الظاهرة المرتبطة بالشركات الدولية العملاقة وبالحكومات وخاصة الإدارة الأمريكية.

وعند إعداده هذا الكتاب تحدث المؤلف مع أطراف عديدة من المؤيدين والمعارضين والتقى بالعلماء المدافعين وأيضًا بالمعارضين.

إن هناك ٣ فئات تعارض الأغذية الوراثية حسبما يقول المؤلف الفئة الأولى من يسميهم الرجعيين الذين ينكرون قيمة هذه الأغذية لأسباب دينية أو بيئية أو تتعلق بالأمان والسلامة ثم هناك الإصلاحيون الذين يطالبون بوضع علامات أو الكتابة على أغلفة السلع لتوضيح أن هذه أغذية وراثية أو معدلة جينيا، وهناك الفئة الثالثة وهى التى يدافع أصحابها على الأغذية الطبيعية لأنهم يمتلكون زراعات واسعة. ثم يناقش المؤلف بعد ذلك وجهات نظر المؤيدين لهذه الأغذية والضغوط التى يمارسونها على الحكومات لترويجها باعتبارها ستحل أزمة الغذاء العالمى الراهنة لكنه لا يقدم فى النهاية خريطة طريق لحل الخلاف بحيث لا يتم التضحية بهذا التقدم العلمى الكبير وأيضًا لا يتم التضحية بمطالب المعارضين لهذه السلع.

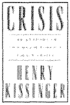
■

Crises.. The Anatomy of two Major Foreign policy Crises

(أزمات.. تشريح أزمتين كبيرتين فى السياسة الخارجية)

Henry Kissinger

Simon and Schuster, 2003, 564PP.,$ 30.00



خلال السنوات الماضية، اعتاد وزير الخارجية الأمريكى ومستشار الأمن القومى الأسبق الدكتور هنرى كيسنجر الخروج على القارئ بمؤلفات بعضها يبحث عن جوانب نظرية أو فكرية تتعلق بالسياسة الخارجية وتصوره للدور الأمريكى والبعض الآخر بالدور الذى لعبه هو شخصيًا خلال عمله الرسمى فى إدارتى نيكسون وفورد.

والكتاب الجديد يقدم سجلاً لأزمتين من أزمات السياسة الخارجية وقعتا عندما كان كيسنجر صولجان السلطة الأولى فى حرب ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل والثانية إجلاء سايمون بعد استيلاء فيتنام الشيوعية عليها.

من خلال هذه السجلات يظهر كيسنجر كواحد من أهم رجال الدولة المؤثرين فى القرن العشرين من خلال دبلوماسية التليفون عندما اندلعت أزمة حرب أكتوبر ١٩٧٣ فمحادثات كيسنجر التليفونية تستطلع وتحذر وتهدد كل أطراف اللعبة سواء كان الاتحاد السوفيتى السابق أو إسرائيل أو مصر أو بريطانيا أو حتى دبلوماسى الأمم المتحدة. وهو أيضًا يظهر مدى امتعاضه من أعضاء الكونجرس أو البيروقراطية الأمريكية، ثم هناك العلاقة بينه وبين الرئيس ريتشارد نيكسون الذى انغمس (فى ذلك الوقت) فى فضيحة ووترجيت.

ويظهر من الكتاب أن محاولة كيسنجر التوصل إلى وقف لإطلاق النار بين كل من مصر وسوريا مع إسرائيل استهدفت تقليل النفوذ السوفيتى فى الشرق الأوسط مع الحفاظ على الدعم الأمريكى لإسرائيل وتقوية الثقة العربية فى قدرة الولايات المتحدة التفاوضية.

كما يتناول الكتاب أزمة حرب فيتنام فى مراحلها الأخيرة فقد وجد كيسنجر نفسه محاصراً بين شبح اقتراب سقوط سايجون التى كانت تحاصرها قوات فيتنام الشمالية وعدم استجابة الكونجرس لطلبات الإدارة الأمريكية بالموافقة على مساعدات عسكرية طارئة لمواجهة الموقف هناك.

ويشير كيسنجر، من خلال هذه السجلات، إلى أن الأزمة التى وجدت أمريكا نفسها فيها هى فى جزء كبير منها من صنع رجالها، فهناك الخلافات داخل الإدارة حول الحرب وهناك الخلافات مع الكونجرس الأمر الذى أصاب فى النهاية السياسة الأمريكية فى فيتنام بما شبه الشلل.

إن هذه السجلات تبدو مثيرة بدرجة كبيرة حيث تكشف ديناميكيات العمل الدبلوماسى وقت الأزمات. ويشير إلى قدرات كيسنجر التفاوضية الكبيرة خلالها.

■

Victim: The Secret Tapes of Marilyn Monroe

(ضحية: الأشرطة السرية لمارلين مونرو)

Matthew Smith

Century, 2003, 328PP.,# 16.99



أصدر المؤلف كتابًا سابقًا بعنوان «الرجال الذين قتلوا مارلين» وجادل المؤلف فى ذلك الكتاب بأن للرجال المخابرات المركزية الأمريكية هم أكثر المرشحين رغبة فى قتل مارلين مونرو من أجل تسوية وتدمير سمعة الرئيس جون كيندى وشقيقه روبرت المدعى العام الأمريكى. لكن المؤلف لم يجد أدلة قاطعة تثبت ما قال.

وفى هذا الكتاب الجديد يبحث المؤلف بشأن مجموعة من الأشرطة السرية سجلتها مارلين مونرو قبل يومين من وفاتها وربما تم تسليم شريطين منها إلى الدكتور جرينسون وهو طبيب نفسى. وقد علم المؤلف أن الشريطين يحتويان على بعض الأفكار والخواطر التى سجلتها مارلين مونرو ولم تستطع أن تقولها مباشرة للطبيب عندما كانت تذهب إليه ويعطى المؤلف تفاصيل كثيرة فى كتابه عن محتويات هذه الشريطين بالتحديد ويحلل ما قالته ويحاول أن يتوصل إلى دليل جديد يقوده إلى معرفة ما بشأن من قتل مارلين مونرو.. وهو يرفض افتراض أنها انتحرت ويشير إلى أنها ربما تعرضت لحادث تراجيدى مأساوى أو ربما تعرضت للقتل.

وتكشف التسجيلات كيف أن مارلين أرادت من الطبيب وزوجته تبنيها فى أسرتهما بعد اكتمال علاجها وكيف تعرضت للإيذاء الجسدى والجنسى فى طفولتها.

■

Bad Elements: Chinese rebels from los angeles to Beijing

(عناصر سيئة.. المتمردون الصينيون من لوس أنجلوس إلى بكين)

Ian Buruma

Phoenix, 2003, # 8.99



أصبحت قضية المنشقين الصينيين عن الحكم الشيوعى أو كادت تكون مسألة خارج سياق الأحداث فالغرب لم يعد يستخدم هذه القضية فى تعامله مع الصين بعد أن أصبحت قوة اقتصادية ناهضة وواعدة وتحول الكلام إلى لغة الاقتصاد والبيزنس مع أن ذلك لا يمنع الحديث ولو بصورة مقتضبة عن سجل حقوق الإنسان فى الصين.

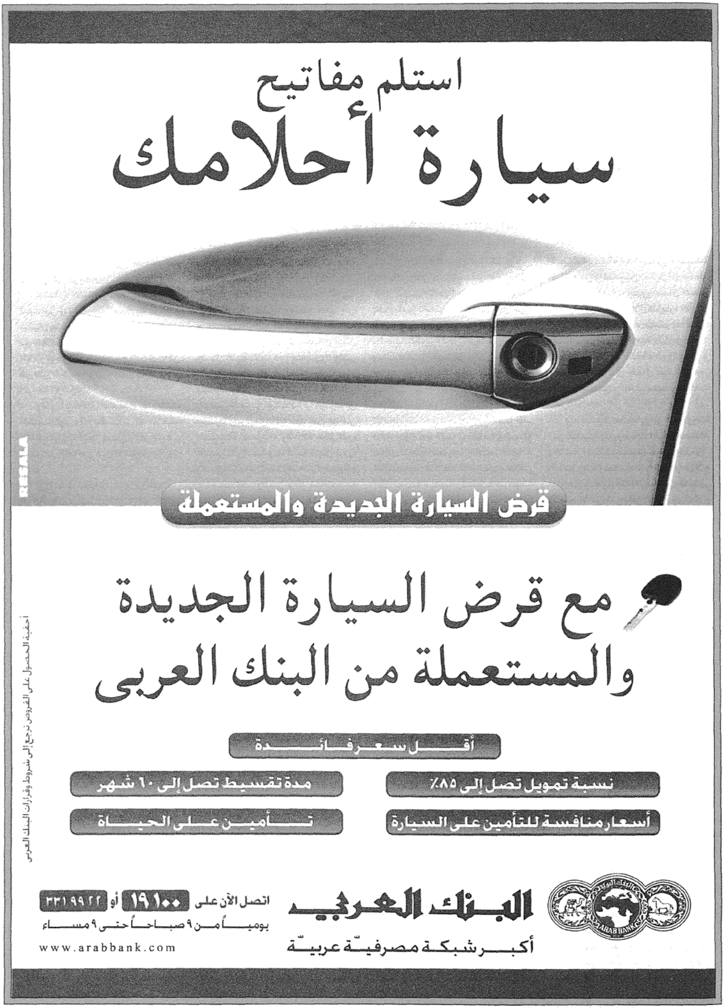
وقد ظلت تلك المسألة أو قضية المنشقين على الرأس جدول أعمال الساسة فى الغرب لدى تعاملهم مع الصين حتى بداية التسعينيات.. وهذا الكتاب يفرد مساحة واسعة لهؤلاء الذين تجرأوا ووقف ديكتاتورية الحزب الشيوعى ورفضوا سياساته ومنطلقاته الفكرية فكان جزاؤهم التعذيب والسجن والتشرد والهروب أو النفى إلى الخارج. وقد التقى المؤلف مع كثير من المنشقين فى الولايات المتحدة وفى تايوان وهونج كونج وحتى فى العاصمة بكين.

وقد فوجئ المؤلف بأن هؤلاء الأشخاص رغم كل المعاناة النفسية والتعذيب فإنهم تحدثوا بشكل شجاع للغاية عن أزماتهم مع النظام الشيوعى. ويتساءل المؤلف فى كتابه ما الذى أعطى هؤلاء المنشقين القوة لكى يستمروا فى الحياة بشكل صحى ونفسى سليم رغم المعاناة؟

ولم يجد المؤلف إجابات حاسمة حول ذلك لكنه من خلال حواراته الذكية وأسئلته العميقة استطاع أن يضع أمام القارئ صورة واضحة المعالم لصين ما بعد «تيان آنمين» أى بعد القمع الشديد لانتفاضة الطلاب فى ميدان السلام السماوى وسط بكين فى نهاية الثمانينيات.

وقد تبدو هذه الصورة الآن باهتة بعض الشىء فالصين ٢٠٠٣ دولة مستمرة فى تحقيق نمو اقتصادى يحسدها عليه العالم وتصدّر منتجاتها إلى كل الدول بما فى ذلك الولايات المتحدة واليابان وفى أوروبا.

■


استلم مفاتيح
سيارة أحلامك
RESALA
قرض السيارة الجديدة والمستعملة
مع قرض السيارة الجديدة والمستعملة من البنك العربى
أقل سعر فائدة
نسبة تمويل تصل إلى ٨٥٪
مدة تقسيط تصل إلى ٦٠ شهر
أسعار منافسة للتأمين على السيارة
تأمين على الحياة
أحقية الحصول على العروض ترجع إلى شروط وقرارات البنك العربى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
ARAB BANK
اتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٢٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساء
www.arabbank.com

الكتب

وجهات نظر

رسائل

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

من عامل مصرى إلى الأستاذ هيكل

«إن الثمانين وبلغتها.. قد أحوجت سمعى إلى ترجمان».

هكذا رد الشاعر المعمر والمخضرم لبيد بن ربيعة على معاوية بن أبى سفيان عندما سأله عن حاله.. فلم يقل له خلاص لقد بلغت الثمانين من العمر ووهن العظم منى ولابد أن أركن فى ظل الحياة مولى وجهى شطر وادى الراحة الأبدية.

ولكن لبيد قال ما معناه لقد بلغت الثمانين ولم يعترنى إلا ضعف السمع. ولهذا أرعى غنمى وإبلى وزرعى وضرعى وأمشى فى الأسواق وأقول الشعر..

وأن سيف الله المسلول خالد بن الوليد كان حزيناً فى مرض موته لأنه كان يتمنى أن يموت فى معاركه شاهراً سيفه. مما جعله يعزى نفسه عزاء مراً بقوله:

«ها أنا ذا أموت على فراشى كالبعير فلا نامت أعين الجبناء».

ويقول الشاعر أبو العلاء المعرى..

من السعد فى دنياك أن يهلك الفتى..

بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا

فإن قبيحاً بالمسود ضجعة..

يشكو فيها إلى النفر الكربا

هكذا يقول أبو العلاء أن الموت فى رحى المعارك أكثر تقديراً واحتراماً من الموت على الفراش الوثير..

كما أن البطل العربى الهرم والعجوز عمر المختار لم ينصرف من معاركه ضد الإيطاليين المحتلين لليبيا بإذن أو بغير إذن حتى قبض عليه وقتلوه ومات شهيداً..

أقول قولى هذا من منطلق عام وآخر خاص.. فالمنطلق العام يتجلى فى الأستاذ هيكل موضع تقدير من عمال مصر النقابيين واليساريين لما تتوافر فى شخصه من صفات لا تتوافر لغيره فى هذا الزمن الردىء والخسيس الذى انعدمت فى رحابه «الشخصية» المصرية العامة على المستوى المحلى والقومى.. ولكن ظهرت فيه الشخصية المشهورة وتكاثرت فيه تكاثر بغاث الطير «من بعوض وذباب وبراغيث» هذه الشخصية المشهورة التى ازدحمت بها مصر فى مجال الكرة والفن وفى مجال السلطة والحياة النيابية.

وفى هذه الزحمة الكريهة والكئيبة للشخصية المشهورة وما صاحبها من هزل وهزال فى الحياة المصرية المعاصرة يبدو الأستاذ هيكل مثل جبال الهمالايا فى مصر والوطن العربى لا لأنه عمدة الصحافة العربية وعميد الأدب السياسى المعاصر فى الوطن العربى ولا لأنه تألق وتألق مصرياً وعربياً وعالمياً بعد خروجه من الصحافة المصرية.. ولا لأنه حقق ثورة خبرية ومعلوماتية قبل ثورة الاتصالات والمعلومات الجديدة والمعاصرة.. ولكن لأنه شخصية مصرية عامة تحمل سمات أحمد عرابى، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس، وجمال عبد الناصر، وخالد محيى الدين. ومن ثم فإن انصرافه خطر وضرر على الأمة المصرية اليتيمة من الشخصية العامة المحلية والقومية التى سوف تندب انصرافه قائلة..

خلا الجو من صراخ العقاب..

واستراح الغاب من صوت الأسد

أما المنطلق الخاص فيبدو فى إحساسى أن الأستاذ هيكل كان وراء الترحيب بشخصى وتقديرى ومعاملتى معاملة طيبة خالية من الدونية عندما كنت أتردد على دار الأهرام بملابس الشغل حيث أعمل كمسارى أتوبيس وذلك خلال مشاركتى بالكتابة فى مجلة الطليعة اليسارية التى كان يشرف عليها الأستاذان المرحومان لطفى الخولى وميشيل كامل.. كما لا ينسى له العمال النقابيون اليساريون الذين ذهب بعضهم إلى مكتبه بالأهرام يطلب التدخل لوقف إعدام قادة الحزب الشيوعى السودانى ومن بينهم النقابى العمالى البارز الشفيع أحمد الشيخ وحاول الرجل ولكنه لم يوفق..

من هذا المنطلق العام والخاص أعتب على الأستاذ هيكل أكثر من عتاب لانصرافه عنا ولأنه لم يبح للشعب المصرى والأمة العربية بالكثير من الحقائق التى كان لابد من معرفتها حتى تحاط الأجيال المصرية والعربية علماً بأمور تجعلها تقاتل من أجل حياة أفضل يتوافر فيها الخبز الخبز الخبز والحرية الحرية الحرية.. فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان على حد قول السيد المسيح وهذا هو عتابى وعتابى وعتابى.

العتاب الأول.. بدأت كلامى بأن الانصراف أمر مكروه جداً لصاحب المكانة دون صاحب الوظيفة وخاصة شاغل المكانة الشعبية وليست المكانة السلطوية. فالأستاذ هيكل يحظى الآن بمكانة شعبية ولدتها موهبته التى جمعت الناس حوله كرائد للوطنية المصرية التى تعانى محنة الإهدار والانحدار حيث هبط المجتمع المصرى إلى الحضيض وباتت أحواله العامة أكثر بشاعة من المجتمع المصرى المملوكى والعثمانى.. ولهذا انصراف الأستاذ لا يعنى الغروب ولكنه يعنى الاغتراب الذى هو صنو الموت..

وليس من مات فاستراح بميت..

إنما الميت ميت الأحياء

مع العلم أن الأستاذ يعيش حياة الغروب وللغروب توهجه الذى يتجلى فى شفقه الأحمر القانى وللأسف فهو يريد أن يقفز على توهجه وشفقه إلى مرحلة الأفول أى الموت ولا يرضى أحد أن يغيب الأستاذ بذريعة التفكر والتأمل بالنظر إلى الوراء والنظر إلى الأمام.. ولكن هذا التفكر وذاك التأمل لا يهدئ من ثورة الغاضبين ولا يشبع جوع الجائعين فى مصر المعاصرة.

العتاب الثانى.. يقر الأستاذ بأن شرعية سلطة يوليو تعتبر تجربة إنسانية علماً بأنها تجربة وطنية لم تكتسب شرعيتها من الانقلاب العسكرى ضد الملك فاروق ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. بل اكتسبت شرعيتها من التفاف الشعب المصرى حولها واحتضانها لعدم وجود تنظيم شعبى لها.. وكان فى مقدمة المرحبين الطبقة العاملة المصرية طبقة المظلومين والمنتجين بدليل أن سلطة يوليو ارتبطت بجمهور عمال النقل المشترك ووظفته خلال الزيارة الأولى لوزير خارجية أمريكا مستر (دالاس) للقاهرة وخلال أزمة مارس ١٩٥٤ مما ثبت أقدام سلطة ثورة يوليو وأصبح البكباشى جمال عبد الناصر رئيس مصر وزعيم مصر والأمة العربية.

ولذلك فإن سلطة يوليو فى المرحلة الوطنية والمرحلة التقدمية والاشتراكية قدمت للشعب المصرى الخبز وغموسه ممثلاً فى الإصلاح الزراعى وتأميم قناة السويس وتمصير الاقتصاد الوطنى وفى التعليم والعلاج والخدمات العامة والتموينية وفى التصنيع المتقدم والزراعة المتطورة والمدعمة وفى التأميمات والتأمينات وزيادة مكاسب العمال. وذلك دون أن نعطيه ذرة من الحرية مما جعل وطنية سلطة يوليو وطنية تنز بالطغيان الذى تعددت مظاهره فى الحياة المصرية.

فالثورة وليست الثورة المضادة عيدٌ للمظلومين. فكيف يُقتل ويُشنق المظلومون فى عيدهم حيث بادرت سلطة يوليو بعد قرابة خمسين يوماً من قيامها بحشد الجيش المصرى. جيش العمال والفلاحين إلى الصدام العنيف مع عمال كفر الدوار الذين قاموا بمظاهرة مطلبية وسلمية فقتل منهم العشرات وشنق العاملان خميس والبقرى بعد محاكمة عسكرية مشكلة من ضباط الجيش المصرى الأعضاء فى تنظيم الضباط الأحرار.

كما يجب أن ندعو الأستاذ قبل أن ينصرف أن يقدم للشعب المصرى والأمة العربية رأيه فى المحاكمات العسكرية السجون والمعتقلات والتعذيب.. هذا القتل والتعذيب اللذان طالا سوريا ولبنان حيث اغتيل الجنرال اليسارى عفيف البزرى رئيس أركان الجيش السورى وقتل المناضل اليسارى فرج الله الحلو أمين عام الحزب الشيوعى السورى واللبنانى.. ومما يذكر أن الكثير

من الذين تعرضوا للقتل والتعذيب كانوا من المختلفين فقط مع الرئيس جمال عبد الناصر مع أن الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية.. ولهذا فالأستاذ مطالب بتبرير وتفسير هذه الظواهر التى وقفت فى ظل السلطة الناصرية والتى نتمنى أن تعود بوطنيتها واشتراكيتها خالية من شوائبها الاستبدادية..

العتاب الثالث.. يقول الأستاذ بوجود علاقة خاصة بالرئيس جمال عبد الناصر.. وهذا صحيح تماماً.. ولكن هذه العلاقة الحميمة لم يكن مصدرها الصداقة فقط، بل كان مصدرها الرئيسى.. هو دور الأستاذ هيكل فى رسم سياسات دولة الاشتراكية الناصرية حيث كان يحظى بلقب المفكر الأول والمنظر الأول والفيلسوف الأول للرئيس جمال عبد الناصر وذلك بجانب الكثير من المثقفين والمفكرين الملتفين حول الرئيس مثل القاضى الشيوعى أحمد فؤاد والدكتور راشد البراوى وفتحى رضوان وسليمان حافظ والدكتور السنهورى وغيرهم.. ولهذا يقال إن الأستاذ هو الذى خط بقلمه كتاب فلسفة الثورة ووضع المقدمة الرائعة والطويلة لدستور ١٩٥٦.. ووضع أيضاً الميثاق الوطنى وبيان ٣٠ مارس..

ولذلك ينبغى على الأستاذ أن يصارح الشعب المصرى والأمة العربية بموقفه من منهج الحكم الذى مارسه الرئيس عبد الناصر حيث حكم مصر بفكرة السيادة دون فكرة الحرية رغم شعبيته وذلك من خلال القبض بيد من حديد على سلطات الدولة الثلاث. التنفيذية والتشريعية والقضائية مما أدى إلى بروز ظاهرة الوحدانية السلطوية والسياسية وإلى بروز ظاهرة توريث العسكر للعسكر فى حكم مصر وفقاً للقانون المغولى الذى يفضى إلى قيام الحكم كل الحكم على أكتاف حملة السلاح الذين لا سياسة لسواهم.. ولعل أستاذنا يعلم أن هاتين الظاهرتين السلطويتين هما مصيبة المصائب التى حاقت بمصر المعاصرة مما يدعو إلى مطالبة الأستاذ أن يدلى بدلوه فيهما حتى تحاول الأجيال المصرية القادمة التصدى لهاتين الظاهرتين.

العتاب الرابع.. لماذا لم يفدنا الأستاذ عن سبب خلاف الرئيس عبدالناصر مع الرئيس الركن عبدالكريم قاسم زعيم الثورة العراقية التى أطاحت بالنظام الملكى العراقى.. هل كان يريد الرئيس جمال عبدالناصر إجبار العراق على الوحدة مع مصر وسوريا. وهذا هو الأمر المرجح. بدليل تدخل الصحفى الهندى الصديق والكبير «كرانجيا» الذى نصح الرئيس عبدالناصر بضرورة وقف هذا الخلاف وما صاحبه من ضجة إعلامية ومظاهرات تهتف بسقوط قاسم العراق. لأن هذا الخلاف فى مصلحة إسرائيل وقد ثبتت صحة ذلك كما ثبتت صحة موقف الرئيس عبد الكريم قاسم من رفض الوحدة بعد انفصال سوريا بانقلاب عسكرى.

العتاب الخامس.. نناشد الأستاذ أن يحدث الرأى العام المصرى والعربى عن خيبة المشروع النووى المصرى حيث تفضلت علينا دولة الإشتراكية السوفيتية بمفاعل نووى وتوأمته بمفاعل نووى آخر للهند فبادرت الهند بالتصنيع النووى وأنتجت القنبلة الذرية كما بادرت بصناعة المفاعلات النووية بينما بادرت دولة مصر المحروسة بتجريش مفاعلها النووى رغم علمها بأن إسرائيل قد أنتجت قنابلها النووية لردع الشعب المصرى والأمة العربية.

العتاب السادس.. من يستطيع غير الأستاذ أن يكشف للمصريين لغز العلاقة بين الرئيس عبدالناصر وبين المشير عبدالحكيم عامر حيث يحظى الرئيس بشعبية قوية وسلطة شمولية ومع هذا فلم يقدر أن يبعد المشير عن القوات المسلحة إلا بعد هزيمتنا فى سنة ١٩٦٧ أمام إسرائيل.. فهل كان ذلك مجاملة الصديق للصديق أو خوف الصديق من الصديق المهيمن على الجيش المصرى العتيد.

العتاب السابع.. اعترف الأستاذ فى حديث انصرافه.. بأن علاقته ببعض أطراف السلطة كانت مشدودة.. وخلافاته مع الاتحاد الاشتراكى وتنظيمه الطليعى كانت متوترة، ثم قال بأنه بعد وفاة عبدالناصر وقف بكل جوارحه مع الرئيس أنور السادات.

ومن هذا المنطلق فقد شارك الأستاذ فى انقلاب السادات الذى أطاح بالقيادات الناصرية بذريعة ثورة التصحيح. هذه الثورة المضادة التى كانت مقدمة لاغتيال الاشتراكية الناصرية التى هى مشروع الرئيس عبدالناصر الذى اعترف الأستاذ فى ذات الحديث بأنه يؤمن بمبادئ هذا المشروع.

والأمر الغريب الذى لا يعرف سره إلا الأستاذ هيكل هو مبادرة الرئيس جمال عبدالناصر بشأن اختيار أنور السادات نائباً لرئيس الجمهورية رغم الشائعة التى قالت عنه أنه على صلة وثيقة برئيس المخابرات السعودية كمال أدهم راعى شئون المخابرات الأمريكية فى الوطن العربى.. وأصبح السادات رئيساً للجمهورية برضى كل الناصريين رجالاً ونساءً ثم انقلب عليهم وأطاح بهم ومعهم الاشتراكية الناصرية وكاد يصبح زعيماً للشعب المصرى والأمة العربية بحرب أكتوبر المجيدة وننتظر ما سيقول الأستاذ عن خفايا الخلاف بين الرئيس السادات وبين الفريق سعد الدين الشاذلى وكذلك خفايا معاهدة كامب ديفيد التى لم تطرح حتى الآن..

العتاب الأخير.. لا جدال فى أن حديث الانصراف الذى نشره الأستاذ هيكل على صفحات جريدة الأهرام القومية هو حديث الوداع للأستاذ ولهذا كان لا يجب أن ينشر بجريدة الأهرام الحكومية حتى لا يغل الحياء صراحة الأستاذ فيقول ما عنده للشعب المصرى والأمة العربية بشأن أوضاع مصر المعاصرة.. ولكن صراحة الأستاذ قد غلت بنشر حديث وداعه فى جريدة الأهرام، ولهذا فإن انصراف الأستاذ ووداعه لا تفسير لهما إلا أن الأستاذ لم ينو الغروب ولكنه ينوى الاغتراب لإحباطه من واقع الحال فى مصر المعاصرة.. دون أن يبوح بها بصراحته التى يبدو أنها مغلولة بالحياء..

ولذلك فالأستاذ قد حرم الشعب المصرى والأمة العربية من معرفة رأيه بشأن مصر التى أصبحت تعانى من انهيار دستورى بسبب أحكام القضاء وآراء فقهاء الدستور بخصوص بطلان الاستفتاءات والانتخابات النيابية طوال العقدين الماضيين.. وبشأن الخراب والفساد والاستبداد والفوارق الاجتماعية الصارخة.

العامل
عطية الصيرفى
ميت غمر

تصويب

فى العدد الأخير (عدد أكتوبر ٢٠٠٣) وقع خطآن مطبعيان مهمان (فى رأيى)، فى طباعة مقالى: مستقبل الرأسمالية..

أحدهما وصف الرأسمالية (فى صلب الموضوع وفى أحد المقتطفات البارزة) بالنظام الرأسمالى القبيح وصحته النظام الرأسمالى القح، وحيث أنى ذكرت ذلك فى مناسبة تقريع مؤلف الكتاب الذى أقدم عرضاً له، بالتحيز المفرط وعدم الموضوعية، فلا أحب أن ينسب إلى قول يتضمن تحيزاً مثله!

والخطأ المطبعى الثانى جاء فى ذكر تاريخ نشر الكتاب الذى قدمت عرضاً له وهو كتاب «رؤية ٢١/٢٠: دروس القرن العشرين للقرن الواحد والعشرين»، والتاريخ الصحيح للنشر هو سنة ٢٠٠٣، وليس ٢٠٠٠.

جلال أمين

قـــــــــراءة ..

الحـــالـــة «الفكـــريــة» بــين العــــراق والكــــويت

كنا حشداً من رؤساء التحرير وكبار الكتّاب والإعلاميين وأصحاب الأعمدة عربًا وأجانب، وعدد من طلاب الإعلام، أو بالأحرى طالباته المجدات ـ أخذاً بالأكثرية ـ من جامعات إماراتية. وكانت المناسبة «منتدى الإعلام العربي» الذي يرعاه نادى دبى للصحافة. وكان الموضوع، تحت العنوان الأكبر «الإعلام والحرب» حول «تغطية الإعلام العربى للحرب على العراق». وكان المشهد داعيًا للتأمل والتوقف.. والنظر.

القاعة امتلأت ـ هذه المرة ـ عن آخرها. رؤساء تحرير الصحف الكويتية متكاتفين أخذوا صفًا أول، مستعدين ـ استباقًا ـ للمشاركة، ومن كان من ضيوف المنتدى «العرب» قد فاته، لسبب أو لآخر جلسات أخرى، حرص على أن يكون حاضراً وشاهداً، أو بالأحرى «متفرجاً» فى تلك الجلسة.

ويومها بالذات كانت الصحف التى احتسيناها (جميعًا) مع قهوة الصباح، قبل أن تضمنا جلسة النقاش، أو الذى يُفترض أنه نقاش تقول: «بعد يومين من الاعتداء الإسرائيلى على سوريا.. شارون يهدد باستعداد إسرائيل للضرب فى أى مكان آخر بالمنطقة. والجيش الإسرائيلى ينشر وحدات للمدفعية على الحدود مع سوريا ولبنان» (الأهرام ٢٠٠٣/١٠/٨). «وزير إسرائيلى يهدد بإحراق دمشق وبيروت.. وواشنطن تتجه لعقوبات على سورية» (الشرق الأوسط).

ويومها بالذات أيضًا، كانت الأنباء قد جاءت بأن وزير الخارجية العراقى، عضو مجلس «الحكم»، صرح بأننا نرفض وجود قوات عسكرية لدول الجوار فى العراق. ورغمًا عن ذلك ـ أو عن أنفه ـ لك أن تختار، كان الأمريكيون «المحررون للعراق» قد «قرروا» واتفقوا مع الجار العتيد و«المثير للجدل» تركيا ـ على أن ترسل أنقرة عشرة آلاف جندى للعراق. كفاتحة ـ ربما ـ لتوابع زلزال «خليجى» هز منطقتنا التى اعتقدناها لعقود هادئة كالصحراء فى هذا المساء الدامى من ليلة العشرين من مارس ٢٠٠٣. وبحكم الطبيعة ـ وهى قاهرة ـ لابد لكل زلزال من توابع، رغم الغافلين واللاهين.. والواهمين بالتمنى.

هكذا كانت الأنباء، وهذا ما كان فى الصحف صباح اليوم الذى تم تخصيص إحدى جلساته لمناقشة «التغطية الإعلامية للحرب على العراق».

كان هذا مناخاً وطقسًا، ومحيطًا وأرضًا ـ أو هذا ما كان ينبغى أن يكون ـ لما جرى هذا الصباح فى قاعة فندق «السلام» فى مدينة الجميرة. إلا أنه بدا بعيداً كل البُعد ـ للأسف ـ عن كل هذا الجدل القديم.. والعقيم الذى استغرق المتحاورين «المتربصين».. عن كل هذا الصياح والصخب.. والذاتية. وكأن الاستقطاب الحاد والتعصب، واستحضار «داحس والغبراء» بسبب أو بدونه، أصبح تقليداً عربيًا وسمة فكرية أصيلة.. «لا أستثنى أحداً..». وكأنه ـ بعد كل ما حدث.. وتغير ـ مازلنا واقفين عند الزاوية الأولى: «الحالة بين العراق والكويت»؛ هذا التعبير العبقرى فى دبلوماسيته، والذى احتل ـ كبند تقليدى لابد منه ـ جدول أعمال الاجتماعات العربية لعقد كامل من الزمان.

وفى حين بدا الجميعُ «متبارين».. وصاخبين، تبقى حقيقة أن الجميع ـ على الأرض ـ «خاسرون». سواء من اعترفوا بذلك، أو من اعتقدوا بغير ذلك. يستوى فى ذلك من قال.. ثم «قعد». ومن شارك، ثم عاد بلا غنيمة، وإن أفهموه غير ذلك.

ويستوى فى ذلك ـ وتلك هى المفارقة ـ من أيّد، ومن ندّد.. ومن حرص على «ذهب الصمت».

بدا المشهد ـ على أية حال ـ عبثيًا. ودالاً على الحالة الثقافية العربية. كما قالت طالبة صغيرة حرصت على أن «تقف» لتنبه «الكبار» إلى أنهم خرجوا عن الموضوع. ولعلها ـ بعد أن تتطلع على تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣ الصادر عن UNDP ـ تنبههم إلى أنهم للأسف ربما كانوا قد خرجوا ـ منذ زمن ـ من «اللحظة».

هل يتحاور المثقفون العرب أم يتشاجرون؟ سألتنى إحدى الطالبات خارج القاعة. وكنت قد رأيت السؤالَ ذاته على وجوه الغربيين الذين حضروا «المناقشة». ولم يكن السؤالُ ـ رغم قسوته ـ بالتأكيد وليدَ ساعته. فشىءٌ مما حدث فى دبى، حدث قبل أشهر فى القاهرة حين دُعى إلى مؤتمر للثقافة العربية.. وقبل أسابيع حين دُعى إلى مهرجان للرواية فى المغرب. وبعدها حين عُقد مؤتمر فى «باريس» تحت لافتة «تجديد الفكر الدينى». ويحدث كل يوم على شاشات الفضائيات العربية. بل وشاهدناه جميعًا فى قمة شرم الشيخ قبيل العدوان الأمريكى على العراق. ولعله حادثٌ الآن فى التعليق (وبعضه غير برىء) على «وقفة» صنع الله إبراهيم على منصة دار الأوبرا المصرية!!

فى كثير من هذا، أو فى كثير مما دار حوله، لم يكن ما جرى بحال من الأحوال «حواراً».

ففى الحوار ـ ولعل لنا هنا أن نُعيدَ كلاماً قديماً: يُحددُ الناسُ ـ ابتداءً ـ حول ماذا بالضبط يتحاورون. وما هى نقاط الاتفاق. وما هى تلك التى مازالت موضعًا للخلاف. ومن ثم «موضوعًا» للحوار. ثم ما هى المرجعيات «المشتركة» التى ينبغى أن يكون مُتفقًا عليها ابتداء. وما هى التعريفات «المحددة» لما سيستخدمونه من مصطلحات. ساعتها ـ وساعتها فقط ـ يمكن أن نتوقع تبادلاً «حقيقيًا» لوجهات النظر. بين أطراف يُفتَرَضُ أنها تعلم أن «الحوار» يعنى بالضرورة أن هناك «رأيًا آخر» ليس لنا ـ بالتالى ـ أن نتبرم من الإنصات إليه؛ بعقلٍ يدقق، وقلبٍ يسمح. واستعدادٍ لكى نقبل منه كما نرفض.

كل هذا ـ للأسف ـ نراه بعيداً كل البُعد عن كثير مما يجرى. سواء على صفحات الصحف، أو شاشات التليفزيون، أو فى الشارع وعلى منابر المساجد، أو حتى تحت قبة البرلمان. فلأسباب تعددت منابعها، وتباعدت أهدافها، وفى مناخ لم يعتد «حياديةَ» العلم، وغاب عنه تراثُه «الثرى» من المنطق، يتركُ الحوارُ «بالتعريف» مكانَه لما يبدو صخبًا عالى الصوت. وتحتقنُ الكلمات ـ التى يُفتَرَض أن تكون أداةً لتبادل الرأى ـ حين تبتعدُ عن معانيها الاصطلاحية. ويصبحُ الاستقطابُ حاداً. ونشهدُ ـ فى أكثر من مناسبة ـ من يقف فى مربع لا يعكس فى واقع الأمر «رأيَه» اللاحقَ فى الموضوع، بل «موقفَه» المسبقَ من الآخر. وكأن «الحالة بين العراق والكويت» أصبحت حالة ثقافية عامة.

وهذه هى الحال، يصبحُ يسيراً على من يقف على مسافة مناسبة من المشهد، أن يلاحظ أن جانبًا كبيراً مما يقرأ أو يسمع، لم يكن أبداً «فى الموضوع» بل يدور فعليًا على هامشه. فعلاً ورد فعل، صدى ورجع صدًى. ويصبحُ طبيعيًا أن تتوارى كعادتها تقاليد الحوار فى خضم الصياح والضجيج. وأن يجرفنا «الجدل المستنزف للطاقات» وتستغرقنا الأجواءُ المحيطةُ به. ثم تختفى القضية الأصلية. إذا كان ثمة من «قضية».

وللأسف، وعلى غير عادة «الحوار»، ينتهى «الشجار» عادةً تاركًا كل الأسئلة ـ وراءه ـ مفتوحةً. ودون إجابةٍ «مطلوبة» يقدمها لمجتمعٍ يرقبُ ـ فى احتياج وأمل ـ ساسته ومفكريه.

أيمن الصياد

تاريخ عِشْتُه



كتبَت هلاري رُدهام كلنتون، بصراحة، عن نشأتها في أمريكا في خمسينيات القرن العشرين، أمريكا الطبقة الوسطى. وكتَبَت عن تاريخها ناشطةً في الحركة الطلابية في أواخر الستينيات؛ فقد كان زمن زاخر بالتغيير الاجتماعي والسياسي الصاخب في أمريكا. وشقّت طريقها عَبرَ مسارٍ بكر ــ وعاشَت أعاصيرَ أمريكا الكبرى من حرب فييتنام و ووترغيت حتى دَخلت البيت الأبيض سَيِّدةً أولى مثيرة للجَدَل. ولأنها سيدة أولى غير عاديَّة، فقد اضطلعت بدور رئيسي في صياغة التشريعات الداخلية الأمريكية. وجابت أرجاء الأرض مدافعة عن حقوق النساء وحقوق الإنسان.

«تاريخ عِشْتُهُ» كتاب ذكرياتها الكاشفة عن تفاصيل سنوات حياتها التي أمضتها في البيت الأبيض، وتأريخها لعَيْش التاريخ مع بِلْ كلنتون، ولمغامرة حب وسياسة استمرَّت بعد أن نَجَت من أعاصير الخيانة الشَّخصيَّة، وصفعات التحقيقات الحزبية الظالمة، وعمليات التمحيص العام المتطفِّلة التي تَعرَّضَت لها مع زوجها طيلة فترتي رئاسته. لقد أنقَذَت الرئاسة من إدانة غير دستوريَّة ذات دوافع سياسيَّة شَنَّها خصوم زوجها وخصومها من أساطين الحزب الجمهوري.

تُرجِمَ الكتاب (ويترجم) إلى 26 لغة من لغات العالم.

• ثمن النسخة المجلدة 22$ • ثمن النسخة بالغلاف 14$

سكينةُ الرُّوح ـ صفاءُ العَيْش في حُلو الأيام وَمُرِّها

تأليف دُ. ت. بيرم كَرَسو.



كيف الوصول إلى عَيْش ملؤهُ السعادة الحقيقية نُحقِّق فيه ما نَصبو إليه، عَيْشٌ تَسودُ فيه سَكينةٌ تَبعَثُ فينا البَهجَة؟ كيف نَتمَكَّن من إدخال بُعْد روحي إلى حياتنا في كلِّ يوم؟ في هذا الكتاب الرائع، يُحاولُ المؤلف الإجابة عن تلك الأسئلة ويقوم بدَور مُرشد لنا في رحلة غير مألوفة نستَكشف فيها الحَنين الذي يَعْتَلِجُ في أعماق النَّفس الإنسانيَّة. «سكينة الروح» هو كتابٌ عميقٌ آسِر يَتَّسِمُ بأفكار تنمّ عن بَصيرةٍ نَفَّاذة، يتوجَّه إلى كلِّ من يَسعى إلى تحقيق وجود ذي بُعْد أكثَرَ غِنًى.

• ثمن النسخة المجلدة 12,5$ • ثمن النسخة بالغلاف 8,5$

تَمتَّع بالاسترخاء وخُذِ الأمورَ بالروية

تأليف كامرون جونستون



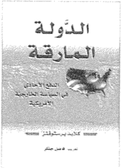
لقد أفاد الوفٌ من رجال أعمال رُوّاد وآخرون يعملون في مجالات الصحَّة العامَّة، من النَّظرة التي يُعالجُ فيها المؤلف طرائق التَّحكّم بالضُّغوط النفسيَّة على نحو مُريح وفعّال.

• ثمن النسخة بالغلاف 8,5$

الدَّولةُ المارقَة ـ الدَّفعُ الأحادي في السياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة

تأليف كلايد پرستوڤتز

تَعريب فاضل جتكر



إن أُحاديَّة القرار أمريكيَّة في طبيعتها كما هي فطيرة التُّفاح أمريكيَّة. يرى المؤلف أن هذه الأحاديَّة ليسَت إجراءً أمريكياً عدائياً جديداً تجاه باقي أُمَم الأرض. فالديمقراطية أمل العالم ـ غير أن حلفاء أمريكا يَرَوْنَها تَهجُرُ هذه المُثُل يوماً بعدَ يوم. إن أمريكا اليوم تنظر إلى الأمور بضيق يَتَحكَّم في رؤيتها لشروط أمنها العسكري والاقتصادي. فقد باتَت تتجاهل الإجماع الدولي ومنظمة الأمم المتحدة معتَبِرَة أنها غير صالحة ومُعيقة لمصالحها. وصارت تمضي في تصرفها المُتَفَرِّد وتُعطي قليلاً من الاعتبار أو الإدراك لحاجات أُمَم أخرى وغاياتها.

إن كتاب «الدولة المارقة» ليس مناقشة ضدَّ السيطرة الأمريكية أو ضدَّ ممارسة القُوة الأمريكية. إنَّه مناقشة للغَطرسَة والجهل في ممارسة القوة الأمريكية. يبيِّن المؤلف في كتابه الجذور التاريخية للدَّفع الأحادي وسطوة هذا الدَّفع على كلِّ موقع ذي أهميَّة من مواقع السياسة الخارجية الأمريكية: السياسة الخارجيَّة والاقتصادية، ومراقبة التسلح، والطاقة، والبيئة والزراعة.

• ثمن النسخة المجلدة 12,5$ • ثمن النسخة بالغلاف 8,5$

رحمتُكَ يا الله! صفحات مجهولة من التاريخ الأمريكي

تأليف يواخيم فرناو



يعرض مؤلف الكتاب، بأسلوبه الخاص، وفَنّه في عرض أحداث ما جرى في أمريكا؛ تلك البلاد ذات الإمكانات التي لا تعرف حدوداً، بطريقته الساخرة. يكشف فرناو للقارئ عن خفايا ما جرى في أمريكا قبل الاستقلال وبَعدَه. ثم يبحث في تشكيل هذا التَّجمُّع من الولايات بعد الاستقلال، وكيف صُنعَ الدستور، ومشكلات الأفارقة الذين سيقوا عَبيداً إلى أمريكا. ويدخُلُ المؤلف في تفاصيل محاور القوى الاقتصادية والنافذة التي تُحرِّكُ السياسات الأمريكيَّة، والتي أثَّرت في مجرى التاريخ الأمريكي إلى يومنا هذا.

ترجم الكتاب إلى أربع لغات.

• ثمن النسخة المجلدة 12$ • ثمن النسخة بالغلاف 8,5$

شركة الحوار الثقافي ش.م.م
بيروت، ص.ب. 6750 - 13 لبنان
هاتف: 802444-1-961+ • فاكس: 790718-1-961+
E-mail: info@interculturalbooks.com • http://www.interculturalbooks.com

تطلب كتب شركة الحوار الثقافي من
دار الوراق للنشر والتوزيع بيروت، لبنان
E-mail: warrak@interculturalbooks.com

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد التاسع والخمسون . السنة الخامسة . ديسمبر ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 59 - December 2003



تونى چوت / ڤيرجينيا تيلى / **دولة واحدة من البحر إلى النهر!**

محمود عبد الفضيل / **محاضير محمد .. طبيب ضمد جراح ماليزيا !**

خيرى شلبى / **بوحٌ على بوح .. فى سيرة ماركيز!**

إبراهيم العريس / **يوسف شاهين .. الأنا .. الآخر!**

سلامة أحمد سلامة / **الديمقراطية بين التحدى الأمريكى والمراوغة العربية !**



إستلم مفاتيح
سيارة أحلامك
RESALA
قرض السيارة الجديدة والمستعملة
مع قرض السيارة الجديدة
والمستعملة من البنك العربى
أقل سعر فائدة
نسبة تمويل تصل إلى ٨٥٪
مدة تقسيط تصل إلى ٦٠ شهر
أسعار منافسة للتأمين على السيارة
تأمين على الحياة
أحقية الحصول على القروض ترجع إلى شروط وقرارات البنك العربى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفيّة عربيّة
ARAB BANK
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
www.arabbank.com

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الخامسة
العدد التاسع والخمسون
ديسمبر ٢٠٠٣

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم العريس.. كاتب وناقد سينمائي من لبنان.
- إبراهيم فرغلي .. صحفي وروائي.
- آدم شاتس .. المحرر الأدبي لمجلة The Nation الأمريكية.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- توني جوت .. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك.
- خالد الحروب .. باحث فلسطيني بكامبردج.
- خيري شلبي .. روائي مصري.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- سوزان سونتاج .. أديبة أمريكية.
- فيرجينيا تيلي .. مدرس العلوم السياسية بكلية ويليام سميث بنيويورك.
- ليلى عنان .. أستاذ الحضارة ـ جامعة القاهرة.
- محمد أبو الغار .. أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- محمد السماك .. كاتب لبناني.
- محمود عبد الفضيل .. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- نبيل علي .. خبير استراتيجيات المعلومات.
- ياسمين الشاذلي .. باحثة مصرية في جامعة جونز هوبكنز الأمريكية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي ـ محمد حاكم ـ أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٢٤٨٥٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.

Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

"نون"

الديمقراطية بين التحدى الأمريكى والمراوغة العربية

سلامة أحمد سلامة

■■ لماذا يتغير العالم ويتطور من حولنا ولا نتغير؟ وهل بات محتماً على العالم العربى أن يبحث عن الظروف المحركة للتقدم والتطور من خارجه، أم أن لديه فى داخله من الطاقات والقدرات ما يمكنه من التفاعل مع التحديات التى تواجهه لكى يحقق القفزة المطلوبة لعبور الهوة التى تفصله عن العالم؟

هذه الأسئلة تتجدد بصيغ مختلفة على ألسنة النخب الثقافية والسياسية فى الأمة العربية. فلا تسمع لها غير إجابات متفرقة متضاربة: تشخص الوضع ولا تقدم الحل. تعبر عن الضيق بالواقع القائم ولكنها لا تتحول إلى سلوك عملى يطرح الجديد.. تحلق فى سماء الأوضاع العربية المتردية لبعض الوقت، فتعلو أصوات الجدال والسجال حولها من كافة الاتجاهات والأحزاب، ثم سرعان ما تخمد وتهدأ دون أن تتمخض عن نتائج ملموسة محسوسة، تسهم فى تغيير الواقع وتجديده ولو بالاقتراب من الهدف خطوة واحدة، ثم لا تلبث بعد فترة من الوقت تطول أو تقصر، وبفعل أسباب وضغوط خارجية تتراوح بين التحدى والتذكير، وبين الإملاء والتحذير، أن تشتعل فيها جذوة الاهتمام والقلق من جديد.

يقف العالم العربى فى خضم بحر هائج من المتغيرات والمفارقات، تستدعى سرعة الحركة. وقبل كل شىء سرعة العثور على جواب إزاء هذه التحديات. يفرض هذه السرعة، التى ما عاد يفلح معها التلكؤ والتردد والتباطؤ، ذلك الاجتياح الأمريكى الذى يطرح تحدياته واحداً تلو الآخر على العالم كله، وعلى دول العالم الثالث بصفة عامة، وعلى الأمة العربية بصفة خاصة.. تحديات عسكرية وسياسية وثقافية. بل هى ثقافية قبل أن تكون عسكرية أو سياسية. وتقع على كاهل النخب مسئولية استنباط الحلول والتوفيق بين أشياء تبدو أشبه بالمستحيلات. ينهض بها ذوو الرؤية والخيال، من أبناء جيل جديد لم تلوثه أخطاء الماضى وانحرافاته، ولم تكبل عقله أحكام مسبقة، أو أيديولوجيات مُحبَطَة، أو تجارب مجهضة.

وهذا ما فعلته دول الكتلة الشيوعية فى أوروبا الشرقية، التى خضعت ما يقرب من نصف قرن لنفوذ موسكو فى ظل أيديولوجية شمولية، تدين لسيطرة حزب واحد وزعيم واحد يحركه الكرملين كما تتحرك خيوط العرائس، وتساق الشعوب كالقطعان المغلوبة على أمرها. وما إن سقط الحكم الشيوعى وتبدد الفكر الشمولى، بفعل ظروف خارجية بعد سقوط حائط برلين، حتى بدأت عملية التحول الكبرى فى مسيرة هذه الشعوب نحو الديمقراطية والتعددية، على أيدى قوى سياسية من داخلها طامحة إلى التغيير. وفى غضون عشر سنوات أو أكثر قليلاً تغير وجه الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية لهذه الشعوب. ودخلت طوراً جديداً فى تاريخها كجزء من أوروبا الموحدة.. ذهب الحرس القديم وأزيلت قشرة الشيوعية التى كانت قد بدأت تتحطم ليحل مكانها جيل جديد، تحمل عبء التغيير.

منذ الانقلاب السريع الذى أحدثته أمريكا فى العناصر التى تحكم النظام العالمى القائم، لم تفتأ المحاولات المتكررة تتوالى لإحداث تغييرات جذرية فى النظام العربى. ولعل الغرب لم يأبه كثيراً قبل أحداث سبتمبر التى وقعت فى واشنطن ونيويورك، لطبيعة الأوضاع السياسية السائدة فى العالم العربى.. إلا فيما يتعلق ببعض جوانب الخلاف والمواجهة بين الإسلام والغرب وبين العرب وإسرائيل، بسبب تباين بعض المنطلقات الحضارية والتاريخية، فى إطار فكر استشراقى أملته طبيعة الاستعمار الغربى لأقطار إسلامية شاسعة إثر سقوط الإمبراطورية العثمانية. وقد استغل الغرب فكرة التناقض بين الإسلام والشيوعية لتعبئة الدول الإسلامية فى محاصرة الأيديولوجية الشيوعية والحيلولة دون انتشارها. وكانت آخر المعارك التى استغلت فيها أمريكا الوازع الدينى لدى الشعوب الإسلامية، هى تلك التى انتهت بخروج القوات السوفيتية من أفغانستان، ولم يكن ذلك على يد قوة أخرى غير تنظيم القاعدة وطالبان، بفضل التسليح الكثيف والمساعدات المالية الضخمة التى تدفقت على تنظيمات المجاهدين الأفغان من الولايات المتحدة وباكستان والسعودية وعدد من الدول العربية. وأنزلت خسائر فادحة بالقوات السوفيتية، فى وقت كانت الكتلة السوفيتية تتعرض فيه لضغوط خارجية وانشقاقات داخلية تنذر بانهيارها.

ولا يمكن فصل ما حدث فى أفغانستان آنذاك عما كان يحدث من مواجهة بين العراق وإيران، ثم ما تلاه من غزو عراقى للكويت. حيث هيأت

لم تكن قضية الديمقراطية فى المنطقة تثير اهتمام السياسة الأمريكية بأى حال. بل سعت على العكس من ذلك إلى الحفاظ على النظم القائمة وحمايتها. وانتهى الأمر بعد حرب الخليج الثانية إلى وجود عسكرى أمريكى ثابت يحمل كل مؤشرات البقاء لأمد طويل

هذه الصراعات الفرصة للتدخل العسكرى الأمريكى المكشوف فى المنطقة، بعد أن كان تدخلاً حذراً محدوداً وبحسب الظروف.. ولم تكن قضية الديمقراطية فى المنطقة تثير اهتمام السياسة الأمريكية بأى حال. بل سعت على العكس من ذلك إلى الحفاظ على النظم القائمة وحمايتها. وانتهى الأمر بعد حرب الخليج الثانية إلى وجود عسكرى أمريكى ثابت يحمل كل مؤشرات البقاء لأمد طويل. لم تعد تبدو له فى الأفق نهاية قريبة بعد احتلال العراق، بل بدا وكأن الهدف الأساسى منه هو احتواء الدول المارقة، وقمع الحركات الراديكالية المناوئة ضماناً لتدفق النفط وحماية منابعه.

بدرجة ما. فإن النمو الهائل الذى طرأ على الولايات المتحدة الأمريكية، بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتى، وجعل منها أكبر وأقوى دولة فى العالم عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، أقنعها بأن تنتزع لنفسها الحق فى إعادة تشكيل المناطق التى تتركز فيها مصالحها وعلى رأسها منطقة الشرق الأوسط. يغريها على تحقيق هذا الهدف، حالة الفراغ السياسى، والتخلف الاقتصادى والوهن الاجتماعى، وانتشار الجماعات والقوى المتطرفة المناوئة للنظم الحاكمة فى الدول العربية، وقبل كل شىء حماية ذلك الجسم الغريب الذى زرعته الإمبريالية العالمية فى الشرق الأوسط ليكون نقطة تجمع للحركة الصهيونية فى إطار دولة إسرائيل.

ومن هنا فلا غرابة فى أن تنهمك مراكز الأبحاث وإدارات التخطيط الأمريكية فى وضع الخطط التى تراها ضرورية لإحداث تغيير فى الشرق الأوسط، عن اقتناع بأن قوى التطرف المعارضة لنظم الحكم العربية، يمكن أن تصب جام غضبها وإحباطها على أمريكا باعتبارها مسئولة عن وجود إسرائيل فى المنطقة من ناحية وحامية هذه النظم والراعية لها من ناحية أخرى، وكانت أحداث سبتمبر ٢٠٠١ من خلال الهجوم الذى شنته جماعات إسلامية على المؤسسات الأمريكية الكبرى الدليل الناصع على ذلك فى رأيهم.

وتبدو الولايات المتحدة الآن على استعداد لفك الارتباط القديم بينها وبين النظم العربية الحاكمة التى تحملها واشنطن مسئولية هذه الهجمات والتى تعتبرها عائقاً دون تطوير نفسها والتأقلم مع الأوضاع العالمية التى تظن إدارة الرئيس بوش والدائرة المحيطة به من اليمين المحافظ بأنها مبعوثة إلهية لحمل رسالة الهداية إلى الديمقراطية وقيم الحرية والحياة الأمريكية وتستشهد فى ذلك بما أنجزته فى كل من اليابان وألمانيا اللتين تحولتا على يد القوة الأمريكية من النظام الديكتاتورى إلى الديمقراطية.. ولا ترى ما يحول دون تطبيق نفس التجربة على العراق بعد أن حررته من طغيان النظام الصدامى. وأصبحت جاهزة لتقدم نموذجاً يحتذى به للدول العربية المحرومة من الديمقراطية بعد أن تأكد لها أن النظم الديكتاتورية والثيوقراطية الحاكمة فى العالم العربى أسهمت فى نمو النزعات الراديكالية الإرهابية.

ومنذ اللحظة التى أعلنت فيها واشنطن انتهاء المعارك العسكرية فى حرب العراق فى أواخر أبريل، طرحت وبقوة فكرة تطبيق الديمقراطية فى الدول العربية المحرومة منها. وربطت هذه الخطة بمشروع شراكة اقتصادية وتجارية بالشرق الأوسط. جاءت بعض تفاصيلها فى مايو على لسان بوش ثم على لسان وزير خارجيته كولن باول.. وأخيراً أعاد الرئيس الأمريكى فى خطاب له أمام «الصندوق القومى للديمقراطية». واعتبره البعض خطاباً تاريخياً فارقاً فى الاستراتيجية الأمريكية فى الشرق الأوسط. طرح رؤية متكاملة حيال دعم الحرية والديمقراطية فى الشرق الأوسط. وتحدث فيه بإسهاب عما يتصوره استحقاقاً لشعوب الشرق الأوسط التى بالكاد لامست وجه الديمقراطية العالمية. ثم أخذ يكيل المديح للإسلام وتقاليده باعتبارها لا تعادى الديمقراطية، بل تحمل فى طياتها قيماً عظيمة تقوم على المحاسبة الفردية والأخلاقية. وأعطى تقييماً متدرجاً لمعظم الدول العربية فى امتحان الديمقراطية تفاوتت درجاته. ولكنها لم تسمح لأى من هذه الدول أن تحصل على درجة الامتياز أو حتى درجة مقبول، بل تأكد له أنها جميعاً وبدون استثناء فى حاجة ماسة إلى «دروس خصوصية»، تمكنها من اللحاق بعصر الحرية الذى تحمل أمريكا على عاتقها مسئولية نشره وترويجه فى الشرق الأوسط.. وهى تتحمل أعباء هذه المسئولية «لأن الاستقرار لا يمكن أن يُشترى على حساب الحرية؛ ولأن غياب الحرية فى رأى بوش سيجعل من الشرق الأوسط مكاناً يتسم بالتشنج ومشاعر الغضب والعنف الجاهزة للتصدير، ومع انتشار أسلحة الدمار الشامل التى يمكن أن تلحق بأمريكا وأصدقائها، فإن القبول بالوضع الراهن سيكون عملاً طائشاً» كما جاء فى الخطاب المذكور.

هذه هى المعادلة التى تطرحها أمريكا على الشعوب والنظم العربية، وتسعى إلى تسويقها بكل السبل الممكنة. وتنكر وجود أدنى صلة بينها وبين قضية السلام والصراع فى المنطقة بسبب القضية الفلسطينية أو الاحتلال العراقى. بل تعتبرها استراتيجية ضرورية للدفاع عن نفسها وعن أصدقائها ومصالحها فى الشرق الأوسط، حتى لا تتفجر موجات الإحباط من داخل دوله إلى خارجها، فتعبر البحار والمحيطات إلى قلب أوروبا

يبدو المشهد العربى
فى بعض الأحيان مذهــولا
عن نفسه، يحاول أن يخوض معاركه
بنفس الأسلحة القديمة التى خاضها بها
ضــد الاستعمار منذ قرنين
بلا تبديل أو تحوير
أو تجديد

وأمريكا كالوحش الهائج يدمر مظاهر الحضارة الغربية الأمريكية ويقض مضاجعها.

لم تجد هذه النظرية الأمريكية المتكاملة، والتى تؤيدها معظم الدول الأوروبية بتحفظات محدودة، ردًا مقنعًا حتى الآن أو تحركًا ذكيًا أو تفكيرًا عاقلاً يملك القدرة على مواجهة التحدى واستيعابه، أوامتصاصه وتمثله فى جسم الكيان العربى. ويبدو المشهد العربى فى بعض الأحيان مذهولاً عن نفسه، يحاول أن يخوض معاركه بنفس الأسلحة القديمة التى خاضها بها ضد الاستعمار منذ قرنين بلا تبديل أو تحوير أو تجديد.. فى الهجمة الاستعمارية الأولى كان شعار المعركة هو نشر الحضارة الغربية ضد ظلام التخلف الشرقى. وفى الهجمة الثانية أصبح الشعار هو الحرب ضد الإرهاب الذى يولده فهم دينى متطرف ونظم حكم فاسدة غير ديمقراطية.

ويملك الطرف الأقوى دائمًا القدرة على تزييف أسباب الصراع وأهدافه الحقيقية ولكننا فى اللحظة التى نلعب فيها دور الضحية دون محاولة للإصلاح، نقدم لأنفسنا مبررات الهزيمة الذاتية، ونقدم لخصومنا أسباب النيل منا بما يمكنهم من تحقيق أهدافهم.

ولعل المعضلة الحقيقية التى تواجه العالم العربى، هى الاقتناع العميق الذى يسود النخبة الحاكمة كما يتغلغل فى أعماق الشعوب، بزيف الادعاءات الأمريكية التى ترفض الاعتراف بحقيقة أهدافها من وراء حرب العراق. وهى فى مجملها لا تخرج عن هدفين.. الأول: إقامة قاعدة استراتيجية فى الشرق الأوسط تضمن لها السيطرة على النفط، وردع الجماعات المتطرفة المعادية للنفوذ الأمريكى. والثانى: حماية الوجود الإسرائيلى وضمان تفوقه الإقليمى الدائم على الوطن العربى. ومن ثم فإن دعاوى تحرير العراق من ديكتاتورية النظام الصدامى، ونشر الحرية والديمقراطية فى العالم العربى، لا تلقى قبولاً من أحد على جميع المستويات.

ولكن الأنظمة العربية تجد نفسها مع ذلك فى موقف حرج، محصورة بين شقى الرحى.. بين ضغوط أمريكية من فوق، ولا أحد يعرف ماذا تخبئه جعبة المحافظين الجدد فى واشنطن من حيل ومخططات، وبين ظروف التخلف السياسى والاجتماعى والاقتصادى . من تحت. والتى تخلق التربة الصالحة للتطرف والعنف، وتعرقل مسيرة التقدم، وتشوه الميراث الثقافى والحضارى وتحرفه عن مقاصده المشروعة وهى تجربة مرت بها مصر، وتنطبق على سائر الدول العربية بدرجة أو بأخرى.

من هنا تبدو قضية الإصلاح والتجديد فى العالم العربى قضية وجود يحسمها مبدأ البقاء للأصلح، بل هى فى أقل القليل قضية حياة أو موت، لا تحتمل التأجيل والتراخى والتردد. والثابت أنه إذا كان لأمريكا من فضل فى بناء الديمقراطية فى ألمانيا أو اليابان، فذلك لأن الهزيمة العسكرية التى ألحقتها بالشعبين كانت بمثابة بعث جديد لبناء الذات من نقطة الصفر. وليس مجرد سد للذرائع، وترميم للأنقاض، وترقيع لأوضاع مهترئة، وتعلل بأسباب واهية كما تفعل النظم العربية كلها بدون استثناء. والأمة العربية الآن فى نقطة لا تبعد كثيرًا عن الهزيمة، بل هى على وشك أن تقع تحت نير احتلال ثقافى وعسكرى واقتصادى. لم يكن العراق غير مقدماته.

لا مناص إذن من أن تأخذ الأنظمة العربية والإسلامية المبادرة بيدها، دون أدنى اعتبار لما تطرحه أمريكا من مشروعات لدعم الحرية والديمقراطية فى المنطقة، وهى معرضة إذا لم تبادر بنفسها إلى إصلاح سياسى يربط بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية، ويخلق الظروف المواتية لتحديث الفكر الدينى، وإعادة إنتاج واقع ثقافى متحرر من القيود.. لأن تصبح حقل التجارب لقوى خارجية. تفرض بالقوة العسكرية وبالغزو الاقتصادى والثقافى أوضاعًا تساعد على قلقلة النظم وتفكيكها واختراقها.. وهو ما يحدث فى العراق الآن بطريقة علنية مجافية لكل الأعراف والقوانين الدولية. وتمتد آثاره أيضًا إلى الدول العربية المجاورة بدرجات متفاوتة.

لم تعد الأمور قابلة للطرح الثنائى البسيط: الديمقراطية أم الشورى؟ التنمية الاقتصادية أولاً والحرية ثانيًا؟ الإصلاح الاقتصادى أم الإصلاح السياسى؟ إلغاء الأوضاع والقوانين الاستثنائية أم الانتظار حتى يحل السلام؟ تحرير المرأة وإدماجها فى المجتمع أم وضعها وراء قضبان التقاليد البالية؟ إطلاق سراح جماعات المجتمع المدنى وحقوق الإنسان أم وضعها تحت رحمة أجهزة الأمن والرقابة؟

هذه خيارات مصيرية تحتاج إلى إجابات واضحة قاطعة، لا تجدى معها مراوغات النخب السياسية والنظم الحاكمة فى العالم العربى. وإذا كان الرئيس بوش قد أعطى لبعض هذه النظم درجات مقبولة فى ممارسات الحرية والديمقراطية، فالواقع العملى والمقارنة الموضوعية تؤكد أن البون مازال شاسعًا، وأن أوجه القصور أقوى من درجات التميز، وأن العقبات فى وجه الحرية والديمقراطية أكثر من حوافزها والإيمان بجدواها. فلم يعد يكفى لمقاومة ثقافة الاستبداد أن نعتمد على حلول جزئية أو معارضة ورقية، تليفزيونية أو إلكترونية يسهل تجاوزها بعد أن تؤدى وظيفتها أمام العالم، ولا على أحزاب صورية تلعب دور المعارضة دون أن يكون لها وزن فى الواقع السياسى، بينما يجرى تجاهل القوى الحقيقية، ولا أن تخدع الشعوب العربية نفسها عن الأخطار التى تواجهها، وتنكص عن دفع ثمن الحرية، ثم تستسلم لحاضر كئيب ومستقبل مظلم! ■

الأنظمة العربية تجد نفسها فى موقف حرج، محصورة بين شقى الرحى.. بين ضغوط أمريكية من فوق، ولا أحد يعرف ماذا تخبئه جعبة المحافظين الجدد، وبين ظروف التخلف السياسى والاجتماعى والاقتصادى . من تحت. والتى تخلق التربة الصالحة للتطرف والعنف

البديل: دولة واحدة..

تونى جوت

■■ إن عملية السلام فى الشرق الأوسط انتهت، وهى لم تمت، بل قتلت. لقد أضعف رئيس السلطة الفلسطينية موقف محمود عباس وقام رئيس وزراء إسرائيل بإذلاله. وينتظر خليفته أحمد قريع مصير مماثل. ومازالت إسرائيل تسخر من راعيها الأمريكى، وتبنى مستوطنات غير شرعية فى تحدٍ سافر لـ«خريطة الطريق». وتحول رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى دمية تردد بشكل محزن أقوال زعماء إسرائيل: «إن الخطأ كله خطأ عرفات» والإسرائيليون أنفسهم ينتظرون فى تجهم الفدائى التالى الذى سيفجر نفسه. والعرب الفلسطينيون، المسجونون داخل بانتوستانات متقلصة، يعيشون على صدقات الاتحاد الأوروبى. وفوق الساحة الفسيحة للهلال الخصيب التى تتناثر فيها جثث القتلى، يستطيع أريل شارون وياسر عرفات وحفنة من الإرهابيين أن يدعوا النصر، وهم يفعلون ذلك. فهل وصلنا إلى نهاية الطريق؟ وما الذى يمكن عمله؟

هل تذكرون الشعار القديم لمنظمة التحرير الفلسطينية «دولة ديمقراطية لجميع الأديان والقوميات..»؟ وهل تذكرون اقتراح العقيد القذافى «إسراطين» الذى رفض الكثيرون مجرد الإنصات إليه؟ الفكرة «الفلسطينية أصلاً بحكم النشأة» أصبحت فجأة على مدى الأسابيع الماضية موضوعًا للحوار والجدل على الساحة «الفكرية» اليهودية. ففى مجلة The New York Review of Books الرصينة كتب تونى جوت المفكر اليهودى البريطانى والذى يعمل أستاذًا للتار يخ فى جامعة نيويورك مقالاً مهمًا أثار ضجة وغضبا شديدين فى إسرائيل والدوائر اليهودية فى العالم.

ويطعن المقال الجرىء فى صميم الفكرة الصهيونية التى قامت عليها إسرائيل. ويؤكد أن الزمن تجاوزها منذ عشرات السنين.

وبعد أن يوضح كيف تؤدى سلوكيات «الدولة» الإسرائيلية إلى تنامى مشاعر اللاسامية والعداء لليهود فى العالم كله (منذ أسبوعين فقط تم تفجير معبدين يهوديين فى تركيا العلمانية) يؤكد المفكر اليهودى أن مصلحة اليهود «كيهود» تكمن فى اختيار الحل «الوحيد» وهو قيام دولة ثنائية الهوية «يهودية/عربية» فى فلسطين التاريخية.

بعد أيام فقط خرجت London Review of Books الرديفة البريطانية لتلك الأمريكية بمقال لفيرجينيا تلى يصب فى الاتجاه ذاته، وتستشهد فيه بالمفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد، موضحة بالأرقام والبيانات كيف أن وضع المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية فى الضفة وغزة لا يسمح «واقعيا» الآن إلا بالحل الوحيد: «الدولة الواحدة».

أهمية مقالى المجلتين المحترمتين أنهما يأتيان بعد شهور قليلة من المقال الشهير لرئيس الكنيست الإسرائيلى السابق «إبراهام بورج» الذى دعا فيه أصدقاء إسرائيل إلى إنقاذها من الهاوية التى يدفعها إليها حكامها!!

«وجهات نظر» تنشر المقالين، وتدعو إلى حوار حول الموضوع.

المحــرر

فى فجر القرن العشرين، وعند مغرب الإمبراطوريات الغازية، كانت شعوب أوروبا المستعبدة تحلم بتشكيل «الدولة الأمة» أوطانًا يعيش فيها البولنديون والتشيكيون والصرب والأرمن وغيرهم أحراراً، سادة لمصائرهم. وعندما انهارت إمبراطورية الهابسبورج وإمبراطورية رومانوف فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، اغتنم قادة هذه الشعوب الفرصة. وظهرت مجموعة من الدول الجديدة، وكان أول ما فعله هؤلاء القادة هو تأكيد حقوق الأغلبية التى يمثلونها وامتيازاتها الوطنية والعرقية، وحددوا تلك الأغلبيات باللغة أو الدين أو التاريخ أو بهذه العناصر جميعًا، وذلك على حساب الأقليات المحلية التى أضيرت، والتى فرض عليها وضع المواطنين من الدرجة الثانية: فأصبحوا غرباء دائمين داخل أوطانهم.

ولكن حركة وطنية واحدة، هى الصهيونية، تعرضت آمالها للإحباط.

ترجمة: أسعد حليم

عن مجلة:
The New York Review of Books

وكان لابد أن ينتظر الحلم بوطن قومى لليهود فى وسط الدولة العثمانية المتداعية حتى يتحقق تراجع بريطانيا الإمبريالية: وهو ما استلزم مرور ثلاثة عقود أخرى ونشوب حرب عالمية ثانية. ومن ثم، ففى سنة ١٩٤٨ أنشئت الدولة الأمة اليهودية فى فلسطين العثمانية السابقة ولكن مؤسسى الدولة اليهودية كانوا متأثرين بنفس المفاهيم والمقولات التى نادى بها زملاؤهم فى نهاية القرن التاسع عشر فى وارسو أو الأوديسا أو بوخارست. وليس من الغريب أن التعريف العرقى الدينى الذى وضعته إسرائيل لنفسها، وما يتضمنه من تمييز ضد «الأجانب» المحليين كان يحتوى على أشياء مشتركة مع ممارسات رومانيا ما بعد أسرة الهابسبورج، أكثر مما يكون أحد الطرفين على استعداد للتسليم به.

وبإيجاز فمشكلة إسرائيل ليست، كما يقال أحيانًا، إنها «جزيرة» أوروبية فى العالم العربى، بل فى أنها جاءت بعد فوات الأوان. فقد استوردت مشروعًا من خصائص أواخر القرن التاسع عشر إلى عالم تحركت خطاه إلى الأمام، عالم الحقوق الفردية، والحدود المفتوحة، والقانون الدولى، ونفس فكرة «الدولة اليهودية» أى الدولة التى لليهود ويستبعد منها إلى الأبد المواطنون غير اليهود، تضرب جذورها فى عصر سابق ومكان سابق. أن إسرائيل بإيجاز هى مفارقة تاريخية Anachronism.

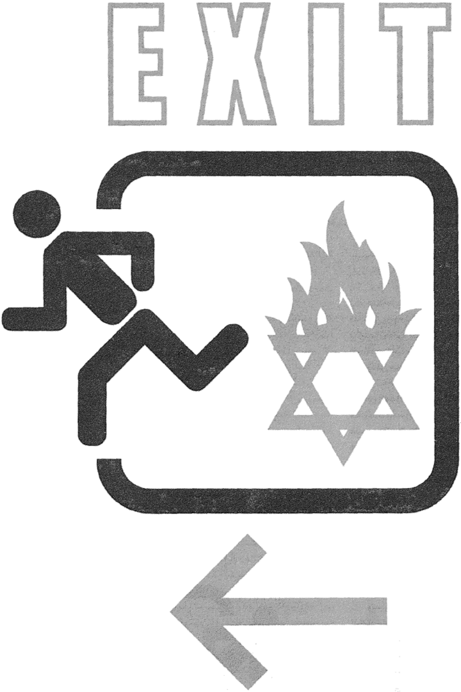
غير أن إسرائيل فى إحدى سماتها المهمة تختلف عن سليفاتها السابقة من الدويلات الصغيرة غير الآمنة التى ولدت من انهيار الامبراطوريات: وهى أنها دولة ديمقراطية. وهذا هو مصدر المعضلة الحالية. فبسبب احتلالها للأراضى التى استحوذت عليها فى ١٩٦٧، تواجه إسرائيل اليوم ثلاثة اختيارات ليس بينها اختيار جذاب. فهى تستطيع أن تفكك المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة، وتعود إلى الحدود التى كانت عليها فى ١٩٦٧ والتى يشكل اليهود فيها أغلبية واضحة. وبذلك تظل دولة يهودية وديمقراطية أيضًا، لديها مشكلة دستورية تتمثل فى وجود طائفة من المواطنين العرب يعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية.

والوضع البديل هو أن تستمر إسرائيل فى احتلال الضفة الغربية وغزة حيث يصبح الأهالى العرب، فى إسرائيل الحالية، الأغلبية الديموجرافية خلال مدة خمس إلى ثمانى سنوات. وفى هذه الحالة ستكون إسرائيل إما دولة يهودية (وبها أغلبية تتزايد باستمرار من غير اليهود المحرومين من الحقوق) أو أن تصبح دولة ديمقراطية. لكنها منطقياً لا تستطيع أن تجمع بين الصفتين.

والاحتمال الآخر (الثالث) هو أن تتمسك إسرائيل بالسيطرة على الأراضى المحتلة ولكن تتخلص من الأغلبية الساحقة من سكانها العرب: إما بالطرد القسرى أو بحرمانهم من الأراضى ووسائل العيش، بحيث لا يعود أمامهم خيار غير الخروج إلى المنفى. وبهذه الطريقة تستطيع إسرائيل أن تظل يهودية وكذلك ديمقراطية من الناحية الشكلية: ولكن ذلك على حساب أن تصبح أول ديمقراطية عصرية تمارس التنظيف العرقى على نطاق واسع باعتباره مشروعاً للدولة، مما يجعل إسرائيل إلى الأبد دولة خارجة عن القانون، ومنبوذة دولياً.

وأى شخص يفترض أن هذا الخيار الثالث لا يمكن التفكير فيه بالنسبة لدولة يهودية، لم ينتبه إلى التوسع المستمر فى المستوطنات والاستيلاء على الأراضى فى الضفة الغربية خلال ربع القرن الماضى، أو لم يستمع إلى القادة العسكريين والسياسيين المنتمين إلى اليمين الإسرائيلى والذين يشغل بعضهم الآن مقاعد الحكومة. فحزب الليكود يشغل الآن المنطقة الوسطى فى السياسة الإسرائيلية والجزء الرئيسى فيه هو حزب حيروت الذى أنشأه الراحل مناحم بيجين. وحزب حيروت هو وريث الصهيونيين المراجعين الذين ظهروا فى فترة ما بين الحربين بقيادة فلاديمير جابوتنسكى، الذين أدى عدم اهتمامهم بالحقوق القانونية والحقوق فى الأراضى إلى أن أطلق عليهم الصهيونيون ذوو الميول اليسارية وصف «الفاشيين». وعندما يسمع المرء ايهود أولمرت نائب رئيس الوزراء فى إسرائيل يعلن متباهياً أن بلده لم يستبعد خيار اغتيال الرئيس

من البحـــــر إلى النهــــر!



أحمد اللباد

المنتخب للسلطة الفلسطينية، يغدو من الواضح أن هذا الوصف ينطبق على أولئك القادة بأكثر من أى وقت مضى. فالقتل السياسى هو ما يفعله الفاشيون.

إن الوضع فى إسرائيل ليس ميئوساً منه، ولكنه قريب من أن يكون مفقود الأمل، إن الفدائيين الذين يفجرون أنفسهم لن يسقطوا دولة إسرائيل، والفلسطينيون ليست لديهم أسلحة أخرى. ولا شك فى أن ثمة متطرفين عرباً لن يرتاح لهم بال حتى يتم إلقاء كل فرد من اليهود فى البحر المتوسط ولكنهم لا يمثلون خطراً استراتيجياً على إسرائيل، والعسكريون الإسرائيليون يعرفون ذلك. وما يخشاه العقلاء الإسرائيليون أكثر من حماس وكتائب الأقصى هو الظهور المستمر لأغلبية عربية فى «إسرائيل الكبرى»، وفوق كل شىء تآكل الثقافة السياسية والروح المعنوية داخل مجتمعهم. وقد كتب السياسى العمالى البارز إبراهام بورج مؤخراً يقول: «بعد ألفى سنة من النضال من أجل البقاء على قيد الحياة، فإن واقع إسرائيل أنها دولة استعمارية، تقودها عصبة فاسدة تسخر من القانون والأخلاق المدنية وتستهزئ بهما. وما لم يتغير شىء، فإن إسرائيل خلال نصف عقد لن تكون يهودية ولا ديمقراطية».

وفى هذا الموضع تدخل إلى الصورة الولايات المتحدة. فقد كان سلوك إسرائيل كارثة للسياسة الخارجية الأمريكية. فمن خلال الدعم الأمريكى دأبت إسرائيل على التحدى السافر لقرارات الأمم المتحدة التى تطلب منها الانسحاب من الأراضى التى استولت عليها واحتلتها بالحرب. وإسرائيل هى الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط المعروف أنها تملك أسلحة حقيقية وفتاكة للتدمير الشامل. وبإغضاء الولايات المتحدة بصرها عن ذلك دمرت عملياً جهودها المحمومة لمنع وقوع هذه الأسلحة فى يد الدول الصغيرة الأخرى والتى يمكن أن تصبح لديها نزعات عسكرية. وتأييد واشنطن غير المشروط لإسرائيل بالرغم من اعتراضاتها (الصامتة) هو السبب الرئيسى فى أن معظم بقية دول العالم لم تعد تعتقد بأننا نتصرف بنية حسنة.

وقد أصبح الآن من المسلم به من جانب من يسمح لهم وضعهم بأن يعرفوا أن الأسباب التى دعت الولايات المتحدة لخوض الحرب فى العراق لم تكن بالضرورة هى الأسباب التى أعلنت وقت شن الحرب. وبالنسبة لكثيرين فى الإدارة الأمريكية الحالية، كان ثمة اعتبار استراتيجى رئيسى هو الحاجة إلى زعزعة الاستقرار فى الشرق الأوسط ثم إعادة تشكيله بطريقة يرونها مناسبة لإسرائيل. ومازالت هذه القصة مستمرة. فنحن الآن نثير صخباً وتهديدات موجهة إلى سوريا لأن المخابرات الإسرائيلية أكدت لنا أن أسلحة العراق قد نقلت إليها .وهو زعم ليس هناك دليل يؤيده من أى مصدر آخر. ولا شك فى أن سوريا تساند حزب الله والجهاد الإسلامى، وهما من الأعداء الألداء لإسرائيل ولكن يصعب القول بأنهما يمثلان خطراً دولياً. ومع ذلك فإن دمشق ظلت حتى الآن تزود الولايات المتحدة بمعلومات مهمة عن القاعدة.

فى ١٦ سبتمبر ٢٠٠٣ استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو لرفض قرار لمجلس الأمن الدولى يطلب من إسرائيل التخلى عن تهديدها بإبعاد ياسر عرفات. وحتى المسئولون الأمريكيون أنفسهم يسلمون، بعيداً عن الرسميات، بأن القرار كان منطقياً ومعقولاً، وأن التصريحات الهائجة المتزايدة من جانب إسرائيل الحالية، تؤكد مكانة عرفات فى العالم العربى، وتعتبر عائقاً أساسياً فى سبيل السلام. ومع ذلك فقد حالت الولايات المتحدة دون صدور القرار، لتزيد بذلك من ضعف

مصداقيتها كوسيط أمين فى المنطقة. ولم يعد أصدقاء أمريكا وحلفاؤها فى أنحاء العالم يستغربون منها هذه المواقف، ولكنهم مع ذلك يشعرون بالحزن وخيبة الأمل.

وإذا كان ساسة إسرائيل يعملون بنشاط على زيادة الصعوبات التى يواجهونها على امتداد سنوات، فلماذا نستمر فى مساندتهم ودعمهم فى أخطائهم؟ لقد حاولت الولايات المتحدة فى وقت ما فى الماضى أن تضغط على إسرائيل عن طريق التهديد بأن تحتجز من حزمة مساعداتها السنوية بعض الأموال التى تستخدم فى تمويل المستوطنين فى الضفة الغربية. ولكن فى المرة الأخيرة التى جرت فيها تلك المحاولة أثناء إدارة كلينتون، تحايلت إسرائيل عليها بالحصول على المال باعتباره «نفقات الأمن». وأغمضت واشنطن عينها عن هذه المراوغة، ومن بين ١٠ مليارات دولار من المساعدات الأمريكية على امتداد أربع سنوات بين ١٩٩٣ و ١٩٩٧ لم يتم احتجاز غير مبلغ أقل من ٧٧٥ مليون دولار. واستمر برنامج إقامة المستوطنات فى مساره بلا عائق ونحن الآن لا نحاول حتى وقفه.

إن هذا الإحجام عن الكلام أو العمل ليس فى مصلحة أحد. وقد أضر أيضًا بالحوار داخل الولايات المتحدة. فبدلاً من التفكير المستقيم بشأن الشرق الأوسط فإن الساسة والحكماء الأمريكيين يوجهون الشتائم إلى حلفائنا الأوروبيين عندما يرفضون، ويتحدث الأمريكيون بطريقة بعيدة عن المسئولية عن عودة العداء للسامية إلى الظهور عندما يوجه انتقاد لإسرائيل، ويوبخون بتحد أية شخصية عامة فى الداخل تحاول الخروج عن الإجماع.

ولكن ذلك لن يؤدى إلى إنهاء الأزمة فى الشرق الأوسط، ومن المتوقع أن ينأى الرئيس بوش بنفسه عن هذه المناقشات الساخنة خلال السنة المقبلة (انتخابات الرئاسة)، بعد أن قال ما يكفى عن «خريطة الطريق» فى شهر يونيو الماضى لترضية تونى بلير. ولكن طال المدى أم قصر سيضطر أحد الساسة الأمريكيين لأن يذكر الحقيقة لرئيس وزراء إسرائيل وأن يجد وسيلة لإلزامه بالاستماع له. فقد قضى الليبراليون الإسرائيليون والفلسطينيون المعتدلون عقدين من الزمان يؤكدون بلا جدوى أن الأمل

الوحيد أمام إسرائيل هو تفكيك ما يقرب من جميع المستوطنات والعودة إلى حدود ١٩٦٧، فى مقابل اعتراف حقيقى من جانب العرب بتلك الحدود وإقامة دولة فلسطينية خالية من الإرهاب، تساندها (وتعينها) الهيئات الغربية والدولية. ومازال هذا هو توافق الرأى السائد، وكان فى وقت ما حلاً عادلاً وممكنًا.

ولكنى أتصور أن الوقت قد فات لتحقيق ذلك. فالمستوطنات قد تعددت، والمستوطنون اليهود زاد عددهم، وكذلك زاد عدد الفلسطينيين، وكلهم يعيشون معًا، وإن كانت الأسلاك الشائكة وقوانين تصاريح المرور تفصل بينهم. وأيًا كان ما نقوله عن «خريطة الطريق» فإن الخريطة الحقيقية هى الخريطة الموجودة على الأرض، وهذه الخريطة، كما

يقول الإسرائيليون، هى انعكاس للواقع. وقد يحدث أن يغادر ربع مليون من المستوطنين اليهود المدعومين بالمال والسلاح فلسطين العربية طائعين، ولكن ليس بين من أعرفهم شخص واحد يعتقد أن ذلك سوف يحدث. وكثيرون من هؤلاء المستوطنين سوف يموتون، ويَقتلون، بدلاً من أن يهاجروا. وكان آخر سياسى إسرائيلى أطلق النار على اليهود تنفيذًا لسياسة الدولة هو دافيد بن جوريون الذى استخدم القوة لنزع أسلحة ميليشيا أرجون غير الشرعية التى كان يقودها بيجن فى ١٩٤٨ وأدمجها فى «جيش الدفاع الإسرائيلى» المنشأة حديثًا. ولكن آريل شارون ليس بن جوريون.

أخيرًا، لقد جاء وقت التفكير فيما لم يكن مطروحًا للتفكير. فالحل القائم على وجود دولتين، وهو محور عملية أوسلو و«خريطة الطريق» الحالية، قد بات محكومًا عليه بالفشل. ففى كل يوم يمر نقوم بتأجيل ما لا مفر منه، وهو الخيار الأصعب الذى لم يعترف به حتى الآن غير أقصى اليمين وأقصى اليسار، كل منهما لأسبابه الخاصة. وستكون البدائل التى تواجه الشرق الأوسط فى السنوات المقبلة هى بين «إسرائيل الكبرى» المطهرة عرقيًا، ووجود دولة واحدة متكاملة مزدوجة القومية تضم اليهود والعرب، الإسرائيليين والفلسطينيين.

كان سلوك إسرائيل كارثة للسياسة الخارجية الأمريكية. وبالمساندة الأمريكية دأبت إسرائيل على التحدى السافر لقرارات الأمم المتحدة التى تطلب منها الانسحاب من الأراضى التى استولت عليها واحتلتها بالحرب



هذا ما يراه فى الواقع المتشددون فى مجلس وزراء شارون، وهو السبب فى أنهم يتوقعون طرد العرب باعتباره الشرط الحتمى لبقاء الدولة اليهودية.

ولكن ماذا يكون الحال إذا لم يكن فى عالم اليوم مكان لـ«دولة يهودية»؟ ماذا لو أن أمر الدولة الثنائية لم يعد فقط أمرًا محتملاً بصورة مطردة، بل حلاً مرغوبًا؟ فليس هذا الحل فكرة غريبة للغاية. فمعظم من يقرأون هذه المقالة يعيشون فى دول تعددية أصبحت منذ أمد طويل متعددة الأعراق ومتعددة الثقافات. فقد قال فاليرى جيكسار ديستان «إن أوروبا المسيحية لم يعد لها وجود» والحضارة الغربية اليوم هى نسيج من الألوان والأديان واللغات، من المسيحيين واليهود والمسلمين والعرب والهنود وكثيرين غيرهم.. وهو ما يعرفه أى زائر للندن أو باريس أو جنيف.

وإسرائيل نفسها مجتمع متعدد الثقافات من كل النواحى فيما عدا الاسم. ومع ذلك فهى تظل ذات طابع خاص بين الدول الديمقراطية من حيث لجوئها إلى معايير عرقية دينية تستخدمها للسيطرة على مواطنيها والتفرقة فيما بينهم. وهى كيان غريب بين الأمم العصرية ليس، كما يقول مؤيدوها المهووسون، بأنها دولة يهودية وليس هناك من يريد أن توجد دولة لليهود، بل لأن الدولة اليهودية التى تعيش فيها فئة واحدة، اليهود، فوق الآخرين، لا تعيش فى عصر لم يعد فيه مكان لمثل هذه الدولة.

وعلى امتداد سنوات طويلة كان لإسرائيل معنى خاص لدى الشعب اليهودى. وبعد سنة ١٩٤٨ استقبلت مئات الآلاف من الناجين الذين لا حول لهم

ولا طول والذين لم يكن لديهم مكان آخر يذهبون إليه. وبدون إسرائيل كان موقفهم سيغدو يائسًا إلى أقصى حد. كانت إسرائيل بحاجة إلى اليهود، واليهود بحاجة لإسرائيل. وربطت ظروف ميلاد إسرائيل هويتها ارتباطًا لا ينفصل بفكرة «الشواه» Shoah، أى المشروع الألمانى للقضاء على يهود أوروبا. ونتيجة لذلك، فكل الانتقادات الموجهة لإسرائيل ترجعها لذكريات ذلك المشروع، وهو أمر يسارع المدافعون الأمريكيون عن إسرائيل بلا حياء إلى استغلاله. ويقولون أن انتقاد الدولة اليهودية هو انتقاد لليهود، ويرون أن مجرد تصور وضع بديل فى الشرق الأوسط أمر مكافئ للقتل الجماعى.

وفى السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية، كان مجرد وجود إسرائيل عاملاً مطمئنًا لملايين اليهود الذين لم يعيشوا فيها. سواء أكانوا يعتبرونها بوليصة تأمين ضد عودة ظهور المعاداة للسامية أو كمجرد تذكرة للعالم بأن اليهود يستطيعون أن يردوا أى اعتداء عليهم. وقبل وجود دولة يهودية، كانت الأقليات اليهودية فى المجتمعات المسيحية تتلفت حولها وتلتزم وضعًا هادئًا. أما منذ ١٩٤٨ فإن تلك الأقليات تسير رافعة هامتها. ولكن فى السنوات الأخيرة تغير الوضع تغييرًا مؤسفًا.

إن اليهود من غير الإسرائيليين يشعرون اليوم بأنهم معرضون مرة أخرى للانتقاد والمهاجمة بسبب أشياء لم يقترفوها. ولكن فى هذه المرة بسبب الدولة اليهودية، التى تجعل منهم رهائن بأعمالها. ولا يستطيع يهود الشتات أن يؤثروا على سياسات إسرائيل، ولكنهم مربوطون بها. ومن دواعى ذلك إصرار إسرائيل نفسها على الحديث عن ولائهم لها. وسلوك الدولة التى تسمى نفسها الدولة اليهودية يؤثر على نظرة كل إنسان لليهود. وازدياد عمليات الهجوم على اليهود فى أوروبا وغيرها يرجع فى المقام الأول إلى جهود شاردة، غالبًا من شبان مسلمين، للرد على أعمال إسرائيل. والحقيقة المحزنة هى أن سلوك إسرائيل الحالى ليس مضرًا فقط بأمريكا، وهو ضرر مؤكد، وليس فقط مضرًا بإسرائيل ذاتها، وهو ما يعترف به كثير من الإسرائيليين صامتين. الحقيقة المحزنة هى أن إسرائيل اليوم أصبحت مضرة لليهود.

ففى العالم الذى تتداخل فيه الشعوب والأمم بصورة مطردة وتتزاوج بمحض إرادتها، وحيث انهارت العوائق الثقافية والوطنية التى كانت قائمة فى سبيل التواصل والتفاهم، وأصبح لعدد متزايد منا هويات متعددة ونشعر بأننا نقيد بقيود زائفة إذا كان علينا أن نتمسك بهوية واحدة منها، فى مثل هذا العالم صارت إسرائيل حقًا مفارقة تاريخية. وهى ليست مجرد مفارقة بل إنها كيان عاجز عن العمل. فى عالم اليوم حيث «تصادم الثقافات» بين الديمقراطيات التعددية المنفتحة والدول العرقية المدفوعة بالعقائد، ولا تقبل التسامح وذات النزعات العدوانية. فإن إسرائيل معرضة فى الواقع لأن تسقط فى المعسكر الخطأ.

ولن يكون تحويل إسرائيل من دولة يهودية إلى دولة ثنائية الجنسية أمرًا سهلاً، وإن لم يكن مستحيلاً كما يبدو لأول وهلة؛ فقد بدأت العمليات بالفعل على أساس الأمر الواقع. ولكن من شأنها ألا تُحدث اغترابًا لمعظم اليهود والعرب يزيد عما يدعيه أعداء هذا الحل على أساس دينى أو عرقى. وعلى أى حال، فليس بين الأشخاص الذين أعرفهم من لديه فكرة أفضل. إن أى شخص يفترض حقًا أن الجدار الإلكترونى المختلف بشأنه والذى يجرى بناؤه سوف يسوى الأمور، يبدو واضحًا أنه لم يدرك حقائق السنوات الخمسين الأخيرة من التاريخ. فهذا «الجدار»، وهو فى الواقع منطقة مسلحة تشمل خنادق وحواجز وأدوات استكشاف وطرقًا ترابية (لتتبع الأثر) وجدارًا يصل ارتفاعه إلى ثمانية وعشرين قدمًا، يشغل، ويقسم، ويسرق المزارع العربية، وسوف يدمر قرى، ومصادر للرزق، وما تبقى من الاتصال بين العرب واليهود. وهو يتكلف ما يقرب من مليون دولار لكل ميل ولن يترتب عليه غير الإذلال والقلق لكلا الجانبين. وهو كجدار برلين يؤكد الإفلاس الخلقى والمؤسسى للنظام الذى يرمى لحمايته.

إن قيام دولة ثنائية الجنسية فى الشرق الأوسط يحتاج إلى قيادة أمريكية شجاعة عازمة على الوصول إلى حل. ولابد من ضمان الأمن لليهود والعرب معًا بوجود قوة دولية. إن قيام دولة ثنائية الجنسية فى الشرق الأوسط يتطلب ظهور طبقة سياسية جديدة بين اليهود والعرب على السواء. والفكرة فى نفسها هى مزيج من الواقعية واليوتوبيا، وليس من السهل العثور على نقطة بدايتها، ولكن البدائل أسوأ منها بكثير. ■

ما بعد الصهيونية

فيرجينيا تيلى



■ هناك أنواع مختلفة من الأقليات. وما فكرة دولة مصرية للمصريين، ودولة يهودية لليهود، إلا تمرد على الواقع. إن ما نطلبه هو إعادة التفكير فى الحاضر فى ضوء التعايش والحدود التى يسهل عبورها واختراقها.

إدوارد سعيد، ١٩٩٩

ظل معظم المتعاطفين مع المطامح القومية الفلسطينية، أو مجرد المتنبهين لقدرتها على البقاء وللأخطار السياسية التى تشكلها، يفترضون على مدى بضع سنوات أن أى حل دائم للصراع الفلسطينى الإسرائيلى يتطلب تشكيل دولة فلسطينية فى المناطق (المتدهورة أحوالها) التى لم تضمها إسرائيل بعد، فيما تبقى من منطقة الانتداب البريطانى.

ومع ذلك فقد أصبح ذلك المبدأ الأساسى فى وقت ما من العقد المنصرم خيالاً يثير الارتباك والتشويش. فكما يعترف كثيرون فى السر، فقد قضى التقدم العنيد الذى لا رجعة فيه فى إنشاء المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة على شروط الدولة الفلسطينية المستقلة.

طول الوقت، ويومًا وراء يوم، كانت طواقم البناء الإسرائيلية يعلو ضجيجها فى الضفة الغربية وغزة وهى تشق الطرق وتقيم الآلاف من الوحدات السكنية فى مجتمعات مخططة تخطيطًا جيداً. وتشير كلمة «مستوطنة» إلى بضع مقطورات سكنية فوق أحد التلال يحميها المتعصبون، ولكن ما لدينا هو شبكة ضخمة من المدن الصغيرة التى تخترق عمق الضفة الغربية وغزة وتضم حاليًا ٢٠٠ ألف شخص (بالإضافة إلى ١٨٠ ألفًا فى مستوطنات القدس الشرقية التى لا يعتقد أحد أنها سوف تخلى). وهناك عشرات الآلاف من البيوت والشقق التى تخدمها المدارس ومراكز التسويق والمسارح ومراكز الفنون وتربطها طرق رئيسية وإمدادات المياه والكهرباء المعقدة والحواجز والأسوار والأسياج وأنظمة المراقبة المحيطة بها. وهذه الشبكة لا يمكن إزالتها بسبب بنيتها التحتية الضخمة، وبسبب الاستثمار النفسى الخاص بالمقيمين فيها. وربما كان من الممكن أن يؤدى الجهد الدولى المنظم إلى وقف نموها. غير أنها قطعت الآن شوطًا كبيرًا ولا يمكن لشىء أن يقف فى وجه توسعها.

وبما أن قطاع غزة والضفة الغربية تمزقهما المستوطنات اليهودية الإسرائيلية كثيرة السكان، فإن أيًا منهما لا يمكن أن تكون أرضًا قومية. ويترتب على ذلك أنه إذا لم يكن بالإمكان إلغاء سياسة الاستيطان، فلن تكون الدولة الفلسطينية ممكنة. ويعتقد جوت، ومعه الحق فيما يراه، أن حل الدولة الواحدة، مهما كان شكلها (ثنائية القومية أو مطهرة تطهيرًا عرقيًا)، هو الآن الحل الوحيد.

ترجمة: أحمد محمود

عن مجلة:
London Review of Books

إن بحث مستقبل المستوطنات فى ظل حل الدولتين يعنى أنه ليس حلاً بالمرة. فمن الناحية النظرية يمكن استيعاب المستوطنات وسكانها البالغ عددهم ٢٠٠ ألف فى الدولة الفلسطينية، حيث يحصل المستوطنون على المواطنة الفلسطينية أو على نوع من وضع الإقامة الدائمة. غير أنه فى ظل حجم الفساد الفلسطينى الرسمى، وكذلك صلات المستوطنين العاطفية والسياسية والاقتصادية بإسرائيل، لا تكون المواطنة خياراً جاداً. كما أن الإقامة الدائمة لن تؤدى إلا إلى تعقد الموقف الحالى: فستكون جيوباً لغير المواطنين داخل أراض فلسطينية غير متجاورة. وبديل ذلك هو تفكيك المبانى والبنية التحتية وإعادة استيعاب السكان اليهود داخل إسرائيل نفسها؛ وهى عملية مكلفة بالنسبة لإسرائيل، من الناحيتين المالية والسياسية. أو أن تسلم المستوطنات فى حالة سليمة كى يستفيد منها الفلسطينيون (مما يساعد على استيعاب العائدين الفلسطينيين) بينما يُنقل السكان اليهود، مرة أخرى، إلى داخل إسرائيل نفسها؛ وهو ما يفرض كذلك تكاليف مالية وسياسية كبيرة على إسرائيل. واتفاق جنيف محاولة للتعامل بمرونة مع هذه الخيارات؛ حيث تُسحب بعض المستوطنات، مع ترك بعض المستوطنات الكبيرة الأخرى. إلا أن أياً من الفاعلين الذين لديهم سلطة تطبيق الاتفاق. الحكومة الإسرائيلية والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى (أو جزء منه). ليس لديه الرغبة فى أن يفعل ذلك.

ليس منتظراً بطبيعة الحال من الحكومة الإسرائيلية الحالية تنفيذ مثل هذا المشروع. وليست المشكلة هى فقط شارون الذى يخوض حملة نشطة من أجل السيادة الإسرائيلية على كل فلسطين التى كانت خاضعة للانتداب، بعد استكمال شبكة المستوطنات. ولا تكمن المشكلة فى تلك الأقلية من المستوطنين فى «يهودا والسامرا» الذين هم فى واقع الأمر متعصبون دينيون مدججون بالسلاح (معظمهم من الولايات المتحدة)، حتى ولو كان التأثير السياسى المحلى مروعاً. فإنهم إذا قاوموا النقل بالقوة، وهو ما سيفعله البعض، فإن السلطة الأخلاقية لأية حكومة تحاول نقلهم. وحتى مشروعية دولة إسرائيل نفسها. قد تكون موضع شك بالنسبة لهؤلاء الصهاينة الذين يفهمون السيادة اليهودية على الأرض على أنها حق وواجب، حيث تنبع فى المقام الأول من السلطة التوراتية وثانياً من ضرورة حماية اليهود من الأخطار المعاصرة المعادية للسامية بالحفاظ على الملاذ والوطن اليهودى. ولأن المستوطنين المتدينين يتسمون بالدهاء السياسى والإيمان الشديد بتلك المبادئ، فإنهم قد يستعينون بالأمرين معاً.

ويمثل المتعصبون نوعاً من التشويش. فعلى مدى عقدين أو أكثر، تعدى التواطؤ الحكومى مع مشروع الاستيطان ما هو ضرورى لإقامة المتطرفين، ولا يزال الالتزام به متأصلاً فى المؤسسات والسياسة الحكومية، بالقدر الذى يتعدى السياسة الانتخابية. وتولى شارون منذ عام ١٩٨٤ وزارات التجارة والصناعة، والتشييد والإسكان، والبنية التحتية القومية. وكان بذلك فى موقع يضمن توفير المنح والقروض منخفضة الفوائد لبناء البيوت وللصناعة الإسرائيلية الجديدة فى المناطق، وزاد من مشاركة الحكومة فى توفير الخدمات والأعمال المصرفية وإمدادات الكهرباء والمياه، ويسر الاستثمارات الخاصة فى الإسكان والبنية التحتية، وشجع التعاون الاستراتيجى بين الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية فى تطوير كتل الاستيطان الواقعة على جانبى الخط الأخضر. وعلى سبيل المثال، شاركت كل وزارة وهيئة حكومية تقريباً فى بناء كتلة الريهان التى ألغت الخط الأخضر على طول الحدود الشمالية الشرقية للضفة الغربية. وقد يتطلب إعادة ترتيب هذه الهيئات لوقف الدعم والخدمات وغيرها من الحوافز المقدمة للاستيطان فى المناطق تغيير تصميمها الأساسى (البنية والسياسات والعاملون)، وهى مهمة تتعدى قدرة أى سياسى إسرائيلى أو ائتلاف للساسة.

ليس هناك ما يوشك أن يحدث، وذلك لأسباب نجدها فى عمق النسيج السياسى الأمريكى. أو حتى استراتيجية أمريكا العسكرية التى طال أمدها وتفترض أن إسرائيل هى الحليف الأساسى.

إذن، فليست الولايات المتحدة محايدة، بل هى محيِّدة. فما زالت سياستها الخارجية ملتزمة بتأييد «رفاهية» إسرائيل مهما كانت الطريقة التى تراها بها الحكومة الإسرائيلية، مما لا يجعل لها تأثيراً محايداً على سياسة الاستيطان.

يقترب شارون من تحقيق هدفه الذى طالما حلم به، وهو السيادة الإسرائيلية على كل فلسطين التى كانت خاضعة للانتداب، مع وجود بعض الجيوب الفلسطينية المعزولة غير القادرة على البقاء وتوفر حكماً ذاتياً كئيباً معزولاً ومحاصراً تتحلل فيها بقايا المجتمع الفلسطينى ببطء. إلا أن هذا سوف يجعل فى حوزته حزمة غير مرغوب فيها إلى حد كبير؛ وهى منطقة تضم ما يزيد على المليونين من المسلمين والمسيحيين العرب المُسيَّسين الذين ليست لهم دولة حقيقية خاصة بهم، الأمر الذى يؤدى إلى تفتيت إسرائيل مثلما فتتت هى مجتمعهم القومى. فالمشكلة قديمة قدم الصراع نفسه، وهى ماذا تفعل بالشعب إذا كان ما تريده هو الأرض؟

وبما أن الترانسفير؛ الترحيل بالقوة من الضفة الغربية، فى الغالب عبر الحدود الأردنية، سوف يطلق العنان للعنف الإقليمى على نطاق لا يدركه أحد الآن، وبما أن شارون أذكى من أن يسعى إلى ذلك، مهما كانت ضغوط الجناح اليمينى عليه، فقد يظل الفلسطينيون فى أجزاء محددة فى ظل سلطة فلسطينية «مستقلة»، ما تكلَّف بالحفاظ على النظام. وكما أعلن شارون نفسه، فلن يهم الفلسطينيين الوضع النظرى للدولة فى هذه الخطة. ذلك أن اقتصادهم سيظل مشلولاً، وسوف تتلاشى مجتمعاتهم فى نهاية الأمر لتصبح آثاراً عرقية لا علاقة لها بشىء.

وكما أشار چوت، ربما كان هذا الحل يتناسب مع الأيديولوجيات العرقية القومية فى القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين التى أفرزت الحركة الصهيونية، إلا أنه يتناقض مع المبادئ الديمقراطية التى تقوم عليها إسرائيل الحديثة. وسوف تستتبع سيادة إسرائيل على الضفة الغربية التى تضم جيوباً معزولة عوائق لوجيستية وأخلاقية تحول دون تماسكها.

يبقى حل الدولة الواحدة، وتصنيف العقبات التى تقف فى سبيله. ومن الواضح أنها عقبات ضخمة. فالمشكلات الخاصة بإسرائيل عميقة: ذلك أن التنازل عن يهودية «الدولة اليهودية» لن يتطلب تعديل قوانينها فحسب، بل إنه سيكون مخالفاً مخالفة صريحة للمعتقدات الصهيونية (والمسيحية اليمينية) الشائعة بشأن مبرر وجود إسرائيل. وليس هذا الصدام بجديد؛ فهو يعكس الانقسامات المبكرة داخل الفكر الصهيونى. فحل الدولة الواحدة يُطرح فى وقت تتجمع فيه المناقشات الجديدة (وشديدة العاطفية) على مدى عقد أو يزيد بشأن الطابع اليهودى لإسرائيل، حيث تركز على مسائل «ما بعد الصهيونية» الخاصة بما إذا كان بالإمكان أو من الواجب إعادة تصور إسرائيل نفسها: ليس باعتبارها دولة يهودية على وجه التحديد (بمعنى تقديس المؤسسات العامة للهيمنة اليهودية العرقية القومية الدائمة)، بل على أنها دولة يُضمن فيه لليهود الحريات العرقية والأمن على قدم المساواة مع المواطنين كافة. ومن المستحيل المبالغة فى مدى الخوف والأسى والحزن الذى يشيع فى تلك المناقشات بشأن مستقبل إسرائيل أو مشاعر توقع الشر والاستياء والرفض التى يثيرها الحديث عن الدولة العلمانية. ومع ذلك فليس صوت چوت بالصوت الخارج على الجماعة، حتى وإن أوحى ليون فيزيلتير بذلك فى رده الغاضب فى «ذا نيو ريبابليك».

إذا كان على الفلسطينيين والإسرائيليين (من كل الخلفيات العرقية والدينية) أن يشاركوا بالفعل فى دولة واحدة باعتبارهم أنداداً، فلابد كذلك أن توضح الرؤية ما بعد الصهيونية الطابع غير العرقى للمكوِّن الفلسطينى. فالدولة «ثنائية القومية» من الناحية الرسمية، التى تعترف بالقوميتين العرقيتين اليهودية والفلسطينية وتتعامل معهما على أنهما واقع عينى، يمكن أن توجد فحسب منافسة ثنائية الأقطاب توحى لفيزيلتير بهذا الذعر، وذلك فى ظل الثقل الديموجرافى الفلسطينى الأكبر. وهو يرى أن هيمنة

ليست الولايات المتحدة محايدة، بل هى محيِّدة. فما زالت سياستها الخارجية ملتزمة بتأييد «رفاهية» إسرائيل مهما كانت الطريقة التى تراها بها الحكومة الإسرائيلية، مما لا يجعل لها تأثيراً محايداً على سياسة الاستيطان

القومية الفلسطينية على اليهود أمر حتمى إلى الحد الذى يبرر هيمنة القومية اليهودية على الفلسطينيين.

التحدى الذى يواجه حل الدولة الواحدة هو العثور على ممر سياسى من خلال الانتقال من القوميات العرقية المتنافسة إلى الصيغ العلمانية الديمقراطية التى تحافظ على دور إسرائيل باعتبارها ملاذًا يهوديًا، فى حين تزيل الامتيازات التى تشبه الفصل العنصرى وتجعل غير اليهود فى الوقت الراهن مواطنين من الدرجة الثانية. وهذا التناقض تواجهه إسرائيل بالفعل داخل حدودها القانونية؛ ذلك أنه حتى السكان العرب الحاليين فى البلاد يرون أن هناك اتفاقًا كبيرًا على أن نظام القوانين الذى يحمى «الدولة اليهودية» ظالم وغير مستقر على المدى الطويل. وفى دولة علمانية ديمقراطية، يقتضى هذا تغيير نفس المفهوم الخاص بوضع الدولة اليهودية (وضمنيًا مدى نفوذ القومية اليهودية) تغييرًا جذريًا. ولابد من ضمان الحقوق والامتيازات القومية على الجانبين بتضمينها فى الامتيازات القومية الإسرائيلية. ولابد من إعادة تصور الفوائد المقصورة من الناحية القانونية على اليهود فى الوقت الراهن (عن طريق ربطها فى العادة بالخدمة العسكرية وبشكل أقل مباشرة بقانون العودة) مثل قروض الإسكان وقروض التعليم والتوظيف فى القطاع العام وهلم جرا، إلى جانب إعادة توزيع الموارد. ولابد من إعادة ترتيب استغلال الأراضى؛ حيث يخصص ٩٣ بالمائة من مساحة إسرائيل فى الوقت الراهن لاستخدام اليهود. ولابد من فصل الإسكان فصلاً رسميًا عن الإشغال اليهودى الحصرى (وسيكون من الواجب أن يتبخر الطابع «اليهودى فقط» للمستوطنات). ولابد من إعادة بحث الدور الراسخ للوكالة اليهودية التى تدير الموارد والامتيازات القومية اليهودية فى إسرائيل. ولابد كذلك من تغيير السياسة الانتخابية والتمثيل فى الكنيست بما يسمح بالمناقشة التشريعية على أساس الوضع العرقى المتكافئ. وقد تضمن تعديلات القوانين الأساسية، أو وضع دستور علمانى، أن تظل إسرائيل تحمى الأرواح والحقوق اليهودية، حيث تكون بمثابة الملاذ الذى يرغب الكثير من اليهود داخل إسرائيل وخارجها بشدة فى الحفاظ عليه. إلا أنه لابد أن يضمن القانون الأساسى نفسه الحقوق الإسلامية والمسيحية بل واللاغنوصية والإلحادية، ويقضى، على الأقل من الناحية التشريعية، على أى تراتب مؤسسى يقوم على المفاهيم العرقية والدينية. وسيحتاج هذا التحول إلى سنوات من النقاش والجدل والصراع؛ بل وإلى إرادة سياسية غالبة بشكل واضح فى الوقت الراهن. وقد تتغلب لجان تقصى الحقائق أو العفو العام فى نهاية الأمر على ميراث العنف والكراهية، ولكن كما هو الحال فى مثل هذه العواقب، سوف تستغرق العملية أجيالاً.

ستكون المشكلة بالنسبة للفلسطينيين ذات وضع مختلف. إذ هل ما يطمحون إليه بالفعل هو دولة علمانية ديمقراطية تقوم على السيادة الإقليمية؛ وهو النموذج الذى طالما اقترحه القوميون الفلسطينيون وطوره مفكرون مثل إدوارد سعيد؟ أم سيؤيد كثيرون فى الوقت الراهن إقامة دولة عرقية أو عرقية دينية تقوم على أفكار المحلية العربية أو الإسلامية من ذلك النوع الذى يتبنونه فى غزة؟ ليس مثل هذا النقاش الأساسى بالأمر الفريد، كما أنه ليس ميئوسًا منه كما قد يظن ظان (فقد وطأت جنوب أفريقيا ما بعد الفصل العنصرى بعضًا من هذه الأرض). بل إن الكثيرين من الفلسطينيين تحرروا من وهم «القيادة القومية» الخاصة بهم بالقدر الذى قد يجعلهم يرحبون بفكرة موتها، شريطة منحهم حقوقًا متكافئة باعتبارهم مواطنين فى دولة واحدة (سيكون العثور على الضمانات المناسبة لهذه الحقوق هو العقبة الأساسية).

قد يغير الأثر الأكبر والأوسع مدى لحل الدولة الواحدة هيئة التوترات الإقليمية، وكذلك التوترات المحلية، بإنهائه الاحتلال العسكرى وتوحيد الأرض واستعادة الفلسطينيين السيادة (المشتركة) فى وطنهم التاريخى. وسوف يمنحهم ما سعوا كثيرًا إليه من تمثيل وحقوق ملكية ونظام عدالة مدنية وحرية صحافة فى إطار النظام الديمقراطى المقصور حتى الآن على اليهود طالما أعجب به الكثيرون من الفلسطينيين وتمنوا محاكاته. ولكن هذا لن يحل كل المشاكل؛ فسوف يتعالى صوت توترات الحرم الشريف والهيكل، على سبيل المثال. إلا أنه سيعيد تشكيل تلك النزاعات باعتبارها خلافات عرقية داخل دولة ديمقراطية، وليس بين آخرين مستقطبين يجعل كل منهما الآخر شيطانًا. كما أنه سوف يعيد إسرائيل إلى ذلك الوضع الذى يحظى بالاحترام بين الأسرة الدولية، ويقضى على «المشكلة الفلسطينية» باعتبارها مصدر غضب المسلمين والقوميين العرب والجماعات المتطرفة فى أنحاء العالم الذين يشعرون باستياء شديد. وبما أن حل الدولتين لا يعد إلا بمزيد من المشاكل (وسوف تكون لفشله عقبات وخيمة)؛ فإن حل الدولة الواحدة هو الحل الوحيد الذى يمكن للمجتمع الدولى أن يفكر فيه حاليًا تفكيرًا مسئولاً. ■

كتاب الزاوية

بغداد فى الأيام الخوالى

هذه يوميات ومراسلات كتبها «كلوديوس جيمس ريج» الرحالة واللغوى وجامع العاديات الأثرية والمقيم البريطانى فى بغداد فى الفترة من ١٨٠٨ - ١٨٢١، جمعت تحت عنوان «بغداد فى الأيام الخوالى». وصدرت عن المجمع العلمى الثقافى فى «أبو ظبى».

وقد طاف ريج بمدن وقرى العراق، بل وانطلق منها إلى بعض الدول الأوروبية والفارسية. وقد توفى فى مدينة شيراز الإيرانية عام ١٨٢٢، عن ستة وثلاثين عامًا.

وقد جمعت كونستانسى. م. الكسندر ما كتبه ريج من يوميات ومراسلات، وأعادت ترتيبها وتنظيمها لتصدر فى هذه الصورة، مستفيدة من صلة القربى التى جمعتها بريج، فقد كانت بمثابة حفيدته.

والكتاب الذى يمكن اعتباره عرضًا سياسيًا لحقبة زمنية بعينها مر بها العراق، يمكن كذلك النظر إليه باعتباره دراسة أثرية لمواقع شهيرة يضمها بلد كان مهدًا لحضارة عريقة، فضلاً عن كونه عرضًا تاريخيًا لصراع القوى فى هذا الجزء من العالم، أو استعراضًا لبعض الصور الفلكلورية أو رواية لسيرة ذاتية لرجل لعب دورًا فى مجريات الأحداث وكان شاهد عيان على بعضها.

والمؤلفة - بسبب صلة القربى التى جمعتها بصاحب اليوميات - جعلت منه بطلاً فى كثير من المواقف، وتغاضت عن دوره الرئيسى الملتبس الذى أملى عليه حركاته وسكناته، وهو انتماؤه إلى شركة الهند الشرقية، التى كانت بمثابة الواجهة التى تستتر خلفها الإمبراطورية البريطانية فى كل مكان فى العالم.

أمريكا وأوروبا

تمر العلاقات الأوروبية - الأمريكية حاليًا بمرحلة شديدة الحساسية والتوجس نتيجة للهجوم المتواصل من جانب المحافظين الجدد فى الإدارة الأمريكية وعلى رأسهم دونالد رامسفيلد وزير الدفاع على الدور الأوروبى فى العالم. والخلاف الشديد الذى نشب بسبب الحرب الأمريكية على العراق. ورغم محاولات التقريب بين الجانبين إلا أن هذا التوتر مرشح للتصاعد مع تصاعد الخسائر الأمريكية فى العراق واستمرار المطالب الأوروبية بتولى الأمم المتحدة زمام الوضع هناك بدلاً من القوات الأمريكية.

سوزان سونتاج الكاتبة الأمريكية البارزة والمعارضة الشديدة للحرب فى العراق استكشفت أبعادًا جديدة للخلاف الأوروبى الأمريكى من منظور تاريخى - أدبى.. وقد ألقت سونتاج - ٧٠ عامًا - محاضرة بمناسبة تسليمها جائزة السلام الدولية على هامش معرض فرانكفورت الدولى للكتاب فى أكتوبر الماضى تناولت هذه القضية المتفجرة.. وفيما يلى نص محاضرتها.

المحرر

ترجمة: أحمد محمود

إنها تجربة تبعث على الخشوع والإلهام أن يتحدث المرء فى كنيسة القديس بولس، ذلك المكان الذى يفوح منه عبق التاريخ، وأمام هذا الجمهور، وأن يتسلم الجائزة التى يمنحها اتحاد الناشرين الألمان للكثير ممن أثاروا إعجابى من الكُتّاب والمفكرين والشخصيات العامة النموذجية. غير أننى أشعر فحسب بالمزيد من الأسف والأسى للتغيب المتعمد للسفير الأمريكى فى ألمانيا دانييل كوتس الذى يدل رفضه الفورى لحضور تجمعنا هنا اليوم، على أنه أحرص على تأكيد الموقف الأيديولوجى والاهتمام بردود الأفعال المعادية لحكومة بوش منه على أداء واجبه الدبلوماسى العادى بتمثيل مصالح بلده، وبلدى، وسمعته.

إن من واجب أى سفير أمريكى تمثيل بلاده، كل بلاده. وأنا بالطبع لا أمثل أمريكا، ولا حتى الأقلية الكبيرة التى لا تؤيد البرنامج الإمبريالى لمستر بوش ومستشاريه. وأنا أفضل الاعتقاد بأننى لا أمثل شيئًا سوى الأدب، بل فكرة بعينها عن الأدب، والضمير، وفكرة بذاتها عن الضمير أو الواجب. ولكن إدراكًا منى لبراءة هذه الجائزة الممنوحة من دولة أوروبية كبرى، باعتبارى «سفيرة فكرية» بين القارتين، فليس فى وسعى مقاومة بعض الأفكار بشأن الفجوة التى يتباهون بأنها قائمة بين أوروبا والولايات المتحدة.

ولنسأل أنفسنا أولاً وقبل كل شىء، هل هى فجوة أم صراع؟ إن التصريحات الغاضبة بشأن أوروبا، والتى تستبعد دولاً أوروبية بعينها، هى العملة الرائجة الخاصة بالخطاب السياسى الأمريكى. وهنا، على الأقل فى الدول الغنية على الجانب الغربى من القارة، نجد أن المشاعر المعادية لأمريكا أكثر رواجًا، وصوتها أكثر ارتفاعًا، ويزيد حجمها عن أى وقت مضى. فما هو هذا الصراع؟ هل له جذور عميقة؟ أظن أنه كذلك.

كان هناك على الدوام عداء مستتر بين أوروبا وأمريكا، وهو عداء معقد ومتناقض ظاهريًا، كذلك الذى بين الوالد وابنه. فأمريكا دولة أوروبية جديدة، وكانت حتى بضعة عقود قليلة مضت تسكنها فى الغالب شعوب أوروبية. ومع ذلك فقد كانت الفروق التى بين أوروبا وأمريكا هى على الدوام ما يذهل المراقبين الأكثر إدراكًا، مثل الكسيس توكفيل الذى زار تلك الدولة الفتية فى عام ١٨٣١ وعاد إلى فرنسا ليكتب «الديمقراطية فى أمريكا» الذى لا يزال بعد مرور حوالى مائة وسبعين عامًا أفضل ما كتب عن أمريكا، ودى إتش لورانس الذى نشر منذ سبعين عامًا كتابًا هو أكثر ما كُتب عن الثقافة الأمريكية لفتًا للانتباه، وهو كتابه المهم المثير للغضب «دراسات فى الأدب الكلاسيكى الأمريكى». وقد فهم كلاهما أن الولايات المتحدة ابنة أوروبا فى سبيلها لأن تكون ضدًا لأوروبا، أو أنها باتت كذلك بالفعل. روما الجديدة وأثينا. المريخ والزهرة.

لم يخترع مؤلفو المطبوعات واسعة الانتشار الحديثة التى تروج لفكرة التصادم الحتمى للمصالح والقيم بين أوروبا وأمريكا تلك الأضداد. وقد أطال الأجانب التفكير بشأنها وتأملوها: فهى تمثل السمات الكامنة واللحن المتكرر فى جزء كبير من الأدب الأمريكى طوال القرن التاسع عشر، من جيمس فينيمور ورالف والدو إيمرسون إلى والت ويتمان وهنرى جيمس وويليام دين هاولز ومارك توين. فهناك ثنائيات البراءة الأمريكية والتعقيد الأوروبى، والبراجماتية الأمريكية والعقلنة الأوروبية، والطاقة الأمريكية والسأم الأوروبى من الحياة، والسذاجة الأمريكية والاستهزاء الأوروبى، وطيبة القلب الأمريكية والحقد الأوروبى، والنزعة الأخلاقية الأمريكية وفنون التنازل الأمريكية؛ وأنتم تعرفون الألحان.

يمكن تصميم رقصات هذه الألحان بطريقة مختلفة. فالواقع أنهم رقصوا عليها بكل نوع من أنواع التقييم أو التحيز طوال قرنين عاصفين. ويمكن لمن يحبون أوروبا استخدام الأضداد القديمة لربط أمريكا بالبربرية التى تحركها التجارة وأوروبا بالثقافة الرفيعة، فى حين يعتمد من يخافون من أوروبا على الرأى القائل بأن أمريكا نموذج للمثالية والانفتاح والديمقراطية، بينما أوروبا نموذج للضعف والتعالى والدقة البالغة. وقد لاحظ توكفيل ولورانس شيئًا شنيعًا، وهو أن الأمر لم يكن مجرد إعلان الاستقلال عن أوروبا والقيم الأوروبية فحسب، بل كان هناك تقويض مطرد للقيم الأوروبية والسلطة الأوروبية واغتيال لها. فقد كتب لورانس: «لا يمكنك الحصول على شىء دون تحطيم ما هو قديم. والحادث هو أن أوروبا هى الشىء القديم. وينبغى أن تكون أمريكا الشىء الجديد. والشىء الجديد هو موت القديم». وتنبأ لورانس بتولى أمريكا مهمة تدمير أوروبا مستغلة الديمقراطية - وخاصة الديمقراطية الثقافية وديمقراطية السلوك - أداة لتحقيق ذلك. وكتب يقول إنه عند الانتهاء من هذه المهمة، قد تترك أمريكا الديمقراطية إلى حد كبير لتذهب إلى شىء آخر. (وهو ربما ما يكون فى سبيله للظهور الآن).

معذرة إذا كانت كل إحالاتى أدبية بحتة. فعلى أى الأحوال، إن إحدى وظائف الأدب - الأدب المهم والأدب الضرورى - هى أن يتنبأ بما سيحدث. وما لدينا هنا هو، إلى حد كبير، المعركة الأدبية، أو الثقافية، الدائمة بين القدامى والمحدثين.

الماضى هو أوروبا، وتقوم أمريكا على فكرة الانفصال عن الماضى، الذى يُنظر إليه على أنه مؤخر ومعوق وغير ديمقراطى إلى حد كبير، بما فيه من أشكال الخنوع والأولوية والمعايير الخاصة بما هو أسمى وما هو أفضل؛ وهو فى الأساس غير ديمقراطى أو «نخبوى»، وهو اللفظ البديل السائد حاليًا. ولا يزال الذين يتحدثون باسم أمريكا المنتصرة يشيرون إلى أن الديمقراطية الأمريكية تنطوى على رفض أوروبا واحتواء شىء من البربرية الحميدة المحررة. وإذا كان معظم الأمريكيين فى الوقت الراهن يعتبرون أوروبا اشتراكية أكثر منها نخبوية، فإن هذا ما يزال يجعل من أوروبا، طبقًا للمعايير الأمريكية، قارة متخلفة تتمسك بعناد بالمعايير القديمة، أى بدولة الرفاهية. وليس شعار «جددوها» خاصًا بالثقافة فحسب، بل إنه يصف آلة اقتصادية تشمل العالم بأسره ولا تتوقف عن التقدم.

ومع ذلك فإنه حتى «القديم» يمكن إعادة تعميده ليصبح «جديدًا» إذا اقتضى الأمر.

ليست مصادفة أن وزير الدفاع الأمريكى العنيد دونالد رامسفيلد حاول دق إسفين بين دول أوروبا، بتفريقه بين أوروبا «القديمة» (الشريرة) وأوروبا

> **هناك ثنائيات البراءة الأمريكية والتعقيد الأوروبى، والبراجماتية الأمريكية والعقلنة الأوروبية، والطاقة الأمريكية والسأم الأوروبى من الحياة، والسذاجة الأمريكية والاستهزاء الأوروبى، وطيبة القلب الأمريكية والحقد الأوروبى، والنزعة الأخلاقية الأمريكية وفنون التنازل الأمريكية**

... خلاف أم صراع؟!

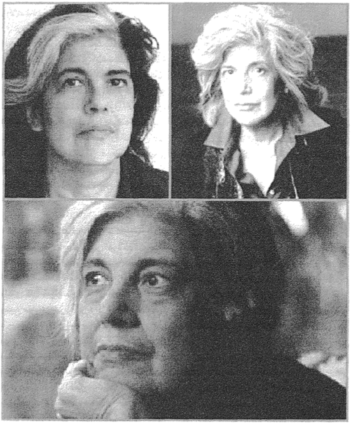
سوزان سونتاج

«الجديدة» (الطيبة). كيف حدث أن أُحيلت ألمانيا وفرنسا وبلجيكا إلى أوروبا «القديمة»، بينما وجدت أسبانيا وإيطاليا وبولندا وأوكرانيا وهولندا والمجر وجمهورية التشيك أنفسها جزءًا من أوروبا «الجديدة»؟ الإجابة هى أن من يدعم الولايات المتحدة فى توسيعها الحالى لنفوذها السياسى والعسكرى يدخل بالقطع ضمن فئة «الجديد» الأكثر مرغوبية. فمن كان معنا فهو «جديد».

تصنّف كل الحروب الحديثة، حتى وإن كانت دوافعها هى تلك الدوافع التقليدية كالتوسع الإقليمى أو الاستيلاء على الموارد النادرة، على أنها صدام حضارات. حروب ثقافية. حيث يدعى كل جانب أنه الأفضل ويصف الجانب الآخر بالبربرية. والعدو باستمرار خطر على «أسلوب حياتنا» وهو كافر ومنتهك للمقدسات وملوث ومدنس للقيم الأسمى أو الأفضل. والحرب الدائرة حاليًا ضد التهديد الحقيقى جدًا الذى تشكله الأصولية الإسلامية المتشددة مثال شديد الوضوح. والأمر الجدير بالملاحظة هو نسخة أخف من نفس الخطاب الذى يحط من القدر ويقلل من الشأن على نحو يدعم العداء بين أوروبا وأمريكا. ولابد أن نتذكر كذلك أنه من الناحية التاريخية لم يأت معظم الخطاب شديد الكراهية المعادى لأمريكا فى أوروبا، الذى يقوم فى الأساس على اتهام الأمريكيين بأنهم برابرة، مما يسمى باليسار، بل جاء من أقصى اليمين. فكم احتج هتلر وفرانكو على أمريكا (واليهود العالميين) المشاركة فى تلويث الحضارة الأوروبية بقيمها التجارية الوضيعة.

لا يزال جزء كبير من الجمهور الأوروبى، بطبيعة الحال، معجبًا بالطاقة الأمريكية، أى بالنسخة الأمريكية من «الحديث». ومن المؤكد أن هناك دائمًا المتعاطفين الأمريكيين مع المُثل الثقافية الأوروبية. وأنا واحدة منهم. الذى يجدون فى آداب أوروبا القديمة تحريرًا لتحيز الثقافة الأمريكية التجارية النشطة وتصحيحًا لها. وهناك دائمًا المناظرون لهؤلاء الأمريكيين على الجانب الأوروبى؛ وهم الأوروبيون المفتونون بشدة بالولايات المتحدة ويأسرهم سحرها، وهو ما يرجع على وجه الدقة إلى اختلافها عن أوروبا.

إن ما يراه الأمريكيون يكاد يكون عكس القول المبتذل الذى يدل على حب أوروبا؛ فهم يرون أنفسهم مدافعين عن الحضارة. فلم تعد الجحافل البربرية



سوزان سونتاج

خارج البوابات. إنها فى الداخل، فى كل مدينة مزدهرة، تخطط للدمار. فسيكون على الدول «المنتجة للشوكولاتة» (فرنسا وألمانيا وبلجيكا) أن تتنحى جانبًا بينما الدولة صاحبة «الإرادة». يساندها الرب. تواصل المعركة ضد الإرهاب (الذى يربطونه الآن بالبربرية). وطبقًا لما قاله وزير الخارجية الأمريكى كولين باول، فإنه من المثير للضحك أن تطمح أوروبا القديمة (ويبدو أحيانًا أن فرنسا وحدها هى المقصودة) إلى القيام بدور فى حكم الأراضى التى يكسبها الائتلاف الفاتح أو فى إدارتها. فهى لا تملك الموارد العسكرية، ولا أقل قدر من العنف، ولا دعم شعوبها المدللة شديدة الميل للسلم. والأمريكيون محقون فيما يقولون. فالأوروبيون ليسوا فى حالة مزاجية تتسم بالحماس المتقد أو الولع بالقتال.

اضطر فى بعض الأحيان لأن أقرص نفسى كى أتأكد أننى لست فى حلم؛ ذلك أن ما يعتقده أناس كثيرون فى بلدى الآن ضد ألمانيا، التى أثارت ذلك الرعب فى العالم طوال قرن تقريبًا. «المشكلة الألمانية» الجديدة كما كانت تسمى. هو أن الألمان ينفرون من الحرب، وأن جزءًا كبيرًا من الرأى العام الألمانى هو الآن مسالم بالفعل!

ألم تكن أوروبا وأمريكا شريكتين فى يوم من الأيام؟ ألم تكونا صديقتين فى يوم من الأيام؟ لقد كانتا كذلك بالطبع. ولكن يبدو أنه صحيح أن فترات الوحدة، أى فترات الشعور المشترك، كانت الاستثناء بدلاً من أن تكون قاعدة. وكانت إحدى تلك الفترات منذ الحرب العالمية الثانية حتى الحرب الباردة، حين كان الأوروبيون يشعرون بالامتنان لتدخل أمريكا وإغاثتها ودعمها. ويشعر الأمريكيون بالراحة حين يرون أنفسهم يقومون بدور مخلّص أوروبا ومنقذها. ولكنهم يتوقعون بعد ذلك أن يظل الأوروبيون معترفين بالجميل على الدوام، وهو ما لا يشعر به الأوروبيون فى الوقت الراهن.

يبدو من وجهة نظر أوروبا «القديمة» أن أمريكا تميل إلى إهدار الإعجاب والامتنان، الذى يشعر به الأوروبيون. فقد كان التعاطف الشديد مع الولايات المتحدة فى أعقاب هجوم الحادى عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١ صادقًا وأصيلاً. (وأنا أشهد على حرارته وإخلاصه فى ألمانيا، حيث كنت فى برلين فى ذلك الوقت.) إلا أن ما أعقب ذلك كان تباعدًا متزايدًا على الجانبين.

ولابد أن يعرف مواطنو أغنى وأقوى دولة فى التاريخ أن أمريكا محبوبة، ومحسودة، بل ومستاء منها. ويعرف القليلون الذين يسافرون للخارج أن أوروبيين كثيرين ينظرون إلى الأمريكيين على أنهم أجلاف وغير مثقفين، ولا يترددون فى وضع هذه التوقعات موضع المقارنة بالسلوك الذى يوحى بالاستياء ممن كانوا مستعمرين فى يوم من الأيام. ويعزو عدد لا بأس به من الأوروبيين المثقفين، الذين يبدو أنهم يجدون إلى حد كبير متعة فى زيارة أمريكا أو العيش فيها، إلى الولايات المتحدة تلك القيم التحريرية الخاصة بالمستعمرة التى يتخلصون فيها من القيود وأعباء ثقافة «العودة للوطن» الرفيعة. وأذكر أن مخرجًا ألمانيًا يعيش الآن فى سان فرانسيسكو قال لى إنه يحب العيش فى الولايات المتحدة «لأن المرء لا يجد أية ثقافة هنا».

وكان عدد لا بأس به من الأوروبيين، الذين لابد أن نذكر أن بينهم دى إتش لورانس (الذى كتب إلى أحد أصدقائه فى عام ١٩١٥، حين كان يخطط للعيش فى الولايات المتحدة: «الحياة هناك تنبع من الجذور، وهى تتسم بالفظاظة ولكنها تتسم كذلك بالحيوية»)، يرى أن أمريكا هى المهرب الكبير. والعكس صحيح: فقد كانت أوروبا المهرب الكبير لأجيال من الأمريكيين الذين يبحثون عن «الثقافة». وأنا أتحدث هنا عن الأقليات فحسب، أى أقليات المتميزين. (فالكاتب أو المخرج السينمائى هو بالقطع أحد المتميزين.)

وهكذا ترى الولايات المتحدة نفسها الآن المدافع عن الحضارة ومنقذ أوروبا، وتتساءل عن سبب عدم إدراك الأوروبيين لذلك. بينما يرى الأوروبيون الأمريكيين على أنهم دولة من المحاربين المتهورين، وهو الوصف الذى يرد عليه الأمريكيون بالنظر إلى أوروبا على أنها عدو أمريكا: فالكلام الذى نسمعه كثيرًا فى الولايات المتحدة هو أن أوروبا تتظاهر بحبها للسلام كى تساهم فى إضعاف القوة الأمريكية. وهم يظنون أن فرنسا على وجه الخصوص تخطط لأن تكون ندًا لأمريكا فى تشكيل الشئون العالمية، بل وتتفوق عليها فى ذلك. وكان الاسم الذى اخترعه أحد كُتّاب صحيفة «نيويورك تايمز» لوصف

الرغبة الفرنسية فى الهيمنة هو «عملية لابد من فشل أمريكا» Operation America Must Fail. بدلاً من أن يدركوا أن أية هزيمة أمريكية فى العراق سوف تشجع «الجماعات المسلمة المتشددة، من بغداد إلى أحياء باريس المسلمة» على مواصلة جهادها ضد التسامح والديمقراطية.

من الصعب ألا يرى الناس العالم من الناحية القطبية («هم» و«نحن») وهذه الناحية هى التى قوت فيما مضى الفكرة الانعزالية فى السياسة الخارجية الأمريكية مثلما تقوى الفكرة الإمبريالية فى الوقت الراهن. لقد تعود الأمريكيون على التفكير فى العالم من ناحية الأعداء. فالأعداء فى مكان ما، ويكاد القتال يكون «هناك» دائماً، حيث استعيض بالأصولية الإسلامية عن الشيوعية الروسية والصينية باعتبارها تهديداً لـ«أسلوب حياتنا». كما أن كلمة إرهابى أكثر مرونة من كلمة شيوعى. فمن الممكن أن توحد عدداً أكبر من المعارك والمصالح. وما قد يعنيه هذا أن الحرب لن تكون لها نهاية؛ حيث سيكون هناك إرهاب ما باستمرار (مثلما سيكون هناك فقر وسرطان على الدوام)، ذلك أنه ستكون هناك باستمرار صراعات غير متماثلة يستخدم فيها الجانب الأضعف ذلك الشكل من العنف، الذى عادة ما يستهدف المدنيين. وقد يؤيد الخطاب الأمريكى، إن لم يكن المزاج الشعبى، هذا الاحتمال البغيض، إذ إن الكفاح من أجل الاستقامة وصلاح الأمور لا ينتهى.

إن عبقرية الولايات المتحدة، الدولة شديدة التحفظ بطريقة يصعب على الأوروبيين سبر غورها، هى أنها ابتدعت شكلاً من أشكال التفكير المحافظ الذى يحتفى بالجديد وليس بالقديم. ولكن هذا يعنى كذلك أنه مثلما تبدو الولايات المتحدة شديدة التحفظ، على سبيل المثال فى القوة غير العادية الخاصة بالإجماع وسلبية الرأى العام وامتثاله (كما أشار توكفيل فى عام ١٨٣١) والإعلام، فهى كذلك متشددة، بل وثورية، بأشكال يجد الأوروبيون صعوبة فى سبر غورها.

من المؤكد أن جزءاً من اللغز يكمن فى الفصل بين الخطاب الرسمى والواقع المعاش. فالأمريكيون يمجدون «التقاليد» على الدوام ويعلون من شأنها؛ فالحديث عن القيم الأسرية هو محور كل خطاب سياسى. ومع ذلك تلحق ثقافة أمريكا ضرراً بالغاً بالحياة الأسرية، بل وبالتقاليد كلها، فيما عدا تلك التى عُدلت بحيث تشجع «الهويات» التى تتناسب مع الأنماط الكبرى الخاصة بالتميز والتعاون والانفتاح على التجديد والاستحداث.

ربما كان أهم مصدر للتشدد الأمريكى الجديد (وهو ليس بالجديد جداً) هو ما كان ينظر إليه على أنه مصدر القيم المحافظة، أى الدين. ولاحظ الكثير من المعلقين أنه ربما كان أكبر فرق بين الولايات المتحدة والدول الأوروبية (القديم منها والجديد طبقاً للتمييز الأمريكى الحالى) هو أن الدين فى الولايات المتحدة لا يزال يقوم بدور أساسى فى المجتمع والخطاب العام. ولكن هذا هو الدين على الطريقة الأمريكية، أى فكرة الدين أكثر من الدين نفسه.

صحيح أنه أثناء حملة جورج بوش الانتخابية فى عالم ٢٠٠٠ خطر ببال أحد الصحفيين أن يطلب من المرشح ذكر اسم «الفيلسوف المفضل» لديه، فكان الرد الذى تلقاه هو «يسوع المسيح». وهو الرد الذى كان سيجعل من أى مرشح لمنصب رفيع من أى حزب من أحزاب الوسط هنا فى أية دولة أوروبية مادة للضحك. ولكن بوش لم يكن يعنى بالطبع أنه فى حال انتخابه سوف تكون حكومته ملتزمة بأى من المبادئ أو المشروعات الاجتماعية التى فسرها يسوع بالفعل، ولم يفهم أحد أن هذا هو ما يعنيه.

الولايات المتحدة مجتمع دينى بصورة عامة. ويعنى هذا أنه لا يهم فى الولايات المتحدة أى دين تعتنق، مادام لك دين. أما أن يكون هناك دين سائد، أو حتى حكومة من رجال الدين، أى الدين المسيحى (أو مذهب بعينه من مذاهب المسيحية)، فأمر مستحيل. وهذه الفكرة الحديثة الخالية نسبياً من مضمون الدين، التى بُنيت طبقاً للاختيار التجارى، هى أساس التوافق وصلاح الذات والنزعة الأخلاقية الأمريكية (التى يخلط الأوروبيون بينها وبين البيورتانية «التطهرية» البروتستانتية). ومهما كانت العقائد التاريخية التى تزعم الكيانات الدينية الأمريكية أنها تمثلها، فهى جميعاً تدعو إلى الشىء نفسه، وهو إصلاح السلوك الفردى، وإلى قيمة النجاح، والتعاون بين أفراد المجتمع، والتسامح مع الاختيارات الأخرى. (وهى كل القيم التى تعمل على





تحسين أداء الرأسمالية الاستهلاكية لوظيفتها وتيسيره.) وتضمن فكرة كون المرء متديناً نفسها أن يحظى بالاحترام، كما أنها تشجع النظام، وتوفر النوايا الفاضلة لمهمة قيادة العالم التى تقوم بها الولايات المتحدة وتضمنها.

إن ما يجرى نشره الآن. سواء أسموه ديمقراطية أم حرية أم حضارة. هو جزء من عمل قيد التنفيذ، كما أنه جوهر التقدم نفسه. فما من موضع فى العالم يجد فيه حلم التنوير موقعاً خصباً كالذى يجده فى أمريكا.

فهل نحن مختلفون اختلافاً كبيراً بالفعل؟ الغريب أنه فى الوقت الذى لم تكن فيه أوروبا وأمريكا على قدر كبير من التشابه من الناحية الثقافية، لم يكن هناك وجود لهذا الانقسام الكبير.

ومع ذلك، ورغم كل التشابهات فى حياة المواطنين اليومية فى الدول الأوروبية الغنية وحياة الأمريكيين اليومية، فإن الفجوة القائمة بين التجربة الأوروبية والتجربة الأمريكية فجوة حقيقية تقوم على اختلافات مهمة خاصة بالتاريخ، وبالأفكار المتعلقة بدور الثقافة، وبالذكريات الحقيقية والمتخيلة. ولا يمكن إزالة العداء. فالعداء موجود. فى المستقبل القريب، رغم النوايا الحسنة لدى كثير من الناس على جانبى الأطلنطى. إلا أن المرء لا يسعه إلا أن يرثى لحال من يرغبون فى تعميق تلك الاختلافات، فى الوقت الذى نشترك فيه فى أشياء كثيرة جداً.

إن هيمنة أمريكا حقيقة واقعة. ولكن لا يمكن لأمريكا أن تفعل كل شىء بمفردها، الأمر الذى بدأت الحكومة الحالية تدركه الآن. فمستقبل عالمنا. ذلك العالم الذى نتقاسمه. مستقبل توفيقى وأطيافه مختلطة. ذلك أننا لسنا معزولين عن بعضنا، وينفذ كل منا إلى الآخر أكثر وأكثر.

وفى النهاية يكمن نموذج أى تفاهم. أو إعادة للمياه إلى مجاريها. فى أن نتوصل إليه من التفكير بقدر أكبر فى التقابل القديم، أى «القديم» و«الجديد». ذلك أن التقابل بين «الحضارة» و«البربرية» يفرض شروطاً بعينها، والتفكير فيه يفسد الأمور، مهما بلغ احتمال كونه يعكس واقعاً بعينه. أما التقابل بين «القديم» و«الجديد» فحقيقى، ولا يمكن القضاء عليه، وهو موجود فى قلب ما نفهمه على أنه التجربة نفسها.

«القديم» و«الجديد» هما القطبان الأبديان لكل شعور أو إحساس بالتوجه فى العالم. فنحن لا يمكن أن نحيا بدون القديم، حيث استثمرنا فى هذا القديم كل ماضينا وحكمتنا وذكرياتنا وإحساسنا بالواقع. كما أنه لا يمكننا الحياة بدون الإيمان بالجديد، لأننا نستثمر فيما هو جديد كل طاقتنا، وقدرتنا على التفاؤل، ونزوعنا البيولوجى الأعمى، وقدرتنا على النسيان؛ وهى القدرة الشافية التى تستحيل بدونها كل أشكال المصالحة.

تميل الحياة العقلية إلى الشك فى الجديد. وسوف تكون الحياة العقلية التى جرى تكوينها بقوة مقاومة إلى حد كبير للجديد. فهم يقولون لنا إن علينا أن نختار؛ إما القديم أو الجديد. والواقع أنه من الواجب اختيار الاثنين. فما هى الحياة إن لم تكن سلسلة من المساومات بين القديم والجديد؟ يبدو لى أنه ينبغى لنا دائماً مناقشة هذه التقابلات شديدة الوضوح باستفاضة.

القديم مقابل الجديد، والطبيعة مقابل الثقافة؛ ربما كان من المحتم عرض الخرافات الكبرى الخاصة بحياتنا الثقافية باعتبارها جغرافيا، وليس على أنها تاريخ فحسب. ومع ذلك فهى لا تزيد على كونها خرافات وأقوالاً مبتذلة وقوالب منمطة. أما الواقع فهو أعقد من ذلك بكثير.

أمضيت جزءاً كبيراً من حياتى أحاول حل لغز طرق التفكير التى تخلق القطبية والتقابل. وإذا ما ترجمنا هذا إلى سياسة فهو يعنى دعم ما هو تعددى ودنيوى. وكشأن بعض الأمريكيين والكثير من الأوروبيين، فإننى أفضل إلى حد كبير العيش فى عالم متعدد الأطراف؛ عالم لا يهيمن عليه بلد واحد (بما فى ذلك بلدى). وقد عبرت عن تأييدى فى هذا القرن، المتوقع أن يكون قرناً آخر من التطرف والرعب، لمجموعة كاملة من الاتجاهات التحسينية؛ وعلى الأخص ما تسميه فيرجينيا وولف «قيمة التسامح الحزينة».

ولتسمحوا لى أن أتكلم أولاً وقبل كل شىء باعتبارى كاتبة، وباعتبارى على علاقة بعالم الأدب، ذلك أن هذا وحده هو ما تكمن فيه السلطة الوحيدة التى فى أيدينا.

لا تثق الكاتبة التى داخلى فى المواطنة الصالحة، و«السفيرة الفكرية»، والناشطة فى مجال الدفاع عن الحقوق؛ أى تلك الأدوار التى جاء ذكرها فى براءة الجائزة، رغم التزامى بها. فالكاتبة أكثر شكًا، وأكثر شكًا فى ذاتها، من تلك الإنسانة التى تحاول أن تفعل الشىء الصحيح (وتدعمه).

إحدى مهام الأدب هى صياغة الأسئلة وترتيب البيانات المضادة للبيانات التقليدية السائدة. وحتى حين لا يكون الفن تقابليًا، فإن الآداب تنجذب نحو الضد. فالأدب حوار، وتجاوب. قد يوصف الأدب بأنه تاريخ التجاوب الإنسانى مع ما هو حى وما يوشك على الموت حين تتطور الثقافات وتتفاعل مع بعضها البعض.

ويمكن للكُتّاب أن يفعلوا شيئًا ما لمناهضة تلك الأقوال المبتذلة الخاصة بانفصالنا واختلافنا؛ ذلك أن الكُتّاب صناع للخرافات وليسوا ناقلين لها فحسب. ولا يقدم الأدب الخرافات وحدها، بل يقدم كذلك الخرافات المضادة، مثلما تقدم الحياة التجارب المضادة: أى تلك التجارب التى تدحض ما كنا نظنه، أو نشعر به، أو نعتقده.

أظن أن الكاتب شخص يولى اهتمامًا بالعالم. وهو ما يعنى محاولة فهم الشر الذى تقدر عليه الكائنات البشرية واستيعابه والاتصال به، وألا يفسد هذا الفهم الكاتب ويجعله مستهترًا وسطحيًا.

فالأدب يخبرنا بما عليه العالم.

كما يقدم الأدب المعايير وينشر المعرفة العميقة المجسدة فى اللغة وفى السرد.

ويمكن للأدب أن يدرب قدرتنا على البكاء على من ليسوا نحن أو منا ويعرضها.

من عسانا نكون إن نحن لم نتعاطف مع من هم نحن أو منا؟ من عسانا نكون إن لم ننس أنفسنا، لبعض الوقت على الأقل؟ من عسانا نكون ما لم يكن بمقدورنا أن نتعلم، وأن نعفو، وأن نصبح شيئًا غير ما نحن عليه؟

فى مناسبة الحصول على هذه الجائزة الرفيعة، اسمحوا لى أن أحكى لكم شيئًا عن مسارى.

لقد ولدت ضمن الجيل الثالث من الأمريكيين الذين ينحدرون من أصول يهودية بولندية ولتوانية قبل أسبوعين من تولى هتلر السلطة. نشأت على أرض أمريكية (أريزونا وكاليفورنيا)، بعيدًا عن ألمانيا، ومع ذلك كانت ألمانيا تراودنى طيلة



طفولتى، وأعنى بذلك وحشية ألمانيا، والكتب الألمانية والموسيقى الألمانية التى أحببتها وكانت بالنسبة لى المعيار لما هو جاد ومكثف.

وحتى قبل باخ وبيتهوفن وشوبيرت وبرامز، كانت هناك بضعة كتب ألمانية. أذكر أحد المدرسين فى المدرسة الابتدائية فى بلدة صغيرة بأريزونا، وهو مستر ستاركى الذى أثار الرهبة فى نفوس تلاميذه بإخبارنا أنه حارب مع جيش بيرشنج فى المكسيك ضد بانشو بيا. ويبدو أن ذلك المحارب القديم ذو الشعر الأشهب الذى شارك فى إحدى المغامرات الاستعمارية الأمريكية المبكرة تأثر، من خلال المترجمات، بمثالية الأدب الألمانى.

بعد وقت قصير، وأثناء نهمى الشديد للقراءة أثناء طفولتى، قادتنى المصادفة إلى كتب ألمانية أخرى بينها «فى المستوطنة العقابية» حيث اكتشفت الرعب والظلم. وبعد ذلك ببضع سنوات، حين كنت طالبة فى المدرسة الثانوية بلوس أنجلوس وجدت أوروبا كلها فى رواية ألمانية. فلم يكن هناك كتاب أهم فى حياتى من «الجبل السحرى» الذى كان موضوعه على وجه التحديد هو صراع المُثُل فى قلب الحضارة الأوروبية. وهكذا كان الحال خلال حياة طويلة مشبعة بالثقافة الألمانية الرفيعة. والواقع أنه بعد الكتب والموسيقى، التى كانت تجارب سرية بالفعل فى ظل الصحراء الثقافية التى عشت فيها، جاءت التجربة الحقيقية. فلأننى مستفيدة متأخرة كذلك من الشتات الثقافى الألمانى، فقد كان لى حظ معرفة بعض لاجئى هتلر الذين كانوا على قدر كبير من النبوغ، معرفة جيدة، وكان هؤلاء هم الكُتّاب والفنانون والموسيقيون الذين استقبلتهم أمريكا اعتبارًا من ثلاثينيات القرن العشرين، وعلى الأخص فى جامعاتها. واسمحوا لى أن أذكر اثنين خصانى بأن أكون فى عداد أصدقائهما، حين كنت فى نهاية عقدى الثانى وبداية العقد الثالث، وهما هانز جيرت وهربرت ماركوزه. وهؤلاء الذين درست معهم فى جامعة شيكاغو وفى هارفارد، وحنا أرندت التى التقيت بها فى نيويورك.

ولنعد إلى حين كنت طفلة فى العاشرة من عمرها تجد بعض الراحة من الواجبات المتعبة الخاصة بكونها طفلة عندما تقرا بتمعن نسخ مستر ستاركى الممزقة من عملى جوته وشتورم. فى ذلك الوقت الذى أتحدث عنه، وهو عام ١٩٤٣، كنت أعرف أن هناك معسكرًا للأسرى فى الجزء الشمالى من الولاية به الآلاف من الجنود الألمان، وكنت أحسبهم بالطبع جنودًا نازيين. ولمعرفتى بأننى يهودية (اسمًا فقط، حيث كانت عائلتى علمانية تمامًا وكان قد جرى استيعابها منذ جيلين، ولكنى كنت أعرف أن «اسمًا» فيها الكفاية بالنسبة للنازيين) فقد كان ينتابنى كابوس متكرر يهرب فيه الجنود النازيون من الأسر ويشقون طريقهم عبر الولاية إلى حيث يوجد كوخ على أطراف البلدة أعيش فيه مع أمى وأختى ويوشكون أن يقتلونى.

ولنتقدم إلى سنوات عمرى اللاحقة، فى السبعينيات من القرن العشرين، حين بدأت دار هانزر فيرلاج نشر كتبى وتعرفت على فريتس أرنولد المحترم (وكان قد انضم للشركة فى عام ١٩٦٥) الذى كان محررى فى هانزر حتى وفاته فى فبراير ١٩٩٩.

فى إحدى المرات التى كنا فيها معًا، قال فريتس إنه يريد أن يخبرنى، مفترضًا، كما أظن، أن هذا شرط لأية صداقة قد تنشأ بيننا، بما فعله أثناء الحرب. قلت له إنه ليس ملزمًا من الناحية الأدبية بتقديم مثل هذا التفسير لى. إلا أننى تأثرت بالطبع بإثارته للموضوع. وينبغى أن أشير إلى أن فريتس أرنولد لم يكن وحده الألمانى الذى ينتمى إلى جيله من الألمان (هو من مواليد ١٩١٦) الذين كان الواحد منهم يصر بعد لقائنا مباشرة على أن يحكى لى عما فعله أثناء الحرب. ولم تكن كل القصص بريئة براءة ما سمعته من فريتس.

على أية حال فإن ما رواه لى فريتس هو أنه كان طالبًا بالجامعة يدرس الأدب والتاريخ، فى ميونخ أولًا ثم فى كولونيا بعد ذلك، حيث جند فى بداية الحرب برتبة عريف فى القوات المسلحة الألمانية Wehrmacht. لم تكن أسرته نازية بحال من الأحوال. فقد كان والده كارل أرنولد





رسام كاريكاتير سياسى أسطورى فى صحيفة «سيمبليسيسموس» Simplicissmus. إلا أنه بدا أن الهجرة كانت غير واردة، وقبل على مضض الاستدعاء للخدمة العسكرية، آملاً ألا يقتل أحدًا أو يقتله أحد.

كان فريتس واحدًا من المحظوظين. كان محظوظًا لأنه تمركز أولاً فى روما (حيث رفض دعوة الضابط الأعلى منه ترقيته إلى رتبة ملازم)، ثم فى تونس. وكان محظوظًا لأنه ظل خلف الخطوط ولم يطلق النار من سلاحه قط. وأخيرًا كان محظوظًا، إن كانت تلك هى الكلمة الصحيحة، لأن يأسره الأمريكيون فى عام ١٩٤٣، وأن تنقله سفينة عبر الأطلنطى مع غيره من الجنود الأمريكيين الأسرى إلى نورفولك بولاية فيرجينيا، ثم نُقل بالقطار عبر القارة ليقضى بقية فترة الحرب فى معسكر الأسرى فى بلدة صغيرة، شمالى أريزونا.

حينذاك سرنى أن أقول له، وأنا أتنهد تعجبًا، ذلك أننى كنت قد بدأت بالفعل أعجب بهذا الرجل. وكانت تلك بداية صداقة عظيمة وكذلك علاقة مهنية مكثفة. لأنه بينما كان هو أسيرًا فى شمال أريزونا، كنت أنا فى جنوبها أشعر بالرعب من الجنود النازيين الذين كانوا هناك، أقصد هنا، ولم يكن منهم مهرب.

قال لى فريتس إن ما هوّن عليه فترة الثلاث سنوات تقريبًا التى أمضاها فى معسكر الأسرى فى أريزونا هو السماح له بالوصول إلى الكتب. فقد أمضى تلك السنوات الثلاث فى قراءة الأعمال الكلاسيكية الإنجليزية والأمريكية وإعادة قراءتها. فى حين أخبرته أنا أن ما أنقذنى كتلميذة فى أريزونا تنتظر أن تكبر، وتنتظر الهروب إلى واقع أكبر، هو قراءة الكتب؛ الكتب المترجمة وكذلك المكتوبة بالإنجليزية.

كان الوصول إلى الأدب، وأقصد الأدب العالمى، هروبًا من سجن الغرور القومى، وسجن النزعة المادية المبتذلة، وسجن المحلية الإجبارى، وسجن التعليم المدرسى الفارغ، وسجن الأقدار الناقصة وسوء الحظ. كان الأدب جواز المرور لدخول الحياة الأكبر، أى منطقة الحرية.

كان الأدب هو الحرية. ويكون الأدب هو الحرية على وجه الخصوص فى الزمن الذى تواجه فيه قيم القراءة والاستغراق فى الحياة العقلية والروحية تحديات صعبة. ■

محاضير محمد .. الطبيب

[١]

تعتبر تجربة التنمية في ماليزيا تجربة مهمة بالنسبة للبلدان العربية باعتبارها تجربة تمت في بلد إسلامي بهدف التنمية والنهوض الاقتصادي، في ظل سياسة منفتحة على العالم الخارجي. وتستمد هذه التجربة خصوصيتها من أنها محاولة جريئة للدخول في دائرة العولمة مع الحفاظ على درجة كبيرة من هامش الوطنية الاقتصادية. ولقد نجح تطبيق تلك المعادلة الصعبة، في ظل القيادة الحكيمة لرئيس الوزراء الماليزي الدكتور محاضير محمد، حيث ركزت قيادة محاضير محمد منذ عام ١٩٨١ على ثالوث «النمو، التحديث، التصنيع»، باعتبار تلك القضايا الثلاث أولويات اقتصادية وطنية. كما تم التركيز على مفهوم: ماليزيا كشراكة (Malaysia Incorporated)، أي باعتبارها شراكة بين القطاع العام والقطاع الخاص، من ناحية، وشراكة بين الأعراق والفئات الاجتماعية المختلفة التي يتشكل منها المجتمع الماليزي، من ناحية أخرى.

ويعتبر «محاضير محمد» إحدى القيادات التاريخية في العالم الثالث التي تستلهم روح باندونج. وقد تأكدت هذه الروح في صيف ١٩٩٧، عندما اصطدمت المصالح الوطنية الاقتصادية لماليزيا في النمو والتطور بسلبيات العولمة، ولاسيما في ظل عمليات العولمة المالية، حيث أدت حركة رؤوس الأموال القصيرة الأجل «الأموال الساخنة» إلى الأزمة المالية المعروفة في صيف ١٩٩٧، الأمر الذي أدى إلى قيام محاضير محمد بالتمرد على قواعد العولمة، والقيام بإجراءات أوائل سبتمبر ١٩٩٨ الشهيرة التي أدت إلى فرض القيود على خروج رؤوس الأموال القصيرة الأجل التي تقودها روح المضاربة، وتم تثبيت سعر صرف العملة الماليزية، وتخفيض أسعار الفائدة بهدف الدفاع عن الاقتصاد القومي وإنعاشه وإخراجه من دائرة الأزمة.

ورغم محاولة الغرب ودوائر المال العالمية إثارة الاضطرابات السياسية لزعزعة نظام محاضير محمد، تحت شعار حركة الإصلاح السياسي (Reformasi)، في محاولة للانتقام منه باعتباره يضرب مثلا قد يحتذى في عدد من البلاد النامية في مجال التمرد على قواعد العولمة وعدم الانصياع لبرامج «صندوق النقد الدولي» في عملية الإنقاذ المالي والخروج من الأزمة، على غرار ما حدث في تايلاند وإندونيسيا وكوريا الجنوبية، فلقد نجحت ماليزيا في تجاوز الأزمة، وواصلت مسيرة التنمية بشروطها الوطنية.

[٢]

بدأت مسيرة التنمية في ماليزيا غداة الحصول على الاستقلال عام ١٩٥٨، حيث تم اللجوء إلى الاستراتيجيات التقليدية وهي الإحلال محل الواردات. وكانت البداية التركيز على صناعات السلع الاستهلاكية التي كان معظمها مملوكاً لشركات أجنبية. وسرعان ما تبين قصور استراتيجية «الإحلال محل الواردات» كمحور أساسي لعمليات التنمية المتواصلة، نظراً لضيق السوق المحلية وضعف حجم الطلب المحلي، الذي عزز من ضعفه سوء توزيع الدخول بين فئات المجتمع المختلفة. ورغم تحقيق قدر من التنويع في منتجات القطاع الزراعي، فقد ظلت عمليات التصنيع خلال الستينيات محدودة ولم تحقق طفرة كبيرة في حجم العمالة والقيمة المضافة.

وقبل وصول «محاضير محمد» إلى السلطة، تم إنجاز الخطة الماليزية الثانية «١٩٧١ . ١٩٧٥» والخطة الماليزية الثالثة «١٩٧٦ . ١٩٨٠». وقد اتسم التحول في هذه الفترة بتطوير دور الدولة التدخلي، وتوسيع رقعة القطاع العام في الحياة الاقتصادية الماليزية. ولقد ساعدت الزيادة في عائدات النفط في تمويل الحجم المتزايد للنفقات العامة. كما شهدت تلك الفترة بداية التوجه التصديري في عمليات التصنيع، حيث بدأ التركيز على صناعة المكونات الإلكترونية وبعض المنتجات التصديرية الأخرى. وقد اتسمت هذه الصناعات التصديرية بأنها كثيفة العمالة، مما نتج عنه التوسع الكبير في حجم العمالة، وبالتالي انخفاض معدل البطالة وتحسين إنتاجية العمل. كما رافق هذه الفترة تحسين توزيع الدخول والثروات



الـذى ضمـد جـراح ماليـزيـا!

محمـود عبـد الفضـيل

بين الأعراق المختلفة التى يتكون منها المجتمع الماليزى، ولاسيما فى ما بين النخبة الصينية، التى كانت تسيطر على معظم نشاط الأعمال فى الاقتصاد الماليزى خلال فترة الاستعمار البريطانى، والسكان ذوى الأصل الملايى الذين يشكلون الأغلبية.

ثم بدأت فترة التصنيع الكثيف فى الثمانينيات. وكانت الخطة الماليزية الرابعة «١٩٨١ ـ ١٩٨٥» تمثل بداية مسيرة التنمية التى تم تصميمها فى ظل قيادة محاضير محمد، حيث تركزت عملية التنمية فى محورين:

- موجة جديدة من الصناعات التى تقوم بعمليات الإحلال محل الواردات.
- الصناعات الثقيلة فى إطار ملكية القطاع العام.

وتمثل هذه الفترة مرحلة تعميق القاعدة الصناعية فى الاقتصاد الماليزى، قبل الانطلاق إلى آفاق التصدير الجديدة.

ثم دخل مشروع «محاضير محمد» دائرة التطبيق بجدية خلال الفترة ١٩٨٧ ـ ٢٠٠٠، إذ اتسمت تلك الفترة بإنجاز ثلاث خطط خمسية مترابطة وهى: الخطة الماليزية الخامسة «١٩٨٦ ـ ١٩٩٠»، الخطة الماليزية السادسة «١٩٩١ ـ ١٩٩٥»، الخطة الماليزية السابعة «١٩٩٦ ـ ٢٠٠٠».

وهكذا شهدت الفترة الممتدة بين منتصف الثمانينيات ونهاية التسعينيات، تبلور مشروع محاضير محمد فى التنمية الاقتصادية المنفتحة على العالم الخارجى، من دون التخلى عن مقومات الوطنية الاقتصادية. وقد تميزت هذه الفترة بإفساح المجال للقطاع الخاص وتشجيعه وإعطائه المزيد من الحوافز على الاستثمار والمشاركة الفعالة فى مسيرة التنمية. كما تم السماح لرأس المال الأجنبى المباشر بالاستثمار فى الاقتصاد الماليزى وفقاً لضوابط معينة.

وقد أدت هذه الحزمة من السياسات إلى:

- تنشيط عمليات النمو الصناعى.
- تعميق التوجه التصديرى فى عمليات التصنيع.
- تحديث البنية التحتية للاقتصاد الماليزى.
- مزيد من التعاون الاقتصادى الإقليمى فى إطار مجموعة بلدان الآسيان.
- تطوير طبقة من رجال الأعمال الماليزيين من «ذوى الأصول الملاوية».

> **شـهدت الفترة الممتدة بين منتصف الثمانينيات ونهاية التسعينيات، تبلور مشروع محاضير محمد فى التنمية الاقتصادية المنفتحة على العالم الخارجى، من دون التخلى عن مقومات الوطنية الاقتصادية. وقد تميزت هذه الفترة بإفساح المجال للقطاع الخاص وتشجيعه وإعطائه المزيد من الحوافز على الاستثمار والمشاركة**

لم يكن الاجتماع السنوى للبنك الدولى وصندوق النقد الدولى المنعقد فى هونج كونج فى أواخر سبتمبر من عام ١٩٩٧ اجتماعاً عادياً أو روتينياً، بل كان اجتماعاً عاصفاً يمثل أول مواجهة بين بلدان «العالم الأول» وبلدان «آسيا الناهضة» حول بعض الآثار والتداعيات السلبية لعمليات العولمة فى المجال المالى.

ولعل أهم موقعة جرت على هامش هذا الاجتماع هى تلك التى دارت بين «محاضير محمد» رئيس وزراء ماليزيا وبين «جورج سوروس» أكبر مضارب مالى فى العالم حول مضار الإتجار فى العملات فى ظل عمليات التحرير المالى المصاحب للعولمة. إذ تعرضت ماليزيا خلال شهور صيف عام ١٩٩٧ لمضاربات شديدة أدت إلى تخفيض قيمة العملة بنحو ٢٥٪ خلال ثلاثة شهور، وهو انخفاض لا علاقة له بالأداء الحقيقى للاقتصاد الماليزى.

ولهذا اعتبر «محاضير محمد» فى خطابه أمام الاجتماع السنوى للبنك والصندوق أن عمليات المضاربة فى العملات «غير مبررة وغير منتجة ولا أخلاقية»، حسب نص قوله. بل إن تلك المضاربات تصبح أكثر خطورة وضرراً فى حالة البلدان النامية المنفتحة على السوق العالمية التى لا تحتمل تلك الهزات فى قيمة عملاتها. وما يصاحب ذلك من اضطرابات اقتصادية تمس جوهر الاقتصاد الحقيقى، وتدفقاته العينية من عمالة وإنتاج واستيراد وتصدير.

وقد أثارت تصريحات «محاضير محمد» وتهديداته هياج دوائر المال الغربية. وبدأت «العمليات التأديبية» تتتابع من خلال مزيد من التخلص من العملة الماليزية وللأسهم المقومة بالدولار فى سوق المال الماليزية. وبدأت التقارير الغربية تتحدث عن توقعات التدهور فى أوضاع الاقتصاد الماليزى مستقبلاً. بل إن مؤسسة «ستاندارد آند بور» التى تقوم بتقويم مخاطر الاستثمار فى البلدان النامية، قامت بتخفيض مرتبة ماليزيا خلال بضعة أشهر فقط من «اقتصاد إيجابى» إلى «اقتصاد مستقر» ثم إلى مرتبة «اقتصاد سلبى».

كانت تلك الحملة المنظمة تهدف إلى تخويف وإرهاب كل زعيم سياسى يجرؤ على التصدى لبعض الآثار الضارة الناجمة عن عمليات التحرير المالى. بل بدأت بعض الصحف الغربية والمجلات المتخصصة تتحدث عن فضائل المضاربة وأن المشاكل إنما تعود إلى سوء الإدارة الاقتصادية فى ماليزيا، وأنها ليست من صنع المضاربين العالميين. حتى أن مجلة «الإيكونوميست اللندنية» وجهت إحدى افتتاحياتها إلى «محاضير محمد» بعنوان: «عليك أن تتعلم أن تحب جورج»، فى إشارة إلى «جورج سورس» المضارب الكبير، باعتبار أن تلك هى قواعد اللعبة. فإذا فتحت أسواق العملات وأسواق الأسهم والسندات على الغارب للمتعاملين والمستثمرين الأجانب، فلا تشكو بعد ذلك من مضارباتهم!

بيد أن تلك المناوشات كانت تشير إلى ما هو أعمق وأخطر من تطورات فى بنية الاقتصاد العالمى الجديد. وهو أن حجم الإتجار فى العملات قد فاق بما يقاس حجم التجارة الحقيقية فى السلع والخدمات فى السنوات العشر الأخيرة. ففى عام ١٩٩٥، على سبيل المثال، كان حجم التعامل فى «تجارة العملات» يصل إلى ٢,١ تريليون دولار أمريكى فى اليوم الواحد. وهذا ما يمثل ٥٠ ضعفاً من قيمة التجارة الدولية فى السلع والخدمات، بينما كان هذا الرقم يصل إلى ستة أضعاف فقط فى أوائل السبعينيات. ولذا فإن الجانب الأكبر من التعاملات المالية فى مجال الإتجار فى العملات والأسهم والسندات تحكمه قرارات المضاربين أو من يمثلهم من وكلاء محترفين.

ورافق هذا التطور، حصول «محاضير محمد» على غطاء نظرى هام من أحد كبار الاقتصاديين الأمريكيين، بول كروجمان أستاذ الاقتصاد المرموق فى معهد ماسوستش للتكنولوجيا (MIT)، الذى حبذ لجوء البلدان الآسيوية التى تعانى من أزمة مالية حادة إلى فرض قيود على العملة وعلى حركة دخول وخروج رؤوس الأموال قصيرة الأجل، إذ قال: «إذا كانت النيران مشتعلة فى بيتك، فلا تسكب مزيداً من الزيت لإلهاب الحريق»، من خلال فتح أبواب الاقتصاد الوطنى على مصراعيه أمام المزيد من هجمات المضاربين والمغامرين الماليين!

كذلك كان أهم ما ساعد «محاضير محمد» هو أنه تحرر من قيود ومشروطية صندوق النقد الدولى التى تضمنتها برامج الإنقاذ فى إندونيسيا، وتايلاند، وكوريا الجنوبية. ومن هنا فقد كانت له حرية الحركة والاجتهاد، دون أن تكون يده مغلولة كما هو الحال بالنسبة لصانعى القرار فى البلدان المجاورة.

وقد أثبتت التطورات اللاحقة نجاحًا نسبيًا للسياسات الاقتصادية التى طبقها «محاضير محمد» وفريقه، إذ:

* زادت الاحتياطيات الرسمية لماليزيا من النقد الأجنبى بمقدار بليون دولار أمريكى خلال الأسابيع الأولى من شهر سبتمبر، نتيجة عودة الأرصدة المملوكة للماليزيين فى حسابات «غير مقيمة» فى البلدان المجاورة «لا سيما سنغافورة».
* ارتفعت أسعار الأسهم فى بورصة كوالالمبور «عاصمة ماليزيا».
* أعلن أصحاب الاستثمارات الأجنبية المباشرة طويلة الأجل، أنهم يرحبون باستقرار سعر الصرف للعملة الماليزية، وأن عدم تقلبات سعر الصرف يساعد على تخطيط الاستثمارات واستقرار المعاملات بشكل أفضل.

ويكمن «عنصر المهارة» فى حزمة السياسات التى طبقها الطاقم الاقتصادى الجديد رغم ما تنطوى عليه من مخاطر فى أن تخفيض سعر الفائدة، تزامن مع تثبيت سعر الصرف للعملة الوطنية، وقطع الطريق على المضاربات فى العملة والأسهم الماليزية من خلال وقف التعامل على العملة والأسهم فى الأسواق الخارجية، وبالتالى عزلها مؤقتًا عن غارات المضاربين والمغامرين الماليين الذين يستفيدون من ضعف الاقتصادات الوطنية فى لحظات الأزمة.

كذلك تمت مطالبة المواطنين الماليزيين بإعادة توطين أرصدتهم من العملة الوطنية المودعة فى البنوك الخارجية فى موعد أقصاه شهران من تاريخ القرارات، حتى لا تكون ساحة للمضاربات فى الخارج، ولضخ مزيد من السيولة فى الاقتصاد المحلى. وقد تم تخفيض نسب الاحتياطى التى تحتفظ بها البنوك لدى البنك المركزى، الأمر الذى يساعد على ضخ مزيد من السيولة والتوسع فى الإقراض للمشروعات المنتجة، ذات الطاقة التصديرية الجيدة.

[٤]

ورغم ذلك، جرت محاولات محمومة لفتح ثغرات فى دفاعات النظام الماليزى، الذى يقوده «محاضير محمد»، لإفشال التجربة، وذلك من خلال محورين:

* استغلال قضية الصراع السياسى على السلطة الذى تفجر إثر عزل «أنور إبراهيم» من منصبه كنائب لرئيس الوزراء ووزير المالية، من خلال خلق حالة من الاضطراب السياسى والإرباك المؤسسى. وقد حاول «أنور إبراهيم» وأنصاره تصعيد حركة الاحتجاج تحت شعار «الإصلاح السياسى» (Reformasi)، بتشجيع واضح من دوائر غربية، والهدف هو إزاحة «محاضير محمد» من السلطة لإسقاط سياساته الاقتصادية التى تعتبر معادية لدوائر رأس المال المالى العالمى.

وكان هذا الأمر يتطلب معالجة حكيمة وماهرة من «محاضير محمد»، للحد من التجاوزات وقطع الطريق على استغلال بعض الأخطاء السياسية والإجرائية لخلق حالة من الاضطراب والانقسام السياسى فى البلاد. وجدير بالذكر أن الاضطرابات الأخيرة أدت إلى تقلص الدخل السياحى بنسبة ٣٠٪، مما يشير إلى أن توقيت التصعيد مقصود بذاته لإفشال التجربة الاقتصادية «الخارجة عن الطوع» فى ماليزيا.

* محاولة فتح ثغرات فى الدفاعات الخاصة بحماية «العملة الماليزية» من المضاربات الخارجية، من خلال خلق «أسواق سوداء» للعملة الماليزية فى البلدان المجاورة فى سنغافورة وتايلاند، حيث توجد تجارة ومعاملات مالية بين مواطنين وتجار ومستثمرين من تلك البلدان وماليزيا.

وهكذا فإن «محاضير محمد» كان يسير على حبل مشدود، لأن سياساته الجديدة تقوم على توازن دقيق بين «العام» و«الخاص» من ناحية، وبين «الداخل» و«الخارج» من ناحية أخرى، وخاصة فى بلد قطع بعض الشوط فى مجال الانفتاح على آليات العولمة. ولذا أخذ الجميع يرقب هذه التجربة باهتمام كبير، وهناك من كان يتمنى لها النجاح ويتعاطف معها كما أعرب عن ذلك العديد من المسئولين فى الصين وتايلاند، وإندونيسيا، وتايوان، وكذلك العديد من بلدان العالم الثالث. وكان هناك آخرون ممن يتمنون لها الفشل الذريع فى دوائر المال الغربية، لتكون عبرة لكل من يريد التمرد على قواعد العولمة وشبكتها العنكبوتية.

وقد ركزت الولايات المتحدة هجومها على «محاضير محمد» وقد أخذ الهجوم شكلاً دراميا على لسان نائب الرئيس الأمريكى «آل جور» فى خطاب ألقاه فى مأدبة غداء عشية الافتتاح الرسمى لأعمال المنتدى الاقتصادى «إبيك» المنعقد فى العاصمة الماليزية «كوالالامبور» إذ اختتم نائب الرئيس الأمريكى خطابه بأسلوب درامى وجه فيه التحية للمعارضين الشجعان الذين يطالبون بالإصلاح السياسى (Reformasi) فى ماليزيا، ويعارضون حكم وقيادة «محاضير محمد» رئيس الوزراء وزعيم الحزب الحاكم وكانت لهجة الخطاب تمثل تحدياً سافراً للدولة المضيفة وقياداتها السياسية، إذ أن إلقاءه تم فى حضور رئيس الوزراء «محاضير محمد» نفسه.



أخذ الجميع يرقب هذه التجربة باهتمام كبير، وهناك من كان يتمنى لها النجاح ويتعاطف معها، وكذلك العديد من بلدان العالم الثالث. وكان هناك آخرون ممن يتمنون لها الفشل الذريع فى دوائر المال الغربية

وقد أثار هذا الخطاب سلسلة من ردود الفعل الغاضبة والصاخبة داخل ماليزيا وخارجها، بما فى ذلك بين أعضاء الوفود الآسيوية التى تحضر أعمال المنتدى. واعتبر المراقبون المحايدون أن نائب الرئيس الأمريكى لم يحسن تقدير الموقف، ومارس «غطرسة القوة» دون أدنى لياقة أو اعتبار لأصول الدبلوماسية. وقد عبرت السيدة «رافيده عزيز» «وزيرة التجارة الماليزية» عن دهشتها واشمئزازها مما جاء فى خطاب نائب الرئيس الأمريكى. وقالت فى تصريح فورى «أنها تتمنى ألا تعيش لكى تستمع إلى مثل هذه العبارات الوقحة وغير اللائقة مرة أخرى فى حياتها».

وبالطبع لم يأخذ أحد مأخذ الجد دفاع نائب الرئيس الأمريكى «آل جور» الحار عن «الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والتعددية» فى آسيا .. وأنها ضرورة لدعم عمليات «الانتعاش الاقتصادى»، على حد قوله. فالسجل الأمريكى فى هذا المجال لا يؤيد موقفاً مبدئياً ثابتاً بهذا الصدد، بل على العكس لم تحرك الولايات المتحدة ساكناً عندما وقع انقلاب عسكرى قاده «بنوشيه» فى تشيلى عام ١٩٧٣ ضد حكومة منتخبة بإرادة الشعب الحرة، وتم قتل رئيس الجمهورية المنتخب «سالفادور الليندى» فى قصره الرئاسى. وكذلك كان الحال فى إندونيسيا، عندما قام الجنرال «سوهارتو» بانقلابه العسكرى الدموى عام ١٩٦٥، الذى ذهب ضحيته عشرات الآلاف من السياسيين والكوادر المهمة فى إندونيسيا. وكلها أحداث جسام، تم فيها اغتيال الديمقراطية وانتهاك حقوق الإنسان بوحشية وفى وضح النهار.

فالكل كان يعلم أن جوهر الخلاف مع ماليزيا، والسبب الحقيقى وراء تصعيد الضغوط على قيادتها السياسية الراهنة، هو الضيق الشديد للولايات المتحدة ودوائر رأس المال المالى العالمى من السياسات الاقتصادية التى تتبعها حكومة ماليزيا منذ بداية سبتمبر ١٩٩٨ لحماية اقتصادها الوطنى من غارات المضاربين، ومحاولة تنشيط وإنعاش الاقتصاد الوطنى باستقلالية بعيداً عن مشروطية صندوق النقد الدولى. إذ إن نجاح هذه التجربة، سوف يحرض العديد

من بلدان آسيا البازغة على مزيد من التمرد على قواعد العولمة وسياسات صندوق النقد الدولى. ولذا لابد من إسقاط هذه التجربة فى المهد، بأى ثمن قبل أن تنجح.

[٥]

كان مشهد خروج «محاضير محمد» من قصر رئاسة الحكومة فى كوالالامبور مشهداً غير مألوف فى أنحاء العالم العربى والإسلامى. فكثيراً ما ارتبطت صورة الحكام فى العالم الثالث بالاستبداد والتخلف. لكن تقاعد «محاضير» دون مرض عقلى أو جسدى أو انقلاب، أو قلاقل اجتماعية وسياسية، كان يقدم صورة مغايرة.

نعم لقد استعار «محاضير» خلال مسيرة التنمية فى ماليزيا، الكثير من عناصر الرأسمالية من أجل بناء «المعجزة الماليزية». لكنه ابتكر مزيجاً فريداً من نوعه، بين تلك «الرأسمالية الموجهة، وإثارة الحمية الوطنية والإسلامية والخصوصية الماليزية و«القيم الآسيوية». وأضاف إلى هذه المعادلة خليطاً من المفاهيم والسياسات التى تؤكد على تغليب صيغة المصلحة «المجتمعية» على المصالح والنوازع الفردية.

وقد أكد «محاضير» أكثر من مرة أن سياسة ماليزيا تكمن فى تحقيق مقومات «التنافسية» فى الأسواق العالمية، مع تحقيق السلام الاجتماعى والسياسى فى الداخل.

وقد ختم «محاضير» مسيرته السياسية الطويلة، بكلمته التى ألقاها خلال قمة المؤتمر الإسلامى المنعقد مؤخراً فى «كوالالامبور»، حيث قال: «قتل الأوروبيون ستة ملايين يهودى من أصل ١٢ مليوناً، إلا أن اليهود اليوم يحكمون هذا العالم بالوكالة. إنهم يجعلون الآخرين يحاربون ويقتلون عنهم».

وفى أعقاب هذا التصريح، قام مجلس الشيوخ الأمريكى بتجميد المساعدات العسكرية لماليزيا، ورد «محاضير محمد» على هذا الإجراء بقوله: بأن ذلك «لا يشكل أى فارق بالنسبة إلينا، لأننا لا نحتاج إلى ذلك المال». وأضاف «محاضير محمد» متهكماً: «لا جدوى من أن يكون لدينا انتخابات خاصة بنا، والأفضل لنا أن نصوت فى الانتخابات الأمريكية وعندئذ سنكون متأكدين من أن لدينا الممثل الصحيح هناك»!

وجدير بالذكر أن «ماليزيا» لا تحصل على مساعدات اقتصادية أو للتنمية من الولايات المتحدة، وهنا يكمن سر قوتها فى مقاومة الضغوط الخارجية، ولاسيما الضغوط الأمريكية.

وقد ظلت المرارة من آثار الاستعمار والتدخلات الغربية بدءاً من البرتغاليين ثم الهولنديين والبريطانيين، تلازم «محاضير محمد» طوال حياته. وقد وُلد «محاضير محمد» عام ١٩٢٥، ودرس الطب فى سنغافورة، وعاد لوطنه لممارسة الطب فى إطار وزارة الصحة الماليزية، ثم استقال وفتح عيادة خاصة لممارسة الطب فى مسقط رأسه (Alor Setar).

وكان «محاضير محمد» قد بدأ ممارسة السياسة من خلال نشر كتابه «معضلة ماليزيا» عام ١٩٧٠، حيث دعا لضرورة تدخل الدولة بشكل جدى للخروج من حالة التخلف فى ماليزيا، وقد تم منع هذا الكتاب من التداول، الأمر الذى أثار جدلاً طويلاً فى ذلك الوقت.

وكان «محاضير محمد» متمرداً طوال حياته، سواء فى الداخل أو فى الخارج، حيث كتب عام ١٩٦٩ خطاباً نقدياً شديد اللهجة إلى رئيس الوزراء آنذاك «تنكو عبد الرحمن»، الأمر الذى أدى إلى طرده من الحزب الحاكم (UMNO)، ثم أعيدت إليه عضويته فى الحزب عام ١٩٧٢. ومنذ عام ١٩٧٤، تفرغ تماماً للعمل السياسى حتى وصل إلى منصب رئيس الوزراء فى ١٦ يوليو عام ١٩٨١ حتى تقاعده.

ولعل آخر أعمال «محاضير محمد»، الذى يعتبر بمثابة «المؤلف الوصية»، هو (New Deal for Asia A)، حيث يطرح «محاضير محمد» رؤيته بالنسبة لآسيا الجديدة الناهضة لاستعادة مكانتها تحت الشمس، فى ظل النظام الاقتصادى المعولم، ويرسم خطى الطريق نحو المستقبل.

ومهما اختلف المحللون والمؤرخون فى تقييم سياسات ومواقف ومقولات «محاضير محمد»، فسوف يظل هذا الرجل من أعظم زعماء آسيا الحديثة. فهو الطبيب الماهر الذى ضمد جراح ماليزيا فى أوائل الثمانينيات وعالج أدواءها ووضعها على طريق النمو والارتقاء مع بداية القرن الواحد والعشرين، فى ظل ظروف دولية صعبة وموارد محلية محدودة.

فتحية لهذا الرجل الذى قد يعتبر بحق آخر زعماء العالم الثالث المحترمين. ■

■ المواعظ الدينية التى ألقاها الجنرال وليام بويكين نائب وزير الخارجية لشئون الاستخبارات فى عدد من الكنائس الأمريكية وهو بالزىّ العسكرى لم تأتِ من فراغ. صحيح أنها تعرضت لانتقادات شديدة من شخصيات سياسية فى الحزبين الجمهورى والديموقراطى، ومن شخصيات دينية مرموقة تمثل عدداً من الكنائس الأمريكية الكبيرة، إلا أن الصحيح أيضاً أن اتهام المسلمين بأنهم يعبدون الأصنام وأنهم يستهدفون الولايات المتحدة لأنها أمة مسيحية، وأن الإسلام يمثل الشيطان، إن هذه الاتهامات تعكس ثقافة دينية عميقة الجذور فى التربية المدنية والسياسية.

فى منتصف القرن التاسع نشر المؤرخ البيزنطى جورج هامر تولوس كتاباً عن تاريخ الإنسانية، فى الفصل ٢٣٥ من هذا الكتاب وصف المسلمين بأنهم «رجال أغبياء مشوشو العقول». ومن بعده وجّه الراهب الفرنسى هيو كلونى رسالة إلى أحد الأمراء المسلمين دعاه فيها إلى الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية، مبرراً دعوته بقوله: «لقد خدع الشيطان أحفاد إسماعيل بالنسبة لإيمانهم بمن يعتقدون أنه نبى، فكان طبيعياً أن يكون عقابهم نار جهنم».

وفى أواسط القرن التاسع عشر حرمت الحكومة الإنجليزية على رعاياها شرب القهوة. كانت حبات البن تُعرف يومذاك باسم «حبات محمد». وكان هناك اعتقاد بأن من يشرب القهوة يرتد عن مسيحيته إلى الإسلام وأن الأتراك المسلمين يتآمرون على المسيحية فى بريطانيا من خلال القهوة.

وقد تمكّن رئيس أساقفة كانتربرى الأسقف لاند من استصدار قانون عن مجلس العموم فى عام ١٦٣٧ يمنع أى بريطانى من اعتناق الإسلام.

قبل وفاة الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون صدر له كتاب عنوانه «اقتناص اللحظة». كشف فيه بكثير من الوضوح عن ثقافة كراهية الإسلام. فقال فى الصفحة (١٩٥):

«يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يكون قوة جغرافية متعصبة ومتراصة. وأن نمو عدد أتباعه، ونموّ قوته المالية سوف يفرضان تحديا رئيسيا. وأن الغرب سوف يضطر لتشكيل حلف جديد مع موسكو من أجل مواجهة عالم إسلامى معاد وعنيف. إن وجهة النظر هذه، يضيف نيكسون، تعتبر أن الإسلام والغرب على تضاد • وأن المسلمين ينظرون إلى العالم على أنه يتألف من معسكرين لا يمكن الجمع بينهما، دار الإسلام، ودار الحرب».

عكس نيكسون فى كتابه صورة بشعة عن العالم الإسلامى عندما قال: (ص ١٩٤): «إن معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسلمين على أنهم غير متحضرين، قذرون، برابرة، غير عقلانيين، لا يسترعون انتباهنا إلا لأن الحظ حالف بعض قادتهم وأصبحوا حكاما على مناطق تحتوى على ثلثى الاحتياطى العالمى المعروف من النفط».

ولا شك فى أن كثيرين فى الولايات المتحدة وفى الغرب يشاركون نيكسون وجهة نظره التى يقول فيها (ص ١٩٦) «إنه يوجد فى العالم الإسلامى عاملان اثنان مشتركان فقط: هما الدين الإسلامى والاضطراب السياسى».

بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتى وانحلال حلف وارسو، جرى تصعيد متعمد للعدوانية الغربية ضد الإسلام، حتى أن مدير معهد بروكنجز فى واشنطن Brookings Institution هيلموت سوننفيل يقول: إن حلف شمال الأطلسى سوف يعيش، وأن الغرب سيبقى مجموعة دول لها قيم أساسية مشتركة. وستبقى هذه المجموعة متماسكة معا من خلال الشعور بخطر خارجى: الموقف من الفوضى أو التطرف الإسلامى».

وفى ربيع ١٩٩٠ ألقى هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق خطابا أمام المؤتمر السنوى لغرفة التجارة الدولية، قال فيه: «إن الجبهة الجديدة التى يتحتم على الغرب مواجهتها هى العالم العربى الإسلامى، باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب». وأن حلف الأطلسى باق، رغم انخفاض حدة التوتر بين الشرق والغرب فى أوروبا، ذلك أن «أكثر الأخطار المهددة للغرب فى السنوات القادمة آتية من خارج أوروبا. وفى نهاية التسعينيات فإن أخطر التحديات للغرب ستأتى من ناحيتى الجنوب (أى المغرب العربى) والشرق الأوسط».

وكانت مجلة الإيكونوميست البريطانية المعروفة برصانتها قد نشرت فى الوقت نفسه على الغلاف موضوعا بعنوان: «الإسلام الأيديولوجية البربرية المعادية للغرب». وجاء فى دراسة أخرى نشرتها مجلة ألمانية متخصصة فى الدراسات الاستراتيجية إثر انتهاء الحرب الباردة وسقوط الشيوعية فى عام ١٩٩٠ أعلن الأمين العام لحلف شمال الأطلسى ولى كلايس (تولى منصب وزير الاقتصاد فى بلجيكا فيما بعد): «لقد حان الوقت الذى يجب علينا فيه أن نتخلى عن خلافاتنا وخصوماتنا السابقة وأن نواجه العدو الحقيقى لنا جميعاً وهو الإسلام.. إن الأصولية الإسلامية هى على الأقل فى مستوى خطورة الشيوعية سابقاً».

وفى يونيو من عام ١٩٩٤ انتهت مهمة الجنرال جون كالفان القائد الأعلى لقوات حلف شمال الأطلسى. وفى الاحتفال التكريمى الذى أقيم له فى بروكسل، ألقى كلمة تحدث فيها عن الآفاق المستقبلية للحلف ولدوره. تستوقفنا من كلمته العبارة الآتية: «لقد ربحنا الحرب الباردة وها نحن نعود بعد ٧٠ عاماً من الصراعات الضالة إلى محور الصراع القائم منذ ١٣٠٠ سنة. إنه صراع المجابهة الكبيرة مع الإسلام».

الواقع أن المشاعر المعادية للعرب وللمسلمين تجعل من هذه الصورة الجديدة للعدو، المقررة سلفاً والمخطط لها أسرع انتشاراً وأكثر قدرة على الاستقطاب. يبدو ذلك واضحا من إسراع مجموعات من منظمة الخضر بألمانيا اثر إحراق آبار النفط الكويتية على يد قوات الغزو العراقى فى عام ١٩٩٠ للحديث لا عن صراع بين الإسلام والغرب فقط، بل بين الإسلام والتنوير أو التحرير أيضاً. وطالب آخرون من الخضر الألمان ببوليس دولى لحماية البيئة من العرب!!.

وفى أعقاب المحاولة الإرهابية الأولى التى استهدفت برجىَ التجارة العالمية فى نيويورك فى عام ١٩٩٣، نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية بتاريخ ١٥ آذار - مارس ١٩٩٣ دراسة مطولة، عنونت لها على الغلاف بما يلى:

«الرعب البارد، الإرهاب اليوم: الدور الإسلامى»، وقد تصدرت الغلاف صورة لشاب ملتح يحمل غلافا خارجيا للمصحف الشريف مكتوب عليه الله ومحمد.

وفى الداخل، وتحت عنوان: «غضب الإسلام» تساءلت المجلة: هل جذور الضربة الإرهابية فى نيويورك تنمو فى تربة غضب المسلمين الأصوليين ضد الغرب فى شمال أفريقيا وآسيا؟».

وتساءلت المجلة عن الدوافع الكامنة وراء استهداف الولايات المتحدة من قبل الأصوليين الإسلاميين. وقالت إن لائحة الدوافع طويلة، منها أن الدول الغربية مجتمعة تعمل على إخضاع العراق (قبل عملية الغزو) وهو دولة عربية إسلامية، ومنها أن الصهيونية تتربع فوق الأراضى العربية بمساعدة أمريكية، ومنها إبعاد قياديين مسلمين عن الأراضى المحتلة إلى جنوب لبنان حيث يواجهون البرد فى الجبال الجرداء (مرج الزهور). ومنها منع الإسلاميين من الوصول إلى السلطة بوسائل سلمية وديمقراطية كما حدث فى الجزائر، ومنها مطاردة الإسلاميين فى مصر، إلخ».

فى ذلك الوقت دعا رئيس مجلس النواب أمريكية نيوت جينجريتش، المجلس «إلى وضع استراتيجية متكاملة لمحاربة التوتاليتارية الإسلامية».

يلاحظ المفكر الأمريكى صموئيل هنتنجتون فى دراسة نشرتها مجلة الشئون الخارجية (فورن أفيرز) الأمريكية ونقلت مقتطفات منها صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية (عدد الثامن من يونيو ١٩٩٣) أن المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية تفصل الشعوب عن هوياتها المحلية. وفى معظم أنحاء العالم يتقدم الدين لملء هذا الفراغ على يد حركات غالبا ما تتصف بالأصولية كالمسيحية الغربية، واليهودية، والبوذية، والهندوسية والإسلام.

وفى مقابلة أجرتها معه مجلة تايم الأمريكية (٢٨ يونيو ١٩٩٣) سألت المجلة البروفيسور هنتنجتون: إنك تؤكد أن الصراع المقبل الذى سيواجهه الغرب سوف يأتى من العالم الإسلامى. لماذا؟

يجيب هنتنجتون على السؤال بقوله: «إن الإسلام هو الديانة الأشد صرامة فى العالم خارج المسيحية. لا يوجد فصل بين الدين والسياسة. ثانيًا، هناك شعور بأن العالم الإسلامى قد تعرض للضرب واستغل على يد الغرب، وأن ثمة نوعًا من الصحوة فى طريقها إلى البروز. إن الصراع سيأخذ عدة أشكال. والواحد منا لا يريد أن يظن بأن

محمد السماك

الغرب والإسلام..

هذا يعني قيام حرب ماحقة بين الإسلام والغرب».

قبل حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كان قساوسة الحركة الصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة يعبّرون عن كراهيتهم للأسلام ويصبّون جام حقدهم عليه، ومن أبرزهم جيري فولويل وبات روبرتسون وفرانكلين جراهام وهول ليندسي وكثير غيرهم. فهم يعتبرون أن المسلمين بوقوفهم في وجه الإسرائيليين يعطلون المشيئة الإلهية ويؤخرون العودة الثانية للمسيح.

وقد ازداد نفوذ هؤلاء القساوسة السياسي في عهد الرئيس جورج بوش. فالرئيس الأمريكي مدين لهم بالانتقال من حالة الإدمان على المسكرات إلى الإيمان بـ«الولادة الثانية»، وبالعمل من أجل تسريع العودة الثانية للمسيح. وتحت مظلة هذه العلاقة فإن القس ليندسي حذر من «أن المسلمين لا يريدون فقط تدمير دولة إسرائيل ولكنهم يريدون تدمير الثقافة اليهودية - المسيحية التي تشكل أساس الحضارة الغربية. إنهم كالشيوعيين في أعماق فلسفتهم توق شديد لدفننا جميعاً».

كذلك فإن القس بات روبرتسون وصف الإسلام بأنه «دين الإرهاب».. وأنه «يهدف إلى السيطرة على العالم». كما اتهم المسلمين الأمريكيين بأنهم ينظمون خلايا إرهابية لتدمير الولايات المتحدة». وجاءت تلك الاتهامات من خلال برنامجه التلفزيوني الواسع الانتشار «نادي السبعمائة».

ووصف القس جيري فاين Jerry Vine النبي محمد عليه السلام في مؤتمر المحفل المعمداني الجنوبي الذي عُقد في فلوريدا في عام ٢٠٠٢ بأنه الشيطان نفسه.

وكان فرانكلين جراهام Franklin Graham وهو نفسه أيضاً الذي ترأس الصلاة الخاصة بمناسبة أداء القسم الدستوري للرئيس جورج بوش الابن، قد قال عن الإسلام أنه دين شيطاني وشرير، وقال عنه القس جيري فولويل إنه دين «مزور».

إن هؤلاء القساوسة الذين يجاهرون بعدائهم للإسلام ويطلقون يومياً الشتائم بحق النبي محمد عليه السلام، يشكلون الجسر الديني السياسي يربط بين الرئيس جورج بوش والـ أرييل شارون، وبين إسرائيل والولايات المتحدة.

إن كاتب خطابات وتصريحات الرئيس بوش هو واحد من هؤلاء القساوسة وهو مايكل جيرسون. ومن السهل تتبع العبارات الدينية - التوراتية في كلام الرئيس الأمريكي خاصة عندما يتحدث عن الشرق الأوسط.

على أن أشد مظاهر العداء للإسلام لدى هؤلاء القساوسة تظهر عندما يتحدثون عن أي أمر يتعلق بإسرائيل. فقد رفعوا الصوت عالياً ضد اتفاق أوسلو. وضد اتفاق واي ريفر وكذلك ضد قرارات الأمم المتحدة (٢٤٢ و ٣٣٨). فالقس والتر ريجانز مثلاً Walter Reggans دعا إلى محاربة اتفاقي أوسلو وواي ريفر بحجة أن الاتفاقين يمنحان الشرعية «للطموحات» الفلسطينية في القدس وفي الضفة الغربية. وحذر من أن ذلك سوف يشكل الخطوة الأولى في مسيرة الفلسطينيين «الإرهابيين» نحو القضاء على إسرائيل. وحتى يعطي هذا الموقف السياسي خلفية دينية أعلن القس ريجانز: «أن اتفاقات السلام هي خيانة لله ولنواياه نحو الشعب اليهودي.. فالسلام كاذب لأن جذوره تنطلق من الشيطان».

لا يتفرّد القس ريجانز بهذا الربط بين السياسي والديني. ذلك أن هذا الربط يشكل القاعدة الثانية في التأويلات التوراتية لأحداث الشرق الأوسط، بل لصناعة هذه الأحداث في ضوء هذه التأويلات.

فالقس كلارنس واجنر Clarence Wagner يقول: «علينا أن نشجع الآخرين على فهم الخطط الإلهية وليس الخطط التي هي من صنع الإنسان في الأمم المتحدة أو حتى في الولايات المتحدة، أو الاتحاد الأوروبي، أو في أوسلو أو في واي ريفر إلخ.. إن الله بعيد عن أي مخطط يعرّض مدينة القدس للصراع بما في ذلك منطقة جبل الهيكل وجبل الزيتون وهو أبعد ما يكون عن إعطائها للعالم الإسلامي. إن المسيح لن يعود إلى مدينة إسلامية تدعى القدس، ولكنه سيعود إلى مدينة يهودية موحدة تدعى «جروزالم».

وفي الأول من يناير ٢٠٠٢ حذّر القس بات روبرتسون في برنامجه التلفزيوني «نادي السبعمائة» من تدخل الولايات المتحدة في النبوءات الدينية وانتزاع إعطائها إلى ياسر [illegible]ـربعت الولايات المتحدة القدس الشرقية وجعلتها عاصمة لدولة فلسطينية، فإن معنى ذلك أننا نسعى وراء غضب الله.

وذهب القس روبرتسون إلى أبعد من ذلك عندما وصف اغتيال إسحق رابين رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق الذي وافق على اتفاق أوسلو مع الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات بأنه. أي الاغتيال. عمل من أعمال الله، وأنه حكم إلهي نفذ فيه لخيانته شعبه. إن هذه الأرض هي أرض الله، وأن لله كلمات قوية تجاه من يقسّم أرضه. لقد استحق رابين غضب الله عندما بدأ يقسم أرض الله.

في مطلع شهر مارس ٢٠٠٣ نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية تصريحاً لوزير السياحة الإسرائيلي بنلي ألون قال فيه: «من الواضح أن الإسلام في طريقه إلى الزوال.. فما نشاهده اليوم في العالم الإسلامي ليس انتفاضة إيمان قوية، بل انطفاء جذوة الإسلام. أما كيف سيزول، فبكل بساطة، بقيام حرب مسيحية صليبية ضد الإسلام في غضون بضع سنوات ستكون الحدث الأهم في هذه الألفية، وطبعاً سنواجه مشكلة كبرى حين لا يبقى في الساحة سوى الديانتين الكبيرتين، اليهودية والمسيحية، غير أن ذلك ما زال متروكاً للمستقبل البعيد».

وفي مطلع الشهر التالي، أبريل تجمعت أمام الحدود الأردنية- العراقية، وأمام الحدود الكويتية - العراقية، مجموعات من «المبشرين المسيحانيين»، التابعين للحركة الصهيونية المسيحية مزودين بمساعدات إنسانية غذائية وطبية، مع كميات كبيرة من الكتب والمنشورات الدينية التبشيرية. وتنضوي هذه المجموعات تحت لواء مؤسسة يترأسها فرانكلين جراهام نفسه تدعى Samaritan's Purse أي «الجيب السامري» وهو اسم ديني يشير إلى الشهود الأوائل على ظهور المسيح. ولا يقتصر أعضاؤها على الأمريكيين وحدهم، ولكنها تضم «مؤمنين» من جنسيات أوروبية مختلفة، وخاصة من النرويج وهولندا وبريطانيا.

وإذا كانت مهمة القوات العسكرية الأمريكية هي البحث عن أسلحة الدمار الشامل في العراق وتدميرها، فإن هؤلاء المبشرين يؤمنون بأن سلاح الدمار الشامل في العراق، الذي يجب تدميره، هو الإسلام الذي يتهمونه بأنه مصدر الفكر الإرهابي، والحافز على ارتكاب العمليات الإرهابية، كالتي جرت في الولايات المتحدة (نيويورك وواشنطن) وفي إسرائيل (العمليات الاستشهادية).

فالقس جراهام هو الذي قال عن المسلمين في الولايات المتحدة بأنهم «أيا كانت أصولهم فإنهم أعداء للديموقراطية والليبرالية ولطريقة عيشنا...» وعندما احتج المسلمون الأمريكيون على هذه الأقوال لأنها تحرض الأمريكيين الآخرين عليهم، ردّ جراهام بقوله: «إن الذين هاجموا الولايات المتحدة ودمروا برجيّ مركز التجارة الدولي في نيويورك لم يكونوا من اللوثريين ولا من الميثوديين، بل كانوا من المسلمين.. ولذلك فإن وجودهم يشكل خطراً على المجتمع الأمريكي».

إن ثقافة العداء للإسلام ليست ثمرة جريمة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وإن كانت هذه الجريمة قد وظفت على أوسع نطاق لتعميم هذه الثقافة وتعميقها وتجذيرها في العقول والقلوب. وما سياسة «العقاب الجماعي» التي يعاني منها المسلمون خاصة في الولايات المتحدة سوى أحد مظاهر هذه السياسة التي تتناقض مع القيم الإنسانية التي يقوم عليها المجتمع الأمريكي والتي تقول بها الكنائس الأمريكية الكبرى.

على أن القضية الكبرى هي أن العالم الاسلامي لم يفعل شيئاً يذكر طوال العقود الخمسة الماضية لتصحيح ثقافة الاستعداء المنفرسة في الفكر الغربي. كأن يكتفي بالإدانة عن بعد، متكئاً على وسادة نظرية المؤامرة. ثم جاءت جريمة ١١ أيلول - سبتمبر ٢٠٠١ لتعطي هذه الثقافة مبررات وأبعاداً جديدة تلهب مشاعر الكراهية واللا ثقة. ورغم أن بعض الأصوات الإسلامية العاقلة ترتفع من هنا أو من هناك مصححة أحياناً، ومنبهة أحياناً أخرى، فإن صدى أصوات النشاز الإسلامي تذهب بعيداً جداً مثل ضربات الطبل الفارغ.. الأمر الذي يعمق الهوة بين الإسلام وثقافة كراهيته واستعدائه.

لقد قررت قمة منظمة المؤتمر الإسلامي في اجتماعها الأخير الذي عقدته في ماليزيا التصدي لهذا الأمر. إنه قرار حكيم نأمل أن ينفذ بحكمة. ■

ثقافة الكراهية !!

الجزائر.. إلى أين

قبل شهور من الانتخابات الرئاسية فى أبريل المقبل. احتدمت الساحة السياسية فى الجزائر بالخلافات والصراعات العلنية. فقد لاحت فى الأفق بوادر الشقاق داخل جبهة التحرير الوطنى الجزائرية مع استقالة أمينها العام على بن فليس من رئاسة الحكومة وإعلانه ترشيح نفسه فى الانتخابات ضد الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة. وجاء إخراج بوتفليقة ٤ وزراء من الجبهة من حكومته ثم انسحاب ٧ وزراء من الجبهة بعد ذلك لتتفاقم الأزمة التى تكاد تعصف بالاستقرار النسبى الذى عاشته الجزائر مؤخرًا. ورغم أن الجيش الجزائرى لم يعلن موقفه صراحة إلا أنهم يعتقدون أنه فى قلب «الصورة» معربين عن تخوفهم من انتقال الانقسام إلى الجيش نفسه.

المقال التالى مراجعة لدور الجيش من خلال الاقتراب من أحد كبار قادته..

المحرر

■■ **الجنرال خالد نزار.. ليس فقط من أعلام الجزائر، إنما هو «أبوها الروحى». ذلك اللقب الذى التصق به كثيراً وليس دوماً؛ والذى استمده بحكم منصبه المتميز. الذى وكل إليه بعد الثورة** الجزائرية. فهو العضو الأكبر مقاماً وسناً من ضمن «مجموعة الجنرالات» التى تهيمن عسكرياً واقتصادياً.. من وراء الكواليس. يسكن فى أرقى أحياء الجزائر («الباردو»). وأكثرها ثراء. حيث الفيلات الشامخات والأشجار الباسقات. ورياح «الباردو» لا تحمل فقط رائحة الثراء، وإنما تحمل أيضاً رائحة الاحتلال الفرنسى. الذى ظل جاثماً على أنفاس الجزائريين حتى عام ١٩٦٢ ففى فيلات «الباردو» كان المستعمرون الفرنسيون يسكنون..يأكلون ويستمتعون بالخيرات التى لم تكن فى متناول أيدى أصحاب البلد. وما إن ترك المستعمرون تلك الخيرات، حتى انتقلت برمتها إلى زعماء «جبهة التحرير الوطنى»؛ الذين ما إن وطأت أقدامهم جنة «الباردو» حتى نسوا أو تناسوا أنهم فى الجزائر.. ولكن الجزائر لم ولن تنساهم أبداً.

«عندما يأتى الصحفيون لزيارة (الباردو)، لا يصدقون بأنهم فى الجزائر».. قالها نزار بملء فيه، بصوته الأجش، وبضحكته الخشنة المبحوحة التى تعكس شيخوخته وكبر سنه. وما عليك إلا أن تدخل مسكنه الفخم، حتى ترى هذه الحقيقة مجسمة أمام عينيك. ذلك المسكن. الأسطورة. ذو الطابع الفرنسى الملكى، والبلاط الرخامى، والسجاجيد الشرقية، والنجف العملاق المصنوع من الكريستال. لقد كانت النتيجة الطبيعية، أن حظى نزار وأمثاله . من ساكنى «البادرو». بسخط تلك الجماهير الغفيرة التى تكابد شظف العيش فى الأحياء السفلى: «القصبة»، «بيلكورت»، «باب الواد»؛ تلك الأحياء الهشة الهزيلة التى ضربها زلزال ٢١ مايو، فأخلف من ورائه أكثر من ألفى صريع وألف مشرد. ولا عجب بعد ذلك، أن نجد الكثيرين من تلك الجماهير، يعطون أصواتهم. بثقة وحماس. إلى الحزب الأصولى، جبهة الإنقاذ الإسلامية، فى الانتخابات التشريعية فى ديسمبر ١٩٩١، ولكن بالرغم من أن هذا الحزب قد حظى بتأييد واسع من قبل الجزائريين، وبالرغم من تحوله إلى متنفس لسخط الجزائريين تجاه فساد «البادرو»، إلا أنه كانت هناك مخاوف من وأد هذا الحزب للتجربة الديمقراطية الجزائرية، التى كانت قد بدأت فى البزوغ مع أواخر الثمانينيات.

لقد سعى نزار سعياً حثيثاً ليحول بين جبهة الإنقاذ الإسلامية وبين وصوله إلى السلطة. فكانت أولى خطواته. وهو الذى كان وزيراً للدفاع فى ذلك الوقت. هى إرغام الرئيس بن جديد على الاستقالة؛ ثم إلغاء الانتخابات؛ وأخيراً حظر الحزب، ومنعه تماماً من مزاولة نشاطه، مع إعلان حالة الطوارئ. وطبعاً، لنا أن نتصور رد حزب الخلاص الإسلامى..حيث اندفع جناحه العسكرى إلى مهاجمة قوات أمن الدولة؛ ثم انضمت إليه جماعات راديكالية منشقة. أمثال الجماعة الإسلامية المنشقة. التى قامت باغتيال المثقفين العلمانيين، والسيدات غير المحجبات.

حاول «المصلحون». منهم الوزراء ومنهم القادة السياسيون. تلطيف الأجواء من خلال عقد المفاوضات مع حزب الخلاص؛ إلا أن نزار. الذى كان متزعماً لجبهة «الاستئصال». لم يمهلهم هذه الفرصة. فذهب هو ومن معه من «مجموعة الجنرالات» ليضربوا بيد من حديد على الشعب الجزائرى؛ واستخدموا نفس أساليب التعذيب والاعتقالات فى غيابات الصحارى، التى كان يستخدمها الاحتلال الفرنسى ضد جبهة التحرير. عشرات آلاف الجزائريين .منهم الإسلاميون الراديكاليون وأكثرهم المواطنون العاديون. تم قتلهم منذ عام ١٩٩٢؛ سبعة آلاف تم إخفاؤهم على أيدى قوات أمن الدولة. (هذه المعلومات تم نشرها فى تقرير «الهيومان رايتس ووتش» فى فبراير ٢٠٠٣). وبالرغم من أن



1 - La Sale Guerre

(الحرب القذرة)

Habib Souaïdia

La Decouverte, 204pp, 14. 48

2 - The Bathlefield Algeria, 1988 - 2002,

Studies in a Broken Polity

(الجزائر. ساحة القتال، من ١٩٨٨ إلى ٢٠٠٢)

Hugh Roberts

Verso, 402pp, $ 25.00

3 - Time for Reckoning:

Enforced Disappearances in Algeria

(وقت الحساب: الاختفاءات القسرية فى الجزائر)

The Human Rights Watch, 98pp.

www.hrw.org/reports/Algeria 2003/

ترجمة/ شيرين حامد فهمى

بترتيب خاص مع نيويورك ريفيو أوف بوكس

انتهت الثورة؟!

آدم شاتس

حدة التصادم قد قلت تدريجياً منذ عام ١٩٩٧ . بعد أن وضعت جبهة الإنقاذ سلاحها . إلا أن الجماعة الإسلامية المسلحة، وغيرها من الجماعات المتمردة، ما زالت متواجدة على الساحة.

لقد صار مشهد التصادم السياسى فى شوارع الجزائر مشهداً مألوفاً، لدرجة أنه صار غير لافت للنظر. والعجيب. أن النظام الحالى، الذى يرأسه بوتفليقة منذ عام ١٩٩٩، ليس لديه أدنى رغبة فى وقف هذا العنف. فكما أخبرنى أحد رجال السلطة القدامى: «إن الدولة (الجزائرية) لا تستطيع أن تترك الإرهاب يموت. فهو الشىء الوحيد الذى يبقيها على السطح».

فى أثناء زيارته الأخيرة للجزائر، قام «وليام برنز» (مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون الشرق الأدنى) بإخبار الرئيس بوتفليقة التالى: «إن واشنطن عليها أن تتعلم الكثير من الجزائر فى فنون مكافحة الإرهاب». وهنا يرد نزار ضاحكاً، بصوته الجهور: «لو كنا تركنا الإسلاميين يفوزون فى الانتخابات، لكانت الجزائر تحولت إلى أفغانستان، ولصار لزاماً عليكم (يقصد الولايات المتحدة) أن تقصفونا». وهنا يتدخل حسين آيت أحمد. زعيم جبهة القوات الاشتراكية وهى من الأحزاب المعارضة، التى يتكون معظمها من البربر. ليدحض ما صرح به نزار، قائلاً: «إذا نظرت إلى الجزائر اليوم. دولة المائة ألف قتيل، وربما أكثر؛ وآلاف المعوقين؛ والمليون مشرد. لأدركت أن هؤلاء الجنرالات هم وحدهم الذين حولوا هذه البلاد إلى أفغانستان».

ولكن من هو نزار؟ وما هى جذوره؟ باختصار. ولد نزار فى عام ١٩٣٧، فى داخل أسرة بربرية، تشتغل بالزراعة، فى جبال الأوراس Aures. التحق فى شبابه بالجيش الفرنسى؛ وعمل كضابط غير مفوض؛ متحولاً بعد ذلك إلى الجبهة المتمردة ضد الاستعمار فى أبريل ١٩٥٨، مع جماعة من الشباب الذى يسمون الآن بـ تاركى الجيش الفرنسى»، أى الذين هجروا الجيش الفرنسى، والتحقوا بصفوف المقاومة. وقد اعتمد عليهم. بعد ذلك. الرئيس الجزائرى «هوارى بومدين» اعتماداً أساسياً، فى أثناء فترة رئاسته التى امتدت من عام ١٩٦٥ إلى ١٩٧٨. وكانت وجهة نظر بومدين تتلخص فى أن هؤلاء «التاركين» أو «المهاجرين» قد التحقوا مؤخراً بحركات التحرير والكفاح ضد المستعمر الفرنسى؛ ومن ثم فهم يفتقدون الخصائص الوطنية التى يتمتع بها الضباط المحنكون والمتمرسون؛ ومن ثم فيسهل التحكم فيهم والسيطرة عليهم. ولم يخب ظن بومدين: فحينما حاولت مجموعة من هؤلاء الضباط المحنكين قلب نظامه فى عام ١٩٦٧، سارع «المهاجرون» إلى إحباط تلك المحاولة.

لقد حظى هؤلاء «المهاجرون» على مناصب عليا فى الجيش الجزائرى، خلال العقدين الأخيرين. هذا إلى جانب التدعيم الذى يلاقونه من قبل الحكومة الفرنسية؛ ومن ثم ارتباط مصالحهم بالشركات الفرنسية الموجودة فى الجزائر، وإرسال أبنائهم للدراسة فى باريس. هذه «الامتيازات» كلها أعطت لهم مسمى «متميزاً» وسط الجزائريين؛ وهو «حزب فرنسا».

عبر السنوات الأخيرة، «وهب» نزار نفسه للدفاع عن سمعة الجنرالات وعن سمعة الجيش، فى مواجهة التهم المتصاعدة ضدهم، التى تحدثت عن الانتهاكات الشرسة. من قبل الجنرالات . لحقوق الإنسان. وكان «حبيب سوعيدية». وهو ضابط قديم فى القوات الخاصة. قد فجر هذه القضية فى ربيع ٢٠٠١، على صفحات كتابه La Sale Guerre أو «الحرب القذرة»؛ حيث قص فيها على القراء ما شهده من زملائه فى الجيش، الذين انخرطوا فى عمليات التعذيب، والاغتصاب، والقتل، تحت أقنعة المتمردين الإسلاميين. وما شهده من تسلل أعضاء كثيرين من الجيش والمخابرات فى داخل صفوف «الجماعة الإسلامية المسلحة»، والقيام باعتداءات لا حصر لها على المصالح والمنشآت الفرنسية. وكذلك ما شهده من الحيرة على وجوه الجزائريين، الذى باتوا يتساءلون عن الفشل الغريب. من قبل الجيش الجزائرى. فى حمايتهم من المذابح المروعة التى حدثت فى عامى ١٩٩٦ و١٩٩٧، والتى انتشرت خاصة فى القرى. ومما كان يثير الانتباه حقاً. هو أن ترتكب تلك المذابح بجانب ثكنات الجنود، وتحت أنظار طائرات الهليكوبتر العسكرية، التى كانت تحلق فوق مواقع المذابح والمجازر. باختصار، لقد كان الجيش يرى أنه ليس مخولاً لحماية القرى التى تعطى صوتها لحزب الخلاص الإسلامى. المهم.. أنه تم فى النهاية نفى حبيب سوعيدية إلى فرنسا.

طبعاً..كان هذا الكتاب مبعث ضيق لنزار، الذى قُدر له التواجد فى فرنسا، فور نشره وظهوره وسط القراء. وكان سبب تواجده هناك، هو ترويجه لكتابه هو عن «مذكراته»، الذى كتبه فى عام ٢٠٠١. وفى أثناء قيامه بهذه المهمة، فوجئ بثلاثة جزائريين. مقيمين فى باريس، وأقارب لبعض الإسلاميين «المختفين». يقومون برفع قضية ضده، بسبب عمليات التعذيب، وغيرها، التى قام بها فى حق الشعب الجزائرى. ولم ينتظر نزار طويلاً فى فرنسا، بل سارع إلى مغادرتها فى نفس الليلة، عائداً إلى الجزائر. وفى شهر يونيو الماضى. فى أثناء الاحتفال بمرور أربعين عاماً على الاستقلال الجزائرى. عاد نزار إلى فرنسا، رافعاً قضية تشهير ضد أحد الجزائريين الثلاثة. وبالرغم من أنه خسر القضية، إلا أنه أعلن أمام الملأ قائلاً: «إن قضية التشهير كانت فرصة لى كى أظهر للعالم كله بأن هناك تفسيراً آخر لما يحدث فى الجزائر. هذا هو المهم. ومن ثم، فأنا أعتبر نفسى منتصراً».



عندما سألت نزار عن السبعة آلاف جزائرى، الذين اختفوا فى غيابات الجب ولم نعد نسمع عنهم شيئاً، رد على غاضباً وقائلاً: «هذا خطأ. الرقم الصحيح ما يقرب الأربعة آلاف؛ منهم ٢١٣ حالة فقط، لم يتم حلها حتى الآن. أما الباقى، فهم إما مع المتمردين، أو مع الموتى، أو مع المعتقلين». ثم أكمل مصرحاً: «أنا ديمقراطى، لست استئصالياً». فبادرته سريعاً: «لست استئصالياً؟؟». فرد على باسماً: «نعم. بالنسبة لأولئك الذين يقبعون تحت

الأرض. مع أولئك، لا يوجد إلا حل واحد: الاستئصال». نزار يرى أن الاستئصال أتى بثماره: فقد انحسر الإرهاب عن ذى قبل، وقل عدد المصوتين للأحزاب الإسلامية المعترف بها. إلا أن نزار ما زال مؤمناً بأن ظاهرة الإسلام السياسى لم تنته بعد. فالإسلاميون المعتدلون ما زالوا موجودين؛ وهم من وجهة نظره، لا يختلفون كثيراً عن الإسلاميين الراديكاليين.

منذ عام ١٩٦٢، والجزائر تخضع للحكم العسكرى. فالانتخابات. سواء للرئيس أو البرلمان. يهيمن عليها زعماء الجيش. إن هيمنة الجيش فى الجزائر تعود إلى حرب الاستقلال، حيث كانت المنافسة على أشدها بين «قوات الداخل»، وهى القيادة السياسية فى داخل الجزائر، وبين «قوات الخارج» المتمركزة فى المغرب وتونس. وفى خلال حرب الاستقلال فى عامى ١٩٥٦ و١٩٥٧، تم إقصاء معظم الكوادر الفذة من قوات الداخل. على يد الفرنسيين؛ وكان على المتبقين من تلك الكوادر، الاستسلام التام لقوات الخارج. أما من كان يفكر فيهم فى «الخروج» عن الاستسلام، فكان مصيره الحتف. وهذا ما حدث لـ«آبان رمضان»، الذى أعدمه «زملاؤه» فى ديسمبر ١٩٥٧، لأنه أصر على إعطاء الأولوية لقوات الداخل.

لقد تم اغتيال «رمضان». الذى كان يمثل المخطط المحترف لحرب استقلال الجزائر. على يد قبيلة «عوجة»، التى كان يتزعمها «عبد الحفيظ بوسوف»، الذى كان يحتل منصباً رفيعاً فى «جيش الخارج». وكان من ضمن هذه القبيلة: الكولونيل بومدين؛ أحمد بن بيلا وهو الرئيس الأول للجزائر؛ الرئيس بوتفليقة. أما بن بيلا، فقد رفع إلى الرئاسة فى عام ١٩٦٢، على يد قوات بومدين التى قلبت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. وأما بومدين، فقد رفع نفسه للرئاسة فى عام ١٩٦٥، بعد انقلابه على بن بيلا، ووضعه تحت الحجز لمدة عشرين سنة. وبعد وفاة بومدين فى عام ١٩٧٨. على أثر مرض غير معروف. شهدت الجزائر «تشنجات» و«اهتزازات» عنيفة؛ ولكنها لم تؤثر أبداً على قوة الجيش، ولا على هيمنة قبيلة عوجة، ولا على المخابرات التى كانت تشكل «العمود الفقرى» للنظام الجزائرى.

وعندما سقطت «جبهة التحرير الوطنى» (FLN) فى عام ١٩٨٩، اعتقد الكثير من المراقبين الغربيين أن فئة «الجنرالات». التى تضم أمثال نزار. سوف يتم إحباطها؛ كما حدث مع التجربة السوفيتية. ولكن شتان الفرق بين «جبهة التحرير الوطنية» فى الجزائر، وبين الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى. فالأولى لم تكن سوى أداة من أدوات الجيش؛ ومن ثم فلم تكن تحتكم على قدر كبير من السلطة، كما هو الحال فى الحزب الشيوعى. فدستور ١٩٨٩. كما يقول العالم البريطانى هوخ روبرتس فى دراسته الفذة The Battlefield أو «أرض المعركة». لم يفلح إلا فى تحويل الواجهة الأحادية إلى واجهة تعددية. فصحيح، أنه بعد عام ١٩٨٩، صار الجزائريون أكثر قدرة على التعبير عن أنفسهم؛ ولكنهم ما زالوا يتصرفون وكأن هناك من يراقبهم ويستمع إليهم فى كل لحظة وفى كل همسة. وكان هذا موجوداً دائماً. صحيح أنه صارت هناك صحف متعددة، ولكنها لم ولن تجرؤ أبداً على توجيه أى نقد لمؤسسة الجيش، أو بلغة أخرى «المافيا السياسية الاقتصادية». صحيح أنه صارت هناك أحزاب متعددة؛ ولكنها تقف مشلولة أمام مؤسسة «المافيا». ملخص القول هو: أن مجموعة «البوفوار» استطاعت البقاء، بالرغم من عملية «التحول الديمقراطى»، وبالرغم من الانتقال من نظام «الحزب الواحد» إلى نظام «تعدد الأحزاب». لقد استمرت مجموعة «البوفوار» فى الهيمنة، كما كانت دائماً؛ ولكن هذه المرة فى الظل.. ومن وراء أعين الجمهور.

والنظام الاقتصادى فى الجزائر لا يفرق كثيراً عن نظيره السياسى؛ فالاثنان يعانيان من الشلل والمرض. البطالة تهيمن على أكثر من ٣٠ بالمائة من الشعب الجزائرى: نقص شديد فى المساكن؛ المصانع تقع تحت سيطرة الجنرالات؛ السوق السوداء تنتشر بحكم كونها أكثر المجالات ديناميكية فى الجزائر.

وفى أوج الحرب الأهلية. فى تسعينيات القرن العشرين. قام الإسلاميون بحرق مصانع الدولة، التى صار عدمها مثل وجودها. وبدأت نظريات المؤامرة تنتشر فى أوساط الجزائريين، زاعمة بأن الإسلاميين يقفون فى صف المافيا، للتحكم فى اقتصاد البلاد. وما الخصخصة التى تجتاح البلاد، إلا وسيلة أو مؤامرة لتمكين المافيا من الهيمنة والسيطرة على الإرث الصناعى للدولة. باختصار، إن المافيا لا تريد الاستغناء عن الإرث العائلى.

ليست هذه الثغرة الوحيدة فى «قانون الوئام المدنى»؛ فهناك أيضا ثغرة «المختفين» أو «المفقودين»، الذين وصل عددهم إلى سبعة آلاف جزائرى. فالحق يقال..أن بوتفليقة لم يتخذ أى إجراء جاد تجاه هذه القضية، المهمة جداً على صعيد الرأى العام، والمهمشة جداً على الصعيد الحكومى

وبينما أنا جالس فى يوم من الأيام، أشاهد التلفاز الجزائرى، إذا بى أستمع إلى تقرير طويل عن بناء فندق «شيراتون» على الحدود الليبية، وبتكلفة ٩٠ مليون يورو، على يد شركة صينية، الأمر الذى يدلل. كما يقول التقرير. على «روح الجزائر الطيبة فى التعاون مع جيرانها». ثم.. أستمع بعدها إلى قصة «الخليفة جروب»، وسقوطها التراجيدى بعد ست سنوات من الازدهار الإمبراطورى فى أعمال النشر، والبنوك، والنقل الجوى، وصناعة الأدوية. وكان صاحب هذه الإمبراطورية هو «رفيق خليفة»، ذو الستة والثلاثين عاماً، الذى اشتهر بصلاته وعلاقاته، أكثر مما اشتهر بقدراته كرجل أعمال. فرفيق هو ابن لأحد أعضاء قبيلة عوجة المعروفين، الذى ساهم فى إعداد الخدمات المخابراتية فى أثناء حرب الاستقلال. أما «عبد الغنى بوتفليقة»، فهو شريك «خليفة».. وهو أيضاً أخو الرئيس الحالى «عبد العزيز بوتفليقة».

وفى ٢٤ فبراير ٢٠٠٣. خمسة أيام قبل وصول جاك شيراك إلى الجزائر فى أول زيارة رسمية لرئيس فرنسى منذ الاستقلال. كان خليفة على ميعاد مع حظه السيئ، عندما تم وقف ثلاثة من زملائه فى مطار بومدين، لمنعهم من السفر إلى باريس، بعد القبض عليهم متلبسين، بحيازة أموال مزورة (٢مليون يورو). وكان خليفة وقتها فى باريس؛ والآن يقال أنه انتقل إلى لندن؛ المهم أن قدميه لم تطئا الجزائر، منذ ذلك الحين، خوفاً من ملاقاة نفس مصير زملائه. وكانت نتيجة ذلك، أن تم وضع «بنك خليفة»، وهو البنك الخاص الوحيد فى الجزائر. تحت الوصاية. وتبعاً لمصدر قريب من وزارة المالية، كان «بنك خليفة» يحصل. من خلال طرق غير شرعية. على مئات الملايين من الدولارات، تحت سمع وبصر الحكومة. ومن ثم، فإن تصرف الحكومة الأخير والمفاجئ بصدد خليفة، يشكل علامة استفهام كبيرة؛ خاصة أنه حدث مع قدوم الرئيس شيراك إلى الجزائر. وخاصة أيضاً، إذا علمنا أن الصحف الفرنسية قد انهالت على شخص خليفة باللعنات، لتصب عليه وابلاً من النقد والتوبيخ؛ واصفة إياه بـ«إمبراطور الجزائر».



والشىء العجيب أن الجزائر. مع هذا الفقر الشديد. تعتبر ثالث أكبر مصدر عالمى للغاز الطبيعى؛ بالإضافة إلى كونها دولة منتجة للبترول، تتصاعد أهميتها يوماً بعد يوم. «هذه البلاد بقيت على قيد الحياة بفضل البترول».. قالها لى «لامين شيخى»، صحفى بجريدة «الخبر» الناطقة بالعربية، والقريبة جداً من الاستئصاليين. وأكبر دليل على ذلك، هو تنافس شركات البترول الفرنسية وشركات البترول الأمريكية. من ضمنها هاليبرتون. للسيطرة على أكبر مساحة من الصحارى الجزائرية. لقد أخبرنى «شيخى» أن نائب الرئيس الأمريكى «ديك تشينى». وهو الذى تقلد منصباً رفيعاً فى شركة هاليبرتون للبترول. «يعرف الجزائر معرفة جيدة».

إن الفشل الأسطورى الذى منى به بومدين فى مجال التصنيع، فى فترة الستينيات، جعل الجزائر أكثر اعتماداً على عوائد البترول والغاز، التى تمثل حوالى ٩٠ فى المائة من محتوى صادرات البلاد. «البترول يمكن أن يكون أمراً محموداً لأولئك الذين ليس لديهم ثروات أخرى، أما بالنسبة لنا.. فهو لعنة وامتهان». قالها لى أحد الجزائريين، الذى برر مقولته بعد ذلك، مشيراً إلى «أن الجزائر لديها ٢ مليون كيلومتر من الأراضى الصحراوية التى يمكن أن تستغل أحسن استغلال فى السياحة. منذ ثلاثين عاماً، كنا نصدر الطعام؛ أما الآن فنحن نستورده. نحن لسنا بصدد أزمة ايكولوجية؛ وإنما نحن بصدد أزمة تخطيط وإدارة». وأضيف قائلاً: إنها أيضاً مشكلة سياسة. فمادام البترول والغاز متوفرين فى الجزائر، سيظل زعماء الجزائر غير راغبين فى إصلاح وتفكيك «النظام، الذى يوفر لهم حياة الثراء والبذخ؛ خاصة إذا كان الإصلاح سيهدد الامتيازات التى يتمتعون بها.

أما عبد العزيز بوتفليقة، المنتمى منذ عهد طويل إلى عوجة، فهو لم ينجح فى إصلاح الداخل، كما نجح نسبياً على الصعيد الخارجى، خاصة مع الولايات المتحدة. وقد كان بوتفليقة مؤهلاً للحكم منذ السبعينيات، حينما كان يشغل منصب وزير الخارجية فى حكومة بومدين. فى تلك الفترة. التى كانت الجزائر تشهد فيها أوج ثرائها. كان بوتفليقة مرشحاً ليكون الخليفة المميز لبومدين. ولكن الجيش خيب ظنه، واختار الجنرال الشاذلى بن جديد، الذى سارع فى رسم علاقة متهورة أو شراكة طائشة مع إسلاميى الجزائر. فبن جديد والإسلاميون اجتمعوا على أرضية واحدة، وهى: العمل على إضعاف القوميين اليساريين فى داخل جبهة التحرير الوطنية، وفى اتحادات العمال. وبينما كان منطلق بن جديد هو إضعافهم لأنهم يعارضون خطط الإصلاح الاقتصادى التى كان يتبناها؛ كان منطلق الإسلاميين فكرياً من الدرجة الأولى. وتبعاً لذلك، تمتع الإسلاميون بامتيازات. خلال فترة حكم بومدين. لم يكونوا يحلمون بها؛ وخاصة الامتيازات الحزبية. ولكن هذا لم يستمر طويلاً.. فسرعان ما أعلن النظام عن رفضه ومعاداته الصريحة للأصولية فى عام ١٩٩١.

وإذا كانت الفرصة لم تواتِ بوتفليقة. ليصير حاكماً للجزائر فى السبعينيات. فقد جاءته أخيراً فى أبريل ١٩٩٩، بعد أن فاز بـ٧٤ فى المائة من أصوات الناخبين. ولكنه مثل جميع الذين سبقوه، كان بوتفليقة مرشح الجيش؛ كما هو الحال دائماً فى الجزائر. وبعد تولى بوتفليقة الرئاسة، علق عليه جموع الجزائريين الآمال والأحلام فى اجتثاثهم من الواقع الأليم الذى يعيشون فيه؛ ليجتثهم من سواد الحرب إلى نور السلام، ومن ضباب العزلة والوحدة إلى رحابة الاتصال والاحتكاك والامتزاج مع الخارج؛ حتى تصير بلادهم واحة لجذب السياحة والاستثمار. وقد استلزم ذلك. بالطبع. شخصية محنكة فى العلاقات الدبلوماسية، وذات خبرة عميقة فى التعامل مع الآخر، لكى تستطيع إزالة المخاوف والهواجس التى تسيطر على عقلية الخارج.. من البعبع الجزائرى. وكان بوتفليقة هذه الشخصية؛ فبالرغم من حضوره الضعيف، إلا أنه يتميز بشخصية دبلوماسية فذة وذكية. والدليل على ذلك، قدرته على مخاطبة الجمهور الأمريكى فى واشنطون، والجمهور الفرنسى فى باريس؛ الأمر الذى أسفر عن مقابلته لبوش مرتين فى البيت الأبيض؛ والذى أعلن بمقتضاها تعاونه مع الولايات المتحدة ضد الإرهاب؛ وكذلك إعلانه مؤخراً فى جريدة «الواشنطون تايمز» عن كونه «صديقاً» للولايات المتحدة؛ وهو الأمر الذى لاقى سخطاً كبيراً من لدن الشعب الجزائرى، الذى تزايدت لديه المشاعر المناهضة للولايات المتحدة منذ حرب العراق الأخيرة.

وبالرغم من هذا النجاح الواضح، الذى حققه بوتفليقة على الصعيد الخارجى ومع أكبر دولة فى العالم، إلا أنه لاقى فشلاً ذريعاً على الصعيد الداخلى. فالخطوات التى انتهجها بهدف «الإصلاح الوطنى» لم تحقق الغرض المنشود. فبعد أن تم التصديق على «قانون الوئام المدنى»، من خلال استفتاء جماهيرى فى سبتمبر ١٩٩٩، صارت هناك حماية للمتمردين الراغبين فى تسليم أنفسهم، بشرط ألا يكونوا قد انخرطوا فى عمليات قتل أو اغتصاب. وكانت نتيجة ذلك، أن تم العفو عن آلاف، والتغاضى عن جرائمهم الإرهابية السابقة بمنتهى السهولة والبساطة؛ الأمر الذى خلف شعوراً مريراً بالظلم والقهر لدى الجزائريين، الذين ما زالوا يرون أيدى هؤلاء المجرمين وهى ملطخة بالدماء. ولا عجب أن يذهب معظمهم إلى الشك فى هذا القانون؛ ولا غرابة أن تجنح عقولهم إلى تفكير المؤامرة...وهو أن هذا القانون ليس إلا حجرة خلفية يتفق فيها المتمردون مع فئة «البوفوار» أى «رجال السلطة».

ليست هذه الثغرة الوحيدة فى «قانون الوئام المدنى»؛ فهناك أيضاً ثغرة «المختفين» أو «المفقودين»، الذين وصل عددهم إلى سبعة آلاف جزائرى. فالحق يقال.. أن بوتفليقة لم يتخذ أى إجراء جاد تجاه هذه القضية، المهمة جداً على صعيد الرأى العام، والمهمشة جداً على الصعيد الحكومى. فلا هو أخبر أسر هؤلاء المختفين عن أية معلومات وراء اختفائهم أو عن مصائرهم؛ ولا هو قام بتعويض الأسر مالياً؛ ولا هو قام بتقديم اعتذار رسمى إليهم؛ ولا هو قام بتأمين حياة الجزائريين، بهدف حمايتهم من أى «اختفاء» مستقبلى. وعندما قامت مجموعة من الأمهات بسؤاله عن أبنائهن المفقودين. فى أثناء تحدثه عن «قانون الانسجام المدنى». أجابهن قائلاً: «إن أبناءكم ليسوا فى جيبى. كيف تضعون هذه الحرب وراء ظهوركم، وأنتم مصرون على عدم نسيانها؟».

إن الوضع الجزائرى. كما هو موصوف عاليا. لا يبشر أبداً ببوادر أى صلح كان. فمازال الطريق طويلاً.. خاصة أن الجزائريين ما زالوا حتى هذه اللحظة متفرقين، بين الرغبة فى التصالح مع الإسلاميين، وبين الرغبة فى استئصالهم، دفعة واحدة. فأما الاستئصاليون، فيصفهم صديق لى. يعمل صحفياً. بأنهم «فرانكفونيون يكرهون أهلهم وقومهم». وأما الإسلاميون، فيصفهم «محفوظ بنون». وهو باحث اجتماعى. بأنهم «أفاعى». وبالرغم من كرهه «للبوفوار» إلا أنه يفضل دائماً اختيار «السارقين» عن «القاتلين».

وفى غمرة هذا التخبط الذى يعيشه الجزائريون اليوم، تقفز ذاكرتهم إلى الوراء، ليسترجعوا عهد بومدين المجيد، الذى يصفه لى أحد الصحفيين الجزائريين البارزين والمعدودين «إحسان القاضى» قائلاً: «لقد كنا نعيش فى رغد وترف؛ وكان لدينا شعور بوحدتنا القومية؛ لقد كنا نشعر بعزتنا تحت ولاية بومدين. لم نكن فى حاجة إلى نشر مقالات فى «الواشنطون تايمز» لكى نخبر الأمريكيين بأن لديهم صديقا فى الجزائر. وبالرغم من أن كثيراً مما



تعانيه الجزائر اليوم، يمثل نتيجة مباشرة لأخطاء سابقة وقع فيها بومدين. مثل استثماره فى الصناعات الثقيلة التى خلفت خسائر فادحة، ومثل تشغيله للإخوان المسلمين المصريين لتعليم اللغة العربية للطلاب الجزائريين، الأمر الذى خلف ظاهرة الإسلام السياسى. إلا أن الشعب الجزائرى لا يتذكر، أو لايريد إلا أن يتذكر، حسنات بومدين، التى تجلت فى إطعام الجزائريين؛ فى تعليمهم القراءة والكتابة؛ فى إدراج الجزائر ضمن القوى المحايدة. وفوق كل ذلك، فى الحفاظ على النسيج الداخلى، والسيطرة على الخصومات الإثنية والدينية، والإقليمية، والأيديولوجية.

ومن ثم، فبعد وفاة بومدين فى عام ١٩٧٨، بدأت الاختلافات تسرى فى الأراضى الجزائرية؛ كل مجموعة تعطى للجزائر هوية متميزة، نابعة من فكرها وعرقيتها. فالجزائريون العرب يرون الجزائر عربية، باعتبارها جزءاً من الشرق الأوسط. والجزائريون البربر يرون الجزائر بربرية، غير عربية، باعتبارها على صلة وثيقة بجنوب أوروبا .وخاصة أسبانيا. أكثر مما هى على صلة بالمنطقة العربية. والجزائريون الإسلاميون يرون الجزائر أولاً وأخيراً. وقبل كل شىء. دولة مسلمة. وأخيراً الجزائريون الناطقون والمتحدثون بالفرنسية. الذين ينتمون إلى النخبة. يرون الجزائر جمهورية علمانية. العجيب أن كل هذه المجموعات تؤمن بشدة أنها تمثل الوريث الأصيل «لجبهة التحرير الوطنية»، التى كانت تكافح فى حرب الاستقلال؛ أعنى «الجبهة الوطنية» بمعناها الحقيقى، وليس بمعناها المضلل.

وإذا أردت أن تشهد مثالاً واضحاً للتفسخ الإثنى فى الجزائر، فعليك أن تقوم بزيارة سريعة إلى «منطقة القبائل» .معقل البربر فى الجزائر. منذ أول وهلة، ستلحظ ألسنة الغاز المتصاعد؛ الشوارع المرصوفة بالكاد؛ البيوت المترهلة؛ البطالة المتفحشة؛ اللغة الأمازيغية فى كل مكان.. وليس العربية. و«منطقة القبائل» ليست مختلفة عن بقية المناطق فى الجزائر؛ التى يتكالب عليها العفن والإهمال من كل جانب، نتيجة للمعاملة القاسية وغير الآدمية التى تتلقاها من جانب السلطات المسئولة. ولكن، ربما الفارق الوحيد بينها وبين بقية المناطق، يتجلى فى الشعور المتعمق لدى البربر بالدونية وبالاضطهاد. فما يحز فيهم، أنه بالرغم من كل ما قدموه من تضحيات فى حرب الاستقلال، إلا أن الحكومة خذلتهم فى النهاية، ووضعت الجزائر تحت التصنيف العربى الإسلامى فقط. هذا فضلاً عن اضطهاد اللغة الأمازيغية حتى وقت قريب.

والبربر لديهم سوابق عديدة فى التظاهر، والخروج إلى الشوارع لإعلان رفضهم وسخطهم. ولكن شتان الفرق بين مظاهرات الأمس ومظاهرات اليوم. فمظاهرات الأمس. مثل التى حدثت فى عام ١٩٨٠. كانت منظمة ومحددة لمطالبها. أما مظاهرات اليوم. وآخرها التى اندلعت فى «تيزى أوزو» أكبر مدن «منطقة القبائل» فى عام ٢٠٠١. فليس فيها تنظيم ولا حتى أدنى تخطيط؛ بل يشوبها العنف والغوغائية؛ فتعبر عن المرار والكبت أكثر مما تعبر عن مطالب وأولويات. وقد قالها لى عضو سابق فى «جبهة التحرير الوطنية» يوماً: «إذا لم تُحل مشاكل منطقة القبائل.. فيمكنها أن تتحول إلى كوسوفا أخرى».

وفى إحدى الليالى، كنت أمر بإحدى باعة الخضار فى شوارع العاصمة الجزائرية؛ فإذا بى أرى مجموعة من البائعين الشباب، فى ملابس أفغانية، وذقون طويلة، وأثواب فضفاضة متطايرة. «لقد قُصت أجنحتهم».. قالها لى سائقى، الذى كان من ضمن المكافحين فى حرب الاستقلال. «هل تعلم كيف عاملهم التونسيون؟ لقد خلعوا أعينهم بملاعق الشاى. لقد كانت الطريقة المثلى لتهدئتهم هى إرهابهم وترويعهم حتى الموت. لقد بدأنا أخيراً فى التنفس ثانية». وعندما سألته، عن الحزب الذى اختاره فى انتخابات ١٩٩١، رد على قائلاً: «جبهة



الإنقاذ الإسلامية..كيداً فى الشاذلى بن جديد». صحيح أنه ندم فى اليوم التالى، ولكن كثيرين غيره لم يندموا.

لقد كان لسياسة الدولة الباطشة أثر كبير فى أفول نجم الأصوليين. فلم يعد زعماء الإسلام السياسى يتحركون بنفس الحماسة، التى كانوا يتحركون بها من قبل. وصار ما هو مصرح به الآن، يتمثل فى حركة «النهضة الإسلامية» التى يتزعمها الشيخ «عبد الله جاب الله»، والذى فاز بـ٤٣ مقعداً بالمجلس الوطنى، فى انتخابات العام الماضى. وبالطبع، يترصد بوتفليقة الآن الشيخ جاب الله، ليرد له الجميل فى انتخابات ٢٠٠٤ القادمة.

ويجيء هنا العالم البريطانى «هوغ روبرتس» ليحلل تلك الظاهرة، فيقول: «أن هناك توجهاً لإعادة امتصاص الإسلاميين الجزائريين فى داخل النسيج الوطنى الأوسع». ولكن بالرغم من ذلك، ستظل «الحدود» موجودة. فجبهة الإنقاذ الإسلامية ما زالت غير شرعية؛ وزعماؤها ما زالوا موقوفين عن الحركة، بل عن الخروج من منازلهم. وحزب مثل حزب «الوفا» محظور من الاشتراك فى الانتخابات. بالرغم من كونه أقل «راديكالية» من حزب الشيخ جاب الله. لأن الكثيرين من زعماء هذا الحزب كانوا من نشطاء جبهة الإنقاذ الإسلامية؛ بالإضافة إلى شخصية «أحمد طالب إبراهيمى».وهى الشخصية المحورية فى داخل الحزب، التى لديها مقدرة على جمع القوميين والإسلاميين الوسطيين، المعارضين سوياً للدبوفوار، فى صف واحد.

فى نهاية ديسمبر الماضى، نشرت صحيفة «ليبرتيه» اليومية مقالاً تحت عنوان «٥٠ مليون جزائرى فى ٢٠٥٠». العدد ليس بسيطاً، خاصة إذا ما قارناه بما كانت عليه الجزائر فى عام ١٩٦٢، حيث كان تعداد السكان أقل من عشرة ملايين نسمة. أما الآن، فقد وصل التعداد إلى ثلاثين مليوناً؛ منهم ٨٠ فى المائة ليس لهم كلمة ولا دور فيما يحدث..فهم أقل من الثلاثين..ومن ثم، فهم لا يصلحون. وكما أخبرنى عبد العزيز رحابى ذات يوم: «إن الرجال الذين قاموا بالثورة، ما زالوا يعتبرون أنفسهم جيل النار؛ ويعتبرون أن كل من ولد بعد الثورة من جيل الرماد». لقد ترعرع جيل الرماد على تعاليم الثورة..وأهمها أن التغيير السياسى لا يتحقق إلا بالكفاح المسلح. لم يعط جيل الرماد الفرصة، لكى يفكر. فى التغيير. بطريقة أخرى. وبالرغم من أن جيل النار قد فشل سياسياً واقتصادياً، بعد الاستقلال، إلا أنه مصر على تلقين جيل الرماد مبادئ الثورة وتعاليمها. وكانت النتيجة المنطقية لهذا الإصرار، هى هروب جيل الرماد خارج البلاد، لعلهم يجدون متنفساً. فتعال.. لكى ترى معى هذه الحقيقة مجسدة أمام السفارة الفرنسية. ليس بعيداً عن فيلا خالد نزار. حيث الجموع الغفيرة من الشباب الجزائرى، تنتظر كل ليلة من السادسة مساء حتى نهار اليوم التالى، منتظرين تأشيرات العمل. وعندما زار شيراك العاصمة مؤخراً، صعق بمشهد تلك الجموع، التى أخذت تصرخ فى وجهه، «فيزا، فيزا!» ومن لم يفلح منهم فى السفر، كان مصيره إما الدخول فى مستنقع الجريمة، وإما الدخول فى مستنقع المتمردين فى كهوف الجبال.

لقد قالها لى يوماً، صديق فى العقد السادس من عمره: «إن شباب الجزائر لا يعبأ بالثورة؛ ولا يعبأ بما حدث لأبان رمضان، مهندس الثورة. فالذين يحتكمون على بعض المال يذهبون إلى الخمارة؛ والذين يحتكمون على قدر أكبر من المال يذهبون لشراء المخدرات. حتى الآن، يوجد جزائريون كثيرون، قد وصلوا إلى سن الأربعين، ولم يتزوجوا بعد، لأنهم لم يستطيعوا توفير مسكن للزوجية. ومنهم من لم يستطع الصبر، فتورط فى علاقات غير شرعية..».

وفى يوم مغادرتى للجزائر، جاءنى هذا الصديق بخبر جديد: «لقد قام بتقديم أوراقه للحصول على تأشيرة عمل فى جنوب أفريقيا». ■



كتـــاب الـزاويـــة

بغـــــــداد ١٨٠٨

بغداد مدينة ألف ليلة وليلة التى يستحضر اسمها السحرى فى الذهن صورة رومانسية مدهشة. وخيال الإنسان يرسم منظرها الرائع بأنه منظر لمدينة ذات بياض يشبه بياض المرمر. تبرز من خلاله القباب الذهبية الصقيلة لكثير من المساجد. فتتلألأ كخيط من أحجار كريمة ملونة فى شمس الظهيرة الملتهبة. وتشمخ منائرها الهيفاء بوضوح فى قلب السماء اللازوردية العميقة. ولعلها ذات قصور تخفى صوراً أخاذة لحريم الباشا. يرتدى فيها الخدم الملابس الجذابة الآسرة. ويندفعون هنا وهناك فى الأفنية الواسعة أو يحرسون بوابات تلك القصور حراسة مشددة فى وقت تزدحم فيه الشوارع والأسواق بحشد مندفع طلق الأسارير لتجار الأقاليم وأثرياء الشرق.

هى بالتأكيد سوق تجارية كبيرة ومدينة مهمة.ولم يكن النفوذ البريطانى كبيراً فى هذه الفترة الزمنية من عام ١٨٠٨.

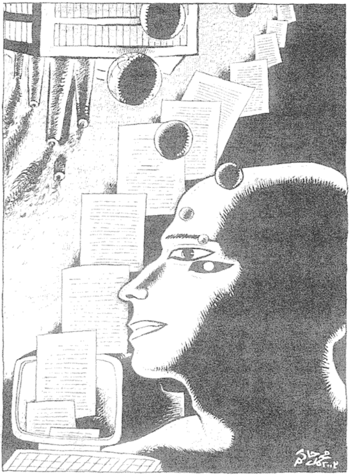
كانت بغداد تعج بالجواسيس والوكلاء الخاصين والوكلاء المضادين، ووضعها كان يعد مفتاحاً لجعلها مدينة ملائمة. ونظراً إلى وقوعها على ضفتى نهر دجلة، فقد أصبحت ملتقى للطرق الرئيسية بالإضافة إلى طرق القوافل خلال صحارى ما بين النهرين الموحشة.

ومن الأراضى الجبلية للأناضول حتى موانئ الخليج العربى البحرية، ومن سورية إلى بلاد فارس، التقى تجار من جميع الجنسيات الشرقية. فلا عجب والحال هذه أن تكون بغداد فى ذلك الوقت، مركزاً لقيادة الجيش البريطانى الذى سيجتاح الهند.

اقتصاد المعرفة
المعنى والمغزى

نبيل علي

أفرزت تكنولوجيا الصناعة مجتمعا مختلفا عن مجتمع الزراعة وأفرزت تكنولوجيا المعلومات مجتمعا مختلفا عن مجتمع الصناعة.. ولكن شتان ما بين الاختلافين



أولاً: مقدمة عن نشأة مجتمع المعرفة وطبيعة اقتصاده

١ : ١ نظرة تاريخية

عبر مراحل ارتقائها المتعاقبة، ظلت التكنولوجيا فى تعاملها مع المادة تتحرك من الصلادة صوب الليونة، من الصلد (الأحجار والمعادن) إلى الهش (فحم عصر البخار)، ثم إلى المائع (كالنفط وسوائل الكيمياء الصناعية وغازاتها)، وصولاً إلى أدنى حالات التماسك المادى، ونقصد بذلك فيض الإلكترونيات والجسيمات النووية والأشعة والموجات والإشعاعات والفوتونات أو الجسيمات الضوئية وغيرها مما تتعامل معها تكنولوجيا الكهرباء والذرة والليزر، ولم تتوقف رحلة النزوع إلى الليونة عند هذا الحد، بل استمرت مع ظهور تكنولوجيا المعلومات لتصل إلى ذروة الليونة القصوى بعد أن تسامت المادة الخام فى صورة عناصر لامادية لا محسوسة، والتى جرى العرف على ترتيبها وفقًا للرباعية الرمزية التالية:

- البيانات data.
- المعلومات information.
- المعارف Knowledge.
- الحكمة Wisdom.

وكما أفرزت تكنولوجيا الصناعة مجتمعًا مختلفًا عن مجتمع الزراعة، كذلك أفرزت تكنولوجيا المعلومات مجتمعًا مختلفًا عن مجتمع الصناعة، ولكن شتان بين هذا الاختلاف وذاك، فالنقلة النوعية إلى مجتمع المعلومات تفوق سابقتها بكثير، سواء من حيث عظمة الآمال التى تبشر بها أو جسامة المخاطر التى تنطوى عليها، وقد تعددت أسماء هذا المجتمع الجديد، واتخذت سلسلة مترادفاته نمطًا متصاعدًا من حيث درجة الارتقاء الاجتماعى تمثله الثلاثية التالية:

❖ مجتمع المعلومات: وليد الفيض الكثيف من المعلومات وتطبيقات المعلوماتية التى تسرى داخل المجتمع لدعم أنشطته، وتفسير ظواهره، وحل مشكلاته، وتصويب أدائه.

❖ مجتمع المعرفة: القائم على استغلال المعرفة كأهم مورد للتنمية الاقتصادية والنماء الاجتماعى بصفة عامة.

❖ مجتمع التعلم: وهو يمثل، فى سياقنا الراهن، ذروة الارتقاء المجتمعى، حيث يزخر المجتمع بكثير من الموجودات القادرة على التعلم ذاتيًا، وذلك بعد أن أصبحت ملكة الذكاء غير مقصورة على الإنسان فقط، بل أصبحت خاصية موزعة على الآلات والأدوات والنظم والمؤسسات، وذلك بفضل انتشار نظم المعلومات وهندسة الذكاء الاصطناعى وآليات التحكم التلقائى، ومجتمع التعلم المنشود له ذكاؤه الجمعى، وذاكرته الجمعية، وشبكة أعصابه الجمعية (وتمثلها شبكة الإنترنت فى الوقت الراهن)، وله كذلك وعيه الجمعى المتمثل فى معارفه ومدركاته وخبراته، بل له لاوعيه الجمعى أيضًا، الذى يعمل تحت طبقات متراكمة من القيم والعقائد والأيديولوجيات والأعراف وما شابه.

تنطوى هذه التعريفات الثلاثة على قدر كبير من التداخل، ربما يزول بعض منه من خلال تناولنا للفروق بين عناصر الرباعية الرمزية السالفة الذكر.

١ : ٢ رباعية: البيانات ـ المعلومات ـ المعرفة ـ الحكمة

يعد إدراك الفروق بين عناصر رباعية: (البيانات ـ المعلومات ـ المعرفة ـ الحكمة) مدخلاً أساسيًا لرصد مراحل تطور تكنولوجيا المعلومات من جانب، وفهم طبيعة المجتمع الذى انبثق منها من جانب آخر. يلخص (شكل ١) المسار الذى تتدرج فيه البيانات وصولاً إلى الحكمة، وكما يوضح الشكل تتم عملية الارتقاء الرمزى هذه من خلال ثنائيات من العمليات الذهنية الأساسية والتى تمكن الكمبيوتر من القيام ببعضها، ويسعى مصمموه حاليًا لإكسابه القدرة على محاكاة كثير مما بقى منها.

وهذه تعريفات موجزة لعناصر هذه الرباعية:

❖ البيانات: هى المادة الخام، هى المعطيات البكر، إن جاز التعبير، البيانات هى بنود البطاقة الشخصية ومادة

أصبحت المعرفة قوة دافعة، أو محركا رئيسيا للاقتصاد الحديث؛ فهى التى توفر معظم الوسائل الخاصة بزيادة إنتاجية عمالة المصانع والمكاتب والفصول، وهى مصدر محتوى الرسائل المتبادلة عبر شبكات المعلومات والمقوم الرئيسى للبرمجيات التى تعالج هذا المحتوى

استيفاء النماذج، وقراءات أجهزة القياس، والإشارات التى تنبعث من أجهزة الإرسال وتلتقطها أجهزة الاستقبال. البيانات هى ما ندركه مباشرة بحواسنا، هى إشارات اليد وحركة العين، وإيماءة الرأس، وتغير ملامح الوجه، وهذا بالطبع على سبيل المثال لا الحصر.

❖ المعلومات: هى ناتج معالجة البيانات من خلال عمليات التحليل والتركيب، وذلك من أجل استخلاص ما تتضمنه البيانات من مؤشرات وعلاقات وتعالقات ومقارنات وكليات وموازنات ومعدلات وغيرها، وذلك من خلال تطبيق العمليات الحسابية والطرق الإحصائية والرياضية والمنطقية، أو من خلال إقامة نماذج المحاكاة وما شابه، وعليه فالبيانات هى ركيزة المعلومات، هى المتغير المستقل الذى لا يستحدث، والمعلومات هى المتغير التابع.

❖ المعرفة: هى حصيلة هذا الامتزاج الخفى بين المعلومات والخبرة والمدركات الحسية والقدرة على الحكم، فنحن نتلقى المعلومات، ونتمثلها فى عقولنا، نطبق عليها آليات الاستنباط deduction لاستخلاص المعرفة الضمنية الكامنة بها، وآليات الاستقراء induction لتوليد معرفة جديدة انطلاقا منها. استنتاجا من ذلك فالفرق بين المعلومات والمعرفة يفوق بكثير الفرق بينها. أى المعلومات. وبين البيانات.

❖ الحكمة: أخيرا، نصل إلى ذروة الهرم المعرفى، حيث نواجه أعقد العمليات التى يمارسها الذهن البشرى لـ «تقطير» المعرفة إلى حكمة مصفاة، و«تجاوز» المتاح من المعرفة، وانتهاك السائد، وزعزعة الراسخ، من أجل فتح آفاق معرفية جديدة، ومن أجل كسر القيود واقتناص الفرص، وترشيد استغلال الموارد واستخدام الوسائل والموازنة بين تحقيق الغايات وكلفة الوصول إليها.

وفقا لهذه الرباعية يتم رصد تطور الكمبيوتر من آلة لمعالجة البيانات data processing إلى آلة لمعالجة المعلومات information processing، ثم إلى آلة لمعالجة المعارف knowledge processing قادرة على محاكاة وظائف الذهن اللغوية: فهما وتعبيرا، قراءة وكتابة، تصنيفا وتلخيصا، وعلى القيام بمهام الخبراء من مصممين ومحللين ومعلمين، وعلى اتخاذ القرارات ومقارنة السيناريوهات، والتحكم فى النظم والآلات، وإقامة العوالم الميكروية الخائلية virtual micro-worlds، بل برهنة النظريات وتأليف المقالات أيضا.

خلاصة، لقد فجر الكمبيوتر طاقة المعرفة الكامنة فى جوف المعلومات، ونستهدى فى مجازنا هنا بما خلص إليه بروكز Brookes (1) فى محاولته لوضع أساس نظرى لعلم استرجاع المعلومات حيث طرح بحرارة مفهوم العالم الإدراكى cognitive كنظير معرفى للعالم الفيزيائى (المادى) physical، وكما حدد أينشتين للفيزيائى علاقته الحاكمة بمعادلته الشهيرة التى تربط بين الكتلة والطاقة، اقترح بروكز، فى المقابل، ثنائية «المعلومات: المعرفة» كأساس للعالم الإدراكى، لتصبح فى إطارها المعلومات فى مقام الكتلة والمعرفة بمثابة طاقتها الكامنة، وهكذا أصبحت المعرفة قوة دافعة، أو محركا رئيسيا للاقتصاد الحديث، فهى التى توفر معظم الوسائل الخاصة بزيادة إنتاجية عمالة المصانع والمكاتب والفصول، وهى مصدر محتوى الرسائل المتبادلة عبر شبكات المعلومات والمقوم الرئيسى للبرمجيات التى تعالج هذا المحتوى، وقد أكدت مؤشرات عديدة مدى الأهمية الاقتصادية لمورد المعرفة، سواء على مستوى الأفراد أو المؤسسات أو الدول أو العالم بأسره، فعلى مستوى الأفراد تضاعف ثقل العمالة الذهنية، وتعاظمت سطوة الرأسماليين الذهنيين الجدد صنيعة اقتصاد المعرفة، ويكفى سندا لذلك أن ثلاثة من أغنى أغنياء العالم العشرين بنوا ثرواتهم من صناعة البرمجيات، أما على مستوى المؤسسات فيكفى مثالا هنا أن إجمالى القيمة الرأسمالية لخمس شركات تعمل فى مجال صناعة المعلومات قد تضاعف ٥٠ ضعفا خلال عشر سنوات من ١٢ بليون دولار سنة ١٩٨٧ إلى ٧٠ بليون دولار عام ١٩٩٧(٢)، وعلى مستوى اقتصاد الدول، نكتفى بمثالين هنا: المثال الأول من الولايات المتحدة حيث يفوق حاليا إجمالى عائد صناعات البرمجيات والنشر والتسجيل الصوتى والمرئى عائد قطاعات الزراعة وصناعتى الفضاء والسيارات، والمثال الثانى من الهند حيث حقق قطاع صناعة البرمجيات عام ٢٠٠٠ ثمانية مليارات دولار وناهز حجم عمالته رقم المليون عامل، أما عالميا فيؤكد أهمية اقتصاد المعرفة ارتفاع نصيب التكنولوجيا المتقدمة فى التجارة العالمية من ١٢٪ عام ١٩٨٠ إلى ٢٤٪ عام ١٩٩٤.

١ : ٣ الحاجة الماسة لمعرفة اقتصادية جديدة

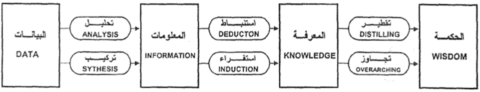
إن استيعاب ظاهرة اقتصاد المعرفة يتطلب، أول ما يتطلب، معرفة اقتصادية جديدة ما خلفه لنا منظرو الاقتصاد الصناعى والسياسى من أمثال آدم سميث وكارل ماركس وفردريش فون هايك، وما رسخته الكينزية والتيلورية وما بعد الكينزية وما بعد التيلورية، وما تولد عن التوجه الاقتصادى لليبرالية الجديدة من «تاتشرية وريجانية»، وما يطرحه كذلك خطاب العولمة المضادة من مفاهيم اقتصادية بديلا عن رأسمالية التكنولوجيا المتقدمة التى يتبناها خطاب العولمة الراهن. لقد بات الفكر الإنسانى فى أمس الحاجة لمعرفة اقتصادية جسورة تتصدى للركائز الأساسية التى تقوم عليها المنظومة الاقتصادية، وتعيد النظر فى الأسس التى انطلق منها الفكر الاقتصادى الكلاسيكى. لقد مضى الاقتصاد سادرا فى غيه، زاعما كونه مجالا مستقلا بذاته، وقد استهوته المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية والسلاسل الزمنية، ولقد أخذت بلبه وضعية العلوم الطبيعية، وكان الأولى به أن يتوجه بمناهجه صوب الإنسانيات لا الطبيعيات. وما أبهظ الضريبة التى دفعتها البشرية لهذه العقلانية الاقتصادية القصيرة النظر. لقد بات ضروريا أن يهجر الاقتصاد انعزاليته كى يسترد غايته الأصلية لتوفير سبل المعيشة، وتلبية احتياجات البشرية جمعاء. إن مورد المعرفة. إن أحسن استغلاله. يمثل فرصة نادرة لتحقيق هذه الغاية، وإصلاح ما نجم عن الاقتصاد الصناعى المعصوب العينين من اختلال واستغلال وبطالة واغتراب واحتكار وصراعات، وتدمير للبيئة، وتبديد لقدرات البشر، وتهديد لأمنهم وأمانهم. إن الوضع أسوأ من أن يستمر، ولا يمكن أن نظل أسرى فكر وهوى بعض أولئك الاقتصاديين، أو العقلاء الحمقى على حد تعبير أمارتا سن(٣)، والذين واتت أحدهم الجرأة ليصرح: «إنه من الممكن حل مشكلة تلوث الهواء لو تحول الهواء إلى سلعة»، ويبدو هذا متسقا مع ما تتسم به العولمة الراهنة، صنيعة هذا الفكر الاقتصادى المتهالك، من نزعة شديدة نحو تسليع «الرائحة»، رائحة الزهرة، ونقصد بها الثقافة كما شبهها البعض بالنسبة إلى مجتمعها.

ودعنا نؤكد هنا أن مصدر الصعوبة الأساسى فى استيعاب ظاهرة اقتصاد المعرفة أنه لا يتعامل فقط مع موارد لا مادية غير محسوسة بل يمتد توجهه اللامادى ليشمل آليات معالجة موارد المعرفة (المتمثلة فى البرمجيات ونظم المعلومات) وكذلك قائمة العوائد والكلفة المرتبطة بالإنتاج المعرفى، ومن أمثلة ذلك:

. ما هو العائد الطويل الأجل للاستثمار فى مجال التربية؟

. ما هى الخسارة المترتبة عن فقدان الهوية القومية؟

. كيف تتحقق الموازنة بين



شكل رقم (١): مسار الارتقاء من مستوى البيانات إلى مستوى المعرفة وصولا إلى الحكمة



العائد السياحى والكلفة الاجتماعية لتدمير البيئة المحلية، وتهديد الآثار التاريخية، والعبث بالتقاليد الاجتماعية كما نشهده فى بعض المناطق والقرى السياحية؟

ولا شك أن التعامل مع العناصر اللامادية غير المحسوسة أكثر تحديًا نظرًا لغياب الأسس الكمية لحسابها وصعوبة التنبؤ باحتمالاتها المتعددة وآثارها الجانبية غير المتوقعة. خلاصة القول إن اقتصاد المعرفة يطفو على بركة من «الموانع» والمفاهيم الزائغة التى لم تستقر بعد. وربما يفسر ذلك تعدد الأسماء التى أطلقت على اقتصاد المعرفة، والتى تشمل قائمة مترادفاته:

- اقتصاد انعدام الوزن Weightless economy
- الاقتصاد اللامادى immaterial economy
- اقتصاد المعلومات information economy
- اقتصاد فضاء المعلومات cyber economy
- الاقتصاد اللامحسوس intangible economy

وتحاشيًا للخوض فى متاهة التفاصيل والفروق الدقيقة، استقر الرأى على تسميته بـ «الاقتصاد الجديد» وهو اقتصاد جديد حقًا لا يدين - حتمًا - إلى نظريات الاقتصاد التقليدى أو حتى إلى صور معدلة منها.

إزاء كل هذه التحديات تجاسرت الدراسة الحالية على اقتحام متاهة اقتصاد المعرفة فى محاولة يقوم بها «معلوماتى»، لا «اقتصادى»، تأكيدًا لكون اقتصاد المعرفة قضية إنسانية فى المقام الأول تتجاوز حدود التخصص الضيق بعد أن باتت شاغل الجميع. تستهل الدراسة باستعراض موجز لمنظومة المعرفة من منظور اقتصادى، تحوم بعده حول بعض المفاهيم والركائز الرئيسية التى تقوم عليها منظومة اقتصاد المعرفة فى محاولة لتحديد معنى كل منها ومغزاه. فيما يخص المعنى يتم استنباطه من مقارنة تعقدها الدراسة بين طبيعة اقتصاد المعرفة والاقتصاد التقليدى تبرز من خلالها النقلات النوعية التى أدت إلى هذا التحول أو نجمت عنه. أما المغزى فقد سعت إلى الوصول إليه بسرد انعكاسات هذه النقلات النوعية على الجوانب المختلفة للمنظومة الاقتصادية.

ثانيًا: منظومة المعرفة من منظور اقتصادى

٢ : ١ الإطار العام لمنظومة المعرفة

حظى الاقتصاد بقسط وافر من الفكر الفلسفى والتنظير الأكاديمى والتبسيط العلمى، على العكس من ذلك ظلت المعرفة، رغم شيوع استخدامنا لها، بمنأى عن الوضوح والتحديد، وهو أمر لا يستقيم مع تزايد أهمية الدور الذى تلعبه المعرفة فى صياغة المجتمع الحديث بصفة عامة، ويتعذر معه تناول إشكالية اقتصاد المعرفة بصفة خاصة. لهذا نورد هنا، كتمهيد أساسى، استعراضًا موجزًا لمنظومة المعرفة، والتى يلخص (شكل ٢) إطارها العام من منظور الدراسة الراهنة، ويشمل هذا الإطار ثلاثة مقومات رئيسية هى:

- نوعيات المعرفة ومستوياتها.
- الدورة الكاملة لاكتساب المعرفة.
- الفروع المعرفية التى تساند المعرفة وتنبع منها وتنصب فيها.

وسنتناول فيما يلى كلا من هذه المقومات الثلاثة بإيجاز من منظور اقتصادى



٢ : ٢ نوعيات المعرفة

يمكن تقسيم المعرفة وفقًا لمجالها وطبيعتها إلى:

معرفة علمية: وهى ترتكز على علوم الطبيعيات ممثلة هنا بثنائية علم الطبيعة (الفيزياء) الذى يتعامل مع «اللاحيوى» أساسًا، وعلم الأحياء (البيولوجيا) الذى يتعامل مع «الحيوى»، وقد قام اقتصاد المعرفة على تكنولوجيا الكمبيوتر والاتصالات التى تعد الفيزياء - حتى الآن - أهم العلوم المؤسسة لها، والتكنولوجيا الحيوية وليدة الثورة التى حدثت فى مجال الميكروبيولوجى وهندسته الوراثية، وقد اندمج هذان الفرعان حاليًا فيما يعرف بالمعلوماتية الحيوية bio-infornatics التى يتوقع الجميع أن تكون لها إنجازات بالغة بالأثر على إنتاجية جميع الكائنات: إنسانًا وحيوانًا ونباتًا، وستكون لها تطبيقاتها المثيرة ذات الأبعاد الاقتصادية البعيدة المدى.

معرفة الإنسانيات: ويأتى على رأسها علم اللغة، ركيزة فروع الإنسانيات الأخرى، والتى تشمل علم الاجتماع، وعلم الإناسة (الأنثروبولوجيا)، وعلم التاريخ، والجغرافيا البشرية، وعلم الثقافة، وتزداد أهمية هذه المعرفة مع تنامى التوجه الثقافى الاجتماعى لمنتجات تكنولوجيا المعلومات. مع ارتقاء نضوجها العلمى، راحت فروع الإنسانيات تبحث عن نهج جديد يخلصها من أسر ما اقترضته من أنهج علوم الطبيعيات، وهناك كثيرون يتوقعون أن تستحدث الإنسانيات مناهج فكر جديدة يمكن أن تقترضها علوم الطبيعيات ذاتها، بعد أن باتت هى الأخرى تواجه أزمة منهجية حادة.

تأسست العلاقة بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات عن طريق الرابطة الوثيقة التى أقامها الميكروبيولوجى الحديث، ذروة علوم الطبيعيات، مع اللغة، سندريللا علوم الإنسانيات، وهى الرابطة التى تتضح - أكثر ما تتضح - فى استخدام اللغة من قبل الميكروبيولوجى الحديث كنهج أساسى له، وها هو المجاز اللغوى يطغى على قاموس الميكروبيولوجى، والأمثلة على ذلك عديدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: السفر الوراثى - المعجم الوراثى - الأبجدية الوراثية - الجملة الوراثية - الترجمة البيولوجية، وها نحن نسمع - حاليًا - عن «فهرسة البروتينات» واللبس فى قراءة سلاسل الجينات، وعن تطبيق أساليب النحو والتحليل الدلالى على النص الوراثى لكشف بنيته التركيبية ومعانى (دلالات) مقاطعه الجينية.

لقد استدرجت تكنولوجيا المعلومات علوم الإنسانيات إلى حلبة الاقتصاد بعد أن وفرت لهذه العلوم شقها التكنولوجى الخاص بها، المتمثل فى تكنولوجيا اللغة وهندسة الذكاء الاصطناعى والهندسة المجتمعية وصناعة الثقافة وما شابه، ويمثل الثالوث المعرفى المكون من الميكروبيولوجى وعلم اللغة الحديث وتكنولوجيا المعلومات مقدمة ركب اقتصاد المعرفة والتى تجر وراءها قاطرة المعرفة الإنسانية بأكملها: فلسفة وعلمًا وفنًا وثقافة وتقانة.

المعرفة الكامنة وراء الفنون: إن الفن - فى جوهره - ضرب من المعرفة، معرفة تختلف من حيث طبيعتها عن تلك التى يمدنا بها العلم، وقد أكد هذه الحقيقة المنحى المعرفى الذى اتخذته فنون عصر المعلومات، والتى نورد هنا بعضًا من أجناسها: الفن الرمزى - الفن المفهومى - الفن الاتصالى، وجميعها كما تدل أسماؤها كثيفة المعرفة. لقد فجر هذا التوجه الفنى كثيرًا من القضايا التى استلزمت تمحيص المعرفة الكامنة وراء الفنون والتى أصبحت عنصرًا أساسيًا فى تكامل معرفة عصر المعلومات، وهى المعرفة التى تنأى - كما أوضحنا - عن الفصل بين الطبيعيات والإنسانيات من جانب، وتسعى لاختراق الحواجز الفاصلة بين العلوم والفنون من جانب آخر.

تكمن علاقة الفنون بعلوم الطبيعيات والإنسانيات بعلاقة ثلاثتهما بعلم اللغة، وقد أشرنا أعلاه إلى علاقة الطبيعيات والإنسانيات بعلم اللغة، أما فيما يخص الفنون فاللغة هى بمثابة «النسق الرمزى الأم» الذى يحتذى به لوضع الأساس النظرى للغات الفنون الأخرى: لغة الموسيقى ولغة الشعر ولغة التشكيل ولغة المسرح ولغة الأداء الحركى.

تمثل المعرفة الكامنة وراء الفنون مدخلًا نظريًا أساسيًا لإحدى التكنولوجيات المحورية لاقتصاد المعرفة، ونقصد بها تكنولوجيا الوسائط المتعددة multi - media التى تمتزج فيها أنساق الرموز المختلفة: نصوصًا وأشكالًا وأصواتًا.

معرفة الخبرة العملية: وهى المعرفة الدارجة، معرفة الحس الشائع المباشر common sense knowledge ومعرفة الخبرات العملية، وممارسات الحياة اليومية، وهى المعرفة الشغالة - إن جاز التعبير - التى يلجأ إليها الفرد العادى

مضى الاقتصاد سادرا فى غيه، زاعما كونه مجالا مستقلا بذاته. وقد استهوته المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية والسلاسل الزمنية. ولقد أخذت بلبه وضعية العلوم الطبيعية، وكان الأولى به أن يتوجه بمناهجه صوب الإنسانيات لا الطبيعيات. وما أبهظ الضريبة التى دفعتها البشرية لهذه العقلانية الاقتصادية القصيرة النظر

لفهم واقعه، وحل ما يواجهه من مشاكل، وتفسير ما يلاقيه من ظواهر. لقد نبه جيدنز بحكمة إلى مدى الخطورة فى تجاهل أعمال ماركس، وماكس فيبر، ودوركايم للإنجازات الإيبستيمولوجية (المعرفية) للفرد العادى[٤]. فقد اختفت، فى رأيه، نظرياتهم الاجتماعية الجامعة فيما نجح فيه أفلاطون عندما ميز بين المعرفة والرأى، المعرفة كنتاج للنظرية أو العلم، والرأى بصفته المعلومات الأقل درجة، الشائعة والمتاحة للفرد العادى. إن هذه المعرفة العملية الدارجة هى التى أبدعت الفلكلور والحكمة الشائعة، والموسيقى الشعبية والحروف اليدوية وما شابه، وهى معرفة فشل حتى الآن الاقتصاد الجديد، ناهيك عن التقليدى فى تحديد ملكيتها وحماية حقوق مالكيها كما سيتضح فيما بعد.

٢ : ٣ الدورة الكاملة لاكتساب المعرفة:

يعتمد اقتصاد المعرفة على قدرة المجتمعات على القيام بالمهام المختلفة للدورة الكاملة لاكتساب المعرفة ويقصد بها أربع عمليات أساسية هى:

❖ النفاذ إلى مصادر المعرفة: ويشمل ذلك البحث عن المعرفة واسترجاعها، والتواصل مع من يمتلكون ناصيتها من أهل العلم والخبرة، وقد تعاظم دور هذا التواصل مع انتشار حلقات النقاش عبر الإنترنت، يتطلب النفاذ إلى المعرفة بنى تحتية تزداد كلفة إرسائها، علاوة على ما أضافته الملكية الفكرية من قيود وأعباء اقتصادية على اقتناء المعرفة.

❖ استيعاب المعرفة: ويقصد بها مهام تحليل المعلومات وتبويبها وفهرستها وترشيحها واستخلاص ما يكمن بها من مفاهيم وأفكار محورية، وقد استحدثت لذلك أساليب تكنولوجية متقدمة مثل النظم الآلية للتخليص والفهرسة والتنقيب عن المعرفة فى «مناجم البيانات» data mining، ومن شبه المؤكد أن تستغل المراكز المتقدمة هذه المنتجات المعرفية تجاريا، وأن تقيم أسيجة منيعة حولها تحرم غير القادرين من الاستفادة منها.

❖ توظيف المعرفة: ويمثل أساليب تطبيق موارد المعرفة لتوصيف المشكلات وحلها، وتمثل نظم المعلومات بصفة عامة، والبرمجيات بصفة خاصة، أهم وسائل توظيف المعرفة وزيادة الإنتاجية وتحقيق أقصى عائد اقتصادى.

❖ توليد المعرفة الجديدة: وهو استغلال المعرفة القائمة فى توليد معرفة جديدة غير مسبوقة، أو معرفة بديلة تحل محل معرفة متقادمة لابد من إهلاكها، وهى المهمة التى تقوم بها قطاعات البحوث والتطوير، والتى أصبحت، فى أغلبها، خاضعة لشروط الجدوى الاقتصادية لا إلى الدوافع العلمية المحضة. لقد زادت كلفة البحوث العلمية نتيجة لظاهرة تضخم العلم الذى كاد أن يصبح تابعا للتكنولوجيا، وليس العكس كما كان عليه الحال فى الماضى، ويفسر هذا التحول الاندفاع الشديد نحو خصخصة أعمال البحث والتطوير، وتفشى ظاهرة الاندماج بين مؤسسات البحوث والتطوير، وانكماش نسبة المساهمة العلمية للدول النامية بدرجة تهدد باستبعادها نهائيا.

تأسيسا على هذا الوصف الموجز لدورة اكتساب المعرفة علينا أن نؤكد هنا أن التنمية القائمة على المعرفة لا تتحقق إلا إذا اكتملت هذه الدورة، فقد استسلم البعض لفهوم خاطئ مؤداه أن توفر المعلومات على شبكة الإنترنت يمكن أن يؤدى إلى توفر المعرفة واستغلالها اقتصاديا، وخير شاهد على هذا الخطأ الشائع أن معلومات مشروع «الجينوم» تنشر تباعا على شبكة الإنترنت فور اكتشافها، ولكن ما أشد الفرق بين هذه المعلومات الصريحة المباشرة، والمعرفة الضمنية الكامنة فى جوفها، وهى المعرفة ذات القيمة الحقيقية التى تستخدم عمليا لاكتشاف أسباب الأمراض وصناعة الدواء الجينى.

٢ : ٤ شجرة المعرفة:

لقد أورقت شجرة المعرفة فروعا معرفية متعددة خاصة بها، وهو ما يؤكد تعاظم دورها فى صياغة المجتمع الإنسانى ووضعها المحورى الذى يزداد رسوخا سواء على مستوى الإنجاز الفكرى، أو مستوى التطبيق العلمى، وتشمل فروع «معارف» المعرفة:

. نظرية المعرفة.
. علم اجتماع المعرفة.
. علم نفس المعرفة.
. علم المعرفة.
. هندسة المعرفة.
. فنون المعرفة.
. تاريخ المعرفة.

وذلك علاوة على اقتصاد المعرفة الذى تتناوله هذه الدراسة. لا يتسع المجال هنا لتقديم هذه الفروع المعرفية وعلاقاتها المباشرة وغير المباشرة باقتصاد المعرفة. وسنكتفى منها هنا بفرع «هندسة المعرفة» نظرا لثقله الاقتصادى.

تمثل هندسة المعرفة فرعا مستحدثا من فروع الهندسة اللينة soft engineering، وتهدف إلى الأساليب المنهجية لاكتساب المعرفة من مصادرها، وتمثيل هذه المعرفة بصورة دقيقة منضبطة فى هيئة قواعد المعارف knowledge bases والنظم الخبيرة expert systems، وقد تشعبت هندسة المعرفة إلى فروع متخصصة من الهندسة اللينة تشمل على سبيل المثال لا الحصر:

. هندسة اللغة.
. هندسة الحوار.
. هندسة النظم.
. هندسة البرمجيات.
. هندسة الاحتياجات.
. هندسة الصورة.
. الهندسة المجتمعية.
. هندسة الخيال imagineering.

وقد أصبحت هذه التقنيات من أهم أدوات اقتصاد المعرفة: علميا وتكنولوجيا وإعلاميا وتعليميا.

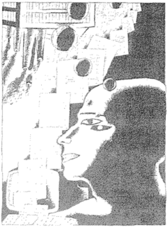
تشمل هندسة المعرفة أيضا هندسة الذكاء الاصطناعى وتكنولوجيا المخ والأعصاب neuro-technology، ولكليهما آثار اقتصادية بالغة، فعلى سبيل المثال ستمكن هندسة الذكاء الاصطناعى من إنتاج روبوتات ذكية تختلف عن جيل الروبوتات الغشيمة الشائع حاليا، مما يجعل من الروبوتات، «أصحاب الياقات المعدنية» كما يطلق عليها البعض، مصدر تهديد حقيقى لأصحاب الياقات الزرقاء، (عمال المصانع). ولن يتوقف مهندسو الذكاء الاصطناعى عند هذا الحد: فهم يطورون حاليا ما يعرف بالروبوتات المعرفية knowbot التى من المحتمل أن تحيل كثيرا من «أصحاب الياقات البيضاء» (عمالة المكاتب) إلى جحافل جيوش البطالة.

ثالثا: مقارنة بين اقتصاد عصر الصناعة واقتصاد عصر المعرفة:

يلخص الجدول رقم (١) مقارنة بين اقتصاد عصر الصناعة والاقتصاد القائم على المعرفة وقد اقتصرت مقارنة العناصر على الجوانب الرئيسية التالية من منظومة الاقتصاد:

. القيمة.
. الملكية.
. قانون العرض والطلب.
. علاقة المنتج بالمستهلك.
. أسس تقييم الأداء الاقتصادى.
. الإدارة والتنظيم.

عنصر الصناعة	عنصر المقارنة	اقتصاد المعرفة
❖ ثنائية قيمة المنفعة وقيمة التبادل ❖ أصول تحتفظ بقيمتها وإن لم تستخدم	القيمة	❖ رباعية ممثلة فى هذه الثنائية مضافا إليها القيمة الرمزية وقيمة المعلومات ❖ أصول تفقد قيمتها إن لم تستخدم
❖ الملكية المادية التى يسهل حصرها وتوثيقها وحمايتها ❖ رأس المال المادى وسطوة أصحاب رؤوس الأموال	الملكية	❖ الملكية الفكرية التى يصعب تحديدها وحمايتها ❖ رأس المال الذهنى وسطوة الرأسماليين الذهنيين
❖ الندرة وقلة العرض تزيد من القيمة ❖ التركيز على جانب العرض (تكنولوجيا تعرض ما تقدر عليه)	العرض والطلب	❖ الوفرة وكثرة العرض تزيد من القيمة ❖ التركيز على تنمية الطلب (تكنولوجيا قادرة على تلبية أى طلب)
❖ اقتصاد قائم على طور الإنتاج ❖ نضوب الموارد المادية مع زيادة الاستهلاك ❖ المستهلك لصيق بالمنتج، المستخدم يذهب إلى مقدم الخدمة	علاقة المستهلك بالمنتج	❖ اقتصاد قائم على طور «إعادة الإنتاج» ❖ نماء الموارد المعرفية مع زيادة الاستهلاك ❖ الاستهلاك عن بعد، الخدمات تقدم للمستخدم فى موقعه ❖ على أساس المحتمل والممكن
❖ على أساس القائم بالفعل ❖ السعة الإنتاجية Productive capacity ❖ مقومات التوسع: خطوط إنتاج ومنافذ بيع..	تقييم الأداء الاقتصادى	❖ الطاقة المعرفية الكافية Knowledge Potential ❖ البنية التحتية (من شبكات معلومات وقواعد ومعارف وبحوث وتطوير)..
❖ إدارة مركزية هرمية استاتية ❖ تنظيمات فعلية ❖ إنتاج جملى (كتلى) mass production ❖ زيادة القدرة التنافسية	الإدارة والتنظيم	❖ شبكية دينامية تجمع بين مركزية الإنتاج والتوزيع ولامركزية السيطرة ❖ تنظيمات خائلية Virtual ❖ إنتاج لا كتلى Demassified ❖ التنافس مع التعاون (Co-petition)



وسنتناول فيما يلى هذه النقاط بمزيد من التفصيل فى إطار ثنائية المعنى والمغزى التى أشرنا إليها آنفًا، وقبل الخوض فى تفاصيل هذه المقارنة، وإذا ما أمعنا النظر فى بعض بنودها التى يوجزها الجدول المذكور، يمكن القول أن الانتقال من الاقتصاد القائم على الماديات إلى اقتصاد المعرفة على النقيض اللامادى يحمل فى طياته نقلات نوعية حادة للغاية تبلغ من الحدة، فى كثير من الأحيان، درجة التضاد التام، ومن أمثلة هذا التضاد التى ستتناولها الدراسة فيما يلى بمزيد من التفصيل:

❖ بينما تنضب الموارد المادية مع استهلاكها تنمو الموارد المعرفية كلما زاد استهلاكها.

❖ ينمو سوق الاقتصاد التقليدى بدافع العرض SUPPLY-driven، فى حين ينمو سوق اقتصاد المعرفة بدافع الطلب demand-driven.

❖ تزيد قيمة المنتج المادى مع الندرة وقلة العرض، فى حين تزداد قيمة المنتج المعرفى مع وفرته وشيوع استخدامه.

١:٣ القيمة

(أ) المعنى

❖ قام اقتصاد عصر الصناعة على أساس ثنائية قيمة المنفعة وقيمة التبادل، فى ظل اقتصاد المعرفة اتسعت هذه الثنائية لتصبح رباعية بعد أن أضيفت إليها القيمة الرمزية (قيمة الهوية القومية، وقيمة التهادى على سبيل المثال) وقيمة المعلومة حيث أصبحت ذات قيمة يمكن قياسها، وحساب عائدها.

❖ تتسم قيمة الأصول المادية من أراض وعقارات ومنقولات وما شابه بالثبات النسبى، وتحتفظ بقيمتها مع مرور الزمن حتى وإن لم تستخدم، على النقيض من ذلك تفقد الأصول المعرفية قيمتها إن لم تستخدم، وقيمتها عرضة للضياع ما أن تظهر معرفة أو تكنولوجيا جديدة تقوم بإزاحتها. من جانب آخر، يمكن القول إن قيمة الأصول المادية قيمة مطلقة فى حين أن قيمة الأصول المعرفية قيمة نسبية تتوقف على الهدف وراء اقتناء هذه الأصول، فمعادلة كيماوية لمركب معين، على سبيل المثال، يمكن أن تكون ذات قيمة عالية بالنسبة لعالم متخصص، أو لمصنع إنتاج كيماويات، فى حين أن قيمتها تنعدم بالنسبة لغيرهما.

(ب) المغزى

❖ لم يعد ينطلى على أحد ما تدعيه شركات الاتصالات العالمية وشعارها البراق «أى معلومات، فى أى وقت، من أى مكان»، فكيف تنسق هذه «اليوتوبيا المعلوماتية» مع كل ما نسمعه حاليًا من بهاظة كلفة اقتناء المعرفة ومن تفشى نظم التشفير والتعمية encryption. قد اكتشف أرباب الاقتصاد التقليديون قيمة المعلومة، وها هى الإنترنت قد تحولت من منتدى علمى إلى سوق تجارية، وساحة زاخرة بنوادى المعلومات الخاصة (للأعضاء فقط!!).

❖ يتطلب تسارع إنتاج المعرفة وتقادمها وتلاشى قيمتها مؤسسات وتنظيمات وأساليب عمل تتسم، هى الأخرى، بالسرعة والديناميه والقدرة على اقتناص الفرص من أجل سرعة تحويل هذه المعرفة المتجددة إلى منتج معرفى قبل أن يصيبها التقادم وتطولها يد الإهلاك الفنى، يؤدى هذا الوضع إلى لهفة المنتج على تحقيق أقصى عائد استثمارى فى أقصر وقت ممكن خشية ظهور منتج منافس قائم على معرفة أفضل أو تكنولوجيا[٤] أرخص تنعدم معه قيمة منتجه، وهو الاندفاع الذى يدفع بمنتجى سلع المعرفة وخدماتها إلى المغالاة فى أسعارها فى بداية ظهورها (مثال: سعر دواء مرض الإيدز)، ويزخر تاريخ تكنولوجيا المعلومات بحالات صارخة انسحقت فيها برمجيات رائدة سادت السوق، وذلك نتيجة ظهور برمجيات أفضل وأسرع وأرخص[٥].

❖ من جانب آخر، تتسم منتجات المعرفة بصعوبة تحديد قيمتها الحقيقية، الراهنة والمرتقبة، مما يتيح فرصًا للانتهازيين فى تضخيم قيمتها بهدف اجتذاب المستثمرين الذين يقعون ضحية الخداع الذى تنطوى عليه هذه «الفقاعات التكنولوجية»، ودراسات الجدوى الاقتصادية لها الزاخرة بالتوقعات المسرفة فى الوعود. وخير مثال على ذلك الكم الهائل من الفقاعات التكنولوجية الذى شهدته ساحة الإنترنت والذى أدى إلى ما يعرف بنكسة «الدوت كوم .com».

٢:٣ الملكية

(أ) المعنى

❖ بينما كانت الملكية المادية من ثروات الأراضى والعقارات والمنقولات وما شابه، هى السائدة فى اقتصاد ما قبل عصر المعلومات، أصبحت الملكية الفكرية هى محور اقتصاد المعرفة، وعلى خلاف الملكية المادية تتسم الملكية الفكرية بصعوبة تحديدها وتوثيقها وبالتالى حمايتها، ومصدر الصعوبة الأساسى يرجع إلى أن تكنولوجيا المعلومات قد وفرت، وستوفر، إمكانيات هائلة للنسخ وإعادة الإرسال والتحويل والتحوير، ولا تتركز المشكلة فى حماية الوسيط الإلكترونى كالأقراص المدمجة Compact discs والأقراص المرنة flippy discs، فهناك وسائل عملية لحمايتها بقدر معقول من النجاح، لكنها تكمن أساسًا فى استخدام الإنترنت كأداة التوزيع الأساسية لسلع وخدمات صناعة المعلومات.

❖ تمثل حقوق النشر وبراءات الاختراع أهم أساليب حماية الملكية الفكرية، إلا أن البحث جار عن أساليب مستحدثة لتلائم الطبيعة الخاصة بالمنتج المعرفى، ويتمتع بحماية الملكية الفكرية نطاق واسع من الإنتاج الإبداعى والبرمجيات وقواعد البيانات والعلامات التجارية وما شابه، وهناك توجه لتوسيع نطاق الملكية الفكرية بحيث تغطى كثيرًا من الأمور التى ظلت إلى يومنا هذا خارج نطاق الحماية، نذكر منها، على سبيل المثال، بعض الاكتشافات العلمية، ويأتى على رأسها أبحاث الميكروبيولوجى ذات الأهمية القصوى: تكنولوجيًا واقتصاديًا وأخلاقيًا. يبدو منطقيًا فى ظل التوجه الاقتصادى الرأسمالى الراهن أن ينصب الجهد على حماية الملكية الفردية، أما الملكية الجماعية المشاعة والمتمثلة فى ثقافات الشعوب ومعارفهم وحرفهم وآثارهم فلم تحظ بأى قدر من الحماية، وتركت نهبًا للسرقة الصامتة التى تمارسها الشركات المتعددة الجنسيات فى عولمة فنون الشعوب وحرفها اليدوية مستأثرة بمعظم العائد الاقتصادى الذى لا ينال منه أصحاب هذه المعرفة الشعبية إلا أقل القليل (يكفى مثالاً هنا موسيقى الجاز).

❖ كرد فعل لانتشار ظاهرة تزييف منتجات صناعة الثقافة، من تسجيلات وأفلام وغيره، وضعت منظمة التجارة العالمية الاتفاقية المعروفة باسم Trips، وألحقتها باتفاقية تحدد أساليب فض المنازعات، وقد انطلقت هذه الاتفاقية من ميثاق «بيرن» الخاص بالملكية الفكرية، وهو الميثاق الذى يوقن الكثيرون أنه لم يعد كافيًا، حيث طرحت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بصفة عامة، والإنترنت بصفة خاصة، قضايا مستجدة تحتاج إلى رؤية أكثر شمولاً لأمور الملكية الفكرية، وأكثر تحقيقًا للتوازن بين أطراف التعامل الثلاثة ونقصد بهم: صاحب العمل الفكرى المتمتع بالحماية، ومقدم الخدمة المعلوماتية، والمستفيد، ولا شك أن بين هذه الأطراف قدرًا من التعارض فى المصالح لا يستهان به.

❖ هناك عدة مصاعب أساسية: تكنولوجية وقانونية وإجرائية، تواجه حماية الملكية الفكرية، ولكن من أخطرها وجود تناقض جوهرى مرجعه أن حماية الملكية الفكرية تتطلب نوعًا من الرقابة على نفاذ الأفراد إلى مصادر المعلومات، وعلى استخدامهم لها، وهى الرقابة التى تنطوى على تهديد حقيقى للخصوصية الفردية وأمن مواقع المعلومات.

(ب) المغزى

❖ تمثل الملكية الفكرية تحديًا قاسيًا بالنسبة للبلدان النامية، وذلك لعدة أسباب أهمها:

. كون هذه البلدان مستوردة للعلم والتكنولوجيا أكثر منها منتجة لهما، لذا ستضيف الملكية الفكرية أعباء إضافية على «فاتورة» نقل التكنولوجيا، وكما تشير دلائل عديدة سيؤدى ارتفاع كلفة الملكية الفكرية متضامنًا مع العولمة والخصخصة وتحرير الأسواق. إذا ما بقى الوضع على ما هو عليه. إلى تشكيل مسار التطور التكنولوجى، واستبعاد الدول النامية من المشاركة فى توليد المعرفة وتوظيفها.

❖ إن الدفع الذى تمارسه المؤسسات التجارية واندفاعها لاستغلال موارد المعرفة، والذى يشبهه البعض باندفاع البحث عن الذهب gold rush، يضع الربح قبل الصالح العام، ويعطى الأولوية لما يدر عائدًا أكبر، لا لما يعود بالنفع لأكبر قدر من الناس (بحوث مواد التجميل قبل بحوث مواد التطعيم!!).

❖ لقد نجح نظام الدولة فى عصور

استسلم البعض لمفهوم خاطئ مؤداه أن توفر المعلومات على شبكة الإنترنت يمكن أن يؤدى إلى توفر المعرفة واستغلالها اقتصاديا، وخير شاهد على هذا الخطأ الشائع أن معلومات مشروع «الجينوم» تنشر تباعا على شبكة الإنترنت فور اكتشافها، ولكن ما أشد الفرق بين هذه المعلومات الصريحة المباشرة، والمعرفة الضمنية الكامنة فى جوفها

ثروات الأراضى وثروات الأموال. فهل سينجح فى عصر الثروة المعرفية والعمالة الذهنية. هناك من يشكك فى ذلك متوقعا فشل الدولة فى حماية الملكية الفكرية، مما سيقوض مركزها ويهدد بانهيارها.

* خلاصة القول: إن الملكية الفكرية يمكن أن تزيد من اتساع الفجوة الرقمية digital divide بين العالم النامى والعالم المتقدم، ولا يجب أن يفسر ذلك بأن الكاتب يتخذ موقفا مناهضا لمبدأ حماية الملكية الفكرية، ولكن ما يعنيه هنا هو الحاجة إلى اتفاقيات أكثر عدلا وتوازنا بين مصالح جميع الأطراف، أفرادا وجماعات، مبتكرين ومنتجين ومستهلكين.

٣ : ٣ قانون العرض والطلب

(أ) المعنى

* فى الاقتصاد التقليدى تزداد قيمة المنتجات مع الندرة وقلة العرض، فى حين يحدث العكس فى اقتصاد المعرفة، حيث تزداد قيمة المنتج المعرفى كلما شاع وتوفر، فعلى سبيل المثال تزداد قيمة برامج الكمبيوتر، كبرنامج نظام التشغيل الشهير ويندوز، مع شيوعية واتساع قاعدة مستخدميه حتى يصبح النظام القياسى بحكم الأمر الواقع defacto standard لتنزوى بالتالى البرامج المنافسة التى تقل عنه شيوعا واستخداما حتى لو فاقته جودة وقلت عنه سعرا.

* من جانب آخر، فإن سوق الاقتصاد التقليدى مدفوعة بقوة العرض، أو بقول آخر إنها تعتمد على إنتاج الممكن تكنولوجيا وبعدها يتم عرضه وتسويقه بتنمية الطلب عليه، هذا الوضع يكاد أن ينقلب إلى نقيضه فى ظل اقتصاد المعرفة، وذلك نظرا للإمكانات الهائلة لتكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الحيوية التى أصبحت من القدرة بحيث تحيل الممكن المتصور إلى واقعى ملموس، فى ظل هذه التكنولوجيات العالية القدرة تصبح عملية إنتاج السلع والخدمات بمثابة عملية انتقاء من نطاق واسع من التطبيقات التكنولوجية الممكنة شريطة أن تحظى بالقبول الاجتماعى وتفى بمطالب الجدوى الاقتصادية: فعى سبيل المثال هناك تطبيقات عديدة يمكن تنفيذها حاليا من خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، إلا أنها قد أرجئت نظرا لعدم وجود طلب اجتماعى عليها (من أمثلة ذلك هاتف الفيديو videophone)، وما سمعنا عنه من رفض الكثيرين لاستنساخ البشر. خلاصة، إن آليات سوق اقتصاد المعرفة هى سوق تعمل بدفع الطلب لا بدفع العرض.

(ب) المغزى

المنتج المعرفى أكثر قابلية للعولمة، وإذا كانت شبكة الطرق السريعة التى أقامتها أمريكا هى العصب المحورى لتوزيع منتجات الصناعة التقليدية محليا ما بين الولايات الأمريكية، فشبكة طرق المعلومات السريعة information super highways، أو الإنترنت، هى العصب المحورى لتوزيع منتجات صناعة الثقافة الأمريكية عالميا.

* ستظل اللغة ميزة تنافسية أساسية فى منتجات اقتصاد المعرفة بصفة عامة، والمنتجات الإعلامية والتعليمية بصفة خاصة، ويمثل ذلك فرصة حقيقية أمام المطورين المحليين لدخول عصر اقتصاد المعرفة خاصة فى مجال الصناعات الثقافية.

* مع زيادة التوجه الثقافى لتطبيقات المعلوماتية، فإن ما تقوم به صناعة الثقافة الأمريكية من التجنيس homogenization المصاحب لعولمة شعوب العالم هو، فى المقام الأول، توجه اقتصادى استراتيجى من أجل توسيع النطاق التسويقى لمنتجات هذه الصناعة من خلال زيادة قدرتها على اختراق الحواجز الثقافية.

* يحتاج تسويق منتجات اقتصاد المعرفة إلى تنمية الأسواق معرفيا، وقد أشار البعض إلى فجوة معرفية تزداد اتساعا ما بين شقى الإنتاج والتسويق، ونقصد بهما شق الإنتاج الكثيف المعرفة للسلع والخدمات، وشق السوق المتلقية لهذه المنتجات، والتى مازالت أسيرة آليات السوق التى رسختها المنتجات التقليدية. إن توعية الأسواق بالمنتجات المعرفية لابد أن تشمل تدريب المستهلك على كيفية تطبيقها عمليا، وتعزيزها بالقيمة المضافة وأن تكشف له عن حدود هذه المنتجات وآثارها الجانبية.

٣ : ٤ علاقة المنتج بالمستهلك

(أ) المعنى

* إن كان اقتصاد المعرفة قد أحدث عدة نقلات نوعية على الأصعدة الاقتصادية السالفة الذكر، فما نجم عنه بالقياس، على صعيد ثنائية الإنتاج والاستهلاك لا يقل عن كونه انقلابا رج المنظومة الاقتصادية من جذورها، فعلى جانب الإنتاج هناك فرق جوهرى بين اقتصاد عصر الصناعة القائم على «طور الإنتاج من الصفر»، واقتصاد عصر المعلومات القائم على «طور إعادة الإنتاج»؛ ويقصد به هنا تكرار الإنتاج بالنسخ دون ما حاجة إلى التصنيع من الصفر، فكل ما ينتجه مجتمع المعلومات، من نصوص وصور وأفلام وموسيقى وبرامج، قابل للنسخ، أو «إعادة الإنتاج»، ويمكن أيضا إعادة إنتاج الخبرات، بل الخبراء أنفسهم، عن طريق النظم الخبيرة السابق الإشارة إليها. أما على مستوى الاستهلاك فقد قلب اقتصاد المعرفة، رأسا على عقب، العلاقة بين الموارد واستهلاكها، فبينما تنضب الموارد المادية مع استهلاكها، تنمو الموارد المعرفية كلما زاد معدل استهلاكها، وكان من الطبيعى أن تتردد انعكاسات هذا الانقلاب الجذرى لثنائية الإنتاج والاستهلاك فى جميع أرجاء المنظومة الاقتصادية تمويلا وتخطيطا وتصميما وتصنيعا وتوزيعا.

* تمحور اقتصاد عصر الصناعة حول الإنتاج بالجملة، أو الإنتاج الكتلى: تصنيعا وإعلاما وتعليما (mass Production, mass communication, mass education)، فى حين ينحو اقتصاد المعرفة إلى اللاتكتل demassification.

* من جانب آخر، لقد كان التصميم فى الصناعات التقليدية لصيقا بالإنتاج، وكان الاستهلاك لصيقا بالتوزيع، فاستهلاك الطعام مثلا يتطلب أن يكون لصيقا بمستهلكه، وطالب الخدمة لابد أن يذهب فعليا إلى مكان تقديمها، أما بالنسبة لمنتجات اقتصاد المعرفة فيمكن فصل شق التصميم عن شق الإنتاج، ويمكن أيضا استهلاكها أو استخدامها عن بعد.

(ب) المغزى

* تزداد قدرة المجتمعات على التنمية التكنولوجية مع زيادة قدرتها على استهلاك المعرفة واستيعابها وتمثلها «غذائيا»، وإزالة العوائق التى تقلل من قدرتها على الامتصاص المعرفى وسرعة تخلصها من النفايات المعرفية من المعلومات الضارة والإعلام المضلل، وما يفرزه الفكر الخرافى والعلم المزيف وأشباه العلم وأضداده.

* ستختفى تدريجيا الحلقات الوسيطة بين المصمم والمستهلك، وتطغى سلطة المصمم على المنتج، وتنتقل سطوة المنتج إلى سطوة المستهلك، أى تطويع الإنتاج لخدمة مطالب هذا المستهلك: متلقيا أو متعلما أو قارئا أو مستخدما لنظام المعلومات.

* ينطوى فصل التصميم والتخطيط عن التنفيذ والإنتاج، أو بصورة أعم فصل الشق المعرفى عن الشق المادى على عنصرين متناقضين:

. استغلال الدول المتقدمة للعمالة الرخيصة فى الدول النامية مما يفتح فرص عمل لمواطنى هذه الدول.

. اقتصار دور الدول النامية على التعامل التكنولوجى مع الشق المادى دون الشق المعرفى ذى العائد الكبير وصاحب الدور الأكبر فى عملية نقل التكنولوجيا، والذى بدونه يتحول الشق المادى إلى صناديق سوداء لا يمكن فض سرها إلا من قبل من قاموا بتصميمها.

* يحرر الاستهلاك عن بعد المستهلك من تأثير البائع إلا أنه يحتاج إلى استحداث وسائل مبتكرة لخدمات ما بعد البيع، وتجسيد المنتجات ومحاكاة الخدمات بصورة أقرب ما تكون للواقع، وذلك من أجل معاونة المشترى، أو طالب الخدمة، فى اتخاذ قراره بالاقتناء بصورة دقيقة. من ضمن هذه الوسائل الكتالوجات الإلكترونية، ونظم المحاكاة باستخدام تكنولوجيا الواقع الخائلى Virtual Reality.

من جانب آخر يحتاج الشراء عن بعد إلى وسائل مستحدثة للتأكد من شخصية الطالب ومصداقيته، وتأمين وصول ما تم طلبه إليه، سواء عبر الشبكة (كما يحدث فى الكتب والبرامج على سبيل المثال) أو من خلال وسائل الشحن التقليدية. يحتاج ذلك إلى وسائل مستحدثة للتوثيق الإلكترونى والدفع إلكترونيا، والحصول على توقيع المشترى من خلال ما يعرف بالبصمة الرقمية.

الملكية الفكرية يمكن أن تزيد من اتساع الفجوة الرقمية digital divide بين العالم النامي والعالم المتقدم، ولا يجب أن يفسر ذلك بأن الكاتب يتخذ موقفاً مناهضاً لمبدأ حماية الملكية الفكرية، ولكن ما يعنيه هنا هو الحاجة إلى اتفاقيات أكثر عدلاً وتوازناً بين مصالح جميع الأطراف، أفراداً وجماعات، مبتكرين ومنتجين ومستهلكين

٣ : ٥ مؤشرات التقييم الاقتصادى

(أ) المعنى

❖ يقاس أداء مؤسسات الإنتاج فى الاقتصاد التقليدى بمؤشرات محسوسة مثل طاقة الإنتاج والمخزون السلعى وحجم الأسواق وما شابه. أما مؤسسات اقتصاد المعرفة فيتم تقييمها على أساس مدى سلامة المنطلقات العلمية والتكنولوجية القائمة عليها، وقدرتها المعرفية الكامنة، وقابليتها للتوسع والاندماج مع التكنولوجيات الأخرى.

❖ ترتكز مقومات التوسع لمؤسسات الاقتصاد التقليدى، أساساً، على عوامل مادية كإضافة خطوط إنتاج جديدة أو فتح منافذ جديدة لتوزيع السلع والخدمات وما شابه، فى حين تقاس قابلية مؤسسات اقتصاد المعرفة للتوسع على توفر البنى التحتية من شبكات اتصالات وبحوث وتطوير وقواعد معارف وما شابه، وجميعها أمور تحدد مستوى الذكاء الجمعى للمؤسسة ككل، ذلك الذكاء وليد التفاعل الدينامى بين العاملين والوحدات التنظيمية داخل المؤسسة.

❖ يمكن أن تلعب المخططات والأفكار دوراً حاسماً فى اتخاذ القرارات، وكمثال لذلك نشير هنا إلى المخطط الأمريكى لمبادرة الدفاع الإستراتيجى Strategic- Defence Initiative: SDI، والدور الذى لعبه هذا المخطط فى حسم سياق التسلح لصالح الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتى الأسبق، وكما هو معروف فإن مبادرة الدفاع المذكورة لم تتجاوز بعض المخططات والعروض التوضيحية والخطط البحثية الأولية.

❖ إن المنتج المعرفى إذا ما قورن بمنتجات الصناعة التقليدية يتسم بمرونة هائلة من حيث قابليته للتوسع والإضافة، ومثالنا هنا نستقيه مما يجرى حالياً فى تطوير الأسلحة الذكية، حيث نجد أن فاعلية هذه الأسلحة ومدى دقة تصويبها وقدرتها الهجومية أو الدفاعية ومجالات استخداماتها يمكن تحسينها وتوسيع نطاقها، فى كثير من الأحيان، دون أى مساس بشق العتاد المادى hardware وذلك بإدخال تغييرات طفيفة على برمجيات التحكم فيها software.

(المغزى)

❖ نظراً لصعوبة اقتصاد المعرفة غالباً ما يتم اللجوء إلى الخبراء الذين أصبحوا بمثابة الوسيط بين الحكومات والجماهير فيما يخص مشاريع التنمية المعلوماتية، وبين أصحاب الأفكار والمستثمرين فيما يخص مدى جدوى الاستثمارات وتقييم عائدها وكلفتها. يتطلب هذا الوضع أن يتخلص الخبراء من نزعاتهم التكنوقراطية، وضرورة إلمامهم بالأبعاد الاجتماعية والبيئية والثقافية للتطبيق التكنولوجى، فى نفس الوقت فقد أصبحت عملية تقديم الخبرة عملية ذات أبعاد أخلاقية عديدة نظراً لاقتراب تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الحيوية من المناطق الحميمة من عقل الإنسان وجسده حتى كادت التكنولوجيا، فى رأى البعض، أن تتحول إلى فرع من فروع فلسفة الأخلاق.

❖ نظراً لسيولته وطبيعته الزائغة فإن اقتصاد المعرفة أكثر عرضة لفساد الإدارة والتلاعب فى السجلات المحاسبية والتهرب من المسئولية والمحاسبة، وهو ما يتطلب توفير الضمانات والتنظيمات التى تكفل الإدارة الصالحة والسلوك السليم.

٣ : ٦ نمط الإدارة والتنظيم

(أ) المعنى

❖ تبنت معظم تنظيمات عصر الصناعة أسلوب المركزية القائمة على التنظيم الهرمى متعدد المستويات، والذى يفترض أنماط عمل محددة مسبقاً، وعلاقات ثابتة، أو شبه ثابتة، بين العاملين بعضهم البعض، وما بين الوحدات التنظيمية المختلفة، لا تتلاءم هذه التنظيمات الهرمية ذات الطابع الاستاتى مع الدينامية الهادرة لأنشطة اقتصاد المعرفة، والسرعة الهائلة التى تتطور بها هذه الأنشطة، والعلاقات التى تربط بينها، والمهام التى تتجدد رهن اللحظة، بالإضافة إلى شدة الاعتماد على العنصر الابتكارى الذى يتناقض، جوهرياً، مع التنظيم الهرمى ذى الطابع السلطوى الفارض لسيطرة الكبير على الصغير، والذى عادة ما يكون أكثر قدرة من الكبير فى توليد الأفكار والقدرة على إحداث التغيير. فى المقابل، يجمع تنظيم مؤسسات اقتصاد المعرفة بين لامركزية الإنتاج والتوزيع ومركزية السيطرة الإدارية من خلال نظم المعلومات المنتشرة جغرافياً، ويبدو التنظيم الشبكى أكثر اتساقاً مع اقتصاد المعرفة، وذلك لعدة أسباب أهمها:

. اتساق هذا التنظيم مع الطابع الشبكى للإنترنت التى تلعب دوراً محورياً فى اقتصاد المعرفة.

. اتساق هذا التنظيم الشبكى مع بنية المخ البشرى: المنقب والموظف والمولد للمعرفة.

. كون الاتصال الشبكى أكثر قدرة على التكيف الدينامى مع المتغيرات الهادرة لمجتمع المعرفة حيث يسمح بعدة بدائل ومسارات لحل المشاكل والوصول إلى الغايات.

❖ من جانب آخر اقتصرت تنظيمات الاقتصاد التقليدى على الكيانات القائمة بالفعل، فى حين يتجه اقتصاد المعرفة رويداً رويداً إلى الكيانات الخائلية virtual set up's التى يتم إقامتها بديلاً عن الكيانات الواقعية، وتتضمن قائمة الكيانات الخائلية نطاقاً عريضاً من الأنشطة الاقتصادية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مراكز التسوق الخائلية. المعامل الخائلية. حدائق الترفيه والألعاب الخائلية. المعارض والمتاحف الخائلية. بجانب هذه الكيانات الخائلية يمكن إقامة تنظيمات خائلية متطايرة لتنفيذ مشروع، أو مهمة بعينها، على أن يتم «تنكيس» هذه الخائليات بعد إنجاز المهمة التى أنشئت من أجلها.

❖ لقد عمق الاقتصاد التقليدى من نزعة التنافس، فى حين يميل اقتصاد المعرفة إلى الجمع بين التنافس الحاد والتعاون والمشاركة فى الموارد (co-petition: cooperation + competition) من أجل سرعة اللحاق بالتطور التكنولوجى المنطلق.

❖ تظهر مؤسسات اقتصاد المعرفة قابلية عالية للاندماج والتكامل الرأسى والأفقى وتكثيف رأس المال ونستشهد على ذلك ببعض الأرقام التى أوردها تقرير التنمية الإنسانية لعام ١٩٩٧ عن إجمالى قيمة الاندماجات وحالات الاقتناء فى مجالات الكمبيوتر والاتصالات والتكنولوجيا الحيوية (مقدرة بالبليون دولار).

الكمبيوتر	٢١.٤	٢٤٦.٧
الاتصالات	٦.٨	٢٦٥.٨
التكنولوجيا الحيوية	٩.٣	١٧٢.٤

(ب) المغزى

❖ تتطلب إدارة اقتصاد المعرفة إلى نوعيات من المديرين تختلف تماماً عن تلك التى تفرزها بيئات العمل التقليدية التى غالباً ما تئن بشدة تحت ثقلها التنظيمى.

❖ تمثل النزعة الاندماجية المتنامية ما بين كبار اقتصاد المعرفة حائلاً أمام لحاق الصغار بهم، ولا أمل أمام هؤلاء الصغار إلا ملاذ الإبداع، وما أكثر الحالات التى تفوق فيها الصغير السريع صاحب الأفكار الجريئة على الكبير الثقيل العاجز عن ملاحقة التطور والتخلص من حرسه القديم، وخير مثال على ذلك الأزمة التى مرت بها شركة «آى. بى. إم»، رائدة صناعة الكمبيوتر بلا منازع، وذلك بسبب عجزها عن التكيف مع الثورة التى أحدثتها الحواسيب الشخصية.

❖ سيزخر الفضاء المعلوماتى بكيانات خائلية عديدة تحتاج إلى فكر إدارى وتنظيمى جديد، أملاً فى ألا يؤول الأمر فى النهاية إلى ما آلت إليه تنظيمات عصر الصناعة بكل ما وصمها من احتكارية وانحياز نحو الكبير على حساب الصغير، وتوجيه مسار التطور التكنولوجى لخدمة المصالح التجارية وتغليب الربح عن الصالح العام لأغلبية الناس.■

الهوامش:

(١) Brookes, B.C., 1981, Information Technology and the Science of Information, in R.N. Oddy, ed., Information Retrival Research, PP. 1-9, Butterworths

(٢) شركات ميكروسوفت وإنيتل وكومباك وديل وسيسكو.

(٣) الاقتصادى الهندي الحائز على جائزة نوبل في اقتصاد الفقراء.

(٤) Poster, M., 1990, the Mode of Information, the University of Chicago Press, Page: 177

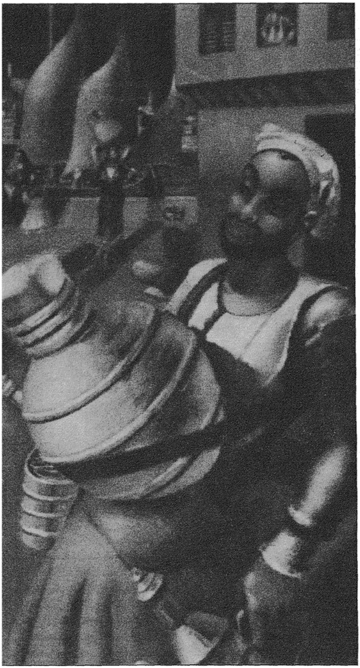
(٥) كمثال لذلك انسحاق برنامج تنسيق الكلمات المعروف Word Perfect بظهور برنامج Words.



مصر كلها حاتجيب كمبيوتر
قسط شهرى يبدأ من
١٠٠ جنيه
مبادرة حاسب لكل بيت
BATES EQUITY

أوهام الصورة

تأملات فى الفصل بين المرئى والمكتوب



إبراهيم فرغلى

أصبحت للصورة الآن سلطتها التى تستمدها من طغيان ثقافة مرئية تتسيد العالم عبر تكنولوجيا المعلومات والاتصال بالشكل الذى يضاعف من قيمتها من جهة، ويساهم فى خلق عوالم وهمية جديدة قد تستخدمها مؤسسات أو إدارات أو أفراد لتركيبها بما يحقق أيديولوجية أو مصلحة، وبشكل قد يصل إلى حد التناقض، مثل تصوير الإدارة الأمريكية لاحتلال العراق بأنه عملية تحرير.. أو وصف الفدائيين الفلسطينيين بالإرهابيين أو غيرها من المتناقضات. الأمر الذى يجعل من مراجعة الصورة وثقافتها عنصراً أساسياً بين عناصر أخرى تشكل منظومة المراجعة الثقافية الشاملة المرجوة عربياً وعالمياً.

هذا التناقض الكبير تعبر عنه الدكتورة «مارى تريز عبد المسيح» فى كتابها «التمثيل الثقافى: بين المرئى والمكتوب» بالقول إنه «بينما توهمنا تكنولوجيا المعلومات بنقل الواقع برمته، يقبع وراء هذا الإيهام أفراد ومؤسسات تعاونوا فى تركيب هذه الصورة الوهمية، والأيديولوجيا المنطوية عليها. ومن ثم، تبرر حروب الإبادة فى مناطق من العالم، بينما توصم الحركات التحررية فى أماكن أخرى بالإرهاب. وأحياناً تختلط الأمور، فتغيب عن وعى المشاهدين المنتمين إلى أنظمة ديمقراطية غياب تمثيل فئات عديدة من المواطنين حتى غدا ما تقدمه تكنولوجيا المعلومات فى عداد التمثيليات الرديئة».

وهو ما كشف الحاجة إلى نقد الثقافة المدنية على المستوى العالمى للكشف عن التفاعل بين التصويرى، بكافة أشكاله، والخطاب السائد فى الأجهزة والمؤسسات، وهذا بالتحديد هو أحد أهداف هذا الكتاب الجاد، والعميق. إلى درجة الصعوبة فى بعض أجزائه. والجديد فى موضوعه، والذى تؤصل فيه د. عبد المسيح لما تسميه بـ «التمثيل الثقافى»؛ أى مقاربة اللغة، سواء كانت لغة منطوقة. مكتوبة أو لغة مرئية. أى سواء كانت نصاً شفاهياً. نثرياً أو نصاً مصوراً، بوصفها وسيطاً ينطوى على خطاب يساهم المبدع والمتلقى فى إنتاجه.

وتفترض المؤلفة أن مصطلح «التمثيل» هو الأصلح فى تفسير قراءة النصوص على اعتبار أن الوسائط الفنية تتفاعل فيما بينها كما تتفاعل مع النصوص الثقافية المحيطة، بالإضافة إلى أن التفاعل بين اللغة المرئية والمكتوبة فى النص يعد تمثيلاً أو إعادة إنتاج للنص فى حاضر القراءة. أى أن قراءة التمثيل الثقافى هى محاولة لإقامة علاقة حوارية بين المعارف والفنون والمبدع والمتلقى.

وهذا التعريف ينفى الفصل المتعسف بين النص المكتوب وبين الصورة، وهو الفصل الذى ترى المؤلفة أنه قد مورس طويلاً فى الفكر الغربى وفقاً لموقف أيديولوجى سعى دائماً للفصل بين الروح

التمثيل الثقافى: بين المرئى والمكتوب
مارى تريز عبد المسيح
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢



لوحة المدينة للفنان محمود سعيد

والجسد، والشكل والمضمون لخلق تراتب يقوم على المفاضلة بينهما (التحيز للشكل على حساب المضمون أو العكس أو للنص المكتوب على الصورة أو العكس).

تعتمد د. مارى تريز فى دراستها . ضمن عدة مرجعيات . على «نظرية الصورة» التى طرحها ميتشل (T.J.W Mitchell)؛ إذ تعتبرها أنسب النظريات إفادة فى دراسة عبر ثقافية لأسباب، منها: أنها أطروحة منهجية مرنة، ولكونها «نظرية تقارب اللغة لا كنسق مغلق، بل بوصفها وسيطاً للتعبير ينطوى على خطاب انتقلت إليه . فى الغالب . عدوى البصر»، أى أن الخطاب ينطوى على التصورات السائدة التى تحملها اللغة المنطوقة، المكتوبة واللغة المرئية.

أما عملية التمثيل نفسها فتصفها د. عبد المسيح بأنها «تبدأ بعملية التخيل التى تعتمد على الانتقاء من مرجعيات خارجية تعاد صياغتها نتيجة استقطاعات وإضافات لتتخذ شكلاً جديداً فى النص، فتغدو قراءة النص تحركاً بين مرجعية العنصر المتخيل وموضعه الجديد فى النص، ومن هذه العملية التبادلية تعاد قراءة ما كان يعد فيما قبل نصاً مغلقاً تحددت معانيه». والجدل القائم بين الواقع والخيال هو الذى يحرك الوعى.

وهنا أجد نفسى مدفوعاً لتقديم واحدة من خبراتى الشخصية فى قراءة نص مرئى تتفق مع التعريف السابق من جهة، كما تسهم فى توضيح بعض الفروض النظرية التى اعتمدتها المؤلفة فى سياق تأكيدها على فكرة «نص الصورة» وعوامل ارتباط المكتوب بالمرئى بشكل عام.

هذا النص هو لوحة «موت سردانابال» التى رسمها الفنان الفرنسى الرومانسى المولع بالشرق أوجين ديلاكروا (١٧٩٨ . ١٨٦٣). شاهدت اللوحة للمرة الأولى فى نسخة مصورة بأحد الكتب المهتمة بالاستشراق فى الفن الرومانسى، وشغفت بها؛ بفعل التناقض الشديد بين الانفعال الكبير الذى تعبر عنه حركة الجوارى والخدم والحراس حول فراش الملك سردانابال، وبين الهدوء الذى تتسم به ملامح وجهه وهو بين النوم والجلوس متكئاً على ذراعه الأيمن أعلى الفراش الذى يتوسط المشهد. وهذا التناقض يخلق حالة من الغموض خاصة فى حالة عدم معرفة الظرف التاريخى المصور.

العالم عند أقدام السلطان.. صورة نموذجية لديكتاتور شرقى غارق فى الملذات للدرجة التى يبدو معها غير مكترث بها. لا يأبه بمن يستغيث به أو يستجير، ولا يبالى بمن يدفع إليه قسراً، بينما تتناثر ثرواته من مجوهرات وقلائد وتماثيل عاجية وذهبية فى كل مكان من حوله.

وعندما شاهدت اللوحة الأصلية فى متحف اللوفر بباريس قبل عدة سنوات، توقفت مشدوهاً، وغاص قلبى بعمق، مثل عاشق جمعته صدفة قدرية بعشيقته التى فرق بينهما القدر فجأة؛ فاللوحة ضخمة جداً (٤،٩٦ × ٣،٩٢)، وبالتالى كان علىّ أن أعود للخلف عدة خطوات لكى أتمكن من

الإلمام بتفاصيلها. كما كان علىّ أن أحرك عينى بين تفاصيلها عبر زمن استغرق دقائق عديدة.

هذا الزمن المستغرق فى تأويل النص المرئى من شروط القراءة النصية للوحة المرئية كما تقول د. مارى على عكس القراءة النصية للأدب التى تحول السرد التتابعى إلى سرد آنى.

وهو ما يعنى أيضًا أن اللغة المستخدمة فى هذه الصورة لا تدعو إلى توجيه نظرة محدقة (تمتلك الحقيقة المطلقة كما تشير د. مارى وتتسم بها أعمال حاولت تفضيل الصورة على المكتوب) وإنما تدعونى لإلقاء نظرات مختلسة دون توجه إلى منظور محدد (لغة تدعو إلى الحوار مع المشاهد أو المتلقى). أما عرى الجوارى فقد بدا كاشفًا لأرواحهن أكثر بكثير من كونه يستهدف تأثيرًا حسيًا، رغم تأكيده على جماليات الجسد الأنثوى الشرقى وما يتضمنه من دلالات على استغراق السلطان فى الملذات الحسية.

فى معرض بيانها لمظاهر ودلائل الارتباط بين النص المرئى بالنص المكتوب توضح د. عبد المسيح أننا «تعودنا تعريف النص المكتوب بالنص السردى، بينما يعد النص المرئى وصفيًا: أى أن الأول يقترن بالعنصر الزمنى، بينما يقترن الثانى بعنصر المكان، ولكنهما فى حقيقة الأمر. السردى والوصفى. يشتملان على العنصرين معًا».

وهكذا يمكن بالفعل قراءة لوحة «موت سردانابال» سرديًا رغم اختزال ديلاكروا المسافة الزمنية إلى لحظة تاريخية واحدة هى الأوج فى التوتر الدرامى للحدث، وهى لحظة استلقاء الملك على فراشه محاطًا بجواريه وممتلكاته بانتظار النار التى ستوقدها إحدى خادماته بالقصر (نهاية الجزء الأيمن فى اللوحة الأقرب إلى فراش الملك) لتلتهم ألسنتها الجميع دون استثناء.

وتشير بعض المراجع كما توضح «د. زينات بيطار»(١) إلى أن ديلاكروا استلهم لوحته من مسرحية «سردانابال» التى كتبها الشاعر الإنجليزى بايرون، ومن المخطوطة التى اطلع عليها فى عام ١٨٢٦ «وضع الملامح المميزة للبطل الملك الفارسى المستبد والمتنور والذى عاش بشاعرية وعرف شتى ملذات الحياة الذهنية والحسية، والذى اختار لنفسه ميتة تاريخية مرسومة بمتعة استقبال الموت ووداع الحياة بمظهر احتفالى ضمنه كل ما أحب فى الحياة».

وهكذا.. «ففى أثناء قراءة النص المرئى التاريخى يستبدل المشاهد الصياغة الأيقونية التمثيلية بصياغة سردية، أى تغدو اللوحة سردية لغوية، ويفضى ذلك إلى إمداد فضاء اللوحة التاريخية بعناصر زمنية مرحلية».

وتشير د. مارى أيضًا إلى أن اللوحة التاريخية تتجاوز صفة الزمن الوقتية، بل إنها فى تمثيلها إياه تسعى لإبراز هذا العنصر وبذلك يتسنى للقارئ تأمل نموذج جلى للزمن فى وسيط فضائى (مكانى).

هذا النموذج التصويرى الذى يتجلى فيه الزمن المرحلى تطلق عليه الناقدة الأمريكية وندى شتاينر «اللحظة المفعمة» (Pregnant moment) إنها تشتمل على كل ما سبقها وكل ما هو آت.

وفى موت ساردانابال لا يتوقف «كل ما هو آت» على نهاية سردانابال بموته محترقًا، وإنما يمتد إلى كل النهايات المماثلة لنماذج الديكتاتور السلطوى المندثر بقوة السلطة المطلقة غارقًا فى ملذاته وتاركًا شعبه لأنياب الجوع، والذى تأتى نهايته. طوعًا أو جبرًا. بأن لا يكون لديه سوى خيار أن يحرق نفسه، وربما شعبه، ويمكننا هنا أن نستبدل سردانابال، بنماذج هؤلاء الحكام على امتداد التاريخ، وصولاً لأحدث الوقائع التى يمثلها نموذج صدام حسين!

فسردانابال يمثل هنا علامة لها مدلول تاريخى لهذا النموذج أيًا كان زمانه أوالشخص الذى يمثله.

وعلى مستوى آخر، أسس التجريديون أعمالهم بناء على فكرة العلامات التى ملأوا بها لوحاتهم، فحاولوا التخلص من التشخيص فى فنونهم باعتبار التشخيص من شوائب العمل الفنى، مما اضطرهم إلى إلحاق أعمالهم بنصوص نظرية شارحة. وهذه فكرة أخرى تثبت بها الدكتورة مارى تريز العلاقة الوثيقة بين النص المرئى والمكتوب.

أما أسباب الفصل بين المرئى والمكتوب فى الفكر الغربى فيأتى من بينها. كما تقول المؤلفة. سيادة التصور بأن العمل الفنى تمثيل للطبيعة، وكأن هناك طبيعة مطلقة، حتى جاء الناقد الإنجليزى «جومبرتش» ليؤكد أن ما تعود الناس على رؤيته فى الفنون والآداب بوصفه واقعًا طبيعيًا ما هو سوى تقليد قد رسخت دعائمه حتى صار من المسلمات، وهو تقليد يعكس توجهًا تاريخيًا يدعم القيم الصفوية (اصطفاء المبدع على المتلقى والذات على الموضوع) إضافة لأنه تقليد أحادى الرؤية يفترض الحقيقة المطلقة.

وتنفى د. عبد المسيح صفة الواقعية عن هذه الأعمال الأحادية: أى التى تقلد الواقع وتوهم المتلقى أن ما يشاهده هو الواقع. أما مفهوم الواقعية كما تراه فيتحقق بالتفكيك لا بالتوحيد، وبمشاركة الناقد والمتلقى مع المبدع للتعرف على الاختلاف بدلاً من السعى للتماثل.

وهذا ما يؤكده الناقد الفرنسى اللامع «رولان بارت» فى تفريقه بين النص الممتع، والنص الذى يحقق السعادة؛ فالأول هو نص «يصيب القارئ بالرضا ويشعره بالاكتفاء» أى أنه نص يساير الثقافة المحيطة ولا يحيد عنها، فهو ممارسة القراءة التى تجلب الراحة.

بينما النص الذى يغمر بالسعادة يصيب القارئ بحالة من الضياع، فهو «نص مثير للقلق» ويزلزل كافة المعتقدات التاريخية والثقافية والنفسية التى نشأ عليها القارئ، حتى أن ذوقه العام وقيمه وذكرياته التى ترسخت بموازاة اللغة التى اكتسبها كلها تتأزم.

فالسعادة. كما توضح د. عبد المسيح. «ليست مجرد متعة تتحقق عند إشباع الذوق، وإنما تتطلب معرفة مكتسبة بالجهد الذاتى تلازمها الرغبة فى التعرف على الاختلاف لا السعى نحو التماثل، مما ينوه بقدرة الذات على كسر أصفادها المعوقة لإعادة تشكيل حضورها عن وعى».

ويتحقق هذا الفرض سواء كان النص مكتوبًا تحوله القراءة النصية إلى صورة؛ أى تجربة مرئية، أو كان لوحة تستدعى عينًا مدربة على قراءتها قراءة نصية.

هذا الإطار النظرى تؤكده الدكتورة مارى تريز عبد المسيح عبر مجموعة من القراءات الموسعة التى تقدم بها تطبيقًا عمليًا للتمثيل الثقافى من خلال إعادة قراءة نصوص مكتوبة (أعمال أدبية روائية أو شعرية) أو نصوص مرئية (صور ولوحات وأعمال فنية مركبة وقطع نحت) أو تختبر موضوع الهوية من خلال قراءة تبادلية نصوص مرئية وأخرى مكتوبة تتناول الموضوع فى ظروف تاريخية مختلفة.

وهى فى هذا تستحدث أساليب خاصة بعيدًا عن أى أنماط منهجية أو تصورات لتصنيفات نوعية. وعلى سبيل المثال فهى تستخدم أسلوبًا منهجيًا يختص بقراءة الصورة والنصوص المرئية لكى تحلل بها عملاً سرديًا روائيًا؛ ففى الباب الثانى الذى يحمل عنوان «التمثيل المرئى والمكتوب لصدام/حوار الثقافات محليًا وعالميًا» تعيد قراءة تمثيل الأندلس عبر قراءة نصية لرواية «ظلال شجرة الرمان» للكاتب الباكستانى المولد المقيم فى إنجلترا (طارق على)

العالم عند أقدام السلطان..
صورة نموذجية لديكتاتور شرقى غارق فى الملذات للدرجة التى يبدو معها غير مكترث بها. لا يأبه بمن يستغيث به، ولا يبالى بمن يدفع إليه قسرًا، بينما تتناثر ثرواته من مجوهرات وقلائد وتماثيل عاجية وذهبية فى كل مكان من حوله

باستخدام آليات التأطير والتركيز والتفصيل التى استلهمتها من منهج مطبق على الصورة.
والقراءة المطولة والجديدة، عبر تأمل الصور والعلامات والمدلولات التى تكونها شبكة علاقات الشخصيات الإسلامية والمسيحية واليهودية الموجودة فى الرواية، تستهدف التدقيق فى دراسة المصير الإسلامى والمسيحى فى فضاء مشترك: إطار عام تتنازع فيه الثقافتان وتلتقيان فى الأندلس.. تبحث فى مدلولى الفقد .الاستعادة لدى كل من الحضارتين ومدلول قراءة الأسطورة وغيرها لتصل إلى أن «المواجهة بين المسيحية والإسلام مهيأة للاندلاع ما ظل خطاب الهيمنة الثقافية محتدمًا مؤكدًا الخطاب التنافسى ومبعثه اليقين بالتفوق الطائفى. وتنتهى ظلال شجرة الرمان باندلاع الحرب بين المجاهدين المسلمين والإسبان المسيحيين، وتوقع اندلاعها فى مناطق أخرى استكشفها المستكشفون. هذه النهاية المفتوحة دالة على استمرارية تلك المواجهات ما ظل خطاب التفوق الطائفى سائدًا، ولا سبيل لإنهائه سوى بالتعددية الطائفية. فالهيمنة الطائفية تفضى إلى الإفقار الثقافى ويستتبعه ظهور رد فعل دفاعى يعمل على تأكيد الخصوصية المهددة بالفناء».



وتستعين المؤلفة بمجموعة من النصوص المرئية (٦٨ لوحة فنية) تقدم لها قراءة تحليلية موسعة فى موضوعات مختلفة وتبدأ بتحليل التمثيل المرئى لمدينة الإسكندرية كما مثلته أعمال مجموعة من الفنانين التشكيليين الأوروبيين النازحين إلى الإسكندرية أوائل القرن الماضى أو الفنانين المصريين مثل محمود سعيد وحامد سعيد وعصمت داوستاشى وسيف وانلى وأدهم وانلى وأيمن نمر وعبد السلام عيد.
وترى د. عبد المسيح أن التمثيل المرئى لمدينة الإسكندرية يجسد تساؤلاً متجددًا حول التحولات الدينية والمدنية، كما يجسد الصراع القائم مع المفاهيم الشمولية عن الجمالية التى تتناقض مع الخصوصية المحلية.
كما تشير إلى أن المخاطر الناجمة عن الدمج المتعسف مع الثقافة الغربية دفعت بفنانى الإسكندرية إلى تجديد عنصرى الزمان والمكان، حتى يتسنى الإبقاء على الخصوصية فى ظل التعددية الثقافية. وتصل إلى أن «إعادة قراءة نماذج من التمثيل المتنوع لمدينة الإسكندرية ما يفسح المجال لإقامة حوار متوازن بين الشرق والغرب فى الزمن الراهن».
ثم تعقب هذه الدراسة بأخرى تقارن فيها بين التمثيل المكتوب لمدينة الإسكندرية فى «رباعية الإسكندرية» للورانس داريل، وبين التمثيل المرئى لها فى أعمال محمود سعيد وخاصة فى لوحة «المدينة». وتصل إلى أن كلاً من المبدعين أنتج نصوصًا تنقض الخطاب القائم على فصل الثنائيات: الزمان والمكان، العقل والجسد، الناقد والمبدع حيث حولا مشهد المدينة إلى مكان للتلاقى فى زمن لا يتحدد بالحاضر ولا ينحصر فى جماعة بعينها، أى إنهما نجحا فى تشكيل مكان رحب (فضاء الإسكندرية الكموزموبولتى) يتيح المقاومة، وهو ما ينتقل إلى الممارس. مبدعًا كان أو متلقيًا. فيجعله فاعلاً فى إنتاج النص ومن ثم قادرًا على المشاركة فى التغيير الثقافى.
ودراسة فضاء الإسكندرية هو نوع من إعادة قراءة أسطورة الهوية القومية فى فضاء يمهد لتكوين إطار عام لالتقاء الثقافات. ولا يتحقق هذا الإطار العام للعلاقات الجماعية دون مراجعة موضع الآخر فى العلاقات الخاصة. فإذا تهددت الهوية القومية من غزو الوافد تتهدد هوية الفرد من قمع الموروث الثقافى الذى يمثل أحد أوجه السلطة. والانتقال من دراسة السلطة القامعة للهوية القومية إلى السلطة القامعة للفرد يستدعى تقريب منظور الرؤية لرصد التفاصيل.
وتتغير سبل المقاومة بتغير المواقع كما ترى د. عبد المسيح حيث يوجد المبدعون موقعًا بديلاً لمقاومة السلطة وقد يتمثل هذا الموقع فى جسد المرأة أو صورتها الشخصية، وبقراءة صورة المرأة فى التمثيل المرئى يمكننا التعرف على قدرة المبدع على مقاومة الوافد والموروث معًا.
وتختار نماذج من أعمال ثلاثة أجيال من الفنانين لتتبع التغيير الذى طرأ على المفاهيم الذهنية تجاه المرأة، والأعمال للفنانين محمد حسن وأحمد صبرى ومختار ومحمود سعيد ثم عبد الهادى الجزار ثم صبرى منصور.
وفى بحثها عن الوسائط الثقافية التى

كتـــاب الـزاويـــة

بعثة إلى أطلال بابل عام ١٨١١

إن مؤرخي آثار العصور القديمة، الذين كان هيرودوتس أحدهم، يؤكدون جميعًا أن بابل كانت مدينة مترامية الأطراف، إذ يبلغ محيط جميع أسوارها ٦٩ ميلاً، وهو محيط يبدو كبيرًا للغاية. ويبلغ ارتفاع تلك الأسوار ٣٥٠ قدمًا، على الرغم من أنها هدمت فيما بعد لتصل إلى ٧٥ قدمًا. وكانت تبلغ ٨٧ قدمًا سمكًا.

كانت مبنية بالآجر المفخور ومغطاة بالقار الذى لاتزال توجد منه كميات كبيرة فى الصحراء المحيطة بالمدينة.

خططت المدينة بالطريقة نفسها التى خططت بها المدن الأمريكية الحديثة، فهى ذات شوارع عريضة تقاطعها شوارع أخرى فى زوايا قائمة، وفى كثير من نقاط التقاطع يمكن مشاهدة الساحات الواسعة والحدائق العامة، وفى أغلب الروايات والأوصاف المختلفة، تباين الحديث عن عدد القصور فيها، إذ يذكر فى أكثرها، أن عددها اثنان، القصر القديم والقصر الجديد، الأول من الجانب الشرقى من النهر والآخر من الجانب الغربى منه.

وهناك جسر عظيم كان يربط بينهما، فضلاً عن وجود نفق يمتد تحت نهر الفرات، ويفترض أن معبد بيلوس الشهير كان قائمًا بالقرب من القصر القديم، فى حين كانت الحدائق المعلقة، التى اكتسبت نفس الشهرة، أو أرصفة الشوارع التى صفت عليها المصاطب، وقد خططت لتصبح مراتع للمرح والمتع الحسية، ويمكن مشاهدتها كلها إلى جانب القصر الجديد.

تجمع التمثيل المرئى بالتمثيل المكتوب تختار د. مارى تريز عددًا من أعداد مجلة «أمكنة» الدورية المستقلة المهتمة بقراءة المجتمع عبر المكان. حيث يرتاد هذا العدد بالنص والصورة. مواقع عدة بين النوبة القديمة والحديثة عبر رحلة علاء خالد وسلوى رشاد، ثم الإسكندرية بأحيائها القديمة وأسواقها الشعبية والحديثة والمقابر القاهرية والأحياء العشوائية وغيرها كما يرصدها مجموعة من الكُتّاب. وتقدم المؤلفة قراءة موسعة للتمثيل لتحلل وتتأمل أسباب عدم تزامن وتساوى قيم وأشكال الحداثة فى مصر، مؤكدة على أن وعى الفرد بمكانه تاريخيًا وجغرافيًا (كما تحيلنا نصوص أمكنة) يساعد على صياغة خصوصية ثقافية وتأكيد مكانته، ومن ثم تحقيق المعاصرة على المستوى الفردى والجمعى.

أما البعد الثالث لكتاب د. عبد المسيح فيقوم على قراءة تحليلية موسعة لأعمال كل من يطلق عليهم أو يتسمون بصفة «الكاتب. الفنان»: أى الكتاب الذين جمعوا بين الكتابة النثرية والتصوير الفنى سواء فى الغرب أو فى مصر. فهى تقوم بدراسة تزاوج النص المكتوب والمرئى ليمثلا ثنائية تتطلب القراءة التبادلية، على اعتبار أن إنتاج الكاتب الفنان «يمثل الصدارة فى النقد المعاصر لأننا نعايش تحولاً نحو الصورة(..) فالمشهد الراهن تعتريه ممارسات خطابية بفعلها صار المرء محدقًا وعرضة للتحديق فى آن».

وهى فى هذه القراءة تؤكد على أن الأعمال الإبداعية لا تقبل الرضوخ إلى قواعد نظرية تفترض إطارًا مرسوم الحدود متجاهلة ما يتعداها على اعتبار أن قراءة التمثيل تعنى التنقل المستمر بين المستويات المعرفية والآفاق الاجتماعية ليسفر ذلك عن فهم أعمق لمفهومى الهوية والاختلاف.

وتقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة محاور أولها يبحث أعمال «الكتاب . الفنانين» الذين حاولوا البحث عن هويتهم من خلال القطيعة مع التراث أو الماضى مثل السويسرى جين آدب، أو كاندنسكى وليونورا كارنجتن وغيرهم، حيث تقرأ التمثيل المكتوب والمرئى لكل منهم بالتبادل انطلاقًا من هزيمة القيم الغربية بعد الحرب العالمية الأولى وبدأ الفنانون فى نقض المسلمات المعرفية والجمالية للمركزية العرقية.

أما المحور الثانى (استعادة الماضى) فيقرأ التمثيل الثقافى لمجموعة الكتاب الفنانين الذين توجهوا للماضى برؤى جديدة لدعم مكانتها فى الحاضر فى مواجهة الآثار المدمرة للحرب وتأكيد هويتهم أمثال هرمان هسه وجبران خليل جبران ودافيد جونز الذى تفيض أعماله النثرية ولوحاته بالروحانى المستوحى من النصوص الدينية والأدب الكلاسيكى، ود. هـ لورانس وطاغور ولوركا إضافة لنصوص إدوار الخراط النثرية المستوحاة أو الموازية للنصوص المرئية التى جسدتها أعمال الفنان أحمد مرسى.

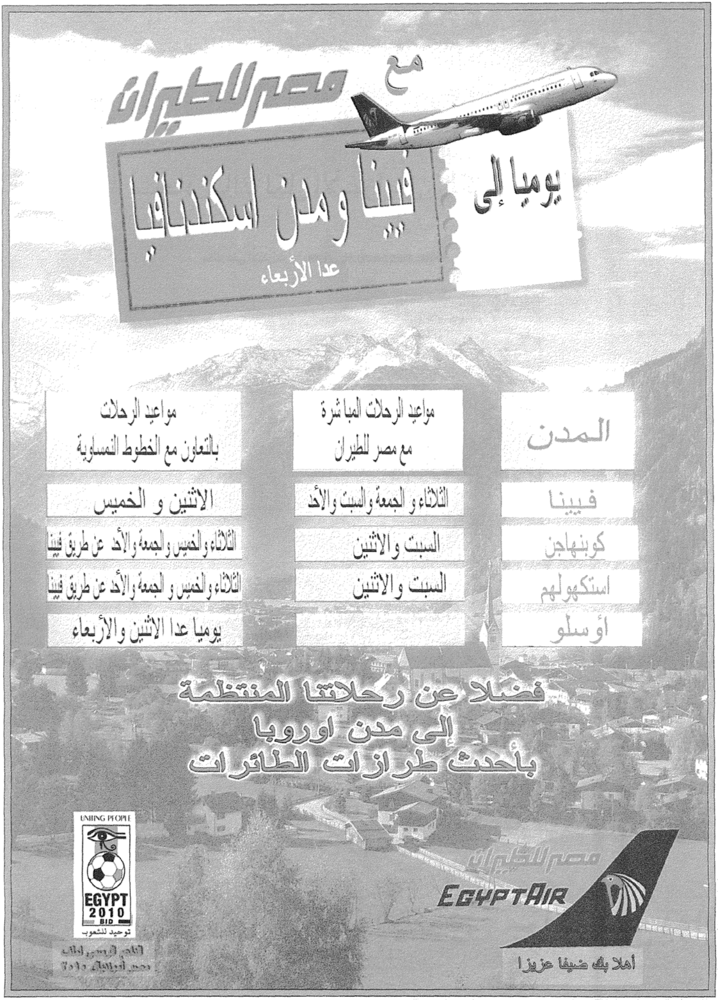
المحور الثالث (إشكاليات النزعة القومية) يبحث التمثيل الثقافى بعد الحربين العالميتين فى مواجهة الإشكالية الكامنة فى النزعة القومية ومظاهر الحداثة الرأسمالية وسياسات السوق المفتوحة وما أسفرت عنه من جشع استعمارى أفضى إلى إحباط المشروع العقلانى لتحرير الفرد من القيود الفكرية والاجتماعية.. وصولاً إلى أعمال الفنانين المصريين فى تعاملهم مع الأزمة. وتختتم د. مارى تريز قراءتها فى هذا المحور بالقول إن «مشروع الحداثة بالنسبة للكاتب. الفنان تلخص فى مساءلة المفاهيم القومية الاختزالى فى تمثيله الثقافى المرئى والمنطوق. المكتوب. فالبرامج السياسية للقوميين المتشردين قامت على الإقصاء والاستثناء متجاهلة شرائح عريضة من المجتمع. ومثل هذه البرامج الثقافية المهيمنة تحت دعاوى الحفاظ على وحدة الأمة عرقلت نموها الفكرى وهو ما يدعو إلى «وجود حاجة لنقض خطاب السلطة لتعرية التراكيب اللغوية الصلبة التى يروجها الإعلام المرئى الداعى للسياسات الاستهلاكية».

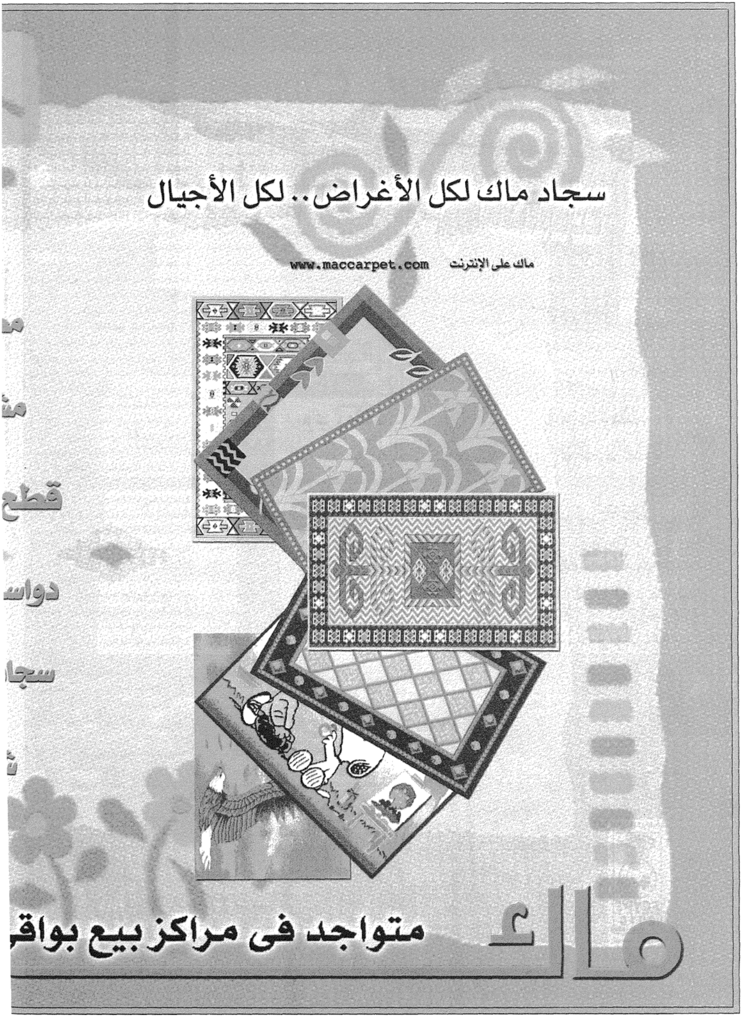
«وإذا كانت اللغة المنطوقة. المكتوبة قد تجمدت فى نسق يسفر عن ذهن أحادى فى تصوراته، فاللغة المرئية قد تلمح إلى تعددية ثقافية تستوجب إعادة النظر فى نسق اللغة المكتوبة الراسخ فى الأذهان، وبالمثل إذا تكلست الصورة فى قالب ادعائى أو استهلاكى فالكلمة هى الوسيط المستخدم لتعريتها».

وهو ما يجعل من هذا الكتاب بشكل عام وثيقة تحليلية كاشفة لدى حاجتنا الماسة للترجمة المتبادلة بين المرئى والمكتوب لإنماء وعى ثقافى نقدى للتحول المتجه نحو ثقافة الصورة.■

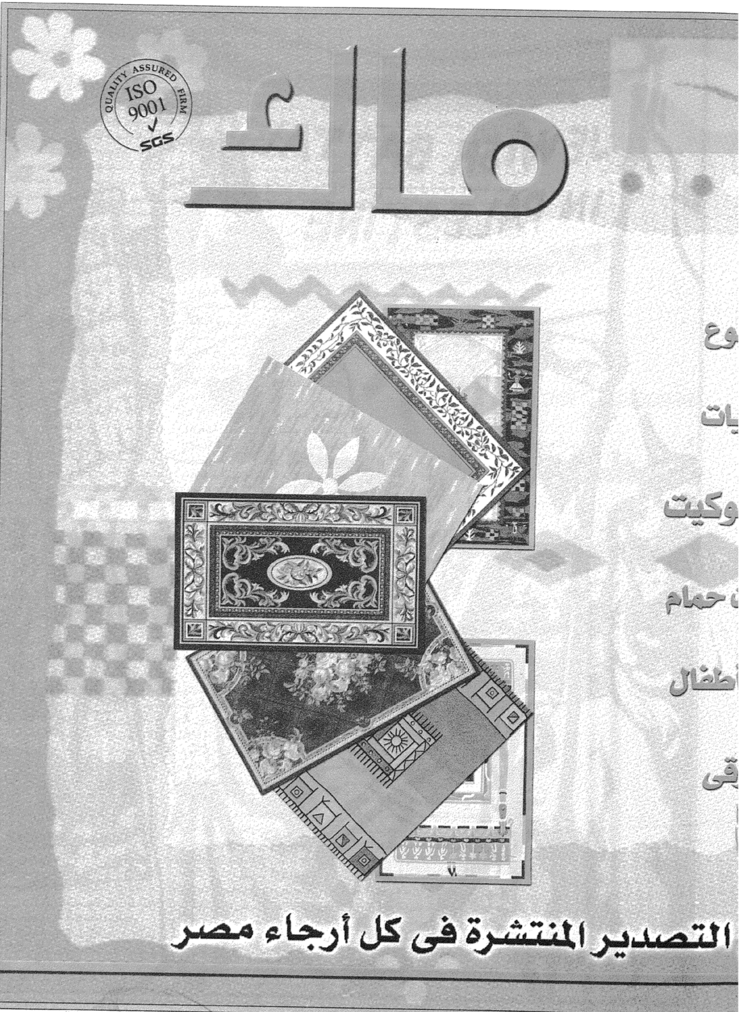
هوامش:

(١) الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى. عالم المعرفة يناير١٩٩٢.


مع
مصر للطيران
يوميا إلى
فيينا ومدن اسكندنافيا
عدا الأربعاء
المدن
مواعيد الرحلات المباشرة مع مصر للطيران
مواعيد الرحلات بالتعاون مع الخطوط النمساوية
فيينا
الثلاثاء و الجمعة والسبت والأحد
الاثنين و الخميس
كوبنهاجن
السبت والاثنين
الثلاثاء والخميس والجمعة والأحد عن طريق فيينا
استكهولهم
السبت والاثنين
الثلاثاء والخميس و الجمعة والأحد عن طريق فيينا
أوسلو
يوميا عدا الاثنين والأربعاء
فضلا عن رحلاتنا المنتظمة
إلى مدن اوروبا
بأحدث طرازات الطائرات
UNITING PEOPLE
EGYPT 2010 BID
توحيد للشعوب
مصر للطيران
EGYPTAIR
أهلا بك ضيفا عزيزا



سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
متواجد فى مراكز بيع
ماك


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر


JEWISH BATTALIONS
IN PALESTINE

بنو إسرائيل.. مُضطهَدون أم مُضطهِدون؟!

ليلى عنان

■ للغرب مزايا وصفات عديدة، لن ينكرها إلا أحادى الرؤية المتعنت. ولكن للغرب أيضًا عيوبًا لن ينكرها إلا من كان تعنته فى الاتجاه المعاكس، المنبهر بلا حدود بالميزات الواضحة والبريق الكاذب. والعيب الذى طالما أزعجنى فى دراستى لفكر الغرب، والفرنسى منه بالذات، سرعته فى تأليه فكر أو تيار فلسفى جديد، ثم الانقلاب عليه بسرعة فائقة عندما يظهر فكر أو تيار آخر. وهكذا، تراهم يحرقون بتشفٍ طفولى ما عبدوه من قبل، ليعبدوا صنمًا جديدًا، سرعان ما يحرقونه عندما يحل محله جديد. والعداء للسامية كان مثلاً. قبل الحرب العالمية الثانية، من صفات المفكر المستنير، إلى أن خسر هتلر الحرب، وأصبحت النازية، ومعاداتها للسامية، سبة لا يجرؤ على نطق اسميهما أحد. وما المعاداة للسامية إلا فرع من عنصرية، عرفها الإنسان منذ عرف الحضارة، ولا يستطيع أن يتخلص منها، حتى إن ادعى الغرب الآن أنه طهر نفسه من عنصرية جعلته يستعبد شعوب العالم فى القارات الخمس، باسم سمو الجنس الأبيض على باقى الأجناس الأخرى. ولذا، لن نتخيل غربيًا يتجرأ اليوم ويقول إن اليهود، وبنى إسرائيل (ضحايا العداء للسامية المتمثلة فيهم) هم فى الواقع عنصريون بكل معانى الكلمة. إنها المفارقة التى لن يقبلها منطقهم المنافق.

العنصرى، وآخر مثل فج له كان الفكر النازى، يبحث أولاً عما يسميه نقاء الدم، وروايات الأدب الأمريكى فى أربعينيات القرن الماضى، تصور ما يحدث إذا اكتشف مثلاً أن شابًا أو شابة بيضاء، كان لهما جد أو جدة من العبيد السود. وقد تكون قصص «وليام فوكنر» (William Fulkner) وروائعه «أبشالوم! أبشالوم!»، أحسن مثل يصور البحث عن «نقاء الدم» الأبيض ليطهر من أى شائبة؛ وهذه العنصرية الأمريكية، كان يعادلها فى رد الفعل الدموى العنيف، الحكم النازى إذا اكتشف أن ألمانيا كان لها من بين أجداده يهودى.

وفى «العهد القديم» الكثير من القصص التى يعتبرها اليهود تاريخهم؛ تجعلنا نعيد النظر فى كثير من المقولات التى أصبحت، بفضل الدعاية الصهيونية النابغة، من المسلمات، مثل ما يعانى منه اليهود من اضطهاد فى العالم، وذلك منذ وجودهم فى مصر، قبل أن يخرجهم منها موسى عليه السلام، وبعد ذلك سئم النبى شكواهم، وعاقبهم الرب على ذلك.. وما من رادع. فنراهم اليوم يدعون مثلاً أنهم كانوا «عبيدًا» فى مصر. وقارئ «سفر الخروج» بعين منزهة ونقدية، لن يجد كلمة واحدة تعضد مثل هذا الافتراء. والأدهى أن الرب نفسه قال لموسى عليه السلام آمرًا بنى إسرائيل فى «الإصحاح ٢٢ . ٣١»: «ولا تضطهد الغريب، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر» كانوا «غرباء»، ولم يكونوا يومًا «عبيد».

ولكن، ومما لاشك فيه، أنهم عانوا فى الغرب، بعيدًا عنا، اضطهادًا دمويًا مأساويًا على مر القرون. فالغرب المسيحى اعتبرهم عدوهم اللدود لرفضهم رسالة السيد المسيح أولاً، ثم صلبه بعد ذلك. ولكن المسيحية تعترف «بكتابهم المقدس» الذى أصبح «العهد القديم»، لأنه بشر بمجىء السيد المسيح المنقذ؛ وبالتالى، فهى تعترف بقصصهم وما اعتبر تاريخهم، إلى أن جاء فى القرن الثامن عشر، «فولتير» Voltaire فى كتابه عن حضارات العالم ليتهم هذه القصص بأنها أساطير وليست تاريخًا. ولكن هذا لم يرد على سؤال يُطرح دائمًا. لماذا كره العالم اليهود . على حد قولهم. واضطهدهم أينما ذهبوا وفى كل العصور.

سؤال خطير فى حد ذاته، إذ يُتهم فى الحال كل من يطرحه بالمعاداة للسامية، مادام يطرح فكرة أن اليهود مكروهون فى ذاتهم. هذا فى ذاته فكر عنصرى، وكأن اليهود كائن واحد، لا علاقة له بآخرين اختلطوا به، فتحولوا من بشر يدينون بالوحدانية منذ عصر الجاهلية وعبادة الأصنام، إلى «جنس» أو «شعب»، منغلق على نفسه. ومع ذلك فيهود عصرنا وإسرائيل بالذات هى التى تجبرنا على طرح السؤال. وقد أصبح للسؤال أهمية حيوية بالنسبة لنا، خاصة بسبب ما يُقال عما حدث لبنى إسرائيل فى مصر، حيث كانوا «عبيدًا» على حسب دعاياتهم الكاذبة. فهم المضطهَدون منذ سالف الزمان، وعلى العالم، وعلينا تعويضهم عن هذا الظلم البائن.

والفكر الصهيونى الاشتراكى الملحد، يستعمل الديانة اليهودية وأساطيرها، التى لا يؤمن بها، من أجل كسب أكبر عدد من اليهود إلى صفه، ولجذب الغرب المسيحى السلفى أيضًا إلى صفه، وهو ما نجح فيه مؤخرًا، فالعهد القديم، فى «الكتاب المقدس» وقصة بنى إسرائيل من أهم ركائز الدين لديهم.

وبناء على ذلك، انتشرت الأساطير اليهودية فى الغرب، لأن الغرب، والغرب الأمريكى بالذات، قد تبنى الفكر الصهيونى المتطرف، كان هذا الأمر حتميًا ليكفر الغرب عن ذنبه وإهماله حال اليهود أيام حكم هتلر، وتجاهله التام لمعسكرات الموت والقتل الجماعى.

وهكذا أصبحت الأساطير اليهودية لا تتداول بين الإسرائيليين فقط، بل وصل بها الحال بهيمنة الثقافة الفنية الأمريكية، إلى إقناع بعض المثقفين العرب أيضًا . مع أن مجرد قراءة «العهد القديم» بعين منزهة من أى غرض غير موضوعى، تقول ما يفند كل ادعاءات الصهاينة.. وما علينا إلا الرجوع للأصل، لما يقوله اليهود أنفسهم عن تاريخهم فى «العهد القديم»، بعيدًا عن كل أدبيات العصر الحديث. فالقارئ الموضوعى يعجب بادئ ذى بدء لكيفية معاملة بنى إسرائيل لبعضهم البعض. حتى يجد نفسه يتساءل: هل كره بنو إسرائيل أنفسهم قبل أن يكرهوا الآخرين. فكرههم هؤلاء بالتالى؟

وأول ما يعجب له قارئ «العهد القديم» فى «سفر التكوين» هو الطريقة التى لجأ إليها سيدنا يعقوب وأمه «رفقة» لسلب ميراث «عيسو». كان الأب سيدنا إسحق عجوزًا ضريرًا، فخدع بسهولة بفضل مكر زوجته، وقال لابنه عيسو: «لقد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» (الإصحاح ٢٧ . ٣٥). وهكذا «إنى قد جعلته سيدًا لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيدًا (...) فماذا أصنع إليك يا ابنى» (٢٧ . ٣٧). فما كان من سيدنا يعقوب بعد ذلك إلا الهروب خوفًا من انتقام أخيه. ولجأ لخاله، وقصتهما معًا طريفة، عندما نتتبع حيل كل منهما للنيل من الآخر، واستغلاله لكسب المزيد من الثراء. لن ندخل فى تفاصيل القصة كما نقرأها فى «سفر التكوين» وكل ما نقابله فيها من خداع الأخ لأخيه، والخال لابن أخته. فمثلاً وصل الأمر أن الخال استغل حب سيدنا يعقوب لابنته «راحيل» فجعله يخدمه لسبع سنوات حتى يزوجه بها. وعند الزواج اكتشف العريس أنه خدع، إذ أرسل له خاله بدلاً من حبيبته أختها.. فكان على العريس المتيم، أن يخدم سبع سنوات أخرى ليحصل على حبيبته، وعاش بالأختين معًا! وبعد سنوات عديدة، وسيدنا يعقوب مع الأختين وخادماتهما، رزقت أخيرًا «راحيل» بولد سمى يوسف.. وقصته معروفة، فهو يوسف عليه السلام الذى ألقى به إخوته فى البئر حتى يموت، ولكن الله أراد له غير ذلك. قصة خداع أخرى لأبناء يكذبون على أبيهم ليتخلصوا من أخيهم الأصغر!

هكذا كانت العلاقات الأسرية فى «العهد القديم» حيث الحقد هو الواعز الأول، والمنفعة هى المطمع الوحيد، واستغلال القوى للضعيف الوسيلة للوصول إلى الهدف المنشود.

ولو أننا انتقلنا إلى معاملة بنى إسرائيل للآخرين، فهناك قصة تشرح وحدها كراهية الآخرين لهم. وهى قصة «دنية» ابنة سيدنا يعقوب. إنها قصة شعب أراد العيش فى

بنو إسرائيل



عانوا فى الغرب، بعيداً عنا، اضطهاداً دموياً مأساوياً على مر القرون. فالغرب المسيحى اعتبرهم عدوهم اللدود لرفضهم رسالة السيد المسيح أولاً، ثم صلبه بعد ذلك

سلام وأمان مع جيرانه من قبيلة سيدنا يعقوب، وحسب قوانينها. فالقصة تقول أن ابن «عمور الحيوى» أُعجب بابنة سيدنا يعقوب فاختطفها، ولكنه أحبها، فذهب أبوه يخطبها من أبيها حتى تصبح الزوجة الشرعية لابنه الذى اختطفها. ولكن أبناء سيدنا يعقوب وضعوا كشرط للزيجة أن يشترك الملك وابنه وشعبه فى تقاليد قبيلة الفتاة. وتجرى لهم عملية طهور جماعية. كان هذا هو شرط الانتماء إلى عائلة سيدنا يعقوب وقبيلته. وقَبِلَ الأب عن طيب خاطر قائلاً: «وصاهرونا، تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا، وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم. اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها» (٣٤/ ٩+١٠). وقال أيضاً أنه مستعد لدفع أى مبلغ يطلبونه كمهر، ثم أقاموا حفلاً كبيراً للمناسبة. فما الذى حدث بعد ذلك.. «فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين (من العملية الجراحية) أن ابنى يعقوب (...) أخذ كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر (...) ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه. وسبوا ونهبوا كل ثرواتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما فى البيوت.

فقال يعقوب لشمعون ولاوى «كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض الكنعانيين والفريزيين وأنا نفر قليل. فيجتمعون علىّ ويضربوننى فأبيد أنا وبيتى. فقالا أنظير زانية يفعل بأختنا» (٣٤/ ٢٥. ٣١). كان سيدنا يعقوب على حق، وقد يكون أبناؤه على حق أيضاً، انتقاماً لشرف أختهم، ولكنه انتقام بشع.. فما ذنب سكان المدينة؟ أيكون ذلك مصير من أراد أن يعيش معهم فى سلام وأمان؟

وهناك قصة أخرى نرى فيها هذا العنف الدموى، الذى لا ينتقم فقط حسب مبدأ «العين بالعين، والسن بالسن»، قصة تدور أحداثها عندما كان اليهود أسرى الملك «أحشويروش» ونقرأ كيف استطاع «مردخاى»، أن يجعل من ربيبته الفاتنة «أستير» ملكة على البلاد بسبب حب الملك لها، ولن ندخل فى تفاصيل دهائه ليصل بها إلى هذا المركز، لأن ما يهمنا هو ما حدث عندما استطاع بتوظيفها أن يوقع بعدوه، عدو بنى إسرائيل كما يُقال، فينقلب الملك على وزيره «هامان»، ويأمر بمعاقبته وإنصاف بنى إسرائيل.. وإليكم ما حدث بعد ذلك، كما نقرأ فى «سفر أستير»: «فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك وعملوا بمغضبيهم ما أرادوا. وقتل اليهود فى شوشن القصر خمس مئة رجل» (٩/ ٥، ٦).. «ثم اجتمع اليهود الذين فى شوشن (...) وقتلوا ثلاث مئة رجل ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب. وباقى اليهود الذين فى بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لأجل أنفسهم واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفا...» (٩/ ١٥، ١٦، ١٧)، ولا نعجب طبعاً إذ ينتهى «سفر أستير» بالتالى: «إذاعة عظمة مردخاى الذى عظّمه الملك أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك مادى وفارس. لأن مردخاى اليهودى كان ثانى الملك أحشويروش وعظيماً...» (سفر أستير ١٠/ ٢، ٣)، ولن ننسى أن نذكر أنه استولى بأمر الملك على ممتلكات عدوه، بعد صلبه هو وأبنائه العشرة وقتل كل ذويه.

هكذا كان.. إذن بنو إسرائيل مع من أراد مسالمتهم أو من عاداهم.. ولكن عداءهم لمن ليس منهم يفوق التصور عندما نقرأ ما حدث عندما أُطلق سراح الأسرى من بنى إسرائيل، وعاد من أراد إلى أورشليم لبناء الهيكل مرة أخرى بعد سبعين عاماً من الرق، يحرم عليهم العودة إلى ديارهم. ولن يسعفنا طبعاً إلا ما نجده مدوناً فى «العهد القديم» من كلام صريح لا يحتمل أى تأويل أو مناقشة، وقد يطول النقل ولا حيلة لنا فى ذلك.

فأولاً، نقرأ فى «سفر نحميا» (الإصحاح ١٣/ ٢٣. ٢٨): «فى تلك الأيام أيضاً رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات. ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودى ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودى بل بلسان شعب وشعب، فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناساً ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلاً لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم. أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل (...) وكان واحد من بنى يوياداع بن أليا شيب الكاهن العظيم صهراً لسنبلط الحوروني فطردته من عندى». إنها الغيرة على اللغة واللغة هى الهوية.

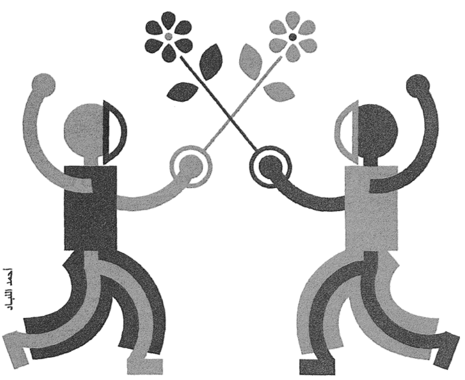
إنها الغيرة على اللغة واللغة هى الهوية؛ درس رائع قد نستفيد منه نحن عرب اليوم، ولكن الأمر لم يقتصر على اللغة، لأننا نقرأ فى «سفر عزرا» كلاماً آخر، كسبب لمقاطعة النساء الأجنبيات.

الذى حدث، كما هو معروف، أن الملك سمح لبنى إسرائيل بإعادة بناء الهيكل. فنقرأ فى «سفر عزرا» صفحة كاملة بأسماء من ذهبوا فى تلك المهمة، مثلما يحدث عند كل حدث جلل: الأسماء، وأسماء الأجداد لتأكيد انتمائهم إلى بنى إسرائيل. ولكن سرد الأسماء الطويل يتوقف فجأة ونقرأ: «وهؤلاء هم الذين صعدوا (...) ولم يستطيعوا أن يبينوا بيوت آبائهم ونسلهم هل هم من إسرائيل (...) هؤلاء فتشوا على كتابة أنسابهم فلم توجد فرذلوا من الكهنوت» (الإصحاح ٢/ ٥٩. ٦٢).

ملحوظة: كان بنو إسرائيل فى الأسر لمدة سبعين عاماً، ولكن عليهم أن يثبتوا نسلهم بعد كل هذه المدة. ولتأكيد نقاء الدم، وقد عاد الأسرى أحراراً إلى أورشليم، حدث التالى (١٠/ ٢. ٣): «وأجاب شكنيا بن يحيئيل من بنى عيلام وقال لعزرا إننا قد خنا إلهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض (...) فلنقطع الآن عهداً مع إلهنا أن نُخرج كل النساء والذين ولدوا منهن حسب مشورة سيدى». ونقرأ بعد ذلك أسماء المذنبين: «فوجد بين بنى الكهنة من اتخذ نساء غريبة (أسماء ...) وأعطوا أيديهم لإخراج نسائهم مقربين كبش غنم لأجل إثمهم. (قائمة أخرى من الأسماء) كل هؤلاء اتخذوا نساء غريبة ومنهن نساء قد وضعن بنين»؛ بدأنا، فى «الإصحاح العاشر» برقم ٢ حتى وصلنا إلى نهايته بعد صفحتين، عند رقم ٤٤. وينتهى «سفر عزرا» بتلاوة أسماء المذنبين، ولن نعرف ما الذى حدث لهؤلاء ولا لأبنائهم، وكأن القائمة السوداء تكتفى هنا بوصمهم بالعار، ليتكفل الشعب بمجازاتهم.. أو طردهم.

هذا هو «التطهير العرقى» بعينه، خاصة بعد أن قرأنا «وأعطوا أيديهم لإخراج نسائهم». تطهير عرقى ولكنه ينطبق على أولاد بنى إسرائيل، وكل أب يتخلص من أولاده وأمهم التى تزوجها أثناء الأسر بمحض إرادته.. عندما كان النازيون يأخذون الزوجة اليهودية لأى ألمانى، كان يقوم بالمستحيل لإنقاذها هى وأولادها. وأذكر هنا ما كتبته الفيلسوفة اليهودية «حنا آرندت» Hannah Arendt، وهى أمريكية من أصل ألمانى، فى كتابها الشهير عن «محاكمة أيخمان»، عندما قارنت إسرائيل وحكامها بالنازية وقوانينها، فى بحثهم عن «نقاء الدم اليهودى» وعنصريتهم الظالمة. كما أن مثل هذه الأفعال، تشرح لنا ثورية رسالة السيد المسيح وعظمتها، عندما كسر الحاجز الذى يطوق «شعب الله المختار»، واعتبر كل البشر أبناء الرب. ولن نفهم طبعاً رسالته فى عظمتها إلا إذا رجعنا إلى هذا المناخ الخانق لليهودية عندما كان السيد المسيح ينشر رسالته. وهو ما فعله باقتدار كاتبنا الكبير عباس العقاد، فى كتابه الرائع عن «عبقرية المسيح»، حيث تحدث عن اليهودية فى عصره، أكثر مما تحدث عن عيسى عليه السلام.

هذا باقتضاب شديد، سرد سريع لأكثر القصص وضوحاً فى «العهد القديم»، وباقى الصفحات تزخر بأحداث عجيبة وحروب دموية وسير ملوك ظلمة وفاسدة. وما تاريخهم إلا سلسلة من أفعال شائنة يثور لها الأنبياء، وتغضب الرب، فيعاقبهم.. فيتوبوا بعد الهزيمة، فيصفح الرب عنهم.. ويتعظوا لمرحلة قصيرة.. ثم تعود الأمور إلى سابقتها من الأخطاء، وكلها لها دلالة واحدة نستنتجها بسهولة، وهى الإجابة على السؤال الحائر: لِمَ كُرِه اليهود على مرّ القرون فى كل بلاد العالم؟ إن كان هذا هو ما يفعلونه بأنفسهم وبآبائهم وبأخواتهم وبأبنائهم، فما بالنا بما يفعلونه بالآخرين، وبشعوب جيرانهم؟ سؤال نجد إجابته فى «تاريخهم المدوّن فى «العهد القديم». ■



استيعاب الصراعات

■■ يقدم ديتر سينجهاس، المنظر الألمانى فى السوسيولوجيا والعلاقات الدولية، فى هذا الكتاب أطروحة مهمة ومثيرة رغم أنه قد يتبدى للوهلة الأولى أنها تقليدية، وتم نقاشها كثيراً فى كتب ودراسات عديدة - أى أطروحة صدام الحضارات أو عدمها. هدف سينجهاس المركزى فى كتابه هذا هو تقويض مقولة صاموئيل هانتنجتون حول حتمية الصدام بين الحضارات، ولكن بطريقة أخرى. فتلك المقولة، وكما نعرف الآن، تفترض حدوداً ثقافية دامية بين الحضارات، وهى حدود لا يمكن تجسيرها، بحسب ما يقول هانتنجتون، وسوف تكون سبب الصراعات الحالية والقادمة. وقد قدم هانتنجتون نظريته بعيد انتهاء الحرب الباردة، وقال أن الصراعات الحضارية ستحل محل الصراعات الأيديولوجية. سينجهاس هنا يرفض هذا الطرح، ويقول أنه تبسيطى ومتسرع، فليس هناك حدود جامدة وصارمة تفصل الحضارات، بل إن هناك تداخلاً شديداً فيما بينها. كما أن كل حضارة ليست متجانسة وموحدة، بل هى عبارة عن تجمع لحضارات وثقافات متعددة ومتنوعة وأحياناً متناقضة. فضلاً عن ذلك فإن الصراعات الفرعية داخل كل إطار حضارى موجودة بحضور بارز وعنيفة، وهى صراعات أهم من تلك التى تقوم بين الحضارات، خاصة فى القرون الحالية. لكن كيف يفصل سينجهاس أطروحته عبر فصول الكتاب؟

فى الفصل الأول يبدأ بطرح فكرة مهمة وهى فلسفة التحاور بين الأجزاء المكونة للثقافات، وليس بين الثقافات ككتل كُلانية مصمتة، أو «فلسفة الحوار ما بين مكونات الثقافات»، حيث الحوار على مستوى المكونات لهذه الثقافات وليس مستوى الإطار الشامل العام لكل منها. ويفصل فى ذلك بالقول أولاً أن فى داخل كل ثقافة هناك أجزاء وموضوعات فرعية، واهتمامات وصراعات، ونقد ذاتى ومتبادل، وكل ذلك يمثل حقيقة تلك الثقافة إذا نظرنا إليها من الداخل. على ذلك فعلينا ألا نحشر أنفسنا فى الفكرة التسطيحية التى تنظر إلى الثقافة كجسم واحد من الخارج. وبالتالى يُفهم من طرحه أن حوار الحضارات والثقافات المطلوب يجب أن يتم بين الأجزاء المنسجمة أو المتنافرة فى دواخل الحضارات المختلفة، وليس على مستوى أعلى يفترض ابتداء أن هناك توحداً صارماً لكل ثقافة إزاء الثقافات الأخرى. بمعنى آخر أن الحوار يجب أن يشتغل بين الفكرة أو القيمة (س) من هذه الحضارة مع القيمة (ص) الشبيهة لها والمناظرة فى الحضارة الأخرى. وهكذا فالمطلوب هنا النظر إلى الثقافة بكونها مركبات وبنى مرنة تمتلك عناصرها القدرة على اختراق الثقافات الأخرى من جهة، وهى نفسها قابلة طواعية للاختراق من قبل عناصر من تلك الثقافات من جهة أخرى. وأن هذه السمة، الاختراق والاختراق المتبادل، هى سمة إيجابية للثقافة وليست سمة سلبية. ويضيف سينجهاس إن الأمل فى تولد حوار حضارات حقيقى يبحث عن المشترك بين الثقافات عن طريق الغوص فى المكونات المتشابهة ينبع من حقيقة أن معظم الحضارات فى الوقت الراهن شهدت عملية صراع داخلى فى كل منها لم تشهدها فى الماضى، وأن نتيجة ذلك كله هى إمعان النظر فى الذات والنقد الذاتى، والتطلع نحو خارج الذات للاقتباس والتعديل.

يقول إن: «فلسفة ما بين مكونات الثقافات»، كما يناقشها كثير من منظرى ومفكرى العالم اليوم، وحتى بعض فلاسفة القانون الدولى، تطرح فكرة تأسيس «قانون العالم»، التى هى أعلى مستوى وأرقى إنسانية من فكرة «القانون الدولى» التى تسير وفقها دول عالمنا اليوم. «قانون العالم» يعنى إيجاد أنماط للعلاقات العابرة للشعوب والحضارات تتجاوز فكرة «الدولة الأمة» (nation state) وبحيث تنسج تلك العلاقات وفق مصالح وتناغمات واحتياجات ليست محكومة بمفهوم «سيادة الدولة» الصارم الذى عرفه العالم فى القرون الثلاثة

«قانون العالم» يعنى إيجاد أنماط للعلاقات العابرة للشعوب والحضارات تتجاوز فكرة «الدولة الأمة» (nation state) وبحيث تنسج تلك العلاقات وفق مصالح وتناغمات واحتياجات ليست محكومة بمفهوم «سيادة الدولة» الصارم الذى عرفه العالم فى القرون الثلاثة الماضية

Clash Within Civilizations: Coming to Terms With Cultural Conflicts
(الصراع داخل الحضارات: استيعاب الصراعات الثقافية)
Dieter Senghaas
London: Routledge, 2002 146 pages

ليس هناك حدود جامدة وصارمة تفصل الحضارات، بل إن هناك تداخلاً شديداً فيما بينها. كما أن كل حضارة ليست متجانسة وموحدة، بل هي عبارة عن تجمع لحضارات وثقافات متعددة ومتنوعة وأحياناً متناقضة

الثقافية

خالد الحروب

الماضية. و«قانون العالم» هو خلاصة تفاعل الأفكار والطروحات والتأملات التي يتم إنتاجها من خلال التواصل الثقافي بين مكونات الحضارات المختلفة، المكونات المتناظرة، بتجاوز الحدود الصلبة لكل حضارة، والدخول إلى قلبها. هذا الانتقال من «القانون الدولي» إلى «قانون العالم» ليس ترفاً فكرياً، بل هو تحد تطرحه التحولات التي شهدها العالم في القرنين الأخيرين. ويقول سينجهاس، إذا كان القانون الدولي، أو أية خلاصات نظرية وسياسية شهدتها البشرية خلال الماضي القريب، نتيجة إبداع الفلسفات في حل المعضلات الاجتماعية والثقافية والسياسية للمجتمعات التقليدية في الماضي، فإن مجتمعات اليوم تختلف كلياً عن البيئات التي أنتجت تلك الحلول. فالمجتمعات الراهنة هي صناعية، وحديثة، وتتسم بعمق الاعتماد المتبادل (interdependence) فيما بينها بشكل لم يسبق له مثيل، ويتجسد هذا بشكل جلي عبر تطور مظاهر العولمة. والتحول من طور المجتمعات التقليدية إلى المجتمعات الحديثة هو صيرورة حتمية، وليس خياراً طوعياً، وتكفي نظرة واحدة لمجتمعات العالم خلال القرون الثلاثة الماضية للتأكد من صحة هذه الفرضية. إذ لم يعد هناك على وجه الأرض ما يمكن تسميته «مجتمع تقليدي» كامل بالمعنى الحرفي للكلمة، فيما عدا بعض الاستثناءات ذات التعدد السكاني المبعثر والقليل جداً. وبهذا فإن التحولات العالمية تفرض بالتالي إنجاز مشروعات فلسفية تتجاوز ما أنتجته الفلسفة التقليدية في اجتراحها لأشكال وصيغ للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية. لكن هذه المشروعات لن تكون خلاصة فلسفة ثقافة معينة، أو منطقة معينة من العالم، بل خلاصة تفاعل وتزاوج بين مكونات الثقافات المختلفة، وتكون بالتالي عالمية حقاً، وليست صورة وادعاء فقط.

إعادة هيكلة مجتمعات العالم، كما يجادل سينجهاس، تنتج عدة مظاهر وانعكاسات، أولها زيادة الإلحاح على المشاركة السياسية. فازدياد درجات الاعتماد المتبادل، حيث تسارع انخفاض نسبة المجتمعات المكتفية بذاتها في العقود الماضية، فرضت على الأفراد والمجتمعات تعميق الاهتمام بالسياسة وبما يدور «في الخارج». وعليه فإن «زيادة التسييس»، برأي سينجهاس، هي ملمح أساسي لا مناص عنه من ملامح التحديث الاجتماعي، ويختلف تماماً عما كان سائداً في المجتمعات التقليدية حيث كان بإمكان تلك المجتمعات التعايش مع سمات التهميش السياسي للأفراد أو إهمالهم لما يدور حولهم. لكن تحول المجتمعات التقليدية إلى مجتمعات حديثة يعتبر عملية في غاية الحساسية والخطورة أحياناً، ولا يخلو من خضات عنفية، وصراعات داخلية، بحيث يصبح التعايش الداخلي السلمي قضية أساسية. ونجاح عملية التحول يقاس بمدى الوصول إلى صيغة تعايش سلمي بين الشرائح الاجتماعية، والمجموعات، وأصحاب المصالح المتناقضة والمتنافسة في داخل المجتمع الواحد.

وبكلمة، يتجسد الفرق بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة في أن الأولى تخلو من تسييس المجتمع، وكذا جمود الحراك الاجتماعي فيها، بينما تتصف الثانية بفاعلية سياسية وحراك اجتماعي دائم. ويرى سينجهاس أن المجتمع الحديث يتصف بما يسميه «التسييس العميق» (Fundamental Politicization) حيث يتم تسييس المشكلات الاجتماعية، وكذلك تنزيل المشكلات السياسية على مستوى اجتماعي. ومرة أخرى لم تهتم الفلسفات التقليدية ما قبل الحديثة، خاصة فيما يتعلق بالنظرية السياسية أو الفلسفة الاجتماعية، بالحراك الاجتماعي والسياسي الذي يكسر جمود التراتبيات، والأدوار مسبقة التوزيع بصرامة، والنظرة للعالم والحضارات فيه باعتبارها بنى منظمة ومرتبة بطريقة لا يمكن تعديلها. وقد كانت تلك النظرة أقرب إلى التحليل الدائري للأشياء، حيث تبدأ الحضارات من نقطة معينة، ثم تتطور وتتقدم، وتصل إلى أوج قوتها في نقطة معينة أخرى، ثم تبدأ بالأفول، ثم الانهيار التام (الدورة الخلدونية بحسب التراث العربي الإسلامي). ويرى سينجهاس أن الفلسفات التقليدية كانت تتمحور حول كيفية مواجهة «الفوضى والاضطراب» اللذين يمكن أن يصيبا «الانسجام الكوني» المتجسد في توزيعات الحضارات وثباتها. هذه الصيرورات وفلسفاتها لم تعد هي التي تشرح تداخل الحضارات في العصر الراهن، ولا طريقة تعاونها بين بعضها البعض، ولا طريقة تطور المجتمعات وتعقد الأوجه الحديثة فيها.

فالذي حدث في القرون الأخيرة، وتحديداً كما يقول سينجهاس منذ أواسط القرن الثامن عشر، أن المجتمعات انخرطت في تحولات عميقة، التسييس العميق، والحراك الاجتماعي النشط الذي خلط الأوراق والمكونات التقليدية للمجتمعات وأنتج مجموعة من التوترات والاحتقانات التي برزت بسبب انهيار الأسس التقليدية لوحدة هذه المجتمعات إثر تفكك التراتبيات الاجتماعية والسياسية والبنية الثابتة التي تعودت عليها هذه المجتمعات. وبالتالي أصبحت مهمة الفلسفة السياسية الجديدة هي إيجاد صيغ لاستيعاب الصراعات الجديدة الطارئة في داخل هذه المجتمعات، بشكل أكثر إلحاحاً من إيجاد صيغ لاستيعاب الصراعات بين المجتمعات المختلفة.

لكن ما هو الحل الذي توصلت إليه الفلسفات الحديثة لامتصاص التوترات والصراعات القائمة في المجتمعات المحدثة؟ يقول سينجهاس أن الحل يدور حول ما يسميه «سداسي الحضارة»، ويتمثل في شكل سداسي يعكس تداخل ست آليات مركزية تعمل على ضبط الصراعات وتضمن تطور المجتمع بشكل سلمي تعايشي، وكل آلية منها تحتل زاوية من زوايا ذلك «السداسي». هذه الآليات هي كالتالي:

- الأولى: احتكار القوة من قبل سلطة حاكمة، ونزع سلاح الأفراد (من دون المساس بتسييسهم)، بما يدفعهم للانخراط في السياسة سلمياً.
- الثانية: حكم القانون، وهو أساس الشرعية التي يتم عبرها احتكار القوة من قبل السلطة الحاكمة، وهو القانون الذي يضمن حل النزاعات سلمياً.
- الثالثة: إخضاع ما قد ينتج من توترات بسبب الانتقال من الطور التقليدي إلى الطور الحديث من المجتمعات إلى «الاعتماد المتبادل»، الذي يقوم على توزيع الأدوار المتوقعة من كل فرد في الطور الحديث. توزيع الأدوار هذا يقود إلى سلسلة تفاعلية من النشاطات الإيجابية تعمل على تجزئة الصراعات الحادة إلى عناصر صراع أقل حدة يمكن استيعابها عبر التسامح والحلول الجزئية.
- الرابعة: المشاركة الديموقراطية، الناتجة عن متتالية الحراك الاجتماعي. ومن دون هذه المشاركة فإن التوترات التي تتراكم خلال عملية الانتقال تؤدي إلى صراعات كبيرة تنفجر بقوة لاحقاً.
- الخامسة: تحقيق توزيع عادل للثروات، الذي من دونه ستظل الخطابات حول القضايا العامة، والمشاركة، وسوى ذلك من دون مضمون حقيقي مادي.
- السادسة: تطور ثقافة إدارة الصراعات بشكل إيجابي، بحيث تخترق كل مجالات الحياة الاجتماعية.

الأهمية البالغة لـ «سداسي الحضارة» كما يمكن أن يستنبط من معالجة سينجهاس هي أنه ليس إنتاجاً حصرياً من إنتاجات الحضارة الغربية. بل إن كل آلية من آلياته كانت هدفاً أو مآلاً سعت إليه، أو طبقته بشكل أو بآخر، الثقافات والحضارات المختلفة. وأن الوصول إلى إحكام العلاقة بين زوايا السداسي بكاملها، وبالتالي تحقيق المجتمع الحديث، والتخلي عن الطور التقليدي للمجتمع، هو جهد إنساني تعكسه كل ثقافة بطريقتها الخاصة. وأن جوهر العملية هو كونها خلاصة تاريخية للتوترات والأزمات والانعطافات التي تمر بها المجتمعات. وعليه، فليس من الصحيح ولا الدقيق علمياً وتاريخياً اعتبار أن آليات السداسي الحضاري هي أوروبية حصرية، أو عندها خصوصية غربية. صحيح أن الظروف التاريخية دفعت أوروبا لتبني هذه الآليات بشكل أسرع من غيرها من المجتمعات، لكن فهم هذا التبني يجب أن يقوم على فهم الظروف التاريخية، ولا يجب نسبته إلى «خصوصية أوروبية أو غربية». فأوروبا نفسها واجهت صراعات مريرة مع بناها التقليدية وماضيها الخاص خلال عملية انتقالها من الطور التقليدي إلى الحديث، ولم تتبن الآليات الست للسداسي الحضاري إلا بعد عقود طويلة من الشك والتردد. ومن هنا وكما يقول سينجهاس فإن النتيجة المدهشة التي يجب التركيز عليها هي أنه من الخطأ الجسيم اعتبار السمة الحضارية للصراعات

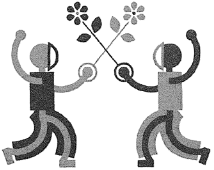
الداخلية فى المجتمعات الأوروبية سمة جوهرية وخاصة بتلك المجتمعات (بل تطور حضارى تخضع له، وتصل إليه، كل المجتمعات الأخرى). والأمر نفسه ينطبق على الآليات الست للسداسى الحضارى، وعلى كثير من المفاهيم الأخرى التى يظن البعض أنها غربية المصدر والجوهر، مثل العقلانية، الفردية، التعددية وغيرها. فهناك أمثلة عديدة فى السياق التاريخى الغربى على الصراعات الثقافية الداخلية التى أنتجت خلاصات لم تكن مقصودة. والأمر ذاته تشهده فى الوقت الراهن حضارات مختلفة، حيث تمر فى صراعات ثقافية متنوعة ستقود إلى خلاصات لم تكن مقصودة أيضاً. وصيرورة الانتقال إلى المجتمع الحديث، وإحداث التسييس العميق، هى صيرورة حتمية ولا يمكن أن تفلت منها هذه المجتمعات. وهذا النقاش يقودنا إلى نتيجة أهم هى تفكيك «الجوهرانية الثقافية» واكتشاف تناقضاتها الداخلية، وإعطاء الأهمية الملائمة للظروف التاريخية وأثرها فى إنتاج الآليات الحضارية واستجابات الثقافات لها.

لكن هناك اختلافًا كبيرًا فى طبيعة «التحول» الذى تتعرض له المجتمعات غير الغربية خلال عبورها إلى طور المجتمعات الحديثة، عن ذات «التحول» الذى شهدته فى الماضى المجتمعات الغربية. وهذا الاختلاف يكمن فى أن التحول الراهن للمجتمعات غير الغربية يتم فى عالم يسيطر عليه الغرب ويؤثر فيه، بسبب الكولونيالية، والإمبريالية، والتفوق الراهن. وهذا يجعل من تأثير الغرب فى الآخرين أكثر بكثير من تأثير الآخرين فى الغرب. وإزاء هذه الحقيقة تعاملت المجتمعات غير الغربية مع تأثيرات الغرب بردود فعل متباينة، يمكن إجمالها فى أربعة ردود بشكل عام:

❖ الأول، هو تقليد الحداثة وتقليد النموذج الغربى باعتباره طريق المجتمع الحديث. ويستشهد سينجهاس هنا بالحركة الفكرية والسياسية التقدمية فى الصين فى العقود الأولى من القرن العشرين، التى انتقدت البنى المحلية والكونفوشيوسية انتقاداً حاداً واعتبرتهما عبئاً على التطور، والسبب الرئيسى فى الإذلال الذى تعرضت له الصين منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وللخروج من مأزق التخلف جربت الصين حلولاً مثل الدستورية، القومية، الديموقراطية، الاشتراكية، وغيرها من أشكال ومنتجات المجتمع الحديث، وهى كلها تقليد لإنجازات حداثية. فى جنوب شرق آسيا نجح نموذج التقليد فى بلدين على الأقل نجاحاً باهراً هما كوريا وتايوان اللتان اشتغلتا على تبنى آليات «السداسى الحضارى» وترسيخه فى المجتمع بشكل مدهش.

❖ الثانى، هو معارضة الحداثة ومقاومتها. وهذه ردة فعل طبيعية، فهنا، وكما يقول سينجهاس، وفى كل حالة يقع فيها التحول الكبير من المجتمع التقليدى إلى الحديث، فإن «حراس الماضى» ينتفضون على شكل محافظين، أو تقليديين، أو أصوليين، للدفاع عما يرونه أصالة مجتمعهم. فكما فى روسيا، أو الهند أيام غاندى، أو الأصولية الإسلامية الراهنة، فإن معاداة الغرب ومعاداة التحديث يبرزان على نفس الصعيد.

❖ الثالث، هو حل انتصاف التحديثيين، حيث يريد هؤلاء فتح أقصى الأبواب للتكنولوجيا الغربية



الحديثة، مع تنقيتها من التأثيرات الثقافية، والحفاظ على ما هو محلى. وهنا فإن تجربة اليابان تعتبر النموذج الذى يشار إليه، حيث اعتمدت تلك السياسة منذ إصلاحات الامبراطور الميجى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. كما أن النموذج الاشتراكى الشرقى تبنى أيضاً هذه الأطروحة، لحماية المجتمع من «القيم الغربية الضارة». بل إن بلداً مثل ألمانيا فى عقود العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين كان حريصاً على المحافظة على «القيم الألمانية العميقة» ضد القيم الغربية الضحلة، مع ضرورة استيراد التكنولوجيا. واليوم يتجسد هذا الخيار فى الحركات الإسلامية الأصولية، وفى «مدرسة سنغافورة»، حيث ليس هناك ممانعة من استقطاب تكنولوجيا الغرب، لكن مع محاربة تأثيراته الثقافية. وفى الحالة الأخيرة، النموذج السنغافورى، يتم رفض القيم الفردية الغربية للحفاظ على قيم العائلة التى هى أساس فى «القيم الآسيوية».

❖ الرابع، هو الاختراع والابتكار لمواجهة التحولات الجديدة الناشئة عن الانتقال من التقليدى إلى الحديث. وأحد الأمثلة هنا هو ما حدث فى غرب أفريقيا بعد مرحلة نزع الاستعمار، وبروز الدعوات إلى هوية أفريقية، وشخصية أفريقية، بل أيضاً إلى «الوحدة الأفريقية» وهى الفكرة التى قادها ونظر إليها الزعيم كوامى إنكروما. وكانت الهوية الأفريقية التى دعا إليها تتكون من ثلاثة مكونات: التراث الأفريقى التقليدى، الإسلام (حيثما وجد فى القارة)، والإفادات من الثقافة الغربية المسيحية. إسلامياً، حاول مفكرون مسلمون إنتاج ما يسمى «إسلامية المعرفة»، كبديل أصيل عن المعرفة الغربية. غير أن السعى نحو الابتكار يطرح أسئلة بقدر ما يقدم أجوبة. فالقرآن يحث أتباعه على الشورى وتبنى هذا المبدأ، لكن السؤال الذى ما زال لم يجد إجابة عليه هو كيف يمكن تطبيق هذا المبدأ عملياً، وما هو الشكل الدستورى الإسلامى وكيف يختلف عن الغربى. لكن فى كل الأحوال فإن ما هو حتمى هنا هو أن مدرسة الابتكار لا يمكن أن تنجح فى اجتراح أى حل من الحلول من دون الانفتاح السياسى.

يرى سينجهاس أن الصيرورة التى مرت فيها المجتمعات الأوروبية لا مناص عن المرور فيها من قبل بقية المجتمعات، وهى تبدأ بتراكم التحديات الحديثة التى تواجه المجتمع التقليدى، والخضوع لمنطق البحث عن مخارج للمآزق الجديدة. وهنا يتم فى العادة طرح العودة إلى الأصول، والهوية، والتقليد لمواجهة تلك التحديات. ثم تفشل تلك الطروحات بسبب تعقد المشكلات وتداخلها بشكل يفوق قدرة أى حل تقليدى على استيعابها، ومن بعد ذلك تتجه المجتمعات نحو تبنى «السداسى الحضارى» وآلياته بالتدريج.

وإزاء النظرة إلى الحضارات القديمة وفلسفاتها، يطرح سينجهاس السؤال: هل هناك فائدة من العودة إلى تلك الثقافات، وإعادة التأمل فى ما جاءت به؟ والإجابة التى يقدمها المؤلف على هذا السؤال، من خلال معالجته للفلسفات الصينية، والإسلامية، والهندوسية، والبوذية، هو الإيجاب. والسبب الكبير فى ذلك هو أن كثيراً من مكونات تلك الثقافات والمفاهيم التى دعت إليها فى مرحلة ما من مراحلها، تتواءم وتتناسب مع عناصر المجتمع الحديث. فمثلاً هناك قيمة التعددية التى هى محور من محاور المجتمع الحديث، وهى قيمة تتجسد بكل وضوح فى الفلسفة الصينية، والهندوسية، والإسلامية، سواء على صعيد التقعيد الفكرى النظرى، أم صعيد الممارسة والتجربة التاريخية لهذه الثقافات. ويرى سينجهاس، محقاً، أن نفض الغبار عن كثير من العناصر القديمة ذات الصلاحية الجديدة والمعاصرة سوف يساعد على تحديث المجتمعات وتقبلها لصيغ من الحداثة بكونها أصيلة، وباعتبارها منتجاً محلياً وليس مستورداً.

وفيما خص المجتمعات الإسلامية فإن سينجهاس يرى أن التحدى الأساسى الذى يواجه تنميتها وتطويرها هو تحدى التعددية. وفى نقاشه لتجربة الحضارة الإسلامية، فى الفصل الثالث، يلحظ أن غنى هذه الحضارة يكمن فى التنوع والاختلاف الواسع والقدرة على الاستيعاب لشعوب، وحضارات، وأفكار، ومذاهب، أى بلغة العصر تعددية قصوى وناجحة. لكن العصر الحالى، متمثلاً بالدول الإسلامية، يشهد غياباً فاجعاً لهذه القيمة المركزية. وبالتالى فإن إحدى الطرق الجزئية لتحديث المجتمعات الإسلامية هى فى إعادة تسليط الضوء على الاتجاهات التعددية فى الثقافة الأصيلة. وهو يدعو إلى بعث الفكر العقلانى والتنويرى مثل فكر ابن رشد والفارابى وابن خلدون وفكر مدرسة المعتزلة، وأنه من دون إعادة الاعتبار للعقلانية الإسلامية فإنه من الصعب تخيل خروج المجتمعات الإسلامية من الأزمات الثقافية والاجتماعية والسياسية التى تعصف بها. فعمليات التحديث الجزئى التى انخرطت فيها هذه المجتمعات أفضت بها إلى منتصف الطريق، فلا هى قادرة على الاستمرار فى طريق الحداثة خشية الانقطاع عن تراثها وهويتها، ولا هى قادرة على

التوقف والجمود على ما هى عليه. وربما كان الحل هو استدعاء مفردات الحداثة الموجودة فى الثقافة نفسها وإعطاؤها سمة عصرية. ومادامت الأزمات الخانقة التى تعكس المأزق الذى تواجهه هذه المجتمعات باقية، فستظل تنتج تعبيرات متطرفة عن تلك الأزمات، وغالباً ما تأتى على شكل توترات تأخذ شكل الدفاع عن الهوية.

لا بد للمجتمعات الإسلامية من أن تنخرط فى مشروع نقد ذاتى معمق، يعيد إنتاج الفكر الإسلامى بطريقة عصرية تسهل دخول هذه المجتمعات العصر الذى تعيش فيه، لا أن تظل على هامشه. وهذه المهمة لا يمكن أن تتم إلا من خلال التجديد والاجتهاد الذى يطالب المؤلف بإحيائه. وهنا يشير المؤلف إلى أن أشكال المجتمع الحديث تتنوع فى علمانيتها، وأن أحد الأشكال لا تتطلب الفصل الصارم بين الدين والدولة، وهو ما يفترضه ويطلبه النموذج الفرنسى مثلاً، بل هناك النموذج الألمانى والبريطانى للعلمانية حيث يتصالح الدين بشكل أكثر يسراً مع الدولة، فالكنيسة فى هذين البلدين موجودة وفاعلة، ومتداخلة مع الدولة، لكنها مع ذلك لا تتصارع معها فى الميدان السياسى.

فى المجتمعات البوذية يرى سينجهاس أن المعضلة تأخذ شكلاً آخر، فبسبب طبيعة الديانة البوذية، وفكرة إعادة استنساخ الأرواح والأفراد فإن إحساس الناس بمفهوم المواطنة إحساس ضعيف. وبالتالى فلا يمكن تكريس أشكال المجتمعات الحديثة من دون مصالحة مفهوم الدولة والمواطنة مع مفاهيم البحث عن الخلاص وعودة أرواح الأفراد بأشكال جديدة. وبسبب غلبة النظرة الأخلاقية فى التعاليم البوذية فإن تقييم فكرة الدولة أو السلطة يقوم على أساس ما إن كانتا تقدمان إطاراً أو نظاماً للأخلاق والفضيلة، أكثر من كونهما يقدمان نظاماً للاستقرار وعدم الفوضى (كما تركز الفلسفات الصينية مثلاً، بتأثيراتها الكونفوشيوسية).

على صعيد الهندوسية يلتقط المؤلف قضية مركزية وهى أنه ليس هناك أولاً شىء اسمه الديانة الهندوسية، بل هناك ديانات متعددة يدين بها الهندوس. لكن تعميم لفظة «الهندوسية» جاء عن طريق الاستشراق الأوروبى الذى كان يميل إلى التعميم، واختراع الأوصاف الجامعة. والتعددية الروحية والدينية التى تتصف بها «الهندوسية» مدهشة إلى درجة كبيرة. وأن هذه التعددية قد تمثل الأساس النظرى لتطوير فكرة التعددية السياسية فى تلك المجتمعات. غير أن المعضلة الكبرى التى تواجه مجتمعاً هندوسياً كالهند هى فى وجود نظام الطبقات الاجتماعية وقوة نفوذه رغم مرور أكثر من نصف قرن على قيام الدولة العلمانية هناك. وبالتالى فإن ما يراه سينجهاس هو ضرورة عبور الجسر الذى يصل بين التعددية الروحية والدينية إلى التعددية السياسية القائمة على المساواة الاجتماعية والقانونية بين الأفراد.

كل هذا الحديث عن الحضارات والثقافات من داخلها يقصد به التدليل على تنوع واختلاف تلك الحضارات، وعلى الصراعات التى تتعرض لها، ولأنها أكثر حدة فى بعض الأحيان والمراحل من الصراعات التى يفترضها هانتنجتون بين الحضارات المختلفة. وهنا فإن النقد الأهم الذى يطرحه سينجهاس لهانتنجتون يكمن فى ميل هذا الأخير إلى تقسيم العالم إلى سبع حضارات جامدة وبتقسيم صارم: الحضارة الغربية، الحضارة الكونفوشيوسية، الحضارة الهندوسية، الحضارة الصينية، الحضارة الإسلامية، ... ويضيف، وربما الحضارة الأفريقية، والحضارة الأمريكية اللاتينية. هذا التقسيم يغفل أولاً أن داخل كل حضارة هناك حضارات أو ثقافات تتباين قبل أن تتشابه، ولا يمكن بالتالى جمعها فى مظلة واحدة. ويغفل أيضاً مراحل تطور الحضارات، وحيث تصبح مكونات أو مناطق أو دول فى «حضارة أو ثقافة ما» أقرب إلى مكونات أو مناطق أو دول فى حضارة أخرى منها إلى الحضارة التى تنتمى إليها نظرياً. فاليابان مثلاً أقرب إلى بريطانيا منها إلى الصين أو أية دولة آسيوية أخرى. ويثبت سينجهاس أن افتراض التوحد القسرى داخل كل حضارة بناء على الثقافة هو افتراض هش علمياً، وكذا افتراض أن صراعها الأساسى هو مع الآخرين. فالحروب الكبرى فى القرن العشرين، وقعت داخل الحضارة الغربية. وإذا كانت أطول حرب فى ذلك القرن، الحرب اليابانية الصينية، قد حدثت فى إطار آسيوى، فإن ثانى أطول تلك الحروب، الحرب العراقية الإيرانية، وقعت داخل إطار الحضارة الإسلامية. وهكذا فأين هى صراعات الحضارات التى يتحدث عنها هانتنجتون؟ ■

كتاب الزاوية

معبد بيلوس

معبد بيلوس بناء مربع الشكل يحتوى على برج فى داخله، وأقيمت فوقه ثمانية أبراج أخرى يتضاءل حجمها تدريجيًا، ويشكل أعلى واحد منها المعبد نفسه الذى تضم حجرته الداخلية منضدة ذهبية. ولكن لا وجود للتماثيل هناك. وخارج البرج وضمن حدوده ثمة مذابح ذهبية خصصت للقرابين، ولدرء خطر فيضان نهر الفرات من إغراق المدينة، نظراً لأن الماء فى الصيف كان يرتفع ارتفاعًا كبيرًا بسبب ذوبان الثلوج المنحدرة من جبال أرمينيا وكردستان، فقد شقت قناتان على مسافة بعيدة من بابل لنقل الماء إلى نهر دجلة حيث تربو تلك المسافة على خمسين ميلاً، وهناك بحيرة واسعة تبلغ مساحتها قرابة أربعين ميلاً مربعًا وعمقها خمسة وثلاثين قدمًا، حفرت لتحويل الماء بواسطة سدود تتحكم به ولتكوين خزان مائى، بالإضافة إلى تزويد السكان بالماء وزراعة المناطق الريفية المحيطة التى وصفت بأنها شديدة الخصوبة من خلال ما يرى فيها من أعناب وفاكهة فضلاً عن القمح.

وعندما غزا الإسكندر مدينة بابل حوالى ٣٢٥ ق.م. كانت تحدوه رغبة فى ترميم ما دمرته الحروب، خاصة القصور الرئيسية والمعابد، وكان معبد بيلوس آنذاك كدسًا كبيرًا من النفايات لدرجة بات معها أمر إصلاحه وترميمه مهمة عسيرة.

■ يُنجز الفنان يوسف شاهين فى هذه الأيام فيلمه الجديد الذى يؤرخ فيه لمسيرته الفنية ولعلاقته المتوترة بالغرب (الأمريكى) بعنوان «اسكندرية.. نيويورك» وهذا الفيلم الذى قد يمكن اعتباره الجزء المكمل لثلاثية يوسف شاهين الذاتية («اسكندريه ليه»، «حدوتة مصرية»، «اسكندرية كمان وكمان») يتابع أربعين عاماً من حياة هذا الفنان العربى الكبير. وللمناسبة يصدر قريبًا كتاب عن يوسف شاهين وسينماه للناقد إبراهيم العريس. وهنا فصل من هذا الكتاب يتناول فيه الناقد، السينما التاريخية الشاهينية من خلال ثلاثة أفلام لشاهين هى «الناصر صلاح الدين» و«المهاجر» و«المصير».. وهى أفلام تغوص فى التاريخ مباشرة على عكس أفلام أخرى لشاهين يمكن اعتبارها «تاريخية» بدورها، لكن دنوها من التاريخ يأتى بصورة غير مباشرة.

المحــرر

يوسف شاهين التاريخ الأنا الآخر

إبـراهـيـم الـعـريـس

■ خدمت الشاشة شاهين دائمًا، والكاميرا بالتالى، كمكوك يستقله ليقوم بواسطته فى رحلاته عبر التاريخ، التاريخ السياسى المباشر (كما فى «جميلة» أو «ثلاثية الهزيمة») والتاريخ الشخصى (كما فى «الثلاثية الذاتية») أو حتى فى تاريخ السينما، غير أن سينما شاهين ظلت فى هذه الحالات كافة واقفة عند القرن العشرين لا تتخطاه ولئن كان شاهين قد أقدم فى «الناصر.. صلاح الدين» على تحقيق فيلم لم يكن فيلمه، فى بداية الأمر، فإنه لاحقا منذ العام ١٩٨٥، عاد ليبارح القرن العشرين محققاً ثلاثة أفلام تاريخية بالمعنى المتعارف عليه لعبارة سينما تاريخية، لكن المفارقة الأساسية تكمن فى أن الأفلام الثلاثة التى نتحدث عنها هنا، وهى «وداعاً يابونابرت» ١٩٨٥ و«المهاجر» ١٩٩٤، و«المصير» ١٩٩٧ ستبدو، ما إن نخضعها لتحليل ما الأكثر ذاتية بين أفلام شاهين إن نحن استثنينا ثلاثية الذات المباشرة المؤلفة من «اسكندرية ليه» و«حدوتة مصرية» و«اسكندرية كمان وكمان».

ذلك أن يوسف شاهين، بعد تجربته التاريخية فى «الناصر صلاح الدين» لم يبدُ أبدا راغباً فى أن يدنو من أى تاريخ دنواً موضوعياً، فهو سينمائى أولاً وأخيرا، وليس أستاذ تاريخ ولا مؤرخاً. فإذا كان حتى حين اقترابه من الحروب الصليبية ومآثر صلاح الدين الأيوبى فى فيلمه العائد إلى العام ١٩٦٣، قد عرف كيف «يستولى» على موضوع ليس له ويحمّله قدر ما سمحت له به الظروف، ببعض أفكاره الخاصة عن التسامح والعلاقة مع الآخر وجدوى الحروب، ما الذى يمنعه فى «الثلاثية» الجديدة من أن يفعل هذا وأكثر؟ وما الذى يمنعه من أن يستحوذ على تلك المراحل التاريخية الثلاث التى موضَع فيها حكايات أفلامه لكى يحمّلها بما فى داخل ذاته من أفكار؟

فى الافلام الثلاثة التى نتحدث عنها هنا، لدينا، أولاً، زمن حملة بونابرت على مصر، ثم زمن الفراعنة وولادة الأديان التوحيدية فى إرهاصاتها الأولى على يد أخناتون، واخيراً زمن الأندلس وولادة الفكر النهضوى الانسانى. فى الحالات الثلاث، إذن لدينا ما يشبه الانعطافة فى تاريخ الفكر والدول، غير ان هذا لم يعنِ شاهين إلا بمقدار ما رأى فى ذلك كله «سلاحاً» يمكنه استخدامه فى «معاركه» الراهنة وفى تعبيره عن ذاته المشاكسة ولكن الساعية دائماً إلى التواصل مع الآخر.

ومن هنا إذا كان شاهين اختار أن يدنو فى سينماه من لحظات انعطافية، فإنه اختار فى الوقت نفسه أن يكون ذلك الدنو ذاتياً، وهكذا، حتى لئن كان الفرعون حاضراً فى «المهاجر» فإن البطولة الأساسية معقودة للشاب رام، طالب العلم الغريب الذى قصد مصر ليتشبع بالعلم الذى به قد يسدى خدمة إلى بلاده، ولئن كان الخليفة حاضراً فى الدولة الأندلسية أيام عزها، فإن الاساس فى «المصير» كان لابن رشد، الفيلسوف، ولطلاب العلم وأنصار الفن فى صراعهم مع القوى الظلامية المتشددة، وأخيراً إذا كان نابليون بونابرت قد حضر، بكل زخم حركته التاريخية فى «وداعاً يا بونابرت» فإنه ليس هنا الشخصية الرئيسية. الأهمية القصوى معطاة، هنا لكافاريللى، العالم الذى يرافق بونابرت فى حملته لأسباب علمية لا عسكرية ولا سياسية والذى، هو، يعرف كيف يقيم علاقة مع سكان البلاد المحتلة ومع حضارتها، وفى الحالات الثلاث أيضاً تخوض الشخصيات التنويرية (أو الساعية إلى التنوير) الثلاث، صراعاً ضد السلطة وسياساتها وعسكرها. إنه صراع العقل ضد جبروت القوة، بصرف النظر عمن سيخرج فى نهاية الفيلم منتصرا.

ويقيناً هنا أن شاهين الذى أحس حين تحقيق «الناصر.. صلاح الدين» أن هناك اشياء كثيرة لم يتمكن من قولها فى هذا الفيلم، الذى كان فى الأساس إنتاجاً ضخماً املته ظروف سياسية محددة، عاد بعد أكثر من عقدين ليسائل السينما فى علاقتها بالتاريخ، ويسائل الذات فى علاقتها بالآخر. ومع هذا، فى معنى من المعانى، يمكن النظر إلى «الناصر.. صلاح الدين» باعتباره نوعاً من التمهيد للثلاثية التاريخية اللاحقة، منتمياً اليها من ناحية خروجه عن القرن العشرين واستناده إلى أحداث تاريخية حصلت حقاً، وإن كانت مستخدمة الآن. أى زمن تحقيق الفيلم. لغايات أيديولوجية بحتة.

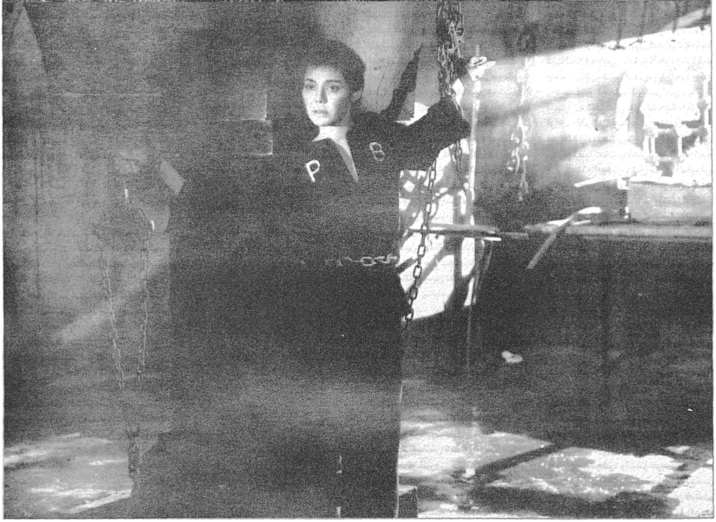
«الناصر.. صلاح الدين» من الماضى إلى الحاضر:

مبدئياً كان من المفروض بفيلم «الناصر.. صلاح الدين» أن يكون من إخراج عز الدين ذو الفقار، ذلك أن الفيلم كان مستنداً إلى فكرة غايتها من ناحية تمجيد التسامح العربى الإسلامى، والحث على الوحدة العربية ومن ناحية ثانية إقامة توازى بين بطل الماضى صلاح الدين وبطل الزمن الراهن جمال عبد الناصر. ويوسف شاهين، رغم ناصريته المعلنة فى ذلك الحين ونزوعه نحو الأفكار العروبية والاشتراكية، لم يكن معروفاً بقوة تحليله ووعيه السياسى، أما عز الدين ذوالفقار فكان أثبت تضلعه فى الأمر عبر عدة أفلام منها «رد قلبى» الذى كان من افضل ما حقق عن ثورة الضباط الأحرار، لكن المنتجة آسيا داغر. التى كانت مشاركة للسلطات الرسمية فى إنتاج الفيلم. تبنت اختيار عز الدين ذوالفقار لشاهين بدلاً منه إذ وقع ذو الفقار ضحية مرض عنيف، وهكذا، وجد شاهين نفسه، وهو الخارج من واحدة من أكثر حقب حياته المهنية ظلاماً عبر أربعة افلام ميلودرامية حققها تباعًا بين ١٩٥٩ و١٩٦١، وجد نفسه أمام مشروع كتب بمعزل عن أفكاره واهتماماته السينمائية ومع هذا لم يتردد. قبل بسرعة وسيقول لاحقاً أنه كان يبذل جهداً كبيراً فى إحداث بعض التبديلات اليومية فى السيناريو والحوارات، حتى يمكنه أن يتبنى الفيلم تماماً، وفى نهاية الأمر بعد شهور من العمل وبفضل مساعدات قدمها الجيش المصرى، أنجز شاهين الفيلم الذى كان حتى ذلك الحين أكثر الأفلام كلفة فى تاريخ السينما المصرية، وبسرعة أدرك الناس حتى من دون مشاهدة الفيلم، ولدى قراءة عنوانه مدى الربط الذى يقيمه بين الماضى والحاضر. ومن نافلة القول أن شاهين لم يندم على ذلك بدليل أنه سيعاود الكرة ويؤكد هذا الربط دائماً فى أفلامه التاريخية اللاحقة.

إذن، منذ ذلك الوقت المبكر حدّد شاهين وظيفة السينما التاريخية: إنها ليست مجرد رسم الأحداث التى حصلت فى الماضى، انطلاقًا من نظرة موضوعية باردة، الحقيقة التاريخية ليست مهمة هنا فالتاريخ يمكن تعلمه فى المدارس والأكاديميات، أما ما يهمنا منه فهو مدى انعكاسه علينا غير أن «علينا» هذه، أيام «الناصر صلاح الدين»، كانت تعبر عن المجتمع وعن الأمة ككل، وهنا لابد أن نشير إلى أنه حتى ولو كان قد قيّض منذ البداية لشاهين بأن يكون هو صاحب المشروع وكاتبه، لما كان من شأنه، فى ذلك الوقت المبكر أن يحول الـ«نحن» إلى «أنا». الذات كانت لا تزال خفية لديه حتى وإن كانت أطيافها موجودة منذ فيلم «بابا أمين». فى زمن «الناصر صلاح الدين» لم يكن شاهين قد اخترع «سينما السيرة الذاتية» (أو إعادة اختراعها على طريقته) إذ فى تلك

من فيلمه جميلة بوحريد



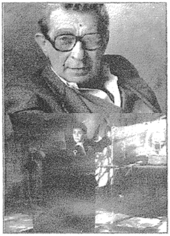

P
B

الحقبة كان شاهين لا يزال صاحب فكر جماعى، مؤمناً بالتقدم السياسى والوحدة العربية.

غير أن هذا لم يمنعه، منذ ذلك الوقت المبكر، وعلى عكس ما كان الوضع مع آخر فيلم «جدى» كان حققه قبل «الناصر صلاح الدين» أى «جميلة الجزائرية»، لم يمنعه من أن ينظر إلى الآخر، وإلى ضرورات التلاقى الحضارى نظرة ستتطور وتتبلور لديه كثيراً لاحقاً، نظرة تبتعد إلى حد كبير عن لعبة الاسود والأبيض الكأداء فإذا كان صلاح الدين الأيوبى نفسه وحسب ما تروى لنا كتب التاريخ التى نفخر بها نحن العرب، قد تسامح مع أعدائه إلى حد مداواته ريتشارد قلب الأسد، هل علينا نحن أن نكون أقل انفتاحاً على الآخر مما كان صلاح الدين؟

والحال أن هذه الفكرة التى كانت جنينية فى «الناصر صلاح الدين» ستشكل لاحقاً أساساً من أسس علاقة شاهين بالسينما وبالفكر، وستجر عليه المشاكل أيضاً، غير أننا هنا، لا نزال ابكر من أن نتوقف عند هذا الأمر. هنا لانزال فى وسط المصالحة بين الفنان والسلطة . التى يخدمها فى فيلمه . ولا تزال المصالحة قائمة بين المجتمع والسلطة أيضاً، فبداية الستينيات على رغم بعض الانتكاسات التى جابهت العهد الناصرى (الانفصال مثلاً، وبدايات الصراعات العربية المسلحة . حرب اليمن) كانت لاتزال تشهد امتدادات الصعود القومى، وكان الصراع الأساسى قائماً ضد ذلك «الآخر» الغربى الذى نمارس تجاهه لعبة الجذب والنبذ ونود لو نفتنه ونذكره بماهيتنا وبمواقفنا تجاهه.

ونحن نعرف أن حكاية «الناصر صلاح الدين» تنتمى إلى الحقيقة التاريخية فى خطوط أحداثها العامة، لكننا نعرف ايضاً أن التفاصيل قد لا تكون حقيقية كلياً. كل ما فى الأمر أن شاهين . ومن قبله صاحب الفكرة يوسف السباعى، وكتّاب السيناريو نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى وأيضاً عزالدين ذوالفقار الذى كانت له مساهمته. قبل تخليه عن الفيلم استحوذوا على تلك الأحداث، ثم أعاد خلط التواريخ والشخصيات بشكل قد يبدو «متهافتاً» للمؤرخين كما ستكون الحال لاحقاً مع أفلامه التاريخية التالية، وحتى مع أفلامه غير التاريخية. وذلك لخدمة الأيديولوجيا التى كان مطلوباً منه أن يعبر عنها، من ناحية، ولإرضاء أفكاره الخاصة من جهة ثانية، ويمكننا بالطبع خارج إطار الأخلاقيات العامة، مثل التسامح والانفتاح على الآخر،



حدد شاهين وظيفة السينما التاريخية: إنها ليست مجرد رسم الأحداث التى حصلت فى الماضى، انطلاقاً من نظرة موضوعية باردة، الحقيقة التاريخية ليست مهمة هنا فالتاريخ يمكن تعلمه فى المدارس والأكاديميات، أما ما يهمنا منه فهو مدى انعكاسه علينا

وانتماء الجميع إلى أديان سماوية لا ينبغى للصراعات الدنيوية أن تؤثر عليها، يمكننا أن نرى فى سياق هذا الفيلم (المشغول بحرفية كبيرة، ذلك أنه كان أول فيلم ملون لشاهين الذى لن يعود بعده إلى السينما الأسود والأبيض أبداً، كما كان أول فيلم يستخدم أعداداً كبيرة من المجاميع، ويحصر فى ساعات عرضه، الثلاث تقريباً، أحداثاً تاريخية امتدت فى الزمن الحقيقى عقوداً من السنين) بعض الأفكار الأساسية التى سيظل شاهين يهجس بها دائماً: مثل موقع الحب وسط عواصف الحروب والكراهية . ودور العلم والعقل، لا القوة، فى الانتصار فى الحروب وفى بناء الحضارات . والانتماء الحتمى للأقليات المسيحية للبيئة التى تعيش فيها . إن سمات صلاح الدين وانفتاحيته تبدو مستقاة مباشرة، ليس من كتب التاريخ، بل من واقع إسكندرية شاهين نفسه، والدمشقى ذلك العالم الذى يشغل عقله من أجل الانتصار ليس سوى إرهاص بدور المثقفين فى صنع الانتصارات.

صحيح أن السنوات التالية من حياة شاهين ومساره المهنى، ستشهد تبديلاً أساسياً فى نظرته إلى دور المثقف (خيانة المثقف كما قد يقول جوليان بندا) لكن شاهين، حين يحين موعد تحقيقه أفلامه التاريخية، بالمعنى الحرفى للكلمة، الثلاثة التالية، سيكون قد استعاد إيمانه بدور العلم والتنوير، ودور المثقفين فى مجتمعه، ناهيك بإصراره على مفاهيم شغلت باله دائماً مثل التلاقح الحضارى، وهذا سنلاحظه من خلال الشخصيات الأساسية التى ستملأ مشاهد وحكايات تلك الأفلام، من كافاريللى فى «وداعاً يا بونابرت» إلى رام فى «المهاجر» وصولا طبعاً إلى شيخ المثقفين فى سينما شاهين: ابن رشد الذى سيكون بالنسبة إليه فى فيلم «المصير» الرد الطبيعى على مثقفى «الأرض» و«العصفور» و«الاختيار» و«عودة الابن الضال»، والذى سيوصله إلى ذروة المصالحة مع شخصية المثقف ودوره، وسنعرف لماذا، حين نقترب بالتحديد من «المصير».

«وداعاً يابونابرت»
الآخـــر آخـــران..

اثنتان وعشرون سنة هى الزمن الذى يفصل بين «الناصر صلاح الدين» و«وداعا يا بونابرت». وهى سنوات شهدت تغيرات جذرية فى مصر والعالم العربى والعالم، وكذلك فى حياة يوسف شاهين ومساره الفنى . وبالنسبة إلى هذا المسار الأخير، كانت تلك السنوات هى التى شهدت تحقيقه لأهم أعماله بدءاً بتحفته «الأرض» وصولاً إلى بدء ثلاثية الذات كما جاء معنا، وعلى رغم أن الاستقبال العربى العام الذى كان من نصيب «الناصر صلاح الدين» تبدى أفضل ألف مرة وأرحم ألف مرة من الاستقبال الذى سيكون من نصيب أول أعماله التاريخية الجديدة «وداعاً يا بونابرت»، فإن ما لابد لنا من قوله هنا هو أن مكتسبات كل تلك السنين على المستوى الفنى كما على مستوى الوعى، تلوح مباشرة عند المقارنة بين الفيلمين، وعلى ضوء هذا يبدو فى يقيننا أن فشل «وداعاً يابونابرت» لدى المتفرجين العرب، إنما نتج عن سوء فهم واضح. فالمتفرج العربى كعادته، وهو الغارق فى الأيديولوجيا حتى أذنيه، كان يريد من شاهين، إذ يقدم مرة أخرى على رسم صورة علاقة «النحن» بالآخر فى فيلم يطاول حملة بونابرت على مصر، وهى إحدى المسائل الأكثر إثارة للجدل فى تاريخ الفكر العربى الحديث، كان يريد منه أن يهاجم الحملة دون هوادة وأيضاً من منطلق إزدواجية الأسود والأبيض: «نحن» دائماً على حق، ومظلومون و«الآخر» دائماً على خطأ وظالم. وفى هذا الإطار من الواضح أن المتفرج العربى لكى لا نقول أيضاً: النخبة العربية . لا يريد أن يرى أية ديالكتيكية فى العلاقة بين الأنا والآخر. واللافت هنا أن النخب العربية الحديثة والجمهور نصف الواعى من ورائها يبدوان متخلفين عن النخبة العربية أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، التى من دون أن تفوتها تطلعات بونابرت الاستعمارية فى حملته أدركت، على خطى الجبرتى والعديد من المتنورين المصريين الذين عايشوا زمن الحملة، رأت المكاسب النهضوية التى تحققت للفكر العربى وللحداثة العربية، ليس بفضل الجانب العسكرى من الحملة، بل تحديداً بفضل جانبها الأهم. بالنسبة إلى تلك النخبة :. الجانب العلمى. وهذه الجدلية لم يكن لسينمائى واع. وربما مشاكس. مثل يوسف شاهين ان يرفض رؤيتها، بل كانت همه الذى أملى عليه الاندفاع لتحقيق هذا الفيلم.

والحال أن الصراع الرئيسى فى «وداعا يا بونابرت» ليس الصراع بين الفرنسيين والمصريين ثم العرب، حتى وإن كان هذا الصراع حقيقياً وأسفر عن ضحايا ثم عن هزيمة بونابرت. الصراع الرئيسى لدى شاهين هو بين بونابرت وبين فرنسى آخر هو كافاريللى، أحد العلماء الذين

رافقوا الجنرال الشاب الطموح فى حملته، ولنتذكر هنا أن بونابرت (الذى قام بدوره بكل براعته الفرنسى باتريس شيرو) لا يظهر فى الفيلم إلا لماماً، وهو فى كل مرة يظهر فيها يتبدى لنا عرضة للسخرية ولا سيما من قبل كافاريللى، الذى تروى أحداث فيلم شاهين من منظوره دون أدنى لبس أو غموض ولنلاحظ أن شاهين يدخلنا هذه الجدلية منذ يتلفظ بونابرت بعبارته الشهيرة المتعلقة بالأربعة آلاف سنة التى تنظر إلى وجود الفرنسيين فى مصر من أعلى الأهرامات. إن شاهين يدخل لعبته منذ تلك اللحظة. إذ ما إن ينتهى الجنرال من عبارته المأثورة التى يصورها شاهين ليلاً ومن بعيد، حتى يبتسم كافاريللى (ميشال بيكولى) ساخراً ويتمتم بما معناه: «ها هو هذا الأحمق عاد إلى أسطواناته مجدداً».

منذ تلك اللحظة إذن يموضع شاهين فيلمه فى سياق فكره هو، لا فى سياق الحدث التاريخى نفسه، ويقول لنا بكل وضوح إن هذا الحدث التاريخى لا يهمه بأية حال من الأحوال، ما يهمه هو ما جاء كافاريللى ليفعله فى هذه البلاد، لا ما جاء من أجله بونابرت.

ما جاء من أجله بونابرت يمكن التعرف عليه فى كتب التاريخ.

أما كافاريللى فهو ما يهم سينما شاهين. لماذا؟ ربما لأن كافاريللى يمثل جانبا من شخصية شاهين فهو بساقه المقطوعة ومحاولته الاندماج فى حياة المصريين (ولو عن طريق إقامة علاقة غرامية بالفتى يحيى ثم بأخيه على) إنما يرهص بشخصية رام فى «المهاجر» وبشخصية جوزف ابن جيرار بروى فى «المصير». غير أن شاهين لا يفوته هنا أيضاً أن يلقى باللائمة على كافاريللى. ولعله هنا يقارب النقد الذاتى فى شكل من الأشكال. وفى هذا الإطار تكون مهمة تلك العبارات التى يلقيها على، بعد موت أخيه يحيى وفيما يكون كافاريللى على فراش الموت، آخذا على هذا الأخير أنه إذ جاء ليعلم ويتعلم اقتصر دوره على أن يعلم، ولم يتعلم حتى ولا لغة القوم الذين أتى ليحبهم ويعيش بينهم. إن شاهين يبدو هنا قريباً جداً من منطق كان عالم الأنثروبولوجيا الفرنسى كلودليفى ستراوس عبر عنه فى واحد من أهم كتبه «حكاية اللنكس» إذ تحدث عن استقبال الهنود الحمر لكريستوف كولومبوس حين اكتشف هذا الأخير القارة الأمريكية، كان الاستقبال حفلاً صاخباً لكن الأوروبى الأبيض لم يفهم كنه ذلك الترحيب بل ذبح مستقبليه مفوتاً على الغرب واحدة من تلك الفرص التى أبدع دائماً فى تفويتها.

كافاريللى كذلك لم يلتقطها، حتى وإن لم يكن على السوء الذى كان عليه كولومبوس، أو بونابرت، ومن هنا على رغم أن شاهين يرسم شخصية هذا العالم رسماً إيجابياً، فإنه لا يعفيه من الملامة هو الآخر، وعلى لسان على، الذى . هو . تعلم الكثير من كافاريللى وأحبه بصدق.

واضح أن شاهين آثر فى هذا الفيلم المشغول بحرفية تقنية عالية أن يترك العام التاريخى الكبير ليغوص فى الخاص مواصلاً البحث عن أجوبة لأسئلة لا تكف عن إقلاقه منذ زمن بعيد، ولأن ما يقدمه شاهين هنا أسئلة لا أجوبة، نعود مرة أخرى لنقول أننا حتى ولو لمحناه. أى شاهين. من خلال شفافية شخصية كافاريللى، فإنه أيضاً حاضر من خلال شخصيتى يحيى وعلى.

هنا قد يكون السؤال مشروعاً حول أحقية الفنان فى أن يبدل التاريخ لمآربه الخاصة وان ينفق الملايين على فيلم «خداع» فى نهاية الأمر؟ ولكن مع يوسف شاهين ينعدم هذا النوع من الأسئلة، لان الرجل يرى أصلا أن هذا هو الدور الأساسى والحقيقى للسينما. والسينما كما يفهمها هو، إبداع فنى ينطلق من ذات الفنان ليصب فى الحياة، لا فى الواقع. ليس صدق الأحداث، ما يعنى شاهين هنا، ما يعنيه هو تفسير هذه الأحداث وقدرتها على أن توفر للمبدع/ الفن بوصفه سلاح الفنان الوحيد ونافذته على العالم، ولأن السينما الحقيقية/ الفن الحقيقى هى سينما الأسئلة والقلق ولأن يوسف شاهين هو واحد من الفنانين الأكثر قلقاً فى تاريخ فنوننا العربية كان من الطبيعى له أن يجد ضالته من خلال حكاية الحملة البونابرتية، حاصلاً على التمويل حتى من الفرنسيين الذين أبداً لم يطالبوه بأن يكون رفيقاً مع بطلهم القومى المزيف ذاك. هم أنفسهم لم يكونوا رفيقين مع نابليون على الإطلاق.

والحال أننا إن لم نضع هذه الفرضيات فى ذهننا ونحن نتفرج على «وداعاً يا بونابرت»، سنبقى عند مستوى سوء التفاهم فى تعاملنا مع هذا الفيلم، بل سنعجز حتى عن فهم فيلمى شاهين التاريخيين الآخرين اللذين حققهما خلال السنوات التالية لتحقيق «وداعا يا بونابرت» وهما «المهاجر» و«المصير». وإذا لم ندرك أن شاهين مثل كل حرفى ماهر، يمكنه أن يصنع أى شىء من أى شىء ولا يتورع عن إعادة تركيب التاريخ على هواه . دون أن يزيف فى مجرياته الرئيسية بالطبع. لن نتمكن أبداً من فهم تلك الزاوية الأخرى التى جعلت «المهاجر» ممكنا وجعلته هو الآخر فيلما عن «سيرة شاهين الذاتية» حتى وإن دارت أحداثه فى زمن الفراعنة.



لأن يوسف شاهين هو واحد من الفنانين الأكثر قلقاً فى تاريخ فنوننا العربية كان من الطبيعى له أن يجد ضالته من خلال حكاية الحملة البونابرتية. حاصلا على التمويل حتى من الفرنسيين الذين أبداً لم يطالبوه بأن يكون رفيقا مع بطلهم القومى المزيف ذاك (نابليون)

«المهاجر» أطلب العلم ولو فى أرض الفراعنة:

منذ زمن بعيد جداً كان يوسف شاهين يحلم بتحقيق فيلم عن زمن الفراعنة. ولعل مشاهدته عدداً من الأفلام التى كانت تكثر فى هوليوود، وربما فى بعض أوروبا أيضاً. متحدثة عن ذلك الزمن ببهائه وانتفاضة الإنسان فيه ممسكاً مصيره للمرة الأولى فى تاريخ البشرية. كان هو ما حركه. ولكن كان من الواضح، بالنسبة إلى شاهين منذ البداية. أنه ليس ممن يحققون فيلماً عن ذلك الزمن يكتفى بأن يكون ذا بعد تاريخى فيلمه العتيد عن «الفراعنة» لا يمكنه إلا أن يكون معاصراً بل اكثر من هذا لا يمكنه إلا أن يكون ذاتياً.

فى هذا الإطار. لأن السينما. نقولها مرة أخرى ونكررها دائماً. ليست مجرد بحث نظرى يتعين عليه أن يكون دراميا، وجد شاهين ضالته فى حكاية توراتية تبنتها لاحقاً الأديان السماوية جميعاً، هى حكاية يوسف الذى غدر به إخوته وخيل إليهم أنهم تخلصوا منه بقتله. فإذا به يجد نفسه فى أرض الفراعنة ويكون له شأن هناك.

منذ البداية كان شاهين يعرف أن ليس فى إمكانه. وهو لا يريد ذلك أصلاً. أن يجعل من فيلمه تصويراً لحكاية يوسف، لم يكن هذا همه. كان همه أن يستمد من الحكاية الدينية عناصرها وأن يجعل من بطله. الذى هو صورته الذاتية. شبيهاً بيوسف، يعانى معاناته، ولكن لأهداف أخرى ترتبط بأهداف شاهين نفسه. ونعرف أن هذه الفوارق الجوهرية بين الشخصيتين. على رغم تشابه الاحداث. فاتت كل أولئك الذين لاحقوا شاهين بالتهديد وبالقضاء لكى يمنعوا عرض الفيلم حين أنجز. ليركزوا فقط على التشابه بين الشخصيتين ما خلق سوء تفاهم جديدا لم يكن شاهين فى حاجة إليه. ولكن إذا كان هذا انعكس سلباً، فإنه سرعان ما انعكس إيجاباً على الفيلم حيث إنه بفعل الضجة المفتعلة التى أثيرت من حوله، باتهامه بتصوير شخصية دينية تاريخية لا يجوز تصويرها، تدفق المتفرجون بمئات الالاف فى مصر وفى غيرها، لمشاهدة الفيلم. ما جعله أنجح أفلام شاهين على الإطلاق.

والحقيقة أن كثيراً من الذين كانوا يشاهدون فيلماً لشاهين على الشاشة الكبيرة للمرة

الأولى فى حياتهم لم يندموا على ذلك أبداً، ذلك أن هذا الفيلم يظل «الأجمل» و«الأغنى» فنياً من بين أفلام شاهين كلها. فإلى غنى الصورة (رمسيس مرزوق) ومتانة اللغة السينمائية والتوزيع الموسيقى والملابس والمونتاج التى فاقت كلها كل ما كان قدمه شاهين سابقاً (حتى قيل أن جمالية الفيلم طغت حتى على موضوعه، لكن هذه حكاية أخرى)، يمكن أن نضيف أن تعاون رفيق الصبان وخالد يوسف مع شاهين فى كتابة السيناريو، قفز مرة واحدة بمفهوم الوضوح إلى المواجهة ليسير الفيلم فى بعد خطى لا تلعثم فيه، بل إنه أتى فى نهاية الأمر فيلما بسيطا متمكناً من موضوعه، متيناً فى تعامله مع ممثليه مستفيداً إلى أقصى الحدود من الديكورات الجميلة.

ويقينا أن هذا كله ما كان من شأنه أن يرضى الشاهينيين الخالصين (وكاتب هذه السطور واحد منهم)، لذا لم ينل شكل الفيلم حظوة كبيرة لديهم لدى مشاهدتهم له للمرة الأولى، لكنهم سرعان ما أدركوا أن «المهاجر» واحد من أفلام الشاهينية التى تكشف عمقها بالتدريج كما تكشف شاهينيتها بعد حين. ذلك أن طابع «البطاقات البريدية» الذى يبدو للوهلة الأولى مسيطرا على الفيلم، والعلاقات «الخطية» بين الشخصيات (خصوصاً ان مآل تلك العلاقات لا يحمل مفاجآت بل يكاد يكون معروفاً سلفاً) وبعض الافتعال الذى يلوح فى اللجوء إلى استعراضات صاخبة الموسيقى، كل هذا سرعان ما يخلى المكان للبعد الأكثر الأهمية. بعد المعاصرة الخالصة فى هذا الفيلم.

فـ«المهاجر» بعد كل شىء وربما قبل كل شىء، فيلم معاصراذ تماماً كما أن رام فيه، المتوجه فى أرض القحل إلى مصر، هو شاهين (المتوجه من أجل بلاده إلى بلاد الحضارة) ها هى العناصر الأخرى فى الموضوع والحبكة تحيلنا مباشرة إلى زمننا الراهن: الصراع الدينى بين الأفكار الجديدة (يمثلها أخناتون)، مقابل الأفكار القديمة (يمثلها آمون وكهنته)، دور الثقافة والعلم فى بناء المجتمعات، وفى هذا الإطار لم يكن بعيداً عن الصواب ذلك الناقد الفرنسى (فنسان فاتريكان) الذى قال إن فيلم «المهاجر» هو أولاً وأخيراً فيلم عن التعلم، إذ مهما كان من شأن الأحداث التى عاشها رام وخبرها فإن الأساس هو اكتسابه للعلم والمعرفة ويقينه من أنه سيكون فى وسعه إفادة شعبه بواسطتهما.

منذ البداية فى «المهاجر» يقول لنا شاهين كما أن رام لديه يشبه يوسف فى الحكاية التوراتية، وهذا التحدد يرمى إلى أمرين فى آن معاً: من ناحية إلى استبعاد فكرة أن يكون رام هو يوسف



بفعل الضجة المفتعلة التى أثيرت من حول يوسف شاهين، باتهامه بتصوير شخصية دينية تاريخية لا يجوز تصويرها، تدفق المتفرجون بمئات الآلاف فى مصر وفى غيرها، لمشاهدة «المهاجر»، ما جعله أنجح أفلام شاهين على الإطلاق

نفسه (ولسوف يؤكد جزء أساسى من أحداث حياة رام هذا) ومن ناحية ثانية إلى جعلنا ننسى تاريخية الشخصية لندرك أن ما يقدمه لنا الفيلم إنما هو «أمثولة» لا أكثر ولا أقل.

المهم هنا هو أن رام أصلا، لا يذهب إلى أرض النور، مصر الفراعنة، من تلقائه، بل لأن إخوته قد غدروا به، وهو بعد ذلك إذ يجد نفسه فى قاع سفينة، يجد أن السفينة تأخذه إلى مصر، وهناك يباع كعبد إلى القائد العسكرى المحبوب والطالع من صفوف الشعب باجتهاده، أميهار، ولأميهار هذا زوجة حسناء هى سميهت التى تغرم برام بعد وفاء لزوجها دام عشر سنوات راحت بعدها تتطلع إلى حب جديد فى حياتها يعوضها عن عجز زوجها وإهماله لها. لكن رام على رغم الإغراءات كلها وعلى رغم فتنة سميهت، ليس هنا كى يعشق امرأة سيده، وهكذا يدور صراع بينه وبينها يراقبه أميهار بقلق أولاً ثم بفضول بعد ذلك. وعلى خلفية هذه «الدراما العائلية»، إن جاز القول، تدور الأحداث الكبرى فى الفيلم، حيث من جديد وكما فى «وداعاً بونابرت» يقيم شاهين العلاقة الجدلية بمهارة وإتقان بين الخاص والعام، ويفضل كما شأنه دائما أن يرجح كفة الخاص جاعلاً العام لا يبرز إلا من خلال كوة الخاص ومنظوره. والعام هنا هو الصراع الدينى وفساد الطبقة الحاكمة، وتوق الشعب إلى الثورة، ودور العسكر، ثم الجفاف الذى يضرب البلد فى خضم ذلك كله. وأيضاً هناك «الغريب» الذى إذ كان يعامل فى البداية تعاملاً عنصرياً، سرعان ما يضيف إلى المجتمع الذى يعيش فيه علمه وذكاءه، ما يجعل التفاعل حقيقة ويجعل «الآخر» ضرورياً للذات. وهذا الجانب قدمه لنا شاهين من خلال العلاقة الغرامية والودية التى تقوم بين رام وهاتى ثم من خلال تعاونه معها ومع أهلها وجماعتها لمقاومة الجفاف.

ذلك أن شاهين فى لحظة من لحظات فيلمه يحول «المتعلم» الآتى هنا سعياً وراء المعرفة والنور، «معلماً» بدوره ينشرهما فى هذه الديار التى يعيش فيها ويتزامن هذا مع تغلب رام على رغباته تجاه سميهت وتعلقه اكثر واكثر بهاتى.

وفى هذا الإطار بالتحديد يبدو الفيلم أخلاقياً وعظياً إلى حد ما، وبشكل مفاجئ، ذلك إننا نادراً ما سبق لنا أن طالعنا فى فيلم لشاهين مثل هذا القدر من الوعظ الأخلاقى، وتقريظ من يسير على الصراط المستقيم.

هل معنى هذا أن شاهين كان قد أصبح أكثر تعقلاً وامتثالية من ذى قبل؟

إن اخلاقيات فيلمه التالى «المصير» ستوصلنا إلى مثل هذا الاستنتاج، ولكن أفلا يمكننا يا ترى على ضوء هذه الوعظية التى قد تلوح هنا جديدة أن نعيد قراءة العدد الأكبر من أفلام شاهين السابقة لنكشف أنه «بين السطور» أى فى أعماق خطابات أفلامه، لم يكن أبداً ذلك «المشاكس الأخلاقى» الذى يوحى بكونه ظاهر تلك الأفلام؟

وفى وسط هذا كله كان شاهين يعرف أنه سينمائى. فنان أولاً وأخيراً. وأن وظيفة الفنان أن يروى يحكى يصور، ولا ينسى ولو للحظة واحدة «لذة الحكى» ومن هنا عبر فى هذا الفيلم الغريب والعميق فى آن معاً عن ايمانه بتلك اللذة. فقدم حكاية جذابة. قدم أفكاره كلها من خلال عمل استعراضى كبير، يشبه فى شكله الخارجى الافلام التاريخية الهوليوودية الضخمة، لكنه يشبه فى شكله الداخلى تلك الافلام الحميمة. وهذا كله جعل الفيلم أشبه بلعبة الدمى الروسية، حيث تخبىء كل دمية دمية أخرى أصغر منها تحتها.

غير أن الذين ارتأوا أن عليهم أن يحاربوا هذا الفيلم لأسباب دينية كما قالوا، لم يروا منه سوى واحدة من دمياته، بل لربما رأوا الدمية الأقل أهمية، غاضين نظرهم عن كل المزايا الأخرى التى يحملها فيلم عرف بدوره كيف يساهم فى إخراج السينما المصرية إلى العالم وكيف يستعيد، من السينما العالمية لحساب مصر، مواضيع السينما الفرعونية إنما بجمال أوضح وذكاء أكبر، ثم خاصة وأخيراً كيف يجد مكاناً لتطبيق حديث شريف يقول «اطلبوا العلم ولو فى الصين».

وفى هذا الإطار لم يكن اختيار شاهين ليجعل من فيلمه عملاً عن جزء من مسيرة الفيلسوف العربى الأندلسى، من قبيل الصدفة وسنقول فى الصفحات التالية لماذا. أما هنا فعلينا أن نطلب من القارىء أن يضع وهو يشاهد «المصير» أو يقرأ عنه، كل محمول فيلمى شاهين «وداعاً يا بونابرت» و«المهاجر» نصب عينيه، لأنه من الصعب قراءة «المصير» خارج إطار علاقته بهذين الفيلمين.

«المصير»: ابن رشد، شاهين، وراهنية حياتنا

من المؤكد أن الذين قصدوا فيلم «المصير» ليشاهدوه أملاً فى أن يتعرفوا من خلاله على حياة فيلسوف قرطبة الأندلسى الكبير، ابن رشد، ظلوا على ظمئهم، هم الذين قبل عرض الفيلم بأشهر، كانت الصحافة قد أمطرتهم بأخبار عن الفيلم تؤكد أنه يروى حياة صاحب «تهافت التهافت» اما الذين شاهدوا «المصير» حين كانت عروضه الأولى خلال الدورة الخمسين لمهرجان

كان السينمائى، فإنهم أدركوا بسرعة أنه «عمل شاهينى جديد» ينخرط فى المسار المتنوع والمعقد لفن شاهين وهم وجدوا فى الفيلم ما أرضاهم وأشعرهم أن الساعتين اللتين أمضوهما أمام شاشة الفيلم وشاشة شاهين لم تضيعا هباء.

ذلك أنهم أدركوا منذ البداية أن «المصير» ليس بالتمام عن حياة ابن رشد، بل يكاد يكون فيلما عن يوسف شاهين، وتبين لهم أن البيئة الحقيقية للفيلم ليست بالتمام أندلس القرن الثانى عشر بل هى مصر وربما العالم العربى كله فى القرن العشرين، أو عند اللحظة الانعطافية بين القرن العشرين وما يليه. والحقيقة أنه نادراً ما تمكن فيلم عربى قبل «المصير» من أن يتأرجح بين الماضى والحاضر كما فعل «المصير» ونادراً ما تمكن فنان قبل شاهين، من أن يقيم ربطاً بين العام والخاص كما فعل شاهين فى هذا العمل.

إذ حتى لو كان مارس هذا التأرجح بقوة ونجاح فى كل أفلامه التاريخية التى تحدثنا عنها أعلاه، فإنه هنا، ونقولها من دون تردد، وصل إلى ذروة عمله وخلاصته بحيث إننا لو بحثنا بدقة عن مراجع مشهدية وموضوعية تربط بها اللحظات الأساسية فى «المصير» لن نعثر على هذه المراجع إلا داخل متن السينما الشاهينية كما كانت صنعت طوال نصف القرن الذى مر منذ بدأ شاهين عمله فى الفن السابع.

ومع هذا فإن ما نراه على الشاشة هو ابن رشد وقرطبة والخليفة المنصور وبضع شخصيات، عربية وأسبانية وغير ذلك، تضعنا منذ لحظات الفيلم الأولى فى قلب القرن الثانى عشر بزهوه وقسوته بآلامه وتناقضاته، القرن الذى يعبر شاهين عن نظرته إليه وإلى ازدهار التاريخ العلمى العربى فيه بكل بساطة ومباشرة. فمن ناحية لدينا هنا عند بداية الفيلم، مفكر فرنسى يدعى جيرار بروى يحرق بأمر من السلطات المدنية والكنسية فى إقليم اللانغدوك الفرنسى، تحديداً لأنه متأثر بمؤلفات «الكافر» ابن رشد ويؤلف على منوالها. وبروى يحرق مع كتبه ومع مؤلفات ابن رشد فى الوقت الذى يقرر فيه ابنه جوزيف (يوسف) أن يتوجه إلى مدينة قرطبة الأندلسية ليتابع رسالة والده الفكرية ويتتلمذ هو الآخر على صاحب «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال» وهكذا يتيح لنا انتقال يوسف من اللانغدوك إلى قرطبة مقارنة يقيمها شاهين بين «عصر الظلمات» الأوروبى وعصر التنوير العلمى العربى فى الأندلس. حيث أن مرور يوسف فى سوق قرطبة، سيضعه (ويضعنا) على تماس مباشر مع حضارة تشترى فيها كتب الفكر فى الساحات العامة، ويتنافس فيها طلاب العلم الفقراء على شراء الكتب والمخطوطات مع الخليفة وكبار أعيان المدينة.

وعندما ينضم يوسف إلى حلقة الاصدقاء والاهل المحيطة بابن رشد ويقوم بالدور (نور الشريف)، تكون النقلة تمت، وترسم أمامنا على الفور صورة العلاقة بين المثقف والمدينة، ومن ثم بينه وبين سلطة المدينة فى أندلس الموحدين، وهذه العلاقة سرعان ما تقودنا، بالطبع، إلى علاقة ابن رشد المباشرة بالخليفة المنصور (يلعب الدور محمود حميدة) لنكتشف مدى التداخل بين الفيلسوف والحاكم، ونمط العلاقات (حتى العائلية!!) التى تربط بينهما.

ولئن كان الفيلم، حتى هذه اللحظة، قد حرص على أن يضعنا فى قلب ما يشبه الحقائق التاريخية، فإنه من الآن وصاعداً سيخلط بين التاريخ وزمننا الراهن لينقل الينا رسالته الأساسية. إذ، هنا، مرة أخرى، من الواضح أن درس التاريخ ليس ما يهم يوسف شاهين. مرة أخرى ليس التاريخ بالنسبة إليه أكثر من ذريعة أما الرحلة المكوكية بين الماضى والحاضر (الماضى المصور فى الحاضر والذى يصل الينا نحن المتفرجين) فستشتغل، بشكل أساسى، عن طريق اللغة. إذ، هنا لن يبدو من البراءة بمكان أن يكون شاهين ومشاركه فى كتابة السيناريو وأيضاً الإخراج إلى حد ما. خالد يوسف قد اختار العامية المصرية من جديد، أداة التعبير فى الفيلم، إذ كان فى وسعهما أن يختارا عربية فصحى بعض الشىء، للوهلة الأولى لاختيار حل تقنى بحت، ولكن نظرة معمقة إلى «الخطاب الخفى» للفيلم بعد ذلك، ستكشف لنا الدور الرئيسى الذى كان يتعين على لغة الفيلم المنطوقة أن تلعبه، إذ أننا لو أغمضنا أعيننا واستمعنا إلى الحوار سنفاجىء أنفسنا وقد دخلنا زمن الراهن مباشرة، وأكثر من هذا ها هو شاهين، ومباشرة بعد محاولة قتل الشاعر مروان (يلعب دوره المغنى محمد منير) يجعل محاولة. قتله الشاب المتطرف، يتلفظ أمام ابن رشد الماضى فى قاعة المحكمة، بالعبارات نفسها. تقريباً التى تلفظ بها فى تسعينيات القرن العشرين فى مصر ذلك المتطرف الذى حاول قتل نجيب محفوظ (شاعر الزمن العربى الحديث).

ترى ألا يقف يوسف شاهين، هنا، مرة أخرى، فى قلب الراهن الملتهب، ويحدث ذلك التنقل بين ما يرويه لنا التاريخ،



أدركوا منذ البداية أن «المصير» ليس بالتمام عن حياة ابن رشد، بل يكاد يكون فيلما عن يوسف شاهين، وتبين لهم أن البيئة الحقيقية للفيلم ليست بالتمام أندلس القرن الثانى عشر بل هى مصر وربما العالم العربى كله فى القرن العشرين، أو عند اللحظة الانعطافية بين القرن العشرين وما يليه

وبين ما نعيشه زمن تصوير الفيل وعرضه؟

للوصول إلى هذا، من الواضح أ يوسف شاهين وخالد يوسف قد أعاد اختراع ابن رشد من جديد وسهل عليهم هذا كونهما يتعاملان مع عمل فنى وليس مع درس تاريخى أكاديمى، تمام كما سبق لشاهين أن فعل فى أفلام سابق تنطلق من التاريخ من دون أن تصب في بالطبع.

ومن هنا سيكون من العبث أن نبحث فى كتب التاريخ عن سيرة لابن رش وتفاصيل عن حياته العائلية، تشبه م شاهدناه فى الفيلم. فالفيلم جعل لابن رشد ابنة يريد ابن الخليفة الاقتران بها وجعل للخليفة المنصور ابنين هما عبدالل والناصر وأقام صراعاً بين الابنين (والصراع بين الشقيقين يكاد يمثل موضوعة دائمة الحضور لدى يوسف شاهين فى العديد من أفلامه راجع «عود الابن الضال» و«الاختيار» بين أعمال أخرى). ثم صور شخصية الغجري مانويلا، زوجة الشاعر المغنى مروا (وقامت بالدور ليلى علوى التى تصل هذ إلى ذروة تألقها على رغم قصر دورها فو الفيلم) واخترع شخصية العالم الفرنسو جيرار بروى وأتى بابنه يوسف من فرنس ليضمه إلى أسرة ابن رشد.

وكل هذا جعلنا، فى الواقع، نشعر أنن لا نعيش فى قرطبة الأندلس فى القر الثانى عشر بل فى «اسكندرية يوسف شاهين»، فى مصر أربعينيات القر العشرين حيث كان التعايش ممكناً بير الطوائف والأفكار، وفى هذا السياق لك تبدو العلاقات بين أفراد أسرة ابن رشد وبينهم وبين أصدقائهم شبيهة بالعلاقات بين أفراد أسرة يحيى. يوسف شاهين فو «الاسكندرية ليه» حيث يلعب محمو المليجى (الذى يكاد يكون والد شاهين دوراً يشبه دور ابن رشد ولكم يبدو الصرا بين عبد الله والناصر ابنى الخليف شبيهاً بالصراع بين الأخوين فى «عود الابن الضال»، والحال أننا لو شئنا البحث هنا عن تشبيهات فى هذا النوع، لن نتوقف أبداً. فالفيلم كما أشرنا. وكما هو الأمر بالنسبة إلى معظم أفلام شاهين هو أشبه بخلاصة لعمل شاهين ككل وبعد هذا لن يعود مهما أن نعثر على وجوه تشابه بين المنطق العام لـ«المصير» وبين منطق فيلم «اسم الوردة» (الذى اقتبسه جان جاك أنو قبل «المصير» بسنوات من رواية امبرتو ايكو المعروف بالاسم نفسه) علماً بأن «اسم الوردة» هو أول مرجع سينمائى قد يخطر على البال لدى مشاهدة «المصير» حيث إن «التيمات المشتركة بين الفيلمين عدة أبرزها حضور أرسطو

الطاغى وصراع رجل الدين ضد رجل العلم حيث مجابهة الدين كفعل ثورى عقلانى متنور بصورة للدين يمثلها رجال دين يهمهم أول ما يهمهم الوصول إلى سلطة ما. ومن ناحية ثانية لن يعود مهما أن يذكرنا واحد من أجمل مقاطع «المصير» بواحد من أقوى مقاطع فيلم «فهرنهايت ٤٥١» لفرانسوا تروفو (عن رواية بالاسم نفسه للأمريكى راى برادبورى) ففى الحالتين لدينا محاولة يقوم بها متنورون لإنقاذ الكتاب من طغيان السلطان ومن عملية إحراق الكتب، انطلاقاً من فكرة تقول إن للكتب والأفكار أجنحة تطير فى الهواء لتحط حيثما تشاء (وهذه هى على أية حال العبارة التى يختتم بها شاهين فيلمه).

لكن هذا كله يبقى على أية حال، على صعيد الاحتمالات فى هذا الفيلم الفذ. فى هذا الفيلم الذى يريد فيه يوسف شاهين، على عادته فى أفلامه منذ السبعينيات، أن يقول أشياء كثيرة ومتشابكة وأحياناً متناقضة فى مظهرها وها هو ينجح فى هذا، فى «المصير»، وربما بشكل أفضل مما نجح به فى أى فيلم سابق، فمن دور المثقف فى المجتمع إلى علاقة المثقف بالسلطة، إلى الحديث عن منطق الدولة الذى قد يملى على الحاكم مواقف تتناقض مع طبيعته المعلنة، إلى عزلة الحاكم فى لحظة القرارات الخطيرة، وجنون العظمة لديه، إلى عزلة المثقف ولحظات شكه القاتلة، وصولاً إلى بعض الفرضيات الممكنة من حول لعبة التطرف التى ترتدى قناع الدين، وهى ليست فى حقيقة أمرها سوى جزء من الصراع على السلطة يتجول شاهين فى أفلامه.

وهو للوصول إلى التعبير عن هذا كله، بنى بالتعاون مع خالد يوسف، سيناريو محكماً، قد لا نحبذ فيه استعراضية عمل جماعات المتطرفين ولا تبسيطية الطريقة التى يتمكن مروان بها من السيطرة على خصومه، ولا حتى النهاية التى يحرق فيها نور الشريف كتابه الاخير. إذ إن هذه النهاية أتت، بشكل خاص، من أضعف ما فى الفيلم، وأتى ضعفها مثلا، متناقضاً مع مشهد البداية الذى ينتمى، لغة ومضمونها وحركة كاميرا إلى أرقى ما أمكن شاهين أن يحققه على مدار تاريخه السينمائى. وأكثر من هذا قد لا نحبذ الحالة العائلية الأليفة التى طبعت شخصية ابن رشد (وهنا يبدو واضحاً مدى الطابع الإنسانى الذى شاء شاهين إسباغه على بطله ليقول إن الفيلسوف هو فى النهاية إنسان من لحم ودم، قد يختلف



هذه النهاية أتت، بشكل خاص، من أضعف ما فى الفيلم، وأتى ضعفها مثلا، متناقضاً مع مشهد البداية الذى ينتمى، لغة ومضموناً وحركة كاميرا إلى أرقى ما أمكن شاهين أن يحققه على مدار تاريخه السينمائى

مع زوجته وقد يخشى غضب ابنته). لكننا فى المقابل نحب تلك المشاهد القوية (التى قد تذكرنا فى قوتها بمشاهد حوارات هنرى الخامس والسير توماس مور فى «رجل لكل العصور» مثلاً) التى يدور فيها الحوار بين الخليفة المنصور وابن رشد مرة من حول طاولة الشطرنج، ومرة حين يبدأ ابن رشد صراعه الخفى مع الخليفة فى مشهد وصلت فيه الصورة (كضوء وظل) وحركة الممثلين والكاميرا إلى مستوى مميز.

من التصوير المتميز، إلى التوليف الذى وظّف كل لقطة وكل مشهد توظيفاً دلالياً مبعداً إياه، فى لحظات كثيرة عن الجماليات المجانية إلى اختيار الديكورات الطبيعية حيث لعبت مناطق وقصور وقلاع فى سورية ولبنان دور الأندلس ببراعة، إلى الملابس والاكسسوارات التى نقلتنا بالفعل مئات السنين إلى الوراء من دون أن يخرج أى منها عن وظائفته، وصولاً إلى موسيقى كمال الطويل وغناء محمد نوح، تمكن شاهين هنا من ان يقدم عملاً استثنائياً وضعه مرة اخرى فى قمة السينما العربية، وفى مكانة لا بأس بها بين كلاسيكى السينما العالمية.

لكن شاهين تمكن فى الوقت نفسه من أن يواصل لعبة تصفية الحسابات والمراجعات التى كان قد بدأ يتقنها ويغوص فيها منذ زمن، تمكن هنا أيضاً من أن يجعل فيلمه شاهينياً، أى خاصاً بامتياز.

فى «المصير» أمسك شاهين موضوعه بقوة وصفّى من خلاله حسابه. على طريقته. مع تلك القوى التى كان حاكمت «المهاجر» محاولة أن تسىء إليه من خلاله، قوى يبدو شاهين واثقا من أن غايتها الكبرى تتمثل فى القضاء على الفن والفكر وحريتهما، وبالتالى القضاء على مصر وما تمثل (المتآمرون فى «المصير» يصلون إلى حد التواطؤ مع الأسبان ضد عروبة الأندلس، وهذه «الاشارة» المعاصرة جداً لا يمكن أن تغيب عن بال متفرجى «المصير» لأنها تتسم بالراهنية الحارقة) غير أن المهم من هذا، هنا، هو تلك المصالحة التاريخية التى يوصلها شاهين إلى ذروتها بعدما كان بدأها منذ «بونابرت»، مع المثقف ودوره فى المجمع فإذا كنا رأينا فى مقاطع سابقة كيف أن شاهين وخلال مرحلة طويلة من مساره المهنى، لم يتوقف عن توجيه أصبع الإدانة إلى المثقفين (من بائع الجرائد فى «باب الحديد»، إلى الأخ المثقف فى «عودة الابن الضال» والكاتب الانتهازى فى «الاختيار» إلى الشيخ حسونة فى «الأرض» وغيره، حيث كان المثقف، على الدوام مداناً لديه بتهمة التخلى عن رسالته وعن الفكر المتقدم الذى كان يحمله واقنع الاخرين به)، ها هو هذه المرة يقف فى صف المثقف بكل قوة ومن دون أى التباس، موصلاً هذا الموقف إلى ذروته بعدما مهد له فى الفيلمين السابقين. بل إن الوقوف فى صف المثقف والتنوير هو الفعل الأساسى فى هذا الفيلم، المثقف تحت سمات جيرار بروى فى فرنسا العصور الوسطى وفى صورة ابن رشد وشاعره مروان الأندلسى. فهل هذا لأن علاقة المثقف بزمنه ومجتمعه كانت قد تغيرت خلال تلك السنوات ام لأن يوسف شاهين أدرك بشكل مباغت أنه ظلم المثقف طويلاً؟

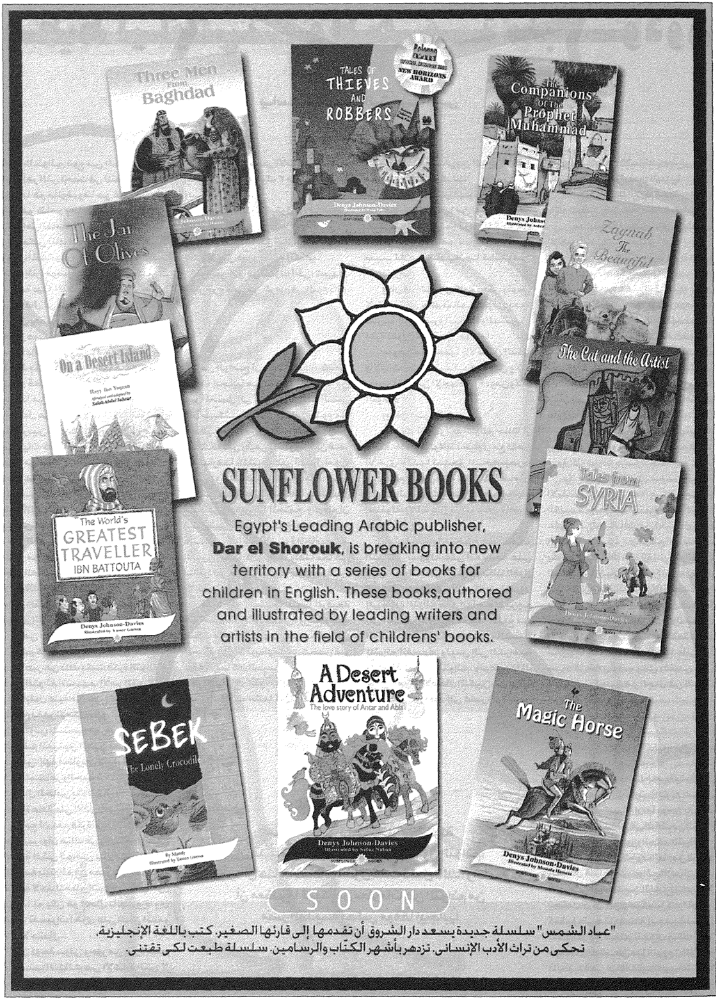
لا هذا ولا ذاك، بل لأن شاهين، العقلانى جداً والمتحرك بشكل واع مع زمنه، أدرك ان معركة التنوير التى كانت تخاض فى الماضى بين السلطة والمثقف (فيستنكف هذا الأخير أو يسعى هو بدوره لكى يكون سلطة أو سلطة مضادة فى أسوأ الأحيان) انتهت وتحولت الآن إلى معركة بين الفكر والظلام، يتأرجح خلالها الحاكم تبعاً لمصالحه ولمنطق الدولة، فتدمر الحضارة تحت سنابك العسكر إذ يتحالف مع التعصب والجهل، تحت سلطة الحاكم، وفى مثل هذه المعركة لا يعود فى إمكان شاهين أن يحاسب المثقف مهما كان من شأن هذا الأخير وتردده ومهادناته) لأنه يعرف أنه لو فعل لصب موقفه فى إحدى قناتين: إما قناة السلطة المترددة الخاضعة، ماكيافيليا، لمنطقها الخاص، وإما قناة قوى الظلام التى تستغل بؤس الأجيال الجديدة وبحث هذه الأجيال عن مثل عليا، لتعبئتها ضد الفكر والمجتمع مجتمعين.

فى مثل هذه المعركة يصبح الخيار أمام مبدع مثل يوسف شاهين واضحاً.

ولأن الخيار واضح كان لا بد من ابن رشد، بعد رام، وبعد بونابرت. وفى كل بساطة لأن ابن رشد مثّل لحظة قاطعة انعطافية فى تاريخ العقلانية العربية، لحظة تشبه اللحظة التى يعيشها المثقف العربى اليوم، التى يعيشها يوسف شاهين نفسه اليوم.

وعلى مثل هذا الوضوح العقلانى ختم شاهين هذه المرحلة من سينماه التاريخية. وما لا شك فيه أن جزءاً من هذا كان يدور فى فكره حين وقف، عام عرض «المصير» فى مهرجان «كان» فى الجنوب الفرنسى (١٩٩٧) ليتلقى تصفيق العالم حيث منحه المهرجان لمناسبة عرض الفيلم، واحدة من أرفع الجوائز التى أعطاها لفنان فى تاريخه: جائزة الخمسينية.

صحيح أن الجائزة لم تعط لـ«المصير» يومها، لكنها أعطيت لشاهين، فى أعظم تكريم ناله فنان عربى على الصعيد العالمى، منذ جائزة نوبل للآداب التى كان منحت لنجيب محفوظ قبل ذلك بنحو عقد من السنين. ■


Three Men From Baghdad
Tales of Thieves and Robbers
Denys Johnson-Davies
New Horizons Award
The Companions of the Prophet Muhammad
The Jar Of Olives
Zaynab The Beautiful
On a Desert Island
The Cat and the Artist
The World's GREATEST TRAVELLER IBN BATTOUTA
Denys Johnson-Davies
Tales from SYRIA
SUNFLOWER BOOKS
Egypt's Leading Arabic publisher, **Dar el Shorouk**, is breaking into new territory with a series of books for children in English. These books,authored and illustrated by leading writers and artists in the field of childrens' books.
SEBEK The Lonely Crocodile
A Desert Adventure
The love story of Antar and Abla
Denys Johnson-Davies
The Magic Horse
Denys Johnson-Davies
SOON
"عباد الشمس" سلسلة جديدة يسعد دار الشروق أن تقدمها إلى قارئها الصغير. كتب باللغة الإنجليزية،
تحكى من تراث الأدب الإنسانى. تزدهر بأشهر الكتّاب والرسامين. سلسلة طبعت لكى تقتنى.

قطط ليلية.. وآلهة منبوذون

ياسمين الشاذلى

■ «التوائم نوع من الشذوذ ومن الظواهر التى تحدث فى المنطقة الواقعة بين ما هو مألوف وما هو غير مألوف، وما هو ظاهر وما هو خفى؛ إنها من الظواهر الغامضة التى تحتاج إلى فهم».

تعكس تلك الكلمات من كتاب تيد وولنر «المتشابهون: نظرة على التوائم» مدى إثارة موضوع التوائم. لقد أصبحت مهتمة بهذا الموضوع على وجه التحديد حين قال لى بخيت، وهو أحد العمال الذين يعملون معى فى حفائر جامعة جونز هوبكنز ومتحف بروكلين فى معبد موط بالكرنك، إن التوائم يتحولون إلى قطط بالليل، وأنه لا ينبغى لأحد أن يؤذى قطًا خشية أن يكون هذا القط واحدًا من التوائم المتحولة. أخذت أتساءل عن سبب هذا المعتقد لدى المصريين المحدثين. وبما أننى عالمة مصريات، فقد سألت نفسى عما قد يكون عليه موقف قدماء المصريين من التوائم. وبسرعة قرأت مقالة جون بينز «التوائم المصريون» المنشورة فى دورية Orientalia فى عام ١٩٨٥ التى كان يناقش فيها الأدلة الخاصة بالتوائم فى مصر القديمة والموقف المتغير من هذا النوع من المواليد منذ الدولة القديمة حتى العصر البطلمى. وقد أوضح البحث أن هناك أدلة قليلة جدًا عن التوائم من مصر القديمة. وكانت النتيجة التى توصل إليها هى:

«من الأفضل افتراض أن الكلام عن التوائم كان موضوعًا محظورًا Taboo، سواء عُبِّر عن ذلك بكبت فكرة التوائم أو قمع التوائم أنفسهم، الأمر الذى كانوا يتحايلون عليه من حين لآخر بمعاملة التوءم بقدر الإمكان على أنهما شخص واحد. ومن المستحيل معرفة السبب فى أن التوائم المعينين الذين نعرفهم كانوا مميزين. إنهم مطلوبون لإبداء تبادل مبالغ فيه للمشاعر والحب، تمشيًا مع إضفاء الكمال الخاص بالأشكال الاجتماعية بصورة عامة على الآثار المصرية».

ومع أن هذه فكرة لافتة للانتباه إلى حد كبير، وأن هناك فى واقع الأمر بعض الأدلة التى توحى بأن ندرة الأدلة الخاصة بالتوائم فى مصر القديمة كانت نتيجة لأحد المحظورات، فإنى أود أن أقول إن هذا لم يكن هو الحال بالضرورة، وإن هناك تفسيرات أخرى على نفس القدر من الاحتمال.

إن لوحة سوتى وحور من فترة حكم أمنحتب الثالث هى الإشارة التى لا لبس فيها إلى التوائم أو المواليد المتعددين حتى عصر الانتقال الثالث (باستثناء حكاية مولد ٣ ملوك فى بردية ويستكار).

وفى هذه اللوحة يقول كل من سوتى وحور عن الآخر:

«لقد كنت الصادق الذى يعاف الزيف، الذى لا يثق فيما يقوله الكذاب.

ولكنى أثق فى سلوك أخى، شبيهى، فقد خرج معى من الرحم فى اليوم ذاته».

من الواضح أن هذه الكلمات تعكس موقفًا إيجابيًا من التوائم. وأرى أنه من غير المحتمل إلى حد كبير أن هذا النقش كان سيُكتب لو كان هناك أى نوع من الحظر. كما أنه من الواضح أن سوتى وحور كانا شخصين رفيعى المستوى، حين قُدِّما باعتبارهما «المشرف على أعمال آمون، سوتى، (و) المشرف على أعمال آمون، حور». ويعنى هذا أن التوءم كانا يتقلدان منصبين رفيعين فى المجتمع. والواقع أن بينز يقول عن نى عنخ آمون وخنوم حتب من أواخر الأسرة الخامسة، اللذين ربما كانا توءمًا ودُفنا معًا فى سقارة فى مقبرة تُعرف باسم «مقبرة الأخوين»:

قد لا يكون سبب مكانتهما الرفيعة هو أصلهما الاجتماعى. ورغم وجود صلات محتملة بينهما وبين مقابر فى الجيزة، فهى لا تربطهما بأى شخص غير عادى. ربما كان السبب هو كونهما توءمًا.

فمن الممكن أن التوءمة ترفع المكانة فى بعض الحالات، مثلما كان يحدث إلى حد ما مع الأقزام النادرين الذين كانوا مقربين من الملك كذلك.

فهل من المحتمل أنهم كانوا ينظرون إلى التوءمة على أنها من المحظورات فى بعض الحالات، بينما ترفع المكانة فى حالات أخرى؟ أعتقد بداية أنه ما من سبب للاعتقاد بأنها كانت من المحظورات.

وكان قد أُشير إلى كلمة «حتر» (توءم) لأول مرة فى حكم تمائمى نبوئى يعود تقريبًا إلى الأسرة الثانية والعشرين، وفيه تقول الآلهة عن امرأة ما:

«سوف نملأ رحمها بالأطفال الذكور والإناث. سوف ننقذها من ولادة حورس(؟)، ومن الإجهاض (؟) ومن ولادة التوائم».

ويعلق بينز قائلاً:

«وبذلك تكون ولادة التوائم حادثًا أو محنة خاصة بالولادة تتساوى مع المحن الأخرى، ولكنها تستحق التخصيص». ولا يقدم النص أدلة على الموقف من التوائم الذين عاشوا حتى تخطوا مرحلة الطفولة، إلا أنه يبرز طابعهم غير المحبب فى الأساس.

وبينما يمكن استخدام هذا الحكم التمائمى بسهولة على أنه حجة على وجود أحد المحظورات، فإنه يمكننا القول كذلك أن السبب فى أنهم كانوا ينظرون إلى ولادة التوائم على أنها محنة يرجع إلى الخطر الذى يمثله هذا النوع من الولادة بالنسبة للأم وكذلك بالنسبة للتوائم أنفسهم، وليس إلى الكراهية المتأصلة لهؤلاء التوائم. وتوضح ذلك حكاية «مولد الأطفال الملكيين» فى بردية ويستكار التى تعود إلى عصر الهكسوس وتدور أحداثها فى الأسرة الرابعة فى عهد الملك خوفو. ويقول نص البردية:

«فى يوم من تلك الأيام شعرت روددديت بآلام الوضع وكان مخاضها صعبًا».

وبعد بضعة أسطر يقول رع أوسر للمعبودات:

«انظرن يا سيداتى، إنها المرأة التى تتألم. إن مخاضها صعب».

بعبارة أخرى، هناك تأكيد على صعوبة الولادة فى هذا النص، وهو ما قد يعود إلى أن المرأة كانت تلد توءمًا ثلاثيًا. وقد اتضح أن الولادة الفعلية سهلة، ولكن سبب ذلك فقط هو أن المعبودات هن اللائى قمن بالتوليد. وعقب الولادة لا يبدو أن هناك أمرًا سلبيًا بشأن كون المواليد توءمًا ثلاثيًا. فنحن على العكس من ذلك نعلم أنه:

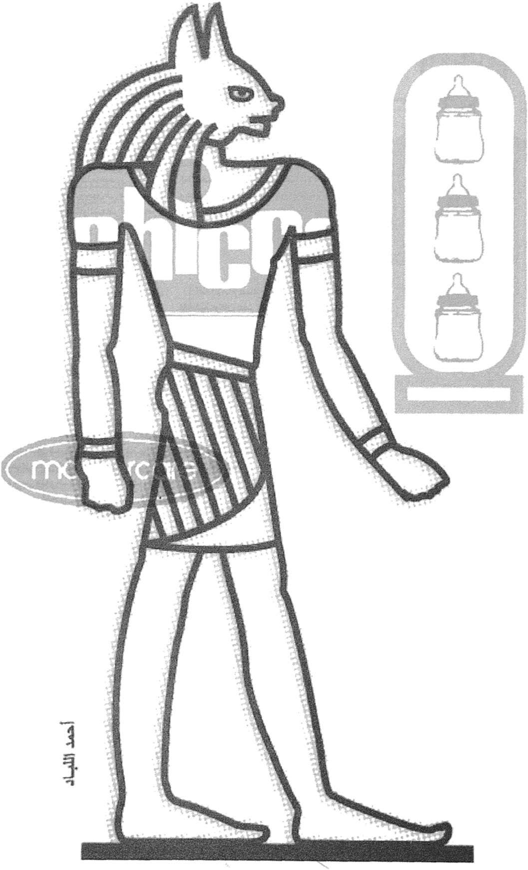
«عند عودة رع أوسر من الحقل أبلغته روددديت بالأمر. وحينئذ فرح قلبه فرحًا يفوق كل شىء وجلسا ليحتفلا».

ولا بد أن نتذكر أن معدل وفيات الأطفال كان مرتفعًا جدًا فى مصر القديمة، وربما كان احتمال بقاء التوائم على قيد الحياة أقل من احتمال بقاء الأطفال المفردين. والواقع أن ذلك قد يكون سببًا فى قلة الإشارة إلى التوائم فى السجل الأركيولوجى. وكذلك بما أن النساء كن يمتن أثناء الولادة، فقد كانوا ينظرون إلى ولادة التوائم على أن فيها خطورة شديدة على الأم. والعامل الآخر الذى ينبغى أخذه فى الاعتبار هو أنه ربما كانوا ينظرون إليها على أنها عبء اقتصادى وجسمانى ونفسى على الوالدين، كما هو الحال فى الوقت الراهن.

واعتبارًا من الأسرة الخامسة والعشرين يصبح «پاحتر» و«تاحترت» (التوءم) اسمين شائعين. ويقول بينز إن ما يوحى به ذلك هو أنه كان هناك تغير فى الموقف من التوائم منذ زمن سوتى وحور والحكم التمائمى. وطبقًا لما يقوله فإن الخوف العام من التوائم ربما كان قد اختفى. وواقع الأمر أن تلك الأسماء أصبحت من الشيوع بحيث لا يحتمل أن كل من يحملونها كانوا توائم. كما يوحى هذا بقيمة إيجابية تتصل بالتوائم. ولا أعتقد أنه كان هناك تغير ضخم فى الموقف من هذا النوع من المواليد. فالحقيقة هى أن كلمة توءم أصبحت اسمًا شائعًا اعتبارًا من الأسرة الخامسة

من الخطورة استخدام مقولة إن قدماء المصريين ربما كانوا يقتلون التوائم، لمجرد أن هناك ثقافات أخرى كانت تفعل ذلك، وخاصة أن معظم ما لدينا من معلومات عن التوائم من مصر القديمة يعكس موقفًا إيجابيًا

... التوائم في مصر القديمة



والعشرين. وهو ما قد يتعلق أكثر بموضة التسمية فى ذلك العصر.

كانت الأدلة على أن مكانة التوائم تحظى بالتقدير أقوى فى العصر البطلمى. ففى ذلك الوقت لم يكن «التوءم» اسماً شائعاً وحسب، بل كان يستخدم فى واقع الأمر كلقب لبطليموس السادس فيلوميتور وهو «پاحتر إن باحاعبى عنخ» (توءم أبيس الحى)، الذى تضيف إليه بعض النماذج حر مسحن سن «فى مسقط رأسهما».

وهناك أدلة كذلك فى المصادر اليونانية تدل على احتمال وجود توائم مصريين، فعلى سبيل المثال نعرف بأمر الفتاتين المصريتين تاويس وتاووس من برديات السرابيوم التى تعود إلى القرن الثانى. وكانت تلك الفتاتان تشغلان منصب ديدى ماى (التوءم) وكان عملهما هو القيام بدور إيزيس ونفتيس فى الحداد على الثور أبيس وكذلك تقديم القرابين لسرابيس. ويطلق على إيزيس ونفتيس «سنتى» (الأختان التوءم) منذ متون الأهرام. ويبدو أن هذه التسمية مقصورة على المعبودات. و لا تعنى حقيقة أنها كانت تستخدم للديدى ماى بالضرورة أن المصريين الأقدمين كانوا يعتبرون إيزيس ونفتيس توءماً فعلياً.

كما يمكن القول بأن شو وتفنوت كانا توءماً، وهما يصوران متطابقين عن طريق ربطهما بالأسدين التوءم «روتى» ويشار إليهما أخذاً فى الاعتبار الإله الخالق بالمصطلح «زانتى» (الطفلان التوءم)، إلا أنه ليس هناك دليل حقيقى على ذلك. وفى أواخر العصر اليونانى الرومانى كان شو وتفنوت يصوران على هيئة طفلين متطابقين من جنسين مختلفين. إلا أن هذا لا يثبت أنهما كانا يعتبران توءماً. ويمكن رؤية ارتباط أكبر لهذين المعبودين بالتوءمة فى رسم رمز برج الجوزاء. ويرى بينز أن شكل الرمز له صلة بموتيف مستخدم كرمز هيروغليفى هو «حتر» أو «سنسن» (وهو جذر آخر يمكن ربطه بالتوءمة). ويُقرأ العرض التصويرى لرمز برج الجوزاء «حتر»، وتعرض نماذج كثيرة شكلاً ذكراً وآخر أنثى، من بينها ثلاثة تصور بالفعل شو وتفنوت.

ويقول بينز إنه من الممكن أن سبب حصولنا على معلومات قليلة جداً عن التوائم من مصر القديمة هو أن أحد التوائم الذين من نفس الجنس أو كليهما كانوا يُقتلون، وهى ظاهرة شائعة فى ثقافات أخرى. إلا أننا لا بد من تذكر أن ليس كل

الثقافات تنظر للتوائم نظرة سلبية. فذات مرة قال لاعب الكريكت البريطانى أليك بدسر الذى له أخ توءم متطابق:

«أدى كوننا توءمًا متطابقًا إلى مواجهة بعض الأمور الغريبة. فحين كنا فى فرنسا عام ١٩٤٠ ركع رجل مسن عند قدمينا مبديًا التكريم والإجلال، وتجمع حشد بدافع الفضول. وكنا محرجين ولم نكن نعرف ما الذى ينتظر منا القيام به إلى أن أوضح لنا شخص ما أن هناك خرافة محلية تقوم على الإيمان بأن رؤية التوءم المتطابق حدث سعيد».

وفى مجتمع الدوجون فى مالى هناك سلسلة من الممارسات والشعائر التى تجرى للتوائم استعدادًا لأن يكونوا موضوعًا لإحدى عبادات الأسلاف. ولذلك فمن الواضح أن الطريقة التى تتفاعل بها الثقافات المختلفة مع التوائم ليست موحدة بحال من الأحوال. وبناء على ذلك فمن الخطورة استخدام مقولة إن قدماء المصريين ربما كانوا يقتلون التوائم، لمجرد أن هناك ثقافات أخرى كانت تفعل ذلك، وخاصة أن معظم ما لدينا من معلومات عن التوائم من مصر القديمة يعكس موقفًا إيجابيًا.

والواضح أن بعضا من هذه المعتقدات قد انتقل عبر الزمن إلى الأهالى فى صعيد مصر، فبخيت (عامل من الأقصر) والذى كان قد أخبرنى أن التوائم يتحولون إلى قطط فى الليل، أخبرنى أنه حين ينام التوائم فى الليطل فإن أجسامهم تتجول فى القرية فى هيئة قطط سوداء بلا ذيل. ولمنع حدوث ذلك يجب على والدى التوءم حديث الولادة أن يطعماها حليب الناقة لمدة سبعة أيام. فحليب الناقة ثقيل جدًا، ولذلك فالفكرة هى أنه يجعل أرواح التوائم ثقيلة ويمنعها من مغادرة أجسادهم بالليل. كما يجب على الوالدين كذلك أن يطعما التوائم سخينة، وهى ثوم مقلى. فمن المفترض أن التوائم تحبها وهى تساعد على جعل الأرواح تنام، بحيث لا تغادر الأجساد على هيئة قطط. ولا ينبغى لأحد بحال من الأحوال إيقاظ أى من التوائم. فهو إن فعل ذلك قد يموت هذا الشخص. وكذلك فإنه حين تتحول روح أحد التوائم إلى قطة، فإن أى شىء يحدث لتلك القطة يؤثر على التوءم النائم. فعلى سبيل المثال إذا رمى أحدهم القطة بحجر، فمن المحتمل أن يستيقظ التوءم وعلى مكان ما من جسده كدمات.

أما جاد الذى يعمل رئيسا للعمال لدى البعثات الأثرية وهو أب للتوءم حسن وحسين. وكان لديه فى الأصل ثلاثة عشر طفلاً لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثمانية. وحسن وحسين توءم متطابق عمره ست سنوات. وبمجرد ولادتهما كان لا بد من أخذهما إلى محل الصائغ ووزنهما بالذهب على ميزانه. وقبل أن يبلغا الأربعين يومًا كان لا بد من أن يشما حافر حمار محروق (وهذا يؤتى به من كوم أمبو) وأن يطعما كبدة الجمل المحمرة، وكذلك حليب الناقة. وكان لحسن وحسين أختان توءم لم تُجر لهما تلك الأعمال. وقد ماتت إحداهما عند الولادة وماتت الأخرى وعمرها ستة أشهر، «لأن الأم حركتها وهى نائمة»!

أما الإمام صالح شيخ أحد المساجد المحلية. وكان عمر توءمه عبير وسمية سنة وأربعة أشهر. فقد رفض إجراء كل الأعمال اللازمة لمنع الطفلتين من التحول إلى قطتين. فهو يؤمن بأنه ما دام هذا ليس مذكورًا فى القرآن، فليس هناك ما يدعو للإيمان به. «ربما كانت تلك قصة من اختراع امرأة كسول لم تطبخ العشاء لزوجها. وحين جاء من العمل جائعًا فى يوم من الأيام أخبرته أن كل طعامهم أكله طفلا الجيران اللذان تحولا إلى قطتين».

ويمكن كذلك ربط التوءمة بالفكرة الشائعة فى مصر المعاصرة الخاصة بالقرين والقرينة (حيث إن التوءم أشبه بنسختين من نفس الشخص). فكل رجل يولد ومعه قرينه وكل امرأة تولد ومعها قرينتها. وقد نشرت وينيفريد بلاكمان مقالة مفيدة جدًا فى Royal Anthropologi cal Institute, vol. 1 . ١٩٢٦ بعنوان «القرين والقرينة». وهى تقول:

«لا يشبه القرين نموذجه الأصلى على الأرض من حيث الشكل وحسب، بل كذلك من حيث الطبع. والواقع أنه يعكس بدقة كل أفعال نسخته الأرضية، الطيب منها والشرير. وهكذا فإنه إذا غضب رجل أو امرأة فإن قرينه أو قرينتها تفعل الشىء نفسه. وإذا كان يعانى من الألم والمرض، فكذلك يكون حال القرين أو القرينة».

يذكرنى هذا بفكرة أن كل ما تمر به روح التوءم ليلاً، وهو على هيئة قط، يؤثر على جسد التوءم النائم. كما يذكرنى بما قاله كثيرون ممن أجريت معهم مقابلات عن كيف أن التوائم يكونون قريبين جدًا من بعضهم حتى أن ما تفعله لأحدهما يؤثر على الآخر. فإنك على سبيل المثال إذا ضربت أحدهما فقد يبكى الآخر!



من الواضح أن الطريقة التى تتفاعل بها الثقافات المختلفة مع التوائم ليست موحدة بحال من الأحوال

ويمكن مقارنة فكرة القرين والقرينة بسهولة بفكرة الكا فى مصر القديمة، حيث كانوا كذلك يؤمنون بفكرة القرين الذى يولد فى نفس وقت ولادة نظيره.

وفى الختام أود أن أورد ما قالته بنيلوب فارمر فى كتابها Two, or, The book of Twins and Doubles: An Autobiographical Anthology:

«.. إن ما يجعل ولادة التوائم أمرًا غريبًا فى كل المجتمعات ليس التشابه أو عدم التشابه، وإنما هو الازدواج. فالأمر المعتاد فى نوعنا هو الولادة المفردة. ومن ثم فإن الحاجة التى تبدو عالمية إلى منح التوائم مكانة خاصة، وطقوسًا خاصة، ذهنية كانت أم فعلية، من أجل إعادة دمج المجتمع الذى يقسمه اختلافها عن الوضع القائم. ولذلك فإنهم يُقدسون ويعبدون، أو حتى يقال إنهم الأمر الطبيعى ولكن توائم معظم الناس لا يبقون أحياء فى الرحم، وهو ما يشيع بين الدوجون. والبديل لذلك أن يبغضهم الناس بغضًا شديدًا ويقضون عليهم وينبذونهم».

وبينما يبدو أن بينز يقول إن التوائم فى مصر القديمة كانوا من المحظورات (boo-a)، فإن ما لدينا من نماذج يوحى بأن التوءمة كانت فى واقع الأمر ترفع المكانة لكون التوائم الاستثناء وليس القاعدة، وأنا أميل أكثر إلى الظن بأنه لم يكن هناك رفض بالمرة يتصل بالتوائم، وأن ندرة المعلومات عن التوائم ربما ترجع إلى حقيقة أن الكثيرين منهم لم يعيشوا بعد الولادة. كما أنه من الممكن أن يكون ذلك نتيجة لتحيز فى السجل الأركيولوجى. بمعنى أن من الممكن أن يكون هناك آثار مصرية متعلقة بالتوائم لم تكتشف بعد، وقد تغير من مفهومنا عن مكانة التوائم فى مصر القديمة.

القادمون من سيام!

محمد أبو الغار

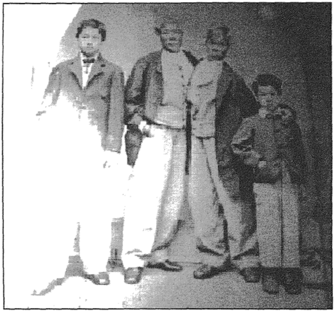
■■ تشكل ولادة التوائم حوالى واحد ونصف بالمائة من كل حالات الولادة. وفى السنوات الأخيرة وبعد استخدام أجهزة الموجات الصوتية فى فحص الجنين فى الأسابيع الأولى من الحمل اتضح أن نسبة الحمل فى التوائم أكثر من النسبة التى كنا نعرفها بحوالى ١٥٪. واتضح أنه فى هذه الحالات يختفى أحد الأجنة بعد تحلله ويكتمل نمو جنين واحد داخل الرحم دون أدنى تأثير عليه من الجنين المتحلل، ولم تكن معرفة ذلك ممكنة قبل استخدام الموجات الصوتية.

و قد حدث فى العقدين الأخيرين ارتفاع فى نسبة حدوث التوائم ويرجع ذلك إلى سببين أولهما هو ارتفاع عمر المرأة عند حدوث الحمل ومن المعروف أن هذا من المسببات الهامة لزيادة نسبة التوائم، والسبب الآخر هو استخدام الأدوية المنشطة للتبويض وأطفال الأنابيب فى علاج العقم.

و هناك أيضا عوامل وراثية هامة وراء زيادة نسبة التوائم، فمثلا فى أفريقيا السوداء تتراوح نسبة التوائم من ٢ إلى ٥ بالمائة وتنخفض إلى ١٪ فى أمريكا وتقل عن ١٪ فى أوروبا وتنخفض تحت النصف بالمائة فى الشرق الأقصى وأسباب هذا الاختلاف غير معروفة. ومن المعروف أيضا أن نسبة حدوث التوائم تزيد فى بعض العائلات وتورث إلى الأجيال التالية.

و يعتقد البعض أن السيدات ذوات الحجم الضخم لديهن فرصة أعلى فى حدوث حمل التوائم وكذلك يعتقد البعض أن حمل التوائم يحدث بنسبة أكبر فى أول الشتاء وبالتالى يتم الوضع فى النسبة الأكبر من التوائم فى نوفمبر/ديسمبر.

و يعتبر تنشيط التبويض وأطفال الأنابيب من أهم الأسباب الحديثة فى زيادة نسبة التوائم ولكن هذه الأسباب يمكن تجنبها إلى حد كبير، ففى حالات تنشيط التبويض يجب استخدام جرعات مخففة من أدوية التنشيط وكذلك يجب متابعة الحالات بالموجات الصوتية للتأكد من أن عدد البويضات التى تنضج قليل حتى لا يحدث حمل فى عدد كبير من الأجنة. وبالنسبة لأطفال الأنابيب فمنذ عدة سنوات أصدرت الهيئات الطبية المختلفة توصيات بعدم نقل أكثر من ثلاثة أجنة داخل الرحم، وفى معظم دول أوروبا يتم نقل جنينين فقط ولم يؤثر ذلك على فرصة حدوث الحمل. وهناك بحوث نشرت حديثًا فى الدول الاسكندنافية عن إمكانية نقل جنين واحد فقط بدون تأثير كبير على فرص الحمل.



التوءم السيامى الشهير مع اثنين من أطفالهما

ويحدث حمل التوائم من تلقيح بويضتين منفصلتين أو من تلقيح بويضة واحدة يتم انقسامها بعد ذلك إلى أكثر من جنين، وهذا النوع الأخير أكثر ندرة.

وفى الحالة الأولى يتم تكوين جنينين لكل منهما مشيمة منفصلة وكيس للجنين. أما فى الحالة الثانية فينقسم الجنين إلى اثنين فى مرحلة مبكرة جدا من الحمل وإذا تم ذلك قبل أربعة أيام من عمر الجنين يكون لكل جنين مشيمة وكيس خاص به وإذا تم الانقسام بين أربعة وثمانية أيام يكون للجنينين مشيمة واحدة ولكل واحد منهما كيس منفصل. وإذا تم الانقسام بين ثمانية وثلاثة عشر يومًا يكون للجنينين مشيمة واحدة وكيس واحد. أما إذا تم الانقسام بعد ثلاثة عشر يوماً فينتج عن ذلك التوأم الملتصق، وهو نادر الحدوث ولا تتعدى نسبة حدوثه واحداً فى الأربعين ألف ولادة، وفى معظم الأحيان تحدث وفاة الأجنة أثناء الولادة.

و فى دراسة حديثة وجد أن التوائم المتطابقين يعيشون عمرا أطول ولا يعرف السبب بدقة وربما كان التواصل النفسى بين التوءم المتطابق هو السبب فى إطالة العمر.

مضاعفات حمل التوائم

نظرا للتضخم الكبير فى حجم الرحم تعانى الأم من ضغط الرحم على الحجاب الحاجز مما يؤدى إلى صعوبة فى التنفس. وفى كثير من الأحيان تصاب الأم بفقر الدم. ونظرا لكبر حجم المشيمة هناك احتمال أكبر لوجودها فى الجزء الأسفل من الرحم مما قد يسبب انفصالاً فيها ونزيفًا. وتتعرض السيدة أيضا لارتفاع فى ضغط الدم وكذلك النزيف بعد الولادة.

وبالنسبة للأجنة الناتجة عن بويضة واحدة يسبب وجود اتصال الدورة الدموية بين الجنينين إلى تضخم طفل وضمور نمو الآخر فى بعض الأحيان وكذلك فإن نسبة التشوهات فى التوءم تكون حوالى ثلاث مرات أكثر من الحمل فى طفل واحد. وتعتبر أخطر مضاعفات حمل التوائم هى الولادة المبكرة مما يؤدى إلى مشاكل كبيرة فى تنفس المولود وارتفاع فى نسبة المضاعفات والوفيات وخاصة المضاعفات فى الجهاز العصبى ويحتاج الأمر فى كثير من الأحيان إلى وضع التوءم فى حضانة لمدة قد تطول وقد يلزم استخدام جهاز التنفس الصناعى لمدة قد تطول عدة أسابيع.

وبالرغم من أن ولادة التوائم فى الولايات المتحدة تقدر بحوالى واحد بالمائة من مجموع الولادات إلا أنها مسئولة عن ١٢ ٪ من مجموع وفيات الأطفال حديثى الولادة.

التوائم الملتصقة

يشهد التاريخ اليونانى والرومانى على استخدام التوائم الملتصقة ضمن التمائم (legends and myths).

ومن أشهر التوائم مارى وليزا التوءمان الملتصقتان اللتان ولدتا فى انجلترا فى عام ١١٠٠ ميلادية وعاشتا حتى بلغتا أربعة وثلاثين عاما وبعد وفاة إحداهما فكر الجراحون فى فصلهما ولكن الأخت الأخرى رفضت وقالت لقد جئنا سويا وسوف نموت سويا وماتت بعد أختها بساعات قليلة. وقد تبرع أحد الأغنياء بحوالى مائة فدان تم استغلال ريعها فى تقديم البسكويت على روحيهما لمدة ٩٠٠ عام وما زال ذلك مستمرا حتى الآن فى الكنيسة التى دفنتا فيها.

وربما كان أشهر توءم ملتصق فى تاريخ البشرية هو التوءم السيامى (أى القادم من بلاد سيام وهو الاسم القديم لمملكة تايلاند). وقد ولدا فى عام ١٨١١ فى سيام وكانا ملتصقين فى منطقة الصدر وفى عام ١٨٢٩ دعاهما الكابتن أبل كوفن للسفر لأمريكا واستخدما فى الاستعراضات وتدربا على الألعاب الأكروباتية. وفى زيارة لأوروبا قاما بعروضهما فى إنجلترا ولكن فرنسا رفضت السماح لهما بالدخول خوفا من أن رؤية الحوامل الفرنسيات لهذه الظاهرة قد يكون لها آثار سيئة عليهن.

وتلى ذلك ولادة أطفال ملتصقة كثيرة فى العالم ولم يكن الطب قادرا على فك الالتصاق جراحيا. وقد أجريت منذ أعوام قليلة فى أمريكا جراحة لتوءم ملتصق بغرض انقاذ طفل والتضحية بالآخر واستمرت العملية ٢٣ ساعة ولكن الطفلين ماتا.

ويعتمد نجاح الجراحات

كتاب الزاوية

مؤسسة للقراءة وأخرى للشحاذة

فى بغداد يمكنك أن تطلع على وجود عدة مكتبات من ذلك النوع الذى يسمونه «مكتبة جوالة»، وهى التى تعير الكتب للمطالعة الخارجية، وهى التى تجهز الناس بالكتب والقصص وكتب التاريخ المسلية، مقابل «بارات» قليلة كل أسبوع، فأماسى الشتاء الطويلة تعد مواسم للقراءة، إذ يلتقى عدة أشخاص فيدفعون معا نصيبهم من النقود لاستعارة الكتب التى يتلوها عاليًا أحد هؤلاء على مسامع الآخرين لإدخال البهجة فى نفوسهم، وفى ليالى شهر رمضان والعيدين خاصة، هناك قراءات فى كل بيت من بيوت الوجهاء.

وثمة مؤسسة أخرى فى بغداد، ليست أقل «سخرية» من الأولى لما فيها من غرابة، فقد كان للسيد «هاين» سايس خيل جاءت زوجته إلى فناء المنزل، حيث ضربت زوجها ضربًا مبرحًا وخربشت وجهه ونكشت لحيته المشذبة، ولما سألت عن هوية المرأة أجابونى أنها ابنة ملك الشحاذين، وبعد مزيد من الاستفسار اكتشفت أن وزيرًا معروفًا جدًا فى عهد سليمان باشا، عين أحد الشحاذين لتكون له اليد الطولى على شئون جميع متسولى بغداد، كان الشحاذون جميعًا مذعنين له ومنقادين لأوامره.

وكان يعد مسئولاً عن سوء تصرف جميع أعضاء تلك الجمعية، وحينما تؤخذ أعداد الشحاذين الغفيرة هنا بنظر الاعتبار، فإن مثل هذه المؤسسة، مهما بدت غريبة الأطوار للنظرة الأولى، لن تبدو دون فائدة.

الحديثة على نوع الالتصاق ومدى مشاركة التوءم فى أعضاء حيوية وهامة من جسمهما كالمخ والكبد. وقد أجريت فى الولايات المتحدة عملية فصل توءم مصرى عمرهما عامان وملتصقان بالرأس وتمت العملية يوم ١٢ أكتوبر ٢٠٠٣ واستغرقت العملية ٣٤ ساعة وتحسنت حالة الطفلين المنفصلين تدريجيا ولكن يبقى إجراء بعض الأشعات والاختبارات على المخ للتأكد أن فصل المخين لن يؤثر عليهما فى المستقبل.

و يهتم العالم فى الغرب بالتوائم بشدة وتوجد مجلة هامة فى الولايات المتحدة اسمها التوائم يشتريها معظم توائم الغرب وتوجد محلات خاصة تبيع مستلزمات التوءم من عربات خاصة وكراسى خاصة للسيارات وهناك مجموعة كبيرة من الكتب عن التوائم فى جميع مراحل العمر.

رعاية أم التوءم

تتيح وسائل التشخيص الحديثة معرفة أن السيدة حامل فى توءم منذ الأسابيع الأولى من تأخر الدورة الشهرية ولذلك فإن رعاية الأم تبدأ مبكرا. وتنصح الأم بتعاطى الغذاء الكافى لمنع حدوث فقر الدم وتنصح أيضًا بالراحة فترات أطول ويراعى ملاحظة ضغط الدم وتحليل الزلال على فترات متقاربة نظرا لأن نسبة حدوث تسمم الحمل فى التوءم أعلى بكثير من الحمل فى طفل واحد وحيث إن الولادة المبكرة هى الخطر الأكبر على الأجنة فى حالات التوائم فتنصح السيدة بالتوقف عن المعاشرة الجنسية فى الشهور الثلاثة الأخيرة من الحمل ويستحسن إعطاؤها جرعة من الكورتيزون تساعد على سرعة نضوج الرئة تحسبا لاحتمال ولادة مبكرة. ونظرا لصعوبة الولادة بسبب الأوضاع غير الطبيعية ففى كثير من الأحيان تتم الولادة بعملية قيصرية ويجب إجراء الولادة فى مستشفى مجهز بوسائل رعاية الأطفال حديثى الولادة وبه الحضانات وأجهزة التنفس الصناعى اللازمة لذلك.

و فى دراسة صدرت عام ٢٠٠٣ يقول الباحث أن التوءم قد عاشا بجوار بعض طوال الحمل وأن العلاقة داخل الرحم بينهما كانت مستمرة وبعد الولادة يتم إبعادهما عن بعض بوضع كل طفل فى سرير وحده ويعتقد الدارس أنه يجب أن يوضع التوءم فى سرير واحد حتى يستمر التآخى بينهما

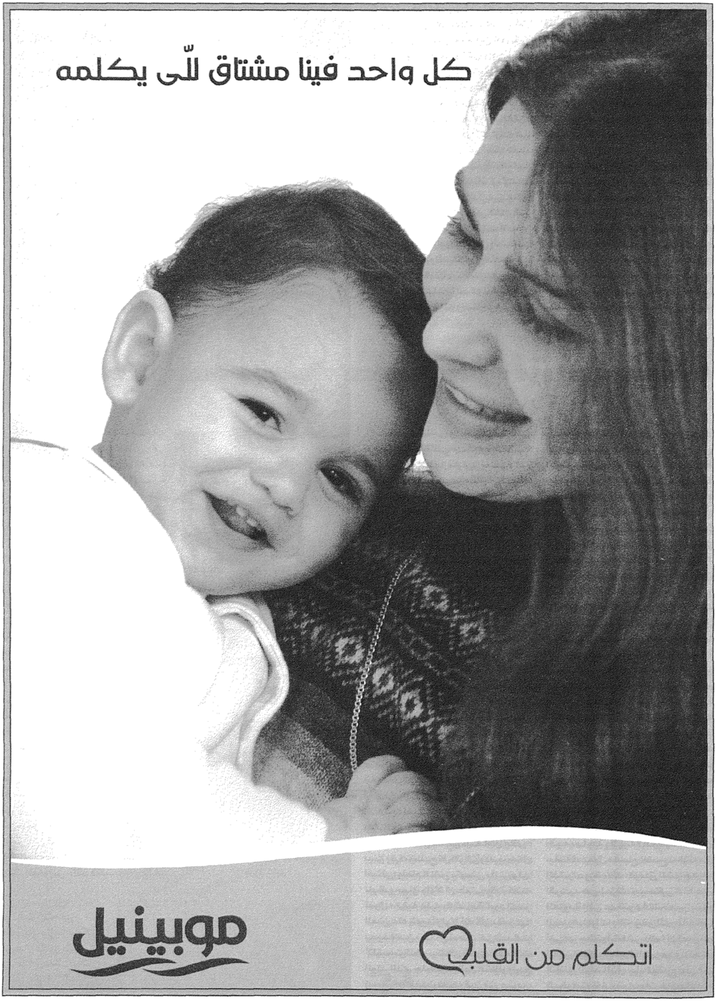
المشاكل المادية لولادة التوائم

تتكلف مصاريف الولادة بما فى ذلك رعاية الطفلين فى حالات التوائم فى الولايات المتحدة أربعين ألف دولار مقارنة بعشرة آلاف دولار لمصاريف ولادة الطفل الواحد. أما فى حالة ولادة توءم من ثلاثة أطفال فتصل التكلفة إلى مائة وعشرة آلاف دولار. وهذه الفروق الضخمة سببها الأساسى المشاكل الكثيرة التى تحتم رعاية الأطفال فى الحضانات لمدة طويلة والكثيرون منهم يحتاجون إلى رعاية مركزة تكلفتها مرتفعة للغاية. وبالطبع فإن تكاليف الولادة فى مصر فى القطاع الخاص تبلغ ٢ إلى ٥٪ فقط من الأسعار الأمريكية. وفى أوروبا حيث الرعاية الصحية تتكفل بها الدولة تتسبب ولادة التوائم فى مصاريف باهظة تتحملها الدول والتى بدأت تضع قوانين طبية تحد فيها من احتمالات الحمل فى أكثر من جنين.

و فى حالة حدوث حمل فى أكثر من اثنين من الأجنة (٣ أو ٤ أجنة مثلا) يكون احتمال الولادة المبكرة والمخاطر التى تتعرض لها الأجنة كبيرة جدا ولهذا تقوم بعض المراكز الطبية بشفط الأجنة الزائدة عن اثنين فى فترة مبكرة جدا من الحمل والاحتفاظ بالتوءم فقط. وبالطبع تعرض هذه الطريقة الأم فى بعض الأحيان لآثار نفسية وهناك اعتراض من البعض على مدى أخلاقية هذا النوع من العلاج، إلا أن رأيى الدينين الإسلامى والمسيحى قد وافقا على هذا النوع من العلاج لأن الغرض منه تحسين فرصة الأم فى الحصول على أطفال يمكنهم تكملة الحمل لمدة معقولة.

وأخيرًا وبالرغم من التقدم الكبير فى تشخيص التوائم فى فترة مبكرة من الحمل ورعاية الحوامل فى توءم رعاية خاصة أثناء الحمل إلا أن الحمل فى توءم ما زال مثيرا للتساؤلات فى أسبابه مقلقا للحامل وعائلتها طوال فترة الحمل والولادة ومثيرا لأنواع متعددة من المشاكل أثناء رعاية الأطفال فى الفترة الأولى من الحياة ويبدو أن المتاعب قد تستمر لفترات أطول من ذلك.

وأخيرًا فإن الولادة تكون أكثر أمنا فى حالة الحمل فى طفل واحد، ولذا يجب تفادى كل الأسباب العلاجية التى تؤدى إلى الحمل فى أكثر من جنين واحد. ■


كل واحد فينا مشتاق للّى يكلمه
اتكلم من القلب
موبينيل

بوح على بوح

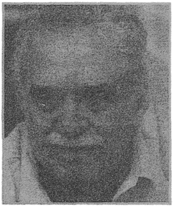
خيرى شلبى

■■ كنت ولا أزال شديد الإعجاب بالكاتب الكولومبى جابرييل جارثيا ماركيز، كنت شديد الإعجاب به إلى حد كبير جداً، إلى حد أننى لم أقع تحت تأثيره مطلقاً؛ ذلك أن إعجابى به. على شدته. وضعنى دائماً خارج عالمه، فشدة الإعجاب كانت هى نفسها المساحة الفاصلة بينى وبينه بحيث يحلو لى دائماً أن أراه من خارجه من مسافة عزلتنى عن الوقوع فى مجاله المغناطيسى وفى نفس الوقت مكنتنى من النظر فيه عن كثب، ودراسته بكثير من التجرد الموضوعى. وكان أكثر ما يدهشنى بل يروعنى هو ذلك التشابه بين عالمى وعالمه؛ لست أقصد العالم القصصى والروائى، إنما أقصد العالم الذى صنع منه قصصه ورواياته. ذلك على وجه التحديد هو ما كان يشغلنى دائماً كلما قرأت له عملاً جديداً، تماماً مثلما كان يحدث معى بالنسبة ليوسف إدريس: من شدة افتتانى بشخوصه وأحداثه ونسيجه الفنى أرانى قد انجذبت للتفكير فى الخلفية الاجتماعية التى ألهمته هذه الشخوص وهذه المنسوجات الفنية الدرامية؛ بمعنى أن انبهارى بالفن يقودنى إلى البحث فى المادة التى صيغ منها هذا الفن العجيب، أو لعله ليس من العجيب، أن هذا ليس هو موقفى مع جميع الكتّاب الكبار الذين أقرأ لهم بشغف وحميمية وما أكثرهم فى جميع أنحاء العالم؛ إنما هذا موقفى مع هذين الكاتبين فحسب. ولم أكن قد شغلت بمعرفة السبب وراء هذا الموقف؛ فما أن قرأت السيرة الذاتية لجابرييل جارثيا ماركيز التى صدرت مؤخراً باللغة العربية بعنوان: «أن تعيش لتحكى»، حتى انفض السر وعرفت السبب: إنه شدة التشابه بين طفولتى وطفولة كل من ماركيز ويوسف، وهو تشابه يكاد يصل إلى حد التطابق مع طفولة ماركيز على وجه التحديد.

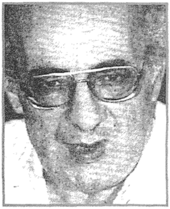
بادئ ذى بدء يطيب لى التنويه بأننى لست أحاول وضع نفسى فى مكانة واحدة مع ماركيز أو مع يوسف إدريس باعتبارهما من كبار الموهوبين المؤثرين فى جيلنا والأجيال التالية. لا: ليس هذا من طموحاتى على الإطلاق؛ كل ما فى الأمر أننى قد فُتنت بشىء أكبر وأهم من هذا الطموح الساذج الذى لا يراود إلا أشباه الموهوبين.. لقد فتنت بهذا التشابه الكبير بين طفولتى وطفولة جارثيا ماركيز، بهذه الوشائج الكثيرة التى ربطت بين طفل وُلد على حيز من شواطئ الكاريبى فى دولة اسمها كولومبيا فى أوائل عشرينيات القرن العشرين، وطفل وُلد على تخوم فرع من نهر قرية مصرية فى أواخر ثلاثينيات نفس القرن.

إن هذا الشىء مبهج حقاً بالنسبة لى، فأنا ابن الفولكلور المصرى الذى رسخ فى وعى طفولتى المبكرة أن لى أختاً تحت الأرض يجب أن أحنو عليها وأترك لها كل لقمة تقع من يدى؛ يبهجنى لاشك أن أجد لى قريناً على الكاريبى عاش نفس طفولتى وامتلأ بنفس قناعاتى وسبقنى إلى عالم القلم لاكتشف أنا بعد حين أننى مثله ابن الخيال الشعبى والسير والملاحم والفولكلور، ومثله مولع بالتفاصيل الدقيقة ويحشدها فى أبنية ذات شعب موصولة بالمسكوت عنه من الواقع الإنسانى المؤلم والساحر فى آن.

أهمية أن تعيش لتكتب



ماركيز



خيرى شلبى

مصدر ابتهاجى وفرحى أن ارتحالى الحميم فى وقائع السيرة الذاتية لجابرييل جارثيا ماركيز يضىء لى حياتى أنا، ويوثق لى ما سبق أن كتبته من قصص وروايات!! إننى فى الواقع أغوص فيها على صعيد الوقائع الحياتية التى أكاد أزعم أننى أعيها منذ تعلمت النطق، وصعيد النتاج الأدبى الذى أزعم بالفعل أن كل عمل كتبته منه. رواية أو حتى أقصوصة من نصف صفحة. كان تجربة فنية نابعة من تجربة حياتية.

أن تعيش لتحكى: حلم بشّرتنى به جدتى لأمى، وباركته أمى، وسخر منه أبى الشاعر المحبط والسياسى المبتور التجربة. حتى سخريته تلك كنت واعياً لها. إنه يفترض أن جميع خلق الله من عتاة الحاسدين إذا تعلق الأمر بى من أية ناحية! فأبى لو حدثنى عن فطنتى أو إشارة إلى ذكائى أمام ناس حتى من أهله تجعله يقرأ فى سره عديّة ياسين وآية الكرسى وقل أعوذ برب الفلق، وقد ازدوجت شخصيته فى التعامل معى؛ بينى وبينه يمتدح كل أقوالى ويعجب بكل أفعالى، وأمام الناس يتهمنى بأننى ولد بايظ وحمار، ولولا أن عمتى رقية كانت تقول معقبة عليه بابتسامة: أيوه اكسر العين عنه شويه، ولولا أنه كان يغمز لها بعينه من تحت لتحت كى تسكت لالتبست شخصيته فى نظرى. لقد كنت الولد الذى جاءه بعد طول انتظار وأربع زيجات استنفدت نصف قرن من عمره.

دارنا فى قرية شباس عمير مركز قلين محافظة كفرالشيخ كانت لعائلة كبيرة ذات شأن كبير، ربما أحد كبار موظفى الخاصة الخديوية وعلى وجه التحديد من عمال أفندينا عباس حلمى الثانى. مكونة من طابقين وحافلة بمفروشات كالحة تهرأت بعد موت جدى، كانت مخصصة للضيوف أو للمسافرين وقد ورثها أبى الذى كان أصغر إخوته ففصلها عن الدار الكبيرة التى ورثها أبناء عمومتى وفيهم رجال ونساء أكبر سناً بكثير من أبى ومع ذلك تُلزمهم الأعراف والتقاليد أن يخاطبونى. وعمرى آنذاك أربع سنوات. قائلين: ياأبى؛ ذلك لأنى أعتبر عماً لهم. على يسار دارنا تلك دار عبدالرشيد جعفر صانع الحصائر؛ وكنت مفتوناً بعملية صنع الحصائر وأجلس ساعات طويلة أتفرج على عبدالرشيد جعفر ومساعده مصباح وهما مقعيان فوق عارضة خشبية وأصابعهما تتسابق فى تمرير أعواد البردى بين خيوط الدوبارة المشدودة على الأرض. وكان عبد الرشيد جعفر لطيفاً جداً ومغرماً بمشاغبتى لكى أحكى له ما يدور فى دارنا، فكنت أحكى لهما أشياء غريبة جداً ولا يمكن أن تحدث على الإطلاق، ومن قبيل أن أقارب لنا من بلدة مجاورة جاءونا وفتحنا لهم غرف الطابق الثانى فصعدوا بالركائب وربطوا حميرهم فى درابزين السلم لصق البسطة الأخيرة، وكنت أشعر بابتهاج ترتعش منه أعطافى حين أراه ومساعده ينفجران فى ضحك صاعق وعميق فتلتوى ملامحهما حتى ليخيل لى أنهما تحولا إلى عفاريت مرحة، فيقشعر بدنى؛ لكن وجه عبدالرشيد ينبسط فجأة ويبلع ريقه صائحاً: «وبعدين؟»، فأتفكر قليلاً ثم أقول: «وأمى طلعت للضيوف بصينية الأكل وأبويا قال لها هاتى كمان صينية للركايب! وجابت لهم رز معمر وملوخية وعيش غريال!»؛ ويمسح مصباح دموعه هاتفاً: «والحمير غسلت إيديها بعد الأكل؟»، فأهز رأسى بالإيجاب. ويتصادف أن تكون أمى مقبلة على دار جعفر لقضاء بعض شأنها فيلفت نظرها الضحك الصاخب فتتوقف ناظرة لى فى توجس: «فيه حاجة ولا إيه؟ الولد ده عمل حاجة؟». يقول مصباح: «صدّع دماغنا من الفشرا»، ويضحك؛ فيعلق الشيخ عبد الرشيد فى لطف: «بيحكى لنا عن العزومة اللى عملتوها للحمير بتوع الضيوف! ابنك ده تحفة والله». تأخذنى أمى فى حضنها، تخشى دائماً أن تصيبنى العين فينكتب عليها القهر مدى الحياة إذ أننى الولد الذى جاء ليفرح أبى فى شيخوخته بعد أربع زيجات خاضها بحثاً

ان تعيش لتحكى
جابرييل جارثيا ماركيز
ترجمة: دكتور طلعت شاهين
دار سنابل للنشر والتوزيع
صدر عام ٢٠٠٣م

عن الولد، تفزعها نظرة عبدالرشيد وهو يتحدث عنى، فتغيبنى فى حضنها وتربت على ظهرى بحنان وهى تموء مثل قطة: «تعيش وتحكى يا حبيبى».

يقول جارثيا ماركيز: «من عرفنى فى سن الرابعة يقولون إننى كنت شاحباً وشارد الذهن، وإننى ما أن أفتح فمى حتى أقول أشياء مزعجة، لكن قصصى لم تكن سوى مقاطع من الحياة اليومية، وأنا كنت أجعلها أكثر جاذبية بإضافة تفصيلات متخيلة ليلتفت الكبار إلىّ. كانت محاورات الكبار أمامى ومن حولى أفضل مصادر تخيلاتى، لأنهم كانوا يعتقدون أننى لا أفهمها، أو تلك التى يلغزونها عن قصد حتى لا أفهمها، بينما كنت على عكس كل هذا: أمتصها كالإسفنج وأعيد تفكيكها قطعة قطعة، وعندما أقصها على من قصوها من قبل يصابون بالدهشة من تطابق ما كنت أقوله بما كانوا يقصدونه فى محاوراتهم».

خفيفة وهو يردد: «مسحوب من لسانك ليه؟ إيه اللى حشرك فى كلام الرجالة؟!». وصاحت أمى من الداخل فى نبرة بين الغبطة والرعب: «تعالى هنا يا مقصوف الرقبة!» كلاهما . أبى وأمى . يخشيان الحسد.

ما يذهلنى الآن بعد ما يزيد على نصف قرن من الزمان هو أننى إلى هذه اللحظة لا أزال أجهل المصدر الذى عرفت منه تلك المعلومة: انتحار هتلر. من المرجح طبعاً أننى سمعت هذه العبارة من شخص ما، ولكن المدهش حقاً أن تبقى العبارة فى ذاكرتى الغضة، أن تحتفظ بها الذاكرة كشىء ثمين مفيد كقطعة النقد يربط الطفل غريزياً بينها وبين تحقيق المطالب؛ ويحق لنا أن نتساءل: هل تستطيع ذاكرة طفل فى الخامسة من عمره أن تعى مدى ما لقائد ألمانى اسمه هتلر من أهمية على أى مستوى بالنسبة لأهله فى قرية فى شمال الدلتا؟

سيرتك الذاتية

فى مندرتنا فى البلد كان أصدقاء أبى يسهرون فى أواخر الأربعينيات وجل حديثهم يدور حول الحرب العالمية الثانية، وعن شائعة إسلام الحاج محمد هتلر الذى يجب أن يؤيده المسلمون وينصروه لعله يخلصنا من ذل الإنجليز. ولكن المندرة ما لبثت حتى شغلت بمسألة أكبر هى الاختفاء الغامض لشخصية هتلر: أيامها كنت قد صرت قادراً على تسلق الكنبة بمفردى دون معاونة من أحد. فإذا وقفت على الكنبة صار رأسى موازياً لرأس أبى وهو جالس، وقد اعتاد أن يتنازل لى عن رقبته القصيرة فأحيطها بذراعى، فيميل بى إلى الأمام كأنه يريد أن يدلقنى فى الأرض فأزاطط من البهجة مستشعراً لذة ملامسة الخطر؛ ثم يتوقف برهة ليستمع إلى سؤال، فيفتننى منظر صلعته من الخلف إذ تبدو كبحيرة من الضوء يحف بها الشعر من ثلاث جهات، يتلقى أبى سؤال عم عبدالفتاح القطان تاجر الأقمشة: «مش جايز يا أحمد افندى إن اختفاء هتلر ده يكون تكتيك حربى، ولاّ يعنى الأرض انشقت وبلعته؟!». تفكك أبى من ذراعى وتأهب لإجابة رصينة؛ إلا أننى كنت أسبق منه فى الرد؛ شوحت بذراعى متقمصاً لهجة أبى حين يريد أن يجهز على موضوع طال بحثه، قلت: «هتلر خلاص انتحر! مات!». نظرة عبدالفتاح القطان التى تجمدت فى عينيه من فرط الذهول ماثلة الآن أمامى. أذكر أن تلك النظرة رفعتنى عن الكنبة ثم هبطت بى عدة مرات ثم تجمدت فوقى حتى ارتعشت من خوف غامض، وطوانى أبى على ركبتيه كأنه يريد أن يخبئنى فيما هو يقرصنى فى شحمة أذنى قرصة

أنا أجيب على هذا السؤال بـ: نعم. فذلك الطفل لم يكن طفلاً فى الفراغ، إنما هو طفل وُلد فى حجر حرب عالمية ثانية، فى قرية من دولة تخضع لاحتلال إنجليزى منذ ما يقرب من سبعين عاماً. فمثلما ينتج الفقر المدقع طفلاً مهلهل الثياب مهزول البدن فالاحتلال والحرب ينتجان طفلاً عجوزاً تنطبع الهموم العامة على نفسه وذاكرته ولسانه. قريتى فى ذلك الحين . شباس عمير مركز قلين محافظة كفرالشيخ . كانت على درجة عالية جداً من الوعى السياسى، نلمسه فى خُطب المساجد التى لا تكف عن التنديد بالاحتلال وجنوده وأذنابه، والشبان من أعضاء حزب الوفد يجعلون من المصاطب ومن دكاكين الخياطة والبقالة منابر سياسية، والجمعيات التعاونية الأهلية لمعاونة الفلاح لاتنى تعقد اجتماعات فى الأجران لإجراء انتخابات مجالس الإدارة، فتشهد القرية عدة أيام من النشاط حيث كل مرشح يدعو لنفسه بالمقابلات، ويصل حماس الموالين لبعض المرشحين إلى القيام بمسيرة هتافية فى شارع داير الناحية؛ وكل ذلك يولد مناقشات، والمناقشات تطرح أفكاراً ومعلومات، واشتباكات ومعارك قد ترتفع فيها النبابيت والفئوس إلا أنها تقف دون القتال إذ لابد أن يظهر من يوقف المتعاركين عند حدهم، فدائماً أبداً هناك كبير يوقره الناس ويمتثلون لأوامره. وأجمل أساليب الدعاية حينذاك هى الأزجال التى كان ينظمها لفيف من الشباب الذين يجيدون القراءة والكتابة وعلى رأسهم قمر الدولة الشرنوبى أحد مدرسى مدرسة القرية،



فقد لقيت أزجاله شهرة واسعة النطاق لأنها إلى جمال نظمها وسيولة قوافيها كانت تهاجم العمدة المستبد المنتمى لعائلة غير وفدية.

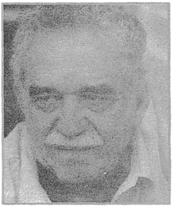
الجالسون فى مندرتنا ليلاً أو نهارًا تبلغهم أصداء الاشتباكات وهياج الأصوات فى شارع داير الناحية البعيد عن مندرتنا بمقدار طول حارتنا وهى عبارة عن صف من الدور المتقابلة لا يزيد على ثلاثين دارًا وتقع دارنا فى قاعها البعيد كأنها الإدارة المركزية لهذه الدور. ومن حين لآخر يدخل المندرة قادم جديد من أبناء عمومتى أو من أصحابهم؛ عندئذ يتجه إليه الجالسون سائلين فى شغف: «إيه اللى بيحصل بره يا فلان على الزربية؟». والزربية يعنى المساحة المتاخمة لحارتنا من شارع داير الناحية. فيقول هذا الذى سئل: «ده فلان بيتشاحن مع فلان». وهذا جواب غير شاف، ولهذا ما أن يدخل قادم آخر حتى يبادروه قبل أن يجلس: «مين اللى بيتخانق بره يا فلان؟». فيقول ما رآه فعلاً: «ماشفتش حد بيتخانق». وهكذا إلى أن أدخل أنا، فأفاجأ بصيحة «جماهيرية» هائلة تهتف فى استقبالى:

.«بس! هو ده اللى حيحكى لنا ع اللى حصل من طقطق لسلامو عليكم! اقعد يا خيرى! إيه اللى كان بيحصل بره ع الزربية! قول كل حاجة!».

أرى فى عينى أبى لمحة قلق تكاد ترجونى ألا أتحدث حتى لا أتعرض لحسد الحاسدين من هؤلاء لاسيما أن بعضهم يصف عياله، قياسًا على طلاقتى فى الحديث، بالنعاج البكماء. وفى نفس الوقت أرى فى عينى أبى فرحة وانتظارًا لما سوف أحكيه. الواقع أن قوة فى الأرض لن تمنعنى من الحكى لحظتئذ، فهذا التهليل الشغوف يشعرنى بلذة فائقة. هل أحكى ما دار بينى وبين العيال من لعب وخناقات وتمزيق ثياب؟ أم أحكى كيف طاردنا كلاب البلدة كلها بقيادة محمود الأقرع؟ أم كيف ملصنا كيزان الذرة من أرض البكاروة وشويناها فى ركية نار من حطب سرقناه من دار كحكاية وكدنا نشعل حريقًا؟.. كل هذا، على أهميته بالنسبة لى كواقع يومى، لم أعد أهتم به منذ أن اعتدت هتاف القوم فى استقبالى لكى أحكى لهم ماذا دار فى الخلاء.. لقد أمسيت شديد الانتباه لكل ما يصادفنى فى الطريق من مرئيات وأحداث. وجاء حين من الدهر نسيت فيه مهمة الانتباه لدرجة أننى كنت أفاجأ كل ليلة بما هو مطلوب منى، إلا أن الصدفة لم تكن تلعثمنى؛ إنما كنت، دائمًا أبدًا، أجد فى جعبتى ما أحكيه لهم بالتفصيل وأتلذذ بمنظرهم وهم ينصتون لى فى شغف كبير كأننى من عتاة الوعاظ.

يجب أن أشكر ذلك العبقرى الكولومبى جابرييل جارثيا ماركيز على سيرته الذاتية: «أن تعيش لتحكى»، لأنه بهذه السيرة الذاتية. ويا للعجب حقًا. قد علق على صدرى، صدرى أنا، الكثير من الأوسمة: هل كان يكتب قصة حياته أم قصة حياتى وهل كان يريد إبراز الشقاء الإنسانى فى قرية على شاطئ الكاريبى أم فى قرية مصرية على فرع من فروع النيل الأسمرانى؟ إنه لشىء مذهل حقًا أن يكتشف الإنسان لنفسه توأم لم تلده أمه ولم يضع أبوه بذرته، وأن رباط التوأمة الإنسانية أعمق وأشد وثاقة من توأمة الرحم. إن التجربة الإنسانية الحقة حين تعبر نفسًا صافية تصبح الرحم الأعظم، أعمق وأنفع للبشرية من جميع الأرحام التى لا تنى تزحم الكرة الأرضية بملايين من الإخوة الأعداء يتقاتلون على مواريث تافهة ومكاسب هزيلة إن عظمت أو سمنت هى فى النهاية أقنعة للأنانية وذرائع لسفك الدماء. إن الثقافة هى المبرر الوحيد المبهج لاستمرار الحياة على الكرة الأرضية أيًا كانت اللغة التى تنطق بها؛ وما الثقافة إلا الأدب؛ وعاء التجربة الإنسانية، متى وجدت فى أية لغة ستترجم عن نفسها بنفسها، لنفسها: ما أجمل أن أكتشف لى أبًا روسيًا اسمه تشيكوف بين جسور التآخى بين أهلى الفلاحين وأقرانهم فى الروسيا؛ أو أبًا فرنسيًا اسمه بلزاك يرينى كيف أن حضارة أوروبا تمشى فى طريق مسدود تخسر فيه كل العلاقات الطيبة والقيم النبيلة، أو اكتشف لى توأمًا كولومبيًا اسمه جابرييل، أو جبريل جارثيا ماركيز أرى فى مرآته الصقيلة تفاصيل حياتى، فأحترمها، أحبها، استمد منها الدفء والإلهام والصدق. إن تناوله لسيرته الذاتية على هذا النحو الإنسانى النبيل قد عملقنى، بعث فى نفسى شمسًا جديدة مشرقة؛ أوقفنى فى موقف العزة وقال لى: شقاؤك هو الحقيقة الوحيدة المحترمة فى الوجود كله وماعداه زور وبهتان وزيف.





بـوح علـى بـوح

البوح والاعتراف جبلة فطرت عليها وهذا من حسن حظى. بسبب هاتين الصفتين نفر منى سماسرة التجنيد للتنظيمات الشيوعية على أساس أننى لا أقوى على الاحتفاظ بسر. وقد حمدت الله فعلاً على أننى لم أخض تجربة التنظيمات السياسية لأنها ضد تكوينى الإنسانى. هذا لا يعنى أننى ضد التنظيمات السياسية، فلى أصدقاء خاضوا تجربة التنظيم السياسى وقدموا تضحيات جسيمة فى سبيل مبدأ آمنوا به، لهم منى كل الاحترام والتقدير. وفى المقابل يوجد بينهم عناصر فوضوية عدمية ابتزازية تستحق الضرب بالحذاء صبح مساء. أذكر أننى دُعيت من الشاعر المذيع الصديق فاروق شوشة للمشاركة فى حلقة من برنامجه: «أمسية ثقافية» مع الصديقين العزيزين جمال الغيطانى ويحيى الرخاوى بمناسبة حصولنا على جائزة الدولة التشجيعية لعام ألف وتسعمائة وثمانين من القرن الماضى، هما عن الرواية وأنا عن كتاب لى فى أدب الرحلات بعنوان: «فلاح مصرى فى بلاد الفرنجة». وفى التسجيل سألنى فاروق شوشة عن علاقتى بأدب الرحلات وكيف تأصل فى وجدانى؛ كان السؤال مفاجئًا، وبدلاً من أن أحدثه عن كتب كثيرة كنت ولوعًا بها لأنيس منصور والدكتور هيكل عن منزل الوحى وأحمد حسنين باشا عن استكشاف الصحراء، غلبنى الدفق التلقائى فتحدثت عن ابن عم لى اسمه «صادق» كان يعمل بائعًا سريحًا للعطارة والتوابل والكُحل والبخور وما إلى ذلك، يحمل «خُرجًا» ضخمًا على كتفه يجوب به القرى والبلدان البعيدة حيث ينادى على بضاعته فتلتم حوله النساء للشراء. وكان خصب الخيال، طويل البال، لبق العبارة، لطيف المعشر؛ رحلته لا تقل عن ثلاثة أشهر يقضيها فى بلاد بعيدة لا نعرف عنها أو عنه شيئًا؛ وفجأة يعود، فتعيش مندرتنا ليلة من أجمل لياليها؛ فصادق فى فترة سابقة من حياته كان يحترف العزف على الربابة وإنشاد السيرة الهلالية تستضيفه طوائف من الأعيان فى البلدان، ولكن مع بداية خمسينيات القرن الماضى بدأ جهاز الراديو يدخل بيوت أعيان القرى فكسدت ليالى صادق فتحول إلى تجارة العطارة وأفلح فيها. وقد اعتاد أن يحكى لنا تفاصيل رحلته فى المندرة من أول ما خرج من بلدتنا إلى عودته. كانت لديه حصيلة كبيرة جدًا من لغة الإنشاد الملحمى، وسليقته الشعرية نشطة كبديهته، فكان يستخدم هذه الحصيلة فى حكى تفاصيل رحلته: ماذا حدث له فى مختلف البلدان؟ كيف كان يبيت ويصحو؟ من قابلهن من نساء؟ ما الأسواق التى كان يفرش فيها؟ ما الصفقات الكبيرة التى نجح فى إبرامها؟ كيف نصب عليه النصابون وكيف نصب هو على عتاة النصابين؟ أين ذهبت تلفيعته الكشمير التى رافقته سنين طويلة؟.. قال:

.«أمسى علىّ الوقت فى بلدة قُرب شربين! ونمت فى حجرة فيها البرد يضنينى! فأشعلت نارًا تدفينى! فطارت علىّ شرارة بكرارة فصارت التلفيعة غبارًا فى الجو يعمينى!».

لابن عمى ذاك. يرحمه الله. فضل كبير فى تحريك خيالى بما كان يحكيه عن رحلاته من أشياء مبهرة. منه وحده أدركت مبكرًا أن الدنيا واسعة جدًا، والناس أنواع لا حصر لها، وعلى حد قوله فى إحدى أغنياته الفولكلورية: «البحر واحد.. واحد.. والسمك ألوان».

بعد إذاعة تلك الحلقة من الأمسية الثقافية التقانى على مقهى ريش واحد من محترفى الحنجورى فى التنظيمات السياسية، أخذنى على جنب وهنأنى بالجائزة وبالبرنامج ثم علق بلهجة استنكار فاجعة: «كيف تعترف أن ابن

عمك كان بائعا سريحا؟ الإنسان لا يتباهى بعاهاته!». قلت له: «ماذا لو عرفت أنني أنا نفسي كنت بائعا سريحا؟!». قال: «فليكن ولكن هذا لا ينبغي أن يقال على الملأ في التليفزيون». فتركته ومضيت دون تعليق، ولكنني كنت مندهشا من الحرارة التي يتكلم بها. فالواقع أنه كان يمثل رأيا عاما مستقرا ليس بين المثقفين فحسب بل بين جميع فئات المجتمع حيث يؤمن الجميع بالمأثور الشائع: «إذا بليتم فاستتروا». وهذا هو السر في أن الجميع يلبس الأقنعة، يعيش بشخصية مزدوجة، يكذب ليتجمل.. وهذا هو السر أيضا في أن أدبنا العربي لم يعرف من السيرة الذاتية بمعناها الحقيقي القائم على البوح والاعتراف خدمة للحقيقة الموضوعية التي بدون التكريس لها لن يتعلم المجتمع ولن تصفو نفسيات بنائه مطلقا.

في سيرته الذاتية: «أن تعيش لتحكي» تصفو نفس جابرييل جارثيا ماركيز إلى حد الشفافية الكاملة. كان يريد أن يكشف عن منابع إلهامه، مصادر أعماله الفنية الكبيرة التي باتت تشكل ملمحا رئيسا في وجه الأدب العالمي، ودرسا في عالمية الأدب، ورصيدا كبيرا في بنك التجربة الإنسانية يضاف إلى رصيد كل قارئ على حدة.. فإذا بشفافيته المرهفة تغوص فيما هو أبعد وأعمق، في البناء الإنساني، يكشف عن جرائم السياسة التي لا تغتفر. يكشف كذلك أنه لا قيمة لأي أدب أو سياسة أو لأي عمل مالم يتعامل الإنسان مع الحياة بمثل هذه الشفافية وهذا الصدق وهذه الصراحة المطلقة أما التذرع بتحسين صورة الإنسان في المجتمع والخوف من الفضح فهذه محض بلاهات تكرس لاستمرار الزيف حاكما وسيفا مسلطا على رقاب العباد.

لم يكن والد ماركيز طبيبا ولا صيدلانيا، ومع ذلك كان يمارس عمل الطبيب والصيدلاني معا. ويبدو أن نظام الحياة في القرى الأمريكية الجنوبية كان يسمح بهذا. وهو شيء مروع إذا نقل إلينا كمعلومة ضمن تحقيق صحفي أو مشاهدات سياحية في أدب الرحلات. بل إن الأدب الروائي نفسه، الذي من المفترض أنه الترجمان الصحيح لحياة الشعوب وهو الذي يقرب إلى إفهام قراءة الشعوب الأخرى كل ما يبدو معقدا وطقسيا غامضا في حياة القوم الذين ينتمي إليهم الروائي ويتخذهم مادته الروائية.. هذا الأدب نفسه لا يفلح في إعطائنا تفسيرات لكثير من الظواهر الاجتماعية الغريبة أو السلوكات المعقدة الغامضة. ذلك أن التقنيات الفنية الخاصة بكل فن من الفنون بقدر ما تساعد الكاتب على الكشف والتنوير والتحليل وإضاءة البنيان الدرامي للعمل الفني فإنها تمنعه من الاستطرادات التي قد تصيب العمل بالترهل والتفكك وفقدان الفاعلية بل وفقدان القيمة أحيانا، كما أنها التقنيات، كثيرا ما تجرد العمل الفني من خلفيات تاريخية أو سياسية أو اجتماعية تعتبر ضرورية لفهم العمل وتمنحه المصداقية والقدرة على الإقناع؛ وهذا هو السر أن روايات وقصص ومسرحيات وأفلام سينمائية كانت على مستوى فني رفيع جدا ومع ذلك تفشل فشلا ذريعا على النطاق الجماهيري وأحيانا الجماهيري والنقدي معا.

ولكن السيرة الذاتية فن يكتسح كل المعضلات وتبعث الضوء في كل حنية من الحنايا. إن التقنيات الفنية التي يبتدعها الفنان تخلق «نظام فني» يساعده على تقديم عالم إنساني يضاف إلى رصيد التجربة الإنسانية، والتي من المفترض نظريا أنه المتحكم فيها، سرعان ما تتحول إلى قيود تتحكم في الفنان ويصعب عليه الفكاك منها، ومع ذلك لسنا ندعو إلى الانعتاق منها والتمرد عليها وإلا تحول الفن إلى فوضى يقتحمها كل دعي نصاب، إنما ندعو إلى الدخول في حوار معها، حوار عملي، بتقديم محاولات لتوسيع المفاهيم أو تعديل بعضها أو استنباط تقنيات جديدة تستمد من طبيعة العوالم الجديدة التي يقدمها الكتاب الأفذاذ أصحاب المواهب الضخمة التي تسهم في تطوير التقنيات وابتكار تقنيات جديدة ومن هؤلاء جابرييل جارثيا ماركيز. ومن هنا أهمية أن تقرأ سيرته الذاتية لكي نقف على منابع الإلهام ومصادر الأفكار والشخصيات في حياته؛ ونحن نتوقع. بداهة. أن مبدعا من هذا الطراز لابد أن تكون حياته ثرية ثراء فاحشا؛ وثراؤها ذاك مرهون بالطريقة التي يتناول بها تلك الحياة؛ فالواقع أن حياة أي واحد. حتى من الدهماء. ثرية بالتجارب والأحداث والمعطيات ولكنها ستبدو فقيرة قاحلة إذا لم تكن قدرته على التعبير في مستواها. ليس هذا فحسب، بل إن القدرة على التعبير نفسها مرهونة بطبيعة المجتمع الذي يعيش فيه الكاتب، فإن كان يعيش في مجتمع كمجتمعنا العربي يكرس للكذب من أجل التجمل، ويكرس للنفاق والمخاتلة والمداهنة وتملق الحكام، والالتفاف حول المشاكل دون حلها، ومراوغة العدو دون مواجهته، وتسود فيه مفردات من قبيل الطرمخة والطناش والطرشة وما إلى ذلك من مفردات التخلف. فلا تنتظر من كاتب يعيش في مجتمع كهذا أن يواجه نفسه، مجتمعه، أولي الأمر فيه. فإن شذ كاتب وقدم نفسه للمجتمع بدون أقنعة كما فعل لويس عوض في أوراق العمر فإن فضيحة كبرى في انتظاره وقد ينبذه المجتمع، ويقدم للمحاكمة بعشرات من التهم!!

السيرة الذاتية لابد أن يكتبها صاحبها بقلمه لكي تسمى سيرة ذاتية. لابد من التأكيد على هذا لأن الجميع، وكثيرا من المثقفين مع الأسف، يخلطون بين السيرة الذاتية والسيرة التاريخية أو الترجمة، فإذا كتب أحدهم كتابا عن حياة شخصية من الأعلام قال المعلقون إنه كتب سيرة ذاتية لفلان!

قلنا إن والد ماركيز لم يكن طبيبا ولا صيدلانيا ومع ذلك كان صاحب صيدلية، وكان يجري بعض العمليات لبعض المرضى. وإذ يقدم لنا ماركيز هذه الصورة في سيرته الذاتية فإن حسه الروائي المرهف يوحي إلينا بأن لا نستنكر هذا الأمر، لأنه يقدم الصورة ضمن نسيج اجتماعي تتشكل منه حياة مجتمع برمته، يجيئنا عبر عدسة فنان تنعكس في بؤرتها صورة مجتمعه وصورة مجتمعنا نحن العرب، يتبادلان الصدارة، تنسحب صورة المجتمع الكولومبي لتحل محلها صورة المجتمع المصري العربي لكي تفضي بسر من أسرارها ثم تنسحب أو تختفي تحت صورة المجتمع الكولومبي وقد حدث بين المجتمعين ما يشبه التلاقح في المخيلة القارئة، المتلقية. ومعنى ذلك أن الصراحة المطلقة والحرية المفتوحة التي يتمتع بها ماركيز في الكتابة جعلت من التلقي. حتى في دولة أخرى. إيجابيا.. جعلتني أستدعي صورة حلاق الصحة في قرانا المصرية وقد كان بمثابة طبيب في القرية ويمارس العمل بترخيص من الحكومة، يضرب الحقن ويعالج العيون والبطون ويجبر الكسور.. إلخ، وفي بيته صيدلية مصغرة فيها أدوية مقفولة وأخرى تركيبية من صنع يديه.

إيجابية التلقي تتحقق على أفضل نحو في قراءة السير الذاتية بوجه خاص، وسير الأدباء والفنانين وقادة الجيوش بوجه أخص. ذلك أن السيرة الذاتية هي فن البوح، والفضفضة، والشفافية، ومراجعة النفس، وحساب ما تبقى من الأرصدة، ومحاولة الوقوف على المكسب والخسارة في رحلة حياة استغرقت عمر الحيوية في بدن الإنسان. وليس صحيحا أن هذا الفن العظيم قد غاب عن الأدب العربي قديمه وحديثه على السواء لأنه يقوم على فكرة الاعتراف وهي تقليد مسيحي ينفر منه المسلمون بوجه عام. لا. هذا رأي خبيث أشاعه نظام حياة يخشى مواجهة الحقيقة ويقطع الطريق على كل من يحاول الكشف عن المكنون من أسرار قد تصيب رءوسا كبيرة في دست الحكم.

فن البوح والشفافية والتجرد من أورام الهوى الشخصي. هو خير علاج للنفوس. البواح والمتلقي على السواء. وإيجابية التلقي تتحقق لأن نوعا من اختلاط الأوراق لابد أن يحدث بين هذين الطرفين القطبيين: البواح والمتلقي، إنهما يتبادلان الأمكنة، أثناء القراءة ينفعل المتلقي بما وصله. تسقط الفواصل، قد يشعر القارئ أن الكاتب كان يتجسس عليه هو. يترصد حياته هو، وكلما تشابهت الأحداث والأيام والمواقف ترادفت المشاعر وتلاحمت، وتماهت النفس مع النفس. وإذن فإنه فن غسيل النفس. البواح يغسل بالبوح نفسه، والقارئ يغسل بالقراءة نفسه. يستكمل ذاته، تنفعص الدمامل في داخله وتلفظ أم القيح مصدر الألم. تطيب جروحه، فكم من أفعال فرض على الإنسان أن يفعلها رغما عنه ويظل طول عمره يحمل وزرها والشعور بالذنب إلى أن يقرأ في إحدى السير الذاتية مثيلا لها مر به رجل أقدر منه فهما وأوسع تجربة وأعمق إدراكا للأمور، فيفهم عنه. يضع يده على الحقيقة، يتحقق له الشفاء، وتصفو نفسه، يغدو إنسانا سويا.

والد جارثيا ماركيز استدعى والدي. لم يتخرج في كلية الحقوق، لم يكن محاميا ولا قاضيا، إنما كان. ويا للعجب. مرجعا لهذا وذاك. سنوات طفولتي شهدت في مندرتنا طوائف من أهل القرية يحكون لأبي أحداثا وأوضاعا ومشاكل عويصة مركبة ومعقدة، يطلبون منه التكييف القانوني لها: إلى من يلجئون؟ إلى الشرطة ببلاغ؟ أم إلى المحكمة بقضية؟ وما نوع هذه القضية وما اسمها وفي أي دائرة يرفعونها؟ أجنائية هي أم مدنية؟ ومن من المحامين «يسلك» في

مصدر ابتهاجي وفرحي أن ارتحالي الحميم في وقائع السيرة الذاتية لجابرييل جارثيا ماركيز يضيء لي حياتي أنا، ويوثق لي ما سبق أن كتبته من قصص وروايات!! إنني في الواقع أغوص فيها على صعيد الوقائع الحياتية التي أكاد أزعم أنني أعيها منذ تعلمت النطق، وصعيد النتاج الأدبي

هذا النوع أو ذاك من القضايا؟.. إلخ..

يحدث هذا فى الفترة ما بين أذان العصر وأذان العشاء إذ أنه يسافر كل يوم إلى مدينة المركز لتخليص أعمال قضائية وإدارية لأهل القرية نظير أجر معلوم، يمشى على قدميه ستة كيلومترات ليركب القطار من محطة شباس الشهداء أو البكاتوش، وبعد منتصف النهار ينزل فى واحدة من هاتين المحطتين ليمشى سيراً على قدميه نفس المسافة عائداً إلى القرية حيث يتغدى ويتمدد قليلاً ثم يستلبه الناس من النوم.

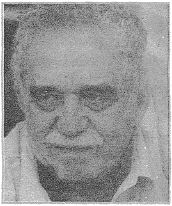
أما فى المساء فكثيراً ما نفاجأ بركائب تحمل أرهاطاً من المحامين الشبان أو الشيوخ جاءوا لزيارتنا من بلدان مجاورة ليعرضوا على أبى ألواناً من القضايا يطلبون الاسترشاد برأيه فيها: هل يقبلونها؟ ما نسبة البراءة فيها؟ وما الدفوع التى يمكن أن يتقدموا بها لضمان البراءة أو حكم مخفف؟.. إلخ..

وتحفل ذاكرتى بأمسيات ممتعة غاية الإمتاع وأنا أستمع إلى تلخيصات لأحداث جرى فيها قتل أو نهب أو هتك عرض أو اختلاس أو تزوير أو خيانة أو تفريط فى أمانة؛ ويتصادف أن يكون فى القعدة أطراف متعددة ممن اعتدى عليهم أو ممن قاموا بالعدوان، فيتدخل هذا لتصحيح معلومة، ويتدخل ذاك للتذكير بحدث سابق كان من بين أسباب العدوان. ما أمتع أن أستمع إلى تحليل أبى وهو بعبقريته الفذة يقيس هذا الحدث أو ذاك على المادة كذا من القانون الفلانى، وتتردد على لسانه، من الذاكرة!!. أسماء ومسميات وعناوين تتداخل فى ذاكرتى: قانون الإجراءات.. عبدالرزاق السنهورى».. وحيد رأفت.. الهلباوى.. عبدالفتاح باشا الطويل.. محكمة أول درجة.. الاستئناف.. الطعن.. قلم المحضرين.. إلخ. وتصل المتعة إلى ذروتها حين يقرأ أبى على ضيوفه مذكرة كلفوه بكتابتها وجاءوا لاستلامها، حيث يقرأها بلغة عربية غاية فى الفصاحة والبلاغة والجزالة لدرجة أن المستمعين كانوا وراءه كالكورس لا يكفون عن التعليق: يا سلام.. الله الله الله.. يا مساء التجلى.. إلخ.

وأصل الحكاية أن أبى وهو موظف سابق بمصلحة الفنارات بالإسكندرية كان عضواً بالجمعية العمومية لحزب الوفد وجميع أصدقائه من رجال القانون وأساتذته ولما كان هو مغرماً بدراسة القانون فقد تفقه فيه معتمداً على نفسه يشترى الكتب والمصادر ومجلة المحاماة.

وكان هو السبب فى إحساسى المبكر بجمال اللغة العربية، وكنت أقلده حين أقرأ للناس فى الدكاكين فصولاً من السير الشعبية. وبدورى أحببت القانون لكننى نفرت من دراسته نفورى من دراسة الجبر والهندسة والحساب، ولا أزال إلى اليوم إذا أردت أن أعد ألف جنيه مثلاً اضطر إلى تقسيمه إلى مئات أضعها بجوار بعضها ويختل ذهنى عند مراجعة المئات ما لم أضع يدى على كل مائة قائلاً: الله واحد.. مالوش تانى.. العدد تلاتة.. إلخ.





بــوح علــى بــوح

كسدت تجارة الأب ماركيز. أغلقت الصيدلية باتت الأسرة فريسة للعوز.. عيال كتار، أب رخو، وأم قوية الشخصية جداً، فيها شبه كبير من بطلة روايتى (الوتد) الحاجة فاطمة تعلبة، التى كانت فى الأصل زوجة عمى محمود. سافر الأب ماركيز إلى أحد البلدان البعيدة على شاطئ الكاريبى ليبحث عن شغل. ترك الأم بعيالها تعانى من شظف العيشة وتحاول تدبير أمورها بقروش زهيدة كان الأب يرسلها من حين لآخر مع رسالة مبتسرة تفيد أنه لايزال يبحث، وأخيراً انقطعت رسائله تماماً، انقطعت الصلة بينهم وبينه، لا يعرفون له مكاناً أو عنواناً. كابدت الأم وعيالها ظروفاً غاية فى الصعوبة والشقاء، ولولا قوة بأس الأم وقدرتها على التصرف لانهارت الأسرة انهياراً تاماً.

فى بلدتهم رجل ثرى من أصحاب القصور الفخمة المنيفة، مشهور بأنه فاعل خير، يتبرع كثيراً للجمعيات الأهلية، وللملاجئ، ودور الأيتام، والمستشفيات، ومعروف أنه يساعد فى السر مجموعة كبيرة من الأسر الفقيرة يبعث لأفرادها مرتبات شهرية؛ ولم يقصده طالب حاجة إلا رده مجبور الخاطر.

فكرت أم ماركيز فى اللجوء إلى هذا الثرى الكبير القلب. كتبت له خطاباً شرحت فيه ظروفها التعسة، وضعته فى مغلف، ألصقته، أعطته لابنها جابرييل وأوصته أن يذهب إلى قصر الثرى ويسلمه هذا الخطاب ومن المؤكد أنه سيعطيه ما فيه القسمة. جابرييل فى ذاك الزمان عمره اثنا عشر عاماً، يعنى فى مرحلة الدراسة الثانوية. لم يناقش أمه، لم يفكر فى شيء اسمه الكبرياء، أخذ الخطاب من سكات وتوجه به إلى القصر، صعد سلم الشرفة، نقر على زجاج الباب نقراً خفيفاً خجولاً؛ فى الباب طاقة تتسع بالكاد لدماغ الإنسان، انفتح بابها من الداخل، أطل منه وجه كالح لامرأة عجوز متجهمة الملامح، سألته بجفاء: نعم؟ مد يده بالخطاب، تناولته وأغلقت باب الشراعة. جلس الصبى جابرييل إلى إحدى الدرج ينتظر الرد، مكث حوالى ست ساعات. يا ربى!. وأخيراً قام وطرق باب الشراعة من جديد، انفتح بابها، أطل منه وجه العجوز، سألته بجفاء كأنها لم تره من قبل: نعم؟ قال لها إنه صاحب الخطاب الذى أعطاها إياه فى الصباح، قالت بنفس الجفاء: تعالى يوم الثلاثاء القادم. ذهب إليها يوم الثلاثاء، تكرر الموقف، قالت له: الثلاثاء القادم. ذهب إليها للمرة الثالثة، فتحت له باب الشراعة وصبت على رأسه فاصلاً من التوبيخ استمع إليه فى ذل ثم قفل عائداً إلى أمه وهو فى حال يرثى لها.

يا ربى! هل يستطيع كاتب عربى أن يحكى عن نفسه مثل هذا المشهد؟!

وجعنى قلبى. رأيتنى طفلاً فى السنة الرابعة من التعليم الإلزامى، كنت واقفاً مع زملائى فى المساحة الفارغة أمام باب المدرسة ننتظر أن يضرب الجرس لندخل. كتبى وكراريسى فى مخلاة كانت فى الأصل رجل سروال قديم من سراويل أبى قامت أمى بتخييط أحد طرفيه وصنعت له تعليقة سميكة من بقية السروال. كان من عادتنا إذا مر علينا أحد مدرسينا ونحن فى الشارع أن نقف ونضرب «تعظيم سلام» على سبيل التحية الواجبة للمدرس. وفى ذلك اليوم رأينا مدرسنا الأشقر الأنيق مقبلاً يضع يديه فى جيبى البنطلون، والطربوش الأحمر القانى مائل على جبينه. وقفنا، رفعنا أيدينا إلى رءوسنا بالتحية، فإذا به يحملق فى وجهى من خلف المنظار الطبى السميك بعينين واسعتين، ثم أشار لى بيده فى حركة عدوانية، وبجفاء قال: تعال يا ولد. ذهبت إليه وأنا أنتفض من شدة الخوف: نعم يا أفندى: أمسك بيدى، اصطحبنى إلى حوش المدرسة، انتحى بى جانباً:

.«النهارده ايه فى أيام ربنا؟»

.«النهارده السبت»

.«ما سرحتش الغيط ليه ياخويااااه؟»

.«غيط مين؟ إحنا مالناش غيط!»

.«حتتلائم يا ولد؟ أنا متفق مع أبوك ومديله عربون كيلة غله وكيلتين دره!»

تذكرت: كان الإصلاح الزراعى فى ذلك الحين يقوم. نيابة عن أصحاب الأرض. بمقاومة دودة القطن، ويلزم أصحاب الأرض المزروعة قطناً بأن يورد المالك نفراً عن كل فدان، ومن مجموع هذه الأنفار تتكون فرق نقاوة اللطع باليد من شجيرات القطن الخضراء وذلك بقطع الورقة الملطوعة ووضعها فى مخلاة محكمة الإغلاق، ويتم حرق هذه الأوراق فى جورات بعيدة عن الأرض الزراعية. وكان مدرسى ذاك يملك فدان أرض زرعه قطناً، فطولب بتوريد نفر، وهو رجل من علية القوم وأولاده يتلقون العلم فى المدينة، وأولاد الفلاحين منذورون لأرضهم، والأنفار الزراعيون الموسميون يفضلون العمل مع مقاولى الأنفار الذين يوردونهم إلى وسايا خاصة بالإقطاعيين أو أفراد الأسرة العلوية؛ فالمقاولون يدفعون نقوداً حية، والنفر يتفق على شهرين أو ثلاثة فى ترحيلة يقبض عنها مبلغاً إجمالياً لا بأس به يستطيع أن يفعل به شيئاً مهماً. وهكذا فكر مدرسى الفاضل فى نفر من تلاميذه، من ناحية يفيد التلميذ الفقير ومن ناحية مقابلة يستفيد هو من هيبته فى نظر أهل التلميذ الذين بالتأكيد لن يساوموه كثيراً فى قيمة الأجر. يومية النفر الصبى فى ذلك الوقت خمسة قروش فى اليوم فى موسم العمل المزحومة كموسم نقاوة الدودة أو شتل الأرز أو جمع القطن أو حصاد القمح، وثلاثة قروش أو أربعة فى غير هذه المواسم إذ يقل الشغل وتكثر الأنفار. إلا أن هناك نظاماً آخر يتعامل

به أهل القرية الذين لا نقود فى أيديهم معظم أيام السنة: إن الواحد منهم يستأجر النفر طوال موسم نقاوة الدودة مثلاً بخمس كيلات من القمح وكيلتين من الذرة أو الأرز الشعير. فكر مدرسى فى أفقر تلاميذه فتذكر أننى. إلى جانب ملابسى المتواضعة. لا أشترى أى شىء مما يطلبه المدرسون على الإطلاق: لا كتب خارجية ولا أدوات هندسية ولا ورق تجليد ولا أى شىء من هذا القبيل. قابل أبى واتفق معه على أن يكترينى طوال موسم نقاوة اللطع مقابل ست كيلات من القمح وثلاث من الأرز الشعير، مع ملاحظة أن الأرز الشعير بعد ضربه لإزالة القشرة عنه يقل حجمه إلى النصف فتصير الكيلة نصف كيلة. ولهذا ساومه أبى فى إضافة كيلتين من الذرة فوافق المدرس بشرط أن يخصم من الأرز الشعير كيلتين. ولم يكن أبى يتصور أننى يجب أن أسرح مع الأنفار قبل أن تنتهى السنة الدراسية التى توشك على الانتهاء. فلما نقلت إليه احتجاج مدرسى أخذنى وذهب إليه فى منزله. يا إلهى! أية طاقة من المرح وخفة الظل والجنون الحكيم كانت فى ذلك الرجل الذى قدر لى أن يكون أبى؟! أحيانًا كان يخيل إلىّ أن القدر يشاكسه ويشاغبه لا لشىء إلا ليفجر فيه طاقة المرح والسخرية، إنه بالفعل قدر غاشم يضعنا .نحن أسرة ذلك الأب الشجاع القوى. فى مواقف حرجة لا هدف له منها سوى تدمير كبرياء أبى وإذلاله وإرغامه على فعل مالا يرضاه من أجل أن يطعمنا ويكسونا، ولكن عبثًا، فالأب الذى تزوج وهو فوق الستين من عمره طفلة فى عمر أحفاده أنجبت له سبعة عشر ابنًا، كان فى سن الخامسة والسبعين يوم دخلت عليه المندرة بنفس مكروبة حزينة إن المدرس نبّه علىّ أن أسرح من غد مع الأنفار، فانتفض على الكنبة فى تحفز غاضب وراحت قدمه تبحث عن القبقاب الخشبى وهو يقول «ده باين عليه اتجنن! مش كفايه الزمن خلا ابن أسياده يشتغل نفر عنده؟ وكمان عايز يضيّع عليك سنة دراسية كاملة بست كيلات غله وكيلتين دره؟! تعالى معايه!» ونهض واقفًا يرتدى الجلباب. أخذت أمى تعيد لف الطرحة حول وجهها لتدارى رجفتها وتشاؤمها من هذه الانتفاضة، قالت بقليل من التحفظ: «اتفاهم معاه بالراحة يابو خيرى ما تنساش اننا خدنا منه عربون وديناه مكنة الطحين!» فإذا به يفعل نفس الفعلة التى لا يتورع عن فعلها فى أشد المواقف حرجًا: مد أصبعه الوسطى معقوفًا يغرف به الهواء نافخًا شدقيه ليضرط بفمه، ثم سحبنى ومضى يتوكأ على العصا ويطرقع بالقبقاب فى الأرض محدثًا ضجة هائلة. فلما أوشكنا على بلوغ باب بيت المدرس تصادف أن قابلتنا أختى الكبرى آتية من ماكينة الطحين القريبة من بيت المدرس تحمل على رأسها قفة كبيرة بداخلها قفة أصغر فيها طحين كيلة القمح وكيلتى الذرة. صاح أبى فى فرح قائلاً: «بس! كده اتحلت!»، ونادى على شقيقتى، فتبعتنا مهرولة تحت حملها الثقيل وقد ظهر عليها التوجس من جنونيات أبيها، وتملقتنى بابتسامة شاحبة لعلنى أخبرها جلية الخبر لكننى ابتسمت بدورى رافعًا كتفى علامة على أننى لا أعرف شيئًا.

نبحنا الكلب بشراسة. فرفع أبى عصاه ليطرق بها الباب فارتد الكلب خاسئًا وهو حسير. نظر المدرس من الشباك، هاله المشهد، «خير يا أحمد افندى؟ فيه حاجة؟!». تحت الشباك مصطبة طينية تطل على حديقة تابعة للبيت. مد يده إلى مقبض القفة: «نزلى يا بت!». نزلت القفة إلى المصطبة.

إن التجربة الإنسانية الحقة حين تعبُر نفسًا صافية تصبح الرحم الأعظم. أعمق وأنفع للبشرية من جميع الأرحام التى لا تنى تزحم الكرة الأرضية بملايين من الإخوة الأعداء يتقاتلون على مواريث تافهة ومكاسب هزيلة إن عظمت أو سمنت هى فى النهاية أقنعة للأنانية وذرائع لسفك الدماء

اختفى وجه المدرس ثم ظهر بكامله آتيًا من الباب. صافحنا جميعًا بيد رخوة: «أهلاً وسهلاً!» ثم صاح فى الشباك وهو يدفع أبى إلى الجلوس: «إعملوا شاى ياولاد!» وجلس بجوار أبى على المصطبة فيما بقيت وأختى واقفين. نظر المدرس إلى قفة الدقيق فى حيرة: «إيه ده يا أحمد افندى؟!». قال أبى ببساطة: «ده من غير مؤاخذة العربون بتاعك! بدال ما تضيع على الولد سنة دراسية بحالها ويبقى ذنبه فى رقبتنا مدى الحياة!». قال المدرس فى غباء: «يا أحمد افندى خلينا صُرحا مع بعض! إن كان على القراية والكتابة الواد خلاص بيعرف يقرا ويكتب! وما أظننش انك ناوى تصرف عليه وتعلمه فى البندر!»؛ وكان براد الشاى قد عبر من خلال حديد الشباك ومن ورائه الكوبيات الصاج ذات الأذن، وشرع المدرس يصب الشاى، وكان أبى قد أسند ظهره على عوجاية العصا وراح يرمقه فى استهجان مشوب بالكبرياء، ثم اعتدل ورماه بنظرة استخفاف قائلاً فى هدوء وبدون أى انفعال: «يا فلان افندى أبوك يرحمه الله كان يلف المقابر كلها يوم الخميس ليقرأ على الموتى ما تيسر من سورتين اثنتين يحفظهما نظير بعض الرغفان والأقراص اليابسة ومع ذلك استطاع أن يجعلك تنال كفاءة المعلمين وتصبح معلمًا! إن جئت للحقيقة فابنى هو الأولى منك ومن عيالك بالتعليم لأنه من بيت علم عمره خمسمائة عام على الأقل!». كان المدرس يخشى بأس أبى. ويعرف جيدًا أن أبى إذا وضعه فى دماغه سينغص عليه عيشه وقد يتسبب فى رفته من وظيفته: فأخذ يجر ناعم. ويضحك فى أريحية. ويربت على كتف أبى فى حنو: «أنت أب لى يا أحمد افندى وأصلك معروف ومقامك محفوظ! لا أنا ولا أتخن منى يقدر على زعلك! دع ابنتك تعود بالطحين إلى البيت كهدية منى لك أما الولد فليذهب إلى المدرسة ولاداعى للشغل! سأبحث عن نفر جديد تفضل الشاى». أشار أبى لنا أن نمشى، ثم نهض واقفًا: «أما أنا فلن أطالبك بما دفعته لماكينة الطحين! هو هدية منى لك! يلا يا ولاد!». ومضينا وراءه تاركين المدرس فاغرًا فاه لا يجد ما يقول. كانت أختى تحبس دموعها: ومع ذلك حين ارتاعت أمى من شكلنا إذ ندخل عليها بغير طحين وسألت أختى من حلق جاف: «فين الطحين يا بت؟!»: شوحت أختى قائلة: «يغور من وشه!». فأسندت أمى صدغها على كفها وغمغمت من بين أضراسها: «طالعة لابوكى! فقر وقنزحة؟!»، ورمقتنى بنظرة تطق شررًا. شعرت أنها تحمّلنى مسئولية ما حدث فمادت الأرض بى وانفرطت دموعى حزنًا على شكل أمى البائس القليل الحيلة. أما أبى فبكل بساطة نظر فى ساعة جيبه ثم وقف على الكنبة وشرع يقيم صلاة العصر كأن شيئًا لم يكن.

إيمان أبى بالله كان غاية فى الرسوخ ويحظى منى بتقدير عظيم. ففى صبيحة اليوم وبينما كنت أتأهب للذهاب إلى المدرسة ويتأهب أبى للسفر إلى مدينة دسوق لمباشرة البحث عن رزقه جاءه الفلاح على سرحان الذى كان على موعد للسفر معه ليقوم أبى بتخليص مأمورية له فى الشهر العقارى: فجلس يشرب الشاى معنا قبل أن يتوكلا على الله، فإذا به يسأل أمى: «ماتعرفيش يا أم خيرى حد عنده نفر ينقى دودة؟ أصلى مزنوق فى أربع تنفار عشان أربع فدادين قطن! لقيت نفرين وعايز كمان نفرين!». تسلقت الدماء تقاطيع وجه أمى، سألته فى الحال: «بكام؟». قال: «ستة غلة وستة درة!». عدلت أمى طرحتها وهى تقول: «لو ماكانش الواد ابنى عنده مدرسة كنت اديتهوللك!» فصاح مبتهجًا وهو يشير نحوى: «ابنك ده؟! أزودكم كمان تلاتة رز! احنا فى ديك الساعة؟ وهى المدرسة فاضل لها كام يوم يعنى؟ مش غايته أسبوع ولا تمن تيام؟ يخلص المدرسة ويجينى!». وعندما وقف وتطوع بحمل حقيبة أبى قال لأمى: «ابعتى حد من طرفك لدارنا ياخد اللى تعوزوه! ده أنا معنديش أعز من ابنك ده بالذات! ياسلام عليه وهو بيقرا لنا فى أبوزيد فى دكان البربرى! مش عايز حاجة من دسوق اجيبها لك معايه؟ طب ايه رأيك حاقطع لك جلابية زفير محترمة؟ أنا حاجيب لنفسى وأجيب لك بالمرة! دى من عندى كده محبة ليك! ربنا يوفقك!». عندئذ نظر أبى لأمى نظرة ذات معنى وقال: «شفتى يا مَره؟ إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء! مين اللى يشاء؟». تلعثمت أمى. فهتف على سرحان: «ربنا طبعًا ودى عايزه سؤال؟». قال أبى: «سبحانه وتعالى! بس المعنى اللى فى مذهبى حاقول لك عليه عشان المَرد دى تتعظ! معنى الآية الكريمة دى يا مره: اللى عاوز يتعز.. ربنا يعزه.. واللى غاوى ذل.. ربنا يذله!.. هه؟ فاكره امبارح يا مَره؟ رفضنا الذل وطلبنا عزة النفس! ومافاتش علينا سواد الليل إلا وربنا عزنا اهه! فهمتى يا مَره؟ والله ما انتى فاهمه حاجة! يلا بينا يا سى على!». ونظر فى شطفة المرآة المعلقة ليعدل فيها طربوشه قبل أن يخرج. فيالها من عزة تلك التى طلبها أبى وحمد الله عليها كأنه قد رفعه إلى أعلى عليين. إنما قد بقى فى ذهنى إلى اليوم ذلك التفسير الذى ابتكره أبى لمعنى الآية الكريمة إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء.

علاقتى بأدب جارثيا ماركيز كانت وبقيت شديدة الخصوصية. ومنذ أن اكتشفته فى أواخر ستينيات القرن الماضى من رواية (ليس لدى الكولونيل من يكاتبه)، وبعدها مباشرة رواية (مائة عام من العزلة) فى طبعتها البيروتية كان يدهشنى ذلك التطابق فى الأفكار، فى كثير من الموتيفات، من اللفتات، وجهات النظر، استخدام الرموز، الانتماء الفنى الكامل لألف ليلة وليلة وللرومانسى العربى المتمثل فى السير الشعبية التى تربيت عليها قبل أن أعرف الأدب الرسمى بله أن أعرف الأدب الأوروبى والأمريكى.. كان يدهشنى ذلك التشابه فى الولع بشخصيات بعينها، بأجواء بعينها، ذلك التشابه فى إيمان كل منا بالأسطورة باعتبارها أحد مستويات الواقع: فمنذ أن بدأت أكابد الكتابة وأنا أظننى منفردًا فى شىء مهم، هو الاعتقاد بأن ما نسميه بالخرافة ليس

بخرافة. هى خرافة. فحسب. عندما يعجز خيالنا عن الربط بينها وبين الحياة، حين نعجز عن الإدراك العميق للغة الإنسانية العريقة التى تخترعها البشرية منذ ملايين السنين. كان يدهشنى وحدة العالم بين ماركيز وبينى. وذات يوم من أوائل تسعينيات القرن الماضى أدليت بحديث لمطبوعة أسبوعية عربية بمناسبة صدور روايتين كبيرتين لى هما: «وكالة عطية» و«موال البيات والنوم» أشرت فيه إلى شىء من هذا المعنى فيما كنت لاأزال فى مرحلة الدهشة من استجلائه، أما اليوم وبعد طول إبحار فى أدب كل من يوسف إدريس وجارثيا ماركيز اكتشفت أن وحدة العوالم الإنسانية بل وحتى تشابه التفاصيل والمفردات ليس ينفى استقلالية الكاتب عن شبيهه بل عن قرينه. بمعنى آخر: إن الكاتب لا يمكن نسخه بأى حال من الأحوال حتى بين الاخوة أبناء البطن الواحدة.

إن بصمة الكاتب لا يمكن أن تتطابق مع بصمة كاتب آخر. تلك حقيقة دامغة ولكن بشرط أن يكون فى داخل كل ناقد فاحص جهاز لكشف البصمات. فبرغم تشابه المفردات الإنسانية والفنية بينى وبين يوسف إدريس على سبيل المثال، إذ إن كلينا يكتب عن الفلاحين وعن الأنفار وعن نفس التقاليد القروية وربما بنفس اللغة فإننى أختلف عن يوسف اختلاف تجربتى عن تجربته، اختلاف المكابدة، ومحتويات الشعور، والفناء فى المصداقية، وإذا كان الأمر هكذا بالنسبة لى مع يوسف إدريس فما بالك بالنسبة لنا معاً. إدريس وأنا. مع جارثيا ماركيز؟.. إن الاختلاف بيننا هو اختلاف نهر النيل عن الكاريبى، اختلاف المجتمع المصرى عن المجتمع الكولومبى، والعالم العربى عن عالم أمريكا اللاتينية. ولكن على قدر الاختلاف يحدث التميز، وعلى قدر التميز تجئ الأفضلية، وهذه الأفضلية ليست تحسم على الإطلاق، إنها لعبة الكريات الزجاجية التى استجلاها الكاتب الألمانى الكبير جداً هيرمان هيسه فى رواية له بنفس العنوان. وقد قال شاعر الإنسانية الأكبر جلال الدين الرومى فى واحدة من مثنوياته: الماء العذب والماء الملح متشابهان والفرق بينهما ذوق.. وتلك مسألة هى الوحيدة. ربما. التى لا يتم فيها فصل الخطاب مطلقاً.

ولكن مابالنا قد ابتعدنا عن السيرة الذاتية: (أن تعيش لتحكى) للكاتب الكولومبى جابرييل جارثيا ماركيز؟

وهل ترانا قد ابتعدنا حقاً؟

فى الواقع، لا، إنما كان هذا الذى قلناه لتونا هو زخمنا، لقد كنا نرشف المرق الذى هو ذوب إدامها، متشبع ببخار نكهتها، لقد أردت. بهذه اللغة غير الطويلة. أن أقول إن الأدب فى أشكاله الفنية المعروفة المتداولة بين جميع قراء العالم هو: فن «تصنيع التجربة الإنسانية»، بمعنى أن هناك تقنيات حرفية صارت لغة متفقاً عليها بين جميع مثقفى العالم يجب الخضوع لها، بشكل أو بآخر، بدرجة أو بأخرى، لإنتاج أو تسوية قصة أو رواية أو قصيدة أو مسرحية: وإذا تمرد الكاتب على شىء من هذه التقنيات أو خرج عليها فإنه يفقد جزءاً من اللغة الفنية المشتركة ومن ثم لابد أن يتأثر عمله الفنى وقد يمضى جيل بأكمله دون أن يتمكن من إيجاد جسر بينه وبين القراء.

أما السيرة الذاتية فإنها فن التجربة الإنسانية الخالصة دون تصنيع، لم تخضع لمقص التفصيل يخرط منها أكماماً وأبداناً وجيوباً وياقات تتم حياكتها بعد ذلك فى بعضها. إن السيرة الذاتية هى بمثابة الصناعة الثقيلة التى تنتج المصانع، فيها يتخرج الكُتاب والفنانون والقادة والرؤساء والحكماء والأطباء والمهندسون.. إلخ. وإذا كان الأدب هو فن تأطير العوالم الإنسانية فى أطر اجتماعية محددة لا قيامة للعمل الفنى بدونها فإن السيرة الذاتية هى فن تحطيم الحواجز وإلغاء المسافات بين البشر، هى فن الفضفضة والاستقطاب، هى فن التضاد مع المجتمعات المحلية لصالح التجربة الإنسانية وخلق روابط حقيقية متينة بين الإنسان وأخيه الإنسان فى جميع أنحاء العالم. لقد مرت بى لحظات وأنا مستغرق فى قراءة السيرة الذاتية لماركيز شعرت خلالها بأننى عثرت على توأم لى على شاطئ الكاريبى، بل شعرت بأنه أقرب لى من يوسف إدريس ومن كثيرين لا يربطنى بهم سوى مجموعة من فرضيات اجتماعية ثقافية تاريخية عقائدية عرقية مهما توثقت نظرياً لا تمنع قيام العدوان بينهم لأتفه الأسباب. إن إدماننا لبس الأقنعة قد أكسب الأقنعة سماكة ومتانة وخرّب دواخلنا تخريباً مروعاً. ولأننا قد أصبحنا ممنوعين من مواجهة النفس وتعريضها للهواء النقى وللشمس فإن دواخلنا ستظل ركاماً من العدوان لا يصيب أحداً سوانا. ■

كتاب الزاوية

داقوق وكركوك

اشتهرت مدينة داقوق بكونها مدينة تضم ضريح الحسين بن الإمام على، ولذا فهى موضع توقير المسلمين، ولكن لايزال الجدل محتدماً فيما إذا كان لهذا المكان شرف احتواء رأس الحسين. فى حين أن هناك بناية مشابهة فى نصيبين تحتفظ بجسده، ومع ذلك فهو مكان عظيم يؤمه جمع كبير من الزائرين، وفيما مضى كانت حلقة من الحديد علقت بواسطة سلسلة، شىء ما يشبه ذلك العمل البارع الذى مارسته البلاد قديماً للكتاب المقدس والمفتاح، فقد اعتادوا التفكير فى رغبة من الرغبات، ومن ثم يضعون السلسلة فى وضع من الحركة مقرر سلفاً، فإذا عادت الحلقة المتحركة إلى سباباتهم التى يجعلونها ثابتة ساكنة، فإن أمنيتهم سوف تتحقق، لكن سليمان باشا بغداد، وضع حداً لهذه الممارسة بإنزال هذه السلاسل.

وفى اليوم التالى سافرنا إلى كركوك وهى مدينة كبيرة، وفى صحرائها تنتشر حفر النفط، حيث يبدو العمال هناك كأنهم أرواح شيطانية، أضرم بعضهم النار فى إحدى تلك الحفر التى تأججت يصحبها دخان أسود من زفت، فبدت كأنها نسخة مصغرة لبركان ثائر.

وفى منتصف النهار بلغنا قرية كلك على نهر الزاب الأعلى الذى كان فى ذلك الفصل من السنة فى أدنى مستوياته، ومع ذلك فقد كان عرضه مايزال قرابة الستين أو السبعين ياردة.

وجهات نظر
رسائل

«ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها»

مقال هيكل

أود أن أسجل إعجابى الشديد بمقال الأستاذ هيكل الأخير فى مجلة «وجهات نظر». وأود أن أطلب من الأستاذ أن يصدر كتابًا يجمع فيه الوثائق الإسرائيلية التى تم تناولها فى مقالاته منذ فترة نظرًا للأهمية التى تتضمنها هذه الوثائق.

طارق عادل
محاسب

■

العدد الخاص الذى أصدرته وجهات نظر بمناسبة بلوغ الأستاذ هيكل عامه الثمانين كان عددًا خاصًا بحق. ويستحق كل التهنئة. وخاصة تخصيص باب الزاوية لمقالات «بصراحة». فجيلنا الذى كان يتابع المقال الأسبوعى المهم على مدى نصف قرن يعلم كم هو صعب وشاق اختيار تلك المقتطفات المحدودة من بين هذا العدد الضخم من المقالات. ولابد أنكم كلفتم بهذا العمل باحثًا متخصصًا فى نتاج الأستاذ الصحفى حتى يمكنه الانتقاء بهذه الكفاءة. ويا ليتكم تكررون التجربة مع كتب هيكل الأخرى.

محمد عبد الحميد
محام

■

لماذا لا تبادر وجهات نظر بنشر أجزاء من كتب مفكرنا وكاتبنا وكنزنا الاستراتيجى محمد حسنين هيكل بعدما استأذن بالانصراف لنتمكن من متابعة ما فاتنا متابعته.

أبى كنجو
مالى

■

طالعت العدد الأخير من مجلتكم المحترمة. وصدمنى أننى لم أجد قلمه كما تعودنا. وقد كان مقاله مادة لجلسة حوار فكرى شهرية نعقدها نحن عرب الغربة. وكنا قد اخترنا لها عنوان اسم مجلتكم «وجهات نظر». أعرف أنه فى مقاله الأخير قد استأذن فى الانصراف. ولكننى على ثقة تصل إلى درجة اليقين بأن هذا لن يطول المجلة التى أسسها. وأنه عائد ولو بعد حين. حتى ولو غاب قلمه مؤقتًا فإن بصمته تظل واضحة فى كل صفحة فيها.

د. عبد الله علام
محاضر جامعى. كندا

■

كان جميلاً أن تخصصوا باب بريد القراء فى مجلتكم للرسائل المرسلة إلى الأستاذ هيكل والتى نخرج من تحليل مضمونها إلى جانب تلك المرسلة إليه على موقع الجزيرة نت بنتائج مثيرة. سواء تلك التى تعبر عن وفاء القارئ لكاتبه الأول أو تلك التى يعتقد مرسلوها أن لدى الأستاذ إجابة لأى سؤال مهما كان بداية من «من هم الماسونيون فى عالمنا العربى؟». وهل هناك أمل فى تلك الأمة؟».. وحتى مهمة توضيح ما حدث فى كفر الدوار سنة ٥٤.

عدنان الشريف
مدرس. عمان. الأردن

■

القارئ المتمعن فى كتابات الأستاذ هيكل ولكتبه سيجد له بالضرورة رأيًا وتحليلاً.. ومن ثم توضيحًا للكثير من الأحداث والمواقف فى التاريخين المصرى والعربى فى النصف الثانى من القرن العشرين.

وقريبا ستخصص «وجهات نظر» بابًا لتقدم فيه «إشارة» إلى النتاج الفكرى لهيكل والذى تعيد «دار الشروق» إصداره فى سلسلة «عمر فى كتب» حتى يمكن للقارئ المهتم مراجعة رأى هيكل وتحليله للقضايا التى تعنيه.

المحرر

لدينا ما نقوله لكم نحن «عرب ٤٨»

قبل سنة ونصف انطلق موقع (arabs 48. com) على شبكة الإنترنت. بعد أن بادر بعض المثقفين القوميين الناشطين لإقامة هذا المشروع الإعلامى والسياسى والثقافى والاقتصادى المهم فى حياة المواطنين العرب الفلسطينيين فى الداخل. وفعلا نجح هذا المشروع فى هذه الفترة القصيرة بدون دعاية تذكر اللهم إلا الارتباط الذى وضعته «السفير» اللبنانية تبرعًا وسخاءً منها على واجهة موقعنا إضافة إلى العشرات من المواقع العربية التى تلفت انتباه مبحريها لموقعنا. وبرغم محدودية الاستثمار والميزانية اخترقنا حصار الكلمة والصوت، ووصلنا إلى الآلاف من المواطنين العرب من الخليج إلى المحيط، مما ساعد فى نسج علاقات مع عدد لا بأس به من الصحافيين والمثقفين الذين تعطشوا لما يأتى من الداخل الفلسطينى من أخبار وآراء وتحليلات. ونعتقد أننا مازلنا فى بداية الطريق.

استطاع هذا الموقع المتميز، والمنطلق من هذا البلد الذى يعيش معمعان الصراع، أن يضع بين أيدى متابعى الشبكة العنكبوتية، ساعة بساعة، يوميات حركة المجتمع العربى الفلسطينى فى الداخل. ورصد الأخبار والتحركات السياسية والاجتماعية التى تشهدها بلادنا ومنطقتنا. وحمل إلى أهلنا فى الداخل والخارج أخبارًا ودراسات وملفات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، تعالج قضايا تهم المواطن العربى فى كل مكان.

لم نختر اسم موقعنا صدفة، ولا نحب أن نكون عرب الأرقام أو عرب النكبة.. كى نتميز عن أبناء جلدتنا.. نحن عرب فلسطينيون نفتخر بأمتنا وشعبنا ونناضل من أجل قضيته العادلة ونعتبر هذا النضال الإعلامى الإلكترونى خدمة لقضايا الأمة والوطن.. لذلك انطلقنا فى هذا المشروع لأننا نحمل أشد الهموم.. هموم الوطن والمواطن العربى.. هموم الناس البسطاء الذين يبحثون كل يوم عن أسباب جديدة للحياة والاستمرار رغم حالة الحصار والخناق.. هموم المثقفين الرافضين لزمن اللامبالاة والمحفزين للانتباه والحذر من أداة التشويه الإعلامى الإسرائيلية التى تحتل مكانة بارزة فى زمن العولمة.. زمن المؤسسة الحاكمة فى الولايات المتحدة الأمريكية.

انطلقنا فى أيام حرجة من تاريخ شعبنا وأمتنا.. ومتى كانت أيامنا مريحة أصلاً فى العقود الأخيرة! هذا الموقع المهم هو ردنا المتواضع منا نحن القاطنين فى بلدنا منذ بداية الزمان. على الدعائية العدوانية للرأى العام العربى المساند لقضايا الأمة.. لقد جاء موقعنا أصلاً ليكون بديلاً للخبر الإسرائيلى المشوه الذى ينقل للعالم العربى بهدف الإساءة والنيل من نضال العرب الفلسطينيين فى الداخل.. ولابد من التذكير هنا أن بعض الأخبار المنقولة من بلادنا إلى العالم العربى فى السنوات الأخيرة اتسمت بعدم الدقة والتغييب المتعمد للسياق التاريخى والانتقائية فى اختيار الوقائع..

إننا نتوقع من مؤسسات العمل الأهلى والقومى وكل الذين يسعون لخطاب إعلامى عربى يليق بنا كأبناء أمة عظيمة دعمها لموقعنا ماديا كى يستطيع أن يعيش ويستمر.. وندعو الإخوة الكتاب والصحفيين فى الوطن العربى إلى المساهمة فى الكتابة والحوار والسجال على صفحات موقعنا على التواصل والمتابعة.

لدينا أيضًا ما نقوله نحن عرب ٤٨ فى «عرب ٤٨».

أحمد أبو حسين
رئيس إدارة موقع Arabs48.com

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

حمد بن خليفة أبو شهاب
الملامح الشخصية والفنية فى شعره
بلال البدور
أبو ظبى: المجمع العلمى الثقافى، ٢٠٠٣، ٣٥٨ صفحة



يتناول الكتاب سيرة «أبو شهاب»، والملامح الفنية والشخصية فى شعره، وجهده فى تثقيف نفسه ودراسته العميقة لكتب التراث وأمهات الكتب ولآلئ الشعر قديمه وحديثه، ما منحه مكانة مهمة بين شعراء الإمارات، يقول أبو شهاب عن نفسه:

لى من كنوز القوافى ملء أبحرها
قد استقرت بحمد الله فى خلدى

الغيم والمطر
الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة
مصطفى عبد الغنى
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ١٩٤ صفحة



هذه الدراسة عن ثقافة المقاومة من خلال رموز الرواية الفلسطينية، غسان كنفانى وجبرا إبراهيم جبرا وهشام شرابى وسحر خليفة وإميل حبيبى ومحمد وتد.

وهو يرصد تحولات فترات الغيم الطويلة فى كتابات جبرا وشرابى وكنفانى وسحر خليفة، وحين تعددت طبقات الغيم وتحول الغيم إلى غضب عارم ومطر أسود ثقيل، اقتصرت دراساته على أصحاب التجربة من عرب الداخل، من أمثال زكى درويش ومحمد وتد وليانة بدر وإميل حبيبى وراضى شحادة، بوصفهم أقرب المحاربين إلى المعركة، «وأكثر خبرة وأبعد بصراً»، كما يقول المؤلف، الذى يكشف عن دلالات الرموز وتداعيات الذاكرة كما عند جبرا مثلاً، حيث تلعب الذاكرة دوراً رئيسيًا فى تشكيل شخصيات رواياته ونموها، أو وعى المثقف بالمأساة وكيفية تعاطيه مع التحولات والانعطافات التى مرت بها القضية منذ النكبة وحتى اليوم فى كتابات هشام شرابى، والتوازى الذى تصنعه سحر خليفة بين واقع الناس فى الأرض المحتلة، وواقع شخصياتها فى إبداعها الروائى وخصوصاً فى ثنائيتها الصبار/عباد الشمس. أو دعوة إميل حبيبى إلى الاعتماد على الذات الفلسطينية من خلال روايتيه «لكع بن لكع» و«أخطية إميل حبيبى»، ثم الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل و«سرايا بنت الغول» فيما بعد.

نصوص عديدة، يحللها المؤلف نقديًا، راصداً علاقتها بالانتفاضة والمقاومة، سواء على صعيد التبشير والتنبؤ أو الرصد والتفسير.

طرف غائب
علاء خالد
الإسكندرية: كتاب أمكنة، ٢٠٠٣، ١٤٤ صفحة



هذا هو الكتاب الأول الصادر عن مجلة «أمكنة» التى يصدرها مجموعة من الشباب فى مدينة الإسكندرية، والتى سبق أن تناولنا أعدادها الأربعة التى صدرت حتى الآن فى هذا الباب، ويتضمن الكتاب مجموعة من المقالات التى كتبها المؤلف وهو المحرر الرئيسى لدورية «أمكنة»، فى الفترة من ١٩٩٧ وحتى ٢٠٠٠، وهى كتابات تحتفى بالدقائق والتفاصيل الصغيرة وتستنطق الأشياء، ناسجة من علاقتها بالمكان وبالسيرة الذاتية لصاحبها صوراً تنطوى على قدر كبير من الدقة وبراعة الوصف، برغم أنها كتابة لا تتعمد استحضار البلاغة ولا تحاكى سرداً شبيهاً، وإنما تستدعى مفرداتها الخاصة وتعيد صناعة الأسطورة بمفهومها الإنسانى، بعد أن ضاعت الأسطورة أو كادت من حياتنا، وحلت بدلاً منها أساطير حديثة وثيقة الصلة بتحولات عالمنا المعاصر.

من أجواء الكتاب: «المدنية تعدت المطلق، تجاوزته، لم يعد من اهتماماتها، كسرته بعلاقات اجتماعية معقدة، وبثقافة اجتماعية مليئة بالتفاصيل، لا يمكن أن تسمح بأى إمكانية لنظرة شاملة للحياة».

المولوخ (إله الشر): تاريخ الولايات المتحدة
كارلهاينتس دشنر
ترجمة: محمد جديد
دمشق: دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣، ٦٠٠صفحة



يقول المؤلف فى مقدمته: لم يسبق لى قط أن فكرت فى كتابة تاريخ للولايات المتحدة، حتى عندما كنت أتعرض لها فى بعض الأحيان، على هامش دراساتى الخاصة.

وكانت حرب الخليج هى أول ما دفعنى إلى ذلك، شئتُ أم أبيت، وربما كان ذلك بدافع الكتابة عن النفاق الهائل الذى تمّ خوض الحرب به أكثر مما كان بدافع الكتابة عن بربريتها، مهما بلغ من خبث هذه البربرية.

وكنت أريد أول الأمر أن أكتب يوميات عن حرب الخليج، على أن الأحداث تجاوزتنى، وسرعان ما بدا لى أن مما هو أكثر تسليطًا للضوء أن أكشف عن كل ذلك الشبح المصطنع من القوة والكذب والخداع، ذات مرة، فى سياق هذا التاريخ».

وقد اختار المؤلف عناوين مثيرة لفصول الكتاب مثل الشياطين الحمر والقديسون البيض وطليعة الحضارة أو استأصلوا الهَنادرة واستئصال الهَنادرة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهو يتحدث عن نشوء الولايات المتحدة والحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥ م) والتدَخل فى أمريكا اللاتينية عام (١٩٠٠ م) والحروب التى خاضتها الولايات المتحدة فى القرن العشرين.

حرب صليبية بكل المقاييس
زينب عبد العزيز
دمشق: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٣، ١٨٤ صفحة



هل جاءت الهجمة الغربية الأخيرة، والأمريكية خصوصًا على العالم الإسلامى ضمن سياق «الرد المشروع» على أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أم أنها تندرج ضمن الحملات الصليبية التى شنها الغرب تكرارًا على العالم الإسلامى، والتى لم تتوقف حتى اليوم برغم دحرها قبل ما يزيد على ثمانية قرون فى حطين.

الكتاب ينحاز إلى وجهة النظر الثانية، ويؤكد على أن الحروب الصليبية مازالت مستمرة، وأنها جزء أساسى من الفكر الغربى ومن «المنهج البابوى» حسب تعبير المؤلفة. منذ أعلن البابا أوربان الثانى أول حملة ضد المسلمين ١٠٩٥، وأنها أعلنت باسم الرب يسوع، وهكذا يفعل بوش الذى يدعى أنه يحارب أيضاً معركة الرب، وهدفه تنفيذ ما انتهى إليه المجمع المسكونى الفاتيكانى عام ١٩٦٥، وهو: تبرئة اليهود من دم المسيح، واقتلاع اليسار فى عقد الثمانينيات، واقتلاع الإسلام فى عقد التسعينيات.

كشكشة وكرانيش
عبد السلام محمد عبد السلام
القاهرة: دار قباء للنشر، ٢٠٠٣، ١٣٦ صفحة



عودة إلى فن الزجل، ذلك الفن الجميل الذى يستمد من الواقع الاجتماعى وتناقضات موضوعاته، وينسج من الهم اليومى للمصريين خيوطه الدرامية والفنية، صوت من لا صوت لهم، وهو الذى عرفه المصريون عبر أجيال متتابعة من المبدعين منذ بيرم

التونسي إلى أبو بثينة وعبد الحميد الديب، وعشرات غيرهم، نقرأ في هذا الكتاب:

كان نفسي أكون ثري/ أبيع في البورصة وأشتري/ وأتعامل ويا البنوك/ لا من شاف ولا من دري/ وآكل أكل الغلابة/ ولا أفكر افتري/ وأجيب لمراتي سيغة/ وأقول اتأمري/ وأشوي كبد وكلاوي/ والباقي حمري.

■

في الوحدة والتداعي دراسات في أسباب تعثر مشاريع النهضة العربية

يوسف مكي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٢٦١ صفحة



في أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧، مرت الأمة العربية بحالة من التداعي والضعف، دفعتها دفعًا إلى قبول الصلح مع إسرائيل، وتضاءلت بالتبعية مطالب التحرر والجلاء، وصار العدو الغاصب لفلسطين ندًا في مفاوضات تسلب البقية الباقية من الأرض وتكرس لأوضاع ظالمة.

وفي ظل هذه الأجواء انتكست مشاريع النهضة التي بدأت إرهاصاتها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وتحولت أمنيات العدل الاجتماعية إلى سرابات وأخيلة، وسقطت الأقطار العربية واحدًا تلو الآخر في شرك الإمبريالية الأمريكية.

وهذا الكتاب يبحث في تعثر مشاريع النهضة العربية، بادئًا من الوعي بالهوية العربية تاريخيًا ثم مرحلة النهوض القومي، ويتناول في الفصل الثاني موضوع الوحدة في مجتمع الجزيرة العربية في حقبة ظهور الإسلام، وفي الفصل الثالث يعرض للإسلام والهيمنة العثمانية، ويناقش في الرابع أسباب تداعي مسيرة العمل القومي، ويتعرض الفصل الخامس والأخير لإشكالية الوحدة والتنمية، مركزًا على التوجه الاقتصادي بوصفه المدخل الصحيح لتحقيقها.

■

ليالي الحصار. قصائد لنخبة من شعراء العراق

تقديم: سيف المري

أبو ظبي: دار الصدى للنشر، ٢٠٠٣، ١٢٢ صفحة



مختارات من الشعر العراقي تحت الحصار لأكثر من ٤٥ شاعرًا يمثلون تجارب فنية وخبرات حياتية وإنسانية متمايزة، وينتهون إلى أجيال وذائقات شعرية مختلفة، تتفاوت بين الشعر العمودي والحر، غير أن ما يجمعها أنها تأتي جميعًا ردًا على حال الحصار التي يعيشها الشعب العراقي في ظل غياب كامل لرد فعل عربي رسمي.

لقد كان الحصار الذي عاناه الشعب العراقي طوال عقد أو يزيد، دافعًا لإبداع متميز، وكاشفًا عن وجوه أخرى للمأساة، عبر عنها الشعراء من زوايا مختلفة، عبر لغة خاصة تليق بهموم الشعب اليومية، وتنتهي بعذاباته التي مازالت متواصلة تحت الاحتلال.

■

لا أحد يسعف الخيل

الياس فتح الرحمن

أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، ٢٠٠٣، ١٥٥ صفحة



تسعة عشر عامًا تفصل بين الديوان الأول للشاعر «صوت الطائف» وهذا الديوان، وفي هذه السنوات الطوال جرت مياه كثيرة في النهر، تغيرت أحوال وتبدلت ممالك، تقدمت أمم وتوارت أخرى، وما كان مأمولاً لبلد الشاعر. السودان، صار حلمًا بعيد المنال، وهو ما تعكسه الروح المسيطرة على الديوان، والقصائد المهداة إلى الراحلين ممن كانوا قابضين على الجمر في زمن الفتنة والالتباس، منهم: صلاح أحمد إبراهيم ومحمد المهدي المجذوب وجمال محمد أحمد وجيلي عبد الرحمن وعلي الملك وأمل دنقل وآخرون.

من أجواء الديوان:

على الخنجرين.. الهوى والخديعة/ تموتين في هذيان الشيوخ/ وفي شغف الطفل/ في الطرقات وفي الحجرات/ وفي حدقات الجياد الضليعة/ فهل نحن نحن؟/ وهل هذه اليد/ تلك اليد المستطيعة/ أم القول ضل/ فبارك للمتخمين/ وشد اللسان ليلعق/ ملح الصحون الوضيعة.

■

السيرة النبوية في رحاب التنزيل

رجائي عطية

القاهرة: مؤسسة روزاليوسف. الكتاب الذهبي، ٢٠٠٣، ٥٠٨ صفحات



يستحضر المؤلف وهو في الأصل محام ذائع الصيت في هذه الفصول، السيرة النبوية العطرة منذ نزول الوحي على النبي الكريم في غار حراء وطوال إقامته بمكة المكرمة، وما اشتملت عليه هذه الفترة من عذابات عاناها الرسول وصحبه ومن صدقوه وآمنوا بدعوته، وهو في هذا السياق يضع سور القرآن الكريم وآياته في مناسبات تنزيلها بين أحداث السيرة ومناسبات نزول الذكر الحكيم، موثقة من كتب أسباب النزول والتفاسير المعتمدة وكتب صحاح السنة ونفحات التنزيل، مستحضرة هذه الأجواء المباركة بما انطوت عليه من جهاد في سبيل الله ونصرة للحق، في سرد أدبي بليغ بلسان وعبارات أصحابه وفي الأجواء التي عاشوها.

■

كشف الأقنعة. صنع الله إبراهيم وهؤلاء

مصطفى بيومي

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٣، ١٧٥ صفحة



على مدى أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، قدم صنع الله إبراهيم تجربته الروائية، وهي تجربة بالغة العمق والثراء، قدمت مزيجًا من الشهادة والنبوءة، هكذا كان الحال في «تلك الرائحة» و«اللجنة» و«نجمة أغسطس» و«بيروت بيروت» و«ذات» و«شرف» و«وردة» وأخيرًا «أمريكانلي» أو أمري كان لي.

وخلال هذه الأعمال قدم صنع الله رؤية شاملة للواقع العربي كله، والقارئ الجاد لأعماله. كما يقول المؤلف. يتواصل مع الكثير من الأحداث المهمة في مصر والسودان وليبيا واليمن والسعودية والعراق وغيرها من البلدان العربية. كما أن بوسعه أن يجد صورًا لعديد من الزعامات العربية التي يتم رسم ملامحها من خلال وجهة نظر صنع الله بطبيعة الحال. فقارئ رواياته يجد جمال عبد الناصر وحسين بن طلال وأنور السادات وقابوس بن سعيد ومعمر القذافي وفهد بن عبد العزيز وصدام حسين وكميل شمعون وجعفر نميري وقحطان الشعبي وعبد الكريم قاسم وغيرهم. ولأن المادة الوثائقية تشكل عصب كثير من أعمال صنع الله إبراهيم، فإن القارئ لهذه الأعمال يتوجه مباشرة مع هذه الشخوص بشحمها ولحمها، وليس من خلال ألاعيب السرد ومستوياته الرمزية. وهو في هذا الإطار يكشف عن جذور الأزمة التي تواجهها الأمة العربية والمتمثلة في غياب الديمقراطية واستشراء الفساد والظلم الاجتماعي وإهدار حقوق الإنسان.

هذه هي جوانب الأزمة وجذورها كما يراها، وكما أسهمت فيها هذه الزعامات بدرجات متفاوتة، وهو ما يسعى الباحث إلى الكشف عنه في العالم الروائي لصاحب «اللجنة».

■

الاقتصاد العربي في عصر العولمة

حازم البيلاوي

أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٣، ٢٥١ صفحة



إذا كان لا يمكن الحديث في ظل محدودية العلاقات الاقتصادية العربية البينية، عن الاقتصاد العربي بوصفه حقيقة اقتصادية واضحة المعالم، فإنه لا يمكن كذلك إغفال أوجه الشبه والترابط بين الاقتصادات العربية. هذا يعني أنه إذا كانت المعطيات الحالية تشير إلى غياب كيان اقتصادي عربي متكامل، فإن ذلك لا يعني استحالة تحقيق ذلك في المستقبل.

على أن ثمة أسئلة تطرح في هذا الإطار، تتعلق بما فرضته العولمة من تحديات وما استحدثته من علاقات في

ظل بيئة دولية مغايرة، وهل يصبح التعاون الاقتصادى العربى مع هذه المستجدات قبضاً للريح، أم خطوة على طريق صحيح؟

وفى إطار التجربة التاريخية التى تثبت تراجع الأهمية النسبية للموارد الطبيعية فى تحقيق النمو والتقدم لحساب المؤسسات والقيم، يثور سؤال آخر عن «أهلية» المؤسسات والقيم السائدة فى منطقتنا العربية لقيادة قاطرة التقدم، فى ظل الشح الشديد فى الموارد المائية الذى تعانيه المنطقة، والاحتمالات القريبة لنضوب النفط والغاز.

هذه بعض أسئلة يثيرها المؤلف الذى يعمل مستشاراً لصندوق النقد العربى، وهو صاحب خبرة كبيرة فى الاقتصادات العربية وعلاقتها بالاقتصاد العالمى. وهو يشير فى إجابته على بعض التحديات التى تواجه الاقتصاد العربى فى المستقبل القريب، إلى أن هناك مصلحة كبرى للاقتصاد العربى فى الدخول إلى السوق العالمية من بوابة الإقليمية. وأن ذلك لن يتحقق دفعة واحدة، إنما عبر موجات من الإقليمية. وفيما يتعلق بشح الموارد المائية وموارد الطاقة، يؤكد على أن الأمر يحتاج إلى اختراق علمى وتكنولوجى يستخدم الطاقة الشمسية لتحلية المياه.

وفى الحديث عن تحدى المؤسسات والقيم يطالب بإصلاح سياسى شامل، كى تستعيد المنطقة قدرتها على المبادرة والتعايش مع العصر، وبرأيه فإن الديمقراطية والتعددية السياسية سيزيلان أهم العقبات أمام التعاون الاقتصادى العربى، ويساعدان على حسن استغلال الموارد المتاحة.

■

قصة سقوط بغداد

أحمد منصور

القاهرة: المكتب المصرى الحديث، ٢٠٠٣، ٢٠٠ صفحة



عايش المؤلف «قصة المدينتين» منذ البداية، عاش سقوط الكويت فى لحظة الحماقة التى دفعت حاكماً عربياً مستبداً لغزو دولة عربية جارة بإيعاز أمريكى فى ١٩٩٠، ثم عاش قصة سقوط بغداد على أيدى القوات الأمريكية فى ٩ أبريل ٢٠٠٣، وهى لحظة لا تقل فجيعة برأيه عن سقوط بغداد على يد قوات المغول قبل ذلك بما يقرب من ثمانية قرون.

وما بين السقوطين، عاش سنوات الحصار الطويلة فى بغداد، ورصد معاناة الشعب العراقى. وقد رصد قبله معاناة الكويتيين تحت الاحتلال «العربى» العراقى. وحين سقطت بغداد، وانهارت سلطة صدام حسين واختفى البعثيون، كان هناك، يقدم صورة لدولة مفككة منهارة، وثائقها السرية تباع على الأرصفة بقروش قليلة، فيما لا يعلم أحد شيئاً عن مصير حاكمها الطاغية.

هذه القصة يرويها بتفاصيلها المؤلف الذى عايشها بعين الصحفى المراقب.

■

السينما فى مرآة الوعى

حسن عطية

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ١٦٠ صفحة



وفدت السينما إلى مصر فى نهايات القرن التاسع عشر، بالتحديد فى ١٨٩٦. كانت فناً جديداً يعتمد على الصور المتحركة، وقد تفاعل هذا الفن الجديد مع فنون كانت قائمة بالفعل، فطورت بعضها، واستوعبت فى داخلها بعضاً آخر، وألغت تماماً وجود فنون أخرى. واندمج هذا الفن الجديد فى الوعى الشعبى المصرى فتأثر به كما أثر فيه. وهو ما تعكسه متابعة تطور السينما المصرية والتى جاءت أفلامها فى إطار سياقات اجتماعية شاملة، أثرت فى وعى صناع السينما فى تلك اللحظات التاريخية، فالسينما التى عرفتها مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات مثلاً، تختلف بالضرورة عن تلك التى سادت فى أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢، وهذه تتمايز عن سينما السبعينيات والثمانينيات فى زمن الانفتاح، وصولاً إلى تيار سينما الشباب السائد الآن.

فى هذا الإطار، فإن ثمة وعياً حقيقياً بالذات وبالمجتمع تعكسه السينما، يتمثل فى أعمال تجاوبت مع ظرفها التاريخى من نوع «الأرض» و«رد قلبى» و«شىء من الخوف» و«العصفور» و«أغنية على الممر» و«الأيدى الناعمة» و«الزوجة الثانية» و«اللص والكلاب» و«أنا حرة» وعشرات غيرها.. وفى المقابل ثمة وعى زائف لسينما تقليدية الطابع والتقنية، لكنها تجارى متطلبات السوق فى سينما هزلية بلا غاية ولا مضمون، وأخرى تحاكى تيارات ما بعد الحداثة الغربية، تلك التى نشأت فى سياق اجتماعى مغاير وضمن وعى إنسانى متمايز.

فى هذا الإطار يحلل الكتاب عشرات الأعمال السينمائية والتجارب الجديدة مركزاً على سينما صلاح أبوسيف بوصفه مثالاً لجيل حلم ببداية جديدة. وكذلك يلقى أضواء على أجيال شابة تنمو فى الاتجاه ذاته، مشيراً إلى حال السينما العربية فى وعى الآخر الغربى.

■

مسرح الشعب

على الراعى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ٤٨٦ صفحة



يضم هذا الكتاب ثلاثة كتب للناقد الراحل الذى يعد واحداً ممن رسخوا لظاهرة المسرحية فى الثقافة العربية. الأول هو «الكوميديا المرتجلة» والثانى «فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحانى» والثالث «مسرح الدم والدموع».

والكتب الثلاثة يضمها خيط واحد هو أنها تعبير عن رؤية الشعب للمسرح، فالكتاب الأول أفسح المجال أمام الفن المسرحى كى يوسع من رقعته وقدراته، بالإفراج عن الطاقات الحبيسة للممثل ودفعه إلى إتقان وسائل أخرى للتعبير غير الأداء باللفظ والصوت، مثل الأداء بالجسد كله والمشاركة الفعالة فى بناء النص المسرحى، كما أعطى المؤلف فنانى الارتجال القدامى حقهم، هؤلاء الذين قامت على أكتافهم الكوميديا الشعبية.

والكتاب الثانى يقدم بانوراما كاملة لفنون الكوميديا فى مصر، وتناول بالتحليل الفنان على الكسار، ووضع كوميديا نجيب الريحانى فى وضعها الصحيح بين من رأوه فيلسوفاً، أو من رأوه مهرجاً هزلياً. كما لفت الكتاب النظر إلى أهمية المقامة باعتبارها دراما فى مرحلة التشكل، وطالب باستخدامها مادة لعروض مسرحية، ونبه إلى أهمية عروض الشوارع.

وكان هم الكتاب الثالث دراسة الميلودراما العالمية والمصرية، وتجاوز النظرة الضيقة التى كانت سائدة آنذاك، والتى رأت الميلودراما فناً قليل القيمة، ضار ومخدر للعقول. فجاء الكتاب ليثبت أهميتها مدللاً عليها بنصوص مصرية وعالمية.

■

الدول المارقة

نعوم تشومسكى

ترجمة: محمود على عيسى

دمشق: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٣، ٢٧٤ صفحة



لمصطلح الدول المارقة استخدامان، الأول استخدمته الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهة الدول الرافضة لسياساتها أو ما تسميه هى محور الشر وفقاً لرؤيتها فى نظام عالمى قيد التشكل، وهو استخدام دعائى يحقق أهدافها فى التوسع والهيمنة، واستخدام موضوعى تتحلل بموجبه الولايات المتحدة ذاتها والدول التى تسير فى ركابها وخصوصاً بريطانيا من أى التزامات تفرضها عليها المنظمات الدولية استناداً إلى موازين قوى جديدة. وهذا هو ما يسميه تشومسكى: حكم القوة فى الشئون الدولية.

ويعود الاستخدام الموسع لمفهوم الدولة المارقة إلى فترة حكم الرئيس ريجان، وهى التى مهدت لـ«أمريكا الإمبراطورية» عبر سباق التسلح الذى قاد إلى نهاية الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتى، وانفراد أمريكا بالعالم. واستمر هذا المفهوم سارياً مع حكم الرئيس كلينتون الذى أبلغ الأمم المتحدة أن أمريكا «ستتصرف جماعياً عندما يكون ذلك ممكناً» و«ستتصرف فردياً عندما يكون ذلك ضرورياً». وفى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وفى ظل قيادة الرئيس بوش وإدارته اليمينية المتطرفة، فإن التوسع فى استخدام هذا المفهوم بلغ أقصى مداه، وأطلقت أمريكا لقوتها العنان، وأزاحت تماماً تقاليد المجتمع الدولى والمواثيق التى تحكم العلاقات بين الدول، والمؤسسات التى تنظم تلك العلاقات.

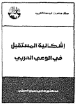
هذا بعض ما يكشفه تشومسكى فى كتابه.

■

إشكالية المستقبل فى الوعى العربى

هادى نعمان الهيتى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٢٥٧ صفحة



خلصت الدراسات القليلة التى

تناولت المستقبل فى الوطن العربى منذ أواسط الثمانينيات إلى نتيجة واحدة، مفادها أن الوعى بالمستقبل لم يدخل بعد إلى الذهنية العربية، وهذا الكتاب يطمح إلى أن يجعل قضية الوعى بالمستقبل فى موضع الاهتمام الفكرى والعلمى العربى. فبسبب كثير من المواقف خلال السنوات الأخيرة ظهر فى بعض الأقطار العربية ما ينم عن خيبات فى الأمل بالمستقبل، وهى الظاهرة التى اتخذت ردود أفعال شتى وصلت إلى حدود الهجرة خارج الأوطان، أو اللجوء إلى العنف والجنوح إلى السلبية، والنأى عن المشاركة فى الأنشطة السياسية والاجتماعية والفكرية، ورأت قطاعات فى المجتمع العربى فى الأنشطة السياسية أدوات لمحاصرة تلك التطلعات المشروعة.

والبيانات التى يحللها الباحث تكشف عدم اهتمام الحكومات العربية بالعلوم والأبحاث، وعدم اكتراثها بالكفاءة والقدرة الفكرية. وهى ترى أن العلوم مقحمة على الثقافة.

والكتاب فى التحليل الأخير دعوة إلى الروح العلمية والتفكير العلمى المنهجى وتنمية الوعى بالمستقبل لدى الأجيال الجديدة، عبر سبعة عشر فصلاً تستحضر هذه الإشكالية وسبل التعامل معها.

■

حكايات فيزو

تأليف ورسوم: وليد طاهر

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣



ثلاث حكايات عن «فيزو» فى الأولى «تصف فيزو»، يبدو فيزو عجولاً رافضاً متسرعاً لا يكمل شيئاً لنهايته، فهو فى الصباح يغسل نصف وجهه ويأكل نصف بيضة، وحين يغنى فهو يغنى نصف أغنية، وحين يرسم فإنه يرسم الأراجوز دون طرطور، وحين يلعب يختص بالكرة وحده دون أن يتبادلها مع رفاقه، وحين يذاكر فإنه يذاكر نصف المذاكرة، فتكون النتيجة أنه يحصل على نصف الدرجة ويأخذ نصف نجمة، وهكذا فإن فيزو الذى لا يكمل شيئاً ولا يتقن عمله ليس فيزو كاملاً، إنه نصف فيزو، أما حين يتقن ما يقوم به فإنه يحقق أفضل النتائج.

وفى الثانية فيزو فى الدولاب، فإن فيزو الخجول يختبئ فى الدولاب يوم عيد ميلاد مازن لأنه لا يعرف أصدقاءه، ويمر الوقت والأصحاب يسألون عن فيزو، ولكنه مازال مختبئاً فى الدولاب، وتحضر الأم التورتة والشمع ويبدأ عيد الميلاد، وفيزو مازال مختبئاً، لكن فريدة لا يعجبها غياب فيزو فتفتح له الباب ويلتف حوله الأصدقاء مرحبين بوجوده معهم، ويغنى الجميع: سنة حلوة يا مازن، ويعرف فيزو أنه كان مخطئاً، وأن خجله الشديد أوشك أن يضيع عليه فرصة الاحتفال مع الأصدقاء الذين أحبوه وأحبهم.

وفى الثالثة «فيزو أصبح سعيداً»، لا يرى فيزو سبباً لسعادة أخته ووالديه واستقبالهم المشرق لليوم الجديد، ويظل مكتئباً طول الوقت حتى يأتى صديقه مازن ويُبشّر الأخوين فيزو وفريدة بأن لديه مفاجأة سارة لهما، وحين يذهبان معه إلى بيته يكتشفان المفاجأة، فقد ولدت قطته قططاً صغيرة جميلة، وهنا يعرف فيزو أن فى الدنيا أشياء كثيرة تبعث على السعادة والفرح.

ثلاث قصص مستقلة كل منها تحكى عن فيزو برسوم بسيطة وكلمات قليلة.

■

خطيئة إسرائيل

دومنيك فيدال . جوزيف الغازى

ترجمة: سعد الطويل

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٣، ٣٢٧ صفحة



فى مناسبة العيد الخمسين لقيام دولة إسرائيل، أصدرت وزارة التعليم الإسرائيلية «كتاب اليوبيل» ووزع الكتاب على جميع المدارس كى يحتفل التلاميذ بالذكرى، ولم يشر الكتاب مطلقاً إلى وجود الشعب الفلسطينى لا قبل قيام الدولة ولا بعدها، ولا يتحدث عن قرار التقسيم الذى أقر قيام دولتين: فلسطينية وإسرائيلية عام ١٩٤٧، وحين يتناول محادثات السلام فإنه يتحدث عن تلك التى جرت بين الدولة العبرية وكل من مصر والأردن، دون أية إشارة إلى اتفاقات أوسلو ومدريد أو محاولات السعى إلى السلام مع الفلسطينيين.

فى إسرائيل عدد من الأصوات المعتدلة التى بدأت منذ وقت مبكر تدحض الرواية الرسمية التى تنكر تماماً وجود الشعب الفلسطينى، نبرات هذه الأصوات أولاً من اليسار الإسرائيلى، وانضمت إليها منذ عقدين على الأقل أصوات جديدة من باحثين وصحفيين صاروا يعرفون بالمؤرخين الجدد، وهؤلاء بالرغم من اختلافهم فى الأهداف والوسائل إلا أن ما يجمعهم هو اعتراضهم على الأساطير المحيطة بدولة إسرائيل، خصوصاً تلك المتعلقة بأسباب الخروج الجماعى للفلسطينيين من بلدهم. وهل كان ذلك بدوافع ذاتية واستجابة لرغبة قياداتهم، أم بسبب القهر والتعذيب والممارسات الوحشية الإسرائيلية ضدهم، وهو ما أثار غضب المؤرخين التقليديين ضدهم.

وقد استفاد المؤرخون الجدد من إزالة أستار السرية من الملفات الإسرائيلية الخاصة بالصراع بعد مرور ثلاثين عاماً عليها وفقاً للقانون، وكانت هذه الملفات هى المصادر الأساسية للمعلومات التى عمل عليها المؤرخون الجدد.

والآن بعد مرور عشر سنوات على نشر دراساتهم الأولى، كيف ينظر المؤرخون الجدد إلى الجهود الباكرة التى قدموها فى هذا الإطار؟

هذا هو السؤال الرئيسى الذى يحاول الكتاب الإجابة عليه من خلال مجموعة من الحوارات والمناقشات التى أجراها جوزيف الغازى الصحفى بجريدة هآرتس عام ١٩٩٧، مع عدد من المؤرخين الجدد وأيضاً مع عدد من منتقديهم.

■

حكايات عالم عجوز

سمير حنا صادق

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ١١٠ صفحات

حكايات يرويها عالم تخصص فى فلسفة العلم، تمثل حصاد السنين التى عمل فيها أستاذاً بالجامعة. ونذر حياته منذ بداية التسعينيات فى تسجيل خلاصة هذه الرحلة الطويلة فى دروب العلم ومعارجه، فأخرج عدة كتب تحث جميعها على التفكير العلمى وتبشر بعصر العلم، وأن على مجتمعاتنا العربية أن تدخل هذا العصر وأن تتحلى بالتفكير العلمى فى شتى مناحى حياتها، وأن تقاوم الدجل والغيبية، اللذين كانا سبباً أصيلاً فيما آلت إليه أحوالها.

من عناوين الحكايات: حوار حول الأخلاقيات فى الطب، بين البكتيريا والتطور، العلم الجيد والعلم الردىء، العلم بين البديهيات والفلسفة، من هنا نبدأ، الجذور الفكرية للعنف، العنصرية الحديثة واختبار معامل الذكاء، عن الديناصورات والحيتان وحفريات الفيوم.

■

الحركة القومية العربية بعيون عثمانية

حسن قايالى

ترجمة: فاضل جتكر

بيروت: شركة قدمس للنشر، ٢٠٠٣، ٤٨٢ صفحة



بدءاً بالنصف الأول من القرن التاسع عشر، حين نجح تفشى النزعة القومية فى شبه جزيرة البلقان مع الهزال الواضح للدولة العثمانية فى مواجهة أوروبا الاستعمارية فى تقوية النزعات الانفصالية فى الإمبراطورية. وتطورت النزعة العثمانية بوصفها عقيدة فوق قومية لوقف تلك النزعات وخلق الانتماء إلى الدولة الوطنية.

وقد قامت هذه النزعة على ترسيخ هوية مستندة إلى الجغرافيا، وعلى التسليم بالمساواة السياسية بين الرعايا بصرف النظر عن الانتماء الدينى ومعززة بشعور الولاء لآل عثمان. وقد ساهمت سياسات التنظيمات القائمة على إشاعة العلمنة، فى إيجاد هوية إسلامية طاغية، واختزلت احتمالات تسييس الانتماء العرقى بين المسلمين، الذين كانوا يتصدون لأوروبا مسيحية ولسلسلة من الحركات القومية التى أطلقها مسيحيو الدولة العثمانية.

وقد تكلل هذا المسعى بقيام نظام دستورى وإعلان دستور ١٨٧٦ وتأسيس البرلمان، وشكل هذا البرلمان اعترافاً بالمصالح الإقليمية وبالنفوذ السياسى للفئات الاجتماعية الصاعدة فى الأقاليم والولايات، وهو ما رآه السلطان عبد الحميد تهديداً لامتيازاته، وسارع إلى إجهاض البرلمان الأول، وتحولت سياسته القائمة على تأييد النزعة العثمانية إلى نوع من إعادة التوجه المستند إلى الولاء السياسى المطلق للسلطان، وما لبثت النزعتان العربية والقومية التركية أن نمتا خلال الحكم الطويل للسلطان عبد الحميد.

تفاصيل كثيرة عن هذا الصراع الذى امتد وتشعب وتشابكت خطوطه يجمعها الكتاب.

■

كهف الفراشات

إبراهيم فرغلى

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٣، ١٣٥ صفحة



بين يوميات الراوى فى رحلة استجمام بمدينة شرم الشيخ هرباً من ذكرى علاقة عاطفية فاشلة، ورحلته فى أعماق كهف الفراشات بكل ما يحتويه من عوالم عجائبية تدور أحداث الرواية.

تتتابع فصول الرواية بالتوازى بين مذكرات الراوى التى ألقى بها بين يدى الرجل الفراشة ممثلة لماضيه وحاضره الذى يبدأ بدخول الكهف، مكتشفاً لعالم عجائبى مدهش عبر نماذج السحرة والمردة، والنساء والفتيات اللاتى يجسدن نماذج الإلهام والعشق والفتنة والشبق، رواية تجمع بين التفاصيل اليومية والرواية العجائبية التى تستلهم تراث الحكى العربى القديم.

من أجواء الرواية:

«اقتربنا من الردهة الواسعة التى تتوسطها فتاة نحيفة شديدة الجمال تنظر إلينا بهدوء رغم الفزع الذى يطل من عينيها. ارتفعت ترنيمات الكهف إلى أقصى حد لها. بدأ «الصلت» يضحك بشكل هستيرى، ترتفع ضحكاته تدريجياً.. حدقت فى عينى الفتاة أمامى مذهولاً وقد ارتفعت نبرات صوتها لتعلو كل الأصوات الأخرى: الواهمون لا مكان لهم فى كشف العشاق.

عزمى بشارة القضية والمحاكمة

إعداد: زياد منى

دمشق: دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣، ٢٩٢ صفحة



قبل الولوج إلى المحاكمة موضوع الكتاب، يعنى الكتاب بالخلفية، بعض من آراء الدكتور عزمى بشارة وكتاباته فى القضية الوطنية والقومية والمساواة ومستقبل اليسار والديمقراطية، ثم حديث مستقل عن نشأة التجمع الوطنى الديمقراطى ودوره.

وفى القسم الثانى من الكتاب، حديث عن «عرب ٤٨»، خلفيتهم التاريخية والثقافية والسياسية ودورهم الآن وفى المستقبل، ومحاولات للإجابة عن هوية «عرب ٤٨»، وعلاقتهم بالاقتصاد العربى فى إسرائيل، وقبل الحديث عن المحاكمة، يعرض الكتاب لخلفية محاكمة الدكتور عزمى بشارة، وخطابه أمام الكنيست الإسرائيلى بعد تجريده من الحصانة النيابية، ثم أخيراً الجزء الثالث الذى يعرض لمداولات المحكمة، لائحة الاتهام والإدعاء والشهود والدفاع ودور المخابرات العامة الإسرائيلية فى تشكيل لائحة الاتهام، وأخيراً ملحق عن حزب الله تحت عنوان حزب الله إرهاب أم مقاومة؟

المستقبل العربى

(نوفمبر ٢٠٠٣)

بيروت: مركز دراسات الوحدة الوطنية



يبدأ العدد بافتتاحية بعنوان: «إدوارد سعيد: المفكر الراحل.. الحى». والعدد يتضمن ملفاً بعنوان: «المشهد الأمريكى» احتوى على أربع مساهمات: الأولى، لنصير عارورى بعنوان: «حروب جورج دبليو بوش «الوقائية» بين مركزية الخوف وعولمة إرهاب الدولة». وقد استعرض عارورى فى هذه المقالة الخلفية النظرية لبوش الابن والفريق الذى يحيط به، وبالتالى كشف عن التوجهات الاستراتيجية والتى باتت على تماه شديد مع المصلحة الإسرائيلية. المساهمة الثانية، لنعوم تشومسكى بعنوان: «الحرب الوقائية أو «الجريمة المطلقة» العراق: الغزو الذى سيلازمه العار». وقد أوضح تشومسكى فى مقالته كيف أن نظرية الحرب الوقائية هى نفسها الحرب التى أدينت فى محاكمات نورمبرغ. المساهمة الثالثة، لأمى ورثنجتون بعنوان: «كيف تقصف أمريكا أبناءها بالسلاح النووى»، وتحتوى الدراسة على معلومات مذهلة عن نتائج استخدام أمريكا لليورانيوم المنضب فى أسلحتها، إضافة إلى تأثير ذلك فى الولايات المتحدة نفسها وهو تأثير كارثى. المساهمة الرابعة، كتبها منير العكش بعنوان: «خلفيات رسالة الهندى الأحمر إلى شعب العراق». وتتضمن هذه المقالة الرسالة التى وجهها الزعيم الهندى جورج واسون إلى الشعب العراقى بمناسبة تعيين مجلس الحكم الانتقالى، وفيها محاولة إسقاط بين الاستعمار الذى تعرض له الهنود الحمر والاحتلال الذى يتعرض له الشعب العراقى. فى العدد أيضاً مقالة لعبد الحسين شعبان بعنوان: «المشهد العراقى الراهن: الاحتلال وتوابعه فى ضوء القانون الدولى».

الدولة المأزومة والعنف الثقافى

كريم عبد

بيروت: الفرات للنشر، ٢٠٠٢، ١٩٠ صفحة



بالنسبة لمتابعى الشأن العراقى، فإن ماجرى ومازال يجرى لم يكن مفاجئًا. ما حدث، كما يشير الكتاب، كان نتيجة طبيعية لإحساس عارم بالظلم وغياب العدالة عانى منه العراق، كما تعانى منه المجتمعات العربية كافة.

وبالتركيز على الحالة العراقية، التى تشابهها «حالات» عربية عديدة، فإن أزمة الدولة تجلت فى مظاهر عدة، بينها استئثار حزب أو طائفة بالحكم واستبعاد ما دونها، وتحول المنخرطين فى هذا الحزب أو تلك الطائفة إلى هيئة منتفعين أو مبتزين تنظر إلى الدولة بوصفها غنيمة أو وسيلة للهيمنة وبسط النفوذ.

من ناحية ثانية، فإن الدولة الاستبدادية لا يعنيها سوى أن تبقى جاثمة على صدور مواطنيها، مستفيدة من التناقضات بين القوى المختلفة داخلها، والتى غالباً ما تكون هى صانعتها، بل وكثيراً ما تغذى هذه التناقضات، وكى تزيد إحكام قبضتها، فإن الدولة الاستبدادية كثيراً ما ترفع شعارات من نوع الوحدة الوطنية أو المصالحة الداخلية، أو التوافق العام، وكى تهرب من مواجهة نتائج سياساتها الفاشلة، فإنها تحيل عجزها إلى مؤامرات خارجية أو مخاوف من قوى لا وجود لها.

هذه الحالة التى تصنع دولة مأزومة ورعايا مستلبين، تشيع قدراً مخيفاً من العنف الثقافى الذى تتبادله الدولة والنخبة، أو النخبة ذاتها فى داخلها.

فهل يمكن تجاوز الدولة الاستبدادية لأزمتها فى إزاحة الحزب المسيطر أو القوة المهيمنة وإحلال أخرى مكانها؟ أم فى إشاعة مناخ ديمقراطى حقيقى يفرز قوى ومؤسسات سياسية وأهلية تعبر عن واقع الحال؟

المحيط الثقافى

رئيس التحرير: فتحى عبدالفتاح

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣.



يتضمن العدد الجديد من هذه الدورية ملفاً تحت عنوان «الجذور/ الدين والدولة»، يضم دراسات للدكتور رفعت السعيد والدكتور حسن حنفى ونبيل عبدالفتاح وعمار على حسن، ومساحة للحوار مع الدكتور محمود فهمى حجازى. فضلاً عن مقالات عدة تتابع الأحداث الثقافية ودراسات فى الفن التشكيلى والسينما والأعمال التليفزيونية، وإبداعات لمصريين وعرب.

النص والجسد والتأويل

فريد الزاهى

ترجمة: محمود على عيسى

الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٣، ١٩٠ صفحة



يتجاوز الكتاب الافتتان بالثوابت التى قام عليها النقد الأدبى لفترة طويلة، وانصرافه إلى التحليل الوصفى والتاريخى والاجتماعى للنص، وهو ما منح ذوق الناقد وانطباعاته دوراً رئيسياً فى العملية النقدية، كما أنه يتجاوز التحليل الأيديولوجى والبنيوى الذى ساد فيما بعد، منحازاً إلى ما بات يُعرف بالنقد المعرفى، ذاك الذى يحول ثوابته باستمرار إلى متغيرات ويضعها دوماً موضع تساؤل.

وهو يقدم أسانيده عبر ستة فصول تعيد تأويل وقراءة نظريات النقد الأدبى القديمة والمعاصرة، من القاضى عبدالجبار والعسكرى إلى تودوروف وإيكو وزملائهم.

المؤلف ينحاز إلى التصور الثانى ويقدم أسانيده عبر فصول الكتاب.

The gates of Africa Death, Discovery

(بوابات أفريقيا)

Anthony Sattin

Harpercollins, 2003,382PP., £25.00



الاعتقاد السائد هو أن الأوروبيين بدأوا فى استكشاف أفريقيا والإغارة عليها فى القرن التاسع عشر. لكن الحقيقة تشير إلى أن مغامرين أوروبيين وغربيين وصلوا إلى القرن قبل ذلك بقرن على الأقل.

وهذا الكتاب يتحدث عن هؤلاء الأشخاص الذين انتهت حياة البعض منهم بشكل مأساوى.

إن الاستكشاف على مدى التاريخ مرتبط بالرغبة فى التوسع والسيطرة التجارية حتى السياسية وزيادة النفوذ الدينى أو إخضاع هؤلاء الغرباء لأهداف المستكشفين. لكن المؤلف يقول إن المغامرين الأوروبيين الأوائل فى أفريقيا كانوا مدفوعين بالرغبة فى الوصول إلى هناك وحب المعرفة.

ويشير إلى أنه عندما سئل أحد المغامرين لماذا ترغب فى تسلق قمة جبل إيفرست رد قائلاً: ببساطة لأنه هناك! إذن فإن الفضول الثقافى والرغبة فى المعرفة الجغرافية والعلمية والطموح الشخصى والتعطش للشهرة كلها أسباب دفعت هؤلاء المغامرين إلى الاندفاع نحو القارة السوداء.

وعلى سبيل المثال يورد المؤلف قصة جون ليديارد الأمريكى الذى ولد عام ١٧٥١ فى كونيكتيكت. وقطع دراسته للقانون واللاهوت وأبحر إلى لندن ليلتحق بالكابتن كوك الرحالة البريطانى وليشهد لحظة اغتياله ثم يتوجه ليديارد إلى روسيا لكى يكتشف طريقًا إلى الاسكا وعندما يفشل يعود إلى إنجلترا حيث تقوم الرابطة الأفريقية فى بريطانيا بتوظيفه لكى يعمل على استكشاف طريق من الإسكندرية إلى النيجر لكن لا ينجح ثم يموت فى القاهرة مسمومًا ولم يتجاوز ٣٨ عامًا.

نموذج آخر للمغامرين هو الألمانى فريدريك هونرمان الذى تخفى عام ١٨٠٠ فى زى قبلى وذهب ليعبر الصحراء الإفريقية على أمل الوصول إلى النيجر. وهناك دانيل هوجتون الذى كان يتاجر فى العبيد والسلاح. ثم جان لويس جورخات الأرستقراطى السويسرى الذى اكتشف البتراء وأبوسمبل. وكان يتحدث اللغة العربية بطلاقة وتزيا بالزى العربى وفى رحلته لإفريقيا سمى نفسه إبراهيم عبد الله ثم تحول إلى الإسلام. وعندما لم يستطع أن يندفع فى أعماق إفريقيا عاش فى القاهرة ومات فيها ودفن فى مقابر المسلمين.

■

The Wars Against Saddam.. Taking the Hard Road to Baghdad

(الحروب ضد صدام.. الطريق الصعب إلى بغداد)

John Simpson

Macmillan, 2003, 415PP., £20.00



يعد جون سيمسون محرر الشئون الخارجية لهيئة الإذاعة البريطانية أحد أبرز الصحفيين الغربيين الذين قاموا بتغطية أحداث الشرق الأوسط وخاصة إيران والعراق وهو يتمتع بشهرة واسعة نظراً لقدرته الكبيرة على تتبع الأحداث بحيادية وجرأة واقتدار.

وعندما غطى سيمسون الحرب الأمريكية الأخيرة على العراق فإنه كان يغطى الحرب الرابعة والثلاثين فى عمره الصحفى الذى بدأ فى أوائل السبعينيات.

والكتاب الجديد الذى أصدره سيمسون هو أشبه بمذكرات مراسل حربى عن العراق التى تعرض فيها سيمسون لمشاكل عديدة وأخطار كاد أحدها أن يودى بحياته.

وكان من المفترض باعتباره محرر الشئون الخارجية لهيئة الإذاعة البريطانية أن يكون موقع سيمسون لتغطية الحرب الأخيرة فى بغداد لكن السلطات العراقية بقيادة صدام حسين رفضت أن تمنحه تأشيرة دخول ولذلك ذهب إلى شمال العراق حيث السيطرة للأكراد لكى يغطى الحرب التى كانت أحداثها تُصنع فى الجنوب وكان نجم التغطية لهيئة الإذاعة البريطانية راجح عمر المراسل الذى يعمل تحت رئاسة سيمسون لكن الحظ خدمه فى التواجد فى بغداد فى تلك الفترة الحاسمة.

لقد غطى سيمسون أحداث العراق خلال ربع قرن فمن الحرب الإيرانية العراقية حيث أمضى ٦ شهور فى بغداد ثم غطى قصف صدام لقرية حلبجة الكردية بالغاز ومصرع وإصابة عشرات الآلاف من جراء ذلك. ويقول المؤلف عن صدام إنه ضحل استراتيجيًا لكنه عبقرى فى فن البقاء. وهو يعتقد أنه بعد سقوط صدام فإن صدام تخفى فى زى بدوى عربى وأطلق لحيته وعاش كطريد بين قبائل الصحراء شمال غرب بغداد. وهو يكشف عن أن صدام نزل بنفسه إلى الشوارع وأطلق صاروخ «أر بى جى» على الدبابات الأمريكية التى كانت فى طريقها إلى بغداد قبل أن يهرب.

والكتاب ملىء بالتفاصيل عن مغامرات سيمسون ونجاحاته وفشله وعلى سبيل المثال فإنه يحكى بشكل تفصيلى ربما يثير الملل محاولته الحصول على تأشيرة دخول إلى بغداد والظروف المعاكسة التى واجهته لكن الكتاب فى المحصلة النهائية شهادة مراسل مخضرم عن أحداث الغزو الأمريكى للعراق.

■

Intelligince in War: Knowledge of the Enemy from Napolean to Al-Qaeda

(المخابرات فى الحرب: معرفة العدو منذ نابليون وحتى القاعدة)

John Keegan

Hutchinson, 2003, 443PP., £25.00



هدف مؤلف هذا الكتاب طموح للغاية، فهو يتناول دور المخابرات فى الحروب منذ حروب نابليون فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر فى أوروبا وفى مصر والشام وحتى وقتنا الحاضر أى الحرب على الإرهاب التى أعلنتها الولايات المتحدة ضد عديد من الجماعات المتطرفة وفى مقدمتها منظمة القاعدة.

ويشير المؤلف إلى أن المخابرات لا تعنى تحقيق النصر بالضرورة.

ويتحدث الكتاب عن عديد من الحروب وعلاقة المخابرات بها ويبدأ بالحرب الفرنسية البريطانية قبالة الساحل المصرى والتى يسميها نيلسون على النيل حينما أغرق القائد البريطانى الشهير سفن الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط ليحرم الحملة الفرنسية على مصر من مدد حربى لا يمكن تعويضه. ويقول إن العامل الإنسانى مهم للغاية بل إنه يشير إلى أنه رغم التقدم التكنولوجى الهائل فى مجال المخابرات إلا أن الوسائل البشرية البسيطة لاتزال ضرورية للغاية. ويتناول المؤلف دور المخابرات فى حرب تكريت وإغراق الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر والذى يعد واحدة من أكبر النكسات فى التاريخ الأمريكى عسكريًا ومخابراتيًا ثم يتحدث عن الوسائل المبتكرة التى استخدمها اليابانيون للتمويه على الأمريكيين.

وباعتباره بريطانيًا يفرد مساحة كبيرة لدور المخابرات البريطانية ويختار معركة جزر فوكلاند نموذجًا لذلك ويشير إلى أن بريطانيا خاضت صراعًا على الجزر عام ١٩١٤ ثم عادت عام ١٩٨٢ لتخوض صراعًا آخر لاستعادة سيطرتها على الجزر التى كانت القوات المسلحة الأرجنتينية قد سيطرت عليها واعتبرتها أرضًا أرجنتينية. ويتحدث المؤلف عن أخطاء وقعت فى الحرب الأولى من جانب المخابرات البريطانية ويقدم تقييمًا موضوعيًا لمخابرات بلاده.

■

Madam Secretary A Memoir

(السيدة وزيرة الخارجية.. مذكرات)

Madeleine Albright

Macmillan, 2003, 562PP., £20.00



احتلت مادلين أولبرايت رقم ٦٤ فى قائمة وزراء الخارجية بالولايات المتحدة لكنها كانت السيدة الأولى التى تولت هذا المنصب، وهو تفرد كفيل بأن يحجز لها مكانًا فى التاريخ الأمريكى.

تعترف المؤلفة فى كتابها الذى تناول سيرة حياتها أنه مع فشل زواجها وكانت فى سن الخامسة والأربعين لم تكن تتصور أنها يمكن أن تصبح شيئًا ما ذا قيمة، فرغم التطورات المثيرة فى حياتها، وهى بالمناسبة تعتبر نفسها مثل سندريلا، فإن كل ذلك لم يكن يعنى أنها سوف تصل إلى ما وصلت إليه بعد ذلك.

ولدت مادلين فى براغ وهى الابنة الكبرى لجوزيف كوربيل وزوجته آن، وحتى توليها منصب وزيرة الخارجية فى عهد الرئيس الأمريكى بيل كلينتون لم تكن تعرف أن والديها يهوديان. وقضت الطفلة سنوات الحرب العالمية الثانية فى إنجلترا ثم عادت إلى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٥، ثم كان عليها أن تهرب مع أسرتها مجددًا بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم عام ١٩٤٨. هذه المرة توجهت الأسرة إلى أمريكا وحصل أفرادها على اللجوء السياسى وعزز من ذلك أن الوالد كان دبلوماسيًا بارزًا مناهضًا للشيوعيين.

وبدأت مادلين حياتها فى أمريكا كانت

فتاة عادية ثم قررت دراسة الدكتوراة وحصلت عليها من جامعة كولومبيا وكانت لها نشاطات سياسية محلية صغيرة فى دنفر حيث كانت الأسرة تقيم. وقد تزوجت صحفيًا عن قصة حب فى عقد الستينيات من القرن الماضى لتفاجأ عام ١٩٨٢ بأن زوجها يريد تطليقها ليتزوج صحفية شابة.

ودخلت مادلين مجال السياسة بشكل أكبر فعملت مع مرشحين ديمقراطيين للرئاسة هما والتر مونديل ومايك دوكاكيس، ولكنها اختارت الرهان الخاطئ فى الحالتين فقد فشل المرشحان وشاركت فى حملة كلينتون فى لحظاتها الأخيرة قبل أن يتم انتخابه رئيسًا عام ١٩٩٢.

وقد فوجئ كثيرون باختيارها سفيرة للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة. وهناك أظهرت قدراتها وتعاملت بحدة مع المنظمة الدولية وسكرتيرها العام آنذاك الدكتور بطرس بطرس غالى، وخاضت معركة كواليس لكى تحل محل وزير الخارجية الرمادى وارين كريستوفر وبالفعل نجحت فى أن تتولى المنصب فى بداية فترة رئاسة كلينتون الثانية.

وبقية فصول الكتاب تتحدث مادلين أولبرايت عن إنجازاتها السياسية خلال توليها المنصب.

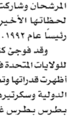
■

Broken Music

(موسيقى مكسرة)

Sting

Dell Pub. co., 2003, 352PP., $26.00



بمناسبة بلوغه سن الخمسين قرر مطرب الروك الإنجليزى «جوردون سمنر» الشهير بـ «ستينج» أن يكتب وينشر سيرته الذاتية لأول مرة.

يهتم ستينج بمراحل معينة من حياته، خاصة مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة، وما قبل نجاحه المدوى فى فريق «بوليس». والكتابة ليست بالأمر الجديد على ستينج، حيث إنه يكتب معظم كلمات أغانيه.

من ضمن ما تكشف عنه المذكرات أن السبب الرئيسى وراء اتجاه ستينج للموسيقى كان لتفريغ شحنة من المشاعر والانفعالات أصابته بعدما رأى والدته وهى تخون والده مع بائع اللبن.

■

The Merck Manual of Medical Information

(دليل ميرك المنزلى للمعلومات الطبية)

Mark Beers

Simon & Schusters, 2003, 1.900 Pages, $ 37.50



عرف دليل ميرك باعتباره مرجعًا طبيًا كلاسيكيًا منذ أكثر من مائة عام، ولكن فى عام ١٩٩٧ ظهرت طبعة منزلية مخصصة للشخص العادى، توفر له قدرًا كبيرًا من المعلومات الطبية المفيدة عن كافة الحالات الطبية الممكنة والأمراض وأساليب الوقاية والأدوية والعقاقير الشائعة والأعشاب الطبية وكيفية اتخاذ القرارات الطبية.. إلخ.

وقد صدرت منذ شهور الطبعة الثانية المحدثة والمزيدة، والتى تحتوى على فصول إضافية عن القضايا الصحية المتعلقة بالمرأة والرجل وبالطفل، إلى جانب جزء خاص عن صحة البدن فى فترة الشيخوخة.

■

Vernon God Little

(فيرنون الصغير)

Pierre .C.B.D

Faber, 2003, 278PP., £12.99



استاء معظم النقاد الأمريكيين من فوز هذه الرواية الساخرة بجائزة «بوكر» البريطانية الشهيرة منذ شهرين.

فالرواية تقوم أحداثها فى ولاية تكساس الأمريكية، وبطلها طفل مراهق فى الخامسة عشرة من عمره متهم بارتكاب مجزرة فى مدرسته قتل فيها ستة عشر تلميذًا.

يسود الرواية نوع من الكوميديا السوداء، فهى مليئة بالقتل والعنف والموت ولكنها تبعث على الضحك من النكات الغبية والبذيئة التى يطلقها البطل من ناحية، والحوار الذى يكتبه المؤلف بلهجة أهالى تكساس المميزة من ناحية أخرى.

وفى الوقت الذى اعتبر فيه النقاد البريطانيون أن الرواية تقترب من كلاسيكيات أمريكية مثل «مغامرات هاكلبيرى فين» لمارك توين، يرى الأمريكيون إنها أشبه بحلقات الكارتون «بيفس وباتهيد» المبتذلة.

فالشخصيات التى تقدمها الرواية معظمهم على قدر من السوقية والفظاظة والغباء والسمنة. يأكلون الحلوى ونفايات الأطعمة الدهنية بكميات هائلة ويقضون ساعات طويلة أمام التليفزيون.

يلعبون بالمسدسات ويلهثون وراء المال وأخبار المشاهير والجنس الرخيص.

أما الحادث المأسوى الذى يقع فى الرواية، فيحول المدينة الصغيرة النائمة إلى سيرك إعلامى على الطريقة الأمريكية. بينما يحاول البطل الهرب من مكان لآخر.

الرواية هى الأولى لمؤلفها الأسترالى المولد والمكسيكى النشأة الذى يكتب تحت الاسم المستعار دى. بى. سى. بيير، أما اسمه الحقيقى فبيتر فنلاى.

■

Petra Rediscovered: The Lost City of the Nabataeans

(إعادة اكتشاف البتراء: مدينة الأنباط المفقودة)

Glenn Markoe

Abrams, Harr N Inc., 2003, 288PP., $ 70.00



ازدهرت مملكة البتراء القديمة لأكثر من أربعة قرون بمعابدها المذهلة ومقابرها المنحوتة فى الصخر، حيث كانت البتراء ملتقى طرق التجارة الرئيسية بين سوريا والبحر الأحمر من ناحية وبين الخليج الفارسى والبحر المتوسط من ناحية أخرى.

وقد ابتلع الرومان البتراء فى إمبراطوريتهم عام ١٠٦ بعد الميلاد.

وفى عام ٣٦٣ انهارت المدينة عقب زلزال عنيف، وظلت منسية لدى الغرب حتى القرن التاسع عشر عندما اكتشف آثارها المكتشفون الأوروبيون.

اليوم تعد البتراء التى تقع فى جنوب غرب المملكة الأردنية الهاشمية من المعالم السياحية فى الشرق الأوسط.

يحتوى هذا الكتاب على صور لعديد من آثار البتراء المكتشفة، إلى جانب سرد لتاريخها وفنها القديم.

In Praise of Books: A Cultural History of Cairo's Middle Class, Six Teenth through the Eighteenth Century

(التاريخ الثقافى للطبقة الوسطى القاهرية، من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر)

Nelly Hanna

Syracuse University Press, 2003, 224PP., $ 45.00(hb)



إضافة هامة لسجل التاريخ الاجتماعى والثقافى المصرى من صاحبة كتابى «إسماعيل أبو طاقية» و«أبواب القاهرة» الدكتورة نيللى حنا أستاذة الدراسات العربية فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة. تبحث الدراسة فى ثقافة الطبقة الوسطى المصرية أثناء الحكم العثمانى فى الفترة ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر، على خلاف الدراسات التقليدية لتلك الفترة التى ركزت على الطبقات الحاكمة بالدرجة الأولى.

تتناول المؤلفة المؤثرات الاقتصادية على الثقافة سواء فى فترات الرخاء أو فى فترات الفقر، وتقوم بفحص علاقة التجارة بالزيادة فى أعداد المتعلمين وارتفاع درجة الثقافة، وذلك من خلال بناء المدارس ووفرة الورق الرخيص الثمن، وانتشار الكتب. وتهتم كذلك بإبراز دور كل من المقاهى والحكائين، ومسارح الظل كأدوات اتصال رئيسية انتقلت عبرها الثقافة الشفاهية للطبقة الوسطى وانتشرت.

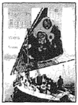
■

Coptic life in Egypt

(حياة الأقباط فى مصر)

Claudia Yvonne Wiens

Cairo-Auc Press, 2003, L.E 120



معظم الكتب التى تتوخى تقديم صورة معرفية عن الأقباط فى مصر إلى القارئ الغربى تركز على التراث الفنى والمعمارى للأقباط إلا أن هذا الكتاب

المصور وهو لمؤلفة تعمل مصورة مقيمة فى مصر يركز على التقاليد الدينية والحياة الاجتماعية للناس العاديين من الأقباط كاشفًا عن جوانب غير معروفة كثيرًا للقارئ الغربى خاصة على الصعيد الدينى لمجتمع مسيحى يمارس طقوسًا وقيمًا مختلفة عن العالم الغربى.

وينقسم الكتاب إلى سبعة فصول يبدأ كل منها بمقدمة قصيرة تعطى خلفية عن العادات والتقاليد والمعتقدات التى تظهر بشكل حيوى فى الصور التى تلى هذه المقدمة.

وتقول المؤلفة أن الناس فى مصر يحبون أن يظهروا ممارساتهم الدينية، ففى كل محل تجارى أو محل عصير أو حتى محل للكواء أو الأمور التجارية الأخرى والتى يديرها الأقباط تظهر على الجدران الصور والأيقونات القبطية وبالنسبة لشريحة كبيرة من الأقباط فإن دينهم يمثل جزءًا كبيرًا جدًا من حياتهم وهذا ينعكس على سبيل المثال فى الحضور الكبير والعاطفى للموالد والمناسبات الدينية التى تجذب الآلاف.

إن الموالد من أفضل الأمثلة على إظهار مدى ارتباط الحياة الاجتماعية بالحياة الدينية وكيف أن الإخلاص للدين يجلب المتعة والسعادة.

Polygyny in Rural Egypt
(تعدد الزوجات فى ريف مصر)

Laila S. Shahd
Cairo-Auc Press, 2003, L.E 15



تسعى هذه الدراسة إلى تقديم حزمة من الأسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية لتعدد الزوجات فى الريف المصرى.

وهى تستكشف بشكل خاص طبيعة العلاقات بين الرجل والمرأة فى هذه الظاهرة.

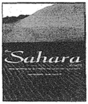
وما إذا كانت انعكاسًا لأسباب اقتصادية واجتماعية وما إذا كانت عرضة للتغيير مع تحقيق كل من الرجل والمرأة لأهدافهما الشخصية من هذا الزواج.

والكتاب جزء من مشروع لإخضاع الظواهر الاجتماعية فى مصر للدراسة، تقوم الدراسة التى تضمها دفتا الكتاب بالتعرف على المؤثرات الاقتصادية والمالية والمكانية فى تعدد الزوجات.

إن هناك حاجة ملحة للتعرف عن قرب وبشكل علمى على هذه الظاهرة وأسبابها الحقيقية ومدى انتشارها فى المجتمع المصرى خاصة الريف ومدى تأثير ذلك على الأولاد نفسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، ودور المعتقد الدينى فى تعدد الزوجات.

The Sahara Desert: From the Pyramids of Egypt to the Mauntains of Morocco
(الصحراء: من أهرامات مصر إلى جبال المغرب)

Paolo Novaresio & Gianni Guadalupi
Cairo-Auc Press, 2003, L.E 240



يتحدث هذا الكتاب عن مساحة شاسعة لا نهائية معظمها بكر لم تمسسها يد الإنسان، وحدها الطبيعة مارست فيها ألعابها فظهرت الأشكال والألوان والضوء والجمال اللامتناهى..

إنها الصحراء الممتدة من مصر حتى جبال المغرب.

سار فيها العرب منذ آلاف السنين وبدأ الأوروبيون فى استكشافها فى القرن التاسع عشر.

ومن خلال وصف عميق، تخرج لنا الصحراء من خلال هذا الكتاب كائنًا عملاقًا متعدد الأشكال والجوانب.. ساحرًا وجذابًا.

وهو - أى الكتاب - يحتوى على مجموعة فاتنة من الصور المدهشة من الطبيعة المتعددة والمتنوعة فى أزهى صورها من رمال وجبال وسماوات.

ويعطى المؤلفان صورة عن الحياة اليومية فى تلك المنطقة قبل ٨ آلاف عام عندما كانت أراضيها خصبة ومأهولة بالفيلة والزراف ثم سكنها البشر الذين قدموا من الأراضى الواقعة على نهر النيل وكان عملهم الرئيسى هو تربية الأغنام.

الآن تغير المكان تمامًا فقد حلت الرمال والجبال وجفت الأنهار وأصبحت الصحراء فاقدة للحياة تقريبًا بالنسبة للبشر باستثناء بعض الواحات.

إن الكتاب يستكشف الصحراء من المحيط الأطلنطى حتى البحر الأحمر كاشفًا عن المناظر المتنوعة فيها فهناك المدن والواحات والناس مثل البدو والبربر والطوارق وغيرهم.

Memoirs
(مذكرات)

Douglas Hurd
Little, Brown, 534PP, 2003, £ 20



يعد دوجلاس هيرد (لورد هيرد حاليًا) واحدًا من أشهر وزراء الخارجية فى بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان كثيرون يعتقدون أنه ولد ليكون وزيرًا للخارجية رغم أنه شغل مناصب عديدة فى حكومات المحافظين تحت رئاسة مارجريت تاتشر قبل أن يشغل هذا المنصب فى نهاية عهدها ثم فى عهد جون ميجور.

وقد أطرى النقاد البريطانيون أسلوب كتابة هيرد والقدرة غير العادية على توضيح أفكاره بشكل أدبى جذاب.

لقد كان هيرد وزيرًا لشئون أيرلندا الشمالية ولعب دورًا مهمًا فى توقيع الاتفاق البريطانى الأيرلندى عام ١٩٨٥ والذى كان خطوة أساسية تجاه التوصل إلى اتفاق الجمعة الطيبة بعد ذلك بـ١٣ عامًا.

ثم إنه لعب أيضًا بفضل علاقاته الممتازة مع دول الخليج العربى دورًا كبيرًا فى الجهود الدولية لإخراج صدام حسين من العراق.

إلا أن أهم القضايا التى سيذكرها التاريخ لهيرد هى الحرب فى البوسنة وهى القضية التى تردد هيرد فيها كثيرًا ودفع بالحجة تلو الأخرى لرفض التدخل العسكرى الأوروبى فى وقت كان الصرب يمارسون فيه التطهير العرقى ضد المسلمين وقد تعرض هيرد لانتقادات عديدة، (الأمريكيون على سبيل المثال) لهذا الموقف.

وبالطبع فإن هيرد ليس غبيًا أو شريرًا لكى يقف ضد انقاذ شعب يتعرض للدمار والفناء إلا أن جذور تربيته وثقافته كان لها التأثير الكبير فى موقفه هذا فهو مسيحى محافظ لديه رؤية متشائمة بشأن كمال الإنسان ومدى أخلاقية أن ترسل قوات لكى تقاتل وتقتل آخرين بدون سبب معقول فى رأيه.

لكن هل الأخلاق تسمح بأن يظل العالم يشاهد عمليات القتل تجرى ضد فئة معينة فى البوسنة دون تدخل.

وهل كان من الأخلاق استمرار تزويد الصرب بالسلاح فى وقت يواصلون فيه القتل والتطهير العرقى؟

National Service
(خدمة عامة)

Richard Eyre
Bloomsbury, 440PP, 2003, £18.99



يتناول هذا الكتاب يوميات المؤلف الذى عمل مديرًا للمسرح القومى الإنجليزى فى الفترة من ١٩٨٧ - ١٩٩٧.

وإذا كان الإنجليز يفتخرون بشىء حتى الآن من تراثهم العريق فإن المسرح القومى يأتى بالطبع فى المقدمة، وهو ظاهرة تكاد تكون فريدة فى عالم غلب عليه القطاع الخاص الذى امتد إلى كل شىء تقريبًا.

وخلال الكتاب يحاول المؤلف أن يرد على أسئلة عديدة تتبادر للأذهان حول دور المسرح القومى فى عالم اليوم.

وهو من خلال الموقع الذى شغله والأعمال التى كان يقوم بها، يستطيع أن يعطى إجابات مقنعة لتلك الأسئلة.

وبالإضافة إلى عمله فى الإخراج واختيار المسرحيات فإن المؤلف تعين عليه أن يوازن بشكل صارم بين ميزانيات المسرحيات ويعالج مشاكل عديدة أبرزها دعم إنتاج بعض المسرحيات والإشراف على ما يزيد على ٨٠٠ موظف.

ولكونه شغل وظيفة عامة فإن ريتشارد آير لديه ملاحظات جديرة بالتسجيل حول السياسات العامة ومدى تدخلها فى شئون المسرح.

وعلى سبيل المثال ما هو تأثير الحزبين الكبيرين فى بريطانيا.. العمال والمحافظون على النشاط الفنى.

ثم يتناول المؤلف قضية المسرح والملكية فيتحدث عن محاولات تشخيص الملكة إليزابيث الثانية على المسرح ورفض بعض الناس لذلك.

كما أنه يكتب عن الملاحظات التى كانت تبديها من حين لآخر الأميرة الراحلة مارجريت شقيقة الملكة والمواقف الطريفة التى كانت تثيرها هذه الأميرة.

وبالتأكيد لا يترك المؤلف صغيرة أو كبيرة حدثت خلال إدارته للمسرح القومى فى إنجلترا إلا وذكرها سواء كانت تتعلق بالممثلين أو الكتّاب أو المخرجين وحتى الموظفين.

قــــــراءة ..

لا ســــاميـون.. لمـــــاذا؟!

أين الخطأ..؟ What Went Wrong

هكذا صاح برنارد لويس «اليهودى المخضرم» فى عنوان كتابه المثير للجدل والذى صدر قبل أشهر، ليعظ، بعد أن يصف ويحدد ـ من زاوية رؤيته بالطبع ـ مكمن المشكلة، أو «الخطأ» كما اختار أن يسميه، فى عالمنا الإسلامى والثقافة السائدة فيه. طارحاً من الآراء ما تم تبنيه فى نهاية المطاف «هنا وهناك» من كثير من راسمى السياسات، وصانعى الاتجاهات.

السؤال ذاته، وإن كان هذه المرة بلا كتاب ولا ناشر، ولا مروجين للاستنتاجات «هنا وهناك»، أصبح ـ وإن على استحياء ـ ومع اختلاف «جذرى» فى الموضوع، مادة لكتابات عدد من المفكرين والأكاديميين اليهود، خاصة خارج إسرائيل. والذين باتوا يسألون علناً ـ عن «الخطأ» الذى أدى إلى تعاظم غير مسبوق فى مشاعر «اللاسامية» فى أوروبا ـ إلى درجة دفعت بحاخام فرنسا الأكبر إلى مطالبة اليهود الفرنسيين ـ للمرة الأولى ربما منذ نصف قرن ـ إلى التخلى عن «القلنسوة» التقليدية كغطاء للرأس «حتى لا يكونوا هدفاً لاعتداءات متعمدة». وهو الأمر الذى تجلى فعلاً، وفى أكثر صوره حدة ـ حتى الآن على الأقل ـ فى تفجيرات أسطنبول الأخيرة.

ورغم حقيقة أن ليس كل ما يوصف باللاسامية هو فعلاً كذلك. بعد أن بات «الاتهام» هو سلاح «الإرهاب الفكرى» المفضل لإخافة كل من يتجرأ على انتقاد الممارسات الإسرائيلية، أو يفكر بشكل مستقل ـ وإن فى إطار أكاديمى ـ فى إعادة النظر بطروحات إسرائيلية قديمة، إلا أن الراصد للمزاج العام فى أوروبا، وربما فى العالم أجمع، لابد أن يلاحظ نمواً مطرداً لمشاعر العداء لليهود، خاصة بعد أن نجحت الحركة الصهيونية فى إيجاد حالة من التماهى بين «الدولة والديانة». فبات أتباع الديانة مطالبون ـ على الأقل فى وعى العامة ـ بدفع ثمن حماقة «الدولة».

وتشير الأرقام إلى أن السنتين الأخيرتين (٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣) سجلتا رقماً قياسياً بمظاهر اللاسامية عبر أعمال العنف فى جميع أنحاء العالم، حيث سجلت ٣١١ عملية عنف استهدفت مواطنين أو مؤسسات يهودية. كما تغيرت أيضاً الخريطة التقليدية لمعاقل اللاسامية فى أوروبا، وأصبحت فرنسا وبلجيكا وبريطانيا فى صدارة اللائحة.

أين الخطأ..؟

موجة العداء لليهود حتى قبل تفجيرات أسطنبول دفعت بالسؤال إلى عناوين المقالات ودوائر النقاش فى الصحف والمحافل اليهودية التى شعرت بالقلق.

تونى جوت، الكاتب والجامعى الأمريكى (اليهودى) ذهب فى إجابته إلى حد أثار ضده ضجة ربما لم يكن يتوقعها. حين قال فى «نيويورك ريفيو أوف بوكس» أن إسرائيل باتت دولة تنطوى على مفارقة تاريخية anachronistic وأنها تبدو بصيغتها «العنصرية» تلك وكأنها «خارج الزمان»، والواضح حتى الآن أن المقال ربما نجح فى إلقاء حجر فى بركة أفكار راكدة. عمرها يعود إلى أفكار هيرتزل الأولى قبل حوالى قرن من الزمان.

ربما أتفهم تماماً شعور إبراهام تيروش (اليهودى) عندما كان ضمن وفد سياحى فى زيارة لمتحف أوكرانى قبل سنوات. وأمام صورة ضخمة لبوجدان حملنتسكى، زعيم تمرد القوزاق الذى يقال أنه ذبح اليهود، حين فاجأتهم المرشدة السياحية التى لم تكن تعرف أنهم يهود إسرائيليون بقولها: «أترون هذا الشخص؟ لقد عرف قبل هتلر ما الذى يجب فعله مع اليهود». لا ينسى تيروش (الكاتب فى «معاريف») هذه العبارة أبداً. ولكنه يعترف فى مقاله قبل أيام أنه، ورغم أن للاسامية جذوراً عميقة فى أوروبا، ورغم أنها «لم تولد أمس» إلا أن موجتها الحالية ـ كما يقول الكاتب الاسرائيلى ـ تتغذى ولاشك من الأحداث فى الشرق الأوسط. ومن سياسة إسرائيل فى الموضوع الفلسطينى. فتلك السياسات «تُخرج مشاعر اللاسامية من أغوارها العميقة».

ورغم أن الكاتب الإسرائيلى ـ وتبرئة لنفسه من تهمة التبرير سابقة التجهيز ـ حرص على أن يوضح رأيه فى أن «ليس كل مظهر لاسامى هو نتيجة تصرف إسرائيل فى الموضوع الفلسطينى» إلا أنه أراد فى الوقت ذاته للإسرائيليين أن يدركوا أن «ليس كل انتقاد لسياسات إسرائيل هو بمثابة لاسامية» وأن يعرفوا، أو أن يعرف ساساتهم أن التقارير والصور عن قتل النساء والأطفال «فى المناطق»، والفقر والجوع فى مخيمات اللاجئين وتجريف الأراضى وأشجار الزيتون... هذه كلها تتحول إلى «وقود فى محركات اللاسامية». موضحاً ـ وهو هنا يعكس تياراً متصاعداً وسط المثقفين اليهود فى الخارج ـ أن إسرائيل تحولت بأفعالها إلى مشكلة لليهود فى العالم أجمع. مستخلصاً أنه «على إسرائيل أن تغير سياستها حتى لا تلعب لصالح اللاساميين.. عليها على الأقل «ألا تبدو مذنبة بهذا الوضوح».

ويعتبر يائير شلخ فى «هاآرتس» أن الأمور وصلت إلى حد الخطر «بارتفاع الأصوات الغربية التى تنفى حق إسرائيل أصلاً بالوجود..» ويتساءل: «كم منا انتبه إلى أن سُدس الإيطاليين (١٧٪) يعتقدون أن إسرائيل يجب أن لا تواصل وجودها كدولة شرق أوسطية». ويعتقد شلخ أنه يتوجب على إسرائيل أن لا تَعفى نفسها من سؤال ذاتها: «لماذا تحدث عملية نزع الشرعية هذه عن إسرائيل الآن بالذات؟ يبدو أن السبب يكمن فى حقيقة أن السنوات الأخيرة لم تكن مجرد جولة أخرى فى الصراع وإنما مرحلة ازداد فيها الشعور بأن هذا الصراع غير قابل للحل فعلاً. إذا كان هذا هو الوضع فقد تحولت المستوطنة اليهودية فى قلب الشرق الأوسط إلى خطر على السلام العالمى».

المعاهد الأكاديمية الإسرائيلية لم تذهب بعيداً. إذ يشير تقرير أعده أحد معاهد جامعة تل أبيب إلى أن السبب فى تصاعد اللاسامية يكمن فى التقارب بين إسرائيل وسياساتها وبين اليهود فى أنحاء العالم من جهة، وبين العداء للصهيونية واللاسامية من جهة أخرى.

ويعتبر التقرير أن التقارب بين إسرائيل والولايات المتحدة جعلت من الذين عارضوا العولمة والحرب ضد العراق يصبون مشاعرهم المناوئة لأمريكا فى عمليات مناوئة لإسرائيل.. إن الشعور بأن الولايات المتحدة تتحرك بتوجيه المصالح الإسرائيلية وكأن اليهود يسيطرون على الإدارة الأمريكية جعل من الدولتان تشكلان «محور شر» مقابل «محور الشر» الذى رسمته الولايات المتحدة.

هل تجد هذه الأصوات آذاناً صاغية فى إسرائيل؟ للأسف لا. أو فى أفضل الأحوال ليس بالقدر الكافى. فاريبه إلداد يكتب فى «يديعوت أحرونوت» وليس فى غيرها، معتبراً أن مشكلة إسرائيل ليست فى أنها احتلت أراض «تملكها أصلاً» فى حرب الأيام الستة. فالتاريخ لم يبدأ فى الخامس من حزيران. إن التحدى الحقيقى أمامنا ـ يقول الكاتب الإسرائيلى ـ ليس أن نصدق هؤلاء الداعين لإنهاء الاحتلال، وإنما «كيف نستكمل احتلال الأرض كلها، حتى نمنح الأرض كلها للشعب اليهودى، لأنها ملكه، وليست ملكاً لأى شعب آخر فى العالم».

أما ليمور ليفنات وزيرة التعليم فى إسرائيل فتعتبر أن اللاسامية لم تزدهر فى أوروبا إلا لأن الأوروبيين «يحسدون» إسرائيل لكونها دولة قوية وتكنولوجية عظمى!!

أياً ما كان أمر «جدار اللافهم» هذا، فالثابت أن قديماً كان المقصود بـ«اللاسامى» شخصاً يكره اليهود، أما اليوم وفى زمن «الإرهاب الفكرى» فقد أصبحت الكلمة/ المصطلح ـ إسرائيلياً ـ تعنى أى شخص «يكرهه اليهود». ولا أدرى إن كان يمكن لهم أن يَصموا ـ بالتهمة ذاتها ـ يهودياً بارزاً مثل آرثر ميللر صاحب «بعد السقوط» التى مجدت المحرقة لأنه عندما منحوه «جائزة القدس» سجل كلمة قال فيها: «إن قمع الفلسطينيين والمستوطنات فى الضفة الغربية خيانة لمُثل الإنجيل العادلة» مضيفاً «أن ما بقى من الحلم فى مجتمع تقدمى مسالم فى ١٩٤٨ هو الضد تماماً: مجتمع مسلح يائس على خلاف مع جيرانه والعالم».

أين الخطأ؟!

أيمـــن الصيـــاد



أسطورة الكسل

تأليف الدكتور الطبيب ملِ لڤين

Mel Levine, M.D.

عندما تُطلَقُ صفةُ الكسل على شخص ما، فإنك بذلك تُصدِرُ حُكماً تدين به إنساناً.

الكسل ليس اكثر من اسطورة ـــ ومن هنا جاء عنوان هذا الكتاب. فكلّ إنسان يتوق إلى ان يكون منتجاً. ويفضّل كلّ طفل ان ينجز واجباته المدرسية، وان ينال الثناء على جودتها، كما يود كلُّ إنسان بالغ تقديم مردود يستحق عليه الترفيع او زيادة الأجر. ويدخل كلُّ ذلك في إطار السّعي الطبيعي نحو التقدير ورضى النفس، وهما دافع اساسيّ قوي. فإذا كان مردود شخص ما منخفضاً جداً، علينا الا نلومه او ندينه. بل علينا ان نبحث عن السّبب الذي دمّر مردود هذا الإنسان واعاق ميله الفطري الطبيعي للإنتاج؟. «ثمة سُبُل بنّاءة تُمكننا من مساعدة الأطفال والبالغين الذين يعانون من قصور المردود ـــ لا بل نستطيع ان نحول دون حدوثه. ولكي نكون فعّالين ما امكننا ذلك، علينا ان نفهم ما ينبغي ان يتصف به إنسان ما كي يكون منتجاً، وان نتعرّف على نقاط الضعف التي تعترض مسار كثير من الناس.

* ثمن النسخة المجلدة $11.30 * ثمن النسخة بالغلاف $8.70



اسرائيل وفلسطين: الخروج من الرماد

البحث عن هوية يهودية في القرن 21

تأليف مارك إيليس Marc H. Ellis

فيما يراقب العالم برعب الأحداث الجارية في فلسطين وإسرائيل: يدرس مارك إيليس، الباحث الامريكي اليهودي، ما يرى انه ازمة في الهوية اليهودية. ففي هذا الكتاب يقدم رؤية عن اليهودية تشهد على حياة اخلاقية في حقبتنا. ومن خلال معالجة الطريقة التي قوضت بها دولة عسكرية هذه المبادئ الاصلية ومؤسسة يهودية متعاونة في أمريكا، يقول، هل يمكن أن يكون هناك أمل ومستقبل. ففي تطلعه إلى ما وراء ميراث الهولوكوست وتصوير اليهود كضحايا أو جلادين، يصوغ إيليس رؤية جديدة لما يعنيه ان تكون يهودياً اليوم.

* ثمن النسخة بالغلاف $8,70



العولمة والفقراء

تأليف : جيْ.آر.ماندل

Jay R. Mandle

يحاول هذا الكتاب ان ينقذ العولمة من اولئك الذين ينتقدونها ويعارضونها بقوة، ومن انصارها الذين ينادون بها ويدافعون عنها. والطرح الذي يعرضه المؤلف يشير إلى ان العولمة تترافق مع النمو الاقتصادي الذي يراه ضرورياً لتخفيف حدة الفقر. ومن هذا المنطلق ينبغي تشجيع العولمة. وفي الوقت نفسه يجب على الحكومات، كما يقول المؤلف، ان تتبنى سياسات تنظر في حاجات الذين يقعون ضحية فقدان العمل بسبب العولمة. لهذا يمكن القول إن الكتاب، في رده على خصوم العولمة، يؤكد على الإمكانات الكامنة فيها لتخفيف حدة الفقر، لكنه يوجه النقد إلى المدافعين عن العولمة، الذين لا يقرون بالتكاليف التي تفرضها هذه العملية على الضحايا الابرياء..

* ثمن النسخة بالغلاف $7,5



كيف تبدأ حديثك مع الآخرين وتكسب أصدقاءَ

تأليف دُنْ غابرْ

Don Gabor

الحديث هو الطريقة الرئيسية التي تمكنك من نقل افكارك وآرائك واهدافك وشعورك إلى الناس الذين تلقاهم وهو الوسيلة الاساسية التي تعتمدها لبدء الصداقات وتوطيد العلاقات. فإنك عندما تغلق «قناة الحوار» تجعل السبيل إلى اي حوار ومتابعته مشكلة حقيقية. يبيّن الكتاب كيفية فتح «قناة حوار» وضبط إرسالها إلى من تلتقي بهم، كما يقدم طرائق مقترحة تمكنك من تطوير مهاراتك من خلال حالات هي من صميم الواقع؛ إنها طرائق تستطيع ان تتدرّب عيها وان تتقنها على نحو ينسجم مع اسلوب حياتك وبإيقاع يناسبك. سيتعلّم المديرون الفصل بين لغة العمل والخطاب الاجتماعي. ويتعلّم الآباء والامهات التفاعل مع اولادهم وافراد اسرهم. يقدم هذا الكتاب طرق تساعد في توجيه الحديث والتحكّم به في ظروف شتى.

* ثمن النسخة بالغلاف $7,70



وهم التحكم

تأليف سيوم براون

Syom Brown

إن الهيمنة العسكرية الراهنة تنطوي على خطر إغراء امريكا ودفعها إلى الاعتقاد ان القوة قادرة على حل طيف من مشكلات السياسة الخارجية يتسع باطراد. يقدم مؤلف الكتاب وصفاً للقدرة العسكرية الامريكية ويشرح أسباب بقاء استخدام القوة مركزياً في إدارة الولايات المتحدة للسياسة الخارجية. ويلقي الضوء على الاسباب التي تلزم الولايات المتحدة التحلي بالحكمة وضبط النفس عند استخدام قوتها الفريدة. إن هذا التحليل المتوازن جدير ان يقرأه المواطن العادي والباحث وصانع القرار السياسي قراءة متأنية وبخاصة أولئك الذين يمسكون بزمام القوة العسكرية الامريكية المنتشرة في أصقاع الأرض.

* ثمن النسخة بالغلاف $8,30

شركة الحوار الثقافي ش.م.م

بيروت، ص.ب. 6750 - 13 لبنان

هاتف: 802444-1-961+ • فاكس: 790718-1-961+

E-mail: info@interculturalbooks.com • http://www.interculturalbooks.com

تُطلب كتب شركة الحوار الثقافي في جميع البلاد العربية من
دار الوراق للنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان

كما تُطلب في الدول التالية من:

مصر : دار العلوم ـ القاهرة، هاتف : 5761400 وفي **المملكة العربية السعودية** من: دار الوراق ومن: مكتبة جرير في جميع فروعها. وفي **الكويت** من: مكتبة جرير ومن: الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات. وفي **قطر** من: مكتبة جرير. وفي **البحرين** من: المكتبة الوطنية، المنامة وفي **أبو ظبي** من: مكتبة الجامعة ومكتبة جرير. وفي **لبنان** من: دار الفرات للنشر والتوزيع. وفي **الأردن** من: الأهلية للنشر والتوزيع. وفي **سورية**: من دار النيّرَين، دمشق. وفي **المغرب** من: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 60 - January 2004

مجلة شهرية. العدد الستون. السنة الخامسة. يناير ٢٠٠٤. الثمن عشرة جنيهات

عام سقوط الأقنعة / سلامة أحمد سلامة ◆ أبى طه حسين / مؤنس طه حسين

حروب الغرب الجديدة / كاثيا ديغيناخ ◆ مقاطعة الهيمنة الأمريكية / جورج سوروس

أسئلة المحاكمة / أيمن الصياد ◆ مالك بن نبى / محمد الميلى ◆ مَن مِنّا لا يتذكر «أمينة» / هاشم النحاس



موالد الأقباط فى مصر / كلوديا وينز

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الستون
يناير ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- الطاهر أحمد مكى.. أستاذ الأدب المقارن وعضو مجمع اللغة العربية.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تشالمرز جونسون.. كاتب أمريكى وأستاذ متفرغ فى العلوم السياسية.
- جورج سوروس.. ملياردير أمريكى من أصل مجرى.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- رضوى عاشور.. روائية، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة عين شمس.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد العليم الأبيض .. الوزير المفوض الإعلامى لمصر فى واشنطن سابقًا.
- كاتيا ديفنباخ.. أستاذة مساعدة فى أكاديمية برلين للفنون.
- كلوديا وينز.. مصوّرة فوتوغرافية مقيمة فى مصر.
- مارتن جاردنر.. كاتب أمريكى متخصص فى الثقافة العلمية.
- محمد الميلى... المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- مينا بديع عبد الملك .. أستاذ الرياضيات بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- نبيل عبد المجيد صالح.. الأستاذ المتفرغ بالمركز القومى للبحوث.
- هاشم النحاس.. ناقد سينمائى.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى. محمد حاكم. سعد الدين شحاته. أحمد اللباد

لوحة الغلاف للفنان «حلمى التونى» (زيت على خشب ١١٠× ٨٥ سم)
من معرض «تحية إلى الفن القبطى»

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهمًا ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

"نون"

عام سقوط الأقنعة

سلامة أحمد سلامة

■■ يصعب على المرء وهو يعيد النظر، إمعانًا وتدقيقًا، في أحداث عام منصرم، أن يعثر على وصف يختزل الحالة الذهنية لمشاهده ومعاركه المتعاقبة، بكل ما انطوت عليه من حروب وكوارث، وانتهاك للمُثُل والمبادئ، وإذلال للشعوب والدول، وسقوط للرموز والتماثيل، إلا أنه عام سقوط الأقنعة وانقشاع الضباب..

مع بدايات هذا العام أخذت تظهر معالم الصورة بجلاء.. صورة المشروع الأمريكي الإمبراطوري، الذي جرى الإعداد له بدقة وتخطيط تميزًا بكثير من الدهاء والقسوة والتفوق العسكري والتقني، التي حفظ التاريخ أمثلة منها، ابتداء من غزوات التتار، وفتوحات الإمبراطورية الرومانية، والحروب الاستعمارية، وانتهاء بحروب التوسع في القرن العشرين سعيًا وراء «المجال الحيوي» الذي يسمح للإمبراطورية النازية الصاعدة أن تتمدد فيه، لتفرض سيطرتها على مصادر الطاقة والثروات الطبيعية في أوروبا والعالم دون منازع، وكأن التاريخ يعيد نفسه.

وحتى أواخر عام ٢٠٠٢ لم تكن الأهداف الأمريكية قد انكشفت تمامًا. وظلت العواصم الأوروبية وبعض دول عربية تحاول مقتنعة بأنها لو نجحت في إغراء النظام العراقي بالتعاون مع فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة ليكشف لها عن مكامن أسلحة الدمار الشامل التي اتخذتها واشنطن ذريعة للتهديد بعملية عسكرية ضد العراق، لأمكن تجنب الحرب. ولكن القناع سقط من على وجه السياسة الأمريكية ونواياها المضمرة حين بدأت القوات الأمريكية تحتشد في منطقة الخليج، ضاربة عرض الحائط بالتقرير الذي قدمه العراق يحدد فيه مواقع السلاح العراقي ومخابئه، ودون اكتراث بالتقرير الذي قدمه هانز بليكس والبرادعي إلى مجلس الأمن يؤكدان فيه أن فرق التفتيش لم تعثر على سلاح الجريمة.

يتبين الآن، وبناء على شهادة روبن كوك وزير الخارجية البريطانية السابق، أن قرار الحرب على العراق كان قد اتخذ حتى قبل أن تذهب أمريكا إلى مجلس الأمن، وقبل موافقة حكومة بلير على المشاركة في هذه الحرب، وأن القرار كان نهائيًا ولا رجعة فيه، وهو ما أكده تصريح رامسفيلد وزير الدفاع في حينه بأن أمريكا مستعدة لخوض الحرب بمفردها إذا لزم الأمر.

ولم يكن هذا هو أول قناع يسقط، بل تلاه سقوط الأقنعة واحدًا بعد الآخر حين دخلت القوات الأمريكية العراق، وتشكلت قوة خاصة من خبراء وزارة الدفاع للبحث عن أسلحة الدمار الشامل، وعجزت هذه الفرقة التي استخدمت أفضل ما لديها من تقنيات عن العثور على أي أثر لأسلحة نووية أو كيماوية أو بيولوجية.. وحينئذ تحولت الأنظار إلى حجة جديدة، تحاول أن تجد رابطة ما بين النظام العراقي وتنظيم «القاعدة»، وأن تقول للعالم إن النظام العراقي كان مسئولاً عن احتضان عناصر الإرهاب ودعمها وتمويلها. ولكن هذه الحجة بدورها لم تثبت طويلاً. وبسرعة شديدة تحولت الحرب النفسية التي تشنها أمريكا لخداع الرأي العام الأمريكي والعالمي، إلى ادعاء مؤداه أن الهدف من الحرب هو إسقاط نظام ديكتاتوري طاغ، تعذَّب شعب العراق تحت وطأته ثلاثين عامًا.. وأن أمريكا بإزاحة هذا النظام سوف تفك أسر الشعب العراقي من قيوده، وتُحرره من نظام وحشي لا يعرف الرحمة، وتزرع له شجرة الديمقراطية والحرية، وتعيد له كرامته وحقوقه المهدورة، ليكون نموذجًا للديمقراطية في المنطقة العربية كلها.

كان من الضروري في إطار تحرك أمريكي.بريطاني واسع، بعد أن أعلنت أمريكا وقف العمليات العسكرية في العراق في مايو الماضي، إيذانًا بالنصر والقضاء على النظام العراقي وفلوله، أن تزيح الستار بحذر وفي خطوات محسوبة عن أكبر عملية تزييف وخداع لشعوب المنطقة، وبما يضمن في الوقت نفسه تهدئة الشكوك والتوترات التي بدأت تجتاح المواطن الأمريكي وتثير قلق السياسيين والعسكريين في العاصمة الأمريكية.. فمشروع الديمقراطية في العراق، كما أعلنت واشنطن، ليس غير خطوة أولى تتلوها خطوات لنشر الديمقراطية وإصلاح النظم السياسية والتعليمية والاقتصادية في المنطقة العربية.. وفي إطار مشروع أطلقت عليه مشروع الشراكة الأمريكية مع العالم العربي، جرت تحركات واتصالات واسعة، تراوحت بين التهديد والوعيد، وبين التلويح بسيف المعز وذهبه، وبين وعود بالمنح ووعود بالمنع، لحمل الأنظمة العربية على اتخاذ إجراءات داخلية لما تسميه تجفيف منابع الإرهاب والقضاء على «القاعدة» التي ظن المحافظون الجدد أن الأصولية الإسلامية المتشددة التي تستند إليها أنظمة الحكم في عدد كبير من الدول العربية هي التي احتضنتها وموّلتها. وحددت كتابات أمريكية عديدة «الوهابية» باعتبارها رأس الحربة التي يجب اقتلاعها من بعض النظم العربية وبالأخص في السعودية واليمن.

وربما لم تدرك أطراف عربية عديدة

> **حتى أواخر عام ٢٠٠٢ لم تكن الأهداف الأمريكية قد انكشفت تمامًا. وظلت العواصم الأوروبية وبعض دول عربية تحاول مقتنعة بأنها لو نجحت في إغراء النظام العراقي بالتعاون مع فرق التفتيش ليكشف لها عن مكامن أسلحة الدمار الشامل، لأمكن تجنب الحرب**

"نـــوح"

أبعاد «الرؤية» الأمريكية لأهداف الحرب على العراق، إلا بعد أن انقشع دخان الحرب الإلكترونية غير التقليدية التى استخدمت فيها أسلحة حديثة محرمة دوليًا وجرى تدمير معظم البنية التحتية للعراق، وهلكت فيها أعداد كبيرة من العراقيين عسكريين ومدنيين لم يجر حصرها حتى الآن، وفى القلب من هذه الأهداف: السيطرة المباشرة على منابع النفط والتحكم فى إنتاجه واستهلاكه، تترتب عليها سيطرة أمريكية مطلقة فى العالم، تعزز المشروع الإمبراطورى الذى تحلم به إدارة بوش وأنصارها من اليمين المحافظ. وقبل ذلك وفى المقدمة منه إسقاط التهديد الاستراتيجى الذى كان يمثله نظام صدام لإسرائيل، والذى لم تكف تل أبيب عن التخويف منه والتحريض عليه باعتباره مصدر الخطر الرئيسى على إسرائيل وعلى النفوذ الأمريكى.

وفى حقيقة الأمر فإن إدارة بوش وهى تروج لإصلاح النظم السياسية وإلباسها ثوب الديمقراطية فى العالم العربى، لم تكن تسعى لإقامة ديمقراطية حقيقية تفقد سيطرتها على نظم الحكم فيها حين تنتقل السلطة إلى الشعب، فتصبح عرضة لرفض مطالبها وتعطيل مخططاتها كما فعلت تركيا، ولكنها كانت تستهدف القضاء على نفوذ التيارات الدينية المحافظة، وفتح المجتمعات العربية المغلقة أمام المؤثرات الثقافية والقيم الغربية الداعية إلى تحرير المرأة وإطلاق الحريات واحترام حقوق الإنسان على النمط الغربى. اعتقادًا منها بأن تيار بن لادن ونظام «القاعدة» هو الذى وقف فى وجه المصالح الأمريكية فى أفغانستان، وهو الذى يقاوم استمرار الوجود الأمريكى العسكرى فى السعودية ومنطقة الخليج، وهو فى النهاية المسئول عن تدبير العمليات الإرهابية التى ضربت السفارات الأمريكية فى شرق أفريقيا، ثم فى واشنطن ونيويورك بعد ذلك.

على أن إدراك واشنطن لحقيقة أن نجاحها فى إكمال مهمتها فى احتلال العراق، يتوقف إلى حد كبير على استعادة مصداقيتها فى العالم العربى، ولضمان حد أدنى من تعاون الدول المجاورة، حيث أخذت تنمو عبر حدودها مع العراق حركة تسلل للرجال والسلاح تغذى صفوف المقاومة العراقية وتنمى مشاعر الإحباط وخيبة الأمل من سوء معاملة قوات الاحتلال الأنجلو أمريكى للشعب العراقى وفشلها فى إعادة الأوضاع إلى طبيعتها.. سرعان ما دفعها إلى محاولة إعادة إحياء «خريطة الطريق» التى كان الرئيس بوش قد أعلنها قبل عامين باعتبارها الحل الأمثل لقيام دولة فلسطين إلى جانب الدولة الإسرائيلية.

وعلى مدى شهور الصيف . التى شهدت ضغوطًا أمريكية لاهثة لعزل عرفات، تساندها عمليات عسكرية إسرائيلية كثيفة. وجهت ضربات كاسحة مؤلمة «للمقاومة الفلسطينية»، صعدت المقاومة الفلسطينية إزاءها عملياتها الاستشهادية فى قلب إسرائيل، وقوبلت بعمليات اغتيال واعتقال واسعة النطاق لكوادر المقاومة الفلسطينية. وبينما كانت الدماء تخضب أرض فلسطين وتتجاوزها من الضفة إلى قطاع غزة حتى الحدود المصرية، جرت محاولة الاستغناء بـ«أبومازن» عن عرفات فى التفاوض مع شارون. ولم تصمد المحاولة أكثر من شهرين بذلت خلالها وساطات مصرية لإقناع الفصائل الفلسطينية بإعلان هدنة مؤقتة، بحجة إقناع إسرائيل برفع الحصار عن الضفة وبدء مفاوضات «الخريطة».. ولم تعبأ إسرائيل بالهدنة ولا بالخريطة، وبدا لشارون أنه قد وصل إلى الحد الذى يمكنه من أن يطلب استسلامًا فلسطينيًا كاملاً بتفكيك المنظمات، وتسليم قياداتها لإسرائيل، ونزع أسلحتها، ونفى عرفات أو قتله. وكانت المفاجأة التى أربكت شارون وهزت حسابات بوش الذى ساند السياسة الإسرائيلية فى السر وسكت عليها فى العلن، هى إلغاء الفصائل الفلسطينية للهدنة من جانب واحد واستئناف عملياتها الاستشهادية بأعنف مما كانت عليه، مما أدى إلى سقوط «أبو مازن».. والعودة مرة أخرى إلى طلب العون من عرفات، ولكن شريطة أن يكون بدون عرفات!

فى أثناء ذلك، ومع قدوم الخريف، واقتراب بدايات حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية، كانت أعداد الخسائر والإصابات فى صفوف قوات الاحتلال الأمريكية تتصاعد يومًا بعد يوم مع اشتداد هجمات المقاومة العراقية، واتساع نطاقها لتشمل مقر الأمم المتحدة ومبنى الصليب الأحمر وسفارة الأردن، ثم امتدت لتنال من القوات المتحالفة فى هجمات أوقعت ضحايا أسبانية وبولندية وإيطالية.. تأكد معها أن أقدام القوات الأمريكية أخذت تغوص فى الوحل، وتوشك أن تعيد مأساة فيتنام. وهو ما انعكس سريعًا على المزاج العام فى أمريكا، وأثار تساؤلات حول الدوافع الحقيقية للحرب فى العراق، ومدى كفاءة التقديرات العسكرية لرامسفيلد، وما إذا كان من الحكمة . حتى وإن صحت دوافع بوش فى محاربة الإرهاب وإسقاط النظام العراقى . أن تخوض أمريكا هذه الحرب منفردة وضد إرادة المجتمع الدولى والأمم المتحدة. وبالرغم من الأساليب الملتوية التى لجأت إليها إدارة بوش لحرمان الرأى العام الأمريكى من معرفة الحقائق، سواء فيما يتعلق بما يجرى فى العراق أو فى فلسطين، أو فى أجزاء أخرى من العالم، إلا أن بعضًا من بصيص الحقيقة أخذ يتسرب ليكشف عن الأعماق الدفينة للمخطط الذى وضعه التحالف المسيحى الصهيونى مع اليمين المحافظ، للاستيلاء على الحلم الأمريكى وإقامة الإمبراطورية الموعودة.

بعض أحداث التاريخ يتكفل الزمن بكشف أبعادها وفهم أسرارها وحل تعقيداتها، وبعضها تفصح عنه عبارات تأتى وليدة المواقف الصعبة واللحظات الحرجة.. ولهذا كانت ثورة الغضب وربما الغيظ التى اجتاحت العالم، حين وقف محاضير محمد رئيس وزراء ماليزيا الذاهب إلى الاعتزال، يعرى الحقيقة التى أغمض العالم عينه عنها وهى أن الأوروبيين قتلوا فى معسكرات الاعتقال ستة ملايين يهودى، ولكن اليهود اليوم هم الذين يحكمون العالم بالنيابة، ويحركون الدول الأخرى لخوض الحروب لحسابهم تحت غطاء محاربة الإرهاب طبعًا.. ولم تكن تصريحات محاضير محمد غير قراءة بالصوت العالى لحقيقة يتستر الجميع عليها. ومن ثم جاءت تصريحات الجنرال الأمريكى وليام بويكين. أحد كبار القادة العسكريين

لم تعبأ إسرائيل بالهدنة ولا بالخريطة، وبدا لشارون أنه قد وصل إلى الحد الذى يمكنه من أن يطلب استسلامًا فلسطينيًا كاملاً بتفكيك المنظمات، وتسليم قياداتها لإسرائيل، ونزع أسلحتها، ونفى عرفات أو قتله

"نون"

. التى قال فيها: «إن المسلمين يعبدون الأوثان وأنهم يريدون تدميرنا لأننا مسيحيون». لتعرى الوجه الآخر من الصورة على الضفة الأخرى من المحيط ولتنزع الحجاب عن أعمق أعماق المشاعر التى تحرك السياسات وترسمها.

وعلى الرغم من كل الجهود التى بُذلت لتصوير الصراع القائم على أنه صراع بين التقدم والتخلف، بين قوة عالمية تمثل حضارة الغرب بكل إنجازاتها وتسعى لفرض سيطرتها على منطقة استراتيجية من العالم، وبين حضارة إسلامية متزمتة آفلة ومهددة بالزوال، بين نزعات الهيمنة والعولمة والرأسمالية الجامحة وبين شعوب قابعة وراء أسوار التقاليد والنظم المتآكلة.. فإن البعد الدينى فى هذا الصراع ظل يطفو على السطح بقوة طوال عام ٢٠٠٣. فلم تكد تنتهى الأسابيع الأخيرة من العام حتى كانت قضية المسلمين فى أوروبا تتفجر من جديد: كيف يمكن احتواؤهم وامتصاصهم فى المجتمعات الأوروبية؟ وكيف يمكن ابتداع إسلام أوروبى لا يثير حفيظة الأوروبيين؟ كيف يمكن طمس معالم الوجه واليد واللسان العربى الإسلامى فى إطار الحضارة الغربية؟

وتحت غطاء الحرب ضد الإرهاب، اختزلت الظاهرة الإسلامية كلها فى ضرورة تغيير النظم السياسية القائمة فى الدول العربية والإسلامية. ومن اللافت للنظر أن تتشابه شروط «الشراكة الأمريكية» التى طرحها بوش، مع شروط «الشراكة الأوروبية» التى يطرحها الاتحاد الأوروبى.. كلا الطرفين يطرح تصورات تقوم على ضرورة تغيير الأوضاع السياسية والثقافية والفكرية نحو الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتغيير المناهج التعليمية والدينية فى العالم العربى للقضاء على التطرف وهو ما تجعله أمريكا شرطًا من شروط التسوية للصراع العربى الإسرائيلى وحل القضية الفلسطينية.. بينما تجعله أوروبا أساسًا للتعاون الاقتصادى والسياسى وتنظيم الهجرة والعمالة المتدفقة من الشرق.

لم تنقض أحداث العام المنصرم دون أن تفجر فى العالم العربى دوامات من الجدل الساخن، تطفو على سطح تيارات تحتية عميقة تدعو إلى التغيير فى المجتمعات العربية.. هناك أنصار «النفس اللوامة» الذين يعتقدون أن العيب كامن فى الجمود الذى أصاب الفكر وعطّل التطور فأعجز شعوبنا عن اللحاق بالديمقراطية وبركب التقدم العالمى، ومن ثم فلا بأس من أن نستنجد بالآخر. الغرب. لكى يقيلنا من عثرتنا ويفك عنا قيود التخلف، ويدفع النظم الحاكمة دفعًا إلى ذلك أو يتركها تواجه وهدة السقوط.

وهناك «أنصار المؤامرة» الذين يرون أن الأطماع الأوروبية والأمريكية، هى السبب وراء ما تعانيه من تقهقر ونكوص. تغريها المؤامرات الصهيونية على ذلك إغراءً شديدًا للتمكين لوجود إسرائيل واستمرارها؛ فهى تشجع أنظمة حكم بالية متهرئة على الفساد ومقاومة التقدم نحو الديمقراطية والحرية.

وفيما يزداد الخلاف بين أنصار النفس اللوامة وأنصار المؤامرة، يزداد الحصار السياسى والاقتصادى والفكرى على الشعوب العربية وتفشل النظم الحاكمة والنخب السياسية والثقافية فى اكتشاف الطريق الصحيح. وإذا كان صحيحًا أن الولايات المتحدة الأمريكية تواجه مأزقًا صعبًا فى العراق لن يتهيأ لها الخروج منه بالسهولة التى تصورتها. وإذا كان صحيحًا أيضًا أن المقاومة الفلسطينية لم تستسلم ومازالت قادرة على الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينى فى مواجهة قوة إسرائيل المدججة بالسلاح النووى.. فإن الشعوب العربية تواجه محنة تاريخية غير مسبوقة. تبدو أشبه بالفريسة التى أصيبت بالشلل والجمود أمام وحش يتقدم حثيثًا لالتهامها.

وهاهو الرئيس الأمريكى فى الأيام الأخيرة من العام يوقع قانونًا لمحاسبة سوريا يفرض عليها حزمة من العقوبات السياسية والاقتصادية لأنها لم تذعن لطلبات تبدو شبه مستحيلة، أشبه بطلب الذئب الذى يمنع الحمل من الشرب لأنه يعكر مجرى الماء. وفى الوقت نفسه يجرى الإعداد لمشروع قانون جديد لمحاسبة السعودية، حيث تتكرر فصول السيناريو الذى سبق مع سوريا بحجة دعم الإرهاب وتقديم مساعدات مالية لمؤسسات دولية تعتبرها أمريكا إرهابية، من بينها مؤسسات خيرية لمساعدة أرامل وأسر الشهداء فى الأراضى الفلسطينية.

على أن شمس عام ٢٠٠٣ المترع بأحداثه المأساوية القاصمة لا تكاد تؤذن بالمغيب حتى تقع هزتان هائلتان. الأولى: بسقوط صدام حسين واعتقاله بعد ثمانية أشهر من الهرب.. يخرجه جنود الفرقة الأمريكية الخاصة من جُبٍّ تحت الأرض مثل فأر يُعميه ضوء الشمس.. يسقط رمز آخر من الرموز الزائفة التى أعاقت الرؤية عن الشعب العراقى، ودمرت إمكاناته، وجلبت له ولأمة العربية الكارثة. وبين دموع الباكين على المصير المزرى لقيادة ضللت الشعب العراقى ثلاثين عامًا، واللعنات التى تشيعه من الملايين الذين تعرضوا لظلمه أو نقمته، يستعيد الرئيس الأمريكى أنفاسه أملاً فى أن تهيئ له ورقة اعتقال صدام فرصة إعادة انتخابه.

والثانية: بالإعلان الليبى المفاجئ عن التخلص من أى أسلحة محظورة، والرجوع إلى أحضان أمريكا الدافئة، بعد أن تابت القيادة الليبية وأنابت، واكتشفت أنها أمضت ثلاثين عامًا فى صراع لا جدوى منه مع الغرب، حيث لم يعد العرب فى نظر القيادة الليبية يساوون شيئًا.

ويفتح العالم صفحات العام الجديد على فصل جديد، وتساؤلات جديدة: هل تخمد جذوة المقاومة العراقية أم تزداد اشتعالاً؟ وهل تهتك محاكمة صدام العلنية. إن تمت. أسرار هذه الحقبة الغامضة المليئة بالألغاز: ١٢ عامًا كان صدام فيها حليف الغرب وخادمه وشرطيه فى الحرب ضد إيران، و١٢ عامًا تالية أراد أن يجنى ثمرة خدماته الجليلة للغرب ويعمل فيها لحسابه الخاص، فلم يفلح؟ وإلى أى مدى سوف ينجح النموذج الديمقراطى الذى سيسعى الغرب إلى فرضه بكل العزم والإصرار على المنطقة العربية؟ وهل تستطيع الأمة العربية أن تحسم خياراتها المصيرية بعد أن بانت معالم الطريق وانقشع الضباب وظهرت الأهداف واضحة جلية؟

هذه هى أسئلة عام قادم!! ■

كانت ثورة الغضب وربما الغيظ التى اجتاحت العالم، حين وقف محاضير محمد، يعرى الحقيقة التى أغمض العالم عينه عنها وهى أن الأوروبيين قتلوا فى معسكرات الاعتقال ستة ملايين يهودى، ولكن اليهود اليوم هم الذين يحكمون العالم بالنيابة، ويحركون الدول الأخرى لخوض الحروب لحسابهم

فقاعة الهيمنة الأمريكية

جورج سوروس

لا أحد ينكر أن هجمات سبتمبر ٢٠٠١ قد أحدثت تحولاً جوهرياً في مسار التاريخ الإنساني؛ إلا أن ذلك لن يعفينا من السؤال، ولن يعفينا من مساءلة أنفسنا عن السبب الحقيقي وراء العلاقة بين الحدث وبين التحول.. لن يعفينا من طرح السؤال التالي: كيف يكون لحدث واحد، حتى ولو أسفر هذا الحدث عن مقتل ٣٠٠٠ مدني، كيف يكون له مثل هذه الآثار بعيدة المدى، التي لم تترك شيئًا إلا وطالته، سواء من قريب أو بعيد؟ وببساطة.. فإن إجابة هذا التساؤل لن نجدها في الحدث نفسه، بقدر ما سنجدها في كيفية تعامل الولايات المتحدة، تحت قيادة الرئيس جورج دبليو بوش، مع الحدث.

بالطبع، نحن نتفق جميعًا بأن الحدث، ذلك الهجوم الإرهابي، كان تاريخيًا بكل معاني الكلمة. فالقيام بخطف طائرات، مليئة بالركاب، ثم استخدامها كقنابل انتحارية لا يعبر إلا عن فكرة جنونية مرعبة، تتسم بمنتهى الجرأة والوقاحة؛ وكان إنزالها على أرض الواقع أكثر إثارة ورعبًا. إن تدمير البرجين التوأمين التابعين لمركز التجارة الدولي أحدث صدى معنويًا في مختلف أنحاء العالم، بالإضافة إلى تمكن جميع البشر، ساكني هذه البسيطة، من متابعة الحدث عبر شاشات التليفزيون، الأمر الذي أعطاه طابعًا تأثيريًا، مدغدغًا للمشاعر، لم يحصل عليه أي حدث إرهابي من قبل. بيت القصيد، إن هدف الإرهاب هو الترويع؛ وقد حققت هجمات ١١ سبتمبر هذا الهدف.

إلا أنه، ونقولها ثانية، لم يكن للحادي عشر من سبتمبر أن يغير مجرى التاريخ إلى هذا الحد، كما شهدنا جميعًا، بدون رد الفعل الذي استخدمه الرئيس بوش إزاء ما جرى في ذلك اليوم. فقد أعلن الحرب على الإرهاب؛ وطبق تحت ذلك المسمى المزيف أجندة في غاية التشدد والتطرف للسياسة الخارجية الأمريكية، واضعًا أسسها ومبادئها من قبل وقوع تراجيديا الحادي عشر. ويمكن تلخيص تلك المبادئ، كما يلي: أولاً، أن العلاقات الدولية هي علاقات القوة، وليس القانون؛ وثانيًا، أن القوة باقية، والقانون يقنن ويشرع ما هو باق.

لا غبار ولا شك في تربع الولايات المتحدة على كرسي الهيمنة، منذ انتهاء الحرب الباردة، ومن ثم، فهي في موقع يسمح لها بفرض آرائها، مصالحها، وقيمها. ومن المفترض أن يستفيد العالم من تطبيق تلك القيم، لأن النموذج الأمريكي قد نجح في إظهار هيمنته. وبما أن الإدارتين السابقتين، إدارة كلينتون وإدارة بوش الأب، قد فشلتا في الاستفادة الكاملة من القوة الأمريكية المتاحة، فإنه يصير من اللازم والضروري أن يتم تصحيح هذا الوضع؛ وأن تجد الولايات المتحدة طريقًا لتأكيد هيمنتها على العالم.

ويعتبر هذا النمط من السياسة الخارجية جزءاً من أيديولوجية متكاملة، يطلق عليها عادة اسم «التيار المحافظ الجديد»، إلا أنني أفضل إدراجه تحت مسمى «الداروينية الاجتماعية»، في شكلها الخام. وقد استخدمت هنا كلمة «خام»، قاصداً التلميح إلى ذلك النظام الدارويني الذي يتجاهل دور التعاون والتحالف، في دائرة البقاء للأقوى، واضعاً كل التركيز على التنافس والتصارع. فمن المنطلق الاقتصادي، يصير التنافس بين الشركات، وتأخذ الداروينية الاجتماعية شكل «السوق المتطرف»؛ ومن المنطلق السياسي، يصير التنافس بين الدول. فتأخذ الداروينية الاجتماعية، أو هي آخذة الآن، شكل الهيمنة الأمريكية.

ولا يخضع جميع أعضاء حكومة بوش إلى هذه الأيديولوجية، إلا أن المحافظين الجدد يشكلون جماعة ذات تأثير عال في داخل هذه الحكومة. فهم الذين نادوا، علانية، باحتلال العراق، في بداية عام ١٩٩٨. وقد تولدت أفكارهم منذ الحرب الباردة، فترعرعت في أجوائها، ثم باتت تتخذ طابعاً تفصيلياً، في مرحلة ما بعد الحرب الباردة. ولم يتمكن هؤلاء المحافظون الجدد من إنزال أيديولوجيتهم على أرض الواقع، قبل الحادي عشر من سبتمبر، لاعتبارين أساسيين: أولاً، أن الرئيس جورج بوش الابن لم يكن لديه التفويض الكافي (لقد صار رئيساً بفضل تصويت أحادي في المحكمة العليا)، وثانياً، أن الولايات المتحدة لم يكن لديها عدو واضح الملامح، يمكنه تبرير الارتفاع الدراماتيكي في الإنفاق العسكري.

وقد قامت أحداث سبتمبر بإزاحة العائقين. فأعلن الرئيس بوش الحرب على الإرهاب، واصطف الجمهور الأمريكي وراء رئيسه. وبعدها، أكملت الإدارة الأمريكية طريقها، مستغلة الهجمة الإرهابية لمصالحها الشخصية. فعملت على تغذية مشاعر الخوف، وإلهابها في داخل المجتمع الأمريكي، ليتم تعبئته وحشده بالكامل وراء الرئيس؛ كما عملت على استثمار حربها على الإرهاب، بهدف تطبيق أجندتها المهيمنة. هكذا كان يوم الحادي عشر من سبتمبر مغيراً لمجرى التاريخ.

وليس استغلال الحدث، في سبيل تعزيز أجندة معينة، بأمر مستحق للتوبيخ. فمن أولويات الرئيس وواجباته، توفير القيادة؛ ثم إنه من الطبيعي جداً، بالنسبة للسياسيين، استغلال الأحداث أو التلاعب بها، بهدف تعزيز وترويج سياساتهم. كل هذا طبيعي ومتوقع؛ فالمشكلة الحقيقية لا تكمن هنا؛ بل تكمن في طبيعة السياسات التي يقوم بوش بترويجها، وفي الوسيلة التي ينتهجها بوش لفرض تلك السياسات، سواء على الولايات المتحدة أو على العالم.. إنه يقودنا إلى منحنى في غاية الخطورة.

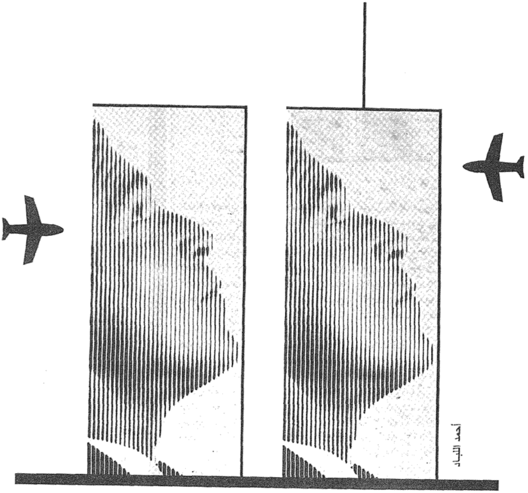
إن أيديولوجية بوش الاستعلائية المهيمنة، تقف في تضاد كامل مع مبادئ المجتمع المفتوح، الذي يعترف بالآراء المختلفة للبشر، مفترضاً بأن الحقيقة المطلقة ليست ملكاً لأي أحد منهم. إن هذه الأيديولوجية تفترض بأن قوتنا المتفوقة على الآخرين، تجعلنا أكثر علماً، وأكثر معرفة، ومن ثم أكثر امتلاكاً للحق. وكانت المقولة الأولى، التي أطلقتها استراتيجية الأمن القومي في سبتمبر ٢٠٠٢ (وهو التصميم السنوي الذي يصممه الرئيس للكونجرس محدداً أهداف الدولة الأمنية) تقول التالي: «الصراعات العظيمة في القرن العشرين، بين الحرية والشمولية، انتهت بالانتصار القاطع لصالح قوات الحرية. ولصالح نموذج أساسي واحد، يعتمد عليه في تحقيق تقدم الأوطان ونجاحها: الحرية، الديمقراطية، والتجارة الحرة».

إلا أن هذه المقولة، تحمل في طياتها افتراضات خاطئة؛ وذلك لسببين أساسيين: أولاً، أنه لا يوجد نموذج أوحد، يعتمد عليه في تحقيق التقدم الوطني. وثانيًا، أن النموذج الأمريكي، الذي استطاع أن يبرهن على نجاحه، لا يمكن توافره بالنسبة للدول الأخرى؛ ذلك لسبب بسيط، وهو: أن نجاحنا اعتمد أصلاً على موقعنا المتميز والمهيمن على النظام الرأسمالي العالمي؛ ونحن لن نتنازل أبداً عن موقعنا هذا، ولن نمنحه لأحد مهما كان.

وقد تأسس مذهب بوش، الذي تم التلفظ به لأول مرة في خطبة رئاسية بـ «ويست بوينت» في شهر يونيو ٢٠٠٢، والذي تم إدراجه من ضمن استراتيجية الأمن القومي في غضون ثلاثة شهور، على محورين: أولاً، أن الولايات المتحدة ستفعل كل ما في وسعها وطاقتها للحفاظ على هيمنتها العسكرية، غير المشكوك فيها لدى الجميع؛ وثانيًا، أن الولايات المتحدة سوف تنتحل الحق في ممارسة الضربات الوقائية. وقد تبنى المذهب مستويين من السيادة: سيادة الولايات المتحدة، والتي تأخذ أولويات وأسبقية على جميع الاتفاقيات والالتزامات الدولية؛ وسيادة الدول الأخرى، التي تخضع لإرادة الولايات المتحدة. وقد يذكرنا جورج أورويل بهذا، فيقول في قصته المعروفة «مزرعة الحيوانات»: كل

ترجمة: شيرين حامد فهمي

بترتيب مع مجلة: The Atlantic Monthly



الحيوانات متساوية، ولكن بعض الحيوانات متساوية أكثر من غيرها.

ولنتأكد جميعًا، فإن مذهب بوش لا يُقال بهذه الصرامة، ولا يلفظ بهذه الشدة؛ وإنما هو مغلف ومغطى بازدواجية؛ تلك الازدواجية التى تعكس التناقض بين مفهوم إدارة بوش للحرية والديمقراطية، وبين المبادئ الحقيقية للديمقراطية والحرية. فصحيح أن الحديث حول «نشر الديمقراطية» حافل فى استراتيجيات الأمن القومى، إلا أن الرئيس بوش عندما يتحدث عن ضرورة بقاء الحرية، فإنه يقصد بذلك ضرورة بقاء الولايات المتحدة. ومن المفترض، فى المجتمع الحر المفتوح، أن يقر الناس لأنفسهم معانى الحرية والديمقراطية، حسب مفهومهم هم، وليس حسب المفهوم الأمريكى. وقد يتجلى التناقض، خاصة، فى حالة العراق.. «نحن جئنا كمحررين، جالبين معنا الحرية والديمقراطية»؛ إلا أن تلك الصورة التى يراها السواد الأعظم من الجمهور الأمريكى.

وإنه حقًا، لمن المضحك، أن تقع الحكومة، صاحبة أكثر المجتمعات نجاحًا وانفتاحًا فى العالم، فريسة فى أيدى أناس، يجهلون المبادئ الأولية للمجتمع المفتوح. فعلى الأراضى الأمريكية، قام المحامى الجنرال «جون أشكروفت» باستخدام (الحرب على الإرهاب) ليقلص ويحجم من الحقوق المدنية. وعلى الصعيد الخارجى، تحاول الولايات المتحدة فرض آرائها ومصالحها من خلال استخدام القوة العسكرية. وكان احتلال العراق هو التطبيق العملى الأول لمذهب بوش، إلا أنه أثبت العكس تمامًا..

لقد نشأت فجوة.. قل «صدع كبير» بين الولايات المتحدة وبين بقية العالم. وكان حجم الفجوة ملحوظًا للغاية، ومؤثرًا للغاية. وفى ١٢ سبتمبر ٢٠٠١، عقد اجتماع خاص لمجلس شمال الأطلنطى، الذى استحضر روح المادة الخامسة من ميثاق الحلف (الناتو). وهو أمر لم يحدث قبل ذلك فى تاريخ الحلف. داعيًا جميع الأعضاء للتعامل مع الهجوم الإرهابى على الولايات المتحدة، على كونه اعتداء على أراضيهم. وعلى أثر ذلك، قامت الأمم المتحدة بالتصديق، وبإيجاز، على المفهوم الأمريكى التأديبى ضد منظمة القاعدة فى أفغانستان. إلا أنه فى غضون أكثر من عام، لم تستطع الولايات المتحدة انتظار قرار الأمم المتحدة للتصديق على احتلال العراق. فأعلن جيرهارد شرودر اعتراضه ورفضه التعاون مع الولايات المتحدة، ليكون ذلك سببًا فى إعادة تنصيبه مرة ثانية لكرسى الرئاسة. وفى كوريا الجنوبية، تم انتخاب مرشح. لا يتمتع بأى شعبية. إلى الرئاسة، لمجرد أنه معروف «بوده المحدود جدًا» للولايات المتحدة؛ بل إن الكثير من الكوريين الجنوبيين يرون فى الولايات المتحدة خطرًا جسيمًا عليهم، وعلى أمنهم، أكثر مما يرونه فى كوريا الشمالية. ملخص القول، إن الغالبية العظمى فى العالم تعارض الحرب على العراق.

إن الحادى عشر من سبتمبر أحدث بترًا أو قطعًا. أو يمكن أن تسميه شرخًا. فى السياسة الخارجية الأمريكية. إن ما حدث من اختراقات للمعايير الأمريكية، والذى كان ينظر إليه بازدراء شديد فى الظروف العادية، صار مصدر قبول وترحيب، باعتباره مناسبًا للظروف الحالية. فغير الطبيعى، والراديكالى، والمتطرف.. كلها كلمات أعيد تفسيرها من جديد.. فصارت «طبيعية».

وإذا أردنا إضفاء مزيد من التوضيح على أهمية التحول، فاسمحوا لى أن أجلب إليكم مثلاً حيًا من حكم خبرتى بأسواق المال. إن أسواق البورصة تهيئ دائماً الأجواء لعملية الطفرة. المتورمة، أو الفقاعة القابلة للانفجار فى أى لحظة. وكما نعلم، فإن الفقاعات لا تنضج على أثر نسمات الهواء الرقيقة، بل لديها أساس من الواقع ومن الحقيقة. ولكنها الحقيقة المشوهة عبر سوء الفهم. فتحت الظروف الطبيعية، يحدث إصلاح ذاتى لسوء الفهم؛ فتتجه الأسواق نحو بعض الشىء من الاتزان والتعادل.

وأحيانًا، يتم تغذية هذا الفهم المخلوط من قبل اتجاه سائد، على أرض الواقع، وذلك عندما نكون بصدد عملية نشوء الفقاعة وتشكلها. وعندما تصل الفجوة بين الحقيقة وبين التفسير الخاطئ لها إلى أوجها، وعندما تتسع الهوة بينهما لتصل إلى الحد الأقصى الذى لا يحتمل.. تنفجر الفقاعة.

وفى أثناء فترة التغذية الذاتية، يقبع المشاركون فى اللعبة، تحت سحر وفتنة التحيز المفرط. فتبدو الأحداث وكأنها تصادق وتؤكد على معتقداتهم، لتضيف مزيدًا من القوة إلى فهمهم المخلوط، وإلى إدراكاتهم المشوهة. وهذا من شأنه أن يوسع الفجوة، وأن يهيئ خشبة المسرح للحظة الحق، كما يهيئه لرجوع أخير عما قد سلف. وعندما تأتى لحظة الرجوع، فيكون الأمر عرضة، حينئذ، لظهور عواقب قاتلة وفتاكة. إن هذا المسار من الأحداث يبدو ذا خاصية أو ذا طبيعة غير مقنعة؛ إلا أنه بإمكاننا إجهاض عملية «الفقاعة القابلة للانفجار» فى أى مرحلة؛ ومن ثم تقليل أو منع العواقب العكسية برمتها. وكلما كانت عملية الإجهاض أسرع، كلما كان ذلك هو الأفضل والأحسن.

السعى وراء الهيمنة الأمريكية.. يمكن وصفه بالفقاعة. فالمكانة المهيمنة التى تحتلها الولايات المتحدة فى العالم تمثل عنصر الحقيقة، التى يتم تشويهها وتحريفها. أما الافتراض الذى يقول أن الولايات المتحدة ستكون فى وضع أفضل، إذا ما استخدمت مكانتها فى فرض قيمها ومصالحها على الناس كافة، فهو افتراض لا يمثل إلا سوء الفهم والإدراك، بل إن الأمر معكوس تمامًا: فالولايات المتحدة لم تستطع الوصول إلى ما هى عليه الآن، إلا من خلال عدم استغلالها لقوتها.

ولكن أين نحن من هذه العملية الفقاعية؟ إن الوضع المتدهور فى العراق.. ليس إلا لحظة متجلية للحقيقة أو لحظة متجلية للامتحان: فإذا تم التغلب عليها بنجاح، سيستمر الوضع على ما هو عليه، بل سيزداد سوءًا.

وبغض النظر عن التبريرات التى سقناها لخلع النظام الصدامى، إلا أنه لا يوجد شك واحد فى أن احتلالنا للعراق لم ينطلق إلا من دعاوى واهية. ومن حجج كاذبة. وسواء بقصد أو بغير قصد، وسواء بعلم أو بغير علم، فقد قام الرئيس بوش بخداع الجمهور الأمريكى، وبخداع الكونجرس الأمريكى، ماشيًا بنعله على آراء الحلفاء والأصدقاء. ولم يكن للصدع المتزايد بين توقعات الإدارة الأمريكية وبين الوضع الحقيقى للأمور أن يتسع أكثر من ذلك؛ ولم يكن من الممكن أن تزداد الهوة أكثر من ذلك. وإنه لمن الصعب حقًا، أن تجد. فى الآونة الأخيرة. عملية عسكرية مُنيت بهذا الفشل الذريع، كما مُنيت عمليتنا العسكرية فى

كتاب الزاوية

الأذكيــاء

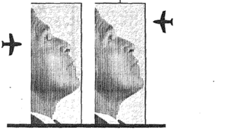
للإمــام ابن الجــوزى

ذكر المؤرخون نسب الإمام ابن الجوزى فقالوا إنه يتصل بالخليفة أبى بكر رضى الله عنه وهو عبد الرحمن بن محمد ابن على بن عبيد الله بن حمادى وكنيته أبو الفرج ابن الجوزى. وقد ولد عام ٥١٠ هجرية ونشأ يتيمًا وتعلم ابن الجوزى على يد كبار العلماء فى عصره فمن شيوخه الحسين بن محمد البارع وعلى بن عبد الواحد الدينورى. وقد برع ابن الجوزى فى الوعظ والإرشاد منذ صغره وكان مجلسه من أكبر مجالس العلم، وأثنى عليه كثير من العلماء مثل العلامة ابن كثير وموفق الدين المقدسى.

ومن مؤلفاته. مناقب عمر بن الخطاب ومناقب عمر بن عبد العزيز وصيد الخاطر وأخبار النساءوأخبار الحمقى والمغفلين ومنهاج القاصدين وجامع الأسانيد والأحاديث الرائقة.

وكتاب الأذكياء يطوف من خلاله المؤلف فى عالم الأذكياء سواء أعمالهم أو أقوالهم أو قدرتهم على التخلص بسهولة من المشكلات التى تعترضهم بما أوتوا من نشاط عقلى وصفاء ذهنى عميق. وقد بين المؤلف أنه ألف هذا الكتاب للتعريف بأقدار هؤلاء الأذكياء وذكر أحوالهم وتلقيح ألباب السامعين إذا كان فيهم استعداد لنيل مرتبة الذكاء ثم تأديب المعجب برأيه إذا سمع أخبار من تعسّر عليه لحاقه.

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات وقد اعتمدنا على الطبعة التى أصدرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة لعام ٢٠٠٣ وقد حققها الأستاذ عادل عبد المنعم أبو العباس.



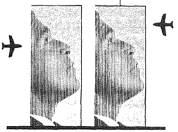
العراق. فهاهم جنودنا.. وقد أجبروا على القيام بمهام رجال الشرطة، وهم فى ملابس المقاتلين، لتحصد رءوسهم يومًا بعد يوم. نحن لم نعرض، فقط، حياتهم للخطر، بل عرضنا أيضًا فعاليتهم القتالية.. ومعنوياتهم التى أتلفت ودمرت بفعل الحرب، فى وقت لم نعد فيه قادرين على التخطيط لقوتنا المستقبلية: خاصة أن مصادر التهديد باتت متواجدة، ليس فى مكان واحد، بل فى أكثر من مكان. فهاهى كوريا الشمالية، تدشن مشاريعها النووية على العلن؛ وهاهى إيران، تفعل نفس الأمر، ولكن فى الخفاء. وهاهى طالبان، تعيد جمع نفسها فى أفغانستان. وهاهو ثمن احتلال العراق، يحل علينا، ومعه ظلال الحرب الدائمة التى أثقلت كاهلنا الاقتصادى؛ وفى غمار كل ذلك، يظهر فشلنا فى مواجهة مشاكل كثيرة، قد تقيحت وتعفنت. سواء على المستوى المحلى أو العالمى. إننا إذا أردنا دليلاً دامغًا على أكذوبة الحلم الأمريكى للهيمنة، فلن نجد أدل من واقعة احتلالنا للعراق. أما إذا فشلنا فى الالتفات إلى هذا الدليل، وأخذه فى الاعتبار، فلن يكون هناك مفر من مواجهة مستقبل أكثر مرارة مما نواجهه الآن، لندفع فيه الثمن غاليًا؛ ولكن هذه المرة أغلى من أى مرة سابقة.

وفى أثناء كل هذا، يبدو أننا تعاملنا بخطأ واضح مع مسألة الحرب على الإرهاب؛ وذلك نتيجة لانشغالنا المفرط مع موضوع «الهيمنة». فكلمة «الحرب» هنا، وفى هذا الإطار، هى بالتأكيد تشبيه غير مناسب، فصحيح أن الإرهابيين يهددون أمننا القومى والشخصى؛ وصحيح أننا ملزمون بحماية أنفسنا من تلك التهديدات، وصحيح أن الكثير من الخطوات التى انتهجناها تعتبر لازمة وضرورية؛ وصحيح أنه لا يمكن أبدًا الافتراض بأننا قصرنا فى أداء مهامنا من أجل منع ضربات مستقبلية.. هذا كله صحيح.. إلا أن الحرب التى دشنها بوش ضد الإرهاب لم تفعل الكثير لإنهاء الإرهاب أو تحسين الوضع الأمنى الداخلى. بل على العكس تمامًا؛ فهذه الحرب تعرض أمتنا للخطر، وتضعنا. فى نهاية الأمر. فى حلقة مفرغة لتصاعد كان يمكننا التعامل مع الحادى عشر من سبتمبر، على كونه جريمة ضد الإنسانية، بدلاً من كونه حربًا عسكرية. فتعاملنا معه كجريمة، كان سيكون أكثر ملاءمة، وأكثر مناسبة. فالجرائم تحتاج إلى رجال الشرطة، لا إلى الحملات العسكرية. إن الحماية من الإرهاب تتطلب خطوات تحذيرية وقائية؛ كما تطلب وعيًا. وهمة عالية من قبل رجال المخابرات. وهى فى النهاية مهام تعتمد، أولاً وأخيرًا، على تأييد الجماهير التى ينبثق منها الإرهابيون. فتخيل للحظة.. لو أن اليوم الحادى عشر من سبتمبر كان قد عومل على كونه جريمة.. تخيل السيناريو المترتب على ذلك. لو كان هذا اليوم اعتبر على أنه جريمة ضد الإنسانية، لما اضطررنا لاحتلال العراق، ولما اضطررنا لدفع جنودنا المسلحين دفعًا لأداء مهام رجال الشرطة، ليقعوا صرعى فى النهاية تحت طلقات العراقيين.

إن إعلان الحرب على الإرهاب، تتناسب أكثر مع مطامع بوش وأهدافه، لأنها تستعيد وتثير بدورها القوة العسكرية، إلا أن بوش كان مخطئًا بالتأكيد، حينما فكر فى ذلك، لأن الحملة العسكرية تتطلب هدفًا معينًا وواضحًا؛ ويفضل أن يكون دولة. وصحيح أن الحرب على الإرهاب، أقيمت فى البداية على الدول التى تؤوى الإرهابيين؛ إلا أن الإرهابيين الآن لا ينتمون إلى دولة، فهم ببساطة يصنفون على كونهم لاعبين غير دوليين، حتى ولو كانوا يمولون من قبل الدول.

إن الحرب على الإرهاب، التى تبنتها إدارة بوش، لن يكتب لها الانتصار، على جميع الأحوال، بل العكس هو الصحيح، فهى بإمكانها أن تجلب حالة دائمة من الحرب. فالإرهابيون لن ينتهوا أبدًا؛ ولن يكفوا عن الاحتجاج ضد الهيمنة الأمريكية؛ ولن يكفوا عن تقديم الذرائع تحت اسم الهيمنة الأمريكية. وذلك التمسك بالهيمنة الأمريكية سيؤدى بدوره إلى الاستمرار فى تصاعد وتأجج المقاومة. بالإضافة إلى أن قيامنا بتحويل عملية اصطياد الإرهابيين إلى عملية قتلهم عسكريًا، سيؤدى بنا، حتمًا، إلى إيقاع الظلم على الأبرياء. وكلما زاد عدد الأبرياء المظلومين، كلما ازداد الشعور بالقهر والتذمر، وكلما أتيحت فرص أكبر، لبعض الأبرياء، للتحول إلى معسكر المجرمين.

لابد من وضع التهديد الإرهابى فى إطار الصحيح المضبوط. فالإرهاب ليس



جديداً؛ فقد كان ظاهرة واضحة جداً فى روسيا، فى القرن التاسع عشر؛ حيث كان له تأثيره الملحوظ على طبيعة النظام القيصرى، من ناحية تبرير الحكم الديكتاتورى، ومن ناحية تغذية وتنشيط مهام البوليس السرى. بل حتى عهد قريب جداً، دخلت دول أوروبية عديدة، إيطاليا وألمانيا وبريطانيا، فى مواجهات عنيفة مع عصابات إرهابية؛ استنفدت منها عشر سنوات أو أكثر، لاجتثاث تلك العصابات من جذورها. وبالرغم من ذلك، فلم تعش هذه الدول تحت أسطورة الإرهاب. نحن لا ننكر أن عملية اختطاف الطائرات من أجل استخدامها فى هجمات انتحارية.. نحن لا ننكر أن هذا أمر جديد علينا؛ مثلما لا ننكر أن إمكانية امتلاك الإرهابيين لأسلحة الدمار الشامل، أمر لم يرد علينا من قبل؛ إلا أنه ليس من الصواب السماح لهذه الأخطار بالسيطرة على وجودنا، وعلى حياتنا. إن تهويلها لن يزد حياتنا إلا سوءاً وضنكاً. فهل من المعقول، أن يستولى الذعر والخوف، بهذا الحد، على أقوى دولة فى العالم؟؟ إن وضع «الحرب على الإرهاب» فى قلب استراتيجيتنا القومية، هو التخلى بعينه عن مسئوليتنا كدولة قائدة للعالم. وفوق ذلك، فإن سماحنا للإرهاب بأن يكون شاغلنا الأكبر، سيجعلنا، فى النهاية، دمية أو لعبة فى أيدى الإرهابيين.. سيصيرون هم الذى يضعون أولوياتنا.

وقد نشر مجلس العلاقات الخارجية مؤخراً ثلاثة بدائل لاستراتيجية الأمن القومى. أما البديل الأول، فيدعو إلى تمكين الهيمنة الأمريكية من خلال مذهب بوش الذى يأمر بالممارسة العسكرية الوقائية؛ وهو بديل يؤيده المحافظون الجدد. وأما الثانى، فيسعى وراء الاستمرار فى السياسة السابقة للردع والاحتواء؛ وهو الذى يؤيده كولين باول وغيره من المعتدلين، سواء من الحزب الجمهورى أو الديمقراطى. وأما الأخير، فهو يدعو إلى قيادة الولايات المتحدة لجهود تعاونية من أجل تحسين أحوال العالم، من خلال الانصراف إلى الممارسات الاحتياطية والاحترازية. والبديل الأخير، لا تؤيده أى جماعة ذات أهمية؛ ولكنه البديل الذى أؤيده وأقف وراءه.

وقد أظهرت التجربة الخطورة المفرطة للبديل الأول؛ أما البديل الثانى، فأعتقد أنه لم يعد صالحاً للتطبيق. لقد فعل بوش من الأضرار والخسائر، لوضعنا فى العالم، ما لا يمكن غفرانه بسهولة؛ الأمر الذى لن يسمح، بالتأكيد، بإعادة وضعنا كما كان عليه فى السابق. بالإضافة إلى أن السياسات، التى كانت تطبق قبل الحادى عشر من سبتمبر، كان من الواضح أنها غير كافية للتعامل مع مشاكل وتعقيدات العولمة. تلك المشاكل والأزمات التى تحتاج إلى ممارسات جماعية؛ وهنا تكون الولايات المتحدة، بوضعها المميز، هى القادرة على قيادة تلك الجهود الجماعية. لا يمكننا أن نطلق لأنفسنا عنان التصرف، كما يحلو لنا، مثل ما أظهر الموقف العراقى. ولكن فى نفس الوقت لا يمكن لأى تعاون دولى أن يتم بدون قيادة، أو على الأقل، مشاركة الولايات المتحدة.

بالرغم من أن العولمة قد نجحت فى تحويل العالم إلى قرية صغيرة، معتمدة على بعضها البعض، إلا أن العلاقات الدولية مازالت مرتكزة على سيادة الدول. فصحيح أن ما يحدث فى داخل الدول يمكن أن يكون له بالغ الأثر على بقية العالم، إلا أن مبدأ السيادة مازال يقف سداً مانعاً تجاه التدخل فى الشئون الداخلية للدولة. ولكن كيف لنا أن نتعامل، من هذا المنطلق، مع الدولة الباطشة، والأنظمة الفاسدة؟ كيف لنا أن نتخلص من صدام ومن أمثاله؟ هذه هى المشكلة الحقيقية التى تواجهنا اليوم.

أنا اقترح استبدال مذهب بوش الذى يدعو إلى الممارسة العسكرية الوقائية، بمذهب آخر يدعو إلى الممارسة الاحتياطية الاحترازية ذات الطبيعة الإيجابية والبنائية. ومن ثم، تكون الممارسة العسكرية هى آخر الخيارات المطروحة؛ وتكون المساعدات الخارجية الأكثر وفرة، وقوانين التجارة الأكثر عدلاً، هى أول الخيارات. أما اشتغال الولايات المتحدة فى الوقت الحالى بالشئون الأمنية أكثر من أى شىء، فهذا أمر لا غبار عليه؛ إلا أنه يجب وضعه فى إطاره الصحيح، وهو إطار الأمن الجماعى. فلا انتشار الأسلحة النووية، ولا الإرهاب الدولى ينفعان فى هذا الإطار. باختصار، إن العالم ينظر إلينا، منتظراً منا القيادة، التى وفقنا فى منحها فى الماضى. ويكفينا العلم، بأن السبب الرئيسى وراء كراهية العالم لنا اليوم، هو أننا لسنا قادرين على توفير هذه القيادة اليوم. ■

كتاب الزاوية

الأذكياء

فضل العقل

عن أبى عباس أنه دخل على عائشة. فقال: يا أم المؤمنين! أرأيت الرجُلَ يقل قيامه ويكثر رقاده. وآخر يكثرُ قيامه. ويقل رقاده أيهما أحب إليك؟ قالت: سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى عنه فقال: «أحسنهما عقلاً». قلت: يا رسول الله أسألك عن عبادتهما. فقال: «يا عائشة إنما يسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل فى الدنيا والآخرة».

وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول شىء خلقه الله القلم. ثم خلق النون وهى الدواة. ثم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة. ثم خلق العقل وقال: وعزتى لأكملنَّك فيمن أحببت، ولأنقصنك ممن أبغضت».

وعن ابن عباس قال: لما خلق الله العقل قال له: أدبر فأدبر. ثم قال له: أقبل فأقبل. قال وعزتى ما خلقت خلقًا قط أحسن منك. فبك أعطى. وبك آخذ. وبك أعاقب».

وقال وهب بن منبه (مؤرخ إسلامى توفى ١١٤ هجرية): إنى وجدت فى بعض ما أنزل الله على أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئًا أشد عليه من مؤمن عاقل. وأنه يكابد مائة جاهل فيستجرهم حتى يركب رقابهم، فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيتصعب عليه حتى لا ينال منه شيئًا من حاجته.

وقال وهب: لإزالة الجبل صخرة صخرة، وحجرًا حجرًا أيسر على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل. لأنه إذا كان مؤمنًا عاقلاً، ذا بصيرة، فهو أثقل على الشيطان من الجبال. وأصعب من الحديد.

(فى أجهزة الحكومة علينا أن نتحرز من تأثير سطوة التحالف العسكرى الصناعى غير المشروعة، سواء سعينا أم لم نسع إليها «إن إمكانية التعاظم المشئوم لسلطة وضعت فى غير موضعها قائم وسوف يستمر. و ينبغى علينا ألا ندع عبء هذا التحالف يعرض مسيرة حرياتنا وديمقراطيتنا للخطر أبدًا. يجب ألا نقبل بأى شىء كأمرمسلم به).

دوايت أيزنهاور ١٩٦١

■ إن الهيمنة العسكرية الدائمة على العالم عملية مكلفة «فى سبتمبر الماضى، بعد إنفاق ٧٩ بليون دولار فى العراق وأفغانستان، طلب جورج دبليو بوش من الكونجرس ٨٧ بليون دولار إضافية من أجل إدامة المجهود لمدة سنتين أخريين. وفى خلال ساعات أقر البيت الأبيض بأن هذا الرقم هو تقدير أقل من المطلوب. وقد قال بول بريمر رئيس سلطة الاحتلال المؤقتة فى العراق إنه (من المستحيل تقريبا المبالغة) فى تكاليف إعادة إعمار تلك الأمة. ومن المحتمل أن يصل إجمالى النفقات العسكرية للسنة القادمة نصف تريليون دولار وهو أكثر مما أنفق فى ١٩٦٨ إبان ذروة حرب فيتنام.

ورغم اعتقاد الكثير من المتكهنين الحالمين فى الإدارة الأمريكية بأن حرب العراق لن تكون أكثر من نزهة، لكن بوش نفسه كان حذرًا على الدوام فى وصف رؤيته للالتزامات العسكرية الأمريكية. وكان قد أطلق على العراق وصف (الجبهة المركزية) فى (حرب مختلفة تشن فى جبهات عديدة فى أماكن كثيرة) وبهذا المعنى رفض أن يقدر متى قد تنتهى هذه الحرب الممتدة أو ما هو معيار النصر. لكنه أعلن بدلاً من ذلك أن المعركة ستكون (طويلة) وستتطلب (التضحيات) من الشعب الأمريكى. وباختصار ألزم البيت الأبيض الشعب الأمريكى بتمويل حرب أبدية مكلفة على جبهات عدة فى العراق وأفغانستان وبلدان أخرى سوف يعلن عنها فى حينها وحتى أولئك القلة من السياسيين الذين عارضوا غزو العراق يجادلون الآن بأننا يجب أن (نتم العمل) لقد أنجزنا الفعل ويجب أن نصرف المال الآن.

ترجمة: بثينة الناصرى
عن مجلة هاربرز الأمريكية

بيزنس

وهكذا فإنه بالنسبة لشركات المقاولات الخاصة التى يتعاظم دورها فى تشكيل البنى التحتية لقواتنا المسلحة، فقد انهالت عليهم الفوائد من المصائب. خلال حرب العراق الأولى فى ١٩٩١، كان واحد من كل مائة جندى أمريكى موظفًا من قبل شركة خاصة. فى حرب العراق الثانية اقتربت النسبة إلى واحد من كل عشرة وقد نشرت الواشنطن بوست تقريرا بأن ثلث نفقات حرب العراق الآخذة فى الزيادة سريعا تذهب إلى حسابات خاصة فى البنوك الأمريكية.

كانت الفكرة الأصلية من هذا التدفق للدولارات الفيدرالية هى توفير الأموال. ففى رؤية دونالد رامسفيلد، سوف تعكس خصخصة الجيش نفس انضباط السوق على الحرب نفسها فى ١٩٩٥ وقبل عودته إلى واشنطن بوقت طويل، قدم رامسفيلد إلى أمريكا (أفكارا من عالم المال حول تقليص دور الحكومات) وهى دراسة أوحت بها خبرته كرئيس موظفى البيت الأبيض ووزير للدفاع (فى إدارة جيرالد فورد) ورئيس مجلس إدارة لشركتين أمريكيتين عملاقتين (جنرال انسترومينت كورب وجى دى سيرل) وقد كتب فى دراسته يقول (إن برامج الحكومة معزولة بشكل كبيرعن اهتزاز السوق ولهذا لايسمح لها بإمكانية الفشل. وأحيانا لاشىء أقل من خصخصة صريحة يمكن أن تعيد الانضباط).

والآن تتحقق رؤية رامسفيلد للحرب المخصخصة وتمتحن. واعتمادا على مدى استعداد الشعب الأمريكى للتضحية، فإن إمكانية المكاسب الخاصة فى صناعة الحرب فى الولايات المتحدة، يستحيل تقريبا، إذا استعرنا التعبير، المبالغة بها لقد كانت الحرب مثل منجم ذهب مثلا لهاليبرتون، شركة الطاقة، وبيكتل مقاول البناء رقم واحد فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان ديك تشينى رئيس مجلس إدارة بكتل من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٠ وكان وجورج شولتز رئيس بيكتل لمدة ثمانى سنوات قبل أن يصبح وزير الخارجية فى إدارة ريجان وفى مارس الماضى، منح فيلق المهندسين فى الجيش الأمريكى عقدا بمبلغ ٧ بلايين دولار لشركة كيوج وبراون وروت

وهى فرع من شركة هاليبرتون، لتوفير كافة احتياجات الجيش الأمريكى اللوجستية وأعمال الصيانة فى العراق. وفى نفس الوقت منحت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) لشركة بيكتل عقدًا مبدئيًا بمبلغ ٣٤٫٦ مليون دولار لإعادة بناء مرافق توليد الطاقة الكهربائية فى العراق ومحطات الكهرباء ومرافق الماء والصرف الصحى وكذلك المطارات وسوف تطالب بيكتل الحكومة الأمريكية بنفقات تصل إلى ٦٨٠ مليون دولار لمدة ثمانية أشهر وهذه العقود المفتوحة لم ترس بمناقصة تنافسية وإنما بصفقات من الأبواب الخلفية التى تديرها إدارة بوش. ولا تخضع لأية مراقبة.

وأيًا كان ما تغير أو لم يتغير بعد ١١/ ٩ فهناك شىء واحد ظل واضحًا: لقد حلت صناعة الذخائر والتربح من الحرب محل صفقات الطاقة والاتصالات التى كان من روادها شركتا انرون وورلد كوم فى أواخر التسعينيات من القرن الماضى، باعتبارها أكثر الوسائل كفاءة بالنسبة

كان يسود الاعتقاد بموالاتها للعرش البريطانى والتى كانت تتكون عادة من مرتزقة السيخ والجورك. كلمة (sepoy) مستقاة ربما من الكلمة الأوردية التى تعنى (فارس) أو (جندى)) فى ١٨٥٧، فى زمن عصيان السيبوى - والتى يسميها الهنود (حرب الاستقلال الأولى) نشرت بريطانيا ٣٠٠ ألف جندى فى الهند، كان ٩٦٪ منهم من السيبوى. وتبرهن حقيقة تمردهم على بريطانيا على إمكانية أن تتحول هذه المقاربة إلى فخ.

فى عام ١٨٥٧ عندما صنع البريطانيون أحد أوائل موديلات البندقية (اينفيلد) أشيع أن الرصاص منقوع بشحم مصنوع من الدهن الحيوانى المستخلص من الأبقار والخنازير. والأبقار كما هو معروف مقدسة عند الهندوس والخنازير محرمة على المسلمين، وكان أحد خصائص

وأنيطت مهمات المدفعية بالجنود البريطانيين. وبهذه التغييرات تخلى البريطانيون عن دورهم كتجار فى الهند وتحولوا إلى محتلين غير مرغوب بهم فى أرض معادية.

لقد جرب الأمريكيون استخدام جنود مرتزقة فى فيتنام عام ١٩٦٢، أرسلوا البيريهات الخضر إلى الهضبات الجنوبية لتدريب المونتاجنارد وهم سكان جبليون يختلفون عرقيًا عن الفيتناميين، وحاولوا تنظيمهم فى مجموعات دفاع مدنية غير نظامية. ويمكن القول بشكل عام أن هؤلاء قد ساهموا مساهمة ضئيلة فى جهود الحرب وكانت مواقعهم عرضة لاجتياح الفيتكونج فى أى وقت يخدم ذلك أهدافهم.

وفى أفغانستان بين ١٩٧٩ و١٩٨٩ دعمت وكالة المخابرات المركزية جماعات المجاهدين (المناضلين من أجل الحرية) بأسلحة خفيفة تقدر بأكثر من ٢ بليون دولار بضمنها منصات صواريخ (ستنجر) المضادة للطيارات ودربتهم على كيفية

عملاء وكالة المخابرات المركزية إلى أفغانستان ومعهم ملايين الدولارات لرشوة ميليشيات أمراء الحرب لإشعال الحرب الأهلية من جديد بعد أن أخمدتها طالبان، مع وعود بدعم جوى فى حربهم الجديدة. وهكذا قام أمراء الحرب بمساعدة من الولايات المتحدة بالإطاحة بحكومة طالبان وسرعان ماعادوا إلى سابق عهدهم فى الاستغلال لقد أعلنت دعاية البنتاجون الانتصار الساحق للولايات المتحدة فى أفغانستان ولكن الحقيقة أن قادة طالبان والقاعدة مازالوا أحرارًا وعادت البلاد أرضًا خصبة لتفريخ الإرهابيين. وكذلك لم تكد تمر سنة واحدة على تحرير أفغانستان، حتى ازداد إنتاج الأفيون الذى يسيطر عليه أمراء الحرب حلفاء أمريكا ثمانية أضعاف من ١٨٥ إلى ٣٤٠٠ طن. وهو نصر آخر للقطاع الخاص.

شكل آخر من أشكال تجنيد المرتزقة هو تجييش وتدريب الدول التابعة للولايات المتحدة والمعتمدة عليها ويمكن تشبيه الأمر بشركة ترجع إلى فروعها

الحرب
اعتصار الأرباح من خرائب العراق!

تشالمرز جونسون

للرأسماليين لاتخام أنفسهم من المعلف العام. ولهذا فإن وصف هذه الشركات بكلمة (خاصة) هى محض أيديولوجية أن صناعة الذخائر فى الولايات المتحدة اليوم لاتعتبر استثمارات خاصة بقدر ما هى اشتراكية الدولة.

فعندما تتحول القضايا السياسية إلى قضايا شركات أعمال، يحدث التغير. فالمسئولية توضع فى غير موضعها والآثار تنتشر وتتوسع وهذه الإزاحة للمسئولية لها جذور فى ظاهرة أقدم بكثير حين كانت الإمبراطوريات تسعى إلى (استخدام المرتزقة) لفرض تنفيذ إرادتها السياسية. كان لدى البريطانيين الجورك والسيخ والهنود. ولدى الفرنسيين فيلقهم الأجنبى وكان لدى الهولنديين (الأمبونيون: سكان أمبونيا إحدى جزر مولوكا فى منطقة الأنديز الهولندية) والروس قوزاقهم، واليابانيين جيوشهم الدمى من منشوريا والصين وإندونيسيا وبورما أن استبدال جيوش دولة الاحتلال بوقود المدافع المحليين وتأليب جماعة عرقية أو دينية من السكان الأصليين ضد أخرى كان دائمًا الوسيلة الأسهل والأرخص لإخضاع شعب ما و(سياسة السيبوى) كانت تتضمن تدريب القوات (المحلية) من أجل الخدمة فى فرق الجيش التى يقودها ضباط بريطانيون أو فى الفرق الهندية الإمبراطورية التى

ذخائر هذه البندقية هو الحاجة إلى قضم ورقة مطوية على أحد طرفى الرصاصة قبل استخدامها .وقد انتشرت الروايات بسرعة بين السيبوى بأن البريطانيين يحاولون تحقيرهم بإجبارهم على انتهاك محرماتهم الدينية. وهكذا عندما أمر أحد الضباط البريطانيين قواته بقضم الرصاصة أطلق أحد الجنود النار عليه، وسرعان ما انفجرت ثورة جابهها البريطانيون بوحشية لامثيل لها. كان السيبوى المقبوض عليهم يلفون بجلود الخنازير أو الأبقار المدبوغة ويطلقون من فوهات المدافع . ومثل ما فعلته الإمبراطورية الرومانية عند قمع ثورة الأسبارطيين، كانت جثث الجنود الهنود المشنوقين معلقة على جانبى الطريق من كانبور إلى الله أباد. ثم انهت إنجلترا سلطات شركة شرق الهند التى كانت قد وظفت السيبوى وضباطهم، و حكمت بريطانيا البلاد مباشرة لمدة تسعين سنة كمستعمرة من مستعمرات التاج. وقد ألغيت الفرق الهندية وضم جنودها إلى تشكيلات أوسع تشمل جنودًا إنجليز.

استخدامها ضد القوات السوفيتية التى كانت تحتل البلاد حينذاك. لم يكن الأمريكيون يهتمون بالمعتقدات الدينية أو الولاءات السياسية أو وجهات النظر تجاه الغرب لأولئك الذى يوظفونهم ويدربونهم ويسلحونهم. وما أن هزم السوفييت، حتى تركت أمريكا أفغانستان إلى مصيرها وانقلب المجاهدون ومعظمهم من الأصوليين الإسلاميين ضد الولايات المتحدة. كما ساهم نشر الآلاف من القوات العسكرية الأمريكية فى السعودية وهى إحدى القبلتين فى الإسلام وكذلك دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، فى زيادة حدة رفضهم لها. وكان رد فعل المحاربين المسلمين خلال التسعينيات بمهاجمة مركز التجارة العالمى فى نيويورك عام ١٩٩٣ والأبراج السكنية للقوات الأمريكية فى السعودية عام ١٩٩٦ وسفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨ والمدمرة البحرية (كول) فى ٢٠٠٠. وليس بعيدًا أن تكون الهجمات الانتحارية فى ١١ سبتمبر نسخة معاصرة من تمرد السيبوى.

بعد ٩/١١ أرسلت الولايات المتحدة

لاستكمال احتياجات العمالة. فمنذ ١٩٩٣ بعد التمثيل بجثة الضابط الأمريكى راندى شوجارت واستعراضه فى شوارع مقديشو عاصمة الصومال مما أدى بالرئيس كلينتون بعد أربعة أيام إلى سحب قواتنا من تلك البلاد، والبنتاجون يحاول أن يتجنب الإصابات الأمريكية التى يمكن أن تغير رأى الشعب بخططها. إن موت الجنود الأجانب لايجذب انتباه وسائل الاعلام. وهكذا فإن النية تتجه إلى إعداد جنود أجانب للقيام بعمليات مشتركة تحت قيادتنا. وكما عبر عنها الرئيس بوش فى ١١ مارس ٢٠٠٢ بقوله (لن نرسل قوات أمريكية إلى كل معركة. ولكن أمريكا سوف تعمل بهمة على إعداد الأمم الأخرى للمعارك القادمة).

وعلى وجه الخصوص ومنذ انتهاء الحرب الباردة، طور الجيش الأمريكى علاقاته مع عدد ضخم من الحكومات وفرق الضباط فى ما كان يعرف بالعالم الثالث وبذل جهودا هائلة فى برامج تدريب (جيش لجيش) . وقد توصل زعماء الحزبين السياسيين خلال التسعينيات إلى أنه يمكن رعاية الكثير من أهداف السياسة الخارجية من خلال مثل هذه العلاقات بشكل أفضل مما تنجزه الروابط الاقتصادية والدبلوماسية. وأحد البرامج لتنفيذ مثل هذه

السياسات وهو برنامج وزارة الخارجية للتعليم والتدريب العسكرى الدولى الذى تضاعف أربعة أمثاله منذ ١٩٩٤ فى ١٩٩٠ كان البرنامج يقدم تعليما عسكريا إلى جيوش ٩٦ دولة.

فى ٢٠٠٢ ارتفع هذا الرقم الكبير إلى ١٣٣ دولة. وبما أن عدد الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة هو ١٨٩، فإن هذا يعنى أن البرنامج (يعلم) جيوش ٧٠٪ من أمم العالم.

إننا ندرب تقريبًا ١٠٠٠٠٠ جندى أجنبى كل عام - معظمهم ضباط يقومون بدورهم بنقل الأساليب الأمريكية إلى قواتهم. وفى عام ٢٠٠١ علم الجيش الأمريكى ١٥٠٣٠ ضابطا وجنديا فى أمريكا اللاتينية وحدها.

ويقوم البنتاجون بذلك إما باستقدام هؤلاء المتدربين إلى أحد معاهده التعليمية البالغ عددها ١٥٠ فى الولايات المتحدة وإما بإرسال مدربين عسكريين يكونون غالبًا من القوات الخاصة إلى الدول المعنية. وقد ضاعفت (الحرب على الإرهاب) هذه البرامج وفى حالات كثيرة كانت الذريعة التى حلت محل (الحرب على المخدرات) بدون وجود أى فرق ملحوظ بأساليب التدريب وتقول الولايات المتحدة إن مثل برامج التدريب هذه تشجع القيم الأمريكية ولكن هناك فوائد أخرى أيضًا. إن العلاقة القوية بين المدربين الأمريكيين والضباط والجنود الأجانب تفتح سوقًا داخل كواليس الحكومات للولايات المتحدة لبيع الأسلحة فإن وكالة التعاون الأمنى الدفاعى التى يرأسها ضابط برتبة فريق، وهى جزء لايتجزأ من وزارة الدفاع، مسئولة عن برنامج المبيعات العسكرية الخارجية، وهو أسلوب حكومتنا المفضل لبيع معدات الدفاع الأمريكية التى تشتريها من المصانع الأمريكية إلى الحكومات الأجنبية. وقد ارتفعت قيمة مبيعات السلاح الأمريكى (من حكومة إلى حكومة) بمقدار ١٠٪ فى ٢٠٠١ فأصبحت ١٣٫٣ بليون دولار. وبهذا يكون البنتاجون أكبر مصدر مفرد للسلاح فى العالم منذ ١٩٩١، وقد صدر من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠١ من الأسلحة ماقيمته ٥٧٫٨ بليون دولار وهو ثلاثة أضعاف ماتصدره المملكة المتحدة ثانى أكبر مصدر للأسلحة فى العالم.

إن تجنيد المرتزقة مفيد ومربح أحيانا ولكن الأموال الحقيقية تأتى من العقود الحكومية. وبالتأكيد يعتبر مقاولو الجيش أكثر شركات الأعمال ربحًا فى البلاد اليوم وأكبر شركات مقاولات الجيش هى شركة فينيل كوربوريشن من فيرفاكس فى ولاية فرجينيا التى حصلت فى ٢ يوليو على عقد بقيمة ٤٨ مليون دولار لتدريب جيش عراقى جديد، وشركة الموارد المهنية العسكرية (التى تعرف أكثر باختصار حروفها (MPRI) ومقرها فى الإسكندرية بولاية فرجينيا وتملكها شركة ل-٣ كوميونيكيشن، وشركة كيلوغ وبراون وروت وهى شركة من تكساس اشتهرت قبل اندماجها مع كيلوغ بالتدعيم المالى للرئيس الأسبق ليندون جونسون وهى اليوم فرع من شركة هاليبرتون، وشركة دينكورب من مدينة ريستون فى فرجينيا التى افتضحت أواخر التسعينيات باكتشاف أن بعض موظفيها فى البوسنة تورطوا فى الاسترقاق الجنسى لقاصرات ثم التجارة بهن من خلال بيعهن إلى دول أخرى فى أوروبا، وشركة تطبيقات العلوم الدولية من سان دييجو التى كان الخمسة الكبار فيها يقبضون فى عام ٢٠٠١ رواتب تتراوح بين ٨٢٥٠٠٠ دولار و١٫٨ مليون دولار وكل منهم لديه أسهم بقيمة ١٫٥ مليون دولار. وكذلك شركة بى دى إم الدولية فى فيرفاكس ولاية فرجينيا، وشركة أرمور هولدينجز من جاكسونفيل فى فلوريدا وشركة كيوبيك ابليكيشن فى واشنطن، ودى إف أى الدولية (وكانت تسمى سابقا ديفينس فوركاست) فى واشنطن، وإنترناشنال تشارتر بولاية أوريجون.

وهذه ليست مؤسسات صغيرة. فشركة دينكورب لديها ٢٣٠٠٠ موظف وكيوبيك ٤٥٠٠ وMPRI حوالى ٧٠٠ موظف مستديم إضافة إلى ١٠٠٠٠ عسكرى متقاعد على أهبة الاستعداد لتلبية المهمات متى دعت الحاجة.

وتقدر خبيرة شركات توظيف المرتزقة ديبورا أفانت من كلية اليوت للشئون الدولية فى جامعة واشنطن بأن عوائد الشركات العسكرية الخاصة والتى بلغت بمجملها ٥٥٫٦ بليون دولار فى ١٩٩٠ سوف ترتفع إلى ٢٠٢ بليون دولار عام ٢٠١٠ وهذا يجعلها الصناعة الأسرع نموا فى الولايات المتحدة. ولهذه الشركات اسم تجارى خاص بها هو (رابطة عمليات السلام الدولية) وهو اسم كان جورج اورويل(١) سيعتز به كثيرًا.

أسس شركة فينيل كوربوريشن- وهى فرع من شركة أسلحة عملاقة هى نورثروب جرومان - ضابط أمريكى متقاعد ومنذ ١٩٧٥تعاقدت معها الحكومة لتدريب الحرس الوطنى السعودى، المتكون من ١٠٠٠٠٠ جندى لحماية الملكية ولمواجهة أى تهديد محتمل من القوات المسلحة النظامية. فى ١٢ مايو الماضى فجر إرهابيو القاعدة ثلاثة مجمعات سكنية عسكرية فى الرياض بالمملكة العربية السعودية مما أوقع أربعة وثلاثين قتيلا بضمنهم ثمانية أمريكيين. وكان أحد الأهداف الرئيسية هو المبنى الذى يشغله حوالى سبعين من موظفى شركة فينيل وقد قامت شركة فينيل على مدى السنوات بتعليم وإدارة وتوظيف وكتابة القواعد لخمسة أكاديميات عسكرية سعودية وسبعة ميادين للرمى ونظام رعاية صحية حكومى كما دربت وجهزت أربع فرق ميكانيكية سعودية وخمس فرق مدفعية. وبالمقابل فقد دفعت السعودية مئات الملايين من الدولارات لشركات الدفاع الرئيسية لتجهيز هذه القوات التى دخلت أرض المعركة فى حرب الخليج الأولى لفترة قصيرة حين استعادت مدينة الخفجى السعودية الواقعة على الحدود الكويتية من القوات العراقية.

وقد تعاقدت الحكومة الأمريكية مع شركة دينكورب لتقديم حماية شخصية لرئيس أفغانستان حامد قرضاى وسوف تتولى تدريب الجيش الأفغانى حالما يترك أصحاب البريهات الخضراء البلاد.

كما دربت دينكورب الشرطة فى هايتى بعد التدخل العسكرى الأمريكى هناك فى ١٩٩٤. وهذا العام فازت بعقد سخى لإنشاء قوة شرطة عراقية وإقامة نظام قضائى وإدارة السجون. وهذا العقد الذى تقدر قيمته للسنة الأولى بمبلغ ٥٠ مليون دولار كان واحدًا من سلسلة عقود استثناها البنتاجون من الاشتراطات الرسمية الاعتيادية بوجود منافسة كاملة ومفتوحة/ و تشمل عمليات دينكورب الأخرى إدارة القوة الجوية بكاملها التى تتكون من أسطول واحد من الطيارات والمروحيات الرئاسية وكذلك الرش الجوى لمحاصيل المخدرات فى كولومبيا.

وبحلول عام ٢٠٠٢ كانت الشركة على المرتبة الثالثة عشرة لأكبر مقاولى الجيش وتبلغ عوائدها السنوية ٢٫٣ بليون دولار، ٩٦٪ منها عن طريق العقود والمقاولات من الباطن مع حكومة الولايات المتحدة.

خلال أعوام التسعينيات بدأ البنتاجون يتعاقد مع الشركات الخاصة لتوفير كل خدمة يمكن تخيلها فى الجيش ماعدا إطلاق البنادق وإسقاط القنابل. ونتيجة لذلك انبثقت شركات كثيرة جديدة يحدوها الأمل فى الحصول على عقود بمبالغ كبيرة وأرباح مضمونة. وقد قامت هذه الشركات بأعمال الصيانة والأمن وبالتالى، فقد ولت أيام قيام الجندى بواجبات الحراسة أو تنظيف المراحيض إلى غير رجعة.

وأفضل مثال على هذا هو معسكر بوندستيل الفاخر فى البلقان الذى تديره شركة كيلوج وبراون وروت. وحدث أنه فور انتهاء حملة قصف يوغسلافيا فى يونيو ١٩٩٩ انتزعت الولايات المتحدة من الملاك ألف هكتار من الأرض الزراعية فى يوروسيفاك فى جنوب شرق كوسوفو قرب الحدود المقدونية وأقامت عليها فى أقل من أربعة شهور معسكر بوندستيل وهو أكبر وأغلى قاعدة منذ حرب فيتنام حيث بلغت تكاليف بنائها حوالى ٣٦٫٦ مليون دولار و تكاليف إدارتها ١٨٠ مليون دولار سنويا.

وتقوم شركة كيلوغ وبراون وروت بصيانة الثكنات و إعداد الطعام ومسح الأرض ونقل كل التجهيزات وتشغيل أنظمة الماء والصرف الصحى. يعمل

لديها حوالى ١٠٠٠ عسكرى أمريكى سابق وحوالى ٧٠٠٠ من الألبان سكان المنطقة. وتوفر الشركة ٦٠٠٠٠٠ جالون ماء كل يوم وكهرباء يكفى مدينة من ٢٥٠٠٠ نسمة وتغسل ١٢٠٠ حقيبة ملابس وتطبخ وتقدم ١٨٠٠٠ وجبة طعام كل يوم. وكان المعسكر مكتظا إلى درجة أن الشركة كانت تنظف المكاتب ٤ مرات باليوم والثكنات ثلاث مرات(٢) ويقول الجنود العاملون فى بوندستيل على سبيل الفكاهة إن الزى الذى يرتدونه ينقصه باج واحد يقول (برعاية براون وروت) وتقدم الشركة خدمات مماثلة فى القواعد بالكويت وتركيا وأوزبكستان.

ويبدو أن معسكر بوندستيل هو قاعدة لما سماه جيمس جالبريث أستاذ العلوم السياسية فى جامعة تكساس (مجمع البترول العسكرى) الذى يعتبر ديك تشينى الأب الروحى له، فقد كان وزير دفاع عندما بدأت شركة براون وروت تقديم خدماتها اللوجستية للجيش كانت تلك فكرته. وفى عام ١٩٩٢ دفع البنتاجون للشركة ٣٫٩ مليون دولار للقيام بدراسة جدوى سرية حول تجنيد مرتزقة من أجل تقليل اعتماد الجيش على القوات فى إنجاز المهام اللوجستية الأساسية ثم أضاف البنتاجون بعد ذلك ٥ ملايين دولار إلى العقد ثم اختبر الشركة ذاتها لتنفيذ خطتها التى اقترحتها. والعقد لوجستى صادر من فرقة المهندسين فى الجيش ومدته خمس سنوات للعمل إلى جانب القوات فى أماكن مثل زائير وهايتى والصومال وكوسوفو والبلقان والعربية السعودية بعد أن أصبح تشينى رئيس هاليبرتون فى ١٩٩٥ فازت براون وروت بعقود من الحكومة قيمتها ٢٫٣ بليون دولار وهى ضعف مبلغ ١٫٢ بليون دولار التى نالتها من عقود الحكومة فى السنوات الخمس التى سبقت مجىء تشينى فى أواخر التسعينيات أعادت هاليبرتون بناء حقول النفط المتضررة من الحرب مقابل ٢٣٫٨ مليون دولار، وهى الحقول التى كان وجود تشينى وزير الدفاع أثناء حرب الخليج الأولى، حاسما فى تدميرها!

وقد عين تشينى معه فى هاليبرتون العديد من رفاقه أيام البنتاجون منهم ديف جريبن رئيس الإدارة السابق الذى أصبح واحداً من الكبار فى هاليبرتون والأدميرال جو لوبيز وهو آمر سابق للأسطول السادس وشغل منصب نائب رئيس أقدم للعمليات الحكومية فى شركة كيلوج وبراون وروت. وخلال إشغال تشينى منصب رئيس هاليبرتون صعدت الشركة من الترتيب الثالث والسبعين على قائمة العقود الحكومية فى البنتاجون إلى المرتبة الثامنة عشرة مع زيادة فى عقودها الحكومية بمقدار ٩١٪ فى أثناء ذلك زاد عدد فروع هاليبرتون فى الملاذ الآمن من الضرائب فى الخارج من تسعة فروع إلى أربعة وأربعين. وبدلا من أن تدفع الشركة ضرائب قد تصل إلى ٣٠٢ مليون دولار كما حدث فى ١٩٩٨، إلى أن تسترجع قيمة خصومات فى الضرائب تبلغ ٨٥ مليون دولار فى ١٩٩٩، وقد استقال تشينى من الشركة فى ١٦ أغسطس ٢٠٠٠ ليشغل منصب نائب الرئيس ولكن ارتباطاته لم تنته هنا، فطبقا للبيت الأبيض كان إجمالى دخل تشينى المعدل لعام ٢٠٠٠ هو ٣٦٠٨٦٦٣٥ دولارًا وتشمل ٤٣٣٣٥٠٠ دولار بشكل علاوات وتعويضات من هاليبرتون وبطبيعة الحال أن بيان الإقرار المالى لديك تشينى لم يكن دخله الحقيقى ولكنه مجرد بيان صحفى من البيت الأبيض. وبصفته نائب الرئيس استمر تشينى يستلم دفعات حساب من هاليبرتون بزيادة ١٥٠٠٠٠دولار سنوية بشكل تعويضات.

ربما يصعب علينا الآن أن نتذكر أنه فى عشية الحرب العالمية الثانية كان جيشنا النظامى مجرد ١٨٧٠٠٠ رجل الآن هناك ١٤٠٠٠٠٠ عسكرى لخدمات (حفظ السلام) التى تمولها ميزانية دفاع أكبر من بقية الميزانيات القومية الأخرى وتتشكل هذه الخدمات من رجال ونساء يعملون فى عوالم قواعد منعزلة ومكتفية ذاتيًا ترتبط ببعضها البعض من جرينلاند إلى أستراليا. لقد جمع البنتاجون ربع مليون جندى ضد العراق فى حين أن هناك بضعة آلاف جندى ينهمكون فى مناوشات يومية فى أفغانستان، وما لا يحصى من أفراد البحرية يملأون سفنا قرب شواطىء كوريا الشمالية، وبضعة ألوف من المارينز فى جنوب الفلبين يساعدون القوات المحلية فى محاربة حركة انفصالية إسلامية تمتد جذورها إلى قرن من الزمان، وعدة مئات من (المستشارين) يتعاملون مع ما يمكن أن يكون يومًا ما شبيها بعصيان فيتنام، فى كولومبيا (وربما فى أماكن أخرى من منطقة الأنديز) لدينا وجود عسكرى فى ١٢٠ دولة من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة البالغ عددها ١٨٩ بضمنها قوات منتشرة على نطاق واسع فى خمس وعشرين دولة. لدينا معاهدات عسكرية أو ترتيبات أمنية ملزمة مع ست وثلاثين دولة على الأقل.

كل هذا يكلف أموالاً هائلة فى وقت تعانى فيه الولايات المتحدة من عجز فى الميزانية لقد كلفت حرب الخليج الاولى حوالى ٦١ بليون دولار دفع حلفاء أمريكا مثل السعودية والكويت والإمارات وألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية حوالى ٥٣ بليون دولار منها، أى مايوازى ٨٠٪ من المبلغ الكلى تاركين للولايات المتحدة المساهمة بجزء ضئيل هو ٧ بلايين دولار. وقد دفعت اليابان وحدها مبلغ ١٣ بليون دولار ولكن هذا لن يتكرر مرة أخرى. فى الواقع يبدو أن العالم بأجمعه قد اتفق على أنه إذا أرادت القوة العظمى الوحيدة الآن، أن تتابع حروبها الوقائية فعليها أن تتدبر حالها. لقد كشف مكتب الميزانية التابع للكونجرس أن العجز الفيدرالى للعام القادم سيصل إلى ٤٨٠ بليون دولار، وهذا يعنى تضخماً بمبلغ ١٫٤ تريليون دولار خلال عشر سنوات، علاوة على دين حكومى موجود فعلا فى فبراير ٢٠٠٣ بمبلغ ٦٫٤ تريليون دولار.

بيزنس الحرب

إذن لايمكن القول إن قواتنا المسلحة منتشرة إلى أبعد من طاقتها فحسب وإنما نحن نغرق أيضا فى الديون من أجل تمويل هذا الانتشار، ومع هذا فالأموال تستمر فى التدفق. وطبقا لتوقعات البيت الأبيض وهى عادة منخفضة، تتوقع إدارة بوش إذا أعيد انتخابها أن تنفق مبلغ ٢٫٣ تريليون دولار على الدفاع فى فترتيها - وذلك حوالى نصف تريليون أكثر مما فعلته إدارة كلينتون فى فترتيها وبالمقارنة انفقت الولايات المتحدة مبلغ ٣٫١ تريليون دولار على الدفاع مابين الاعوام ١٩٤١ و ١٩٤٨ وبلغة الدولارات فإن (الحرب على الإرهاب) سوف تكلف أكثر مما كلفته الحرب العالمية الثانية.

ولكن ليس لهذا علاقة بالاستثمارات الخاصة أو أيًا ما كان اسمها فبدون (اهتزاز السوق) لايبقى سوى الأرباح. إن شركة لوكهيد مارتن وهى أكبر صانع للذخائر لعبت دوراً مهماً خلف الكواليس فى حشد الدعم لحرب بوش على العراق. فى ٢٠٠٢ أصبح نائب الرئيس السابق بروس جاكسون رئيس مجلس إدارة منظمة لوبى (خاصة) باسم (لجنة تحرير العراق). تضم من الأعضاء جورج شولتز وجون ماكين. فى السنة المالية ٢٠٠٢ استلمت لوكهيد مارتن مبلغ ١٧ بليون دولار بشكل عقود من البنتاجون - وكانت قد حصلت على ١٤٫٧ بليون دولار عام ٢٠٠١ - وحوالى ٢ بليون دولار من الإدارة الهندسية فى الجيش لتصميم أسلحة ذرية. وفى السنة السابقة للحرب ارتفعت أرباح الشركة بنسبة ٣٦ بالمائة.

هذا هو المستقبل: حين تصبح الحرب أكثر الأعمال ربحًا، علينا أن نتوقع المزيد منها. ■

BECHTEL

HALLIBURTON

VINNELL

MPRI

DFI INTERNATIONAL

DynCorp

الهوامش

(✧) تشالمرز جونسون مؤلف كتاب (رد الضربة blowback) كتابه القادم (أحزان إمبراطورية) يتوقع صدوره فى يناير عن دار متروبوليتان.

(١) جورج أورويل. الكاتب البريطانى مؤلف رواية (١٩٨٤) التى تتنبأ بعالم خيالى تسوده دولة واحدة تفرض فكراً واحداً وتراقب كل فرد فيها، ويرى فيها الكثيرون تشابها لما وصلت عليه الولايات المتحدة «وجهات نظر»)

(٢) فى الواقع أن مسألة تنظيف الثكنات أكثر من مرة فى اليوم كانت مثالاً على احتيال الشركة فى المبالغة بالمبالغ المصروفة على الخدمات كما اثبته التحقيق الذى أجراه مكتب المحاسبة العامة، وهى هيئة رقابية للكونجرس فى عامى ١٩٩٧ و ٢٠٠٠ حول تلاعب هذه الشركة فى عقود مع الجيش الأمريكى للعمليات فى البلقان «وجهات نظر».

عبد العليم الأبيض

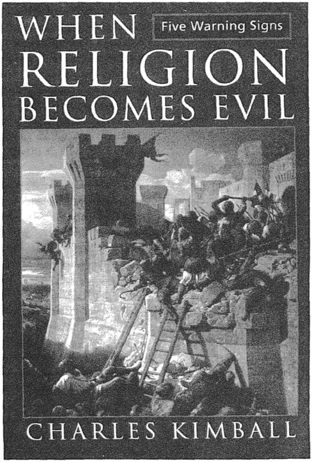
أيديولوجيا
لِ
الديـــن

العلامات الخمس عندما تطل برأسها القبيح تكون نذيراً بحدوث المتاعب والاضطراب، وتكون جرساً يدق بأن الدين قد اعتراه التشويه والإفساد. إذ ثمة نزعات قوية نحو التشويه نشهدها فى كل الأديان الكبرى ولا تخلو ديانة منها

■■ فى بحث مطول نشرته مجلة «الأطلانتيك الشهرية» التى تصدر فى مدينة بوسطون الأمريكية، وهى من المجلات الثقافية المحترمة عن حالة المسيحية اليوم، يذهب فيليب جنكنز أستاذ الدراسات الدينية المرموق إلى أن المسيحية الآن فى مفترق الطرق، وأننا بصدد تطورات مذهبية داخل الدين المسيحى سوف يكون لها أثرها العميق والبعيد عن القرن الواحد والعشرين، وتذكرنا بحركة الإصلاح الدينى التى أطلقها مارتن لوثر عندما ذهب إلى الفاتيكان فى روما وقدم أطروحاته التسع والتسعين حول الإصلاح الدينى وهى الحركة التى غيرت تاريخ الكنيسة، بل وتاريخ الفكر فى العالم. إذ حررت حركة الإصلاح الدينى القيود التى تلجم الفكر البشرى الجامد الذى ساد العصور الوسطى.

ما يود أن يقوله البروفيسور جنكنز هو أنه حدث شرخ كبير داخل المسيحية لا ينتبه إليه الكثيرون. المسيحية اليوم تنمو نمواً متسارعاً وتغير شكلها فيما يشبه الطفرات! إذ ينتقل مركز الثقل فى الدين المسيحى من أوروبا وأمريكا الشمالية إلى أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، أى إلى الجنوب. لا من ناحية الثقل العددى فقط، بل . وهو الأخطر. من الناحية المذهبية. إننا نشهد حركة دينية كبرى كحركة مارتن لوثر، ولكن يمكن أن نصفها هذه المرة بأنها حركة إحياء دينى مضادة لحركة لوثر. إن ما يحدث الآن هو إحلال الدين محل الأيديولوجيا كقوة دافعة ومدمرة فى شئون البشر وسوف تحدث أثرها فيما يتعلق بمفاهيم الحرية السياسية وأيضاً فى نشوب الصراعات الدينية داخل المسيحية ذاتها وخارجها. إنها تأتى عكس ما ذهب إليه صامويل هنتنجتن فى كتابه صراع الحضارات فالصراع سوف يكون صراعاً بين أديان!

ولقد لاحظ بعض الكتاب والمفكرين العرب نفس الظاهرة فيما يتعلق بالإسلام، فنحن نشهد صراعاً فى الساحة الإسلامية بين إسلاميين وإسلاميين على نحو ما نشهد فى الجزائر والسعودية ومناطق أخرى كثيرة داخل العالم الإسلامى. ذلك يأتى بنا إلى



When Religion becomes Evil
عندما يصبح الدين شراً
Charles Kimball
Harper San Francisco, 2002.

الكتاب الذى نعرضه هنا تحت عنوان «عندما يصبح الدين شراً» لتشارلز كمبال، وهو أيضاً أستاذ دراسات دينية مقارنة وكاتب ذائع الصيت. وتقلد كمبال مناصب عديدة فى المنظمات المسيحية الأمريكية الليبرالية أو المعتدلة فقد كان مديراً لمكتب الشرق الأوسط فى منظمة مجلس الكنائس القومى فى الولايات المتحدة، وهى من المنظمات التى تؤمن بالسلام وتعميق الحوار بين الأديان. وللمجلس مواقف مشهودة فى تأييد السلام العادل فى الشرق الأوسط. أما كمبال ذاته فله مواقف ناصعة فى انتقاد السياسات الإسرائيلية الاستيطانية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة. وكذلك فى انتقاد التيار المسيحى المحافظ ومحاولات التشويه لدين عظيم هو الإسلام الذى توفر المؤلف على دراسته فى جامعة هارفارد.

يتناول كتاب «عندما يصبح الدين شراً»، فى الأساس خمس علامات تحذيرية لتحول الدين عن غرضه فى الهداية والسلام إلى مقاصد شريرة مدمرة على أيدى المتطرفين من كل الأديان والمذاهب وعلى أيدى التحريفيين والانتقائيين. هذه العلامات الخمس عندما تطل برأسها القبيح تكون نذيراً بحدوث المتاعب والاضطراب، وتكون جرساً يدق بأن الدين قد اعتراه التشويه والإفساد. إذ ثمة نزعات قوية نحو التشويه نشهدها فى كل الأديان الكبرى ولا تخلو ديانة منها. ولكن علاج هذه الظاهرة موجود فى كل الأديان فى الإسلام كما فى المسيحية وهما الديانتان اللتان يركز عليهما المؤلف فى دراسته العميقة والموضوعية إلى أبعد حد يمكن أن تكون عليه الموضوعية. إذن، فما هى هذه العلامات؟ العلامة الأولى هى مزاعم امتلاك الحقيقة المطلقة، والعلامة الثانية هى الطاعة العمياء الجاهلة لمذهب أو زعيم دون تدبر ودون إعمال العقل، والعلامة الثالثة هى الزعم بأن هناك وقتاً ملائماً يحدد نهاية العالم أو الانطلاق لتحقيق أهداف أبعد ما تكون عن الدين. أما العلامة الرابعة فهى مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، ثم أخيراً إعلان الحرب المقدسة.

وكما سلف فإن دراسة كمبال تشمل جميع الأديان ولكن هناك تركيزاً أساسياً

على المسيحية والإسلام.. أولاً: لأن اتباع الديانتين يشملون نصف العالم تقريباً، وثانياً: لأنهما يتميزان بعالمية الرسالة والاستعداد للتفاعل مع النظم السياسية على نحو أكبر من أى دين آخر. ويدخل الصراع الفلسطينى. الإسرائيلى فى هذا الاشتباك السياسى لكل من الإسلام والمسيحية واليهودية. ثم إن الإسلام والمسيحية يمتلكان نزعات تبشيرية قوية، تنجح هذه النزعات فى بعض الأحيان فى استبعاد الآخر.

إن نزعات الشر فيما بين المجتمعات الدينية تقدم علامات إنذار تأخذ شكل الأفعال والمواقف التى سرعان ما تتحول إلى سلوك مدمر يشوه الدين ويحوله عن مقصده فى السعى إلى الخير واحترام الغير.

إن الأديان قد تختلف فيما بينها فى الطقوس والشعائر إلا أنها جميعاً تسعى إلى الله والحياة الروحية ودعم علاقات الرحمة والعلاقات البناءة فيما بين البشر. والآن نتعرض للعلامات الخمس.

مـزاعـم احـتـكـار الحقيقة المطلقة

لكى نتعرف على كيف يشوه الدين يتعين علينا أن نشرع فى فهم موقف الدين من الحقيقة. فى كل دين. يقول لنا المؤلف. تشكل دعاوى امتلاك الحقيقة الأساس الذى تقوم عليه هذه الأديان. ولا غبار على ذلك، ولكن عندما تتحول هذه الدعاوى إلى نظريات جامدة متحجرة ومتكلسة تحول دون التفاعل الإنسانى فهنا تسنح الفرصة لتشويه الدين. لقد أدت الاختلافات فى التفسير إلى انقسامات كثيرة فى الدين الإسلامى نعرفها جميعاً ولا يمارى فيها أحد. وكما هو الحال فى كل الأديان، فإن المسيحية التى بدأت فى بيئة متواضعة فى فلسطين منذ حوالى ألفى عام تحتضن الآن آلاف الطوائف حول العالم. وتظهر المشكلة عندما تصر طائفة على أن تفسيرها وحده هو الحقيقة وما عداه باطل وبهتان.

وعندما تتحور هذه الدعاوى إلى حقائق مطلقة فإنها تفتح الباب لدخول الشر وتشويه الدين. ومثل هذه التفسيرات غالباً ما تؤدى إلى العنف وتبريره.

الأمثلة على ذلك كثيرة. وهنا يسوق الأمثلة دعماً لما يذهب إليه نذكر بعضها فقط إذ أن القائمة طويلة. لقد قرأنا جميعاً حكاية مايكل جريفث الأصولى الأمريكى المسيحى الذى اغتال دكتور النساء دايفيد جن لممارسته الإجهاض القانونى عام ١٩٩٢. والأنكى من ذلك، أن رجل الدين بول هيل انبرى يدافع عن هذه الجريمة فى وسائل الإعلام. ثم قاده تعصبه الأعمى إلى قيام هيل نفسه باغتيال دكتور آخر. واتضح أن هيل ينتمى إلى منظمة أصولية متطرفة تدعى «جيش الله» وهذه الطائفة تبرر جرائمها بالاستشهاد بفقرات فى الإنجيل أخرجت عن سياقها ومقصدها.

على نفس المنوال يتشابه أسامة بن لادن زعيم منظمة «القاعدة» وجيرى فالويل زعيم منظمة «المسيحيون المولودون من جديد» وبات روبرتسون مؤسس منظمة «التحالف المسيحى» لقد فسر بن لادن تدميرمركز التجارة العالمى والبنتاجون بأنه علامة من الله على تأييد فعلته. ويبدو أن جيرى فالويل قد وافقه على ذلك، فقد ذكر فالويل أن هذا الحادث المريع هو أسلوب الله فى التعبير عن عدم رضائه عن ممارسة الإجهاض والوثنيين وأنصار المرأة واللواطيين والسحاقيات.

إن هذا التفسير الدينى يناقض قيم الإسلام فيما يتعلق بالحقيقة، فالإسلام يبدأ بوحدانية الله المطلقة، غير أن المسلمين يظهرون مرونة كبيرة فى سعيهم إلى معرفة كنه الله سبحانه وتعالى. فالبشر قاصرون كل القصور عن إدراك كل الحقيقة الإلهية. وفى هذا الجزء من الكتاب يوجه المؤلف نقداً شديداً إلى بعض زعماء الدين المسيحى من المتشددين الأصوليين، أو ما يطلق عليهم «اليمين المسيحى». وهم المقابل الموضوعى للمتطرفين الأصوليين من كل ملة. إن تطرف جيرى فالويل وبات روبرتسون وغيرهما كان وراء زعمهم بأن الله ليس هو الرب، أى God باللغة الإنجليزية. وهم يبنون أباطيلهم على فقرات من العهد الجديد من إنجيل يوحنا الذى يتحدث فيه الرسول يوحنا عن علاقة المسيح عليه السلام الفريدة بالرب. وهنا يقول المؤلف:

«إن النصوص المقدسة توفر مصدراً ثرياً للحكمة والهداية وسط تقلبات الحياة. ومثل النصوص المقدسة كمثل كل الأشياء القوية، إذ يمكن إساءة استخدامها من خلال نوع من تقديس الكل ومن خلال القراءة والتفسيرات المنتقاة.. والصحف والإذاعات اليومية تزخر بأمثلة من رجال الدين والسياسة يقتبسون القرآن أو الإنجيل دعماً لسياساتهم.. كما أنها أداة سهلة وقوية الحجة للترويج لأجندة خاصة أو قضية. أو كما يقول شكسبير:

«إن بوسع الشيطان نفسه الاستعانة بالنص المقدس لتحقيق مأربه».

ومن ثم يذكرنا المؤلف. بأن الأعمال الانتحارية باسم الإسلام هى مثال لهذه الظاهرة. وقد رأينا ذلك إبان الحرب الأهلية فى لبنان كما شهدناه فى تدمير مركز التجارة العالمى. إذ أن دعاوى امتلاك الحقيقة المطلقة إنما يستخدم لاستنفار المتطوعين للمهمات الانتحارية من خلال وعدهم بدخول الجنة مباشرة.

الـطـاعـة الـعـمـيـاء

الطاعة العمياء هى العلامة الثانية التى من خلالها يشوه ويفسد الدين، ويتحول إلى أداة قتل ومجازر. وللتدليل على ذلك يذكرنا المؤلف بقصة اليابانى أساهارا شوكو مؤسس وزعيم طائفة «أوم شيرنيكيو» الذى أطلق أتباعه لنشر غاز «السارين» شديد السمومية فى مترو أنفاق طوكيو وراح ضحية هذا الحادث ١٢ قتيلاً وإصابة أكثر من خمسة آلاف شخص.. وعندما تحركت الشرطة اليابانية وحققت فى الموضوع اكتشفت أن أعضاء هذه الطائفة يبلغون عشرة آلاف موزعين على ٢٥ مركزاً علاوة على ٣٠ ألفاً من الأتباع الروس. وكان جوهر هذه الطائفة حوالى ٢٠٠٠ مريد يطيعون زعيمهم طاعة عمياء. وعندما قبض على شوكو وجدت فى حوزته قضبان ذهبية وأسلحة كثيرة. كما كشف التحقيق عن جرائم أخرى عديدة ارتكبتها هذه الطائفة. والمغزى هو أن الطاعة العمياء تلغى التفكير فالحقيقة المطلقة لمريدى «أساهارا شوكو» هى تعاليمه ولا شىء غير ذلك.

المثال الأخر الرهيب الذى يسوقه المؤلف هو قصة جيم جونز الأمريكى مؤسس طائفة «معبد الشعب». دفع جيم جونز أتباعه فى المستعمرة التى أسسها فى غابات جيانا إلى تناول سم «السيانيد» فى عملية من أبشع عمليات الانتحار الجماعى. كان جيم جونز واسمه بالكامل هو جيمس وارن جونز من أتباع الكنيسة البنتاكوستاليه وهى كنيسة أصولية. وكانت دعوته تتسم بالمثالية الشديدة، فقد كان يدعو فى هذا الوقت من الخمسينيات إلى الاندماج العنصرى بين البيض والسود وإلى المساواة والعدالة الاجتماعية. ثم دُشن قسيساً من جانب الكنيسة. ولأن دعوته كانت سابقة للأوان، فقد ثارت الكنيسة عليه وكان أن أنشق وأسس «معبد الشعب». ووُجه بحملة اضطهاد واسعة فى وسائل الإعلام فما كان منه إلا أن جمع مريديه وهاجر بهم إلى غابات جيانا. بعد ثلاثة أعوام فقط من ذهابه إلى جيانا ارتكبت هذه المذبحة الرهيبة. أقام جونز نظاماً صارماً يقوم على الطاعة العمياء. وانساق أتباعه كالنعاج إلى الانتحار الجماعى نساء وأطفالاً وشيوخاً وشباباً.

يؤكد المؤلف أن الطاعة العمياء لأى مذهب هى نذير بالسوء وعلامة صريحة لتحول الدين عن مقصده. إن تحول الدين إلى شر يقل كثيراً فى وجود حرية التفكير الفردى وعندما يشجع على البحث النزيه. ويذكر لنا وصية الحكيم «بوذا» وهو على فراش الموت:

«لا تقبل قولاً لمجرد وجوده فى كتبنا، أو لأنه يتفق مع معتقداتنا، أو لأنه من أقوال معلمك. كونوا مصابيح لذواتكم.. من سيعتمد منكم الآن أو بعد مماتى على نفسه وينشد العون خارج نفسه، أولئك سيبلغون الذرارى».

تحديد الوقت المثالى

يقصد المؤلف بهذه العلامة من علامات نذير الشر، من يؤمنون بأن هناك وقتاً مثالياً للتعجيل بظهور ظاهرة دينية يعتقد معتنقوها أنه بحلولها سوف يحققون خلاصهم. ويسوق لنا عدة أمثلة، منها مثال بالغ الدلالة.

فى عام ١٩٨٤ واجه حراس فلسطينيون يحرسون المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة مجموعة من المتطرفين اليهود يحملون عدة حقائب من المتفجرات. أسفرت هذه المواجهة عن وأد مؤامرة شريرة كان يدبرها المتطرفون اليهود لنسف المسجدين الشريفين. وعندما قُبض عليهم وبعد التحقيق معهم اكتشفت الشرطة الإسرائيلية مخابئ ضخمة للأسلحة نقشت عليها نقوش غريبة.

واتضح فيما بعد أن هناك مؤامرة سرية ضخمة تتضمن قيام طيار إسرائيلي بسرقة طائرة قاذفة لنسف قبة الصخرة. وعندما قُبض على الطيار اعترف بفعلته قائلاً:

«لقد كنت أفكر منذ أربع سنوات فى تطهير «جبل المعبد» أى الحرم الشريف من قبضة المسلمين».

يشير المؤلف إلى وجود جماعات يهودية متطرفة تدعمها جماعات مسيحية متطرفة تعمل على التعجيل بالحلول الثانى للمسيح عليه السلام. وترى هذه الجماعات أن حرب ١٩٦٧ كانت علامة إلهية. إذ انتصر فيها اليهود. أما المسيحيون الأصوليون الذين يدعمون إسرائيل بالأموال والرعاية المجانية فيرغبون بعودة شتات اليهود إلى فلسطين لأن ذلك بشرى بعودة المسيح.

بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الإسلام ويلاحظ أن هناك جماعات إسلامية كجماعة بن لادن والطالبان والجهاد ترى أن الوقت أصبح ملائماً لإقامة الدولة الإسلامية. وفى سبيل ذلك تبذل هذه الجماعات قصارى جهدها تحقيقاً لهذا الهدف من خلال تبرير قتل الأبرياء وتكفير النظم والمجتمعات استعداداً لإقامة دولتهم الإسلامية. ويعترف المؤلف أن غالبية المسلمين ترفض رؤية الإسلام الأصولى المتطرف.

ولا يعتقد الكاتب أن هناك مستقبلاً لهذه الجماعات فإن الدولة الإسلامية المثالية لا وجود لها فى التاريخ. فالتاريخ الإسلامى يكرر تاريخ الحضارات الكبرى. ولا يفوت الكاتب التنويه بدور إسرائيل والولايات المتحدة وفساد النظم السياسية فى العالم الإسلامى وانتهاك حقوق الإنسان من جانب حكام فاسدين غير منتخبين فى ظهور هذه الظاهرة. ولكن لا شىء يبرر هذه الأعمال الإجرامية التى تستخدم الدين وتشوهه. إن الجماعات المتطرفة الإسلامية يقابلها جماعات متطرفة مسيحية ويهودية وهندوسية.. وثمة تشابه كبير بينهم.. فأتباع «التحالف المسيحى» بقيادة بات روبرتسون تعمل أيضاً على إقامة دولة تقوم على الإنجيل وفقاً لتفسيره.

انظر إليه يقول:

«فيما يتعلق بأنصار إعادة البناء (منظمة أصولية مسيحية) لا توجد أرض محايدة، ولا يوجد مجال للعمل خارج حكم الله!.. فإما أن يكون المرء ممارساً لسياسات إلهية أو أنه يشارك فى أنظمة تعادى الله والأسرة والمدرسة والكنيسة..».

الهدف يبرر الوسيلة

توضيحاً لما يعنيه بهذه العلامة يشير كمبال إلى حادث مداهمة الهندوس للمسلمين فى الهند فى التسعينيات الذى راح ضحيته ٦٠ مسلماً وجرح المئات. ولقد شاهدنا الهندوس وهم يحرقون الأسر المسلمة أحياء فى بيوتهم وسياراتهم. وهو حادث واحد من عشرات مثله. يقول المؤلف أن هذا السلوك من جانب الهندوس لا يمكن تبريره بأى حال من الأحوال. فهو يخالف كل المبادئ الأساسية التى تقوم عليها الديانة الهندوسية التى تقوم على تعدد الأعراق واللغات والأديان. إن الدين لا يقر ذلك ولابد من توافق الوسيلة مع الهدف. إن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة مبدأ مرفوض دينياً وأخلاقياً.

ولكن، يلاحظ كمبال أن مثل هذه الظاهرة متواترة بين أتباع الأديان الأخرى من المتطرفين. فنحن نعرف حكاية باروخ جولد شتين الذى أطلق رصاص رشاشه على جموع المصلين الفلسطينيين فى مسجد الخليل. ونحن نعرف أن جولد شتين أمريكى يهودى يحمل الجنسية المزدوجة لإسرائيل والولايات المتحدة وأنه ينتمى إلى أشرار المستوطنين اليهود فى الأراضى المحتلة. ونحن نعرف أن قبره بمدينة الخليل أصبح مزاراً للمتطرفين اليهود!

إعلان الحرب المقدسة

فى هذا الجزء من الكتاب يؤكد كمبال الحقيقة التى لا مراء فيها وهى أن أكثر من قُتلوا فى الحروب التاريخية إنما قُتلوا باسم الدين، ولكم من الجرائم ارتكبت ومازال ترتكب باسم الدين. فأسامة بن لادن الذى قتلت منظمته الآلاف فى نيويورك وضواحى واشنطن من الأبرياء إيماناً بأن ما فعله يندرج تحت خانة الحروب المقدسة. كما نرى جورج بوش يرد على بن لادن بإعلان الحرب على الإرهاب ويُقسم العالم إلى أشرار وأخيار. واستخدامه واستخدام وسائل الإعلام الأمريكية أو بعضها لرموز الحروب المقدسة فى تغطيتها لحادث ١١/ ٩ وبعده. لقد شاهدنا مجازر البوسنة والجزائر وأندونيسيا وكلها بطريقة أو بأخرى تُرتكب باسم الدين. وفى حالة رهيبة اقتربت الهند وباكستان من الحرب النووية.

لا يمارى كمبال فى أن بعض المواقف فى بعض الأوقات تستدعى عملاً مسلحاً، كما لا يخالجه أى شك فى أن ما ارتكبه أسامة بن لادن هو جريمة شنعاء. ومع وجود أسباب مشروعة للعمل المسلح الجماعى فيما بين الدول، فلا يجب أبداً أن يغلف هذا العمل بغلاف الدين. إن إعلان حرب مقدسة فى عالمنا الذى يعج بأسلحة الدمار الشامل هوعمل انتحارى.

ويرفض المؤلف فكرة الحرب العادلة التى تتشابه كثيراً مع المزاعم الدينية لناموس السلوك إبان الحروب وإن كان قوامها مراعاة مبادئ الرحمة وعدم إيذاء المدنيين وغير المتحاربين. فيرى أن كل الحروب التى تُرتكب باسم الدين إنما هى حروب سياسية فى المقام الأول. فقد ظلت المسيحية على مبدأها فى محاربة العنف والدعوة إلى السلام حتى مجىء الإمبراطور قسطنطين إذ فى معركة من معاركه التى فاز فيها زعم أنه قبل هذه المعركة بيوم واحد ظهر له فى المنام صليب أبيض نُقشت عليه هذه العبارة:

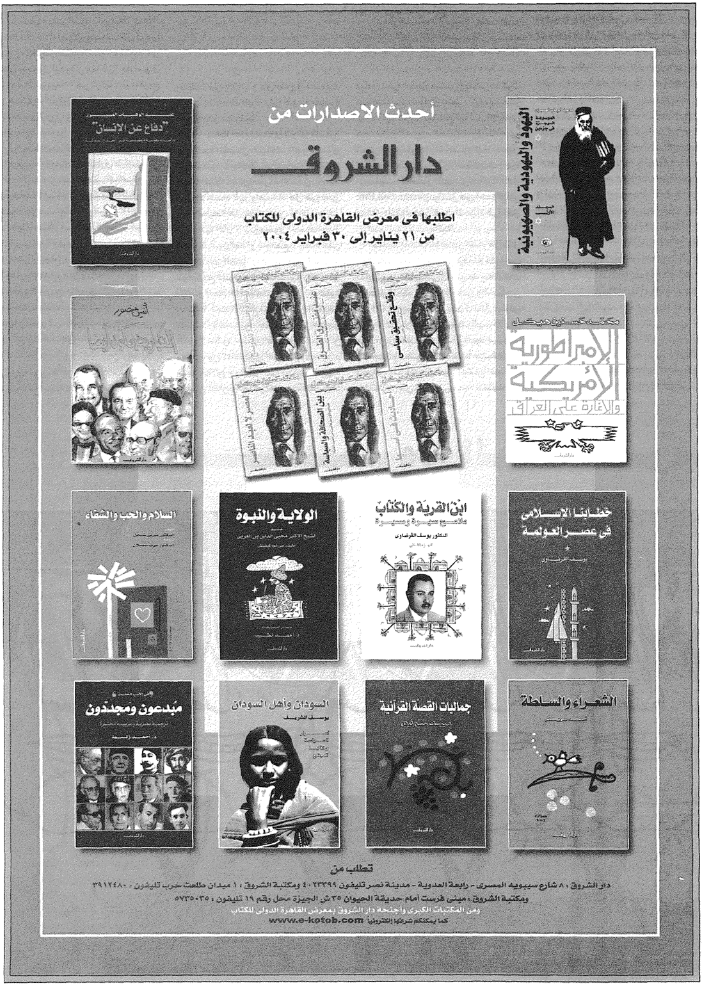
«بهذه العلامة سوف تفوز».

بعدها أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة الرومانية. وأصبح أى تهديد للدولة هو تهديد للكنيسة. وقد رأينا صدام حسين وجورج بوش الأب يستخدمان رموزاً دينية فى حرب العراق الأولى. وكلنا يعرف أهوال الحروب الصليبية حيث كان قواد الحرب الصليبيين يتفاخرون بأن:

«جنودنا كانت تقوم بغلى رءوس الوثنيين (المسلمين) فى أوانى الطهى، وكيف كان يشوى الأطفال على أسياخ لتلتهم بعد ذلك مشوية»!

ويعتبر النقاد أن كتاب كمبال هو من أفضل الكتب التى كتبت بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ إن لم تكن أفضلها. فقد أزاح الغشاوة التى غيمت على معظم الكتب التى كتبت حول التطرف الإسلامى وبرهن على أن مشكلة التطرف والإرهاب ليست مشكلة تخص الإسلام وحده، بل هى تخص المسيحية أيضاً واليهودية وسائر الأديان الأخرى. إن خطر التشويه الدينى هو خطر يحيط بنا جميعاً ويهددنا جميعاً. وهو الخطر الذى يشكل هاجساً لدى الكاتب. لقد أبرز علامات الخطر وكيفية العلاج والتصحيح. وهو جهد لا يسعنا إلا أن نقدر له هذا الصنيع. ■

فى كل دين. يقول لنا المؤلف. تشكل دعاوى امتلاك الحقيقة الأساس الذى تقوم عليه هذه الأديان. ولا غبار على ذلك، ولكن عندما تتحول هذه الدعاوى إلى نظريات جامدة متحجرة ومتكلسة تحول دون التفاعل الإنسانى فهنا تسنح الفرصة لتشويه الدين



أحدث الاصدارات من
دار الشروق
اطلبها فى معرض القاهرة الدولى للكتاب
من ٢١ يناير إلى ٣٠ فبراير ٢٠٠٤
دفاع عن الانسان
اليهود واليهودية والصهيونية
الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق
محمد حسنين هيكل
وقائع تحقيق سياسى
السلام والحب والشفاء
الولاية والنبوة
ابن القرية والكتاب
ملامح سيرة ومسيرة
الدكتور يوسف القرضاوى
خطابنا الإسلامى فى عصر العولمة
مبدعون ومجددون
السودان وأهل السودان
يوسف الشريف
جماليات القصة القرآنية
الشعراء والسلطة
تطلب من
دار الشروق ، ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق : ١ ميدان طلعت حرب تليفون : ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق : مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون : ٥٧٣٥٠٣٥
ومن المكتبات الكبرى وأجنحة دار الشروق بمعرض القاهرة الدولى للكتاب
كما يمكنكم شرائها إلكترونيا www.e-kotob.com

■ في سوق أزمير اشتريت نسخة مزورة من فيلم «صقر أسود يسقط Black Hawk Down» بدولار ونصف على قرص مدمج. القرص انتجه استوديو تقليد في مكان مجهول ليُعرض هنا في أحد أسواق ما بعد الفوردية(*) في تركيا، حيث تبيع بروليتاريا الرزق العشوائي أحدث ما تنتجه هوليوود، ووادي السيلكون، إلى جانب العديد من الماركات العالمية مثل نايكي وفيلا ودي كي إن واي. قطع قليلة تُباع بربح ضعيف، هو الفارق المباشر بين سعر البيع وسعر الشراء. استيراد وتصدير الأعمال الترفيهية الحربية تكشف عن مفاجأة حقيقية.

فيلم «صقر أسود يسقط» للمخرج ريدلي سكوت مصور بكاميرات محمولة من على جبهة ما يسمى بالحرب على الإرهاب. الفيلم مليء بالحركة البطيئة، والقطع السريع، والصور المهزوزة، والذي يمنحك انطباعاً بأنك في وسط الحرب. الفيلم صور في المغرب ومثل فيلم «جي. آي. جين Jane .I .G» شارك البنتاجون

ترجمة: هيثم الورداني

بترتيب مع مجلة: Jungle World الألمانية

كاتيا ديفينباج

رسميًا في إنتاجه عن طريق تقديم مساعدات، هذه المرة على هيئة طائرة هليوكوبتر حقيقية.

في بداية الفيلم نرى فراغًا تلتمع فيه أشعة الشمس. في هذا الفراغ تذوي أجساد سوداء جائعة. خرائب حية. لاتزال تنبعث منها دخان معركة الأمس. حالة تلك الأجساد غير واضحة. هل هي على قيد الحياة؟ هل ماتت جوعًا؟ كل ما هو مؤكد أنها الآن لا شيء سوى أجساد. حياة مجردة، بدون لغة أو مجتمع. أجسادٌ على الحافة بين الحياة والموت. أشياء للحرب. مواضيع للرحمة الإنسانية. أجساد تنتظر إمدادات الطعام، تنتظر الرعاية الطبية. أجساد تقع تحت عين الفيلم المسيطرة كحشود جائعة على طريق الفرار. حشود حشود. على العكس من ذلك صورة المنقذين البيض بأيديهم النظيفة، ووجوههم التي تعكس الجهد المضني لمشاريع التنمية الدولية. لقد جاء فيلم المخرج البريطاني ريدلي سكوت متزامنًا مع الحادي عشر من سبتمبر كهدية لهوليوود، ليوضح لها دون أن يدري كيف تكون الحروب الحديثة، وكيف تصور العين المسيطرة حياة حشود اللاجئين العارية. حياتهم الرازحة تحت إمرة الصليب الأحمر الدولي Red Cross guaranteed Life، والتي هي أحد أقسى أشكال البقاء على قيد الحياة في ظل الرأسمالية الإمبريالية.

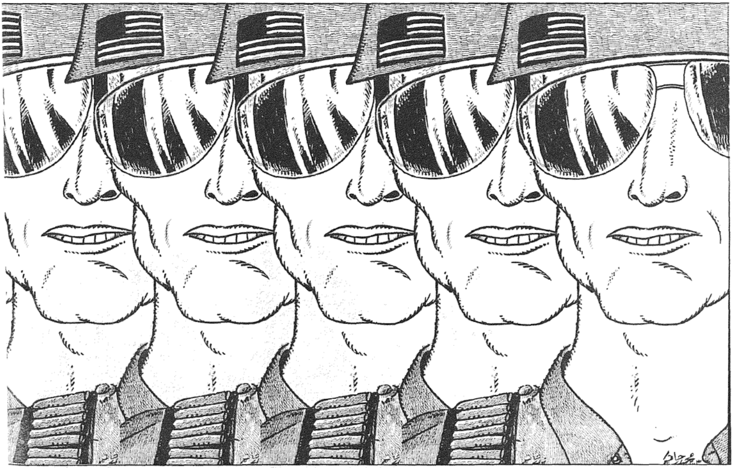
مخيم إغاثة اللاجئين المُدار من قبل الهيئات الإنسانية يتم فصله كليًا عن المجتمع الأصلي المحيط به، ذلك الفصل الحاد بين الإنساني والسياسي في المخيم يصوره الفيلم كحقل مثالي لإدارة البشر وسلبهم حقوقهم: العزل من أجل البقاء. هنا يسود منطق النجدة والطوارئ، فتنشأ منطقة لا يمكن التمييز فيها بين العنف والقانون. من يُجر إلى هذه المنطقة يتم نزعه عن مجتمعه. ربما يكون إنسان مخيمات الإغاثة غير سعيد، إلا أن عليه أن يكون شاكرًا مقابل بقائه على قيد الحياة. بل إن المصلحة النهائية يمكنها أن تنهي تلك الحياة، والتي يفترض أنها إبقاء على قيد الحياة، يمكنها أن تستبدلها بالموت.

اللاجئون، في هذا الفيلم الصوماليون المحتجزون في مخيم الإغاثة، هم أوضح أشكال الحجز الخارجي الذي تمارسه عليهم سلطة تهدف إلى إبقائهم معلقين بين الحياة والموت، منزوعين عن سياقاتهم، وذلك ليس لأن حقوق الإنسان لم تكتب لها الغلبة بعد في صراعها الطويل، ولكن لأنها نفسها تشكلت خلال عملية ظهور السلطة الحيوية، تلك العملية التي امتدت عبر مئات السنين ونشأت فيها السلطة الحيوية كعلم وطريقة إدارة.

ضبط وتأديب الفقراء:

السلطة الحيوية تاريخيًا تعمل على جسد الأفراد وعلى جسد المجتمع في آن.

حروب الفقر



فهى تقوم من ناحية بحصر تعريف الجسد على مجرد أسس عنصرية وجنسية، ومن ناحية أخرى تقوم بضبط وتأديب الفقراء والخوارج. أى أنها تخضع الجسد لسلسلة ممتدة من الحجوزات الداخلية والخارجية، لينتج عن ذلك نوع من الحياة العارية المنقسمة. مع الوقت تتكون أنظمة متراكمة من الضبط والممارسة الإدارية البوليسية وتكنولوجيا السيطرة. وهكذا تأخذ الأجساد بالتشبع بأساليب القمع المزدادة قوة والمسلطة عليها. السلطة الحيوية هى انعكاس البيولوجى فى السياسى، تنظيم مستمر للحياة فى سياق القيمة والمنفعة، أسر متزايد للحياة داخل ميكانزمات وحسابات السلطة.

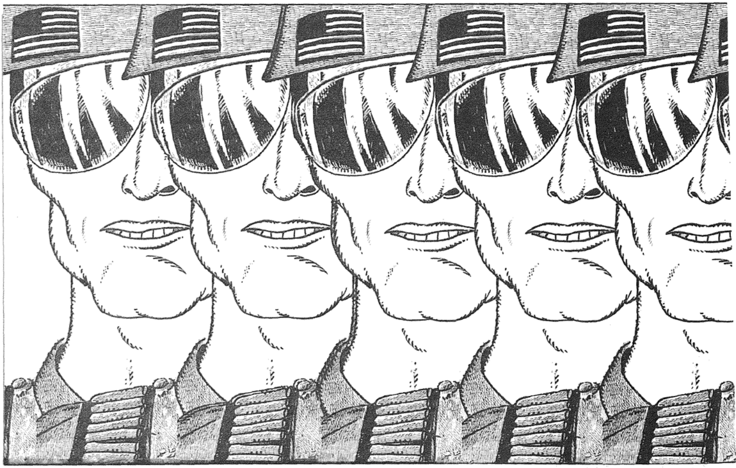
ولا نرى من الصواب القول بما قاله انتونيو نيجرى ومايكل هاردت فى كتابهما «الإمبراطورية» عن مساواة تطور السلطة الحيوية بالعملية الرأسمالية. فبالرغم من تلاحق ظهورهما إلا أنهما يعبران عن عقليتين مختلفتين، بما يمكن تسميته توازى غير سببى. فكما أوضح فوكو استبقت تكنولوجيا السلطة الحيوية فى القرن الخامس عشر والسادس عشر العملية الرأسمالية بخلق أجساد مطواعة مفيدة وسهلة الحركة. بمعنى أن الضبط يأتى أولاً يتبعه الإنتاج. وقد هجس ماركس بشىء مشابه عند كتابته الفصل التاريخى المتعلق بالتراكم الابتدائى من كتابه رأس المال عام ١٨٦٧، ولأن السجال النظرى الخاص بالفارق بين السلطة الحيوية والمنطق الرأسمالى لم يكن معروفًا وقتها، فقد توقف الأمر عند هذه الجملة فى معرض حديثه عن طرد الفلاحين من أرضهم من قبل الإقطاعيين ثم تسكينهم فى المصانع الناشئة حديثًا كقوى عاملة: «التراكم السابق لتراكم الرأسمالية، أى التراكم الابتدائى (التراكم السابق previous accumulation عند آدم سميث)، ليس هو محصلة الإنتاج الرأسمالى ولكنه نقطة انطلاقه».

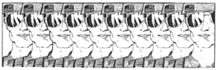
إن خط التماس بين تكنولوجيا سياسية تعمل على الجسد رأسًا وتقوم بإدارة الحياة، وبين عقلية تقوم على التقييم والتبادل المتساوى، هو خط غير ثابت، ينزاح باستمرار مغيرًا مساره، وعلى هذا الخط الديناميكى تتجدد السلطة المعاصرة دومًا.

لم تتطور السلطة الحيوية بشكل خطى، إذ أن كل محاولة لخلق تعميم مكانى أو زمانى تغفل أمرين: أولاً أن عمليات السلطة الحيوية بقيت مركزة فى أوروبا حتى القرن التاسع عشر. فيما كانت المستعمرات ترزح تحت ثقل سياسة الاستغلال والموت. فقط بشكل ثانوى وعلى سبيل التمويه كان يتم تعليم بعض أفراد السكان المحليين وضبطهم. ولقد حلل تزفيتان تودوروف فى كتابه «فتح أمريكا» استعمار الأسبان لأمريكا الجنوبية كمجزرة مسيحية، وأوضح أن الإبادة الجماعية غير المباشرة للسكان المحليين من جراء «الموت الأبيض» (أى الأنفلونزا والجدرى والحصبة وغيرها من الأمراض التى لم يكن السكان المحليون يعرفونها ولم يستطيعوا إنتاج أجسام مضادة لها)، لم تقابل تلك الإبادة ببرنامج سياسى حيوى كما فعلت أوروبا بعد وباء الطاعون. فالأخيرة قامت بتقسيم مستمر للمكان، لتسهيل عمليات المراقبة والحجر الصحى. أما فى أمريكا الجنوبية فلم تتشكل سلطة حيوية تقدم أى مساعدة للشعب. ذلك الشعب الذى أرهق عملاً فى مناجم الذهب وبناء المدن ودفع الضرائب حتى هلك، فتم استبداله بالرقيق الأسود.

الأمر الثانى أن السلطة الحيوية هى عملية تراكم. التشبع بروح الانضباط وسحبها على جميع أنحاء الجسد الاجتماعى هو عملية تراكم طويلة للفصل والعزل والحياة فى ثكنات. تراكم للتدريب الدقيق على الربط والمحاذاة والجلوس المعتدل. تراكم لإيقاع الجرس والعصا الآمرة. تراكم تحرسه تقنيات المراقبة. طبقة تصطف فوق الأخرى وتتشبع بها. يجدر بالمرء ألا ينسى كم الجهد الذى بذل من أجل ضبط الأجساد زمنيًا وسلكها فى إيقاع منضبط. التعليمات التالية وردت فى وثائق أحد المصانع فى بدايات القرن الثامن عشر، وتعطى صورة للحالة التى أريد تغييرها عبر التعليم «المفيد» للجسد: «ممنوع منعًا باتًا التحدث مع الزملاء أثناء العمل، أو اللعب معهم بأى نوع من الألعاب. كذلك يمنع

الجديدة





منعًا باتًا تناول الطعام أو الشراب أو النوم أو حكى القصص».

إن تسريب الإنتاج من المصنع إلى المجتمع، المغادرة، نقل العيادة إلى تدريبات الرشاقة، هى كلها طبقة متأخرة من الحجز الداخلى الذى تقوم به السلطة الحيوية، حدثت بعد قرون من التراكم والتشبع بروح الانضباط، طبقة تأتى بعد أشكال الحجوزات الداخلية التقليدية والتى يتم فيها حجز وعزل الأجساد فى مراكز الانضباط، أو المصحات، أو السجون، أو المصانع لتدريبها ودمجها فى المجتمع.

فيلم «صقر أسود يسقط» القادم من تيار السينما التقليدية Mainstream يشير إلى أهمية مخيم الإغاثة فى سياق عملية التعقيم الاجتماعى التى تقوم بها السلطة الحيوية والرأسمالية. وذلك كمثال على النوع الثانى من تأثير السلطة الحيوية، أى الحجز الخارجى، والذى تقوم به سلطة على أجساد تقع خارجها، بهدف إبقائهم دائماً مستبعدين خارجها. المخيم ليس مركز انضباط، إنه تقليد كولونيالى وفاشى فى آن، فعلى عكس مركز الانضباط لا يعزل المخيم الجسد من أجل جعله جسداً مرنًا ومفيداً للإنتاج. مخيم الإغاثة هو مكان يعزل فيه المرء ليتحفظ عليه فيه. إنه مكان السياسة الحيوية السلبية، حيث يجبر البشر فيه على البقاء بين الحياة والموت، بدون أن يوجد ما يمنع. وهذا هو المكون الفاشى فى تركيبة المخيم. تركهم للموت، حتى وإن كان ذلك بشكل غير مباشر، كترحيل اللاجئين غير النظاميين إلى بلادهم بالقوة برغم خطورة الأوضاع هناك، أو قطع إمدادات الغذاء عنهم بشكل مفاجئ.

لماذا نحارب؟

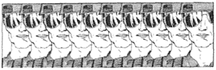
يدور هذا النص حول العلاقات المتباينة بين السلطة الحيوية والرأسمالية والحرب. عمليتا السلطة الحيوية والرأسمالية هما عمليتان ممتدتا الأثر تاريخياً. لقد ظهرا تباعًا فى الفضاء الأوروبى، ثم عضد كلاهما الآخر وحفزه فى عملية طويلة قادت إلى الجمود المجنون للسلطة الحديثة، اختلاف أشكال الحروب يعتمد على الحركة التاريخية التى تأخذها العلاقة بين العمليتين. وفى رواية الخيال العلمى التى يعيش فيها عالمنا الآن تم تدشين فضاء كونى واسع ومتنوع، وفيه أصبحت كل الملفات الحيويسياسية والاقتصادية مفتوحة فى نفس الوقت. وعلى قمة السلطة الحديثة هذه تشكل نظام حكم قائم على السيطرة وشن الحروب البوليسية. نظام حكم يضمن بقاء المجتمع تحت هيراركية قابلة للتصعيد. يكاد المرء أن يشكر الإدارة الأمريكية على ورقة «استراتيجية الأمن القومى National Security Strategy» التى وضعت فى سبتمبر عام ٢٠٠٢، والتى تكشف بنص أيديولوجى واضح عن تراكم نظام الحرب والسيطرة البوليسى، ومنها: «هذه الإدارة قامت بأكبر تحديث وإصلاح منذ أن أنشأت إدارة ترومان مجلس الأمن القومى ووزارة الدفاع. إن خطتنا تقوم على إنشاء وزارة جديدة للأمن القومى ذات هيئة أركان حرب مستقلة، تكون مهمتها التنسيق بين المستويات المتعددة للحكومة وتنظيم العمل مع القطاعات العامة والخاصة، بالإضافة إلى مهمة تحديث مكتب العمليات الفيدرالية FBI خطتنا الإصلاحية تنبع من الدرس الذى تعلمناه جيداً، لذلك فنحن نرى أن العمل وفق أحكام الطوارئ لا يقى بكفاءة فقط من خطر الإرهاب ولكنه فعال ضد مختلف المخاطر الاجتماعية. سوف يتم تطوير نظام الرعاية الصحية لا لكى تجابه فقط خطر الإرهاب البيولوجى، ولكن فى نفس الوقت لكى تحسن طرق مواجهة الحوادث الجماعية وحالة الإصابة على نطاق واسع. سوف يتم تكثيف مراقبة الحدود ليس فقط لوقف الإرهابيين، ولكن أيضًا لتسهيل سير المواصلات والبضائع على الحدود».

إن فيلم «صقر أسود يسقط» يروى قصة مهمة عادلة وفى نفس الوقت فاشلة. ففى عام ١٩٩٢ قامت الأمم المتحدة وبقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بحماية قوافل الإغاثة الذاهبة إلى الصومال. اتخذ جورج بوش الأب قراراً بمواجهة الوحدات الصومالية عسكرياً عشية انتهاء حرب الخليج الثانية. وذلك فى إطار تصوره فى النظام العالمى الجديد، وفيه تعرف الدولة الساقطة Failed States على أنها خطر من المرتبة الأولى. وما بدا على أنه مهمة لذوى القبعات الزرقاء تحول إلى قتال بوليسى للقبض على زعيم مجلس الوحدة الصومالى محمد فارح عيديد.

لقطة بلقطة يعرض ريدلى سكوت كيف تنهض فكرة الحرب العادلة من قبرها فى العصور الوسطى، بعد أن كانت قد اختفت إثر تنظيم الحرب، وذلك عن طريق حصرها بين دول نظامية. فالصياغة المسيحية الأولى لفكرة الحرب العادلة جاءت فى القرن الخامس عبر كتابات أوجسطينوس المعنونة «عن دولة الله»، وفيها يدشن التحول المفاهيم من الأخلاق المسيحية المبكرة المعادية للعنف إلى أخلاق القبول بالحرب كأحد الاحتمالات. الحرب العادلة هى خطاب مزدوج القيمة، فمن ناحية هناك التبرير المسيحى الذى اكتسبته الحرب، ومن ناحية أخرى تم استرداد الشروط الرومانية الثلاثة المحددة للحرب العادلة: أن يكون هناك قائد معترف به، أن يكون هناك سبب عادل ثم أن يكون هناك هدف عادل. المعنى الحقيقى لهذا الخطاب سيأتى بعد ذلك وتحديداً فى نهاية القرن الثالث عشر فقد قام القديس توما الأكوينى، باستخدام وتطبيق المحددات الرومانية، المثبطة للحرب أساسًا، إلى فضاء المسيحية، جاعلاً منها محفزات كافية. فقال إن طرد الكفار من الأراضى المقدسة، والانتقام من الظلم النازل بالمسيحيين سببان يصلحان لتبرير حرب عادلة، حرب اتخذت شكل الحملات الصليبية، ثم الاستعمار بعد ذلك، وأخيراً الحروب الدينية.

فى نهاية القرن الثالث عشر
قال القديس توما الأكوينى، إن طرد الكفار
من الأراضى المقدسة، والانتقام من الظلم النازل
بالمسيحيين سببان يصلحان لتبرير حرب عادلة،
حرب اتخذت شكل الحملات الصليبية،
ثم الاستعمار بعد ذلك

لقد حل الدفاع عن الليبرالية والتنوير محل الدين كسبب. هذا الدفاع القائم على ضفتى الأطلنطى يغض البصر عن خطوط التماس الموجودة بين الضبط والرأسمالية والكولونيالية والإنسانية. المثال المنقطع النظير للاستعادة المدنية لفكرة الحرب العادلة هو المانيفستو المعنون «لأجل ماذا نحارب» الصادر فى فبراير ٢٠٠٢، وفيه أعرب ستون مثقفًا أمريكيًا عن دعمهم للحرب ضد الإرهاب. من بين الموقعين مؤلفون يمينيون أمثال فرانسيس فوكوياما وصامويل هنتنجتون، ولكن أيضًا معلقون ليبراليون أمثال أميتاى أتزيونى ومايكل فالتزر. هذا المانيفستو يعيد خطابًا قادمًا من القرن الخامس الميلادى إلى بقعة الضوء، حيث جعل من التسامح المسيحى سببًا رئيسيًا فى انهيار الإمبراطورية الرومانية، وعلى أثره قام أوجسطينوس بمحاولة دمج فكرة شن الحروب مع الأخلاق المسيحية. مانيفستو «لأجل ماذا نحارب؟». يعيد نفس الخطاب ولكن فى لغة إنسانية تجعل من الحياة العارية سببًا كافيًا للتدخل. ومنه: «المبرر الأخلاقى الرئيسى للحرب هو الدفاع عن الأبرياء. أوجسطينوس فى كتابه «عن دولة الله» يقدم صورة مثالية لفكرة الحرب العادلة، فهو يوضح أنه من الأفضل للمسيحيين كأفراد أن يتحملوا العنف على أن يقوموا به بأنفسهم، ولكن هل يعنى ذلك أن ينكر شخص أخلاقى يتحمل مسئولياته حق الأبرياء فى الدفاع عن أنفسهم؟ الإجابة لدى أوجسطينوس ولدى كل المؤمنين بالحرب العادلة هى لا. عندما تكون هناك دلائل كافية على أن خطراً كبيراً سوف يحيق بأشخاص أبرياء لا قبل لهم بالدفاع عن أنفسهم، هذا الخطر لا



يمكن وقفه سوى بالقوة، هنا تأمرنا مبادئنا الأخلاقية المُحبة للآخر بشن الحرب».

مبادئنا وكراهيتكم:

الحرب العادلة تسطح العنف المسلح وتجعل منه أمراً مطلقاً. فمن ناحية تعرف الحرب على أنها مجرد حملة بوليسية على مجموعة من الأشقياء، ومن ناحية أخرى يتم تزويد الجنود بمهمة إنسانية كونية. وعلى هذا المنوال تقول سطور مقدمة فيلم «صقر أسود يسقط»: «الصومال ١٩٩٣. أعوام من الحرب بين الفصائل المتناحرة تسببت في اندلاع مجاعة. ثلاثمائة ألف قتلوا. محمد فارح عيديد الرجل الأقوى بين أمراء الحرب يسيطر على العاصمة مقديشيو. الجوع سلاحه. والآن العالم يتحرك. عشرون ألف جندي مارينز أمريكي يوزعون المواد الغذائية ويعيدون النظام. عيديد ينتظر انسحاب المارينز، ثم يعلن الحرب على من تبقى من قوات حفظ السلام. في نهاية أغسطس من نفس العام أرسلت قوات العمليات الخاصة الأمريكية: دلتا فورس، أرمي رينجرز، الوحدة ١٦٠ إلى هناك، مهمتها إسقاط محمد فارح عيديد واستعادة الأمن والنظام». لكن وكما يعرف الجميع الآن فقد باءت تلك المهمة بالفشل، فأسقطت طائرتا هليوكوبتر من نوع بلاك هوك أو الصقر الأسود، وقتل ثمانية عشر جندي أمريكي، مما اضطر الإدارة الأمريكية التالية وهي إدارة بيل كلينتون لإيقاف المهمة.

ما يثير الانتباه هنا هو النتيجة التي استخلصها ريدلي سكوت في فيلمه. لقد قدم نقداً معكوساً للإنسانية العسكرية، إنه يريد حقاً أن يقول لنا إنه في عالم ما بعد التحرر من الكولونيالية فإن الحروب الأهلية التي لا تنتهي والتي تؤدي به إلى الموت جوعاً، هي شأن الجنوب الخاص الذي لا يجب التدخل فيه. إنها نسخة ريدلي سكوت الخاصة مما يدعى بصراع الحضارات Clash of Civilisations، نسبية ثقافية رخيصة تقوم على أن للشمال قيمه وللجنوب معاركه. الشخصية الصومالية الوحيدة التي يعطيها سكوت صوتاً هي شخصية تاجر سلاح يرتدي سواراً ذهبياً ويوضح للجنرال الأمريكي المسئول ما يعنيه التحرر من الكولونيالية، إنه يعني إن هذه بلدهم وهذه حربهم وهذا حقهم فيما يفعلون.

أمراء حرب بنظارات ريبان:

تلك المعادلة «مبادئنا وكراهيتكم» وجدت أيضاً في الصومال من يضحك عليها. ففي بداية العام ٢٠٠٢ انتشرت العديد من شرائط الفيديو المقلدة من الفيلم في مقديشيو. وفي قاعات العرض السينمائي ينتظر الجمهور بفارغ الصبر المشهدين الرئيسيين في الفيلم، ويبتهجون وهم يشاهدون إصابة طائرتي الهليوكوبتر بصاروخي ستينجر وارتطامهما بالأرض.

القصة التي يرويها فيلم «صقر أسود يسقط» هي قصة موضوعة خارج العلاقات التاريخية. الحرب في الصومال تتحول إلى نوع جديد من القبائلية بأفراد مرتزقة يرتدون المموه ونظارات الريبان.

صورة أمير الحرب الجنوبي هي واحدة من أكثر الصور النمطية والكليشيهات التي يعج بها النقاش الحالي حول الحرب. أما أمراء الحرب الشماليون، أي شركات السلاح الدولية أمثال إم بي آر آي MBRI، والأنظمة الدفاعية المتحدة Defense System Limited، اكسيكيوتف أوتكومز Excutive Outcomes، داينكروب Dyn Crop.. إلخ، والذين يستثمرون حروب الأرض من كرواتيا حتى كولومبيا لبيع أسلحتهم وأنظمة مراقبتهم، هؤلاء يبقون في الظل ولا يطولهم النقاش. الحالة المثالية التي يمكن سوقها هنا هي حالة البروفيسور هيرفريد مينكلر Herfried Munkler الباحث السياسي في جامعة هومبولد ببرلين، والمشغول منذ سنوات بدراسة تاريخ الحرب ونظرياتها. فبالرغم من أنه يأتي في كتابه على ذكر شركة أكسكيوتف أوتكومز كشريك تجاري في حروب ما بعد الكولونيالية الطرفية، إلا أن أفكاره تبدأ في السطوع فقط عندما يأتي على ذكر أمراء الحرب الجنوبيين الجدد. سطوع يُطل منه انبهار خفي بالحرب والموت والسلطة، يشبه انبهار أرنست يونجر بالدم والحرب كمطهر في روايته عاصفة الفولاذ Stahlgewetter فيصفهم مينكلر بأنهم: غير منضبطين، محدودون، أفسدهم المال والصيت، راب وريبان، ماكينة وحشية للقتل والاغتصاب بأبشع الطرق وأكثرها قرفاً، تماماً كفيلم «صقر أسود يسقط» الذي يصور في أحد مشاهده ذروته المبكرة نفس الانبهار السلبي هذا، فبعد خمس دقائق من الفيلم نشاهد ميليشيات عيديد وهي تقتحم أحد مخيمات الصليب الأحمر، يطلقون الرصاص على اللاجئين الجائعين، الدم ينبجس بالحركة البطيئة من الأجساد المنحولة، ثم يستولون على المواد الغذائية ويرحلون بسيارتهم الجيب المفتوحة وهم يرتدون نظارات الريبان العاكسة ويتمنطقون بأحزمة الرصاص. لا يعنينا هنا محاولة التهوين من علاقات العنف في تلك الحرب، ولكن ما يعنينا هو نقد غلالة العادي والتي تصور الجنود الآسيويين أو الأفريقيين أو اللاتينيين في حروب ما بعد الكولونيالية كشياطين، خارجين عن كل القيم، وبشكل خاص وحشيين. أما أمراء الحرب الشماليين فهم مجرد آدميين سيئين بعض الشيء. الفكرة التي تقف خلف ذلك التمييز تبدو واضحة بشكل مثالي لدى مينكلر، الذي يتعلق الأمر لديه بتمجيد الشكل النظامي الأوروبي للحرب، فيقول: «إن خليط السلب والنهب والمذابح والعنف المنفلت والذي ميز حروب القرون الوسطى سيكون إرهاصاً بما سيصيب الأمريكيين والأوروبيين إذا لم ينجحوا في إعادة تنصيب الدولة باعتبارها المحتكر الوحيد لاستخدام العنف، وذلك على الصعيد العالمي، حتى يضمنوا أن تكون الدول هي الجهة الوحيدة المسئولة عن قيام الحرب».

صنع في أوروبا:

السردية التي يقترحها كارل شميت والتي استخدمها مينكلر في تحليله تسير بالشكل التالي: إن تنظيم الحرب عن طريق وضعه في يد الدولة وحدها والذي بدأ على الأكثر إبان حرب الأعوام الثلاثين ١٦٤٨ وحتى القرن التاسع عشر، ذلك التنظيم تسبب في ترويض نسبي للعنف الحربي، واستمر حتى القرن التاسع عشر. فالحروب تقع بين دول مستقلة، جنود يقاتلون جنوداً آخرين، تنظمها مبادئ الفروسية وشرف الجندية. فلا تقع مذابح بين المدنيين ولا يُحط من إنسانية الأسرى، ويتم التعامل مع العدو على أنه خصم شريف.

لكن ما يتم نسيانه في هذه الكتابة للتاريخ هي أن الأشكال البشعة للحرب غير النظامية كالمذابح والتعذيب التي اختفت من أوروبا قد تم تصديرها إلى المستعمرات، وساهمت بنجاح فائق في تخريب تلك المجتمعات.

إن الأشكال البشعة للحرب غير النظامية كالمذابح والتعذيب التي اختفت من أوروبا قد تم تصديرها إلى المستعمرات، وساهمت بنجاح فائق في تخريب تلك المجتمعات

والسؤال الذي نود أن نطرحه هو ماذا يعني ذلك الفصل الاجتماعي بين الداخل والخارج، والمصاحب لتنظيم الحرب؟ تُرى أي نوع من السلطة هذا الذي تفتح في القرن السابع عشر والذي يظهر كضبط للمجتمع من الداخل وحروب نظامية من الخارج، متزامناً في نفس الوقت مع عملية رأسملة المجتمعات الأوروبية؟

إذا أراد المرء رسم قوس عبر أوروبا القرنين السادس عشر والسابع عشر، فسيلاحظ

كيف تسير الحرب مع نشأة الدول القومية، وكيف يتم تصدير الأشكال غير النظامية للحرب كالمذابح وحرق الأراضى إلى المستعمرات. فمع تأسيس جيش نظامى وحجز الجنود فى معسكراتهم تم تنظيف جسد المجتمع من آثار الحرب اليومية المسلطة عليه، سواء كانت حرباً خاصة أو دينية. العلاقات الحربية التى كانت تسود المجتمعات فى العصور الوسطى اختفت وحل محلها الضبط والتأهيل. فى الخارج حرب، فى الداخل ضبط. هذا هو عنوان عملية رأسملة المجتمعات الحديثة. دعونا نحاول رسم سردية للجنود تحاول إظهار تلك العلاقات، سردية تتكون من ثلاث محطات:

عندما توقف حق حمل السلاح عن أن يكون حكراً على الأمير أو النبيل فقط، ظهر فى ألمانيا جيش عبيد الحقول، وفى إيطاليا مرتزقة الكوندوتيرى. وقد اعتبر كارل ماركس أنهم فى بيعهم لقوة عملهم الحربى صورة مبكرة لعمال اليومية. لكن قوة العمل تلك لم تكن منضبطة بعد. عبيد الحقول المحاربون لم يكونوا مستعدين لبذل أرواحهم فى القتال. والأسرى كان يتم عادة مبادلتهم لقاء المال. أما الغنيمة فكان مستخدمو هؤلاء المرتزقة، كالإقطاعيين والملاك وخلافهم، يشاركونهم فيها. نظام الإرتزاق أنشأ معه نظاماً اجتماعياً كاملاً فى العصور الوسيطة يختلف تماماً عن نظام الضبط والتأهيل الذى تلاه. فلقد كان المرتزقة يتحركون فى أعداد غفيرة، يرافقهم نساؤهم وأطفالهم، بالإضافة إلى كتيبة من الطباخين والخدم والعاهرات والمهرجين. ينزلون البلاد فيعيثون فيها فساداً، ويوقعون فيها الكثير من النهب والسلب والخراب. كتب ميكافيللى عن الكوندوتيرى: «الحاكم الذى يعتمد على المحاربين المرتزقة لا يقف أبداً على أرض راسخة. فالمرتزقة سفلة، محبون للسلطة، لا مبادئ لهم، خونة وغدارون، مستكبرون أمام الأصدقاء جبناء أمام الأعداء، لا يخافون الله ولا الحاكم. فى وقت السلم ينهبون الأراضى وينهبها فى وقت الحرب العدو. والسبب فى ذلك أنه لا دافع لهم إلى الحرب سوى الغنيمة التى يحصلون عليها، والتى لا تكفى لأن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة من أجلها. إنهم جنودك مادامت الحرب لم تقع، فإذا وقعت تراهم يتأخرون أو يفرون».

أما حروب القرن الثامن عشر التى اتخذت قرارها حكومات الأرستقراطية الأوروبية، فلم يشنها مرتزقة ولكن جنود نظاميون يحصلون على مرتب ثابت من الدولة. جنود جيدة التدريب تعيش فى معسكرات وترتدى الزى العسكرى. يعود الفضل فى تدريبهم وتسليحهم بعتاد متطور إلى دافعى الضرائب فى النظام الرأسمالى الوليد، بالإضافة بالطبع إلى ذهب العالم الجديد الذى نُهب، وبدونه لم تكن هناك وسيلة لدفع تلك التكاليف الباهظة. المعسكر أصبح بجانب الدير النموذج المثالى لمراكز الضبط والتأهيل. التدريب العسكرى للجنود هو الشكل المبكر للسلطة الحيوية الموجهة مباشرة نحو الجسد. كل يوم يتدرب الجنود على كل ملليمتر حركة، المارش، حمل السلاح، أداء التحية.. إلخ، ولكى يتفهم المرء القفزة التى قفزتها السلطة الحيوية فى ذلك الوقت عليه فقط أن يفكر لثوان فى الفارق بين مرتزقة عبيد الحقول وجند القيصر فريدريش الثانى المدربين، فهؤلاء الأخيرون لا يردون الماء للتزود إلا بصفوف محاذية ينظمها الخيالة حتى لا يقع التزاحم والفوضى.

فى المحطة الثالثة تقف الشركات الرأسمالية الخاصة، والتى قامت بإنشاء جهاز البوليس الخاص بها فى المستعمرات. فلقد كانت المستعمرات وحتى بداية القرن التاسع عشر تقع تحت سيطرة شركات خاصة لا دول. وقامت تلك الشركات بحربها ضد شعوب المستعمرات مسلطة عليهم أقصى أنواع الاستغلال والسيطرة والاستعباد. ونجد حتى الآن فى الحروب الطرفية صدى لذلك النوع من الحروب. وهكذا فقد احتفظت شركة الهند الشرقية الهولندية Oost-Indische Campagnie Vereenigde لنفسها باحتكار حمل السلاح وإطلاقه فى جاوا وحتى عام ١٨٠٠، وفى الهند قامت شركة الهند الشرقية East India Company بنفس الاحتكار حتى عام ١٨٥٦. أما فى جنوب أفريقيا فقد استمرت سلطة الشركات الرأسمالية حتى نهاية القرن التاسع عشر. وهكذا ففى الوقت الذى كانت فيه المستعمرات ترزح تحت المذابح والاستغلال وحروب الإبادة، كانت أوروبا وفى خط موازٍ تمر بعصر النهضة وتطور سلطتها الحيوية فتدخل مفهوم الحرب النظامية بين دولها، وتمارس الضبط والربط فى مصانعها وثكناتها فقط بعد بداية الإمبريالية بأربعمائة عام بدأت الدول المستعمرة كبريطانيا وهولندا وفرنسا والبرتغال بربط مستعمراتها بنظامها القانونى وجهازها البيروقراطى.

وقبل أن تكتمل هذه السردية أود أن أشير إلى التحول من حرب الحكومات إلى حرب الشعب ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فعندما دعى الفرنسيون إلى حمل السلاح فى عام ١٧٩٣ للدفاع عن جمهوريتهم الوليدة، اتخذ ذلك شكل حرب ثورية تحرك الحشود بكثافة: «منذ هذه اللحظة وحتى يتم طرد كل معتدٍ من أراضى الجمهورية، يعتبر كل فرنسى فرداً مطلوباً لخدمة الجيش. فالرجال سيحملون السلاح ويذهبون إلى القتال، والمتزوجون منهم سيحشون الأسلحة ويؤمنون الإمدادات، والنساء سيحكن الملابس والخيم ويمرضن المصابين، والأطفال سيجمعون الملابس القديمة ويجعلون منها أربطة وأحزمة، أما العجائز فعليهم التجمع فى الميادين الكبيرة لدعم المحاربين ورفع روحهم المعنوية وإظهار الكراهية للملك وتمنى وحدة الجمهورية». وهكذا حدث ما أعلنته حرب الاستقلال الأمريكية وهو عودة المواطنين إلى حيز الحرب. لقد استبدل عسكر الملكية النخبوى بحشود الجمهورية العريضة.

عند هذه النقطة تزداد السردية كثافة وتنوعاً، فتتجاوز تلك الأنواع جوار بعضها، حرب مرتزقة جوار حرب نظامية بين الدول، جوار حرب شركات استعمارية، جوار حرب ثورية، جوار حرب حشود. فالنازية وكذا مقاومتها قد استدعيتا كل أنواع الحرب تلك فى نفس الوقت. والآن وبعد نهاية حركة عدم الانحياز، ونهاية الحرب الباردة، وفشل الحركات التحررية، بعد انهيار الاشتراكية الواقعية، وبعد الحادى عشر من سبتمبر، يبدو أننا تاريخياً واقعون تحت سيطرة حكم استبدادى، يريد أن يوسع مناطق تدخله حتى تشمل العالم كله، مبرراً ذلك بخلطة تجمع أرباح شركات السلاح الخاصة بقوانين البوليس العرفية بحالة الحرب الدائمة هادئة الشعلة بالعدالة وحقوق الإنسان.

البوليس دائماً هناك:

المنظر الإيطالى جيورجى أجامبى Giorgio Agamben حاول مؤخراً استخدام كارل شميت لصياغة شكل شديد التجريد لحقيقة السلطة الحيوية الحديثة. فهو يبدأ بملاحظة كارل شميت أن الداخل فى الدول القومية يميل لأن يكون أرضية خصبة لنشأة البوليس. فيقول: «إن تحقق السلام الداخلى وانتهاء الحرب الأهلية التى اشتعلت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بين أطراف يؤمنون أن كلا منهم على حق، وانتشار الأمن والأمان فى كل مكان، كل ذلك قد تحقق لأن داخل الدول لم يعد فيه أى سياسة، لم يعد فيه سوى بوليس. وبدونه ما كان للدول الكلاسيكية الأوروبية أن تقوم».

مشروع أجامبى يسعى لإظهار العلاقة بين العنف وسن القوانين، ونقد السلطة الحيوية من منظور القانون وليس من منظور الانضباط كما فعل

الذين يستثمرون حروب الأرض من كرواتيا حتى كولومبيا لبيع أسلحتهم وأنظمة مراقبتهم، هؤلاء يبقون فى الظل ولا يطولهم النقاش

فوكو. القانون ونظرية السيادة عند فوكو هما عرضان للتزييف الذاتى الذى تقوم به السلطة وذلك لتضع هالة حول الذات المستسلمة من ناحية، وتسوغ وحدة السلطة، وتوجب احترام القوانين الملزمة من ناحية أخرى. على خلاف ذلك يهتم أجامبى بتلمس خيط السلطة الحيوية داخل القوانين نفسها، خيط يتكون عليه قانون البوليس، خيط شديد السلبية. هذا الخيط يوضح مالم يتحدث عنه فوكو كثيرا، ألا وهو بعد الموت الذى يسكن سلطة تتحدث باسم الحياة. بدلاً من الحجز الداخلى وراء أسوار المصحات والثكنات، يُنظر أجامبى لفهم جديد للعلاقة بين الداخل والخارج، حيث يتم تعريف الخارج بأنه مكان ينبغى تطويقه لمنعه من تشكيل أى تهديد، أو بمعنى آخر تكوين حجز خارجى يسوده قانون هو بالتعريف تعطيل لكل قانون، كما يحدث فى قاعدة جوانتانامو على سبيل المثال. منطلقًا من جملة كارل شميت «المسيطر هو من يملك حق إعلان قوانين الطوارئ»، يشير أجامبى إلى أشد الحقائق سوادًا وفاشية والتى تعتور مجتمعات السلطة الحيوية الحديثة. إن إقرار الأحكام العرفية كحالة قانونية هو تناقض فى حد ذاته، حيث يسرى مفعول قانون هو فى الواقع تعطيل لكل قانون، ولهذا يرى أجامبى أن حالة الأحكام العرفية هى أوضح صور استبدال القانون بالعنف، والتى هى فى الواقع مهمة البوليس. فمن أجل الحفاظ على الأمن العام والدفاع ضد الأخطار المحيطة يحق للبوليس إصدار الأحكام العرفية وغيرها من الإجراءات الخاصة.

فوكو يفحص بعد البوليس بشكل تاريخى أركيولوجى. ففى دراسته عن الحكم يحلل على سبيل المثال دور وشكل المعرفة البوليسية فى جامعة جوتنجن فى القرن الثامن عشر، حيث تخرجت نخب البيروقراطية البروسية والنمساوية والروسية. هذه المعرفة البوليسية المستقاة من علم القانون، والتى يعتبرها فوكو النموذج الأساسى لاتحاد الحكم بالسلطة الحيوية، كانت تشمل على دراسة تعداد السكان، تحديد النسل، الرعاية الصحية والاجتماعية، تحديد الهجرة، التحكم فى وسائل الإنتاج، السيطرة على دورات المال وإصدار المستندات والحصول على القروض، باختصار دراسة كل ما من شأنه التشجيع على علاقات جيدة ومثمرة بين الأشخاص والبضائع.

أما تنظير أجامبى الخاص بمنطق قانون البوليس وحالات الطوارئ فيقع فوق مستوى أكثر تجريدا. حيث يبين كيف ينجح منطق البوليس ذلك فى أن يخلط بسهولة القانون بالعنف فى قلب المجتمع على الصعيد الداخلى أو الخارجى. أما أكثر تصوراته جنونا فهى تلك التى تخص إرجاع التعددية التاريخية لعلاقات السلطة إلى بنية أساسية تقوم على المنع السياسى، أى سريان القوانين عن طريق تعطيلها. وما يغيب فى تحليل أجامبى كمنظر للسلطة الحيوية هو الاشتباك مع العلاقات المتزامنة لرأس المال. فإذا أضافها المرء على سبيل التجريب، استطاع المرء أن يخرج من ذلك بتصور عن الداخل الذى تشكله رأسمالية إمبريالية منسجمة، داخل تتحكم فيه قوانين البوليس والطوارئ التى أصبحت تشكل سلطة حيوية مسيطرة قادرة على إنتاج ميكانزمات متعددة تزيح دوما الخط الفاصل بين الداخل والخارج فى قلب الحياة. هذا الخط الذى يحدد قبل كل شىء بسياسات عنصرية ضد المهاجرين وشن حروب بوليسية.

إن الحرب البوليسية هى ذلك النوع من الحروب الاستبدادية الذى يسكن الفضاء الداخلى للرأسمالية العالمية. الحرب البوليسية لا يمكن الانتصار فيها. البوليس دائما هناك. الحرب البوليسية لا تهدف إلى مجرد إسقاط منطقة جغرافية واحتلالها، ولكن إلى جعل منطقة جغرافية لينة مطواعة. ولذلك لا توجد نهاية حقيقية لتلك الحرب. من هنا يأتى الاقتباس الذى يظهر فى أول فيلم «صقر أسود يسقط» مناسبا تماما. الاقتباس من أفلاطون ويقول: «فقط الموتى هم من رأوا نهاية الحرب». إن الأمر يتعلق بتمرير بضائع ورؤوس أموال وخدمات ووسائل إنتاج عبر منطقة جغرافية معينة، بل وأيضا ضمان سلامة عملية التمرير تلك. الأمر يتعلق بسرطنة الفضاء. الحروب التى لا تنتهى لابد أن تبقى جذوتها مشتعلة عن طريق إجراءات المراقبة والسيطرة. يستطيع المرء أن يراقب ذلك بجلاء منذ الحادى عشر من سبتمبر. فحتى قبل إطلاق عملية «الحرب الدائمة Enduring Freedom» قامت معظم الدول بتعديلات جذرية فى قوانينها لتسهيل وحراسة الحرب العنصرية على الإرهاب. إن البحث عن سبب أولى للحرب لا طائل من ورائه، فسواء أكان البترول أو الأمن أو محاربة الإرهاب، فإن الحرب البوليسية حرب معقدة يجدر متابعة مختلف خطوطها السياسية والأيديولوجية والمادية فى نفس الوقت.

حرب دائمة:

نظام الحكم القادر على شن حرب استبدادية شاملة يجيب على الحروب الطرفية الصغيرة. التى تسبب هو نفسه فى إشعالها. بحربه الكبيرة. إن الصومال، تلك الدولة الزراعية الراقدة على امتداد القرن الأفريقى، هى واحد من أفضل الأماكن التى تمنحنا تصورا حقيقيا لما بعد الكولونيالية: سلاح ينهمر عليها من الشرق والغرب فى مقابل حق استخدام قواعد عسكرية فى خليج عدن. جماعة قبلية صغيرة تتولى الحكم دون أى مشروع إنمائى، نظام حكم عسكرى منذ العام ١٩٦٩ قائم على تحريك المشاعر القبلية والوطنية مما أدى إلى اشتعال الحرب الأهلية. الصومال هى واحدة مما يسمى بالدول الساقطة Failed States التى أعلنت أمريكا احتفاظها بالحق فى التدخل العسكرى وشن حرب عليها وقتما تشاء، بالطبع من أجل حماية للأمن العالمى. وبالذات فى هذا البلد الساقط تواجه أمريكا فيتنام أخرى صغيرة.

فى بداية التسعينيات أصبحت الصومال حقل تجارب تختبر فيه الأمم المتحدة سياسة التدخل، وذلك تحت قيادة بطرس بطرس غالى. مهمة الأمم المتحدة التى تم بمقتضاها للمرة الأولى فرض السلام عن طريق الحرب فشلت فى الصومال، وأوقفت المهمة عام ١٩٩٥. إن ما يجمع حروبا استبدادية مختلفة مثل حرب الصومال وحرب يوغسلافيا وغيرها هو محاولة تغيير اقتصاد الحرب الأهلية إلى اقتصاد المحميات التابعة للنظام الكبير.

بعد شهر واحد من مهاجمة يوغسلافيا قرر حلف الناتو اعتماد استراتيجية جديدة تتيح له التدخل العسكرى فى كل مكان. كان ذلك فى أبريل ١٩٩٩ وفيها يتم بوضوح تعريف التدخل العسكرى بأنه تدخل عابر للحدود الجغرافية بطبيعته. وبهذا لم يعد الناتو حلفا شمال أطلسى ولكن، وبشكل نهائى، كتيبة شرطة تتدخل فى أى مكان لحل أى صراع.

أما الأسباب المذكورة والتى تعد معكرة للسلام الأمريكى. الأوروبى. وبالتالى موجبة لتدخل تلك الكتيبة فهى نفسها الأزمات التى يتكشف عنها النظام الرأسمالى: نزاعات حول مناطق جغرافية، عدم احترام حقوق الإنسان، صراعات إثنية، حل دول بأكملها، حركة أعداد ضخمة من البشر دون السيطرة عليها، الإرهاب، الجريمة المنظمة، قطع إمدادات الإغاثة. هذا السيناريو يحيل إلى نظرية أجامبى، فنحن أمام فضاء داخلى بحجم العالم حيث تحكم قوى البوليس الحصار دوريا حول أى بقعة خارجية جديدة، وذلك باسم الصراع ضد الآخر الشرير: تاجر المخدرات أو الإرهابى، أو الصراع من أجل الموارد والمصادر، أو الصراع من أجل العدالة وحقوق

عندما توقف حق حمل السلاح عن أن يكون حكرًا على الأمير أو النبيل فقط، ظهر فى ألمانيا جيش عبيد الحقول، وفى إيطاليا مرتزقة الكوندوتيرى. وقد اعتبر كارل ماركس أنهم فى بيعهم لقوة عملهم الحربى صورة مبكرة لعمال اليومية

كتاب الزاوية

الأذكياء

فراسة معاوية وعمرو بن العاص

ومن المنقول عن معاوية بن أبى سفيان، أخبرنا المدائنى، عن ربيعة بن ناجد قال: قيل لمعاوية: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما وثقت بأحد قط.

وبلغنا أن رجلاً جاء إلى صاحب معاوية فقال له: قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك، ثم قال له: ما أعرف هذا، ثم قال: ائذن له، فدخل، فقال له: أى الإخوة أنت؟ فقال: ابن آدم وحواء. فقال يا غلام: أعطه درهمًا. فقال: تعطى أخاك لأبيك وأمك درهمًا. فقال: لو أعطيت كل أخ لى من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا.

ومن المنقول عن عمرو بن العاص: أنه لما فتح قيسارية سار حتى نزل على غزة، فبعث إليه علجها (قائدهم من العجم)، أن أرسل إلى رجلاً من أصحابك أكلمه، ففكر عمرو، فقال: ما لهذا العلج أحد غيرى؟ فقام حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلامًا لم يسمع مثله قط، فقال له العلج: حدثنى هل من أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هوانى عندهم إذ بعثونى إليك، فلا يدرون ما تصنع بى. قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فمر برجل من النصارى من غسّان فعرفه، فقال يا عمرو: قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج، فرجع، قال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتنى فلم أجد ذلك ليسع بنى عمى، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية. قال: أعجل بهم، وبعث إلى البواب خل سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبدًا. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج فقال له: أنت هو؟ قال: على ما كان من غدرك.

الإنسان. فضاء داخلى تحكمه استراتيجية ترسى القوانين وفى نفس الوقت تعطلها، مما يعنى فى الواقع انفجار سياسة الأحكام العرفية.

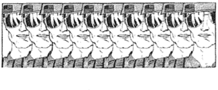
لقد قرر حلف الناتو فى اجتماعه عام ٢٠٠٢ فى مدينة براغ تأسيس قوى عسكرية سريعة التحرك وفائقة التجهيز، تدعى قوى الردع Nato Response Force وبذلك تضم الإدارة الأمريكية حلف الناتو بجانب الاتحاد الأوروبى والتحالف الدولى ضد الإرهاب. قوة ردع الناتو هى قوة منافسة لقوة التدخل الأوروبية المزعمة. كلاهما سيستخدم المقر الأساسى لحلف الناتو، وكلاهما سيتشكل بنفس الحصص من كل دولة. قوة ردع الناتو سيكون باستطاعتها خلال مدة تتراوح بين أسبوع وثلاثين يومًا التدخل فى أى مكان فى العالم، وهى مدة زمنية أقصر من المدة التى يحتاجها البرلمان الألمانى لاستصدار قرار إرسال قوات على سبيل المثال. قوة الردع تتكون من ٢١ ألف جندى وستصبح بدءًا من أكتوبر ٢٠٠٤ قابلة للإنزال. وفى المقابل يخطط الاتحاد الأوروبى إلى تدشين قوته عام ٢٠٠٣ قوامها ٦٠٠٠٠ جندى، بمقدورهم خلال ستة أيام وفى محيط ٤٠٠٠ كيلومتر من بروكسل التدخل فورًا. حصة ألمانيا فى تلك القوى هى ١٨٠٠٠ جندى وهى تعادل ثلث قوة التدخل البوليسية تلك، والتى يقع أحد مقرات قيادتها فى مدينة بوتسدام.

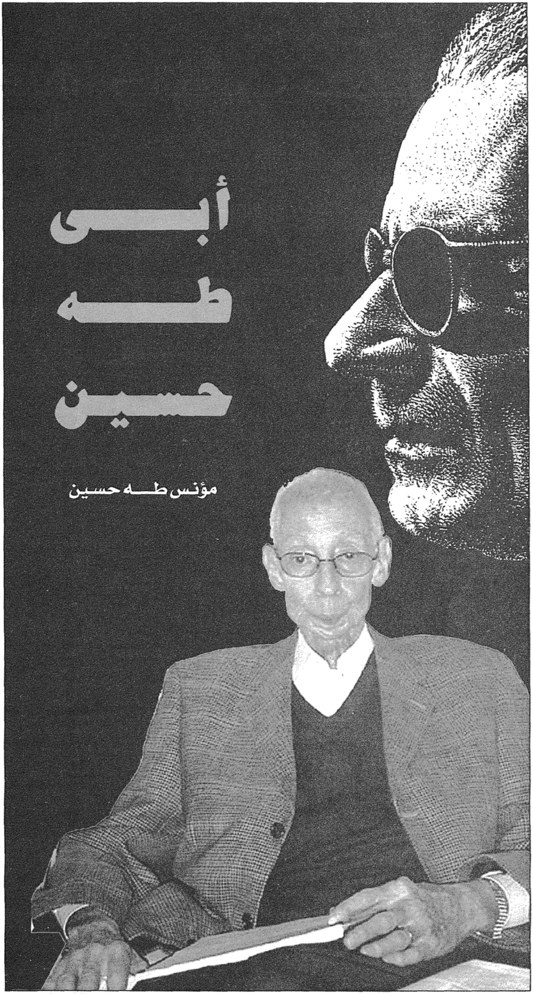
إن ضربات الحادى عشر من سبتمبر عجّلت بتكوين نظام حكم قائم على السيطرة وشن حروب بوليسية. وهكذا تعتبر استراتيجية الأمن القوى للإدارة الأمريكية الجديدة الحرب الوقائية أمرًا مشروعًا فى حربها ضد الإرهاب. الوقاية هى وظيفة البوليس، هى لب السلطة الحيوية حيث يتم وضع ترتيب للأشياء والبضائع والآدميين، أو بمعنى آخر ضمان توازن قوى منتج. ورقة الاستراتيجية الجديدة هى تحفة فى استخدام منطق البوليس. على كل صفحة من صفحات هذه الاستراتيجية يتم التأكيد على العلاقة المشتركة بين الرأسمالية والحرية والأمن. وهى تربط وتطور فكرة الحرب على الدول المارقة إلى الحرب ضد التنظيمات الإرهابية غير المرتبطة بدول. والمفصلة التى تستند عليها هى إنتاج أسلحة دمار شامل من قبل الدول المارقة ثم بيعها للتنظيمات الإرهابية. تقول تلك الورقة: «سوف نقوم بمحاربة التنظيمات الإرهابية بكل الوسائل القومية والعالمية المتاحة، وسوف نشن عليهم حربًا مستمرة حتى نمحقهم وندمر خلاياهم. أهدافنا الرئيسية هى أى جماعة تعمل فى نطاق دولى، وأى دولة تقوم بمد يد المساعدة للإرهاب، وأى محاولة للحصول على أسلحة دمار شامل من أجل أهداف إرهابية، سوف نقوم بحماية الشعب الأمريكى والمصالح الأمريكية فى الداخل والخارج، وذلك عن طريق اكتشاف الخطر مسبقًا ثم تدميره قبل أن يصل إلى حدودنا. ولن نتردد عن استخدام ضربات استباقية لحمايتنا إذا استدعى الأمر ذلك».

وفى ديسمبر ٢٠٠٢ ناقش الكونجرس الأمريكى الموافقة على استخدام أسلحة نووية فى الحرب ضد الدول المارقة إذا ما استخدمت تلك الدول أسلحة دمار شامل ضد أمريكا أو أحد حلفائها. حتى أن دونالد رامسفيلد قام عمليًا بتغيير مبادئ استخدام السلاح النووى وذلك بطلبه صناعة ما يسمى بقنابل نووية صغيرة أو Mini Atom Bomb. ■

هامش:

(*) الفوردية نسبة إلى هنرى فورد، وتشير أساسًا إلى طريقة تقنين العمل عن طريق استخدام السير المتحرك، وتقسيم المصنع إلى هيراركية عمال ومهندسين، ومحاولة ضبط وتنظيم خطوات الإنتاج بمعادلات رياضية كما كان الحال فى مصانع فورد الضخمة لإنتاج السيارات. ما بعد الفوردية هى توصيف لظروف العمل فى السبعينيات، حيث تختلف بشكل جذرى عن الفوردية فى محاولتها لدمج العمال فى مؤسساتهم، ودفعهم للمساهمة الإيجابية فى تحسين إنتاجية العمل، واستخدام وسائل التحكم الأوتوماتيكية، بالإضافة إلى مرونة نقل رأس المال والاستثمار فى المناطق رخيصة العمالة كدول جنوب شرق آسيا.





أبى طه حسين

مؤنس طه حسين

■■ حينما نشرت الصحف نبأ وفاة الدكتور مؤنس طه حسين نجل عميد الأدب العربى طه حسين فى ٢٧ نوفمبر الماضى بباريس فوجئ القراء بأن الابن البكر للدكتور طه حسين بلغ عند وفاته هذا العمر المديد ٨٢ عامًا ومبعث ذلك أن أخبار مؤنس غابت تمامًا عن الإعلام منذ سنوات طويلة وظل فى الذاكرة المصرية والعربية ذلك الشاب ابن طه حسين الذى كان يقدم له النصائح باعتباره ممثلاً للجيل الجديد.

وما بين تلك السنوات البعيدة (عقد الستينيات حينما اختار مؤنس طه حسين الإقامة فى فرنسا والعمل فى اليونسكو) وتاريخ الوفاة جرت فى النهر مياه كثيرة، فقد توفى عميد الأدب العربى عام ١٩٧٣ وانقطعت أخبار مؤنس عن مصر والعالم العربى وعاش فى فرنسا كأحد أبنائها يكتب ويؤلف باللغة الفرنسية ويترقى فى الوظائف فى قسم الترجمة باليونسكو ولم يكن يزور مصر إلا لمامًا وكان آخرها فى بداية التسعينيات حينما توفيت والدته.

كان مؤنس طه حسين أمينًا مع نفسه فهو قد تشرّب الثقافة الفرنسية (قال فى حديثه الأخير وربما الوحيد لصحيفة عربية هى «الحياة» نشرته بعد وفاته بأيام أنه كان يتحدث فى بيت أسرته بالفرنسية منذ الطفولة)، كما أنه درس باللغة الفرنسية وتثقف بها أيضًا فقد حصل على شهادة الليسانس من جامعة القاهرة فى اللغة الفرنسية وحصل فى باريس من دار المعلمين العليا على شهادة «الأجريجسيون» فى اللغة والآداب الفرنسية ثم عاد إلى القاهرة ليعمل أستاذًا للأدب واللغة الفرنسية بجامعة القاهرة بعد أن حصل على الدكتوراة فى الأدب المقارن عن تأثير الآداب الإسلامية فى الأدب الفرنسى من باريس أيضًا. كل ذلك جعله يختار الفرنسية حديثًا وتأليفًا بل يختار فرنسا ليتعلم فيها ولا يعنيه كثيرًا أن يواصل مسيرة والده الرائدة فى مصر والعالم العربى، ربما لإدراكه بأن حظه فى امتلاك ناصية الفرنسية أقوى كثيرًا من العربية وربما لإدراكه أن ما حققه والده العظيم لا يمكن له أن يتساوى معه أو حتى يطاوله.

ثم إن مؤنس نفسه لم يكن دائمًا يقتنع برأى أبيه عميد الأدب، مفضلاً الحقيقة التى يؤمن هو بها ويدافع عنها، على مجاملة أحد آخر حتى لو كان أباه، كما حدث عندما كان طه حسين يختصم سعد زغلول، فى الوقت الذى كان فيه «مؤنس» وأخته «أمينة» يهتفان باسم سعد زغلول، ولم يغضب طه حسين محترمًا رأى ابنه وابنته، أو كما يتذكر مؤنس «حاضرنا ونحن فى تلك السن الصغيرة عن حرب الرأى، قال لنا: إن كل فرد حر فى أن يعتنق وأن يدعو إلى الرأى الذى يراه بشرط

الصورة الفوتوغرافية من «الحياة» اللندنية

كان أبى يملى كتبه وقد كان يرفض دائماً أن يعيد قراءتها، أقصد أن تعاد قراءة التجارب (المطبعية) على مسمعه، وكان يعهد بذلك إلى من يرى فيه الكفاية، وفى اعتقادى أنه لم يراجع قط سطراً واحداً بنفسه، فالدفق الأول فى كتابته كان الأخير دائماً

واحد وهو أن يكون قد فهم حقيقة وهضم هذا الرأى، وبشرط ألا يكون قد اعتنقه تقليداً ومسايرة بغير فهم» ولاشك أن طه حسين قد احترم اختيارات ابنه، كما أنه احترم ميوله إلى اللغة الفرنسية وفى نفس الوقت قرر أن يستثمرها ليربطه بتاريخه وحضارته فاقترح عليه أن يكون موضوع دراسته للدكتوراة عن تأثير الآداب الإسلامية فى الأدب الفرنسى.

ولعل طه حسين قد أسدى إلى ابنه مؤنس، النصيحة لدراسة اللغة العربية ولكنه شأن كل الفتيان والشباب تمرد على نصيحة أبيه واختار طريقه الذى اقتنع به، تماماً كما أسدى النصيحة لأحفاده من خلال والديهم.

حدثتنى حفيدته سوسن الزيات قبل سفرها واستقرارها بباريس وأسرتها بجوار خالها مؤنس فقالت: «إن طه حسين رغم ثقافته الفرنسية، كان متشيعاً لأمته العربية ولغتها العربية وتراثها العربى، على سبيل المثال: أذكر أننا بعد عودتنا من الخارج دار حوار أمام جدى وجدتى، كان رأى زوجته سوزان أن نستكمل تعليمنا فى مصر فى مدارس فرنسية، بينما كان رأى الأسرة أن نستكمل التعليم فى مدارس إنجليزية خاصة أنها قريبة من البيت، أما جدى طه حسين فقد كان من رأيه الذى قاله متوجهاً إلى ابنته أمينة التى هى فى نفس الوقت والدتى: «ياشيخة أدخليهم مدارس عربية». وتؤكد حفيدته الأخرى «منى الزيات». هاجرت هى الأخرى وأسرتها إلى أمريكا. فى حوار لى أيضاً معها: «رغم أن جدتى سوزان لم تكن تتكلم اللغة العربية كثيراً، فإننى فوجئت بها تحاول الحديث مع جدى طه حسين باللغة العربية رغم تمكنه من الحديث بالفرنسية إليها، وهى لم تكن تتحدث العربية مخافة أن تخطئ أمام الناس».

لقد حاول عميد الأدب العربى ألا تبعد المسافة بين ابنه وبين اللغة العربية ولذلك اختاره لترجمة مسرحية «روميو وجولييت» لوليام شكسبير ضمن مشروع قامت به الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية وكان يترأسها الدكتور طه حسين. ونشرت دار المعارف هذه الترجمة عام ١٩٦٠.

لكن كما سبق القول فإن مؤنس كان قد اختار مصيره وعالمه وتحول إلى فضاء اللغة الفرنسية فكتب مؤلفاته بهذه اللغة وكذلك مذكراته التى كشف عنها خلال حديثه للحياة والتى أعلنت وزارة الثقافة المصرية أنها بصدد ترجمتها إلى اللغة العربية.

وهذه محاولة للاقتراب من عالم مؤنس طه حسين من خلال نشر شهادتين نادرتين له عن والده ورسالة من عميد الأدب العربى إلى نجله. ■

إبراهيم عبدالعزيز

■ لم يقض طه حسين فى «الرامتان» إلا السنوات الست عشرة الأخيرة من حياته الطويلة (فقد توفى فى الرابعة والثمانين من العمر). ولم يكن أبى من أصحاب الشعور القوى بالملكية، وإنما كان أقرب إلى البدو الرحل يهوى تغيير مسكنه (فقد كان علينا فيما أذكر أن ننتقل من مسكن إلى آخر ما يقرب من اثنتى عشرة مرة فيما بين العشرينيات والخمسينيات) إلا أن أبى أراد عند اقتراب الشيخوخة أن يستقر فى نهاية المطاف، شأنه شأن السفينة التى تتجه «بعد طول إبحار» نحو الميناء الذى ترسو عليه، ولم يكن لطه حسين أى ثروة يعتد بها، فهو لم يكن قط من الأغنياء. فكان أن اقتنى قطعة متواضعة من الأرض غير بعيدة عن طريق الأهرامات. وتولت والدتى رسم خطة الفيللا بمعونة مهندس معمارى يونانى من أصدقاء العائلة. كما تولت بنفسها رسم خطة الحديقة وغرس الأشجار فيها وزرع الزهور.

وكانت هذه الحديقة على درجة كبيرة من الأهمية فقد كان طه حسين ينفق فيها جزءاً كبيراً من وقته طالما كان بصحة جيدة، وكثيراً ما كان يجلس هنالك ليستمع إلى سكرتيره إذ يقرأ عليه الرسائل والصحف والمجلات فضلاً عن كتب الأدب القديم. ولم يكن يحول بينه وبين ذلك إلا المرض أو برد الشتاء. أما إذا أراد أن يكتب، فإنه كان يفضل الجلوس فى مكتبه الذى ينفتح على الحديقة مباشرة عن طريق فناء صغير من الطوب الأحمر، وفى هذه الحديقة التى حظيت دائماً برعاية زوجه وحبها، كان طه حسين يولى انتباهه لأشياء عديدة: يصغى فيحسن الإصغاء لما يقرأ عليه، ولكنه فى الوقت نفسه يستغل مواهبه الفذة التى كأنما عوض بها عن كفاف بصره، فيصيخ سمعه المرهف إلى نوعين من الموسيقى أحبهما أيما حب. فقد كان يأتيه صرير الهمس الشاكس تبثه أشجار «الكازوارينا» المصطفة بمحاذاة الأسوار إذ تهزها رياح الصحراء الغربية. كما كان يصله قرب الغروب ومع هبوط الشفق صياح الكروان يشق السماء، وهو الصياح الذى أجاد وصفه فى روايته «دعاء الكروان»، صياح ذلك الطائر المهاجر الذى يسمع ولا يرى..

ويحضرنى بهذه المناسبة قوله ذات يوم وهو الذى كان يكره أن يشير إلى آفته (لأنه استطاع أن يتغلب عليها على نحو مثير للإعجاب) قال: «وهكذا ترى أنه لا فارق بينى وبينك فأنت تسمع غناء الكروان ولكنك مثلى تعجز عن رؤيته».

وكان أبى يحرص على أن يوضع مقعده المصنوع من القصب بالقرب من شجرة «سرو» لها مكانة فى نفسه، فقد رجا والدتى منذ انتقالها إلى «رامتان» أن تعمل على غرسها فى وسط النخيل، وذلك أن هذه الشجرة. كما قال. لا تنمو فى مصر بكثرة، وإن كانت أحد الرموز الدالة على البحر المتوسط، وكلنا نعلم كم كان البحر المتوسط عزيزاً على نفسه، بوصفه بحراً وبوصفه مهد الحضارات القديمة. وكان كثير الذكر لليونان وروما وإيطاليا وإسبانيا، كلما كان يطيب له أن يذكر بأنه ناضل طيلة حياته لكى يكون لبلاده بدورها نصيب فى البحر المتوسط.

وكان يحدث أحياناً وهو يستمع إلى مؤلف من قدامى الشعراء أو علماء اللغة أو فقهاء الإسلام أن يداعب بيد حالمة الأوراق الحادة العطرة التى تتدلى من الشجرة الهيفاء.

وكان المكتب بطبيعة الحال أعجب غرفة. أو لنقل أعجب مكان. فى «الرامتان»، وذلك رغم بساطته، فهو حجرة فسيحة مربعة تنفتح على الحديقة كما قلت عن طريق بهو من حجر، عرشه نبات متسلق، وكان ينثر فيه زهوره البنفسجية على مدار العام، وكان أثاث الغرفة بسيطاً لا تكلف فيه، فثمة منضدة لا تنتمى إلى طراز بعينه، ومقعدان وأريكة، وموقد ضخم من النحاس الأحمر. وكان مكتب طه أشبه بالمكتبة الصغيرة فقد امتدت على ثلاثة من جدرانها الأربعة رفوف من الخشب الداكن المصقول، عليها ما يقرب من ستة آلاف مجلد جمعها الكاتب فى مختلف فترات حياته، ومن بينها كثير من المؤلفات ذات القيمة الفريدة.

ولم يكن فى الغرفة من زينة سوى تمثال نصفى للعميد من صنع النحات المصرى عبدالقادر رزق، وصورة (بالباستيل والفحم) من عمل فنان نمساوى.

وفى تلك الغرفة كان أبى مع تقدم العمر به يقضى معظم وقته، يتفكر ويقرأ أو يملى ويستقبل أصدقاءه، وفى ذلك المكان تحدث عدة مرات إلى الإذاعة والتليفزيون المصرى. وهنالك كثير من الوثائق المصورة التى تخلد ذكرى حضوره المضىء فى تلك الغرفة التى خلت من الزينة ولكنها امتلأت بجو خاص فريد.

إلا أن الصور والأفلام القصيرة التى صورت فى هذه الغرفة لا يمكنها أن تنقل إلى المشاهد سر السحر العجيب لتلك الغرفة التى كانت ملاذاً للفكر، ولا تلك القوة الجذابة الخلابة، وأعز بذلك صوت أبى، فقد كان صوته هذا يملأ المكتب بموسيقى فريدة، سواء أكان يملى كتاباً أو مقالة، يجيب عن أسئلته لصحفى أو يسجل حديثاً للبث الإذاعى أو يتجاذب أطراف الحديث مع زائر أو صديق أو قريب أو تلميذ سابق أو أحد المعجبين.

ومن المعروف أن هذا الصوت قد أسهم فى ذيوع شهرته، فإذا حاضر فى المدرجات الجامعية خلب صوته الألباب بحيث يصدق عليه ما يقال عن «تعلق الإنسان بشفاه محدثه».

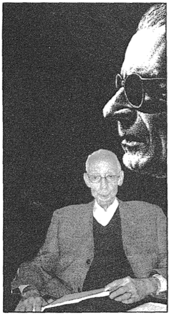
وكان أبى يدرك تماماً حسن صوته، ولم يكن يفوته أن يزهو به رغم تواضعه، إذ يبدو أننى ورثت عنه هذا الصوت، وحدث ذات يوم أن قال لى أحد من الناس بمحضر من أبى أن صوتى جميل، فما كان من هذا إلا أن رد بشىء من المكر: «هذا صحيح، ولكن صوته ليس جميلاً جمال صوتى»!

ولذلك فإنى أرجو أن يفكر المسئولون فى تزويد متحف «الرامتان» ببرنامج سمعى بصرى يتيح للزوار أن يروا ويسمعوا طه حسين فى مكتبه. فبذلك يعود إلى الغرفة رنين أصداء العقل والنفس اللذين طالما أوتيهما، وتنبعث الأنغام العذبة التى أضفاها صاحب المكتب على اللغة العربية، فقد كان أعرف الناس بمواردها التى لا تنفد.

لم يتعلم أبى الموسيقى قط، ولكنه كان صاحب أذن مرهفة. كان شديد الحساسية بالنسبة لإيقاعات الشعر العربى القديم ورنينه، كما كان يتمتع باستعداد طبيعى لفهم الأصوات، وكان قادراً على تذوق الموسيقيين الغربيين ولا سيما موزار، تماماً كما كان يقدر الأغانى المصرية كأغنيات أم كلثوم على سبيل المثال.

ولقد كان يهوى الاستماع إلى تلاوة القرآن (فقد كان فى غرفة نومه بالطابق الأول من «الرامتان» مذياع صغير يتيح له الاستماع إلى القرآن يومياً) وكان حبه ذلك راجعاً بطبيعة الحال إلى عظمة الكتاب الكريم، ولكنه كان يرجع أيضاً إلى جمال موسيقى الآيات إذ يتلوها أو يصدح بها أحد كبار المقرئين.

ومن المناسب بطبيعة الحال أن يحتوى هذا



المعرض الصغير المخصص لذكرى طه حسين على النياشين والأوسمة التى تلقاها (وهى كثيرة العدد وجاءته من أنحاء العالم المختلفة، وإن لم يغتر بها لأنه كان يعلم جيداً أن قيمة الرجل لا تقاس بعدد الأوسمة التى يتقلدها حتى ولو كانت من الذهب) والأنسب من ذلك أن يحتوى المعرض على الترجمات العديدة التى وضعت لمؤلفاته الرئيسية . وخاصة رواياته . بلغات جد مختلفة . ويكفى هنا أن نتذكر أن كتاب «الأيام» قد ترجم ونشر بعشرين لغة تقريبًا، وأن أعماله الأساسية قد ترجمت ونشرت باليابانية!

ولا يقل عن ذلك أهمية أن تعرض الدراسات العلمية والبحوث الجامعية التى وضعت عن طه حسين بالعربية وبغيرها من اللغات مثل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية. فإذا لم يتيسر ذلك فلتعرض على الأقل قائمة بهذه الكتابات. ويبدو لى أن من شأن هذه الدراسات الجامعية والمقالات والأحاديث التى ألقيت فى مؤتمرات وندوات دولية أن تقدم فكرة دقيقة ووافية عن اتساع نفوذ طه حسين المفكر وطه حسين المربى على صعيد العالم.

وأخيرًا يا حبذا لو تضمن المتحف واجهة زجاجية تعرض كل درجات الدكتوراة الفخرية التى تلقاها طه حسين من جامعات شرقية وغربية، وذلك مع الشهادات مصحوبة بالصور الفوتوغرافية التى التقطت فى تلك المناسبات.

صحيح أن أبى كما قلت من قبل لم

حوار

■ أجرى الصحفى والكاتب الفرنسى المهتم بالثقافة العربية والإسلامية فيليب فاردنال حوارًا مع الدكتور مؤنس طه حسين عن والده بمناسبة مئويته نشرها فى مجلة «Arabies» وقد ترجم منجى الشملى الأستاذ الجامعى التونسى هذا الحوار ونشره فى كتاب بعنوان «طه حسين فى مرآة العصر» وصدر عن المجمع التونسى للعلوم والآداب والفنون ٢٠٠٢.. وفيما يلى نص الحوار:

س: لقد عرف الجمهور الفرنسى طه حسين من خلال كتابيه «الأيام» و«أديب» كيف كان ينظر إلى الجانب الروائى من مؤلفاته؟

ج: كان التأليف الروائى بالنسبة إليه ترويحًا عن النفس، ولحظة استراحة فى غمرة الإبداع، ولكن أعتقد أنه أدرك بعد ذلك أن هذا القسم «الروائى» من أعماله هو الذى سيبقى، أو على الأصح هو الذى سيكون أطول بقاء.

من المعلوم أن أبى كان يملى كتبه وقد كان يرفض دائمًا أن يعيد قراءتها، أقصد أن تعاد قراءة التجارب (المطبعية) على مسمعه، وكان يعهد بذلك إلى من يرى فيه الكفاية، وفى اعتقادى أنه لم يراجع قط سطرًا واحدًا بنفسه، فالدفق الأول فى كتابته كان الأخير دائمًا.

ولكن نصوصه تؤكد . بما هى عليه من إعداد جيد . أنه كان قد فكر طويلاً ومليا قبل إملائها. كان يحمل الكتاب فى صدره. إنه المخاض الصادق، وكان كل من فى البيت يدرك ذلك، فإذا الرجل مريد الوجه، ذاهل عن كل شيء، غائب عمن حوله. وكانت أمى تخاطبه قائلة: «الظاهر من أمرك يا طه أنك الآن على أهبة إملاء كتاب جديد».

س: إن استحالة تسجيل التقييدات، واستحالة الكتابة الفعلية على الورق واستحالة القراءة، تجعل مهمته أشد عسرًا بصفته كاتبًا، وقد تضطره إلى الاستعانة بغيره. كيف كانت علاقاته بالآخرين؟

ج: كان من المأمول أن يصبح أبى مجرد قارئ للقرآن. ولكن سرعان ما أظهر ذكاء فائقًا، وخصالاً ممتازة. وكذا استطاع أن يفلت من مصيره. ولكن العبقرية وحدها لا تكفى. لقد أعانوه. أعانه أولاً أخوه الشيخ أحمد الذى كان رفيقه فى الأزهر. كان يقرأ له نصوصًا، فيحفظها أبى عن ظهر قلب وقد استمع لها مرة واحدة، ثم أعانته فى مدينة «مونبلييه»، وبعدها فى مدينة «باريس» تلك المرأة التى كانت فى بداية أمرها تقرأ له ، ثم صارت خطيبته فزوجته. ما كانت أمى تحسن اللغة العربية. كانت تستطيع أن تقرأ له نصوصًا بالفرنسية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية واليونانية واللاتينية.. فكانت لديه بمثابة السكرتيرة التى لا تفارقه ساعة. وقد استعان بعد ذلك بسكرتير مصرى يقرأ له باللغة العربية. الحق أنه استعان بأكثر من واحد، ولكنه قليلاً ما كان يرضى عنهم لأنهم غالبًا ما كانوا يقعون فى أخطاء لغوية، كان أبى رجلاً سمحًا متواضعًا، وكان إلى ذلك معجبًا بنفسه ذا كبرياء، كان يزعم أنه وحيد زمانه فى إتقان اللغة العربية!، ولا يضاهيه فى ذلك أعضاء المجمع اللغوى فى القاهرة أو فى دمشق!، فهم. فى نظره. ليسوا على تمام الإتقان للغة العربية.

س: كيف يضبط منزلته بين أدباء عصره؟

ج: لم يكن أصلاً يضبط لنفسه منزلة ما بين أدباء عصره. كان يعد نفسه نسيج وحده، ليس خيرًا منهم، ولكنه فرد لا ند له، إنه على حدة، تمامًا على حدة. لم يكن راضيًا أصلاً عن الروايات القليلة التى كانت ظهرت فى مصر فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. وكان يعتقد أنه منشئ الرواية فى الأدب العربى. أما الكتاب الشبان الذين جاءوا بعد ذلك فهو الذى أحاط جلهم بالرعاية والتأييد.

س: كيف كان طه حسين يرى تطور مصر الثقافى؟

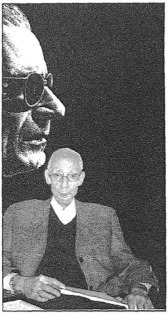
ج: كان يعتقد أنه بالإمكان تمامًا الحفاظ على الطابع الخاص والذاتية الثقافية، مع الاستفادة من ثقافات أجنبية كثيرة خاصة منها الثقافات الغربية. إن هذا الأمر عنده بديهى. وكان يعلن فى بساطة قائلاً: «إن مصر عربية فى جوهرها ولكنها متوسطية كذلك» ولهذا السبب كان يولى دراسة اللغات

احترم ميوله إلى اللغة الفرنسية وفى نفس الوقت قرر أن يستثمرها ليربطه بتاريخه وحضارته فاقترح عليه أن يكون موضوع دراسته للدكتوراه عن تأثير الآداب الإسلامية فى الأدب الفرنسى

يكن يعلق كبير أهمية على ما تلقى من أوسمة ودرجات فخرية، إلا أنه كان شديد الاهتمام بما يلقى من تقدير وتكريم من نظرائه من كبار الجامعيين ومشاهير العلماء ومدراء الجامعات ورؤساء المجامع العلمية، وأذكر هنا أن شيئًا لم يسعده قدر سعادته بالدكتوراة الفخرية التى حصل عليها من جامعة «أكسفورد»، وهو أمر مفهوم تمامًا لدى الكثير الذى يمكن أن أقول عن هذا المسكن الذى يراد له الآن أن يكون أثرًا تاريخيًا، فقد عشت فيه سنوات عديدة إلى جانب أبى قبل أن أرحل إلى الخارج بصفة نهائية. غير أنى أشعر بشىء من الحرج كلما طلب إلى أن أتحدث أو أكتب عن أبى. وذلك أننى لا أستطيع أن أتحدث عن الرجل فى حياته العامة، أو الكاتب والأستاذ والجامعى والوزير، وذلك لسبب بسيط وهو أن أناسًا غيرى ممن هم أكثر كفاءة قد تناولوا الموضوع وأوفوه حقه، كما لا أستطيع. أو أننى لا أريد. أن أتحدث عن الرجل فى حياته الخاصة، لأننى أعتقد أن هذا الجانب من حياته لا يعنى أحدًا. وهكذا أجدنى قد بدأت أشعر بالندم بعد أن حررت هذه الصفحات.

ولك إذن يا زائر المكان الذى توفى فيه طه حسين أن تتذكره، أو إذا شئت. أن تدعوه وأنت تستعرض هذه الآثار فى ذلك البيت المتواضع الذى كان مسكنه»(*) ■

(*) عن «نهر العميد الفياض» لنخبة من مثقفى مصر. مطبوعات صندوق التنمية الثقافية ١٩٩٦.



كان من المأمول أن يصبح أبى مجرد قارئ للقرآن. ولكن سرعان ما أظهر ذكاءً فائقًا، وخصالاً ممتازة. وكذا استطاع أن يفلت من مصيره

عناية فائقة، لا يقصد اللغة الفرنسية فحسب، بل لغات كثيرة أخرى منها الإنجليزية طبعًا، والإيطالية كذلك والإسبانية، وغيرها.

أقبل أبى على درس اللغة اليونانية واللاتينية لأنه كان يرى أن ذلك أساس تكوين ثقافى ضرورى، أما من وجهة الحضارة المتوسطية التى كان شديد الإيمان بها فإن تعلم اللغات عنده كسب حاسم. وعلى الرغم من أن دعوة طه حسين إلى هذا المسلك لم تلق تأييدًا مطلقًا فإنه وفق على كل حال، فى إنشاء شعبة للدراسات الكلاسيكية بجامعة القاهرة، تدرس فيها اللاتينية واليونانية.

س: كيف كانت طباعه وكيف كانت طريقته فى إدراك الوجود؟

ج: كان أبى مغرقًا فى التشاؤم، وإدراك ذلك سهل يسير، وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام عاهة العمى. لقد وجد العون على تخطى هذه المحنة، ومع ذلك كانت تنتابه أطوار من القنوط وصفها فى كتاب «الأيام»، لقد حدثته نفسه بالانتحار أحيانًا، وكانت تنتابه سورات يأس لا قبل لأحد بأن يكون له فيها عونًا، لا ولا حتى زوجته كانت قادرة على ذلك مع ما أوتيت من رفق وحنان.

كان ينظر إلى الأشياء دائمًا نظرة سلبية. هذا من غريب الأمور ولا سيما ونحن نعلم أنه رجل على غاية النشاط. لقد أنجز أشياء كثيرة فى حياته.. لقد بنى فى الحقيقة جزءًا من مصر الحديثة. ■

ها أنت يا بنى تهجر وطنك!

■■ أتذكر يوم كنا نعبث فى (مدينة) «جرانمير»، وكنت أحدثك بحديث أنكرته لغرابته وإغراقه فى الخيال، فأبيت أن تصدقه أو تطمئن إليه، وألححت عليك فى ذلك، فلم يزدك الإلحاح إلا إغراقًا فى الإنكار، وخاصمتك حينئذ وأعلنت إليك أننى لن أداعبك بعد اليوم، ولن أتحدث إليك إلا جادًا، وأنت صلب الرأى كأبيك، لا تذعن للوعيد ولا يخيفك النذير، فأعرضت عنى وأعرضت عنك، وقضينا فى ذلك يومًا وبعض يوم لم أقل لك شيئًا ولم تقل لى شيئًا، ولكن أختك أقبلت فأنبأت أمها بأنك ضيق بإعراضى عنك لا تنشط للعب لأنى لا أداعبك ولا أدعوك باسمك الذى كنا نحب أن ندعوك به، فتوسطت حينئذ أمك فأصلحت بيننا وأعادت إلى ثغرك الابتسام وأعادتك إلى ما كنت تحب من لعب ومرح.

سل أمك يا بنى فستنبئك بأنى لم أكن أقل منك شقاء بهذا الإعراض، وبأنى كنت أشكو إليها بينما كنت تشكو أنت إلى أختك. أتذكر هذه القصة. إنها تصور ما بينك وبينى من حب قد علمك أن تقبل منى ما كنت أتحدث به إليك بما فيه من خيال وما فيه من أصالة.

أتذكر يوم ذهبنا إلى «فونتبلو» لنزور القصر، وكنت قد اصطحبت دبك هذا «دمية على شكل دب»، فلما بلغنا المحطة تقدمت إليك أمك فى أن تدعه مع ما كان معنا من متاع حتى لا نشق عليك ولا يصرفك عن جمال القصور وما فيه، فأذعنت كرهًا ولكنك أظهرت تجلدًا واحتمالاً لهذا الفراق حتى إذا مضينا وبعدنا عن المحطة أجهشت بالبكاء وأغرقت فيه فلما سألناك عما يبكيك أجبت (أن الدب لن يرى القصور) فعدنا أدراجنا، وزار الدب معك هذا الأثر العظيم.

ها أنت قد أضجعته فى سريرك وأحطته بما يسع قلبك الصغير القوى من حب وحنان، ثم أقبلت علينا تشاركنا فيما نحن فيه من عمل وحديث. أنت راض عن هذه الرحلة، مغتبط بما لقيت فيها من خير وقد نسيت ما احتملت فيها من مشقة.. سينسيك الصبى أحداث الطفولة، وينسيك الشباب أحداث الصبا، وسيلهيك جد الحياة عن عبث الشباب.

«ها أنت يا بنى تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتعبر البحر فى سنك هذه الصغيرة تطلب العلم وحيدًا فى باريس، فدعنى أهدى إليك هذا الحديث (عن أيام طلب الوالد العلم فى الأزهر) لعلك ترتاح إليه بين حين وحين إذا أجهدك درسك.. هناك ترى لونًا لم تعرفه من ألوان الحياة فى مصر، وتذكر شخصًا طالما ارتاح إلى قربك منه، وطالما وجد فى جدك وهزلك لذة لا تعدلها لذة، ومتاعًا لا يعدله متاع.

لقد تعودت ألا ترانى إلا باسمًا لك ولكنك ستنمو وترى أن ابتسام الآباء لأبنائهم الصغار كثيرًا ما يخفى اكتئابًا وحزنًا.. وستعلم أن ما كنت أمنحك من الابتسام والرضى، وما كنت آتى معك من ضروب اللعب والدعابة لم يكن خالصًا كابتسامتك ورضاك، ولا صفوا كلعبك ودعابتك، وإنما كان يخفى من ورائه حزنًا واكتئابًا ما كان لك أن تراهما صبيًا، وما ينبغى أن تجهلهما رجلاً، وما أسعد الأب حين يثق بأن ابنه يحبه محزونًا مظلم النفس كما يحبه مسرورًا مشرق الفؤاد.(*) ■

طه حسين

(*) شهادة طه حسين نقلاً عن زوج ابنته الدكتور محمد حسن الزيات

صبـــــــرا وشـــــــاتيلا

رضـــوى عـــاشـــور

[١] في مقدمة كتابها «صبرا وشاتيلا: أيلول ١٩٨٢»، تحكى بيان نويهض الحوت، أستاذة التاريخ فى الجامعة اللبنانية، عن واقعة اقتحام الجنود الإسرائيليين لبيتها فى بيروت ظهر يوم السبت ١٨ سبتمبر ١٩٨٢، فتّش الجنود الأربعة البيت، وسألوا عن زوجها (شفيق الحوت مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت). استمر التفتيش نصف ساعة، ثم، وهم يغادرون، التفت إليها قائدهم، سألها بشىء من

صبرا وشاتيلا: أيلول ١٩٨٢
بيان نويهض الحوت
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٣

الغطرسة: «هل تشهدين أننا كنا متحضرين معك؟».

تزامنت واقعة التفتيش التى انتهت بالسؤال: «هل تشهدين أننا كنا متحضرين معك؟» مع نهاية ٤٣ ساعة أشرف فيها الإسرائيليون على واحدة من أبشع مجازر القرن العشرين، راح ضحيتها ما لا يقل عن ٣٥٠٠ شخص، تفنن قاتلوهم فى مختلف أشكال الذبح والتعذيب. لم تجب بيان على سؤال الضابط الإسرائيلى، وربما لم تفكر لحظتها أن إجابة ما مفصلة وموثقة ستتشكل بين يديها على مدى عشرين عاما تواصل فيها البحث فى وقائع المجزرة، تستمع لشهادات الأهالى، وتبحث فى الوثائق، وتنقب وتدقق وتحصى فى محاولة لإحاطة أكثر شمولاً بما حدث فى تلك الأيام الثلاثة فى صبرا وشاتيلا.

يقع الكتاب فى ٨٠٢ صفحة من القطع الكبير تقدم معرفة موثقة بالمذبحة عبر شهادات الناجين من الموت وأهالى الضحايا والمفقودين، وعبر الدراسة الميدانية، والتنقيب فى كافة التقارير واللوائح والكتابات التى تناولت الموضوع.

سجلت الباحثة ١٤٠ مقابلة فى الفترة بين ١٠ نوفمبر ١٩٨٢ إلى ٢ مارس ٢٠٠١، منها ١١٩ مقابلة مسجلة فى العامين التاليين مباشرة على الحدث، ومقابلة واحدة مسجلة عام ١٩٨٦، وتسع عشرة مقابلة فى الفترة من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠١، أما الدراسة الميدانية فتعتمد على ٤٣٠ استمارة وُزعت على أهل الضحايا و١٠٠ استمارة وُزعت على أهل المفقودين والمخطوفين. وتضم الوثائق سجلات ولوائح بأسماء الضحايا والمفقودين والمخطوفين من مصادر مختلفة، ومخطوطات غير منشورة ليوميات الغزو الإسرائيلى للبنان، فضلاً عن التقارير الرسمية والصحفية

اللوحة للفنان أحمد فؤاد سليم من المعرض الذى أقامه عام ١٩٩٦ فى ذكرى المذبحة



والتلفزيونية، والمقالات والكتب التى تناولت الموضوع.

يؤرخ كتاب بيان نويهض الحوت لمجزرة، وتاريخ المجازر، كما تؤكد الدراسة فى كتابها، يختلف عن التأريخ لأى حدث آخر لأسباب متعددة، أبرزها «أن المجازر عمليات تتصف عادة بالسرية إلا فى النادر والقليل منها» (ص ٦)، فهى غالبا بلا وثائق ولا مستندات. كانت حدود المشروع فى بدايته محاولة لتوثيق شهادات أهالى صبرا وشاتيلا عن المجزرة، والحفاظ عليها، ولم يكن ذلك بالأمر الهيِّن، إذ فرضت الظروف السياسية فى لبنان فى السنوات التالية مباشرة قيودا قاسية: «فالمنطقة المنكوبة كانت مراقبة باستمرار، وكان مجرد ذكر كلمة مجزرة، بعد انتهاء موسم الإعلام الأجنبى فى الأيام الصعبة الأولى قد بات من المحرمات» (ص ١٤). كان على الباحثة إجراء المقابلات بعيداً عن أعين المخبرين، وكان عليها تدبير نقل الأشرطة على نسخ ثانية، ثم الحفاظ عليها بتمويهها وتأمينها فى بيوت الأصدقاء، كذلك كان تفريغ الأشرطة بكتابة ما ورد فيها على الآلة الكاتبة محفوفاً بالمخاطر مما دفع إلى نَسْخها بخط اليد.

ولم تكن مرحلة التاريخ الشفهى سوى المرحلة الأولى، إذ أعقبتها مرحلة الدراسة الميدانية بهدف جمع أسماء الضحايا، وكل ما يمكن جمعه من معلومات عنهم، ولقد بدأت الباحثة فى ربيع ١٩٨٤ بتوزيع الاستمارات على أهالى الضحايا، ثم ترجمة مآسيهم إلى أرقام ونسب مئوية: عدد القتلى من الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والمصريين، ونسبة كل من مجموع الضحايا: نسبة الأطفال، نسبة الإناث والذكور، المراحل العمْرية... إلخ.

وهناك بطبيعة الحال الجهد المتصل والموازى للمرحلتين المشار إليهما أعلاه، وهو إلمام الباحثة بما يتصل بموضوعها من تحقيقات وتقارير رسمية وأهلية، وما نشر عنه فى الكتب والصحف والمجلات، وما التقطه المصورون من صور، وأفلام وثائقية... إلخ.

[٢] فى الفصل الأول من الكتاب تضع الباحثة المجزرة فى سياقها العام: ١٩٤٨ وما ترتب عليها من الشتات الفلسطينى ووضع اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان، وفى سياقها الأخص: الغزو الإسرائيلى للبنان فى صيف ١٩٨٢.

تتناول بيان نويهض واقع المخيمات حيث كان اللاجئون يُمنعون من بناء البيوت «حتى دقّ المسامير كان ممنوعاً أيضاً، كما قال أبو القاسم. فإذا دقّ أحدهم مسمارا جرّه المكتب الثانى (جهاز الاستخبارات اللبنانى) للتحقيق. ولو تساءل أحد: لماذا؟ فالجواب جاهز. يجب أن يكون سقف البيت من التوتياء أو ألواح الزينكو (الصفيح)، وذلك لأن السقف المصبوب يعنى

١٩٨٢.. تاريخ المذبحة





بقاء واستمراراً لا يتوافقان مع حياة اللجوء، والتي ما هي إلا مرحلة مؤقتة حتى العودة إلى فلسطين» (ص ٤٦).

ويصف أبو علي، مخيم شاتيلا عام ١٩٥٩، وهي سنة قدومه إلى المخيم: «شاتيلا كانت عبارة عن خيم، معمر لها من الداخل ٦ أو ٧ مداميك (صفوف مرصوصة من الحجارة أو الطوب) ومسقوفة فوق بألواح خشب عليها حجار. نص سكان شاتيلا اللى مش قادر يحط حجار جوات الخيمة كان يحط ألواح زينكو أو تنك. يعنى كان هناك تنك مغلف بقماش متقلو بحجار. ولكن لما كان يقوى الهوا ويشتد كانت الخيمة تنتفخ وتصير مثل البلون. وتصير الناس تركض. اللى بعدهم حاطين عمود للخيمة يمسكوا العمود. واللى كانوا متجاورين قصة الخيمة، يصيروا يتقلوا على السقف بخشب أو يطلعوا يقعدوا على السقف. كان رب البيت يتحمل البيت بصدره حتى ما يطير السقف.

وما كانت العملية أسهل مع سقوف الزينكو، لأنو لما كان يجي الهوا الصعب كان ياخد معه ألواح الزينكو مهما يكون عليها متقلات، وكانت شغلة. يا ما ناس تجروحت وهي لاحقة ألواح الزينكو الطايرة في الهوا». (شهادة أبو قاسم للمؤلفة في ٢٨ أبريل ١٩٨٣، ص ٤٦).

وبقيت إقامة السقف ممنوعة «حتى جاء عهد منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان فأصبح الممنوع مسموحا». (ص٤٨)

أما حرش ثابت وهو المتاخم للمخيم من جهة الجنوب، وأول المناطق التي طالتها المجزرة فلم يكن مسكونا حتى عام ١٩٧٣، إذ كان البناء فيه ممنوعا، ثم تحول لاحقا إلى مأوى للعائلات الفلسطينية واللبنانية الفقيرة.

لقد طالت المجزرة الأحياء الشعبية في منطقة شاتيلا، لم يدخل المهاجمون قلب المخيم بل الأحياء المتاخمة له: بئر حسن، وحي المقداد وحي فرحات بمنطقة الحرش، والأحياء المقابلة: حي عرسال، والحي الغربي، والدوخي، وشارع شاتيلا الرئيسي، والقسم الجنوبي من منطقة صبرا، وكلها مناطق شعبية سكنها فلسطينيون ولبنانيون وسوريون ومصريون وجنسيات أخرى أيضا منها عمال من بنجلادش والهند وباكستان.

في أغسطس ١٩٨٢، غادرت المقاومة الفلسطينية لبنان، بعد توقيع الاتفاقية مع المبعوث الأمريكي فيليب حبيب، وبعد أن أكدت القيادة أن لديها ضمانات بحماية المخيمات والمدنيين الفلسطينيين. تلقى كل المقاتلين الذين لم يكونوا من اللاجئين إلى لبنان منذ عام ١٩٤٨ أمرا بالمغادرة. أما من كانوا من لاجئي ١٩٤٨ فقد خيروا بين البقاء والمغادرة. وسلمت المقاومة سلاحها ومخازن الذخيرة إلى الأحزاب الوطنية اللبنانية. ولجأ الشباب إلى دفن سلاحهم الفردي في مخابئ بعيدة عن المخيم، واضطر البعض لما يمثله هذا السلاح من تهديد لأصحابه ولأهالي المنطقة التي يعيشون فيها، إلى التخلص منه (حتى بتركه في المزابل).

في أثناء القصف المتواصل على بيروت كان أهالي منطقة شاتيلا قد غادروها إلى الحمراء والروشة ومناطق أخرى من بيروت، ولم يعودوا إلى بيوتهم إلا بعد توقيع الاتفاقيات وخروج المقاتلين. كانت المنطقة ما زالت بلا ماء ولا كهرباء، وكان من عاد من الأهالي (حوالي ٦٠٪ أو ٧٠٪ منهم) منهمكين في إصلاح بيوتهم التي أصابها القصف.

حين حاصر الإسرائيليون صبرا وشاتيلا والأحياء المتاخمة لهما يومي الأربعاء والخميس ١٤و ١٥ سبتمبر شهدت المنطقة قصفاً إسرائيلياً عنيفاً، وكان المخيم بلا قيادة، وبلا مقاومين، وبلا سلاح، وبلا ماء ولا كهرباء. ولذلك قرر «وجهاء» المخيم، (الأكبر سناً أو مكانة)، إرسال وفد للقوات الإسرائيلية لإعلامهم أن المخيم خال من السلاح والمقاتلين. تحرك الوفد في الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر الخميس (اختلف الرواة على عدد الوفد، ربما، وهذا ترجيح الكاتبة، لأن الوفد في بدايته لم يكن هو نفسه في نهايته)، ولكن يبدو أن من وصلوا كانوا أربعة أشخاص: واحد منهم دون الأربعين، والثلاثة الآخرون فوق الستين. لم يعد أي منهم، قتلوا جميعا. كذلك اتجه وفد من النساء والأطفال من مستشفى عكا، يرافقهم رجلان، يحملون أعلاماً بيضاء، فبادرهم الإسرائيليون بإطلاق النار، واحتجزوا النساء والأطفال لمدة ساعة ثم أمروهم بالعودة ركضاً إلى بيوتهن في المخيم، أما الرجلان فاختفيا إلى الأبد (وهما أب وابنه يعملان في محطة الوقود المقابلة للمستشفى).

استمرت المجزرة طوال ٤٣ ساعة متصلة من السادسة مساء الخميس إلى الواحدة ظهر الأحد، في منطقة يطوقها الجيش الإسرائيلي ويسيطر عليها ويتابع ما يجري فيها، ويمنع الأهالي من محاولة الهروب منها، ويؤمن لمنفذيها ما يحتاجونه: القصف الشديد الذي دفع الأهالي إلى الملاجئ (سيتم ذبحهم في الملاجئ)، القذائف الضوئية التي ستتوالى طوال ليلة الخميس فتحول ظلام المخيم إلى ضوء ساطع (قذيفتان مضيئتان كل دقيقتين من مدفعية ٨١ مم، طوال الليل)، المعلبات والأطعمة والمشروبات التي يتناولها منفذو المذبحة (يتفق العديد من الشهود على رؤية المعلبات والزجاجات الفارغة التي تحمل كتابة باللغة العبرية). كما سيوفر الإسرائيليون الجرافات التي ستهدم البيوت أو تلقي بالجثث في مقابر جماعية.

أما منفذو المذبحة فبضعة مئات من الميليشيات: أساسا من ميليشيات «حزب الكتائب»، و«سعد حداد»، و«حراس الأرز»، وبعض «النمور الأحرار»، وقد شاركهم، بشهادة الشهود، إسرائيليون يرتدون زي الكتائب، كانوا يحجمون عن الكلام، وإن سمع البعض في لحظات معينة اللغة العبرية.

استمرت المجزرة طوال ٤٣ ساعة متصلة من السادسة مساء الخميس إلى الواحدة ظهر الأحد، في منطقة يطوقها الجيش الإسرائيلي ويسيطر عليها ويتابع ما يجري فيها، ويمنع الأهالي من محاولة الهروب منها، ويؤمن لمنفذيها ما يحتاجونه

استخدمت الميليشيات الرصاص والسكاكين والبلطات والقنابل في قتل الأهالي. تم قتلهم داخل بيوتهم، وفي الملاجئ والأزقة والطريق العام. هدموا البيوت على الأحياء أو الجرحى أو المقتولين، مثلوا بالأحياء، ومثلوا بالجثث (قطعوا الرءوس والأيدي والأرجل، وشقوا البطون)، اغتصبوا نساء، مزقوا أطفالا، دفنوا أحياء في حفر وقبروهم بالرمال، وخطفوا مئات الشباب تم نقلهم إلى أماكن غير معلومة (لم يظهر منهم أحد بعد ذلك أبدا). ذلك فضلا عن سرقة ما في البيوت أو في جيوب الأهالي، والشتائم البذيئة والإهانات. وقبل المغادرة تم تفخيخ العديد من الجثث بقنابل وألغام.

امتدت المجزرة في يومها الأول من غروب يوم الخميس حتى منتصف الليل، وامتد اليوم الثاني، يوم الجمعة، وهو أطول أيام المجزرة أربعاً وعشرين ساعة كاملة، أما اليوم الثالث، الأحد، وهو اليوم الأخير فقد امتد نحو ثلاث عشرة ساعة من الثانية عشرة ليلا حتى الواحدة ظهرا.

ولما كانت المنطقة بلا مقاتلين ولا قيادة، فلم تتجاوز عمليات التصدي مقاومة محدودة في أربعة مواقع قام بها أربع مجموعات صغيرة لا يعلم كل منها بوجود الأخرى. ووفقا للشهادات «يمكن تقدير مجموع الذين قاموا بعمليات التصدي ضد القوات الإسرائيلية المحاصرة يوم الخميس، في المحاور الأربعة، بنحو ستين شابا وخمس فتيات، لم يكن بينهم من المقاتلين المدربين سوى عدد محدود جدا، أما الأكثرية فكانت من الشبان المتحمسين الذين تفوق حماستهم قدرتهم القتالية الفعلية». (ص١٢٠)

وكان هؤلاء الشباب وهم يتصدون بشكل تلقائي، لا يعلمون بدخول الميليشيات اللبنانية ولا بمهاجمتها البيوت وذبح الأهالي. مقاتل واحد، (تشير له الباحثة باسم «إبراهيم») اتجه بعد ظهر الخميس إلى المنطقة بهدف الاستطلاع، وعلم أن القوات المهاجمة قوات لبنانية، واشتبك معها، ولما كادت ذخيرته تنفد «أخذ إبراهيم ينتقل من ملجأ إلى آخر داعيا الناس إلى الخروج بهدوء في اتجاه الشمال». (ص ١٧٣). وأمن فعلا خروج عدد كبير من الناس.



وقائع المجزرة من أقوال الشهود

فى الليلة الأولى دخلت الميليشيات المسلحة إلى الأحياء المتاخمة لمخيم شاتيلا (أحياء فرحات والمقداد والحرش وعرسال وبئر حسن). تم اقتحام البيوت، والقضاء على نزلاء المخابئ. قُتل العشرات فى ملجأ أبو ياسر، وهو سورى قتل فى المجزرة كما قتل كل أفراد عائلته، وأغلب من احتمى فى ملجئه من الأهالى.

يوم الخميس ذاك، امتلأ ملجأ أبو ياسر وهو ملجأ صغير نسبيا وخاص بأبى ياسر، بالأهل وبالجيران وجيران الجيران، احتماءً من القصف الإسرائيلى.

وصلت الميليشيات إلى باب الملجأ الصغير وصاحت فى كل من فيه أن يخرج فورا. طُلب من الرجال الوقوف إلى جانب الجدار المقابل للملجأ، واقتيد البعض إلى جراج أبو جمال القريب من شارع شاتيلا الرئيسى، وأمروا النساء والأطفال بالسير فى الطريق العام لأنهم سيأخذونهم إلى مستشفى عكا. بعد أن ابتعدت النساء، تم إطلاق الرصاص على الرجال الواقفين بجوار الحائط، أما من اقتادوهم إلى جراج أبو كمال ومحطة الوقود فقد تم قتلهم أيضا على الطريق، أو فى الجراج أو عند محطة الوقود.

تعلق بيان نويهض: «جدار الموت القريب من ملجأ أبو ياسر لم يكن جدار الموت الأوحد فى مجزرة صبرا وشاتيلا، ولكنه ربما كان الأول فى سلسلة عمليات متشابهة امتدت طوال ثلاثة أيام.

وينقل أحد الشهود ما حكاه له مصطفى هبرات الذى أطلق عليه النار على حائط من حوائط الموت:

«صفّوا الرجال كلهم على الحيط، وبلحظات كان الرصاص يلعلع، ووقعت مرتُه (وهى جزائرية) وأولاده الثلاثة أمام باب المنزل جثثًا هامدة قبل ما كانوا المجرمين تلفتوا للرجال. هو قال أنو حالا شعر إنهم راحوا. بساعتها عرف من صراخ بِنته الصغيرة، عرف إنهم ماتوا.. فراح بدو يهجم على المسلحين قدامو بلا وعى. قوّصوه. وضلوا يقوّصوا. وهو ضل نايم بالأرض. وهنّى (هم) افتكروا أنّو مات» (شهادة أسعد م. ص ١٦٥).

لم يمت مصطفى، ظل مصابا وبين جثث القتلى إلى أن تمكن من الهرب. وحكى حكايته.

تعلق بيان نويهض: «كان التصوير والمصورون والصحافة والصحافيون من الأمور الممنوعة حتى يوم السبت إلى ما بعد خروج القتلة. ولكن... من قال أن عدسة آلة التصوير أكثر صدقا من عين الإنسان» (ص ٢٠٠). سيحكى الناجون من المجزرة فى هذا الكتاب تفصيلا عما شاهدوه بعيونهم.

«وإن أمكن القول أن ليلة الخميس كانت ليلة القضاء على نزلاء الملاجئ، لأمكن القول إن يوم الجمعة كان يوم اقتحام مستشفى عكا» (ص١٩٩).

فى هذا اليوم الثانى سيتم اقتحام مستشفى عكا.

قبل الاقتحام فقدت المستشفى اثنين من العاملين فيها، أولهما عرابى وهو مصرى يعمل موظفا فى قسم الأشعة. خرج عرابى من المستشفى لسبب أو آخر، وما كاد يخرج ويمر من جانب محطة الوقود المجاورة حتى أردوه قتيلا. وفى نفس الوقت خرجت عاملة مصرية بالمستشفى لتشترى علبة دخان للطبيب فأصابتها رصاصة وسقطت عند باب المستشفى.

اقتحم المسلحون المستشفى فى الساعة الحادية عشرة، «كان المقتحمون متوترين وينظرون يمنة ويسرة بحثا عن«مخربين».

أما فى أثناء وجودهم فى المستشفى فى ذلك النهار، فقد كان لديهم الوقت الكافى ليتعاملوا مع كل الموجودين فى المستشفى، أطباء وعاملين ومرضى، معاملة متفاوتة وفقا للجنسية أحيانا، ووفقا للمزاج فى أحيان أخرى؛ وهى محاولة تراوحت بين المعاملة بالحسنى وبين التعذيب والاغتصاب والقتل الوحشى» (ص ٢٢٦).

تلقى الأجانب أمراً بالخروج من المستشفى وهم يرفعون أيديهم. قتل الطبيبان الفلسطينيان فى المستشفى: د. على عثمان والدكتور سامى الخطيب. وشهد طبيب أنه رأى المسلحين يخنقون المرضتين اللتين بقيتا للعناية بثمانية جرحى وخمسة أطفال معوقين وعدد من الرضع. وروت ممرضة لبنانية أن زميلتها الفلسطينية: «ذهبت للبحث عن أختها التى التجأت إلى بيت قريب من المستشفى فوجدتها عارية ملطخة بالدم... ومقتولة خنقا» (ص٢٣٢). كما يروى طونى أنه شاهد من منزله المجاور للمستشفى واقعة اغتصاب المرضتين وقتلهما. وقد شهد شهود عيان بأنهم رأوا جثثا لأربعة رجال بالرداء الطبى الأبيض فى مسبح المدينة الرياضية تطفو على سطح المسبح. وربما كان الطبيبان على عثمان وسامى الخطيب من بينهم أو المسعفون الثلاثة (زياد معروف ونزار الصادق وجهاد الحاج) الذين قتلوا وهم فى طريق عودتهم من مستشفى غزة حيث أوصلوا أحد الجرحى.

«ومن ضحايا القسم الطبى والعاملين فى مستشفى عكا طبيبان، وممرضتان، وثلاثة مسعفين، وموظف وطباخ وحارس. وباقى الضحايا من المرضى وخصوصا الأطفال» (٢٣٧).

ويرد فى الشهادات أن الأطفال غير مكتملى النمو قد أُخرجوا من الحاضنات، وأن أطفالا آخرين رضعا، أو فى السنوات الأولى من عمرهم وجدوا مقتولين فى أماكن أخرى. وتشهد الممرضة نزيهة:

«إحنا تانى يوم لقينا طفل مزتوت (ملقى) برا بالجنينة. ورجعنا رحنا على صبرا لقينا أطفال كنا نعالجهم. يعنى بنعرفهم. شفناهم.

كان فى أطفال عمرهم شى سنة. وفى ٣ سنين. وفى ٤، وفى ولد مشلول ما بيتحرك قاتلينه بالبلطة. يمكن قاتلينهم وراميينهم فى صبرا حتى ما ينقال إنهم قتلوا الأطفال المرضى فى المستشفى» (ص٢٤٠).

ويحكى أبو الرائد عن واقعة إلقاء قنبلة فوسفورية فى يوم الجمعة على ملجأ صغير نسبيا (يتسع لخمسين أو ستين شخصا): «يعنى يا دوب رموا القنبلة الفوسفورية ع الملجأ لتحت، ولعت الدنيا. ولع الملجأ باللى فى و(بمن فيه) وسمعنا صريخ، يا الله شو ها الصريخ...».

كانوا أربعة من المقاتلين وفتاة مقاتلة اسمها فاطمة. يواصل أبو الرائد:

«إحنا أطلقنا النار، اشتبكنا نحنا وياهم بحدود عشر دقايق ويمكن أقل.

طبعا سمعناهم بنادوا على بعض يا تونى، ويا سعيد، ويا بيير ويا روبير.

وأنا بهاى اللحظات، أنا سمعت عبرى. تحديدا بهاى اللحظات اللى انرمت فيها القنبلة الفوسفورية، أنا لما تْلفَتَ عليهم، أنا سمعت لغة يهود، لغة عبرية» (شهادة أبو الرائد، ص٢١١).

وفى نفس اليوم ستواصل الميليشيات عمليات القتل فى البيوت، وستعمل الجرافات فى هدم البيوت على من فيها من جثث، كما ستطمر الجثث فى حفر، سواء حفر ناجمة عن قصف الطيران الإسرائيلى أو حفر جديدة حفرتها الجرافات.

فى اليوم الثالث، السبت ١٨ سبتمبر، ستبدأ الميليشيات عملها مبكرا، فى الرابعة صباحا تبعا لشهادة البعض، تقتحم البيوت وتسوق من فيها إلى ساحة صبرا ويتم تجميع سكان صبرا وشاتيلا فى ساحة صبرا، ثم بدءا من السابعة صباحا تقتادهم فى مسيرة قسرية جنوبا باتجاه السفارة الكويتية، ثم يمينا إلى المدينة الرياضية. فى هذه المسيرة التى شبّهها البعض بيوم الحشر، تم اختطاف أعداد كبيرة من الشبان.

وفى السابعة صباحا من نفس اليوم أيضا يتم اقتحام مستشفى غزة، ولكن هذا المستشفى الأكبر لم يشهد اقتحاما مماثلا

صفّوا الرجال كلهم على الحيط، وبلحظات كان الرصاص يلعلع، ووقعت مرتُه (وهى جزائرية) وأولاده الثلاثة أمام باب المنزل جثثًا هامدة قبل ما كانوا المجرمين تلفتوا للرجال. هو قال أنو حالا شعر إنهم راحوا. بساعتها عرف من صراخ بنته الصغيرة، عرف إنهم ماتوا



لمستشفى عكا إذ كانت وصلته أنباء المجزرة وبعض ما حدث فى مستشفى عكا فى اليوم السابق. يوم الجمعة اجتمعت عزيزة الخالدى مديرة المستشفى بالطاقم الطبى العربى وطالبتهم بالمغادرة، وطلبت من الصليب الأحمر الدولى الإشراف على إخلاء المستشفى من الحالات الصعبة والأطفال. و«كان من أبرز المشاهد الأخيرة التى شهدها المستشفى يوم الجمعة، مشهد رفض الأطباء النرويجيين مرافقة السكرتير الأول فى سفارتهم للنجاة بأنفسهم، حين جاء ثانى مرة مع بعثة الصليب الأحمر الدولى لإخلاء المستشفى إذ فضّلوا البقاء مع زملائهم ومع المرضى» (ص ٣٠١).

عند وصول المسلحين إلى المستشفى صباح يوم السبت، اقتادوا الطاقم الطبى الأجنبى (كان عددهم ١٨ فى قول البعض، وأكثر قليلا فى قول البعض الآخر) وتركوا المتبقّى من المرضى (٦ حالات صعبة و٣٢ مريضا فى رعاية ممرضتين).

وشهد الأجانب كما شهد غيرهم من الأهالى أنهم فى المسيرة القسرية باتجاه المدينة الرياضية شاهدوا الجرافات وهى تواصل عملها، كانت هدمت بيوتا كثيرة (حتى أن الشارع بدا أوسع)، وشاهدوا بيوتا مهدومة وجثثا مكومة فى أطراف الأزقة وعلى جانبى الطريق. استغرقت المسيرة الإجبارية حتى الظهر، تعرض فيها الأهالى للقتل والإجبار على السير فى حقل الغام («راح باللغم ست قتلى وست مجاريح»، شهادة الحاج محمود، ص ٣٢٢)، كما تعرضوا لأشكال من الإذلال، ربما كان أخفها الشتائم البذيئة. كان عليهم أن يهتفوا: «تعيش الكتائب»، أو «يسقط أبو عمار»، أو يصفقوا أو يرقصوا. أرغموا امرأة حبلى على الرقص تحت تهديد السلاح، وكان عليها أن ترقص عنوة حتى سقطت من الإرهاق، كما أجبروا زوجها على الركوع ثم أطلقوا عليه النار. أما العجوز التى تصورت أن من يرتدون الزى العسكرى فدائيون فأطلقت العنان للفرح على عودتهم وراحت تغنى لأبى عمار فقد شرط المسلحون فمها حتى أذنيها ثم أطلقوا عليها النار فسقطت قتيلة (شهادة سهام بلقيس، ص ٣١٧). وفى المدينة الرياضية حيث تم التحقيق مع الأهالى من قِبَل القوات اللبنانية والقوات الإسرائيلية تعرضت أعداد كبيرة للخطف.

ظهر يوم الأحد ٢٠ سبتمبر دخل الجيش اللبنانى المنطقة، وبدأ المسعفون فى جمع الجثث، ودفن الضحايا.

أرقام وإحصاءات

لا مرجعية مسئولة بشأن الأعداد على الصعيد اللبنانى أو الفلسطينى: «فما من مرجعية منهما قامت بإحصاء شامل للضحايا والمخطوفين والمفقودين، وأعلنت نتائج إحصاءاتها أمام الله والتاريخ والإنسانية». (ص ٥١٧) تبعا لتقرير لجنة كاهان الإسرائيلية يقدر عدد الضحايا بين ٧٠٠ و٨٠٠، أما أرقام لجنة الصليب الأحمر الدولى كما وردت فى لجنة ماكبرايد فهى ٢٧٥٠ ضحية. تتجاوزها أرقام الصليب الأحمر اللبنانى كما وردت فى شهادة الكاتب الأمريكى رالف شونمان أمام لجنة أوسلو فتشير «نحن رفعنا ودفنا ٣٠٠٠ ضحية، ولا يشمل هذا العدد الذين بقوا تحت الأنقاض» (ص ٥٢١) وقدّر شونمان العدد بين ٤٠٠٠ و٤٥٠٠، وقدره كابليوك كاتب كتاب «تحقيق حول مجزرة» (١٩٨٣) بين ٣٠٠٠ و٣٥٠٠، وقدّر ياسر عرفات العدد بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠، وبالرجوع إلى لوائح الصليب الأحمر الدولى، ومديرية مجلس الدفاع المدنى اللبنانى، ومجلس كنائس الشرق الأوسط، ومقبرة روضة الشهيدين والأسماء التى دونها الشيخ سلمان خليل الذى كان يصلى على القتلى قبل دفنهم، ومقبرة الشهداء، ودار الفتوى ولجان أهالى المفقودين والمخطوفين وغيرها. استطاعت بيان نويهض الحوت أن تصل إلى تدقيق أسماء ١٣٩٠ ضحية، دققتها اسماً اسماً مشفوعاً فى الغالب بالعمر والوظيفة». وهى تقول بشأن الأسماء التى دققتها: «ولو كان لهذا الكتاب أن يصدر بعد عام واحد فقط، لفاقت أسماء الضحايا والمفقودين والمخطوفين ١٣٩٠، أما الذين سيكتبون عن صبرا وشاتيلا بعد عشرة أعوام فسيكون الرقم لديهم أكبر» (ص ٥٣٤). قدّرت بيان عدد الضحايا بـ٣٥٠٠، تقول: «إن أية محاولة لتقدير عدد الضحايا ...مع تقدير الحد المقبول، إن لم نقل الحد الأدنى، تصل بالعدد إلى ٣٥٠٠» (ص ٥٤٥). ويكشف البحث الميدانى عن النسب التالية:

«شهد اليوم الأول، الخميس ١٦ أيلول/ سبتمبر النسبة الأعلى من عمليات القتل، وهى نسبة ٥٦٪ من العمليات وتتضاعف أهمية هذه النسبة فى ضوء أن عمليات اليوم الأول جرت بين السادسة والعاشرة مساء وهى أربع ساعات، فى مقابل ٤٣,٤٤٪ تمت فى الـ ٣٩ ساعة الموزعة على يومى الجمعة والسبت. وفى المقابل نجد النسبة معكوسة فيما يخص المخطوفين إذ بلغت ٨٪ فى اليوم الأول، و٣٣٪ فى اليوم الثانى، و٥٩٪ فى اليوم الثالث، أى أكثر من مجموع يومى الخميس والجمعة. أما بالنسبة لجنسيات الضحايا تبعا للدراسة الميدانية التى شملت كما أسلفنا ٤٣٠ حالة. فجاءت على النحو التالى: ٤٨,٦٠٪ فلسطينيون، ٢٧,٩١ لبنانيون، ٥,٣٥٪ سوريون و١٩,٤ مصريون، وينتمى الباقون إلى جنسيات أخرى أو لا جنسية لهم. أما بالنسبة للمخطوفين فتصل نسبتهم بين الفلسطينيين ٦٦٪، و١٣٪ سوريون، و١١٪ لبنانيون، و٣٪ مصريون ثم جنسيات أخرى. ويشكل الذكور ٤٧,٧٠٪ من الضحايا، كما يشكل الأطفال دون الثانية عشرة بما فى ذلك الأجنة ٨٧,٢١٪ من الضحايا.

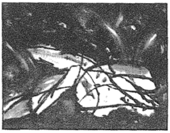
من ضحايا القسم الطبى والعاملين فى مستشفى عكا طبيبان، وممرضتان، وثلاثة مسعفين، وموظف وطباخ وحارس. وباقى الضحايا من المرضى وخصوصا الأطفال

[٣] لما كان الكتاب يعتمد بشكل أساسى على تسجيل شهادات الناجين من المجزرة الذين حكوا ما رأوه بأعينهم فإن التجربة التى يعيشها قارئ الكتاب تختلف نوعيا عن تجربة قراءة كتاب فى التاريخ. إننا أمام مادة حية، مؤثرة، موجعة، تحيط بنا أطياف قتلى عديدين، وعذابات من شاءت لهم الأقدار النجاة من موت محقق، وإن فقدوا أقرب أقربائهم أو أصدقاءهم وزملاءهم. يحكى هؤلاء الناجون ما خبروه من هول، وننصت نحن القرّاء إلى ما لديهم تماما كما قالوه باللغة المحكيّة، بلهجاتهم الفلسطينية أو اللبنانية، لهجة الجليل، أو الساحل الفلسطينى، أو الجنوب اللبنانى. تقتبس بيان مطولا من هذه الشهادات التى تشكل أساس كتابها وأحد إنجازاته الأكبر.

وهناك أيضا صوت المؤرخة ذاتها، أو أصواتها، إن أردنا الدقة، صوت باحثة تتوارى الذات فيه خلف لغة التحليل وموضوعية الدارس، يقطعه صوت آخر: صوت إنسان ذاهل، مروع مأخوذ بما توفر لديه من معارف. تنقل بيان نَصّ كلام الشهود، أو تلخّص ما حكوه، تتتبع التفاصيل، تضاهى وتقارن وتربط وتستخلص ثم تتوقف لتسأل أو تعلّق. وتشكل الأسئلة والخلاصات إيقاعا لحكاياتها، ولصوتها الذى يروى.

فى الأسئلة مزيج من أسئلة البحث، وأسئلة سياسية وأخرى وجودية، لا مفر منها أمام وقائع المجزرة:

«كم كان عدد السكان؟ وما جنسياتهم؟... وعن المقاومين الذين حاولوا التصدى: «من كان هؤلاء الشباب؟ هل كانوا فلسطينيين فقط، أم فلسطينيين ولبنانيين؟ كم كان عددهم؟ كم كان لديهم من سلاح؟ وهل كان لديهم خطة شاملة للمجابهة؟ وكيف كان يمكن الوصول إليهم لمعرفة ما جرى؟» وعن المهاجمين «من كان هؤلاء؟» «كيف دخلوا /أو..كيف اقتحموا؟»... شوهد عدد من الشباب يحمل سلاحه للتصدى: «أى حل هو الحل الأمثل: المقاومة أم التسليم؟»... «فى الأيام اللاحقة عرف الجد وأسرته أن غيرهم فى منطقتهم، بئر حسن، قد قُتل. فلماذا لم يقتلوهم كسواهم؟» الفتى مفيد ابتعد لحظة إطلاق النار، لم يُشاهد بعد ذلك أبدا. أخوه منير، ابن



الثانية عشرة، أصيب ونام بين الأموات في العراء، وكانت أمه وإخوته قتلوا: «ولكن ماذا عن اليوم التالي/أيهما سيكون أكثر حظا؟/ كيف سيكون الحظ أكثر أو أقل قليلا في أتون المجزرة؟ وكيف ستصلنا شهادة مفيدة؟... وهل استشهدت فاطمة؟» (فتاة من فَتْح ذهبت إلى مكتب الجبهة الشعبية وحصلت على سلاح وشاركت في المقاومة المحدودة في المخيم)، هي أيضا لم يعثر لها على أثر. والفتى الذي ألقى قنبلة فوسفورية على المهاجمين يوم الخميس وقيل انه استشهد (كان في الرابعة عشرة من عمره) ما اسمه؟ من هو؟».

تشركنا الأسئلة في مسار البحث الذي يتحول عبر الشهادات وصوت الكاتبة /الراوية إلى بحثنا نحن، إذ يحولنا عبر القراءة من مرويّ عليهم إلى طرف في الرواية، ورواة محتملين لها.

أما التعليقات والخلاصات المتناثرة بطول الكتاب فتجمع بين الموضوعي والذاتي، فهي ليست مجرد خلاصات بحثية بل تأملات لباحثة/ إنسان مروّع أمام ما يتعرف عليه وينقله.

نتابع مصائر الأهالي، نتابع البحث، نتابع النتائج، ولكننا أيضا نتابع هذه السيدة التي توارت خلف بحثها ونتائجها طوال عشرين عاما، فيأتي حكيها محملا بما عاشته طوال تلك الفترة قرب الأصوات والأطياف. تقول:

«في مرحلة التاريخ الشفهي كان تصوري أن مآسي مقتل العائلات كما رواها الناجون منها، هي من أكثر ما استمعت إليه مدعاة للألم. وكلما أعدت قراءة مقابلة معينة، أو أعدت الاستماع إلى شريط معين، بدا لي في كل مرة صورة مأسوية جديدة، أو لحظة مأسوية لم أكن أدركها في المرات السابقة. وطالما انتظرت الانتهاء من مرحلة التاريخ الشفهي، تصورا أو وهما مني بأن مرحلة الدراسة الميدانية، أي مرحلة التعامل مع الأرقام، أخف وطأة على النفس من التعامل مع أقوال المعذبين وأصواتهم. غير أنني كنت مخطئة» (٤٦٢).

يسهل فهم لماذا استغرق هذا العمل من بيان نويهض الحوت عشرين عاما، صحيح أن ما جمعته من مادة وما بذلته من جهد لا يتاح إنجازه إلا في سنوات، لكن التعامل مع هذه المادة هو ما استغرق هذا الوقت، وكل شهادة مفردة من الشهادات المائة والأربعين التي تعتمد عليها الدراسة لها وطأتها المربكة. ولم تكن الإحصاءات والجداول، كما تقول المؤلفة، بأقل من ذلك وطأة. (اعترتني القشعريرة، ولست سوى القارئة، وأنا أمر بعيني على أسماء أسر كاملة فلسطينية ولبنانية أبيدت بالكامل. يتكرر اسم المقداد وهي عائلة لبنانية ٣٣ مرة، ٣٣ قتيلا من نفس العائلة، كما يتكرر اسم آل محمد، وهم فلسطينيون، ١١ مرة: رجل وزوجته وأولادهم التسعة، كما راح من أسرة البقاعي اللبنانية ٨ أفراد هم الأب والابن والابنة والصهر والأحفاد. وفقدت أسرة الخطيب الفلسطينية ١١ شخصا هم الجدة والأب والأم وأولادهما السبعة. كل أسرة منها مسجل أفرادها بالاسم والسن، يشملهم ذات المستطيل الأزرق الذي استخدمته الباحثة لتعيين ضحايا العائلة أو الأسرة الواحدة). لم ألتق بمنير الطفل الصامت الذي قضى ليلة بين الجثث ومنها أمه وإخوته، ولم أمش معه في شوارع شاتيلا بعد ثماني عشرة سنة من المجزرة وهو يحكي: «أنا.. أنا أكتر شي ضايقني مش بس الموت من حولي. أنا.. كنت مش عارف إذا أمي ماتت أكيد، وإذا إخواتي ماتوا أكيد. كنت عارف إنو معظم الناس من حوالي ماتوا. وصحيح أنا نفسي كنت خايف أموت. لكن أنا ضايقني كتير إنهم (الميليشيات) كانوا يضحكوا ويسكروا ويتسلوا طول الليل. رموا علينا بطانيات وتركونا للصبح. وكل الليل كنت أسمع أصوات بنات يبكوا ويصرخوا: «منشان الله اتركونا بحالنا» يعني ما فيني إتذكر قديش اغتصبوا بنات. أنا أصوات البنات من الخوف والوجع، ما بعمري فيني أنساها». (شهادة منير في سبتمبر ٢٠٠٠، ص ١٦٠-١٦١). ولم أجلس أمام أم ربيع ولا أم أكرم، وهما تتحدثان: أم ربيع الممرضة التي أنقذت العشرات وتتكلم ببساطة كأنها «لا تقول إن والدها قتل في تل الزعتر، وإن أمها وأخاها قتلا في شاتيلا» (ص ١٧٥)، وأم أكرم التي شاهدت مئات الجثث وهي تبحث عن أولادها فجر يوم الجمعة، وتعلّق: «يا ربي لو في مقاتلين ما صار فينا اللي صار في الغابات» (ص ٦٩).

لكن بيان نويهض الحوت عايشت ذلك كله طوال عشرين عاما، سمعت أحاديث الناجين من المجزرة تفصيلا وسجلتها، وفرغتها على الورق، وكان عليها أن تحدق وتدقق في كل تفاصيلها، وتخطها بقلمها، وتصنع منها كتابا.

لا يقتصر حديث المجزرة على فاجعة القتل والخطف بل يتجاوزه إلى أمور أخرى فادحة، قد لا يفصلها الكتاب دائما، ولكنه لا يُغفل أبدا الإشارة لها ضمنا أو بشكل صريح، فيجد القارئ نفسه يسأل لماذا لم يُنشر تقرير جرمانوس أبدا، وهو التقرير الرسمي للحكومة اللبنانية (لم ينشر إلا ملخصا في الصحافة الإسرائيلية)؟ لماذا «ضاعت» لوائح الصليب الأحمر اللبناني فيما يخص أعداد الجثث عند دخول المنطقة؟ لماذا تُرك الأهالي في مواجهة المهاجمين وهم عراة تماما من أي قيادة؟ لماذا صدّقت القيادة الفلسطينية «الضمانات» الأمريكية كأنها بلا تاريخ تتعلم منه؟ هناك الجناة الذين اقترفوا الآثام المروعة، ولكن هناك مسئوليات أخرى فادحة يصعب على الباحث الأمين ألا يشير إليها.

لقد تناول المجزرة العديد من الكتاب الكبار، لعل من أبرزهم وأولهم الكاتب الفرنسي جان جنيه الذي كتب عن زيارته لشاتيلا قبل أن يدفن العديد من الجثث (أنظر ترجمتي للمقال بالاشتراك مع د. أمينة رشيد، مجلة «المواجهة»، القاهرة، ١٩٨٣)، ومنهم أيضا الكاتب الإسرائيلي آمنون كابليوك في كتابه المعروف: «صبرا وشاتيلا: تحقيق حول مجزرة»، وقدم الأجانب من الأطباء والممرضين شهاداتهم ونشرت. وتناول المجزرة العديد من الإعلاميين العرب والأجانب في مقالات صحفية وأفلام تسجيلية. ولكن هذا الكتاب، في رأيي، يتميز بميزتين فارقتين: أولهما أنه الأوفى والأشمل، والأكثر تدقيقا، ففيه بحث موثق يتجاوز كل ما سبقه من دراسات وكتابات، وهو ثانيا، في اعتماده التاريخ الشفهي، يضم شهادات وفيرة هي مصادر أولية لم تتوفر في أي بحث سابق في الموضوع، فتقدم هذا الحدث التاريخي المروع من منظور من عاشوه.

باختصار هذا كتاب مؤلم وشديد الأهمية، إنه كتاب الحدود القصوى، الشراسة والبهيمية والعنف في حدها الأقصى، والألم الإنساني في حده الأقصى، وجهد البحث أيضا في حده الأقصى.

أنتبه الآن وأنا على وشك الانتهاء من مراجعة الكتاب، أنني لم أشر لملحق الصور في نهايته. أعترف أنني حين بدأت في قراءة الكتاب، وطوال فترة قراءته، ثم العودة إليه أثناء كتابة هذه المراجعة، خلعت عنه الغلاف الخارجي الرقيق الذي يحيط بغلافه الكحلي السميك ووضعته جانبا. لم أقدر على التحديق في الصورة الملونة الكبيرة في صدر الغلاف حيث ثلاثة قتلى: فتى قتيل، بالكاد خطّ شاربه، ممدد على الأرض كاملا بملابسه، استقرت رأسه على كتف قتيل آخر، واستقرت على فخذه الأيسر قدما قتيل ثالث. لا يظهر من هذا الفتى سوى حذائه الرياضي وساقيه في بنطلون «جينز». وفي أعلى يسار الصورة، صورة أخرى أصغر لجثمان متفحم يصعب تبين شيء من ملامحه. كان التعايش مع تلك الصورة محنة حقيقية، لم أحدق طويلا في ملحق الصور. الكتاب بهذا المعنى هو أيضا كتاب الحد الأقصى فيما يثيره في القارئ من مشاعر.

رحم الله الشهداء، وأعز السيدة التي أرادت بكتابها القيّم أن توفي ببعض ما ندين لهم به. ■

التجربة التي يعيشها قارئ الكتاب تختلف نوعيا عن تجربة قراءة كتاب في التاريخ. إننا أمام مادة حية، مؤثرة، موجعة، تحيط بنا أطياف قتلى عديدين، وعذابات من شاءت لهم الأقدار النجاة من موت محقق

موالد الأقباط فى مصر

كلوديا وينز

ينظر الأقباط المسيحيون من أصل مصرى، إلى وطنهم مصر باعتباره بلدًا مباركًا بصفة خاصة حيث إنه المكان الوحيد خارج الأرض المقدسة الذى وضع فيه المسيح عيسى قدمه عندما لجأت العائلة المقدسة إلى مصر فرارًا من اضطهاد «هيرودس». ويعتز الأقباط بتاريخ عقيدتهم وكنيستهم والذى يرجع إلى يوم وصول القديس مرقس الرسول إلى الإسكندرية والذى جلب معه مباشرة ودون

Coptic Life in Egypt
(حياة الأقباط فى مصر)
Claudia Yvonne Wiens
Auc Press, 2003, 128p. L.E. 150.00

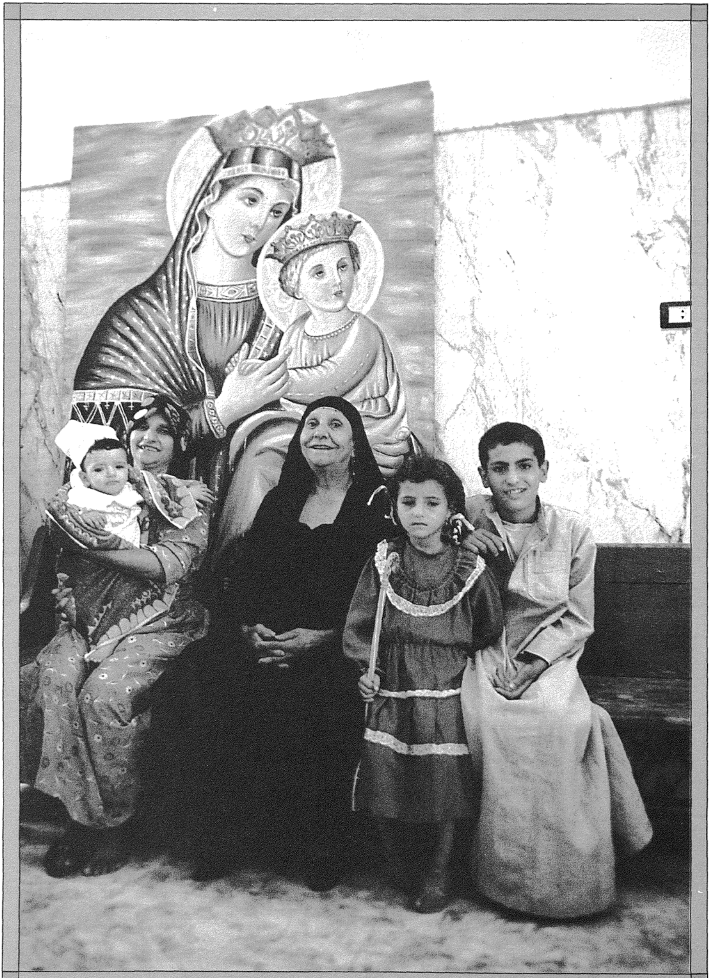
وساطة القداس الأصلى الذى أقامه السيد المسيح. وكان سيريل الأول وهو البطريرك الرابع والعشرون للكنيسة القبطية. قد قام لاحقًا بجمع وترتيب هذا القداس الذى كان قد ترجم إلى اللغة القبطية فأصبح أول قداس مسجل. وقد شكلت عقيدة الشهداء الأقباط الأوائل إلهامًا مستمرًا للمسيحيين فى كل مكان. كما كانت مصر أيضًا المهد الأصلى للنظام الرهبانى فى المسيحية ترسمًا لخطى القديس أنطونيوس فى صحراء مصر الشرقية فى القرن الرابع للميلاد، كما كانت المدرسة الدينية الشفهية بالإسكندرية منارة لتطور الفكر وحماية العقيدة عند الكنيسة المسيحية الأولى. وقد ظل الأقباط المعاصرون ثابتين على إيمانهم وفخورين بتراثهم الذى كانت له إسهامات جوهرية معروفة فى الديانة المسيحية ككل.

ويشرح هذا الكتاب بالكلمات والصور حياة الأقباط فى مصر من منظور زائر أجنبى: كيف يمارسون شعائر دينهم، وكيف حافظوا على التقاليد القديمة حية، وكيف ينعكس كل ذلك على حياتهم اليومية فى صورة الموالد وهى عبارة عن احتفالات بأعياد ميلاد أو استشهاد القديسين يحضرها آلاف الناس من المسيحيين والمسلمين. كما نفذ المصور الفوتوغرافى إلى حياة جامعى القمامة المصريين الذين يطلق عليهم الزبالين ويعملون مسيحيين ومسلمين فى نفس المهنة، كما يصف عملهم وكيف تحسنت حياتهم ومستقبل أبنائهم بدرجة كبيرة نتيجة لتلبية حاجاتهم الأساسية من مساكن ومدارس ورعاية صحية عن طريق البرامج الاجتماعية الحكومية وغير الحكومية.

ويحتفظ قداسة البابا شنودة الثالث بابا الأقباط بصلة حميمة مع رعاياه من خلال لقاءاته العامة الأسبوعية المنعقدة كل أربعاء والتى يحضرها مئات الأقباط. ومن الواضح أن قربه منهم وسهولة الالتقاء به كان لهما أعمق الأثر على طريقة حياة الأقباط وممارستهم لشعائر دينهم.

يسرية لوزة ساويرس





يحتفل كل من المسلمين والأقباط فى مصر بموالد (أعياد ميلاد) القديسين والشهداء والأولياء.

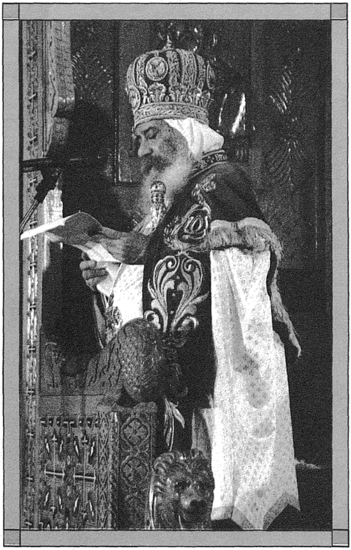
ويحتفل العديد من الناس بالموالد المسيحية فى شكل رحلات حج سنوية للأضرحة. وتنتمى الموالد إلى الديانة الشعبية والتى تضم أيضا العديد من جوانب الحياة الشخصية والاجتماعية. ويختلف السلوك والتقاليد الدينية عند العامة كثيرا عنه فى الكنيسة الرسمية رغم وجود بعض التطابق أحيانا. ولمعظم طقوس الديانة الشعبية جذورها فى التراث الدينى لمصر الفرعونية. وكان المعتقد الدينى كما كانت الحياة الأخرة هو دائما ما يحكم السلوك الدينى عند المصريين وهو عامل ساعد دون شك فى قبول الديانة المسيحية. فقد آمن الأقباط أن الناس يعيشون حياتهم انتظارا لدخولهم الفردوس، ولذلك كانوا يعتبرون موت قديس أو شهيد كيوم ميلاد. ولم يتطور ذلك إلى مراسم جنازة إلا فى القرن الرابع للميلاد. وكان الأقباط حتى العصور الحديثة ينظرون إلى استشهاد قديس كولادة ثانية له فى الحياة السرمدية. وواصل العديد من الناس اتباع تقاليد أسلافهم الفراعنة، وجرى استبدال الآلهة الفرعونية بالقديسين والشهداء الذين أصبحوا موضع توقير وتبجيل. وبعد وقت قصير أصبح لكل مستعمرة رعاتها الخاصون من القديسين والشهداء الذين شيدت لهم الأضرحة والمقابر التى تضم رفاتهم والتى أصبحت موضع تبجيل وصلاة. وقد ارتبط كل قديس وكل شهيد بقصص خارقة تتناسب مع ظروف استشهاده. وكان للقديسين والشهداء هوية دينية حقيقية وملموسة أكثر من التعاليم المجردة للديانة الرسمية.

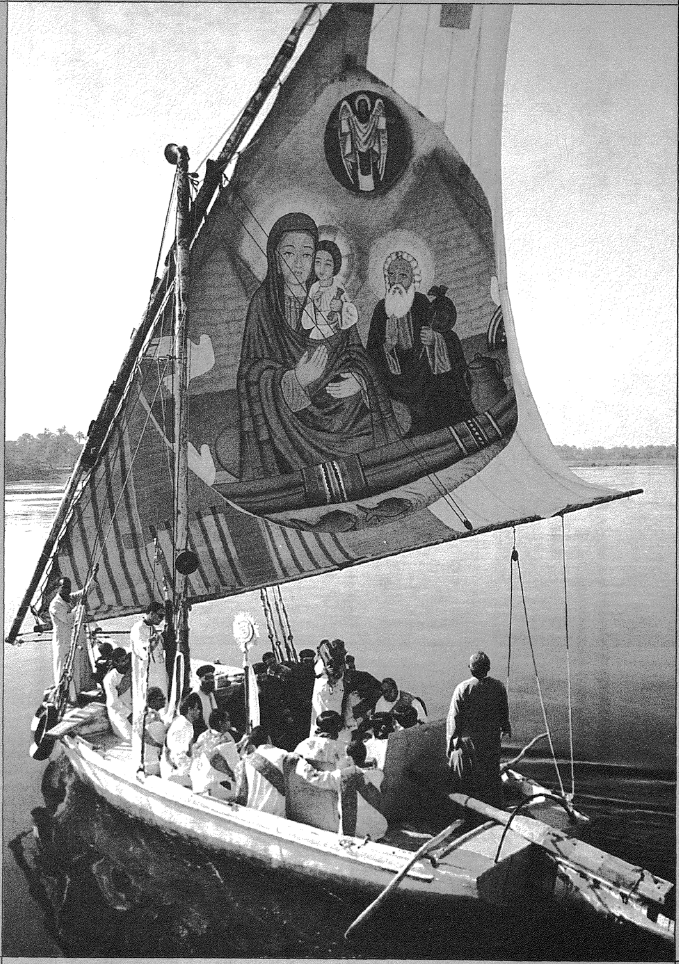
وسرعان ما أصبحت مقابر وأضرحة القديسين مكانا لإقامة موالد سنوية. حدث ذلك فى الأديرة والكنائس والبقاع المقدسة الأخرى. وتشكل الأحداث الخارقة المرتبطة بأحد الموالد جانباً مهماً منه. ولتلك الظواهر تاريخ طويل راسخ وينتظر أن تتكرر بانتظام. وهى الدليل الإلهى على قدسية الاحتفال.

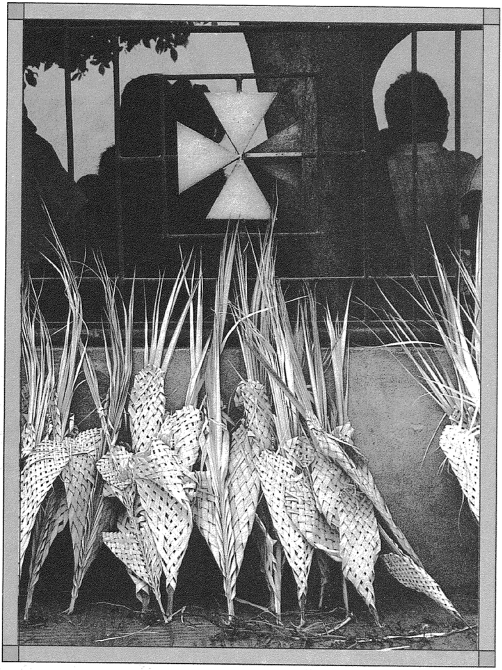
وتنقسم تلك المعجزات إلى نوعين. فهناك التى تتعلق بالأفراد مثل منح الخصوبة للنساء العاقرات وعلاج المرضى العقليين أو العصبيين أو طرد الأرواح الشريرة أو استعادة المفقودات أو المسروقات. وهناك الرؤى مثل نور أو طيف السيدة العذراء فى صورة ضوء ساطع مثلما حدث عدة مرات فى أغسطس ٢٠٠٠ بكنيسة القديس مرقس بأسيوط. وقد صدرت الأضواء من أبراج الكنيسة حتى تجمعت لتشكل صورة مريم العذراء. ويؤكد العديد من المؤمنين أنهم شاهدوا رؤى ببقاع مقدسة. ويحضر الموالد العديد من المرضى العقليين أو العصبيين والنساء العاقرات والحجيج الآخرين آملين فى الشفاء أو البركة.

وليست معظم الموالد مجرد أحداث جادة فقط بل هى أيضاً مناسبات حافلة باللهو والبهجة. ويشبه المولد السنوى بدير المحرق بمصر الوسطى والذى يستمر عشرة أيام، متنزهاً كبيراً أو مدينة ملاه. فالموسيقى عالية والناس يرقصون والباعة يبيعون السلع التايوانية الرخيصة والمكسرات والفاكهة وصور القديسين. ولا تخطئ العين محترفى رسم الوشم الذين يَشِمُون الصليب القبطى على معاصم الأقباط. وهم أيضاً يرسمون بالوشم صوراً أكبر للقديسين على الأذرع والأكتاف. ويقدر عدد الحجيج إلى دير المحرق بحوالى خمسين ألف شخص سنويا. وبالنسبة للفقراء من الأقباط والذين يشكلون نسبة عالية فى مصر الوسطى فإن فترة المولد هى عادة العطلة الوحيدة التى يمكن أن يتحملوا نفقاتها. وهم ينصبون خيامهم حول الدير لعدة أيام ويقومون بزيارة الكنائس للصلاة والتوسل ويتمسحون بالأضرحة وصور القديسين من أجل تحقيق الشفاء والحصول على البركة. وتقوم الكثير من العائلات بتقديم الأضحية من الأغنام والماعز. ويجرى ذبح تلك الأضحية فى سلخانة الدير ثم يباركها قسيس أو راهب وبعد ذلك يجرى توزيعها.

وتعتبر الموالد أيضاً مناسبة طيبة لتعميد المواليد الجدد. ومن المألوف بالنسبة للرهبان القساوسة أن يقوموا بتعميد مئات المواليد أثناء مولد يستغرق









مـوالـد الأقـبـاط في مصـر

أياماً قليلة. والتعميد هو أول الطقوس المسيحية وأهمها على الإطلاق، فبدونه لا يمكن أداء باقى الطقوس الأخرى، فهو شرط أساسى للخلاص ودخول ملكوت الرب طبقا لكلمات عيسى: «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح» (يوحنا ٣:٥). ويجرى أثناء التعميد تجديد روح المولود من خلال غمره فى الماء ثلاثا باسم الآب والابن والروح القدس وبذلك يكون قد توحد مع المسيح وهيئة الكنيسة. ويجب تعميد المواليد فى أسرع وقت ممكن بمجرد بلوغهم سن ثمانين يوماً للبنات أو أربعين يوماً للغلمان، فخلال تلك الفترة التالية للولادة تعتبر المرأة غير طاهرة ولا يسمح لها بالمشاركة فى المراسم الدينية مثل التناول أو التعميد. وفى حالة المرض أو خشية وفاة المولود خلال تلك الفترة يمكن لشخص آخر غير الأم أن يأخذه للكنيسة. وبعد غمر المولود فى الماء ثلاثًا ترسم شارة الصليب اثنتين وثلاثين مرة بالزيت على بشرة المولود ذكراً كان أم أنثى.

ويبجل الأقباط الكثير من الشهداء والقليل من القديسين. وتتبوأ السيدة العذراء المكانة العليا وتحوز القدر الأكبر من التبجيل. فلها وحدها وعلى شرفها يقام اثنان وثلاثون احتفالاً سنوياً.

ومن الأسباب الأخرى لرحلات الحج التقليد العريق والدءوب الذى يساند رواية الإنجيل عن فرار العائلة المقدسة إلى مصر (متى ١٣:٢ ، ١٥). وتقام كثير من الاحتفالات فى البقاع التى يعتقد أن العائلة المقدسة نزلت بها أثناء فرارها. ويقام أحد تلك الاحتفالات التذكارية كل عام فى الأول من يونيو بمنطقة دير أبو حنيس بمصر الوسطى. ويقوم أسقف ملوى فى هذا الاحتفال ومعه أسقفان آخران والعديد من كبار الكهنة بعبور النيل فى قارب شراعى بديع الزينة. ويرمز عبور النهر إلى رحلة العائلة المقدسة على سطح النيل. ويتبع آلاف المؤمنين القارب الشراعى إلى الضفة الأخرى للنهر. ومن هناك يتحرك الركب إلى قمة جبل كوم ماريا منشدين الأغانى المقدسة البهيجة أثناء مرورهم بالكنائس وبدير أبو حنيس فى طريقهم. ويشتهر جبل كوم ماريا بمنح الخصوبة للنساء العاقرات. ويمكن للمرء بين الحين والآخر أن يلمح امرأة تتجول بالجبل وتصلى من أجل الخصوبة. وتنصب بأعلى الجبل خيمة لكبار الكهنة والخدم الذين يحيون ذكرى زيارة العائلة المقدسة لتلك المنطقة. ويستمر أحد الطقوس لبضع ساعات يغنى خلالها الأطفال وتلقى الخطب. ويتجمع آلاف الحجيج



خارج خيمة الاحتفال للمشاركة فى إحياء الذكرى.

ويقام بكنيسة السيدة مريم العذراء بجبل الطير فى مصر الوسطى احتفال آخر على شرف العائلة المقدسة وبخاصة السيدة العذراء. وطبقاً للتقاليد فتلك هى البقعة التى شعرت فيها مريم بالخوف على سلامة عيسى حيث أوشكت صخرة هائلة أن تهوى عليهم، ولكنه بسط يده وأزاح الصخرة بعيداً. ويقال أن عيسى ترك أثر كفه مطبوعا فى ذلك المكان. ويأتى الحجيج من كل مكان قاص ودان عبر النيل ويتجمعون فى موكب بهيج من الغناء وقرع الطبول.

ويقام عند دير العذراء فى درنكة على بعد عشرة كيلومترات من أسيوط فى شهر أغسطس من كل عام ولمدة خمسة عشر يوماً مولد آخر شديد الازدحام. وتوجد بسفح التل مدينة ملاه ضخمة تضم أرجوحة دوارة وألعاباً أخرى. وقد اجتذب هذا المولد فى أغسطس ٢٠٠١ أكثر من عشرين ألف شخص نظراً لتكرار رؤية أطياف الضوء فى ليال عديدة. وقتها شعر المؤمنون أن الله معهم. ■

هــذا الكتــــاب..

اهتمت معظم الكتب الفوتوغرافية السابقة التى تناولت المسيحيين المصريين بتصوير التراث الفنى والمعمارى القبطى فحسب، أما هذا الكتاب فيقوم بالتركيز على التقاليد الدينية والحياة الاجتماعية للناس العاديين من أقباط مصر والذين اعتادوا أن يبرزوا معتقداتهم ويظهروها من خلال التذكارات والرموز المسيحية فى المحال والمتاجر، بل وأماكن العمل. وهو يكشف بذلك عن جانب شبه مجهول للدين المعاش فى واحد من المجتمعات المسيحية لا يدرى بها الكثيرون فى العالم الغربى.

ينقسم الكتاب الصادر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة إلى سبعة فصول، يبدأ كل منها بمقدمة وجيزة تشرح خلفية الطقوس والتقاليد والعقائد التى جسدتها كلوديا وينز فى صور فوتوغرافية.


ماك
متواجد في مراكز

أزمة البحث العلمى فى مصر

نبيل عبد المجيد صالح

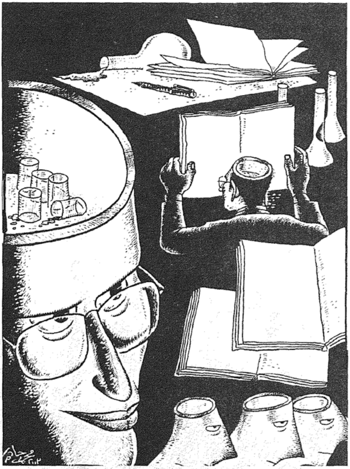
أكثر من ثمانية آلاف براءة اختراع بالهند لعام ١٩٩٩ منها ٢٢٤٧ من داخل الهند، بينما كل ما سجل من براءات اختراع فى مصر لا يتعدى الخمسمائة فى العام نفسه. ومؤشر آخر هو عدد البحوث المنشورة عالميًا، فالهند نشرت ما يوازى ٢,١٪ من الأبحاث المنشورة عالميًا خلال الأعوام ١٩٩١ - ٢٠٠٠ بينما مصر لم تصل إلى ٠,٥٪

فى عصرنا الحالى يقاس التقدم الاقتصادى والاجتماعى لأى دولة بمدى تقدمها العلمى لما يسهم البحث العلمى فى التقدم الصناعى والزراعى والغذائى والصحى للدولة من خلال التطوير والابتكارات التى تؤدى إلى صناعات جديدة ومنتجات جديدة قادرة على المنافسة على المستوى العالمى وبالتالى إلى رفع الدخل القومى وخلق فرص جديدة للعمل.

لقد آن الأوان لأن يلعب البحث العلمى دورًا أساسيًا فى اقتصاديات البلد . حتى نتحول إلى دولة منتجة للتكنولوجيات وليس دولة مستخدمة ومستوردة لها فقط. وإذا ما استمررنا على هذا النمط من مستخدم للتكنولوجيا بدلاً من منتج لها، فسوف ننتهى مثل غالبية الدول النامية التى تزداد فقرًا وجهلاً بدلاً من الخروج من هذه الدائرة المغلقة. ولنتعلم مما يحدث فى أوروبا من تطوير لوحدة أوروبية تتطور فيها الدول النامية ودول شرق أوروبا سابقًا وتنضم للوحدة الأوروبية على قدم المساواة بالدول الصناعية وتأخذ طريقها للحاق بقطار التنمية من خلال التخطيط العلمى السليم.

إن الفكر القديم مبنى على التغيير المتتابع ولكن الفكر الجديد فى التنمية مبنى على أساس التغيير المتزامن. ومن هذا المنطلق، فإن أى تغيير أو تحسين فى الأداء بالنسبة للبحث العلمى لن يؤتى ثماره إلا إذا كان مبنيًا على أساس التغيير المتزامن والمتكامل. وهذا لن يتأتى إلا إذا كان التغيير شاملاً فى كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والبحث العلمى والصناعة والزراعة وخلافه. ولتنفيذ هذه الخطة لابد من تضافر كل الأطراف باستخدام أحدث أساليب الإدارة وتجنيد كل الإمكانيات لوضع سياسات طويلة المدى واستراتيجيات خادمة لهذه السياسات واضعين نصب أعيننا إيجابياتنا وسلبياتنا وتعظيم الاستفادة من الإمكانيات الحالية وتطويرها.

منذ إنشاء جامعة القاهرة فى ١٩٠٨ توالى إنشاء باقى الجامعات ثم المركز القومى للبحوث فى ١٩٥٦ وهيئة الطاقة الذرية فى ١٩٥٧ وكانت هناك قاعدة عريضة للعلماء فى العديد من التخصصات حتى أواسط الستينيات



على مستوى علمى لا يقل عن قرنائهم فى الغرب ثم بدأ التذبذب فى المستوى العلمى إلى أن انتهينا إلى الوضع الحالى. ويكفى أن ننوه هنا إلى أن مصر كانت ضمن مجموعة دول عدم الانحياز والتى كانت تضم فى حينه الهند، وكانت هناك اتفاقيات للتعاون العلمى بين البلدين ولكن للأسف لم نستفد من هذه الاتفاقية. وها هى الهند بدأت تجنى ثمار التخطيط العلمى والطفرة العلمية التى بدئ فى التخطيط لها فى حينه وبدأت حاليًا فى التحول إلى دولة منتجة للتكنولوجيات. ومن المؤشرات التى تؤكد هذا أنه تم تسجيل أكثر من ثمانية آلاف براءة اختراع بالهند لعام ١٩٩٩ منها ٢٢٤٧ من داخل الهند، بينما كل ما سجل من براءات اختراع فى مصر لا يتعدى الخمسمائة فى العام نفسه. ومؤشر آخر هو عدد البحوث المنشورة عالميًا فالهند نشرت ما يوازى ٢,١٪ من الأبحاث المنشورة عالميًا خلال الأعوام ١٩٩١ . ٢٠٠٠ بينما مصر لم تصل إلى ٠,٥٪.

إن حالة البحث العلمى فى مصر ليست سيئة على إطلاقها فهناك إيجابيات إلى جانب السلبيات وسنوردهما معًا فيما يلى بالإضافة إلى بعض المقترحات لتطوير التعليم العالى والبحث العلمى فى مصر.

الإيجابيات

القاعدة العلمية: هناك قاعدة علمية عريضة على مستوى علمى رفيع ولكن الحفاظ عليها فى وجود السلبيات سوف يكون صعبًا مع مرور الزمن حيث ستتضاءل النسبة الجيدة والمنتجة بالمقارنة بالنسبة غير المنتجة مما يحتم إعادة النظر فى السلبيات (خاصة المرتبطة بالأخلاقيات) والتصدى لها من الآن. ومن التخصصات التى لها قاعدة قوية فى مصر هى الكيمياء والعلوم الصيدلية وعلوم البيئة وبعض التخصصات الزراعية وبعض التخصصات الهندسية (بما فيها الرى) إلى جانب بعض التخصصات الطبية.

الإمكانيات الأساسية: قاعدة عريضة من حيث الإمكانيات والتجهيزات مثلاً

في مصر لا تشارك الصناعة بأي شكل فعال في البحوث والتطوير. ومن الصناعات القليلة التي كان لها بعض الأنشطة في البحوث والتطوير هي صناعة الدواء وبعض الصناعات الهندسية ولكنها لا ترقى إلى المستوى المنشود لسد حاجة هذه الصناعات في هذا العصر التكنولوجي.

١٣ جامعة حكومية و٤ جامعات خاصة (واثنين تحت الإنشاء) وأكثر من مائة مركز بحثي حكومي. ولكن الكثير منها ينقصها التجهيزات الحديثة المواكبة للعصر التكنولوجي الحديث والقوى البشرية محتاجة إلى التعليم المستمر ورفع مستواها العلمي كما أن هناك نقصاً شديداً في الكوادر الفنية والعمالة المساعدة والملمة بأحدث التكنولوجيات.

السلبيات

سياسات العلم والتكنولوجيا: عدم وجود سياسة للدولة في مجال العلم والتكنولوجيا يعتبر من أهم العوامل السلبية التي أدت إلى عدم وجود استراتيجيات واضحة للبحث العلمي. وقد جرى في الثمانينيات والتسعينيات عدة محاولات لوضع سياسة للدولة وشارك فيها العديد من الخبراء في مجال البحث العلمي والإدارة والاقتصاد وانتهت بتقارير وتوصيات تم حفظها ولم تر التطبيق بأي شكل من الأشكال. وهناك بعض السياسات القطاعية (مثل الزراعة والري) ولكن لا ترقى إلى سياسة متكاملة للدولة يمكن أن تستفيد من الإمكانيات خارج هذه القطاعات، كما هو الحال في حالة وجود سياسة عامة للدولة تربط ما بين كل المؤسسات البحثية والتنفيذية.

التمويل: لا يزيد الصرف على البحوث والتطوير في مصر عن ٠,٣٥ من الدخل القومي. وإذا ما قورنت هذه النسبة بالدول العربية فسوف نجد أنه يمكن تقسيمها إلى أربع فئات: مصر والأردن ٠,٣٪ وأكثر والكويت والمغرب واليمن والسودان وموريتانيا ٠,٢-٠,٣٪ وسوريا والسعودية والإمارات وتونس ٠,١-٠,١٩٪ وباقي الدول العربية أقل من ٠,١٪. وهذه الأرقام من واقع دراسات اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا والتابعة لهيئة الأمم المتحدة. وهذه النسب لا تضاهي ما تصرفه الدول المتقدمة علمياً والتي تصل نسبتها إلى ٣٪ (ومنها إسرائيل ٢,٤٪) وفي الدول المتقدمة يتم مشاركة الصناعة بما يوازي ٥٠-٧٥٪ من هذه النسبة أي أن نصيب الدولة لا يقل عن ٠,٥-١,٥٪. وفي مصر لا تشارك الصناعة بأي شكل فعال في البحوث والتطوير. ومن الصناعات القليلة التي كان لها بعض الأنشطة في البحوث والتطوير هي صناعة الدواء وبعض الصناعات الهندسية ولكنها لا ترقى إلى المستوى المنشود لسد حاجة هذه الصناعات في هذا العصر التكنولوجي.

الأخلاقيات: وإذا تحدثنا عن الأخلاقيات في البحث العلمي فهناك شقان، الأول يتعلق بأخلاقيات البحث العلمي من حيث نوعية الأبحاث وتطبيقاتها وعلاقاتها بالمعايير الأخلاقية والدين وما هو مباح وما هو محرم وهذا ليس مجال الحديث هنا. والشق الثاني يتعلق بنوعية الباحث ومدى تمسكه بالقيم والأخلاقيات والتفرقة ما بين الصواب والخطأ، وهذا الشق هو ما سيتم التركيز عليه. فمن السلبيات الكبيرة والمؤثرة على البحث العلمي في الجامعات ومراكز البحوث هي ظهور طبقة من المنتفعين من الفجوات في القوانين واللوائح إلى جانب أن الوظيفة أصبحت مضمونة للعمر بدون محاسبة أو تقييم حقيقي والنتيجة ضحالة المستوى العلمي وعدم المقدرة على مجاراة المستوى العلمي العالمي. كما أصبحت قصص البحوث المسروقة أو المكررة حديث الصحافة وبدأت تؤثر على مدى قبول الباحث المصري في المجتمعات العلمية العربية والعالمية.

من السلبيات أيضاً أن المجلات العلمية المحلية والمحكمة محلياً والكثير منها حتى لا تحكم الأبحاث مما تسبب عنه استسهال النشر بها لعدم رفض البحوث بها وبعكس ما هو متبع في الخارج من تحكيم علمي بدون مجاملات. والنتيجة أن الأبحاث والمجلات المحلية لا يعلم عنها المجتمع العلمي العالمي (أو حتى المجتمع العلمي المحلي) أي شيء.

كما أن رسائل الماجستير والدكتوراة أصبحت روتينية والتحكيم الخارجي شبه غير موجود إلا في النادر (مثل بعض كليات جامعة القاهرة). ومن النادر وجود حالات ترسب في الدراسات العليا.

ثم إن الترقيات أصبحت شبه روتينية وداخلية بمعنى عدم وجود محكمين دوليين. والمجاملات أصبحت السمة الغالبة.

والتعيينات يشوبها الكثير من الروتينية بناء على الثلاثة أسباب السابقة بدلاً من تعيين أحسن الموجودين من خلال الإعلان عن الوظيفة ولو من خارج الجامعة أو مراكز البحوث.

أيضاً لا يوجد نظام صارم للثواب والعقاب يكافأ المجيد ورادعاً للمخطئ وفي غالبية الأمور يتم التحقيق ثم يحفظ ونادراً ما يحول إلى مجالس التأديب ولم تؤد حتى هذه النسبة الضئيلة من مجالس التأديب إلى عقاب رادع وأقصاها التأنيب أو اللوم.

استراتيجية جديدة

إذا درسنا وضع البحث العلمي في الدول المتقدمة وبعض الدول النامية والواعدة، فسوف نجد أن الصفة المشتركة هي وجود سياسات واستراتيجيات للعلم والتكنولوجيا والابتكار. ويلاحظ أن معظم هذه الدول أعطت أهمية كبيرة لموضوع الابتكار. وإذا كان القاسم المشترك بين هذه الدول هو وجود سياسات واستراتيجيات، فليس لدى كل هذه الدول وزارة للبحث العلمي. بل مؤسسات تتبع رئيس الدولة (أو رئيس الوزراء. حسب الوضع الدستوري). وليس المجال هنا سرد هذه التجارب بقدر الوصول إلى أحسن الصيغ التي تخدم البحث العلمي في مصر. وأهم نقطة يجب التركيز عليها أن كل الدول المتقدمة لها سياسات واستراتيجيات للعلم والتكنولوجيا، كما يتضح أن مصر قد سبق لها دراسة هذا الموضوع كما ذكرنا سالفاً ولكن لم تر هذه الدراسات الضوء. وقد آن الأوان لوضع هذه الدراسات نصب أعين واضعي السياسات بالدولة، لأنه بدون سياسات أو استراتيجيات فسوف يقتصر دور البحث العلمي على المجهود الفردي للسادة البحاث. وسوف يرضى الكثيرون بعدم بذل مجهود في مجال لم يطلب منهم عمل كجزء من منظومة متكاملة وهو ما يجب أن يكون عليه البحث العلمي كجزء أساسي من منظومة التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

وبناء عليه يقترح إعادة النظر في الدراسات السابقة وتحديثها واضعين في الاعتبار النقاط التالية:

١. إنشاء آلية ثابتة ومحايدة وبعيدة بقدر المستطاع عن التأثير السياسي للوزارات المختلفة لوضع ومتابعة وتعديل مسار وتنفيذ سياسة العلم والتكنولوجيا.

٢. تجميع الدراسات السابقة بما فيها النابعة من اللجان الخاصة بمجلسي الشعب والشورى وتلخيصها وعرضها كنقطة بداية قابلة للتغيير والتطوير.

٣. دراسة تجارب الدول المتقدمة والنامية للخروج بأنسب التجارب التي يمكن تطبيقها تحت الظروف المحلية.

٤. استخدام الطرق الحديثة للاستشراف المستقبلي لمتطلبات كل قطاع مثل الدلفي (Delphi) والتي تم تطويرها إلى برامج مثل Foresight والمستخدمة في الدول المتقدمة صناعياً.

٥. مشاركة جميع قطاعات البحث العلمي (جامعات ومراكز بحوث) والجهات المستفيدة الحكومية والخاصة (الصناعية والزراعية والصحة.. إلخ) والجهات التنفيذية (التخطيط والتمويل،

من السياسات الكبيرة والمؤثرة على البحث العلمي في الجامعات ومراكز البحوث ظهور طبقة من المنتفعين من الفجوات في القوانين واللوائح إلى جانب أن الوظيفة أصبحت مضمونة للعمر بدون محاسبة أو تقييم حقيقي

الخارجية.. إلخ) فى وضع الخطوط العريضة لسياسة الدولة للعلم والتكنولوجيا والابتكار.

٦. تشجيع الصناعة على المشاركة فى إنشاء وحدات للبحث والتطوير، إلى جانب المشاركة فى التمويل (مهما قل فى البداية).

وبالنسبة لمشكلة التمويل يجب أن نضع نصب أعيننا أن الاستثمار فى البحث العلمى هو ضمان للتنمية المستقبلية قصيرة وبعيدة المدى وأن العائد لا يقدر بثمن. وبناءً على الدراسات والمقترحات التى تتبع من المقترح تحت بند (١.٤) يتم وضع ميزانية مفصلة للعلم والتكنولوجيا على أن تكون مصادر التمويل كالتالى:

١. الدولة: يتم زيادة المنصرف حتى تبلغ ١.٥، ١٪ من الدخل القومى فى خلال خمس سنوات. على أن يتم التركيز على العلوم الأساسية ورفع مستوى المعرفة أساساً لدعم قاعدة علمية على أعلى مستوى، مع تشجيع ودعم البحوث التطبيقية والابتكار وبراءات الاختراع.

٢. الصناعة: يتم إنشاء صناديق لتمويل البحوث التطبيقية والإنتاجية والابتكارات الخاصة بالصناعة على أن تتولى الصناعة بالتعاون مع وزارة البحث العلمى فى وضع الأولويات المطلوبة للصناعة من منتجات جديدة وطرق إنتاج جديدة. خاصة المنتجات التى يمكن تسويقها إقليمياً وعالمياً.

٣. التمويل الدولى: هذا التمويل مرتبط بالعلاقات الدولية والبحوث والبرامج المشتركة مع الدول النامية والدول العربية أو الدول المتقدمة صناعياً والتى لها منفعة مشتركة مع مصر. وهناك العديد من الاتفاقيات التى يمكن أن تخدم سياسة واستراتيجيات الدولة فى مجال العلم والتكنولوجيا كما هو مشروح فى الجزء الخاص بالتعاون الدولى.

إعادة هيكلة البحث العلمى:

هناك حاجة ماسة إلى إعادة النظر فى هيكلة البحث العلمى، ويوجد أكثر من سيناريو يمكن دراستها بطريقة عملية وعلمية وصولاً لأحسن الأشكال التى يمكن أن تخدم اقتصاد البلد فى هذه الفترة. خاصة بعد تطبيق اتفاقية الجات، حيث سيتم تقييم المنتجات الصناعية والزراعية وخلافه وليس ببعيد أن يتم تقييم مستوى التعليم الجامعى وتصنيفه مقارنة بباقى العالم.

وبناء عليه فقد آن الأوان للتفكير فى أن تتولى وزارة البحث العلمى مسئولية وضع السياسات والاستراتيجيات، بينما يتولى جهاز آخر مسئولية إدارة مراكز البحوث إدارياً ومالياً. حتى تتفرغ الوزارة للتخطيط على المستوى القومى وهناك عدة حلول يمكن دراستها وصولاً إلى الحل الأمثل. وهذا يتطلب تضافر كل الوزارات والجهات المستفيدة فى هذا المجهود، ضماناً لوضع سياسة متفق عليها ولتطبيقها من خلالهم بالتعاون مع باقى الجهات البحثية الحكومية والخاصة.

وقد كان هناك تفكير فى إحدى الفترات نحو تخصيص البحث العلمى، وهذا غير وارد أو مقبول ضماناً لعدم تحكم جهات غير حكومية فى سياسة الدولة للبحث العلمى. وإذا كان الدافع لهذا التفكير أن حوالى ٧٥٪ من تمويل البحث العلمى فى الدول المتقدمة تمويل خاص فيجب أن نفهم أن هذا راجع لأن الصناعة فى الدول المتقدمة قطاع خاص، والشركات الصناعية العملاقة لديها إمكانيات للبحث والتطوير تفوق فى كثير من الأحيان المعامل والمراكز الحكومية البحثية هناك. ولكن يمكن الاستفادة من فكرة خصخصة أداء مراكز ومؤسسات البحث الحكومية من خلال الصناديق الخاصة أو الوحدات ذات الطابع الخاص وغيرها من الأفكار البناءة إلى جانب استخدام سبل الإدارة الحديثة فى التسويق ودراسات السوق والجدوى.

ومن سلبيات ضم وزارتى البحث العلمى مع التعليم العالى أن حجم الوزارتين أصبح عبئاً كبيراً مع الاعتراف بأن وزارتى التعليم العالى والبحث العلمى مشتركتان فى الكثير، ولكن التعليم الأولى مشترك أيضاً مع التعليم العالى فى الكثير وقد تم فصلهما. وقد يكون الحل هو ثلاث وزارات منفصلة: التعليم الأولى والتعليم العالى والبحث العلمى، على أن يجمعهم مجلس للتعليم والبحث العلمى يكون مسئولاً عن السياسات المشتركة والتكامل بين الثلاث وزارات ملحق به مكتب فنى يعمل مع الثلاث وزارات. وفى غالبية الدول المتقدمة تضم الثقافة إلى التعليم والبحث العلمى، ضماناً لتضمين الثقافة مع التعليم عامة. وهو ما ينقصنا كثيراً فى نظم تعليمنا عامة.

إن إعادة الهيكلة قد تكون عنق الزجاجة بالنسبة لمؤسسات البحث العلمى لتنطلق نحو تنفيذ سياسة الدولة. وهذا سوف يتطلب إعادة النظر فى أكثر من قطاع على النحو التالى:

التعليم: إذا اعترفنا بأن نسبة الأمية قد وصلت إلى حوالى ٥٠٪ من الشعب حسب آخر إحصائيات الأمم المتحدة فهذا سوف يضع العبء على الدولة للإسراع بمحو الأمية بطريقة فعالة وليس مجرد شعارات. وإذا وضعنا فى الاعتبار أن دراسات الأمم المتحدة تشير إلى أن العائد من الصرف على التعليم أعلى من العائد على التعليم العالى، فهذا دافع فى حد ذاته للصرف على تطوير التعليم حتى يتم محو أمية ما لا يقل عن ٩٥٪ من الشعب. وهناك بعض الأفكار التى يمكن أن تكون نقطة بداية ولابد أن هناك أفكاراً أكثر شمولاً فى وزارة التعليم ولا ينقصها إلا التمويل المناسب للتنفيذ، وعلى سبيل المثال:

١. مطلوب تنمية قدرات المعلم والمعلمة والمدرسة من خلال التعليم المستمر سواء من الناحية العلمية لكل تخصص أو من الناحية التربوية، كما يجب أن تستخدم أحدث أساليب التعليم الحديثة لتعليم الأطفال كيفية التفكير العلمى السليم وليس مجرد الحفظ مع تغيير وتطوير شكل الامتحانات.

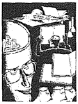
٢. إدخال تكنولوجيات المعلوماتية ضمن المقررات. حيث أصبح تعبير «أمى» فى الحاسب الإلكترونى (Computer) توازى «أمى» بالمفهوم القديم (illierate). وهذا يعنى أن القراءة والكتابة لم يعودا المقياس الوحيد للتعليم فى عصرنا الحديث.

٣. الاستفادة من فترة تجنيد الأميين (جيش أو شرطة) لتعليمهم خلال السنة الأولى من التجنيد ومحو أميتهم حتى يصبحوا مجندين ثم مواطنين صالحين وقادرين على اكتساب مهنة مفيدة للوطن ولأنفسهم.

٤. الاستفادة من الشباب العاطل فى جميع المحافظات فى مقابل مادى مجز لتعليم الأميين، خاصة الإناث وأمهات المستقبل مع عمل امتحانات جدية وليس الصورية التى تمنح حالياً ومعظم حامليها لا يمكن وصفهم بالقادرين على القراءة والكتابة.

٥. عدم السماح للأطفال بالعمل قبل انتهاء الشهادة الإعدادية على الأقل ثم التدريب على إحدى المهن المفيدة. وظاهرة عمالة الأطفال بدأت فى الانتشار ليس فى الريف والمجتمعات الزراعية فقط، ولكن زادت مؤخراً فى الصناعة والبناء والعمالة الرخيصة فى الحضر.

التعليم العالى: إذا وضعنا فى الحساب كل السلبيات السابق ذكرها، فسوف نجد أن إعادة الهيكلة بالنسبة للتعليم العالى أصبح من الضروريات التى بدونها لن ينصلح حال التعليم العالى وبالتالى البحث العلمى وفيما يلى بعض المقترحات فى هذا الشأن:



هناك تجربة الكويت الرائدة فى هذا المجال. حيث يتم خصم ٢٪ من صافى أرباح الشركات الصناعية للصرف على البحوث والتطوير لحساب مؤسسة الكويت للتقدم العلمى (وكانت ٥٪ قبل عام ٢٠٠٠) فى مواضيع تهم الصناعة المشاركة فى المقام الأول..

. إعادة النظر فى القوانين واللوائح المنظمة للتعيينات والترقى وهناك عدة نقاط يمكن أن تكون نقاطًا للبداية:

التعيينات: لا يمكن أن يستمر الحال على ما هو عليه حيث أصبح عضو هيئة التدريس ضامنًا لوظيفته منذ درجة المعيد حتى يتولاه الله دون أدنى محاسبة بحيث تحول عضو هيئة التدريس بالجامعات وعضو هيئة البحوث بمراكز البحوث إلى موظف عام وليس رمزًا أو قدوة.

وأدنى محاسبة هنا هو الثواب والعقاب فيجب المحاسبة على الإنتاج العلمى دوريًا. لماذا لا يكون التعيين بعقود لمدد محددة حسب الدرجة مثل كل الدول المتقدمة ولا يتم التثبيت إلا بعد الوصول إلى درجة علمية على المستوى العالمى؟ لماذا لا يكون التعيين عن طريق الإعلان المفتوح من مدرس إلى أستاذ كما هو متبع فى جميع دول العالم ومنها العربية والإفريقية بحيث يكون التعيين لأحسن المتقدمين بصرف النظر عن جامعته الأصلية وهذه التجربة جارى حاليًا تنفيذها بالجامعات الخاصة ولكن على استحياء. كما يجب أن يكون هناك على الأقل محكم دولى خارجى لكل متقدم للتعيين.

الأستاذ المتفرغ: لقد مر قانون الجامعات فيما يخص الأستاذ المتفرغ بعدة مراحل حتى صدور التعديل الأخير منذ أربعة أعوام ومازال محل مناقشات. وهناك أكثر من اقتراح: مثلاً مد خدمة الأستاذ إلى سن السابعة والستين مثل الهيئة القضائية ثم الإحالة إلى المعاش الكامل مثل غالبية العالم أو سن الستين ثم أستاذ متفرغ حتى السبعين كما هو متبع حاليًا وهناك حلول أخرى يمكن دراستها من خلال قاعدة أعضاء هيئة التدريس وفى إطار كامل لتطوير التعليم العالى وليس على شكل حلول جزئية. وفى جميع الأحوال يجب أن تكون هناك فترة انتقالية قبل تطبيق أى نظام جديد حتى لا يتضرر أحد من الفترة البينية.

❖ هل يعقل أن مدرسًا لم يترق إلى درجة الأستاذية أو حتى أستاذ مساعد له الحق عند بلوغه سن التقاعد أن يتم تعيينه أستاذًا متفرغًا حسب التعديل الجديد فى قانون الجامعات؟ أليس هذا تشجيع على عدم الإنتاج أو التحصيل العلمى مادام قد ضمن الوظيفة والتعيين أستاذًا متفرغًا (أو حتى مدرسًا متفرغًا!!).

الترقيات: يقترح إعادة النظر فى الترقيات على النحو التالى:

❖ إعادة النظر فى المجلات المحلية التى لا يتم فيها أى تحكيم واعتماد تلك التى لها محكم خارجى (دولى) (Peer reviewed) ومسجلة ضمن المجلات العالمية ولها ملخص.

❖ الرجوع إلى نظام التحكيم الخارجى (دولى واحد على الأقل فى كل درجة ترق) فى جميع درجات الترقى (خاصة أستاذ مساعد وأستاذ). إلى جانب الأخذ فى الاعتبار مدى ذكر البحوث المنشورة كمراجع فى البحوث العالمية (Citation index) وبالتالى المستوى العالمى للبحوث المنشورة.

❖ وضع حد أدنى من البحوث المنشورة عند التقدم لأستاذ مساعد أو أستاذ (٦ و ٨ على التوالى) ما هو إلا تقليل من قيمة الأستاذية والتشجيع على أدنى إنتاج علمى. ثم كيف يتم توحيد الإنتاج العلمى بين التخصصات المختلفة؟ فلا يمكن مقارنة العلوم الطبيعية بالعلوم الإنسانية. كما لا يمكن مقارنة الكيمياء بالفيزياء داخل العلوم الطبيعية، فهناك تخصصات غزيرة النشر عدديًا وأخرى شحيحة العدد. لقد كان النظام القديم للترقى لا يضع حدودًا لعدد البحوث وكان الترقى بعدد ٢٠ ، ٥٠ بحثًا شيئًا طبيعيًا، وفى جميع أنحاء العالم لا حدود لعدد البحوث المنشورة عند التقدم للترقية. ومن الناحية القانونية فإن الإنتاج الكامل للباحث هو تعبير عن مستوى عمله وتحديد العدد يعطى المزور وناقل البحوث فرصة حجب ما يراه من بحوث مشكوك فيها.

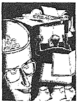
❖ ألم يحن الوقت أن تضاف براءات الاختراع الموافق عليها (وليس المسجلة فقط) من ضمن متطلبات التعيين مثلها مثل البحث المنشور؟ وفى هذا تشجيع للاتجاه للابتكار. وخاصة أن مدى التقدم العلمى للدول النامية يقاس بعدد براءات الاختراع التى تبلغ حوالى العشرين ألفًا كل عام فى أقل الدول تقدمًا بينما لا يتعدى عددها الخمسمائة فى مصر وأكثر من ٩٠٪ منها من خارج البحث العلمى.

ولابد من إعادة النظر فى دور الجامعات، حيث اختلفت وظيفة الجامعة الحديثة. فالتعليم ليس الهدف الأوحد ولكن إنشاء أجيال جديدة قادرة على العمل والإنتاج بمجرد التخرج. وهذا سوف يتطلب فكرًا جديدًا فى المقررات ونوعية التعليم وتكنولوجيات التعليم واحتياجات السوق من عمالة متخصصة إلى جانب رؤية مستقبلية للجامعات ودورها فى خدمة المجتمع. والجامعات فى الدول المتقدمة تحولت من جامعات تعليمية إلى جامعات تعليمية/ بحثية لخدمة المجتمع فى جميع التخصصات المطلوبة بناء على دراسات لاحتياجات السوق المحلية والعالمية (وهذا ينطبق على العلوم الاجتماعية). وفكرة إنشاء جامعات أهلية داخل الجامعات الحكومية فكرة ستؤدى إلى تدنى المستوى أكثر. فكيف يتم استيعاب كل هذه الأعداد الإضافية بنفس الإمكانيات ونفس أعضاء هيئة التدريس؟ وكيف نتعامل قانونيًا مع نظامين تحت مظلة واحدة لا يفرقهم غير الصباح والمساء؟ وهل ستتم معاملة الجامعة الحكومية الأهلية نفس معاملة الجامعات الخاصة؟ ألن يوجد هنا تضارب فى المصالح ومن سيكون الحكَم؟

الربط بين الصناعة والبحث العلمى:

بداية يجب أن ندرس أين نقف بالنسبة للصناعة فى مصر. لقد مر نقل التكنولوجيا فى الدول النامية بعدة مراحل. كانت المرحلة الأولى تسمى نقل التكنولوجيا ثم أصبحت نقل التكنولوجيا المناسبة ثم نقل التكنولوجيا التى يمكن تحمل تكاليفها حتى وصلنا إلى عصر نقل التكنولوجيا المسموح والمصرح به. وهنا مربط الفرس، فلن يسمح فى الوقت الحالى بنقل التكنولوجيات وأى نقل سوف يتم فى محيط التكنولوجيات القديمة فقط. وهناك حظر على نقل العديد من التكنولوجيات الاستراتيجية المتقدمة. وهذا لن ينفع التصدى له بغير البحث العلمى الجاد والقادر على إنتاج التكنولوجيات المحلية الجديدة. إذا كنا قد بدأنا منذ بداية الثورة فى إنشاء قاعدة عريضة للصناعة، فللأسف لم نحافظ على هذه الصناعات بالصيانة والتطوير والتحديث المستمر حتى وصلت معظم الصناعات إلى حال يرثى لها من سوء الإنتاج وأصبحت عبئًا على موازنة الدولة وعلى البيئة وفى كثير من الأحيان أصبح لها تأثير سلبى على صحة العاملين بهذا القطاع لعدم وجود الأمان أو الوقاية الكافية. إذا كانت خصخصة الصناعة هى الحل. فنعم للخصخصة ولكن لا لبيعها للشركات الأجنبية. وليس هذا مجال الحديث فى هذه التفاصيل ولكن يجب أن نضع فى الحسبان بأنه لا تقدم لمصر بدون صناعات مصرية وليست الصناعات الأجنبية التى لن تسمح بعمل البحوث والتطوير فى مصانعها وعلى أرض مصرية بأى شكل من الأشكال وبالتالى لن نطور أو ننشئ صناعات مصرية جديدة. ولكى نصل إلى حل للربط بين الصناعة المصرية والبحث العلمى فهناك الحلول التى يمكن أن نبدأ بها:

❖ بداية يقترح إعادة النظر فى فصل وزارة قطاع الأعمال عن وزارة الصناعة. إلى جانب إيجاد



لقد وصل بنا الحال مؤخرًا
إلى أن مصر من أقل ثلاث دول
عربية من حيث نسبة طلاب
الثانوية العام الدارسين للعلوم الطبيعية
حيث بلغت نسبتهم ١٨,٢٪ فى عام ١٩٩٩،
تليها المملكة السعودية (١٦,٥٪)،
ثم اليمن (١١,٣٪)

رابط قوى بين الوزارتين ووزارة الإنتاج الحربى ووزارة البيئة. وقد يكون الحل هو مجلس أعلى للصناعة يضم الوزارات الأربع إلى جانب ممثلى رجال الأعمال والقطاع الصناعى الخاص، لوضع السياسات والاستراتيجيات القومية للصناعة.

❖ التمويل المشترك: وهذا مفتاح مهم فى الربط بينهما من خلال صناديق خاصة للبحوث يشارك الجانبان فيها مع دعم حكومى ويشاركان فى الحصيلة فى حالة الابتكارات وتطبيق نتائج البحوث. وهناك تجربة الكويت الرائدة فى هذا المجال. حيث يتم خصم ٢٪ من صافى أرباح الشركات الصناعية للصرف على البحوث والتطوير لحساب مؤسسة الكويت للتقدم العلمى (وكانت ٥٪ قبل عام ٢٠٠٠) فى مواضيع تهم الصناعة المشاركة فى المقام الأول.

❖ دراسة تبادل الكوادر العلمية. ففى الدول المتقدمة يمكن لكبار التكنولوجيين التعيين والتدريس بالجامعات أو لأساتذة الجامعات التعيين فى الصناعة مما نتج عنه نقل المعرفة فى الاتجاهين وتوثيق التعاون بين الجهتين.

❖ التركيز على البحوث التطبيقية والابتكار للربط بين الصناعة والبحث العلمى.

❖ التدريب والتعليم المستمر وإعادة التأهيل على مستوى الباحثين والتكنولوجيين والكوادر الفنية.

. تجديد البنية الأساسية من المعامل البحثية بأحدث التجهيزات ووحدات الصيانة المدربة والوحدات نصف الصناعية متعددة الاستخدامات.

. تكوين الكوادر القادرة على إدارة البحوث والتطوير وتدريسها فى الكليات العملية وعدم تعيين القيادات العلمية بدون التدريب على هذا النمط من الإدارة.

التنمية البشرية

التنمية البشرية من أهم الأعمدة التى تعتمد عليها أى دولة متقدمة فى البحث العلمى ومفهوم التنمية البشرية ينطبق على جميع المستويات بداية بطالب المدرسة والجامعة والخريج والباحث فى المعمل والمصنع والكوادر الإدارية والكوادر الفنية وانتهاء بالعمال. وأى تدريب سوف يرفع من مستوى العمل والأمان داخل المعامل والمصانع وبالتالى من نوعية ومستوى الإنتاج ليكون قادرًا على المنافسة العالمية من خلال التوحيد القياسى لمنتجاتنا وهذا سوف يتطلب إلى جانب النقاط التى تم سردها تحت التعليم والتعليم العالى والبحث العلمى إلى وجوب إيجاد نظام للتعليم والتدريب المستمر على جميع المستويات والقطاعات كما سيتطلب الاستفادة من العلماء المصريين بالخارج كأحد المصادر المهمة للتعليم ونقل المعرفة من خلال المشاريع والبرامج المشتركة. إن العلماء والتكنولوجيين المصريين المغتربين قوة ضاربة لم نستفد منها كما يجب، والمطلوب وضع خطة قومية للاستفادة منهم فى إطار السياسات والاستراتيجيات المقترحة سالفًا. وازدواج الجنسية لا يعنى ألا نستفيد من المصرى المغترب وهناك العديد من الأمثلة الناجحة التى خدمت مصر فى أكثر من موقع.

لقد وصل بنا الحال مؤخرًا إلى أن مصر من أقل ثلاث دول عربية من حيث نسبة طلاب الثانوية العامة الدارسين للعلوم الطبيعية حيث بلغت نسبتهم ١٨,٢٪ فى عام ١٩٩٩، تليها المملكة السعودية (١٦,٥٪)، ثم اليمن (١١,٣٪). ويجب علينا أن ندرس سبب عزوف الطلاب عن دراسة مواد العلوم الطبيعية والتى أدت إلى عزوف الطلاب عن التقدم لكليات العلوم والزراعة هذا العام فى مكتب تنسيق الجامعات. وإذا كان الأمر عرضًا وطلبًا، فهذا أكبر دليل على تدهور الحال فى سوق العمالة العلمية لعدم وجود طلب لها. والمطلوب هو التبسيط والترغيب للعلوم عامة والرياضيات خاصة والأهم وضع نظام لتشجيع الطلاب على الإقبال على العلوم الطبيعية وبالتالى البحث العلمى فى المدى البعيد، وهذا لن يتأتى إلا من خلال منظومة متكاملة كما أشرنا فى مواقع أخرى، إلى جانب تبسيط العلوم فى المدارس وربطها بحياتنا اليومية إلى جانب إنشاء متاحف ومعارض للعلوم على مستوى تكنولوجى رفيع. وفى حالة وجود سياسات للعلم والتكنولوجيا، وبالتالى استراتيجيات تنبع منها خطط عمل وفرص عمل. فسوف نجد أن هناك سوقًا للعمالة العلمية والفنية تشجع الطالب على تحصيل العلوم الطبيعية.

التعاون الدولى

إن التنسيق والتكامل فى البحث العلمى يعتبر عاملاً جوهريًا لتعظيم الاستفادة من الإمكانيات وضمانًا لعدم التكرارية ووضع كل الطاقات البشرية فى خدمة خطة وسياسات الدولة. وهذا من ضمن الدروس المستفادة من الدول المتقدمة صناعيًا والدول النامية الواعدة. وإذا كان للبحث العلمى أن يلعب دوره الأساسى فى اقتصاديات الدولة فقد آن الأوان أن نستفيد من كل الطاقات البشرية المتاحة محليًا ودوليًا. وهذا يتطلب التنسيق والتخطيط والتكامل على عدة محاور.

المحور الأول هو الاستفادة من العلماء والتكنولوجيين المصريين العاملين فى الخارج. ولقد أتيح لمصر الاستفادة من علمائنا المغتربين من خلال مشروع بدأته هيئة اليونيدو تحت مسمى «نقل المعرفة من خلال المصريين المغتربين» (Tokten) وكان الهدف هو الاستفادة من معرفة وعلم هذه الطاقة البشرية فى خطط التنمية المحلية على أن تنتقل أعمال المشروع تدريجيًا إلى الدولة وقد تولت أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا هذه المسئولية بعد انتهاء دور اليونيدو. وللأسف تحول المشروع إلى جهازاستضافة لعلمائنا بالخارج دون تحديد دورهم فى الخطط التنموية والاقتصادية للدولة.

والسبب الأساسى هو غياب خطة أو سياسة واضحة للبحث العلمى وعدم توزيع الأدوار أو الاستفادة من هذه الطاقة البشرية والتى عندها استعداد تام للعمل فى أى عمل جاد وذى منفعة للدولة. وقد عاصر هذا المشروع تطبيقه أيضًا من خلال اليونيدو فى كل من الهند وتركيا والعديد من الدول النامية، لكن الهند وتركيا استفادتا إلى أقصى درجة من هذا المشروع واستكملتاه بحيث أصبح أحد الأعمدة الأساسية للاستفادة من خبرات علمائها المغتربين بالخارج حتى تاريخه.

المحور الثانى هو التعاون الإقليمى، وقد أثبتت التجربة وجود سلبيات فى تجربتنا مع الدول العربية والإفريقية فى مجال البحث العلمى. وليس المجال هنا تحليل أو دراسة هذه السلبيات. ولكن أن نعيد ترتيب أوراقنا وأن نبنى على الإيجابيات مع محاولة إصلاح السلبيات إن أمكن. فعلى المستوى العربى هناك منظمة الأليكسو (منظمة جامعة الدول العربية للتعليم والثقافة والعلوم) ومقرها تونس، كما أنشئت حديثًا المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا فى أبريل من عام ٢٠٠٠ ومقرها جامعة الشارقة بالإمارات كما أن هناك اتفاقيات ثنائية بين مصر والعديد من الدول العربية والأفريقية ومنظمة الأليكسو تحاول جاهدة ولكن بدون فاعلية مؤثرة لعدم جدية الدول الأعضاء.

أما المحور الثالث فهو التعاون الدولى على مستوى أوسع، والاستفادة من الإمكانيات المتاحة بالدول النامية الصديقة. وهناك العديد من الهيئات الحكومية والخاصة التى تقدم المنح والقروض ولكن لم نستفد منها الاستفادة القصوى. وإذا درسنا الأنماط الموجودة فى إدارة البحوث والتطوير فيمكننا استنباط التجارب والأنماط المفيدة وتكييفها لتوائم الظروف المحلية. ■



فى الدول المتقدمة يمكن لكبار التكنولوجيين التعيين والتدريس بالجامعات أو لأساتذة الجامعات التعيين فى الصناعة مما نتج عنه نقل المعرفة فى الاتجاهين وتوثيق التعاون بين الجهتين

أصــوات قبطيــة من المــاضى

مينـا بـديـع عـبـد الملـك



قصة الاكتشاف:

▪▪ فى شتاء عام ١٩٤٥ وبالتحديد فى شهر ديسمبر منه وبينما كان الفلاحان المصريان عبد المجيد ومحمد على السمان يحفران داخل جبانة بالقرب من مدينة نجع حمادى لجمع السماد عثرا على جرة مغلقة بإحكام مصنوعة من الخزف وبالتحديد عند جبل الطارف فى الضفة الشرقية لوادى النيل شمال قرية «حمرا دوم» بالقرب من فرشوط فى منطقة نجع حمادى. وأمام هذه الجرة الغامضة وقفا يفكران هل بها كنز ثمين أم بها عفريت كما كانت تسود الاعتقادات والخرافات فى ذلك الوقت؟ وأخيراً أمسكا بفأس وحطما الجرة وإذ بهما أمام كومة من أوراق البردى ولم يدر بفكرهما أنهما أمام أحد كنوز تاريخ الحضارة الإنسانية فى مجال الفكر والمعرفة.

حمل أحد الفلاحين هذه الكومة من أوراق البردى على كتفه للاستفادة بها كوقود لفرن المنزل!! وبالفعل قامت الزوجة بحرق بعض منها ويظن أنه كان المخطوط الثانى عشر إذ أنه كان بداخل هذه الجرة ثلاثة عشر مخطوطاً يبلغ عدد صفحاتها ١٢٤٠ صفحة لكن ما هو موجود حالياً يبلغ ١١٥٦ صفحة فقط، وبذلك تكون عدد صفحات المخطوط المفقود وهو الثانى عشر ٨٤ صفحة. يتراوح عدد النصوص فى المجلد الواحد فيما بين نص واحد (كما فى المخطوط العاشر) إلى ثمانية نصوص (كما فى المجلد السادس).

حدث بعد ذلك أن تسربت بقية المخطوطات. عبر تجار الآثار المصرية. إلى خارج مصر وبذلك أنقذت من حريق فرن المنزل وعكف العلماء على دراستها.

دور جــان دوريـــس فى هــذا الـكـشـف:

كان لجان دوريس، عضو معهد الدراسات الأثرية الشرقية فى فترة الخمسينيات وبعد ذلك مؤرخ الأديان الفرنسى والمتخصص فى تاريخ أثيوبيا، فضل المبادرة باقتفاء أثر هذا الاكتشاف نحو عام ١٩٥١، حين لم يكن قد مضى على بدء تسرب المخطوطات إلى سوق الآثار بالقاهرة غير بضع سنوات قليلة، وقد أودعت هذه المخطوطات عقب شراء الحكومة المصرية لها عام ١٩٥١ بالمتحف القبطى بالقاهرة وأسند المتحف إلى جان دوريس مسئولية معرفة موطن هذا الكشف الذى ظل مجهولاً فترة من الزمان.

اتخذ جان دوريس أهبته لرحلة قصيرة فى الصحراء، وبعد مغامرات عدة. كان من بينها قضاؤه فترة فى المستشفى عولج فيها من عضة كلب. بلغ مكاناً يبدو أنه مكان دفن المخطوطات، وهو جبانة من العصر الرومانى.

ويقدم لنا جيمس روبنسن مدير معهد الدراسات القديمة والمسيحية فى مدرسة الخريجين بكليرمونت بكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية وقد عمل سكرتيراً للجنة مخطوطات نجع حمادى الدولية التى شكلتها مصر بالتعاون مع اليونسكو وكان مشرفاً على نشر الطبعة الإنجليزية لهذه المخطوطات بمعونة من المنح القومية للدراسات الإنسانية، يقدم لنا وصفاً لهذه الجبانة.

وصف جبانة المخطوطات:

مكان هذه الجبانة هو شريط من الصحراء لا يتجاوز عرضه مائة متر، يمتد بين زرع أخضر يرويه ماء النيل وجرف قائم تنتشر أسفله كتل من الأحجار المتساقطة التى كونت منحدراً مائلاً فى غير انتظام، يستطيع المرء أن يتسلقه من القاعدة الصحراوية إلى وجه الجرف القائم فوق الرمال المنبسطة من تحته بنحو عشرة أمتار.

عند هذا الارتفاع الذى يمكن الوصول إليه بسهولة توجد مغارات صناعية من عهد الأسرة الفرعونية السادسة، وبعض هذه المغارات غير مكتمل والبعض الآخر استعمل كمدفن للموتى، وفى مغارة منها نقوش بارزة ورسوم من النوع الذى تتسم به المقابر الفرعونية. ولكن المغارات جميعاً نهبت منذ القدم، بحيث لم تعد - مع حلول القرن الرابع الميلادى - سوى صف من الكهوف اللطيفة الجو الصالحة لسكنى النساك والمتعبدين.

وصف المخطوطات:

جميع نصوص المخطوطات مترجمة عن أصول يونانية مؤلفة خلال القرون الأربعة الأولى فى مناطق مختلفة من حوض البحر المتوسط. وقد تمت ترجمتها إلى اللغة القبطية بواسطة مجموعة من المترجمين من خلال القرن الرابع الميلادى وبعضها ربما قبل ذلك بقليل.

ويخبرنا د. اميل ماهر إسحق أن مخطوطات نجع حمادى ليست هى النسخ القبطية الأولى وإنما هى تجميع لنسخ تالية ترجع إلى النصف الثانى من القرن الرابع. وبمقارنة الخطوط المكتوبة بها يتضح أنها لعدد من النساخ لا يقل عن ثمانية، وقد يصل إلى أربعة عشر ناسخاً. ويظهر تأثير لهجتهم المحلية، وهى الأخميمية الفرعية أى لهجة ليكوبوليس (أسيوط)، بدرجات متفاوتة فى نسخهم التى هى مكتوبة أساساً باللهجة القبطية الصعيدية، وذلك باستثناء محتويات المجلدين الأول والعاشر والنصين الأول والثانى من المجلد الحادى عشر التى هى مكتوبة أساساً بنوع من لهجة ليكوبوليس.

ويقدم لنا جيمس روبنسون أدلة عديدة على تعدد نساخ هذه المخطوطات منها: إن جميع النسخ المكررة مختلفة تمام الاختلاف فى صياغتها، مما يدل بوضوح على أن نساخاً لم ينقل عن آخر. كذلك لم ينقل نساخان عن نسخة بعينها لم يكتب لها البقاء. لقد نسخ النساخون الكتب مستقلين. ويبدو أن سلسلة من الكتب المفردة انحدرت إلى شخص واحد أو جماعة واحدة وانتظمت منها عند ذلك فقط هذه المكتبة المخطوطة.

الكتابات المختلفة بالمخطوطات:

فى بداية دراسة هذه المخطوطات التى قامت بها لجنة شكلتها مصر مع اليونسكو والتى اجتمعت فى القاهرة فى ديسمبر ١٩٧٠ وكانت تضم من الجانب المصرى د. باهور لبيب، والدكتور فيكتور جرجس، ومن الجانب الدولى جيمس روبنسن وآخرون، كان يعتقد أنها «غنوصية» وهذا لفظ يطلق على مذهب دينى متطرف اكتسح العالم القديم فى أوائل عهد المسيحية. ولكن وجد أنها تحتوى أيضاً على كتابات غير غنوصية، فيها قطعة (فى المجلد ٦:٥) من كتاب الجمهورية لأفلاطون، وأيضاً يوجد فى مجلد آخر أجزاء صغيرة بلا عنوان تحث على النسك معروف أنها (جمل سكستوس) ذات الصبغة الفيثاغورية. وأما «تعاليم سلوانس» (فى المجلد ٧:٤) فهى مثال من الأداب الحكمية المسيحية التى يحتمل أن تكون من إنتاج رهبانى، إذ فيها فقرة موجودة بنفس النص فى الكتابات العربية تحت اسم الانبا أنطونيوس. أيضاً من بين محتويات هذه المخطوطات مجموعة من الأناجيل غير المعترف بها من الكنائس المسيحية الرسمية منها «إنجيل توماس» و«إنجيل فيليب» و«إنجيل المصريين». كما بها نص عن التراث الزرادشتى، ونصوص ذات طابع فلسفى عام أو ذات طابع أفلاطونى حديث، واتجاهات فلسفية معارضة للأفلاطونية. ومن بين هذه النصوص رسالة عن تاريخ العالم، ورسالة عن «ست» المعظم، ورسالة فى تأويل المعرفة، ورسالة فى تفسير الروح أو معنى النفس.

من هنا فإن محتوى هذه المخطوطات يمثل إسهاماً متميزاً ومساعداً فى دراسة تاريخ الأديان، ودراسة الفكر الفلسفى فى الشرق. كما تفيد بما تلقيه من ضوء كاشف على طبيعة العلاقات الثقافية بين مصر واليونان قديماً. ▪

أكلة لحوم البشر.. حقيقة أم خرافة؟!

ظلت قضية «أكلة لحوم البشر» عصيّة على الفهم الإنسانى فكيف تواتى إنسان الجرأة على أكل لحم إنسان آخر حيّاً كان أم ميتًا؟! واختلف علماء الأنثروبولوجيا حول هذه المسألة التى اعتبرها البعض خرافة بينما أكد آخرون أنها ثقافة مرتبطة بمناطق معينة فى العالم.

وقد تفجرت القضية مجددًا الشهر الماضى مع محاكمة خبير كمبيوتر ألمانى اعترف بأنه أكل لحم أحد زملائه بادعاء أنه كان يرغب فى ذلك.

هذا المقال يقدم تحليلاً ثقافياً عن هذه المسألة والجدل الدائر بشأنها.

«وجهات نظر»

■■ يختلف علماء الأنثروبولوجيا الثقافية حول أشياء كثيرة. ولا يزال البعض منهم متمسكًا بالتقليد الذى يعارض إصدار أحكام قيمية على أية ثقافة. فهو على سبيل المثال يمنع عالم الأنثروبولوجيا من إدانة معاداة السامية النازية أو العبودية الأمريكية، لأن كلاً منهما كان فى يوم من الأيام مكونًا أساسيًا من مكونات الثقافة. كما يمنع إدانة الممارسة المنتشرة حاليًا فى أفريقيا وغيرها الخاصة بختان البنات. وبينما يجد معظم علماء الأنثروبولوجيا المستنيرين أنه من المستحيل الدفاع عن هذه النسبية، يؤمن بعضهم، كالراحلة مارجريت ميد، إيمانًا قويًا بالقوى الخارقة التى يرتكز عليها دارسو خوارق الشعور والغيبيات، بينما تعتبر الغالبية العظمى من زملائهم هذا كلامًا فارغًا.

تدور أحدث المناقشات، وربما أكثرها مرارة، بين الأنثروبولوجيين حول أكل لحوم البشر. فمازال أغلبهم مقتنعين بأن أكل لحوم البشر كان منتشرًا فى الماضى ومازال قائمًا فى جيوب مستترة من العالم. وهم يدافعون عن هذا الاعتقاد فى مئات الأبحاث وفى كتب واسعة الانتشار مثل كتاب إيلى ساجان «أكل لحوم البشر» (١٩٧٤) وكتاب جارى هوج «أكل لحوم البشر والضحية البشرية» (١٩٧٣).

تتبنى أقلية من الأنثروبولوجيين رأيًا عكس ذلك. فهم مقتنعون بأنه لا توجد الآن، ولا فيما مضى، ثقافة تأكل موتاها بشكل روتينى، أو تقتل أعداءها وتأكلهم. وكان النقاش يجرى بهدوء حتى عام ١٩٧٠ إلى أن فجّره ويليام أرينز عالم الأنثروبولوجيا بجامعة نيويورك فى ستونى بروك. وكانت أداة التفجير هى كتابه «خرافة أكل البشر: الأنثروبولوجيا وأكل لحوم البشر». وقد نشرته لأول مرة مطبعة جامعة أوكسفورد فى عام ١٩٧٩.

لا ينكر أحد أنه خلال طوارئ الحياة والموت، مثل الجوع الشديد عقب غرق السفن أو سقوط الطائرات، أو أثناء المجاعات بالغة الشدة، قد يفضل الأفراد أكل جثث البشر على الموت. وليس هناك من ينكر أن الشعوب البدائية كانت فى بعض الأحيان تأكل جثة قائد الأعداء، الذى كانوا يخشونه فى يوم من الأيام، بعد الانتصار العسكرى، إما من باب الانتقام أو من قبيل الاعتقاد فى أن من يأكلونه سوف يكتسبون قوة العدو. كما أنه ما من أحد ينكر وجود السفاحين المرضى، حتى فى الثقافات المتقدمة، الذين يرتكبون جرائم قتل ويأكلون ضحاياهم.



السؤال المهم هو: هل كان أكل لحوم البشر عادة شائعة فى يوم من الأيام؟ الرأى المستقل الذى يعلنه أرينز هو أن هذا النوع من أكل لحوم البشر فولكلور محض، وقد اصطنعته رغبة إحدى الثقافات فى أن تكون متفوقة على غيرها. وهو يؤكد أنه ما من عالم أنثروبولوجيا جدير بالاحترام، أو أى شخص آخر موثوق به، قد شاهد مباشرة وليمة لأكل لحوم البشر. وهو مقتنع بأن الخرافة نشأت من اتهامات غير مؤيدة ساقتها إحدى الثقافات ضد ثقافة مجاورة مكروهة لديها، وكذلك المبشرين الذين يسهل خداعهم والأنثروبولوجيون السذج الذين كانوا يبتلعون كل حكاية يرويها لهم السكان المحليون الودودون.

لكن أية مراجعة عشوائية لكتب الأنثروبولوجيا المدرسية تبين أن معظم مؤلفيها لا يسلمون فقط بأن آكل لحوم البشر كان واسع الانتشار فى الماضى، بل إنه مازال قائمًا بين القبائل البدائية فى أفريقيا، وأمريكا الجنوبية، وعلى جزر أوشيانا. ويقول عالم الأنثروبولوجيا المحترم مارفن هاريس فى كتابه «أكلة لحوم البشر والملوك» (١٩٩١) إن أكل لحوم البشر بين قبائل الأزتك المكسيكية كان طريقة للحصول على البروتين الذى كانوا بحاجة شديدة إليه.

بالنسبة للجمهور بصفة عامة، من ذا الذى يشك فى أنه كان هناك، وربما لا يزال، صائدو بشر شرسون يأكلون فريستهم؟ فما زال أكل لحوم البشر يظهر فى الروايات وأفلام السينما، فى الكارتون الذى يعرض أشخاصًا يسلقون أحياءً فى قدور ضخمة. ويظهر كذلك فى النكات الخشنة: هل سمعتم عن آكل لحوم البشر الذى اختلف معه ابن عمه؟ أو آكل لحوم البشر الذى اعترف أن زوجته كانت كباب الحلة العظيم الذى أكله، وأنه سوف يفتقدها؟ أو آكل لحوم البشر الكاثوليكى الذى كان يأكل الصيادين فقط يوم الجمعة؟ أو طبيب الأسنان الذى كان يحشو أسنان آكل لحوم البشر بينما كان آكل لحوم البشر يأكله؟ أو آكل لحوم البشر الذى أبلغ المعالج النفسى أنه سئم أكل البشر؟وحين سئل عن رأيه فى المعالج النفسى قال «لذيذ». ويجب ألا ننسى آكل لحوم البشر الذى كان يسير فى الغابة ومر على حماته.

من بين القصائد الخماسية الفكاهية العديدة التى قرأتها، أحب هذه القصيدة مجهولة المؤلف:

أحد أكلة لحوم البشر الشجعان من بنزانس/أكل عمًا واثنتين من عماته/ وبقرة وابنها/ وثورًا ونصفًا/والآن لا يمكنه زر بنطلونه.

وكلمة آكل لحوم البشر cannibal مشتقة من Carib، وهو اسم شعب محلى فى جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية التقى به كولمبس. ووصف كولمبس فى يومياته الكاريب بأنهم أكلة لحوم بشر. لماذا؟ لأن هذا ما قاله له جيرانهم من قبيلة الأرواواك. فكيف عرفت مارجريت ميد أن المندوجومور فى غينيا الجديدة أكلة لحوم بشر؟ قال لها ذلك «الأرابيش الطيب».

يوثّق أرينز مئات الأمثلة المشابهة التى تتهم فيها إحدى الثقافات ثقافة أخرى بأكل لحوم البشر. فقد كان الصينيون القدماء يظنون أن الكوريين أكلة لحوم بشر. وكان الكوريون يظنون الشىء نفسه بالنسبة للصينيين. واتهم الأزتك غزاتهم الأسبان بأكل لحوم البشر. وكان الفاتحون، الذين كتبوا كل الكتب، هم بالطبع مصدر الاعتقاد بأن الأزتك

عن مجلة:
Skeptical Inquirer

ترجمة: أحمد محمود

أكلة لحوم البشر. وحين كان أرينز فى طريقه إلى العمل الميدانى فى تنزانيا، أكد له السكان المحليون أن الأوربيين أكلة لحوم بشر. وهو يقول إنه ما من ثقافة فى العالم ادعت أن أكل لحوم البشر من سماتها. فدائماً ثقافة أخرى هى المتهمة.

تعود الإشارات الكلاسيكية الخاصة بأكل لحوم البشر إلى الأساطير اليونانية القديمة وعمالقة «أوديسا» هوميروس ذوى العين الواحدة. وقدم هيرودوت رواية سمعها عن قبيلة من الرُحَل تسمى «أندروفاجى». وفى العصور الوسطى اتهم الكاثوليكُ اليهودَ بأكل الأطفال المسيحيين فى طقوسهم. وساد اعتقاد بأن الساحرات كذلك يقتلن الأطفال ويلتهمنهم. والشىء الذى لا يصدق هو أن هذا الاعتقاد مازال قائماً حتى يومنا هذا بين بعض المتشددين الجهلة الذين تسيطر عليهم فكرة أن الطقوس الشيطانية، ومن بينها أكل الأطفال، تحدث فى أنحاء الولايات المتحدة!

وقد وصم المبشرون البيض الأوائل الهنود الحمر، وخاصة قبائل الإيروكوا فى نيويورك بأنهم أكلة لحوم بشر، حيث كانوا يرون أنهم متوحشون قساة لا عقل لهم. وتقول الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية إن الموهوك، وهو اسم إحدى قبائل الإيروكوا، ربما يعنى «أكلة البشر». وليست هناك شذرة من الأدلة الموثوق بها على أن الإيروكوا، أو أية ثقافة أمريكية محلية، كانت تمارس أكل لحم البشر الشعائرى.

كما كتب أنثروبولوجيون كثيرون عن أكل لحوم البشر بين سكان أستراليا ونيوزيلندة الأصليين. ففى بحث بعنوان «أكل لحوم البشر بين السكان الأصليين» أجراه قسم الأنثروبولوجيا بالجامعة الوطنية الأسترالية، واكتمل فى عام ١٩٨٥، انتهت الدراسة المضنية للأدلة إلى أنه لم يكن هناك وجود قط لأكلة لحوم البشر من السكان الأصليين.

وغالباً ما تختلط أوصاف أكل لحوم البشر بخيال غير قابل للتصديق. ويحكى أرينز نقلاً عن مصدر ما، قوله عن أحد الأنثروبولوجيين أن أكلة لحوم البشر فى أحد الشعوب هم جميعاً نساء يمكنهن تحويل أنفسهن إلى طيور حين يردن ذلك!

الشىء الغريب بشأن الأدبيات الكثيرة جداً عن أكل لحوم البشر هو غياب الروايات المباشرة. فلم ير الأنثروبولوجيون فى الواقع طقساً من طقوس أكل لحوم البشر. ولا وجود لصور فوتوغرافية لهذه الممارسة. ويقول أرينز إن «أكلة لحوم البشر معنا دائماً، ولكن من حسن الحظ أنهم يتجاوزون إمكانية الملاحظة المباشرة فحسب».



يلخص لورانس أوزبورن الجدل الساخن، بين الأنثروبولوجيين الذين يتفقون مع أرينز وهؤلاء الذين يرفضون كتابه باعتباره لا قيمة له فى مقال بعنوان: «هل يأكل الإنسان الإنسان؟».

كانت نتيجة هذه الضجة أزمة فى قلب العلم، حيث أصدرت مدارس مختلفة من الأنثروبولوجيا . الثقافية والفيزيقية والأثرية . أحكاماً مختلفة اختلافاً جذرياً عما إذا كان الناس الآن، أو فيما مضى، أكلة لحوم بشر. ويكفى هذا لجعل البعض يتساءل إذا كان مكتوباً على تحالفات القائمة بين مجالات الأنثروبولوجيا الفرعية أن تنهار تماماً.

رد أنثروبولوجيو الاتجاه العام على كتاب أرينز بنفس القدر من الغضب الذى أبدوه تجاه كتاب ديريك فريدمان «مارجريت ميد وساموا»، وهو كتاب يكشف عن سذاجة ميد فى أخذها الخرافات التى رواها لها مخادعو ساموا. ويكيل الأنثروبولوجيون اللعنات لأرينز فى الاجتماعات. ووصف أصحاب عروض الكتب كتابه بأنه «خطير» و«حاقد». وقد شكلت الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية لجنة خاصة لأكل لحوم البشر. ونشرت الجمعية هجومها على أرينز فى كتاب «إثنوجرافيا أكل لحوم البشر» (١٩٨٣) الذى حررته باولا براون ودونالد توزيتش.

وزعم دى كارلتون جادجوسيك الطبيب الحائز على جائزة نوبل لأبحاثه الخاصة بمرض فيروسى فى غينيا الجديدة يعرف باسم «كورو» أن المرض نقله أكلة لحوم البشر فى قبيلة فورت حين كانوا يتعاملون الجثث. واعتقاداً بأن الأدلة تشمل أكلة لحوم البشر فى غينيا الجديدة، قال إن الرد على أرينز «أقل من قدرى ومكانتى». ومن ناحية أخرى، فشل ليل ستيدمان من جامعة ولاية أريزونا، بعد عامين من العمل فى غينيا الجديدة، فى العثور على أى دليل على أكل لحوم البشر.

هل سمعتم عن آكل لحوم البشر الذى اختلف معه ابن عمه؟ أو آكل لحوم البشر الذى اعترف أن زوجته كانت كباب الحلة العظيم الذى أكله، وأنه سوف يفتقدها؟ أو آكل لحوم البشر الكاثوليكى الذى كان يأكل الصيادين فقط يوم الجمعة؟!

رغم وجود معارضى أرينز، فقد اكتسب شكه الاحترام ببطء. وينقل أوزبورن فى مقاله المنشور فى مجلة «لينجوا فرانكا» أن موسوعة الأنثروبولوجيا فى طبعتها لعام ١٩٩٦ تنتهى فى مادة أكل لحوم البشر إلى ما يلى: «أكلة لحوم البشر، إلى حد كبير، شىء من اختراعنا». ويكتب بول بين فى موسوعة كمبردج للتطور البشرى (١٩٩٢): «أكل لحوم البشر الشعائرى أو المعتاد نادر أو لا وجود له: فليس هناك شهود عدول رأوا تلك الممارسة بأعينهم، وتعتمد كل التقارير تقريباً على الشائعات». وقد أثنى عالم الأنثروبولوجيا المرموق أشلى مونتاجو، الذى طالما شك فى روايات أكلة لحوم البشر، على كتاب أرينز ثناء عظيماً.

وفى السنوات الأخيرة زعم علماء الآثار أنهم عثروا على أدلة على أكل لحوم البشر فى شظايا العظام البشرية الموجودة بين هياكل نياندرتال وفى مواقع الدفن فى الثقافات القديمة الأخرى. ويعرض عالم الآثار تيموثى وايت من جامعة كاليفورنيا فى باركلى فى كتابه «أكلة لحوم البشر فى مانيوس فيما قبل التاريخ» (١٩٩٢) أسباب اعتقاده أن شظايا العظام البشرية فى تلال مدافن بويبلو الهندية فى مانكوس كانيون بكولورادو تدل على أن هنود الأناسازى كثيراً ما كانوا يأكلون لحم البشر. وقد شَبَّه أرينز بمن يؤمنون بأن الأرض مسطحة وينكرون كرويتها.

ليست تخمينات وايت مقبولة بين كل الخبراء. وهم يجدون تفسيرات غير أكل البشر فيما يتعلق بظروف ما يزيد على الألفين من شظايا العظام التى عثر عليها. فربما تشير الشظايا إلى ممارسات دفن أو أن الحيوانات البرية أكلتها. وحتى إذا كانت تلك أدلة على أكل لحوم البشر، فمن الممكن أن تعكس فحسب أحداثاً منفردة كانت وراءها المجاعة.

وبما أننى لست عالم أنثروبولوجيا، فإنى أتردد فى تبنى أحد الجانبين فى هذا الجدل شديد الحدة، وإن كنت متعاطفاً فى الوقت الراهن مع أرينز. وربما كانت الحقيقة فى مكان ما بين هذا وذاك. وقد يكون أكل لحوم البشر المعتاد أندر كثيراً مما يعتقده الأنثروبولوجيون الذين لهم مصلحة فى تعزيز آرائهم السابقة. ومن المحتمل ألا يكون أكل لحم البشر خرافياً كما يفترض أرينز، وقد يحين وقت تُحل فيه هذه المسألة. ■

من منا لا يذكر "أمينة"!

نجيب محفوظ فى السينما المصرية

هاشم النحاس

قبل أن نتطرق إلى النظر فى أفلام نجيب محفوظ من داخلها للكشف عن أهميتها فى تشكيل السينما المصرية، يمكن اتخاذ الوقائع التالية بمثابة إشارات أولية دالة. نوعاً ما. على الحجم الكبير للعلاقة الظاهرية التى تربط بين نجيب محفوظ والسينما، ومدى تشعبها.

أولاً: نجيب محفوظ أول أديب عربى يكتب للسينما: كتب فيلمه الأول «مغامرات عنتر وعبلة» عام ١٩٤٥، وإن تأخر ظهوره لأسباب إنتاجية حتى عام ١٩٤٨، وظهر قبله فيلمه «المنتقم» عام ١٩٤٧.

ثانياً: هو أكثر الأدباء المصريين (والعرب عامة) أعمالاً فى السينما وأكثرهم تنوعاً فى إسهاماته: بلغ عدد أفلامه ٦٣ فيلماً آخرها حتى الآن «سمارة الأمير» ١٩٩٢. منها ٢٥ فيلماً بين سيناريو أو قصة سينمائية مباشرة أوقصة وسيناريو معاً أو إعداد سينمائى. وبقية الأفلام إما مأخوذة عن قصة أو رواية من أعماله الأدبية.

ثالثاً: تحتل أعماله فى السينما. بكافة تنويعاتها. مكانة خاصة فى تاريخ السينما المصرية (والعربية عامة): عندما حصر الناقد «سعد الدين توفيق» أهم مائة فيلم فى السينما المصرية ذكر منها ١٧ فيلماً تحمل اسم نجيب محفوظ[1]. بعد حوالى ربع قرن من هذا الإحصاء ارتفعت نسبة الأفلام التى تحمل اسم نجيب محفوظ ضمن أهم مائة فيلم فى تاريخ السينما المصرية، ووصلت إلى ٢٣ أى ما يقرب من ربع أفلامنا المهمة وفقاً لما جاء فى الاستفتاء الواسع بين النقاد والسينمائيين الذى أجرته إدارة مهرجان القاهرة السينمائى الدولى العشرين. ونشر هذا الاستفتاء فى الكتاب التذكارى الذى أصدره المهرجان بمناسبة الاحتفال بمئوية السينما[2].

رابعاً: نجيب محفوظ الأديب الوحيد الذى ارتبطت وظيفته الرسمية (لمدة طويلة) ارتباطاً مباشراً بالسينما: بدأت هذه العلاقة عام ١٩٥٩، واستمرت حتى إحالته إلى التقاعد ١٩٧١. عمل خلال هذه الفترة مديراً للرقابة ثم مديراً لمؤسسة دعم السينما، ورئيساً لمجلس إدارتها، ثم رئيساً لمؤسسة السينما، ثم مستشاراً لوزير الثقافة لشئون السينما. وقد أتاح له ذلك أن يترك أثراً قوياً فى هذا الحقل. وإن كان الأثر الأبقى والأهم يأتى عن طريق أفلامه موضوع دراستنا.

البداية:

فى حديث خاص مع نجيب محفوظ يحكى عن بداية علاقته بالعمل السينمائى فيقول: عرفنى صديقى المرحوم الدكتور فؤاد نويره بصلاح أبو سيف، وطلب منى أن أشاركهما فى كتابة سيناريو فيلم للسينما اخترنا له فيما بعد اسم «مغامرات عنتر وعبلة». كان صلاح أبو سيف هو صاحب فكرة الفيلم. وقد شجعنى للعمل معه أنه قرأ لى رواية «عبث الأقدار». أوهمنى بأن كتابة السيناريو لا تختلف عما أكتبه عندما سألته عن ماهية هذا السيناريو الذى لم أكن أعرفه. والحقيقة تعلمت كتابة السيناريو على يد صلاح أبو سيف. كان يشرح لى فى كل مرحلة من مراحل كتابته ما هو المطلوب منى بالضبط. وبعد أن أنفذه أعرضه للمناقشة التى كان يشاركنا فيها الدكتور فؤاد نويره ومعه عبد العزيز سلام كاتب الحوار والأغانى[3].

وأسأل الأستاذ نجيب[4]: هل كنت تكتفى بتوجيهات صلاح فى كتابة السيناريو أم لجأت لوسائل أخرى لتطوير إمكانياتك فى الكتابة للسينما؟ يجيب الأستاذ: أمدنى بعد ذلك صلاح أبو سيف بعدد من الكتب عن السينما كما أننى اشتريت ما كان متاحاً منها وقتها. وأسأله: هل كان لك اهتمام خاص بالسينما قبل العمل بها؟ يجيب الأستاذ: كنت مجرد متفرج وأتابع الأفلام لأتمتع بمشاهدتها وخاصة الأفلام البوليسية والكوميدية.

علاقة متطورة:

إذا ما تأملنا أعمال نجيب محفوظ السينمائية نجد أنها مرت بأربع مراحل متمايزة وإن تداخلت أحياناً. المرحلة الأولى: مرحلة الكتابة للسينما، وتنوعت ما بين كتابة القصص السينمائية أو السيناريو أو كليهما معاً، أو الكتابة عن أعمال أدبية لغيره. تبدأ هذه المرحلة بفيلم «مغامرات عنتر وعبلة» ١٩٤٥ السابق الذكر وتمتد لمدة ١٥ سنة حتى فيلم «جميلة الجزائرية» ١٩٥٩. وإن كانت نوعية إسهام نجيب محفوظ فى هذه المرحلة قد امتدت فى أعمال أخرى متناثرة بعد ذلك، إلا أنه خلال هذه المرحلة ظل إسهامه مقصوراً عليها. ولم يحاول من جانبه تحويل عمل من أعماله الأدبية إلى عمل سينمائى، الأمر الذى حافظ عليه طوال حياته. كما لم تقترب السينما من أعماله الأدبية إلا فيما بعد. أسأل الأستاذ: قامت السينما المصرية بمحاولات عديدة فى تحويل الروايات إلى أفلام بداية من فيلم «زينب» الصامت ١٩٣٠ الذى أعيد إنتاجه ناطقاً ١٩٥٢، قدمت أفلاماً لأعمال أدبية لعدد كبير نسبياً من الأدباء أمثال توفيق الحكيم وطه حسين ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهم. وشاركت أنت بنفسك بتحويل روايتى إحسان عبد القدوس «الطريق المسدود» و«أنا حرة» إلى فيلمين عامى ٥٨، ٥٩ على التوالى. لماذا لم تفكر بداية فى كتابة سيناريو عن رواياتك فى هذه المرحلة التى احترفت فيها كتابة السيناريو؟ أجاب الأستاذ: أنا أرفض مبدئياً أن أقوم بكتابة سيناريو لأى عمل من أعمالى الأدبية. استغراقى فى كتابة العمل الأدبى وحرصى عليه يحرمنى حرية التصرف التى يتطلبها الوسيط الجديد. وقد يؤدى ذلك إلى إفساده. فتركت هذه المهمة لغيرى. (ويضحك).

المرحلة الثانية: وهى مرحلة الرواية، وفيها تنبهت السينما المصرية إلى الإفادة من أعمال محفوظ الروائية فى تقديم مجموعة من أفلامها. ويمثل فيلم «بداية ونهاية» ١٩٦٠ بداية هذه المرحلة التى امتدت بصفة متصلة لمدة ١٤ سنة حتى فيلم «السكرية» ١٩٧٣، شملت ١٣ فيلماً عن روايات محفوظ. وإن امتدت هذه النوعية من الأفلام فى المرحلتين التاليتين فى أفلام متناثرة لا تشكل كثافة غالبة.

وأسأل الأستاذ: من الملاحظ أن السينما المصرية لم تجرؤ على الاقتراب من أعمالك الأدبية إلا متأخراً عام ١٩٦٠ رغم وجود هذه الأعمال قبل ذلك بأكثر من ٢٠ سنة، كما كان للسينما المصرية محاولاتها الناجحة فى تحويل أعمال أدبية أخرى إلى أفلام كما سبق ذكره. بماذا تفسر هذا التأخير فى الاستفادة من أعمالك الأدبية فى السينما المصرية؟

أجاب الأستاذ ببساطة شديدة: كان السينمائيون ينظرون إلى أعمالى الأدبية باعتبارها أدباً لا تصلح للسينما.

واستطرد بقوله: ولعلمك عندما جاءنى المنتج لشراء حق تحويل رواية «بداية ونهاية» إلى فيلم لم يكن قد قرأ الرواية وإنما طلبها عقب استماعه لمسلسل إذاعى كان مأخوذاً عنها أعده أحمد عباس صالح.

المرحلة الثالثة: وهى مرحلة مختلطة تداخلت فيها المرحلتان السابقتان، كما تظهر فيها ملامح المرحلة الرابعة التى تعتمد على قصص محفوظ القصيرة. تبدأ بأول فيلم مأخوذ عن قصة قصيرة «صورة» ١٩٧٢ وتمتد ٧ سنوات فقط حتى فيلم «المجرم» ١٩٧٨ لتشمل ٩ أفلام تنوعت فيها إسهامات محفوظ ما بين الكتابة للسينما أو الرواية أو القصة الأدبية القصيرة.

أما المرحلة الرابعة: فهى مرحلة الاعتماد الكثيف على قصص محفوظ الأدبية القصيرة المنشورة. تبدأ بفيلم «الشريدة» ١٩٨٠، وبعده تتوالى الأفلام المأخوذة عن القصص القصيرة وحدها بشكل مطلق أو يكاد، حيث يتم إنتاج ١٥ فيلماً منها خلال ٩ أعوام فقط، آخرها فيلم «أصدقاء الشيطان» ١٩٨٨.

لقد اكتملت هذه المراحل التى امتدت حتى حصول محفوظ على جائزة نوبل ١٩٨٨. بعد حصوله عليها ظهرت ٤ أفلام فقط. اعتمد اثنان منها على الرواية هما «قلب الليل» ١٩٨٩ و«ليل وخونة» ١٩٩٠، واعتمد الفيلمان الآخران على القصة القصيرة «نور العيون» ١٩٩١ و«سمارة الأمير» ١٩٩٢.

المحاور الرئيسية:

من العرض السابق للمراحل المختلفة التى مرت بها إسهامات محفوظ فى إبداع الأفلام الروائية المصرية، نجد أن هذه الإسهامات تتمركز حول ثلاثة محاور محددة: أولها: الأفلام التى اعتمدت على كتاباته المباشرة للسينما (القصة/ السيناريو/ الإعداد السينمائى). وشغلت هذه الأفلام المرحلة الأولى تماماً مع امتدادها بعد ذلك فى أعمال متفرقة. وثانيها: ما اعتمد على رواياته وتمثلها أفلام المرحلة الثانية وامتداداتها المتفرقة فيما بعد. وثالثها: ما اعتمد على قصصه القصيرة المنشورة التى شغلت المرحلة الرابعة أساساً وإن بدأت قبلها، ويمكننا التعرف على أفلام كل محور منها وتقويمها، تحديداً لدور محفوظ الإبداعى فى هذا المجال، على النحو التالى:

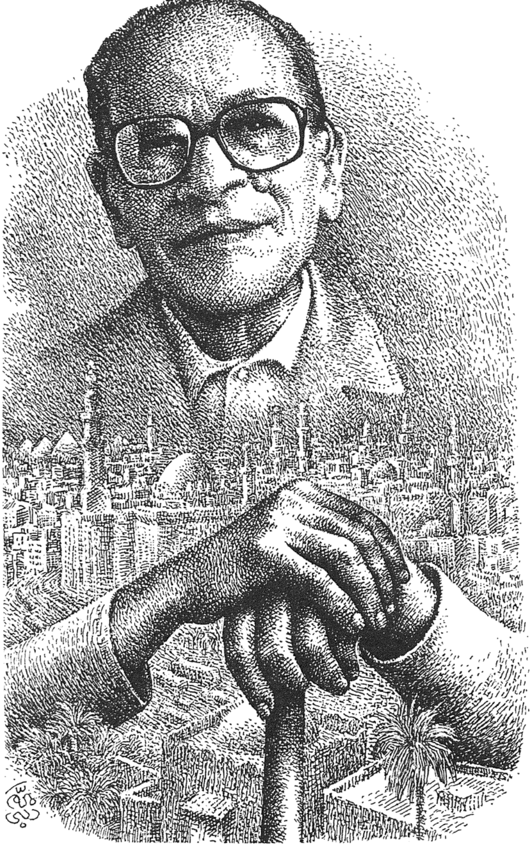
أعمال كتبها للسينما

أبرز أفلام هذا المحور مجموعة الأفلام التى أخرجها صلاح أبو سيف وحقق بها نقلة نوعية بالنسبة إلى ما سبق من أعماله، وفيها تميزت شخصيته الفنية التى حافظ عليها فيما بعد مما منحه دوره الريادى فى السينما المصرية. ومن ثم إذا كان صلاح أبو سيف قد علم نجيب محفوظ الصنعة، على نحو ما سبق ذكره، فقد منحه نجيب محفوظ الشخصية. والأفلام المقصودة هى الأفلام الستة التالية.

أولها: فيلم «لك يوم يا ظالم» ١٩٥١، قصة الفيلم مقتبسة عن رواية «تيريز راكان» للكاتب الفرنسى إميل زولا. بين يدى محفوظ فقدت القصة ملامحها الأجنبية تماماً وأصبحت مصرية لحماً ودماً من خلال الشخصيات، والحارة، والحمام الشعبى، حيث تدور أجزاء كبيرة من الأحداث التى تحكى لنا عن محاولة شرير الاستيلاء على زوجة صديقه وأموالها بعد قتله.

أما فيلم «ريا وسكينة» ١٩٥٣ فقد كتب له محفوظ القصة والسيناريو عن حادثة واقعية لامرأتين نشرتا الرعب يوماً بالإسكندرية، حيث كانتا تستدرجان النساء إلى بيتهما لقتلهن والاستيلاء على حليهن. وكانت المحاولة الأولى فى السينما المصرية، أن يستمد الفيلم موضوعه من حادثة واقعية. ثم كررها محفوظ بعد ذلك أكثر من مرة. وكان بهذا رائداً فى السينما المصرية.

وكما استمد محفوظ قصة فيلمه «ريا وسكينة» من حادثة واقعية بالإسكندرية، استمد قصة فيلمه التالى «الوحش» ١٩٥٤ من حادثة واقعية بالصعيد، وكتب لها السيناريو، عن السفاح الصعيدى الذى عرف باسم (الخط)، وقد روع



الصعيد بجرائمه وفرض إرادته على الناس وأنهك الشرطة قبل أن يقع فى يدها. عرض الفيلم فى مهرجان كان ١٩٥٤، ونال شهادة تقدير من لجنة التحكيم.

واعتمد فيلم «الفتوة» أيضًا على قضية واقعية، هى قضية «زيدان» ملك سوق الخضر، الذى احتكر السوق واستعان على تحقيق أطماعه بالغش والرشوة واستغلال النفوذ. شارك محفوظ فى كتابة السيناريو الذى كان من أنضج أعماله مع صلاح فى هذه المجموعة إن لم يكن أنضجها بالفعل. تميز بشدة تماسك الحبكة بين الأحداث وحدة الصراع وقوة بناء الشخصيات ذلك فضلاً عن نهايته الجديدة المبتكرة فى السينما المصرية، حيث يتكرر فى نهاية الفيلم نفس مشهد البداية، مما يوحى أن دورة الأحداث وعوامل الفساد ستظل قائمة طالما ظل البناء الاجتماعى/ الاقتصادى الذى يفرزها قائمًا. وقد عرض الفيلم فى مهرجان برلين ١٩٥٧، واشترك فى أسبوع الفيلم العربى فى الاتحاد السوفيتى ١٩٥٨.

وشارك محفوظ فى كتابة سيناريو فيلم «شباب امرأة» ١٩٥٥. الفيلم دراسة نفسية واجتماعية لامرأة من الطبقة الشعبية على مشارف خريف العمر تعشق شابًا ريفيًا جاء للدراسة فى القاهرة. الشخصية الاقتحامية للمرأة (بنت البلد) فى تعبيرها عن رغباتها الجنسية كما قدمها الفيلم جاءت على صورة غير معهودة فى السينما المصرية التى كانت تسودها صورة المرأة اللعوب أو المرأة المستكينة بالفعل، أو بتظاهرة لإخفاء مكرها.

وكان آخر هذه المجموعة تجربة فريدة من نوعها فى تاريخ السينما المصرية. هى تجربة فيلم «بين السماء والأرض» ١٩٥٩ حيث تجرى معظم أحداث الفيلم داخل مصعد تعطل بمن فيه فى منتصف المسافة بين دورين. فشلت التجربة من الناحية التجارية وقت إنتاجها ولذا لم تتكرر، بينما قوبلت بتقدير من النقاد والجمهور عندما عرض الفيلم فى التليفزيون بعد أكثر من عقد. وقد مثلنا الفيلم فى أسبوع فى يوغوسلافيا ١٩٦٠.

كتب محفوظ لهذا الفيلم القصة السينمائية فقط. ومحفوظ أول من كتب القصة السينمائية فى مصر. قبله لم يكن هناك اعتراف بوجود القصة السينمائية باعتبارها عملاً فنيًا مستقلاً. كانت تأتى ضمن السيناريو دون إدراك لأهمية استقلالها. ومن ثم كانت كتابته للقصة السينمائية عملاً رائدًا فى هذا المجال، وقد منحها بعمله القيمة المستحقة لها.

وقد أصبحت هذه الأفلام الستة التى أخرجها صلاح أبو سيف وشارك محفوظ فى كتابتها من كلاسيكيات السينما المصرية.

وإلى جانب هذه المجموعة من الأفلام نجد مجموعة أخرى من ستة أفلام أيضًا



قبله لم يكن هناك اعتراف بوجود القصة السينمائية باعتبارها عملاً فنيًا مستقلاً. كانت تأتى ضمن السيناريو دون إدراك لأهمية استقلالها. ومن ثم كانت كتابته للقصة السينمائية عملاً رائدًا فى هذا المجال

مما شارك محفوظ فى كتاباتها وتحمل بصمته. وإن جاءت بدرجات متفاوتة. وقد أخرجها آخرون غير صلاح أبو سيف. ثلاثة منها أخرجها عاطف سالم وهى: «جعلونى مجرمًا» ١٩٥٤، و«النمرود» ١٩٥٦، و«احنا التلامذة» ١٩٥٩.

تتفق الأفلام الثلاثة فى أنها تتناول شخصيات تدفع بها ظروفها الاجتماعية إلى الانحراف.

وكتب محفوظ القصة والسيناريو لفيلم «فتوات الحسينية» ١٩٥٤، أخرجه نيازى مصطفى. الفيلم يقدم صورة لأهل هذا الحى الشعبى فى عصر الفتوات، ونوع القيم التى تحكم العلاقات فيما بينهما.

وكما سبق أن كتب محفوظ فيلم «النمرود» على أنه كوميدى، كتب أيضًا قصة وسيناريو فيلم «درب المهابيل» ١٩٥٥ ليكون فيلمًا كوميديًا. البطل فى هذا الفيلم هو الدرب نفسه بما يعج به من شخصيات، نتعرف عليها من خلال حادثة طريفة لورقة يا نصيب يشتريها عامل شاب أملاً فى أن تحل أزمته ويتزوج من خطيبته. لكن الورقة تنتقل بفعل المصادفة إلى المجذوب فى الدرب. ويحدث أن تربح الورقة، فيكاد الشاب أن يفقد صوابه، وأهل الدرب يحيطون المجذوب بالاهتمام، وكل منهم يحاول أن يستولى منه على الورقة. وأخيرًا يلتهم قطيع الماعز الأوراق المالية التى حصل عليها المجذوب قيمة الجائزة، وكان يخفيها بجراب عنزته.

وكان فيلمه «الهاربة» ١٩٥٨ إخراج حسن رمزى، عودة إلى غلبة الأحداث الميلودرامية وإن انتهى نهاية سعيدة تجمع بين البطل والبطلة. فالبطلة تهرب من قريتها حتى لا يزوجوها من ابن عمها الذى لا تحبه. لكن الطبيب الذى يؤويها فى القاهرة يعتدى عليها يومًا ما ثم يذهب للدراسة فى الخارج. فتلجأ للعمل لتربى طفلها. ولكن الطبيب يعود فى النهاية ويبحث عنها حتى يجدها ويتزوجها.

ومن الأفلام المتميزة التى ترتبط بهذا المحور وإن جاءت متأخرة فى المراحل التالية فيلم «المذنبون» ١٩٧٦ إخراج سعيد مرزوق. كتب له محفوظ القصة السينمائية. الفيلم يقدم صورة نقدية حادة لما وصل إليه المجتمع فى السبعينيات مع الانفتاح الاستهلاكى من تفشى الرشوة والاستغلال والتكالب على الثراء السريع والحصول على المتعة والمظهرية. وذلك من خلال مجموعة كبيرة من الشخصيات تمثل قطاعات مختلفة من المجتمع يجرى معهم التحقيق لتواجدهم فى الحفل الذى أقامته الممثلة ليلة مقتلها.

ويدخل ضمن هذا المحور أيضًا من أعمال محفوظ السينمائية فى مرحلتها الأولى كتابة السيناريو لفيلمين عن روايتين للكاتب إحسان عبد القدوس هما «الطريق المسدود» ١٩٥٨ و«أنا حرة» ١٩٥٩ غير أننا لا نلمح فى العملين السمات الشعبية الغالبة على أعمال محفوظ الأخرى فى نفس المرحلة التى يدور معظمها فى الحارة ويلعب الأدوار الرئيسية فيها أبناء البلد. وأسأل محفوظ عن افتقاد المتفرج للملامح المحفوظية فى هذين العملين، فيجيب: مع روايات إحسان يتحول نجيب محفوظ إلى البرجوازى الذى يعيش مع إحسان فى شارع واحد. ثم إن أعمالى ليست كلها فى الحارة. وأرد: كان ذلك فيما بعد أى ما بعد الثلاثية. يعترض محفوظ: وماذا عن رواياتى الأولى عن الفترة الفرعونية. هل كانت تدور فى الحوارى؟ (يضحك)

أواصل السؤال: كيف كنت تختار موضوعات أفلامك فى هذه المرحلة بالذات؟ يفاجئنى بصراحته المعهودة: الآخرون هم الذين كانوا يختارون الموضوع. والسيناريو الذى أتفق عليه أكتبه. كنت أعمل فى كتابة السيناريو كمحترف يؤدى حرفة.

أفلام عن رواياته:

بدأت السينما المصرية فى الاستعانة بروايات محفوظ منذ عام ١٩٦٠، وكان فيلم «بداية ونهاية» الذى يحمل نفس عنوان الرواية. كتب سيناريو الفيلم صلاح عز الدين وأخرجه صلاح أبو سيف. وعن أفلامه التى أعدت عن أعمال أدبية يقول محفوظ: «من حسن حظى أن جميع الأفلام التى أخذت عن كتبى أحرزت نجاحًا كبيرًا. وقد استجبت لها رغم كل ما قيل عنها. ليس هناك أفظع مما قيل عن فيلمى قصر الشوق وبين القصرين. ومع ذلك سعدت بهما جدًا وأنا راض عنهما تمامًا» وما زالت شخصيات مثل «السيد أحمد عبدالجواد» و«أمينة» مضرب الأمثال بشأن العلاقة بين الزوج والزوجة فى الأسرة المصرية.

خلال عقد الستينيات تم عرض ١١ فيلمًا اعتمدت على روايات محفوظ وحملت عناوينها فيما عدا واحد منها فقط هو «القاهرة ٣٠» عن رواية «القاهرة الجديدة». من بين أفلام هذا العقد توجد تجربتان رائدتان كنماذج على الأمانة فى ترجمة النص الأدبى والحفاظ على روح الرواية المحفوظية، وهما «بداية ونهاية» و«خان الخليلى».

وفى نفس هذا العقد كان لصلاح أبو سيف تجربة أخرى لها أهميتها مع رواية أخرى لمحفوظ هى رواية القاهرة الجديدة التى حولها إلى «فيلم القاهرة ٣٠» عام ١٩٦٦. اكتفى الفيلم بتقديم شخصية واحدة من الشخصيات الرئيسية الثلاث التى تداولتها الرواية. أسقط تمامًا شخصية اليمينى المتدين وقلص دور شخصية الوطنى اليسارى وركز على شخصية «محجوب» الانتهازية

لإبراز ما وصل إليه المجتمع المصرى من فساد وفقر وفوارق طبقية شاسعة فى الثلاثينيات.

ومن الأفلام التى تستحق التنويه فى هذا العقد فيلمان من إخراج كمال الشيخ وهما «اللص والكلاب» ١٩٦٣ و«ميرامار» ١٩٦٩. تميز الفيلمان بنقد النظام القائم ورموزه. الأول منهما يعتبر أولى المحاولات السينمائية المصرية فى هذا الاتجاه. وفيه يكشف عن انتهازى مدعى الاشتراكية الذى يدفع اللص الصغير إلى ارتكاب جرائمه باسم العدالة، ثم يتخلى عنه بعد أن أصبح من رموز المجتمع، ويحاول استغلال نفوذه لتحريض المجتمع ضده. لكن الفيلم الثانى «ميرامار» وإن احتفظ بإدانة الرواية لشخصية الانتهازى عضو الحزب الوحيد الحاكم، وقد حقق ذلك بجدارة، إلا أنه برأ بعض الشخصيات التى أدانتها الرواية وتمثل بعض الرموز الاجتماعية السياسية لمجتمع ما قبل الثورة.

ومع قدوم السبعينيات كان هناك تغيير ملحوظ فى التعامل مع أعمال محفوظ الأدبية. فقد أصبحت . فى عمومها . أكثر نضجا من ناحيتى المستوى السينمائى والاقتراب من روح النص. أما من الناحية الكمية فقد أخذ الاعتماد على الرواية يتراجع ليحل محله تدريجيا الاعتماد على القصة، حيث بلغ عدد الأفلام المأخوذة عن أعمال محفوظ الأدبية ١١ فيلما اعتمد منها على رواياته ٦ أفلام والباقى اعتمد على قصصه.

من بين هذه الأفلام. يمثل كل من «الحب تحت المطر» ١٩٧٥ و«الكرنك» ١٩٧٥ نماذج من أرقى مستويات المعالجة السينمائية لروايات محفوظ. الأول كتبه ممدوح الليثى، والثانى شارك فى كتابته مع صلاح جاهين.

«الحب تحت المطر» إخراج حسين كمال يكشف بعمق فى لغة سينمائية رفيعة عن معاناة الشباب وما أصابه من انهيار بوقوع نكسة ١٩٦٧. ويتميز الفيلم عن كل ما عداه من أفلام تناولت مواضيع مماثلة بميزتين، الأولى أنه تجنب استخدام مشاهد الإثارة الجنسية المعهودة رغم أنها كانت متاحة، فعبر عنها ولم يبتذلها. والميزة الثانية والأهم أن الشباب رغم سقوطهم تحت ظروف القهر الاقتصادى الساحق وهبوط الروح المعنوية بسبب الهزيمة وانهيار المثل وفقدان القدوة لم يصبه العجز، فهو يرفض السقوط ويدينه ويقاومه دون خطابية، ويكتشف بنفسه طريقه للخلاص.

وعن معاناة الشباب أيضا فى مرحلة أسبق، يجسد. بوحشية. فيلم «الكرنك» إخراج على بدرخان ما جاء فى الرواية من تلفيق للتهم وتعذيب بشع وتحطيم للكرامة الإنسانية فى نفوس الشباب، باسم الحفاظ على الأمن والحفاظ على الثورة. الفيلم. كما الرواية. نقد حاد للتسلط والديكتاتورية والبوليسية حين تتحكم فى مصائر الناس.

ورغم أن عدد الأعمال المنسوبة إلى محفوظ بلغت ذروتها فى الثمانينيات حيث وصلت إلى ١٨ فيلما، إلا أن الأفلام المأخوذة عن رواياته تراجعت إلى حدها الأدنى حيث بلغت ثلاثة أفلام فقط هى «عصر الحب» و«وصمة عار» فى العام نفسه ١٩٨٦ و«قلب الليل» ١٩٨٩. ويمكن أن نضيف إلى هذه المجموعة «ليل وخونة» الذى ظهر ١٩٩٠ وكان آخر الأفلام المأخوذة عن روايات محفوظ حتى الآن.

من بين هذه الأفلام الأربعة أخرج أشرف فهمى فيلمين هما «وصمة عار» و«ليل وخونة». قدم من خلالهما تجربتين جديدتين لا ينقصهما الجرأة فى تناول روايات محفوظ. كان كل فيلم منهما محاولة لتقديم ترجمة جديدة مختلفة لرواية سبق تحويلها إلى فيلم يحمل نفس عنوانها. فالفيلم الأول «وصمة عار» عن رواية الطريق التى سبق أن أخرجها حسام الدين مصطفى بنفس العنوان عام ١٩٦٤. والفيلم الثانى «ليل وخونة» عن رواية «اللص والكلاب» التى سبق أن أخرجها كمال الشيخ عام ١٩٦٣.

ويمثل فيلم «قلب الليل» إخراج عاطف الطيب إحدى المحاولات السينمائية المصرية الجريئة فى تناول رواية ذات طابع فلسفى حيث يصعب ترجمة تأملات الشخصية الرئيسية وصراعاتها الداخلية إلى صور وأفعال. الشخصية الرئيسية تمثل فى تطوراتها خلاصة تطور الإنسانية من الخرافة إلى المنطق العقلانى مرورا بالأسطورة والدين.

أفلام عن القصص القصيرة:

كان علينا أن ننتظر حتى أوائل السبعينيات ليظهر أول الأفلام المأخوذة عن قصة قصيرة من قصص محفوظ وهو فيلم «صورة» إخراج مدكور ثابت عن قصة بنفس العنوان من مجموعة «خمارة القط الأسود». يستغرق الفيلم ٦٠ دقيقة ويمثل الجزء الثالث من فيلم «صورة ممنوعة» ١٩٧٢. وفى نفس العقد ظهر الفيلم الاستعراضى «أميرة حبى أنا» ١٩٧٤ إخراج حسن الإمام عن قصة من مجموعة «المرايا».

ويعتبر عقد الثمانينيات هو عقد الذروة فى عدد الأفلام المأخوذة عن قصص محفوظ (١٥ فيلما). واستكمالا لأفلام هذا المحور يمكن أن نضيف فيلمى «نور العيون» ١٩٩١ إخراج حسين كمال، و«سمارة الأمير» ١٩٩٢ إخراج أحمد يحيى، باعتبارهما آخر ما تحول من قصص محفوظ إلى أفلام سينمائية حتى الآن.

ستة أفلام من بين هذه المجموعة مأخوذة عن حكايات «ملحمة الحرافيش» وحدها. الأفلام هى («شهد الملكة» ١٩٨٥، «المطارد» ١٩٨٥، «التوت والنبوت» ١٩٨٦، «الحرافيش» ١٩٨٦، «الجوع» ١٩٨٦، و«أصدقاء الشيطان ١٩٨٨») يضاف إلى هذه الأفلام الستة أربعة أفلام أخرى مأخوذة عن قصص فى مجموعات أخرى غير مجموعة الحرافيش لكن أحداثها تدور فى عصر الفتوات والحرافيش. لتصبح ١٠ أفلام يجمع بينها نفس الجو والشخصيات والقيم السائدة. وهذه الأفلام الأربعة هى «فتوات بولاق» ١٩٨١، «الشيطان يعظ» ١٩٨١، «وكالة البلح» ١٩٨٣، و«نور العيون» ١٩٩١.



من حسن حظى أن جميع الأفلام التى أخذت عن كتبى أحرزت نجاحا كبيرا. وقد استجبت لها رغم كل ما قيل عنها. ليس هناك أفظع مما قيل عن فيلمى قصر الشوق وبين القصرين. ومع ذلك سعدت بهما جدا وأنا راض عنهما تماما

معظم هذه الأفلام ابتعدت (بدرجات متفاوتة) عن مغزى القصة، أو جاء ضعيفا فى تنفيذه، يستثنى منها . فى رأيى . فيلمان هما: «الشيطان يعظ» إخراج أشرف فهمى، و«الجوع» إخراج على بدرخان.

خارج نطاق أفلام الحرافيش والفتوات التى سادت عقد الثمانينيات. نجد من الأفلام المأخوذة عن قصص محفوظ أفلاما تدور أحداثها فى نفس زمن إنتاجها أو قريبا منه. وتناقش بعض مشاكلنا المعاصرة. ثلاثة منها جديرة بالاعتبار هى على التوالى: «أهل القمة» ١٩٨١، و«أيوب» ١٩٨٤، و«الحب فوق هضبة الهرم» ١٩٨٦.

«أهل القمة» إخراج على بدرخان يمثل المحاولة الأولى لنفس مخرج «الجوع» فى الحفاظ على المعنى مع القدرة على توسيع العمل بمزيد من التفاصيل والتأثيرات الدرامية، بالإضافة والتغيير فى الشخصيات والأحداث والأماكن، مما يدعم المعنى. ربما . أكثر من الأصل الأدبى نفسه.

ويتميز فيلم «أيوب» إخراج هانى لاشين بتعبير سينمائى سلس التزم بالأمانة فى ترجمة أحداث القصة ومضمونها.

أما «الحب فوق هضبة الهرم» إخراج عاطف الطيب فيقدم مناقشة جريئة بالصورة والحوار لمشكلة الحب والزواج عند الشباب فى عصر التضخم والانفتاح. استمد الفيلم من القصة كل متطلباته تقريبا: الحدث الرئيسى والحبكة الفرعية والحوار فى ذرواته المهمة والحاسمة. وحافظ الفيلم على القصة مبنى ومعنى.

بصمة محفوظ:

رغم اختلاف مخرجى الأفلام التى شارك محفوظ فى إبداعها، ورغم اختلاف نوعية مشاركته فيها، إلا أن الأفلام اتسمت فى مجملها. والجيد منها على وجه الخصوص. بسمات مميزة، أضفت عليها بصمة خاصة. وإن كانت تنتشر فيها بدرجات متفاوتة. ولم تكن هذه البصمة جامدة، وإنما تطورت بتطور مشاركات محفوظ وتنوعها. وتماثلت. إلى حد كبير. المراحل التى مرت بها بصمته السينمائية مع تطورات كتاباته الأدبية. وتكشف سمات بصمته عن نفسها فى كل من الزمان والمكان والشخصيات

وأسلوب المعالجة على نحو ما يتبين لنا فيما يلي.

١. الـزمـان:

كما بدأ نجيب محفوظ أعماله الأدبية بروايات تاريخية تدور أحداثها في الماضي البعيد «أحمس» و«رادوبيس» و«عبث الأقدار»، كان أول فيلمين كتب لهما السيناريو تدور أحداثهما في عصور تاريخية سابقة وهما فيلما «المنتقم» ١٩٤٧، و«مغامرات عنتر وعبلة» ١٩٤٨. وكما انتقل محفوظ في أعماله الأدبية التالية إلى معالجة موضوعات تدور أحداثها في النصف الأول من القرن العشرين، كذلك كانت أفلامه التالية التي تتناول أحداثًا تدور قبل ثورة ١٩٥٢. ومنها ما استمد مادته من وقائع بعينها حدثت في هذا العهد مثل «ريا وسكينة» و«الوحش» و«الفتوة» و«احنا التلامذة» يُستثنى من ذلك فيلما «الطريق المسدود» ١٩٥٨، و«أنا حرة» ١٩٥٩ اللذان أعدهما عن روايتي إحسان عبدالقدوس، حيث يناقشان قضايا معاصرة لفترة إنتاجهما وإن كان لها جذورها الممتدة فيما سبق، وتتعلق بإشكاليات القيم ووضع المرأة في المجتمع. والفيلمان يبشران بقيم جديدة تتوافق واتجاهات المجتمع الجديدة في عهد الثورة.

ومع توقف محفوظ عن الكتابة للسينما تقريبًا وتحول السينما إلى الاعتماد على رواياته الأدبية في المرحلة التالية نلاحظ من الأفلام ما اعتمد على روايات محفوظ التي كتبها في مرحلة أدبية سابقة وتدور أحداثها في نفس زمن الأفلام السابقة أي ما قبل الثورة. وتحمل هذه الأفلام مواصفات الأفلام السابقة. ويمكن اعتبارها امتدادًا لها مثل أفلام «بداية ونهاية» ١٩٦٠، «زقاق المدق» ١٩٦٣، «بين القصرين» ١٩٦٤، «خان الخليلي» ١٩٦٦، «القاهرة ٣٠» ١٩٦٦ و«قصر الشوق» ١٩٦٧.

لكن السينما المصرية أقدمت أيضًا في نفس الوقت على تحويل روايات محفوظ الأحدث، وحققت بها نقلة نوعية بانتقالها إلى معالجة الزمن المعاصر لها ويمثلها أفلام: «اللص والكلاب» ١٩٦٣ و«الطريق» ١٩٦٤، و«السمان والخريف» ١٩٦٨، و«ميرامار» ١٩٦٩، و«الشحات» ١٩٧٣، و«الكرنك» ١٩٧٥، و«الحب تحت المطر» ١٩٧٥.

وإذا كانت الأفلام المأخوذة عن الروايات دارت حول فترتين زمنيتين متتاليتين هما: زمن ما قبل الثورة وزمن ما بعدها، فالأفلام المأخوذة فيما بعد عن القصص دارت أيضًا . في معظمها . حول فترتين زمنيتين ولكن بينهما فجوة زمنية واسعة، حيث تدور أحداث إحداهما في زمن الفتوات بينما تدور أحداث الأخرى في الزمن المعاصر. ومن ثم تعتبر هذه الأفلام الأخيرة امتدادًا لأفلام الروايات التي تدور في نفس الزمن. وقد سبق أن ذكرنا من أهم أفلام الفتوات والحرافيش في هذه المرحلة فيلمي «الشيطان يعظ» ١٩٨١ و«الجوع» ١٩٨٦. وكان من أهم الأفلام المعتمدة على قصص تتناول الزمن المعاصر لإنتاجها «أهل القمة» ١٩٨١، و«أيوب» ١٩٨٤، و«الحب فوق هضبة الهرم» ١٩٨٦.

من هذا الاستعراض نجد أن أفلام محفوظ عالجت عدة فترات زمنية متصلة قبل وبعد الثورة، وهي الأغلب والأهم، وأخرى منفصلة تدور في أزمان سابقة متخيلة، وتتمثل في زمن الفتوات في مصر أو ما هو أقدم منها ويتصل بالتاريخ العربي القديم كالفيلمين الأولين. إلا أنه رغم اختلاف الأزمنة ظلت الأفلام في مجملها على صلة وثيقة بالزمن الحاضر وقت إنتاجها. وما يثار فيه من قضايا. وهو ما كان يجري مناقشته مباشرة أو بإسقاط الماضي على ما يجري في الحاضر، مما أضفى على هذه الأفلام حيويتها. وجعلها في الوقت نفسه بمثابة وثائق تاريخية (فنية) شاهدة على العصر.



مع قدوم السبعينيات كان هناك تغيير ملحوظ في التعامل مع أعمال محفوظ الأدبية. فقد أصبحت . في عمومها . أكثر نضجًا من ناحيتي المستوى السينمائي والاقتراب من روح النص

٢. المـكـان:

معظم أفلام المرحلة الأولى تدور داخل الحواري والأزقة الشعبية. والمكان في هذه الأفلام ليس مجرد مساحة من الفراغ تتحرك داخلها الشخصيات، وإنما هو شخصية حية بما له من تاريخ وتقاليد تترك أثرها على الأحداث والشخصيات، فضلاً عن أنه يحدد الجو العام للفيلم. وكما نجد في روايات محفوظ الأولى ما يحمل أسماء المكان الذي تدور فيه أحداث الرواية، ومنها الروايات التي تحولت إلى أفلام فيما بعد، نجد أيضًا من عناوين هذه الأفلام ما يحمل أسماء المكان، وهو ما يجعل هذه الأفلام امتدادًا لسابقتها، ومنها «زقاق المدق» ١٩٦٣، و«بين القصرين» ١٩٦٤، و«خان الخليلي» ١٩٦٦، و«قصر الشوق».

أما أفلام مثل «اللص والكلاب» ١٩٦٣ و«السمان والخريف» ١٩٦٨، و«ميرامار» ١٩٩٦، و«ثرثرة فوق النيل» ١٩٧١، و«الشحات» ١٩٧٣، المأخوذ عن روايات محفوظ بنفس العناوين، فقد انتقلت من الحارة إلى شوارع المدينة حيث يسكن أبناء الطبقة المتوسطة الجديدة.

وهكذا نجد أن أفلام محفوظ تغوص في حواري المدينة وشوارعها باستثناء فيلم «الوحش» ١٩٥٤، الذي دارت أحداثه في القرية، والمدينة المقصودة هنا هي القاهرة خاصة فيما عدا فيلمي «السمان والخريف» و«ميرامار» حيث دارت أحداثهما في الإسكندرية.

وعندما انتقلت السينما المصرية إلى الاستعانة بقصص محفوظ القصيرة في المرحلة التالية ظلت داخل نطاق القاهرة أيضًا، وإن أخذت الحواري في مجموعة أفلام الفتوات والحرافيش شكلاً مختلفًا إلى حد ما عن الحواري السابقة حيث ترتد بها إلى عصر الفتوات مما يضفي عليها طابعًا خاصًا سواء في العمارة أو التقاليد والقيم التي تحكمها.

٣. الشـخـصـيـات:

ساد في المرحلة الأولى شخصيات ابن البلد من الطبقة المتوسطة الدنيا، بما فيها من الحرفيين وأصحاب الأملاك أو الأعمال الصغيرة والباعة والتلامذة والمجرمين. منها شخصيات مطحونة جائعة للمال كما في «النمرود» وجائعة للجنس كما في «شباب امرأة»، تجد نفسها مدفوعة إلى الجريمة كما في «إحنا التلامذة» و«جعلوني مجرمًا»، أو ساعدتها الظروف على احتراف الجريمة كما في «ريا وسكينة» و«الوحش». وهي شخصيات محدودة الوعي تخطئ الطريق. غالبًا. في بحثها عن الحل لأزمتها كما في «الفتوة» و«احنا التلامذة».

تمثل شخصية المجرم أو المنحرف مكانة بارزة في هذه الأفلام التي تعالجها من زوايا مختلفة، بحيث يمكن أن تعطينا صورة واضحة لطبيعة الجريمة أو الانحراف وطبيعة المجرم أو المنحرف في ملابسات اجتماعية مصرية معينة تكشف عن أسباب تواجد هذه الجريمة أو الانحرافات كما في أفلام: «لك يوم يا ظالم»، «ريا وسكينة»، «الوحش»، «جعلوني مجرمًا»، «فتوات الحسينية»، «النمرود»، و«احنا التلامذة».

وفي المرحلة التالية مع الاستعانة بروايات محفوظ امتدت نفس نوعية الشخصيات في أفلام الحارة، وإن ظهرت بينها فئات جديدة مثل فئة صغار الموظفين في «بداية ونهاية» و«خان الخليلي». وأصبحت في أحيان أخرى أكثر ثراء معبرة عن الطبقة المتوسطة الأعلى من كبار التجار كما في الثلاثية (بين القصرين، قصر الشوق والسكرية).

وخارج نطاق الحارة قدمت أفلام محفوظ شخصيات ابن المدينة من الطبقة المتوسطة الدنيا من صغار الموظفين كما في «الحب فوق هضبة الهرم» ومن الطبقة المتوسطة العليا من كبار الموظفين وأصحاب المهن المختلفة (الصحفي، المحامي، الممثل، والكاتب) وأصحاب الأملاك، كما في: «السمان والخريف»، «ميرامار»، «ثرثرة فوق النيل»، و«الشحات».

ومع إقدام السينما على الاستعانة بقصص محفوظ الأدبية القصيرة قدمت الأفلام نماذج أخرى من الشخصيات، لكنها ظلت جميعًا في نطاق أبناء الطبقة المتوسطة في المدينة على مختلف مستوياتها وجميع فئاتها بما فيهم من أسوياء ومنحرفين. وقد أخذ الانحراف أشكالاً جديدة بما يتفق ومتغيرات العصر كما يتضح على وجه الخصوص في غيلان عصر الانفتاح في «أهل القمة» و«أيوب».

٤ ـ الأسلوب:

من خلال كتاباته لها ومن خلال أدبه فيما بعد، فرض محفوظ على السينما المصرية نهج الواقعية، إذا ما اعتبرنا الواقعية فى أبسط تعريفاتها: «كل فن يحاول أن يمثل الأشياء بأقرب صورة لها فى العالم الخارجى» فهو يتوخى الواقع فى تناول الشخصيات ومعالجة الأحداث والبناء السردى فى أفلامه، كما فى أدبه. ولما كان هذا الواقع متغيرًا، فهو كذلك فى أفلامه وأدبه، حيث ترتبط الأحداث والشخصيات والقضايا المثارة بمرحلتها التاريخية. ومن هذه الناحية اكتسبت مصداقيتها.

ولم يقتصر محفوظ على تمثيل الأشياء بأقرب صورة لها فى الواقع المصرى بل اشتق من الواقع المباشر أحيانًا أفكاره القصصية للسينما كما فعل فى الأدب. ومن أفلامه التى اعتمدت على أحداث وقعت بالفعل «ريا وسكينة» و«الوحش» و«الفتوة» ومن رواياته أيضًا التى ارتبطت مباشرة بأحداث شغلت الرأى العام «اللص والكلاب» التى تحولت مرتين إلى سينما. وكان فى ذلك رائدًا فى السينما المصرية كما كان رائدًا فى الأدب العربى.

ولا تتوقف واقعية محفوظ. فيماعدا استثناءات محدودة. عند حد تمثيل الواقع وإنما تتجاوز ذلك إلى ما يعنيه بريخت من الواقعية باعتبارها «اكتشاف تركيبات العلل والمعلولات فى المجتمع». وهو ما يؤكد ارتباط الأفلام بالواقع، بالإضافة إلى ما يضفى عليها من قيمة اجتماعية. ويكفى أن نضرب مثلاً على ذلك من أفلام المرحلة الأولى فيلم «الوحش» الذى يكشف عن آليات تواجد مجرم/ جريمة معينة فى مجتمع معين. ومن أفلام مرحلة الرواية فيلم «بداية ونهاية» الذى يكشف عن آليات انهيار أسرة فى مجتمع معين رغم قوة الإرادة الفردية. ومن أفلام مرحلة القصة الأدبية فيلم «أهل القمة» الذى يكشف عن آليات صعود اللصوص إلى قمة المجتمع فى ظروف اجتماعية معينة وأثر ذلك على القيم وسلوك الناس.

كما تتسم واقعية محفوظ بنزعة نقدية حتى نكاد لا نجد فيما بين أفلامه ما يخلو من نقد اجتماعى. ونحن مع من يذهب إلى اعتبار الواقعية «لونًا من ألوان النقد الثقافى» ويعتبر فيلم «الفتوة» فى مقدمة أفلامه الواقعية النقدية التى كتبها للسينما. ورغم أن الفيلم ينتمى للمرحلة الأولى من إسهاماته. إلا أنه مازال يحتفظ بقيمته الفنية، والنقدية على الأخص، حيث ينتقد السوق الحرة حين يحكمها الاحتكار وتتفشى فيها الرشوة واستغلال النفوذ. وكان فيلم «ميرامار» أول عمل سينمائى يدين النظام من خلال إدانته لعضو الحزب الحاكم وقتها. كما أدان أساليب الثراء غير المشروعة فى فيلم «أيوب». وكشف عن معاناة الشباب فى عصر الانفتاح وسخر من الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المفروضة فى «الحب فوق هضبة الهرم».

غير أن بعض أفلام محفوظ شابتها مسحة ميلودرامية يغلب عليها المبالغة فى التعبير عن المآسى، والسماح للصدفة بدور أساسى فى الأحداث. نلمح هذه السمة فى المرحلة الأولى، وعلى وجه الخصوص فى «لك يوم يا ظالم» و«الهاربة» و«جعلونى مجرمًا» لكن أفلامه تخلصت منها تدريجيًا فيما بعد خاصة فيما ذكرناه من أعماله السينمائية الأهم التى حققت قدرًا أكبر من النضج.

تعتبر هذه الواقعية التى اتسمت بها أعمال محفوظ السينمائية على نحو ما بيناه من أهم سمات بصمته على السينما المصرية إن لم تكن أهمها. فالسينما المصرية قبل محفوظ كانت أقرب إلى سينما غرائبية، لم تكن فى غالبيتها الساحقة تبالى بالواقع وإنما تتوخى كل ما هو غريب وشاذ أو خاص من أحداث وتصرفات، بقصد إثارة المتفرج وتسليته وإلهائه عن الواقع. وذلك غلب عليها أفلام الميلودراما الزاعقة والفارس والأفلام التاريخية أو شبه التاريخية وأفلام الأغانى والرومانسية المغرقة. ومع قدوم محفوظ الذى وضع بذور الواقعية، خلق فى السينما اتجاهًا جديدًا أخذ يتنامى فى أعماله وأعمال غيره.

وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية دور المخرجين لهذه الأفلام الذين توافقت أفكارهم واتجاهاتهم مع اتجاهات محفوظ الواقعية. وكان لهم الفضل فى تحقيق أفكاره فى الأفلام التى شارك فيها، وفى أفلام أخرى ساروا على نهجها، واستطاعوا أن يخلقوا مدرستهم الخاصة بسينما الواقعية المصرية.

حصاد السنين:

لاشك أن هذا العدد الضخم من الأفلام، وما حققه من انتشار جماهيرى (وهو الأهم) على مدى هذه السنين الطويلة، قدم، إلى جانب الثقافة، المتعة الفنية للمتفرج العربى على مختلف مستوياته فى مصر وخارج مصر. وكان بمثابة الفرن الهادئ الذى يصاغ به على مهل الوجدان العربى، والفكر، والأخلاق، والوعى بالذات.

كم من الأفكار، وكم من الشخصيات، وكم من الأحداث قدمتها هذه الأفلام، وكلها محاولات لفهم الحياة وفهم الإنسان فى مجتمعنا. تؤرخ لنا، تناقش قضايانا، تتألم لنا، وتفرح معنا، تقدم النقد، وتلوح بالأمل، وتسعدنا غالبًا على مختلف مستوياتنا.

من يريد أن يعرف القاهرة: أحياؤها القديمة، وقلب المدينة الحديثة، وناس المدينة خاصة الفقراء من أبناء البلد والأفندية وخريجى الجامعة: مشاكلهم، ومعاناتهم، وتمزقاتهم، وما يدور فى



أفلام محفوظ تغوص فى حوارى المدينة وشوارعها باستثناء فيلم «الوحش» ١٩٥٤، الذى دارت أحداثه فى القرية. والمدينة المقصودة هنا هى القاهرة خاصة فيماعدا فيلمى «السمان والخريف» و«ميرامار» حيث دارت أحداثهما فى الإسكندرية

أذهانهم. أجيال القاهرة من الحرب العالمية الأولى حتى الآن. وتاريخ المدينة الاجتماعى المعاصر. كل ذلك نجده متخيلاً فى أدب نجيب محفوظ. كما نجده مجسمًا فى أفلامه. بغض النظر عن اختلاف المستوى بينهما.

وإذا كان وضع الأدب العربى أصبح مختلفًا بما أضافه محفوظ. كذلك أصبح وضع السينما مختلفًا بما أخذته من محفوظ. سواء بكتاباته المباشرة لها. أو بما أعدته من أعماله الأدبية على نحو ما بيناه.

وإذا كان محفوظ قد أحرز جائزة نوبل للأدب العربى، فما أحرزته أفلامه من تقدير أدبى وقبول شعبى رفع من قيمة فن الفيلم فى بلدنا. لقد أحرزنا للفيلم الاحترام بعدد غير قليل من الأفلام، كما حقق الانتشار لمعظم ما حمل اسمه من أفلام.

ولكن، لعل أهم ما حققه للسينما هو إسهامه الواضح فى اكتساب هذه السينما هويتها من خلال نوعية القضايا التى تناقشها. ونوعية الشخصيات وصراعاتها فى زمان معين وفى مكان معين. مع توخى أسلوب خاص فى معالجة أحداثها. وهذا هو أهم ما ميّز أفلامه كما ميّز أدبه. وإن حققت أفلامه التأثير الأقوى والأكثر اتساعًا من الأدب فى مجتمعنا. ولا ينكر محفوظ ما كان للسينما من أثر واضح فى انتشار أعماله الأدبية. الأمر الذى يكرر الاعتراف به فى أكثر من مناسبة.

وأسأل الأستاذ (ختامًا لما سبق): ما أهم الأفلام. فى رأيك. التى حملت اسمك؟

يجيب: الأفلام المهمة كثيرة. وأنا لم أتابع كل أفلامى

أسأل: ما آخر فيلم شاهدته منها؟

يجيب: فيلم «الشيطان يعظ» وبعده لم يعد فى إمكانى الرؤية.

أسأل: من هم أفضل المخرجين. فى رأيك. الذين قدموا أعمالك؟

يجيب: كثيرون.. كلهم.. الحقيقة أن أفضل المخرجين المصريين هم الذين أخرجوا أفلامى.

أضيف: مثل صلاح أبوسيف وكمال الشيخ وحسين كمال وعاطف سالم..

مقاطعا: وحسن الإمام.. كان حسن الإمام يركز على أجزاء معينة من الرواية.. وهى الأجزاء التى أحبها (يضحك). أنت تعلم ما أعنى بالطبع. ■

الهوامش:

(١) قصة السينما فى مصر. سعد الدين توفيق. كتاب الهلال ١٩٦٩.

(٢) مصر مائة سنة سينما. إعداد وتقديم أحمد رأفت بهجت مطبوعات مهرجان القاهرة السينمائى الدولى ١٩٩٦.

(٣) نجيب محفوظ على الشاشة. الطبعة الثانية ١٩٩٠. هاشم النحاس. الهيئة العامة للكتاب.

(٤) حديث خاص مع الأستاذ نجيب يوم الجمعة ٢٠٠١/٦/١.

مالك بن نبى

وفلسفة الخروج من التخلف

محمد الميلى

فى يوم ٣١ أكتوبر ١٩٧٣، توفى مالك بن نبى المفكر الجزائرى الذى شغل الساحة الفكرية، وقتًا ما، فى الجزائر عقب الحرب العالمية الثانية، وفى خارج الجزائر، بعد اندلاع ثورة نوفمبر ١٩٥٤، إذ أقام فترة بالقاهرة. هناك بنى نظريته عن العالم الأفروآسيوى انطلاقًا من باندونج، وهو يعتبر أن عملية البناء الحقيقى فى العالم الإسلامى انطلقت من مصر عام ١٩٥٢، ثم من الجزائر عام ١٩٥٤، كما أعجب بالتجربة اليابانية منذ دراسته الجامعية، يدل على ذلك الكتاب الذى وضعه عن «الإسلام واليابان والمجموعة الأسيوية» عام ١٩٤٠.

لكن من هو مالك بن نبى؟

هو من مواليد ١٩٠٥، عرف النور فى مدينة تبسة بأقصى الشرق الجزائرى، وهى مدينة رومانية قديمة، كانت محطة مهمة من محطات الإمبراطورية الرومانية فى أفريقيا، وظلت محتفظة بمكانتها فى العهد البيزنطى، وبما أنها ملتقى قبائل عديدة فقد أولاها الفرنسيون أهمية خاصة، نظرًا إلى أن أهم قبيلة فى المنطقة، وهى قبيلة «النمامشة» اشتهرت بشدة المراس، وقد اكتوت جيوش الاحتلال بنارها فى القرن التاسع عشر عندما خاض أبناء المنطقة حروب المقاومة تحت راية الأمير عبدالقادر.

زاول دراسته الثانوية فى مدينة قسنطينة، (ومن ثم إتقانه اللغتين العربية والفرنسية) ثم التحق بباريس حيث درس الهندسة.

ورغم أنه كان مهندسًا فقد كانت انشغالاته فكرية أساسًا.

أدخل السجن فى أغسطس ١٩٤٤ بمدينة شارتر، غربى باريس، إثر اتهامه بالتعاون مع الألمان، ولعل الذين وجهوا إليه تلك التهمة اعتمدوا على الاتصالات التى كان يجريها مع ممثلى المسلمين فى فرنسا، نظرًا لاهتمامه بالشأن الإسلامى، حيثما وجد المسلمون، علمًا بأن هتلر كان قد وجه دعايته نحو الشعوب الإسلامية الخاضعة للاستعمار البريطانى والاستعمار الفرنسى، ويعرف سكان الشرق الجزائرى، ومنطقة مدينة تبسة على الخصوص التى كان ينتمى إليها مالك بن نبى، أن الألمان وزعوا بالطائرات، كميات كبيرة من الأسلحة بواسطة المظلات، على أمل أن يستعملها الجزائريون ضد الفرنسيين، فيسهلون مهمة احتلاله لتونس، ويضعفون الفرنسيين.

هذا ما جعل الإدارة الفرنسية آنذاك ١٩٤٢. توعز لأحد أبناء المدينة بتلفيق تهمة ضد الشيخ العربى التبسى، أحد الزعامات السياسية والدينية بالمنطقة، والذى كانت كلمته مسموعة من السكان، سواء من قبيلة النمامشة التى ينتمى إليها أو من القبائل الأخرى التى هى أقل عددًا، لأن الشيخ العربى استعمل نفوذه منذ بداية الثلاثينيات فى حماية تلك القبائل الصغيرة، وفعلاً زعم الشخص المكلف بتوجيه التهمة أنه كان ينقل رسائل من الشيخ العربى إلى الألمان (لأن مدينة تبسة كانت متاخمة للحدود التونسية) ويأتيه برسائل من الألمان، وأدخل الشيخ إلى أهم سجون الجزائر، وهو سجن «لامبيز» Lambese قرب مدينة باتنة، وحكم الإعدام هو الجزاء فى حالة كهذه.

لكن أصدقاءه. خاصة المرحوم أحمد بوشمال. جندوا مجموعة من المحامين، جزائريين وفرنسيين بالإضافة إلى أن الشيخ عندما قُدم للمحاكمة طلب مقابلته مع الشخص الذى اتهمه، عندما وقف هذا أمام الشيخ وكان مهيبًا، استحلفه أن يقول الحقيقة، فما كان منه إلا أن أجهش بالبكاء واعترف بتلفيق التهمة.

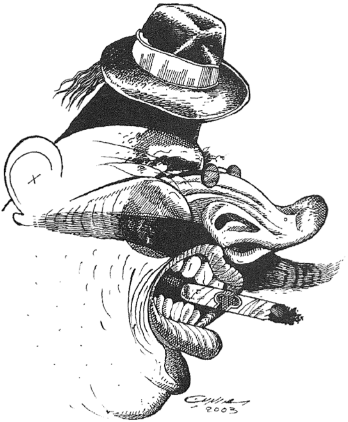
وتجدر الإشارة إلى أن أخا الشيخ العربى، الذى اسمه «البشير» كان من مؤسسى «المنظمة السرية» التى تدعو إلى الكفاح المسلح إثر أحداث مايو ١٩٤٥، وتوفى عام ١٩٤٨ متأثرًا بالتعذيب الذى سلط عليه فى السجن.

تعمدنا هذا الاستطراد للتدليل على أن تهمة الاتصال مع الألمان لم تكن استثناء، وعلى أن منطقة تبسة كانت من المناطق التى ظهر فيها التنظيم المسلح فى زمن مبكر.

وقد يكون تردد مالك بنى نبى على سفارة اليابان فى باريس قد عزز تلك التهمة، إذ كان معروفًا عنه اهتمامه الكبير بالتجربة اليابانية، بالإضافة إلى كتاب عن اليابان والمجموعة الإسلامية سلمه إلى السفارة اليابانية بباريس عام ١٩٤٠، أى قبل دخول اليابان فى الحرب.

إلا أن مالك بن نبى عندما قدم للمحاكمة فى أبريل ١٩٤٥ تأكدت براءته من التهمة وأطلق سراحه.

خلال إقامته بالسجن سجل أهم أفكاره حول «الظاهرة القرآنية» Le Phenomene Coranique الذى يعد باكورة إنتاجه، ولم يُصدر منشورًا فى كتاب إلا عام ١٩٤٨، إلا أن بعض من ترجموا له، يقولون أنه كتب كذلك «المشكل اليهودى» الذى. ضاع مخطوطه. كما وضع منذ ١٩٤٠ كتابًا عنوانه «الإسلام واليابان والمجموعة الأسيوية» سلمه فى نفس السنة إلى السفارة اليابانية فى باريس، فهل يوجد فى أرشيف السفارة اليابانية بباريس؟ لا أحد يعرف. وقد أهدى كتابه «الظاهرة القرآنية» إلى شخص اسمه Georges Merlin لأنه أنقذ كتابه إذ أخرجته زوجته من السجن قبل إطلاق سراح مالك.



وقد تولى رقن هذا المخطوط شخص يهودى فى مدينة تبسة عام ١٩٤٦ ونشرته «دار النهضة»(١) التى هى أول دار نشر

جزائرية عصرية، أسسها المرحوم عبدالقادر ميموني، أحد الوجوه البارزة في الحركة الوطنية الجزائرية.

وإذا كان هذا الأخير جامعيًا فقد رفض أن يشتغل في التجارة التقليدية كما كان يرغب أبوه وعمه اللذان رفضا تمويل مشروعه للنشر، فكون شركة مساهمة، بدأت تعمل دون مقر، وما لبثت أن أصبحت دار نشر مهمة وصارت ملتقى المثقفين بالعربية والفرنسية، وهذه هي نفس الدار التي نشرت عام ١٩٤٩ كتابه «شروط النهضة الجزائرية» لكن الكتاب الذي أكسبه الشهرة في الأوساط الفرنسية هو «Vocation De L'islam» الذي نشرته دار «لوسوي» الباريسية عام ١٩٥٤.

تجديد الفكر الإصلاحي:

تكتسي أفكار مالك بن نبي أهمية خاصة لاعتبارات عديدة، فقد ظهرت كتاباته في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أي في فترة عرفت فيه حركة الإصلاح الديني فراغًا بفعل غياب عبدالحميد بن باديس، الذي كان مفكرًا مجددًا في الدين، كما كان مفكرًا سياسيًا يؤمن بضرورة الكفاح المسلح، وإن كان يعتبر أنه لابد من التمهيد لذلك بتوعية سياسية وثقافية واسعة النطاق.

يؤكد بعض ذلك ما كتبه الأستاذ مصطفى الأشرف، الوجه البارز في الحركة الوطنية، فقد عمل في صفوف حزب الشعب منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، وهو في الوقت نفسه مفكر معروف بتشدده الذي يسميه بعضهم تطرفًا، وقد كتب دراسات مهمة عن تاريخ الجزائر ومسار الفكر الوطني، ونقاط القوة والضعف في الحركة الوطنية الجزائرية، وفي مسار الكفاح المسلح الذي فجرته جبهة التحرير الوطني، كانت تحليلاته صارمة تتسم بنزاهة فكرية وأخلاقية عالية.

فقد تعرض في إحدى الدراسات التي نشرها في كتابه القيم «L'Algerie Nation Et Societe» (الجزائر أمة ومجتمعًا) إلى الظروف السياسية والفكرية التي شهدت انتشار الوعي الوطني لدى الجماهير الشعبية، وقد سجل في هذا السياق ظهور حركتين مهمتين هما حركة حزب الشعب الجزائري سليل «نجم شمال أفريقيا» الذي طرح منذ ١٩٢٧ مبدأ الاستقلال التام، وحركة الإصلاح الديني التي تصدت لمحاولات الفرنسة والإدماج وإلحاق الجزائر بفرنسا.

وهو إذ يلاحظ التطرف الذي كان يتسم به حزب الشعب، يسجل أن مثل ذلك التطرف مكن العمل الوطني بالجزائر من تحقيق قفزة مهمة إلى الأمام، إلا أن هذا التطرف إذا كانت له إيجابياته فإنه له سلبياته التي انعكست على الثقافة السياسية ووحدة العمل السياسي، ذلك أنه يعتبر أن كلاً من حزب الشعب الذي يتزعمه مصالي الحاج، وحركة الإصلاح الديني التي يتزعمها ابن باديس يمثلان تيارين متقاربين يكمل أحدهما الآخر، لأن أيديولوجية كل منهما تشترك في نقطة واحدة، وكل ما كان مطلوبًا هو أن تدخل كل منهما تعديلات على مواقفهما تضمن وحدة العمل السياسي والثقافي، وهو يحمل مصالي الحاج مسئولية عدم تحقيق هذا المطلب، عندما يقول: «فمصالي الحاج المندفع الذي يجهل أو يحتقر كل إمكانيات البناء الفكري الوطني للحركة التي يقودها، دخل في حرب لا هوادة فيها ضد ابن باديس الذي كان آنذاك هو المفكر الوحيد المستنير المنظر لوطنية تاريخية وثقافية عصرية، تقدمية نسبيًا».

هذا الطرح يلتقي فيه مالك بن نبي مع مصطفى الأشرف، فقد كان مؤلف «وجهة الإسلام» سلمني مخطوطًا له لإبداء الرأي فيه، هو عبارة عن ذكرياته منذ أن كان بباريس، وفيه ينتقد بشدة أفكار مصالي الحاج الذي حضر أحد الاجتماعات التي عقدها بفرنسا، (كان عنوان المخطوط، إن لم تخنى الذاكرة: مذكرات شاهد على العصر أو على القرن).

والذي يهمنا في الأمر أن ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية تختلف عن ظروف الثلاثينيات: من حيث القضايا التي كانت مطروحة قبل ١٩٣٩، مثل «التجنيس» والموقف من المواطنة الفرنسية، من جهة، ومن جهة أخرى غياب ابن باديس الذي توفي يوم ١٦ أبريل ١٩٤٠، وكذلك مبارك الميلي الذي توفي يوم ٩ فبراير ١٩٤٥، الذي كان قد زود الحركة الإصلاحية بوثيقتين مهمتين: «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» و«رسالة الشرك ومظاهره»، فالأول مرافعة تاريخية ترد على الأطروحات الاستعمارية حول عدم وجود الجزائر تاريخيًا، والثاني يدحض أطروحات بعض الزوايا الطرقية التي وظفها الاستعمار لخدمة مصالحه، لذلك كان زملاؤه يسمونه «الفيلسوف» على أساس أنه كان منظرًا لتيار الإصلاح الديني في ميدانين مهمين من ميادين أنشطتها.

في هذا الإطار تبدو النظريات التي طرحها مالك بن نبي حدثًا مهمًا في حد ذاته، وتمثل طرحًا يمكن إدراجه في خط الإصلاح الديني المستنير، في نفس الوقت الذي يتجاوزه إذ يتناول مشاكل التخلف والاستعمار من زاوية أوسع، كما يقدم مشروعًا للمستقبل، لذلك كان مالك بن نبي يعتبر نفسه صاحب رسالة، وهو لم يكتف بما أصدره من كتب بعد ١٩٤٥ وقبل ١٩٥٤، إذ كان يكتب في صحف جزائرية مثل «الجمهورية الجزائرية» التي كانت ناطقة باسم حزب «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري» الذي يتزعمه فرحات عباس، وفي صحيفة «الشاب المسلم» التي كانت تعبر عن أفكار جمعية العلماء، وكلتاهما تصدران بالفرنسية.

وكانت «الشاب المسلم» تتميز بمحاولة إيجاد خلف مستنير للرعيل الأول من رجال الإصلاح الديني يخاطب المفرنسين من الجزائر كما يخاطب التقدميين الفرنسيين.



> **تبدو النظريات التي طرحها مالك بن نبي حدثًا مهمًا في حد ذاته، وتمثل طرحًا يمكن إدراجه في خط الإصلاح الديني المستنير، في نفس الوقت الذي يتجاوزه إذ يتناول مشاكل التخلف والاستعمار من زاوية أوسع، كما يقدم مشروعًا للمستقبل**

فيلسوف الخروج من التخلف:

إن التميز الذي تتصف به أفكار مالك بن نبي هو طابعها الإسلامي والعالمثالثي، في الوقت نفسه. فقد ألف عام ١٩٥٦ كتابه عن الفكر الأفريقي. الآسيوي الذي صدر إثر مؤتمر باندونج. وعام ١٩٥٨ ظهر كتابه عن «كومنولث إسلامي».

وبعد استقلال الجزائر في ١٩٦٢، واصل نشاطه الفكري، فزيادة عن توليه إدارة جامعة الجزائر، لبعض الوقت، كان يواظب على إلقاء محاضرات بالفرنسية، تتوجه إلى النخبة المثقفة، حول مشاكل الثقافة والحضارة والأيديولوجية.

وفي سنة ١٩٧٢ أصدر في بيروت، كتيبا بالعربية عنوانه «المسلم في عالم الاقتصاد» ترجم بعد ذلك إلى الفرنسية.

بالإضافة إلى كتاباته كان يحرص على مخاطبة مجموعة من الشباب والطلاب الجامعيين خلال حلقات تجتمع حوله بانتظام يشرح فيها، شفاهًا، أفكاره، على أساس أن الخطاب المباشر أبلغ في التأثير على المستمع، من تأثير الكلمة المكتوبة التي يطالعها القارئ في صحيفة أو كتاب. لذلك يعتبر بعضهم أن مالك بن نبي ساهم في بذر أفكار الإسلام السياسي بالجزائر.

ومهما كان تقييم المثقفين له. فالذي لاشك فيه أنه قدم عطاء فكريًا لم يكتف فيه برد الفعل ضد بعض الأطروحات التي كانت موضوع اهتمام الناس في مجالات الاقتصاد والتاريخ، بل جاء بإسهامات معتبرة.

يضاف إلى ذلك أن إنتاجه، إذ ظهر بالفرنسية، يمثل خطًا متميزًا في الكتابات الجزائرية التي كانت تستعمل الفرنسية، فالكتاب الذين شغلوا الساحة الجزائرية معتمدين على اللغة الفرنسية، كان معظمهم أدباء من طراز ممتاز، لكن لم يمسوا، إلا عرضًا، بعض القضايا الكبرى مثل مستقبل الثقافة في الجزائر، مثل حاج علي وكاتب ياسين ومولود معمري ومالك حداد، لكن معظمهم فعل ذلك بعد نوفمبر ١٩٥٤، زيادة عن أن كلاً منهم، لم يقدم بناء متكاملاً، ولعل المفكر الوحيد الذي تتسم كتاباته ودراساته بانتظامها في خط متسق ومنهجية علمية، هو الأستاذ مصطفى الأشرف، فجميع ما كتبه من دراسات وأبحاث ومقالات ينتظمه خيط واحد، ويكمل

بعضه بعضًا حتى أن القارئ لا يستطيع أن يستنبط. لولا التواريخ التى يضعها إثر كل دراسة. ترتيبها الكرونولوجى، صحيح أن هناك فرانز فانون، لكن هذا الأخير لا يدخل فى أى تصنيف مما سبق ذكره، نظرًا لخصوصية منبته الاثنى (المارتينيك) والفكرى (الفرنسى) من جهة، ولكونه استنبط بعض نظرياته من واقع حرب التحرير الجزائرية وما أدخلته من تحولات، دون أن يكون مطلعًا على ما سبق الثورة المسلحة من إعداد فكرى وتهيئة سياسية، زيادة عن أن بعض آرائه عن التحولات الاجتماعية استخلصها من ملاحظات اقتصرت على منطقة محدودة من مناطق الجزائر.

أما مالك بن نبى فإن كتاباته تندرج فيما يمكن تسميته بـ«فلسفة الخروج من التخلف»، فى نفس الوقت الذى تشتمل فيه على رؤية تاريخية متبصرة، ونفس إسلامى واضح، يدعمهما جهد فكرى تجديدى واجتهاد يحرص على تجنب المسائل المطروقة. كما أن مالك بن نبى قد أعاد الاعتبار للفكر الإسلامى المستنير الذى تعرض تراثه فى الجزائر لتهميش غير قليل بعد الاستقلال بسبب عوامل عديدة، لا يتسع المقام لذكرها هنا.

ثم إن تحقيق الاستقلال فى تلك الظروف المعروفة، فتح أكثر من باب يفضى كل منها إلى الضياع، بفعل انعدام المرجعيات من جهة، وتأثيرات «القوة الثالثة» التى أراد الاستعمار خلقها من جهة ثانية، والصراع على السلطة من جهة ثالثة، وخيبات الأمل فى رموز الثورة المسلحة والاستقلال فى نهاية المطاف، لذلك سعى مالك بن نبى إلى مواجهة الضياع بشىء آخر غير المواعظ والخطاب الخلقى الصرف، بل إنه استبق الأمر، فلم ينتظر الاستقلال لكى يبشر بنظرياته، إذ أن مجموع ما كتبه، قبل نوفمبر ١٩٥٤ وأثناء حرب التحرير وبعد الاستقلال يشكل مذهبًا متسقًا يساعد على الخروج من التخلف.

ويبدو أن مالك بن نبى قد تكهن منذ ١٩٤٨، بالخطر الذى يهدد الجزائر عندما تنتزع استقلالها، فقد صوّر فى كتابه «شروط النهضة» أمل الشعب الجزائرى فى الغد المشرق، وما سوف يعترض أفقه من مشاكل قد تصرفه عن المُثُل العليا التى ظل يكافح من أجلها على مدى أجيال، ويحسن أن نستشهد بفقرات مما كتبه آنذاك، رغم طابعه الرومانسى، فهو يقول: «أيها الرفيق! هاهى ذى الساعة التى يتسلل فيها شعاع الفجر الباهت بين نجوم «الشرق» كل ما هو مقبل على الصحو قد بدأ ينتفض ويرتعش داخل خمول الكرى وأطماره.. قريبًا يشرق الكوكب المثالى على كدحك الذى بدأ فى السهل، حيث لاتزال المدينة التى هجعت بالأمس.. نائمة!

ستحمل الأشعة الأولى للنهار الجديد، بعيدًا جدًا.. أبعد من خطاك.. ظل عمله المقدس فى السهل الذى تبذر.. وسيحمل النسيم الذى يهب الآن، البذار الذى تذروه يمينك أبعد من ظلك.. ابذر يا أخى الزارع فى الأخدود الذى يمتد بعيدًا.. من أجل جيل قادم.

مالك بن نبى



مهما كان تقييم المثقفين لمالك بن نبى، فالذى لا شك فيه أنه قدم عطاء فكريًا لم يكتف فيه برد الفعل ضد بعض الأطروحات التى كانت موضوع اهتمام الناس فى مجالات الاقتصاد والتاريخ، بل جاء بإسهامات معتبرة

«.. وليرتفع نشيدك الطروب، كما ارتفع نشيد الأنبياء قديمًا، عندما كانوا يغنون أسحارًا أخرى فى تلك الساعات الملائمة التى تولد الحضارات.. » إلى أن يقول: «فهاهم قد أخذوا الآن ينصبون بباب المدينة التى بدأت تستعيد يقظتها، سرادق سوق الملاهى مع مسلياتها، لتلهية واحتجاز هؤلاء القادمين صوب خطاك»..

لقد أقاموا الجحوش والمنصات من أجل المشعوذين والبهلوانات، حتى يغطى عجيجهم على نبرات حذائك.. وقد أوقدوا المصابيح الخادعة، حتى يحجبوا بها النهار المقبل، ويلفوا شبحك بالقتام فى السهل حيث تسير..

لقد زينوا الوثن لكى يحقّروا الفكرة.. ولكن الكوكب المثالى يواصل سيره الذى لا ينثنى، وهو لا محالة سيضىء قريبًا انتصار الفكرة وذُل الأوثان، كما تم ذلك بالأمس.. فى الكعبة.

وكأنى بمالك بن نبى، وهو يتحدث، عام ١٩٤٨، عن «المصابيح الخادعة» ليحجبوا بها النهار، أو عندما يذكر «سوق الملاهى»، يتنبأ بـ«الجزائر الجزائرية» التى تحدث عنها الجنرال ديجول بعد ذلك باثنتى عشرة سنة.

وقد ذكرنى هذا المقطع عن سوق الملاهى بما قاله مالك حداد. رحمه الله. ذات يوم من ربيع ١٩٦٣: كنا نتناول العشاء فى مطعم فاخر على شاطئ البحر، مالك حداد وعبدالقادر بن قاسى وأنا؛ وكان هناك شباب وكهول، يملأون حلبة الرقص على أنغام موسيقى غربية، تأمل مالك طويلاً فى الراقصات والراقصين، وقال: «هذه هى الجزائر الجزائرية التى كان يريدها الجنرال ديجول».

الحضارة ليست هى اكتساب منتجاتها:

إن الفكرة الأساسية التى تتضمنها كتابات بن نبى هى أن الإسلام، هو القادر على تحصين الشعوب ضد مخاطر الضياع، لكن خطابه ليس سلفيًا ولا ماضويًا ولا وعظيًا، فهو يربط الإسلام كقيم وأخلاق واجتهاد، بمتطلبات التنمية من جهة وبالروافد الغربية من جهة أخرى، إلا أنه إذ يسجل أهمية اللجوء إلى الفكر الغربى، يعمد إلى تحليل دقيق للنماذج المثقفة فى البلدان المتخلفة التى تكونت فى حضن الجامعات الغربية، فهو يلاحظ أن الطالب الذى يتوجه للدراسة فى أوروبا أو أمريكا، يحمل معه، غالبًا، عقلية تحجب عنه الجوهر فلا يرى إلا أحد الشيئين: ما يتلقاه من علم مجرد أو الجانب المغرى من حياة الملاهى، وهو فى كلتا الحالتين لا يرى إلا الواقع الذى انتهت إليه الحضارة الغربية دون أن يكتشف روحها وتطورها ومسارها(٢) وهذا ما يفسر عجزه، فى نظر ابن نبى، عن تبين حركة الإبداع، إبداع القيم المعنوية والاجتماعية التى بها يرقى الرجل أو المرأة إلى مرتبة «الإنسان»، وهو مالا يمكن تحقيقه إلا عندما يتجاوز الجهد الثقافى لدى الإنسان حاجاته الفردية.

ومما يساعد أبناء البلدان المختلفة على الاندفاع فى هذا الاتجاه المسدود هو أن الحضارة الغربية لم تهتم بالغائية وقصرت جهدها على السببية، كل مالا يخضع للقياس، لا يعتبر من قبيل العلم، مسار الإنتاج فى أوروبا لا يحدد الشىء بالنسبة للإنسان، ولكنه يكيف الإنسان الآلة حسب الشىء المصنوع، وهذا يعنى أن أوروبا أتقنت ما امتلكته من تكنيك وأضاعت الخلق(٣).

وفى سياق تحليله لهذه الظاهرة، يصور بدقة المحيط الذى يكتشفه الطالب الجزائرى عندما يذهب للدراسة فى أوروبا، فهو يقول: «نظرًا لنفسية المحيط العائلى للعصر ما بعد الموحدى الذى كان يعيش فيه الطالب، فإن هذا الأخير ينتقل، مع تحوله لأوروبا من المقدس إلى المدنس دون أن يمر بالفكر السياسى، فهو يقفز من «العلم» الإسلامى إلى التعليم العصرى دون أن يتوقف عند مفهوم الثقافة، يذهب الطالب المسلم إلى أوروبا واضعًا على عينيه حجابًا يمنعه من أن يتأمل الحضارة، فلا يبصر منها إلا الجانب المجرد أو التافه حسب استعداداته الخاصة للجد وهو لا يبصر المرأة الكادحة بل يرى تلك التى تصبغ أظافرها وشعرها وتدخن السيجار فى المقاهى، وهو لا يرى الصانع والفنان عندما ينكب على عمله من أجل تجسيم فكرة، هو لا يلاحظ الطاقات الخلاقة التى تُبدع قيمًا معنوية واجتماعية تجعل الإنسان المتحضر متفوقًا على الإنسان البدائى، فى حين أن الثقافة تبدأ عندما يتجاوز الجهد الفكرى هدف الحاجة الفردية..»

ولن تكون لدى الطالب (المبهور) فرصة للتفطن لمظهر الحضارة السخى الذى يغذى مشاعر الإنسان المتحضر، ويزود عبقريته بالاندفاع الخلاق؛ لأن الأفكار الكبرى تنبعث من القلب إنه إذ يأتى من عالم باع آثاره ومخطوطه إلى السائح الأمريكى لن يتنبه إلى ما فى الحياة الأوروبية من عبادة سليمة للشىء القديم الذى يربط الماضى بالحاضر، إنه لن يرى الطفل يتعلم مغزى احترام الحياة عندما يداعب قطة أو يزرع وردة، ولا الفلاح عندما يتوقف عند نهاية الخط الذى يحرثه فى الأرض، ليحكم

على عمله مندمجًا فى الأرض التى هى خلاصة كل حضارة..». وهو لن يستخلص العبرة من جنون بعض العظماء مثل Bernard Polissy الذى أحرق آخر ما لديه من أثاث وأرضية منزله الخشبية ليستخرج من ذلك «الميناء» أو «الطلاء الخزفى» وبصفة عامة إن الطالب المسلم لم يجرب أوروبا، اكتفى بقراءتها أى أنه تعلم بدل أن يفهم.

نتيجة لذلك يصور مالك بن نبى، فى محاضرة ألقاها بالعاصمة الجزائرية عام ١٩٦٤، ما يترتب على نظرة الطلاب المسلمين إلى ظاهرة الحضارة الأوروبية، فيسجل «أن الزى الأوروبى وكذلك البوق والطنبور والهاتف والسيارة» اقتحم شتى بلدان العالم الإسلامى بصورة مفاجئة منذ خمسين سنة، ولكن مشاكل التخلف ظلت راسخة القدم داخل هذه البلدان، فقد أردنا بدل الاضطلاع بتشييد الحضارة أن نقوم بتكديس منتجاتها، ولم يكن عمل النهضة الإسلامية طوال السنوات الأخيرة، يمثل تشييدًا ولكن تكديسًا للعتاد.

وإذا كان يعتبر أن عملية البناء الحقيقى فى العالم الإسلامى ابتدأت سنة ١٩٥٢ فى مصر وعام ١٩٥٤ بالجزائر، فإنه يلاحظ أن روح التكديس مازال مستمرة البقاء، وهى قد تتخذ مظهرًا يبعث على السخرية، مثل وجود «أربعة أجهزة تكييف هوائى فى مقصورة أحد رؤساء المصالح، أو خمسة أجهزة هاتفية على مكتبه»، وهو إذ يضرب المثل باليابان يسجل أن مشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان وبالأفكار كما يلاحظ أن اليابان بنى ذاته على قاعدة حضارية، وليس على قاعدة منتجاتها. وهذا ما يفسر نجاح اليابان فى الوقت الذى لم يحقق فيه العالم الإسلامى نصرًا حاسمًا على التخلف لأن نشاطه طبق فى عالم الأشياء والمنتجات بدل أن يطبق ضمن النسق البشرى ونسق الأفكار، وبعبارة أخرى أن بلدان العالم الإسلامى، ظلت على امتداد قرن من الزمان تطرح سؤالاً: كيف نصنع منتجات الحضارة بدل أن تسأل: كيف نصنع الحضارة.

وفعلاً فإن خطوات التصنيع الثقيل فى الجزائر بدأت بمشاريع واتفاقات تُبرم مع جهات أجنبية تنص على تسليمنا المعمل، «المفتاح فى اليد» أى جاهزًا للإنتاج، دون تمكيننا من التقنيات التى تسمح لنا بأن نتولى الإنتاج بعد أن نكون قد فهمنا كيفيات صنع الحضارة.

على أن فهم الحضارة الغربية لا يكفى بالنسبة للبلدان المتخلفة فى نظر مالك بن نبى، لأن أوروبا إذا كانت قد امتلكت التكنيك وطوعت العلم فقد أضاعت الخلق كما سجل ذلك فى أكثر من موضع فى كتابه «وجهة الإسلام».

فهو يولى أهمية كبيرة للإبداع إذ يعتبر أن الأمر بالنسبة للعالم الإسلامى لا يتعلق بالفصل بين القيم، ولكن بالجمع بين العلم والضمير، بين الخلق والتكنيك، وبين الفيزياء وما وراء الطبيعة من أجل إقامة عالم حسب قوانين السببية ومتطلبات الغاية.

وقد حاول مالك بن نبى أن يفسر جمود الفكر الإسلامى فى المغرب العربى رغم جواره للعالم المسيحى واحتكاكه به، بأن هذا الحوار قد تم فى النطاق الاستعمارى الذى أدى إلى تزييف مغزى الفكر المسيحى فى نظر المسلمين: فالإسلام فى المجال المتوسطى لم يستفد من الفكر المسيحى، كما أن الفكر المسيحى لم يجبر إنسان ما بعد العهد الموحدى على تغيير نفسه.

على هذا الأساس يبدو الإسلام فى مجال البحر الأبيض المتوسط، وراثيًا من خلال الباشا وسيده السلطان العثمانى، كما يبدو قبليًا بدويًا على مستوى الأمير العربى، البربرى، ويبدو دوغماتيا منغلقًا تحت سلطة شيخ الزاوية، وهذا ما يدفع مالك بن نبى إلى أن يتوجه إلى المجال الآسيوى للإسلام، فى جاكرتا وباكستان والهند واليابان.

وتجدر الإشارة إلى أن العمود الفقرى فى تفكير ابن نبى هو الآية الكريمة ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

ويستخلص ابن نبى فى كتاباته بدءًا بـ «شروط النهضة الجزائرية» إلى المحاضرات التى ألقاها بعد الاستقلال، أن خلاص العالم الإسلامى يتمثل فى تطويع تكنيك الغرب لروح الإسلام، وقد ساعد مالك بن نبى على التوجه إلى المجال الآسيوى ظهور كتابات وأفكار تتنبأ بأفول حضارة الغرب، مثل الفيلسوف شبينغلر الألمانى، والشاعر بول فاليرى الفرنسى، والأديب والقصصى رومان رولان، زيادة عن كتابات محمد إقبال ورابندرانات طاغور.

وقد بدأ مالك بن نبى ينشر أفكاره تلك فى أعقاب الحرب العالمية الثانية من خلال كتبه، وقد فكر فى تأسيس مجلة فكرية تتولى تعميم دعوته، يتولى تحريرها مع ابن ساعى مفكر جزائرى غير معروف، ترجم الفلسفة الألمانية وعاشر سارتر.

وهو فى جميع كتاباته سواء منها التى ظهرت فى الأربعينيات أو فى الستينيات أو فى السبعينيات، يولى أهمية خاصة للثقافة، لذلك كان دائم الإلحاح على أن الحضارة هى التى تصنع منتجاتها، وليست المنتجات هى التى تصنع الحضارة.

عدم فهم هذه الحقيقة هو الذى جعل بلداننا تتوقف عن أن تكون «سائرة فى طريق النمو» كما كان يطلق عليها فى عنفوان حركات التحرر وبدايات الانعتاق، فى مرحلة أولى، لتنطبق عليها، فى مرحلة لاحقة، صفة «البلدان السائرة فى طريق التخلف، أو نحو مزيد من التخلف».

بدل أن تعالج البلدان المستقلة حديثًا معادلة التقدم والتخلف بطريق «معادلة

مالك بن نبى



يذهب الطالب المسلم إلى أوروبا واضعًا على عينيه حجابًا يمنعه من أن يتأمل الحضارة، فلا يبصر منها إلا الجانب المجرد أو التافه حسب استعداداته الخاصة للجد وهو لا يبصر المرأة الكادحة بل يرى تلك التى تصبغ أظافرها وشعرها وتدخن السيجار فى المقاهى

جبرية» (نسبة لعلم الجبر)، عالجتها بطريقة حسابية، الأولى تسمح بصياغة حل أو مشروع جملى قابل للتطبيق على مستوى المجتمع كله، والثانية تعالج كل حالة على حدة، وتكدس منتجات الحضارة دون أن تتمثل العوامل التى أبدعتها.

يترتب على ذلك غفلة الحكام فى البلدان الإسلامية عن حقيقة جوهرية، وهى أن العناصر الثلاث للحضارة، وهى الإنسان والتراب والزمن، «لا تمارس مفعولها ضمن حالات شتيتة، أى ضمن مخطط اقتصادى يجعل مسيرة التنمية مرتبطة بمعالجة كل حالة على حدة، لأن اكتساب الحضارة يستلزم تفعيل هذه العناصر الثلاثة ضمن تركيب متآلف.

على أساس هذه القاعدة يرى مالك بن نبى أن جميع ألوان المخترعات التى تمثل مظاهر حضارة، لا يمكن تصورها إلا «ضمن الشروط العامة لحضارة معينة، وليس ضمن أبعاد عبقرية إنسان مفرد، ولا حتى بضع مئات من العباقرة، «لأن أمثال، جاليليو وليونار دى فنشى، ومايكل أنجلو، ودانتى، ليسوا هم الذين صنعوا النهضة، ولكن شروط النهضة، إذ توفرت هى التى صنعتهم».

قابلية الاستعمار

كان فكر بن نبى مرشحًا لأن يؤدى دورًا معتبرًا فى الجزائر بعد الاستقلال، لكن نظريته حول «قابلية الاستعمار» لم تفهم كما يجب، فالاتجاه الذى ظل سائدًا، منذ حروب الاحتلال، هو تحميل كل المسئولية للاستعمار، فى حين أن نظرية قابلية الاستعمار التى ينادى بها بن نبى، تمثل رؤية تاريخية تنطلق من تحليل دقيق لدورات التاريخ، وحركات المد والجزر فيه، عندما تتوقف حركة المد، أو مجهود الإبداع، عند شعب ما، لسبب أو لآخر، يصبح قابلاً للاستعمار لأنه إذ يتوقف عن التقدم ويخلد إلى الجمود، يتسبب فى وجود فراغ بفعل انعدام الإبداع وحركة الإبداع، والإنسانية مثل الطبيعة لا تتحمل الفراغ ولعل أحد القلائل الذين فهموا فكرة بن نبى هو الحبيب بورقيبة الذى لا يحمل كل المسئولية للاستعمار، وهو بذلك ينقص من قيمة انتصار الاستعمار، وليس من المبالغة القول إن سياسة المراحل التى كان يعمل بها بورقيبة هى الترجمة العملية للمذهب البورقيبى الذى يأخذ بنظرية قابلية الاستعمار، التى يتطلب التخلص منها تدرجًا فى الوعى وتدرجًا فى المسئولية.

إن نظرية قابلية الاستعمار إذ تسجل مسئولية البلد المتخلف فى العصر «ما بعد الموحدى» حسب مصطلح بن نبى من شأنها

أن تدفعه نحو اكتساب التقنيات التى مكنت البلد الأجنبى من استعمارنا، بذلك يكون البلد المستعمر (بفتح الميم) يتحمل مسئوليته للخروج من التخلف، كما يتحمل قسطًا من المسئولية عندما جلب على نفسه الاستعمار بفعل الفراغ الحضارى.

بهذه النظرية تنحل العقدة من الاستعمار المتولدة عن اعتباره شرًا كله لا خير فيه.

إلا أن فكرة مالك بن نبى هذه لم تفهم فى الجزائر، وبذلك أدت إلى تحجيم فكره وتهميش عطائه، فقد فهمت على أنها تبرير للاستعمار. ولا شك أن الفكر الماركسى، الذى كان موضة شائعة فى الستينيات، قد أدى دورًا أساسيًا فى محاربة فكر بن نبى، وتنفير جيل ما بعد الاستقلال منه، كما أنه لا شك فى أن الصراع الذى كان قائمًا على أشده بين المعسكر الرأسمالى الغربى والمعسكر الاشتراكى الشيوعى غذى الاتجاه نحو تهميش مؤلف «وجهة الإسلام» و«الظاهرة القرآنية» إذ أن المعسكر الاشتراكى يستفيد من تجريم الغرب الاستعمارى وتحميله مسئولية كل المصائب التى أخذت بمخانق البلدان التى استعمرت.

يضاف لذلك أن طبيعة الظروف التى حفت باستقلال الجزائر ساعدت على خلط الأوراق وعززت دعاة تهميش فكر مالك بن نبى، كما همشت كل مجهود فكرى يبذل من أجل مواجهة التحديات الكبرى التى طرأت بعد وقف إطلاق النار، وتحديد المهام العاجلة المطلوب النهوض بها حتى تتجنب الجزائر انتكاسة خطيرة.

مالك بن نبى



بلدان العالم الإسلامى، ظلت على امتداد قرن من الزمان تطرح سؤالاً: كيف نصنع منتجات الحضارة؟ بدل أن تسأل: كيف نصنع الحضارة؟

لقد انتهت جبهة التحرير التى فجرت الكفاح المسلح وقادته خلال سنوات صعبة فى بدايات المعركة، كتنظيم سياسى منذ أن اندمجت فى الحكومة المؤقتة التى أعلنت فى سبتمبر ١٩٥٨.

وإذا كانت الحكومة المؤقتة قد أصبحت عمليًا هى القيادة العليا لجبهة التحرير منذ ذلك التاريخ، فإن الصراع بين رجالاتها، بالإضافة إلى الظروف التى تسبب فيها إنشاء الخطوط المكهربة على الحدود الشرقية والغربية جعل سيطرة الحكومة المؤقتة تتلاشى تدريجيًا على القيادات المحلية داخل ولايات الكفاح فى الداخل، وما لبثت نفس الظروف مضافة إلى ملابسات أخرى أن أبرزت قيادة أركان جيش التحرير التى كان يرأسها هوارى بومدين كقوة صاعدة سرعان ما احتلت الميدان السياسى، وحسمت الصراع فى ١٩٦٢ على حساب الحكومة المؤقتة. انطلاقًا من ذلك حدث «نزاع لا عقلانى بين المؤسسات النظرية ووقائع الحقيقة لجزائر وجدت نفسها محرومة من سلطة سياسية تشمل الجميع»، حسب تعبير الأستاذ مصطفى الأشرف لأن «الحكومة المؤقتة التى عجزت عن حل مشاكلها الخطيرة فى الخارج، تصورت أن الفرحة الغامرة التى تهز الجماهير مع الإعلان الرسمى للاستقلال سوف تجعل تلك المشاكل التى استعصت على الحل شهورًا وسنوات، تنحل بقدرة قادر».

ويقدم مالك بن نبى تصويرًا لهذا الوضع بما يجعل تحليله يلتقى فى عدد من النقاط مع تحليل الأستاذ الأشرف.

فمالك بن نبى فى تحليله لقصور الحكومة المؤقتة عن صياغة أيديولوجية فى مستوى الكفاح الذى خاضه الشعب، يشرح رأيه فى هذا السياق مؤكدًا أن المسيرين الجزائريين لم يكونوا، خلال حرب التحرير، فى مستوى الأيديولوجية التى بلورها الشعب بنفسه، فالشعب الجزائرى إذ اعتمد فى كفاحه على قيمه الأخلاقية، أسبغ على نضاله طابعًا مقدسًا، لكن هذا التقديس أخذ يتدهور تدريجيًا بفعل ممارسات المسئولين عن قيادة الكفاح المسلح وخاصة عندما استناموا لرخو الحياة فى الخارج، فحال ذلك دون أن يتفطنوا للنتائج المدمرة التى تترتب على ذلك الانحطاط الذى ساد الجو الأخلاقى، لذا يقول مالك بن نبى فى سياق تقرير هذه الفكرة: «إن مسيرينا الذين لم يفكروا بالمعنى الدقيق للكلمة فى أى مشكلة من مشاكل الثورة، لا يمكنهم من باب أولى أن يفكروا فى المشاكل العامة التى كانت متوقعة فى الجزائر عقب الثورة، وبالتالى فهم أبعد ما يكونون عن الانشغال بوضع مشكلة «مفهومية» ما بعد الثورة.

ثم يلاحظ أن انقشاع الغشاوة التى كانت تحجب عن عيون الشعب، المشاكل التى كانت موجودة خلال حرب التحرير، من شأنه أن يدفع الناس إلى تسمية الأشياء والناس بأسمائهم «يجب أن يسمى القط قطًا، بحيث لا يجوز أن يوجد «مثقفون زايفون»، وأبطال مصطنعون ومشاكل مفتعلة، إذ يجب البدء أولاً بتصفية مشاكل الاستقلال الطوباوى أى الخيالى الذى تركت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سطوته تنمو وتتفوق على بعض الأذهان فى بلادنا، حتى لقد أصبحنا نلاحظ فى أيامنا هذه وجود علائم قائمة قلبًا وقالبًا للتخاذل والتراخى فى بلادنا كما لو كان يتعين على الاستقلال أن يحل جميع مشاكلنا العمومية والخصوصية بطريقة آلية، بينما يجب علينا أن نفهم أن قطاعنا العمومى بالخصوص لايزال يحيا على ما تركه لنا المستعمر بعد رحيله، وعندما يستنفد هذا الرأسمال، فما عسانا نصنع إذا كانت الضرائب لا تدخل الخزينة وإذا أهمل الموظف أو المستخدم واجبه[٤]؟

ونستطيع أن نتصور مدى خيبة الآمال التى كان بن نبى يعلقها على الثورة الجزائرية التى يعتبرها بداية البناء الحقيقى فى العالم الإسلامى، لم تسبقها فى ذلك ثورة إلا ثورة ٢٣ يوليو، وبقدر ما كانت خيبة أمله فى ثورة الجزائر كبيرة، بقدر ما كان قاسيًا فى الحكم على رجالها.

فهو يحمل قادة الثورة المسلحة مسئولية عودة «الروح الفردية» من جديد ابتداء من وقف إطلاق النار، بعد أن خاض الشعب معركته بروح تضامنية وإيثار لم يسبق أن عرفته البلاد.

فهو يسجل ظهور سباق مسعور على الاستيلاء على الأملاك، والانقضاض على الوظائف التى تدر دخلاً دونما كبير عمل، لأن «أعضاء ا لحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية هم الذين أعطوا «المثل» وكانوا «القدوة» التى احتذاها الناس فى «هذا السباق المنهك المتلاف».

بل إنه يتهمهم بأنهم تجاهلوا ميثاق طرابلس الذى صادقوا عليه بعد وقف إطلاق النار، وراحوا يرتبون شئونهم الشخصية، ويركضون إلى قرية «بومرداس» للاستيلاء على ما يقدرون عليه من «سلطة دولة لم يكن مولدها سوى مجرد احتمال» أو هى ماتزال فى المهد لما تخرج بعد من قماطها، «دون أى اكتراث» بما قد يؤدى إليه هذا السلوك من خنق «الوليد الغض فى مهده» بعض الذين كانوا يرتدون لباس المحررين، انتشروا عندما شموا رائحة الوليمة أو الزردة فغادروا مراكز المقاومة فى الأدغال والجبال ليغتصبوا مثل «الذاب» ما يقدرون عليه.

إن أولئك «المحررين» الذين هبوا للاستيلاء على النفوذ لم تكن تشغل رؤوسهم سوى فكرة واحدة وهى «احتلال الجزائر من جديد» بقدر ما تنسحب القوات الفرنسية، «وذلك حتى لا تتاح للشعب الجزائرى أية إمكانية لمحاسبتهم على تسييرهم للبلاد»، عندما كانوا فى القاهرة أو فى تونس، لم تكن تشغلهم مشكلة الثورة «لتثار فى حدود التحرير ولكن فى حدود احتلال جديد».

بل إن جيش التحرير الوطنى نفسه، قد «انتابه هذا العمل المفكك من طرف الحكومة المؤقتة التى كان كل عضو فيها يريد أن يضمن لنفسه ثلة من هذا الجيش لاستخدامها فى اجتياح إقطاعية خاصة».

ولا شك أن الظواهر التى يصورها مالك بن نبى، ترجع أيضًا إلى انعدام الثقافة السياسية، إن لم نقل إنها ترجع إلى انعدام الثقافة، فالتعلم لا يعنى الثقافة والمدرسة وحدها لا تكفى لتزويد المتعلم بالثقافة العامة حتى لو كان متخرجًا من أرقى المعاهد المتخصصة.

والخلاصة أن المرور، ولو بسرعة، على كتابات مالك بن نبى يكشف عن وجود خيط ناظم ومنطق متماسك للخروج من التخلف، بحيث يشكل مجموعها مذهبًا كاملاً، وتجديدًا معتبرًا، وهى تقدم

فى الوقت نفسه منهجًا نقديًا يسمح بتقييم الماضى والحاضر والكشف عن عيوبهما، فهو مثلاً فى معالجته للتخلف وكيفية الخروج منه، لا يولى أهمية استثنائية للتصنيع ثقيلاً كان أو خفيفًا، ولا لرأس المال الأجنبى، لأن الاقتصاد فى نظره ليس فقط علمًا، ولكنه على الخصوص وعى وسلوك واستعداد ذهنى، أى هو ثقافة، إذ أن الاقتصاد ليس خارجيًا عن الإنسان بل هو جزء من مكوناته.

وهو عندما يتحدث عن العالم الإسلامى، ومكانته فى الاقتصاد العالمى، يلح على أن العالم الإسلامى لا يشكل كتلة اجتماعية منعزلة قادرة على أن تحقق نموها فى عالم منغلق، إن العالم الإسلامى يمثل عاملاً من عوامل المأساة الإنسانية، وشاهدًا عليها فى نفس الوقت.

هذه الصفة المزدوجة تفرض عليه أن يكيف وجوده المادى والروحى مع مصائر الإنسانية كلها، ولكى يندمج العالم الإسلامى حقيقة بصورة فعالة فى التطور العالمى يجب عليه أن يعرف العالم، ويعرف العالم به، وأن يسعى لتقدير قيمه الخاصة، وجميع القيم التى يتشكل منها الميراث الإنسانى»، وهو فى كتابه «المسلم فى عالم الاقتصاد» يحذر بلدان العالم الثالث من الاعتماد على الاستثمارات المالية الأجنبية لتحقيق انطلاقها الاقتصادى، لأن ذلك يؤدى حتمًا إلى تبعيتهم للأجنبى، ومن ثم يتعين عليها أن تعتمد على «الاستثمار الاجتماعى» حسب تعبيره أى أن مالك بن نبى يولى أهمية كبرى لحل المشاكل الاجتماعية داخليًا، إذ هو يحذر من الحلول التى تصوغها «نخبة لا تشعر بنبض شعبها»، كما يدعو إلى اندماج اقتصاد البلدان الإسلامية فى الاقتصاد العالمى، وكأنه عرف أن الاتجاه العام يسير نحو العولمة.

وهو إذ يقدم الوصفة اللازمة للاستثمار الاجتماعى، يلح على ضرورة إعطاء الأولوية، فى مرحلة أولى، للواجبات على الحقوق، وذلك لن يتحقق دون تعبئة حقيقية، تتم لأداء مهمتها فى مرحلة معينة تحفز الشعب كله وتجنده من أجل قهر التخلف، باعتباره واجبًا أقصى، ويترتب على ذلك التكفل بجميع احتياجات كل الفئات التى يتشكل منها المجتمع.

ومهما يكن من شىء فإن العطاء الفكرى الذى قدمه مالك بن نبى، عطاء ضخم، ثرى ومتنوع، وهو عطاء مازال يحتاج إلى تعريف، ومازال يصلح لمعالجة أهم مشاكلنا الخانقة وهى تلك التى تتصل بالثقافة.

لذلك نأسف لكون الإرث الفكرى الذى خلفه مالك بن نبى مازال مجهولاً، إن لم نقل إنه أهمل عمدًا.

إن الميزة التى يختص بها هذا الرجل هى أنه وضع أصبعه على الثقافة بوصفها المدخل الأساسى لصنع الحضارة.

بقيت ملاحظة أخيرة جديرة بالتسجيل فى الخاتمة، وهى اهتمام مالك بن نبى ببناء الدولة وهو إذ أهدى كتابه «آفاق جزائرية» إلى الأمير عبد القادر، فإنه يكون قد شعر بضرورة ذلك ويبدو أن مالك بن نبى قد شعر فى السنوات الأخيرة من عمره، أنه تعرض للتهميش فعلاً، من النظام الجزائرى ومن قوى سياسة يسارية بالإضافة إلى عدد معتبر من المثقفين، ولعل هذا ما يفسر المرارة التى لاحظها عليه بعضهم، وقد ضاعف من مرارته تلك ما شاهده فى الأردن وبيروت من محن يتعرض لها الشعب الفلسطينى، فسجل تشاؤمه ويأسه من العالم العربى والإسلامى عندما كتب: «لم يسترجع العالم الإسلامى وعيه بعد، إنه يهرول انطلاقًا من كارثة من أجل الإعداد لكارثة أخرى قادمة».

بقيت ملاحظة أخرى، أخيرة، جديرة بالتسجيل، وهى هاجس بناء الدولة الذى كان يلح عليه، فهو لم يكتف بنقد تصرفات المسئولين الجزائريين، وهرولتهم لاقتسام مغانم دولة لم تقم بعد، بل إن إهداءه كتاب «آفاق جزائرية» إلى الأمير عبد القادر، تأكيد على أن بناء دولة حديثة أحد الشروط الأساسية للخروج من النفق، وعلى أن عدم التنكر للماضى شرط هو الآخر لتحقيق التراكم الذى لن تتحقق بدونه الحضارة ولن يحدث فى حالة جحوده أى تقدم.

«إلى البطل الأسطورى للملحمة الوطنية، الذى يجسد بشخصه، فى فترة فاجعة من تاريخنا، مصير وطن وثقافة، وحضارة».

فالأمير عبد القادر هو أول من فكر فى إقامة دولة على أسس عصرية، مستلهمًا فى ذلك تجربة محمد على من جهة، وتجربة الثورة الفرنسية من جهة أخرى. ■

الهــــوامش:

(١) دار النهضة، أسسها عبد القادر ميمونى غداة الحرب العالمية الثانية، قامت بدور معتبر فى التعريف بكتابات مالك بن نبى ومحمد الشريف الساحلى، كما أمنت للقارئ الجزائرى أهم إصدارات دور النشر فى باريس وبيروت والقاهرة.

(٢) مالك بن نبى: Vocation De L'Islam Le..... Paris, P٦٠

(٣) مالك بن نبى: آفاق جزائرية، مكتبة النهضة، طبعة ١٩٩١، ص ٦٢.

(٤) مالك بن نبى: Le Musulman Dans Le Monde De L'Economic منشورات البرهان، الجزائر، ١٩٩٦، ص ١١.

كتاب الزاوية

الأذكياء

سلوك ذكى

رُوى عن العباس بن عبد المطلب أنه سُئل: أيما أكبر أنت أم رسول الله ﷺ؟ قال: رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدتُ قبله.

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال لبعض أهل المدينة: أنا أسن منك أم أنت؟ فقال له: لا أذكر ليلة زفت أمك المباركة على أبيك الطيب. وهذا الاحتراز مليح لأنه لم يقل أمك الطيبة.

وحكى لى محمد الضبى أنه حفّظ ابن المعتز وهو يؤدبه سورة (النازعات) وقال له: إذا سألك أمير المؤمنين أبوك فى أى شىء أنت؟ فقل له: فى السورة التى تلى «عبس» ولا تقل: أنا فى (النازعات). قال: فسأله أبوه. فى أى شىء أنت؟ قال: فى السورة التى تلى عبس. فقال: من علمك هذا؟ قال: مؤدبى. فأمر له بعشرة آلاف درهم.

وحدثنا عبد الواحد بن نصر المخزومى قال: أخبرنى من أثق به أنه خرج فى طريق الشام مسافرًا يمشى وعليه مرقعة، وهو فى جماعة نحو الثلاثين رجلاً كلهم على هذه الصفة. فصحبنا فى بعض الطريق رجل شيخ حسن الهيئة ومعه حمار فاره يركبه. فخرج علينا نحو ثلاثين فارسًا. فتفرقنا عليهم، فقال الشيخ: لا تفعلوا. فتركناهم، ونزل. فجلس وبين يديه سفرته. ففرشها وجلس يأكل، وأظلتنا الخيل. فلما رأوا الطعام دعاهم إليه. فجلسوا يأكلون. ثم حل رحلَهُ، وأخرج منه حلوى كثيرة، وتركها بين يدى الأعراب. فلما أكلوا وشبعوا جمدت أيديهم. وخدرت أرجلهم ولم يتحركوا. فقال لنا. إن الحُلوَ فيه بنج أعددته لمثل هذا. وقد تمكن منهم، وتمت الحيلة.

عندما كانت أسبانيا

الطاهر أحمد مكى

"ربما كانت هذه هى المحطة الثالثة «الفارقة» فى تاريخ ما بين الإسلام والغرب؛ ثقافة وحضارة وسياسة.. وحرب.

نذكر.. أو يذكر التاريخ، قبل ألف عام كاملة كيف تواجه الطرفان فى حرب دينية ضروس، لم ينهها غير حكمة، وعدل.. وقوة صلاح الدين.

ويذكر التاريخ أيضًا كيف تلاقحت قبلها حضارة الطرفين فى «الأندلس».

اليوم، يتباكى الكثيرون.. أو على الأقل يحنون ويحلمون بتلك الأيام البعيدة. ناسين، أو متغافلين أن لكل حالة. من قوة أو ضعف. اشتراطاتها. كما أن للتفاعل مع الآخر «قوانينه».

فلا الزمان.. هو الزمان. ولا صدام حسين. كما زعم أو حلم البعض. هو صلاح الدين."

المحرر

فى الستينيات سئل أندريه مالرو الكاتب والمفكر والمناضل الفرنسى، ووزير الثقافة فى حكومة الجنرال ديجول:

ماذا تسمى هذا العصر؟

أجاب: عصر الكذب!

. وكيف يمكن القضاء على الفساد والتلوث الذى يجتاح العالم؟

ردّ: بالعودة إلى الحضارة الإنسانية، وإيقاظ روح المقاومة فى الفرد، وإجلال فضيلة الشرف، وطرد التأثير الأمريكى من أوروبا والعالم!

ما كان تأثيرًا أمريكيًا فى الستينيات تحول بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلى وحش مفترس كاسر، رفع راية الحروب الصليبية من جديد، وبدأ يحشد وراءه أنصاره وجنوده، يلاحق كل ما هو عربى ومسلم تحت شعارات: محاربة الإرهاب ونشر الديمقراطية، ومعها تحول إلى هولاكو جديد!

كان يمكن ألا يجد من يدفعه، وقد أصبح القوة الأعظم والأوحد فى العالم، ولكن المعانى الكريمة التى دعا إليها مالرو بدأت تستيقظ فى فرنسا خاصة، واستجابت لها بعض الدول الأوروبية الأخرى على استحياء، واحتضنت باريس الدعوة، وجعلت من هذا العام مهرجانًا تدور فيه المحاضرات والندوات حول موضوع: «عندما كانت العربية لغة العلم، من القرن العاشر الميلادى إلى القرن الثالث عشر. وفى هذا رد حضارى هادئ على العنصرية الأمريكية المتشنجة.

فى المجال الأكاديمى يتفق الباحثون الأوروبيون ممن يحترمون موضوعية العلم، ومنهجية البحث، ويرتفعون بدراساتهم فوق مستوى العصبية أيًا كان شكلها، على أن الحضارة العربية فى أوج ازدهارها، على امتداد القرن العاشر الميلادى، كانت وراء النهضة الأوروبية، ثم يختلفون حول الطريق الذى سلكته إلى بلادهم.

فالعالم الألمانى هانز بروتس يرى أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد وراء نمو أوروبا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ومنها انبثقت كل العوامل التى أدت إلى تكوين أوروبا الحديثة، أوروبا عصر النهضة والإصلاح الدينى، ثم يشير أيضًا إلى أن أسبانيا وصقلية كان لهما دور مهم فى نقل التراث العربى إلى أوروبا، ولكنه سرعان ما ينسى رأيه هذا، ويجعل من فلسطين المصدر الوحيد.



من هذه الأرض «الأندلس» تعلم الأوروبيون جانبا كبيرا من الحضارة الراقية سواء كان ذلك إبداعا أندلسيا أصيلا أو عربيا مشرقيا وافدا

سبع سنوات فحسب كانت كافية لكى يحتل المسلمون كل شبه جزيرة إيبيريا (أسبانيا والبرتغال) وجنوب فرنسا، حيث توقف زحفهم فى أوائل ربيع عام ٧٣٢م قريبًا من بواتييه بعد موقعة «بلاط الشهداء»

ولكن إرنست بيكر محرر مادة الحروب الصليبية فى كتاب «تراث الإسلام» الذى أصدرته جامعة أكسفورد فى الثلاثينيات من القرن الماضى يرى أن هذا الزعم باطل، لأن حركة المولّدين والمستعربين فى أسبانيا وصقلية كانت أكثر نفاذًا وأوسع محيطًا، وأبعد غورًا، ولو أن ذلك جاء متأخرًا بعد أن حدث الاتصال بسبب الحروب الصليبية فعلاً، على نحو أو آخر. ويرى: «أن اللاتينيين فى سورية لم يستطيعوا أبدًا أن ينفذوا إلى وهج الثقافة الإسلامية على نحو ما فعل المسيحيون فى غربى البحر الأبيض المتوسط أيام تألق حضارة قرطبة وكل أسبانيا الإسلامية».

وبعيدًا عن هذا الصراع، وهو قومى سياسى فى أبعاده، يضع فى حسبانه الاعتراف بدور أسبانيا، إسلامية أو مسيحية، فى نهضة أوروبا أو إنكاره، يمكن القول إن الحروب الصليبية لعبت دورًا حاسمًا فى الجانب الدينى، فهبطت بهيبة البابوات الدينية، وهزت نفوذ طبقة الرهبان، وغذت الشك، ودفعت بطبقات كثيرة إلى التمرد على سلطان الكنيسة، ولم تكن تجرؤ على هذا من قبل.

وفى الجانب الاقتصادى جاءت معها بمساواة أكبر بين الطبقات على نحو لم تعرفه أوروبا من قبل، وأوجدت طبقة من الفلاحين الأحرار ومن الحرفيين، وازدهرت الصناعة، ونمت التجارة، وانتشرت النباتات والحاصلات العربية، وشاع استعمال العقاقير المشرقية والتوابل، وعرف الغربيون استخدام السكر فى الحلوى، وكانوا من قبل يستخدمون العسل، وأدخل الصليبيون العائدون إلى بلادهم عادة فرش البسط والسجاجيد على الأرض، واستخدام الفراش، واقتناء المجوهرات وأدوات الزينة والمساحيق، وأشياء أخرى كثيرة.

وفى مجال السياسة أدت الحروب الصليبية إلى قيام دول أوروبية ذات سلطة مركزية وإدارة منظمة وقضاء مستقل، وكان ذلك أمرًا جديدًا على أوروبا فى العصور الوسطى لا عهد لها به من قبل.

لكن الأندلس، أو أسبانيا الإسلامية إذا شئت، ذهبت بالنصيب الأوفر، فى تأكيد كل ما سبق فى عيون الأوروبيين وخصت وحدها تقريبًا بكل ما يتصل بالأدب والثقافة والعلم، لأن انتشارها. إذ ذاك. يعتمد فى المقام الأول على الرواية الشفوية وعلى الدرس، ينهض به الشاعر الجوال، وتحمله الأغانى فى رحلتها من الجنوب إلى الشمال، أو أهل الشمال حين يتدفقون على الجانب العربى فى

تتكلم العربية وتدين بالإسلام

الجنوب طلاب علم، وهى أمور لكى تعطى ثمارها تتطلب القرب والتواصل والتعايش والتعاطف، وسهولة وسائل الانتقال وأمنها وتوفرها، وامتداد التلاقى واستمراره بين قطاعات عريضة فى المجتمعين. ومن هنا يمكن القول إن العناصر الثقافية التى تكونت منها الحياة العقلية الأوروبية فى مجالات الفكر والفلسفة والعلم والشعر والقصة فى القرن الحادى عشر الميلادى وما تلاه، وحتى فى الأدب الحديث، تعود فى جانب كبير منها إلى الحضارة الراقية التى توهجت عند جيرانهم الأسبان المسلمين، من هذه الأرض جاءتهم، وعلى أيدى أبنائها تعلموا، سواء كانت إبداعًا أندلسيًا أصيلاً، أو عربيًا مشرقيًا وافدًا.

ماذا وجد المسلمون على الأرض التى فتحوها؟ لنبدأ القصة من أولها.

فى مطلع القرن الخامس الميلادى عبرت مجموعة من القوط تبلغ ثلاثمائة ألف مقاتل جبال البرانس إلى أسبانيا، حطت على المقاطعات الأكثر غنى وازدحامًا واستولت عليها، ولأن تمثلهم للحضارة الرومانية كان واهنًا ظلوا بمنأى عن بقية السكان، حرموا على أنفسهم الزواج منهم، واحتفظوا بعقيدتهم «الإريانية» على حين يتخذ الأسبان الكاثوليكية دينًا، كما عمق النفور بين الفريقين، حتى إذا اعتنق الملك القوطى ريكاردو الكاثوليكية عام ٥٨٩م تغير الموقف شيئًا: بدأ رجال الدين يمارسون تأثيرًا واضحًا فى توجيه الدولة سياسيًا ودينيًا، كما بدأ القوط يكتسبون بعض العادات الرومانية التى كانت سائدة فى أسبانيا دون أن يفقدوا صلابتهم التى اتصفوا بها، شعبًا عسكريًا، وأمة محاربة، حريصين على امتيازاتهم حكامًا ونقائهم عنصرًا، أوفياء لرذائلهم وصلفهم، يحبون اللهو، ويعشقون النبيذ، ويتسمون بالعنف والقسوة، لم يتطرق إليهم الفساد الذى أتى على الإمبراطورية الرومانية، واحتفظوا بروحهم العسكرية حتى نهاية حكمهم، وهى صفات لا تكفى وحدها لخلق مجتمع متماسك، وبناء دولة قوية، ذلك أن الثورات والحروب بين النبلاء بعضهم البعض، وبينهم وبين الشعب أضعفتهم، فانهارت دولتهم كقلعة من ورق أمام الفتح الإسلامى.

لا نعرف شيئًا من ثقافة القوط، وربما لم تكن لهم ثقافة أصلاً، فنحن نجهل الكتابة التى كانت مستخدمة بينهم، ولم يصلنا نص مكتوب فى لغتهم القوطية، يتصل بأدبهم أو لغتهم أو ثقافتهم أو عقيدتهم قبل أن يعتنقوا الكاثوليكية، ويظن أن الملك القوطى الذى اعتنقها أمر بحرق الكتب المتصلة بها تقربًا إلى الكنيسة ورجالها، وربما فعل ذلك بضغط منهم، ولا تذكر لنا المصادر مؤرخًا أو مفكرًا أو أديبًا أو إنسانًا على حظ من ثقافة يعود إلى هذا العصر، باستثناء رجل دين واحد من القرن السادس الميلادى: سان إيسيدورو أسقف إشبيلية، فقد ترك موسوعة تتضمن شيئًا من المعارف التى كانت شائعة فى عصره، وسجل فيها بعض العادات والتقاليد التى كانت سائدة حينذاك.



سبع سنوات فحسب كانت كافية لكى يحتل المسلمون كل شبه جزيرة إيبيريا (أسبانيا والبرتغال) وجنوب فرنسا، حيث توقف زحفهم فى أوائل ربيع عام ٧٣٢م قريبًا من پواتييه بعد موقعة «بلاط الشهداء»، حيث التقى عبد الرحمن الغافقى مع شارل مارتل، وثبت هذا بجيشه فى مواجهة المسلمين الذين انسحبوا بعد أن استشهد قائدهم. وتعطى المصادر الأوروبية هذه المعركة أهمية كبرى، وتراها إحدى معارك التاريخ الحاسمة. ذكر جيبون فى كتابه الأشهر «سقوط الإمبراطورية الرومانية». وتبعه آخرون من الأوروبيين: «لو انتصر المسلمون فى ذلك اليوم لكنت ترى المساجد فى باريس ولندن مكان الكاتدرائيات القائمة الآن، ولكنت تسمع القرآن وتفسيره. ومنهم من رأى أن انتصار شارل مارتل وهزيمة المسلمين أخر قيام عصر النهضة فى أوروبا خمسة قرون.

كان عبد الرحمن الغافقى يأمل. قبل استشهاده. أن يتجه شرقًا ليلتقى مع جيش الخلافة القادم من دمشق على أبواب القسطنطينية، وهو حلم ذهب به استشهاده من جانب، وانهيار دولة بنى أمية فى المشرق من جانب آخر، ومعه انتقل مركز الثقل السياسى فى الإسلام من دمشق إلى بغداد. ومع ذلك لم يتوقف نشاط المسلمين فى جنوب فرنسا بعد معركة پواتييه، فاحتلوا مدينة أفينيون عام ٧٣٤م، وبعدها بتسع سنوات اقتحموا مدينة ليون، وظلت مدينة أربونة قاعدة لجيوشهم حتى عام ٧٥٩م.

كانت أسبانيا حين هبطها المسلمون تدين فى مجملها بالكاثوليكية، مع طوائف وثنية فى أطراف منها، ويتكلم أهلها لهجات عامية من اللاتينية سوف تأخذ اسم «الرومانثية» (الرومانية فى غير الأسبانية)، وهى لهجات غير مكتوبة، تختلف دلالة وأصواتًا من مقاطعة إلى أخرى. وبقيت اللاتينية فى أحط مستوياتها لغة يعرفها رجال الدين فحسب يؤدون بها الصلوات ويلقون المواعظ، ويدونون فيها متطلبات الحياة اليومية البسيطة.

وقد انتشر الإسلام فى سرعة لم تعهد من قبل فى أى قطر فتحه المسلمون، رغم أن الفاتحين لم يكرهوا أحدًا على تغيير دينه. وهى ظاهرة أذهلت المؤرخين الأوروبيين وردوها إلى أسباب سياسية واجتماعية ونفسية، منها أن الأسبانى العادى لم يكن متعمقًا فى مسيحيته، وأن ثمة فجوة هائلة وغائرة كانت تقوم بين الشعب وحكامه ورجال دينه، وأن أغلب السكان كانوا من رقيق الأرض، وإسلامهم يكسبهم الحرية فى الحال، ويصبحون كالآخرين على قدم المساواة، دون عوائق أو صعاب أو إجراءات.

ويرى علماء الاجتماع منهم أن الإسلام كان ذكيًا حين ترك الناس أحرارًا فيما يعتقدون، لأن هذه الحرية أماتت فى أعماقهم العناد وروح التحدى والمقاومة والحرص على معتقداتهم والتمسك بها وهو ما يحدث عندما يكرهون قسرًا على تغييرها. ويذكرون على ذلك شاهدًا أن قومس بن أنتيان كان نصرانيًا، وتولى ديوان الإنشاء للأمير عبد الرحمن الثانى، ٨٢٢ إلى ٨٥٢م، ويحدد ابن حيان المؤرخ مستواه فى العربية بأنه «كان قريع كل من ينتحل البلاغة فى عصره، ومع بلاغته وجودة رسائله بصيرًا بالحساب، عارفًا بمعانيه العويصة، مدققة فى الحسابات الصعبة» مسموع الكلمة عند الأمير، فتحدث إليه يومًا أن تكون إجازته الأسبوعية يوم الأحد بدل الجمعة له، وللعاملين معه من النصارى، فاستجاب له، وتقرر أن يكون يوم الأحد أجازة لكل العاملين فى ديوان الإنشاء، مهما كانت عقيدتهم، وكان ممن يعملون فيه عمر بن قومس، وابن أخيه عبد الله، وجاء رد الفعل بعد قليل أنه أسلم وأبناؤه وأقاربه، وحسن إسلامه وتصفه المصادر بأنه «السجاد العباد، حمامة مسجد قرطبة».

وكانت اللغة العربية تتبع الإسلام، ولكنها أبطأ منه حركة وأوسع انتشارًا، وقد أصبحت لغة كل سكان شبه الجزيرة، مسلمين ومسيحيين ويهودا، وأرسلت بكل اللغات واللهجات الأخرى التى كانت عليها إلى زوايا النسيان، حتى أننا لم نعد نعرف عن طبيعتها شيئًا، إلا قليلاً من المفردات احتفظت بها عامية أهل الأندلس. ولم يكتف النصارى بمعرفة اللغة العربية، وإنما تعمقوا فيها وأجادوها، ويذكر المستشرق الأسبانى خوان فرنيت أنهم كانوا يقرأون حماسة أبى تمام، وحماسة البحترى، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وكتب السِّير وقصص المغازى والحروب، والكتب الدينية الإسلامية، وفى كتاب الذخيرة لابن بسام أن السِّيد القنبيطور، وهو قائد نصرانى محارب من القرن الحادى عشر الميلادى «كان يجلس فيستمع إلى قصص العرب، ويعجب من بيتها بسيرة المهلب بن أبى صفرة ويطرب لسماعها ويطرب».



أدار عامة النصارى ظهورهم للغة اللاتينية بكل مستوياتها، فاضطر رجال الدين إلى شرح الكتاب المقدس، وإلى التأليف باللغة العربية

لقد تعرب النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بعقيدتهم الدينية لغة وعادات وثقافة وتقاليد، ولدينا وثيقة مهمة تحتفظ بها المصادر اللاتينية وتحدد أوج انتشار اللغة العربية، ففى عام ٨٥٤م شكا ألبارو أسقف قرطبة من ظاهرة انصراف النصارى عن اللاتينية أو الرومانثية وإقبالهم على العربية يقول: «من الذى يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين على دراسة الكتب المقدسة، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علمائها ممن كتبوا فى اللغة اللاتينية؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرسل؟ إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبًا باللغة العربية، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ويدرسونها فى شغف، ويعلقون عليها، ويتحدثون بها فى طلاقة، ويكتبون بها فى جمال وأناقة، ويقولون فيها الشعر فى رقة وبلاغة. يا للحزن! نصارى يجهلون لغتهم وقانونهم ولاتينيتهم، وينسون لغتهم نفسها، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلمًا عليه، وتستطيع أن تجد جمعًا لا يحصى يظهر تفوقه وتمكنه من اللغة العربية».

أدار عامة النصارى ظهورهم للغة اللاتينية بكل مستوياتها، فاضطر رجال الدين إلى شرح الكتاب المقدس، وإلى التأليف باللغة العربية، ووصلنا عدد من مخطوطات هذه الكتب، يوجد فى مكتبات الإسكوريال ومدريد والمتحف البريطانى. ولم يتخلوا عن العربية حتى حين رحلوا من الجانب الإسلامى إلى الجانب النصرانى فى الشمال، لأسباب اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، وظلوا يستخدمونها فى مدينة طليطلة عاصمتهم، فى وثائقهم، إلى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى، أى إلى ما بعد استيلائهم عليها بقرنين ونصف من الزمان وظل صداها قويًا إلى منتصف القرن السادس عشر الميلادى، فقد لام فرانسيسكو دى بيالوبو (١٤٨٠ - ١٥٦٠م) وهو طبيب من طليطلة، مواطنيه من سكانها أنهم يستخدمون اللغة العربية، مما يمس نقاء اللغة القشتالية (الأسبانية) ويشوه وضوحها. وحين أتحدث عن الحضارة العربية لا أشير إلى عرق أو دين، وإنما أعنى اللغة العربية، واستخدمها كل المسلمين فى العصور الوسطى، العرب والفرس والترك والبربر والأسبان، والتى شكلت وسيلة انتقال المعارف الأكثر تنوعًا من العصر القديم الكلاسى أو المشرقى إلى العالم الإسلامى، وقد جدد العلم الإسلامى صوغها، ورفدها على نحو حاسم بإسهامات وإضافات جديدة، جعلت منها فى كثير من الأحيان خلقًا جديدًا مبتكرًا.

بعد أربعة عقود من الفتح أصبح الأندلس، بوصول عبد الرحمن بن معاوية عام ٧٥٥م، دولة مستقلة، استقدمه أهلها أميرًا عليهم ليضع حدًا لخلافاتهم، وما إن وطئ أرضها حتى جعل غايته توحيد الدولة، وإيجاد سلطة مركزية، ونشر الأمن، وخلق صيغة قومية تجمع تحت رايتها كل من فى أسبانيا من عرب وبربر وقوط وأسبان، ثم اتجه إلى فنون السلم من بناء وعمران وتعليم، وبذر نواة حركة عقلية تعهدها خلفه من أبنائه وأحفاده، آتت ثمارها فيما بعد، وجعلت من أسبانيا الإسلامية أعظم مراكز الثقافة العالمية فى أوروبا حتى القرن الثالث عشر.

وفى هذه النهضة احتلت مدينة قرطبة بوصفها العاصمة المكانة الأولى والنموذج المحتذى، ولم يكن يساويها فى جلالها ورقيها إلا الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى، وبغداد على أيام الرشيد والمأمون، وباريس فى القرن الثامن عشر. ويختلف المؤرخون المعاصرون فى عدد سكانها، بعضهم يتجاوز به المليون، ويهبط به آخرون إلى مائة ألف، وفى غيبة الوثائق الحاسمة كل شىء محتمل، ولكن الرقم الأخير غير محتمل، لأن قرطبة المعاصرة، وهى مجرد مدينة أسبانية تضم من السكان مائتى ألف نسمة ونيف، وكانت قرطبة العاصمة أوسع امتدادًا وأكثر أبنية، ومركزها عاصمة، كل ذلك يجعل منها أضعاف ما هى عليه الآن. وإذا استخدمنا الأرقام وما لدينا منها كاف لإلقاء ضوء على حجمها قلنا: كان بها فى القرن العاشر الميلادى ٣٨٧٧ مسجدًا، و٢٨ ضاحية (= ربضا) و٩١١ حمامًا، وطبقًا لإحصاء أمر به المنصور بن أبى عامر فى أواخر ذلك القرن كان فيها ٢١٣٠٧٧ دارًا يسكنها العامة و٦٠٣٠٠ بيت يسكنها الخاصة وكبار الموظفين، و٨٠٤٥٥ دكانًا، ولا يدخل فى هذه الأرقام البيوت المؤجرة ولا الحمامات ولا الفنادق، وسبعون دارًا للكتب.

وكانت قرطبة، شأنها فى ذلك شأن أى مدينة أندلسية كبرى، تضم خارج أسوارها حدائق واسعة مخضرة ذات خمائل، تستخدم لأغراض عديدة، ففى جانب منها يقام السوق الأسبوعى، وفى آخر مصلى لإقامة الصلوات فى الهواء الطلق، خاصة فى الأعياد والحفلات الدينية، وإلى جانبها طريق ممتد تحفه الأشجار العالية، ويتخذه المتنزهون والعشاق والمتبطلون ملتقى لهم.

وكان للطبقة العليا بيوت ريفية فاخرة، تقوم وسط جنان ممتدة، تسمى «مُنية»، وإذا كبرت جداً واتسعت أخذت

اسم «حَيْر»، وهذه الحدائق رغم خصوصيتها تفتح فى المناسبات فى وجه الراغبين من عامة الشعب، وبعضها كان يفتح للمثقفين والأذكياء وأصحاب الذوق الرفيع فحسب، ومصطلح «منية» ليس عربيًا، وأحسب أنه هيروغليفى أو إغريقى، ولا يُستخدم إلا فى مصر والأندلس، مما يشى بأن المهندسين الذين كانوا يقومون على إنشاء هذه البيوت الريفية الجميلة كانوا مصريين، وكتب التاريخ نادرًا ما تشير إليهم، وكان يطلق على المهندس اسم «عريف» وانتقل المصطلح إلى الأسبانية بحروفه ومعناه المعمارى Alarife ويستخدم حتى يومنا هذا. ولا تعرف أسماء هؤلاء المهندسين، أو العرفاء على كثرتهم لأن كتب التاريخ نادرًا ما تشير إليهم، وقلة منهم سجلوا أسماءهم على الأبنية التى خططوها، ومن هؤلاء اثنان مصريان: حسن بن جعفر الإسكندرانى وأخوه على، وأشرفا على ترخيم بعض قصور مدينة الزهراء التى أقامها عبد الرحمن الناصر فى ضاحية من قرطبة.

بعض هذه القصور كان به حدائق للحيوان، تضم نماذج من حيوانات المناطق البعيدة كالزرافات والنعام والجمال والطيور الناطقة. وفيما بعد سوف يقلدهم فى هذا ملوك أوروبا فى القرن الحادى عشر، مثل: هنرى الأول ملك إنجلترا، وفيدريكو الثانى ملك ألمانيا.

وتقيم كل أسرة داخل بيت مستقل عادة، والداخل لا صلة له بالشكل الخارجى، فهذا متواضع، لا يختلف فيه بيت عن آخر، فى شارع عام أو درب نافذ. أما الداخل فيعكس قدرًا كبيرًا من الترف والرفاهية، حسب الإمكانات الاقتصادية والمكانة الاجتماعية لمالكه. ويتوسط البيت صحن، مهما كان متواضعًا، أو سكانه فقراء، فيه بئر، وتتناثر فيه أشجار مظلة أو مثمرة، أشبه ما يكون بحديقة صغيرة تتزاحم فيها الزهور والرياحين وأشجار الفواكه أحيانًا، وتضيق أو تتسع حسب قدرة صاحبها، وتخترقها قنوات تحمل الماء لرى الأشجار وأصحاب البيت، أو تغذية النوافير فى وسطها أو على جوانبها، وبعيدًا عنها تمتد قنوات أخرى مغطاة، تحمل المياه القذرة إلى قناة فى عمق الشارع، تحملها إلى خارج المدينة.

ويخترق المدينة شارع رئيسى متسع يسمى «المحجة العظمى»، وانتقل هذا النظام إلى المدن الأسبانية فيما بعد كبيرة أو صغيرة مع ترجمته إلى اللغة الأسبانية فأصبح Gran Via، وعن هذا الشارع تتفرع الشوارع الأخرى والأزقة والدروب والشوارع مرصوفة، وتقوم على جانبيها الأشجار، وآثر أهل قرطبة أن تكون هذه أشجار برتقال، وهو تقليد لايزال قائمًا حتى اليوم، فى الأحياء العتيقة على الأقل، ويحترم السكان هذه الثمار فلا يقطفونها إلا إذا كمل نضجها، وسقطت بنفسها، وتضاء الشوارع ليلاً، وهو ما لم تكن تتمتع بمثله لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ، وبعد ذلك بقرون كان الذى يجرؤ على الخروج من بيته فى يوم مطير يغوص فى الوحل إلى عقبيه، وبينما علماء قرطبة وسراتها يتمتعون بالحمامات الفاخرة، وتنعم العامة بأخرى عامة، كانت جامعة أكسفورد ترى الاستحمام عادة وثنية.

وتضاء البيوت بالشموع والقناديل، وتستخدم الثريات فى بيوت الأغنياء، وتتم التدفئة فى الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن عبر الحجرات فى أنابيب من الفخار، وهى الطريقة المستخدمة اليوم فى أسبانيا وكل أوروبا الغربية، وإن حلت الأنابيب المعدنية محل الفخارية، أما الفقراء فكانوا يستخدمون المواقد العادية، وفى الصيف يواجه الناس الحر برش الصحن جيدًا بالماء أكثر من مرة فى اليوم.

ولم توجد فى الأندلس مشاف عامة، رغم علمهم بوجودها فى المشرق، فقد كان ابن عبدون الجبلى، وهو طبيب أندلسى، يعمل مديرمستشفى الفسطاط فى مصر. والتعليل عندى: قلة الأمراض لطيب الهواء، وجودة الغذاء، انعدام الوباء، ووفرة الأطباء الخصوصيين. ويزكى هذا الرأى وجود حى قائم بنفسه خارج المدينة يسمى «ربض المرضى» للذين يستعصى علاجهم أو يبطئ، أو مصابين بأمراض معدية، تقوم على رعايتهم جماعات متطوعة، إشرافًا وإنفاقًا وعلاجًا، مما تتلقاه من أهل الخير، أو مما يوقف عليه من مال أو أرض أو عقار. ويذكر ابن جلجل فى طبقاته أن أحمد بن يونس الحرانى أقام خزانة للطب (= صيدلية) فى قصر الخلافة، لم يكن قط مثلها، ورتب لها اثنى عشر صبيًا، طباخين للأشربة، صانعين للمعاجين، واستأذن أمير المؤمنين أن يُصرف منها لمن احتاج من المساكين والمرضى، فأباح له ذلك.



تضاء البيوت بالشموع والقناديل، وتستخدم الثريات فى بيوت الأغنياء، وتتم التدفئة فى الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن عبر الحجرات فى أنابيب من الفخار

كانت الثقافة العربية فى الأندلس تنهض، فى جوهرها، على دعامتين: دراسات إنسانية يأتى فى مقدمتها علوم الدين واللغة، ومكتسبات علمية ثمرة الترجمة التى ازدهرت فى المشرق فى العصر العباسى، ولم يخجل المسلمون قط بأنهم استفادوا من علم غيرهم، تلقوه وأضافوا إليه وطوروه ليكون فى صالحهم. ومع ذلك كان لابد أن يمضى قرن ونصف من الزمان حتى نقع على بذور حركة علمية جديرة بالتسجيل وذات مستوى، ولم يغب عن وعى الأندلسيين أن جيرانهم فى الشمال غارقون فى العجز السياسى والذهنى، وليس لديهم ما يقدمونه لهم. وفى البدء اعتمدوا على ما يترجم فى المشرق، ثم التفتوا إلى القليل الذى أصابوه من نصوص لاتينية فبدأوا يترجمونه على نحو غير منهجى، واتسم معظمه بأنه مُجتزأ ومجهول المؤلف والمترجم، وضاع جله، وما وصلنا منه إشارات إليه، أو فقرات متناثرة منه، مبعثرة فى مختلف المصادر، وتم لغايات عملية. فالطب الذى مارسه العرب الأوائل فى الأندلس كان عماده كتابًا منقولاً عن اللاتينية يُسمى «الفصول Aforismos». ومنذ القرن العاشر الميلادى أخذت الترجمة وضعًا أفضل حين وافى قسطنطين السابع إمبراطور بيزنطة (ت٩٥٩م) عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس بجملة من الهدايا، تقربًا وتوددًا ولتحسين العلاقات بين الدولتين، وكان بينها كتابان، أحدهما باللغة اليونانية، والثانى باللاتينية.

أما الكتاب الأول منهما فكتاب ديسقوريدس، ويضم عرضًا مصورًا للحشائش والنباتات التى تستخدم فى الطب، وترجم من قبل فى بغداد، ورغم أن حنين بن إسحاق شيخ المترجمين راجع الترجمة وصححها وأجازها، بقيت عشرات الأسماء لا يعرف لها مقابل فى العربية، فكانت تترك بأسمائها اليونانية مرسومة فى حروف عربية، فتجئ لا معنى لها، وهكذا وصل الأندلس، فازدادت صعوبة الفائدة منه، وكان إمبراطور بيزنطة قد أرفق مع الكتاب رسالة للخليفة: «إن هذا الكتاب لا يبلغ الفائدة منه إلا رجل يحسن العبارة باللسان اليونانى، ويعرف حقائق تلك الأدوية، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزتم بفائدته. وأما الثانى فعندك من يحسن اللاتينية، ويمكنهم أن ينقلوه إلى اللغة العربية.

ولم يكن بين نصارى الأندلس من يجيد اليونانية، فأرسل الناصر إلى الإمبراطور يسأله أن يبعث إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية ليعلمها بعض فتيات القصر من الصقالبة، فأرسل إليه الراهب نقولا، الذى وصل قرطبة عام ٩٥١م، وتألفت لجنة بإشرافه، تعكس فى تكوينها، ما كان سائدًا فى هذه الحقبة من تاريخ الأندلس، من تسامح دينى وسياسى، فقد ضمت علماء من مختلف الأعراق والأديان، وكانت مهمتها إلى جانب ترجمة الكتاب إلى العربية تحديد أنواع النباتات وأسمائها ومكانها من الأندلس، وبقى القليل جدًا مما لم يهتدوا إليه، ووثق الناس بالكتاب، وأخذ فى العربية أسماء متعددة: الأدوية المفردة، والمقالات الخمس، وكتاب الحشائش، وكان النقل يتم من اليونانية مباشرة، وأحيانًا من هذه إلى اللاتينية ثم إلى العربية، وترك الكتاب أثرًا حاسمًا فى مجرى دراسات الطب والنبات فى الأندلس. وأخذ الراهب نقولا بما فى قرطبة من حضارة، ورفاهة عيش،

فاتخذها دار إقامة، ولم يعد إلى وطنه، وعلى أرضها لقى الله.

كان الكتاب الثانى باللاتينية، وهو فى تاريخ الروم، وعنوانه Historia Afarsus Paganos وترجمته الحرفية «تاريخ أعداء الوثنية» وألفه المؤرخ الأسبانى باولو أوروسيوس Paulo Orosios، وعاش فى أواخر القرن الرابع الميلادى وأوائل الخامس، وتمت ترجمته أيام الحكم الثانى بأمر منه، وقام بها قاضى النصارى حفص بن ألبار والأسقف ربيع بن زيد، وشارك فى الترجمة صياغة ومراجعة قاضى قرطبة قاسم بن أصبغ، وعُرف بتاريخ هرشيوش وأفاد منه عدد من المؤرخين العرب، كابن جلجل فى «طبقات الأطباء» وابن خلدون فى تاريخه، ولحسن الحظ وصلتنا الترجمة العربية فى مخطوطة فريدة تحتفظ بها جامعة كولومبيا فى نيويورك، وقام العالم المصرى الجليل المرحوم الدكتور عبد الرحمن بدوى بتحقيقها ونُشرت فى بيروت (لا القاهرة!) عام ١٩٨٢، وتخلو مكتبات القاهرة كلها من نسخة واحدة منها.

أقدم إنجاز علمى استرعى اهتمام المستشرقين الأوروبيين عامة، والأسبان خاصة، ما قدمه الأندلسيون فى حقل النبات، إذ كانت الزراعة من الدعائم المهمة التى ارتكز عليها الاقتصاد الأندلسى، فقد توفر لها كل المقومات التى تجعل منها عملاً ناجحًا: وفرة المياه، وخصوبة التربة، وتنوع المناخ، وأخذت العناية بها فى البدء شكلاً تطبيقيًا عمليًا، فأدخل المسلمون الوافدون طرق الزراعة التى كانت مستخدمة فى مصر والشام، حفروا القنوات، وغرسوا الكروم، واهتموا بالحدائق والبساتين، وجلبوا البذور والنباتات والفواكه التى كانت فى المشرق وتخلو منها أسبانيا، كالأرز والمشمش والخوخ والرمان والبرتقال وقصب السكر والنخل والقطن، وحسنوا زراعة القمح والزيتون، وكان هذا الرقى الزراعى أحد مفاخر أسبانيا الإسلامية وإحدى النعم الخالدة التى أغدقها العرب على الأرض، ولاتزال الزراعة الأسبانية، والفلاحون فى الريف، يحتفظون بالكثير من تقاليد الفلاحة العربية، وكثير منها يحتفظ باسمه العربى متداولاً حتى يومنا هذا، من ذلك - مثلاً - كلمة سكر، وتظهر فى وثيقة أندلسية لأول مرة عام ٧١٤، أى بعد الفتح بسنوات ثلاث، ثم واصلت سيرها فى بقية العالم الغربى، وكلمة القطن، مع أنه كان معروفًا فى أوروبا من قديم، لم يصبح واسع الانتشار كثير الاستعمال إلا بعدما أدخل المسلمون زراعته فى أسبانيا، ومنها انتقل إلى إيطاليا وفرنسا والفلاندر وألمانيا وإنجلترا، وسلكت الطريق نفسه كلمات: السبانخ والباذنجان والتين الشوكى



دعت الحاجة إلى كفاءات متخصصة، ذات ثقافة متميزة، ومعرفة واسعة لمتطلبات الحدائق، غرسًا وسقيًا ونموًا، خاصة الحدائق الكبرى، ذات الشهرة الواسعة

والبطيخ والليمون والزعفران والزيتون والزيت، وغيرها كثير.

هذه النباتات الجديدة احتاجت إلى وفرة فى المياه، فقام المسلمون بتنظيم أساليب الرى، لا فى السهول فحسب وإنما فى النجود أيضًا، ويتجلى ذلك واضحًا فى أقدم نموذج لها، وهو مدينة مدريد، وكانت فى أول أمرها حصنًا بسيطًا فوق جبل، أمر ببنائه الأمير محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٨٨٦) وجرى إمداده بالماء بواسطة مجرى، وفيما بعد أضيفت اللاحقة اللاتينية etu، وتعنى الوفرة، إلى الكلمة العربية، وعرف بها المكان، فأصبحت Magretu ونطقها الأندلسيون على طريقتهم فى إبدال التاء طاء فكانت مجريط، وهو الاسم الذى أطلق على الحصن، ثم على المدينة من بعد وظل يستخدم فى مصوراتنا الجغرافية حتى الخمسينيات. ويعطى قلة من اللغويين الأسبان لتطور الكلمة منحى آخر، فيقولون أن كلمة مجرى العربية تعنى فى اللاتينية Matrica وأن اللاحقة اللاتينية أضيفت إلى هذه الكلمة فأصبحت فى العربية مجريط، وفى الرومانثية مدريد، والقوانين اللغوية إلى جانب التفسير الأول، وعلى أية حال كلا الاسمين يصدر عن الاشتقاق ذاته، ويعنى المكان نفسه.

مع كثرة الحدائق والتوسع فيها دعت الحاجة إلى كفاءات متخصصة، ذات ثقافة متميزة، ومعرفة واسعة لمتطلبات الحدائق، غرسًا وسقيًا ونموًا، خاصة الحدائق الكبرى، ذات الشهرة الواسعة فى قصور بنى عباد فى أشبيلية، وبنى ذى النون فى طليطلة، وبنى الأحمر فى غرناطة، ومن ثم بدأ التفكير فى التأليف والتنظير، وليس من قبيل الصدفة وحدها أن أغلبية علماء الفلاحة تنتمى إلى هذه المدن الثلاث، أو عاشوا فيها جانبًا من حياتهم. ولأن العلوم فى هذه المرحلة الباكرة من حياة العلم لم تكن عرفت الاستقلال، جاء التأليف فى علم النبات مختلطًا بعلم العقاقير، أو الصيدلة إذا شئت، وهذه مرتبطة بالطب، والمرء يعرف هذه الفروع الثلاثة، ثم يتميز فى جانب منها يغلب عليه معرفة أو تطبيقًا، ويشتهر به.

فى البدء، قبل التأليف فى الفلاحة، تمثل الأندلسيون ما ألّف المشارقة فيها، مثل كتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية الكلدانى العراقى، وهو فى أصول الفلاحة والزراعة، ويقال أن أصول تأليفه تعود إلى ما قبل ميلاد المسيح، وأن ابن وحشية نقله عن لسان الكلدانيين إلى العربية، وأملاه على ابن الزيات عام ٩٣٠م . أو كتاب النبات لابن حنيفة الدينورى (ت ٨٩٥م)، وعُرف فى الأندلس فى منتصف القرن العاشر، وهو موسوعة من ستة أجزاء ضاع معظمها، إلا جزءين نشرهما المستشرق الألمانى برنهار لفن عامى ١٩٥٣ و١٩٧٤م، وجمع العالم الباكستانى محمد حميد الله ملتقطات من الكتاب عثر عليها فى المؤلفات الأخرى، ونشرها المعهد الفرنسى فى القاهرة ١٩٧٣، وظل الكتاب مرجعًا للمؤلفين العرب على مر العصور، وقد شرحه ابن أخت غانم (أبوعبدالله محمد) من علماء المرية فى القرن العاشر فى ستين مجلدًا، ولم يصلنا منها شىء فيما أعلم.

كانت مهنة الفلاحة تعرف ألوانًا من التخصص: الغرّاس وهو المتخصص فى غرس النبات، والشجّار ويعنى برعاية الأشجار، والعشّاب ويختص بالأعشاب ذات الفوائد الطبية، ولكل واحد كتب تهديه إلى أفضل الطرق فى مهنته. وهناك نباتيون خُلّص اتجهوا إلى البحث عن طبيعة النباتات وأصنافها وأوصافها وفوائدها، ومثل هذه المؤلفات أدخل فى علم الصيدلة والعقاقير، ويطلق عليها اسم الأدوية المفردة، وقد يطلق على من يهتم بها اسم «صيدلانى».

وقد حفل الأندلس فى القرن العاشر الميلادى بأعداد كبيرة من النباتيين الأطباء يجمعون بين العلم بحقائق النبات، والتداوى بالأعشاب، فى ضوء المعارف القليلة التى تلقوها من العائدين من المشرق، أو قرأوها فيما حملوا من كتب ورسائل، أو ما تحصلوا عليه من خبرة عملية.

وقد تعمّق هذا التيار المشرقى وتأصل وقضى على أى أثر للتقاليد الأسبانية القديمة التى سبقت الإسلام. وحين أحس الأندلسى بذاته بدأ يدرس الطب على أرضه، يتلقاه الطلاب تحت إشراف طبيب متمكن، فإذا تقدمت معرفتهم صحبوه فى زياراته العادية للمرضى من عوّاده، أو يحضرون الفحوص التى يجريها فى منزله، حيث تعوّد الأطباء أن يستقبلوا المرضى الفقراء مجانًا، لأن أسبانيا الإسلامية لم تعرف المشافى الكبرى، كما هو الحال فى المشرق، إلا فى زمن متأخر، لأسباب ألمحنا إليها من قبل.

ولا يذكر المستشرق الفرنسى ليكلرك فى كتابه: «تاريخ الطب العربى» غير واحد منها فى أسبانيا الإسلامية كان قائمًا فى الجزيرة الخضراء، وأضيف أنا واحدًا آخر كان أوسع شهرة، وأكثر استعدادًا أقامته الدولة النصرية فى غرناطة فى القرن الرابع عشر الميلادى.

عمليًا تركت قلة المشافى والمرضى أثرها فى عدم تقدم الطب الأندلسى وازدهاره فى أيامه الأولى، على حين كانت المشافى فى المشرق متعددة وكبيرة، والمرضى كثيرون، وأمراضهم متنوعة، مما يتيح لطالب الطب أن يرى، وأن يمارس عمليًا فى أى وقت، ما درسه نظريًا فى الكتب، كان ذلك ينقص الطلاب فى أسبانيا الإسلامية، على ما هم عليه من ذكاء واهتمام، ومن ثم كانت تنقصهم فى

الأعصر الأولى الملاحظات والتجارب العلمية وقلتها.

لحسن الحظ لدينا وثيقة مهمة عن الطريقة التى كان يتم بها تدريس الطب فى مخطوطة فريدة تحتفظ بها مكتبة الأسكوريال، قريباً من مدريد، تحتوى بعض المذكرات التطبيقية، كتبها طالب يدعى محمد التميمى الطليطلى، ويرى ميخائيل غزيرى وهو راهب مارونى من حلب، عمل مترجماً فى خدمة الملك الأسبانى كارلوس الثالث (١٧١٦-١٧٨٨م)، وعهد إليه هذا بفهرسة المخطوطات العربية التى فى دير الإسكوريال لأول مرة، فقام بهذه المهمة، ولم يكتف برصدها، وإنما أرفق هذا بملاحظاته عليها، موضوعاً أو مؤلفاً. باللغة اللاتينية، يرى أن هذه المخطوطة مذكرة لامتحان عملى فى الطب، تعرض لنا الخطة التى كانت متبعة فى الدراسة العملية، فى معاهد الطب العليا فى الأندلس، ونستخلص منها أن الطريقة المعتادة كانت تتم على النحو التالى:

يفحص الطبيب المريض عندما يعرض عليه، ويسأله عن كل ما يعتقد أنه مفيد فى تحديد المرض ومعرفته، ثم يدعو الطالب لكى يفحصه أيضاً، وخلال تبادل الأسئلة والملاحظات بين الأستاذ والطالب تتم عملية الإعداد، وفى النهاية يكتب الطبيب العلاج. ويحدث كثيراً أن يسأل الأستاذ تفسيراً له، ولم يبخل عليه هذا بالجواب. ومع أننا لا نعرف شيئاً عن المناهج القديمة، فإن ذلك لا يقلل من قيمة المعلومات المثيرة التى تضمنتها هذه المخطوطة خاصة فيما يتصل بالدراسة العملية فى تلك الأيام.

ويفسر لنا نقص الوسائل المتاحة للدراسة العملية فى أسبانيا الإسلامية ظاهرة حرص بعض الأسر على توارث مهنة الطب، وأن يتخصص أفرادها فيه، لأن قلة فحسب هى التى يتاح لها ما يتاح لابن الطبيب نفسه، من التدريب الجيد، والدراسة العملية المتواصلة، فهو يصحب والده دوماً، وقد شهرت الأندلس بهذا، وظلت الأسر تتوارث مهنة الطب أجيالاً عديدة، مثل أسرة يونس الحرانى، وبنو زهر، وابن الرومية وآخرين.

ويلفت النظر أن هذا التقليد ظل سارياً على نحو ما فى أسبانيا حتى الآن، فأسرة «براكير» فى برشلونة تتوارث مهنة طب العيون منذ القرن السادس عشر الميلادى، ونبهت فيه بلا حدود، واشتهرت على مستوى دولى.

أول طبيب أندلسى عظيم نلتقى به: أبوالقاسم الزهراوى (ت ١٠١٣) نسبة إلى مدينة الزهراء، ضاحية فى قرطبة كانت مقر الخليفة عبدالرحمن الناصر، وقواده وجنده والطبقة العليا من قومه، ويعرف عند الأوروبيين فى العصر الوسيط وما تلاه باسم Abulcasis، وكان أعظم جراح أندلسى، طار ذكره بين الشرق والغرب، وشغل وظيفة طبيب البلاط فى عهد الحكم الثانى، وتعتمد شهرته على كتابه المسمى: «التصريف لمن عجز عن التأليف»، أى معاونة من ليس له قدرة على استيعاب المؤلفات الضخمة، وهى موسوعة جاءت فى ثلاثين جزءاً، وقف قسماً منها على الطب، وثانياً على الصيدلة والأخير على الجراحة.

وكسر هذا الأخير على ثلاثة أبواب، تناول فى الأول منها العلاج بالكى، وفى الثانى العمليات بواسطة الشق والبضع، وأمراض العيون والأسنان، وتفتيت الحصوة داخل المثانة، والفتق وأمراض النساء. وعنى فى الثالث بأنواع الرضوض وتجبير ضروب الكسر والخلع.

وضمنه رسوماً قيمة لكثير من أدوات الجراحة. ونال هذا القسم أسمى درجات التقدير فى أوروبا المسيحية لم ينشر الكتاب كاملاً لا فى نصه العربى، ولا فى ترجمته اللاتينية، وإنما تُرجِم وطُبِع على مراحل.

وبينما كان الزهراوى يملأ الدنيا ويشغل الناس، طبيباً متميزاً فى قرطبة، كانت هناك أسرة بأكملها تتهيأ لتأخذ المكانة نفسها فى مدينة أندلسية أخرى، ورثت عاصمة الخلافة فى أمجادها، وأصبحت حاضرة الأندلس الأعلى ذكراً فى عهد الطوائف، والوحيدة فى عصرى المرابطين والموحدين، وأولئك هم: بنو زهر فى أشبيلية، وشغلوا مكاناً عظيماً فى عالم الطب على امتداد القرن الحادى عشر الميلادى والقرن الذى تلاه، وامتد نشاطها فى هذا المجال خمسة أجيال متعاقبة، عمل أغلبهم بالطب. وبعضهم جمع إلى جانبه الشعر والأدب والفلسفة.

ظل نشاط المسلمين فى أسبانيا حياً متوهجاً حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، ثم انحطت قواه لعوامل أهمها هزيمة الموحدين فى معركة العقاب فى ١٦ يوليو ١٢١٢، فقد كانت قاصمة الظهر، خسر المسلمون المعركة، وحصد الموت أبرياء المقاتلين والمتطوعة، وبلغ الشهداء عدداً لم تعرفه أى معركة أخرى فى تاريخ الإسلام، حتى إن السائر- كما يقول المؤرخون- كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجلاً، لأن زهرة الرجال راحت صرعى ذلك اليوم الأسيف، وبعدها أصبحت حدود الدولة مفتوحة أمام الغزاة من نصارى الشمال، وأدى افتقاد الأمن إلى مرحلة من التفتت والتناثر انتهت باستيلاء النصارى على كبريات المدن الأندلسية، وبدأ الأغنياء وملاك الأراضى وكبار المثقفين يرحلون إلى شمال أفريقيا أو المشرق، ومناطق أخرى أكثر أمناً، وأثناء سقوط هذه المدن أصدر ألفونسو الثانى ملك قشتالة أوامره بترجمة كل ما يجدونه من الكتب العربية التى تقع فى أيديهم إلى اللغة اللاتينية أو القشتالية.



حفل الأندلس فى القرن العاشر الميلادى بأعداد كبيرة من النباتيين الأطباء يجمعون بين العلم بحقائق النبات، والتداوى بالأعشاب

وعندما شهدت مملكة غرناطة، وكانت كل ما تبقى من الأندلس فى يد المسلمين استقراراً نسبياً انبعثت من جديد نهضة ثقافية ذات طابع أندلسى، غير أنه لا يمكن مقارنتها البتة بما كانت عليه النهضة فى الفترة التى امتدت من القرن العاشر حتى الثالث عشر الميلادى، ولم تعرف هذه النهضة الثانية أطباء عظماء محترفين، غير أن الموسوعيين من كبار أدبائها ومفكريها وسياسييها ألفوا فى الطب النظرى كتباً تعكس ثقافتهم الواسعة فى هذا المجال، وهى بالغة الفائدة فى إعطاء صورة دقيقة عن المستوى الصحى الذى بلغته الأندلس فى مجال الحياة الاجتماعية.

أعظم هؤلاء المثقفين طبياً وأشهرهم: لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣-١٣٧٢م)، وكان شاعراً وناثراً ووشاحاً ووزيراً، وله مؤلفات ورسائل ومنظومات فى الطب يبلغ عددها ثلاثة عشر، وصل إلينا بعضها وضاع البعض الآخر.

وفى عام ١٣٤٥م اجتاح الطاعون (الكوليرا) فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وإنجلترا، ودمر مملكة غرناطة. فكتب ابن الخطيب رسالة «مقنعة السائل عن المرض الهائل» عرض فيها لأسباب المرض وأعراضه ووسائل اجتنابه، وأنها تتمثل فى الابتعاد عن المريض وعدم استخدام ثوبه أو آنيته أو سكنى محله أو مجاورته. وبينما هذا الموت يحصد أوروبا وقف أهلها حيارى أمامه، واعتبروه عملاً من أعمال الله لا يصح الاعتراض عليه، دافع ابن الخطيب عن نظرية العدوى ودعا إلى محاصرة المرض وعزل المرضى.

وفى الوقت نفسه، قام ابن خاتمة، وهو من المرية، وكان صديقاً لابن خطيب، وعانت مدينته من الوباء أهوالاً. فألف فيه: «تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد»، وفيها شدد على أهمية عزل المريض»، ووصف حالة المدينة على أيامه. وقام دكتور مصرى هو طه دنانة بترجمته إلى اللغة الألمانية ونشره فى المجلة الطبية فى برلين عام ١٩٢٦، وعن النص الألمانى قام الصيدلى خوسيه فرنانديث من مدينة المرية بترجمة الجانب الطبى فيه إلى اللغة الأسبانية، ونشره فى مجلة الحاضر الطبى التى تصدر فى غرناطة عام ١٩٥٨م.

وثمة مؤسستان طبيتان أخذهما الغرب اللاتينى عن أسبانيا الإسلامية: نظام المستشفيات، وامتحان الأطباء، قبل أن يؤذن لهم بمزاولة المهنة، وكان هذا الامتحان معروفاً فى أسبانيا منذ القرن الحادى عشر الميلادى، وبعد ذلك بمائتى عام انتقل منهما إلى بقية أنحاء أوروبا.

ثم غربت الشمس!■

بين "المداولة" و"المدافعة"

حلمي محمد القاعود

■ هل يعيد التاريخ نفسه؟

سؤال يطرح نفسه كثيراً، وخاصة في أوقات المحن والشدائد التي تمر بها الأمم والشعوب، وهناك من يجتهد في الإجابة، أو يسعى إلى إجابة قاطعة شافية، ويجيب بالنفي أو بالتقرير، ولكن نظرة هادئة إلى المفهوم الإسلامي لحركة التاريخ تفيد أن التاريخ بالنسبة للأمة الإسلامية عموماً وشعوبها خصوصاً، هو حركة إلى الأمام، مع أنه يعيش في الخلف. ووجوده في الذاكرة يعني أنه رؤية للمستقبل من حيث كونه عبرة وعظة. وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع على فكرة «المداولة» في مقابل فكرة «المدافعة»، لتعطي كل منهما دلالة واقعية على ما يصح أن يسمى «حكم التاريخ».. فالمداولة هي انتقال القوة والهيمنة والتأثير من قوم إلى قوم أو من أمة إلى أمة بفعل عناصر معينة وشروط خاصة، وهذا الانتقال ليس مؤبداً. ولكنه مرهون باستمرار تلك العناصر والشروط، فمن الممكن أن تتحول عناصر القوة والهيمنة والتأثير إلى الأمة الأخرى أو القوم السابقين إذا امتلكوا هذه العناصر وشروطها. ومن المفارقات أن قوله تعالى: «وتلك الأيام نداولها بين الناس» (آل عمران: ١٤٠) يأتي في سياق هزيمة المسلمين في أحد، وكأنه يشير إلى ضرورة الاعتبار واستيعاب الدرس التاريخي الذي يهيئ عادة للهزيمة أو الانتصار بشروط كل منهما، ثم إن المسألة.. حين يتحقق الاعتبار والاستيعاب، تتحول إلى سعي حثيث نحو التصويب والمعالجة، مما يهيئ للانتصار من جديد.. إذ أن النواح واليأس والإحباط عند أقدام الهزيمة لن يجدي نفعاً، ولن يغير الواقع المهزوم، بل الذي يغيره هو «الاعتبار والاستيعاب»، وبذا يكون التاريخ حركة للأمام ورؤية للمستقبل، سواء أعاد نفسه أو لم يعدها..

في هذا الإطار يأتي ذكر السلطان الناصر لدين الله صلاح الدين يوسف بن أيوب محرر القدس من أيدي الصليبيين وموحد قلب الأمة الإسلامية، عقب هزيمة ساحقة مزقت بلاد الشام والعراق وغيرها إلى عشرات من الدول والإمارات، وأخضعتها لقوات الغزو الصليبية لعشرات السنين، منذ بداية أول حملة عام ١٠٩٥م.

البعض يهتف باسم «صلاح الدين» متصوراً أن التاريخ يعيد نفسه، وأن صلاح الدين سيظهر فجأة، ليحقق ما أنجزه صلاح الدين «الأول»، ويخلص الأمة من الهوان الذي تعيشه، والغاشية التي تحياها، ويريح الناس من العناء الذي استطال..

والبعض الآخر يسخر من الفكرة أو الهتاف، ويرى أن ذلك شبه مستحيل، فالتاريخ لا يعيد نفسه، وظهور صلاح الدين مرة أخرى، قضية عبثية، فقد كان ظهوره مسألة قدرية، لا دخل لأحد فيها، ثم إن الظروف التي كانت في عهد الحروب الصليبية غير الظروف التي تعيشها الأمة الآن تحت هدير صواريخ «كروز»، وهمس التكنولوجيا المتقدمة التي تؤثر على حركة الدبابات والطائرات والمدافع، وتمسح عيون الرادارات فلا ترى!

وأتصور أن كلا الفريقين يفتقر إلى بعد غائب هو بعد «المدافعة» بالمفهوم الإسلامي «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» (البقرة: ٢٥١).

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز» (الحج: ٤٠). هذه «المدافعة» ضرورة لاستمرار الحياة من ناحية (عدم فساد الأرض)، وضرورة لاستمرار ذكر الله، وإقرار الخلق بوجوده من خلال بقاء العباد يعبدونه في الصوامع والبيع والكنائس والمساجد إلى ما شاء الله، من ناحية أخرى.



«فالمدافعة إذاً حياة وعبادة، وهي وسيلة تحقيق «المداولة»، وبها تتم النصرة «ولينصرن الله من ينصره»، وهي كما نرى نصرة مؤكدة بأكثر من مؤكد، لأن نصرة الله لا تكون بالاستسلام وترك «المدافعة»، ولكنها أخذ بالأسباب والعوامل التي تجعل «المدافعة» فعالة، و«المداولة» أملاً قريب التحقيق.

كان حلمي أن أقرأ ما كتبه مؤرخو عصره الثقات وأقربهم إليه، وأن أرى انعكاس كتابتهم على بعض المعاصرين وتحليلهم لشخصيته وانتصاره العظيم.

فلعل هذه الكتابات تفتح الطريق أمام الأمة لترى نوراً في نهاية النفق المظلم، الذي دخلت إليه، وخاصة بعد سقوط بغداد مرة أخرى في أبريل ٢٠٠٣. وتوحش الاستعمار الصهيوني في فلسطين: قتلاً وحصاراً وتجريفاً واعتقالاً ورفضاً لكل محاولات المتحضرين في العالم إقناعه باحترام حقوق الإنسان الفلسطيني والعربي.. ثم وقوع الأمة جمعاء تحت قبضة الهيمنة الأمريكية عسكرياً وسياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً.

كان على أن أقرأ ما كتبه «ابن شداد» صديق صلاح الدين الأيوبي ورفيقه أينما ذهب، والشاهد على كلام الرجل وسلوكه وحربه ومعاهداته، ثم ما كتبه «العماد الأصفهاني» الذي سجل العمليات العسكرية لجيش صلاح الدين خطوة خطوة باهتمام ودقة بالغين وكان كاتباً للسلطان وقريباً منه، ثم ما خطه «عبد اللطيف حمزة» عن شخصية صلاح الدين وذراعه اليمني «بهاء الدين قراقوش»، وصدى انتصار صلاح الدين في الأدب الغربي، ثم ما خطه «سعيد عبد الفتاح.. عاشور» عن الناصر صلاح الدين ومسيرته الحافلة، لاكتشف بعدئذ أن «صلاح الدين» أخذ بفكرة «المدافعة» كما ينبغي، وعمل لها بجد وإخلاص منذ شبابه حتى تولى سلطنة مصر وقيادتها، وكان على المستوى الشخصي والصعيد العام مثالاً للحاكم الذي يجب أن ينتصر، ويحقق فكرة «المداولة» التي جعلت منه عنواناً كبيراً في التاريخ الإسلامي، بل التاريخ الإنساني كله، حين حرر القدس العتيقة وصلى في المسجد الأقصى، وأرغم قوات الغزو على الرحيل بعد جهاد طويل.

ومن المؤكد أن فكرة «المدافعة» عند صلاح الدين، ما كانت لتتم لولا وجود استعداد طبيعي وشخصي في وجدانه، وأعماقه، وما بالنا برجل يموت ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك مما تجب عليه الزكاة، ولم يترك في خزانته يوم وفاته سوى سبعة وأربعين درهماً، وجراماً واحداً من الذهب (= ستين جنيهاً مصرياً بسعر هذه الأيام إذا كان من عيار ٢٤ بدون مصنعية). هذا الرجل لم يمتلك في حياته ما يستوجب دفع الزكاة = الحد الأدنى للنصاب الشرعي للزكاة، أي ما يقرب من أربعمائة جنيه مصري بالسعر الحالي = هذا الرجل بلا شك لم يطلب الدنيا ولم يسع إليها من منطق مادي يهدف إلى الجمع والاكتناز، ولكنه سعى إلى طلب الدنيا من منظور إسلامي، يقدم الكرامة قبل المال، ويهتف بالحرية قبل الشراء، ويجعل رضا الله سابقاً على رضا الناس..

ولا ريب أن المؤرخين، وقد أجمعوا على تدينه وصلاحه، يرون في ذلك عنصراً من عناصر قوة الشخصية التي تجعل غايتها الأهداف العظمى للدين، فلا تنكص على

"... العدل أساس الملك"

عقبها، ولا تتردد فى البذل والتضحية، مهما كانت الظروف المحيطة غير مواتية، أو مهما كانت الإمكانات محدودة، فالرجل الذى يعيش لله ومن أجل الله، لا تعظم لديه تضحياته، ولا تخيفه أى عقبات.

تحدث عنه العماد الكاتب الأصفهانى، فقال:

«.. وكان لا يلبس إلا ما يحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها فى إسداء المعروف.

وكانت محاضره مصونه من الخطر، وخلواته مقدسة بالطهر، ومجالسه منزهة من الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل، وما سمعت له قط كلمة تسقط، ولا لفظة فظة تسخط.

يغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين. ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد. وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء، ومشاركة القضاة فى القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المرضية، والأدلة المرعية..».

لقد كان يقضى الأشهر والسنوات فى ساحة القتال وهو صابر على مفارقة أولاده الصغار، راض ببعدهم عنه، وكان صابرا على مر العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك، احتسابا لله تعالى.

وكان ابن شداد يتعجب من قيادته للجيوش وهو مريض، وقيامه بتنظيم الصفوف والقتال مع الجنود وهو يعانى الآلام، فيرد عليه صلاح الدين: إذا ركبت يزول عنى الألم!

إن شخصية تتحمل الألم وتصبر على خشونة العيش، هى من كرم الأخلاق بمكان كريم، وكثيرا ما كان يتقبل الإساءة فى صبر وحلم، ويعفو عن المسىء دون أن يسىء به الظن، وكان يحدث أحيانا أن بعض المستغيثين والمتظلمين يغلظون له فى القول، فيتقبل قولهم «بالبشر والقبول»، وكان الناس يتزاحمون عليه لعرض شكاواهم، وربما داسوا على أطراف ثيابه أو المرتبة التى يجلس عليها بأقدامهم، وهو لا يتأثر لذلك ولا ينفعل ولا يتضايق، بل يستمر فى النظر فى الشكاوى ويمضى فى قضاء الحاجات فى أناة وحلم.

يروى ابن شداد قصة كان شاهد عيان فيها، يستشهد بها على حلم صلاح الدين وعفوه، فيذكر أنه حدث فى أثناء الصراع بين ريتشارد وصلاح الدين حول يافا أواخر سنة ١١٩١م، أن عصى بعض العساكر صلاح الدين، ورفضوا تنفيذ أوامره، وأجابوه بكلام فيه خشونة، فتركهم صلاح الدين (كالمغضب)، حتى خيل لمن رآه أنه ربما قتل جماعة من العساكر فى ذلك اليوم لما أتوه من أعمال وأقوال. ولم يزل صلاح الدين سائرا حتى وصل إلى يازور وحوله الأمراء يرعدون خيفه، وكل منهم يعتقد أنه مسخوط عليه. حتى ابن شداد نفسه. مع عظم مكانته عند صلاح الدين يقول: «لم تحدثنى نفسى بالدخول عليه خيفة منى حتى استدعانى». فلما دخل ابن شداد على صلاح الدين طلب منه أن يجمع الأمراء ليشاركوه فى أكل فاكهة وصلته من دمشق. فحضر الأمراء وهم خائفون. فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور، وانصرفوا على عزم الرحيل للقتال، كأن لم يجر شىء أصلا.



الصفات الشخصية لصلاح الدين، لا تنفصل عن أخلاقه فى الإدارة والسياسة والحكم والقيادة، وإذا كانت عبارة «العدل أساس الملك» جامعة مانعة فى بيان ضرورة العدل، لقيام الحضارة العظيمة أو بناء الدولة المحترمة، فإن صلاح الدين أقام بناء سلطنته فى مصر والشام وشمال العراق وغيرها على «العدل» فى أعم صوره وأخصها.

أراد الملك الظاهر غازى. ابن صلاح الدين. أن يستأذن أباه قبل رحيله إلى إمارته فى حلب وشمال الشام، فاختلى به صلاح الدين فى حضرة ابن شداد، وزوده ببعض النصائح والمبادئ التى ينبغى أن يسير عليها فى حكمه، وهى فى حد ذاتها تعبر تعبيرا صادقا أمينا عن أسلوب صلاح الدين نفسه فى الحكم، وأفكاره عن طرق معاملة الرعية، ومبادئه فى رعاية شئون البلاد والعباد. قال صلاح الدين لابنه:

«أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم، فأنت أمينى وأمين الله عليهم. وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس. ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد. وحذار ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم».

أليست هذه الوصية تمثل ما يسمى بلغة عصرنا «العقد الاجتماعى» بين الحكومة والشعب، وفيها حفظ كرامة الناس ودمائهم والمصالحة الاجتماعية والشفافية والشورى ووحدة الشعب والقيادة على أسس التقوى والصحة الذى يؤسس لحكومة رشيدة فاضلة، استحقت أن تذهب «بالمدافعة» إلى «المداولة»، وأن تقيم نموذجا أقرب إلى الخلافة الراشدة؟ إن الدولة الظالمة المفككة الوالغة فى دماء أبنائها وكرامتهم وحريتهم، لا تستطيع أن تتأهل «للمدافعة»، فضلا عن أن تصل إلى «المداولة»..

يتحدث ابن شداد عن عدل صلاح الدين، فيقدم لذلك بالحديث عما رواه أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ. قال:

«الولى العادل ظل الله فى أرضه، فمن نصحه فى نفسه أو فى عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ومن خانه فى نفسه، أو فى عباد الله خذله الله يوم القيامة، يرفع للوالى العادل فى كل يوم عمل ستين صديقا كلهم عابد مجتهد لنفسه».

وكان يرحمه الله. عادلا. رءوفا. رحيما. ناصرا للضعيف على القوى.

وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد، من كبير وصغير، عجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا.

على أنه كان فى جميع أزمانه. كما يقول ابن شداد. قابلا لجميع ما يعرض عليه، كاشفا لما ينتهى إليه من المظالم. وما استغاث به أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته. ولم تقف العدالة أمام وزير أو كبير، حتى صلاح الدين نفسه، وقف أمام القاضى فى ادعاء كاذب من أحد التجار ليثبت براءته، دون أن يثير ذلك حقده أو حنقه على المدعى ويروى ابن شداد فى ذلك حكاية طويلة ملخصها أن تاجرا يدعى «عمر الخلاطى» زعم أن السلطان «صلاح الدين» أخذ منه مملوكا يدعى «سنقر» واستولى على ثروة هذا المملوك بدون وجه حق، وأظهر صلاح الدين حلما كبيرا ورضى أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى أمام القاضى، وأحضر كل طرف ما لديه من الشهود والأدلة التى تثبت رأيه. واتضح فى النهاية كذب الرجل وبطلان ادعائه على صلاح الدين. وعندئذ رفض صلاح الدين أن يترك المدعى يخرج من عنده خائبا فأمر له بخلعة ومبلغ كبير من المال!..

لقد أنشأ صلاح الدين ما يعرف فى عصرنا بالمؤسسات

كتاب الزاوية

الأذكياء

ذكاء لص

عن المبرد قال: حدثنى أحمد بن المعدل البصرى قال: كنت جالسًا عند عبد الملك بن عبد العزيز، فجاءه بعض جلسائه، فقال: أعجوبة، قال: ما هى؟ قال خرجت إلى حائطى (بستانى) بالغابة، فلما أن أصحرتُ وبعدت عن بيوت المدينة، تعرض لى رجل، فقال: اخلع ثيابك.فقلت: وما يدعونى إلى خلع ثيابى؟ قال: أنا أولى بها منك. قلت: ومن أين؟ قال: لأنى أخوك وأنا عريان وأنت مكس. قلت: فالمواساة؟ قال: كلا قد لبستها برهة، وأنا أريد أن ألبسها كما لبستها. قلت: فتعرينى وتبدى عورتى. قال: لا بأس بذلك قد روينا عن مالك أنه قال لا بأس للرجل أن يغتسل عريانًا. قلت: فيلقانى الناس فيرون عورتى؟ قال: لو كان الناس يرونك فى هذه الطريق ما عرضت لك فيها، فقلت: أراك ظريفًا، فدعنى حتى أمضى إلى حائطى وأنزع هذه الثياب، فأوجه بها إليك. قال: كلا أردت أن توجه إلى أربعة من عبيدك، فيحملونى إلى السلطان، فيحبسنى قلت: كلا. أحلف لك أيمانًا أنى أوفى لك بما وعدتك، ولا أسوءك. قال: كلا. إنا روينا عن مالك أنه قال: لا تلتزم الأيمان التى يحلف بها اللصوص. قلت: فأحلف أنى لا أحتال فى أيمانى هذه. قال: هذه يمين مركبة على اللصوص. قلت: فوالله لأوجهن إليك هذه الثياب طيبة بها نفسى، فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: تدرى فيم فكرت؟ قلت: لا: تصفحت أمر اللصوص فى عهد رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا، فلم أجد لصًا أخذ تسئمة، وأكره أن أبتدع فى الإسلام بدعة يكون علىَّ وزرها ووزر من عمل بها بعدى إلى يوم القيامة: اخلع ثيابك. قال: فخلعتها ودفعتها إليه، فأخذها وانصرف.

«العدل أساس الملك»



العامة تعليمية واجتماعية وصحية لتيسير حياة الناس وتسهيل أمورهم وحل مشكلاتهم ومعالجة مرضاهم فقد أنشأ العديد من المحاضر أو الكتاتيب وخصص لها المعلمين لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء، وخصص لهم جميعًا الجراية الكافية، كما أنشأ العديد من المدارس، وخصص لها المدرسين والأوقاف والأرزاق للإنفاق عليها وعلى طلبة العلم فيها.

وأسبغ صلاح الدين فضله ورعايته على الفقراء وأصحاب الحاجات عمومًا مثل الحجاج المغاربة والجالية المغربية التى وفدت على مصر، وفضلت البقاء بها بعد زوال دولة الفاطميين، ونبه على الموظفين المختصين أن ينفقوا عليهم من مال الدولة والأوقاف، وإن عجز عن الوفاء فليأخذوا من صلب ماله. ويروى بعض المغاربة لابن جبير أن السلطان صلاح الدين ترك لهم حرية واسعة بحيث لم يسمح لأحد بالتدخل فى خواص أمورهم وجعل أحكامهم لهم ولم يجعل يدًا لأحد عليهم.

لا ريب إذًا، أن «صلاح الدين الأيوبى» أقام ما يسمى فى عصرنا «بالمجتمع المدنى» على أحدث صورة ممكنة فى زمانه، فكسب تعاطف الناس ومحبتهم، واستطاع أن يبسط العدل وينشر الأمن، وجعل المواطن يستطيع أن يتحرك فى أرجاء البلاد آمنًا مطمئنًا، فقد كان. كما يصفه العماد الكاتب الأصبهانى:

«مشغوفًا فى سبيل الله بالإنفاق، موقوفًا عزمه فى الأعداء بإدناء الآجال، وفى أولياء الله بإجراء الأرزاق، وما عقد فى سبيل الله فرس أو جرح، إلا وعوض مالكه بمثله، وزاده من فضاء».

يقول عبداللطيف حمزة: «كان صلاح الدين نابغة فى الحروب، وكان فى الوقت نفسه قديسًا لا نظير له فى الغيرة على الدين. وكان ملكًا عادلاً ينصف الناس من نفسه، ويسوى فى القضاء بينه وبين أضعف رعيته.

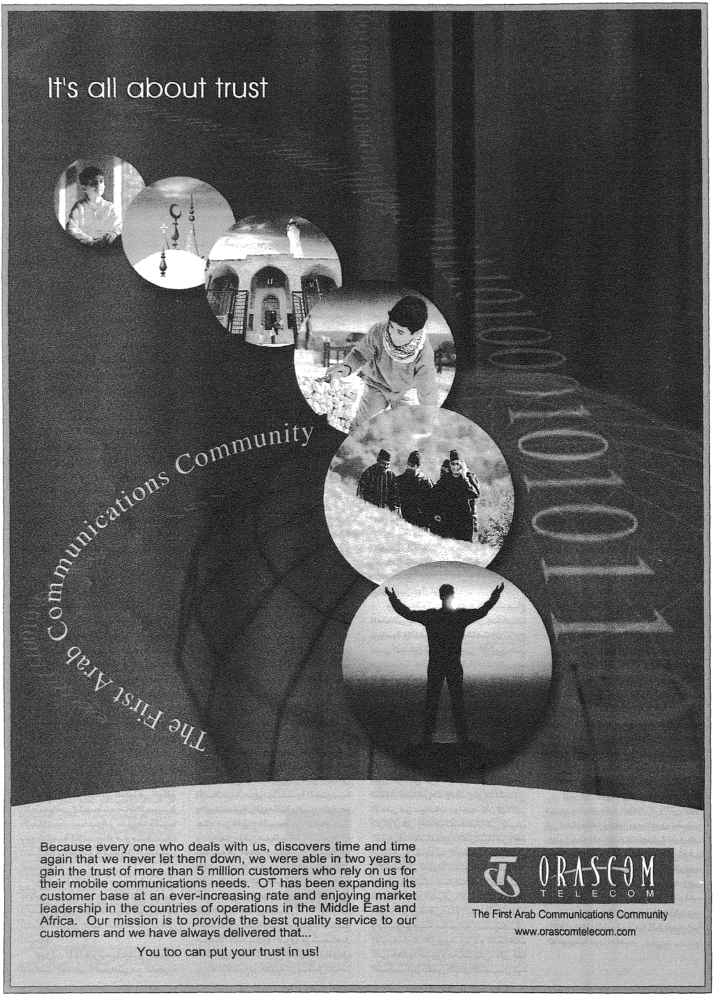
بل كان صلاح الدين رجلاً يحارب أعداءه بأسلحة منها الخُلق والضمير. وهو سلاح غريب وطراز عجيب، ليت أن العالم كله قد تعلمه، أو ليت أن المدنية الحديثة أخذته عنه».

يذكر ابن شداد عند الحديث عن شجاعة صلاح الدين وحبه للجهاد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حيَّة».

ثم يقول ابن شداد: ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان، قوى النفس، شديد البأس،عظيم الثبات، ولا يهوله أمر، ولقد رأيته. رحمه الله. مرابطًا فى مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونُجُدُهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبًا على عكا وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس.

لم يفعل مثل غيره من قادة زمانه وقبل زمانه، حين يقنع الواحد منهم بالجلوس فى عاصمته، ويقذف بالجيوش فى ساحة الحرب ليُقتل من رجاله من يُقتل ويُجرح منهم من يُجرح، فإذا أصابوا نصرًا فالشرف والفخر له، وإن حلت الهزيمة فالتبعة عليهم وحدهم لأنهم لم يثبتوا ولم يصمدوا للعدوّ!.. ولكن صلاح الدين، كان يتقدم جنده، ويسبقهم إلى ساحة القتال، ويقوم باستطلاع مواقع العدوّ، ويفكر مع أمرائه وجنوده فى كيفية تحقيق النصر بأفضل الوسائل والسبل.

لقد استطاع «صلاح الدين» أن يدخل بجدارة إلى مجال «المدافعة»، بوساطة شخصيته البسيطة المتواضعة الزاهدة، وحبه للجهاد والشهادة، وعبقريته فى الإعداد والتخطيط، واختيار الرجال الصالحين لمساندته ومساعدته، و«بالمدافعة» حقق «المداولة» باستعادة القدس الشريف وطرد الصليبيين.. فهل يعيد التاريخ نفسه؟ سؤال، إجابته لم تتضح بعد.■


It's all about trust
The First Arab Communications Community
Because every one who deals with us, discovers time and time again that we never let them down, we were able in two years to gain the trust of more than 5 million customers who rely on us for their mobile communications needs. OT has been expanding its customer base at an ever-increasing rate and enjoying market leadership in the countries of operations in the Middle East and Africa. Our mission is to provide the best quality service to our customers and we have always delivered that...
You too can put your trust in us!
ORASCOM TELECOM
The First Arab Communications Community
www.orascomtelecom.com

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الإسلام ورهانات الديمقراطية

محمد محفوظ

الدار البيضاء: بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٣، ٢٠٨ صفحات



لوقت طويل، مثّلت المفاضلة بين التنمية والديمقراطية عائقًا أمام تحقيق الأخيرة، فيما بقيت الأولى حلمًا بعيد المنال، وظلت السلطة المستبدة تلوح بهذه المقارنة المتوهمة للإبقاء على وجودها وتكريس استبدادها، الذى كان فى الحقيقة معيقًا لطاقات أمتنا وقدراتها، والذى أبعدها عن معركتها الأساسية مع التخلف، وجرّ عليها الهزيمة تلو الأخرى أمام عدوها الصهيونى المغتصب.

المؤلف يرى أن الديمقراطية اليوم صارت مشروعًا قابلاً للتحقق أقرب من أى وقت مضى، فالعوامل والظروف إقليميًا ودوليًا مواتية ومشجعة، ومهمة النخبة والساسة هى العمل على توظيف هذه العوامل والظروف، بما يمكن من توثيق أواصر القاعدة الاجتماعية والسياسية، ويفعل دور النخبة باتجاه توسيع المشاركة العامة، وتقوية مؤسسات المجتمع المدنى، والحد من استبداد السلطة وديكتاتوريتها.

وبرأى المؤلف، فإن تقدمنا لن يتحقق إلا بالجناحين معًا: الإسلام والديمقراطية، فهما ليسا نقيضين بحال، كما يحاول البعض أن يصور، برغم كل الالتباسات والتساؤلات التى تحيط بهذه العلاقة.

ثمة مصالحة ضرورية بين المجتمعات الإسلامية والديمقراطية، وفيها يتم التأكيد على عدد من النقاط منها: ضرورة بعث المضمون الحضارى للإسلام وتجاوز القراءات القشرية والسطحية للدين، واستدعاء القيم والمبادئ العليا فى الواقع الاجتماعى للمجتمعات العربية الإسلامية، بما يوفر ظروفًا ذاتية وموضوعية للانسجام مع متطلبات المشاركة والحرية والتداول السلمى للسلطة.

والكرامة الإنسانية هى بوابة الحرية، فالأمة التى تمتهن كرامة أبنائها ترتهن إرادتها، ويصير هذا الامتهان هو البوابة الكبرى لدخول الأمة جمعاء فى براثن التبعية.

ويؤكد المؤلف أيضًا على أهمية التواصل الثقافى والسياسى مع التجربة الإنسانية الحديثة، حتى يتسنى لنا استيعاب هذه التجربة وهضم دروسها والانفتاح على عوامل تطورها.

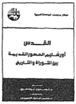
من ناحية ثالثة، فإن المصالحة مع الديمقراطية فى البيئة العربية والإسلامية، بحاجة إلى إرادة مستديمة، تساهم فى تفعيل الإمكانات الأهلية والمدنية لتعميق الخيار الديمقراطى.

■

القدس.. أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ

تحرير: توماس تومبسون. سلمى الخضراء الجيوسى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٣٨١ صفحة



لا يقدم كتاب العهد القديم تاريخًا يمكن الوثوق به لمدينة القدس أو «أورشليم»، فالمرويات التوراتية لا تقدم تاريخًا بقدر ما تقدم أدبًا دينيًا، فالقصة التوراتية عن أورشليم وثيقة الصلة بمجال اللاهوت أكثر من صلتها بمجال التاريخ.

والدراسات التى يضمها هذا الكتاب لمجموعة من الباحثين والمؤرخين الغربيين أساسًا، تثبت صحة هذا الافتراض، وتشير بوجه خاص إلى ما قاله المفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد عن التغيرات التى فرضت على أورشليم وحولتها من مدينة متعددة الثقافات والديانات إلى مدينة يهودية تديرها سلطة إسرائيلية، ويخلص المؤلفون إلى أن تاريخ المدينة الغنى والمركب، الممتد عبر القرون من عصر البرونز إلى الفترة الإسلامية مرورًا بالفترة الفارسية والهيلينستية والرومانية والبيزنطية، هو جزء من تاريخ فلسطين المتجانس والمتواصل، لكن معظم هذا التاريخ تم تهميشه فى الخطاب السياسى الإسرائيلى الذى يدعى الاستمرارية من عصر داود إلى الآن، والجهات التى تكرر فكرة الاستمرارية هذه منذ وثيقة إعلان استقلال إسرائيل إلى احتفالات أورشليم (٢٠٠٠) ومواقع الإنترنت الرسمية وغير الرسمية، لا تفسح مجالاً لأية ذاكرة أخرى، وتتجاهل الحقائق الحية لتاريخ المدينة الطويل، وينبه الكتاب إلى أهمية أن يستمر البحث التاريخى فى مساءلة الطريقة التى جرى بواسطتها بناء تاريخ المدينة، وتقديمه وتوظيفه فى الدعاوى السياسية الإسرائيلية.

■

دولة محمد على والغرب الاستحواذ والاستقلال

حسن الضيقة

الدار البيضاء: بيروت، المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٣، ٢٨٧ صفحة



انطوت الفترة الممتدة بين الغزو الفرنسى لمصر وسقوط تجربة محمد على، على محطة تاريخية مهمة شملت تطورات عدة غطت جوانب الصراع بين الدولة العثمانية وسياسات الدول الأوروبية، وبحسب المؤلف، فإن دورة الاجتماع العثمانى وفرت آليات للمواجهة ذات قدرات متطورة، عطلت السياسات الاستعمارية وتغلبت على واقع الاحتلال بينها وبين دول أوروبا.

ويرى المؤلف أن دورة الاجتماع العثمانى بما انطوت عليه من إمكانيات سياسية واقتصادية. استطاعت أن تزاوج بين آليتين تاريخيتين: الأولى هى ما انطوت عليه من مقاومات وثورات المجتمع الأهلى من سياسات مواجهة كان لها أثر مركزى فى إحداث تصدعات فى بنيان السياسات الاستعمارية وتغلبت على واقع الاحتلال بينها وبين دولة أوروبا.

ويرى المؤلف أن دورة الاجتماع العثمانى بما انطوت عليه من إمكانيات سياسية واقتصادية. استطاعت أن تزاوج بين آليتين تاريخيتين: الأول هى ما انطوت عليه من مقاومات وثورات المجتمع الأهلى من سياسات مواجهة كان لها أثر مركزى فى إحداث تصدعات فى بنيان السياسات الاستعمارية الفرنسية، فى كافة النواحى، لتجديد البنيان السياسى والاقتصادى للدولة العثمانية، وفى كلا المستويين أثبتت مسارات المواجهة فساد مقولة الركود الشرقى، التى مثلت دومًا «حجر الزاوية» فى بناء أنظمة معرفية وأيديولوجية مسوغة السياسات الاستعمارية الأوروبية. وبرغم النجاحات التى حققها مشروع محمد على على هذا الصعيد، فإن مكمن الخلل التأسيسى فيه كان، كما يؤكد المؤلف، هو مرجعيته التشريعية والسياسية التى حكمت العلاقة الناشئة بالمدار المجتمعى العام، إذ ارتبطت هذه المرجعية بوضعية السلطة العثمانية فى قسمين رئيسيين، وعبر المتضادين: الاستحواذ والاستقلال، يدرس المؤلف العلاقة بين دولة محمد على والغرب.

■

فى الخطاب والمصطلح الصهيونى

عبد الوهاب المسيرى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٢٨٢ صفحة



لا تعبر قضية المصطلح إذا كان الأمر يتعلق بالخطاب الصهيونى بالذات عن دلالات بعينها، فغالبًا ما يكون المصطلح والمفهوم الكامن وراءه معبران عن شيئين مختلفين، وربما متناقضين، فحديث الصهاينة عن «الحوار» و«التعايش» و«عملية السلام» و«الستة ملايين» و«حق العودة» و«الهولوكوست» وغيرها، ليس هو بالضبط ما يمكن فهمه من اللفظ، كما أن آلتهم الدعائية الضخمة تعمل دومًا على إنتاج واستحداث مصطلحات جديدة كى تواكب أغراضهم وطموحاتهم الاستعمارية التى لا تتوقف، وهناك مصطلحات يتم اجتزاؤها من سياقها كى تعبر عن معابد بذاتها تخدم الفكرة الصهيونية ولا شىء سواها، وهناك مصطلحات مبهمة قابلة دومًا لإعادة التفسير والتأويل، وهناك مصطلحات تعبر فى حقيقتها عن أمنيات، وأخرى تعبر عن القراءة الصهيونية للتاريخ وهكذا.

لهذا فإن المؤلف، وهو صاحب موسوعة اليهود والصهيونية الضخمة، والتى أنفق فى إعدادها ما يجاوز ربع القرن، يخضع جميع هذه المصطلحات لعملية تفكيك، ويعيدها إلى مادتها الأولى، باحثًا فى جذورها الأصلية فى التاريخ «الحقيقى» والحضارة الإنسانية على شمولها، وهى عملية. كما يرى. غير قابلة للتوقف، استنادًا إلى ماكينة إنتاج الأكاذيب والافتراءات التى تبثها آلة الدعاية الصهيونية دون توقف.

■

الجنس الحائر
أزمة الذات فى الرواية العربية

عبدالله أبوهيف

بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣، ٣٦٧ صفحة



كانت الرواية العربية، التى بدأت فى التكون فى أواخر القرن التاسع عشر، هى الفن الحديث الأكثر تعبيراً عن تحديات الحداثة فى المجتمع العربى، وقد عكست بشكل واضح، أزمة الهوية وصراع الذات العربية فى مواجهة الآخر، فى خضم صراع حضارى ممتد منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم. ويصح القول، بحسب المؤلف، أن تاريخ تكون الرواية العربية يكاد ينطبق على تاريخ البحث عن الهوية.

وإزاء هذه الحقيقة التى سعى المؤلف إلى إثباتها، يدرس عدداً من الأعمال لروائيين عرب منهم إبراهيم بشير (السودان)، إبراهيم نصرالله (فلسطين)، أحمد إبراهيم الفقيه (ليبيا)، إدمون شحادة (فلسطين)، أديب نحوى (سوريا)، إسماعيل فهد إسماعيل (العراق)، إلياس خورى (لبنان)، حنا مينا (سوريا)، صنع الله إبراهيم (مصر)، حنان الشيخ (فلسطين)، حيدر حيدر(سوريا)، الطاهر وطار (الجزائر)، صلاح الدين بوجاه (تونس)، فؤاد التكرلى (العراق) وآخرون غيرهم.

وانتهى المؤلف إلى أن الرواية صارت ديوان العرب وسجل حياتهم، وهى عبرت عبر تطورها خصوصاً فى العقود الثلاثة الأخيرة، عن تبدلات الخطاب القومى والأيديولوجى، وأن كثيراً من الروايات تحولت إلى شكل من أشكال البث، كما هوالحال فى بعض أعمال نبيل سليمان وصنع الله إبراهيم وسالم حميش وهاله البدرى، وأن الرواية ابتكرت أساليب عدة للسرد العربى فى إطار تنامى الوعى الذاتى وخلق جماليات عربية للرواية.

يشير المؤلف أيضاً إلى أن البطولة فى الروايات الحديثة لم تعد مقصورة على المثقفين دون فئات الشعب الأخرى، بل صار البطل فلاحاً كما فى رواية لنبيل سليمان أو عاملة كما فى رواية لصنع الله إبراهيم، وبعض الروائيين قدم نموذجاً لانتفاء البطولة أو رواية اللابطل كما لدى فؤاد التكرلى.

ويلاحظ المؤلف أيضاً بروز موضوع النسوية وتحقق الذات النسوية خصوصاً فى روايات حميدة نعنع وحنان الشيخ وسحر خليفة.

■

أمام المرآة

عبدالرحمن يوسف

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٤، ١٢١ صفحة



ديوان من الشعر العمودى فى زمن ساد فيه الشعر الحر وقصيدة النثر، وهو لا يحاكى الأقدمين من أساطين الشعر الموزون المقفى، وإنما يحفظ لمسيرته مجرى خاصاً، يؤكد فرادته ويعكس تجارب عصره ورؤاه المميزة، من أجواء الديوان، ومن قصيدة بعنوان «باب التاريخ»:

تتعالى فى الظلام الأسئلة
بين حرمان وتيه ووله
تقبل الأفكار نحوى دافقات
وخيالى فى دروب الهرولة
وفنون.. دفعتنى للمعالى
ورمتنى فى بحار المهزلة
عذبتنى بفراق ووصال
فأنا مقتول هجر ووصلة

■

مداخل الانتقال إلى الديمقراطية فى البلدان العربية

تحرير: على خليفة الكوارى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٢٧٧ صفحة



الكتاب هو حصيلة اللقاء الثانى عشر لمشروع دراسات الديمقراطية فى البلدان العربية الذى يتبناه المركز، ويضم حصيلة المناقشات والدراسات والتعقيبات التى جرت فى اللقاء، وفى القسم الثانى عرض للدراسات التى لم يتسن مناقشتها فى اللقاء.

والمشروع برمته ينطلق من فرضية أساسية، مفادها أن الشعوب العربية جميعها تعيش فى حالة من الضيعة بسبب الاستبداد السافر والتسلط لأنظمة الحكم فيها دون استثناء، فالدول العربية قد تختلف نسبياً فيما بينها من حيث حرية القول، لكنها جميعاً، تغيب عنها الممارسة الديمقراطية الحقة، وهو ما أدى إلى تخلف معدلات التنمية وتآكل الإرادة الوطنية وانكشاف الأمن القومى وتبديد الثروات العامة. وهو ما يجعل الحاجة إلى الانتقال للديمقراطية أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى، والكتاب يشارك فيه مجموعة من الباحثين من دول عربية عدة منها: برهان غليون، إسماعيل الشطى، عبدالحسين شعبان ويوسف الشويرى.

■

التنظيم القضائى المصرى

محمد فتحى نجيب

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٣٧٢ صفحة



بدأ النظام القضائى المصرى الحلقة الحديثة من تطوره مع نهاية القرن التاسع عشر، واستطاع خلال أكثر من مائة عام أن يؤدى رسالة العدالة، وأن يقفز من هذا المستوى إلى أداء دوره كقوة توازن قادرة على ضبط إيقاع السلطتين التنفيذية والتشريعية فى إطار ماتتطلبه العملية الديمقراطية.

والمستشار فتحى نجيب الذى كان، رحمه الله، مساعداً لوزير العدل ورئيساً للمحكمة الدستورية العليا، لا يكتفى بتقديم بحث وصفى للمعالم الرئيسية للنظام القضائى المصرى، لكنه يبرز العناصر الجوهرية لهذا النظام ودعائم حركته الأساسية، متبعاً منهجاً وصفياً متجرداً من الأحكام التقديرية، وهو يضيف فى هذه الطبعة الجديدة بعض الأحكام الصادرة عن المحكمة الدستورية العليا والتى كان لها أثرها فى المجتمع المصرى.

■

فيصل بن الحسين
مؤسس الحكم العربى فى سورية والعراق

هادى حسين عليوى

بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣، ٣٤٧ صفحة



عندما قامت الثورة العربية فى يونيو ١٩١٦ قاد فيصل بن الحسين الجيش العربى الذى تمكن من طرد القوات العثمانية من الحجاز والشام وإقامة الحكم العربى فى سورية بدءاً من سبتمبر ١٩١٨.

وقد كان فيصل هو رسول أبيه الشريف حسين إلى قادة الحركة العربية القومية فى الشام خلال عامى ١٩١٥ و١٩١٦، وبعد سقوط الحكم العربى فى سورية أواخر يوليو ١٩٢١، واحتلال القوات الفرنسية دمشق، غادر فيصل سورية متوجهاً إلى أوروبا، ليعرض القضية العربية أمام الدول الأوروبية وفى المحافل الدولية، وحينما فرضت ثورة ١٩٢٠ فى العراق على بريطانيا إعادةالنظر فى حكمها المباشر للعراق، فتح الطريق أمام فيصل ليصبح أول ملك فى العراق فى العصر الحديث عام ١٩٢٣ بعد قيام المملكة العراقية، إلى أن توفى فى سبتمبر ١٩٣٣، وكان عمره آنذاك ٤٨ سنة، وقال وهوعلى فراش الموت: «أنا مرتاح، قمت بواجبى، خدمت الأمة بكل قواى، ليسير الشعب بعدى بقوة واتحاد».

وهذا الكتاب يؤرخ لسيرة فيصل بن الحسين، ويصحح كثيراً من الأخطاء واللغط واللبس الذى تناثر حول هذه السيرة.

■

الإبـــــادة

باروخ كمرلينج

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٣، ٢٤٢ صفحة



مؤلف الكتاب هو عالم اجتماع إسرائيلى، كرّس معظم حياته الوظيفية لدراسة المجتمعين الإسرائيلى والفلسطينى، وقد كتب كثيراً محذراً من مخاطر الحكومة الإسرائيلية على السلام والأمن، ليس على إسرائيل فحسب وإنما على المنطقة كلها، وقد اتُهم من قبَل مناوئيه من اليهود المتعصبين بأنه يهودى كاره لذاته، لكنه يدافع عن مواقفه معلناً أن هدفه الوحيد هو «فتح أعين الخيرين الذين لم يبصروا بعد الأخطار الحقيقية التى تتهدد إسرائيل».

وبرأيه فإن إسرائيل أصبحت فى ظل إرييل شارون أداة تدميرلذاتها ولبيئتها المحيطة بها، لأن سياستها الداخلية والخارجية موجهة لهدف واحد فقط هو الإبادة السياسية للشعب الفلسطينى، وهى العملية التى يمثل هدفها النهائى تحلل وجود الشعب الفلسطينى ككيان اجتماعى وسياسى واقتصادى شرعى، بالإضافة إلى التطهير العرقى على

الأرض المسماة أرض إسرائيل. وبحسب المؤلف فإن هذه السياسة ستعمل على تعفن النسيج الداخلي للمجتمع الإسرائيلي. وتقوض الأساس الأخلاقي للدولة اليهودية في الشرق الأوسط، وستحدث إبادة سياسية مزدوجة للكيان الفلسطيني، وعلى المدى البعيد للكيان اليهودي، وعليه. يضيف المؤلف. فإن الحكومة الراهنة تمثل خطراً محدقاً باستقرار شعوب المنطقة جميعها وبقائها.

■

حكاية الحكايات وبناتها

أماني العشماوي

رسوم: بهجت عثمان

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٨٠ صفحة



تبدأ حكاية الحكايات من التراث الأفريقي، وهي أم الحكايات التي تروي كيف جاءت الحكايات إلى الأرض وانتشرت فيها، وصارت ذاكرة الشعوب ومستودع تراثها، وهذه الحكايات تحفظ قيم الشعوب وتراثها الاجتماعي، ويرى الناس من خلالها أصداء الأحداث المهمة في تاريخهم، وهي تصور روح الشعب ومعتقداته.

كما أن الحكايات وسيلة للتعارف بين الشعوب وتجسيد لآمالها وآلامها، والكتاب يضم بين دفتيه حكاية من إنجلترا «الخبر السار»، ومن ألمانيا «الأصدقاء المغنون»، ومن جاوه «البئر»، ومن اسكندنافيا «سائس الخيول»، ومن الهند «الفلاح والأميرة»، ومن فرنسا «الخيط السحري»، ومن أفريقيا «ثمن الظلال»، ومن روسيا «الزوجة الثرثارة» وغيرها.

■

ماذا أقول لكم؟

رجائي عطية

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ١٩٤ صفحة



فصول متفرقة، كتبها المؤلف في أوقات متتالية، موضوعاتها شتى، يجمع بينها فحسب هموم الوطن وهموم الحياة، وهو في كثير منها. إن لم نقل كلها. يقيس الأفكار والظواهر والسلوكيات على ما جاء بنص صريح في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة، يتحدث مثلاً عن شيوع القبح في حياتنا وعدم الإحساس بالجمال بل والتقاعس عن مقاومة القبح أصلاً، وكذلك حين يناقش التقاليد والأخلاق أو الفروق الواسعة، والتي تزداد اتساعاً، بين الأغنياء والفقراء، أو حتى في السياسة وشجونها، عن العراق وفلسطين وكوارث العالم العربي والإسلامي تحت وطأة العولمة والسيطرة الأمريكية على مقدرات العالم، وتدخلها السافر في شئون البلاد والعباد.

■

المسألة الهمجية

جميل عطية إبراهيم

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٣، ٢٣٨ صفحة



ينتمي المؤلف إلى جيل الستينيات الأدبي، ذاك الذي حفر طريقاً ومذاقاً في الرواية المصرية المعاصرة، وقد تشارك مع رفاقه في تأسيس مجلة «جاليري ٦٨» التي بشرت بروائيين وشعراء ذوي حساسية مغايرة، وقد صدرت له من قبل مجموعات قصصية منها «الحداد يليق بالأصدقاء» و«أحاديث جانبية»، ومن رواياته «أصيلاً» و«البحر ليس بملآن» و«النزول إلى البحر» و«ثلاثية ثورة يوليو ١٩٥٢» و«خزانة الكلام» و«أوراق سكندرية» و«نخلة على الحافة». وقد استفاد في العديد من أعماله، وفي هذه الرواية على وجه الخصوص من عمله مراسلاً صحافياً لعدة صحف وقنوات تليفزيونية وإذاعية من سويسرا حيث يقيم بمدينة بازل منذ عقود.

وتدور هذه الرواية على خلفية اتفاقيات جنيف وتشكيل محاكم الحرب ومباحثات السلام في البوسنة والهرسك ومذابح شارون وحصار العراق من ناحية، وعالم لوحة الدكتورة سلمى مرجان من ناحية ثانية، فيتأرجح القارئ على حافة سؤال عن عبثية الواقع وحقيقة الفن في عالم يتمزق.

في هذه الرواية، ينسج المؤلف لوحة موزاييك متداخلة تترك القارئ على حافة أسئلة عدة عن واقع مجنون يعيش فيه أشخاص يحاولون جادين إضاءة المساحات السوداء في حياتنا.

■

العبودية في أفريقيا

عايدة العزب موسى

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠٤، ٢٣٥ صفحة



في عام ١٩١٨، نشر المستعمرون البريطانيون كتاباً عرف باسم «الكتاب الأزرق»، استهدفوا من وراء نشره فضح ما فعله الاستعمار الألماني بالأفريقيين لإخضاعهم. كما يحلو لأنفسهم الاستحواذ على المستعمرات الألمانية في أفريقيا بعد هزيمة الألمان في الحرب العالمية الأولى. وبعد أن أدى الكتاب هدفه، وتم انتزاع المستعمرات الأفريقية من يد الألمان، اكتشفوا أن الكتاب لا يدين الألمان فقط، وإنما الاستعمار في مجمله فأمروا بإعدامه.

وقد قرأت المؤلفة الكتاب «الممنوع»، وهالها عمليات السلب والنهب التي تعرضت لها القارة السمراء تحت يد المستعمر الذي يدعي الآن أنه أصل الحضارة والتقدم.. «وإذا كان المستعمر أراد ألا نقرأ كتابه، فقد أردت من كتابي أن نقرأ ماضينا وتراثنا».

والكتاب يضم فصولاً أربعة، يتناول الأول منها المستعمرين الأوائل، ويحكي قصة ترويض «العبيد» بما فيها من قسوة وسحق لآدمية البشر، وموضوعات عن الاستعمار البلجيكي، وحكم ليبولد الثاني ملك بلجيكا للكونغو ٢٣ سنة، هو الذي لم تطأ قدمه أبداً أرض الكونغو، وقد أزهقت في فترة حكمه أرواح عشرة ملايين أفريقي، ثم البرتغال التي كانت أول من مارس تجارة الرقيق، وكذلك الهولنديين والإنجليز وغيرهم.

ويخصص الفصل الثاني لقضية تعويض القارة الأفريقية عما لحقها من أضرار وما أصابها من تخلف وتدهور بسبب عمليات النهب والابتزاز التي شهدتها طوال عقود الاستعمار، فضلاً عن التعويض عن الآثار النفسية والإنسانية الهائلة لملايين الأفارقة الذين كُبلوا بالأغلال وسيقوا إلى مزارع ومصانع أوروبا.

وتقدم في الفصل ذاته الأساس القانوني للمطالبة بالتعويض وفقاً لما طرحه المحامي الشهير لورد أنتوني جيفورد عام ١٩٩٣.. أما الفصل الثالث، فخصصته لشخصيات كبيرة وزعامات عظيمة لعبت أدواراً مهمة في مسيرة القارة السمراء وفي النضال ضد المستعمر.

ويضم الفصل الأخير مجموعة من الوثائق والوقائع عن ممالك ومنظمات وحضارات ظهرت في أفريقيا ولم تحظ باهتمام الدارسين من قبل.

■

المحافظون الجدد قراءة في خرائط الفكر والحركة

أميمة عبد اللطيف

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ٨٧ صفحة



يرى مراقبون أن أفكار حركة المحافظين الجدد لا تعبر فقط عن الحزب الجمهوري، وإنما تعكس التيار العام السائد في أمريكا، ويؤكد هؤلاء أنه بصرف النظر عمن سيكون الجالس في البيت الأبيض بعد انتخابات نوفمبر ٢٠٠٤، ديمقراطياً كان أو جمهورياً، فإن تأثير هذه المجموعة سيظل قائماً.

ويهدف الكتاب إلى إلقاء الضوء على أهم الشخصيات التي تمسك بخيوط حركة المحافظين الجدد ومصادر تمويلهم، وطرائق ممارسة النفوذ الإعلامي والسياسي وآليات عمل مؤسساتهم. وهو يقدم أفكار هذه المجموعة وآراءها دون بحث أو تحليل، بوصفها وثائق موضوعية تؤكد توجهات هذه المجموعة، التي تعود جذورها إلى تقليد اتبعه الرئيس الأمريكي الأسبق جون كيندي أثناء سنوات حكمه، حين عين مجموعة من الأساتذة الجامعيين المنتمين ليسار الوسط في مناصب الإدارة واستعان بهم في رسم السياسات، وتم الاستفادة منهم بعد ثلاثة عقود في إدارة ريجان، وهكذا يستفيد بوش الابن من تيار تمت صياغته وصناعته في عقود سابقة.

■

حصاد السنين

عبد الكريم درويش

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٣، ٣١٤ صفحة



شغل المؤلف مواقع قيادية مهمة في جهاز الأمن المصري على مدى سنوات طوال، فقد كان رئيساً للمجلس الأعلى للشرطة ونائباً لوزير الداخلية ومديراً

لكلية الشرطة ورئيسًا لأكاديمية الشرطة ورئيسًا للجنة الأولمبية المصرية، وغيرها العديد من المناصب. وهو فى هذا الحصاد يجمع بين الشخصى والعام، وهما متلازمان بالضرورة طوال مسيرة بدأها ملازمًا فى جهاز الشرطة الذى وصل إلى أعلى مناصبه القيادية. ويحدثنا المؤلف عن بدايات تقدمه للالتحاق بكلية البوليس الملكية، ثم عمله فى عدة مواقع بمصر ودراساته فى أمريكا وفى أسكوتلنديارد. واقترابه من عالم السياسة بحكم المهنة. مركزًا على حوارات مهمة، منها حصار الإنجليز لمبنى قسم الشرطة بالإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢، والموقف المشرف لضباط الشرطة والأفراد فى تلك الأزمة، وهو اليوم الذى صار عيدا للشرطة بعد ذلك، ثم تحديد إقامة فؤاد باشا سراج الدين وزير الداخلية الأسبق فى بداية مارس ١٩٥٢، ومصاحبته للرئيس عبد الناصر من المنشية إلى مؤتمر عدم الانحياز فى باندونج ١٩٥٥، وغيرها من الأحداث التى كان فى بعضها شاهد عيان، وبعضها الآخر مشاركا أو صاحب مبادرة.

■

دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر

مهداة إلى المؤرخ يونان لبيب رزق

تحرير: لطيفة محمد سالم

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ٦٥٤ صفحة



هذا الكتاب طريقة مبتكرة ومفيدة للاحتفاء بالأشخاص الذين يمثلون قيمة ما، والذين أضافوا لميادين اهتمامهم وحقول عملهم. والكتاب الذى شارك فيه عدد كبير من المؤرخين من زملاء وتلاميذ المؤرخ يونان لبيب رزق، عُد بمثابة باقة ورد قدمها له المشاركون فى مناسبة بلوغه عامه السبعين، وهى دراسات لا تقتصر على مصر فحسب وإنما تشمل دراسات عن دول غربية وأوروبية. وهو مقسم إلى ثلاثة محاور أساسية: الأول فى تاريخ مصر، والثانى فى الفكر، والثالث فى تاريخ العرب.

من عناوين الدراسات: الصحافة المصرية والاتجاه العربى، المثقفون وأزمة مارس ١٩٥٤، تطور الحياة الفنية فى الإسكندرية، الأرمن وصناعة السجاد، الأحزاب المصرية وحركة التنوير، كوردستان العراق، والأصول التاريخية للحركة الصهيونية.

■

الغنوصية فى الإسلام

هانيس هالم

ترجمة: رائد الباشى

كولونيا: ألمانيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٣، ٣٢٠ صفحة



لفظ غنوص من (Gmosis) فى اللغة اليونانية ومعناها المعرفة، وفى المسيحية فإن الغنوص الحق مرادف للعقيدة المسيحية.

والغنوصية تطلق على نزعة فلسفية معينة نشأت بتأثير الديانات اليهودية والبوذية والمجوسية والصينية وتهدف إلى إدراك كافة الأسرار الربانية، ثم انتشرت إلى مناطق متعددة من البحر المتوسط والشرق الأدنى، وهى مرتبطة بدرجة من درجات الغلو فى فهم الدين والمعتقد.

وفى الإسلام، ظهرت الغنوصية كظاهرة شيعية، والمؤلف هنا يتابع ظهور الغنوصية وتجلياتها فى ديار الإسلام ويتناول بعض فرقها بالشرح والتحليل ومنها: الكيسانيون أو الشيعة الأربعية والخرميون والهراطقة حول الإمام محمد الباقر والخطابيون والمخمسة والمفوضة والنصيريون وغيرهم.

■

دليل الموضوعات فى آيات القرآن الكريم

أسامة كامل أبو شقرا

بيروت: المؤلف، ٢٠٠١، ١٢٣٠ صفحة



يمثل هذا الكتاب إضافة مهمة للباحثين فى كتاب الله الكريم، ليس من خلال المفردات فحسب، وإنما عبر موضوعاته، وقد قام المؤلف بتصنيف الآيات فى كل موضوع حسب تسلسل ورودها فى القرآن الكريم كما جُمع، لا حسب نزولها. وصنّف فصول الكتاب ضمن أبواب حسب ترابط موضوعاتها واندراجها تحت عنوان أساسى واحد، فمثلاً إذا أراد الباحث معرفة الآيات التى بحثت أمور الزواج فيجدها فى فصل الأحوال الشخصية ضمن باب «القانون المدنى»، وهكذا، كذلك يخصص المؤلف فصولاً للأنبياء يجمع فى كل فصل منها الآيات التى ذكرت النبى فى سور القرآن الكريم كله.

يقع الكتاب فى عشرة أجزاء يتضمن كل جزء منها عدة أبواب وتحت كل باب عدة فصول.

من عناوين الأجزاء العشرة: أركان الإيمان، الفرائض، المحرمات والنواهى، أخلاقيات المسلم، أسس القوانين، الخلق والمخلوقات، أهل الكتاب، العلوم فى القرآن، بيت الله الحرام، وخير الدعاء ما جاء فى كتاب الله.

■

السودان وأهل السودان

يوسف الشريف

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٤٧٥ صفحة



تضيف الطبعة الجديدة من هذا الكتاب إلى «طبعته الأولى» التى صدرت قبل ٧ سنوات، تحليلا ورؤية لكثير من الأحداث التى جرت فى السودان والتى تتلاحق بطريقة تغرى بالمتابعة.

غير أن المؤلف لا يكتفى بالتعليق على الأحداث السياسية كاتفاق مشاكوس والمبادرة المصرية الليبية واحتمالات الصدام بين مصر والجبهة الإسلامية التى يتزعمها الترابى.

والعلاقة بين حكومة الخرطوم وحركة جون قرنق وغيرها من المسائل الشائكة.

إنما يتناول أيضا جماليات وفنون أهل السودان، فهو يرى السودانيين فى العمق أهل طيبة وفن وأنس ومغنى، فضلا عن قدراتهم غير المحدودة فى التحايل على الحياة وتجاوز مصاعبها بخفة الروح والابتسامة وابتداع فنون من القول والموسيقى وثيقة الصلة بتراث السودان شديد الثراء.

وقد خصص الباب الرابع من كتابه لجماليات وفنون أهل السودان، ويخصص الباب الثانى لعلاقته مع الدكتور حسن الترابى زعيم الجبهة الإسلامية، وهو الرجل القوى الذى كان له تأثير كبير على مجريات الأمور فى السودان فى السنوات الأخيرة، وقد امتد تأثيره هذا إلى خارج حدود السودان، فى الوطن العربى والعالم كله.

فى خمسة أبواب، سعى المؤلف أن يرى السودان من خلال الثقافة والمجتمع والشخصية السودانية، لا من خلال الانقلابات العسكرية التى يتلوها حكم مدنى ثم يتلوه انقلاب عسكرى، وهكذا فى دوامة أثرت كثيرا على مسيرة هذا البلد، الذى يتوق أهله إلى الحرية والديمقراطية والسلام.

ولذلك يجد القارئ للكتاب مقابلات جمعت المؤلف بالقادة والفاعليات السودانية من أمثال البشير والترابى وجون قرنق والميرغنى وغيرهم، لكنه أيضا سيجد لقاءات مع المطرب السودانى الكبير محمد وردى، والساخر على مدنى الشهير بشهفوفة، والمطرب عبدالكريم الكابلى والمطرب عثمان اليمانى، بالإضافة إلى عشرات الحكايات الأخرى التى نصادف فيها شخوصا فى أنشطة الحياة المختلفة.

■

السلام والحب والشفاء

بيرنى سيجل

ترجمة: عزت شعلان

دمشق: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٣٢٧ صفحة



للوهلة الأولى، لا يبدو أن ثمة علاقة بين صحة البدن، ومشاعر الحب والتفاؤل والأمل، أو على الأقل، ليست ثمة علاقة لازمة بين الطرفين. لكن مؤلف هذا الكتاب، وهو أستاذ للجراحة فى جامعة ييل بالولايات المتحدة وكان رئيسا للجمعية الأمريكية للطب الشامل عام ١٩٨٨ يؤكد أن العلاقة وثيقة بين الصحتين النفسية والبدنية.

وتقوم فلسفته فى العلاج على الإيمان بأثر العقل فى الجسم وبث روح الأمل والإرادة لدى مرضاه، كى يمكنهم من تجاوز محنة المرض، ويدعو إلى نشر الحب والإقبال على الحياة دون إهمال العلاج الطبى الحديث، وإلى التكامل بين الجوانب الجسمية والنفسية والروحية فى علاج المرض.

وإلى جانب شرحه المبسط الوافى لأفكاره، يقدم نماذج تطبيقية لهذه الأفكار، من خلال مرضى شفى بعضهم من أمراض جزم الأطباء باستحالة الشفاء منها، كالسرطان مثلا.

وقد فعلوا ذلك بقوة الإرادة وبالقدرة على مقاومة المرض والرغبة فى الحياة، إنها «فسيولوجيا التفاؤل» كما يسميها، تلك التى تحول بينه وبين المرض.

■

فى رحاب «خـالـد محمـد خـالـد»

■ الدين عند خالد محمد خالد رحب وواسع وبهيج. يحل فيه الحب محل الخوف، والاقتناع بدلاً من القسر. يفعل هذا من خلال عباراته الأدبية وإحساسه الفنان.

قبل ذلك بكثير كنت قد التقيت بالأستاذ خالد لقاءً خاصاً جداً بين دفتى كتبه. كنت فى الرابعة عشرة عندما عشت وتدثرت بكتاباته الساطعة. تعلمت منها أن أعيش فى «ضمير المعرفة» كما يصفها. معظم ما تبقى من كراساتى القديمة كانت بها عبارات «خالد» المأثورة التى استقاها من مناهله الثابتة وأنهاره الغزيرة. لم أكن وحدى فى هذا كله.. كان معى جيل بأكمله بل أجيال تحفظ كلماته «من هنا نبدأ»، «هذا أو الطوفان»، و«الديمقراطية أبداً».. وغيرها. كان أمراً جللاً بقدر ما هو مضىء للنفس أن تقرأ لخالد ضد الكهانة ومع الدين الحقيقى كتاباته ستظل عالقة بنفوس قرائه تجدد فيها معنى الدين الخالد، مع حرية الإنسان التى تنبع من العبودية لله وحده، كان ثائراً ضد التقاليد الاجتماعية البالية وكان قريباً من الشاب فى حيرته، ومن الفتاة فى آمالها المكبوتة.. وقبل هذا كان مع الشعوب فى بحثها عن الاستقلال ومع العدالة الاجتماعية ومع الكرامة الإنسانية.. كان كله ضد الظلم والقهر.. وكان يفعل هذا بروحه لا بقلمه، آه كم كان صديقًا!

كان خالد محمد خالد هو صديقى الحقيقى الذى أخذ بيدى وأجاب على أسئلتى وكانت أى أزمة تسيطر علىَّ سرعان ما أجد لها مخرجاً من كلماته.

بعد كتاباته الأولى المؤثرة مضت السنوات الطوال ولم أعرف أين اختفى الأستاذ خالد؟

احتجب عن القراء بعد وقفته الشامخة فى اللجنة التحضيرية أمام جمال عبد الناصر. وقفة أنقذت شرف الفكر المصرى كله.. وقف مساندًا الديمقراطية شاجباً فكرة العزل السياسى مواجهاً ناصر وهو فى أوج سلطانه بكلمة «لا»، لم يعتد الرئيس أن يسمعها. بعدها احتجب الأستاذ.

فجأة شاهدت كتاباً له بعنوان «إنسانيات محمد» التقطت الكتاب وأنا شبه مندهشة لتحول نوع الكتابة. كتبت فى جريدة الأحرار أتساءل: هل كاتب من هنا نبدأ يريد أن يبحث له عن مرفأ بعيداً عن الأعاصير بهذه الكتابة المأمونة عن الدين والأنبياء؟.. لكنى وجدته كما تركته.. ها هو أستاذى وصديقى بروحه وعقله وثوريته وحبه كل ما بدا فى الظاهر مختلفاً هو الموضوع.



كان العالم الذى يعيشه خالد يتسم بالبلورية.. أحسستها من خلال تلك الجلسات الرائعة التى قل أن يجود الزمان بمثلها. مع ذلك فقد بدت عليه آثار الإجهاد من الرحلة الفكرية والنفسية الطويلة، ومن خلال محطات التوقف التى كان يلجأ لها مرة ليرفض وأخرى ليحمى نفسه أو يستريح.

أثرت الديكتاتورية الباطشة لثورة مصر العسكرية على مسار هذا المفكر الكبير وتوقف لسنوات طوال خاصة فى الفترة التى تلت موقفه فى مجابهة عبد الناصر.

قال لى ابنه أسامة خالد: «لقد عانى أبى مدة طويلة من الاكتئاب. توقف عن الكتابة ما يقرب من عشر سنوات.. بدأ الاكتئاب يزحف إليه فى أعقاب موقفه من عبد الناصر.. كان يتصور أنه بإمكانه أن يؤثر على عبد الناصر ويقنعه بالديمقراطية كما أقنعه فى مجالات أخرى وأثر عليه بشأن تحرير الفلاح والمساواة الاجتماعية التى طالب بها فى «مواطنون لا رعايا»... إلخ.

ذهب أبى ليقول كلمته لكنه لم يجد أحداً من أصدقائه بجانبه بل لقد أصيب بعضهم بالغيرة منه فصاروا يهاجمونه ويسفهونه.. هذا الموقف منه جعله يحس بالصدمة والوحدة.. لو أن عبد الناصر كان أودعه السجن لربما كان هذا أرحم من سجن العزلة بين الناس.. هذا نوع من التدمير النفسى الداخلى دون مواجهة».

عمد الأستاذ فى كتاباته الدينية إلى التركيز فى التعبير عن (قلبه الإسلامى) وقلب «خالد» ليس ككل قلب فما من أحد مثله يستطيع أن يحبب القارئ فيمن أحب. كان من الطبيعى أن تروج على أوسع نطاق كتبه الإسلامية الرائعة (إنسانيات محمد) و(خلفاء الرسول) و(رجال حول الرسول). وجدت هذه الكتب انتشاراً كبيراً على مستوى العالم العربى وخاصة فى المملكة العربية السعودية.

يقول أسامة خالد إن علاقة مفكرنا بالأسرة المالكة السعودية كانت حميمة يحيطها التبجيل والقرب، وقد لاحظت هذا بنفسى فى زيارات للأستاذ حيث كانت أسئلة الأمير طلال أو غيره عن الأستاذ فى حالات المرض ورعايته من كل النواحى فى هذا الشأن.

بالرغم من أن روح «خالد» الثائرة كانت تحلق بهذه الكتابات إلا أنها تختلف عن دوره الأول كرائد من رواد التنوير فى الفترة الأولى الشهيرة.. أيام من هنا نبدأ.

قام الأستاذ خالد بدوره الفكرى منفرداً غير متكئ على مؤسسة أو حزب. إذا تركنا الفكر إلى المنهج فسنجد اختلافاً فى منهجه الذى استخدمه فى المرحلة الأولى وبين هذا المنهج الوجدانى الذى يركز على الجمال فى العقيدة الإسلامية ونبيها ورجالها الأوائل.

تبعت كتب خالد الإسلامية مقالاً نشره فى الأخبار فى أغسطس ١٩٧٧ فيما يشبه البيان. أوضح رأيه فى مراجعة صريحة لأفكاره السابقة بشأن فصل الدين عن الدولة. كان عنوان مقالته (دين ودولة عبادة وخلافة).

يلاحظ بالمقارنة بروح كتاباته الأولى أن الأستاذ خالد لم يعد يركز على المشكلة الاجتماعية ومشاكل الفقر والغنى كما كان يفعل بتحديد كبير سابقاً.

صارت كتاباته عن هذه القضية تتسم بالندرة والعمومية المفرطة.

يرى د. شاكر النابلسى أن الأسباب التى ساقها خالد محمد خالد بشأن مراجعته الفكرية ليست هى الأفكار الحقيقية المقنعة ويقول فى هذا رأياً له قيمته: إنه لا يمكن الحكم على موقف خالد إلا من خلال التغيرات الفكرية والاجتماعية التى ألمت بالعالم العربى. فإن الإخوان المسلمين الذين وقف لهم خالد محمد خالد مناهضاً فى ١٩٥٠ قد عادوا فيما سمى بالجماعات الإسلامية، عادوا بعد أن اضطهدوا وشردوا وقد زادهم الاضطهاد قوة وصلت أوجها باغتيال السادات. يرى د. النابلسى أن هذا المد الدينى قد أخاف بعض المفكرين وعلى رأسهم خالد محمد خالد.

رأى «خالد» أن العودة إلى ربط الدين بالدولة وتطبيق الشريعة من شأنه أن يحد من العنف السياسى لذا طالب بتطبيق الشريعة الإسلامية فوراً. ساعد على ذلك أيضاً إفلاس وفشل الأحزاب السياسية العربية يميناً ويساراً فى إقامة الديمقراطية، فضلاً عن الهجمة الاستغرابية على العالم العربى والتى تمثلت سياسياً فى معاهدة كامب ديفيد وغزو لبنان، كل هذا جعل الحاجة تبدو ملحة إلى إسلام عصرى فى مواجهة الإسلام السلفى التقليدى.

تتميز كتابات «خالد» الإسلامية بتركيزه الشديد على معنى الرحمة فى الدين. كتبه تتألق فيها الأحاديث الشريفة التى تحنو على الإنسان «صاحب البؤس العظيم» كما كان يصفه «خالد». نقرأ معه قول النبى الكريم «إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرماً من سأل عن أشياء لم تكن محرمة عليهم فحرمت بسبب مسألته» أو أن الإمام أن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة.. إلخ.

اتسمت كتاباته بالجمال المعنوى والبهجة الجياشة والتفاؤل حتى فى أشد المواقف قسوة، وهى غبطة خاصة يتميز بها «خالد» فى حبه المترع للحياة بهجة كالطفولة لا تفارقه ومقدرته على استنباطها من موضع أو آخر من نفسه.

فى كتاباته يبتعد تماماً عن صلف العقاد الفكرى ويبتعد أيضاً عن النبرة الحزينة التى كثيراً ما كست كتابات د. زكى نجيب محمود رغم عقلانيته. ■

صفحات من كتاب:
نبضات القلب: شخصيات فى مصر
سهير اسكندر
القاهرة: دار المقطم، ٢٠٠٣، ١٤٢ص

The Majesty of Law: Reflections of a Supreme Court of Justice
(صاحب الجلالة القانون.. تأملات في المحكمة العليا الأمريكية)
Sandra Day o'Conor
Random House, 352PP.,$ 25.95



يعتبر قاضي المحكمة العليا في الولايات المتحدة أعلى منصب قضائي في البلاد وهو ذروة الترقي لأي شخص يعمل بالقانون. وهناك كتب كثيرة عن عمل المحكمة العليا والسوابق التاريخية التي أرستها واختيار أعضائها من جانب الرئيس الأمريكي وغير ذلك من القضايا المهمة.

وتعتبر مؤلفة هذا الكتاب ساندرا داي أوكونور أول سيدة أمريكية تصبح قاضية في المحكمة العليا.

ولذلك يأتي كتابها بمثابة سرد لخبرة كبيرة عن عملها في المحكمة، كما يتضمن الكتاب مقالات عن تاريخ المحكمة واقتراحات لإصلاحها.

■

The Kite Runner
(طفل الطائرة الورقية)
Khaled Hosseini
Bloomsbury, 2003,324PP.,
£ 12.99



تدور هذه القصة وهي الأولى لمؤلفها خالد حسيني في العاصمة الأفغانية كابول خلال سبعينيات القرن العشرين عندما كانت كابول تعيش هادئة في سلام قبل أن تدخل ومعها البلاد في دوامة حروب وأزمات لازالت آثارها ممتدة حتى الآن.

راوي القصة طفل يدعى أمير يبلغ من العمر ١٢ عاماً ويعيش مع أسرته في الجزء الغني في كابول، وقد توفيت والدته عند ولادته ولذلك فإن والده هو الذي تكفل بتربيته مع مساعده علي. ويرتبط أمير بصداقة وطيدة مع حسان نجل علي ويقوم الطفلان بتسلق الأشجار وقذف كلاب الجيران بالحجارة والطوب ومطاردة الطائرات الورقية.

وأمير في هذه القصة ليس قارئاً فقط، بل هو مؤلف مبتدئ.

وبينما لا يعرف حسان القراءة أو الكتابة إلا أنه يحب الاستماع إلى أمير وهو يقرأ بصوت عال ويستطيع أن يكتشف أي محاولة من أمير لكي يؤلف قصة وهمية غير منطقية.

لكن كل شيء ينقلب رأساً على عقب مع الانقلاب على الملكية.

ورغم أن هذا الانقلاب لم يكن دموياً إلا أن أصوات طلقات النيران التي كانت تنطلق في شوارع كابول كانت تصم آذان أمير لأن الأطفال الأفغان الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً سوى أصوات القنابل وطلقات النيران لم يولدوا بعد.

وخلال القصة يخوض أمير والأطفال من جيلين صراعاً مريراً للتعرف على هويته، فعليه أن يقبل على سبيل المثال أن رفيقه حسان من الطبقات الاجتماعية الدنيا وعليه أن يعرف أكثر وأكثر عن والدته لكن والده لا يتكلم عنها سوى القليل.

وأفضل ما في القصة وصف الأماكن والناس في زمن نهاية البراءة في أفغانستان حيث يقدم المؤلف تصويراً رائعاً لبلد كان يوشك على الدخول في طريق الفوضى والحرب.

■

Inventing Japan: From Empire to Economic Miracle 1853- 1964
(اكتشاف اليابان.. من الإمبراطورية إلى المعجزة الاقتصادية ١٨٥٣ - ١٩٦٤)
Ian Buruma
London,Weidenfeld,2003,$12.99



يختار المؤلف، وهو باحث وكاتب ذائع الصيت معروف بدراساته العميقة لحظتين في التاريخ الياباني لكي يبدأ وينتهي من كتابه.

الأولى: «صدمة التعرف المباشر على الغرب» عام ١٨٥٣ عندما شق الغرب طريقه إلى اليابان.

والثانية: عام ١٩٦٤ عندما نظمت طوكيو دورة الألعاب الأوليمبية لتحفر بذلك مكانها في التاريخ الحديث.

ويقول المؤلف في عبارة مختصرة لكنها بالغة الدلالة تكاد تفسر مسيرة التاريخ الياباني في تلك الفترة الطويلة.. لقد تصرفت اليابان بشيزوفرينية، وربما بعنف أحياناً في محاولتها الحفاظ على شرقيتها وقيمها، وفي الوقت نفسه تقبل القيم الغربية.

ويقدم إيان بورما مسحاً وتحليلاً لهذه المسيرة مع تعليقات عميقة تفسر أسباب التحول الكبير، وفي نفس الوقت الحفاظ على الأصالة. لقد خرجت اليابان منهارة من الحرب العالمية الثانية لكنها بدأت تقف على قدميها من جديد.

ولم يكن ذلك الإنتاج عملا شاقا ورغبة غير مسبوقة في إثبات مدى قدرة اليابانيين وأهليتهم لكي يحتلوا مواقعهم المناسبة على الساحة العالمية، لكنه أيضاً كان استكمالاً لمسيرة طويلة من التحديث بدأت في القرن التاسع عشر مع عصر الإمبراطور «ميجي».

وحانت لحظة ظهور الحقيقة على الملأ مع انطلاق دورة الألعاب الأوليمبية في طوكيو عام ١٩٦٤ ليفاجأ العالم بقوة اقتصادية جديدة تنضم إلى قوى العالم الكبرى الأخرى.

■

Michael Jackson: The Magic and the Madness
(مايكل جاكسون.. السحر والجنون)
J Randy Taraborrelli
Sidgmick, 2003, £ 18.99



قبل أسابيع انشغل الرأي العام الأمريكي وربما العالم بالاتهام الذي وُجِّه إلى نجم الغناء الأمريكي مايكل جاكسون وهو ممارسة غير أخلاقية مع أحد الأطفال.

وأصبح الخبر أو الاتهام لعدة أيام على صدر نشرات التليفزيون الأمريكية في أوقات الذروة، وكذلك في البرامج والجرائد والمجلات.

وهذا الكتاب لا يرد على التساؤل: هل فعل جاكسون ذلك أم لا؟

لكن يغوص في أعماق شخصية نجم البوب من كافة الجهات ويعود إلى أيام الطفولة ويتحدث بالتفصيل عن مايكل جاكسون وأسرته وآماله وآلامه والإحباطات التي تعرض لها وكذلك النجاحات التي أبهرت العالم وجعلت منه واحداً من أغنى الفنانين على مدى التاريخ مما أهله لكي يعيش حياة أسطورية حتى بالمقاييس الأمريكية.

إن المؤلف يترك القارئ لكي يفكر ويتأمل في سيرة حياة جاكسون خاصة مرحلة الطفولة التي كان الأب قاسياً فيها على أولاده وجعلهم يعملون منذ الصغر ومنهم بالطبع مايكل جاكسون..

هل أثرت هذه الطفولة البائسة على الشاب مايكل جاكسون والرجل فيما بعد؟ بالطبع هناك تأثير كبير أبرزه حب مايكل جاكسون غير الطبيعي للرفاهية وحياة القصور وامتلاك الطائرات.

ولكن هل كان لذلك تأثير على ممارساته الأخلاقية؟

إن هذا ما يجب تركه لجهات التحقيق في الولايات المتحدة.

■

Shout.. The True Story of the Beatles
(صيحة.. القصة الحقيقية للبيتلز)
Philip Norman
Sidgmick, 2003, £ 12.99



هل بقي شيء لم يتم الكشف عنه بالنسبة لفرقة البيتلز البريطانية التي ظهرت في ستينيات القرن العشرين ملأت الدنيا وشغلت الناس.

إن المؤلف على دراية غير عادية بحياة أفراد الفرقة ولذلك فهو يتحدث من جديد عن موت جورج هاريسون وزواج بول مكارتني من جديد.

وحالات الإعجاب المتجددة بالبيتلز مع ظهور فرقة فنية جديدة مثل «أوييسس» الواحة وغيرها.

إن المؤلف مازال يصر على أن البيتلز هي أعظم قصة حب في القرن العشرين.

ورغم خلافه مع بعض أفراد الفرقة خاصة مكارتني إلا أنه قام بشكل رائع بتوفيق حياة الفرقة وتأثيرها الكبير، خاصة في سنوات الستينيات وبداية السبعينيات.

ثم الانقسام الكبير بين أفرادها، الأمر الذي أنهى بسرعة قصة الحب تلك لتصبح مجرد ذكرى.

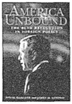
■

America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy

(ثورة بوش فى السياسة الخارجية)

Ivo Daalder and James M. Lindsay

Brookings Institution Press, 245PP., $ 22.95



يخصص المؤلفان كتابهما للدفاع عن الرئيس الأمريكى جورج بوش وبشكل خاص سياسته الخارجية وهى مجال الدراسة فى هذا الكتاب.

إن النظرة للرئيس بوش الابن هى أنه شخص أحمق عنيد ليس لديه أفكار حقيقية، وهذه النظرة موجودة فى خارج الولايات المتحدة أكثر منها فى الداخل.

إلا أن المؤلفين يقولان إن هذه النظرة غير صحيحة وعارية عن الحقيقة.

ويشير المؤلفان وهما من الباحثين الأمريكيين فى مجال السياسة الخارجية إن بوش شخص لديه رؤيته الخاصة وأفكاره التى يريد تنفيذها.

إنه يرى نفسه كما لو كان رئيسًا تنفيذيًا لمشروع ضخم يستهدف تحقيق أهدافه، وعلى هذا الأساس يتصرف بوش.

ويتناول الكتاب رؤية بوش للعالم وهى كما يقول المؤلفان رؤية واضحة وغرضها إيجاد الموقع المناسب لأمريكا فى عالم اليوم باعتبارها القوة العظمى الوحيدة حاليًا.. الموقع الذى يجعلها قائدة بشكل يتناسب مع إمكاناتها وقدراتها.

■

The Last Escape

(الهروب الأخير)

John Nichol and Tony Rennel

London, Penguin, £ 7.99



يحكى الكتاب قصة آلاف الجنود من أسرى الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية والذين وقعوا فى مصيدة النازى وجرى سجنهم فى معسكراته خلال عامى ١٩٤٤ و١٩٤٥، حيث تعرضوا لجرائم بشعة انتهت بموت كثيرين منهم.

ومن خلال التعرف على ذكريات الذين نجوا من هذه المعسكرات. يرسم المؤلفان صورة نابضة بالحياة عن لحظة شديدة القتامة فى تاريخ البشرية. ويصوران كيف تم إجبار الأسرى على السير فى «مسيرات الموت» التى كانت تمتد لمئات الأميال، وذلك لإبعادهم عن أيادى قوات الحلفاء المنتصرة التى كانت تتقدم صوب هزيمة ألمانيا النازية..

ويتناول الكتاب قصصًا مليئة بالشجاعة والمغامرة حاول خلالها بعض السجناء الهروب من واقعهم الأليم من خلال تدبير مؤامرات للهروب أو حفر أنفاق طويلة تحت الأرض للهرب وهو ما كانت السينما الأمريكية تحديدًا قد سجلته.

هناك أيضًا جنود عاديون وطيارون وقعوا فى براثن الأسر وحاولوا قدر إمكاناتهم التخلص من عبء الأسر لكنهم فشلوا وهم ليس أقل شجاعة وقدرة من الآخرين.

■

Dude, Where's My Country?

(أين بلدى؟)

Michael Moore

Warner Books, 2003, 272PP., $24.95



بعد مشهده المثير أثناء تسلمه جائزة «الأوسكار» عن فيلمه التسجيلى، ثم النجاح المدوى لكتابه «رجال بيض أغبياء» يواصل مايكل مور حملته السياسية ضد إدارة بوش من خلال كتابه الثانى «أين بلدى؟».

يستخدم مور لغة بسيطة، ومباشرة فى تقديم نقده اللاذع لإدارة بوش والمحافظين فى أمريكا. كما تتمتع كتبه بخفة ظل كاريكاتورية مما جعل كتابه الأول يتصدر قائمة الأفضل مبيعًا لعدة أسابيع. فى هذا الكتاب يشير مور إلى ويزلى كلارك باعتباره المرشح الديمقراطى الأفضل، ويمدحه كثيرًا معلنًا تأييده له فى حملته الرئاسية القادمة.

■

Seven Myths of the Spanish Conquest

(سبع خرافات حول الغزو الإسبانى)

Matthew Restall

Oxford UP, 2003, 218PP., $28.00



يتحدى هذا الكتاب التاريخ الشائع عن الغزو الإسبانى للعالم الجديد أو القارتين الأمريكيتين الذى يعتقد المؤلف أنه مبنى على مجموعة من الخرافات. فمثلاً ليس صحيحًا. حسب ما يقول ماثيو رستال. أن مجموعة صغيرة من الإسبان هزمت إمبراطوريات بأكملها من السكان الأصليين فى وقت قصير، كما أنه ليس صحيحًا أن السكان الأصليين اعتقدوا أن الإسبان آلهة جدد وعبدوهم، فهذه المقولات روجها المؤرخون الإسبان تعظيمًا لأنفسهم. ويحاول رستال فى مراجعته التاريخية إثبات أن ما حدث بالفعل كان أقرب للحرب الأهلية بين السكان الأصليين أنفسهم، فالجيش الإسبانى صغير الحجم عاونه مجموعات كبيرة من الهنود والأفارقة المنتمين لقبائل وممالك مختلفة من أجل تصفية حسابات داخلية بينهم وبين بعضهم البعض.

■

The Victorian House: Domestic Life from Childbirth to Deathbed

(منزل فيكتورى.. الحياة العائلية من الطفولة حتى الوفاة)

Judith Flanders

Harper Collins, 2003, £ 20.00



لا يتذكر كثيرون عن العصر الفيكتورى الذى شهدته بريطانيا خلال القرن التاسع عشر حينما كانت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس سوى طرازه المعمارى سواء فى شكل المنازل أو القصور وغير ذلك. لكن أهم ما فى العصر الفيكتورى علاوة على قيمه الاستعمارية والتوسعية أن مبادئ وقيم ذلك العصر أثرت تأثيرًا مباشرًا على الحياة فى شتى مجالاتها فى بريطانيا وبشكل أكثر تحديدًا فى النواة الصغيرة وهى الأسرة. فالأمر لم يكن هيكلاً معماريًا فقط بقدر ما كان بنية هذا الهيكل وسلوكيات القائمين عليه أو الخاضعين له.

ومؤلفة الكتاب جوديث فلاندرز تأخذ قارئها فى رحلة عبر الزمان والمكان فهى تعود إلى أجواء القرن التاسع عشر لكنها تتجول داخل منزل فيكتورى من حجرة النوم إلى دورة المياه إلى حجرة تربية الأطفال إلى المطبخ وغرف الطعام والمعيشة. وهى تستكشف كل صغيرة وكبيرة فى هذا المنزل الذى مازالت الآلاف منه موجودة فى المدن البريطانية. وتوضح كيف اختلف استخدام هذه المنازل حاليًا عما كان عليه الأمر فى بداية بنائها فى القرن التاسع عشر. ولا تكتفى المؤلفة بذلك بل تتحدث عن طريقة معاملة الخدم فى هذه المنازل، فالمنزل الفيكتورى كان يعكس نمط حياة شعب إمبراطورى يستحوذ على مساحات كبيرة من العالم آنذاك. وظهر ذلك فى فخامة هذه البيوت وعظمتها، بل إن المؤلفة تحدثت فى الكتاب عن أوراق الحمام التى كانت مستخدمة فى ذلك الزمن. وعن العلاقات الأسرية وكيف أثرت القيم الفيكتورية المحافظة اجتماعيًا على العلاقات الأسرية وكذلك نمط التعاملات بين الأسر والقيود التى كانت تفرضها الأسر على العلاقات بين الرجل والمرأة. وكان هذا النظام الاجتماعى يجد دعمًا له من السلوك المحافظ للملكة فيكتوريا التى كانت رمزًا واسمًا له.

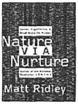
■

Nature Via Nurture: Genes, Experience, and What Makes Us Human

(الطبيعة عبر التنشئة: الجينات والخبرات وما يجعلنا بشرًا)

Matt Ridley

Harper Collins, 2003, 325PP., $25.95



هل الطبيعة المتمثلة فى الجينات هى المسئولة عن تحديد خصال البشر وصفاتهم، أم أن البيئة المتمثلة فى التنشئة هى العامل الأهم؟

ظل هذا السؤال موضوعًا لجدل علمى واسع دام أكثر من مائة عام، وانقسم العلماء إزاءه إلى فريقين. ولكن فى فبراير من عام ٢٠٠١ أعلنت لجنة الجينوم أن الشفرة الجينية للإنسان لا تحتوى سوى على ٣٠.٠٠٠ جين. وليس ١٠٠.٠٠٠ جين كما كان يظن العلماء.

وقد أدى هذا الاكتشاف بالعلماء إلى

مراجعة رأيهم القائل بأن كل ما يتعلق بالبشر موجود فى الجينات حيث أن عدد الجينات اتضح أنه أقل بكثير من عدد الخصال الإنسانية. يقول مات ريدلى (مؤلف كتاب «الجينوم») فى كتابه هذا أن هذا الجدل ما هو إلا خرافة، حيث إن التنشئة تعتمد على الجينات، وأن الجينات تحتاج إلى التنشئة. والجينات تعد نتائج للإرادة الإنسانية كما هى مسببات لها. وفى النهاية ينحاز مات ريدلى للاعتقاد بأن الإنسان يتمتع بإرادة حرة، تحفزها الغريزة والثقافة. المؤلف يعالج هذه القضية العلمية المثيرة بأسلوب بسيط وشائق يسهل للقارئ غير المتخصص استيعابه.

■

What Ever you Say I Am: The Life and Times of Eminem

(حياة إمينيم وزمنه)

Anthony Bozza

Crown, 2003, 278PP., $ 23.00



فى عام ١٩٩٩، التقى الصحفى أنتونى بوزا مع المغنى الجديد آنذاك «مارشال ماثرز» أو «إمينيم» من أجل مقابلة صحفية لمجلة «رولنج ستونز» الموسيقية. وعندما ظهرت صورة إمينيم على غلاف هذه المجلة لأول مرة بفضل هذه المقابلة، كان ذلك بمثابة بداية الشهرة الصاروخية التى انطلقت بها نجومية إمينيم فيما بعد. ففى غضون عامين أصبح إمينيم الأيقونة الجديدة فى الثقافة الشعبية الأمريكية.

ليس هذا فحسب، فإلى جانب شعبيته وجماهيريته بين الشباب، فقد نال إمينيم أيضًا جوائز النقاد متمثلة فى حصوله على جائزة «جرامى» عدة مرات متتاليات، بالإضافة إلى جائزة «أوسكار».

وقد لفت إمينيم الأنظار لكونه أول أمريكى أبيض يقتحم موسيقى «الهيب هوب» و«الراب» التى كانت حكرًا على الأمريكيين السود، كذلك لفت الأنظار بتصريحاته المعادية للشواذ وللمرأة، وبلغته البذيئة.

يحلل الكتاب شهرة إمينيم ومواقفه الهوجاء من خلال طفولته البائسة فى مدينة ديترويت المليئة بالتوترات العرقية، وعلاقته بأمه وزوجته السابقة.

■

Brick Lane

(ممر الطوب)

Monica Ali

Simon & Schuster, 2003, $ 25.00



حازت تلك الرواية الأولى للمؤلفة البنغالية «مونيكا على» استحسان النقاد فى بريطانيا والولايات المتحدة، كما رشحت لنيل جائزة «بوكر» لعام ٢٠٠٣م.

تروى الرواية حكاية أختين من بنجلاديش، الأولى جميلة والثانية عادية المظهر. وفى حين تختار «حسنية» الجميلة مصيرها وتتزوج ممن تحب، تضطر الثانية «نازنين» إلى زواج تقليدى يدفعها للسفر إلى لندن حيث يقيم العريس الأكبر سنًا. تتوالى أحداث الرواية من خلال الخطابات التى تتبادلها الأختان، ويتضح من خلال تطور حياة كل منهما صعوبة الفصل بين حرية الإرادة والاختيار من ناحية وحكم الظروف والقدرية من ناحية أخرى. فالزواج التقليدى الباهت أفرز مع السنين نوعا من الحب والالتزام والمسئولية، حتى وإن لم يكتمل أبداً إلى النعيم الزوجى، وتهدد فى مرة بحب رجل أصغر سنًا من نفس المجتمع الأسيوى فى لندن. والزيجة التى تمت عن اختيار حر وحب جارف تهدمت بعد أن آلت إلى العنف الجسدى. ثم تأتى السنوات ببنات «نازنين» المراهقات المولودات فى انجلترا بأحلام أخرى ومعارك جديدة ولكن فى نفس حلبة الصراع الأزلى بين الإرادة والقدر.

■

La Prostitution Coloniale Algerie, Tunisie, Maroc 1830-1962

(الدعارة الاستعمارية: الجزائر وتونس والمغرب من ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢)

De Christelle Taraud

Payot, 496P., £ 25.00



فى دراسة حول الدعارة الاستعمارية، تتناول كريستل تارو بالتحليل تحول الشرق الذى طالما داعب خيال الغربيين إلى بؤرة انحلال ومصير عاهرات المغرب العربى بين عالمهم الأصلى والنموذج الأجنبى المضاد.

نظمت مهنة الدعارة فى بداية القرن التاسع عشر لتتمتع لاحقًا بتقنينها وانتشارها. ولم يكن هذا النظام الفرنسى الذى يستوجب تسجيل العاهرات وإخضاعهن للفحص الطبى والنفى بصفة جزئية إلا نتيجة منطقية لمعايير جنسية فرضها سريان اللاهوت الأخلاقى منذ القرن الخامس عشر. وتقدم لنا كريستل تارو فى كتابها «الدعارة الاستعمارية» تحليلاً بالغ الدقة لآليات الدعارة فى المغرب العربى إبان الاستعمار. وتعتبر دراستها امتدادًا للدراسات السابقة التى تناولت تنظيم المهنة. ففى نحو عام ١٨٣٠، كان الرحالة الغربيون ينخرطون فى البحث عن الملذات الجسدية فى شرق كان يرمز بالنسبة إليهم إلى الفردوس الذى تسكنه حوريات منعزلات يانعات. واكتشفوا، بكثير من الدهشة والافتتان، كرم الضيافة الجنسية الممارس فى بعض الدور والملذات التى تقدمها إليهم خليلات الخيم ورهافة العوالم فى المدينة، مما دفعهم إلى اعتبار هذا المسلك أشكالاً بذيئة للبيع والشراء.

بيد أن الإفراط فى وضع القوانين واللوائح المفروضة من جانب المستعمر قد قلب الأوضاع رأسا على عقب حيث فرض الفرنسيون فى شمال أفريقيا العزل والتهميش على الفتيات. ففى الوقت الذى سادت فيه العاصمة موجة من الرفض إزاء إقامة الأحياء المشبوهة عمدت الإدارة إلى إنشائها فى المدن الرئيسية فى المغرب العربى وعليه أصبح حى بوسبير فى الدار البيضاء مقصداً إجبارياً لأكثر السائحين تعجلاً إلا أن النظام الفرنسى قد دفع إلى تكوين شبكة معقدة من البيوت السرية.

تحدد كريستل تارو الأسلوب الذى وصمت بسببه الفتيات، وهن الخاضعات فى آن واحد لسلطة الرجل ولهيمنة الاستعمار، بسبب خرقهن المزدوج للقوانين. فلقد أصبحن محل احتقار ليس فقط باسم القيم الأوروبية بل أيضًا من جانب الوسط الذى ترجع إليه أصولهن. فلقد انتهكن الأوامر القرآنية بل والقاعدة السائدة. على مر العقود، شهدت العوالم والراقصات تدهورًا فى أوضاعهن.

إلا أن هؤلاء المغربيات قد أبدعن ثقافة فرعية ثرية. فهذه الكائنات المهجنة و«الشخصيات الفاضلة» والمسلمات اللائى خلعن حجابهن واللائى أحيانًا ما يكشفن عن صدورهن أو سررهن، الموشومات واللائى يرتدين الملابس الأوروبية رغم وضعهن لزينة ولعطور شرقية قد أصبحن «ممثلات معبرات عن تركيبة غير مسبوقة». فهن يشغلن مركزًا وسطًا يسمح لهن بالعمل بين النظام والفوضى، بين المعتاد والمنحرف، بين المطابق للشائع والتجديد. فهن يحملن مرجعيات لعالمهن الأصلى مع دمجهن فيها لعدد من عناصر النمط الأجنبى المضاد.

ويتعين علينا فى هذا الصدد مضاهاة مجموعة الصور الفوتوغرافية للفتيات المغربيات مع مجموعة الفتيات نصف العاريات المقدمات كبرهان دامغ على تلك الفرضية، وتوحى النظرة الحزينة والعميقة، الاستفزازية أحيانًا والمستسلمة غالبًا، للفتيات المغربيات بمدى المقاومة الصماء التى تعلن عنها أولئك النساء المهضومة كرامتهن.

■

Living It Up: America's Love Affair with Luxury

(الحياة الرغدة: أمريكا والغرام بالترف)

James B.Twitchell

Simon & Schuster, 2003, 320PP. $ 14.00



يحلل عالم الاجتماع الأمريكى جيمز توتيشل العادات الاستهلاكية فى المجتمع الأمريكى فى الحاضر والماضى القريب، خاصة فيما يتعلق بالسلع الترفية غير الضرورية. ويؤكد توتيشل فى دراسته أن «الرفاهية لم تعد حكرًا على الأغنياء»، فشراء السلع الترفية مثل السيارات المرسيدس والملابس ذات الماركات الشهيرة لا تتطلب أن يكون المرء مليونيرا. وأصبح هناك أفراد كثيرون من الطبقات الوسطى يرتادون الأندية الصحية ويستمتعون من آن لآخر بشراء سلعة ثمينة خارج حدود ميزانياتهم وإمكانياتهم المادية الحقيقية. يفسر توتيشل هذا الأمر من عدة نواح منها الإعلانات والسينما والتليفزيون و«ديانة الاستهلاك» التى أصبحت منتشرة بين الأمريكيين، بحيث أصبح شراء بعض الكماليات نوعا من البحث عن هوية وليس لاحتياج عملى. فالناس تشعر بالتقارب بين بعضها البعض ليس بالمشاركة فى نفس الأفكار والاتجاهات السياسية والمعتقدات الدينية، فقط وإنما بالمشاركة فيما يستهلكونه من سلع. ويقول توتيشل أن الميل نحو الاستهلاك بهذا الشكل، هو نوع من الطمع الإنسانى فى رغد العيش الذى يصيب كل البشر، وهو نفسه وقع تحت هذا التأثير أثناء إعداده للدراسة فى أحد المحال الكبرى، بعد أن لمح رباط عنق من تصميم أحد بيوت الأزياء الشهيرة!

■

قــــــــــــراءة ..

أســـــــئلة المحـــــــاكمـــــة

من القبو.. إلى القبر.

ربما لو كان هذا مصير صدام، كما كان مصير ابنيه وحفيده، لتجنب «مرمزوه» مشهد الإذلال التليفزيونى: ذا اللحية الكثة والشعر الأشعث. ولتجنب الكثيرون. على اختلافهم. أسئلة المحاكمة.

على أى، فالطاغية (المهيب) قد خرج ـ أو بالأحرى أخرجوه ـ إلى حيث لا نعلم. كما كانت عادته دائماً.



ومرة أخرى ـ كما هى العادة أيضاً ـ سنغرق فى طوفان من المعلومات ـ أو بالأحرى ـ البيانات التى ستتضمنها تقارير يومية ـ وربما كل ساعة ـ يكتبها عشرات المحققين والاختصاصيين فى كل شىء. بدءاً من أسلحة الدمار الشامل، وحتى السيكولوچيا. والذين وفدوا من كل صوب وكل اختصاص لمراقبة «فأر فى القفص». والتعبير المهين الشامت لـUSA Today فى تقرير لها عن أسلوب التحقيق مع صدام ذكرت فيه أن مهمة البعض ستركز على «مراقبة طريقة نومه»! وصدّرته بتصريح لرامسفيلد قال فيه أن خبراء وكالة الاستخبارات المركزية يعرفون المعلومات التى نريدها هنا فى الولايات المتحدة.. مؤكداً على أن قرار إحالة التحقيق إلى CIA استغرق ثلاث دقائق، وأن الدقيقتين الأوليين «كانتا لشرب القهوة..».

أياً ما كان الأمر، فقبل أن يأتى اليوم الذى تطلب فيه إحدى لجان الكونجرس ـ لأسباب انتخابية أو دعائية ـ الاطلاع على البيانات الخاصة بالتحقيق مع المطلوب رقم واحد: الرئيس السابق لجمهورية العراق، يبدو أن اللحية.. والقبو.. والمشهد الهوليودى للرئيس الأسير على شاشتى الـLCD فى المؤتمر الصحفى الشهير ستحقن مزيداً من الوقود فى آلة الأساطير الدعائية الأمريكية التى بدأت فعلاً فى الدوران. لتحكى ـ بالتشويق اللازم ـ تفاصيل لن تثبت أبداً عن الأسير المحتجز فى مكان لم يُعلن رسمياً أبداً. هل مازلتم تذكرون الروايات الخرافية، بالرسوم التوضيحية الملونة، عن سراديب ومدن كاملة تحت الأرض، لا تؤثر فيها القنابل الذرية؟! وهل تذكرون ما شاع طويلاً عن تقنيات فضائية لدى الأمريكيين، بإمكانها تصوير ماركة الملابس الداخلية لصدام. وهل تعرفون بعد ذلك معنى أن الرجل لم يسقط إلا بعد وشاية (متوقعة) وبمصادفة أن تعثرت قدم جندى الفرقة الرابعة بسجادة مهترئة فى أحد أركان المزرعة؟!

يبدو أنه رغم التقنيات، والحاسبات، والأقمار الصناعية، ومجسات ترى ما تحت الأرض.. «أو سلّماً فى السماء»، يبقى الفعل الإنسانى.. وتبقى المصادفة.

هل خدروه لحظة الاعتقال؟

نختلف طبعاً ـ وسنختلف ـ فى الإجابة على هذا السؤال.

ولكننا نتفق قطعاً ـ وإن حاولنا أن نتناسى أو ننكر ـ على حقيقة أننا لعقود خدرناه. كما فعلنا من قبل ـ ومازلنا ـ مع غيره. يتساوى فى ذلك: الهاتفون فى الأزقة والشوارع، و«مواطنون» يقنعون بما يجود عليهم به الحاكم من حصيلة بيع النفط، ومسؤولون يضعون صورته فى كل ركن وزاوية، وسياسيون يستبدلون أحزابهم. كما الجوارب. مهرولين إلى «حزب الرئيس»، وبرلمانيون يوافقون ويرفضون «بالإشارة». ورجال أمن يحمون صناديق الاقتراع من اقتراب الناخبين «غير المرغوبين».. وإلى ذلك كثير.

تبدأ الظاهرة، أو تتفاقم. وتُعبق رائحةُ «المخدر» الجو، مُغيِّبةً، وجاثمةً على الأنفاس. حين تستحكم «التبعيةُ» بالجمهور، و«النرجسيةُ» بالقائد الذى يبدل أزياءه كل ساعة. يرتدى تارة عقالاً عربياً، وتارة يعتمر قبعة مكسيكية، ملوحاً ببندقيته فى الهواء. وحين يرتدى البزة العسكرية، يرتديها كل المدنيين! تملأ صوره وتماثيله كل مساحة البلاد، وألقابه كل معجمها. ووسط السحابات «الزرقاء» يكون طبيعياً أن لا يرى هو، كما لا يرى كل التابعين أو «المتَبعين» السوس ينخر كل شىء.

هى المحاكمة.. إذن علينا أن نعترف. كلنا خدرنا صدام حسين. وكل صدام حسين. يتساوى فى ذلك قادة وزعماء عرب سكتوا عنه حيناً، وساعدوه أحياناً، أليس هو «حارس البوابة الشرقية»: القادرُ ـ بدماء أبنائه، وأموال جيرانه، وأسلحة الدمار الشامل «الأمريكية». أن يمنع رياح التغيير اللافحة القادمة من الشرق «الخومينى» محملة بـ«لواقح» التمرد. ألم يخدره الأمريكان و«رامسفيلد» شخصياً بزيارته المساندة (مارس ١٩٨٤) إبان حرب الخليج الأولى كمبعوث خاص للرئيس رونالد ريجان. والتى أبلغ فيها الرئيس العراقى أن محاولات واشنطن عقد صلات طيبة مع النظام العراقى لن تتأثر بالانتقادات «العلنية» لاستخدام العراق أسلحة بيولوجية أو كيماوية (وثائق اللقاء كشفت عنها أخيراً «الواشنطن بوست» بعد أن حصلت عليها بناء على قانون حرية المعلومات من أرشيف مجلس الأمن القومى).

أياً ما كان الأمر، فربما كان بعض الذين «خدروه» من الجيران أو «الرفاق».. أو التجار. أو حتى القوى العظمى، كانوا يعملون ـ وتلك هى السياسة على أية حال ـ لمصلحتهم. إنْ على المدى القريب أو البعيد. ولكن ما عذرنا نحن عامة الناس ومثقفيهم؟ والذى لن يسأله أبداً أى المحققين. كما لن تتضمنه أبداً صحيفة الادعاء: ما الذى يجعل استبداداً بتلك الفظاعة يولد من أحشاء المجتمع العربى؟ وكيف يترسخ العجز والاستسلام لعقود، حتى يأتى الزلزال أجنبياً. ويصبح ترويج المعادلة/ المقايضة ممكناً: «إما الاستبداد أو الاحتلال»؟! كيف يؤله «الناسُ» «الناسَ». فقط لكونهم هناك «على المنصة» فيصبح رأيهم دائماً سديداً، وقراراتهم صائبة ـ فى ثقافة محفور فى تراثها: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

أسئلتنا الأهم.. ستغيب قطعاً عن المحاكمة.

وسواء حوكم صدام.. أم لم يحاكم.. فى بغداد أو فى غيرها. فالأمر هنا. شأن كل المحاكمات. تأتى أوراق ملفاته من «الماضى». أما ملامح «المستقبل» فتحددها بوضوح سلة أخبار لم يشأ عام ٢٠٠٣ أن يمضى دون أن يضعها على عتبة عام جديد:

١ . عشية جهود إنقاذ مصرية (حثيثة.. ومخلصة) توجت بزيارة هى الأولى لوزير خارجية مصر منذ أعوام ثلاثة، إسرائيل تجتاح غزة وجنين وطولكوم.. ورفح (الحدودية).

٢ . القمة المغاربية (لاحظ أنها قمة) أرجئت. حسب التعبير الرسمى. فى صباح اليوم ذاته المقرر لانعقادها!! ورئيس الأركان الإسرائيلى يقول: «لم يعد هناك شىء اسمه عالم عربى».

٣ . بناء على إصرار المندوب الأمريكى، وحتى لا يتضمن النص إشارة واضحة لإسرائيل، يسقط مجلس الأمن الدولى من بيان ترحيبه بتخلى ليبيا عن برامجها للتسلح عبارة «أن الإعلان الليبى يجب أن يكون نموذجاً تحتذى به الدول الأخرى، بما فى ذلك دول الشرق الأوسط».

٤ . شاؤول موفاز؛ وزير الدفاع الإسرائيلى (إيرانى الأصل) يعلن أن تل أبيب ستتخذ ما تراه ضرورياً للقضاء على قدرات إيران النووية.

٥ . بن لادن (الرمز) يهدد إيران (الرمز) بالويل والثبور وعظائم الأمور.

٦ . بعد أن نجحوا فى تشكيل «اللجنة العالمية لنصرة الحجاب» المسلمون يتنادون على الإنترنت لخوض «معركة الحجاب»!!

٧ . ولعله ـ فى ضوء ما سبق ـ الأكثرُ دلالةً على مفصلية اللحظة الفارقة بين عامين: القرارُ الليبى «الطبيعى جداً» بالتخلص من الصواريخ و«الأسلحة».. فرغم التأكيد رسمياً على أن القرار اتخذ «بإرادة حرة»، تبقى تصريحات كولين باول حول «الذكاء الليبى». وتبقى حقيقة «أن العصا لمن عصى» هى الترجمة العربية الدقيقة ـ لغوياً ـ لمبدأ بوش «المعلن».

وبالطبع يعرفُ كلُ من يعيش تحت الشمس أن للعصا حين يُلَوَّحُ بها فى الهواء ظلالاً أكيدةً على الأرض.

وحين يذهبُ كلُ الزبد، سيبقى «على الأرض» أيضاً ـ فى منطقتنا تلك وفى أيامنا تلك ـ سؤال واحد محفور: «من خرج فائزاً بعد كل ما جرى؟».

ورب أسئلة يغنيها الواقع عن إجابات.

أيمــــن الصيـــاد

كيف يفكر الزبائن



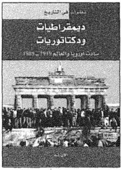
تأليف : جيرالد زالتمان

رغم كل ما يبذل في أبحاث السوق، تخفق 80٪ من هذه العروض في تحقيق اهدافها. فهل يعرف الزبائن حقاً ما يريدون؟ يحاول المؤلف حل هذا اللغز. فقد وجد ان الزبائن يعرفون حقاً ما يريدون، غير ان الوسائل التسويقية لا تدخل في عمق كافٍ يساعد الزبائن على تبين حاجاتهم ورغباتهم والتعبير عنها. في هذا الكتاب الذي يتجه إلى انفتاح العقل يشير المؤلف جيرالد زالتمان إلى ان 95٪ من عملية التفكير يتم في اللاوعي. فالكشف عن رغبات الزبائن الحقيقية يتطلب استيعاباً لـ «عقلية السوق» بغية الوصول إلى التفاعل بين افكار المسوقين والمستهلكين حيث يتم قرار الشراء. يعرض زالتمان في كتابه رؤى جوهرية معتمداً على أبحاث تمت في ميادين متنوعة؛ كأبحاث في العقل، وعلم النفس، والتحليل الادبي، والعلم الإدراكي.

جيرالد زالتمان: استاذ التسويق في كلية هارفارد للإدارة والاعمال وهو زميل في جامعة هارفارد في بحوث السلوك، والعقل.

• ثمن النسخة المجلدة $14 • ثمن النسخة بالغلاف $11.50

ديمقراطيات وديكتاتوريات



سادت أوروبا والعالم بين سنتي 1919 و 1989

تأليف : آلان ثُد

شهدت الفترة الواقعة بين سنة 1918 وسنة 1989 تغييرات أساسية في العلاقات الدولية، كان منها ظهور الولايات المتحدة الأمريكية قوة عظمى في العالم، واثر روسيا الشيوعية على الدبلوماسية الاوروبية والعالمية. يقدم لنا المؤلف آلان ثُد رؤيته للفترة التي تمخضت عنها الحرب العالمية الاولى، ومعاهدات السلام التي تلت نتيجة لها، والعوامل التي افضت إلى الحرب العالمية الثانية. ويُمحّص في التطورات التي حدثت في الاتحاد السوفييتي. ثم تناول الحرب الباردة في أوروبا، وآسيا، وامريكة. كما قدّم لنا موجزاً لمناقشات تاريخية هامة احاطت بهذه الموضوعات.

• ثمن النسخة بالغلاف $13

قواعد التأثير في المستمعين



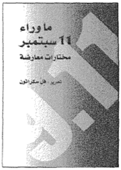
دفع الناس إلى العمل عبر مخاطبتهم

تأليف : نك مورغان

لعل الكلمات هي خير ما تملك من وسائل تدفع الناس إلى العمل. فالكلمات التي ننطق بها نستطيع ان نجعلها تغرس الإقدام في النفوس وان تؤجج المشاعر، كما نستطيع ان نوجهها لكي تطيح بالافكار البالية ولتنير آفاقاً جديدة. إنك لا تستطيع ان تحقق كل ذلك إلا إذا عرفت كيف ترتبط بجمهورك بصدق. يكشف مؤلف هذا الكتاب في كتابه الذي يمتاز بافكار عملية فائقة أسرار انجح الخطباء والمتحدثين والمحاضرين وأعظمهم بلاغة، وهي أسرار لم يدّخر وسعاً في الحصول عليها. فإذا كنت تسعى إلى ان تحمل افكارك صداها المؤثر في مستمعيك فلا يسعك تجاهل الحكمة والقواعد التي تجدها في هذا الكتاب.

• ثمن النسخة المجلدة $11 • ثمن النسخة بالغلاف $8.30

ما وراء 11 سبتمبر



سكرانتون وآخرون (محررون)

لقد احدثت الصور المرعبة لارتطام الطائرات ببرجي مركز التجارة العالمي في نيويورك وانهيارهما اثراً لا يمحى من نفوس الذين شاهدوا بثّ هذه الصور المفجعة المتكرر.

إذ لم تفلت لحظة من لحظات الكارثة إلا وسجلتها عدسات الكاميرات بلقطاتها المركزة.

لقد ولّد هذا قلقاً واضحاً حيث شعر الذين انغمسوا في تغطية الحدث، سواء أكانوا إعلاميين ام مشاهدين كأنهم يختلسون النظر لمشهد لا تطاق رؤيته. لقد استرعى حجم الكارثة الكبير انتباه العالم، وربما كانت هذه هي غاية المهمة الرهيبة، إذ لم تكن الاهداف عشوائية. فكان الحادي عشر من سبتمبر (ايلول) اليوم الذي «غيّر التاريخ»؛ فلن تكون الحياة بعده كما كانت قبله ابداً. إن صورة ذلك اليوم ستبقى حيّة في ذاكرة اليتامى والمنكوبين والذين نجوا من الحادث والذين انقذوهم ايضا. فقد تغيّرت حياتهم وتبدّل مستقبلهم فجاة وعلى نحو دائم، كما تحطّمت آمالهم وخططهم.

ومع ذلك فإن عرض تلك اللحظات والساعات المصيرية الرهيبة على أوسع نطاق عالمي على أنها «تغيير للعالم» يخفي وراءه حقائق العلاقات الدولية والمصالح القوميّة التي تعززها. ورغم همجيّة الهجمات هذه على الولايات المتحدة وقسوتها وإجرامها، فإنها لم تكن بلا سياق او قرينة. إذ جاءت حصيلة ظروف تاريخية مادية. ولا بد من استبعاد التفسيرات العرضيّة والساذجة، بغية فهم هذه الاحداث وحقيقتها. فالحقيقة التاريخية تقتضي الذهاب إلى ما بعد الاشمئزاز والإدانة والعقاب لمواجهة العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية المعقدة بين الدول والمجتمعات الدولية وكذلك في الدولة الواحدة.

لا بد من فهم مصادر هذه الاعمال والتصدي لها. ولا يعني السعي إلى تعليل الاحداث أبداً التنكر لتحديد المسؤولية. ولا ينبغي لنا ان نخون الموتى وان نخادع الاسر المنكوبة في متابعتنا للعدالة من خلال القوانين والمواثيق الدولية. لقد شكّلت احداث الحادي عشر من سبتمبر (ايلول) التاريخ المعاصر وستلقي ظلالاً ثقيلة على مقبل الايام. فإذا فشلنا في التقاط القرائن المادّية والاجتماعيّة، وإذا استبعدنا الفروق العميقة ذات الصلة، في تفسير الاحداث، فإننا نتنكر لمعانيها ونهمل مغازيها وأهميتها، ونفسر حقيقتها تفسيراً ربما يكون ظاهره معقول لكن باطنه يخفي مواطن خطر شديد ومخادع للظاهر.

• ثمن النسخة بالغلاف $13.75

شركة الحوار الثقافي ش.م.م
بيروت، ص.ب. 6750 - 13 لبنان
هاتف: 802444-1-961+ • فاكس: 790718-1-961+
E-mail: info@interculturalbooks.com • http://www.interculturalbooks.com

تُطلب كتب شركة الحوار الثقافي في جميع البلاد العربية من
دار الوراق للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

كما تُطلب في الدول التالية من:
مصر : دار العلوم ـ القاهرة. هاتف: 5761400 وفي **المملكة العربية السعودية** من: دار الوراق ومن: مكتبة جرير في جميع فروعها. وفي **الكويت** من: مكتبة جرير ومن: الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات. وفي **قطر** من: مكتبة جرير. وفي **البحرين** من: المكتبة الوطنية، المنامة وفي **أبو ظبي** من: مكتبة الجامعة ومكتبة جرير. وفي **لبنان** من: دار الفرات للنشر والتوزيع. وفي **الأردن** من: الأهلية للنشر والتوزيع. وفي **سورية**: من دار الكَرَّتَين. دمشق. وفي **المغرب** من: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 61 - February 2004

مجلة شهرية . العدد الحادى والستون . السنة السادسة . فبراير ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات



مسلمون .. ولكن أوربيون / طارق رمضان / محمد يوسف عدس / يوسف القرضاوى

الحاجز .. «شظايا رواية» / عزمى بشارة

بول أونيل : ثمن الولاء للرئيس / صبرى حافظ

إنه عام التفكيك والتركيب / سلامة أحمد سلامة


فقط مع البنك العربى .. قروض ميسرة تصل إلى
٢٥,٠٠٠ جنيه مصرى
٥٠٠٠٠٠
** أحقية الحصول على القروض ترجع إلى سياسات وقرارات البنك العربى
RESALA
قرض السيارة الجديدة
قرض السيارة المستعملة
القرض النقدى
قرض موظفى البنوك
قرض الأطباء
برنامج چيت كاش
وتمتع بإمكانية
الحصول على خدمات
إلكترونية فريدة
إصدار بطاقة صراف آلى
ARAB BANK
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
www.arabbank.com

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة السادسة
العدد الحادي والستون
فبراير ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد :

كتّاب العدد :

- أيمن الصياد .. صحفي.
- حسن حنفي.. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
- خالد عصفور .. أستاذ مساعد بكلية الهندسة، جامعة مصر الدولية.
- رضوى الشافعي .. صحفية.
- سحر خليفة .. أديبة فلسطينية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- صبري حافظ .. أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة لندن.
- طارق رمضان .. أستاذ بجامعة فريبورج بسويسرا.
- عزمي بشارة.. سياسي وأكاديمي من عرب إسرائيل.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- فتح الله الشيخ .. أستاذ علم الطبيعة بجامعة جنوب الوادي.
- ماثيو إليوت.. باحث في التاريخ الثقافي للشرق الأوسط.
- محمد يوسف عدس .. باحث في التاريخ والشئون السياسية مقيم في إنجلترا.
- نصير شمة .. موسيقار عراقي مقيم في القاهرة.
- وليد محمود عبد الناصر.. دبلوماسي بوزارة الخارجية.
- يوسف الشريف .. صحفي.
- يوسف القرضاوي .. داعية ومفكر إسلامي.

رسوم العدد للفنانين :

عبدالعال ـ سعد الدين شحاته . أحمد اللباد

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة :

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٢٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.

Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

" نــون "

إنـه عـــام التفكيـــك والتركـــيب

ســــلامة أحمــد ســـلامة

* * لم يكن الزلزال الذى أحال مدينة «بام» التاريخية فى إيران إلى كومة من الأنقاض، راح ضحيته أكثر من ثلاثين ألفًا فى الساعات الأخيرة من العام الماضى، غير إرهاصة غامضة لعام قادم لا يقل وعداً بمفاجآت وتحولات درامية مثيرة، قد تصل فى مفعولها درجة الزلازل.. بعضها فى طريق التحقق بالفعل. والبعض الآخر تتجمع الأعاصير والعوامل المؤثرة لتعمل على إنتاجها وتوليدها بحسابات مسبقة. والبعض الثالث قد يخرج كلية من دائرة الحسابات والتوقعات إلى دائرة الظنون والتكهنات. ولكنها جميعاً تؤذن بالانتقال إلى مرحلة التفكيك والتركيب فى صياغة الشرق الأوسط.

وبعبارة أخرى، فهناك بدايات لعدد من الأحداث انطلقت من عقالها قبل فترة ولم تصل إلى نهايتها المحتومة بعد. وهى تشق طريقها خلال عام ٢٠٠٤ كما تشق سفن الفضاء طريقها عبر وسط سبقت دراسة ظروفه وطبيعته وطبقاته، بحيث يمكن بشىء من الحسابات الدقيقة التنبؤ بنتائجه بدرجة معقولة من الصواب. وهناك تطورات وقعت، واستراتيجيات يجرى رسمها، وعناصر يتم تعبئتها، بهدف تحقيق الشروط التى تؤدى إلى نتائج متوقعة فى إطار خطط وتصورات كونية، وإن بقيت محصورة فى دائرة الاحتمالات. ثم أخيراً يأتى عنصر المفاجآت التى لا يمكن حسابها بالكمبيوتر، والتى تتجاوز إرادة الإنسان وتستعصى عليها، وكأنما تهبط من السماء أو تخرج من الأرض أو تنفجر وتثور كما تنفجر البراكين دون مقدمات.

على أن العامل الحاسم فى كل ما يُنتظر وقوعه من تغيرات، سوف يظل مرتبطاً بدرجة أو بأخرى بما يقع من تحولات، وما يُتخذ من قرارات، وما يُرتكب من أخطاء داخل الدائرة الحاكمة فى البيت الأبيض.. حيث لم يعد شك فى أن العالم أصبح بإزاء دولة عظمى تهيأت لها فى العصر الحديث أقصى إمكانات القوة الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية. فهى تتصرف وتمشى وتتكلم كإمبراطورية عظمى. وتتخذ منها دول العالم الأخرى أحد مواقف ثلاثة:

إما أن تنحاز إليها وتمالئها وتساندها فى كل تصرفاتها، سعياً لنيل رضاها وتأمين مصالحها والدفاع عن نفسها. وإما أن تسعى إلى الحد من اندفاعاتها وكبح جماح تصرفاتها خوفاً من ضياع مصالحها. والفريق الثالث هو الذى لا حيلة له ولا رأى ولا موقف. فلا يملك غير التسليم بكل ما تطالب به القوة العظمى.

ومن هنا فلا حاجة بنا إلى القول بأن عنصر الحسم فى كثير مما سيأتى به المستقبل القريب، سوف يتوقف على انتخابات الرياسة الأمريكية ومن سيجلس فى البيت الأبيض. وخلال أيام قليلة يتحدد اسم المرشح الديمقراطى فى الانتخابات الأولية. ولعدة شهور قادمة سوف يتعين علينا أن نعتمد على استطلاعات الرأى وقياسات اتجاهات الرأى العام التى أظهرت فارقًا يتراوح بين ست وعشر نقاط صعوداً وهبوطاً بين الرئيس بوش الذى سيخوض المعركة مستنداً إلى نفوذه ووجوده فى البيت الأبيض. وبين أحد المرشحين الديمقراطيين: هوارد دين أو كيرى، الذى ترجح المؤشرات اختيار أحدهما لمنافسة بوش.

وبينما تكشف الأرقام الحالية تأييد نحو ٦٠٪ من الشعب الأمريكى لسياسات الرئيس بوش فى العراق، واقتناعهم بوجود صلة ما بين التورط الأمريكى فى الحرب على العراق واستمرار الحرب على الإرهاب، فإن الموقف المائع للتردد الذى اتخذه هوارد دين أقوى المرشحين الديمقراطيين، الذى رفض مبررات الحرب ولكنه لم يستطع إدانتها بشكل قاطع.. لن يكون كافياً لتغيير كفة الموازين الراجحة إلى جانب بوش.

وسوف يكون من الصعب لفترة قادمة التكهن بما تحمله الظروف من تطورات قبل الانتخابات الرياسية فى نوفمبر المقبل.. قد يقدم بوش على بعض قرارات استعراضية ضد سوريا أو للقبض على بن لادن. ولكن الوجود العسكرى الأمريكى وما تواجهه قوات التحالف فى العراق من عمليات استنزاف بطيئة سوف يظل ذا تأثير نفسى وسياسى بالغ، إلى جانب حملات التخويف والرعب المستمرة من تعرض الأمن القومى الأمريكى داخليًا وخارجيًا لتهديدات جماعات الإرهاب، وذلك أشبه بلعبة الكرات التى يلقيها لاعب السيرك تباعاً إلى أعلى فى وقت واحد ويلتقطها دون أن تسقط منه على الأرض. فإذا أضفنا إليها الأوضاع الاقتصادية والجهود الفائقة لتحقيق تحسن ولو بطىء فى نسبة البطالة، حتى وإن كان على حساب الزيادة الرهيبة فى عجز الميزانية وانخفاض سعر الدولار أمام العملات العالمية، فإن موقف الرئيس بوش سيظل خاضعاً لعوامل لا يملك السيطرة عليها تماماً. وإن كان من السهل على أى رئيس جالس فى البيت الأبيض أن يستغل مكانته ونفوذه والأغلبية الجمهورية التى يسيطر عليها فى الكونجرس، لاستصدار قوانين وانتهاج سياسات تضمن له الفوز فى النهاية، ولم يكن القرار الذى اتخذه بوش أخيراً بالسماح لحوالى ٨ ملايين من المهاجرين غير الشرعيين القادمين من دول أمريكا اللاتينية بالحصول على تراخيص عمل، غير واحدة من هذه الحيل التى يسعى من خلالها إلى كسب أصوات جانب كبير من أصوات الأمريكيين من أصول لاتينية. ومعنى ذلك أنه مالم تحدث كارثة كبرى فى العراق فإن فرص بقاء بوش فى البيت الأبيض تظل راجحة حتى إشعار آخر.

لا يحتاج الأمر إلى جهد كبير لاستنتاج أن الأحداث الرئيسية التى وقعت فى العام الماضى، سوف تصاحبنا صعوداً

«وجهات نظر».. فى عامها السادس

بهذا العدد تكون مجلة «الكتب.. وجهات نظر» قد أكملت عامها الخامس ودلفت إلى عامها السادس. وخمسة أعوام فى عمر مجلة تعنى بشئون الثقافة والفكر والسياسة، يحتضنها قارئها ويسعى إليها، وتتواصل مع دوائر تزداد اتساعًا فى أنحاء الوطن العربى، لهو دليل على قدرتها على مواجهة التحديات والصعاب، فى محيط عربى تتكاثر عليه الهموم والمشكلات التى قد تصرفه عن القراءة بل وعن التفكير!

أن يقع القارئ العربى فى هذه المجلة على ما يروى ظمأه إلى المعرفة التى تقول تقارير التنمية الإنسانية أن العالم العربى وهو يتطلع إلى إقامة «مجتمع المعرفة» لابد أن يسعى إليها، فذلك هو الهدف والغاية التى أخذت هيئة تحرير المجلة نفسها به من أجل تحقيقه، وهى تتفتح على مجالات واسعة من الموضوعات والكتب والأفكار التى تجعل منها جسراً للثقافة والفكر والحوار بين عالمين. ومازال شعارها كما هو دائماً: مجلة مختلفة لقارئ مختلف.

وفى هذه المناسبة فإن «وجهات نظر» ترحب بكل ما يعن لقارئها من ملاحظات وآراء ومقترحات، وقبل كل شىء ما يوجهه من نقد ومساءلة، سعيًا إلى الأفضل والأرقى والأكمل فى نظر القارئ.

(المحــرر)

إنه عام التفكيك والتركيب

"نوح"

وهبوطاً خلال هذا العام. ولا حاجة إلى التأكيد على أن حقبة جديدة قد بدأت في العراق وربما في المنطقة كلها، وبعد أن سقط العراق في أيدى قوات التحالف بقيادة القوات الأمريكية وغاصت أمريكا في تعقيدات الموقف العراقي وتصاعد المقاومة، تبخرت معظم موجات التفاؤل التي سيطرت على الإدارة الأمريكية في بادئ الأمر وأصبح الأمل هو في خروج أمريكي مبكر، بشرط ألا تضيع من بين يديها الأهداف الاستراتيجية التي زينت للمحافظين الجدد طريق الحرب على العراق.

ويمكننا أن نرى الآن كيف ينتظر أن يتداعى الموقف على النحو الذى تخطط أمريكا له في العراق على امتداد الشهور القليلة القادمة.

هناك مجلس حكم انتقالى جرى تشكيله ـ على عجل ـ من القوة الرئيسية التي ترى واشنطن أنها قادرة على التأثير فيها لصياغة عراق جديد، أعطت فيها لكل من الأكراد والشيعة تمثيلاً يرضى طموحات الفريقين، ولكنه لا يلبى مطالب الوضع التاريخى التقليدى للسُنة التي أمسكت مقاليد الحكم في العراق قروناً متعاقبة. ويشعر السُنة بالفعل أن قوة الاحتلال الأمريكية لا تألو جهداً في تهميشها. كما أن الوضع القوى الذى اكتسبه الأكراد في ظل الحكم الذاتي الذى مارسوه تحت حماية قرار الحظر الأمريكي البريطاني الذى ظل مطبقاً على العراق أكثر من عشر سنوات، من ناحية.. واقتناع الشيعة بأنهم يمثلون الأغلبية السكانية في العراق وأنه قد آن الأوان للحصول على نصيب من السلطة يوازى تعدادهم من ناحية أخرى، لا يدع مجالاً للشك في أن مصير دولة العراق الواحدة يواجه تحديات صعبة.

وما يثير القلق هو أن وحدة العراق لا تبدو بالنسبة لأمريكا أمراً مقدساً أو غير مطروح للنقاش، بل إن العكس صحيح. فقد طرحت في واشنطن أفكار ومقترحات لبعض الدوائر النافذة في رسم السياسة الخارجية، تدعو إلى التقسيم: أكراد في الشمال، شيعة في الجنوب، مثلث سُنى في الوسط. ومما يعزز هذه الشكوك أن قوات الاحتلال سعت منذ بداية دخولها للعراق إلى تحطيم الدولة وأجهزتها ومؤسساتها وقدمتها لقمة سائغة لعمليات نهب منظم استمرت أسابيع طويلة. وجرى تطهير جهاز الدولة من عشرات الألوف من الموظفين بحجة انتمائهم لحزب البعث.

ويزداد الموقف تعقيداً إذا لاحظنا أنه رغم الضغوط الدولية، واقتناع أغلبية أعضاء مجلس الحكم بضرورة إشراك الأمم المتحدة في عملية نقل السلطة حتى لا يظل الوضع بأكمله في يد قوات الاحتلال، فإن أمريكا لا تريد أن تتخلى بسهولة عن خططها في العراق.. على أساس إقرار قانون أساسى مؤقت، يتمخض عن تشكيل جمعية تشريعية تنبثق عنها حكومة مؤقتة تتولى وضع الدستور على أن يتم ذلك في شهر يونيو، على رجاء بأن تهدأ الأوضاع بانتقال السلطة مع بداية العام القادم إلى أيدى العراقيين أنفسهم، وتتهيأ للرئيس بوش ظروف مواتية لخوض معركة انتخابية مضمونة النتائج، بعيداً عن الأخبار المزعجة التي تتدفق على الرأى العام الأمريكي يومياً من العراق.

ولكن هل تأتى رياح المشكلات والخلافات التي بدأت تطفو على السطح بين الأكراد والشيعة، وبين الشيعة والسُنة، بما يشتهى ربان السفينة الأمريكية؟ وهل يبقى العراق وحدة واحدة، أم ينجح الأكراد في فرض الخيار الفدرالى أو الكونفدرالى؟ وهل تحتفظ قوى الجوار الإقليمى بهدوء أعصابها. وهى ترى انفصال الأكراد، أو هيمنة الشيعة، أو تهميش السُنة؟

لن يستطيع أحد الحيلولة دون تقسيم العراق غير العراقيين أنفسهم. ولكن إلى أى مدى سوف تنجح القوى العراقية على اختلاف أشكالها وتوجهاتها في الحفاظ على وحدة الدولة وتماسكها؟ هذا هو سؤال عام ٢٠٠٤ الذى لا توجد له إجابات قاطعة. كما لا توجد إجابات واضحة عن الغايات الحقيقية للضغوط الأمريكية على سوريا، وقانون محاسبة سوريا الذى أصدره الكونجرس بقصد تضييق الخناق على النظام البعثى المتمرد الذى يقوده بشار الأسد.. فبعد أن وقّعت إيران على البروتوكول الإضافى لاتفاقية منع الانتشار النووى، ومن خلال دبلوماسية المساعدات الإنسانية في مواجهة كارثة الزلزال، تحاول واشنطن إغراء إيران لكى تتخلى عن كثير من سياساتها المتشددة، سواء بالوقوف إلى جانب حزب الله اللبنانى أو مساندة الشيعة في العراق، أو تشجيع سوريا وتعضيدها.. بحيث لا يبقى أمام سوريا مفر من الاستجابة للمطالب الأمريكية بالتخلى عن الأسلحة المحظورة واقتفاء آثار ليبيا، والانسحاب من لبنان، والتخلى عن تأييد الفصائل الفلسطينية واللبنانية التي تتهمها أمريكا بالإرهاب، تحقيقاً للظروف التي تسمح لإسرائيل بالسلام الذى تريده بشروطها مع الفلسطينيين، وليس بالشروط التي تم التوافق عليها دولياً فيما يسمى بخريطة الطريق.

ويبدو أن مصر انحشرت في موقف يزداد صعوبة وتعقيداً.

فهى من ناحية تواجه موقفاً ليبياً أقل ما يوصف به أنها لم تكن تتوقعه أو على علم بخفاياه وأسراره وصفقاته وما يمكن أن يتطور إليه. وهى من ناحية أخرى تؤيد الموقف السورى الرافض للتخلى عن الأسلحة المحظورة إلا في إطار إخلاء كامل لأسلحة الدمار الشامل في المنطقة كلها بما في ذلك إسرائيل ببرنامجها النووى غير المُعلن. وعلى الرغم من أن العزلة التي شعرت بها سوريا قد دفعتها إلى محاولة الخروج من طوق تمسك إسرائيل بمقوده، فسارعت إلى عرض الدعوة لاستئناف مفاوضات السلام مع إسرائيل، إرضاءً لأمريكا وللعناصر الموالية لإسرائيل فيها، إلا أن شارون رفض أن يترك فرجة ولو صغيرة في جدار الغطرسة الإسرائيلية، فأكد أنه حتى مع المفاوضات فلن تحصل سوريا على كل أراضيها في الجولان.

لن يستطيع أحد الحيلولة دون تقسيم العراق غير العراقيين أنفسهم. ولكن إلى أى مدى سوف تنجح القوى العراقية على اختلاف أشكالها وتوجهاتها في الحفاظ على وحدة الدولة وتماسكها؟ هذا هو سؤال عام ٢٠٠٤ الذى لا توجد له إجابات قاطعة

غير أن أسوأ ما يمكن أن يحدث في العام الحالى هو وصول الأوضاع الفلسطينية إلى الحضيض، في ظل كارثة معلقة فوق رءوس الجميع، يكتمل من خلالها إقامة الحاجز العنصرى الإسرائيلى تاركاً خلفه مجموعة من الكيانات الفلسطينية المنفصلة والمعزولة عن بعضها البعض، فيما يشبه معسكرات الاعتقال الفاشية التي تسمح بتحقيق حلم «الترانسفير» اليهودى بالتدريج، أى بخروج الفلسطينيين وهجرتهم بعيداً عن أراضيهم.. فلا يبقى في هذه المعازل غير مجموعات فلسطينية مستسلمة لمصيرها ومستعدة لقبول الشروط الإسرائيلية، بعد أن يكون قد تم تصفية معظم الكوادر الفلسطينية التي تحمل السلاح أو القادرة على حمل السلاح.

وإذا كانت بعض أطراف عربية مازالت تلعب اللعبة الأمريكية في انتظار حدوث معجزة، فإن المؤكد أن إدارة بوش قد استقر رأيها على عدم التدخل، ليس فقط بسبب الانتخابات ولكن أيضاً لأن سياسات شارون نجحت في خفض درجة العنف وحدّت من العمليات الانتحارية وأصبح الجدار الأمنى وسيلة مقبولة من جانب أمريكا، بل ومن جانب دول الاتحاد الأوروبى، على الرغم من بعض الاعتراضات الشكلية هنا وهناك.

وقد يصعب تصور المتاهة التي يجد العرب أنفسهم فيها، وهم يشعرون بالعجز عن التأثير في الأوضاع الراهنة في العراق، وهى تتشكل أو تتفاقم ثم تتدهور تحت أعينهم وتتبخر معالم القضية الفلسطينية وتتطاير أوراقها في الهواء، بينما لا يكف العرب عن التوسل للأمريكيين تارة وللأوروبيين تارة أخرى بل وللإسرائيليين في نهاية المطاف من أجل تسوية سلمية ترفض إسرائيل

إنه عام التفكيك والتركيب

“ نوح ”

شروطها مسبقًا جملة وتفصيلاً.. وتعجز الفصائل الفلسطينية فى الاتفاق على البديل. وكل الشواهد تشير إلى موت «خريطة الطريق» كما كانت «أوسلو» قبلها.. فما الذى يمكن أن يحدث بعد تفكيك الأوضاع الفلسطينية على هذا النحو؟

فى غياب القدرة على الاتفاق على خيار فلسطينى عربى واحد، فلن يبقى غير ما يفرضه الآخرون من خيارات! ويبقى مصير الجامعة العربية مرتبطا بمصير القضية الفلسطينية!

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن العام ٢٠٠٤ حافل باحتمالات التغيير فى عدد كبير من الدول الأوروبية بسبب الانتخابات أو بسبب طبيعة العلاقات التى تربطها بالولايات المتحدة. فإن الارتكان إلى ما يمكن أن يمنع أو يخفف الضغوط الأمريكية والإسرائيلية، يظل ضربًا من الوهم.. وسوف ينعكس هذا بصورة واضحة فى الانتخابات البرلمانية للاتحاد الأوروبى فى يونيو القادم بعد انضمام ١٠ دول أوروبية توسع نطاق عضويته إلى ٢٥ دولة. وتشكل هذه الدول الجديدة طابورًا خامسًا لحساب أمريكا داخل الاتحاد الأوروبى. وقد ظهرت إرهاصات هذا الخلل فى مواقف عديدة من هذه الدول من مشكلة العراق. وفى تراجع مفوضية الاتحاد الأوروبى عن نتائج الاستطلاع الذى انتهت فيه النتائج إلى اعتبار إسرائيل عدو السلام الأول فى العالم. والاستسلام لابتزاز القوى الصهيونية التى اتهمت الاتحاد الأوروبى بالترويج لمعاداة السامية. وقد يضاف إلى ذلك احتمالات التغيير الناجمة عن الانتخابات التى ستجرى فى إيران والجزائر.. وكلا البلدين يمثلان تجربتين مهمتين فى العالم الإسلامى: تدعم كل منهما درجة الاستقرار أو عدمه فى محيطهما الإقليمى ويجعلان من الديمقراطية خيارًا قابلاً للاستمرار أو الانكسار.

وما يحدث فى العراق لا يمكن فصله عما يحدث فى السودان أو ما يجرى من تحولات مفاجئة فى ليبيا.. ثمة خيط تلتئم فيه الأوضاع الداخلية للعالم العربى، ولا يمكن فصلها أو فصمها عن الأخطار والتهديدات الخارجية التى تناوشه وتناوئه. فالتغيير الذى حدث بالحرب فى العراق والذى بدأت تداعياته منذ عام مضى، يحدث موازيًا له تغيير مشابه وإن بقتال من نوع آخر فى السودان، وتغيير ثالث بأسلوب التفاعل الذاتى فى ليبيا. والبقية تأتى على امتداد العالم العربى.. الذى تتوالى الضغوط الخارجية وتتكاثر المشروعات والمبادرات لإصلاحه وتأهيله داخليًا وخارجيًا ليصبح أكثر قدرة على التكيف مع الاستراتيجيات والمصالح الأمريكية.

ومنذ أحداث سبتمبر أصبح التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى يكتسب نوعًا من المشروعية الدولية لم تعد تعارضه الأمم المتحدة. تحت غطاء الدفاع عن الأقليات ومنع التطهير العرقى والدفاع عن حقوق الإنسان كما حدث فى البلقان. أو لإزاحة نظام متهم بمساندة الإرهاب وحيازة أسلحة الدمار الشامل التى تهدد الجوار الإقليمى كما فى أفغانستان ثم فى العراق، أو لوقف حرب أهلية وإرغام النظام على تقاسم السلطة كما فى السودان. وتبدو المشكلة الأزلية والقاسم المشترك الأعظم بين النظم السياسية فى العالم العربى، متركزة فى غياب الديمقراطية وإدمان القوى الحاكمة على البقاء فى السلطة، وقمع القوى السياسية المعارضة، والعجز عن إصلاح النظم السياسية بما يضمن حرية التعبير والتعددية وتمكين المرأة من حقوقها الاجتماعية والسياسية، وهو ما اعتبر من وجهة نظر المجتمع الدولى أو القسم الأكبر منه المصدر الرئيسى للإرهاب، والتعصب، ونمو الحركات الدينية المتطرفة.

ونتيجة لضغوط أمريكية مكثفة عبرت عن نفسها فى مبادرات للشراكة الأمريكية، تقابلها من الناحية الأخرى مبادرات للشراكة الأوروبية، أخذت منذ العام الماضى تحاصر الدول العربية، من الناحيتين. وإن كانت «الشراكة الأمريكية» تبدو أكثر جراة واقتحامًا للأوضاع العربية والإسلامية. يزداد الضغط على النظم السياسية العربية بأساليب عسكرية واقتصادية، وبحملات فكرية وإعلامية لدفعها إلى اتخاذ خطوات سياسية إصلاحية، وتغيير مناهجها التعليمية والدينية، وترويج الأفكار الليبرالية، وتفكيك التحالفات الإقليمية التى وقفت فى وجه المصالح الأمريكية والإسرائيلية وما تعتبره واشنطن شروطًا لتحقيق السلام والتقدم فى المنطقة.

وبدرجات متفاوتة أخذت معظم الدول العربية تستجيب لهذه الضغوط والمبادرات.. بعضها بادر سرًا أو جهرًا إلى تنقية المناهج التعليمية والدينية، وتحديث الخطاب الدينى فى المساجد وفى أجهزة الإعلام، والتضييق على الأفكار السلفية المتشددة. وإفساح المجال للمطالبات الإصلاحية من جانب المفكرين والمثقفين فى محاولة دائبة للتأثير على المجتمع الدينى وتسليط الأضواء على الظاهرة الإسلامية وتفكيك العلاقة بينها وبين الدولة أو النظام السياسى.. وفى خط مواز لذلك، أقدمت بعض دول عربية على تشكيل مجالس للشورى أو السماح لأنشطة جماعات حقوق الإنسان والمجتمع المدنى بممارسة بعض الفعاليات. ولكن على كثرة ما عقد من مؤتمرات وندوات وما ألقى من محاضرات حول محاسن الديمقراطية وضرورات الإصلاح السياسى وتحسين وضع المرأة.. فمازال السؤال الذى أعيا المجتمعات العربية، ولم تتحول معه بعد من مرحلة التنظير إلى مرحلة التطبيق هو إلى أى مدى يمكن أن تكون الديمقراطية خدمة للمصالح الأمريكية؟ وهل تستطيع المجتمعات العربية استيعاب وهضم الأفكار والمشروعات الأمريكية لدمقرطة العالم العربى. دون أن تفقد النظم القائمة مشروعيتها أو تتعرض لتقويض قوائمها؟

وحتى هذه اللحظة، مازالت الأوضاع الداخلية فى معظم الدول العربية عاجزة عن الرد على الأوضاع والتحديات الخارجية. وما حدث فى ليبيا جاء امتدادًا لما جرى فى دول عربية أخرى قايضت استمرار النظام بخدمة المصالح الأمريكية.. ومازالت معادلة الاستبداد التى أفضت إلى ما أفضت إليه فى العراق من غزو واحتلال وانهيار يهدد كيان الدولة. هى نفسها وبدرجات متفاوتة تتكرر فى أقطار أخرى وتهدد النظام العربى بالتفكيك والانهيار. وكل ما حدث من إصلاحات وتغيرات داخلية فى عديد من الدول العربية لا يخرج عن كونه نوعًا من عمليات «شد الوجه» لنظم سياسية مترهلة. لا يكاد يمضى بعض الوقت حتى تعود الوجوه إلى تغضناتها وتجاعيدها السياسية السابقة.

وربما كانت مصر من أهم الدول العربية التى سوف تجد نفسها مع نهاية عام ٢٠٠٤ فى مفترق طرق صعب، يتعين عليها أن تحسم أمرها وتحدد خيارها فيه. ولا يبدو فى نهاية الأمر أن أمام مصر غير خيار واحد هو خيار الديمقراطية الصحيحة التى تكتسب صدقيتها من استعادة ثقة الشعب بنظامه السياسى، دون اللجوء إلى فنون الترقيع والمسكنات، ودون الاعتماد على ترزية القوانين وترزية السياسات. وهى مشكلة يصعب التنبؤ بمسارها.

صورة العالم العربى كما نراها من حولنا إذن سوف تشهد كثيرًا من التغيرات والتحولات الجوهرية خلال هذه السنة. بعضها سيكون مفروضًا عليه من جانب قوى خارجية. والبعض الآخر بفعل عوامل داخلية، ولكن الحال لن يبقى على ما هو عليه. والأمر يتوقف فى النهاية على الكيفية التى سيتعامل بها العرب مع العالم أو التى سيتعامل بها العالم مع العرب!

إن أسوأ ما يمكن أن يحدث فى العام الحالى هو وصول الأوضاع الفلسطينية إلى الحضيض، فى ظل كارثة معلقة فوق رءوس الجميع، يكتمل من خلالها إقامة الحاجز العنصرى الإسرائيلى تاركًا خلفه مجموعة من الكيانات الفلسطينية المنفصلة والمعزولة عن بعضها البعض

مسلمون ولكن

حتى سنوات قليلة مضت، لم يكن التواجد الإسلامى فى أوروبا الغربية يمثل مشكلة كبيرة سوى لأفراد هذه الجاليات أنفسهم. فالأوروبيون اعتبروا هؤلاء المهاجرين عمالة رخيصة سرعان ما ستذوب فى المحيط الغربى الكبير بينما نظرت الدول العربية والإسلامية إلى «أبنائها فى الخارج» باعتبارهم رصيداً متقدمًا يضخ الأموال «بالعملة الصعبة» لإنقاذ الوطن الأم من أزماته المتلاحقة.

فى الواقع كانت المشاكل من نصيب هؤلاء المسلمين «الأوروبيين» الذين عانوا من التمييز بكافة أشكاله ومن البطالة وعدم القدرة على التكيف مع بيئة مغايرة وقيم أكثر اختلافًا. وكان الأمر أكثر إشكالية بالنسبة للجيل الثانى جيل الأبناء والأحفاد. وعندما كانت تثور مشكلة بين هذه الجاليات والدولة «الأوروبية» لم يكن هناك من يدافع عن هذه الجاليات من دولهم الأم، فالكل يعانى المشاكل وليس فى حاجة إلى المزيد.

إلا أن النهر «الإسلامى» فى أوروبا تدفقت فيه مياه كثيرة خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين وجاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتحول الأمر من قضية إلى مشكلة ثم فى بعض الأحيان إلى أزمة. فإذا كان الغربيون - الأمريكيون تحديداً - أصبحوا ينظرون إلى المسلمين بشكل عام بنوع من الريبة فإن المسلمين «الأوروبيين» دخلوا فى دائرة الاتهام. وبعد أن كانت الدول العربية والإسلامية لا تهتم سوى بالجانب «المادى» لهذه الأقليات جرى اعتبارها بمثابة معامل لتفريخ التطرف والإرهاب الذى يستهدف أيضًا البلدان الأم.

ثم جاءت مشكلة الحجاب فى فرنسا لتثير المخاوف الأوروبية مجدداً من هذه القوة الصاعدة : تقريبًا ٢٠ مليون نسمة، فالذوبان لم يحدث، والدفاع عن الهوية والدين على أشده، ثم إن الاختلافات بين فقهاء الدول الإسلامية والعربية فاقمت من مشكلة الحجاب ولم تحلها.



فى خضم هذه الأوضاع، ظهر على الساحة الأوروبية صوت إسلامى جديد أهم مقوماته أنه ولد فى الغرب وتعلم فى مدارسه ومعاهده. وأصبح أستاذًا فى جامعاته. صوت نظر إلى الظاهرة الإسلامية فى أوروبا بمنظور مختلف أثار عليه العلمانيين الأوروبيين خاصة الفرنسيين بينما انبهر به آخرون واعتبروه بمثابة «مارتن لوثر» الإسلام، فيما اختارته مجلة التايم كأحد المجددين المائة فى القرن العشرين فى عددها التذكارى الذى صدر مع نهاية القرن.

فى كل الأحوال تحدث الرجل فخرج بفكر مختلف وألقى بحجر فى بحيرة راكدة لا يريد إلا القليل من الناس أن تعود إليها حيويتها. لقد اتخذ الدكتور طارق رمضان المولود فى سويسرا عام ١٩٦٢ الأستاذ فى جامعة فريبورج فى سويسرا حاليًا وحفيد الإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، من مشاكل المسلمين فى أوروبا منطلقًا لإخراج المسلمين جميعًا من عثرتهم. وطرح أفكاراً جديرة بالنقاش والاهتمام داخل بلاد الإسلام ذاتها.

تناقش «وجهات نظر» بعضًا من جوانب القضية فى ملف يشمل مقالاً لطارق رمضان وعرضًا لكتابه الأهم «أن تكون مسلمًا أوروبيًا» ورأيًا للدكتور القرضاوى فى الموضوع.

المحرر

.. «أوروبيـــــــــــون»

طـــــــارق رمضــــــان

الحياة الإسلامية فى أوروبا دخلت طوراً جديداً... اصطبغت بصبغة جديدة... ارتأت فى اختلاط المسلمين مع المجتمعات الأوروبية طريقاً جديداً، سيساعدهم على تنظيم أنفسهم، وتمثيل أنفسهم فى المجالس النيابية، بأسلوب جديد. يكون أكثر فعالية عن ذى قبل. إلا أن هذا وحده لا يكفى... فحتى لو كان الرأى الإسلامى الأصيل فى أوروبا يتبنى ذلك الموقف الجديد. وبدون أدنى تأثير من «الخارج» (الدول الأم). فإنه ما زالت هناك قوى متنافسة ومتصارعة تستشرى فى داخل المجتمعات المسلمة بأوروبا.

شهدت السنوات الخمسة عشر الأخيرة تغيراً ملحوظاً فى حياة المسلمين الأوروبيين. فها هم الأطفال المسلمون ينضجون ويكبرون... فيقفزون إلى الأمام، ويثبون إلى المقدمة، ليحدثوا ثوراناً وهيجاناً فى أوساط آبائهم وأمهاتهم: فإذا بنا نسمع أصواتاً جديدة تتحدث عن المواطنة والمشاركة السياسية، بل وتطالب بحقوق موروثة لها فى الجنسية؛ وإذا بنا نرى توالداً سريعاً للروابط والمؤسسات الإسلامية؛ وإذا بنا نلمس إصراراً واضحاً على محاربة التمييز والعنصرية فى مجالات عدة: فى العمل، فى دور العبادة، فى الدعم الحكومى.. إلى آخره. نعم.. إن كل هذا يحدث فى أنحاء أوروبا الآن، إلا أنه يتفاوت من دولة إلى دولة؛ تبعاً لاختلاف توقيت قدوم المسلمين وهجراتهم؛ أى حسب فترة الوجود الإسلامى فى كل دولة أوروبية. ولكن علينا أن نؤكد، فى النهاية، بأنه لا دخول للمسلمين فى «المصنع الأوروبى» إلا من خلال ثلاثة أبواب أساسية: التمسك، وبإصرار، بحق المواطنة؛ الاندماج والامتزاج فى المجتمع وفى السياسة على كافة المستويات؛ وأخيراً المطالبة باستقلال تمويلى وسياسى.

وأوروبا ليست أرضاً عذراء؛ ومن ثم، فإن عملية الامتزاج والتداخل ليست بعملية صعبة؛ وإنما يمكن تحولها إلى حقيقة... لولا بقاء تلك النظرة التقليدية، التى ما زالت مسيطرة على الدول الأم؛ تلك النظرة التى ما زالت تصور المسلمين الأوروبيين، وكأنهم ملك خاص للدول الأم؛ فتعاملهم بنفس القواعد، وبنفس المناهج، التى تعامل بها مواطنيها.

فى الفترة ما بين ستينيات وثمانينيات القرن العشرين، برزت روابط عديدة، تجمع المغتربين من مختلف أنحاء أوروبا، ذوى الجنسية الواحدة، مع بعضهم البعض؛ فكانت هناك رابطة الجزائريين؛ ورابطة التونسيين؛ ورابطة الأتراك؛ ورابطة المغاربة. كان الهدف من وراء ذلك، هو إتاحة الفرصة لجمع الشمل، إلا أنه أتاح بالمثل الفرصة للسفارات، لكى تراقب «رعاياها» بسهولة ويسر. كنا نتوقع. فى ظل التغيرات والتطورات الجديدة التى طرأت على أوروبا، والتى ذكرناها سالفاً. تضاؤل أثر هذه الروابط، وانحصار المراقبة فى يد الدول الأوروبية، المضيفة. إلا أن شيئاً لم يحدث من ذلك؛ بل حدث العكس تماماً.

باسم الأمن؛ تقبع أوروبا كلها تحت عين مخابراتية دقيقة وفاحصة. عين الدول الأم. مستهدفة «المنشقين الوطنيين». تلك العين التى تتخفى وراء القضايا السياسية المنتقاة من قبل أجهزة الإعلام. أمثال قضية المنشق المغربى مؤمن ديورى. وتعتبر أجهزة المخابرات التونسية من أكثر الأجهزة فعالية فى هذا الشأن. وهى تشترك مع نظائرها (المغربية، والجزائرية، والتركية، وحتى السعودية) فى التواصل مباشرة مع السفارات، فى جمع المعلومات، فى اختراق الروابط، فى مراقبة المساجد، وأخيراً فى حضور الندوات والمؤتمرات بغية التأكد والتثبت من أن صوتها مسموع فى النهاية. ولا يكتفى موظفو الاستخبارات بهذه المهام، بل يضيفون إليها «أعمال العلاقات العامة»، ومد الجسور مع موردى المعلومات، بدءاً من الصحفيين وصولاً إلى أعلى وأرقى المستويات فى داخل الحكومة؛ لاعبين. من خلال ذلك. على الوتر الحساس الذى يسمى «الخطر الإسلامى»[1].

إن هذه الوكالات الاستخباراتية، التى تعمل لحساب الدول الأم، تشكل جيشاً عرمرماً فى أنحاء أوروبا؛ وهى تستخدم حجة «اهتمامها بالمشكلة الإسلامية» لكى تمارس تأثيراتها السياسية الضاغطة. وهى لا تكتفى بوضع عينها على منشقيها. لكى تطفئ تعطشها نحو الأمن والأمان. بل إنها تضع عينها أيضاً على المواطنين البريطانيين، والإيطاليين، والفرنسيين، والبلجيكيين.. لمجرد أنهم ذوو أصول مسلمة، ومنتمية للدول الأم. ولا يقف الأمر عند هذا الحد؛ فإذا ما فكر هؤلاء المواطنون يوماً فى زيارة أوطان آبائهم وأجدادهم (التى لم يعودوا ينتمون إليها من ناحية المواطنة)، فهم يظلون خاضعين لاستجوابات وتحقيقات مطولة، لا نهاية لها، عن أنشطتهم واتصالاتهم[2].

والتدخلات المستفزة للسلطات الأمنية على الأراضى الأوروبية ليست المصدر الوحيد للإزعاج؛ وانما يوجد مصدر آخر، ألا وهو: استمرار سعى الدول الأم وراء الهيمنة الكاملة على المؤسسات الإسلامية المعروفة فى أوروبا. فبجانب تمويلها للمساجد الكبرى. مثل تلك التى فى روما، مدريد، باريس، ليون، جنيف، ولندن. تصر هذه الدول على أن يكون لها هيمنة سياسية محكمة وواضحة على تلك المساجد. ومن ثم، كان من الطبيعى جداً، أن تصير جميع التعيينات فى تلك المؤسسات، سواء كانت المساجد أو غيرها، نابعة من قرارات الدول الممولة.

وتحتل دول اسلامية معينة أهمية متنامية وتواجداً متصاعداً فى أنحاء أوروبا، من خلال مساجدها[3]، ومن خلال أيضاً مكاتب منظمة المؤتمر الإسلامى؛ راغبة فى الأخذ بزمام القيادة.. قيادة المسلمين الأوروبيين. وفى ظل السنوات الأخيرة، قامت السعودية بالتعاون مع المغرب فى هذا الصدد، مما ضاعف ووطد من اتصالاتها مع المسلمين الأوروبيين؛ مستخدمة المسلمين الجدد كركيزة وكقاعدة أساسية لجهودها. وبالرغم من اعتبار السعودية الدولة الرائدة فى «التأثير»، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل «الدور» الذى تقوم به الجزائر (وخاصة فى فرنسا)، وكذلك «دور» كل من تونس وتركيا. فهذه الدول الثلاث تسير على نفس الدرب: من تمويل الأماكن المخصصة للعبادة، إلى دفع رواتب أئمة المساجد، إلى بناء المراكز التى تمكن هذه الدول من وضع أحوال المسلمين. وبالأخص وضع «الإسلام الأوروبى». تحت المجهر.

هذا التواجد لايمكن اغفاله، فأنت تلمسه من أول وهلة.. عليك أن تنظر فقط إلى الطريقة التى يمثل من خلالها المسلمون فى أنحاء أوروبا، وستلحظ على الفور ما نقوله. فعبر سفاراتها، تستخدم الدول المسلمة اليد العليا، وبطريقة مباشرة بل وعلى أعلى مستوى، فى عملية تنظيم وهيكلة المجتمعات الإسلامية. فقامت المغرب بمراقبة الانتخابات البلجيكية؛ متابعة جميع خطواتها ومراحلها (أنظر مقالة ليونيل باناڤيت). وفى

التدخلات المستفزة للسلطات الأمنية على الأراضى الأوروبية ليست المصدر الوحيد للإزعاج؛ وإنما يوجد مصدر آخر، ألا وهو: استمرار سعى الدول الأم وراء الهيمنة الكاملة على المؤسسات الإسلامية المعروفة فى أوروبا

إيطاليا، قامت المغرب أيضاً، ومن خلال سفارتها، بالتدخل مباشرة مع الحكومة الإيطالية، لمنع توقيع الـ intensa (وهى وثيقة تحتوى على اتفاقية رسمية بين الدولة الإيطالية والمنظمة التى تمثل المسلمين فى داخل إيطاليا)[4]؛ وذلك ليكون لها وضع مميز فى المناقشات[5]. أما السعودية ومصر... فكل منهما يدلى بدلوه فى المناقشات التى تتعلق بالمسلمين المتواجدين فى بريطانيا؛ وبالنسبة إلى تركيا، فحدث ولا حرج... فتأثيرها يُشم فى كل أرجاء ألمانيا، من خلال مؤسسة Dyanet، وهى مؤسسة شبه رسمية تابعة للحكومة التركية. وأخيراً فى فرنسا، نجحت كل من الجزائر والمغرب وتركيا والسعودية فى بسط تأثيرها على الحكومة الفرنسية، عندما ألجأت الأخيرة إلى الإشادة والاعتراف بجميع مساجدها ومؤسساتها[6].

ومن أجل إحكام القبضة الدينية، تقوم الدول المسلمة بتغذية المساجد الأوروبية بأئمتها ومشايخها وعلمائها. فتبعث الأئمة فى أكثر الأوقات ملاءمة ومناسبة لرفع معنويات المسلمين، مثل شهر رمضان، على ألا ينحصر دور هؤلاء الأئمة فى إمامة الصلاة، بل يتطرق أيضاً إلى إلقاء الدروس. فكل عام، تقوم السعودية، مصر، المغرب، وتركيا بإرسال وفود كبيرة من العلماء المسلمين إلى أوروبا، لأسباب مشوشة غير واضحة: فالبعض يذهب لجمع المعلومات؛ ولكن البعض الآخر يذهب حاملاً معه دروساً تقليدية للغاية، لا تستطيع أن تتماشى، بأى حال من الأحوال، مع وقائع الحياة فى الدول الأوروبية.

وفى السنوات الأخيرة، على سبيل المثال، قامت الرياض بتقديم تدريبات وكورسات مجانية لطلاب التخصص الشرعى فى السعودية؛ فما كان لهؤلاء الطلاب، بعد عودتهم إلى أوروبا، إلا أن انخرطوا فى حياة انعزالية، ذات طابع انفصالى. فقراءتهم الحرفية للنص، بدون وجود رؤية كلية، جعلتهم يرفضون الاندماج مع من حولهم؛ جعلتهم يرفضون فكرة كونهم مواطنين لهم وعليهم حقوق فى المجتمع الذى يعيشون فيه. وكيف لا يرفضون هذه الفكرة، ومعظمهم ينظر إلى أوروبا على أنها عالم معاد بطبيعته للإسلام؛ ومن ثم يجب الابتعاد عنه فى كل أمر من أمور الحياة. وقد يعتبرون أنفسهم الممثلين الوحيدين



نحـــن نأمل يومـا بأن نـرى المواطنـين الأوروبيين، الذين اتخذوا الإسلام ديـانـة لهم، فى موقف المسئولية.. عن أنفسهم.. وعن مستقبلهم... محققين ذاتيتهم السياسية والتمويلية

للسلفية الحقيقية؛ ومن الملاحظ أنهم يعطون جل اهتمامهم للتفاصيل الدقيقة، التى تخص مظهرهم الخارجى (شكل الملبس، إطالة الذقن)؛ بالإضافة إلى تأييدهم للسياسة السعودية، سواء بالسر أو بالعلن.

وبالرغم من أن عدد هذه الفئة يعتبر صغيراً بالنسبة للفئات الدينية الأخرى، إلا أنها آخذة فى الازدياد؛ خاصة فى تلك المناطق الأكثر رفضاً واستهجاناً لطريقة الحياة الغربية. وهى أكثر المناطق فقراً وبطالة.

والسؤال المطروح حالياً هو:

ماذا تفعل أوروبا حيال كل ذلك؟ بلغة أخرى، ما هو موقف الدول الأوروبية تجاه هذا التدخل السافر فى شئونها الداخلية، وتجاه هذه الاستراتيجية المهيمنة التى تنتهجها الدول الأم بهدف التحكم والسيطرة الكاملة على الإسلام الأوروبى؟

وقد يبدو الرد الرسمى واضحاً وضوح الشمس؛ فالدول الأوروبية (مثل بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، بلجيكا) ترد قائلة: نحن نعترف الآن بالإسلام كواقع ملموس فى الحياة الأوروبية؛

ونحن نأمل يوماً بأن نرى المواطنين الأوروبيين، الذين اتخذوا الإسلام ديانة لهم، نأمل أن نراهم يوماً فى موقف المسئولية.. عن أنفسهم.. وعن مستقبلهم... محققين ذاتيتهم السياسية والتمويلية.

إلا أن الوضع الحقيقى قد يبدو غير ذلك؛ فالدول الأم تستخدم الدين فى سبيل إملاء السياسات المناسبة لها؛ التى تذكى من قوتها ومن هيمنتها على «رعاياها».

وبالرغم من أن الحوار، حول أهمية شأن المواطنة بالنسبة للمسلمين الأوروبيين، قد يعلو صوته يوماً بعد يوم من قبل الناشطين السياسيين (المنوطين بالاهتمام بعدد المصوتين المحتملين)، فإن الواقع يشهد، وما زال يشهد، بأن الإسلام الأوروبى واقعٌ فريسةً للولع الأمنى من جانب، ولشهوة السيطرة من جانب آخر.

وليس بخافٍ على أحد، أن الأجيال المسلمة الجديدة، التى ترعرعت (وما زالت تترعرع) على الأراضى الأوروبية، صارت تشكل رعباً حقيقياً للدول الأوروبية. فهذه الأجيال لديها نمط جديد فى التفكير وفى الرؤية؛ يجعلها تطالب بحقوق المواطنة، وبدور قوى وفعال فى الحياة السياسية.

ومن ثم، فهى تضرب بالحدود القديمة عرض الحائط. فهى لم تعد تركن إلى السكينة والدعة، كما كان يفعل الآباء والأجداد. صحيح أن هذه الأجيال.. يمكن اعتبارها أوروبية فى نهاية المطاف؛ إلا أنها ما زالت مسلمة.. وهذا ما يخيف الدول الأوروبية.

وبالرغم من أن تدخل الدول الأم فى الشئون الداخلية للقارة الأوروبية قد يبدو، من أول وهلة، اعتداءً سافراً، إلا أنه بالإمكان أيضاً اعتباره نفعاً عظيماً للدول الأوروبية، ولو حتى على المدى القصير. فالأخيرة يمكنها الانتفاع من أمرين: العمليات الاستخباراتية التى تقوم بها الدول الأم على أراضيها؛ والتحكم غير المباشر للدول المسلمة على المساجد والمؤسسات الكبرى. والأمران يضمنان للدول الأوروبية قسطاً كبيراً من الانضباط الدينى والسياسى على أراضيها. ومن ثم، فكلما قفز موضوع الإسلام إلى الأمام، نجد الدول الأوروبية تهب إلى الوكالات الاستخباراتية المختلفة التابعة للدول الأم، مستنجدة بها، لتحصل منها على أكبر قدر من الاتفاقيات النافعة للطرفين.

ما زالت الدول الأوروبية تنظر إلى الإسلام، ليس فقط على كونه جسدا غريبا، بل أيضاً على كونه مصدرا للقلاقل والاضطرابات، على كافة المستويات. ومن ثم، فهى تلجأ إلى الأنظمة الديكتاتورية فى العالم المسلم، وتفضل التعامل معها فى السر، لكى تحصل منها على الأمن والأمان. فصحيح أنها أنظمة لا تراعى القانون، ولا تلقى بالاً إليه، إلا أنها تستطيع توفير الحماية للمصالح الأوروبية. وباستثناء حالات فريدة، مثل أسبانيا (منذ ١٩٩٢)، النمسا والسويد، فلا توجد دولة أوروبية واحدة تحادث مواطنيها المسلمين مباشرة إلا من خلال هذه الأنظمة الخارجية. إن جميع الحكومات الأوروبية ترغب فى تحقيق السيادة لمسلميها.. إلا أنها تتبع سياسة معتمدة على التحالفات والتضامنات مع حكومات الدول الأم!

الحكومات الأوروبية ملزمة، فى ظل السنوات المقبلة، بإعادة النظر والتفكير فى كيفية التعامل مع المسلمين الأوروبيين ومع الإسلام الأوروبى. إن التوجهات والتحركات، التى تقودها

الأجيال المسلمة الصاعدة فى أنحاء أوروبا، أفرزت مواطنين مسلمين واعين بأهمية استقلالهم السياسى، راغبين فى تحقيق استقلالهم التمويلى؛ الأمر الذى يجعلهم يتساءلون فى دهشة حول ماهية وحقيقة تلك العلاقات المريبة بين الأنظمة الأوروبية والأنظمة الديكتاتورية فى داخل العالم المسلم. لقد صارت هذه الأجيال تطالب بحقها فى تنظيم حياتها بنفسها، وفى تحديد شرعية تمثيلها الدينى بدون أية تدخلات أو تطفلات خارجية. وهى ظاهرة آخذة فى التصاعد بسرعة ملحوظة: ويساعد على نموها فقدان الدول الأم لركائزها وقواعدها؛ وفقدانها لكينونتها فى وسط الأجيال الثانية والثالثة، التى باتت تشعر بمزيد من التباعد مع الدول التى أتى منها الآباء والأجداد.

كلمة أخيرة... إذا أرادت الدول الأوروبية أن تحقق نجاحاً على صعيد التعددية الدينية والثقافية فى مجتمعاتها، فعليها الابتعاد تماماً عن الرؤية الأمنية، بل التبرؤ والتملص منها بقدر الإمكان، حتى يتسنى لها إيجاد أرضية مشتركة، تفتح المجال للتحاور والتفاوض، وتتيح الفرصة للثقة والنقاش، بينها وبين مواطنيها؛ إن السبيل الديمقراطى الوحيد هو احترام القانون واحترام المواطنين.

هـــــوامـــــش

(١) فى باريس، لندن، روما، وجنيف تنظم السفارات عشاءات صحفية، كما حدث فى أثناء الأزمة الجزائرية (عندما تم تقديم نسخة للجمهور عن الأحداث، وتم «إعلامه» باختراق جماعات سياسية صغيرة فى داخل أوروبا).

(٢) أعداد ضخمة من المسلمين تم إيقافهم على الحدود، مما يعكس لنا إلى أى مدى وصلت العمليات الرقابية، التى تمارسها القوى الخارجية فى داخل أوروبا.

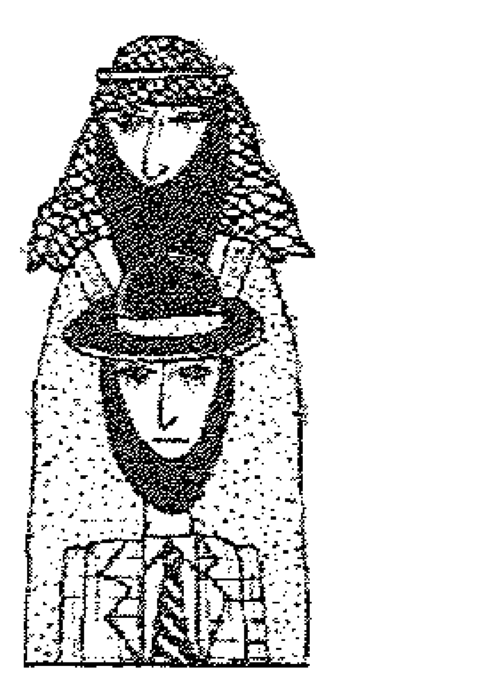
(٣) تم تنظيمها وتجميعها فى داخل مجلس أوروبى للمساجد، يعمل مباشرة تحت سلطة الحكومة السعودية.

(٤) وثيقة تحتوى على الاتفاقية الرسمية بين الحكومة الإيطالية وبين المنظمة التى تمثل المسلمين فى إيطاليا.

(٥) تدخل تم الاعتراف به علناً فى الجريدة اليومية La Republica، فى ٢٢ نوفمبر ١٩٩٨.

(٦) ممثلو السفارات الجزائرية، المغربية، والتونسية، الذين حضروا ندوة «أنوار الإسلام» فى ٢٠، ٢١ نوفمبر ١٩٩٩، عرفوا بمجرد ترحيبهم بالمبادرة.

طارق رمضان: العالم المسلم بحاجة إلى ثورة فكرية



■ إذا كان الإسلام يبدأ اليوم. ما يسمى فى الثقافة المسيحية. بعملية أو برحلة «إصلاح»، مما يؤهلك لأخذ دور مارتين لوثر، فهل لديك قائمة لتضعها أمام باب الكنيسة؟

ليس لدى قائمة محددة. ولكنى أعلم وأدرك ماهية الأولويات التى قد يحتاجها المسلمون لإصلاح أوضاعهم، وللنهوض بأنفسهم فى المحيط الإسلامى. وأول ما يحتاجه المسلمون هو معرفة الكيفية التى يقرأون بها النصوص القرآنية. فهناك قدر كبير من سوء الفهم فى داخل مجتمعاتنا الإسلامية. لابد أن نعود إلى فهم النص القرآنى بعمق، وأن ندرك أهميته العظيمة، حيث أنه يأتى من لدن الله رب العالمين. ومن خلال قراءتنا للقرآن، لابد من التفريق بين أمرين مهمين: أن نفرق بين المبادئ ذات البعد الكونى والأبدى، وبين التعاليم التى يجب فهمها فى إطار معين.

كما أنه من الأهمية بمكان، أن نفهم الطريقة التى استخدمها العلماء الأوائل فى عرض الأدوات التى تعيننا على قراءة القرآن. فعلى سبيل المثال، عندما يقول أحد العلماء أنه لا فارق فى الإسلام بين السياسة والدين، فعلينا أن نقول ساعتها بأن المصادر، القرآن والسنة، تصدق على هذا الكلام، إلا أن المنهاجية وأساليب الاقتراب تكون مختلفة. وهذه هى المشكلة التى تواجهها اليوم فى عالمنا الإسلامى: فنحن نعيد ونكرر فى الشعارات، دون إدراك معناها الحقيقى.

هناك فارق كبير بين العبادات وبين المعاملات. فنحن نتعبد كما يقول لنا النص: أما المعاملات، فمجالها مفتوح، باستثناء ما هو محرم بالنص القاطع. وهذا الفارق مهم للغاية.

❖ لقد كتبت فى «كيف تكون مسلماً أوروبياً؟»، أن المسلمين فى حاجة إلى تخطى الرؤية التى تعتمد على فكرة «نحن تجاه الآخر»، وهى التى تمثل المفهوم القديم لدار الإسلام (العالم الإسلامى) الذى يقف مناقضاً لدار الحرب (العالم غير الإسلامى)، ومن ثم اللجوء إلى المفهوم الجديد الذى يمثل دار الشهادة، والذى يجب أن يتواجد حيثما كان المسلمون.

ذلك ما قصدته بالضبط، عندما تحدثت عن الطريقة التى نقرأ بها النص. فبعض المسلمين يقولون: «نحن نكون أكثر التزاماً بالإسلام إذا ما اتخذنا موقفاً مضاداً للغرب، وللقيم الغربية»، وكأن الميزان الذى نقيم به سلوكنا هو مدى بعدنا عن الغرب، أو معارضتنا له. وهم يدعون ويروجون، من خلال ذلك، إلى تلك الرؤية القديمة، المخزونة فى العقول منذ أمد بعيد. علينا التخلص سريعاً من هذا النوع من الفهم؛ وأن نقدر مدى إسلامية الفعل أو الموقف من خلال ميزان الأخلاقيات والمبادئ الإسلامية، وليس من خلال ميزان العداء للحضارات الأخرى.

إن قيمنا ليست معتمدة على «الآخر». فقيمنا عالمية وكونية. لابد من الوصول إلى درجة من الفهم، تعلمنا أن الأمر لا يتمحور حول نقطة «نحن ضدهم»، وإنما يتمحور حولنا نحن، قياساً بمبادئنا وقيمنا. وهذا يفسر ويوضح المكان الذى أعيش فيه. بلغة أخرى، إن دورى فى هذا العالم هو أن أفهم أننى شاهد على تبليغ دعوة الإسلام أمام البشرية كلها.

نحن بحاجة إلى ثورة فكرية فى داخل العالم المسلم. نحن مسلمون تبعاً لهذه المبادئ العالمية السامية الروحانية؛ ومن ثم، فنحن لسنا ضد الغرب، أو ضد اليهود، أو ضد المسيحيين، أو ضد العلمانيين. إن الطريقة التى أحاول من خلالها إعادة قراءة نصوصنا القرآنية معتمدة أساساً على الوعى بعالمية دعوتنا الإسلامية؛ ولذلك، لا يمكننا أبداً تفسير الهوية المسلمة على كونها منغلقة ضد الآخرين. وآمل، بإذن الله، أن يساهم تفسيرنا الجديد هذا فى إقامة العلاقة مع الآخرين.

إن مفهوم دار الإسلام يقف اليوم عائقاً فى داخل العالم المسلم. حتى عندما نتحدث عن مفهوم دار العهد (الذى يفترض عيش الأقلية المسلمة بسلام فى وسط غير المؤمنين، دون أن يقتضى ذلك بالضرورة الذوبان فيهم)، فالأمر يدعو هنا أيضاً إلى تلك الرؤية المنصبة فى «نحن وهم». وهذه الرؤية لا تسمح لنا بالإحساس أو الشعور بأننا جزء من المجتمعات الغربية؛ لا تسمح لنا بالشعور بأننا نشارك الآخرين فى قيمنا.

«حسناً، أنا معك لكن...» ليست كافية بالنسبة إلى إنها ما زالت تمثل فهماً قديماً جداً لانتمائنا كمسلمين للإسلام. ومن ثم، فحينما أتحدث عن دار الشهادة، فأنا أعنى تخطى واجتياز جميع هذه التوجهات. ■

من حوار لمجلة (Salon) فى فبراير ٢٠٠٢

ترجمة: شيرين فهمى

دار الشهادة ودار العهد

■ دار الشهادة مصطلح حديث، لم يرد فى الموسوعة الفقهية. ويبدو أنه مستقى من الآية القرآنية: «لتكونوا شهداء على الناس»؛ والمعنى هنا أن يكون للمسلمين فى الدول غير الاسلامية دور ذو ثلاثة أبعاد: البلاغ.. الحسبة (أمر بمعروف ونهى عن المنكر).. الأمة الشاهدة أى أنها تحاجج الأمم الباقية أمام الله عز وجل فى يوم القيامة بأنها أبلغتها الرسالة. وهو مفهوم ذو بعد أخلاقى أكثر من سياسى.

■ «دار العهد» كما ورد فى الموسوعة الفقهية: «هى كل بلد صالح الإمام أهله على أن تظل تلك الأرض لهم؛ وتسمى دار الموادعة، ودار الصلح؛ ودار المعاهدة.» وهو مصطلح قديم بعكس مفهوم دار الشهادة.

ومفهوم العهد معروف منذ عهد النبوة: «إلا الذين عاهدتم من المشركين؛ «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم». ■

المترجم

أن تكـــون مســـلمـا أوروبيـــا

إن المسلمين - وهم يشعرون بأنهم أقلية مرفوضـــة فى أوروبــا - اجتهــدوا للإجـابـة عن أسـئلة مهمة مثل: كيف يمكن أن نجعل هذه العقيدة أســاسًا مناسـبًا وفاعلاً فى تشكيل حيــاتهم اليومية فى بيئتهم الجديدة

يشهد المسلمون فى عالم اليوم ضغوطًا خارجية هائلة بلغت حد التهديد بالحرب والتدخل بالقوة لتغيير الأنظمة السياسية والثقافية والتعليمية، والحجة فى ذلك هى حرب الإرهاب وتجفيف منابعه. فى غمار هذه الحملة الشرسة على الإسلام والمسلمين أصبح المسلمون فى الغرب يعانون من تضييق واضطهاد وقيود غير مسبوقة، وقد صدرت فى هذا المجال قوانين وإجراءات ضيقت عليهم سبل الحياة والحركة، وأصابت حقوقهم الإنسانية ومؤسساتهم الاجتماعية فى مقتل، وما قانون منع الحجاب المزمع إصداره فى فرنسا إلا واحد من هذه القيود القهرية المفروضة على حياة المسلمين فى الغرب.

وعندما يصل الأمر إلى أن تتدخل الدولة بقوانينها لتفرض على المرأة المسلمة لباسًا يخالف أحكام الشريعة وتحرِّم عليها لباسًا اختارته بمحض إرادتها وحريتها. عندما يحدث هذا فى أوروبا فلابد أن يكون هناك خلل فادح فى الثقافة والأخلاق وأن الإسلاموفوبيا قد أصبحت مرضًا سياسيًا. ولى فى هذا ملاحظتان:

الأولى: أن هذا القانون المتعارض مع حقوق الإنسان الأساسية لن يكون نهاية لما سيحدث للمسلمين فى أوروبا وإنما هو مجرد بداية لمرحلة جديدة من الصراع على هوية المسلمين وعلى وجودهم نفسه فى أوروبا.

والثانية: أن أوروبا بدساتيرها وديمقراطياتها وقوانينها التى وضعت للحفاظ على حقوق الإنسان وضمان حريته الدينية. كل ذلك لم يعد ضمانًا تلقائيًا لممارسة المسلمين حياتهم اليومية العادية الآمنة شأنهم فى ذلك شأن قرنائهم المواطنين الأوروبيين الآخرين من غير المسلمين.

يعزز هذا الرأى عاملان أدركتهما بالملاحظة والمعايشة فى بلاد الغرب: الأول يتصل بزيادة إقبال أعداد من المثقفين الأوروبيين على الإسلام فى وقت تشهد الكنائس ذبولاً وتقهقرًا ملحوظًا فى عدد المتدينين، وليس للمسلمين. فى حقيقة الأمر. جهد كبير أو تنظيم فى هذا المجال، ومع ذلك فقد اعتبر وجود الإسلام فى أوروبا خطرًا يجب مواجهته. العامل الثانى يتصل بالنظرة السائدة فى الإعلام والثقافة الشعبية إلى المسلمين باعتبارهم أقليات غريبة مختلفة موصومة بالبربرية والتعصب والأصولية وحديثًا بالإرهاب.

هذه المشكلة أو بالأحرى هذا المأزق الذى يواجهه المسلمون الآن فى أوروبا هو الذى دفع بعض المفكرين والأكاديميين المسلمين إلى دراسة أبعاد هذا المأزق والبحث عن مخرج منه، وفى هذا الإطار يأتى كتاب الدكتور طارق رمضان الموسوم بعنوان: (To be a European Muslim) (أن تكون مسلمًا أوروبيًا).

لفت نظرى بشدة تقديم كتبه بروفيسور «يورجين نيلسون» أود أن أشير إلى بعض نقاط مهمة وردت به، ترجع أهميتها إلى أنها تعبير عن وجهة نظر أوروبى فى المشكلة الإسلامية بأوروبا، كما ترجع إلى أهمية صاحبها فى المجالين الفكرى والأكاديمى، فهو مدير مركز دراسات الإسلام والعلاقات الإسلامية المسيحية بجامعة برمنجهام البريطانية، ولهذا المركز نشاط كبير فى مجال الدراسات والنشر وعقد المؤتمرات والندوات حول الشأن الإسلامى فى بريطانيا وأوروبا.. يقول الرجل فى تقديمه: «بدأ الأوروبيون فى العقود الأخيرة يلاحظون وجود مجتمعات مسلمة مستقرة فى مدنهم وبدأوا يتنبهون إلى أن عصر العمالة المهاجرة المؤقتة قد مضى وحل مكانها أسر مسلمة مستقرة وأخذت المساجد الإسلامية تظهر فى كل مكان.. كانت تقديراتنا المبسطة أنه مع مرور الزمن. ربما خلال جيل واحد. سوف تذوب هذه المجموعات المهاجرة ويتم تمثيلها فى الكيان الكبير، على الأقل من ناحية موقفهم من الدين وما تطلبه العقيدة الدينية من الإنسان.. وكان المتوقع أن ينظروا إلى دينهم كما ينظر الأوروبيون إلى دينهم.. وقد رأى البعض أن الزواج المختلط سيكون عاملاً حاسمًا فى الإسراع بعملية الإذابة والامتصاص، لكن بعد أن مضى جيلان لا جيل واحد فقط اختلفت الصورة اختلافًا «راديكاليًا» عن الصورة أو عن التوقعات المبدئية بحيث نستطيع الآن أن نصفها بأنها كانت توقعات ساذجة».

ينتقل بروفيسور نلسون بعد ذلك إلى شرح أسباب هذا الموقف فيقول بصراحة: «الحقيقة أننا نحن الأوروبيين كنا نرفض قبول أناس مختلفين عنا إلا بشروطنا، وقد أدى هذا إلى إصرار المسلمين على تميزهم فى أوروبا.. وكان التزام المسلمين بتقاليدهم والتصاقهم بدينهم هو الذى دفع المجتمعات الأوروبية والسياسيين والأكاديميين فى أوروبا إلى البدء فى النظر إلى المسلمين وإلى احتياجاتهم ومطالبهم نظرة جادة، وأن يضعوا جانبًا السيناريوهات الساذجة عن التذويب والامتصاص».

لم يقتصر رد الفعل عند المسلمين من الرفض الأوروبى عند حدوده السلبية فقط (أقصد الاحتماء بالدين والتقاليد دفاعًا عن الوجود المهدد) وإنما تجاوزه عند المفكرين المسلمين إلى جانبه الإيجابى، وفى هذا يقول بروفيسور نلسون: إن المسلمين - وهم يشعرون بأنهم أقلية مرفوضة فى أوروبا - وجدوا أنفسهم مضطرين أن يفكروا أكثر عمقًا فى وضعهم كأقلية وفى عقيدتهم وممارساتهم الدينية، فى محاولة للإجابة عن أسئلة مهمة مثل: كيف يمكن أن نجعل هذه العقيدة أساسًا مناسبًا وفاعلاً فى تشكيل حياتهم اليومية فى بيئتهم الجديدة.. وخرج على الساحة قلة من المفكرين المسلمين رأوا أنه إذا كان المسلمون يريدون أن يتفاعلوا مع الحياة الحديثة بنجاح فعليهم أن يعيدوا النظر فى طبيعة الوحى وفهم نصوصه فى ضوء تأويلات جديدة.. وجاء آخرون من هذه القلة يدعون إلى هجر الفقه كلية كشىء لم يعد صالحًا للعمل به فى الحياة المعاصرة، ذلك إذا كان المسلمون يريدون أن يتفاعلوا مع مجتمعات غريبة عليهم من أبرز سماتها التكنولوجيا المتقدمة والعلمانية السائدة والمتطرفة أحيانًا.. أما الذى لم يحدث بطريقة نظامية فى الإطار الأوروبى المعاصر فهو محاولة البحث واستلهام المصادر الأساسية فى الإسلام لاستثمارها فى البيئة الجديدة، ولكنه بدأ بشكل ملحوظ فى العالم المسلم خصوصًا بين المسلمين العرب. يقول بروفيسور نلسون: «الآن يأتى الدكتور طارق رمضان إلينا (هنا فى أوروبا) بأول محاولة رئيسية لتطبيق هذا الاتجاه الجديد على أوضاع المسلمين فى أوروبا.. وهو بذلك يضع نفسه فى إطار تيار عام متميز حديث.. وهو لا ينكر فضل من سبقه فى هذا الاتجاه ومن بينهم أبوه نفسه وهو الدكتور سعيد رمضان. وأبرز ما جاء به الدكتور طارق رمضان. فى نظر نلسون هو منهجه العلمى فى البحث وقد جعل مصادره المرجعية القرآن والسنة الصحيحة، ثم ناقش باستفاضة وتحليل مصطلحات أصول الفقه، وهو بسبيل وضع المبادئ الإسلامية الخالدة فى إطار متغيرات المكان والزمان.

يشتمل كتاب «أن تكون مسلمًا أوروبيًا» على جزءين أساسيين يتفرع كل جزء منهما إلى فصول: عنوان الجزء الأول هو «فى قلب مصادر العقيدة والممارسة الدينية» وعنوان الجزء الثانى هو «أسئلة حساسة: الانتماء والهوية والمواطنة». ولعل الإشارة إلى عناوين الفصول يعطى القارئ لمحة أو مذاقًا لما تعرض له هذه الفصول من أفكار. فى الجزء الأول فصلان يتناول أولهما تعاليم الإسلام وعلومه مثل علوم القرآن وعلوم الحديث، ويتناول الفصل الثانى بشىء من التفصيل والتحليل القواعد العامة الأساسية لأصول الفقه الإسلامى باعتباره المنهج الذى تُستنبط به الأحكام الشرعية.

أما الجزء الثانى فبه ثلاثة فصول، عنوان الفصل الأول هو: «أين نحن؟» وفيه

To Be a European Muslim:
A Survey of Islamic Sources in the European Context
(أن تكون مسلمًا أوروبيًا)
Tariq Ramadan
The Islamic Foundation,
1998, 228pp

الهويــــة والمواطنــــة

محمد يوسف عدس

وصف تحليلى لطبيعة وخصوصية المجتمعات الأوروبية التى تشكل البيئة الجديدة للوجود المسلم. وعنوان الفصل الثانى هو «من نحن؟» وهو يتناول باستفاضة الهوية والانتماء وكيفية الجمع بين الانتماء للأمة الإسلامية وأن تكون مواطنا أوروبيا فاعلا. ويفرق هنا بين الذوبان والاندماج، ويكشف عن معالم وتشكيل ثقافة إسلامية أوروبية، وفى الفصل الثالث يتحدث عن التعايش المحتمل.

المسلمون كأقلية

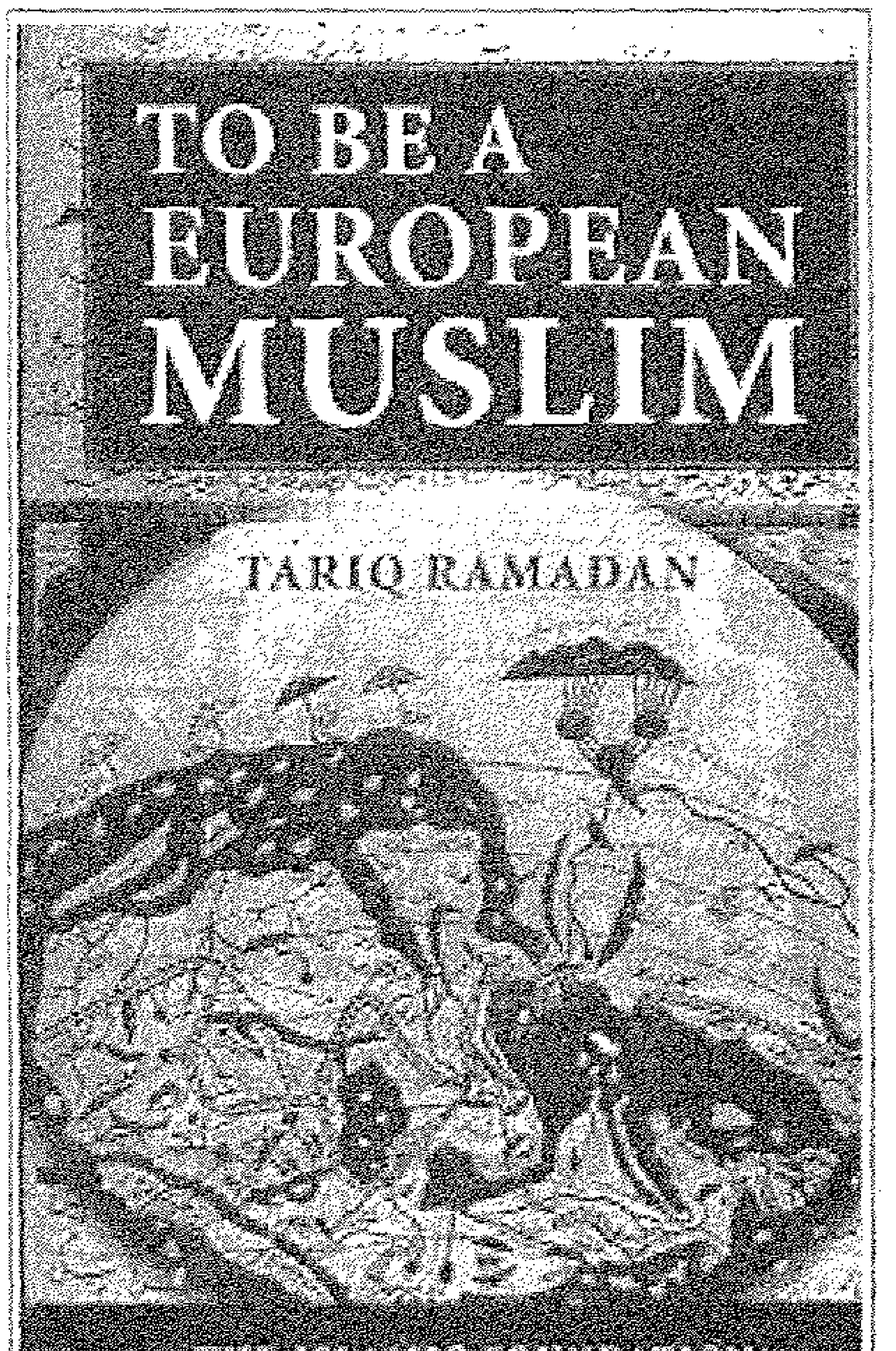
بعد خمسين عاما من نهاية الحرب العالمية الثانية بلغ عدد المسلمين فى أوروبا الغربية خمسة عشر مليونا وهناك الآن تقديرات تصل بتعدادهم إلى العشرين مليونا، ويعلق الدكتور طارق على ذلك قائلا: «إن مجرد ذكر هذا العدد من شأنه أن يشيع الرضا فى نفوسنا.. فقد أصبح الوجود المسلم فى أوروبا ملحوظا ومهما، وظهرت فيه اتجاهات للتنظيم بشكل أو بآخر وإن ظل الاتجاه العام بين المسلمين موجها نحو توفير الاحتياجات الأساسية وتأمين وسائل العيش فى الحياة اليومية.. ولكن عندما بدأ المسلمون يمارسون شعائرهم الدينية ويقيمون مساجدهم لأداء شعيرة الصلاة ازداد شعور الأوروبيين بالريبة فى هذا الوجود المسلم المتنامى والملتصق بدينه واعتبروه مشكلة بل خطرا يهدد مجتمعاتهم...».

إزاء هذا الموقف الأوروبى المستريب الرافض للوجود المسلم اتخذت ردود الفعل فى أوساط المسلمين صورا مختلفة تراوحت بين الانسحاب والعزلة عن المجتمع العام تأكيدا للخصوصية الثقافية واحتماء بالعقيدة الدينية والتقاليد الموروثة، وبين الانسحاق التام والتخلى عن كل الخصوصيات الثقافية والدينية التى تشى بأصحابها فى مجتمع لم يعد يحتمل أى قيود تمنع حريته الشخصية من الانطلاق إلى أقصى المدى.. وقد حرص أصحاب هذا الاتجاه من المسلمين أن يذوبوا فى هذا المجتمع بحيث يصبحون غير مرئيين.. حتى أسماؤهم تخلوا عنها وتبنوا أسماء أخرى غربية إمعانا فى التخفى.

وتفسير الدكتور طارق لهذه الظاهرة فى طرفيها المتطرفين كما نرى فى تشخيص له يقول فيه: «يبدو أن الشعور بأن تكون أقلية وأن تعيش بهذا الاعتبار يولد نوعا من العرض المرضى فى عقل المسلم الأوروبى يحرمه من القدرة على رؤية نفسه إلا من خلال مرآة عالم مرفوض..» ثم يستطرد إلى نقطة مهمة فيقول: «لقد جربنا فى تاريخنا الطويل أن نكون أقلية فى بقاع كثيرة من الأرض.. ولكن وجودنا الأوروبى المعاصر ليس له مثيل فى الماضى.. فهو وجود أكثر تعقيدا وأكثر حساسية.. ذلك لأن الحضارة الغربية الحديثة مسلحة بوسائل بالغة القوة تجعل من الصعب على أى إنسان أن يحدد لنفسه من هو؟ أو من ليس هو؟.. فالإعلام والثقافة الشعبية والموسيقى والسينما والإعلان. كلها أدوات هائلة لتمييع الأفكار عن الحرية والأخلاق والترفيه وأساليب الاستمتاع بالحياة.. ولترسيخها فى عقول الناس وقلوبهم إلى حد الاستيلاء بحيث يصبح من الصعب على الإنسان أن يعرف ما الذى يأتيه بمحض إرادته واختياره وما الذى يرجع إلى التأثيرات الخارجية.. وليس المسلمون ببعيدين عن هذه الحالة العامة ولا عن التوتر الذى يقترن بها.. ولعل أكثر الناس تأثرا بهذا هم الفتيان والشبان المسلمون من الجيل الثانى والثالث والرابع.

كانت مهمة الجيل الأول من المسلمين المهاجرين إلى أوروبا هى إعادة إعمار أوروبا بعد تخريبها فى الحرب العالمية الثانية. وبالتحديد توفير (العمالة) غير الماهرة فى الزراعة والصناعة والبناء.. كانت غالبيتهم من الأميين البسطاء.. وكان المتوقع أن يعود هؤلاء العمال إلى أوطانهم الأصلية فى آسيا وأفريقيا فلما استوطنوا ولم يعودوا كان التوقع الآخر هو أن تذوب هذه الأقليات فى المجتمعات الجديدة وتتلاشى فى زمن قصير.

يتناول الدكتور طارق فى كتابه بتحليل مستفيض تركيبة الجيل الأول من المسلمين فى أوروبا وما صادفه من مشكلات وردود أفعاله تجاه تحديات البيئة الجديدة التى رأى أنها متساهلة أو بالأحرى متسيبة بدرجة مخيفة. بل معادية لدينه وهويته.. ونظرا لقلة معارفه الدينية عن الإسلام فقها وثقافة اعتصم بتقاليده التى حملها معه من وطنه الأصلى متصورا أنها هى الهوية الإسلامية فى حين أنها تقاليد مشوبة بكثير من الخرافات المحلية مقطوعة الصلة بالإسلام بل متناقضة معه فى كثير من الأحيان. ويرى الدكتور طارق أن هذا النقص المعرفى بالإسلام مقرونا بظروف البيئة الجديدة وتحدياتها التى تضع المسلم فى دائرة الرفض.. مع شعوره بالغربة وبمصاعب الحياة الاقتصادية والاجتماعية. كل هذا أدى إلى ردود أفعال متشنجة سادت فى الجيل الأول من المسلمين. ولكنه يضيف إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى حين يستطرد قائلا: إننا لا نزال نرى هذه المواقف المتشنجة فى مناسبات كثيرة من أجيال لاحقة. تبدو لنا على شكل عاهات مزمنة.. وهو يرى أن هذا الموقف يرجع إلى رغبة بعض المسلمين إلى تأكيد ذواتهم مع اقتران هذه الرغبة بنسيان أصولهم وإن ظلوا مخلصين لدين لم يعودوا يفهمون حقيقته ومن ثم يأتى فكرهم وسلوكهم على شكل ردود أفعال رافضة وأحيانا عدوانية تجاه المجتمع وثقافته.

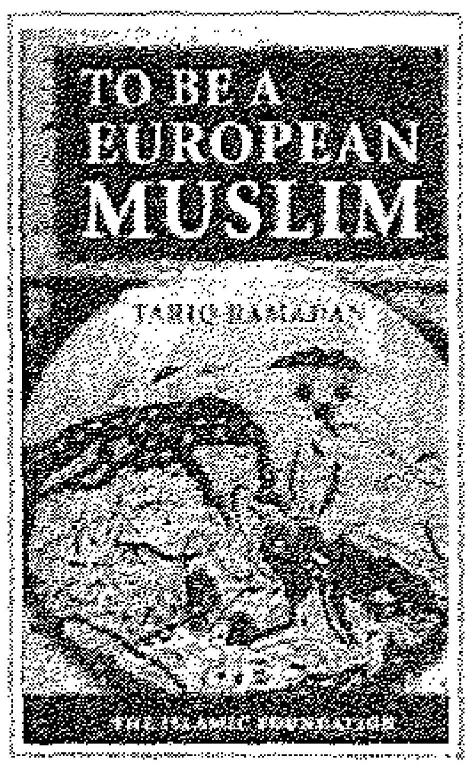


تحرير الهوية:

يرى الدكتور طارق أن علاج أزمة المسلمين فى أوروبا يتطلب جهدا مشتركا من جانب المسلمين من ناحية والمفكرين الإصلاحيين فى أوروبا من ناحية أخرى، وهو يعتقد. من واقع خبرته. أنه يوجد من هؤلاء الإصلاحيين من هم على معرفة بالكثير من أبعاد هذه الأزمة وآثارها السلبية على المسلمين وأوروبا على السواء، ولديهم الرغبة فى العمل والمساهمة فى علاجها.

ولكن يبقى العبء الأكبر على عاتق المسلمين لأنهم هم أصحاب الأزمة وضحاياها. وفى هذا الإطار يجد المسلم أنه أمام تحديين عليه مواجهتهما فى آن واحد: أن يفهم الإسلام فهما صحيحا يساعده على تحرير هويته الإسلامية من شوائب التقاليد التى لا علاقة لها بالإسلام، وأن يفهم البيئة الأوروبية بأبعادها الاجتماعية والثقافية والقانونية وأن يتفاعل مع هذه البيئة بطريقة إيجابية من خلال الحوار والمشاركة مع الإصلاحيين الأوروبيين بالفكر والعمل لتغيير المجتمع الأوروبى وتطويره لمصلحة الجميع.

فالإسلام قبل أن يكون وسيلة للحماية من الضياع والذوبان هو عقيدة إيمانية تتضمن فهما كونيا للخلق والحياة والموت والإنسانية التى كرمها الله وأسند إليها خلافته فى عمارة الأرض وإدارتها، وينبغى أن يكون فهم هذه الحقيقة هو الأساس لقواعد التفكير والسلوك.. فعلى أساس هذا الفهم أقام الإسلام بالفعل العبادات والمعاملات فيما يعرف فى تاريخ الإسلام بأصول الفقه والاجتهاد



وحدد المرجعية فى هذا كله بالقرآن والسنة الصحيحة.

هذا الإطار النظرى، عند طارق رمضان، لا يمكن تجاوزه أو إلغاؤه ومن ثم كانت عنايته به فى الجزء الأول من كتابه، وقد خصص الفصل الثانى من هذا الجزء لبسط أهم القواعد فى علم أصول الفقه والاجتهاد وأفاض فى تحرير فكرة أن الأصل فى الأشياء هو التحليل وليس التحريم، ولا يكون التحريم إلا بنص صريح غير قابل للتأويل فإن كان النص يحتمل تأويلاً أو انعدم فى مسألة بعينها هنا يأتى دور الاجتهاد والاختلاف المحمود.

بين الذوبان والاندماج:

وفى تناول الدكتور طارق لمفهوم الهوية الإسلامية يميز بين موقفين: موقف الاستسلام والذوبان فى المجتمع وموقف الاندماج الذى يتحقق من خلال التفاعل الإيجابى والعمل المشترك والانخراط مع الآخرين فى العمل والإصلاح، دون التخلى عن الهوية الإسلامية والمرجعية الإسلامية، بل إن الدكتور طارق رمضان يرى أن الإسلام لا يسمح فقط بل يشجع على الاندماج والتفاعل وتعريفه للهوية الإسلامية يكشف عن حقيقة أنها ليست هوية مغلقة بل هى مفتوحة على تطور المجتمعات وديناميائها. وقد أثبت فى تحليلاته وشروحه أن مسائل الهوية والمواطنة والثقافة مسائل أساسية كما أثبت أن التعايش الذى يرفض الانعزال والذوبان ممكن بل ضرورى لحياة المسلمين فى أوروبا. وهو ينبه المسلمين الأوروبيين ألا يقتصر نضالهم لتحقيق العدالة ورفع الظلم عن أنفسهم فقط، فهناك فئات أخرى من الناس تحتاج إلى من يساعدهم فى رفع الظلم الواقع بهم، ويتطلع الإصلاحيون الأوروبيون أن يروا من المسلمين إسهاماً فعالاً فى هذا المجال، ويؤكد الدكتور طارق أن هذا الإسهام فى تحقيق العدالة ورفع الظلم حيثما وجد هو واجب إسلامى.

إن الدكتـــور طـــارق رمضـــان يـــرى أن الإســـلام لا يســـمح فقـــط بل يشـجع على الاندمـاج والتفـاعل وتعريفـه للهـوية الإســلامية يكشـف عن حقيقــة أنهـا ليســت هوية مغلقــة بل هى مفتوحــة على تطور المجتمعات وديناميائها

يربط الدكتور طارق فى تعريفه للهوية الإسلامية بين عناصر أربعة رئيسية متكاملة فى البناء والتفاعل لا يمكن تفكيكها أو تجزئتها إلا لأغراض الدراسة التحليلية:

العنصر الأول فى هذه التركيبة هو الإيمان بالله وبالوحى، والتوحيد هو المفهوم المركزى فى قلب هذا الإيمان، ويبقى الإيمان مجرد عقيدة نظرية حتى يتحقق فى الممارسة العملية بالسلوك والعبادات، والعبادة هنا مأخوذة بمعناها الضيق المتمثل فى إقامة الواجبات والشعائر الدينية كما تحددها الشريعة، وبمعناها الواسع المتمثل فى أى سلوك اجتماعى يتجه به الإنسان إلى رضاء الله ومحبته، والسلوك أو المعاملات لا تتأكد فى العقيدة إلا بركنيها الروحى والأخلاقى.

ويتمثل العنصر الثانى فى الهوية الإسلامية فى فهم النص (قرآنا كان أو سنة) وفقاً لقواعد أصولية منهجية مستمدة من علوم القرآن والحديث وأصول الفقه، بمقدار ما يتمثل فى فهم الواقع بأبعاده الزمانية والمكانية والحضارية، وهو ما يطلق عليه اصطلاحاً فقه الواقع، فبغير هذا الفقه يستحيل تنزيل أحكام النصوص على الواقع المتغير وحالاته المختلفة. الأمر إذن، فيما يتعلق بالاجتهاد والفتوى لا يقتصر على اتقان العلوم الشرعية فقط، وإنما يستلزم إلى جانب هذا ثقافة واسعة وإدراكاً عميقاً لأوضاع المجتمعات الإنسانية وإلماماً بشئونها السياسية والاقتصادية ومشكلاتها الحضارية. وكثيراً ما تصدر أخطاء فاحشة بل كارثية من أصحاب العلم الشرعى فى أعلى درجاتهم بسبب جهلهم وقصورهم فى فقه الواقع!

أما العنصر الثالث فيتعلق بالتعليم والبث والدعوة والتبليغ أو إن شئت (بلغة العصر) النقاش والحوار والتواصل الفكرى مع الآخرين فى المجتمع، بالأسلوب المناسب والخطاب المناسب بطبيعة الموقف وللمستوى الحضارى للأفراد والمجتمعات.

ويؤكد العنصر الرابع فى الهوية الإسلامية على ضرورة الانخراط فى العمل والمشاركة مع المواطنين الآخرين من غير المسلمين فى معالجة مشكلات المجتمع وتحسين أوضاعه وإصلاح حاله وتحقيق العدل والمصلحة ودفع الظلم عن الفئات المستضعفة فى المجتمع.

هذه العناصر الأربعة مجتمعة ومتفاعلة هى التى تشكل جوهر الهوية الإسلامية ولا تتحقق هذه الهوية فى الواقع إلا بها.

من عجائب الصدف فى هذه الحياة أننى سمعت الدكتور سعيد رمضان فى الإذاعة المصرية سنة ١٩٥٢ وكنت آنذاك تلميذاً فى المدرسة الثانوية، كان محدثاً لبقاً وداعية إسلامياً شاباً من طراز فريد فوقع فى نفسى من حديثه المشرق الجذاب شىء فى الذاكرة حملته معى زمناً طويلاً، وبعد واحد وخمسين عاماً يشاء القدر أن ألتقى بابنه فى مؤتمر بلندن يناقش مشكلات المسلمين فى الغرب فألمس فيه روح الداعية الإسلامى مشرق الحديث، مجدداً متمكناً من فكره الإسلامى ومن فهمه لروح الحضارة الغربية فى جوانبها الإيجابية المبدعة وسلبياتها الموجعة، ذلك هو الدكتور سعيد رمضان.

إلى جانب هذه الوجوه المشرقة للوجود الإسلامى فى أوروبا، صادفت وجوهاً كريهة لأعضاء فى جماعات منسوبة إلى الإسلام، جماعات منغلقة على نفسها تتغذى على أفكار متخلفة ناشزة عن التيار الإسلامى العام، وهى تحدث اضطراباً بين المسلمين، وتعوق عملية التواصل والاندماج والتفاعل البناء بين المسلمين وغير المسلمين، وتقدم بفكرها وسلوكها ومظهرها صورة مزرية للإسلام فى عيون الأوروبيين، وهى أمور محسوبة شرحها يطول مما لا مجال له فى هذه المقالة.

وبرغم كل هذا فإن الدكتور طارق يرى أن نهاية القرن العشرين قد شهدت علامات تقدم حقيقى فى أوروبا على طريق التفاهم والتواصل، خصوصاً فى أوساط الإصلاحيين الأوروبيين، فالوعى بالوجود الإسلامى فى أوروبا قد أصبح حقيقة، وهناك تقدمات ملموسة فيما يتعلق باستيعاب حقوق المسلمين ومتطلباتهم من الناحية القانونية، تتفاوت من دولة إلى أخرى، يلاحظ الدكتور طارق أن بريطانيا بين أفضل هذه الدول وأن فرنسا تُعد من أسوئها. كما يلاحظ أن عملية المشاركة والإسهام من جانب المسلمين فى النشاط الاجتماعى العام قد بدأت وهى ماضية فى طريقها، وأن هوية المسلم الأوروبى آخذة فى التشكل بصرف النظر عما يعترضها من عوائق وما تُقذف به من عبارات إعلامية مهينة أو مهيجة ضد الإسلام والمسلمين.

ويؤكد الدكتور طارق أنه لابد من المزاوجة بين الإطار النظرى للتشريع الإسلامى كما طرحه فى كتابه وبين تطبيقاته فى الواقع الأوروبى، ويرى فى هذا تحدياً ذا أهمية قصوى وأن المسئولية فى هذا تقع على أصحاب العقيدة والضمير من كلا الجانبين المسلم وغير المسلم، ولابد لإنجاح هذا الجهد المشترك أن يرتفع الجميع إلى مستوى مبادئهم ولو بدا العالم كله ضدهم، ذلك لأنهم يعلمون أن لكل هدف نبيل يرجى تحقيقه ثمناً يتوازى مع قدرته ونبله وأنه واجب السداد من إخلاصهم لله ولضمائرهم.■

الأقليات المسلمة ومشكلاتها الفقهية

يوسف القرضاوي

ما المراد بمصطلح (الأقلية) الذى نتحدث عنه هنا؟

لقد راجت هذه الكلمة فى عصرنا، نتيجة لكثرة الهجرات وتقارب العالم بعضه مع بعض، ويراد بها: كل مجموعة بشرية فى قطر من الأقطار، تتميز عن أكثرية أهله فى الدين، أو المذهب أو العرق، أو اللغة، أو نحو ذلك، من الأساسيات التى تتمايز بها المجموعات البشرية بعضها عن بعض.

ومثل ذلك: الأقليات المسلمة فى المجتمعات المسيحية فى الغرب، أو الهندوسية فى الهند، أو البوذية فى الصين، فهى تخالف الأكثرية فى العقيدة والدين، ومثلها الأقليات المسيحية فى مصر وسورية والعراق وغيرها. والأقليات اليهودية فى المغرب وإيران وتركيا وغيرها. ومثلها الأقليات الكاثوليكية فى كثير من بلدان العالم.

ومن لوازم الأقلية: أنها تكون عادة ضعيفة أمام الأكثرية، فالكثرة تنبئ عن القوة، والقلة تنبئ عن الضعف.

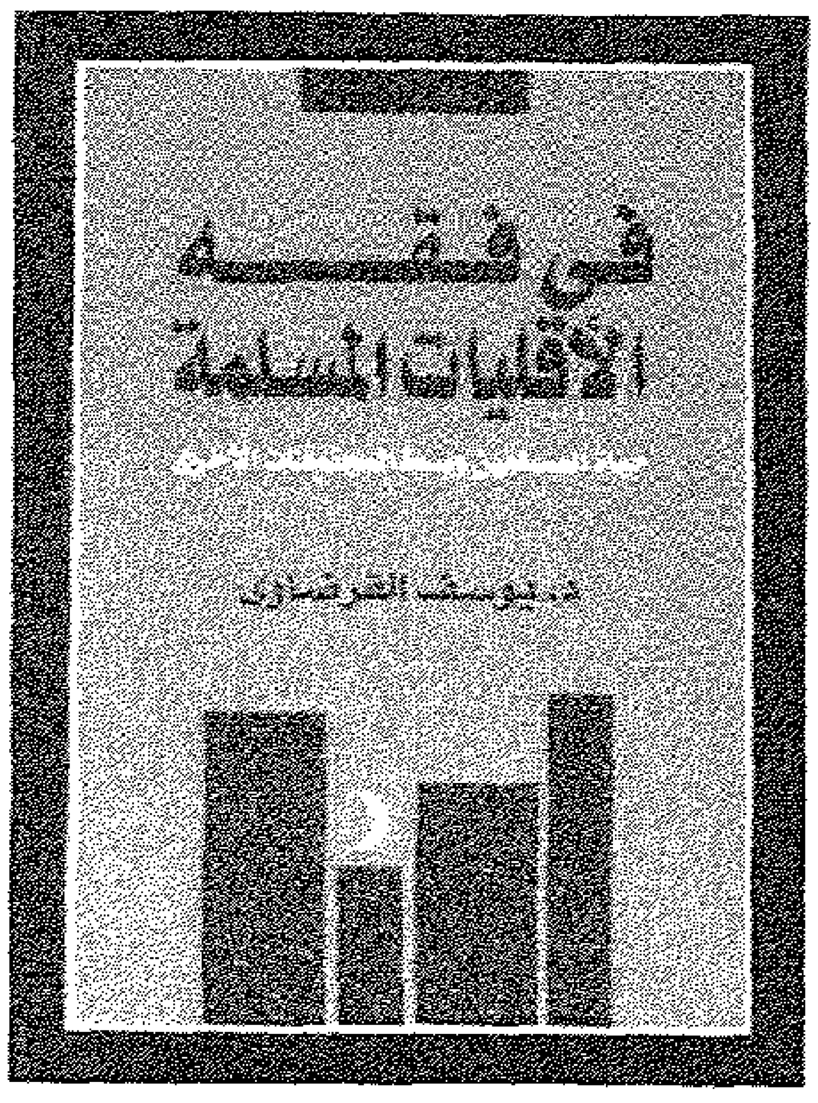
الأقليات المسلمة فى الغرب:

هناك الأقليات المسلمة فى أوربا الشرقية والغربية.

بعضهم من أهل البلاد الأصليين، مثل الجزء الأوروبى من تركيا، وألبانيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو ومقدونيا،وهؤلاء لا يجوز اعتبارهم أقليات، لأن بلادهم فى الحقيقة بلاد إسلامية. ومثل مسلمى كرواتيا وصربيا والجبل الأسود، وبلغاريا، وغيرها، فهم من أهل البلاد.

وهنالك من دخل الإسلام حديثا من أهل أوروبا الغربية، ومن انضم إليهم من المهاجرين من بلاد المغرب فى فرنسا، وفيها أكبر جالية إسلامية. نحو خمسة ملايين. بعضهم يحملون الجنسية الفرنسية، وآخرون يقيمون إقامة مشروعة لها حقوقها.

ولقد بدأ المسلمون فى أوروبا منذ مدة يشعرون بذاتيتهم، وأدركتهم الصحوة الإسلامية العامة، فطفقوا ينشئون المؤسسات المختلفة. دينية وثقافية واجتماعية واقتصادية. للحفاظ على كيانهم: المساجد لصلواتهم، والمدارس لتعليم أولادهم، والكليات والجامعات لتخريج المتخصصين منهم. ومن المؤسسات التى تذكر للجالية المسلمة فى أوروبا: اتحاد المنظمات الإسلامية،



والكلية الأوروبية للدراسات الإسلامية فى فرنسا. وقد خرجت عدة دفعات، ومثلها فى بريطانيا، والمجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث، وقد عقد سبع دورات، وأصدر عددا من الفتاوى والتوصيات المهمة، حلت كثيرا من مشكلات المسلمين فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها.

وهناك المسلمون فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ويقدر عددهم بأكثر من سبعة ملايين، معظمهم من (المسلمين الأفارقة) الذين استلبوا من أوطانهم استلابا، وسيقوا بسلاسل القهر إلى (الرق) وهم أحرار أبناء أحرار.

ولقد مرت الأقليات المسلمة فى صلتها بالإسلام. فكرا وشعورا وسلوكا. بمراحل متفاوتة، وخصوصا فئات المهاجرين من أوطان الإسلام الأصلية.

فى المرحلة الأولى كانت(ضياعا) بمعنى الكلمة. لم يكن هناك وعى، ولا حتى إحساس كاف بالانتماء الإسلامى، أو الهوية الإسلامية.

بدأ ذلك من بعد الحرب العالمية الأولى، حيث هزمت دولة الخلافة، وانتصر الحلفاء، وتألق العالم الغربى بحضارته، وانسحب العالم الإسلامى ليدخل تحت سلطان الاستعمار، الذى لم يكن قد دخل بلدانه من قبل.

كانت الأقليات الإسلامية أو قل: ما اعتبر أقليات إسلامية. فى ذلك الوقت تمثل صنفين من المسلمين:

١ . أهل البلاد الأصليين.

٢ . المهاجرين الجدد من العالم الإسلامى.

أما أهل البلاد الأصليون فكان معظمهم فى (أوروبا الشرقية) وفى داخل (روسيا) تحت مطارق الحكم الشيوعى، ومنهم: أهل البوسنة والهرسك وكسوفا ومقدونيا والبانيا وبلغاريا، وغيرها. فهؤلاء قد عزلوا عن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا وثقافة، كما عزلوا عن سائر الأمة الإسلامية. فأصبح هؤلاء جاهلين بالإسلام من ناحية الفكر، بعيدين عن الإسلام من ناحية السلوك. فكل ما يربطهم بالإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. التى يلقنها الآباء والأمهات للأبناء والبنات، دون أن يعرفوا حقيقة مدلولها، وما تقتضيه من قائلها من التزام بفرائض تؤدى، ومحرمات تجتنب، ومع هذه الشهادة عاطفة إسلامية غامضة نحو الإسلام، وشخصية الرسول. صلى الله عليه وسلم . والقرآن الكريم، أو المصحف الشريف الذى يعرفون اسمه، ويقدسون رسمه، ولا يعرفون حتى تلاوته. ومع هذا لم يكونوا يجدون هذا المصحف إلا بصعوبة. ومن وجده منهم . بطريقة أو بأخرى. فكأنما عثر على كنز عظيم.

وقد أدخل فى دائرة (الأقليات المسلمة) فى ذلك الوقت المسلمون فى (الجمهوريات الإسلامية الآسيوية) فى الاتحاد السوفيتى.

على كل حال،كان هذا هو وضع الأقليات المسلمة من أهل البلاد الأصليين.

أما وضع المهاجرين من البلاد العربية والإسلامية، فقد كانوا قليلين فى أول الأمر، وكان معظم المهاجرين من أناس لم يكن تدينهم راسخا، وكانوا يبحثون عن الرزق وعن المال، وأما هذا العالم فلم يكونوا يعرفون عنه شيئا. وقد هاجروا من بلاد ضعف شأن الإسلام فيها، فكان وضعهم الخاص، ووضع قومهم العام. مع ظهور العالم الغربى فى أوج قوته وانتصاره. يجعل هؤلاء لا يفكرون فى هويتهم ومتطلبات دينهم: فكانت النتيجة أن ضاع الجيل الأول والثانى من هؤلاء وخصوصا الجيل الأول، فقد ذاب تماما فى المجتمع الجديد: إذ لم يكن له من عقيدته ووعيه عاصم يعصمه من الذوبان، ولا يوجد من حوله آية (محاضن) تحتضنه أو (حراسة) تحميه.

لقد بدأ عصر جديد للأقليات المسلمة، ولا سيما المهاجرة. تطور هذا العصر من مرحلة إلى مرحلة.

ونحن الآن فى مرحلة التفاعل الإيجابى مع المجتمع.

فلا مجال فى هذه المرحلة للعزلة والانكفاء على الذات، والحذر من مواجهة الآخرين.

فقد غدت الأقليات المسلمة واقفة على أرض صلبة، واثقة من نفسها، معتزة بذاتها، قادرة على التعبير عن هويتها، والدفاع عن كينونتها وابراز خصائصها، وتقديم ما عندها من رسالة حضارية للبشرية.

وهى فى هذه المرحلة تستكمل مؤسساتها العلمية والتربوية والدعوية، فقد كانت فى وقت ما معنية أبلغ العناية بإنشاء (المسجد)، وكانت ضرورية: لأنها المؤسسة الأولى فى المجتمع المسلم.

ثم تطورت فأصبحت تعنى بإنشاء (المدرسة) ليتعلم فيها أبناء المسلمين أصول دينهم، كما يتعلمون المناهج الدراسية المقررة على أمثالهم.

ثم تطورت أكثر فأصبحت تنشئ المعاهد العليا والجامعات المتخصصة فى الدراسات الإسلامية.

المشكلات الفقهية للأقليات:

هذه الأقليات . بنوعيها الأصلى والمهاجر. لها مشكلات كثيرة تشكو منها، بعضها سياسى من جراء حيف الأكثرية على حقوقها، وعدم رعايتها لخصوصيتها الدينية.. وبعضها اقتصادى.

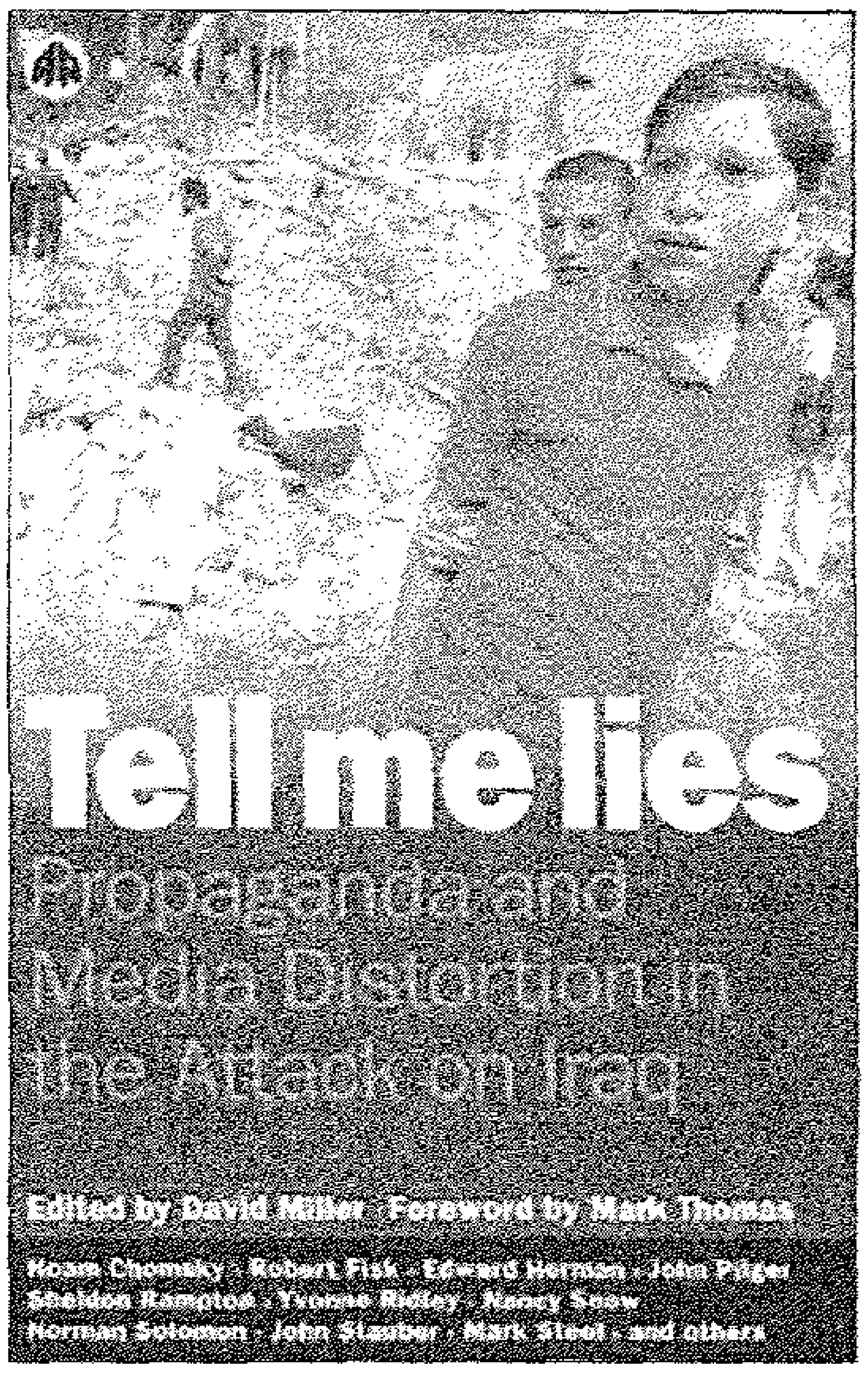
وكثير من مشكلات المسلمين لها طابع فقهى: وذلك ناشئ من رغبة الأقليات المسلمة فى تلك البلاد فى التمسك بهويتها الدينية، وعقائدها الإسلامية، وشعائرها التعبدية، وأحكامها الشرعية فى الزواج والطلاق وشئون الأسرة، ومعرفة الحلال والحرام فى أمور المطعومات والمشروبات والملبوسات، وسائر المعاملات، وشتى العلاقات بين الناس، وخصوصا غير المسلمين: هل ينعزلون عنهم أو يندمجون فيهم؟ وإلى أى حد يجوز الاندماج؟

صفحات من:
فى فقه الأقليات المسلمة
حياة المسلمين وسط المجتمعات الأخرى
د. يوسف القرضاوى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢٠١صفحة

الهيمنة الإعلامية الأمريكية

صبرى حافظ

هذه دعوة للمعرفة. لأن الحق ينهض على المعرفة، والمعرفة فى حد ذاتها قوة تمكننا من الحصول على بعض حقوقنا المهدرة. فقد اهدرت الكثير من حقوقنا، وضاعت علينا فرص الدفاع عن أنفسنا بسبب نقص معرفتنا بما يحاك لنا، وبالتالى عدم القدرة على التصدى له فى أوانه، ودحره وهو لايزال مجرد مخططات مشبوهة تستهدفنا، بدلا من الانتظار حتى «تقع الفأس فى الرأس» كما يقول التعبير المصرى. ثم التخبط فى ردود الفعل. ذلك لأن معرفة الحقائق بعد فوات أوان فاعليتها لاقيمة كبيرة لها. لأنه من باب الدراسات الفقهية أو التاريخية أكثر من أى شىء آخر. فالمعرفة وتحققها كقوة ترتبط بزمن فاعليتها، وليس بعد انصرام هذا الزمن. وفى هذا الباب يدخل التقرير الأخير والخطير الذى أعده أربعة من خبراء انتشار أسلحة الدمار الشامل فى مؤسسة كارنيجى الخيرية للسلام العالمى Carnegie Endowment for International Peace والذى أعلنت نتائجه فى ٧ يناير ٢٠٠٤، وقد استغرق إعداد هذا التقرير ستة أشهر، وجاء نتيجة لمقابلات عديدة مع خبراء الأسلحة والاستخبارات، وفحص دقيق لكل المستندات والتقارير الرسمية فى هذا المجال. وبرهن بدلائل قاطعة على أن حكومة بوش الأمريكية قد قامت بحملة إعلامية معلوماتية منظمة لتضليل الرأى العام الأمريكى، والمبالغة فى التهديدات التى تشكلها أسلحة الدمار الشامل العراقية. ودعا التقرير الذى اتهم إدارة بوش بالقيام بعملية تضليل منظمة Systematic misrepresintation بشأن الخطر الذى تمثله أسلحة الدمار الشامل العراقى إلى



تشكيل لجنة تحقيق فى دعاوى الحكومة ومزاعمها قبل شن الحرب الأمريكية/ البريطانية العدوانية على العراق.

ذلك لأن الحكومة الأمريكية ذاتها وأجهزة استخباراتها المختلفة كانت توقن ـ كما يقول لنا التقرير ـ قبل الحرب بأنه لا أساس للقول بأن نظام صدام حسين يشكل خطرا بأسلحته الكيمائية أو النووية على السلام بل كانت تعلم علم اليقين أنه ليس لديه برنامج نووى على الإطلاق، ومع ذلك أعلن ديك تشينى أن العراق استأنف برنامجه النووى. صحيح أنه كانت هناك درجة عالية من عدم اليقين بشأن بعض الأسلحة البيولوجية، ولكن لم تكن هناك أية براهين أو دلائل قوية يمكنها أن تبرر الحرب. ويؤكد التقرير أن واشنطون كانت تدرك قبل الحرب أن الخطر الذى تشكله اسلحة الدمار الشامل العراقية أقل من ذلك الذى تشكله باكستان أو كوريا الشمالية، أو مخزون الأسلحة الروسية المعرض للسرقات السهلة. ويؤكد التقرير أن تصاعد وتيرة التقارير الاستخباراتية الأمريكية عن تهديدات العراق بلغت درجة من الحدة والتوتر فى أكتوبر عام ٢٠٠٢ مع نشر تقرير الاستخبارات الوطنية National Intelligence Estimate الذى ينطوى على عدد كبير من الآراء المتناقضة والمعارضة لمسئولى الاستخبارات المختلفين. ويعدد التقرير أربعين حالة أثار فيها القسم المعلن من تقرير الاستخبارات الوطنية الشك فى المعلومات المتوفرة بشأن العراق. ناهيك عن القسم السرى الذى لم يتح لواضعى تقرير كارنجى الاطلاع عليه. وكيف أن هذه التشكيكات الأربعين قد حذفت من كل التقارير والملفات الإعلامية المختصرة التى نشرتها واشنطون على نطاق واسع فى عملية التضليل المنظمة تلك.

ذلك لأن واضعى السياسة قد أثروا على عدد من خبراء الاستخبارات ودفعوهم لإصدار تقارير تنطوى على تهديدات غير مؤكدة. فقد تكررت زيارات نائب الرئيس الأمريكى «ديك تشينى» لوكالة المخابرات الأمريكية، وطالب عدد من كبار المسئولين فى إدارة بوش بالاطلاع على التقارير غير المؤكدة والمعلومات المشكوك فيها لدى أجهزة الاستخبارات مما خلق مناخا دفع المحللين فى أجهزة الاستخبارات المختلفة إلى طرح عدد من التكهنات والاستقصاءات المثيرة والدامغة بشأن العراق. وسرعان ما استند مسئولو الإدارة الأمريكية على هذه التكهنات وأحالوها إلى معلومات أو حتى تأكيدات موثقة. ويشير التقرير فى هذا المجال إلى تحول عدد من هذه التكهنات أو التخمينات التى صاغتها أجهزة الاستخبارات بطريقة تشكيكية إلى تأكيدات صارمة فى عرض وزير الخارجية الأمريكى كولن باول لها فى مجلس الأمن. وهو العرض الذى سخر منه هانز بليكس مفتش أسلحة الأمم المتحدة فى حينه. لكن اهم ما يؤكده التقرير بطريقة إحصائية دقيقة هو طريقة تغير تغطية الإعلام الأمريكى والمسئولين الأمريكيين لموضوع العراق، وشن حملة منظمة عليه بصورة اعتمدت على التكهنات والاختلاقات فى خلق رأى عام أمريكى مؤيد لشن الحرب على العراق. ويشكك التقرير فى مزاعم واشنطون قبل الحرب بأن العراق سيتيح هذه الأسلحة للإرهابيين ولتنظيم القاعدة. وهى الأسلحة التى لم تعثر لها أمريكا على أثر بعد ثمانية أشهر من احتلالها للعراق، إلى الحد الذى قررت معه سحب فريق البحث عن هذه الأسلحة بقيادة دافيد كاى، وطرح سيناريوهات عديدة عن أنها كانت موجودة على الورق فقط، أو

الهيمنة الأمريكية على المعلومات بلغت درجة عالية من الاحكام تهدد استقلال المؤسسة الإعلامية فى المجتمعات الغربية نفسها، وتعصف بالكثير من تقاليدها الراسخة. وقد بدأت الولايات المتحدة تنشر أذرع هذه الهيمنة الأخطبوطية فى مختلف أنحاء العالم

The Price of Loyalty:
George w. Bush, the white house and the Education of paul O'Neill
(ثمن الولاء.. جورج بوش والبيت الأبيض وتثقيف بول أونيل)
Ron Suskind
Simon, Sahuster, 2004, 348PP,$ 26

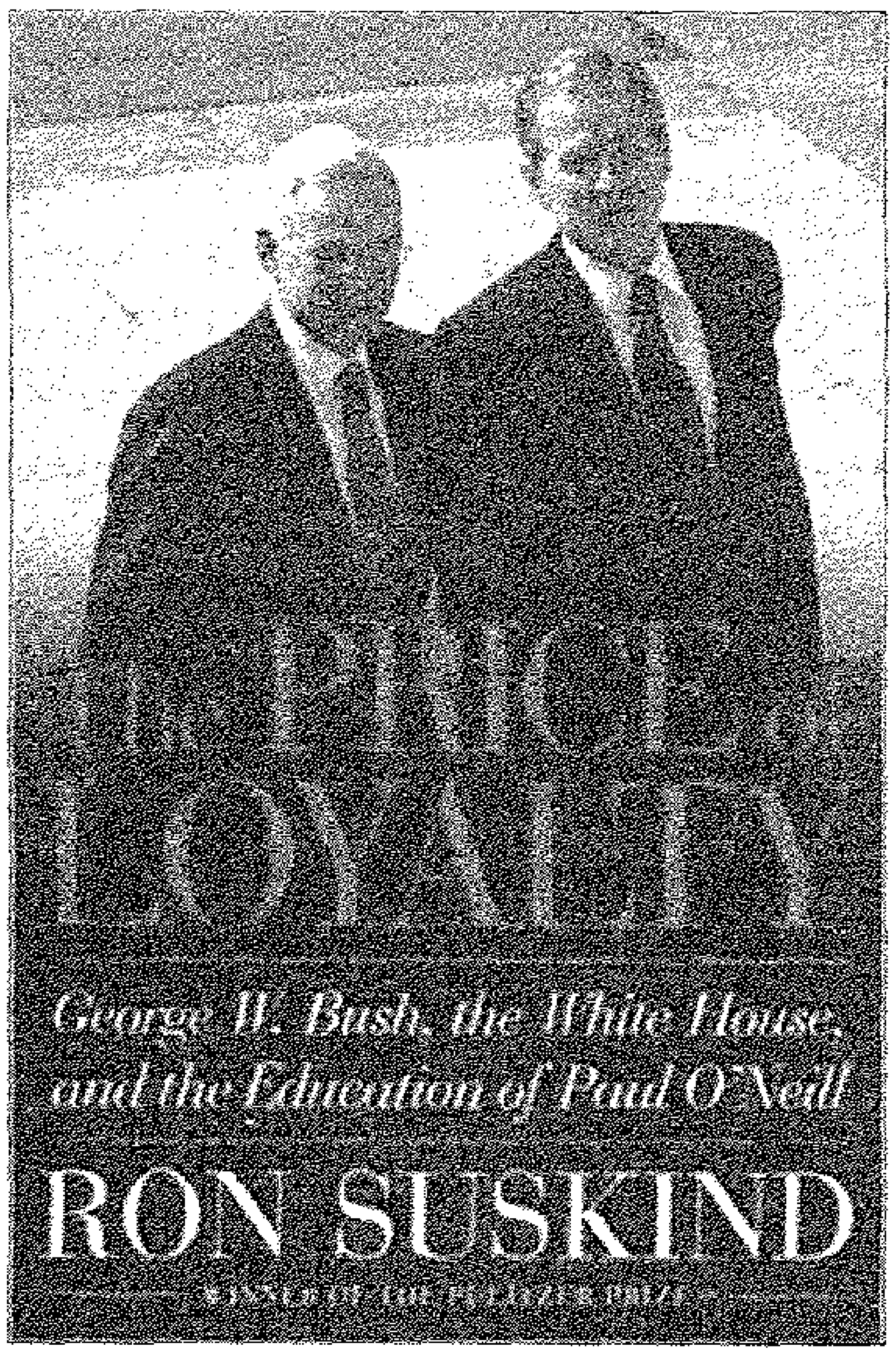
Tell Me Lies: Propaganda and Media Distortion in the Attack on Iraq
(الدعاية والتضليل الإعلامى فى الهجوم ضد العراق)
Noam Chomsky, Robert Fisk, and Others .. edited by David Miller

سلاح للتضليل وتبرير الحرب

فى عقل صدام حسين وحده، ولم يجرؤ مساعدوه على إخباره بذلك.

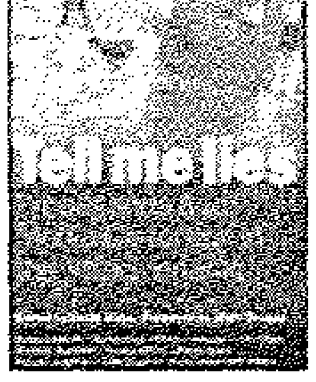
والواقع أن هذا التقرير الخطير، والكتاب الأخطر الذى ظهر هذا الأسبوع فى لندن (أخبرنى الأكاذيب) والذى سأعرض له بعد قليل يؤكدان أن الولايات المتحدة الأمريكية، وضمن نطاق سعيها للهيمنة على العالم، قد أخذت فى التحرر من كل المعايير الإنسانية والأخلاقية التى كانت تحمى ممارسات المؤسسات السياسية والإعلامية فى المجتمعات الديموقراطية. ذلك لأن سعيها للهيمنة يتمثل أول ما يتمثل فى هيمنتها على مصادر المعلومات وهى العملية التى بلغت ذروتها فى الحرب على العراق، ولاتزال تتكشف لنا فصولها فى الواقعين الأمريكى والبريطانى. ومع أن أمر الهيمنة الغربية على مصادر المعلومات وتحكم الغرب فيها من الأمور القديمة التى تحتكر فيها وكالات الإعلام الغربية الكبيرة منذ أيام الحرب الباردة السيطرة على وكالات الأنباء العالمية الأساسية التى تقرر أجندة الأخبار اليومية للعالم. والواقع أن الغرب قد حرص على الانفراد بالسيطرة على مصادر المعلومات، منذ أمد طويل. ومن يتذكر وقائع الهجمة الأمريكية البشعة على مؤسسة اليونسكو أيام أمانة أحمد مختار أمبو لها، بسبب إنشاء اليونسكو لمكتب التدفق الحر للمعلومات، وقيادته لمشروع إنشاء وكالة أنباء عالمية تطرح منظور العالم الثالث وقتها للأخبار وللعالم، على الخريطة الدولية، وكسر احتكار الغرب للهيمنة الإعلامية، فشنت أمريكا حربا عليه، وانسحبت من اليونسكو هى وانجلترا وكندا وأوقفت تمويلها له، ولم تعد إليه إلا بعد إلغاء مكتب التدفق الحر للمعلومات باليونسكو، ووأد مشروع الوكالة. من يتذكر هذا كله يدرك أن وعى أمريكا بأهمية السيطرة على المعلومات يعود إلى أمد غير قصير. وليس وليد هيمنة اليمين الصهيونى أو ما يدعى بالمحافظين الجدد، وهو الاسم الذى يتخفى وراءه عتاة الصهاينة الذين يقودون السياسة الأمريكية من وراء ستار جورج بوش الصغير.

لكن الجديد فى الأمر الآن هو أن أمريكا، ومنذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، تسعى إلى الهيمنة الكاملة والفجة على تدفق المعلومات فى البلدان الصديقة والعدوة على السواء. وتعتبر أن هذه الهيمنة هى معركتها الأساسية للحفاظ على مكانتها باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة التى يحق لها أن تفعل ما تريد. لذلك يطرح واضعو استراتيجيات السياسة الأمريكية فى هذا المجال مسألة الهيمنة الإعلامية/المعلوماتية Information Dominance باعتبارها أحد العناصر الأساسية لما تدعوه بالهيمنة الطيفية الكلية Full Spectrum Domination أو التى تشمل كل ألوان الطيف أو النشاط الإعلامى والدعائى، وتدرجها جميعها فى إطار الهيمنة العسكرية. لأن الولايات المتحدة قد أدركت أن عليها أن تكسب الحرب إعلاميا قبل أن تطلق أول طلقة فيها، وأن معركة الحرب الإعلامية تلك تتطلب منها إدارة وسائل الإعلام المختلفة والتحكم فيها. لأن ما يصدر عن هذه الأجهزة الإعلامية من وجهة نظر الهيمنة الأمريكية ليس مجرد معلومات، ولكنها أسلحة فى صورة معلومات Weaponized information لابد من نشرها بحساب، ووفق مخطط عسكرى لايقل دهاء ومراوغة وتنظيما عن نشر الأسلحة نفسها. وكما يقول الخبير العسكرى الكولونيل كينيث آلارد «فإن الحرب على العراق ستدخل التاريخ باعتبارها الصراع الذى لعبت فيه المعلومات دورها الكامل باعتبارها أحد أسلحة الحرب الأساسية وبطريقة غير مسبوقة».



وليس اعتبار الإعلام سلاحا أساسيا فى أى معركة حربية بالأمر الجديد، لأن الخداع الإعلامى كان ولايزال أحد أسلحة الحرب الأساسية. كما أن فى كثير من جيوش العالم إدارات للتوجيه المعنوى، ولرفع روح الجنود القتالية، وتعزيز قناعاتهم بعدالة القضية التى يحاربون عنها. لكن الجديد فى هذا الأمر أن إدارة الإعلام والهيمنة الأمريكية على المعلومات قد بلغت درجة عالية من الإحكام تهدد استقلال المؤسسة الإعلامية فى المجتمعات الغربية الديموقراطية نفسها، وتعصف بالكثير من تقاليدها الراسخة. وأن الولايات المتحدة قد بدأت تنشر أذرع هذه الهيمنة الأخطبوطية فى مختلف انحاء العالم، بما فى ذلك الدول الصديقة لها مثل كثير من البلدان العربية. فوفقا لأحدث تقارير استخبارات الجيش الأمريكى هناك أكثر من خمسة عشر مركزا من مراكز الهيمنة الإعلامية المعلوماتية فى الولايات المتحدة والكويت وبغداد والقاهرة وبيروت وغيرها من البلدان العربية. ويؤكد هذا التقرير أن أهمية الهيمنة الإعلامية لاتقل عن أهمية توفير الحماية الجسدية للجنود. ويكشف عن أن تحقيق هذه الهيمنة يتطلب أولا بناء المعلومات الصديقة وحمايتها، ومحاصرة المعلومات المعادية واستهدافها وإسقاطها والتشكيك فى مصداقيتها فى الوقت نفسه، باعتبارهما وجهى عملة واحدة. ويقول دافيد ميلر - الأستاذ بمعهد البحوث الإعلامية بجامعة استرلينج الاسكتلندية - فى دراسة له عن هذه الهيمنة الإعلامية/المعلوماتية «أن استخدام الصحفيين المزروعين فى صفوف الجيش فى الحرب العراقية embedded journalists كان إحدى أدوات هذه الهيمنة فى خلق معلومات صديقة، وتوفير

أما فى الساحة العربية فإن المعركة تكتسب طابعا حادا، بل دمويا. فقد قامت القوات العسكرية الأمريكية بقصف مركز تليفزيون «الجزيرة» فى كابول أثناء الحرب الأفغانية، وبرر البنتاجون هذا الفعل بأن منظمة «القاعدة» تمارس نشاطها من خلال مكتب «الجزيرة»

الهيمنة  الأمريكية

إمكانيات ترويجها وخلق المصداقية لها، والرقابة الكاملة على كل كلمة يكتبونها أو يذيعونها بحجة عدم استفادة العدو من أى من المعلومات التى قد يتضمنها تقريرهم. فقد أثبت تقرير تحليلى بتكليف من وزارة الدفاع البريطانية أن تسعين بالمائة من تقارير هؤلاء الصحفيين كانت إيجابية أو محايدة».

وإذا ما انتقلنا إلى الوجه الثانى من العملة وهو القدرة على حجب المعلومات الحساسة عن العدو، ومنع معلوماته المضادة من التدفق، والتشكيك فى مصداقية معلوماته حتى لو كانت حقيقية لصالح المعلومات الصديقة، حتى لو كانت زائفة، ونشر أسلحة أخرى مشابهة لمواجهتها فإن الحرب العراقية كانت هى الأخرى نموذجا بارعا فى هذا المجال. فنحن نعرف الآن ما فعلته واشنطون للحيلولة دون تدفق المعلومات التى كشف عنها تحقيق وكالة المخابرات المركزية فى الوثيقة المزيفة التى روجت لشراء العراق لليورانيوم من النيجر. ونعرف كذلك تفاصيل المعركة الشرسة التى شنها «اليستر كامبل» مدير مكتب تونى بلير للاتصالات والمعلومات ضد الـBBC عندما شكك أحد محرريها فى المعلومات الصديقة الزائفة التى تضمنها ملف الأسلحة العراقية البريطانى الشهير. لكن هذه المعارك المتحضرة تدور فى الساحة الغربية وحدها. أما فى الساحة العربية فإن المعركة تكتسب طابعا حادا، بل دمويا. فقد قامت القوات العسكرية الأمريكية بقصف مركز تليفزيون «الجزيرة» فى كابول أثناء الحرب الأفغانية، وبرر البنتاجون هذا الفعل بأن منظمة «القاعدة» تمارس نشاطها من خلال مكتب «الجزيرة»، وذلك لأن المحطة كانت تتيح لمسئولى حكومة طالبان الرد على بعض الادعاءات والمغالطات الأمريكية.

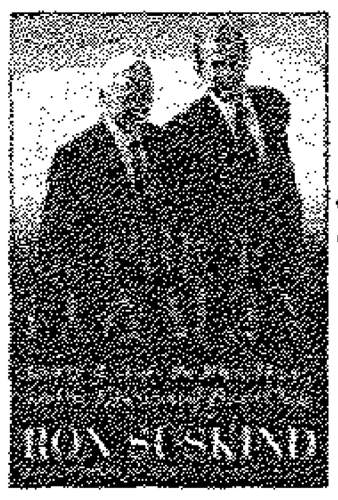
وقد تصاعدت حدة هذه الهجمات فى الحرب الأمريكية البريطانية ضد العراق، خاصة حينما قامت محطتا «الجزيرة» و«العربية» بتقديم الجانب الآخر من الصورة، وكشف زيف المعلومات والبيانات العسكرية الأنجلو أمريكية فى الأيام الأولى للحرب. فتم قتل مصور أو مراسل «الجزيرة» فى البصرة، وقذف مكتبها ومكتب تليفزيون «العربية» فى بغداد، واتهم ما تطرحه المحطتان من تقارير ونشرات ومعلومات بأنها معلومات عدوة. بل تدخلت الحكومة الأمريكية لدى الحكومة القطرية للجم عنان «الجزيرة» وتكبيل معلوماتها. وقد بلغ استهداف المعلومات التى تعتبرها الإدارة العسكرية الأمريكية عدوة، بل وحتى المعلومات المحايدة ذروته فى حرب احتلال العراق بقصف الفندق الذى يقيم فيه الصحافيين الأجانب، وعدد كبير منهم من مراسلى الصحف الغربية، إبان ليلة تسليم بغداد غيلة وغدرا فى الثامن من أبريل ٢٠٠٣، والتى لعبت فيها مجموعة من القيادات العسكرية العراقية، بما فى ذلك قائد الحرس الجمهورى دورا مشبوها كان لابد من التعتيم عليه. وقد استمرت عملية استهداف أجهزة الإعلام المستقلة فى التصاعد بعد الحرب للنيل من مصداقية ما تتعرض له كل من الإدارتين الأمريكية والبريطانية من انتقادات، وللحد من تدفق المعلومات التى تثير الرأى العام ضدهما. وحاصرت الإدارة الأمريكية فى العراق أى معلومات بشأن عدد القتلى العراقيين منذ بداية الحرب وحتى الآن والذين يزيد عددهم عن المائة ألف قتيل، أو حتى عدد المعتقلين العراقيين دون محاكمة فى السجون العراقية، وأشهرها سجن أبى غريب السيئ السمعة. والذين يبلغ عددهم عشرات الآلاف.

وقد نظم البنتاجون منذ الحملة الأمريكية على العراق وحتى اليوم ما يدعوه بـ«خريطة طريق معلوماتية» رسمها مسئول العمليات بمكتب رئيس أركان الحرب الأمريكى. وهى خريطة موجهة للمعلومات العدوة بهدف تشويهها وعرقلتها أو حتى اغتصابها، وقد أضاف مكتب وزير الدفاع الأمريكى لهذه الخريطة ضرورة عرقلة أى قرارات معادية لسياسة الحرب الأمريكية فى أى مكان فى العالم عامة والشرق الأوسط خاصة. ويقول الكولونيل الأمريكى المتقاعد «سام جاردنر» إننا قد نستهدف حتى الأصدقاء لو تصدوا لما نفعله أو حتى لما نريد أن نفعله. ذلك لأن المحللين العسكريين الأمريكيين والبريطانيين يدركون أهمية استهداف المعلومات المعادية وشن حرب إعلامية ونفسية عليها لأنها كما يقولون تعرقل عملية الهيمنة على العراق بعد الاحتلال. لذلك ليس غريبا أن نعلم أن محطة التليفزيون العراقية الجديدة، والمؤسسة الإعلامية الرسمية العراقية الراهنة «شبكة الإعلام العراقى IMN» قد دفع البنتاجون تكاليفها بالكامل. وضمن نطاق الهيمنة العسكرية على الإعلام فإن منشئ محطة التليفزيون العراقى الحالية ليست هيئة مقاولات مدنية، وإنما عسكرية هى Scientific Applications International Corporation (SAIC) من مقاولى وزارة الدفاع الأمريكية المعتمدين، متخصصة فى العمليات الإعلامية كما يقول موقعها على الإنترنت. وقد بدأت هذه الهيئة تعانى من بعض الصعوبات بسبب توهم العاملين العراقيين فيها «والذين يكلفون الشركة عشرين مليون دولار كل ثلاثة أشهر» بأنهم يعملون فى محطة تليفزيونية حرة، ومطالبتهم بقدر من الاستقلال.

لكن بول بريمر الحاكم الأمريكى العسكرى للعراق لم يسمح لهم بأى قدر من الاستقلال، وأغلق عددا من المنابر الصحفية والإذاعية والتليفزيونية المستقلة والتى انبثقت فى الواقع العراقى عقب الاحتلال متوهمة أن أمريكا حقا حررت العراق، وأنها تريد إنشاء نظام ديموقراطى فيه. وكما تكشف لنا مجلة «Index on Censorship» الانجليزية الشهيرة، فقد طالبت إدارة الاحتلال الأمريكى شبكة الإعلام العراقية بحذف فقرات القرآن، وحذف كل ما تتصور أنه معاد للولايات المتحدة، أو للاحتلال الأمريكى للعراق، وطالبت مديرى التليفزيون العراقى بعرض المواد المذاعة قبل إذاعتها على زوجة أحد القادة الأكراد المنحازين للولايات المتحدة لإجازتها، وهو الأمر الذى اعترض عليه مديرو المحطة دون جدوى. هذا فضلا عن قائمة بول بريمر بالمواد المحظور إذاعتها والموضوعات المحظور الاقتراب منها والتى أصدرها فى يونيو ٢٠٠٣. وهى قائمة مدعومة بسلطاته المطلقة فى تعيين أو فصل أى موظف فى «شبكة الإعلام العراقى IMN». ويبدو أن بول بريمر لا يكتفى بإحكام قبضته على الإعلام العراقى وعلى «شبكة الإعلام العراقى» التى يمولها الاحتلال الأمريكى، ولكنه يريد مد هذه السيطرة على كل ما يشاهده العراقيون. فقد أصدر لمجلس الحكم العراقى أمرا بالتصويت لمنع تقارير محطتى «الجزيرة» و«العربية» بحجة أنهما تحرضان على العنف، ففعل المجلس ذلك فى سبتمبر ٢٠٠٣ وأغلق مكاتبهما. بحجة أن تقاريرهما تصف العمليات التى تقوم بها المقاومة العراقية ضد الاحتلال بأنها عمليات مقاومة، بينما يريد بريمر وصفها بعمليات التخريب والإرهاب.

لكن يبدو أن الشعب العراقى نفسه لا تفوت عليه هذه الأكاذيب ولا يتفق مع قرارات مجلس الحكم العراقى الخاضع للحاكم الأمريكى العسكرى. لأن كل من لديه طبق استقبال القنوات الفضائية «دش» فى العراق لايستقبل «الجزيرة» و«العربية» فحسب، ولكنه يثق فيما تقدمانه له من تقارير وأخبار أكثر من ثقته فى تليفزيون الاحتلال الأمريكى للعراق IMN. لأن أرقام المشاهدة التى أجرتها هيئة الأبحاث العراقية تشير إلى أن ٥٩٪ ممن ليس لديهم «دش» يشاهدون تليفزيون IMN بينما تنخفض هذه النسبة لمن لديهم طبق استقبال القنوات

التفاعل بين الآلة الإعلامية والآلة العسكرية بلغ درجة من التكامل والتناغم غير مسبوقة. ذلك لأن أجهزة الإعلام وتقنياتها الفضائية العصرية وسرعة نقل المعلومات والتحكم فيها بلغت هى الأخرى درجة غير مسبوقة وغير متاحة للإنسان من قبل

الهيمنة  الأمريكية

الفضائية إلى ١٢٪ فقط. حيث يشاهد ٦٣٪ منهم محطتي «الجزيرة» ٣٧٪، و«العربية» ٢٦٪. وفيما يتعلق في مدى ثقة المشاهد في الأخبار والتقارير التي تذيعها هذه المحطات، فإن الأمر سرعان ما يكشف عن مزيد من إخفاق الاحتلال الأمريكي للعراق في انتزاع ثقة الشعب العراقي واحترامه لإعلامه. حيث ينخفض عدد من يثقون في IMN ممن ليس لديهم طبق استقبال فضائي إلى ٣٠٪، وبين من لديهم هذا الطبق إلى ٦٪ فحسب. بينما تبلغ ثقتهم في مصداقية «الجزيرة» ١٥٪ و«العربية» ٢٩٪ مما يؤكد أن الهيمنة الإعلامية الأمريكية في العراق المحتل ليست كاملة بأي حال من الأحوال. بل إن هذه الهيمنة تتلقى كل يوم الضربات حتى في قلب الخطاب الغربي ذاته، وهذا ما يكشف عنه كتابان صدرا هذا الأسبوع أحدهما في بريطانيا هو (أخبرني أكاذيب: الدعاية والتضليل الإعلامي في الحرب على العراق Tell Me Lies: Propaganda and Media Distortion in the Attack on Iraq) والثاني في الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان (ثمن الولاء The Price of Loyalty).

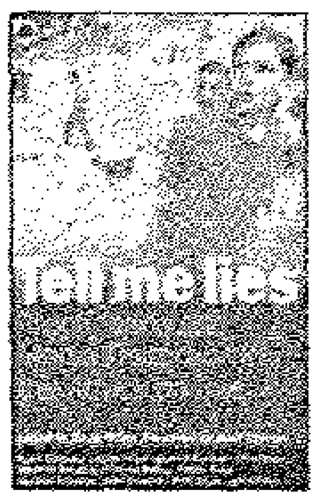
وكتاب (أخبرني أكاذيب) أو «أكذب علي» الذي حرره دافيد ميلر الأستاذ بمعهد البحوث الإعلامية بجامعة ستيرلنج الاسكتلندية كتاب يستحق أن نترجمه إلى اللغة العربية وأن نتأمل دروسه وكشوفه واستقصاءاته بكل دقة. وهو كتاب شارك فيه عدد كبير من الكتاب والباحثين المعنيين بالظاهرة الإعلامية في بريطانيا خاصة، وبدور الإعلام المتزايد في إحكام قبضة هيمنة الغرب على العالم، من خلال تحكمه في طبيعة المعلومات المتاحة، وتدفقها أو عرقلة هذا التدفق والتعتيم عليه. كما أنه ينطلق من التصور الأوروبي باستقلال أجهزة الإعلام ونزاهتها، ومن الضيق بتأثير الهيمنة الأمريكية على هذا الاستقلال، والنيل من نزاهة الإعلام الغربي ومصداقيته معا. وهو كتاب يتناول ضمن ما يتناول آليات عمليات «الدعاية، أو البروباجندا» المنظمة، وإدارة كل من أمريكا وبريطانيا للمعلومات بنفس طريقة إدارة الحرب العسكرية ذاتها، كي تقنع الرأي العام ـ المحلي والدولي على السواء ـ بالتهديد الذي تشكله أسلحة الدمار الشامل العراقية التي لاوجود لها. ويكشف هذا الكتاب عن طريقة خداع الرأي العام الدولي المنهجية والمنظمة كي يتيح لحكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا شن حرب نعيش الآن آثارها الإنسانية المدمرة على الشعب العراقي وعلى المنطقة العربية برمتها. وهي الحرب التي نتج عنها دون شك تزايد حدة النقمة الشعبية في المنطقة العربية، بل وفي مناطق أخرى من ورائها. على كل من أمريكا وبريطانيا. مما أدى إلى المزيد من القلاقل الأمنية فيهما، وتفشي حالة من التوتر الأمني والرعب النفسي بين مواطنيهما.

ويكشف لنا الكتاب الذي شارك فيه عدد من الصحفيين والجامعيين والمفكرين اللامعين من أمثال روبرت فيسك، وجون بيرجر، ومارك ستيل، وناعوم تشومسكي وجوليان بيتلي وجرنفيل وليامز ودافيد كرومويل وتيم لويلين وغيرهم كيف استطاعت حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا التلاعب بالإعلام ـ الذي يتوهم أنه حر ونزيه ـ وجعلته أداة طيعة في أيدي مخططها العسكري الجهنمي بطريقة غير مسبوقة منذ الحرب العالمية الثانية. كما يكشف لنا أن التفاعل بين الآلة الإعلامية والآلة العسكرية بلغ درجة من التكامل والتناغم غير مسبوقة وحتى غير معروفة في التاريخ الحديث. ذلك لأن أجهزة الإعلام وتقنياتها الفضائية العصرية وسرعة نقل المعلومات والتحكم فيها بلغت هي الأخرى درجة غير مسبوقة وغير متاحة للإنسان من قبل. حيث مكنت الجمهور من متابعة الأحداث أثناء وقوعها تقريبا، وقلصت الزمن المنصرم بين وقوع الحدث وتقديمه إعلاميا. ومن هنا كان من الضروري إدارة عملية تدفق المعلومات والتحكم فيها بقدر أكبر من الدقة والسيطرة، بصورة انمحت فيها المسافة بين إدارة المعركة العسكرية والمعركة الإعلامية. ويحب المخططون الأمريكيون أن يدعو القوة الإعلامية بالقوة اللينة soft power تمييزا لها عن القوة العسكرية ذاتها. والتعامل معها باعتبارها أداة عسكرية. مما أثر على الشعرة الدقيقة الفاصلة بين الدعاية والإعلام. بل يؤكد الكتاب في أكثر من موضع أن الإعلام الغربي قد تحول بالتدريج إلى دعاية، وبنفس الأساليب والاستراتيجيات التي كان الغرب يعيبها في الماضي على حكومات الكتلة الاشتراكية البائدة، أو على نظام ألمانيا النازية.

وينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام أساسية تضم اثنين وثلاثين فصلا أو مقالة، فضلا عن مقدمته التحليلية الضافية التي كتبها محرره دافيد ميلر. ويكشف لنا القسم الأول بعنوان «الحرب الإعلامية Media War» عن أن الحرب قد بدأت فعلا قبل انطلاق أول طائرة وأول قذيفة بعامين، وأن إدارة المعركة الإعلامية وما تضمنته من أكاذيب واختلاقات تهيئ المناخ الذي يتيح للحرب أن تقع كانت عملية طويلة بدأت مع صعود المحافظين أو الصهاينة الجدد في أمريكا مع بداية ولاية جورج بوش. وإذا كان كتاب دافيد ميلر يكشف عن هذه العملية من خلال رصد دور الإعلام، فإن كتاب رون سوزكند (ثمن الولاء) يقدم لنا الوثائق التي تدعم الكثير من افتراضات (أخبرني أكاذيب) وطروحاته المنهجية كما سنرى بعد قليل. أما القسم الثاني بعنوان «الحرب الدعائية Propaganda War» فإنه يقدم جانبين مهمين في طبيعة التغير في التعامل مع الإعلام من اعتباره تغطية محايدة للأخبار إلى تحويله إلى أداة دعائية تستفيد من دروس النازي الأساسية في ترويج الأكاذيب على أوسع نطاق وبكفاءة عالية. وفي شن حرب نفسية على جمهورها المحلي نفسه ـ أي الرأي العام الأمريكي والبريطاني ـ قبل الرأي العام العالمي. أولهما هو الجانب الفكري والفلسفي والتقني الذي أتاح إمكانية حدوث هذا التحول بطريقة تعصف بكل تقاليد النزاهة الإعلامية الغربية بل تستفيد من المجتمع الديموقراطي المفتوح في تحقيق مآربها المشبوهة. لأن بعض مقالاته تكشف لنا عن آليات تخليق هذه الآلة الدعائية الجديدة التي أخذت تحل بشكل كامل محل الآلة الإعلامية القديمة بمنطقها الإنساني والديموقراطي القديم.

أما القسم الثالث بعنوان «التلفيق في تغطية الحرب Misreporting War» وهو أطول أقسام الكتاب جميعا، لأن به نصف عدد فصوله تقريبا، فإنه أقرب ما يكون إلى دراسة الحالة، أو مجموعة الحالات التي تثبت افتراضات الكتاب من تغطية الشرق الأوسط عامة. ويلفت الكتاب نظر القراء وخاصة في الفصل الذي كتبه توم لويلين. والذي كان مراسلا للإذاعة البريطانية في العالم العربي لسنوات طويلة، أن لهذا النشاط التضليلي الجديد تاريخا قديما وإن كان أقل خفوتا ومراوغة. لأنه يكشف لنا عن آليات تجنب هيئة الإذاعة البريطانية BBC كل ما يدمغ المؤسسة الصهيونية في تغطية القضية الفلسطينية طوال سنوات عديدة، وعن أن هذا التراث الطويل من التحيز المتخفي تحت رداء الحياد المزعوم في مؤسسات الإعلام البريطاني العريقة لاينفصل بأي حال من الأحوال عن عملية إدارة الإعلام وتدفق المعلومات الجديد. أما بقية فصول هذا الكتاب فإن كلا منها يقدم درسا في فهم آليات عملية التضليل الإعلامي الضخمة تلك، من تناول تقنيات استخدام الصورة في الاستحواذ على المشاهد

كيف استخدم الخداع في هذا كله؟ لأن آلة الإعلام الغربية تفترض مسبقا أن تصريحات حكوماتها الرسمية تنهض على حسن النية والصدق، فقد تخطئ أو تصيب، وقد يجانبها التوفيق في بعض الحالات، ولكنها لا تكذب عمدا، ولا تسعى بالقطع لخداع مواطنيها



وشل قدرته على التفكير المستقل، بل وتوجيهه إلى اعتناق وجهة النظر المطلوبة وتصديق الأكاذيب، بل الدفاع عنها. إلى التلاعب بمشاعر المشاهد من خلال استخدام مشاهد الرعب وتعويد المتفرج عليها أو تعريضه للقصف اليومى بصورها حتى يقبل ما لايمكن قبوله فى المنطق العادى. إلى تحويل العدوان على الآخر إلى شىء عادى ومألوف، بل وتزويده بالوجه الإنسانى المطلوب الذى يريح ضمير المشاهد من خلال التركيز على حالات أطفال مصابين وتوفير الرعاية الطبية الغربية لهم، كما حدث فى حالة الطفل «على» أثناء الحرب على العراق.

ويقدم لنا هذا القسم الكثير من تجليات عمليات التضليل الإعلامى أثناء الحرب، ويرصد عددا من الأكاذيب التى تم ترويجها بإتقان، ثم كشفت لنا المعلومات بعد الحرب عن أنها عارية من الحقيقة. واستخدام القصص الإعلامية القادرة على التعامل مع عصر الصورة مثل اختلاق الأكاذيب حول قصة العريفة «لينش» الجندية الأمريكية البيضاء التى وقعت فى أسر القوات العراقية البربرية وحررها رفاقها الجنود الأمريكيون الشجعان. وتبين أن هذا كله اختلاق وتزوير فاضح. إلى تجهيز الونش العملاق، واستدعاء أجهزة الإعلام الدولية وحتى توقيت عملية هدم تمثال صدام، أى التحكم فى شكل الرسالة، وتوقيتها وإخراجها، وتوزيعها. إلى كيفية استئناس الآراء المعارضة فى الإعلام واحتوائها من خلال تقديم إغراءات عديدة كالأسرار والسبق الصحفى لتعزيز مكانتهم مقابل استئناسهم. إلى عمليات إرهاف ذاكرة الجمهور التاريخية بشكل انتقائى، بالصورة التى لابد من تسميتها بالذاكرة الانتقائية التى تعيد تذكيره باستمرار بمساوئ العرب، وتحاول أن تنسيه مساوئ الصهاينة أو بشاعاتهم. وغير ذلك من آليات عمليات التضليل التى مكنت الإدارة الأمريكية والبريطانية معا من ترويج الأكاذيب بشأن أسلحة الدمار الشامل العراقية وما تشكله من خطر على الغرب نفسه. وكيف أن هذه الذاكرة الانتقائية نسيت أن العراق الذى يشكل خطرا على القوة العظمى الوحيدة فى العالم هو العراق الذى أعيته منظمة الأمم المتحدة تفتيشا وتدميرا لأسلحته عقب عاصفة العار المسماة بعاصفة الصحراء، ثم أضعفته أكثر من عشر سنوات من الحصار الاقتصادى الخانق. وآلاف الطلعات الجوية الأمريكية البريطانية من القواعد السعودية والكويتية والخليجية وحتى التركية على مناطق الحظر طوال سنوات الحصار المريرة. وقد حدث هذا كله قبل الحرب وأثناءها كى يتم التجهيز المراوغ للرأى العام لخلق نوع من القبول أو فبركة الإذعان كما يدعوها تشومسكى.

أما القسم الرابع والأخير من الكتاب بعنوان «البدائل Alternatives» فإنه يقدم لنا كما يقول عنوانه مجموعة من البدائل، مثل عدم الاكتفاء بالإعلام الغربى وضرورة الاطلاع على وجهة نظر الضحية، وعلى الإعلام العربى والفلسطينى فى حالة أى تغطية متزنة للقضية الفلسطينية. ووضع وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتليفزيون تحت التمحيص وطرح الأسئلة المحرجة والحادة حول مصادرها. وضرورة العمل داخل المؤسسة وضدها فى الوقت نفسه حتى يمكن باستمرار فضح محاولات التضليل المختلفة وهى لاتزال أجنة لم تتبرعم نتائجها الوخيمة بعد. وكذلك التعامل مع الوسائل البديلة وخاصة شبكة المعلومات وقدرتها على طرح أصوات بديلة ومصادر معلومات مغايرة، حتى ولو كانت جزئية. ويكرس الفصل الأخير والذى كتبه ناعوم تشومسكى نفسه لدور الحركة المناهضة للحرب، فكرها وتنظيمها وحركتها باعتبارها المؤسسة البديلة القادرة على التصدى لمؤسسة الأكاذيب الرسمية. ولأنها استطاعت فى هذه الحالة أن تحرك الملايين على اتساع الكرة الأرضية ضد الحرب، وأن تفضح دعاوى تعبير المؤسسة الأمريكية والبريطانية عن الرأى العام العالمى وديموقراطيتها. وينادى بأهمية تركيز الإعلام الحر والنزيه على نشاطات هذه الحركات البديلة، لمنحها قدرا أكبر من الذيوع والشعبية والمصداقية والتأثير.

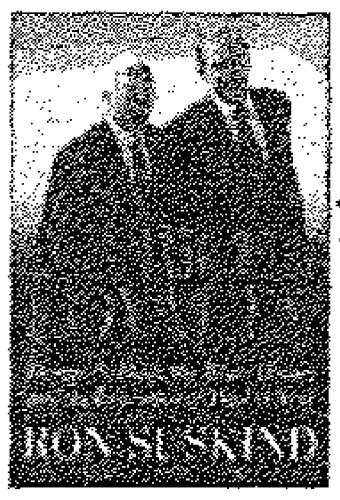
بعد هذا العرض الموجز للكتاب سأتوقف قليلا عند مقدمته التى كتبها محرره دافيد ميلر بعنوان: «أكاذيب كبيرة وصغيرة عن العراق». لأنها تبدأ بعملية تدوير الآلة الإعلامية الأمريكية والبريطانية خاصة منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الشهيرة بحدة ومهارة وتكثيف غير مسبوقين منذ سنوات الحرب العالمية الثانية. ذلك لأن الإدارة الأمريكية/البريطانية استخدمت مجموعة من الأدوات الإعلامية من استمالة عدد من الصحفيين المؤثرين وتزويدهم بالمعلومات أو الملفات «السرية» التى تتيح لهم تحقيق «سبق صحفى» مهنى، وإن كان قائما على الكذب، إلى تجميع الملفات السرية وإتاحتها للجميع، إلى خلق مناسبات دولية كبرى فى مجلس الأمن والأمم المتحدة يشاهدها العالم برمته، وتمكن الحكومتين من طرح دعاياتهما على أوسع ساحة دولية. وكيف استخدم الخداع فى هذا كله. لأن آلة الإعلام الغربية تفترض مسبقا أن تصريحات حكوماتها الرسمية تنهض على حسن النية والصدق، فقد تخطئ أو تصيب، وقد يجانبها التوفيق فى بعض الحالات، ولكنها لا تكذب عمدا، ولا تسعى بالقطع لخداع مواطنيها. كما أن العلاقة بين المؤسسة الحكومية والإعلام، وهى علاقة دائمة خارج ظروف الحرب تنهض على الثقة والاحترام المتبادل. وهذا هو السبب فى افتقاد الإعلام الغربى لأى مناقشة جادة لموضوع استراتيجيات الدعاية والتضليل، ولأى شك أصيل فى تصريحات المسئولين أو وثائقهم الرسمية. ذلك لأن الإعلام الغربى، وهذا هو سر أزمته فى التعامل مع عواقب الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، ينزه حكوماته حتى الآن على الأقل عن الكذب. لأن الكذب فى هذا التعريف هو اختلاقات فاسدة يعى مروجها أنها عارية من الحقيقة، ومع ذلك يطرحها وكأنها حقائق.

وإذا كان من العسير البت فى هذا الأمر بالنسبة للشخص الذى يكذب على آخر، فإن الأمر يكون فى غاية الصعوبة بالنسبة للمؤسسة الحكومية التى يمكن الزعم فيها أن من قدم هذه الأكاذيب حصل عليها بحسن نية ممن يعملون معه، أو من جهاز المخابرات، أو حتى من المعارضة العراقية، كما تستطيع الحكومة التضحية بكبش فداء ما وتبرئة ساحتها إذا ما تأزم الموقف. لكن المؤسسة الرسمية قد استطاعت من خلال آليات علاقتها التقليدية مع الإعلام تطوير مجموعة من الوسائل التى يسرت لها عملية الاختلاق والكذب، وأهمها ما يدعى فى بريطانيا بتقديم المعلومات مع الالتزام بحجب المصدر Off the Record، وهو الأمر الذى يتيح للحكومة نشر ما تريد من الأكاذيب، مع الاحتفاظ بحق التنصل من المسئولية عنها. وهذا ما استخدمته الحكومتان البريطانية والأمريكية بكثافة فى مرحلة الإعداد للحرب على العراق. هذا فضلا عن التمييز بين الأكاذيب الصغيرة التى يمكن غفرانها، والأكاذيب الكبيرة التى تدخل فى مناطق المحظورات أو الكذب الصريح على الجمهور. وقد عدد الكاتب أكثر من عشرين نموذجا من الأكاذيب الصغيرة التى استخدمتها المؤسسة الرسمية أثناء الحرب. لكن أهم ما أبرزه فى هذا المجال هو أن تراكم هذه الأكاذيب الصغيرة ينسج شبكة من الاختلاقات التى تساهم فى دعم الأكاذيب الكبيرة أو منحها قدرا من المصداقية.

وأهم هذه الأكاذيب الكبيرة هو ما

صاغ المؤلف شهادة بول أونيل وزير الخزانة فى إدارة جورج بوش وعضو مجلس الأمن القومى حتى ديسمبر ٢٠٠٢ حينما تمكن المحافظون الجدد من التخلص منه، لأنه كان أحد الأصوات الثلاثة المناوئة لمخططهم الشرير للزج بأمريكا فى العراق

الهيمنة الأمريكية



تدعوه هيئة الاستخبارات البريطانية MI6 بالعملية الإعلامية والتى بدأت منذ عام ١٩٩٧، وهى خلق تيار من المعلومات التى تكرس لدى الرأى العام أن العراق يشكل تهديدا مستمرا للسلام العالمى. وذلك من خلال تراكمات محسوبة للأخبار والمعلومات التى تنحو إلى التركيز على بعض المعلومات الجزئية، أو توجيه هذه المعلومات الوجهة التى تساهم فى تخليق الانطباع النهائى، وهو أن العراق يشكل تهديدا محتملا لبريطانيا وأمريكا فى نهاية المطاف. وهذا هو ما أخذ يتكشف الآن بالنسبة لمسلك الحكومتين الأمريكية والبريطانية بشأن تهيئة الرأى العام السياسى والمؤسسة القومية برمتها لشن هذه الحرب بناء على مجموعة من الاختلاقات والأكاذيب، كانت الحكومتان واعيتين بأنها عارية من الصحة.

ويقدم لنا الكتاب الثانى الذى صدر هو الآخر هذا الأسبوع فى أمريكا: (ثمن الولاء: جورج بوش والبيت الأبيض وتثقيف بول أونيل) البراهين على ما يطرحه الكتاب الأول برغم صدورهما على مبعدة آلاف الكيلومترات كل من الآخر، وبرغم اختلاف منطلق كل منهما وطبيعته. وكتاب (ثمن الولاء) هو كتاب كتبه صحفى أمريكى لامع وحائز على جائزة بوليتزير الأمريكية المرموقة هو رون سوزكند Ron Suskind، وصاغ فيه شهادة بول أونيل وزير الخزانة الأمريكى فى إدارة جورج بوش وعضو مجلس الأمن القومى الأمريكى حتى ديسمبر ٢٠٠٢ حينما تمكن المحافظون الجدد من التخلص منه، لأنه كان أحد الأصوات الثلاثة المناوئة لمخططهم الصهيونى الشرير للزج بأمريكا فى العراق، الأمر الذى يفيد الدولة الصهيونية فى أكثر من مجال. وهذه الأصوات الثلاثة، كلها لجمهوريين عريقين هم بول أونيل، وكريستين تود ويتمان رئيسة وكالة حماية البيئة، وكولن باول وزير الخارجية. ولم يبق من هؤلاء الثلاثة إلا الأخير الذى أعلن عن عزمه عدم الاشتراك فى حكومة بوش فى الدورة الثانية، إذا ما قيض لبوش أن ينجح فى الانتخابات القادمة. وقد قرر أونيل أن يكتب هذا الكتاب انطلاقا من إحساسه بالخطر الذى يشكله المحافظون الجدد وأيديولوجيتهم البشعة على أمريكا نفسها. وتنبيها للرأى العام الأمريكى بعواقب هذه السياسة، وبمدى سيطرة المحافظين الجدد على جورج بوش نفسه الذى يتسم بمحدودية ذكائه، وبالسيطرة السهلة عليه من قبل هؤلاء الصهاينة الدهاة. وحينما قرر أونيل أن يتكلم، بعدما نجح المحافظون أو الصهاينة الجدد، فى التخلص منه لجأ إلى هذا الصحفى اللامع ليكتب القصة كاملة، وزوده بالمعلومات والوثائق التى تمكنه من كتابتها بشكل يلقى اهتماما واسعا من الرأى العام.

ويؤكد لنا رون سوزكند أنه اعتمد فى كتابته لهذا الكتاب الشهادة على ١٩ ألف وثيقة وفرها له بول أونيل، تكشف لنا أن حكومة جورج بوش الحالية وضعت ضمن برنامجها منذ الأيام الأولى لتوليها السلطة، وقبل أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة بأكثر من تسعة أشهر، مسألة التخلص من نظام صدام حسين، واحتلال العراق أو السيطرة ثروته النفطية بأى طريقة ممكنة. وأنه طلب من مجلس الأمن القومى أن يبحث عن طريقة تمكنه من تحقيق ذلك، وأن يخلق الظروف والمبررات التى تتيح له تحقيق هذا الأمر. وينطوى الكتاب على مقتطفات من مذكرات أعدت فى الأيام الأولى لإدارة بوش تتناول هذا الموضوع. ويقرر بول أونيل أنه حضر عدة اجتماعات لمجلس الأمن القومى نوقشت فيها هذه السياسة وأقرت بأغلبية كبيرة، ولم يكن هنالك فى مجلس الأمن القومى إلا صوتان معارضان لها هما بول أونيل وكولين باول. ويكشف لنا الكتاب عن أن القوة المهيمنة على الرئيس جورج بوش الصغير، وصاحبة الشأن فى رسم السياسة هى نائب الرئيس ديك تشينى والمستشار السياسى كارل روف ووزير الدفاع دونالد رامزفيلد ونائبه الصهيونى وولفوتز الذى كان مستشارا سابقا لنتانياهو وبقية أعضاء اللوبى الصهيونى المعروف باسم المحافظين الجدد. ويصف الكتاب جورج بوش وموقفه الغريب فى هذه الاجتماعات التى تقرر فيها سياسة الولايات المتحدة باسمه، وعليه هو أن يتبنى نتائجها أنه «مثل أعمى فى غرفة مليئة بالصم». فهم لايسمعونه، وهو لا يكلمهم لأنه يدرك أنهم لن يسمعوه، وبالتالى فإن اجتماعات مجلس الأمن القومى والحكومة الأمريكية معا تتسم بافتقادها للحوار السياسى الجاد. لكنهم فى النهاية يقودونه إلى الوجهة التى يبتغونها والغاية التى يستهدفون تحقيقها.

لكن أخطر ما يقدمه فى هذا المجال أن مجلس الأمن القومى وطوال الثلاثة والعشرين شهرا التى حضر فيها اجتماعاته لم يتمكن من الحصول على دليل دامغ واحد يؤكد أن لدى العراق أسلحة للدمار الشامل. كما أن الكتاب يقدم لنا عددا من وثائق البنتاجون التى تناقش عملية تقسيم نفط العراق بين الشركات النفطية الغربية الكبرى، وكيفية توزيع هذه الثروة بطريقة تخرس معارضى السياسة الأمريكية وتضمن لأمريكا الهيمنة عليه فى الوقت نفسه. لأن الكتاب من هذه الناحية يؤكد بشكل توثيقى وبما لايدع أى مجال للشك كل الافتراضات والنتائج التى توصل إليها الكتاب الأول من حيث آليات عملية التضليل والهيمنة الإعلامية المعلوماتية الطويلة. لكن الكتاب ليس كتابا عن التضليل الإعلامى الأمريكى لتسريع الحرب فحسب، ولكنه كتاب عن تجربة بول أونيل فى حكومة جورج بوش وشهادته من الداخل عليها. وهى شهادة من الداخل تكشف لنا عن أن جورج بوش ليس سياسيا بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنه شخص تدفعه رؤيته الدينية للوقوع فى أيدى أيديولوجية اليمين الصهيونى أو اللوبى الصهيونى الجديد المتخفى تحت عباءة هذه التسمية المراوغة والملتبسة معا «المحافظون الجدد». فعدد كبير من هؤلاء «المحافظين الجدد» لم يكن محافظا، بل خدم فى حكومات ديموقراطية سابقة، ولكن لأنهم جميعا صهاينة فى المحل الأول، فإنهم يتلونون بأى لون يتيح لهم دفع السياسة الأمريكية فى الاتجاه الذى يخدم مصالح الدولة العبرية.

ولأن الكتاب صادر عن وزير الخزانة السابق فإنه مشغول بمدى غفلة بوش عن الوضع الاقتصادى، ذلك لأن مستشارى السوء من المحافظين الجدد أقنعوه بأن العجز الرهيب فى الميزانية لم يؤثر على فرص رونالد ريجان من قبله فى النجاح، وفى دخول التاريخ الأمريكى كواحد من أنجح الرؤساء. وينتقد الكتاب بشدة حكومة جورج بوش فى سعيها لتخفيض الضرائب فى وقت يعانى فيه الاقتصاد من عجز شديد. ذلك لأن هذا التخفيض سيجعل الأغنياء أكثر غنى، ولكنه لن يساعد الفقراء بأى حال من الأحوال بل سيوسع الهوة بينهم وبين الأغنياء. لكن هذا موضوع آخر لا سبيل إلى التفصيل فيه هنا. لأن ما يهمنا فى هذا المقال هو معرفة آليات التضليل الإعلامى الأمريكى والهيمنة كى نستفيد من هذه المعرفة فى وضع سياسات إعلامية إن لم تتصد لتأثيرها الضار علينا، فإنها قد تعرقل على الأقل عسف هذه السياسات المستمر بأحلامنا وحقوقنا المشروعة. وتمكننا من التعامل معها بحكمة أكبر، بدلا من الاستسلام لمخططاتها ثم التأسى على ما يجرى لنا فى هذا الزمن العربى الردىء.

يصف الكتاب جورج بوش وموقفه الغريب فى هذه الاجتماعات التى تقرر فيها سياسة الولايات المتحدة باسمه، وعليه هو أن يتبنى نتائجها أنه «مثل أعمى فى غرفة مليئة بالصم». فهم لايسمعونه، وهو لا يكلمهم لأنه يدرك أنهم لن يسمعوه

الحاجز

شـــظايا روايــــــة

عـــــــزمى بشـــــارة

▩ الجزء الأول: وجد فى بلاد الحواجز «المحثوم»

فى تلك الأيام أتقنت ابنتى الكلام بشكل يثير الإعجاب. وتفعل كلمات الطفولة الأولى والجمل المركبة البكر فعل السحر فى الأشياء التى يسميها الكلام فتصبح جميلة. وكلام الأطفال عصا سحرية ما إن تمس الأشياء حتى تتطاير النجوم الذهبية فى أرجاء حياتنا المثقلة هنيهات قليلة، لنعود الى حالة ترقب فى انتظار كلمة جديدة. وإذا طال الانتظار يبدأ الإلحاح ثم التوسل: «شو هدا ؟» نكرر السؤال برجاء أن تنطلق الأسماء لتبعث الحياة فى المسميات وتصبح الأشياء العادية استثنائية وموضوع كلام. و«قوليلهم شو قلتيلى مبارح»، وكأنها تدرك إدماننا الجديد على السحر فتعذبنا بنظرات تومئ إلينا بمزيد من التوسل، تتلوه ابتسامة تقلب التضرع والرجاء ضمًا وتقبيلاً وركضًا فى أرجاء البيت: «يا بابا شو هالضحكة»، ويزحف وراءنا ابننا الذى لم يتقن الكلام بعد منفعلاً من الضوضاء، فأحمله هو الآخر راكضًا لاهثًا لاعنًا التدخين.

ويبعدنا كلامها عن السياسة، فحديث الوالدين اندهاش من مصدر الكلام، وإعجاب بالتمييز بين الصفات وبين الحاضر والماضى، وانفعال من تألق ابنتهم وتساؤل، هل هو عادى يكبر فى حب الأهل أم استثنائى يمنعنا الانفعال من إدراكه؟

وما كدت اقتنع أن ابنتنا قد ختمت الكلام ولم يبق أمامها إلا النثر والشعر والفقه وعلم الكلام حتى جاءتنى من الحضانة: «وين كنت يا بابا؟»، «كنت على المحثوم». شردت هنيهة: «المحثوم» بالثاء المخففة لفظ طفولى ملائكى للكلمة العبرية «محسوم» ومصدرها «حسام» أى سد الشارع، قطع الطريق، منع المرور، أوقف التدفق، منع الحركة. وتعنى الكلمة الحاجز، ومنها الحواجز التى تقيمها قوات الاحتلال فتسد على الناس فى فلسطين المحتلة دروب الحياة. وقد أصر أهلنا فى الضفة والقطاع على إبقاء الكلمة عبرية فهم يلفظون «محسوم» للمفرد ويجمعونها بالعربية «محاسيم»!! وتمكث ابنتى يوميًا على الحاجز من الوقت ما ينسيها الحضانة. فهى تذهب صباحًا إلى الحضانة، وهى تعدد «المس فلانة والمس فلانة»، ولكنها تعود إلينا من «المحثوم».

«شو عملتى يا بابا عالمحسوم؟»، «غنيت»، «شو غنيتى؟» وانطلقت فورًا بالغناء ترافقه نغمات صوتها العذب الذى يذيب الأشياء فتنساب جداول رقراقة تحيط بنا وحدنا واقفين على قطعة الجنة الخاصة بنا بين المحاسيم: «ستة حولة (حلوة) يا جميل». والجيم المصرية تؤكد أن الحضانة شهدت اليوم احتفالا بعيد ميلاد أحد الأطفال.

وبعد أربعة شهور متساوية الطول ومتفاوتة العرض من عمرنا لم يعد الحاجز متوقعًا أو مألوفًا، فمنذ الاجتياح أصبح الحاجز إعلان الوجود الطاغى لمن وضعه. الحاجز هو الفاصل، وهو الواصل بين العالمين. هو الحدود وهو المعبر. هو الألم وهو الأمل بالخروج. بات الحاجز يأخذ ذاته بجدية، فازدادت بين مركباته كمية الحديد والمواد الصلبة، كما ارتفع عدد الجنود وعبست ملامحهم. أصبحت له بنية. لم يعد مشكلاً من بقايا معدات الجيش: براميل، مكعبات أسمنت، قطع صخرية منوعة. وانتشرت حوله غرف أسمنتية أو حديدية زجاجية مركبة وتجهيزات خاصة بها، حتى اللون بات بنيًا. رماديًا أحاديًا، زالت زركشة البهدلة، وبات الحاجز عديم التعابير.

وطال الانتظار على الحاجز، ولكن فى الوقت ذاته قلت شكوى المنتظرين، زادت معاناتهم وزاد صبرهم عليها، زاد جَلَدهم لا لأن جلدهم قد ازداد سماكة، بل لأن الحاجز بات سريع الانفعال لا يحتمل الشكوى، والخوف لا يسمح بالتذمر. الحاجز فى مرحلة ما بعد الاجتياح «ما بينمزح معو»، لأن يده ترتج على الزناد خفيفة، ولأنه أيضًا خائف.

ولكن توازن الرعب على الحاجز لا يغير من هوية القامع وهوية المقموع، هوية المسيطر والمسيطر عليه، هوية الآذن وهوية متوسل الإذن. لم يعد الواقع إلا حاجزًا ولا يوجد فى الواقع توازن فى الرعب، يوجد فى الواقع رعبان لا توازن بينهما، خوفان لا تكافؤ بينهما.

بات الحاجز شموليًا لا يكتفى بأقل من وقت الانسان كله، جهده كله، أعصابه كلها. حتى النهار قد يمضى وقته أمام الحاجز. الزمن ذاته ينتظر فى المكان. رام الله أصبحت تبعد يوم سفر مثل كل شىء، يوم السفر يوم، و«يوم الطاحونة يوم»، كما قالوا. وقد ينتهى بغبار على الملابس ولكن دون طحين.

تعيش الناس فى ظل الحاجز، سافرت أم لم تسافر، غادرت أم لم تغادر، وجوده طاغ على كل شىء، يتخلل كل تفاصيل الحياة، يصبغ كل شىء بلونه. نفسية الناس مرتبطة بالخبر الوارد عن الحاجز، خططهم، مشاريعهم، لقمة العيش، القرار حول مكان السكن ومدرسة الأولاد ومكان العمل متعلقة بموقع كل شىء «أمام» الحاجز أم «خلفه»، كل الاعتبارات تبدأ بالحاجز، وكل الغايات يجب أن تبرر ذاتها بمنطقه، أن تشرح نفسها أمام عرشه.

انتهى الدوام فى الحضانة. وفى الشهور الأخيرة تعلمت ابنتنا النظافة إلى درجة أنها تختار ملابسها بعناية، وتسأل إذا «لابسه حلو ولا لأ؟» لتنتقل بغض النظر عن إجابتك لتسألك «بتعرف مين جبلى إياه؟». وقد اعتادت اخيرًا أن تقضى حاجاتها الطبيعية فى مكان أطلقنا عليه كل يوم أسمًا إلى أن استقر لساننا، ولا أدرى لماذا، على اشتقاق إبداعى: «البوتا (الباء مخففه)» من البوت pot بالانجليزية أى الوعاء، ثم انتقلنا إلى «التواليت» الفرنسى. وصعدت ابنتنا درجة معنوية مع ارتفاعها عن الأرض على مقعد التواليت لتعيِّر أخاها أنه فقط عندما يكبر سيحق له الجلوس على ذلك العرش، ولو بجهد بالغ وبدون ارتياح. انتهى الدوام وابنتى فى طريقها إلى البيت على الحاجز. اتصلت قبل ساعتين وسمعتها تغنى، وأخوها يلحن بصوته لحنًا لا علاقة له بما تغنى، ولكنه لا يقصد الإزعاج. كلٌ يغنى مواله، فقط واحد بكلمات والثانى بدون كلمات.

اتصلت بعد ساعتين. ما زالوا على الحاجز، ولكن العويل احتل مكان الغناء، أما اللحن فقد تحول إلى صراخ عصبى متقطع يتبعه «نق» من النوع المتكرر «هأ هأ هأ» تتبعها «بدى أروح» مكررة عشرات المرات، ومثلها «وين البيت؟». «وجد بدها تحكى معك» قالت أمها، لا أملا بالمساعدة الهاتفية اللاسلكية، وإنما لتقطع وتيرة «النق» لتلتقط أنفاسها أو تريح أذنها قليلا. انتهى النق على التليفون وتحولت «وجد» إلى الكلام يرافقه البكاء، كأنها إنسانة بالغة انهارت دفعة واحدة «بابا فى ببيى بدى أروح عالبيت». تأبى أن تقضى حاجتها فى ملابسها والحاجز يحول بينها وبين البيت. وتوسلاتنا ان تنهى الموضوع فى السيارة، وأينما شاءت، لا تجدى، وقد بدأت تتألم، ولكنها لا تستطيع. وبدأنا نتابع الموضوع، ونعرف جيداً كم مضى من الوقت، فكل خمس دقائق نعود للاتصال. «كم سيارة بعد؟»، «كيف بيفتشوا سيارة سيارة؟»، إلى أن وصلت وجد إلى البيت. وعندما دخلت بوابة عمارة الشقق الخارجية، «عملتها» فى السيارة، ربما لأنها شعرت بالراحة أو الاسترخاء لأنها وصلت أخيرًا فلم تصبر حتى التواليت. غاب الحاجز.

لم نحتج إطلاقًا للمكابرة لنفكر: ماذا يفعل المريض أو الحامل التى تعانى آلام المخاض على الحاجز؟ لم نتخيل.

لسنا بحاجة للتخيل، والشعر مؤخراً لا يزيدنا خيالاً. والإبداع والفن يصور الواقع ليستفيد منه لا ليغيره. وقد أقلعنا عنه منذ فترة إذ تجاوزه الواقع إبداعًا وصدقًا. جاءت أشباح المعاناة بذاتها متمشية على الحاجز، إنها دائما هناك. فى كل سيارة رجل وامرأة وأطفال وقصة، ألف قصة وحكاية. بعضها يصرخ طلبا للمساعدة من المارة من الجنود، يستغيث، بعضها يتفتش بالسيارة التى تقف أمامه أو بالزوجة التى تجلس إلى جانبه أو بالأولاد على المقعد الخلفى لتطلع الرجولة والكرامة عليهم بعد أن انسحبت من أمام الجنود، أو انسحقت على الحاجز، أو قمعت ذاتيًا قبل أن تصله. بعضها يهمس، وبعضها يعانى بصمت، وبعضها يقص بـ«الطوش»، المشاجرات، التى يفتعلها على الحاجز القصة الأكثر مأساوية قصة غياب الإحساس وانعدام الحساسية للذل.

فى اليوم التالى قالت وجد على طاولة الفطور فجأة « فى بيبى». « ايه عال منيح، شو منعمل لما فى بيبى؟». وقفت وعملتها أمامنا فى ملابسها الداخلية، قبل ان تلبس والحمد لله، « البيت بعيد» قالت، وضحكت. هل ضحكت لتصالحنا قبل التوبيخ، أم ضحكت منّا، أم أنها فعلاً تضحك من شيء ما يبدو لها مضحكًا، تعابير وجوهنا المندهشة، مثلاً.



حارة الحاجز:

مع مرور الزمن قامت فى فلك المدينة أحياء زادت من هشاشة وسط البلد الذى بات ينوء تحت الحمل وتمزقه القوة الطاردة عن المركز. لقد اصبحت المدينة ممراً لسكان هذه الأحياء فى طريقهم وقد حُسبت هذه الأحياء مجازًا على القدس وأصبحت «غير قابلة للتفاوض» بلغة «العملية السلمية» الجارية أو بلغة «العملية السياسية» أو بلغة « العملية» كما اصبحت المفاوضات تكنى فى تلك البلاد. وكل ما يمسه اسم القدس حتى لو لم يكن له علاقة بها لأنه لم يكن ببساطة قائمًا فى الماضى المقدس البعيد، أو لأنه كان قرية بعيدة عنها حتى الماضى القريب، يصبح بقدرة قادر وبفضل استخدام الدين فى السياسة العلمانية مقدسًا. حتى انتشر فى تلك الديار اعتقاد مفاده أن المقدس هو كل ما أُطلق عليه اسم القدس، أو العكس. ومن بين هذه الأحياء ما خطط له بعناية، شوارع واسعة، أرصفة، حدائق، بيوتها مبنية من حجارة مقدسية بيضاء ومسقوفة بقرميد أحمر.. فى القدس وحدها يبدو الحجر الذى استخرج ودق من صخر الجبال غريبًا عن الجبال ذاتها. تبدو الأحياء أكثر شبهًا بـ«حقائق على الأرض» منها بحارات: «فيه أكومبليه»، «عوفدوت بشيطح»، كما فى لغة سياسيى تلك دولة الحاجز. يندر أن يرى الإنسان السياسة مهندسة ومجسمة أسمنتيًا بثلاثة أبعاد وبدون حلقات وسطية أو جمل اعتراضية أو أقنعة، كما يراها فى بلاد الاستيطان خلف الحواجز. ويستفاد من هذه التجربة أنه إذا ما جسمت السياسة وهى فى عجلة من أمرها وأمر صنّاعها، ينتج مجسما قبيحًا للغاية.

وكأنها وجه الأحياء المخططة الآخر قامت، وفى الحقيقة تكومت أو تكدست، حارات عفوية عشوائية، هى النقيض المجرد للتخطيط. «بناء القرصنة»، تسمى هذه الظاهرة العربية بالعبرية. إنه البناء غير المخطط فى بلد لا يخطط فيه لسكانه الأصليين إلا الرحيل، ولا يبقى فيه السكان الأصليين إلا عكس التخطيط.

لم تشق هنا الطرق وترسى البنى التحتية لتتلوها الحدائق ثم البيوت، كأن الخاص يشتق من العام ويتبعه. هنا بنيت بيوت للسكن على الشارع الرئيسى بين المدينتين، ثم بدأت بالتراجع عنه تدريجيا بعدما هدم أصحاب الحاجز بعض البيوت. قامت البنايات ثم تحولت الفسحات بينها إلى شوارع. لم تقم حارة، ولم يقم حيز عام بل تجمع من البيوت لا يربطها رابط سوى الحاجة إلى المنزل. سلسلة من البنى السكنية على الطريق بين مدينتين لا تترك بينهما مجالاً لقطع أو تمييز، إلا حيث سيقطع الحاجز الاستمرارية عشوائيًا وبدون سبب ظاهر. فى أسفل المبانى حوانيت مشرعة أبوابها نحو الشارع الرئيسى، وكلما خوت بطونها فغرت أفواهها نحو المارة.

لم تحظ الشوارع المتفرعة بأسماء ولا أرقام. لم تجتمع هيئة لتسميتها خلافًا للأحياء التى خططها أصحاب الحواجز والتى يندمج فى عملية استنراخها وتتريخها استقراء التاريخ المحلى. يسمى الشارع على اسم أحد قادة الحركة التى أقامت دولة الحاجز أو على اسم أو تاريخ «معركة من معارك أصحاب الحاجز»، خاصة تلك التى دارت رحاها لتحرير المدينة من سكانها.

ليس للحارة الجديدة بؤرة أو مركز ولا حيز عام تنسج فيه علاقات بين الناس، إنه شارع ممتد على طول سبعة كيلومترات. خطر عبوره إلى الناحية الأخرى خطر الموت لأن السيارات تتعامل معه كأنه شارع سريع بين مدينتين. إنه يصل بين الأحياء ولكنه يفصل جنبيه إلى حيين منفصلين. ولا ينتج الشارع حيزا عاما، وانما خطرا عاما. وأبرز ما فى الشارع هو حوانيت البقالة. وهى الجواب لأبرز حاجيات الناس فى ظل الحواجز، تستقبل السيارات على أرصفتها للتزود بالطعام كما تتزود بالوقود فى محطات الوقود. وتستخدم البقالة أيضًا للتأشير إلى مكان السكن: « بعد سوبرماركت فلان فى دخلة حادة ع اليمين، انتبه لا تأتيها مسرعا من الشارع لأنها قد تفوتك، بعد السوبرماركت هدئ السرعة ثم بعد مائة متر عند حاوية النفايات

الحاجز

شظايا رواية

المحروقة. يعنى لونها أسود على أخضر. خذ يمين ثم بعد أول دكان خضار اسمه الفردوس خذ يمين مرة أخرى، انتبه لأول شارع ترابى، انتبه! لأن البعض يفيّض مياها آسنة. هنالك فى هيك أربع بنايات لصق بعض، كل واحدة منها أربع طبقات. اسأل فى محل معارض غرناطة أو فينيسيا، أو لا، معرض أريزونا لان ابنه يا سيدى بتعلم هناك انشالله يكون فالح مثل أبوه. اسأل أى منها عمارة أبو فلان..» وهكذا. لا يصل البريد هنا بالطبع فالبيت مكان سكن، البيت مكان للمبيت وليس عنوانا. ولا توجد خدمات بلدية ولا شرطة مدنية. هنا يمكنك جيب حرس الحدود باستمرار باحثا عمن تسربوا بين البيوت ملتفين على الحواجز قاصدين القدس لضربهم واعتقالهم أو لضربهم دون اعتقالهم، وقلما يعتقلون دون ضرب. الاعتقال دون ضرب هذه قضية قانون، والبلاد خلف الحواجز وبين الحواجز هى بلاد دون قانون. وقانون دولة الحاجز يخضع بعيداً عنها لاجتهادات الجنود الإبداعية بين البيوت وفى ساحاتها الخلفية المعتمة.

لم يقم فى هذه الأحياء مجتمع أهلى على أنقاض القرى التى حلت محلها، ولم تقم علاقة جيرة ثابتة بين الناس المستأجرين عند سكان القرى الأصلية التى باتت أحياء فى مدينة وبات سكانها مؤجرى بيوت فى القدس. وإنما تشبه العلاقة إلى حد بعيد فى حالتها المتطورة اللقاء فى السوبرماركت، واللقاء عند الحاجز فى حالتها المتردية. كما تشبه العلاقة بين الملتقين فى المطار أو فى محطة القطارات المركزية، اللقاء عابر كما الناس عابرون فى الطريق إلى مكان آخر.

اللقاء فى المطار أو المحطة يكون أقل حميمية حتى لو جمعت أطراف اللقاء معرفة سابقة، فمدته مقررة سلفا ترافقه عصبية انتظار الطائرة أو القطار أو الباص، أو عصبية انتظار مواصلة السير بعد انتهاء الحديث.

تفلت اللحظة من اللقاء لأن الهدف هو اللحظة التى تليها. ويفلت الزمان من قبضة المكان باستمرار فى غفلة المكان عن اللحظة الحاضرة وهو يترقب اللحظة الآتية.

وكما فى كل مكان أقيمت حواجز على الشوارع الرئيسية التى تربط المدينة شمالها وجنوبها برام الله وبيت لحم على الخط المسمى «كاف هتيفر». إنه بلغة أصحاب حواجز تلك البلاد خط التماس، مستعار من الخيط الذى يرتق الثوب، إنه الخط الذى يشير إلى الرتق أو الفتق أو إلى الرقعة فى الثوب يصلحها ويؤكد وجودها فى آن، إنه الوصلة بين قطعتى القماش أو الجلد الآدمى عند خياطة الجرح بعد عملية جراحية.

قام الحاجز فى البداية بمعونة علب معدنية فارغة كبيرة لحفظ الأطعمة للبيع بالجملة، وضعت فيها حجارة، وفى بعضها أشعل فى الليل فتيل مبلول بالمحروقات. وبمرور الزمن احتلت البراميل الفارغة المملوءة بالأسمنت محل معلبات الحجارة، ثم ما لبثت البراميل أن استبدلت بقواطع بيضاء وحمراء من البلاستيك المقوى الذى تستخدمه عادة دائرة الأشغال العامة فى تلك البلاد لتغيير مسار السيارات للابتعاد عن ورشة تصليح الشارع. وما لبثت أن أصبحت أسمنتية مضافا إليها مكعبات أسمنتية وقواطع حديدية تقطع الشارع إلى مسارين للتفتيش وصخور من كافة الأحجام.

فى البداية وقف الجنود فى العراء ثم ارتفع إلى جانبهم برج حديدى يحمل حاوى ماء من البلاستيك الأسود، وفى أسفله خيمة ميدانية ما لبثت أن احتلت مكانها غرفة أسمنتية جاهزة محجوبة عن الشارع بحواجز جاهزة من الباطون المسلح العارى القبيح. ومن حين لآخر تستخدم الصخور أو حاويات النفايات كمتمم إبداعى للحاجز لإغلاق منافذ على جنبى الشارع تحتجب عن نظر الجنود وقد تشكل منافذ للتسلل. وتؤدى أيضاً وظيفة منع سيارة من الالتفاف إلى الاتجاه المعاكس والعودة على أعقابها من حيث أتت. إذا علق من علق على الحاجز فلن يستطيع العودة بسبب الملل أو النرفزة مثلاً إلا بعد أن يتم فحصه، أو تمريره دون فحص. عليه أن ينتظر بصبر أو بدون صبر، الأمر سيان بنظر الحاجز. الصفيح والصخور والبراميل المملوءة بالأسمنت أو الحجارة تقطع الشارع طولاً وتمنعه من تغيير رأيه والعودة من حيث أتى. انعدام خط الرجعة، أو جسر العودة، إضافة للانتظار ذاته يجعل الانتظار واجماً وعصبياً محتقناً منفذه الوحيد هو حاجزه.

بداية الحاجز عشوائية مثل الأحياء المحيطة به تفتقر إلى نظام ونظافة وهيبة الحدود، ولذلك يجب أن تفرض قسوة السلوك البشرى الهيبة فى عملية تعويض عن غيابها البنيوى وعن غياب القواعد المكتوبة. الحاجز يحجز الحركة ويقسم الفضاء، إلى «ما قبل الحاجز» و«ما بعد الحاجز»، أما الزمان فلا معنى لتقسيمه لأن ما قبل الحاجز فى الزمان ذاكرة. وأصبح الانسان يسكن إما «قبل الحاجز» أو «بعده»، «أمام الحاجز» أو «خلف الحاجز»، على نفس الشارع الممتد. وطبعا يتذوت بعض القاطنين «قبله» أو «بعده» هذا التقسيم فيصر أنه يسكن فى القدس لأنه «قبل الحاجز» فى حين يسكن جاره فى رام الله لأنه يسكن «بعد الحاجز».

- ياخى انتو قدس واللا رام الله؟

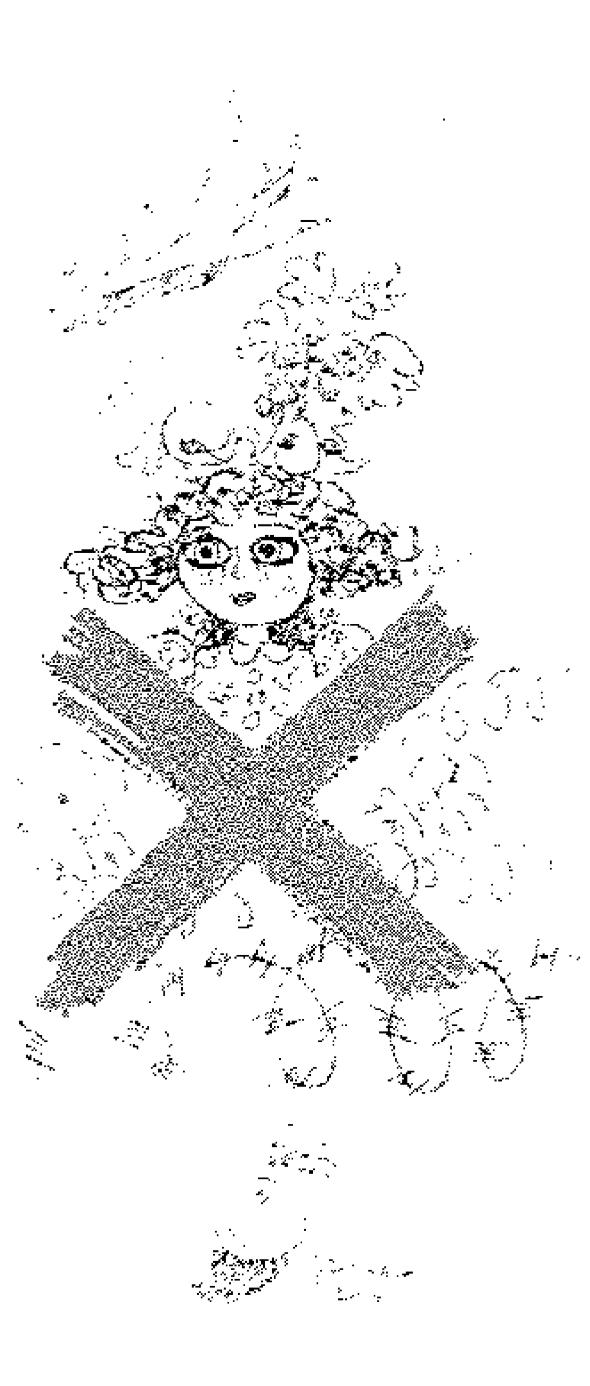
- لا احنا قدس وبالعلامة نمرة السيارة صفرا.

وفى ذلك إشارة للون لوحة رقم السيارة.

- لا النمرا مش مهمة. يعنى قصدى ساكنين قبل الحاجز واللا بعده، هلأ إذا ساكنين بعده نمرة السيارة ما راح يخلولكو إياها صفرا، وكمان هوية القدس الزرقا رح يسحبوها منك، راح تخسرها، مثل ما بتخسر الجرينكارد إذا ما سكنت فى أميركا. ولأنك سكنت بعد الحاجز يعنى بالعبرانى «نقلت مركز حياتك خارج القدس»، ما بصحلك إقامة دائمة فى القدس، وشو هى بطاقة الهوية غير حق الإقامة الدائمة؟

- شو أميركا؟ شو أنا هاجرت لهون؟ هلأ أنا اللى نقلت مركز حياتى واللا هم، مين اللى آجا لعند مين؟ مين بعطى حق الإقامة لمين؟ بعدين مين قرر يحط الحاجز؟ شو أنا حطيتُه؟ يعنى لو قربُه مترين كان صرت قدس. بعدين ليش هى هاى قدس؟ هادى قرى منطقة القدس، وإسرائيل ضمتها للقدس وصارت أحياء: يعنى بيت حنينيا، شعفاط، أبو ديس، العيزرية، الزعيم، التورى، المكبر. كلكو أحسن منى، كلكو صرتو قدس، وأنا مش قدس لأن الحاجز هيك قرر؟

- هلأ مش مهم، البلاد كلها احتلوها إذا هيك بدك تناقش، واجو عليها كمان إذا بدك. أنت المهم ما عدت قدس. مش قدس بس طالب إجار البيت بأسعار القدس. مش معقول، لازم عندك يكون الإجار أرخص، هذا بيت ضفة مش قدس.



- ما دمت هيك بتحكى لو قدس أنا ما كنت أجرتلك، لأن الأجانب واقفين بالدور بدهم بيوت فى القدس، وهدول بيدفعوا وخفيفين دم وما عندهم ولاد، كمان ما عندهم عزوة وعشيرة. وما راح يجيبولى رجال كل ما اختلفنا، وما فى حدا «يلبس قميصهم» وما بدهم جاهة وتعويض كل ما صرخت على ولد من ولادهم، الأجانب بدى أترجاهم ليلبسوا قميص عادى.

- هلأ الأجانب بالذات ما لازم يخافوا من الحاجز. شو يعنى بدهم يعملوا معهم عالحاجز؟ واحنا اللى لازم أصحاب البيوت يتضمانوا معنا ويأجرونا فى القدس.

- كيف يعنى يتضامنوا ما فهمت؟

- يبدو أنك فعلا مش أجنبى. لو أجنبى كنت تضامنت، بس أنت القضية قضيتك مثل ما البيت بيتك، كيف بدك تتضامن والقضية قضيتك.. أنت صاحب القضية، وصحاب القضية غير ضحاياها، المفروض يربحوا منها مش يتضامنوا، صحيح والله نسيت، كيف نسيت ليش نسيت؟ فيه أعداء القضية وضحايا القضية وفى المتضامنين مع القضية وفى المتضامنين مع ضحايا القضية وفى كمان صحاب القضية اللى بيحافظوا عليها وفى المتضامنين مع صحاب القضية. وين رحت أنا؟ ما بديأسكن فى هالبلد، بعدين فى حدا بعقل وبسكن فى بلد كل حجر فيها معتبر حاله مقدس، وماكل بحاله مقلب لأنه فى مجانين بأميركا بدهم يشتروه، بلد مجدوب ويجذب كل مجاذيب الدنيا.

قبل أن يصبح وجود الحاجز طاغياً أو شمولياً فى المراحل التى تسمى» سيجر» بلغة أصحابه أو إغلاق، بمعنى حصار، بالعربية مرت سنوات من الإغلاقات المتقطعة يتبعها تخفيف بموجب أسلوب بافلوف أو سكينر البدائى فى تحديد ردود فعل كلب أو قرد التجارب على المؤثرات وسلوكه المشروط بردود الفعل المذكورة. وهكذا توفر الوقت لنشوء أسلوب حياة وثقافة الحاجز فى هذه المرحلة. لأن الحاجز صمد فترة تميزه عن «الحاجز الطيار» الذى ينصب لساعات، يوم أو نصف يوم، ويعد للمارة مفاجأة غير سارة فى مكان غير معهود، ولكنه لا يلبث أن يختفى تاركاً وراءه ركب ومفاصل متألمة بعد أن أجبرت على الجثو إلى جانبه بانتظار فحص الهويات وأرقامها باللاسلكى، وسائقين يشتمون بعد أن اضطروا حتى إلى فك دولاب الاحتياط ناهيك عما فوقه أثناء التفتيش الدقيق. ويذكر طلبة الجامعة كيف ترك «الحاجز الطيار» وراءه شهيدين من الطلبة وستة أشهر من الإغلاق، قبل الانتفاضة المسماة أولى تشاؤماً باستمرار الاحتلال وتفاؤلاً باستمرار الانتفاضات. وبحكم تعريفه كحاجز طيار يستفز الحاجز المفاجئ ردود الفعل عفوية وغاضبة، ومفاجئة بدورها حتى لأصحابها، وغير مقررة سلفاً. لأن الإنسان لا يدخله وهو مستعد نفسياً حاسباً تصرفاته خطوتين إلى الأمام ليحدد تصرفاته وردود فعله.

يمثل الحاجز «نقطة تحول» فى الحيز العام. إنه ليس مكاناً بل حافة، تخوم، ونقطة عبور، نهاية، وبداية فى نفس النقطة فى الحيز العام، إنه شفا الانتقال. وإذا لم يتقن الإنسان المشى بتوازن قد يتحول إلى منحدر أو منزلق نحو الهاوية. فقد يصل المرء منه إلى الاعتقال بدل الوصول إلى العمل أو إلى البهدلة الجسدية المباشرة بدلاً من البيت.

عند نقطة الحاجز ينتهى حيز عام واحد ويبدأ حيز عام آخر. ليس الحاجز النظرى مكاناً إذاً بل نقطة فى المكان. ولكن الحاجز الفعلى هو مكان، وهو مكان متوسع باستمرار ليصبح هو بذاته حيزاً عاماً. يخلق الحيز العام المكان ويعيد إنتاجه على صورته ومثاله. هكذا تتحول مفارق الطرق والأحياء المتاخمة للحاجز إلى محيطه، إلى هامش له مطبوع بطابعه. هنا ينتظر الناس بعضهم وينتظر الناس دورهم، هناك يقوم موقف سيارات، وتباع بضائع وتنتقل من شاحنة إلى أخرى، هنا تنزل أمتعة وتجر العربات. هناك محطات ركاب، قلايات فلافل كدليل فلسطينى أصيل على وجود ازدحام. وللازدحام فى بلاد الحواجز رائحة سجائر وفلافل وكباب مشوى وصوت علب مشروبات غازية فارغة تتدحرج بين الأرجل. موقف لسيارات العمال الذين ذهبوا إلى أعمالهم مشياً على الأقدام قبل طلوع الشمس ولم يتبق خلفهم من دليل على وجودهم إلا موقف سيارات بعضهم العتيقة وبعضهم الآخر الذى لم يسعفه الحظ ومازال على الحاجز. إنه ينتظر من لديه واسطة ليأخذه لعمل، أماكن للاختباء الفورى من الجنود، وأماكن للانفراد بالناس يجرهم إليها الجنود لتفتيشهم وضربهم بحرية بعيداً عن أعين الناس.

الحاجز هو حالة الوضع، حال الحالة. الحاجز ليس مكاناً حتى بالنسبة للجنود. إنه موضع يوضعون فيه بحكم علاقتهم بالدولة، ينصبون عليه، يعينون ويرسلون إليه، إنه موقع للسيطرة والاستبداد. إنه موقع وتحصين. الموقع. التحصين الذى يشرف على الحاجز يرى من الخارج فقط. رؤيته ممكنة ودخوله مثل مسه محظور، إنه ليس حيزاً عاماً، إنه موقع يسيطر على الحيز العام.■

كتاب الزاوية

أحمد لطفى السيد

يعد أحمد لطفى السيد الأب الروحى للمذهب الليبرالى فى مصر أو مذهب الحريين كما كان يطلق عليه، وقد أمضى سنوات طويلة من عمره المديد (٩١ عامًا) فى الترويج والدعوة لهذا المذهب فكتب فى الليبرالية بمفهومها السياسى والاقتصادى وفى الديمقراطية ومذاهب الحكم والإصلاح السياسى.

ولد أحمد لطفى السيد عام ١٨٧٢ فى «برقين» إحدى قرى مركز السنبلاوين فى محافظة الدقهلية، لأسرة موسرة وحصل على إجازة الحقوق،وتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده. بدأ حياته العملية كاتبًا فى النيابة عام ١٨٩٤، ثم أصبح وكيلاً للنيابة عام ١٨٩٦ إلى أن استقال عام ١٩٠٥.

رأس تحرير صحيفة «الجريدة» لسان حال حزب «الأمة» المصرى من عام ١٩٠٧ حتى ١٩١٤، وقد كتب آلاف المقالات التى يدعو فيها لأفكاره ودخل فى معترك السياسة. ومعظم إنتاجه الثقافى والفكرى عبارة عن تجميع لهذه المقالات بالإضافة إلى ترجمات لبعض عيون الفكر اليونانى وكتاب «قصة حياتى» وهو ترجمة ذاتية.

شارك لطفى السيد مع سعد زغلول وآخرين فى تشكيل نواة الوفد المصرى لكنه خرج على الوفد وسعد زغلول عام ١٩٢١ ليتولى بعد ذلك رئاسة دار الكتب والجامعة المصرية ولينخرط فى السياسة مع حزب الأحرار الدستوريين ويتولى وزارة الداخلية عام ١٩٣٨.

وقد اختارت «وجهات نظر» بعض المقالات التى نشرها لطفى السيد فى سنواته الأخيرة بـ«الجريدة» وجرى تجميعها فى كتاب صدر عام ١٩٤٥ تحت عنوان «المنتخبات» عن مطبعة المقطم والمقتطف بمصر.

الإمام موسى الصدر.. ربع قرن

حسن حنفى

١ ـ من التقليد إلى التجديد

من الصعب دراسة فكر الإمام موسى الصدر خاصة منهج التفسير لديه من مجرد أحاديث إذاعية أو محاضرات ثقافية عامة دون متون أصلية أو تفاسير كاملة كما هو الحال عند القدماء والمحدثين. ومع ذلك يمكن التعرف على بعض ملامح هذا المنهج بما هو متاح حاليا من نشر الأحاديث الإذاعية الرمضانية وتجميع محاضرات الندوات الثقافية ما نشر فيها وما لم ينشر.

وبهذه المناسبة، مرور ربع قرن على اختفاء الإمام، ليس المطلوب تقريظه ومدحه وتعظيمه وإجلاله وتقديسه بل استئناف رسالته وتحقيق أهدافه بل وتطوير أساليبه وطرقه. فالزمان يتغير وربع قرن زمن طويل، أطول من زمن الرسالة، من البداية إلى النهاية.

المدح ليس سنة المسلمين. والتقريظ ليس منهجهم. والدفاع أقل قدرا من البرهان. ﴿قتل الخراصون﴾. وعيبنا هو المدح والتعظيم الذى يصل إلى حد التقديس والتأليه. ولو عظم أرسطو وأفلاطون لمات كلاهما. ولو مدح ماركس هيجل لطوى كليهما النسيان. ولو قدس فلاسفة الوجود هوسرل مؤسس المنهج الظاهرياتى لتوقف أثر هوسرل فى التاريخ، ولما ظهرت فلسفات الوجود بعده التى تتبنى منهجه.

وكلنا علماء الأمة نحمل أمانة فكرها. لا فرق بين شيعى وسنى، بين مرجع ومجتهد، بين آية وفقيه. بل إن التراتب فى العلم وتحوله إلى مراتب فى السلطة قد يضر بالعلم فيتحول إلى حجة سلطة بعد أن كان حجة عقل. صحيح أن الاحترام واجب بين العلماء ولكن دون أن يصل إلى درجة التقليد. والتقليد ليس مصدرا من مصادر العلم. وإيمان المقلد لا يجوز. ولا عصمة لأحد. الكل راد والكل مردود عليه.

وحق الاختلاف يكفله الشرع، والتعددية فى الرأى أساس الاجتهاد. ولا يوجد رأى صائب والآخر خاطئ. الكل صائب بفعل الاجتهاد، صدق النية ورعاية المصالح العامة.

وهذا هو منهج الإمام، الجمع بين القديم والجديد، لا تأسيا بالقديم وحده، ولا اعتزازا بالجديد وحده نظرا لتغير الظروف. يبدأ من القديم ولا ينتهى إليه. يبدأ بالتغيرات الجزئية المتناثرة عند القدماء، ويضمها فى رؤية شاملة واسعة. ويعود إلى الغزوات الأولى فى بدر وأحد ليشحذ مشاعر المسلمين الآن فى النصر والهزيمة.

ويصعب جمع منهج التفسير عند الإمام فى قواعد محددة أسوة بالمناهج الفلسفية لأنه لم يترك مؤلفا نظريا فى الموضوع. يمكن فقط تلمس اتجاهات أو «طرق التفسير» من مجموعة التفسيرات لبعض السور خاصة القصار منها كما يبدو ذلك فى «معالم التربية القرآنية» بجزءيه: «دراسات للحياة» و«أحاديث السحر». أما «أبجدية الحوار» فهو أقرب إلى الثقافة السياسية وشروط النهضة منه إلى علم التفسير.

٢ ـ النص تجربة حية

وأول قاعدة فى منهج التفسير عند الإمام هى أن «النص تجربة حية». إذ لا يكفى أن يكون شرطا الفهم المعرفة بالنحو وقواعد اللغة أولا ثم مستوى ثقافة السامع ومدى معرفة المتكلم. إذ يضاف أيضا المعرفة بمصالح المسلمين. كما تحتاج رمزية التعبير إلى فهم وتأويل. والمسافة بين ثقافة المتكلم والسامع وبين الأوضاع الحالية ليست بعيدة. فالمتكلم والسامع يعيشان فى هذا العصر وليسا فى عصر النبوة. فمعانى الألفاظ والمصطلحات تتغير من عصر إلى عصر مثل معنى الإنفاق قديما الذى يركز على الجانب الأخلاقى، ومعناه حديثا الذى يركز على بعده الاجتماعى، وكذلك معنى الظلم الذى لم يكن عند القدماء بهذه الحدة التى لدى المحدثين.

لذلك تبرز أهمية المعنى العرفى للألفاظ والمصطلحات القرآنية. وهى بين المعانى الاشتقاقية والمعانى الاصطلاحية. هو المعنى للاستعمال فى الحياة اليومية. هكذا تفهم الحروف فى أوائل السور.

وبالرغم من أن البداية بالسور القصار أو ببعض من الطوال أو الآيات إلا أن التفسير يخرج من النص عن طريق قواعد النحو ومبادئ اللغة كما هو الحال فى بعض التفسيرات القديمة والحديثة. المعنى ليس موجودا فى النص ومستنبطا منه بل هو مباطن للتجربة البشرية حال فيها وصاعد منها. وصحة النص فى مدى تطابقه مع التجربة البشرية وليس صحة فى ذاتها، خارجة عن النص. التجربة البشرية جزء من الواقع الإنسانى. والنص ما هو إلا مجرد صياغة له. فالأولوية للواقع على النص، وللتجربة على اللغة. النص موجود فى مرحلة ما قبل الصياغة فى النفس وفى الواقع، فى التجربة الفردية والجماعية وفى خبرات الشعوب مثل الأمثال العامية والحكايات الشعبية.



حق الاختلاف يكفله الشرع، والتعددية فى الرأى أساس الاجتهاد. ولا يوجد رأى صائب والآخر خاطئ. الكل صائب بفعل الاجتهاد، صدق النية ورعاية المصالح العامة. وهذا هو منهج الإمام

لذلك يلجأ التفسير إلى التجربة الشعرية. فالشعر ديوان العرب قبل الإسلام كما أن القرآن وحى العرب بعده. كلاهما مركز الحضارة قبل وبعد لذلك قال عمر «عليكم بديوان جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم». فالتجربة الشعرية تفيد نفس معنى الآى فيما يتعلق بالدارين، والجبر والاختيار، والحسد، والجنة والنار. كما جاء فى شعر أبى الحسن التهامى فى رثاء ابنه:

حكم المنية بالبرية جارى
ما هذه الدنيا بدار قرار
الموت نوم، والمنية يقظة
والمرء بينهما خيال جار
يوماً يرى الإنسان فيها مخيراً
حتى يرى خبراً من الأخبار
جاورت أعدائى، وجاور ربه
شتان بين جواره وجوارى

وكما تذكر التجربة الشعرية لحب الناس والمال وحبهم لمن عنده المال والميل إليه:

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال
ومن ما عنده مال فعنه الناس قد مالوا

ويبين الشعر كيف أدرك الأمويون الملك ولم يدركوا النبوة. وقول أبى سفيان للعباس «يا عباس لقد علا ملك ابن أخيك» كما قال فى عهد الخليفة عثمان على قبر حمزة «قم يا أبا عمارة فالذى كنت تحاربنا عليه قد أصبح لعبة بيد صبياننا». والنموذج، نموذج الإنسان. والزمان والمكان تجربة شعرية. الشعر والوحى إذن صنوان، كلاهما تجربة حية قبل الصياغة الشعرية وقبل تدوين الوحى ويصبح كلاما.

وهو فى نفس الوقت تفسير عقلانى مقنع، يفسر عالم الغيب بعالم الشهادة مثل فهم «النفاثات فى العقد» ليس بأنهن الساحرات كما هو الحال فى بعض التفسيرات القديمة بل هم المغتابون والكذابون، والناقلون من الكلام، والمنافقون، والنمامون الذين يحلون عقد الناس وصلاتهم الاجتماعية. فالتاريخ والسؤال عنها ليس المقصود والموضوع وزمن الحدوث بل دلالتها فى الحياة الإنسانية، الجزاء على الأعمال. ويسير فى طريق الأستاذ الإمام محمد عبده، ويحيل إليه فى ضرورة إعمال العقل فى التفسير. فالعقل والتجربة صنوان. العقل بديهى والتجربة كذلك. لذلك اعتمد الوحى عليهما فى تأسيسه فأصبح الوحى والعقل والواقع شيئا واحدا.

وهذا هو معنى ﴿إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ لا يعنى الحفظ حفظ

على اختفائه.. من النص إلى الواقع



النص فى التاريخ حماية له من التحريف. فذاك موضوع علم النقد التاريخى للنصوص وعلوم النقل المتواتر. إنما الحفظ فى النفس وفى التجربة البشرية، الحفظ فى العقل وفى الواقع، وفى النفس وفى العالم. لذلك دعا القرآن إلى النظر فيهما ﴿وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾. مهمة النص ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

٣. التجربة الحية فى الزمان

وتتم التجربة الحية فى الزمان. ونظرا لأهمية الزمان يتم الحلف به. الحلف بالعصر، والفجر والضحى، والليل، والنهار، والساعة، واليوم، والآن، والشهر... الخ. وهو إيقاع الحياة اليومية. والزمان هو زمان الفعل كما بين الأصوليون. والهدف من كثرة اليمين زيادة القيمة. والزمان لحظات متميزة مثل ليلة القدر. والحلف بالزمان الوقتى من أجل نيل الزمان الأبدى. فعلى الإنسان أن يختار بين المال أو الخلود، بين الدنيا أو الآخرة ﴿أيحسب أن ماله أخلده﴾.

والزمان هو الحركة. لذلك يقوم منهج التفسير على تصور حركى للحياة. فلا شىء ثابت فيها (كل يوم هو فى شأن). فالثبات لا ينفى الحركة، والخلود لا يتناقض مع التطور. فالقرآن يصف الحياة فى تطورها وارتقائها. والوحى يتطور ويتغير طبقا لمراحل التاريخ. ولا يعنى التطور فقط التطور الكونى الطبيعى بل التطور الإنسانى الفردى والاجتماعى. الوحى نفسه تطور وساعد على تطور البشرية، وطورها بتطوره. فمراحل تطور الوحى هى نفسها مراحل تطور الوعى الإنسانى.

«أما الآن فقد حاولنا أن نخضع نهائيا للتطور الاجتماعى العالمى. وإذا استسلمنا دون أن نطور حياتنا ومفاهيمنا عن «ديننا» ومقاييسنا الإسلامية حسب الأوضاع الحياتية التى حصلت وتكون بمعزل عن توجيه القرآن الكريم، إذا حاولنا ذلك واستسلمنا فقد خنا أمانتنا، وديننا، وفقدنا كل شىء. ليس المطلوب رفض التطور والاستفادة من المكاسب الإنسانية القائمة ولكن المطلوب ألا نفقد ذاتيتنا وأصالتنا وأن نجعل الإنتاجات البشرية الحديثة فى إطارنا الأصيل، وأن نزنها بمقاييسنا فنرفض ونختار ونبنى من جديد أمة أصيلة بما لكلمة الأصيل من أبعاد فكرية وتاريخية وعملية. إن القرآن صانع التطور. وقد جربته البشرية قرونا عديدة. إنه مطور. أما التطور المفروض من الخارج من قبل الأوضاع التى صنعت من الآخرين، فهذا استسلام مرفوض وليس كمالاً. إنه فناء وأى فناء» (دراسات ص ١٩ ، ٢٠).

لا يعنى التطور أن الإنسان جزء من التطور الطبيعى فحسب لأن له إرادة مستقلة حرة كما هو الحال فى نظرية التطور فى الغرب. فهو يتفاعل مع الكون، يؤثر فيه ويتأثر به. فهو تطور حر خلاق كما هو الحال عند برجسون، هو تطور حر من الداخل وليس تطورا مفروضا من الخارج، تطور ذاتى وليس تطورا مستلبا مفروضا من الآخر. وهو تطور يؤكد الذات ولا ينفيها. يثبتها ولا يذوبها فى مظاهر الطبيعة. هو تطور من أجل البقاء وليس الفناء. تطور يجذر الأصالة ولا ينزعها من جذورها باسم المعاصرة أو الحداثة. تطور فعال يأخذ ويعطى، يقبل ويختار.

وكان يمكن تأويل بعض السور التى القصد منها الحركة والانتباه مثل سورة العاديات. القصد منها الحركة وليس المتحرك، الإثارة فى النفس، وليس المعنى فى الذهن، الإيحاء وليس الإقناع.

وهو تفسير «جهادى» يقوم على الكد والكدح فى الدنيا والنضال فى سبيل قضية. كل إنسان بعمله. وهو الطريق إلى الخلود. والعمل بالمعنى الواسع الذى يشمل عمل الباطن أى التقوى أو عمل العقل أى العلم أو العمل الشاق أى الجهاد. فالخلود يأتى عن طريق العمل وليس عن طريق المال. والعمل الصالح المعبر الوحيد عن الإيمان. قيمة الإنسان فى العمل، والعمل وحده مصدر القيمة. والإنسان بحسب ذاته طموح. وطموحه لانهائى. يسمع نداء البطل، كما يقول برجسون أو نداء الضمير كما يقول كانط. لذلك كانت الحياة امتحانا واختبارا بل بلاء ومحن. لا عبث فيها ولا خوض بل تحقيق غاية ومقاصد.

وتنشأ الحياة والحركة من الأضداد فى الطبيعة كالحياة والموت، الأخضر واليابس، والحيوان والجماد، والصلب والسائل... الخ. كما ينشأ فى الحياة الإنسانية، الذكر والأنثى، الأنا والآخر، العقل والانفعال، النفس والبدن، الحسن والقبح... الخ. والجدل بين الأضداد مثل الحق والباطل لا يقبل المساومة ولا الحلول الوسط. بل انتصار الحق على الباطل، والعفو عن الباطل بعد انتصار الحق.

والغاية من الأضداد هو العمل والجد والكفاح والمنافسة والسبق إلى الخير ﴿فاستبقوا الخيرات﴾، ﴿فالسابقون السابقون﴾.

ويهدف التفسير إلى تحرر الإنسان من القهر والطغيان. فالتفسير عملية تحرر وليس قيدا على الحرية بالنص بدعوى الأحكام الشرعية. ليس التفسير بحثا عن المعنى وفهم النص بل الهدف منه تحويل النص إلى باعث على الحركة، ودافع على النشاط، وحركة فى التاريخ. فغاية الوحى ليست نظرية بل عملية. العقل مقدمة للفعل. لذلك وجب الجهاد لدرء العدوان.

وحياة الشعوب مثل حياة الأفراد، ولادة وتطور وبلوغ ثم شيخوخة وموت، فهو قانون التطور الذى ينتظم الأفراد والأمم. ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾. وللكلمة أيضا موت وحياة. فاللغة هى التى تربط بين الأفراد والجماعات. وهى الكلمة الصادقة التى تعبر عما فى النفس، وتطابق ما فى الواقع. والخلود ينبع من الحياة وبما يتم فيها من أعمال وما يحققه الفرد فيه من إنجازات.

والحياة فيها بهجة وإشراق، ومتعة وفرح، وليست حياة الخطيئة والسوداوية والتشاؤم. فالزينة عند كل مسجد. وزينة المسلم سلاحه. هناك فرق بين لذة الحياة من أجل اللذة ولذة الحياة من أجل الفعل وتحقيق الغاية. لذلك يتحمل المجاهد النصب والتعب والإرهاق بل وينال الشهادة عن طيب خاطر.

ويبرز المنهج الكيف دون الكم. فقد ألهى الأمة تكاثرها فزاروا أمواتهم فى المقابر، وتركوا الأحياء. وكما قال السيد المسيح «دعوا الأموات تكفن الأموات». وهذا أيضا درس



أهم قضية اجتماعية هى الفقر وربما يضاف القهر. فالقهر فقر فى الحرية، والفقر قهر فى الرزق. وأهم مظهر من مظاهر التوحيد هو رعاية الفقراء

غزوة حنين. فالأقلية المؤمنة الصابرة المجاهدة خير من الأغلبية الغائرة اللامبالية، وهو ما لاحظه الأفغانى والكواكبى من قبل.

٤ ـ الإنسان مركز الكون

وهو تفسير إنسانى يجعل الإنسان مركز الكون. وهو حر مختار مسئول مثل الأنبياء. والإنسان مسئول عن المجتمع، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون الجهر بالسوء من القول، ودون أن يأتى بمنكر أعظم مما ينهى عنه أو أن يغتاب، ويلوك عيوب الناس.

الحفاظ على الإنسان هو جوهر الديانات، الإنسان الحر الكريم. دعوة الله خدمة الإنسان. والوحى مقصد الله إلى الإنسان. الله واحد، والأديان واحدة لأن الغاية واحدة وهو الإنسان. ومن يعذب الإنسان يعذبه الله. الإيمان يعطى الإنسان اللانهائية فى الحس والعقل والوجدان، فى الإمكان وفى الطموح. الإيمان يوحد طاقات الإنسان الداخلية مثل الفكر والوجدان، والخارجية مثل القول والعمل ضد النفاق والرياء والغرور والكبرياء.

والتفسير هو اكتشاف للفطرة والطبيعة وليس فرضا عليها قواعد من الخارج. يكشف القيم الأخلاقية التى تقوم عليها والتى يؤكدها الوحى.

وهو تفسير أخلاقى يهدف إلى بناء الإنسان الأخلاقى قبل بناء المجتمع العادل. لذلك تتصدر آيات الأخلاق، خاصة الأخلاق السلبية مثل الرياء. والتربية هى التربية الذاتية. فقد هب الإسلام لإتمام مكارم الأخلاق. وتكون التربية الخلقية بتجنب السوء، الظاهر والباطن، الخارجى والداخلى. والوسواس الخناس هو النفاق والرياء فى الصدور. والأخلاق هى أخلاق الاعتدال. وهى الحالة الطبيعية إلا فى حالة الأزمات القصوى الفردية والاجتماعية التى تستدعى بعض الجدل حتى يمكن أن يتعادل الطرفان فى الأزمة حتى تصل الأمور بعد ذلك إلى ميزان الاعتدال. فغنى الأثرياء على حساب الفقراء يتطلب حق الفقراء فى أموال الأغنياء. وتسلط الحكام يستدعى ثورة المحكومين.

وتتضمن أساليب التربية الإسلامية الأسلوب القرآنى فى الود والتعاطف والمحبة وليس أسلوب القهر والأمر والنهى، واستنباط النتائج من المقدمات وإقامة ميزان العدل والالتزام بالعهود. ومن ثم يخلد الوطن، ويواكب حداثة العصر، ويجمع طاقات الأفراد والجماعات. كما تتوحد الثقافة دون تقسيمها إلى فروع وعلوم، والدخول فى مشاكل العصر مثل حوار الأديان، واحترام المؤسسات الدينية، والدفاع عن التعددية السياسية، واحترام حقوق الأقليات. وذلك يتطلب الاهتمام بالتثقيف الروحى، وتحرير المظلومين من استبداد الظالمين، وتحديث المصطلحات والقضايا وزوايا الرؤية.

لذلك كان الهدف من الشعائر التربية. التشهد لإعلان تحرير الوجدان الإنسانى من كل مظاهر القهر وولائه لمبدأ عام واحد يتساوى أمامه الجميع. والصلاة تربية للبدن وللنفس. والزكاة تطهير للنفس وحق الآخر وتنمية المجتمع. والصوم إحساس بفقر الفقراء وجوع الجوعى وحرمان المحرومين. والحج وحدة الأمة والمصير وطرح ما تعم به البلوى من احتلال وقهر وفقر وتجزئة وتبعية واغتراب ولامبالاة.

والتفسير يتجه نحو المجتمع كما يتجه نحو الفرد. فالإسلام نظام اجتماعى كما أنه نسق أخلاقى. وأهم قضية فى المجتمع هى العدل والحرية. العدل يمنع من وجود تفاوت شديد بين الطبقات، أغنياء وفقراء، والحرية تمنع من وجود نظام تسلطى. قهر من الحاكم إلى المحكوم. وكل ما يحدث فى المجتمع من فقر وقهر وتخلف إنما هى من صنع البشر أنفسهم.

وهكذا بالنسبة للحالات والأنظمة: شعب فقير، شعب متأخر، شعب جاهل، شعب منتصر. هل أراد الله لهم الانتصار؟ هل خصص الله الشرق دون الغرب؟ هل أراد لفئة التأخر دون فئة؟.. فإن السعادة الاجتماعية والشقاء الاجتماعى، الفقر والمرض والجهل والهزيمة والانتصار والعلم والثقافة، كل حالة فى المجتمع من نتيجة عملنا المباشر، ولا يفرض علينا شىء أبداً إذا نحن أردنا ذلك». دراسات ص ٧٣.

التكذيب بالدين ليس نظريا بل تكذيب عملى، دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين. فالإيمان بالله هو الاهتمام بشئون الناس، إيمان تجريبى عملى، وليس إيمانا نظريا. ومن أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم. فكيف تكون الآبار معطلة وبها مصالح الناس وفوقها قصر مشيد؟ رب البيت هو الذى يطعم من جوع ويؤمن من خوف. يعطى الخبز والحرية بتعبير المعاصرين، «ما آمن بالله واليوم الآخر من مات شبعانا وجاره جائع».

فالصور القرآنية كلها عن الإنسان والحياة والمجتمع والكون إنما تهدف إلى تكوين المجتمع الفاضل. لذلك كان الله إله المستضعفين والمحرومين. وكانت أسوأ لحظات فى تاريخ البشرية هى لحظات الطغيان.

وأهم قضية اجتماعية هى الفقر وربما يضاف القهر. فالقهر فقر فى الحرية، والفقر قهر فى الرزق. وأهم مظهر من مظاهر التوحيد هو رعاية الفقراء. ومن هنا أتت فضيلة التعاون بين الناس. لذلك كان الإنفاق قيمة. وهى تزيد على الصدقات والزكاة. فللفقراء حق فى أموال الأغنياء. ويكون الإنفاق بالعلم أو الخبرة وليس فقط بالمال. فآثار الرزق تتجلى فى الإنفاق. ودوران فائض رأس المال فى المجتمع والعلاقات الاقتصادية فى المجتمع تقوم على العدل وليس على أكل أموال الناس بالباطل.

«الفقير يموت من الجوع، والفقير يموت من المرض، والفقير يموت من الجهل. الفقير يموت من قلة التغذية، الفقير يموت من عدم توفير وسائل السكن، وعدم وجود النور والهواء الكافى فى المساكن، الفقير يموت من عدم وجود الصحة فى القرية، الفقير يموت من عدم وجود طبيب فى القرية. الفقير يموت من عدم سلامة المياه. الفقير يموت من كثير من هذه المسائل وليس فقط لأجل الجوع. كل هذا موت، موت الناس لأجل الفقير» دراسات ص ١٠١-١٠٢.

ويتم استنباط الطبقات الاجتماعية من النص. وهى الطبقات الاجتماعية المحرومة، الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون أى الفقراء.

والله موجود للمضطهدين والمستضعفين والمنبوذين والمعذبين فى الأرض. لذلك كانت رسالات الأنبياء ثورة على الظلم الاجتماعى والقهر السياسى والاستعباد الثقافى.

وقد نزل الوحى تدريجيا على مستوى تطور الوعى الإنسانى ومساهما فى تطويره فى آن واحد. فالغاية من الوحى عملية تربوية تدريجية. لذلك نزل الوحى منجما، مفرقا على مهل ﴿وقرآنا فرقناه على مهل﴾ حتى يأخذ الواقع الوقت الكافى للتغيير الاجتماعى ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ حتى يكون الوحى السابق مجرد إعلان دون إحداث أى أثر فى الواقع. نزل على ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة سنة فى مكة لتربية الأفراد، وعشر سنين فى المدينة لتأسيس المجتمع. وتدل أسباب النزول على أولوية الواقع على الفكر، كما يدل الناسخ والمنسوخ على أولوية الزمان والتطور. الواقع يسأل والوحى يجيب. لذلك بدأت كثير من الآيات بلفظ «ويسألونك... قل». والنسخ يعنى مواكبة الحكم للتطور فى الزمان، وتغير بتغير الواقع، من الأخف إلى الأثقل أو من الأثقل إلى الأخف طبقا للقدرات الإنسانية وعدم جواز تكليف ما لا يطاق.

ومع ذلك النص وحدة واحدة، جوهره واحد، رسالته واحدة، قصده واحد تحرير الشعور الإنسانى من كل مظاهر القهر المعرفى والسلوكى وإعلان كمال العقل وقدرته على التمييز بين الحسن

والقبيح، واستقلال الإرادة وقدرتها على اختيار الحسن دون القبيح. وخصوص السبب لا يعنى خصوص الحكم لأن السبب نمط مثالى يتكرر وبالتالى يتكرر معه الحكم والا تحول النص إلى مجرد تاريخ.

٥. التفسير والعلوم الاجتماعية

لما كان الوحى موجها إلى الإنسان والمجتمع فإنه يتم تفسير الظاهرة الدينية بالعلوم الإنسانية والاجتماعية مثل علم النفس الدينى الذى يقرر أن معرفة الله واللجوء إليه واستمداد العون منه فى حالات الضعف والعجز والامتحان.

وفى علم انثروبولوجيا الدين يتصور البشر الله كما يظنونه. وتطور هذا التصور من التجسيم إلى التشبيه حتى وصل إلى أعلى درجات التنزيه فى الإسلام. وفى التحليل النفسى هواجس النفس هى «الوسواس الخناس» والعجز الجنسى له أسبابه النفسية.

وفى علم تاريخ الأديان تتم المقارنة مع باقى الظواهر فى المسيحية واليهودية بل والديانات الشرقية مما يجعل التفسير علميا تاريخيا وليس مجرد دفاع عن دين معين. فالقوانين التى تحكم الظواهر الدينية واحدة. فقد تشعبت المسيحية واليهودية إلى عدة فرق. كما يصنف القرآن الملل والنحل والديانات مثل المشركين واليهود والنصارى ويحدد علاقتها بالأمة. ويستشهد بآيات من رسائل بولس وهى خارج الأناجيل الأربعة، ولها أهدافها الخاصة، وتتوقف على كون بولس صحابيا أم رسولا.

وفى علم تاريخ الحضارات والثقافات المقارنة عرف اليونان واليهود والطبقات الاجتماعية والدينية ونفى الإسلام الطبقات طبقا للون أو العرف أو الدين أو الثروة وجعل الناس جميعا متساوين بفعل الخلق.

وفى الحضارات المقارنة الآن يظهر التفسير ليبرز التحدى بين العرب والغرب خاصة قوة العلم. ثم أتت أمريكا أخيرا للسيطرة على العالم، وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وتشاركها روسيا. فالحياة صراع. والصراع بين الإسلام وغير الإسلام قائم ومستمر فى جدل بين الأنا واللاأنا، بين الذات والموضوع.

ومع ذلك التفسير عالمى النزعة لأنه موضوع إنسانى عام، لا فرق بين الأجناس والألوان. وتبدأ النزعة الإنسانية العامة بالتضامن مع المسلمين كما هو الحال فى سورة الروم وفرح المسلمين بانتصار الروم على الفرس. إن آلام المسلمين فى الفلبين وإرتريا والحبشة وتايلاند وسيام والمجر تستلزم يقظة الأمة وتجديد مذاهبها بما يتفق وطبيعة العصر من خلال تجديد المؤسسات الدينية وفى مقدمتها الأزهر بما له من حضور إسلامى واسع فى آسيا وأفريقيا، ومجلس البعوث الإسلامية وهيئات كبار العلماء من أجل تجديد موضوعات البحث ومناهجها ومخاطبة العالم بلغاته والتحول من القول إلى الفعل. فالشهادة لا تعنى تمتمة بالشفتين بل شهادة فعلية على الأمر الواقع من أجل تغييره.

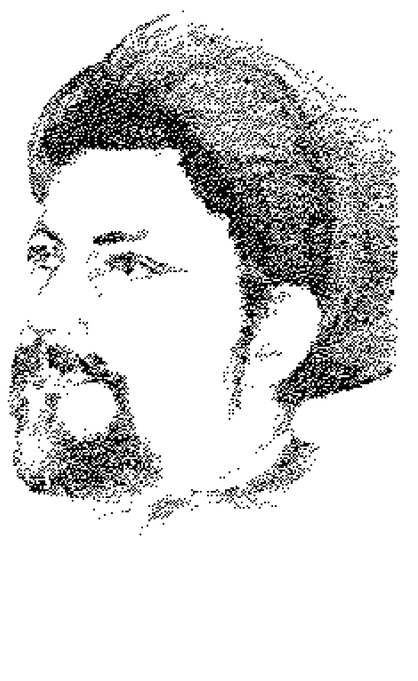
والعلوم الطبيعية هى أيضا علوم إنسانية باعتبارها نظرة إلى الطبيعة. فالتفسير الكونى يتجه نحو العالم لأن العالم متجه نحو الإنسان. فالكون خلق من أجل الإنسان، والإنسان خلق فى الكون. الإنسان موجود فى العالم بتعبير الوجوديين المعاصرين فى الغرب. الكون قصيدة شعرية. كما أن القرآن يعكسه كصورة فنية فى الماء والزرع والنبات والحيوان والجبال والأنهار والمياه والشمس والقمر والكواكب والنجوم. تهدف الآيات الكونية إلى غايات تربوية لا إلى أغراض علمية. الهدف منها التأثر فى النفس ودفعها نحو الخير.

«إن القرآن الكريم يستعرض هذه الآيات الكونية وغيرها لغايات تربوية لا أغراض علمية. فالقرآن كتاب هداية ودين وتربية، وليس كتاباً للفيزياء أو الكيمياء أو علوم الطبيعة». (دراسات ص١٧).

بل إن علم التوحيد أيضا علم إنسانى لأنه من تصورات البشر واجتهاداتهم. والتفسير قائم على التوحيد. ولا يعنى التوحيد الخروج عن العالم وتجاوزه والهروب منه بل الدخول فيه والالتحام به. فالتوحيد يقوى روح الواقعية فى الإنسان، ويدفعه إلى حرية الاختيار، وتحمل المسئولية. وهذه دلالة «أسباب النزول». أولوية الواقع على الفكر، والسؤال على الجواب، والإشكال على الحل. والواقع هو الواقع الاجتماعى الفردى والعائلى والجماعى من أجل تغيير الواقع مثل وأد البنات. فرسالة السماء موجهة إلى الأرض، والوحى قصد من الله إلى الإنسان فالأولوية للدنيا على الآخرة. وشرط النجاة فى الآخرة الفرح فى الدنيا. كل شىء فى الوحى يتفق مع مصالح الإنسان، الفرد والجماعة.

ليست الألوهية هدفا بعيد المنال بل هى حالة فى الحياة الفردية والاجتماعية وفى قوانين التاريخ، وهو ما يقارب مفاهيم الصوفية فى الوحدة، وحدة الشهود ووحدة الوجود.

«فعل شىء ينسجم انسجاماً واقعياً مع الإنسان ومع مصالح الإنسان، يبقى ببقاء الإنسان، ويخلد بخلود الإنسان. وكل شىء لا ينسجم مع الإنسان انسجاماً واقعياً يطلع مدة ثم يموت». (دراسات ص ٩٥).



يكون الحوار أولا مع الشيعة ومرجعياتهم العليا. فالحوار مع النفس له الأولوية على الحوار مع الآخر. فالشيعة ليسوا فرقا متخاصمة ولا مرجعيات متنافسة. تجمعهم وحدة العقائد والهدف

٦. الحوار الوطنى والتحديث الفكرى

وينعكس التوحيد فى وحدة الأمة والوطن، والحوار بين تياراته المختلفة. فالتوحيد، وحدة فى تنوع ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، ﴿ولكل جعلنا شرعة ومنهاجا﴾. فلبنان وطن واحد، لكل اللبنانيين بصرف النظر عن الطائفة والعرق والمذهب. فالتعددية هى الأساس. لبنان تجربة نموذجية للتعددية والاختلاف داخل الوطن الواحد. لبنان وطن المضطهدين فى كل مكان ومأمن الخائفين. ثروته فى الإنسان وفى المجتمع وفى التاريخ. بلد الإنسان والإنسانية. الوطنية من أشرف الأحاسيس ولكنها إذا تحولت إلى عنصرية أصبحت بغيضة. وحدة الأمة أمانة الله. وحدة لبنان يوم استشهاد الحسين فى عاشوراء واستشهاد المسيح، يوم البطولة والشهادة والفداء. فالحرب غريبة على ثقافة لبنان وتعايش أبنائه. وهى وفلسطين وطن واحد عاصمته القدس.

ويكون الحوار أولا مع الشيعة ومرجعياتهم العليا. فالحوار مع النفس له الأولوية على الحوار مع الآخر. فالشيعة ليسوا فرقا متخاصمة ولا مرجعيات متنافسة. تجمعهم وحدة العقائد والهدف والمصير.

ثم يكون الحوار ثانيا مع السنة وعلمائهم للتأكيد على وحدة الأمة وتعددها فى آن واحد. والخلاف بينها فى المواقف السياسية التى انعكست بعد ذلك فى فهم العقائد مثل الإمامة. الخلافة سلطة زمنية لا تهدف إلى الحكم بل إلى خلق مجتمع سليم، ولاية عن الرسول. هى التى تحقق المصالح العامة التى نزل بها الشرع فى الزمان والمكان. ويتم الحفاظ على وحدة المسلمين عن طريق توحيد الفقه، والمساعى المشتركة، والمحافظة على الأهداف الشرعية المحضة والأهداف الاجتماعية والأهداف الوطنية.

ويكون الحوار ثالثا مع نصارى لبنان. فالوطن للجميع. لقد ساهم النصارى فى بلورة الثقافة العربية كما ساهم الإسلام فى بلورة الثقافة اللبنانية منذ انتشار الإسلام وحتى الآن. ازدهرت اللغة العربية، وظهر رواد النهضة العربية لإحياء اللغة والحفاظ على نقائها دون الألفاظ المعربة، وتدوين القواميس والمعاجم وسير الأدباء. حرص لبنان على أصالة



الإسلام وتفاعل معها أخذا وعطاء. كما حدث تفاعل بين الروحية والمادية، جمعا بين المسيحية واليهودية. كما صب الدين فى شئون المجتمع وأصبح جزءا من تاريخ العرب والمسلمين، وتكيفت الشريعة مع البلدان والأقطار والأمصار.

إن أعظم تحية للإمام موسى الصدر هى تطوير فكره وتحديثه وتجاوز بعض جوانب فكره المرتبطة بالظروف الوقتية والبيئية

وبعد الحوار الوطنى يأتى التحديث الثقافى. بل إن الحوار نفسه أحد مظاهر التحديث الثقافى، والتحديث الثقافى إحدى نتائج الفكر والحوار الفكرى. ومن ثم كان التحدى كيف يمكن إعادة صياغة الإسلام وفهمه ضمن روح القرن العشرين. فبصرف النظر عن التحديد الدقيق لمعنى الثقافة فإن الإسلام الثقافة هو المخزون النفسى الذى ترسب فى وعى الناس يحدد لهم تصوراتهم للعالم ومعاييرهم للسلوك، وجود الله، وخلق العالم، وخلود النفس ومحاسبة على الأفعال. وهى تصورات ثابتة فى جوهرها وإن كانت متغيرة فى صورها. تتسم بالثبات والشمول والحركية (الدينامية)، تجمع بين الأصالة والتحديث أى بين الثابت والمتحول. وكلها ثقافة واحدة تتم من منظور الوحدة، وحدة المعرفة الإنسانية. وإذا كان القدماء قد برعوا فى العلوم الرياضية كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى وفى العلوم الطبيعية كالطب والصيدلة والكيمياء والفيزياء والمعادن، وفى العلوم الإنسانية، الأدب والفلسفة والشريعة وغيرها فنحن المحدثين قادرون على استئناف الشوط بتجاوز الثقافة الغربية كما تجاوز القدماء الثقافات القديمة، اليونانية والرومانية غربا، والفارسية والهندية شرقا.

ولا يوجد تحديث ثقافى أو نهضة معاصرة إلا بعد مراجعة الاستشراق، وتحرير صورة العرب والمسلمين من أسر الذهن الغربى لها، مثال ذلك كتاب هنرى كوربان «تاريخ الفلسفة الإسلامية». وبالرغم من الاحترام الكامل للمستشرقين كبشر وتقديرا لجهودهم ومعرفتهم بالأصول الإسلامية، ولقائهم مع علماء المسلمين إلا أن الصواب يجانبهم أحيانا نظرا لأنهم يرون الأمور من الخارج ويحكمون عليها ولا يعيشونها مثل تصور كوربان مثلا لعلاقة الظاهر والباطن وإيغاله فى الباطنية وفى تأويل للسبعة أحرف، وفواتح السور، ولتصوره للإمام، وتواصل النبوة فى توازٍ مع التاريخ الإنسانى وفى حكمه على الولاية وخروجها عن النص ومصدرها الواقع النفسى والاجتماعى لإحدى فرق المعارضة السياسية، وفى المقارنة بين التصوف والتشيع، والتوحيد شبه الكامل بينهما، ومفاهيم القطب والإمام الغائب، وجر ذلك كله إلى مبدأ الباطنية.

ولا تنشأ النهضة الجديدة إلا بانتشار مؤسسات علمية بحثية جديدة، ومعاهد عليا لدراسة الثقافة الإسلامية لتجاوز النشاط الثقافى إلى البحث العلمى.

٧. هل يمكن تطوير منهج التفسير؟

لما كان التطور سنة الحياة ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾، وكانت روح الإمام مازالت سارية فى التاريخ فإن منهج التفسير لديه هو البداية وليس النهاية. هو الإعلان عن الطريق وليس السير فيه إلا خطوات بقدر الاسترشاد. إن مهمة جيل قادم هو تطوير منهج الإمام فى التفسير من داخله وليس من خارجه، بدفع روحه إلى الأمام، خطوات أبعد حتى يزدهر العلم ولا يتحول إلى تقليد، تقليد الخلف للسلف بل إلى تجديد، تجديد الخلف للسلف. بل إن تلك أيضا سنة الأنبياء، أصحاب الرسالات. الجوهر واحد، التوحيد، وصياغاته وتجلياته متعددة، وحدة القصد والهدف وتعدد المراحل والتحققات العينية.

ويمكن تطوير فكر الإمام السيد موسى الصدر من أجيال تالية له وبنفس الروح حتى لا يتكرر فكر الإمام ويتوقف والزمن يتطور ويمر. إن أعظم تحية للإمام هى تطوير فكره وتحديثه وتجاوز بعض جوانب فكره المرتبطة بالظروف الوقتية والبيئية. ومنها:

١. معرفة الحقيقة مسبقا دون البحث عنها. وهو الفرق بين المؤمن والفيلسوف، بين المتكلم والحكيم. المؤمن يعرف الحقيقة ويعبر عنها ويبلغها للناس. أما الفيلسوف فيبحث عنها بالفعل حتى يصل إلى ما وصل إليه النقل. لذلك كتب الفلاسفة «حى بن يقظان» للدلالة على تطابق العقل والوحى. ومن ذلك الدفاع عن الرسول فى حادثة زيد وزينب. ولا ضير فى أن يشعر الرسول كإنسان بما يشعر به سائر البشر. وأمور القلب لا سيطرة للإنسان عليها «سبحان الله مغيِّر القلوب». وعقائد الشيعة جاهزة، حقائق مطلقة لا خلاف حولها.

٢. يختلف أسلوب الداعية عن أسلوب الفيلسوف، ومنهج الداعية عن منهج الفيلسوف. الداعية يريد الإقناع، إقناع الآخرين بما يحمل من حق. والفيلسوف يريد البرهان وإثبات أن ما وصل إليه يطابق العقل والواقع. وقد يرجع السبب فى ذلك إلى نوعية الجمهور ونوعية المنبر. فالجمهور من العامة. لا يتحمل إلا تقوية الإيمان. والمنبر هو الإذاعة أو المنتدى الثقافى أى المنبر العام وليس المنبر الخاص، الجامعة أو مراكز البحث. والداعية هو صاحب الرسالة، وحامل الأمانة، ومبلغها للناس.

٣. وهو مازال تفسيرا طوليا يأخذ السور والآيات واحدة تلو الأخرى حتى لو تفرقت الموضوعات، لم يصل بعد إلى «التفسير الموضوعى» للقرآن كما حاول الشهيد محمد باقر الصدر. ليست القسمة السور الطوال والسور القصار، أو المدنية والمكية بل وحدة الموضوعات حول الإنسان والمجتمع والحياة.

٤. وبالرغم من الإحالة بين الحين والآخر إلى التحليل الاجتماعى إلا أن التفسير الاجتماعى ليس حاضرا حضورا غامرا. وتظهر الإيمانيات أكثر كما هو الحال عند الصوفية. صحيح أن «أحاديث السحر» حديث الروح فى رمضان، ولكن رمضان يعنى البعد الاجتماعى بالإضافة إلى البعد الروحى. العلاقة الأفقية بين الإنسان والإنسان مثل العلاقة الروحية بين الإنسان والله. فالتصوف العملى أنفع للناس من التصوف النظرى. لذلك لم تظهر أيديولوجية إسلامية كاملة تتضمن برامج سياسية واجتماعية وثقافية شاملة كى تتحاور مع باقى الأيديولوجيات السياسية، القومية والليبرالية والماركسية.

٥. مازال يغلب على فكر الإمام بعض البراهين الخارجية مثل المعجزة على صدق الرسول. الإعجاز الأدبى والتشريعى نعم، جماليات الصورة وموسيقى الخطاب والتشريع الفطرى والشريعة الطبيعية تبرهن على صدق الرسالة أى تطابقها مع الواقع، والرسول مجرد مبلغ لها ومعلن عنها. لا يهم إذا كان موسى قد غرق أم أن جسده لم يغرق. إذ لا يمكن التحقق من ذلك إلا ببحث تاريخى صارم لا يمكن القيام به لصعوبة الرواية عن الواقعة أو التجريب عليها. يكفى دلالته نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين. وكذلك موضوع الإسراء والمعراج الذى اختلف فيه القدماء، بالجسد أم بالروح. دلالتها التأمل فيما وراء الحس للعودة إلى العالم. ففى ليلة الإسراء فرضت الصلاة وتم تكييفها طبقا للقدرة الإنسانية طبقا لمبدأ عدم جواز تكليف ما لا يطاق. وكذلك قصة خلق الإنسان لا يمكن معرفتها من النص الدينى الذى لا يهدف إلى الكشف عن حقائق علمية بل يصور الكون طبقا لرسالة الإنسان فيه، خلافة الإنسان فى الأرض وتعميره لها وإصلاحه فيها. وتحمله المسئولية وأدائه الأمانة وممارسة اختياراته.

٦. مازال يغلب على فكر الإمام بعض الجوانب الغيبية مثل أمور المعاد. فهى من السمعيات التى يعتمد يقينها على مجرد الخبر وليست من العقليات التى يعتمد



يقينها على البرهان. مثال ذلك تفسير الجن فى مقابل الإنس، والحديث عن الجن وابليس والملائكة رواية وليس مشاهدة بالحس أو برهانا بالعقل. وكذلك أمور السحر لتفسير الوسواس الخناس، والنفاثات فى العقد. والكوثر فى الجنة لا سبيل إلى معرفته إلا بالسماع. وكل أمور المعاد تقوم على قياس الغائب على الشاهد. وظيفة المعاد مد آفاق النفس إلى المستقبل وذلك مثل تفسير سورة الفيل. وكذلك قصة الخلق موضوعها العلم الطبيعى وطبقات الأرض ونشأة الكون وليس النص.

بل إن الإيمان بالغيب يصبح أحد موجهات التفسير ومقاصده، والإيمان بمقاصد الشريعة أولى. الإيمان بالغيب ليس إيمانا بشىء بل هو مد آفاق فى الشعور الإنسانى للبحث عن المجهول وعدم التوقف على المعلوم والوقوع فى القطعية بالانتهاء إلى الحقيقة دون التجاوز المستمر. والصلاة لا تهدف إلى الإيمان بالغيب بل إلى الحفاظ على الوقت وأداء كل فعل فى وقته، وتربية الجسد بالحركات الجسدية والروح بالتأمل الباطنى، وتقوية روح الجماعة، وعرض أموال المسلمين فى خطب الجمعة والعيدين.

٧. مازال يغلب على فكر الإمام بعض الجوانب الإلهية. صحيح أن الإلهيات تنعكس فى الإنسانيات، ولكنها أحيانا تبدو مستقلة، عالما بذاته، حقائقه فى ذاتها وليست صورا تعكس واقعا إنسانيا، وتجارب بشرية معاشة، فردية واجتماعية. يبدو فكر الإمام أقرب إلى علم أصول الدين منه إلى علم أصول الفقه، ومن العقيدة أكثر منه إلى الشريعة. والقدسية لا تأتى من المكان ولا من الزمان. إنما هما حاملان للوحى وميدانان لتحققه. كل الأماكن متساوية فى القيمة أى فى القدسية لا فرق بين المسجد وخارجه فقد جعلت الأرض كلها مسجدا. ولا فرق بين شهر وشهر أو عام وعام فكل الأزمنة أوقات للفعل. فمكة والمدينة مكانان للبعثة وليس لهما قدسية خاصة. والشعر هو الجامع بين الألوهية والأرض.

٨. ويمكن تجاوز الطائفية من أجل وحدة الرؤية للأمة. فلا توجد عقائد للتشيع وأخرى لأهل السنة. فالاجتهاد ليس مقصورا على التشيع بل عرف عنهم عصمة الإمام وقول الإمام المعصوم مصدرا من مصادر التشريع. والمرجعيات قد تتحول إلى طبقات علمية متتالية يقلد بعضها بعضا. والحج ليس خاصا

إن اختفاء الإمام كشخص
لا يعنى اختفاءه كفكر.
وقد يعود الإمام إن لم يكن بشخصه
بل بمنهجه ورؤيته وأثره
على أجيال قادمة

بالشيعة ولا مكة والكعبة. ويمكن تصحيح مواقف المستشرقين فى دراساتهم عن الشيعة وليس شبهاتهم كلها حول الإسلام.

٩. وربط التفسير بالعلم يبدو فى الظاهر أنه يجعل التفسير عصرياً، فهم الآيات طبقاً لآخر مكتشفات العلم الحديث. وفى الحقيقة أنه يربط الحقائق الأبدية بالتغيرات فى فهم الطبيعة. حقائق العصر ثابتة فى حين أن حقائق العلم متغيرة. فكيف يتم تفسير الثابت بالمتحول؟ لا يهم الدين إن كان يتنافى مع العلم الحديث أم لا. فالعلم متغير والدين ثابت. إن كل الأدبيات التى تسمى التفسير العلمى للقرآن تبدو فى الظاهر تحديثاً ولكنها فى الحقيقة تأخير لأنها أولاً توحى للمسلمين بأن القرآن حوى كل العلم ومن ثم فلا داعى للتعلم مادام القرآن قد قدم العلم قبل جهود العلماء المحدثين. وتعنى ثانياً أن الغرب هو مكتشف الحقائق وأن مهمة المسلمين فقط تبرير العلم الغربى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. الغرب يبدع العلم، وعلماء الغرب يجتهدون فى اكتشاف قوانين الطبيعة ونحن ننقل العلم الغربى دون جهد. يقتصر عملنا على التوفيق. وننال الحسنيين، ونسجل هدفين: الدنيا والآخرة، العلم من الغرب، والإيمان من لدنا. فى حين أن الغرب كسب جولة واحدة، العلم والدنيا ولكنه أضاع الشق الثانى، الإيمان. فنحن أفضل من الغرب جمعنا الدين والدنيا، والغرب عكف على الدنيا وحدها وترك الدين. وكانت النتيجة أنه خسر الدين والدنيا معاً.

العلم موضوع محايد لا يدعو إلى الإيمان ولا ينفر منه. والأوكسجين والجبال كلها موضوعات علمية وإن استعملها القرآن استعمالاً شعريا لتقريب الإنسان من الطبيعة والطبيعة من الإنسان.

الدين والعلم ليسا نسقين معرفيين متمايزين، الدين للأخلاق والسيطرة على انفعالات النفس والعلم للمنفعة والسيطرة على قوانين الطبيعة. قد ينشأ الدين من فوارق اجتماعية عسيرة فيكون تعويضاً عن أوضاع القهر والحرمان. كما ينشأ فى ظروف عجز المعرفة البشرية على السيطرة على قوانين الطبيعة كقيم اللجوء إلى الآلهة واستدعاء الأرواح. العلم والدين ليسا توأمين منذ خلق الإنسان بل هما على التبادل يقوم الدين بدور العلم ثم يرث العلم الدين. ثم يصبح العلم هو الوسيلة لدراسة الدين فى جوانبه النظرية والتشريعية. لقد تطور الدين نفسه من الدين إلى الميتافيزيقا إلى العلم، ومن دور الطفولة إلى دور الصبا إلى دور الرجولة حتى استقلت الإنسانية وأصبح العقل قادراً على فهم قوانين الطبيعة والسيطرة عليها وتسخيرها لصالحه. يبدد العلم الأوهام القديمة. ولا يوجد تقسيم عمل بين الدين والعلم وتوزيع الصلاحيات حتى لا يعيش الإنسان فى ازدواجية معرفية: الدين للنفس والعلم للطبيعة. فالعلم قادر على معرفة خبايا النفس وأسرار الطبيعة. الدين طريق سهل ومباشر للعامة كى تعيش حياة فاضلة. أما الخاصة فيحتاجون إلى برهان العلم ﴿قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾. يستطيع العلم أيضاً سبر المجهول. فى حين أن العلم هو الانتقال من المجهول إلى المعلوم وإعطاء البرهان عليه. ولا يكفى فيه قياس الغائب على الشاهد كما يفعل الدين فى قياس الشبه. ثنائية العلم والدين تقتضى التوفيق بينهما فى حالة التعارض، توفيق الدين على العلم وإلحاق الثابت بالمتحول فيقضى على الدين ويصبح تابعاً للعلم كما يفعل أنصار الاتجاه العلمى المادى المعاصرون، أو توفيق العلم على الدين، وإلحاق المتحول بالثابت مما يقضى على العلم ويجعل برهانه خارجه فى القطع والإيمان وليس فى البحث والبرهان كما يفعل أنصار التفسير العلمى للقرآن.

١٠. ويمكن تجاوز تقليد القدماء من المفسرين والفقهاء والأئمة الأطهار إلى تجديد المحدثين. فلا يوجد شىء تم إلا ويمكن أن يتم ما هو أكمل منه. ولا يتحقق شىء إلا ويمكن أن يتحقق أفضل منه. فالسعى نحو مزيد من الكمال سنة كونية. التفسير لا حدود له طالما أن تطور الزمان لا نهاية له. لذلك كان يمكن إعادة بناء التراث كله وليس فقط إعادة تأويل مصدر الأول. فقد تحجر التراث وتكلس وتقدس وفى حاجة أيضاً إلى إعادة بنائه على وجه آخر بحيث يكون دافعاً على التقدم وليس معوقاً للتخلف. صحيح أن التفسير يذكر جلال الدين الرومى وابن سينا ولكنه لا يعيد بناء الأنساق الموروثة فى الكلام أو الفلسفة أو التصوف أو الأصول. صحيح أنه يشار إلى التراث العلمى نظراً لحاجة الأمة إلى العلم ولكن التراث أعم وأشمل؛ يضم التراث الكلامى والفلسفى والأصولى والصوفى والأدبى.

إن اختفاء الإمام كشخص لا يعنى اختفاءه كفكر. وقد يعود الإمام إن لم يكن بشخصه بل بمنهجه ورؤيته وآثره على أجيال قادمة.

هامش:

صدرت حتى الآن ثلاث مجموعات عن مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات بفضل جهود الأستاذ حسين شرف الدين وهى:

١ ـ أبجدية الحوار: محاضرات وأبحاث، بيروت ١٩٩٧.

٢ ـ دراسات للحياة (معالم التربية القرآنية١)، بيروت ١٩٩٩.

٣ ـ أحاديث السحر (معالم التربية القرآنية٢)، بيروت ١٩٩٩. دراسات الحياة ص٦ ـ ٩.

شباب فلسطين

علْم أم سِلْم

أم إرهاب؟

سحر خليفة

جئت هنا، إلى جامعة بيرزيت حيث تعلمت، أبحث عن معنى لما يحدث. فبيرزيت بالنسبة لى، ولألوف الطلبة والخريجين والمثقفين والقادة فى كل مجال، هى المحور. فقد كانت لأكثر من نصف قرن مضى هى ثيرمومتر التقدم والتغيير وبوصلة التحرك والثورة.

جئت هنا أبحث عن معنى لما يحدث. لماذا يحدث؟ وماذا خلفنا لهذا الجيل؟ أين المستقبل ومن سيقود؟ إن كنا فشلنا نحن الكبار فهل سيجىء جيل أفضل؟ لكن الوعى والعمليات وازدياد العنف والنقمة وأجيال ولدت فى الاحتلال وباتت مثله، بل صورة عنه: فوضى وتكسير وابتذال الحياة. أيكون الموت هو الغاية؟ ولماذا صارت العمليات مثل الحصبة أو جدرى الماء؟ لماذا انتشرت بين الشباب من هذا الجيل؟ لماذا الشباب فى هذه السن، فى عمر الحب والأحاسيس وجمال الطلعة والصورة وحب المرأة؟ أينا لم يمر بذاك الهوس مع بدء الشباب حين كان الجسد هو المحور، حين كان الحب هو المحور، حين الطبيعة تتوثب بالهرمونات والعواطف وتقديس الذات! أينا لم يحلم بعنفوان الشباب؟

لكن شباب هذا الموسم، زمن الاحتلال والعمليات صار لعنة! لعنة منا، لعنة عليهم، وكذا علينا، وعلى الحياة بكاملها لأن الحياة صارت نقمة، صارت تعذيبا وحشيا وضياع الطريق. كيف بدأت؟ لماذا ازدادت وصارت ايقاعا مألوفا نخاف منه ونتوقعه ونتمناه. بعض الأحيان. حين تزداد مرارتنا وكآبتنا ويزداد الحصار.

فى الخمسينيات، كنا نبدأ يومنا فى كل صباح بهذا المطلع من نشيد بسيط جميل:

معهد العلم المفدى دُم بعز وسلام
أنت بالأرواح تفدى أيها السامى المقام

كنا نغنى. نصطف فى رواق البناء العتيق على بلاط حجرى أملس نستمع لنوتات البيانو منبعثة من أنامل شاب أو شابة من آل ناصر، ولكلمات لاذعة متسامحة فطنة مسز فارس، وهى سيدة قصيرة القامة ممتلئة القوام وبكعب عال يساعدها على أن تصفع أطول طالب يتطاول على حدود الأدب واللياقة ويخل بنظام معهد العلم المفدى. على اعتبار ما سيكون. حتى يظل بعزه وسلامه وسمو قدره. فقد كان العلم كما كانت تقول وظلت تقول حتى آخر يوم فى حياتها هو الطريق إلى الرفعة والتقدم ووعى الإنسان. ليس هذا فقط، بل هو الطريق إلى فلسطين. وفلسطين كانت فى ذاك الوقت هى الساحل. حيفا ويافا والبيارات، وبحر ما عدنا نراه سوى فى الصور والروزنامات. وكانت يوميا تذكرنا. فى كل صباح: العلم الطريق إلى القوة وإلى فلسطين وبدون العلم تضيع الطريق.

حين رجعت إلى بيرزيت فى السبعينيات، كانت بيرزيت قد انتقلت، كما انتقلت انا، من عهد الطفولة لعهد الشباب. كانت أجمل، أنضج، أوسع، أغنى وأعلى، وكانت قد أضحت فى عرف الجميع، بؤرة إشعاع لفلسطين. الاحتلال لم يطفئها، بل أشعلها، واستفز طاقات الإبداع والقيادة، وصارت الشعلة والإلهام. عاد الشباب المتعلم والمتقدم من الخارج وانضوى تحت مظلتها. حنان وريتا ورمزى وسليم وجورج وليزا ومنير وخليل، وعشرات المواهب والأعلام، وهؤلاء كانوا القادة فى الفكر والعلم والوطنية. وأنا أدين، وجيل بأكمله يدين، لهؤلاء النوابغ، بالكثير الكثير. فقد تعلمنا منهم، كما تعلمنا سابقا من مسز فارس ومسز ناصر، أكاديميا، وفكريا، ووطنيا، وصرنا ما صرنا عليه الآن، أنا ومئات ممن صاروا. إن صح القول..

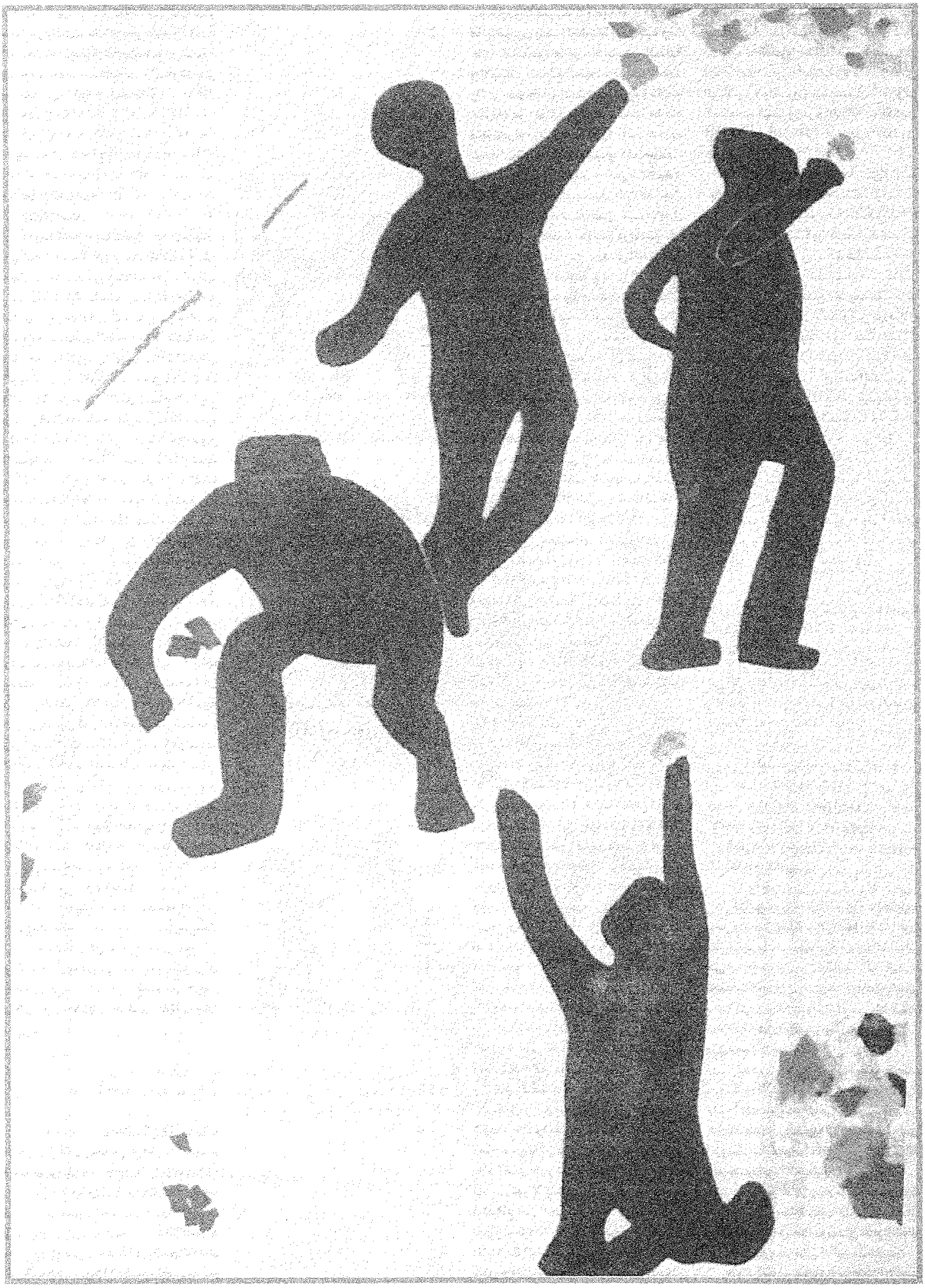
وحين عدت بعد الألفين، أى بعد الحصار والاجتياحات أصبت بإحباط لم أذق مثله حتى فى أشد لحظات البؤس والتعاسة، فقبل ٦٧ كان هناك الأمل وعبد الناصر وأحلام الوحدة والانتصار. و٧٣ كان فيها العبور واجتياز القنال وحلم بإكمال مسيرتنا نحو التحرير. والتسعينيات وانحدار العراق وتفككنا كعرب وأنظمة وقيادات كانت ما زالت فى وعينا، وبعض الأحلام. مرحلة مشؤومة آنية ستمر سريعا حين نفيق بعد أشهر، أو بضع سنين. أما الآن، فى هذا الصيف من سنة ٢٠٠٣، وأنا أرى التفكك والانهيار فى كل مكان، فى كل مؤسسة ووزارة، فى كل مجال أو ميدان، فى كل جيل من الأجيال، وبالذات شباب الجامعات، أى من سيكونون ورثتنا وقادتنا وساستنا بعد سنوات، فقد أصبت بصدمة كبرى آمل أن أنقلها لمن يقرأنى ويشاركنى بعض همومى. فوضع الإصبع على الجرح لمعاينته أفضل من التغابى وإهمال المصاب. وتخبئة العفن تحت السجاد لن ينفعنا، فلنا أنوف، ومن لا يرى حتما سيشم.

إذن فلنبدأ بالرحلة، رحلة الكشف تحت السجاد، وفوق السجاد. وما فوق السجاد ليس غريبا وليس جديدا، لكنى سأذكره للتذكير، لأن الغلاف، وكذا العنوان، هو خير دليل على المضمون. وهذا ما كان.

بدأت الرحلة بالحاجز. والحاجز يعنى أن مدينة رام الله من حيث خرجت هى كالدولة، لها حدود ومعابر ونقاط تفتيش وهويات! ورام الله لمن يعرف أو لا يعرف، كانت منتجعا للسواح قبل الضربة، ثم الضربات. كانت مشهورة برونقها وصنوبرها وعبير السرو والطيون وأصص الأزهار فى النوافذ والبلكونات وبيوت تنتشر كبيوت اللعب على الهضاب والمنحنيات وتلون سماء حانية فى عز الصيف بلون القرميد والصنوبر واحمرار الغروب. كانت جنة. أما ما صار بعد النكسة، ثم النكسات، فقد ماتت أزهار البلكونات واختنق الأفق وصارت رام الله كالحسبة. وسقوف البيوت والقرميد ضاعت فى التيه ما بين بناية وبناية وأعمدة الحديد وصحون الدش والانتينات. والبنايات، تلك البنايات بمجملها، أشكال شاهقة مرفوعة بحجارة واسمنت وذوق هابط، وشوارع ضيقة وزبالة فى كل مكان، والبلاعات، والمواسير، وحفر وأرصفة مطحونة وشوارع تضيق بأهاليها والسيارات والحاويات وبسطات الباعة والعربات وعنب وتين وفلافل. كله ماشى، كله يدفش، كله يصرخ، وكأن الدنيا تتسابق نحو هدفها. والهدف القرش، الهدف الرزق، والهدف الوصول الى الغاية قبل الآخر. فالأمر خطير، إن أنت تلكأت ولم تسبق طار الموعد. والموعد ليس مع الساعة وليس مع الناس، بل هو إحساس بالكرباج فوق رأسك: فهناك نذير تعتاده ويصبح إحساساً مألوفا كنظام الجسم والإفرازات. شىء لا تقوى على منعه. بل لا تمنعه، لأنه يحميك من الآتى وما لا تحسبه. والآتى أحيانا دبابات أو اشتباكات أو طيارة تسقط صاروخا لتتصيد شابا نشطا فى سيارة أو فى مكتب. وفى الطريق نحو هدفها تأخذ أرواحا بريئة وتصيب الهدف وعدة أهداف قبل هدفها. وهذا بالذات ما يرعبنا، أن نصبح هدفا لم يقصد قبل الوصول الى المقصود.

إذن تخرج من رام الله من بين الزحام فى سيارة تكتظ بطلبة وقرويين وتصل الحاجز، أول حاجز، وترى من بعد السيارات، كلها صفراء، أى سرفيس، مرسيدس وفورد وحناطير، ومئات الباعة والسواقين وجحافل مشاة وبنى آدمين يحملون الكتب، يحملون الخبز، يحملون الخضار، يمشون بصمت وكآبة، يقطعون الطريق، ما بين الحاجز والحاجز مسافة كيلومتر أو خمسة، حسب مزاج كولونيل فلان فى ذاك اليوم، أو ذاك الشهر. والناس يمشون الكيلومترات على الأرجل، بصمت بليغ، وصوت الباعة ينخفض وينأى مع الخطوات نحو الحاجز، ثانى حاجز، فى أبعد نقطة من الشارع فوق الهضبة، ثم الحاجز: تلال تراب وحجارة ومكعبات من الإسمنت تزن قناطير. وهناك ترى ما كنت رأيت أثناء المشى، عشرات ومئات السيارات، وأيضا صفراء، وأيضا عربات وحناطير، وشماسى الصيف فوق البسطات وعنب وخوخ وجرابات وطناجر، وصنادل وبضائع صغيرة بشيكل ونصف كل قطعة، وساندويشات، ونش على الفحم وطحالات.

هذا الطريق إلى المعهد، ذاك السامى، ذاك العالى، ذاك المعتز! وفى الطريق تذوق الذل وخوف الطلاب والأهالى من قرى منتشرة ومرشوشة فوق قمم الجبال: سردا وأبو قش وعطارة وأخرى وأخرى تصل الثلاثين. وما بين القرية والقرية جزر الغربة والاستيطان تقطع ما بين شوارعنا وأراضينا وتمزق أوصال توحدنا وتجزئنا قطعا قطعا ولهذا تقام الحواجز وتعلو الجدران حتى تحفظ أمن الدولة، دولة شارون



والاستيطان. ونظل نلوك مرارتنا عبر الحاجز والكيلومترات ونهبط من خانة الى خانة، من فوق لتحت، مع كل ضربة تلاحقنا وتهددنا بعقاب جديد، وحصار جديد، وبهذا تزداد العمليات.

ما العمليات؟
يقول أستاذ:
- دعنا نشرح، ونتسلسل، حتى نفهم. فى الثمانينيات، فى أولها، كنا نسمع عن مقتل شاب أو مشروع للاستيطان فنركب باصات بالمئات، طلبة، أساتذة وصبايا بالبلوجينزات، وكان الحجاب فى أوله، لم يطغ بعد، ونصل القرية خلال ساعات ونتوحد بالقرويين. ويكون اللقاء مثل الزفة وهزيج العرس. ونمشى بالساعة والساعتين حتى نصل سياج المشروع والجرافات ونبدأ بالرشق والحجارة وقنانى الكولا وحرق العجلات ونقيم القيامة ونقعدها ونحدث طوشات واشتباكات وتعلو الأصوات فى السماعات والصحافة والأجانب وبعض اليهود. حتى اليهود كانوا معنا، بعض اليهود، والسلام الآن وماتسبن وراكح ونساء نشطات من جانبهم، ومن جانبنا، وحركة واحساس وتجاوب. كنا جبهة، شبه جبهة. وكانت سنوات ذهبية، وكنا نحلم بالسلام الآن والتعايش قبل انهيار زمن الأحلام.

كان ذلك فى الثمانينيات، فى أولها، وكنا نتعم بنقاء تام. صبايا وشباب ينطلقون نحو هدفهم. والهدف كان تحرير الأرض والانسان. مفهوم الحرية كان أوسع، بل كان القاعدة لكل نشاط. وبير زيت كانت شعلة، بؤرة اشعاع وقيادة، والقلب النابض لفلسطين حيث الشباب فى الكافتيريا وقاعات الدرس يزخر بالثورة ويتأجج، والجو العام، رقص وغناء وموسيقى بجوار العلم والثقافة والانفتاح على العالم فى كل مكان. وكنت تراهم فى مجموعات، صبايا وشبابا وأساتذة شباب، وأيضا كهول، عادوا للتو من الخارج ليلتحموا بجذور الأرض والهوية، وكانوا هنا بين الشباب وسط الأنغام وعزف الجيتار ودخان سجائر ونقاشات كلها تزخر بما هو معلوم: أى معنى الحب والثورة وتحرير الأرض والانسان. أما الآن، انظرى حولك، ماذا ترين؟

فتحت عينى ودرت اتسكع هنا وهناك أسمع وأناقش وأتلمس معنى الأشياء، وهذا ما رأيت:

شباب لا يقرأ أو يحلم. لا يتأمل. سنوات أوسلو أوقعته بحب الموبايل والسيارة والاستهلاك. ضاع الاهتمام بقضايا الوطن والثقافة وانقسم الجسم الى قسمين، بل ثلاثة. قسم بلحى، وقسم

شباب فلسطين

بعد النكسة، ثم النكسات، ماتت أزهار البلكونات واختنق الأفق وصارت رام الله كالحسبة. وسقوف البيوت والقرميد ضاعت فى التيه ما بين بناية وبناية وأعمدة الحديد وصحون الدش والانتينات

بشعار، والأغلبية لا تعبأ أو لا تهتم. فالتلفزيون رسم الخارطة الثقافية وما عاد الكتاب هو المصدر، ولا مجلس الطلبة والأستاذ. انقطع الخيط، انقطع الخط والتواصل وبات الطالب جزيرة نائية معزولة عن الواقع ووقع الأحداث. ما عاد يتظاهر أو يرشق بالحجارة. ما عاد يردد شعارات تزخر بالغضب والانفعالات. لكنه ابدا غاضب، أبدا حزين متخوف. يعانى الوحشة فهو وحيد لأن الحاجز، والحواجز ابعدته عن حب الأهل وحمايتهم، وعطف الأستاذ ورعايته لأن الأستاذ أيضا مضروب ويعانى الذل على الحاجز، وكذا السلطة وأعلى السلطة، فلا أهل ولا قائد ولا استاذ، كله بعيد، كله محجوز، فهو وحده أمام الجندى على الحاجز، والحواجز، وان سقط سهوا بين ايدى الجند فمن المنقذ؟ إن كان القائد (عرفات) فى سجنه، والوالد يرزح تحت هم الرزق وهم العيلة، وكذا الأستاذ ذليل مهان، فمن الأولى ان يشعر هو بانعدام الأمان فهو مراهق - ولهذا انكفأ على نفسه وبات يعانى الغضب المكبوت والنقمة. فالحاضر خوف متواصل، والمستقبل يبدو بلا أمل ولا منفذ، فلم التعليم؟ للوظيفة؟ لكن الوظائف عزيزة وباتت ندرة. معظم الشركات والمصارف وكذا الجامعات والمؤسسات باتت تستغنى عن الخدمات. وكذا السلطة. والسلطة لها مقياس غريب فى التوظيف. فهذا ابن فلان، وذاك ابن فصيل وذاك ابن وزير ولن اسهب. فهذا معلوم. وعليه، بهذه الخلفية والمرجع، بات الطلاب، معظمهم، شبه اشباح. وبات المستقبل كالحاضر، ضباب بضباب.

قال الأستاذ:
- لم أكمل بعد. ماذا حدث منذ ذلك الوقت، أى وقت الثورة والتثوير وتحرير الأرض والانسان؟ كيف رجعنا وكيف خرجنا عن دورتنا؟ كيف تخلينا عن موقعنا كقيادة جيل وبؤرة اشعاع وتفاؤل والقلب النابض لفلسطين؟ جاءت السلطة وقالت للطلبة ما معناه: كثر خيركم، يعطيكم العافية فقد قمتم بما هو مطلوب. انتهى دوركم، ونحن الآن نقود الركب، نحن الربان. فصدقنا، بل أمنا ان كوادرهم ذات كفاءة. وتركنا الركب لقيادتهم. ولن اصف هنا بؤس الواقع وما جاء لنا بعد اوسلو.

وهنا تدخلت وقلت: أعرف، دعنا من ذاك فقد خضناه حتى شبعنا. ماذا عن الجيل؟ ماذا عن العلم؟ ماذا عن الطلبة والاستاذ؟ أين وصلنا؟
قال الاستاذ:
- قبل اوسلو والأمل الكاذب بوجود حل شهدنا ظاهرة المنظمات غير الحكومية وما يسمى بالمجتمع المدنى وما شابه. فى بلاد أخرى غير بلدنا يكون للمجتمع المدنى دور لا يستهان به فى التنمية والدفاع عن الحريات، أما ما حدث فى بيرزيت فهو خسارة، بل جريمة. معظم الاساتذة المبدعين المهنيين ذوى الكفاءة والروح المتوقدة والانفتاح على العالم ذهبوا عنا، التقطتهم المؤسسات الأهلية وسحبتهم. حرمتنا منهم وحرمتهم. فهم ايضا خسروا مثلنا. صاروا مديرين لهم وزنهم، لكن بلا طلبة ولا قاعدة، فأين التأثير؟ وآخرون سحبتهم وزارات الحكومة، فهذا وزير وذاك نائب ووكيل وزارة ومدير عام. من بقى إذن؟ انظرى حولك.

ونظرت حولى فى الكافتيريا، ولم أجد حلقة واحدة فيها استاذ. وكذلك لم أجد اعدادا كبيرة من الطالبات. فالغالبية من الذكور، والعديد منهم بلحى وشوارب، ونسبة قليلة من الطالبات، وأقل القليل من غير المحجبات. أما الظاهرة الغريبة فهى ذلك الرنين المتنوع والذى يصدر من كل مكان لأحدث انواع الموبايلات، وكذلك افتتان ابناء الجيل بنوع الموسيقى والأغنية التى يطلقها كل موبايل. ورأيت الكثيرين يستمعون لرنين البعض ويتبادلون النقاش حول المدة والنوعية وجمال الصوت لذاك الرنين وحجم الموبايل وماركته. هذا بالاضافة لأحاديث أخرى لم أسمعها لكنى سمعت عنها الكثير من أكثر من مصدر وأكثر من رأى، أن الأحاديث معظمها يدور حول قصات الشعر والموضة، والسيارات، والحب والجنس والانترنت والتلفزيون.

سألت مجموعة من الطلاب: وماذا عن الاحتلال والاستقلال؟ أين الطلبة والحركة الطلابية وقد كانوا بوز الحربة فى هذا الصراع لعدة أجيال؟
قال أحدهم:
- أنا أتظاهر وأنسجن من أجل من؟ من أجل السلطة وفشلها؟ أم من أجل حماس وتزمتها؟ أم من أجل المنظمات الأهلية وتخمتها؟ انا مش قلقان.

قال هذا فهز الآخرون رؤوسهم بالموافقة والتأييد.
وقال آخر:
- أنا أموت من أجل قيام دولة كالجزائر؟ نحن مفعول بنا فلماذا نفعل ونتفاعل؟ لم يستشرنا أحد، فتح وحماس والفصائل هى من تقود وليس الطلبة. الانتفاضة أحبطت الحركة الطلابية. الطالب يكتفى بما تقوم به الفصائل. نحن بلا قيادة طلابية. هل تعلمين إننا بدون مجلس طلبة منذ ٣ سنوات؟

ولخص أحد الأساتذة الوضع بقوله:
- قبل أسابيع تنادى بعض الطلبة للتظاهر ضد حاجز أقيم أمام باب الجامعة، فرفعوا الأعلام وعلقوا البوسترات وصاحوا طويلا فى السماعات ولم يستطيعوا تجميع أكثر من عشرين طالبا، على الأكثر. وحين جاء وقت الرشق بالحجارة وقف طالبان خلف إحدى الزوايا وأخذا يرشقان الدبابة من مسافة كيلومتر على الأقل ويختبئان.

أترك تفسير مؤشرات هذا المشهد

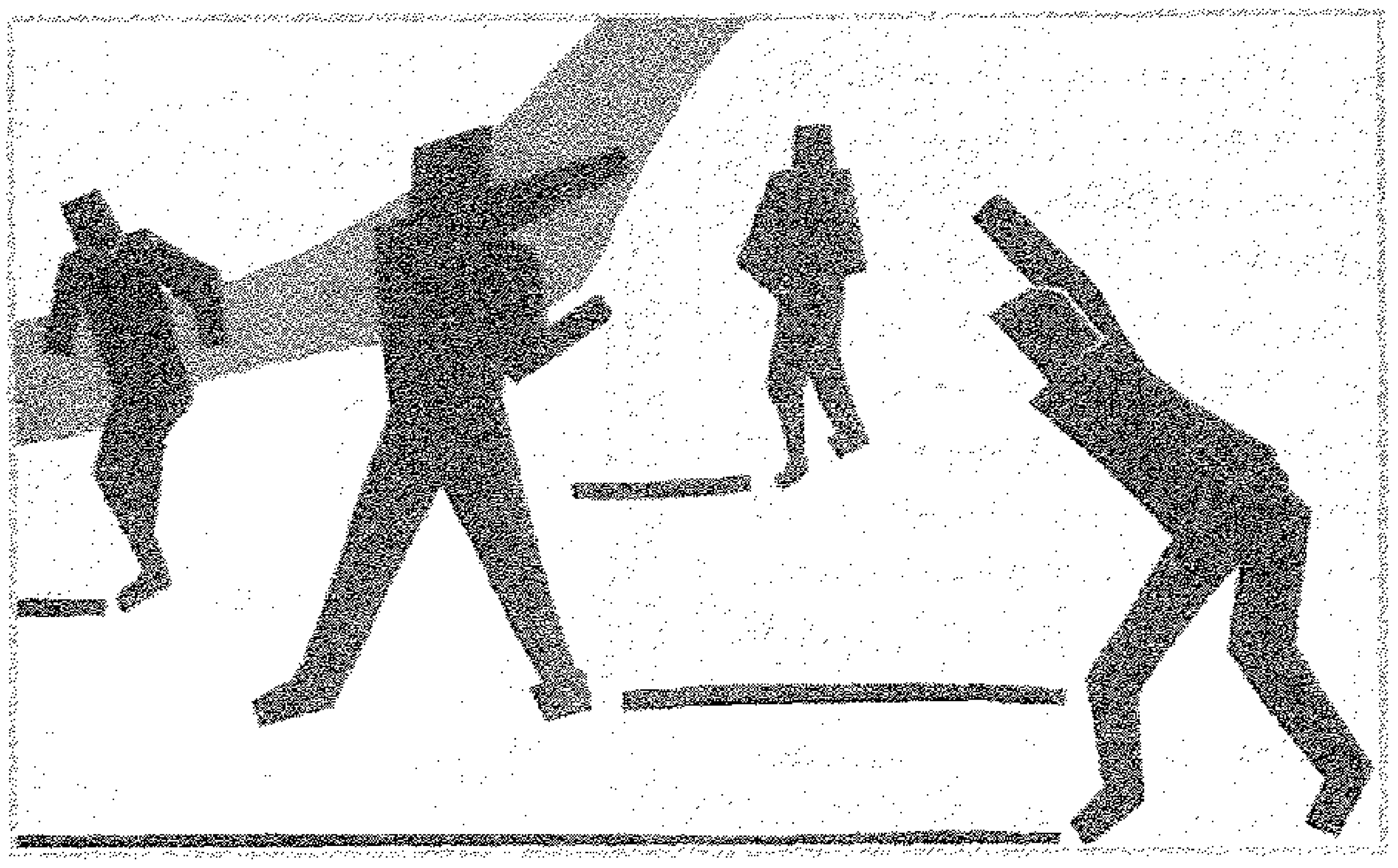
للقارئ، فله الحرية أن يفهم أو لا يفهم ما قد أفهمه. لكن السؤال البليغ الأهم هو ما يلي: ما دامت هذه هي هموم الشباب ووضع الطلبة، فما هو تفسير العمليات؟

قال أستاذ:

ـ هذا جيل نشأ وتربى في الاحتلال وبات مثله: عنف وفوضى وضياع الطريق. والعمليات هي ردة فعل للندرة. تخيلي طالباً حساساً يرى أباه جائعاً رازحاً تحت همّ اللقمة وتوفير الخبز، ويرى أستاذه يُضرب ويُركل أمام عينيه على الحاجز، ويرى قائده الرمز في معتقله، ويرى العرب تخلوا عنا، وهيئة الأمم تهملنا، والمجتمع الدولي ينكرنا، ويرى حركات التضامن العالمي والسلام الآن ذهبت عنا بعد أن طردتهم إسرائيل ومنعتهم. ويبقى الطالب وحده يرى ويذوق كل هذا الذل. تخيلي شاباً حساساً يرى كل هذا البطش وهذا السلاح والطيارات والدبابات ونسف البيوت وتدمير المدن ولا يستطيع القيام بشيء ذي مفعول لأنه تظاهر طويلاً ورمى الحجارة ولم ينجح في إيقاف القمع أو تخفيفه. بل زاد القمع، وزاد القهر، وزاد الإذلال. وإسرائيل، رغم كل جرائمها، تحقق انتصاراً تلو انتصار على كل صعيد، وتطور أسلحتها وقمعها مع كل يوم جديد. كانت تستخدم الرصاص المطاطي فصارت تستخدم القنابل. والقنابل الصوتية والغازات صارت قذائف وصواريخ. والطيارات صارت أباشي وإف. ١٦ استخدموا ضدنا نحن العُزّل وقوات السلطة الفقيرة أسلحة لم تُستخدم حتى في الحروب، وكذلك تكنولوجيا المعلومات. زاد البطش فلجأ الشباب للعمليات كتنفيس عن النقمة وضعف الحيلة والإمكانيات. التنظيمات ما زالت مفككة بدائية تعاني القصور والفوضى وضعف التخطيط. كما أنها مخترقة من قبل الشين بت والعملاء. كل هذا جعل القيام بعمليات مقاومة جماعية بشكل مدروس مهمة صعبة لعدم توفر السرية والمهنية. فبات الاستشهاد للشاب المهان، الشاب المضروب في أعماقه، أسهل تنفيذاً وبوقت أقل. هذا للبعض، للقلة، أما الغالبية، كما قلنا، اختباء وهروب وتراجع، مثل كل الفئات بما فيها النقابات، والحركة النسائية والتنظيمات. انحدر الجميع وتراجع، فماذا نتوقع من هؤلاء الشباب؟ هم جزء من كل، وهم أيضاً نتاج احتلال دام ٣٦ سنة، أهناك احتلال في العالم دام كل تلك السنين؟

وحتى لا يظن القراء ان هذا الوضع مقصور على طلبة جامعة بيرزيت وحدها أرى من المناسب استعارة ما قاله بعض أساتذة جامعة النجاح بهذا الخصوص. يقول الدكتور ناجح جرار استاذ علم الإجتماع في الجامعة:

ـ هذا التيه أو الضياع ناتج عن الضياع السياسي والاجتماعي والاقتصادي. هذا الإحساس لدى الجيل، والذي يمكن وصفه بالكارثة، ناتج عن شخصية مأزومة تتسم باللامبالاة وعدم الإحساس بالمسؤولية والهروب من كل شيء يعد وطناً.







ويقول الدكتور عبد الستار قاسم، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة:

ـ نحن بصورة عامة نفتقر للشخصية العميقة والقوية والمقنعة. ما لدينا في الغالب هو شخصيات مهزومة، وهذا ناتج عن القمع والنظام الإداري وواقع الاحتلال. أسألوا الشباب عن آمالهم وطموحاتهم ودورهم الذي يفترض ان يقوموا به. ماذا يفعلون بوجه الدقة؟ لا شيء غير كلام بلا قيمة وأحاديث سهر وسماع الأغاني وساعات تهدر بلا أي ثمن. نحن للأسف لم نطور أي برنامج يستثمر طاقات الشباب، لم نصل بعد للوعي الذي يحتم علينا استغلال الطاقات.

أما الطالب نزار خلدون فيقول:

ـ نحن كشباب غير راضين عن الواقع الذي نعيش فيه. نحن في خوف دائم، فبالإضافة إلى الوضع السياسي، هناك الخوف الذي نشأ عن التربية التي تقيدنا، فنحن نخاف من مناقشة أساتذتنا، نخاف من مصارحة زملائنا وانتقادهم خوفا من أن نصبح في عزلة اجتماعية. نحن لم نتعلم التفكير المنطقي الذي يقود إلى التعلم الحقيقي وحساب الأمور بدقة. بصراحة، أحاول أن أبحث عن نفسي وسط هذا الركام من الدمار، وهذا يبدأ بالسؤال الصعب: ماذا أريد؟

أكتفي بهذا القدر من تعليقات استقيتها من جامعة النجاح على أن أعود للكتابة عن الوضع هناك بالتفصيل.

والآن أُلخص في نقاط مجمل ما وصلت إليه حتى الآن والاستنتاج:

أولاً: ضياع الجيل سببه تخلي قيادتنا، وبالذات اليسار والمنفتحين، عن قيم حساسة تشكل العماد لمبادئنا وسلوك المجتمع والبيئة واهتمام الشباب. هجوم اليمين التزمت وضع اليسار والمنفتحين في موقع الدفاع عن النفس بشكل سلبي. فبدل التشبث بمثلهم حاولوا المزايدة على طروحات اليمين وارتضوا بالنفاق حتى ينالوا رضا الشارع فصاروا كالزاغ بين الطيور: لا هم حمام ولا عصافير.

ثانياً: انفصام العلاقة بين الأستاذ والطالب، وسببها التراجع في قيم التحديث والتقدم والانبهار بالمنصب والاستعلاء على الأضعف. وهذا بالطبع ناتج عن انحدار القيم والتراجع وجنوح المجتمع بغالبيته نحو اليمين. أضف إلى ذلك ظروف الحياة القاسية على الأستاذ من حيث الإهانة اليومية على الحواجز وارتفاع الغلاء. فالرواتب قلت قيمتها وأحيانا تنقطع بسبب الهزات. وحين تعود قد يصل النصف، والنصف الآخر على دفعات، أي أن الراتب على أجزاء. وهذا يعني أن على الاستاذ أن يتدبر أمره ويعيش حياته بالتقسيط، ويوزع عطاءه بالتقسيط. وفي محاولته اليائسة لتعويض النقص يقوم بأعمال أخرى: يسوق تاكسي، يعلم دروساً خصوصية أو يعمل بحثاً

كتاب الزاوية

أحمد لطفى السيد

الحرية ومذاهب الحكم

مذهب الحرية، أو مذهب الحريين، يقضى فى أصله بأن لا يسمح للمجموع، فى البلاد الحرة أو للحكومة فى (بلاد مصر) أن تضحى حرية الأفراد ومنافعهم لحرية المجموع أو الحكومة فى التصرف فى الشئون العامة. هذا المذهب يقضى فى أصل وضعه بأن لا يكون للحكومة سلطان إلا على ما ولتها الضرورة إياه، وهو ثلاث ولايات. ولاية البوليس، وولاية القضاء، وولاية الدفاع عن الوطن. وفيما عدا ذلك من المرافق والمنافع. فالولاية فيه للأفراد والمجاميع الحرة.

الحكومة بأصل نظامها، مهما كان شكلها، ليس لوجودها علة، إلا الضرورة. فيجب أن يقف سلطانها داخل حدود الضرورة، ولا يتعداه إلى غيره من سلطة الأفراد فى دائرة أعمالهم. لأن كل حق تضيفه الحكومة إلى ذاتها، إنما تأخذه من حقوق الأفراد. وكل سلطة تسندها إليها، ضغط على حرية الأفراد.

ليس ما نقول من هذا القول، وما نقرر من هذا المذهب، نظريات مجردة، لا دليل عليها إلا بالفروض المنطقية. كلا. إن الحس قد أثبت بالأمثلة اليومية، أن الحكومة فى كل أمة، ما وليت عملاً خارجًا عن دائرة الولايات الثلاث التى ذكرناها، إلا أساءت فيه تصرفًا، وفشلت نتيجته. وعندنا فى مصر نصبت الحكومة نفسها مزارعًا كبيرًا، فوضعت يدها على الأرض وتصدت لاستغلالها، وجاءت لنا بالبذور وبالماشية وآلات الزراعة لنزرع على حسابها مرابعين، ففشلت فى مقصدها وساءت زراعتها، ولم تؤتها الأرض من أكلها شيئًا مذكورًا.

لإحدى المنظمات غير الحكومية، وهذا يعنى انه فى بحثه المستمر عن مصادر تعويض، لا وقت لديه لمجالسة الطلبة ومشاركتهم فى أى نشاط أو نقاش.

ثالثًا: جناح اليمين صار الغالب، والمحافظون صاروا الكثرة وصاروا الزعماء فى البيت والشارع والمدرسة وكذا الجامعات. وحل بجهاز التعليم فى المدارس، ما حل باليسار والمستقلين، إذ مالوا أيضا نحو اليمين. وعلينا ألا ننسى أن الجامعات ما هى إلا امتداد لثمار المدرسة. وبهذا تمدرست الجامعة، وصار التلقين والوعظ والحشو والاستطراد هو الغالب.

رابعًا: التمدرس لم يصب التلاميذ فقط، بل والأستاذ، فهو أيضًا نتاج البيئة، وهو بالتالى تمدرس وبات يلقن الأفكار ويبسطها ويلخصها فى نقاط. فبدلا من أن يطلب من الطلاب قراءة غرامشى او توينبى او غيره، صار يعطى الطلبة افكارا ملخصة فى نقاط مطبوعة فى صفحات، كما فى المدرسة، وبهذا يضيع زخم الموضوع ولا يبقى من الأفكار إلا المسطح والتسطيح.

خامسًا: ازدياد عدد الطلبة الاسلاميين غير المتقفين حتى بالثقافة الاسلامية. فهؤلاء من الضيق والانغلاق بحيث إنهم يجهلون ما جاء به الإسلام من اجتهاد وانفتاح وفلسفات. هم لا يعرفون أن الإسلام، والمجتمعات الإسلامية فى يوم ما، جاءت بحركات ثورية كالخوارج والقرامطة والمعتزلة، ولا ما جاء به الشيخ جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى بداية القرن الماضى من مقولات حداثية حول المرأة والمجتمع والانفتاح على ثقافات العالم. هم لا يعرفون أيا من هذا، بل يعتقدون أن الانغلاق على الذات وتحجيم المرأة والارتداد إلى الماضى هو سمة الدين. هم لا يعرفون، ومن يلقنونهم لا يعرفون أو ينكرون، ومن يعرفون ولا ينكرون لا يجرؤون على التعريف. فمن أين تجىء المعرفة إذن؟

سادسًا: العلاقات العاطفية التى كانت سائدة بين الطلبة الجامعيين فى السبعينيات والثمانينيات وكانت تشكل مفترقا عن العلاقات التقليدية والارتباطات الاسرية وباتت مدخلا للتفاهم قبل الزواج صارت ندرة. بل ان مدير شؤون الطلبة فى جامعة بيرزيت قال بالحرف انه لم يتلق من الحراس طوال السنتين الماضيتين اية شكوى بخصوص طالبين يمسكان بالايدى تحت شجرة أو خلف جدار. والسبب كما فسر وما فسروا يعود لعنصرين:

الأول: تفاقم النزعة المحافظة لدى الطلبة حتى ولو كانوا من غير الإسلاميين.

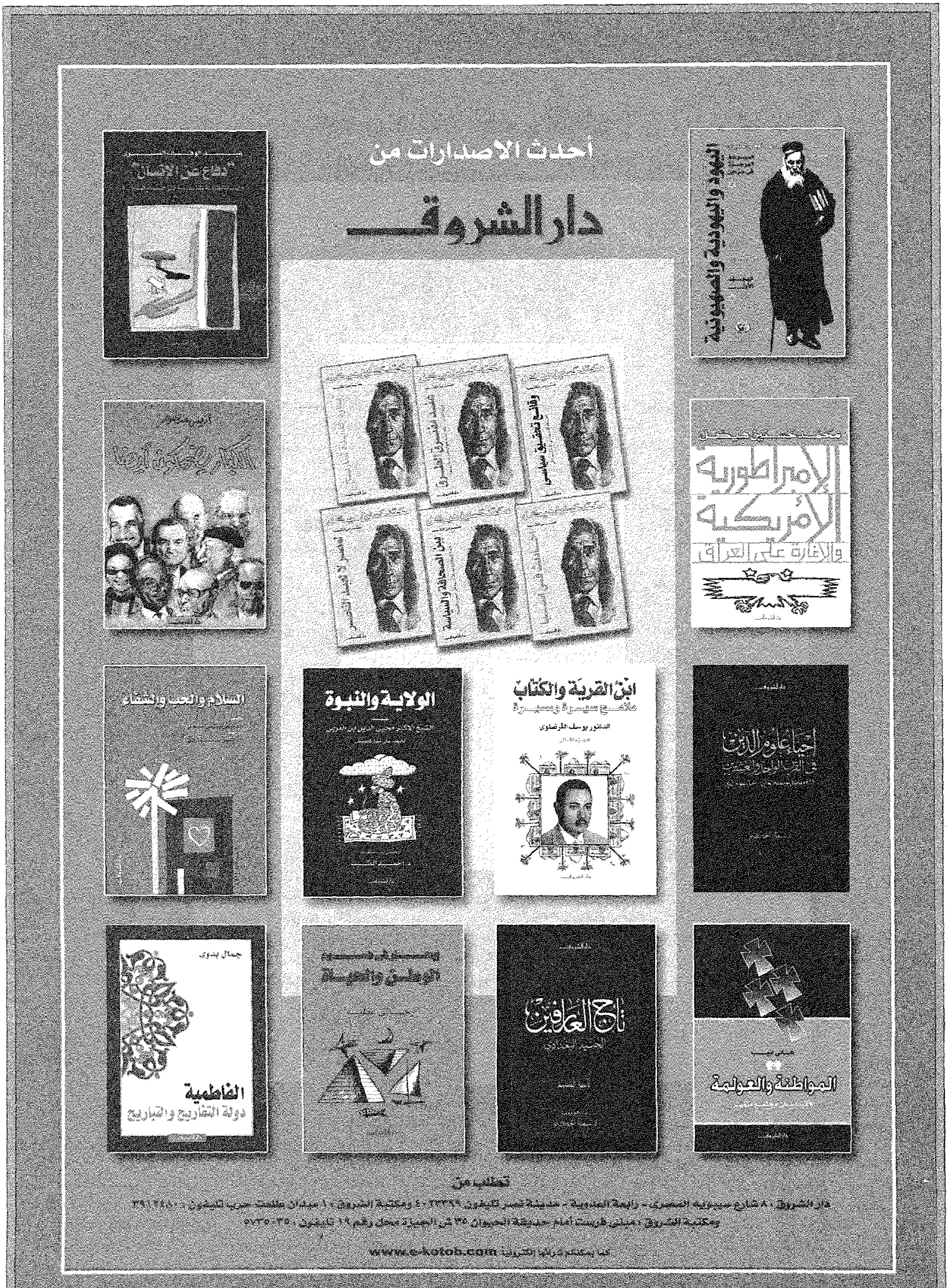
الثانى: تناقص أعداد المدنيات من القدس ونابلس وغزة والجليل وحتى الخليل، بسبب الحواجز، وتزايد اعداد القرويات من القرى القريبة والمحيط. فالقرويات فى العادة منغلقات ولا يجرؤن على البوح والمصارحة والاكتشاف، ويرتضين بالحب الصامت والمكبوت، من بعيد لبعيد، مثل الطلبة، وبهذا تزداد الكبوتات والعودة إلى الشائع والتقليد.

أما ما بقى من العلاقات، وهى ندرة، فما عادت تقوم على التوافق وانسجام الشخصيات والأفكار والقناعات، بل صارت مبنية على المصلحة، والمادية، ونوع الموبايل والسيارة، واسم العيلة أو موقعها فى الحكومة وما تملكه من مقتنيات.

هذا ما شهدت، هذا ما سمعت، وما اجتهدت فى تفسيره. فإن لم أصب فلتجتهدوا، وإن أصبت فلنجد الحلول ونطبقها، فالخطر شديد والكارثة أكبر بكثير مما نتصور. فأن نهزم سياسيا وعسكريا هذا أمر مفهوم ومقدور عليه لأن لا ثبات فى الهزائم والانتصارات، والزمن كفيل بالتغيير إن تغيرت القوى ورفع الميزان. أما أن نهزم فى الداخل، فى أنفسنا، فى صورتنا ومن سيحمل قضيتنا وآمال الغد، فهذا خطر لا نقدر عليه. فهؤلاء هم القادة للمستقبل، هم الورثة لما خلفناه، وهم الامتداد لحاضرنا وامتداد الطريق. والا من يحمل حين نشيخ؟ من يقوى على التركة وهذا الركام؟

وهكذا انتهت الرحلة. رجعت من بيرزيت وأنا أجر الأقدام وأتذكر أيامًا خلت والطفولة وذكريات الصبا واحتدام الشباب. هل شاخت بيرزيت كما شخنا؟ أم أن المرحلة هى من شاخت وأشاختنا؟ وهل من عودة إلى ما كان؟

ركبت السرفيس، وبقيت صامتة كالآخرين حتى الحاجز، أول حاجز. ونزلت ومشيت بين الباعة والسيارات والعربات والحناطير وبسطات الفاكهة والخضار والطناجر. وسمعت الأصوات تتدافع، أصوات الباعة والزوامير والنداءات وبعض المسبات واللعنات. ثم الطريق المعفر المسدود بمكعبات الإسمنت وأكوام التراب والأوساخ والحجارة. ومشينا طويلا بسكوت تام. حين تبتعد الأصوات عن الحاجز والسيارات تسمع خطواتك من تحتك ولهاث الناس. وتظل تسير بصمت وجمود لأن الماضى بات بعيداً، والنشيد الجميل لعهد كان وما زال هنا ليس بعيداً، فى عمق الذاكرة والأحلام، ونظل نذكره مهما تغير، ومهما تباطأ وتعثر، نذكره ونتذكر أن الوطن هو فى الأجزاء، وأن الأجزاء هى النتاج لهذا الواقع ووقع الأحداث. لكن الجزء المتحرك يؤثر بالكل وبالأحداث. ■



أحدث الاصدارات من
دار الشروق
اليهود واليهودية والصهيونية
الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق
السلام والحب والشفاء
الولاية والنبوة
ابن القرية والكتاب
ملامح سيرة ومسيرة
إحياء علوم الدين في القرن الواحد والعشرين
الفاطمية
دولة التفاريح والتباريح
الوطن والعولمة
تاج العارفين
المواطنة والعولمة
تطلب من
www.e-kotob.com

قراءة موسيقية لأدونيس

يمكن زهرة من الكلام أن تخفى غابة من القتلى

■ «لا يراد الخيال لنفسه، بل لبروزه إلى الوجود الحسى فى عينه كى يظهر حكمه فى الحس. والإخبار عن الخيال هو نقله أو العبور به إلى خيال آخر، حيث يتخيله السامع على قدر فهمه».

هذا ما كتبه الشاعر أدونيس فى كتابه «الصوفية والسوريالية» مستنداً على قراءاته لابن عربى فى فتوحاته المكية.

ولعل هذه المقدمة تصلح لقراءة أدونيس موسيقياً.

وأدونيس لديه براعة كبيرة فى تجسيد الخيال بالكلمات، فهو يخبر عنه، ويعبر به ومن خلاله إلى الآخر القارئ، وربما كانت هذه هى الأسباب التى دفعتنى للوقوف على شعر أدونيس فى محاولة لقراءته موسيقياً، وهى محاولة أيضاً لنقل الخيال المجسد بالكلام إلى خيال مجسد بالموسيقى.

فى تجربتى مع شعر أدونيس وجدت مفتتحاً لخيال يعبر عن نفسه بالفكر، فالشعر عنده أعطانى كموسيقى أداة جديدة تقف بين عالم من الشعر الخالص وعالم آخر مواز من الفكر الخالص أيضاً، ومن هنا كان علىّ أن أحاول عبر الموسيقى أن أنقل عالمين متقاربين ومتباعدين فى آن.

وبالرغم من أن عالم الفكر يبدو أحياناً كموج موسيقىّ عالماً جامداً فإن أدونيس الشاعر استطاع أن يمزج بين عالم الجمود وعالم الحركة والحياة الداخلية ليسكب شعراً خالصاً يستطيع من خلاله أن يطرق الرأس فى نفس الوقت الذى يطرق فيه الروح والقلب.

ما حرضنى فى شعر أدونيس على التأليف الموسيقى هو إحساسى من خلال قراءته بالتتابع الزمنى، فقراءتى له تجعلنى أشعر بأزمان متناقضة تتصارع فيما بينها، فالثوب المعاصر للقصيدة يضم أزماناً مختلفة، قد تبدأ من ماض سحيق وتنتقل إلى ذاكرة الطفل لنراها فى ذاكرة الشاعر الآن ولحظته المعاصرة.

حركة الأزمان هذه أعطتنى حرية التحرك بين مقامات موسيقية مختلفة، ومن هنا كنت أدندن عند قراءتى للقصيدة متنقلاً من مقام لآخر ملاحقاً نبض القصيدة وهى تعبر من الحاضر إلى الذاكرة، ومن الذاكرة إلى المستقبل، وبالعكس.

فى مفتتحه لكتابه «الكتاب.. أمس المكان الآن» الصادر عن دار الساقى عام ١٩٩٥ كتب أدونيس:

«فى ذاكرة تلد الكلمات وتولد فيها
تلد الأشياء وتولد فيها
لا تعرف حداً
بين الماضى والحاضر،
ولد الشاعر»

هكذا تبدو لى أيضاً ولادة أدونيس الشاعر، وهكذا أيضاً قراءة شعره، فبين أمس والآن يقف المكان كذاكرة تحول الخيال إلى كائن موجود، ولكنه هنا كائن متحرك كونه يستطيع التنقل بين أزمنة مختلفة، وهو لهذا لا يكتفى بكونه جماداً بل يؤنسن بفعل الحركة فهو «أمس المكان الآن» أى أنه يقف كشاهد بين الأمس والآن.

قراءة موسيقية وإحلال

«أتخيل أنى أكتسى ظله،
النخيل كلام
وأنا طفله.
والنحول الذى بيننا
ليس وصفاً ولا صورة:
شغفُ شاعر
يتقاسم أعضاءنا»

هنا يتمثل أدونيس الشاعر المتنبى، يقيم عملية إحلال لذاكرة شاعر من الماضى وذاكرة شاعر من الحاضر، وفى الوقت نفسه أستعير أنا هذه الأبيات كقارئ وكموسيقى لأقوم بعملية إحلال للشاعر أدونيس وذاكرته فى ذاكرتى كى أستطيع مقاربة كلامه بموسيقاى.

ليس من وصف، ولا من صورة وحدها تستطيع أن تقوم بهذا العمل، أيضاً ليست قصيدة واحدة هى التى ألحنها وأضعها جانباً لأنساها أو لأتذكرها وأعيد عزفها مراراً، إنما هى حالة متكاملة من قراءة لشاعر فى شعره وفى شخصه، فى محاولة أيضاً للذهاب فى فكره: وربما استجلاء طقوسه التى يكتب بها، كل هذا لأستطيع أن أعبر من الكلمة إلى الموسيقى ومن الموسيقى إلى الكلمة.

فى شعر أدونيس أجد كموسيقى أرضاً خصبة لتعدد الميلوديات، (اعتمد هنا إلى حد كبير على قراءاتى لمجموعة الكتاب) ففى شعره يسير اللحن عبر أكثر من خط شعرى وهذا ما نسميه موسيقياً (كونتربوينت) أى مسيرة متوازية لأكثر من لحن مع بعضه البعض، وربما كانت هذه خاصية لافتة فى إبداع هذا الشاعر.

كما أن الجملة الشعرية لديه تتوالد عبر خطوط كثيرة متشابكة أو غير متشابكة، فالجملة الكبيرة قد تتوالد مراراً إلى جمل صغيرة ناسجة عائلة متكاملة ومتوحدة من شعر يؤلف القصيدة، وهذا أيضاً ما نسميه موسيقياً بالميجور الكبير الذى يخرج منه سلم صغير، وتتوالد السلالم وتتوالى مانحة الموسيقى القدرة على التجاوب مع المقامات المختلفة بين الكلمات والألحان.

قد لا أعرف إن كان هذا عملاً مقصوداً فى شعر أدونيس أو أنه يبنيه بحسه الشعرى من غير قصد، ولكننى أعرف أن هذا الانتقال بين درجات الميجور وبين الميلوديات المختلفة يمنحنى القدرة على الاستسلام الكامل للكلام الذى أجد أنه يجر لحنه، أو يجده فى ذاكرتى، فما أن أمسك بعودى محاولاً أن أقارب أدونيس شعرياً حتى أجد نفسى وقد أقمت علاقة مباشرة بين الكلمة والموسيقى، فلا يقف شعره كثيراً فى ميزان الموسيقى، بل إن الموسيقى نفسها تستسيغ الكلام، حتى وإن كان مفردة مجردة فأدونيس لديه قدرة على منح المفردة حياة مستقلة وكاملة ومعبرة.

يقول جوليوس بورتنوى فى كتابه «الفيلسوف وفن الموسيقى»: «لما كان الكثير من المؤلفات الموسيقية الجديدة يتجاوز نطاق قدرتنا على الإدراك والفهم، فلا بد لنا من بذل الجهد والتذرع بالصبر والانتظار ردحاً من الزمان حتى نستطيع الوصول إلى حكم صحيح على قيمة المشاعر والأحوال فى القطعة الموسيقية، كما تجسدت فى أفكار إيقاعية ولحنية مجددة. ومن جهة أخرى فهناك نوع آخر من الموسيقى يجذبنا كثيراً أول ما نسمعه، لكنه سرعان ما يفقد قيمته لأنه لا يعود يمدنا بالحافز على تكون تجربة جمالية».

ولو طبقنا النظرة نفسها على قراءة الشعر، فإننا نجد أن شعر أدونيس ينتمى إلى الحالة الأولى بامتياز، فهو شعر يحتاج أمداً طويلاً وصبراً حتى يكتشف اكتشافاً صحيحاً كاملاً، وذلك لأن أدونيس فى شعره يقف على تجارب جمالية فيها الكثير من التجديد، وأيضاً حتى عندما يتحرك ضمن بحور شعرية معينة فإنه ينوع داخل هذه البحور ونشعر بذلك من خلال الحركة الإيقاعية التى نتلقاها بإحساسنا. وأنا هنا لا أتحدث عن كسر الوزن أو عدمه، إنما أتحدث تحديداً عن الحالة الشعورية التى يقدمها لنا هذا الشعر عبر إحساسات إيقاعية متناغمة ومتناقضة ليست بالضرورة هى الإيحاءات نفسها التى يقدمها البحر الشعرى.

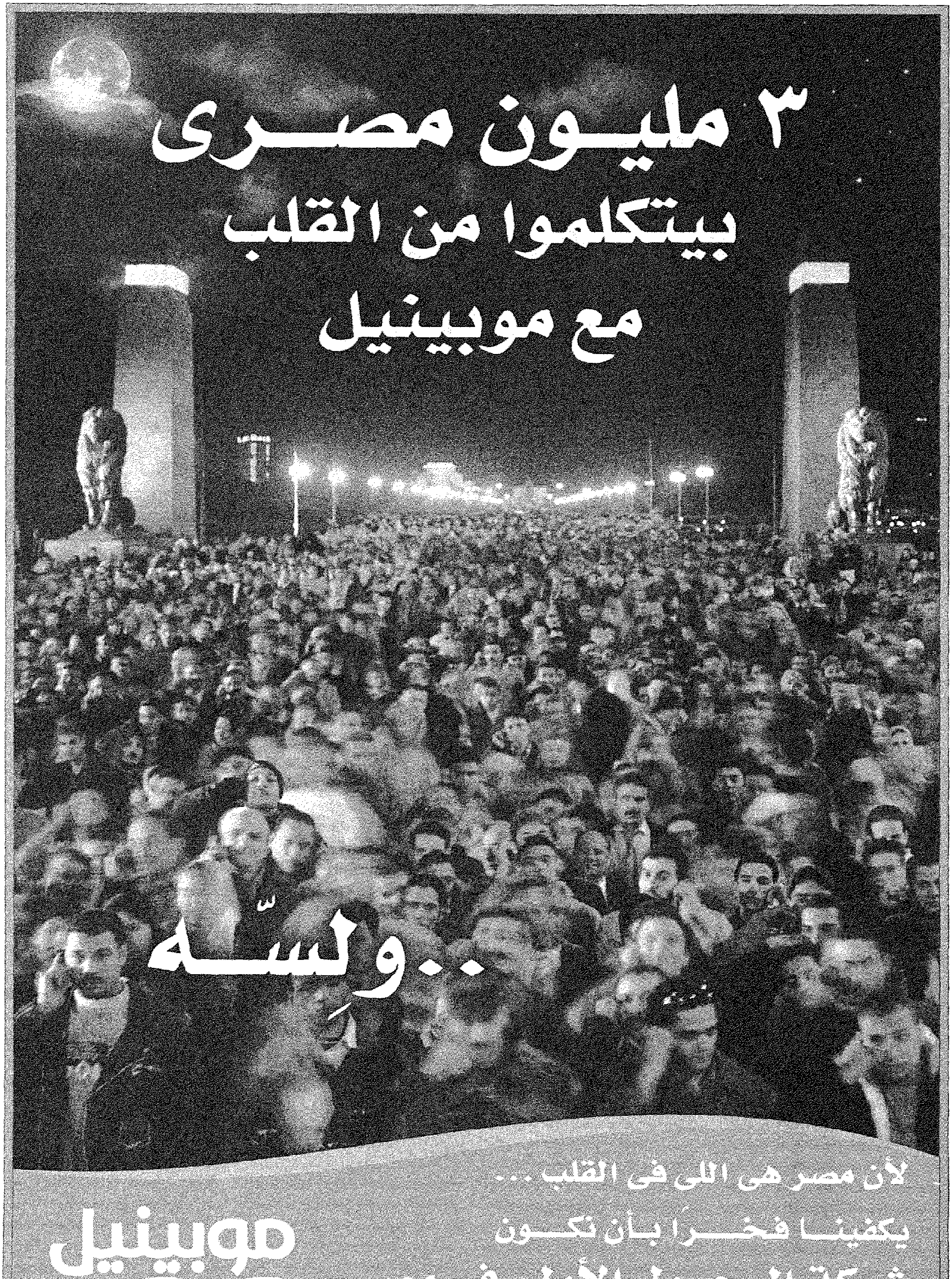
«انتبه! يمكن زهرة من الكلام أن تخفى غابة من القتلى» هكذا يقول أدونيس، وهذا ما يقوله شعراً، وهذا أيضاً ما يلزمنا أن نبحث عنه فى شعر أدونيس.

تجربة شخصية

من خلال جلسات كثيرة فى أوقات متقاربة ومتباعدة وفى أمكنة أيضاً متقاربة ومتباعدة جمعتنى والشاعر أدونيس لاحظت أنه حينما يكون الحديث عن الموسيقى فإن الشاعر يميل إلى أنواع من الإيقاعات وضروب من المقامات أشبهها أنا بالشعر الذى أنتجه الشعراء فى عصور الجاهلية، غير أنه فى نفس الوقت وبنفس الميل كان يحب الجديد فى الموسيقى والتجديد بها، كما هو الحال فى شعره، إذ أنه يستقى من موروث تراثى حقيقى وكبير وهو الذى ألف «ديوان الشعر العربى» فى مجلداته الثلاثة، كما أنه يعمد دائماً إلى التجديد ويلاحق كل جديد.

ولأن كما يقول جوليوس بورتنوى أيضاً «كان المؤلف الموسيقى يصبو دائماً إلى أن ينقل بموسيقاه إلى الأذهان الأخرى إحساساً بالأصوات النغمية والانطباعات الموجودة فى العالم المحيط به. وما أشبهه بشخصية جان كريستوف عند رومان رولان تلك الشخصية التى ترجمت كل تجربة إلى لغة الموسيقى. فمؤلف الموسيقى لا يخلقها لكى يخاطب بها العقل أساساً، ولا يكتبها لكى يهيب بالحاسة الخلقية، ولا يؤلف موسيقاه لكى يرشد ويعظ، وإنما يخلق موسيقاه لكى يوقظ الانفعالات». فإننى لهذه الأسباب كلها حاولت أن أنقل عبر الموسيقى إحساساً موازياً لما يقدمه شعر أدونيس. وفى نفس الوقت، حاولت أن أتتبع إيقاع الكلمة كمفردة مستقلة فى عمله، مبتعداً عن التلحين كمجرد موسيقى مرافقة للكلام.■

نصير شمة



٣ مليـون مصـرى
بيتكلموا من القلب
مع موبينيل
..ولسّه
لأن مصر هى اللى فى القلب...
يكفينـا فخـراً بأن تكـون
شبكة المحمول الأولى فى مصر
موبينيل



أرض الجولف الحديثة - دريم لاند

أوروبا الخضراء

خالد عصفور

■■ فى منتصف التسعينات من القرن الماضى، اكتشف مستثمرون مصريون أن أحسن طريقة للإعلان عن مجمعات سكنية جديدة هى إظهار مساحات خضراء تغطى الموقع بأكمله. وبدأ أصحاب هذه المشروعات فى تحويل الصحراء إلى بساط أخضر من الحشيش اعتماداً على الجاذبية الهائلة للبساط الأخضر فى إقناع الناس بشراء بيوت لم يتم بناؤها بعد!

وكان أول مشروع اعتمد على استراتيجية «البساط الأخضر» فى استقطاب الناس للشراء هو «دريم لاند» الذى بدأ بحملة تسويقية ذكية تعتمد على بانوراما ملاعب الجولف وحفنة قليلة من النخيل مزروعة على مسطحات كبيرة من الحشيش. وكانت النتيجة مذهلة فقد تهافت الناس على حجز وحدات سكنية كما لو أنها مواد تموينية نادرة ظهرت فجأة فى جمعية استهلاكية. ومنذ ذلك الوقت توالت المشروعات المبنية على ملاعب الجولف فى الظهور وكبر حجمها حتى وصلت مساحة مسطحات الحشائش منها إلى ٨٠٠ هكتار (٨ ملايين متر مربع).

إن ما دفع المستثمرين إلى تغطية هذه المسطحات الهائلة بالحشائش وليس بأى نوع آخر من النباتات الخضراء هو سهولة وسرعة تغطية الأرض الصحراوية بالحشائش. فبساط الحشيش الأخضر يعلو ويهبط مع تضاريس الأرض يتخلله بعض النخيل والبحيرات هنا وهناك. وكلما تأمل الإنسان هذا المنظر تساءل فى تعجب: هل هبط جزء من الريف الأوروبى على الصحراء الغربية فى مصر، بل إن بعض المستثمرين يفتخرون لدى تسويق مشروعاتهم بأنها «الريف الأوروبى» فعلاً.

ومع تزايد الاهتمام بهذا البساط الأخضر تزايد استهلاك المياه بطريقة لم يسبق لها مثيل. ويكفى أن نعلم أن متراً مربعاً من الحشيش يحتاج إلى ١٢ لتراً من المياه يومياً، كما أن هكتاراً واحداً يستهلك ١٠٠ متر مكعب من المياه فى اليوم الواحد. ولو أن لدينا ٨٠٠ هكتار (٢٠٠٠ فدان) من الحشيش فى ملعب جولف لاحتجنا إلى ٨٠ ألف متر مكعب من المياه يومياً أى ٢٤ مليون متر مكعب مستخرجة من الآبار الجوفية فى السنة.

ومن واقع هذه الأرقام يتبين مدى الاستنزاف للموارد الطبيعية. وعلى الفور يثور التساؤل..إلى متى تظل تلك الموارد قادرة على العطاء لإحياء هذه المساحات الشاسعة من الجولف؟ ١٠ أم ١٥ عاماً؟ وماذا سيحدث بعد ذلك؟ أليس هذا استثماراً فى صميم عملية التصحر وماذا يعنى وجود ثلاثة ملاعب جولف فى منطقة واحدة ويبعد كل ملعب عن الآخر بضعة كيلو مترات فقط.

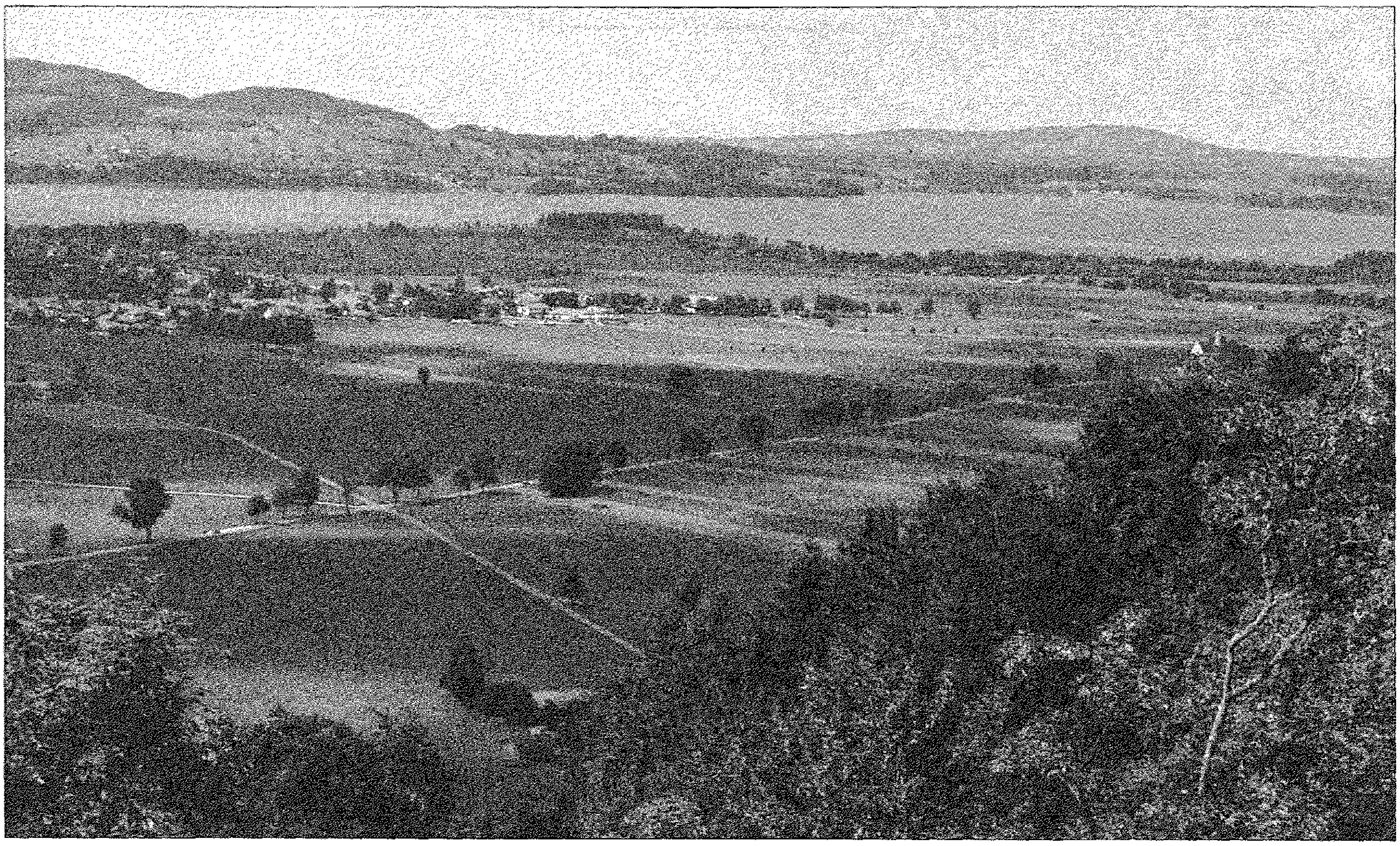
لقد أصبح مفهوم تنسيق الساحات الخارجية Landscupe فى مصر يؤدى إلى التصحر أكثر منه إلى استمرار الخضرة.

إن «التصحر» معناه أن تعود الأرض بعد زراعتها إلى سيرتها الأولى وهى الصحراء. وبخلاف الشريط الضيق الزراعى المتركز حول مجرى نهر النيل نرى أن طبيعة الأرض فى مصر صحراوية. ويعمل المستثمرون بطرق شتى بتحويلها إلى أرض خضراء. لكن هذه الطرق أو الوسائل تستنزف الموارد الطبيعية للبيئة المحيطة بأسلوب يفوق الإمكانيات المنطقية لهذه البيئة. الأمر الذى سيحول هذه الأرض الخضراء إلى صحراء جرداء مرة أخرى.

وفى مقابل مفهوم التصحُّر هناك مفهوم آخر وهو الاستدامة. وهو يعنى أن من الضرورى أن تحافظ على الطرق المتبعة لزراعة الأرض على قدرة البيئة المحيطة على إدارة مواردها فى توازن طبيعى بين الجزء المفقود فى عملية تحويل الصحراء إلى خضار والجزء المخزون المتنامى مع الزمن.

مسألة التصحر أو الاستدامة تعتمد إذن على أسلوب التعامل مع مواردها الطبيعية فى البيئة المحيطة.

إن هناك أمثلة كثيرة تؤكد الاستنتاج السابق، ففى شرم الشيخ مثلاً يباع المتر الواحد المكعب من مياه النيل بـ ١٢ جنيهاً. ويستهلك الفندق الحديث البناء (٥ نجوم) فى المدينة ١٢٠٠ متر مكعب من المياه لرى ١٣ هكتاراً من الحدائق يومياً. وتصل التكلفة السنوية لرى هذه المساحة إلى ٥ ملايين جنيه، بصرف النظر عن درجة استعمال غرف الفندق.



منظر من جنوب ألمانيا

فى مصر الصحراء!!!

إن هذا الأسلوب المتبع فى إقامة مشروعات البناء التى تعتمد على مسطحات الحشيش وبشكل خاص ملاعب الجولف متوسطة الحجم يسهم فى إهدار الموارد المائية، ثم إنه يفترض أن العائلة المصرية تحب لعبة الجولف ومستعدة لدفع مبالغ كبيرة لكى تطل مساكنها على هذه الملاعب الخضراء والحقيقة غير ذلك بطبيعة الحال.

إن مشكلة الخضرة غير المستدامة ليست مقصورة على أراضى الجولف. فهى موجودة فى الكثير من الساحات العامة داخل عمران المدن. حيث يفضل القائمون على الحفاظ على الحدائق العامة غلقها فى وجه المواطن المصرى لأن تنسيق المواقع المعتمد على مساحات الحشيش الكبيرة مكلف وكثير الصيانة إذا ما فُتِحَت أبواب هذه الحدائق لعامة الشعب. إنها غير مستخدمة وفى نفس الوقت غير مستدامة لأنها تهدر الكثير من الموارد المائية الطبيعية وليس لها أى أثر بيئى يُذكر.

إن المشكلة فى الحقيقة هى التركيبة الذهنية لهؤلاء المتخصصين والمستثمرين والتى تتطلب التغيير، بحيث يمكن أن يتم التوافق على تصميم مبهر لتنسيق المواقع مع استهلاك معقول لموارد المياه، وفى نفس الوقت إضافة جودة معيشية للمواطن المصرى والارتقاء ببيئته المحيطة؟

ولو رجعنا إلى الوراء ١٠٠ عام لوجدنا أن إبهار النفس فى عمليات تنسيق المواقع كانت لها حلول أكثر منطقية. فتصميم الساحات كان يعنى شجراً فى المقام الأول. فالشجرة مركز صحى بما تقدمه من راحة للعين والنفس من خلال تدرج لونها الأخضر والحركة الهادئة لأغصانها. والشجرة هيئة اقتصادية تدير عملية نموها ومعدل استهلاكها للمياه بناء على إمكانات التربة والجو المحيط. بعكس الحشيش الذى هو كالطفل المدلل يصرخ فى وجه أمه إذا لم يجد كفايته من الطعام. فيموت الحشيش فى أقل من ٢٤ ساعة إذا لم تُلبَّ احتياجاته من المياه فى فصل الصيف.

والتاريخ يُظهر لنا أن تصميم الساحات يستوجب الكثير من الشجر مما يساعد على اجتذاب الناس. والساحة داخل عمران المدن تمثل ذاكرة المجتمع الذى يذهب أفراده كل يوم للتقابل والتنزه والتسالى. وتصميم الساحة كما رواها لنا التاريخ بسيط يعتمد على أرضيات من الحجر أو الأسمنت لتتحمل كثرة المرور عليها، ويتوسط الساحة نافورة لتتطاير قطرات مائها وترطب حرارة الصيف، وقد توجد مساحة محددة من الحشيش والزهور لإضفاء البهجة فى المكان. ولا ننسى طبعاً صفوفاً من الشجر المتلاصق يحف الميدان أو ينتشر بداخله.

هذا التصميم شائع فى مجتمعات البحر الأبيض المتوسط. فهو تصميم بسيط ومنطقى جداً ويستهلك مياهاً قليلة. فشجرة الظل تستهلك من ٥٠ إلى ٨٠ لتراً فى اليوم. ولو أن هناك ساحة عامة (٥٠×٣٠متراً) مغطاة بالحشيش فهى تستهلك حوالى ١٥ متراً مكعباً فى اليوم. ولو غطينا هذه الساحة بالشجر على مسافات منظمة (٥×٥أمتار) سنجد أن معدل استهلاك الشجر للمياه أقل من ٦٠٪ إذا ما قورن بالحشيش. هذه الوصفة البسيطة للساحات العامة يعرفها القليل من مهندسى تنسيق المواقع فى مصر اليوم.

وحديقة الأزهر التى صممها ماهر إستينو مثال حى على ذلك. فالمحور الرئيسى للحديقة يحتوى على مجرى مائى يحفه من كل جانب صف من النخيل، وخلف النخيل نجد نسيجاً كثيفاً من الشجر مُطَعَّم بساحات مكشوفة. يستظل الناس فى تلك الساحات بالشجر الكثيف مستمتعين بمنظر النخيل المتراص ومستأنسين بالأنشطة الواقعة على طول المحور الرئيسى.

فى موقع آخر للمحور يوجد صفان من الشجر على كل جانب. خلف هذه الأشجار ساحات مكشوفة بها نافورات وغطاء الأرضيات. ويحف هذه الساحات نسيج كثيف من الشجر أيضاً، والناس فى هذه الحديقة لهم الحرية فى التجمع فى ظل الشجر فى فصل الصيف أو الجلوس فى الساحات المكشوفة فى فصل الشتاء.

والحديقة تبلغ ٣٠ هكتاراً قام المهندس بزراعة ثلثى مساحتها المنحدرة التضاريس بغطاء الأرضيات والشجيرات اللذين يستهلكان من ٤٠٪ إلى ٥٠٪ من الماء المستهلك مقارنة بالحشيش. والثلث الأخير من الحديقة على أرض مستوية وقام بتغطيتها بـ٣٠٠٠ شجرة و٥٠٠ نخلة. لهذا الثلث من الحديقة قُدِّر استهلاك المياه بـ٣٠٠ متر

مكعب من المياه فى اليوم. ولو كان هذا الجزء مزروعاً بالحشيش كما هو شائع فى سائر حدائق مصر العامة لارتفع معدل الاستهلاك إلى ألف متر مكعب فى اليوم.

المشروع بهذه الطريقة ليس فقط منطقياً فى استعمالاته بالنسبة لطبقات المجتمع المختلفة فى هذه المنطقة الأثرية بل يعطينا درساً مثالياً فى مفهوم الاستدامة.

وبالرغم من هذا العمل الجيد إلا أن هذا الدرس لا يحتذى به. فهناك اعتقاد راسخ بين مهندسى تنسيق المواقع والمستثمرين فى مصر أن تنسيق موقع منتجع سياحى راقٍ لابد أن يكون أكثر فخامة وابهاراً من الساحات العامة. وبالتالى لابد أن يستهلك مياها أكثر. وفى إطار هذا التفكير نتساءل: ماذا لو تم استنفاد الموارد المائية أليس من المتوقع أن تنضب الخضرة فى كلا المكانين؟! إن سياسة استهلاك المياه لابد أن تظل ثابتة فى جميع الأحوال للمنتجعات الخاصة والساحات العامة على حد سواء. وبالتالى يجب أن نستعمل بكثرة الشجر والشجيرات وغطاء الأرضيات وتكسيات الحجر وكسر الزلط. فهذه هى أدوات تنسيق المواقع المناسبة لبيئتنا. ولكن يمكن التفرقة بين مكان عام وخاص عن طريق استخدام مواد وخضرة أكثر رقة وندرة وثمناً فى المشاريع الخاصة، فبدلاً من تكسية الزلط والحجر يمكن إبدالها بالرخام والبازلت، وبدلاً من استخدام نباتات سميكة الأوراق تتحمل خشونة الاستعمال فى الأماكن العامة مثل Cariso Grandi Fiora يمكن استبدالها بأخرى رقيقة ذات زهور جذابة مثل الودليا والبوجنفيليا.

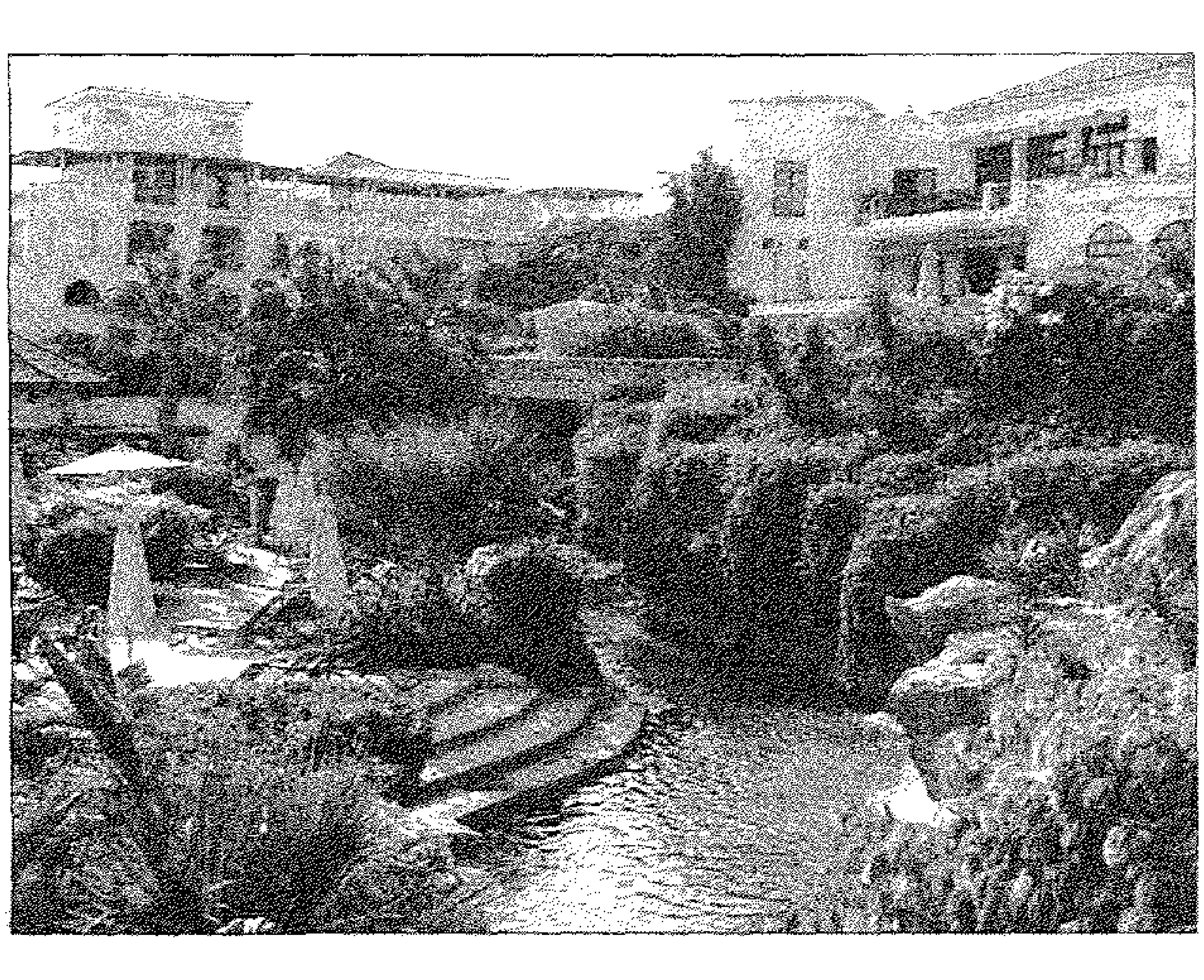
بين الفنادق الحديثة هنالك أيضاً أمثلة جيدة فى مراعاتها للمعطيات المائية البيئية من شرم الشيخ جمع مصممو «هيات ريجنسى» بين المنظر المبهر والتصميم المستدام. المنتجع يحتوى على ٢٠ هكتاراً من تنسيق المواقع، ويستهلك أقل من ١٠٠٠متر مكعب من الماء فى اليوم، الساحات الخارجية مصممة على منحدرات بها ويفصل كل مستوى منها عن الآخر حفنة من الشجيرات والحجر حول نباتات صحراوية وبحيرات وشلالات. والمياه مصدرها البحر ويتم نزع ملوحتها ومعالجتها بداخل المنتجع ثم استعمالها فى الرى. إن تكلفة صيانة الخضرة وريها بهذه الطريقة قليلة وفى نفس الوقت يتم المحافظة على الموارد المائية العذبة.

هناك أفكار أخرى تدور حول تنسيق المواقع بصورة جميلة مع التوفير فى المياه. إذ يمكن استعمال الشجر المثمر مكان شجر الزينة. فشجر الموالح مثلاً يعطى رائحة زكية فى فصل الربيع. أما شجر المانجو فهو أحسن اختيار للمنتجعات الصيفية. فالمانجو أكثر الفواكه شهرة فى مصر. تخيلوا معى منتجعاً يعلن «احجز حجرة عندنا وستأكل مانجو من حدائقنا كما تريد» من الناحية التسويقية ربما كان هذا أكثر تأثيراً عند الأوروبيين عن الحديث عن ملاعب جولف أو «ريف أوروبى» أما عن معدلات استهلاك المياه فهى لاتزال أقل من الحشيش. هكتار يحتوى على ٢٥٠ شجرة مانجو. يستهلك ٣٥ متراً مكعباً من الماء بدلاً من ١٠٠ متر مكعب يستهلكها الحشيش.

ولو قرر المنتجع بيع المحصول بسعر الجملة سيربح ١٥٠ ألف جنيه للهكتار الواحد فقط وهو ما يعادل تأجير ٣٠٠ غرفة فى يوم واحد فى موسم الذروة. هذه الفكرة ليست ببعيدة. فحديقة الأزهر وحرم الجامعة الأمريكية الجديد يتشاركان فى تنفيذ هذه الفكرة التى من الضرورى تعميمها لما لها من فوائد بيئية وتسويقية واجتماعية هائلة.

يتبين من هذا التحليل أن عملية الاستدامة من الممكن تحقيقها بسهولة فى تنسيق الميادين العامة والحدائق والساحات الخارجية لدى المشاريع. فالإكثار من الشجر يضع مصمم هذه الأماكن على الطريق الصحيح. ولكن لكى نضع هذا التحليل فى إطار تنفيذى سهل تطبيقه. فلا يجب تحت أى ظرف أن يتعدى معدل استهلاك المياه فى رى المسطحات الخضراء أكثر من ٥ لترات لكل متر مربع أى حوالى نصف استهلاك الحشيش. ولكى نصل إلى هذا المعدل يجب نشر كتيبات عن معدل استهلاك النبات.

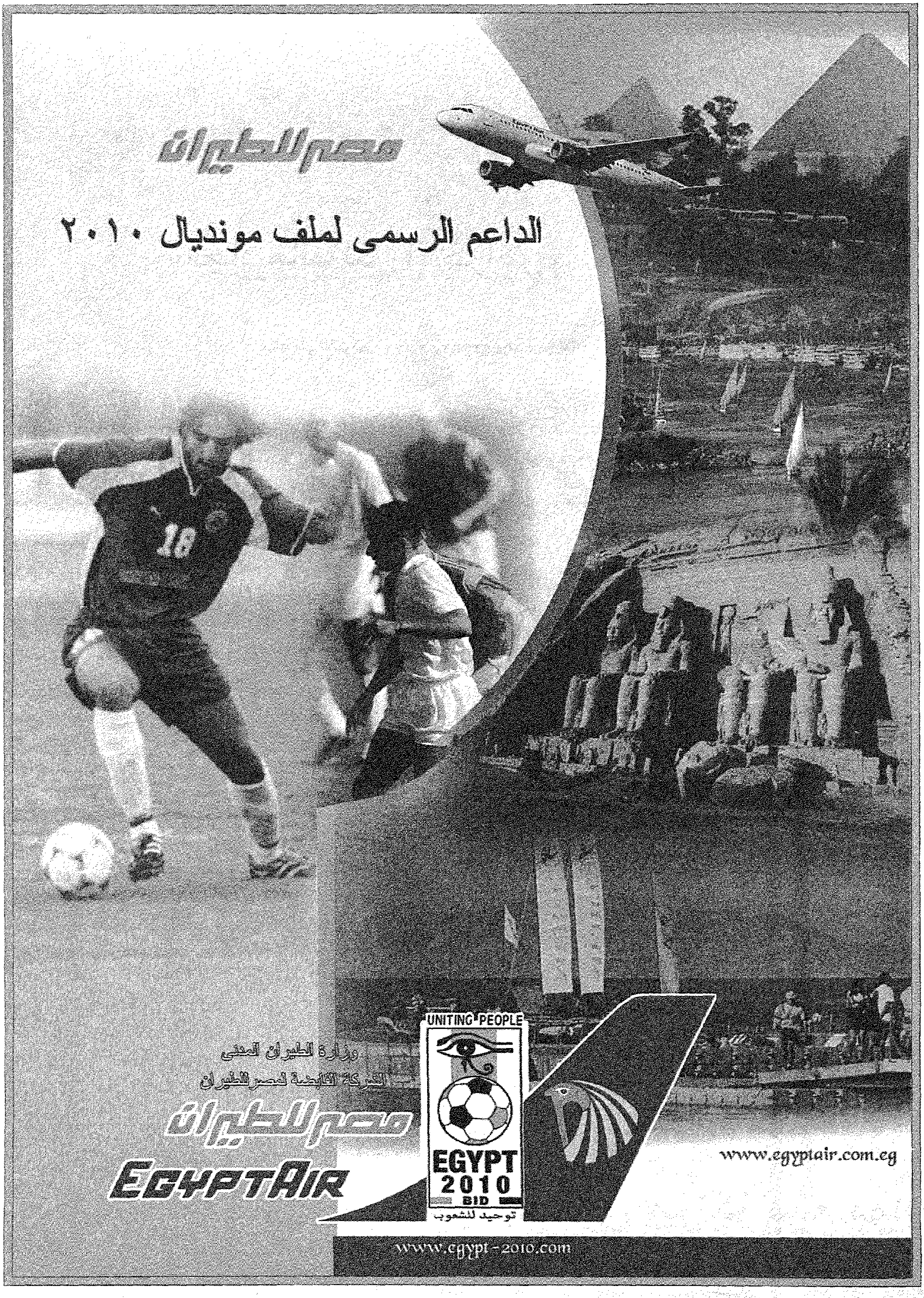


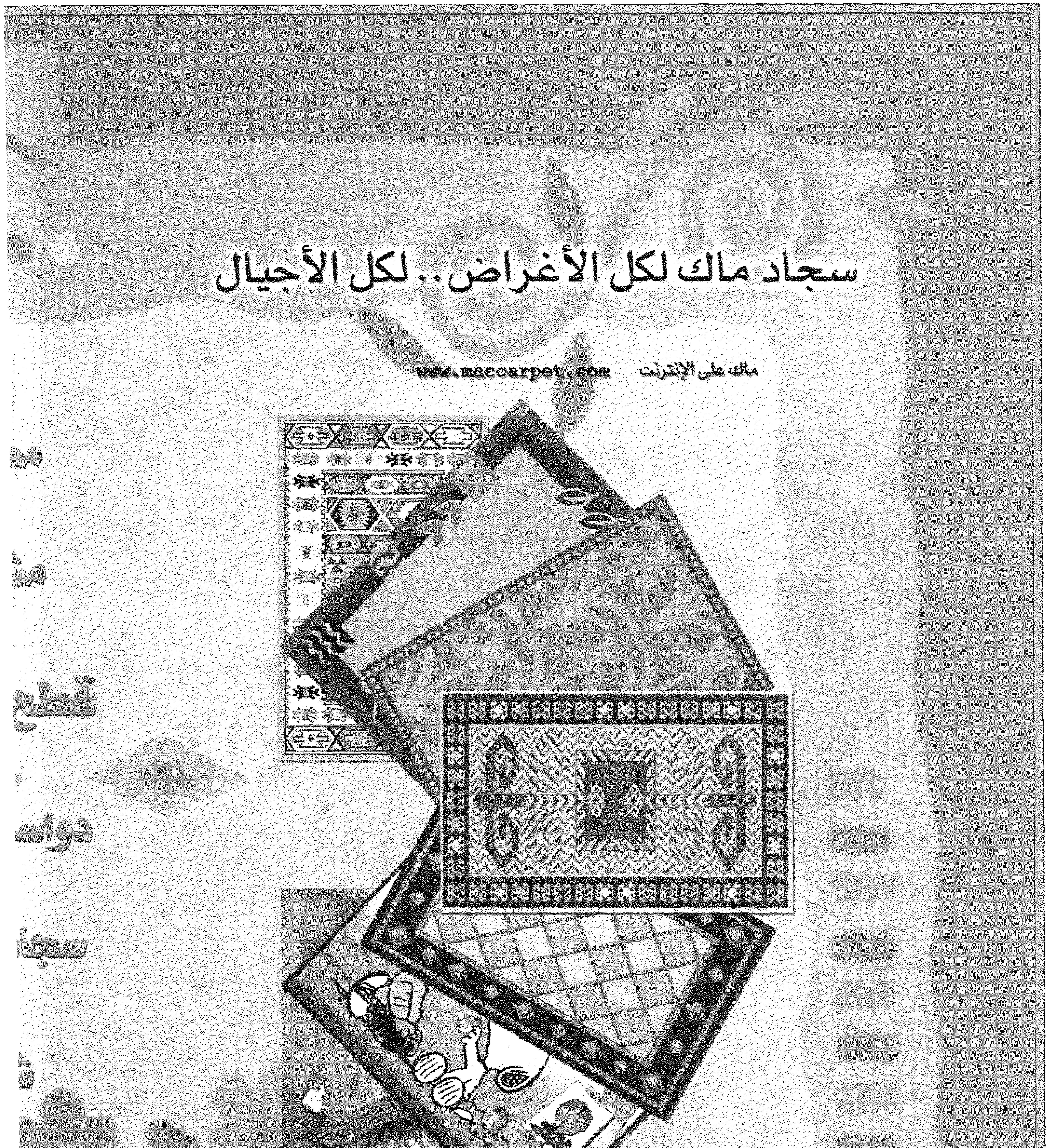


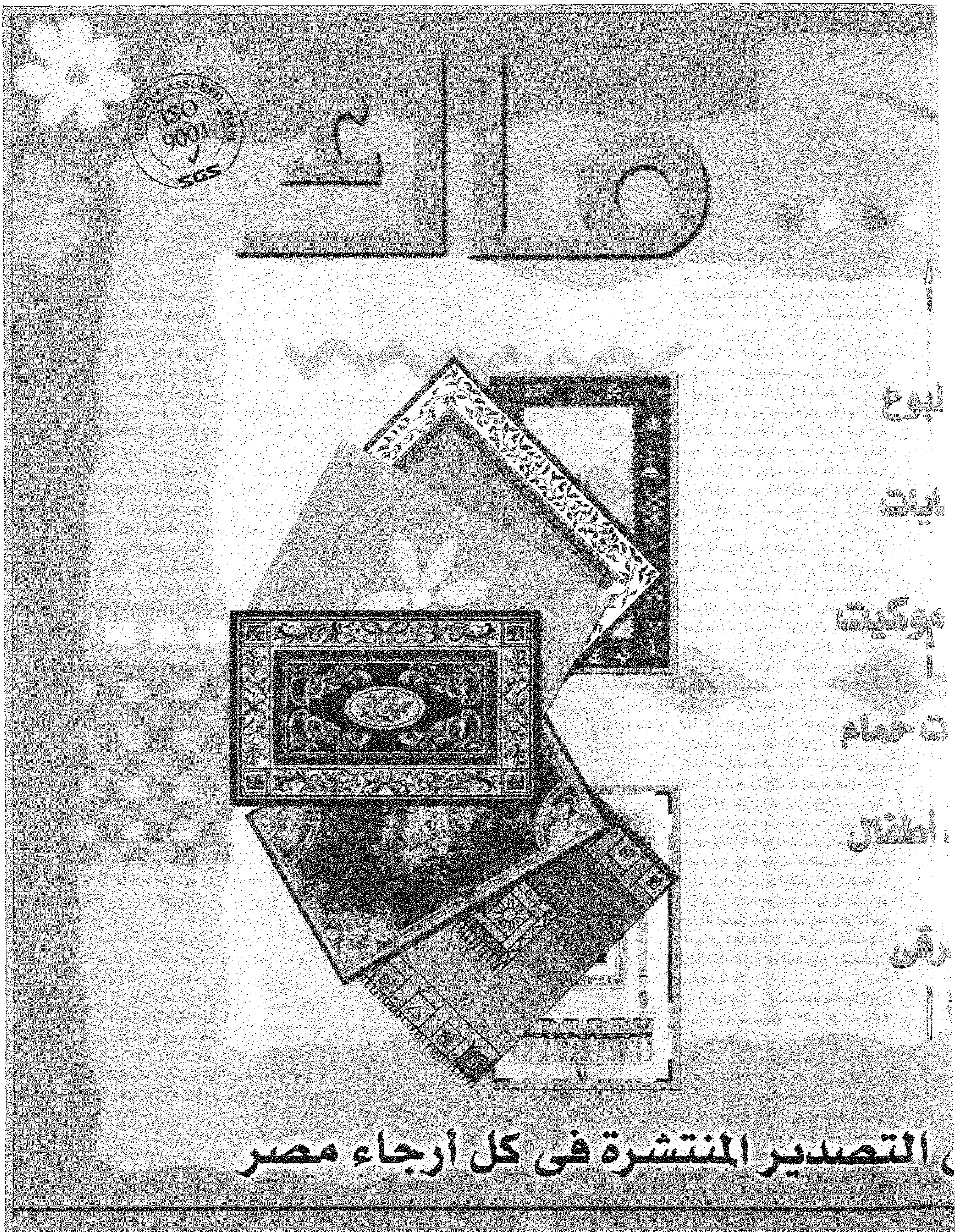
ويقوم المصمم لهذه الساحات بعمل توليفة من النباتات بما فيها الحشيش لزراعتها فى تلك الأماكن. ويحسب المساحة الكلية ومعدل استهلاكها لو تمت تغطيتها بالحشيش كلياً. ثم يأخذ نصف هذا المعدل ليكون هو الرقم الفعلى لهذه المساحة. وبعد ذلك يبدأ فى توزيع النباتات فى المساحة مع حساب معدل استهلاك كل نوع بالكمية التى اختارها بحيث يكون المجموع لا يتعدى الرقم الفعلى. ويصاحب هذه الحسابات هيئة لها صفة الرقابة على المسطحات الخضراء واستهلاكها للمياه. كما هو موجود فى بعض الدول الغربية. بحيث إذا ارتفع استهلاك مشروع للمياه تقوم هذه السلطة الرقابية بالإنذار ثم تحرير المخالفة وقطع المياه عن حدائق هذا المشروع إذا تمادى فى المخالفة. والرقابة لا تكون فقط على المشاريع الخاصة ولكن على الساحات العامة والحدائق والمتنزهات الموجودة داخل المدينة المعتنى بها من طرف السلطات المحلية فلابد أن تكون هى القدوة.

وقبل أن توجد مثل هذه السلطات الرقابية لابد من توعية قومية فى هذا الشأن. إذ أن كثيراً من المهندسين المعماريين المشتغلين فى تنسيق الحدائق والساحات الخارجية يجهلون معدلات استهلاك النبات للمياه. فيصممون على مدن دون إدراك لعواقب هذا التصميم وعلى سبيل المثال فإن ٨٥ هكتاراً من الحشيش تستهلك مياها تكفى احتياج أكثر من نصف مليون مواطن، فما بالك بالـ ٨٠٠ هكتار!

أليس من الحكمة أن نعيد ترشيد كل هذه الكمية الضائعة للمياه فى زراعة المحاصيل التى تنقصنا مثلاً أو نستعملها فى زيادة الرقعة الزراعية للبلاد. إذا استطعنا ارجاع كل هذه الساحات الخارجية إلى مفهوم الاستدامة بدلاً من التصحر فإننا نكون قد نجحنا أيضاً فى التقليل من التلوث البيئى وتلطيف طقس الصيف الحار والإكثار من المتنزهات العامة المفتوحة أمام عامة الشعب. ونكون أيضاً قد تخلصنا من عقدة الخواجة. وبدلاً من أن نعلن عن منتجعاتنا على أنها ريف أوروبى نعلن عنها على أنها ريف مصرى أصيل. ■


مصر للطيران
الداعم الرسمى لملف مونديال ٢٠١٠
18
UNITING PEOPLE
وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
مصر للطيران
EGYPTAIR
EGYPT
2010
BID
توحيد للشعوب
www.egyptair.com.eg
www.egypt-2010.com


سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
متواجد فى مراكز بيع


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
موكيت
حمام
أطفال
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

تشيلى

١١ سبتمبر الآخر!!

وليد عبدالناصر

قليل من البشر خارج حدود تشيلى يتذكرون - بل ويعرفون تحديداً وبالتفصيل - ما حدث فى تشيلى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ وما تلاه

فى شهر سبتمبر الماضى، وتحديداً فى يوم ١١ منه، مرت ثلاثون عاماً على انقلاب الجنرال «أوجستو بينوشيه» العسكرى فى تشيلى، والذى أطاح بحكم الرئيس «سلفادور الليندى» المنتخب ديمقراطياً، وذلك فى واحد من أكثر الانقلابات دموية فى تاريخ أمريكا اللاتينية المبتلية أصلاً بهذه الانقلابات، وهو انقلاب أدى إلى مقتل الرئيس المنتخب ومعاونيه الذين كانوا يدافعون عن مقر الرئاسة الشهير بقصر «لامونيدا». وفى ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٣ التقى المئات من ضحايا نظام «بينوشيه» لتذكر الانقلاب بعد أكثر من ثلاثين عاماً على وقوعه.

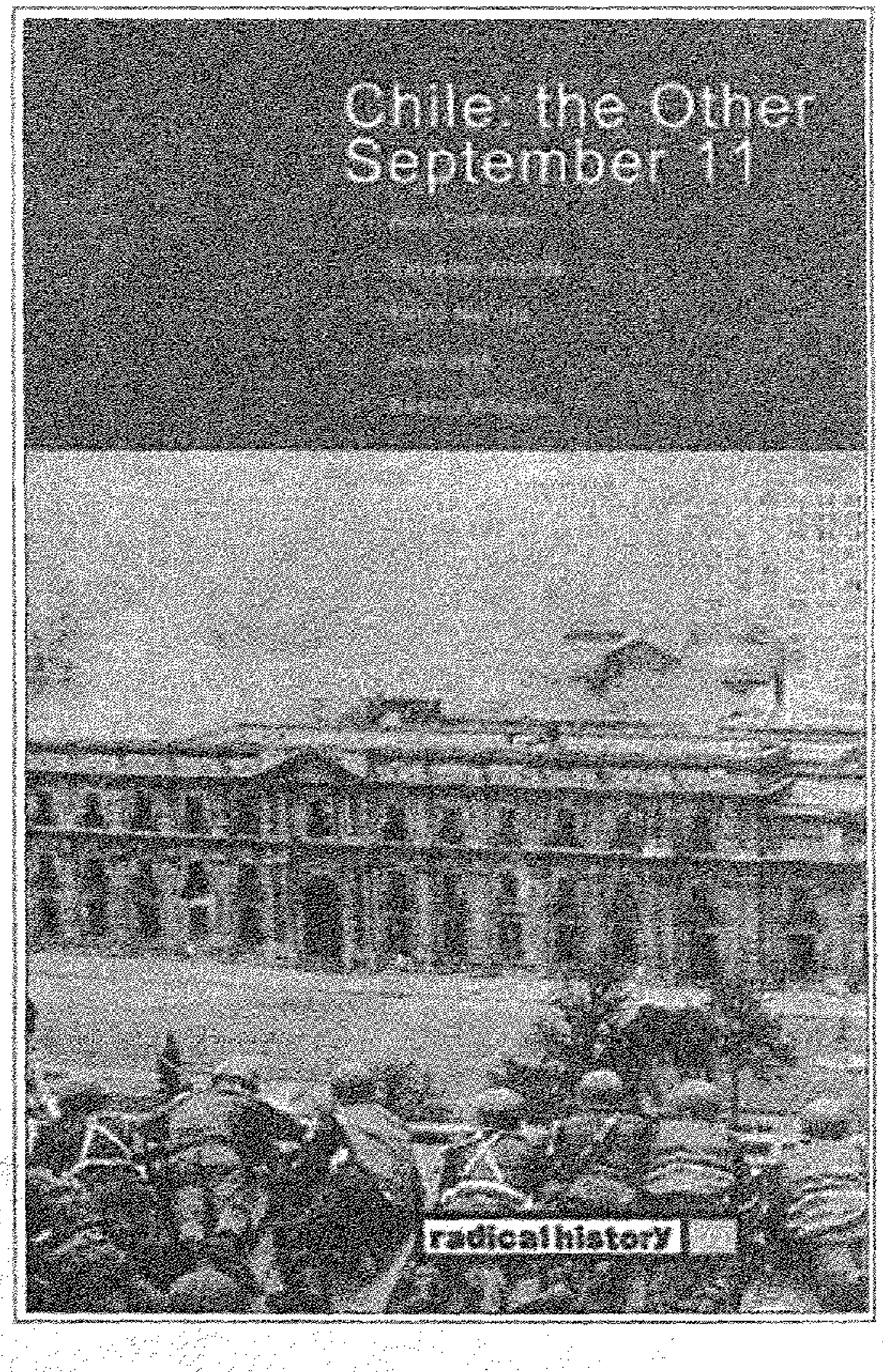
وفى هذه المناسبة، صدر كتاب هام فى نيويورك بالولايات المتحدة عن دار نشر OCEAN PRESS بعنوان «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» وحرر الكتاب كل من «بيلار أجويليرا» و«ريكاردو فريديس» وهما تشيليان مقيمان بالولايات المتحدة، وساهم فى الكتاب أيضاً «أريل دورفمان» وهو تشيلى آخر مقيم بالولايات المتحدة، و«جوان جارا» وهى بريطانية وأرملة الفنان التشيلى الراحل «فكتور جارا»، بالإضافة إلى إسهامات مترجمة عن الأسبانية لـ «بياتريس الليندى» إحدى كريمتى الليندى»، وترجمة لنص آخر كلمة وجهها «الليندى» للشعب التشيلى خلال مقاومة الانقلاب فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣، وترجمة لكلمة رثاء لـ «الليندى» ألقاها الرئيس الكوبى «فيدل كاسترو» بعد الانقلاب بأيام. بالإضافة إلى ترجمة أشعار للشاعر التشيلى «بابلو نيرودا» الذى حاز جائزة نوبل فى الآداب وتوفى بعد الانقلاب بأيام بسبب عدم توفير العناية الصحية اللازمة له عقاباً له من الانقلابيين على مواقفه المؤيدة لـ «الليندى».

وتأتى أهمية الكتاب ليس فقط من كونه يستحضر أحداث الانقلاب العسكرى والتطورات التى أدت اليه فى تشيلى أو فى العلاقات الأمريكية/التشيلية، أو فى مواقف الإدارة الأمريكية تجاه الرئيس «الليندى» منذ انتخابه وحتى وقوع الانقلاب ضده، وإنما أيضاً لأن اللافت والأبرز هو ما يحاوله الكتاب من إجراء مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف بين أحداث ١١سبتمبر ١٩٧٣ فى تشيلى واعتداءات ١١سبتمبر٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى المقارنه التى سنبدأ بها مقالنا التحليلى عن هذا الكتاب المهم.

فالمقارنة تتناول الأبعاد الشكلية والإجرائية بنفس القدر الذى تتناول فيه الموضوع. فهناك المشابهة بين قصر«لامونيدا» وتدميره وإحراقه بنيران الطائرات والصواريخ والمدافع والدبابات فى سنتياجو وبين برجى تدمير مركز التجارة الدولى بواسطة طائرتين اختطفهما إرهابيون فى نيويورك. وعلى صعيد المدى الزمنى، فإن المواطنين التشيليين عانوا بدءاً من ١١سبتمبر ١٩٧٣ ولحوالى عقدين من الزمان من إرهاب الدولة فى ظل حكم الانقلابيين وقبضتهم الحديدية بقيادة «بينوشيه». ولسنوات طويلة مثل يوم ١١سبتمبر يوم حزن لملايين التشيليين. ولا نعرف إلى متى سيظل الأمريكيون يذكرون يوم ١١سبتمبر احياءاً لذكرى ضحايا ما حدث من هجمات إرهابية تمت عام ٢٠٠١، ولكن ذلك بالتأكيد سيستمر طويلا لعائلات وأصدقاء الضحايا وهم بالآلاف.

ودخولاً إلى المقارنة، فإن الكتاب يشير إلى أنه بالنسبة لملايين التشيليين من أقارب عشرات الآلاف من ضحايا حكم «بينوشيه»، فإن صورة الأمريكيين وهم يسيرون فى شوارع نيويورك يحملون صور ذويهم وأصدقائهم الذين فقدوهم يوم ١١سبتمبر ٢٠٠١ كان مظهراً مألوفاً لأولئك التشيليين الذين تعودوا لعقود البحث عن المفقودين والتشوق إليهم دون معرفة مصيرهم، أو عند معرفة ذلك المصير يكون هو الإعدام او الموت تحت وطأة التعذيب أو النفى أوالتخفى والهرب.

وفى الحالتين، بالنسبة للتشيليين فى ١١سبتمبر ١٩٧٣ وبالنسبة للأمريكيين فى ١١سبتمبر ٢٠٠١، فإن الدرس المستفاد من الأحداث والرسالة العامة المفهومة منها كانت واحدة: أن العالم لن يعود كما كان، وأن الكثير من العناصر مشتركة بين التاريخين، فالمشترك هو الاحساس بالرعب وغياب اليقين والوقوع ضحية الإرهاب. واستغرق الأمر وقتاً طويلاً للشعبين التشيلى والأمريكى لإدراك أن ما حدث كان واقعاً وليس كابوساً. وكما ذكرنا آنفاً



Chile: The Other September 11
(تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر)
Pilar Aguilera, Ricardo Fredes
NewYork, Ocean Press.
2002, $ 7.95

اللافت والأبرز هو ما يحاوله الكتاب من إجراء مقارنة لأوجه التشابه والاختلاف بين أحداث ١١ سبتمبر ١٩٧٣ فى تشيلى واعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية

فقد استمر هذا الكابوس/الواقع حوالى عقدين من الزمان فى تشيلى ولا نعرف كم سيستمر فى الولايات المتحدة وفى العالم بأسره.

ومن المفارقات الشكلية أنه فى المرتين .أى فى ١١سبتمبر ١٩٧٣ و١١سبتمبر ٢٠٠١ . كان اليوم هو ثلاثاء وكأن القدر بشكل انتقائى بدا عشوائيا فى اختياره فرض على بلد آخر نفس التاريخ واليوم مليئاً بالدم. إلا أن الفارق بين التاريخين له مغزاه: فالهجوم الإرهابى على أقوى دولة على الأرض سيكون له نتائج تؤثر على البشرية جمعاء، وقد يمثل إرهاصات حرب عالمية ثالثة قد تغير تاريخ الإنسانية بأكمله. وبالمقابل، فإن قليلاً من البشر خارج حدود تشيلى يتذكرون . بل ويعرفون تحديداً وبالتفصيل . ما حدث فى تشيلى فى ١١سبتمبر ١٩٧٣ وما تلاه.

ويتضمن الكتاب اسهامات لتشيليين عاشوا فى نيويورك كلاجئين عقب هروبهم من جحيم الانقلاب وحكمه فى تشيلى، وبدا لهؤلاء أن هناك تشابها مثيرا للرعب بين ما واجهه التشيليون فى ظل حكم الانقلاب وبين ما واجهه الأمريكيون فى ١١سبتمبر ٢٠٠١، فالتشابه من الناحية الموضوعية كان عميقاً. ففى الحالتين جاء الرعب من السماء، وتحديداً من صواريخ سلاح الجو فى حالة تشيلى عندما قصفت قصر «لامونيدا» الرئاسى ودار سكن أسرة الرئيس الليندى، ومن طائرات مدنية اختطفها وقادها ارهابيون واقتحموا بها مركز التجارة الدولى فى نيويورك فى حالة الولايات المتحدة الأمريكية. وكان هذا الرعب موجهاً لتدمير رموز للهوية الوطنية. كما ان التشابه عميق فى الاحساس بالألم وغياب القدرة على التركيز أو التوجه الواضح، فكما ذكرنا من قبل، فإن الآلاف الذين جابوا شوارع نيويورك وقبلها بثمانية وعشرين عاماً شوارع سنتياجو ومدن تشيلى الأخرى كانوا يحملون صور ذويهم بحثاً عن معلومات عنهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، وبدأ الأمريكيون يعرفون مجدداً معنى فقدان أعزاء لديهم لا خبر عنهم ولا يقين عن مصيرهم، ولكن هذه المرة ليس فى فيتنام أو غيرها من بلدان الهند الصينية البعيدة جغرافياً ولكن فى قلب مراكز «الحضارة» الأمريكية.

وفى الحالتين أيضاً صاحب الكارثة



سلفادور الليندى

إحساس متأصل بظلم الانسان لأخيه الانسان بشكل يزيد من مرارة وقع الحدث مقارنة بوقع كارثة طبيعية قد توقع خسائر بشرية أضخم ولكنها ليست من صنع بشر آخرين، سواء من نفس الجنسية والديانة أو من أبناء جنسية أو ديانة أخرى.

كذلك كان رد فعل البشر مماثلاً فى الحالتين: فكل شعب ضحية ١١سبتمبر الخاص به انتابه تساؤل ينم عن الصدمة: إن ما حدث لا يمكن أن يحدث لنا، فهو يعبر عن احساس بعدم التصديق. ويرتبط هذا الشعور بدرجة وحجم العنف المبالغ فيه الذى يتحول معه كل ما نراه فى قاعات دور العرض السينمائى من عنف إلى واقع وكابوس معاش. ويشعر كل شعب ضحية لهذه الأحداث بفقدان الإحساس بالبراءة ويتأكد رد الفعل هذا فى حالة ١١سبتمبر٢٠٠١ حيث كان الأمريكيون يتصرفون دائماً باعتبار أن بلادهم تمثل حالة استثنائية، وبالتالى يتخيلون أنهم شعب مستثنى من الأحزان والآلام والكوارث التى يمكن أن تلم بغيرهم من الشعوب «الأقل حظاً». كما أن حروب القرن العشرين جميعا لم تلامس الارض الأمريكية، وحتى حادثة «بيرل هاربور» الشهيرة خلال الحرب العالمية الثانية فإنها وقعت بعيداً عن التراب الأمريكى. أما عقب اعتداءات ١١سبتمبر ٢٠٠١، فقد شارك الأمريكيون غالبية سكان الأرض فى حالة عدم التيقن من المستقبل.

وفى رأى المشاركين فى الكتاب من التشيليين المقيمين بالولايات المتحدة، فقد وجدوا جانباً واحداً مضيئاً فيما حدث فى الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وهو أنه مثل فرصة لبعض الأمريكيين لإعادة النظر فى أمور كثيرة والتوجه نحو السلام والخير والمصالحة والعدالة ونحو إضفاء طابع إنسانى على المجتمع الأمريكى. ورأى هؤلاء التشيليون أن إحدى وسائل الشعب الأمريكى لتجاوز أحزانه ومخاوفه والحياة وسط غياب الأمن هو الإقرار بأن المعاناة ليست مقصورة عليهم وأنهم مثلهم فى ذلك مثل بقية البشر، والإقرار المترتب على ذلك بأن هناك بشراً آخرين فى مناطق أخرى من العالم . مثل شعب تشيلى . يعانون من مواقف مماثلة من الجراح والغضب. وربما تكون هذه هى حكمة القدر فى أن يكون أول عدوان تتعرض له أراضى الولايات المتحدة فى نفس يوم الانقلاب العسكرى على الديمقراطية فى تشيلى، وهو انقلاب دعمته وغذته الإدارة الأمريكية حينذاك باسم الشعب الأمريكى وقيمه ومبادئه ومثله العليا، وهو أمر سنتعرض له لاحقاً بقدر من التفصيل فى الجزء الثانى من هذا المقال التحليلى. وقد يكون ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مدخلاً للأمريكيين . حسب المساهمين فى كتاب «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» . خاصة الشباب منهم ليدركوا معنى الشعور بأنهم ضحايا وليحاولوا أن يتخيلوا أنفسهم كمتعاطفين مع شعب آخر مر بما يشبه «جهنم إنسانية جماعية» أصبح بموجبها كل أحبابهم «مفقودين» بدون أجساد تدفن، ويقتربون بالتالى من فهم تنويعات أخرى لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عبر العالم، وفى مقدمتها معاناة شعب تشيلى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ والسنوات التى تلته.

ويؤكد التشيليون المشاركون فى الكتاب محل العرض والتحليل هنا أنه بالرغم من أن الارهابيين المسئولين عن هجمات ١١ سبتمبر٢٠٠١ فى الولايات المتحدة اعتبروا الأخيرة دولة شيطانية تجسد الشر فى العالم، فإن الحزن ساد عبر العالم نظراً لهذه الأحداث، وانتشرت دعوات المساعدة وإعلان التضامن واعتبار ضحايا ١١سبتمبر٢٠٠١ ضحايا للبشرية فى حربها ضد التطرف والإرهاب وليس فقط ضحايا للشعب الأمريكى. وجاءت هذه المواقف المتضامنة من شعوب كثيرة، بما فيها شعوب كانت ضحية لتدخلات أمريكية سابقة ضدها مثل الشعب التشيلى، إلا أن الأخير رفض وصف المجتمع الأمريكى ككل بالشيطانى أو وصمه بـ «الشر». وبالمقابل. ودائماً حسب المساهمين فى تحرير كتاب «تشيلى: ١١سبتمبر الآخر» . فإن الشعوب الأخرى .وفى مقدمتها الشعب التشيلى . تنتظر وتتوقع رد الجميل من الشعب الأمريكى مقابل تضامن هذه الشعوب معها بعد أحداث ١١سبتمبر٢٠٠١، باعتباره شعب أقوى دولة على الأرض، إلا أنهم يعتبرون الوقت مبكراً للحكم على ما إذا كان الشعب الأمريكى . المكون أصلاً وإلى حد كبير من بشر فروا إلى الولايات المتحدة من دول عانت مجاعات وكوارث أو قمع وديكتاتوريات، والملىء عادة بقيم الأمل والتسامح . سيستطيع أن يشارك بقية الإنسانية فى التعاطف الفعال والإيجابى تجاه ما يواجهه بقية البشر من محن طبيعية أو إنسانية المصدر، والمشاركة فى إصلاح ما يعوق مسيرة الإنسانية التى تعانى من مآس وتحديات وأضرار كثيرة، وذلك بهدف تجنب وجود عالم يسمح بتكرار ما حدث فى ١١سبتمبر مرة أخرى، سواء ١١سبتمبر١٩٧٣ أو ١١سبتمبر ٢٠٠١.

إلا أن وجهاً آخر للاختلاف بين الحدثين هو أن الحشود التى كانت تتجمع حول موقع مركز التجارة الدولى المدمر فى نيويورك كانت تستفسر عن ذويها من قوات شرطة ودفاع وطنى وجيش متعاطفة معها، أما الجموع المحتشدة حول استاد تشيلى وفى معسكرات الاعتقال الأخرى فى تشيلى للاستفسار عن مصير ذويها فكانت تواجه قوات الانقلاب التى تلوح بالتهديد للحشود من المدنيين بدلاً من الرد على توسلاتهم، وكانت أعداد المختفين تتزايد فى تشيلى بمرور الوقت بينما كانت فى تناقص فى حالة نيويورك، وزاد هذا المسلك من جانب الانقلابيين على تصاعد إحساس الحشود بالعجز عن فعل أى شىء أياً كان نوعه لسد حاجتهم الإنسانية المعنوية والنفسية للاطمئنان على ذويهم.

وآخر وجه للتشابه بين الحالتين هو معاداة المسئولين عن الحدثين للعلم والحضارة و(التنوير)، وقد يكون هذا واضحاً فى حالة ١١

تشيلي

١١ سبتمبر الآخر!!

سبتمبر الأمريكي . كما يذكر محررو الكتاب الذي بين أيدينا . ولكنهم يوضحونه أيضاً في حالة ١١ سبتمبر التشيلي مشيرين إلى تحريم «بينوشيه» ونظامه الانقلابي لتدريس مواد كاملة في المدارس والجامعات مثل «علم الاجتماع» باعتبارها مواد تحض على اعتناق الشيوعية (!!!) وإغلاق لأقسام كاملة بالجامعات تدرس هذه المواد. كما تجدر الإشارة في ختام هذا الجزء إلى أن الرئيس الراحل «الليندي» أسمى العسكريين الذين قاموا بانقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ قبل أن يلقى مصرعه وفي آخر خطاب له للشعب التشيلي بـ «الإرهابيين» الذين يدمرون مظاهر الحضارة الإنسانية: الكباري والجسور وخطوط السكك الحديدية وخطوط إمدادات النفط والغاز، كما اعتبر أن هدفهم هو إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ونشر الظلام، وهي نفس الاتهامات التي واجهها مدبرو ومنفذو اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية.

بعيداً عن المقارنات والتي قد يكون فيها بعض من العسف، يتعرض الكتاب لعلاقة الولايات المتحدة بالانقلاب في تشيلي وما سبق ذلك من محاولات جهات أمريكية لزعزعة استقرار حكم الرئيس سلفادور الليندي خلال الفترة منذ توليه الحكم عام ١٩٧٠ وحتى انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ .

فالكتاب يذكر أن الرعب الذي أصاب الشعب التشيلي خلال وبعد انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ كان . إلى حد كبير . نتيجة للتدخلات الأمريكية المتواصلة في شئون تشيلي الداخلية، وهي تدخلات تضاعفت خلال حكم حكومة الوحدة الشعبية بزعامة الليندي ما بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٣. إلا أن هذه التدخلات سابقة على تاريخ تولي هذه الحكومة لمقاليد السلطة، خاصة طوال عقد الستينيات من القرن العشرين وتوج بانقلاب ١١ سبتمبر١٩٧٣، وكان الدور الرئيسي في هذه التدخلات . طبقا للكتاب . من نصيب المخابرات المركزية الأمريكية، وركز المساهمون في هذا الكتاب على كون المخابرات المركزية قد دعمت في واقع الأمر انقلاباً ذا طبيعة فاشية مناهضة لأبسط مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان، بما يتناقض مع منظومة القيم التي من المفترض أن الولايات المتحدة تبشر بها على الصعيد العالمي. ويسرد الكتاب أدلة كثيرة على تمويل ودعم الولايات المتحدة لانقلاب ١١ سبتمبر وتقديم النصح لقادته. ويسرد أيضاً التسلسل التاريخي لأنشطة واشنطن ضد حكومة الليندي المنتخبة منذ انتصار الليندي في انتخابات الرئاسة عام ١٩٧٠ حين ذكر وزير الخارجية الأمريكي حينذاك هنري كيسنجر بصراحة أنه «لا يرى سبباً للانتظار ومتابعة دولة تتجه للشيوعية لأن شعبها يفتقد الإحساس بالمسئولية»، وذلك في موقف يعبر عن عدم ثقة في نتيجة الديمقراطية عما يأتي للحكم بقوى مناهضة للمصالح الأمريكية. فعندما تولى الليندي الحكم عام ١٩٧٠ كانت هناك العشرات من الشركات الأمريكية العاملة في تشيلي منها شركات أمريكية عبر وطنية في مجالات النفط و صناعات السيارات وقطاع الموانئ وغيرها بإجمالي استثمارات تصل إلى مليار دولار، وكان في مقدمتها شركة ITT للهواتف والتلغراف بقيمة استثمارات تصل إلى ٢٠٠ مليون دولار.

وقد فسر البعض عبارة كيسنجر المشار إليها آنفا بأنها كانت في واقع الأمر تعني أن الولايات المتحدة لا تستطيع الاكتفاء بموقع المتفرج وترك دولة من دول أمريكا اللاتينية تقرر مصيرها بنفسها، وتحديدا عدم السماح لدولة بأن تنتهج «الطريق السلمي نحو الاشتراكية» حسب تعبير الليندي الشهير، وقد توقع الليندي بكلماته هو نفسه: «أن رأس المال الأجنبي والإمبريالية اتحدا مع العناصر الرجعية لإيجاد البيئة الملائمة للجيش التشيلي للخروج عن تقاليده الخاصة باحترام الضمانات الدستورية». وقد سخر الليندي من الإدارة الأمريكية التي تدعي الديمقراطية ثم تحرض على تمرد عسكري لإسقاط الديمقراطية. كما تضمن الكتاب اشعارا للشاعر التشيلي العالمي الراحل بابلو نيرودا موجهة ضد الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون عام ١٩٧١ تتهمه بالإرهاب وبارتكاب جرائم إبادة للجنس البشري GENOCIDE وبأنه أسقط صورة إبراهام لنكولن محرر العبيد و داعية الحرية.

وعندما أعلن الليندي تأميم مناجم النحاس تحركت الولايات المتحدة لإيقاف قروض المؤسسات التمويلية الدولية وفي مقدمتها البنك الدولي للحكومة في تشيلي. وعلى الصعيد السياسي، كان هناك التحريض المستمر للجيش في تشيلي للقيام بعمل ما ضد السلطة المنتخبة لا لليندي، بالإضافة إلى العمل على إعاقة عمل الحكومة من جانب الأحزاب اليمينية، وكذلك حبك المؤامرة تلو الأخرى ضد حكومة الوحدة الشعبية المنتخبة، مثل التحريض على الإضرابات وتشجيعها وغير ذلك. وبينما كانت الإدارة الأمريكية قد أوقفت قروضها المقدمة لحكومة تشيلي، فإنها استمرت في تقديم قروض للجيش التشيلي بغرض شراء أسلحة تضمنت قرضاً بقيمة ٥ ملايين دولار في يونيو ١٩٧١، ثم تقديم ١٠ ملايين دولار أخرى كقرض للجيش قبل انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ بفترة وجيزة، بل كانت الولايات المتحدة تنظم مناورات مشتركة بين البحرية الأمريكية ونظيرتها التشيلية . حتى بدون الحصول على موافقة حكومة الوحدة الشعبية، وتزامنت آخر مناورات مشتركة مع موعد الانقلاب في ١١ سبتمبر حيث كانت المناورات تدور على شواطئ تشيلي بهدف توفير الدعم والحماية للانقلابيين، وكان هذا التقارب مع الجيش يهدف إلى توظيف الصلات الأمريكية مع الجيش لتوسيع الهوة بين الجيش والحكومة المنتخبة. وقد تزامن هذا الدور الأمريكي مع دور مماثل للولايات المتحدة في تنظيم ودعم انقلابات عسكرية في بوليفيا وأوروجواي هدفت إلى إسقاط الدساتير وحل البرلمانات المنتخبة في هذه الدول.

والمتابع للحملة الأمريكية ضد الليندي عليه أن يذكر أن اليسار التشيلي انتصر في الانتخابات عام ١٩٧٠ بالرغم من حشد الموارد الأمريكية للحيلولة دون حدوث هذا الانتصار. وبالرغم من هذا النصر الانتخابي؛ فإن المخابرات المركزية الأمريكية والمؤسسات الأمريكية عبر الوطنية حاولت إعاقة تولي «الليندي» مقاليد السلطة من خلال عدة خطوات تضمنت تدبير اغتيال قائد الجيش ثم تحريض الرئيس السابق على «الليندي» على عدم تسليم السلطة للرئيس المنتخب. ولكن فشلت هذه الجهود وتولى «الليندي» الحكم في ظل اقتصاد مفلس، حيث انهار سعر النحاس وارتفعت معدلات البطالة، بلغت قيمة الديون الخارجية أربعة مليارات من الدولارات. كذلك تولى «الليندي» السلطة في ظل صحافة وإعلام وقضاء وبرلمان واقعين تحت سيطرة اليمين، وجيش أعلن رسمياً عن حياده السياسي ولكن لم يستمر هذا الوضع طويلاً. وجاءت هذه الديون نتيجة قروض أمريكية تم توجيهها لأغراض استهلاكية وليست إنتاجية، كما نشرت الولايات المتحدة نمط حياة استهلاكياً في صفوف الشعب التشيلي.

ومن صور التدخل الأمريكي قبل تولي الليندي مقاليد السلطة، يروي كتاب «تشيلي: ١١ سبتمبر الآخر» ما حدث يوم ٢٧ يونيو ١٩٧٠ عندما أقرت لجنة الأربعين التابعة لمجلس الأمن القومي برئاسة هنري كيسنجر تخصيص مبلغ وقدره ٣٠٠ ألف دولار أمريكي لدعم الدعاية ضد الليندي. وبعد مرور شهر على هذا التاريخ خصصت شركة ITT الأمريكية عبر الوطنية مبلغ ٣٥٠ ألف دولار لدعم خصوم الليندي السياسيين. وفي ١٥ سبتمبر من نفس العام: وجه الرئيس الأمريكي حينذاك ريتشارد نيكسون رئيس المخابرات المركزية في عهده ريتشارد هولمز للحيلولة دون تولي الليندي الرئاسة. وأعرب كيسنجر حينذاك عن اعتقاده بأن الليندي أكثر خطورة على مصالح الولايات المتحدة من فيدل كاسترو زعيم كوبا لأن الأول منتخب ديمقراطياً مما قد يؤدي بدول أخرى في أمريكا اللاتينية إلى اتباع نهجه اليساري الديمقراطي. وبحلول أكتوبر ١٩٧٠،كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد أكدت في تقرير لها ضرورة اللجوء لتنظيم انقلاب عسكري لإسقاط حكم الليندي. وفي أغسطس من العام التالي، رفض بنك الاستيراد والتصدير الأمريكي تقديم قرض لتشيلي

أعلن الانقلابيون حل البرلمان المنتخب، وتم إلغاء كافة أنواع الانتخابات، وإلغاء الأحزاب السياسية وحظر قيامها، والإعلان عن حظر شامل للإضرابات، بل وللنقابات المهنية ذاتها

تشيلى

١١ سبتمبر الآخر!!

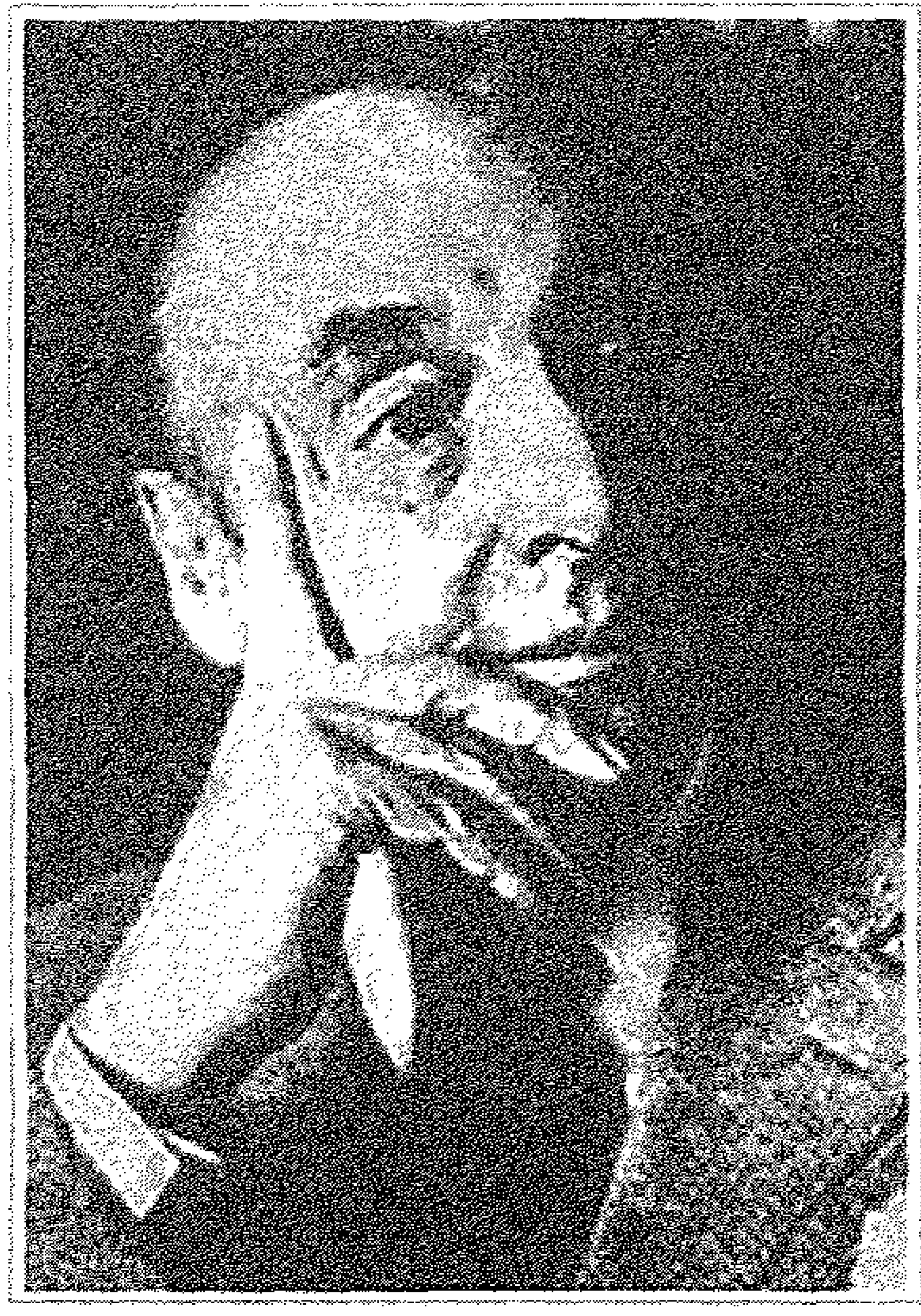
بقيمة ٢١ مليون دولار لشراء طائرات مدنية، وفى الشهر التالى فرضت واشنطن حصاراً اقتصادياً على تشيلى، كما رفض البنك الأمريكى للتنمية تقديم أى قروض لتشيلى منذ تولى الليندى الحكم. وفى أبريل ١٩٧٣ خصص مجلس الأمن القومى الأمريكى مبلغ ٥٠ ألف دولار لإثارة قلاقل داخل حكومة الوحدة الشعبية فى تشيلى. والمفارقة المثيرة للدهشة، أنه عقب نجاح انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ واحتكار العسكريين للسلطة وإلغاء المؤسسات الديمقراطية، استأنفت الولايات المتحدة ومؤسسات بريتون وودز القروض للحكومة الجديدة فى تشيلى.

ويجمع الكتاب المشاركون فى كتاب «تشيلى:١١ سبتمبر الآخر» على أن ما شهده يوم ١١ سبتمبر ١٩٧٣ فى تشيلى دمر آلاف الأحلام الجميلة لدى شعب تشيلى، رغم أنه كان من المتوقع أن يتحرك الجيش فى انقلاب عسكرى لإسقاط الرئيس الليندى المنتخب ديمقراطياً. ففى ذلك اليوم بدأت الموسيقات والبيانات العسكرية تذاع فى الإذاعة التشيلية التى سيطر عليها الجيش، ومنذ نفس ذلك اليوم بدأت حملات واسعة لمداهمة المنازل فى سنتياجو والمدن التشيلية الأخرى بحجة البحث عن السلاح، وعندما لم يجد الجنود السلاح انتزعوا الآباء والأمهات والبنات والأبناء والزوجات والأزواج والإخوة والأخوات من أسرهم، كما تمت مصادرة أعداد ضخمة من الكتب . سواء من البيوت أو من المكتبات العامة أو من مكتبات الجامعات .وتم تجميع هذه الكتب وإحراقها فى مشاهد تنم عن عداء متأصل للثقافة والفكر والحرية والإبداع والديمقراطية. وقد استكملت هذه المداهمات بحملة واسعة من الاعتقالات والقتل والتعذيب والنفى لعشرات الآلاف .بل لمئات الآلاف .من خيرة أبناء الشعب التشيلى، وفرار مئات الألوف الآخرين هرباً من تلك الحملات المتواصلة واختيارهم المنفى الاختيارى والاغتراب بعيداً عن وطنهم. وتتكرر الإشارة فى مواضع عديدة من الكتاب إلى أن معسكرات الاعتقال والاحتجاز التى ضمت شعراء وملحنين وفنانين ومبدعين فى مختلف الميادين ومن اتجاهات فكرية وسياسية متنوعة وليس فقط من المنتمين لليسار.

بحسب المشاركين فى كتاب «تشيلى:١١ سبتمبر الآخر». فانعكاسات الانقلاب وتداعياته مازالت محسوسة حتى الآن وتشيلى بشكل عام لم تواجه ماضيها أو تلعق جراحها بصورة كاملة. وقد حاول «بينوشيه» و نظامه إزالة ماضى تشيلى ومحو تاريخها من ذاكرة الشباب. وقد ظل الكثير من الشهود لفترة طويلة خائفين من الإدلاء بشهاداتهم أو التحدث عن تجاربهم، وربما كانوا لا يرغبون فى تذكر ما جرى. ولسنوات طويلة، كان اعتماد التشيليين والعالم بأسره هو على شهادات من تمكنوا من الفرار والعيش فى الغربة، فهؤلاء . وبالرغم من الضغوط والمعاناة .هم الذين سعوا لجمع الأدلة لإدانة الانقلاب الفاشى وفضح طبيعته المعادية للإنسانية. وفى عام ١٩٩٧، ولأول مرة، شاهد طلاب الجامعة فى سنتياجو صوراً لآثار الهجوم العسكرى الشامل على قصر«لامونيدو» الرئاسى يوم الانقلاب و الذى كان بداخله رئيس الدولة الشرعى وأربعون من معاونيه، وهو الأمر الذى دفع بهؤلاء الشباب إلى حالة من الغضب والهلع وعدم تصديق ما لقنوه عن تاريخهم فى مناهج المدارس والجامعات بعد الانقلاب بعد أن علموا بتاريخهم الحقيقى «المقموع». وفى صفوف الشعب التشيلى نجد من لا يريد أن يعيش الرعب من جديد، وهناك من اختار أن يبقى فى حالة من اللامبالاة، وهناك أيضا من اختار أن ينسى أو يتناسى ما جرى. ولكن فشلت محاولات التعتيم على ما جرى من أحداث بسبب شهادة الشهود الذين عاشوا تلك الأحداث وفروا من تشيلى. والكتاب الذى بين أيدينا يدعو لمواجهة هذا الماضى واستخلاص الدروس منه والسعى لمعرفة الحقيقة كاملة مهما كانت مؤلمة. كما يدعو إلى تجاوز اللحظة التاريخية التى فرضت فيها الخيانة نفسها، وأيضا يدعو إلى استحضار حلم الليندى وتحويله إلى حقيقة، وهو الحلم الذى جسده فى عبارة ذكرها فى خطابه الأخير إلى الشعب التشيلى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ بأن: «التاريخ لنا والشعب سيحققه».

حلم الليندى لم يتحقق. بل سقط الرجل الحالم نفسه وهو يدافع عن قصر «لامونيدا»، وعندها تحدث الجنرالات بزهو عن «استئصال سرطان الماركسية من تشيلى» وأعربوا عن سعادتهم بوفاة الليندى وعرضوا أفلاماً حينذاك لما تبقى من قصر «لامونيدا» ومقر سكن الليندى . وإن امتنعوا عن تكرار عرضها بعد ذلك لما ولدته من مشاعر غضب ضد الانقلاب وتعاطف مع الليندى .مما عكس طبيعة النظام الجديد الذى يفخر بإلحاق الدمار بالمنشآت المدنية والمبانى التاريخية دون أى إحساس بالخزى من استخدام أعتى الأسلحة لتدمير قصر الرئاسة ومقر سكن الليندى. وبحلول نهاية يوم الانقلاب، كان قادته قد أعلنوا اعتبار يوم ١١ سبتمبر عيداً للاستقلال لتشيلى، وهو الأمر الذى زاد من شعور الشعب التشيلى بالمذلة والمهانة. وأعلن الانقلابيون حل البرلمان المنتخب بأغلبيته والمعارضة الموجودة بداخله، وتم إلغاء كافة أنواع الانتخابات، وإلغاء الأحزاب السياسية وحظر قيامها، والإعلان عن حظر شامل للإضرابات، بل وللنقابات المهنية ذاتها، وتم فرض رقابة مشددة على الكتب والصحف وكافة أنواع المطبوعات، وأخيراً، وليس آخراً، تم إغلاق الجامعات حتى إشعار آخر.

ومن المفارقات أن الرئيس «الليندى» كان ينوى فى نفس يوم وقوع الانقلاب توجيه خطاب إلى الشعب يعلن فيه اللجوء إلى تنظيم استفتاء شعبى لحسم نزاعه المتفاقم مع قيادات الجيش . خاصة بعد تولى «بينوشيه» قيادة الجيش فى ٢٣ أغسطس ١٩٧٣ . بالطرق السلمية والديمقراطية بدلاً من تحويله إلى صراع يهدد تشيلى واستقرارها . والواقع أن مأزق «الليندى» كمن فى أنه كان رئيساً منتخباً شعبياً ودستورياً التزم بالقيود الديمقراطية والقانونية. ولكنه كان يحتاج أيضاً لمواجهة تجاوزات الجيش المتمثلة فى اقتحام المصانع ومواقع العمل وقمع الطبقة العاملة، وكان الجيش يستند فى تبرير تلك الممارسات إلى قانون «سيطرة الجيش» ARMS CONTROL ACT . إلا أن قيادة الجيش التشيلى كان لها رأى آخر. وكان لهذا الرأى خلفياته: ففى ٢٨ و٢٩ يونيو ١٩٧٣ جرت أول محاولة انقلاب عسكرى ضد حكومة منتخبة فى تشيلى منذ ٤٢ عاماً، حيث استولى الانقلابيون على وسط سنتياجو وهاجموا مبنى وزارة الدفاع وقصر الرئاسة قبل أن تتمكن قوات مؤيدة للحكومة من محاصرتهم. وأعقب ذلك اتهام المعارضة الديمقراطية المسيحية لحكومة الوحدة الشعبية بأنها تنفذ «مؤامرة شيوعية يهودية»، ودعوة تلك المعارضة الجيش للقيام بانقلاب عسكرى (!)، وتلى ذلك اغتيال المستشار البحرى لـ «الليندى» وعمليات تخريب مجهولة المصدر ضد خطوط السكك الحديدية والأنابيب والجسور، بل وضد المدارس والمستشفيات، ثم وقوع اشتباكات بين القوات الجوية وعمال عدد من المصانع. وأخيراً، جاءت استقالة قائد الجيش ووزير الدفاع



بابلو نيرودا .. تركوه ليموت

كتاب الزاوية

أحمد لطفى السيد

الأحزاب والحكومة والمعارضة

إذا جلس نوابنا فى مقاعدهم وجاءهم مشروع من قبل الحكومة أو من قبل أحد النواب، كان من الضرورى أن تختلف آراؤهم. وللناس بعدد رءوسهم آراء. هذا الاختلاف نتيجة لازمة لاختلاف المذاهب السياسية أو لاختلاف تفاوت النواب فى مراتب العلم. أو على الأقل لاختلاف أمزجتهم، إذا فرض أن ليس لأحدهم مذهب سياسى يعتنقه. ومن ذلك الاختلاف تحدث الأحزاب بضرورة الحال. ففكرة ترقى الحزبية فكرة مستحيلة أولى بها أن لا تكون.

على أن الحقيقة بنت البحث والمناقشة والأخذ والرد. فإذا كانت الحكومة لا تريد المعارضة فإنها إذن تريد نوابًا يقرونها على الخطأ وعلى الصواب جميعًا. ولو أرادت ذلك لما كان هناك معنى لإيجاد الجمعية التشريعية. ولكان أولى بها، وهى صاحبة الحول والطول، أن تتصرف فى شئون الأمة من غير استشارة ولا إعلان.

إننا لو أردنا نوابنا على أن ينفوا عنهم فكرة الحزبية لأردناهم على أن تكون آراؤهم فى التشريع آراء غير مستندة إلى مذهب بعينه من مذاهب الحكم. ويترتب على ذلك أن يكون تشريعنا تشريعًا ميتًا لا روح له ولا اتصال بين أجزائه. بعيدًا عليه أن يكون ذا أثر محمود فى البلاد، وأنهم إذا صدروا فى التشريع عن مذهب معلوم كانت النتيجة انقسامهم حزبين أو أكثر من حزبين.

«كارلوس براتس» صاحب التوجهات المعتدلة والمؤيد للديمقراطية تحت ضغوط قطاع من ضباط الجيش ولتجنب انقسام الجيش بين اليمين واليسار. كما ذكر فى خطاب استقالته. وتولى «أوجستو بينوشيه» صاحب التوجهات اليمينية والفاشية المعادية لليسار وللديمقراطية قيادة الجيش.

ومن اللافت للنظر أيضاً فى كتاب «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» أن الرئيس «الليندى» فى آخر خطاب له لشعب تشيلى يوم الانقلاب. وبعد حدوثه. أكد أنه لا حاجة لما أسماه بـ «تضحيات غير ضرورية» فى صفوف الشعب فى إطار مقاومة الانقلاب لأنها. بحسب رأيه. ستكون بلا فائدة أو مقابل، ودعا بالمقابل إلى الاستعداد لمعركة صعبة ونضال متواصل توقع أن يستمر طويلاً. وصدق توقعه. بهدف مقاومة الفاشية وإلحاق الهزيمة بها حتى تعود تشيلى دولة حرة ذات سيادة محبة للسلام وملك لشعبها، ودعا «الليندى» بالتالى إلى وحدة الشعب وقواه الثورية. وقد تنبأ «الليندى» يومها أيضاً بأن شعب تشيلى وشعوب الأمريكتين ستواجه الانقلاب الفاشى وستسقطه وتسقط إرثه يوماً ما.

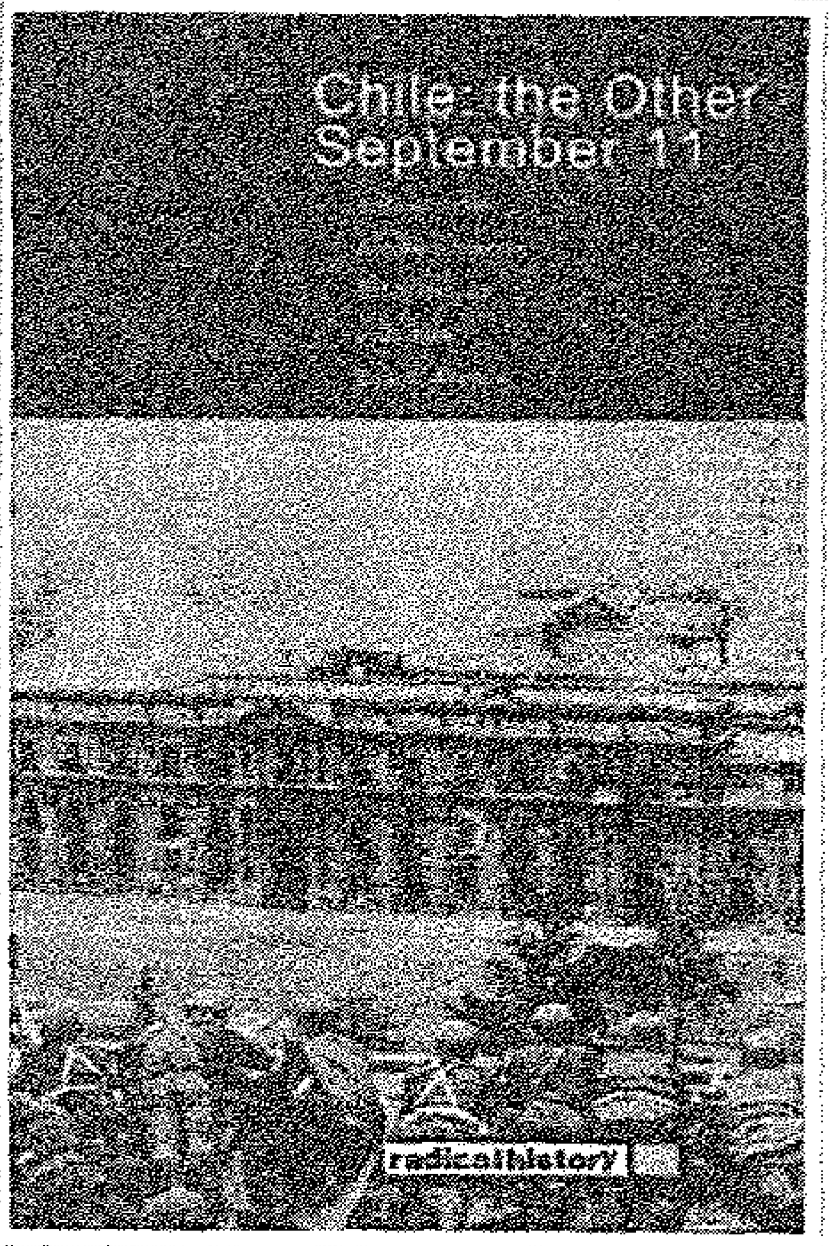
وقد انضمت ميليشيات فاشية محلية فى بعض أحياء الأثرياء بسنتياجو إلى الانقلاب بزيها المدنى وبأسلحتها. ونجد فى الكتاب صورة بالكلمات لجنود الانقلاب وهم يقفون فى شوارع سنتياجو والمدن التشيلية الأخرى لإجبار المواطنين على الاصطفاف فى طوابير طويلة أمام المخابز للحصول على حصص محددة من الخبز ويتوعدون من يتذمر على ذلك، وتم تهديد الجماهير بأن عليها ضرورة الاختفاء من الشوارع وإلا تعرضوا للقتل فى ظل حظر للتجول. ويروى الكتاب أيام الخوف التى عاشها التشيليون وهم لا يعرفون حقيقة ما حدث لمن اختفى أو اعتقل من أهلهم أو رفاقهم فى الدراسة والعمل. كما نشاهد فى موضع آخر بالكتاب مشهد آخر لاقتحام الدبابات للحرم الجامعى فى سنتياجو وتحويله إلى حمام دم وتدمير معامل ومكتبات الجامعة واعتقال أساتذة وطلاب الجامعة بتهمة «التطرف» وضربهم بالنعال والإلقاء بهم على الأرض والزج بهم إلى معسكرات الاعتقال وغرف التعذيب. وفى تلك اللحظة، كان الانقلابيون قد استولوا على كافة محطات الإرسال المستقلة التابعة للجامعات وقاموا بتدميرها. وتحول استاد سنتياجو إلى معسكر اعتقال كبير ارتكبت فيه فظائع بحق المحتجزين هناك وغابت المعلومات وانتشرت الشائعات مما زاد من حالة الغموض والهلع والفزع. ونقرأ فى كتاب «تشيلى: ١١ سبتمبر الآخر» شهادات هامة حول ما كان يحدث فى استاد سنتياجو من جرائم قبل السماح لممثلى الصليب الأحمر ومنظمة العفو الدولية والسفارات الأجنبية بزيارة المكان. فكان هناك ضرب الطلقات الحية فوق رءوس المحتجزين، ثم فى صدور من جرأوا على ترديد الأغانى المؤيدة لحكومة الوحدة الشعبية، ودفع ذلك البعض هناك للانتحار والبعض الآخر لمحاولة الهرب وهو يعلم أن مصيره هو القتل برصاص جنود الانقلاب. ونجد أيضاً مشهد اقتحام منزل الشاعر الكبير «بابلو نيرودا» الذى كان يعانى من المرض، وتم تدمير وإحراق مكتبة الشاعر الكبير، ثم إحراق المنزل بأكمله. ولكن ذلك لم يمنع الشاعر الراحل من كتابة آخر أوراقه قبل وفاته التى اتهم فيها الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» بالمسئولية عما حدث لشعب تشيلى.

ومن ناحية أخرى، يروى لنا الكتاب قيام الانقلابيين بوضع آلاف الجثث لضحاياهم فى مقابر جماعية غير معروف من بداخلها بعد إعدامات سريعة بالجملة، وتراصت طوابير من الجثث العارية التى غطت مشرحة سنتياجو، بعضها مقيد اليدين أو القدمين من الأمام أو من الخلف، وبعض الجثث تعرض للركل بأقدام جنود الانقلاب قبل الموت أو بعده، والكثير منها يظهر عليها آثار واضحة للتعذيب. وكانت القوائم المنشورة أمام مشرحة سنتياجو تحدد أرقاماً للبشر ومناطق مقتلهم وما إذا كانوا رجالاً أو نساء دون ذكر أسمائهم. ويصف الكتاب مشهد طوابير البشر الذين يودون الاطمئنان على ذويهم وهم يشاهدون سيارات الجيش وهى تأتى بالمزيد من الجثث وتلقى بها فى المشرحة وتذهب للإتيان بالمزيد منها. وقد تكرر هذا المشهد كثيراً فى تشيلى تحت حكم «بينوشيه».

وفى الختام نقول أنه لئن كانت ظاهرة الانقلابات العسكرية هى ظاهرة شديدة الانتشار فى تاريخ بلدان أمريكا الوسطى والجنوبية منذ حققت هذه البلدان استقلالها السياسى فى أوقات مختلفة من القرنين التاسع عشر والعشرين، فإن التساؤل يطرح نفسه: لماذا إذاً هذا الاهتمام بانقلاب «بينوشيه» فى

تشيلي

١١ سبتمبر الآخر!!



تشيلى بالذات دون بقية الانقلابات الكثيرة فى القارة التى يشار إليها دائماً باعتبارها «الفناء الخلفى» للولايات المتحدة الأمريكية، القوة الكبرى منذ استقلالها فى القرن الثامن عشر وحتى تحولها إلى قوة عظمى عقب نهاية الحرب العالمية الثانية فى منتصف القرن العشرين؟ والتساؤل مشروع بطبيعة الحال، والإجابة عليه متعددة الجوانب ومتشابكة الأبعاد.

ويتصل الجانب الأول بأن انقلاب «بينوشيه» تم فى أوج المواجهة بين الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى فى زمن الحرب الباردة. وجاء الانقلاب فى أعقاب هزيمة أمريكية فى جولة سابقة من المواجهة بين المعسكرين تمثلت فى الحرب الهندية/الباكستانية عام ١٩٧١ والتى أسفرت عن انتصار الهند - حليفة الاتحاد السوفيتى السابق حينذاك - على باكستان التى كانت محسوبة على الغرب، وعلى الأمريكيين على وجه الخصوص.

ويتعلق الجانب الثانى للرد على هذا التساؤل بأنه بالرغم من أن الحكم الذى كان يقوده «الليندى» فى تشيلى وكان ضحية انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ كان يسارياً، فإنه لم يكن شيوعياً طبقاً للتعريف الدقيق للمصطلح، كما أنه كان فى كل الأحوال منتخباً بشكل حر ووفقاً لمعايير الديمقراطية الليبرالية الغربية ولم يسع أبداً لتجميد هذه الديمقراطية أو إلغائها أو الإطاحة بها، بل إنه كان يمارس دوره فى إطارها، ويعمل على إنجاز التحول نحو الاشتراكية بالطرق السلمية والقانونية وفى إطار الشرعية الدستورية السائدة، وهو تحد مزدوج وشديد الصعوبة على كل من حاوله فى الدول المتقدمة والمتخلفة على حد سواء.

أما الجانب الثالث للرد على التساؤل المذكور فى بداية هذه الخاتمة فيرتبط بالمفارقة بين واقع الحال اليوم حيث تملك الإدارة الأمريكية «ترف» انتقاد حكومات، أو حتى التلويح بفرض عقوبات عليها بحجة عدم احترامها للتقاليد الديمقراطية الغربية، وبين المشهد السياسى التشيلى وقت وعقب وقوع انقلاب ١١ سبتمبر ١٩٧٣ عندما كانت الأولوية للإدارة الأمريكية - وبالرغم من كافة الشعارات المعلنة عن الحرية والديمقراطية - لاعتبار واحد هو: من يخدم المصالح الأمريكية أكثر، ديمقراطياً كان أم فاشياً، مدنياً كان أم عسكرياً، حتى ولو اقتضى الأمر - كما حدث بالفعل كثيراً - دعم الولايات المتحدة لنظم حكم غاية فى الرجعية أو أخرى غاية فى ممارسة القمع السياسى أو الاضطهاد الدينى، وذلك فى سبيل هدف واحد طغى على ما عداه فى معادلة حساب التوازنات الكونية الأمريكية، ألا وهو مواجهة «الخطر السوفيتى الشيوعى» والتصدى له واحتواؤه ومحاولة الحاق الهزيمة به فى أكبر عدد ممكن من المعارك الإقليمية والدولية.

وأخيراً، فقد صدرت كتب عديدة وأعمال فنية وأدبية بمختلف اللغات تناولت ما حدث فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣، كان من أوائلها كتاب «الثورة المضادة فى تشيلى» باللغة العربية للأستاذ «مجدى نصيف» عن دار الثقافة الجديدة بالقاهرة فى سبعينيات القرن الماضى، وكان من أواخرها كتاب صدر فى نوفمبر ٢٠٠٣ بالولايات المتحدة حول سجل انتهاكات انقلاب «بينوشيه» ونظامه لحقوق الإنسان، مروراً بالعمل السينمائى البارز للمخرج الشهير «كوستا جافراس» عن نفس الموضوع والمعنون MISSING إلا أن السمة الأكثر تميزاً فى الكتاب الذى تناولناه هنا برؤية تحليلية ونقدية هى منظوره الثلاثى الأبعاد الذى جمع فى الإسهامات التى بين دفتيه بين إجراء المقارنة لأوجه التشابه والاختلاف مع أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتتبع الدور الأمريكى فى تشيلى منذ انتخاب «الليندى» وحتى الإطاحة به، والواقع الداخلى فى تشيلى قبل الانقلاب وخلاله وبعده، وذلك من خلال منهاجية متكاملة فى مستويات التناول ومتجانسة فى المحتوى.■

القات
الشجرة الملعونة فى اليمن

يوسف الشريف

كثيراً ما يظهر الرئيس اليمنى على عبدالله صالح على شاشة التليفزيون فى لباسه الرياضى وهو يمارس العدو والسباحة والغوص، ربما وهو يتعامل مع الكمبيوتر والإنترنت، تأكيداً على إقلاعه عن تعاطى القات، وكيف أصبح هكذا موفور الصحة والحيوية والنشاط، لعل الشعب اليمنى يحتذى حذوه، فى إطار الدعاية للمشروع القومى الذى بدأه بنفسه واختار له شعار «يمن بلا قات»!

عن شجرة القات قال رجالات اليمن من السياسيين والعلماء والأدباء والشعراء الكثير من النقد والذم والهجاء، ونهضت جمعيات أهلية عديدة لمواجهة كوارث القات على كل صعيد منذ عام ١٩٩٥، بل خرجت أوائل عام ٢٠٠٣ مظاهرات شعبية ضخمة وغير مسبوقة فى طول البلاد وعرضها، ضمت أكثر من خمسة ملايين يمنى من بين تعداد السكان البالغ ٢٠ مليون مواطن، وتصدرها مختلف ألوان الطيف الرسمى والشعبى، فيما يشبه إعلان حرب المجتمع اليمنى ضد ديكتاتورية القات، ومع ذلك يظل التحرر والانعتاق من لعنة القات أشبه بالأمنيات السعيدة وأحلام اليقظة، حيث لاتزال الشجرة الملعونة تتحدى الجميع، بل تجتذب يومياً المزيد من الضحايا المتيمين بها، رغم ما يتواتر عن مضارها كونها تذهب بالعقول والجيوب، وتفتك بالصحة العامة، وتهدر الوقت والدخل القومى والخاص!

وتعجب للشعب اليمنى الباسل كيف خاض الثورات والانتفاضات بإرادته الصلبة تباعاً، ونجح فى التحرر من حكم أئمة آل حميد الدين البغيض فى الشمال والاستعمار البريطانى فى الجنوب، حتى قوض أسوار عزلته عن العالم التى امتدت قروناً، وشرع فى استعادة الوصال بموروثاته الحضارية، وكيف حقق معجزة الوحدة اليمنية وعض عليها بالنواجز حين داهمتها المؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤، ثم يزداد العجب لأنه نفس الشعب الذى يكابد الاستسلام والخضوع الطوعى لسلطان القات!

كنت فى اليمن إثر اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، وفجأة أوشك نجمها الساطع على الأفول، حين انبرى الرئيس عبد الله السلال يندد بلعنة القات، ويدعو اليمنيين إلى الإقلاع عن تعاطيه، ويتوعد باقتلاع أشجاره، فلما أدرك أنه يسبح ضد التيار سكت عن الكلام المباح!

فى عام ١٩٧٢ عاد الأستاذ محسن العينى رئيس الحكومة اليمنية آنذاك إلى تأجيج الحرب ضد القات عبر أسلوب مختلف، لجأ أولاً للقاضى عبد الرحمن الإيريانى رئيس المجلس الجمهورى، وهو كان شخصية تاريخية بارزة ومرجعية دينية موضع احترام الجميع، وأقنعه بإصدار فتوى تؤكد أن القات مكروه شرعاً،



لم يعدم محسن العينى الوسيلة لمواصلة الحرب على القات، جلب من مصر شحنة من الصناديق تحتوى على كم هائل من دودة القطن التى تفتك بمحصولها القومى، ثم كلف من يسربها فى الخفاء إلى بعض مزارع القات، لعلها وعساها تلعب دوراً قومياً فى القضاء على أشجاره الملعونة

بالنظر لمضاره العديدة، فى الوقت الذى صدر قرار العينى باقتلاع أشجار القات المزروعة فى الأراضى المملوكة للدولة أو التابعة للأوقاف، بدعوى عدم مشروعية الصرف من ريعها على إيواء الأيتام وتعمير المساجد!

لكن أحداً من أصحاب مزارع القات لم يأبه لهذه المبادرات ولا اقتلع أشجاره، ووجدوا من بين رجال الدين من يفتيهم فى المقابل بمشروعية زراعة وبيع وشراء القات والاستمتاع بتخزينه عن قناعة وياطمئنان!

لم يعدم محسن العينى الوسيلة لمواصلة الحرب على القات، جلب من مصر شحنة من الصناديق تحتوى على كم هائل من دودة القطن التى تفتك بمحصولها القومى، ثم كلف من يسربها فى الخفاء إلى بعض مزارع القات، لعلها وعساها تلعب دوراً قومياً فى القضاء على أشجاره الملعونة، ولابد أنها سوف تزحف وتلتهم أوراقها، بل وقدر أن تبيض وتفرخ الملايين، وبعدها سوف تنتشر فى غيرها من مزارع القات وتعريتها بالتالى من أوراقها، إيذاناً بالنهاية المحتومة لهذا الداء الوبيل!

وعلى ما يبدو أن دودة القطن المصرى . على حد سخريات أهل اليمن . رفضت التدخل فيما لا يعنيها، ومن ثم امتنعت عن تنغيص المزاج اليمنى، وربما راق لها القات واستحلبته هنيئاً مريئاً كما لو أنها المعينة فى المثل القائل «جنتك يا عبد المعين تعيننى.. وجدت يا عبد المعين فى حاجة لمن يعينك، بينما لم يصدق على هذه الحالة المثل القائل «وداونى بالتى كانت هى الداء»!

لكن العينى لم يتراجع، دعا الأدباء والشعراء والوعاظ إلى مساندة حملته ضد القات وأجزل لهم العطاء، ومن ثم انبرى أحدهم وهو الشاعر أحمد المعلمى ونظم قصيدة عصماء يندد فيها بالقات مطلعها:

ورأى أن يحارب القات
فالقات بلاء دواؤه غير سهل
إنه سبة علينا وعار
نحن منها ممرغون بوحل
إنه آفة أقل مساويها
مضى ساعات من غير شغل
قاتل للأوقات وهو بلاء
لشباب فينا وشيخ وكهل
نحن نحيا عصر الفضا لم نعد
نحيا بجهل حياة عير وبغل
قد غزا عصرنا الكواكب بينما
بعضنا فيه ماشياً دون نعل

فلما سمع محسن العينى القصيدة أعجب بها، وكاد يعمم تداولها فى أجهزة الإعلام، لكنه تراجع عندما عرف أن الشاعر كتبها وهو يخزن القات وألقاها فى أحد مجالس «تقويت» القات!

هكذا تأزمت العلاقة كما لو أنها الثأر بين محسن العينى ومافيا القات، حتى نال شرف وصفه بـ «العدو الأول للقات»، إثر قوله مؤخراً فى حديث صحفى «لا يمكن أن نبقى تنابلة السلطان.. نُخزن

ونوسوس، نحلم ونتواكل ونكسل.. ونمد أيدينا للغير، يقيمون لنا المدارس والمستشفيات، ويقدمون لنا الطعام، وينشئون المصانع ويستصلحون الأرض، ويفتحون لنا الجامعات ويقدمون المنح الدراسية لأولادنا و.. كأننا قرة عين الزمان»!

على أنه في حوار معه عبر الفضائية اليمنية، استدرك وقع الصدمة في موقفه من القات، وقال إن اليمنيين كانوا في الماضي لا يداومون التخزين كما هو حالهم اليوم، إذ كانوا بين حين وآخر يخزنون بعضاً من أوراقه، ثم استطرد قائلاً «صحيح أن مجالس القات متنفس للحوار ومبعث للمسرات، إلا أنها باتت ظاهرة خطيرة، خاصة أن الشباب والأطفال راحوا ينضمون تباعاً إلى جموع المخزنين، ومن هنا استشعاري للخطر الذي يهدد حاضر اليمن ومستقبله» ولعله أقل وأدل على مصداقية وضرورات تجسيد شعار الحملة القومية «يمن بلا قات»!

القات مع أبرهة الحبشي:

القات مصدره أفريقيا، واسمه في الصومال «تشات»، وفي كينيا له عدة أسماء بحسب أنواعه.. «ميراء.. كات.. ميرانجي.. ليس.. طمايات.. ميلونجي.. ماونج، وفي يوغندا يعرف بـ «موستات»، وفي الحبشة ومنها دخل اليمن في ركاب أبرهة وهو في طريقه لهدم الكعبة يسميه الأثيوبيون تيج أو تدج، وقد اكتشف الإمام شرف الدين القات في اليمن على حد رواية بعض المؤرخين، بينما يؤكد البعض الآخر أن الرعاة لاحظوا كم تنتشي أغنامهم كلما اقتاتت من أشجار برية معينة، فلما مضغوا واستحلبوا أوراق تلك الأشجار أدركوا سرها، ومن ثم ذاع صيتها وراح اليمنيون يقبلون على زراعتها وتعاطي أوراقها جيلاً إثر جيل، ومن المؤسف حقاً أن يقتلعوا أشجار البن اليمني الفاخر، وإحلال أشجار القات البغيضة مكانها!

والشاهد أن شهرة البن اليمني طبقت الآفاق منذ قرون مضت إلى حد صدور عشرات الكتب التي تتغنى بأوصافه وشمائله بلغات العالم، وبينها «كل شيء عن البن» الصادر عام ١٩٣٥ لمؤلفه ويليام إيكرز.. يقول: لعدة أجيال ظل «بن المخا» . نسبة إلى تصديره للخارج عبر ميناء المخا . متميزاً عن كل بن العالم بنكهته الحارة وعطره وقليل من حموضته المستحبة، ويقول كيفن نوكس في كتابه «مبادئ البن» الصادر عام ١٩٥٧ «احتساء فنجان واحد من بن المخا يغنيك عن مذاق كل أنواع البن»، ويقول جون ثورن في مؤلفه «كتاب البن» إن بن اليمن له طعم النبيذ المعتق برائحة العطر، وفي معرض البن السنوي الذي أقيم في سان فرانسيسكو في ١٤ أبريل عام ٢٠٠٠، كانت النشرة الصادرة عن أكبر شركة لتوزيع البن في العالم تقول: نحن نتفرد بالتعامل الحضاري منذ ستين عاماً مع بن المخا. فهو أفضل بن على الإطلاق، إذ يتميز بنكهة الفاكهة والبهارات وطعم الشيكولاته وأريج عطري فريد».

والمشكلة أن زراعات القات كما العملة الرديئة التي تطرد العملة الجيدة من السوق، حيث بلغت مساحاته المزروعة زهاء ٣٧٪ من الأراضي الخصبة، وتؤكد نتائج الإحصاء الزراعي أن هذه المساحة كانت ٨٠٠٠ هكتار عام ١٩٧٠ وزادت بنهاية عام ٢٠٠٠ نحو ١٠٢,٩٣٤ هكتاراً، أي أن نسبة التوسع في زراعة القات بلغت ١١,٨٧٪، ومعظم هذه الأراضي كانت تزرع بالبن وشتى أنواع البقول والفاكهة، بينما يقدر عدد مزارع القات بحوالي ١٨٠ ألف مزرعة، موزعة بين أكثر المناطق ارتفاعاً ما بين ٨٠٠ إلى ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر، ومعظمها في محافظات صنعاء وحجة والمحاديت وإب وتعز والبيضا وعمران والضالع.

مشكلة ثانية وتتعلق بالسحب المتواصل للمياه الجوفية واستخدامها في ري أشجار القات بنحو ٨٣٠ مليون متر مكعب سنوياً، وفي شربها كذلك خلال عملية تخزين ومضغ القات، مما يؤدي بالضرورة إلى جفاف وملوحة الآبار الجوفية، والتهديد باستنزاف الاحتياطي الاستراتيجي من المياه، وفاقم من خطورة التفريط في الثروة المائية، زيادة حفر الآبار عشوائياً، خاصة أن البنوك تتبارى في مد المزارعين بقروض ميسرة لشراء معدات الحفر والضخ!

المشكلة الأخرى وتكمن في انعكاسات «القات» السلبية على العلاقات الاجتماعية حيث يلتهم شراء القات بين ٣٠ إلى ٥٠٪ من ميزانية الأسرة، بينما تتراوح نسبة المتعاطين بين الذكور من ٧٥ إلى ٨٥٪، وما بين ٣٥ إلى ٤٥٪ بين الإناث، ويرصد بحث أكاديمي ميداني قيمة ما يستهلكه اليمنيون سنوياً على شراء القات زهاء مليارين ونصف المليار دولار بما يفوق ميزانية الدولة، والأدهى والأمر يتمثل في ظواهر الانحراف الأخلاقي، عبر تفشي حوادث الرشوة والاختلاس بين الموظفين محدودي الدخل لشراء ما يلزمهم من القات وارتياد مجالسه كمظهر للتفاخر والتواصل الاجتماعي مع الأصدقاء، وقد يتعثر الزوج عن الوفاء بمتطلبات أسرته والقات، وعندئذ قد يضغط على زوجته كي تبيع مصاغها ويحدث الشجار الذي يؤدي في النهاية إلى الطلاق!

على أن القات فجّر في السنوات الأخيرة مصيبة كبرى، حين استخدم المزارعون أصنافاً مغشوشة من المبيدات الحشرية والأسمدة العضوية لأول مرة لتسريع نمو أشجاره والإكثار من أوراقه، مما أدى لزيادة أرباحهم بشكل غير مسبوق، حتى انكشف مصدر انتاجها في إسرائيل رغم منع استخدامها دولياً، مثل الـ د.د.تي والتوباز والديوكسين والسماد الحديدي، مما أدى إلى تصاعد نسبة مرضى السرطان والفشل الكلوي، خاصة في مناطق زراعة القات مثل إب وماويه وشرعب وهمدان وجبل حبر، وهكذا أضيفت أمراض جديدة إلى جملة الأمراض المعروفة للقات، وبينها التليف الكبدي وتشوهات الأجنة وزيادة التوتر العصبي والمغص والإسهال والصداع والضعف الجنسي والجفاف العاطفي بين المتزوجين، إلى غير ذلك من الإصابة بجلطة المخ لدى المصابين بتصلب الشرايين، واحتمال الإصابة بالبواسير والقلق والاضطرابات النفسية والعصبية، وتكسير الدهون وزيادة ضربات القلب والعقم، فضلاً عن تصاعد معدلات حوادث السيارات والسرقات والنهب المسلح!

على ما يبدو أن دودة القطن المصري. على حد سخريات أهل اليمن. رفضت التدخل فيما لا يعنيها، ومن ثم امتنعت عن تنغيص المزاج اليمني، وربما راق لها القات واستحلبته هنيئاً

دحض الشبهات حول القات:

إذا كان اليمنيون يدركون إلى أي حد مساوئ ومفاسد ومضار القات الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والصحية والنفسية.. فلماذا إذن كل هذا الإسراف في تعاطيه؟ ولماذا يضيعون نحو ٢٠ مليون ساعة يومياً في ممارسة هذه العادة المرذولة بلا طائل من العمل والإنتاج أو الإبداع؟ لماذا وتعاطي القات يمكن الإقلاع عنه بسهولة إذا ما توافرت الرغبة والإرادة.. خاصة أن القات منبه لا يفضي للإدمان كما هو الحال مع المخدرات النباتية والمصنعة؟

لابد أن وراءه إذن سراً لا يدرك وسحراً طاغياً يستبد بالأفئدة والعقول والجيوب، فهل تراه كذلك؟

الإجابة دائماً يختلف حولها أهل اليمن وعلى النقيض، بين فريق لا يجد في القات سوى الضياع والهلاك، وبين من يراه كذلك ولكن يظل أقل خطراً من الانزلاق إلى هاوية المخدرات، والدليل على ذلك أن أجهزة الأمن في مصر نجحت إلى حد كبير في إغلاق منافذ تهريب الحشيش اللبناني، فكانت النتيجة أكثر وبالاً بعد انتشار شم بودرة الهيروين والكوكايين الأخف وزناً والأكثر ربحاً والأفدح خطراً، حيث الشفاء من إدمانها يحتاج إلى وقت طويل وكلفة باهظة، إلى ذلك يضيف أصحاب هذا الرأي الإشارة إلى أن زراعة وتجارة ونقل وبيع القات يستوعب ما يزيد على مليون مواطن من العاملين في هذه المجالات، فكيف يجوز في حالة منع القات، إضافة هذا العدد إلى نحو مليوني عاطل في اليمن بلا عمل!

يقول الشاعر اليمني الكبير إبراهيم الحضراني وهو من خصوم القات:

قف معي يامن تخاف الأزمات
نضرب القات بسوط اللعنات
ما رأينا مثله ضرراً
ينزل السوء بمجد العائلات
يقتل الإنسان مستقبله
عندما يألف تدخيناً وقات

ويقول الشاعر السوري سليمان العيسى بعد أن جرب تخزين القات وعاش أجواء مجالسه:

سم به وطن الأحرار يقتات
سم يدمر من عاشوا ومن ماتوا
متى ستنفض عنك الداء يا بلدي
متى سيعدم هذا المجرم القات

لكن هناك ممن يطيب له تخزين القات، لا يصدق ولا يريد أن يصدق ما يتردد عن أضراره، كما لا يرى ثمة طعماً للحياة ولا جدوى لها بدونه، ثم إن تخزين القات مسئولية متعاطيه، ولا دخل للدولة أو المجتمع بالحريات الشخصية! بل إنني سمعت من الشيخ عبدالله الأحمر شيخ مشايخ قبيلة حاشد ورمز القبيلة المستنيرة في اليمن، إضافة لكونه رئيس مجلس النواب ما يتفق مع هذا الرأي، إذ يرى أن لكل شعب مزاجاً خاصاً يروح به عن همومه ومتاعبه ويمنحه الشعور بالسعادة والراحة، ومن هنا راق القات مزاجاً خاصاً لليمنيين دون غيره من المسكرات أو المغيبات، ولعله يفسر لماذا

يزرع اللبنانيون الحشيش بينما يدخنه غيرهم مثل المصريين.

حتى فقهاء الإسلام فى اليمن يختلفون أو يجتهدون حول مشروعية القات من عدمه، ومن المعروف أن الإمام شرف الدين كان قد أفتى عام ٩٥٠ هجرية بتحريم القات، مما أثار عليه حفيظة الفقهاء والمتصوفين والشعراء الذين انبروا للدفاع عن القات، مما دفعه إلى تحليل ما سبق وحرمه. ومنذ ذلك الحين صار القات قضية دينية وسياسية واجتماعية محل خلاف، وصدرت بشأنه عشرات الكتب التى وضعها علماء اليمن، وبينها «تحذير الثقات من استعمال القات» للعلامة ابن حجر الهيثمى، و«البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر» للقاضى الشوكانى، و«دحض الشبهات حول القات» للعلامة عبدالله العمودى، وكتاب «ترويح الأوقات فى المناظرة بين القهوة والقات»، كما صدر مؤخراً كتاب «القات فى الأدب اليمنى والفقه الإسلامى»!

ورغم أن الله سبحانه يقول فى قرآنه الكريم «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»، مما يؤكد أن الشريعة مع جلب المصالح ودرء المفاسد، إلا أنه على ما يبدو أن مافيا القات تمارس إرهابها حتى على رجال الدين، وإلا لماذا لم يجمعوا على فتوى تحرم القات رغم الاتفاق على مضاره الجمة؟!

يقول القاضى محمد قاسم الشامى عضو المحكمة العليا «القول بالتحريم أو مقاطعة القات راجع للدولة. فهى التى تقدر المصلحة العامة من خلال الدراسة المستفيضة للمشكلة، والصحيح الذى يجمع عليه جمهور العلماء حول أدلة التحريم الواردة بشأن كل مخدر أو مفتر خاصة فى ضوء ما تواتر عن مضار القات الصحية والاجتماعية والاقتصادية. ولأن البلوى عمت، ولأنه إذا أردت أن تطاع فلا تأمر إذاً بما لا يستطاع، ومن هنا أوضح أن المطلوب والممكن ليس الوعظ والنصيحة فحسب، وإنما شحذ الهمم وبعث الإرادة والإدراك المعرفى بمخاطر القات، وهو الدور الذى يجب أن تلعبه الأجهزة الثقافية والإعلامية والسياسية، بحيث تتوافر القناعة الطوعية بالإقلاع عن القات.

مجالس القات:

فى مجلة «ريدردايجست» الشهرية التى كانت تصدر منها طبعة عربية بعنوان «المختار» إبان الحرب العالمية الثانية، قرأت مقالاً للأثرى المغامر وندل فليبس الذى اكتشف العديد من آثار الحضارة اليمنية فى مأرب، وروى كيف ساعد تخزين القات على التفاهم مع اليمنيين وفهمهم، ويبدو أننى سرت على خطاه ووصلت إلى ما وصل إليه دون أن أدرى، ولا كان فى حياتى إدراك سر عشق أهل اليمن للقات.



وقد تذهب إلى اليمن للعمل أو السياحة وتمتد إقامتك أياماً وأعواماً طوافاً فى ربوعه، لكنك لا تستطيع الحصول على تأشيرة الولوج إلى الشخصية اليمنية، وشهادة معترف بها على توغلك فى دروب العقلية اليمنية والإحاطة بتضاريسها الإنسانية والوجدانية. إن لم يتأت لك خوض تجربة تخزين القات فى الجانب الأيسر من الفم، وهى حركة لا إرادية يصعب استبدالها بالجانب الأيمن (دون أن تدرى لذلك سبباً) وعليك أن تمضغ أوراق القات ببطء وعناية، ثم عليك بعدها أن تعتصره تباعاً وتستحلب رحيقه رويداً رويداً حتى يسترخى بدنك ويصفو مزاجك وتستيقظ مشاعرك وتتحشد حواسك يقظة وتألقاً، وقد تكون محاوراً أو مبدعاً أو مجرد مستمع أو متأملاً وربما هائماً فى ملكوته سبحانه، وربما مناجياً طيف الحبيب المجهول أم المعلوم و.. لله فى خلقه شئون!

ولأن مجالس القات تبدأ فى ساعة القيلولة إثر الفراغ من طعام الغداء، من هنا وصف مجلس القات بـ«المقيل»، وللنساء أيضاً مقيل يسمى فى صنعاء «التفرطه»، و«النشرة» فى الحديدة، و«القيلة» فى تعز وعدن، لكن يظل المقيل الصنعانى بطقوسه الحضارية الأكثر شهرة وإمتاعاً، ولم لا وصنعاء مدينة التاريخ والحضارة وأقدم مدينة فى العالم، واسم صنعاء يشى بمعنى الصناعة والحرفة.. يقول «معجم البلدان» أن صنعاء كناية عن جودة الصنعة فى ذاتها.

القات للجميع:

يصل القات طازجاً لصنعاء فى العاشرة صباحاً إلى حيث بيعه وشرائه فى أسواق «قاع اليهود» و«الملح» و«باب سبح»، والطريف أن يتسلل الموظفون من أعمالهم لشراء القات الجيد قبل نفاده، بينما يتركون على مكاتبهم ما يدل على دوامهم فى العمل مثل شال العمامة أو علبة السجائر أو المسبحة.

نبات القات أنواع وأشكال، بينه الفاخر ذو اللون الأصفر قبل اخضراره، وغير المرشوش منه بالمبيدات الحشرية، هو الذى يقبل الأثرياء وعلية القوم على شرائه مهما غلا ثمنه، ومنه الطويل والقصير العود ويتراوح فى شكله وملمسه بين أوراق الملوخية والجرجير وشجرة «الفيكس» التى تنمو على أسوار الفيلات والقصور فى مصر، ومن أسماء وأنواع القات.. الضلاعى والمطرى والصبرى والهمدانى والحرازى والشامى والمغربى والبخارى والوادى والعصرى.

نحن الآن فى أحد البيوت الصنعانية العريقة، والمقيل أجمل وأهم أركانه، وقد فرش بالسجاد أو البسط الملونة، وتناثرت الحشيات الوثيرة حول أضلاعه المستطيلة بارتفاع ٣٠ سنتيمتراً، وقد غطيت كذلك بالسجاد الناعم وفى جنباتها «مساند» للظهر وكذلك «المتكئات» لراحة الذراعين، وعادة ما يتسع المقيل لعشرة أشخاص فى المتوسط، وربما المئات كما هو حال المقيل فى قصور مشايخ القبائل، ودائماً ما يتوسط المقيل مداعة أى «نرجيلة» وربما عدة مداعات من النحاس المشغول تمتد منها «الليات» جمع «لى» إلى شفاه المخزنين إن شاءوا تدخين التمباك المشتعل، فيما يحرص صاحب المقيل على أن يوفر عبوات الماء المعدنية وزجاجات المشروبات الغازية!

يلتهم شراء القات بين ٣٠ إلى ٥٠٪ من ميزانية الأسرة، بينما تتراوح نسبة المتعاطين بين الذكور ٧٥ إلى ٨٥٪، وما بين ٣٥ إلى ٤٥٪ بين الإناث

يحتل المقيل فى الغالب أجمل وأعلى مكان فى البيت الصنعانى وعندئذ يسمى «المفرج»، كونه يوفر الرؤية البانورامية التى تحيط بالعاصمة وعماراتها الحضارية!

لكل مقيل هوية اجتماعية أو ثقافية أو سياسية، كما أن للأحزاب والنقابات والجمعيات مقايل خاصة، وإلى وقت قريب كان لكل وزارة ومؤسسة حكومية مقيل خاص، حتى صدر قرار رئيس الجمهورية بتحريم تعاطى القات على الموظفين والشرطة والجيش خلال فترات الدوام سواء فى دواوين الحكومة أو المعسكرات، وقد شهدت صنعاء أوائل السبعينيات ظاهرة المقايل السرية التى كانت تضم عناصر الحركات الوطنية واليسارية إبان كان المقدم محمد خميسى مديراً للأمن العام، لكن مع بزوغ فجر الوحدة اليمنية والديمقراطية التعددية السياسية، تلاشت هذه الظاهرة تدريجياً!

يدخل الضيوف إلى المقيل وكل منهم يتأبط حزم القات ملفوفة بالبلاستيك وكانت تلف فى الماضى بأوراق الموز حتى تظل طازجة، يسلم الضيف على من سبقوه فى الحضور باليد أو بإيماءة من رأسه وأحياناً يأخذ مكانه فى المقيل بهدوء حتى لا يقطع على الضيوف حديثهم، وعندئذ ينبرى أحدهم قائلاً: «حيا الله من جاء»!

يبدأ الضيف فى تنقية أوراق القات من الشوائب وينتخب الصالح منها للمضغ تباعاً، حتى ينتفخ خده الأيسر، بعدها تبدأ عملية المضغ والاستحلاب، وخلالها يتبادل الحاضرون أعواد القات من باب تنويع المذاق وجلباً للمودة.. ويستمر الحال هكذا فى أحاديث جانبية أو ثنائية إلى حين وصول الجميع إلى ذروة النشوة والحيوية، وعندئذ يدق صاحب المقيل أو كبير المخزنين ويعلن اختيار موضوع الساعة الأنسب للحوار حوله، وأشهد أن الجميع ينالون دوماً حظوظهم من الحوار الديمقراطى الخلاق بالعدل والقسطاس مهما تدنى الوضع الطبقى أو الوظيفى!

من أشهر المقايل الثقافية حتى سنوات قريبة فى صنعاء، تلك التى كان

يتصدرها الشاعر اليمنى الفحل عبدالله البردونى، ورغم أنه كان ضريراً يرحمه الله، إلا أنه كان موسوعى الثقافة، محيطاً بأمهات الكتب قديمها وحديثها، وهو كان راوية وفناناً وناقداً وساخراً، وكم أسمع أصدقاءه وحوارييه العجب العجاب من نوادر وحكاوى العصر العباسى وربما ذكرياته عن أئمة بيت حميد الدين الذين حكموا اليمن زهاء ١٥٠ عاماً داخل أسوار العزلة، فلا سمع الشعب اليمنى عن الحرب العالمية الأولى ولا الثانية!

على أن أرقى مقايل صنعاء الآن، ذلك الذى يتزعمه الدكتور عبدالعزيز المقالح وهو كان مديراً لجامعة صنعاء والآن مديراً لمركز الدراسات اليمنية، وهو شاعر عظيم وشخصية لامعة وإنسان ودود. وهذا المقيل بمثابة مدرسة أدبية وندوة سياسية يومية، وأعتقد أنه لا غنى عنه لمن يتردد على اليمن لفهم أوضاعه وشواغله على كل صعيد، والتعرف على نجومه الواعدة فى الشعر والقصة والغناء والموسيقى.

وأحياناً ما يستضيف المقيل اليمنى مطرباً أو منشداً أو عازفاً، وقد تعجب حين ينهض رجلان ويندمجان برشاقة فى حلقة للرقص الشعبى لا تتجاوز مساحتها مترين مربعين، وقد تعجب أكثر عندما تعرف أن الغناء والرقص عنصر أساسى فى مباهج مقايل الجنس اللطيف، إلى جانب الدور الذى تلعبه فى اختيار الأمهات زوجات لأبنائهن من بين المخزنات، واستعراض آخر موضات الأزياء والروائح العطرية الشعبية والبارفانات الفرنسية وأنواع الحلى الفضية والذهبية والماسية، بل إن الفرصة سانحة أيضاً للبيع والشراء فى هذه الكماليات!

لكن تظل الشائعات أبدع ما يتردد فى المقايل الصنعائية، وعبرها يمارس اليمنيون ذكاءهم الحاد وسخرياتهم من مساخر الحياة، وهى عادة قديمة تحدث عنها المؤرخ الكبير أبوالحسن الهمدانى فى مؤلفاته التى يرجع تاريخها قبيل ألف عام حين قال: «ما رأيت كأهل صنعاء يرجفون على أنفسهم»!

أذكر أن إطلاق وترويج الشائعات كان أخطر وقعاً وانعكاساً على أمن القوات المصرية فى اليمن، عبر عملاء الإمام البدر المخلوع والرجعية العربية والاستعمار البريطانى فى عدن، فكانوا ينتشرون فى المقايل، ويبثون ألوان الكراهية والتشويه للدور المصرى القومى النبيل، فلم يكن بوسع القيادة العسكرية المصرية فى اليمن سوى النسج على منوالهم، وشن الحرب النفسية ضد خصوم الثورة اليمنية عبر ترويج الشائعات المحبوكة فى المقايل!

ولأن لتخزين القات أوقاتاً، لذلك ينتهى المشهد الافتتاحى للمقيل الصنعانى حين يبلغ المتعاطون ذروة المضغ والاستحلاب، ليبدأ المشهد الثانى بغياب ضوء الشمس وهو ينعكس إلى داخل المقيل ويضفى لمساته الشاعرية على المقيل وعلى المقيلين عبر زجاج النوافذ التى تجمع بين ألوان الطيف، إيذاناً بحلول «الساعة السليمانية» التى يبلغ فيها الضيف ذروة النشوة والابتهاج والراحة النفسية، وهى أسطورة موروثة تدعى أن سيدنا سليمان كان يتعاطى القات، بعدها تضاء المصابيح وينفض السامر، ليبدأ المخزن فى إفراغ فمه من بقايا القات، وفسخ العلاقة مع تأثيره المنبه قبل أن يحل به الكسل والفتور عبر احتساء مشروب مركز من الشاى أو قشر البن و...

هكذا يعود متعاطى القات إلى منزله كسولاً بعد زهاء خمس ساعات استهلكها فى شرائه وتخزينه، وبدلاً من مداعبة زوجته ومتابعة أحوال أولاده وتحصيلهم الدراسى، إذا به يتجه مباشرة للنوم والتفكير فى دورة القات العبثية فى الغد!

إن المشكلة على حد إجماع العلماء والأطباء والمثقفين فى اليمن ممن لا يتعاطون القات، تحتاج إلى علاج غير تقليدى وحلول خلاقة مبتكرة، خاصة بعدما تأكد فشل القانون والقدوة الحسنة والتهديد بقلع أشجاره أو تسريب دود القطن إلى مزارع القات، البعض يقترح تغيير مواعيد العمل الرسمى فى مؤسسات الدولة بحيث تستوعب أوقات تخزين القات، وهناك من يرى الحل فى خلق بدائل للترفيه عبر زيادة الأندية الرياضية والمسارح ودور السينما والمتنزهات والمكتبات، أو عدم ترقية الموظفين المتعاطين للقات و...

فى كل الأحوال يظل أهل اليمن ولاشك أدرى بشعابه وأقدر على الوصول بالمشكلة إلى مرافئ العقلانية والأمان، ونحسب أن تبديد الأوهام والأكاذيب السعيدة التى تروج للقات وفوائده وجدواه إنما هى البداية السليمة، ولعل فى مقدمتها ما يُشاع عن إصابة كل من يمتنع عن تعاطى القات بمرض نفسى وهمى ما أنزل الله به من سلطان ويدعى «الازم»، إلى حد الاعتقاد أن وضع «الجنبية» أو الحذاء تحت الرأس أثناء النوم، يفضى إلى طرد كوابيس الأحلام المزعجة والشفاء تدريجياً من مرض الازم!

كتاب الزاوية

أحمد لطفى السيد

الانتماء الحزبى

على أن الحزب فى كل مجلس يجب أن يكون له قائد يقوده ويجب على كل عضو أن يضحى دائمًا رأيه لرأى حزبه كما قال أحد النواب فى أمة من الأمم المتمدنة: (سمعت فى المجلس خطابات كثيرة بعضها غير اعتقادى ولم تغير واحدة منها صوتى) فإذا كان كل نائب يريد أن يكون هو قائد حزبه فلا حزب ولا قيادة.

نوابنا - إليكم ألقت الأمة مقاليدها فألقوا مقاليدكم إلى قادتكم. وليكن تخيركم للمذهب الذى تسيرون عليه فى التشريع بعد الفكرة والروية. إنه لا يطعن على النائب أن لا يكون هو قائد الفكرة التى تربطه بأصحابه ولا يطعن عليه أنه ليس الخطيب المفوه الذى يقف كل يوم فى منبر الخطابة ليدافع عن آراء حزبه. ولكن يطعن عليه كل الطعن، أن يسلم مقاليد آرائه للصدفة أو أن يغلبه حب الشهوة على حب مصلحة البلاد.

نوابنا - إن الحكم على كفاءة الأمة المصرية للحكم الذاتى موقوفاً على ما تبدونه من أصالة الرأى والاستقلال وحسن التقدير فيما بأيديكم من مصلحة الأمة والجرأة فى انتقاد أعمال الحكومة، وعدم المبالاة فى تقدير الحق والنافع.

نوابنا - إن أمة اليوم ليست هى أمة الأمس - فقد شهدتم بأنفسكم حركة الانتخاب. وعلمتم عن قرب أن عوامل الحركة الانتخابية ليست هى عواملها القديمة وأن نتيجتها الباهرة بانتخابكم أكبر دليل على أن أطماع الأمة قد تغيرت ومطالبها من نوابها قد تضاعفت. لا تكلفكم الأمة فوق المستطاع ولا صرف النظر بالمرة عن الظروف المحيطة بالبلاد. ولكنها تطلب إليكم أن تؤيدوا الحرية بكل معانيها فإنها إليها أحوج ما تكون.

الكوارث... عبر

فتح الله الشيخ

«يأتي تهديد البقاء للجنس البشري من الجنس البشري نفسه، من سوء توظيف التكنولوجيا للأغراض الشيطانية والأنانية وولع الإنسان بالأذى والشر الذي هو أخطر عليه من الزلازل وثورات البراكين والعواصف والفيضانات وموجات الجفاف والفيروسات والميكروبات»

آرنولد توينبي «خيار الحياة»

مقدمة:

تحدق بالإنسان أخطار لا حصر لها، بعضها نادر الحدوث ضعيف الاحتمال، مثل اصطدام نيزك أو شهاب بكوكب الأرض أو انفجار مستعر أعظم[1] بالجوار، والبعض الآخر شائع «مألوف» نراه حولنا في كل مكان مثل حوادث الطرق ونزلات البرد. وبين هذه وتلك تتفاوت فرص حدوث آلاف الأخطار والكوارث الماثلة والمعروفة. وتحتجب خلف المجهول أعداد لا يعلمها إلا الله من أخطار وكوارث غير معروفة أو «مألوفة»، لكنها متوقعة. كما عودنا تاريخ الإنسانية مثل ما حدث مع الفيروس المسبب لأعراض نقص المناعة المكتسبة «الإيدز» وفيروس مرض الالتهاب الرئوي اللانمطي «سارس». ويسجل التاريخ سلسلة من الكوارث والأخطار التي تعرضت لها البشرية من كل نوع وبكل المقاييس. ونظرا لطول الفترة التي يحتفظ التاريخ فيها بسجلاته عن الكوارث والأخطار، وللظروف المتغيرة بوتيرة متسارعة، فإن الحديث عن التوقعات والاحتمالات، وعن طرق درء الأخطار الناجمة عن الكوارث بأنواعها أصبح ملحا وممكنا، بل واجباً تفرضه الحضارة الحديثة وعقائد الحفاظ على البشرية وإنجازاتها.

وتنقسم الكوارث والأخطار مبدئيا إلى طبيعية، تقع على الإنسان دون تدخل منه أو دون أن يتسبب فيها مباشرة مثل الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات وموجات الجفاف وصدمات الشهب والكويكبات، وأخرى من صنع الإنسان بدءاً من الشجار والأذى النفسي في علاقات الناس ببعضهم في الأسرة والعمل والزواج والصداقة، وانتهاءً بالحروب عظيمها وصغيرها. وأخطار التقدم التكنولوجي المهول، والتلوث الشامل للمحيط الحيوي[2] لكوكب الأرض، ومروراً بكارثة خاصة ومميزة للجنس البشري فقط وهي أنظمة الحكم الدكتاتورية الشمولية التي حصدت من أرواحهم مئات الملايين.

ومقدمة أخرى

كانت هذه مقدمة لا بد منها للدخول في موضوع الكوارث والأخطار، غير أنها لا تكتمل إذا لم نظهر امتناننا واعترافنا بالجميل لسلسلة من الكوارث الطبيعية الرهيبة الخارقة التي أدت في نهاية الأمر إلى تسيد جنس الإنسان العاقل على كوكب الأرض بمن وما عليه من كائنات. فكوننا الذي نعرفه، نراه ونختبره ونحاول السفر عبره. قد نشأ في «كارثة» مهولة هي ما يعرف بالانفجار الرهيب أو «بيج بانج Big Bang»[3] منذ حوالي ١٣ بليون سنة (البليون = ألف مليون). و«كارثة» أخرى تكونت بها المجموعة الشمسية، وهي كارثة تتكرر في جميع أرجاء الكون بين حين وآخر في المجرات المختلفة. انفجار «مستعر أعظم Supernova» منذ ٤.٥ بليون سنة، الأمر الذي نشأ عنه نجمنا العظيم وأسرته من الكواكب، الشمس ومجموعتها من التوابع الطبيعية. أما الكارثة الثالثة فقد كانت اصطدام نيزك أو شهاب بكوكب الأرض منذ ما يقرب من ٦٥ مليون سنة، الأمر الذي قضى على الديناصورات وأنهى العصر الطباشيري[4] وأتاح أفضل الظروف لازدهار وتشعب الثدييات التي ورثت سيادة كوكب الأرض بعد انقراض الديناصورات. وقد تُوِّجت هذه السيادة بظهور الإنسان، الذي واجه تحديات كارثة رابعة. هي انحسار الغابات ونزوله للصيد بعد أن كان جامعا للثمار فقط في الغابات وعلى الأشجار، منذ حوالي مليونين ونصف المليون من السنين.

حدث الانفجار الهائل ثم تكونت المجموعة الشمسية وانقرضت الديناصورات بعد مدة ثم انحسرت الغابات واحترف الإنسان الصيد، وانتهت سلسلة الكوارث العظمى بالسيادة شبه المطلقة للإنسان على كوكب الأرض بمن وما عليه. دخلت البشرية بعد ذلك في سلسلة من العصور. الحجري بأقسامه ثم البرونزي فالحديدي. وتوالت الموجات الحضارية. الزراعية فالصناعية فالمعلوماتية والاتصالات وأخيرا موجة العولمة الطاغية. اخترعت البشرية بين هذه العصور الكتابة، في مصر بالذات، وعرفت الاستقرار بعد اختراع الزراعة وتركت حياة الترحال خلف الفرائس باقتناص وتدجين حيوانات الرعي، فتكونت المجتمعات الكبيرة. القرى العظمى والقبائل العظمى. التي تحولت فيما بعد. وفي سياق التطور الطبيعي، إلى أمم ومدن وممالك وإمبراطوريات.

ومع التحول من جمع الثمار إلى الصيد ثم من الصيد إلى الزراعة وحدوث التطور المواكب من قبائل تجوب السهول بحثا عن الفرائس إلى مجتمعات مستقرة وأمم ودول وإمبراطوريات، ظهرت المجتمعات اللاشخصية، أي تلك المجتمعات التي لا يعرف الناس بعضهم بعضا فيها. وقد أصبح مزيد من الوقت متاحا للتأمل والتفكر «والدراسة» بعد الوفرة الكبيرة في الغذاء، فتفرغ الناس بعض الوقت بينما تفرغ بعضهم طول الوقت، فتشكلت البدايات الأولى للحكومات من رؤساء ورموز القبائل والعشائر. وقد اتسمت هذه المجتمعات ببدايات أنماط من السلوك لم تكن معروفة من قبل، لكنها قطعا من الكوارث التي «أبدعها» الإنسان، مثل الكذب والخداع والخيانة والدعارة والشذوذ والرق والحروب والأسر ومعسكرات الاعتقال والتطهير العرقي والمذهبي والإيديولوجي والسجون وتعذيب الإنسان لأخيه الإنسان. وظهرت «كارثة» في غاية الخصوصية» اسمها الزواج لتمنح الأفراد المرتحلين للصيد من أبناء القبيلة شيئا من الاستقرار الأسري، فيعود كل منهم بعد العناء والشقاء إلى زوجة وأبناء تقر بهم عينه، ثم استمرت الفكرة حتى بعد موجة الحضارة الزراعية لتمنح الاستقرار والأمان للمرأة والرجل معا.

وهكذا جاءت «الكوارث» الطبيعية. على قسوتها وهولها في تسلسل تنازلي من الانفجار الهائل الذي بدأ به الكون وحتى انحسار الغابات الذي دفع بالإنسان إلى السهول وتكوين الجماعات «القبائل» واحتراف الصيد، جاءت هذه «الكوارث» بالإنسان سيدا فوق الجميع. لكنه عندما تسيد أتى «بكوارث» من نوع جديد غير طبيعي. كوارث من صنعه، كوارث ضارة مهلكة.

الحاضر..

نظرة عامة

على بعض الأرقام:

إذا حصرنا أعداد الناس الذين أضيروا بشكل مباشر. بدرجات متفاوتة. من الكوارث الطبيعية بين عامي ١٩٩١ و ٢٠٠١ لوجدنا أن ثلث سكان العالم تقريبا (٢.٤بليون) قد تعرضوا مرة واحدة على الأقل لنوع من الأخطار والكوارث الطبيعية (تعرض بعضهم أكثر من مرة). وتتوزع أنواع الكوارث والأخطار تبعا لأعداد من تعرضوا لها كما هو مبين بالشكل (١)، حيث يتضح أن الفيضانات تصيب قرابة الثلثين من أعداد المضارين (٦٤.٠٪) يليها في ذلك موجات الجفاف (!!!)، والتي تصيب ١٩٪، ثم الأعاصير ونصيبها ١٢ ٪ من المضارين. أما الزلازل والبراكين والانهيارات الأرضية والجليدية وحرائق الغابات والأمراض المعدية فكلها لا تصيب أكثر من ٥.٠ ٪ (!!!) من المضارين. وكأن الماء و«سوء» توزيعه بين الفيضانات والجفاف يلعب الدور الرئيسي في الكوارث الطبيعية التي تصيب البشر (٨٣.٠ ٪ من المضارين)، فإذا أضفنا الهواء في صورة الأعاصير لأمكننا القول بأن جيشان الماء والهواء وتحركاتهما الديناميكية المضطربة تصيب ٩٥.٠ ٪ من أعداد المضارين بالكوارث الطبيعية. أما جغرافياً (الشكل ٢) فإن أعداد المضارين تتوزع أولا على قارة آسيا ومنطقة الباسفيك بنسبة ٨٩.٥٪ ثم إفريقيا ونصيبها ٧.٥٪ في الوقت الذي فيه نصيب بقية مناطق العالم ٣.٠ ٪ فقط من المضارين.

ومن الجدير بالذكر أن عدد الكوارث والأخطار التي وقعت بين عامي ١٩٩١ و٢٠٠١ كان حوالي ٣٧٠٠، وكان أكثرها تأثيرا الفيضانات التي وقعت في الصين سنة ١٩٩٨ وأضرت بحوالي ٢٣٠ مليون نسمة. ومن بين ست كوارث أصاب كل منها أكثر من ١٠٠ مليون نسمة وقعت خمس في الصين والسادسة في الهند(!!!)، وكانت جميعها فيضانات. وفي عام ٢٠٠٢ تأثر حوالي ٦٢٠ مليون نسمة بالكوارث الطبيعية كان نصفهم من نصيب موجة الجفاف التي ضربت العديد من الولايات الهندية. وليس من المستبعد أن تكون مصر قد تعرضت

الزمان والمكان



أحمد اللباد

لموجات من الفيضان والجفاف لولا الحارس الأمين. السد العالي. الذي حمانا من موجات الجفاف التي قضت على مئات الآلاف في أثيوبيا والفيضانات العارمة التي أغرقت السودان الشقيق.

ومن المعروف أنه في المتوسط تحدث الأعداد التقريبية الآتية من الكوارث والأخطار سنويا: ١٠٠ زلزال قوى مدمر، و ١٠٠٠٠٠ عاصفة رعدية، ١٠٠٠٠ فيضان، و٢٥٠ انزلاقا أرضيا، و٢٠٠ تورنادو، وعشرات العواصف وحرائق الغابات وثورات البراكين وموجات الجفاف وموجات التسونامي (موجات عملاقة من المحيطات تكتسح وتجرف المدن والمنشآت الساحلية وتنشأ من الزلازل التي تضرب قاع المحيط). وقد شهد العالم خلال القرن الماضي ما يربو على ١٠٠ زلزال مدمر حصد كل واحد منها من الأرواح أكثر من ١٠٠٠.

من التاريخ البعيد:

قرب نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وفي سنة ٢١٨ ق.م. تحديدا، وعندما قاد هانيبال جيوشه متجها إلى روما عبر جبال الألب، تتقدمها الفيلة ثم الفرسان، كان أول وأكبر أعدائه الانهيارات الجليدية التي تعرض لها وقضت على خمس جيوشه (٢٠ ألفا من بين ١٠٠ ألف جندي وألفا فرس وعدد كبير من الفيلة).

لم تكن الانهيارات الجليدية إلا واحدة من الكوارث العديدة التي لعبت دورا في الأحداث السياسية والاجتماعية وفي تسلسل الحضارات عموما. فالعلاقة بين كوكب الأرض والمنطقة الكونية المحيطة به كانت دائما علاقة صدام سجلتها البيانات والروايات عن كرات النار والمذنبات والشهب، وعن العصور الجليدية المتناوبة بسبب الغبار الناتج عن انفجار أو اصطدام الكويكبات بالغلاف الجوي للأرض ونفاذها أحيانا، إذا كانت كبيرة بما فيه الكفاية، إلى سطح الأرض مثيرة للغبار والحرائق والدمار، أو بسبب الغبار المتصاعد من ثورات البراكين.

صعود وانهيار الأسر الحاكمة:

تشير بعض الدراسات إلى ارتباط الكوارث بالتغيرات السياسية العظمى. ويؤكد ذلك مقارنة بعض الأحداث في التاريخ بأزمنة حدوث الكوارث. فقد بينت دراسة الحلقات السنوية لأشجار البلوط المتحفرة في إيرلندا أن الضيق الذي يصيب هذه الحلقات يتزامن مع أحداث كبرى وجدت سجلاتها في طبقات الجليد في جرينلاند. ومن المعروف أن التغيرات التي تطرأ على الظروف المناخية تسجل في شكل تغيرات في اتساع الحلقات السنوية أثناء نمو الأشجار. وإذا كانت هذه التغيرات كبيرة وواسعة الإنتشار فإن الجليد المترسب في المناطق القطبية دائمة التجمد يسجل هو الآخر هذه الأحداث على صورة نسب متفاوتة من الغبار أو الغازات في طبقاته المتعاقبة. وقد اتضح ارتباط ثلاثة أحداث على وجه التحديد بثورة بركان «هيكلا» في آيسلندا، وثورة «سانتوريني» في بحر إيجة، وثورة «هيكلا٣» كما يوضح الجدول الأول:

ترى، هل حدث ما حدث بشكل حاد وفجائي، كما هو متوقع من ثورة بركان، أم أنه جاء نتيجة تراكم للعوامل الهدامة إضافة إلى أوضاع اجتماعية وسياسية متدهورة بالفعل؟ والأرجح هي الإجابة الثانية والتي تطرح بدورها تساؤلاً مهماً آخر عن طبيعة العوامل التي تسببت في الأوضاع المتدهورة. فهل من الممكن أن يكون أحد هذه

العوامل كونيا؟ ربما وربما تضافرت عدة عوامل خارجية وأرضية فى هذه الأوضاع، فالمصائب لا تأتى فرادى، كما يقول المثل.

كانت الزلازل تتسبب فى كوارث اجتماعية كبيرة فى الماضى، فهى تدمر المنشآت والمعابد وتولد الموجات العملاقة (تسونامى) التى تصل ارتفاعاتها إلى عشرات وأحيانا مئات الأمتار فى مياه المحيط فتكتسح وتدمر وتقضى على المدن والمجتمعات الساحلية. وتأتى الزلازل عادة فى تجمعات تستغرق من ٥٠ إلى ١٠٠ عام تعقبها فترات من الهدوء قد تصل فى بعض الأحيان إلى ألف عام. ومن أمثلة ذلك ما حدث شرق المتوسط فى القرن الرابع الميلادى وما حدث على طول فالق شمال الأناضول خلال القرن العشرين من نشاط زلزالى. ومن المتوقع أن يكون أثر هذه التجمعات القوية والنادرة من الزلازل أقوى بكثير فى العصور القديمة عنه اليوم نظرا للأبنية والإنشاءات غير المحكمة وافتقار المجتمعات القديمة للاستعدادات المطلوبة لمواجهة الزلازل والكوارث عموماً.

جعلت الآثار المدمرة للزلازل من المجتمعات القديمة مجالا مفتوحا للأحداث الدامية. فقد كانت معظم الثروة والسلطة مركزة فى يد أقلية لم تكن قادرة على حمايتها بشكل جيد. فمثلا كانت انهيارات المدن المحصنة تمثل دعوة صريحة للهجوم عليها ونهبها بواسطة: الأعداء الخارجيين (جوشوا ومدينة أريحا وهجوم قبائل البدو على الإمبراطورية الفارسية عام ٣١ ق.م.)، أو الجيران فى حالة حدوث مشادات وتعارض للمصالح (سقوط ميسينيا عام ١٢٠٠ ق.م. وموقعة ساؤول عام ١٠٢٠ ق.م.)، أو الفقراء والعبيد (أسبرطة عام ٤٦٥ ق.م. وهاتوساس Hattusas عام ١٢٠٠ ق.م. وتيوتيهواكان Teotihuacan عام ٧٠٠ ق.م.). وعندما تكون الزلازل محدودة والصراعات محلية صغيرة فإن آثار الدمار تكون هى الأخرى محدودة لا تستغرق سوى بضعة عقود ليعود الوضع إلى سابق عهده. أما إذا كانت الهزات الأرضية شاملة قوية واسعة الانتشار وفى ظروف صراعات كبرى، فإن الدمار كان من الضخامة بحيث يستغرق الأمر عدة قرون لإعادة الأمور إلى طبيعتها. كانت المجتمعات تمر أثناء هذه القرون بعصور مظلمة تتراجع فيها الإنجازات الثقافية، فتتخلى المجتمعات عن المهارات التقنية (مثل الكتابة) وتنقطع العملية التعليمية ويتوقف البناء وتشييد المنشآت. فقد كان المغتصبون يقومون بنهب مواد البناء. وعلى النقيض من ذلك كانت المناطق الداخلية البعيدة عن السواحل وعن متناول موجات التسونامى لا تتأثر بمثل هذه الدرجة؛ بل أحيانا كانت تزدهر بعض الشىء نتيجة لتوقفها عن دفع الضرائب للمناطق التى سحقتها الزلازل وموجات التسونامى وعمليات النهب والسلب. ويعزى الانهيار المأساوى للحضارات التى سادت فى شرق المتوسط قرب نهاية العصر البرونزى إلى سلسلة من الهزات الأرضية التى أتت عليها وحولت المجتمعات الساحلية إلى لاجئين وعبيد ومحتلين.



كوننا الذى نعرفه نشأ فى «كارثة» مهولة هى ما يعرف بالانفجار الرهيب أو «بيج بانج Big Bang» منذ حوالى ١٣بليون سنة

نهاية البرونز وتقدم الحديد:

يبدو أن ما حدث فى شرق المتوسط قرب نهاية العصر البرونزى كان مقدمة لمجموعة من الكوارث الطبيعية التى أنهت هذا العصر ليحل محله العصر الحديدى. فكثير من العلماء يعتقدون أن مجموعة من الكوارث الطبيعية المفاجئة قد ألمت بالأرض من مصدر فضائى. ولذا تسمى تلك الأحداث بالمحورية لأنها تسببت فى الانتقال من العصر البرونزى إلى العصر الحديدى (٦٠٠.٥٠٠ ق.م.) وأثرت فى العالم المادى. وقد تسببت هذه الأحداث، فى رأى إيرفنج وولف Irving Wolfe فى ثورة ثقافية فى الوجود البشرى بكل المقاييس. وقد سمى إيرفنج ما حدث «بالأزمة الثقافية»، فقد تعرضت عناصر ثقافية كثيرة لتغيرات حادة وفجائية فى نفس الفترة منها: ظهور الفنون الدنيوية بجانب الفنون الدينية، وظهور الكتابة، وحدوث الانقلابات والثورات على الأسر الحاكمة واختفاء العديد منها، وظهور التحضر urbanization والأفكار الحالمة حول تنظيمات اجتماعية جديدة، وظهور أنساق جديدة من الوعى consciousness، وتعميم طقوس الألعاب الإغريقية على نطاق واسع، وتأسيس الديمقراطية، وأخيرا استخدام النقود. وتختلف كل هذه العناصر من الناحية الروحية عن تلك التى سادت فى السابق (ثقافة العصر البرونزى).

فإذا ما ربطنا كل هذه الثورات الثقافية زمانيا فيما بينها ومع الأدلة العلمية على انقلابات مماثلة موثقة جيولوجيا وأركيولوجيا archeological ومناخيا، لوجدنا أمامنا مخططا للأحداث الطبيعية التى أنهت حقبة تاريخية معينة وأدت إلى نشوء الخصائص الثقافية للعصر الحديث. وفى النهاية كلنا أبناء هذه الانقلابات.

وعن المستقبل القريب والبعيد:

فى لحظة ما من المستقبل وفى موقع ما من الفضاء قد تصطدم الأرض بجرم سماوى. كما تكرر حدوث ذلك فى الماضى. وساعتها ستتراوح النتائج بين مجرد تكون حفرة مخروطية فى إحدى الصحارى أو الغابات أو الحقول الزراعية (لأنها تغطى معظم اليابسة)، وبين الفناء الكلى للكوكب الأزرق الرائع، كوكب الأرض بكل من وما عليه. وحتى لا يكون الحديث خيالا علميا كما فى الأفلام السينمائية، فلنسترجع معا ما أورده الفلكيون المحترفون والهواة. فقد ذكر آرثر همفرى أن كوكب الأرض يكاد يصطدم بأجرام سماوية (كويكبات) عدة مرات كل بضع سنين. ففى يناير ١٩٩١ اقترب منا كويكب (BA ١٩٩١) وقطره عشرة أمتار لمسافة ١٧٠ ألف ميل، أى بفارق أقل من ٢٤ ساعة فقط ليحدث الصدام. وفى مارس ١٩٨٩ عبرنا على مسافة ٦٨٢ ألف ميل من الكويكب (١٩٨٩) وقطره ٤٠٠ متر. ويقدر همفرى عدد الكويكبات الأكبر من ٥ كيلومترات فى قطرها والتى تتقاطع مداراتها مع مدار كوكب الأرض بالعدد ١١ ألف كويكب! إنها ١١ ألف فرصة محتملة لحدوث اصطدام مع جرم يزيد قطره على ٥ كيلومترات تؤدى إلى فناء شبه كامل للحياة على كوكب الأرض[٥]!!!

الحادثة القديمة:

قد تظن أننا نبالغ إمعانا فى التخويف أو التحذير، لكن وحتى تقترب من الواقع أكثر سنذكر حادثتين موثقتين، إحداهما قديمة والأخرى

الجدول الأول

الحلقات السنوية	تاريخ ثورة البراكين	الأحداث الكبرى وتاريخها
٢٣٤٥ ق.م.	٢٣٣٠ ـ ٢٢٩٠ ق.م.	
١٦٢٨ ق.م.	١٦٧٠ ـ ١٥٣٠ ق.م.	١ ـ بداية حكم أسرة «شانج» فى الصين ٢ ـ بداية حكم الأسر الحديثة فى مصر حوالى ١٥٧٠ ق.م.
١١٥٩ ق.م.	١١٥٠ ـ ١٠٩٠ ق.م.	١ ـ نهاية حكم أسرة «شانج» فى الصين ٢ ـ نهاية عصر الأسر الحديثة فى مصر حوالى ١٠٨٠ ق.م.

حديثة. أما الحادثة القديمة الموثقة فقد وقعت منذ ٦٥ مليون سنة عندما اصطدم شهاب أو كويكب ضخم نسبيا (حوالى ٦ أميال) بكوكب الأرض فى منطقة «يوكاتان» بالمكسيك، فأنهى بهذه الصدمة عصرًا وقضى على «حكومة» و«دولة» وخلّف وراءه حفرة مخروطية قطرها ١٧٠ كيلومترًا. أنهى هذا الصدام العصر الطباشيرى وقضى على حكومة الديناصورات ودولة الزواحف العظمى.

ماحدث عند الاصطدام، أو بلغة العصر «سيناريو» الاصطدام أعاد كتابته وجمع أشلاءه، كما يفعل هواة تجميع الصور من مئات القطع الصغيرة، عالم الفيزياء الحائز على جائزة نوبل لويس ألفاريز. إنه لويس ألفاريز، أو «لوى» كما كان يناديه طلابه وزملاؤه بود شديد، هو الذى استخدم الأشعة الكونية لسبر أغوار الأهرامات، وهو الذى اخترع جهاز الهبوط الآلى للطائرات، واخترع جهازا أمنا لتفجير القنابل الذرية (الانشطارية)، وهو نفسه الذى طلبت منه الحكومة الأمريكية دراسة كل الصور الفوتوغرافية لآخر اللحظات فى حياة الرئيس كنيدى. استخدم «لوى» المنهج العلمى والمنطق وحدة الذكاء التى كان يتمتع بها فى حل إحدى أكبر المعضلات فى تاريخ الحياة القديمة مستعينا بخبرة ابنه عالم الجيولوجيا والتر ألفاريز.

السـيـنـاريـو:

كان يومًا عاديًا من أيام كوكب الأرض منذ ما يقرب من خمسة وستين مليون سنة ماعدا أمر واحد بدا غريبا. كانت هناك نقطة صغيرة ساطعة فى السماء أخذت تقترب وتكبر وتزداد سطوعا، وكانت تتخذ مسارا يتقاطع مع مسار كوكب الأرض ليصطدم به فى لحظة رهيبة. وقبل أربع ساعات من هذه اللحظة كان القاتل القادم من الفضاء على مسافة من كوكب الأرض مثل المسافة إلى القمر وكان ساطعا مثل كوكب الزهرة لحظة الشفق. وقبل الصدمة بعشر دقائق كان القاتل على مسافة مساوية لقطر الأرض، ولو كان هناك بشر فى ذلك الزمن البعيد لشاهدوا بجلاء اقتراب هذا الجرم وهو يهوى فى صمت رهيب، فقد كانت سرعته أكثر من ثلاثة أضعاف سرعة الصوت!!! وقد وصل إلى حدود الغلاف الجوى للأرض قبل عشر ثوان فقط من الارتطام. اندفع القاتل الغازى متوهجا ومخترقا الطبقات العليا للغلاف الجوى تاركًا وراءه اسطوانة مائلة للصفرة أخذت تتسع وتنتشر بأسرع من الصوت. كان جزء من المذنب أو الشهاب قد تبخر بينما تحول جزء آخر إلى غبار، لكن معظم كتلته اصطدمت بالمحيط ونفذت إلى قاعه فى أقل من ثانية مفجرة فى طريقها طمى القاع الذى انسحق تحت وطأة الصدمة. كانت هذه نهاية العصر الطباشيرى وبداية العصر الثلثى وسط عنف لايمكن تخيله، بداية العصر الذى من المقدر أن تسود فيه أسلاف الثدييات الأوائل.

وقعت الصدمة، وخلال ثوان قليلة كانت قد تحررت كميات مهولة من الطاقة تكافئ ملايين القنابل النووية الاندماجية (الهيدروجينية). كان معظم الطاقة على شكل حرارة مما رفع درجة الحرارة إلى أكثر من مليون درجة فى مدى مئات الأمتار. تبخر الطمى والماء بل وحتى الصخر قد تبخر بعضه وانصهر الباقى. انفجرت مرتفعة من البحر فى حركة ظاهرية بطيئة كالشبح كرة هائلة من النار حاملة معها الخراب والدمار (كانت سرعتها الحقيقية أكبر من سرعة الصوت). أحدثت موجة الصدمة التى انتشرت بسرعة ٤ كيلومترات فى الثانية حفرة مخروطية هائلة بلغ قطرها حوالى ١٧٠ كيلومتر. اندفعت بعد ذلك مباشرة التوابع الزلزالية من بؤرة الاصطدام، واندفعت معها قطع المذنب وشظاياه للخارج ولأعلى. وقد وصلت كتلة الغبار الناتج وحده ١٠٠ تريليون طن (التريليون = مليون مليون). ارتفعت قطع وشظايا المذنب المتوهجة عاليا حتى وصلت إلى الفضاء الخارجى المحيط بكوكب الأرض فبردت لبعض الوقت لتلتهب ثانية بعد ذلك وهى تنهمر عائدة إلى سطح الأرض فتشعل الحرائق فى الغابات والأدغال لمسافة آلاف الكيلومترات. وقد تسببت الحرارة الهائلة المصاحبة لعودة الشظايا الملتهبة فى شى الحيوانات التى كانت قد نجت لبعدها عن موقع الصدمة المباشرة. وارتفعت من المحيط موجات «تسونامى» العملاقة، نتيجة للارتطام وللزلازل التى تلته، وأخذت تنتشر عبر المحيط بسرعة مئات الكيلومترات فى الساعة (سرعة الطائرات). عصفت هذه الجدران الشاهقة من المياه (يقدر الخبراء ارتفاعها بحوالى ٥٠٠ متر) بالشواطئ والتلال وسحقت كل شىء اعترض طريقها. واندثرت السهول الساحلية التى كانت تمد الحياة البرية بالغذاء.



حدث الانفجار الهائل ثم تكونت المجموعة الشمسية وانقرضت الديناصورات، وانتهت سلسلة الكوارث العظمى بالسيادة شبه المطلقة للإنسان على كوكب الأرض

تحول قاع المحيط إلى مغارة فائقة الحرارة أخذت تجيش غليانا، وتكون فوق المحيط الساخن إعصار لم يشهد البشر مثله قط فى ضخامته واتساعه (لم يكن هناك بشر فى ذلك الوقت). وتسبب الفارق الكبير فى درجات الحرارة بين المحيط الساخن جدا وطبقة الستراتوسفير الباردة جدا فى نشأة رياح عاتية بلغت سرعتها أكثر من ٨٠٠ كيلومتر فى الساعة، واندفعت تيارات هائلة من الهواء محملة ببخار الماء إلى ارتفاعات تفوق ٥٠ كيلومترا فوق سطح الأرض، واضطربت الطبقات العليا من الغلاف الجوى، وتكونت عاصفة من الضخامة والشدة لدرجة أن الرياح فى قمتها كانت أسرع من الصوت، ولذا يطلق عليها «هايبركان hypercane» أو «فوق العاصفة». بعد عدة أيام أخذ سطح المحيط يبرد بالتدريج، وكانت كميات من الماء (عدة أميال مكعبة) قد انتقلت إلى الستراتوسفير، فأثرت فى مناخ العالم لفترة طويلة. غابت الشمس وغاب القمر لعدة أشهر وتحول النهار إلى ليل حالك بلا نجوم، وأخذت السماء تمطر كميات متزايدة من الغبار العائد من الفضاء الخارجى إلى طبقة الستراتوسفير لينتشر ويعم العالم أجمع. توقفت عمليات البناء الضوئى بواسطة البلانكتون[٦] فى المحيط لتهلك معظم صور الحياة البحرية التى تعتمد على البلانكتون كقاعدة وأساس للسلسلة الغذائية.

وبعد الاصطدام بعدة أشهر، وبعد أن استقر الغبار أخيراً، ظل ضباب كثيف من قطرات حمض الكبريتيك الدقيقة معلقاً فى الهواء، وهو الحمض الذى تكون من بلايين الأطنان من مركبات الكبريت التى تبخرت من الصخور (تحتوى صخور كثيرة على مركبات الكبريت) وتأكسدت وارتفعت مع الانفجار لحظة الاصطدام. وربما يكون ضباب الحمض قد حجب أشعة الشمس لعقود طويلة من الزمن. ومن نجا من الحيوانات من الصدمة المباشرة للشهاب أو المذنب،

الجـدول الثانى

السلاح أو نظام التسليح	درجة الفتك
السيف	١
البندقية الأولية	٣
البندقية الهجومية الحديثة	٢١٠
دبابة الحرب العالمية الأولى	٣,٤ ألف
دبابة الحرب العالمية الثانية	١١٠ آلاف
دبابة المعارك الحديثة	١٦٠ ألفًا
الطائرة المقاتلة القاذفة الحالية	٤٨٠ ألفًا
صاروخ قصير المدى برأس نووى (٢٠ كيلوطن)	٤١,٥ مليون
طائرة قاذفة مقاتلة بتسليح نووى (٣٥٠ كيلوطن)	٢١٠ ملايين
صاروخ استراتيجى برأس نووى (٢٥ ميجاطن)	١٠,٥ بليون

لم يكن لينجو من الظلام والبرد الذى أعقب الصدمة وحجب أشعة الشمس سنوات طويلة. ومن كتب له النجاة من هذه وتلك أدركه موت محقق رهيب، أمطار حمض الكبريتيك. كان النيتروجين الموجود بوفرة فى الغلاف الجوى قد تأكسد بواسطة أكسجين الهواء وبفعل الحرارة الشديدة إلى أكاسيد النيتروجين التى تعطى مع الماء حمض النيتريك. هكذا إذن تضافر على هلاك الحياة أكثر حمضين شراسة : الكبريتيك والنيتريك. أخذت الأمطار الحمضية تتساقط فوق كل شبر من سطح كوكب الأرض وبتركيزات أعلى كثيرا من تلك التى تسبب هلاك الغابات اليوم. وقد ارتفعت الحموضة فى المحيطات فقضت على معظم البلانكتون ولم ينج إلا الأنواع المقاومة للحموضة.

كانت كميات كبيرة من الحجر الجيرى (أكثر الصخور انتشارا) قد تحللت وأطلقت غاز ثانى أكسيد الكربون، لترتفع نسبته بشكل كبير جدا فى الهواء الجوى. ومن المعروف أن هذا الغاز من الغازات المسببة لظاهرة الاحتباس الحرارى أو ظاهرة الصوبة الزجاجية، فهو يقتنص الأشعة الحرارية ولايطلقها فترتفع بذلك درجة حرارة الأرض. كما أن بخار الماء يلعب نفس الدور فى الاحتباس الحرارى. وعندما استقرت فى النهاية كميات الغبار والماء التى تسببت فى برودة الأرض، وعندما سقطت كل الأمطار الحمضية، لم يبق فى الغلاف الجوى سوى الكميات الكبيرة من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء لذلك أخذت درجة حرارة الأرض ترتفع بالتدريج ودون توقف، فاستبدلت الأرض بالبرودة سخونة. أخذت النباتات الخضراء التى صمدت وتحملت ونجت. تزدهر (فى وجود وفرة من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء) فاستهلكت كميات متزايدة من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء. وأخيرا نجحت هذه الآلية فى استعادة الظروف الطبيعية مرة ثانية لتزدهر صور الحياة التى نجت من المحارق التى أعقبت الاصطدام مباشرة وصمدت للظلام والبرودة واختبأت بشكل جيد من الأمطار الحمضية حتى تمكنت من التسيد على الكوكب. ومن المرجح أن تكون عملية استعادة الظروف الطبيعية. استعادة الكوكب لصحته. قد استغرقت آلاف السنين. كانت طبقة الأوزون قد تحطمت واستنفدت فى هذه الأثناء بفعل أكاسيد النيتروجين فأضافت لكل ما ذكرنا من مهالك مهلكة شديدة القسوة فتكت بالبقية الباقية من صور الحياة التى غامرت بالخروج من مخابئها فى ضوء الشمس.



فى لحظة ما قد تصطدم الأرض بجرم سماوى وساعتها ستتراوح النتائج بين مجرد حفرة وبين الفناء الكلى للأرض بكل ما عليها

كان الدليل على تفاصيل هذا السيناريو يقع فى: وجود طبقة غريبة عمرها ٦٥ مليون سنة فى جميع أنحاء العالم تتميز بتركيز مرتفع من عنصر «الإيريديوم» لا بد أن يكون مصدره الفضاء الخارجى وموزع بانتظام حول العالم، وفى الاختفاء المفاجئ لمعظم أشكال الحياة فوق هذه الطبقة. لم يبق سوى اكتشاف الحفرة المخروطية التى قطرها، بناء على الحسابات الأولية، حوالى ١٠٠ ميل، موقع الاصطدام لتكتمل حلقة الأدلة الدامغة على صحة الحدث والسيناريو الذى أعاد كتابته «لوى»، لويس ألفاريز. وللأسف لم يمهل القدر «لوى» ليشهد بنفسه لحظة النصر فمات قبل بضعة أشهر فقط من اكتشاف حفرة مخروطية قطرها حوالى ١٧٠ كيلومتر وعمرها ٦٥ مليون سنة فى خليج يوكاتان بالمكسيك[7] كانت هذه الحفرة بمثابة الدليل الدامغ والنقطة التى وضعت فوق جميع الحروف لتنهى عصرا و«دولة» و«حكومة».

الحادثة الحديثة:

تكرر السيناريو الذى حدث على كوكب الأرض منذ ٦٥ مليون سنة، لكن على كوكب المشترى العملاق هذه المرة. فى ١٦ يوليو سنة ١٩٩٤ انهالت على كوكب المشترى إحدى وعشرون شظية للمذنب «شوميكر. ليفى ٩» بسرعة ٦٠ كيلومترا فى الثانية. كان هذا المذنب قد اكتشف فى مساء ٢٤ مارس ١٩٩٣ بواسطة الهواة دافيد ليفى والزوجين كارولين ويوجين شوميكر، الذين سبق أن اكتشفوا العشرات من المذنبات الجليدية ذات الرؤوس المتوهجة والذيول الطويلة. كان المذنب قد انشطر وتمزق إلى إحدى وعشرين قطعة بفعل الجاذبية الفائقة لكوكب المشترى. جاءت نتائج الارتطام مدهشة لدرجة أن هواة الفلك تمكنوا من رؤيتها بتلسكوباتهم البسيطة من أسطح منازلهم. أما التلسكوبات الكبيرة فقد أظهرت تفاصيل غاية فى الدقة. كانت مجموعة الصدمات من الضخامة بحيث لو حدثت على الأرض لاندثرت الحياة كلها تقريبا. كان قطر أكبر الشظايا بين ٣ و ٤ كيلومترات وقد انفجرت عند الارتطام لتكون كرة نارية مستعرة فى حجم كوكب الأرض تقريبا، وكانت طاقة الصدمة تكافئ ٦ تريليون طن من مادة T.N.T، أى آلاف المرات أكبر من الطاقة المصاحبة لانفجار كل المخزون من السلاح النووى. أخذت هذه الكرة النارية تدور فى حركة دوامية لعدة دقائق بعد الصدمة متوهجة بأشعة أغلبها تحت حمراء ثم بدأت تختفى بالتدريج تاركة بقعة سوداء محاطة بحلقات متحدة المركز. وقد ظل موقع ارتطام الشظية G، مثل بعض الندبات العشرين الأخرى، ظاهرا للعيان لشهور بعد ذلك. وقد شكل الغبار الكبريتى الناتج عن أكبر الصدمات بقعة عظيمة قطرها ضعف قطر كوكب الأرض. وعند ارتطام كل شظية من شظايا المذنب بالغلاف الخارجى للمشترى كانت الغازات تتوهج ساطعة لارتفاع درجة الحرارة فجأة عدة آلاف من الدرجات. وقد شاهدت سفينة الفضاء «جاليليو» هذه التوهجات الأولية مباشرة من مسافة ١٥٠ مليون ميل، أما المشاهدون من كوكب الأرض فكان عليهم الانتظار عدة دقائق ليتمكنوا من رؤية الكرة النارية التى تكونت من انفجار الشظية الكبرى، وذلك حتى تصبح هذه الكرة فى مجال الرؤية بدوران الكوكب السريع حول نفسه (طول اليوم على كوكب المشترى عشر ساعات فقط).

واكتشف العلماء لأول مرة كبريتيد الهيدروجين على المشترى وكميات من الماء فى مواقع الصدمات. دامت الندوب على سطح المشترى فترة أطول مما توقع معظم الفلكيين. وتسببت سرعة دوران الكوكب وشدة الرياح (سرعتها ٣٠٠ كيلومتر فى الساعة) فى تمزق نقاط الارتطام وتشتت محتواها، لتصبح بعد بضعة أشهر على شكل أشرطة طولية تحلقت حول الكوكب.

كانت الطبقة الغنية بعنصر «الإيريديوم» وانتظام توزيع مكوناتها، واختفاء معظم صور الحياة فى هذه الطبقة وفوقها مباشرة، واكتشاف الحفرة المخروطية فى «يوكاتان» بالمكسيك، وفناء الزواحف العظمى. الديناصورات. وتزامن كل هذه الأحداث منذ ٦٥ مليون سنة، كان كل ذلك الدليل على وقوع الكارثة الكونية باصطدام شهاب قطره حوالى ١٠ كيلومترات بكوكب الأرض. أما ما حدث على كوكب المشترى يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٩٤ وشاهده وسجله آلاف الفلكيين الهواة والمحترفين فقد كان أكثر من دليل دامغ على عنف الكوارث الكونية. وفى الواقع إن أعنف الكوارث وأشد الأخطار ضررا التى يمكن أن تتعرض لها البشرية هى تلك التى تصطدم فيها أجرام سماوية بكوكب الأرض، لكنها لحسن الحظ نادرة الوقوع.

التكنولوجيا والحرب والحكومات والخطورة الكامنة:

وإذا كان من الممكن أن تتكرر نوعيات الكوارث والأخطار التى حاقت بالأرض فى الماضى القريب أو الماضى السحيق، فإن هناك نوعيات محددة من كوارث وأخطار لم يعرفها كوكب الأرض ولا البشرية من قبل. تلك هى الكوارث المرتبطة بالتطور التكنولوجى الذى حدث ويحدث الآن بوتيرة متسارعة، وكذلك الأخطار التى جاءت مع التقدم المفزع فى «صناعة القتل»، أى فى صناعة أدوات الحرب والقتال، والكارثة الكبرى كذلك التى قضت على أكثر من مائتى مليون من البشر فى القرن العشرين، وهى الحكومات، قد

ساهمت بشدة فى نوعيات الأخطار التى جاءت بها الحضارة البشرية، سواء عفويا أو بتعمد وعن قصد. وسنأتى هنا على ذكر بعض هذه الكوارث.

الكوارث النووية:

قد تؤدى القدرة النووية إلى ثلاثة أنواع من الكوارث: التلوث الإشعاعى، والتفجيرات النووية المحدودة، والحرب النووية الشاملة. ويخضع المخزون من السلاح النووى فى الدول الصناعية المتقدمة لسلسلة من خطوات التأمين ضد الأخطاء العشوائية، لكن ماتملكه دول أخرى فى شبه القارة الهندية أو الشرق الأوسط قد يتسبب فى كارثة تذهب بأرواح عدة ملايين وتدفع المنطقة للخلف عقودا طويلة من الزمن. أما قيام حرب نووية شاملة فقد يحصد مئات الملايين من البشر مخلفا وراءه شتاء نوويا سيحصد هو الآخر. بالإشعاع والجوع والأمراض. مئات الملايين. وسيستغرق الأمر قرنا أو أكثر لتستعيد الأرض اتزانها وصحنها، فى الوقت الذى سيتراجع فيه التقدم العلمى والتكنولوجى وكل الإنجازات الحضارية المادية قرونا إلى الخلف.

الكوارث البيولوجية:

قد يتمكن شخص ما أو عدة أشخاص فى المستقبل من تصميم وتنفيذ كائن دقيق (فيروس أو ميكروب) للقضاء على الجنس البشرى. لكن، ليتمكن حتى من مجرد المحاولة لا بد لهذا الكائن أن يتمتع بمجموعة من الخصائص مثل: الانتقال بسهولة من شخص لآخر، والانتشار السريع، ومقاومة المؤثرات البيئية، ومقاومة المضادات الحيوية وآليات المناعة فى جسم الإنسان، وأن يتسبب فى القضاء على من يصيبهم بنسبة ١٠٠ ٪. لكن، ليس بهذه البساطة يمكن القضاء على الجنس البشرى، فسيستغرق الأمر عدة أشهر سيتمكن الإنسان خلالها من التغلب. سلبا أو إيجابا. على القاتل.

كارثة الإنسان الآلى «الــــروبـــوت»:

يخشى بعض الناس من الاندماج بين الإنسان الآلى والذكاء الصناعى وذلك تحسبا من نشوء جنس جديد يتسيد ولا يسمح للبشر بالتحكم فى الموارد أو حتى التنافس معه عليها. لكن لا محل لهذه المخاوف، فالذكاء الصناعى لن يتضح تطوره النهائى قبل سنة ٢٢٠٠ ولن يتطور مباشرة إلى الذكاء الفائق. وحتى لو حدث التكامل بين الذكاء الصناعى والحياة الصناعية بحلول القرن الثالث والعشرين، فإن الوقت والحاجة إلى الطاقة ستضع ضغوطا على الأشخاص الصناعيين تجعلهم أقل مقدرة على تسيد العالم من أجناس البشر (الأشخاص الطبيعيين). ولن يكون فى مقدور أول مسبار «فون نيومان Von Neumann» تبدعه البشرية أن يتغلب على دفاعات الأرض حتى لو أراد وحاول ذلك. ولكى تصبح هذه الـ«فون نيومان» مصدر خطر حقيقى، فإن عليها أن تتزود بذكاء حقيقى وتفوق عسكرى على البشرية. ومثل هذا النوع لن يشارك فى تحالف عدوانى مع غرباء من خارج الأرض.

كارثة التكنولوجيا فائقة الصغر : Nanotechnology

قد تصبح «النانوتكنولوجيا» أو التكنولوجيا فائقة الصغر، التى تتكاثر بنفسها (أى التى تنتج مثيلاتها دون تدخل من الإنسان) سرطانا للمحيط الحيوى لكوكب الأرض، فتقوم بإحلال «الحياة النانوتكنولوجية» محل «حياة الحمض الريبونووى». وستكون محددات انتشار مثل هذه الحياة، مثل أى شكل آخر من أشكال الحياة، هى إمكانية الحصول على الطاقة التى يمكن استخدامها والمواد الضرورية للبناء. وحيث إن أية مادة عضوية ستكون صالحة للاستخدام، فإن المحدد الأولى الذى سيضع القيود على الكيفية التى ستستهلك بها النانوتكنولوجيا الحياة العضوية سيكون إمكانية الحصول على الطاقة القابلة للاستخدام. وفى هذا الصدد فإن الوقود الحفرى (كمصدر للطاقة) لا يتواجد فى كل الأماكن، كما أن طاقة الاندماج النووى ليست سهلة الحمل والتنقل بها، وهكذا سيلجأ السرطان النانوتكنولوجى، تماما مثل الكائنات الريبونووية، إلى ضوء الشمس كمصدر للطاقة متاح فى جميع الأماكن ولا تحتاج الـ«نانوكائنات» لحمله والتنقل به. ومن المعروف أن التخليق الضوئى فى الكائنات الريبونووية يقتنص ١٠ ٪ فقط كحد أقصى من الطاقة الشمسية الساقطة عليها، بينما ستتمكن الكائنات النانوتكنولوجية من اقتناص ٥٠ ٪ من هذه الطاقة على الأقل. ولا توجد طريقة لإيقاف السرطان «النانو» إلا بقطع إمداداته المادية أو حجب الطاقة عنه أو بالتدخل المباشر فى آلية استخدامه للطاقة والمادة.



هنـــاك كـــوارث وأخطـــار لم يعرفها كوكب الأرض ولا البشرية من قبــل. تلك هى الكـــوارث المرتبطة بالتطـــور التكنولوجى

كارثة الانهيار الثقافى :

يخشى بعض الناس أن تكون الرذائل والجرائم والفساد عموما مؤشرات على انهيار المجتمعات مما يهدد بكارثة للبشرية كلها. ويخشى البعض الآخر من انقسام المجتمع إلى طبقات وانتشار التلوث وتدهور التعليم والبنية الأساسية كمؤشرات على الانهيار الاقتصادى أو التهديد بكارثة ثقافية. وهذه المخاوف ليست فى محلها، فقد مرت انهيارات ثقافية وحضارية عديدة فى الماضى كانت جميعها من جراء تغيرات حادة فى الظروف البيئية أو وباء أو غزو خارجى. لكن بعد إدخال القاطرات البخارية فى منتصف القرن التاسع عشر لم يبق مجتمع واحد خارج مجال الإصابة بالعدوى من أوبئة الآخرين، وأصبحت كل المجتمعات أجزاء فى كيان حضارى واحد انتفت معه احتمالات الغزو الخارجى إلا فيما ندر. ومن الكوارث «الهادئة» الركود الثقافى الذى يهدد بالانهيار البطىء، وكما حدث فى حكم أسرة مينج فى الصين، أو فى أوربا فى العصور الوسطى أو دول الكتلة الشرقية. فإن الركود الثقافى يؤدى إلى إيديولوجية ستاتيكية راكدة وشمولية تقمع كل من يعارضها. ويبدو أن التطور فى هذا الاتجاه قليل الاحتمال فى المستقبل. وينضوى تحت الأنظمة الشمولية المحتملة التى تكرس الركود الثقافى كل من الأنظمة الدينية السلفية والأنظمة الماركسية الجامدة وأنظمة الالتزام الجامد بالطبيعة والدعوة البدائية للمعيشة كالسلف سواء فى نفى التقدم التكنولوجى أو فى العلاقات.

تكنولوجيا القتل:

لم يبدع الإنسان فى أمر من الأمور أكثر من إبداعه أدوات القتل والهلاك. وقد شهد هذا الإبداع عدة طفرات بدءاً من النصف الثانى للقرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. فقبل هذا التاريخ ظلت الأسلحة وأدوات القتال على درجة منخفضة نسبيا، وكان القتلى فى الحروب والمعارك يموتون من النزف وتلوث الجروح والأمراض. ومع التطور الذى حدث للعلوم والتكنولوجيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، تطورت تكنولوجيا الحرب والفتك والهلاك، فأصبحت الأسلحة أكثر دقة وأعلى قدرة وأعظم فتكا. ومع تطويع التفاعلات النووية الانشطارية ثم الاندماجية فى الأسلحة التى اصطلح على تسميتها القنابل الذرية والقنابل الهيدروجينية، أصبحت درجة الفتك أكبر من أن تقاس. وللمقارنة أدخل «بيتر زوكيرمان Peter A. Zuckerman» مقياسا لدرجة الفتك، اعتمد فيه على التاريخ. وفى هذا المقياس اعتبر «زوكيرمان» أن السيف هو الوحدة الأساسية، وقارن بين عدد القتلى فى حروب الإمبراطورية الرومانية (عدد

كتاب الزاوية

أحمد لطفى السيد

الدولة وحقوق الإنسان

تلك الحقوق الأصيلة، حقوق الكافة التى هى أربطة الجمعية الإنسانية ومناط الأفراد بها هى: حق الحرية الشخصية بمعناها العام: حرية الفكر والاعتقاد، حرية الكلام والكتابة، حرية التربية والتعليم فى حدود ضرر الغير، فليس للشارع أن يضع قانونًا يسلب به فردًا أو طائفة أو كل الأمة حقهم فى الحرية بمعناها العام فى غير حدود الضرر المعروف.

حسب الفرد أنه خاضع لقوى الطبيعة المختلفة وهموم الحياة وشهواتها. تتقاذفه البلاوى التى لا طاقة له بها ولا قبل للجمعية بحمايته منها. حسبه ما ركب فيه من شرور الحسد والحقد والانتقام وبقية الشهوات التى ترعى نارها قلبه ويقلق همها نومه، ويجعل مضجعه من الشوك، حسبه خوف الموت، وزوال النعمة، وانقطاع الأمل وخيبة الرجاء. حسبه الأمراض الجسمية وما يتبعها. حسبه عذاب المشاعر المختلفة التى يقتضيها وجوده من فوات مرغوب أو هلك المحبوب. حسبه العجز الطبيعى عن درء كل هذه البلاوى، فما يكون أمره إذا كان الشارع، الجمعية أو الحكومة، تنصب نفسها أيضًا قوة ضارة تأخذ لنفسها ما بقى له من سعادة الحرية الشخصية، على أن الحرية الشخصية بأنواعها، أساس العمل لمصلحة الفرد ومصلحة المجموع. تنقص تربية الفرد وقدرته على استعمال ملكاته لمصلحة الجمعية، بمقدار ما ينقص من حريته، فإذا سطا الشارع على حرية الفرد فاستلبها كلها أو بعضها، فإنما هو بذلك يعطل تقدم الفرد وتقدم الجمعية التى أوتى السيطرة عليها وعلق فى عنقه سلامتها من الأمراض، وكفل لها التقدم بقوانينه إلى الأمام.

السكان حوالى ٦٠ مليونًا) على مدى أربعة قرون والذى بلغ مائة مليون، وهو نفس عدد الذين كانوا سيلقون حتفهم فى مواجهة نووية شاملة بين الاتحاد السوفيتى (سابقا) والولايات المتحدة فى خلال ساعة واحدة فقط. جاءت هذه المقارنة مع تقييم شتى الأسلحة. مقارنة بالسيف. بأرقام فلكية للأسلحة الحديثة، كما يوضح الجدول الثانى:

ويبين الجدول أن درجة فتك الصاروخ الاستراتيجى ذى الرأس النووى قد بلغت عشرة بلايين وخمسمائة مليون مرة مثل السيف. ولتقريب الصورة، فإن مقارنة السيف بهذا الصاروخ: كمثل رجل واحد يحمل سيفا فى مواجهة كل سكان الأرض برجالهم ونسائهم وأطفالهم وشيوخهم (وعددهم أكثر من ستة بلايين نسمة)، ومع كل واحد منهم سيف وخنجر (نصف سيف). الصورة مفزعة، ولو حدث ونشبت (والأصدق انفجرت) حرب نووية شاملة، فإنها قد تكلف البشرية نصف السكان وتخلف حضارى يستمر لعدة قرون مع تشوهات للأجنة من جراء الإشعاع وطفرات فى الكائنات الحية، ودخول كوكب الأرض فيما يعرف بـ«الشتاء النووى».

الحكومات.. الحكومات دائمًا

خلال القرن العشرين وحده قتلت الحكومات المختلفة من أعدائها الخارجيين والداخليين ما يزيد على مائتى مليون نسمة. كان العدد الأوفر من نصيب الاتحاد السوفيتى حيث قتل على يديه ٦٢ مليون نسمة يليه الصين الشعبية ٣٢.٢٤ مليون نسمة، ثم ألمانيا ٢١ مليون نسمة، ثم الصين قبل سنة ١٩٤٩ - ١٣.٥ مليون نسمة (الصين الوطنية وسوفيتيات ماو)، ثم اليابان ٦ ملايين نسمة، وكمبوديا ٢ مليون نسمة، ويلى ذلك بعض الحكومات التى لا يتعدى عدد قتلاها المليونين ليصل المجموع فى النهاية إلى ٢٠٨ ملايين نسمة. كل هذه الأعداد لاقت حتفها بصورة رسمية «شرعية» فى كارثة خاصة جداً ببنى الإنسان.

ما الذى تغير خلال قرن واحد فقط؟

فى مقارنة أخرى بين الوضع العام فى مطلع القرن العشرين، سنة ١٩١٣، قبيل الحرب العالمية الأولى، وبين الوضع العام فى آخر القرن سنة ٢٠٠٠



تتضح الصورة المفزعة التى أصبحنا عليها. فالانفجار السكانى رفع التعداد من ١.٥ بليون نسمة إلى ٦ بلايين، وزاد عدد الحكومات من ٥٠ إلى ١٨٠، وأصبح عدد الحروب ٣٨ حربًا ضروسًا أو صداما مسلحا بعد أن كانت حربا واحدة وحربين أهليتين فى مطلع القرن. وارتفع عدد اللاجئين من قسوة الحروب الأهلية أو قسوة حكوماتهم من بضعة آلاف فقط إلى حوالى ٥٠ مليون لاجئ، وتضخمت أعداد جنود وضباط جيوش العالم من ٧ ملايين إلى ٣٠ مليون فرد، وتطورت وزادت أسلحة الدمار الشامل من بعض الغازات السامة مثل غاز الخردل والكلور إلى أسلحة دمار لم يحلم بها طاغية من طغاة التاريخ كالرؤوس النووية والأسلحة البيولوجية والكيميائية. وكانت الظروف البيئية عموما جيدة سنة ١٩١٣ فأصبحت سنة ٢٠٠٠ تعانى من تدهور سريع متمثل فى انحسار الغابات وتعرية التربة والتصحر وفناء الأنواع الحية والاحتباس الحرارى والتلوث الشامل.

إدارة الكوارث (أو الأخطار)

:Crisis Management

لا تفرق الكوارث الطبيعية بين الفقراء والأغنياء، ولا بين الدول النامية والدول الصناعية المتقدمة. لكن ما يجرى فى واقع الأمر من فداحة الخسائر فى الأرواح والممتلكات فى المجتمعات النامية والفقيرة مقارنة بالخسائر فى المجتمعات المتقدمة، نتيجة لكوارث من نفس الحجم والتأثير، يشير بجلاء إلى تخلف المفاهيم والثقافات وسيادة التواكل والاستسلام للأقدار والتكدس السكانى الهائل والمستوى المتدنى

للصحة العامة عند الناس فى المجتمعات الفقيرة.

فهم لا يمارسون إلا رد الفعل وبطرق لحظية قصيرة المدى لاتتسم بتخطيط أو توقع أو مفهوم إحصائى للأخطار وأثرها فى حياتهم.

وعلى العكس فى المجتمعات الصناعية المتقدمة تسود المفاهيم الإحصائية والتخطيط لما هو متوقع والاستعداد المسبق لمواجهته.

وإننى أكاد أجزم بأنه لا الناس ولا المسئولين فى المجتمعات الفقيرة ومعظم المجتمعات النامية قد سمعوا - مجرد السماع - بـ«إدارة الكوارث والأخطار crisis management» وهو المفهوم الذى يحكم عقلية الناس والمسئولين فى المجتمعات التى تصنع مستقبلها بأيديها وتواجه المحتمل من الكوارث والأخطار بالتخطيط والتدريب والاستعداد التام لذلك.

الذاتية فى تقييم الأخطار:

تصيب الفيضانات وموجات الجفاف أكثر من ٨٠ ٪ من المضارين بالكوارث، فى الوقت الذى لا يصل فيه المضارون بالأوبئة والأمراض المرعبة إلى ٥ ٪ من مجموع المضارين.

وقد حصدت الإصابة بالالتهاب الرئوى اللانمطى الحاد - سارس - طوال الأشهر التى هاجمنا فيها وتدخل فى حياتنا طولا وعرضا، وأخافنا وأرعبنا وألزمنا بيوتنا حقيقة ومجازا، حصدت عددا أقل بكثير مما تفعله حوادث الطرق فى العالم فى بضعة أيام!

لكننا لا نخاف أو نخشى ما يمكن أن يقع فى حياتنا من فيضانات أو حوادث طرق أو زلازل قدر خوفنا أو خشيتنا من «سارس». لماذا؟ ولماذا يرتعد الناس من ذكر حوادث الطائرات وهى لا تصيب منهم إلا أقل كثيرا مما تتسبب فيه حوادث القطارات والسيارات؟

يقول المحللون النفسيون أن خوف الإنسان وخشيته تزداد من المجهول الذى لا يرى أو يدرك أسبابه أو آليات فعله وتأثيره (الفيروسات والبكتريا المسببة للأمراض وطريقة تأثيرها فى الخلايا الحية من جسم الإنسان) وتزداد هذه الخشية عندما لا يرى الإنسان رأى العين ما الذى يدور من حوله ولا يملك التحكم فيه (حوادث الطائرات).

بينما تقل خشيته ويستكين من الخوف إذا كان يعلم أو يرى ما يحدث و«يعتقد» أنه قادر على التدخل فى مجريات الأمور سلبا أو إيجابا (القفز من القطار أو السيارة والضغط على الكوابح أو الصياح بالسائق لتنبيهه بالخطر المحدق).

أما الفيضانات والجفاف والبراكين والزلازل فالإنسان يراها ويفهم ويدرك أسبابها وآلية تأثيرها، ولذا فالخشية منها محدودة.

إنها المجهول والمستقبل والغيب، هى أخشى ما نخشاه، لأنها جميعا تتجاوز حدود معرفتنا ومقدراتنا ولو بدرجات مختلفة. ■

الهـــــوامـــش:

١. نجم فائق الكتلة ينفجر تحت تأثير الجاذبية الهائلة فتتكون العناصر الأثقل من الهيدروجين والهليوم وتنطلق طاقة هائلة بحيث يمكن رؤية هذه النجوم حتى فى ضوء النهار، وينتج عن ذلك تكون النجوم العادية وتوابعها من الكواكب.

٢. يشمل المحيط الحيوى كلا من الطبقة الدنيا من الغلاف الجوى، والغلاف المائى (المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار والمستنقعات) والتربة السطحية للأرض، وهو النطاق الذى توجد فيه الحياة مؤدية جميع وظائفها.

٣. الانفجار الذى بدأ الكون به منذ حوالى ١٣ بليون سنة من نقطة متناهية الصغر مهولة الكثافة ودرجة الحرارة.

٤. أحد العصور الجيولوجية الذى بدأ منذ ١٣٦ مليون سنة وانتهى منذ ٦٥ مليون سنة.

٥. Philip M. Dauber and Richard A. Muller, "The Three Big Bangs - Comet Crashes, Exploding Stars, and the Creation of the Universe", Helix Books, Addison - Wesley Publishing Company, 1996

ترجمة الكتاب تحت الطبع (د.أحمد السماحى و د.فتح الله الشيخ)

٦. الكائنات النباتية الدقيقة التى تطفو فوق سطح مياه المحيطات والبحار، وتقوم بعملية البناء الضوئى photosynthesis معتمدة على ضوء الشمس والكلوروفيل وثانى أكسيد الكربون وبخار الماء. وهى بذلك تمثل القاعدة الغذائية أو بداية السلسلة الغذائية لجميع الكائنات البحرية.

٧. تأخر اكتشاف هذه الحفرة الهائلة لأنها، كغيرها من الحفر المخروطية الناتجة عن صدمات الأجرام السماوية بالأرض، قد طمست وأصبح من المستحيل اكتشافها بالرؤية المباشرة، لذلك تم اكتشافها بقياس تأثير الجاذبية وتغيراتها الطفيفة أثناء عمليات التنقيب عن البترول.

كتـــاب الـزاويـــة

أحمد لطفى السيد

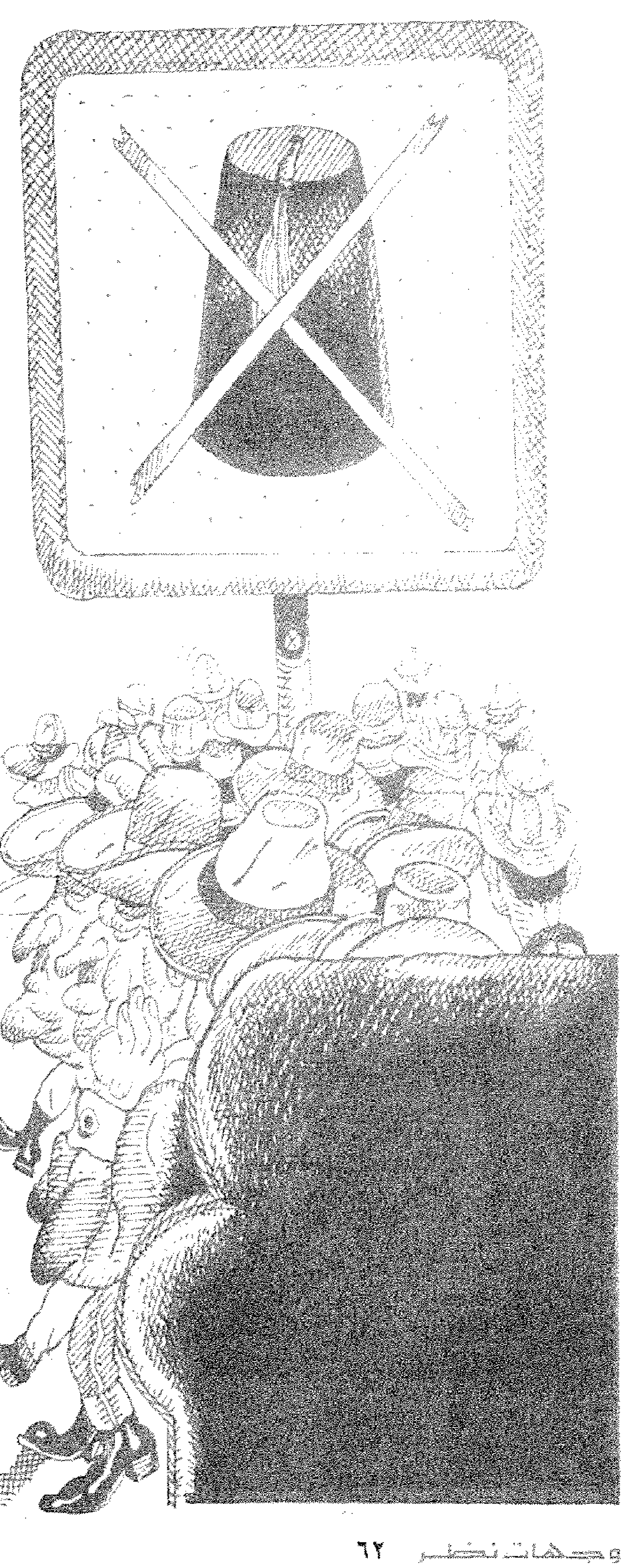
الدستور والحريات العامة

فى حق الأمة أو دستورها أو حريتها العامة: هذا الحق للأمة كحق الحرية الشخصية للفرد. فإن الذين يقولون إن الفرد خلق حرًا - وكل الناس على هذا الإجماع - يجب أن يقولوا أن الأمة تألفت حرة أيضًا. مادام اجتماع الأمة ليس من الحوادث العارضة. ولكنه حادثة طبيعية لأن الإنسان مدنى بالطبع. هذا الحق حق الأمة فى حكم نفسها على الطريقة التى ترضاها، هو من الحقوق التى لا يجوز للشارع أن ينقص منه شيئًا.

نحن المصريين لم نصل حتى اليوم إلى استرداد هذه الحرية. ولكننا طامعون جادون فى الوصول إليها، معتمدون فى ذلك على إجماعنا بضرورتها لوجودنا من حيث كوننا أمة، وعلى أعمالنا المختلفة لتقدمنا ثم على الزمان. ومع ذلك يمكننا أن نمثل لهذا الحق بما فعلت الحكومة عند سن القانون النظامى الجديد، فإنها تعرضت لحق الأمة. إذ الدستور القديم - وهو دستور فى الجملة وبوجه ما - كان يقضى بأنه لا يوضع فى البلاد قانون إلا بعد أخذ رأى مجلس الشورى. وتلك قاعدة قررت حقًا من الحقوق الأصلية فأصبحت بذلك هى نفسها قاعدة أصيلة لا تقبل النسخ ولا الاستثناء، ولا يحل للشارع أن يقربها. ورجاؤنا أن الحكومة لن ترجع إلى ذلك فى المستقبل. قد يقولون إنه لم يحصل خطر من ذلك ما دام القانون الجديد لم ينقص من حقوق الأمة فى القانون القديم إلا ما سموه شيئًا قليلاً. ليكن ذلك. ولكن الحقوق الأصيلة التى كسبتها الأفراد وكسبتها الأمة بحكم الطبيعة لا يجوز للشارع أن يقربها لأن فى مساسها مساسًا بقواعد النظام وأركان الجمعية.

بين الهوية والعولمة: الطربوش

لم تصدر أى من الدول العربية الكبرى خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين أية تشريعات تفرض على شعوبها ارتداء الملابس الغربية والقبعات، كما فعل الإصلاحيون الذين تولوا السلطة فى تركيا وإيران وأفغانستان. فتحت سيطرة الانتداب البريطانى والفرنسى على هذه الدول انتفت الحاجة للاتجاه إلى هذا التشبه المضحك بالغرب. ومع ذلك فرض العديد من الملوك العرب غطاء رأس موحداً على موظفيهم وسعوا لنشر هذا الغطاء بين الجماهير باعتباره غطاء الرأس «القومى» على مستوى القطر بل وعلى مستوى العالم العربى. وأدلى كثير من الأعلام والمفكرين العرب بدلوهم فى المناظرات الدائرة حول أفضل شكل مرغوب فيه لغطاء الرأس. ومن ثم نجد أن الزى العام لم يعكس فقط الاعتبارات التقليدية المتعلقة بالطبقات والطوائف والولاء تجاه الأسر الحاكمة، بل عكس أيضاً التنافس الحديث الحاد بين أشكال القومية المختلفة (ذات النزعة الوطنية، والداعية إلى الوحدة العربية، والإسلامية، والشرقية) عبر العالم العربى بل وعلى اتساع العالم الإسلامى.



ففى السنوات الأولى من حكمه قام الملك فيصل ملك العراق بإدخال السدراة الجديدة (أو الفيصلية) بهدف جعلها غطاء الرأس الوطنى بل والرسمى أيضاً فى العراق بينما اتجهت مصر، التى كانت قد نالت استقلالها، إلى السير على درب القصر واحتفظت بالطربوش لهذا الدور بعد بعض الجدل العام. حتى بدائل الطربوش التى استخدمها الجيش المصرى بشكل مؤقت سميت بالفؤادية والفاروقية. أما فى سوريا وفلسطين حيث لم توجد شخصيات ملكية مماثلة، اتجه الوطنيون إلى الكوفية التى كانت موجودة فى الريف.

ومع ذلك انقسم دعاة الوحدة العربية بين مؤيد للسدارة أو الكوفية أو الطربوش. وبصورة عامة كان للسدارة موقع الصدارة فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، ولكن الثورة الفلسطينية التى اندلعت فى فترة ١٩٣٦-١٩٣٩ عززت من مكانة الكوفية كرمز للوحدة العربية (ولفلسطين). وعلى الرغم من أن الطربوش والسدارة كانا يحظيان ببعض التأييد فى قلب العالم العربى إلا أنهما كانا محدودين نتيجة لارتباطهما بأصحاب المهن والوظائف فى المناطق الحضرية. لذا كان معظم المتعلمين من سكان الحضر يأنفون من الكوفية الريفية الواسعة الانتشار.

كذلك كان الطربوش علامة بينة على النزعة المحافظة فى السياسة والثقافة والدين، ومع أن المسيحيين واليهود كانوا يرتدون الطربوش إبان الحكم العثمانى، إلا أن دلالته الإسلامية كانت أكثر من الكوفية أو السدارة. وعلى النقيض من ذلك كانت القبعة توحى بالاتجاه صوب الحداثة الثقافية والدينية (وهذا لا يعنى القول باستبعاد الأديان).مع ما يحمله ذلك من إيحاءات بالتأثير التركى. وكان للقبعة ذات الحواف (شبكا) التى فرضها مصطفى كمال أتاتورك على مواطنيه فى سبتمبر ١٩٢٥ دور فى الحملة التى شنتها تركيا لاستعادة لواء الإسكندرونة من سوريا. وقد اجتذبت القومية الشرقية باعتبارها مفهوماً للتضامن أوسع من الإسلام غلاة الحداثيين - ولا سيما مع اتخاذ اليابان نموذجاً ناجحاً ينحو نحو الغرب.

ومع ذلك رفضت الغالبية العظمى من المسلمين خارج تركيا وكثير منهم داخل تركيا وإيران وأفغانستان ارتداء القبعة رفضاً باتاً. ولم يكن هذا الموقف من منطلق التقاليد فقط بل فى مواجهة هذا الشكل الكاسح من أشكال التغريب المدمر ثقافياً. وفى مقابل ذلك انتشرت المناظرات حول الطربوش والسدارة والكوفية، وامتدت إلى أطراف العالم العربى فى المغرب وحضرموت، بل وإلى إندونيسيا وروسيا والصين. كذلك برزت قضية لباس الرأس فى عالم السياسة فى الهند قبل الحرب العالمية الأولى وفى فترة ما بين الحربين، حيث تضامن الوطنيون المسلمون والهندوس فى رفض القبعات الغربية.

مصر

برزت الآراء العامة حول القبعات والملابس الأوروبية بشكل رئيس فى مصر مع النزاع الذى شب فى دار العلوم فى القاهرة بعد شهور قليلة من صدور قانون القبعات الثورى فى تركيا. فقد طالب طلبة دار العلوم، وهم من خريجى الأزهر القديم الذين كانوا يرتدون العمامة والقفطان اللذين يميزان المشايخ، بحقهم فى خلع هذه الملابس مفضلين زى الأفندية المكون من البنطلون والجاكت والطربوش الذى يرتديه الطلبة فى الجامعة الحديثة (جامعة القاهرة حالياً). وبالرغم من أن المتظاهرين زعموا أن زى المشايخ غير مريح وعتيق، إلا أن تمردهم كان يشير إلى سخط أعمق على المؤسسات التعليمية القديمة ويعبر عن مخاوفهم من أن طلبة الجامعة يتاح لهم بسهولة

... والعمـــــامة... والقبعـــــة!!

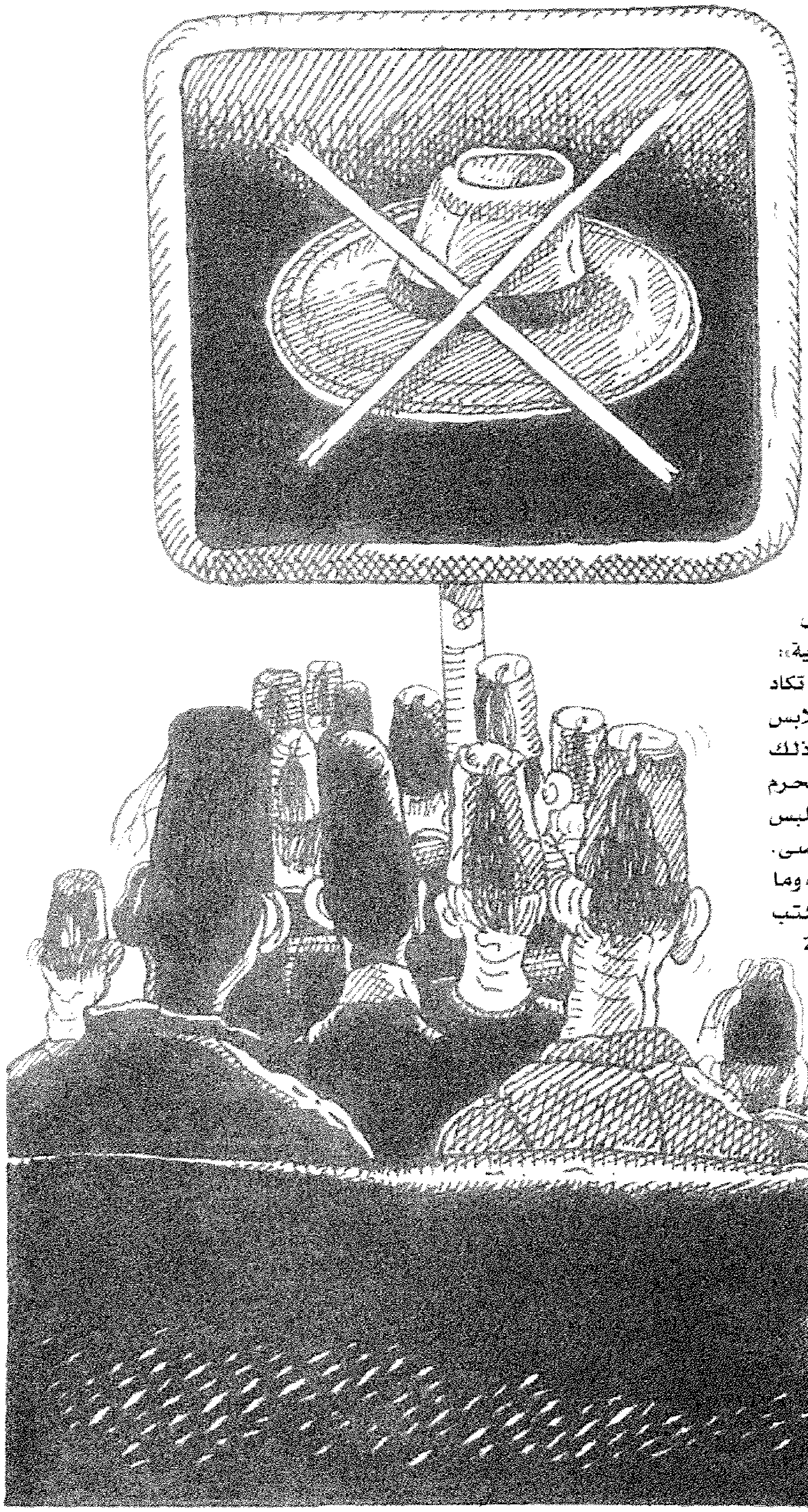
ماثيـــو إليــــوت

الحصول على الوظائف الحكومية. وفى بداية شهر فبراير ١٩٢٦ قرر ما يقرب من نصف طلبة دار العلوم حضور دروسهم فى زى الأفندية، واعترضت إدارة الكلية وطلبت وزارة التعليم من الشرطة منع دخول الطلاب الذين يرتدون الطرابيش والملابس الأوروبية. بل وهددت الوزارة بإغلاق دار العلوم ما لم يحضر الطلبة فى زيهم التقليدى، وكان رد فعل الطلبة هو الحضور إلى الكلية بالعمامة والقفطان ثم تغيير ملابسهم فجأة إلى الطربوش والبنطلون. وبناء عليه أغلقت الشرطة الكلية. وقد روى اللورد لويد المندوب السامى البريطانى الواقعة على النحو التالى:

كان طلبة كلية إعداد المشايخ يناضلون بشدة... من أجل الحق فى حضور المحاضرات بالملابس الأوروبية والطربوش. وفى اليوم الذى انتهت فيه مدة الإنذار النهائى الذى أصدرته وزارة التعليم، حضر الطلبة إلى بوابة الكلية فى خضوع وهم يرتدون القفطان الرسمى والعمامة فسمح لهم بالدخول؛ وسرعان ما تغير موقفهم فخلعوا ملابسهم فور دخولهم قاعات المحاضرات وشرعوا فى التباهى بعرض بنطلوناتهم. وهكذا اقتربوا من تحقيق هدفهم حتى أن طلبة الكليات الأخرى بدأوا يناقشون بجدية مسألة تبنى القبعات كعلامة فارقة بين الأفندية الأصليين والمزيفين.

وتوضح ملاحظة لويد الأخيرة تصميم طلبة الجامعة على الحفاظ على ما يميزهم بشكل واضح عن طلبة الأزهر وطلبة دار العلوم من حيث الملبس؛ كذلك تبين كيف حدث التغيير إبان فترة الاتجاه نحو العلمانية ومساهمة هذا التغيير فى زخم هذا الاتجاه. ومع ذلك خلقت هذه الاتجاهات نحو العلمانية مناخاً من الأزمة ومحاولات مناوئة لها. ويعطينا طه حسين، أستاذ الأدب العربى بالجامعة حينئذ، صورة جيدة لانقسام المجتمع المصرى بين المشايخ والأفندية فى سيرته الذاتية «الأيام». وقد جسدت مسيرة حياته نفسها هذا الرفض لقيم التعليم الدينى لصالح القيم العلمانية ومن ثم تعرض للاتهامات العامة بالكفر والارتداد بسبب كتابه عن الأدب الجاهلى. ولقد شاهد الكاتب البريطانى روبرت جريفز، الذى كان يدرس فى الجامعة أيضاً، هذه التيارات العلمانية والدينية المتصارعة وعلق عليها فى سيرته الذاتية وداعاً لكل ذلك:

كانت مصر تعتبر نفسها بلداً أوروبياً، ولكن كانت تحاول فى نفس الوقت أن تحل محل تركيا باعتبارها القوة المتزعمة للإسلام. وقد أدى هذا إلى كثير من المتناقضات. ففى نفس اليوم الذى خرج فيه طلبتى يتظاهرون ضد آراء أستاذ الأدب العربى (طه حسين) العلمانية، كان طلبة الأزهر، كلية علوم الدين الكبرى فى القاهرة، يرفضون ارتداء الزى العربى المحدد المتمثل فى القفطان والعمامة الحرير وخرجوا يرتدون الملابس الأوروبية والطربوش. كان الطربوش هو غطاء الرأس الوطنى الذى يرتديه الجميع حتى الموظفون البريطانيون. أنا نفسى كان لدى واحد. ولم يكن الطربوش مناسباً على الإطلاق للمناخ. فبلونه الأحمر يمتص حرارة الشمس، ويصبح قائظاً من الداخل، وليس له حواف تحمى الرقبة من ضربات الشمس.



أثارت تلك الحادثة المجادلات العامة حول العمامة والطربوش و سرعان ما توسعت لتشمل القبعات بل و قضايا التقدم والهوية. فهب الأكاديمى محمد صادق عزام يدافع عن زى المشايخ فى جريدة «البورصة المصرية»:

وعلى عكس العمامة والقفطان؛ تكاد الملابس الأوروبية -وهى ما نسميه ملابس الأفندية- أن تكون مكروهة. ومع ذلك فأنا لا أعنى أن الدين الإسلامى يحرم لبس الطربوش والبنطلون، أو أن اللبس على الطريقة الأوروبية من المعاصى. ولكن المسألة مسألة أفضلية وارتياح، وما يناسب التقاليد من ملابس. والكتب المقدسة فى الديانتين المسيحية واليهودية لا تفرض على رجال الدين عندهم طريقة معينة فى اللبس؛ ومع ذلك فالقساوسة والحاخامات يميزون أنفسهم عن أبناء ديانتيهما بغطاء رأس خاص وملابس مميزة، وخاصة فى الشرق. وهذا ينطبق على الدين الإسلامى. والقرآن لا يفرض العمامة والقفطان على رجال الدين؛ ومع ذلك من الأفضل أن يستمروا فى ارتدائهما. فمن الضرورى أن يميز أصحاب المسئوليات الدينية والأخلاقية أنفسهم عن الآخرين- ليس من أجل أنفسهم، بل من أجل احترام الدين الذى يمثلونه...

ومع ذلك اعتاد رجال

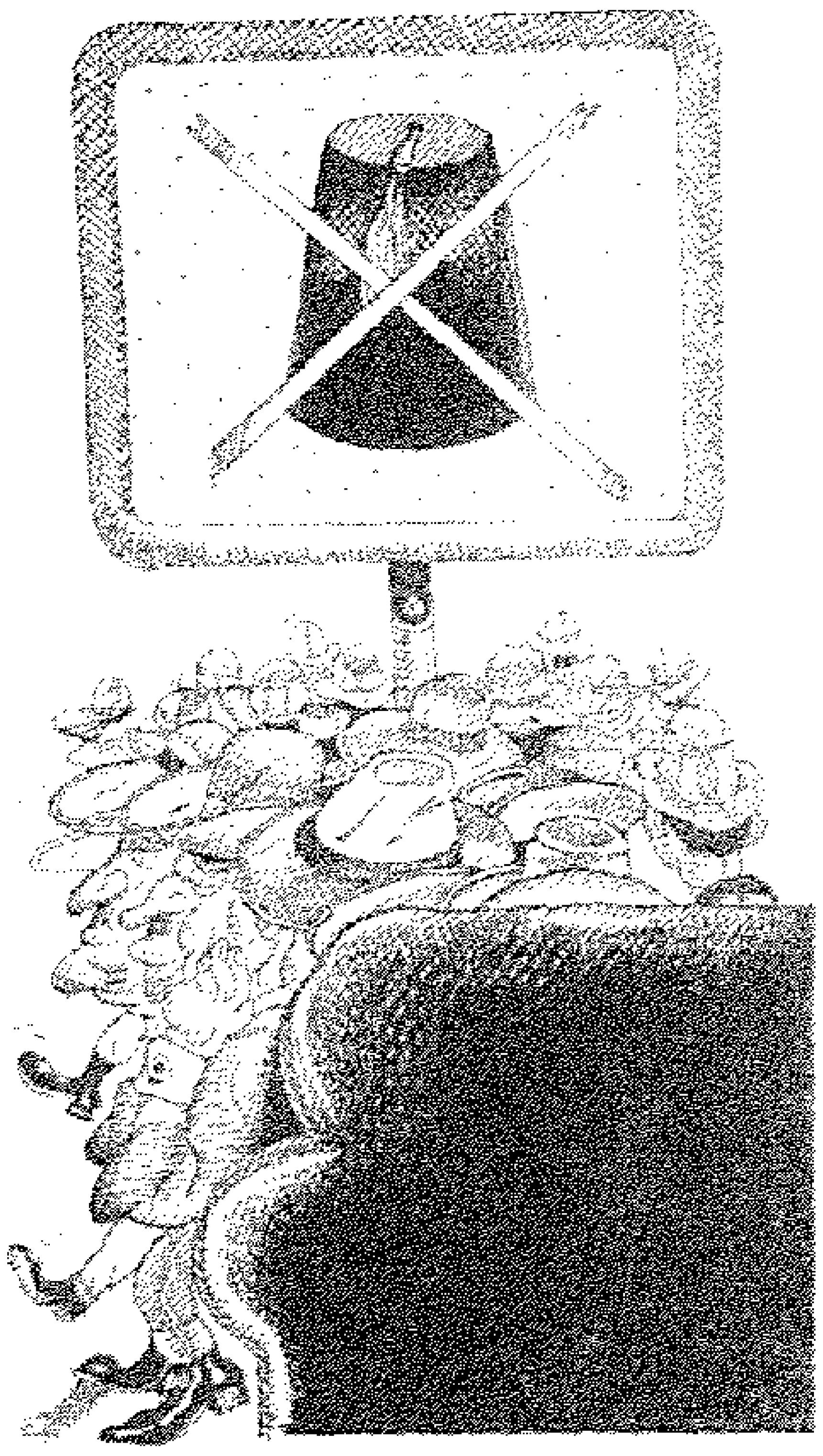
الطـــــربوش ... والعمـــــامــة... والقبعـــــة!!

القصر والسياسة على النمط المصرى العثمانى فى الملابس الذى أقره محمد على وخلفاؤه. وكانوا فى الحقيقة يفضلون أن يعتبروا ملابسهم إسلامية ومصرية بسبب الطربوش ولا يقرون أنها أوروبية وذلك لأنها ملابس تلبس من الرقبة إلى أسفل. فضلاً عن ذلك ساعد الاحتفاظ بالطربوش كدعامة للمزاعم الوطنية المصرية ومزاعم الأسرة المالكة فى إرث السلطة الأخلاقية والدينية للدولة العثمانية. ومما لا شك فيه أن رغبات الملك كانت فى ذهن الأمير عمر طوسون وكذلك فى ذهن سعد زغلول، زعيم حزب الوفد، عندما أعلنا على الملأ أن الطربوش هو غطاء الرأس المصرى الأصيل واستنكرا فى غضب ارتداء القبعات الأوروبية.

بينما صرح محمد محمود، وكيل حزب الأحرار الدستوريين، على نحو أكثر تعقلاً أنه ليس ضد استخدام القبعة ولكنه لا يفهم لماذا يريد الناس استبدال الطربوش بها. لذا وافق على الاقتراح الذى دعا إلى ضرورة اجتماع المثقفين المصريين لتقرير غطاء الرأس المناسب للمصريين.

وفى ٢٤ مارس ١٩٢٦ أدان شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية ارتداء المسلمين للقبعات. ووفقاً لما قاله لويد:

قيل أن هذا البيان صدر على أثر الزيارة التى قام بها العلماء للقصر، وأن الملك تذمر أثناء هذه الزيارة من أن العلماء لم يفعلوا شيئاً من أجل التأثير فى الرأى العام، بينما عبر الأمير عمر طوسون وسعد باشا زغلول عن رأيهما بقوة فى قضية القبعات. وكانت لغة البيان... تحتشد بالوعيد لمن يتشبهون بالكفار.



وكان بيان الأزهر بمثابة حسم للجدل الدائر حول الموضوع، لا سيما وأن وزارة المعارف (التعليم) كانت قد نجحت فى إجبار طلبة دار العلوم على الخضوع لتعليماتها. ومع ذلك استمر الهجوم على ارتداء القبعات وعلى المرتدين من أتباع كمال أتاتورك فى الصحف الدينية وشب الخلاف حول العلمانية مرة أخرى فى البرلمان خلال شهر سبتمبر. وأفضت قضية طه حسين «إلى أضخم أزمة خلال الدورة البرلمانية بأكملها» وكانت ثمة بوادر لمعارضة برلمانية لوصاية الملك الدينية واتجاهه المحافظ. وقد وصف الدبلوماسى البريطانى نيفل هندرسون الموقف على النحو التالى:

من السمات الشائقة التى لوحظت فى مناقشات البرلمان فى دولة تدين بالإسلام، ويطمح شبابها طموحاً كبيراً فى أن يصبحوا من موظفى الحكومة، ذلك الهجوم الذى شن على جامعة الأزهر ومشايخ المسلمين، و على المرتبات الضخمة لموظفى الحكومة وأعدادهم الزائدة عن الحاجة.. وبالرغم من أن الانتقادات التى وجهت للمؤسسات الدينية لم تثمر شيئاً، إلا أنه من الملاحظ أنه كان ثمة اتجاه واضح نحو النزعة العلمانية، على غرار نموذج جمهورية تركيا. وهو الاتجاه الذى سيتطور على نحو مؤكد ويؤدى مباشرة إلى الصدام مع الملك، الذى كانت بعض من أهم امتيازاته وأكثرها عائداً مرتبطة بالأوقاف.

كذلك عقدت الرابطة الشرقية، التى كانت تدعو لفكرة وحدة الشرق، جلسة مطولة فى عام ١٩٢٦ لمناقشة قضية الملابس. وكان على جدول أعمالها ثلاثة أسئلة:

أولاً: هل يجب على الشرقيين أن يحتفظوا بملابسهم دون التشبه بالغربيين، أم يتمسكون بالجزء النافع من العادات والتقاليد ويحذون حذو الغربيين فى السلوك الخارجى والملابس؟

ثانياً: أى عادات غربية خاصة بالمظهر يمكن أن ننتفع بتقليدها؟

ثالثاً: هل من المناسب، فى حالة تقرير تغيير غطاء الرأس والملابس، أن يحتفظ بعض الناس بالملابس التى تتوافق مع وظائفهم الخاصة؟

ولم يخرج ما توصلت إليه الرابطة عن التصريح العام بأن «الشرقيين يجب أن يقلدوا الغربيين فى ما هو نافع ويتفق واحتياجاتهم المختلفة، طالما لا يتعارض مع القومية الشرقية». ولكن بعد ذلك بسنتين خلال زيارة له أعلن الملك أمان الله، وهو من المؤيدين البارزين للقومية الشرقية، «عن معارضته الواضحة لارتداء الطربوش والجلباب، اللذين جعلا من الشرقى موضوعاً لازدراء الأوروبيين، بينما كانت سترة الفراك الرمادية والقبعة العالية اللتان يرتديهما «موضع ترحيب من قبل أنصار الحداثة باعتبارهما علامات أصيلة من علامات التقدم». لم يرق ذلك للعلماء أو للملك فؤاد، الذين كانوا بالطبع من أشد مؤيدى الطربوش.

فى عام ١٩٣٢ أدت إحدى المبادرات التى أطلقت فى أوساط التجار والطلبة من أجل تطوير الصناعة المصرية إلى تأسيس مصنع جديد للطرابيش. ومن المزايا الهامة للمشروع التى أشير إليها أن «الطربوش هو العلامة المميزة للغالبية العظمى من المصريين والسوريين والطبقات المتعلمة». ومن الدلائل الأخرى على تأييد الطربوش فى نفس العام النقد الذى وجهه كريم ثابت، الصحفى المعروف الناطق بلسان حال الحكومة، لبعض الدبلوماسيين المصريين فى جريدة «المقطم» وذلك لظهورهم بالقبعات العالية بدلاً من الطربوش فى المناسبات الرسمية وحفلات الاستقبال. ولاحظ أيضاً أن الملك فؤاد فى إحدى زياراته لألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وسويسرا فى ١٩٢٩ أصر على ارتداء الطربوش فى كل احتفال رسمى وأن يحذو الوفد المرافق له حذوه. فضلاً عن ذلك أظهر الملك فؤاد استياءه من أحد الدبلوماسيين المصريين الذى كان يرتدى قبعة عالية. وعقد كريم ثابت مقارنة بين القبعة البهلوية التى يرتديها الدبلوماسيون الفارسيون ووصف الطربوش بأنه «الرمز الوطنى المصرى، أو على الأقل غطاء الرأس الرسمى فى مصر». وبعد ظهور مقالة كريم ثابت بشهرين وقعت حادثة دبلوماسية بين تركيا ومصر عندما طلب مصطفى كمال أتاتورك من الدبلوماسى المصرى عبد الملك حمزة أن يخلع طربوشه فى حفل استقبال رسمى بمناسبة العيد المئوى لجمهورية تركيا. فقدمت مصر مذكرة احتجاج دبلوماسية واستعرت المناقشات فى الصحف التركية والمصرية حول الموضوع لعدة أسابيع حتى أتفق الطرفان على أنه قد حدث سوء فهم وأنه يمكن إغلاق الموضوع عند هذا الحد.

ومع ذلك استمر الهجوم على الطربوش. ففى عام ١٩٣٧ظهرت موجة جديدة من المقالات والرسائل فى الصحافة المصرية تناقش إمكانية إحلال القبعات محل الطرابيش. فعلى سبيل المثال طُرح اقتراح لتأسيس جمعية للدعوة إلى ارتداء القبعات، وهو ما استنكرته جريدة الفتح الأسبوعية. وظهر الأمير عمر طوسون مرة أخرى ونشر حديثاً دفاعاً عن الطربوش قال فيه أن من يفضلون القبعة على الطربوش يقلدون الغرب تقليداً أعمى معتقدين بذلك أنهم يلحقون بركب التقدم. ولكن ارتداء القبعة كما ذهب الأمير طوسون لم يحسن من وضع الزنوج فى الولايات المتحدة، ولم يحقق التقدم لليابانيين، أو يرفع كل الدول الأوروبية لنفس المستوى. فالملابس فى حد ذاتها لا علاقة لها بالتقدم أو التخلف، رغم أنها كرمز للعزة الوطنية والشعور القومى أحد العوامل الهامة للرقى. ومن ثم فإن الطربوش بالنسبة للأمة، شأنه شأن الدين والعادات والتقاليد، لا يجب التخلى عنه. وانتهى إلى أن دعاة التغيير المفتقرين إلى العقل يريدون الإطاحة بكل الضوابط، ولكن قوة الأمة الأخلاقية من شأنها أن تهزمهم وتكفل الرجوع إلى الصواب. وتركيز حديث الأمير طوسون على الاتجاهات اللاعقلانية واللاأخلاقية لأنصار ارتداء القبعات يعكس أصداء فتوى شيخ الأزهر ومفتى مصر عام ١٩٢٦.

وبالرغم من هذا التأييد من قبل الجهات العليا، إلا أن ثقل الاتجاه العلمانى ضد الطربوش كان فى ازدياد. ففى ٦ ديسمبر ١٩٣٨ وافق الملك فاروق بنفسه على زى جديد للقوات الجوية استبدل الطربوش بنوعين من الكابات، الفاروقية والفؤادية. وكانت هذه أول

انقسم دعاة الوحدة العربية بين مؤيد للسدارة أو الكوفية أو الطربوش. ولكن الثورة الفلسطينية التى اندلعت فى فترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ عززت من مكانة الكوفية كرمز للوحدة العربية (ولفلسطين)

خطوة نحو إحلال الكابات محل الطربوش فى القوات المسلحة، رغم بقاء الطربوش كزى للعروض العسكرية وخارج أوقات الخدمة. وطالب الأمير طوسون بإلغاء هذا القرار فى رسالة موجهة لناظر الحربية (وزير الدفاع) ولجريدة «الأهرام» ولكن بلا جدوى. فى تلك الأثناء بدأ بعض طلبة الأزهر فى الحضور بالملابس الأوروبية، وفى شتاء ١٩٣٩ قررت السلطات فرض أوامرها بالقوة: فتم منع من لا يحضر إلى الأزهر مرتدياً العمامة. ولكن الأخبار التى نقلتها جريدة منبر الشرق أفادت أن المعركة ضد الملابس الأوروبية قد باءت بالخسارة فى دار المعلمين ودار العلوم منذ الخلاف الأول الذى نشب عام ١٩٢٦.

العـــــــــــراق

أما فى العراق، التى أصبحت دولة نتيجة اندماج ثلاث ولايات عثمانية سابقة مختلفة دينياً وعرقياً (الموصل وبغداد والبصرة)، فكان الكتاب الغربيون المعاصرون غالباً ما ينظرون إلى الملابس كأحد المؤشرات الأكثر وضوحاً على الانقسامات الموجودة بين المدن والأرياف، والطوائف، والأجيال والأعراق. ففى بداية عشرينيات القرن العشرين كانت ملابس معظم سكان المدن تحتوى على الأقل على قطعة من الملابس الأوروبية، وحتى هؤلاء الذين كانوا يرتدون الحلل الأوروبية كاملة كانوا يتجنبون ارتداء القبعة، مفضلين الطربوش عليها. رأى الزائرون أيضاً القلبق، والعمائم والكوفية. وتُظهر الصور الفوتوغرافية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى الملك فيصل والضباط المرافقين له من الأشراف وهم يرتدون شكلاً مميزاً من أغطية الرأس العسكرية المكونة من خوذة مستديرة صلبة لها ذرمن أعلى، وحاشية مدلاة من الخلف وعقال، وهى شكل معدل من الخوذة العسكرية البريطانية مثل التى كان يرتديها الملك فيصل عند تتويجه. ويعزى ابتكار الفيصلية أو السدارة عادة إلى الملك فيصل أو حاشيته، ولكن ريتشارد كوك يرجع أصلها بشكل محدد إلى جعفر العسكرى وفترة حكم الأشراف فى سوريا. وفى أواخر عام ١٩٢٣ وبدايات عام ١٩٢٤ اتخذ الجيش العراقى والشرطة وكثير من طلبة المدارس السدارة غطاء للرأس، لكنها لم تحقق انتشاراً حقيقياً حتى ابريل ١٩٢٤ عندما أصدرت الحكومة العراقية مرسوماً يقضى بارتداء جميع الموظفين لها. وبدا ذلك وكأنه نهاية الطربوش، الذى كان مرتبطاً فى العراق بسكان المدن المتعلمين الذين كانوا مرتبطين بدورهم بالخدمة العامة. كذلك كان الطربوش يمثل حينئذ رباطاً غير مرغوب فيه بالحكم العثمانى والتركى. بالإضافة لذلك نظر الملك فيصل، كما يذهب إرنست مين، للسدارة باعتبارها شكلاً من أشكال العلم الوطنى يوحد كل العراقيين من خلفه:

لقد كان أمل الملك فيصل وهدفه المعلن أن يوحد الأديان والطوائف المختلفة حتى يصيروا جميعاً عراقيين، مواطنين فى دولة واحدة، وليسوا عرباً أو يهوداً أو مسيحيين أو أكراداً. ومن أجل هذه الغاية قدم غطاء الرأس الوطنى المعروف بالسدارة...

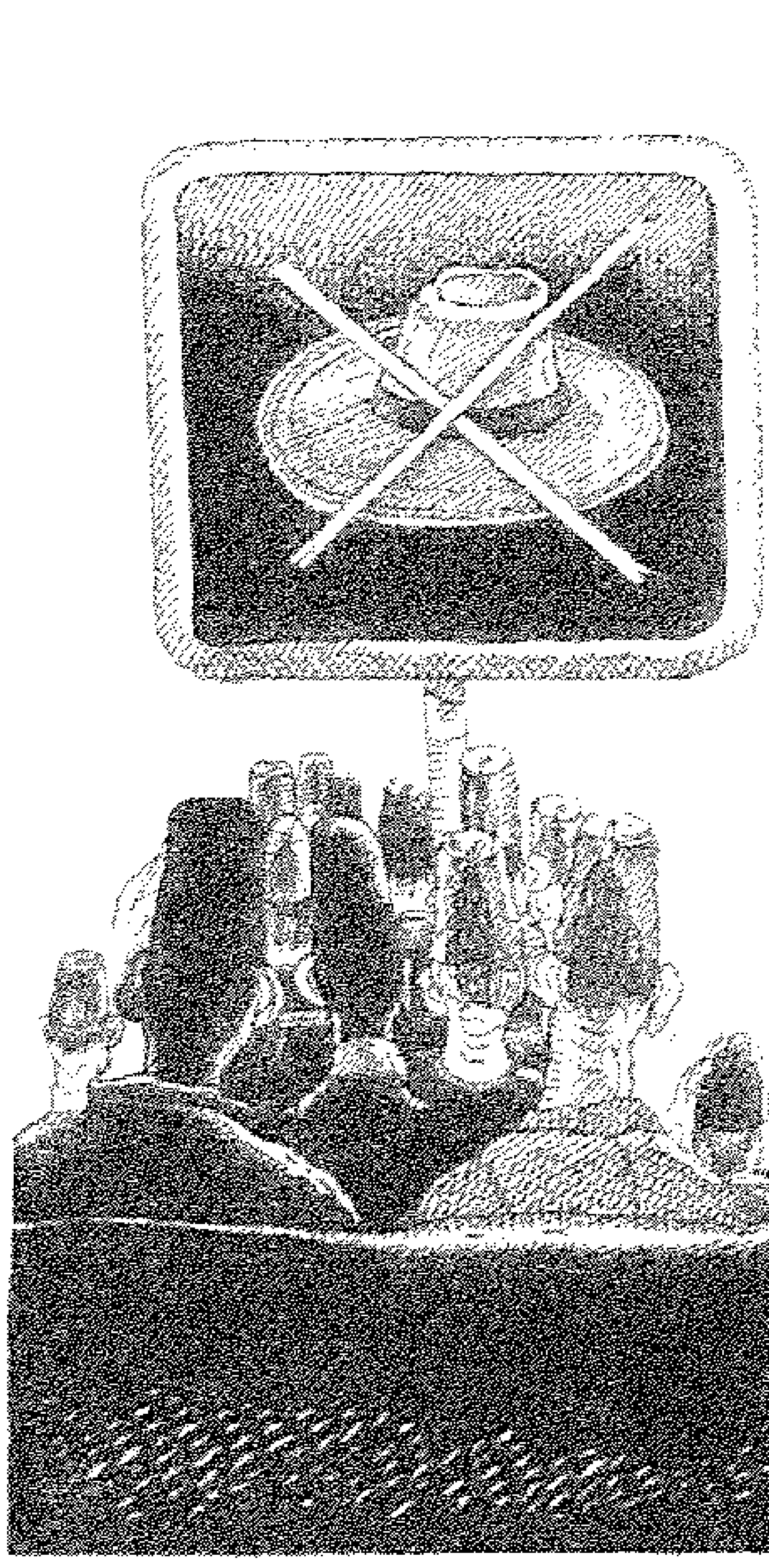
وأثار إدخال السدارة كثيراً من القضايا وأشكالاً من المجادلات تكررت فى دول مجاورة أخرى فى فترة ما بين الحربين. فعلى سبيل المثال، ساق أصحاب المدخل الاقتصادى الحجج ضد الطربوش لأنه مستورد وغال مفضلين الفيصلية الرخيصة المنتجة محلياً، كذلك دخلت التبريرات القائمة على الجوانب الصحية والعملية إلى ساحة النقاش. كذلك ذهب الملك فيصل ومؤيدوه من الشباب، الذين أسسوا حزب الأمة النشط فى أغسطس ١٩٢٤، أنهم يدعون إلى تبنى الملابس الغربية ليس فقط لأنها تعكس عادات عقلية وسلوكية غربية بل تنتج نظيراً لها. ومع ذلك فمن المدهش أنه كما تجنب المواطنون الذين اتجهوا إلى ارتداء الملابس الغربية القبعات الأوروبية، نجد أن الملك فيصل، نصير الملابس الغربية، اختار أن يكون مختلفاً فيما يتعلق بغطاء الرأس. فإذا ما أخذنا فى الاعتبار الاسم التقليدى للسدارة وهو «الفيصلية»، وتدخل الملك شخصياً فى هذا المشروع فضلاً عن دوره الرائد فى تأسيس دولة العراق، نرى أن لدينا من الأسباب ما يجعلنا ندرك أنه ثمة عنصر يتعلق بحكم الأسرة المالكة فى قضية غطاء الرأس الوطنى. فالسدارة، مثل الطربوش، ليس لها حافة وقد ساعد هذا بلا شك على تجنب الخلافات الدينية، وليس هناك إلا دلائل قليلة على أنها كانت مصدر إساءة. فبالنظر إلى أهمية الدين فى دعاوى الهاشميين بشرعيتهم السياسية وكذلك تأثير رجال الدين السنيين والشيعيين خاصة على المجتمع العراقى، لم يكن هناك دافع قوى لدى فيصل لإضافة حافة للسدارة. ومع ذلك فقد احتاط للأمر بفرض السدارة على الجيش والشرطة وتلاميذ المدارس قبل أن ينتقل للموظفين. وفيما بعد عزف الملك فيصل نغمة علمانية حذرة فيما يخص استخدام السدارة عندما أمر الموظفين المدنيين بارتدائها «مثل القبعات»-أى أن يخلعوها عندما يكونون داخل المبانى- خلال الزيارة الرسمية التى قام بها الملك فيصل بن سعود عام ١٩٣٢. وقد لاحظ المعاصرون الإصلاحات الموازية فى الملبس فى تركيا وفارس. الفرق الوحيد البين هو أن الملك فيصل لم يفرض على مواطنيه السدارة بالقوة، على الرغم من أنها أصبحت زياً إلزامياً لموظفى الحكومة وعلامة مميزة لجماعات الشباب مثل الكشافة والفتوة. كذلك شكلت الإساءة للسدارة جرماً. وفى أحد الحوادث الشهيرة تم القبض على شابة مجرية لأنها داست عليها خلال الاستعراض الذى كانت تؤديه فى أحد كباريهات بغداد. ولكن شأنها شأن الطربوش الذى حلت محله أصبحت السدارة العلامة المميزة للأفندية ولم تحظ بانتشار ملحوظ فى الريف. فعلى سبيل المثال رفض مشايخ مجلس النواب العراقى، الذين أسسوا كتلة برلمانية فى ١٦ فبراير ١٩٤٦، عضوية «الأفندية ومن يرتدون السدارة». وظلت الفيصلية، أو غطاء شبيه بها، مستخدمة بين الموظفين خلال حكم الملك غازى (١٩٣٣-١٩٣٩) وكان الملك نفسه يرتديها.

وفى عام ١٩٣٥ حذت العراق حذو فارس فى الحد من المواكب العامة المرتبطة بتقاليد احتفال الشيعة بموت الإمام على والحسين وما يسودها من مظاهر التطرف فى البكاء وجلد الذات. ولكن لم يحدث إحلال الفرس للقبعات والملابس الغربية محل الكولة والحلة البهلوية فى ذلك العام تغييراً مشابهاً فى العراق ومع ذلك كانت أغطية الرأس ذات الحواف تحظى بمؤيدين حتى من بعض ذوى المناصب العليا. ووفقاً للمؤرخ العراقى ماجد خدورى.

فى ديسمبر عام ١٩٣٥ عاد حكمت (سليمان) إلى العراق (من زيارة لتركيا) وشوهد وهو يسير فى شوارع بغداد مرتدياً قبعة على رأسه-وهى علامة ظاهرة على تأثير زيارته لتركيا. وقد تبنى حكمت سليمان، الذى أصبح رئيساً للوزراء بعد عدة شهور على أثر انقلاب عسكرى، موقفاً مؤيداً لتركيا وحض الملكة عالية على الظهور علناً بلا حجاب. ومن ثم شرع موظفو الحكومة فى التنافس على شراء القبعات، ظناً منهم أن حكومة حكمت سليمان على وشك أن تفرض القبعة كزى رسمى. وعليه ارتفعت أسعار القبعات ارتفاعاً باهظاً وسارع تجار التجزئة بطلب بضاعة جديدة من مورديهم فى الخارج (فى إيطاليا أساساً).

ســــــوريــــــا

فى عام ١٩٣٠ تقدمت مجموعة من علماء الدين السوريين والتجار والحرفيين إلى الشيخ بدر الدين الحسنى إمام القطر واشتكوا اليه ان الشرطة والموظفين المدنيين يرتدون القبعات وطلبوا منه التدخل دفاعاً عن التقاليد الوطنية والإسلامية. ثم ذهبوا إلى جلسة استماع مع ابنه تاج الدين الحسنى، الذى كان رئيساً للوزراء، فاستمع إلى انتقاداتهم للقبعة (بما فى ذلك عدم كونها صالحة فى مواجهة الشمس)



واقتراحهم أن يحل محلها «غطاء الرأس الوطنى» المتمثل فى الكوفية والعقال. ووافق تاج الدين على دراسة المسألة.

ويسجل دليل وزارة الخارجية البريطانية الخاص بالمراسلات الدبلوماسية ملفاً من سوريا عن عام ١٩٣١ تحت عنوان «مغزى مظاهرات الطلبة المؤيدة لغطاء الرأس العربى». لكن هذا الملف لم يكتب له البقاء. ومع ذلك تلقى تقارير الصحافة المعاصرة الضوء على القضية:

فى دمشق حضر تلاميذ اثنتين من المدارس الحكومية وهم يرتدون غطاء الرأس البدوى المكون من الكوفية والعقال، بدلاً من الطربوش أو القبعة الأوروبية. وعندما رفض مديرو المدرستين السماح لهم بالدخول توجه الطلاب إلى وزارة التعليم، التى وعدت بأنه سيتم توجيه الأوامر لمديرى المدرستين للسماح لهم بالدخول.

فحسب ما جاء فى صحيفة «الشعب» الصادرة فى دمشق، كان هناك اتجاه لاستخدام الكوفية والعقال بدلاً من الطربوش، على الأقل بصورة مؤقتة، حتى يتم اختيار غطاء رأس وطنى. كان كثير من طلاب المدارس الابتدائية والثانوية، الحكومية والخاصة، يرتدون الطربوش. فى ٢٢ من مارس ١٩٣١ تجمع عدد كبير من الطلبة السوريين فى ميدان المرج وقاموا بحرق كومة من الطرابيش، مثلما فعل أنصار غاندى فى الهند بالمنسوجات الأجنبية، وبذلك وهبوا أنفسهم لقضية غطاء الرأس الوطنى.

وبالرغم من أوجه الشبه مع مظاهرات الطلبة فى مصر التى وصفناها آنفاً ومع التدمير الأوسع للطرابيش فى تركيا، إلا أن الصحفيين السوريين اتجهوا أولاً للتفكير فى التأثير الهندى. كذلك افترضت صحيفة الشرق الحديث Oriente Moderno أن هذه الحوادث «يمكن أن تكون نتيجة لتوجيهات الزعيم الهندى شوكت على (عندما كان فى يافا) بضرورة دعم المنتجات الوطنية والحفاظ على الملابس المحلية». فى الواقع ذهب معارضو الطرابيش إلى أن كثيراً منها مستورد. أما الراديكاليون السوريون فقد هاجموا الطرابيش فى بعض الأحيان انطلاقاً من أسباب حزبية سياسية باعتبارها شارة السياسيين فى الجبهة الوطنية المحافظة. ولكن بعد ذلك بأسبوع اقترح فخرى بك البارودى، أحد الأعضاء البارزين فى الجبهة، إقامة مسابقة عامة، لها لجنة محكمين، لتصميم نموذج لغطاء رأس سورى. على أن يحل هذا النموذج محل الطربوش وكل الأشكال الأخرى المستخدمة فى غضون خمس سنوات. وقد تضمنت شروط المسابقة أن يكون الشكل أنيقاً، وصناعة سورية، وأن يحمى الرأس من الشمس والمطر، وأن يكون مريحاً فى الصلاة، وأن يتمتع بسمات عربية.

اجتمع الشباب المؤيد لغطاء رأس وطنى يمثل الأمة العربية فى الثالث من أبريل، هذه المرة فى ميدان الفرج بمدينة حلب، وهم يرتدون الكوفية والعقال ويحملون طرابيشهم القديمة فى أيديهم. فأشعلوا ناراً، وألقوا بالطرابيش فيها وهم يصفقون ويهتفون، وقام المتظاهرون بحرمان بعض المارة، ممن اقتربوا بدافع الفضول ليروا ما يحدث، من طرابيشهم فألقوا بها أيضاً فى النيران. وفر المارة الآخرون فى الوقت المناسب، رغم استمرار المشاجرات والحوادث. وبعد أن خمدت النيران، التى التهمت ما لا يقل عن أربعمائة طربوش، ختم المتظاهرون احتفالهم بعمل حلقة ورقص الدبكة.

وعلى الرغم من أن القوميين السوريين الراديكاليين ودعاة الوحدة العربية عبروا عن سخطهم على الطربوش، فقد راوحوا بين الكوفية التقليدية المميزة للأرياف وسدارة الإصلاحيين المميزة للحضر والمؤيدة للعراق. وكما رأينا فإن طلبة المدارس على وجه التحديد هم الذين انغمسوا فى هذه القضية. وقد عكست السياسات التى تبنتها منظمات الشباب إزاء الملابس التحولات والانقسامات الأوسع فى سوريا حول الهوية والطموحات القومية. فعلى سبيل المثال كان الفرع السورى لحركة الكشافة يرتدى فى الأصل زى الكشافة مع الطرابيش ولكنه استبدلها فى بداية الثلاثينيات بالسدارة ثم الكوفية فيما بعد. وقد عمل على تدعيم الشعور بالوحدة العربية من خلال تبادل الزيارات مع العراق وفى عام ١٩٣٧ دعا وزير التعليم السورى كل تلاميذ المدارس للانضمام للكشافة. وتبنت مجموعة أخرى من الشباب القومى، وهى مجموعة القمصان الحديدية، السدارة إبان تأسيسها عام ١٩٣٦، أما بالنسبة لرابطة العمل القومى، التى كانت تضم أعضاءً من الحضر والأرياف، فقد أقرت السدارة لأعضاء الحضر والكوفية للفلاحين (الذين كانوا يرتدون سروالاً واسعاً بدلاً من البنطلون الغربى) ولكنهم قرروا فيما بعد سياسة عامة فى جانب الكوفية. وبدا التحول باتجاه الكوفية مرتبطاً بالثورة الفلسطينية. ولكن قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة عاد التعاطف مرة أخرى تجاه العراق وذلك نتيجة لتزايد شهرة الملك غازى كمؤيد للثورة القومية فى سوريا وفلسطين. فطالب طلاب جامعة دمشق، على سبيل المثال، الملك غازى أن يصبح ملكاً على سوريا (بالاتحاد مع العراق) وأن تحل السدارة محل الطربوش.

أصبحت قضية القبعة موضع مناقشات مطولة فى سوريا على وجه الخصوص وذلك نتيجة لارتباطها بنشاط تركيا فى استعادة سنجق الإسكندرونة من سوريا. فى ديسمبر عام ١٩٣٤ قام أحد المدرسين بجامع ينى كامى بأنطاكية بسب مجموعة من الأتراك الذين يرتدون قبعات ونعتهم بالكفار واعتدى عليهم جسدياً لدخولهم مسجده وتضاربت أقوال الصحف التركية والعربية حول الحادثة. وفيما بعد قام الأتراك الداعون لاستعادة الإسكندرونة بنقل الفلاحين فى حافلات إلى المدن لاستبدال طرابيشهم بقبعات، وعندما أثار ذلك انتباهاً كبيراً قاموا بحملات سرية فى الأرياف لتوزيع عربات نقل محملة بالبيريهات والكابات. وتصاعد عدد الحوادث والاعتقالات المرتبطة بغطاء الرأس مع اقتراب موعد الاستفتاء على مستقبل الإسكندرونة، وعندما دخلت القوات التركية السنجق فى يوليو ١٩٣٨، تمت مهاجمة من يرتدون الطرابيش علانية فى شوارع أنطاكية. وقد تهكمت صحيفتا «المساء» و«الشباب»، اللتان كانتا تدركان أن الأقلية العربية سوف تخسر فى الاستفتاء، على حركة استرداد الأرض التركية فى شعر ساخر:

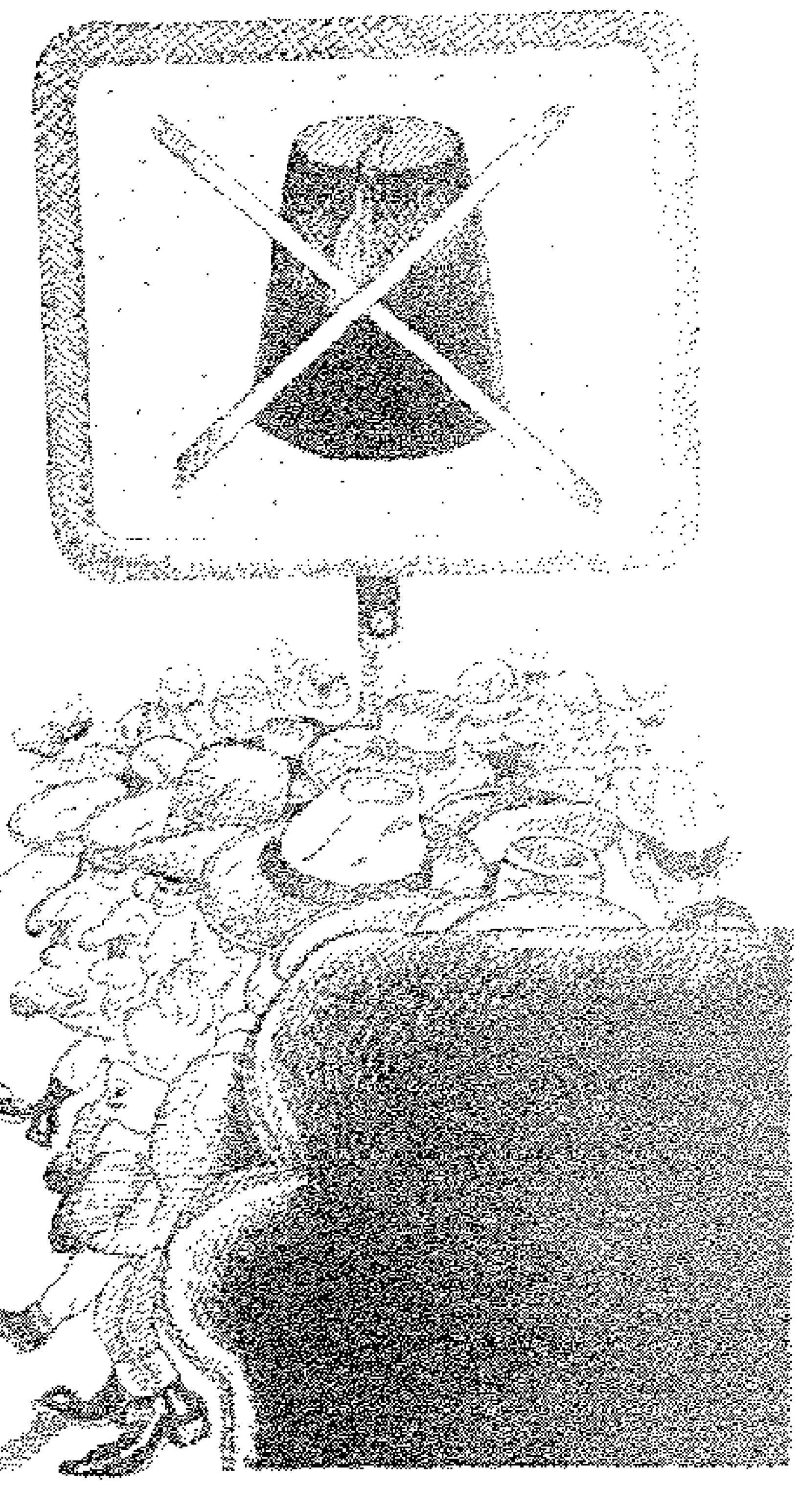
لقد ارتدينا الكابات، وارتدينا القبعات،
ومزقنا طرابيشنا شذرات.
شارات العبودية! لا سيفونات!
و حول رؤوسنا لا نلف عمامات.

وكان أحد القرارات الأولى التى اتخذها مجلس الإسكندرونة تحت السيادة التركية هو التصويت على قانون يجعل القبعات غطاء رأس إلزامياً.

فلسطين

كذلك أثار قانون القبعات الثورى فى تركيا جدلاً فى فلسطين: ففى ٢٠ أبريل ١٩٢٦ اجتمعت مجموعة مكونة من خمسين شاباً من المسلمين والمسيحيين فى القدس لمناقشة القبعات ورسائل واردة من كبار رجال الدين المسلمين والمسيحيين فى فلسطين حول هذه القضية. وقد رجحت معظم المخاطبات استخدام القبعة بدلاً من الطربوش، كذلك اعتبر الشباب المشاركون القبعة صحية أكثر. ومع ذلك اعترضت صحيفة فلسطين اليونانية الأرثوذكسية التى كانت تصدر من يافا على أن القبعة، حتى وإن كانت مفضلة من بعض الأوجه، فهى غير مناسبة للظروف السياسية القائمة فى فلسطين:. فإذا تبنى سكان فلسطين الأصليون القبعات فسوف يدعو ذلك الأوروبيين إلى الافتراض أنهم صهاينة، ومن ثم يعطى دعامة جديدة للمزاعم الصهيونية.

بعد ذلك بعامين قرر مؤتمر التعليم الفلسطينى العربى أنه يتعين على طلبة



كان الطربوش علامة بينة على النزعة المحافظة فى السياسة والثقافة والدين، ومع أن المسيحيين واليهود كانوا يرتدون الطربوش إبان الحكم العثمانى، إلا أن دلالته الإسلامية كانت أكثر من الكوفية أو السدارة

المدارس الثانوية فى المستقبل ارتداء القمصان الأوروبية والشورتات بدلاً من القفطان التقليدى أو الحلل الحديثة الجاهزة، وعدم ارتداء الطرابيش أو أى شكل آخر من أغطية الرأس داخل الأبنية المدرسية. ورغم أن هذا شكل خطوة واضحة تجاه السلوك الأوروبى الحديث، إلا أنها كانت خطوة معتدلة وعملية فى تجنب الشكليات التقليدية والأوروبية. لذا نجد أن إقبال على شاه الأفغانى، الذى ساح بأرجاء فلسطين عام ١٩٢٩، اندهش اندهاشاً بالغاً من الاحترام والعناية التى تولى لأنماط الملابس المختلفة. ومع ذلك ذهب الكاتب اليهودى إتامار بن آفى، فى تعليق له على تصريح المندوب السامى بعصبة الأمم، السير جون روبرت تشانسلر، أن فلسطين غير مؤهلة للحكم النيابى، قائلاً أنه تكون لديه انطباع بالتخلف الثقافى من الطربوش الذى يضفى هيئة عثمانية على كثير من المسلمين والمسيحيين واليهود من الطبقة المتعلمة الذين يرتدونه. فطالب بن آفى:

أيها الفلسطينيون، تخلوا عن الطربوش! فليس له علاقة بالجنسية: حيث إنه جاء من جزيرة كريت، وفرضه السلاطين العثمانيون: وها هم الأتراك أنفسهم يتبرأون منه الآن. فليس لدى فلسطين الآن وقد انفصلت عن تركيا للأبد أى دافع لتحتفظ به، ولاسيما أن غالبية الدول العربية قد تخلت عنه. من المستحسن أن ينتقى الفلسطينيون، دون تمييز دينى، غطاء رأس موحداً مثل العقال الذى يرتديه البدو، والذى يرجع على الأرجح إلى غطاء الرأس اليهودى القديم. فسيكون أكثر رونقاً وموضع تقدير فى الاحتفالات. على أية حال، دعونا نتخلص من الطربوش!

بعد ذلك تلقت الحركة الداعية للزى الوطنى حافزاً جديداً من الأوساط الإسلامية القومية. ففى ١٣ فبراير ١٩٣١ استقبل المفتى أمين الحسينى شوكت على فى يافا. وألقى شوكت على خطاباً جماهيرياً فى الجمعية الإسلامية المحلية استناداً إلى خبراته الهندية:

أطالبكم بأن ترتدوا الملابس الوطنية والزينة الوطنية... لقد كنت أنا وأخى نرتدى الملابس الأوروبية ونحاكى الأوروبيين فى تأسيس منازلنا. لكنهم كانوا يحتقروننا. لذا تخلينا عن المحاكاة، ورجعنا إلى ملابسنا الوطنية، واستأنفنا سلوكياتنا التقليدية. فأطلقت لحيتى، وهى لا تجعلنى بأى حال أكثر وسامة، احتجاجاً على حياتى الماضية. لقد تغيرنا حتى نعمل على عزة بلدنا وديننا. لقد بدأ الأوروبيون يحترموننا... آمل عندما أعود مرة أخرى إلى فلسطين أن أجدكم فى ثياب عربية.

وبعد ذلك بأقل من شهر، فيما بدا وكأنه استجابة لنداء شوكت على، أعلنت الغرفة التجارية فى نابلس عن تأسيس شركة نسيج عربية لإنتاج أنواع مختلفة من الأقمشة تكفى احتياجات البلاد وتكون قادرة على أن تحل محل البضائع المستوردة، معتمدة فى ذلك على رأس مال عربى بالكامل وقوة عمل عربية خالصة. فى نفس الوقت لاحظت صحيفة الكرمل أنه ظهرت حركة، فى أنحاء البلاد، تساند صناعة الملابس الوطنية. فى العام القادم... سوف نشهد إحياء للملابس الوطنية. ولقد ظهرت نماذج أولى لنمط غطاء الرأس العراقى فى فلسطين.. تصنع فى مجدل.

كذلك قدمت صحيفة فلسطين إعلانات مجانية لمنتجى النسيج وأغطية الرأس المحليين أو السوريين (وقدم هؤلاء المنتجون بدورهم خصومات خاصة للمدارس التى تقدم الزى الوطنى والفيصلية لتلاميذها). ونقلت صحيفة ألف باء الدمشقية فى عام ١٩٣٢ أن بعض سكان يافا بفلسطين تبنوا الفيصلية لأنها «تظهر رغبة المسلمين والعرب فى أن يكون لهم نفس الزى ونفس الطموحات والمشاعر، وكعلامة على تقديرهم للملك فيصل «بسمارك العربى».

ومع ذلك فإبان الثورة العربية توارت الحملة من أجل السدارة فى خلفية المشهد. ففى أغسطس ١٩٣٨ أطلق الثوار استراتيجية جديدة عندما أمروا كل الفلسطينيين بالتخلى عن الطربوش وارتداء الكوفية والعقال. وجاء فى صحيفة التايمز ما يلى: الحظر الفلسطينى العربى على الطربوش: الاتجاه الوطنى فى الملابس.

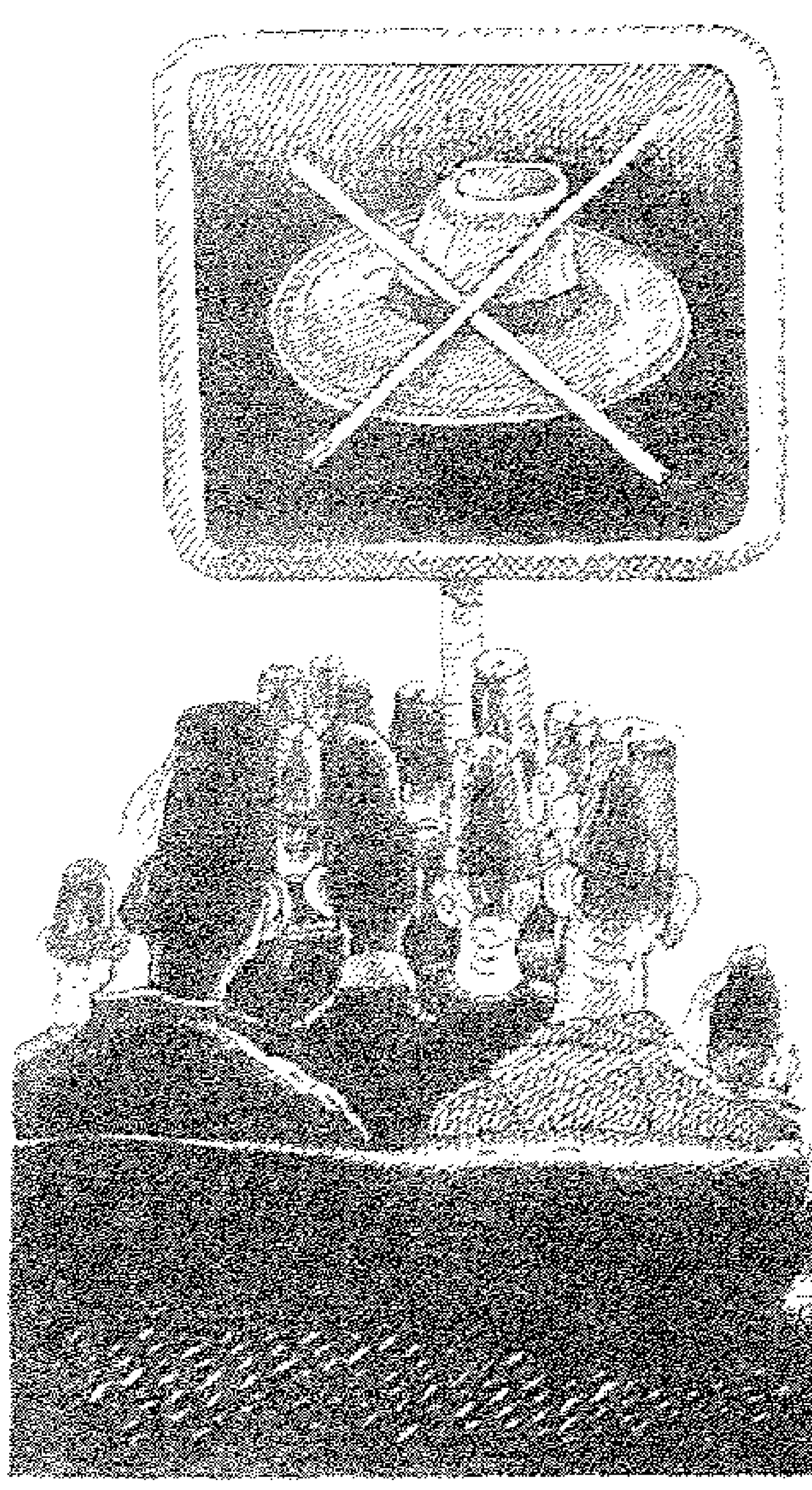
بدأ الحظر الناجح الذى تناقلته الأنباء على الطربوش الأحمر، الذى يشكل زينة خلابة للمدن الفلسطينية، بالقرار الصادر من «مقر القيادة العامة للثورة العربية فى فلسطين» الذى أعلن منذ أسابيع قليلة فى كل المساجد يدعو كل عربى مخلص إلى ارتداء الكوفية أو الحطة والعقال المستخدمين بين قبائل الصحراء وسكان القرى.

ومنذ ذلك الحين امتدت الحملات الاعتيادية لتحطيم الطرابيش إلى المدن. فظهرت أول ما ظهرت فى يافا، وأصبحت ملموسة فى القدس. وسارع الشباب، أو الدماء الشابة إلى الاستجابة لتلك الحملات، وحذا الصبية الصغار حذوهم. وقد توخى الأرمن والأقليات الأخرى الحذر واستجابوا للنمط الملابس الجديد. والدافع وراء هذا القرار غير معلوم، حتى لدى الذين يساعدون على تنفيذه. فيقول البعض أنه يؤكد على عودة روح العروبة والثورة على نزعة التغريب؛ وذهب آخرون إلى أن القرار قصد به جعل هجمات رجال العصابات على المدن أقل وضوحاً؛ أو أن القرار يستهدف المساواة فى المعاملة بين الفلاحين والأفندية خلال حملات التفتيش. ومما لا شك فيه أن الثوار العرب يرغبون فى التأكيد على الوحدة العربية وذلك بمحو أبرز علامات التفرقة الطبقية بين الأفندية والفلاحين.

وكانت الضغوط التى مورست من أجل الانصياع لقرار التخلى عن الطربوش من الشدة بمكان حتى أن عائلة النشاشيبى ومؤيديهم، الذين تمسكوا فى البدء بالطربوش، ارتدوا الكوفية والعقال فى نهاية المطاف. لقد أصبحت الكوفية والعقال رمزاً قوياً للثورة حتى أن السلطات البريطانية اضطرت إلى منع المحامين من ارتدائهما فى المحاكم. ومع ذلك فبنهاية الثورة العربية وإعلان الكتاب الأبيض الخاص بفلسطين عام ١٩٣٩ عاد سكان المدن مرة أخرى إلى ارتداء الطربوش. وفى عام ١٩٤٠ صرح رشيد الحاج إبراهيم وهو من القوميين العرب لصحيفة فلسطين أنه حان الوقت للتخلى عن الكوفية والعقال. فهذه الملابس، كما قال، تميز أهل الريف؛ وأن الطربوش أكثر صلاحية للوحدة العربية.

خـاتمـة

بالرغم من أن الدول العربية لم تحذُ حذو تركيا وإيران وأفغانستان فى إصدار قوانين للملابس والقبعة، إلا أنها كما رأينا تأثرت فى تلك الفترة بهذه الدول المجاورة وكذلك بأزياء النماذج السياسية الليبرالية والشمولية فى أوروبا. فملابس وأسماء بعض حركات الشباب فى سوريا ومصر، على سبيل المثال، توحى بنموذج إيطاليا الفاشية. ومع ذلك استمرت قضية الزى العربى وغطاء الرأس العربى فى فترة ما بين الحربين خاضعة للاعتبارات التقليدية الخاصة بالطبقات والطوائف بالإضافة إلى النظريات الحديثة، المحلية رغم ذلك، عن الوطنية، والقومية العربية، والوحدة الإسلامية بل والقومية الشرقية. وقد شغلت هذه القضايا المتعلقة بالملابس معظم فئات المجتمع من الحكومة إلى الفلاحين وارتبطت بمجموعة من السياسات من المقاومة الراديكالية (مثل الثورة العربية فى فلسطين وحركة استعادة الأرض فى لواء الإسكندرونة) إلى بناء الأمة وتأسيس شرعية الأسر الملكية. وحتى خلال تلك الفترة، وهى فترة المد العالى للعلمانية فى الشرق الأوسط، كان هناك رفض عميق بين المسلمين لتبنى القبعات الغربية. ولم تنته نقطة التناقض الأساسية بين الملابس الغربية والشرقية، وهى مسألة اختلاف غطاء الرأس، إلا فى الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية حيث ساد اتجاه عام نابع من إرادة الأفراد نحو تعرية الرأس. ■



خير رفيق فى الزمان!!!

رضوى الشافعى



«إن أصعب ما كان على التعامل معه هو أن أرى وأشهد علاقة الناس بالكتاب وهى تتغير وتتحول. كانت الكتب فى الماضى تعتبر مقتنيات غالية لا تقدر بثمن. وكانت تعامل باحترام، ولا يفرط فيها بسهولة. منذ عدة أيام، رأيت مجموعة من الأطفال يلقون بكتبهم المدرسية فى سلة المهملات. لقد حطم ذلك قلبى. أخجل أن أقول ذلك، لكن المنظر أبكانى؛ لم أستطع التحكم فى دموعى. قلت لنفسى إن هذه الكتب هى التى علمت هؤلاء الأطفال. إذا كان هذا هو الجزاء الذى حصلت عليه، فماذا سيكون جزاء آبائهم؟».

بائع كتب على سور الأزبكية

- Egypt Today الطبعة العربية - خريف 2003

كنت أعلم وأنا أتجول فى طرقات معرض الكتاب معها، أن رفيقى فى الطريق للحاق بالديناصورات. لكنى لم أكن بعد على استعداد لمجاراة السخرية والدخول به إلى حوارات التهريج والسخف. كانت صديقة وعزيزة، أحبها لنقاء قلبها، فقط! كانت الجملة الأولى: «يلا نشترى فشار ونركب الطفطف».

طفطف! كانت تقصد الأتوبيس الذى ينقل الزوار بين أجنحة المعرض المختلفة، والذى يرتبط فى ذهنها بتلك الوسيلة الترفيهية للنقل التى كان يستقلها المصطافون فى المصايف قديماً، والتى ربما لا زالت موجودة حتى الآن فى بعض المدن الساحلية المصرية.

صديقتى جامعية مثل الأغلبية، لا تمت للثقافة بصلة؛ تنظر للكتاب على أنه أداة مملة للنجاح فى الامتحان، سواء كان مدرسياً أو جامعياً. وبعد أن انتهت هذه المرحلة الدراسية، انتهت علاقتها بالرفيق الذى لم يفارق ساعاتى على مدى السنوات الطويلة بعد التخرج.

طالما لاحت أمامى تلك الفكرة الغريبة: ماذا لو أجد نفسى أمام ذلك الأبله الذى صنف القراءة على أنها هواية، نضعها فى بنود استمارات التوظيف أو السير الذاتية. هل بدأت هذه الفكرة التى أعطت للناس ذريعة اختيار السباحة أو جمع الطوابع كبديل مشروع من أحد الأشخاص فعلاً؟ وترى كيف سيبدو هذا الشخص؟

أذكر أحد المسلسلات التليفزيونية القليلة الممتعة تدور أحداثه فى حى الفجالة، وليس هو مسلسل الفجالة المعروف، بل مسلسل آخر تابعته منذ أكثر من عشر سنوات وأكثر ما لفت نظرى فيه مقدمته الغنائية. عشر سنوات أو أكثر ولا زال صوت محمد منير يدور فى رأسى بين الحين والآخر:

عينى عليكِ يا فجالة
م الرجالة العيرة بشنبات
عايشين فى حاجات
وحاجات بدل الكُتُبات

كانت فكرة المسلسل تدور حول المكتبات التى تتحول واحدة بعد الأخرى إلى محلات لتجار السيراميك، وعن الروائى بطل المسلسل وروايته التى لم تكتمل بعد. ربما هذا نفسه ما يشعر به هؤلاء الذين مرت سنواتهم بين الكتب، يرتبون ويرصون، يبيعون ويشترون، والكثير منهم يقرأ ما تقع عليه يده من هذه الكتب قبل بيعه: باعة الأزبكية القدامى. أقول القدامى لأن الجدد منهم لا يختلفون عن صديقتى كثيراً، حتى لو كانوا أبناء الباعة المحنكين، والذين ورثوا تلك المهنة عن آبائهم، لكنهم لم يرثوا ثقافتها.

كان سور الأزبكية القديم يعج بالباعة الذين يعرفون كتبهم واحداً واحداً. عم حسين كان من بين الكثيرين الذين عشقوا كتبهم فى سور الأزبكية. قابلته للمرة الأولى عام ١٩٩٠، وكنت أقلب فى كتبه المعروضة.

فاجأنى وأنا أقلب فى صفحات كتاب بعنوان The Dynamic Laws of Healing للكاتبة الأمريكية كاثرين بوندر. قال لى: «هذا الكتاب عن الطب البديل». هززت له رأسى بابتسامة بسيطة ولم أعر كلامه اهتماماً. اشتريت منه هذا الكتاب وبعض الكتب الأخرى وطلب منى عشرين جنيهاً فقط.

أعطانى وقتها كارت عليه تليفونه واسم مكتبته، أو كشكه. لما جاء الوقت وبدأت قراءة ذلك الكتاب، كان موضوعه لا يبعد كثيراً عما قاله عم حسين: الطب البديل. كان يدور حول قوانين الإرادة البشرية والطاقة الذهنية فى مداواة الأمراض(بعيداً عن الطب والعقاقير)، وكيف أن معظم الأمراض التى تصيب الجسد تبدأ من العقل والضغوط النفسية التى يمكننا القضاء عليها من المنبع بتفعيل تلك الطاقة الكامنة فينا.

لم أتصل بعم حسين بعدها، بل ذهبت إليه مباشرة. لم أجده وعلمت أنه «ذهب لشراء بعض الكتب من زبون فى الحلمية». علمت منه حين عاد أنه يطلب من كل من يشترى منه الكتب أن يتصل به ويخبره إذا علم أن أحداً من معارفه سيتخلص من أى كتب لديه، بل ويذهب ليأخذها بنفسه وينقلها إلى كشكه، حيث يقوم بعملية فرز دقيقة، ويضع كل كتاب مع الكتب التى تقع فى نفس المجال. كان يذهب لينقذ الكتب من صناديق القمامة وباعة الروبابيكيا، وفى نفس الوقت يسهل على من ضحوا بالكتب التى تزحم مكتباتهم عملية النقل. «ترى هل تبدو التحف أو الورود التى وضعوها مكانها أجمل من كتبى»؟!

سألته وقتها إذا كان يجيد اللغة الإنجليزية، ولم يكن. وكيف عرف موضوع الكتاب الذى باعه لى؟

«أنا أعرف موضوعات كل كتبى، حتى الفرنسية والألمانية منها. أعرف الكثير من الكلمات والمصطلحات فى هذه اللغات. عرفت معانيها من زبائنى على مر السنين. لم أترك هذا الشعر الأبيض ينمو هباء. أما الكتب العربية، فأنا أقرأها جميعاً، حتى الكتب المدرسية منها. أنا أعرف كل كلمة تغيرت فى المناهج المصرية على مر السنين»!

بالطبع لم أكن بالغباء الذى يجعلنى أفقد الاتصال بمثل هذا الرجل البسيط العميق. ظللت على اتصال به منذ ذلك اليوم، حتى مات عم حسين منذ ثلاث سنوات. حزنت عليه كما أحزن على كتاب حبيب أفقده، وليس هذا بقليل.

إذا كنت من القراء النهمين، تعرف بالتأكيد ذلك الدفق الشعورى الذى ينتاب الواحد منا من وقت لآخر بالقراءة فى موضوع بعينه. كان كل ما على هو إجراء مكالمة تليفونية قصيرة لعم حسين وأسأله إذا ما كانت لديه كتب فى هذا الموضوع. حتى المرات القليلة التى لم يكن أحد الكتب التى أسأل عنها متوفراً لديه، كان يتصل بى بعدها بأيام قليلة. وكنت أعرف ما سيقوله بالضبط: «طلبك جاهز يا أستاذة».

كان يذكر ما اشتريته منه من كتب بالضبط، وأنا واحدة فقط من ضمن زبائنه. وإذا تكرر سؤالى عن كتب فى نفس الموضوع، لم يكن يكرر ما اشتريته من قبل، حتى لو كان ذلك قبلها بسنوات. كنت فى تلك الفترة أفضل القراءة بالإنجليزية، وكان يعرف ذلك من نفسه، رغم أنى اشتريت منه كتباً بالعربية أيضاً. حين طلبت منه ذات مرة كتباً عن اليوجا، فاجأنى وقتها بكتابين من أفضل الكتب التى قرأتها فى هذا الموضوع، وبالإنجليزية. بالطبع لا زالا فى مكتبتى، وفى آخر مرة مددت يدى لأحدهما، كتبت عليه:

رحم الله عم حسين!

عم أمين، أحد باعة الكتب الآخرين فى الأزبكية. فى حوار أجرته معه مجلة «ايجيبت توداى» راح يحكى قصة زمن راح، زمن كان الكتاب فيه يعامل باحترام.

«إن أصعب ما كان على التعامل معه هو أن أرى وأشهد علاقة الناس بالكتاب وهى تتغير وتتحول. كانت الكتب فى الماضى تعتبر مقتنيات غالية لا تقدر بثمن. وكانت تعامل باحترام، ولا يفرط فيها بسهولة. منذ عدة أيام، رأيت مجموعة من الأطفال يلقون بكتبهم المدرسية فى سلة المهملات. لقد حطم ذلك قلبى. أخجل أن أقول ذلك، لكن المنظر أبكانى: لم أستطع التحكم فى دموعى. قلت لنفسى إن هذه الكتب هى التى علمت هؤلاء الأطفال. إذا كان هذا هو الجزاء الذى حصلت عليه، فماذا سيكون جزاء آبائهم؟».

أعطى الله عم أمين الصحة.

كانت الكتب فى الماضى تعتبر مقتنيات غالية لا تقدر بثمن. وكانت تعامل باحترام، ولا يفرط فيها بسهولة. منذ عدة أيام، رأيت مجموعة من الأطفال يلقون بكتبهم المدرسية فى سلة المهملات. لقد حطم ذلك قلبى

وماذا كان مصير كتب عم حسين؟

ظل ابنه محمود يعمل فى إرث أبيه من الكتب، لكنه لم يكن يعرفها ويحبها. وأنا أيضاً لم أعد أعرف محمود وأحبه. كان عم حسين حاصلاً على الشهادة الابتدائية: أما محمود فحاصل على بكالوريوس فى التجارة.

هل كان عم حسين يقرأ لابنه؟ حسب المركز القومى الأمريكى لدعم ثقافة الأسرة، فإن أفضل ما يقوم به الآباء هو القراءة بصوت مرتفع لأبنائهم. تشير دراسات المركز إلى أن من بين المهارات التى يكتسبها الأطفال، وهم يستمعون إلى آبائهم يقرءون، التعرف على الحروف المختلفة للغة، وإدراك أن الكلمات المطبوعة تمثل كلمات منطوقة، وتعلم مسك الكتاب وتقليب صفحاته والانتظار حتى نهاية ذلك الكتاب. كما أن القراءة المتكررة للأطفال تمثل تعرضاً أكثر تعقيداً وفصاحة للغة، ومن ثم الوصول بهم إلى ثقافة إدراكية أكبر. تصبح القراءة من هنا مصدراً للتساؤل والبحث، وينمو الإنسان بها جزءاً لا يتجزأ من حياته.

أما نحن هنا فنشجع الأطفال على التخلص من كتبهم المدرسية بعد ظهور نتيجة الامتحان مباشرة، وربما ننادى باعة الروبابيكيا بأنفسنا. يا لها من قدوة نقدمها لأطفالنا! نلقى بكتبهم المدرسية، بدلاً من أن نقرأ لهم صغاراً.

انظر إلى كتب الأطفال بعد مرور شهر واحد على بدء الدراسة، وسترى معنى الكتاب فى مجتمعنا جلياً: كتب مهلهلة، كانت منذ شهر واحد جديدة خرجت لتوها من المطبعة. وليت معاملة هذه البراعم الصغيرة للكتب نابعة من عدم اقتناعهم بما فيها. وتلك قصة أخرى! إن ثقافة الحفظ عن ظهر قلب، والالتزام بما فى الكتاب المدرسى قتل عمد لروح البحث، والرفض والنقاش.

أما حال خريجى الجامعات، فلا يختلف كثيراً عن أطفال المدارس.

وائل نجيب، شاب فى السابعة والعشرين من عمره، حاصل على بكالوريوس التربية، قسم اللغة الإنجليزية. لم يقرأ كتاباً واحداً منذ تخرجه، ولا قبل الالتحاق بالجامعة، فيما عدا الكتب المدرسية، وبعض مغامرات رجل المستحيل!

«لا أدرى ما هى مشكلتكم فى أننا كشباب لا نقرأ. أنا أعرف كل ما يهمنى من التليفزيون والجرائد. أما فكرة الإمساك بكتاب بيدى يدور حول نفس الموضوع من الجلدة للجلدة، فهو شىء ممل جداً».

- وماذا عن دراستك الجامعية؟ هل مرت هى الأخرى دون أن ينمو لديك ولو احترام بسيط للكتاب؟

«كان لدينا أستاذ يدرس لى مادة الدراما والمسرح فى الجامعة، وكان يلح علينا دائماً بقراءة كتب أخرى غير المقررة علينا، ويخرج من محاضرته كل من لا ينفذ ذلك. بصراحة، لم أكره فى حياتى مثل هذا الرجل. ألم يكفه ما لدينا من كتب دراسية».

أما كرم عبد العزيز، خريج كلية العلوم، والمفترض فيه البحث المستمر، فلا يختلف عن وائل كثيراً رغم اضطراره للقراءة فى بعض الموضوعات، على حد قوله، بسبب طبيعة عمله فى إحدى شركات الأدوية الأجنبية.

«لاحظت منذ بداية عملى مع الشركة أن على القراءة فى بعض الموضوعات المتعلقة بمجال عملى حتى لا أصبح كالجاهل بين زملائى الأجانب. لكن فيما عدا ذلك، أنا بصراحة لا أميل لقراءة الموضوعات الطويلة. أما الشعر والروايات التى تعشقونها أنتم (ولا أدرى من المقصود بأنتم هنا)، فصراحة لا تمثل لى سوى تضييع وقت».

لا عجب أن نرى أغلبية خريجى الجامعات يتلعثمون إن حاولوا قراءة خطاب بصوت

كتاب الزاوية

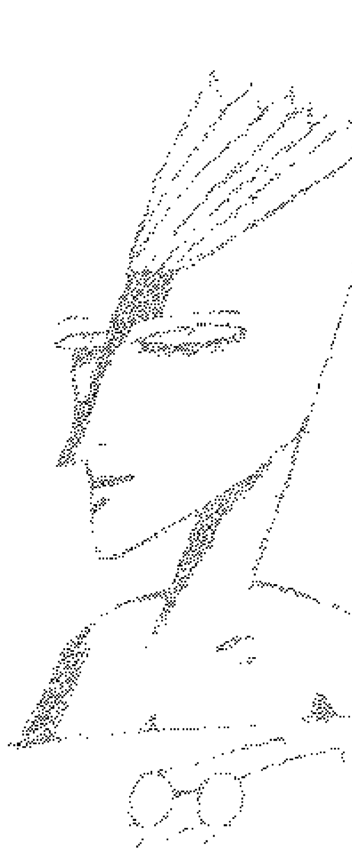
أحمد لطفى السيد

حرية الصحافة

خير ما تفعل الحكومات لنفسها وللأمة التى تحكمها أن تكون مع الصحافة على غاية من التسامح. فلا تقف فى طريق رقيها لأن ذلك وقوف فى طريق حرية الرأى العام ومصادرة لاعتقاده. لا يأتى إلا بنتيجة عكسية. لأن الرأى العام بطبعه عنيد تزيده طرائق العنف تشبثًا بمعتقده. وتشعل مصادرة الحرية فى صدره لهب الحرية المتوقد وضوءها الساطع. وسرعان ما يتسرب إليه سوء الظن بالحكومة التى تريده على أن يفل غرب حدته، مهما حسنت نيتها وأرادت له الخير وخافت عليه من الوقوع فى شر نفسه.

خير ما تفعل الحكومة أن يكون اتكالها فى الحكم على رغبة الناس لا على إرهابهم، ولا طريقة لذلك إلا أن تكون هى والصحافة على وفاق فى الرأى واقتراب فى النظر وتشابه فى قواعد الحكم.

تلك حقيقة تعترف بها كل الحكومات لأنها لم تستغن يومًا من الأيام بجبروتها وقوة عساكرها وقدرتها على منافع الناس، لم تستغن بذلك كله عن أن تتخذ لها من الصحافة نصيرًا يهيئ الرأى العام لقبول مشروعاتها، ويؤيد قواعدها التشريعية، ويبرر تصرفاتها التنفيذية، حتى الحكومة النيابية، فإنها مع ما لها من قوة الوكالة عن الأمة، وما فيها من الثقة لا غنى لها عن أن تأوى من مناصرة الصحافة إلى ركن شديد.



مرتفع. القراءة مهارة مكتسبة مثل أى مهارة أخرى نتعلمها ونكتسبها ونبرع فيها. يجد الواحد منا نفسه دون أن يدرى فصيحاً يعرف حتى قواعد اللغة دون أن يدرسها. مهارة وليست هواية.

ليس انحسار القراءة مشكلتنا الوحيدة هنا فى العالم العربى، ولكن كيفية القراءة أيضاً. انزعج جداً ممن يرددون كلمة قصة بشكل مستمر وكأنها مرادف للقراءة. هذا ما يطلقه أغلب الشباب على كل الصنوف الأدبية عدا الشعر. فالمسرحية قصة والرواية قصة والقصة القصيرة قصة. والقصة تعنى حدوتة ومسلية. وما عدا ذلك من الكتب فهو «كتب أكاديمية لا تهم إلا الدارسين فى مجالها». أنا لا أتجنى هنا ولكنها الحقيقة التى لا تخفى إلا على أعمى بصيرة أو منافق.

لا أذهب بعيداً إن قلت إن القراءة هى المكون الرئيسى للعقل البشرى. ومن دونها نسير بهذا العقل دون أن يتكون. نصبح مجرد مجموعة عادات يومية تمتلئ بالتفاصيل الصغيرة المكررة يوماً بعد يوم. بعيدين عن عالمنا وعن كم الرسائل الهائلة التى يرسلها الآخرون فى سماء هذا العالم، وقد خُلقنا لنقرأ.

رغم الأسباب الكثيرة الحقيقية لتراجع القراءة/الوعى والتكوين الفكرى، تثار مسببات ربما ليست على هذا القدر من الإدانة التى تنصب عليها.

لا شك أن للإنترنت دوراً فى تراجع دور الكتاب فى الحصول على المعلومات. لكن هناك نقطتين أساسيتين هنا: أولاً، إن الكتاب ليس مجرد وسيلة للحصول على المعلومات، بل مكون رئيسى للفكر الإنسانى. أنا لا أنكر دور الإنترنت، فهى بالنسبة لى أصبحت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها. إنها مصدر ضخم ورهيب للمعلومات ووسيلة اتصال ونشر فى منتهى الفاعلية. ولكنى لا أرى فى ذلك عوضاً عن الكتاب من الناحية المنطقية. هل ما كنا نبحث عنه فى الكتاب هو سرد لمجموعة معلومات؟

وحتى لو نظرنا للإنترنت من ناحية عرضها المكثف للكتب المختلفة ودور النشر المنتشرة فى كل دول العالم، هل معنى ذلك أننا قرأنا تلك الكتب؟ تعرض الشبكة الكثير من الكتب بشكل كامل على صفحات مواقعها متاحة للقراءة بالمجان أو باشتراك، ولكن هذا الجزء تحديداً لا يمثل تراجعاً أو انحساراً للكتاب، فاختلاف صورة الكتاب من نص مطبوع إلى نص إلكترونى ليس إلا أحد التطورات المقبولة والهامة. وفى النهاية فإن الشخص الذى يذهب إلى الكتاب الإلكترونى هو من البداية قارئ اختار شكلاً آخر للقراءة.

ثانياً: إذا كانت نسبة مستخدمى الإنترنت فى العالم العربى تتراوح ما بين ١ إلى ٧ ٪ من عدد السكان، فكيف ينظر إلى هذه النسبة الضئيلة كعامل مؤثر لإصدار الحكم بأن الإنترنت صرفت أو عوضت الناس عن القراءة؟ إن هذه النسبة فى أغلبها تستخدم الشبكة فى أغراض العمل أو التسلية. وهذه النقطة على ما استهلكته من طول نقاش ليست فى حقيقتها سوى اتهام باطل للإنترنت.

ارتفاع أسعار الكتب أحد المسببات الأخرى المثارة. وهى حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها. نعم ارتفعت أسعار الكتب، خاصة الأجنبية منها، لكن النسبة الأكبر من الشباب لا تقدم لك ذلك سبباً لابتعادها عن القراءة. إن من يسعى وراء الكتاب يصل له حتى لو كان مرتفع السعر، والطرق عديدة، سواء كانت مكتبات عامة، أو استعارات من الأصدقاء.

أنا لا أدعى أنى أضع يدى على الأسباب الحقيقية، لكنى أعرف بلا شك أنها تتعلق بغياب قيم كثيرة من حياتنا. أصبحت حياتنا اليومية، رغماً عنا سلسلة طويلة من التفاصيل الصغيرة تصرفنا جميعاً بعيداً عن أنفسنا الحقيقية، وتجرفنا فى دوامة كسب العيش. فلا الأب لديه الوقت ليغرس قيماً، ولا المدرسة، التى هى مؤسسة ضمن مؤسسات المجتمع الروتينى، تشجع روح الابتكار والبحث. وحين يأتى دور الجامعة، حتى ولو كانت فرضاً فى قمة فاعليتها، لا تستطيع إصلاح ما أفسده الدهر. ■

عبدالرحمن منيف:

الرواية تاريخ من لا تاريخ لهم

فاروق عبدالقادر

■ في ٢٥ يناير الماضي وبعد طول ترحال وتنقل من منفى إلى آخر، ترجل أخيراً الروائي العربي الملحمي عبدالرحمن منيف عن عمر يناهز ٧٥ عاماً، جدّد خلالها فن الرواية العربية وأدخلها في ضروب جديدة ثم إنه أعاد قراءة التاريخ الحديث للجزيرة العربية بصورة غير مسبوقة.

وقد اختارت «وجهات نظر» نشر جزء من المقدمة التي كتبها الناقد الكبير فاروق عبدالقادر عن الروائي الراحل في الطبعة الصادرة عن دار الهلال في يونيو ١٩٩٨ لروايته الملحمية «مدن الملح».

المحرر

في ١٩٧٣، فوجئ قراء الرواية العربية بنجم جديد يبزغ بقوة وثبات. بعضهم كان يعرفه معنياً بجانب آخر من قضايا الواقع العربي. كان الاسم عبدالرحمن منيف، والعمل الأول «الأشجار واغتيال مرزوق» رواية صلبة ومتماسكة: من خلال لقاء عابر في قطار يقطع أرضاً عربية. عن عمد لا يسميها، ولم يسم بعدها أرضاً أخرى، فعنده لا أهمية للاسم، طالما بقيت الفروق بين هذه الأرض العربية وتلك فروقاً في النسبة لا في النوع. يلتقي رجلان، ومع الليل والحركة الرتيبة وكئوس العرق يتقاربان، يتقاسمان الطعام والشراب وخبرات الحياة. والرواية، بعد، هي هاتان الشخصيتان، عليك. بعد أن تفرغ من قراءتها. أن تعيد ترتيب التفاصيل كي تبنى صورة واضحة لكل منهما.

وتضاربت الأقوال حول هذا الروائي الطالع، قيل شامي، وقيل عراقي، وقيل بل من الجزيرة العربية. والحقيقة أن شروطاً ذاتية وموضوعية تحالفت كي تجعل من عبدالرحمن منيف المواطن العربي بامتياز: الأب من نجد والأم عراقية، ولد في عمان (١٩٣٣)، وظل بها حتى أنهى دراسته الثانوية (وقد استعاد ذكرياته منها في كتاب جميل هو «سيرة مدينة. عمان في الأربعينيات، ١٩٤٤»). ثم ارتحل إلى بغداد كي يكمل دراسته الجامعية: لكنه انغمس في نشاط سياسي كثيف في فترة من أخطر الفترات في العراق، وبعد توقيع «حلف بغداد» أُبعد عن العراق في ١٩٥٥، فجاء إلى القاهرة يكمل دراسته «الحقوق» في جامعتها، وفي ١٩٥٨ سافر إلى يوغوسلافيا ليتابع دراسته في جامعة «بلجراد»، وفي ١٩٦١ حصل على الدكتوراة في العلوم الاقتصادية (كان موضوعها: اقتصاديات النفط. الأسعار والأسواق)، وحول منتصف الستينيات قرر عبدالرحمن منيف التوقف عن العمل السياسي، فأنهى علاقته بالتنظيمات (في ١٩٦٣ أسقطت عنه جنسيته السعودية. وسحب جواز سفره)، عمل عبدالرحمن في مجال النفط في سوريا، وفي ١٩٧٣ غادرها إلى بيروت للعمل في مجلة «البلاغ»، وفي ١٩٧٥ سافر إلى بغداد ليصدر مجلة متخصصة بعنوان «النفط والتنمية»، وفي ٨١ خرج من بغداد إلى باريس حيث تفرغ للكتابة، وفي ١٩٨٦ عاد إلى دمشق، ولايزال مقيماً فيها.



صدرت روايته الأولى، إذن، وقد بلغ الأربعين. ثم تتابعت الأعمال: «قصة حب مجوسية، ٧٤»، «شرق المتوسط، ٧٥»، «حين تركنا الجسر، ٧٦»، «النهايات ٧٧»، «سباق المسافات الطويلة، ٧٩»، «عالم بلا خرائط. بالاشتراك مع جبرا ابراهيم جبرا ٨٢». وكان عقد الثمانينيات هو عقد الغوص في «مدن الملح»: صدر جزؤها الأول «التيه» في ٨٤، والثاني «الأخدود» في ٨٥، والثلاثة الباقيات: «تقاسيم الليل والنهار»، و«المنبت»، و«بادية الظلمات» في ٨٩، ولعله لم يكن قد بارح عالم مدن الملح تماماً في عمله الذي صدر بعدها «الآن هنا، أو شرق المتوسط مرة أخرى، ٩١». فأحد بطليها الرئيسيين ينتمي إلى هذه المدن على وجه التحديد، وهو الآن عاكف على عمل جديد بعنوان «أرض السواد» يتمنى أن ينجزه هذا العام.

يقول عبدالرحمن منيف: «منذ سنة ١٩٥٠ حتى ١٩٦٥ كنت مستغرقاً تماماً في السياسة والعمل السياسي، ولكنني رأيت أن هذا كله خدعة كبيرة، كان الواحد منا يتصور أن المؤسسة السياسية يمكن أن تكون أمينة في قناعاتها ومقولاتها السياسية، ومن خلال التجربة، رأينا أن هناك فارقاً كبيراً بين الأفكار التي كان يؤمن بها ويدعو لها، والممارسات الفعلية في الواقع، وما أمكن الوصول إلى نوع من الضيعة أو التعايش للبقاء ضمن تلك المؤسسة. وبدأ البحث عن أشكال جديدة لمواجهة العالم ومحاولة تغييره.. ومن هنا كان الاقتراب من أداة أخرى من أدوات التعبير والتغيير هي الرواية».

إذن، بقي الهدف هو هو، لكن المحارب يستبدل سلاحاً بسلاح. ولكن: أي رواية يعني؟ إن لهذا المبدع الكبير أفكاره حول «التجربة الروائية» في عمومها وفي تفاصيلها كذلك، وهي أفكار أنضجتها الممارسة قبل أي شيء، وكلها تدور حول محور واحد: تأسيس الرواية العربية وتطويرها وتجديدها: «صحيح إنه لا يمكن وضع مقاييس أو مواصفات كاملة أو نهائية لكيفية كتابة الرواية. لكن مع ذلك يجب أن تستلهم موروثاً، وأن تمد جذوراً، وأن تكتسب طرائق وصيغاً من الأرض والناس، وأن تتوجه إليهم في الوقت نفسه، ومن هنا فإن معرفة الموروث الثقافي للشعب، ومعرفة الواقع، يمكن أن يساعدا معاً في خلق رواية من نمط جديد، ليست امتداداً أو تقليداً للرواية، وليست عودة إلى استحضار أساليب عصور ميتة..»

على هذا الدرب يمكن أن تصبح الرواية أداة تعبير وتغيير، أداة جميلة للمعرفة والمتعة، وأن تصبح. حسب تعريف صديقه المنفي الأبدي غائب طعمه فرمان. هي «الشجاعة المكتوبة». لكن هذا يتطلب أن تكون الرواية «تاريخ من لا تاريخ لهم»، أن تكون «حافلة بأسماء الذين لا أسماء كبيرة أو لامعة لهم، وسوف تقول كيف عاشوا وكيف ماتوا وهم يحلمون، وسوف تتكلم الرواية أيضاً وبجرأة، عن الطغاة، والذين باعوا أوطانهم وشعوبهم، وتفضح الجلادين والقتلة والسماسرة والمخبرين نفوسهم. ولابد أن تقرأ الأجيال القادمة التاريخ الذي نعيشه الآن وغداً، ليس من كتب التاريخ المصقولة، وإنما من روايات هذا الجيل والأجيال القادمة..».

في هذا الضوء يعرض منيف لبعض هموم الرواية العربية.. إنه.. على سبيل المثال، يناقش مفهوم الحداثة، وهو يسميها «الحداثة»، ويتعامل معها على أنها «روح أكثر مما هي شكل، وأنها حالة أكثر منها صيغة. إنها. ضمن أبسط المفاهيم. الاتساق مع العصر والضرورة والحاجة.. والحداثة الأوروبية ثمرة تطور موضوعي، هذا التطور يمكن أن نستنتج منه قوانين عامة، لكن له خصوصيته أيضاً ومن ثم فالهموم التي تواجه تلك الحداثة ليست بالضرورة همومنا».

ثم يقدم بعض الأفكار حول مظاهر وعناصر الحداثة في الرواية العربية المعاصرة: أولاً إن الحداثة مرآة الحياة والناس، بمعنى أن الرواية العربية يجب أن ترتاد أفقاً جديداً بأن تركز كل اهتمامها على الناس العاديين، وإعطائهم الفرصة لكي يقولوا همومهم وأحلامهم «إذ بعد أن غيبوا عمداً فترة طويلة، ولأسباب قد لا تكون خافية، فقد حان الوقت لأن يحتلوا مكانهم الطبيعي والحقيقي في هذه الحياة..» ثانياً: الحداثة بطولة الواقع والبسطاء.. «إن بطل الرواية الفرد، الذي يملأ الساحة كلها، وما الآخرون إلا ديكور لإبرازه وإظهار بطولاته. إن هذا البطل الوهمي، الذي سيطر على الرواية العالمية فترة طويلة. آن له أن يتنحى، وألا يشغل إلا ما يستحقه من مكان وزمان، وهنا يظهر مفهوم جديد للبطولة الروائية، حيث يتعاقب الناس الأبطال، كمياه النهر الجاري. بحيث لا يتوقف الواحد منهم أكثر مما يحتمل المشهد أو الحالة. فاسحاً المجال، بعد ذلك، لكي يأتي الآخر، البديل، المكمل، ويواصل المشوار. الحياة». ثالثاً: من أكثر الأمور إشكالية في الحداثة العربية اللغة. إن اللغة التي عاشت زمناً طويلاً في مرحلة صعود، كانت قادرة على استيعاب الآخر وتلبية الحاجات المستجدة، لكنها أصيبت بالجمود، ثم التراجع، في مرحلة لاحقة «وبمرور الوقت انقسمت إلى لغتين: الفصحى والعامية، وجر هذا الانقسام إلى تطور متفاوت بالنسبة لبنية كل منهما، وإلى ازدواج في الفكر والتعبير، وبالتالي إلى ازدواج حتى في الشخصية.

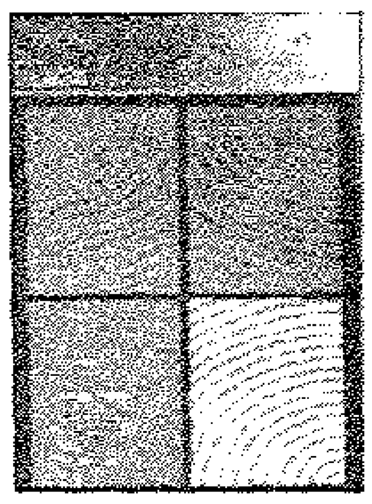
تلك بعض هموم الرواية العربية الحديثة. كما يراها عبدالرحمن منيف (وهل يعرف الشوق إلا من يكابده..؟) ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الطبعة الفنية.. تاريخ وجماليات البارز والغائر

صبرى حجازى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ١٥٣ صفحة



يجد الناس صعوبة فى فهم ما الذى يجعل صورة مطبوعة صورة أصلية، خصوصاً إذا تشابهتا إلى حد التطابق. المؤلف هنا يتابع السياق التاريخى لتطور فن التعبير التشكيلى من خلال الطباعة، ويشرح المعنى الحقيقى لعلاقة التجربة الفنية بالتكنولوجيا.

إن فن الحفر والطباعة لغة تتميز باتساع مفرداتها وإمكانياتها التشكيلية، وهو يتميز بالتنوع الكبير فى طرقه الأدائية التى تندرج تحت أقسام رئيسية هى: الطباعة البارزة والطباعة الغائرة والطباعة المستوية وطباعة الشاشة الحريرية.

لقد كان فن الحفر والطباعة أسلوباً أصيلاً للتعبير عن الطاقة التشكيلية الكامنة داخل عديد من الفنانين، وفى كثير من الأحيان كان هو الوسيط لتسجيل نمط الحياة اليومية لكثير من المجتمعات. وقد ألهم عشرات الفنانين فى مختلف العصور، مثل فان جوخ وفويارد، كما أنها ساعدت آخرين مثل جويا فى نضالهم السياسى والاجتماعى، وكانت بالنسبة للوتريك هى الشكل الذى يناسب طبيعته المندفعة، ويسير فن الحفر والطباعة اليوم موازياً لسيل الابتكارات الحديثة.

من ملف المسرح المصرى فى الستينيات والسبعينيات

صافى ناز كاظم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٢٢٢ صفحة



شهدت مصر نهضة مسرحية فى فترة الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن الماضى، تشكلت فيها ملامح المسرح المصرى، وخرج من رحمها جيل من صناع المسرح لاتزال بصماتهم واضحة ومؤثرة حتى اليوم.

ولهذا اهتم بتلك الفترة كثير من نقاد ومؤرخى المسرح.

المؤلف تناول عشرين عرضاً مسرحياً: ١٣ عرضاً من فترة الستينيات، و٧ عروض من فترة السبعينيات.

وهى تبدأ بمقدمة أرخت فيها لتجربتها الخاصة فى النقد المسرحى، بدءاً من تخرجها من كلية آداب القاهرة (قسم صحافة) عام ١٩٥٩، ثم سفرها إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراستها المتخصصة فى نقد المسرح أولاً بجامعة كانساس، حتى حصولها ثانياً على ماجستير فى نقد المسرح عام ١٩٦٦ من جامعة نيويورك.

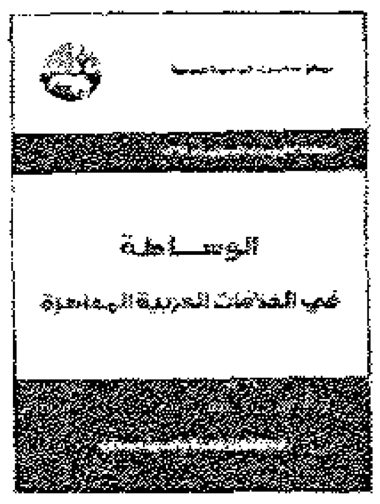
وحين رجعت إلى مصر عملت فى مجلة «المصور» فى الفترة من ١٩٦٦ - ١٩٧١.

تناولت الناقدة عشرين عرضاً مسرحياً لأهم وأبرز العروض المسرحية فى فترتى الستينيات والسبعينيات لكبار كتاب المسرح العالميين، مثل مسرحيات «الإنسان الطيب» لبرتولد برخت، «حاملات القرابين» لإسخيلوس، و«الغول لانجلو» لبيتر فايس. ولكبار كتاب المسرح المصريين والعرب، مثل مسرحيات: «شهرزاد» لتوفيق الحكيم، «مأساة الحلاج» لصلاح عبد الصبور، «الزير سالم» لألفريد فرج، «ليلة مصرع جيفارا» لميخائيل رومان، «تحت المظلة» لنجيب محفوظ، «ثورة الزنج» لمعين بسيسو.

الوساطة فى الخلافات العربية المعاصرة

نهلة ياسين حمدان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٣٤٢ صفحة



الوساطة أحد أشكال إدارة الصراع، وعادة ما يقوم بها طرف ثالث يكون غير متورط فى الصراع كمنازع.

وهى تختلف عن الإجراءات القانونية مثل التقاضى والتحكيم، وتعتمد على التزام الأطراف بحكم صريح يصدره الطرف الثالث.

والكتاب يحقق فى موضوع الوساطة فى النزاعات السياسية فى الوطن العربى، ومن شأن فهم أفضل لموضوع الوساطة فى الخلافات العربية - العربية، أن يفضى إلى حلول سلمية لكثير من الصراعات.

ويرجع المؤلف أن طبيعة النظم السياسية والأعراف الثقافية فى البلدان العربية، يمكن أن تسهم فى هذا بشكل كبير.

وبعد فصول ستة، يقدم المؤلف خلالها فهم الوساطة فى السياق العربى، والعلاقة بين الثقافة والوساطة، وتفسير عمليات الوساطة، وتحليل نتائج الوساطة، والنزاعات العربية - العربية، والنزاعات العربية - غير العربية، يقدم المؤلف استنتاجاته وتوصياته لتفعيل عملية الوساطة فى إدارة الصراعات.

عالمية الإسلام

رجائى عطية

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٣، ٢٤١ صفحة



يتعرض الإسلام فى هذا الزمن لهجمات متوحشة ضالة.

إذ تنتزع نصوصه من سياقها، ويستغلون تصرفات خرقاء هوجاء لبعض حركات التطرف التى تنسب نفسها للإسلام، وهو منها براء، كى يشوهوا صورة الإسلام والمسلمين.

وإزاء هذه الهجمة الشرسة، تبدو الدعوة إلى عالمية الإسلام مهمة خطرة وضرورية فى آن معاً، وهى لازمة للمسلمين قبل غيرهم ممن يدينون بغير الإسلام. وحق عليهم أن يعرفوا موجباتها وما تستلزمه فى لغة الخطاب بينهم أولاً، ثم فى مواجهة الآخر ثانياً.

عالمية الإسلام التى يدعو اليها المؤلف هى الصلاحية والقدرة على الامتداد فى المكان وفى الزمان.

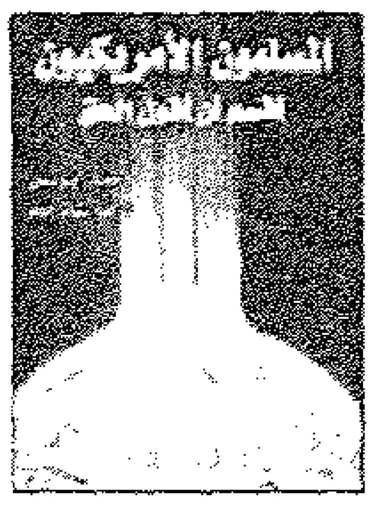
وهى صلاحية تكتسب قوة دفعها من روح الإسلام وجوهر العقيدة.

عبر خمسة عشر فصلاً يفسر المؤلف للمسلمين وغيرهم، ما الذى يعنيه بعالمية الإسلام.

المسلمون الأمريكيون

أحمد يونس

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ٦١ صفحة



يسعى الكتاب إلى تقديم أحد التصورات العديدة للمسلمين الأمريكيين عن مكاننا المناسب داخل تعددية المجتمع الأمريكى، وإلى توضيح دور هوية المسلم الأمريكى داخل هذه الفسيفساء، فى اجتهاده لاتباع ما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهو يفعل ذلك مع الاقتناع الكامل بأن أزمة العقل المسلم هى نتاج حقائق سياسية واجتماعية، جعلت من تحليلاتنا للواقع المحيط مجرد ردود أفعال، بدلاً من أن تكون نتاجاً لمبادراتنا الخلاقة من أجل تفعيل الإسلام فى حياتنا.

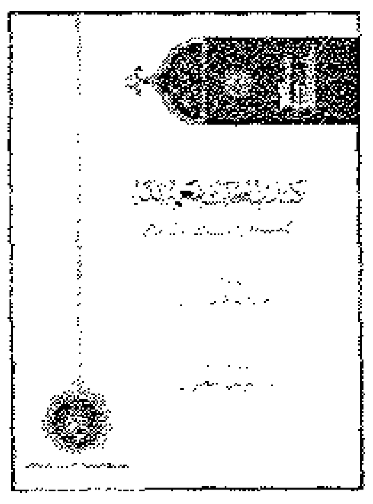
كما يؤكد المؤلف على أن المكون الأكثر ثراءً فى الملكات الإنسانية للمسلم هو قدرته المعرفية، ولهذا يحتاج الإسلام فى أمريكا - كما يقول - إلى العمل الدءوب المخطط، الذى يجعل من الإسلام والمسلمين قوة مهمة تقف على قدم المساواة مع قوى التعددية الأمريكية. هذا ما يرمى اليه المؤلف، وهو أمريكى من أصل مصرى، له نشاط بارز على أصعدة سياسية واجتماعية وقانونية فى الولايات المتحدة، برغم أنه فى عشرينيات عمره.

كتاب التحدث بنعمة الله

جلال الدين السيوطى

اليزابث مارى سارتين

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الذخائر)، ٢٠٠٣



تمثل السير الذاتية جانباً مهماً فى الثقافة العربية الإسلامية، ربما أكثر مما تحويه أى ثقافة أخرى، وهى لم تكن ترفاً أو تزيداً، بقدر ما كانت نوعاً من التحقيق العلمى الذى قام على ركيزتين أساسيتين

هما السند والمتن. وقد دار القسم الأغلب منها حول توثيق النصوص، وخصوصاً النصوص الدينية المتمثلة فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى التى عرفت بعلوم الجرح والتعديل، فضلاً عن كتب التراجم الكثيرة التى حملت عناوين الطبقات أو المعاجم أو السير.

وإلى جانب هذا النوع عرفت الثقافة العربية أيضاً تراجم الأشخاص لأنفسهم، مثل «الفتوحات المكية» لابن عربى، و«المنقذ من الضلال» للغزالى، و«الاعتبار» لأسامة بن منقذ وغيرها. وإلى هذا النوع ينتمى هذا الكتاب، حيث يحمل السيرة الذاتية للمؤلف المصرى جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، والذى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى وتوفى عام ١٥٠٥ عن واحد وستين عاماً، وكتابه هذا ليس مجرد سيرة شخصية وإن كان يحمل الكثير منها كونه يتحدث عن والده وبلدته والمؤثرات التى ساهمت فى تكوينه، لكنه أيضاً، كتاب فى العلم وقضاياه ومعاركه التى شارك السيوطى فى بعضها، وكان شاهداً على بعض آخر، والكتاب هو رسالة حصلت به المؤلفة على درجة الدكتوراة من جامعة كمبريدج عام ١٩٦٨.

فالعلم وقضاياه والدفاع عن الحق فى مواجهة الباطل، وإعظام شأن الاجتهاد وتسفيه الركون إلى التقليد وغيرها، هى القضايا التى انشغل بها السيوطى، وبدت جلية فى سيرته.

حاضر الرواية فى المغرب العربى

عفاف عبد المعطى

تونس: دار المعارف، ٢٠٠٢، ١٣٠ صفحة

عبر خمسة نصوص مميزة، تقدم المؤلفة المشهد الروائى فى دول المغرب العربى، فهى تختار من تونس «المعجزة» للروائى محمود طرشونة، و«الدراويش يعودون إلى المنفى» لإبراهيم الدرغوثى، وكلاهما وإن عبر عن معاناة خاصة كاشفاً عن رؤية كل منهما للعالم، فإنهما عبرا عن فرادة فى التناول، ففى حين جنح طرشونة إلى تقديم صورة رومانسية لقصة حب مختلفة، يطرح عبرها نقده لبعض الظواهر الاجتماعية، فإن الدرغوثى يستعين بالتراث كى يقوم بالمهمة ذاتها.

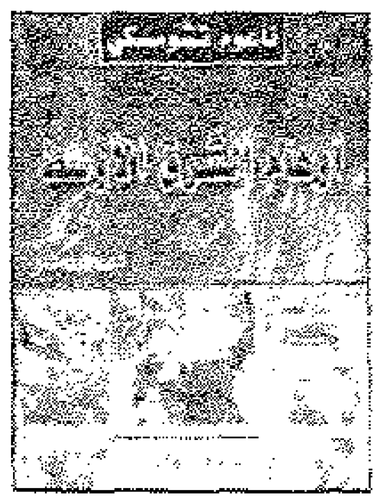
ومن المغرب تختار المؤلفة «السيل» لأحمد التوفيق و«البعيدون» لبهاء الطود، والأول يخلق من عالم بدائى صورة لحقيقة صراع الإنسان مع الحياة، والثانى عن صراع المغترب فى عالم مغاير يسعى فيه إلى تحقيق ذاته. وهى بهذا المعنى تنتمى إلى الروايات التى تناولت صراع المشرق والمغرب وهى عديدة فى أدبنا المعاصر، وتختار الناقدة رواية «الولى الطاهر يعود إلى مقامه الزكى» وهى آخر إبداعات الروائى الجزائرى الكبير الطاهر وطار، صاحب «اللاز» و«الشمعة والدهاليز» و«عرس بغل». وقد هوجمت «الولى الطاهر» من قبل بعض النقاد بوصفها تعبيراً عن انتكاسة فى مواقف الطاهر وطار، أو تراجعاً عن رؤاه التقدمية لحسابات رؤى جماعات الإسلام السياسى.

المهم أن الناقدة لا تكتفى بتحليل النصوص، وإنما تستفيد من دراسات نقدية سابقة فى الموضوع ذاته كى تثرى دراستها وتعمق رؤيتها النقدية.

أوهام الشرق الأوسط

نعوم تشومسكى

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠٤، ١١٠ صفحات



يواصل نعوم تشومسكى فى هذا الكتاب عملية كشف الحقائق وتعرية المواقف، التى لم يتوقف عنها بأسلوبه الساخر والدقيق فى آن معاً، والتى تفضح ألاعيب السياسة الأمريكية فى العالم، والنزعة الصهيونية للسيطرة على الشرق الأوسط بأكمله، وهو يبدأ بالتأكيد على أن مشروع مدريد. أوسلو «ليس إلا تثبيتاً على سيادة مبدأ القوة فى العلاقات الدولية». تشومسكى يبدد أوهام السلام غير العادل الذى تسعى أمريكا إلى فرضه على شعوب المنطقة، ويشير بوضوح إلى أن أوسلو تضمن سيطرة دائمة لإسرائيل على أغلب مصادر المياه، وتفرض بالقوة ظروفاً غير إنسانية على الفلسطينيين.

وهو حين يتناول موضوع العراق، ومع التأكيد على إدانته للنظام الاستبدادى الذى كان يحكمها، فإنه يكشف عن أن العراق مثلت باستمرار «انحرافاً» عن تخطيطات أمريكا للمنطقة، قد خلصت نفسها من براثن الهيمنة الأمريكية مع نهاية الخمسينيات، وشرعت فى الاستفادة من ثرواتها المحلية بما فيها النفط، ووصلت إلى تنمية حقيقية اجتماعية واقتصادية لم ترض عنها أمريكا، وهو ما جعل أمريكا تدفعها دفعاً إلى سلسلة من المغامرات التى انتهت بحصار اقتصادى لا إنسانى، بدد كل الأوهام التى قيلت. ومازالت تقال. عن حقوق الإنسان، ثم أخيراً باحتلال سافر يتدثر بشعارات عن العدالة وإقامة الديمقراطية، ويخفى فى واقع الأمر رغبة دفينة فى الهيمنة وبسط النفوذ.

الخلاصة الكاشفة التى يقدمها تشومسكى هنا اعتماداً على الوثائق والمعلومات التاريخية المؤكدة وشهادات الفاعلية فى المنطقة، أن حقوق الشعوب تتحدد. وفق الرؤية الأمريكية. على أساس الإسهامات فى حفظ النظام، فالولايات المتحدة لها كل الحقوق، ولبريطانيا بعضها مادامت تلعب دور الكلب الوفى، والأنظمة العربية لديها حقوق مادامت تسيطر على شعوبها، وتضمن ثراء الغرب، أما الفلسطينيون الذين ليس لديهم شىء يقدمونه لإثراء الغرب، وليست لديهم قوة تذكر، فلا حقوق لهم.

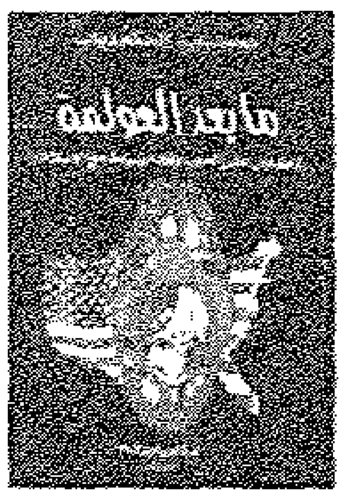
تلك هى الاستراتيجية الأمريكية الثابتة، التى كانت فى الماضى، والتى استمرت طوال العقود الثلاثة الأخيرة، والتى لا يبدو أنها ستتغير فى المستقبل.

رسالة تشومسكى. فيما أرى. واضحة لنا شعوباً وحكومات.

ما بعد العولمة

محمد عبد الحكم دياب

القاهرة: المركز العربى الدولى للإعلام، ٢٠٠٣، ١٣٠ صفحة



قربت آليات العولمة المسافات واختصرت الزمن، حتى أن انهيار دولة بحجم الاتحاد السوفيتى لم يستغرق سوى أسابيع.

وها هى العولمة تنهار بالمعدل ذاته، بما يعنى. حسب المؤلف. أن انهيار إمبراطورية بحجم أمريكا سيستغرق زمناً أقل كثيراً مما نتصور.

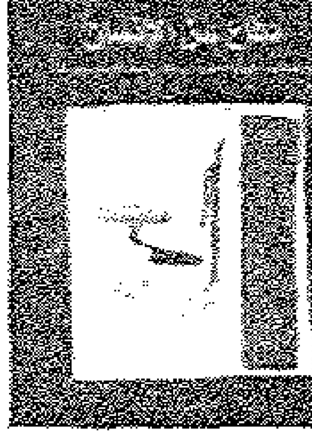
ما بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، يؤرخ لزمن جديد ونظام عالمى جديد، فبعد أن كان العالم يسير حثيثاً نحو ترسيخ قواعد مجتمع متعدد الثقافات والعقائد والأديان، إذا بالأمور تنقلب رأساً على عقب، ويتحول الغرب، حتى دوله الأكثر محافظة مثل بريطانيا إلى طريق آخر، وصار المزاج العام أكثر ميلاً للقبول بأشكال العنصرية والتمييز الدينى والعرقى، وزادت عمليات الاعتداء على العرب والمسلمين بشكل خاص، والمؤلف يركز بالذات على المجتمع الإنجليزى، الذى تتأثر قرارات حكومته سلباً وإيجاباً بما يصدر فى البيت الأبيض، وهذا المجتمع يضم أشتاتاً من أجناس مختلفة وألوان وديانات متمايزة، ويعيب المؤلف على بعض المسلمين البريطانيين خطابهم المتشدد الميال إلى التكفير لكل مخالف، حتى أن بعضهم بات يفكر فى دولة للخلافة مقرها لندن.

وبالعودة إلى عصر ما بعد العولمة، فإن المؤلف يرى أن له قسمات محددة، بينها أنه أحل العمل العسكرى بديلاً عن الإجراءات الاقتصادية فى مواجهة «الدول المارقة»، وتراجع الخطاب السياسى الأمريكى ليتجاوز الطابع البراجماتى إلى الطابع الرسالى الدينى القائم على لغة توراتية قديمة، كثيراً ما استخدمها رواد الاستيطان وهم يبيدون السكان الأصليين (الهنود الحمر) قبل قرون، ومنها كذلك اختفاء شعارات حقوق الإنسان والحريات والدعوة إلى تسويق أسلوب المجتمع الأمريكى، التركيز فقط على أمن ومصلحة أمريكا، وإسقاط الفروق بين حركات المقاومة المشروعة للاحتلال، وبين الأعمال الإرهابية سواء التى تقوم بها دول أو أفراد، ثم التدخل السافر فى إعادة صياغة قيم ومعتقدات الدول إلى حد تشويهها.

دفاع عن الإنسان

عبد الوهاب المسيرى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٣٦٧ صفحة



يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات بتركيبة فريدة تمنح كل فرد سماته التى لا يشابهه فيها أحد، هذه التركيبية الإنسانية تحديداً هى التى تفصله عن عالم الطبيعة/المادة.

بعض العلماء يرون العكس، فالإنسان بالنسبة لهم جزء لا يتجزأ من الطبيعة، والقوانين التى تسرى على الظواهر الطبيعية تسرى عليه هو الآخر، ومن يؤمنون بهذه الرؤية يستخدمون المنهج ذاته الذى يفسرون به الظواهر الطبيعية فى تفسير السلوك الإنسانى، فيختزلون الإنسان إلى عنصر واحد أو عنصرين، ويسقطون كثيراً من الأبعاد التى تميزه عن بقية الكائنات، وهم بهذا الاختزال ينكرون إنسانيته ذاتها.

الكتاب يقترح طريقة أخرى فى التعامل مع الظاهرة الإنسانية، تبتعد عن الموضوعية المادية المتلقية. كما يسميها. وتستخدم نماذج تحليلية مركبة يدخل فيها عناصر متنوعة ربما يصل التداخل بينها إلى حد التناقض، منها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى والحضارى، وهذا النموذج هو وحده القادر على الإحاطة بالظاهرة الإنسانية لأنه متعدد الأبعاد والمستويات.

تناول الظاهرة الإنسانية بتلك

الصيغة التى يقترحها المؤلف، هى برأيه تعبير عن احترام إنسانية الإنسان وتركيبه، ودفاع عنه ضد النزعات المادية العدمية التى تحاول تفكيكه ورده إلى ما هو دونه أى قوانين المادة وحركتها.

والكتاب يتضمن تعريفًا بالنماذج المعرفية وعلاقة ذلك الإدراك بالواقع، ومقارنة بين النماذج الاختزالية والنماذج المركبة، ويحاول تطبيق المنهج التفسيرى من خلال نماذج مركبة على ظواهر حضارية مختلفة ومتنوعة، مثل الماسونية والرأسمالية ومعاداة السامية والإبادة النازية ليهود أوروبا.

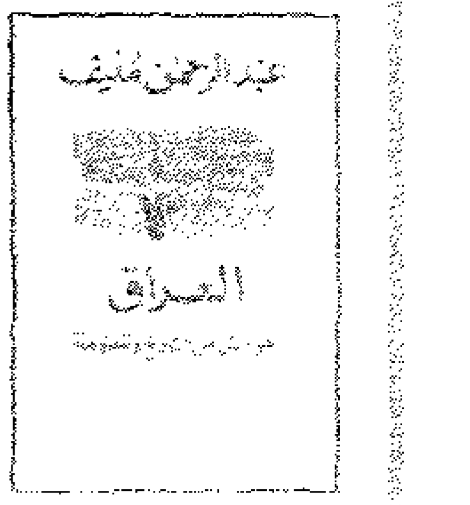
يقع الكتاب فى اثنى عشر فصلاً ويشتمل على عدد من الملاحق التى يشرح بعضها أفكار المؤلف عن النماذج المركبة المتناثرة عبر فصول الكتاب، ويشرح بعضها الآخر عددًا من المصطلحات الواردة فيه.

ويخصص الكتاب فصلاً كاملاً يحاول أن يفسر فيه عملية الإبادة النازية ليهود أوروبا، ويضعها فى سياقها الألمانى واليهودى، كما يتناول فى فصلين متتاليين حملات الفرنجة والجماعات اليهودية، والماسونية، بهدف تقديم رؤية مركبة تدرس العناصر الدينية والاقتصادية والحضارية التى أدت لتجريد حملات الفرنجة ضد المسلمين وإلى انتشار الماسونية.

العراق.. هوامش من التاريخ والمقاومة

عبد الرحمن منيف

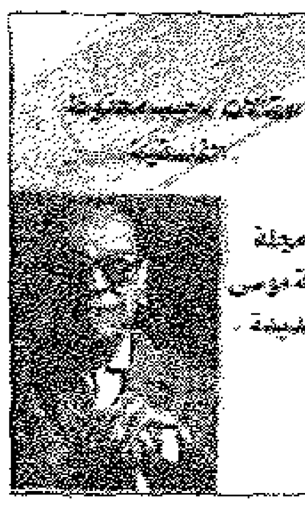
الدار البيضاء - بيروت: المركز الثقافى العربى والدار العربية للعلوم، ٢٠٠٣، ٢٠٧ صفحات



كتب عبد الرحمن منيف من قبل رواية عن العراق بعنوان: «أرض السواد»، مكنه التحضير لها من قراءة تاريخ العراق السياسى ومقاومته للاحتلال البريطانى، فاستوقفته بعض المحطات التاريخية التى تركت آثرها فى العراق وما حوله، وعرضها فى كتابه هذا كمقالات قصيرة. فى هذا الكتاب نقرأ عن ثورة عام ١٩٢٠ ضد البريطانيين، ونتعرف على شخصيات عراقية ومواقفهم المؤثرة فى تاريخ العراق، مثل: الشيخ ضارى الحمود زعيم قبيلة زوبع العراقية ومقاومته الشرسة للبريطانيين، والملك فيصل وسياسته مع الاحتلال الإنجليزى، والملك غازى وقصة اغتياله، والأمير عبد الإله الوصى على عرش العراق، ورئيس الوزراء المقاوم ياسين الهاشمى. كما نقف على مواقف شخصيات بريطانية وأثرها فى أحداث العراق فى النصف الأول من القرن العشرين، مثل: المس بيل، والكولونيل البريطانى لجمان، وأحد أركان الانتداب البريطانى على العراق: هارى سندرسن، إضافة إلى التعريج بنا على أحداث مفاصل فى تاريخ العراق، مثل: مشكلة الموصل فى الربع الأول من القرن الماضى، وحركة رشيد عالى الكيلانى، والمذابح الدامية التى ارتكبت فى عهد الأمير عبد الإله عام ١٩٤٨ بحق المتظاهرين الرافضين لبنود المعاهدة مع البريطانيين، وختامًا مع مقالين قصيرين عن كنزى العراق بعد الاحتلال الأمريكى الحالى له: آثاره وعلمائه.

مقالات نجيب محفوظ الفلسفية فى مجلة سلامة موسى «الجديدة»

القاهرة: دار ومطابع المستقبل، ٢٠٠٢، ١٧٠ صفحة



بدأت معرفة نجيب محفوظ بسلامة موسى، وكان محفوظ وقتها طالبًا فى المدرسة الثانوية، وعمره لا يجاوز عشرين عامًا، فيما كان سلامة موسى فى الأربعين من عمره.

وكان بالنسبة له فى مكانة الأستاذ، وقد نشر له أولى مقالاته الفلسفية فى مجلة «الجديدة» عام ١٩٣٠، والتى كانت ذات صبغة تقدمية وتنويرية.

وقد ضمت إلى جانب محفوظ كتابًا كبارًا مثل محمود عزمى ومحمود تيمور وإبراهيم ناجى ومنصور فهمى وطه حسين وحسين مؤنس وإبراهيم المازنى وأحمد رامى وفريد أبو حديد وزكى نجيب محمود وغيرهم.

وكان أول مقال لنجيب محفوظ فى هذه المقالات التى سماها فلسفية تحت عنوان: «احتضار معتقدات وتولد معتقدات».

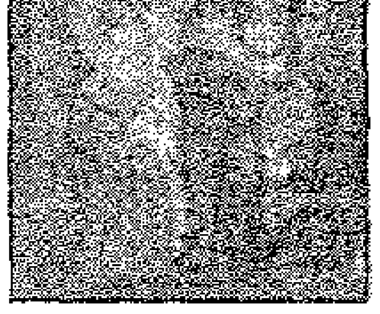
ويضم الكتاب خمسة عشر مقالاً نشرت فى الفترة من ١٩٣٤ وحتى ١٩٣٦، وكان محفوظ وقتها يدرس الفلسفة بكلية الآداب.

ومن عناوين المقالات: الحب والغريزة الجنسية، البراجمتزم أو الفلسفة العملية، المجتمع والرقى البشرى، الفلسفة عند الفلاسفة، ماذا تعنى الفلسفة، السيكولوجية واتجاهاتها، الحياة الحيوانية والسيكولوجية، الحواس والإدراك الحسى، الله، الفن والثقافة، نظريات العقل، اللغة.

راكوتى (دورية)

رئيس التحرير: مينا بديع عبد الملك

القاهرة: مكتبة الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٣، ٤٠ صفحة



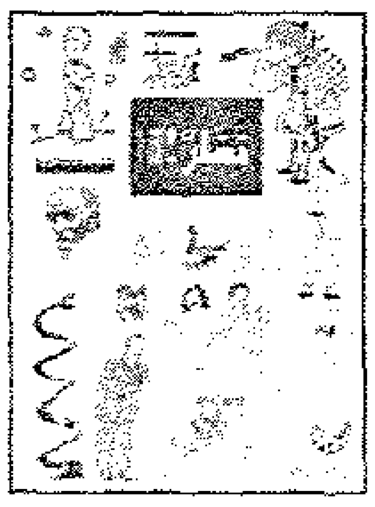
إضافة جديدة للدوريات المتخصصة، وهذه المجلة تعنى فى الأساس بالدراسات القبطية، أما سبب التسمية «راكوتى» فيعود إلى هذه القرية الفرعونية التى حملت الاسم ومعناه الحصن أو الوقاية.

تضم محتويات العدد الأول عدة دراسات منها: تاريخ اللغة القبطية، المخطوطات القبطية، الأقباط فى عصر الولاة، الطب المصرى فى العصر القبطى، عميد الأدب القبطى إقلاديوس لبيب، دير أبا فويبامون، بالإضافة إلى مختارات من المكتبة القبطية.

نظـــــر

محيى الدين اللباد

القاهرة: العربى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ١٤٣ صفحة



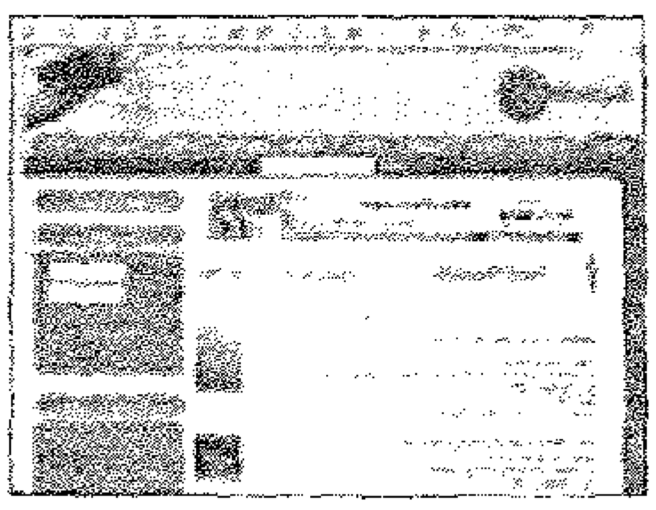
الألبوم الثالث للفنان الكبير ومصمم الكتب الحائز على جوائز محلية وعربية وعالمية، يتضمن مقالات فى الفنون البصرية المختلفة، من رسم وتصميم وكاريكاتير وجرافيك وغيرها، وهى مقالات تكشف عن ملكاته الإبداعية وقدرته على التعبير، بالكلمة لا بالريشة، عن أصعب الأفكار بسلاسة ودقة ووضوح، وكتابه يتضمن عشرات الموضوعات عن رسامين من كل مكان فى العالم.

وينقل للقارئ خلاصة مشاهداته ومشاركاته فى معارض كتب الأطفال وأهمها معرض بولونيا الدولى. فى الكتاب أيضًا مقالات يدرجها المؤلف تحت عنوان «ملاحظات بصرية فى حياتنا» تجمع بين الفن والسياسة والاجتماع وفنون السيرة.

ألبوم اللباد سياحة فنية وأدبية بديعة فى الفنون البصرية على اختلافها، تكشف عن مدى ارتباط هذه الفنون بواقع الناس المعاش، كما تكشف عن روح الفنان فى التعاطى مع متغيرات الواقع من حوله.

ثمرات المطابع

WWW.thamarat. com



أحدث مواقع الكتب العربية على الإنترنت. أنشأه مركز المصادر للمعلومات.

ويهدف المركز إلى تقديم اللبنة الأولى التى تعين الباحث على أعماله العلمية من خلال:

- توثيق ما يصدر باللغة العربية من كتب ودوريات تهم الباحثين.
- إعلام الباحثين، كل فى مجاله، بالأعمال الصادرة حديثًا.
- توثيق المخطوطات العربية من خلال متابعة وضبط كل ما يتعلق بالمخطوطات فهرسة وتعريفًا.

ويهدف الموقع إلى تعريف القراء تعريفًا علميًا موجزًا بأحدث الإصدارات على مستوى العالم العربى من خلال:

١. تقديم البيانات الكاملة للتوصيف الببليوجرافى للكتاب وتشمل: اسم الكتاب كاملاً، اسم المؤلف، اسم المعتنى بالكتاب، الناشر، رقم الطبعة وتاريخها، عدد الأجزاء، عدد الصفحات، نوع الغلاف، سعر الكتاب، تصنيف الكتاب العلمى.

٢. تقديم قراءات مطولة وخلاصات لأهم الإصدارات العربية.

٣. إمكانية تقديم الخدمة لمجالات متنوعة، أو لتخصص واحد فقط، تبعًا لطبيعة المؤسسة.

- وحسب الموقع فإن مركز المصادر يهتم أيضًا بالدوريات التى تهم الباحثين، والتى تمثل مصادر معتبرة للأخبار، ويسعى المركز لرصد كامل وتوثيق دقيق للمعلومات المنشورة فى الدوريات العربية، ويقوم المشروع الآن بمتابعة ما يزيد على ١٣٠ دورية شهريًا (المستهدف فهرسة ٤٠٠ دورية).

ومن مشروعات المركز الطموحة أيضًا إعداد فهرس الكترونى للكتب التى طبعت خلال الأعوام الماضية وبيان طبعات كل كتاب، ويشمل ما طبع فى بداية القرن من الكتب النادرة وربط قواعد البيانات بعضها ببعض. كذلك يقوم مركز المصادر بعمل قاعدة معلومات تحتوى على فهارس المخطوطات فى العالم ووضعها بين أيدى الباحثين. وذلك لتلافى المصاعب التى تواجه الباحث عادة لكثرة فهارس المخطوطات وندرة كثير منها، وتعدد لغاتها.

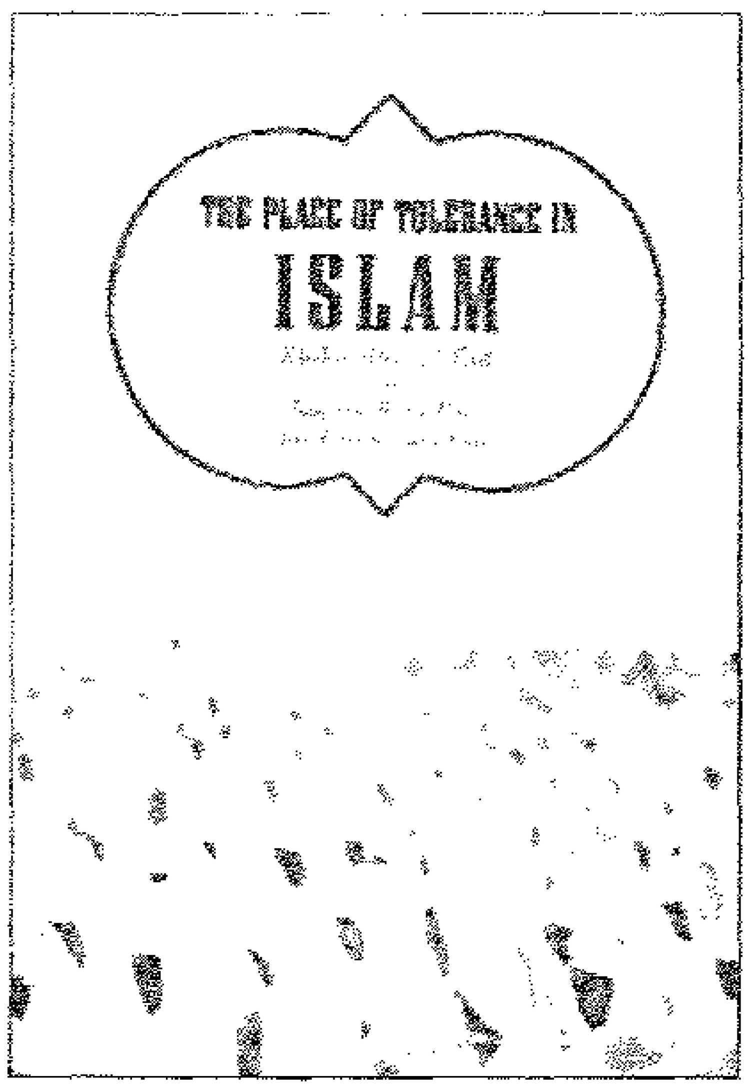
بين نصرة الدين.. ونصرة الشعوب

بدأ اسم خالد أبو الفضل يتردد في الدوائر الإعلامية العربية منذ أن تم تعيينه في شهر مايو من العام الماضي عضواً في لجنة الحريات الدينية التابعة للحكومة الأمريكية بقرار من الرئيس الأمريكي جورج بوش شخصياً. وبالنسبة للمراقب العربي، كان من اللافت تلك المساحات المؤثرة التي تفردها أحياناً وسائل الإعلام الأمريكية لآراء أستاذ القانون. المصري الأصل. والعبارات المادحة التي تصفه بها، فقد وصف مرات بأنه : «أهم مفكر إسلامي في العصر الحديث»، و«أبرز خبراء الفقه الإسلامي»، و«المثقف المعتدل الشجاع»، و« أهم سلاح في المعركة ضد الأصولية الإسلامية»!

ثم حدثت مؤخراً زوبعة صغيرة أحرجت خالد أبو الفضل مع الرئاسة الأمريكية عقب زيارته إلى مصر في نوفمبر الماضي، مترئساً وفد لجنة الحريات الدينية الأمريكي. فقد تناقلت الصحف الأمريكية ترجمة (أعدها معهد MEMRI)لحديث أجرته معه مجلة «أكتوبر» المصرية أثناء زيارته، تضمن انتقادات لاذعة للرئيس بوش. الأمر الذي انتهزه «دانييل بايبس» . أبرز مساندي إسرائيل في أمريكا . فراح يؤكد أن الفقيه الشهير لا يقدم سوى صورة أكثر ذكاءً من المشروع الإسلامي المعادي لأمريكا والغرب، وأن «القول بوجود فارق بين إسلامي معتدل وإسلامي متطرف يماثل القول بوجود فارق بين نازي معتدل ونازي متطرف»! ومن جانبه، نفى أبو الفضل في بيان رسمي تلك التصريحات التي وردت على لسانه مؤكداً ولاءه للرئيس الأمريكي.

ويبدو من كل هذا مدى صعوبة موقف خالد أبو الفضل، وصعوبة تحديد موقف منه، كما هو الحال دائماً مع أصحاب الآراء الوسطية والجنسيات المزدوجة. فبرغم أنه ولد في دولة الكويت وتربى ما بين مصر والكويت، إلا أنه الآن مواطن أمريكي يقوم بتدريس القانون الإسلامي وقضايا الهجرة والأمن القومي في جامعتي كاليفورنيا وييل، بالإضافة إلى عمله كمحام، بل ونشاطه البارز في الحياة العامة الأمريكية كمثقف وخبير إسلامي. لهذا، وتجنباً للتحيزات المسبقة والأحكام المتسرعة، تأتي هذه المحاولة لتناول إحدى كتاباته بشكل مباشر إيماناً بواجب « الفهم قبل الحكم ».

The Place of Tolerance in Islam
(منزلة التسامح في الإسلام)
By: Khaled Abou El-Fadl, with Tariq Ali, Milton Viorst, John Esposito, and Others
Edited by: Joshua Cohen and Ian Lague
Boston: Beacon Press, 2003, 117p



يتيح هذا الكتاب الصغير الذي أعدته في الأصل مجلة «بوسطون ريفيو» الأمريكية بعد أحداث ١١ سبتمبر، فرصة كبيرة للتعرف على أفكار خالد أبو الفضل. فهو عبارة عن مناقشة اشترك فيها ١١ كاتباً ومفكراً كتب كل منهم تعليقاً يرد به على مقال رئيسي عن التسامح في الإسلام للمؤلف الذي ينهي الكتاب برد ختامي على الجميع. وبالرغم من أن عنوان الكتاب يحدد موضوعه، إلا أن تنوع خلفيات المعلقين أحدث ثراءً واتساعاً في نطاق الحوار.

تركز حديث خالد أبو الفضل على إبراز التباين في تفسير آيات القرآن الكريم التي تتناول علاقة المسلمين بغير المسلمين ومبادئ الحرب والقتال، مبيناً الفرق بين التفسيرات الضيقة التي تسود في مراحل التردي الفكري والحضاري كالتي نعايشها الآن، وتلك التي سادت في مراحل ازدهار الحضارة الإسلامية كحضارة ذات رسالة إنسانية. فهو يرى أن المنهج الوهابي السائد اليوم والذي تتبناه جماعات إرهابية مثل جماعة بن لادن، تفسر مثل هذه الآيات وغيرها تفسيراً مدمراً لأنه يتم بمعزل عن القراءة التاريخية لأسباب وظروف نزول النص، والسياق الأخلاقي الأوسع للقرآن الذي يضم العديد من الآيات التي تأمر بالعدل، والقسط، والرحمة، والمعروف، والإحسان للناس جميعاً ، تلك القيم التي تشكل أولوية في سلم القيم الإسلامية.

ويوجه خالد أبو الفضل هجومه إلى الوهابيين مبيناً أن علماء الإسلام الذين عاصروا بداية حركة محمد بن عبد الوهاب وصفوهم بأنهم «خوارج الإسلام». كما هاجم هيمنة الدولة في العصر الحديث على المؤسسات العلمية الإسلامية مما أفقد العلماء استقلالهم، وبالتالي شرعيتهم. فحدثت فجوة وفوضى في المرجعية الإسلامية استغلتها الجماعات العنيفة المتعصبة.

وقد تباينت ردود المعلقين على خالد أبو الفضل بشكل مثير، ما بين المدح الشديد والنقد الشديد الذي يصل إلى حد اتهامه بالانتهازية والتسلق. ويمكن القول بأن التباين في خلفيات المعلقين الأحد عشر إنما يعكس ويفسر التباين في مواقفهم. فقد رحب جميع المعلقين الأمريكيين بالصورة السمحة التي قدمها خالد أبو الفضل عن الإسلام، ونقده للأوضاع القائمة. وسواء عبروا عن احترامهم للأديان جميعاً مثل جون اسبوزيتو وسكوت أبيلبي، أو طعنوا في الإسلام مثل ستانلي كيرتز الذي يعمل في معهد هوفر المحافظ، فقد انطلقوا جميعاً من منطلق واحد، وهو وجود خطر أصولي إسلامي يهدد السلام والأمن العالميين. كما اتفقوا أيضاً على أن المسلمين أنفسهم هم السبب فيما آلت إليه بلادهم من تخلف في جميع المجالات ، وإن كانوا قد اختلفوا فيما بينهم في تعيين السبب المحدد لتخلف المسلمين.

فمثلاً، يرى ملتون فيورست أن المشكلة لم تبدأ مع المذهب الوهابي وإنما قبل ذلك بكثير عندما نبذ المسلمون فكر المعتزلة العقلاني وتركوه للغرب يصنع منه نهضته. أما ستانلي كيرتز فيرى أنه يجب إرساء الحداثة في الشرق الأوسط أولاً، حتى تتمكن عقول المسلمين هناك من قبول منهجية عالم مثل خالد أبو الفضل. ويرى كل من اسبوزيتو وسكوت أبيلبي أن المشكلة تكمن في المرجعية والقيادة الإسلامية في المنطقة، بل ويقول أبيلبي صراحة: «إن السؤال العملي الآن هو كيف نجعل لعلماء معتدلين مثل خالد أبو الفضل الكلمة والنفوذ على سائر المسلمين في العالم؟».

ويشترك مع هؤلاء أو ينجرف وراءهم - مجموعة الباحثين المسلمين المشتغلين في الجامعات الأمريكية مثل خالد أبو الفضل نفسه، حيث انطلقوا من نفس الإطار، وبالتالي انبروا للدفاع عن الإسلام كما فعل هو في البداية. فكتب كل من سهيل هاشمي، وأمينة ودود، وعقيل بلجرامي، وقمر الهدى كلاماً جميلاً ومعقولاً عن الأوجه المختلفة لسماحة القرآن وعظمة التراث الإسلامي القديم، وسوء الفهم الذي يعاني منه هذا الدين سواء من الغرب أو من جهلاء المسلمين المعاصرين الذين تبرءوا منهم بسبب عنفهم وتخلفهم الذي شوه الإسلام.

أما التيار الناقد الذي رفض هذا الحصار الفكري الغربي، فقد عبر عنه اثنان من باكستان، الكاتب الإسلامي عابد الله جان والشاعر مشهود رزقي، وشاركهما حليف آخر غير متوقع، هو الكاتب البريطاني اليساري «طارق علي» . فقد رفض الثلاثة التسليم بأن غياب أو وفرة التسامح في الإسلام هي وراء تزايد عمليات العنف والإرهاب، بل إن مصالح الدول الغربية التي قامت أساساً بتسليح هذه الجماعات ثم سياساتها غير العادلة هي التي تثير البغضاء والرغبة في المقاومة أو الانتقام، ومشكلات العالم اليوم لا تكمن في التفسير الخاطئ للقرآن، وإنما في سعي الولايات المتحدة وحلفائها للهيمنة على العالم اقتصادياً وسياسياً وثقافياً.

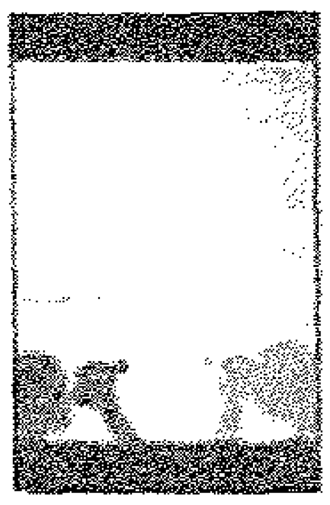
لهذا يرى «طارق علي» أن الحل في تلك المناطق الملتهبة في العالم، يجب أن يكون سياسياً وليس دينياً، وهو يلخصه في الديموقراطية، وتسوية القضيتين الفلسطينية والعراقية ، وإلا فلن يتوقف الشباب المسلم عن الانضمام إلى التنظيمات المسلحة. ويرى كل من مشهود رزقي وعابد الله جان أن الولايات المتحدة افتعلت ذلك الاهتمام بالعلوم الإسلامية لتصرف أذهان الرأي العام عن الجناة الحقيقيين، ورؤية الصلة بين عمليات ١١ سبتمبر والسياسات الأمريكية الوحشية في مختلف بقاع العالم. كما أنه من الناحية الإسلامية، فإن ما يسمى عدم تسامح هو في الواقع مقاومة شرعية تقوم على مبدأ الدفاع عن النفس أمام الطغيان، لأن مبدأ التسامح الإسلامي لا يعني قبول الطغيان، وإلا يكون قد حجب أول المبادئ الإسلامية وهو «العدل».

وفي النهاية، يصر خالد أبو الفضل على أن الحفاظ على رسالة الإسلام الإنسانية والسلامة الأخلاقية للدين أهم من تحقيق أي مكسب سياسي، وأنه لا يجب اختزال الدين لغرض وظيفي هو التحرير السياسي. وعندما يرفض خالد أبو الفضل اعتبار الدين الإسلامي هوية سياسية قومية، فهو يعبر تماماً عن وضعه.

في النهاية هو مواطن أمريكي يخدم في إدارة بوش ولا تعنيه المصالح السياسية والاقتصادية للمسلمين البائسين في الشرق الأوسط الذين هم سبب تخلف الإسلام من وجهة نظره. ولكن من ناحية أخرى لا يوجد سبب للتشكيك في إخلاصه في الدفاع عن الدين الإسلامي، بل ويمكن ونحن بصدد الحديث عن تجديد الفكر الديني أن نستفيد من أفكاره التي تتسم بالوجاهة، ولكن هذا يجب أن يتم فصله بوضوح عن دائرة الصراع السياسي في المنطقة. ولعل هذا الفصل بين نصرة الدين ونصرة الشعوب، يجعلنا ونحن نحاول صد الهجمة الأمريكية عن بلادنا، نلتفت إلى الملايين من غير المسلمين حول العالم، الذين تظاهروا من أجل تحرير العراق في أوروبا وأمريكا اللاتينية وآسيا، متحالفين معنا في مقاومة الهيمنة الأمريكية.

هديل غنيم

China's New Order
(نظام الصين الجديد)
Harvard University Press
Wang Hui
Edited by Theodore Huters,
239PP, 22.95

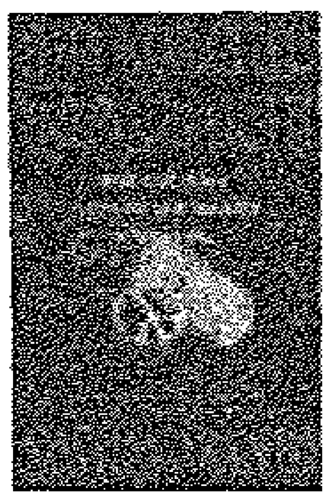


يتألف هذا الكتاب من ٣ مقالات كبيرة عن التطورات الأخيرة التى تشهدها الصين، وهى تمثل نقداً شاملاً ومثيراً لحركة الإصلاح فى الصين فى شكلها الفريد والتى يطلق عليها الرأسمالية اللينينية. وكاتب هذه المقالات هو وانج هو محرر صحيفة «داشو» «القراءة» والأستاذ فى إحدى جامعات بكين وهو واحد من المثقفين الذين تحدوا الجدلية التى تقول أن الإصلاح الاقتصادى يمكن أن يسير بدون إصلاح سياسى. ورغم أن الكتاب جرىء ونقدى إلا أن التناول الأكاديمى والنظرى من جانب المؤلف يجعل فهم الكتاب أمراً صعباً.

وبعكس معظم الناقدين لتجربة الإصلاح الصينية التى بدأها الزعيم الراحل دينج شياوينج فى أواخر ١٩٧٨ واستمرت مع جيان زيمين والزعيم الحالى هو ختناو، فإن المؤلف لا يحصر نفسه فى الاقتصاد، وهو ينظر إلى الوضع بشكل شمولى مطالباً بأن يشمل الإصلاح النواحى الثقافية والقيم وطريقة الحكم. ويؤكد ذلك أن المثقفين الصينيين أو على الأقل بعضهم، لم يصمتوا تجاه ما يحدث. وكمشارك فى الحركة المؤيدة للديمقراطية عام ١٩٨٩ فإن وانج يشعر بالقلق من أن المثقفين الصينيين سيكونون بلا حول أو قوة ازاء تسويق كل شىء فى الصين أو ما يسميه سطوة السوق.

ويعتبر المؤلف نفسه من اليسار الجديد وهو شديد النقد لما أسماه بالطريق غير السوى الذى تسير فيه جمهورية الصين الشعبية فى سبيل التنمية الاقتصادية فقط. ورغم أنه لا ينكر أن الأسواق المفتوحة يمكن أن تدعم الليبرالية إلا أنه يتحدى الرؤية السائدة بأن فتح هذه الأسواق يؤدى بشكل آلى إلى فتح المجتمعات. ويشير إلى أن الانتعاش الاقتصادى فى الصين ليس نتيجة لسلسلة من الأحداث الاقتصادية لكنه جاء بسبب تدخل الدولة. ويحذر المؤلف من أن الاعتقاد بأن التقدم الاقتصادى يمكن أن يستمر بدون التقدم السياسى ففى لحظة ما لابد من حدوث تقدم سياسى يواكب التقدم الاقتصادى وإلا كان المجتمع يسير بساق واحدة.

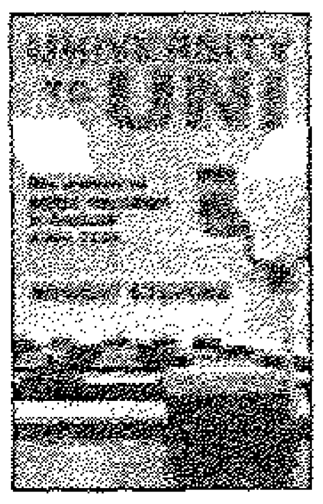
They Marched into Sunlight
War and Peace, Vietnam and America, October 1967
(الحرب والسلام.. فيتنام وأمريكا أكتوبر ١٩٦٧)
David Maraniss
Simon & Schuster, 572PP, $ 29.95



هذا الكتاب أشبه بفيلم روائى طويل أبدع المؤلف فى استخدام عناصر التشويق والإثارة وكافة الأمور التى تجعل الموضوع جذاباً وشيقاً. الموضوع الرئيسى هو حرب فيتنام وتأثيراتها سواء داخل الولايات المتحدة أو فى فيتنام نفسها أى على الجبهة.

وقد انطلق المؤلف من حادثة وقعت فى حرم جامعة ويسكونسن الأمريكية فى ١٧ أكتوبر عام ١٩٦٧ عندما استخدم البوليس الغاز المسيل للدموع فى تفريق الطلاب الذين تظاهروا احتجاجاً على الحرب والانتهاكات التى وقعت آنذاك من جانب البوليس. وبعد أن يعيد المؤلف سرد تفاصيل ما حدث على لسان الطلاب ويوضح مدى الاستياء الطلابى من استمرار الحرب وتساقط الضحايا، ينتقل المؤلف عقب ذلك إلى الجبهة من خلال تقرير بالغ العمق من شمال فيتنام ويتحدث عن المعركة الدائرة آنذاك وينقل عن نائب قائد إحدى الكتائب الفيتنامية قوله أن قواته كانت تبحث عن الأرز فى تلك المنطقة لكنها فوجئت بوجود كتيبة أمريكية على بعد كيلومتر واحد وأنها كانت تعد لكمين داخل الغابات للقوات الفيتنامية ثم يعود المؤلف إلى جامعة ويسكونسن ليتابع التوترات والاضطرابات بين الطلاب والبوليس، ويتابع الكتاب خطوة بخطوة تصاعد ظاهرة الاحتجاج على الحرب الأمريكية فى فيتنام بين فئات المجتمع الأمريكى خاصة الطلاب وكيف أن هذا التصاعد نتج عنه نوع من التمرد من جانب الطلاب ضد السلطات الجامعية. ومازال الطلاب فى جامعة ويسكونسن يحتفلون كل عام بذكرى هذه الاحتجاجات

University To Uni: the Politics of Higher Education in England Since 1944
(سياسات التعليم العالى فى انجلترا منذ ١٩٤٤)
Robert Stevens
15.99, 196PP #Politico's,



يخوض رئيس الوزراء البريطانى الحالى تونى بلير معركة داخلية يعتقد كثير من المراقبين أنها ستحدد مستقبله السياسى وتتمثل تلك المعركة فى الرسوم التى سيتم فرضها على الطلاب الجامعيين والتى تلقى رفضاً كبيراً من جانب الطلاب وكذلك من داخل حزب العمال الحاكم.

ويعتقد مؤلف الكتاب أن بلير على حق فى إصراره على فرض هذه الرسوم، التى يقول منتقدوها أنها ستكون بمثابة النهاية له تماماً كما كان الأمر بالنسبة لمارجريت تاتشر بشأن ضريبة الرأس. ويقول المؤلف أن الجامعات البريطانية خاصة الإنجليزية تفتقر للتمويل الأمر الذى جعلها تحتل مراتب أقل بالنسبة لنظيراتها فى أمريكا وأوروبا.

ويشير إلى أن المفارقة الكبيرة هى أن الجامعات فى بداية نشأتها قبل قرون عديدة كانت تعتمد على الإنفاق الخاص أما الآن فإن الاتجاه هو أن تكون الدولة هى التى تتحمل التكاليف، الأمر الذى يعنى أن الجامعات ستظل تتلقى ميزانيات ضئيلة من الدولة مما يحرمها من زيادة فرص البحث والتعلم والتدريب.

ويقول المؤلف أنه من الصعب فهم إشكالية أنه فى الوقت الذى يتم فيه خصخصة الشركات المملوكة للدولة وعلى رأسها شركة الاتصالات البريطانية بريتش تليكوم يتصاعد الاتجاه نحو تأميم الجامعات.

ويستعرض المؤلف سياسات التعليم الجامعى فى انجلترا منذ أكثر من ٥٠ عاماً. ويقول أنه فى بداية الخمسينيات كان حوالى ٥٠ ألف طالب فقط يدخلون الجامعات سنوياً فى انجلترا بما يمثل النخبة، أما الآن فقد تضاعف العدد عدة مرات نظراً لأنه كما يقول المسئولون، فإن الاتجاه حالياً ومنذ سنوات عديدة هو تبنى سياسات إدخال أكبر عدد إلى الجامعات وليس التكيف مع حاجات الاقتصاد. وساهم هذا التصاعد فى أعداد الطلاب فى قلة عدد المدرسين والأساتذة بالقياس للطلاب ليس فقط فى الجامعات المتوسطة المستوى بل فى جامعات النخبة.

ويتحدث المؤلف عن مشكلة أخرى فى التعليم الإنجليزى وهى تتعلق بالمعاهد الفنية التى كان الهدف منها تخريج فنيين مدربين بشكل جيد تلبية لاحتياجات السوق. أما الآن فقد تحولت كثير من هذه المعاهد إلى جامعات وبذلك غلب الجانب النظرى الأكاديمى على الجانب العملى.

Negro President
(الرئيس الزنجى)
Garry Wills
Jefferson and the Slave Power
Houghton Mifflin, 274PP, $25.00



اعتبر المؤرخون الأمريكيون انتخابات عام ١٨٠٠ أحد أهم الأحداث فى التاريخ الأمريكى.

وقد جادل توماس جيفرسون الذى فاز بهذه الانتخابات بأنها ستحدد الشخصية القومية الأمريكية كما ستحدد إذا ما كان الجمهوريون أو الارستقراط سوف يسيطرون على مقاليد الأمور فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان جيفرسون وارون بار قد تلقيا ٧٣ صوتاً من أصوات المجمع الانتخابى لكل منهما فى هذه الانتخابات الرئاسية بينما حصل جون آدامز الذى كان رئيساً على ٦٥ صوتاً فقط، ثم انتخب مجلس النواب بعد ذلك جيفرسون رئيساً.

ويتحدث مؤلف الكتاب عن أجواء هذه المعركة الانتخابية التى كانت نقطة تحول فبعدها بـ٤ سنوات فقط جرى تمرير التعديل الثانى عشر فى الدستور الأمريكى لفصل انتخاب الرئيس عن نائب الرئيس.

كما أن الاحتفال بتتويج جيفرسون رئيساً فى ٤ مارس ١٨٠١ جرى لأول مرة فى واشنطن التى أصبحت العاصمة الجديدة.

ويتحدث المؤلف عن ظروف التصويت الانتخابى فى هذه الانتخابات حيث حدثت مشكلة كبيرة ستتكرر عدة مرات أهمها ما حدث فى انتخابات عام ٢٠٠٠ بين الرئيس الأمريكى الحالى جورج بوش وآل جور نائب الرئيس الأمريكى السابق.. فقد ادعى كل معسكر بأنه الأحق بالرئاسة إلى أن حسمت المحكمة العليا الأمريكية الأمر لصالح جورج بوش.

فى انتخابات عام ١٨٠٠ حدث شىء مشابه.

وأكد مراقبون آنذاك أنه لو تم فرز الأصوات بشكل أمين لكان آدامز قد فاز. وهناك من اتهم جيفرسون بأنه وصل بفضل السود وأشاروا إلى أن السادة البيض فى الجنوب الذى كانوا يمتلكون العبيد السود جعلوا هؤلاء الأشخاص يصوتون بشكل غير مشروع لصالح جيفرسون.. وهناك من أطلق لذلك على جيفرسون الرئيس الزنجى.

إصـــدارات جــديــدة

كـتـاب الـطـفـل

حين يطالع طفلك كتاباً، ما الذي يجذب انتباهه ويحفزه على المتابعة؟

وحين يقرأ له الكتاب، إن كان لا يستطيع القراءة بمفرده، فما الذي يستهويه؟

هذان سؤالان يهمان ناشر كتب الأطفال طبعاً، لكنهما بالقدر ذاته ينبغي أن يشغلا ذهن الأبوين، والقائمين على تربية الأطفال وتنمية عادة القراءة لديهم.

بعض كتب الأطفال تعنى أساساً بالفكرة على حساب «الحدوتة»، والأخيرة هي مخزن أسرار خيال الطفل وذاكرته الناصعة، وما يبقى فيها، هو ما يستدعى في سنوات الصبا والكهولة، استناداً إلى ما يقرره خبراء التنشئة وعلم النفس: من أن السنوات الأولى للإنسان هي التي تشكل ملامح شخصيته.

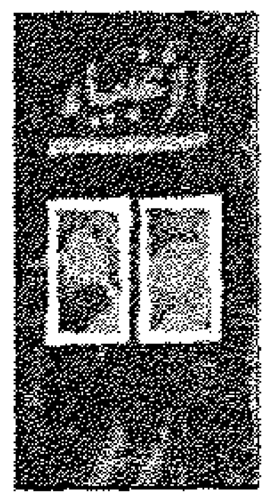
والحدوتة تحمل بين طياتها، وعلى لسان شخوصها وكائناتها التي يتم استنطاقها. أشجاراً وزهوراً ولعباً وحيوانات. فكرة بالضرورة، قيمة يراد ترسيخها، وأخرى تستوجب الاستبعاد، هذا ما رمت إليه حكاية «كليلة ودمنة»، و«سندريلا» وحكايات «ذات الرداء الأحمر» و«سنوهوايت» وعشرات غيرها مما شاع وقبع في ذاكرة الأطفال في كل مكان في العالم، وقرأه الصغار بكل اللغات، محققين تواصلاً افتقده الكبار الذين يرزحون تحت سيل من الخلافات المذهبية والدينية والعرقية، وصراعات المصالح وموازين القوى.

تحقق هذا لأطفال العالم قبل دعاوى العولمة وادعاءاتها، التي يبدو أنها تفرّق أكثر كثيراً مما تجمع.

كتب أخرى أفسحت مجالاً للرسوم متجاهلة الاثنين معاً: الحدوتة والفكرة، وهذه النوعية. بالضرورة. تخاطب فئة عمرية تكتشف العالم عبر وعيها البصري وتدريب ذائقتها الجمالية، أما الكتب العلمية والموسوعات، فثمة طفرة هائلة في صياغاتها وطباعتها ووسائل التشويق المتنوعة التي تتضمنها، سواء تلك المكتوبة بالعربية، أو المترجمة عن لغات أخرى.

▪

عن «الأغبياء» برسم وليد طاهر (دار الشروق ٢٠٠٣)، كتابا كله رسوم، والرسالة في الغلاف الأخير: عندما نريد أن نملك كل شيء.. نخسر كل شيء ونكون أغبياء.



وبرغم بساطة الرسوم ووضوح إيحاءاتها، فإنها تبقى مغلقة على مخاطبة العقول الصغيرة، دون الرسالة المباشرة على الغلاف الأخير، ولعل هذا ما أدركه المؤلف، فأضاف إلى رسوماته البسيطة تلك الكلمات الأكثر بساطة.

الصورة الأولى من «الأغبياء» لرجل يحمل تمراً طازجاً في سلة زرقاء، وفوق وجهه تنطبع النخلة، تمييزاً له عن الرجل الآخر في الصفحة المقابلة. والذي يصطاد سمكاً من البحر ويضع الحصيلة في سلة أمامه، وفوق وجهه تنطبع السمكة، (بوسعنا أن نميز بين الاثنين بسهولة، فهذا هو «الرجل النخلة»، والثاني هو «الرجل السمكة»، والملاحظة المهمة هنا، هي حالة السعادة التي تغمر الاثنين، وقد رضى كل منهما بنصيبه من الدنيا، نشوة غامرة تحيط بالاثنين، موسيقى مفرحة تصدح في المكان، طيور مبهجة ترف حوله، وحتى السمك الذي تتوعده صنارة «الرجل السمكة» يبدو مبتسماً فرحاً.

وحين يخلو الاثنان إلى نفسيهما (النخلة والسمكة) ويبدأ في التهام ما حصدا، يقطبان ويهاجمهما الوسواس ويستولى عليهما الجشع، فكل منهما يفكر فيما لدى الآخر، غير قانع بما تحت يديه. يبدو الاثنان في حالة من الكدر، مستغرقين في تفكير عميق، وفي الصفحتين التاليتين، يكشف الرسام عما يجول بخاطر الاثنين، فالرجل «السمكة» يحلم بأن يحوز ما لدى زميله «النخلة»، وهو نفس ما يسيطر على فكر الآخر، ويفكر كل منهما بالطريقة ذاتها، أن يسرق ما لدى الآخر أثناء نومه، وحين يبدأ في تنفيذ خطتهما يتواجهان في صراع دام، وتتبدل ملامحهما من حالة الهدوء والرقة والبهجة، إلى حالة وحشية شيطانية، ويحشد كل منهما للآخر أسلحته الفتاكة في انتظار الموقعة الفاصلة، التي تنتهي بمقتلهما معاً، عقاباً لهما على جشعهما ورغبتهما الجامحة في الحصول على كل شيء، فيما تبقى الطبيعة على حالها، جميلة مبهجة، تتعايش كائناتها في تعاون وتعانق، وتسود بينهما روح المحبة.

هذه هي المعاني الجميلة التي حكتها الرسوم دون كلمات، وهي نوعية موجهة بالضرورة للأطفال قبل سن القراءة، كي تعمل خيالهم وتدرّب عيونهم على تحويل المجرد إلى معانٍ ودلالات، فكرة جيدة، لكنني أشك كثيراً في أن يفهمها الأطفال دون إشارة ولو بسيطة لما تود قوله.

▪



من نوعية كتب الأطفال التي تعنى بالفكرة على حساب الحدوتة، كتابان جميلان بطلاهما طفلان من ذوى الاحتياجات الخاصة، والاثنان صدرا عن الدار ذاتها (دار الحدائق. بيروت)، تحمل القصة الأولى عنوان «صديقي المفضل»، وفيها نتعرف على الطفل أحمد من خلال صديقته التي تساعده في اكتشاف العالم من حوله، ولا تقول الحكاية أبداً أن أحمد يعاني من فقدان البصر، لكنها تقدم إشارات وإيماءات إلى نوع إعاقته، بدءاً من عينيه المغمضتين دوماً، إلى عباراته الموجزة الدالة: «الشمس لا تشرق عندي»، أو أن تقول صديقته: «أزور صديقي أحمد، نتناول الطعام معاً، أرشده إلى مكان صحنه وكوبه وشوكته وسكينه»، «ننام على العشب الأخضر فأخبره عن الغيوم ويخبرني عن قطته».. «نذهب معاً إلى المدرسة، أخبره عن واجهات المحلات».. وهكذا.

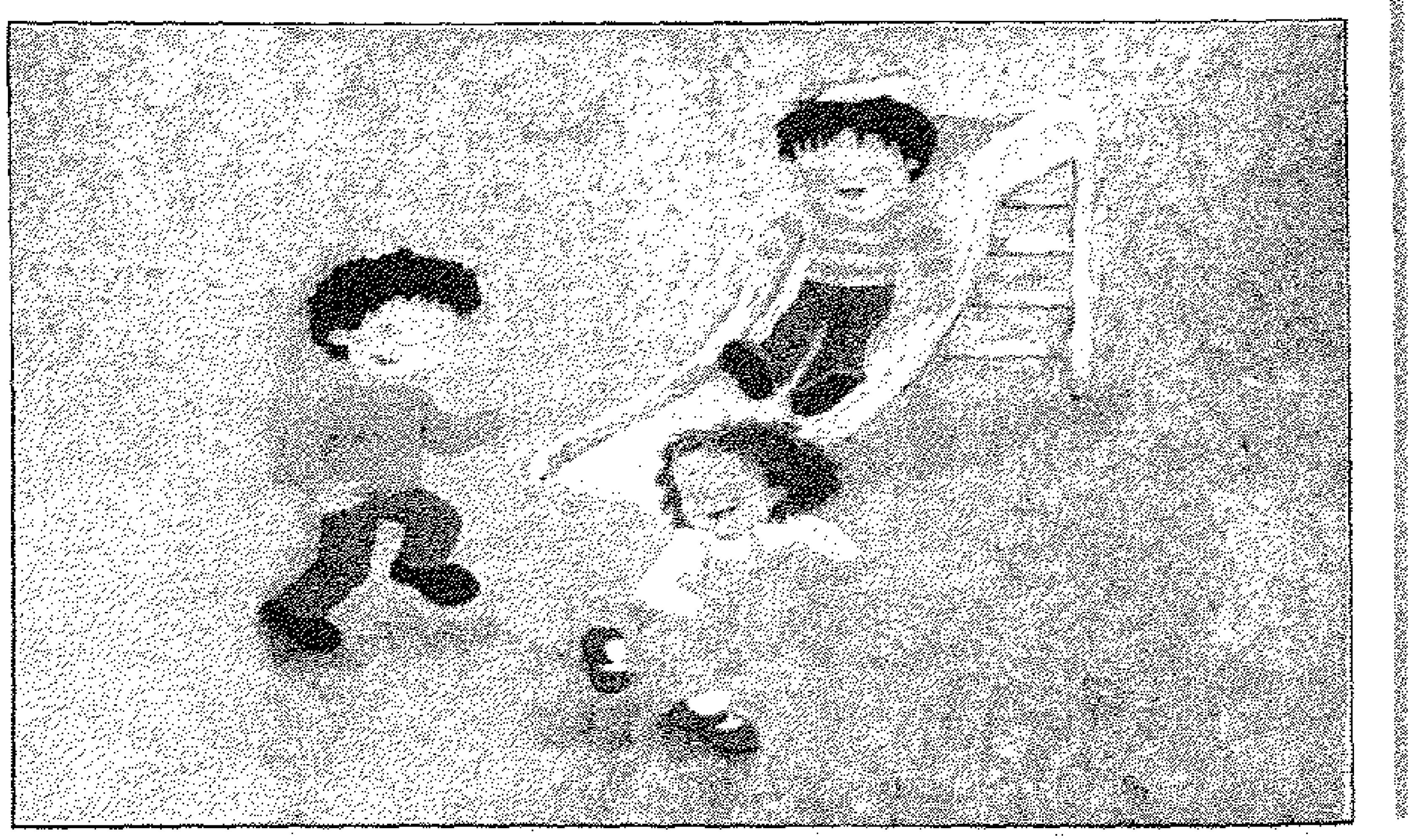
▪



في الاتجاه ذاته «عدنان لا يحب قصتي»، وإذا كان أحمد كفيفاً في «صديقي المفضل»، فإن عدنان هنا أصم، أو ضعيف السمع لا يمكنه السماع إلا بواسطة سماعة أذن، وفي الحكاية أن «نور» تحكي قصصاً لعدنان وإيمان جاريهما التوأمين ومعهما أخوها أمير، وفي كل مرة تحكي فيها قصة تفاجئ بأن إيمان وأمير سعداء، أما عدنان فيبقى منزعجاً، وتدهش «نور» ويتساءل: لماذا لم تعجب القصص عدنان؟، وحين توجه السؤال لأمّه تجيبها: مهلاً، الخطأ خطئي، نسيت أن أضع لعدنان سماعة الأذن، فهو لا يسمع جيداً من دونها، وحين تضع الأم لعدنان السماعة، وتحكي أميرة حكاياتها، يستغرق عدنان في الضحك والسعادة مثل بقية الأولاد.

كما نرى فإن الكتابين: «صديقي المفضل» و«عدنان لا يحب قصتي»، لا تحملان حدوتة يمكن تناقلها بين الأطفال، وإنما تحمل فكرتين جميلتين

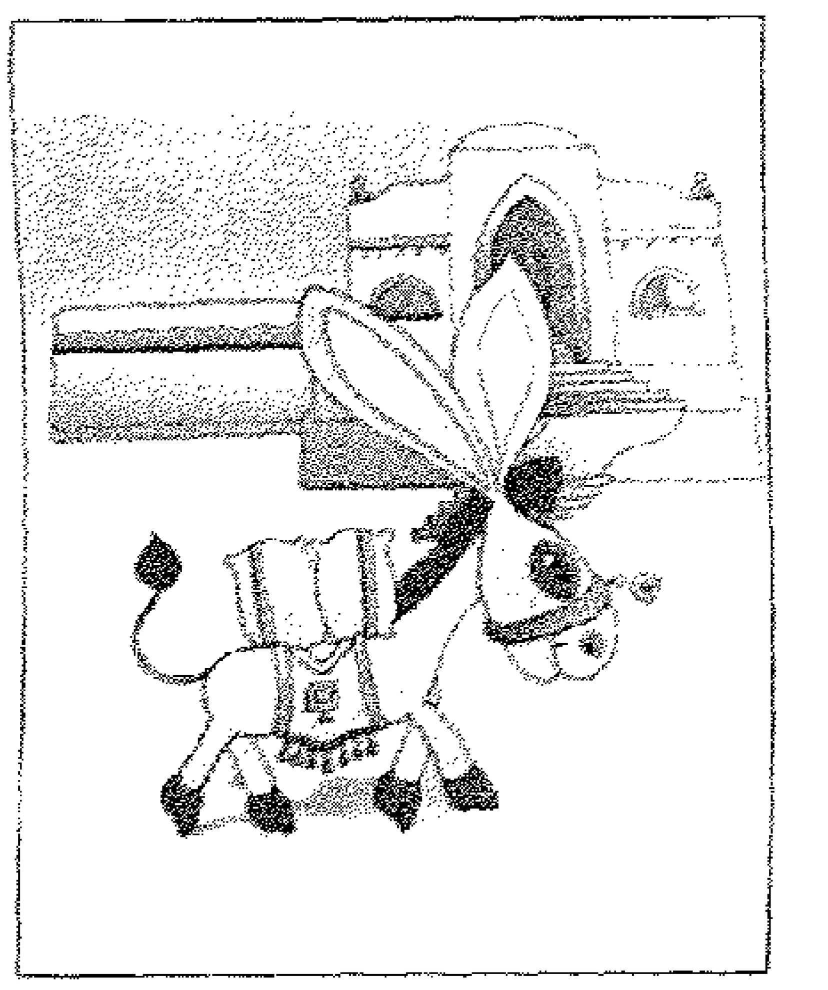
من كتاب صديقي المفضل



من كتاب بابا جاي امتى

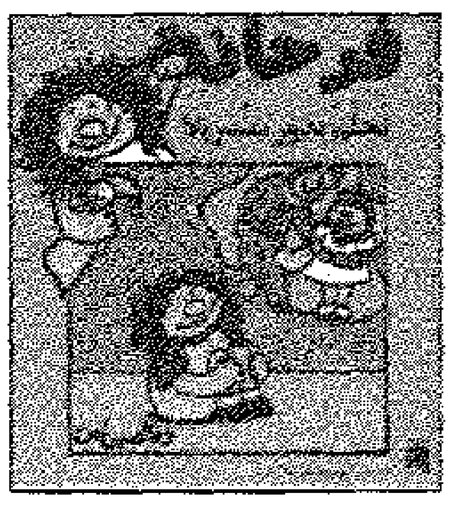


من كتاب حمارى بدون ذيل



كــــتــــاب الـــطـــفــــل

عن كيفية التعامل مع ذوى الاحتياجات الخاصة، وقد عوضت الرسوم الجميلة لـ «عبير مزهر» فى الأولى و«ضياء عبد الصاحب» فى الثانية غياب السرد.



مازلنا أيضاً فى إطار «الفكرة»، وضمن سلسلة حكايات فرحانة (دار الياس ـ القاهرة).

بين أيدينا «فرحانة تحلم بدور سندريلا»، وفرحانة بنت صغيرة تفتقد جمال الوجه لكنها طيبة القلب والمعشر، محبوبة من الجميع، وحين تقرر المدرسة أن تعرض مسرحية «سندريلا» يختارون لفرحانة دور السيدة الشريرة، وتحزن فرحانة لأنها كانت تحلم بدور سندريلا، لكن المدرسة اختارت له «إنجى»، وهى طفلة جميلة شقراء قريبة الشبه من سندريلا، وتعود فرحانة حزينة إلى البيت، فيساعدها أبواها ويخففان عنها، ويشيران إلى ما تحمله بداخلها من طيبة وصفات جميلة تجعل كل من حولها يحبونها، وهى ذات صفات سندريلا.

والقصة هنا ـ كما نرى ـ ليست إلى الأطفال فحسب، وإنما أساساً إلى الوالدين.

والمؤلفة «رانيا حسين أمين» لم تغفل عن ذلك، فتوجه الآباء فى بطن الغلاف إلى ضرورة إعطاء الطفل الثقة بنفسه، والتعبير له عن سعادتنا بما فى شخصيته من صفات طيبة، وإذا كان الطفل جميل الوجه، فلا ينبغى أن نلفت نظره كثيراً إلى هذه الصفة، وإنما يجب توجيه نظرة إلى جماله الداخلى.



سلسلة «غنوة وحدوتة» (الدار المصرية اللبنانية) تستند أساساً إلى غناوى شائعة بين الأطفال يحيلها المؤلف «عبد التواب يوسف» إلى حدوتة شائعة، مثل «على عليوة»، و«يا طالع الشجرة»، و«الغراب النوحى» وغيرها، وبينها هذه الأغنية الشهيرة:

بابا جاى امتى ... جاى الساعة سته
راكب والا ماشى ... راكب بســـكلته
بيضا والا حمرا ... بيضا زى القشطه
وسعوا له السكة ... واضربوا له ســلام

والقصص من هذا النوع على تقليديتها، فإنها تربط بين الأغنيات الشائعة التى يرددها الأطفال، وحكايات يفترض المؤلف أنها وثيقة الصلة بها، وربما تبقى فى ذهن الأطفال علاقة وثيقة بين كلمات الأغنية ودلالات الحكاية.

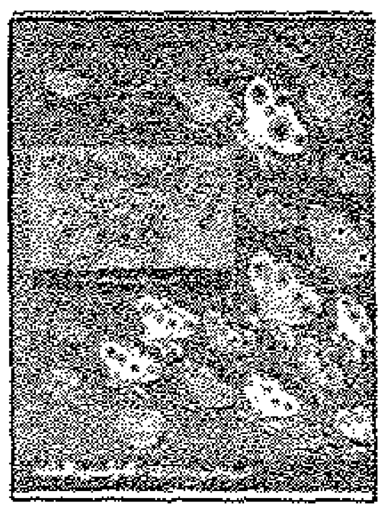
بعض كتب الأطفال لم تبارح بعد دوائر الكلاسيكية سرداً وإخراجاً وتصميماً، برغم أن دور النشر التى تصدرها ـ مثل دار سفير مثلاً ـ قدمت لمكتبة الطفل نوعيات مميزة من كتاب الطفل، واستفادت من التقنيات الحديثة فى هذا المجال.



«الغشاش والقرد» (دار الحرف الذهبى ـ مكتبة الراشد/بيروت ـ السعودية) تلبى حاجةً ما، فهى تستمد مادتها من الحديث النبوى الشريف، وما رواه النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وهى حكايات صعبة تنتقى من معاجم اللغة أصعب الكلمات، ولذلك تحفل هوامشها بمرادفات المعانى الصعبة، ورسومها تنتمى ـ بالضرورة ـ إلى العالم ذاته، وبعد أن تنتهى الحكاية يذيل الكتاب بتمارين عن معانى الكلمات وتصاريف الأفعال وغيرها، كتاب مدرسى يفتقد إلى عناصر الإبهار تماماً.



«مارى كورى» يأتى ضمن سلسلة «نساء فى القمة» (دار سفير)، وكما هو واضح فإن السلسلة تتناول النساء البارزات كل فى مجاله، وهو يقدم صورة شافية عن مدام كورى، البولندية مكتشفة الراديوم التى ودعت الحياة فى عام ١٩٣٤، وهو نوعية أخرى من الكتب ذات الطبيعة المدرسية تقليدية الطابع.



وفى الإطار ذاته تأتى مجموعة قصص «أنشودة الفرح» (الدار المصرية اللبنانية)، ١٠ قصص قصيرة تحمل أفكاراً وقيماً إيجابية وسرداً جيداً، لكنها تفتقد الجاذبية التى يحتاجها طفل يتطلع إلى عالم مبهر يدفعه للمطالعة.



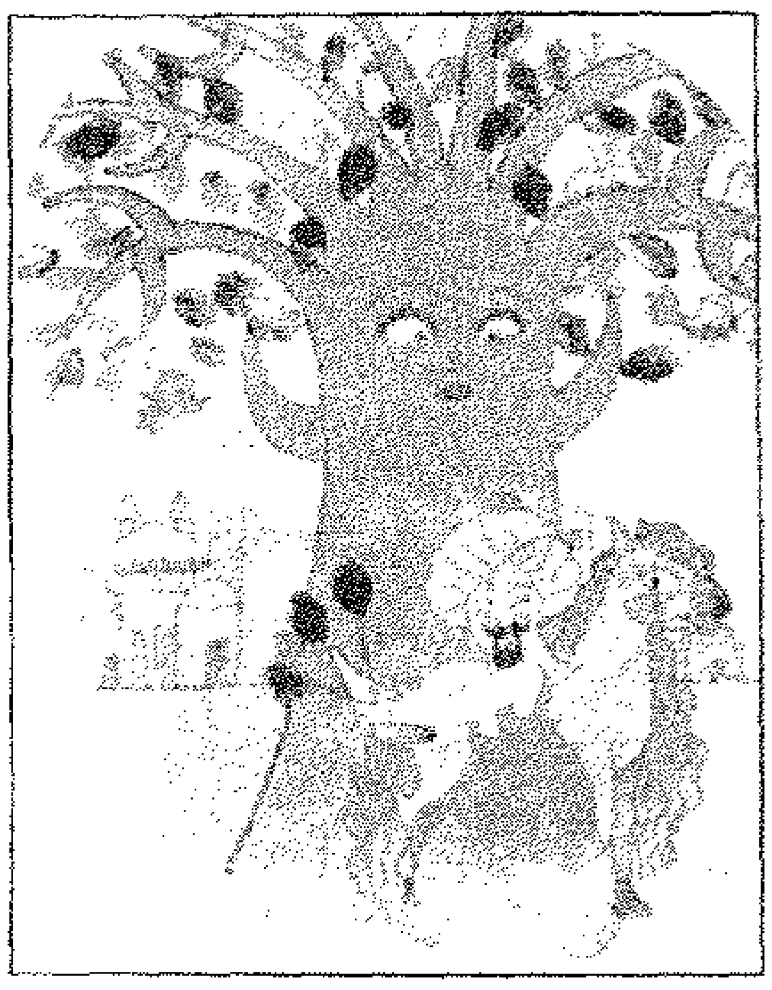
وبدرجة أقل ـ أعنى بجاذبية أكثر ـ صممت كتب «شكراً يا أدواتى» (الدار العربية للكتاب ـ القاهرة) و«من السارق» (نهضة مصر ـ القاهرة) و«حمارى بدون ذيل» (دار الياس ـ القاهرة).

فى الحكاية الأولى يتم استنطاق أدوات الاستخدام اليومية: فرشاة الأسنان والمشط والمرآة، والتى تبدو غاضبة من أن «ندى» تعاملها بقسوة ولا تشكرها على ما تسديه لها كل يوم، وحين تسأل ندى أمها: وهل تسمعنى الأدوات إن شكرتها، تجيبها الأم: شكرك لها هو تنظيفها وعنايتك بها.

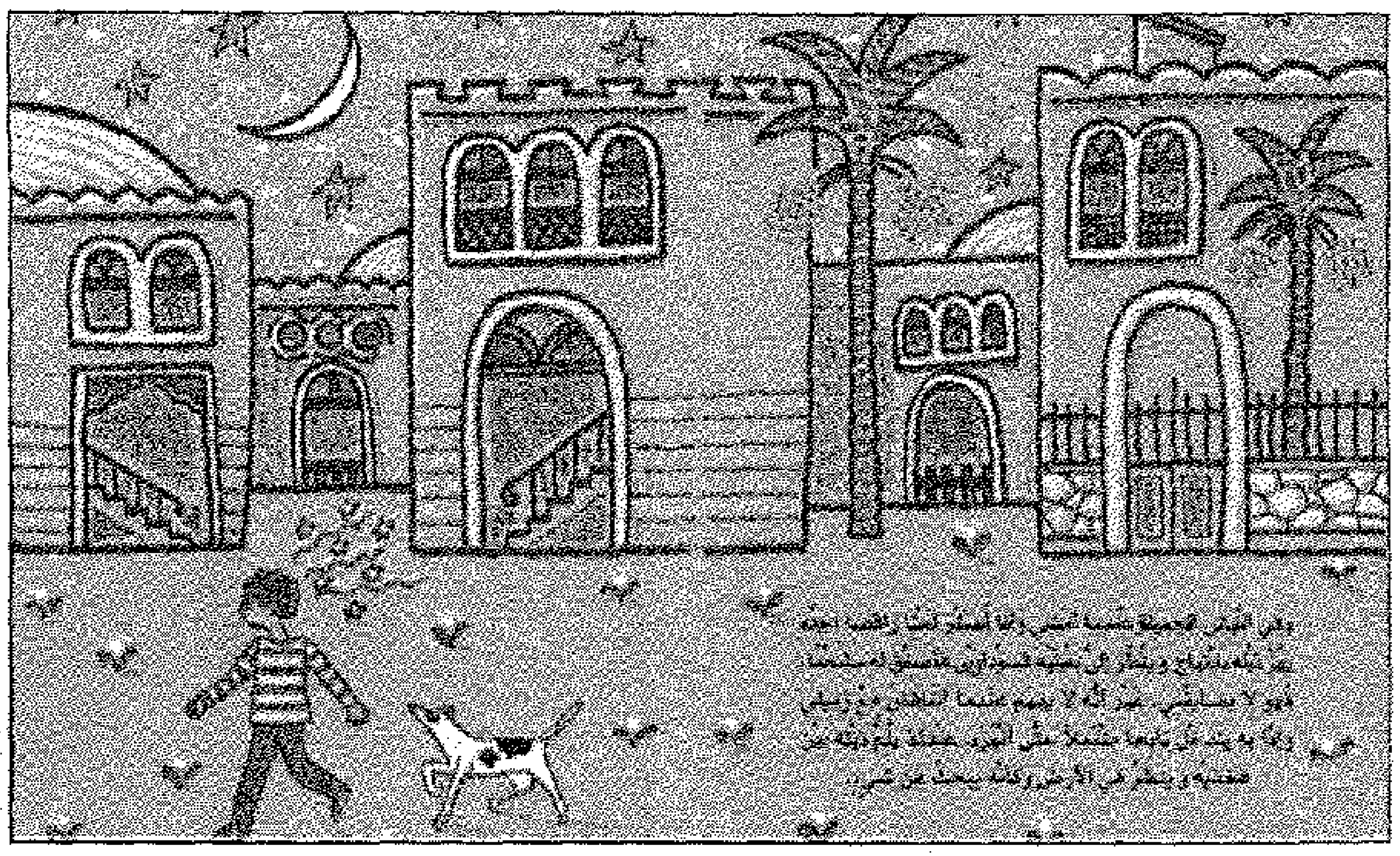


«من السارق» موعظة مباشرة عن تلميذ يسرق أفكار زميلته، لكن حيلته تم اكتشافها فى النهاية مما يشعره بالخجل، وتأتى القصة ضمن سلسلة تحمل عنوان «مفاهيم جديدة» يسعى القائمون عليها إلى تعريف الأطفال بمفاهيم مستحدثة تصادفهم فى الحياة، من نوع: الملكية الفكرية والإدمان وقبول الآخر والعولمة وغيرها.

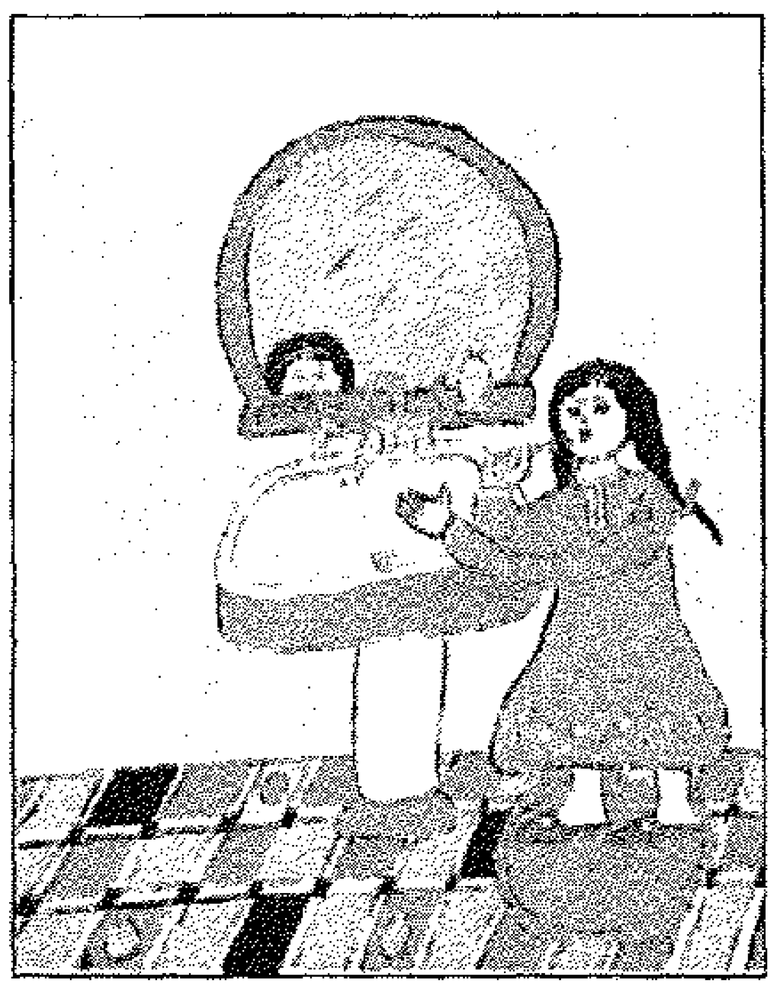
من كتاب أنشودة الفرح



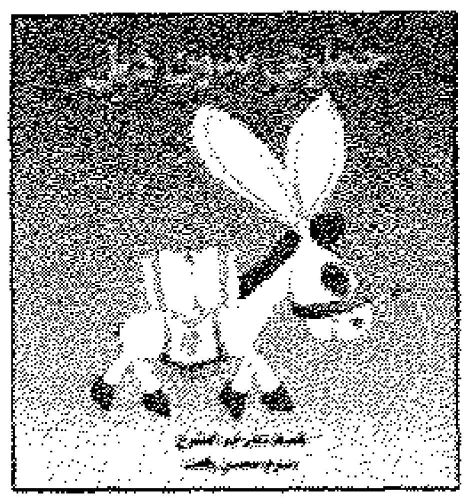
من كتاب الكتكوت ليس كلبا



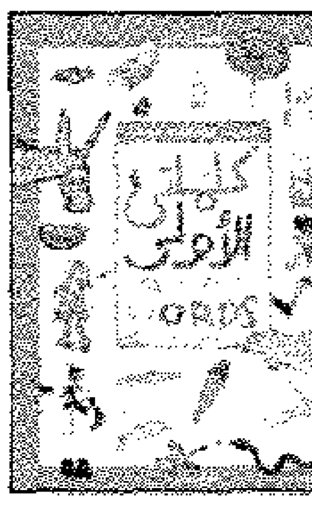
من كتاب شكرا يا أدواتى



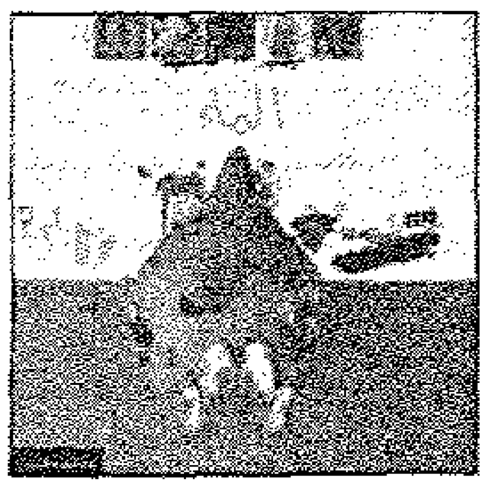
كتاب الطفل



أما «حمارى بدون ذيل» فهى حكايات ذات طبيعة سحرية، يظهر فيها ناس غرباء ويقومون بحيل أكثر غرابة، ولديهم قدرات فذة تقترب من صنع المعجزات، وإلى إخراجها المميز ورسومها ذات الطابع الغرائبى، فإن الحكايات مرفقة بأشرطة تسجيل تحكيها بصوت «أبلة فضيلة» وهى واحدة من الشهيرات فى دنيا الأطفال فى مصر، والتى قدمت لهم حكايات لعقود من السنين عبر أثير الإذاعة، لكن مصاحبة شريط التسجيل للحكاية يثير استفهاماً لا أظنه غاب عن الناشر: إذا كنا نريد أن نعوِّد الطفل على القراءة فلماذا شريط الكاسيت وهو الذى يمكن أن يغنيه عن المطالعة؟ أم أن الشريط معه كى يستفيد من الحكاية أيضاً الأطفال دون سن القراءة؟



الكتاب العلمى والمعرفى هو أكثر النوعيات التى طالتها يد التحديث والتطوير خصوصاً الموسوعات والأطالس التى تشهد إقبالاً كبيراً خصوصاً فى السوق الغربى، وقد عنيت دور نشر عربية بترجمتها وتقديمها فى صورتها البراقة ذاتها، منها مثلاً سلسلة «موسوعتى الأولى» (دار الشروق . القاهرة) والتى قدمت معلومات موسوعية عن الأرض وعالم الحيوان والنبات وغيرها، وهى تتميز بطباعة فاخرة وألوان ورسوم شديدة الجاذبية.

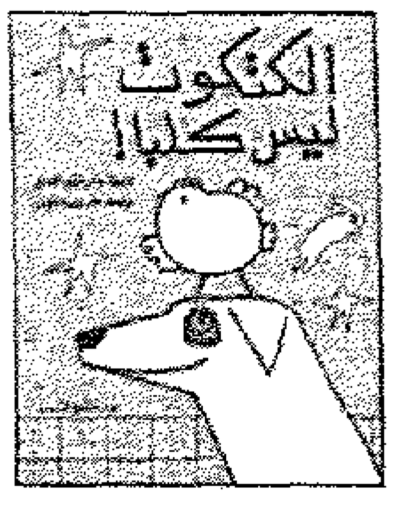


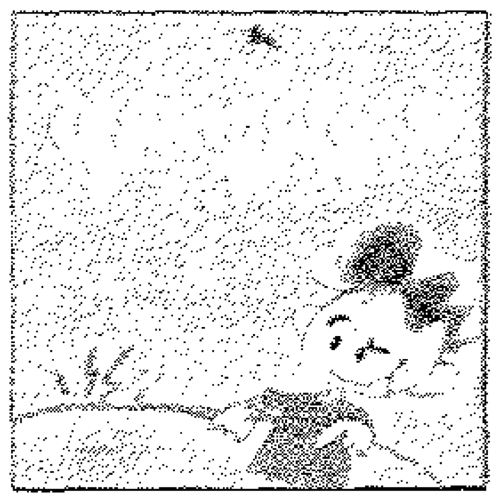
وضمن سلسلة جد × لعب (دار الشروق . القاهرة) ها هو كتاب عن «الماء» مترجم عن الفرنسية، وهو كتاب شديد الإبهار، ليس فقط لاشتماله على كل شىء من الماء، واحتياجات الإنسان والنبات والحيوان منه. ولا للمعلومات السخية التى يقدمها فى الجغرافيا والفيزياء والأنثروبولوجيا والكيمياء والتاريخ والبيئة وغيرها، إنما فى الكيفية التى يتم بها تقديم المعلومة، فهذا كتاب تفاعلى بامتياز، فهو لكى يقدم الحالات المختلفة للماء يرسم نموذجاً مفرغاً لترمومتر يمكن سحبه من بين طيتين من الورق المقوى، وكلما سحبته لأعلى أعطى حالة من حالات الماء، فهو فى المرحلة الأولى مجمداً حين تنخفض الحرارة إلى ما تحت الصفر، ثم سائلاً فى المرحلة الوسطى، ثم بخار ماء عند درجة ١٠٠ مئوية، وسحب الورقة الوسطى بين الطيتين حين يعطى صورة للماء فى هذه الحالة، فإن المربعات الثلاثة المفرغة تجاورها المعلومات المطلوبة عن حالة الماء، والورقة التى يتم سحبها بين الطيتين تعطى معلومات إضافية فى حالة سحبها فى الصفحة التالية التى تتحدث عن دورة الماء، وحين يشرح الكتاب الماء فى جميع أشكاله فإنه لم ينس أن يضع داخل الكتاب مرآة صغيرة داخل مظروف، ويشير إلى الطفل بالزفير فيها كى يرى بنفسه تحول بخار الماء إلى سائل، أى يشرح له عملياً وتفاعلياً ظاهرة التكثف.

الكتاب ملىء بالحيل والألاعيب وحتى الأساطير عن الماء، وقد فعل ذلك بطريقة مبهرة وذكية، تدفع الطفل إلى استخدام كل حواسه، إلى اختبار كل قدراته لاكتشاف الطبيعة من حوله، كتاب لا يلقّن ولا يقدم مبادئ معرفة بطريقة مجانية، إنما يأخذه فى رحلة لاكتشاف العالم مستفيداً من قدراته كلها.



هذا التطور المتلاحق فى دنيا كتب الأطفال، ربما هو الذى أغرى كتاباً كباراً أن يجربوا حظوظهم فى هذا المجال، فالدكتور عبد الوهاب المسيرى كتب حكايات للأطفال (دار الشروق)، وكتب الشاعر والكاتب التونسى المعروف منصف المرغنى مسرحية للأطفال حملت عنوان «الصرصور والنحلة والنملة»، وأخيراً كتب جار النبى الحلو وهو من أدباء جيل الستينيات المرموقين فى مصر «الكتكوت ليس كلباً» (دار الشروق)، وهى من رسوم الفنان الكبير «حلمى التونى» الذى أثرى كتب الأطفال برسومه ولوحاته البديعة، وعالمه الزاخر بالخيالات والرؤى.





ويبدو لى أن حكايات فيزو التى صدرت منها حتى الآن أربعة حكايات (دار الشروق . القاهرة) هى التى تحقق المعادلة الصعبة، التى افترضتها فى البداية، أى أن تقدم حدوتة يحبها الطفل ويحفظها ويحكيها لأصحابه، وأن تقدم فكرة وقيمة يتمثلها الطفل، وأن يغلف ذلك كله بإخراج بسيط وجميل وبرسوم مرحة مبهجة.

والأهم هو هذا الارتباط بين الطفل و«فيزو» الذى يمارس شقاوة الصغار ويعبث كما يعبثون.

فهو يختفى فى الدولاب فى حفلة عيد ميلاد صديقه «مازن» لأنه لا يعرف بقية الأصدقاء «فيزو فى الدولاب».

وهو يستغرب أن أمه وأباه وأخته سعداء باستقبال النهار الجديد فيما هو مهموم حزين «فيزو أصبح سعيد».

وهو لا يؤدى عملاً كما ينبغى فيبقى دائماً نصف فيزو «نصف فيزو».

أو هو يدعى أنه يعرف كل شىء، فيؤدى إلى إفساد كل شىء «فيزو يعرف يعرف».

كما نرى، كتاب الأطفال عالم زاخر، ملىء بالخيالات والرؤى والاستفسارات الصعبة.

وفى عالم تتسارع تطوراته بدرجة مذهلة، وتساهم فى تشكيل ذهنية الطفل عشرات الوسائل والمستحدثات، تصبح المسألة عسيرة، ويصبح إرضاء الطفل أكثر صعوبة.

لكن هذه المسألة على صعوبتها تبقى مسلية مشوقة وعميقة الأثر.

عماد الغزالى

من كتاب الغشاش والقرد



من كتاب فرحانة



من كتاب المـاء



وجهات نظر - رسائل

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

د. سلمان أبو ستة الكاتب والباحث الفلسطينى ومن أكثر المهتمين بتوثيق التاريخ الفلسطينى والدفاع عن حق العودة أرسل إلى «وجهات نظر» تلك الرسالة التى يوضح فيها جانباً غير معروف فى حياة المفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد، وكيف كانت بداية تحوله من البحث الأكاديمى إلى الاهتمام بقضايا شعبه.

المحرر

إدوارد سعيد
من الدراسة الأكاديمية إلى الفكر السياسى

استمتعت كثيراً بمقال الأستاذة الدكتورة رضوى عاشور («حكاية إدوارد»، وجهات نظر، نوفمبر ٢٠٠٣، العدد ٥٨، السنة الخامسة ص١٢). لقد وضعت ببراعة مؤثرات تشكيل شخصية إدوارد سعيد السياسية والأدبية والاجتماعية. وجاء فى النص أنه «بعد عام واحد من هزيمة ١٩٦٧ بدأ سعيد فى كتابة نصه الأول عن القضية الفلسطينية».

كيف انتقل إدوارد من كونه أستاذ الأدب المقارن الذى يعمل فى رحاب جامعة تُعنى بالمطلق والمجرد والمقارن إلى أستاذ يعنى بالقضايا السياسية وأولها قضية فلسطين وخلفيتها، قضية العالم الثالث الذى خرج لتوه من ربقة الاستعمار؟

هذه ثغرة نوعية فى تاريخ إدوارد الأدبى، ولا أعتقد أنها قد دُرست بشكل كاف فيما كتب عنه، ولا بأس فالوقت لايزال مبكراً لذلك. ولعلنى أسلط الضوء على هذه المرحلة، إذا رويت لكم ما رواه لى صديقى وصديقه الراحل إبراهيم أبو لغد.

كنت فى زيارة للمرحوم إبراهيم فى رام الله فى سبتمبر ٢٠٠٠ قبيل الانتفاضة ونزلت عنده ضيفاً لثلاثة أيام، جلنا خلالها شمال فلسطين ووسطها. ذهبنا إلى يافة الناصرة حيث ألقى محاضرة، وأقمنا فى فندق فى الناصرة.

وانطلقنا نزور قرى الجليل وذهبنا إلى الحدود مع لبنان عند رأس الناقورة، ثم عدنا على الطريق الساحلى مروراً بعكا وحيفا ثم يافا التى قضينا فيها وقتاً طويلاً حيث مررنا على مدرسته (العامرية) وشارع فيصل، وشاهدنا مرابع طفولته وصباه، بل ووجدنا غطاء فولاذياً مكتوباً عليه «شركة السكب الفلسطينية ١٩٢٩»، وهى الشركة التى أسسها والده فى يافا مسقط رأسه فى تلك السنة وهى أيضاً عام مولده.

وخلال ساعات السفر الطويلة بالسيارة، حدثنى أبراهيم عن ذهابه من عمان إلى أمريكا عام ١٩٤٩ لطلب العلم، وكيف عانى الأمرين لضيق الحال، فقد أصبح لاجئاً ولم تعد له موارد.

وقال إن عربياً آخر هناك كان يدعوه لمناقشة أحوال العرب البائسة فى قهوة، فكان يستزيد من وقت المناقشة لكى يطلب الداعى مزيداً من القهوة والكيك، لأن إبراهيم لم يأكل منذ مدة. وكيف أنه كاد أن يفصل من الجامعة لأن الفحص الطبى أفاد بأنه مصاب بالسل، واتضح بعد جهاد أنه ليس سلاً، ولكنه عيب فى الرئة، ما لبث أن لحق به حتى توفى عام ٢٠٠١.

لقد كان إبراهيم لاجئاً فلسطينياً بحق، خبر النكبة كشاهد عيان وعانى منها مادة وروحاً وهوية، وهذا الذى أعطاه وقوداً للعمل والمثابرة والإصرار، فتخرج من الجامعة وحصل على الدكتوراة فى العلوم السياسية.

وفى منتصف الخمسينيات كان إبراهيم فى جامعة برنستون الشهيرة عندما قابل إدوارد لأول مرة.

قال: ذهبت لمشاهدة مسرحية وقيل فى الإعلان: شراء التذاكر فى غرفة كذا. ذهبت لتلك الغرفة فوجدت شاباً أمريكياً جالساً وقدماه على المكتب. فطلبت تذكرة، وسألنى عن اسمى، فلما سمعه، قال من أى بلد؟ قلت فلسطين. فقفز من كرسيه قائلاً: «وأنا أيضاً». كان هذا الطالب «الأمريكى» هو إدوارد سعيد.

توطدت الصداقة بين إبراهيم وإدوارد، وعرّفه إبراهيم بالطلاب العرب فى الجامعة، وهم قليلون. وحصل إبراهيم على وظيفة فى اليونسكو) مركز سرس الليان فى مصر).

فأقام فيها بضع سنوات مع زوجته الأمريكية، جانيت، الباحثة المعروفة. وفى هذه الفترة.. أواخر الخمسينيات كان إبراهيم وزوجته يزوران عائلة إدوارد فى القاهرة، خصوصاً عندما يأتى إدوارد لزيارتهم فى إجازاته.

وعندما عاد إبراهيم إلى أمريكا، انقطع الاتصال مع إدوارد فى أوائل الستينيات، إلى أن حدثت هزيمة ١٩٦٧.

لقد كانت هزيمة بشعة، امتدت فيها نكبة ١٩٤٨ إلى كل فلسطين وبلاد عربية مجاورة. وكانت الأقسى على العرب المقيمين فى أمريكا.

فقد طفحت صفحات الجرائد بالتشفى والحقد على العرب ووصفتهم بأقذع الألفاظ، باعتبار أنهم همج متخلفون، يريدون القضاء على منبر الحضارة فى الشرق، لكنهم فشلوا بفضل الشجاعة الخارقة للإسرائيليين وهم قليلو العدد، أمام الجيوش العربية الفاشلة، كثيرة العدد، قليلة الفاعلية.

اجتمع عدد من خريجى الجامعات العرب واتفقوا على إنشاء جمعية العرب الخريجين الأمريكية (AAUG) عام ١٩٦٨.

وهذه أول مرة أتعرف فيها على إبراهيم، (تعرفت على إدوارد بعد ذلك بسبع سنوات فى المجلس الوطنى الفلسطينى).

وكان أول مشروعاتهم إصدار كتب توضح وجهة النظر العربية وحقائق الموقف فى الشرق الأوسط. وأوكل إلى كل أستاذ جامعى عربى الكتابة عن موضوع معين.

قال إبراهيم: تذكرت أن إدوارد متخصص فى الأدب الإنجليزى، فكتبت له على عنوانه القديم، أطلب منه أن يكتب عن الشخصية العربية فى الأدب الإنجليزى، وكيف أنها تشوهت. فلم يرد على لبضعة شهور.

وفجأة جاءنى منه اتصال تليفونى، قال لقد وصلتنى رسالتك على عنوانى الجديد، وسأكتب لك عن الموضوع.

ولما جاء بحث إدوارد قال إبراهيم إنه أروع بحث قرأه، ولم يكن فى مقدور أحد غير إدوارد أن يكتب مثله، وذلك لأصالة معرفته بالأدب الإنجليزى وخلفيته العربية.

شارك إدوارد فى نشاطات (AAUG)، وفُتحت أمامه مجالات العمل الفلسطينى السياسى، وزار بيروت السياسية فى السبعينيات وأصبح عضواً فى المجلس الوطنى الفلسطينى إلى أن استقال عام ١٩٩١.

وبعد عشر سنوات من مقاله عن الشخصية العربية فى الأدب الإنجليزى، صدر كتاب «الاستشراق» الشهير. وباقى القصة أصبح تاريخاً.

من الصعب جداً تحديد المحاور المفصلية فى حياة كل إنسان. كيف ولماذا عرف نيوتن قوانين الجاذبية، هل بسبب التفاحة التى سقطت من الشجرة؟ كيف توصل داروين إلى نظرية النشوء والتطور؟ وفى أى وقت من رحلته على ظهر السفينة Beagle؟

وهل هزيمة ١٩٦٧ وإعادة اتصال إدوارد بإبراهيم هو السبب والحافز فى كتابه «الاستشراق»؟ ولو لم يحدث هذا الاتصال بعد الهزيمة، هل كان من الممكن أن يبقى إدوارد الشاب الفلسطينى البروتستانتى الذى لم يعان آلام اللجوء من ناحية مادية، مستغرقاً فى كتاباته عن كونراد فى أروقة جامعة كولومبيا؟

لا ندرى بالضبط الجواب عن هذا السؤال، ولكننا نعلم جيداً أنه بعد هذه «الصحوة»، تدفقت روائع إدوارد عن الاستشراق وعن الإمبريالية، ولم يكتب أى شخص، عربى أو غير عربى، أكثر غزارة وأكثر تأثيراً وأكثر إحساساً بالظلم، بالإنجليزية من إدوارد عن قضية فلسطين.

رحم الله إبراهيم وإدوارد رحمة واسعة.

سلمان أبو سته

الكتب

وجهات نظر

رسائل

تاريخ مصر الحديث

نتابع بشغف واهتمام محتويات مجلتكم القيمة «وجهات نظر» ونعتبرها مصدراً للمعلومات الأساسية فى قطاعات معينة. فى «بيروت» تنقصنا مصادر المعلومات تلك ونأمل أن تساعدونا فى توفير بعضها.

فى كتابه الأخير «سقوط نظام» تطرق الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل لمواضيع تتعلق بشخصيات لعبت دوراً مهماً، سلبياً كان أم إيجابياً، فى حياة مصر، كالسيدة ناهد رشاد وكريم ثابت..

هل كتب الأستاذ «هيكل» عن هذه الشخصيات أو هذه الحقبة الخطيرة فى تاريخ مصر، غير هذا الكتاب؟ وهل ينوى أن يسد ولو بعد أن أعلن اعتزاله الكتابة، ثغرة هامة فى تاريخ الحياة السياسية فى مصر؟

هل هناك كتب تتعلق بهذه الشخصيات ومن أين يمكن الحصول بها.

هل من كتب تتعلق بأفراد العائلة المالكة فى مصر وخاصة شقيقات الملك؟

هل من منشورات وكتب تتناول حياة «الضباط الأحرار» بعد اعتزالهم الحياة العامة؟ والعلاقات الخاصة فيما بينهم وبين الرئيس عبدالناصر!

كيف يمكننا الحصول على كتاب «ملفات ثورة ٢٣ يوليو» للأستاذ طارق حبيب (مركز الأهرام للنشر)

وعلى كتاب شبه مجهول قرأنا عنه فى جريدة الحياة وهو «فى بيت محمد على». للأمير حسن»؟

وكيف يمكننا الحصول على لائحة بكتب الأستاذ محمد التابعى ومن أين يمكن الحصول على هذه الكتب؟

ومن أين يمكننا أن نحصل على كتب الأستاذ مصطفى أمين؟

نأسف للازعاج الذى يمكن أن نسببه لكم.

ونأمل أن نقرأ الجواب فى أول عدد يصدر عن «وجهات نظر» العزيزة.

حامد سالم

بيروت

هناك الكثير من الكتب التى صدرت حول هذه الموضوعات نذكر منها على سبيل المثال

• مذكرات كريم ثابت

١. فاروق كما عرفته ٢. عشر سنوات مع الملك فاروق • طلاق امبراطورة. طلاق شاه إيران والامبراطورة فوزية. وقد صدرت جميعها عن دار الشروق.

• مذكرات محمد نجيب «كنت رئيساً لمصر» المكتب المصرى الحديث.

• أنور السادات البحث عن الذات (قصة حياتى).

• مع عبدالناصر والسادات.. سنوات الانتصار وأيام المحن. مذكرات مراد غالب. مركز الأهرام للترجمة والنشر.

• ٥٠ عاماً من العواصف.. ما رأيته قلته، أمين هويدى. مركز الأهرام للترجمة والنشر.

• الآن أتكلم. خالد محيى الدين مركز الأهرام للترجمة والنشر

• فاروق الذى غدر به الجميع عادل ثابت. كتاب اليوم (الأخبار)

• عبد الناصر الذى غدروا به عادل ثابت. كتاب اليوم (الأخبار)

المحـــرر

كنز هيكل الثقافى

لقد كان وقع قرار الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل باعتزال الكتابة كبيراً وقاسياً إلى درجة شعرنا بالخوف من فقدان البوصلة فى التحليل والرؤية السياسية الصحيحة للمستقبل.

لقد تابعت وبتقدير كبير كتابات ومقالات أستاذنا العظيم عبر سنوات طويلة وخاصة بالفترة الأخيرة عبر مجلتكم الرائعة.

إن القدرة التى ميزت وتميز أستاذنا الكبير هيكل هو جمعه بفن وأصول العمل الصحفى النزيه، والمعرفة الثاقبة والتفتيش والبحث المتواصل فى الأرشيفات والمكتبات إلى جانب وعيه السياسى وقدرته على قراءة الماضى لتحليل الحاضر وقراءة المستقبل من خلال رؤية وطنية قومية صادقة لم تغيره طيلة سنوات عمله الصحفى والفكرى برغم ما تعرض له من ضغوط، ورغم تبدل الظروف المحيطة عربياً وإقليمياً ودولياً.

قبل فترة قصيرة كنت فى لقاء مع أحد أهم أقطاب السلطة الوطنية الفلسطينية، والذى كان منذ سنوات طويلة فى قمة هرم القيادة الفلسطينية.

وكان لقاء جمع مجموعة من الأصدقاء دعاهم هو لتبادل وجهات النظر فى الأزمة الفلسطينية الداخلية والخارجية، وكم كانت صدمتى كبيرة بأن اكتشف بأن هذا القيادى الكبير لا يعرف أموراً سياسية عامة مثل كيفية صنع القرار بالولايات المتحدة، تأثير الفكر الصهيونى أو المسيحى المتصهين على صناع القرار بالإدارة الأمريكية، أزمة العروش والأنظمة العربية، والعديد والعديد من الأمور التى بدون أن يكون هذا القائد أو ذاك مطلعاً عليها يصعب عليه التعامل مع السياسة الخارجية للإمبراطورية الأمريكية الحديثة وما يتبعه ذلك من انعكاسات خطرة.

المهم بالموضوع أننى وبعد أن صدمت من هذا الجهل المسىء لنا كأمة عربية اقترحت على هذا المسئول وغيره من صناع القرار فى أوطاننا العربية قراءة ما كتبه أستاذنا الكبير محمد حسنين هيكل ومتابعة مجلة وجهات نظر ليتعرفوا على تاريخ وواقع الأمة العربية والتداخلات النظرية والسياسية فى الصراع العربى الإسرائيلى وغيره من الأمور والهموم المشتركة للأمة العربية.

وأنا واثق تماماً بأن الكنز الثقافى والسياسى والصحفى الذى قدمه لنا الأستاذ الكبير على مدى نصف قرن تقريباً لا يوجد مثله كنز، وكم أتمنى من مجلتكم أن تواصل المشوار كونها بحق المجلة الأولى بالوطن العربى والتى تستحق القراءة والاحتفاظ بها كمرجع للمستقبل وأقترح على حضراتكم نشر أجزاء مهمة وفصول حساسة من كتابات أستاذنا هيكل عبر أعداد مجلتكم بالمستقبل. فما كُتب وخاصة بالسنوات الخمس الأخيرة حول أمريكا وأفغانستان والعراق وسقوط المنظومة الاشتراكية ومقدمات التفرد الأمريكى بالعالم وغيرها من الدراسات والأبحاث والتحقيقات تشكل مرتكزاً فكرياً وخاصة للأجيال الشابة فى أمتنا العربية لتتعرف حقيقتها وواقعها وماضيها ومستقبلها.

لتتعرف بحق على إنجازات واخفاقات ثورة الضباط الأحرار بمصر والحقبة الناصرية والتى استطاعت إعادة تجمع الشعوب العربية من جديد. لتتعرف أجيالنا على تاريخ هزيمة عام ١٩٦٧ وبعدها نشوة النصر فى ١٩٧٣.

والكثير والكثير فى الأبحاث والكتابات والتى بحق يجب أن تحفظ بالمكتبات وتدرس بالمدارس والجامعات لتشكل وبحق مرجعاً تاريخياً فى وجهة نظر علمية وموضوعية وصادقة.

كل المحبة والاحترام لكم من فلسطين، نتمنى لأستاذنا الكبير دوام الصحة والتوفيق ولمجلتكم دوام الاستمرار والعطاء.

غسان طوباس

رام الله. الضفة الغربية

صيدلية طوباس

الشارع الرئيسى. فلسطين

مؤنس.. ونبيل

أرجو أن تسمحوا لى بإبداء إعجابى بموضوع «أبى طه حسين».. مؤنس طه حسين» فى عدد يناير الماضى، وذلك لندرة المادة المتوافرة بالنسبة لمؤنس طه حسين.

وبعد الإعجاب أستأذنكم بصفتى متابعاً لما يُنشر عن طه حسين فى إبداء هذا التوضيح..

فلعل من المناسب تذكير قارئ مجلتكم بالجهد الكبير الذى بذله الناقد نبيل فرج فى إقناع الدكتور الراحل مؤنس طه حسين بكتابة شهادته التى تضمنها كتاب «نهر العميد الفياض» الذى يحتوى على الشهادة الوحيدة التى كتبها مؤنس بخط يده وهى الشهادة التى اعتمد عليها المقال، لذلك لزم إسناد الفضل لأهله.

قـــارئ

قـــــــــراءة ..

إســــــــــرائيــــــل.. إلـــى أيـــــن؟!

أن تكون «دبلوماسياً». فهذا يعنى - بحكم المهنة - أن تتعلم ضبط مشاعرك، والكياسة فى التعبير عنها. أما أن تكون «فناناً». فالأمر يقتضى أن تطلق العنان لمشاعرك، وإن انفلت التعبير عنها: صادقاً وصادماً.. وحقيقياً، وإن جلب المتاعب.. والمشاكل.

قبل أسبوعين، وفى عاصمة اسكندنافية باردة، كان الشرق الأوسط، وأزمته الساخنة المزمنة حاضراً. ليس فى مشاجرة تقليدية. ألفتها لنصف قرن زوايا المقاهى الأوروبية - بين عربى وإسرائيلى حول الحقوق التاريخية أو الوضع الراهن. بل هذه المرة، بين يهوديين «إسرائيليين» وفى مناسبة فكرية وفنية اكتظت بحضور وجهاء القوم، وانتهت بإخراج أو (بطرد) - كما حلا للصحف العربية أن تصف الموقف - السفير الإسرائيلى من القاعة على يد البوليس السويدى.

القصة كما روتها الصحف أن متحف التاريخ فى العاصمة استوكهولم افتتح قبل أيام معرضاً فنياً يحمل عنوان «بياض الثلج وجنون الحقيقة». وان فناناً «إسرائيلياً» معروفاً شارك فى المعرض بعمل فنى عبارة عن بحيرة من لون أحمر يسبح فيها قارب أبيض يحمل شراعه صورة الاستشهادية الفلسطينية المحامية «هنادى جرادات». ويبدو أن السفير الإسرائيلى فى العاصمة السويدية، والذى كان ضمن حضور حفل الافتتاح، فَقَدَ صوابه عندما شاهد الصورة الصامتة «المبتسمة» فراح ينزع أسلاك الكهرباء، ويقذف بأحد المصابيح إلى الماء متسبباً فى ماس كهربائى أثار ذُعر الحاضرين. وإثر مشادة بين الدبلوماسى والفنان «الإسرائيليين»، خرج - أو أُخرِجَ - السفير، وقال الفنان للحضور: «إنما أردت أن أجعل الناس يفكرون ويتساءلون كيف يتصرف الإنسان الضعيف عندما يُسلب منه كل شىء».

لماذا يخرج الدبلوماسى عن مقتضيات الدبلوماسية فيتشاجر فى محفل عام، ويصل به الأمر إلى أن ينزع مقابس الكهرباء، ويحطم عملاً فنياً بقضيب حديدى؟! هل هى علامة على انفلات أعصاب بدت دلالاته واضحة فيما يراه البعض هيستيريا فى أقوال وأفعال ساسة إسرائيليين؟ هل هى هيستيريا «لحظة الخطر» التى كشفت عن مثيلتها وثائق كيسنجر فى كتابه الأخير عن أيام أكتوبر ١٩٧٣؟

رغم التردى البادى فى الموقف العربى، هل تواجه إسرائيل حقيقةً الآن السؤال الأهم: حول الوجود والمصير؟ وهل تعكس تلك المشاجرة (بين الفنان والدبلوماسى) أزمة حقيقية داخل المجتمع الإسرائيلى: بين ساسته ومثقفيه؟

صارت أصوات ترتفع بين اليهود أنفسهم تقارن ما بين «الآن»، وبين «ما كان». مؤكدة على أن ما كان ممكناً خلال العقد الأول من وجود إسرائيل، وهو الوقت الذى كان فيه مئات الآلاف من اليهود قابعين فى معسكرات النازحين الأوروبية. وكان بالإمكان وقتها الإقناع بتدعيم دولة المهاجرين الجديدة، لم يعد ممكناً الآن. فحتى لو ذهبت «تهديدات قريع» بدولة واحدة ثنائية القومية أدراج الريح، وحتى لو اعتُمدت سياسة الفصل العنصرى «الشارونية»، ومهما زاد ارتفاع «الجدار»، فستظل هناك أسباب ملحة لتحول إسرائيل فى نهاية الأمر إلى «دولة لكل مواطنيها» تتسم بالعلمانية وليس «دولة كل يهود» العالم: كما تعرفها قرارات الكنيست التى نفذتها سلسلة من القوانين القائمة على التفرقة.. فى حين أن ربع سكان إسرائيل فى الوقت الراهن من العرب.

ومشيراً إلى كتابى دافيد جروسمان: «الريح الصفراء»، و«الجلوس على السلك»، يندد آموس آلون فى «نيويورك ريفيو أوف بوكس» بازدياد الصياح الأصولى المنادى بدولة «يهودية» يهيمن عليها اليهود «مثلما كانت بولندا أو رومانيا ما قبل الحرب بولندية أو رومانية بطريقة لا تعرف الرحمة» ويرى أن «العمل فى سبيل رد الظلم عن الأقلية المضطهدة تدنى إلى مجرد تفرقة فجة ضد العرب الإسرائيليين بواسطة الإجراءات العقابية التشريعية والقضائية والإدارية والمتعلقة بالميزانية».

يتوازى مع تلك الكتابات التى بدأت تظهر بوضوح فى الصحف الإسرائيلية: بيان قياديى «الشين بيت». والذين نددوا فيه بسياسات إسرائيل العسكرية نحو الفلسطينيين معتبرين «اننا على عتبة كارثة» إذ أن قمع شعب بأكمله من شأنه أن يولد مزيداً من الروح النضالية. يتصل بهذا ازدياد حالات رفض الخدمة العسكرية فى المناطق المحتلة.

ورغم أنه لا يمكن المبالغة بالقول إننا بصدد مقدمات لحالة من العصيان. إلا أن حالة التخبط تبدو واضحة بعد أن بدا لكثيرين هناك أن الحلمين اللذين وجها الماضى. والتعبير لمئير شتيجلتس فى يديعوت أحرونوت: «أرض السلام الكاملة» و«سلام الشجعان»، قد تحطما. ففى الاستطلاعات تجد دائماً أن أكثر من ٥٠٪ يريدون السلام وعلى استعداد لتقبل المبادرة السعودية مثلاً. ولكن فى الوقت ذاته، نجد أن ٧٠٪ منهم سينتخبون شارون لأنهم متأكدون أن انتخابه سيضمن للمقترح السعودى مصيراً لا يختلف عن مصير وثائق ميتشيل وتينيت وأخيراً خريطة الطريق «التائهة».

هل نحن أمام «ظاهرة» تحول حقيقى فى الفكر اليهودى. أم ان الأمر لا يتعدى أن الخارج من الصف يبدو - بالضرورة - واضحاً ولافتاً. (ومن الحكمة ألا يصبح - أيضاً - مضللاً؟).

يصبح للسؤال مكانه المهم إذا لاحظنا الهجمة الشرسة على اقتراح أحمد قريع «دولة واحدة» وإذا طالعنا ردود الفعـــل على مقالة لأكاديمى يهودى «تونى يوت» نشرتها Newyork Review of Books قبل أسابيع يطرح فيها الفكرة ذاتها معتبراً أنها «ربما كانت الحل الوحيد».

معظم الإسرائيليين ارتعبوا من بديل «الدولة العلمانية» والذى يعتبر بالنسبة لهم هزيمة حاسمة لفكرة الصهيونية ذاتها. معتبرين أن «من يمكنهم الرحيل وقتها سيرحلون.. ويجد الباقون أنفسهم أقلية مستضعفة فى دولة فلسطينية..».

اليهود الأمريكيون - أو على الأقل من يتحدث باسمهم - اتهموا يوت «اليهودى» بأنه ينتمى إلى «اليسار النازى»، وبكراهية اليهود، وبإنكار حق إسرائيل فى الوجود. واتهمه ديفيد فرام الكاتب السابق لخطب الرئيس بوش وصاحب مصطلح «محور الشر» بالدعوة إلى «ليبرالية الإبادة الجماعية».

ليست ردود الفعل على قريع ويوت فقط هى التى يمكن ملاحظتها، إذ أن الحقائق على الأرض تبقى أكثر دلالة. وربما تأثيراً. فالسلطة السياسية فى إسرائيل انتقلت فعلياً - وبغض النظر عن التهليل لمشاكل شارون القضائية - إلى المتعصبين الدينيين والأصوليين الإقليميين. ومخاطر «الترانسفير» بدت حقيقية بعدما انتقلت من الدراسات الأكاديمية إلى تصريحات علنية. ولا يستطيع مراقب منصف أن يتجاهل أن ثلث من استطلعت آراؤهم قبل حوالى العام أيدوا «ترحيل» المواطنين الإسرائيليين ذوى الأصول العربية من إسرائيل نفسها. وقبل الانتفاضة بوقت طويل كما لفت إلى ذلك يوت، كان أكثر من نصف السكان اليهود يرغبون فى منع «المواطنين» العرب فى إسرائيل من المشاركة السياسية فى الانتخابات العامة. بل إنه فى نوفمبر ٢٠٠١ سمعنا الجنرال شلومو جازيت يدافع علناً - فى مجتمع يتباهى بديمقراطيته - عن فكرة أنه «لابد من إخضاع الديمقراطية للديموجرافيا» تعليقاً على اقتراح عضو بالكنيست من حزب حيروت تقديم حوافز مالية «رشاوى» لعرب إسرائيل كى يغادروا البلاد.

رغم كل شىء. ورغم التناقض - الحقيقى أو ذلك البادى على السطح - تبقى حقيقة أن بعضنا لا يعرف كثيراً عما يموج لدى الجاليات اليهودية من تساؤلات عديدة عن الهوية والدولة، عن مكانة الدين فى المجتمع ومكانة الغير أو الآخر. فاليمين اليهودى يؤرقه أن تصبح إسرائيل - بحكم الزمن الذى هو يدور شئنا أم أبينا - دولة غير يهودية بأعداد «مواطنيها» العرب المتزايدة. وبعمالها المهاجرين من آسيا وأوروبا الشرقية. بل وبأولئك المهاجرين الروس الذين ادعوا يهوديتهم.

والتساؤل حول يهودية الدولة العبرية الذى بات ملحاً ومؤرقاً. يجر إلى تمزق آخر بين عنصرية العلمانيين، وأصولية المتدينين. فالأوائل يعلنون تفضيلهم للأوروبيين الذين يعتنقون اليهودية على اليهود الفارين من أفريقيا (راجع أدبيات حزب «شينوى») أما الأصوليون فلا يعترفون بيهودية من يعتنق اليهودية!! والذى يريد أن يعرف أكثر من التناقضات المتنامية فى المجتمع اليهودى أن يتصفح على الإنترنت مواقع مثل www.tikkum.com أو www. Forward.com أو يزور منتديات النقاش المفتوحة للإسرائيليين.

وبعـــد..

يصم البعض بيننا عاماً انقضى بأنه «عام النكبة العربية الثانية». واستحضاراً - ربما - لذكرى النكبة الأولى قبل نصف قرن: يقف الكثيرون - بين عامين - بعضهم يائس: أرهقته الخيبة بعد الخيبة. وبعضهم يتأهب لإقامة سرادق العزاء. وبعضهم - متواطئا ربما - يتفرغ لترويج مفاهيم «اللافائدة».

ربما كان كل هذا أو بعضه صحيحا.. لا ننكر. فـ «من لا يرى من الغربال..... » كما يقول المثل المصرى. ولكن، صحيح أيضاً أنه رغم الجدار.. والأباتشى.. والاغتيالات.. والتهديد بقصف إيران والسد العالى.. والمعلومات الغامضة حول الترسانة النووية، فالبادى أن الرياح العاتية التى هبت على منطقتنا، لن تُبْقِيَ ثابتاً. وإن استند على «الأساطير المؤسسة».. هل تذكرون جارودى؟!

والثابت، رغم هيستريا السفير الإسرائيلى فى السويد، أن شراع «هنادى جرادات» الأبيض السابح فى بحر من الدم سيصل حتماً - ومهما كان اتجاه الريح - إلى الشاطئ.

أيمـــن الصيـــاد

لِكُل عقل موهبة

A MIND AT A TIME

تأليف : مِلْ لِڤِين



من أكثر الكتب بيعاً في الولايات المتحدة.

كتاب تربوي للآباء والأمهات والمدرسين ولكل مُهْتَم بالتربية والتعليم.

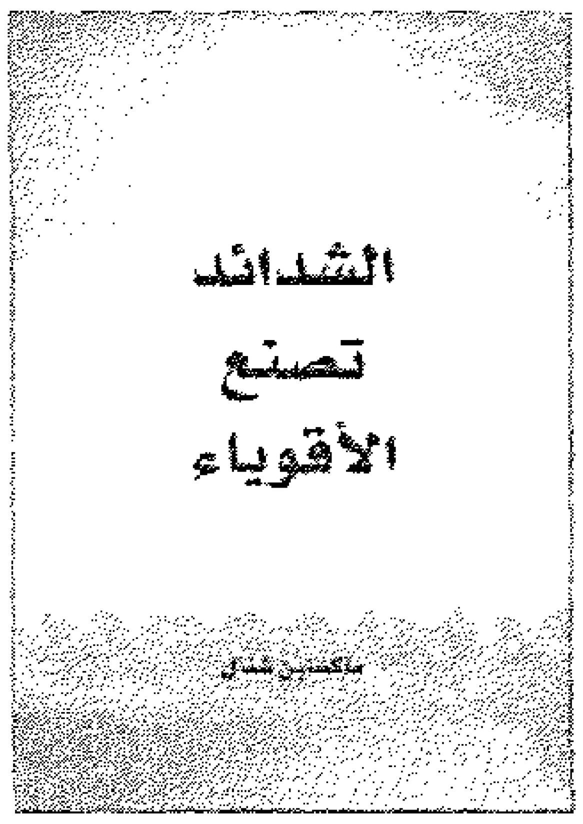
يقول المؤلف إن «العقول في اختلافها تَتعلّم بطرائق مُختلِفة». إنها مشكلة تواجه أطفالاً كثيرين، فمعظم المدارس ومناهج التعليم ما زالت تَتَشَبَّث بقالب واحد تَفترِض فيه ملاءمة جميع إمكانات التعليم. وتأتي معاناة الأطفال من ذلك القالب الوحيد الذي لا تتطابق أنماط تَعلّمهم معه. يُبَيِّن المؤلف لكل المهتمين في هذا الشأن كيف يَتعرّفون على نمط التعلّم الخاص بكل طفل، فيوضح لهم كيف يدعمون مكامن قوة كل طفل وكيف يتجنّبون مواقع ضعفهم. إن طرائق التعليم التي يقدمها تُفضي إلى إشباع حاجات الأطفال وتقودهم إلى الإبداع عِوَضاً عن التثبيط والإحباط والفشل.

* ثمن النسخة (مجلد) $16.50 * ثمن النسخة (غلاف) $13.50

الشدائد تصنع الأقوياء

What Dosen't Kill You Makes You Stronger

تأليف : ماكساين شنال



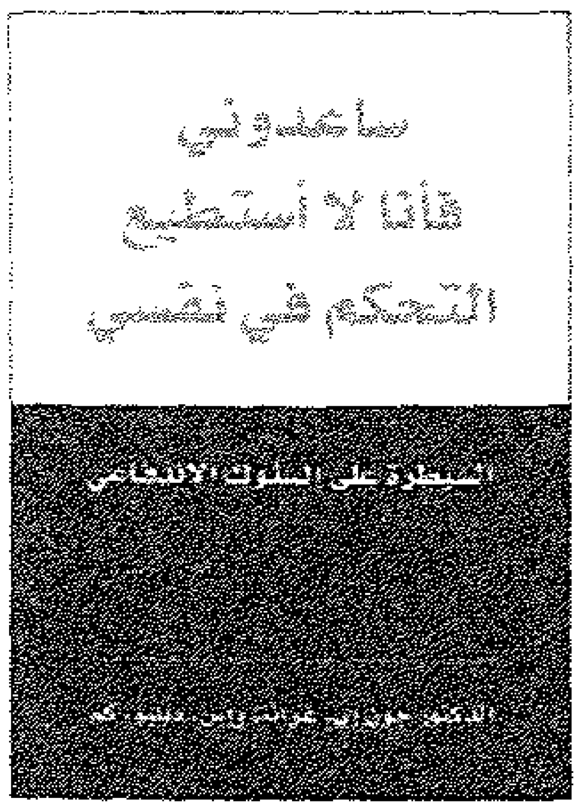
كل الناس مُعرّضون للمِحَن والشّدائد، وتختلف أنواع هذه المحن ودرجات شدتها وتتباين بين الناس. وتقدم المؤلفة في كتابها من خلال تجربة مضنية خاضتها أسرتها مجموعة قواعد ومبادئ وتمارين عملية تساعد الناس لدى عبورهم ممر المحن على اختلاف درجاتها، أو في تجنبهم قسوة التجربة، حتى يخرجوا منها بقوة وبتجدد كامل. يقدم الكتاب مَعيناً غنياً بطرق التحرر من القلق واليأس، لا تقتصر على طرق الصمود في المحن فحسب، بل تتجاوزها إلى سبل اكتساب نوع جديد من القوة الوافية.

* ثمن النسخة بالغلاف $9

ساعدوني فأنا لا أستطيع التحكُّم في نَفْسي

السيطرة على السلوك الاندفاعي

Stop Me Because I Can't Stop Myself



تأليف: الدكتور جون إي. غرانت وإس. دبليو. كِمْ

تعريب الدكتور ياسر العيتي.

يعاني ملايين الناس من مشكلات لا يبوحون بها، كالرجال التواقين إلى القمار الذين يمضون الليالي في مرابع القمار ويغرقون في نكبات الديون.. والنساء اللواتي لا يستطعن كبح جماح رغباتهن في الشراء والتسوّق ويخفين الفواتير عن أزواجهن.. والمراهقات والمراهقين الذين يندفعون إلى السرقة حتى يُقبض عليهم في جرمهم بعد زمن، طال أم قَصُر. ففي كل يوم يصارع ناسٌ رغبات جامحة لا يستطيعون مقاومتها فتودي بهم إلى الهلاك وتُدمِّر حياتهم وأُسَرَهُم ومِهَنهم. كلٌّ أولئك يعانون بصمت ويخجلون من طلب المساعدة على محنتهم. إن أمراض السيطرة على الدوافع يصعبُ أن يميزها المصابون بها غالباً، وهي أمراض شائعة. إن 15٪ من سكان الولايات المتحدة (أي أكثر من 35 مليون إنسان تقريباً) يعانون من هذا الداء. يقدّم المؤلفان سبلاً رائدة وقوية للذين يعانون من هذه الأمراض تُمكّنُهم من الخلاص مما هم فيه.

المؤلفان: طبيبان يديران عيادة السيطرة على الدوافع في قسم الأمراض النفسية في جامعة مينسوتا الأمريكية University of Minnesota حيث يقومان بعمل رائد في مجالهما هذا.

* ثمن النسخة بالغلاف $9

سلسلة هارڤارد لأساسيات الأعمال

المصدر الذي يمكن أن يعتمد عليه المديرون المشغولون

إن هذه السلسلة مصممة لكي تزوّد بنصائح شاملة، وإرشاد شخصي، وخلفية من المعلومات، ودليل لمعظم المواضيع المتعلقة بممارسة العمل. هذه الإرشادات الدقيقة المأخوذة من المحتوى الغني لمنشورات كلية الأعمال في جامعة هارڤارد ومصادر أخرى، معمولةٌ بعناية لكي توفر مصدراً عملياً للقراء من جميع مستويات الخبرة. ولضمان النوعية والدقة، يخضع كل مجلد للمراجعة الفاحصة من قبل مشرف منهمّ يعمل في كلية للأعمال ذات مستوى عالمي. وسواء أكنت مديراً جديداً لك اهتمام في توسعة مهاراتك أو مديراً تنفيذياً صاحب تجربة، فإن هذه الكتب التي تعتمد على الحلول تُلبّي رغبتك بكل سهولة للحصول على أجوبة شافية في متناول يدك، صدر منها:

المفاهيم المالية الأساسية للمديرين

Finance For Manager



يُعدُّ حساب وتقييم الصحة المالية العامة للعمل جزءاً هاماً لأي موقع إداري. وهذا الكتاب سَهْلُ الاستعمال وليس ذا طابع فنّي، ويزوِّد القارئ بالمعارف المالية الأساسية، ويقدِّم للمديرين نصائح ذكيَّة يحتاجون إليها لزيادة تأثيرهم في التخطيط، ووضع الموازنات، والتوقعات. يشتمل الكتاب على * قراءة القوائم المالية وفك رموزها * تطبيق مفاهيم تحديد القيمة * تمويل العمليات والنمو * استخدام أدوات قيمة الوقت بالنسبة إلى المال * اتخاذ قرارات أفضل بصدد الاستثمارات الداخلية والخارجية. **مرشد السلسلة الذي أشرف على الكتاب هو** صامويل هيز، رئيس إنفستمنت بانكنغ إيميريتوس في كلية جامعة هارڤارد للأعمال.

* ثمن النسخة بالغلاف $10.30

إدارة التغيير والتحوّل

Managing Change and Transition



سيجد القارئ في هذا الكتاب إرشادات إلى كل ذي شأن، للتعامل مع التغيير والتحوُّل في كل عمل أو مؤسسة. فيه نصائح شاملة لطرائق السيطرة على المشكلات الناجمة، وفيه أجوبة ملائمة لها. ويشتمل الكتاب على * إدراك الحاجة إلى التغيير التنظيمي * تنفيذ الطرائق المختلفة للتغيير * الاستعداد للتحولات البنيوية * توجيه الاستجابات العاطفية لتخفيف حجم المشكلات والمساعدة على التكيف معها * الحفاظ على المنافسة خلال فترة التغيير المطلوب. **مرشد السلسلة الذي أشرف على الكتاب هو** البرفسور مايك بير، أستاذ في إدارة الأعمال في كلية هارڤارد للأعمال.

* ثمن النسخة بالغلاف $7.75

شركة الحوار الثقافي ش.م.م

بيروت، ص.ب. 6750 - 13 لبنان

هاتف: 802444-1-961+ • فاكس: 790718-1-961+

E-mail: info@interculturalbooks.com • http://www.interculturalbooks.com

تُطلب كتب شركة الحوار الثقافي في جميع البلاد العربية من

دار الوراق للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

E-mail: warrak@interculturalbooks.com

كما تُطلب في الدول التالية من:

مصر : دار العلوم - القاهرة، هاتف : 5761400 وفي **المملكة العربية السعودية** من: دار الوراق ومن: مكتبة جرير في جميع فروعها. وفي **الكويت** من: مكتبة جرير ومن: الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات. وفي **قطر** من: مكتبة جرير. وفي **البحرين** من: المكتبة الوطنية، المنامة وفي **أبو ظبي** من: مكتبة الجامعة ومكتبة جرير. وفي **لبنان** من: دار الفرات للنشر والتوزيع 750054-1-961+. وفي **الأردن** من: **الأهلية للنشر والتوزيع** 4638688-6-962+. وفي **سورية**: من دار الثُّرَيّيْن، دمشق 2230914-11-963+. وفي **المغرب** من: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 62 - March 2004

مجلة شهرية . العدد الثانى والستون . السنة السادسة . مارس ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات



◆ ◆ ◆

التضليل بالأرقام .. وتقرير التنمية الإنسانية العربية

جلال أمين

غذاء أكثر..وجوعى أكثر : من يملك ثمن الخبز ؟

أحمد مستجير

الأمير الصغير.. والكاتب الذى اختفى

محمد المهدى

التفاتة إلى الهند

سلامة أحمد سلامة


ضاعف مدخراتك
من خلال
الوثيقة ذات العائد المدفوع مقدماً
عائد شهرى لمدة ٣ سنوات
وثيقة الأمان
المستقبل آمن
إدخر وأمن مستقبلك
الوثيقة ذات العائد المتعدد العملات
أعلى عائد مع ضمان صرفه بالعملات الأجنبية
وثيقة الإدخار الذهبية
جنيه ذهب لكل ٢٥ ألف جنيه
RESALA
وتمتع بإمكانية
الإقتراض
إصدار بطاقات البنك العربى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفيّة عربيّة
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
www.arabbank.com

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

السنة السادسة
العدد الثاني والستون
مارس ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- احمد درويش... أستاذ الأدب المقارن بجامعة الإسكندرية.
- احمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة بجامعة القاهرة.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- باتريشيا جاتسبي... محررة علمية في مجلة ديسكفر.
- جلال امين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية في القاهرة.
- حازم الببلاوي.. الأمين التنفيذي للجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا.
- حمدي عزام .. دبلوماسي مصري سابق.
- داليا داساكاي... أستاذ مساعد في العلوم السياسية بجامعة جورج واشنطن.
- سلامة احمد سلامة .. صحفي.
- سمير حنا صادق.. أستاذ الطب المعملي بجامعة عين شمس.
- عايدة العزب موسى... صحفية.
- علاء الدين وحيد... كاتب.
- غازي صلاح الدين العتباني ... وزير سوداني سابق.
- فهمي هويدي .. صحفي.
- لويس ميناند.. أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة سيتي، وكاتب بمجلة نيويوركر.
- ليلى حافظ .. صحفية.
- محمد المهدي... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجي ـ سعد الدين شحاته ـ أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

”نون“

التفاتة إلى الهند

سلامة أحمد سلامة

ما تكاد تهبط بك الطائرة فى أى من العواصم أو المدن الخليجية، حتى يطالعك الوجود الآسيوى الكثيف فى كل مكان.. فى المطارات، فى المحال التجارية، فى الفنادق، فى المطاعم، فى المكاتب الحكومية والإدارات العامة.. فى الحافلات وسيارات التاكسى. يخيل إليك أن أهل البلد الأصليين قد هجروها فى أجازة وتركوها بين أيدى مئات الألوف من الأيدى العاملة الآسيوية: من الهند وباكستان والفلبين وتايلاند وغيرهم من الأجانب الذين يمثلون قوة العمل الحقيقية فى كثير من الأعمال الصغيرة والكبيرة على حد سواء. ولكن الطابع الهندى هو أكثر ما يثير الاهتمام ويلفت النظر: الوجوه الهندية، واللسان الهندى، والعمامة الهندية، والطعام الهندى، والرائحة الهندية المميزة.

ولا يقتصر الأمر على هذا الوجود البشرى الذى يملأ المكان. بل هو وجود اقتصادى وثقافى واجتماعى يتحول إلى وجود سياسى غير ظاهر وإن كان بالغ التأثير.. نشأ وترعرع على مر العقود الثلاثة الماضية بدرجة ملحوظة، حين تدفق مئات الألوف من الأيدى العاملة المدربة وغير المدربة إلى بلاد الخليج بعد ظهور الثروة النفطية، وتحول المجتمعات الخليجية إلى مجتمعات للرفاهية والثراء.. تحتاج إلى من يخدمها ويدبر شئونها من الأيدى العاملة. أكثر من ٦ ملايين يعملون فى مختلف المستويات الوظيفية والإدارية والخدمية، يتدفقون من شبه القارة الهندية إلى دول الخليج، ويمثلون أكبر جالية أجنبية فى أى منطقة فى العالم، يصل حجم تحويلاتها إلى البلد الأم فى الهند نحو ١٤ بليون دولار سنوياً.

يظل الوجود الآسيوى فى الخليج، والهندى بوجه خاص، وجوداً مميزاً بطبيعته التى لا تعبر عن نفسها بطريقة زاعقة لافتة، وإن تغلغل فى صميم الحياة الخليجية وتسرب فى دمائها وعروقها.. وذلك على عكس الوجود العسكرى الأمريكى النافر الذى يفرض نفسه بقوة السلاح. وعلى العكس أيضاً من الوجود الثقافى والاسترزاقى لجاليات عربية، والذى يكون مستفزاً أحياناً ومثيراً للغيرة والشقاق أحياناً أخرى بحكم الحاجة إلى الانتماء إلى هوية سياسية وحضارية عربية يصعب التخلص منها.



علاقة العرب بالهند إذن علاقة ذات حضور قوى هادئ فى الحاضر وذات جذور تاريخية ضاربة فى الماضى سعى علماء العرب إلى دراسة علوم الهند وحكمتها وفلسفتها. واتجه الرحالة العرب لاكتشافها والتعرف على جوانب الحياة فيها، من أمثال المسعودى وابن حوقل واليعقوبى والمقدسى والبيرونى وابن بطوطة. وكان البيرونى ذلك العالم الضليع فى الرياضيات والفلك من أكثر العلماء العرب الذين اهتموا بالثقافة الهندية وعكفوا على دراسة تاريخها وعادات أهلها.

وفى العصر الحديث عرف العرب نضال الزعيم الهندى المهاتما غاندى الذى قاد بلاده إلى الاستقلال، وانتهج أسلوب «العصيان المدنى» كأسلوب سلمى لا يلجأ إلى العنف فى مقاومة الاستعمار البريطانى. وحصلت الهند على استقلالها التام على يدى جواهر لال نهرو تلميذ غاندى ورجل الدولة، الذى شكل بعد ذلك مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والزعيم اليوغوسلافى جوزيب بروز تيتو حركة عدم الانحياز.

ويخطر ببال المرء الآن أن الظروف التى أحاطت بالعالم العربى فى تلك الحقبة. الخمسينيات من القرن العشرين. والظروف الدولية التى تحيط به الآن فى بدايات القرن الواحد والعشرين، تكاد تتشابه فى كثير من مخاطرها وتهديداتها. فبينما كانت الأحلاف العسكرية تحاصر مصر والعالم العربى حينذاك، وتعمل جهدها للإيقاع بالقوى الوطنية الطامحة إلى الاستقلال، نلاحظ فى الوقت الحاضر كيف وطد النفوذ العسكرى الأمريكى نفوذه وقواعده فى الدول العربية دون حاجة إلى أحلاف عسكرية.. فى المرحلة السالفة كان التهديد الشيوعى والخطر السوفيتى هو «البعبع» الذى يخيف به الغرب الأقطار والحكومات العربية، ويضغط عليها بكل الوسائل للانضمام إلى أحلاف عسكرية غربية تتعاون مع حلف الأطلنطى. وفى هذه الأيام يبرز «الإرهاب» و«التطرف الدينى» كمصدر للخطر الذى يهدد الدول العربية ويهدد المصالح الأمريكية والغربية.. ويروج لها الغرب باعتبارها التحول الجديد الذى يجب أن يتكاتف العالم للوقوف ضده ومحاربته. ومن ثم تتصاعد الدعوة الموجهة إلى العالمين العربى والإسلامى، إن لم يكن للانضمام إلى حلف الأطلنطى، فللدخول فى شراكات مبهمة مع الولايات المتحدة أو مع أوزوبا لتحرير الشرق الأوسط من خطر الإرهاب ومصادره الكامنة فى نظم حكم سياسية متخلفة وعاجزة عن انتهاج نظم ديمقراطية حرة.

وإذا كانت فكرة الحياد الإيجابى أو عدم الانحياز هى المفهوم الذى تمسك به نهرو وعبد الناصر وتيتو فى ذلك الوقت، على أساس أنه الوسيلة الوحيدة لكى تنأى دول أفريقيا وآسيا بنفسها عن الصراع النووى الناشب بين العملاقين، فإن التشرذم الذى طرأ على تجمع الدول الأفريقية والأسيوية، وانكسار أحد العملاقين وهو الاتحاد السوفيتى، وسيطرة قطب واحد أعظم يملك مقاليد القوة العسكرية والتفوق العلمى والتكنولوجى هو الولايات المتحدة، والتغيرات الجذرية التى طرأت على موازين القوى وعلى المشهد العالمى بأسره، قد أفقدت دول العالم الثالث زمام المبادرة والمناورة وبددت ما كان لمبدأ عدم الانحياز من مفعول سحرى، وانشأت فجوات واسعة بينها جعلها تتناثر فى جزر منعزلة متباعدة، كل منها يبحث عن مصلحته ويسعى إلى اتقاء الشرور والمخاطر المحيطة به من كل اتجاه. وذلك فى وقت يعانى فيه النظام الدولى ومؤسساته من حالة وهن شديد، وخضوع كامل لسيطرة القوة العظمى الوحيدة فى العالم.

لم تصمد كتلة الدول غير المنحازة طويلاً أمام العواصف الدولية الجارفة، التى هبت بسقوط الاتحاد السوفيتى وكتلة دول حلف وارسو، وما سبقها من سقوط حائط برلين. ولم تنجح الجهود التى بذلت بعد ذلك لإقامة تكتلات تحل محلها مثل مجموعة الـ ٧٧ أو دول الجنوب فى مواجهة دول الشمال. وربما كان للتداعيات التى أعقبت حرب



أكتوبر ٧٣ والزيارة التى قام بها الرئيس السادات إلى إسرائيل عام ٧٩، دور هام فى تفكيك عرى فكرة عدم الانحياز. بعد أن أعلن الرئيس السادات أن ٩٩ بالمائة من أوراق اللعبة فى يد أمريكا وأنها وحدها القادرة على تحقيق السلام العادل فى الشرق الأوسط.

وكانت هذه الفترة الحاسمة هى بداية التغيير التى وضعت دول عدم الانحياز أمام مفترق طرق: وهى الفترة التى بدأت الطريق تتباعد فيها بين مصر والهند، وبين العالم العربى والهند. وقد أدركت الهند ـ على عكس مصر ـ أن عدم الانحياز ليس إلا ثوباً شفافاً رقيقاً لا يحمى أصحابه من برد الشتاء أو قيظ الصيف. ومن ثم فلابد من بناء قوة ذاتية قادرة على الدفاع عن نفسها ضد الأخطار القائمة والمستقبلة. ولم تكن أمريكا تخفى امتعاضها من دول عدم الانحياز واستخفافها بها.. وفى رأى دالاس وزير الخارجية الأمريكية حينذاك ومهندس الحرب الباردة، أن عدم الانحياز فكرة لا أخلاقية. فأنت فى الصراعات الدولية إما مع جانب أو ضده، ولا مجال للوقوف فى الوسط. ومازالت هذه هى الفكرة التى يؤمن بها الرئيس بوش وجماعة المحافظين الجدد، والتى تكررت على لسان بوش وباول بصيغ مختلفة فى الحرب ضد الإرهاب وفى أزمة الحرب ضد العراق. وهكذا فما أن سقط الاتحاد السوفيتى حتى أصبح الحديث عن عدم الانحياز مجرد كلام فى الهواء أو ملء للفراغ.

يقول مصدر هندى كبير مسئول، يعتبر العقل السياسى الذى يقف وراء السياسات الناجحة التى انتهجها إتال بيهارى فاجباى رئيس وزراء الهند للخروج من قفص العزلة الذى وجدت نفسها فيه فى السنوات التى تبعت سقوط النظم الاشتراكية والشيوعية فى موسكو وأوروبا الشرقية، إن هذه الفترة هى التى وقع فيها التحول فى العلاقات بين الهند وعدد كبير من دول عدم الانحياز ومن بينها مصر. فبينما اتجهت مصر إلى تدعيم علاقاتها مع الولايات المتحدة، اتجهت الهند إلى تدعيم علاقاتها مع موسكو. وخاصة بعد أن فرض الغرب عليها حظراً اقتصادياً بسبب قيامها بأول تفجير نووى عام ١٩٧٤. وأدى ذلك إلى نشوب أزمة اقتصادية اقترنت بارتفاع الأسعار نتيجة لارتفاع أسعار النفط، وسقطت حكومة أنديرا غاندى نتيجة لإعلانها حالة الطوارئ بسبب حملة التعقيم الإجبارى للرجال. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يخذل فيها الشعب الهندى حزب المؤتمر الذى حكم منذ الاستقلال، ويفتح الطريق أمام أحزاب المعارضة بزعامة حزب «بهارتيا جاناتا» الهندوسى ذى النزعات الدينية المتعصبة.

وإذا كانت مصر قد شهدت اغتيال الرئيس السادات على يد الجماعات الإسلامية المتطرفة فى أكتوبر ١٩٨١. فقد شهدت الهند اغتيال أنديرا غاندى على يد اثنين من حراسها السيخ المتعصبين عام ٨٤، وشهدت ظهور نزعات انفصالية بين السيخ، وحركات دينية قومية بين الطائفة الهندوسية. وتعرضت الهند لفترة مضطربة لقى فيها راجيف غاندى مصرعه خلال حملته الانتخابية. ولم يكن راجيف قد تأهل سياسياً لتحمل المسئولية السياسية. ومن هنا لم يدم حكم حزب المؤتمر طويلاً ولكنه خطا أول خطوة فى إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل عام ٩٢ ومحاولة إصلاح العلاقات مع أمريكا، وأدى ضعف الحزب وتفكيك أجنحته إلى صعود حزب بهارتيا جاناتا اليمينى إلى الحكم بعد اشتعال نزعات تطرف هندوسية أدت إلى تدمير مسجد بابرى التاريخى فى أيودهيا، وهى بقعة يدعى الهندوس أنها كانت موضع ولادة الإله «راما» المعبود المقدس عندهم، وهو ما أدى إلى وقوع مذابح طائفية دامية بين الهندوس والمسلمين مازالت تفعل فعلها فى التوتر بين الطائفتين حتى الآن.

مجمل القول إن الهند شهدت أوقاتاً صعبة لا تقل صعوبة وعسراً عن الأوقات التى شهدتها مصر وأجزاء عديدة من الوطن العربى. ولكن من الثابت أن الهند بقيت على مدى العقود الأربعة الماضية منذ قيام الكيان الصهيونى، من أقرب المدافعين عن الحقوق العربية والقضية الفلسطينية فى مختلف المحافل الدولية. كما أنها لم تجعل من مبدأ الحياد وعدم الانحياز مبرراً للتخلف عن تصميمها على الحصول على القوة النووية. وإذا كانت الظروف الداخلية لهذه الدولة المليارية الكبرى والتهديدات التى أحاطت بها، سواء ببروز الصين كقوة نووية صاعدة اقتصادياً وعسكرياً تمثل منافساً قوياً فى آسيا، فضلاً عن علاقة بكين الوثيقة بباكستان، التى ظل نزاعها الدامى مع الهند بسبب قضية كشمير مصدراً لمصادمات وحروب عديدة، والتى أخذت تطور بدورها برامجها النووية حين أجرت تفجيرها الأول عام ٧٦ أى بعد عامين من الهند.. قد ضاعفت من أسباب التعاون بين الهند وروسيا حين كانت دولة عظمى، فإنها أيضاً لم تتردد فى قبول المقاربات التى عرضتها إسرائيل على الصعيدين الاستخباراتى والعسكرى، حين تعرضت الهند لعقوبات اقتصادية بسبب برامجها النووية. وقد تطور هذا التعاون مع إسرائيل ليس فقط فى مجال المعلومات حول نشاطات «الإرهابيين» وكيفية مواجهتهم ورصد أنشطتهم ولكن أيضاً فى تزويد الهند بتجهيزات رصد إلكترونية متقدمة لضبط المتسللين إلى أراضيها عند الحدود مع كشمير، وطائرات استكشاف بدون طيار، وأجهزة إنذار مبكر وصواريخ أرض ـ جو وغيرها من المعدات التى ضاعفت صادرات إسرائيل إلى الهند من السلاح بما يتجاوز صادراتها إلى تركيا. وكانت الصفقة الأخيرة التى تمت بعد زيارة شارون لدلهى فى أواخر العام الماضى تجاوز المليار دولار لشراء نظام رادار من طراز فالكون من إسرائيل. غير أن العلاقات التجارية لا تقتصر على السلاح، إذ تحقق تجارة الماس والأحجار الكريمة وحدها ١,٢ مليار دولار، تستوردها إسرائيل من جنوب أفريقيا ليتم صقلها وتقطيعها فى مراكز متخصصة لتقطيع الماس والأحجار الكريمة فى جايبور وغيرها من المدن الهندية ويعاد تصديرها إلى إسرائيل وأوروبا.

وفى هذا السياق يصعب تجاهل الموقفين العربى والإسلامى من قضية كشمير التى استغلتها باكستان فى الحصول على تأييد الدول العربية لأسباب دينية. وهو ما أدى إلى توسيع الفجوة فى العلاقات الهندية العربية، وزاد من مشاعر العداء الهندوسى للمسلمين فى الهند، والذين يزيد عددهم (١٤٠ مليوناً) عن تعداد باكستان نفسها. ولم يتوقف العرب طويلاً أمام اختلاف الوضع فى القضية الكشميرية عنه فى القضية الفلسطينية، بل انحازوا إلى باكستان بدافع من التعاطف الدينى. وصور الكثيرون مقاومة الكشميريين ضد الوجود العسكرى الهندى على أنه مثل نضال الشعب الفلسطينى ضد إسرائيل. مع أن جذور المشكلة الكشميرية أبعد ما تكون تاريخياً وسياسياً عن المشكلة الفلسطينية. إذ نشب الخلاف حول كشمير منذ اللحظة الأولى لانفصال باكستان كدولة مسلمة عن الهند، عندما قرر المهراجا الذى يحكم كشمير قبل الاستقلال أن ينضم إلى الهند. واستولت الهند على نصف أراضى كشمير تقريباً، وباكستان على النصف الآخر. وفشلت بعد ذلك كل الجهود بما فيها وساطات الأمم المتحدة فى حل المشكلة الكشميرية التى تحولت إلى قضية كبرياء قومى دينى عند باكستان، وإلى قضية حفاظ على الوحدة والسيادة لدى الهند.. التى خشيت من أن يؤدى التفريط فى انفصال كشمير إلى تفكيك الدولة الهندية المتعددة الأديان والأصول والأعراق، وتشجيع النزعات الانفصالية لدى طوائف أخرى مثل السيخ!

على أن الولوج إلى النزاع الهندى الباكستانى حول كشمير قد يوقعنا فى مستنقع من الحجج والحجج المضادة لا قرار له. ويصرفنا عن مناقشة القضية الجوهرية التى تدعونا إلى لفت أنظار العالم العربى إلى التطور الهائل الذى شهدته الهند، والذى يوشك أن يضعها فى مصاف الدول العظمى خلال النصف الأول من القرن الحادى والعشرين، شأنها شأن الصين. فالعالم يشهد بمزيج من الإعجاب والدهشة والتوجس قيام شعبين عريقين من رقدة العدم: يشهد كيف نهض التنين الصينى من سباته ليحقق معدلات نمو غير مسبوقة (ما بين ٩ ـ ١٢٪ سنوياً) وينافس دولاً كبرى فى مجالات تجارية واقتصادية كانت حكراً عليها، ويطور ترسانة مخيفة من الأسلحة النووية، ويحقق طفرة كبيرة فى مستويات المعيشة للشعب الصينى. ثم هو يشهد بدرجة لا تقل انبهاراً وذهولاً كيف ينطلق الفيل الهندى بجسمه الضخم (أكثر من مليار نسمة) وأقدامه الثقيلة، وذكائه المعجون بقدر كبير من الدهاء وسعة الحيلة، مع التمسك بالتقاليد والكبرياء القومى، ليشق طريقه وئيداً واثقاً إلى صدارة العالم على قدمين واثقتين.. فى

أكثر من ٦ ملايين يعملون فى مختلف المستويات الوظيفية والادارية والخدمية، يتدفقون من شبه القارة الهندية إلى دول الخليج، ويمثلون أكبر جالية أجنبية فى أى منطقة فى العالم، يصل حجم تحويلاتها إلى البلد الأم فى الهند نحو ١٤ بليون دولار سنوياً



مجالات جديدة حققت هدفها القومى الأساسى وهو الاكتفاء الذاتى من الحبوب والحاصلات الزراعية بعد سنوات من الفاقة والمجاعة، ثم امتلاك قوة نووية مدعومة بوسائل حملها من الصواريخ بعيدة المدى، ومصحوبة بنهضة تكنولوجية فى مجال الاتصالات والمعلومات بمعدلات نمو اقتصادى قد لا تصل إلى معدلات النمو فى الصين وإن اقتربت منها (ما بين ٥ـ ٧٪).

وعلى الرغم من الوضع الاجتماعى المعقد والمركب الذى يسود الهند، حيث «يتعايش فيها الفقراء والعلماء، المتدينون والمثقفون، المنبوذون والصفوة، العمالة البسيطة ورجال الأعمال الكبار، أصحاب الصناعات الصغيرة وأصحاب الشركات المتعددة الجنسيات، أكبر الكتاب والأدباء فى اللغة الإنجليزية مع نسبة من الأمية تصل إلى ٤١٪، إلا أنها تفرز طبقة متوسطة قوية متعلمة تتراوح بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ مليون نسمة، أى أكبر عدداً من الشعب الأمريكى هى التى تحمل على عاتقها عبء التقدم وتحافظ على تقاليد الديمقراطية السياسية العريقة، وتفرز آلاف الكفاءات من المهندسين ومبرمجى الكمبيوتر والخبراء والعلماء، فى جو من الاستقرار السياسى المثير للإعجاب، والذى لم يعرف حالة انتكاس واحدة إلى الديكتاتورية والقمع وأحكام الطوارئ الذى عرفته عشرات من الدول التى نالت استقلالها فى وقت متزامن مع الهند، وذلك برغم الحروب التى خاضتها (أربع حروب مع باكستان والصين) والمذابح الطائفية التى لم تتوقف بين المسلمين والهندوس، وأجواء القلق والتوتر التى تعصف بالقارة الأسيوية، وتحصر الهند بين الصين من ناحية، والنمور الأسيوية الصغيرة من ناحية أخرى، واليابان وكوريا الجنوبية من ناحية ثالثة.. وكلها تجرى فى سباق مع الزمن ومع التحديات الاقتصادية ومخاطر العولمة وحمى المنافسة.

لاجدال فى أن أحداث سبتمبر ٢٠٠١ كانت فرصة ذهبية غير متوقعة لإزالة كثير من العقبات فى طريق صعود الهند إلى مصاف الدول العظمى. وحين أذيعت أخبار الهجوم الذى وقع على واشنطن ونيويورك، عقد إتال بيهارى فايجباى رئيس الوزراء اجتماعاً عاجلاً مع مستشاريه، وقرر دون تردد مساندة الهند الكاملة للولايات المتحدة. وكان الدافع وراء هذا القرار هو الاستنزاف الذى سببته الحرب بالوكالة التى تجرى بين باكستان والهند فى منطقة كشمير المتنازع عليها منذ عقود، حيث ظلت أجهزة المخابرات الباكستانية تساعد «الجهاديين» الإسلاميين الذين يقودون حركة انفصالية فى كشمير ضد السيطرة الهندية. فإذا نجحت الهند فى تحويل هذا النزاع الدامى إلى فصل من فصول الحرب التى تقودها أمريكا ضد الإرهاب العالمى، واستغلال العلاقات الوثيقة بين باكستان وتنظيم القاعدة لتصوير الهند كضحية للإرهاب الأصولى الإسلامى، فإنها تكون قد تغلبت على أهم العقبات التى تعترض طريقها إلى عصر العمالقة وكسبت تأييد الولايات المتحدة.

كانت العلاقات الهندية الأمريكية قد شهدت بعض التحسن أثناء رياسة كلينتون بعد مرحلة من الفتور عقب التجارب النووية التى أجرتها الهند عام ٩٨، عندما تدخل كلينتون بقوة لدى باكستان لسحب قواتها التى دفعت بها إلى كشمير وأوشكت أن تنشب حرب بين الجانبين. وأعقبها بزيارة رسمية للهند. ثم لم يلبث بوش أن استمر فى سياسات التقارب مع الهند، التى اعتبرها فى إطار استراتيجيته الجديدة نقطة توازن مهمة فى آسيا لو ساءت العلاقات مع الصين لأى سبب من الأسباب. غير أن نقطة التحول الحقيقية فى العلاقات جاءت فى اطار «الحرب ضد الإرهاب». ودخل هذا «التحول» مرحلة تعاون أمنى وثيق بين واشنطن ونيودلهى. أفضى إلى رفع العقوبات عن الهند وإلغاء الحظر النووى. فى هدوء. على ما يُعرف بالتكنولوجيا المزدوجة التى يمكن أن تستخدم فى أغراض مدنية وعسكرية فى وقت واحد، وسمحت واشنطن لإسرائيل بتزويد الهند بأنظمة جوية وأنظمة إنذار مبكر، وبمحركات لطائرات مقاتلة، وأنظمة رادار تصلح للطائرات الروسية، ولم تعلق واشنطن كثيراً حين أجرت الهند تجاربها على قذائف صاروخية من طراز «أجنى» فى نهاية عام ٢٠٠٠. وارتفع حجم الصادرات الهندية إلى أمريكا ليصل إلى ١٠ مليارات دولار مقابل ٤ مليارات واردات من أمريكا.

غير أن تطور العلاقات الأمريكية الهندية وصل إلى ذروته حين وقع الطرفان «اتفاق الشراكة الاستراتيجية» بعد زيارة قام بها فاجباى لأمريكا فى أواخر العام الماضى ٢٠٠٣، وفى أوائل ٢٠٠٤ صدر بيان حول التعاون الاستراتيجى بين البلدين فى أربعة مجالات رئيسية:

- فى مجال الهاى تك (التكنولوجية المتطورة).
- فى الاستخدام السلمى للطاقة النووية.
- فى الاستخدام السلمى لأبحاث الفضاء.
- فى مجال أبحاث الصواريخ الدفاعية (الصواريخ المضادة).

وهو ما يعد إنجازاً استراتيجياً مهماً. حصلت عليه الهند مقابل مساعداتها القيِّمة فى تعقب فلول القاعدة وطالبان الذين كان بعضهم قد لجأ إلى منطقة القبائل الباكستانية وإلى كشمير. ولعبت أمريكا وبريطانيا أدواراً مهمة فى حمل الرئيس الباكستانى برويز مشرف على تعديل سياساته تجاه قضية كشمير والموقف العدائى من الهند.

وفى اجتماع القمة الذى عقدته مجموعة دول اتحاد جنوب شرقى آسيا وهى منظمة للدفاع عن المصالح الاقتصادية وتعزيز التعاون الاقتصادى بينها، التقى فاجباى ومشرف واتفق الطرفان على بدء مرحلة جديدة من الحوار على طريق السلام، لحسم «النزاع حول كشمير» تخلت باكستان عن دعمها للميلشيات الإسلامية المسلحة فى كشمير، ووافقت على عدم التمسك بحق تقرير المصير لشعب كشمير. وفى المقابل وافقت الهند على تسوية القضية بالطرق السلمية وإعادة العلاقات الدبلوماسية وطرق المواصلات بين البلدين لبناء جو من الثقة.

أدركت الهنـــد ـ علـى عـكس مصـــر ـ أن عـــدم الانحيـــاز ليس إلا ثــوبـاً شــفـافـاً رقيقـاً لا يحمـى أصحابـه من بـرد الشـتاء أو قيـظ الصـيف. ومن ثـم فلابـد من بناء قـــوة ذاتيـــة قـــادرة على الدفـاع عـن نفســـها ضــــد الأخطـــــار القـائمــــة والمسـتقبلة

وتحت مظلة التعاون الاستراتيجى مع أمريكا تتحرك الهند على محاور ثلاثة: حل مشاكلها الحدودية مع الصين، وتوسيع نطاق التعاون الاقتصادى (٧ مليارات دولار حجم التجارة بينهما)، والتوصل إلى تسوية سلمية لكشمير، وخلق منظمة قوية للتعاون الاقتصادى لدول جنوب شرق آسيا.

منذ انتهت الحرب الباردة، وتفككت كتلة دول عدم الانحياز، وانهارت الوحدة العربية فى غمرة خلافات طاحنة بسبب الفشل الذريع فى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى من ناحية، وظهور تجمعات عربية خارج إطار الجامعة العربية من ناحية أخرى، اشتدت المنافسة على رهان أثبت أنه رهان خاسر، هو الولايات المتحدة الأمريكية حيناً والاتحاد الأوروبى حيناً آخر، أو الاثنين معاً فى معظم الأحيان. وفى المقابل شهدت العلاقات العربية. الآسيوية فتوراً شديداً، على مستوى التعاون السياسى والاقتصادى والثقافى، وإن بقيت الصلات الإنسانية من خلال العمالة الآسيوية الكثيفة فى منطقة الخليج، بمثابة جسر من التواصل لا ينقطع.

وخلال العقدين الأخيرين لمع نجم الصين كدولة عظمى تملك قدرة الدفاع عن مصالحها بل وفرضها إذا لزم الأمر. وأعقبتها الهند، التى أخذت تشق طريقها بسرعة كبيرة لتتبوأ مكانها كقوة عالمية صاعدة. ويتنبأ كثير من الخبراء بأنه إذا كان القرن الواحد والعشرون قد بدأ أمريكياً، فقد لا ينتصف قبل أن يكون آسيوياً. وتدرك الدولتان الكبريان فى آسيا: الصين والهند، أن مستقبلهما رهن بقيام تعاون وثيق، تلتف حوله سائر الدول الآسيوية لتشكل فى الشرق مركز قوة عالمية توازن أمريكا وأوروبا فى الغرب.

من هنا تبدو الحاجة ملحة لكى يعيد العرب النظر فى توجهاتهم لإعادة بناء نسق مستقر ومستقبلى لعلاقات وثيقة مع العملاقين الصاعدين فى آسيا، وربما كانت الهند أقرب تاريخياً وجغرافياً وثقافياً إلى العالم العربى، بل ربما كانت هى الجسر الذى يربط العرب بآسيا. ويكفى أن تنظر إلى أجمل جوهرة فى التراث المعمارى الهندى «مقبرة تاج محل» الحالمة على بعد مائتى كيلو متر من دلهى، تلك التى شيدها سلطان مسلم لحبيبته ورفيقة حياته فى القرن السابع عشر، لتدرك عمق التأثير الذى تركه الحكام المسلمون من المغول على العقل الهندى والحضارة الهندية.. ذلك المزيج الغريب المتفاعل الذى جمع بين الهندوسية والإسلام فى أمة واحدة! ■



غازى صلاح الدين العتبانى

عندما اعتمد مبدأ تقرير المصير لجنوب السودان، دلفت السياسة السودانية إلى منعطف غير مسبوق. فقد صعد الجنوبيون مطلبهم التاريخى بتطبيق اللامركزية الفيدرالية درجة أخرى إلى مطلب يحتمل الانفصال. وما أن وافق المفاوضون الحكوميون على المطلب الجديد فى لقاءات فرانكفورت بألمانيا عام ١٩٩٢ حتى سارعت الحركة السياسية، حاكمة ومعارضة، شمالية وجنوبية، إلى تبنيه فى مواقفها وأدبياتها. ومن ثم دخل مبدأ تقرير المصير فى صلب مبادرة الإيقاد عام ١٩٩٣، واتفاقية الخرطوم للسلام عام ١٩٩٧، ثم الدستور الحالى المجاز فى عام ١٩٩٨، وأخيراً فى بروتوكول مشاكوس عام ٢٠٠٢. بمقارنة هذا التطور الجوهرى فى الموقف من مبدأ تقرير المصير تأهلت المرحلة الراهنة لأن توصف بأنها منعطف غير مسبوق يحمل فى طياته الكثير من المهام الجسام والمخاطر المعضلة. ولا يعنى هذا المقال بتوجيه القدح أو المدح لمبدأ تقرير المصير، أو الطريقة التى اعتمد بها، بقدر ما يعنى بالنظر إليه وإلى مآلاته باعتباره حقيقة سياسية عملية ماثلة ستترتب عليها نتائج مهمة ومعقدة على مستوى الإقليم وإفريقيا.

لقد أحدث الدخول السريع المستقر لمبدأ تقرير المصير فى وثائق السياسة السودانية مسلكاً مبايناً لمسلك القوى السياسية الشمالية قبيل استقلال السودان. يومذاك رفضت الأحزاب الشمالية حتى مبدأ اللامركزية الفيدرالية باعتباره دعوة انفصالية متنكرة. واليوم تتباهى تلك القوى وتتنافس فى إعلان موقفها المؤيد لتقرير المصير من منطلقات مبدئية، ومنها ما يضفى عليه قداسة خاصة باعتباره حقاً شرعياً سماوياً تكفله الأديان. لكن الحركة السياسية الشمالية فى السودان تكاد تتفق على أن المسعى نحو تقرير المصير ينبغى أن يتوج بوحدة طوعية. والتعبير بلفظة «تكاد» مقصود لأن تيارات ناشئة فى الشمال اليوم أخذت تدعو إلى الانفصال صراحة، وهو شىء فريد بالمقاييس التقليدية وينبغى أن يولى عناية واهتماماً إذا ما تحول إلى تيار نام.

الموقف المقابل للحركة السياسية الشمالية هو موقف الحركة السياسية الجنوبية. تاريخياً حدث استقطاب بين كتلة جبهة الجنوب ذات النزعة الانفصالية وكتلة حزب سانو ذى النزعة الوحدوية على أساس الفيدرالية. ربما تعدلت هذه المواقف التاريخية كثيراً نحو تقوية النزعة الانفصالية، لكن هذا مما يصعب قياس مداه وتجذره بدقة فى ظل الاستقطاب الحاد الحالى الذى أحدثته الحرب. كما أن الحالة النفسية النهائية للجنوبيين يمكن أن تتحول إيجاباً نحو الوحدة على خلفية النتائج العملية للسلام.

إزاء تلك المواقف السودانية الداخلية من تقرير المصير، تبدو المواقف الخارجية متفاوتة ومتأرجحة. فبينما ثبتت مصر على موقفها الرافض للمبدأ استناداً على اعتبارات استراتيجية معلومة، تراوح الموقف الغربى بين نظيرين متداخلين: الأول هو قبول للمبدأ بكل احتمالاته، والآخر هو قبول مقيد يرمى إلى استخدام المبدأ لانتزاع مكاسب تفاوضية من الحكومة المركزية والوقوف عند ذلك الحد، أى دون الوصول عملياً إلى نهايات انفصالية. وهذا النظير الأخير للموقف الغربى هو النسخة التى بدأت الآن تكتسب قبولاً أوسع لأسباب استراتيجية سيأتى ذكرها. ولا بد من الإشارة هنا إلى خطأ الاعتقاد الشائع بتطابق الموقفين الجنوبى والغربى. إنه اعتقاد لا يصح بصورة غير مقيدة، وليس بمستبعد أن يصطدم الموقفان فى لحظة ما بسبب اختلاف التطلعات والمصالح.

التفاعل النشط داخل هذه الأصعدة الثلاثة (الشمال، الجنوب، والقوى الخارجية)، وفيما بينها، سيحدد الإجابة النهائية لما إذا كان سيبقى السودان موحداً أم سينشطر إلى دولتين أو أكثر. ومن هنا تصدر أهمية البحث المدقق فى بواطن هذه الأصعدة الثلاثة واستطلاع تفاعلاتها وتداخلاتها.

لقد سيطر الشمال على مجريات السياسة المركزية منذ الاستقلال. أى أن الرؤى التى تبنتها الأحزاب الشمالية هى التى شكلت الخيارات الوطنية المعتمدة. ومن بين تلك الرؤى التى ترسخت عبر ممارسة متطاولة هى المركزية فى الإدارة والحكم. مرد ذلك بصورة عامة هو تأثر الطبقة السياسية التى تحقق على يديها الاستقلال بالنموذج البريطانى. وقد كان اختياراً طبيعياً ومتوقعاً خاصة أن القوى الاستعمارية غادرت على شىء من العجلة، إثر تنامى الحركة التحررية فى المستعمرات بعد الحرب العالمية الثانية، فى ذات الوقت الذى تصاعدت فيه الدعوة داخل المؤسسات السياسية للدول الاستعمارية نفسها لإنهاء الاستعمار اعتباراً بحقائق ما بعد الحرب. تلك التحولات السريعة لم تعط الحركة الوطنية وقتاً كافياً لابتلاء خياراتها الأخرى فى الحكم والإدارة والمفاضلة بين كل النظم المجربة فى العالم. وقد أعد الدستور الانتقالى بسرعة تناسبت مع السرعة التى غادرت بها الكتائب العسكرية الاستعمارية، فكان حتماً أن ينسخ واضعو الدستور من أقرب النماذج المتاحة لهم.

بخلاف خيار المركزية، طرحت الحركة السياسية الجنوبية خيار اللامركزية الفيدرالية ضمن سودان موحد، وقد كان طرحاً متقدماً بالنسبة للفكر السائد. لكن ذلك المطلب رفض لسبب رأته الأحزاب الشمالية بدهياً وهو غموض مقتضيات الفيدرالية ونتائجها على وحدة السودان. ومن هنا نشأ الصراع السياسى وتطور إلى حروب فى دورات متجددة.

ثم إن الحركة السياسية الشمالية بدأت تلين تجاه فكرة اللامركزية بسبب نمو وعيها السياسى، وأيضاً لإدراكها صعوبة حكم السودان بصيغة مركزية قابضة، بل استحالته. ظهر ذلك أولا فى مرحلة متقدمة فى الفترة الحزبية الثانية (٦٤-١٩٦٩) فى أطروحات جبهة الميثاق الإسلامى. لكن اللامركزية متمثلة فى صيغة الحكم الذاتى وجدت طريقاً للتطبيق العملى، متجاوزة الطرح النظرى، فى فترة حكم الرئيس جعفر نميرى بعد توقيع اتفاقية أديس أبابا فى عام ١٩٧٢، وسرعان ما ظهرت الحكمة من تبنى اللامركزية حينما نعمت البلاد بسلام ووحدة داما أحد عشر عاماً.

لكن تلك التجربة تعرضت لانتكاسات بأسباب يمكن تقصيها فى المركز والجنوب كليهما. فى المركز قصرت التجربة عن تطوير الصيغة اللامركزية

.. الطـــريق الصـــعب إلى الوحـــدة



وإجراء التعديلات الضرورية عليها، خاصة أن السياسة كانت تمضى وفق سنن تستأهل المواكبة والتجديد. ومحاولة التطوير الأساسية التى أجريت بإعادة تقسيم الجنوب إلى ثلاث ولايات فسرت بأنها نقض للاتفاقية. وفى الجنوب، احتدمت صراعات الجنوبيين القبلية وتوسلت كل فئة بالكيد للفئة الأخرى حتى تنتصر لرأيها.

الموقف فى الشمال الآن يتعرض لتحورات شبه جذرية على خلفية تطاول المشكلة وتصاعد تكاليفها وازدياد قناعة قطاع متنام من الشماليين بأن المسألة قد خرجت من كونها قضية عادلة وأصبحت أداة للابتزاز بواسطة الغرب وحلفائه المحليين. وتزداد هذه القناعة بسبب أن تقرير المصير قد أصبح الآن مبدأ مقراً يمكن الرجوع إليه فى حالة الاختلاف على شروط التعايش فى صيغة موحدة، ولم يعد من سبب لاستخدام قضية الجنوب لاقتضاء رطل لحم إضافى من فخذ الشمال نفسه. ويحتج هذا الفريق، الذى بدأ يعلو صوته مؤخراً، بأن خيار تقرير المصير، فى ظل المعطيات الراهنة، لا ينبغى أن ينظر إليه باعتباره الخيار الثانى أو الأسوأ وإنما الخيار الأول والأفضل، وإلى تلك الغاية ينبغى أن يمضى التفاوض. قد يختلف المراقبون فى تقويم هذه التحورات ومدى رسوخها وجديتها وتعبيرها عن إرادة حقيقية أو تيار جاد فى السياسة الشمالية، لكن لا اختلاف على أن هذا النوع من الخطاب الذى لم يكن مقبولاً أو متصوراً إلى وقت قريب أصبح يعبر عن نفسه بثقة غير معهودة.

هذا التيار الانفصالى الحادث بخطابه الجديد يقابله تيار آخر لم يكن معهوداً فى السياسة الشمالية إلى وقت قريب. وهو التيار الذى تشكله القوى الشمالية المؤمنة بإقامة تحالفات استراتيجية مع القوى الجنوبية والاستنصار بها فى دفع قضاياها على الساحة المركزية. هذه الظاهرة تمثلها الآن صيغة التجمع الوطنى والمحالفات السياسية الأخرى خارج التجمع بين الحركة الشعبية من ناحية وحزب الأمة، والمؤتمر الشعبى من ناحية أخرى. بالإضافة إلى تلك القوى السياسية التقليدية هنالك القوى الجهوية أو قوى الريف فى الشمال التى أخذت تنشئ علاقات أبلغ وأشد استراتيجية مع الحركة الشعبية كما يرى الآن فى بعض مناطق دارفور وجنوب كردفان. وتتفاوت درجة الارتباط فى علاقات تلك القوى كافة بالحركة الشعبية من استراتيجية إلى انتهازية ظرفية، لكنها فى كل الحالات تظل متغيراً مهما فى تشكيل الواقع السياسى وصياغة التحالفات عبر حدود الشمال والجنوب التقليدية.

وإذا أخذنا الساحة الجنوبية نجد أن الموقف من الوحدة أكثر تعقيداً مما يبدو. فالافتراض صحيح بأن العاطفة الغالبة الآن هى انفصالية، لكن الواقع الجنوبى أكثر تعددية وتنوعاً من الشمال وأقل تماسكاً داخلياً مبنياً على ثقافة موحدة. فلا التركيبة العرقية، ولا التطور السياسى والاجتماعى لمناطق الجنوب المختلفة ومجموعاته السكانية، ولا التطلعات المستقبلية، ولا العلاقات التاريخية والسكانية لتلك المناطق والمجموعات مع الشمال تجعل من الجنوب وحدة متماسكة تجاه أى قضية بعد أن يأتى السلام. أى أن الوحدة الظرفية والاستثنائية التى نشأت فى الجنوب بسبب الحرب وتجسد الخصومة مع الشمال مرشحة لانفراط كبير على سفوح جبال من التناقضات والاختلافات والصراعات الجوهرية على الرؤى والمصالح. وهذا هو الذى يفسر حقيقة أن فرص الجنوبيين بعد السلام فى إيجاد حلفاء شماليين هى أقوى من فرصهم فى استبقاء أحلافهم الجنوبية. وهذا تحديدا ما يفسر حرص الحركة الشعبية وزعيمها جون قرنق على تقوية أحلافهم الشمالية وتنميتها، لعلمهم بصعوبة إقامة أحلاف جنوبية قوية واستدامتها. ولهذا لاينبغى أن يكون مفاجئاً، فى سياق تطبيق اتفاقية السلام، أن نشهد نمو الصوت الانفصالى فى الشمال وتضاؤله فى الجنوب.

هذه التيارات المتقاطعة حيناً والمتعاضدة تارة ستجعل التصور للموقف النهائى من الوحدة سواء فى الشمال أو الجنوب أكثر تعقيداً مما هو شائع. والأهم من ذلك هو أن هذه الحقائق ستجعل الصيرورة النهائية إلى الوحدة أو الانفصال ميداناً واسعاً لتأثيرات القوى السياسية الشمالية أو الجنوبية حسب كفاءتها السياسية ومقدرتها على تشكيل الأحداث. ومن هنا لا بد من الأخذ فى الاعتبار الصعيد المؤثر الثالث وهو القوى الخارجية. فتفاعل هذه الأصعدة الثلاثة هو الذى سيملى المصير النهائى لرحلة السودان إلى الاستقرار والوحدة.

بالنسبة لمصر فإن الموقف الاستراتيجى من الانفصال ومن أداته القانونية وهو تقرير المصير سيظل كما هو. فليس هناك ما يدعو مصر لأن تتنازل عن موقفها وقد أخرجتها القوى الدولية الأخرى من معادلات الحل. قد يخفت صوت مصر فى تكرار التعبير عن موقفها من باب الواقعية السياسية، وأيضاً مراعاة لعلاقاتها مع القوى السياسية بالجنوب، لكنها يبعد أن تتنازل عن موقفها تماماً بلا مبرر واضح. وبدلاً من تبنى موقف جامد يغلب أن تدخل مصر ساحة المنافسة، وحق لها، بإنشاء علاقات متينة مع القوى الجنوبية عامة والوحدوية منها بصورة خاصة. وربما دفعت دولاً عربية أخرى، فرادى وعبر الجامعة العربية، لتبنى مواقف مشابهة، والهدف من ذلك هو التأثير على تلك الساحة المشتجرة بالمتغيرات بغية الانتصار النهائى لخيار الوحدة.

بالنسبة للدول الإفريقية عامة والمجاورة للسودان خاصة، فإنها وإن بدأت متحمسة لخيار تقرير المصير لكن احتمالات الانفصال العملى ستشكل هاجساً مقلقاً لها. والسبب هو أن الانفصال لو حدث سيكون سابقة قوية لانتهاك ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية الذى قضى باعتماد الحدود الاستعمارية اعتماداً نهائياً. ولا يجوز القياس على الحالة الإريترية لأنها كانت مسنودة بقرارات دولية، وهى بذلك كانت حالة استقلال وليست حالة انفصال. لكن الذى سيحدث فى جنوب السودان إذا ما قرر الجنوبيون الانفصال هو بالتكييف القانونى انفصال وليس استقلالاً. وهو ما سيفتح الباب على مصراعيه لانفصالات أخرى غير متناهية فى إفريقيا التى تزدحم خارطة بلدانها بخطوط التصدع العرقية والجهوية. ولا شك أن حدثاً كهذا سيفتتح فصلاً استثنائى الملامح والاحتمالات فى تاريخ إفريقيا منذ أن وجدت.



بالنسبة لمصر فإن الموقف الاستراتيجى من الانفصال ومن أداته القانونية وهو تقرير المصير سيظل كما هو. فليس هناك ما يدعو مصر لأن تتنازل عن موقفها وقد أخرجتها القوى الدولية الأخرى من معادلات الحل

بالنسبة للدول الغربية فإن نظرتها للانفصال سترتبط كالعادة بتقديرات مصالحها أكثر من اعتبارات الاستقامة على مبدأ منزه من الغرض نحو حق الجنوبيين فى الانفصال. وتقديرات المصلحة ستجعل من الانفصال كارثة على الترتيبات الغربية الراهنة لإفريقيا. ويمكن التدليل على ذلك بخمسة أسباب:

الأول: هو أن الانفصال سينشئ دولة جديدة فى جنوب الشمال الراهن. ومجرد نشوء دولة جديدة يستدعى مواءمات وتكيفات جديدة على الصعيد الإقليمى وفى الساحة العالمية. وهذه مسألة ذات تكاليف مادية وسياسية.

الثانى: هو أن تلك الدولة الناشئة من الانفصال ستكون معلولة من عدة وجوه. هناك شك فى مبدأ مقدرتها على إقامة كيان حقيقى عامل لدولة حديثة. وذلك على خلفية كثافة تباينها العرقى القوى، مقارنة بالمشكلات الشبيهة فى دولة كرواندا مثلاً وهى التى يقطنها عرقان رئيسيان فقط، أو الصومال التى يقطنها عرق واحد. وهى ستكون دولة محبوسة ليس لها منافذ إلى البحر وستبقى تحت رحمة دولة الشمال من ناحية وكينيا من ناحية أخرى فى صادراتها ووارداتها الرئيسية عبر البحر. وهى ستكون دولة بلا بنيات أساسية نسبة لحالة الجنوب المعلومة بسبب الحرب المتطاولة.

الثالث: هو أنه من المستحيل أن تظل العلاقة بين الدولة الناشئة فى الجنوب والكيان الأم فى الشمال علاقة صداقة أو تعايش. والمؤكد هو أن العلاقة ستكون مأزومة وستتطور فى فترات إلى حروب. وتاريخ الانفصال فى الدول النامية كلها يؤيد ذلك. ابدأ من الهند وباكستان، اللتين تهدد المواجهة بينهما العالم كله بحرب نووية، وكوريا الشمالية والجنوبية حالة أخرى مماثلة، مروراً بسابقة انفصال باكستان الشرقية (بنجلاديش لاحقاً) وباكستان الغربية، وتجربة اليمنين، ثم يوغسلافيا السابقة، وانتهاء بتجربة استقلال إريتريا. لقد خلفت كل تلك التجارب جروحاً ما تزال نازفة وأدت إلى زعزعة السلم الإقليمى فى الحد الأدنى. وفى مثل هذا الصراع ستكون الدولة الجنوبية الأقرب إلى الغرب هى الأضعف بسبب موقعها الجغرافى وتكوينها العرقى وعوامل تفككها الداخلى وهشاشة تطورها التاريخى. كما أن أطماع الدولة الشمالية وتفسيرها لحقوق مجتمعات التماس الشمالية ذات المصالح فى العمق الجنوبى، ونظرتها لمشروعية الانفصال فى المبدأ، وذكرياتها المريرة عن كلفة الحرب، كل هذه العوامل ستدفع الدولة الشمالية لأن تتخذ موقفاً عدائياً، مستتراً أو معلناً، تستبيح به التدخلات المتنوعة فى الجنوب بغية تعميق الصراعات داخله.

الرابع: هو أن علاقة مأزومة كهذه ستعنى عملياً نهاية أحلام الدول الغربية فى الاستفادة من الإمكانات الاقتصادية والتنموية للسودان الموحد، فى مجال البترول وغيره. وسيعنى أن الاستراتيجية البترولية الجديدة للغرب التى تنحو إلى تقليل الاعتماد على بترول الخليج قد تحطمت على صخور الانفصال. وتتقوى هذه الحقيقة بسبب أن مناطق انتاج البترول الحالية هى حول حدود التماس بين الشمال والجنوب وهى أكثر المناطق عرضة لأن تصبح مسرحاً للمواجهة والصراع.

الخامس: هو كما ورد سابقاً فإن انفصال جنوب السودان سيوفر سابقة قانونية حاسمة تفتتح باب الانفصالات وإعادة رسم الحدود فى إفريقيا بصورة لا يبدو أن العالم الغربى مهيأ للتعامل مع تبعاتها ومقتضياتها الآن. فضلاً عن أن تبنى الانفصال قد يوقع الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص فى تناقض مصالح مع حلفائها الإقليميين فى المنطقة العربية، وهو ما لا تفضله فى سياق مصاعبها الراهنة مع الروح العدائية تجاهها فى العالمين العربى والإسلامى، وأيضاً فى سياق ما تصنفه بأنه معركتها ضد الإرهاب والتعقيدات التى واجهت حملاتها عليه فى العراق وأفغانستان.

من هذا تتبين صحة الاعتقاد بأن الغرب يتبنى مبدأ تقرير المصير من منطلق يختلف بدرجة ما عما قد ينطوى عليه الموقف الجنوبى. إنه يرمى إلى استخدام المبدأ رافعة تفاوضية تحقق أكبر المكاسب له. وأكبر المكاسب للغرب ليست بالضرورة متطابقة مع المكاسب الجنوبية، بل قد تكون متقاطعة معها أحياناً. تلك المكاسب تتمثل فى شيئين رئيسيين:

أولاً: المكاسب الاقتصادية المذكورة آنفاً، وثانياً: المكاسب الثقافية بجعل ارتباط الجنوب مع الشمال فى صيغة موحدة أداة لكبح ما يصفونه بالاتجاهات المتطرفة فى الشمال. تلك الاتجاهات التى أبدت نفسها فى الثورة المهدية، ثم فى الميل العفوى فى السياسة السودانية الشمالية للاقتباس من الأطروحات العروبية والإسلامية.

إن تبنى الغرب لهذا الموقف أو بالأحرى تفضيله إياه لا يعنى أنه قد أسقط خيار الانفصال بالكلية. أو على الأقل لا يعنى أن بعض الدوائر فى الغرب قد أسقطت هذا الخيار، إذ علينا أن نتذكر أن الغرب، خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، يعج اليوم بالحركات والتيارات الدينية والإيديولوجية التى ترى الأمور بغير منظار المصالح الذى تراها به الحكومات. لكن الانفصال سيبقى الخيار المتأخر فى مرتبة الأولويات.

هذه الأصعدة الثلاثة وتفاعلاتها ستعمل على خلفية واقع نشط التحولات، ستفرزه اتفاقية السلام. إذ تتحدث الاتفاقية عن خمس خطوات هى المدخل إلى خمس مراحل مهمة لإحداث التحولات السياسية الضامنة لتطبيق الاتفاقية ولاستدامة الأيلولة النهائية للوضع فى السودان، سواء الوحدة أو السلام المشروط بصيغ محابية أو جاذبة للجنوب.

المرحلة الأولى: هى تشكيل حكومة القاعدة العريضة، التى نص عليها بروتوكول مشاكوس، فور توقيع اتفاق السلام. وبمقتضى ذلك ستدخل إلى دائرة الحكم قوى ظلت حتى الآن فى موقع المعارضة طيلة السنوات الخمس عشرة الماضية.

المرحلة الثانية: هى إعادة صياغة الدستور الوطنى عبر الجهد الوطنى الجامع لمراجعة الدستور، وهو ما سيجرى فى الأشهر الستة الأولى بعد توقيع الاتفاقية (الفترة قبل الانتقالية) بمشاركة واسعة من القوى السياسية والاجتماعية.

المرحلة الثالثة: تمثلها مهمة تقويم تطبيق الاتفاقية من خلال لجنة مكونة من طرفى الاتفاق بالإضافة إلى ضامنى الاتفاق من الدول والمنظمات الإقليمية والعالمية، وذلك فى السنوات الثلاث الأولى من الفترة الانتقالية الممتدة ست سنوات.

المرحلة الرابعة: هى الانتخابات العامة التى ستجرى تحت إشراف حكومة القاعدة العريضة نحو نهاية النصف الأول من الفترة الانتقالية.

المرحلة الخامسة والأخيرة: هى إجراء الاستفتاء بين الجنوبيين لتقرير المصير السياسى للجنوب فى نهاية الفترة الانتقالية. وبرغم أن هذا الحدث يبدو كأنه يعنى المواطنين الجنوبيين حصراً، إلا أنه لا تخفى قابليته لإيجاد تحالفات واستقطابات واسعة داخل كل الساحة السياسية الوطنية، شمالية وجنوبية، وبين القوى الوطنية والأخرى الخارجية.

هذه المراحل الخمس توفر خلفية مزدحمة بالمعطيات والمتغيرات والمحركات التى من شأنها أن تتفاعل مع ما يحدث داخل الأصعدة الثلاثة المذكورة آنفاً،

وحصيلة تلك التفاعلات هى التى ستحدد المصير النهائى للسودان.

من هذا المنطلق ينبغى فهم التحديات والواجبات التى تميز المرحلة المقبلة حالما توقع اتفاقية السلام النهائية.

أولاً: هناك التحديات والمصاعب الناشئة من تفسير نصوص الاتفاقية قبل تطبيقها. هنا ستبرز المعضلة الرئيسية الأولى والتى تتمثل فى أن نصوص الاتفاقية تجعلها أكثر من كونها محض اتفاقية سلام. فهى تحتوى على تفصيلات كثيرة ومعقدة تقترب بها من أن تكون محاولة صياغة دستور جديد متكامل. وهى بذلك تضع الأسس لتحولات كبرى فى نظام الحكم والاقتصاد وما يحدثه ذلك من وقع على المجتمع كله. وفى وجود تفصيلات كهذه لا بد أن يقع تعارض، ولو جزئياً، بين المفاهيم والنصوص المكونة للاتفاقية بما قد يؤدى إلى اختلاف مشكل. وعلى سبيل المثال فإنه الآن، حتى قبل اكتمال نصوص الاتفاقية، يبرز تناقض بين المقتضى الكلى لاتفاق مشاكوس فيما يتعلق بنظام الحكم، وهو النظام اللامركزى الفيدرالى، وبين ما تقتضيه اتفاقيتا الترتيبات الأمنية وقسمة الثروة وهو النظام الكونفدرالى. ولا يخفى أن الخلاف حول اعتماد أى من المقتضيين إطاراً لتفسير النصوص يستدعى جدلاً كبيراً.

ومن ناحية ثانية تبرز المصاعب الفنية والسياسية التى تفرضها ضرورة الاتفاق بين مجموعات سياسية متنافسة حول جملة من التكوينات التى تدعو إلى إنشائها الاتفاقية، وكذلك بعض المسائل الأخرى المهمة المنصوص عليها. ويمكن تلخيص هذه الأشياء فى ما يلى:

❖ تكوين حكومة القاعدة العريضة بعد توقيع الاتفاقية مباشرة

❖ إعادة تشكيل مؤسسات الحكم والتشريع كافة، فى المركز والولايات والحكومة الإقليمية فى الجنوب

❖ تشكيل المفوضيات الوطنية، مثل هيئة الانتخابات العامة، ومفوضية البترول..إلخ

❖ تشكيل لجنة مراجعة الدستور فى الفترة قبل الانتقالية

❖ تشكيل آلية التقويم المنصوص عليها فى بروتوكول مشاكوس والتى تضم إلى طرفى الاتفاقية أطرافاً دولية وإقليمية.

❖ إجراء الانتخابات العامة فى النصف الأول من الفترة الانتقالية

❖ الاتفاق حول إجراءات تقرير المصير وترتيباته فى نهاية الفترة الانتقالية

❖ تبعات تطبيق اتفاقية الترتيبات الأمنية والتعقيدات التى سترتبط بها، خاصة فيما يتعلق بتقليص القوات، وإعادة إدماجها، وكذلك إعادة انتشارها

❖ الآثار العملية لتطبيق اتفاقية قسمة الثروة بين الجنوب والحكومة المركزية، والجدل الذى قد ينشأ فى الولايات الشمالية حول هذه القسمة فى ظل إحساس قوى بأن الولايات الشمالية قد خرجت صفر اليدين من القسمة

❖ إعادة اللاجئين من دول الجوار

❖ ترتيب أوضاع النازحين وإعادة توطينهم فى الجنوب

❖ توظيف موارد التنمية وإعادة التأهيل من المصادر الداخلية والخارجية وتوزيعها بعدالة بين الولايات

❖ استمرار العمليات الإنسانية بمفاهيم جديدة وفى ظل أوضاع مختلفة عما هى عليه الآن

❖ آثار النفوذ الخارجى بسبب الضمانات والرقابة الدولية على الاتفاقية ومقتضيات التعامل معه

ثانيا، هناك التحديات المصاحبة لتطبيق نصوص الاتفاقية وإن لم تتعلق بالنصوص ذاتها. وهى يمكن تلخيصها فى ما يلى:

❖ التحولات السياسية الكبرى نتيجة لوقف الحرب ودخول الحركة الشعبية وحلفائها المحليين والإقليميين والعالميين، إضافة إلى دخول قوى أخرى، إلى دائرة الفعل والتأثير فى ساحة العمل السياسى المشروع

❖ التحولات الاقتصادية بسبب الاهتمام المتزايد بالسودان والإقبال عليه بالاستثمار والتنمية بعد توقف الحرب، وما يجلبه ذلك من مشكلات التكيف الاقتصادى واحتمالات النمو السريع غير المتوازن

❖ التحولات الاجتماعية والسكانية التى ستحدث حتماً نتيجة للتحولين السابقين، وبصفة خاصة مشكلات التحول السريع فى مجتمعات التماس بين الشمال والجنوب من حيث علاقاتهم المحلية وتغير أنماط حياتهم والمشكلات الأمنية المترتبة على ذلك.

إن هذه التحديات والمعضلات لتبرز جسامة الأعباء التى تنتظر الطرفين الموقعين على الاتفاقية، وكذلك القوى الأخرى المشاركة فى تطبيق الاتفاقية. كما أنها تبرز الواجبات الثقيلة التى تنتظر حكومة القاعدة العريضة المكونة بنص الاتفاقية لترعى تطبيقها. وهى كذلك تلقى بأعباء كبيرة على أصدقاء السودان فى الإقليم والقوى الحريصة على وحدته فى الصعيد العالمى. إن أدنى ما تقتضيه تلك التحديات هو التحديد الدقيق للأولويات مع تصنيف القضايا المهمة ومعرفة طبيعتها ومطلوبات التعامل معها. ويلتحق بذلك تحديد الإجراءات والتدابير الحكومية اللازمة، سواء أكانت تشريعات أم سياسات، أم خططاً، أم قرارات أم آليات تنفيذ أم منهج عمل.

وفى المقام الأول، فى سياق الحديث عن كيفية التصدى لتلك التحديات، تبرز الواجبات التى تقع على الحركة السياسية السودانية العامة باعتبارها صاحبة النصيب الأوفر من مسئولية تطبيق الاتفاقية. إن نجاح تلك الحركة السياسية فى مهمتها رهن بمقدرة القوى المكونة لها على تقديم نموذج مقنع فى الأداء السياسى. وفى هذا الصدد فإن تلك القوى مطالبة أول شىء بأن تثبت جدارتها بممارسة الديمقراطية فى الساحة السياسية العامة من خلال نجاحها فى إقامة ممارسة ديمقراطية داخلية فى خاصة بنائها ومؤسساتها. وأيضا من خلال مقدرتها على التوليد المطرد للحلول والرؤى المتواردة مع توارد الحوادث والمصاعب وتعقدها. ومن خلال تطويرها لخطاب مناسب غير دعائى أو تهريجى أو شعاراتى. ومن خلال مقدرتها على إيجاد الحد الأدنى الضرورى بينها من قيم الممارسة السياسية ومبادئها مما لا غنى عنه لاستقرار المجتمع السياسى. وكل هذه المؤهلات مفقودة فى الحركة السياسية فى وضعها الراهن.

وسوى الحركة السياسية المنظمة ستنفسح مساحات واسعة لقوى المجتمع المنظمة وتياراته الحية مما درج الناس على نعته بمنظمات المجتمع المدنى. فالسودان مرشح لطفرة كبرى فى انتظام تياراته الحديثة الفاعلة فى تشكيلات تتجاوز الحزبية السياسية التقليدية وتتجاوز بذلك سنن السياسة القديمة. وهو شىء ينبغى أن يتنبه له، ليس القادة السياسيون وحدهم، بل قادة تلك التيارات الاجتماعية المؤثرة نفسها، وكذلك أصدقاء السودان الخارجيون الذين يسعون إلى أن تسير الأمور فيه باتجاه وحدة متينة ومستقرة.

إن تلك الواجبات المتنزلة على الحركة السياسية العامة تمتد لتشمل بتكليفاتها الحركة السياسية الجنوبية، والتى سيكون لمسلكها العملى أثر خاص على مصير الجنوب والسودان كله. وعلى القوى الجنوبية أن تعى أنه بعد اتفاقية السلام لن تتوفر لها مسوغات كالسابق تلقى بموجبها اللوم على الشمال فى تعقيد مشكلاتها. بل عليها أن تتصدى لتحمل مسئولياتها كاملة. وسيكون من أعقد تحديات الجنوبيين هو إقامة لا مركزية فاعلة تراعى تعددية الجنوب فى إطار وجود حكومة تجمع الولايات الجنوبية كلها. وبدون ذلك فإن الصراعات القبلية والجهوية التى عصفت باتفاقية أديس أبابا مرشحة للانفجار من جديد. كما أن على الجنوبيين الاستفادة من اتفاقية قسمة الثروة ومن فرص الاستثمار الضخمة التى سيوفرها السلام من أجل التخلص نهائيا من هيكلية الاقتصاد الحكومى المهيمنة الآن على الجنوب، والتى لا تستتبع ضياع الموارد وشيوع ممارسات تضر بقيم العمل والانتاج فحسب، بل تعمق من واقع الفساد وتؤدى إلى انصراف الموارد عن المجتمع والمواطنين لتستخدم فى صراعات السياسيين وفى تكريس أنماط هيمنة جديدة قديمة كانت هى السبب فى بقاء الجنوب متخلفاً.

وأخيراً تقع أعباء خاصة على أصدقاء السودان فى جواره العربى والإفريقى الأدنى تتلخص فى دفع كل العمليات والتفاعلات الداخلية والخارجية الموجبة التى تعين على تثبيت السلام وتأكيد الوحدة. ومن ذلك بذل الحماية الكافية للسودان وهو يصعد فى ذلك المرقى الوعر إلى الوحدة ووقايته من تيارات الانفصال.

إن خلاصة ما تطمح إليه هذه المقالة هو أن توضح أن المصير النهائى للسودان، موحداً أو مقسماً، رهن بعدة عوامل وتيارات متعارضة أحيانا ومتناصرة أحياناً أخرى. وهى من التعقيد بمكان كبير. بعضها، وهو الأغلب، يدفع باتجاه الوحدة إذا أحسن استخدامه، والبعض الآخر يعزز احتمالات الانفصال. والنتيجة النهائية لتلك العمليات المعقدة تحددها بصفة أساسية الكفاءة السياسة للسودانيين، قادة ومجتمعاً، ومع ذلك يبقى دور كبير لأصدقاء السودان وللقوى الدولية، خاصة تلك التى تسعى لمعالجة الشئون الداخلية لبلدان العالم بمنهج الإيجاب والمسئولية.■

جنـــــــوب الســـــــودان

عـــايــدة الـــعـــزب مـــوســـى

لم يكن للحكم العسكرى بالخرطوم برئاسة اللواء عبود أى مشاريع أو برامج لحل قضية الجنوب، فعمل على قمع المعارضة فى الجنوب كما فعل فى الشمال، وأضاف إلى هذا التعجيل بنشر اللغة العربية وبسط القواعد الإسلامية اعتقاداً منه بأن هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق الوحدة فى المستقبل

كتب المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينبى يقول: «إن قضية السودان هى قضية أفريقيا المنقسمة إلى قسمين مجسدة فى نطاق محدود، ولذا فإن السودان يحمل مصيره بين يديه ويحمل مصير أفريقيا فى الوقت نفسه، فإذا نجح السودان فى التوفيق بين العنصرين اللذين يتألف منهما أبناؤه سيكون قد قام بعمل إنسانى رائد للقارة بأسرها، أما إذا احتدم الصراع فى السودان فسوف يؤدى ذلك إلى زيادة التوتر بين قسمى أفريقيا فى كل مكان. وسيتحول جنوب السودان إلى بؤرة تتجمع فيها عناصر البغضاء من جانب أفريقيا الزنجية ضد أفريقيا الشمالية، وإذا وصلت إلى هذا الحد فإن انشطار القارة الأفريقية قد يصبح نهائياً، لقد ألقى القدر على عاتق أبناء شمال السودان عبئاً جسيماً ولنأمل أنهم سيتمكنون من حمله».

هذا الوصف الدقيق لوضع السودان الذى مضى عليه نصف قرن يكاد ينطبق تماماً على حالة السودان اليوم. فبعد حرب أهلية امتدت لخمسين سنة بين الشمال والجنوب من عام ١٩٥٥ إلى عام ٢٠٠٣ باستثناء فترة هدوء لم تتعد عشر سنوات، يواجه السودان معضلة مفصلية، إما أن يكون أو لا يكون، إما أن يكون سوداناً موحداً أو أن ينشطر جزءين أو أكثر.

حقيقة أن السودان نجح فى الاتفاق على تقسيم عائد الثروة النفطية بنسبة ٥٠٪ لكل من حكومة الشمال المركزية والحركة الشعبية بقيادة جون قرنق، ولكن تبقى القضايا الأخرى المتعلقة بتقسيم السلطة والمناطق المهمشة (جبال النوبة وجنوب النيل الأزرق وإيبى العائمة على بحيرة بترول) مسائل ليست أقل صعوبة، ويمكن أن تستمر شهوراً إذا خف الضغط الخارجى على كل من الجانبين وخاصة الحكومة المركزية.

وإذا وقع اتفاق كامل وسلام شامل بين الطرفين، فإن السودان سيمر بفترة انتقالية تمتد ست سنوات بعدها يتحدد مصيره، إما أن يخرج منها بوحدة طوعية بموافقة أهل الجنوب أو ينفصل إلى جزءين من خلال استفتاء تقرير المصير أو يتفكك إلى عدة سودانات. فهل ستتحقق نبوءة توينبى ويتحمل السودان قدره وينقذ القارة من الانقسام إلى شمال وجنوب أم العكس؟

إن استشراف المستقبل يتطلب العودة إلى الوراء لأن ذلك من المؤكد يساعد صانع القرار فى تلمس خطواته المقبلة.

جذور المشكلة:

احتلت بريطانيا مصر فى ١٨٨٢ وأكملت احتلال السودان فى ١٨٩٨ وتم لها بذلك السيطرة على وادى النيل، فوضعت سياستها على أساس التفرقة بين شمال الوادى وجنوبه، وعلى سياسة فصل جنوب السودان عن شماله وتحطيم ذلك الامتداد الطبيعى للسودان نحو الجنوب، وخلق سودانين لكل منهما مقوماته. وكانت هذه السياسة تهدف إلى محاولة سلخ جنوب السودان وضمه إلى اتحاد بريطانى لشرق أفريقيا. ولكن هذه السياسة أخفقت لأن أسباب ارتباط جنوب السودان بشماله كانت أوثق بكثير من أسباب ارتباطه بالمناطق الأفريقية الواقعة جنوبه. ومن المؤسف أن السياسة البريطانية التى فشلت فى بدايات القرن العشرين فى سلخ جنوب السودان عن شماله، أخذت تظهر فى خواتيمه تزكيها الولايات المتحدة الأمريكية.

ويمكن القول إن سياسة الفصل بين الجنوب والشمال بالسودان زرعت قبل عام ١٩٢٠ وغرست البذرة، ولكن السياسة لم تتبع بحزم إلا بعد الحرب العالمية الأولى وخاصة بعد عام ١٩٢٤ أى بعد نشوب ثورة ١٩ فى مصر وما صادفت من صدى ثورى وطنى لدى أبناء السودان وظهور حركة اللواء الأبيض وعلى عبد اللطيف فى ١٩٢٤ وما ترتب على ذلك من إخراج الجيش المصرى كله من السودان فى السنة ذاتها. وقد طبقت هذه السياسة على النحو التالى:

❖ فى عام ١٩٢٢ صدر مرسوم المناطق المقفلة واعتبرت مديريات دارفور فى غرب السودان والاستوائية وأعالى النيل فى الجنوب مناطق مقفلة لا يجوز لأى شخص من غير أبنائها أن يدخلها أو يقيم بها إلا إذا حصل على ترخيص بذلك.

❖ فى عام ١٩٢٥ صدر مرسوم تصاريح التجارة فنص على أنه لا يجوز لأى شخص من غير أبناء المنطقة أن يمارس التجارة دون الحصول على تصريح يسمح له بالاتجار فى مديريات الجنوب، ومن حق الحاكم العام الإنجليزى اعتبار أى جزء من السودان مناطق مغلقة فى وجه التجارة.

❖ منع أبناء دارفور وكردفان فى الغرب من دخول بحر الغزال فى الجنوب، وكذلك منع أبناء بحر الغزال من دخول كردفان ودارفور.

❖ القبض على أى شخص من غير أهل المنطقة لا يحمل تصاريح مرور، وأمكن بذلك التحكم فى الحركة بين الشمال والجنوب وبين الجنوبيين أنفسهم.

❖ وجهت لزعماء القبائل دعوة أن يتخلوا عن أسمائهم العربية ولباسهم العربى ويحلون محله اللباس الأوروبى.

❖ منعت ممارسة العادات العربية، وحظر الزواج المختلط بين أبناء الشمال والجنوب، وتقرر أن ينتسب الأبناء إلى الأم لا إلى الأب.

❖ سارت سياسة مقاومة الإسلام جنباً إلى جنب مع سياسة مقاومة اللغة العربية، فلم يسمح لأبناء الجنوب المسلمين أن يمارسوا شعائر دينهم علناً.

عندما أصبحت سياسة الجنوب موضع التطبيق تعرضت لهجوم شديد من مختلف الجهات الرسمية وغير الرسمية إذ أدت إلى تخلف الجنوب تخلفاً شديداً مقارناً بالشمال. وفى عام ١٩٤٥ وجه الحاكم العام البريطانى فى السودان رسالة إلى السفير البريطانى فى القاهرة يقترح ثلاثة احتمالات إزاء الجنوب:

١. دمج الجنوب فى الشمال.

٢. دمج الجنوب فى أفريقيا الشرقية.

٣. دمج أجزاء من الجنوب مع الشمال وأجزاء أخرى مع أفريقيا الشرقية.

وقد استبعدت هذه المقترحات فكرة أن تقوم فى السودان دولة مستقلة، وبالنسبة لدمج الجنوب فى أفريقيا الشرقية أو أجزاء منها مع أفريقيا الشرقية، رفضت هذه المقترحات فلم تبد بلاد أفريقيا الشرقية حماساً لضم جنوب السودان إليها خوفاً من أن يؤدى هذا الضم إلى زيادة مشاكلها تعقيداً وصعوبة، وأبدت أوغندا تردداً شديداً وانزعاجاً إزاء فكرة الاتحاد مع تلك البلاد الشاسعة ذات الإنتاج الضئيل، إذ رأت الإدارة الأوغندية وهى إنجليزية بأنها لا تستطيع تحمل هذا العبء الوافد، وإن إعادة تخطيط حدود الجنوب من شأنه أن يثير مشكلات قبلية حادة مع كينيا والكونغو.

كذلك وجد أن إدارة جنوب السودان كوحدة فيدرالية مع شمال السودان يصعب تحقيقها، إذ كيف تتحمل الإدارة الإنجليزية للشمال نفقات الجهاز الإدارى الجنوبى المستقل ذاتياً ولاتستطيع السيطرة عليه، وكيف يستطيع الجنوب المفتقر إلى الكادر الإدارى أن ينهض بأعباء إدارته الذاتية، وكيف يقبل الشمال بالعمل الإدارى فى الجنوب فى ظل نظام فيدرالى تسوقه احتمالات تجزئة السودان.

إذا لم يبق سوى الحاق الجنوب بالشمال مع إلغاء قانون «المناطق المغلقة»، بمعنى آخر إلغاء مخطط السياسة البريطانية فى الجنوب.

وإزاء هذا الجدل حول سياسة الجنوب عقد مؤتمر جوبا الشهير فى يونيو ١٩٤٧، حضره حكام مديريات الجنوب الثلاث و١٧ من زعماء الجنوب و٦ من أبناء الشمال، وأسفر المؤتمر عن ست مسائل جوهرية:

١. ضرورة قيام الوحدة السياسية بين الشمال والجنوب.

٢. الجنوب لا يبقى مستقلاً ولا يلحق ولا يتحد مع أوغندا.

٣. أعلن المثقفون من أبناء الجنوب فى المؤتمر معارضتهم للانفصال عن الشمال، إذ يكون ذلك فى غير مصلحة الجنوب سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية.

٤. تحدث أبناء الجنوب عن مدى تخلف مناطقهم.

٥. ظهور شعور بعدم الثقة بنوايا الشمال وتصميم على عدم الخضوع لأوامر الشمال.

.. عبء الماضى وضغوط المستقبل

٦. طالب الجنوبيون بضمانات تكفل عدم سيطرة الشمال على الجنوب فى حالة قبولهم الاشتراك فى نشاط دستورى موحد، وطالبوا باشتراك الجنوبيين فى الجمعية التأسيسية على قدم المساواة.



قرنق

التمرد وبداية الاستقلال:

بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر، وقعت مصر وبريطانيا اتفاقية السودان نصت على تخيير السودانيين فى استفتاء عام بين الوحدة مع مصر وبين الاستقلال، وطبق نظام الحكم الذاتى فى الشمال والجنوب ابتداء من عام ١٩٥٣. وفى العام التالى جرت الانتخابات واختار السودانيون الاستقلال عن مصر. ومنذ ذلك التاريخ بدأ تمرد الجنوب بإضرابات ومظاهرات، وطلبت سلطات الشمال من أفراد القوة العسكرية الاستوائية مغادرة الجنوب إلى الشمال، الأمر الذى أحدث تمرداً فى صفوف العسكر الجنوبيين وانتهى الأمر بذبح كافة الشماليين فى توريت فى المنطقة الاستوائية مع زوجاتهم وأطفالهم، وجاء رد الحكومة فى الشمال عنيفاً فأعلنت حالة الأحكام العرفية، وأرسلت أعداداً ضخمة من القوات الشمالية إلى الجنوب وطالبت الجنود الجنوبيين بتسليم أسلحتهم فما كان منهم إلا أن هجروا مدينة توريت بكامل أسلحتهم إلى الغابات المجاورة، كما طالب البجا فى شرق السودان والنوبة فى غربه بحقهم فى إدارة شئونهم وظهرت بينهم أيضاً بذور التمرد.

وترجع أسباب التمرد فيما ترجع إلى الأخطاء التى وقعت فيها أحزاب الشمال والتى ترجع إلى قلة خبرتهم وجهلهم بالأوضاع فى الجنوب أكثر مما ترجع إلى سوء النية أو التدبير المتعمد، فلم يكن يشغلهم سوى التخلص من الإدارة البريطانية إلى حد دفعهم إلى نسيان الحساسيات المرتبطة بقضية الجنوب، فمثلاً لم يدع أحد من أبناء الجنوب للاشتراك فى المحادثات التاريخية التى جرت فى القاهرة بين أحزاب السودان والحكومة المصرية قبل توقيع الاتفاقية الإنجليزية المصرية فى فبراير ١٩٥٣. وقد اتخذ من غياب أبناء الجنوب عن تلك المحادثات دليل الرغبة فى الانتقاص من أهمية الجنوب وإهماله.

وعندما أعلنت فى أكتوبر ١٩٥٤ نتائج أعمال لجنة السودنة تحولت الشكوك التى استمرت أكثر من خمسين عاماً إلى عداء صريح إذ لم تغير شيئاً بالنسبة للتعيينات والمناصب التى يشغلها الجنوبيون، وأحدث هذا خيبة أمل عنيفة لدى الجنوبيين المتعلمين بل رأوا فيه تغيير سيد بسيد آخر وإحلالا للاستعمار السودانى الشمالى بدلاً من الاستعمار البريطانى المنسحب.

وخلال هذا الوقت كان الوعى لدى الجنوبيين يزداد نتيجة لما حدث من تطور سياسى ونهضة تعليمية. وتشكل عام ١٩٥٤ أول حزب جنوبى سمى «حزب الأحرار الجنوبى». وبلغت الأحداث ذروتها فى تمرد الفرقة الاستوائية فى أغسطس ١٩٥٥، وأثار التمرد المشاعر فى الشمال ولفت الانتباه إلى الجنوب وإلى ما يسوده من مخاوف ومشاعر عدائية ونبّه إلى ضرورة الوصول إلى اتفاق مع أبنائه عن طريق التنازلات السياسية والإجراءات البناءة.

ومن هنا وافقت أحزاب الشمال على دراسة مشروع لإقامة اتحاد فيدرالى فى السودان، ووافق ممثلو الجنوب فى البرلمان . استناداً على هذا الوعد . على إعلان الاستقلال فى أول يناير ١٩٥٦، وكان يعنى الاتحاد الفيدرالى إيجاد وضع خاص للجنوب داخل الدولة الموحدة. ولم ترتفع فى ذلك الوقت فى الجنوب أصوات تطالب بالانفصال إلا أقلية ضئيلة بين الطبقة الجنوبية المتعلمة.

ولكن الأحزاب الشمالية بقيت كعادتها مشغولة بمناوراتها مع بعضها البعض إلى حد صرفها عن تفكير جاد فى حل مشاكل الجنوب، وخصصوا للجنوبيين ثلاثة مقاعد فقط من بين ٤٣ مقعداً فى اللجنة المكلفة بإعداد مشروع الدستور فغضب الأعضاء الجنوبيون وتقدموا بتوصية بإقامة اتحاد فيدرالى، ولكن أغلبية لجنة الدستور رفضت الطلب فى ١٩٥٧ وبدا أن قضية الجنوب قد ضاعت ورفض الأعضاء الجنوبيون المساهمة فى أعمال اللجنة وانسحبوا من الجمعية التأسيسية فى يونيو ١٩٥٨.

لذلك اتخذت المسألة الجنوبية فى الفترة من ١٩٥٣ . ١٩٥٨ أبعاداً جديدة، وجاء التمرد لما شعر به الجنوبيون من خيبة أمل وهضم لحقوقهم وكان لهذا آثاره الضارة فى الجنوب، واستخدم المبشرون ودعاة الانفصال من أبناء الجنوب هذه الأحداث لزيادة نشاطهم وتوسيع دعايتهم ضد الشمال. ووجد المتمردون الذين أفلتوا من قبضة القانون عام ١٩٥٥ ولجأوا إلى الغابات فرصة فى السخط السائد للظهور من جديد واستئناف نشاطهم.

ولم تكن الحركة المناهضة العسكرية فى الجنوب على ارتباط وثيق بقيادات الخارج بل كانت معزولة عن تلك القيادات. وتعتبر الفترة من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٣ فترة تشكيل العصابات المسلحة فى الجنوب التى نشأت على أسس قبلية والتى عُرفت بتنظيم انيانيا ومعناه «الثعبان السام»، واتخذت مقراً لها فى القطاع الجنوبى من المديرية الاستوائية على مقربة من الحدود الأوغندية. وركزت أنيانيا نشاطها على كمائن الطرق ونسف الجسور والهجوم على معسكرات جيش الشمال ونقط البوليس والهجمات العسكرية المؤقتة المحدودة.

الجنوب والحكم العسكرى الأول:

نتيجة الأوضاع المتأزمة فى السودان، فى علاقة الشمال مع الجنوب وتدهور الحالة الاقتصادية والاضطراب السياسى، تقدم جيش السودان واستولى على السلطة فى الخرطوم فى نوفمبر ١٩٥٨ بقيادة اللواء إبراهيم عبود.

ركز النظام العسكرى اهتمامه بإبعاد المجموعات الساخطة والأفراد المتذمرين من صفوف الجيش السودانى وقمع المعارضة والنشاط السياسى للأحزاب والنقابات ومنظمات الطلبة وغالب ذلك فى الشمال. وبالنسبة للجنوب فقد كان وجود الأحزاب والبرلمان من العوامل التى تحد من شطط الآراء التى ترددت فى الشمال منادية باستخدام العنف لقمع الأصوات المنادية بالاتحاد الفيدرالى أو الانفصال فى الجنوب. فلما اختفى البرلمان وحلت الأحزاب رجحت كفة دعاة استخدام القوة والمنادين بإدماج الشمال والجنوب استناداً إلى قوة السلاح.

ولم يكن للحكم العسكرى بالخرطوم برئاسة اللواء عبود أى مشاريع أو برامج لحل قضية الجنوب، فعمل على قمع المعارضة فى الجنوب كما فعل فى الشمال، وأضاف إلى هذا التعجيل بنشر اللغة العربية وبسط القواعد الإسلامية اعتقاداً منه بأن هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق الوحدة فى المستقبل وتوهماً منه أن القوة يمكن أن تجدى فى هذه الأمور. وأثارت هذه السياسة المثقفين من أبناء الجنوب وشعروا بأنهم غرباء عن هذا النظام وفر كثير منهم إلى خارج البلاد، وألقى القبض على عدد من الآباء الكاثوليك إثر توزيعهم رسالة احتجاج على هذه السياسة. وفى عام ١٩٦١ منعت الحكومة عقد أى اجتماع دينى للصلاة خارج الكنائس ومنعت عدداً من المبشرين من العودة إلى السودان بعد انتهاء إجازاتهم. وفى عام ١٩٦٢ أصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة مرسوماً طرد بمقتضاه جميع المبشرين المسيحيين من جنوب السودان.

وصاحب هذه السياسة هجرة آلاف الجنوبيين إلى

خارج السودان، وغادر البلاد جنوبيون مثقفون معروفون وأعضاء سابقون من البرلمان وكونوا «رابطة السودان المسيحى» و«الاتحاد الوطنى للمناطق المغلقة بالسودان الأفريقى» الذى عرف باسم سانو، وظلت هاتان المنظمتان تعارضان الحكم العسكرى خارج السودان حتى عام ١٩٦٣.

اتخذ حزب سانو الكونغو مقرًا له وركز نشاطه فى توجيه المذكرات للأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية مطالبًا بأن تقوم هيئة دولية بدراسة مشاكل جنوب السودان، غير أن ميثاق المنظمتين لم يكن يسمح باتخاذ خطوة كهذه.

أما داخل الجنوب فقد عمت الاضطرابات أنحاءه وخرجت العناصر المتمردة التى كانت قد لجأت إلى الغابات خرجوا إلى العلن وكونوا حركة مقاومة منظمة هى جمعية أنيانيا كما سبقت الإشارة.

كان ظهور أنيانيا تعبيرًا عن مرحلة جديدة فى قضية الجنوب، إذ تألفت هذه الجمعية من أشخاص كانوا من قبل جنودًا فى الفرقة الاستوائية التى كان شكلها الاستعمار البريطانى أو من الجنوبيين الذين خرجوا من السجون بعد قضاء مدة العقوبة أو ممن أفرج عنهم الحكم العسكرى فى مناسبات خاصة.

بدأت أنيانيا نشاطها بإطلاق الرصاص على الجنود وعلى الشماليين والجنوبيين أيضًا المشتبه فى تعاونهم مع الحكومة، وبدأت بذلك حرب عصابات، وفى يناير ١٩٦٤ قامت بمحاولة جريئة بالاستيلاء على مدينة واو فى مديرية بحر الغزال. وردت الحكومة بانعقاد محكمة عسكرية عاجلة فى مدينة واو. بعد أن استردتها. وأصدرت الحكم بالإعدام على اثنين من زعماء أنيانيا وبالسجن المؤبد على مأمور السجن وأربعة من حراسه.

رحب حزب سانو بسقوط الحكم العسكرى وسارع قادته إلى الاتصال بالحكومة الجديدة ووجه الزعماء السياسيون الجنوبيون المقيمون خارج البلاد مذكرة إلى رئيس الوزراء (سر الختم خليفة) يعربون عن رغبتهم بالعودة إلى السودان بالشروط التالية:

أولا: العفو العام من جانب الحكومة السودانية عن جميع اللاجئين وضمان سلامتهم.

ثانيًا: الاعتراف بحزب سانو والسماح له بالعمل داخل السودان.

ثالثًا: عقد مؤتمر مائدة مستديرة يجمع أحزاب السودان فى الشمال والجنوب يشترك فيه ممثلون للقضاء والنقابات وجامعة الخرطوم لمناقشة العلاقة الدستورية بين الشمال والجنوب.

وفى نوفمبر ١٩٦٤ أعلن رئيس الوزراء اقتناع حكومته بأن العنف والإجراءات العسكرية لا تحل المشكلة ودعا إلى السلام والتفاوض، وقام بأول بادرة للمصالحة فاستجاب لمطالب سانو بإعلان العفو العام عن جميع السودانيين الذين فروا إلى خارج البلاد منذ يناير ١٩٥٥ وعن المطلوبين للمحاكمة بأى تهمة سياسية، وناشد اللاجئين أن يعودوا إلى الوطن.

رد حزب سانو على هذه الخطوات بقوله إن الحل الوحيد الذى يمكن قبوله للجنوب فى السودان هو إنشاء نظام فيدرالى يكون نائب رئيس الدولة فيه من الجنوب، وتقوم فيه حكومة إقليمية للجنوب، وطالب بأن يعاد تشكيل الفرقة العسكرية الجنوبية مع تعيين أبناء من الجنوب فى مناصب وزارة الخارجية.

لم تكن الحكومة والأحزاب السياسية فى الشمال على استعداد لمناقشة تلك الاقتراحات، وكان من الواضح أن بعض المطالب تتجاوز حدود سلطاتها، بيد أنها كانت على استعداد لعقد مؤتمر مائدة مستديرة بشرط أن يعقد داخل السودان، ووافق سانو على أن يعقد فى جوبا بالجنوب ووجه نداء إلى أبناء جنوب السودان لإيقاف القتال فى الجنوب وأن تعلن الحكومة إنهاء حالة الطوارئ.

رفضت جبهة الجنوب وهى ثانى المنظمات السياسية الرئيسية فى الجنوب وأغلب أعضائها من الجنوبيين المتعلمين، وكانت تمارس نشاطًا فعالاً بين أبناء الجنوب فى الخرطوم وفى المديريات الجنوبية نفسها، وكانت على اتصال وثيق بجماعة أنيانيا، رفضت نداء سانو كما رفضت جماعة أنيانيا وقف العمليات الهجومية، وظهرت داخل سانو مجموعتان إحداهما متطرفة تدعو إلى الانفصال وإجراء المحادثات خارج السودان والأخرى معتدلة تدعو إلى الاتحاد الفيدرالى والتفاوض داخل السودان أو خارجه.

وأخيرًا انعقد مؤتمر المائدة المستديرة فى مارس ١٩٦٥ فى العاصمة الخرطوم بعد أن تبين خطورة عقده فى جوبا خشية العمليات الهجومية وضم ممثلين عن أحزاب الشمال والجنوب بمن فيهم سانو وجبهة الجنوب. وحضره أيضًا مراقبون من أوغندا وكينيا وتانزانيا وغانا ونيجيريا والجزائر ومصر. اتحدت كلمات ممثلى الشمال على مواجهة القضية مواجهة جديدة والتخلى عن القوة والبحث عن حل سياسى فى إطار السودان الموحد وألا يسمح بتشجيع الاتجاهات الانفصالية، وإنشاء حكومة إقليمية لمديريات الجنوب الثلاث.

وبينما تمكنت أحزاب الشمال من الوقوف فى جبهة متحدة وآراء موحدة بشأن الحل السياسى للمشكلة، كانت القيادة السياسية للجنوب منقسمة، حزب سانو انقسم إلى مجموعة تدعو إلى الاستقلال السياسى وأخرى إلى الاتحاد الفيدرالى، وجبهة الجنوب طالبت بحق تقرير المصير، وقدمت سانو وجبهة الجنوب مشروعًا يقضى بإجراء استفتاء فى الجنوب تحت إشراف مراقبين من الدول الأفريقية للتأكد من اتجاه أغلبية الجنوبيين سواء إلى الوحدة الفيدرالية أو الاتحاد مع الشمال أو الاستقلال والانفصال.

وبالطبع رفضت أحزاب الشمال المشروع على أساس إنه إعلان واقعى يؤدى إلى الانفصال، فتقدم القادة الجنوبيون بمشروع آخر يدعو إلى إقامة إقليمين فى السودان، ورفض أيضًا هذا المشروع باعتباره ينتهى إلى إقامة دولتين مستقلتين فى السودان.

وهكذا فشل مؤتمر المائدة المستديرة. ثم اتحدت جبهة تحرير السودان الأفريقى مع حزب سانو خارج السودان وشكلا جبهة آزانيا بهدف إقامة دولة أفريقية حرة ومستقلة جنوب السودان.

من المؤسف أن السياسة البريطانية التى فشلت فى بدايات القرن العشرين فى سلخ جنوب السودان عن شماله أخذت تظهر فى خواتيمه تزكيها الولايات المتحدة الأمريكية

الحكم العسكرى الثانى:

تفاقم العنف والخلافات بين الشمال والجنوب، وتقدم العسكر مرة أخرى واستولوا على السلطة عام ١٩٦٩، تحت قيادة جعفر نميرى. وبعد انتهاج سياسة مترددة ومتذبذبة حيال المتمردين فى الجنوب، تفاوضت حكومة نميرى معهم وتم التوصل عام ١٩٧٢ لاتفاقية أديس أبابا التى كفلت للجنوب حكمًا إقليميًا ذاتيًا وأنهت الحرب الأهلية فى الجنوب. وكان إبرام هذا الاتفاق عائدًا فى الأساس إلى أن الطرفين عجزا عن تحقيق أهدافهما بالقوة المسلحة. وقد خلقت هذه الاتفاقية حالة من الاستقرار حتى عام ١٩٨٣.

واجه نميرى ضغوطًا مناوئة لحكمه العسكرى الشمولى من كل قوى المعارضة السياسية ومن الجماعات الأهلية، لذلك تحالف مع الشيخ حسن الترابى وجماعته السياسية، وأعلن فى ١٩٨٣ عن بدء السودان تطبيق الشريعة الإسلامية، وكان يأمل باتخاذه هذه الخطوة أن يسحب البساط من أحزاب المعارضة السياسية وقياداتها، وأن يضفى على حكمه قوة الشريعة ونفوذها ويغطى بها نظامه المستبد.

وفى الوقت ذاته، فإن نظامًا شموليًا مستبدًا يعتمد فى الأساس على سلطة الرجل الواحد وقبضته، لا يناسبه قيام نوع من الحكم الذاتى فى بعض أقاليم دولته، لذلك فقد عمل نظام نميرى على إضعاف الحكم الذاتى الإقليمى للجنوب، ثم ما لبث أن خرج على اتفاقية أديس أبابا التى كانت حددت أشكال الحكم فى الجنوب، وعمل نميرى على تقسيم الجنوب من جديد ليلحقه بحكمه الفردى فى الخرطوم.

ورغم أن نميرى عندما أعلن عن تطبيق الشريعة الإسلامية فى السودان استثنى الجنوب من هذا التطبيق، فإن الحركة الجنوبية التى تبلورت للرد عليه بسبب استعادته السيطرة على الجنوب ومخالفته اتفاقية أديس أبابا، قرنت بين هذا الأمر وبين تطبيق الشريعة الإسلامية واعتبرت نفسها حركة احتجاج ومقاومة للأمرين معًا، ذلك أن

الجنوب دائمًا له مسألتان، مسألة حقوق الحكم الذاتي ومسألة تصارع الهويات، والمسألة الأخيرة غرسها الاستعمار في أرض الجنوب وتعهدتها من بعد بعثات التبشير والنشاط التعليمي والنفوذ الغربي الأوروبي ثم الأمريكي. والحكم الشمالي دائمًا ديمقراطيًا كان أو عسكريًا لم يهتد إلى سياسة تمكن من فصل المسألتين، الأولى الاستجابة للحقوق والمساواة، والثانية الحفاظ على الهوية، وهذا مما أدى إلى قيام تنظيم الحركة الشعبية لتحرير السودان. وتكون جناحها العسكري الجيش الشعبي لتحرير السودان بقيادة جون قرنق واستؤنف الصراع المسلح. وكان تجدد الحرب الأهلية في الجنوب عائدًا إلى مجموعة من الأسباب أبرزها وأهمها إصرار النظام الحاكم على تقسيم الإقليم الجنوبي وإعادة سيطرة الحكم الشمولي على الجنوب، فضلاً عن قلق الجنوبيين من مسيرة التكامل التي أُعلنت وقتها بين مصر والسودان، باعتبار أنها تأكيد للهوية العربية، بالإضافة إلى اكتشاف النفط في الجنوب والبدء في عمليات استخراجه.

وبعد عامين فقط من بدء الحرب العدائية أطاحت الثورة الشعبية المعروفة بالانتفاضة بحكم نميري في عام ١٩٨٥، وفشلت الحكومة الانتقالية برئاسة سوار الذهب ثم الحكومة المنتخبة، حكومة الصادق المهدي التي تلتها في التوصل إلى اتفاق مع الحركة الشعبية لتحرير السودان وجيشها، وزحفت الحرب من الجنوب إلى مناطق جبال النوبة وجنوب كردفان والإقليم الغربي من دارفور وجنوب النيل الأزرق. وسعت حكومة المهدي جاهدة للبحث عن حل وتوصلت المفاوضات التي جرت مع الحركة الشعبية لتحرير السودان عن اتفاق كوكدام إلا أنه نتيجة للصراع بين أحزاب الشمال (الحزب الاتحادي وحزب الأمة والجبهة القومية الإسلامية) حول من تكون له اسبقية الظفر بشرف التسوية أعاق فرص الحل.

الحكم العسكري الثالث:

في يونيو ١٩٨٩ وقع الانقلاب العسكري السوداني الثالث المسمى بثورة الإنقاذ بزعامة الفريق عمر البشير الذي أصبح رئيسًا للدولة. وتحالفت القيادة العسكرية ذات التوجه الإسلامي (عمر البشير) مع الجبهة الإسلامية (حسن الترابي).

زادت الحرب اشتعالاً بين ثورة الإنقاذ والجبهة الشعبية لتحرير السودان، وتردت الأوضاع أكثر مما هي متردية. وتعددت أطراف الحرب الأهلية فبينما كانت الحكومة تحارب الحركة الشعبية كانت فصائل الجنوب تحارب بعضها البعض، وامتدت الحرب إلى غرب وشرق السودان (البجا). وفي مارس ١٩٩٨ صدر دستور جمهورية السودان يسمح بحق تقرير المصير. وفي ديسمبر من العام ذاته طرحت مصر وليبيا مبادرة تضمنت الآتي:

❖ الوقف الفوري للعمليات العسكرية من جميع الأطراف ووضع آلية لمراقبة ذلك.

❖ الوقف الفوري لكافة الحملات الإعلامية المتبادلة بين الأطراف.

❖ الشروع في حوار مباشر بين الحكومة والمعارضة عبر ملتقى عام للحوار يهدف إلى التوصل إلى حل سياسي شامل للمشكلة السودانية يستند لوحدة السودان ويؤمن بالتعددية.

❖ تشكيل لجنة تحضيرية للملتقى بمشاركة ممثلين عن التجمع الوطني وممثلين عن الحكومة تتولى تحديد مكان وتاريخ انعقاد الملتقى وتحديد المدعوين للمشاركة في أعمال الملتقى وتحديد أسس الحوار.

إلا أنه في أبريل ٢٠٠٠ أعلنت الولايات المتحدة عزمها على تزويد الجنوب بمعدات عسكرية ثقيلة. فأعلن وزير خارجية السودان رفض بلاده أي مقترحات أمريكية لا تضع المبادرة المصرية الليبية في اعتبارها.

تطورت الأمور بعد ذلك بشكل سريع وبرز الدور الأمريكي وعكس تحولاً في السياسة الأمريكية تجاه السودان من المواجهة والتصادم إلى نوع من التدخل والتوجيه المباشر. وجاء هذا التحول تحديدًا عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتلاقى هذا السعي الأمريكي مع سعي أوروبي غربي ترعاه القوى المسيحية من شأنه طرح مشكلة جنوب السودان على أنها تمثل شعبًا مسيحيًا مضطهدًا من قبل مسلمي الشمال. وألمح وزير الخارجية الأمريكي «كولن باول» إلى أن السودان يمثل أولوية الاهتمام الأمريكي بأفريقيا.

وفي يوليو ٢٠٠٢ أجبرت الولايات المتحدة الطرفين سواء الحكومة السودانية أو الجبهة الشعبية على الاجتماع في بلدة ماساكوش الكينية وخضع وفدا التفاوض لضغوط أمريكية شديدة واستعين بفرق بريطانية ونرويجية لدفع عجلة المفاوضات. وكانت رسائل واشنطن واضحة إن لم يتوصلا إلى اتفاق طوعي فإنها ستفرض عليهما حلاً قسريًا كما فعلت في بعض المناطق الأخرى. وكان على من يرفض التوقيع على مسودة الاتفاق تحمل مسئولية فشل المفاوضات وعليه تحمل النتائج. وتضمن اتفاق ماساكوش نصوصًا حول أهم معضلتين إثارة للجدل وهما علاقة الدين بالدولة وحق تقرير المصير للجنوب السوداني.

وفي إطار ماساكوش توالت المفاوضات بين طرفي الصراع في السودان في منتجعات في كينيا في ماساكوش وكرن وناكدرو وأخيرًا نيفاشا. وتحقق كثير من نقط الالتقاء كان أبرزها توقيع الاتفاق الأمني والعسكري في سبتمبر ٢٠٠٣، ثم الاتفاق على تقسيم عوائد الثروة في يناير ٢٠٠٤، ولايزال الطرفان في منتجع نيفاشا الكيني يبحثان بقية القضايا وهي تقسيم السلطة والمناطق الثلاث المهمشة.

إن الأمر لم ينته بعد وأحداث الجنوب السوداني والاتفاق بشأنها يجري في هذه الأيام ولا يمكن التوقع أو المغامرة به بالنسبة لما سيكون عليه الحال. ■

حقــــائق ســـودانية

- مجموع سكان السودان كله يقدر بعدد يتراوح بين ٣٣,٥ مليون نسمة وبين ٣٦ مليون نسمة، وذلك حسب تقديرات الأمم المتحدة في عام ٢٠٠٣.
- المسلمون يشكلون في السودان كله نحو ٧٠٪ من مجموع سكانه وأغلبهم في الشمال، ومن يعتنقون أديانًا غير سماوية يشكلون نحو ٢٥٪ من مجموع السكان، والمسيحيون يشكلون نحو ٥٪ من مجموع السكان.
- العرب يشكلون نحو ٤٠٪ من السكان، والأفريقيون يشكلون نحو ٦٠٪ من السكان.
- أهل الشمال يشكلون نحو ثلثي سكان السودان. وأهل الجنوب يشكلون نحو ثلث مجموع السكان.
- أجريت على جنوب السودان إحصاءان. أولهما في سنة ١٩٥٦ والآخر في سنة ١٩٨٣. وإحصاء سنة ١٩٨٣ خلا من سؤال عن الديانة. أما إحصاء سنة ١٩٥٦، فقد أثبت أن ٦٥٪ من سكان الجنوب يعتنقون أديانًا غير سماوية، وأن ١٨٪ من أهل الجنوب يعتنقون الإسلام، وأن ١٧٪ من أهل الجنوب يعتنقون المسيحية.
- أهل الجنوب يتحدثون لغات محلية غير مكتوبة ويتحدثون العربية بلهجات أفريقية. والمتعلمون يتحدثون الإنجليزية. وزاد تحدث الجنوبيين بالعربية بسبب التواصل الإعلامي العربي، وبسبب هجرة الجنوبيين إلى الشمال وإلى الخرطوم.
- أكبر قبائل الجنوب هي «الدنكا» تليها «النوير» تليها «الشلوك». والنزاعات بين القبائل تكاد تكون مستمرة.
- الحركة الشعبية التي يقودها جون قرنق تعرضت لانشقاقات عديدة في صفوفها، وتشكلت عدة فصائل جنوبية منافسة لها.
- وثمة عديد من القوات العسكرية غير جيش التحرير الشعبي الذي يقوده قرنق، وهي مع صغرها إلا أنها تظهر أن قرنق لا يسيطر على الجنوب، لا على غالب أرض الجنوب ولا على غالب قبائله وسكانه. فهناك ٤٠ فصيلاً مسلحًا في الجنوب تتفاوت درجة تسليحهم، وجميعهم مشكل على أساس إثني عشيري.

المـــــراجــــع

(❖) صراع الرؤى/ د. فرانسيس دينق

(❖) جنوب السودان/ د. محمد عمر البشير

دراسات أفريقية/ د. حسن مكي محمد أحمد

(❖) المأزق التاريخي وآفاق المستقبل/ د. محمد أبوالقاسم جامع محمد

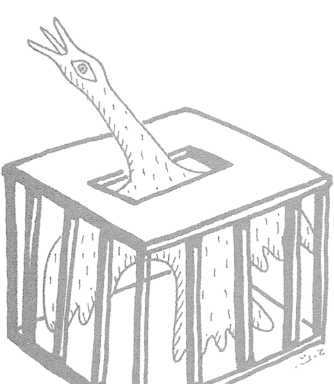
(❖) الحروب الأهلية في أفريقيا/ أحمد إبراهيم محمود

(❖) العقوبات والمنبوذون في الشرق الأوسط/ مركز دراسات الوحدة العربية

(❖) الصادق المهدي وتحديات التسعينيات

(❖) التقرير الاستراتيجي الأفريقي ٢٠٠١-٢٠٠٢

انتخابات تكسير العظام فى إيران!



فهمى هويدى

المشهد الانتخابى الإيرانى، بكل تجاذباته وصخبه وما قد نأخذه عليه، يعد تعبيراً عن حيوية سياسية مفتقدة فى أغلب دول العالم الثالث

[١] احتلال العراق وامتداح واشنطون للإصلاحيين وفرا ظرف استدعاء المحافظين لأن هذا أوان الاستنفار والقبض على الجذور فإن ذبح الإصلاحيين لم يكن مبرراً . المحافظون حولوا الإصلاحيين إلى «ضحية» والإقصاء شمل فصيلين فقط فى تيارهم المحافظون ١٧ حزبًا وتجمعًا، والإصلاحيون ١٨، والمعتدلون والمتطرفون على الجانبين.

نادرة هى المرات التى تُحدث فيها الانتخابات البرلمانية فى بلادنا ذلك الضجيج الذى أحدثته الانتخابات الإيرانية. ذلك أن صحف الشهرين الأخيرين على الأقل ظلت تتابع تطورات المشهد الانتخابى هناك على نحو يومى، من خلال سيل الأخبار المتلاحقة. الأمر الذى أعطى انطباعاً قوياً لدى الجميع بأن ثمة معركة ضارية وشرسة. حقيقية وليست وهمية. بين الجناحين المهيمنين على الحياة السياسية الإيرانية: «المحافظون» و«الإصلاحيون».

وأن تكون المعركة حقيقية فذلك بدوره «خبر» مثير، بالنسبة لأغلب الأقطار العربية، تلك التى اعتادت على أجواء الانتخابات الوهمية، التى يشارك فيها الجميع. إذا شاركوا. وهم يعلمون سلفاً من الفائز. ويدركون جيداً أن إجراء الانتخابات لن يحدث تداولاً للسلطة من أى نوع، لكنه فى أحسن فروضه بمثابة تجديد للعهد والبيعة، تثبيتًا لما هو قائم، وتسويغًا لتأبيده.

ازاء ذلك فلا مفر من الإقرار مقدماً بأن المشهد الانتخابى الإيرانى، بكل تجاذباته وصخبه وما قد نأخذه عليه، يعد تعبيراً عن حيوية سياسية مفتقدة فى أغلب دول العالم الثالث، ولا تسأل عن العالم العربى. فنحن بإزاء أجنحة قوية متصارعة، ومؤسسات تشهر أسلحة القانون، وتتمسح فيه لكى تحقق مرادها، وجدل صاخب بين المتصارعين داخل مجلس الشورى وخارجه، تنقله الإذاعة والتليفزيون على الهواء. وفوران فى الجامعات وفى الشارع، وغاضبين معتصمين، واحتشاد مقابل يسعى لاحتواء الغضب والتحذير من مغبة مقاطعة الانتخابات، وحكومة تدعو إلى التأجيل، ورئيس للجمهورية يشكك فى تكافؤ الفرص فيها ويلوح بورقة الاستقالة،ومرشد على الجانب الآخر يتدخل لحسم الأمر وإيقاف الجدل فوراً وإجراء الانتخابات فى موعدها.. إلخ.

هذه الفصول المثيرة للمشهد الانتخابى تشى بقوة المجتمع وحيويته لاريب، وتكشف فى الوقت ذاته عن الارتفاع النسبى لسقف الحريات الذى وفرت له حكومة السيد محمد خاتمى دفعات قوية، منذ توليه رئاسة الجمهورية فى عام ١٩٩٧، ورفعه لشعار «التنمية السياسية». وذلك إنجاز مهم، يتجاهله الذين يروجون للادعاء بفشل المشروع الإصلاحى. ورغم الإقرار بأنه لم ينجح فى تحقيق مشروعه على النحو الذى يرضى طموحات الراغبين فى التغيير، إلا أنه سيظل يحسب له أنه نجح فى استدعاء صوت المجتمع وإسماع ذلك الصوت للكافة، بعدما كان الصوت المسموع والمألوف فى إيران هو للفقهاء وحدهم. و«الولى الفقيه» فى المقدمة منهم. حتى «الولى الفقيه» صاحب الكلمة الأخيرة فى القرار السياسى لم يعد كما كان فى السابق. فقد ظل محتفظاً بأهميته بحكم الصلاحيات الواسعة التى يخولها الدستور له، لكن قدسيته وهيبته تراجعت بصورة نسبية ومن يتابع صورة المجتمع الإيرانى وحراكه قبل عام ٩٧ وبعده، يلاحظ الفرق الكبير بين الحالتين فى موضوع ممارسة الحريات بوجه أخص. حتى أزعم أن الأمر تجاوز سقف الحوار وارتفاع صوت الشارع، إلى اختلاف شكل الناس رجالاً كانوا أم نساء. فقد تضاعفت مثلاً أعداد حليقى اللحى وظهرت أربطة العنق، التى كانت تعد من علامات «الاستكبار» فى قاموس الثورة الإسلامية، وخفت إلى حد كبير الضغوط والقيود المفروضة على حجاب المرأة، الذى أصبح أكثر مرونة وجرأة دون إخلال بجوهر الاحتشام.

[٢] تلك نقطة أولى. إن شئت اعتبرها مدخلاً. فى قراءة المشهد الإيرانى، الذى لم يكن مثيراً فحسب، وإنما ظل مسكوناً بالالتباس طول الوقت، الأمر الذى أوقع كثيرين فى خطأ القراءة المغلوطة، والمتابع للكتابات المختلفة التى تناولت الشأن الإيرانى يلاحظ فى أغلبها أن مصطلحى «الإصلاحيين» و«المحافظين» كانا من أهم مصادر الالتباس.

المعنى الاصطلاحى الشائع، سبَّب ذلك الالتباس، ذلك أن المستقر فى الأذهان أن الأولين هم «محور الخير» والآخرين هم «محور الشر»، إذا استخدمنا لغة الخطاب السياسى الراهن. وترتب على ذلك أن المصطلح بحد ذاته بدا كافياً لإثارة تعاطف كثيرين تلقائياً مع الإصلاحيين ونفورهم



التلقائى من المحافظين. ليس ذلك فحسب وإنما أعطى المصطلح إيحاء بأن الإصلاحيين كتلة واحدة، فى مقابل كتلة أخرى تتمثل فى المحافظين.

الانطباعان مغلوطان ويفتحان الباب واسعًا للالتباس وسوء الفهم. إذ ليس صحيحًا أن المعادلة تضم أخيارًا فى جانب وأشرارًا فى جانب آخر، وبذات القدر فليس صحيحًا أن كلاً منهما يمثل كتلة واحدة صماء لا تعدد فيها ولا تمايز.

لا حيلة لنا أمام المصطلح والانطباعات التى يستصحبها، خصوصًا أن الترويج لتلك الانطباعات ليس بريئًا دائمًا، وإنما هنا دوائر تحرص على تكريس معنى اجتماع أخير فى جانب الإصلاحيين وانحصار الشر فى جانب المحافظين. والذين أعنيهم هنا هم أولئك الذين انحازوا إلى الإصلاحيين ليس حبًا فيهم ولا إعجابًا بمشروعهم، ولكن كراهة للمحافظين وتعلقًا بأمل تقويض معسكرهم من خلال الانخراط فى معسكر «الضد» بمظنة أن تلك خطوة على طريق إجهاض التجربة كلها وهدم المعبد على جميع من فيه، الإصلاحيين منهم والمحافظين.

إننا إذا أدركنا أن تيار الإصلاحيين يضم ١٨ حزبًا وتجمعًا سياسيًا، وأن تيار المحافظين يحتشد فيه ١٧ حزبًا وتجمعًا آخر، فإن ذلك يبين كيف أن كل معسكر مترامى الأطراف على نحو يحتمل العديد من التمايزات والاختلافات، وعند الحد الأدنى فهناك على كل جانب «معممون وافندية»، ويمين ويسار ووسط، فهناك إصلاحيون متفلتون أو ثوريون، وآخرون أقرب إلى المحافظين منهم إلى بعض فصائل جماعتهم. وهناك محافظون متزمتون ورجعيون، وآخرون أقرب إلى الإصلاحيين وهكذا. وقبل أن أفصل فى هذه النقطة بعض الشىء ألفت النظر إلى أن الخلافات الفكرية حول القضايا الأساسية محدودة، وربما تداخلت المواقف على هذه الساحة، بحيث نجد أن اليسار يدافع عن أمور يفترض أنها ضمن اهتمامات اليمين والعكس صحيح. لكن الخلاف فى الطموحات السياسية أكبر بكثير منها على المستوى الفكرى ثقافيًا كان أم اقتصاديًا.

حتى أقرب الفكرة إلى الأذهان، فإننى أذكر بأن الإصلاحيين خاضوا خلال السنتين الأخيرتين معركة خصخصة التعليم العالى، وهو ما أثار غضب الروابط الطلابية التى خرجت إلى الشارع أفواج تمثلها معلنة الاحتجاج وداعية إلى استقالة خاتمى. وذهبت تلك الروابط فى معارضتها إلى حد حجب تأييدها عن الإصلاحيين فى انتخابات البلديات التى جرت فى شهر فبراير من العام الماضى، وكانت النتيجة فى طهران مثلاً أن حقق الإصلاحيون فشلاً ذريعًا، حيث فاز المحافظون بأربعة عشر مقعدًا من ١٥.

وبينما وقف خاتمى وفريقه الإصلاحى مع خصخصة التعليم، فإن الشيخ هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس تشخيص المصلحة تبنى فى نفس الوقت دعوة الاقتراض من الخارج، وكان ولايزال أحد أهم الداعين إلى حرية السوق. وبشكل عام فإن المحافظين على جملتهم لا يشجعون تدخل الدولة فى الاقتصاد، فى الأغلب لأن رجال البازار يمثلون قاعدتهم السياسية والتمويلية، فى حين أن الإصلاحيين يقفون مع دور اقتصادى قوى للدولة.

حتى إذا قيل أن ثمة تمايزات بين الجناحين فيما يخص الحريات السياسية الداخلية. وهذا صحيح. فإن قطاعًا لا يستهان بوزنه فى المحافظين والمحسوبين عليهم يقفون فى ذات المربع، يتقدمهم الشيخ هاشمى رفسنجانى والدكتور على ولايتى وزير الخارجية السابق.

تجدر الإشارة إلى أن وزير الثقافة السابق الدكتور عطاء الله مهاجرانى، الذى أقصى عن منصبه بضغط وإصرار من المحافظين كان من قادة حزب «كوادر البناء»، الذى يعتبر الشيخ رفسنجانى رمزه الروحى. كما أن غلام حسين كرباستشى عمدة طهران الأسبق الذى أدخله المحافظون إلى السجن وأطلقوا سراحه فى عام ٢٠٠٠، والشيخ عبدالله نورى وزير الداخلية الأسبق والذى أُدخل السجن أيضًا وأُخرج فى عام ٢٠٠٣، كانا أيضًا من أعوان الشيخ رفسنجانى.

فى ذلك الوقت فإن الشيخ مهدى كروبى والسيد على أكبر محتشمى وآية الله اردبيلى ومير حسين موسوى رئيس الوزراء الأسبق، هؤلاء كانوا محسوبين على التيار المتشدد. وقد أصبحوا الآن من رموز التيار الإصلاحى. ومعهم أيضًا بهزاد نبوى رئيس منظمة مجاهدى الثورة الإسلامية، التى تشكل أحد أجنحة الإصلاحيين.

[٣] صعود الإصلاحيين إلى الأفق السياسى الإيرانى كان مفاجئًا للمحافظين بل صادمًا لهم على نحو لم يتوقعوه. ويؤرخ لذلك الصعود بالفوز الكبير الذى حققه السيد محمد خاتمى فى انتخابات الرئاسة التى جرت عام ١٩٩٧، على مرشح المحافظين الذى نافسه، الشيخ ناطق نورى، الذى كان رئيسًا لمجلس الشورى وقتذاك. وحين كنت أحد الذين تابعوا المعركة الانتخابية، كان واضحًا أن الشيخ نورى ظل مطمئنًا طوال الوقت إلى الفوز، حتى لاحظ المحيطون به أنه كان يتصرف باعتباره رئيس الجمهورية القادم، فعدل من هيئته ووسع من اتصالاته الدبلوماسية وزياراته الخارجية، ولذلك فإن الهزيمة القوية التى نزلت به كان لها وقع المفاجأة والصدمة (لم يحصل على أكثر من ٢٥٪ من الأصوات وحصد السيد خاتمى ٧٥٪). وفى حقيقة الأمر فإن الضربة كانت للمعسكر المحافظ بأسره وليس للشيخ ناطق نورى وحده، لذلك، ومنذ ذلك الحين كان قرار المحافظين غير المعلن ألا يسمحوا للضربة أن تتكرر مرة أخرى.

الذى لم ينتبه إليه المحافظون آنذاك أن فوز السيد خاتمى كان تعبيرًا عن شوق إلى تغيير ما، وأنه تغلب على الشيخ نورى ليس فقط لأنه يتمتع بشخصية جذابة أو لأنه رفع شعارات لقيت حفاوة وتعاطفًا من جانب الرأى العام، خصوصًا أوساط الشباب والنساء، ولكن وبالدرجة الأولى لأنه يمثل استجابة للظرف التاريخى فى تلك الفترة. فقد كانت الحرب ضد العراق قد انتهت عام ١٩٨٨، ومرت حوالى تسع سنوات على محاولة لملمة الجراح التى خلفتها، وكان المسكون بزمام القيادة هم أنفسهم التابعون فى الصدارة منذ نجاح الثورة فى عام ١٩٧٩. وبدا أن المجتمع الإيرانى يريد أن يمارس حياته العادية التى افتقدها، متجاوزًا حالة طوارئ الحرب ومخلفاتها، ووجد فى شخص السيد خاتمى نموذجًا يشبع هذه الرغبة، ووجهًا جديدًا يشجع على التعلق بذلك الأمل، وكان الانحياز الكبير له تأكيدًا لهذه المعانى.

انتخابات مجلس الشورى التى تمت فى سنة ٢٠٠٠ عبرت عن ذات الموقف، الأمر الذى تجلى فى فوز الإصلاحيين بأغلبية المقاعد (١٧٠ من ٢٩٠). وهو ما قوى من مركزهم حيث أصبحوا متمكنين بصورة نسبية من السلطة التشريعية فضلاً عن التنفيذية، وكان لذلك الفوز صداه فى دوائر المحافظين الذين ازدادت مخاوفهم من استمرار تنامى حضور الإصلاحيين، الذى تصوروا أنه يهدد. من بين أمور أخرى. بإفلات الزمام من أيديهم بصورة تدريجية.. صحيح أن قطاعًا غير قليل من المحافظين كانوا قلقين على نفوذهم وعلى سلطانهم، إلا أنه كان هناك أيضًا آخرون أقلقتهم أصوات بعض المتفلتين والعلمانيين من غلاة الإصلاحيين الذين ذهبوا أبعد مما ينبغى فى خطاب التغيير الذى تبنوه على نحو أثار مخاوفهم على نظام الجمهورية الإسلامية ذاته وعلى الثوابت التى قام عليها النظام.

عند نقطة المخاوف التقت رؤى فصائل المحافظين، سواء المعنية بالنفوذ السياسى أو تلك المهجوسة بمستقبل الجمهورية الإسلامية ومشروعها الأساسى، لذلك فإنهم تكتلوا فى مواجهة الإصلاحيين، والتقوى على ضرورة قطع الطريق على تقدمهم فى مدارج السلطة وإدارة شئون المجتمع، فتعددت الأسباب وصار الهدف واحدًا.

المحافظون ضعفاء فى الشارع، خصوصًا فى أوساط المثقفين والطبقتين الوسطى والعليا، وفى محيط الشباب والنساء، لكن أقدامهم بقيت راسخة فى العديد من مواقع ومؤسسات السلطة. فالولى الفقيه سند رئيسى لهم، ثم إن رجالهم يهيمنون على السلطة القضائية ومجلس صيانة الدستور، ومجلس الخبراء، ومجمع تشخيص مصلحة النظام والمجلس الأعلى للأمن القومى، وأهم المؤسسات الاقتصادية فى البلاد مثل مؤسسات المستضعفين والشهيد والإمداد فضلاً عن الغرفة التجارية، إلى جانب ذلك كله فبيدهم القرار فى حرس الثورة والجيش، وهو ما يعنى فى حقيقة الأمر أنهم يسيطرون على هيكل الدولة كله، باستثناء السلطتين التنفيذية والتشريعية، وليس هناك شك فى أن ما يملكون من سلطان ونفوذ يمكنهم من خلال الصلاحيات القانونية التى يملكونها من الحفاظ على ثوابت الثورة الإسلامية والمجرى الأساسى لمشروعها. فالولى الفقيه مثلاً له أن يوقف أى مشروع قانون مقدم إلى مجلس الشورى قبل مناقشته، وهو ما حدث على مشروع قانون الصحافة مثلاً، كما أن أى مشروع لا يكون سارى المفعول إلا إذا وافق عليه مجلس صيانة الدستور (المواد: ٩١ إلى ٩٦ من الدستور).

والأمر كذلك، فلعلنا لا

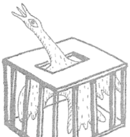
نبالغ كثيراً إذا قلنا أن حملة المحافظين على الإصلاحيين وملاحقتهم لهم حركها الصراع على السلطان والنفوذ بأكثر من الغيرة على مستقبل الجمهورية الإسلامية، وإن شئت الدقة فقل إن دور الصراع على السلطة كان فى المقام الأول، ومسألة الغيرة هذه كانت فى المقام التالى، رغم أنها تمثل الحجة الرئيسية التى يستند إليها الخطاب السياسى الهجومى للمحافظين على الإصلاحيين.

[٤] حان موعد تصفية الحساب وحسم الأمر فى الانتخابات التشريعية التى جرت فى العشرين من شهر فبراير الماضى. وهى التى اكتسبت أهمية فى ذاتها من حيث إنها ستحدد شكل السلطة التشريعية خلال السنوات الأربع القادمة. وفى رمزيتها باعتبار أنها مقدمة ومؤشر كاشف عن الموازين التى ستحدد مصير الانتخابات الرئاسية التى ستجرى فى العام القادم، مع انتهاء ولايتى الرئيس خاتمى. أهم من ذلك أنها ستحدد فى الوقت ذاته مصير تجمع الإصلاحيين ووجود بعض فصائلهم.

ولا مفر هنا من الإقرار بأن الظروف هذه المرة كانت مواتية للمحافظين ومساعدة على ترجيح كفتهم، لعدة أسباب فى مقدمتها أربعة هى:

❖ الاحتلال الأمريكى للعراق، الذى جاء بالقوات الأمريكية على أبواب إيران من الغرب، وهى الخطوة التى جاءت فى أعقاب احتلال أفغانستان واستقدام القوات الأمريكية التى رابطت بمحاذاة حدود إيران الشرقية. الأمر الذى فرض عليها نوعاً من الحصار الاستراتيجى النسبى. ليس ذلك فحسب وإنما وقع احتلال العراق فى سياق حملة أمريكية هجومية واسعة النطاق على المنطقة، تحدث مسئولو البيت الأبيض خلالها بشكل متواتر عن إحداث تغييرات فى أنظمتها وإعادة رسم خرائطها. وكانت الإشارة إلى إيران صريحة فى ثنايا هذا الكلام، بل وقبل إطلاق أى كلام، حين صنفها الرئيس الأمريكى بوش ضمن ما سمى بمحور الشر. وهى إشارات تدفعها إسرائيل بقوة كما هو معلوم، ولا تدع مجالاً للشك فى أن إيران مستهدفة. وفى غيبة «الظهير السوفيتى» الذى كان ضمن ما تعول عليه طهران فى تحدى الضغوط الأمريكية، فإن ذلك الاستهداف فى الوقت الراهن لابد أن يؤخذ على محمل الجد. إن لم يصب إيران بدرجات متفاوتة من التوتر والقلق. وفى ظروف القلق هذه فإن الاحتشاد والاحتماء بالدفاعات الأساسية والقبض على الثوابت والجذور تغدو ردود أفعال طبيعية.

إذا صح ذلك التقدير، فإن أجواء كهذه تشكل ظرفاً تاريخياً مغايراً يستدعى المحافظين لكى يمسكوا بالزمام ويعينوا السفينة على الصمود والثبات فى وجه الإعصار الذى يلوح فى الأفق. فهم أهل هذه المرحلة التى يتهدد فيها الكيان. وحضورهم فى موضع القيادة يمثل استجابة لمتطلباتها. فهذا أوان التشرنق وليس الانبساط، والاستنفار وليس الاسترخاء.



المحافظون ضعفاء فى الشارع، خصوصاً فى أوساط المثقفين والطبقتين الوسطى والعليا، وفى محيط الشباب والنساء، لكن أقدامهم بقيت راسخة فى العديد من مواقع ومؤسسات السلطة. فالولى الفقيه سند رئيسى لهم

❖ الامتداح الأمريكى للإصلاحيين، الذى أزعم بأنه إذا كان المقصود منه تشجيعهم، فإنه أضر بهم كثيراً، وجاء خصماً من رصيدهم. إذ حين يمدحك من كان عدوك. على الأقل فى حسبان المواطن العادى الذى ما برح يهتف منذ قامت الثورة «الموت لأمريكا» (مرك بر أمريكا). فلابد أن يكون فيك شىء غلط، يدعو للتساؤل والاسترابة. لا أريد أن أذهب إلى السيناريو الأسوأ المتمثل فى أن امتداحهم ربما أريد به «إحراقهم»، لكى يتمكن المحافظون من بسط الهيمنة على كل المنافذ ويزداد الاختناق تفاقماً فى إيران، الأمر الذى قد يؤدى إلى تفجير الموقف وإسقاط النظام. ولكن فقط أقطع بأن ذلك المديح. فى حده الأدنى. أساء إلى الإصلاحيين فى بعض الدوائر، ووفر للمحافظين حجة قديمة للتشكيك فى تعاطفهم مع الولايات المتحدة، وإسرائيل بالتالى.

❖ الجناح العلمانى المتغرب الذى يستظل بمظلة الإصلاحيين أساء إليهم بدوره. ذلك أن هذا الجناح وجد له مكاناً فى محيط ذلك التيار الذى يشكل الدفاع عن الحريات السياسية قاسماً مشتركاً أعظم بين فصائله، من ثم كان الدفاع عن الديمقراطية نقطة التقاء بين تلك الفصائل، لكن من الواضح أن الالتقاء المرحلى حول هذه المسألة لم يستصحب التقاء مماثلاً فى المقاصد. فالإصلاحيون الحقيقيون أرادوها ديمقراطية إسلامية توظف الدين فى خدمة السياسة والمجتمع. بينما أرادها العلمانيون الرافعون لراية الليبرالية ديمقراطية غربية، تعزل الدين وتفصله عن السياسة والمجتمع، وحين عبر أولئك العلمانيون عن آرائهم، فإن ذلك أضاف إلى المحافظين حجة أخرى للتدليل على عدم إخلاص هؤلاء للجمهورية الإسلامية، واختراق صفوفهم من جانب الأصابع الأمريكية.

اجتماع السببين الثانى والثالث مكنا المحافظين من التنديد القوى بالمعسكر الإصلاحى. وهو ما تجلى مثلاً فى الهجوم الشديد الذى شنه عليهم أحد رموز التيار المحافظ فى مجلس الشورى، على إمامى راد، وقال فيه: «إن تناغم وانسجام علماء أمريكا والصهاينة الموجودين فى مجلس الشورى مع السياسات التى تتبناها أمريكا وإسرائيل، يتم فى إطار المؤامرة التى أعدتها الدول الغربية لضرب النظام الإسلامى» (نشرة «الموجز عن إيران». عدد يناير ٢٠٠٤، ص٥).

❖ السبب الرابع هو انفراط عقد التيار الإصلاحى. ذلك أنهم وقفوا صفاً واحداً فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٧، ولكن الفوز الكبير الذى حققه السيد خاتمى أعطى ثقة زائدة لجبهة المشاركة التى يتزعمها شقيقه السيد محمد رضا خاتمى، الأمر الذى دفعها إلى محاولة التفرد بمغانم الانتصار، والاستئثار بها دون حلفائها الآخرين فى التيار، وفى المقدمة منهم حزب «كوادر البناء» الواقف على يمينهم ويحسب أركانه وأنصاره على الشيخ هاشمى رفسنجانى الذى اعتاد أن يضع قدماً هنا وقدماً هناك، أيضاً ذلك أن الإصلاحيين الذين خاضوا انتخابات الرئاسة على قائمة واحدة عام ٩٧، شاركوا فى انتخابات البلديات عام ٢٠٠٣ موزعين على خمس قوائم انتخابية متنافسة هى: حزب جبهة المشاركة، حزب كوادر البناء، حزب التحالف القومى الدينى، حزب التضامن، وحركة تحرير إيران.. ولأنهم شاركوا فى الانتخابات على ذلك النحو، فى حين شارك المحافظون على قائمة واحدة، فلم يكن مفاجئاً أن يمنى الإصلاحيون بهزيمة منكرة، ويتفوق عليهم المحافظون، الذين سبق أن أشرنا إلى أنهم فازوا بـ ١٤ مقعداً من ١٥ فى بلدية طهران، التى تمثل «ترمومتر» الحال السياسى فى إيران.

[٥] لم يحسن المحافظون قراءة هذه الظروف، التى كان يمكن أن توفر لهم انتصاراً «نظيفاً»، إذا جاز التعبير، فلم يستثمروا التفاعلات السياسية لصالحهم، ولم ينجحوا فى أن يقدموا أنفسهم باعتبارهم المنقذ الحريص على الوحدة الوطنية فى الظروف الدقيقة والحرجة التى تمر بها البلاد. فيقودون حملة الاستنفار عبر احتواء الآخرين وحشد طاقات الجميع فى مواجهة التحدى المطروح، بصرف النظر عن أية خلفيات أو قرارات سياسية. آية ذلك أنهم فى المرحلة التى سبقت الانتخابات على الأقل، بدوا كقوة حزبية مصرة على إقصاء الإصلاحيين والحيلولة دون تمكينهم من المشاركة فى الانتخابات، فى حين كان المأمول أن يقدموا أنفسهم بحسبانهم قوة دفع تريد أن تحشد طاقات الأمة الحية لإنقاذ الوطن مما يتهدده. وفرق كبير من الناحيتين السياسية والتاريخية بين تكتل حزبى متلهف على استعادة السلطة والإطاحة بخصمه بأى ثمن، وبين قوة وطنية لا يشغلها إلا التحدى الأكبر المتمثل فى إنقاذ الوطن وتأمين مسيرته.

كانت المذبحة التى أجراها مجلس صيانة الدستور تجسيداً لغلبة منطق الإقصاء والحذف على أسلوب الاحتشاد والإضافة. فقد اعترض المجلس على ٣٦٠٥ مرشحين من أصل ٨١٥٦ قدموا طلبات الترشيح. ومن بين الذين اعترض عليهم المجلس ٨٢ عضواً فى مجلس الشورى الحالى (ارتفع العدد إلى ٨٧ لاحقاً) وهؤلاء كانوا على رأس الناشطين فى جبهة المشاركة، الذين تحدوا فى المجلس سلطان المحافظين طول الوقت.

حدثت الأصداء المعروفة التى تابعتها الصحف والفضائيات طيلة الأسابيع الماضية، من الاعتصام داخل مجلس الشورى، إلى استقالة ١٣٠ من أعضائه، إلى محاولة المرشد تخفيف هذه الأزمة ودعوته للمجلس بأن يعيد النظر فى قائمة الأسماء المحجوبة. لكن ذلك لم يحدث تغييراً جوهرياً فى الموقف، لأن الهاجس الأساسى لأركان مجلس «الصيانة» كان إزاحة رموز الإصلاحيين وإخراجهم من المشهد السياسى.

أستأذن هنا فى استطراد سريع خلاصته أن الدستور لم يعط مجلس صيانة الدستور حق حذف أسماء المرشحين أو فرض الوصاية على مشاركتهم، حيث تنص المادة ٩٩ منه على تولى المجلس «الإشراف» على الانتخابات، التى يفهم منها أن المقصود هو التحقق من سلامة إجراءاتها وضمان نزاهتها، ولكن المجلس وسع فى دائرة «الإشراف» حتى أدخل فى إطاره عنوة مسألة تحديد صلاحية المرشحين، وإجازة أناس وحجب آخرين. علماً بأن وزارة الداخلية هى الجهة المعنية أصلاً بتحديد مدى الصلاحية من خلال مراجعة السجل المدنى لكل شخص. وقد تجاوز المجلس هذه الحدود، وأعطى لنفسه الحق فى تقييم الصلاحية السياسية لكل مرشح. دمر تأويل النص على ذلك النحو حتى غدا تكريساً للوصاية على المجتمع وبسطاً لسلطان الولى الفقيه على مسار الانتخابات النيابية.

[٦] مثلما أن الأمريكيين حاولوا تشجيع الإصلاحيين فكانت النتيجة أنهم أضعفوا مركزهم، فإن المحافظين حينما حاولوا توجيه ضربة قاضية إلى الإصلاحيين بحجب رموزهم عن الترشيح، فإنهم قووا مركزهم نسبياً ورفعوا من أسهمهم فى الشارع الإيرانى.

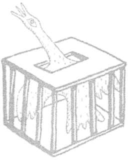
لم يكن المحافظون بحاجة إلى الإقدام على «المذبحة». فهم، كما قلنا، لايزالون يملكون من عناصر القوة ما يمكنهم من تطويق الإصلاحيين وتكبيلهم دون إراقة أى «دماء»، كما حدث منذ انتخاب السيد خاتمى رئيساً للجمهورية. كما أنهم لو تعاملوا مع قوائم المرشحين بدرجة أكبر من التسامح وسعة الصدر، فأغلب الظن أن الإصلاحيين كانوا سيشاركون وهم مشتتون وموزعون على عدة قوائم، كما حدث فى انتخابات البلديات. وتلك أجواء من شأنها أن توفر للمحافظين فرصة أكبر للفوز. خصوصاً إذا أضفنا إليها الظروف الأخرى المواتية، التى سبقت الإشارة إليها. لكنهم تسرعوا وفعلوا ما فعلوه متأثرين بالرغبة فى تصفية الحساب، فأثاروا تعاطف المجتمع مع الإصلاحيين الذين أصبحوا فى موقع «الضحية»، الأمر الذى يستدعى إلى الذاكرة العبارة التى استخدمها السيد خاتمى فى لافتات انتخابات عام ٩٧، ودغدغت مشاعر كثيرين، تلك التى وصفته بأنه «سيد مظلوم». أى أنه وهو من «الأشراف» المنسوبين إلى سلالة النبى عليه الصلاة والسلام، يعانى من مظلومية أهل البيت، سيراً على درب الإمام الحسين.

ولأنهم فى الانتخابات قدموا بحسبانهم ضحايا، فقد كان ذلك مسوغاً لتبرئة ذمتهم أمام المجتمع فيما عجزوا عن الوفاء به من عهودهم، حيث رآهم الناس فى المشهد الأخير وهم مكبلو الأيدى ومهيضو الجناح، ويعانون من استحقاقات المظلومية، وتلك نقطة لصالحهم لا ريب.

غير أن الإقصاء الذى تم له صدى آخر يخشى من عواقبه فى المستقبل، يتمثل فى تعميق الاستقطاب بين الجناحين. إذ لا شك أنه عمق من الجرح فى الجانب الإصلاحى وباعد بينهم وبين المحافظين على نحو لا يخدم التماسك المطلوب للصف الوطنى فى المرحلة المقبلة. بل لعلى لا أبالغ إذا قلت أن من شأن ما جرى أن يغذى التطرف على الجانبين. فغلاة الإصلاحيين سيرون فيه دليلاً على عجز النظام عن احتمال استحقاقات الممارسة الديمقراطية، الأمر الذى يدفعهم إلى معاندته والإصرار على المطالبة بتغيير قواعد اللعبة السياسية، بما فى ذلك صلاحيات الولى الفقيه وعلاقة الفقهاء بالسلطة أو علاقة الدين بالدولة. أما غلاة المحافظين فقد يرون فيما أنجزوه مشجعاً على احتكار السلطة وحافزاً على التفرد بها، عن طريق ملاحقة الإصلاحيين فى مظانهم، والانتقال من الإقصاء إلى الاستئصال.

[٧] ثمة ملاحظات أخرى يتعين وضعها فى الاعتبار على المشهد الانتخابى فى إيران، هى:

❖ إن المحافظين فى سعيهم إلى الإقصاء لم يوجهوا سهامهم صوب كل فصائل التيار الإصلاحى، ولكنهم ركزوا على حجب جميع مرشحى «جبهة المشاركة» ومنظمة «مجاهدى الثورة الإسلامية». وعلى رأس رموز الجبهة المستبعدين أمينها العام السيد محمد رضا خاتمى شقيق الرئيس. ومحسن ميردمادى رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشورى. وفى مقدمة الذين استبعدوا من قيادات منظمة المجاهدين بهزاد نبوى ومحسن أرماد. (جميعهم أعضاء فى المجلس الحالى).

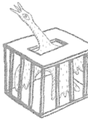


كان واضحاً طوال فترة الشد والجذب التى شهدتها الأسابيع التى سبقت الانتخابات أن الرئيس خاتمى حريص على عدم تفجير الموقف مع المحافظين والوصول معهم إلى مرحلة كسر العظم

وبدا أن مجلس صيانة الدستور أبدى مرونة أفضل حيال المرشحين المنتمين إلى تجمع «علماء الدين المناضلين» الذى يقوده الرئيس خاتمى، ويتولى أمانته العامة الشيخ مصطفى كروبى رئيس مجلس الشورى الحالى. وحزب «كوادر البناء» القريب من الرئيس السابق هاشمى رفسنجانى. (كان المحافظون قد قاموا بإقصاء وتصفية بعض أركان الحزب فى السابق) وهو ما يسوغ لنا أن نقول بأن المحافظين أرادوا إضعاف المعسكر الإصلاحى عبر إقصاء بعض فصائله، حتى الآن على الأقل.

❖ كان واضحاً طوال فترة الشد والجذب التى شهدتها الأسابيع التى سبقت الانتخابات أن الرئيس خاتمى حريص على عدم تفجير الموقف مع المحافظين والوصول معهم إلى مرحلة كسر العظم. رغم أنه لم يكف عن انتقادهم. كما أن الشيخ رفسنجانى وجماعته (كوادر البناء) احتفظوا لأنفسهم بمسافة إزاء جبهة المشاركة، محتفظين فى ذلك بموقعهم على يمين الإصلاحيين، وهم الذين كانوا فى السابق على يسار المحافظين.

كان السيد خاتمى حكيماً حينما انحنى للعاصفة وتراجع عن فكرة الاستقالة ولم يتمسك بمطلب تأجيل الانتخابات. وهو بذلك جنب البلاد خطرين، أحدهما احتمالات الفوضى التى يمكن أن تنشأ عن تصعيد التوتر بين التيارين الإصلاحى والمحافظ، والتى سيكون الشارع طرفاً فيها على الأرجح. وهى فوضى لابد أن تصب فى صالح الذين يريدون إسقاط النظام الإسلامى خصوصاً أولئك الواقفين الذين ينتظرون على أبوابه. أما الخطر الثانى فيتمثل فى احتمال «عسكرة النظام» الذى لوح به المحافظون فى حال إصرار الإصلاحيين على تأجيل الانتخابات، وهو ما أشارت إليه صحيفة «جمهورى إسلامى» المحافظة، التى ذكرت أنه فى حالة امتناع الحكومة عن إجراء الانتخابات فى موعدها المقرر (٢٠ فبراير) فإن هناك بدائل أخرى مطروحة لإجرائها. وكانت تلك البدائل محصورة فى تولى حرس الثورة و«الباسيج» مباشرة العملية والإشراف على إجراء الانتخابات.



❖ ظهر السيد خاتمي بمظهر رجل الدولة وبدا ومعه الشيخ مصطفى كروبي مستعدين للتضحية بمصلحة جماعتهما في مقابل الحفاظ على المصلحة العليا للوطن، في حين أن قادة المحافظين قدموا مصلحة جماعتهم على تلك المصالح العليا. وتلك نقطة تحسب عليهم لا ريب. ليس ذلك فحسب، وإنما أحسب أن مجلس صيانة الدستور وإن بدا أنه خرج منتصراً في المواجهة، إلا أنه خسر ثقة كثيرين فيه على نحو يجرح عدالته، بعدما بدا غير محايد في الأزمة، ومغلباً للهوى السياسي في قراراته التي تتعلق بمستقبل البلد ومصيره.

[٨] هذه الخلفيات كان لها صداها في التصويت على عضوية مجلس الشورى..

حدث ما كان متوقعاً حين أجريت الانتخابات وتم فرز الأصوات، حيث فاز المحافظون بنسبة عالية وفرت لهم أغلبية مريحة في مجلس الشورى (حتى موعد طبع المجلة كان قد أعلن عن فوزهم بـ ١٤٩ من ٢٩٠)، في حين حصد الإصلاحيون والمستقلون ٦٥ مقعداً (بنسبة ٢٢,٤٪).

ومع اطمئنانهم إلى النتيجة بدأ الحديث في طهران عن بروز «المحافظين الجدد»، وهو عنوان بدا موحياً بأن هناك جيلاً من المحافظين مختلفاً عن الصورة النمطية الشائعة عنهم، سمته الأساسية أنهم خليط من أهل الاعتدال وأهل الخبرة (التكنوقراط). وسواء كان ذلك وصفاً حقيقياً أم أنه مجرد محاولة لطمأنة الجميع وكسب تعاطفهم، خصوصاً أن ثمة جولة انتخابية أخرى في العام القادم يتطلع المحافظون إلى كسبها، بعد انتهاء الولاية الثانية للرئيس محمد خاتمي، لكي تتم لهم الهيمنة الكاملة على مختلف سلطات ومؤسسات الدولة. أياً كان الأمر فالشاهد أن المحافظين أصبحوا مضطرين إلى تبني العديد من عناوين الخطاب الإصلاحي، لتغيير الصورة النمطية التي استقرت عنهم في الإدراك العام، داخل إيران وخارجها. وقد لوحظ في هذا الصدد أن أحد أبرز رموزهم، الدكتور حداد عادل، المرشح لرئاسة مجلس الشورى، تحدث إلى وسائل الإعلام بعد فوزه بأعلى الأصوات في طهران قائلاً: أن ما يشغله هو وزملاءه هو تحقيق التنمية الاقتصادية وحل المشاكل المعيشية للناس، مشيراً في هذا الصدد إلى أمله في أن تصبح إيران بمثابة «يابان إسلامية».

من الملاحظات الأخرى المهمة أن نسبة التصويت في الانتخابات كانت في حدود ٥٠٪ (أي نصف عدد الناخبين الإيرانيين البالغ عددهم ٤٦ مليون شخص). ولأن هذه النسبة غير معهودة في انتخابات بهذه الأهمية في الجمهورية الإسلامية، فإنها تعني أن على المحافظين أن يبذلوا جهداً أكبر لكسب ثقة الشارع الإيراني وتأييده. وسيكون موقفهم من الحريات العامة حاسماً في تعزيز تلك الثقة أو تراجعها. يتصل بذلك موقفهم من التيار الإصلاحي، وما إذا كانوا سيعمدون إلى الإطاحة به أو التعاون مع بعض أجنحته، على الأقل تلك التي لم تقاطع الانتخابات. وهو ما سيبينه موقف مجلس الشورى المنتخب في حكومة السيد خاتمي، حيث يتعين على الطرفين أن يتعايشا معاً لمدة ثمانية أشهر على الأقل، حتى يحين موعد الانتخابات الرئاسية القادمة. وتجربة هذه الأشهر هي التي ستحدد لنا إلى حد كبير ما إذا كانت نتيجة الانتخابات بمثابة تداول للسلطة أم انقلاب على النهج الإصلاحي برمته.

السيناريو الأسوأ هو أن يعمد المتطرفون من المحافظين إلى استئصال الإصلاحيين، متشجعين في ذلك بالأغلبية التي حصلوا عليها في الانتخابات، وأن يعمد المتطرفون من الإصلاحيين إلى تحدي النظام بأسره متشجعين بغواية المساندة الخارجية لهم. وفي كل الأحوال فإن الموقعة الانتخابية التي شهدتها البلاد ستظل نقطة فارقة في مسيرة الجمهورية الإسلامية، ومنعطفاً يقودها إلى واحد من طريقين «السلامة» عنوان الأول و«الندامة» عنوان الثاني. وأحسب أن انتظارنا لن يطول حتى يأتينا الخبر اليقين. ■

كتـــاب الزاويـــة

مذكرات الأميرة جويدان

١ - زوجة الخديوي عباس الثاني

تولى الخديوي عباس حلمي الثاني حكم مصر عام ١٨٩٢ بعد وفاة والده الخديوي توفيق في ذروة نفوذ اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر والحاكم الفعلي للبلاد آنذاك.

شهد عصر عباس حلمي بوادر تشكل صورة مصر الحديثة من خلال ظهور الأحزاب وقبل ذلك صدور صحف مهدت لقيام هذه الأحزاب. كما أن زعامات وطنية ذات وزن وقيمة برزت في تلك الفترة وفي مقدمتها مصطفى كامل ومحمد فريد وعلي يوسف وأحمد لطفي السيد.

وقد كتب مؤرخون وباحثون مؤلفات عديدة عن تلك الفترة الثرية من تاريخ مصر، إلا أن مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوي عباس حلمي تحمل نكهة خاصة باعتبار أنه من النادر للغاية أن تكتب زوجة حاكم مصري في ذلك الزمن مذكراتها كما أنها أي الأميرة جويدان لم تقتصر في تلك المذكرات على النواحي السياسية بل تناولت قضايا اجتماعية عديدة كالحريم والمرأة وحفلات الأعراس وغيرها من الأمور التي تكاد تكون قد اندثرت حالياً. وتبدو الأميرة جويدان في مذكراتها سيدة طيبة خيرة متدينة وهي تتحدث عن عقلية زوجها التجارية واهتمامه بالمال والتجارة وتنمية ثروته أكثر من أي شيء آخر.

وقد أعادت دار الهلال إصدار هذه المذكرات في أغسطس عام ١٩٨٠ بمقدمة طويلة للأستاذ سعد رضوان.

الكتلة الحرجة.. وصناعة التفوق

لم يعد كافيًا أن نُعلّم أولادنا مواجهة المشاكل التى تتصل بالماضى الذى تعودنا عليه، أو بالحاضر القريب الذى نعيشه حتى الآن. إنما مسئوليتنا هى أن نعدهم لنوعية من المشاكل نحن لم نقابلها فى حياتنا ولم نتعود على حلها فلم تكن لدينا طريقة لقياسها أو التعامل معها وعلينا أن نتصورها علميًا أو نحلم بها فى بعض الأحيان ثم علينا أن نستخدم كل قدرتنا فى محاولة تسليح أبنائنا بالقدرات اللازمة لحل هذه المشاكل.. وهناك مقولة للإمام على يقول فيها «لا تُطبِعوا أولادكم بطباعكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم».. فمسئوليتنا أن نعد أولادنا لزمن غير زمننا.

الطـــالب:

لقد أصبح من الواضح جداً أن نوعية التعليم المطلوبة للقرن الحالى أو للموجة الثالثة هى التعليم للمستوى الثالث. وربما لا يكفى هذا التعليم أيضاً بل يجب أن يعقبه تدريب مستمر مدى الحياة، وإذا كان الإنسان سيغير مهنته من ثلاث إلى أربع مرات فى العمر فهذا معناه أنه يجب أن تكون لديه قاعدة عريضة جداً من الخبرات والقدرات. وتكون عنده القدرة على التكيف والانتقال من تخصص إلى تخصص آخر.. هنا يختلف النظام التعليمى عما تعودنا عليه.. لقد كنا نناقش فى المؤتمر العالمى الذى دعى إليه «جون تيبل» مبدأ التعليم الأساسى الذى كان يعنى التعليم الإبتدائى.. وقمنا بمده إلى التعليم الإعدادى.. أما الآن فهل التعليم الأساسى سيكون هو التعليم قبل الجامعى؟ وهل التعليم الجامعى سيكون جزءاً من التعليم الأساسى؟ لقد ذكر «كلينتون» هذا الكلام وكذلك قاله «شيمون بيريز» عام ١٩٩٥.. وهل شكل المدرسة سيظل كما هو موجود حاليًا مع تطور الإنترنت والتقدم فى ثورة الاتصالات والإلكترونيات والكمبيوتر؟ هل أصبح دور المدرس نفس الدور؟ كل هذه أسئلة بعضها نستطيع بشىء من الجهد أن نتوصل لإجابة له وأغلبها مازال فى علم الغيب.

لقد أصبح من المستحيل أن نحمّل أبناءنا خزائن المعلومات المتاحة لهم فهذا فوق قدرة أى بشر، وأصبح الخيار الأوحد هو أن نسلحهم بمفاتيح هذه الخزائن فقط، وأن نعلمهم طريقة استخلاص المعلومات وطريقة تنظيمها وطريقة توظيفها. هذا هو الخيار المطروح إذ يتعين علينا أن نفكر بمنطق التنمية وهو منطق الجودة الشاملة وليس



بمنطق التعبئة وهو منطق التغيير الكمى فقط. لذلك فلابد من إحداث ثورة فى مفاهيم وأطر التعليم بالنسبة للهيكل التعليمى وبرامجه وأساليب أدائه فى الاتجاه الذى ننشده لبناء نسيج الجيل الجديد.

ويجب التركيز على مشروع المدارس المنتجة كإحدى الوسائل المهمة لإرساء منطق التنمية فى التعليم خاصة فى المدارس الإعدادية، ولعمل مشروعات صغيرة مرتبطة بالبيئة والمجتمع المحيط تركز على الأفكار الجديدة، والنماذج غير النمطية. ومشروع المدارس المنتجة مشروع تربوى بالدرجة الأولى يدعم أهداف العملية التعليمية ولا يُنقص من دور المدرسة الأساسى فى التعليم. وتلك المشروعات الصغيرة تعمل على رأب الصدع والقضاء على الفجوة بين التعليم الأكاديمى وارتباطه بسوق العمل وتسليح أبنائنا بالخبرات العملية التى تمكنهم من العمل كطلائع للإنتاج. بالإضافة إلى جانب كبير من الفوائد كقدرة الطالب على ممارسة التسويق والتفاوض، ودراسة السوق، وعلى تدعيم ثقة الطالب بنفسه. وهذه الثقة قد لا يستطيع التعليم النظرى تحقيقها. وبهذا تستطيع المدرسة المنتجة أن تتيح الفرصة للطالب أن يكتسب مهارات رجل الأعمال ويعمل كتاجر صغير أو منتج صغير يعرف كيفية تقصى آراء وأذواق المستهلكين، والتعامل مع الموارد، ويتعرف من خلال التجربة العملية على مشكلات السوق ويكتسب مهارات أساسية للعمل كإدارة الوقت، والتفاوض، والتخطيط الجيد، وإعداد الخطابات والتكلفة الاقتصادية، ودراسة الجدوى للمشروع، وأساليب القيادة والتأثير على الآخرين، وتقدير جهدهم، مما يعطى للطالب خبرات التعليم المستمر والقدرة على المشاركة الفعالة فى الحياة فى مرحلة مبكرة، ويساعد فى تحول نظرته للوظيفة الحكومية كهدف نهائى للتعليم، والنظر إلى آفاق مستقبلية أوسع لطموحاته، واستخدام أفضل لإمكانياته وموارده الذاتية. فمن الممكن أن يدلى طفل صغير من أبنائنا بفكرة متميزة ويكون لها تطبيقات صناعية واقتصادية تفيد الوطن كله. إننا فى حاجة إلى الإنسان المنتج الذى يستطيع أن يساهم فى التقدم الاقتصادى لمجتمعه خاصة أن التقدم الاقتصادى هو عصب الحياة والوسيلة الوحيدة لتوفير كل متطلبات النهضة فى أى دولة، وهو المصدر الأساسى لتمويل التعليم ذاته لذلك يجب أن نعزز قدرة المجتمع على التعلم الذاتى والإعداد السليم للمواطنة والتدريب المتميز ليكون منتجاً وعلى مستوى عال من القدرات والخبرات.

المعـــلم..

إننا اليوم فى إطار الموجة الثالثة نريد إنساناً مبدعاً، فنحن نريد مدرساً من نوعية مختلفة.. مدرساً وظيفته ليست هى الناقل ولا الملقن للمعرفة بل الوسيط النشط والمنسق والمحفز لهم ومديراً للحوار الذى يستنهض به همم الطلاب، والذى يرعى مواهبهم، ويتيح لهم القدرة على النقد البناء والحوار الجاد والاختلاف فى الرأى. ولكن كيف يمكن للمدرس الذى تربى على غير هذه المفاهيم أن يقوم بهذا الدور الجديد؟ مهمة صعبة جداً وتحتاج إلى جهد كبير ووقت حتى نستطيع أن نحققها.. ولا بديل عن تحقيقها لأن هذا القرن ليس فى حاجة إلى موظفين أو لعمال على خطوط إنتاج ثابتة.. فخطوط الإنتاج لم تعد ثابتة والعامل التقليدى لا وجود له. ولابد من إنسان قادر على التعامل مع الرياضيات والكمبيوتر والوسائط المتعددة واللغات، ولديه قدرة على اتخاذ القرار. وهذه نوعية مختلفة تماماً عن النوعية التى كان يخرجها النظام التعليمى القائم. لذلك فلابد من تغيير أفكار المعلمين وسلوكياتهم وخبراتهم.. وطريقة إعدادهم وتدريبهم تدريباً جيداً بحيث يتم إعدادهم لمهام ومسئوليات جديدة ومتغيرة لأننا لا نستطيع أن نستغنى عنهم ونستورد غيرهم. وهذا يستلزم العمل على التوفيق بين اعتبارات العولمة ومتطلباتها وتعميق المشاركة الديمقراطية. وهى شعار العصر. داخل المؤسسة التعليمية. لأن المناخ الديمقراطى يساعد على إظهار المواهب والإبداع. والمحافظة فى نفس الوقت على قيمنا الأصيلة التى نتمتع بها من تماسك اجتماعى. وروح الأسرة. والانتماء. والولاء. مع الاهتمام برموز الأمة تاريخيًا كقدوة لأبنائنا. ومن هنا كانت أهمية التدريب كوسيلة لتطبيق هذا التغيير فى أفكار وسلوك المعلمين. وابتعاثهم إلى دول العالم المتقدمة. ليمثلوا بعد عودتهم ما يعرف فى العلم بالكتلة الحرجة. وهى بداية تغير كيفى تنطلق منه طاقة إشعاع وتنشأ على الفور تغيرات نوعية خطيرة فى نمط العمل وتعطى قوة دفع هائلة كما يحدث فى الطاقة النووية لمواكبة الثورات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية وثورة الاتصالات الهائلة التى تحدث فى العالم اليوم.

ويجب أن يتوافر فى أفراد الكتلة الحرجة الإصرار والمثابرة والبُعد عن الروتين الحكومى. فالكتلة الحرجة تدربوا على مخاطبة الرأى العام وكيفية التأثير على الآخرين. وهم يملكون خبرات ومهارات يجب استعمالها بدون الروتين الحكومى، ويجب أن يعتبر كل فرد منهم نفسه مسئولاً عن هذه المؤسسة.. مسئولاً عن توضيح الحقائق. والرد على المغالطات. إن هذه القوة الضاربة تستطيع أن تُحدث تأثيراً كبيراً فى الرأى العام وتشكله خصوصاً إذا تحرينا الدقة والصدق فيما نقوله. وهذا يستلزم العمل بروح الفريق ومساندة مسيرة التعليم المتنامية من قبل التربويين منظرين وممارسين ميدانيين، وتكوين لوبى مستنير من المهتمين بالشأن العام لتوضيح وتفسير وتصحيح ما استغلق فهمه من أمور التعليم.

ليس أمامنا إلا خيار واحد.. أن نجعل هذا الوطن كتلة حرجة تستطيع أن تغير وجه الحياة على أرض مصر، وأن نجعل من هذه الأرض الطيبة كنانة الله فى أرضه وواحة وحصناً للأمان، وساحة للعلم والفن، وملتقى للثقافات والأفكار.

من كتاب: مفترق الطرق
حسين كامل بهاء الدين
القاهرة: دار المعارف ٢٠٠٣

التضليل بالأرقام وبوسائل أخرى!

جلال أمين

لم يكن من الممكن لمن لم يعجبه التقرير الأول عن «التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢»، أن يعجبه التقرير الثاني الذي صدر منذ أسابيع قليلة بعنوان: «التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣: نحو إقامة مجتمع المعرفة». فالهيئة التي يصدر عنها التقرير هي هي: (برنامج الأمم المتحدة للإنماء)، ومصادر التمويل واحدة، والمشرفون الرئيسيون والنهائيون عن التقرير هم هم لم يتغيروا، والهدف الأساسي من إصداره، في رأيي، واحد لم يتغير، وطريقة إعداده وإخراجه لم تتغير أيضاً.

قد يقال إن الانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى التقرير الأول ربما دفعت معدّي التقرير إلى محاولة تلافيها في التقرير الثاني. ولكني بصراحة لم أتوقع هذا. لابد أن هذه الانتقادات قد ضايقت أصحاب هذا التقرير، ولكن الدوافع والأسباب التي تجعلهم يقعون في نفس الأخطاء مرة أخرى أقوى وأشد. لا بأس من التظاهر بمحاولة تجنب هذه العيوب، ذراً للرماد في الأعين، ولكن كيف يجرى أي إصلاح حقيقي في ظل نفس الهدف ونفس طريقة العمل؟ خاصة أن الهيئة التي يصدر عنها التقرير حريصة فيما يظهر على أن يخرج التقرير الثاني في موعده، وإلا يتأخر لحظة. فوسائل الإعلام تنتظر، والدنيا كلها مستعدة لاستقبال الحلقة الثانية من مسلسل التشهير بالعرب.

لابد أن واضعي التقرير الثاني قد قابلتهم بعض الصعاب، ولكن ذكاءهم كان يمدهم دائماً بطريقة للتغلب عليها. هناك مثلاً النقد القاسي الذي واجهوه بأن التقرير الأول، وقد صدر بعد نحو تسعة أشهر من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كان رحيماً أكثر من اللازم في كلامه عن الأمريكيين والإسرائيليين، ولم يحملهم بدرجة كافية المسئولية عن سوء الأداء العربي في مختلف المجالات، بل اكتفى بإشارة سريعة في مقدمة التقرير إلى بعض الآثار السلبية للاحتلال الإسرائيلي (مؤكداً مع ذلك، حتى في هذا الصدد، على مسئولية العرب، الذين «استغلوا» المشكلة الفلسطينية لصرف النظر عن أخطائهم)، وتغاضى تغاضياً كاملاً عن مسئولية الدول الكبرى عن تورط الحكومات العربية في بعض السياسات الاقتصادية الخرقاء. كان لابد من مواجهة هذا النقد، ومحاولة تجنب تكرار توجيهه للتقرير الثاني، فما أفضل طريقة لذلك، دون المساس بالهدف الأساسي الكامن وراء هذه التقارير كلها؟

اهتدى واضعو التقرير إلى الحل التالي: فلنخصص بضع صفحات في الفصل الأول من التقرير لشجب «الاحتلال الإسرائيلي»، وكذلك «احتلال العراق، في فصل بعنوان (تطورات التنمية الإنسانية في البلدان العربية منذ عام ٢٠٠١) ولا بأس من أن يستغرق هذا وذاك ست أو سبع صفحات من التقرير، على أن ينسى الأمر بأكمله في بقية التقرير، ويتفرغ التقرير لمهمته الرئيسية.

فمن المفيد مثلاً أن توضع فقرة يصب فيها أصحاب التقرير غضبهم على تحميل الغير مسئولية أخطاء ارتكبها العرب أنفسهم، فتقول: «إن المغالاة في تقدير مدى إعاقة التحديات الإقليمية والعالمية للتنمية في البلدان العربية ليست مسلكاً إيجابياً مفيداً، بل هي مسلك هروبي في المقام الأول، مريح للنفس المكدودة ولكنه شديد الخطر. إنه ينطوي على تكريس قعود الهمة ووهن القدرة، كما يعمي الأبصار عن مهمة الإصلاح الذاتي» (ص٢١،٢٢) كما يراعي التقرير منتهى الحذر في الحديث عن آثار الأعمال الإسرائيلية والأمريكية. فعند التعرض لآثار الأعمال الإسرائيلية على العرب يُفضل التركيز على «التكلفة الإنسانية للاحتلال الإسرائيلي» التي لابد أن يتحرك لها أي قلب رحيم، وعند الكلام عن الهجوم الأمريكي البريطاني على العراق يُستحسن أن يشار إلى ذلك «بالتحالف»، ولا بأس من الإشارة إلى أن «أوخم العواقب غير المباشرة للحرب الأمريكية على «الإرهاب» أن السلطة في بعض البلدان العربية وجدت مبرراً آخر للتضييق مجدداً على الحريات» (ص ٢٣) فتوضع كلمة «الإرهاب» بدلاً من «العراق» ويؤكد على مسئولية العرب حتى عن آثار هذا الهجوم الأمريكي إذ وجدوا فيه «مبرراً» لتضييق الحريات.

على أي حال بعد هذه الصفحات القليلة التي يُرجى أن تُنسى بسرعة، يتفرغ التقرير لمهمة تقريع العرب وتوبيخهم وبيان خطاياهم في مجال خطير هذه المرة، وهو مجال «المعرفة». وهنا يختفي الإسرائيليون والأمريكيون اختفاءً تاماً ولا يبقى لتحمل المسئولية إلا العرب أنفسهم.

لجأ أصحاب التقرير أيضاً إلى حيلة أخرى، استخدموها في التقرير الأول ولكن اكتشفوا أهميتها البالغة في التقرير الثاني. وهي استخدام أسماء عدد من الشخصيات العربية اللامعة والمرموقة، والتي تتمتع باحترام عام لدى المثقفين العرب، وإدخالهم «كمشاركين في إعداد التقرير». فهناك أولاً «الفريق الاستشاري»، الذي يضم ٢٣ اسماً بعضها لألمع المثقفين والمفكرين العرب، وهناك «الفريق المركزي» الذي يضم، إلى جانب الرئيس، أربعة أسماء مرموقة، وهناك «المؤلفون المشاركون (معدو الأوراق الخلفية)»، ويضم ٣٥ شخصاً يكادون أن يكونوا جميعاً من ألمع المفكرين والمثقفين العرب، الذين لا يمكن أن يشك أحد في إخلاصهم لقضية الإصلاح والنهضة العربية. إلى جانب هؤلاء هناك فريقان يسميان «فريق القراء للنسخة العربية»، و«فريق القراء للنسخة الإنجليزية»، وهما الفريقان اللذان يعرض عليهما التقرير في إحدى مراحله النهائية (أو يفترض أن يعرض عليهما) لإبداء الملاحظات الختامية عليه أو إقراره. ويضم الفريق الأول ثمانية أسماء عربية مرموقة، ويضم الثاني ثمانية أسماء أخرى معظمها لخبراء أجانب، وإلى جانب هؤلاء جميعاً هناك مساهمون من العاملين ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومكتب الأمم المتحدة لخدمات المشاريع وفريق يسمى «فريق التحرير» وفريق الترجمة.

لا يجب أن نمر بهذه الحقيقة مرّ الكرام، فكثرة المشاركين في التقرير وتنوع مسئولياتهم وتوزيع اختصاصاتهم على هذا النحو كان له بلا شك أثر مهم للغاية على المنتج النهائي. وأرجو من القارئ أن يعود بذاكرته ٦٥ عاماً إلى الوراء عندما

يتفرغ التقرير لمهمة تقريع العرب وتوبيخهم وبيان خطاياهم في مجال خطير هو مجال «المعرفة». وهنا يختفي الإسرائيليون والأمريكيون اختفاءً تاماً ولا يبقى لتحمل المسئولية إلا العرب أنفسهم

تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣:
نحو إقامة مجتمع المعرفة
برنامج الأمم المتحدة للإنماء، ٢٠٢ صفحة

نشر طه حسين كتابه الشهير «مستقبل الثقافة فى مصر» لمناقشة نفس القضية التى يناقشها هذا التقرير «نحو إقامة مجتمع المعرفة»، فقدم لنا كتاباً لا يحمل إلا اسمه، يتحمل هو وحده مسئوليته ويتمتع فيه بمنتهى الحرية فى تحديد ما يقول وما لا يقول، وطريقة قول ما يريد قوله، ولم يدفعه إلى كتابته إلا دافع من نفسه، فلم تطلب منه ذلك هيئة دولية أو «برنامج للإنماء». وعندما كان طه حسين يكتب صفحة من هذا الكتاب كان يعرف أن هذه الصفحة ستظهر كما هى فى الكتاب، وليست مجرد صفحة من «ورقة خلفية»، من سلطة رئيس الفريق المركزى أن يبقيها أو يحذفها أو يعدلها، دون أن يكون هذا الرئيس مضطراً لاستشارة صاحبها والحصول على إذنه على الحذف أو التعديل.

وفوق كل هذا كان الكاتب فى حالة «مستقبل الثقافة فى مصر»، ليس فقط رجلاً مرموقاً ومعترفاً بفضله بل كان أيضاً رجلاً يعترف الجميع بأنه مفكر وصاحب موقف، قد نختلف معه ولكن موقفه واضح ولا يختفى وراء عبارات مبهمة، بعضها مبهم لأنه مترجم من لغة أجنبية، وبعضها مبهم لأن كاتبها يتعمد الإبهام.

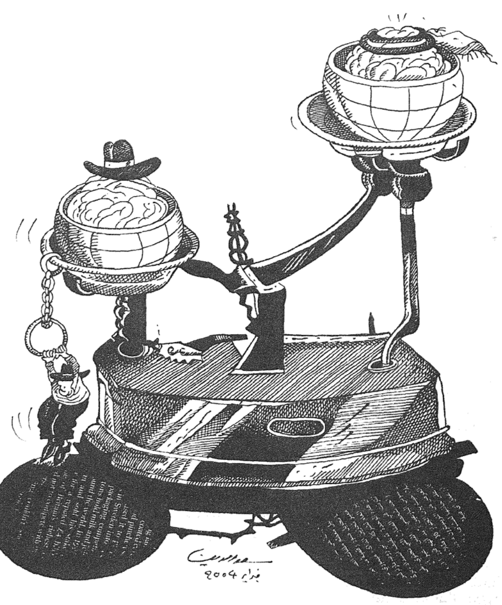
كم تغيرت الدنيا فى هذه العقود السبعة الماضية! فآلت مسئولية إصلاح أحوال الثقافة والتعليم والمعرفة فى البلاد العربية إلى هيئة لها اسم غريب هو «برنامج الأمم المتحدة للإنماء»، أهدافها مستوحاة من خارج المنطقة العربية، ولكنها لا تصرح بهذه الأهداف وإنما تتظاهر بعكسها. وفى سبيل ذلك تعهد بأداء المهمة إلى مجموعة من العرب المرموقين يرأسهم «فريق مركزى»، يقوم بتكليف كتاب ذوى مشارب متفرقة ومتعارضة أشد التعارض، ففيهم اليسارى واليمينى، المؤيد بشدة للهجوم الأمريكى والمعارض بشدة، الأكاديمى المسالم والسياسى النشط، الغاضب غضباً شديداً على ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين والمؤيد بشدة لأى مشروع للتصالح معها، الموسوعى واسع الأفق والعالم المتخصص تخصصاً ضيقاً وقليل الصبر على قراءة قصة أو رواية.. إلخ. هؤلاء جميعاً يكلفون بكتابة أوراق خلفية وأمامية، ولكن بشرط واضح وصريح: متى سلموا هذه الأوراق انتهت مهمتهم، ولا يستطيعون مطالبة «الفريق المركزى» بشىء، ولكنهم فى مقابل ذلك يعفون تماماً من المسئولية عن الحالة التى يظهر بها التقرير فى صورته النهائية.

ما نوع التقرير الذى تنتظر أن ينتج فى ظل هذه الترتيبات؟

الإجابة: تقرير من هذا النوع بالضبط، لا طعم له ولا رائحة، موقفه الوحيد هو ما يشتم مما بين السطور، ويستخلص مما سكت عنه أكثر مما يستخلص مما تكلم فيه. وهذا الموقف هو الموقف الذى يرضى عنه «برنامج الأمم المتحدة الإنمائى» بأجندته الخفية، التى لا تجد فى أى مكان تعبيراً صريحاً عنها، ولكنك تستطيع، بل من واجبك، أن تحاول اكتشافها.

إذا كان الأمر كذلك، فعلى من تقع مسئولية هذا التقرير فى الحقيقة؟ هل هى مسئولية الجميع؟ أم مسئولية الفريق المركزى فقط؟ إلى أى مدى يمكن أن نلوم كاتب الأوراق الخلفية إذا أخذ التقرير صفحة من أربعين صفحة مثلاً، كتبها أحد هؤلاء الكتاب، وأعاد أحد «المحررين» أو عضو فى «الفريق المركزى» صياغتها وترك بقية الصفحات؟ من الذى يجب أن يوجه إليه اللوم مثلاً عن خلو تقرير يحمل عنوان «نحو إقامة مجتمع المعرفة» خلواً تاماً من أى إشارة لموضوع علاقة اللغة العربية باللغة الدارجة (باستثناء نصف فقرة تتكون من ١٢ سطراً فى ص ١٢٤ ولا تكاد تمس الموضوع حتى تتركه) ولا أى مناقشة لأثر التوسع فى إنشاء المدارس والجامعات الأجنبية فى البلاد العربية على مكانة اللغة العربية.. إلخ؟

أترك الحكم فى هذا للقارئ، ولكنى لا أستطيع أن





أمنع نفسى من توجيه عتاب لأستاذين كبيرين نعرف جميعًا مساهمتهما المشكورة فى الدفاع عن قضايا العالم الثالث، وهما عضوان من الثمانية أعضاء فى «فريق القراء للنسخة العربية»، ليس فقط لموافقتهما على وضع اسميهما على هذا النحو باعتبارهما من «المشاركين فى إعداد هذا التقرير»، ولكن على الأخص لسماحهما بمرور جزء بعنوان «حماية الحرية النوعية المتمثلة بحرية المعرفة: الملكية الفكرية» (ص١٥٢ . ١٥٤) فهذا الجزء من التقرير يصلح لأن يكون نموذجًا لما تحب الشركات المتعددة الجنسيات نشره بين الرأى العام العربى، إذ لا يحتوى على أى تحفظ أو أى شك حول أثر النصوص الجديدة فى اتفاقيات الجات عن حماية حقوق الملكية الفكرية على التنمية فى العالم الثالث، وكأن كاتبى هذا الجزء من التقرير لم يسمعوا قط عن الشكوى المرة التى عبرت عنها دول العالم الثالث من جراء تطبيق هذه النصوص، وإصرار الشركات الكبرى عليها لتحقيق المزيد من الأرباح على حساب صحة ورفاهية فقراء هذه الدول.

ولكن هذا الجزء المعنون «حماية الحرية النوعية المتمثلة بحرية المعرفة: الملكية الفكرية» (وهو عنوان بالغ الركاكة فى حد ذاته) ينتهى بفقرة غريبة لا يسعنى إلا أن ألفت نظر القارئ إليها، فهى بلا مناسبة تحتوى على تشهير مذهل بالعرب إذ تقول «إن قيم المجتمع العربى اليوم هى قهرية ولا تقيم اعتبارًا للإنسان» (!؟) وتنتهى بالجملة الغريبة التالية «إن هذه المعطيات لا تساعد على رفع التحديات فى هذا الزمن المكثف» (!؟)

بمثل هذه الحيل وفى ظل هذه الترتيبات يمكن أن يتفرغ تقرير التنمية الإنسانية العربية «للتشهير بالعرب»، وفى هذا العام بالذات (٢٠٠٣) يجرى التركيز على أحوال «المعرفة»، بعد أن وضع التقرير الأول الخلفية العامة لمختلف النقائص العربية: فى ميادين الحرية والمعرفة وتمكين المرأة. وكما حدث فى التقرير الأول، يحاول أصحاب هذا التقرير إخفاء تحيزاتهم وراء دخان كثيف من الأرقام، فيستخدمون هذه الأرقام لإظهار العرب فى صورة باعثة على الرثاء أو الاحتقار، إذ تذكر الأرقام بمعزل عن ظروفها ومسبباتها، ويجمع الصالح والطالح فى رقم واحد فيبرز الجانب السلبى على حساب الإيجابى، ولا يميز تمييزًا كافيًا بين أداء بلد عربى وبلد عربى آخر، على أمل أن يطيح الأداء السيئ بالأداء الجيد، ولا تمييز كافيًا بين فترة وأخرى، على أمل أن يخفى ما حدث فى فترة طويلة سيئة، ما يمكن للعرب أن يغفلوه فى ظل ظروف أفضل. وفى جميع الأحوال يمتنع الكلام عن أى ضغط خارجى مارسته دولة أجنبية أو مؤسسة دولية، أو عن المتاعب التى سببتها سياسة الانفتاح، فمثل هذا يعتبر من قبيل «المسلك الهروبى.. المريح للنفس المكدودة ولكنه شديد الخطر». باختصار يسد تقرير التنمية الإنسانية العربية على العرب أى منفذ للهروب، حتى ولو كانت نفوسهم مكدودة جدًا، لكى ينهال عليهم التقرير برقم بعد آخر مما يزيد شعورهم بالكد والنكد.

من ذلك مثلاً ما فعله التقرير السابق من مقارنة الناتج القومى الإجمالى للدول العربية بالناتج القومى الإجمالى لإسبانيا، وقوله إن مجموع الناتج القومى للاثنتين وعشرين دولة عربية هو أقل من الناتج القومى الإجمالى لدولة واحدة هى إسبانيا. وهو قول صحيح ولكن قوله هكذا مجردًا من أى تفسير أو توضيح، ومحاطًا من كل جانب بالانتقادات وذكر النقائص واحدة بعد الأخرى، لا ينطوى على أكثر من عملية إذلال وإهانة للعرب وتقديم سلاح جديد ليستخدمه أعداؤهم للإمعان فى إهانتهم وإذلالهم. وهذا هو ما حدث بالفعل، إذ لم يفت أى شخص من المهتمين بالتشهير بالعرب فى الغرب وفى بلادنا على السواء استخدام هذه المقارنة مع الإشارة إلى أن مصدر هذه المعلومة تقرير كُتب بأيدى عرب مرموقين، ومصادر عن هيئة دولية! لقد اختار كاتبو التقرير إسبانيا بالذات، لأنها دولة لا تقترن فى الذهن بالتقدم الاقتصادى الباهر، ومن ثم فتفوقها على ٢٢ دولة عربية مجتمعة لابد أن ينطوى على إذلال أكبر للعرب. ولكن هذا الانطباع المهين ينطوى أيضًا على قدر كبير من التضليل. فكثرة عدد الدول العربية يستخدم هنا للإيحاء بالعجز رغم الكثرة، مع أن سبعًا من هذه الدول العربية يقل عدد سكانها مجتمعة عن نصف عدد سكان إسبانيا. وزيادة الناتج القومى الإسبانى على الناتج القومى للعرب يستخدم للإيحاء بالقوة والبأس من ناحية إسبانيا، والفشل والضعف من ناحية العرب، مع أن زيادة طفيفة فى سعر النفط يمكن أن تجعل هذه المقارنة لصالح العرب. والعبارة توحى على أى حال بأن هناك شيئًا شاذًا فى العرب جعل دولة واحدة كأسبانيا تتفوق عليهم جميعًا، مع أن نفس المقولة تنطبق أيضًا، وبدرجة أشد درامية ، على دولة كالهند، إذ أن الناتج القومى لأسبانيا، التى لا يزيد عدد سكانها على ٤٠ مليونًا، يزيد على الناتج القومى للهند الذى يبلغ عدد سكانها ٢٥ مرة قدر سكان أسبانيا. ولكن من حسن حظ الهند أن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ليس مشغولاً فى هذه الأيام بالتشهير بالهند، بل يفضل التركيز على العرب.

هذه العملية من التضليل باستخدام الأرقام استمرت بالطبع فى التقرير الثانى، بل ومنذ أول صفحة. ففى أول فقرة من تقديم هذا التقرير بقلم المدير العام لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائى، نقرأ ما يلى:

«كان إصدار تقرير التنمية الإنسانية الأول فى العام الماضى ظاهرة متميزة بكل المقاييس، ويشهد على ذلك استنساخ أكثر من مليون نسخة منه عن الإنترنت.. وبالنظر لما أثاره ومازال يثيره من مساجلات.. يتضح لنا السبب الذى دعا مجلة «تايم» إلى أن تصفه بأنه أهم ما نُشر عام ٢٠٠٢.. ومن هنا فإن دعم ذلك التقرير كان من دواعى اعتزاز برنامج الأمم المتحدة الإنمائى».

نلاحظ أولاً أن الجملة الأولى تستنتج عظمة التقرير الأول وتميزه (بكل المقاييس) من عدد مرات استنساخه عن الإنترنت، ومن قول مجلة «تايم» بأنه أهم ما نُشر فى عام ٢٠٠٢، مع أن أى شخص مهتم بأحوال «المعرفة»، لابد أن يعرف أن عدد قراء مجلة أو جريدة أو كتاب ليس مقياسًا جيدًا لمدى جودتها ولا سببًا كافيًا «لاعتزاز» المرء بها أكثر من اعتزازه بكتاب أو مجلة أقل توزيعًا.

فنحن نعرف طبيعة الصحف والكتب والمجلات التى توزع أكثر من مليون نسخة فى الولايات المتحدة أو أوروبا بالمقارنة بمجلات أو كتب لا توزع أكثر من بضعة آلاف قليلة، إذ يعتمد معظم صحف وكتب النوع الأول على الفضائح أو أخبار الجرائم.

أما اقتطاف مجلة «تايم» بالذات فى وضعها للتقرير بأنه أهم ما نُشر فى عام ٢٠٠٢ فيبدو لأول وهلة عملاً بريئًا لولا أنه يخفى حقيقة مهمة تتعلق بسبب اهتمام هذا النوع من وسائل الإعلام الأمريكية بهذا التقرير الذى يُظهر العرب فى أسوأ صورة، وهو نفس السبب الذى جعل وزير الخارجية الأمريكية، بل والرئيس بوش نفسه، يشيد بالتقرير ويعتبره أحد مبررات الهجوم على العراق. وحتى وصل الأمر إلى حد اهتمام مثل هذه المجلات ذات التوزيع واسع النطاق، وهذه الشخصيات المهمة بالتقرير، فلا عجب أن يستنسخ من التقرير أكثر من مليون نسخة، دون أن يكون لهذا الانتشار أى دلالة على مستوى التقرير العلمى أو على مدى دقته أو صدقه.

على أن هذا ليس هو المثل الوحيد فى التقرير، وإن كان المثل الأول على استخدام الأرقام فى تضليل القارئ وإعطائه انطباعات مخالفة للحقيقة، واعتمادًا على السهولة التى يمكن بها

باختصار يسد تقرير التنمية الإنسانية العربية على العرب أى منفذ للهروب، حتى ولو كانت نفوسهم مكدودة جدًا، لكى ينهال عليهم التقرير برقم بعد آخر مما يزيد شعورهم بالكد والنكد



إيهام القارئ بأن الأكثر دائماً معناه الأفضل، أو أن الأشياء التي يمكن قياسها وإعطاؤها قيمة رقمية أهم دائماً من الأشياء التي لا يمكن قياسها، أو أن الأرقام الدالة على عدد الأشخاص الذين يعتنقون رأياً معيناً تدل أيضاً على مدى صحة هذا الرأي، أو أن أي فارق ضئيل بين رقم وآخر له قيمة يعتد بها، أو أن الدول التي حققت تقدماً في نواح معينة من الحياة لابد أن تكون هي الدول المتقدمة في كل النواحي الأخرى.. إلخ. كل هذه الفروق الخاطئة وغيرها يتبناها التقرير في صفحة بعد أخرى، حتى يترك القارئ في النهاية وقد أُنهكت قواه وأصبح فريسة سهلة لأي استنتاجات خاطئة بدورها. كما يتبين من الأمثلة الآتية.

يعبر كاتبو التقرير عن حزنهم لأن عدد الصحف في البلاد العربية «أقل من ٥٣ لكل ألف شخص مقارنة مع ٢٨٥ صحيفة لكل ١٠٠٠ شخص في الدول المتقدمة»، وكذلك عن حزنهم لانخفاض عدد خطوط الهاتف إلى خُمس نظيره في الدول المتقدمة، ووجود أقل من ١٨ حاسوباً لكل ١٠٠٠ شخص في المنطقة العربية مع المتوسط العالمي وهو ٧٨,٣ حاسوب لكل ١٠٠٠ شخص، واقتصار عدد مستخدمي الإنترنت على ١,٦٪ فقط من سكان الوطن العربي، وأن متوسط عدد الكتب المترجمة لكل مليون من السكان في الوطن العربي في السنوات الخمس الأولى من الثمانينيات ٤,٤ كتاب (أي أقل من كتاب واحد في السنة لكل مليون من السكان) بينما يبلغ ٥١٩ كتاباً في المجر و٩٢٠ كتاباً في أسبانيا لكل مليون من السكان. التقرير مليء بمثل هذه الأرقام والمقارنات، كما أنه يقول إن فريق التقرير استطلع رأي عينة من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العربية، في حالة المعرفة في بلادهم «فعبَّر المجيبون بوجه عام، عن عدم رضاهم عن حال اكتساب المعرفة في بلادهم (متوسط درجة الرضا ٣٨٪) بل إن رضاهم «عن مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية» كان أقل قليلاً (متوسط درجة الرضا ٣٥٪)». واستخلص التقرير من ذلك «استشعار حاجة شديدة لحفز اكتساب المعرفة في البلدان العربية».

ما القيمة الحقيقية لمثل هذه الأرقام والمقارنات واستطلاعات الرأي؟ إن من الممكن أولاً توجيه انتقادات كثيرة إليها، من الناحية الإحصائية البحتة. فعندما نقارن بين بلدين في استهلاك الصحف لا يجوز نسبة عدد الصحف إلى السكان جميعاً، بما في ذلك الأطفال وصغار السن الذين لا يتوقع منهم أحد قراءة الصحف، ويشكلون نسبة أكبر بكثير في بلادنا منها في «الدول المتقدمة». وقل مثل ذلك عن استهلاك خطوط الهاتف أو الكتب المترجمة.. إلخ. كما أن عدد النسخ المطبوعة أو الأجهزة المنتجة من كل هذه الأشياء لا يكفي للدلالة على عدد مستخدميها، إذ قد يقرأ النسخة أكثر من شخص ويستخدم الهاتف في مكان بكثافة أكثر من استخدامه في غيره. ولكن كل هذا أقل أهمية من افتراض أن «التقدم» في هذه الأمور يعكس تقدماً من الناحية الإنسانية. فما هو الشيء الرائع بالضبط في زيادة عدد قراء الصحف أو عدد المتحدثين من خلال الهاتف أو تضاعف عدد الكتب المترجمة؟

إن كل هذه الأشياء لا تكاد تقيس إلا نفسها، أو بأقصى تقدير، تقيس حجم القوة الشرائية، أما التقدم والتأخر الإنساني فالأفضل أن نقيسه بأشياء أخرى، إذا كان من الممكن قياسه على الإطلاق.

أي فضل يجده كتّاب التقرير لشخص يقرأ في كل يوم صحيفة أو صحيفتين بالمقارنة بشخص آخر يفضل قضاء نفس المدة في الحديث مع جاره أو زميله أو فرد من أفراد أسرته؟ وكيف نقيس «التقدم» في استهلاك الصحف بعدد النسخ الصادرة منها بصرف النظر عما إذا كانت من نوع جريدة «الديلي ميرور» الإنجليزية أو من نوع جريدة «الاندبندنت» أو «الجارديان» الإنجليزيتين أيضاً؟ فلنفرض إذن أن ضاعفت «الديلي ميرور» من عدد النسخ المطبوعة منها وانخفض توزيع الأخريين، بينما بقي توزيع الصحف كلها في البلاد العربية ثابتا على ما هو عليه. إن هذا سوف يعني في نظر أصحاب تقرير التنمية الإنسانية العربية «تدهوراً» في الوضع النسبي لحالة «المعرفة» في البلاد العربية، يستدعي الحزن الشديد (بل وربما وجدت الإدارة الأمريكية في هذا سبباً يستدعي تدخلاً عسكرياً من الرئيس بوش!). نعم، هذه بلاد متقدمة عنا في كثير من الأمور المهمة. ولكن هذا التقدم لا يشمل زيادة عدد النسخ المطبوعة من الصحف أو ساعات الإرسال التليفزيوني.. إلخ.

أما عن عدد الكتب المترجمة فالأمر يحتاج إلى بعض التروي.. قد يتساءل القارئ للوهلة الأولى: هل المقصود الترجمة من اللغة العربية إلى لغة أجنبية أم العكس؟ لابد أن المقصود هو العكس، إذ أن كاتبي التقرير لاشك يؤمنون بأن المحتاج إلى الترجمة هو نحن لا هم، حتى في ترجمته الأعمال الأدبية. فكما أنهم أكثر تقدماً منا في العلم فلابد أنهم أيضاً أكثر تقدماً منا في الأدب (وهو افتراض ليس صحيحاً بالضرورة). ولكن أي لغة أجنبية يا ترى يقصدون؟ لابد أنهم يقصدون الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية لا اليابانية أو الصينية أو الكورية، فالأولى فقط هي على الأرجح الجديرة في نظرهم بالترجمة في العلم والأدب على السواء. ولكن فلنفرض أنهم يقصدون الترجمة من أي لغة من اللغات إلى العربية، أفلا يجدر بنا أن نتروى بعض الشيء للسؤال عن نوع الكتب المترجمة ومضمونها؟

هل يجب أن ندخل في حسابنا كل الكتب، بما في ذلك القصص البوليسية وروايات الإثارة والتسلية بصرف النظر عن نفعها. على افتراض أن ترجمة أي كتاب لابد أن تكون أفضل من عدمها؟

وهل يا ترى تحتاج كل الأمم إلى الترجمة بنفس الدرجة؟

إن التقرير يقارن البلاد العربية في مجال الترجمة بدولتين هما المجر وأسبانيا. ولكن المجر وأسبانيا دولتان أوروبيتان، تنتميان إلى نفس الأصل الثقافي ونفس الحضارة كسائر الدول الأوروبية، ومن ثم فالقارئ المجري أو الأسباني قد ينفعل بروايات وقصص وشعر، بل وبتاريخ دولة أوروبية أخرى أكثر مما ينفعل بها العربي. ولا يجوز أن نطالب القارئ العربي بأن يكون طلبه واستجابته لقراءة رواية فرنسية أو أمريكية بمثل قوة طلب أو استجابة القارئ المجري أو الاسباني. نعم، قد يكون من المفيد أن تترجم كثير من الكتب العلمية البعيدة الصلة بنوع الثقافة والحضارة، ولكن ليس صحيحاً أن العدد الأمثل للكتب المترجمة (لكل مليون من السكان) في دولة كالمجر أو أسبانيا هو نفسه العدد الأمثل لدولة عربية، فالأمر يتوقف على عوامل كثيرة من بينها مثلاً ما إذا كان تعليم المادة التي تنتسب إليها الكتب المترجمة يجري باللغة الأجنبية أو الوطنية، فإذا كان الطالب المجري أو الأسباني مثلاً يدرس الطب أو الهندسة بلغته الأم، المجرية أو الأسبانية، بينما يدرسها الطالب العربي بالإنجليزية أو الفرنسية، فقد تكون حاجة الأول إلى ترجمة الكتب في هذه الموضوعات أكبر من حاجة الطالب العربي. وكذلك إذا كان الاستعداد الطبيعي لدى القارئ المجري أو الأسباني لقراءة كتاب بلغة أجنبية وفهمه أقل من الاستعداد الطبيعي لدى الطالب العربي.. وهكذا.

لاشك مع كل هذا أن العامل الأساسي وراء انخفاض عدد الكتب المترجمة في البلاد العربية بالمقارنة بالدول الأوروبية هو عامل اقتصادي، يتعلق بفقر الدولة ككل وبسوء توزيع الدخل. هذا العامل لا يفسر فقط الاختلاف في عدد الكتب المترجمة بل في معظم المؤشرات الأخرى كاستهلاك الصحف والكتب بصفة عامة وجهاز الحاسوب.. إلخ ولكن متى أدركنا هذا أدركنا أيضاً أن العيب الحقيقي هو في الفقر وليس في قلة الكتب المترجمة أو قلة استهلاك الصحف أو التليفزيون.. إلخ. فلماذا لا يقول التقرير ذلك؟ ولماذا لا يعطى هذا العامل ذو الأهمية الواضحة من

إن التقرير يقارن البلاد العربية في مجال الترجمة بدولتين هما المجر وأسبانيا. ولكن المجر وأسبانيا دولتان أوروبيتان، تنتميان إلى نفس الأصل الثقافي ونفس الحضارة كسائر الدول الأوروبية

كتـاب الزاويـة

مذكرات الأميرة جويدان

٢ - الأفـــــراح المصـــــرية

«لا توجد أمة فى العالم تتفنن فى إقامة أفراحها كلها كما يفعل المصريون، فإنهم لا يدخرون شيئًا من أسباب السرور والانشراح إلا أدخلوه فى أفراحهم مهما كلفهم هذا، وليس ذلك مقصورًا على الأغنياء والموسرين منهم فقط، بل العائلات المتوسطة والفقيرة أيضًا.

كانت العروس ابنة لأحد الباشوات، تتجاوز سنها الثالثة عشرة، وكانت مصابة بالتهاب رئوى، ولكن الطبيب قرر أنه لا خطر يستدعى تأخير موعد الزفاف.

أعلنت ربة البيت بأن الزفة ستبدأ، وهرعت السيدات إلى غرفة الاستقبال، ووقفن صفين، وحملت الجوارى إلى الهوانم أكياس الذهب، ثم فتح الصالون ووقفت العروس على بابه برهة، ثم بدأت تسير بخطوات صغيرة، وكلما تقدمت انحنت لها السيدات، وألقين الذهب والزهور تحت قدميها.

وكانت أجسام الراقصات تقريبًا عارية، وجعلن يتثنين ويتلوين على نغمات الموسيقى، ثم يقتربن برءوسهن من الزائرات، فكانت الهوانم يلصقن الذهب فى وجوه الراقصات.

وبعد أن فرغنا من تناول العشاء، طلبت ربة البيت من السيدات السماح للعريس بالحضور لشكرهن وقف العريس فى الباب مبهوتًا وأخذ ينتقل من وجه إلى وجه، ثم أخذته أمه من يده وقادته إلى مكانى، حيث قدم لى القهوة بيد ترتعش، ولما انتهيت من شربها انحنى مرة أخرى وغادر الصالة.



التأكيد ما يعطيه هذا التقرير العجيب لأشياء أخرى كالاستبداد السياسى والتطرف الدينى؟ هل السبب هو أن المطلوب هو التأكيد على الحماقة والغفلة أكثر من التأكيد على فقدان الاستقلال واستلاب الإرادة؟

نأتى الآن إلى ذلك الجزء المتعلق «باستطلاع رأى بعض المثقفين العرب حول حال المعرفة»، وهو جزء طريف للغاية ويحتوى على رسوم بيانية ملونة تلوينًا جميلاً. أما وجه الطرافة فهو أن كاتبى التقرير حاولوا فى هذا الجزء دعم وجهة نظرهم فى سوء حال المعرفة بالبلاد العربية بالأرقام المستمدة من طريقة الاستبيان، واستطلاع الآراء، فواجهوا صعوبات إحصائية وفكرية جمة كان من شأنها أن تجعل أى عالم اجتماع عاقل يعدل عن هذا التمرين العقيم برمته، ولكن أصحاب التقرير لم يريدوا أن يضيعوا هذا المصدر المهم لإسباغ مظهر العلمية والموضوعية على ما يقولون، مما لا يأتى فى نظرهم إلا باستخدام بعض الأرقام. بدأ كاتبو هذا الجزء بتقديم مختلف الاعتذارات والتبريرات غير المقبولة لاستخدام ما حصلوا عليه من أرقام لا تدل على أى شىء ذى بال، من ذلك مثلاً قولهم إنه وإن كانت «عينة الاستطلاع ليست، للدقة، عينة مختارة بأسلوب احتمال سليم من مجتمع المثقفين العرب يمكّن من التعميم المباشر إلى مجتمع المثقفين العرب» وعلى الرغم من أن «آراء كل واحد منهم ذاتية بالقطع»، فإن «القيمة المعرفية للرأى الذاتى تزداد كلما زاد رأس المال المعرفى للفرد المعنى، وفى حالة أعضاء هيئات التدريس بالجامعات على وجه التحديد تكتسب آراؤهم أهمية إضافية بسبب قدرتهم على المساهمة فى تكوين رأس المال البشرى عبر وظيفتهم فى التعليم العالى» (ص٨٧).

إنى أعترف للقارئ بأن هذه الفقرة أفادتنى فائدة جمة لأنها قدمت لى نموذجًا ممتازًا لكيفية استخدام الكلمات الضخمة والتعبيرات الفخمة لإخفاء ضحالة الفكرة أو خطئها أو كليهما معًا. فالمجهود الذى يحتاجه القارئ لفك طلاسم مثل هذه الفقرة (ومثلها كثير جدًا فى هذا التقرير) من شأنه أن يمنعه من أن يكتشف بسهولة أن المعنى المراد توصيله معنى سطحى للغاية وخاطئ فى نفس الوقت، وهو الزعم بأن مكانة أستاذ الجامعة وتأثيره فى التلاميذ من شأنه أن يغفر للإحصائى عدم مراعاة المبادئ الإحصائية المعروفة وأن يسمح له بأن يعلق أهمية على آراء شخصية قد لا تعبر عن رأى عام.

ما هى النتيجة على أى حال التى يصل إليها هذا القسم الإحصائى؟ إنها باختصار أن المجيبين على الاستبيان «بوجه عام» عبّروا عن «عدم رضاهم عن حال اكتساب المعرفة فى بلادهم (متوسط درجة الرضا ٣٨٪) بل إن رضاهم عن مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية كان أقل قليلاً (متوسط درجة الرضا ٣٥٪)».

وأنا مثل القارئ بالضبط، فى حيرة من أمرى إزاء عدة أمور تتضمنها هذه الفقرة القصيرة:

١ - فما المقصود بالضبط «بحال اكتساب المعرفة»؟

٢ - وما معنى «مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية»؟

٣ - وما معنى درجة الرضا؟ وهل ٣٨٪ تعتبر درجة منخفضة أم مرتفعة للرضا؟ وما هى النسبة التى يمكن أن «يرضى عنها» أصحاب التقرير؟

٤ - وهل هناك أى مغزى لانخفاض متوسط درجة الرضا عن «مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية» بمقدار ٣ نقاط مئوية عن «متوسط درجة الرضا عن حال اكتساب المعرفة»..؟!

٥ - لو افترضنا أن سُئل أعضاء فى هيئة التدريس فى بعض الجامعات الأمريكية عن درجة رضاهم عن حال التليفزيون الأمريكى، ووجدنا أن متوسط درجة رضاهم هو ٣٨٪ مثلاً، فما الذى يمكن أن نستنتجه من هذا عن حالة التليفزيون الأمريكى، ومدى «خدمة اكتساب المعرفة المستمدة منه للتنمية الإنسانية» فى المجتمع الأمريكى؟ هل نستنتج أن هذه الحالة جيدة أم سيئة؟

٦ - وما هى درجة الرضا يا ترى التى كان يمكن أن يذكرها رجل مثل فولتير فى عصر التنوير الأوروبى، عن حالة «اكتساب المعرفة» فى فرنسا وهل كانت ستختلف عن درجة رضاه عن «مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية»؟

٧ - وأخيرًا، هل هذا علم أم شبه علم أم هو أقرب إلى عمل من أعمال الحواة؟ وما هو بالضبط الذى يضطرنا للصبر على قراءة مثل هذا الكلام؟ ■

The Image

صـــورة الســـيد الرئـيس

لـــويـــس مـــيـــنـــانـــد

■■ «التليفزيون هو الذى أدار الموجة أكثر من أى شىء آخر» هذا ماقاله جون كيندى فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٠ بعد أربعة أيام من انتخابه رئيسا للولايات المتحدة.

كان يشير إلى المناظرات التليفزيونية الأربع التى جرت بينه وبين ريتشارد نيكسون فى وقت مبكر من ذلك الخريف.

اليوم، أصبحت مناظرات التليفزيون طقساً رسمياً فى مسيرة السياسى نحو الرئاسة، حتى إن إجراء انتخابات الرئاسة اليوم بدون مناظرة تليفزيونية بات وكأنه شىء غير ديمقراطى أو كأنك تخدع الناخبين وتحرمهم من حق اختبار مهم.. وهو إخضاع المرشحين للفحص الجماهيرى.

ولم يكن هذا هو رأى الناس فى أيام المناظرات الأولى، حتى إن ثيودور وايت الذى يوافق تماما على رأى كنيدى بأن المناظرات هى التى حسمت الانتخابات، يشكو فى كتابه (صنع الرئيس ١٩٦٠) بأن التليفزيون أهمل القضايا المهمة بإجبار المرشحين على إجابة الأسئلة الفورية: «لم يكن أى من الرجلين يستطيع أن يتوقف لحظة ليتأمل أو يستذكر ببطء أو يراجع بترو البدائل قبل اتخاذ القرار، وهى الخصيصة المهمة للقيادة» وكان يعتقد أن (انتصار) كنيدى فى المناظرات كان فى «الواقع انتصار الصورة على المحتوى».ويتفق معه دانيل بورستين، المؤرخ فى جامعة شيكاغو والذى أصبح فيما بعد أمين مكتبة الكونجرس، إلا أنه لايرجع تاريخ انتصار الصورة إلى عام ١٩٦٠ وإنما إلى بداية ما يسميه (ثورة التصوير) فى القرن التاسع عشر.

وفى السنة نفسها التى نشر فيها وايت كتابه عن سباق كنيدى . نيكسون. وقد نشر بورستين كتابه (الصورة) فى ١٩٦١ والذى ابتكر فيه بورستين تعريفه (المشهور) للشخصية المشهورة بأنها الشخص المشهور بأنه مشهور. وكان رأيه أن تقدم الوسائل الميكانيكية للاتصالات وإعادة إنتاج التلغراف والصورة الفوتوغرافية والطباعة السريعة جداً والراديو والتليفزيون والتقدم الذى أعقب ذلك فى العلوم الإعلامية مثل الإعلانات والعلاقات العامة.. كل ذلك أنتج ثقافة مايمكن تسميته (الأحداث الزائفة) أى الأحداث التى لا هى حقيقية ولا خيالية، لا أصلية ولا مزيفة، مثل مناظرات كنيدى . نيكسون.

فالمناظرات كانت مشاهد مصنوعة، مصممة من أجل توليد مادة تستخدم لمزيد من المشاهد المصنوعة مثل التعليقات التالية للحدث التى يقدمها العاملون فى مؤسسات الأخبار التى أنتجت الأشياء فى المقام الأول. ولكن نتائج كل هذا الاختلاق كانت حقيقية. «فإن الاحداث الزائفة تؤدى إلى التأكيد على المؤهلات الزائفة» كما يقول بورستين «إذا اختبرنا مرشحى الرئاسة حسب مواهبهم فى برامج الفوازير التليفزيونية لاخترنا بالطبع الرؤساء بسبب تلك الصفات بالذات، وفى الدول الديمقراطية يجنح الواقع إلى أن يتطابق مع الأحداث الزائفة. الطبيعة تقلد الفن».

فى عام ١٩٥٦، نشر الاقتصادى المتفرد كنيث بولدنج كتاباً بعنوان (الصورة) ولكن كان أغلب اهتمام بولدنج منصبا على حقيقة أن سلوك الناس يعتمد على الصور التى يحتفظون بها للعالم والتى قد يكون لها أساس صغير يصلح ليكون (واقعا).

وكان من رأى بولدنج أن هذا قد يثير مسائل معرفية شائكة. ورغم أن بورستين كان يرى أن معرفية الصورة شائكة أيضاً ولكن كتابه كان متشككاً فى ذلك. كانت الصورة المرئية محورية فى الحضارة التى يهاجمها بورستين ولكن بتعبير (الصورة) كان يقصد شيئاً يحيط بالجميع.. شيئاً مثل واقع بديل. وفى هذه الأيام يقرأ كتاب بورستين. بغض النظر عن أسلوبه النثرى الفخم. وكأنه عمل مفكر ما بعد الحداثة. وكثير من الكتاب الفرنسيين مثل جى ديبور وجان بوديلار تناولوا فيما بعد (مجتمع المظاهر) والصورة الزائفة التى قال بها بورستين.

كان بورستين يرى أن هيمنة الصورة لم تكن بسبب طبيعة الرأسمالية (وهى كلمة لم ترد. وياللعجب. فى كتابه) وإنما لأن الأمريكيين لايستطيعون مواجهة الحياة الاعتيادية التى تفتقر إلى التفرد والغرابة، ومعظم الأشياء حولهم صعبة وناقصة ومحبطة ومملة. وكان الأمريكيون فى حاجة إلى (تحلية) خبراتهم باستمرار مثل. مضغ اللبان. وقد نشأت بسبب ذلك صناعة كاملة من أجل أن تقدم هذا الواقع المحسن المصنوع. وكان بورستين يرى أن هذا العالم المزيف قد أصبح مثل شبكة(ماتركس)[*] كاملا إلى حد أنه يسيطر حتى على المسيطرين عليه.

ويستنتج بورستين أن «سياساتنا الوطنية أصبحت تنافساً من أجل الصور أو بين الصور بدلا من أن تكون تنافسا بين المثل. إذا أراد الرئيس أن يكون مؤثراً، عليه أن يهتم كل عام بالصورة التى يعكسها».

إجـراء انتـخـابـات
الرئـاسـة الأمـريكيـة اليـوم بـدون
مناظـرة تليفـزيونيـة بـات وكـأنـه
شــىء غيــر
ديمقــراطــى

فى ١٩٦١ كانت هذه الملاحظة تبدو مخيفة. أما الآن فإنه ليس هناك ماهو أكثر تقليدية منها. إن تأمل النوعية المصنوعة للحدث هو عنصر مطلوب فى تحليل الأحداث المصنوعة. الصحفيون الذين يسهل مهماتهم رسم المناظر السياسية التى تتنكر كأخبار. الصور الفوتوغرافية. المؤتمر الصحفى. المناظرة التليفزيونية . يشعرون بأنهم مضطرون إلى الإشارة بحزن (أو تمثيل صورة الحزن) لضخامة طاقة الحملة الانتخابية الموظفة فى رسم مناظر سياسية.

إن قيمة الصورة فى السياسة مثل قيمة السهم فى سوق الأوراق المالية. فهى تعكس دائما خصما فى السعر المستقبلى للخداع. هذا هو التحدى المعرفى الذى تحدث عنه بورستين وبولدنج.

إن المشهد المصنوع هو بشكل ما، حقيقى وغير حقيقى، مثل مشهد جون كيرى على الدراجة البخارية، ومشهد جورج بوش على حاملة الطائرات. وجزء من محتوى هذه المشاهد هومعرفة أن هذه الوقائع المثالية هى (صور) مشكوك فى (واقعيتها).

كل امرئ يعرف أن هذه (مجرد صورة) ولكن ماذا يعنى ذلك بالضبط؟

من بين أكثر المواضيع التى لاتفقد سحرها لدى الباحثين فى عملية صنع الصورة السياسية: موضوع كنيدى ونيكسون اللذين. كما يعتقد الكثير من الناس. بدآ ثقافة رسم الصورة.

فبعد أربعين عاما على حادثة دلاس (اغتيال كنيدى) وثلاثين عاما بعد تحقيقات ووترجيت (فضيحة نيكسون) فإن الآراء مازالت تتضارب حول كنيدى (الحقيقى) ونيكسون (الحقيقى). وهناك كتابان جديدان حول هذا الموضوع: كتاب ديفد لوبين (إطلاق الرصاص على كنيدى: كنيدى وثقافة الصور) والكتاب يعكس وجهة نظر مؤرخ فنى فى الصور الفوتوغرافية المشهورة لجون وجاكى كنيدى. أما كتاب ديفد جرينبرج (ظل نيكسون:تاريخ صورة) فهو دراسة مؤرخ سياسى لصورة نيكسون كما انعكست لدى جمهور مختلف. الليبراليين واليسار الجديد والصحافة والموالين له وهكذا. كان كتاب لوبين مكرسا للصور بمعناها المرئى . الفوتوغراف . السينما .

ترجمة: بثينة الناصرى
بترتيب خاص مع مجلة
The New Yorker

الرسم. فى حين أن جرينبرج كان معنيا بـ(الصورة) بمعناها الواسع. ولكن تظل وجهة نظرهما تجاه (ثقافة الصورة) هى نفسها. إنهما يعتقدان أن الناس لايقرأون الصور بقدر مايقرأون داخل الصور. وأن أولئك المستمعين للراديو الذين اعتقدوا أن نيكسون كسب المناظرات سمعوا مادربوا على أن يسمعوه وما يريدون أن يسمعوه، كما يفعل الجميع.

بهذه الروح الأنثروبولوجية. الروح التى تعالج كل قطعة مصنوعة بارتباطها مع بقية القطع المصنوعة فى شبكة الحضارة. يضع لوبين صور كنيدى إلى جوار صور مادونات (جمع مادونا) عصر النهضة مع إعلانات المجلات مع مناظر التليفزيون. إن عدم إحساسه بالخجل يثير الإعجاب! مثلا إنه يلفت الانتباه إلى الصورة المؤثرة المشهورة لجون جون (ابن كنيدى) وهو يحيى تابوت أبيه منشورة فى مجلة (لايف) إلى جانب إعلان فى صفحة كاملة عن ويسكى بوربون كنتاكى الذى يصور خيال سيد جنوبى يرتدى قبعة وهو يرد بتحية ودية. وهذا من نوع الأشياء التى لايلاحظها إلا مؤرخ فنى أو (مريخى) ولكن حالما تراها تبدأ فى التساؤل: كيف حدثت؟ ولماذا لم يلتقط أى شخص فى لايف الصدى البصرى؟. الجواب ربما يعود إلى عادة الناس فى أرشفة صورهم فى تجاويف مستقلة. الأخبار فى مكان، الإعلانات فى مكان آخر، ولايفكرون فى مقارنتها مع بعضها. ولكن كتاب (إطلاق النار على كنيدى) هو كتاب جرىء يعمل على ربط الصور ببعضها.

ويماثل هذا، مقاربة جرينبرج للصورة السياسية. يقول جرينبرج إن بورستين كان محقًا فى التعرف على صناعة الصورة بكونها محورية فى السياسة الأمريكية منذ إدارة فرانكلين روزفلت وكان مخطئًا فى وصفها بعدم المصداقية.

يقول جرينبرج: «إن المخاوف من صناعة الصورة والتشكيك فى المصداقية تكمن فى الافتراض الخاطىء بأن الصور تختلف عن الواقع. ولكن الصور ليست ظلالا تتراءى على جدار كهف وإنما هى مادة التجربة السياسية ذاتها». وهو يعتقد أن نيكسون هو الشخصية الرئيسية التى أدركت هذا التطور فيقول: «لم يساهم أى سياسى ما بعد الحرب أكثر منه فى تعليم الأمريكيين أهمية الصور فى السياسة».

وكما يذكرنا كلا الكتابين، فإن الحقيقة المدهشة هى أن نيكسون كان أكثر تعقيداً فى مسألة استغلال الصورة من كنيدى، وبالتأكيد فقد استخدم آل كنيدى الإعلام لأغراض سياسية. لم يكونوا أبرياء، عكس مثلا ادلاى ستيفنسون الذى وصف. فى خطاب القبول عام ١٩٥٦ فى الاجتماع القومى الديمقراطى. الإعلان السياسى بأنه (الإهانة القصوى للعملية الديمقراطية) وهى جملة اقتبسها جرينبرج. ولكن كما يوضح تحليل لوبن، فإن الجانب الفنى فى معظم الصور الفوتوغرافية المشهورة لآل كنيدى لم تكن تعزى إليهم ولكن بشكل كبير إلى المصورين. لقد كانوا يحبون التقاط صور عائلة كنيدى وقد كانت عائلة جميلة تعرف كيف تقف أمام المصورين، ولهذا لم يكن التقاط صورهم يحتاج إلى الكثير من مسرحة وقفاتهم. أما نيكسون الذى لم يكن وسيما أو فوتوجنيك فلم يكن استغلال الصورة مكملا لحياته السياسية وإنما ضرورة أساسية.





ومنذ بداية عمله، أحيط نيكسون بأشخاص استمدوا خبراتهم من الإعلان التجارى، وقد يظن المرء أنه جمعهم حوله عمداً ولكن يبدو . فى الواقع . انه اجتذبهم. مثلا أحد أوائل المساندين له روى داى الذى أسس لجنة المائة فى عام ١٩٤٥ وهى اللجنة التى رشحت نيكسون ليدخل انتخابات الكونجرس ضد جيرى فورهيز، كان يعمل فى بيع الإعلانات لصحيفة فى جنوب كاليفورنيا، أما هالدمان فقد بدأ مهنته لدى وكالة والتر تومسون للإعلانات وتطوع للعمل مع نيكسون بعد أن شاهد خطابه فى التليفزيون عام ١٩٥٢.

وقد أصبح اعتماد نيكسون على الخبرة الإعلانية مادة للفضائح، ففى كتاب جو ماك جنيس (بيع الرئيس عام ١٩٦٨) وهو كتاب يقدم كما يوحى عنوانه، خفايا القصص التى كان وايت يرويها فى قصصه الرائجة للحملات الانتخابية.

وكان ماك جنيس يقتبس كثيراً من بورستين وكان احتقاره لاستخدام نيكسون للإعلان التجارى من القوة بحيث كان يفترض أن القراء يشاركونه مشاعره. وكان. كما يبدو. يشعر أن مسألة قيام نيكسون بالإعادة أكثر من مرة وهو يسجل إعلاناته التجارية التليفزيونية اكبر دليل على عدم مصداقيته. واليوم، يبدو كتابه (بيع الرئيس) ساذجاً كما يقول جرينبرج، فالرؤساء جميعا يقومون بأداء الإعلانات التليفزيونية ومن الطبيعى أن يجرى إعدادهم وتجميلهم قبل الظهور على الهواء.

وإذا كان للتليفزيون يد فى تحويل الحملات الرئاسية إلى حروب صور تكتيكية فإن هذا مايفعله ديناصورات الصحافة مثل وايت الذى يغطى الحملات الانتخابية وكأنها جولات ملاكمة، تتابع ضربات وضربات مضادة، نقاط وضربات قاضية، وأهداف تسجلها استفتاءات الرأى.

فى عام ١٩٦٤ نشر مارشال ماكلوهان كتابه الضخم (فهم الميديا) الذى درس ساكنى الكهوف التقنيين مثل وايت وبورستين. مما قاله ماكلوهان: إن وايت فهم الأمور بالعكس فى شأن المناظرات، لأن نيكسون فى التليفزيون لم يكن ضبابياً بل على العكس كان محدداً وواضحاً جداً، والتليفزيون يكره الأشياء المحددة، بل يفضل (الضبابية) ولهذا لايصلح ممثلو السينما عندما يذهبون إلى التليفزيون ولهذا أيضا (فاز) كنيدى فى المناظرات. فالتليفزيون، بتعبير ماكلوهان وسط (بارد) ولأن صورة التليفزيون صغيرة نسبياً فإن مشاهدى التليفزيون يركزون عليها ويصبحون جزءاً منها ويميلون إلى (ملء) فراغاتها. ولهذا كما أوضح ماكلوهان «فكل شخص يعكس مظهره بقوة دوره ومركزه فى الحياة لايناسب التليفزيون» وبكلمات أخرى فإن نيكسون (خسر) لأنه كان يبدو كمرشح للرئاسة. يقول «عندما يبدو الشخص المقدم فى التليفزيون (مالئا لمركزه) كما فعل نيكسون، يشعر مشاهد التليفزيون بعدم الراحة لأنه لن يستطيع أن (يضيف) شيئاً على الصورة» وكان رصيد كنيدى ليس (خطوطه الواضحة) كما يتصور وايت وإنما ضبابيته». لم يكن يبدو عليه أنه رجل ثرى أو سياسى. كان مظهره يوحى بأى شىء من بقال إلى أستاذ إلى مدرب كرة. ولم يكن محدداً فى كلامه أو جاهزاً فى ردوده بحيث يفسد ملامحه اللطيفة الضبابية).

وقد تعلم نيكسون ورجال حملته الدرس بوضوح. كان يحتاج إلى أن يعكس صورة يستطيع الناخبون أن (يملأوها) بما يريدون وكما يناسبهم. وهذا ماركزعليه كتاب ماك جنيس وليس مسألة قيام نيكسون باستخدام أساليب الإعلان التجارى. بحلول ١٩٦٨، كان نيكسون قد حذق حيلة تقديم نفسه ربما ليس بكل شىء ولكل الناس، وإنما بأشياء تكفى لأناس يكفون لانتخابه لدورتين رئاسيتين.

ويذكر جرينبرج أن عبارة (نيكسون الجديد) ظهرت أول مرة فى عام ١٩٥٣ ومنذ البداية تقريباً كان نيكسون سياسياً بارعاً فى تجديد نفسه باستمرار. ولكن نيكسون (حملة ١٩٦٨)، نيكسون الذى ضم إلى فريقه خبراء علاقات عامة مثل روجر ايلز وليونارد جارمينت واستمع إليهما، هو نيكسون الذى يستحق اللقب بجدارة، وهذا النيكسون هو السبب الذى جعل الناس تستمر فى الاعتقاد أن نيكسون (معقد). وهذا النيكسون هو الذى جعل جرينبرج يكتب كتاباً عن الوجوه العديدة لنيكسون.

إن محك نبوءة بورستين . بأن ثقافة الصورة والتليفزيون على الأخص سوف تعمل على تدمير السياسات الديمقراطية. هم الرجال الذين انتخبوا للرئاسة منذ ١٩٦٠. المسألة ليست ماإذا كان أى منهم قد انتخب بسبب التليفزيون. وقد كان وايت على حق ربما حين قال إن التليفزيون قدم خدمة كبيرة لكنيدى عام ١٩٦٠، رغم أن جزءاً من ذلك كان بسبب اتساع المشاهدة: فقد شاهد المناظرات ما يقرب من مائة وعشرين مليون شخص، فى سباق ضد نائب رئيس لدورتين وكان معروفاً جداً للناخبين. إن المسألة هى ما إذا كان أى رئيس منذ ١٩٦٠ سينتخب بدون التليفزيون. وقد تكون إشارة ماكلوهان إلى أن التليفزيون يفضل تركيزاً ناعماً، صحيحة ولكن السياسيين اكتشفوا قبل أن يصبح التليفزيون جزءاً من العملية الانتخابية بوقت طويل، فائدة الظهور على الشاشة ليستطيع الناخبون أن يعكسوا آمالهم ومخاوفهم عليهم، وبالتالى تعاطفهم.

وقد أصبح الظهور فى التليفزيون شيئاً إجبارياً بالنسبة للمرشحين ومن يرتبك أمام كاميراته لايستحق أن ينتخب.

أدرك ماكلوهان أن التليفزيون ليس فقط راديو وصورة أو سينما فى صندوق، ولكنه وسط له تأثيراته الخاصة ومع ذلك فقد بالغ فى الجانب المعرفى للأشياء وفى هذا لم يكن يختلف كثيراً عن وايت وبورستين وماك جنيس، فى ترويج فكرة أن فن الإعلام الجديد قد غير الحياة العامة. ولكنه ظن أن ذلك كان نحو الأحسن. وأن هذا الفن سوف ينهى الحروب ويؤشر لولادة القرية (الكونية).

ولكن ما الذى يجعل الحالة المعرفية للصورة مختلفة عن الآلة المعرفية للكلام أو الكتابة؟ إن الطباعة لاتملك علاقة خاصة بالحقيقة أو المصداقية، كما أن الميديا الإلكترونية التى نصب ماكلوهان نفسه نبيا لها. لم تستطع أن تجعل الناس أكثر إحساساً بالمسئولية أو التعاطف أو الاهتمام. لقد كان جرينبرج بالتأكيد محقا فى أن الصور لاتختلف عن (الحقيقة) خاصة فى الحياة السياسية حين يكون إظهار الصورة المناسبة فى اللحظة المناسبة جزءاً من القيادة مهما فعل أو قال السياسى بعيداً عن الكاميرا.

كان هذا هو الوضع خلال الحرب الباردة. فى ١٩٦٠ ترسخت فكرة شن المعركة ضد الشيوعية من خلال الصور، لأن البديل لايمكن التفكير فيه. وهذه الفكرة هى المسئولة عن الاهتمام الخاص بإظهار كنيدى ونيكسون كأيقونات أو مؤدين. ولكن فشل نيكسون فى النهاية لم يكن بسبب استغلاله لصورته أو بسبب الاختلاف بين الطريقة التى ظهر بها أمام الجمهور و(نيكسون الحقيقى) كما ظهر فى تسجيلات البيت الابيض. لم تكن مشكلة نيكسون تتعلق بصورته فى ثقافة الإعلام الإلكترونى، وإنما كانت المشكلة مع الدستور.. وهو وثيقة كتبت بالقلم! ■

إن قيمة الصورة فى السياسة مثل قيمة السهم فى سوق الأوراق المالية، فهى تعكس دائما خصما فى السعر المستقبلى للخداع

هوامش:

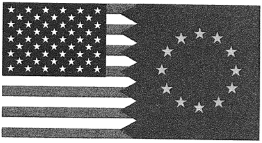
(*) أينما استخدمت كلمة الصورة image فى هذه المقالة فهى تعنى الصورة بمعناها الواسع (الرمز)، إلا حينما يوضح الكاتب استخدام كلمة الصورة بمعناها الاعتيادى: أى الصورة المرئية مثل الفوتوغرافية أو الرسم أو السينما إلخ. المترجمة.

(*) ماتركس Matrix اسم فيلم مشهور (من ثلاثة أجزاء) حول شبكة الكترونية تسيطر على تنظيم كل شىء فى العالم حتى يظهر متمرد يواجهها. المترجمة.

فى بداية فبراير الماضى، خطا القادة الأوروبيون والأمريكيون خطوات جديدة لتكريس التعاون الأمنى بينهما بعد شهور من الخلافات حول العراق والشرق الأوسط وقضايا أخرى عديدة. وقد خرج وزراء الدفاع فى حلف شمال الأطلنطى عقب اجتماع ميونيخ السنوى للسياسة الأمنية بما يشبه الاتفاق على إمكانية مشاركة أكبر للحلف فى عملية الانتقال الراهنة فى العراق، بينما دعا يوشكا فيشر وزير الخارجية الألمانى إلى رؤية أوروبية أمريكية مشتركة تجاه الشرق الأوسط، تتلامس وتتجاوب مع مشروع «الشرق الأوسط الكبير» الذى تطرحه أمريكا!

المقال التالى الذى تنشره «وجهات نظر» يشرح بشكل عميق الأسباب التى جعلت أمريكا وأوروبا يتجهان للتعاون خاصة فى الشرق الأوسط، من خلال تأصيل تاريخى وسياسى لعلاقات الطرفين ومدى انعكاس ذلك على سياستهما فى المنطقة.

المحرر



من الصراع إلى التفاهم أمريكا وأوروبا فى الشرق الأوسط

داليا داسا كاى

■■ فى ظل اهتمامات أوروبا والولايات المتحدة الإستراتيجية المشتركة بالاستقرار الإقليمى، والتدفق الآمن للنفط، والإصلاح السياسى والاقتصادى، قد يظن ظان أنه من المحتم أن يكون بينهما تعاون فى الشرق الأوسط. إلا أن التعاون ليس حتمياً، ولم يكن حتمياً من قبل. فرغم الاهتمامات الإستراتيجية المشتركة، تجعل الاختلافات فى الثقافة الإستراتيجية والتجربة التاريخية الولايات المتحدة وأوروبا تنظران إلى المنطقة من منظورين مختلفين، الأمر الذى يجعلهما تختلفان فى رؤية الأخطار، وترتيبها من حيث أولويتها، ومقاربة كل منهما لها. وقد زادت هجمات الحادى عشر من سبتمبر من عمق هذه الفجوة المتأصلة تاريخياً وثقافياً عبر الأطلنطى. وكما أشار أحد محللى العلاقات عبر الأطلنطية فإنه «بينما قربت الحرب ضد الشيوعية فى وسط أوروبا بين أمريكا وأوروبا، فإن «الحرب ضد الإرهاب» فى الشرق الأوسط تباعد بينهما». إذ ترى الولايات المتحدة أن الخطر الإرهابى والحرب ضد الإرهاب قد احتلا المكان الذى كان الخطر السوفيتى والحرب الباردة يشغلانه. بينما لا ترى أوروبا الأمر على هذا النحو. ورغم التأييد الأوروبى للحملة التى قادتها الولايات المتحدة فى أفغانستان ضد الإرهاب والتعاون القائم على تطبيق القانون، فلم يدم الأمل فى قدر أكبر وأعمق من التعاون الأمريكى الأوروبى بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ طويلاً. ومع أن مأساة ٩/١١ خلقت إحساساً عميقاً بالمجتمع العابر للأطلنطى، فإن رد فعلنا تجاهها كان له أثر استقطابى وليس موحِّداً على العلاقات عبر الأطلنطية.

وهكذا فليس من المحتم أن تتعاون الولايات المتحدة وأوروبا فى الشرق الأوسط، إلا أنه ليس مقدراً لهما كذلك أن تتصارعا كما قد يتوقع بعض المتشائمين عبر الأطلنطى. بل إنه لابد من تنمية التعاون من أجل وضع مقاربات إستراتيجية مشتركة لا يعود بالإمكان أخذها على أنها أمر مُسلَّم به.

ومع أن التعاون ليس حتمياً، فمن المؤكد أن الولايات المتحدة وأوروبا لهما اهتمامات مشتركة بالشرق الأوسط. ويمكن الاستفادة من عدد من القوى الداعمة للتقارب عبر الأطلنطى لبناء مشروعات تعاونية مشتركة فى المستقبل.

الإرهاب

أوجد خطر الإرهاب الدولى المشترك، وخاصة بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، نوعاً من التعاون الحيوى عبر الأطلنطى. وطبقاً لاستطلاع أجراه فى ٢٠٠٢ مجلس شيكاغو للعلاقات الخارجية مع صندوق مارشال الألمانى، وكذلك استطلاع مجلة Transatlantic Trends فى عام ٢٠٠٣، فإن الأمريكيين والأوروبيين يرتبون الإرهاب على أنه أخطر تهديد للأمن القومى. ويساعد هذا الرأى على تفسير الدعم الأوروبى الواسع الانتشار للعملية الأمريكية الخاصة بالإطاحة بطالبان فى أفغانستان، كما يعزز جمع المعلومات الاستخبارية وتبادلها فى المجتمع عبر الأطلنطى. وتلتقى الآن مجموعات عمل ثنائية أمريكية أوروبية بانتظام لتنسيق إجراءات تطبيق القانون وتحسينها لاحتواء تحرك الإرهابيين والحد من مصادر تمويلهم. وبعد الحادى عشر من سبتمبر، تحركت الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى بسرعة غير عادية لتنسيق إجراءات تسليم المجرمين الخاصة بها، وتقوم أوروبا حالياً بوضع مسودة اتفاقية لتسليم المجرمين مع الولايات المتحدة، رغم المخاوف الحالية من عقوبة الإعدام الأمريكية. ومن المحتمل أن يجمع الخطر المشترك، وخاصة خطر الهجوم الإرهابى المدمر، بين الولايات المتحدة وأوروبا فى قضية مشتركة لسنوات عديدة مقبلة، حتى وإن كان من المحتمل أن تختلف طرق مقاربة الخطر.

ترجمة أحمد محمود

بترتيب خاص عن: دورية واشنطن كورترلى

أسلحة الدمار الشامل

رغم عدم ميل الأوروبيين إلى الجمع بين خطر أسلحة الدمار الشامل وخطر الإرهاب، كما هو الحال فى الدوائر السياسية الأمريكية، فإن القلق الأوروبى بشأن انتشار الأسلحة غير التقليدية وأنظمة الصواريخ القادرة على حملها يتزايد. وحتى قبل الحرب فى العراق، كانت المخاوف المشتركة من انتشار الأسلحة النووية تفسر إلى حد ما الموافقة الأمريكية الأوروبية على قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ١٤٤١ الذى يدعو إلى نزع سلاح العراق فى خريف ٢٠٠٢. ومنذ حرب العراق وأسلحة الدمار الشامل تزحف نحو قمة الأجندة الأوروبية. وكانت حرب العراق والنزاع الدبلوماسى الذى سبقها بمثابة محفز لأوروبا كى تضع انتشار الأسلحة فى موضع متقدم من أجندتها وتعيد بحث سياستها الخاصة بمكافحة هذا الخطر. وقد عكس هذا التغير رد فعل براجماتياً عاماً لجعل سياسات أوروبا أقرب إلى الولايات المتحدة بغرض المساعدة فى إصلاح العلاقات عبر الأطلنطية وكذلك العلاقات داخل أوروبا بعد صدع العراق. فلم يكن الأوروبيون يرغبون فى أن ينقسموا كما انقسموا فى العراق، واعترفت الدول الأوروبية الكبرى مثل فرنسا وألمانيا بأن أوروبا الموحدة ضرورية لإظهار القوة الأوروبية فى الخارج. بل كانت تواجه الحكومات الأوروبية أدلة كبيرة على جهود إيران لامتلاك القدرة على صنع الأسلحة النووية.

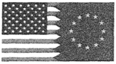
ربما كان أفضل مثال للتقارب المتزايد بشأن خطر انتشار الأسلحة النووية هو حالة إيران. إذ جرت العادة على اتباع الولايات المتحدة وأوروبا مقاربات شديدة الاختلاف. فبينما كانت الولايات المتحدة تلجأ إلى سياسات الاحتواء والعقوبات الاقتصادية والتهديد باستخدام القوة، كانت الدول الأوروبية تفضل سياسات التعهد والارتباط، وكانت تتردد فى ربط علاقاتها الاقتصادية والسياسية بأنشطة طهران الخاصة بانتشار الأسلحة النووية. إلا أن الموقف الأوروبى فى الوقت الراهن يتغير فى اتجاه موقف واشنطن. ففى منتصف عام ٢٠٠٣ أصدر وزراء خارجية الاتحاد الأوروبى بياناً انتقدوا فيه برنامج إيران النووى وطالبوا بقبول طهران لأعمال تفتيش أكثر جراءة تقوم بها وكالة الطاقة الذرية الدولية. والأهم هو أن الاتحاد الأوروبى ربط لأول مرة اتفاقية التجارة والتعاون التى يتفاوض عليها الآن مع طهران بالمسألة النووية، مما يشير إلى أن أوروبا راغبة فى توظيف النفوذ الاقتصادى لمعالجة مشكلة انتشار الأسلحة النووية. وأيد الفرنسيون هذا الموقف المتشدد تجاه إيران بقوة، على عكس موقفهم من العراق.

الوضع الإقليمى

أبرزت هجمات الحادى عشر من سبتمبر كذلك عجز أمريكا عن فك ارتباطها بالشرق الأوسط وعدم انشغالها به، كما أدت إلى تركيز الاهتمام من جديد على مسألة مصادر التشدد، مما أكد أهمية قضايا الإصلاح الداخلى والتحول الديمقراطى فى العالمين العربى والإسلامى. وذكر بعض المحللين أن هناك ضرورة إستراتيجية ملحة مشتركة لتعاون الولايات المتحدة وأوروبا فى الشرق الأوسط، وخاصة حول مسائل تتعلق بالإصلاح السياسى والاقتصادى. ويزداد وضوح تعلق الحملة الأمريكية فى العراق بأمر يزيد على أسلحة الدمار الشامل أو مجرد الإطاحة بالرئيس صدام حسين؛ فهى جزء من إستراتيجية عامة لإعادة هيكلة المنطقة على أسس ديمقراطية وموالية للغرب. ورغم معارضة الكثير من الدول الأوروبية لحرب العراق فى حد ذاتها معارضةً شديدة، فإن هذه الدول توافق بصورة عامة على ضرورة تشجيع الإصلاح الاقتصادى والسياسى فى المنطقة، وهو هم أوروبى قديم. والواقع أنه بما أن أوروبا أقرب من الناحية الجغرافية إلى المنطقة، فإن احتمال تأثير عدم الاستقرار الدائم فى الشرق الأوسط على الأوروبيين يزيد على احتمال تأثيره على الأمريكيين، من الناحية الديموجرافية بالطبع. وقد تفسر هذه النتيجة القلق الأوروبى من الجهود الأمريكية لتشجيع الديمقراطية باستخدام القوة (التصور الخاص بالحالة العراقية)، وهو ما يخشى الأوروبيون أن يتسبب فى قدر أكبر، وليس أقل، من عدم الاستقرار. فالأوروبيون يفضلون أن ينبع الإصلاح الاقتصادى من تحركات داخل المنطقة. غير أنه رغم تلك الاختلافات فى المقاربة، فإن القلق المشترك بشأن إحداث الإصلاح الاقتصادى والسياسى فى العراق، وفى الأراضى الفلسطينية، وفى المنطقة ككل، يعد أساساً قوياً للتعاون عبر الأطلنطى.

النفط

رغم الخلافات المحتملة بشأن سياسات النفط والتنافس المستمر بين الشركات الأوروبية والأمريكية على العقود فى المنطقة فى السنوات المقبلة، ما تزال الولايات المتحدة وأوروبا تشتركان فى حاجة ماسة إلى ضمان التدفق الآمن للنفط من المنطقة. ورغم كون أوروبا أكثر اعتماداً على نفط الشرق الأوسط من الولايات المتحدة، فإن أى انقطاع لتلك الواردات سوف يعرض كذلك الولايات المتحدة للخطر بزعزعته الاقتصاد الكونى. ومع أنه لا يمكن اعتبار حرب العراق حرباً من أجل النفط، فإن القلق فى الدوائر السياسية الأمريكية بشأن الاستقرار المستقبلى فى المملكة العربية السعودية والتعويل عليها فى سلسلة واردات النفط لابد أن يتزايد، حيث إن ١٥ من بين ١٩ مختطفاً فى الحادى عشر من سبتمبر كانوا سعوديين. وسوف يظل الكثير من الأوروبيين على خلاف مع الولايات المتحدة بشأن العراق، إلا أن معظمهم قد يتنفس الصعداء إذا ظهر عراق ديمقراطى موال للغرب يساعد فى النهاية على تنويع واردات النفط من المنطقة، ويقلل الاعتماد الغربى على البيت السعودى.



لأن أوروبا أقرب من الناحية الجغرافية إلى المنطقة، فإن احتمال تأثير عدم الاستقرار الدائم فى الشرق الأوسط على الأوروبيين يزيد على احتمال تأثيره على الأمريكيين

سلام الشرق الأوسط

رغم الخلافات المستمرة بشأن عملية السلام العربية الإسرائيلية، يمثل القلق المشترك بشأن الآثار السلبية لإراقة الدماء المستمرة فى الشرق الأوسط على اتساعه أساساً آخر للاتفاق عبر الأطلنطى. فقبل حرب العراق، أدى الوضع المتدهور على الأرض فى إسرائيل والأراضى الفلسطينية، فى أعقاب اندلاع الانتفاضة الثانية فى سبتمبر ٢٠٠٠ وعدم رغبة الولايات المتحدة فى المشاركة بشكل كامل فى عملية إحلال السلام بين العرب والإسرائيليين فى مستهل عهد حكومة بوش، إلى تكوين مجموعة رباعية خاصة بالشرق الأوسط (تضم الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة وروسيا) فى صيف ٢٠٠٢ وما تلا ذلك من خريطة طريق لسلام الشرق الأوسط.

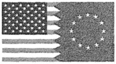
لم يسبق أن تعاونت الولايات المتحدة وأوروبا تعاوناً وثيقاً كهذا بشأن عملية سلام الشرق الأوسط، وإن كانت الولايات المتحدة لا تزال الفاعل المحورى. وإذا أخذنا فى الاعتبار التصدعات عبر الأطلنطية القديمة بشأن قضايا عملية السلام لكان تطور المجموعة الرباعية عظيماً. فقد حصل الأوروبيون على موضع سياسى، وليس اقتصادياً فحسب، على طاولة عملية السلام، بينما يبدو أن الفجوة تضيق بين رؤى الجانبين الخاصة بالتسوية النهائية للصراع العربى الإسرائيلى. فقد اقترب كل من الجانبين من مواقف الجانب الآخر؛ فالولايات المتحدة تؤيد فى الوقت الراهن النتيجة السلمية (حل الدولتين)، وليس مجرد عملية السلام (وإن ود أوروبيون كثيرون لو أن الولايات المتحدة حددت معالم اتفاق الوضع النهائى، كما حدث فى حكومة كلينتون)، بينما تتحرك أوروبا بنشاط فى اتجاه المواقف الأمريكية بشأن

الإصلاحات الفلسطينية. ولا تزال أوروبا والولايات المتحدة مختلفتين حول مسألة إشراك الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات (هناك إجماع بين الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى حول هذه المسألة)، إلا أن الاتحاد الأوروبى أيد الجهود الأمريكية لتشجيع إصلاحات السلطة الفلسطينية وإيجاد رئيس للوزراء لموازنة سلطة عرفات.

رغم الإحباط المتزايد من عدم تنفيذ الإسرائيليين أو الفلسطينيين لخريطة الطريق، والقلق الأوروبى من أن الولايات المتحدة لم تبذل الجهد الكافى فى هذا الخصوص، فإن خريطة الطريقة تمثل المسعى الأمريكى الأوروبى المشترك الأول للتوصل إلى خطة سلام. كما ساهمت المجموعة الرباعية فى تنسيق المواقف الأوروبية، مما ساعد على تحاشى الميل إلى المبادرات الفردية من جانب الدول الأوروبية الكبرى الذى أدى فيما مضى إلى تآكل ثقة واشنطن فى الشريك الأوروبى. وهكذا فإنه رغم تقويض التطورات الإقليمية (أبرزها الإرهاب المستمر ونشاط الاستيطان) لخريطة طريق المجموعة الرباعية، فإن الخوف الأمريكى الأوروبى المشترك من العنف المستمر واحتمال زعزعته للمنطقة على اتساعها يمثل حافزًا قويًا للتعاون عبر الأطلنطى فى هذا الصراع القائم.

رغم كل تلك الحوافز الخاصة بالتقارب حول سياسة الشرق الأوسط، لماذا تستمر السياسات عبر الأطلنطية فى التباعد؟ لماذا نتوقع حدوث توتر عبر أطلنطى بخصوص سياسة الشرق الأوسط فى المستقبل؟ ليست المسائل الهيكلية، كالقوة النسبية أو الجغرافيا، هى العناصر المحددة الوحيدة. وعلى أية حال، فكون أوروبا أقرب إلى الشرق الأوسط وبالتالى أكثر احتمالاً لأن تعانى من عواقب ذلك القدر الكبير من عدم الاستقرار الإقليمى، وأخطار الإرهاب، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، يسهل علينا تخيل سياسات أوروبية أكثر جرأة تتماشى مع سياسات الولايات المتحدة.

كذلك لا يمكن فى الواقع إرجاع الصدع الذى حدث فى سياسة الشرق الأوسط إلى السياسات الداخلية للجانبين. فلا شك فى أن عدد السكان المسلمين الكبير فى أوروبا (حوالى ثلاثة أضعاف الموجودين فى الولايات المتحدة) واللوبى القوى الموالى لإسرائيل فى الولايات المتحدة لهما دور فى تشكيل السياسة، إلا أنه لا ينبغى المبالغة فى قوة هذه الجماعات. فرغم بروز الصراع الإسرائيلى الفلسطينى على المستوى الخطابى، فهو لا يحتل بالضرورة قمة أجندة مسلمين كثيرين فى أوروبا، حيث تؤثر حقوق المهاجرين وغيرها من القضايا الداخلية تأثيراً أكثر مباشرة



القول الأمريكى بأن السياسة الأوروبية تجاه العراق وإيران أملتها اعتبارات مالية صحيح جزئيًا. فهل معنى هذا أن الأوروبيين أكثر جشعًا؟ ولكن ألا تؤثر الشركات الأمريكية على السياسة الأمريكية فى العالم؟

على مجتمعاتهم. ومن ناحية الولايات المتحدة، فإن اللوبى الموالى لإسرائيل نشط وصوته مسموع، إلا أنه ليس قويًا قوة لا حد لها. فالواقع أنه لم يكن من المحتمل أن يحقق ذلك النجاح لو لم يجد ما يقوله صدى لدى الجمهور الأمريكى العريض ووجهة نظره الخاصة بالمنطقة. بل إن جماعات الضغط القوية ليست عوامل محددة فى تكوين السياسة الخارجية الأمريكية. علاوة على أن الزعماء الأمريكيين والأوروبيين يرغبون فى بعض الأحيان فى تحدى الدوائر المحلية (بل وحتى الرأى العام الأكثر اتساعًا) سعيًا وراء تحقيق الأهداف السياسية الخارجية، مثل تحدى الرئيس جورج بوش الأب للوبى الموالى لإسرائيل بموقفه من المستوطنات وضمانات القروض فى عام ١٩٩١، أو موقف رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير المؤيد للحرب فى العراق رغم معارضة الأغلبية الساحقة من الشعب للحرب.

هل تبرر المصالح التجارية والمالية بعض الاختلاف فى السياسات عبر الأطلنطية بخصوص الشرق الأوسط؟ وهل الأوروبيون أكثر اهتمامًا بحماية مصالح الشركات الوطنية من الأمريكيين؟ يتناول روبرت كاجان هذا القول تناولاً جيداً:

القول الأمريكى الشائع بأن السياسة الأوروبية تجاه العراق وإيران أملتها اعتبارات مالية قول صحيح جزئيًا. فهل معنى هذا أن الأوروبيين أكثر جشعًا من الأمريكيين؟ وألا تؤثر الشركات الأمريكية على السياسة الأمريكية فى آسيا وأمريكا اللاتينية وكذلك فى الشرق الأوسط؟ الفرق هو أن الأحكام الإستراتيجية الأمريكية تتضارب فى بعض الأحيان مع المصالح المالية وتتغلب عليها.

بعبارة أخرى، يقل احتمال تضارب المصالح المالية الأوروبية مع الهموم الإستراتيجية لأن الأوروبيين يؤيدون التجارة وتعددية الأطراف، والتعهد والارتباط فى سياستهم الخارجية، بما فى ذلك فى الشرق الأوسط. ويرى الأمريكيون فى بعض الأحيان مصالح إستراتيجية واقتصادية فى التنافس فيما بين الجانبين، فى حين أنه من الأرجح أن ينظر الأوروبيون إلى المصالح الاقتصادية ذاتها على أنها تدعم أهدافهم الإستراتيجية.

فجوات ثقافية

يميز مفهوم الثقافة الإستراتيجية الطريقة التى ترى بها دولة ما أو جماعة ما دور الحرب، واستخدام القوة، وطبيعة أى خصم أو خطر فى النظام الدولى، كما أنه يساعد على تفسير الطريقة التى يواجه بها الفاعلون تلك التهديدات. وتساعد الاختلافات فى الثقافة الإستراتيجية الأمريكية والأوروبية منذ الحرب العالمية الثانية، المتأصلة بشدة فى تجاربهم التاريخية، على تفسير اختلاف المقاربات عبر الأطلنطية للشرق الأوسط. وكما قال كاجان، فقد أسهمت تجربة أوروبا فى فترة ما بعد الحرب فى الثقافة الإستراتيجية المؤيدة للتفاوض، والتجارة، والقانون الدولى والتعددية (وهى أقوى فى بعض الدول الغربية من غيرها)، بينما دعم الموقف الكونى الأمريكى الثقافة الإستراتيجية المؤيدة للدبلوماسية القسرية، واستخدام القوة، والنزعة الأحادية، وإظهار القيم الأمريكية (أو السياسة الخارجية التى تميل أكثر إلى الأخلاق وتتسم بإيحاء دينى مستتر) فى الخارج. كما أسهمت التجربة الأوروبية مع الكولونيالية فى الشرق الأوسط فى النسق العقلى الإستراتيجى لأوروبا، مما أكد حدود القوة العسكرية والاحتلال. بل إن العلاقات ما بعد الكولونيالية بين الأوروبيين والدول العربية والإسلامية تعزز الميل الأوروبى إلى سياسات التفاوض والدبلوماسية.

تؤدى هذه الاختلافات فى الثقافة الإستراتيجية كذلك إلى اختلافات فى السرد التاريخى الأمريكى والأوروبى، أو الرؤى الخاصة بالطريقة التى سارت بها الأمور فى منطقة كالشرق الأوسط على مر السنين. فعلى سبيل المثال، بما أن الأوروبيين بصورة عامة يعارضون استخدام القوة، فإن سردهم التاريخى الخاص بحرب العراق يتطور بطريقة تختلف عن السرد الأمريكى؛ فغالبية الأمريكيين ينظرون إلى حرب العراق على أنها تستحق فقدان الحياة وغيرها مما تفرضه من ثمن، بينما لا ينظر إليها غالبية الأوروبيين النظرة ذاتها. ومع أن هذه الأوصاف ما هى إلا تعميمات بطبيعة الحال، وبالأخص على الجانب الأوروبى بما له من مواقف سياسية خارجية عديدة، فإن هذه الاختلافات الأساسية فى الثقافة الإستراتيجية تستحوذ على جوهر التوجهات السياسية على كل جانب، بما فى ذلك تلك التوجهات الخاصة بقضايا الشرق الأوسط.

تعد المقاربات الأمريكية والأوروبية المختلفة للصراع العربى الإسرائيلى مثالاً آخر للطريقة التى يمكن أن يؤدى بها تباين الثقافات الإستراتيجية والسرد التاريخى إلى السياسات المختلفة. فالأمريكيون ينظرون إلى حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ على أنها حدث تاريخى جوهرى، وأنها كانت حربًا استباقية لابد منها لحماية بقاء إسرائيل. فى حين يرى الأوروبيون حرب ١٩٦٧ على أنها حدث يحدد بداية الاحتلال الإسرائيلى غير المشروع لأرض فلسطين. ورغم استفادة إسرائيل فى بادئ الأمر من تعاطف ما بعد الهولوكوست فى أوروبا، فقد غيرت حرب ١٩٦٧ وما أعقبها من تطورات، وخاصة الانتفاضتين الفلسطينيتين الأولى والثانية، صورة إسرائيل فى ذهن الرأى العام الأوروبى من الدولة المستضعفة المظلومة إلى الدولة المعتدية، حتى داخل

الدول التى جرى العرف على أنها أكثر من غيرها موالاة لإسرائيل مثل ألمانيا وهولندا. ويسمح الانفتاح الأمريكى على استخدام القوة، وخاصة منذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر، بقدر من التغاضى عن سياسات إسرائيل (التى تراها إجراءات ضرورية للدفاع عن النفس) أكثر من المنظور الأوروبى الذى يرى الردود العسكرية الإسرائيلية على أنها غير متناسبة وتضر ولا تنفع. وكما أوضح تحليل صدر مؤخراً، فإن «كثيراً من عدم التعاطف النسبى مع إسرائيل قد تكون له صلة بحقيقة أن إسرائيل دولة قومية نشطة عسكرياً تفضل أن تحارب أعداءها بدلاً من أن يقتلوها هم».

يساعد تفضيل الولايات المتحدة إظهار قيمها، وخاصة الديمقراطية، فى الخارج على تفسير المواقف الأمريكية من إسرائيل وعملية السلام. ذلك أن الانحياز الأمريكى تجاه إسرائيل ليس نتيجة للوبى الموالى لإسرائيل فحسب، بل إن كون إسرائيل ديمقراطية تشارك فى القيم الغربية أمر يروق للجمهور الأمريكى بصورة عامة ويزيد من دعمه السياسى على امتداد الطيف السياسى الأمريكى. وتنبع كذلك رغبة الولايات المتحدة فى الإطاحة بعرفات وتشجيع الإصلاحات السياسية الفلسطينية الداخلية من هذه الثقافة الإستراتيجية، فى حين يساعد تفضيل أوروبا للتفاوض والارتباط والتعهد على تفسير ترددها فى استبعاد الزعيم الفلسطينى.

كما أن الفكرة التى تحظى بقدر كبير من القبول داخل حكومة بوش وبين كثيرين فى المجتمع السياسى الأمريكى، وهى أن التخلف السياسى والاقتصادى للمنطقة على اتساعها هو جوهر مشكلات الشرق الأوسط، تتناقض مع التعاطف الأوروبى مع الرؤية العربية التى تعتقد بأن الصراع العربى الإسرائيلى هو المسئول الأول عن علل المنطقة. وفى النهاية قد يكون الخطر الحقيقى هو وجهات نظر الولايات المتحدة وأوروبا المختلفة اختلافاً شديداً بشأن دور عملية السلام فى دبلوماسية الشرق الأوسط. فواشنطن ترى أن الطريق إلى السلام فى الشرق الأوسط يمر عبر بغداد، بينما يرى الأوروبيون أنه مازال يمر عبر القدس. وقد يكون احتواء الصراع كافياً بالنسبة للولايات المتحدة فى هذه المرحلة، إلا أنه ليس بكاف فى رأى كثيرين فى أوروبا. وهكذا فرغم تزايد التقارب السياسى والتنسيق عبر الأطلنطى بخصوص عملية السلام فى الوقت الراهن عن أية لحظة من لحظات الصراع العربى الإسرائيلى، فمن المحتمل أن يظل هذا الانقسام الأساسى بين المقاربتين الأمريكية والأوروبية للأطراف والقضية نفسها مصدر توتر.

صراعات الأدوار

تساعد مفاهيم الأدوار، أو طرق فهم كل طرف لدوره فى المجال الدولى، على تفسير تحول المقاربات الأمريكية والأوروبية المختلفة للشئون الدولية، ولسياسة الشرق الأوسط على وجه الخصوص، إلى خلافات كبيرة. وتخلق مشاركة الدول فى مؤسسة الاتحاد الأوروبى مفاهيم جديدة للأدوار بالنسبة للدول الأوروبية والاتحاد ككل، وباتت تؤدى إلى صراعات على الأدوار داخل أوروبا بالنسبة لعدد من الدول، وبالتحديد تلك الدول المهتمة باستدامة العلاقات النشطة بالمؤسسات عبر الأطلنطية كالناتو. ورغم كون المشروع الأوروبى عملية مستمرة، فقد أدى انتهاء الحرب الباردة إلى تفكير داخلى جاد بشأن دور أوروبا فى العالم، من النواحى السياسية والثقافية والعسكرية. ومع أن تركيز أوروبا مازال فى المقام الأول على ما هو داخلى، وخاصة فيما يتعلق بمقاربتها لزيادة عدد الدول الأعضاء من ١٥ إلى ٢٥، فإن الإحساس بضرورة إظهار أوروبا لقوتها فى الخارج بطريقة تتناسب مع مكانتها الاقتصادية يتزايد بين الأوروبيين، كما يدل على ذلك استطلاع الرأى الذى أجرته Transatlantic Trends فى عام ٢٠٠٣، إذ ترغب الأغلبية الساحقة من الأوروبيين فى أن يصبح الاتحاد الأوروبى «قوة عظمى مثل الولايات المتحدة».

بعبارة أخرى، يزداد عدم ارتياح الأوروبيين بشأن نموذج «غسل الصحون» الخاص بالسياسة الخارجية، أى تولى مسألة تنظيف المكان بالدعم الاقتصادى وحفظ السلام بعد العمليات الأمريكية. كما تزداد رغبتهم فى أن يكون لهم رأى فى القرارات السياسية الأولية، بل وفى العمليات العسكرية إذا استدعى الأمر. وكلما تطور مفهوم الدور الأوروبى من التركيز الداخلى على خلق «الفردوس» النموذجى كى يحاكيه الآخرون إلى الاهتمام النشط بإظهار النفوذ خارج القارة، كان من الأرجح حدوث صدام مع الولايات المتحدة التى لها مفهوم للأدوار ازداد قوة خلال العقد الماضى، وهو ذلك المفهوم الخاص بالدولة التى لا غنى عنها والمسئولة مسئولية مطلقة عن النظام الكونى.

التعاون الإجبارى

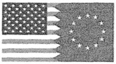
كيف تدير الولايات المتحدة وأوروبا هذه الخلافات عميقة الجذور فى مقارباتهما لسياسة الشرق الأوسط؟ يمكنهما على وجه التحديد اتخاذ الخطوات التالية نحو معالجة مشكلات المنطقة الأساسية:

❖ ينبغى على الولايات المتحدة تحاشى اتجاهها الحالى الخاص بالانتقاء من بين الحلفاء الأوروبيين، مما يشجع ضمنيا على الانقسام الأوروبى.

❖ لا شك فى أنه يمكن أن يكون لأوروبا عمل علاقات عامة أفضل فى الولايات المتحدة، بشرحها لمدى إسهاماتها فى أمن الشرق الأوسط وطبيعة تلك الإسهامات. وباعتبار ما لها من سمعة سيئة فيما يتعلق بالشرق الأوسط، وخاصة بعد حرب العراق، سوف تكون هذه المهمة صعبة ولكنها ليست مستحيلة.

❖ تحتاج السياسة الجيدة إلى رؤية، وإن كانت الرؤية وحدها لا تكفى. فلابد للولايات المتحدة وأوروبا من تحسين التنسيق فيما يخص تعزيز التعاون الإقليمى العملى، إلى جانب الإصلاحات السياسية والاقتصادية.

❖ علاوة على تشجيع الإصلاحات الإقليمية بشكل مشترك، ينبغى على الولايات المتحدة وأوروبا (ومن الأفضل أن يكون ذلك بوجود الروس) تأييد تجديد عملية الأمن الإقليمى فى الشرق الأوسط.



واشنطن ترى أن الطريق إلى السلام فى الشرق الأوسط يمر عبر بغداد، بينما يرى الأوروبيون أنه مازال يمر عبر القدس. وقد يكون احتواء الصراع كافيًا بالنسبة أمريكا، إلا أنه ليس بكاف فى رأى كثيرين فى أوروبا

يوضح نموذج العراق الحاجة إلى الدعم المادى والسياسى من الحلفاء الأوروبيين لمعالجة التحديات المشتركة الصادرة عن الشرق الأوسط المعالجة الواجبة. ولا يمكن حل أى من المشكلات الأساسية فى المنطقة حالياً - الإرهاب، وانتشار الأسلحة النووية، والصراع العربى الإسرائيلى، والعراق، والإصلاحات السياسية والاقتصادية الإقليمية - بواسطة قوة واحدة فقط. فالشرق الأوسط المستقر والديمقراطى والمزدهر يعتمد على الولايات المتحدة وأوروبا اللتين تعملان معاً فى المنطقة.

إن بناء التعاون على مجالات كتلك التى حددناها آنفا لتشجيع الأجندة عبر الأطلنطية لن يضيّق هوة الانقسام عبر الأطلنطى بالكامل ولن يحول دون وقوع أزمات فى المستقبل، إلا أنه يمكن أن يساهم فى إيجاد مقاربة براجماتية، عسى أن تكون بناءة أكثر، للمنطقة قد تؤثر على الاستقرار الكونى لفترة مقبلة. وليس فى مقدور الأمريكيين والأوروبيين أن يكونوا راضين عن أنفسهم وأن يتوقعوا أن تسفر مجموعة من الأخطار المشتركة الصادرة عن الشرق الأوسط بشكل طبيعى عن تعاون عبر أطلنطى. بل لابد للجانبين من الاعتراف بكيفية كثرة الاختلافات فى مقارباتهما للمنطقة وأسباب ذلك، ثم العمل بنشاط لتنمية الأجندة والحوار الإستراتيجيين المشتركين بشأن المشكلات الرئيسية فى الشرق الأوسط لضمان حدوث هذا التعاون بالرغم منها. ■

مستقبل الشراكة الأطلسية

حمدى عزام

■■ يمر العالم بتطورات متلاحقة بسبب تغير السياسة الأمريكية وسيطرة اليمين المحافظ على البيت الأبيض مما أربك العلاقات الدولية، وطرح تساؤلات عن خلفياتها وأهدافها ومخاوف من تأثيرها على مستقبل عالم القطب الواحد، وتأثر العالم العربى بذلك على ضوء استهداف الشرق الأوسط، وما تبع ذلك من أحداث عنيفة بالمنطقة أدت إلى تصاعد موجة العداء لأمريكا بين شعوب العالم الثالث، وتجاوزتها إلى نقد حاد من حلفائها التقليديين فى أوروبا.

ولم تكن الإدارة الأمريكية تتوقع عند غزوها للعراق أن يكون رد فعل الشارع الأوروبى بهذا العنف والإجماع، فبالرغم من تأييد تونى بلير وبرلسكونى وأزنار للغزو انطلقت أكبر المظاهرات من شوارع إيطاليا وفاقت نسبة الرافضين للحرب فى اسبانيا ٨٥٪ وأكثر من ٦٥٪ من البريطانيين الذين خرجوا فى أكبر مظاهرات ضد الولايات المتحدة منذ حرب فيتنام وأعلنت حكومات فرنسا وألمانيا موقفاً رسمياً يشجب الغزو ولعب موقف جيرهارد شرويدر المعارض لما أسماه المغامرة الأمريكية دوراً أساسياً فى تحول أصوات الناخبين لصالحه وانتخابه مستشاراً لألمانيا.

ولعل الموقف الألمانى كان الأكثر مفاجأة للإدارة الأمريكية التى اعتادت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية النظر إلى ألمانيا كشريك مضمون يساند سياستها على طول الخط وتعتمد عليه فى إبلاغ صوتها للاتحاد الأوروبى وإقناع فرنسا شريكها فى قيادة القاطرة الأوروبية بأخذه بعين الاعتبار. واتهمت أجهزة الإعلام الأمريكية الألمان بالجحود ونكران الجميل وتناسى المساعدات الأمريكية القيمة من خلال مشروع مارشال لإعادة بناء ألمانيا بعد الحرب والجسر الجوى لفك حصار برلين، وتمركز ثمانين ألف جندى أمريكى فى أراضيها إبان الحرب الباردة لحمايتها من تهديد المعسكر الشرقى عبر الحدود مع ألمانيا الشرقية.

وتزايد الخلاف بعدما رفض وزير الخارجية يوشكا فيشر القائمة التى قدمها له بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر بأيام وزير الخارجية الأمريكى كولين باول وولفويتز نائب وزير الدفاع وتضم ستين دولة يتهمها بمساندة وإيواء الإرهاب. كما رفضت ألمانيا الأفكار الأمريكية عن «محور الشر» واستغلت حق الفيتو داخل حلف الأطلسى لعرقلة إرسال قواته إلى تركيا بمقولة حمايتها عند بدء الحرب على العراق، وأعلن المستشار شرويدر رفض المشاركة فى مغامرة عسكرية فى العراق حتى ولو وافقت الأمم المتحدة على ذلك، مما اعتبرته الولايات المتحدة موقفاً أحادياً وعدائياً من ألمانيا، وأصبح بذلك عام ٢٠٠٣ عاماً مرعباً Annus Horribilis فى تاريخ العلاقات الأمنية الألمانية الأمريكية والشراكة الأطلسية. وانعكس ذلك بشدة على الشارع الألمانى الذى يصف مشاعره كارلهاينز كامب منسق السياسة الأمنية فى مؤسسة كونراد اديناور التابعة للحزب المسيحى الاجتماعى بقوله: «إن انتشار صورة أمريكا كدولة تتزايد قوتها العسكرية مع اضمحلال مصداقيتها الدولية جعل من الصعب على الرأى العام الألمانى تفهم أو دعم مغامراتها العسكرية.. وأن عدم جدية الأسباب التى أبدتها لتبرير حربها على العراق وما شاب ذلك من عدم وضوح وخلط، أدى إلى رفض الغالبية العظمى لذلك وفتح المجال لنظرية المؤامرة.. مرة بإرجاعها إلى الرغبة فى السيطرة على مصادر النفط، ومرة أخرى بمقولة أن اللوبى اليهودى بأمريكا هو القوة الدافعة وراء خطط الرئيس الأمريكى. ويضيف إلى ذلك أن هناك اتفاقاً فى الرأى بين الاشتراكيين والعناصر المحافظة فى ألمانيا بأن تصرفات وأعمال الولايات المتحدة هى الدافع الأساسى لكراهية أمريكا فى العالم الإسلامى».

وفى حقيقة الأمر فإن الشعب الألمانى لا يكن عداء أو كراهية للشعب الأمريكى. لكن من المؤكد أنه أصبح يشعر بقلق شديد وتنتابه الشكوك حول السياسة الجديدة التى يعتمدها الرئيس الأمريكى، مما أدى إلى إقبال الرأى العام الألمانى بشكل منقطع النظير على التهام الترجمات والمؤلفات التى تنتقد سياسة بوش واليمين المحافظ وصدور سيل من الأبحاث والدراسات التحليلية عنها.

الهيمنة على العالم

تذهب معظم التحليلات الأوروبية إلى أن الأفكار والتطلعات إلى سيطرة الولايات المتحدة على العالم وانفرادها بزعامته ليست جديدة، ولم تترتب على مقاومة الإرهاب أو غزو العراق حيث إن ثنائية قطبى العالم بوجود الاتحاد السوفيتى لم توفر لرونالد ريجان أو بوش الأب الفرصة لتطبيقها، فاكتفت الإدارات الأمريكية السابقة باتخاذ موقف سلبى تجاه الأمم المتحدة والقانون الدولى، والقيام بدور منفرد تسلطى فى مشكلة يوغوسلافيا والبوسنة أزعج الحلفاء الأوروبيين ودفعهم لاتخاذ قرارهم بتشكيل قوة عسكرية أوروبية مستقلة بجانب حلف الأطلسى. كما امتنع بوش عن المشاركة فى الجهود الدولية لحماية البيئة والحد من استخدام الألغام الأرضية، والتحكم فى التسلح خاصة فى مجال الأسلحة البيولوجية، ورفض خضوع القوات الأمريكية للمساءلة أمام القانون الدولى، وخلافاً لسياسة سلفه كلينتون الذى اهتم بمعالجة المشاكل الداخلية، ركز بوش اهتمامه على الجيش وأجهزة الأمن بمقولة مجابهة الأخطار الخارجية وحماية الأمن الداخلى، وتراجع عن السياسات السابقة للتهدئة فى الشرق الأوسط ونزاع الصين وتايوان ومشكلة كوريا الشمالية. وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار الكتلة الشرقية استغل عملية تفجير برجى التجارة العالمية فى نيويورك لتطبيق سياسة الهيمنة مستنداً إلى دعم الرأى العام الداخلى وتعاطف القوى الدولية مع الحرب ضد الإرهاب وبدأ بمناطق مختارة هى الشرق الأوسط ووسط آسيا للسيطرة على مصادر الطاقة والقضاء على ما يتصوره من بؤر للإرهاب فى العالم العربى وأفغانستان وباكستان وأندونيسيا وماليزيا، إضافة إلى تواجده حول بحر قزوين لمجابهة التكتلات البشرية الكبرى كروسيا والصين والهند وباكستان مستقبلاً.

وقفزت ميزانية الدفاع إلى أكثر من ٤٠٠ مليار دولار يصب القسم الأكبر منها فى خزائن شركات السلاح والخدمات العسكرية وشركات الالكترونيات بوادى السيليكون فى كاليفورنيا وبرامج الفضاء. وكان لالتزام بوش فى برنامجه الانتخابى بزيادة نفقات الدفاع أثره فى دعم الشركات لحملته بمائة مليون دولار متوقع أن تصل إلى ١٧٠ مليون دولار فى الحملة الانتخابية المقبلة وأدت سياسته الاقتصادية القائمة على زيادة العجز فى الميزانية لزيادة الإنفاق العسكرى مع خفض الضرائب إلى وصول مديونية الدولة إلى ما يزيد على ٥٢١ مليار دولار. ويخشى البعض من أن يؤدى هذا التمازج القوى بين العسكرية والاقتصاد إلى تعقيدات فى حل المشاكل والنزاعات الدولية والإقليمية وتشجيع الاتجاه لاستعمال القوة العسكرية أو الضربات الوقائية ومن عدوى انتشار هذه السياسات إلى أوروبا والعالم الثالث.

النزاع الأوروبى ـ الأمريكى:

من الواضح أن الشراكة الأطلسية التى كانت الركيزة الأساسية للغرب إبان الحرب الباردة تمر حالياً بانتكاسة، لا يخفيها ارتداء فرنسا وألمانيا القفاز الدبلوماسى الناعم لتفادى المزيد من المجابهة مع الولايات المتحدة، وكما يقول هارالد موللر أستاذ العلوم السياسية فى جامعة يوهان ولفجانج جوته «فإن رد الفعل الأوروبى على غزو العراق لم يكن

الشعب الألمانى لا يكن عداء أو كراهية للشعب الأمريكى. لكن من المؤكد أنه أصبح يشعر بقلق شديد بشأن السياسة التى يعتمدها الرئيس الأمريكى، مما أدى إلى إقبال الألمان بشكل منقطع النظير على التهام الترجمات والمؤلفات التى تنتقد سياسة بوش

انعكاسًا آنيًا مؤقتًا بل يشكل القمة لمجموعة من الخلافات حول (الأحادية) بالمفهوم الأمريكى و(التعددية) بمفهوم أوروبى تمثله فرنسا وألمانيا، ولا يمكن حله أو إخفاؤه بالتحدث عن تعددية بالمفهوم الأمريكى بمعنى خضوع أكبر قدر ممكن من الدول لما تفرضه أمريكا من قواعد. ورغم هدوء أمواج التصادم وحرص الطرفين على إظهار قدر من التوافق، فمازال القلق والخلاف يستشرى تحت السطح». وتحكم هذا الخلاف إشكاليتان أساسيتان: أولاهما أن الولايات المتحدة التى تتطلع وتعمل على الانفراد بزعامة العالم تحتاج إلى مساعدة وتعاون الدول الأخرى. والثانية أن الشريك الأوروبى أقوى من أن يقبل بدور التابع المهمش وأضعف من أن يفرض نفسه كشريك على قدم المساواة مع الولايات المتحدة.

لقد أدى انتهاء الحرب الباردة وزوال العدو المشترك إلى تركيز الجهود الأوروبية فى اتجاه تكامل يشمل أيضًا أوروبا الشرقية مع الميل إلى تحويل قسم من إنفاقها العسكرى إلى التنمية بعد تضاؤل خطر المجابهة العسكرية مع الشرق. وخططت أوروبا سياستها الأمنية على محاور تعتمد دورًا للقانون الدولى ومجلس الأمن وتفضل استعمال الأساليب السياسية والاقتصادية على اللجوء للتدخل العسكرى المباشر. وفى مقابل ذلك اتجهت الولايات المتحدة إلى زيادة قوتها وتواجدها العسكرى واعتماد مصلحتها القومية كأساس لسياستها.

وينتهى هذا التحليل إلى أن ضعف التواجد الأوروبى الموحد على الساحة الدولية شجع إدارة بوش على الاندفاع بقوة فى طريق الهيمنة على عالم القطب الواحد وتهميش دور حلفائها الأوروبيين مع الاستفادة فى نفس الوقت من التباين الشديد فى القوة العسكرية حيث زادت ميزانية الدفاع الأمريكية عن ضعف ميزانيات الدفاع لروسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والصين مجتمعة!!

يضاف إلى ذلك أن التحول الكبير فى الساحة السياسية الأمريكية وسيطرة أقصى اليمين المحافظ على صنع القرار أفقد الشراكة الأطلسية أسس تجانس الفكر السياسى الذى كان يعتمد على دور مهم لقوى الوسط والحد من الاندفاع لأقصى اليمين أو اليسار، وبالرغم من قوة الولايات المتحدة العسكرية والاقتصادية غير المسبوقة فى التاريخ فإن تصورها إمكان انفرادها بمجابهة وحل كل مشاكل العالم وتواجدها فى كل أركانه، هو تفكير غير واقعى، فهى لا تملك المقومات المادية والبشرية لتحقيق ذلك وتحتاج إلى تعاون القوى والدول الأخرى كما يحمل هذا التصور مخاطر استفزاز يؤدى لقيام تكتلات معارضة لها كما حدث فى التقارب الفرنسى الألمانى الروسى والصينى إبان الغزو العراقى. وأن تصاعدالشكوك في العالم الثالث حول وجود مضامين امبريالية من شأنها تشجيع التطرف والإرهاب، وكما يقول فيكتور ماور رئيس قسم أبحاث الأمن الأوروبى فى جامعة زيورخ السويسرية بأنه خلافًا للوضع فى أواسط آسيا فإن أفكار الهيمنة لم تلق تعاطفًا أو تفهمًا من دول الشرق الأوسط، مما دفع بعض متخذى القرار فى الولايات المتحدة إلى الاتجاه إلى نوع من المنطق والفكر الإمبريالى».

كما أن سياسة فرض الحلول أثبتت فشلها فى تجربتها الأولى على ما تسميه بالمناطق المختارة. فلم يستقر الوضع فى العراق وزادت حدة المقاومة وتوجهت عناصر متطرفة للتجمع بداخله وارتفعت حرارة النزاع والمجابهة الإسرائيلية الفلسطينية بحيث أصبحت خطة الطريق تسمى عرقلة الطريق ولم تنجح نظرية «الصدمة للعالم العربى» إذ يجابهها رفض لأفكار فرض الديمقراطية أو تغيير نظام الحكم من الخارج. وللنظرية القائلة بأن تقاعس أو تأخر العالم العربى فى تحقيق التقدم والديمقراطية أوجد تربة خصبة للتطرف ويبرر التوجهات الإمبريالية والحرب الوقائية ويرجعون ذلك إلى عدم إدراك لجذور المشاكل وخصوصيات المنطقة أو تجاهل ذلك عمداً لإخفاء أهداف أخرى.

ضعف التواجد الأوروبى الموحد على الساحة الدولية شجع إدارة بوش على الاندفاع بقوة فى طريق الهيمنة على العالم وتهميش دور حلفائها الأوروبيين مع الاستفادة فى نفس الوقت من التباين فى القوة العسكرية التى تميل بشدة لصالح أمريكا

وبالنسبة لمستقبل العلاقات الأطلسية يرى هارالد موللر أن أوروبا بحكم مصالحها لن تنصاع لخضوع مطلق للإرادة الأمريكية ولكنها ستعمل جهدها لتفادى المجابهة معها، مع السعى فى نفس الوقت لتشكيل وزن أوروبى فعال وزيادة قدراتها العسكرية، مما يرتب أعباء على ألمانيا باعتبارها الدولة الأوروبية الأكثر امتلاكًا لمصادر الثروة والنمو الاقتصادى. ويضيف أيريش راينز إلى أن تواجد أوروبا كشريك قوى سيسهم فى دفع اليمين المحافظ فى الولايات المتحدة للتخلى عن أفكار القهر وفرض الإرادة. وتدعو غالبية الآراء إلى ضرورة تطوير السياسة الأمنية الأوروبية بما يتيح لها مزيداً من التواجد على الساحة الدولية ومجابهة الأخطار وتفتح مجالاً للتعددية المتعاونة فى عالم القطب الواحد.

ويرى عدد من الباحثين أن مثل هذه السياسة القائمة على التعددية المتعاونة وفى ظل قبول لزعامة القطب الأوحد، قد تلقى قبولاً من الولايات المتحدة فى تطبيقاتها بالنسبة لداخل القارة الأوروبية والمناطق المتاخمة لحدودها مادامت لم تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية ومع الاهتمام بتركيا كقنطرة إلى العالم الإسلامى.

ويرون بالنسبة للدور الأوروبى خارج هذه المنطقة ضرورة أن يعتمد على مبدأ «سياسة التعاون المتوازن» وهو ما يتطلب تفهماً واقتناعاً من الولايات المتحدة بأن وحدة أوروبا وتقوية قدراتها العسكرية لا يهدد مصالحها بل يؤدى إلى التخفيف من أضرار وأخطار توسع أمريكى جيواستراتيجى مفرط فى أنحاء العالم لا تستطيع تحمل عبئه بمفردها على المدى الطويل.

وفى نفس الوقت، فلابد من الإشارة إلى الصعوبات التى قد تواجهها أوروبا بعد اتساع الاتحاد الأوروبى ليشمل ٢٥ دولة، قسم منها يتوجه نحو تقارب مع الضفة الأخرى من الأطلسى، مما أدى إلى انقسام يجب الحد من تفاقمه لأنه قد يغرى اليمين الأمريكى بالانزلاق إلى سياسة فرِّق تسد. كما أن هناك أملاً فى أن تؤدى الانتخابات الأمريكية القادمة إلى الحد من سيطرة اليمين المحافظ على الإدارة الأمريكية والتخفيف من المقاربات المتطرفة.

وفى هذا الصدد يذكر كارستن فوجت منسق العلاقات الألمانية الأمريكية بوزارة الخارجية الألمانية، أن قبول الدور المتميز للولايات المتحدة دوليًا على المدى الطويل لن يتحقق إلا بعودتها إلى أخذ القانون الدولى والمؤسسات الدولية بعين الاعتبار، والاستعداد للاستماع إلى آراء حلفائها الأطلسيين مما يزيد إقبال أوروبا عليها ومساندتها كدولة ديموقراطية والاقتناع بأنها لن تستطيع حل المشاكل الدولية بخطوات عسكرية وقائية منفردة. وعليه فيجب البدء فى البحث عن استراتيجية أطلسية جماعية فى نطاق القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة تضمن بالضرورة دورًا لحلف الأطلسى والاتحاد الأوروبى فى مجابهة الأخطار والمشاكل الدولية.

لقد بدأت الحملات الانتخابية فى الولايات المتحدة وستجتمع الدول الصناعية الثمانى لرأب الصدع فى العلاقات الدولية الأمريكية خاصة الأطلسية مع تركيز على معالجة أوضاع الشرق الأوسط ولا تتوانى إسرائيل عن تحرك نشط لتأمين وزيادة مكاسبها فى هذه الأجواء.

وقد أدت التطورات الدراماتيكية العنيفة فى المنطقة العربية إلى قدر من الديناميكية فى التركيز على التنمية والتقدم، وأهمية دعم وتطوير الديموقراطية، والدعوة إلى حد أدنى من التكامل أو توحيد الجهود العربية، وفى ذلك استجابة لقلق الشارع العربى وتساؤلاته عن الدور العربى الإقليمى سواء فى عصر زعامة أو هيمنة أمريكية أحادية أو بالتكامل مع تعاون أطلسى متوازن ولعل مؤتمر القمة العربى القادم يجيب عن هذه التساؤلات. ■

لا يوجد من

رغم كثرة الحديث عن التعاون الاقتصادى العربى، أو التكامل أو حتى الاندماج، فلا تزال العلاقات الاقتصادية العربية/العربية محدودة. فمنذ إنشاء جامعة الدول العربية فى ١٩٤٥ ثم المجلس الاقتصادى والاجتماعى فى ١٩٥٣ ومجلس الوحدة الاقتصادية العربية ١٩٥٧، ورغم العديد من الاتفاقات الاقتصادية العربية، فلا تزال التجارة البينية العربية أقل من ١٠٪ من حجم التجارة الخارجية للدول العربية فى حين أنها تبلغ حوالى ٤٠٪ فى مجموعة الدول الأسيوية وأكثر من ٢٠٪ فى دول أمريكا اللاتينية، فضلاً عن السوق الأوروبية التى تزيد فيها التجارة البينية على ٦٠٪. ولا يقتصر الأمر على ضآلة حجم التجارة العربية البينية، بل إن معدل نموها شهد فى التسعينيات تناقصاً وليس تزايداً. ونأمل أن يكون فى توقيع اتفاقية منطقة التجارة العربية الحرة فى ١٩٩٨ والبدء فى تنفيذها ما يغير من هذه الأوضاع والتوجهات.

ويعترف معظم الاقتصاديين بوجود عدد من العقبات المادية أو المؤسسية التى أعاقت، فى وقت أو آخر، من نمو التجارة العربية على النحو المأمول به. وهناك تداخل فى كثير من الأحيان بين العقبات المادية والمؤسسية. فمن بين العقبات المادية نحو نمو التجارة ضعف شبكة المواصلات من طرق وخطوط ملاحية وخدمات مرتبطة. ومع ذلك فكثيراً ما تزيد الإجراءات المتبعة من أسباب عرقلة انسياب التجارة بين الدول. فإذا كانت شبكة الطرق بين مختلف الدول غير كافية، على عكس الوضع مثلاً بالنسبة للدول الأوروبية، فإن إجراءات الحدود والتخليص الجمركى كثيراً ما تزيد الأمور تعقيداً مما يؤدى إلى رفع تكلفة النقل. أضف إلى ذلك أن هناك علاقة تبادلية يختلط فيها السبب بالنتيجة فى العلاقة بين نقص حجم التجارة العربية البينية ونقص خطوط الملاحة البحرية بين مختلف الموانى العربية. فنتيجة لصغر حجم التجارة العربية البينية بين الدول العربية لا توجد خطوط ملاحية كافية ودائمة وبالتالى ترتفع تكلفة النقل بين هذه الدول. وبالمقابل، فإنه نظراً لعدم توافر الخدمات الملاحية بشكل كاف، فإن فرصاً للتجارة تضيع. وهكذا، تتداخل الأسباب مع النتائج، وتصبح هذه العقبة سبباً لنقص التجارة ونتيجة فى نفس الوقت.

وبالإضافة إلى هذه العقبات المادية، كانت هناك عقبات سياسية ومؤسسية، وخاصة فى الستينيات عندما انقسم العالم العربى إلى معسكرين، معسكر الدول «التقدمية» أو الاشتراكية من ناحية، ومعسكر الدول «الرجعية» أو الرأسمالية من ناحية أخرى. وبصرف النظر عن دقة الأوصاف، فقد عكس هذا الانقسام السياسى والأيديولوجى قطيعة كبيرة فى العلاقات الاقتصادية لأسباب سياسية وأيديولوجية. ورغم أن هذه الأوضاع قد تلاشت إلى بعيد منذ السبعينيات، فإن آثار هذه الفترة مازالت قائمة فى الأذهان بدرجات متفاوتة. فمن ناحية مازالت هناك «ذكريات» الشكوك والريبة المتبادلة، وهناك أيضاً مؤسسات نشأت فى ظل هذه الأوضاع، وبالتالى استمرت فى ممارسات قديمة حيث يصعب تغييرها بين ليلة وضحاها.

على أن الأمر لابد أن يكون أعمق مما تقدم فهذه العقبات أو معظمها، لا تعدو أن تكون أموراً وقتية ما تلبث أن تزول. وبالفعل فإن العديد من هذه العقبات، مادية ومؤسسية، قد تلاشت أو تضاءلت إلى حد بعيد خلال الثلاثين سنة الماضية، ولم تزل حال التكامل الاقتصادى العربى على ما هى عليه. فمنذ السبعينيات وقد بدأ التناقض الأيديولوجى فى الزوال، واتجهت معظم الدول العربية إلى الأخذ بشكل أو آخر من أشكال اقتصاد السوق والدعوة إليه. كذلك فإن الاستثمارات فى البنية الأساسية، من حيث شبكة المواصلات وسعة الموانى وحجم خطوط الطيران قد زادت بدرجة كبيرة. ومع ذلك فإن ذلك لم ينعكس فى شكل تغيير ملحوظ فى حجم العلاقات التجارية العربية، ومن ثم فلابد من البحث عن أسباب أكثر عمقاً وراء هذه الظاهرة.

ويمكن القول بأن تضاؤل النتائج المتحققة فى ميدان التعاون الاقتصادى العربى يطرح قضية منطقية بالنسبة لمدى عقلانية العمل العربى. وهل يعمل «النظام العربى» لمصلحته أم ضد مصلحته؟ السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: لماذا لم يتحقق التكامل الاقتصادى العربى فى الواقع رغم كثرة الحديث عنه؟

هل هناك منطق اقتصادى؟

إذا كان صحيحاً أن مزيداً من الاندماج الاقتصادى الإقليمى (العربى) نافع ومفيد، فإن السؤال يطرح نفسه، لماذا إذن لم يتحقق هذا التقارب الاقتصادى العربى، ولماذا ظل شعاراً للمناسبات أكثر منه حقيقة على أرض الواقع؟ هل معنى ذلك انعدام فى الرشادة الاقتصادية، بحيث يتجاهل المسئولون العرب مصالحهم ويتخذون مسارات ضد هذه المصلحة؟ ويتضمن طرح الموضوع بهذا الشكل عدة أمور يصعب التوفيق بينها؛ وهى أن:

١. هناك اتفاق على أن مزيداً من التعاون والاندماج الاقتصادى يؤدى إلى تحقيق مصلحة اقتصادية جوهرية للدول العربية.

٢. رغم الاعتراف بهذه المصلحة، فإن هذا التعاون لا يتحقق على أرض الواقع بدرجة كافية رغم التغنى بمزايا الوحدة عبر نصف قرن من الزمان.

٣. أخيراً يصعب أن ننسب إلى المسئولين فى الدول العربية عدم رشادة السلوك أو انعدام المنطق فى سياساتهم. فالمسئولون السياسيون فى معظم الدول العربية، رغم ما قد يبدو أحياناً، يتصرفون عادة بدرجة كبيرة من الرشادة والدهاء السياسى ولا ينقصهم المنطق السليم فى الاستقرار والاستمرار السياسى. فكيف تفوتهم هذه الحنكة السياسية عندما يتعلق الأمر بالمصالح الاقتصادية؟

هذه هى المعضلة. كيف يمكن التوفيق بين هذه المقولات الثلاث المشار إليها، كيف تكون رشيداً ومنطقياً فى سلوكك السياسى بشكل عام، ولا تعمل فى نفس الوقت على تحقيق أوضاع تزيد من «المنفعة الاقتصادية العامة»؟

لعل الإجابة على هذا التناقض تكمن فى تحديد معنى «المنفعة الاقتصادية العامة»، ومدى ما تتضمنه من تكاليف بالنسبة لمتخذ القرار، الأمر الذى يتطلب التذكير بفكرة «السلعة العامة».

التكامل الاقتصادى «سلعة عامة»:

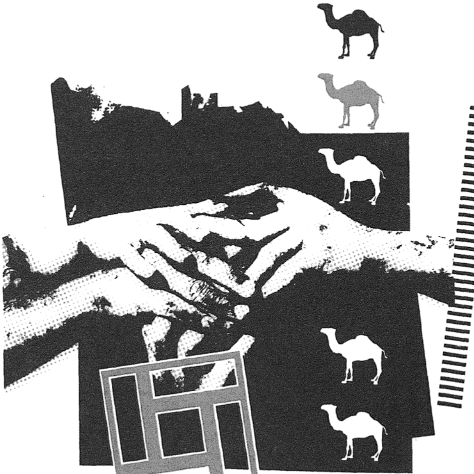
يعرف الاقتصاديون «السلعة» بأنها كل شىء نافع من ناحية وأن توفيرها يتطلب تكلفة أو تضحية من ناحية أخرى. فالسلعة يجب أن تكون نافعة ولكنها أيضاً ليست مجانية بل إن لها تكلفة. فليس كل شىء نافع سلعة. فالهواء وهو أنفع الأشياء لا يعتبر سلعة لأنه لا يكلف شيئاً (لم يعد الأمر كذلك بشكل مطلق. فنظراً لأننا نعيش فى عالم ملوث، فقد أصبح الحصول على الهواء النقى مكلفاً من حيث الذهاب إلى الأماكن النظيفة والتى لم تفسدها أشكال التلوث البيئى). والأصل أن العلاقة بين المنفعة والتكلفة تحدد ما ينتج من سلع، فما دامت المنافع تزيد على التكاليف، فإن المجتمعات تتجه إلى توفير هذه السلع حيث إن ما تحققه من ورائها من منافع يزيد على ما تتحمله من تكاليف وأعباء. وتقوم عادة السوق بتوفير هذه السلع. ولكن هذا الأمر لا يتحقق دائماً فى الواقع حيث إن هناك من السلع التى لا شك فى منافعها والتى تزيد فيها هذه المنافع على تكاليفها، ورغم ذلك فإنها لا تتوافر تلقائياً فى السوق. وهذا يقتضى التفرقة بين ما يعرف بـ«السلع الخاصة» private goods و«السلع العامة» public goods.

ويشترك النوعان فى أن توفيرهما يتطلب تكاليف وأعباء، وبالتالى فهى ليست منحاً مجانية، ولكنهما يختلفان فى نوع المنفعة التى تترتب عليهما ومدى إمكان الاستئثار أو شيوع الانتفاع بها. أما التكاليف فلابد أن يتحملها أفراد أو مؤسسات بعينها. وما لم يكن هؤلاء الأفراد والمؤسسات على استعداد لتحمل تكاليف إنتاج السلعة، فإنه لا يمكن توفيرها مهما بلغت منافعها. ولذلك فإن توفير أى سلعة

التجارة البينية العربية أقل من ١٠٪ من حجم التجارة الخارجية للدول العربية فى حين أنها تبلغ حوالى ٤٠٪ فى مجموعة الدول الآسيوية وأكثر من ٢٠٪ فى دول أمريكا اللاتينية، فضلاً عن السوق الأوروبية التى تزيد فيها التجارة البينية على ٦٠٪

حازم الببلاوى

لماذا لا يتكامل العرب اقتصاديا؟



أحمد اللباد

إنما هو رهن بمدى توافر الاستعداد لتحمل تكاليف وأعباء توفيرها، فإذا لم يوجد هذا الاستعداد فلن تنتج هذه السلع وإن طال الحديث عن أهميتها. وبطبيعة الأحوال فإن الاستعداد الاختيارى لتحمل تكاليف وأعباء توفير السلعة، إنما يرتبط بمدى تقدير المنفعة العائدة من هذه السلعة ومقارنة هذه المنفعة بالتكاليف المطلوبة. والعبرة هنا بالمنفعة والتكلفة العائدة لمن يتحمل التكلفة، أما ما يعود على الغير فإنه لا يدخل فى الحساب. ولذلك فمن الضرورى أن تكون هذه المنافع قابلة للاستئثار وليست شائعة. وهنا نجد أن السلع تختلف فيما بينها من حيث شيوع أو استئثار المنافع المترتبة عليها وهذا هو أساس التفرقة بين «السلع الخاصة» و«السلع العامة». فالأولى تعرف مبدأ الاستئثار principle of exclusion بمعنى أن المستخدم للسلعة يفيد منها. بشكل عام. وحده دون مشاركة الآخرين، وبالتالى فإنه يكون عادة على استعداد لتحمل تكاليفها. وتنجح السوق بالتالى فى توفيرها. أما «السلع العامة» فإن منافعها تكون عادة شائعة، فمتى أديت لفرد فإن الغير يمكن أن يفيد منها بلا تكلفة، الأمر المعروف فى أدبيات الاقتصاد بـ«الراكب المجانى» free rider. ومن هنا فإن السلع العامة تثير عادة مشكلة كبرى فى توفيرها. فهى ليست أقل أهمية أو فائدة من «السلع الخاصة»، بل قد تكون أكثر أهمية، مثل توفير الأمن والاستقرار والعدالة ونظام نقدى مستقر ومرافق عامة. ومع ذلك فالغالب ألا يتقدم أحد، اختياراً، لتحمل تكاليف توفيرها. فلا يوجد أى تناقض أو عدم رشادة فى التأكيد على أهمية ومنفعة سلعة أو خدمة من ناحية وعدم إمكان توفيرها من ناحية أخرى. فالاعتراف بمنفعة السلعة أو الخدمة لا يعنى، منطقياً قبول تحمل أعباء وتكاليف إنتاجها وتوفيرها. فقد تتركز التكاليف والأعباء على فئة فى حين أن المنفعة تكون شائعة وموزعة على آخرين. وبالتالى نكون بصدد سلعة أو خدمة عامة بحيث لا يكون أحد مستعداً لتحمل أعباء توفيرها، ولذلك فإنه من المتفق عليه أن السلع والخدمات العامة لا يمكن توفيرها اختياراً. رغم أهميتها. وأنه لابد من تدخل سلطة عليا أو الوصول إلى اتفاق بين المتعاملين على كيفية توفيرها وتوزيع أعباء إنتاجها عليهم.

وفيما يخص الموضوع الذى نحن بصدده، فإننا نعتقد أن التعاون أو الاندماج الاقتصادى العربى هو نوع من السلعة أو الخدمة العامة الإقليمية التى تعود بالنفع على الجميع، ولكن هذا النفع شائع متى تحقق أفاد منه الجميع ولا يمكن حرمان أحد منه. وعندما نتحدث عن الجميع فإننا نشير إلى الأفراد والمشروعات سواء منها القائمة أو المحتملة الإنشاء، وسواء منها الوطنى أو الأجنبى. فالجميع يشمل كافة الوحدات الاقتصادية فى الحاضر والمستقبل التى تتعامل مع الاقتصاد. وبالمقابل فإن توفير هذه السلعة أو الخدمة ليس أمراً مجانياً، بل تترتب عليه أعباء وتكاليف. وإذا كانت منافع التعاون الاقتصادى تعود على الجميع بهذا المعنى، فإن القرار فى شأنها هو من شأن السلطات السياسية التى تضع القيود على سيادتها ومدى الحواجز بين الصناعات القائمة بها وبين الخارج. ففى حالة التعاون الاقتصادى العربى، فإننا نجد أنفسنا بصدد وضع لدول مستقلة عليها أن تقدر المنافع والأعباء التى تعود عليها. كدول أو نظم سياسية. من هذا التعاون وما يترتب على ذلك من تأثير على نشاطها الاقتصادى. فإذا كانت الأعباء التى تفرض على هذه الدول. كنظم سياسية أو قطاعات اقتصادية. تجاوز المنافع التى تعود عليها مباشرة فلا أمل فى أن تقبل مثل هذا التعاون وذلك بصرف النظر عما يعود بالفائدة على الآخرين مهما بلغ عددهم ومهما كانت هذه المنافع. ولا يتناقض هذا السلوك إطلاقاً مع الرشادة الاقتصادية، بل إنه يعتبر انصياعاً لها. فليست الرشادة هى فى المقارنة بين المنافع الإجمالية والتكاليف الإجمالية، وإنما هى فى المقارنة بين المنافع العائدة إلى متخذ القرار السياسى بالتكامل الاقتصادى والتكاليف التى يتحملها، أما ماعدا ذلك فإنه لا يعدو أن يكون من العناصر الخارجية externalities التى لا تدخل فى حسابه. فنقطة البدء فى مناقشة قضية التعاون الاقتصادى العربى، هى أنها قضية تعنى بالعلاقة بين قرارات سياسية. تتخذ لإزالة العقبات أمام التكامل

الاقتصادى وأن المنطق وراءها هو مدى ما يتحقق لمتخذى هذه القرارات من منافع أو تكاليف تعود عليها مباشرة.

أعباء وتكاليف كبيرة:

بدأ الحديث عن التعاون الاقتصادى العربى، كما ذكرنا، منذ إنشاء الجامعة العربية، بعد الحرب العالمية الثانية، وارتفعت النبرة خلال فترة الخمسينيات والستينيات فيما عرف بحركة القومية العربية. وهكذا فإن الدعوة إلى التعاون، أو الاندماج الاقتصادى، ارتبطت فى الأساس بدعوة سياسية قومية. وتستند هذه الدعوة إلى وحدة الأمة العربية، وإن الحدود السياسية إنما هى حدود اصطناعية فرضها الاستعمار ومن ثم وجب إزالتها. فالأقطار العربية القائمة ينبغى أن تزول لتتحقق الوحدة العربية السياسية. وهكذا جاءت الدعوة للتعاون الاقتصادى العربى فى بدايتها وتحمل فى طياتها، بشكل غير صريح ولكنه غير خفى، تساؤلات عن مدى شرعية الحدود السياسية ووجود الأقطار العربية نفسها. وقد عاصر هذه الفترة شيوع نظم حكم عربية ذات طابع عسكرى وانقلابى مما ساعد على تأكيد هذه الهواجس والمخاوف. وهكذا بدا كما لو كان ثمن التعاون الاقتصادى العربى هو تهديد نظم الحكم والأوضاع الاقتصادية القائمة فى العديد من البلدان. وهى تكلفة عالية لا يقبل أحد بتحملها حتى وإن كانت المنافع المقابلة هى اتساع السوق وزيادة الازدهار الاقتصادى، وهى منافع شائعة تعود على الجميع بلا تحديد. أما التكلفة السياسية على النُظم القُطرية فهى مركزة وكبيرة فى نفس الوقت. ومع بروز الثروة النفطية، وخاصة فى السبعينيات، ظهر تناقض أكبر بين الثروة المالية الجديدة وبين دعوة الوحدة العربية أو الثورة العربية. فالدعوة للتعاون الاقتصادى العربى بدت فى ذلك الوقت، بشكل ما، كما لو كانت دعوة للمشاركة فى هذه الثروة الجديدة الوافدة، الأمر الذى أوجد حساسية لدى قطاعات واسعة من مواطنى الدول الخليجية. فشعار نفط «العرب للعرب» يمكن أن يتضمن مفاهيم كثيرة بعضها يشير إلى اقتسام هذه الثروة بين العرب. وبذلك فقد تضمنت الدعوة إلى التعاون الاقتصادى العربى، منذ البداية، تهديداً للنظم السياسية القائمة وللهياكل الاقتصادية السائدة. وهو ما يمثل ثمناً باهظاً لعديد من النظم السياسية، وبالتالى وجب منطقياً عدم الحماس له، أو الرغبة فى اقتسام الثروة النفطية بعد أن خف خطر التهديد السياسى. وهو أمر لا يدعو بدوره إلى الحماس لدى النخب فى الدول النفطية. وهكذا غلب على الدعوة للتعاون العربى تلميحات بتهديدات خفية على المستوى السياسى أو الاقتصادى.

ولا يقتصر الثمن السياسى للتعاون الاقتصادى العربى، آنذاك، فيما بدا من تهديدات لاستقرار العديد من النظم السياسية، بل إنه حتى مع اختفاء مثل هذا التهديد وخاصة بعد أن بدأت مرحلة التعايش بين النظم المختلفة بعد حرب ٦٧، فإن هذا التعاون كان يتضمن، بشكل ما، تقييداً لسلطات النظم السياسية القائمة فى العديد من البلدان العربية. فالحاكم فى معظم البلدان العربية ويستوى فى ذلك الدول النفطية وغير النفطية، آنذاك، وأيا كان لقبه، ملكاً أو أميراً، أو رئيساً، أو قائداً، فهو عادة حاكم مطلق لا تكاد تحد إرادته أية قيود، وهو يتمتع بهذه السلطات تجاه أبناء شعبه حيث لا سلطة تعارضه. ولاشك أن فتح الأبواب لأبناء الدول الشقيقة، ووراء كل منهم حكومته، من شأنه أن يقيد من سلطات الحاكم إزاء بعض الضغوط من الدول الشقيقة حماية لمصالح أبنائها، الأمر الذى يتضمن تضييقاً لسلطات الحاكم.

وإذا كانت الدعوة إلى التكامل الاقتصادى العربى قد صاحبها، وخاصة فى بدايتها، مخاوف من تحمل تكاليف وأعباء سياسية للنظم السياسية القائمة، فإن الأمر لم يخل أيضاً من تكاليف وأعباء اقتصادية يمكن أن تتحملها بعض القطاعات الصناعية التى تتمتع بحماية لا ترغب فى التخلى عنها.

فالصناعة فى معظم الدول العربية قد قامت على أساس إحلال الواردات ووجود سوق محلية تحظى بحماية جمركية عالية نسبياً. ولذلك فإن هذه الصناعات ترى بشكل عام فى تحرير التجارة مع العالم الخارجى أو من خلال تعاون إقليمى إضعافاً لمركزها التنافسى فى الداخل، وبالتالى مهددة لأرباحها. وهكذا فإن مثل هذه الصناعات تعبر عادة عن نوع من المقاومة لأية إجراءات يترتب عليها إضعاف ما تتمتع به من حماية للسوق المحلية. ومن هنا موقفها المناوئ فى كثير من الأحيان لإجراءات التعاون الاقتصادى الإقليمى فيما يتضمنه من تخفيف أو إزالة ما تتمتع به هذه الصناعات من مركز متميز فى أسواقها المحلية.

والتعاون الاقتصادى الإقليمى، شأنه شأن كل قرار اقتصادى، يؤدى إلى منافع وأضرار، عوائد وأعباء. فهناك المستفيدون منه، كما أن هناك أيضاً المتضررين، والعبرة فى النهاية هى بالمقارنة بين حجم ووزن المنافع من ناحية وحجم ووزن الأضرار من ناحية أخرى. ومع ذلك فإن الأمر ليس متعلقاً فقط بالحجم المطلق لكل منهما، بل كثيراً ما يتعلق بالصوت العالى Voice. فهناك بعض المصالح القادرة على التعبير عن نفسها بقوة رغم أنها قد لا تكون كبيرة، فى حين أن مصالح أخرى كبيرة قد لا تنجح فى التعبير عن نفسها بنفس القوة رغم أهميتها. ويعتبر المثال السابق عن المقارنة بين موقف بعض الصناعات الوطنية من تحرير التجارة بالمقارنة وموقف جمهور المستهلكين منه نموذجاً واضحاً للعلاقة بين الصوت العالى وحجم المصالح.

فإذا كان تحرير التجارة يضعف من الوضع التنافسى، أو الاحتكارى، لعدد من الصناعات المحلية، فإنه يوفر للمستهلكين فى نفس الوقت فائدة كبيرة فى إتاحة السلع بأسعار أقل وربما بنوعية أفضل. وهكذا نجد تقابلا بين ما قد يلحق بعض الصناعات من خسارة، وبين ما قد يحققه المستهلكون من كسب كنتيجة لتحرير التجارة أو للتعاون الاقتصادى الإقليمى. وقد يكون الكسب المتحقق أكبر من الخسارة الواقعة، ولكن الغالب هو أن صوت الصناعيين يكون عادة أعلى وأقوى من صوت المستهلكين. ولذلك أسباب. ونشير فى هذا الصدد إلى أمرين. الأمر الأول التفرقة بين الخسارة «المحققة»، «realized loss» وبين الكسب «الضائع»، «foregone benefit»، فهنا نقارن بين شركة تحقق بالفعل خسارة أو نقصاً فى الأرباح، وبذلك فإنها تتحدث عن أشياء تحققت بالفعل بالمقارنة بالماضى، وهى أمور يمكن قياسها، وبالتالى فإن الشعور بها يكون عادة قوياً. أما الكسب المحتمل، أو المتوقع، فهو إشارة إلى «أمل»، لم يتحقق فى أى وقت فى الماضى، وإنما هو تطلع إلى المستقبل. ولذلك فإن المطالبة به تكون أقل حدة مما هو الحال فى الدفاع عن الخسائر المتحققة. هذا عن الأمر الأول الذى يؤدى إلى رفع أصوات المقاومة (الصناعات المحلية) أعلى من أصوات التأييد (جمهور المستهلكين). فبعض أصحاب الصناعات وهم يعارضون التعاون يتحدثون عن خسائر حقيقية تلحقهم، أما المستهلكون فيندر أن يدافعوا عن الأمل فى مكاسب يمكن تحقيقها.

أما الأمر الثانى فهو يرجع إلى تركز أو تفرق أصحاب المطالبات. فبالنسبة لأصوات الصناعة المطالبة بإبقاء الحماية فإن عدد الصناعات يكون عادة محدوداً ولذلك فإن حجم الخسارة التى تلحق بكل منهم تكون عادة كبيرة تبرر المطالبة بالصوت العالى فضلاً عن أنهم لقلة عددهم يكونون عادة قادرين على تنظيم مقاومتهم بشكل فعال. أما أصحاب المصلحة فى خفض أسعار السلع المتاحة وتحسين نوعيتها فإنهم من جمهور المستهلكين، وهم أعداد كبيرة متفرقة كل منهم قد يحقق كسباً صغيراً. ورغم أن مجموع المكاسب قد يكون كبيراً بل وكبيراً جداً، فإن أصوات المطالبة بالتحرير قد لا تكون عالية. فهم لتفرقهم وتشتتهم غير قادرين على التنظيم وبالتالى الفاعلية. وهم أيضاً بالنظر إلى تشتتهم فإن النفع العائد على كل منهم يكون عادة قليلاً لا يبرر التعبئة الكبيرة لهذه القضية. ومن هنا كثيراً ما نجد أن مصالح الأقليات تجد آذاناً مصغية أكثر من مصالح الأغلبية، لأن الأغلبية بطبيعتها كسولة وغير منظمة. وينطبق هذا المنطق بالنسبة للمقاومين والمؤيدين لإجراءات تحرير التجارة. فالمقاومة تأتى عادة من أقلية نشطة ذات مصالح كبيرة ومركزة، فى حين أن التأييد لا يظهر بنفس القوة لعدم تركز هذه المصالح وتشتتها بين أعداد كبيرة قليلة الاهتمام.

إذا كان صحيحاً أن مزيداً من الاندماج الاقتصادى الإقليمى (العربى) نافع ومفيد، فإن السؤال يطرح نفسه، لماذا إذن لم يتحقق هذا التقارب الاقتصادى العربى، ولماذا ظل شعاراً للمناسبات أكثر منه حقيقة على أرض الواقع؟

وما تقدم لا يحول دون الاعتراف بأن هناك اعتراضات تمثل معارضة مشروعة للحماية من المنافسة «غير العادلة»، من الدول الشقيقة. فمنتجات بعض الدول تتمتع بميزة تنافسية تجاه أسعار الدول الأخرى الشقيقة المنافسة ليس بسبب كفاءة إنتاجية وإنما بسبب مزايا تتمتع بها فى دولها فى شكل إعانات صريحة أو ضمنية. وقد اعترفت اتفاقات منظمة التجارة العالمية بحق الدول المنضمة إلى

الاتفاقية باتخاذ إجراءات لمواجهة «الإغراق» أو الإعانات لحماية الصناعة المحلية فى مواجهة منافسة الدول الأخرى. ولا شك أن نوعاً من هذه الإجراءات لابد أن يراعى فى تحرير التجارة ضمن أشكال التعاون الاقتصادى العربى. ولذلك فقد يكون من الواقعية الاعتراف بمشروعية جزء من هذه المخاطر التى تتعرض لها بعض القطاعات من جراء فتح الأبواب بين الدول العربية، والعمل على وضع آلية «لتعويضها» عن هذه المخاطر.

ومن هنا فقد يكون من المناسب أن تتضمن برامج التكامل الاقتصادى الاتفاق على تخصيص ميزانية وموارد مالية مناسبة لتعويض الأطراف المتضررة من زيادة حجم التبادل التجارى العربى، والعمل فى نفس الوقت على الإزالة التدريجية لأسباب هذه الأضرار. وقد عملت السوق الأوروبية منذ البداية على الاعتراف بأن بعض القطاعات. وخاصة فى الزراعة فى بعض الدول مثل فرنسا . يمكن أن تضار أكثر من غيرها من مزيد من التكامل الاقتصادى الأوروبى، فكفلت اتفاقات التعاون الاقتصادى الأوروبى توفير آلية لتعويض هذه القطاعات. ومن هنا ينبغى النظر إلى التكامل الاقتصادى العربى باعتباره مشروعاً اقتصادياً له منافع كما أن له تكاليف، وهذه وتلك لها نتائج مالية يجب أن تتحملها الدول. فالتكامل الاقتصادى العربى، مثل أى مشروع مهم ولكنه ليس هبة بلا تكلفة، حتى وإن كانت فوائده أكبر.

أمر منطقى تماماً:

إذا كان التحليل السابق صحيحاً، فإن معنى ذلك أن التعاون الاقتصادى العربى لم يتحقق فى الواقع رغم ما بدا من منافعه لأن هناك أسباباً منطقية تبرر تجاهل هذه المنافع الاقتصادية حيث إن هناك تكاليف وأعباء أكثر أهمية وخطورة من هذه المنافع بالنسبة لمتخذى القرار، وهو عادة قرار ذو طابع سياسى حيث يتعلق بعلاقة الدولة بالخارج ومدى حدود سلطاتها ومزاياها وسيادتها.

يتصل بذلك إن منطق التعاون الاقتصادى الإقليمى لا يزدهر إلا فى إطار من الديمقراطية. فالنظم الديمقراطية ليست. بطبيعتها. عدائية أو تآمرية، فضلاً عن أنها بتداول السلطة، فإنها لا تسمح بقيام السلطة المطلقة للحكومات والتى تقاوم أية مشاركة فى هذه السلطة، سواء من الداخل أو من الخارج. وقد يكون من المفيد هنا أن نتذكر أن من أسباب نجاح التعاون الاقتصادى الأوروبى، هو أن القائمين على إنشاء السوق الأوروبية المشتركة قد عمدوا منذ البداية فى اتفاقية روما بإنشاء السوق عام ١٩٥٧ على التأكيد على أن المشاركة فى عضوية هذه السوق سوف يقتصر فقط على الدول الأوروبية التى تمارس الديمقراطية وتشترك فى المبادئ والقيم العامة لاحترام حقوق الإنسان. فمع شيوع الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان تتضاءل إلى حد بعيد المزايا السياسية للاستئثار بالحكم والسيطرة على جميع المقررات السياسية والاقتصادية للبلاد.

يتطلب العلاج إذن الاعتراف بهذه الأمور وإيجاد آلية لمعالجة هذه المطالب المشروعة. وقد يكون من المفيد فى هذا الصدد ألا تقتصر جهود العمل على التكامل الاقتصادى العربى على المطالبة بإزالة الحواجز، وإنما الاعتراف بأن التعاون أو التكامل الاقتصادى العربى لا يعدو أن يكون مشروعاً له تكلفة كما أن له منافع، وبالتالى ضرورة توفير «ميزانية عربية» لهذا المشروع، لتعويض المتضررين من هذا المشروع. وبدون الاعتراف بهذه التكلفة ومحاولة تعويضهم عنها، فسنظل نتكلم عن مزايا التعاون الاقتصادى فى المنتديات والمؤتمرات، ولن يمنع ذلك المتضررين منها من العمل على وقفها فى هدوء وبلا جلبة والله أعلم. ■

للاستزادة:

الاقتصاد العربى فى عصر العولمة
مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية
حازم الببلاوى
أبو ظبى، ٢٠٠٢

حدث فى مارس ١٩٤٤ الميلاد

محمد المهدى

أنطوان دى سانت اكزيبيرى Antoine, De, Saint-Exupery ‏١٩٠٠/ ١٩٤٤ أديب فرنسى عمل طياراً وربطه عمله بالأرض حينما كان يراها من طائرته مجردة. وبالناس حينما ابتعد عنهم فازداد شوقا وارتباطًا بهم. وبالصحراء لأنها هيأت له السكون والصمت ومواجهة الموت فى سلام. يتغذى بالشجاعة من وحدة الكون والإيمان. تعرض للموت عدة مرات، وكان فى كل مرة لا يفكر إلا فى إعادة الكرة حينما تكتب له النجاة. ولكن فى مارس عام ١٩٤٤ لم يعاود الكرة لأنه لم تكتب له النجاة من رحلة استكشافية فوق أرض الجزائر. وذكر منذ فترة أنه عثر على بقايا طائرة على ساحل فرنسا المتوسطى، يعتقد أنها كانت للأديب أكزيبيرى.

من أعماله (بريد الجنوب) ١٩٢٩، (طيران الليل) ١٩٣١، (أرض البشر) ١٩٣٩ وكانت آخر أعماله التى نشرت من بعد اختفائه (القلعة) ١٩٤٨، انفرد أكزيبيرى بكتابة قصة. رسم صورها بنفسه. يعزى فيه الصغار، ويلوم فيها الكبار محاولا تنمية قدرات ومدارك وحس الكبار حتى يصبح فى مقدورهم فهم عالم الصغار.

Le Petit Prince

(الأمير الصغير)

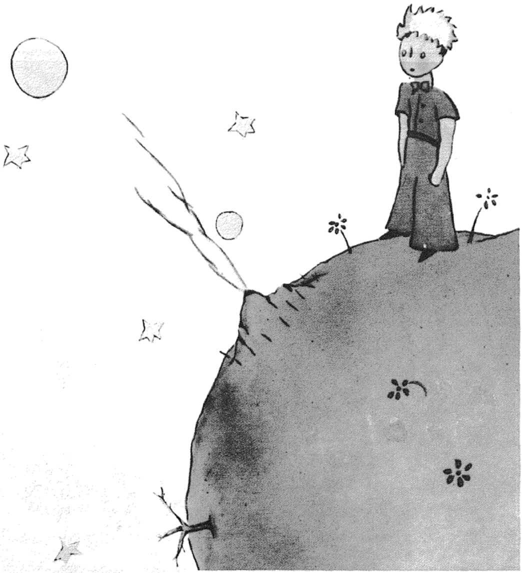
Antoine de Saint - Exupéry

Gallimard (Folio), 1999, 97 pages.

اسم القصة (الأمير الصغير) نشرت عام ١٩٤٣ وأعتقد أنها جديرة بأن نقدمها للصغار فى زمن إفساد الصغار، وللكبار فى ذكرى مرور ٦٠ عاما على اختفاء صاحبها.

كان بيكاسو يقول إنه يتمنى أن يرسم كما يرسم الأطفال، بمعنى أن يرسم بذهنية وتلقائية الأطفال، وهناك كما يقول (اكزيبيرى) عالمان. عالم الصغار وعالم الكبار. وإذا أمكن للبشرية أن تدون تاريخ عالم الكبار فإنها رغم كل تقدم لا تستطيع أن تدون تاريخ عالم الصغار، فمشكلة البدء تشابه مشكلة النهاية من حيث الغموض. ورغم أن الميلاد أقل غموضا لأنه يسير مع النمو إلى التفتح والوضوح بمفهوم الكبار، ولكن لا ندرى كيف يحسه أو يصفه الذين يولدون. ولا يمكن بالطبع معرفة ذلك، فكما أن لحظات الموت غير ممكنة التدوين، فإن الميلاد والطفولة لا يمكن تدوينها فى حينها لنقص طاقات الإدراك، وأدوات التعبير عند الصغار بمفهوم الكبار.

ونعرف عدة مذاهب فلسفية للتاريخ اعتبرت فى غالبيتها التاريخ، والتأريخ علما، ولكنا نجد (برتراند راسل) يعتبر التاريخ والتأريخ فنا. فعلى المؤرخ فى رأيه أن يقرأ، ويقرأ فى المرحلة المراد الكتابة عنها. ثم يطرح جانبا مراجعه ويبدأ فى الصياغة بعد تمثل المرحلة. وهذا ما انتهجه تقريبا عدة أدباء الآن منهم (أمين معلوف) و(رضوى عاشور). وتعتبر هذه الطريقة هى أفضل ما وصلنا إليه للآن لتمثل حالة الطفولة فى التفكير والتعبير.



لحظة الموت

عانى (اكزيبيرى) من المشكلتين معا حينما أراد كتابة قصته الفريدة والوحيدة للأطفال والكبار معا... (الأمير الصغير)

المشكلة الأولى هى التفكير. وفيها الداء. برمزية الحوار الطفولى بما يجسم درامية الخيوط الخفية بين الصغار والكبار. والثانية. وفيها الدواء. وهى التعبير بالرسم المصاحب لكل صفحة من صفحات القصة بما يعقد عروة جميلة بين الأمير الصغير والطيار الضائع فى الصحراء.

فإذا كان الأول يمثل لحظة البدء بكل معجزاتها، ونقائها، وبساطتها، ووصولها إلى الأعماق والحقيقة فى أقل الكلمات، فإن الثانى يمثل لحظة النهاية أو الموت الذى يواجهه طيار هبط اضطراريا فى صحراء خالية، بذهنية الكبار... من ذكريات معقدة، واضطراب، وخوف، وتتبع للألم الجسدى حينما تأتى اللحظة الحاسمة.. لحظة الموت.

كان (اكزيبيرى) بارعا. ولو أنها كلمة لا تناسب المقام. حينما صور لنا هذه اللحظة فى قصة أخرى أخذ عليها الجائزة الكبرى للأكاديمية الفرنسية هى قصة (أرض البشر). تحكى واقعا عاشه الكاتب حينما اضطر إلى الهبوط مع زميله فى صحراء عرف بعد نجاته أنها صحراء ليبيا.. «ولم أعد أكتشف أى شىء فى نفسى، اللهم إلا جفافا عظيما فى القلب. أنا على وشك الموت ولكن لا أعرف

والمـــــــــوت.. والكـــــــاتب الـــذى اختــــــفى

اليأس، وحتى الألم لا أعرفه. وإنى لأسف على ذلك فإنى أعتقد أن الألم لو أتى لكان حلواً كالماء، فإن المرء يرثى عندئذ لنفسه، ويشكو إلى نفسه كما لو كان يشكو لصديق عزيز، ولكن لم يعد لى فى الدنيا صديق».

نلاحظ فى العبارة قدرا من التسليم ينمو فى عبارة أخرى صاغها فى لحظة أقرب للموت من الأخرى فيقول «وسرت مرة أخرى أمام حقيقة لا أفهمها. اعتقدت أنى هالك وأنى وصلت إلى أقصى درجات اليأس، ولكن ما كدت أستسلم لمصيرى حتى عرفت السلام. ويبدو أن الإنسان يكتشف نفسه فى تلك اللحظات، ويصبح صديقا لنفسه، ولا يعود هناك شىء يستطيع التغلب على ذلك الشعور بالكمال الذى يرضى فينا حاجة ضرورية لم نكن نشعر بها من قبل».

تعرض (اكزيبرى) للموت مرتين. الأولى فى صحراء ليبيا، والثانية فى جواتيمالا. وأعطته هذه اللحظات العصيبة تجارب أخرى عديدة، وإحساسا صوفيا بدور الإنسان أمام الخطر. فلحظة الميلاد فى نظره بسيطة، ولحظة الكبر بسيطة. بل ولحظة الموت بسيطة ما دامت تصل الإنسان بنسيج الأخوة البشرية، وبهذه الأرض التى يراها من طائرته بلا نقاب، وبلا شرايين الطرق الخادعة حين الاقتراب منها.

لحظة الموت فى الصحراء لا تعنى شيئا ما دامت تعطى للوجود كل معنى وهى خير من موته فى قطار الضواحى الذى يحمل الرجال كل صباح إلى أعمالهم بلا معنى وكأنه يردد قول الشاعر الرقيق الراحل صلاح عبد الصبور:

أعطيك ما أعطتنى الدنيا من التجريب والمهارة
لقاء يوم واحد من بكارة
لحظة البكارة والنقاء أين توجد؟

فى نهاية قصة (أرض البشر) يلتقى الكاتب فى قطار بعمال بولنديين يتم ترحيلهم من فرنسا إلى بولندا، ويرى بين هذه الأكوام البشرية البائسة الغافلة، طفلا (كأنه فاكهة مذهبة).. (هذا وجه موسيقى، هذا موزار الطفل، هذه هدية جميلة من الحياة. وإن الأمراء الصغار الذين كنا نسمع عنهم فى الأساطير لا يختلفون عنه فى شىء. فماذا يصبح هذا الطفل لو وجد الرعاية والتثقيف؟.. ما يعذبنى هو موزار الصريع فى كل فرد من هؤلاء الناس. وليس هناك إلا الأرواح لو هبت على الصلصال لاستطاعت أن تخلق الإنسان».



هناك كواكب لأوراق الكبار،
وفــــــردوس واحــــــد مفقـــــــود
للبراءة والنقاء.. والصغار

كتب اكزيبرى قصة (أرض البشر) عام ١٩٣٩، وقصة (الأمير الصغير) عام ١٩٤٣. اكتشف بها لحظة النقاء فى لحظة البدء والطفولة.. لحظة تشابه فى طاقتها وعفويتها كافة استهانة الإنسان بالموت نفسه، وكان طبيعيا أن يوجه الكاتب قصته للأطفال، فقد كتبها ورسمها لهم. وإن كان أمله وهدفه أيضا أن تمس رمزيتها العميقة، وألحانها الرقيقة أوتار الكبار المتراخية، فتشدها، وتعيد إليها على الأقل بعضا من ذكريات ألحان الطفولة ليغنى الكبير والصغير قصيدة واحدة.

يبدأ القصة بالاعتذار للأطفال لأنه يقدم قصته إلى صديق من الكبار، ولكنه يستدرك فيقدمها لصديقه عندما كان طفلا.

يحكى لنا الكاتب جزءا من ذكريات الطفولة عندما كان فى السادسة يمارس الرسم ككل الأطفال. أراد بخياله النقى أن يرسم ثعبانا ضخما ابتلع ذئبا. ولكن الكبار استهانوا برسمه، ونصحوه ككل الكبار بترك الرسم وتعلم مهنة مفيدة.. وتعلم الطيران.. وصار طيارا يجيد الحديث عن البريدج والجولف، ويسعد الكبار بهذه الأحاديث الجادة.

حدث ذات مرة أن تعطلت طائرته فى صحراء خالية، أخذه الهم والرعب وهو يحاول إصلاحها. وفجأة وفى وسط صمت الصحراء يسمع صوتا طفوليا يقول له:

. من فضلك ارسم لى خروفا.

التفت فى رعب ليجد أمامه طفلا له هيئة غريبة ولكن ساحرة. يدور الحوار بين الطيار والطفل. الأول يلح فى معرفة كيف جاء إلى الصحراء المعزولة، والثانى يلح فى طلب رسم الخروف. يرسم الطيار المطلوب على عجل حتى يصل إلى إجابة عن سؤاله، ولكنه لا يتبين حقيقة هذا (الأمير الصغير) إلا بين سطور كلامه، فهو لا يحب الاستجوابات بطريقة الكبار.

الأمير الصغير سقط أيضا من كوكب صغير يعيش فيه وحيدا، وطبقا للقاعدة الجغرافية التى تجعل نصف الكرة الشرقى من الأرض مشمسا، لحظة ما يكون نصفها الغربى مظلما، فكذلك كوكب الأمير الصغير ولكن فى حدود حجمه. وبالتالى يستطيع أن يمارس هوايته ورياضته المفضلة التى أحجم عنها الكبار منذ زمان، وهى رؤية غروب الشمس مرات عديدة وذلك بتغيير مقعده مرة فى اتجاه الشرق، ومرة فى اتجاه الغرب.

فى كوكب الأمير الصغير ثلاثة براكين تناسب حجمه، وبالتالى يستطيع أن يستخدم اثنين منها فى الطبخ، بينما الثالث خامد، وعمله اليومى الذى يقوم به فى همة هو تنظيف الكوكب من الأعشاب الضارة التى يمكن أن تكبر وتصبح نوعا من الأشجار الضخمة (BAOBABS) فتهدد كوكبه بالانفجار. من هنا يكتشف الطيار سر طلب الأمير رسم الخروف. حتى يخلصه من هذه الأعشاب.

. ولكن هل يأكل الخروف الورود؟

. نعم

كيف إذن يحمى وردته حبه الوحيد وأنيس وحدته على كوكبه من الخروف؟

ينشغل الطيار بهمة بطائرته، ويجيب ككل الكبار كيفما اتفق على تساؤلات الصغار، ولكن أميرنا الصغير طفل من عالم لا يعرف منطق الكبار. يكتشف اللعبة وينفجر فى الطيار قائلاً: إنه قد عرف ذات يوم رجلا يقوم بجمع الأرقام دائما ويردد (أنا رجل جاد. أنا رجل جاد) ولكنه لم يعرف فى حياته كيف يتأمل نجما، أو يستنشق عبير وردة، أو يحب إنسانا... وحار الطيار أمام عالم العبرات التى انفجرت من عيون أميره الصغير.

عرف الطيار إن كوكب الأمير فيه وردة صغيرة هى همه الحقيقى، لقد أعجب بها ذات يوم



فأجابت بغرور (أنا فعلا جميلة فقد ولدت مع الشمس) ويأخذها الغرور والغموض في يوم آخر فتطلب أن يحميها من النمور وهي تعلم أنه لا توجد نمور في الكوكب، أو تصطنع السعال وتطلب أن يحميها من الرياح. ويحار الأمير أمام انفعالاتها المصطنعة ويقرر الرحيل عن كوكبه.

وقبل أن يكمل قصته لصديقه الطيار يسر إليه قائلاً: (إنني لا أفهم شيئا على الإطلاق، كان يجب على أن أحكم عليها بناء على الأفعال لا الأقوال. كانت تعطرني وتنير لي، فما كان يجدر بي أن أهرب منها أبدا. كان يجب على أن أدرك حنانها وراء خدعها الواهية، فالوردة متناقضة على هذا النحو، ولكن كنت صغيرا جدا حتى أعرف كيف أحبها).

ودع الأمير وردته دون أن يفهم آخر كلماتها (أنا أحبك، وأنت لم تدرك شيئا بسبب خطئي، وهذا ليس مهما لقد كنت أنت أيضا أبله مثلي.. حاول أن تكون سعيدا).

وبدأ جولته يبحث عن السلوى والمعرفة فهبط على كوكب صغير لا يسع سوى عرش بسيط يجلس عليه ملك مهيب يملأ عباءته الكوكب، ويهوى إصدار الأوامر. ويعجب الأمير لهذا الملك الذي يحكم كوكبا خاليا، ولكنه يتصور أنه يحكم الكون، ويتحكم فيه بشكل مطلق... حتى غروب الشمس، ويأذن له الملك في أن يطلب رؤية غروب الشمس، ويجيب الملك بأن عليه انتظار اللحظة المناسبة.

يضيق الأمير الصغير بهذا الكوكب ولا يغريه منصب الوزير المعروض عليه من قبل ملك يعيش في وهم ويقرر الرحيل مرددا (إن عالم الكبار هذا عالم غريب).

يصل إلى كوكب آخر يشغله شخص مغرور يحمل قبعة، ويطلب من الأمير أن يصفق، وكلما صفق رفع قبعته في تحية متواضعة. يضيق الأمير بترديد اللعبة دون معنى ويسأل لإنهائها في بساطة لا يرى فيها قلة أدب بمنطق الكبار.

ماذا يجب عمله لكي تسقط القبعة؟ ولكن المغرور لا يسمعه، فالمغرورون لا يسمعون إلا المديح، ويقرر الرحيل مرددا: . إن الكبار بالتأكيد أطوارهم غريبة.

ويصل إلى كوكب ثالث فيجده مشغولا بسكير يشرب لينسى.. ينسى العار.. عار أنه يشرب ثم يلوذ بالصمت.

ويعجب الأمير ويترك الكوكب قائلا: إن الكبار بالتأكيد أطوارهم غريبة جدا.

ينزل الكوكب الرابع فيجده مشغولا بشخص ممتلئ منكب على الأوراق يحمل على طرف شفتيه سيجارة غير مشتعلة ويردد في أرقام، وحينما يصل إلى خمسمائة مليون يقول للأمير:

. ألا زلت هنا؟ خمسمائة وواحد مليون من.. لا أدري مطلقا.. أنا مشغول للغاية. أنا جاد أنا لا ألهو بالهزار.. اثنان وخمسة وسبعون. يكتشف الأمير أن رجل الأعمال يعد النجوم، ويعدها لأنه يمتلكها، ويمتلكه لأنه وجدها ليست في ملكية أحد. إنه يستطيع أن يحتفظ بورقة عليها عدد نجومه في البنك.

يعجب الأمير الصغير لهذا العمل غير الجاد في نظره، ويقول لرجل الأعمال إنه يمتلك في كوكبه وردة يعتني بها وثلاثة براكين ينظفها دائما، وبالتأكيد أنا مفيد لوردتي وبراكيني، ولكن ما فائدتك أنت لنجومك.. ويرحل الأمير مرددا:

. إن شخصيات الكبار غير عادية تماما.

وكان الكوكب الخامس وأعجبها لا يشغله سوى مصباح ورجل يشعل المصابيح. يقوم الرجل بإشعال المصباح ثم يقول مساء الخير، ثم يقوم بإطفائه ويقول صباح الخير. ويفهم الأمير أن هناك تعليمات للقيام بهذا العمل. وكان الجزء الأول من هذه المهمة في السابق يتم في المساء، والجزء الثاني يتم في الصباح. أما اليوم فالكوكب يدور أسرع وبالتالي على الرجل أن يقوم بالمهمة كل دقيقة. وينقضي شهر على حديث الأمير مع رجل المصباح بمقياس الزمان الغابر، أي ثلاثين دقيقة بمقياس زمان اليوم الملتهب.

يثير عمل هذا الرجل إعجاب الأمير فإنه الوحيد الذي يهتم بشيء غير نفسه، وتغريه الإقامة عند هذا المتبتل الذي تتاح الفرصة في كوكبه لرؤية غروب الشمس مائة وأربعا وأربعين مرة كل أربع وعشرين ساعة. ولكن الكوكب صغير جدا لا يسع سوى المصباح وصاحبه.. ويرحل الأمير حزينا.

كان الكوكب السادس يسكنه عالم في الجغرافيا يمسك دفترا ضخما ويقوم بتدوين معلومات المكتشفين. ويسأل الأمير أن يصف له كوكبه حتى يضيفه إلى علم الجغرافيا. ولا يرى الأمير شيئا يثير الاهتمام في كوكبه سوى الوردة والبراكين الثلاثة. ويحزن حين يعلمه العالم أن هذه أشياء لا تدون... إننا نسجل ما هو ثابت فقط ووردتك زائلة.

. ماذا تعني كلمة زائلة؟

يظل الأمير يردد بعد أن فهم.. وردتي زائلة. ويطلب من العالم أن يستكمل معرفته فيشير عليه بزيارة كوكب الأرض. كوكب الأرض به ١١١ ملكا و٧٠٠٠ من الجغرافيين و٩٠٠,٠٠٠ رجل أعمال وستة ملايين ونصف سكير و١١١ مليون مغرور. أي نحو مليارين من الكبار. وكان يقوم على إنارة الأرض قبل اختراع الكهرباء ٥١١,٥٦٢ رجلا يشعلون المصابيح، كما أن في مقدورنا أن نضغط كل سكان الأرض في أصغر جزيرة بالباسيفيك.. ولكن هل يصدق الكبار؟

كان بيكاســو يقــول إنــه يتمنــى أن يرســم كما يرســم الأطفــال، بمعنــى أن يرســم بذهنية وتلقائية الأطفال

أرض البــــشــــر

هذه اللمحة من (اكزيبري) عن سكان الأرض تجعله يختار لأميره الصغير النزول في الصحراء. فالصحراء يصفها في قصة (أرض البشر) قائلاً: (هذه هي الصحراء تجعل قواعد الحياة المقدسة بين رمالها عالما، فالصحراء التي يحسبها المرء قاعا صفصفا تمثل رواية خفية تهز مشاعر الناس، وليست الحياة الحقة في الصحراء هجرة قبائل سعياً وراء المراعي، ولكنها جهاد يبذل، وما أعظم الفرق بين نوع الرمال في الأرض الخاضعة، ونوع الرمال في الأراضي الثائرة. وليس كذلك الأمر بالنسبة لكل الناس؟هذه الصحراء البعيدة عن البشر، ولكن لكونها بعيدة فإنها تربط المتأمل بالبشر)

يقول أيضا: (فما أنا إلا شخص تائه بين الرمال والنجوم. لم أعد أحس بأي لذة سوى لذة التنفس.. ورغم ذلك رأيت نفسي مفعما بالأحلام).



ينزل الأمير الصغير وكأنه رسول إلى أرض البشر، إلى الصحراء، ولكنها الأرض على أى حال. أرض الكبار. وبكل النقاء، والحب، والبساطة يلتقى بثعبان فيشفق على هذا الكائن الضعيف الذى يشبه الإصبع، ولا يستطيع أن يذهب بعيدا، ويجيبه الثعبان الذى ورث خبثا من عالم الكبار بأنه يستطيع أن يحمله إلى أبعد مما تحمله سفينة.. (ومن أمسه ارجعه إلى الأرض التى خرج منها، إننى أستطيع أعيدك يوما إذا ما برح بك الشوق إلى كوكبك).

ولا يفهم الأمير الصغير هذه الألغاز فيرحل ويصعد جبلا عاليا أملا أن يرى الناس من ارتفاعه، ويردد صباح الخير.. صباح الخير. ولا يجيبه سوى الصدى.. صباح الخير.. صباح الخير. ويضيق بهؤلاء الناس الذين لا يعرفون سوى ترديد ما يقال لهم. لا يعرفون الخيال، ولا يعرفون تبادل الحوار. ويلتقى فى بستان بآلاف الورود، ويدرك أن وردته ليست فريدة فيبكى، ولكنه يفيق على صوت يقول (صباح الخير). يلتفت ليتعرف على ثعلب فيطلب منه أن يلعبا سويا فهو حزين ولكن الثعلب يقول للأمير:

. أنا لست مستأنسا، فأنا ثعلب وأنت من البشر، والبشر يطاردون الثعلب لأنه يأكل الدجاج. ولكن إذا استأنستنى سنكون أصدقاء.

ويضيف الثعلب:

. إن المرء لا يعرف إلا الأشياء التى يستأنسها، فالناس ليس لديهم وقت لمعرفة شىء، إنهم يشترون الأشياء الجاهزة من عند التجار، ولا يوجد تجار أصدقاء، فالناس ليس لديهم أصدقاء.

يتعجب الأمير الصغير من هذه النتيجة ويصير صديقا للثعلب، ثم يذهب إلى البستان ويحدث الورود بأن علاقته بوردته الوحيدة علاقة ألفة، فهى بالتالى فريدة لا ليست ككل الورود.

ولكنه مضطر إلى ترك الثعلب عند الرحيل، ويشعر بالأسف ولكن الثعلب يعزيه قائلا:

. الجوهر يخفى عن الأنظار وعلاقتك بوردتك باقية. أنت مسئول عنها.

ويشاء حظ الأمير الصغير، أو الإحكام البديع فى قصة (اكزيبرى) أن يلتقى بعد هذه التجربة برجل يقوم بتحويل قطارات المسافرين.. قطارات الحياة. البعض يرحل لليسار، والبعض يرحل لليمين. وقطارات يتصور الأمير الصغير أنها تعود من رحلاتها، فيفهمه الرجل بأنها قطارات أخرى، فمن يرحل لا يعود.

❖ ولماذا يستقل الناس القطارات وعما يبحثون؟

. إنهم لا يعلمون، الأطفال فقط يدسون أنوفهم فى زجاج القطارات، ويعرفون عما يبحثون. إنها لعبة بسيطة أو قصاصة ورق تمثل لهم كل الحياة.

ولكن هل يعلم الكبار؟

الكبار.. يلتقى الأمير بأحدهم، فيجده مشغولا بتسويق اختراع جديد. حبوب من يبتلعها مرة كل أسبوع تعفيه من شرب الماء فيوفر وقته. ويسأل الأمير: ولكن ماذا يفعل بوقته المكتسب؟ يعجب الأمير لاستغلال الكبار للوقت الفائض فى أمور مادية.. فلو كان لديه وقت لضيعه فى السير على مهل إلى نبع الماء.

نبع ماء.. يفيق الطيار عند هذه اللحظة من ذكريات الأمير بعد مرور ثمانية أيام، وبعد أن شرب آخر قطرة ماء كانت معه. ويقنع الأمير بضرورة البحث عن الماء. فالماء عنده يصلح القلب، والجلوس فى الصحراء يجعل الإنسان لا يسمع شيئا، ولا يرى شيئا. ومع ذلك هناك شىء يشع فى الصمت.. إن جمال الصحراء ذاتها تخفى بئرا فى مكان ما، إن جمالها غير منظور. إنها حكمة صديقه الثعلب (الجوهر يخفى عن الأنظار).

ويجد الطيار بئرا فينشغل بأن يشرب الصغير، ويشرب هو. ولكن الأمير يستأنف.. الكبار لا يعلمون أنهم يتهالكون على القطارات السريعة، إنهم يزرعون آلاف الورود ولا يدرون السبب الحقيقى. إن السبب الحقيقى خفى لا يرى بالعين، ولكن يدرك بالقلب.

ويتذكر الأمير المكان الذى سقط فيه من كوكبه على الأرض، ويشعر الطيار بالانقباض. إن أميره الصغير يدبر أمرا. إنه يطلب منه أن يتركه فى هذا المكان، ويعود لإصلاح طائرته على أن يرجع إليه فى مساء الغد. وعند عودة الطيار فى اليوم التالى يجد الأمير معلقا على حائط يتبادل حديثا غريبا مع شخصية غير مرئية. وعندما يقترب يلمح أسفل الحائط ذلك الثعبان الأصفر الذى يقضى على الإنسان فى ثلاثين ثانية. يجرى مسرعا ويلتقط أميره بين ذراعيه، وينبض قلب الأمير كعصفور أصابته طلقة من صياد. يستعيد الأمير ابتسامته، ويبلغ الطيار أنه سعيد لأن صديقه أصلح طائرته، يستطيع إذن أن يعود لبيته، فالأمير الصغير ينوى أيضا العودة. إن لديه الخروف وصندوقا، وكمامة للخروف، ووردته الضعيفة الساذجة تعيش وحيدة قلقة فى كوكبه. وعند المساء سيكون كوكبه فوق هذا المكان تماما، ولكنه لا يستطيع أن يطلع صديقه على موضعه فهو متناهى الصغر وسط آلاف النجوم.

ويستدرك.. ولكن هذا أفضل لأنك ستحب كل النجوم حينما تحاول أن تبحث عنى فى السماء. سأكون فى نجمى الخاص أضحك، وأنت تحب ضحكتى، أنك سترى كل النجوم تضحك.

وتضحك كل النجوم

فى المساء ينسحب الأمير الصغير فى هدوء ليلتقى بالثعبان، يلحق به الطيار ولكنه عازم على تحمل مسئوليته ليرحل إلى بيته الحميم، وحبه الوحيد، ولكن جسمه ثقيل لن يرتفع عن الأرض إلا بعضة الثعبان.. ويسقط فى الصحراء بلا ضوضاء.

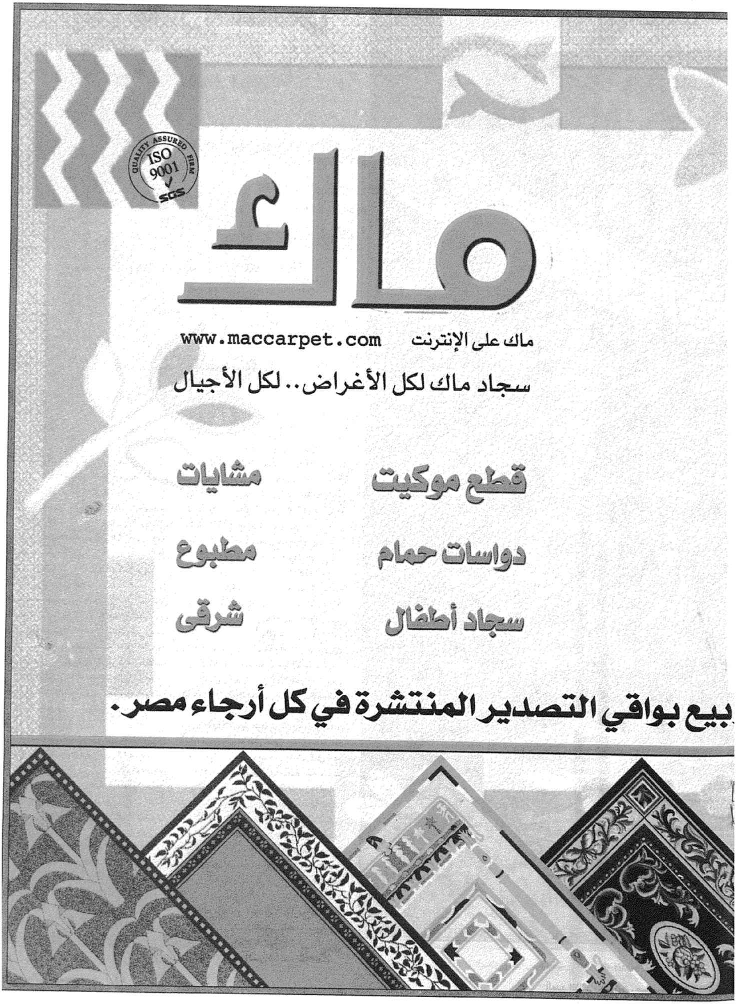
أما الطيار فلا تبقى له سوى الذكريات.. تتردد فى أذنه تارة ضحكة الأمير فتضحك كل النجوم، وتارة بكاء الأمير فيبكى الوجود، ولا يستطيع تفسير هذه الكآبة للكبار، إلا بأنها نوع من الإرهاق.

يرسم (اكزيبرى) آخر صفحة فى كتابه خالية تماما، إلا من نجم معلق فى السماء ويقول لنا.. إذا قمتم بسياحة فى الصحراء الأفريقية أرجوكم الا تتعجلوا وانتظروا تحت هذا النجم، فإذا ظهر الأمير الصغير لا تتركونى فى كآبتى.. اكتبوا لى إنه عاد.

ورحل (انطوان دى سانت اكزيبرى).. ولم يعد الأمير الصغير، ولا ينتظر أن يعود، فقد بتنا فى زمان يفخر فيه الكبار حينما يقلد الصغار خشونتهم، وغفلتهم، وطغيانهم. ■



متواجد في مراك


ISO 9001
QUALITY ASSURED FIRM
SGS
ماك
ماك على الإنترنت
www.maccarpet.com
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
مشايات
دواسات حمام
مطبوع
سجاد أطفال
شرقى
بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل أرجاء مصر.

"باريس العربية" قرنان من العلاقات

ليلى حافظ



■■ عبر قرنين من الزمن ارتبطت «باريس» العاصمة الفرنسية بالعالم العربى وبالعرب. وخلال القرنين اختلط التاريخ بالسياسة، والسياسة بالمجتمع، والحقائق بالخيال، والاهتمام بالرفض، والرفض بمحاولة للفهم. ولكن من المؤكد أن العربى تواجد وبقوة فى باريس طوال القرنين التاسع عشر والعشرين. هذا الحضور العربى فى باريس دفع خمسة من الصحفيين والمصورين الفرنسيين والعرب لإصدار كتاب مصور بعنوان «باريس العربية»، يأخذ القارئ فى رحلة عبر التاريخ والجغرافيا التى شهدت تلاقى العرب بباريس، ويركز فيه بالكلمة وبالصورة على هذا الجانب من العاصمة الفرنسية، الفكرى والفنى، وأيضًا الاجتماعى والعمرانى؛ وربما أيضًا السياسى والاقتصادى.

فعبر الكتاب، يسرد تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين للعاصمة الفرنسية، وتاريخ أجيال عربية وفرنسية، وضعها مصيرها فى مفترق الطرق معًا، وعرفت معًا القبول والرفض، والرغبة والعنف، ومن خلال تاريخ المدينة، يتعرف القارئ على التاريخ الذى ربط فرنسا بالعالم العربى والشرق عامة، والدور الذى أرادت فرنسا أن تلعبه فى تلك المنطقة من العالم. فمن باريس تشكل مفهوم «السياسة العربية» من عهد نابليون بونابرت، إلى جاك شيراك، مرورًا بنابليون الثالث، وبالجنرال ديجول. كما يبرز الكتاب باريس، كعاصمة الإمبراطورية الفرنسية التى بدأت سياستها الاستعمارية فى الجزائر منذ عام ١٨٣٠، وحتى حربها التى أطلقت عليها «حرب بلا اسم» إلى أن تم استقلال الجزائر وانفصلت عن فرنسا بعد ١٣٠ عامًا، مع كل الآلام التى صحبت هذا الانفصال.

ولكن رغم الحروب والصراعات بين فرنسا والعالم العربى، إلا أن تاريخهما لم يخل من الانبهار الفرنسى بالشرق، فبدأ الاهتمام بالشرق منذ أن ترجمت قصص ألف ليلة وليلة فى عام ١٧٠٤ ومنذ عام ١٧٥٠ اهتمت فرنسا بمصر، حتى قبل نشر أعمال شامبليون، فاهتم المجتمع الأرستقراطى والفنى الفرنسى بالمعابد المصرية والفن الرومانى الموجود فى مصر، ثم لا ينسى الكتاب ذكر عشرات الآلاف من المفكرين والمثقفين العرب، الذين اتخذوا من باريس عاصمة ثقافية لهم، فجاءوا أفواجًا من المغرب العربى ومن مصر ومن المشرق العربى إلى باريس؛ خلال النصف الأول من القرن العشرين. وخلال تلك الفترة تبلورت علاقة الرفض بين الفرنسيين والعرب فى باريس، فيقول الكتاب إنه منذ عام ١٩٢٥ تشكلت الأسس التى قامت

Le Paris Arabe: 2 Siècles de présence des Orientaux et des Maghrébins, 1830 - 2003

(باريس العربية: قرنان من الوجود المشرقى والمغربى ١٨٣٠- ٢٠٠٣)

de collectif

La Découverte, 2003, 248 Pages,

EUR 39.90



فرنسى وزوجته يعرضان منتجات من العطور الشرقية

أم كلثوم خلال حفلة باريس الشهيرة



راقصة شرقية فى العاصمة الفرنسية



عليها مشاعر الرفض، وخلال الثلاثينيات تأججت مشاعر الكراهية تجاه العرب، ومنذ أن اندلعت حروب الاستقلال، تفجر العنف فى باريس بين الجانبين.

مع النصف الثانى من القرن العشرين بدأت العلاقة بين باريس والعرب تأخذ شكلاً آخر تراوح ما بين الحب والكراهية، والرفض والقبول. وطرح على الفرنسى إشكالية الآخر، ووضعه فى موقف اضطر فيه الفرنسى أن يقبل هذا الآخر. ثم دخل الجدل منطقة التساؤلات حول الاندماج العربى فى المجتمع الفرنسى، وتعيين وزير من أصول عربية لتحقيق الاندماج، ثم تشكل المجلس الفرنسى للديانة الإسلامية. وأخيراً، ومع التطورات العالمية تجاه الإسلام، والتعصب الدينى، وحروب الخليج، دخلت العلاقات الفرنسية العربية إلى منحى جديد.

وعبر الكتاب نشر باسكال بلانشار وايريك ديروو وادريس اليازامى وبيير فورنيه وجيل مانسيرون، أكثر من ٥٠٠ وثيقة وشهادة جماعية لم تنشر من قبل، من بين عشرة آلاف وثيقة تم العثور عليها، وتابعوا مسيرة الأفراد، والأحداث وزاروا الأماكن التى شهدت على تلك الأحداث طوال قرنين من الزمن، قام خلالها القارئ برحلة غير مسبوقة، اعتبرت بمثابة رحلة فى «البوم صور عائلية».

تبدأ الرحلة منذ عام ١٨٣٠، وفى هذا الجزء الأول الذى ينتهى فى عام ١٨٧٨، أطلق الكتاب عليه « من المملكة العربية إلى مقهى المور». ففى تلك الفترة التى امتدت ٤٨ عاماً، كانت فرنسا قد عرفت مصر من خلال حملة نابليون واستمر تأثير تلك الحملة على الباريسيين عبر القرن التاسع عشر ومن خلال الهدايا التى قدمها محمد على إلى فرنسا، والتى أصبح بعضها من أبرز الآثار التى تتميز بها باريس، مثل المسلة المصرية فى أهم ميادينها ميدان الكونكورد، والغزال الذى أهدى إلى الملك الفرنسى ووضع فى حديقة النباتات وكان قبلة لآلاف الزوار. بالإضافة إلى كل الآثار التى شكلت جزءاً كبيراً ومهماً من متحف اللوفر. ثم فى عام ١٨٢٨ نشر الأديب الكبير فيكتور هوجو كتابه «الشرقيات» والذى سجل بداية موجة جديدة أكثر تعاطفاً مع الشرق والغرب.

وتمثل تلك الفترة بداية الاستعمار الفرنسى للجزائر، فى عام ١٨٣٠، وبداية سيطرة فرنسا على شمال أفريقيا، واستسلام عبد القادر المناضل الجزائرى فى عام ١٨٤٧ ثم تدفق العائلات الفرنسية إلى الجزائر للإقامة والاستيطان.

فى تلك الفترة اختلط فيها الانبهار الباريسى بالتاريخ والفن المصرى والعربى، مع الاستعمار والعنف والحروب فى شمال أفريقيا وفى سوريا، مع الفكر والثقافة الفرنسية التى انبهر بها المفكرون المصريون بصفة خاصة،

مثل رفاعة الطهطاوى، الذى جاء إلى باريس فى عام ١٨٢٦، إماماً لمجموعة من الطلاب. وفى عام ١٨٤٦ فتحت فى باريس سفارة لتونس، يرأسها أحمد بيه، ولى العهد، وسكرتيره أحمد بن أبى ضياف، وخير الدين اللذان سيكون لهما شأن فى تاريخ تونس الحديث عن طريق المطالبة بإقامة نظام الملكية الدستورية. هؤلاء وغيرهم تأثروا كثيراً بباريس الثقافية والسياسية، واعتبروا وجودهم فيها مرحلة مهمة فى تاريخ اكتشافهم للغرب، مثل الكاتب اللبنانى الكبير أحمد فارس الشدياق الذى أسلم وترجم الإنجيل إلى العربية، وأقام فى باريس، فاتخذها مركزاً له حيث أصدر، مثل رفاعة الطهطاوى، جريدة باللغة العربية. وفى باريس تعرف على لامارتين وعلى الأمير عبد القادر، ونشر روايته الهزلية «ساق على ساق» التى كانت بمثابة سيرة ذاتية يحكى فيها عن شخصية ترحل عبر الشرق والغرب وينتقد فيه رجال الدين والسياسة فى الشرق وفى الغرب.

وهكذا، وفى فترة الإمبراطورية الثانية، تحولت باريس لتكون مسرحاً متميزاً للصحافة العربية، ومع صحف مثل «المبشر» و«المشترى» اللبنانية، بدأت دار نشر لاهاشيت تنشر كتباً باللغة العربية. ولكن تلك الصحف لم تكن تهم الباريسيين كثيراً، بل ما أثار اهتمامهم هو المعرض الدولى فى عام ١٨٥٥ الذى قدم إلى المواطن الفرنسى نكهة شرقية من روائع الشرق، فأقيم على ضفة نهر السين معرض عن الجزائر، عرض فيه كل منتجات الجزائر الشرقية من جلد النمور والأسود إلى أشجار النخيل الطويلة. كما أقيم فى المعرض فندق مصرى بكل ما فيه من متاجر ومقاه ومطاعم مصرية. واهتم المستشرقون بالأجنحة الشرقية فى المعرض، وخاصة الجناح المصرى الذى عرض فيه أيضاً خريطة مجسمة لقناة السويس وخريطة كاملة لمصر.

ولكن التأثر بالشرقيات وبالفن والمعمار العربى لم ينته مع انتهاء المعرض، بل استمر، خاصة مع الاحتفال بافتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩، ورحلة الإمبراطورة يوجينى إلى مصر، مما أثر على الفن والموضة فى الملابس الباريسية والمأكل والمشرب، وأيضاً فى المعمار. فضم منزل الكاتب الكبير فيكتور هوجو ملحقاً صمم على الطراز الشرقى. كما انتشرت الأرائك والنرجيلة حتى فى منازل البسطاء.

واستمر الاهتمام بالعرب والمسلمين طوال القرن التاسع عشر، فلم يكن يمضى عام إلا وكانت باريس شاهداً على معرض عربى أو كتاب رحلات إلى الشرق مثل كتب شاتوبريان ولامارتين ثم فلوبير ونيرفال، وبدأ الفنانون والمصورون أيضاً يتأثرون برحلاتهم إلى دول شمال أفريقيا، مثل ديلاكروا الذى زار المغرب فى عام ١٨٣٢ وقدم لوحات كثيرة مستوحاة من تلك الرحلات.

باريس تتعرف على العرب القادمين:

خلال تلك الفترة بدأت تتكون فى باريس نواة المجتمع العربى، فجاءت مجموعة من العرب ليقيموا فى باريس، ولقد انعكس ذلك على بناء مربع عربى فى مدافن بير لاشاز، فى عام ١٨٥٥ ثم بناء مسجد فى العام التالى داخل المدافن. وفى نفس الوقت تدفق المفكرون والطلاب من الدول العربية بالأخص من مصر إلى باريس.

ولكن أكثر ما أثر فى باريس هو التقاؤها مع الأمير عبد القادر، المناضل الجزائرى الكبير الذى جاء إلى باريس فى طريقه إلى المنفى فى سوريا، بعد أن منحه نابليون الثالث حريته. وفى باريس استقبل عبد القادر بحفاوة كبيرة، ففى دار الأوبرا، استقبل نابليون الثالث الأمير عبد القادر بالأحضان أمام جميع الحاضرين، وتفجرت الصالة بتصفيق حاد، وخلال أسبوعين أمضاهما الأمير عبد القادر فى باريس، كانت شعبيته فى تصاعد مستمر، وقام بزيارة الكنائس، نوتردام والمادلين، ليؤكد سماحة الإسلام. وحتى فى ذلك الوقت، فى عام ١٨٦٧ أثبت عبد القادر أن الإسلام والمنطق لا يتعارضان.

ولكن باريس لم تتعرف فقط على المفكرين والمثقفين والقادة والمناضلين من العرب، ولكن كان لها أيضاً موعد مع رجال الصحراء، الطوارق الذين حضروا إلى باريس فى عام ١٨٦٢، فكان للزيارة أثر كبير فى تصور الباريسيين لأهل الصحراء والقصص والأساطير التى كانت تحاك حولهم. ففى يونية عام ١٨٦٢ استقبلت باريس ثلاثة من زعماء الصحراء الجزائرية وكتبت الصحف تصف ملابسهم «سراويلهم الواسعة، وطرابيشهم الضخمة وعصيهم وسيوفهم».

كما تعرفت باريس أيضاً على المحاربين الجزائريين الذين حاربوا فى صفوف الجيش الفرنسى فى الحرب بين فرنسا وروسيا عام ١٨٧٠ فكان محمد بن دريس اللوفتاننت فى الفرقة الثالثة الذى أصيب فى المعارك.

استهل الكتاب الفترة التالية والتى تأخذ القارئ من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٢، بالمعرض الدولى الذى نظم عام ١٨٨٩! والذى كانت أهم نقطة جذب فيه هى برج إيفل. ولكن يقول الكتاب إن المعرض الدولى هذا العام كان له، مثل معرض عام ١٨٧٨، نقطة جذب أخرى هى شارع «لوكير» (القاهرة) الذى افتتح فى هذا العام تجسيداً لفكرة من خيال الكونت الفرنسى ديلور دى جليون، الذى استقر فى مصر لفترة ما، وقرر أن يهدى الباريسيين تصوراً خيالياً من أحد شوارع القاهرة، واستنسخ منازل هذا الشارع ومئذنة جامع من القاهرة. وكتبت صحيفة المعرض تقول «نحن فى القاهرة». ولكن شارع لوكير بدأ يتخذ شكلاً شرقياً بعد أن افتتحت فيه المقاهى واستقبلت الراقصات الشرقيات القادمات من بلاد شمال أفريقيا، واستمر إلى أن انتهى المعرض وأغلق الشارع، ولكن الراقصات استمررن فى عرض فنهن فى أنحاء باريس. ولقد أدى ذلك إلى نشر صورة سيئة عن العرب فصورهم البعض بأن نساءهم راقصات وسيدات خليعات (صورة ٦). وفى مجلات مثل «لو بوتى جورنال» (صورة ٤) تظهر فرنسا تجلس على العرش وتحت الصورة عنوان يقول: (إخلاص «فرنسا الأخرى») فى عام ١٩٠٧.

ومع نهاية القرن التاسع عشر، وسقوط مصر تحت الاحتلال البريطانى، اتجه رجال الأعمال والمال إلى بريطانيا، ولكن جامعات باريس ظلت مفتوحة لتستقبل المفكرين والمثقفين المصريين والعرب. فكأن باريس كانت على موعد مع المثقفين العرب فى تلك الفترة، فجاءوا وأصدروا صحفاً ومجلات تنقل إلى باريس هموم العرب. إذ شهدت فى عصر واحد حضور جمال الدين الأفغانى مع محمد عبده، فأصدروا معاً بالعربية مجلة أصبح مقرها، فى شارع سيز، قبلة لكل المثقفين العرب والمستشرقين والأتراك والإيرانيين. وفى نفس الفترة جاء جيمس سانوا، منفياً من مصر وأصدر مجلة هزلية بعنوان «أبو نضارة زرقة»، وأطلق على نفسه اسماً مستعاراً «أبو نضارة»، واستطاع أن يوزع الصحيفة فى مصر رغم الحظر.

وتتوالى أسماء المثقفين العرب والمصريين الذين حضروا إلى باريس سواء كمنفى أو للتعليم، مثل اللبنانى شكيب أرسلان الذى كان صديقاً للشاعر أحمد شوقى، وخليل جبران قبل أن يستقر فى الولايات المتحدة، وشكرى غانم اللبنانى المارونى، وطه حسين، الذى كتب الكثير من كتبه وروياته مستوحاة من باريس والحياة فى فرنسا، وترجم كتابه «الأيام» إلى الفرنسية وكتب مقدمته أندريه جيد.

ولكن تظل باريس تنظر إلى العرب نظرات لا يتخللها فقط الكثير من الانبهار ولكن أيضاً الخوف. ففى المعرض الدولى بباريس الذى افتتح فى عام ١٩٠٧، لم يتردد المنظمون أن يعرضوا صوراً للمعارك التى قام بها الطوارق ضد الفرنسيين، وتصور لبعض الطوارق على الجمال يمثلون المعركة ويهاجمون مواطناً (صورة ٧) فى حديقة باريسية حديقة فانسان. أو تصور هزلى للجانبين العربى والفرنسى فى إحدى الألعاب «الدامة». وتظل صورة العربى تظهر بشكل هزلى حتى عام ١٩٠٧ عندما تبدأ الأزمة بين فرنسا

مؤذن مسلم فى عاصمة النور



أسرة من المهاجرين العرب الأوائل فى فرنسا





صورة هزلية فرنسية للعرب

وألمانيا وتستعين فرنسا بالعسكريين المغاربة ليحاربوا فى صفوف الجيش الفرنسى، وتصدر ملصقاً بعنوان «ما ندين به إلى المستعمرات». ثم الحرب العالمية الأولى واشتراك جيش المستعمرات فى الحرب للدفاع عن فرنسا وهم فى الصورة فى طريقهم إلى الجبهة. ففى الحرب ضد ألمانيا كانت مخاوف فرنسا تتركز على احتمالات أن تثير المعارك التى تجرى على الجبهة الشمالية النوازع الوطنية فى دول شمال أفريقيا، فقامت فرنسا بحملة دعاية كبيرة فى تلك المنطقة لتصور الحرب ضد ألمانيا وحليفتها تركيا، وكأنها حرب ضد الإمبراطورية العثمانية التى مارست سياسة قمعية ضد الشعوب العربية الإسلامية.

وفى الفترة التى امتدت من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٢٦، كانت باريس فى قلب العالم خاصة فى عام ١٩١٨ حيث عقد مؤتمر السلام فى فيرساى، وأصبحت باريس عاصمة أمل الشعوب المقهورة فى التحرر وفى السلام، شهدت حضور وفود عربية وشخصيات كبيرة مثل الأمير فيصل ابن شريف مكة، جاء لكى يطالب بدولة عربية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية (صورة لأحد أعضاء الوفود العربية) كما شهدت حضور لورانس العرب يرتدى الزى العربى الذى جاء يساند الأمير فيصل ولكن القوى الكبرى فى ذلك الحين وأدت الحلم العربى وكتب يقول إن تلك الأيام التى قضاها فى باريس كانت الأسوأ له وللأمير فيصل.

ولكن تلك الفترة كانت أيضاً تلك التى شهدت فيها باريس بداية الوجود الإسلامى، فتم بناء مسجد باريس الكبير فى ١٥ يولية عام ١٩٢٦ وبحضور سلطان المغرب مولاى يوسف، وافتتح مسجد باريس بحضور الرئيس الفرنسى جاستون دوميرج الذى أكد فى كلمته أن الجمهورية الفرنسية تحمى كل المعتقدات الدينية وأكد احترامها لكل من يؤمن بها وتضمن له الحماية والمساواة، مؤكداً أن تلك السياسة هى الدليل الأساسى للديمقراطية الفرنسية. وفى كلمته قال الجنرال لوايوتيه «عندما تمتد المئذنة إلى سماء باريس، فسوف ترسل صلاة جديدة، لن تشعر أبراج كنيسة نوتردام الكاثوليكية بالغيرة منها. واعتبر بناء مسجد إسلامى فى قلب باريس بمثابة نقطة تحول تاريخية، فلقد سجلت دخول الدين الإسلامى رسمياً فى الجمهورية الفرنسية، ولكن ذلك بدون أن تتخلى الجمهورية عن سيطرتها على حياة المسلمين داخلها.

لم تكن باريس فقط المدينة التى احتوت المسلمين رغم مخاوفها منهم، ولكنها أيضاً كانت تلك التى احتوت المقاومة المغربية رغم أن المقاومة كانت ضد الاستعمار الفرنسى. ولكن فى باريس فى الفترة ما بين الحربين العالميتين التقت المقاومة المغربية وتعرفت على المجتمع الفرنسى الذى عقدت معه روابط متينة. فنشأت منظمة «تونس الضحية»، وأقام الأمير خالد ابن الأمير عبد القادر الجزائرى روابط قوية مع العمال الجزائريين فى باريس واستمر فى نضاله إلى أن طرد من باريس، وفى عام ١٩٢٦ قام ميسالى حاج بتكوين «نجمة شمال أفريقيا» وتم تكوين «اتحاد العلماء» ثم «اتحاد الطلبة المسلمين من شمال أفريقيا»، وأقامت تلك الجمعيات والمنظمات السرية روابطها مع اليسار واليسار المتطرف فى فرنسا. وفد من شمال أفريقيا يشارك فى مظاهرة نظمتها الجبهة الشعبية فى فرنسا عام ١٩٣٦، وبعد ٢٥ عاماً تشهد شوارع باريس مظاهرات أخرى يشارك فيها الجزائريون المقيمون فى باريس احتفالاً بالاستقلال.

ولكن الاستقلال بالنسبة لحشود الجزائريين الذين زحفوا على باريس للإقامة فى الدولة التى استعمرتهم طوال ١٣٠ عاماً، لم يكن يحمل أية أحلام وردية ففى ضاحية نانتير بباريس عاشت العائلات الجزائرية فى أسوأ الظروف وفى منازل مثل المخيمات، وحتى السبعينيات من القرن العشرين لم تتحسن أحوال المهاجرين من شمال أفريقيا، هؤلاء الذين عاشوا على هامش المجتمع لا يعرف المجتمع الفرنسى عنهم شيئاً كثيراً، ولكن ظل تحت رقابة دائمة من البوليس الفرنسى، فمن تلك الأحياء الفقيرة التى تعانى من البطالة خرجت أعمال العنف والعصابات.

قد تكون تلك الأعمال هى التى غذت مشاعر العنصرية ضد العرب من أصول مغربية، فقد شهدت باريس فى السبعينيات تزايداً كبيراً فى مشاعر العنصرية تجاه الجالية العربية، وكانت أحداث مقتل جلالى بن على بيد بواب إحدى العمارات، ومقتل محمد دياب فى مقر البوليس فى فيرساى فى عام ١٩٧٢ ما فجر مشاعر الغضب لدى الجالية العربية فى باريس، فخرجت فى مظاهرات للاحتجاج ضد العنصرية ومقتل مواطنيهم. ولكن المسائل تطورت وتزايدت أعمال العنف ضد العرب الباريسيين خاصة من جانب أعضاء الجبهة الوطنية، اليمين المتطرف. وكانت تلك النزعة الجديدة القديمة هى التى دفعت العرب من الجيل الثانى إلى أن يخرج من صمته ويبدأ فى المطالبة بحقه فى المساواة فى الحقوق.

وفى ديسمبر عام ١٩٨٣، شهدت باريس «مسيرة البور، العرب من أصول مغربية، من الجيل الثانى الذين تظاهروا، ليس من أجل الاستقلال كما فعل آباؤهم قبل عشرين عاماً، ولكن من أجل الاندماج فى المجتمع الفرنسى. حيث ظهر هذا الملصق يقول «من أجل المساواة وضد العنصرية.. مائة ألف شخص يوم ٣ ديسمبر فى باريس» فى ميدان الباستيل. وفى مسيرة ثانية من أجل المساواة، عبرت البلاد كلها إلى أن وصلت إلى باريس فى ديسمبر عام ١٩٨٤، وفى هذا الوقت نشأت منظمة «اس.أو.اس» العنصرية ومعها بدأ يتشكل جيل جديد من العرب أبناء المهاجرين.

من هذا الجيل ولدت موجة جديدة عنصرية ضد الإسلام بدأت فى التسعينيات مع ظهور أول بوادر للحجاب الإسلامى، ولكن الإسلام تطور خلال التسعينيات، وبدأت المساجد تتزايد فى أنحاء المدينة، كما تزايد عدد الممارسين للشعائر الدينية فى العاصمة الفرنسية). ومع ظهور بوادر العمليات الإرهابية مع الانفجارين ١٩٨٦ ثم فى عام ١٩٩٤ فى محطتى المترو سان ميشيل والايتوال، تفجرت المخاوف بين المواطنين بما لم يشهد لها مثيل من قبل، واتجهت العيون إلى منطقة الشرق الأوسط، تبحث فيها عن مصدر تلك الأعمال.

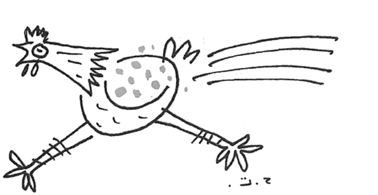
ولكن ذلك لم يمنع العرب من أن يعتبروا باريس نقطة الالتقاء، خاصة بالنسبة للفلسطينيين. فبالنسبة لهم باريس هى أكثر العواصم الأوروبية مؤهلة لأن تلعب دور الوسيط بين الأطراف المعنية كلها. وباريس هى بالنسبة للعرب الصوت المعتدل الوحيد الذى يسمعونه خاصة بعد حرب الخليج الثانية. وهى باريس التى اعتبرها العرب من الخليج إلى المحيط، الصديق الذى يساندهم وقت الأزمات.

باريس المقاومة وباريس المحتل السابق، وباريس الثقافة والفكر والمقاومة ضد التهميش والعنصرية، هى أيضاً بالنسبة للعرب باريس الفن والموسيقى. فمن قلب باريس شدت أم كلثوم، وتعرف الباريسيون على صوتها الرائع ورغم ذلك لم يتعرف الباريسيون بعد فى تلك الفترة، فى السبعينيات، على الموسيقى العربية بشكلها العام، فلقد ظلت الموسيقى والمطربون المغاربة والجزائريون داخل دائرة مستمعيهم من الجاليات العربية المغربية. أما الأفلام الجزائرية والمسرحيات العربية مثل مسرحية «محمد يأخذ حقيبته» للكاتب قاطب ياسين، فقد بدأت تجد طريقها إلى المسرح الباريسى. ولم تتعرف باريس فعلاً على الموسيقى الجزائرية والمغربية إلا فى التسعينيات رشيد طه وفلوديل وخالد، فى الحفل الموسيقى فى قلب باريس عام ١٩٩٨.

ومع تلاقى الفنون، تلاقت أيضاً الرياضة بين باريس والعرب، وفى قلب باريس تصدرت صورة زين الدين زيدان على قوس النصر فى شارع الشانزليزيه بعد أن حصلت فرنسا على كأس العالم فى كرة القدم .

تظل باريس بالنسبة للعرب، منذ قرنين من الزمن، محطة مهمة فى تاريخهم، كما ظل العرب بالنسبة لباريس معضلة لم تصل بعد إلى أن تتحقق من مشاعرها الحقيقية تجاههم، هل هى مشاعر كراهية أم حب؟ عنصرية أم اندماج؟ فهم أم تجاهل؟ ■


اتكلم دولي
ووفر أكتر
١٥٠
عاما
في خدمة مصر



من وباء ١٩١٨ إلى أنفلونزا الطيور

لا يكاد يمر عام دون ظهور سلالة جديدة من الأنفلونزا في إحدى مناطق العالم بعضها يوقع مئات الضحايا والبعض الآخر يمر بقليل من الأضرار. وخلال الشهور القليلة الماضية ظهر فيروس أنفلونزا الطيور بجنوب شرق آسيا مما أوقع عشرات الضحايا من البشر. وسر خطورة هذا الفيروس هو قدرته على الانتقال مباشرة من الدواجن إلى البشر.

إن كثيرًا من العلماء يعتقدون أن فيروسات الأنفلونزا جاءت من الطيور لكنهم يقولون إن الفيروس يجب أن ينتقل من الطيور إلى الخنازير كي يسبب أوبئة بشرية حيث تبدأ التغيرات الجينية التي تجعل السلالة تصيب البشر والحيوانات.

ويعيد فيروس أنفلونزا الطيور الحالي إلى الأذهان وباء الأنفلونزا الذي ضرب العالم عام ١٩١٨، وكان الأشد فتكًا (٣٠ مليون قتيل). وقد وجد الباحثون الأمريكيون والبريطانيون أن أنفلونزا ١٩١٨ كانت أقرب إلى أنفلونزا الطيور، مما كان يعتقد من قبل وأشار العلماء في بحث نشرته مجلة «ساينس» العلمية الشهر الماضي إلى أنه ليس معروفًا حتى الآن بشكل دقيق سر شراسة أنفلونزا ١٩١٨، لكنهم أعربوا عن أملهم في أن يساهم هذا البحث في حل «اللغز القاتل» حتى يستطيع العلماء التعامل مع سلالات الأنفلونزا الأخرى القادمة.

مجلة «وجهات نظر» تنشر تقريرًا يلقي مزيداً من الضوء حول أنفلونزا الطيور وتحديداً فيروس ١٩١٨ القاتل وملابساته.

المحرر

ترجمة: أحمد خالد توفيق
بترتيب خاص مع مجلة ديسكفر الأمريكية

باتريشيا جاتسبي

■ في عام ١٩١٨ حصد الموت نحو ٣٠ مليونًا من البشر بعد أن تمكن وباء الأنفلونزا من أن يلتف حول الكرة الأرضية في عناق مميت. ولم تكن تلك المأساة هي الأخيرة وإن كانت بالتأكيد الأشد ضراوة في التاريخ البشري الحديث.

في ذروة كارثة وباء الطيور في هونج كونج الذي انتشر في كريسماس ١٩٩٧، ثمة لحظة لن ينساها كنيدي شورتردج أبداً. كان (شورتردج) عالم فيروسات أسترالياً اعتاد لمدة ٢٧ عاماً أن يعتبر هونج كونج وطنه، وكان في سوق دواجن تشونج شاوان للجملة مع فريق يفحص الدواجن، بحثاً عن فيروس أنفلونزا الطيور الذي يطلق عليه H5N1 والذي يمكنه الانتقال مباشرة من الدواجن إلى البشر. وقد فتك الفيروس في البداية بآلاف الدواجن في المزارع الواقعة على حدود جنوب الصين قبل أن يتراجع. وفي مايو عام ١٩٩٧ فتك بأولى ضحاياه من البشر، وهو صبي في الثالثة من عمره كانت حضانته تحتفظ ببعض الكتاكيت والبط الصغير. ثم واصل الفيروس انتشاره بين البشر وهنا عرف (شورتردج) أن التخلص من الطيور صار واجباً.

بعد كل تلك الأعوام من مسح الأنفلونزا، لم ير شورتردج قط شيئاً كهذا. ليس من العسير أن تعرف الدجاجة المريضة، لكن هذه الدجاجة كانت تقف في قفصها الخشبي، وتبدو طبيعية تماماً. ثم فجأة وببساطة شديدة سقطت على الأرض، ورأى شورتردج الدم يخرج من مذرقها، أي فتحة الشرج. فتساءل: «هل ما نراه هو داء (إيبولا) يصيب الدجاج؟».

وكان يقصد بالايبولا التعبير عن هذه الميتة الدامية السريعة التي لا تصدق. «في هذا السوق كان الدجاج يموت أمام عيوننا.. فهل نحن مقبلون على رؤية تغير في الفيروس؟.. هل سنرى انتشار الفيروس عبر أسواق هونج كونج؟».

يمكن للمرء أن يرتاح لفكرة أنه ما بقي H5N1 فيروس طيور غير متطور، وبالتالي فإن فرصته في الانتقال للناس من حين لآخر تظل محدودة. لكن ماذا لو تحول H5N1 إلى صورة يناسبها البشر أكثر؟. وماذا لو ارتبط بأنفلونزا البشر في زواج غير مقدس، وخلق سلالة تتنقل بسهولة؟. وانتقل من شخص لآخر عبر السعال والعطس؟.. يقول شورتردج: «هذا لم يحدث قط في التاريخ، وإنه لاحتمال مخيف..».

طيلة عطلة الكريسماس تلك، ظل شورتريدج وزملاؤه في مستشفى (كوين ماري) يواصلون الاختبارات. كان خمس عينة الدجاج مصاباً بالفيروس H5N1 وفي ٢٩ ديسمبر. قبل أن تكتمل الأبحاث. بدأت الحكومة بصرامة في إجراءات ذبح كل الدجاج الموجود في السوق والمزارع، وهو ما يربو على المليون طائر، ثم بدأت عملية تطهير المخازن المغلقة. وجاء أول العام الصيني ورحل، دون أن يتم الاحتفال به بأطباق السمك والدواجن التقليدية. لم تعد هناك حالات بشر مصابين بفيروس H5N1 ومضت الأشهر وبدا أن الأزمة في هونج كونج تبدو أقل أهمية. لكن (روبرت وبستر). وهو عالم فيروسات في مستشفى (سانت جوداس) لأبحاث الأطفال في ممفيس. يعترض تماماً على ذلك قائلاً:

«لو كان هذا الفيروس قد تكيف على البشر، لكان نصف البشر في العالم قد هلكوا الآن.. وكنا سننتظر الوباء الشامل التالي».

لقد مرت بعالمنا ثلاثة أوبئة أنفلونزا شاملة خلال القرن العشرين. أسوأها حتى الآن هو ما يطلق عليه الأنفلونزا الأسبانية عام ١٩١٨. فقد أصيب كل فرد على ظهر الأرض تقريباً بالوباء، وهلك ثلاثون مليوناً، وهم أكثر بكثير من قتلى الحرب العالمية الأولى. أما الأنفلونزا الآسيوية عام ١٩٥٧ فقد قتلت سبعين ألف أمريكي (أرقام باقي العالم غير معروفة)، وقتلت أنفلونزا هونج كونج عام ١٩٦٨ ستة وثلاثين ألفاً. وعلى قدر ما نعلم فإن أوبئة الأنفلونزا الشاملة هذه والأوبئة المحدودة التي تحدث بعدها كأنها توابع الزلازل، تسببها طبيعة الفيروس المتغيرة. تحدث الأوبئة المحدودة من انحراف جيني: تحولات طفيفة تكفي فحسب كي يتسلل الوباء إلى الجهاز المناعي لبضعة أفراد، بينما الوباء الشامل يتضمن انحرافاً مزلزلاً. تبدلات جينية كبيرة إلى حد أنها تجعل الجميع عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. لكن يبقى هنا حشد من الأسئلة: من أين تأتي هذه الفيروسات القادرة على إحداث أوبئة شاملة؟.. ماذا يجعلها بهذه الشراسة؟.. هل نجونا بمعجزة في هونج كونج؟ هل هي مجرد مسألة وقت قبل ان نواجه وباءً كوباء عام ١٩١٨؟

ينتمي فيروس الأنفلونزا لإحدى ثلاث عائلات تسمى أنفلونزا A وB وC الأوبئة الشاملة تميز فيروسات النوع A (مجموعة ينتمي لها فيروس هونج كونج). وككل فيروسات الأنفلونزا تستعمل حمض RNA الوراثي أحادي الخيط كمادة المورثات، وترتكب أخطاء أثناء نسخ نفسها، لهذا تتغير الفيروسات خطوة بخطوة، وتنحرف عن شكلها الأصلي. والتغيرات الأهم تتم في بروتينات السطح الشائك التي تستعملها لتصيب بالعدوى الجهاز التنفسي للإنسان (بروتين يدعى مولد التجلط H والنيورامينيديز N).

لكن النوع A من الفيروسات غريب



... ومن الدجاج ما قتل!

الأطوار: إن حمض RNA الخاص به يأتى فى ثمانية أجزاء. فلو هاجم فيروسان مختلفان من النوع A نفس الخلية، فإن بوسعهما خلط القطع الجينية كأنها أوراق اللعب على منضدة. إعادة التصنيف هذه قد تخلق أنواعاً فرعية من الفيروس تحتشد فيها مواد وراثية لم يعتدها أى نظام مناعى، مع جينات ترمز لبروتينات من نوعى H وN جديدة تماماً، وربما بروتينات أخرى كذلك.

فى نهاية الستينيات بدأ الباحثون فى الأنفلونزا يفهمون أن إعادة التصنيف reassortment كانت هى سبب التحولات المفاجئة التى تسبب الأوبئة الشاملة. وبدءوا يستوعبون حقيقة أن الحيوانات هى على الأرجح مصدر الجينات الجديدة الخطرة.

لكن أية حيوانات ؟.. من المعروف منذ زمن أن الخنازير البيتية تصاب بالأنفلونزا. وفى كل خريف منذ عام ١٩١٨ كانت خنازير الولايات المتحدة تصاب بأنفلونزا الخنازير النمطية، والتى يسببها الفيروس H1N1 وهو قريب لفيروس ١٩١٨ البشرى (تصنيف الفيروسات يقوم بترقيم الفيروس حسب جينات مولد التجلط والنيوراميديز). لكن فيروس عام ١٩٦٨ فى هونج كونج كان يحوى مولد تجلط ينتمى لا إلى الخنازير بل الطيور. وعندما احتدم هذا الوباء صار (وبستر) جزءاً من فريق مسح عالمى يبحث عن مستودعات الأنفلونزا فى العالم. وعن طريق تحليل فيروسات الأنفلونزا فى الحيوانات، راح الباحثون يأملون فى العثور على مصدر الجينات التى اختلطت بأنفلونزا الإنسان، لتخلق هذه السلالات المخيفة المميتة.

وفى السبعينيات وأوائل الثمانينيات، جمع (روبرت وبستر) وزملاؤه فى مستشفى «سانت جوداس» أدلة كافية تلقى بالمسئولية على الطيور، ففى ممفيس وجد وبستر فيروسات الأنفلونزا فى البط العائد من كندا فى الخريف. وفى كندا وجد أن ٢٥٪ من البط الذى فقس حديثاً لديه فيروس الأنفلونزا. ووجد فيروسات أكثر فى الإوز والنوارس وطيور الشاطئ التى تهاجر كل ربيع بين شمال وجنوب أمريكا.

ويقول (وبستر): «إنه يمكنك أن تجد هذه الفيروسات أينما نظرت إلى طيور الماء المهاجرة».

وبينما يصاب البشر بالعدوى من استنشاق الفيروس، فإن طيور الماء تصاب عن طريق البراز - الفم. إنها تسكب كميات هائلة من الفيروس فى برازها، ومما يثير العجب ان الفيروس يمر من طير لآخر دون أن يسبب المرض.

.ويستطرد قائلاً: «هذه الطيور تحوى خمسة عشر نوعاً من فيروسات الأنفلونزا A.. لكنها لا تمرض».

إن تنوع الفيروسات فى هذه الطيور يشير إلى تاريخ مشترك طويل من الارتقاء. بالإضافة لهذا يبدو أن الجينات فى فيروسات الطيور تلك متوقفة عن التطور، ومتكيفة تماماً مع عائلها بحيث لا تقدم لها التحولات الجديدة أية مزية، ولهذا لا تشجعها. يواصل (وبستر):

«هذا فى حد ذاته يؤكد لى أننا وجدنا المستودع الرئيس للفيروس. إن الفيروسات لا تكسب الكثير من قتل عائلها، وحين يكون لفيروس تاريخ طويل فى حيوان ما، فمعنى هذا أنه وصل إلى معاهدة سلام مع الجهاز المناعى للحيوان، فلا يسبب إلا مرضاً طفيفاً».

تأتى المشكلة حين يصل الفيروس إلى الطيور المدجنة مثل الدجاج والديك الرومى وهى طيور لم يتكيف عليها.. هنا ينتزع الفرامل التى توقف تطوره. وتصيب الفيروسات عائلها الجديد بالمرض فتستجيب الأنظمة المناعية ومن ثم يتحول الفيروس لتفادى النظام المناعى. ربما يقتل عائله كذلك.

وقد حدث فى التسعينيات. على سبيل المثال. أن ظهر وباء عنيف فى الدجاج المكسيكى، وتم تتبعه إلى سلالة أنفلونزا تشبه تماماً تلك التى تصيب طيور الشاطئ من دون أن تؤذيها. وتسببت أوبئة الأنفلونزا كذلك فى خسائر ضخمة فى مزارع الدواجن فى الولايات المتحدة، أكثرها يحتشد حول مسار طيور الماء المهاجرة. يمكن أن تبلغ المشكلة المدن كذلك. ففى ديسمبر عام ١٩٩٧ وبينما كانت هونج كونج تعانى الفيروس H5N1، كانت (نيويورك) تغلق وتنظف أسواق طيورها مؤقتاً، بسبب انتشار فيروس طيور آخر هوH7N2 إن فيروسات H7 مثلها مثل H5 مشهورة بتحولها إلى طواعين دجاج مخيفة. إن الموظفين فى نيويورك يصرحون بسرعة أن H7 لم يسبب قط تهديداً للبشر. لكن نفس الشىء قيل بالطبع عنH5 حتى العام الماضى: حين حدث ما حدث فى هونج كونج.

و يقول (إدوين د. كيلبورن) عضو لجنة التخطيط للأوبئة بالمعهد القومى الأمريكى للصحة:

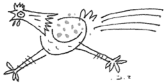
«أنا الآن أشعر بالخطورة أكثر مما كنت قبل موضوع هونج كونج. لقد رأينا ما يستطيع فيروس طيور أن يفعله».

كانت هناك أدلة منذ وبائى عامى ١٩٥٧ و١٩٦٨ على أن الأنفلونزا الوبائية تسببها الفيروسات البشرية التى استبدلت بجيناتها بعضاً من جينات الطيور.. غالباً طيور الماء. لكن التقاط العدوى من الخنازير بدا أكثر احتمالية. فعلى حين لا يحمل البشر مستقبلات لفيروسات الطيور على خلاياهم فإن الخنازير تحملها. وسادت نظرية أن أنفلونزا الطيور تصير أكثر تكيفاً مع البشر لو مرت بعائل وسيط كالخنزير. والخنازير فى مزارع آسيا (حيث نشأ وباء ١٩٥٧ و١٩٦٨) تكون غالباً موجودة مع البط والدجاج. ولدى الخنازير مستقبلات لأنفلونزا البشر كذلك. لهذا قد يستنشق الخنزير فيروسات الطيور فى الماء أو الفضلات، أو يستنشق فيروساً بشرياً من فلاح يسعل، ثم يصير وعاء يخلط فيه الفيروسان. ومن هنا يهاجم الفيروس الناتج البشر المجاورين.

وما أظهره وباء (هونج كونج) حتى الآن هو أن القفزة من الطيور إلى البشر مباشرة أمر ممكن. ولربما لم تكن الخنازير مهمة كما كنا نعتقد. من ناحية أخرى، فإن نظرية (الخنزير - الوعاء) مغرية وقد تأيدت ببعض ملاحظات: فى العام ١٩٩٣ اختلط فيروس البشر H3N2 ونسخة طيور من الفيروس H1N1 فى الخنازير الأوروبية، فنتج عن هذا فيروس أصاب طفلين فى هولندا. لكن طبقاً لما يقوله (يوشيهيرو كاواوكا) عالم الفيروسات فى جامعة (وسكونسين) فى (ماديسون)، لا توجد أدلة مباشرة على أن الخنازير كانت متورطة فى أنفلونزا البشر عامى ١٩٥٧ و١٩٦٨.

لهذا من يعطى ماذا ؟.. ولمن ؟.. ربما كانت فيروسات الطيور مسئولة عن الوباءين الأخيرين، لكن أقرب شىء لأنفلونزا ١٩١٨ الأسبانية هو فيروس يبدو كفيروس الخنزير H1N1 الذى ظهر أول مرة عام ١٩١٨، ومازال فى الخنازير حتى اليوم. وحسب التاريخ المدون، فإن البشر مرضوا أولاً، مما يوحى بأن البشر نقلوا الفيروس للخنازير. لابد أن هذا القاتل العالمى الذى ظهر من ثمانين عاماً هو الأنفلونزا التى نحاول فهمها. للأسف أيضاً هو الأكثر صعوبة فى القبض عليه. ففى عام ١٩١٨ لم يكن هناك أحد يعرف ان الأنفلونزا يسببها فيروس، لذا ضاع المسبب من البداية. وفى الثلاثينيات حين عرف العلماء أن فيروساً هو المشتبه فيه، كان فيروس ١٩١٨ المميت قد رحل. أو حسبنا هذا حتى عام ١٩٩٧ حين بدأ الباحثون يعيدون إحياء هذا الشبح الجينى.

لقد مسحت الأنفلونزا الأسبانية العالم على موجتين. خلال موجة الربيع كانت معدية جداً لكن أقل شراسة. وحين بدأت موجة





الخريف راح الفيروس يقتل الناس، خاصة الشباب، فى جماعات. وكان لدى (جيفرى تاوبنبرجر باحث الفيروسات فى المعهد العسكرى لعلم الأمراض بواشنطن) سؤالان: من أين جاء الفيروس؟ ولماذا توحش فجأة؟

كان أول ما قام به هو البحث عن عينات من أنسجة ضحايا عام ١٩١٨ ومن بين ٧٠ عينة لم يجد الـRNA الخاص بالأنفلونزا إلا فى حالتين. «العينة الأولى كانت لجند عمره ٢١ سنة من (فورت جاكسون) ومن المدهش أنه توفى يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩١٨، وهو نفس اليوم الذى مات فيه زميله فى (كامب أويتون) بـ(نيويورك). الثانى مات خلال ثلاثة أيام بأوديما رئوية.. رئتاه غرقتا فى السوائل تماماً».

أظهرت دراسته الأولى التى انصبت على أجزاء من جين مولد التجلط فى حمض RNA الذى وجده فى الضحية الأولى، والذى بدا تماماً كفيروس الخنزير H1N1. وما زال يبدو كجين ثديى حتى اليوم حتى أنه أمكن معرفة ترتيبه. ويضيف (تاوبنبرجر): «إنه أقرب فيروس ثديى لفيروسات الطيور.. لهذا من المحتمل أنه جاء من طائر.. لكن السؤال هو منذ متى؟».

ويمكن إيجاد دليل من دراسة أجسام الأنفلونزا المضادة فى دماء الناس الذين عاشوا لدى بدء القرن. لربما كان بعض الناس لديهم أجسام مضادة لفيروس H1N1 جاءت من الأسلاف حوالى العام ١٩٠٥ ولربما راح الفيروس يتسلل خلسة لعدة أعوام قبل ظهور الوباء الأسبانى. لربما تسلل إلى الناس لكنه لم يستطع الانتقال بسهولة أو بسرعة. لقد احتاج إلى وقت حتى يتعلم مهاجمة البشر.

يقول (تاوبنبرجر) متأملاً: «ترى هل رأينا شيئاً كهذا فى هونج كونج؟. لربما كان ما حدث فى هونج كونج مؤخراً يكرر ما حدث عام ١٩٠٥.. إن الأمر يستحق التفكير».

من ناحية أخرى لم يكن فيروس ١٩١٨ شبيهاً بفيروس طيور هونج كونج. فى فيروسات الدجاج H5 وH7 يؤدى تحول بسيط فى جين مولد التجلط، إلى أن ينقلب فيروس هادئ الطباع لقاتل مميت. هذا التحول يسمح للفيروس بالوصول إلى خلايا خارج مجاله الطبيعى.. ليس فقط فى أمعاء الطيور وجهازها التنفسى، بل قلبها وكليتها ومخها. هذا التحول المخيف كان من العلامات المميزة لفيروس الطيور الذى سبب مرضاً شديداً وقتل ثمانية عشر شخصاً فى هونج كونج، لكن (تاوبنبرجر) وجد أن فيروس ١٩١٨ افتقر لهذا التحول.

ليس معنى هذا أن التحولات التى تزيد الشراسة لا توجد فى أماكن أخرى. وقد حصل (تاوبنبرجر) على مصدر آخر من فيروسات ١٩١٨ ليفحصها. ففى العام ١٩٩٧ سافر (جون هالتين). وهو عالم أمراض متقاعد من سان فرانسسكو، إلى (بريفيج). وهى قرية فى الاسكا قضت عليها الأنفلونزا تقريباً عام ١٩١٨. وبعد أخذ إذن أهالى القرية وبمساعدة رجال الشرطة، فتح قبور ضحايا الأنفلونزا الذين دفنوا فى الجليد، آملاً فى أخذ عينات من الرئتين. من بين هؤلاء كانت امرأة شابة بدينة «ترقد على ظهرها وقد تحولت يداها لعظام.. لكن حالة باقى الجثة كانت جيدة لشدة عجبى. جلست على الأرض وقلت لنفسى: هذا هو المكان الذى سنجد الفيروس فيه، ليكشف السر عن وباء ١٩١٨». صارت هذه الشابة مفتاح (تاوبنبرجر) لتتبع جينات الفيروس. لقد ساعدت طبقة الدهن فى جلدها على حفظ نسيج رئتيها ٧٩ عاماً.

جلب نجاح (تاوبنبرجر) و(هالتين) حماساً لمزيد من الحملات إلى الشمال القطبى فى أغسطس. وتحت قيادة (كيرستى دونكان)، وهو جغرافى كندى، سافر الفريق إلى (سبيتزبرجن) شمالى النرويج، لاستخراج أجساد ستة عمال مناجم ماتوا عام ١٩١٨. أظهرت دراسات الرادار الاختراقية للأرض أن قبورهم تحت خط الجليد الدائم. وبرغم ان احتمالات العثور على فيروس حى فى رئاتهم كانت معدومة، فإن الفريق ارتدى ثياباً واقية.

حين تم العثور على القبور كانت فوق طبقة الجليد الدائم. يقول (ويستر): «الأخبار الطيبة هى أننا ظفرنا بعدة عينات.. الأخبار السيئة هى أن الأنسجة لم تكن متجمدة». فى أفضل الأحوال يجد الباحث نفسه أمام أجزاء صغيرة، إلى حد يثير الجنون. من حمض RNA الوراثى، تحتاج إلى عامين حتى تصل إلى «ما وصل إليه (جيفرى) الآن». يقول (تاوبنبرجر) إنهم لو وجدوا فيروساً حياً فى (سبيتزبرجن) لاحتاجوا إلى أسبوع او اثنين لمعرفة تتابع الجينوم الوراثى كله. وخلال أسابيع كان الفريق سيصل إلى معرفة جينات واحد من اكبر السفاحين على وجه الأرض، وربما عرف مصدره.

وحين تمكنت السلطات الزراعية فى هونج كونج عام ١٩٩٧ من استخلاص الفيروس القاتل للدجاج، تبين أنه H5 وتم نقله إلى مختبر مؤمن فى الولايات المتحدة. وحين وجد موظفو الصحة العامة فيروساً غامضاً لدى طفل مريض، أرسلوه إلى الباحثين الهولنديين المهتمين بالفيروسات الغريبة. وحين اتضح أن فيروس الدجاج هو المسبب لمرض البشر، فعلت الحكومة ما كان عليها أن تفعله: أغلقت الأسواق، وقتلت الطيور بالغاز. ليس الدجاج فقط بل البط والإوز والطيور المائية التى ربما نقلت لها العدوى (أقرب مولد تجلط فى فيروس هونج كونج تم العثور عليه فى إوزة صينية). لقد حدثت تغيرات عظمى فى نظام التجارة العالمى. مثلاً يتم اختبار الدجاج القادم من جنوب الصين مرتين على جانبى الحدود. ولم يعد مسموحاً بخلط الدجاج مع البط أو الأوز. وفى تطور هائل للعادات الصينية، صارت الطيور المائية تؤخذ لسوق منفصل، وتقتل مقدماً وتباع متبلة.

ولكى نقلل فرص انتقال فيروس الحيوانات إلى البشر، من الجوهرى أن نعرف أى الفيروسات يجلب المتاعب، وأين هى. ولمدة عقود ظل العلماء يختزنون السلالات المهمة فى ثلاجاتهم والآن حان وقت فتح هذه المكتبات، ومعرفة شجرة عائلتها. وقد جرب الهولنديون اختبارات سبق لـ (ويستر) إجراؤها كى يتعرفوا فيروس الأنفلونزا فى طفل هونج كونج. لكن الخبرات التى اكتسبناها من هونج كونج تبين أن مستويات المسح الصحى الحالية ليست جيدة بما يكفى.

على الأرجح سوف يتضح أن المخزن الأمثل لفيروس دجاج هونج كونج موجود فى الطيور المائية المهاجرة. يقول (ويستر): «ليس بوسعك قتل كل البط والطيور المائية فى العالم.. هذا غير معقول.. هذا يجعلك تدرك أن الأنفلونزا مرض غير قابل للاستئصال».

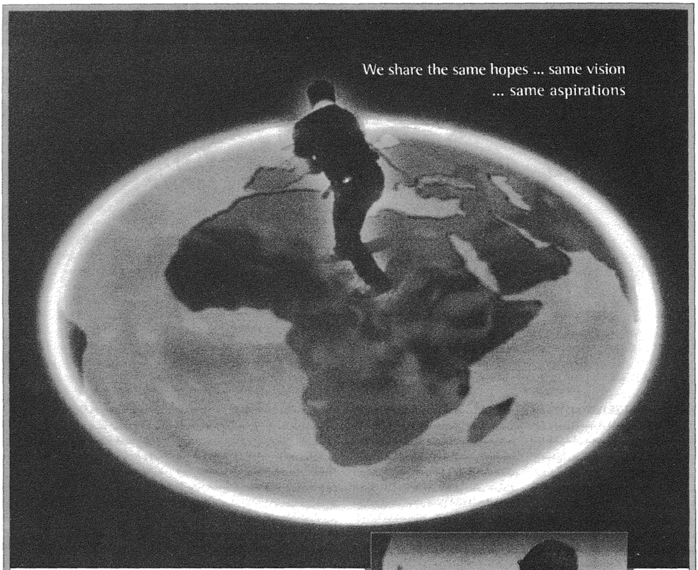
وتستطيع مضادات الفيروسات أن تعمل ضد الأنفلونزا لكن أفضل سبل الحماية هى اللقاح. ما زال اللقاح الأفضل هو الذى يشبه الفيروس الأصلى كثيراً لكنه أكثر أمناً. وحتى هذه اللحظة لا يوجد شبيه آمن لفيروس أنفلونزا الطيور.

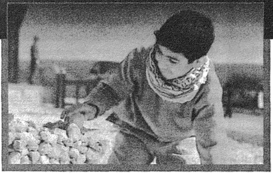
يسأل (ويستر): «هل لدينا لقاح على الرف إذا احتجنا إليه؟.. لا.. ولم لا؟.. لأننا لم نجد فيروساً بديلاً يصنع لقاحاً. ولماذا؟.. لأننا لم نجر المسح اللازم.. لابد من البحث فى كل جنوب شرق آسيا».

وفى لقاء لمعهد الصحة القومى، ناقش علماء الفيروسات وإداريو الصحة العامة الحاجة إلى إجراء مسح فى المستقبل. ويجب أن تكون اللقاحات جاهزة ضد الأنواع الفرعية الخمسة عشر. حتى لا يأخذنا H5 على حين غرة».

الآن يلتقط الباحثون انفاسهم وقد سرهم أن H5N1 قد قتل فى مهده، لكن (ويستر) يشعر بأن قفزة أخرى من الطيور للإنسان ستحدث فى المستقبل القريب. ويضيف «وباء هونج كونج كان إنذاراً مما قد يحدث.. كان هذا سفاحاً. مثل وباء ١٩١٨. متجهاً إلى طريقه».■

مرت بعالمنا ثلاثة أوبئة أنفلونزا شاملة خلال القرن العشرين. أسوأها حتى الآن هو ما يطلق عليه الأنفلونزا الأسبانية عام ١٩١٨. فقد أصيب كل فرد على ظهر الأرض تقريباً بالوباء، وهلك ثلاثون مليوناً، وهم أكثر بكثير من قتلى الحرب العالمية الأولى


We share the same hopes ... same vision
... same aspirations



غذاء أكثر.. وجوعى أكثر

أحمد مستجير

تطلب الأمر عشرة آلاف سنة ليصل إنتاج العالم من القمح وغيره من الحبوب إلى بليون طن. حدث ذلك عام ١٩٦٠، ثم تطلب الأمر بعد ذلك أربعين سنة لا أكثر ليصل هذا الإنتاج (فى عام ٢٠٠٠) إلى بليونى طن

■■ «مَنْ يَملك خبزه يُواجه الكثير من المشاكل...
أمَّا مَنْ لا يملكه، فَلَن تكون أمامه سوى مشكلة واحدة!»

مثل بيزنطى

نشأت الزراعة. أول اعتداء للإنسان على الطبيعة، منذ نحو عشرة آلاف عام. ومنذ ذلك الحين والإنسان يحاول دائما تحسين محاصيله، بانتخابه ما يلائم من نباتات، من البرية أولاً ثم بعد ذلك من حقوله التى زرعها. كان ينتخب النباتات سريعة النمو متميزة الإنتاج المقاومة للآفات والأمراض وللظروف الجوية. أصبحت عشائر النباتات التى انتخبها قدامى الفلاحين هى محاصيل اليوم التى تغذينا جميعاً. المحاصيل التى يعمل عليها مربو النبات من علمائنا. كان القمح هو أول نبات اهتم به الفلاح القديم، وعليه نشأت الحضارة فى الهلال الخصيب. جاء هذا النبات الذى نأكل حبوبه اليوم، عن تجربة فى الهندسة الوراثية قامت بها الطبيعة قبل ظهور العلم والعلماء. والهندسة الوراثية هى عبور بالجينات يتخطى الحواجز بين الأنواع. أجرت الطبيعة تهجيناً بين ثلاثة أنواع مختلفة من النجيليات، كل يحمل جينوما من سبعة كروموزومات، ليظهر قمحنا بجينوم من ٢١ كروموزوماً. ولقد تطلب الأمر عشرة آلاف سنة ليصل إنتاج العالم من القمح وغيره من الحبوب إلى بليون طن. حدث ذلك عام ١٩٦٠، ثم تطلب الأمر بعد ذلك أربعين سنة لا أكثر ليصل هذا الإنتاج (فى عام ٢٠٠٠) إلى بليونى طن.

كانت هى الثورة الخضراء.

البداية

فى عام ١٩٤٣ أقامت مؤسسة روكفيلر مركزاً علمياً تطبيقياً بالمكسيك لتربية النبات، مهمته مساعدة فقراء الفلاحين هناك، وتولى أمره نورمان بورلوج. بدأت بهذا المركز ثورة القمح «الهادئة» فى أواخر الخمسينيات، إذ تمكن هذا الرائد من استنباط «القمح القزمى» الشتوى. كانت أقماحاً جديدة عريضة التكيف مقاومة للأمراض متميزة فى تحويل السماد والماء إلى حبوب ثمينة. كانت قصيرة الساق. والفلاح، فرضاً، يحب القمح طويل الساق ذا المظهر المهيب الحبيب المثير للإعجاب. لكن القمح القصير قد أثبت دائماً أنه أكثر فائدة. فمثل هذا النبات يبذل طاقة أقل فى تنمية ساقه القصيرة، ثم إن هذه الساق القصيرة تستطيع بسهولة أن تحمل السنابل وما بها من حبوب، فى الوقت الذى تنحنى فيه الساق الطويلة عند النضج وتسبب المشاكل. كانت النتائج مذهلة حقاً، حتى لقد وصلت المكسيك، وكانت تستورد القمح، إلى الاكتفاء الذاتى عام ١٩٥٦، وعلى عام ١٩٦٤ كانت تصدر نصف مليون طن من القمح!

إلى الهند والباكستان

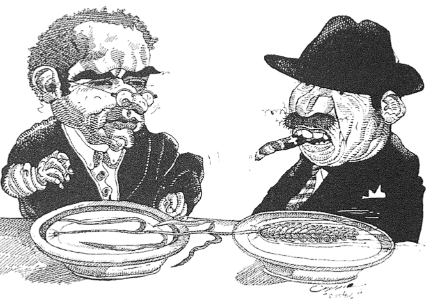
فى عام ١٩٦٣ أقامت مؤسسة فورد والحكومة المكسيكية «المركز الدولى لتحسين الذرة والقمح» (السيميت CIMMYT) كامتداد للمشروع الأصلى، ثم رأى بورلوج أن يتحول إلى الهند وباكستان لتجريب سلالاته الجديدة من القمح. كانت رغبته هذه مثيرة للجدل، ولا تزال. إذ يرى الكثيرون أن على فلاحى العالم النامى أن يزرعوا محاصيلهم المحلية (العدس مثلاً فى الهند، والكاسافا فى أفريقيا) لا محاصيل الحبوب التى يفضلها الغرب. لكن بورلوج كان يرى أن ليس بين هذه المحاصيل المحلية ما قد انتخب للمحصول الغزير، وكان يعتقد أن القمح بالذات هو الأفضل لأنه ينمو فى كل البيئات تقريباً، ولا يتطلب إلا القليل من المبيدات، ولديه مقاومة ذاتية للحشرات.

كانت الهند تحت الاستعمار البريطانى قد خبرت عام ١٩٤٣ أسوأ مجاعة فى التاريخ (مجاعة البنغال)، مات فيها من الجوع فى ذلك العام أربعة ملايين. كان السبب الرئيسى فى هذه الكارثة هو الانخفاض الحاد فى إنتاج الغذاء بتلك المنطقة، وإن كان أمارتيا سين (حامل جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ١٩٩٨) قد رأى أن نقص الغذاء كان حقاً من بين أسباب المشكلة، لكن، كان هناك سبب أهم، هو أن هيستريا الحرب العالمية الثانية لم تجعل لتوفير الغذاء عند الحكام البريطان أولوية عليا. وعندما تحررت الهند من الاستعمار عام ١٩٤٧ ظلت ذكريات مجاعة البنغال تؤرقها، وكان من الطبيعى أن يصبح للأمن الغذائى أهميته القصوى عند الساسة الحاكمين. ظلت الحكومة إذن تركز على زيادة رقعة الأرض المزروعة، لكن السكان كانوا يتزايدون بمعدل يفوق معدل زيادة المساحة المضافة من الأراضى. وعلى عام ١٩٦٤ كانت الهند على شفا أزمة غذائية رهيبة. استوردت الدولة ٢٥,٤ مليون طن من الحبوب فيما بين عامى ١٩٦١ و١٩٦٥، ثم ١٩ مليون طن فى عامى ١٩٦٦ و١٩٦٧، كان تعداد الهند آنئذ ٤٨٠ مليون نسمة. ناشد رئيس الوزراء مواطنيه أن يغفلوا وجبة واحدة فى الأسبوع!

عندما وصل بورلوج إلى الهند، فشل فى البداية فى اقناع المسئولين باستخدام بذوره. لكنه مكث يحاول ويحاول. وفى عام ١٩٦٥ كان شبح المجاعة وقد غدا واضحاً حتى لتوافق حكومتا الهند وباكستان على استيراد بذور القمح القزمى. رتب بورلوج الأمر لقافلة من ٣٥ شاحنة تنقل البذور الممتازة من المكسيك إلى ميناء لوس إنجيلوس. تعرضت القافلة للكثير من المضايقات على الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة، بل وحتى بعد دخولها الميناء. وأخيراً أبحرت السفينة. هنا يقول بورلوج: «دلفت إلى سريرى قرير العين، معتقداً أن المشكلة قد انتهت، لأستيقظ فى الصباح على أخبار تقول إن الحرب قد اندلعت بين الهند وباكستان»!

وبالرغم من ذلك، فقد تمكن من زراعة قمحه القزمى فى شبه القارة الهندية بمعاونة بعض من العلماء المحليين كانوا قد تدربوا لديه فى المكسيك. كانوا يزرعون بذور القمح والمعارك الطاحنة تدور على مرمى البصر. زرع المحصول متأخراً، فكان الإنبات فقيراً، وعلى الرغم من هذا فقد زاد المحصول بنسبة ٧٠٪. نجحت النتائج فى منع وقوع المجاعة بمنطقة الزراعة. وإن كانت قد أصابت مناطق أخرى. بل لقد حدث أن قامت مظاهرات صاخبة فى

... من يملك ثمن الخبز؟!



كيرالا عام ١٩٦٦ عندما قُدِّم دقيقُ القمح لأناسٍ لم يعرفوا غيرَ الأرز غذاءً منذ قرون!

وبسبب ظروف الحرب، حصل بورلوج على الموافقة للمضى قُدُماً فى مشروعه. وفى لا زمنٍ كان قد دبَّر الأمر لزراعة مساحات شاسعة: «لولا الحرب، ربما لم يكن لى أن أتمكن من اختبار فكرتى». كان المحصولُ التالى أروعَ: زيادة قدرها ٩٨٪.

وَفَّرت الثورةُ الخضراء للهند الاكتفاءَ الذاتى من الحبوب. كانت الخطةُ التى اتُّبعت هى الاستمرارُ فى إضافة أراض جديدة للزراعة، ثم الزراعةُ مرتين فى السنة لا مرةً واحدة أثناء فصل الأمطار كما كان الأمر (مما استدعى إقامةَ مشاريع هائلة لإنشاء السدود)، ثم استخدامَ البذور المحسنة وراثياً. أساساً القمح والأرز، وكذا الذرة والدُخْن. نجحت الثورةُ الخضراء فى إنتاجٍ من الحبوب تاريخىٍّ بلغ ١٣١ مليون طن فى موسم ١٩٧٩/٧٨ وتحولت الهند من دولة مستوردة للحبوب لتكتفى ذاتيا عام ١٩٧٤ وتصبحَ واحدةً من أكبر الدول المنتجة للحبوب. وكانت باكستان قبل الهند ببضع سنين قد حققت نفسَ هذا الهدف. عندما رفعت مصرُ الحظرَ على استيراد القمح من باكستان فى مارس ٢٠٠٢ صرَّح مصدرٌ باكستانى مسئول بأن لدى الباكستان مليونَ طنّ قمح فائض يمكن تصديره. ولقد كان نجاحُ الهند هذا واحداً من بين الأسباب التى جعلت من إنديرا غاندى وحزبها قوةً سياسيةً عظمى فى الهند. كانت المحاصيلُ الجديدةُ العاليةُ الغلة تحتاج ماءً أكثر وأسمدةً أكثر ومبيدات أكثر، وقد تمكنت الهند من أن تُسَدِّد إلى البنك الدولى كلَّ ما اقترضتْه من أجل توفير جميع متطلبات الثورة الخضراء.

أسلوبُ خطة الهند للاكتفاء الذاتى من الحبوب كان هو توظيفَ العلم والتكنولوجيا فى الزراعة، وتوطيدَ سياسة سعرية تحفز المزارع على رفع إنتاجه، بجانب اتخاذ الإجراءات التى تضمن ألاّ يتمكّن رجالُ الأعمال مرةً أخرى من تخزين الغذاء من أجل الربح.

ثمة مثلٌ سائر من التاميل يقول: «إذا كان علينا أن ننتظر حتى تهدأ كلُّ الأمواج قبل أن نَنْزِلَ إلى المحيط ونَسْتحم، فإنّا أبداً لن نستحم، علينا أن نتحدى المياه وننزل». فقط علينا قبل ذلك أن نتعلمَ السباحةَ. ولقد تَعَلَّم الهنودُ السباحةَ واكتسبوا الخبرةَ وتوفرت لديهم المعارفُ.

«لو انَّا انتظرنا قبل استخدام هذه الخبرة وتلك المعارف حتى يُصْبِح كلُّ شىء مثالياً: حتى تصبح استجابةُ الفلاح مثاليةً، حتى يصبحَ البرلمانُ مثالياً، حتى يصبحَ الوزراءُ مثاليين، حتى يصبحَ التعاونُ بين الوزراء مثالياً، لو انتظرنا هذا كلَّه، فإنَّا أبداً لن نستطيعَ انجازَ مهمتنا. لابد أن ننطلق». كذا قال وزيرُ الزراعة الهندى الجسورُ سى. سوبرامانيام. وانطلق.

بجانب سلالات القمح القزمى التى طَوَّرها بورلوج، استَنْبطَتْ الثورةُ الخضراء أيضاً سلالاتٍ ممتازةً من محاصيل الغذاء الرئيسية، من بينها الأرزُ نصف القزمى (وطَوَّره المعهدُ الدولى لبحوث الأرز، إيرى IRRI، بالفلبين) والسورجم والدخنُ والذرةُ، وكذا الكاسافا والفول. نجحتْ هذه السلالات فى رفع إنتاجية المحاصيل فى أمريكا اللاتينية: ضاعفت غلة القمح والأرز فى الدول التى استخدمتها.

وعلى تسعينيات القرن العشرين كان نحو ٧٥٪ من مساحات الأرز الآسيوية تُزرع بهذه السلالات الجديدة، كذا كان نحو نصف القمح المزروع فى أفريقيا، وأكثر من نصف قمح أمريكا اللاتينية وآسيا. ونحو ٧٠٪ من الذرة بالعالم. قُدِّر أن ٤٠٪ من مزارعى العالم يستخدمون بذورَ الثورة الخضراء، وبأفضل النتائج فى آسيا، تليها أمريكا اللاتينية.

لكن هذه السلالات التى طُوِّرتْ فى أمريكا اللاتينية وفى آسيا كانت أقلَّ نجاحاً فى المناطق الجافة، مثل أفريقيا ما تحت الصحراء. وتقوم الآن بعض المؤسسات الدولية بمحاولاتها لتطوير سلالات جديدة من محاصيل الغذاء أكثر ملاءمةً للزراعة فى هذه المناطق.

يقول بورلوج إنه لولا زراعة السلالات فائقة الإنتاج لمات الملايينُ من الجوع، أو لاضطُررْنا إلى زيادة المساحة المنزرعة زيادة هائلة. ولقد قدَّر البعضُ أن تَحوُّلَ الهند إلى هذه السلالات قد وَفَّر للدولة عناءَ زراعة مائة مليون فدان من الأرض العذراء. يستطرد بورلوج: «لو ان سلالات الحبوب الموجودة عام ١٩٥٠ كانت لا تزال هى هى عام ١٩٩٩، إذن لتطلبَ الإنتاجُ العالمى من الحبوب فى هذا العام الأخير (١٩٩٩) مساحةً من الأرض تبلغ ١.٨ بليون هكتار بدلاً من الـ ٦٠٠ بليون هكتار التى زرعت عام ١٩٩٩».

[هناك فى الواقع مثالٌ يستحق الذكر هنا فى تمجيد عمل مربى النبات لإنتاج السلالات غزيرة الغلة. ففى عام ١٩٤٠ أنتج مزارعو الولايات المتحدة ٥٦ مليون طن من الذرة بزراعة ٣١ مليون هكتار من الأرض (بمتوسط قدره ١.٨ طن/هكتار) وفى عام ١٩٩٩ أنتجوا ٢٤٠ مليون طن من الذرة بزراعة ٢٩ مليون هكتار (بمتوسط ٨.٤ طن/هكتار)].

فى عام ١٩٦٨ نَشَرَ بول إيرليش كتابَهُ الشهيرَ «القنبلة السكانية»، كَتَبَ فيه يقول: «إنه لمن قبيل الخيال الجامح أن نَتصوَّرَ أن تتمكنَ الهندُ يوماً من تغذية سكانها». وعلى عام ١٩٧٤ كما رأينا كانت الهندُ قد اكتفتْ ذاتياً من الحبوب. ففى عام ١٩٦٥ كانت الهند تنتج ١٢.٣ مليون طن قمح، وصلت عام ١٩٧٠ إلى ٢٠ مليون طن، ليبلغَ إنتاجُها الآن ٦٠ مليون طن. كان معدلُ الزيادة فى إنتاج الغذاء منذ الستينيات يفوق معدل زيادة السكان. لقد ازداد تعداد الهند إلى الضعف منذ عام ١٩٦٨ الذى نَشَرَ فيه إيرليش نبوءتَه، بينما ارتفع محصول القمح ثلاثة أضعاف. إن السياسة التى تهدف إلى مكافحة الجوع لابد ان تَعنَى أن يكونَ معدلُ الزيادة فى إنتاج الغذاء أعلى من معدل زيادة السكان. من هنا اضطر إيرليش أن يحذف هذه النبوءة فى الطبعة الجديدة من كتابه.

ثم بدأ الهجوم

غدت «الموضةُ» فى ثمانينيات القرن الماضى هى البحثُ عن الأخطاء فى الزراعة غزيرة

من يملك ثمن الخبز؟!



المحصول. بدأ المناورون يُسِرُّون إلى مؤسستى فورد وروكفيلر وإلى الحكومات الغربية بأنّ تقنيات الإنتاج الوفير ستُفسدُ العالم الثالث.

إذا لم يُحسَنْ الاستخدامُ المُكَثّفُ للمخصبات والمياه، فستحدثُ آثارٌ سلبية خطيرة على الأنهار والترع، كما قد تُستَنفَدُ مواردُ المياه الجوفية، ويُعَجِّل تمليح التربة. يمكنِ على أية حال بالإدارة الرشيدة تقليلُ هذه الآثار، كما أنَّ زيادة غلة الفدان إنما تعنى اختصار الأرض المخصصة للزراعة والإبقاء على مساحات أكبر من الغابات دون أن تُجتث لإفساح المجال للمحاصيل. فلما أراد بورلوج أن يتوجه إلى أفريقيا. بعد آسيا. قررت بعضُ المنظمات «الخضراء» أن توقفه. أصيب مجتمع «الخُضْر» بالجنون، ليضغط على الدول المانحة والمؤسسات الكبرى حتى لا تدعم أفكاراً مثل المخصبات غير العضوية فى أفريقيا. لجأوا إلى أرقام عن تلوث المياه بالأسمدة مأخوذةٍ من الولايات المتحدة وطبَّقوها على أفريقيا. وهذا فى الحق تطبيقٌ خاطئ تماماً لأن استخدامَ هذه الأسمدة الكيماوية فى أفريقيا قليلٌ للغاية، حتى ليمكن استعمالها عقوداً طويلة قبل أن تتسبب فى الآثار الجانبية التى ظهرت فى أمريكا. وفى النهاية قررت مؤسسة فورد والبنك الدولى الانسحاب من معظم المشاريعِ الزراعية بأفريقيا. وانسحبتْ أيضاً مؤسسة روكفيلر. قال بورلوج: «إن خوفَ البنك الدولى من الضغوطِ السياسية للخُضْر فى واشنطون، قد أصبح هو العقبةَ الوحيدةَ الكبرى فى تغذية أفريقيا». ثم تمكّنت أحزابُ الخُضْر فى أوروبا من إقناع معظم حكوماتها بأن تُوقفَ توفيرَ الأسمدةِ لأفريقيا. كان الاستثناء هو دولةُ النرويج. غضب بورلوج: «إن بعضَ المناورين فى دولِ الغرب هم مِلْحُ الأرضِ، لكنِ الكثيرين منهم يؤمنون بِحُكمِ النُّخبة. هم لم يجربوا يوماً الإحساس بالجوع. يناورون من مكاتبهم الفخيمة فى واشنطون وبروكسل. لو أنهم عاشوا فى العالم الثالث شهراً واحداً. ولقد عِشْتُ أنا هناك خمسين عاماً. إذن لطالبوا بالجرارات والأسمدة وقنوات الرى، ولغضبوا إذ يرون مثل هذه النُّخبة فى بلادهم ينكرونها عليهم».

كان القمحُ الذى طوَّره لا يعطى إنتاجَه الغزير إلا مع التسميد الكثيف والرى الغزير، الأمر الذى يعنى استنزافَ المواد الغذائية من التربة، مما يتطلب ضرورة تزويدها بالأسمدة الكيماوية، فالأسمدةُ العضوية تحتاج إلى تربية حيواناتٍ أكثر تستهلك الحبوبَ. وكان من رأيه أن محاصيلَ الحبوب غزيرةَ الإنتاج، والأسمدةَ غيرَ العضوية. ونظامَ الرى المُحكم هى أمور قد غدت واجبةً مع الانفجار السكانى الذى بدأ منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكان هناك من المعارضين من اقترح. للعجب. أنه من الخطأ أن نرفعَ إنتاجَ الغذاء فى العالم النامى: فالأفضل أن نتركَ الطبيعةَ تؤدى دَوْرَهَا القبيحَ فى الحد من تزايد السكان.

سِوَى أنّ الإحصائيات تقترح أن المحاصيل عالية الإنتاج تكبح النمو السكانى، لا تُسرِعه، فكَمَا يقولُ أحدُ الثقاة «إن التنميةَ هى أفضلُ وسائل مَنْع الحَمْل». الأطفالُ فى زراعة الكفاف أيدٍ عاملةٌ تُستَحْسَنُ زيادتُها فإذا ما تَوَفَّر الغذاءُ فسيحرص الآباءُ على إنجابِ عددٍ أقل حتى يمكن تعليمهم.

ثم حدث. للعجب أيضاً. أنْ بدأت الحركة البيئية تتحول عن موقفها الرافض لاستخدام الأسمدة الكيماوية فى الزراعة! وإذا بروبرت بليك رئيسِ لجنة الزراعة المستدامة المعارِضة يقول فجأةً إنه «قد اتضح له أن هذا الموقف الرافض ليس أمراً واقعياً، وأن نورمان كان على حقٍ طول الوقت»! أما السببُ فى هذا التَّحوُّلِ، فى رأى نورمان بورلوج، فهو أن أحزابَ الخُضْر فى أوروبا قد أزعجتْها تلك الموجةُ المفاجئة من المهاجرين تتدفق إلى بلادهم التى لم تكن تستقبل منهم الكثير. عندئذ اكتشفوا أن تحسينَ الأوضاع فى أفريقيا ليس بالفكرةِ السيئة على أية حال!

أُنْـثُ الجوع!

نجحت الثورة الخضراء بلا جدال فى زيادة الإنتاج الزراعى. ارتفع الغذاءُ الكلى المتاحُ للفرد فى العالم فى الفترة ما بين عامى ١٩٧٠ و١٩٩٠. العقدين اللذين أَنْجَزَتْ فيهما الثورةُ الخضراءُ أكبرَ نجاحاتها. بمقدار ١١٪، وانخفض العدد المقدر من الجوعى بنسبة ١٦٪: من ٩٤٢ مليونَ جائع إلى ٧٨٦ مليوناً. هذا ما تقوله الأرقام.

فى كل دقيقة يموتَ من الجوعِ فى العالم الثالث ٣٠ شخصاً. الجوعُ يحصد أرواح ١٨ مليون إنسان فى العام. الأطفال يشكلون منهم أكثر من النصف، ونسبة الإناث منهم تفوق نسبة الذكور (أُنُثَ الجوع!). أينِ توجد الملايين الـ ٧٨٦ من الجوعى؟ نَبَّهَتْنَا وسائلُ الإعلامِ الغربية منذ بداية الثمانينيات إلى المجاعاتِ فى أفريقيا. لكن عددَ الجوعى بأفريقيا لا يتجاوزُ رُبُعَ هذا الرقم. قيل لنا إن الهند وإندونيسيا قد بلغتا مرحلة الاكتفاء الذاتى من الحبوب، بل وتُصَدِّران. لكن، فى آسيا هذه، وبالتحديد حيث أحرزتْ الثورةُ الخضراء أزهى نجاحاتها، يُوجَدُ ثُلُثَا الجوعى. إن مخازنَ القمح بالهند مليئةٌ بالحبوب بسبب نجاح الثورة الخضراء فى زيادة غلة القمح والأرز، ورغم ذلك «يموت هناك فى كل يوم خمسةُ آلاف طفل من الجوع وسوء التغذية». فلَمَا كان الفقراءُ لا يستطيعون شراءِ ما يُنْتَجُ، فقد شَرَعَتْ الحكومةُ تُخَزِّن ملايينِ الأطنان من الحبوب، لِيَفْسَدَ البعضُ منها، ويتزايد القلقُ من أن تصل الحبوبُ الفاسدةُ إلى السوق». رفعتْ الثورةُ الخضراء إنتاجَ الحبوب، نَعَم، لكنها لم تُقَلِّلْ الجوعَ. وما لنا نذهب بعيداً. تقول الجملةُ الأخيرةُ من الفقرة الأولى بهذا المقال إن إنتاجَ الحبوب فى العالم عام ٢٠٠٠ قد وصل إلى بليونى طن. فإذا كان تعداد البشر ستة بلايين، فسيكون نصيبُ الفرد. طفلاً كان أو بالغاً. هو ثُلْث طن فى المتوسط، أى نحو كيلوجرام يومياً. العالم بالفعل ينتج ما يكفى كل سكانه من الطعام! المشكلة هى التوزيع!

فإذا نظرنا إلى الأرقام نظرةً أكثر عمقاً، وأخرجنا الصينَ من المعادلة، فسنكتشف أن عدد الجوعى فى بقية العالم قد ازداد بنسبة أكثر من ١١٪: من ٥٣٦ مليوناً إلى ٥٩٧ مليوناً. فى أمريكا الجنوبية مثلاً ارتفع متوسط الزاد الغذائى بنسبة ٨٪، وازداد عدد الجوعى بنسبة ١٩٪. وفى جنوب آسيا ازداد الغذاء المتاحُ بنسبة ٩٪ على عام ١٩٩٠، لكن عددَ الجوعى ازداد ٩٪. لا، ولم تكن زيادةُ السكان هى السببَ فى زيادة عدد الجوعى، فلقد ارتفع القَدْرُ الكلى المتاح من الغذاء للفرد فعلاً، لكن الفقراء لم يتمكنوا من الحصول عليه. لم تجد الحبوب طريقها إلى بطون الجوعى. لقد وجد البنكُ الدولى فى دراسة له عن الجوع نُشِرَتْ عام ١٩٨٦ أن الزيادةَ السريعة فى إنتاج الغذاء، لا تعنى بالضرورة تقليل الجوعى. الجوعُ الحالى لا يمكن تخفيفُه إلاَّ «بإعادة توزيع القوة الشرائية والموارد، نَحْوَ من يعانون من سوءِ التغذية». ببساطة: إذا كان الفقراءُ لا يمتلكون المالَ لشراءِ الطعام، فإن زيادةَ الإنتاج لن تُفِيدَهُم.

فى كل دقيقة يموت من الجوعِ فى العالم الثالث ٣٠ شخصاً. الجوعُ يحصد أرواح ١٨ مليون إنسان فى العام. الأطفال يشكلون منهم أكثر من النصف، ونسبة الإناث منهم تفوق نسبة الذكور

أما فى الصين، فقد انخفض عدد الجوعى فى هذه الفترة (١٩٧٠ . ١٩٩٠) من ٤٠٦ ملايين إلى ١٨٩ مليوناً، الأمر الذى يجعلنا نتساءل: أكان السببُ هو الثورة الخضراء أم الثورة الصينية؟ إن نجاحَ الثورةِ الخضراء. أو غيرها من استراتيجيات زيادة إنتاج الغذاء. فى تخفيض عدد الجوعى، إنما يتوقف على

القوانين الاقتصادية والسياسية والثقافية التى يصنعها الشعب، فهى التى تُحَدِّدُ مَنْ يستفيد من زيادة الإنتاج، مَنْ سيحصلُ على الغذاء، وبأى سعر.

الفقير يدفع أكثرَ ويحصل على أقل. فقراء الفلاحين لا يستطيعون شراءَ الأسمدة وغيرها من مستلزمات الإنتاج بسعر الجُملَة كما يفعل كبار المزارعين. فقراء الفلاحين لا يستطيعون أن يبيعوا محاصيلَهم بأفضل سعر مثلما يستطيع كبار المزارعين. صغار المزارعين لا يستطيعون توفير المياه اللازمة لرىِّ سلالاتهم الممتازة إلاَّ بأعلى التكاليف. هم يلجئون إلى الاقتراض مَحَليًا ويدفعون من فوائد القروض أضْعاف أَضْعَاف ما يدفعه المزارع الثرى: القروضُ التى تُوَفِّرها الحكومةُ مدعَّمةً تُفيد الكبارَ أكثر مما تُفيد الصغارَ. الفقراءُ تُعْوِزُهُم السلطةُ، والحكومة تُفَضِّلُ الثرى. لا عجب أن يضطر الكثيرون من فقراء الفلاحين فى الهند إلى بيع أراضيهم. ولا عجب أن يُقْدِمَ الكثيرون منهم على الانتحار.

إن إدخالَ التكنولوجيا الزراعية الحديثة إلى نظامٍ اجتماعىٍّ مُكَرِّسٍ لصالح الأغنياء ضد الفقراء، دون معالجةٍ اجتماعية، سيقود مع الوقت إلى زيادة تركيز ثمار الثورة الخضراء فى أيدى الأغنياء، وستكون النتيجة التراجيدية غذاءً أَكْثَرَ وَجُوعاً أَكْثَرَ.

يقولُ رجالُ الثورةِ الخضراء إنَّ مُهِمَّتَهُمْ ومُهِمَّةَ بذورهم المعجزةِ هى رفعُ إنتاج الحبوب، فهذا هو المفتاحُ الأصلى للقضاء على الجوع فى العالم. المحصولُ الأعلى . يقولون . يعنى دخلاً أعلى للفقراء من الفلاحين، ويساعدُ على خروجهم من دائرة الفقر: الطعامُ الأكثرُ يعنى جوعاً أقل. ومعالجةُ الأسبابِ الجذرية للفقر المُسَبِّبِ للجوع سيستغرقُ وقتاً طويلاً، والناسُ الآن جَوعى يموتون من الجوعِ. علينا إذن أن نَفْعَلَ ما نستطيعِ: أن نَرفَعَ إنتاجَ الغذاء، أن نشترى الوقتَ الذى يحتاجه العالمُ الثالثُ لمعالجة الأسبابِ الاجتماعية الحقيقية للفقرِ، ولخَفْضِ مُعَدَّلاتِ الولادة. ولا يمكن لعلماءِ الثورة الخضراء ومستشارى سياساتها أن يطلبوا من اية دولةٍ فقيرة أنْ تُصلِحَ نِظَامَهَا السياسىَّ والاقتصادى. إن كل ما يستطيعونه هو أن يُسهِمُوا بخبرتِهِمْ فى إنتاج الطعام. هذه مهمتُهم. لم يكُنْ لعلماء الزراعة أنْ يأخذوا البُعْدَ الاجتماعىَّ فى الاعتبار.

يقول بورلوج إن أزمةَ الغذاء الحالية، ولحد كبير، هى نتيجةٌ للاهمال الطويل للزراعة من قِبَل القادة السياسيين. فعلى الرغم من أن الزراعةَ تُوَفِّرُ الحياةَ لنسبة تتراوح ما بين ٧٠٪ و٨٥٪ من سُكَّانِ معظم دولِ العالم الثالث، فإن تطويرَ الريف والزراعةِ لم يَحْظَ من الساسةِ إلا بأولوية دُنْيَا. ثم إن الكثيرَ من الحكومات تتبع سياسةَ توفيرِ الطعام الرخيص لسُكَّان المُدنِ ذوى الوزن السياسى، على حساب سكان الريف.

ثورةٌ خضراءُ جديدة؟

بحلول القرن الواحد والعشرين يواجه العالمُ احتمالَ ظهور أزمةٍ فى الغذاء جديدة طاحنةٍ ومعقدة، تتطلب وسائلَ لتوفير الغذاء الجماعى أفضلَ من وسائل الثورة الخضراء. سيصل تعداد العالم عام ٢٠٢٥ إلى ٨.٣ بليون فرد، ويلزم أن يزداد الإنتاج بأكثر من ٥٠٪ لإطعامِ الأفواه الجديدة. الأمر يحتاج بلاشك إلى ثورةِ «مستديمةِ الخضرةِ»، تحتاجُ المزيدَ من العلم الجاد لمواجهةِ تنويعةِ أعرضَ من المشاكل. لابد من اللجوء إلى البيوتكنولوجيا الحديثة والهندسة الوراثية، جَنْباً إلى جَنْبٍ مع طرق تربية النبات التقليدية. يمكنِ بالبيوتكنولوجيا اختصارُ الزمن وتقليل النفقاتِ اللازمةِ لاستنباطِ سلالاتٍ نَبَاتِيَّةٍ جديدة عالية الإنتاج: نباتاتٍ تقاوم سُمِّية التربة والآفاتِ والجفافَ والملوحةَ، نباتات عاليةَ المحتوى الغذائى. ثم لابد أيضاً أن يُسْتَغَلَّ التنامى الهائل لشبكات الاتصال، الذى تم فى السنينِ الأخيرة، لخَلْقِ نظامٍ زراعىٍّ عالمى متكاملٍ، تنتقلُ فيه بسهولة ويُسر المعلوماتُ عن السلالاتِ المحلية والتقنياتِ الزراعية المُخْتَبَرَةِ مَحَلِّيًا فى مناطقها عَبْرَ الأجيال، لتجدِ طريقَها إلى العلماء فى كل مكان ليُضَمِّنُوها أعمالَهم. وفى نفسِ الوقت«علينا أنْ نُرَوِّضَ غُولَ الزيادة السكانية، وأن يَظَلَّ الإنتاجُ الزراعىُّ راسخاً، وإلا فسيشهدُ القرنُ الواحدُ والعشرون مأساةً لم يسبق لها مثيل»، كما قال بورلوج بحفل تسلمه جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٧٠.

لكن هذا موضوعُ طويل يحتاج مقالاً آخر. ■

كتاب الزاوية

مذكرات الأميرة جويدان

٣ - الخديوى واللورد كرومر

جلس الخديوى عباس حلمى على العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره، ولم تكن الظروف حسنة. فقد خلف أبوه توفيق باشا، وكان حاكمًا ضعيفًا.

ولما تولى العرش لم يجد فى بداية حكمه تعضيدًا كافيًا، فإن اللورد كرومر لم يكلف نفسه عناء الاتصال بالخديوى الصغير،فكان اللورد كرومر لا ينظر إلى الخديوى إلا كرئيس عنيد الرأى، وربيب له غير محبوب منه. لأنه كان مضطرًا لمخاطبته بلقب «يا صاحب السمو» وهو يعلم أن الخديوى ليس له من الأمر إلا هذا اللقب، على حين أنه كان يشعر بأنه هو الحاكم الحقيقى وكان هذا كافيًا لأن ينظر اللورد إلى الخديوى كدمية يجب عليها الطاعة. ولكن الطاعة كانت غريبة على خلق الخديوى منذ الصغر، وكان قوى العزم عنيد الرأى، وفوق ذلك كان محبًا للكفاح.

وليس من المعقول أن خديويًا . ولو كان نصف وطنى فقط . يتقبل صداقة ديكتاتور أرغم على قبوله من قوة معادية،فكان أصعب وقت مر على الخديوى هو الوقت الذى امتد فيه ظل كرومر فى مصر، فإنه كان يعامل الخديوى باعتبار أنه فى الثامنة عشرة غير عابئ بحدته ولا احتجاجه.

ولما حضر السير الدون غورست تنفس الخديوى. ولو أن غورست كان فى مصر عندما جلس عباس الثانى على العرش لكان ذلك أصلح لتطور أخلاق الخديوى، فإنه اتهم اللورد كرومر بأنه السبب فى بعض خبث الخديوى.

سمير حنا صادق

الحديث عن ... بين المعرفة والعلم والتكنولوجيا

■ قال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه: «هذا حق يراد به باطل» ومن الممكن القول هنا بأن «هذا باطل يراد به حق».

فى مقال فى النيويورك تايمز يناقش ستيفن هال Stephen S.Hall كتابا لدك ترسى Dick Teresi بعنوان «اكتشافات مفقودة Losi Discoveries» عن الأصول غير الغربية للعلم. يقول كاتب المقال أن ترسى ذهب إلى بورتلاند (أوريجون) بتكليف من مجلة لفحص مقرر مدرسى عن الأصول «متعددة الثقافات» للعلم، كان المقرر يحتوى على مواضيع تتحدث عن استعمال قدماء المصريين لطائرات شراعية معقدة التركيب وعن مقدرتهم الفائقة على تحريك الأشياء عن بعد Telekinesis أو Psychokinesis، وعن استعمال قبائل الإنكا فى أمريكا الجنوبية لبالونات مليئة بالهواء الساخن للطيران فوق سهولهم ووديانهم. دفعت هذه الزيارة ترسى إلى تحرير كتابه السابق الذكر. ويقول ترسى فى كتابه «من العجيب أن هذه الحضارات التى تملكت (كما يزعمون) الطائرات والبالونات قد استعملت السيف والرمح فى حروبها».

ولكن ترسى، كاتب العلم الجاد كما يقول ستيفن هال، لم يوجه كتابه فقط نحو نقد هذه الخزعبلات. فقد اكتشف، على حد قوله، فى دراسته لتاريخ العلم، أصولاً مهمة حقيقية للعلم الغربى فى بلاد العرب والهند والصين، ويقول ستيفن هال، كاتب المقال «إنها لاشك جرأة من الناشر طبع هذا الكتاب بعد أحداث ١١ سبتمبر، فهو يؤكد تفوق الذكاء العربى والعلم الإسلامى فى القرون القديمة والوسطى».

ولكن ترسى. فيما يرى كاتب هذه السطور. قد ارتكب نفس أخطاء المقرر المدرسى فى محاولة إثبات قضيته، فاستعمل أدلة باطلة فى استنتاج الحقيقة كما سنحاول أن نوضح بعد أن نتفق على التفرقة بين «المعرفة» و«العلم» و«التكنولوجيا».

يتفق أغلب المهتمين بشئون مجتمعاتهم أن أهم وسائل القوة والصحة فى عصرنا الحالى هى «المعرفة»، وقد أصبحت المعرفة الآن تتضاعف كل بضعة شهور. ويرجع الفضل الأول فى هذا النمو السريع إلى إحدى وسائل المعرفة وهو «العلم». ولسنا نزعم هنا أن «العلم» هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة، فلن يستطيع أحد أن يحدد «علميًا» أسباب روعة السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، أو جمال تمثال «القبلة» لرودان، أو تفوق رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، ولكن وكما أوضحنا، فإن العلم أصبح يمثل الجبهة النامية سريعًا للمعرفة وبدونه تصبح المجتمعات مهددة بالسقم والضعف وبانهيار وجدانياتها ومقدساتها.

وإذا كنا نعرف ما هو «الطعام» دون أن يكون لدينا تعريف مانع، فإنه كذلك ليس لدينا تعريف «مانع جامع» للعلم. ويضاعف من صعوبة هذا التعريف فى مجتمعاتنا العربية أن كلمة «علم» تستعمل عادة بمعنى «معرفة». فاسم الفاعل منها Scientist (وقد كان صكه بداية فصل مجموعة «الفلسفات الطبيعية» عن فروع الفلسفة الأخرى) يعبر فى لغتنا عن طيف كبير من الناس، فهو قد يعبر عن «عالم» فى معمله أمام كمبيوتر يقوم بالبحث العلمى، وهو قد يعبر عن بروفيسور يقوم بالتنجيم وبمعرفة حظك هذا الأسبوع وينتحل لنفسه لقب «عالم»، وهو أيضًا يعبر فى مؤنثه عن سيدة تقوم فى الموالد والأفراح بالرقص والغناء.

ورغم استحالة إيجاد تعريف مانع جامع للعلم، فإنه من الممكن والواجب الحديث عن خواص معينة له وعن تخليصه من بعض ما ألصق به من شوائب. ومنها مثلاً أنواع العلم الزائف Pseudoscience. الذى يصل إلى حد الدجل والنصب أحيانًا. وبشكل عام فإنه من أهم خواص العلم:

. القابلية للتكذيب Flasification واجتياز اختبار التكذيب. وهى المقولة التى تذكرنا بها دائمًا الدكتورة يمنى طريف الخولى أخذًا عن كارل بوبر. وكمثال، فإن أغلب المكتشفات الطبية مثل اكتشاف علاقة سرطان الرئة بالتدخين، تتم بالفشل إحصائيًا فى إثبات أن ما نراه هو مجرد صدفة، أى الفشل فى التكذيب.

. النشر العلمى. فالعلم مثل الزواج لا يصبح شرعيًا إلا بعد العلنية. والنشر المطلوب هو فى المجلات العلمية العالمية المعترف بها والتى يفحصها ويحكم فيها المتخصصون، وليس فى المجلات التى انتشرت فى جامعاتنا ومعاهدنا التى لا تقرأ والتى لا يتطلب النشر فيها إلا دفع بعض الرسوم المالية.

. ويزيد من احترام العلم قابليته للقياس والتجريد الرياضى السليم.

. ويتطلب العلم الصحيح القابلية للتطور والتطبيق. إن قوانين كبلر Kepler (١٥٧١ - ١٦٣٠) عن مسارات الكواكب تستعمل الآن لرحلات الفضاء الخارجى. وقوانين ماكسويل Maxwell (١٨٣١ - ١٨٧٩) الأربعة عن الموجات مازالت هى المصدر لعديد من التطبيقات فى ميادين التليفزيون والليزر والضوء وغيرها.

ولكن، لعل أهم ما يواجهنا فى كتاب ترسى، وفى تعاملنا مع العلم فى مجتمعاتنا العربية هو الخلط بين العلم والتكنولوجيا.

لو اعتبرنا أن العلم هو مجرد ابتكار طرق جديدة للتعامل مع الطبيعة (كالزراعة وتدجين الحيوانات وإشعال النار)، فإن العلم وتاريخه سوف يكون خط سيرهما مختلفًا عما نظن أنه الطريق الأجدى لتفهم ظاهرة «العلم»: فإنه من الأجدى والأفضل أن نعتبر أن أهم خواص العلم هى استخراج قواعد معينة قابلة للتعميم فى أى مكان وزمان. لقد بنى المصريون الأهرامات بتكنولوجيا رائعة دون استخدام قوانين الروافع، وقام الصينيون بصناعة المفرقعات دون دراسة الكيمياء وقوانين الغازات، وقام مجهولون باختراع العجلة دون دراسة الاحتكاك والجاذبية. ومالنا نذهب بعيدًا: إن العديد من الكائنات الحية تستعمل «التكنولوجيا» فى حياتها، ولعل أوضحها استعمال الشمبانزى لفروع الشجر فى القتال وفى استخراج الحشرات من جحورها، دون معرفتها بالعلم. ولا ينبغى أن ينال التمييز بين العلم والتكنولوجيا من أهمية الأخيرة، فلقد عاش الجنس البشرى (Homo Sapiens) وأجداده (Homo Erectus, Homo Habilis) ملايين السنين بالتكنولوجيا وبدون العلم. لقد أنتجت التكنولوجيا فى غياب العلم وقبله الزراعة، وصناعة المعادن والزجاج، وبناء المعابد والأهرامات، وصناعات البارود والطباعة. ومنذ خمسة آلاف عام بدأت صناعة المعادن وتمكن

العلم أصبح يمثل الجبهة النامية سريعًا للمعرفة وبدونه تصبح المجتمعات مهددة بالسقم والضعف وبانهيار وجدانياتها ومقدساتها

(Lost Discoveries), The Non-Western Roots of Scince,
اكتشافات مفقودة
الأصول غير الغربية للعلم
Dick Teresi
Simon& Schisste 2002

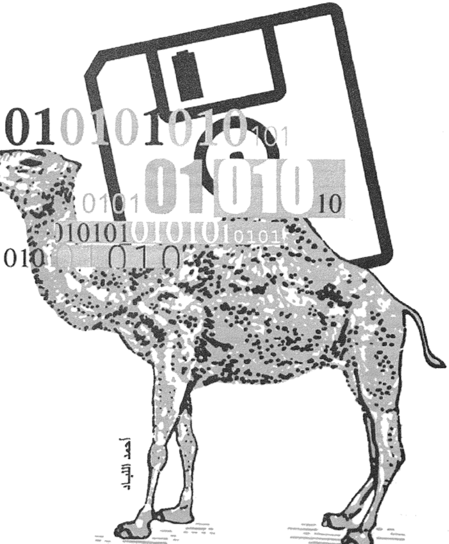
عمال حضارة بين النهرين من صناعة النحاس والبرونز، وتوجد آثار بجوار بغداد من عام ١٦٠٠ق.م تدل على تقدم فى صناعة الزجاج، وكانت هذه الصناعات تستجدى تدخل ومساعدات قوى ما فوق الطبيعة لضمان جودة المنتج، فتكتب لها التمائم وتتلى عليها التعاويذ. وهو موقف عزف عنه العلم تماماً.

ولكن المسافة بين التكنولوجيا والمعرفة العلمية فى الغرب بدأت تضيق فى عصر النهضة. وخلال القرن السابع عشر أدرك فرنسيس بيكون Sir Francis Bacon أهمية العلم فى التعامل مع الطبيعة ولكن هذا التزاوج بين العلم والتكنولوجيا كما اقترحه بيكون لم يتم على الوجه الأمثل. فلقد ضاع الصنّاع وعلى مدى قرنين من الزمان يبنون ويصنعون الآلات وينسجون الأقمشة بدون أى لجوء لمبادئ العلم. وظل العلماء فى الجانب الآخر يقومون بأبحاثهم دون أى اعتبار لأى تطبيقات عملية لها. ولكن فى عام ١٦٦٠ تم التزاوج بإنشاء «الجمعية الملكية» فى انجلترا التى بدأت بتحسين طرق الملاحة. ونشأت فى بلدان أخرى فى أوروبا هيئات مماثلة. ففى ألمانيا مثلاً تمكن عالم الكيمياء الألمانى لايبيج Julius Von Liebig من صناعة الصبغات الصناعية والمتفجرات والألياف الصناعية. وهكذا تم التزاوج، فلا يوجد مصنع يحترم نفسه لا يحتوى على مركز للأبحاث Researsh and Development (R&D).

ولكن، لا ينبغى لهذا التزاوج أن يعمينا عن أهمية التمييز بين العلم والتكنولوجيا. فإذا كانت التكنولوجيا حالياً هى إحدى ثمار العلم، فإن للعلم ثماراً أخرى لا يمكن تجاهلها مثل علوم الرياضة والعلوم الإنسانية. والخلط التام بين التكنولوجيا والعلم يؤدى إلى ابتسار النشاط العلمى المجرد. فإذا تم ذلك فإننا نحطم جذور المعرفة العلمية. لكم رأينا فى المؤتمرات العلمية قادة لنا يقولون «التكنولوجيا على العين والرأس، أما العلم فهو ليس من أصولنا وتقاليدنا». وهو موقف خطر يتهددنا بتخلف جسيم.

أوقع الخلط بين العلم والتكنولوجيا ديك ترسى ومعه ستيفن هال فى أخطاء جسيمة فى تاريخ العلم. ففى رأيهم أن البابليين قد اكتشفوا نظرية فيثاغورس

الأصـــول غيـــر الغربيّـــة للعِـــلم



قبله بألف وخمسمائة عام، وأن الهنود قاربوا من اكتشاف التفاضل والتكامل قبل أوروبا بألف عام، وأن ابن الشاهر قد وصف مسارات الكواكب قبل كوبرنيكس بمائة وخمسين عاماً، وأن الصينيين صنعوا خرائط جيدة قبل ميركابتور Mercaptor وأنهم قد اقتربوا من قوانين نيوتن للحركة فى القرن الثالث قبل الميلاد.

ويواصل ديك ترسى سرده لخليط وصفه هو نفسه بأنه «شعث Unkempt» من تاريخ مزعوم للعلم. فيتحدث عن صناعة الأرتيك للمطاط المقسى بالكبريت Vulcanized rubber قبل شركة جوديير Goodyear بقرون عديدة، وكيف تمكن الصينيون من صناعة الصلب التى ابتكرها بسمر Sir Henry Bessemer وكيف أن الاختراعات الثلاثة التى غيرت شكل الحضارة، وهى: البوصلة، والبارود، والمطبعة، قد وجدت فى الصين قبل أن يشعر بها الغرب بمئات السنين. وتحدث عن الصليبيين فقال: إنهم واجهوا أسلحة عربية مسلمة مصنوعة من صلب استجلب من مناجم أفريقيا وقسى فى جنوب الهند وطرق فى فارس والشرق الأوسط. وتطورت الأمور بترسى حتى زعم أنه وجد مشابهات فى الثقافة البوذية للجزيئات الفيزيائية الحديثة الاكتشاف، كذلك إشارات إلى أن الثقافات القديمة كانت تبعث على إحساس أحياناً بتحدثها عن نظرية الكم.

وتحتوى خزانة ترسى، كما يصفها ستيفن هال، على العديد من الأشياء المثيرة للتعجب مثل اكتشاف الجيولوجى تشانج هنج Chang Hung الذى اخترع فى عام ١٣٢



ميلادية جهاز سيزموجراف يكتشف الزلازل ويحدد مصدرها. ثم يتحدث عن الخوارزمى وبيت الحكمة فى القرن التاسع فى بغداد والمرصد الذى بناه المأمون ونصف قطره ٢٠ قدماً، وهو ما يزيد كثيراً عن مرصد تيكو براها Tycho Brahe الذى صنع بعد سبعة قرون. ولا ينسى ترسى الحديث عن مراحيض مريحة التصميم فى الهند بل ويذكر بأن المصريين قد صنعوا علاجاً لقشرة الشعر من دهن فرس النهر! بهذه الأمثلة وبغيرها من المماثل لها، حاول ترسى، مؤلف الكتاب وأيده فى أغلبها ستيفن هال كاتب المقال، أن يثبت الأسس غير الغربية للعلم. ونحن نشعر أنه ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه أصحاب المقرر المدرسى فى بورتلاند وإن كان بدرجة أقل.

وينبع الخطأ الأساسى فيما كتبه ترسى فى أنه خلط بين المعرفة والعلم والتكنولوجيا فى مزيج وصفه هو نفسه بأنه «شعث» كما ذكرنا من قبل واصطنع بذلك تاريخاً غير صحيح للعلم. وهكذا حاول أن يثبت الحق باستعمال الباطل.

ويرى العديد من فلاسفة العلم ومؤرخيه:

أولاً: إن العلم مشروع إنسانى خاص، له نشأته الخاصة وتياره الرئيسى الخاص، وإن ساهمت فيه بعض الإبداعات الفردية فى أنحاء أخرى من العالم.

ثانياً: إن هذه النشأة فى مكتبة الإسكندرية التى كانت أول مركز للبحث العلمى فى العالم وأنه انتقل بعد ذلك إلى الإمبراطورية الإسلامية، ثم إلى الغرب (إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا)، ثم إلى جميع أنحاء العالم وسنوضح بعض تفاصيل ذلك فيما بعد.

أما ما يقال كثيراً عن فيثاغورس وأرسطو، فإن الأول اقتبس نظريته المشهورة (مربع وتر المثلث قائم الزاوية يعادل مجموع مربع الضلعين) من مصادر عديدة، لعل أهمها الحبل الذى استعمله قدماء المصريين فى رسم الزاوية القائمة والذى ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، طول أولها ٣ وحدات والآخر ٤ والثالث (مربع ٣ = ٩، ومربع ٤ = ١٦، ومربع ٥= ٢٥: ١٦ + ٩ = ٢٥). أما أعمال فيثاغورس الأخرى فكانت أقرب، كما وصفها برتراند راسل، إلى صناعة ديانة سرية تأمر بالامتناع عن أكل الفول وتحكم بالإعدام على من يذيع أسرارها.

أما عن أرسطو فقد كان مثالاً للمعرفة غير العلمية: إذ يعتمد العلم فى استخراج قوانينه فى أغلب الأحيان على قدمين هما المشاهدة (استقراء Iduction) وإعمال العقل (استنتاج Deduction). ولكن أرسطو وقف على قدم واحدة وهى الاستنتاج: الأرض مركز الكون لأنها مقر الآلهة، ومسارات الكواكب دائرة لأنها شكل هندسى كامل (؟!)، وإذا ألقينا حجراً فإنه يهبط إلى مكانه الأصلى وهو الأرض، ومن الطبيعى أن سقوط الحجر الكبير أسرع من الحجر الصغير، وإذا صنعنا دخاناً فإنه يصعد إلى مقره الأصلى وهو السماء، وعدد أسنان السيدات أقل من عدد أسنان الرجال لأن أغلب الآلهة من الرجال فهم أرقى من الإناث (وأكثر أسناناً). وكل هذه الاستنتاجات خاطئة.

ولكن ما هو التاريخ الحقيقى للعلم؟ يتفق أغلب مؤرخى العلم على أن للعلم ثلاث مراحل أساسية مع بداية جنينية:

فالبداية الجنينية كانت فى أيونيا، وهى مجموعة من الجزر والمدن كانت موجودة على الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى (تركيا الآن) وكان من أهم نجوم هذه المرحلة طاليس Thales (٦٢٤ . ٥٤٥ق.م) الذى صال وجال فى علوم الرياضة والهندسة واكتشف العديد من النظريات منها:

. إن قطر الدائرة يقسمها إلى قسمين متساويين.

. إن زوايا القاعدة فى المثلث متساوى الساقين متساوية.

. إن الزوايا المقابلة فى خطين متقاطعين متساوية.

. إن أى مثلث يمكن تحديده بتحديد طول خط القاعدة والزاويتين الموجودتين عليه.

وهكذا، ولأول مرة على مدى معرفتنا وجدت قواعد وقوانين تسرى على جميع المثلثات والدوائر فى أى مكان وزمان من الكون.

بل وهكذا بدأت استمرارية معرفية من طاليس إلى إقليدس الذى وضع كتابه الأوليات Elements إلى نيوتن الذى ابتاع هذا الكتاب (مترجماً من العربية) من سوق فى ستوربريدج Stourbridge فى عام ١٦٦٣ فغير مجرى حياته.

جاء بعد طاليس صديقه ناكسيماندر Anaximander (٦١٠ . ٥٤٧ق م)، ثم أناكسوجوراس Anaxagoras (٥٥٠ . ٤٣٠ق م)، وامبيدوكليس Empedocles (٤٩٠ . ٤٣٠ق م).

ولكن هذه البداية الجنينية اشتد عودها فى مكتبة الإسكندرية القديمة التى لم تكن مجرد مكتبة بل كانت مركزاً للبحث العلمى. فعلى مدى سبعة قرون قدمت هذه المكتبة مئات من العلماء والمكتشفات ومن أهم علمائها:

. إقليدس Duclid (٣٣٠ . ٢٧٥ق. م) أبو الهندسة الإقليدية الذى تعلم على يديه كل علماء العالم حتى القرن العشرين عندما اكتشفت الهندسة «غير الإقليدية».

. هيروفيلوس Herophilus (٣٣٠ . ٢٦٠ق.م) أول علماء التشريح والذى وصف البروستاتا والإثنى عشر وأعطى أسماءها والذى أثبت أن المخ وليس القلب أو الكبد مقر المشاعر والتفكير.

. أريستاركوس Aristarchus (٣١٠ . ٢٣٠ ق. م) أول من تحدث عن مركزية الشمس Heliocentricity رافضاً مركزية الأرض Geocentricity، سابقاً كوبرنيكوس بقرون عديدة.

. أرشميدس Archimedes (٢٨٧ . ٢١٢ ق. م) الذى ابتكر (إلى جانب قاعدته المعروفة عن الطفو والطنبور الذى لازال يستعمل حتى الآن) أسس التفاصيل والتكامل وقرب «ط Pi» إلى أقرب مكان لها.

. إيراتوسثينس Eratosthenes (٢٧٦ . ١٩٥ق. م) الذى أثبت كروية الأرض وحسب محيطها بطريقة بسيطة عبقرية لا تختلف عما ثبت الآن إلا بحوالى ٤٠ ميلاً، والذى رسم خرائط الأرض على كرة ففتح عصر الملاحين العظام.

. وغيرهم.. وغيرهم.

ثم جاء دور الإمبراطورية الإسلامية.

سقطت الإمبراطورية الرومانية. ووصف الحالة جيبون Gibbon Edward صاحب الكتاب المرجعى «انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية» بقوله «على مدى عشرة قرون لم يسجل اكتشاف واحد يجلب الكرامة والسعادة والصحة للجنس البشرى».

ولكن شعلة العلم التى أوقدتها مكتبة الإسكندرية انتقلت إلى أيدى الإمبراطورية الإسلامية ولمعت قمة ازدهارها فى عصر المأمون الذى أنشأ بيت الحكمة والمرصد السابق ذكره.

وقد أهمل التاريخ هذه المرحلة المهمة فى تاريخ العلم ونتج هذا عن عاملين:

أولاً: التراث المعادى للإسلام الموجود بالغرب منذ أيام الحروب الصليبية والذى

يدفع الدارسين إلى تجاهل ما يدين به الغرب من فضل للعلماء المسلمين. وهو موقف فكرى يزعم أن الإسلام لم يملك إلا السيف وأنه لم يكن للفكر أو للعلم أى دور فى بناء الإمبراطورية الإسلامية.

ثانيًا: تجاهل المؤرخين المسلمين أنفسهم لدور العرب فى تطور العالم. فقد سادت القيادات الإسلامية تيارات معادية للعمل وأشعلت موجات هستيرية لتثبت الكراهية له. واتهم العلماء المسلمون بالإلحاد وجلدوا وضربوا وأحرقت كتبهم.

ويسجل العالم الباكستانى الأصل بيرفيز هودبهوى Pervez Hoodbhoy فى كتابه الرائع «الإسلام والعلم Islam and Science» أن العلم والعقلانية قد أصبحت مكروهة من القيادات الإسلامية جميعًا بعد ابن رشد إلى الآن ما عدا فترات قصيرة حددها هو بأيام محمد على وجمال عبد الناصر. وقد تسببت هذه الكراهية فى تجاهل إسهامات الإسلام فى العلوم.

قام اهتمام الإمبراطورية الإسلامية بالعلم على أساسين:

الأساس الأول هو الترجمة، قام بذلك مترجمون كان يجزل لهم العطاء وأهمهم حنين بن إسحق وولده إسحق، وقد قدم هؤلاء تراجم كانت هى المصدر الأساسى لحفظ تراث علماء مكتبة الإسكندرية مثل كتاب العناصر لإقليدس وكتاب الماجسطى لبطليموس.

أما الأساس الثانى فكان الإضافات الإبداعية الجديدة فى ميادين العلم. فمن القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر ازدهرت أسماء علماء مثل جابر بن حيان، الكندى، الخوارزمى، الرازى، ثابت بن قرة، البيرونى، ابن سينا، ابن الهيثم، عمر الخيام.

ولما بدأ الغرب اهتمامه بالعلم كان المصدر الأساسى للمعرفة هى الكتب العربية، وكانت اللغة العربية مطلوبة من أى عالم غربى يحترم نفسه، وازدهر المترجمون من العربية إلى اللاتينية وكان من أهمهم جيرار Gerard of Cremona الذى عاش فى طليطلة وترجم ما ينيف على ٨٠ عملاً من العربية إلى اللاتينية وكان من أهمها الماجسطى والقانون لابن سينا.

ثم حرقت كتب ابن رشد فى الغرب واضطهد المعتزلة وإخوان الصفا فى الشرق، وانتقلت شعلة العلم إلى الغرب وصاروا إلى ما صاروا إليه وصرنا إلى ما صرنا إليه.

ولكن ما أهمية تصحيح التاريخ؟

أولاً: إثبات أن لنا تاريخًا أصيلاً فى العلم. وأكذوبة «أن الغرب مادى وعلمى وأن الشرق روحانى ووجدانى» لا أساس لها من الصحة، بل هى خرافة زرعتها فى نفوسنا أمثال قصيدة كبلنج Radyard Kipling الاستعمارية.

ثانيًا: لعل أخطر أهمية لعملية التصحيح هذه هى أن نتذكر ما تذكرته أمريكا فى بيان ريجان عن «أمة فى خطر» وما تذكرته كل دول شرق آسيا: إن أساس العلم هو العلوم الطبيعية والرياضة والفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء والفلك، وأنه على الدولة أن تهتم اهتمامًا شديدًا بهذه العلوم وبتاريخها وبعلمائها. أما التكنولوجيا فهى كفيلة بنفسها.

وقد ابتلينا فى عالمنا العربى بالخلط بين العلم والتكنولوجيا أو بالأحرى بالهروب من العلم إلى التكنولوجيا. فكم حاولنا التقدم علميًا بعمل خطط وهمية هى فى الحقيقة خطط لتنمية تكنولوجيا تحت زعم أنها خطط للعلم «النافع». وهكذا قطعنا علاقاتنا بالعلم وانحدرت كليات العلوم بعد أن كانت من كليات القمة إلى ما صارت إليه الآن. وارتكبنا فى هذا المجال أخطاء فادحة، منها إلغاء السنة الإعدادية فى كليات الطب، ومنها التفكير فى إلغاء قسم الرياضة فى بعض كليات العلوم. ومنها الحديث المستمر عن «تقليم» مقررات الدراسة بحذف تفاصيل العلوم الأساسية. وهو خطأ فادح، فالعلم مثل شجرة باسقة: جذورها هى العلوم الطبيعية وثمارها كثيرة منها التكنولوجيا. ولا تقلم الأشجار بقطع الجذور.

لقد حرر ديك ترسى كتابه فى محاولة لإثبات الأصول غير الغربية للعلم وهى حقيقة تاريخية، ولكنه ضل الطريق فى تقديم أدلته والدفاع عن الحقيقة.

ويقول ستيفن هال فى آخر مقاله إن كتاب Lost Discoveries يمكن أن يكون أساسًا لمقرر خاص عن تاريخ المعرفة يسمى «التواضع Humility». ■

كتاب الزاوية

مذكرات الأميرة جويدان

٤ - الحريم فى مصر

لا يكاد الرجال، وعلى الأخص الأوروبيون، يسمعون كلمة الحريم، حتى ينصرف خيالهم إلى الرقص والغناء أو بركة من الماء المعطر تتواثب حولها العذارى والفتيات.

ولكن الذى وقعت عليه عين الحريم فى مصر ليس فيه شىء من هذا الخيال. فالجوارى فيها فتيات يلبسن ملابس بسيطة نظيفة، ولكنها غير مغرية. فالحريم بكليته تسيطر عليه امرأة، وهى زوجة السيد أو أمه أو رئيسة الجوارى. وفى كل هذه الحالات تحرص صاحبة السلطان على ألا تبدو الجارية أمام سيدها جميلة فالزوجة تفعل ذلك بدافع الغيرة، والأم حرصًا على ألا يتزوج ابنها من جارية. ورئيسة الجوارى طمعًا فى أن تصبح هى السيدة.

وعلى هذا فالجوارى فى مصر لسن أداة للتمتع واللهو، وإنما هن خادمات، وإن كن أقل من الخادمات حقوقًا، فهن لا يتناولن أجرًا على خدمتهن، ولا يستطعن مغادرة بيت المخدوم إلى بيت سواه.

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجوارى فيها، لأن التقاليد فى الحريم المصرى تقضى بألا تقوم السيدة بعمل ما. فتقديم القهوة له نظام خاص، وحمل الملابس على البدلة له نظام خاص، وتقديم كأس من الماء له نظام خاص أيضًا، ولهذا قد يرى الإنسان كثيرًا من الجوارى منهمكات ولا يرى عملاً يؤدى، فهناك مثلاً «سفرجى كالفة» ووظيفتها الخدمة على مائدة الطعام فقط، وهنا «قهوجى كالفة» وعملها تقديم القهوة فقط، وهنا «شمورجى كالفة» ووظيفتها تحضير الملابس للسيد، وعملها ينحصر بين الحمام وغرفة الزينة وغرفة النوم.

"خليها على الله"

من يحيى حقى إلى ابنته

علاء الدين وحيد

«دعاء للمولى سبحانه وتعالى أن يسعدك. وأن يهبك صحة البدن والروح والعقل، أن يجعل محبة الناس لا تنقطع وأن يجنبك شرار الناس وأرذالهم والذين تنهشهم الغيرة وحب النكد. وأن يجعل المولى جيبك دائماً عمراناً ويدك لا تخلو من النقود وأن تبقى مع ذلك كريمة على الفقراء.. (وعلى والدك أيضاً!) وأن لا تفارق الابتسامة ثغرك ولا الدعاء إلى الله قلبك وأن ترى الدنيا حلوة فى الصباح وفى المساء وأن لا تشعرى بما لا طاقة لك به من تعب أو إرهاق أو ملل أو إعياء وأن تبلغى كل مطالبك وأن تسيرى الهوينا كأنك فى نزهة فلا جرى واللسان مدلدل».

يحيى حقى

«رسائل يحيى حقى إلى ابنته. ص ١٦٢»

[١]

الانفصام فى شخصيات كثير من الأدباء العرب، يجعلهم مع كل ما يكتبون من ابداع يتناول شتى المجالات بحرية واسعة وتحرر، يخفون تماماً عن قرائهم ما يتصل بحيواتهم الخاصة، ربما لأنها على نقيض ما يسطرون ويبدون على الورق. ومن أول هؤلاء فى بلادنا نجيب محفوظ.. الكتوم بهذه الخصوصيات كأنها نوع من الأسرار الحربية. ولذا لا ندهش أن يجهل أصحابه وزملاؤه فى الوظيفة. وقد ظل طوال عمره موظفاً إلى أن أحيل إلى المعاش. طوال نصف قرن.. عنوان منزله ورقم تليفونه وأى شيء عن أسرته. بل وأكثر من ذلك.. هل هو متزوج أو أعزب! إلى درجة أن يقول رئيسه فى إحدى هذه الوظائف وهى مصلحة الفنون، وكان يحيى حقى: «يا نجيب.. ألا توجد مرة تخطئ فيها وتتحدث عن البيت والست المريضة والابن الذى يشغل بالك. فكان رد نجيب محفوظ ضحكة من ضحكاته المميزة دون أن يعلق بكلمة!». (إبراهيم عبد العزيز. مقدمة «رسائل يحيى حقى إلى ابنته». ص٧١).

وهذا الانفصام أو عدم الصدق وإخفاء المشاعر الخاصة حتى المشروعة منها، له تأثيره السيئ على الإبداع.. فيتسبب فى جفاء العالم الفنى الذى يقدم، وهو يفتقد أهم خصائصه وهى الصراحة والعفوية وسلامة الطوية المنبعثة من الروح الفطرية. وعلى العكس من نجيب محفوظ تماماً، قلة من الأدباء العرب الكبار مثل يوسف السباعى ويحيى حقى. فالعقل المفتوح والقلب المفتوح يفضيان إلى الأحاسيس المفتوحة التى لا تكتم شيئاً، وقد انهارت كل السدود الحقيقية والمفتعلة بين الفنان والمتلقى. ومن هنا يشيع الدفء والحب والثقة بين الجانبين، وتكون الرسائل الخاصة التى يكتبها الأديب إلى فلذة كبده.. لوناً آخر من هذا البوح الصادق غير المفتعل.

وقد قدم إبراهيم عبد العزيز «رسائل يحيى حقى إلى ابنته» تقديماً جيداً طويلاً. حوالى ٧٥ صفحة. شأنه فيما سبق من رسائل طه حسين وتوفيق الحكيم.. أحاط بالأب والأم والابنة، مختصراً كثيراً من موقع زوجة الأب. ورسائل يحيى حقى أكثر خصوصية من الرسائل التى كتبها أحمد حافظ عوض فى «من والد إلى ولده». أو أحمد أمين فى «إلى ولدى»، لأن كلاً من الرسائل الأخرى كتبت كمقالات للنشر، توجه إلى الابن وكل الأبناء.. العام فيها أكثر من الخاص، بينما رسائل حقى على العكس.

[٢]

والرسالة بين أفراد الأسرة تنقسم عادة إلى جزءين: الأول يسأل عن الصحة والأخبار، والثانى يفضى صاحبها بما عنده من خاص أمره وما يهمه. وهما قسمان غير متساويين، بل يتراوح كل منهما بين القصر والطول حسب ما تحمل المناسبة.

يكتب الأب فى القاهرة إلى وحيدته التى تصطاف بالإسكندرية، رسالة بتاريخ ٢ يونية (بلا تحديد للسنة) يستهلها بعبارته التقليدية «بنتى الحبيبة نهى». ويبدؤها بوصف القنوط الذى يعانيه فى عز الصيف.. «الدنيا حر جداً هنا». ويتساءل عن الجو عندها وهل نزلت البحر، وهل تعرفت على أصدقاء؟ ويجد أن ليس عنده أخبار كثيرة.. ثم يفضى بما يشجيه.

ويبعث على تسطير الرسالة عامل من اثنين: البدء بالكتابة أو الرد على أخرى. ولكن هناك هدفاً ثالثاً.. كان يدفع يحيى حقى أيضاً إلى أن يفعل.. وهو مجرد شوقه إلى ابنته والأنس بلقائها وهو يخاطبها على الورق، فيدبج خطاباً لها يستوعب بعض لهفته الزائدة إليها.

«عزيزتى نهى. صحيت وأفطرت وحليت الكلمات المتقاطعة فى «الأهرام» وعقلى بالى قال لى أكتب لك هذه الكلمات القليلة لأشعر أنك بجانبى وأنا بجانبك»!

وإذا لم تفصح هذه الكلمات بشكل كاف، لما يحمل الأب الحنون لفتاته من حب غامر.. ففى رسالة أخرى تعرض بعض هذا الحب.

«أفكر فيك وأحلم بك وأناجيك ويتصل ذهنى بك، وقلبى وأعصابى وذبذبات أوتارى ورنة طبلتى وجريان ريقى ومصمصة لسانى، وبربشة عيونى، وحك رأسى، وقولة أستغفر الله. اللهم اجعله خير..».

وفى رسالة أخرى بتاريخ ١٩٨٢/٤/٩ يكتب:

«المهم هو أشواقى إليك وتفكيرى فيك وأحلامى بك وانشغالى عليك واتجاهى نحوك وتبخيرى لك ببخور الست من فوقك لتحتك. أما حشو هذا الدعاء من أخبار فمثل حشو ورق العنب باللحم، اللحم قليل جداً لأنه نادر وكذلك أخبارى التى أحشو بها كل هذا الدعاء نادرة أيضاً فالأيام تمر متشابهة».

وهكذا تتحول السطور إلى مناجاة عاطفية، تنبع خالصة من القلب بشعور متدفق بالغ الصدق والحنو. فى الخطاب المؤرخ فى الأحد ٩ مايو ١٩٨٢، تجىء هذه الكلمات:

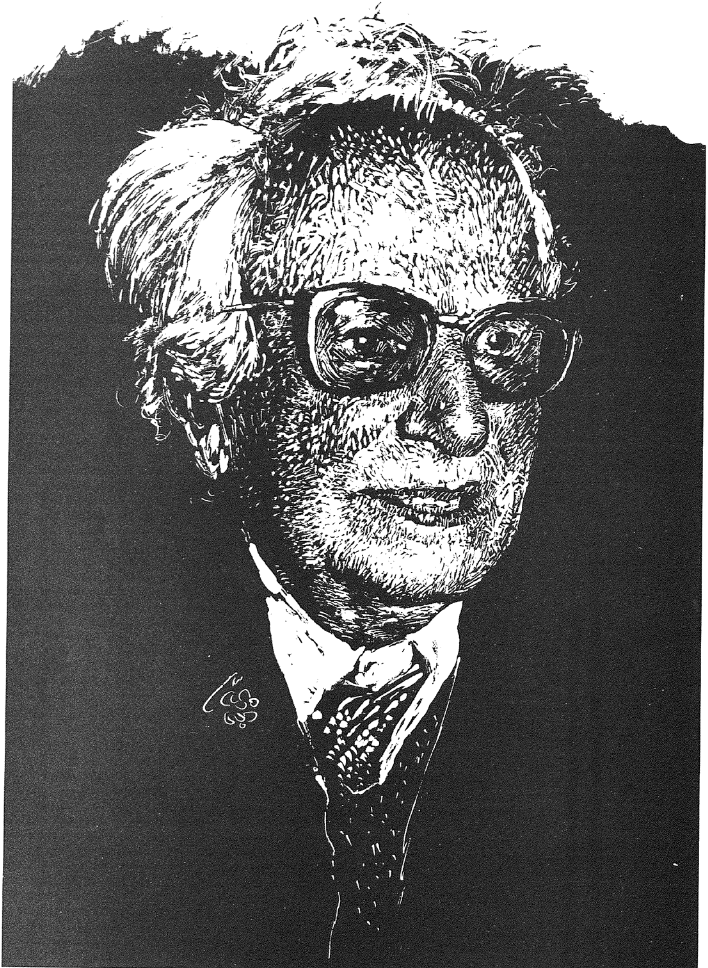
«العقل والفكر والقلب واللب والنبض والتنفس والنوم واليقظة والأحلام عندك».

اتخذ يحيى حقى الأسلوب غير المباشر فى تربية وحيدته منذ طفولتها، ولذا جاء النصح الصريح قليلاً. كما عرفها منذ وقت مبكر فضيلة الاعتماد على النفس والاستعانة بالخالق. وفى إحدى رسائله يكتب لها: «خللى تكالك على الله ولازم تشدى حيلك علشان مواجهة الحياة. كل نصيحة لا تنفع، المهم أنك بنفسك تشدى حيلك وإرادتك وشجاعتك.. اوعى تصدقى إن حد ينفعك زى ما تنفعى نفسك بنفسك».

وهو يتألم كثيراً لما تتعرض له فتاته من هموم ودناءات الناس التى تكتب له عن بعضها. ويحاول أن يخفف عنها. وعندما تتغلب عليها وتزول الشكوى وتكتب له بذلك يسر كثيراً. «خطابك الأخير أثلج صدرى لأنه ربما كان أول خطاب لا يذكر شيئاً عن المتاعب التى تأتى من داخل النفس. وهى فظيعة. أو من الناس وهى أفظع. شعرت بسعادة كبيرة ودعوت لك من كل قلبى أن يديم عليك الطمأنينة والراحة والهدوء والسكينة والاستقرار والأمان والإيمان والتوكل على الله».

اتخذ يحيى حقى الأسلوب غير المباشر فى تربية وحيدته منذ طفولتها، ولذا جاء النصح الصريح قليلاً. كما عرفها منذ وقت مبكر فضيلة الاعتماد على النفس والاستعانة بالخالق. وفى إحدى رسائله يكتب لها: «خللى تكالك على الله»

رسائل يحيى حقى إلى ابنته
إبراهيم عبدالعزيز
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١



«خليها على الله»



ولأن روح الرسالة الشخصية هو منتهى الصدق واستقراء النفس وطرحها على السجية، فهي تضم في أعطافها أيضاً الحياة العامة، وما يتعرض له المجتمع من هزات وتدهور ونكسات تصيب الناس جميعاً.. فهبوط الأخلاق واستفحال الأنانية، تزيد من التكالب على المادة وما يفرز من جشع وشر. «في كل يوم أسمع حولي من يقول لي ليه الناس بتاكل في بعض. وكل فنان في الإذاعة يقول الوسط الفني اليوم مليان سكاكين تضرب في الظهر».

وفي المجتمع متدهور القيم مفلوت العيار الذي يكثر فيه الفاشلون، يصبح النجاح مدعاة للغيظ والحقد. وتتعرض نهى في عملها بتليفزيون البحرين لغيرة الآخرين وعدائهم وتشويه أعمالها، فتتألم وتحزن، وتكتب بذلك إلى أبيها. ويرد عليها.. لا مهدهداً مخففاً عنها أحزانها، منددا بعقد الناس فحسب، بل أيضاً بنقدها هي ذاتها! فهو أعرف البشر بتكوينها جيداً، أو كما يقول في إحدى رسائله إليها «عاجنها وخابزها». فهو يدرك نواحي ضعفها التي تضاعف من الخطر الذي تشكو منه.

يكتب يحيى حقي إليها، كأنه يحدد لها دستوراً واقعياً للحياة العملية:

«لم أستغرب الغيرة حولك وأنا قلت لك هذا من قبل. وهذا طبيعي ولكن لم يحد منه إنك تقللي من مظاهر الشعور بالتفوق والهمة، وطلب الثناء من الغير، اعملي شغلك بدون حزق. اشعري أنك تخدمين عملك لا نفسك. وإذا شعرت رغم ذلك بالغيرة فلا تكوني متطرفة في الحساسية أو خلي كل حاجة تروح بعد ليلة واحدة من النوم. وكل صباح يوم جديد وهم جديد ومشاغل جديدة يعني لا نكوم هم الأمس على ظهرنا طوال الوقت».

ولأن الأب يعرف ضيق النفس بالنصح، ولأنه أيضاً يقوم بهذا الدور مضطراً.. فهو يعقب على كلماته بقوله بأسلوبه المرح: يا عيني يا عيني على النصايح الأبوية التي لا تنفع أبداً»!

ويقول في رسالة أخرى عن النصح الذي لا يجد استجابة وبالنسبة إلى وحيدته بالذات: «هل تذكرت كلاماً قلته لك مائة مرة فوقع على أذن من طين وأذن من عجين؟».

[٣]

من الطبيعي أن يكون ابن البلد الصميم يحيى حقي، شديد الإيمان بالله ورسوله.. يعتمد على الخالق في الكبيرة والصغيرة.. مستشعراً قدرته ورحمته وعظمته في كل آن. وتعكس رسائله بشكل واضح هذا الإيمان المكين في السر والعلن. في خطاب بتاريخ ١٧ أبريل ١٩٨١ يستهله بهذه الكلمات: «بنتي العزيزة نهى. قبل أن أبدأ أتوجه إلى الله سبحانه وتعالى من كل قلبي بالدعاء لأن يشملنا أنت وأنا برحمته ورضوانه ويسدل علينا الستر ويهدي السر. ويعلمنا كيف نشكره على نعمائه ونصبر لما يختاره لنا من قدر».

وتتضاعف الحاجة إلى الله والاتكال عليه، ساعة الأزمات.. فهو نعم المعين ومخفف الآلام ومزيل الكروب. في رسالة أخرى يكتب الأب: «طب إيه العمل؟ مفيش غير ربنا نتوكل عليه ونترك كل شيء له ونسأله أن يحكم علينا بالعدل بل وبالرحمة وهو عارف بالقلوب والنيات وإن الضرورات تبيح المحظورات».

لقد أكدت رسائل يحيى حقي إلى ابنته، أن الرجل ظل طوال عمره وفي حياته الشخصية وليس في أدبه فحسب.. شديد الصلة بالسماء والإيمان بالله، رغم كل ما نهل من الثقافات الأجنبية وعاش في الحياة الفرنسية بالذات. وأنه يبز في ذلك كل أضرابه الذين سافروا إلى الخارج أو تعلموا هناك، وتغير موقفهم كثيراً أو قليلاً من الدين ومن الله، ثم عادوا إليهما بعد ذلك. وليس أدل على استغراق كاتبنا في عقيدته، من استعانته بالقرآن شفاء للنفس المعذبة والروح القلقة والوساوس أو الأوهام التي تتربص بالإنسان أحياناً، فتزعجه وتؤلمه وتمرضه. وكانت هذه الأعراض قد مرت بابنته وهي في الغربة. يكتب في ٤ أكتوبر ١٩٨٢:

«.. ونصيحتي لك حين تقومين من النوم وأنت منزعجة أن تتعوذي (أعوذ بالله) وأن تبسملي (باسم الله) وتقرئي سورة من القرآن (رب اشرح لي صدري) وتتوكلين على الله ففي يده وحده الرحمة والشفاء ولن ينفعك مخلوق. هدئي من روعك وتعلمي الصبر والاتكال على الله يا نهى».

ويعقب متألماً: «..قسمتي في آخر عمري أن لا أفلح ولا أنجح في إبعادك عن الوساوس، والهواجس والاضطرابات ولا تعلمين كم أنا حزين لذلك».

ولكن الابنة لا تقاوم بما فيه الكفاية ولا تصمد لما يجتاحها من أوهام تحطم أعصابها، بل تترك نفسها لها تعبث بها كما تشاء مما يزيد انزعاجها. وتكتب بذلك كله في خطاب لاحق إلى أبيها، فيرتاع الرجل العجوز.

«قلت لك إنني قلق فما بالك بعد أن وصلني اليوم فقط خطابك المكتوب قبل العيد والذي تصفين فيه حالتك الصحية بصورة مزعجة جداً ومخيفة جداً وتصوري حالي إزاي بقى. أعمل إيه يا رب. أعمل إيه يا رب. كل الكلام مش نافع وكنت أتعشم فيك ولو ١٠/١ من قوة الصمود و١٠/١ من قوة التوكل على الله. ولكن كل هذا فشوش في فشوش. مش لاقي كلام أقوله لك يا نهى لأني مغموم قوي قوي قوي..».

وبالرغم من أن نهى كانت الأكثر تأخراً في الرد على الرسائل، إلا أنها الأكثر شكوى من أبيها الذي يتباطأ في الكتابة إليها! ولا تكتفي بأن تتضمن خطاباتها ذلك، بل هي توصي كل من تبعثه بالمرور على والدها أن يطالبه بذلك!.. «والله هذه الجملة يا نهى لا تتغير بقت أكلشيه»!

ويصور يحيى حقي في إحدى رسائله ما يصيبه من آلام حين تتأخر خطابات نهى.. «أخيراً والحمد لله وصلني أول خطاب وأبادر بالكتابة إليك راجياً أن تنتظم المراسلة، لأني أحس بأني جعان وعطشان وبردان وحران وحازقان وغلبان حين يتأخر حضورك معي بالكتابة. آه يا نهى. نعمل إيه، وفي إيدنا إيه. السعادة والرضا من عند الله. وهيهات لمخلوق حتى أقرب الناس أن يحس ما يحس به الموجوع، ولأننا لا نحصل على ١٠٠٪ من مطالبنا نيأس ونرمي كل شيء في الهوا ونبكي على روحنا بدلاً من مساعدة الآخرين».

ويشعر أنه ينساق مع عواطفه، وربما خرج عن الموضوع، فيكتب معقباً: «الفلسفة نازلة على اليوم زي الدش لواحد ما عندوش فوطة.. يفضل يشر ومناخيره تنز»!

ومن الملاحظ أن خطابات يحيى حقي إلى وحيدته قصيرة، ومعروف أنه أيضاً في إبداعه «على القد» لا يحب التزيد، ومن جانب آخر يكره الثرثرة. ولذلك فهو في رسائله لا يطيل. وابنته تدرك هذا جيداً، تعرفه يفضل دائماً الاختصار أو أسلوب ما قل ودل. لا يحب «اللت والعجن» في الكلام. وهو يذكرها مرة بذلك، لافتاً إياها أن عدم الإطالة في رسالته مرتبط بنضوب أو قلة الأخبار. يقول لها في أحد خطاباته:

«لا يدل قصر الخطاب على قلة الأشواق ولكن على قلة الأخبار، فأيامي متشابهة وأصبح النزول للبلد من الجحيم، أصبح المشي مستحيلاً وحتى في مصر الجديدة».

وفي رسالة أخرى يؤكد هذا المعنى بقوله: «كنت عاوز ألت وأعجن معاك لكن والله العظيم ما عنديش أخبار وكل الأيام متشابهة..».

يكتب في رسالة ثالثة: «وأنا قاعد على حافة السرير. والملة سلك مخوخ وتحت اللمبة عشان أشوف. أكتب لك بيدي وعقلي وقلبي كأني أحس بأن سلكاً كهربائياً ممدوداً بين مصر والبحرين، وعاوز أرغي وأثرثر وأحكي من هنا لغاية بكرة بس ربنا يقدرني ألاقي أخبار. منين ونحن. أنا وجان (زوجته) وإخوتي. على المعاش تحركاتنا ضئيلة واتصالاتنا محدودة، وخروجنا ودخولنا بالحساب..».

[٤]

ويكاد يحيى حقي في رسائله لا يذكر متاعبه الصحية في سنواته الأخيرة، فإذا قلقت عليه ابنته وكتبت له عنها سارع بالإنكار أو التخفيف منها.. حامداً الله وشاكراً نعمه. في أحد خطاباته يشير إلى انتظاره لعودة طبيب أسنانه لتركيب طقم جديد، فلا يحمل الحديث أقل رنة شكوى.. بل على العكس.. يسطر صاحب «خليها على الله»:

«أعرف ناس يأكلون بدون أسنان وبدون طقم.. كأنهم يقولون ليس المهم نأكل بإيه، بل إيه اللي نأكله ومادام لقيناه نحمد ربنا، فأيهما أتعس.. واحد عنده طقم ومش لاقي حاجة يأكلها وواحد بدون طقم وربنا فاتحها عليه؟»!

يقابل قلقه الزائد عليها قلقها الزائد عليه، خاصة بعد بلوغه السبعين والعمر يتقدم والصحة تعتل أكثر والأمراض تتناوبه. يحاول أن يزيل هواجسها عليه ما استطاع، مؤنباً إياها على مبالغتها.. متجاهلاً أنه واضع البذرة في شدة الحساسية وذوبان العاطفة. يكتب إليها في أول فبراير ١٩٨٢ مهوناً من فزعها على وجع أسنانه:

«لازم إنك بتشوفي الأيام دي أحلام زي وقوع السنان وأمثال ذلك. لأنه لا داعي مطلقاً للقلق. بسبب لثة أو تسوس ضرس أو خلع ضرس. وفيه ناس كتير عايشين من غير أسنان بعضهم عمره ٦ أشهر وبعضهم ٦٠ سنة وما فوق زي حالاتي»!

وكان يحيى حقي يبلغ في ذلك الوقت ٧٦ سنة، كما يشير في نفس الخطاب.

وفي رسالة أخرى بعد السابقة بحوالي ثلاثة أسابيع أي بتاريخ ١٩٨٢/٢/٢٢، يكتب إلى ابنته مهدئاً مخاوفها:

«ومن هنا الصحة عال، ولم ألبس طاقم الأسنان الجديد لأن الحكيم حاطه في جيبه وسافر لأمريكا وسيرجع أول الشهر. واطمئني واهدئي ولا يكون عندك أي فكر ولا انشغال البال والبلبال. وحطي في بطنك بطيخة صيفي. وخليها على الله والصبر طيب وكل شيء بيد الله ويابن آدم اجري جري الوحوش غير رزقك ما تحوش»!

وإذا كان لكل بيت مصري همومه المنزلية الخاصة. فله أيضاً همومه المنزلية العامة، التي يتعرض لها هو وغيره..

وتصيب المجتمع أو الحى أو الشارع.. وهى مسئولية الحكومة فى المقام الأول من تغيير مصدر مياه الشرب التى تجىء فى المواسير، وتصبح مالحة بعد أن كانت عذبة! ويكتب الأب إلى ابنته ضاحكًا.. عن تفكيره فى مطالبة صاحب البيت بتعويض! «لأنى ماسكنتش عندك إلا لما لقيت المية حلوة ودلوقت بقت مالحة. حيقول لى طيب وأنا أعمل إيه ما هو حالى زى حالك. الصابونة ما ترغيش والمية مالهاش طعم ولازم نقعد كام يوم عبال ما نتعود عليها وكل حاجة بنى آدم يتعود عليها..»!

والرسائل وهى مجال بوح، تتيح الفرصة أيضًا لاستعادة الذكريات القديمة. يذكر يحيى حقى لابنته بمناسبة بداية الشهر العربى. كم من المثقفين العرب يهتم بذلك؟. عندما كانت أمه كعادة أمهات زمان فى الأحياء الشعبية. تصعد به إلى السطح. وكانت هناك سطوح. لمشاهدة الهلال الوليد، متطلعة إلى السماء وإلى وجه ابنها.. داعية له بالتوفيق، منتظرة على وجهه السعد للأسرة.

«أمس رأيت هلال المحرم أول السنة. وكل مرة أدعو الله من قلبى أن يجعله خيرًا. وكانت أمى رحمة الله عليها تحب أن تغمض عينيها بعد رؤية الهلال وتفتحها على وجه واحد من أولادها وتقول له: لما نشوف وشك علينا الشهر ده يطلع إيه؟»!

ولا يكتفى يحيى حقى بتسجيل الملمح القديم من أيام طفولته، بل يعرض أيضًا تأثره بالمشهد الفولكلورى سلبًا وإيجابًا.. «وكنت كل مرة أخاف لما تشوف الهلال على وشى أحسن تطلع حاجة وحشة تقول ده وش يحيى»!

وأهمية الرسائل أنها تعرض للحياة الخاصة فى جانبها الإنسانى، الذى يكشف أعماق شخصية صاحبها فى ناحيتها القوية والضعيفة وإيجابيتها وسلبيتها، كما تفسر دوافع عالمه الفنى.. بجانب ما تعرض من دقائق دفينة غير معروفة لأنها غير معلنة. ومن هذه الدقائق المستوى المعيشى أو المالى. فيحيى حقى الاسم المشهور الذى عمل بوزارة الخارجية، والموظف الكبير مدير مصلحة الفنون، والأديب ذائع الصيت والمتزوج من فرنسية أيضًا.. من المنتظر مع هذا كله أن يعيش فى رغد وثراء كبير. ولكن الصورة من الداخل على النقيض.

يحدث أن أصيبت زوجته جان بألم فى الصدر وسعال، لا يلائمه صيف القاهرة الحار الرطب.. «ونفسها تسافر حتة طرية بس مش رطبة. ولغاية دلوقت مش عارفين إيه نعمل؟». ولكن السفر يحتاج إلى مال وهو لا يملكه، مما أحزنه وأثر عليه حتى وهو يناقش كتابًا فى ندوة ثقافية.

وحياته المتواضعة ذات الكبرياء تعرضت

«خليها على الله»



لصدمة يومًا. عندما دعا محمد جبريل فى جريدة «المساء» إلى الاحتفال بعيد ميلاد يحيى حقى الـ٨٥ احتفالاً كبيرًا مناسبًا.. وكان ضمن الكتّاب الذين أدلوا بأفكارهم الناقد فاروق عبدالقادر الذى طالب «ألا نجعله محتاجًا قبل أن نطالب بتكريمه». خاصة أن المسئولين عن الثقافة لا يدركون أنه يحيا حياة مادية متواضعة بالقياس إلى مستوى الحياة التى يحياها أى كاتب لمسلسلات التليفزيون. ويتألم الرجل ألمًا شديدًا وهو يحس أنه أوذى فى كرامته. ويكتب إلى ابنته:

«الناس شايفانى معنديش عربية وأركب ساعات «المترو» فاكرينى محتاج لحسنة أو معونة. مش عارف أودى وشى فين».

ويستأثر الحيوان المستأنس باحتفال يحيى حقى على المستوى الشخصى ويظهر ذلك فى خطاباته. فهو وزوجته يهويان تربية الكلاب. وفى إحدى الرسائل يتحدث كاتبها عما منى به الزوجان من وفاة كلبهما الأثير، الذى حزنا عليه كثيرًا. فى رسالة بتاريخ ١٥ يناير ١٩٧٦ يقول فيها:

«بعد أن عالجنا فيديل من القروح لاحظنا أنه يمشى بصعوبة يوم الأحد الماضى ولكنه طلع السلم وحده. وأكل قليلاً.. ثم عندما جاء المساء إذا به يلهث بشدة ويهتز رأسه وظل على هذا الحال حتى أخذته جان على حجرها وبين ذراعيها، فإذا به يلفظ أنفاسه الأخيرة فى منتصف الليل. وقد رأيت طلوع روحه كأنه بنى آدم. لا تسألى عن بكائها ودموعها ونواحها ونهنهتها وزفراتها وآهاتها. وقد أحسست بحزن شديد هز قلبى وأحسسنا بفراغ بعد غياب صديق عاشرنا ١٢,٥ سنة وأغلب نومه معنا فى فراشنا».

وفى رسالة أخرى يتحدث عن حمامتين، كأقصوصة فنية بارعة.. إنسانية واقعية شديدة العمق وإن عولجت بالعامية. زوج الحمام الذى يربيه، اختفى الذكر منذ أيام.. «هل هو حى أم ميت، والست بتاعته فضلت وحدها وكانت راقدة على بيضة واحدة فكسرتها وبعد كام يوم طارت هى كمان واختفت..»! وهجست الظنون التى استهدفت الجيران، الذين لاشك اقتنصوها وأكلوها! ويقطع الشك

باليقين، البحث عن عظام الحمامة خاصة فى مناسبة العيد التى لا يأكل فيها الناس إلا اللحم! وبتفتيش صناديق القمامة وجد آثار الجريمة.. عظام صدر الحمامة! وطالبته الأسرة أن يتحرك ولا يترك الجريمة بغير عقاب.. ولكن الأديب الكبير يتجاهل مع غضبه.. «كانوا فى البيت عاوزين منى أعمل خناقة، لكن أنا صهينت»! ولا تنتهى القصة فبعد أيام رجعت الحمامة!! وهذه المرة أقفل عليها فى القفص.. «لكن صعبت علينا وفتحناه لها.. فطارت.. هل أصبح لها بيتان؟ هل وجدت زوجًا جديدًا؟ هل ستعود إلينا؟». أسئلة ظلت بلا جواب، أو على حد قوله: الله أعلم!

وأغلب خطابات يحيى حقى التى يبعث بها إلى ابنته.. هو فى القاهرة وهى إما فى الإسكندرية أو فى البلاد العربية التى تعمل فى تليفزيوناتها. وعندما تتاح لأديبنا الكبير الفرصة فى بعض الأيام وينجح فى ادخار المال اللازم للسفر، يصطحب زوجته جان إلى موطنها فرنسا. والمكوث هناك شهرًا ونصف. ورغم اختلاف الأجواء تمامًا بين القاهرة وإميان. المدينة الفرنسية التى ينزل بها. فالحال من بعضه إزاء قلة الحركة والمكوث فى البيت وعدم الخروج إلى الشارع كثيرًا، والاستماع إلى الراديو ومشاهدة التليفزيون.. وذلك كله بفعل الشيخوخة. خاصة أن إميان مدينة صغيرة ليست ذات ثقل ثقافى تشجعه على المشاركة. يكتب من هناك إلى وحيدته بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٢:

«آكل وأشرب وأعيش كأنى سلطان زمانه، طبعًا تغير نظام حياتى ومأكلى ولكن أحاول ألا أشتط فى الأكل، يكفى أن أشتط فى النوم إذ ليس لدىّ شغلة ولا مشغلة».

وفى زيارة أخرى لفرنسا. يونية عام ١٩٨٢. يكتب عن انقطاعه عن القراءة العربية مضطرًا، لأن الصحف المصرية لا تصل إلى المدينة. وأحيانًا يقع فى يده عدد قديم من جريدة «الأهرام» فيطالعه! وفى

أحد خطاباته وهو هناك يشير إلى مجىء العيد وذهابه فلم يحس به. «مر العيد كأنه يوم كبقية الأيام، أى ضاع وسط الزحام. والأيام هى الأيام، والأخلاق هى الأخلاق. والشكاوى هى الشكاوى»!

وفى رسالة أخرى بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٨٥، يتحدث عن أن الهدف من زيارة فرنسا لم يتحقق، وهو إراحة زوجته وإسعادها وتمضية وقت طيب فى ربوعها. «وألاحظ مع الأسف الشديد أن إقامتها فى بلدها مع أهلها لم تصلح فى تهدئة أعصابها. ربنا يستر».

وهذه الرسائل المنشورة لا تقتصر كلها كما يشير عنوان الكتاب. إنها مرسلة إلى شخص نهى حقى وحدها، يتجاوزها. وهو قليل جدًا. إلى غيرها. مثل زوجها الأول أو الثانى. وبالطبع تختلف الأجواء فى كل منها فى الدرجة، وإن ظلت الروح سارية والاهتمام والبوح هى هى. فالإخلاص والحنو والنصح هو ما يبديه كاتبنا لزوج الابنة. فما كتبه للزوج الأول يكشف إدراكه الجيد لمزاياه وعيوبه.. يستزيده من الأولى مشيرًا عليه بما يمكن أن تقدم موهبته، من الكتابة السياسية فى تاريخ مصر بعد يولية ١٩٥٢. وفى الثانية يطالبه بالتخفف من اندفاعه «وتغليب فائدة الاستماع على فائدة الكلام». وكذلك خفض الصوت «إن الصوت الخفيض يقى من الزلل أكثر من الصوت الجهور».

وإذا استوعب النصف الأول من الرسائل صالح زوج الابنة. فإن بقيتها عن هموم يحيى حقى نفسه فى ذلك الوقت. الرسالة غير مؤرخة. وما يشغل باله وهو فى أواخر العمر، من وحدة وعدم نشاط وانزواء عن مركز الحياة الأدبية وانحسار الأضواء عنه كما كان فى السابق. وهى بشكل عام تعرض لحال صاحب القلم عندما يشيخ..

«أما أنا فقد أصبحت ومنذ ٣ سنوات تقريبًا لا شغلة لى ولا مشغلة. وأحاول أن أحاسب نفسى وأعللها وأقول: يحق لمن بلغ السبعين وكانت حياته نوعًا من الجهاد لا ينقطع أن يخلد إلى الراحة..

يقولها الرجل وفى نفسه أشياء من الزمن والناس والمجتمع ونفسه أيضًا.

ويذكر كاتبنا أنه كان يجلس يومًا بجانب الدكتورة بنت الشاطئ (عائشة عبدالرحمن) فى سيارتها، وكانت هى أيضًا قد تعدت الستين، فقالت له: «يحسن بأصحاب الأقلام إذا شاخوا أن يسدلوا الستار بأنفسهم على مسرحهم صونًا لهم من إنتاج أعمال مصابة بالجفاف والسعال والروماتيزم».

وبالرغم من أن القضية عامة، إلا أن حقى استشعر أن زميلته تقصده هو شخصيًا! ويشير أديبنا الكبير أيضًا فى نفس الموضع، إلى أن اشتعال الفكر ونضارته ونشاطه، تستمر عند البعض طوال العمر وإلى آخر دقيقة فى تنفسهم. والمثال لذلك عندنا دكتور حسين فوزى، ولكنه يعترف أنه ليس مثله فى أعصابه وينهى كلمته بقوله: «ويبقى السؤال الذى حيّر الإنسان منذ بدء الخليقة: هل نستطيع أن نتحكم فى أقدارنا؟»!

رباعيات الخيام.. روحٌ شرقية

أحمد درويش

■ تنتمي رباعيات الخيام إلى روائع الأدب العالمي، وهي واحدة من الأعمال الشرقية الكبرى التي عرفت طريقها إلى معظم آداب العالم، واكتسبت في كل أدب مذاقًا خاصًا من خلال عدد هائل من الترجمات التي كان يحرص أصحابها غالبًا على أن يتحرروا قليلاً من جاذبية قيود المقابلات الحرفية، لكي يصلوا إلى المدار الذي ارتقى إليه الشاعر عمر الخيام ومن هناك يحاولون أن يتمثلوا جوهر دفء الروح الإنسانية الخالدة كما تمثلها، وأن ينقلوا إلى قارئ لغاتهم بعضًا من حُمَيّا الخيام التي ما تلبث أن تسري في عروق كلماتهم.

كان الأدب الفارسي قد قدّم للعالم الومضات الأولى لهذه الرباعيات في أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس للهجرة، في شكل شعر غنائي حائر يثير ألف سؤال وسؤالاً وكان قد قدّم قبل ذلك بنحو قرنين أو يزيد عملاً قصصيًا رائعًا، قُدّر له كذلك أن يجتاح العالم الوسيط والمعاصر حاملاً معه ألف حكاية وحكاية تروى في «ألف ليلة وليلة» من خلال صفحات الكتاب الفارسي «هزار أفسانة» الذي حمل قدرًا من «الخرافات» الشائعة إلى الرواة العرب، فطوروها وقلبوها نحو ستة قرون، قبل أن تستقر على أيدي الرواة المصريين في شكل «ألف ليلة وليلة» في صياغتها الأخيرة في القرن السادس عشر الميلادي، وهي الصياغة التي اجتاحت ترجماتها آداب العالم، حاملة معها ألف حكاية وحكاية، كما ستحمل الرباعيات لاحقًا ألف سؤال وسؤالاً.

ولم تكن آداب العالم، وهي تتمتع بمذاق هذين العملين القادمين من الأدب الفارسي وهما يرصدان حيرة الروح الإنسانية شعرًا، وخيالات هذه الروح نثرًا، لم تكن هذه الآداب قد نسيت مذاق عمل ثالث كبير قدم من نفس دروب الحكمة الشرقية الهندية والفارسية والعربية وهو «كليلة ودمنة» الذي لم يتوقف عند رصد روح الحيرة والأحلام والطموح والإحباط في روح الإنسان وعقله وإنما امتد إلى عالم الحيوان كي تتحرك الرموز على مرآته في أفق أكثر رحابة يتجاوز لغات بني الإنسان، ويفتح المجال لما لا نهاية له من التأويلات والمُتع التي تكاد تبلغ «ألف متعة ومتعة».

ومن اللافت للنظر أن نرى هالة كبيرة من الغموض المهيب، تحيط بمنابع هذه الأعمال الكبيرة، وصلتها بمؤلفيها حتى كان التاريخ يكاد أن يضن بالتسليم بنسبتها إلى مؤلف واحد بعينه، وأحيانًا إلى جيل واحد بعينه، وكأنها نتاج للروح الإنسانية أكثر من كونها نتاجًا للعبقرية الفردية، «فكليلة ودمنة» أقدم هذه الآثار تمتد جذورها الأولى إلى اللغة السنسكريتية في الهند ممثلة في كتاب «البانجا تانترا» أو الحكايات الخمس التي ينسب لحكيم البراهمة القديم «بيدبا» وهو شخصية نصف أسطورية تسرد حكاياتها بين القرن الثالث قبل الميلاد منبعاً والقرن الثالث بعد الميلاد صياغة، ومع ذلك فكتابه قد فُقد، بعد أن قيل إنه قد ترجم إلى الفارسية في عهد كسرى أنوشروان على يد طبيبه «برزويه» الذي فُقدت ترجمته كذلك، بعد أن نقلها إلى العربية عبد الله بن المقفع، حفيدُ بيدبا الذي أصبح أبًا شرعيًا لكتاب حمل اسمه واسم الأدب العربي معه إلى آفاق العالم، دون أن يُعلم على وجه التحديد ما الذي أضافته هذه الترجمة الرائعة إلى أصول بعيدة ربما كانت أقل عمقًا أو أكثر ذيوعًا.

وكذلك كان الشأن في أمر الكتاب الثاني «هزار أفسانه» الذي أشار المسعودي في القرن الرابع الهجري إلى أنه «حكايات باردة» تُرجمت عن الفارسية دون أن يشير إلى اسم المؤلف أو المُترجم، ولسوف تُصبح هالة الغموض المتصلة بهذا الكتاب أشد، ويبقى النص فيه مفتوحًا ينتقل من الحكايات المترجمة عن الفارسية إلى الحكايات البغدادية وليالي هارون الرشيد إلى الحكايات القاهرية، مع أبو حير وأبو صير ومعروف الإسكافي وغيرهما وعندما تغلق دائرةُ النص المفتوح، فإنه لن يكتب على النص اسم مؤلف أو مترجم بل سيترك منسوبًا للروح الإنسانية التي أبدعته ويكتفى له بأن يحمل عنوان «ألف ليلة وليلة».

أما مظاهر هالة الغموض المهيمنة فيما يخص «رباعيات الخيام» فتتحقق على نحو قد يختلف قليلاً ولكنه يلتقي في كثير من النقاط مع الأثرين السابقين، فشخصية «الخيام» شخصية تاريخية عُرفت باسم «غياث الدين أبو الفتح، عمر بن إبراهيم الخيّام» المتوفى في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي حوالي ١١٢٣م، لكن هذه الشخصية عُرفت بالنبوغ والتفوق في كثير من ألوان المعارف والعلوم، ولم يكن الشعر في مقدمة هذه الألوان، وإنما يكاد أن يختفي من سيرته، ويجيء في بعض الأحيان، في ذيل السيرة عرضًا أو تعريضًا، فلم يكن الخيام يُحسب من كبار شعراء الفرس كالفردوسي أو فريد الدين العطار أو جلال الدين الرومي، أو عبد الرحمن جامي أو غيرهم، وإنما كان يحسب من كبار الفلاسفة والفلكيين والكيميائيين، وقد عُرف بأنه من أنبغ تلاميذ الشيخ الرئيس ابن سينا، وأنهُ ربما يكون قد التقي بأبي حامد الغزالي، وأنه كان من أبرع علماء الفلك والنجوم في عصره، وقد أنشأ له صديقه «نظام الملك» رجل الدولة البارع مرصدًا فلكيًا كبيرًا، استطاع من خلاله أن يضع التقويم الفارسي الجديد الذي ينسب إلى عصر السلطان ملكشاه، ويحمل اسمه بدءًا من شهر مارس عام ١٠٧٩م، وأنه كان إلى جانب ذلك صاحب مؤلفات علمية شهيرة منها رسالة في الجبر والمقابلة كتبها باللغة العربية التي كان يكتب بها إلى جانب الفارسية إضافة إلى رسائل أخرى في المساحة والمكعبات والعلوم الطبيعية وما وراء الطبيعة.

وعندما كان تلاميذه يُعرفون به، كما فعل تلميذه الشاعر خوجه نظامي، كانوا يجعلونه في المرتبة العليا بين الفلكيين وأساطين العلم ويلقبونه بحجة الحق، أو يتحدثون عن ذكائه وقوة حفظه وبراعته في علوم الشريعة والفلسفة، ومن هنا، أطلق عليه في عصره عدة ألقاب، منها «الإمام، والدستور، وفيلسوف العالم، وسيد حكماء المشرق والمغرب، وتلو ابن سينا، وعديم القرين في علم النجوم والحكمة» إلى غير ذلك من الألقاب التي تأتي في كتب البيهقي والقفطي والعماد الأصفهاني وغيرهم من مؤرخي الفرس والعرب.

كانت الإشارة إلى شعر عمر الخيام باللغة الفارسية أو العربية تأتي على أقلام المعرفين به، لكن في مرحلة تالية لصفاته العلمية الغالبة، فلم يؤثر عنه ديوان شعر مكتوب، وإنما أبيات متفرقة ولعل العماد الأصفهاني صاحب كتاب «خريدة القصر»، والذي ألفه بعد نحو نصف قرن من وفاة عمر الخيام، لعله أول من أشار إلى الخيام شاعرًا، بل وأورد له بعض أبيات كتبها من الشعر العربي مثل قوله:

إذا رضيت نفسي بميسور بُلغَةٍ
يحصلها بالكد كفّي وساعدي
أمنتُ تصاريف الحوادث كلها
فكُنْ يا زماني مُوعدي أو مُواعدي

وحتى الذين كانوا يشيرون إلى كتابة هذا العالم الفلكي الرياضي لبعض الرباعيات باللغة الفارسية، كانوا يدركون أن الكتابة على نظام «الرباعيات» لا تُدخل صاحبها في مصاف الشعراء الكبار، فقد كان ذلك الوزن شبيهًا، إلى حد ما، من حيث القيمة الشعرية بوزن «الرجز» في القصيدة العربية، الذي يُدرج الشعر الذي يكتب عليه في باب «الأراجيز» لا في باب «القصائد». ومن هنا فإن الرباعيات كانت أقرب إلى تسجيل الخاطرة في قالب مكثّف محدود الحجم،

يبدو أن عمر الخيام بالفعل كان يكتب هذه الرباعيات أو الخواطر لنفسه على فترات متباعدة بعد كد العمل الفلسفي والرياضي والفلكي، وأنه كان يحتفظ بمخطوطته للرباعيات قريبة منه، حيثما حلّ أو ارتحل، ولقد كان أمر هذه المخطوطة وارتحالها وفقدانها والبحث عنها والعثور عليها موضوعًا لعمل روائي جميل كتبه بالفرنسية أمين معلوف

ليست لديه فرصة الاسترسال، والنفس الطويل الملحمى، كما كان الشأن فى الأعمال الكبيرة فى الأدب الفارسى مثل «الشاهنامة» وغيرها من الأعمال المشهورة[1]، ويبدو أن عمر الخيام بالفعل كان يكتب هذه الرباعيات أو الخواطر لنفسه على فترات متباعدة بعد كد العمل الفلسفى والرياضى والفلكى، وأنه كان يحتفظ بمخطوطته للرباعيات قريبة منه، حيثما حلَّ أو ارتحل. ولقد كان أمر هذه المخطوطة وارتحالها وفقدانها والبحث عنها والعثور عليها موضوعًا لعمل روائى جميل كتبه بالفرنسية أمين معلوف تحت عنوان «سمرقند» وترجمه إلى العربية الدكتور عفيف دمشقية عام ١٩٩١م. ولقد ساعدت هذه الهالة من الغموض المهيب، فى علاقة الخيام بالرباعيات على نسبة مئات من الرباعيات التى لم يكتبها الخيام إليه، وعلى رسم صور له. من خلال ذلك .شديدة التناقض تنتقل من قمة الصفاء والتصوف، إلى قمة الإلحاد والجحود مرورًا بصور اللذة والخمر، والتشاؤم، والتفاؤل، والسمو والتدنى. ولقد بذل العلماء المستشرقون والفرس ابتداء من القرن التاسع عشر على نحو خاص جهودًا مضنية، لحل مشكلات التناقض والانتحال وكشف الغموض المهيب فى رباعيات الخيام.

هنالك ظاهرة أخرى لافتة للنظر، فى مرحلة انتقال هذه الأعمال الأدبية الكبيرة من النطاق المحلى إلى النطاق العالمى، وقدرتها على التغلب على الحواجز الفاصلة بين اللغات والتى تحول فى كثير من الأحيان، دون نقل الإحساس بجانب كبير من متعة النص من خلال الترجمة، ذلك أن الترجمة فى مجالات مثل علوم الرياضيات والفيزياء وما شاكلها يمكن أن تنجح إلى حد كبير فى توصيل رسالة بين لغتين مختلفتين، لكن الترجمة الأدبية والشعرية خاصة، غالبًا ما تصطدم بعقبة «شكل المعنى» الذى يحمل مذاقًا خاصًا فى كل لغة، ويشكل جانبًا رئيسيًا من متعة النص، فكيف تمكنت هذه الأعمال الكبرى من اجتياز هذه العقبة، وحققت من خلال الترجمة، نجاحًا باهرًا جعلها تتصدر قوائم المطبوعات فى اللغات التى ترجمت إليها؟ ولقد سئل بالفعل أحد الناشرين فى لندن عن أكثر الكتب رواجًا بعد الكتاب المقدس، فأجاب دون تردد: رباعيات الخيام.

إننا يمكن أن نلاحظ أن ظاهرة «الترجمة الحرة» يمكن أن تقدم جانبًا من الإجابة عن هذه التساؤلات. لقد كان يقال فى المثل الإيطالى: «إن المترجم والخائن وجهان لعملة واحدة» وكان يقال أيضًا: «إن الترجمة مثل المرأة يصعب أن تكون جميلة ووفية فى وقت واحد» فى رأى الإيطاليين. وعندما توجد بعض الاستثناءات، فإنها قد تؤكد القاعدة وبصرف النظر عما يقال. فإن التاريخ العملى لترجمات هذه الأعمال الكبيرة لافت للأنظار فى هذا المجال، فكليلة ودمنة عرفت أكثر من سبعين ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للآداب الوسيطة أو الحديثة. لكن أكثر الترجمات تأثيرًا كانت تلك التى عقدت الصلة بين ابن المقفع ولافونتين. وهى صلة تمت على مرحلتين، الأولى فى شكل «ترجمة حرة» من العربية إلى الفارسية قام بها حسين فايز كاشف فى القرن الخامس عشر الميلادى، وحملت عنوان «أنوار سهيلى» والثانية «ترجمة حرة» كذلك من الفارسية إلى الفرنسية، قام بها داود الأصفهانى فى النصف الأول من القرن السابع عشر ونقل خلالها ترجمة كاشف إلى الفرنسية تحت عنوان «كتاب الأنوار أو مرشد الملوك» وهى الترجمة الحرة التى وقعت فى يد جون دى لافونتين» فأعجب بها واستفاد منها فى حكاياته على ألسنة الحيوانات (Les Fables).

إن نفس الظاهرة تكاد تتكرر مع «ألف ليلة وليلة» فى مطلع القرن الثامن عشر حين يقوم «أنطوان جالون» بنشر ترجمته الفرنسية لهذا العمل الكبير فتلقى نجاحًا كبيرًا فى نقل متعة العمل الشرقى إلى القارئ الغربى من خلال «فرنسة» تقتبس جوهر العمل وروحه. لكنها تهب لنفسها بعض الحرية فى توسيع المدى أمام جناحى الترجمة الحرة لكى تستطيع التحليق فى فضاء جديد ساعدها على الانتشار فى كثير من آفاق اللغات الأخرى.

وما صنعته ترجمة أنطوان جالون الفرنسى مع ألف ليلة وليلة فى أوائل القرن الثامن عشر، صنعه «فيتزجيرالد» الإنجليزى فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر مع رباعيات الخيام.

كان الأديب الإنجليزى إدوارد جون بورسيل (١٨٠٩.١٨٨٣) الذى اشتهر بلقب فيتزجيرالد، محبًا للآداب الشرقية، وقد تعلم الفارسية، وترجم منها قصة «سلامان وأبسال» لعبد الرحمن جامى ١٨٥٦، قبل أن يشرع فى ترجمة بعض الرباعيات التى حصل عليها لعمر الخيام، وكان المستشرق «وليم كوفيل» قد عثر فى مكتبة بودليان بأكسفورد فى أواسط القرن التاسع عشر على نسخة خطية بالفارسية لرباعيات الخيام، فنشر مقالاً حولها، ثم كتب إلى صديقه الشاعر والمستشرق فيتزجيرالد، عن هذه

تسرى فى الآداب العالمية



النسخة، وقدمها له، فأعجب بها وقرر أن يترجمها وكان الخيام قد اكتشف شهرته باعتباره عالم فلك ورياضيات، انطلاقًا من مؤلفاته العلمية التى كان يكتبها باللغة العربية، التى كانت لغة العلماء والمسلمين. عربًا أو غير عرب. فى هذه الفترة، وبهذه اللغة أيضًا، كان يكتب بعض أشعاره التى أشارت إليها المراجع العربية، أما الرباعيات فهى تأملات خاصة، كان قد آثر كتابتها باللغة الفارسية ولم يكن يتحمس لإذاعتها ونشرها، ومن هنا فإن أول ما ترجم له إلى اللغات الأوروبية كان كتابه فى «الجبر»، وقد ترجم عام ١٨٥١م، وعندما أتم فيتزجيرالد ترجمة مجموعة من الرباعيات المختارة عام ١٨٥٩. والتى لم يشأ أن يكتب عليها اسمه مترجمًا، وترك هذه المهمة لأصدقائه الذين أضافوه فيما بعد. لم يتحمس الناشرون لها، ووافق أحدهم بعد عناء على إصدار طبعة محدودة من مائتين وخمسين نسخة، ومع ذلك فلم يرج الكتاب إلا فى أيدى أصدقاء المترجم القليلين الذين تلقوا نسخهم على سبيل الإهداء، وظلت بقية النسخ راكدة عند الناشر حتى بعد أن خفض ثمنها من «شلن» إلى «بنس» واحد، ومات فيتزجيرالد عام ١٨٨٣م، وترجمته لا تكاد تُعرف، غير أن الشاعر الفريد تينيسون أشاد عام ١٨٨٥. بهذه الترجمة الرائعة، وأهدى ديوانه إلى المترجم الذى كان قد رحل، وتخاطفت الأيدى النسخ القليلة، وأعيدت طباعة الترجمة مرات عديدة، وسرت موجات الإعجاب بها، فى إنجلترا وأمريكا، حتى بيعت إحدى النسخ بعد نحو خمسين عامًا من موت المترجم بنحو ثمانية آلاف دولار، كما سرت كذلك موجة من ترجمة الرباعيات إلى اللغات الأخرى، انطلاقًا من ترجمة فيتزجيرالد، التى كان فيها قدر كبير من الحرية، سواء فى الانتقاء، أو التعبير والتصوير، مع المحافظة على الروح الأساسية، حتى لقد قيل إن عمل فيتزجيرالد لا يقل روعة عن عمل الخيام نفسه، ولسوف نرى أن هذه الترجمة كانت مصدرًا مهمًا من مصادر تعرف اللغة العربية على رباعيات الخيام على امتداد الربع الأول من القرن العشرين. بل ومن أسباب شهرة الخيام شاعرًا فى اللغة الفارسية ذاتها التى كانت شهرة الخيام فيها تصب على مؤلفاته العلمية والفلكية والتى كتب معظمها بالعربية.

وقد عرفت الفرنسية بدورها اهتمامًا مبكرًا بترجمة رباعيات الخيام، وكان الإمبراطور نابليون الثالث هو الذى رغب فى إصدار ترجمة للرباعيات، قدمها جون باتيست نيكولا على ١٨٦٧م، وتوالت بعد ذلك ترجمات كثيرة للرباعيات إلى الفرنسية، أمثال ترجمة جون مارك برنار، وكلود آنى وشارل جرولو وآرثر جى وغيرهم.

وفى خط مواز لحركة ترجمة الرباعيات فى الآداب العالمية، وجدت حركة واسعة لتمحيص النصوص المترجمة، وبيان مدى دقة انتسابها إلى الخيام أو انتحالها عليه، وقد كان من أوائل الدراسات فى هذا المجال، ما كتبه المستشرق جوفسكى Zukowsky عام ١٨٩٧، محاولاً تمحيص الرباعيات التى وردت فى ترجمة نيكولا الفرنسية، والتى بلغ عددها ٤٦٤ رباعية، وقد استطاع أن يخرج منها ٨٢ رباعية ردّها إلى شعراء آخرين من الفرس، وحاول التأمل فى هذه الرباعيات المنتحلة من خلال تقسيمها إلى حقول معنوية، فوجد أن كثيرًا منها يجسد النزعة الأبيقورية (الميل إلى الانغماس فى الملذات) أو النزعة التجديفية، وهى رباعيات كان ينسبها بعض المتصوفة أو أصحاب العلوم الدينية إلى الخيام الذى لم يكن بينه وبينهم وفاق من أجل تشويه صورته فى أذهان الناس.

وقد تنبه إلى هذا، بعض مترجمى الرباعيات إلى العربية وأمسكوا عن ترجمة بعض ما ينسب إلى الخيام من رباعيات، يقول الأستاذ إبراهيم العريض «لقد اقتصرت.. على تلك الرباعيات التى تشهد على نفسها أنها للخيام لا سواه، وأعرضت عن الهزليات المدسوسة فى شعر الخيام، التى هى أبعد ما تكون عن روحه، وهى التى اعتز بها الصافى النجفى كثيرًا فى تعريبه مثل: «نحن وإن جئنا إلى المسجد خاشعين، فما ذلك رغبة منا فى الصلاة، وإنما كنا سرقنا من هنا سجادة، وقد عفاها البلى فعدنا كجارى عاداتنا» أو مثل: «جنحت نفسى مرة إلى الصوم والصلاة، فقلت الحمد لله، تم لى الفوز، ولكنى آسف، فقد نقض وضوئى بنسمة، وبطل صومى بنصف جرعة خمر».

وقد تعددت اتجاهات تمحيص رباعيات الخيام لدى الدارسين الغربيين، فها هو المستشرق الألمانى شايدر Schaeder، يذهب إلى أقصى درجات الشك، فيرى أنه ليست هناك رباعيات للخيام على الإطلاق، وينبغى حذف اسمه من تاريخ الأدب الفارسى. ويعلل وجهة نظره بعدة أدلة، منها، أنه لم تصلنا أية مخطوطات من عصر الخيام، وأقدم مخطوطة للرباعيات وهى التى اعتمد عليها فيتزجيرالد، كتبت بعد ٣٠٠ سنة من وفاة الخيام الفلكى الرياضى، وأن عدد الرباعيات يتزايد فى المخطوطات الحديثة بالقياس إلى القديمة مما يدل على تنامى الانتحال ولا شك أن وراء اختفاء كثير من آثار هذا العصر، الهجوم المغولى الذى دمّر كثيرًا من آثاره، غير أن آرثر كريستنسن Arthur Christensen يقدم عام ١٩٢٧ تحليلاً آخر، يثبت من خلاله أن ١٢١ رباعية على الأقل، يمكن نسبتها إلى الخيام أما آرثر إربرى Arberry، فقد اكتشف عام ١٩٥٠م مخطوطة قديمة للرباعيات تعود إلى ٦٥٨هـ. ١٢٥٦م وتحتوى على ١٧٢ رباعية ويقول راوى المخطوطة إنه «اختارها» ومعنى ذلك أن العدد الأصلى يفوق ذلك الرقم ولم تكد تكتشف هذه المخطوطة، حتى اكتشفت مخطوطة أخرى فى إيران أقدم منها، تعود إلى ٦٠٤هـ. ١٢١٦م وتحتوى على ٢٥٢ رباعية.

لكن ظلت مشكلة التناقض الظاهرى بين بعض الرباعيات وبعضها الآخر قائمة، حيث يقترب بعضها بالخيام من شواطئ الإيمان والمناجاة، فى حين تدفعه بعض الرباعيات الأخرى إلى بحيرات اللذة والتجديف، لكن الفرنسى بيير سالى Pierre Saley وهو مثل الخيام، فلكى وعالم وأديب ينظر إلى الرباعيات من منظور آخر، فلا يرى فيها تناقضًا، وإنما يراها تعبيرًا عن مراحل متعددة متعاقبة أو متداخلة، مرت بها حياة عمر الخيام، وهو يقسّم هذه المراحل إلى تسع مراحل هى:

١. الشاعر والإله، وهى مرحلة إيمانية سادت فى بدايات حياته، وإليها تنسب معظم الرباعيات.
٢. الحب ورموزه.
٣. وحدة الأديان، وفيها يتغنى الخيام بالمسجد والكنيسة والبيعة، كما كان يفعل ابن عربى أو أبو العلاء المعرى.
٤. مرحلة القلم واللوح، وهى مرحلة القضاء والقدر وإليها تنسب كثير من الرباعيات.
٥. مرحلة التشاؤم العدمى.
٦. مرحلة التأمل فى الخلق والإبداع.
٧. مرحلة الفلكية والاهتمام بالنجوم.
٨. مرحلة الخمريات الخالدة.
٩. مرحلة الحلول والاتحاد.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقف فيها أحد العلماء الدارسين أمام المراحل المختلفة لحياة الخيام وانعكاساتها على رباعياته.

وإلى جانب موجات ترجمة الرباعيات ونقد النصوص وتمحيصها، سرت موجة أخرى من التأثر بها فى إبداعات الأدباء الغربيين، ومن بين الأعمال التى تأثرت برباعيات الخيام ديوان الكاتب الفرنسى الكسندر أرنو Alexandre Arnoux الذى نشره عام ١٩٤٣م بعنوان «مائة وسبع رباعيات» وظهر فيها بوضوح تأثره بفلسفة الموت والخلود، وموقف الإنسان أمام مظاهر الكون، ومقارنته بها على النحو الذى وردت به عند الخيام، ويتردد كثيرًا فى رباعياته مقولات خيامية مثل: «فى مواجهة الفناء يتساوى البحر العتى الذى يزمجر، والإنسان الضعيف الذى يتحسر»، أو قوله: «لقد خرجنا جميعًا من الأرض وإليها جميعًا نعود، ولسوف يطوينا النسيان عما قريب، كأننا رحلنا

ظلت مشكلة التناقض الظاهرى بين بعض الرباعيات وبعضها الآخر قائمة، حيث يقترب بعضها بالخيام من شواطئ الإيمان والمناجاة، فى حين تدفعه بعض الرباعيات الأخرى إلى بحيرات اللذة والتجديف



منذ آلاف السنين (فقد تساوى فى الثرى راحل، غداً وماض من ألوف السنين) وقد يمر ذات يوم واحد أمام قبورنا، فيهمهم ببعض الكلمات العابرة» أو قوله: «إننا منذ أن نفتح عيوننا على الحياة نبحث عن الموت دون أن ندرى، حتى تمتد أياديه إلينا» وتشتد حيرة أرنو وثورته فى بعض المراحل فيتساءل: «لم كل هذا؟ ألم يكن فى الإمكان وجود عالم أفضل من هذا العالم يستطيع الإنسان فيه أن يحس بلحظات أكثر سعادة؟» ثم تهدأ ثورته بعد حين فيقول: «ربما ينبغى أن ننسى طرح السؤال: «لماذا؟» لأن أحداً لا يستطيع الإجابة عليه، ولأنه يهدد بتحطيم سعادتنا ذاتها، ثم إن الموت لن ينتصر أبداً على خلود الروح، وسوف يأتى يوم تنطفئ فيه الشمس، وتندك السماء، وتصير الأرض غباراً، ويمد الموت جناحه على كل شىء، لكن خلود الروح لن ينهزم أبداً».

إن تأثير الخيام يمتد كذلك فى الأدب الفرنسى إلى صنّاع الحكايات الشعبية على ألسنة الحيوانات Les Fabulistes ومن هؤلاء الإخوة تارو Tharaud فى المجموعة القصصية التى صدرت عنهم عام ١٩٤٣م بعنوان: «حكايات نوتردام» وهى تحكى عن حمار مؤدب مطيع كان يحرص على أن يمشى هادئاً حتى لا تسقط حمولته المرتفعة من الأوانى الفخارية الفارغة، لكنه يسمع أثناء سيره حوار الأوانى وهى تتساءل فيما بينها: لماذا يقلل البشر من شأننا وإذا وصفوا إنساناً بالغباء شبّهوه بالإناء الفارغ، فأجاب بعضهم: لأن الإنسان نفسه فارغ يملأ عقله وجوفه بأشياء مختلطة متنافرة، وتحدثت كأس ناعمة فأشارت إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يحس بلحظات سروره إلا من خلالها هى وأخواتها، ومن خلالهن يتمكن المبدعون من بنى البشر أن يصلوا إلى أجمل أسرار الحياة، ثم جرت همهمة بين الجميع: ما الفرق بين الخزف والخزّاف؟ بين الإنسان والآنية؟ ألسنا جميعاً من الطين؟

وعلى نفس الطريقة الخيّامية فى محاربة نوازع الشر والغرور فى الإنسان، يسير شاعر فرنسى آخر، هو «جون كوبس» Jean Kobs فى مجموعته «ورود الليل» Roses de la Nuit، التى يجعل ذرات التراب تتحدث فيها، وهى ترقب خطى قافلة بنى الإنسان وهى تسير فى صحراء العالم، وأفرادها يهتدون بالكتب والنجوم ليستريحوا من تعب الرحلة، لكن الواحة الوحيدة التى تقابلهم ويتمنون الراحة فيها، يكتشفون أنها واحة الموت، ويكتشفون أن الحياة حلم ينعكس فى مرآة ليست إلا وهماً، وأن الإنسان يدور حول نفسه يبحث عن نفسه.

فى عام ١٩٥٩م، احتفلت الأوساط الأدبية فى العالم، بمرور قرن كامل على ظهور ترجمة فيتزجيرالد لرباعيات الخيام، وأعطت هذه المناسبة قوة دفع جديدة للروح الخيامية فى الآداب الغربية، ففى هذا العام قدّم جيو دى سايكس Guillot de Saix وهو أحد كبار دارسى الآداب الفارسية فى فرنسا، قدّم من خلال كتابه: «إلى حديقة سعدى» تأملات فى رباعيات الخيام ومحاكاة لها فى مثل قوله:

لماذا جئت إلى هذا العالم؟ وإلى أين أمضى

لماذا يتوقف الربيع عن مواصلة الابتسام

لماذا تنغلق شفاهه الرقيقة المفعمة بالعطور

لماذا يصمت العندليب الذى يغنى لأغصان الشجر فى أبريل

من أين كان قد جاء؟ وإلى أين فر واختفى؟ من يستطيع أن يجيب؟

وفى هذا العام كذلك، قدم إميل ديزيرون Emil Desiron، وهو مستشرق كان يحب العربية والفارسية، ترجمة جديدة لمختارات من رباعيات الخيام، وأهداها إلى فيتزجيرالد، كما قدّم كذلك «إيف جيرا، لودونتديك Yeves - Gerard le Daniec ترجمة للرباعيات صدرها بمقدمة عن أهمية ترجمة فيتزجيرالد التى كشفت للعالم عن وجه هذه الصفحة الشعرية الجميلة.

أما الآداب الروسية فقد افتتنت بدورها برباعيات الخيام منذ أواخر القرن التاسع عشر وعلى امتداد القرن العشرين، كما يقول الناقد الروسى س.ب: فيلو نينكو(٢).

وكانت الترجمة الأولى للرباعيات، قد قدمها إلى الروسية فيلكوه Velicko عام ١٨٩٠م. وتوالت بعدها الترجمات التى اتخذت فى معظم الأحايين شكل الترجمات الشعرية، وتركت الباب مفتوحاً لرؤية الشاعر المترجم لكى تتمازج مع رؤية الشاعر المترجم عنه، ومن هنا فقد كانت هذه الترجمات فرصة لكى يطرح الأدباء الروس أسئلتهم الكبرى فى فترة التحولات فى القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، وحملت لهم الرباعيات كثيراً من الأفكار والصور التى ساعدتهم على طرح أسئلة الإنسان عن نفسه وعن الآخرين وعن الكون وعن ما وراء الطبيعة بل إن شعراء الرمزيين الروس فى الربع الأول من القرن العشرين وجدوا عند الخيام، كما يقول فيلونينكو. استلهامات كثيرة وولدت لديهم إحساساً بالحداثة. ومن تجليات هذا الإحساس ما ظهر فى ترجمة تخورزيفسكى Tkhorzevski عام ١٩٢٨م، وقد صدرها بمقدمة أشار فيها إلى ما أسماه «شباب وطزاجة الرباعيات» وأخذ على فيتزجيرالد أنه وهو يترجم الرباعيات ركّز على «الاعترافات الغنائية لشيخ عجوز» ولم ينتبه إلى فورة الطزاجة والشباب وكان الشعراء الروس من أوائل من تنبّه إلى فلسفة الشكل فى بناء الرباعيات ودلالاتها العميقة فقد لاحظوا أنها تجمع بين إنجاز الشكل وتركيز التفكير ووقفوا كثيراً أمام السمة الرياضية لمعمار الرباعيات. وهو المعمار الذى اعتبر اكتشافاً بالنسبة للشعراء الغربيين بصفة عامة، وحاولت دراسات كثيرة مثل دراسات هنرى ماسى وغيره أن تقيم المقارنات بين بنية الرباعيات والفكر الرياضى والفلسفى لعمر الخيام، ومن هذه الناحية فقد استقبلت الرباعيات على أنها إبداع شعرى وتأملات فلسفية فى وقت واحد.

إن تأثير الخيام يمتد كذلك فى الأدب الفرنسى إلى صنّاع الحكايات الشعبية على ألسنة الحيوانات Les Fabulistes ومن هؤلاء الإخوة تارو Tharaud فى المجموعة القصصية التى صدرت عنهم عام ١٩٤٣م بعنوان: «حكايات نوتردام»



وبصفة عامة فإن رباعيات الخيام، جعلت الأدب الروسى، وهو أدب حائر بين انتماءاته الغربية والشرقية، ينفتح على لغة وصورة وأفكار وشاعرية أكثر شرقية، وساعدته كما يقول فيلونينكو على أن يطور شاعريته فى مواجهة العالم، كما أن المستشرقين الروس، كانوا من أوائل من فتحوا باب الحوار حول قضية الأصالة والانتحال فى الرباعيات المنسوبة لعمر الخيام ورأى. وفقاً للمنهج التاريخى. أن ٨٢ رباعية منها مشكوك فى نسبتها إليه ويمكن نسبتها إلى شعراء آخرين، وقسّمها إلى حقول معنوية تبرز انتحالها عليه من قبل أعدائه فى عصره والعصور اللاحقة عليه.

إن الفكرة التى التقطها الأدب الروسى وطورها عن «حداثة» الرباعيات وقابليتها لأن تحمل أفكار التطور الهائلة التى عايشها القرن التاسع عشر والعشرون، لم تكن غائبة عن الآداب الأوروبية الأخرى، بل إنها فى الواقع شكّلت مرتكزاً من مرتكزات النظرة الفرنسية التى اختلفت بدرجة أو بأخرى عن النظرة الإنجليزية للرباعيات والتى شكلتها ترجمة فيتزجيرالد، أولى الترجمات العالمية لها. ومنذ ترجم قنصل فرنسا القديم فى روسيا وسفيرها فى إيران جون باتيست نيكولا عام ١٨٦٧م أربعمائة وخمسا وعشرين رباعية للخيام، انطلاقاً من مخطوطة بمكتبة طهران، تنبّه الدارسون الفرنسيون إلى القيمة الفكرية الكبيرة لهذه الرباعيات، وكتب كبار الأدباء والفلاسفة الفرنسيين يحتفون بهذا العمل الرائع، هكذا عبر تيوفيل جوتييه Theophile Gautier فى مقال نشره فى ديسمبر عام ١٨٦٧م فى جريدة المرشد العالمى Moniteur Universel بعنوان: «هل قرأت عمر الخيام؟» عن إعجابه الشديد بما تحمل الرباعيات من فكر حداثى سبق عصره بقرون وهكذا شاركه النظرة المستشرق المشهور إرنست دى رينان فى مقال له فى «الجريدة الآسيوية le Journal Asiatique» عام ١٨٦٨م، وظلت نظرة المفكرين والمترجمين الفرنسيين، فى كثير من الأحايين، إلى الترجمة الإنجليزية الشهيرة لفيتزجيرالد، قائمة على أنها ترجمة ناجحة شهيرة، تسببت دون شك فى

لفت نظر العالم إلى هذه الرباعيات، ولكنها فى الوقت ذاته «غربت» نصًا شرقيًا، وأفقدته كثيرًا من خصائصه الأصلية، وقد ظل الحوار حول هذه القضية متجددًا حتى العصر الحاضر، عندما صدرت عام ١٩٧٨م ترجمة فرنسية جديدة لرباعيات الخيام انطلاقًا من مخطوطة أكسفورد وكتب شارل جرولو Ch. Groleau فى مقدمة الترجمة، يوجه النقد إلى فيتزجيرالد ويتهمه بأنه غير من طبيعة روح هذا النص الفارسى، وأنتج بدلاً منه نصاً غربياً، وأصبح عمر الخيام فى نص فيتزجيرالد شبيهًا بالشعراء الأوروبيين من أمثال: هـن وسوينبر وبودلير.. بل إنه أصبح. كما يقول جرولو .أخًا لهاملت.

إن جذور الاختلاف النسبى بين النظرتين الفرنسية والإنجليزية، جاءت من هذا القدر الكبير من المعرفة بالحياة الفارسية الذى أتيح لمترجم الرباعيات الأول إلى الفرنسية، جون باتيلست نيكولا من خلال إجادته للفارسية وعمله سفيرًا لفرنسا فى إيران، وهو قدر أتاح له أن يفهم معنى التصوف ويستشف معانى رموز الخمر والجمال، ومن هنا ظهر الخيام فى ترجمته صوفيًا على عكس فيتزجيرالد الذى أظهر الخيام فيلسوفًا لم يجد شفاء لآلامه الميتافيزيقية إلا فى الخمر والحب، وهى النظرة التى تأثر بها مستشرقون أوروبيون آخرون، ناقشهم نيكولا فى مقدمة ترجمته من أمثال المستشرق النمساوى فون هامير الذى كان يجنح إلى نظرة فيتزجيرالد.

بدأت رحلة رباعيات الخيام مترجمة إلى اللغة العربية المعاصرة متأخرة بضعة عقود عن نظائرها فى الآداب الغربية.

ولم تكن العربية فى القرون التى تلت الخيام، تعرف من ترجمات رباعياته شيئًا فيما عدا ترجمة لرباعيات واحدة، قام بها فارسى من أصفهان فى القرن السابع الهجرى هو محمد بن إسحاق بن مظهر، المعروف بنظام الدين الأصفهانى والذى كان قاضيًا لأصفهان وشاعرًا لكتب القصائد فى مدح الخليفة المستنصر العباسى، ولم يكن معجبًا بالرباعيات ولا راضيًا عنها، وقد أورد ترجمة لرباعية واحدة فى معرض نقضها والرد عليها بأربع رباعيات من تأليفه ورباعية الخيام المترجمة هى:

الصانع إذا أحسن فى التركيب
لِمَ يُخرج نظمه عن الترتيب؟!
إن شاء فمن أحقُ بالتثريب
أو أحسن ما الحكمة فى التخريب؟!

وفيماعدا هذه المحاولة، صمت الأدب العربى أكثر من ستة قرون، فلم يعرف عن رباعيات الخيام شيئًا، وإن كان اسم عمر الخيام نفسه يتردد بين المشهورين من علماء الحضارة العربية الإسلامية لأن أكثر مؤلفاته فى الفلك والرياضيات والفلسفة كتبت بالعربية، ونشر بها قليل من شعره كما أشرنا من قبل.

وعندما استأنف الأدب العربى الحديث فى مطلع القرن العشرين الالتفات إلى رباعيات الخيام، كان متأثرًا بأصداء اهتمامات الآداب الغربية بالرباعيات وترجمتها إليها، خاصة الترجمة الإنجليزية لفيتزجيرالد التى تأثرت بها حركة ترجمة الرباعيات إلى العربية كثيرًا، خاصة فى الربع الأول من القرن العشرين، وربما كانت مقدمة وديع البستانى لترجمته الشعرية للرباعيات التى ظهرت عام ١٩١٢م معبرة عن هذا الانبهار الذى أحاط بالأدباء العرب من جراء الاهتمام الغربى الكبير بالرباعيات، يقول البستانى[3]: «وإذا أردت الإلماع إلى غرام الإنجليز والأمريكان برباعيات الخيام، إن لم أقل ولوعهم وهيامهم فيها، وإكرامهم لها، وإعجابهم بها، فحسبى أن أخبر بما شهدته ورأيته وعرفته بنفسى أثناء إقامتى مدة وجيزة فى لندرا.. دخلت مكتبة المتحف الإنجليزى.. وتناولت برنامجها وفتحت اسم عمر الخيام فعددت مائة وثلاثة وخمسين كتابًا، بعضها طبعات مختلفة من ترجمة فيتزجيرالد مزخرفة وغير مزخرفة، ومصورة وغير مصورة، ومشروحة وغير مشروحة، والبعض الآخر ترجمات متنوعة لأدباء مختلفين هذه شعرية، وأخرى نثرية، وهذه منقولة بتصرف وتلك بدون تصرف، وهذه مترجمة عن النسخة الأوسلية وتلك عن النسخة الكلكتية.. إلخ. ثم يضيف-فى فقرة لاحقة: أسماء بعض العمريين الذين قرأ نثرهم وشعرهم واستعان بهم فى درس عمر ورباعياته: «فمنهم ادورد هرون ألن، وادوارد برون، ونيكلسن، وشيرازى، وهوينفلد، ونمارتر، وميكارت، وهنرى فرنان، ونيقولاس، ولوران نابلاد، وجارسان دى تسى، ومسز جى، ومسز بورين، فضلاً عن فيتزجيرالد الذى يعتبره محور المحاور، وإذا كان هذا هو الشأن عند شاعر لبنانى مثل وديع البستانى فى العقد الثانى من القرن العشرين، فإننا نجد نفس نقطة الانطلاق عند شاعر بحرينى فى العقد الرابع هو إبراهيم العريض، ومع أن العريض قدم ترجمته عام ١٩٣٣م فى نهاية المطاف عن الفارسية التى كان يجيدها فإنه يعترف أن بداية إعجابه بالرباعيات كانت من خلال قراءته لترجمة فيتزجيرالد، يقول العريض فى بداية مقدمته للترجمة[4]: «كان أول اطلاعى على معانى الخيام الفلسفية، لما كنت تلميذًا فى الهند ناشئًا وذلك من خلال ترجمة فيتزجيرالد الشهيرة، فقد كنت أترنم بأبياتها شغفًا فى خلواتى، حتى لأذكر أنى ما كنت فى إنشاده أبلغ (أبياتًا معينة) حتى تهطل دموعى وأجهش، لما كان يغمرنى من شعور ببطلان الحياة ويتولانى من حسرة زوال الآثار».

ولقد كثرت ترجمات رباعيات الخيام إلى العربية وتنوعت، وقد استطاع الدكتور بكار أن يحصى خمسًا وخمسين ترجمة لاثنين وخمسين مترجمًا من بينهم ١٩ مصريًا و١٥ عراقيًا وخمسة لبنانيين ويتوزع الباقون على الأردن وسوريا وفلسطين والبحرين والسعودية والمغرب، ويعود ما يقرب من ثلث هذه الترجمات إلى الترجمة الإنجليزية لفيتزجيرالد، على حين تبدأ موجة الترجمات التى تعود إلى الفارسية مباشرة بالترجمة الشعرية الجميلة لأحمد رامى عام ١٩٢٤م، وتتزايد هذه الموجة بعد ذلك خاصة مع الشعراء والأدباء العراقيين من أمثال جميل صدقى الزهاوى وأحمد الصافى النجفى، وأحمد حامد الصراف، وطالب الحيدرى، وعبدالحق فاضل، ومهدى جاسم حتى تبلغ الترجمات عن الفارسية مباشرة نحو إحدى وعشرين ترجمة، وهناك ترجمات كانت تتم من خلال لغات أخرى وسيطة مثل التركية والإيطالية. وكما تنوعت مصادر الترجمة فى الرباعيات تنوعت الأشكال الفنية التى تجلت فيها الترجمة، وكان من الطبيعى أن يحتل الشعر بألوانه المختلفة مركز الصدارة حيث جاءت أكثر من ثلاثين ترجمة فى ثوب شعرى، سواء كان ذلك من خلال الترجمة الشعرية المباشرة، أو النظم الشعرى لترجمة نثرية سابقة أو الترجمة من خلال شعر التفعيلة وداخل هذا التنوع الشعرى، يتنوع آخر من حيث مدى الالتزام بالبحر الشعرى، وعدد الأبيات فى كل مقطع شعرى، وهو العدد الذى من خلال نشأ مصطلح «الرباعية» فى الأصل، ومدى الالتزام بالقافية الموحدة أو التنويع فيها، فترجمة عيسى إسكندر المعلوف عام ١٩٠٤، لست رباعيات جاءت موحدة القافية فى شكل ثنائيات أو ثلاثيات، ونوع فيها بين بحور الكامل والوافر والرمل. أما البستانى الذى ترجم ثمانين رباعية فقد اختار لها قالب السباعيات من بحر الخفيف مع تطريز فى القوافى يقترب به من نظام الموشحات، وقد أطلق بالفعل مصطلح «الموشحة» على الأناشيد الرئيسية فى ترجمته.

وقد تابع عبدالرحمن شكرى فى الرباعيات الثلاث عشرة التى ترجمها، تابع البستانى فى اختياره لبحر الخفيف، ولكنه ارتضى لكل رباعية قافية موحدة.

أما محمد السباعى الذى يعد أول من تجاوز المائة رباعية فى ترجماته الشعرية عام ١٩١٧م، فقد اختار قالبًا شعريًا طريفًا، تمثل فى فن «المخمسات» على بحر الرمل، فجاءت كل رباعية من خمسة أشطر على هذا النحو:

قال قوم أعطنا الدنيا نصيبًا
حبذا الدنيا لمشتاق حبيبا
وفريق ظل للأخرى طلوبًا
ضلة للمرء يسلو عاجلاً

فى القرون التى تلت الخيام، لم تكن العربية تعرف من ترجمات رباعياته شيئًا فيما عدا ترجمة لرباعيات واحدة، قام بها فارسى من أصفهان فى القرن السابع الهجرى هو محمد بن إسحاق بن مظهر، المعروف بنظام الدين الأصفهانى



من نعيم لسراب ذى خداع

أما أحمد رامى الذى قدم عام ١٩٢٤م، أول ترجمة مباشرة عن الأدب الفارسى، اختار من خلالها مائة وثمانى وستين رباعية، فقد شكلت ترجمته منعطفًا مهمًا، فى اتجاه ترجمة الرباعيات. فمع أن رامى قد بدأت صلته بالرباعيات فى مرحلة مبكرة عندما قرأ الترجمة الشعرية لوديع البستانى، وأعجب بها، وسعى إلى قراءة النص الإنجليزى فى مرحلة لاحقة فازداد إعجابًا، لكنه ظل يتطلع إلى التعرف على النص فى لغته الأولى، الفارسية، لغة الخيام نفسه، ومن المصادفات اللافتة للنظر أن يتم إيفاد رامى إلى باريس، لدراسة اللغة الفارسية فى مدرسة اللغات الشرقية هناك، ويتاح له من ثم، تعلم الفارسية والاطلاع على الترجمات الفرنسية للرباعيات بدءًا من ترجمة جون باتيست نيكولا، والواقع أنه بهذا الاطلاع، قد أتيح له التعرف على وجهة النظر الفرنسية فى تأويل الخيام والتى تنظر إليه على أنه متصوف، وتفسر خمرياته وتساؤلاته وشكوكه، تأويلاً رمزيًا فى هذا الاتجاه، وهى نظرة تقابل التأويل الإنجليزى الذى اختارته ترجمة فيتزجيرالد، والتى ظهر الخيام من خلالها فيلسوفًا شاكًا حائرًا، لا يجد إلا فى قنينة الخمر ملجأ من حيرته.

ولقد اختار رامى التأويل الفرنسى، ودعمه بالعودة إلى الأصل الفارسى الذى لم تكن تتم العودة إليه فى الترجمات العربية السابقة، وهو يقول فى مقدمة ترجمته «وجدت نسخة رباعيات الخيام التى قام بنشرها عام ١٨٦٧م المستشرق الفرنسى نيقولا عن نسخة طهران، فانقطعت لقراءتها، وتوفرت على درسها، حتى إذا انتهيت منها، دار بخلدى أن أنقلها عن الفارسية إلى الشعر العربى، فى رباعيات كما نظمها الخيام، وشجعنى على ذلك افتقار اللغة العربية فى ذلك العهد، إلى هذه الرباعيات منقولة عن الفارسية[٥].

ولا شك أن بعض الملابسات التى أحاطت بترجمة رامى للرباعيات، قد ساعدت على شدة التحامه بها وتمثله لها، ومن هذه الملابسات ما أشار إليه رامى فى المقدمة من تلقيه نبأ وفاة شقيقه محمود، وهو فى غربته فى باريس قبيل شروعه فى ترجمة النص يقول: «فاستمددت من حزنى عليه، قوة على تصوير آلام الخيام، وظهر لعينى بطلان الحياة التى نعى عليها فى رباعياته، فحسبتنى وأنا أترجم، أنظم رباعيات جديدة، أودعها حزنى على أخى الراحل، فى نظرة الشباب، وأصبر نفسى، بقرضها، على فقده».

ولقد آثر رامى من ناحية البناء الشعرى أن يحافظ للرباعيات على سمتها العددية الأولى، فصاغ الرباعيات المائة والثمانى والستين التى اختارها، فى شكل القالب الرباعى، فجعل كل واحدة، أربعة أشطر من بحر السريع، وجعل لكل رباعية قافية موحدة يلتقى فيها الأبيات الأول والثانى، والرابع، وينفرد الثالث بقافية خاصة، وهو نظام يسمى فى علم العروض، بنظام الرباعى الأعرج مثل:

لا تشغل البال بماضى الزمان
ولا بآتى العيش قبل الأوان
وأغنم من الحاضر لذاته
فليس فى طبع الليالى الأمان

ولا شك أن جوانب القوة فى الانتقاء من خلال الرجوع إلى الأصل، مع الإلمام بوجهات النظر المختلفة فى الآداب العالمية حول تأويله، مضافًا إليها شدة الالتحام بالنص وتمثله، والتركيز على جوانب الحيرة الخلاقة، وتأملات العشق والجمال، والمناجاة الإلهية، لا شك أن هذه الجوانب جميعاً أضيف إليها ما تفرد به النص من اختيار سيدة الغناء العربى فى القرن العشرين أم كلثوم، لترجمة رامى، فى لحن أمتع ملايين المستمعين العرب، وعشاق الغناء العربى، عقوداً طويلة، وهو قابل بخلوده الفنى لأن يمتعهم عقوداً أطول وأطول، لأنه يستجيب لكثير من خفقات القلب الإنسانى، ويتجاوب مع أشواقه وضراعاته:

أولى بهذا القلب أن يخفقا
وفى ضرام الحب أن يحرقا
ما أضيع اليوم الذى مر بى
من غير أن أهوى وأن أعشقا

***

وكم توالى الليل بعد النهار
وطال بالأنجم هذا المدار
فامش الهوينا إن هذا الثرى
من أعين ساحرة الأحورار

***

يا عالم الأسرار علم اليقين
يا كاشف الضر عن البائسين
يا قابل الأعذار فئنا إلى
ظلك فاقبل توبة التائبين

***

إن لم أكن أخلصت فى طاعتك
فإننى أطمع فى رحمتك
وإنما يشفع لى أننى
قد عشت لا أشرك فى وحدتك

اكتسبت ترجمة أحمد رامى هذه المكانة المتميزة لاتصالها المباشر بالأصل الفارسى ولمعايشة المترجم للرباعيات معايشة فكرية ووجدانية، ولسمو المستوى الشعرى لرامى الذى كان يعد فى طائفة كبار الشعراء الغنائيين فى العصر.

والحق أن معظم الشعراء البارزين فى العالم العربى قد ساهموا بطريقة أو أخرى فى تقديم ترجمات جزئية أو كلية للرباعيات، بدءاً من ترجمة رباعية واحدة على يد العقاد إلى ترجمة مائة وثلاثين رباعية على يد جميل صدقى الزهاوى، وصولاً إلى ثلاثمائة وواحد وخمسين رباعية على يد أحمد الصافى النجفى أو ثلاثمائة وإحدى وثمانين رباعية على يد عبد الحق فاضل مروراً بأعداد متفاوتة عند أحمد زكى أبو شادى وعامر بحيرى وإبراهيم المازنى ومصطفى التل ومحمد السباعى وغيرهم من مشاهير الشعراء العرب فى القرن العشرين.

ولم يكن نصيب النثر العربى بأقل حظاً فى ترجمة الرباعيات التى كانت تترجم أحياناً على يد المترجم الواحد، مرتين، إحداهما نثرية والأخرى شعرية، كما حدث مع جميل صدقى الزهاوى، أو مصطفى وهبى التل أو أن تكون الترجمة النثرية أصلاً لترجمة شعرية على يد مترجم آخر، كما حدث مع ترجمة أحمد حامد الصراف النثرية التى ترجمها شعراً محمد الهاشمى البغدادى، وقد تكون الترجمة النثرية على يد الأدباء الأكاديميين كما كان الشأن فى ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال لثلاث وعشرين رباعية فى مختاراته من الأدب الفارسى.

ولم تقتصر ترجمة الرباعيات على الشعر والنثر فى اللغة الفصحى، بل ترجمت إلى الشعر العامى فى مصر ولبنان والعراق، كما هو الشأن فى ترجمة حسين مظلوم رياض إلى العامية المصرية وعباس الترجمان إلى العامية العراقية وأرثر ضو إلى العامية اللبنانية.

وهكذا تمكن هذا العمل الشعرى الفارسى أن يصحو بعد غفوة امتدت نحو ثمانية قرون لكى يجتاح آداب العالم فى شرقه وغربه مؤكداً أن روح الأعمال الخالدة تستعصى دائماً على الفناء. ■

لم يكن نصيب النثر العربى بأقل حظاً فى ترجمة الرباعيات التى كانت تترجم أحياناً على يد المترجم الواحد، مرتين، إحداهما نثرية والأخرى شعرية، كما حدث مع جميل صدقى الزهاوى، أو مصطفى وهبى التل



الهوامش:

(١) تم طبع رباعيات الخيام باللغة الفارسية للمرة الأولى فى فيينا عام ١٨٠٤م على يد المستشرق النمساوى ف: دومباى F. Dombay، وكانت شهرة الخيام العلمية قد سبقت شهرته الشعرية حتى إن كتابه فى «الجبر» ترجم إلى اللغات الأوروبية عام ١٨٥١م، قبل أن تترجم الرباعيات للمرة الأولى عام ١٨٥٩م.

(٢) Philonenko. Les R obai d.B.S Omer Khayyam et leurs Traductions russes Luqman N. 1, - 2001 - 2002 Paris

(٣) رباعيات عمر الخيام، الفلكى الشاعر الفيلسوف الفارسى. معربة نظماً بقلم وديع البستانى عربى، إنجليزى، فرنسى، فارسى، أردنى، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر. بيروت ص ٢٤.

(٤) رباعيات الخيام (١٥٢ رباعية) ترجمة إبراهيم العريض، المكتبة الوطنية وفروعها. البحرين عام ١٩٨٤م.

(٥) أحمد رامى: رباعيات الخيام. مكتبة غريب، القاهرة ١٩٨٥م.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

العراق المعاصر
عبد الوهاب حميد رشيد
دمشق: دار المدى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ٤٧٢ صفحة



يتابع الكتاب مسيرة أنظمة الحكم والأحزاب السياسية العراقية لأكثر من نصف قرن، بما أفرزته هذه الفترة من دروس وتجارب طبعت أفكار وممارسات المجتمع العراقى بأفراده ومؤسساته ومنظماته، بالعلاقة مع أزمة الديمقراطية فى العراق، كما أنه بحث فى سبل تطوير الخطاب السياسى للأحزاب العراقية، باتجاه العلنية والتعامل السلمى والقبول بالشرعية الدستورية تحت مظلة الاستقلال الوطنى، وباتجاه تبنى القيم والممارسات الديمقراطية فى سبيل بلوغ أهدافها السياسية وتطبيق برامجها الاجتماعية.

بدأ الكتاب بمناقشة نظرية موجزة لأنظمة الحكم والديمقراطية والأحزاب السياسية، من حيث مفاهيمها ومكوناتها وعلاقاتها، ثم تضمن القسم الأول المسيرة التاريخية المعاصرة لأنظمة الحكم والأحزاب السياسية العراقية، فى العهدين: الليبرالى الملكى، والشمولى الجمهورى، وما خلفته من مواريث طبعت العملية السياسية العراقية حتى الوقت الحاضر. وفى القسم الثانى عالج الباحث موضوع أزمة الديمقراطية ومكوناتها التاريخية والاجتماعية، بدءاً بدراسة الأزمة على المستوى العربى بعامة، وحتى أزمة الديمقراطية فى العراق فى صورتها الخصوصية. وأما القسم الثالث فكان مخصصاً لدراسة وتحليل أوضاع الأحزاب العراقية من زوايا ثلاث: آثار المسيرة التاريخية المعاصرة فى صيرورة هذه التنظيمات السياسية، من حيث صفاتها ومواصفاتها وممارساتها، وطبيعة هذه الكينونات كما تجسدها أنظمتها الداخلية وبرامجها الوثائقية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ثم آراء عينة من المثقفين العراقيين بالعملية الحزبية السياسية العراقية. ثم جرت فى القسم الرابع والأخير، محاولة لاستثمار حصيلة هذه الاتجاهات الثلاثة، لحصر مشكلات الأحزاب العراقية وبحث إمكانيات تطوير خطابها السياسى لصالح التحول الديمقراطى.

■

هل تلاعب رشيد رضا بسيرة «الإمام» ليجعل من المناضل الليبرالى مثقفًا سلفيًا؟

عدة قذائف صدامية يفاجئك بها مؤلف الكتاب، أولها أن سيرة الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) تم التلاعب بها، فقد انتظر رشيد رضا ٢٦ عاماً بعد وفاة الإمام كى يكتبها، وخلال هذه السنوات توفى كل أعضاء اللجنة التى تشكلت لكتابة سيرة الإمام بعد وفاته: سعد زغلول وقاسم أمين وعبد الكريم سلمان وحسن عبد الرازق، وحين كتبها رضا، فإنه أضاف وحذف وحرف، كى يبدو محمد عبده أكثر سلفية مما كان عليه فى الواقع، وهو ما يتواءم مع اتجاه رشيد رضا نفسه الذى شايع الوهابية بقوة حتى آخر حياته، وقد سعى رضا أيضاً إلى التقليل من العداوة التى كانت قائمة بين الإمام والخديوى عباس حلمى الثانى، وهى العداوة التى دفعت الإمام إلى أن يكون فى كثير من الأحيان على علاقة بالإنجليز أقوى من علاقته بالقصر، وقد قام رشيد رضا بذلك مدفوعاً بعدة دوافع، أولها ألا تصادر صحيفته «المنار» وألا تلحقه نقمة الخديوى بعد أن فقد حماية الإمام بوفاته، وأصبح عرضة للإبعاد عن البلاد بوصفه غير مصرى، وثانيها أنه كان يرغب فى تأسيس مدرسة للدعوة وكان بحاجة لدعم الخديوى فتم له ما أراد وفتحت المدرسة أبوابها عام ١٩١٢ لكنها لم تعمر طويلاً، وقد خدمت الظروف السياسية رشيد رضا، إذ انشغل رفاق عبده بالأحداث السياسية المتلاحقة آنذاك، كما أنهم آثروا ألا يرتبطوا بسيرة الإمام بعد وفاته، كى لا يشار إليهم بوصفهم «حزب الإمام»، مع ما توحى به هذه التسمية من ميل إلى معاداة الأسرة الخديوية ومهادنة الحماية البريطانية، وهم الذين كانوا يطالبون باستقلال مصر عن بريطانيا باسم العرش الخديوى، وبشكل عام، فإن رضا لم يكن من تلاميذ الإمام المقربين، ولم يرافقه سوى ٧ سنوات فقط. يجزم المؤلف أيضاً أن محمد عبده لم يكن سلفياً، فهو لم يختزل الإسلام فى مرجعية نصية صلبة، وكان قليل اللجوء إلى الأحاديث النبوية. ودعا إلى دولة قوية تنهض بالشرقيين فى إطار من الوحدة الوطنية، وفى ظل نظام نيابى متدرج يتسع شيئًا فشيئًا للمشاركة الشعبية، بعد أن ينتشر التعليم والتهذيب بين الناس، ونخبة وطنية تحل محل أهل الحل والعقد، وتتولى عملية التسيير والتشريع، ونظام قانونى يراعى المصالح، وهى الأفكار ذاتها التى تبنتها النخبة الليبرالية آنذاك، وهو ما يضع عبده ضمن المصلحين الليبراليين من مجايليه، أكثر مما يعيده إلى المصلحين الدينيين وخصوصاً السلفيين منهم.

«الروحانية المناضلة» هى التسمية التى يطلقها المؤلف على مشروع محمد عبده، الذى عاش ممزقًا بين السياسة كما تمارس فعلاً، والسياسة كما يتخيلها رجل الأخلاق والإصلاح.

ويميز المؤلف بين مرحلتين فى الخطاب الإصلاحى للإمام: مرحلة الشباب وتمثل خطاباً ثرياً جريئاً مباشراً وحيوياً، وتمثلها بشكل واضح تعليقات الإمام على «شرح الدواني»، أما المرحلة الثانية، فتمثلها «رسالة التوحيد» و«تفسير القرآن»، وانحصرت فيها كتابات الإمام بين ثنائية جدل أو تقرير، أما سبب حيوية كتابات مرحلة الشباب، فهى أن محمد عبده كان متحرراً من وظيفة الإفتاء الرسمية، كما لم يكن مقيداً بمجمل الظروف السياسية والاجتماعية آنذاك، بعكس كتاباته فى مرحلة النضج، وبعد عديد من الضربات التى تلقتها الحركة الوطنية، ما جعل طموحات الإمام أكثر تواضعاً.. «وتخلى عن مشروعه النقدى للموروث الفلسفى والكلامى والصوفى، وعن الالتزام السياسى بقضية الحرية»، وربما كان هذا هو الدرس الذى وعاه خلفاء عبده من المشايخ، خصوصاً الشيخ المراغى، وقد خففوا جميعاً من دعوات عبده السياسية والدينية، حتى أوشكوا أن يجعلوه أزهرياً خالصاً وخديوياً أميناً.

أما الخطاب الدينى المعاصر فقد تبنى كتابات مرحلة النضج، فطبعت رسالة التوحيد عشرات المرات وترجمت إلى عدة لغات وأدرجت فى المقررات الدراسية، فيما تم تهميش مؤلفات مرحلة الشباب، بما يعنى أن الدوافع الأيديولوجية مازالت ضرورة مقدمة على حتمية الاجتهاد.

محمد عبده
قراءة جديدة فى خطاب الإصلاح الدينى
محمد الحداد
بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٣، ٢٤٠صفحة

عماد الغـــزالى

الخطاب الروائى عند غسان كنفانى
منار فتح الباب
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ٤٤٨ صفحة



تعنى هذه الدراسة بالمضمون والبناء الروائى للأديب الفلسطينى غسان كنفانى، والدراسة أسلوبية تطبيقية تستند أساساً إلى المنهج البنيوى فى التحليل النقدى، مقتربة من روح النص وعمقه.

وفى محاولة لفك رموز عالم اللغة الشعرية المكثفة وتيار الوعى المتدفق فى الخطاب الروائى، عمدت الباحثة إلى تفتيت دلالات النص وتتبع خصائصه.

وإلى جانب ما توصلت إليه الدراسة من نتائج مهمة، منها التقاء نتائج الدراسة الأسلوبية الإحصائية للخطاب الروائى مع نسق الطابع العام المشكل لحضارات منطقة الهلال الخصيب، وهو النسق الزراعى القائم على الجدل والدوران فى ثلاثية متميزة: حياة، موت، حياة أخرى، وكذلك كشفت الباحثة عن تطابق النسق البنيوى للموروث الكنعانى القديم مع مثيله لدى غسان كنفانى، وهذا كشف مهم فيما يتصل بأدب غسان كنفانى، إذ ركز كل الباحثين على سيرة حياة كنفانى كأديب ومناضل بالدرجة ذاتها.

ومن ثم ترى المؤلفة أن دراستها تصب فى بوتقة الخطاب النقدى المضاد لحركة الخطاب الصهيونى الذى يسعى حثيثاً لتشويه وتدمير التراث الفلسطينى.

■

سياسات الأديان
الصراعات وضرورات الإصلاح
نبيل عبدالفتاح
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ٦٩٥ صفحة



تبدو هموم الإصلاح والتجديد غالبة على فصول الكتاب التى تدور كلها حول

مشاكل وأزمات وقضايا دور الأديان فى النزاعات الكونية، والإسلام وإشكاليات الحداثة، ومشكلات الاندماج القومى فى السياقات العولمية والإقليمية المتغيرة، والحاجة، بالتالى، إلى إصلاحات دينية وسياسية وقانونية، وهى دراسات وأوراق بحثية، شارك بها المؤلف فى منتديات دولية وعربية. والكتاب يضم أقساماً ستة تشمل نحو ثلاثين فصلاً، بين عناوينها: الأديان والنزاعات العولمية، الإسلام وإشكاليات الحداثة فى عالم متحول، أزمات الاندماج القومى المصرى، نحو إحياء وإصلاح علوم الدين.

ويجمع الكتاب بين التحليل النظرى والتطبيقات العملية، أى أنه لا يكتفى فحسب بانتقاد الأوضاع القائمة، لكنه يمارس دوراً أبعد باقتراح حلول لمعظم المشكلات التى يعالجها بطريقة هيكلية قابلة للتطبيق.

تونى بوزان

الرياض: مكتبة جرير، ٢٠٠٣، ١٩٥ صفحة



فى هذه الطبعة الألفية لكتاب «استخدم ذاكرتك» الذى قامت BBC الكلاسيكية بطبعه، يكشف تونى بوزان بطريقة مذهلة عن أسرار كيفية تنمية ذاكرتك.

وهو يعلمك كيف تنمى ذاكرتك فيما يتعلق بالأسماء، الأرقام، التواريخ والقوائم، وأيضاً الأحاديث، والمقالات، والشعر والكتب بأكملها. ويوجد فى الكتاب أجزاء: للاعبى الورق، ولمن يتعلمون لغات جديدة ولهؤلاء الذين يذاكرون استعداداً للامتحانات، وأيضاً فصل شيق عن كيف تتذكر أحلامك.

إن كتاب كيف تستخدم ذاكرتك سيكون ذا جدوى بصفة خاصة لطلاب الجامعات والمدارس خلال دراستهم، وخاصة خلال أوقات الامتحانات والمراجعة، وسيكون مفيداً أيضاً لرجال الأعمال ولهؤلاء الذين يرغبون فى تنمية قدرتهم الذهنية عندما تتقدم بهم السن، ولأى شخص ينضم لرياضيى الذهن الذين يزداد عددهم بسرعة كبيرة، والذين يعدون أنفسهم لخوض منافسات وبطولات الذاكرة. هذا الكتاب يتناول بالشرح كل أنظمة الذاكرة الكلاسيكية، هذا بالطبع بالإضافة إلى تقنيات خرائط الذهن الشهيرة التى قام بإعدادها تونى بوزان.

أمكنـــة (دوريـــة)

الإسكندرية: أكتوبر، ٢٠٠٣، ٢٨٠ صفحة



لن نمل إعلان فرحتنا كلما صدر عدد جديد من هذه الدورية التى نتمنى أن تستمر بالقدر ذاته من الإبهار والتفوق والاستقلالية، وميزة هذه الدورية وبين أيدينا عددها الخامس، ليس فقط موضوعها الفريد وصياغتها الراقية وارتيادها لمساحات مجهولة، أو كانت كذلك، وإنما فى إصرار مجموعة الشباب القائمين عليها أن تظل موجودة، وأن تتواصل مع قارئها عبر انشغالها الحميم والحقيقى بثقافة المكان.

يتضمن العدد الجديد حواراً مع النحات الراحل محمد مرسى، الذى رحل فى العام الماضى عن ٨٢ عاماً، والذى ظل حتى الأيام الأخيرة من حياته، ورغم وهن جسده، يواصل الحفر على الجرانيت والرخام والخشب، حوار كلامه قليل، وفوتوغرافيا إسلام العزازى تثريه بما يغنى عن أى قول.

الملف الرئيسى للعدد حمل عنوان «البطل»، ويتضمن مقالات: أبطال المدن الصغيرة، حكايات المرأة البحرية، حضور الظل، البطل والعذراء فى الزجاج الكبير، البطل كان الطفل والخامة معاً، مملكة الكلام وغيرها.

يتضمن العدد أيضاً حواراً مع المخرج داود عبد السيد وآخر مع شاعر السيرة الهلالية السيد الضوى، وموضوعات عديدة وصوراً تعنى جميعاً بثقافة المكان.

فى غربة الشمس

سليم الرافعى

طرابلس - لبنان: المؤلف، ٢٠٠٣، ١٥٨ صفحة



نصوص من الشعر الكلاسيكى، إضافة إلى كتابات نثرية تتناول قضايا عديدة سياسية واجتماعية وفكرية، يكتب المؤلف عنها بروح فلسفية تنشد الحكمة وتتطلع إلى الكمال.

من أجواء الكتاب:

هبة النيل هل سلوت الحوارا
صرخ العاشق الذى لا يدارى

النظام السياسى فى الإسلام بين برهان غليون وسليم العوا!

بعد الثناء على ما يمثله محمد سليم العوا من اجتهاد عقلى حديث «يدفع بالفكر الإسلامى المعاصر نحو آفاق ديمقراطية»، يبدأ برهان غليون سلسلة من الانتقادات تنسف الفكرة التى قام عليها من الأساس خطاب «العوا» عن النظام السياسى فى الإسلام، مؤكداً على ضعف الاتساق النظرى الذى يميز هذا الخطاب، ولضيق المساحة، سنكتفى بإشارات سريعة تلخص الجدل فى هذا الموضوع المهم، أولها أن «العوا» يختصر مسألة السياسة فى الإسلام فى مفهوم السلطة الإسلامية، دون أن يكون للفرد أو للمجتمع عنده أى أثر، والديمقراطية الإسلامية التى يعدنا بها لا تمانع فى الاختلاف والتعددية لكن بشرط أن تبقى ضمن المرجعية الإسلامية، وهذه الرؤية، بحسب «غليون»، «تلغى نظرية الدولة الحديثة وتقيم دولة دينية بالمعنى الحرفى للكلمة، دولة عقيدية كما كانت دولة البعث فى العراق وسورية، ويعيب «غليون» على «العوا» خلطه بين مفهومى الدولة والأمة، وخصوصاً أن الأمة التى يقصدها «العوا» ليست سوى «الأمة الإسلامية»، كما أن مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يعده القيمة الأساسية فى السياسة الإسلامية، يصطدم بتجربة غير مشجعة (الوهابية)، فضلاً عن إمكانية إساءة استخدامه من قبل الحاكم فى مواجهة معترضيه للإطاحة بهم، ونفس الشىء ينطبق على الشورى التى - بدون نظام للدولة الحديثة - تبقى مرهونة بمزاج الحاكم وتصوراته، من ناحية أخرى فإن هذه الرؤية تغيب الفرد المواطن، وحريته وحقوقه هى شرط أساسى فى قيام دولة حديثة لا تنتمى إلى أسر أو مذاهب أو طوائف حاكمة، وتختفى فكرة المواطنية الفردية لحساب «الجماعة المتحدة بالدين». ويرى «غليون» فى مطابقة «العوا» بين مصطلحى الشريعة والقانون خطراً ماثلاً، وإن كان «العوا» يختلف عن عديد من المفكرين الإسلاميين فى أنه يتحدث عن «شريعة قانونية» وهذا - برأى «غليون» - خلط كبير، فالشريعة موجهة للجماعة والقانون موجه للدولة، وليس صحيحاً أن المجتمع الإسلامى لم يعرف التمييز بين الأحكام المرتبطة بالدين والاعتقاد الدينى، والخلاف ليس فى مكانة الشريعة ولا مكانة القانون، وإنما بتنظيم النشاطات الإنسانية العمومية. وهذا هو مجال السياسة لا الدين والمعتقد، وحيادية الدولة فى هذا الإطار ليست قيداً على الدين وإنما «تحرير للدين من استخداماته المسيئة من قبل السلطة والدولة». هذه مجرد عينة من انتقادات «غليون» على طرح «العوا» الذى يراه دعوة «لديمقراطية ملغمة مفرغة من مضمونها السياسى والاجتماعى».

من جهته، يلمح «العوا» إلى تناقض بين اعتبار «غليون» النص القرآنى مقدساً، ثم نفى أى قدسية عنه فى السياق ذاته، كما يرفض استنتاج «غليون» من أن اجتهادات العلماء وتفسيراتهم فى النص القرآنى، أوجدت نصاً موازياً طغى فى فترات تاريخية عديدة على النص الأصلى، وكذلك الحال فى اعتباره الفقه والشريعة نصاً موازياً للقرآن ومختلفاً عنه، وكلاهما مصدرهما القرآن، وانطلاقاً من هذه الفرضيات التى رآها «العوا» خاطئة، فإن الحديث عن النزوع للتسلط والعدوانية لدى حكام المسلمين استناداً إلى التأييد الربانى كما يقول غليون، تبدو من وجهة نظر العوا بحاجة إلى مراجعة ونظر جديد. وكذلك الحال بالنسبة لمقولات عديدة يرددها «برهان»، يراها «العوا» انتقادات واجهها الفكر الأوروبى لآثار سيطرة الكنيسة على الإنسان المسيحى، ولا صلة لها بالمجتمع ولا بالفكر الإسلامى. ويعيب «العوا» على «غليون» ترديده لعبارات تفتقر إلى دلائل تثبت صدقها، مثل شعور جمهور كبير من المسلمين بالغبن من بيعة أبى بكر، وميل هذا الجمهور لأهل البيت، أو أن عمر بن الخطاب أجبر الجميع على الاقتداء به، أو أن النبوة ولدت عند العرب بوصفها حركة ثورية.. «فمحمد نبى وخاتم المرسلين وليس قائد ثورة (...) كما أن العرب كلهم لم تكن لديهم دولة ليواجهها الإسلام بالثورة، حتى تكون النبوة ثورة مقابلة للدولة»، كما أن الدولة الإسلامية الأولى أقامها النبى غداة هجرته إلى المدينة، ولم تقم «بعملية قيصرية من رحم الحرب الأهلية التى تمخض عنها أول حكم سياسى مستقل فى الإسلام هو السلطة الأموية» كما يذهب غليون.

هذا بعض من جدل كبير مهم حول موضوع شائك لم يتوقف الجدل بشأنه لقرون، وما يثيره المفكران الكبيران عبر هذه السلسلة الجادة «حوارات القرن»، يبقى صالحاً لمزيد من الاجتهاد من آخرين شرقاً وغرباً.

النظام السياسى فى الإسلام

برهان غليون - محمد سليم العوا

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤، ٣١٢ صفحة

يقرأ الموج قصة وحببيا
ويفوح الحبيب عطرًا ونارا
إنه الموكب المضيء تمادى
في الليالي وعانق الأدهارا
وحديث من الروائع ينمو
كل يوم تسترا وجهارا
مزق الصمت أيها الحب
في قلوب العشاق غير العذارى؟

■

حكومة العالم السرية

فيجاي براشاد
ترجمة: فاطمة نصر
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٣، ٢٨٤ صفحة



بشكل ما، مثل انهيار «إنرون» النفطية العملاقة انهيارًا لليبرالية الجديدة (المتوحشة)، تلك التي ولدت الفقر وهي تنشر شعاراتها المبتذلة عن الأسواق المفتوحة.

جسدت «إنرون» بكل ما جرى فيها وكل ما قيل عنها إمبريالية الولايات المتحدة الأمريكية، جوع القطط السمان ولهاث الكلاب التابعة للاستحواذ على ثروات العالم.

وقد حولت ليبرالية العالم المفرط في النمو الديمقراطية إلى سلعة، وممثلي الشعب إلى موظفين لديها.

جاء بوش وتشيني إلى البيت الأبيض بفضل الدعم السخي للشركات العملاقة.

قصة إنرون هي قصة تحويل ما كان ملكية عامة ومرافق خدمية إلى سلعة قابلة لارتفاع سعرها، بل واحتكارها.

منذ الثلاثينيات وحتى السبعينيات، تكفلت الديمقراطية الاجتماعية بمعالجة مثل هذه الأطماع.

لكن التسعينيات التي شهدت تحولات مهمة ومؤثرة في العالم كله، حملت أشكالاً جديدة من الاحتكارات ونزعات مبتكرة للهيمنة عبر الحدود.

وقد سعت الإمبريالية الجديدة إلى تقليص فكرة الناس عن الرفاهية الاجتماعية، بعد ما تمكنت الإمبريالية خلال العقود الثلاثة الماضية من بسط السيادة على الأرض.

بحسب المؤلف، نحن نعيش اليوم مرحلة إرهاب الشركات، والكتاب يفضح الأساليب التي تتبعها هذه الشبكة العنكبوتية ومن يقفون وراءها.

■

القانون في خدمة مَنْ؟

محمد نور فرحات
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٤، ٤٢٢ صفحة



تحولت المحاكم والنظام القضائي إلى بؤرة صراع سياسي مكثف في العالم العربي، احتدم لما يزيد على القرن في بعض الأماكن، فالقضايا القانونية ترتبط بشدة بتحديد القوى السياسية وأدائها في المجتمع. والمواطنون العرب يقيمون وزنًا للمحاكم والنظام القانوني في كثير من شئونهم، ويلجأون إلى المحاكم بمعدلات كبيرة، وهذه الدراسة تهتم بدور المحاكم في الحياة الاجتماعية والسياسية في العالم العربي مع التركيز على مصر.

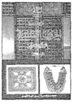
ويتضمن الكتاب ثمانية فصول تبدأ برؤية مقارنة للمحاكم العربية ودور النظم القانونية في هذه المجتمعات، ثم النظام القانوني المصري الحديث من ١٨٧٦، ١٩٣٧، ثم المحاكم المصرية ٣٧، ١٩٧١، والمحاكم المصرية ٧١، ١٩٩٦، والإصلاح القانوني في دول الخليج العربي ويخصص لهذا الموضوع فصلين مركزًا على الكويت وقطر، حيث يدرس استقلال القضاء في الكويت والمحاكم الاستثنائية فيها، ودور المحاكم وآفاق الشرعية الليبرالية في قطر، وأجهزة القضاء في الخليج والتجربة المصرية.

وينتهي المؤلف إلى نتيجة غير مبشرة، ففي رأيه أن العلاقة بين القانون والمشروعية في البلدان العربية هي أضعف بكثير مما توقعه المنظرون القانونيون، فالحكام والمحكومون كل من موقعه، نظر إلى القانون والمحاكم بعيون نفعية تمامًا.

■

موسوعة الحرف التقليدية بالقاهرة التاريخية

مجموعة من الباحثين
تحرير/ عزالدين نجيب
القاهرة: أصالة لرعاية الفنون، مؤسسة أغاخان للخدمة الثقافية، ٢٠٠٤، ٢٠٠ صفحة



تواجه عديد من الحرف الفنية التي

محاكمة تاريخية لرواية صنع الله (أمري كان لي)!

ثمة فروق مهمة بين عمل يستوحي التاريخ، وآخر يستنسخه أو يتكئ عليه، ويعرف تاريخ السرد العربي أعمالاً مهمة صنفت ضمن الرواية التاريخية، «رادوبيس» مثلاً أو «كفاح طيبة» لنجيب محفوظ، أو مسرح شعري كما في «قمبيز» لأمير الشعراء أحمد شوقي، أو بعض أعمال باكثير والسحار، وأعمال نجيب محفوظ في مجملها لا يغيب عنها التاريخ بمعناه الأشمل، السياسي والاقتصادي والاجتماعي، تحليلات عميقة لواقع معاصر كما رأتها عين الأديب، هكذا يمكن أن تقرأ «الثلاثية» و«ثرثرة فوق النيل» و«ميرامار» و«الطريق» و«زقاق المدق» وكذلك «القاهرة ٣٠» و«اللص والكلاب» وصولاً إلى «الكرنك»، والرواية وليدة مجتمع مدني، نبت تحولات وصراعات وتشابكات بين فئات وطبقات اجتماعية مختلفة، باختصار: يحضر التاريخ أينما حضرت.

ليس مما يدهش كثيرًا إذن أن تناقش رواية في جمعية تهتم بالدراسات التاريخية، تزول الدهشة إذا كانت الرواية هي «أمريكانلي» آخر أعمال الأديب صنع الله إبراهيم، والتي يخطو بها خطوة أبعد مما ذهب إليه في أعماله السابقة، المستندة إلى التوثيق واستدعاء الإحالات التاريخية والمعاصرة، من الصحف والدوريات وكتب التاريخ، وهو الاتجاه الذي توطد منذ روايته «ذات» (١٩٩٢)، والتي مثلت اتجاهًا نوعيًا للمؤلف في هذا الاتجاه، إذ خلافًا لـ «اللجنة» و«تلك الرائحة» وحتى «بيروت بيروت» و«نجمة أغسطس»، بدا أنه يعتمد كليًا على التوثيق، وفي روايته تلك «أمريكانلي» التي ناقشها مؤرخون في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، يجعل صنع الله بطله أستاذًا للتاريخ المقارن يحصل على منحة تؤهله لدورة تدريسية في معهد متخصص في الدراسات العربية بجامعة سان فرانسيسكو، وكما هو متوقع، سيبهره النظام والنظافة واحترام الإنسان واتساع الشوارع وعلو المباني، وسيقارن بسرعة بين الحال هنا والحال هناك، وستتولد الإحباطات الملازمة لهذا الشعور الضاغط بالدونية والانسحاق، والتي ستجد تجلياتها في الجنس بالذات، بوصفة حالة شرقية بامتياز، لكن الأستاذ شكري، سيكون عليه من ناحية ثانية، أن يواجه هذا المجتمع الصراعي القائم على النفعية والمغامرة، والحديث نسبيًا قياسًا إلى مصر القادم منها الأستاذ شكري، ذات الحضارة العريقة، سيكون عليه أن يواجهها بمخزونه الحضاري والإنساني والثقافي الموغل في القدم، كي يعوض هذا الشعور بالانسحاق تجاه هذه الحضارة الحديثة.

المهم أن صنع الله إبراهيم، عودة إلى الندوة، حدد مفاصل عدة للتعاطي مع روايته تاريخيًا: لماذا انهارت الدولة الفرعونية، الغزو العربي لمصر، محمد علي وبدايات النهضة، بدايات تكوين الشخصية المصرية الحديثة، حركة الجيش في يوليو ٥٢، وفتح الباب للمناقشين المؤرخين الدكتور محمود إسماعيل والدكتور عاصم الدسوقي، فإذا بالأول يغرق في الإشادة بأهمية المادية الجدلية في فهم التاريخ، وبالمفاتيح العديدة التي يقدمها الكنز المعرفي للماركسية بعيدًا عن سياق الرواية، أما الدكتور عاصم الدسوقي فقد تعامل مع مقولات شخوص الرواية بوصفها، جميعًا، آراء المؤلف نفسه، وهذا خطأ فادح في التعاطي مع عمل أدبي، إذ حتى الراوي نفسه، في كثير من الروايات، لا يمكن أن نضعه في حالة «تماهي» كلي مع المؤلف، مالم تكن الرواية سيرة ذاتية لصاحبها، وقد ترتب على هذا الخطأ المبدئي، سلسلة متتالية من الأخطاء، وقدم المؤرخان الكبيران، بعيدًا أيضًا عن سياق الرواية، رؤيتين متضادتين للتاريخ المصري ونضال المصريين عبره، إذ رأى إسماعيل أسبابًا تدعو للمفاخرة والزهو، حيث حضارة زاهرة وكفاح متواصل لتحقيق الغايات الكبرى، فيما رآه الدسوقي تاريخًا من الخنوع والخيبة، وأما التحولات العظمى فكانت فوقية لا يد للمصريين فيها.

وبدأت سلسلة من التصويبات التاريخية، قدمها المناقشان والحضور، تعلق بعضها «بالسياقات» و«الدوافع» وصولاً إلى النتائج، واعترض عالم الآثار الدكتور جاب الله علي جاب الله الذي كان أمينًا للمجلس الأعلى للآثار سابقًا، على عدد معتبر من المعلومات الأثرية المغلوطة الواردة في الرواية، ويبدو أن هذا هو قدر السرد القائم على الغزارة المعلوماتية، والذي يحاكي عصر الصورة والكمبيوتر والإنترنت.

رافقت الإنسان المصرى منذ آلاف السنين متكاملة مع حياته اليومية خطر الانقراض، فى غياب معرفة مرجعية لها ممثلة فى مراجع أو موسوعات أو كتب أو أفلام تسجيلية فى وقت اتجهت فيه كثير من الدول إلى توثيق ما لديها من حرف وصناعات. على قلتها. بشتى السبل، وبأعلى مستوى من البحث العلمى والإخراج الفنى، وفى استثمارها ثقافياً واقتصادياً، ما جعل هذه الحرف مصدراً مهماً من مصادر الدخل القومى.

ويمثل هذا الجزء الأول من موسوعة الحرف التقليدية بادرة مهمة فى اتجاه توثيق هذه الحرف التى أوشكت على الانقراض، وقد بدأ مشروع التوثيق فى الشهور الأولى من عام ٢٠٠٣ بفريق من الخبراء المتخصصين فى أربعة حرف هى الخرط اليدوى والتطعيم فى الخشب والخيامية والمصاغ الشعبى، بمساعدة مجموعة من شباب الباحثين الذين يقيم معظمهم فى المناطق التى توجد بها ورش الحرفيين.

وإلى جانب الدراسة الميدانية، استعان الباحثون بمراجع تاريخية موثوق بها، كى تكتمل الصورة حول العلاقة بين هذه الحرف والتطورات الاجتماعية والمؤثرات الثقافية فى المجتمع المصرى.

■

الفنان وديع شنودة

الإسكندرية: دار الثقافة، ٢٠٠٣



عبر رحلة عمر قصيرة عاشها الفنان (١٧ نوفمبر ١٩٢٣ . ٥ سبتمبر ١٩٦٩)، قدم أعمالاً رائعة برهنت على موهبته الأصيلة وانشغاله بهموم الإنسان فى كل مكان.

وقد وجد وديع أن الأسلوب الأكاديمى الذى درسه فى مدرسة الفنون الجميلة العليا التى تخرج فيها عام ١٩٥٠ لن يساعده فى رسالته الإنسانية.

فأخذ يبحث عن أسلوب بسيط يساعده فى هذا الاتجاه، ووجده فى التلقائية التى لاذ بها، وفى تقسيم مساحة اللوحة إلى مربعات ومثلثات، وأن يمنح الألوان دلالات رمزية وليست ألواناً واقعية.

وهذا الكتاب التذكارى يضم إلى جانب الدراسات عن مسيرة الفنان وتطور أسلوبه وإبداعاته بشتى الخامات، بعض ما كتب عنه من نقاده ودارسيه وزملائه، وندوة عنه شارك فيها كثيرون من محبى فنه.

■

الإدمـــــــان

عبدالهادى مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٤، ٣٠٣ صفحات



هل يمكن أن يؤدى التقدم العلمى المذهل الذى نشهده، والثورة العلمية المتسارعة التى أدت إلى اكتشاف الخريطة الجينية للإنسان، إلى اكتشاف جينات مسئولة بشكل مباشر عن سلوكيات الإنسان ومزاجه النفسى؟ هل يمكن أن نكتشف الجينات المسئولة عن الإدمان والجريمة والعنف والخجل والسمنة والذكاء والعبقرية والميل الجنسى بأنواعه.

المؤلف يناقش هذه القضية ذات الطبيعة العلمية والفلسفية فى آن معاً من عدة وجوه، بادئاً بالإدمان فى هذا الكتاب.

■

وفاة الأمم المتحدة

سعيد اللاوندى

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٤، ٣٥٠ صفحة



لم تعد الأمم المتحدة صوتاً للمجتمع الدولى أو ممثلاً للشرعية الدولية، وإنما قصارى أمرها أن تكون أداة لإضفاء الشرعية على القرارات الأمريكية. هذا بعض ما قاله الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة كورت فالدهايم تعبيراً عما آل إليه حال المنظمة الدولية فى أعقاب انتهاء الحرب الباردة وسيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على مقادير العالم.

وواقع اليوم كما يرى المؤلف، يفرض على المنظمة أن تدرك المتغيرات التى جرت فليس هناك سوى قوة عظمى وحيدة تعيش حرباً باردة جديدة تقف فيها هذه القوة فى ناحية، بينما تقف دول العالم أجمع فى الناحية المقابلة.

المؤلف يرصد ما آل إليه حال الأمم المتحدة، وانهيارها الذى تأكد فى عديد من المناسبات الدولية.

وأخيراً هل بالإمكان إصلاح حال الأمم المتحدة، أم علينا أن ننتظر انهيارها غداً أو بعد غد؟

الخلاصة التى يقدمها المؤلف أن الأمم المتحدة بصورتها الحالية لم يعد أحد فى حاجة إليها، لأنها أصبحت تابعاً لا متبوعاً، ولئن كانت تريد البقاء حارساً أميناً على السلام العالمى، فيجب أن تتوفر لها كل الضمانات لكى تعود إلى موقع السائق، وإلا فإن منطق القوة العمياء الباطشة هو الذى سيسود.

■

لا إكراه فى الدين

إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام حتى اليوم

طه جابر العلوانى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣



المسألة الأساسية التى يعالجها المؤلف هنا هى الردة الفردية، أى تغيير الإنسان لعقيدته، دون أن يقرن ذلك بخروج على نظام الجماعة وإمامتها وقيادتها الشرعية، ولم يقطع الطريق أو يرفع السلاح فى وجه الجماعة ولم ينضم إلى أعدائها، وكل ما فعله هو تغييره لعقيدته، فهل لمثل هذا شرع الله حداً هو القتل بعد الاستتابة أو بدونها، وإذا قتله أحد أبناء الأمة فلا يقتص منه اكتفاء بعقوبة الافتئات على الحاكم، وهل يجب على الأمة أن تكره هذا وأمثاله على الرجوع إلى الإسلام بالقوة، وهل لو حدث هذا يعد من قبيل الإكراه فى الدين الذى نفاه القرآن المجيد، وهل القول بوجوب قتل المرتد أمر مجمع عليه فى كل العصور. وهل إذا قيل بوجود قتل المرتد، فهل يعنى ذلك أن الكفر المجرد يصلح لأن يكون سبباً لإيقاع عقوبة القتل شرعاً، وهل الردة تعد خروجاً من الإسلام أو خروجاً عليه.

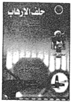
هذه أسئلة الكتاب الأساسية التى يسعى المؤلف للإجابة عنها.

■

حلف الإرهاب

عبدالرحيم على

القاهرة: دار المحروسة، ٢٠٠٤، ٣ أجزاء



فى مواجهة حلف القوى الغربية المعادى للإسلام أو «التجمع الكفرى العالمى» كما يسميه أيمن الظواهرى الرجل الثانى فى تنظيم القاعدة، والذى يضم أمريكا وإسرائيل وروسيا، أعلن الظواهرى فى وصيته «فرسان تحت راية النبى» عن حلف أصولى يضم قوى تنمو وتتجمع تحت راية الجهاد فى سبيل الله خارج قانون النظام العالمى الجديد، تتحفز للانتقام من رؤوس التجمع الكفرى العالمى.

والمؤلف يتابع فى هذا الكتاب نشأة وتطور هذا الحلف فى كتاب من ثلاثة أجزاء، منذ كان الحلف فكرة فى ذهن مؤسسه الأول عبدالله عزام حتى تطور إلى واقع ملموس على يد أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى، حيث يقدم المنهج الفكرى لهذا التنظيم الذى اصطلح على تسميته بتنظيم القاعدة، ويناقش أكثر من ثلاثين وثيقة فكرية تتضمن أهم ما أنتجه القادة الثلاثة للتنظيم.

■

التحديات التى تواجه العالم الإسلامى

توحيد الزهيرى

القاهرة: دار الجميل، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة



أسباب عديدة تقف وراء الأزمة التى يعانيها العالم الإسلامى، بعضها يعود إلى خلل فى البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلدان الإسلامية.

وبعضها يمكن رده إلى ميراث الاستعمار الطويل الذى رزحت تلك البلدان تحته، والذى نهب ثرواتها وعطل إمكانات التقدم فيها عشرات السنين.

هذا الكتاب، ومؤلفه طبيب بشرى فاز بالمركز الأول فى مسابقة أقيمت تحت رعاية الأزهر الشريف، يخلص إلى أن سر الأزمة التى يعانيها العالم الإسلامى، إنما يكمن فى علاقته المريضة غير السوية مع المشروع الحضارى للغرب. حسب تعبير المؤلف. الذى يشير إلى أربعة تحديات ينبغى على العالم الإسلامى أن يواجهها وهى: التبعية للغرب وهى تحدى الرسالة الإسلامية، التغريب وهو تحدى الهوية الإسلامية، التمزيق السياسى وهو تحدى الوحدة الإسلامية، إسرائيل أو المشروع الصهيونى فى قلب العالم الإسلامى والذى يجسد ذروة الصراع المحتدم بين الإسلام والغرب.

وهو يناقش تفصيلاً عبر صفحات الكتاب تلك الإشكاليات ويقترح سبل الخلاص.

■

الكلمات تستطيع أن تقتل

.. وأن تشفى أيضاً!

هناك صور متعددة للتواصل مع أنفسنا. إن مشاعرنا هى الوسائل الأولية فى التواصل معها: فالمشاعر التى يثيرها تلامس الأيدى عند بعض الناس وصوت الموسيقى ورائحة الزهرة والغروب الجميل للشمس والعمل الفنى والحب والضحك والأمل والإيمان: كلها يؤثر على الجوانب الشعورية واللاشعورية جميعاً فى النفس. وللمشاعر نتائج فسيولوجية أيضاً. بل إن للحيوانات الأليفة فى بيوتنا بعض الأثر على سلامتنا الصحية. وقد لخص تقرير حديث من المعاهد القومية للصحة نتائج بعض الباحثين، وتبين أن للحيوانات الأليفة قدرة التأثير على سرعة القلب وضغط الدم عند أصحابها.

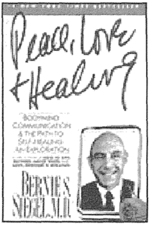
وربما كانت الكلمات التى نوحى بها إلى أنفسنا هى أشد الوسائل تأثيراً فنياً من الناحية الاختيارية المباشرة.

ولكن كيف تنفذ الكلمات إلى أعماقنا، وكيف تتم ترجمة لغة الألفاظ إلى أحداث فسيولوجية؟ إن الصور الذهنية هى جسور الاتصال وفقاً لما تذكره جين أخترييرج Jeanne Achterbery: Imagery in Healing فى كتابها: التصور ودوره فى الشفاء. وتعتقد أخترييرج أن كلمات الرسائل «يجب أن يترجمها المخ فى نصفه الكروى الأيمن إلى مصطلحات غير لفظية أو مصطلحات صورية قبل أن يفهمها الجهاز العصبى اللاإرادى أو التلقائى».

إن هذه الكلمات التى نوحى بها إلى أنفسنا تصبح مفهومة للبيئة الجسمية الداخلية بعد تحويل مسميات الألفاظ أو أوصافها إلى صور ذهنية. وإذا سلمنا بذلك فإن لنا نصيباً كبيراً من السيطرة على الصور الذهنية التى نخلقها فى أذهاننا نتيجة لإيحاء الكلمات. وعلينا دائماً أن نتأكد من استخدامها فى رسم الصور الذهنية التى تؤكد الحياة وتزيدها ثراء. إن تحقيق نبوءاتنا حقيقة واقعة؛ ويمكن أن نستغلها فى مصالحنا، ونستطيع أحياناً أن نجعلها حقيقة فسيولوجية.

وتشير أخترييرج . تدعيماً لآرائها . إلى دراسات تبين أثر التصور على العمليات الفسيولوجية كاختلاف اللعاب وسرعة القلب والتوتر العضلى ومقاومة الجلد ومستوى السكر فى الدم ونشاط

صفحات من كتاب:
السلام والحب والشفاء
تأليف: د. بيرنى سيجل
ترجمة: د. عزت شعلان
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣

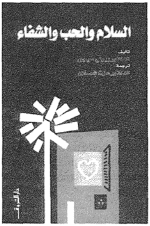


غلاف الطبعة الإنجليزية

الجهاز الهضمى وتكوين النفطات الجلدية وضغط الدم والتنفس، وتشمل هذه القائمة من التأثيرات جميع التغييرات فى الجهاز العصبى التلقائى، ونحن نعتبرها فى الأحوال العادية خارج نطاق السيطرة الشعورية، كما تشمل التأثيرات ما يحدث من التغيرات فى الجهاز العضلى الحركى. إن قائمة مشابهة من عمليات الشفاء موجودة فى كتاب إرنست روسى Ernest Rossi: The Psychobiology of Mind-Body Healing وعنوانه البيولوجيا السيكولوجية لشفاء العقل والجسم، وترجع القائمة إلى أبحاث ت. باربر T. Barber وهو إخصائى فى العلاج بالتنويم المغناطيسى. ويجوز أن تحدث كل التغييرات المذكورة نتيجة الاستجابة لأنواع من التصورات العقلية، وذلك عندما نطلب من العقل تصور الأحداث أو الأشياء (أو سماعها أو شمها أو لمسها أو تذوقها). ومازالت هذه التغييرات نتيجة للإيحاءات غير واضحة، وربما حدثت نتيجة الاختلاف فى سريان الدم كما تظن باربر، أو نتيجة للتغير فى مستوى الببتيدات العصبية. أما أن التغييرات تحدث فعلاً فهو أمر لا شك فيه.

والغالب مع ذلك أننا نعوق أنفسنا بالرسائل السلبية الصادرة منا أو من الشخصيات التى تمثل السلطة، وذلك بدلاً من دعم أنفسنا بالرسائل الإيجابية، ولا يأخذ معظمنا مأخذ الجد ما فى الكلمات من قوة التصوير. وتستطيع الكلمات أن تقتل، كما تستطيع الشفاء. ويحتاج كثير من الأطباء إلى إدراك تلك الحقائق.

فما الذى يجعلنا . نحن الأطباء . نقاوم النجاح، ولماذا يجب علينا إنكار الحكايات النادرة؟ إنى أطالب كل طبيب



.. وغلاف الطبعة العربية

وأقول: أرجوك ألاّ تنكر إحدى الحكايات النادرة إذا دخلت فى عيادتك، وإذا نجح الناس فى إنجاز الأمور وهى تخالف معتقداتك فعليك أن تتقبلهم وتحبهم، ولو كنت تخالفهم فى خياراتهم. وسوف يستريح المرضى ويشعرون بالرعاية الطبية لهم على هذا النحو، كما يقدرون على الإفادة من جميع الخيارات المتاحة أمامهم. وفى إمكانهم أن يحتملوا الخلاف فى الرأى لا التدمير.

ولا يرفض كلام الطبيب المدمّر إلاّ مريضٌ شديد البأس بالغ الاعتماد على نفسه، وكثير من الناس عاجز عن ذلك. وقد سمعت . من عهد قريب . طريقة خاصة، وقد ابتكرها واحد من الناس حتى يواجه السلبيات التى دأب الأطباء والممرضات على بثّها فى سبيله.

وكان المريض أهلاً للالتحاق بأحد البرامج العلاجية التجريبية بالمواد الكيماوية؛ فقد كان مصاباً بنوع نادر من السرطان، وقيل له إنه سيموت فى فترة تتراوح بين ثلاثة أشهر وعام.

ويبدو أن الهيئة الطبية تجاوزت حدودها: فأكدت له أن الفرص ضئيلة فى علاجه، وأن علاجه بالإشعاع عديم الفائدة، وأن الآثار الجانبية للعلاج الكيماوى فظيعة، وذلك بدلاً من تشجيعه على كل حال، بل ذكروا هذه الآثار الجانبية قبل ظهورها.

ولذلك تجشمت إحدى الممرضات عبء الإشارة إلى الزمن الطويل قبل ظهور الأعراض على بعض الناس أحياناً.

وكتب المريض بياناً للدفاع عن نفسه ثم ألصقه بالحائط:

«عقيدة إدوارد وهى موجهة إلى طبيب جديد يتابع حالتى، وإنى أعرف الأمور الآتية:

١ . أنا مصاب بسرطان ردىء، كما قرأت بروتوكول العلاج، وأعرف أنه قد يقتلنى.

٢ . أعرف مدى الرداءة فى هذا السرطان، فقد تعودت على العمل فى إدارة المستشفيات.

٣ . أعلم أن جميع العلاجات لا تخلو من الأخطار، وهى تشمل الموت.

وبناء على ذلك:

١ . لا حاجة لإعادة ما سبق.

٢ . إن الأفكار الطيبة والصداقة والنصيحة والتشجيع والأمل والحب والنشاط والابتسامات أتقبلها جميعاً بالامتنان.

وأرجو أن تتخلى عند باب الدخول عما لديك من التشاؤم وعوامل التثبيط والمرارة والأسى والوعظ السلبى دون أن تتخلى بالطبع عن أمانتك.

إنى أرجو أن تعلم عنى ما يلى:

١ . أعرف قدرتك على تقديم المساعدة الإيجابية إذا أردت، ولكنى أرجو أن تذكر مع ذلك أن حياتى تخصنى كما تخص الذين أتبادل الحب معهم.

٢ . إننى وزوجتى نعرف أن تأثير الدواء الجيد يتفوق على المعلومات المهمة جداً والمهارات والمواد الكيماوية وجبلّة الخلايا. ونؤمن كذلك بالقدرات العقلية والمناعية للجسم، فضلاً عن القدرات الروحية.

ونحن فى حاجة إلى كل المساعدات الممكنة حتى نجمع كل هذه الموارد فى حل مشكلتى ونساعدك على تقديم العون لنا.

٣ . إن لدَى أهدافاً كثيرة أحيا من أجلها، وأبذل جهداً بالغ المشقة كى أعمل كل ما أستطيع من الناحية العقلية والجسمية حتى تصبح إرشاداتك فعالة قدر الإمكان.

٤ . إنى أعرف شخصياً أناساً من المصابين بمرضى، وقد تحسنوا على الرغم من الفرص الضئيلة، وإنى أنوى ذلك أيضاً باستغلال أقصى ما عندى من الزمن الطيب فى سبيل الخير لى ولأحبائى.

وذلك ما دعانى إلى الحضور هنا، ولولاه ما جئت.

٥ . إن فى قلبى أملاً هناك، وهو ألاّ تفعل شيئاً يشجع على التشاؤم والمرارة بدلاً من الأمل، لأن ذلك سوف يُقلّل من تهدئتى النفسية ويزيد حالتى سوءاً دون ريب».

وأود أن يقرأ الأطباء والمرضى جميعاً عقيدة إدوارد حتى يقلع الأطباء عن كلماتهم المدمرة، وهى تفسد المنافع الممكنة لأدويتهم، وسوف تلهم المرضى عصيان أولئك الأطباء الذين يُصدرون أحكام الموت عليهم.

La Marche Des Idees Histoire des Intellectuels, histoire Intellectuelle

(مسيرة الأفكار: تاريخ المفكرين)

Francois Dosse

La Decouverte, SArmillaire, 360PP



رغم اتهامهم من جانب بعض الدوائر الفرنسية «بالتملص» من ممارسة مهامهم «وبعدم المسئولية» وتعرضهم لموجة من الرفض من أكثر الأقسام راديكالية فى شباب الطلاب الفرنسيين.. يبدو أن المفكرين أصبحوا، مع انتهاء ربيع عام ١٩٦٨ هدفاً لإزالة الشرعية عنهم فى عدة جوانب، فقد تزعزعت سلطتهم الأخلاقية بفعل ماتعرضوا له من اتهامات بإثارة الفوضى وطالب بعض شباب المفكرين بأن يمارسوا، بدلاً منهم، مهمتهم السياسية كحراس لمعبد القيم والوعى الناقد بعد أن أنكروا عليهم حقهم فى التحدث «باسم الجماهير». وأخيراً، واجهت سلطتهم الاجتماعية المنافسة من قبل «المفكرين الجدد» الذين ارتقوا إلى منزلة «الحلفاء الموضوعيين» لطبقة العمال أى الطلائع الجدد للتحولات الاجتماعية والسياسية المستقبلية.

فى فرنسا، يبدو المفكر شخصية مألوفة للغاية حتى أنه من الشائع اعتباره «تخصص من ينتمى لهذه الأرض». إنه «المفكر على الطراز الفرنسى» كما يطلق عليه. إلا أن المؤرخين صرفوا اهتمامهم عنه لأمد طويل، ولم يبدأ «تاريخ المفكرين» فى التبلور بحق إلا مع بداية الثمانينيات من القرن الماضى. وهو لم يزل بعد يمثل «مادة تعليمية شابة» كما أوضح مؤخراً مؤلف جماعى متميز عبّر عن «الأوضاع الدولية». ونشر هذا المؤلف تحت إشراف ميشيل لومارى وجان فرانسوا سرينللى.

ويرتكز المؤلف فرانسوا دوس فى تفكيره على نفس هذا التناقض الظاهرى حيث يقول أن «تاريخ الأفكار فى فرنسا لا يتمتع بسمعة طيبة فى حين تتم ممارسته بلا مواربة فى أماكن أخرى».

وفيما يتعلق بتاريخ المفكرين الفرنسيين يشير فرانسوا دوس إلى نقطتين مهمتين تتمثلان أولاً فى الدور الحاسم الذى قامت به فى هذا المجال مؤسسة مثل كلية «العلوم السياسية»، منذ أن أعطى جان توشار ولويس بودان «بداية الانطلاق» الخاصة بها فى عام ١٩٥٠ وحتى قيام باسكال أوربى وجان فرانسوا سرينللى بهيكلة هذا المجال البحثى فى الثمانينيات من نفس القرن. أضف إلى ذلك المكانة المحورية لقضية درايفوس التى يحظى نموذجها المؤسس ببنية راسخة فى فرنسا حتى أن «المؤرخين يفضلون تناول المفكرين وفقاً لالتزاماتهم السياسية المختلفة».

■

Egypt In The Twenty-First Century: Challenges For Development

(مصر فى القرن الواحد والعشرين: تحديات التنمية)

Routledge Curzon

Edited by: Riad El-Ghonemy

London & NewYork, 245PP,

£ 65,00



فى هذا الكتاب يقوم محمد رياض الغنيمى الأستاذ الزائر بجامعة أكسفورد بانجلترا، وبمشاركة فريق متخصص فى الجوانب المتعددة للتنمية فى مصر، بتحليل التجربة المصرية خلال الخمسين سنة الماضية مع التركيز على فترة الإصلاحات الهيكلية فى العقدين الماضيين. ويستخلص الغنيمى ومن أسهم معه الدروس المستفادة والإصلاحات المكملة لتحقيق خطة التنمية حتى عام ٢٠١٧ وما بعدها. ومن هذا التحليل الشامل يتم تعريف التحديات التى تواجه مسيرة التنمية بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع التأكيد على ضرورة إزالة المعوقات المؤسسية التى أدت إلى القصور فى الإنتاج والاستثمار والتجارة الخارجية بصفة عامة.

وفى مقدمة الكتاب يحدد الغنيمى ما اتفق عليه المساهمون من قضايا تنموية أساسية أوجزها فى أربعة بنود: (١) ضعف إنتاجية الفرد وارتباطها بخلل نظام الأجور وسوق العمل وبالتالى ضعف القوة الشرائية وازدياد عدد الفقراء، (٢) الخلل فى تطبيق الإصلاحات الهيكلية وفى تقرير تتابع تنفيذها مع إهمال إزالة المعوقات المؤسسية، (٣) ضعف التنافسية فى الأنشطة الاقتصادية وفى المشاركة السياسية، (٤) حتمية تكامل الإصلاح السياسى والإصلاحات الهيكلية لاعتماد تحقيق التنمية على هذا التكامل الذى يجمع بين الحرية السياسية وتحرير اقتصاد السوق.

وركّز الفصل الختامى على هذا البند الرابع الأخير مستدلاً بتجارب دول شرق آسيا فى تكامل الإصلاحات السياسية والاقتصادية وتلاقيها فى تحقيق معدلات نمو سريعة.

■

Cosa Nostra: A History of the Sicilian Mafia

(كوسا نوسترا: تاريخ المافيا الصقلية)

John Diekie

Hodder, 2004, 352PP.



ظهر عجز الدولة عن فرض القانون والنظام فى جزيرة صقلية منذ السنوات التى تلت توحيد إيطاليا عام ١٨٦٠. أصبح العنف والقدرة على استخدام القوة عنصراً رئيسياً فى أى مشروع أو منشأة تجارية فى صقلية وكأنه جزء من رأس المال الأساسى. وقد ولد تنظيم المافيا الشهير فى تلك السنوات ولم تتغير مبادئه على مدار قرن ونصف.

يتتبع هذا الكتاب تاريخ المافيا الصقلية، وخاصة الحرب التى اشتعلت عام ١٩٨١ بين عائلة كورليونى الصقلية وممثلى الدولة من ساسة وقضاة ورجال بوليس وحتى الصحفيين.. وتمت تصفية كل من رفض استغلال وظيفته العامة لخدمة المافيا بشتى أنواع القتل.

وإلى جانب معارك المافيا مع السلطات الإيطالية التى يتناولها الكتاب بجولاتها المثيرة، يحاول المؤلف الاقتراب من القيم الغريبة وقواعد «الشرف» الملزمة لأعضاء المافيا التى تربطهم ببعض، والتى قد تتضمن قتل طفل إن كان ذلك سوف يحمى أحد الأعضاء.

■

The Culture of Defeat

(ثقافة الهزيمة)

Wolfgang Schivelbusch

Trans: Jefferson Chase

Cranta, 2003, 403PP.



كيف أثرت الهزيمة على مختلف المجتمعات؟ هذا هو موضوع الكتاب الذى وإن كان يقتصر على تناول الهزيمة فى التاريخ الحديث للغرب إلا أن دروسه تصلح لكافة الأمم المنهزمة. تكشف الدراسة كيف أن حياة الأمم كثيراً ما تكون قائمة على الوهم، سواء كان الوهم صادراً عن نشوة الانتصار، أو نتيجة للمبررات التى تفسر بها الهزيمة.. فالعقلانية يتم خلطها باللاعقلانية بنسبة تغلب فيها الأخيرة.

وتتركز الطاقات السياسية والفكرية للشعب لا فى محاولة الوقوف على الحقائق التى أدت إلى الهزيمة، وإنما فى نسج الخيالات والقصص المخترعة.

فعلى سبيل المثال، عندما هُزمت فرنسا أمام بروسيا عام ١٨٧٠، اخترعت حقيقة بديلة أكثر إراحة إذ أقنع الفرنسيون أنفسهم أن ما حدث كان «تراجعاً»، وليس «هزيمة».

وفى الهزيمة أيضاً يتم الترويج لنظرية أن شيئاً «راقياً» انهزم أمام شىء غاشم. فمثلاً فروسية الجنوب الأمريكى فى الحرب الأهلية الأمريكية فى مقابل كفاءة الآلات الحربية فى الشمال. أو الروح الفرنسية فى مقابل جمود الالتزام الألمانى.

كذلك تطفو نظريات أخرى عن أن الهزيمة تنقى الأمة، بينما يُحدث الانتصار غروراً يفضى إلى السقوط.

وعند فداحة الهزيمة، تلجأ الأمم إلى تاريخها القديم وتراثها الأدبى الذى يجعلها تفهم وتعى ذاتها.

فمثلاً فيكتور هوجو أشاع فى أدبه المعاصر للهزيمة مفهوم أن فرنسا هى مرادف الحضارة، وتم استحضار جان دارك من التاريخ القديم إذ لم يكن أحد يتذكرها قبل هزيمة ١٨٧٠.

هكذا يزخر الكتاب بالعديد من الأمثلة التى يسوقها وولفجانج شيفيلبوش المؤلف الألمانى المتخصص فى التاريخ الثقافى، ليخرج منها بتحليلات واستنتاجات تبعث على التفكير وتحث القارئ على المقارنة.

■

World on Fire

(العالم يحترق)

Amy Chua

Heinemann, 2004, 346PP.



ظاهرة إثنية تتفاقم فى دول العالم النامى ويتجاهلها الغرب، تسلط عليها الضوء مؤلفة صينية - فلبينية فى هذا الكتاب.

فهى ترصد نموذجاً متكرراً فى دول جنوب شرق آسيا ودول أمريكا اللاتينية وبعض الدول الأفريقية حيث تتمتع أقلية إثنية بالغة الصغر فى غالبية الثروة والنفوذ الاقتصادى فى الدولة.

على سبيل المثال، تشكل الأقلية الصينية فى الفلبين مالا يزيد على واحد بالمائة من نسبة السكان، بينما تمتلك أكثر من نصف الثروة الاقتصادية.

ويتسيد الصينيون التجارة والصناعة، ويرجع جميع الأثرياء الفلبينيين إلى أصول صينية، وبينما يعمل الفلبينيون لدى الصينيين فى أعمال خدمية صغيرة، فإن العكس غير وارد ولا يحدث اختلاط اجتماعى أو تزاوج بين العنصرين.

مثل هذا النموذج الصارخ للوضع المميز للأقليات الصينية يتكرر بنسب متفاوتة فى كل من إندونيسيا وبورما وتايلاند ولاوس وماليزيا وفيتنام. وفى دول أمريكا اللاتينية، تتمتع الأقليات البيضاء بوضع شبيه وكذلك فى دول أفريقيا الجنوبية.

تقول المؤلفة إن ذلك الانفصال الحاد، والوضع غير المتكافئ إثنيًا واقتصاديًا واجتماعيًا يصبح مصدرًا لعدم الاستقرار السياسى، حيث تزداد الكراهية وتصل إلى درجة القتل، كما حدث فى إندونيسيا وزمبابوى وإلى حد ما، ماحدث للتوتسى فى رواندا والكروات فى صربيا.

وتؤدى العولمة وسياسات اقتصاد السوق والديمقراطية التى تدفع بها الدول الغربية إلى تعميق تلك الفجوات، الأمر الذى قد يصل إلى حد الكارثة إذا لم تلتفت دول الغرب إلى تباين ظروف دول العالم النامى عنها، فهو لم يخضع لنفس مراحل النمو الرأسمالى والتطور الديمقراطى الذى حدث فى الغرب.

■

Slow Food: The Case For Taste
(الطعام البطىء: دفاعًا عن الذوق)
Carlo Petrini
Transl: William McCuaig
Columbia, 2004, 155PP.



بدأت حركة الدفاع عن «الطعام البطىء» فى شمال إيطاليا على يد مجموعة من اليساريين عام ١٩٨٦، ولكنها ما لبثت أن أصبحت حركة مستقلة جمعت مائة ألف فرد من ٤٧ دولة (بلا ميول يسارية بالضرورة) التفوا حول الفكرة وأسسوا لها ثلاث مجلّات (بخمس لغات) ودار نشر وجامعة وصلات بقنوات تليفزيونية.. إلخ. همهم الرئيسى إنقاذ بعض أنواع الطعام المهددة بالانقراض، وإنقاذ الوصفات وأساليب الطهى القديمة.

يكتب كارلو بتريني تاريخًا مختصرًا للحركة ومبادئها وأهدافها مبينًا الفارق بينها وبين الحركة العنيفة التى يقودها الفرنسى جوزيه بوفيه ضد ماكدونالدز ومطاعم الوجبات السريعة.

ويبين بيتريني كيف أن حركة «الطعام البطىء» مرتبطة أكثر بالتعليم والثقافة والتهذيب وتنمية الذوق السليم والإحساس الرفيع.

■

Islamica Magazine
(مجلة إسلاميكا)
Amman: Winter 2003, Issue 10



بعد فترة من التوقف، تعود دورية إسلاميكا الفصلية للصدور مرة أخرى بعددها العاشر (شتاء ٢٠٠٣) لتخاطب العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر.

تقول افتتاحية المجلة التى تنطلق باللغة الإنجليزية أن «إسلاميكا» تتيح منبرًا للأصوات التقليدية لتقديم وجهات النظر حول قضايا العقيدة والعالم.

وذلك فى محاولة للحفاظ على الخطاب الإسلامى التقليدى من الحركات الهامشية سواء كانت «حرفية» سلفية، أو حداثية.

هكذا ترى المجلة أنها تعبر عن تيار «الإسلام التقليدى» كما تسميه ضد ما تسميه بالتيار «الإصلاحى - الحداثى» الذى تعتبره غربى المنشأ ذو أصول بروتستانتية، وضد تيار «الحرفيين» السلفى المغلق وأيضًا ضد تيار «الإسلام السياسى».

يضم العدد مقالات عن العالم بعد ١١ سبتمبر لكل من على مزروعى وكريستوفر ألين وعبد الحكيم مراد وغيرهم.

بالإضافة إلى مقال عن المواقع المقدسة فى العراق والحب فى الإسلام ومقال تأبينى عن إدوارد سعيد المفكر والاكاديمى الفلسطينى الراحل.

يقع العنوان التجارى للمجلة فى لندن، ويقع عنوانها التحريرى فى عمّان وتطبع فى تركيا.

يشترك فى التحرير كل من سهيل ناخودة ويوسف زانيلا وسارة لويز ناخودة وجبريل جميل.

■

La Modernite De L'Esclavage: Essai sur la Servitude au Coeur du Capitalisme
(حداثة العبودية: رسالة عن الرق فى النظام الرأسمالى)
DYves Benot
La Decouverte, 2003, 300PP., 22 Euros



«إن الجنود الأطفال الذين يخوضون غمار الحروب الأهلية الأفريقية والأطفال العاملين فى صناعة النسيج فى شبه الجزيرة الهندية ليقدمون خير دليل على أن العبودية لم تختلف؛ حتى وإن كان شكلها قد بات الآن مخالفًا عما كانت عليه فى الماضى فى العهد اليونانى الرومانى أو فى زمن النخاسة الذى أفضى إلى موت آلاف الأفارقة فى مزارع جزر اللاتينى وفى أمريكا».

بهذه العبارات، يختتم إيفل بونو كتابه. فلقد كانت جميع الأحقاب والبلدان شاهدًا على الرق منذ بدء الخليقة.

ويذكر لنا حامورابى فى قانونه أن العبودية كانت شائعة فى بلاد ما بين النهرين قبل ظهور المسيحية بعهد سحيق أما أرسطو وسانت أوجستين فقد قدما تفسيرهما للعبودية دون أن يقصدا إدانتها من وراء ذلك.

فلقد كانت متوائمة للغاية مع النظام السائد.

ظهرت أولى بشائر الرفض مع حلول القرن الثامن عشر حيث تمكن أنصار الإلغاء من تحقيق انتصار لقضيتهم فى جزر اللاتينى وفى الولايات المتحدة وأخيرًا فى البرازيل التى تعد آخر دول العالم الغربى حظرًا للعبودية.

يستعرض ايف بونو تاريخ العبودية كله عبر ما أثارته من جدل وكتابات بل وثورات.

فهو يحدثنا عن العديد من الثورات الأسطورية مثل ثورة المصارع سبارتاكوس الذى هُزم للخلاص من آلاف المصلوبين بطول الطريق الأبيينى، وثورة السود (الزنج)، وهم الأسرى الذين تم استعبادهم فى مستنقعات البصرة فى القرن التاسع الميلادى، وتم سحقهم بعد قتال دام ما يزيد على عشر سنوات وثورة العبيد السمر فى العالم الجديد والذين قاوموا المستعمر البرتغالى فى الفترة من ١٦٣٠ وحتى ١٦٩٤.

واختتم استعراضه بالثورة الوحيدة الناجحة والتى قام بها سكان هايتى فى توسان لوفرتور.

وقد تعمّق الكاتب فى دراسة كتابات من أعلنوا بقوة مناهضتهم للعبودية مثل جان بودان الذى خبت ذكراه اليوم بعض الشىء من خلال كتبه الستة عن الجمهورية والتى نشرت فى عام ١٥٧٦.

ولا يفوت إف بونو فى كتابه أن يقوم بتحليل الدوافع الاقتصادية للنخاسة والعبودية فى مزارع اللاتينى.

ويقول إريك وليامز رئيس الوزراء الأسبق لترينيداد وتوباجو فى كتابه «الرأسمالية والعبودية» أن الرق كان وسيلة من وسائل تمويل الثورة الصناعية فى أوروبا.

■

The Big Ugly Monster and The Little Stone Rabbit
(الوحش الضخم القبيح والأرنب الحجرى)
Chris Wormell
Cape, 2004, £10.99



تزخر رفوف المكتبات البريطانية والغربية عمومًا بكتب الأطفال التى تعتمد أساسًا على الرسوم التوضيحية وهو أمر محبب ومطلوب للأطفال.

ومؤلف هذا الكتاب كريس وورميل ربما ليس من أكثر كتاب قصص الأطفال المشهورين فى بريطانيا إلا أنه من المتميزين فى هذا المجال بشهادة النقاد البريطانيين.

ويحكى الكتاب قصة وحش قبيح الشكل لدرجة أنه عندما ينظر إلى السماء الزرقاء فإن الطقس يتغير إلى الأسوأ، وبالرغم من أن المخلوقات من الحيوانات الأخرى تهرب فور أن تراه بسبب منظر شعره البشع إلا أن هذا الوحش سرعان ما يلهم خيال القارئ.

إنه وحش وحيد يعيش معزولاً عن الآخرين ويتمنى أن يتحدث مع مخلوق آخر.

ويصور الكتاب كيف أصبحت حياة هذا المخلوق التعس أى الوحش سعيدة عندما لاحظ أن أرنبًا حجريًا لا يفر أو يشمئز من رائحته القذرة. ويصبح الأرنب رفيق الوحش بقية حياته رغم أن استجابة الأرنب لكل ما يأتى به الوحش من أفعال أو كلام ضئيلة للغاية.

ويقول النقاد أن الكتاب طريف للغاية ومفيد للأطفال للتعرف على هذه المخلوقات الغريبة كما أنه ملىء بالأفكار والنصائح وأهمها أن لا يحكم الإنسان على غيره بمجرد النظر إلى شكله. وهو يتحدث عن الصداقة وكيف تنقلب الحياة الكئيبة إلى سعادة بهذه الصداقة.

الكتب - وجهات نظر - رسائل

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

هيكل.. والطرح الإسلامى

يسرنى أن أبعث هذه الرسالة إلى الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل، عبر مجلتكم الغراء «الكتب.. وجهات نظر».

الأستاذ واحد من ألمع الصحفيين على المستوى العربى والعالمى، ومن أبرز منظرى الفكر القومى ومفكريه. وقد حزنت لما علمته من أن «الأستاذ» اعتذر عن تأليف كتاب عن الإسلام السياسى وهو موضوع يحتاج إلى أن نعرف رأيه فيه، لأننى أرى أن الطرح الإسلامى، خاصة الذى يتبناه تيار الوسطية، قد تطور وتقدم بصورة تفوق بل تناقض ما رسخ فى أذهان الكثيرين، من أنه تيار يدعو إلى الانعزالية، وتكفير المجتمع، ورفض الحضارة الغربية إجمالاً، وغير ذلك من الأفكار التى سادت مجتمعاتنا فى ظل تجربة وظروف خاصة، لا يصح أن تسحب أو تعمم على كل الأطروحات والأوقات.

ثم إن الحملة الأمريكية الشرسة، التى يتعرض لها وطننا العربى، لا تفرق بين تيار قومى، وآخر إسلامى، مادامًا يقفان حجر عثرة فى طريق إمبراطوريتها المنشودة، مما يستلزم جمع الكلمة، وحشد الطاقات، وإعلاء مصلحة الوطن فوق المصالح الشخصية والاختلافات الفكرية، والتنبيه دائمًا إلى أن الانشغال بمثل هذه الفروق، وإعطاءها الأولوية فى حياتنا، هو نوع من الترف الفكرى والسياسى، الذى لا يتناسب وضخامة المصير الذى نحن - جميعًا - مقبلون عليه.

ولا أحب أن أسترسل فى الحديث عن تيار الوسطية الإسلامى، إنما أحب أن أشير فى ذلك إلى كتابى الدكتور/ محمد عمارة «معالم المنهج الإسلامى»، و«الحل الإسلامى، لماذا؟ وكيف؟»، فهو قد بيّن فيهما رؤية الطرح الإسلامى للحياة العقلية والتعددية الفكرية، وللنظام السياسى والشورى وتكوين الأحزاب، وللنظام الاجتماعى وتحقيق العدالة الاجتماعية، وللحريات العامة وحقوق الإنسان وتحرير المرأة، ولدوائر الانتماء والموقف من الوطنية والقومية والإسلامية، وللسياسة الخارجية والعلاقات الدولية، خاصة أن الكتاب الأول تحديدًا، قد نوقش فى ندوة فكرية قبل صياغته الأخيرة، ضمت أبرز مفكرى هذا التيار، ثم هو صادر عن الأزهر الشريف بالاشتراك مع المعهد العالمى للفكر الإسلامى، الأمر الذى يجعله أقرب إلى «المشروع الفكرى» والرؤية الجماعية، منه إلى الرؤية الفردية.

ولا شك أن السماح لهذا التيار بالمشاركة فى العمل السياسى، وإتاحة الفرصة له لتحويل هذه «الأفكار» إلى «برامج»، لا شك أن ذلك سيساعد فى تصحيح ما قد يعترى هذه الأفكار من مثالية أو نقصان.

غاية الأمر، أننى أحب أن يكتب الأستاذ هيكل رؤيته عن تيار الوسطية الإسلامى، وأن يكمل بذلك، الحوار القومى - الإسلامى، الذى بدأ فى أوائل التسعينيات تحت رعاية «مركز دراسات الوحدة العربية» فى بيروت، آملاً أن يسهم هذا فى حشد طاقات الأمة لصد المخاطر الخارجية وفى مقدمتها المشروع الصهيونى، وأن يعيد لأمتنا مجدها ومكانتها بين الأمم.

وليس هذا، بحال من الأحوال، استباقًا لرأى الأستاذ هيكل، أو تحديدًا له فى إطار معين، إنما هو حرص على استطلاع رأى مفكر، طالما عُرف بتحرى الدقة، ونشدان الحقيقة، وإعلاء قيمة الإنسان، خاصة ونحن بصدد أمر، يتحدد به مصير عالمنا العربى، بل ويحارب وتحتل أراضيه بزعم أنه يتبنى ويصدر الإرهاب، وأنه عاجز عن متابعة تيار الحداثة، وقيم العالم الحر!!

السنوسى محمد السنوسى
باحث فى الشئون العربية
محافظة الغربية

لا صحوة ضمير ولا يحزنون

اختلف مع «قراءة» الأستاذ أيمن الصياد (عدد فبراير ٢٠٠٤) والتى يتساءل فيها عن مستقبل إسرائيل، منوهًا بما رددته وسائل الإعلام عن بيان قادة الشين بيت الشهير وأود هنا أن أوضح الآتى:

عند تأسيس الدولة العبرية وصل تعداد رجال المخابرات الإسرائيلية إلى ١٨٤ شخصًا وقد شكل هؤلاء فى حينه وحدة عسكرية تابعة للجيش قامت بناء على أمر عسكرى أسمته «الشين بيت»، اختصارًا لكلمة «خدمة أمن». ورأس الوحدة فى حينه أيسر هرئيل حتى العام ١٩٥٢ وفيما بعد أصبح رئيسًا للموساد. وكان الشين بيت يراقب فى العقد الأول لقيام الدولة العبرية تحركات خصوم حركة العمل التى حكمت إسرائيل حتى العام ١٩٧٧، إبان صعود مناحم بيغن إلى سدة الحكم.

ويروى بن غوريون فى يومياته أن أيسر هرئيل كان يشارك فى اجتماعات سكرتاريا «المباى» ويقدم تقاريره وتصوراته عن السياسة الداخلية.

استطاع حزب العمل خلال هذه السنين الطويلة أن يحول «الشين بيت» إلى أسطورة إسرائيلية تحمى البلاد من «المؤامرات الداخلية» (عملاء للسوفييت) ومن المتسللين والفدائيين العرب الذين بدأوا يعبرون الأسلاك الشائكة فى الاتجاهين. كانت تحركات «الشين بيت» سرية للغاية حتى أن اسم رئيسها لم يعرف للجمهور، وعملت طوال السنين تحت مسئولية مكتب رئيس الحكومة بعد أن كانت وحدة عسكرية وتحولت فيما بعد إلى وحدة مدنية تابعة لوزارة الأمن حتى منتصف الخمسينيات، فالسرية التى تحكمت فى ظروف عمل الشين بيت ساهمت فى صنع «الأسطورة» مما شوق الناس إلى معرفة ما يدور داخل هذا الجهاز الذى لا يحكم سلوكه أى قانون كان، وقليلة هى الأدبيات والمنشورات الصادرة فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى عن عمل الشين بيت و«بطولات رجاله».

اختفت كلمة «شين بيت» وحل محلها «شاباك»، وتعنى «خدمة أمن عام» أو شين بيت عام، بعد انفضاح عدوانية رجالها أمام الرأى العام الإسرائيلى فى فضيحة باص ٣٠٠ فى عام ١٩٨٦. وقد أسفرت هذه الفضيحة عن استقالة إبراهام شالوم، رئيس الشاباك، بعدها بدأت تنشر فى إسرائيل روايات عن الشاباك والموساد منها من كتبها باحثون ومنها من كتبها رؤساء سابقون، فقد قرأنا فى السنوات الأخيرة ما رواه يعقوب بيرى فى كتابه «الآتى ليقتلك» (إصدار كيشت عام ١٩٩٩) عن أصوله «المبائية»، وقد بدأ عمله موظفًا فى أرشيف المخابرات فى أوائل الستينيات إلى أن أصبح رئيسها فى عام ١٩٨٨ حتى عام ١٩٩٤. فى كتابه تجد قصصًا «بوليسية» عن علاقة المخابرات بالاحتلال وعمله فى منطقة القدس فى السبعينيات وتحقيقه مع معتقلى الخلايا الفدائية وكيفية التعامل مع الانتفاضة الأولى وبعدها أوسلو ولقاءاته الأولى مع السلطة الفلسطينية. ولا يخفى فى الكتاب نقاشه مع اسحق شامير، رئيس الحكومة الإسرائيلية أواخر الثمانينيات، ويذكر أن المخابرات ساهمت مع إيهود باراك واسحق مردخاى وموشيه يعلون بتأسيس وحدات المستعربين التى اختطفت واعتقلت الفلسطينيين وقتلت بدم بارد عشرات المطلوبين. بالمناسبة فى هذا الكتاب تجد صورة ليعقوب بيرى وهو فى زى عربى بعد أن رجع من «مهمة مخابراتية».

أما كرمى غليون، والذى استخلص النتائج بعد تشكيل لجنة شمغار الرسمية والتى حققت فى مقتل اسحاق رابين فقدم استقالته كرئيس للشاباك باعتباره مسئولاً عن أمن الشخصيات العامة، فإنه يروى هو الآخر روايته «الشاباك بين التمزقات» (إصدار يديعوت أحرونوت عام ٢٠٠٠) عن نشأته المبائية فى رحافيا فى القدس الغربية و«بطولاته» منها اغتيال يحيى عياش وموقفه مع العرب فى إسرائيل ويتباهى أنه توقع من خلال أطروحة ماجستير قدمها لجامعة حيفا عن «الإرهاب اليهودى» وعن الاغتيال السياسى القادم فى إسرائيل. يوجه سهامه نحو لجنة شمغار التى لم تتورع عن أن تمد يدها إلى الجمر الملتهب ويقصد الأجواء التحريضية ضد رابين التى سادت فى إسرائيل عشية مقتله. جاءت روايته أصلاً ليعلن مسئوليته ويوضح موقفه أمام الجمهور من مقتل رابين الذى اعتبره «سكينًا فى الظهر». نسوق هذا الكلام عن رؤساء

الشاباك، ثلاثة منهم عملوا فى المؤسسة الأمنية منذ بداية حياتهم، تربوا فى أجواء سيطرة الحزب الواحد ونشوة انتصار إسرائيل على العرب فى العام ١٩٦٧، اعتقدوا دائماً أن الأمن فوق الديمقراطية، اشتركوا فى عملية جباية الاعترافات بالقوة والتعذيب ودون رقابة تذكر، ثقافتهم جعلتهم ينتمون لمدرسة أمنية واحدة تربط السياسة بالأمن والحنكة المبائية وفنون الكذب وأن أمن إسرائيل فوق كل شىء حتى لو تناقض مع أسس الديمقراطية (انظر قرارات حكم بشأن الإبعاد الجماعى فى الثمانينيات وأوائل التسعينيات). ويختلف هؤلاء مع شارون حول حدود القوة التى يمكن استعمالها ناهيك عن الاختلاف السياسى فمعظمهم من مؤيدى أوسلو وهم معنيون بالتوصل إلى حل مع الفلسطينيين وفق شروط إسرائيلية. أما شارون فهو يملك حلاً واحداً، تدمير وقتل وتخويف وترهيب وخنق وجدار فصل عنصرى، وتأجيل الحل وفق شروط استسلامية مهينة. ما الذى جرى فى الإعلام العربى؟ لماذا التهويل والانفعال؟ لأن رؤساء الشاباك قالوا بالحرف الواحد «نحن متجهون نحو الكارثة» (يديعوت أحرونوت ١٤. ١١. ٢٠٠٣)؟

لماذا يحتفل بعض المحللين العرب أن هناك صحوة ضمير والبعض الآخر يهلل أن إسرائيل فى طريقها للانهيار، ناهيك عن بعض «المستعربين» العرب الذين يتغنون بالسلام والأخوة فلم يبخلوا فى رفع تحيات الإكبار لجرأة لقاء شخصيات أمنية إسرائيلية تشعر أنها فقدت السيطرة والقرار ولم تعد «رجالات مهمة». لا حاجة للرقص والغناء بالموال، لقد تجند هؤلاء المسئولون لإنقاذ «الأخلاق» الأمنية الإسرائيلية وفق تصوراتهم وتربيتهم.

لفت انتباهى ما قاله إبراهام شالوم «علينا أن ندرك كمجتمع أننا جئنا للعالم العربى وليس العكس». هذا الكلام الذى قيل اضطراراً لمعرفته الأكيدة بما أنجزه غسيل الدماغ للمجتمع الإسرائيلى والذى استمر لسنوات، إنها ليس صحوة ضمير ولا يحزنون، إنها صحوة متأخرة لحركة العمل الإسرائيلية للخروج من مأزقها ومحاولة إنقاذها من وحلها لمواجهة اليمين الإسرائيلى، إنها صحوة متأخرة بعد «خراب البصرة».. على كل حال، التصريحات الأخيرة تنطوى تحت سقف النقاش الأمنى الداخلى.

أحمد أبو حسين
رئيس مجلس الإدارة
Arabs48.com

العلمانية

إعجابى بمجلتكم بلا حدود! وأرجو أن يتسع صدركم لكى أدلى برأيى فى قضية يجرى النقاش حولها كثيراً وهى العلمانية.. معظم المتحدثين يتلفظون بها بطريقة تجعلها تفهم بأن لها علاقة بالعلم.. أى يقولونها وكأنها مشتقة من العلم، أى بكسر العين وتسكين اللام وفتح الميم.. والواقع أنها يجب أن تنطق بما يجعلها مشتقة من العالم وليس العلم، أى العلمانية بتسكين اللام وفتح الميم.. إن لفظ العلمانية وكأنها من العلم وليس العالم يسىء فهمها لدى العامة ويجعلها ذات علاقة بالعلم وليس الروحانيات وهذا مرفوض لدى ضمائر العوام.. لكن واقع الحال وحسب معرفتى المتواضعة بأن العلمانية من العالم هى تعبير كنسى أطلق على الناس خارج الكهنوت لأنهم من العالم وليسوا من الملكوت.. ومازال هذا اللقب يطلق على رعايا الكنائس العربية.. أى كانت ومازالت الكنيسة تفصل بين الملكوت والناسوت.. أى تفصل بين أتباعها وبين كهنتها.. وقد استعير مجازاً ما أطلقته الكنيسة ليطلق فى مفهوم الدولة الأوروبية الحديثة للفصل بين الدين والدولة.. ليس أكثر من استعارة للمدلول وليس للنسبة.. أى ليست النسبة للعلم.. وقد اختلط الأمر نتيجة لنطق كلمة العلمانية دون تشكيلها وفى زمن ظهرت فيه النظريات المادية الرافضة للروحانيات.. والتى ارتبط اسم العالم بها لخدمة أهدافها ليس إلا.. وربما أن لفظ العلمانية من العلم أكثر سلاسة فى وقعها على السمع.. وأكون سعيداً لو أصبحت أسمع كلمة العلمانية من العالم وليس العلم.

المهندس: أكرم ف. عباسى
عمان - الأردن

كتاب الزاوية

مذكرات الأميرة جويدان

٥ - أرامل إسماعيل

وفى فيشى رأينا أرملتى إسماعيل باشا جالستين فى شرفة الفندق وعلى وجهيهما النقاب الأبيض وهما تدخنان وتستمعان إلى نغمات الموسيقى.

كان لإسماعيل باشا أربع زوجات. وعلى عكس المألوف كانت هؤلاء الزوجات صديقات لا شحناء بينهن ولا بغضاء، وقد ألف بينهن حبهن لرجل واحد.. هو إسماعيل.

كان إسماعيل إذا أحب لم يترك لمحب بعده مجالاً. وإذا أهدى أغدق حتى أغرق. وإذا أراد البناء فإنه يهدم حيًا بأكمله ليشيد عليه ما يريد ويستعمل آلاف الأيدى فى البناء يعملون على ضوء الشمس نهارًا وتضاء لهم المشاعل ليلاً. وعلى هذا المنوال قامت سراى الجزيرة التى بناها خصيصًا للإمبراطورة أوجينى لتكون لها مقامًا أثناء زيارتها لمصر. ولو استطاع لأحال مصر كلها إلى روضة غناء تخطر فيها هذه الملكة الجميلة.

ولما أبدت الإمبراطورة رغبتها فى الطواف بالقاهرة على ظهر حمار رافقها الخديوى فى هذا الطواف. ولما رجعنا من النزهة كان حريم إسماعيل على استعداد لاستقبال الإمبراطورة ولم تشعر إحداهن بغيرة أو حسد.

وقد احتفظت أرامل إسماعيل بعاداتهن حتى فى أوروبا، فكن دائمًا مقنعات ويأخذن الجوارى والأغوات معهن، فإذا ركبن عربة جلس الأغا دائمًا إلى جانب السائق.

قـــــــراءة ..

حاضـــر لا يـــرى.. ومســـتقبل يرتجـف

تستحقُ الصورةُ.. وهى بألف كلمة كما يقولون، أن نخلى لها الصفحة كاملة. لتلخص - ربما - بظلالها وألوانها وشخوصها - المشهدَ العربىَ كلَه بين عامين؛ عامٌ مضى (٢٠٠٣) اختيرت فيه من بين آلاف الصور لتصبح صورته الصحفية، وعامٌ آتى (٢٠٠٤) تتسول فيه «القمة العربية» مكانًا لانعقادها، وتنشر فيه الدوائر الأمريكية مبادرتها «للشرق الأوسط الكبير»، لا لتسوقها، بل لتفرضها، وبصراحة - دون مواربة - عبر ترويج مفاهيم يسهل ابتلاعها، أو تبليعها لأولئك المجبرين على ابتلاع ألسنتهم.



اختيرت هذه الصورة كأفضل صورة صحفية لعام ٢٠٠٣. وهى لمصور فرنسى Jean-Marc Bouju فاز بجائزة بوليتزر مرتين. وكان قد التقطها بالقرب من النجف يوم ٣١ مارس ٢٠٠٣ لطفل عراقى يرتجف بين يدى والده الذى اعتقله الأمريكيون وغطوا رأسه وعينيه بكيس من قماش قبل أن يضعوه خلف الأسلاك الشائكة.

دعونا بدايةً نعترف بأن ليس كل ما جاء فى ديباجة المبادرة (من أننا نفتقر إلى الحرية والمعرفة..) كفرًا. رغم كل ما فيها من قصور وفوقية وبرغم كل ما وراءها من أسباب إقليمية أو انتخابية. ولكننا كما نعترف، نعرف بأن حسن النية غير مضمون، وأن القصد ـ وما وراء القصد - غير مبرأ بالضرورة.

والحاصل أنه بين بريق المبادرات المنهمرة «بوعدها ووعيدها»، بدا أن الأبصار قد زاغت «خوفًا وطمعًا». بداية من مبادرة باول إلى مشروع الشرق الأوسط الكبير. مرورًا ببرنامج الدعم الذى أطلقته تشينى (الابنة)، وقمة التعليم المقترحة التى تستهدف حسبما أعلنوا «بحث بواعث القلق إزاء نظم التعليم ومحتواه فى المنطقة».

ها هى الصورة إذن. الأب المكبل بين الأسلاك أعموا عينيه وغيّبوا رأسه. والابن الخائف سيرسمون له مستقبله ويشكلون له رأسه فى عاصمة ثلجية بعيدة.

ها هى الصورة (٢٠٠٣) وها نحن.

بين أحاسيس الخيبة والإحباط والفشل، وأحاديث اللحاق بالركب، تبدو الأنظار تائهة. كأنه كما للنصر سكرةٌ فللهزيمة كذلك. ففى عالمنا العربى المرتبك - كما لم يحدث من قبل، تبدو كل الرؤى غائمة. والرؤوس كأنما غيبتها سكرةُ الهزيمة، وثقافة الهروب والانسحاب. والعيون أعماها طمعٌ فى «جزرة»، أو خوفٌ من «عصا». والطامعون والخائفون - كلاهما - يلوحُ لهم بهذه أو تلك بين حين وآخر.. لا فرق. فأكثر المتشددين تطرفًا بدا - فجأة - طيبًا وعاقلاً. ورايات الإصلاح والتنوير و«التمكين»، ارتفعت متزاحمةً لتغطى - فجأة - قرص الشمس.

وبدا المشهدُ كلُه فى ذروته «دراميًا». بين القاعدين «يأسًا».. والمهرولين «ارتباكًا» فى كل اتجاه.

ويكفى أن تنظر إلى مثقفى الأمة الذين اختلفوا، أو بالأحرى تعاركوا حول كل شىء. بداية من «تقرير التنمية البشرية العربية» المتهم بالأمركة. وحتى الاتهامات بالمساندة «المدفوعة» للعراق.

كما يكفى أن تنظر إلى صيحات «جديدة»، وأخرى تم استخراجها من مدافنها مثل «الشرق أوسطية»، ومصر أولاً، والأردن أولاً. ونداءات بالواقعية تدلل على فشل أحلام المشاريع القديمة؛ من ناصرية إلى قومية أو إسلامية.

وسط كل هذا اللغط والخلط والضبابية، تعمى العيون وإن بدت مفتوحة، وتضيع معالم الطريق، مهما تعددت الأسهم، وتصايح المرشدون.

ثم يكفى أن تنظر إلى المواطن العادى فى كل موقع. يلعن الغرب وأمريكا كل صباح. دون أن يدرك أن التفانى فى العمل والتكيف مع التقنيات الجديدة هى شروط التواجد على خريطة اليوم. ودون أن يلحظ أن شارون «السفاح - لا خلاف» يمتثل مرغمًا - وهو رئيسٌ للوزراء - لطلب الجهات المختصة للتحقيق معه فى قضية فساد. فى حين يُمنَع الناخبون فى ديمقراطيتنا، ببساطة بالغة، من الوصول إلى صناديق الاقتراع.

ثم يكفى أن نلحظ ما يجرى من تأجيج للصراعات العرقية والقبلية والمذهبية شرقًا (العراق) وغربًا (الجزائر) وجنوبًا (السودان).

تبدو الصورة غائمةً وضبابية. وعندما تلجأ الأمةُ، كأى أمة وقت الأزمات، إلى مثقفيها، تجد «الاستقطاب» حادًا. بين من يرفض - مثلاً - كل ما تأتى به الرياح من الغرب «كونها أتت من الغرب». وبين من يحاول أن يركب هذه الرياح «منتهزًا» عنفوانها وطغيانها. وخافيًا مراكبه «فوق الموجة» تحت أشرعة براقة تتلون بأطياف المرحلة؛ من إصلاح وديموقراطية وتطوير للتعليم. وهكذا يتبدى الاستقطاب حادًا فى كل مناسبة. وليست آخر تلك المناسبات ذلك «التراشق» حول تقرير التنمية الإنسانية الأخير.

وهكذا.. تنتظر الأمة من مثقفيها هاديًا ومرشدًا. فلا تجد غير «الاستقطاب» حادًا وموترًا.

والحاصل - بحكم قوانين الفيزياء - أن «البوصلة» ترتبكُ حتمًا بين كل استقطابين. فيغمُ على المستهدين الطريق.. وهكذا كان.

هانحن.. وهاهى الصورة..

جيلٌ أعياه قمعُ ماضيه، وأرهقته مذلةُ حاضره، وأعماه تخبطُ نخبه ومثقفيه ومفكريه.

جيلٌ، بالطغيان والعدوان، حاصروه زمنًا، وحصروه ظلمًا، بين مطرقة المحتل وسندان الطاغية.

جيلٌ غمّوا عينيه. فصار لا يتبين كنه الشبح القادم، ولا يدرك حقائق. فضلاً عن معانى - ما يدور حوله. أو بالأحرى «ما يمور» حوله، بسرعة ربما لا تحتملها رتابةُ الصحراء، ولم يعتدها قطعًا إيقاعُ الحداة يمشون الهوينى بالقافلة تحت ضوء القمر.

هانحن.. وهاهى الصورةُ.. وها هى أيامنا.

حاضرٌ غمّوا عينيه، فلم يعد يرى غير خيالاته وكوابيسه وأوهامه. ومستقبلٌ «بكرٌ» بين يديه يرتجف.

هانحن.. وهاهى الصورة. لابد أن ندرك ونعترف. تحاصرنا الأسلاكُ الشائكةُ إذن. متشابكةً ومتداخلة. والحركةُ بين الأشواك تحتاج إلى حكمة وصبر.. وقبل ذلك حتمًا إلى إرادة. إرادةُ الخروج إلى الفضاء الفسيح. والبحثُ عن الطريق الثالث. بعيدًا عن المسبحين بحمد «من خلصنا من الطاغية». وبعيدًا أيضًا عن من يتخيل أن الروزنامة يمكن لها أن تعودَ إلى ما قبل الحادى والعشرين من مارس ٢٠٠٣ أو الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

هناك قطعًا طريقٌ ثالث بين الانسحاقين؛ ديمقراطيةٌ حقيقية، واحترامٌ كاملٌ لحقوق الإنسان، ومنع الرشوة والفساد والمحسوبية. ونشر التعليم «الحقيقى» والمعرفة.

هناك حتمًا طريقٌ ثالث بين ما «كان» وما يريدون له أن «يكون».

وكما أن الغد لا يشبه أبدًا الأمس. يمكننا - إن توافرت حكمةُ الاختيار وإرادةُ العقل - أن نجعله حتمًا أفضل من اليوم.

أيمــن الصيــاد

السيدة الوزيرة Madam Secretary



سيرة ذاتية

تأليف : مادلين أولبرايت

تعريب : د. محمد توفيق البجيرمي

مادلين أولبرايت، الاسم الشهير الذي اقترن مع إدارة الرئيس كلنتون في فترتي رئاسته. كانت مُشارِكةً فعّالة في أهم أحداث العصر الحديث في نهاية القرن العشرين؛ من ملاحقة عملية السلام في الشرق الأوسط إلى التدخل الإنساني لحلف شمال الأطلسي في كوسوفا. وهي تقدم لنا الآن سيرة ذاتية صريحة كل الصراحة فتروي فيها قصّتها الأخّاذة، وتقدم نظرة مُقرَّبة من الداخل على قضايا العالم في فترة مضطربة لم يسبق لها مثيل. سلكت مادلين أولبرايت طريقاً متعرجاً إلى حياة عمليّة أوصلتها إلى الطبقة العليا من الدبلوماسية وصنع السياسة في الولايات المتحدة الأمريكية، فصارت أول امرأة تجلس على كرسي وزارة الخارجية الأمريكية وإحدى أكثر الشخصيات إثارة للإعجاب في عصرنا. وتقدم مادلين أولبرايت في كتابها، بصراحة مُنعِشة، صوراً نابضة بالحياة لزعماء العالم الذين تعاملت معهم في سنوات عملها، والمعارك التي خاضتها كي تثبت موقعها في حلبة يسيطر عليها الذكور. تعرّفنا المؤلفة في كتابها أيضاً على مادلين الامرأة في حياتها الخاصّة، وتربيتها بناتها الثلاث، وانفصام مؤلم لزواجها من سليل إحدى الأسر الأمريكية البارزة في عالم الصحافة. واكتشافها في وقت متأخّر من حياتها لأصولها اليهودية، وأن جدَّيها قد لقيا حتفهما في معسكرات النازية. يجمع كتاب **السيّدة الوزيرة** بين حسّ الدعابة الدافئ والنظرات المتعمِّقة، والشهادة الشخصيّة، مع إضافات آسرة إلى السجل التاريخي. فهو نسيج من الصور الحميمة والمناظر الشاملة الواسعة. إنها سيرة ذاتية خصبة يتوقع لها أن تصبح من الكتب الهامّة البارزة في القرن الحادي والعشرين.

❖ ثمن النسخة (مجلد) $20.0 ❖ ثمن النسخة (غلاف) $16.50

سلسلة هارفارد لأساسيات الأعمال

المصدر الذي يمكن أن يعتمد عليه المديرون المشغولون

إن هذه السلسلة مصممة لكي تزوّد بنصائح شاملة، وإرشاد شخصي، وخلفية من المعلومات، ودليل لمعظم المواضيع المتعلقة بممارسة العمل. هذه الإرشادات الدقيقة المأخوذة من المحتوى الغني لمنشورات كلية الأعمال في جامعة هارفارد ومصادر أخرى، معمولةٌ بعناية لكي توفر مصدراً عملياً للقراء من جميع مستويات الخبرة. ولضمان النوعية والدقة، يخضع كل مجلد للمراجعة الفاحصة من قبل مشرف ملمّ يعمل في كلية للأعمال ذات مستوى عالمي. وسواء أكنت مديراً جديداً لك اهتمام في توسعة مهاراتك أو مديراً تنفيذياً صاحب تجربة، فإن هذه الكتب التي تعتمد على الحلول تُلبّي رغبتك بكل سهولة للحصول على أجوبة شافية في متناول يدك، صدر منها هذا الشهر:

استخدام افضل الناس والاحتفاظ بهم



Hiring and Keeping The Best People

إن استعمال القوى العاملة المتميزة والاحتفاظ بها في موقع العمل الملائم يُشكّلُ تحدّياً يُواجه كلّ مُؤسّسة. فالقوى العاملة الجيدة هي من أهم الأصول التي تمسك بها كل مؤسسة. يُزوّد هذا الكتاب المديرين وكلّ مسؤول في كلّ شركة ومؤسسة بالإرشاد والمشورة الكاملة للتعامل الإيجابي والفعّال مع أفضل العاملين معها وتوثيق الاحتفاظ بهم. مرشد السلسلة المشرف على الكتاب: البروفسور بيتر كابيلّي Peter Cappelli أستاذ الإدارة في كلية وارتُن Wharton الشهيرة في جامعة بنسلڤانيا، ومدير مركز مصادر القوى العاملة في الكلية.

❖ ثمن النسخة بالغلاف $10.30

الجغرافية الجديدة لتفاوت الدخل العالمي



THE NEW GEOGRAPHY OF GLOBAL INCOME INEQUALITY

تأليف: گلنْ فايرباو Gleen Firebaugh

تعريب: د. خضر الأحمد

إن النتيجة المفاجئة في هذا الكتاب هي أن تفاوتَ الدَّخْل العالمي آخذ في التناقص، خلافاً للاعتقاد السائد الذي يفيد أن هذا التفاوت آخذ في التزايد. ويؤمن منتقدو العولمة، وآخرون، بأن انتشار رأسمالية المستهلكين تستقطب، بوَجْهٍ دراميٍّ، التوَزُّع العالميّ للدَّخل. لكن المؤلف، المتخصص بالديموگرافيّة (علم السكان)، يُبيّن بدقّة أن تفاوت الدخل العالمي بَلَغَ ذروتَه في أواخر القرن العشرين، ويسير الآن في طريق مُنْحَدِر، نتيجة انخفاض تفاوت الدخل بين الدُّوَل. ونَجِدُ، في الوقت نفسه، تفاوت الدَّخل يزداد ارتفاعاً ضمن الدول، ولو أنّ هذا الارتفاع لا يحدث بسرعة. ويذهب المؤلف إلى أن هذا التحوّل التاريخي يمثل جغرافية جديدة لتفاوت الدخل العالمي في القرن الحادي والعشرين. يُوَثِّقُ هذا الكتاب هذه الجغرافية الجديدة، ويُعَلِّلُ أسبابها، ويُفَسِّر السبَبَ الذي جعل المحلّلين الآخرين يغفلون عن واحدة من أهم السِّمات لعصرنا ألا وهي الانتقال في التفاوت، الذي يُقلِّل من أثر المكان الذي يولَدُ فيه الشخص عند تقرير مستوى رفاهيته في المستقبل. مؤلف الكتاب: گلنْ فايرباو، أستاذ ورئيس قسم علم الاجتماع في جامعة ولاية بِنْسِلْڤانيا.

❖ ثمن النسخة (مجلد) $13.25 ❖ ثمن النسخة (غلاف) $11.20

النقاط الأساسية في نمو الأطفال



Touchpoints Birth to 3

أكثر كتب العناية بالأطفال بيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية (أعيد طبع الكتاب باللغة الإنكليزية أكثر من 30 طبعة)

تأليف: د. الطبيب ت. بري برازلتون.

عميد أطباء الأطفال الأمريكيين

T. Berry Brazelton, M.D.

يرسم المؤلف في هذا الكتاب مخططاً لمراحل تطور الوليد والطفل الصغير ويقدم لنا شرحاً لا مثيل له. لقد بنى المؤلف كتابه على خبرته التي امتدت أربعين سنة في ممارسة طب الأطفال في كلية الطب في جامعة هارفارد. وقد صمّم هذا المخطّط للتطور العاطفي والسلوكي لمساعدة الأبوين على متابعة التطورات المتوقعة عند الطفل، ولفهم كل ما يستجد من أمور ترافق حدوث هذه التطورات عند كل أسرة. وبخلاف تطور جسم الطفل كازدياد طوله مثلاً، وهو الأمر الذي يراقبه الأبوان بمتعة واهتمام كبيرين، فإن التطور الروحي له عدة أبعاد. فهناك مراحل تراجع، ومراحل تقدم، إذ يتم النمو النفسي في عدة اتجاهات وفي أوقات متفاوتة. فكل إنجاز جديد قد يؤخر تقدم الطفل لحين ما، وربما يعيق تقدم الأسرة بكاملها. وربما يتراجع الطفل في اتجاهات عدّة ويصير فَهْمُه صَعْباً، وهنا يفقد الأبوان اتزانهما ويزداد تَحَفُّزُهما. يبحث الكتاب في ما يؤثر في نمو الطفل العاطفي والسلوكي. ويبحث في أمور لها أثرها في نشأة الطفل في سنواته الأولى. والطرق التي يتأثر بها تطور الطفل بمن حوله.

❖ ثمن النسخة $19

شركة الحوار الثقافي ش.م.م.

بيروت، ص.ب. 6750 - 13 لبنان

هاتف: 802444-1-961+ • فاكس: 790718-1-961+

E-mail: info@interculturalbooks.com

http://www.interculturalbooks.com

تُطلب كتب شركة الحوار الثقافي في جميع البلاد العربية من

دار الوراق للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

E-mail: warrak@interculturalbooks.com

كما تُطلب في الدول التالية من:

مصر: دار العلوم ـ القاهرة، **هاتف:** 5761400 **وفي المملكة العربية السعودية من:** دار الوراق ومن: مكتبة جرير في جميع فروعها. **وفي الكويت من:** مكتبة جرير ومن: الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات. **وفي قطر من:** مكتبة جرير. **وفي البحرين من:** المكتبة الوطنية، المنامة **وفي أبو ظبي من:** مكتبة الجامعة ومكتبة جرير. **وفي لبنان من:** دار الفرات للنشر والتوزيع 750054-1-961+. **وفي الأردن من:** الأهلية للنشر والتوزيع 4638688-6-962+. **وفي سورية:** من دار النَّيْرَيْن، دمشق 2230914-11-963+. **وفي المغرب من:** المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء.

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثالث والستون . السنة السادسة . إبريل ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 63 - April 2004



ماذا يجرى فى المملكة / حسن أبو طالب

طارق البشرى / حول الدين والمعرفة

الإصلاح بين ديمقراطية الأوتوبيس والوجبات السريعة / سلامة أحمد سلامة

هيكل .. وكلام فى الحضارة والفن

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة السادسة
العدد الثالث والستون
أبريل ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
احمد الزيادي
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم العريس.. ناقد سينمائى من لبنان.
- أحمد فتحى سرور.. أستاذ القانون الجنائى ورئيس مجلس الشعب.
- إسماعيل صبرى عبد الله .. وزير التخطيط الأسبق ورئيس منتدى العالم الثالث.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- ج. م. كوتسى .. أديب من جنوب أفريقيا.
- حسن أبو طالب .. رئيس تحرير «التقرير الاستراتيجى العربى».
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- طارق البشرى .. كاتب ومؤرخ.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس.
- محمد إبراهيم الدسوقى .. صحفى.
- محمد البهى عيسوى .. أستاذ الجيولوجيا بالجامعات المصرية.
- محمد السطوحى .. صحفى مصرى مقيم في واشنطن.
- محمد عبد العاطى .. صحفى.
- محمد عزت عبد العزيز .. الرئيس الأسبق لهيئة الطاقة الذرية في مصر.
- هديل غنيم .. صحفية.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى. سعد الدين شحاتة. أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهمًا - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.

Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

سلامة أحمد سلامة

الإصلاح: بين ديمقراطية الأتوبيس والوجبات السريعة!

■■ مثل كرة تقاذفتها الأرجل فى أشواط متتابعة دون أن تصيب الهدف، انطلقت كلمة «الإصلاح» فى سماء الأمة العربية طوال الشهور الأخيرة فى تقارير وندوات رسمية وشبه رسمية مثل صواريخ عابرة للقارات من أقصى الغرب إلى قلب الشرق.. لتتلقفها مقالات الصحف وبرامج التليفزيون، ثم تنتقل إلى الخطاب الرسمى على ألسنة المسئولين والحكام، لتظل سابحة فى أجواز الفضاء.. تخرج منها شرارات ملونة مثل الألعاب النارية، سرعان ما تنطفئ وتخمد قبل أن تصل إلى الأرض.

لم تكن مبادرات الإصلاح التى أطلقها الغرب ووصلت إلى المنطقة العربية . دون استئذان . جديدة فى حد ذاتها . فقد سبقتها إرهاصات ومؤشرات عديدة فى شكل مشروع باول لدمقرطة الشرق الأوسط قبل أكثر من عام، أعقبها مشروع للشراكة الأمريكية العربية أكثر تفصيلاً وأبعد غاية طرحه الرئيس بوش.. ثم مع اقتراب موسم انتخابات الرياسة الأمريكية، وانهيار الأوضاع فى الشرق الأوسط على جبهتى الصراع الرئيسيتين فى فلسطين وفى العراق، لمع مشروع «الشرق الأوسط الكبير» فجأة فى سماء المنطقة ليلفت الأنظار عن حقيقة الوضع البائس واليائس الذى وصل إليه على يدى السياسة الأمريكية. وجاء توقيت المبادرة الأمريكية للشرق الأوسط الكبير بعد عام من نهاية العمليات العسكرية لغزو العراق، استعداداً للانتقال إلى المرحلة الثانية التى تخرج فيها القوات الأمريكية من المدن إلى قواعد عسكرية خارجها تحت مسمى تسليم السلطة للشعب العراقى، وفى ظل انتصار معنوى قدمت فيه ليبيا الثورية الجماهيرية أوراق اعتمادها للعمل مع أو فى خدمة أمريكا، وعادت المياه إلى مجاريها بدرجة معقولة بين واشنطن وحلفائها فى أوروبا. وأصبح من السهل وضع سوريا وإيران بين المطرقة والسندان.

لا توجد فروق كبيرة فى الدوافع والأهداف بين هذه المبادرات، إلا أن الأخيرة تتسع لتشمل المنطقة كلها من كابول إلى نواكشوط. وتقوم على فكرة بسيطة إلى حد السذاجة يتبناها المحافظون الجدد، تذهب إلى أن تخلف المجتمعات العربية والإسلامية، اقتصادياً وسياسياً مع غياب الديمقراطية والحريات، وازدياد معدلات البطالة، ونقص المشاركة الشعبية وغياب المجتمع المدنى وضعف دور المرأة، كل ذلك أدى إلى إيجاد بيئة حاضنة للإرهاب مشجعة عليه. ومن ثم فلابد أن يشمل الإصلاح كافة جوانب الحياة فى هذه المجتمعات ليصبح جزءاً من حركة التقدم التى يشهدها العالم. ولا بأس أن يكون لأوروبا دور فى هذه المبادرات وأن يكون حلف الأطلنطى هو الذراع العسكرية لتحقيق الأمن فى الشرق الأوسط فى مواجهة الإرهاب أو فى حالات الطوارئ غير المتوقعة أو لدعم القوات الأمريكية فى مهامها الأمنية والعسكرية فى العراق.

من المسلم به أن عملية التغيير والإصلاح فى العالم العربى، سارت ببطء بالغ طوال نصف قرن. واتسمت ببروز نواقص محددة فى بنية المجتمعات العربية، ناقشتها تقارير التنمية الإنسانية التى صدرت عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى، وأثارت كثيراً من الجدل داخل العالم العربى وخارجه، وأوجزتها فى ثلاثة نواقص أساسية هى: الحرية، وتمكين المرأة، واكتساب القدرات المعرفية. وقد بات واضحاً رغم كل شىء بأن العجز الشديد فى بناء وتنمية القدرة العربية الذاتية فى هذه المجالات، أفضى مع غياب الحكم الصالح أو نتيجة له إلى قصور التنمية الإنسانية، وإضعاف القوة التفاوضية للبلدان العربية فى معترك إقليمى ودولى بالغ الشراسة يحيط بالمنطقة.

وبقدر ما عجزت الحكومات العربية عن الاستفادة من التشخيص الذى قدمته تقارير التنمية الإنسانية، وكان بمثابة جرس إنذار يدق عالياً ويصم الأسماع بما ورد فيه من أعراض لمرض عضال تستدعى التغيير وتنادى بالإصلاح العاجل والسريع، فإن القوى الخارجية وجدت فيه ضالتها لاستغلال ما ورد به من نواقص، لكى تبرر هجوم المبادرات الإصلاحية الذى أخذت تشنه بطريقة مدروسة ومحسوبة على الجبهات الدبلوماسية والإعلامية والسياسية لأهداف غير مبرأة. وتحث الحكومات العربية على تبنى مشروعات إصلاحية جاهزة أو شبه جاهزة لتطبيقها فى مجتمعاتها: سواء فى مجال التعليم، وتمكين المرأة، وحقوق الإنسان وإدخال إصلاحات تشريعية فى المجالات الاجتماعية، والنهوض بالأوضاع الديمقراطية والحريات المدنية، بينما فى المقابل جاءت ردود الفعل العربية اعتذارية، تبريرية، مراوغة.. تربط بطريقة تعسفية بين تسوية الصراع العربى الإسرائيلى وجهود الإصلاح الداخلى.

وقد كان لهذه المحاولة الأمريكية الأوروبية سابقة قريبة فى التاريخ، وهى ما سمى بنموذج هلسنكى عندما سعت الدول الغربية فى السبعينيات عن طريق سلسلة من المبادرات إلى تحقيق إصلاحات من الداخل فى دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، وتطورت هذه المحاولات إلى ما عرف بعدها باتفاقية الأمن والتعاون الأوروبى. وقامت الفكرة أساساً على أن تبذل أوروبا الغربية والولايات المتحدة محاولات متعددة لاختراق النظم الشيوعية فى المعسكر الشرقى وإغرائها على التمرد على سلطة الكرملين، ودعم القوى السياسية المعارضة، وتأهيلها لتولى السلطة فى اللحظة المناسبة، وإقامة نظام للأمن يكفل السلام والأمن فى أوروبا.

غير أن الأوضاع فى المنطقة العربية تختلف اختلافاً جذرياً عما كان عليه الوضع فى أوروبا الشرقية قبل سقوط الشيوعية. فقد قامت فى هذه الدول هياكل سياسية واقتصادية وتنظيمات حزبية، ودرجة متقدمة من المؤسسات الثقافية والتعليمية والفنية، أسبغ عليها النظام الماركسى عباءته. وما إن سقط النظام وتمزقت عباءة الماركسية حتى وجدت هذه المجتمعات نفسها تقترب بسهولة من النظم الغربية المستقرة، بل وتسعى إلى الاندماج فى مؤسساتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية وتستوعب نظمها الديمقراطية.

ومع ذلك فلم يكن التحول الديمقراطى فيها بالأمر اليسير فى معظمها. ومازال بعضها يتعثر صعوداً وهبوطاً فى تجاربه مسنوداً بحائط صلب من المساعدات الأوروبية والأمريكية التى تمنعه فى إطار نظام الأمن والتعاون الأوروبى من السقوط. وتحكى أدبيات هذه المرحلة أثناء السنوات التى حكم فيها «ليش فاونسا» رئيس نقابة «التضامن» العمالية التى قادت ثورة الشعب البولندى ضد النظام الشيوعى، عن المصادمات التى وقعت بينه وبين حزبه والأحزاب الأخرى. إذ لم تكن الممارسات الديمقراطية قد تغلغلت فى النظام السياسى الجديد، عندما قال فاونسا لمعارضيه قبل إبعاده، وهو الزعيم الشعبى الذى هزم النظام الشيوعى: «إن قيادة أمة أشبه بقيادة الأتوبيس.. فلا مكان للديمقراطية فى قيادته. تصور نفسك تجلس فى مقعد القيادة، ويحاول كل راكب فيه أن يحرك عجلة القيادة.. فلابد أن تصطدم بأول شجرة فى الطريق».

هذا التصور الساذج لممارسة الديمقراطية وكأنها حافلة يقودها سائق هو وحده الذى يعرف خفايا الطريق ومطباته وانحناءاته، وهو وحده الذى يملك حق اتخاذ القرار فى اللحظات الفارقة والمصيرية دون مراجعة أو محاسبة.. لا يقل خطلاً وخطأ عن التصور الآخر لما بات يعرف الآن بديمقراطية الوجبات السريعة.. وعلى أساسه أقامت إدارة الرئيس بوش خطتها أو مبادرتها لفرض الديمقراطية فى العالم العربى والإسلامى، مجرد هياكل فارغة من المضمون تقام بسرعة لمحاكاة النظم الديمقراطية، تفتقر إلى الشروط الضرورية، كما حدث فى أفغانستان قرضاى، أو كما يحدث فى العراق الآن. وهناك قائمة طويلة من التجارب الأمريكية الفاشلة فى زرع الديمقراطية آخرها فى هايتى ولكنها قبل ذلك تكررت فى البوسنة وكمبوديا وجمهورية الدومنيكان وكوسوفا والصومال. وفى دراسة نشرها معهد كارنيجى للسلام الدولى، حاولت أمريكا بالقوة العسكرية تطبيق نظام ديمقراطى فى ١٩ دولة، لم تنجح إلا فى ست منها بينها ألمانيا واليابان وإيطاليا.

بين إصلاح يقوم على ديمقراطية الأتوبيس كما ظنها فاونسا البولندى، وديمقراطية الوجبات السريعة كما تصورها بوش الأمريكى، يقف العالم العربى حائراً أمام مفترق طرق. يتلمس طريقه وسط ضغوط مستمرة من كل الجوانب، سواء من جانب الولايات المتحدة وأوروبا أو من جانب الشعوب العربية نفسها. ولا يوجد خلاف على المعايير والأسس التى يجب أن يتم بها الإصلاح والتغيير المنشود كما عبرت عنها وثيقة الإسكندرية، ولكن المشكلة هى فى التفاوت القائم فيما تحقق من شروط الديمقراطية ومستويات التطور التى بلغتها هذه الدولة العربية أو تلك. إذ تحتاج الديمقراطية إلى مستوى معقول من سيادة القانون والنظام، وتنمية اقتصادية متواصلة، ونظام تعليمى منفتح على العصر، وطبقة متوسطة تحمل عبء التطور، وقضاء عادل مستقل، ومجتمع مدنى ناشط غير مقموع.. فإذا توافرت هذه الشروط، وهو ما يمكن أن تساعد على تحقيقه المبادرات الخارجية، أمكن للصفوة السياسية من القيادات والأحزاب أن تتنافس بحرية فى ظل نظام انتخابى نزيه، يقترن بالفصل الواضح بين السلطات فى إطار أوضاع دستورية مقننة، وبالضمانات اللازمة لحرية الرأى والتعبير وحقوق الإنسان والالتزام بأحكام القضاء.

إن إصلاح الداخل لا يمكن أن يقف عقبة أمام جهود التوصل إلى تسوية عادلة لصراع الشرق الأوسط، والعكس أيضاً صحيح.. فلقد وصلت الشعوب العربية بما حققته من تقدم متواضع فى كثير من جوانبه، إلى اللحظة التى يستحيل فيها إرجاء الإصلاح بحجة مواجهة تبعات الصراع الخارجى، أو الادعاء بأن إطلاق الحريات وتطبيق المعايير الديمقراطية فى الحياة السياسية قد يفتح الطريق أمام استيلاء المتطرفين على السلطة، أو الاستسلام لقوى الجمود والرجعية الفكرية والدينية بحجة أن قيم الغرب لا تصلح لنا ولا نصلح لها...

مطالب الإصلاح لا يمكن أن تملى من الخارج، ولكنها أيضاً لا يمكن أن تظل مجرد صرخات يرددها رجع الصدى! ■

ماذا يجري في المملكة..؟!

حسن أبوطالب

الحوار الوطني إحدى المفردات السياسية التي تغلغلت في الفضاء السياسي والاجتماعي السعودي. وتحتها كشعار وكسياسة معا، جرت جولتان تم تنظيمهما تحت رعاية مباشرة من ولي العهد الأمير عبدالله، ووفقا لها أيضا يلحظ المراقب قدرا من الانفتاح الإعلامي الرسمي ترافقه مساحة من حرية الرأي التي كثيرا ما طالب بها مثقفون ومبدعون وكتاب وأكاديميون سعوديون. غير أن مساحة الحرية العامة ليست مطلقة، فثمة ضوابط وكوابح ما زالت موجودة. ولعل احتجاز عدد من المثقفين السعوديين، منهم محمد سعيد الطيب ود. متروك الفالح، ود. خالد الحميد، وتوفيق القصير، ود. عبدالله الحامد، وعلي الدميني، ونجيب الخنيزي، والشيخ سليمان الرشود وغيرهم، وذلك على خلفية قيامهم بالتوقيع على وثيقة تقرن الاصلاحات السياسية بمطلب الملكية الدستورية، كثير من بنودها صيغت بصورة أو بأخرى في عرائض تم تقديمها لولي العهد من قبل، والوثيقة نفسها موجودة على الشبكة الدولية. والمعلن رسميا إن السبب وراء الاحتجاز يكمن في أن مثل تلك المطالب تخل بالوحدة الوطنية للبلاد، أما الموقعون عليها فيرون أن تحقيق الإصلاحات السياسية الواردة في الوثيقة هو الذي من شأنه أن يحافظ على الوحدة الوطنية، ويحول دون عبث الخارج في شئون الداخل، فيما الاحتجاز نفسه يناقض طموحات الحوار الوطني، الذي بات آلية للانفتاح الداخلي والتغيير المتدرج، حسب كل الآمال المعقودة عليه.

هذه الواقعة، الأمل أن تكون عابرة، لا تنفي أن ما ينُشر في الصحف السعودية من آراء وتحليلات صحفية في العامين الماضيين، ومقارنة بالمادة الجافة التي كانت تُنشر في الصحف نفسها قبل الفترة المذكورة، يؤكد أن ثمة شيئا تغير، وهو بأي حال قريب من كرة ثلج تحركت بالفعل من علي بعد أن تجاوزت قيودا عدة.

الحوار الوطني بين العام والخاص

هذا الشيء ليس سوى مقدمة لحال آخر يطمح إليه كثيرون من السعوديين، وإن كان من الصعب تحديد جوهره تماما، إذ ما تزال المرحلة الراهنة تحت نوع من الشد والجذب وطرح الأفكار والتصورات المختلفة عما كان وما يجب أن يكون. في الوقت ذاته يقف على الجانب الآخر نفر يعارضون التوجه الجديد، ويرفعون الأصوات مطالبين بإبقاء الوضع على ما هو عليه، يلتمسون الأعذار للعودة إلى صيغ سياسية وفكرية تنظيمية ماضية عفى عليها الزمن، وأثبتت عجزها عن كبح التطرف الديني أو ما بات يعرف إعلاميا بالغلو في الدين، فضلا عن وقوفها مناهضة للتكيف الطبيعي للمجتمع مع مستجدات العصر. وبالرغم من علو صوت هؤلاء أحيانا و انتشارهم في مواقع هنا أو هناك، فإن عقارب الساعة كما يقال لا تعود إلى الوراء. ويكفي هنا أن نذكّر بالتأكيدات التي يقول بها أولو الأمر بداية من العاهل فهد ومرورا بولي عهده ونهاية بكبار الأمراء، حيث كلهم مع الإصلاح والتغيير ومعالجة أوجه القصور المختلفة وفق خطة ومسار لا يحيدان عن الشريعة الإسلامية.

الحوار الوطني كحالة سياسية تعيشها المجتمعات التي تواجه أزمة أو تُعد نفسها لتغيير جذري، يختلف جملة وتفصيلا عند النظر إليه كمجرد إجراء تنظيمي لحلقة نقاشية أو ندوة، يتم الإعداد لها بعناية فائقة من حيث الموضوع والمشاركين وصياغة التوصيات وهكذا. فالأول حالة عامة يشارك فيها ممثلون عن كل التيارات الموجودة في المجتمع بطريقة طوعية، كل يسعى إلى شرح ثم فرض أو تعميق أولوياته الفكرية والسياسية على حركة المجتمع بطريقة سلمية، ومن خلال توسيع مساحة المؤيدين لتصوراته الكلية عن الحاضر والمستقبل. وهي حالة عامة تختلف مساحتها اتساعا أو ضيقا تبعا لحجم الحرية السائد وطبيعة القضايا التي تفرض نفسها على المجتمع ككل، ومدى استجابة النخبة الحاكمة.

أما الحوار الوطني كإجراء تنظيمي، فهو مجرد نموذج محدد في صورة لقاء فكري أو ندوة أو حلقة نقاشية، ويمثل دليلا أو إشارة على توجهات القائمين عليه، ويخضع لضوابطهم من حيث الموضوع أو قضية النقاش، والذين يُسمح لهم بالحضور والذين تؤجل دعوتهم إلى حين، وطريقة النقاش والتداول في الأفكار التي تُطرح غالبا في غرف مغلقة بعيدة عن أعين وآذان أجهزة الإعلام، ولا يُسمح بالتسرب منه سوى ما يُراد له أن ينتشر أو يعرفه المواطنون في توقيت بذاته. أما طريقة معالجة التوصيات والمطالب التي تخرج عنه، فتظل بيد أولي الأمر أولا وأخيرا، ووفقا لتقديراتهم وحساباتهم الذاتية، ورؤيتهم للأولويات التي تفرض نفسها على المجتمع، وأيضا لما يتوافر لهم من موارد تسمح بهذا الشيء أو تغلق الأبواب دونه.

في الحالة السعودية نلحظ الأمرين، أو لنقل الحوارين، المجتمعي العام، والمُنظم المحدود المنضبط. ووفقا للمؤشرات الأولى، كل منهما يشحن الآخر ويشحذه، فالحوار المجتمعي العام يثير الكثير من التساؤلات والقضايا ويطرح هموما عدة بصوت عال وبدرجات مختلفة، ويصوغ تمنيات عامة عن اليوم والغد. أما الحوار المُنظم فهو مادة من مواد الحوار العام من جانب، ويتأثر به ويضع له موجهات من جانب آخر، ويقدم بعض الحلول للمجتمع والحكم من جانب ثالث.

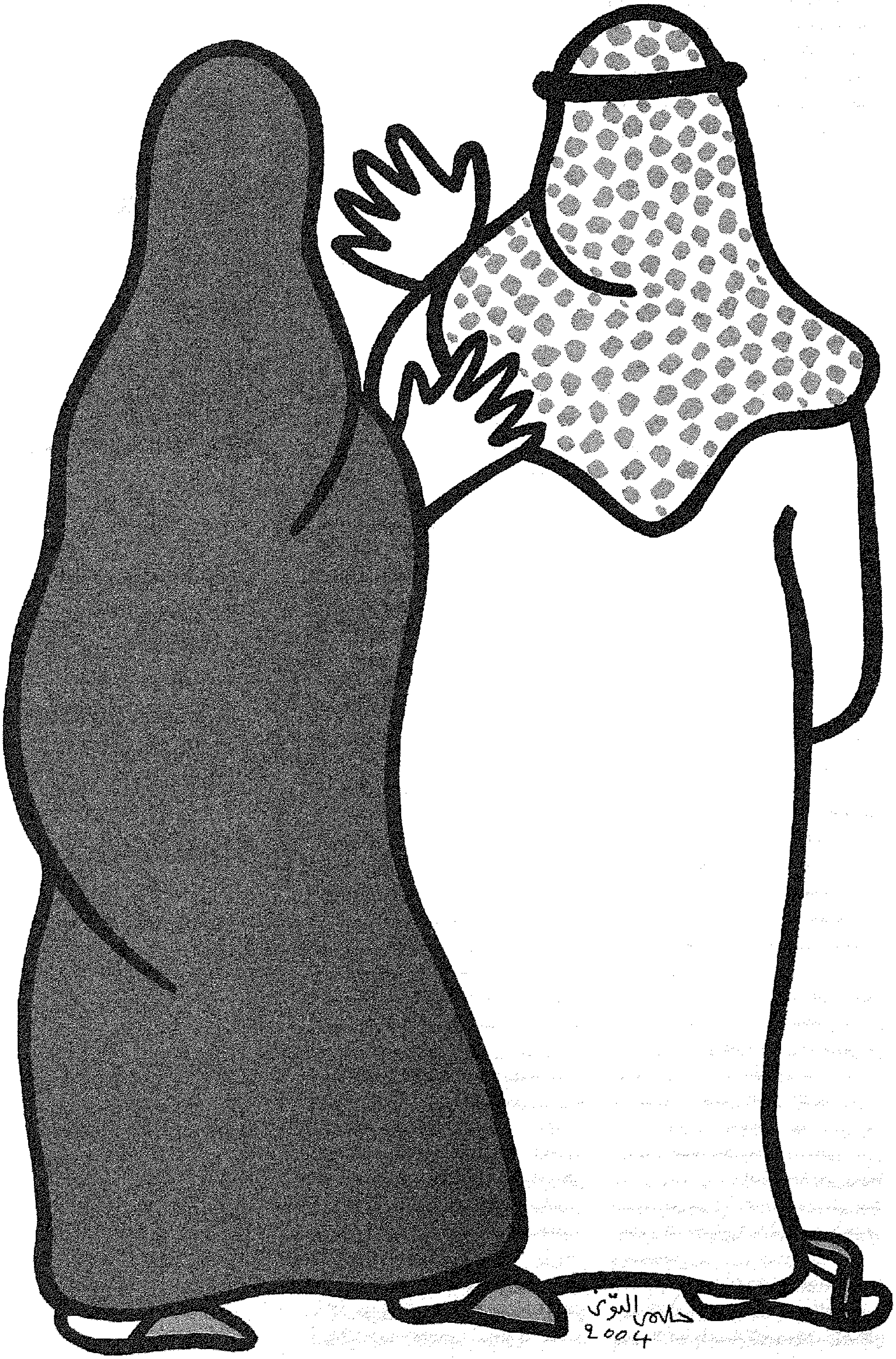
بيئة خارجية ضاغطة

الحديث عن الحوار الوطني في السعودية مادة ومضمونًا ومسارًا لا ينفصل عن تلك البيئة السياسية والمعنوية الضاغطة التي تبلورت في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر، والتي شكلت صدمة كبرى للمملكة حكاما ومحكومين، حيث بدت البلاد أمام أعين العالم الغربي والأمريكي كمنبع لعناصر إرهابية خطيرة يمكنها القيام بعمليات كبرى تزهق آلاف الأرواح من الأبرياء. والصدمة الكبرى أن تلك الدعايات التي انطلقت كسهام موجهة إلى المملكة ركزت على عنصر العقيدة وطريقة الحياة السعودية باعتبارهما مركز الجذب والتوليد لما سمي فكرا «إرهابيا» مضادا لحركة البشرية في التقدم والحداثة، والأخيران مقصود بهما أساسا تلك المساحة الواسعة جدا والمطاطة للمصالح الأمريكية والغربية.

المعضلة الأكبر هنا، لم تكن في أن الهجوم على السعودية جاء في صورة استجابة عاطفية حادة وعابرة للاتهام الذي شمل ١٥ سعوديا باعتبارهم مسئولين عن هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وإنما لأن الأمر تعلق بالدعوة إلى اتخاذ موقف استراتيجي جديد بدا، وهو يهيل أكواما من الغبار كله على العلاقات الاستراتيجية الأمريكية السعودية التقليدية التي تزيد على سبعة عقود متصلة، كمقدمة لصياغة وضعية سياسية وأمنية واقتصادية جديدة تفقد

حملات التشويه ضد المملكة، هدفت إلى تعبئة الرأي العام الأمريكي لكي يطالب أو يقر بالانقلاب على العلاقة التقليدية مع السعودية، والتي تحول مواطنها من ضيف مُرحب به في الولايات المتحدة إلى شخص غير مطلوب قدومه

كرة الثلج التى تحركت



فيها المملكة وضعها المتميز واعتبارها الخاص لدى صانع القرار الأمريكى. الأمر الذى مَثّل جرس إنذار عميق الصدى، وخاصة أن حملات التشويه المنهجية ضد المملكة ونظامها السياسى والاجتماعى، هدفت إلى تعبئة الرأى العام الأمريكى لكى يطالب أو يقر بالانقلاب على العلاقة التقليدية على المملكة، والتى تحول مواطنها من ضيف مُرحب به فى الولايات المتحدة إلى شخص غير مطلوب قدومه أو زيارته أو تعلمه فى أى من المعاهد العلمية الأمريكية، وذلك باعتبار ما يُحتمل أن يكون عليه من مصدر تهديد محتمل وفقا للرؤية الأمريكية!.

شملت الضغوط الإعلامية الأمريكية المُغذاة من قبل دوائر سياسية نافذة أنواعا شتى من المطالب، صبت جميعها فى الدعوة إلى إعادة بناء النظام السياسى السعودى مؤسسيا وفكريا، ونالت دعوة تغيير مناهج التعليم السعودى جزءا كبيرا، كما مورست ضغوط شتى من أجل السيطرة على عمل الجمعيات الأهلية الخيرية السعودية التى حُملت مسئولية تمويل ما سمى بظاهرة «الإرهاب الإسلامى العالمى». وذهبت بعض الدراسات والمقالات ذات المغزى إلى المناداة بتقسيم المملكة إلى عدة كيانات سياسية. وهو ما شكل متغيرا جديدا فى أصول العلاقة الأمريكية السعودية، فى حين بدت المملكة فى موقف دفاعى مستشعرة أن تلك العلاقة باتت عبئا ثقيلا.

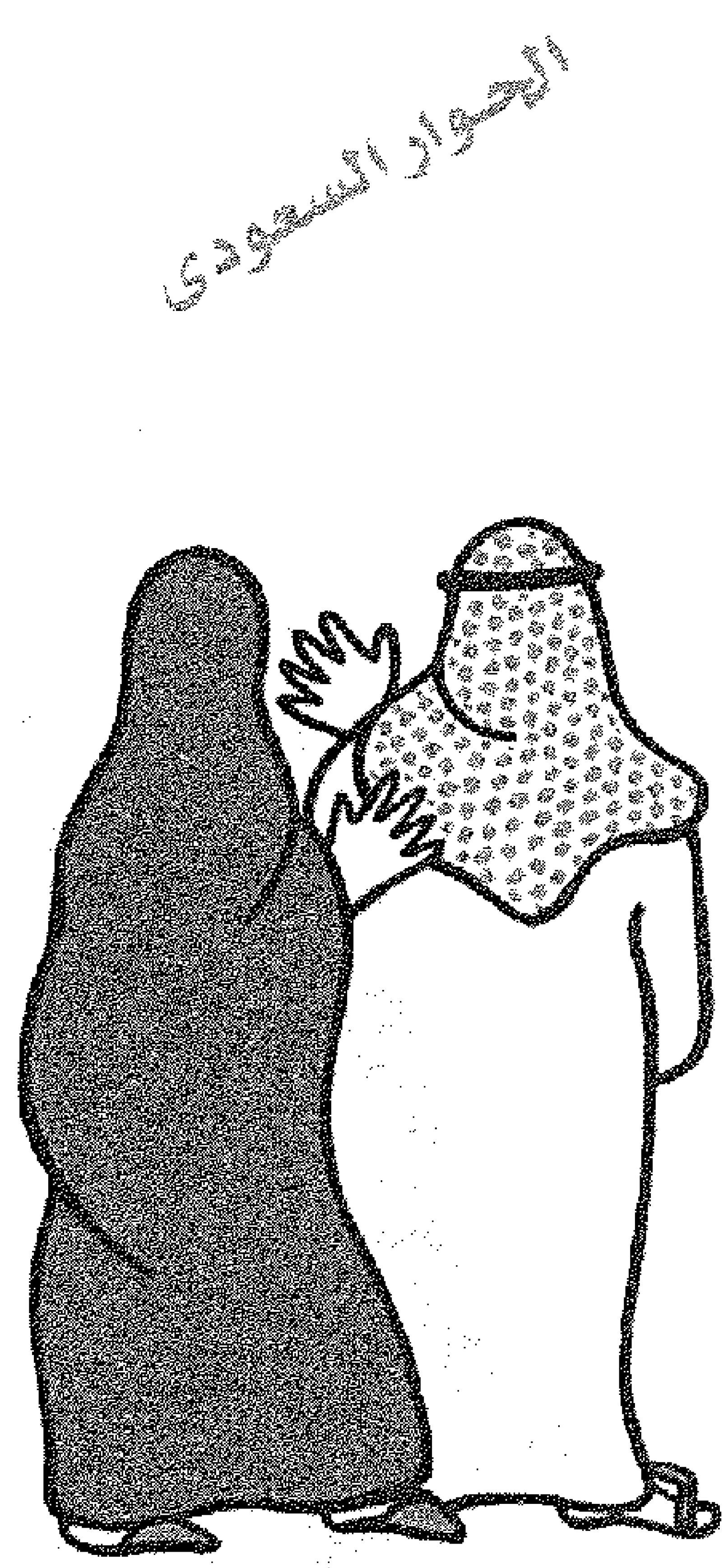
الضغوط الأمريكية، حتى وإن لم تأخذ طابعا رسميا، بمعنى سياسة معلنة من قبل البيت الأبيض، جاءت فى ظل تطور إقليمى/ عربى حمل بدوره مصادر أخرى للضغط السياسى والمعنوى، فالحالة العراقية التى تطورت من أزمة دولية إلى حالة احتلال أجنبى لبلد عربى مهم ومجاور للأراضى السعودية، أضافت أصنافا أخرى من الضغوط التى تتعلق بالدور السعودى عربيا وطبيعة الوجود العسكرى الأمريكى فى القواعد السعودية، كما تبلورت تحديات استراتيجية كبرى فى

مواجهة الأمن السعودى بشقيه الداخلى والخارجى. وإذا كان سقوط النظام البعثى الصدامى فى العراق مثل تخلصا من عبء التهديدات العراقية، رافقه فى ذلك انتقال القواعد العسكرية الأمريكية من الأراضى السعودية إلى جارتها الأراضى القطرية، فإن الأمر اختلف على الصعيد الداخلى الذى شهد بدوره بروز تحديات كانت كامنة فى رحم المجتمع، ومنها مطالب جاءت من مصادر شتى قالت بإعادة النظر جذريا فى مفردات نظام الحكم وعلاقته بالمواطن، وظهور ممثلين لمذاهب وتيارات موجودة فى المجتمع السعودى، أبرزهم ممثلون للطائفة الشيعية، عبروا عن الحاجة إلى إنهاء ما أسموه سياسات الإقصاء والتجاهل، وطالبوا بدورهم بإنهاء المظالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى قالوا أنهم عانوا منها كثيرا وطويلا.

نحو مزاج سياسى جديد

لم تكن ضغوط الخارج وحدها فى الميدان، كانت هناك أيضا تهديدات جدية من الداخل، تمثلت فى حالة التصعيد العنيف الذى سلكته جماعات سعودية «إرهابية» ضد الحكم والمجتمع معا، ممثلا فى القيام بعدد من التفجيرات المُعدة جيداً ضد مجمعات سكنية فى العاصمة الرياض، يعيش فيها خليط من العرب والأجانب والمواطنين. فيما مثل تطورا نوعيا فى المواجهة بين الحكم وهذه الجماعات، التى طورت موقفها من مجرد التشكيك فى شرعية الحكم إلى استخدام العنف المباشر ضده بهدف إظهاره ضعيفا غير قادر على حماية نفسه أو مواطنيه، وهو ما لم يتحقق عمليا. حيث قاد هذا التحول فى أداء الجماعات العنيفة إلى تحول جذرى فى أداء الدولة المناهض له، مسلحا بغضب ورفض شعبى شامل لمبدأ استخدام العنف من قبل تلك الجماعات غير المنظورة ضد المجتمع ومصالحه العريضة، وفى المقدمة أمنه واستقراره.

لم تصب تلك التفجيرات المزاج الشعبى وحسب، بل أصابت فى الصميم سياسة المواءمة التى سلكتها الحكومة السعودية لفترة طويلة سابقة، بين الضغوط التى مارستها جماعات وهيئات ذات فكر سلفى شديد المحافظة، وبين المطالب التى دعا إليها دعاة التجديد وتطوير الحياة السياسية والفكرية السعودية لمواجهة الضغوط المتراكمة فى الداخل وفى الخارج. لقد قلبت تفجيرات الرياض ١٢ يونيه ٢٠٠٣ كثيرا من الموازين، والتى دعمتها لاحقا تفجيرات مجمع المُحيا فى الثامن من نوفمبر ٢٠٠٣، حيث عمقت فى البلاد مزاجا سياسيا مختلفا، كان أبرز ما فيه بيان الضعف الشديد لمردود سياسة المواءمة السابقة، بل وبروز نتائجه العكسية على المدى القريب، وضرورة مواجهة كل ما له صلة بالغلو والتطرف الدينى من أفراد ومؤسسات وفتاوى دينية تجود بها رموز متشددة أيما تشدد، والاستفادة من تجارب دول عربية سبق لها أن تعرضت لنفس المأزق، ولم يكن أمامها سوى اتباع استراتيجية مواجهة متعددة المستويات، من بينها مستوى يتعلق بتحقيق انفراجات حقيقية فى الحياة السياسية، جنبا إلى جنب سياسات أمنية صارمة، وتعبئة المجتمع بكل مفرداته ومنظماته ومؤسساته ضد هذه الجماعات وأعضائها وفكرها.



الصعيد الداخلى شهد بروز تحديات كانت كامنة، ومنها مطالب جاءت من مصادر شتى قالت بإعادة النظر جذريا فى مفردات نظام الحكم وعلاقته بالمواطن

تساؤلات عدة تلهب الحوار العام

كان من بين ما طرحته هذه التفجيرات أسئلة عدة، من أهمها: من هم المناصرون سواء فى الداخل أو فى الخارج لهذه الجماعات التى انزلقت إلى العنف الصريح؟، وإلى أى مدى يتغلغل هؤلاء المناصرون فى المؤسسات الرسمية الدينية؟، وما هو الدور الذى لعبته أو تلعبه بعض المؤسسات الخيرية فى دعم هذه الظاهرة فى الداخل أو فى الخارج؟.

مثل هذه الأسئلة وغيرها ألهبت الحوار العام حول الأسلوب الأمثل ليس فقط لمواجهة هذه التنظيمات وحسب، بل والبحث فى أسس نظام سياسى جديد تلتف حوله كافة شرائح المجتمع، ويحول دون الانزلاق فى الوقوع فى براثن سيطرة جماعات عنف ترتكن إلى أفكار أصولية وسلفية متطرفة مستقبلا. ومن هنا حدث التوافق العام على ضرورة الإصلاح السياسى أيا كانت التعقيدات التى تحيط به. فيما ظهرت موجات من المقالات والتحقيقات الصحفية والاجتماعات والندوات والمناقشات العامة والبيانات المعدة جيدا من قبل عدد من المهتمين بالشأن العام، تدعو إلى المبادرة بمواجهة شاملة فكرية ودينية للذين تورطوا فى مثل هذه التنظيمات المتطرفة التى غالت فى الدين، وانتهت إلى الخروج عن أبسط قواعد مبادئه الإيمانية، ومواجهة الذين يتصدون للفتاوى بغير علم وبنزعة فردية قاصرة، وإعادة النظر فى سياسات التنشئة والتدريب التى أفرزت العديد من الدعاة غير المؤهلين تماما، ولكن كانت لهم السطوة المعنوية والدينية على جموع الشباب السعودى لعقدين سابقين على الأقل.

جاءت هذه الدعوات وغيرها وكأنها حالة مراجعة مجتمعية علنية، تتطلع إلى التطهر الجماعى من أوجه قصور لم يُتصور أن تلحق بالمجتمع أو بعض أبنائه أو بعض مؤسسات خيرية ذات صيت. واللافت للنظر أن تلك الدعوة المجتمعية صاحبتها تأكيدات أمراء بارزين بأن ما كان لم يعد قابلا للاستمرار، وإن ثمة عهدا جديدا من الإصلاح السياسى قد بدأ. يبرز هنا الدور الشخصى الذى يلعبه ولى العهد الأمير عبد الله، الذى يعكس بتحركاته ورعايته المباشرة لخطة إصلاح سياسى واقتصادى وإعلامى قرارا علويا نهائيا، اتخذ فى أعلى دوائر الأسرة السعودية الحاكمة، بأن الوقت بات وقت التغيير المنظم والمنهجى، ووقت مواجهة الظواهر المعاكسة، ووقت مواجهة الاتهامات المختلفة بالجمود والكساد الفكرى والإرهاب والغلو فى الدين.

قناعات ملكية بالإصلاح

ولعل خطاب العاهل فهد فى افتتاح الدورة الثالثة لأعمال مجلس الشورى السعودى فى ٢٠٠٣/٥/١٧، يعكس ذلك القرار والإصرار على تطبيقه. وفى هذا الخطاب تمت بلورة مفهوم الإصلاح على نحو شمل مجموعة من المكونات والعناصر والمبادئ، على النحو التالى:

- انه يتضمن «مراجعة الأنظمة والتعليمات وإحكام الرقابة على أداء الأجهزة الحكومية وتوسيع نطاق المشاركة الشعبية وفتح آفاق أوسع لعلم المرأة فى إطار تعاليم الشريعة الغراء».
- إن «الإصلاح الاقتصادى عملية مستمرة طيلة الوقت، وهى عملية بالغة الأهمية يتوقف على نجاحها نجاح التنمية الاقتصادية وتحسن أوضاع المواطن المعيشية.. وفى إطار الإصلاح الاقتصادى تبرز مشكلتا البطالة والفقر. وأن التغلب على الأولى يتطلب «جهودا إضافية لتوفير المزيد من الفرص التعليمية والتدريبية للمواطنين ومراجعة التخصصات الأكاديمية التى تلبى حاجة المجتمع إلى الفنيين والمهنيين».
- «إن مسيرة الإصلاح لا يمكن أن تثمر إلا فى جو من الوئام الاجتماعى القائم على الوحدة الوطنية، والتى تتعارض مع الطروحات المتطرفة، وتتطلب أجواء صافية من الحوار الأخوى الهادئ». وهنا، حسب توجيهات العاهل فهد، تقع على العلماء مسئولية «نشر التسامح الذى تمتاز به شريعتنا السمحة وفى إنقاذ شبابنا من شر الأفكار المدمرة التى تبث الغلو والكراهية ولا تنتج سوى الخراب والدمار».
- «إن الإصلاح الحقيقى هو النابع من عقيدة الأمة وتراثها. الإصلاح الذى تقبل عليه الأمة طائعة لا مسوقة. الإصلاح

الذى يتم بتدرج وسلاسة متجنبا السرعة المهلكة والبطء القاتل».

هذه القناعات الكبرى ربطت بين القرارات التى ستقدم عليها الدولة السعودية وبين تهيئة البيئة المجتمعية من خلال الحوار الوطنى العام والمنظم معا. وفى السياق ذاته تكررت تصريحات الأمير عبد الله ولى العهد حول ضرورة الإصلاح وتنظيم حوار وطنى شامل يستفيد منه المجتمع للخروج من المازق الذى يحيط به، وفى كلمة له نشرت فى ١٤ يناير ٢٠٠٤، بمناسبة إنهاء أعمال اللقاء الثانى للمؤتمر الوطنى الذى عقد فى نهاية ديسمبر ٢٠٠٣، حدد ولى العهد عدة مبادئ تحكم الحوار الوطنى بشقيه العام والمحدود المنظم، أبرزها:

١. «إن الحوار ظاهرة صحية من حيث المبدأ.. وحتى لا تتحول النعمة إلى نقمة فإن أى حوار لا يلتزم بمنهج الحوار وقواعده وآدابه يتحول إلى فوضى لا تغنى ولا تسمن من جوع وتضر ولا تنفع».

٢. «إن هذا الوطن لن يرضى أبدا أن يمس أحد كائنا من كان عقيدته الإسلامية باسم حرية الرأى أو بأى اسم آخر، إن مجتمعنا يستمد كل مقومات وجوده من الدستور الإلهى الخالد القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأى تعرض لهذا الدستور الإلهى يعنى طعن الوطن فى الصميم».

٣. «إن الدولة ماضية بعون الله فى نهجها الاصلاحى المدروس المتدرج، ولن تسمح لأحد بأن يقف فى وجه الإصلاح سواء بالدعوة إلى الجمود والركود أو الدعوة إلى القفز إلى الظلام والمغامرة الطائشة.. لكن الدولة لن تفتح المجال أمام من يريد بحجة الإصلاح أن يهدد وحدة الوطن أو يعكر السلام بين أبنائه».

٤. «إن الدولة لن تتعرض لحرية الرأى المسئولة الواعية، ولكن فى الوقت نفسه لن تترك سلامة الوطن ومستقبل أبنائه تحت رحمة المزايدين الذين يبدأون بالاستفزاز وينتهون بالمطالب التعسفية، فالغلو مذموم سواء جاء من هذا الطرف أو ذاك، والتطرف مكروه سواء كان مع هذا الموقف أو ذاك، فالسبيل القويم هو سبيل الوسطية التى لا تفرط والاعتدال الذى لا يميل».

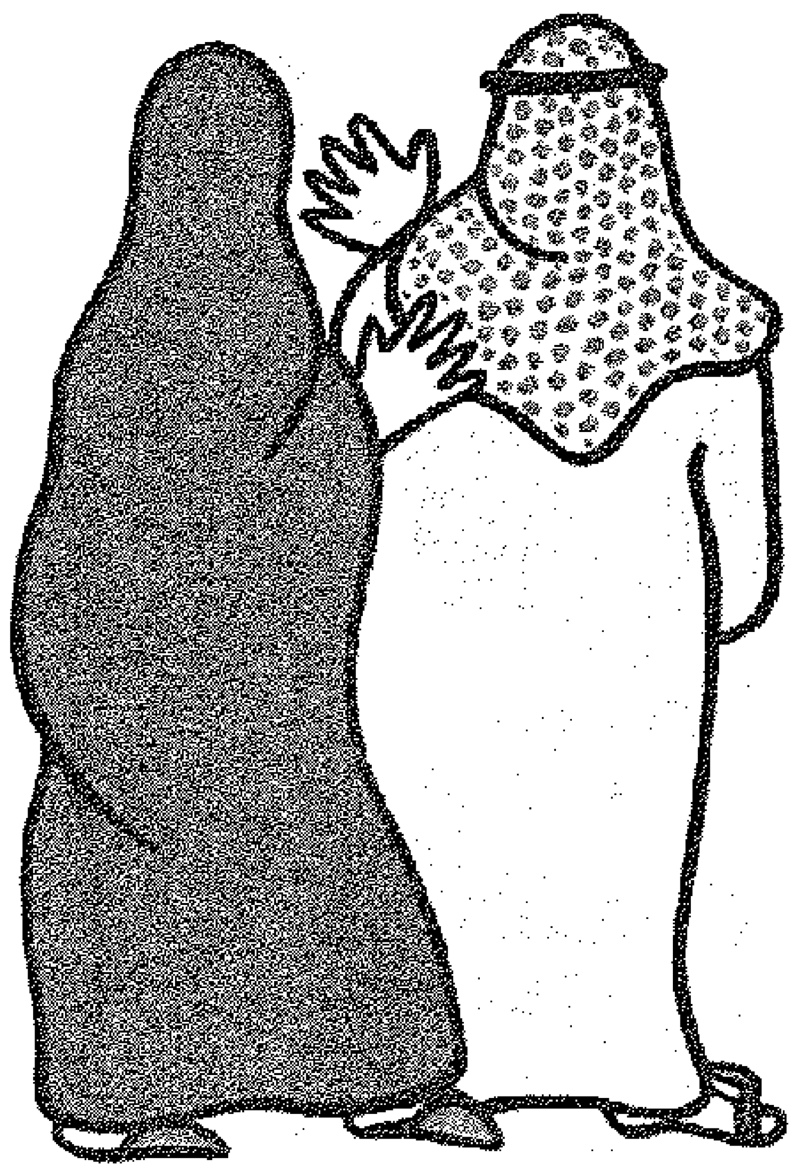
تجمل هذه الكلمات ليس فقط إدراك ولى العهد ورموز الدولة السعودية بشأن الإصلاح السياسى ودور الحوار الوطنى فيه، وإنما أيضا الموجهات الأساسية لهذه العملية المجتمعية الشاملة، فهناك أولا: الحوار المسئول الملتزم الذى لا يفتح أى باب من أبواب الفوضى، وثانيا: أن أساس هذا الالتزام للمجتمع والدولة معا، هو العقيدة الإسلامية التى لن يسمح لأحد أن يمسها بأى شكل كان، وثالثا: فإن الإصلاح هو عملية مدروسة، تخضع للشروط الوسطية المعتدلة بدقة، وهدفها الأول حماية المجتمع وتماسكه وسلامه، ورابعا: إن الدولة لن تعبأ بأية دعوات للجمود أو ما يقابلها من دعوات للإسراع نحو خطوات قد تهدد وحدة الوطن وتماسكه. وخامسا: إن الدولة ستحمى حرية الرأى شريطة ألا يكون استفزازا أو تطرفا مكروها من أى طرف كان.

أما الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية، وفى شرحه لأبعاد الإصلاح فى بلاده أمام المجتمع الدولى، فقد ركز فى محاضرة له فى مركز السياسات الأوروبية فى بروكسل ١٩ فبراير ٢٠٠٤ على أن «الإصلاح ليس غاية فى حد ذاته، بل هو وسيلة لتحقيق الهدف وأنه لضمان فعالية الإصلاح واستمراريته فإنه يتوجب توخى العديد من الاعتبارات، ومنها أن تلبى الإصلاحات الاحتياجات الأساسية للمجتمع، وان تحظى بالتأييد الشعبى والإجماع بقدر الإمكان، وان تأخذ فى اعتبارها الإجراءات النظامية، والتوقيت المناسب لضمان انسيابها وعدم حدوث أى نوع من الإرباك الناتج عن التغيير المفاجئ الذى قد يؤدى إلى خلق بعض المعاناة للمواطنين»، مشيرا إلى أن «مقترحات التحول الفورى نحو العلمانية لن تؤدى فى النهاية إلى فصل الدين عن الدولة بقدر ما سينتج عنها اضطرابات تعطى الفرصة للمتطرفين للعمل على ملء الفراغ الناتج عنها. ولأن الدين فى المجتمعات الإسلامية لا يشكل أساسا لحكم ثيوقراطى، بل هو أداة للضبط الأخلاقى ضرورية ضد إساءة الحكومات استخدام سلطاتها». (جريدة الشرق الأوسط، ٢٠٠٤/٢/٢٠)

مطالب للإصلاح

لعل الدمج بين الحوار الوطنى العام الذى أخذ يشق لنفسه طريقا فى وسائل الإعلام السعودية المختلفة، وبين الحوار المنظم يعكس بعضا من هذه الموجهات الكلية. فمنذ مطلع العام ٢٠٠٣، تكررت مساعى مجموعة من المثقفين وعلماء الدين وأكاديميين ورجال أعمال وزعماء عشائر وعدد من السيدات من الطبيبات وأساتذة الجامعات، لوضع وثيقة تحدد رؤية شعبية لمعنى الإصلاح المطلوب وكيفية تحقيقه، على أن توجه إلى أولى الأمر للنظر فيها. تمثل المسعى الأول فى وثيقة كتبها مائة مثقف سعودى، تضمنت ١٠٤ مطالب، وعرفت باسم «بيان الإصلاح»، وقدمت إلى ولى العهد الأمير عبد الله فى نهاية يناير ٢٠٠٣. وتضمنت الوثيقة رؤية هؤلاء المثقفين للإصلاح السياسى والإدارى والاقتصادى، وطالبت

الحوار السعودى



منذ مطلع ٢٠٠٣، تكررت مساعى مجموعة من المثقفين وعلماء الدين وأكاديميين وزعماء عشائر وعدد من الطبيبات، لوضع وثيقة تحدد رؤية لمعنى الإصلاح وكيفية تحقيقه

بوضع دستور للبلاد والفصل بين السلطات وإصلاحات جذرية فى القضاء. ثم قدمت الوثيقة الثانية فى شهر أبريل، وعرفت باسم «شركاء فى الوطن»، شارك فى وضعها والتوقيع عليها ٤٥٠ شخصية شيعية من مختلف مناطق المملكة، وتضمنت مطلب البحث فى أوضاع الطائفة الشيعية، وزيادة تمثيل الشيعة فى الأجهزة التنفيذية للدولة ومجلس الشورى والمؤسسات الدينية. أما الوثيقة الثالثة فعرفت باسم «رؤية لحاضر الوطن ومستقبله». وتضمنت مجموعة من المطالب التى رؤى أنها كفيلة بأن تساعد المجتمع السعودى على تجاوز المحنة التى يعيشها والضغوط التى يتعرض لها من الداخل والخارج. ومن بين المحاور التى تضمنتها الوثيقة محور بناء دولة المؤسسات الدستورية، حيث دعا إلى تشكيل مجلس الشورى بالانتخاب المباشر من جميع المواطنين ليجسد سلطة أهل الحل والعقد، ولضمان رقابة المواطنين على الأجهزة التنفيذية، والتأكيد على مبدأ استقلال القضاء. وفى المحور الاقتصادى تم التأكيد على مبدأ العدالة فى الخطط الاقتصادية وتوزيع الثروة بين المناطق. ووضع الضوابط اللازمة لترشيد الإنفاق العام ومكافحة الفساد المالى والإدارى. وفى المحور الاجتماعى تم التركيز على مبدأ التفاعل الايجابى بين المجتمع وقيادته لغرض تقوية الجبهة الداخلية لمواجهة الأطماع الخارجية، وتأكيد دور الدولة والمجتمع فى إشاعة ثقافة حقوق الإنسان التى أمرت بها الشريعة، ووضع برامج عملية لحل مشكلة البطالة المتفاقمة، وإتاحة الحقوق التى كفلتها الشريعة للمرأة لكى تنهض بواجباتها المشروعة وتفعيل دورها فى الشأن العام.

وفى المحور الرابع المتعلق بالمجتمع المدنى، تمت مطالبة الدولة بتوضيح عزمها على الإصلاح من خلال القيام ببعض المبادرات مثل إعلان عفو عام عن المعتقلين بتهم سياسية أو محاكمتهم محاكمة علنية عادلة، وإعادة الحقوق المادية والمعنوية لدعاة الإصلاح، وتوفير الحريات المشروعة لكافة فئات المجتمع، وإيقاف القيود المفروضة على إبداء الرأى فى الشأن العام. أما المحور الخامس فتضمن الدعوة إلى مؤتمر وطنى عام للحوار، على أن تدعو إليه الحكومة للحوار فى المشكلات الأساسية التى تهم الجميع، على أن يشارك فيه نخبة من ذوى الرأى المهتمين بالشأن العام لمناقشة التحديات ووضع أساس دستورى لبناء صيغة التعاقدية لدولة المؤسسات.

فى ظل هذه البيئة التى يمتزج فيها إصرار أولى

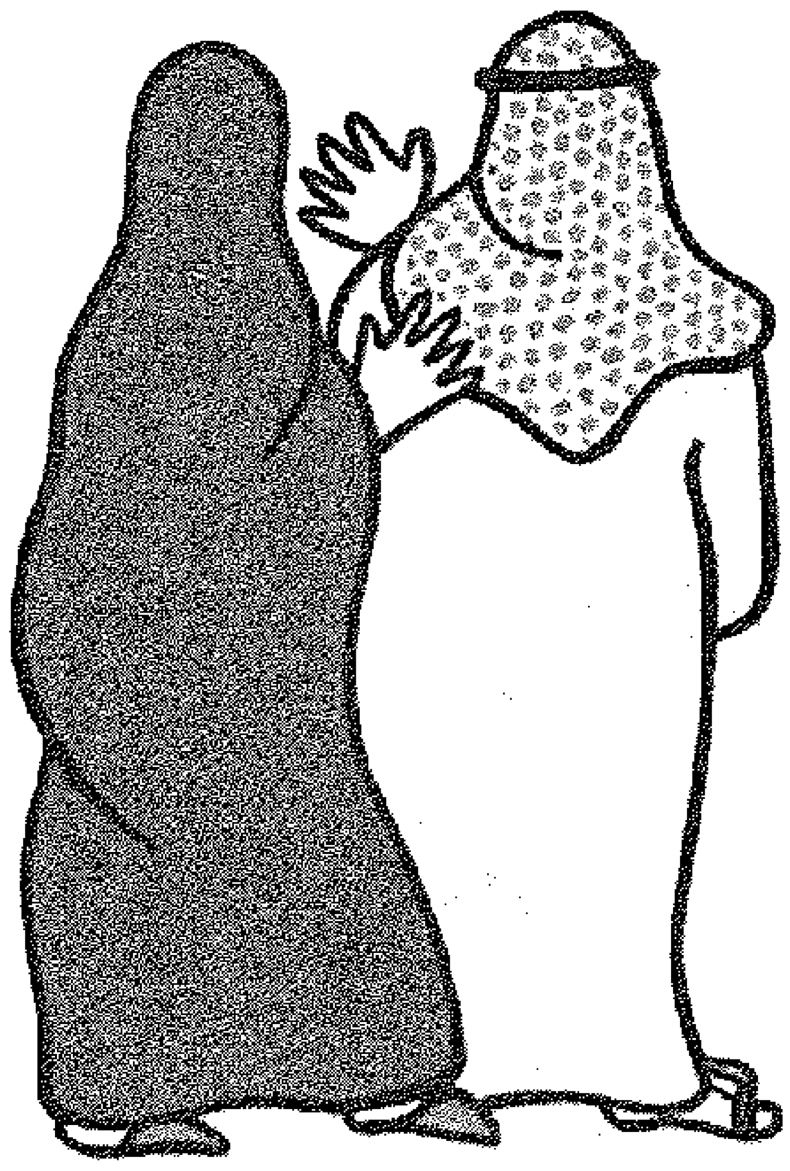
الأمر على الإصلاح وقناعتهم بضرورته وفق ضوابط شرعية واجتماعية، ورؤى مختلفة لهذا الإصلاح أتت من فئات وأطياف مختلفة من رحم المجتمع السعودي، جاء القرار الملكي بإنشاء مركز للحوار الوطني في الثالث من أغسطس ٢٠٠٣، تحت اسم «مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني»، والذي مثّل بدوره استجابة لواحدة من التوصيات التي تضمنتها نتائج حوار «اللقاء الوطني الأول للحوار الفكري»، والذي كان بدوره توجيها من ولي العهد الأمير عبد الله حين التقى مع مجموعة من علماء ومثقفين سعوديين من الشيعة في الثلاثين من أبريل ٢٠٠٣، حين قدموا له وثيقة «شركاء في الوطن».

جاء إنشاء مركز الحوار الوطني تعبيرا عن أهمية تنظيم اللقاءات الفكرية التي تمس أعصابا مختلفة من عملية الإصلاح، التي أصبحت الموجه الرئيسي للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في المملكة. وكما سبق القول فإن هذا الجانب يتعلق باللقاءات المحدودة المنظمة، والتي تتعلق بنقاش مكثف حول قضية بذاتها يجريه مجموعة مختارة بعناية من المثقفين والأكاديميين وعلماء الدين، بغية الخروج بتوصيات أو رؤية معينة تقدم لصانع القرار، تمهيدا لوضعها في القوالب القانونية والأطر التنفيذية والمؤسسية المناسبة.

الحوار الوطني.. اللقاء الأول

حين عقد اللقاء الأول للحوار الفكري في الفترة من ١٤ ـ ١٨ يونيه ٢٠٠٣، شارك فيه ٣٥ شخصية من مختلف مناطق المملكة، مثلوا اتجاهات فكرية ومذهبية متعددة، إضافة إلى بعض شخصيات مستقلة، حيث ناقش المجتمعون عدة قضايا مهمة من بينها الوحدة الوطنية والغلو والتشدد والتنوع الفكري وحقوق المرأة وحرية التعبير وتنظيم الفتوى والتعامل مع غير المسلمين. وقد تميز هذا اللقاء بعدة سمات، أبرزها السرية شبه الكاملة، حيث لم تنشر أية تفاصيل عما جرى فيه، أو طبيعة المناقشات والأفكار التي طرحها المشاركون. وكل ما جرى التأكيد عليه أن الحوار ليس رسميا وليست له أية أبعاد سياسية، في الوقت نفسه تم التأكيد على طابعه الثقافي العام. ولم ينشر عنه سوى ما خرج به المجتمعون من توصيات جاءت في صياغات عامة مثل التوصية بإنشاء مركز للحوار الوطني، التي تحولت لاحقا إلى قرار ملكي كما سبق القول، والدعوة إلى التوازن في توزيع برامج التنمية بين مناطق المملكة، ومعالجة هموم المواطن، والاستمرار في عملية الإصلاح وتوسيع قاعدة المشاركة الشعبية.

الحوار السعودي



«سبح بي الخيال مرة فتخيلت وطني وقد أصبح مؤتمرا كبيرا، ليس فيه ملفات تحت الطاولة، يتصارح فيه الجميع ويأخذون حقوقهم ويؤدون واجباتهم»

عبدالله العتيبي
كاتب سعودي

يذكر هنا أن هذا اللقاء كان الأول من نوعه في المملكة، والمراقب من بعيد يدرك أن الخطوة الأولى تكون عادة بحاجة إلى حسن التنظيم، وإلا جاءت بنتائج عكسية. كما يفهم أيضا أن البيئة الداخلية التي لم تعتد طويلا مثل هذه النوعيات من اللقاءات، فضلا عن أن سمات اللحظة التاريخية التي تمر بها المملكة قد فرضت نوعا من الحماية على هذا اللقاء الأول، ولم تسمح إلا بتسرب محدود لما دار فيه من نقاشات واحتدامات أو تصالحات.

أما في الداخل، فقد تراوحت التقويمات حول اللقاء وأهميته بين ثلاثة اتجاهات كبرى، أولها أن المؤتمر «قد نجح في وضع طريق لتيار وطني معتدل ووسطي يمثل كل فئات الشعب السعودي وطبقاته ومذاهبه واتجاهاته، كما أنه وضع لبنات أول مؤسسة للمشاركة الشعبية الصحيحة، وأدى إلى فرز القوى والتوجهات في المملكة بحيث أصبح واضحا من يستطيع المشاركة ومن لا يستطيع» (جمال خاشقجي، «نحو مؤسسة وطنية عليا تمثل تيار الإصلاح السعودي»، جريدة الوطن، ٢٠٠٣/٦/٣٠). ثانيها أن المؤتمر وإن كان في حد ذاته خطوة إيجابية، إلا أنه يؤخذ عليه انه افتقر إلى مشاركة ممثلين عن التيار الليبرالي التجديدي في الحياة الثقافية والاجتماعية السعودية، كما غابت المرأة عنه، وانه يخشى أن يكون بمثابة «آلية لاحتواء الآخر وليس تفهم كل طرف للآخر، والالتقاء حول مضامين خطاب وطني مؤسس على مبادئ الإسلام وتعاليمه، وتعظيم المشتركات الكبرى وتنمية الإحساس بأن الناس شركاء في وطن واحد». (عبد الله القفاري، «مؤتمر الحوار الوطني يدشن سنة أولى حوار»، جريدة الرياض، ٢٣/ ٢٠٠٣/٦) وأن المهم هو أن يجسد الحوار الوطني «التعبير العملي على توافق الرغبة الشعبية مع التوجهات الإصلاحية للقيادة السعودية في ضرورة الإصلاحات الديمقراطية ومواجهة قوى التطرف والإرهاب والغلواء الفكري، وعدم إتاحة مجالات واسعة للتدخل الأمريكي الفظ لفرض خططه المعلنة» (أحمد الربعي، «في البدء.. كان الحوار»، الشرق الأوسط، ٢٠٠٣/٦/١٧)

أما ثالث الاتجاهات فقد ركز على التحذير أو لنقل التعبير عن بعض التخوفات والهواجس من أن يكون التركيز الشديد على مفردة الحوار الوطني «تعبيرا عن هروب من الواقع أو التظاهر بالاعتدال أو مجرد حالة عابرة لاحتواء ضغط شديد خارجي وداخلي» (عبد العزيز الخضر، «الحالة السعودية»، جريدة الوطن السعودية، ٢٠٠٣/٩/٣)

فيما دعا آخرون إلى ألا يكون الحوار العام مرتبطا بمركز رسمي ومؤسسة تتحول مع الزمن إلى مجرد جهاز إداري لا صلة له بالهموم الحقيقية للمواطنين «إذ أن البعد عن الواقع الشعبي يشكل إذابة حقيقية لفكرة الحوار، فما يحققه المتحاورون في قاعة اجتماعات مغلقة يتنازل فيها كل منهم عن أطروحة في فكره لن يحقق شيئا على المستوى الاجتماعي ما لم تمتد يد الإعلام بكل أشكاله إلى نقل الحوار علنا ليتم قطع الطريق على أولئك المشككين في الحوار وجدواه الاجتماعية». (علي الخشيبان، «الحوار الوطني بين السائل والمجيب»، الوطن السعودية، ٢٠٠٣/٨/١٥)

«ليت وطني كان مؤتمرا»

تحت هذا العنوان كتب الإعلامي السعودي عبد الله بجاد العتيبي (الوطن، ٢٠٠٤/٢/١) تعليقا على مجريات الحوار الوطني الثاني الذي التأم في رحاب مكة المكرمة نهاية ديسمبر الماضي، وذلك من واقع مشاركته في اللقاء، «ضم الحوار بين أحضانه في تلك الرحاب الطاهرة ما يمكن تسميته فسيفساء الوطن السعودي الكبير، لم يكن بيننا متبوع أو أتباع ولا آمر ومأمور. لقد اجتهد القائمون على تنظيمه أن يشمل كافة الطوائف الدينية في السعودية، وكما ضم كافة التوجهات الفكرية من إسلاميين وليبراليين وتنويريين، بل حتى التوجهات السياسية لم تغب عن المشهد الرائع في ذلك المؤتمر، فكنا نسمع للمعارض كما نسمع للموالي، كلاهما يملك نفس الفرصة ونفس الحق ونفس الأمن في الحديث وإبداء وجهة النظر، ولكن تحت مطرقة رئاسة اللقاء التي تحصر أنفاسك في ثلاث دقائق، لتجبرك على ضغط أفكارك وتركيزها. وكان صوت المثقفات السعوديات الحاضر بقوة في كل جلسات المؤتمر يأتي نديا بالمعرفة قويا بالموقف من الصالة الأخرى، وقد اكتشفنا أن المثقفات منقسمات مثلنا على الضفة الأخرى!». وفي موقع آخر من المقال ذاته يقول «سبح بي الخيال مرة فتخيلت وطني وقد أصبح مؤتمرا كبيرا، ليس فيه ملفات تحت الطاولة، يتصارح فيه الجميع ويأخذون حقوقهم ويؤدون واجباتهم ويقرون بتنوعهم الديني والثقافي والسياسي ويحترمون بعضهم ويمتلئون عاطفة تجاه ربهم ووطنهم ووحدتهم وقيادتهم».

هذا النوع من المكاشفة حول بعض ما جرى في اللقاء، وبعض ما أثاره من مشاعر وأحاسيس للمشاركين فيه، عكس تطورا في آلية الحوار الوطني ذاته، على صعيده المحدود المنظم كما على صعيده العام. وإذا كان اللقاء الأول

الذى جرى فى شبه سرية قد أثار بدوره نوعا من العتاب من قبل العديد من الرموز السعودية فكريا وثقافيا، فقد بدا الحرص على أن يكون اللقاء الثانى نقلة نوعية إلى حد ما. فالإعلام كان موجودا وفق ضوابط معينة، والمرأة شاركت فى اللقاء ذاته من خلال عشر شخصيات نسائية من الإعلاميات والأكاديميات والمهتمات بالشأن الاجتماعى العام، كما أن غالبية الأوراق التى قدمت فى اللقاء نشرت فى صورة ملخصات وافية فى وسائل الصحافة السعودية، كنوع من الشفافية وإشراك المواطن فى معالجة همومه. وكذلك البيان الصادر عن اللقاء فقد تم تعميمه ليدرك الجميع ما انتهى إليه المتناقشون من توصيات وصلت إلى عشرين توصية، رُفعت بدورها إلى ولى العهد فى لقاء تم بينه وبين المشاركين فى العاصمة الرياض، لم يخلُ هو أيضا من حوار وطرح للعديد من الأفكار التى تصب تجاه تعميق الإصلاحات وتعميم الحوار والانفتاح على كل مكونات المجتمع السعودى وضرورة مواجهة الغلو فى الدين والتطرف فى الفكر. فيما كان طرح ولى العهد الأمير عبد الله مؤكدا على ارتباط الإصلاحات بالشريعة الإسلامية من منظور الوسطية وأن الأولويات هى «العقيدة والوطن والصبر والعمل» (الوطن، ٤ /٢٠٠٤/١).

اللقاء الوطنى الثانى

جاء موضوع الحوار الوطنى الثانى لصيقا بواحدة من أهم القضايا الفكرية والسلوكية التى عكست نفسها سلبا على المجتمع السعودى فى السنوات الأخيرة، واعتبرت مسئولة بصورة أو بأخرى عن نمو جماعات التطرف والعنف الموصول برؤى دينية، وهى قضية الغلو وأسبابها الفكرية والمادية والعوامل المؤدية إليها من الوجهة الشرعية، ودراسة العوامل النفسية والاجتماعية والتربوية والسياسية والاقتصادية والإعلامية المؤثرة فى هذه الظاهرة، سواء من حيث وجودها وتعميمها أو من حيث معالجتها ومحاصرتها. وكان كل من هذه الأبعاد مطروحا فى صورة دراسة أو ورقة عمل، نالت حظها من الحوار المعمق. وقد أوضح د. عبد الله نصيف نائب رئيس لجنة الحوار الوطنى، وأحد المسئولين عن ترتيبات اللقاء «أن فكرة الحوار الوطنى هى أن تتسع دائرة الحوار، وأن تشمل جميع المواطنين بجميع فئاتهم وبأفكارهم ومدارسهم الفكرية» (حوار مع د. عبد الله نصيف، الشرق الأوسط، ٢٠٠٤/٢/١٧)

شارك فى اللقاء الثانى ستون شخصية، منهم عشر من النساء، وهى المرة الأولى لهن.

وقد وصف أحد المشاركين اللقاء بأنه أقرب إلى أن يكون حوارا فى برلمان غير منتخب «فاللقاء جاء بمثابة استدراك من القيادة بعد طول انتظار وبعد شدة عناء ومعاناة لغيابه.. حيث تعددت الآراء والاجتهادات فى الماضى وأخذ بما هو أقرب لولى الأمر، واستبعد وحورب وكفر كل ما هو مخالف فى الرأى لهم وأغلق باب الاجتهاد فى إبداء الرأى ومنع الرأى المخالف، وحجبت بعض الآراء وهمشت بعض الشخصيات، ولم اكن أتصور أن كل هؤلاء سيجتمعون يوما ويدعوة من ولى الأمر من خلال المركز الذى أنشأه لأجلهم ولفكرهم للمشاركة بالرأى الآخر» (عبد الله صادق الدحلان، حوار.. فى البرلمان غير المنتخب، الوطن السعودية، ٤ /١/ ٢٠٠٤). فيما أشار كاتب آخر إلى أن التوصيات أبرزت أهمية بروز مؤسسات المجتمع المدنى، كحاضنة لفعاليات الحوار وأنشطته، وباعتبار هذه المؤسسات تلعب دورا أساسيا فى المجتمعات الحديثة، التى تمارس فيها حالة التعددية، وتقر باحترام الرأى والرأى الآخر، وتسود فيها الصيغ الدستورية». (يوسف مكى، مرة أخرى: ملاحظات حول الحوار الوطنى، الوطن السعودية، ١٤ / ١/ ٢٠٠٤).

وبينما يستعد مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطنى لتنظيم لقائه الثالث فى رحاب المدينة المنورة، بجوار قبر النبى الطاهر عليه الصلاة والسلام، وموضوعه التعليم والمرأة، يطالب البعض بأن يكون قبل الحوار الوطنى وتأسيس المجتمع المدنى، جهد ملموس من أجل تأصيل مفهوم الولاء الوطنى، باعتبار أن تعميق معانى الاندماج الإيجابى أو مفهوم المواطنة تحت مظلة القيادة الواحدة، ولتجاوز تلك المفاهيم من قبيل القبائل أو الشعوب، التى يريد البعض أن يفرضها أو يقحمها على المجتمع السعودى (د. محمد على الرباعى، تأصيل مفهوم الولاء الوطنى يأتى قبل الحوار والمجتمع المدنى، الوطن السعودية، ٢٠٠٤/١/١). فيما يصر بعض آخر على أن تأسيس المجتمع المدنى هو الآلية الأمثل لبروز مفاهيم المواطنة والوطن الواحد الكبير عمليا، لكن دون القفز على الخصوصيات المحلية للمناطق السعودية المختلفة. (على الخشيبان، صناعة المواطنة، الوطن السعودية، ٢٠٠٤/١/٣٠).

وأيا كانت الأولويات التى يطرحها بعض السعوديين فى مواجهة أولويات أخرى مقابلة أو حتى مضادة لها تماما، فما يجرى فى المجتمع السعودى من حوار وطنى بشقيه المجتمعى العام والمحدود المُنظم، هو شىء جديد ومؤثر بكل معنى الكلمة، وحتما ستكون له نتائج كبرى على مجمل العملية السياسية ومستقبل صناعة القرار، وأيضا شكل المجتمع فى غضون سنوات معدودة مقبلة.

كتاب الزاوية

١ - مذكرات الإمام محمد عبده

محمد عبده أحد رواد الإصلاح فى بدايات النهضة المصرية والعربية الحديثة. لعب دورًا فائق الأهمية فى تجديد علاقة الدين الإسلامى بالواقع والمجتمع ونفض عنها غبار الجمود والتخلف الذى ران عليها مئات السنين نتيجة لتوقف علماء المسلمين عن الاجتهاد ومسايرة العصر.

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩ ميلادية فى قرية «محلة نصر» بمركز شبراخيت فى مديرية البحيرة وتلقى تعليمه الأولى فى كتاب القرية ثم بالمسجد الأحمدى فى طنطا، لكن صدمه أسلوب التعليم المتخلف وهو نفس الأسلوب الذى كان موجودًا فى الأزهر عندما انتقل إليه. وكان لقاء محمد عبده بالشيخ جمال الدين الأفغانى الذى قدم إلى مصر فى عهد الخديوى إسماعيل بمثابة تحول فى حياته وحياة كثير من المصريين المتعلمين بسبب الأفكار التى بثها الأفغانى فى عقولهم. وقد دخل عبده السجن بعد فشل الثورة العرابية ثم قضى ٧ سنوات من حياته مشردًا منفيًا. اشترك أثناءها فى تحرير جريدة «العروة الوثقى» مع الأفغانى وعاد إلى مصر ليتولى بعد ذلك منصب مفتى الديار المصرية. وفى كل ذلك لم يكف يومًا عن العمل من أجل صلاح الأمة وتقدمها إلى أن توفى عام ١٩٠٥.

وقد اختارت «وجهات نظر» نشر مقتطفات من السيرة الذاتية التى كتبها محمد عبده ولم يكملها وأكملها صاحب المنار السيد رشيد رضا ولم تنشر إلا عام ١٩٣١، ثم أعدها وعرضها للنشر فى الهلال الأستاذ طاهر الطناحى.

الخطـــــاب



إضافة إلى تداعياته الخطيرة على الأراضي الفلسطينية ومجمل الأوضاع في الشرق الأوسط، كان اغتيال إسرائيل للشيخ أحمد ياسين المرشد الروحي لحركة حماس في ٢٢ مارس الماضي، بمثابة حالة ممتازة لدراسة آليات الخطاب الرسمي الإسرائيلي داخليًا وخارجيًا. فبينما خرج رئيس الوزراء أرييل شارون معلنًا فخره بالعملية التي أشرف عليها شخصيًا مهنئًا قواته بهذا «الإنجاز» وكذلك فعل وزير دفاعه وكبار مساعديه وجهت الدبلوماسية الإسرائيلية جهودها إلى شاشات التليفزيون العالمية ومحطات الإذاعة لتبرر «الجريمة» محاولة استدرار عطف العالم بدعوى أن مواطنيها كانوا دائمًا ضحية لإرهاب الشيخ «المشلول والمقعد».

إنه التراوح بين الاستقواء والاستضعاف في الخطاب الإسرائيلي كما حلله الدكتور قدري حفني الذي كتب هذا المقال قبل حادثة الاغتيال.

وجهات نظر

المقصود بتعبير الخطاب السياسي، ذلك الخطاب المعلن الذي توجهه السلطة إلى جمهورها في الداخل، وإلى العالم المحيط بها من أصدقاء وأعداء، وبهذا المعنى فإن الخطاب السياسي المقصود يندرج ضمن ما يطلق عليه أهل الاختصاص في الإعلام تعبير «الاتصال الجماهيري» في مقابل ما يطلقون عليه تعبير «الاتصال الشخصي» أو «الاتصال المباشر» أو «الاتصال وجهًا لوجه». وتعد ظاهرة الاتصال الجماهيري حديثة نسبيًا، إذ لم تبزغ الحاجة إليها إلا بعد توافر شروط ثلاثة:

أولاً: زيادة أعداد البشر، حيث إن فعالية الاتصال الشخصي. بحكم طبيعته. ترتبط بصغر حجم الجماعة التي يتم في إطارها، وتشير نتائج بحوث علم النفس الاجتماعي إلى صعوبة إقامة تفاعل شخصي مباشر بين أفراد جماعة يزيد عدد أفرادها على خمسة عشر فردًا، وكلما قل العدد عن ذلك كلما كان التفاعل أفضل. وإذا ما صدق ذلك على جماعة لا يتجاوز عدد أفرادها العشرين، فكيف بنا إذا ما كنا بصدد الآلاف بل والملايين من البشر. كان لابد من ظهور نمط جديد من أنماط الاتصال إلى جانب ذلك النمط الأصيل للاتصال الشخصي.

ثانيًا: إن أعداد البشر لم تتزايد فحسب، ولكن المساحة المعمورة المأهولة بهم قد ترامت أطرافها وتباعدت. ولم يعد ممكنًا والأمر كذلك أن تفي الأنماط التقليدية الأصيلة للاتصال وعلى رأسها الاتصال الشخصي بإشباع الحاجة الاتصالية للتفاعل بين قاطني هذه المساحات المترامية الأطراف. ومن ثم تمثلت الاستجابة لتلك الحاجة الجديدة في حدوث طفرة في مجال تكنولوجيا الاتصالات وخاصة فيما يتعلق بالبث الإذاعي والتليفزيوني، بحيث يمكن القول إن التباعد المكاني، بالإضافة إلى التقدم التكنولوجي قد ساهما. فضلاً عن التزايد السكاني. في تشكيل الضرورة الاجتماعية التي حتمت ظهور وانتشار الاتصال الجماهيري.

ثالثًا: يبقى عامل أخير، لعله أهم العوامل التي تضافرت لتشكيل الضرورة الاجتماعية لبروز دور الاتصال الجماهيري، وهو تبلور ظاهرة السلطة المركزية، فلقد تطورت الجماعة البشرية من الأشكال القبلية البسيطة العدد، والمحدودة المكان، إلى أشكال أكثر تركيبًا وتعقيدًا. ولسنا بصدد التعرض تفصيلاً لمسار هذا التطور عبر التاريخ البشري، فما يعنينا في هذا الصدد هو التوقف قليلاً أمام تطور ظاهرة القيادة، من قيادة القبيلة إلى قيادة الأمة أو الدولة، والدور الذي تلعبه العملية الاتصالية بالنسبة للشكل الحديث للدولة المركزية المعاصرة. لقد أصبحت الدولة المركزية الحديثة في حاجة إلى نوع جديد من أنواع الاتصال. أصبحت تحتاج نوعًا من أنواع الاتصال يضمن وصول الرسالة من المركز إلى الجماهير المعنية في نفس لحظة إرسالها، نوعًا يضمن التحكم في مضمون هذه الرسالة المركزية بحيث تكفل الحد الأدنى المطلوب من تشكيل الوعي الجماهيري المشترك، وتكفل كذلك تأكيد استمرارية صورة السلطة المركزية لدى الجماهير. ولم يكن من قبيل المصادفة. والأمر كذلك. أن يطلق على هذا العصر «عصر ثورة الاتصالات»، فهو ولاريب عصر بلوغ السلطة المركزية أوجها في المجتمعات المتقدمة والمتخلفة على حد سواء. وهو في نفس الوقت «عصر الخطاب السياسي الجماهيري».

وغني عن البيان أن مثل هذا النوع من الخطابات يتأثر. بطبيعة الحال. بالأحداث التي تجرى على أرض الواقع، ولكنه لا ينقل تلك الأحداث كما تجرى، بل ولا حتى يفسرها تفسيرًا محايدًا، هذا إذا ما تصورنا أن ثمة خطابًا محايدًا أصلاً، وهو ما نرى استحالته. إن الخطاب السياسي لا يعبر عما حدث بقدر ما يسعى لاستدعاء المطلوب حدوثه من وجهة نظر أصحاب الخطاب. إنه صورة تنتقى مما يحدث ما يصلح بعد إجراء «المونتاج» المناسب، لإحداث الأثر المرجو. ونستطيع أن نصنف الخطاب السياسي بهذا المعنى المحدد إلى نوعين أساسيين:

❖ خطاب سياسي استضعافي يظهر الضعف، أو يتظاهر به، وتقوم أساسًا على إبراز قوة العدو وتفوقه، ومدى ما يمثله من تهديد، واستحالة مواجهة خطره اعتمادًا على القوة الذاتية فحسب، ومن ثم فلابد إلى جانب حشد تلك القوى من السعي بإصرار للبحث عن حلفاء أقوياء يقبلون تقديم المساندة والعون.

❖ خطاب سياسي استقوائي يظهر القوة أو يتظاهر بها، ويبرز القدرة على إحباط مخططات العدو، وضمان أمن الجماهير وسلامتها، اعتمادًا على تلك القوة وحدها دون الاعتماد على مساندة أحد.

الخطاب الذي نحن بصدد تناوله إذن، خطاب سياسي جماهيري يصدر عن السلطة في إسرائيل موجهًا أساسًا إلى الجمهور السياسي، ثم إلى اليهود في العالم، فضلاً عن بقية المتلقين وفي مقدمتهم أبناء العالم العربي المحيط بإسرائيل.

صور متداخلة

لنقرأ معًا الصور الأساسية التي يتضمنها الخطاب السياسي الإسرائيلي الراهن: صورة «إسرائيل الديمقراطية الليبرالية» التي تسمح لأبنائها بحرية التظاهر والإضراب، في مقابل صورة «إسرائيل الاشتراكية» صاحبة تجربة الكيبوتز إلى جانب تلك العلاقات التاريخية القائمة بين أحزاب إسرائيلية وأحزاب اشتراكية في أوروبا، ثم صورة «إسرائيل الدولة الدينية التوراتية» التي تعد المثال الفريد لتجسيد فكرة الدولة الدينية وإمكانية قيامها من حيث المبدأ في العصر الحديث، في مقابل صورة «إسرائيل نموذج التقدم العلمي التكنولوجي» دولة العبقرية اليهودية، وصورة «إسرائيل ملجأ اليهود المضطهدين» فالإسرائيليون هم الأبناء المساكين للهولوكوست النازي الرهيب الذين لاقوا عذابًا لم يلاقه بشر غيرهم، وخرجوا من أتون المحرقة النازية يلتمسون وطنًا يؤويهم دون أن يفقدوا قدرتهم على التعمير والإبداع، في مقابل صورة «إسرائيل القادرة على النيل من أعدائها أينما كانوا» ويفيض الخطاب السياسي الإسرائيلي بصورة لا نهاية لها لمن طالتهم يد إسرائيل القوية من النازيين السابقين والفلسطينيين في كل مكان، ونستطيع أن نمضي في استعراض تفصيلي للمزيد من الصور التي يتضمنها الخطاب السياسي الإسرائيلي، ولكننا سوف نقف أمام صورتين محددتين من تلك الصور:

صورة الاستضعاف: «إسرائيل الدولة الصغيرة الغارقة في الطوفان العربي الإرهابي» والتي تملأ العالم بصور العرب الملثمين وأحزمتهم المتفجرة وأشلاء الإسرائيليين تتناثر مع حطام الحافلات المدمرة.

صورة الاستقواء: «إسرائيل ذات القوة القاهرة» الدولة الوحيدة في المنظمة التي تمتلك السلاح النووي.

بين الاســـتضعاف

الإسرائيلى.. والاستقواء!

قدرى حفنى

وتتميز هاتان الصورتان بأنهما يبدوان للوهلة الأولى كما لو كانتا متناقضتين بحيث إن إحداهما تكاد أن تنفى الأخرى نفياً تاماً، فضلاً عن أنهما تكادان تتأنيان بمعنى أنهما يصدران فى وقت واحد كما لو كانا جملة واحدة. والخاصية الثالثة أنهما ظلتا مصاحبتين لدولة إسرائيل منذ نشأتها حتى الآن.

ويقتضينا فهم الظاهرة إلقاء نظرة سريعة على تاريخ الحركة الصهيونية وخطابها السياسى، ثم على تاريخ قيام دولة إسرائيل التى صدر عنها ومازال الخطاب السياسى الذى نحن بصدده.

نظرة إلى التاريخ

فى عام ١٨٩٦، أصدر هرتزل كتابه الشهير «دولة اليهود» الذى طرح فيه بوضوح أن الحل الوحيد للمشكلة اليهودية هو حل سياسى يتمثل فى إنشاء دولة صهيونية، وقد أكد هرتزل فى هذا الكتاب بكل وضوح أنه لكى يتحقق قيام تلك الدولة الصهيونية فلابد من أن يحظى ذلك بموافقة ومساندة إحدى الدول الكبرى، وهو ما التزمت به الحركة الصهيونية إلى أن قامت دولة إسرائيل بالفعل. وغنى عن البيان أن ذلك الالتزام كان يعنى إبراز نغمة الاستضعاف فى الخطاب السياسى الصهيونى. ولقد تكرر التأكيد على استحالة تحقيق الحلم الصهيونى اعتماداً على القوى الذاتية لليهود عبر المؤتمرات الصهيونية المتتالية. ففى المؤتمر الصهيونى الأول الذى انعقد بناء على دعوة هرتزل وتحت رئاسته فى مدينة بازل فى أغسطس ١٨٩٧، أعلن هرتزل بوضوح أن حل المشكلة اليهودية حلاً جذرياً يتطلب بالضرورة مفاوضات سياسية، وضمانات دولية، واعترافاً قانونياً بالمشروع الاستيطانى من قبل الدول الكبرى.

وبدأت الحركة الصهيونية على الفور انطلاقاً من خطابها السياسى الاستضعافى تبحث عن تلك القوة العظمى التى ستمكنها من تحقيق الحلم. اتجه هرتزل فى البداية للإمبريالية الألمانية الصاعدة آنذاك، وفى المؤتمر الثالث الذى انعقد فى بازل أيضاً فى أغسطس ١٨٩٩، عرض هرتزل لنتائج اتصالاته مع القيصر والتى لم تؤد إلى النتيجة المرجوة، ولم يلبث هرتزل أن أدرك تعاظم مصالح بريطانيا فى المنطقة فحول اتجاهه إليها، وعرض فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى انعقد فى بازل فى أغسطس ١٩٠٣ لمباحثاته مع جوزيف تشمبرلين حول مشروع الاستيطان اليهودى فى شبه جزيرة سيناء كوسيلة لمواجهة الثورة الشعبية المصرية التى رآها هو. أى هرتزل. وشيكة الحدوث مما يستدعى وجود كيان سياسى حليف لبريطانيا على حدود مصر الشرقية. ولم تقبل بريطانيا هذه الفكرة، وعرضت عوضاً عنها مشروعاً للاستيطان اليهودى فى أوغندا، وهو ما عرف باسم «مشروع شرق أفريقيا». وقد بلغ حرص هرتزل على حيوية استناد المشروع الصهيونى حد التخلى عن حلم أرض الميعاد، والقبول بما تعرضه بريطانيا العظمى، ولم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لهرتزل الذى خاض معركة عنيفة فى المؤتمر لكسب التأييد لهذا المشروع، إلى أن استصدر من المؤتمر قراراً بإرسال بعثة استكشافية لاستطلاع الموقف على الطبيعة وذلك بأغلبية ٢٩٥ مقابل ١٧٨ وامتناع ٩٨ عن التصويت.

لسنا بحاجة للمضى أكثر من ذلك فى استعراض تطور الحركة الصهيونية. لقد ظل التيار الرئيسى للحركة ملتزماً باستحالة الاعتماد على القوى الذاتية لتحقيق الحلم الصهيونى، متبنياً خطاباً سياسياً يبرز ضعف اليهود وقلة حيلتهم وبشاعة ما لاقوه ويلقونه من اضطهاد، وأن العالم الغربى يتحمل وزر تلك الآلام. ويبرز الخطاب من ناحية أخرى ما يمكن أن تقدمه الحركة الصهيونية من دعم للقوة الدولية التى تقبل مساندتهم، متمثلاً فى «عبقرية» اليهود فى مجالات ثلاثة: العلم، والإعلام، وإدارة المال، وجميعها مجالات تعتمد على قوة العقل بما لا يتعارض مع جوهر الخطاب الاستضعافى.

إلى هنا والأمر يبدو الخطاب الاستضعافى منطقياً إلى حد ما، ولكن المثير للتأمل هو أن هذا الخطاب لم يضمحل بعد قيام الدولة، بل ظل مستمراً إلى جانب خطاب آخر أخذ فى التصاعد بقوة، دون أن يستبعد أى من الخطابين الآخر. وتفسير ذلك يتطلب منا العودة قليلاً إلى ظروف قيام دولة إسرائيل.

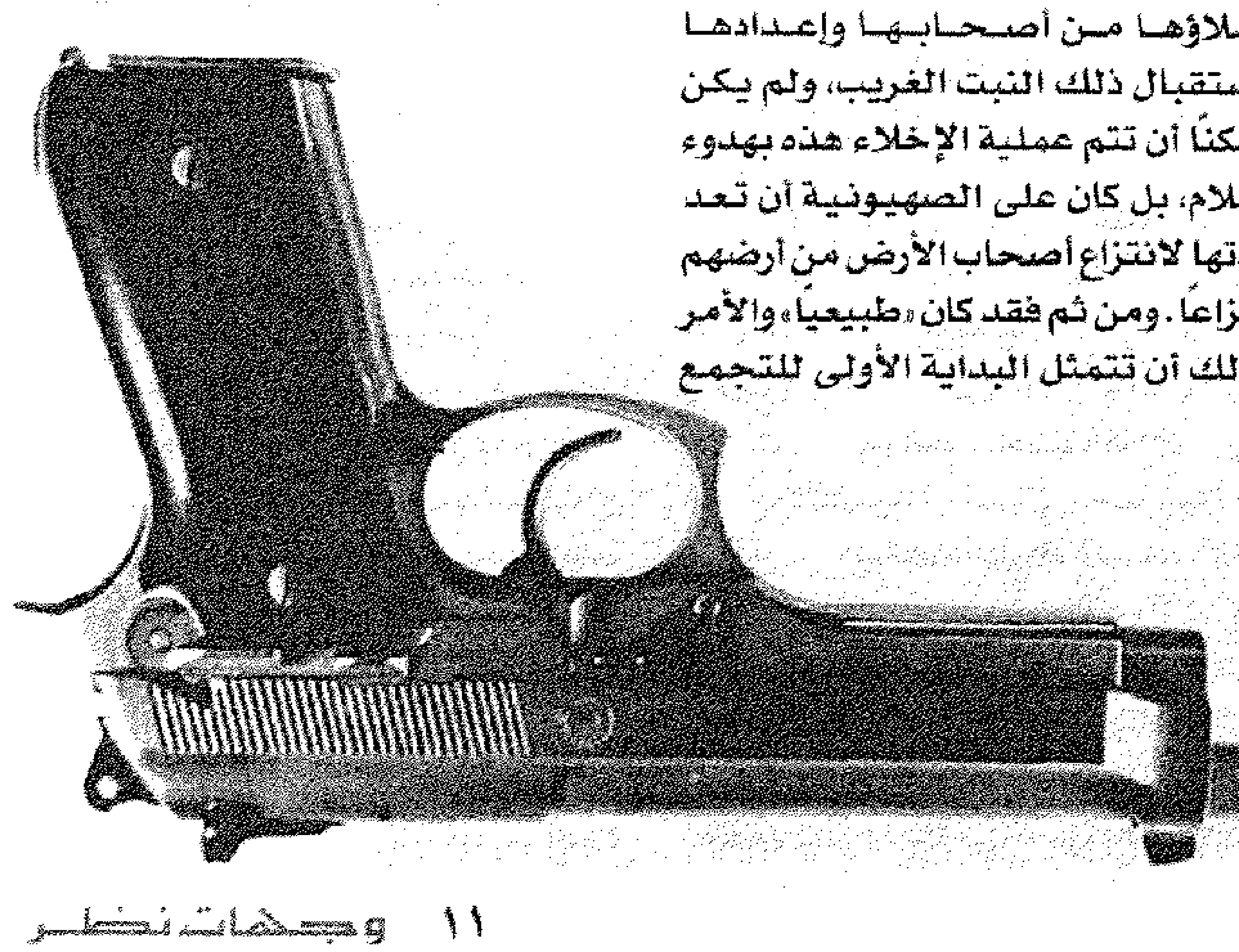
قيام الدولة واستمرار الخطاب الاستضعافى

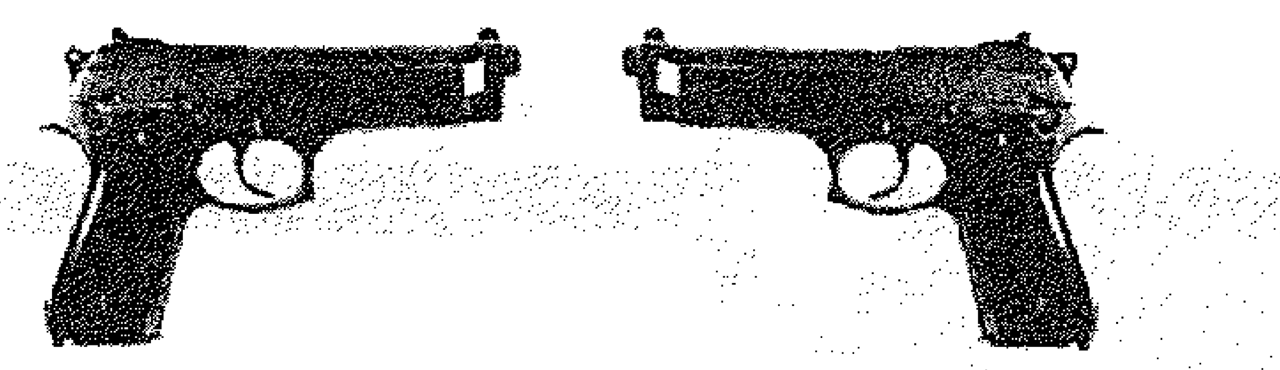
يعلمنا التاريخ أن الأرض والبشر هما البداية، ومن خلال تفاعل جماعة بشرية معينة، فوق بقعة من الأرض، وعبر مراحل تاريخية متشابكة. ينشأ المجتمع وتتبلور العلاقات المتبادلة بين أبنائه بمختلف فئاتهم لتتحدد طبيعة السلطة وشكل الدولة، وأبعادها السياسية والأيديولوجية، وتتحدد بالتالى التنظيمات السياسية المناسبة لتلك الأبعاد، وأخيراً تتشكل المؤسسات العسكرية وفقاً لتلك المقتضيات جميعاً. أما بالنسبة للتجمع الإسرائيلى ومؤسساته العسكرية فقد اتخذ الأمر عكس هذا المسار التاريخى الطبيعى تماماً فخلال القرن التاسع عشر، بدأ النشاط العملى للصهيونية فى أوروبا مستهدفاً الفصل بين الأرض و«البشر» عنصرى البداية التاريخية الأولى. لقد سعت الصهيونية إلى الفصل بين الفلسطينيين و«الأرض العربية» مستهدفة فى النهاية فصل اليهود عن أرضهم وأوطانهم الأصلية، واستنباتهم فى أرض جديدة. ولم يكن بد والأمر كذلك من أن يكون الهدف العملى الأول للصهيونية على الأرض العربية هو إخلاؤها من أصحابها وإعدادها لاستقبال ذلك النبت الغريب، ولم يكن ممكناً أن تتم عملية الإخلاء هذه بهدوء وسلام، بل كان على الصهيونية أن تعد عدتها لانتزاع أصحاب الأرض من أرضهم انتزاعاً. ومن ثم فقد كان «طبيعياً» والأمر كذلك أن تتمثل البداية الأولى للتجمع الإسرائيلى على أرض فلسطين فى صورة «مؤسسة عسكرية»، وكان على المؤسسة العسكرية الصهيونية أن تنشئ الدولة ثم أن تصطنع ذلك «مجتمعاً».

وكان طبيعياً مع ممارسة العنف الصهيونى لترويع الفلسطينيين أصحاب البلاد الأصليين تمهيداً لاقتلاعهم منها أن يبزغ خطاب سياسى جديد يغلب عليه الطابع الاستقوائى، وأن يظل الخطاب الاستضعافى القديم قائماً موجهاً أساساً إلى العالم الخارجى يهوداً أو غير يهود.

لقد نشأ أول التنظيمات المسلحة الصهيونية على أرض فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر متمثلاً فى منظمة الهاشومير وتعنى الحرس اليهودى. والتى وضع بذرتها صهاينة قدموا من وسط أوروبا إلى فلسطين حيث أنشأوا مستعمرة بتاح تكفا. وقد اتخذت منظمة الهاشومير شكلها المحدد حوالى عام ١٩٠٦. واستمرت منظمة الهاشومير فى نشاطاتها إلى أن تحولت على أثر وعد بلفور عام ١٩١٧ إلى المنظمة المعروفة باسم منظمة الهاجاناه، أى الدفاع. وفى عام ١٩٣٦ حصلت منظمة الهاجاناه من بريطانيا على اعتراف فعلى بها كمنظمة للدفاع عن المستعمرات، ومن خلال منظمة الهاجاناه وبترتيب من القيادة البريطانية، تشكلت منظمة البالماخ، أى الفصائل المهاجمة.

وفى ١٩٣٧ تأسست إلى جانب الهاجاناه منظمة عسكرية أخرى هى منظمة أرجون زفاى ليومى أى المنظمة العسكرية لشعب





الخطاب الإسرائيلى بين الاستضعاف والاستقواء

ظل التيار الرئيسى ملتزماً باستحالة الاعتماد على القوى الذاتية لتحقيق الحلم الصهيونى، متبنياً خطاباً سياسياً يبرز ضعف اليهود وقلة حيلتهم وبشاعة ما لاقوه ويلقونه من اضطهاد، وأن العالم الغربى يتحمل وزر تلك الآلام

إسرائيل. وهى تعبير عن انشقاق قام به بعض الصهاينة المتطرفين وعلى رأسهم جابوتنسكى على سياسة الدكتور حاييم وايزمان بدعوى أنه يتبع أساليب متهاونة، وشهد عام ١٩٤٠ تأسيس منظمة عسكرية أخرى هى منظمة شتيرن. وقد أسس هذه المنظمة إبراهام شتيرن أثر انشقاقه على منظمة الارجون. وكان حتماً أن تتبنى تلك المنظمات العسكرية الصهيونية خطاباً استقوائياً يساند ممارساتها حيال الفلسطينيين، وظل الأمر كذلك إلى أن أعلن بن جوريون عشية قيام الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨ قراره بحلها جميعاً واندماجها فى جيش نظامى واحد، أطلق عليه اسم «جيش الدفاع الإسرائيلى». وينبغى أن نؤكد حقيقة تكاد تنفرد بها نشأة إسرائيل، فإلى جانب أن تواجد المؤسسة العسكرية على الأرض كان سابقاً على تواجد المجتمع، فإن جميع تلك المنظمات العسكرية كانت بمثابة الجناح العسكرى لحزب إسرائيلى سياسى صهيونى أوروبى المنبت والنشأة. ومن هنا نستطيع أن نفهم الرابطة بين حزب حيروت ومنظمة الأرجون زفاى ليومى، وبين حزب المابام ومنظمة البالماخ، وبين حزب الماباى ومنظمة الهاجاناه. ومن ثم فلعل التعبير الأقرب للحقيقة هو أن قرار بن جوريون المشار إليه كان يعنى دمج الأجنحة العسكرية للأحزاب السياسية الإسرائيلية فى تنظيم عسكرى واحد.

لقد قامت الدولة إذن، وإذ يعد الخطاب الاستقوائى بمختلف درجاته بالنسبة لأى دولة ضمن آليات تماسكها الداخلى فضلاً عن هيبتها الخارجية، لذلك فقد كان المتوقع أن يخفت بل ويتلاشى خطاب الاستضعاف الإسرائيلى، أو على الأقل أن يوضع فى الخزانة جاهزاً للاستعمال إذا ما دعت الضرورة، مفسحاً المجال للخطاب الجديد، خطاب الاستقواء. ولكن ذلك لم يحدث بل ظل الخطابان معاً مع ما يحمله ذلك من تشويش قد يثير البلبلة وقد أثارها بالفعل فى العقل العربى على الأقل.

لقد كان استمرار الخطاب الاستضعافى الإسرائيلى بعد قيام الدولة مثار تساؤل لدى العديد من علماء النفس السياسى، ونستطيع أن نستشهد فى هذا الصدد برسالة فريدة رغم قدمها، إذ تقدم بها الباحث الأمريكى بارى بليخمان عام ١٩٧٠ للحصول على درجة الدكتوراة من جامعة جورج تاون الأمريكية. لقد استوقفته ظاهرة استمرار إسرائيل فى «انتقامها» من العرب رغم ميل ميزان القوى إلى جانبها بما لايدع مجالاً للشك، ولقد أفرد الباحث جانباً كبيراً من دراسته لتناول الأعمال الإسرائيلية «الانتقامية» فى الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى قبيل ١٩٦٧، ومضمون التصريحات الإسرائيلية التى صاحبت كل عملية انتقامية لتفسير أسبابها وتبرير دوافعها. ويكشف تحليل مضمون تلك التصريحات عن غلبة الخطاب الاستضعافى بشكل واضح، فالاعتداءات الإسرائيلية خلال العشرين عاماً التى شملتها الدراسة لم تكن. وفقاً لذلك الخطاب. سوى محاولة لرد عدوان القوى على المستضعف، إنها لا تستهدف سوى أمرين أولاً: تقليل الاعتداءات التى يشنها العرب على إسرائيل، وثانياً: المساهمة فى إجبار الحكومات العربية على السلوك بشكل أكثر تعاونية حيال إسرائيل. ودفعهم فى النهاية إلى القبول بحل سلمى للصراع.

استضعاف فى ذروة القوة

لقد ظل الأمر كذلك دون تغيير حتى جاءت حرب يونيو ١٩٦٧ لتزيد «التهديد العربى» خفوتاً. فلقد تمكنت إسرائيل فى هذه الحرب، من أن تنزل بالجيوش العربية هزيمة ساحقة. وحققت إسرائيل أو كادت أن تحقق حلم «إسرائيل الكبرى». امتدت الأرض التى تسيطر عليها لتشمل إلى جانب ما حصلت عليه عام ١٩٤٨ كامل الضفة الغربية وقطاع غزة، وسيناء، والجولان، فضلاً عن الجنوب اللبنانى.

لقد أصبح الحلم حقيقة، وكان المتوقع للمرة الثانية أن تتخلى إسرائيل عن خطابها الاستضعافى التقليدى ليحل محله خطاب استقوائى بعد انتصارها خاصة أنها قد أصبحت تمتلك سلاحاً نووياً، ولكن ذلك لم يحدث وهو الأمر الذى استوقف من جديد عدداً من المشتغلين بعلم النفس السياسى، ففى عام ١٩٦٨ نشر الطبيب العقلى الأمريكى ليو الكسندر مقالاً بعنوان «الطب العقلى العسكرى، والاحتلال، ومشكلات اللاجئين فى إسرائيل»، وهو المقال الذى ألقاه صاحبه فى الاجتماع السنوى لجمعية بوسطن للطب العقلى والنيورولوجيا الذى عقد فى ١٢ ديسمبر ١٩٦٧ وكان المقال نتاجاً لزيارة قام بها المؤلف لإسرائيل عقب معارك يونيو مباشرة فى الفترة من ١١ إلى ٢٧ يوليو ١٩٦٧.

إن الظاهرة التى استوقفت انتباه الكسندر ورآها . وبحق . جديرة بالإشارة فهى «تلك الندرة العامة فى احتفالات النصر، وحتى بين وحدات الجيش التى تربط بين أفرادها علاقات وثيقة. وفى بعض المناسبات التى احتفلت فيها وحدات قليلة، لم يحضر القادة تلك الاحتفالات.. إن إسرائيل نفسها لم تشهد احتفالاً يمكن أن يضاهى مثلاً ذلك الاحتفال الذى جرى فى كاتدرائية برن بسويسرا بنفس هذه المناسبة فى الثانى عشر من يوليو، والذى دعا الحاخام المحلى للحديث فيه.

ولقد اكتفى الكسندر فى تعليقه على هذه الظاهرة بالإشارة إلى تفسير أحد علماء النفس الإسرائيليين لها باعتبار أنها ترجع إلى ما كان يستشعره الجنود والضباط الإسرائيليون من أسى لمن فقدوهم من أحبائهم فى الحرب. ولعل سطحية مثل هذا التفسير تبدو واضحة إذا ما وضعنا فى الاعتبار ضآلة حجم الخسائر الإسرائيلية فى حرب يونيو إذا ما قورنت بحجم الانتصار الإسرائيلى.

تُرى لماذا لم يطلق الجنود والضباط الإسرائيليون العنان لفرحتهم بانتصارهم؟ الأمر فيما نرى يمثل ظاهرة نفسية فريدة فى مجال سلوك الجماعات. ظاهرة تعكس مدى تأثير الخطاب الاستضعافى على التكوين النفسى للجمهور فى إسرائيل، بل وحتى على العسكريين. لقد كانت الاستجابة المباشرة للنصر هى القلق والعجز عن إبداء الفرحة، فالانتصار إنما يعنى انتفاء التهديد، وبالتالى انتفاء الشعور بالاضطهاد، أى ذبول الخطاب الاستضعافى.

لذلك فسرعان ما بدأ التركيز على أن التهديد العربى مازال قائماً مستمراً، المقاطعة الاقتصادية مازالت قائمة، ومازال العرب يرفضون التفاوض، والدعم العربى لنشاطات المخربين الفلسطينيين «يتزايد».

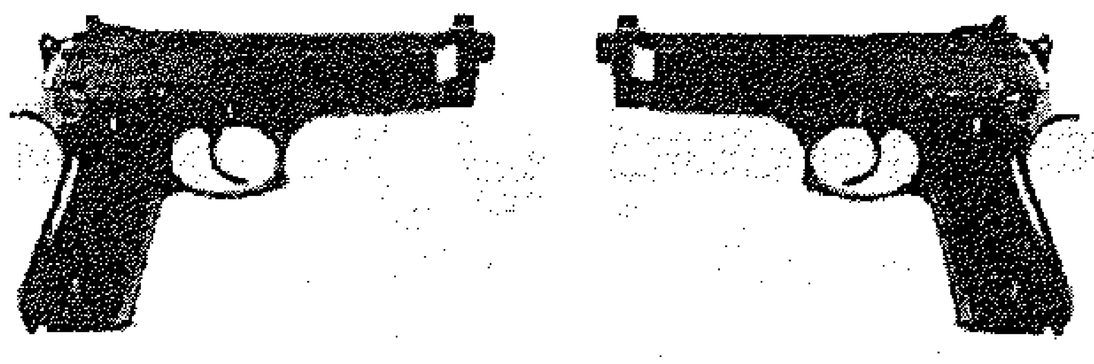
إن لغة الاستقواء فى الخطاب الإسرائيلى غنية عن البيان، وغنية عن التفسير، لذلك لم نقف أمامها طويلاً، واخترنا أن نقف تحديداً أمام نكبة ١٩٤٨، ثم أمام هزيمة ١٩٦٧، باعتبارهما نموذجين يجسدان إصرار الخطاب السياسى الإسرائيلى على التمسك بنغمة الاستضعاف، فى ذروة الانتصارات الإسرائيلية، ويبقى أن نحاول تفسير ذلك.

محاولة للتفسير

لقد قامت إسرائيل منذ البداية كتجمع استيطانى عسكرى يضم أبناء قوميات عديدة يتباينون فى أصولهم الحضارية، ولم يكن ثمة ما يمكن أن يوحدهم تمهيداً لصهرهم سوى زرع الإحساس بالخطر فى أعماقهم بحيث يستشعرون دوماً أن العالم المحيط بهم، أى العالم العربى. يهددهم بالفناء. مع تأكيد مواز للقدرة العسكرية الإسرائيلية على التصدى لهذا التهديد. وكانت تلك هى المهمة الأساسية التى مارسها باقتدار قادة ومؤسسو إسرائيل، مهمة ترويع يهود إسرائيل لكى يتوحدوا، وتأكيد قدرة الدولة على حمايتهم، ولم يكن النجاح فى هذه المهمة يعنى فحسب توحيد الشارع اليهودى الإسرائيلى فحسب، بل كان يعنى أيضاً تحقيق أهداف استراتيجية ثلاثة لا تقل عنه أهمية بالنسبة لاستمرار بقاء إسرائيل كما هى عليه:

❖ الهدف الأول: هو ترويع يهود العالم بحيث يتضخم لديهم الدافع للهجرة إلى إسرائيل أو على الأقل فإنهم تحت وطأة الشعور بالإثم والتقصير لا يترددون فى مضاعفة دعمهم المادى والسياسى للوجود الإسرائيلى.

❖ الهدف الثانى: هو كسب تعاطف العالم الغربى مع إسرائيل.



الخطاب الإسرائيلي بين الاستضعاف والاستقواء

❖ الهدف الثالث: هو محاولة تخدير الشارع العربي، بتدعيم إحساس زائف بأننا. على ما نحن عليه. الطرف الأقوى الذي يثير رعباً لا حد له لديهم.

نظرة على ما يجرى

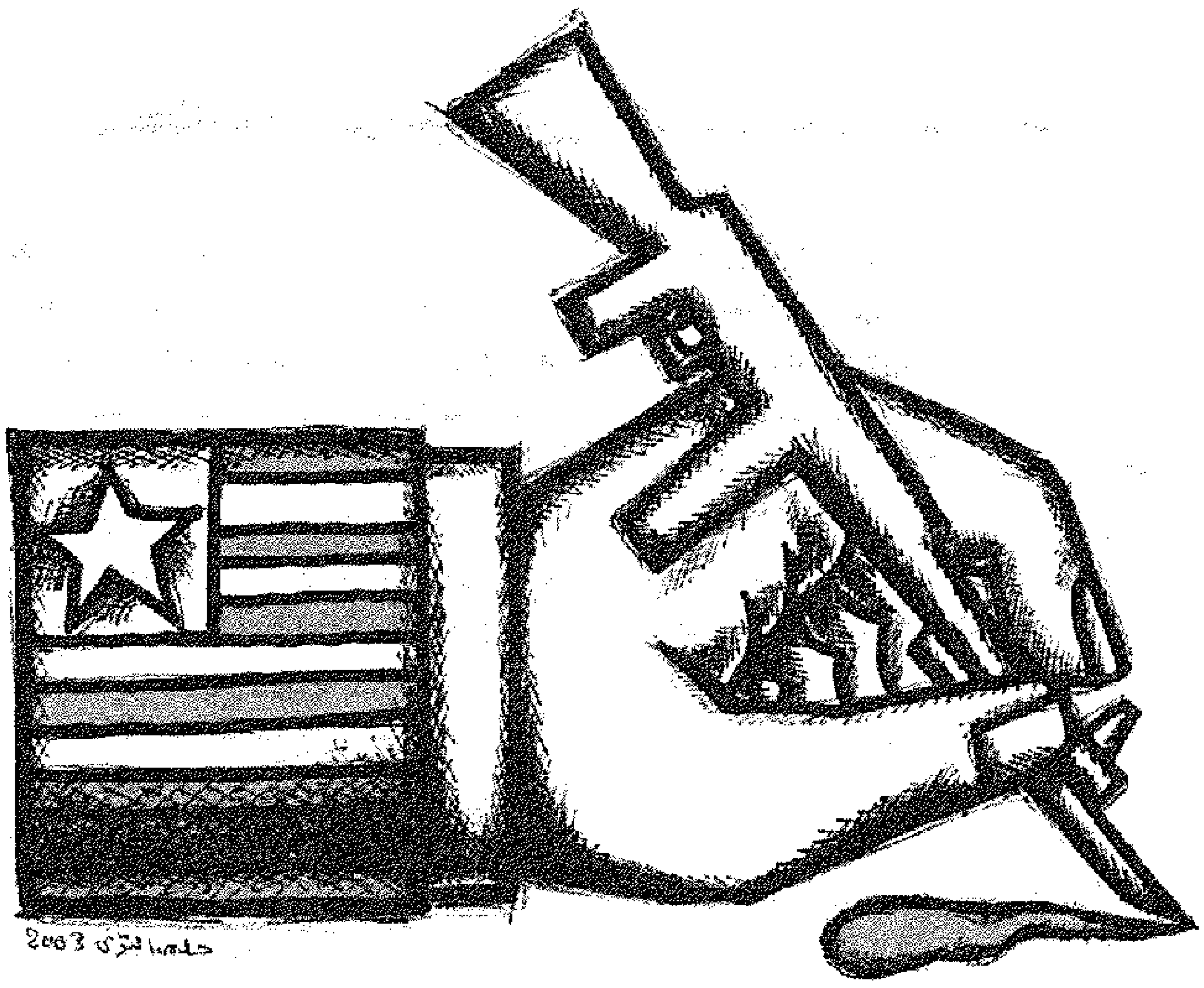
منذ هزيمة ١٩٦٧ حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان تحقيق الحلم الصهيوني بأرض الميعاد قد بلغ ذروته كما سبق أن أشرنا. ومع انتهاء حرب أكتوبر بدأ الحلم يذوى ليعود حلماً من جديد بعد أن بدأ فى التراجع على الأرض بالانسحاب من سيناء وعودتها للسيادة المصرية وفقاً لاتفاقية كامب دافيد، ثم قيام السلطة الوطنية على أرض فلسطينية وفقاً لاتفاقات أوسلو التى أبرمتها إسرائيل مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتتوالى الأحداث لتجد القيادة الإسرائيلية نفسها أمام «هجمة سلام عربية . عالمية» تكاد تعصف بجوهر بناء الخطاب السياسى الإسرائيلى التقليدى وتدفع بالقيادة الإسرائيلية دفعاً فى اتجاه صياغة خطاب «واقعى» بصورة أو بأخرى، ولم يكن شىء من ذلك فى حسابات تلك القيادة، وبدأ المجتمع الإسرائيلى يشهد بل ويعانى مخاضاً شديداً بلغ ذروته باغتيال اسحق رابين.

واختارت القيادة الإسرائيلية أن تدفع بخطابها السياسى المزدوج ليبلغ قمة غير مسبوقة: استقواء لا حد له حيال العالم بأسره، استقواء يصل أحياناً إلى مشارف العلاقة الإسرائيلية الأمريكية، خاصة بعد أن أصبحت الولايات المتحدة تمارس ما شاءت من قوة فى المنطقة العربية دون حاجة إلى الغطاء الإسرائيلى التقليدى. استقواء يجعل إسرائيل تولى ظهرها لجميع مبادرات السلام العربية والأوروبية والأمريكية على حد سواء بل وتنظر باحتقار حتى لتفاهمات جنيف. استقواء يصدم عيون وآذان العالم بأسره وهو يرى الجيش الإسرائيلى يعيث فى الفلسطينيين قتلاً واعتقالاً وحصاراً وتشريداً وهدماً للبيوت بل وسرقة للمصارف. والذى يستوقف النظر أن كل ذلك الذى يجرى يتم بثه بالصوت والصورة عبر الأقمار الصناعية بموافقة إسرائيل؛ كما لو كانت الرسالة المقصودة «انظروا كم أنا قوية لا أبالى بأحد؟».

واختارت القيادة الإسرائيلية فى نفس الوقت أن تدفع بخطابها السياسى الاستضعافى إلى ذروته. فها هى إسرائيل تضع أمام مبنى محكمة العدل الدولية بقايا حافلة دمرها الإرهابيون الفلسطينيون. إنها أبداً لم ترفض مبادرات السلام. إنها تحاول فحسب ألا يكون السلام على حساب أمن الإسرائيليين الأبرياء. وما الجدار الشارونى الفاصل إلا محاولة للحيلولة دون الإرهابيين الفلسطينيين والنفاذ إلى الشارع الإسرائيلى المسالم.

وهكذا يتم بث الخطابين معاً، خطاب الاستضعاف للتخدير وطلب العون والمساندة وتوحيد الشارع الإسرائيلى، أما خطاب الاستقواء فمحسوب بدقة بالغة بحيث يثير الرعب والفزع لدى الفلسطينيين ومناصريهم، دون أن يتجاوز حدوده فتضيع معالم خطاب الاستضعاف. ولعل دقة تلك الحسابات هى التى تفسر خلو الخطاب الاستقوائى الإسرائيلى تماماً من أية إشارة ولو تلميحاً لحقيقة أن إسرائيل هى الدولة الوحيدة فى المنطقة التى تمتلك ترسانة نووية. ■

أولى حروب القرن بعيون أمريكية



كوردسمان فى حديث إلى وجهات نظر

الحرب الأهلية فى العراق ممكنة!

واشنطن - محمد السطوحى

عام على الغزو

في ٩ أبريل ٢٠٠٣ سقطت بغداد.. أسلمت قيادها للمحتل الأمريكى بعد حرب قصيرة لم تدم سوى ٢٢ يومًا.. واعتبر مجلس الحكم الانتقالى العراقى الذى شكلته قوات الاحتلال لإدارة البلاد بعد صدام حسين هذا اليوم عيدًا للتحرير وعطلة رسمية جديرة بالاحتفال بينما نظر آخرون إلى يوم السقوط على أنه نكبة عربية أخرى تُضاف إلى نكبات عديدة حلت بالعرب على مدى تاريخهم الحديث.

وتداعت أحداث ما بعد السقوط سريعًا ولم يكد يمر يوم دون حدوث انفجار ووقوع قتلى. ورغم أن الهجمات تستهدف فعليًا قوات الاحتلال إلا أن معظم ضحاياها عراقيون.

ترافق ذلك، مع محاولات مضنية من مجلس الحكم الانتقالى والإدارة المدنية للاحتلال لإعادة الاستقرار إلى العراق كل ذلك فى بيئة تسودها الفوضى ويسهل معها شن الهجمات دون معرفة هوية المهاجمين.

بعد عام على الحرب/ الغزو.. وسقوط بغداد، ننظر إلى ما جرى ويجرى من موقعين متباينين. ولعلهما الموقعين الأكثر صلة بالحدث.

فى واشنطن يلتقى محمد السطوحى بأنتونى كوردسمان أحد أبرز الخبراء العسكريين الأمريكيين والذى سبق له العمل كمدير لتحليل الاستخبارات بمكتب وزير الدفاع الأمريكى وذلك بعد عودته من زيارة تفقدية لبغداد. ليكتب تقريرًا يضمنه أيضًا حصيلة ما خرج به من المناقشات المستفيضة التى نظمتها مؤسسات بحثية أمريكية حول الموضوع.

ومن بغداد.. وبالأحرى من الفلوجة، والتى توصف كمعقل للمقاومة العراقية يكتب محمد عبدالعاطى مشاهداته المباشرة وما سمعه من الذين التقاهم هناك يحملون السلاح ويطلقون النار.

المحرر

لم يكن يفصل بين المؤتمرين سوى شارع واحد فقط، وكلاهما كان عن السياسة الأمريكية بشأن العراق. الأول فى مبنى الصحافة القومى بالعاصمة واشنطن، والآخر فى المبنى المقابل بأحد الفنادق. ولكن ما أن انتقلت من مبنى إلى آخر حتى شعرت بأنهما فى قارتين مختلفتين. فى الأول تنديد واتهامات لإدارة بوش وصلت إلى حد مطالبة وزير العدل الأسبق رامزى كلارك بعزل الرئيس الأمريكى، وفى الثانى إشادة وثناء من ريتشارد بيرل وصحبه من المحافظين الجدد على صلابة بوش فى مواجهة الإرهاب، وتأكيد على أن غزو العراق كان ضرورة كمعركة رئيسية فى هذه الحرب، وللإطاحة بنظام حكم صدام حسين وإنهاء مايمثله من خطر بشكل حاسم ونهائى.

هذا الجدل والخلاف ليس إلا نموذجا مصغرا للانقسام الحاد الذى يشهده الشارع الأمريكى بشأن العديد من القضايا الداخلية والخارجية، لكن الانقسام بشأن العراق هو أكثرها تباينا بحيث يعتقد الكثيرون أنه لأول مرة منذ عدة عقود، سيكون للسياسة الخارجية دور كبير فى تحديد نتيجة انتخابات الرئاسة التى ستجرى فى نوفمبر القادم.

هذا ما دعا الرئيس بوش إلى بدء حملته الانتخابية مبكرا لدعم فرص إعادة انتخابه، وما أن اقتربت مناسبة مرور عام على بدء الحرب، حتى أرسل البيت الأبيض كل مدافعه الثقيلة إلى كل (جميع) شبكات التليفزيون الأمريكية فى برامج (الأحد الصباحية) صباح الأحد. فوزير الخارجية كولين باول يتجه إلى شبكتى فوكس وABC ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد يتحدث إلى شبكتى CBS و CNN أما مستشارة الأمن القومى فذهبت إلى الصحفى الشهير تيم راسيرت بشبكة NBC لعلها تفلح فى إصلاح ما أفسده رئيسها فى البيت الأبيض عندما ظهر مع راسيرت قبلها بأسابيع ليبدو تائها وغير قادر على الإجابة عن تساؤلاته الحادة بشأن قرار شن الحرب، وأسلحة العراق ذات الدمار الشامل.

هذا الهجوم الإعلامى المكثف استمر طوال الأسبوع الذى واكب ذكرى بدء الحرب فى التاسع عشر من مارس، وتواصل بعدها بكلمات من الرئيس بوش ومسئولى إدارته، وكلها كانت تسعى بشكل متناغم لتحديد مضمون الرسالة الإعلامية بشأن العراق، وعدم السماح بطغيان الرأى المعارض على موجات الأثير. أما مضمون تلك الرسالة فيتلخص فى نقاط أساسية تمثل إعادة صياغة للأسباب التى استخدمتها الإدارة كمبرر لشن الحرب. فلم تعد تتمثل فى مخزونات الأسلحة الكيماوية والبيولوجية التى تحدث عنها كولين باول أمام مجلس الأمن فى فبراير ٢٠٠٢، وقال دونالد رامسفيلد أمام الكونجرس إننا نعرف مكان وجودها. ولم تعد تطوير العراق للأسلحة النووية التى قال بوش وكوندوليسا رايس إننا لايمكن أن ننتظر دليلا على وجودها، لأن الدليل ربما يتمثل فى سحابة عيش الغراب، (وهو تعبير مجازى عن السحابة التى يشكلها

يشير كوردسمان إلى مايراه من ميل البعض فى العالم العربى لإنكار الحقائق فى العراق لما فى ذلك من ملاءمة سياسية. فهناك زعم بعدم وجود خلافات بين السنة والشيعة، وتجاهل الأكراد والأقليات الأخرى

التفجير النووى و تكون فى شكل عيش الغراب).

أقول لم تعد تلك هى المبررات التى استمعنا إليها مرارا وتكرارا قبل شن الحرب، واستبدل بها الحديث عن وجود برامج لدى العراق وقدرة على إنتاج تلك الأسلحة ، و عن أهمية الإطاحة بنظام حكم صدام حسين، حتى إنه عندما سئل رامسفيلد عما إذا كان الأمر يستحق التضحية بأرواح ٥٦٤ جنديا أمريكيا قتلوا فى العراق، أجاب بحسم : نعم بالتأكيد، لقد حررنا ٢٥ مليون عراقى من صدام حسين. وهى إجابة تتفق مع طبيعة رامسفيلد باستخدام عبارات مباشرة وأحيانا قاسية ، ولابد أنه تعرض عليها للوم من البيت الأبيض الذى تتضمن عباراته (سابقة التجهيز) التأكيد على أن الرئيس بوش يقدر حياة كل جندى، فهو الذى يعانق أهالى الضحايا ويتألم لألمهم ، كما يحرص على التأكيد بأن تضحياتهم لم تذهب هباء ؛ فقد كانوا يؤدون واجبهم بالدفاع عن الوطن، دون أن يوضح المتحدثون دفاعا ضد ماذا. ولا بأس هنا من إضافة عبارة عن مأساة الحادى عشر من سبتمبر ، وأن هؤلاء الجنود يضحون لكى لا نتعرض لهجوم مشابه.

وقد استخدمت إدارة بوش هذا الأسلوب كثيرا قبل شن الحرب لخلق الربط لدى المتلقى بين العراق وهجمات سبتمبر ، دون توجيه الاتهام للعراق مباشرة بالمسئولية عن تلك الهجمات، حيث تسلم الإدارة علنا بعدم وجود دليل على تورط العراق فيها. إلا أن هذ الربط غير المباشر بوضع العراق مع هجمات سبتمبر فى عبارة واحدة، نجح فى خلق الانطباع بوجود ارتباط حقيقى بينهما، حتى إن سبعين فى المائة من الأمريكيين كانوا يعتقدون بأن للعراق علاقة بتلك الهجمات، وذلك حسب بعض الاستطلاعات التى أجريت منذ عدة أشهر. لذلك، فرغم اقتناع أغلبية الأمريكيين بأن إدارة بوش بالغت فى قضية الأسلحة العراقية إلا أن حوالى ستين فى المائة يعتقدون أن واشنطن فعلت الشىء الصحيح وإن كانت هذه القناعة قد اهتزت إلى حد ما بسبب التركيز على هذه القضية فى الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطى.

أهم نتائج هذه الانتخابات هى أنها ساعدت على تحديد ملامح موقف مختلف للديمقراطيين فيما يتعلق بالعراق. وعلينا أن نتذكر هنا أن نسبة كبيرة من الديمقراطيين فى الكونجرس صوتوا لصالح قرار يعطى الرئيس بوش تفويضا كاملا بشن الحرب، وكانوا بشكل عام لا يجرؤون على انتقاد سياسة بوش بشكل صريح فى أى قضية تتعلق بالأمن القومى . ورأينا بعض الأعضاء البارزين مثل السناتور جو بايدن، و زعيم الأقلية بمجلس الشيوخ توم داشل يسردون كل الأسباب التى تبرر التصويت ضد هذا القرار ، ثم يصوتون فى النهاية لصالحه. ينطبق ذلك أيضا على السناتور جون كيرى الذى ضمن ترشيح الحزب الديمقراطى له لمواجهة بوش فى انتخابات الرئاسة القادمة. إلا أن مواقف كيرى ومنافسيه فى الانتخابات التمهيدية تشكلت إلى حد كبير بصعود نجم حاكم ولاية فيرمونت السابق هوارد دين ، الذى تزعم الحملة المناهضة لهذه الحرب، ووجد صدى كبيرا بين القاعدة الشعبية للديمقراطيين، مما اضطر كيرى و جون إدواردز و ريتشارد جيبهارت وآخرين إلى تغيير لغة خطابهم جزئيا بالتركيز على انتقاد الطريقة التى ذهب بها بوش إلى الحرب دون تشكيل تحالف دولى قوى، مع انتقاد أسلوب إدارته لشئون العراق فى مرحلة مابعد صدام حسين. ومن المتوقع أن تشغل هذه المسألة مساحة كبيرة من اهتمام الرأى العام، ووسائل الإعلام فى الأشهر الباقية حتى إجراء الانتخابات فى نوفمبر القادم. إلا أنه ينبغى ألا يخفى غبار المعركة الانتخابية حقيقة مهمة : هى أن الديمقراطيين بترشيحهم جون كيرى على حساب هوارد دين، قد اختاروا مواجهة بوش فى أمور تتعلق بالتكتيك وليس الاستراتيجية. أو بمعنى آخر فإن الجدل المتصاعد من الآن وحتى نوفمبر لن يكون مرتبطا بفكرة الحرب ذاتها بقدر ما سيركز على أسلوب التوجه إلى الحرب، وإدارتها والتخطيط للمرحلة اللاحقة لها. هذا يرتبط بالطبع بالحملة الرئيسية لجون كيرى، ولن يمنع ذلك استمرار ارتفاع أصوات شخصيات بارزة مثل عضوى مجلس الشيوخ إدوارد كيندى وروبرت بيرد ، ونائب الرئيس السابق آل جور متهمة بوش بخداع الشعب الأمريكى ، أو الكذب فى إعطاء مبررات وهمية لشن الحرب. صحيح أن العبارة الأمريكية القديمة تؤكد على ضرورة أن تتوقف الصراعات السياسية الداخلية عند الحدود البحرية للولايات المتحدة، إلا أنه فى هذا الزمن لم يعد هناك مفر من تسييس كل شىء، بما فى ذلك هجمات الحادى عشر من سبتمبر التى وضعها الرئيس بوش فى أحد إعلاناته لتذكير الأمريكيين بمخاطر هذه المرحلة التى تحتاج إلى قيادة حاسمة. ورغم انتقاده من قبل أهالى الضحايا، إلا أن الرئيس الأمريكى تمسك بموقفه ، فهذه هى نقطة قوته لدى الناخبين، ولن يتخلى عنها من أجل إرضاء بعض أهالى الضحايا فى نيويورك التى ستصوت لصالح المرشح الديمقراطى فى كل الأحوال.

احتمالات نشوب حرب أهلية

إلا أنه بعيداً عن الصراعات الانتخابية وعباراتها الصاخبة، ينبغى الوقوف عند بعض الحقائق فيما يتعلق بالموقف تجاه العراق:

فهناك اتفاق بين مختلف التيارات السياسية الرئيسية، الأمريكية وحتى بين الذين عارضوا الحرب منذ البداية، على أن القوات الأمريكية أصبحت موجودة بالفعل فى بغداد، ولا مجال للتراجع عن ذلك أو الانسحاب دون استكمال مهمتها. فذلك سيؤدى إلى تدهور الوضع الأمنى فى العراق وخلق فراغ سياسى قد يؤدى إلى نشوب حرب أهلية بين الطوائف المختلفة فى العراق. إلا أن المهم هنا هو إمكانية وقوع تلك الحرب حتى مع وجود القوات الأمريكية فى العراق. صحيح أن جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية CIA استبعد ذلك فى شهادة له مؤخرا بمجلس الشيوخ ، إلا أن احتمالاتها تظل قائمة لدى عدد من المتخصصين فى شئون المنطقة، ومنهم أنتونى كوردسمان الخبير البارز بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن. وقد التقيت بكوردسمان بعد عودته من العراق ، حيث أعد دراسة مهمة عن الوضع الاستراتيجى هناك بعد الغزو، سأعرض لأجزاء منها فيما بعد. وعندما سألته عن رأيه فيما يثار بشأن إمكانية وقوع حرب أهلية قال بعبارات قصيرة محددة: «إن هذا الخطر حقيقى وممكن، لكنه ليس بالضرورة الأكثر احتمالا. فإذا أدركنا وجود هذا الخطر، وعمل العراقيون والولايات المتحدة والأمم المتحدة وآخرون على تجنبه، فإنه ربما يكون من الممكن منع هذه الكارثة. أما إذا أنكر الناس وجود المشكلة فإن ذلك لن يساعد ، بل قد يؤدى إلى تفاقم الوضع».

وهنا يشير كوردسمان إلى مايراه من ميل البعض فى العالم العربى لإنكار الحقائق فى العراق لما فى ذلك من ملاءمة سياسية. فهناك زعم بعدم وجود خلافات بين السنة والشيعة، وتجاهل الأكراد والأقليات الأخرى. وهنا يعود كوردسمان لاستعراض بعض الأمور التاريخية، فالانشقاق بين السنة والشيعة كما يقول كان أحد الأسباب التى دعت بريطانيا ، القوة المستعمرة فى ذلك الوقت ، لإقامة دولة العراق، فى محاولة لاستغلال الأقلية السنية على حساب الأغلبية الشيعية اتباعا للتكتيك الاستعمارى التقليدى: (فرق تسد). وقد استمر ذلك مع وجود نخبة سنية تحت قيادة صدام حسين، إلا أنها لم تكن نخبة واسعة ، بل عناصر من مناطق شمال وغرب بغداد. وآثار هذه التوترات تظهر الآن، مثلما حدث بشكل مختلف فى يوغوسلافيا بعد وفاة الرئيس تيتو. ويستدل كوردسمان على رأيه بدراسة أجرتها وزارة الخارجية الأمريكية فى شهر يناير الماضى. فعندما سئل العراقيون عن أكثر مايخشونه فيما يتعلق بالأمن والاستقرار، كانت إجابة الأغلبية تشير إلى تصاعد الاشتباكات بين القوات

عام على الغزو



أولى حروب القرن

الأمريكية وعناصر المقاومة باعتبارها عنصر القلق الأمنى على المدى القصير، أما القضية الأخطر لديهم فكانت وقوع صراع بين السنة والشيعة. وهنا يقول كوردسمان: إذا كان العراقيون يخشون ذلك الصراع، فإنه يجب على الجميع أن يخشاه.

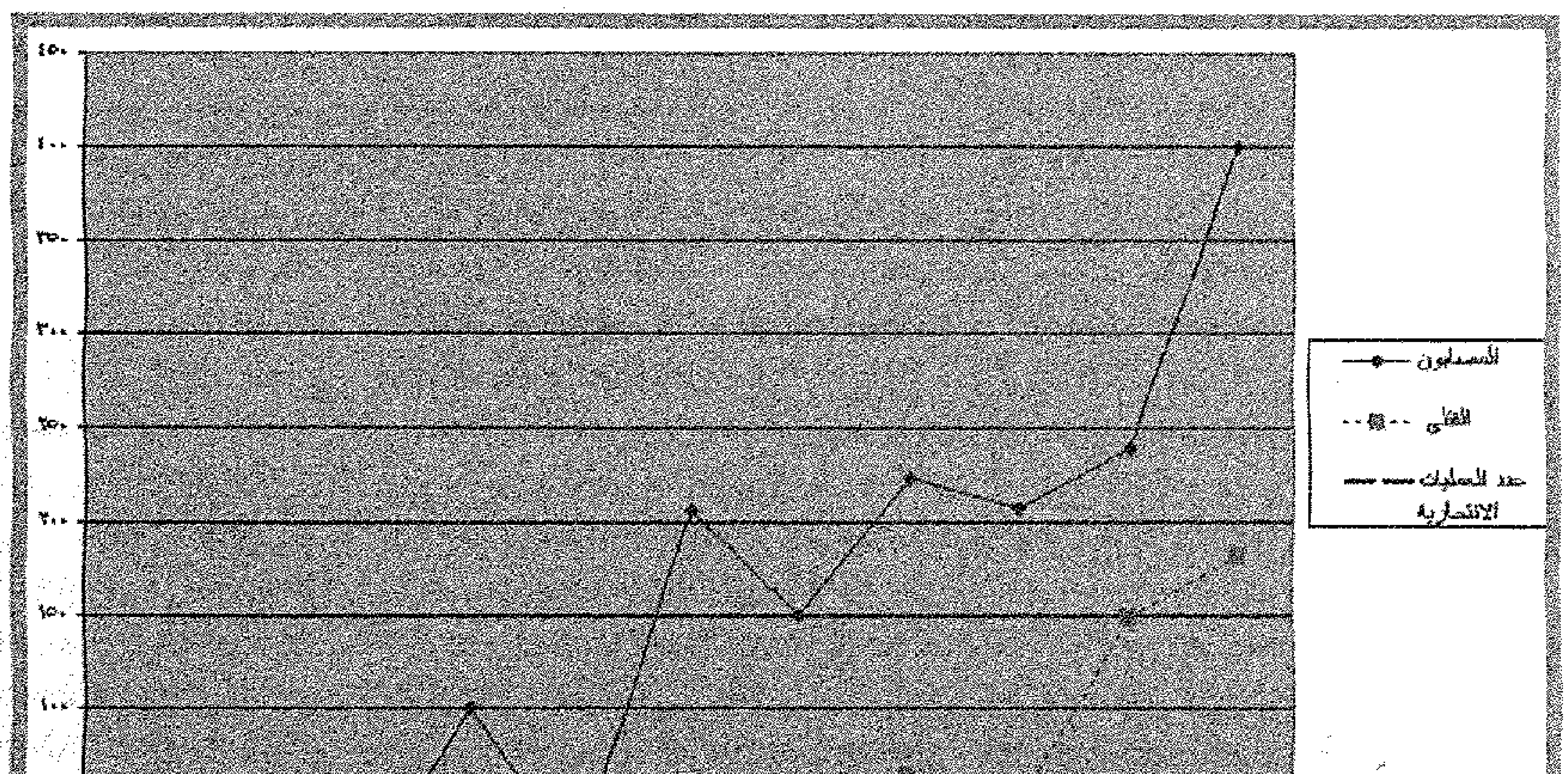
تزايد الضحايا

من المدنيين العراقيين

❖ ما قاله كوردسمان تؤيده الأرقام والإحصاءات التى حصلت عليها من مؤسسة بروكينجز بواشنطن. فنظرة سريعة إلى تلك الأرقام تشير إلى تزايد خطير فى عدد القتلى والجرحى من المدنيين العراقيين فى العمليات الانتحارية، ووصل إلى ٥٦٦ قتيلا و ١٥٤٧ جريحا (هذه هى الأرقام حتى العاشر من مارس، ولاتشمل ضحايا ما وقع بعدها من عمليات). والأمر الخطير ليس فقط فى ارتفاع هذا الرقم الإجمالى، ولكن فى تزايده المطرد من شهر لآخر، وتوجه العمليات إلى استهداف فئات معينة على أساس عرقى أو دينى، مثلما حدث فى التفجيرات الأخيرة فى شهر مارس فى كل من بغداد و كربلاء التى أسفرت عن مصرع ١٨١ شخصا وإصابة ٤٠٠ آخرين من بين الشيعة، وكذلك اغتيال أحد أئمة السنة، وبعض التفجيرات فى المناطق الكردية. ويلفت النظر هنا أن عدد الهجمات قل فى هذا الشهر، لكن عدد الضحايا ارتفع، وهو مايشير إلى تحسن فى التكتيكات المستخدمة، وتوجهها إلى إحداث أكبر قدر من الخسائر بما يحدث صدمة تخدم أهداف المسئولين عن تلك العمليات، و التى قد يكون من بينها إشعال الصراعات الداخلية بين فئات المجتمع العراقى. إن هذه النتيجة لا مهرب منها إذا نظرنا إلى الإحصاء الثانى الذى لا يقل أهمية، الخاص بالقتلى بين الجنود الأمريكيين وكذلك عدد المصابين منهم. فالخط البيانى لها يشير إلى انخفاضها التدريجى بشكل واضح، وهذا يعود بدون شك إلى نجاح بعض التكتيكات (الأساليب) الجديدة التى تتبعها القوات الأمريكية لتفادى متفجرات الطرق، أو تقليل فرص استهداف طائرات الهليوكوبتر التى أدى إسقاط عدد منها فى شهر نوفمبر الماضى إلى وقوع أكبر نسبة من الخسائر بين القوات الأمريكية. إلا أن المهم أيضا كما تشير هذه الأرقام، وكما يقول أنتونى كوردسمان هو حدوث تحول أساسى فى شكل العمليات العسكرية لما يوصف بعناصر المقاومة فى العراق من التركيز على القوات الأمريكية، لتصبح صراعا بين العراقيين أنفسهم. ولا توجد إحصاءات دقيقة فى هذا الشأن إلا أن كوردسمان يؤكد أن أغلب القتلى العراقيين خلال الأشهر الماضية، قتلوا بأيد عراقية وليس أمريكية. هذا بدوره يثير التساؤل حول طبيعة المقاومة العراقية، وعناصرها المختلفة، و حقيقة أهدافها من تلك العمليات. وقد ذكر الجنرال جون أبى زيد قائد المنطقة الوسطى المسئول عن منطقة الشرق الأوسط بما فيها العراق، أن العدد الإجمالى لعناصر المقاومة يصل إلى حوالى خمسة آلاف شخص. وكثيرا ما يذكر أنهم يمثلون عناصر من البعثيين السابقين أو الحرس الجمهورى من مؤيدى صدام حسين، أما المجموعة الثانية فهى المقاتلون الأجانب. ونتوقف أولا عند المجموعة الأولى حيث يعتقد الخبير الأمريكى جيرولد بوست إن اعتقال الرئيس العراقى المخلوع وظهوره على شاشات التلفزيون بينما يفحص الطبيب شعره وأسنانه بهذه الصورة المنفرة أنهى هالته كزعيم بما يجعل أيا من مؤيديه يتساءل: هل هذا هو الشخص الذى كنت أتبعه وأرتعد منه طوال السنوات الماضية؟ وجيرولد بوست هو أحد العلماء المعدودين فى علم النفس السياسى، وقام بتأسيس ورئاسة مركز خاص لدراسة نفسية بعض الزعماء السياسيين، فى وكالة الاستخبارات المركزية CIA وركز دراساته بشكل خاص على شخصية صدام حسين. و بوست لهذا السبب يعتقد أن أتباع صدام الذين يواصلون المقاومة فى العراق لايفعلون ذلك من أجله الآن، ولكن بحثا عن السلطة والنفوذ لأنفسهم.

وقد ثار جدل فى الأوساط الأمريكية بشأن قرار بول بريمر رئيس الإدارة المدنية الأمريكية فى العراق بحل الجيش العراقى، وهو ما يخالف الخطة التى كان قد وضعها سلفه الجنرال المتقاعد جى جارنر، وقد أدى هذا القرار إلى فقدان الآلاف من جنود الجيش العراقى وظائفهم ومصادر دخلهم بما جعلهم مصدرا للقلاقل، بدلا من استخدامهم فى حفظ الأمن المتدهور فى البلاد. إلا أن وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد دافع مؤخرا عن قرار حل الجيش، باعتبار أنه كان قد حل أصلا مع نهاية العمليات العسكرية الرئيسية، ولم يكن من الممكن استخدامهم لحفظ الأمن. إلا أن هناك فارقا بين توليهم حفظ الأمن، وتجنب أن يكونوا هم أنفسهم مصدرا للإخلال بالأمن، وهو ما ساهم قرار حل الجيش فى حدوثه. إلا أن رامسفيلد بما هو معروف عنه من جرأة فى تصريحاته لم يشأ أن يعلن السبب الحقيقى، وهو كما ذكره راؤول جيريكت بمعهد انتربرايز، ألا يسمح باستمرار سيطرة السنة على الجيش كما كان الحال فى عهد صدام حسين، لأن ذلك كان سيثير غضب الشيعة والأكراد. وقد حاولت الإدارة الأمريكية فى العراق إعادة تشكيل قوات لسد الفراغ الأمنى وتخفيف العبء عن القوات الأمريكية خاصة مع امتناع دول كثيرة عن المشاركة بعدد كبير من القوات. وتم بالفعل تشكيل قوات أمنية يتجاوز حجمها مائتى ألف جندى. ويعزى الفضل جزئيا لهذه القوات فى تقليل حجم الإصابات

عدد العمليات الانتحارية فى العراق منذ الأول من مايو حتى العاشر من مارس ونتائجها



الشهر	عدد العلميات الانتحارية	القتلى	المصابون
مايو	٠	٠	٠
يونيو	٠	٠	٠
يوليو	٠	٠	٠
أغسطس	١	٢٢	١٠٠
سبتمبر	٢	١	٢١
أكتوبر	٩	٥٤	٢٠٦
نوفمبر	٤	٤٨	١٥٠
ديسمبر	١٢	٦٤	٢٢٣
يناير	٦	٤٧	٢٠٧
فبراير	١٦	١٤٩	٢٤٠
مارس ١٠	٤	١٨١	٤٠٠
العدد الاجمالى للمصابين	٥٤	٥٦٦	١,٥٤٧

المصدر: مؤسسة بروكينجز بواشنطن

بين الجنود الأمريكيين، وهو ما أشار إليه وزير الخارجية كولين باول فى جلسة استماع مؤخرا بمجلس الشيوخ. وقد تم توزيع هذه القوات على خمسة أفرع هى: الشرطة ويصل حجمها نحو ٧٧ ألف جندى، وفرق الدفاع المدنى: ٢٨ ألفا، وحرس الحدود: ١٨ ألفا، و حماية المنشآت: ٧٤ ألفا. إلا أن القوة الخامسة وهى الجيش لم يتجاوز حجمها ألفى جندى، بينما كان الهدف المبدئى لها نحو أربعين ألفا. وهو ما يعكس المشاكل الأمريكية فى تشكيل جيش عراقى، خاصة مع ما حدث من تهرب أغلب الجنود من الخدمة لعدم رضاهم عن مستوى الأجور، مقارنة بالأفرع الأخرى. وعندما سألت رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة الجنرال ريتشارد مايرز عن هذا الأمر أجاب بأن الجيش العراقى يجب ان يختلف عن الجيش السابق، بحيث تتركز مهمته فى حماية العراق من التهديدات الخارجية، ولا يشمل ذلك قمع العراقيين كما كان يحدث من قبل. وأضاف أن الأولوية أعطيت لتوفير الأمن الداخلى فى هذه المرحلة، لكن هذا لايعنى تجاهل الجيش الذى قال إنه سيتم تدريب عشرات الآلاف من المنضمين إليه فى خريف هذا العام.

تسيب بين القوات العراقية

إلا أن المثير للقلق حقيقة للجانب الأمريكى هو أن الأعداد الغفيرة للقوات العراقية بأفرعها المختلفة لا تعنى الكثير. فقد عاد كينيث بولاك، خبير الشئون العراقية السابق بوكالة الاستخبارات المركزية، والمحلل السياسى حاليا بمعهد بروكينجز، من زيارة للعراق مؤخرا ليتحدث عن نقص التدريب، والتسيب وعدم الانضباط بين الجنود، حتى إن نسبة كبيرة منهم لا تظهر إلا لقبض رواتبها، ثم تعود للاختفاء. كما أشار إلى استشراء الفساد بين نسبة كبيرة من العاملين فى هذه الخدمات الأمنية المهمة. وهو لذلك يفضل لو أن المسئولين هناك جندوا نصف هذه الأعداد، واهتموا أكثر بتدريبها وانضباطها، فهذا كما يقول كان سيؤدى إلى نتيجة أفضل من الناحية الأمنية.

* أما المجموعة الثانية للمقاومة العراقية فقد كثر حولها الكلام خلال الأسابيع والأشهر الماضية وهى تتعلق بالعناصر الأجنبية من الإسلاميين فى العراق وتتهم بالمسئولية عن بعض التفجيرات التى تزايد عددها فى الفترة الأخيرة. وقد سألت الجنرال مايرز عن تقديراته لعدد الأجانب فى العراق فقال إنهم حوالى ألف شخص، إلا أنه أشار ساخرا إلى أن ذلك الرقم غير دقيق، لأن هذه العناصر لاتسجل أسماءها فى الإحصاءات الرسمية. ومايرز يعتقد أيضا بعلاقة هؤلاء «الجهاديين الأجانب» بمنظمة القاعدة، وبتورطهم فى التفجيرات الأخيرة، مدللا على ذلك بالخطاب الذى سقط فى أيدى القوات الأمريكية من أبو مصعب الزرقاوى فى العراق إلى قيادة منظمة القاعدة، يطلب فيه مساندتها لعملياتهم التى قال إنها تهدف لخلق صراع بين الشيعة والسنة لخلخلة الأمن.

و أبو مصعب الزرقاوى هذا حظى باهتمام كبير منذ ورد اسمه فى البيان المهم الذى أدلى به وزير الخارجية كولين باول فى شهر فبراير من العام الماضى أمام مجلس الأمن الدولى. و قد ذكر باول حينها أن الزرقاوى موجود فى العراق وذلك فى إطار محاولة الربط بين منظمة القاعدة التى قيل إن الزرقاوى على اتصال بها، ونظام حكم صدام حسين.

مبالغة فى تقدير دور الأجانب

إلا أن المتابعة الدقيقة لوضع الأجانب فى العراق، تشير أيضا إلى إمكانية وجود بعض المبالغة فى تقدير دورهم. وقد عدت للأرقام التى أوردها أنتونى كوردسمان فى دراسته التى سبقت الإشارة إليها، فوجدت أنه تم إلقاء القبض على اثنى عشر ألفا للاشتباه فى انتمائهم للمقاومة، كان من بينهم خمسمائة فقط من الأجانب، وكان المشتبه فى وجود علاقة لهم بالقاعدة لا يتجاوز عددهم ٢٥ شخصا، وكان الاشتباه القوى قاصرا على خمسة أفراد فقط. وتجب الإشارة هنا إلى أن هذه الأرقام روجعت فى ديسمبر الماضى، وهى تحتمل بعض التعديل الآن بالزيادة، لكنها لن تغير كثيرا من النسب الموجودة خاصة للأجانب.

وهنا يحدث خلط كثير بين القاعدة وما يحدث فى العراق كما يقول أنتونى كوردسمان.

حيث تتم الإشارة إلى الإسلاميين المتطرفين باعتبارهم ينتمون إلى القاعدة بشكل آلى.

ويضيف الخبير الأمريكى أن ارتباط شخص ما بالقاعدة أو حصوله منها على أموال، لا يعنى بالضرورة أنه عضو فيها بالمعنى الضيق.

فهناك جماعات متطرفة كثيرة فى العراق لديها استعداد للقيام بهجمات وتفجيرات واسعة النطاق، دون أن تكون مرتبطة بالقاعدة بشكل مباشر.

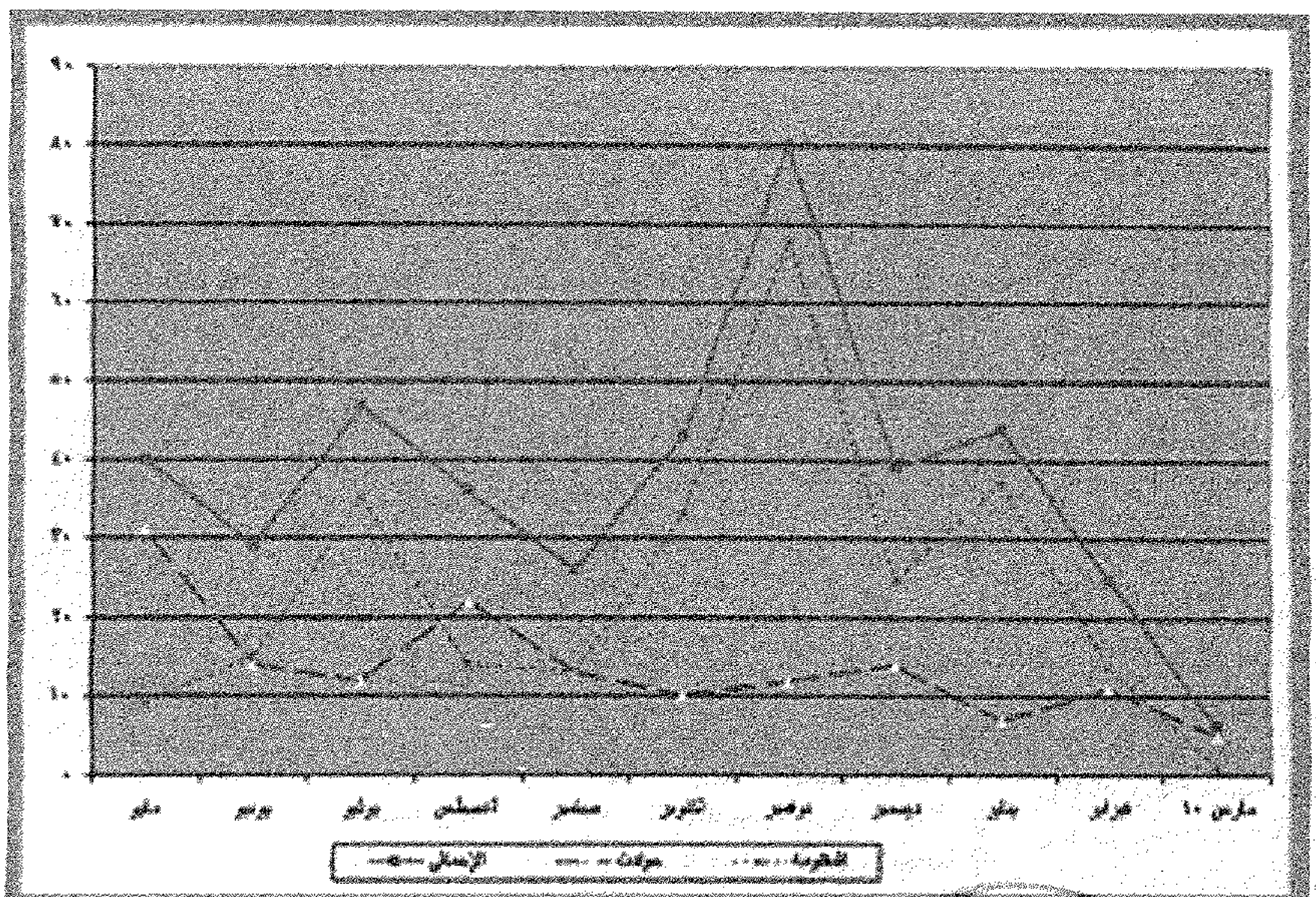
* وربما يكون الربط بين القاعدة وما يحدث فى العراق الآن ملائما سياسيا لإدارة الرئيس بوش.

فقد حاولت أجهزة عديدة الربط بين حكومة صدام حسين وهجمات الحادى عشر من سبتمبر، لكنها فشلت فى ذلك، رغم تأكيدات مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق جيمس وولزى على أن لقاء تم بين محمد عطا أحد المشاركين فى تلك الهجمات، ومسئول فى الاستخبارات العراقية. إلا أن مدير «السى آى إيه» الحالى جورج تينيت شهد فى جلسة استماع بالكونجرس مؤخرا بأنه لا يوجد دليل على ذلك.

وإن كان ارتفاع نسبة

القتلى الأمريكيون فى العراق منذ الأول من مايو ٢٠٠٣

	المقاومة	حوادث	الاجمالى
مايو	٩	٣١	٤٠
يونيو	١٥	١٤	٢٩
يوليو	٣٥	١٢	٤٧
أغسطس	١٤	٢٢	٣٦
سبتمبر	١٣	١٣	٢٦
أكتوبر	٣٣	١٠	٤٣
نوفمبر	٦٨	١٢	٨٠
ديسمبر	٢٥	١٤	٣٩
يناير	٣٧	٧	٤٤
فبراير	١٤	١١	٢٥
مارس ١٠	١	٥	٦
إجمالى القتلى	٢٦٤	١٥١	٤١٥



الأمريكيين الذين يعتقدون بأن للعراق دورا فى هجمات سبتمبر مؤشرا على نجاح جهود الإدارة فى الربط بين العراق والإرهاب، وهو ما استخدمته كأحد مبررات شن الحرب، بحجة تفادى وقوع أسلحة العراق ذات الدمار الشامل فى أيدى عناصر إرهابية.

والمدهش أن ريتشارد بيرل أحد مهندسى الحرب ضد العراق، والرئيس السابق لمجلس سياسات الدفاع فى البنتاجون، اتخذ من الهجمات التى وقعت فى العاصمة الإسبانية مدريد، دليلا على ذلك الارتباط بين القاعدة وصدام حسين، فالبيان المزعوم لمنفذى الهجمات يقول إنها جاءت ردا على مساندة إسبانيا للولايات المتحدة فى العراق.

وهكذا يعتبر بيرل أن رفض تلك العناصر لوجود القوات الأمريكية فى العراق، هو فى ذاته تأييد لصدام حسين، يؤكد علاقتها به. وهو خلط متعمد تعودنا عليه كثيرا فى الاشهر التى سبقت الحرب وبعدها.

إلا أن القول بوجود أنشطة للقاعدة فى العراق، أصبح فى ذاته سلاحا ذا حدين، حيث يستخدم ذلك الآن من قبل الديمقراطيين، ومرشحهم للرئاسة جون كيرى، للتأكيد على أن سياسة بوش حولت العراق إلى بؤرة للإرهاب جذبت إليها عناصر القاعدة وغيرها من الإسلاميين الذين فشلوا فى إصابة أهداف داخل الولايات المتحدة، واكتشفوا فى العراق طريقا أقرب وأسهل لضرب المصالح الأمريكية.

هل حققت واشنطن أهدافها؟

إذا اعتبرنا أن الإطاحة بصدام حسين فى ذاتها تمثل هدفا استراتيجيا، فمن تحصيل الحاصل القول إن الولايات المتحدة نجحت فى تحقيق هذا الهدف، ولكن باستثناء ذلك تبدو الأهداف الأمريكية الأخرى أقل وضوحا فى طبيعتها أو مدى النجاح فى تحقيقها.

أنتونى كوردسمان يقول إن الولايات المتحدة نجحت فى منع العراق من انتاج أو نشر الأسلحة، ولكن أى أسلحة تلك؟

ماذا إذن عن القضاء على التهديد العراقى الملح؟ هنا يسلم كوردسمان بأن واشنطن فشلت فى ذلك، فالتهديد الملح لم يكن له وجود أصلا. (يلاحظ هنا أن الإدارة الأمريكية غيرت إلى حد ما من توصيفها لطبيعة التهديد العراقى. فقد تحول من كونه تهديدا ملحا أو وشيكا، إلى القول الآن بأنه لم يكن من الممكن الانتظار إلى أن يصبح الخطر وشيكا، كما ورد فى خطاب أخير للرئيس بوش بقاعدة عسكرية بولاية كينتاكى)

❖ الهدف الاستراتيجى الآخر لواشنطن كان مرتبطا بالإرهاب، ومنع إمكانية وقوع أسلحة العراق ذات الدمار الشامل فى أيدى الإرهابيين. وعلى فرض أن العراق كانت لديه بالفعل هذه الأسلحة، فهو كما قال لى مستشار الامن القومى السابق برنت سكوكروفت الذى يعمل حاليا كمستشار للرئيس بوش لشئون الاستخبارات الخارجية، قال إن العراق يمثل مشكلة، لكنها ليست مشكلة إرهابية.

❖ أما عن الهدف الاستراتيجى بتحويل العراق إلى دولة ديمقراطية عصرية تتمتع بالحريات، وباقتصاد السوق الحرة، فإن هذا الأمر كما يقول أنتونى كوردسمان، يستغرق سنوات طويلة وربما عقودا لكى يتحقق، وسوف يتعين على الولايات المتحدة أن تغادر قبل أن تظهر نتائج هذه التحولات إلى النور.

❖ أحد الأهداف التى تحدث عنها كوردسمان أيضا هو إزالة تهديد عسكرى محتمل لإسرائيل، إلا أنه يشكك فى أن يكون النظام الجديد أكثر تعاطفا مع إسرائيل من أى دولة عربية أخرى.

وحقيقة الأمر أن العامل الإسرائيلى لايمكن إغفاله هنا، رغم عدم اتفاقنا مع القول بأن العراق المحاصر المنهك كان يمثل تهديدا حقيقيا أو محتملا لإسرائيل، ومع هذا فإن المؤكد أن أنصار إسرائيل فى واشنطن دفعوا بقوة تجاه هذه الحرب. وقد كانت إحدى حججهم العلنية، أن الإطاحة بنظام صدام حسين سيضعف من القوى الراديكالية فى المنطقة، بما يساعد على تحقيق السلام. فالطريق إلى القدس كما قالوا، يمر عبر بغداد. والآن يبدو هذا الكلام ساذجا مع تصاعد العنف فى الأراضى الفلسطينية أكثر مما كان عليه، بما يؤثر سلبا على فرص الاستقرار فى العراق، حتى إن وزير الدفاع السابق ويليام كوهين قلب العبارة السابقة ليقول إن الطريق إلى بغداد، يمر عبر القدس.

الأمر اللافت للنظر هنا، أن تلك المجموعة من مؤيدى إسرائيل هى التى تقول الآن إنه لا سلام فى المنطقة بدون تحقيق الديمقراطية فى الدول العربية. وهذا يجرنا إلى النقطة التالية، التى يكررها الرئيس بوش فى كل أحاديثه الآن، وهى أن العراق يمثل نموذجا يحتذى به فى العالم العربى فى عملية الإصلاح والتحول الديمقراطى. إلا أن هذا يستدعى أولا نجاح هذا التحول فى العراق.

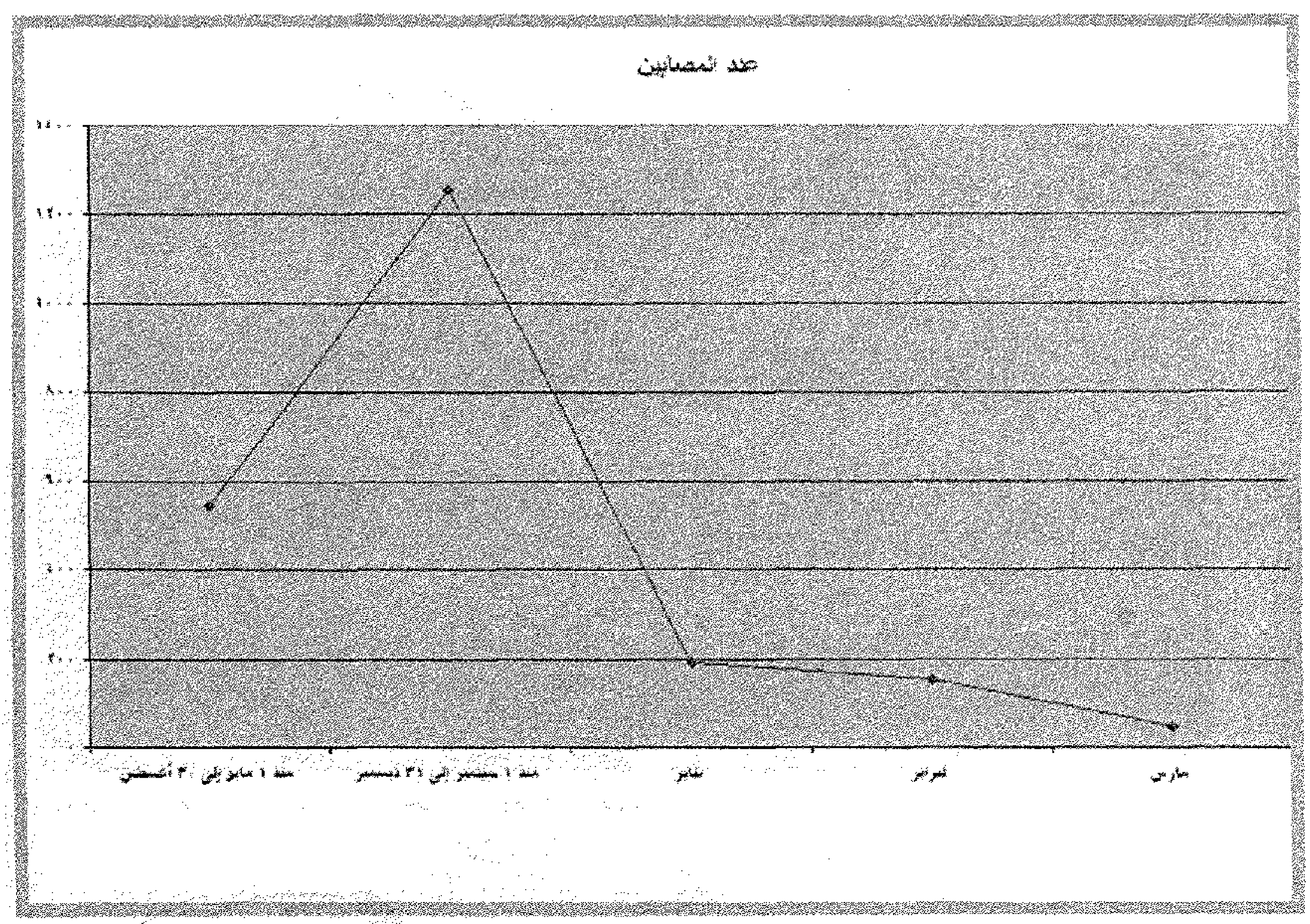
وواشنطن تحتفى كثيرا هذه الأيام بالتوقيع على الدستور العراقى المؤقت باعتباره إنجازا مهما على هذا الطريق. لكن توقيع أعضاء المجلس الحاكم الذين عينتهم واشنطن على تلك الوثيقة شىء، وخلق ديمقراطية تستند للتعددية والحريات المدنية وحقوق الإنسان واقتصاد السوق، والتوازن العرقى والطائفى فى الواقع العراقى المعقد شىء آخر تماما.

وهذا إن نجح فإنه سيستغرق وقتا طويلا، لا يعتقد كوردسمان كما ذكرنا سالفا أن الولايات المتحدة يمكنها أن تستمر فى العراق إلى أن يتحقق.

وحتى إن حدث ذلك، فإن الخبير الأمريكى يرى من غير المنطقى الحديث عن تطبيق التجربة العراقية فى أى دولة أخرى مجاورة.

فلكل دولة كما يقول ظروفها المختلفة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، بما يستدعى وصفة خاصة بكل دولة على حدة.

عدد المصابين الأمريكيين فى العمليات العسكرية منذ الأول من مايو



الفترة الزمنية	عدد المصابين
منذ ١ مايو إلى ٣٠ أغسطس	٥٤٧
منذ ١ سبتمبر إلى ٣١ ديسمبر	١،٢٥٦
يناير	١٩١
فبراير	١٥١
مارس	٤٤
العدد الإجمالى حتى ١٠ مارس	٢،٢١٦

المصدر: مؤسسة بروكينجز بواشنطن

الاستخبارات الخاطئة:

مع عودة دافيد كي الرئيس السابق لفرق التفتيش الأمريكية عن أسلحة العراق ذات الدمار الشامل بتقرير يؤكد عدم العثور على تلك الأسلحة ، بدأت زوبعة سياسية زاد منها المنافسة بين المرشحين الديمقراطيين فى انتخابات الرئاسة. ووجهت الاتهامات المتعاقبة للإدارة بالتلاعب بالمعلومات الاستخبارية قبل الحرب لإقناع الرأى العام الأمريكى والكونجرس، بضرورة غزو العراق، تنفيذا لاستراتيجية الحرب الاستباقية التى تبناها بوش بعد هجمات سبتمبر.

أغلب الجمهوريين من جانبهم، ركزوا على ان ما حدث كان خطأ فى تقدير أجهزة الاستخبارات ، ساعد عليه تاريخ صدام حسين وعدم تعاونه مع فرق التفتيش الدولية بالكشف الكامل عما حدث لأسلحته. ولا تزال هذه القضية ساخنة وربما لن تهدأ قبل انتخابات نوفمبر القادم. إلا أن تأثيراتها الحقيقية ربما تنعكس على مفهوم الحرب الاستباقية ذاته. فإذا كانت الولايات المتحدة تصر على مهاجمة أى دولة أو جماعة تعتقد أنها تمثل تهديدا لها، فمن المهم أن تستند فى ذلك إلى معلومات استخبارية دقيقة، فلا يمكن شن الحرب بناء على تكهنات أو تخمينات. ولو استمعنا إلى مايقوله الرئيس بوش، فهو ببساطة يقول أنه لو علم قبل الحرب بما يعرفه الآن ، لما تردد فى فعل الشىء ذاته بمهاجمة العراق.

ولاشك أن بوش يعنى مايقوله. يؤكد ذلك ما أظهره من حسم وتصميم فى السنتين الماضيتين إلا أن المشكلة تبدو فى الدول التى تحتاج الولايات المتحدة إلى مساندتها فى الحرب ضد الإرهاب. فبعد الخلاف الكبير مع ثلاثى المعارضة: روسيا وفرنسا و ألمانيا، فإن بوش يواجه الآن تمردا من إسبانيا بقيادتها الاشتراكية الجديدة، وحتى بولندا التى تقود مجموعة من القوات متعددة الجنسيات، ألمح رئيسها لإمكانية سحب قواته مبكرا فى بداية العام الماضى، بعد أن ذكر أن بلاده خدعت فى مسألة الأسلحة العراقية.

ورغم بوادر التراجع البولندى عن هذا التهديد، فإن السؤال يظل قائما: ماذا لو طلبت واشنطن من تلك الدول مساندتها فى حملة مشابهة ضد إيران، أو سوريا أو كوريا الشمالية، بحجة أن هذه الدول تنتج أسلحة دمار شامل أو لأسباب أخرى؟

الأمر الواضح أنها ستواجه صعوبة أكبر حتى من تلك التى وجدتها فى بناء تحالف لمواجهة العراق.

تحالف الديمقراطيات:

ويقول الخبير الأمريكى كينيث بولاك إنه من خلال اتصالاته بعدد من المسئولين فى بعض الدول، لا يعتقد أن الحكومات الأجنبية سترد بأنها لم تعد تثق فى المعلومات المقدمة من واشنطن، فاستخبارات هذه الدول وصلت إلى نفس النتيجة الخاطئة بشأن أسلحة العراق، لكن هذه الحكومات ستتعرض لضغوط شعبية أكبر لمواجهة الضغوط الأمريكية، ورفض الانسياق وراء أى مغامرة عسكرية جديدة. فهذه كما يقول هى معضلة بناء التحالفات الديمقراطية. وهنا يجب أن نتوقف عند نتائج استطلاع هام للرأى العام فى أربع دول أوربية وأربع دول إسلامية بالإضافة للولايات المتحدة، أجرته مؤسسة PEW للأبحاث، وأشرفت عليه وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت. وقد أوضحت نتائج هذا الاستطلاع بما لا يدع مجالا للشك تزايد الفجوة الأطلسية بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين. فالأمر ليس متعلقا فقط بمعارضة أغلبية الشعوب الأوروبية للحرب على العراق، فقد زادت الحرب أيضا من حنق الأوروبيين على سياسات واشنطن، وأثرت سلبا على النظرة للولايات المتحدة فى أوروبا والعالم الإسلامى.

لقد تعودنا خلال العامين الماضيين على سماع الكليشيهات المحفوظة فى وسائل الإعلام الأمريكية عن أن النظرة المعادية للولايات المتحدة فى الدول الإسلامية ترتبط بافتقادها الديمقراطية، وأن المعلومات الصحيحة لا تصل إلى الناس لعدم توافر حرية الإعلام، وهى مبررات لايمكن تكرارها عن أوروبا، وهو مايعنى أن واشنطن تواجه تحديا كبيرا ليس فقط لكسب الشعوب الإسلامية، ولكن أيضا الشعوب الأوروبية. و مواجهة هذا التحدى لاتكون بالاكتفاء بإنشاء محطات تليفزيونية وإذاعية موجهة، ولكن بنظرة جادة و نقدية إلى الذات لاتكتفى بلوم الآخرين، بل تتفهم أسبابهم ودوافعهم وتستجيب لمخاوفهم ومشاكلهم مع السياسات الأمريكية، وهو ما يتطلب حوارا جادا فى الأوساط السياسية والفكرية والإعلامية بالولايات المتحدة. ومن المؤسف أنه بعد عام من غزو العراق، لم يكن لدى أحد وقت لذلك وسط غبار المعركة الانتخابية. ■

كوردسمان: عن العراق والمستقبل



• أعتقد أن جعل المجلس الحاكم مسئولاً عن أى شىء يعنى ببساطة إصابة العراق بالشلل. فأنا لا أرى فيه زعماء يمكنهم الزعم بتمثيل الشعب العراقى أو حتى إظهار قدرتهم على القيادة أو العمل معاً. وهم مهتمون أكثر بمناصبهم وبالبقاء فى السلطة أكثر من اهتمامهم بمصالح البلاد، لذلك يوجد الآن خياران لنقل السلطة: الأول هو توسيع المجلس الحاكم بضم عراقيين من غير العائدين من المنفى وهذا سيساعد على المدى القصير، أما الخيار الثانى فهو إجراء انتخابات بأسرع وقت ممكن، وليس بالضرورة فى يونيو أو يوليو، فالمهم هو تشكيل حكومة أكثر شعبية وأن تكون مسئولة أمام الشعب.

• المهم هو خلق فرص للعراقيين. فالبعض يتحدث عن دور صدام حسين فى إعادة تشغيل البنية الأساسية فى العراق، لكن أغلب الاستثمارات فى هذا المجال توقفت منذ عام ١٩٨٤ عندما كان تعداد سكان العراق ١٦ مليوناً، بينما تعداده الآن ٢٦ مليوناً. كذلك يتحدث البعض عن قدرات الشعب العراقى المتعلم جيداً، لكن نظام التعليم هناك انهار منذ عام ١٩٨٢. وهذا يعنى أن أكثر من ٤٠٪ من العراقيين ولدوا بعد انهيار التعليم؛ مع تصاعد الحرب العراقية الإيرانية. والآن أمام العراقيين الفرصة للتحرك للأمام نحو التنمية والديمقراطية وبمساعدات أجنبية كبيرة، لكن ذلك سيستغرق عقداً من الزمان على الأقل لتحقيق النجاح والاستقرار.

• العراق لن يكون نموذجاً للتغيير والإصلاح فى المنطقة، فهناك ٢٣ دولة لها نظم سياسية متنوعة، ومستويات مختلفة للتنمية، كما أن التغيير سيأتى أساسا من داخل كل دولة على حدة. والتجربة التاريخية للتنمية بعد الحرب العالمية الثانية تثبت أن الدول التى التزمت بالإصلاح الاقتصادى والديمقراطى حققت تقدما سريعا كما حدث فى آسيا، أما الدول التى انتظرت الآخرين، أو اعتمدت على المساعدات الخارجية فهى إما تجمدت فى موقعها ، أو تأخرت.

• بعد عام من الآن، أتوقع أن تكون الانتخابات أجريت، مع استمرار التوتر، ربما تكون هناك عمليات مقاومة ، ولكن بدرجة أقل. الإصلاحات الاقتصادية ستكون بدأت، ولكن مجرد بداية.

• إذا كان التفاؤل هو إنكار وجود التاريخ، أو أن القوى التى شكلته فى الماضى هى نفسها التى ستشكل المستقبل؛ فإننى لست متفائلاً. ولكن إذا كان هذا هو تعريف التفاؤل، فهو يقترب كثيراً من تعريف الحماقة.

• النظام الفيدرالى يضع قيودا على الأغلبية، ويعطى نفوذا للبعض يفوق نسبتهم السكانية. وهذا سيكون الأساس لإقامة دولة ديمقراطية فى العراق، لذلك فإن أغلبية السنة لن تكون من الخاسرين. فهى أساساً لم تكن لديها السلطة فى عهد صدام حسين، باستثناء عناصر قليلة من كوادر حزب البعث، بينما كانت أغلبية السنة تعانى مثل بقية الشعب العراقى، ونشأ جيل كامل من السنة فى عراق أفقره صدام حسين قبل حرب الخليج بفترة طويلة، واستمر الحال بعد ذلك مع العقوبات الدولية. ومن هنا فلو أن الحكومة الجديدة حفظت حقوق السنة وتحركت لتحقيق التنمية الاقتصادية؛ فإن الأغلبية العظمى من السنة ستكون هى الرابحة حتى لو لم يكن منها ديكتاتور مسيطر. ولكن من المهم الإشارة إلى أن الفراغ السياسى الذى نتحدث عنه هو موجود أساساً فى المناطق السنية، لأن القادة السنيين لايمكنهم الظهور وسط مقاومة عسكرية مستمرة، لذلك فإن عمليات المقاومة التى يخطط لها باسم حماية السنة أو استعادة سلطتهم، هى فى الحقيقة تضعف دورهم. على الأقل فى المستقبل القريب. فى تشكيل الحكومة والانتخابات.



من يطلق النار

الفلوجة: محمد عبد العاطى

اشتهر عن الرصاص فى العراق أنه غالبا مجهول النسب والهوية، وكثيرا ما يغلق ملف ضحيته بسرعة ويقيد الحادث ضد مجهول. فهل حقا من يطلق الرصاص فى العراق مجهول؟

كنت مهموما طوال أسبوعين قضيتهما فى العراق مؤخرا (٢٠ فبراير إلى ٣ مارس) بالبحث عن إجابة لهذا السؤال.

طرحته على كل من تسنى لى مقابلته هناك، سائقى السيارات، باعة الأسواق، رواد المقاهى، نزلاء الفندق، علماء الدين سنة وشيعة وصابئة ومسيحيين، سياسيين شيوعيين وليبراليين وإسلاميين، أمريكان عسكريين ومدنيين.

لكنى رغم كل ذلك لم أشعر بارتواء معرفى يقربنى ولو قليلا مما أريد. سمعت مئات القصص وعرضت على عشرات التفسيرات لكنها جميعا لم تكن مقنعة بالقدر الكافى، كثيرا ما اختلطت فيها المعلومات بالظنون، وتلونت التحليلات بميول وأهواء وتوجهات مصادرها.

وكثيرا أيضا ما شعرت -خاصة فى بعض الليالى التى كنت أقوم فيها فزعا على أصوات انفجارات أو طلقات أعيرة نارية تشق صمت ليل بغداد المخيف وتهتك ستره- أن رحلتى ستنتهى دون أن أعرف من وعلى من ولماذا وكيف ينطلق الرصاص فى العراق.

بت حقا فى حيرة من أمرى. هل أحزم أمتعتى وأرحل من هذا المكان حاملا معى تساؤلاتى الحائرة وأعود إلى بيتى وأولادى راضيا من الغنيمة بالإياب؟ أم أختم رحلتى بتلك المحاولة التى ترددت فى تنفيذها وحاولت أن أجد لنفسى الأعذار للابتعاد عن خوضها تارة تحت مبرر: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وتارة أخرى عملا بالمثل الشهير «من خاف سلم»؟

بالفعل كان القرار صعبا. اختلطت لدى قبل الإقدام عليه معانى الشجاعة بالتهور، وماعت تقديرات عواقب الأمور فلم أعد أعرف أهى مغامرة أم مخاطرة، وتلاشت الفواصل بين حقيقة الدوافع التى تحركنى.

لكنى فى النهاية لملمت كل خواطرى واستجمعت ما تبقى لدى من عزيمة وأخبرت السائق أننا سنتوجه فجر غد إلى إحدى أخطر بقاع العراق «مدينة الفلوجة» لنستكمل من هناك تكوينات مهمة فى الصورة، ونتحاور وجها لوجه مع أطراف مؤثرة تضغط على الزناد. وكان بالفعل تحركا يستحق، حيث أضاف لقراءة المشهد الكثير. وفى النهاية كانت بانوراما إطلاق الرصاص فى ساحة الرماية العراقية على النحو التالى:

أولا: الرصاص الأمريكى

أول أنواع الرصاص المنطلق فى ساحات الرماية العراقية هو الرصاص الأمريكى، وله من وجهة نظرى حالات ثلاث، اثنتان منها معلومتان لأنهما مشاهدتان للعيان والثالثة لا تزال تنتظر كشف اللثام لتخرج من كونها مجرد تخمينات إلى حيز الحقائق والمعلومات. ويمكن إدراج الحالات الثلاث هذه تحت العناوين التالية:

١. رصاص يستهدف عناصر للمقاومة مرصودة استخباراتيا أو غير مرصودة.

٢. رصاص عشوائى ضد المواطنين العاديين لأسباب سيأتى ذكرها.

٣. رصاص سرى «مباشر» يخدم أهدافا سياسية غير مرئية ورصاص «غير مباشر» ينطلق بعد أن تمهد له القوات الأمريكية البيئة وتحضر له الأجواء. ولكل حالة من الحالات الثلاث هذه دوافع خاصة وأساليب معينة.

بعد تحليل عشرات العمليات التى قامت بها القوات الأمريكية ضد المقاومة العراقية على مدى العام المنصرم يمكن القول إن هناك شكلين بارزين يتخذهما إطلاق الرصاص، الأول: يأتى بعد معلومات استخباراتية مسبقة تحصل عليها القوات الأمريكية تكنولوجيا بالتنصت على المكالمات التليفونية سواء أكانت عبر خطوط أرضية أو خطوط الهواتف الجوالة أو على أجهزة الفاكس والبريد الإليكترونى داخل العراق.

الرصاص الأمريكى المتسرع العشوائى أحد أبرز سمات مشهد إطلاق النار فى العراق فى البيئة التى يعمل فيها الجندى الأمريكى والمشاعر المسيطرة عليه طوال فترة إقامته وخدمته فى العراق

أو من خلال معلومات تأتيها فى تقارير يبعث بها عملاء عراقيون يعملون فرادى أو تابعين لمؤسسات أو أحزاب قائمة بذاتها (سألت العضو الديمقراطى فى مجلس الشيوخ الأمريكى هيلارى كلنتون الأميرال لويل جاكوبى رئيس وكالة استخبارات الدفاع فى جلسة استماع عقدتها لجنة القوات المسلحة بالمجلس فى شهر مارس ٢٠٠٤: هل تدفعون أموالا لحزب المؤتمر الوطنى العراقى (٣٤٠ ألف دولار شهريا) نظير معلومات استخباراتية؟ فرد عليها قائلا «إنك تضعيننى فى موقف الأفضل فيه أن يتم تناول هذا الأمر فى جلسة مغلقة حيث أستطيع أن أقدم لك التفاصيل» وفى يوم الأحد ٢٠٠٤/٣/٨ سألت محطة CBS الأمريكية رئيس الحزب أحمد الجلبى عن حجم هذه الأموال فرد قائلا «إنه برنامج صغير جدا فى ما يتعلق بالتكلفة».

وبعد الحصول على المعلومات الاستخباراتية هذه تستعد القوات الأمريكية للانتقال إلى أماكن خلايا المقاومة، وفى الغالب يكون هذا ليلا وبصحبة عملاء عراقيين محليين يدلونهم على المنازل أو الأماكن التى يريدون الوصول إليها داخل القرى والمدن بشوارعها وأزقتها الكثيرة والمتعرجة والتى لا يعرف أجنبى الدخول إليها أو الخروج منها إلا بمساعدة هؤلاء (ذكرت بعض عناصر المقاومة التى تسنى لى مقابلتها فى الفلوجة إنهم شاهدوا الجنود الأمريكان يأتون لاعتقالهم بصحبة عملاء عراقيين ملثمين تعرفوا عليهم من خلال اللغة واللهجة التى لا تخطئها الأذن) فيأتى الجنود الأمريكان فجأة بعرباتهم المدرعة ومعززين بمروحيات ويباشرون مداهمة المكان فى محاولة لاعتقال من يجدونه بالداخل وإذا واجهتهم نيران مضادة فإنهم يفتحون نيرانهم الكثيفة مما يسفر عن أعداد كبيرة من القتلى والجرحى خاصة إذا كان مكان اختباء الخلية داخل حى مكتظ بالسكان.

الشكل الثانى هو المتعلق بالرصاص المتسرع والعشوائى والذى يكون معظم ضحاياه من المدنيين الأبرياء (قدرت مؤسسة بحثية غربية مستقلة يرمز لها اختصارا بـ IBM يقوم عليها باحثون مناهضون للحرب بتقدير أعداد القتلى من المدنيين العراقيين على مدى العام الماضى بحوالى ١٠ آلاف قتيل، وقد اعتمدت فى ذلك على متوسط الأعداد التى اعترف بها المسئولون العسكريون لقوات الاحتلال وما اتفقت عليه ثلاث وكالات أنباء كبرى على الأقل إضافة إلى مصادر عراقية محلية) هذا الرصاص العشوائى له أسباب وظروف لمسناها من خلال أحاديثنا مع بعض الجنود الأمريكان وأكدها لنا أيضا المتحدث العسكرى باسم قوات الاحتلال الرائد كارول باتريك حينما حاورناه فى مقر قوات الاحتلال بالمنطقة الخضراء على نهر دجلة.

وتمثلت خلاصة هذه الظروف التى جعلت من الرصاص الأمريكى المتسرع العشوائى أحد أبرز سمات مشهد إطلاق النار فى العراق فى البيئة التى يعمل فيها الجندى الأمريكى والمشاعر المسيطرة عليه طوال فترة إقامته وخدمته فى العراق.

فى العـــــراق؟

فالعراق بالنسبة للجندى الأمريكى بيئة قاسية لم يعتد العيش فى أجواء مشابهة لها من قبل، حيث ترتفع درجات الحرارة ومعدلات الرطوبة فى أشهر الصيف إلى قرابة الخمسين درجة مئوية، وتثور فى أشهر الشتاء رياح وعواصف رملية خاصة فى الأماكن الخالية وتتخلل حبيبات الرمال الناعمة ملابسه وتسبب أضرارا للأجهزة والمعدات الحديثة التى بحوزته. هذه البيئة غير المواتية للإقامة والعمل جعلت من قرار الخدمة فى العراق بالنسبة لهذا الجندى نوعا من العقاب البدنى.

هذا عن البيئة المادية والتى يمكن ولو بصعوبة وبعد فترة التكيف معها والتغلب على بعض مظاهرها أما البيئة المعنوية والظروف النفسية المحيطة بهذا الجندى فإنها تظل دائما ملازمة له وهى الأكثر تأثيرا فى معرفة ما نحن بصدده من أسباب الإطلاق العشوائى والمتسرع للرصاص الأمريكى.

وأول عنوان يواجهك وأنت تتحدث مع الجنود الأمريكان فى العراق هو عنوان «التمييز العنصرى». فكثير من الجنود الأمريكان المرتزقة (غالبيتهم من الملونين ولا يوجد لدينا إحصاء دقيق بأعدادهم) الذين التحقوا بالقوات المسلحة الأمريكية وقبلوا بالعمل فى العراق بغرض الحصول على الإقامة الشرعية الدائمة فى الولايات المتحدة بعد عودتهم يشعرون بنوع من التمييز فى المعاملة خاصة مع الجنود الأمريكان الخُلَّص Pure American ويستشهدون على ذلك بنسب توزيعهم غير العادلة فى الأماكن الأكثر خطورة فى العراق مثل الرمادى والفلوجة وبعقوبة مقارنة بغيرهم من الجنود الأمريكان البيض.

ويتحدثون كذلك عن تمييز عنصرى ضدهم حتى بعد مماتهم فى مسرح العمليات حيث يهتم الجنود الأمريكان الخلص بنقل جثث زملائهم حتى ولو كلفهم ذلك الكثير من المخاطر بينما يتساهل هؤلاء فى نقل القتلى من الجنود الملونين. (حدثنى بعض أهالى الفلوجة إنهم عاينوا بأنفسهم جثثا طافية لجنود أمريكان ملونين فى بحيرة قريبة من نهر الثرثار على أطراف مدينتهم تركهم زملاؤهم واكتفوا بأخذ جثث نظرائهم الأمريكان البيض وقد صورت المقاومة العراقية بعض هذه المشاهد فى أقراص مدمجة يتم تبادلها فى الشارع العراقى حاليا).

ما يهمنا هنا من هذه الروايات هو تأثيرها على نفسية العديد من هؤلاء الجنود وعلاقة ذلك بالإطلاق المتسرع والعشوائى للنار. فغالبية هؤلاء الجنود الذين يشعرون بصعوبة العمل فى بيئة كالعراق وباضطهاد وتمييز عنصرى ضدهم باتوا على قناعة بأنه لن يحميهم من الموت المحقق إلا الإفراط فى استعمال القوة كما سنأتى على ذكر الأمثلة بعد قليل.

يأتى بعد كل ذلك مشاعر الاغتراب التى تؤرق عامة الجنود الأمريكان العاملين فى العراق. فطول فترة الخدمة والابتعاد عن عوائلهم وأصدقائهم وعدم وجود أماكن للتسلية والترفيه كلها تجعل من هذا الجندى عدادا يعد بتثاقل وببطء الساعات والأيام والأسابيع المتبقية على نهاية خدمته هذه فى العراق.

هذا الخليط من البيئة القاسية والمشاعر القلقة والأفكار المضطربة جعلت من هذا الجندى إنسانا مستثارا دائما، عصبى المزاج أغلب الأوقات، غير هانئ بنوم عميق مريح، مضطرب المشاعر باستمرار، الأمر الذى سهل عليه إطلاق الرصاص بشكل متسرع وعشوائى ودون مبرر بل وأحيانا مستهتر. وسوف نكتفى فى الاستدلال على ذلك بنموذجين فقط اطلعنا عليهما أثناء وجودنا هناك:

النموذج الأول: الشابان زيدون ومروان حسون

زيدون حسون وابن عمه مروان عبد الحكيم حسون شابان فى مقتبل العمر، كانا يمرحان فوق جسر يعبر نهر الثرثار فى سامراء، فوجئا بدورية أمريكية تأمرهما بالتوقف وبعد التفتيش الدقيق قيد بعض جنود الدورية يدى كل واحد منهما خلف ظهره، ثم -وباستهتار شديد- دفع أحد الجنود زيدون وبعده بثوان ابن عمه مروان من فوق الجسر فسقطا فى النهر حيث لقى زيدون حتفه فى الحال ونجح مروان بمعجزة فى النجاة ليروى لنا ما حل به وبابن عمه.

النموذج الثانى: عائلة أم حيدر

أم حيدر كانت تستقل سيارة خاصة هى وزوجها وابن لها يدرس فى كلية الصيدلة وبنتان إحداهما تبلغ ١٦ عاما والأخرى ٨ أعوام، وسارت بهما السيارة ليلا فى أحد شوارع بغداد، وفجأة انقطعت الكهرباء -وهو أمر معتاد حيث تتبادل الأحياء انقطاع الكهرباء لتخفيف الحمل على شبكة التوزيع- لكن حظ عائلة أم حيدر العثر أن الكهرباء انقطعت أثناء مرور دورية أمريكية، وفى وسط الظلام الدامس فوجئت أم حيدر -كما تروى مأساتها- بوابل من الرصاص يخترق السيارة وينطلق بصورة عشوائية فى كل مكان، وصرخ زوجها «عائلة، عائلة» لكن أحدا لم يسمعه، وبعد دقائق توقف إطلاق النار ونظرت أم حيدر حواليها فوجدت الرصاص الأمريكى قد حصد أرواح زوجها وابنها وبنتيها، ولم ينج من هذه الحادثة سوى أم حيدر وجنينها الذى كان يتحرك فزعا فى أحشائها.

تقول أم حيدر «تقدمت بشكوى للقوات الأمريكية فردوا على قائلين إنكم وضعتم أنفسكم فى المكان الخطأ وفى الظرف الخطأ، ومنحونى ١١ ألف دولار مؤكدين أن هذا المبلغ «للمساعدة فى تدبير أمور المعيشة وليس تعويضا، لأننا لم نرتكب ما يوجب علينا دفع تعويض».

هذان النموذجان يطرحان فيما يطرحانه قضية المساءلة القانونية للجندى الأمريكى العامل فى الميدان ومحاسبته عما يرتكبه من أخطاء تودى بحياة العراقيين. طرحت هذا السؤال على الرائد كارول باتريك المتحدث العسكرى باسم قوات الاحتلال فرد قائلا: إننى مكلف فقط بقتل أو اعتقال من «أشعر» أنه «يهددنى».

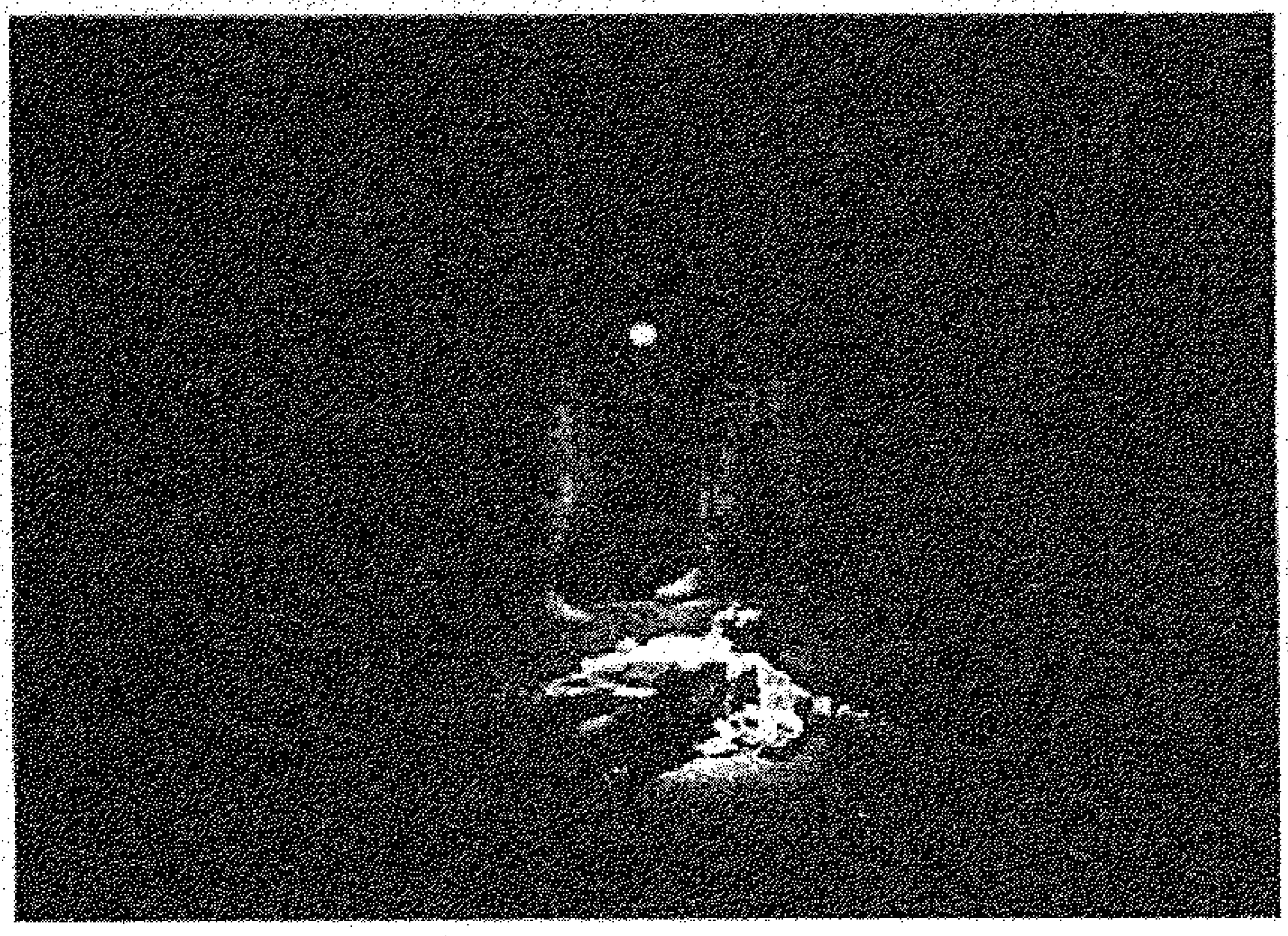
الشكل الثالث للرصاص الأمريكى المنطلق فى العراق والذى وضعناه تحت عنوان رصاص سرى مباشر وآخر غير مباشر فهو أخطر أنواع الرصاص حيث لا يتوقف تأثيره على إزهاق أرواح مقصود التخلص منها، لكنه وبسبب طبيعته السرية الغامضة تطول شظاياه ثوابت عراقية تتمثل فى الوحدة الوطنية بين طوائف وأعراق هذا المجتمع وهو ما يخشاه الكثيرون ويشعرون أن العراق ينزلق باتجاه حرب أهلية لا سيما أن الكوابح الوطنية غير فعالة بالقدر الكافى -لأسباب كثيرة لا مجال هنا الآن للخوض فيها- فى توقيف هذا الزحف الشيطانى.

ورغم خطورة تداعيات هذا الرصاص فإنه للأسف لم يحظ بما يستحق من البحث والتقصى وتجميع الحقائق والمعلومات، ولا ندعى أننا استطعنا فى المدة القصيرة التى قضيناها هناك أن نقوم بذلك، فالأمر بحاجة إلى عمل جماعى منظم، ولكننا اطلعنا على نموذجين نعرض لهما فقط دون الخوض فى التحليل والاستنتاج.

النموذج الأول: ما رواه لنا أكثر من سياسى عراقى وخلاصته أن اتباعهم شاهدوا جنودا أمريكان يلصقون صورا لعلماء دين وسياسيين سنّة فوق صور ملصوقة من قبل لمرجعيات شيعية مهمة فوق العديد من الجدران فى شوارع بغداد. ولم ينف أحد من الجانب الأمريكى هذه الرواية حتى الآن.

النموذج الثانى: يتعلق بتفجيرات الكاظمية وكربلاء التى تمت قبل يوم واحد فقط من رحيلى من بغداد والتى أسفرت عن مقتل حوالى ٢٠٠ زائر شيعى فى ذلك اليوم الدامى والتى ألقى القادة الشيعة وعلى رأسهم آية الله على السيستانى وعبد العزيز الحكيم بالمسئولية (فقط) على القوات الأمريكية التى لم تقم بواجبها كما ينبغى فى حفظ الأمن -ولا أحد يعرف السبب حتى الآن فى ذلك- رغم علمها المسبق بأن هذا اليوم «سوف يشهد تفجيرات إرهابية» كما يتضح من العرض التالى:

فى يوم السبت ٢٨ فبراير عقد فى مقر قيادة شرطة كربلاء اجتماع عالى المستوى ضم قادة شرطة محافظات جنوب الوسط وحضره المستشار الأمنى فى سلطة الاحتلال العقيد بروس لمناقشة التحضيرات والإجراءات الأمنية التى ستتخذ أثناء زيارة العاشر من محرم، وذكر القادة المجتمعون أن من مهام اجتماعهم هذا «بحث التعاون مع المحافظات الأخرى فى عمليات حفظ الأمن والطرق الكفيلة للحد من «العمليات الإرهابية» التى «سيقوم» بها «الإرهابيون» مستغلين الازدحام الذى ستشهده مدينة كربلاء خلال أيام الزيارة.



وفى اليوم نفسه أيضا (٢٨ فبراير والتفجيرات تمت ضحى يوم الثانى من مارس) أعلن العميد عباس فاضل الحسنى قائد قوات شرطة كربلاء -التى تعمل بالتنسيق مع الجانب الأمريكى- أن قواته شاركت مع قوات «الائتلاف» المتواجدة فى المحافظة بعملية اقتحام كبرى لأحد المواقع فى كربلاء وتم العثور على كميات من المواد شديدة الانفجار وقاذفات آر بى جى ورشاشات وهاونات وأعلن إنه تم إلقاء القبض على مجموعة من الأشخاص فى جهاز الأمن الخاص «للنظام المقبور» فى نفس التوقيت الذى أعلن فيه قائد قوات بابل إنه تم إلقاء القبض على أربعة أشخاص، اثنان منهم من ضباط الجيش العراقى وبحوزتهم خمسة صواريخ كاتيوشا وأن «جميع الدلائل تشير إلى أن جميع هذه العناصر لها ارتباطات خارجية».

ومع كل هذه الإشارات الواضحة «بإمكانية» حدوث تفجيرات أثناء الاحتفالات ومع التأكيد الأمريكى بأن من «سيكون» وراءها هم أتباع النظام السابق وعناصر من تنظيم القاعدة فإن الإجراءات الأمنية التى كان من المؤمل أن توفرها قوات الاحتلال لاحتفال كهذا شابها «قصور غير مبرر» على حد وصف محمد الصافى ممثل آية الله على السيستانى فى كربلاء الذى أضاف «إنهم -أى القوات الأمريكية- اهتموا بحماية أنفسهم أكثر من حماية الوافدين واعتمدوا على شرطة عراقية لا تملك وسائل حماية لنفسها ناهيك عن أن تحمى تكتلات بشرية كبيرة الحجم كتلك الموجودة فى كربلاء والكاظمية حاليا، ثم كان أخطر ما قاله فى نهاية تصريحه هذا «.. رغم أننا لنا رؤية مختلفة تماما لما حدث ولمن كان وراءه».

بعد هذه التصريحات والاتهامات خرجت الجماهير الشيعية فى كربلاء تعلن غضبها من القوات الأمريكية فألقت عليها الحجارة واتهمها هؤلاء الغاضبون صراحة باستغلال الحدث لتحقيق مآرب خاصة بها».

علماء السنة كانوا أكثر صراحة فى عباراتهم ومفردات خطابهم فقال أكثر من واحد منهم «إن الهدف هو توريط السنة والشيعة فى فتنة طائفية تستنزف طاقة السنة الذين يتزعمون المقاومة حاليا من جهة وتقضى على أى احتمال ولو ضعيف لتحول الشيعة إلى صف المقاومة العسكرية فى أى وقت فى المستقبل من جهة ثانية».

ثانيا: رصاص المقاومة

فى الساحة العراقية عناصر كثيرة تصنف نفسها تحت عنوان المقاومة، هذه العناصر ليس لها علامات بارزة أو مميزات واضحة يمكن القول إن هذا الفصيل المقاوم هو قومى أو إسلامى أو عشائرى كما يغلب على الظن وكما هى الصورة النمطية فى أذهان الكثيرين. فواقع المقاومة العراقية حاليا لم يعد بهذه الصورة المبسطة التى ربما تكون قد بدأت على هذا النحو فى الأيام الأولى من العام المنصرم.

فبمرور الشهور أعيد تشكيل هذه المقاومة فى قوالب جديدة وعقدت مع بعضها تحالفات عديدة حتى باتت تكويناتها مزيجا يصعب تصنيفه بشكل مبسط كما سبق القول.

ففى مدينة الفلوجة اتضح أنه فى خلية المقاومة الواحدة عناصر من الإسلاميين والضباط الميدانيين وأفراد تابعين للاستخبارات العسكرية فى الجيش العراقى المنحل إضافة إلى من يقدمون مساعدات على الأرض من العشائريين العاديين.

كان من نتيجة ذلك تطور وتغير نوعى فى المقاومة العراقية كما يتضح من تحليل عشرات العمليات التى قامت بها والتى سنأتى على ذكرها تباعا فى الأسطر القادمة.

ورغم أن محاولة التصنيف المحدد كما قيل مسألة غير دقيقة ومختلفة إلى حد كبير على أرض الواقع إلا أننا مضطرون إليها هنا لفهم دقائق الصورة ولو على المستوى النظرى فقط.

١- مقاومة إسلامية: تقوم على فرضية أن العراق أرض جهاد واضح لا لبس فيه حيث توجد قوات غازية وأن مقاومتها جهاد والموت دون ذلك شهادة.

الإسلاميون هؤلاء خليط من معظم الجماعات والتيارات الإسلامية المعروفة على الساحة، وإن كان أبرز من يعملون منهم فى الساحة العراقية حاليا أولئك الذين يحملون أفكار الإخوان المسلمين والإسلاميون السلفيون الجهاديون الذين يحملون أفكارا قريبة بدرجة أو بأخرى من أفكار أيمن الظواهرى وأسامة بن لادن وإن كان بعضهم ليسوا بالضرورة أعضاء منتظمين فى تنظيم القاعدة.

وغير بعيد عن هؤلاء يوجد فى ساحة المقاومة الإسلامية العراقية متدينون عاديون لم ينضموا فى حياتهم إلى أى جماعة أو تنظيم إسلامى ولكنهم يتحركون بدوافع دينية عادية يبحثون كما يقول بعضهم عن الشهادة فقط.

لكن السؤال الأبرز هنا: هل يوجد أفراد تابعون لتنظيم القاعدة يعملون ضمن صفوف المقاومة الإسلامية حاليا ويطلقون الرصاص -وهذا هو موضوعنا- فى الساحة العراقية؟

طرحت هذا السؤال على بعض عناصر المقاومة التى تسنى لى مقابلتها فى الفلوجة وطرحته كذلك على بعض أئمة المساجد الذين لهم دور ما فى المقاومة فكانت الإجابة بالنفى على ألسنة البعض وبالإيجاب على ألسنة البعض الآخر.

كنت أتوقع أن يقول لى من سألتهم كلمة «لا» لكننى فوجئت عند سماعى من بعض شباب المقاومة من يقولون «نعم» والسبب ليس لغرابة الأمر فبالفعل العراق فرصة لمواجهات عسكرية على أسس دينية لمن يبحثون عن ذلك ولكن مبعث المفاجأة هو فى ضخامة أعداد من يحملون أفكار تنظيم القاعدة فى العراق.

قال هؤلاء الشباب إن الذى يتبادر إلى

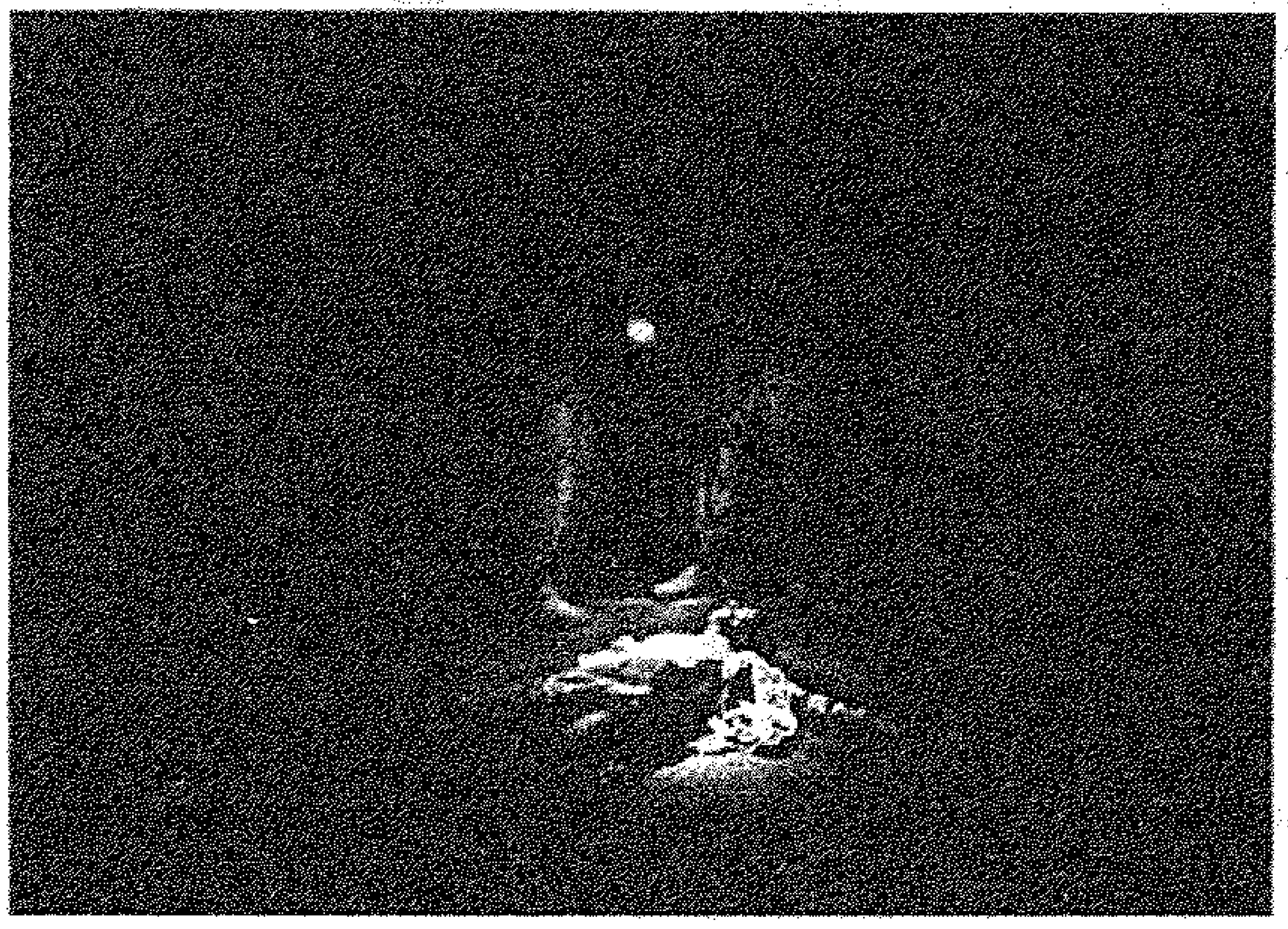
الأذهان حينما يطلق لفظ تنظيم القاعدة أن عناصر إسلامية غير عراقية تسللت عبر الحدود وأنهم تابعون تنظيميا لأسامة بن لادن وأيمن الظواهري لكن الحال مختلف تماما عن هذا الفهم، فهم -والكلام لشباب من المقاومة- عراقيون يحملون أفكار تنظيم القاعدة وبالأخص تلك الفكرة التي تتلخص في ضرورة طرد المشركين من جزيرة العرب، وإن عددا كبيرا من هؤلاء قد شارك في الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفيتي السابق وفي الشيشان والبوسنة ولم يتسن لهم العودة إلى بلدهم إلا بعد زوال حكم صدام حسين حينما فتحت الحدود، وقد نشطوا في المقاومة مستفيدين من الخبرات التي تراكمت لديهم عبر سنوات الجهاد في تلك البلدان».

٢- جنود وضباط الجيش العراقي السابق: هؤلاء رقم مهم ومؤثر في المقاومة أو في قضية من يطلق النار التي نحن بصددها. فبعد أن أصدر الحاكم الأمريكي بول بريمر قراره الشهير بحل الجيش العراقي وتسريح ضباطه وجنوده وجد أكثر من ٤٠٠ ألف عراقي أنفسهم وجها لوجه مع المجهول حيث البطالة المهينة وتأثيراتها المذلة على أسر وعائلات هؤلاء. مواجهة البطالة والجوع والرغبة في الانتقام أحد الأسباب التي باتت معروفة في الشأن العراقي، لكن مع الاقتراب أكثر من الصورة يتضح أن للأمر آفاقا وأبعادا ودوافع أكثر اتساعا.

فالكثير من هؤلاء الضباط الذين انخرطوا في المقاومة رغبوا من وراء ذلك تحقيق هدفين الأول استرداد شرفهم العسكري «الذي تمرغ في التراب» على حد وصف أحد هؤلاء الضباط الذين تحدثوا إلينا، والثاني محاولة لتصحيح الصورة الذهنية التي اتخذت عن كثير منهم في أعقاب سقوط بغداد بهذه السهولة التي تمت يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣.

٣- أجهزة الاستخبارات والأمن العراقية السابقة: وقد رغبنا في إفرادها بعنوان خاص وعدم إلحاقها بضباط وجنود الجيش المنحل وذلك لدورها المختلف في ساحة رماية الرصاص عن غيرهم.

عناصر هذه الأجهزة وبالأخص الأجهزة الاستخباراتية سواء أكانت مخابرات عسكرية أو غير عسكرية تخصصت في نقل خبراتها إلى -أو العمل بالتنسيق مع- فصائل المقاومة المختلفة. وقد ساعد هذا الأمر في إحداث نقلة نوعية خاصة فيما يتعلق بتحديد الأهداف التي تعاملت معها المقاومة العراقية وبالأخص عمليتا محاولة اغتيال بول ولفوويتز وجون أبي زيد في بغداد قبل أشهر.



٤- ميليشيات وأعضاء حزب البعث: وهؤلاء لهم دور معقد وشديد التباين في قضية من يطلق النار في العراق. فقد كانوا هم أنفسهم وبخاصة في الأسابيع الأولى من انطلاق المقاومة وحتى مقتل عدي وقصي صدام حسين ثم إلقاء القبض على صدام نفسه أحد العناصر الفاعلة في هذه المقاومة وكانوا في الوقت نفسه وكما اتضح لنا بعد الاطلاع على حجم ما لحق بهم عن قرب أحد الأهداف التي كثر إطلاق النار عليها ثأرا وانتقاما وتصفية لحسابات شخصية. وكان قتلهم يتم بشكل لا أقول إنه وحشي حيث قتل العديد منهم أمام أزواجهم وأولادهم - وهذا ليس محاولة لاستدرار العطف عليهم فليس من مهمتي هنا أن أفعل ذلك- ولكني أقول فقط إن هذا القتل تم بشكل متسرع ودون تمحيص كاف لحقيقة الدور الذي كان يقوم به هذا العضو أو ذاك في ظل نظام الحكم السابق.

وبالطبع كان إطلاق النار فرصة لا تزال مواتية إلى حد كبير الآن خاصة في ظل انعدام جهاز أمني قادر ومؤسسة قضائية ذات كفاءة تفصل في الخصومات وحكومة وطنية منتخبة تعيد للقانون هيبته.

٥- العشائر: وقصة العشائر العراقية تحتاج وحدها إلى صفحات خاصة بها، فبعضها يقوم بدور وطني في الدفاع والمقاومة عن بلاده، وبعضها الآخر عرف كيف يستفيد من حاجة القوات الأمريكية المحتلة له، فراح يساومها وراحت تلك القوات تقدم له عروض أسعار نظير خدماته (قضية شرطة العشائر المكلفة بحماية أنابيب النفط ضد هجمات المقاومة العراقية والتي بلغ عدد أفرادها ١٤ ألفا يتقاضون رواتبهم من شركات أمن بريطانية وأمريكية لم تأخذ حظها من إلقاء الضوء بما تستحقه من أهمية).

أسباب ودوافع هؤلاء العشائريين المقاومين للاحتلال تتفق وتختلف في بعض جوانبها مع كل من يضغطون على الزناد ويطلقون رصاص المقاومة.

السبب السهل المباشر والمعروف هو رغبتهم في إخراج المحتل وتحرير الوطن. لكن -وأيضا مع الاقتراب أكثر من الصورة- فإن لهذه الشريحة المقاومة أسبابا لصيقة بها أكثر من غيرها.

حدثنا عنها بعض شيوخ العشائر، وخلاصة ما قالوه هو رغبتهم في الانتقام لشرف العشيرة وكرامة شيوخها الذين تعرض بعضهم للإهانة على يد جندي أمريكي لا يعرف الخصائص النفسية والأبعاد الثقافية للمجتمع الذي يحتل شعبه. وهذه بعض النماذج التي رواها لنا هؤلاء الشيوخ والوجهاء:

- قال لي أحد شيوخ العشائر في الفلوجة بعد لحظة صمت ارتسمت على وجهه فيها علامات الحزن بالغضب إنه فوجئ وهو يقود سيارته على طريق الفلوجة/بغداد السريع بدورية أمريكية توقفه، وبعد التفتيش الدقيق، ألقى أحد الجنود الأمريكان بعقال هذا الشيخ على الأرض -وهو أمر بالنسبة لهم مهين إلى حد كبير- وقيد يديه خلف ظهره وتركه في الشمس فترة طويلة، ولما قال له هذا الشيخ «اتركني لخاطر الله» رد عليه الجندي الأمريكي بقوله (No Allah) فما كان من هذا الشيخ ومن عشيرته - وكانوا حتى هذا الوقت يقفون على الحياد فيما يخص مقاومة الاحتلال- إلا أن قرروا الانتقام على طريقتهم الخاصة.

ونبادر بالقول إن رصاص المقاومة - وبعد تحليل عينة من العمليات على مدى العام المنصرم- يتخذ أساليب وأشكالا متعددة، بعضها يتم باستخدام المدافع الرشاشة سريعة الطلقات، وبعضها الآخر يتم بقذائف آر بي جي أو بمدافع الهاون، ومجموعة من العمليات تتم باستخدام صواريخ خفيفة أو بزرع عبوات ناسفة من مواد شديدة الانفجار أو ألغام أرضية وبالطبع عن طريق الوسيلة الأشهر حاليا وهي السيارات المفخخة، وهناك بعض العمليات التي تمت باستخدام تشكيلة متنوعة من أكثر من نوع من هذه الأنواع.

أما الأسلحة -وهذا ليس بجديد- فقد تم الحصول عليها من أكثر من طريق أحد هذه الطرق هي من الأسلحة التي وزعها النظام العراقي السابق نفسه على المواطنين استعدادا لحرب شوارع ومدن إذا فكر الأمريكان في اجتياح العراق.

والبعض الآخر حصلت عليه المقاومة من مخازن أسلحة الجيش العراقي في الأيام الأولى التي أعقبت سقوط بغداد.

ثالثا: أصابع خفية

أخيرا بقي في بانوراما المشهد العراقي وبالأخص في الزاوية الأمنية منه هذا الفريق المكون من ثلاثة عناصر الأول فقط منه معروف ولا يمثل ذكره مصدرا للجدال ونعني به أولئك اللصوص وقطاع الطرق، وهؤلاء لا هم لهم إلا السرقة، وقد كثر عددهم بعد إطلاق النظام السابق سراحهم قبيل شن الحرب العام الماضي، وتسببت نوازعهم وتحركاتهم الإجرامية في سفك دماء لوثت بقعها الحمراء ثوب المجتمع العراقي.

والعنصران الثاني والثالث -وإن كان حديث الكثير من السياسيين العراقيين الذين تطرقوا إليهما أثناء حديثهم معنا مهم في استكمال الصورة- إلا أنه يبقى كلاما مرسلا لا دليل عليه ما لم يدعم بالحقائق والمعلومات الموثقة.

هذان العنصران هما: عملاء الموساد الإسرائيلي الذين ينشطون في إطلاق النار في منطقة التماس الخطرة بين السنة والشيعة، وفيلق بدر وجيش المهدي (الأول تابع للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية والثاني لجماعة مقتدى الصدر) اللذين يعملان -الكلام المرسل هنا مرة أخرى لبعض السياسيين العراقيين- بالتنسيق مع استخبارات بعض دول الجوار وتحديدا مع إيران التي يهمها توريط الولايات المتحدة في المستنقع العراقي حتى لا تجد وقتا للتفكير في الانتقال إلى ساحة قتال جديدة تكون هذه المرة على أراضيها.

هذه هي ساحة الرماية في العراق، فهل لا يزال رصاصها مجهول النسب والهوية؟ ■



أحمد اللباد

خريطة العرب

محمد عزت عبدالعزيز

في عالمنا المعاصر هناك وجهان بارزان للطاقة الذرية.. الأول مشرق يتمثل في الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية لخدمة البشرية فى مجالات عديدة: كالمفاعلات النووية لتوليد الطاقة الكهربية، والنظائر والمصادر المشعة المستخدمة فى التشخيص والعلاج الإشعاعى وفى تعقيم المستحضرات الطبية والصيدلانية، وفى المعالجة الإشعاعية للأغذية لتطهيرها من الميكروبات والطفيليات المرضة ولتقليل الفاقد منها، فضلاً عن التطبيقات الصناعية لتكنولوجيا الإشعاع بهدف تحسين خصائص المواد الصناعية وتخليق مواد جديدة.. إضافة إلى العديد من التطبيقات ذات الصلة بالبيئة، مثل المعالجة الإشعاعية للصرف الصحى وتحويله من مواد شديدة الضرر بالبيئة إلى منتج مفيد حيث يستخدم فى رى وتسميد التربة الزراعية.

أما الوجه القبيح فيظهر. إلى جانب أشياء أخرى. فى الأسلحة النووية: أخطر أسلحة الدمار الشامل. وقد كان أول استخدام للطاقة الذرية فى عام ١٩٤٥ بإلقاء قنبلة ذرية على هيروشيما فى السادس من أغسطس من هذا العام أدت إلى قتل ١٤٠ ألف شخص ثم ألقيت قنبلة ذرية ثانية على ناجازاكى فى التاسع من أغسطس من نفس العام، راح ضحيتها ٢٠٠ ألف قتيل، إضافة إلى الآثار الإشعاعية التى أحدثت تشوهات خطيرة وقتلت الأجنة فى بطون أمهاتهن، بل واستمرت هذه الإشعاعات المدمرة لعشرات السنين. كانت هذه أول جريمة دمار شامل ترتكبها أمريكا حتى تحسم الحرب العالمية الثانية ضد اليابان لصالحها.

وقبل أن نتطرق للحديث عن التسلح النووى فى الدول العربية سنعطى لمحة عن الجوانب التقنية للقنابل الذرية والمواد الانشطارية المستخدمة وقوداً لها وتأثيراتها التدميرية، مع تقديم حصر للرءوس النووية على مستوى العالم من خلال سرد تاريخى للتسليح النووى فى الدول التى تمتلك أسلحة نووية. إن الوقود النووى المستخدم فى الأسلحة النووية هو البلوتونيوم ـ ٢٣٩ أو البلوتونيوم ـ ٢٤٠، فى حين تستخدم المفاعلات الذرية يورانيوم ـ ٢٣٥ بنسبة تخصيب ٢٠٪.

وتحتاج قنبلة اليورانيوم ١٥ (خمسة عشر) أو ٣٠ (ثلاثين) كيلوجراماً من اليورانيوم بنسبة تخصيب ٨٠٪ أو ٩٠٪. مع العلم بأن انشطار كيلوجرام واحد من اليورانيوم يعادل حرق ٢٢٠٠ طن من الفحم الحجرى، أو حرق ١٦٠٠ طن من البترول.

ويمكن إحداث تفجير نووى بواحد من نظامين: الأول بأن توضع كتلتان من المادة الانشطارية بالقرب من بعضهما على طرف وعاء أسطوانى، وفى لحظة التفجير تُطلق الكتلتان بقوة شديدة فى اتجاه بعضهما بواسطة متفجرات عادية، وعند التحام الكتلتين ببعضهما بقوة يصل مجموع كتلتيهما إلى كتلة الحرجية ويحدث الانشطار، أما النظام الثانى فيعتمد على وضع كتلة من المادة الانشطارية تحت ضغط شديد يؤدى إلى تضاعف كثافتها لتصل إلى الكتلة الحرجة (Critical Mass) نتيجة إحاطة الكتلة بمتفجرات عادية تعمل على الزيادة المفرطة فى كثافتها وانطلاق الانفجار.

واستخدم النظام الأول فى قنبلة هيروشيما باليورانيوم ـ ٢٣٥، بينما جرى استخدام النظام الثانى فى قنبلة نجازاكى. وقد حدث تطوير هائل فى قوة القنابل الذرية حدث بمقتضاه رفع القوة التفجيرية لقنبلة هيروشيما من ٢٠ (عشرين) ألف طن من المادة المتفجرة TNT إلى ٥٠ (خمسين) مليون طن TNT.

تتميز المتفجرات النووية بصغر حجمها وعدم اعتماد قوة التفجير على الحجم؛ لنأخذ مثلاً متفجراً قوته ١٠٠ (مائة) كيلو طن TNT، مثل هذا المتفجر يكون حجمه بالمتفجرات العادية ٨٠,٠٠٠ (ثمانين ألف) متر مكعب، (أى حجم عمارة من عشرة طوابق بكل طابق ثمانى شقق، فى حين يكون المتفجر النووى بنفس هذه القوة على هيئة أسطوانة طولها خمسة أمتار وقطرها حوالى ٣٥سم فقط، أى بحجم ٢ (اثنين) متر مكعب.

أما التأثيرات الناجمة عن تفجير نووى فهى ثلاثة: الأول. الوهج الحرارى حيث تصل درجة الحرارة فى مركز التفجير إلى حوالى ١٠ (عشرة) ملايين درجة مئوية، أى قريباً من درجة حرارة باطن الشمس؛ ويؤدى هذا الوهج إلى احتراق جميع الأحياء والأشياء احتراقاً كاملاً فى دائرة قطرها سبعة كيلومترات. ثانى التأثيرات حدوث ضغط يصل إلى عشرة ملايين قيمة الضغط الجوى، بما يؤدى إلى موجات عاصفة تنتشر فى جميع الاتجاهات وتحدث تدميراً لكل ما يقع فى دائرة قطرها خمسة كيلومترات، أما التأثير الثالث فيتمثل فى انبعاث إشعاعات ذرية لا يقل فى خطورته عن التأثيرين السابقين حيث تتكون من أشعة جاما (Gama Rays) شديدة الاختراق، إضافة إلى سيل منهمر من النيوترونات ونواتج الانشطار من النظائر المشعة التى تنتشر فى سحابة ذرية شديدة الخطورة وحيث تتساقط على مساحات شاسعة محدثة تشوهات خلقية وتأثيرات سرطانية قاتلة، وتؤثر على الأجنة فى السيدات الحوامل يمتد أثرها لعشرات السنين.

المخزون العالمى من الرؤوس النووية:

فى أعقاب إلقاء أمريكا قنابل ذرية على كل من هيروشيما ونجازاكى فى عام١٩٤٥، سعى الاتحاد السوفيتى إلى حيازة أسلحة نووية.. وقد صار لدى كل من أمريكا وروسيا حالياً ٩٦٠٠ رأس نووى، ويأتى بعد ذلك فى تسلسل تاريخى حيازة

الدول الآتية للأسلحة النووية: فرنسا ٤٥٠ رأساً نووياً (أول تفجير نووي) عام ١٩٦٠، والصين ٤٠٠ رأس نووي (١٩٦٤)، والمملكة المتحدة ١٨٥ رأساً نووياً (١٩٥٢)، ليتكون بذلك النادي النووي الذي يضم الدول الخمس الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

أما إسرائيل، فيقدر ما تمتلكه من ترسانة نووية من ١٠٠ إلى ٢٠٠ رأس نووي، يذكر أن مفاعل ديمونة الذي رُفعت قدرته إلى ١٥٠ ميجاوات ينتج حوالي ٤٠ كيلوجراماً من البلوتونيوم من الوقود المحترق في المفاعل، تكفي لتصنيع عشر قنابل سنوياً. وقد باح التقرير الفني لموردخاي فانونو الهارب من إسرائيل بتفاصيل دقيقة عن ذلك.

ومن دول العالم الثالث تمكنت الهند من تطوير قدراتها النووية وبناء مفاعلات

يلزم التنويه إلى الاعتبارات والعوامل التي تحكم إمكانية حيازة أسلحة نووية، سواء بالاعتماد على الذات في تصنيعها، أو بالحصول عليها من طرف آخر وليكن إحدى دول النادي النووي، بالشراء أو من خلال صفقة تدخل فيها عدة اعتبارات، أولها الرؤية السياسية وثانيها النواحي الاقتصادية المتعلقة بتكلفة حيازة أسلحة نووية، ثم القدرات التكنولوجية متمثلة في التجهيزات المعملية والخبرات المتخصصة في بعض المجالات النووية.

إن من البديهي عند اتخاذ قرار حيازة أسلحة نووية أن تفحص العلاقات السياسية للدولة، وعلى الأخص بالنسبة للوفاء بمعاهدة حظر الانتشار النووي (Nuclear Profeleration Treaty) المعروفة اختصاراً بالمعاهدة، حيث تنص المادة الأولى من المعاهدة على: «تتعهد

«تعهد الدول غير الحائزة للأسلحة النووية، أطراف المعاهدة، أن تقبل نظماً للضمانات يتم الاتفاق عليها مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية بغية الحيلولة دون انحراف استخدام الطاقة النووية عن الأغراض السلمية صوب الأسلحة النووية، وتنص على تعهد كل الدول، أطراف المعاهدة، بعدم تقديم مواد مصدرية أو مواد انشطارية خاصة إلى أي دولة غير حائزة للأسلحة النووية للاستخدام السلمي إلا إذا كان ذلك خاضعاً لنظام الضمانات. ومع ذلك فإن المادة العاشرة تنص على أنه «يكون لكل طرف ممارسة منه لسيادته القومية، حق الانسحاب من المعاهدة إذا قرر أن ثمة أحداثاً استثنائية ذات صلة بالمعاهدة قد أضرت بمصالحه الوطنية العليا».

وبعيداً عن طرح المشكلة النووية في

النـــوويــة

كانت بداية النشاط النووي الحقيقي في مصر إنشاء مؤسسة الطاقة الذرية سنة ١٩٥٧ والتي تحولت بعد تزايد أنشطتها في أقسامها العلمية الاثني عشر إلى هيئة الطاقة الذرية، وتعمل في جميع مجالات البحوث الأساسية وبعض البحوث التطبيقية

من نوع «الكاندو» (Candu Reactor) الذي يتميز بإنتاج البلوتونيوم من الوقود المحترق.. وهكذا تمكنت الهند من دخول النادي النووي بترسانة تضم ٦٠ رأساً نووياً.

وإزاء التهديد الهندي لباكستان، والصراع القائم بين الدولتين استشعرت باكستان خطورة التسليح النووي الهندي، وعبر عن ذلك رئيسها ذو الفقار علي بوتو بمقولته الشهيرة «سنأكل العشب وورق الشجر، بل حتى سنجوع، في سبيل تصنيع السلاح النووي». وحدث فعلاً أن طورت باكستان قدراتها النووية ونجحت في تصنيع ٣٠ رأساً نووياً، وقد انضم إلى النادي النووي كل من جنوب أفريقيا التي ذكر فيما بعد أنها قامت بتفكيك قنابلها الذرية، وأوكرانيا ثم كوريا الشمالية.

إن تصنيع، أو الحصول على نظام توصيل وإلقاء الرأس النووي لم يعد بعيد المنال لو أن الهدف كان مدينة، والوسيلة هنا الطائرة، ومع التطور التكنولوجي صارت الوسيلة الفعالة هي صاروخ من نوع «سكود» (Scud)، أو «إكزوسيت» (Exocet). على أن الصواريخ البالستية صارت قادرة على نقل السلاح النووي إلى مسافات تصل إلى ١٥٠٠٠ كيلو متر بالنسبة لأقصى مدى. وهو الصاروخ الذي لدى الصين. ولأقل مدى وهو ٦٥ كيلومتراً للجزائر.

الدول العربية والتسليح النووي:

قبل تصنيف الدول العربية فيما يتعلق بسياستها تجاه التسليح النووي

الدول الحائزة للأسلحة النووية بعدم تشجيع أو حفز أي دولة غير حائزة على الأسلحة النووية على صنعها أو اقتنائها»، وتشير المادة الثانية إلى «تعهد الدول غير الحائزة للأسلحة النووية بألا تقبل أي نقل أو تقتني أو تصنع أسلحة نووية أو أجهزة متفجرة نووية».

وتعتبر المعاهدة بهذه المواد أول المعوقات لتصنيع أو اقتناء سلاح نووي، وبمعنى آخر يمكن القول بأن المعاهدة تكبل الدول غير الحائزة، وعليه يستحيل من البداية لأي دولة عربية طرف في المعاهدة أن تسعى للحصول على أسلحة نووية إلا إذا سلكت طريقاً بعيداً عن المعاهدة وأصبحت بذلك منتهكة لها. كما أن القيد الآخر الذي تفرضه المعاهدة يتمثل في المادة الثالثة التي تشير إلى

إطار «عالمية» المعاهدة، يمكن أن يقال أن تطوراً قد حدث برغم عدم مصداقية قرارات الأمم المتحدة فيما يتعلق بإسرائيل، الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي تمتلك الردع النووي، إذ أن مؤتمر مراجعة وتمديد معاهدة عام ١٩٩٥ قد اعتمد قراراً محدداً حول الشرق الأوسط «يطالب جميع دول المنطقة التي لم تنضم إلى المعاهدة بأن تنضم لها بدون استثناء، وفي أقرب وقت ممكن، كما يطالب جميع دول المنطقة بأن تتخذ خطوات عملية لإحراز تقدم في اتجاه إنشاء منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل في النهاية». فإذا طبقنا هذه المفاهيم على الدول العربية نجد ما يلي:

أ. مصر والتسليح النووي:

لقد شاركت مصر خلال الستينيات في صياغة المعاهدة التي فُتحت للتوقيع عام ١٩٦٨، واستمر دور مصر في التعاظم

حتى وصل إلى مستوى رفيع بتولي الدكتور/ محمد البرادعي منصب مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية، مع قيادة مصر لجبهة الدول غير المالكة للأسلحة النووية بمطالبتها للدول الحائزة على الأسلحة النووية اتخاذ إجراءات محددة في اتجاه التخلص من أسلحتها النووية لتحقيق حلم «عالم خال من تلك الأسلحة». على أن تعهد مصر بعدم الحصول على أسلحة نووية يكون في مقابل أن تعاونها الدول النووية الكبرى في تطوير إمكاناتها في الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية.

وإضافة إلى ما تقدم فإن الحكومة المصرية أعلنت مبادرتها بإقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط، وفي عام ١٩٩١ أكد الرئيس حسني مبارك المبادرة بإقامة منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل وأكد أنه بدون هاتين المبادرتين لن يستقيم وضع الأمن في منطقة الشرق الأوسط.

لقد كانت مصر من أوائل دول العالم الثالث التي دخلت المجال النووي مع الهند في عام ١٩٥٥. وكانت سياستها مركزة في ثلاثة اتجاهات: أولها الجانب الاستراتيجي المتعلق بالأمن القومي للبلاد، وثانيها يتعلق بالنواحي العلمية وإعداد الكوادر الفنية المتخصصة، والاتجاه الثالث يتعلق بالاستخدامات السلمية للطاقة الذرية تحقيقاً لرفاهية المواطن المصري.

وقد كانت بداية النشاط النووي الحقيقي في مصر إنشاء مؤسسة الطاقة الذرية في إنشاص بصدور قرار رئيس الجمهورية رقم ٢٨٨ لسنة ١٩٥٧ والتي تحولت بعد تزايد أنشطتها في أقسامها العلمية الاثني عشر إلى هيئة الطاقة الذرية، والتي تعمل في جميع المجالات للبحوث الأساسية وبعض البحوث التطبيقية، وتكونت قاعدة علمية نووية رصينة، تتكون الهيئة من أربعة مراكز للبحوث:

❖ مركز البحوث النووية في إنشاص الذي استجد عليه عدة مشروعات كبرى مثل مفاعل الأبحاث الثاني ٢٢ ميجاوات، ومعجل «السيكلوترون» ٢٠ مليون فولت الكتروني ومصنع للوقود النووي، والمزرعة التجريبية لاستخدام الوسائل النووية لتنمية الإنتاج الزراعي والحيواني وغيرها من الإمكانات الأخرى المدمجة للبحوث مثل الورش والمختبرات الإلكترونية والتفريغ العالي وتطوير المواد.

❖ المركز القومي لبحوث وتكنولوجيا الإشعاع الذي يضم أول وحدة كوبالت - ٦٠ صناعية في المنطقة العربية ومعجلاً للإلكترونات بطاقة ٢ مليون فولت الكتروني. تستخدم في تعقيم المستحضرات الطبية والصيدلانية ومعالجة المواد لتخليق مواد ذات صفات متميزة، إضافة

إن التطور الذى أحرزته مصر فى التكنولوجيا النووية للاستخدامات السلمية حفز العراق وليبيا لتعزيز برامجهما النووية سعياً إلى ارتقاء منزلة سياسية ومن أجل مواجهة التحدى الإسرائيلى

إلى التطبيقات ذات الصلة بالبيئة ذات الطابع الإنمائى.

❖ المركز القومى للأمان النووى والرقابة الإشعاعية المناط به إصدار التنظيمات ووضع التشريعات لإحكام الرقابة والتفتيش على الأنشطة النووية لضمان تطبيق المعايير السليمة لوقاية الجمهور والبيئة من التلوث الإشعاعى من خلال المسح الإشعاعى على مستوى مناطق مصر بواسطة شبكة الرصد الإشعاعى والتحليل الإشعاعى للأغذية المستوردة.

❖ مركز المعامل الحارة الذى يضم خلايا مدرعة إشعاعياً لإدارة النفايات المشعة السائلة والصلبة ذات المستويات الإشعاعية المختلفة، وإجراء البحوث فى الطرف الخلفى لدائرة الوقود النووى لاستخلاص العناصر المهمة.

إضافة إلى ما تقدم انبثق عن مؤسسة الطاقة الذرية هيئة المواد النووية المنوط بها التنقيب عن المواد الذرية فى المناطق المختلفة من جمهورية مصر العربية واستخلاصها وتقدير نسبة اليورانيوم الخام والجدوى الاقتصادية لركازة اليورانيوم، مقر هذه الهيئة حالياً منطقة القطامية.

الهيئة الأخرى التى انبثقت من مؤسسة الطاقة الذرية هى هيئة المحطات النووية لإنشاء وتشغيل المحطات النووية لتوليد الطاقة الكهربية حيث كان المخطط إنشاء ثمانية مفاعلات نووية للطاقة. وبعد أن تم عمل دراسات اختيار الموقع ودراسة الجدوى الاقتصادية تعذر تنفيذ هذه المشروعات لأسباب اقتصادية وسياسية، وبقيت هيئة المحطات النووية بدون برنامج حتى اليوم.

ب. العراق والتسليح النووى

تعتبر العراق أكثر الدول العربية سعياً لاقتناء تكنولوجيا نووية استراتيجية، فقد قطعت شوطاً طويلاً فى مجال تخصيب اليورانيوم قبل حرب الخليج الأولى، واستخدمت جميع وسائل التخصيب مع التركيز بصفة خاصة على تكنولوجيا إثراء اليورانيوم باستخدام «الفصل بالمجالات الكهرومغناطيسية (EMIS).

قد يكون من الملائم تقويم البرنامج النووى العراقى على ثلاث مراحل: الأولى قبل حرب الخليج الأولى، أى قبل عام ١٩٩١، فيما يعتبر مرحلة الإعداد للبرنامج النووى. كانت البداية بالحصول على مفاعل «أوزيراك» الذى سُمى مفاعل تموز تيمناً بثورة شهر تموز، وكانت إسرائيل قد ضربته فى يونيو ١٩٨١ بطائرات حربية، وتواصل بناء القدرات النووية بإنشاء مركز البحوث النووية فى «تويثا» فى جنوب العراق، وقد أشارت بعض المصادر الأمريكية إلى اهتمام العراق بالحصول على البلوتونيوم من السوق السوداء وقيل أنها تستحوذ على كمية صغيرة من اليورانيوم عالى التثرية يصلح وقوداً للقنبلة الذرية. وكان الاعتقاد السائد أن قوة العراق تكمن فى علمائها ذوى الخبرة والتأهيل العالى نووياً، وأن الثروة البترولية للعراق تعتبر قوة ضغط على الدول التى كانت تزود العراق بالإمكانات النووية. على أن العراقيين أكدوا مراراً وتكراراً عدم اتجاههم للتسليح النووى، خاصة أنهم أعضاء فى المعاهدة كدليل على حسن نواياهم.

ذكر فى أحد المراجع. كتاب «الانتشار النووى فى الشرق الأوسط» (Nuclear Rivals in the Middle East) تأليف: Shyam Bhatia أن التطور الذى كانت مصر قد أحرزته فى التكنولوجيا النووية للاستخدامات السلمية قد حفز كلا من العراق وليبيا لتعزيز برامجهما النووية سعياً إلى تقوية الوضع الاستراتيجى وارتقاء منزلة سياسية ومن أجل مواجهة التحدى الإسرائيلى، خاصة أن العراق كان يمتلك أكبر مفاعلات الأبحاث فى المنطقة. مفاعل ٧٠ (سبعين) ميجاوات تصنيع شركة «تكناتوم» الفرنسية، من ناحية أخرى أفادت التقارير أن العراق كان يمتلك ١٥ (خمسة عشر) كيلو جراماً من اليورانيوم عالى التثرية حصل عليها من فرنسا مقابل ١٥ (خمسة عشر) مليون فرنك سويسرى والحصول على البترول العراقى بأسعار تقل عن الأسعار العالمية بمقدار ٢٠ فى المائة بما فى ذلك السماح للعلماء الفرنسيين بالبقاء فى تويثا بعد تركيب المفاعل.

وقد قطع مركز البحوث النووية الذى أنشئ تحت إشراف العالم العراقى المعروف دكتور/ جمال كيتال. شوطاً طويلاً فى برنامج استغلال الطاقة الذرية للاستخدامات السلمية فى مجالات الفيزياء النووية والكيمياء الإشعاعية والبيولوجيا الإشعاعية، إضافة إلى التطبيقات الطبية والزراعية والصناعية. هذه البرامج بدأت بعد الإطاحة بالنظام الملكى فى بغداد وكان تدريب الدارسين العراقيين فى الاتحاد السوفيتى، وفى عام ١٩٦١ حصل العراق من الاتحاد السوفيتى على مفاعل أبحاث بقدرة ٢ (اثنين) ميجاوات يماثل مفاعل الأبحاث الأول فى إنشاص، وبمساعدة السوفييت كذلك أجريت عمليات المسح الجيولوجى للتنقيب عن رواسب المواد المشعة على طول الحدود مع سوريا وإيران وتركيا. وتشير التقارير إلى أن العراق أوفدت خبراءها إلى الهند للتدريب فى مركز «بهابها» للبحوث الذرية تحت إشراف الفيزيائى النووى «راجامانا»، برز منهم علماء وصلوا إلى العالمية.

كانت أخطر مراحل التطوير دخول العراق مجال دورة الوقود النووى ومحاولة الحصول على مفاعل إيطالى قدرته ٤٠ (أربعون) ميجاوات يعمل بالماء الثقيل للحصول على البلوتونيوم، وكان ذلك إشارة إلى رغبة العراق دخول المجال العسكرى، خاصة أن إيطاليا ساعدت العراق فى مجال معالجة الوقود (Reprocessing) وتدريب ١٠٠ (مائة) فنى عراقى.

وبعد أن صار العراق على مقربة سنة أو سنتين من تصنيع سلاح نووى؛ تصاعدت محاولات تدمير القدرات النووية العراقية بدأت هذه المرحلة باغتيال العالم المصرى الذى ساعد العراق فى تطوير برنامجها النووى: دكتور يحيى المشد الذى اغتيل فى باريس بواسطة الموساد الإسرائيلى وهو فى مهمة رسمية، ثم كانت الطامة الكبرى لإجهاض البرنامج النووى العراقى ومحوه من الوجود من خلال هجوم أمريكى للطائرات الحربية فى عام ١٩٩١ فى أعقاب حرب الخليج الأولى، وهكذا كان القضاء على البرنامج العراقى النووى بمثابة نكسة خيبت آمال العرب.

ثم تأتى المرحلة للبرنامج النووى العراقى فى ظل العقوبات التى فرضتها الأمم المتحدة على العراق والتى أدت إلى الكساد الذى طال جميع المجالات، بما فى ذلك الجوانب الاقتصادية والصناعية وتأثرت المؤسسات العلمية والبحثية وحدثت نكسة للبرنامج النووى. ثم زادت الأحوال سوءاً نتيجة الاجتياح الأمريكى للعراق والحرب التى دمرت كل مقومات العراق بما فيها البرنامج النووى العراقى بحجة حيازة العراق لأسلحة الدمار الشامل. وهى حجة أثبتت فرق التفتيش كذبها.

جـ. ليبيا والتسليح النووى

الدولة الثالثة التى يمكن تصنيفها على أنها «ذات نشاط نووى ملحوظ» هى الجماهيرية الليبية، على أن هذا النشاط هو للاستخدامات السلمية.

بدأت المحاولات الليبية الحصول على تقنية نووية استراتيجية بالاتجاه نحو الصين من خلال زيارة قام بها عبد السلام جلود للصين فى عام ١٩٧٠ حيث طلب شراء سلاح نووى أو الحصول على تكنولوجيا نووية تؤدى إلى تصنيع أسلحة نووية. وقد قوبل الطلب الليبى بالرفض؛ ولكن الصين أبدت استعدادها لتدريب الكوادر الليبية فى مجال العلوم النووية.. ولم تستطع ليبيا تحقيق أملها فى حيازة ما كانت تسعى إليه».

ويكشف كتاب «الانتشار النووى فى الشرق الأوسط» أن المحاولة الثانية كانت فى عام ١٩٧٤ . فى أعقاب التفجير النووى الذى أجرته الهند، ولجأت ليبيا إلى باكستان بهدف الحصول على نوع من التعاون فى المجال النووى فى مقابل تمويل كبير تقدمه ليبيا لباكستان، وكان الطلب الليبى أن يكون التعاون فى مجال تكنولوجيا «دائرة الوقود النووى» (nuclery Fuel Cycle) .. ولم يتحقق هذا المشروع بسبب الظروف التى نشأت بعد اغتيال «بوتو» رئيس وزراء باكستان.

بعد أن صار العراق على مسافة سنة أو سنتين من تصنيع سلاح نووى؛ تصاعدت محاولات تدمير قدراته النووية وكانت البداية اغتيال العالم المصرى يحيى المشد

لعل المحاولة الوحيدة التى نجحت لبدء برنامج طموح لخلق قاعدة عالمية نووية فى ليبيا كانت عندما طلبت من الحكومة المصرية معاونتها فى بناء تكنولوجيا نووية، واستجابة من الجانب المصرى لطلب ليبيا بصدور قرار اختيار أحد العلماء المصريين الذى أمضى فترة طويلة عالمًا زائرًا (visting Scientist) فى الطاقة الذرية بأمريكا، هو دكتور عزت عبد العزيز الذى كان مديرًا لمركز البحوث النووية فى إنشاص آنذاك، وصدر فعلاً قرار جمهورى فى عام ١٩٧١ بإعارته إلى ليبيا لأسباب قومية لإنشاء الطاقة الذرية الليبية. تضمن برنامج عمله ثلاثة محاور رئيسية: أولها إنشاء قسم للطبيعة النووية فى كلية العلوم بجامعة الفاتح فى طرابلس ثم تزويده بمختبرات لكل من مصادر الأيونات الذرية ونظام متطور لبحوث الاندماج النووى بالاشتراك مع الطاقة الذرية البريطانية فى «هارويل» بإنجلترا، المحور الثانى كان إعداد الكوادر العلمية لخدمة البرنامج النووى الليبى من خلال إيفاد خريجى كليات العلوم والهندسة الليبيين إلى الجامعات الأمريكية للحصول على درجات الماجستير والدكتوراة فى العلوم النووية . على أن تكون هذه الكوادر هى المناط إليها إدارة وتشغيل البرنامج النووى الليبى «مستقبلاً»، وكان المحور الثالث والأهم، هو إنشاء مركز للبحوث النووية يضم التجهيزات والإمكانات والمختبرات الرئيسية لبرنامج متطور وطموح لكل من البحوث والتطبيقات الذرية. وقد استغرق تنفيذ مشروع إنشاء «مركز البحوث النووية» تسع سنوات. من عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٨٠. فى موقع على الساحل الشمالى شرق طرابلس العاصمة عند بلدة تاجوراء.

يضم هذا المركز مفاعلاً للأبحاث قدرته ١٠ (عشرة) ميجاوات (كان فى السبعينيات أكبر مفاعلات الأبحاث فى المنطقة العربية)، كما يضم مختبراً لبحوث «البلازما والاندماج النووى» تم تزويده بنظام يسمى «التوكاماك»، الذى يعتبر نواة توليد الطاقة الكهربية بواسطة اندماج أنوية نظائر الإيدروجين (الإيدروجين الثقيل) وهو النظام الذى يعتبر أساسًا لتصنيع القنابل الأيدروجينية التى تكون قوة تفجيرها أضعاف قوة تفجير القنابل الذرية.

لابد من التأكيد هنا على أن إمكانات مركز البحوث النووية فى ليبيا تتدرج تحت مسمى التطبيقات السلمية للطاقة الذرية.

إضافة إلى ما تقدم من تجهيزات رئيسية يضم المركز بعض المعامل الأخرى، يذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: معجلان (Two Accelerators) طاقة كل منهما ١٥٠ إلى ٢٠٠ كيلو فولت إلكترونى لتوليد حزم من النيوترونات تستخدم فى العديد من البحوث والتطبيقات.

وكان معهد الإنماء العربى فى ليبيا الذى يقوم بنشاط ملحوظ فى مجال الدراسات الاستراتيجية والسياسية والاجتماعية بواسطة خبراء من الدول العربية كان قد قام بنشاط نووى من خلال تكوين «فريق التقنية النووية والدول النامية» وتم تكليف دكتور/ عزت عبد العزيز برئاسة هذا الفريق ووضع برنامج لعمل دراسات فى جميع فروع التقنيات النووية وتم اختيار علماء نوويين بارزين من كل من مصر وإنجلترا وبلجيكا ويوغوسلافيا كل فى مجال تخصصه.. أسفرت الدراسات عن تأليف سبعة مجلدات بالعناوين التالية:

الاندماج النووى، معجلات الجسيمات الذرية، المفاعلات النووية لتوليد الطاقة، النظائر والمصادر الإشعاعية، ترسيبات اليورانيوم عالميًا، التفجيرات النووية للأغراض السلمية. تناول كل مجال من هذه التكنولوجيات الوضع الحالى (State-of-the Art)، ثم الجوانب الاقتصادية والآثار البيئية والاستراتيجية، وأخيرًا دور الدول النامية والخيارات التى تلائم الدول النامية، وعلى الأخص الدول العربية وإمكانية تنفيذ مشروع إقليمى كبير، على نمط التكامل فى الدول الأوروبية المعروف باسم «سيرن» (CERN) فى جنيف بسويسرا.

أما الدول العربية الأخرى التى لديها برامج نووية ذات مستويات محدودة فهى: الجزائر التى تمتلك مفاعلين للأبحاث وبعض الأنشطة الأخرى، وقد ذكرت بعض التقارير أن الجزائر تسعى لتصنيع نووى استراتيجى، وسوريا تمارس نشاطًا نوويًا فى مجالات سلمية مختلفة، يذكر منها بحوث البلازما والاندماج النووى. ولبنان تهتم فى برامج بحوثها بالتحليل العناصرى للمواد باستخدام معجل يعرف باسم «تاندم فان دى جراف» (Tandum Van de Graff)، أما تونس فإن برنامج الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية يتضمن. إلى جانب أنشطة أخرى . بحوث وتطبيقات النظائر المشعة فى الطب والصناعة.

وأخيرًا، أنشأت مصر مركزًا يضم أنشطة فى برامج تطبيقات النظائر المشعة يسمى: «المركز الإقليمى للدول العربية للنظائر المشعة»، يقوم عدد من الأساتذة والخبراء المصريين بعقد دورات تدريبية لوفود من الدول العربية، من الفيزيائيين والأطباء، والمهندسين وغيرهم فى تخصصات أخرى تعطى لهم محاضرات تتفق مع تخصصات كل فريق من المتدربين.

الجوانب الاقتصادية للتسليح النووى

إن عامل التكلفة والتمويل لبرامج التسليح النووى يعتبر أحد المعوقات الرئيسية لتطوير الأسلحة النووية فى الدول التى يتوافر لديها خبراء متخصصون، كما أن المعوقات ذاتها تعرقل التسليح النووى بسبب نقص الخبرات فى الدول الأخرى التى يتوافر فيها التمويل. وعلى أى حال، فإن أى دولة تخطط لحيازة أسلحة نووية يتعين عليها تقويم كل من التكلفة المباشرة وغير المباشرة التى تكون أكثر أهمية أحيانًا، فعلى سبيل المثال، كان تقدير أحد العلماء فى «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MTT) فى أمريكا (فى عام ١٩٩٢) لأول سلاح نووى يستخدم البلوتونيوم فى حدود ٣٠٠ (ثلاثمائة) مليون دولار أمريكى (بتقويم التسعينيات)، وأن التكلفة الابتدائية لعدد يقدر بعشرة إلى عشرين سلاحًا نوويًا تكون حوالى بليون دولار، على أن ذلك يستغرق عدة سنوات تتحدد بنوعية وخبرة الفريق الفنى وإمكانية الحصول على استشارات خارجية وضمان استمرارية الدعم المادى، وفى جميع الأحوال تكون تكلفة التشغيل السنوية ما بين عُشر وخُمس هذه المبالغ؛ وهذه التقديرات قد تزيد أو تقل بناء على ما إذا حدثت أخطاء من عدمه، وعلى إمكانية إخفاء الأنشطة، فعلى سبيل المثال، يذكر تقرير «لمعهد العلوم والأمن الدولى» فى واشنطن بأمريكا، أن تكلفة الأسلحة ذاتها فى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية تمثل جزءًا صغيرًا من التكلفة الكلية للقدرات النووية لكل من الدولتين، فقد أنفقت الدولتان خلال الحرب الباردة للتسليح النووى مبالغ طائلة على الغواصات النووية والصواريخ وقاذفات القنابل وأنظمة الإنذار، إضافة إلى ما يتكلفه الفنيون القائمون بالعمل فى المشروع، فبالنسبة للدول المائة الأكثر فقرًا فى العالم. وقد تكون معظم الدول العربية من ضمنها. فإن أبواب التكلفة المذكورة، إضافة إلى القيود التى فُرضت على هذه الدول منذ عام ١٩٩٢ على استيراد المواد والتكنولوجيات الأكثر احتياجًا؛ ربما تكون عائقًا لحيازة أسلحة نووية، إلا إذا حاولت هذه الدول الحصول عليها بطرق غير مشروعة.

لقد أثبتت الأحداث الأخيرة فى منطقة الشرق الأوسط الأهمية القصوى لهذه التكاليف غير المباشرة؛ فالعراق مثلاً قد هوجمت مرتين بادعاء حيازتها لأسلحة الدمار الشامل.

وكانت الآثار المتعلقة بذلك مُقاسة من منظور اقتصادى باعتبارها آثارًا تدميرية تعتبر أكبر بنسبة كبيرة من التكاليف المباشرة لبرنامج التسليح النووى وما بين الدول الأكثر ثراء، وتلك الأكثر فقرًا، تقع مجموعة مهمة من الدول تكون تكلفة البليون دولار المطلوبة لتطوير أو حيازة تسليح نووى باهظة بدرجة كبيرة وقد يستحيل تحملها، إن عددًا من الدول العربية تدخل ضمن هذه المجموعة، فضلاً عن تعرض الدول العربية للمراقبة الشديدة من قبل أمريكا. والحالة العراقية خير دليل على ذلك.■

العرب وجهة نظر يابانيّة

كتاب

المكتبات اليابانية عامرة وزاخرة بعدد لا بأس به من الكتب والدراسات الجيدة عن أوضاع وأحوال الدول العربية على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كتبت أصلا باللغة اليابانية أو ترجمت من العربية والإنجليزية إلى اليابانية، وتقريبا لم يسبق لأحد من المتخصصين اليابانيين فى الشئون العربية خوض تجربة تأليف كتاب عن عالمنا العربى باللغة العربية.

ولذا يستحق المستعرب اليابانى نوبوأكى نوتوهارا مؤلف كتاب «العرب وجهة نظر يابانية» الصادر عن دار الجمل فى ألمانيا تسجيل اسمه كصاحب السبق فى هذا المجال، ونيل قدر وافر من التقدير والثناء على الجهد الكبير المبذول فى كتابه الذى لا يتجاوز عدد صفحاته ١٤٠ صفحة وإجادته ودقته فى تشخيص علل الشخصية العربية المعاصرة، بعد ٤٠ عاما أمضاها مقيما وزائرا ودارسا للدول العربية من المحيط إلى الخليج.

ويوضح نوتوهارا السر وراء إصراره على التأليف بالعربية بل واعتباره أن من واجبه فعل ذلك بقوله «اعرف سلفاً كم سترهقنى الكتابة بالعربية ولكننى قلت لنفسى، لقد كتبت للقارئ اليابانى باليابانية وقليلا بالإنجليزية فلماذا لا اكتب للقارئ العربى بلغته لمناقشة ما يهمه من قضايا تتعلق ببناء مستقبل أفضل حالا؟».

وقيمة الكتاب الحقيقية ليست فقط فى انه كتب بلغة عربية رصينة وجميلة تنم عن إتقان المؤلف لها، وإنما لكون نوتوهارا من الأسماء اليابانية اللامعة فى حركة ترجمة الأدب العربى على وجه العموم والمصرى على وجه الخصوص، ابتداء من نهاية عقد الستينيات من القرن الماضى؛ ومن ابرز الأعمال التى ترجمها رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوى و«الحرام» و«العسكرى الأسود» و«أرخص ليالى» ليوسف إدريس و«تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم وعائد إلى حيفا للكاتب الفلسطينى غسان كنفانى وغيرها من الأعمال لكبار الكتاب العرب.

وثمة ملاحظات نحسبها مهمة يستحسن إيرادها من البداية قبل الانشغال بتقويم ما ورد فى الكتاب وتمحيصه لبيان صحته حتى نتمكن من فهم واستيعاب أفكاره وآرائه، ونبدأها أولا بأن مصر كانت نقطة الارتكاز الرئيسية فى تشكيل هذه الآراء بحكم إنها الدولة التى درس فيها وأقام فيها أكثر من غيرها من الدول العربية.

ثانيا: أن المؤلف عقب فترة من الإقامة فى المدن العربية فقد اهتمامه بثقافة المدينة التى يصفها بثقافة المستقرين، فبدأ يبحث عن ثقافة مختلفة ومعنى جديد وجدها فى البادية والريف المصرى فأقبل على دراسة سكانهما واتجه إلى قراءة أعمال عبد الرحمن منيف وعبد السلام العجيلى وإبراهيم الكونى، وقد تأثر كثيرا بالأخير وهو كاتب ليبى ينتمى إلى الطوارق وترجم بعض مؤلفاته لليابانية.

ولم يخف نوتوهارا أن المصادفة وروح المغامرة قادته للانشغال بالثقافة العربية والبحث عن أشياء مختلفة عما تعود عليه فى اليابان، فمثل غالبية اليابانيين لم يكن يعرف شيئا عن الدول العربية باستثناء إنتاجها للبترول إلى أن افتتح قسم للدراسات العربية فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية عام ١٩٦١ حيث التحق به تحت إغراء تجربة المجهول، ثم تخرج منه وعمل أستاذا به إلى أن حصل على منحة من الحكومة المصرية للالتحاق بجامعة القاهرة كطالب مستمع فى عام ١٩٧٤.

ثالثا: انه رغم تأكيد نوتوهارا حتمية تجنب الأفكار الجاهزة عن الآخرين. العرب. وقبول قيم المجتمعات الاخرى كما هى دون تعريضها للتشويه فقد غلب على نظرته للعرب تأثره بالثقافة اليابانية ونمط تفكير اليابانيين وأسلوب التنشئة

العرب: وجهة نظر يابانية
نوبوأكى نوتوهارا
كولون: منشورات الجمل، ٢٠٠٣،
١٤١ صفحة

محمد إبراهيم الدسوقي

المتبع في اليابان والمختلف تماما عن أسلوب تنشئتنا لأولادنا وبناتنا مما وضعنا أحيانا في مقارنة ظالمة مع اليابان.

فمثلا يتعجب كاتبنا بصورة غير مباشرة من توجيه سؤال متكرر في الدول العربية متعلق باندهاش العرب من تعامل اليابانيين مع الولايات المتحدة التي دمرت المدن اليابانية في الحرب العالمية الثانية مستخدمة القنبلة الذرية ضد مدينتي هيروشيما ونجازاكي؟ ويشير إلى أن العرب يتوقعون عداء يابانيا تجاه أمريكا بسبب ما فعلته وأن اليابانيين يتعاملون مع الأمر من منطلق عاطفي وليس بطريقة عملية.

ويرى نوتوهارا أن المسألة ليست كراهية أمريكا من عدمه، وإنما وعي اليابانيين بما ارتكبوه من أخطاء قبل وأثناء الحرب وتصحيحها عبر النقد الذاتي للاستفادة من التجارب والسير على الطريق السليم، ونقر بأن هذه الجزئية من بين الأمور الغائبة عن عالمنا العربي فنحن لا نتعلم من أخطائنا مهما بلغت فداحتها ولا نمارس النقد الذاتي إلا في حدود ضيقة وعادة تحت ضغط خارجي مثلما جرى اثر هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

غير أن رأي نوتوهارا السابق يفترض أن اليابان بلغت خط النهاية في سباق المصالحة مع التاريخ وأنها اعترفت وندمت على أخطاء الماضي وأغلقت دفاترها وفتحت صفحة جديدة، لكن الواقع يظهر إنها لم تبلغ تلك المرحلة بعد بدليل أن التاريخ ما يزال السبب الحيوي والرئيسي وراء توتر العلاقات اليابانية الآسيوية بين الصين والآخر، نعم اليابان تغيرت وحريصة على التمسك بمبدأ السلم والتعايش مع جيرانها، غير أن قطاعا كبيرا من الساسة والمواطنين اليابانيين لا يزالون يؤمنون بأن بلادهم ظلمت وأن الدول الآسيوية يجب أن تشكرها على احتلالها إياها لأن الاحتلال وضعها على طريق التقدم والخروج من غياهب الظلام التي كانت تعيش فيها، ثم إن العديد من اليابانيين أعربوا في مواقف عديدة عن إحساسهم بالضيق من الأمريكيين بسبب تصرفاتهم الطائشة وبالذات الجنود الذين ينتشرون في الأراضي اليابانية. نحو ٥٠ ألف جندي.. وبالنظر في تاريخ العلاقات الأمريكية اليابانية سنصل إلى حقيقة أن إعجاب غالبية اليابانيين بالنموذج الأمريكي مرده أن الولايات المتحدة كانت الدولة الوحيدة التي نجحت في هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية مما جعل مواطنيها يعتقدون في وقت من الأوقات أن الأمريكيين يملكون عناصر خاصة تمنحهم التفوق عليهم وبدأوا يفتشون عنها لغسل عار الهزيمة على يدهم.

على كل فإن المقارنات ما بين حالنا غير السعيد في وطننا العربي وحال اليابان الآني وبين المجتمعين العربي والياباني تطل برأسها في كل أجزاء الكتاب الذي أنصح كل مهتم بقضية التغيير في الدول العربية بقراءته.

وفي الواقع فقد أجرى نوتوهارا تشريحا واقعيا مؤلما للشخصية العربية المعاصرة ووضع يده على مواطن الخلل والعيوب وجذور ما نعانيه من ضعف وهوان وقلة حيلة وتعثر جهودنا لإحراز تقدم اقتصادي وسياسي يواكب المتغيرات على الساحتين الإقليمية والدولية، وفي رأي المؤلف فان القمع هو أساس كل مشكلات العالم العربي.

وتعامل الكاتب مع آفة القمع لم يتم من خلال استعراض ما تحويه الدساتير والقوانين العربية من مواد تكبل وتعوق مسيرة الديمقراطية وحركة المجتمع المدني وحرية التعبير وإصدار الصحف وخلافه بل بواسطة سرد مواقف وحكايات تكشف عن آليات القمع اليومية في المجتمعات العربية وفضل في معظم ذكرياته عدم تحديد البلد والأشخاص خوفا من تعرضهم لأذى، ويركز في هذا الإطار على معاملة الأجهزة الأمنية للعرب والأجانب وكيف أن الأجنبي يهان في المطار على يد قوات الأمن التي يتصرف أفرادها بغطرسة وتعال، فضلا عن الاضطرار لدفع رشوة لإنهاء إجراءات هنا أو هناك وحكى عن مشاهدته راهبة تدفع رشوة لكي تستطيع إنهاء إجراءات في مكتب الهجرة وأن موظفة في المطار أخبرت زوجة صديق كانت تودعه في المطار «هل تريدين أن تتخلصي من هذا الخواجا وتصرفيه؟ بدون أن تضع في حسبانها أنه قد يتحدث العربية».

ولا يفهم نوتوهارا السر خلف الإغراق في القمع في البلاد العربية، فالياباني يشب على أن مهمة الشرطة ملاحقة المخالفات للقانون ومحاسبة المسئولين عنها مهما كانت مناصبهم ويسوق المثال باعتقال رئيس الوزراء الراحل تاناكا بتهمة تلقي رشوة من شركة أمريكية في السبعينيات وإيداعه السجن تطبيقا لقاعدة أن الجميع سواء أمام القانون.

ومع عدم إنكار صحة ما ذهب إليه فإن ما لم يذكره الكاتب أن السجناء في السجون اليابانية يلقون معاملة قاسية ومن يرجع إلى تقارير منظمة العفو الدولية سيجدها مليئة بوقائع ونماذج القسوة، ومنها الحبس الانفرادي لمدة طويلة تصل في بعض الحالات إلى أشهر، كما يجبر من تعتقلهم الشرطة على الاعتراف أحيانا بارتكابهم جرائم يشتبه في ارتكابهم إياها هربا من الضرب والتهديد الذي يتعرضون له في اقسام البوليس.

ويربط الكاتب ما بين القمع وغياب شعور المواطنين العرب بالمسئولية تجاه الوطن والآخرين من العرب والأجانب، فانعدام الإحساس بالمسئولية يدفع المواطنين إلى تعمد تدمير الممتلكات العامة من حدائق ووسائل مواصلات وتحطيم المصابيح في الشوارع وعدم المحافظة على نظافة دورات المياه العامة.

تلك المظاهر السلبية تجاوزتها اليابان منذ سنوات، ومن خلال معايشتي وعملي مراسلا للأهرام في طوكيو لخمس سنوات لم أر أحداً يلحق أي ضرر بالحدائق العامة المنتشرة في كل مكان أو يكتب بذاءات في الحمامات العامة، فالياباني ينظر لممتلكات العامة على أنها جزء من ثروته الشخصية ومن واجبه كمواطن صالح الحفاظ عليها حتى يتمتع بها هو وأطفاله وجيرانه.

ويستشهد المؤلف بحديث دلالات ذات مغزى دار بينه وبين كاتبنا الراحل يوسف إدريس «الكاتب المعروف يوسف إدريس زار اليابان عدة مرات ولقد قال لي: انه كان يبحث عن سر نهضة اليابان التي أدهشت العالم وبعد زيارته الثالثة سألته: هل وجدت الإجابة في اليابان؟ قال نعم عرفت السبب فمرة كنت عائدا إلى الفندق في وسط طوكيو في منتصف الليل ورأيت عاملا لم يكن يراقبه أحد يعمل وحيدا بجد ومثابرة، كما لو أن العمل ملكه عندئذ عرفت سبب نهضة اليابان، وهو شعور العامل بالمسئولية النابعة من داخله بلا رقابة ولا قسر».

نوتوهارا ذهب إلى حد ابعد في تناوله لقضية المسئولية الاجتماعية بقوله «السجناء السياسيون ضحوا من اجل شعوبهم، لكن هذه الشعوب تضحي بأولئك الأفراد الشجعان، فلم تسمع عن مظاهرة أو إضراب عام أو احتجاج في أي بلد عربي من

المجتمع العربي عامة ليس عنده استعداد لرعاية المواهب وصقلها، كما أن الرجل العربي له وجهان متناقضان في المنزل وخارجه ينتج عنهما أشكال لا حصر لها من الرياء والخداع والقمع

كتاب الزاوية

٢ - مذكرات الإمام محمد عبده

نشأتي وتربيتي

تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن.. قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة، ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين، أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية..

بعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا، حيث كان أخى لأمى الشيخ مجاهد رحمه الله، لأجود القرآن فى المسجد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون التجويد. وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ الهجرية. ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم، وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ على هذه النية.

فهذا أول أثر وجدت فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا، وهى بعينها طريقته فى الأزهر.. وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل فى التعليم.. سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو مالا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئًا.. فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال، وهم فى أحلام الأطفال، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد، ويؤذون بدعاواهم من يكون على شىء من العلم، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعمله.

اجل قضية السجناء السياسيين، ويتصرفون معها بوصفها قضية فردية على أسرة السجين وحدها أن تواجه أعباءها».

ولم يجد المؤلف سوى نفر قليل بين المثقفين العرب الذين اتسمت مواقفهم بالصدق ودفعوا ثمن هذه الموقف وخص بالذكر منهم الكاتب المغربى عبد اللطيف اللعبى الذى امضى فى السجن عدة سنوات قبل اطلاق سراحه والاستقرار فى باريس، والكاتب المصرى يوسف إدريس الذى وصفه بأنه كان طريقه إلى معرفة المجتمع المصرى.

وفى اعتقاد نوتوهارا فإن اختفاء الإحساس بالمسئولية يتمخض عنه انعدام الثقة داخل المجتمعات العربية ويحل محلها المنفعة المتبادلة وفتح عشرات القنوات المسهلة لمخالفة القوانين وبسط الحماية لهذه الفئة تعظيما لمكاسبها، فالثقة جهاز يضبط المجتمع ويحافظ عليه سلميا.

وفى هذا السياق يطرح نوتوهارا التساؤلات الآتية:

. هل يثق المواطن العربى بأحزابه السياسية وحكامه؟

. هل يثق المواطن بالصحافة والقضاء والقوانين المعمول بها؟

. هل يثق العاملون بأرباب أعمالهم؟

. هل يثق الفلاح بالتاجر الذى يشترى محصوله والمشترى بالبائع؟

يتصل بما سبق أن غياب الشعور بالمسئولية ينعكس فى كيفية حكم البلدان العربية، فالحاكم العربى المتمتع بامتيازات تعود أصولها للعصور القديمة مع استثناءات قليلة يبقى فى سدة الرئاسة مدى الحياة ولا يغادرها إلا فى حالة الوفاة أو الاغتيال أو الانقلاب، فالحاكم من وجهة النظر اليابانية يجب أن يشعر بمسئولية نحو شعبه وعليه إعطاء مجال لغيره لكى يخدم هذا الشعب.

أما أحزاب المعارضة فإن أغلبها مجرد أحزاب تطمح للسيطرة والسلطة دون أن تقدم مشروعا مغايرا لمشروع النظام القائم. إن وجد أساسا. مما يوفر المناخ المطلوب لاستمرارية أنظمة الحكم وبسط قبضتها على السلطة، وبالنسبة لطبقة المثقفين فإن معظم الكتاب العرب قد تعبوا أو يئسوا أو انهزموا وفضلوا السير فى معية السلطة بمدحها والتغزل فى محاسنها ومآثرها ويمارس بعض المثقفين الديكتاتورية مع تشدقهم آناء الليل وأطراف النهار بالديمقراطية.

ويؤكد المؤلف أن عقول اليابانيين عاجزة عن فهم معنى امتداح الشاعر أو الكاتب للسلطة أو أحد رموزها، فالمنتظر من الكاتب مساعدة المواطنين وإرشادهم للمستقبل.

وغاب عن نوتوهارا الإشارة إلى أن اختيار رؤساء الوزراء فى بلاده لا يتم أغلب الوقت وفقا للمصلحة العامة إنما وفقا لمصالح جهات معينة فى عالم المال والتجارة والاقتصاد، فرئيس الوزراء اليابانى يمكث فى السلطة ٩ أشهر أو عام على الأكثر يتعين عليه بعدها مغادرة منصبه لإفساح الطريق لتولى آخر يقف فى طابور الطامحين لشغله، وتحضرنى قصة اختيار يوشيرو مورى رئيسا للوزراء خلفا لكيزو اوبوتشى أواخر عقد التسعينيات، فالعادة جرت أن يجتمع كبار مسئولى الحزب الليبرالى الديمقراطى الحاكم فى احدى غرف فندق من فئة خمسة نجوم لاختيار المسئول الأول وبعد فترة من المناقشة وترشيح أسماء عديدة لم يقبلها الحضور صاح احدهم لماذا لا نختار مورى الموجود معنا؟ وبالفعل اصبح رئيسا للوزراء واتسمت فترة ولايته بكثير من المشكلات الناتجة عن سوء تصرفاته وتصريحاته غير المحسوبة.

واستكمالا لتشخيصه المستفيض والعلمى للشخصية العربية المعاصرة توقف نوتوهارا عند تفاصيل الحالة

يؤكد المؤلف أن عقول اليابانيين عاجزة عن فهم معنى امتداح الشاعر أو الكاتب للسلطة أو أحد رموزها، فالمنتظر من الكاتب مساعدة المواطنين وإرشادهم للمستقبل

الاجتماعية فى البلاد العربية ليكشف مزيدا من جوانب القصور والعيوب المعطلة للطاقات وتنمية القدرات البشرية والإبداع، ونقطة تركيزه كانت الأطفال الذين يتعرضون لألوان وصنوف شتى من القمع الذى يبدأ بسلطة الأب فى المنزل والمعلم فى المدرسة مما يجعل الطفل يألف القمع كجزء من وجوده، ناهيك عن قمع الفقر والجوع الذى يطال قسما كبيرا من أطفال الوطن العربى. بالإضافة إلى سوء استغلال الأطفال وتوظيفهم كباعة جائلين وكماسحى أحذية وحرمانهم من الحصول على قسط وافر من التعليم، ويقر المؤلف بأن وضع المعلمين فى الدول العربية غير المنتجة للبترول بائس: فالمرتبات متواضعة للغاية والعلاوات غائبة، علاوة على غياب التقدير الاجتماعى لمكانة المعلم على عكس اليابان.

فلا يحق لأى شخص فى اليابان فصل المعلم والأستاذ الجامعى من عمله بما فى ذلك البرلمان والقانون يحميه والى جواره التقدير الاجتماعى ما لم يتورط فى جريمة تمس الشرف، فاليابان تتشدد فى التعليم لإخراج عناصر قادرة على العمل والتطوير ولا تمانع لأجل هذا الغرض فى إرهاق التلميذ منذ نعومة أظافره لتحصيل اكبر قدر من الخبرات والمهارات، وغنى عن البيان أن الراغب فى التطوير والتغيير عليه أن يبدأ بالتعليم.

فوق ما سلف فإن المجتمع العربى عامة ليس عنده استعداد لرعاية المواهب وصقلها، وأضيف إلى ذلك ممارسة العنصرية ضد بعضهم البعض والازدواجية فى الشخصية العربية، فالرجل العربى له وجهان متناقضان فى المنزل وخارجه ينتج عنهما أشكال لا حصر لها من الرياء والخداع والقمع.

ومما يحمد لنوتوهارا أنه لم يغفل القضية الفلسطينية التى فضل تناولها من باب أدب غسان كنفانى وقدم عرضا رائعا فند فيه ملامح هذه القضية ومأساة الشعب الفلسطينى ليس بعيون الغرب ولكن بعيون شخص دقق وحلل وتوصل إلى نتيجة فحواها أن العالم كله مسئول عن الجريمة التى ارتكبت بحق الشعب الفلسطينى وانه لا يزال يتفرج على ما يحدث له دون أن يعمل جديا لحل الأزمة الفلسطينية جوهر الصراع فى منطقة الشرق الأوسط.

بدورنا علينا عدم التقليل من أهمية تكوين شخص مثل نوتوهارا رؤية سليمة للقضية الفلسطينية، فالجزء الأكبر من اليابانيين اليوم ينظرون للقضية نظرة غير واقعية بالمرة بسبب تأثرهم بما يصل إليهم من معلومات مصدرها الصحافة الغربية التى حولت المقاومة الفلسطينية إلى فرع من أفرع الإرهاب الدولى وان إسرائيل مظلومة لان شعبها يقتل فى العمليات الانتحارية بلا ذنب وان الفلسطينيين لا يعرفون سوى لغة العنف والقتل ورفضوا كل الاقتراحات ومشاريع التسوية السلمية المعروضة عليهم من جهة الولايات المتحدة وإسرائيل والعرب.

ولعل الفصل الخاص بما تعلمه المؤلف من ثقافة البدو من أمتع فصول الكتاب، والمتعة ليس مصدرها سرده للجوانب التقليدية من المأكل والمشرب والترحال بحثا عن الماء ولكن لغوصه فى فلسفة حياة البدو ومغزى عاداتهم وتقاليدهم بعيدا عن التضليل الذى مارسه الإعلام الغربى بحقهم، وكيف أن معظم المثقفين العرب ينظرون بتعال إلى ثقافة البدو ولا يمنحونها ما تستحق من التقدير والدراسة، والفصل فى مجمله صورة فائقة الدقة لعالم البدو بمنظور أدبى وحياتى.

ونختم بسؤال منطقى وجهه نوتوهارا بخصوص ماذا يفكر العرب أن يفعلوه للمستقبل؟

إجابة التساؤل ستظل فى نظر المؤلف مرهونة بالتصدى لمشكلة القمع والحرية حتى يختفى التوتر المهيمن على الشارع العربى ويشعر المواطن العربى بالسعادة، حينئذ يمكن رسم مستقبل أفضل لوطننا العربى. ■

كتاب الزاوية

٣ - مذكرات الإمام محمد عبده

ماذا صنع محمد على؟

ما الذى صنع محمد على؟ لم يستطع أن يحيى، ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة.. فأخذ يستعين بالجيش، وبمن يستميله من الأحزاب، على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً، وأعانه على الخصم الزائل، فيمحقه.. وهكذا، حتى إذا سحقت الأحزاب القوية، وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالى، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها، فلم يبق فى البلاد رأس يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثة عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة، وعلى أى وجه.. فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده، على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة.

بدايات التاريخ

كان غامضا وغائبا

محمد البهى عيسوى

يقول المتنبى:

ومن جهلت نفسه قدرها
رأى غيره فيه ما لا يرى

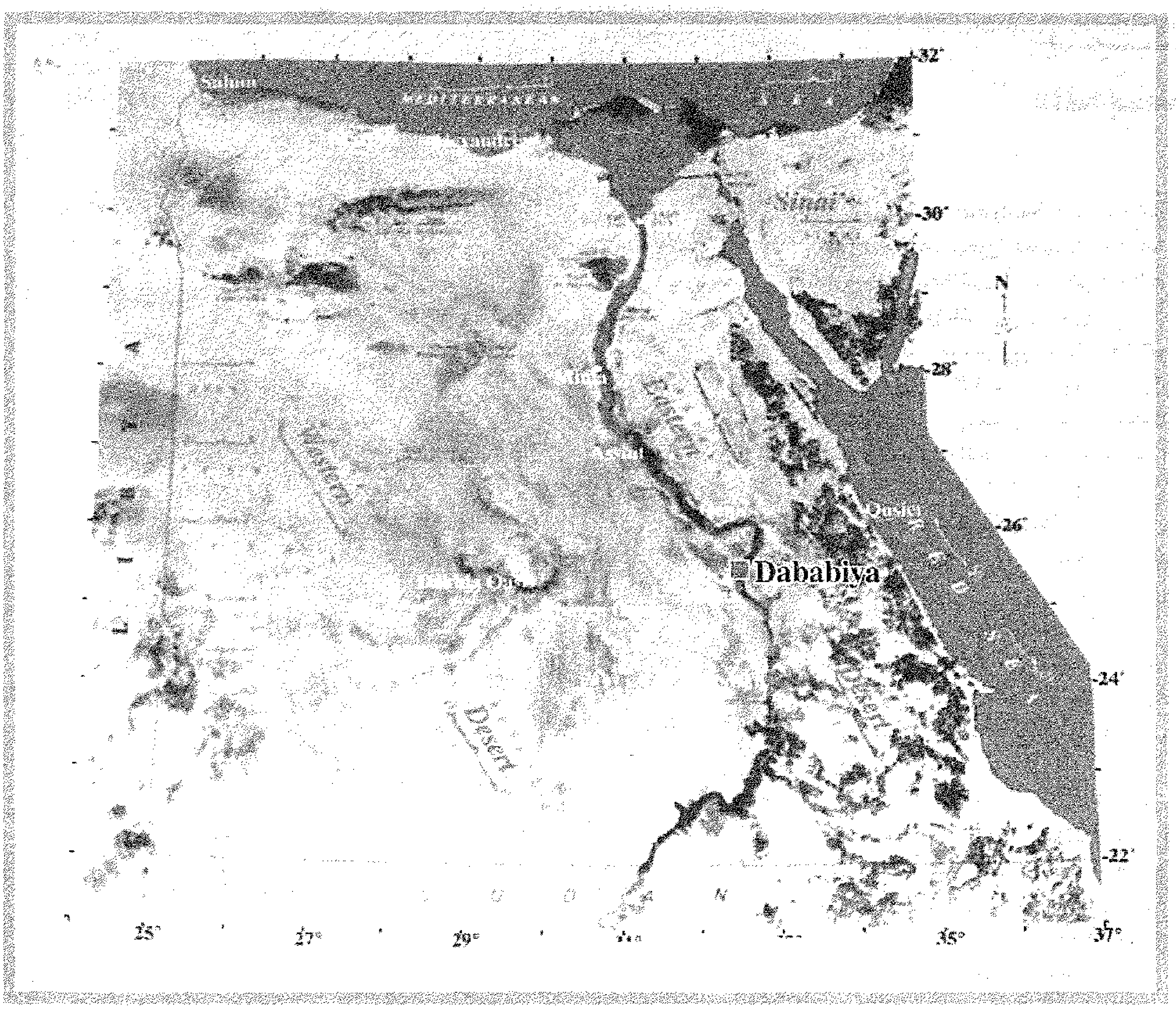
ومنذ أكثر من نصف قرن رأى العميد طه حسين أن هذا البيت يصف حال المصريين المعاصرين بالتواضع والتضاؤل لا بالعظمة والكبرياء. ويستطرد العميد فى كتابه «من لغو الصيف» فيقول: «فالمصريون يجهلون من أمر مصر أكثر مما يعلمون، فيرونها صغيرة، ويرون أنفسهم معًا صغارًا.. والأجانب يعلمون من أمر مصر ومن أمر المصريين أكثر مما نعلم نحن.. وينشأ عن جهل المصريين بشئون بلادهم فى قديمها وحديثها أن تكون آمالهم فى مستقبلها ملائمة لما يعلمون من أمرها.. دع هذه الناحية وخذ ناحية أخرى هى ناحية التعليم، فسترى التفكير فيه صغيراً، والنظر إليه قصيراً، والعناية به على قد المصريين لا على قد مصر. فمصر عظيمة التاريخ ولكن أهلها يجهلون هذا التاريخ جهلاً مخزيًا. وحسبك أن التعليم الحديث قد بعد عهده بمصر، وأن اللغة العربية التى هى لغة المصريين لا تعرف كتابًا مقنعًا فى تاريخ مصر يطمئن إليه أوساط الناس، وإنما هم مضطرون إلى الجهل أو إلى التماس تاريخهم عند الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان. فما أقل المصريين الذين يعرفون بلادهم معرفة جغرافية مقاربة.. تحدث إلى من شئت من المصريين عن هذه الصحراء التى تأخذهم شرقًا وغربًا، ثم انتظر رجع حديثك، فلن تجد لحديثك رجعًا ولا صدى، لأن أكثر هؤلاء المصريين لا يكادون يعرفون من أمر هذه الصحراء شيئًا، تحدث إليهم عن النيل، تحدث إليهم عن البحر الأبيض أو عن البحر الأحمر، فلن تجد لحديثك رجعًا ولا صدى».

تذكرت هذه الكلمات وأنا أقف مع كوكبة من علماء العالم. ٦٧ عالمًا من أكثر من سبع عشرة دولة. يجتمعون أمام جبل صغير فى قرية من قرى الصعيد تعرف باسم «الدبابية» إلى الجنوب الشرقى من الأقصر بحوالى ٣٥ كم. وكان المصريون المشاركون لا يزيد عددهم على ١٢ عالمًا من جامعات مصر التى يصل عددها الآن إلى ١٤ جامعة غير الجامعات الخاصة!!. لمدة أربع سنوات كاملة اهتم العالم الجيولوجى فى شتى أنحاء الأرض بهذه المنطقة وكافح بعض علماء مصر من أجل أن يتم اختيار منطقة «الدبابية» دون مناطق أخرى فى حوض البحر الأبيض. كقطاع نموذجى لتاريخ معين ظل غامضًا وغائبًا حتى كشف علماء جامعة أسيوط. قسم الجيولوجيا. عن تواجد هذا القطاع الجبلى النموذجى فى قرية الدبابية. وكافح واستبسل د. خالد عوده حتى تمكن من إقناع اللجنة الدولية للعلوم الجيولوجية فى اختيار هذه المنطقة بمصر ممثلاً لحقبة زمنية معينة وتمت الموافقة على ذلك فى فبراير ٢٠٠٢ وعلى أن تعقد اللجنة الدولية اجتماعها التالى فى فبراير ٢٠٠٤ بمنطقة الدبابية. وهو ما حدث بالفعل. هذا الحدث العالمى الذى لم يحدث أبداً بمصر مرّ دون أن يعيره المصريون أو وسائل إعلامهم ما يستحق وقارن ذلك بمباريات كرة القدم التى ننهزم فيها دائمًا أو بأخبار هذا الممثل أو تلك «الفنانة». ثم نتحدث بعد ذلك عن تخلّف مصر العلمى والاقتصادى!!. والآن ما هى حقيقة القصة؟

يُقسَم التاريخ الجيولوجى للأرض إلى عدة أحقاب تمتد داخل أغوار الزمن من ٤,٦ بليون سنة. بداية تكون الأرض. إلى أيامنا الحالية. وقسمت هذه الأحقاب إلى عصور جيولوجية والعصور إلى فترات. وكل من الأحقاب والعصور والفترات لها تاريخ بداية وتاريخ نهاية. ومن ثم فإنه يمكن مقارنة تاريخ هذا العصر أو تلك الفترة فى مصر، مثلاً، مع مواقع لها نفس التاريخ فى ليبيا أو السودان.. ويمثل كل عصر أو فترة بقطاع صخرى معين يمكن تتبعه داخل كل قطر وامتداداته فى منطقة ما حول هذا القطر. وسميت العصور والفترات باسم المكان الأول الذى اكتشفت فيه صخور هذا العصر أو تلك الفترة. وأول أو أقدم العصور الجيولوجية التى يوجد فى صخورها حيوانات واضحة ومفصلة هو العصر الكامبرى والذى بدأ منذ ٥٤٥ (خمسمائة وخمسة وأربعين) مليون سنة. واستمر لمدة ٥٠ (خمسين) مليون سنة. وسمى بهذا الاسم لأن صخوره عرفت لأول مرة فى إنجلترا فى منطقة كامبريا حيث عاشت قبيلة بهذا الاسم فى القرون القديمة (القرن العاشر والحادى عشر) بهذا المكان. وقبل العصر الكامبرى لم يعثر على حفريات واضحة داخل الصخور غير بعض آثار لحيوانات الخلية الواحدة والتى ظهرت على الأرض منذ أكثر من ٢٥٠٠ (ألفين وخمسمائة) مليون سنة. ومن ذلك يمكن القول إن أول الحيوانات الواضحة والتى أمكن تعريفها وتوجد الآن على هيئة حفريات (بقايا حيوانية أو نباتية) داخل صخور هذا العصر.

وتعتبر الحفريات هى الساعة الزمنية التى يمكن معها تحديد الوقت الذى وجدت فيه الصخور الحاملة لحفريات معينة. ومع تقدم العلوم الجيولوجية وخاصة علم الحفريات والذى يعرف باسم الباليونتولوجى Paleontology أمكن تقسيم الفترة الزمنية من ٥٤٥ مليون سنة. بداية العصر الكامبرى. إلى الوقت الحالى والذى يعرف باسم الهولوسين Holocene والذى بدأ تاريخه منذ عشرة آلاف سنة فقط واستمر حتى اليوم إلى ١٦ (ستة عشر) عصرًا. وتفصل هذه العصور عن بعضها أحداث جسام مثل ظهور أو اختفاء حيوانات معينة أو حدوث حركات تركيبية غيرت من شكل القشرة الأرضية أو تكون الثلوج على قطبى الأرض أو ذوبانها.. إلخ. المهم أن الفاصل الجيولوجى بين أى عصرين هو فاصل واضح يمكن تتبعه فى أنحاء الأرض قاطبة ولا يمكن زحزحته إلى أعلى أو إلى أسفل وفقًا لتغير المكان. والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن غير المتخصص هو ما أهمية ذلك؟ يمكن الرد على ذلك بطريقة علمية، فالبترول يوجد فى السعودية داخل صخور السيلورى الأعلى (٤٢٨ مليون سنة) لارتفاع سطح البحر وكثرة المياه بالبحار والمحيطات بعد ذوبان الثلوج التى غطت سطح قطبى الأرض فى العصر السابق: الأوردوفيسى الأعلى والسيلورى الأسفل (من ٤٥٨ مليون سنة حتى ٤٢٨ مليون سنة). وداخل مياه البحار والمحيطات التى زادت كثيراً وطفت على الأرض، انتشرت حيوانات صغيرة تعرف باسم الجرابتوليت فى المياه. ونتج عن موت هذه الحيوانات وسقوطها بأعداد لا حصر لها تكون مواد عضوية أدت فى النهاية إلى تكون مخزون ضخم من البترول فى حقول السعودية. على نفس النمط وخلال نفس التاريخ تكون مخزون بترول ليبيا. وكان على الجيولوجيين المصريين البحث عن هذه الفترة الزمنية داخل الصحراوات المصرية واستكشاف ما فى صخورها. ولكن للأسف كانت مصر خلال هذه الفترة مرتفعة فوق سطح مياه المحيطات ومن ثم لم تترسب صخور هذا العصر بمصر سوى فى مناطق حدودية مع ليبيا. وكان الترسيب ضعيفًا لم يعط سوى أمتار قليلة من الصخور لا تحتوى على حفريات كثيرة من الجرابتوليت.

ومن الأحداث الكبيرة والمهمة فى تاريخ الأرض، اختفاء الديناصورات فجأة عند نهاية العصر الطباشيرى أى منذ نحو ٦٥ مليون سنة. سادت هذه الحيوانات الضخمة، التى يصل طولها إلى أكثر من ٢٥ مترا وارتفاعها (بعض أجناسها) إلى أكثر من عشرة أمتار ووزن بعض الأجناس الضخمة منها إلى عشرة



«الدبابية» فى جنوب مصر

فى جبـــــل «الدبـابيــــة»

أطنان أو أقل. بينما توجد بعض من هذه الحيوانات فى حجم الفراخ الصغيرة. ورغم هذا الحجم والوزن الكبيرين فإن وزن المخ لم يزد على بضعة أوقيات. وهناك رأيان علميان عن سبب اختفاء هذه الحيوانات الأول: هو تعرض الأرض لنيزك ضخم سقط عليها نتيجة انفجار أحد الكواكب فى المجرة التى تعيش بداخلها. وأدى ذلك إلى انبعاث كمية كبيرة من الغبار حجبت قرص الشمس عن الأرض لمدة زمنية طويلة قد تصل إلى بضع سنوات. ومن ثم فقدت أو انعدمت الحياة على الأرض. والرأى الثانى يقول: إن غباء الديناصورات وعدم تأقلمها مع الظروف المحيطة كان عاملاً أساسياً لاندثارها. عموماً فإن نهاية الديناصورات وضعت حداً فاصلاً بين عصرين.

كذلك كان انتهاء واختفاء البرمائيات الضخمة والتى يصل بعض أحجامها إلى درجة أنها كانت تضع أقدامها على الأرض ورؤوسها على بعد أكثر من ١٥ متراً!! حداً فاصلاً بين الكربونى والبرميان أى عند ٢٩٠ (مائتين وتسعين) مليون سنة.

ولما كانت بعض الحشرات الطائرة عند فرد أجنحتها تصل إلى ستة أمتار، وكذلك فإن طيران بعض الديناصورات أكد أن كمية الأكسجين بالجو القديم كانت أكبر بكثير من الموجود حالياً، وهذا ساعد على وجود هذه الحيوانات الضخمة.

أعطيت بعض الأمثلة عن أهمية الحد الفاصل بين عصرين جيولوجيين وبعض الأسباب التى أدت إلى اهتمام العلماء بهذه الحدود الفاصلة. ومن ثم فقد أقر العلماء مناطق معينة تكون صخورها هى القطاع النموذجى لهذا العصر أو ذاك. وكلما كان القطاع الرسوبى متكاملاً، أى أن الصخور التى تتبع هذا العصر أو تلك الفترة الزمنية ترسبت فى قيعان البحار والمحيطات دون انقطاع أو دون حركات رفع للأرض يترتب عليها عدم ترسيب بعض الصخور، كلما حدث ذلك كان القطاع نموذجياً. ففى نهاية عصر الباليوسين أى منذ نحو ٥٥,٥ مليون سنة (خمسة وخمسين ونصف) حدث ارتفاع حاد فى درجة حرارة الأرض وفى قيعان المحيطات والبحار ارتفاعاً مفاجئاً أدى إلى وفاة غالبية الأحياء التى تعيش فى البحار والمحيطات سواء أكانت هائمة على السطح أو فى الأعماق. ولعل هذا الارتفاع المفاجئ فى الحرارة نتج عن ثورات بركانية داخل مياه المحيطات وكذلك لاتساع رقعة أرضيات المحيطات حيث استمرت أمريكا الجنوبية فى الابتعاد عن أفريقيا وكذلك أمريكا الشمالية عن أوروبا. وبموت الأحياء البحرية وتحللها بالقرب من أرضيات البحار ارتفعت نسبة ثانى أكسيد الكربون فى المياه وتدريجياً تم القضاء على غالبية الأحياء التى تعيش بعيداً عن قيعان المحيطات سواء أكانت هائمة أو تعيش على الأرصفة القارية بين الأرض والبحر. وتطور الأمر بعد ذلك وانتشر غاز ثانى أكسيد الكربون إلى الجو وأدى ذلك إلى اندثار الحياة أو كثيراً من الأحياء الأرضية. وساعد على ذلك تغير الضغوط الجوية ونشطت الرياح بالتالى وساعدت على زيادة انتشار غاز ثانى أكسيد الكربون. والنتيجة هى انهيار كامل فى معدلات توالد الأحياء البحرية والأرضية النباتية والحيوانات. ثم حدث ما يعرف باسم الطفرات الحيوانية والنباتية وتتلخص فى توالد وتكون أحياء جديدة تختلف عن سابقتها عندما تحسنت ظروف الحياة وعادت الظروف المناخية إلى طبيعتها. وتعرف هذه الفترة باسم الحرارة القصوى لنهاية الباليوسين. وبصورة تدريجية بدأت الحرارة فى الانخفاض وازدادت كميات الأكسجين بالجو وقلت بالتالى نسبة ثانى أكسيد الكربون وعادت نسب الغازين إلى مستوياتهما العادية. فى الجو. تدريجياً ثم فى مياه البحار السطحية ثم فى المياه العميقة. وصاحب ذلك خمود الثورات البركانية وعودة الحياة الحيوانية والنباتية فى البحر والأرض. وبدأت الحياة فى البحار بالكائنات الهائمة التى تطفو فوق سطح المياه ثم انتشرت تدريجياً داخل المياه حتى أعماق البحار. وعلى الأرض بدأت الثدييات الأولية فى الظهور وهى الثدييات الجرابية كالكانجرو. التى تلد أجنة ناقصة النمو وتحتفظ بالجنين داخل كيس على بطن الأم. وتطورت هذه الثدييات الناقصة فأعطت المشيميات وهى الثدييات التى يرتبط الجنين بالأم عن طريق حبل سرى لنقل الغذاء من الأم إلى الجنين. وحدث أن انفصلت استراليا عن آسيا بما فيها من جرابيات قبل ظهور المشيميات القوية مثل الوحوش أكلة اللحوم والتى قضت تماماً على الجرابيات فى العالم القديم. آسيا وأفريقيا والأمريكتين. بينما عاشت الجرابيات آمنة فى قارة استراليا بأكملها دون أن تتعرض للمشيميات القوية المفترسة.

والطريف أن نيوزيلنده انفصلت عن استراليا قبل أن

كتاب الزاوية

٤ـ مذكرات الإمام محمد عبده

الدين والأوقاف

من جدران سلطانه دعامة من الدين.. أى دين كان دعامة لسلطان محمد على؟.. دين التحصيل (جمع الضرائب بالقوة) دين الكرباج.. دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده. وإلا فليقل لنا أحد من الناس أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامى الجليل؟

لا يذكرون إلا مسألة الوهابية، وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين.. نعم إن الوهابية غلوا فى بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين.. وما كان محمد على يفهم هذا، ولا سفك دماءهم لإرجاعهم إلى الاعتدال، وإنما كانت مسألة محضة تبعثها جرأة محمد على، على سلطانه العثمانى.

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق، وأبدلها بشىء من النقد يسمى «فائض رزمانة» لا يساوى جزءًا من الألف من إيرادها. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة.

وقصارى أمره فى الدين، أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو إجلاسهم على الموائد لينفى من يريد منهم إذا اقتضت الحال ذلك، وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط.. ماتوا عليه.

إن هذا الرجل كان تاجرًا زارعًا، وجنديًا باسلاً، ومستبدًا ماهرًا، لكنه كان لمصر قاهرًا، ولحياتها الحقيقية معدمًا.

جبل «الدبابية»

تظهر الثدييات الجرابية. ومن ثم لم تتطور حيوانات نيوزيلنده وسادت فيها الطيور الغريبة التى اندثرت فى العالم قاطبة عدا نيوزيلنده مثل الكيوى.

والاعتقاد السائد بين العلماء الآن أن فترة الحرارة القصوى بين عصرى الباليوسين والايوسين تمثل البداية لظهور أسلاف الحياة فى الحقب الحديثة كأسلاف الثيران والجمال والأفيال والأحصنة ومن آكلات اللحوم والقردة الأولى والحيتان وأبقار البحر وانتشرت الطيور فى الجو. وعلى الأرض كان المناخ مهيئًا لازدهار الأشجار والنباتات.. كانت الأرض تتهيأ لأن يصل وضعها إلى ما نحن فيه من حياة نباتية وحيوانية وكذلك لظهور أفضل المخلوقات: الإنسان.

ونتيجة لهذه الأحداث الضخمة فى كثير من أنحاء العالم خلال الفترة الزمنية حول الـ٥٥ مليون سنة (خمسة وخمسين) أى عند نهاية عصر الباليوسين وبداية عصره الأيوسين والكلمة الأخيرة تعنى فجر الحياة الحديثة (الحياة الحديثة = Cene – فجر = EO) بينما تعنى الكلمة الأولى فجر الحياة الحديثة القديم (الحياة الحديثة = Cene فجر = EO ، قديم = Palco).. نتيجة لهذه الأحداث فإن السجل الصخرى بين هذين العصرين مفقود تمامًا فى أغلب مناطق العالم إلا أن منطقة الدبابية والتى تقع إلى الجنوب من مدينة الأقصر بحوالى ٣٥ كيلومترًا. كما يقول الأستاذ الدكتور خالد عودة أستاذ الجيولوجيا بأسيوط.. هى المنطقة المثلى فى العالم قاطبة التى لا توجد بها هذه الثغرة أو بمعنى آخر هناك تكامل فى الرسوبيات حيث كانت الأجزاء الجنوبية من مصر حول الأقصر وجنوبًا، بعيدة عن تلك الأحداث الخطيرة التى حدثت بالعالم.. ومن ثم ترسبت الصخور بانتظام عند نهاية الباليوسين وبداية الأيوسين حول ٥٥ مليون سنة دون انقطاع، وتصل الفترة الزمنية الغائبة فى القطاعات الصخرية فى أوروبا إلى حوالى ٢,٤ مليون سنة.

فى الدبابية يعتبر القطاع الرسوبى قطاعًا نموذجيًا يغطى هذه الفترة الزمنية الغائبة والمفقودة فى قطاعات أوروبا، أى فترة الـ٢,٤ مليون سنة.. ومن ثم يصبح القطاع الصخرى المصرى صالحًا لأن يكون مقياسًا زمنيًا دوليًا للحد الفاصل بين عصرى الباليوسين والأيوسين وتتوافر فيه الشروط الدولية التى أرساها الاتحاد الدولى للعلوم الجيولوجية وأهمها الكمال الطبقى أى عدم افتقاد لأى من الفترات الزمنية داخل طبقات صخور القطاع الجبلى وكذلك بعد المنطقة ومن ثم القطاع الجبلى عن تأثير الحركات الأرضية أو التغيرات اللاحقة للترسيب وأن يكون سهل الوصول إليه من جميع الدارسين.

وفى ١٧ فبراير ٢٠٠٢ تم التصويت الدولى بالإجماع على اعتبار قطاع الدبابية أكمل التتابعات الرسوبية على وجه الأرض للفترة الزمنية الانتقالية بين الباليوسين والأيوسين، كانت هناك منافسة شديدة من دول كثيرة منها اسبانيا، فرنسا، إسرائيل... وصل عدد القطاعات الجبلية الأخرى التى عرضت أمام اللجنة الدولية لاختيار قطاع نموذجى عن هذه الفترة إلى ٢٩ (تسعة وعشرين) قطاعًا. كان نصيب مصر جيدًا حين تم اختيار قطاع الدبابية دون القطاعات الأخرى.

والسؤال الآن هو كيف يمكن معرفة أن هذا القطاع متكامل؟ هناك ترتيب دولى للحفريات. أى الحيوانات الدقيقة والتى تركت بقاياها فى الصخور بعد موتها.. من الأقدم إلى الأحدث: القديم دائمًا أسفل القطاع ويندرج إلى الأحدث كلما صعدنا فى القطاع الرسوبى. وأى غياب لبعض الحفريات يعنى غياب فترة زمنية. وهكذا فإنه بدراسة السجل للحفريات وتتبعها من أسفل إلى أعلى يمكن معرفة غياب بعضها أو تواجدها ومن ثم يمكن معرفة إن كان هناك تكامل طبقى أو نقص فترة زمنية معينة لغياب بعض الحفريات المميزة لهذه الفترة الزمنية.

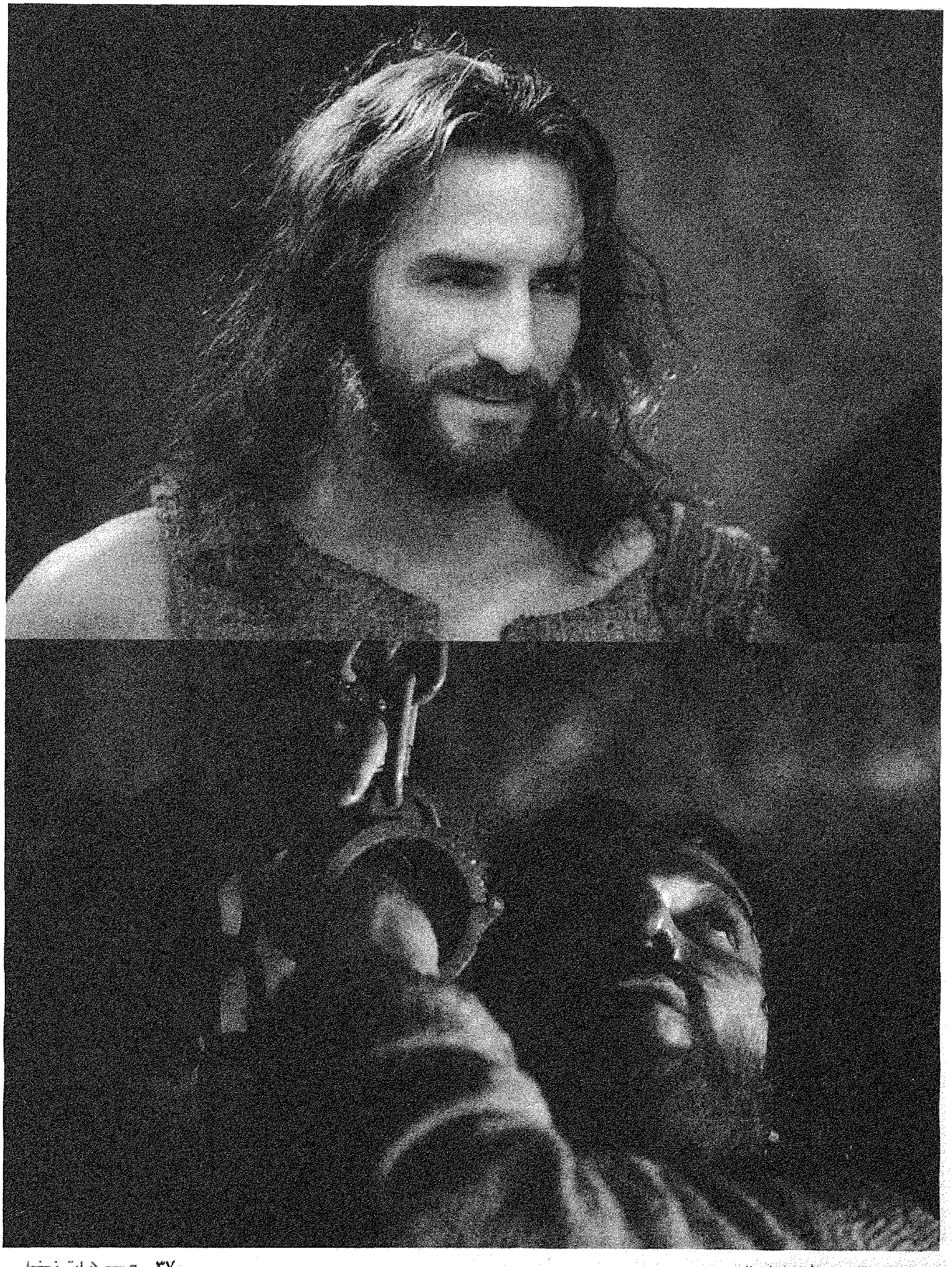
وإذا كانت المنطقة (الدبابية) قد شدت اهتمام العالم الجيولوجى العلمى وأصبحت مرجعًا أساسيًا لفترة مهمة فى التاريخ الجيولوجى.. فماذا نحن. كمصريين. فاعلون؟ المنطقة هى من أشد مناطق مصر فقرًا وما ينتج عن ذلك من إهمال فى بنيتها الأساسية وأحوال ساكنيها المعيشية.

لاشك أن الدبابية ستجذب عددًا غير قليل من علماء العالم الذين سيأتون إليها لدراسة قطاعها الجبلى المميز. فلا أقل من رصف الطريق الجبلى المؤدى إلى القطاع المميز. وإيجاد مساكن نظيفة للعائلات القليلة التى تسكن بين طريق الأقصر. أسوان، والطريق الجانبى المؤدى إلى الجبل. كما يجب الحفاظ على القطاع الجيولوجى الصخرى بالجبل من اعتداءات أصحاب المحاجر القريبة. ونأمل أن تهتم الهيئات العلمية المتخصصة بهذا القطاع النموذجى وتذكى فى شبابنا روح المعرفة والرغبة فى مزيد من الاستكشافات التى تصعد بمصر وبعلمائها سلم الرقى والعلم. ■


اتكلم دولي
ووفر أكتر
١٥٠
في خدمة مصر
لما تتكلم دولي مع المصرية للاتصالات
هتوفر أكتر من أي شبكة تانية.
جميع الدول العربية ٣,٠٠ ٢,٢٥
الولايات المتحدة الأمريكية ٣,٠٠ ٢,٢٥
كندا - أوروبا - دول الكاريبي ٣,٥٠ ٣,٠٠
باقي الدول ٤,٥٠ ٣,٥٠
تطبق التعريفة المسائية المخفضة
يومي الجمعة و السبت طوال اليوم
الوحدة الزمنية للحساب بعد الدقيقة الأولى ١٠ ث
للاستعلام مجانا: ٢٢٢٢٢٢ - ٠٨٠٠
www.telecomegypt.com.eg
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا







"آلام المسيح"

إبـراهـيـم الـعـريـس

في واحد من نصوصه الأكثر غرابة وجمالاً في الوقت نفسه يقول لنا الكاتب الأرجنتيني الراحل جورج لويس بورخيس أن علينا أن ننظر إلى قصة القبض على السيد المسيح لصلبه، ضمن إطارها الرمزي، مؤكداً على أن يهوذا الاسخريوطي الذي «يدل» الرومان على المعلم غادراً به مقابل ثلاثين من فضة، لا يقل أهمية من الناحية التاريخية واللاهوتية عن السيد المسيح نفسه. لماذا؟ بكل بساطة لأن القصة كلها إنما هي حكاية «ميزانسين» (إخراج مسرحي) يتطلبه قيام كل دين، بمعنى أن الأمر هو ترتيب يتعين عليه أن يبرز بطولة المعلم وفداءه للبشرية، عذابه وصلبه وقيامته. ولما كانت كل بطولة تحتاج في ترتيب حدوثها إلى خيانة لا تستقيم البطولة من دونها ولا تكون مقنعة، يصبح من يرضى بأن يلعب دور «الخائن» في مثل هذا «الميزانسين» بطلاً بدوره، بل إن بطولته أكثر خطورة لأنه يرضى بأن يلعنه التاريخ على عكس البطل الآخر، الذي سيجني تمجيد التاريخ له.

طبعاً مثل هذا الكلام قد لا يعدو كونه خيال مبدع يريد أن يتمعن أكثر من اللازم في تلك الأحداث الدينية. التاريخية التي تشهدها عادة ولادة الأديان. غير أن مشاهد فيلم «آلام المسيح» للممثل والمخرج الاسترالي الأصل ميل جيبسون، لاشك سوف يخامره هذا الشعور، الشعور بأن ثمة في الأمر «ميزانسين» مرتباً من أجل تأكيد بطولة السيد وفدائه للبشرية. وفي يقيننا أن هذا الأمر غير مقصود من قبل جيبسون وشريكه في كتابة سيناريو الفيلم. كل ما في الأمر أن أكثر الأعمال الفنية ضعفاً هي التي تكشف عادة سر اللعبة الفنية وتفاصيل خلفياتها. و«آلام المسيح» كما صورها ميل جيبسون أتت فيلماً ضعيفاً من الناحية الفنية. من دون مفاجآت حقيقية. من الناحية التاريخية. وهذا على رغم ما قد يوحي به الضجيج الكبير الذي ثار، ولايزال يثور حول الفيلم. وقد لا يكون الذنب ذنب جيبسون في هذا، مادمنا نعرف أن الفنان، حين يدنو من أعمال معروفة الفحوى تاريخياً، لن يكون قادراً على التصرف على سجيته، إلا إذا كان، هو في الأصل، ذا موقف مشاكس على النص التاريخي، فيعارضه أو يعيد تفسيره.. وما إلى ذلك، بحيث يصبح تدخله، إعادة إحياء لسجالات سابقة من حول هذا العمل. أما بالنسبة لميل جيبسون فإنه ليس من طينة الكبار، فناً وفكراً، من الذين يمكنهم أن يبدلوا في الخطية التاريخية للعمل الذي يخوضون. هو ليس بيار باولو بازوليني. ليقدم لنا مسيحاً مناضلاً مشاكساً على مجتمعه، عنيفاً في مطالبته بحقوق البائسين، كما في «الإنجيل حسب القديس متى». وهو ليس، حتى فرانكو زيفريللي. بحيث يسبغ على مسيحه مسحة شاعرية موسيقية رائعة تثير أحلى المشاعر في النفوس. ميل جيبسون فنان تربى على السينما الرائجة وغالباً على سينما العنف، ومؤمن ممارس ترعرع منذ صغره وسط طائفة كاثوليكية متطرفة تؤمن بالكتابات المقدسة كما هي ولا تستسيغ، حتى أن يقوم الفاتيكان في ستينيات القرن العشرين بتبرئة ذرية اليهود من جريمة قتل المسيح التي اقترفها يهود فلسطين في تلك الأزمان السحيقة. وهذا من دون أن يكون جيبسون، بالطبع، معادياً للسامية، أو حتى يهود أيامنا هذه.

ظاهرة أم عمل فني

والظاهرة التي نتحدث عنها هنا، لها جانبان: الأول أن جيبسون الذي يدرك غريزياً أن عظمة البطولة تكمن في حجم العذاب الذي يتحمله البطل فداء لأفكاره وقناعاته وللبشر، استعار كل ما في تاريخ السينما وفي تاريخه الشخصي من مخزون عنف مرعب ليجعله أساس فيلمه، والثاني أن جيبسون عبر الالتباس الذي أثاره، منذ البداية حول موقف فيلمه من تحمل اليهود إلى أبد الآبدين وزر قتل المسيح، أثار من حول شخصه ومن حول فيلمه عاصفة من النقد استشرت حتى قبل عرض الفيلم أو مشاهدة أحد له. وهكذا، إذ ثارت العاصفة من حول الفيلم، قبل عرضه، من جراء الموقف اليهودي السلبي منه، وبعد عرضه من جراء الحديث عن قدر العنف الذي يملأه، لم يكن الأمر في حاجة لأكثر من هذا حتى يتلقف الفيلم ويتراكض الناس لمشاهدته.

إن هذا البعد قد يفسر، طبعاً، ضخامة الإقبال على الفيلم.. ولكن في المقابل علينا ألا ننسى عناصر أخرى جاذبة للجماهير العريضة، منها اسم ميل جيبسون نفسه، ومنها استخدام العديد من المؤثرات البصرية الحديثة، ما يجعل الفيلم معاصراً لنا، من الناحية التقنية ومجدداً في مجال هذا النوع من الأفلام الدينية، إذ أمامه - حتى بغض النظر عن مسألة العنف. تكاد تبدو بقية الأفلام المتحدثة عن السيد المسيح، أو عن الحكايات الدينية، شديدة القدم والتخلف التقني.

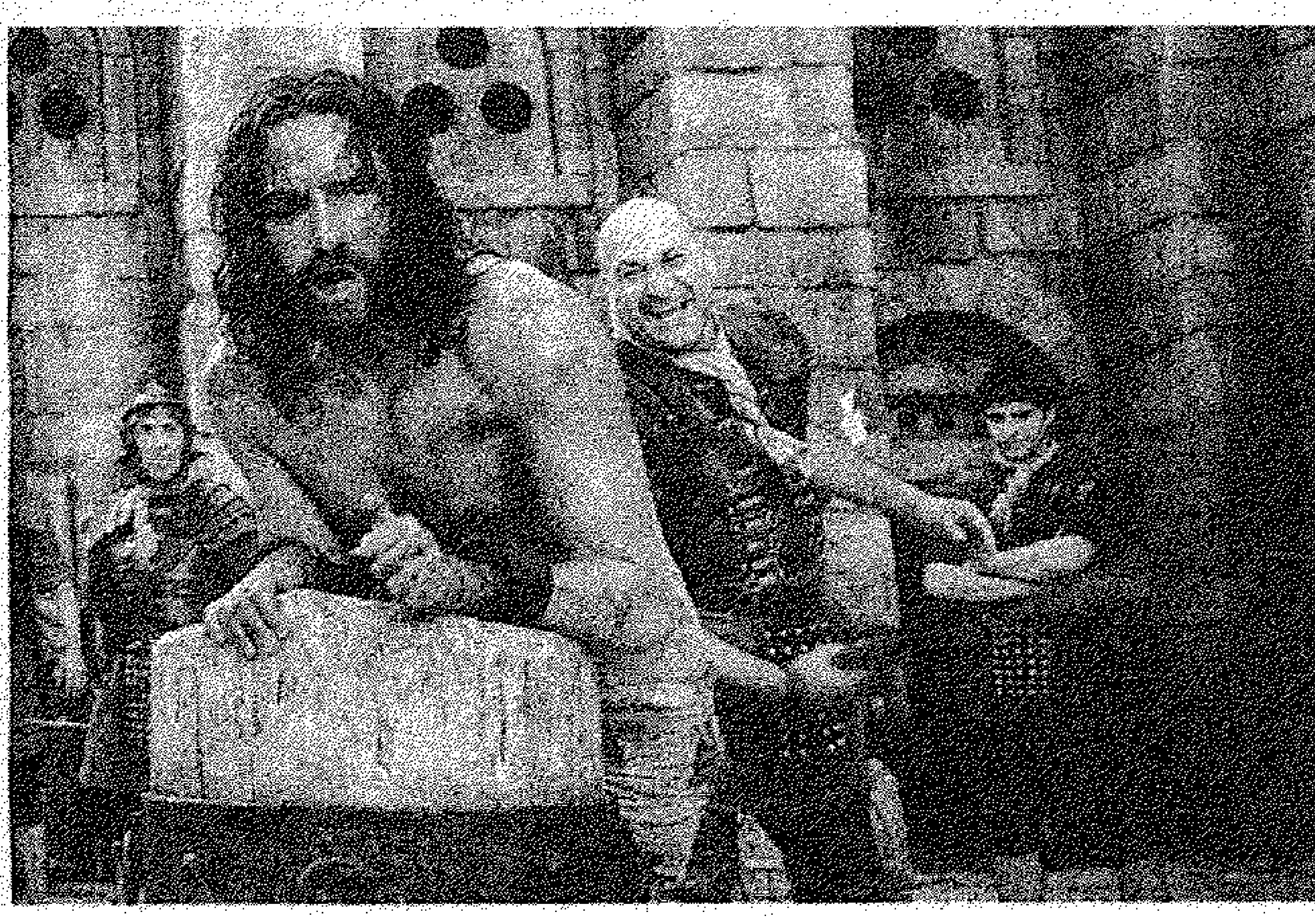
غير أن العنصر الرئيسي في العملية كلها تبقى تلك الحاجة الروحية المتنامية لدى الناس عند بدايات هذه الألفية الثالثة متضافرة مع حاجتهم إلى مشاهدة أعمال تقدم أبطالاً حقيقيين، وهو الأمر الذي يجتذبهم أيضاً إلى مثل هذا الفيلم.

وطبعاً لا يمكننا هنا أن نزعم أن التفاوت بين ما هو متوقع من الفيلم سلفاً، وبين ما يشاهده الجمهور على الشاشة، يأتي مخيباً للآمال. بل على العكس، إن معظم المشاهدين يخرجون من الفيلم راضين حتى وإن أعلنوا انزعاجهم من كم العنف الذي فيه.

والحقيقة أن هذا العنف، إنما هو ترجمة تكاد تكون حرفية للصور اللغوية التي طالما روت كيف عُذّب السيد المسيح. كل ما في الأمر أن الأفلام السابقة. والتي ما انفكت السينما تروي فيها حكاية حياة وآلام السيد المسيح، منذ وجدت السينما. كانت لإدراك صانعيها قوة تأثير الصورة ورعبها إذ تصور مباشرة، ومن دون وسيط لغوي، تمزق الجسد والدم السائل والضرب المبرح حتى الموت، كانت تفضل أن تغض الطرف عن الإمعان في تصوير هذا التعذيب، خفراً أو خوفاً على الجمهور. بالنسبة لميل جيبسون لا مجال لمثل هذا الخفر، في زمن يحيط بنا فيه العنف من كل جانب ونشاهده يومياً في نشرات الأخبار المتلفزة، وفي الحياة اليومية.

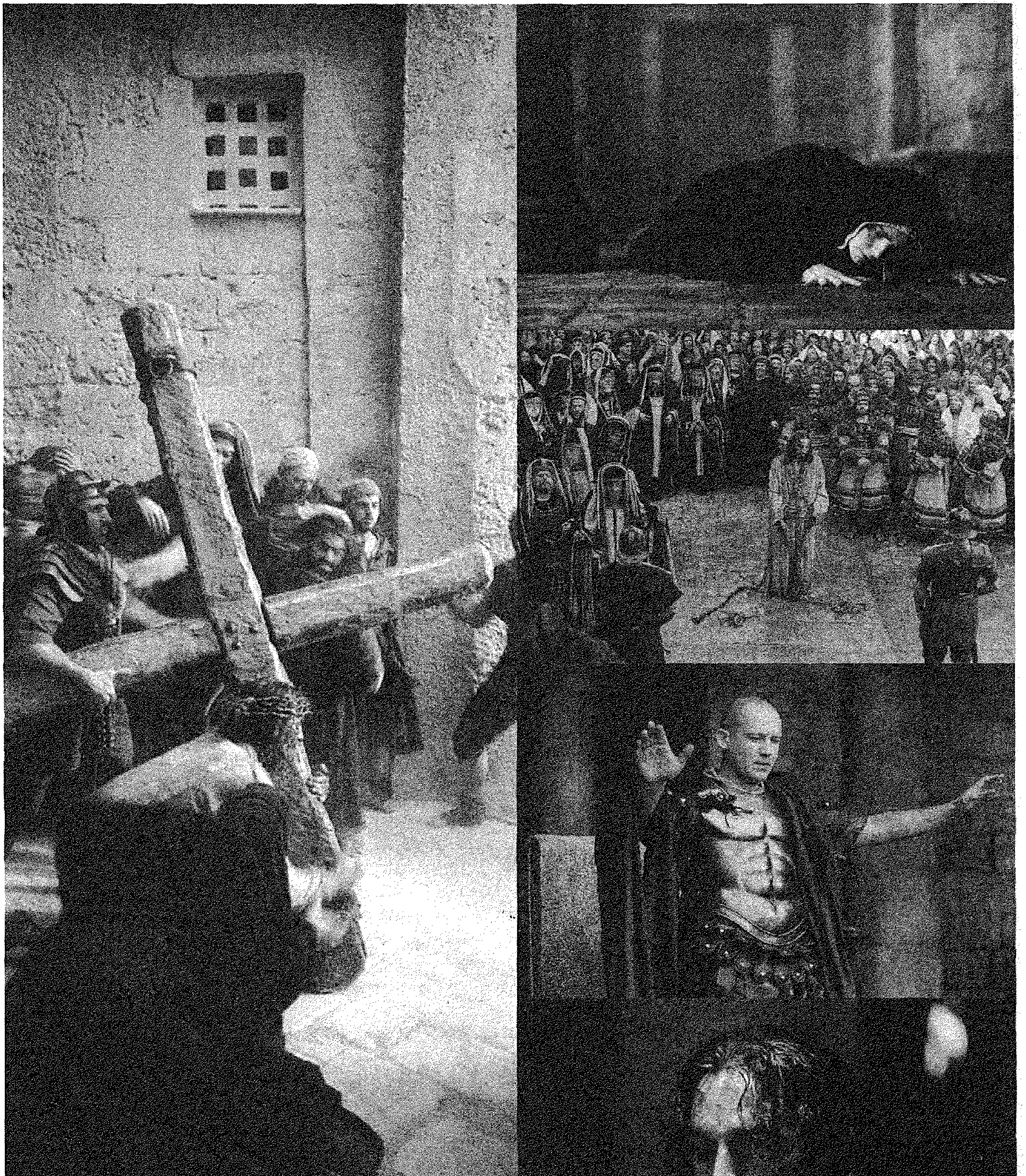
أدوار في مسرح الأسرار

وهذه الحكاية هي، في الفيلم، حكاية الاثنتي عشرة ساعة الأخيرة من حياة السيد المسيح، وصولاً إلى صلبه، مع مشهد أخير يرى قيامته وقد استعاد جسده رونقه. والحال أن هذا الاختيار الزمني، كان هو ما أضفى على الجزء الأساسي من الفيلم بُعداً أرسطياً (وحدة الزمان والمكان) وحكم على المشاهد الأساسية (الاعتقال. المحاكمة. طريق الجلجلة. الصلب والقيامة) أن تبدو مسرحية. خطية، تعيد إلى أذهاننا فكرة بورخيس التي بدأنا بها هذا الكلام. إذ هنا، ولأننا نعرف سلفاً كل ما سوف يحصل، يبدو الممثلون، وبمن فيهم السيد المسيح نفسه (جيم كافازيل) وكأنهم يؤدون أدوارهم في واحدة من مسرحيات الأسرار، التي كانت تقدم بوفرة خاصة في العصور الوسطى. وهي مسرحيات كانت ترمي دائماً إلى تقديم المشاهد الدينية كما هي متداولة خاصة في الأناجيل، وأحياناً في العهد القديم. ولسوف ندرك واقع هذا الأمر إذ نعرف أن ميل جيبسون إنما استند في رواية الحكاية إلى ما جاء في الأناجيل الأربعة مجتمعة، من دون أن يضفي



الصور من كتاب:
The Passion Of The Christ
آلام المسيح
Photographs by: Ken Duncan And Philippe Antonello
ICON Distribution, Inc. USA

التاريخية. وهذا على رغم ما قد يوحى به الضجيج الكبير الذى ثار، ولايزال يثور حول الفيلم.



يبدو الممثلون، وكأنهم يؤدون أدوارهم في واحدة من مسرحيات الأسرار، التي كانت تقدم بوفرة خاصة في العصور الوسطى.

«آلام المسيح»

عليها أية تفسيرات لاحقة. ومن هنا قد يمكن القول أن السيناريو تعمد أن يكون تقليدياً، وحتى في اختياراته بالنسبة إلى أمور فقهية كانت المجامع المسكونية قد أعطتها تفسيرات أكثر عصرية (مثل دوس السيد المسيح بقدمه على رأس الأفعى، حيث إن الفاتيكان في القرون الوسطى كان قرر أن المسيح وأمه قد داسا معاً على رأس تلك الأفعى، مسبغاً على السيدة مريم العذراء ألوهية تدنو من ألوهية ابنها، ومثل جعل الشيطان الذي يحاول إغواء المسيح امرأة كإرث من العصور الوسطى التي كانت ترى المرأة تجسيداً للشيطان.. إلخ).

فنون عصر النهضة

غير أن تقليدية ميل جيبسون في هذا المجال، وهي تقليدية مستقاة من مصدرين كما أشرنا، أولهما تربيته المتزمتة وسط طائفة منشقة يتزعمها أبوه هاتون جيبسون في استراليا، وثانيهما قصوره هو نفسه كفنان عن القدرة على إضفاء تفسيرات أكثر حداثة، لا تلغي واقع أنه هو نفسه كان أكثر تقدماً من كثر، حين اختار أن يبين بعض أهم مشاهد فيلمه انطلاقاً من نظرة مرحلة متأخرة من عصر النهضة، إلى تلك الحقبة الأخيرة في حياة السيد المسيح. إذ يلاحظ المطلعون على فنون عصر النهضة التي كانت قد أمعنت، على يد كارافاجيو ثم الغريكو ناهيك عن رسامي الشمال الأوروبي من المتأثرين بالنزعة الإنسانية فيما بعدها البروتستانتي (خاصة تلامذة ايرازموس)، في إضفاء طابع إنساني ودينامي على المشاهد الدينية. يلاحظون أن ميل جيبسون يبدو، في البعد البصري على الأقل متأثراً بتلك الفنون، بل ثمة مشاهد تكاد تكون «تحريكاً» للوحات كارافاجيو نفسه، ومنها خاصة تلك المشاهد الارتجاعية حيث يتذكر المسيح وهو وسط عذابه إذ وقع في قبضة أعدائه من الفريسيين (أحبار اليهود) والرومان، بعض لحظات حياته. وهنا حتى ولو بدا أن مثل هذه المشاهد دخيلة على الفيلم، نصاً وروحاً، إلا أنها، أي المشاهد، أتت مفيدة، إذ ساهمت في إضفاء الطابع الإنساني على السيد المسيح وذكرتنا بأننا هنا في وسط فيلم لا يتحدث فقط عن آلامه وعذاباته، ولكن عن بعض حياته أيضاً.

ويقيناً أن هذا كله أتى ليضفي على الفيلم طابعاً واقعياً صرفاً. في واقعية بالكاد يمكننا أن نقول أن عنف مشاهد التعذيب ينقص من شأنها. بل إن واقعية ميل جيبسون في هذا الفيلم، كانت هي على الأرجح ما جعله يجدد في مجال استخدام الحوارات في الفيلم، إذ هنا، وربما للمرة الأولى في تاريخ الفن السينمائي المقترب من حكاية السيد المسيح، نجد هذا السيد يتحدث هنا باللغة التي كان يتحدث بها في عصره: الآرامية، تلك اللغة التي تشكل أحد المنابع الرئيسية للغة العربية نفسها، في الوقت الذي تحدث فيه اليهود بعبرية تتأرجح بين القديمة والمعاصرة، وتحدث فيه الرومان باللاتينية. وفي اعتقادنا أن جزءاً من متعة المتفرج العربي حين يشاهد هذا الفيلم تكمن في اكتشافه لذلك الكم الكبير من الكلمات والتعابير الآرامية التي سيخيل إليه أنها عربية، وخاصة حين ينطقها السيد المسيح بلهجته الواضحة وتعبيرات وجهه ذات السمات العربية المشرقية الخالصة.

الواقع وقسوته

والطابع الواقعي موجود أيضاً في الفيلم من خلال التصرفات وردود الفعل التي تبديها الشخصيات الأساسية، من ندم يهوذا الإسخريوطي، إلى حزن يوحنا، إلى عويل مريم المجدلية، إلى همجية الجمهور العريض حين يتبع الأحبار في مواقفهم المناوئة للسيد المسيح، وصولاً إلى أداء السيدة العذراء في الفيلم، معبرة عن حزنها تعبيراً داخلياً صامتاً لعله أروع ما في الفيلم، خاصة أن المتفرج مدعو هنا إلى التماهي معها ومع حزنها أكثر من تماهيه مع أية شخصية أخرى في الفيلم. وفي اعتقادنا أن الذين انتقدوا «عدم قدرة» الممثلة التي لعبت دور السيدة العذراء «على التعبير عن آلامها في رد فعل جسدي أو تعبيري صارخ» لم يفهموا حقاً مكانة السيدة كأم للسيد المسيح، تعرف سلفاً أن ابنها منذور للتعذيب والصلب فداء للبشرية، وأنه منذ لحظة انتدابه لهذا الدور، لم يحدث فقط أن انفصل عنها، بل حدث أيضاً أن انفصلت روحه عن جسده ليصبح كل عذاب يقع على الجسد إشارة إلى سمو إضافي في الروح وفي الرسالة.

إذاً، بالنسبة إلينا، تعبيرات السيدة العذراء، هي جزء أساسي من رسالة السيد المسيح، وتلقيها الرسالة ناقلة إياها إلينا، إذ يصبح التماهي بينها وبيننا، نحن معشر المتفرجين، كاملاً، هو جزء أساسي في رسالة هذا الفيلم، الذي يتخذ هنا في هذا المجال أيضاً سمته الأساسية كإعادة تمثيل لحدث تاريخي تحاول الصورة أن ترسمه كما هو، ضاربة الصفح عن تلك الوداعة والاستكانة التي طالما ملأت عشرات الأفلام التي حققت عن حياة السيد المسيح وآلامه.

فهل علينا هنا أن نذكر بأن هذه الواقعية الخطية، كانت أخيراً في خلفية الموقف اليميني اليهودي المتطرف من الفيلم؟

في الحقيقة، نحن لا يمكننا أن نقول هنا أن ميل جيبسون قد تعمد توجيه أصابع الاتهام إلى اليهود. فهذا شأن تاريخي لا يمكن لأحد تبديله. وإذا كان الفاتيكان قد تدخل مرة في الأمر فإنه لم يتدخل لتغيير الواقع التاريخي الذي يقول إن أحبار اليهود، يتبعهم في ذلك جمع يهودي وغير يهودي غفير، كانوا هم من حرض الحكام الرومان على صلب السيد المسيح (وكان من شأنهم هم أن يفعلوا ذلك لولا أن دينهم يحظر عليهم ذلك حسبما أكد كبير الأحبار قيافا)، بل تدخل الفاتيكان لكي يؤكد مبدأ عدم توريث الذنب.. رافضاً فكرة أن «دمه سيكون علينا وعلى أبنائنا». ولطالما حرصت الأفلام السابقة التي حققت في هوليوود أو المكسيك أو غيرها عن السيد المسيح، على إغفال هذه العبارة. لكن ميل جيبسون استبقاها.. وهو في المقابل جعل أحباراً يهوداً يرفضون صلب المسيح، كما ذكرنا بأن المواطن الذي حمل عن المسيح جزءاً من عبء الصليب على درب الآلام كان يهودياً. وفي يقيننا أن التركيز على هذين الأمرين قد جعل هجوم اليهود على الفيلم بعد عرضه، أخف بكثير من هجومهم عليه قبل العرض. إذ أنهما أكدا أن المخرج أو الممثل الأسترالي لم يرد أن يكون معادياً للسامية، بل كان يحاول فقط أن يكون أميناً للتاريخ كما هو متداول ومكتوب.

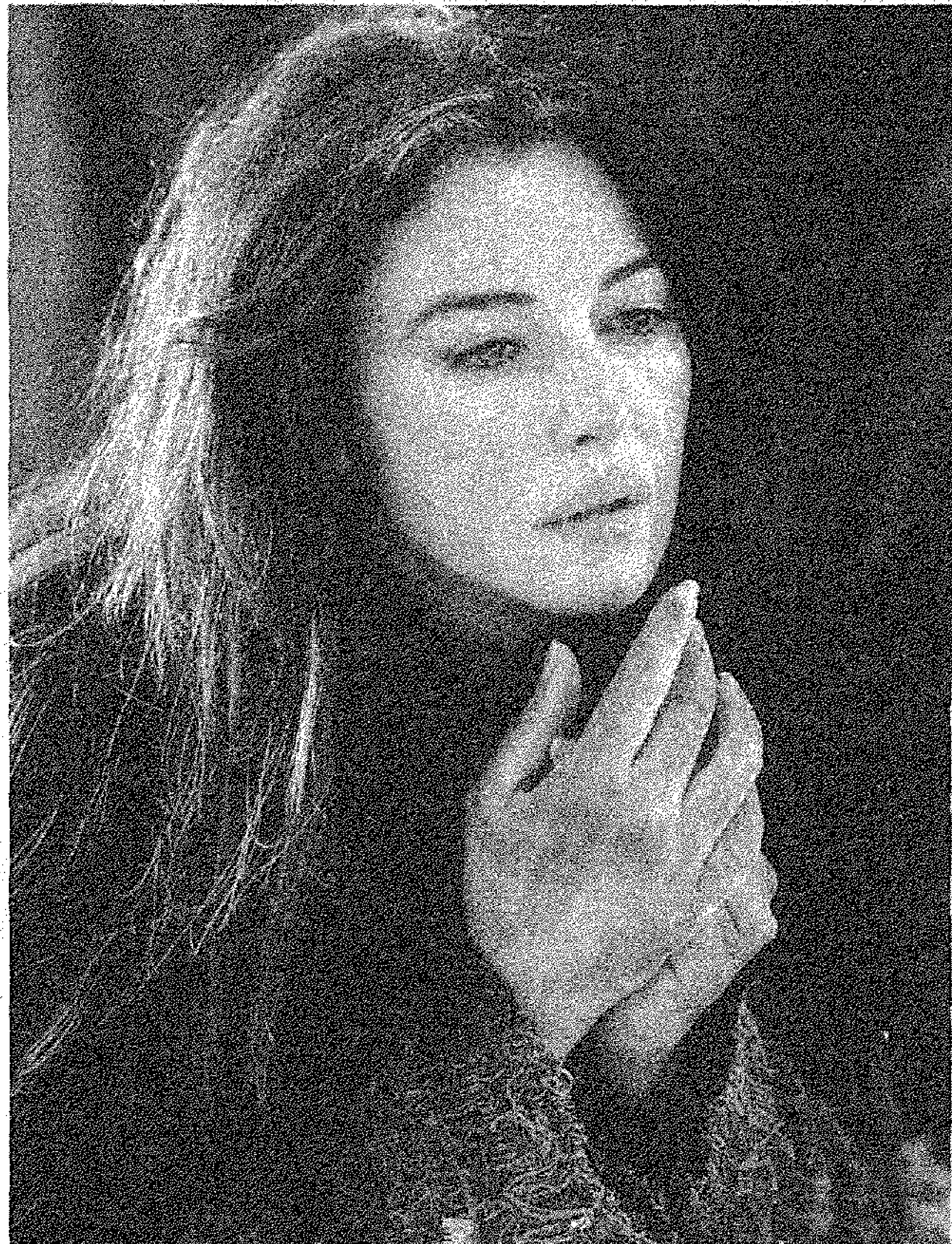
وبقي أن نقول أخيراً أن هذه «الأمانة المطلقة» للتاريخ، كانت هي من ناحية في خلفية نجاح الفيلم تجارياً، ومن ناحية ثانية سبب ضعفه الفني والإبداعي.. ذلك أننا بعد مشاهدة «آلام المسيح» يمكننا أن نكون واثقين من شيء واحد: نحن لسنا هنا في إزاء عمل فني انعطافي، ولا في إزاء عمل حققه فنان يريد أن يتدخل في التاريخ تفسيراً وتأويلاً، بل أمام عمل مدرسي خطي بسيط، حققه فنان عرف كيف يستفيد، فنياً، من مصادر عديدة حفظها عن ظهر قلب، وتقنياً، من أحدث ما توصلت إليه صناعة الفن السينمائي ومؤثراته، صوتاً وصورة، ولاهوتياً، من قراءة مدرسية بسيطة للأناجيل. وظرفياً، من أجواء مرحلة تاريخية قلقة تتضافر فيها الحاجة إلى التعاطي مع السمو الروحي، ومع الإعلام الذي بات قادراً على صناعة كل شيء وكل موقف ثم محوه بين ليلة وضحاها. ■

ميل جيبسون

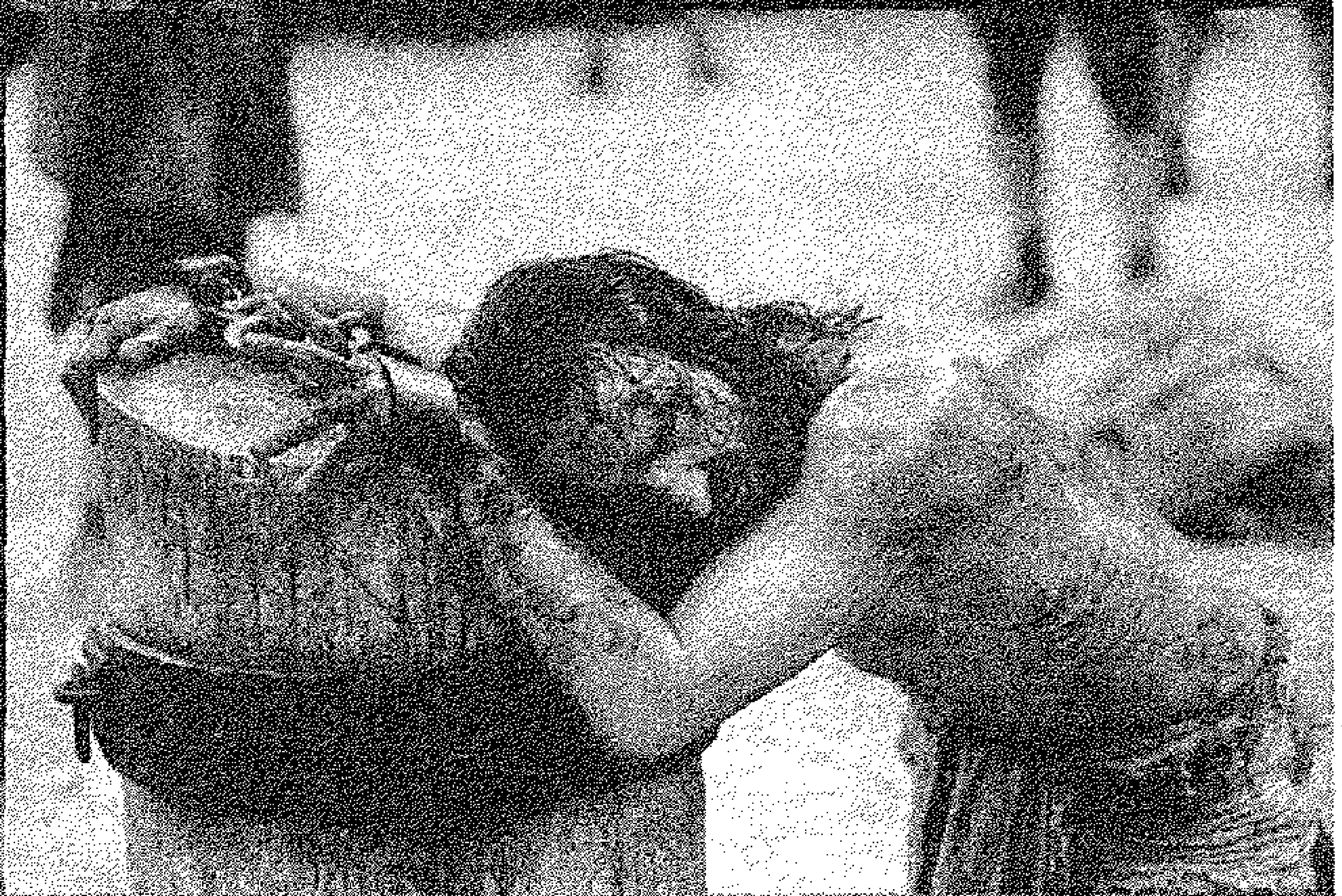
■ يعتبر ميل جيبسون المولود في العام ١٩٥٦ استرالياً على رغم أنه أمريكي الأصل مولود في نيويورك، ذلك أن أباه المنتمي إلى طائفة دينية كاثوليكية متزمتة، هاجر به إلى استراليا أواسط سنوات الستينيات لكي لا يُجند في حرب فيتنام. ولقد بدأ ميل حياته الفنية ممثلاً في أفلام استرالية بعد تخرجه من مدرسة للدراما هناك، ثم أواخر السبعينيات اختاره المخرج جورج ميلر لبطولة فيلم، ثم سلسلة أفلام «ماد ماكس». وهو منذ ذلك الحين وحتى بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة، عرف بأدواره التي لعبها في أفلام يغلب عليها طابع العنف والقتل والصراعات بين العصابات، أمثال سلسلة «ليثال ويبون» والعديد من الأفلام الحربية وأفلام المغامرات.

أما بدايته كمخرج فكانت في العام ١٩٩٢ مع فيلم «رجل من دون وجه» الذي قام ببطولته أيضاً، وهو حقق في العام ١٩٩٥ فيلماً ثانياً عن الثورة الأسكتلندية ضد الإنجليز في القرن الثالث عشر ومثل الدور الرئيسي في الفيلم. وهذا الفيلم حقق يومها نجاحاً كبيراً، ليس بسبب جودته الفنية، إذ أبداً لم يكن ميل جيبسون مخرجاً كبيراً، بل بسبب غضب الإنجليز منه، إذ أتى حاملاً قدراً كبيراً من الاستفزاز المضاد للإنجليز. وهو الذي كان قد مثل في فيلميه السابقين، فإنه في فيلمه الثالث والجديد «آلام المسيح»، فضل أن يكتفي بكونه كاتباً للسيناريو ومنتجاً ومخرجاً، تاركاً الدور الرئيسي، دور السيد المسيح للممثل جيم كافازيل، الذي يشاطره عمق إيمانه الديني، يشاركه كل من مايا مورغنشترن (في دور السيدة العذراء) ومونيكا بيلوتش (في دور مريم المجدلية) وروزاليندا تشيلنتانو (في دور الشيطان). ■

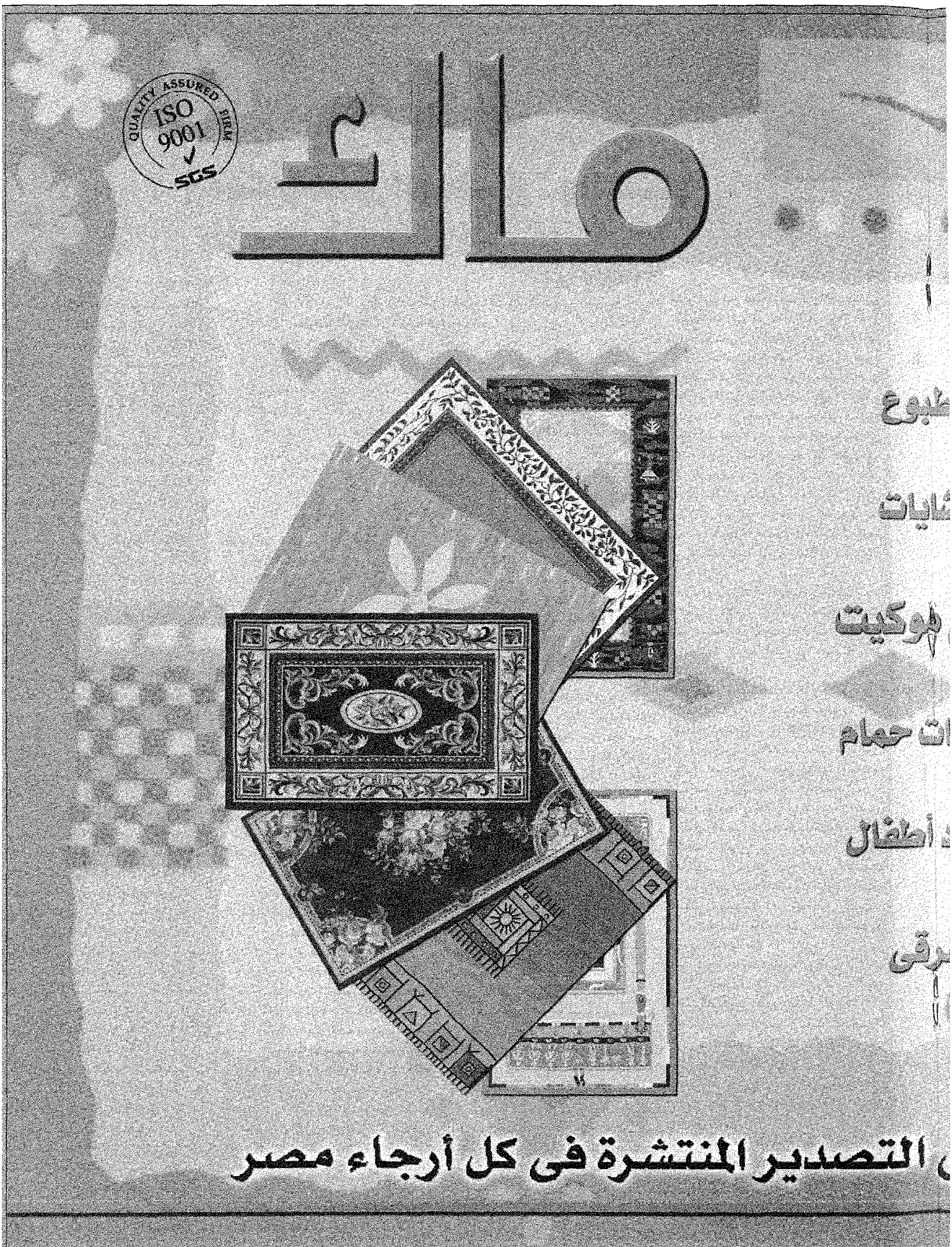
وهى مسرحيات كانت ترمى دائماً إلى تقديم المشاهد الدينية كما هى متداولة خاصة فى الأناجيل، وأحياناً فى العهد القديم.










QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

في معـــرض الفنـــانـة تحيـــة حـــليم

هـيـكـل

وكـلام فـى الحضـارة والفـن

يوم الاثنين ١٥ مارس الماضى، افتتح الأستاذ محمد حسنين هيكل معرضاً للوحات الفنانة الراحلة تحية حليم أقامته الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

والأستاذ هيكل هو الذى بدأ تقليداً حضارياً رفيعاً، بأن يكون للمؤسسات الصحفية مجموعة من المقتنيات الفنية تشهد على تحضرها واهتمامها واحتضانها للفنون.

تكلم الأستاذ هيكل عن الحضارة والفن ورسم «بالكلمات» صورة لفنانة ترسم «بالخطوط والألوان»

حلمى التونى

■ اسمحوا أولا أن أجيب على سؤال ربما خطر على بال أحد من كرام الحضور فى هذا اللقاء، وهو: لماذا أنا الآن هنا؟ - داخل إطار يبدو بعيدا عن «موطنى» الطبيعى، باعتبارى كائنا عاش عمره، ومارس عمله وسط مواقع الصحافة - وقرب مواقع السياسة.

■ ولاختصار الطريق إلى إجابة واضحة، فقد أقول من البداية أننى واحد من الذين يعتقدون أن «الفن» هو الأب الحقيقى للثقافة فى كافة مجالاتها، ثم إن الفنون التشكيلية هى الحلقة الرئيسية فى قصة الصعود المدهش - على سلم الحضارة الإنسانية.

■ دعونا نتذكر أن الإنسان البدائى الأول رسم خطا قبل أن يكتب حرفا، ونقش حجرا قبل أن يصوغ عبارة، وشكل طينا قبل أن يبسط ورقة، ووضع بقعة لون قبل أن يغرس بذرة زرع، ونفخ فى بوصة قبل أن يدير عجلة.

وحين احتاج الإنسان البدائى أن يتخذ لنفسه مأمنا، فقد كان فى ذلك يستهدى بالخطوط قائمة ونائمة - تعطيه حتى فى عمق المغارة والكهف ما يصلح أن يكون مأوى أو مسكنا.

دعونا نستعيد أنه عندما توصل الإنسان إلى فكرة الأبجدية، فقد كانت تلك فى الواقع محاولة لرسم الأصوات والإشارات على شكل خطوط وعلامات، وكانت الأبجدية وسيلة الإنسان إلى تجسيد خياله، ووسيلته إلى تنظيم فكره، ووسيلته إلى توسيع مجال نظره، ووسيلته إلى تخزين وتبويب دائرة معارفه، ووسيلته إلى مد آفق مداركه بما فيها مقدرته على التصور الخلاق الذى يتمثل ويستوعب ملكات البشر ومواردهم وقدراتهم وإرادتهم، بحيث يملكون فرصة الحلم هذه اللحظة، وإمكانية تحقيق الحلم فى اللحظة التالية.

■ وعندما استطاعت الكلمة أن تحافظ وتختزن المعارف والمشاعر والطموحات، فقد كان ذلك مدخل الإنسان إلى الفلسفة - وكانت الفلسفة بدورها مدخله إلى العلوم، وكانت العلوم هى التى فتحت الأبواب للتكنولوجيا، وكذلك سقطت القيود وتلاشت المستحيلات.

■ وحين تعددت الجماعات والشعوب والأمم، وتفرعت اللغات وتواصلت الثقافات - تدفق المجرى الواسع العميق لشراكة إنسانية واحدة، صبت فيه كل جماعة أفضل ما عندها، وما وجده غيرها صالحا له - وتلاحقت العصور حتى وصلنا إلى حيث نحن الآن من حضارة إنسانية واحدة مشتركة وفياضة لمن يستطيع بلوغ تخومها فى عالم يعرف كل سكانه - ما يجرى فى كل أركانه - فى نفس الوقت.

■ وكذلك فإننا وفى وحدة الحضارة الإنسانية نستطيع أن نرى بوضوح تلك العلاقة الوثيقة بين «الفن» (الشكل والخط والحفر والنحت واللون والمعمار وغيرها) - وبين «الكلمة» بتعريفها البشرى وليس السماوى باعتبارها (الأبجدية والحرف والكتاب والجريدة والإنترنت).

كان التشوق إلى التعبير هو البداية، ومن التعبير إلى المعنى، ومن المعنى إلى القيمة، ومن القيمة إلى الرقى، ولاتزال الأشواق غالبة.

■ وكان الإعلام مكتوبا بالحرف أولا، ومنطوقا بالصوت ثانيا، ومتوهجا باللون ثالثا - أهم وسائل وأدوات ذلك التواصل الثقافى والتدفق الحضارى. ومع أن تباين مطالب المجتمعات وتعارضها وتصادمها أحيانا - وضع السلطة السياسية فى بلدان عديدة على طريق صدام مع مسئولية التعبير والمعنى والقيمة والرقى - إلا أن مسار التقدم الحضارى ظل قادرا على فتح مسالكه ومعابره، بصرف النظر عن العقبات والتضحيات.

■ فى هذا الإطار الأوسع فلعله من المعقول أن يسعى كاتب صحفى قضى حياته مع الحرف إلى الحفاوة بفنانة أعطت حياتها بالكامل للفن، وأن يكون ذلك فى إحدى القاعات الشهيرة لجامعة كبيرة، لكى نلتقى الليلة هنا فى محبة «تحية حليم»، وليس تذكارا لها، لأن التذكر يرتبط باستعادة غياب، وأما المحبة فحضور مضىء وكذلك «تحية حليم».

■ وفى مناسبات مماثلة، فمن المعتاد أن يقول أى متكلم أنه يتشرف بأن يكون بين المدعوين، وفى بعض المرات يكون إبداء هذا الشعور نوعا من المجاملة، والمجاملة تختلف عن النفاق لأن الناس - فى العادة - يجاملون حين يتعاطفون، ومع ذلك فإن شرف المشاركة معكم فى محبة «تحية حليم» ليس مجاملة بالنسبة لى، وإنما داعيه أكثر نفاذا وعمقا من المجاملة مهما بلغت رقتها.



■ سوف يتحدث غيرى من العارفين هذه الليلة - باستفاضة أكثر، وعلم أدق عن شخصية «تحية حليم» - وعن مدرستها فى الإيحاء والتأثير - وعن تجربتها الإنسانية والشخصية.

وفيما يتعلق بى فإننى لا أستطيع أن أكون ناقدا ولا شارحا، لأنى من اللحظة الأولى وجدت نفسى صديقا لـ «تحية»، مأخوذا بالحس أكثر من الدرس، ومنجذبا إلى العمل من أول نظرة، ومشدودا إلى ذلك المزيج الجميل الغامض فى أفكارها وتكويناتها ولمساتها، وكلها تشير وتومئ وتوحى دون أن تعترف وتبوح وتفشى - وكلها تتدفق لونا ونغما وهمسا - ولكن فى تحفظ وجلال وكبرياء.

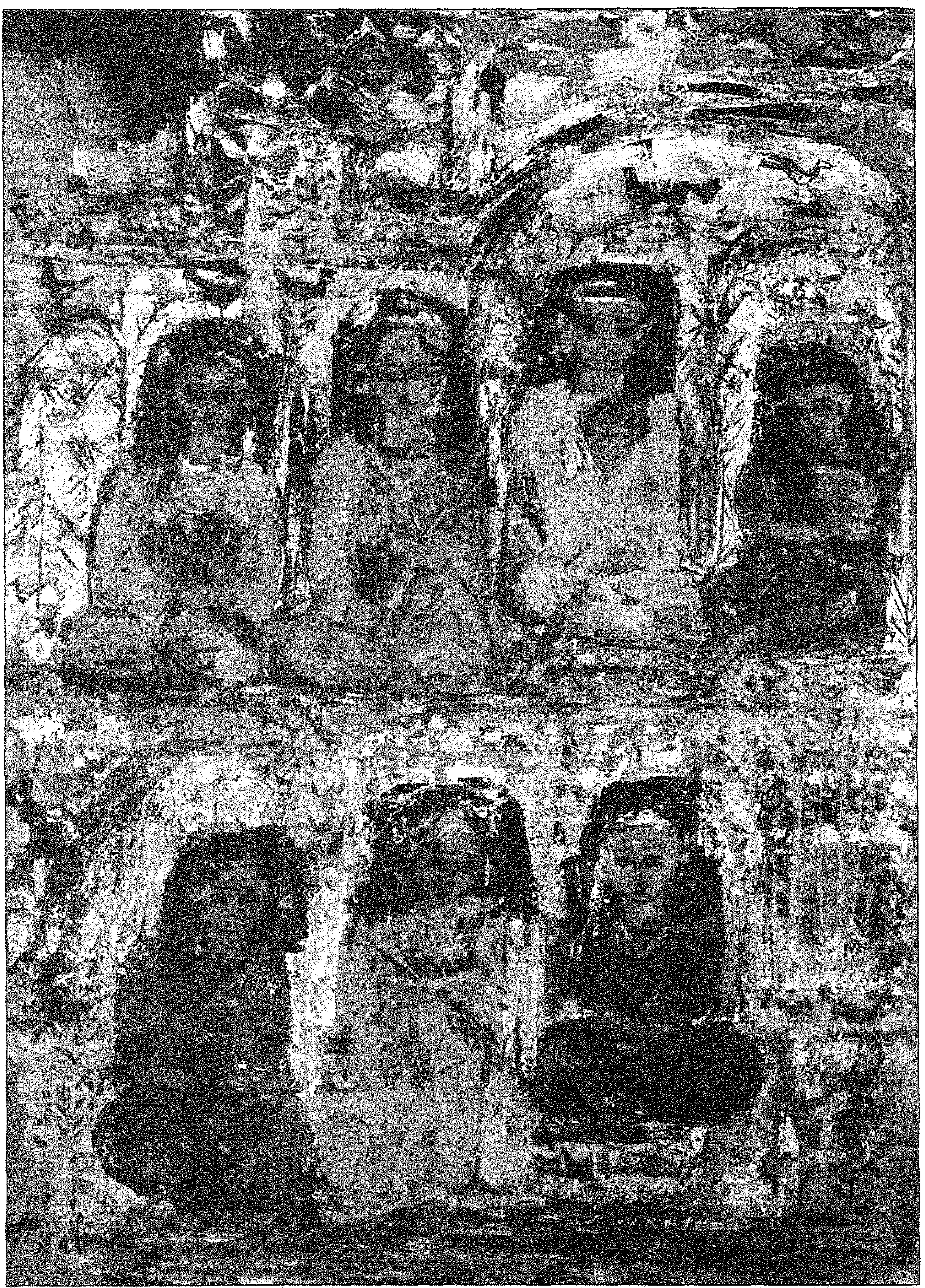
■ كثيرا ما جاءت «تحية» إلى مكتبى تحدثنى عن خواطرها وأحوالها، وكثيرا ما ذهبت إلى مرسمها أتابع ما تفعل، وأحثها على زيادة، ومن سوء الحظ أنها فى السنوات الأخيرة من عمرها - توقفت عن الرسم، لأن أعصاب يديها لحقها التهاب جمد أصابعها معظم الوقت. وسواء جاءت «تحية» إلى مكتبى أو ذهبت أنا إلى مرسمها، فقد كانت فى كل الأحوال نفس المخلوقة المندهشة بكل شىء، والمطمئنة الخائفة فى نَفَسٍ واحد، والمتوجسة بالمفاجأة حتى حين لا تكون هناك مفاجأة، وكنت أرحب بها حين ألقاها بوصفها «الفنانة الحائرة بين القطط المقيمة والعصافير المسافرة».

■ وكان ذلك الوصف حقيقيا للمشهد الأكثر ألفة فى حياتها، فحيث كانت «تحية» تعيش أو تعمل، كانت القطط حولها تشاركها بيتها، وهو مرسمها كذلك.

وعند نافذة الغرفة التى تعمل فيها كانت هناك شرفة عريضة مفتوحة على سطح البيت، وعلى الشرفة دائما وعاء فيه حبوب مجروشة مما تأكله الطيور، ومن الغريب أن الطيور العابرة اكتشفت شرفة «تحية» وتعودت زيارتها، لتجد هناك طعاما تأكله وماء تشربه، والطيور العابرة تقبل الدعوة بسعادة، وحين تحصل على ما يكفيها فإنها تتلفت حولها، وتتطلع إلى الأجواء أمامها، وتفرد أجنحتها وتطير. وتروح «تحية» تتابع الطيور المسافرة ثم تعود ببصرها إلى القطط النائمة، وفى عينيها تعبير غريب فيه ومضة من الفرح، تلحق بها سحابة من الحزن كأنها تريد أن تمسك بها وتحجبها، وذلك التعبير يترك لدى أصدقاء «تحية» شعورا يتمنى لو فعل أكثر - لكن «تحية» لا تطلب شيئا لنفسها، وإنما تطلب فى كل الأحيان لآخرين، معظمهم من شباب الفنانين، مؤمنة - وهى على حق - أن البداية فى الفن، وأن أول ومضة لمعت هناك، وأول الإلهام تبدى رمزا وإشارة.

وأترك المجال لمتحدثين غيرى - لديهم إضاءات وإضافات، شاكرا لكم كريم اهتمامكم وحسن استماعكم. ■

محمد حسنين هيكل



«لوحة يوم الحنة بالنوبة . ١٩٦٢ . زيت على قماش ١٢٠×٩٠سم»

الجنـــوب

إسماعيل صبرى عبدالله

الغلط فى الترجمة

والخلط فى المفاهيم

أردنا أم لم نرد نقع أسرى تأثير الإعلام الغربى غير المباشر. فما يبرزه من أخبار وآراء هو بالفعل أحدث منتجات العقل البشرى وما يعطيه أهمية خاصة أنه بالفعل أهم قضايا الساعة. وسرعان ما نستبطن هذا كله أو بعضه وتنفتح مناقشات واسعة بين رجال الفكر والسياسة وأهل العلم حول الحلول المطروحة وإمكان تعديلها أو الرد بحمية عما قد يكون فيه بصراحة فجة من إهانة لنا أو حط من شأننا. والأمثلة على ذلك كثيرة: «نهاية التاريخ» الذى اختفى من خطابنا الثقافى حين لم يعرف فى وطنه إلا رواجا محدودا وقصير الأمد، «صراع الحضارات» تلك البدعة التى يرفضها تماما تاريخ البشرية، وحاليا تعبير «القطبين» وبالتالى القطب الأوحد دون تعريف محدد لهذه الكلمة وماهيتها.. الخ. كذلك تثير ترجمة بعض المصطلحات السائدة فى اللغات الأوروبية إلى العربية مشكلات تسوق إلى الخلط. فنحن نستخدم كلمة «نظام» ترجمة لثلاثة أشياء لكل منها اسم خاص: order . regime, system وتعبير regime يعنى أسلوب حكم الدولة ومناهج حكامها وعلاقاتهم بمختلف مكونات المجتمع. أما system فإنه يشير إلى مجموعة من الأمور غير مرتبة ولكن يؤثر كل مكون فيها فى باقى المكونات تأثيرا يتفاوت كثيراً من حيث الوهن والقوة، ومن ثم لمجملها سلوك أو حركة أو تفاعل مشترك. وهذا ما سبقت ترجمته بكلمة «نسق» وكان لدينا فى مصر جمعية لدراسة «تحليل الأنساق» system analysis لا أدرى ما آلت إليه. وأخيراً تدل كلمة order على مجموعة من الأحياء والجوامد، المادية أو المعنوية، مرتبة بعضها فوق بعض درجات وفقا لمعايير محددة علمية أو غير علمية، ظهرت فى أوروبا أولاً اسماً على جماعات الرهبان المنتمية إلى قديس معين فى العادة وفقا لقواعد مقررة «وهو تنظيم مشابه إلى حد ما للطرق الصوفية، ثم انتقلت هذه الظاهرة فى العصور الوسطى إلى مجموعات من «الفرسان» محترفى القتال بمقابل مادى أو معنوى. وبظهور الملكيات المطلقة والحد من سلطات أمراء الإقطاع ظهرت الأوسمة ولكل منها اسم وترتيب متدرج من حيث الأهمية. ومن أشهرها حتى الآن فى بريطانيا وسام «حمالة الجورب» order of the Garter. وفى فرنسا طبعاً «جوقة الشرف» ولكل منها درجاته المرتبة. وعندنا وسام الجمهورية من ثلاث درجات على ما أظن. وللكلمة نفسها استخدامات أخرى لا علاقة لها بما نناقشه هنا. فهى الأمر كما فى عبارة «law and order» التى هى أساسا من مهام الشرطة، وبالرجوع إلى معاجم اللغة العربية نجد أن ما قاله الجوهرى فى «الصحاح» أقرب جذر لغوى لمعنى الكلمة الإنجليزية هو رتّب التى اشتق منها عندنا «الرتبة» العسكرية حاليا والرتب المدنية (باشا، بك درجة أولى، بك درجة ثانية، أفندى). ومن ثم ترتيب حامليها فى المناسبات الرسمية والاجتماعية، وهذا ما يسوّغ استخدام «التراتب الدولى» لاسيما أن ما يجمع حكومات الدول المستقلة هو ترتيبات قد يولّد من بعضها منظومات أو منظمات. وإن كان الأقرب (وإن بدا غريبا على لغتنا المعاصرة) هو الدرج (بفتحتين) أى وضع البعض فوق البعض درجات.

وبعيد عنى تماماً أن أتهم المتحدثين بالإنجليزية بأنهم أخطأوا فى اختيار order وإنما على العكس اختاروها بالذات لأنها تعنى أن الأمم أو الدول ليست سواسية ولكنها درجات فى رأسها المنتصرون فى الحروب. ودليل ذلك وضع الدول الخمس التى لها حق وقف أى قرار من الأمم المتحدة، بما فى ذلك قرارات مجلس الأمن. ويتصل بهذا الخلط الشائع خاصة لدى المشتغلين بالعلوم السياسية كلمة «قطب» ترجمة للإنجليزية pole . وقطب القوم سيدهم كما جاء فى «المعجم الوسيط» الصادر عن مجمع اللغة العربية. والكلمة فى أصلها الإنجليزى تعنى الطرفين القصيين لأى جسم، وفى العلوم الفيزيائية نجد الطرفين المتنافرين (السالب والموجب فى الكهرباء).. الخ وفى المغناطيسية نجد أن لكل طرف مركز جذب وتتفاوت المراكز من حيث القوة. وحين انتشر التعبير خلال الحرب الباردة كان يعنى المواجهة بين الاتحاد السوفيتى والدول المشابهة له من ناحية والغرب بقيادة الولايات المتحدة. ومن الواضح هنا أن القوة العسكرية والعلمية والاقتصادية كانت أداة لصدام أيديولوجى جوهرى بين الرأسمالية والاشتراكية اللتين تنفى كل منهما الأخرى نفياً قاطعاً. وقالت بعض وسائل الإعلام الغربية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى إن العالم أصبح وحيد القطب، وكان عذرهم هو أن ما حدث انتصار للرأسمالية ويجعل «الديموقراطية الأمريكية» نموذجا جاذبا لكل شعوب الأرض بما فيهم المليار نسمة الذين لا يزيد دخل كل منهم على دولار واحد والملايين التى تسقط بكثرة ضحية للجوع أو سوء التغذية أو الحروب المحلية..! وعلى العكس نسمع وزير خارجية فرنسا المثقف والشاعر متعدد اللغات دى فيلبان يستخدم تعبير دعامة pillar قائلا أن العالم لن يعيش على دعامة واحدة (الولايات المتحدة) ويجب أن يكون الاتحاد الأوروبى دعامة ثانية، فى انتظار دعامة آسيوية تشارك فيها اليابان والصين والهند.

وقديما وإلى أن نشأت الدولة القومية منذ أواخر القرن الثامن عشر كانت البشرية تعرف الممالك أى مجمل الأرض والبشر الذين تحكمهم أسرة واحدة (فى عنوان كتاب ابن خلدون ينص على دول الملوك). وكانت سلطة الأسرة الحاكمة هى مقياس السيادة رغم تعدد العروق والمعتقدات واللغات. والأمثلة الحاضرة فى الذهن: الدولة العثمانية من البلقان إلى السودان، وآل هابسبورج أباطرة النمسا وملوك المجر والتشيك وجزء من شمال شرقى إيطاليا، وكرواتيا وسلوفينيا وسلوفاكيا وجنوبى بولندا والبوسنة والهرسك.. الخ. وكانت أسرة رومانوف ترفع لقب قيصر فى كل الروسيات: روسيا الكبرى، وروسيا الصغرى (أوكرانيا) وروسيا البيضاء. وكانوا يحكمون كل منطقة القوقاز بما فيها من أعداد كثيرة من اللغات، والأصول العرقية، والأديان. وكانت الحروب تقع بين مملكة وأخرى (مجاورة فى الغالب) دون ردود فعل على مستوى العالم. وفى سبيل إسقاط الملكية ابتدعت الثورة الفرنسية «الأمة مصدر السلطات» وحيث بقيت ملكيات فقد الملوك كل سلطة فعلية، كما نشأ سبب ومسرح جديدان نتيجة للاكتشافات الجغرافية والتنافس على استحواذ جزء مهم منها. وكان ذلك الأساس الذى حمل الرأسمالية فى كل بلد بنسبة معينة على التشديد على قوميتها وتمجيد تاريخها ورسالتها فى نقل «المدنية» إلى الشعوب المتخلفة أو المتوحشة كما قال كثير من قادة تلك الدول وبعض من مفكريها. وأصبح الموت فى أعمال غزو أراضى العالم الثالث موتا فى سبيل الوطن. وكان أهل الغرب ينشرون الخارطة السياسية للعالم وبلداتنا عليها ملونة بلون الدولة المحتلة والحاكمة بين الدول الكبرى. وكان لون الإمبراطورية البريطانية (الأحمر الوردى) ظاهراً فى كل قارة وبمساحات شاسعة، وتباهى رعايا جلالة الملك بأن إمبراطوريتهم «لا تغيب عنها الشمس». وفى ظل القومية انتهت حماقات الملوك وقصر نظرهم، وكذلك أسباب دخول دولهم الحروب فيما بينها. وحل مفهوم توسيع السوق القومية بضم مستعمرات فى كل ركن من أركان الأرض فضلاً عن السيطرة على موارد المواد الأولية التى تضاعفت الحاجة إليها عدة أضعاف بعد الثورة الصناعية. محل مفهوم الولاء للملك «السلطان أو الإمبراطور». وبالتالى أصبح التوسع الاستعمارى بقوة السلاح دليلا على عظمة الأمة الغازية التى ترفع أعلامها فى عدة قارات «الدافع التعبوى» لزيادة الإنتاج وتعظيم أرباح الرأسمالية باحتكار المزيد من موارد المواد الأولية من ناحية ولتعاظم بيع المصنوعات التى تصدرها. ومن هنا ظهر اتجاه بحسب التكلفة والعائد لأى حرب وظهرت فرص التفاوض والتحالف والتقاسم والتنازلات المتبادلة. وتراكمت وتنوعت المعاهدات الثنائية أساسا فى الساحة الدولية. واجتهد بعض الفقهاء فى استخلاص قواعد للقانون الدولى من أحكام المعاهدات الثنائية أو المتعددة الأطراف السارية بالفعل. ولما كانت الحرب والاستعداد لها

نشأ سبب ومسرح جديدان نتيجة للاكتشافات الجغرافية والتنافس على استحواذ جزء مهم منها. وكان ذلك الأساس الذى حمل الرأسمالية فى كل بلد على التشديد على قوميتها ورسالتها فى نقل «المدنية» إلى الشعوب المتخلفة أو المتوحشة

نشاطاً عادياً وضرورياً لكل دولة ذات سيادة، ضمت حكوماتها دائماً «وزارة للحربية» وقسم الفقهاء القانون الدولي العام إلى قسمين: قانون السلم، وقانون الحرب، وظل هذا التقسيم سائداً إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد شاركت بعض الحكومات في اتفاقيات مشتركة عنيت أساسا بتسوية النزاعات حول حدود كل دولة في أوروبا مشاركة عدد منها في استغلال موقع جغرافي مهم في نظر كل منها (مثل معاهدة القسطنطينية ١٨٨٨ التي أرست أحكام المرور في قناة السويس). ولكن ظلت الأمور فيما يتعلق بالحرب والسلام تفتقد بناء إطار مؤسسي. وبغض النظر عن العقبات الموضوعية كان رجال السياسة والفكر يصطدمون بقضية كأداء في سعيهم للتوفيق بين مفهوم سائد ومصالح متجددة. أما المفهوم فهو سيادة كل دولة الكاملة على أرضها ومواطنيها ورفض أي شيء يشبه سلطة فوق القومية.

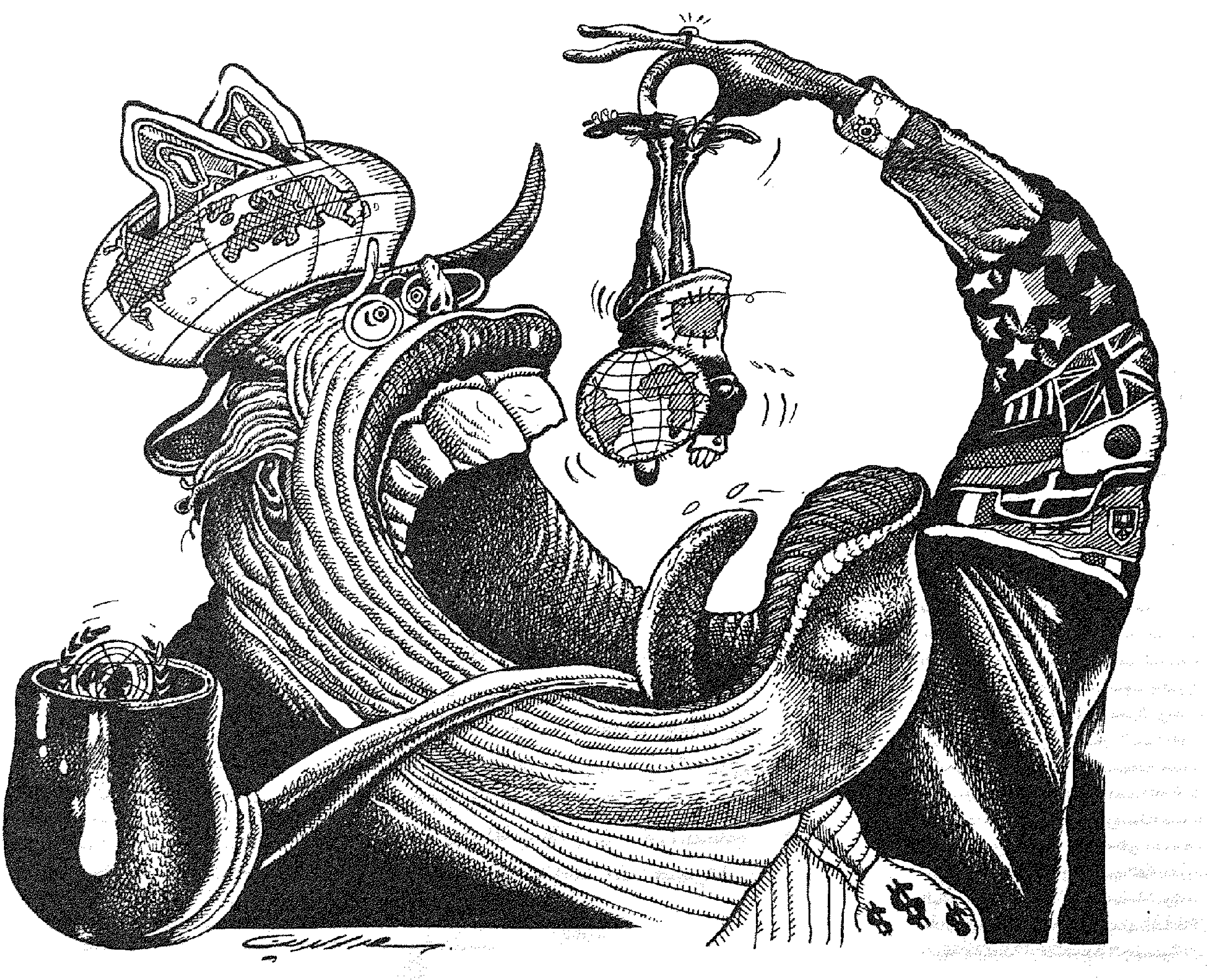
فالدولة القومية لا تلتزم بأي شيء لم توافق عليه ومحاولة التدخل في ممارستها السيادية تؤدي إلى الحرب، في حين أن لها مصالح مشتركة كانت تقتضي تنازلات متبادلة في المستوى الإجرائي وإن لم تظهر في مستوى المبادئ العامة وظلت فكرة الإطار المؤسسي الواسع والشامل بقدر الإمكان حلما ينشغل به المفكرون ومؤسسو الفكر السياسي المعاصر.

من فيينا ١٨١٥
إلى سان فرانسيسكو
١٩٤٥ وما تلاها

كما أن ظاهرة «الدولة القومية» حديثة بالنسبة لتاريخ البشر، فإن محاولة وضع قواعد للعلاقات بين هذه الدول أكثر حداثة. وبقراءة جديدة لتاريخ المؤسسات المعروفة نكتشف ظاهرة بالغة الأهمية ألا وهي أن كلا منها نشأ في أعقاب حرب طحون استمرت سنوات متعددة وكان هدفه الأساسي تفادي الحروب المدمرة.

وأول محاولة في هذا الاتجاه كانت مقررات مؤتمر فيينا (١٨١٥) الذي وضع نظم وضمانات التمثيل الدبلوماسي والقنصلي وكرس مبدأ احترام حدود الدول القائمة وقتها ومساندة المعتدى عليه فيها ضد المعتدي. وقد استغرقت أعمال المؤتمر من سبتمبر ١٨١٤ إلى يونيو ١٨١٥. وبرزت فيه قيادة مترلنك الوزير الأول في إمبراطورية النمسا والمجر. وكان كل ذلك غداة نهاية عشرين عاماً من الحرب يسميها المؤرخون حروب الثورة الفرنسية ونابليون. وبطبيعة الحال أعاد المنتصرون رسم حدود عدد من الدول لصالحهم، وكانت بولندا (لتعاطفها مع نابليون) الضحية الكبرى حيث قسمت بين روسيا والنمسا وبروسيا. وعاشت قرارات مؤتمر فيينا لمدة ٤٠ عاماً. ثم كان توحيد كل من ألمانيا وإيطاليا بداية توتر جديد بين الدول الجديدة والقديمة محوره الأساسي تقسيم وإعادة تقسيم المستعمرات. وتحول بعض الخصوم إلى حلفاء (الوفاق الثنائي بين فرنسا وإنجلترا في ١٩٠٤ مثلا الذي أدى لوقف مساعدة فرنسا للحركة الوطنية المصرية ضد الاحتلال البريطاني في مقابل ترك إنجلترا المملكة المغربية فريسة لفرنسا). كما بقي أمام الدول الأوروبية الكبرى مهمة تحرص عليها كلها ألا وهي تصفية الإمبراطورية العثمانية أو على الأقل طردها من أوروبا. وقد تجاوزت أعمال القتال حدود أوروبا إلى دول الشرق الأوسط، وصدر وعد بلفور في نوفمبر ١٩١٧. وأخيراً انضمت الولايات المتحدة إلى الحلفاء وبرز دور رئيسها ولسون في مرحلة الإعداد لما بعد الحرب بمبادئه الأربعة عشر وأهمها حق تقرير المصير لكل شعب، وتجنب الحرب، وما دار من مفاوضات حول اقتسام الغنائم من المهزومين في

في عصر الكوكبة





شكل أرض وتعويضات باهظة. فولدت «عصبة الأمم».

وقد جاءت المنظمة الجديدة في أعقاب حرب ضروس استمرت أربع سنوات وبضعة شهور سقط فيها ملايين الضحايا ودمرت مصانع ومدن وقرى في كل أنحاء القارة وظهر فيها سلاح جديد هو الطيران وآخر كيمائي حرّم دوليا فيما بعد «الغازات السامة». فليس غريبا أن يكون تفادي الحروب الكبيرة على الأقل والعمل على استقرار السلام العالمي العمود الفقري لنشاط المنظمة الجديدة. وطرح عهد إنشاء العصبة convent الموقع في ١٠ يناير ١٩٢٠ وسائل ثلاثا لتحقيق السلام: التسوية السلمية للنزاعات بين الدول الأعضاء (حوالي ٦٠ دولة مع خروج البعض ودخول البعض الآخر)، نزع السلاح أو بعبارة أدق قصر حجم التسليح بشرا ومعدات على ما يكفي لتوفير الأمان لشعب الدولة وأرضها، تحريم العدوان على أي عضو وحشد إمكانات الأعضاء لردع المعتدي أو هزيمته. ومن الناحية التنظيمية كانت القرارات تصدر عن الجمعية العمومية للدول الأعضاء، وكان لها مجلس بغير سلطة اتخاذ قرار متجاوزا دور الجمعية العمومية. ولم يعرف «العهد» أسلوب الاعتراض الموقف للقرار «فيتو». ولكن هيمنة الدول الكبرى كانت جلية فلا قرار نافذا مع معارضة واحدة أو أكثر من تلك الدول. وأقيم للعصبة مبنى منيف في جنيف سمي «قصر الأمم».

ومن الجدير بالذكر قبل الدخول في تقييم أداء عصبة الأمم أن المسئولين عن نشأتها وكتابة عهدها تجاهلوا العالم الثالث وقضية الاستعمار تجاهلا كاملا. فقد سارع المنتصرون إلى الاستيلاء على مستعمرات المهزومين (بريطانيا والاستيلاء على تنجانيقا، فرنسا وضم الكاميرون.. الخ)، وبالنسبة للأقطار العربية التي كانت جزءاً من إمبراطورية آل عثمان (العراق، سوريا، لبنان، فلسطين) كان من الضروري إيجاد شكل قانوني للاستيلاء عليها دون تنكر كامل لمبدأ حرية تحديد المصير، فاخترعوا ما يسمى «الانتداب» أي تسليم القطر لسيطرة دولة كبرى منتصرة حتى ينضج شعبه ويستحق ممارسة تقرير مصيره. أما مصر فبقيت تحت الحماية البريطانية التي فرضتها لندن بقرار منفرد مؤسس على سقوط الولاء للسلطان العثماني خليفة المسلمين لانضمامه إلى التحالف الذي قادته ألمانيا (١٩١٤)..

وبالمقابل احتلت الهند (وهي آنذاك مستعمرة بريطانية) مقعداً في الجمعية العمومية وكثيرا ما كان ممثلوها من حكامها الإنجليز!. وكانت الضربة الأولى تلك التي أصابت المنظمة قبل مولدها الرسمي هي انتهاء رئاسة ولسون وسيادة اليمين الانعزالي في الولايات المتحدة على نحو حمل الكونجرس على رفض التصديق على المشروع.

ويرى بعض المؤرخين أن أداء عصبة الأمم كان جيدا لمدة تسع سنوات، وينسى معظمهم أن ١٩٢٩ كانت بداية الكساد الأعظم الذي هز الرأسمالية من الأعماق وألقى عشرات الملايين من العمالة في بؤس البطالة في زمن لم يعرف التأمينات الاجتماعية، والذي استمر لمدة لم يسبقه فيها كساد آخر ١٩٢٩ - ١٩٣٤. ومع ذلك لم تفكر حكومات الدول الكبرى في التوافق على اتجاهات سياسية جديدة يمكن أن تعجل بنهاية الكساد. وكان أهم الأمور للحفاظ على النظم الحاكمة هو توفير فرص عمل تنتج سلعاً أو خدمات لا تباع في السوق، أي زيادة الطلب دون زيادة في العرض. واهتدى روزفلت في أمريكا إلى الأشغال العامة Public works الكبرى وفي مقدمتها شبكة الطرق الفيدرالية التي تربط جميع مدن البلاد ببعضها البعض. أما هتلر الذي حملته إلى السلطة مساندة الرأسمالية الكبيرة لخوفها من تكاثر تيارات اليسار وتأثير نجاح الثورة الاشتراكية في روسيا، كما دفع اليأس والرغبة في الحصول على عمل قبل أي شيء آخر، العاطلين والفقراء إلى أن صوتت له أقسام كبيرة منها. وكانت وسيلة النظام النازي المختارة لتوفير فرص عمل تزيد الطلب ولا تزيد العرض هي الإنفاق الواسع على التسليح. وكان من أول قراراته إلغاء التزام ألمانيا في معاهدة فرساي بالنزع التدريجي للسلاح. وكانت دول غربي أوروبا في البداية تسعد بظهور الفاشية والنازية لتكون حاجزا أمام المد الشيوعي الذي أعقب نجاح الثورة البولشفية وزادت حدة هذا المد للتدني الشنيع في مستوى معيشة الشعوب. وفي الفترة ذاتها أسقطت عصبة الأمم عضوية الاتحاد السوفيتي. ولم تحرك ساكنا لوقف غزو اليابان لمنشوريا في ١٩٣١ رغم استغاثة الصين بعصبة الأمم، وبعدها لم تتصد لغزو إيطاليا للحبشة (١٩٣٦). وتركت هتلر يعيد احتلال منطقة الراين ثم يضم دولة النمسا ويفكك دولة تشيكوسلوفاكيا. وعبر مثل هذه الظروف كان الحديث عن مؤتمرات لنزع السلاح مدعاة للسخرية بعد أن دخلت الدول التي نادت به إلى ميدان السباق في تكديس الأسلحة والتجديد فيها.

وهكذا دخلت المنظمة مرحلة الاحتضار وانتهت حياتها عمليا في سبتمبر ١٩٣٩ عندما غزت الجيوش الألمانية أرض بولندا. ذلك الذي كان بداية الحرب العالمية الثانية. واحتفل بدفنها رسميا في جنيف في ديسمبر ١٩٤٦.

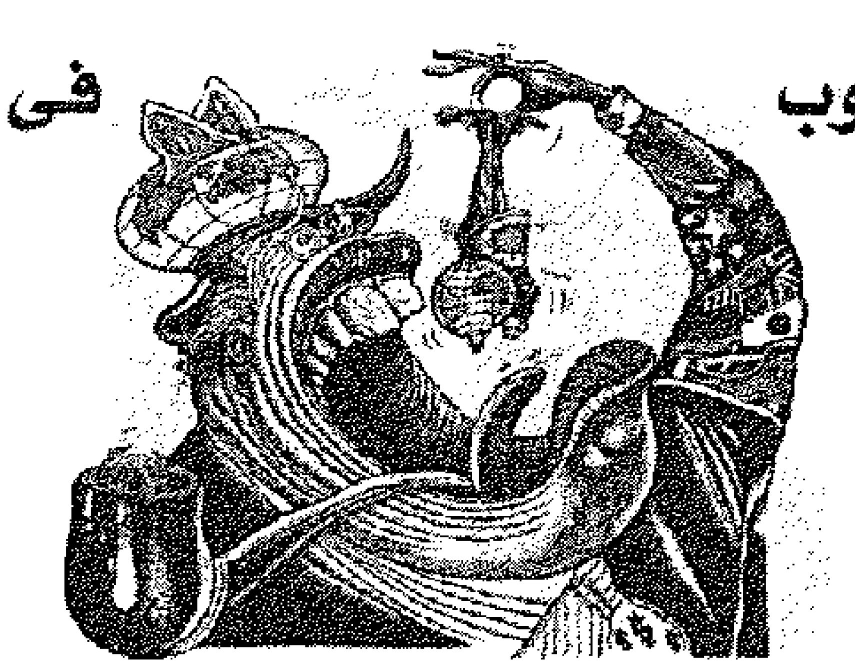
الأمم المتحدة:
المولد والأزمة المتفاقمة

وغني عن الذكر القول بأن الحرب العالمية الثانية كانت أهول ما شهدت البشرية منذ وجودها على سطح الأرض. فقد شملت كل دول أوروبا وآسيا ودارت عملياتها البحرية والجوية فوق المحيطات الأطلسي والهادي والهندي. وأصابت الأسلحة الفتاكة عشرات الملايين من المدنيين ودمرت مدنا بأكملها (من أشهرها برلين). وبالإضافة إلى كل ذلك انصب غضب النازيين والفاشيين وحلفائهم الصغار وكذلك قادة اليابان وجنودها على الشعوب المحتلة قتلا وسجنا وتعذيبا.

أصبح التوسع الاستعماري بقوة السلاح دليلا على عظمة الأمة الغازية التي ترفع أعلامها في عدة قارات «الدافع التعبوي» لزيادة الإنتاج وتعظيم أرباح الرأسمالية باحتكار المزيد من موارد المواد الأولية من ناحية ولتعاظم بيع المصنوعات التي تصدرها

واستند الألمان خاصة إلى زعم باطل بأن البشرية من عناصر مختلفة من حيث القدرات والصفات العقلية والبدنية وقد رتبها النازيون (وللعنصرية بقايا حتى اليوم) بعضها فوق بعض. وجاء العنصر الآري (المتجسد جوهريا في ألمانيا) على القمة في حين يرد زنوج أفريقيا والغجر (Roms) في ذيلها. ووفقا لمقولة داروين يتوقف تقدم البشرية على مبدأ البقاء للأصلح والفناء للأضعف. ومن هنا إلى جريمة إبادة مجمعات بشرية كاملة genocide خطوة واحدة. وقد نال يهود أوروبا نصيباً كبيراً من القمع حيث كانت في الفكر النازي السامية نقيض الآرية وأنها تسعى دائما لتخريب وإفساد مجتمعات النبل والشجاعة والقوة التي تميز العنصر الآري. وفي خضم هذا الجحيم استمرت الدول الكبرى في تطوير أسلحة وبخاصة أشدها فتكا وأوسعها تدميراً. وكانت الطامة الكبرى سقوط أول قنبلة نووية على يوكوهاما..! وكان طبيعيا أن الشعوب التي رفضت استسلام حكوماتها للنازية والتعاون مع المحتلين تحمل مباشرة مسئولية المقاومة بكل الوسائل ضد المحتل النازي وأعوانه. وكان لغزو ألمانيا أراضي الاتحاد السوفيتي أثر بالغ في نفوس المتعاطفين مع أول دولة اشتراكية عرفها التاريخ المكتوب. وكان لهذا الضغط الشعبي وزخمه المتزايد تعبير واضح في ظهور مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان ووضع تصفية الاستعمار القديم على جدول أعمال مؤتمر سان فرانسيسكو الذي صاغ ميثاق المنظمة الجديدة التي خلفتها الحرب العالمية الثانية «هيئة الأمم المتحدة».

وليس هذا مقام تقويم عمل الأمم المتحدة خلال ما يزيد على خمسين عاماً. وكل ما نريد إظهاره أنها وليدة حرب بشعة وأن هدفها الأساسي كان تفادي أي حرب مقبلة لاسيما إذا كانت متعددة الأطراف. وصحيح أن هذه الحقبة من الزمن هي أول فترة في تاريخ الرأسمالية الغربية لا تشهد حربا بين الدول الكبرى. وترجع هذه الظاهرة الجديدة تماما على تاريخها (خمسة قرون) الحافل بالحروب والثورات الدموية والقمع الذي لا يعرف رحمة، لأسباب متعددة يأتي على رأسها الرادع النووي الذي جعل كل حرب نووية مدمرة بالضرورة للغالب والمغلوب معا. (إذا أمكن تحديد كل طرف بدقة وسط الدمار الشامل). ويلي ذلك أهمية في استبعاد حرب الدول الكبرى أن الرأسمالية الغربية الكبيرة دخلت مرحلة الكوكبة globalization[1] حيث يمتد نشاط كل شركة كوكبية أو متعددة الجنسية إلى



عشرات الأقطار. وإذا ضايقها أحد فى قطر منها صفت نشاطها فيه (انظر ما فعلته سنسبرى فى مصر). بل كل شركة فيها تنظر إلى جملة المسكونة كسوق حالية، أو احتمالية، وهى تحل كثيرا من مشكلات التنافس فيما بينها باللجوء إلى التحالفات، والاندماجات، والاستحواذ، والتخلص من فرع كامل من نشاطها للاستثمار فى أنشطة أكثر ربحا. وفى مثل قريب لذلك نذكر بقرار شركة ماركس آند سبنسر الإنجليزية الخاص بإغلاق ٣٧ محلا للتجزئة فى أنحاء مختلفة من فرنسا فى يوم واحد دون أن يكون ثمة مشكلة بينها وبين الحكومة أو قطاع الأعمال الخاص الفرنسيين. كما أن أهم أسلحة تلك الشركات فى اختراق اقتصادات دول العالم الثالث هو فساد الحكام، ومهما بلغت قيمة الرشاوى فإنها أقل قطعا من نفقات حملة عسكرية. كما يسهل تحسين صورتها لدى الرأى العام المحلى الذى عوده حكامه على توهم أن الاستثمارات الأجنبية المتدفقة، والإدارة الأجنبية عالية الأداء، والقدرة على التصدير تشكل الطريق الوحيد للتخفيف من حدة الفقر والبؤس والحرمان.

مزيد من الحرب
ومزيد من الفقر

أ. حروب العالم الثالث: تكرر ما ذكرناه أعلاه من أن الغرض الجامع لكل محاولات توفير إطار مؤسسى للعلاقات بين الدول كان استبعاد الحرب كوسيلة لتسوية النزاعات بين حكوماتها التى تضمها معاهدة دولية أو مؤسسة تجمع حكومات الدول المستقلة ذات السيادة التى تملك سلطة إعلان الحرب. ورأينا أنه منذ إنشاء هيئة الأمم المتحدة وحتى هذه اللحظة لم تشهد البشرية عاماً واحداً دون قتال فى بقعة أو أخرى من العالم. وكل ما تحقق هو اختفاء الحرب بين الدول الكبرى بعضها وبعض، ولكن نارها مازالت متقدة ومتجددة فى بقية المعمورة. ويشمل تعبير الحرب هنا حروب الحدود والحروب الأهلية وحروب الأنصار (أو ما يسمى خطأ حرب العصابات) وأعمال الاغتيال والإرهاب من جانب الدولة أو بعض خصومها. ومازال فى خلفية الذهن الغربى الرأسمالى مفهوم عنصرى فج: فالبيض متحضرون، والسود همج، والصفر غول يهدد الحضارة الغربية. ومن ثم كان تفسير كثير من الساسة وبعض المفكرين الغربيين لاطراد الحروب فى العالم الثالث على أنه يرجع إلى أن شعوبه عاجزة عن استيعاب مفهوم الدولة القومية وحقوق الإنسان والمواطنة والعقلانية ومجتمع القانون..! وحقيقة الأمر أن الغرب الاستعمارى هو المسئول الأول تاريخياً عن نشأة النزاعات فى العالم الثالث، وأنه المستفيد الأول من استمرار الحروب حتى الآن وإلى أجل غير معروف. فحين نجحت شعوب العالم الثالث فى تصفية الاستعمار القديم فى فترة قصيرة نسبيا تلت الحرب العالمية الثانية وبلغت أوجها فى ١٩٧٥ بهزيمة الولايات المتحدة وانسحابها من فيتنام واستقلال أنجولا وموزمبيق عن البرتغال. ولابد هنا من التنويه بالدور الحاسم لحركة عدم الانحياز وقيادة الهند ومصر ويوغوسلافيا. ورثت الدول المستقلة حديثا الحدود التى رسمها الاستعمار بالقوة ومن خلال حروب اقتسام أراضى الشعوب الأخرى.

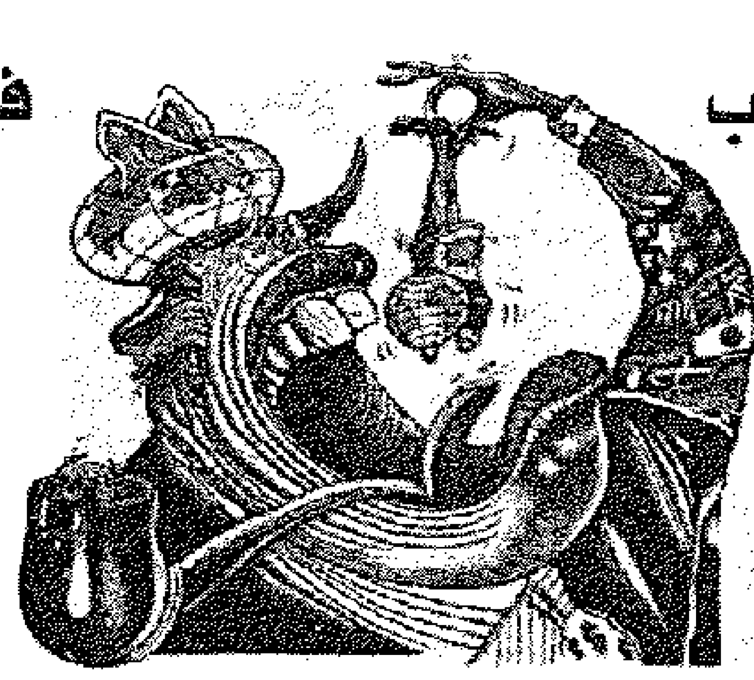
ولعل أحدث مثل طرح على الساحة العالمية هو «استقلال تيمور الشرقية» عن إندونيسيا. وذلك أن الدولة التى انفصلت عن الاستعمار الهولندى جمعت معظم الجزر (بالآلاف) التى كانت تخضع لحكومة لاهاى إلا النصف الشرقى من جزيرة تيمور الذى كان مستعمرة برتغالية منذ أكثر من أربعة قرون شهدت خلالها الانتماء إلى الكنيسة الكاثوليكية واختلط أهلها بمهاجرين من البرتغال ومستعمراتها وفقدت لغتها الأصلية ونطقت بلغة البرتغال وتحولت عمليا إلى جزء من اقتصادها معزول عن غربى الجزيرة نفسها ناهيك عن بقية الجزر الإندونيسية. ولكل ذلك لم يكن أهلها يتشوقون إلى وحدة مع جيرانهم وكانوا إلى الربع الأخير من القرن الماضى يفضلون استمرار ارتباطهم الوثيق بالدولة الأوروبية الأم.

أما فى أفريقيا فقد عمل الاستعمار الفرنسى بالذات على رسم حدود الأقاليم الإدارية التى تشكل «فرنسا فيما وراء البحار» بحيث لا يكون فيها أى إقليم من قبيلة واحدة أو قبائل متجانسة. وكان المستعمرون حريصين على أن يضم كل إقليم أرضا يسكنها جزء من أبناء عدة قبائل متناحرة تاريخياً أو مختلفة عرقيا أو لغة، وأذكوا دائما سياسة «فرق تسد» بامتيازات هنا وقمع هناك. وحظرت الدولة المستعمرة تعليم اللغات القومية التى كانت تكتب بالحروف العربية وكان «التفرنس» الطريق الضيق المحدود للتعليم[٢]، وكانت البرتغال الدولة البحرية التى تعيش على الملاحة تعمل على امتلاك الأرض المحيطة بالموانئ الواقعة على طريق الهند البحرى، ثم جنوبى آسيا. وكانت انجولا غربا وموزمبيق شرقا أكبر مستعمراتها. وفى أقصى الجنوب استقرت جماعات من الهولنديين انفصلوا عن حكومة لاهاى بسبب خلاف دينى (البيوبر) واحتل الإنجليز أرضهم فى بداية القرن العشرين. وكان جنوبى خط الاستواء خاضعا فى أغلبيته للإمبراطورية البريطانية ماعدا الكونغو البلجيكى. وسارت لندن على سياسة تعليم مماثلة لسياسة باريس. وبلغ بها سخف القوة حد تسمية مستعمرات بأسماء «أبطال» بريطانيين: روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية[٣]. وقد اتخذ القادة الحكماء الذين أنشأوا منظمة الوحدة الأفريقية وفى مقدمتهم عبد الناصر قرارا من المؤسسين باحترام الحدود الموروثة عن الاستعمار ليحموا القارة من جحيم حروب حول الحدود لا تنتهى فى موقع إلا لتندلع فى آخر. وقد نجح القرار الحكيم فى تجنب القتال إلا فى حرب تحرير ضد الاستعمار عدة عقود.

دخلت الرأسمالية الغربية الكبيرة مرحلة الكوكبية حيث يمتد نشاط كل شركة كوكبية أو متعدية الجنسية إلى عشرات الأقطار. وإذا ضايقها أحد فى قطر منها صفت نشاطها فيه (انظر ما فعلته سنسبرى فى مصر). بل كل شركة فيها تنظر إلى جملة المسكونة كسوق حالية، أو احتمالية

والآن مازالت قوى الغرب الاستعمارى بأجهزة مخابراته وعن طريق رجال أعمال تنشئ شركاتهم فروعا فى القارة السمراء، وبشراء ذمم قادة وحكام غارقين فى الفساد والجهل الجهة التى تغذى نيران الحروب فى معظم أجزاء أفريقيا. ويبين الكشف عمن يستفيد ماليا منها أن الغرب كان المسئول الأول تاريخيا وهى الآن المستفيد الأكبر. وأول ما يخطر على البال فى هذا الصدد: من أين يتدفق السلاح على كل الخصوم المتحاربين فى وقت واحد؟. ومعروف أنه ليس فى أى دولة محاربة أو لدى جيرانها مصانع للسلاح. والصناعة العسكرية المتقدمة الوحيدة توجد فى جمهورية جنوب أفريقيا التى ورثتها من أيام حكم البيض واسترقاق السود. وهى الآن دولة ديموقراطية تحاول تصفية بقايا العنف فى أفريقيا جنوبى الصحراء وتسعى بكل ما تملك من وزن دولى وإقليمى لحل المنازعات سلميا، ولذلك فإن السلاح بأنواعه المحمولة وذخائره المتجددة يستورد من خارج القارة. ويرز أحيانا فى وسائل الإعلام كلام عن فئة من «الأشرار» يسمون تجار السلاح. ولكن هؤلاء التجار لا يصنعون ما يبيعون، بل يشترونه من مصانع عدد كبير منها موجود فى الغرب أو فى مناطق نفوذه المنتشرة حول الكرة الأرضية. وللعاصمة البريطانية شهرة كبيرة كسوق لتجارة السلاح المشروعة وغير المشروعة. والمنتج الكبير يستحوذ دائما على أكبر نسبة من ثمن البيع للمستهلك. أما الوسطاء الأجانب والمحليون فهم فى النهاية فى خدمته. ويدفعنا هذا إلى سؤال آخر كيف تدفع «الجهات المستوردة ثمن وارداتها». والجواب: بعدة وسائل كلها غير شرعية. ففى الصدارة منها تهريب الماس والذهب بثمن بخس مقارنا بأسعار السوق العالمية. وبطبيعة الحال لكى يستمر هذا التهريب لابد له من شبكات توزيع منظمة. وبالنسبة للماس بالذات ثبت للأمم المتحدة أن كبرى شركات تنقية الماس وتشكيله وبيعه كمادة أولية ومقرها هولندا، متورطة فى عمليات شراء الماس المهرب من أفريقيا. ويصدق هذا أيضا على الذهب والنحاس والنفط.

وتخلق هذه التجارة غير المشروعة الحاجة إلى عمليات «غسيل الأموال» بكميات ضخمة تدخل فيها حكومات وبنوك وشركات تجارة خارجية وشركات مالية وبورصات.. الخ. ويتضاعف حجم الأموال القذرة إذا أضفنا ما يحصل عليه الحكام وأصحاب النفوذ فى أفريقيا أو فى خارجها من «عمولات» هى فى الواقع رشاوى بالتعريف القانونى. وفى كل تلك الأحوال المستفيد



الأساسى ماليا من حروب أفريقيا التى استمر بعضها ثلاثين عاماً هم أهل الغرب وبصفة خاصة الشركات متعدية الجنسية. وفى هذا الجو المشبّع بخرق الشرائع والقوانين تزدهر تجارة المخدرات، إنتاجا أو نقلا حتى الدول الغربية المستهلك الرئيسى والقادر على دفع الثمن. ومن أحدث ما نما بسرعة فى العقود الثلاثة السابقة هو تجارة الرقيق أساساً فى سوق الدعارة شاملة البنات والصبيان، بجزءيها للعمل فى مزارع أو مصانع تنتج ما هو محظور قانونا. وتلى أفريقيا من حيث كثرة الضحايا دول شرقى أوروبا التى «تحررت من الشيوعية» ومن المكاسب التى تحققها الرأسمالية يأتى دور «شركات الأمن» وهى مكونة من مقاتلين مرتزقة مدربين تدريبا عاليا فى التعاقد على أطراف فى حروب العالم الثالث لتولد لها الكوادر المحترفة التى تعد للقتال حتى الصبية الصغار والتى تحدد أنواع السلاح. ولم يلاحظ الناس عندنا أنه حين طلب رئيس أفغانستان من أمريكا توفير حماية شخصية له، تعاقدت وزارة الخارجية الأمريكية مع شركة أمن خاصة للقيام بالمطلوب.

ب. العدوان على البيئة : وتوازى هذه الجريمة ضد البشرية، جريمة ضد البيئة. فمن المعروف أن نشاط الإنسان، لاسيما فى القرنين السابقين، قد حرم المعمورة من معظم الغابات (فى أوروبا، وأمريكا الشمالية وبعض أجزاء آسيا). والشجر هو الذى يسحب من الجو ثانى أكسيد الكربون ويحوله إلى غذاء للنبات، ويطلق بدلا منه الأوكسجين اللازم لبقية الأحياء. ولم يبق للبشرية كلها الآن إلا «رئتان» غابة الأمازون فى أمريكا الجنوبية، وغابة وسط أفريقيا. ومن ثم عقدت اتفاقات دولية شاركت فيها الدول المصدرة لكميات الخشب الكبيرة على تحديد المساحات التى يصرح بقطع أشجارها شريطة أن تزرع الأشجار فى مناطق بديلة. والتزمت معظم الدول الآسيوية بهذه القواعد. ولكن حكام دول أفريقيا المجاورة لغاباتها وكل الفصائل التى تحاربهم تسابقوا فى منح ترخيصات لقطع الأشجار حيث يشاءون وبالكمية التى يقررون محروسين فى سرقتهم بجنود أولئك الحكام والقادة. فى حين تهب المنظمات الشعبية لمقاومة الحكومة التى تضعف أمام الرشوة وتوافق على تدمير هذا المصدر الحيوى.

ومن ناحية أخرى أدى استخدام الطاقات الأحفورية المختزنة (الفحم، البترول ثم الغاز الطبيعى) فى تشغيل الآلات بمختلف أنواعها وكل قطاعات الإنتاج والخدمات الى تزايد رهيب فى كميات غاز ثانى أكسيد الكربون فى جو الكرة الأرضية. ويقدر ما تجمع منه خلال القرنين الفائتين بأكثر مما تجمع منذ ظهر البشر على سطح الأرض وحتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى. وواضح تماماً بأننا بين المطرقة والسندان زيادة مطردة فى الكربون ونقص مطرد فى الأوكسجين، وكلا الاتجاهين يهدد الحياة، تلك الظاهرة التى لا نعرف لها مثيلا حتى الآن ضمن ما كشفناه من الكون. ولا ينكر أحد «مفعول الصوبة» أى بأثر مجموعة غازات ثانى أوكسيد الكربون + الميثان + أكسيد الانتبراس فى رفع درجة حرارة المجال الحيوى لكوكبنا Biosphere ويدور الجدل حول تقدير مداه عبر الزمن والآثار المتوقعة (مثلا ارتفاع درجة حرارة مياه البحر الأبيض المتوسط يغرق دلتا النيل بالكامل).

ولا يقل عن ذلك أهمية اختفاء عدد ضخم من الكائنات الحية صغيرها وكبيرها. ومن المعروف أن المادة «لا تفنى ولا تستحدث». ومن ثم من غير المتصور إمكان خلق كائن حى جديد عن طريق الهندسة الوراثية التى تتمثل إنجازاتها فى استخدام جينات إلى جانب تلك التى يتضمنها الكائن محل البحث أو قتل بعضها. وقد يدهش هدف «الحفاظ على التنوع الحيوى» الذى يطرحه دعاة حماية البيئة لأنه غير مفهوم تماماً. ولذلك تنبه القارئ المصرى إلى أن بعض الفواكه انقرضت من مصر (العناب مثلا) أو فى طريقها إلى الانقراض (الجميز والنبق مثلا) وقد اختفت من أسواقنا أنواع متعددة من العنب (بز العنزة، الفراولة) ومن الجوافة (أتذكر فى حديقة بيت أسرتى فى الصعيد خمسة أنواع من هذه الفاكهة).

وقد بدأ المجتمع المصرى منذ سنوات قليلة الحديث عن «التلوث». ولكنه سيكتشف شيئاً فشيئاً خطر التلوث الكيميائى الذى ينشأ عن استخدام مواد كيماوية كثيرة تضر بالإنسان والحيوان والنبات. وهى تصل إليه فى الغذاء والماء والهواء. ولم يرتفع وعى صانعى القرار إلى مستوى البحث والقياس وترتيب الأخطار وطرح سياسة شاملة للحد من آثار التلوث. يصل فقدان الوعى البيئى إلى استنكار مصدرين مصريين الشروط الصحية والبيئية التى يفرضها الاتحاد الأوروبى على منتجاته وبالتالى على ما يستورد من الخارج.

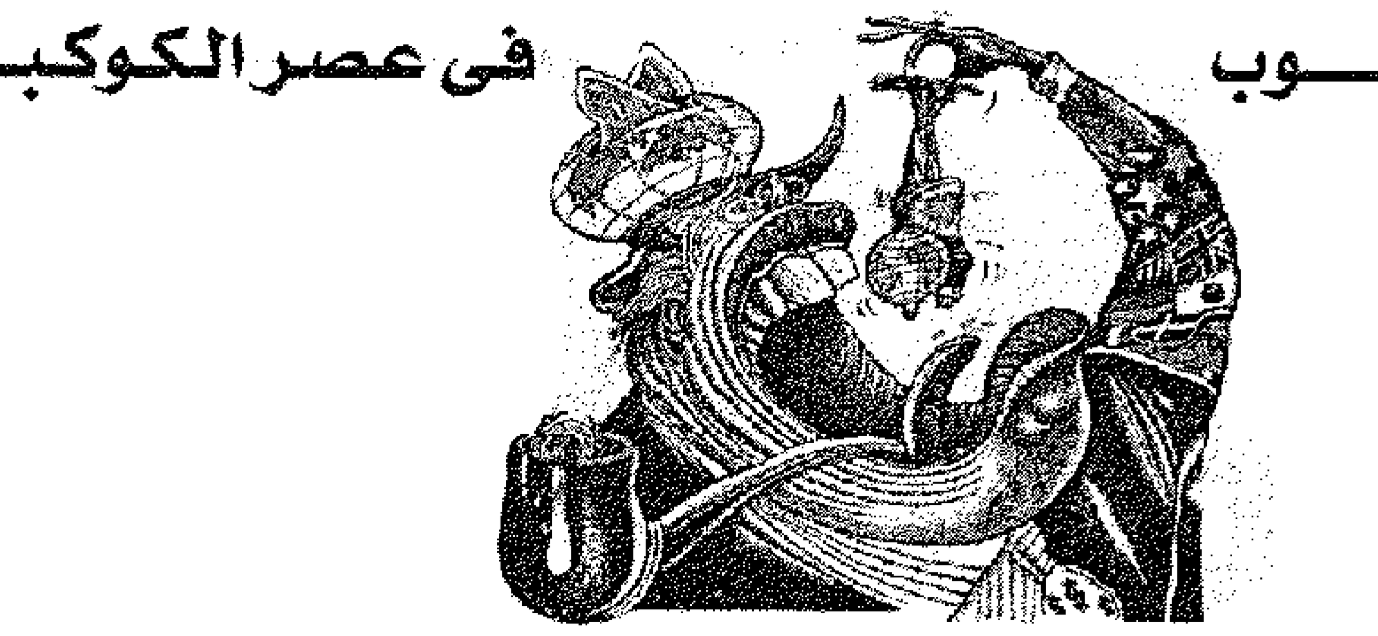
وليس من أغراض هذه الورقة تفصيل قضايا البيئة ولكن يستحيل إهمالها تماماً عند الحديث عن الإطار المؤسسى للعلاقات الدولية حيث إنها قضية عالمية بالأساس تقتضى الكثير من الإجراءات المشتركة بين بعض الدول أو كلها. فالأخطار البيئية لا تعرف شيئاً عن الحدود الجغرافية أو السياسية، وقد أعدت بالفعل بعض الاتفاقيات الدولية بشأن بعض قضايا البيئة. ولكن الولايات المتحدة ترفض التوقيع عليها فتعطل تصديق دول أخرى سبق أن وقعت. ومن أشهر الأمثلة على ذلك الموقف امتناعها عن التصديق على اتفاقية كيوتو الخاصة بخفض نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الجو والعودة بها فى أوائل القرن الحادى والعشرين إلى المستوى الذى كانت عليه فى ١٩٩٠، مع العلم أن الولايات المتحدة مسئولة عن ٢٥٪ من الانبعاث الضار على مستوى العالم[٤].

جـ. الفقر يزداد عمقاً وانتشاراً: كان الاقتصاديون الليبراليون الذين يؤمنون أن لقوى السوق سلطانا أقوى من قوة البشر وحكمة تتجاوز كل ما دعوا إليه من فلسفات. فمنذ مرحلة التصنيع وفى بداية القرن التاسع عشر ظهر لكل الناس أن النسق الرأسمالى الجديد يفرز الثروة من ناحية ويولّد البؤس من ناحية أخرى. وأكد تلك الحقيقة اقتصاديون كبار من مؤسسى هذا العلم وعلى رأسهم البريطانى ريكاردو. وشايع هذا التحليل مالتوس الذى شن عليه الليبراليون حملة تشهير منكرة بحجة فساد نظريته فى السكان. ثم جاء ماركس وفى جذر تفكيره الاقتصادى مفهوم الإفقار بفعل الرأسمالية. وانفرد اسم أحد المدافعين عن مذهب حرية التجارة Says.B.J لأنه أدعى أن «العرض يخلق الطلب» مناقضا بذلك كل الفكر السابق والمعاصر له. ولتفادى فجاجة هذه الصياغة التى لم يصنع لها المؤلف آليات عمل، ظهر فى أوائل القرن العشرين ما يسمى «مفعول التساقط» أى أن الثروة التى تتجمع لدى الأغنياء تتساقط على الفقراء كالغيث على الفيفاء. فاستهلاك الأغنياء أكثر وأعلى ثمنا (القصور والحشم والخدم ووسائل الانتقال الفاخرة فضلاً عن الثياب والأثاث) وبهذا فهم بلغة العصر الحاضر «يخلقون فرص عمل جديدة». ويظل الاستثمار أهم وسيلة لزيادة العمالة والحد من الفقر. فالفقراء ومحدودو الدخل لا يدخرون لأن دخلولهم تكاد لا تكفى إشباع الحاجات الأساسية. وذلك على عكس الأثرياء الذين لا يأتى استهلاكهم الترفى على كامل دخلهم فيدخرونه ثم يستثمرونه مباشرة أو بإقراض غيرهم من الأثرياء المنتجين. وترتب على هذا الزعم أن أدبيات التنمية الغربية ركزت على أن زيادة الاستثمار هى عمود النمو الاقتصادى ومن ثم لابد من الترحيب بزيادة مستمرة فى الأرباح وادعوا بأنها ستسهم تدريجيا وبعد فترة زمنية قد تطول فى تحسين أحوال الفقراء.

وقد أثبت الواقع الملموس فساد هذا التفكير فساداً مطلقاً حتى تخلت عنه قلعتا الفكر الليبرالى : البنك الدولى وصندوق النقد الدولى. وقد جعل البنك الموضوع الأساسى لتقرير التنمية فى العالم ٢٠٠٠/٢٠٠١ «شن هجوم على الفقر». وبيانات البنك تؤيد ما ظهر قبلها من دراسات متعددة وقياسات متنوعة. ونذكر منها :

. فى توزيع مجموع سكان العالم الذى كان فى بداية القرن الحالى ٦,١ مليار نسمة، ومجموع سكان الدول ذات الدخل العالى ٩٥٥ مليونًا. وسكان بقية العالم (الدخل المنخفض والمتوسط) ٥,٢ مليار أى ٨٣,٨٪، والباقى ١٦,٢٪ يعيشون فى دول عالية

الآن مازالت قوى الغرب الاستعمارى بأجهزة مخابراته، وعن طريق رجال أعمال تنشئ شركاتهم فروعا فى القارة السمراء، وبشراء ذمم قادة وحكام غارقين فى الفساد والجهل، الجهة التى تغذى نيران الحروب فى معظم أجزاء أفريقيا



الدخل. ومتوسط دخل الفرد عندهم ٢٥٧٠٠ دولار، مقابل ٤٣٠ فى الدول ذات الدخل المنخفض، ٢٠٠٠ عند ذات الدخل المتوسط الأدنى، ٤٩٠٠ عند المتوسط الأعلى.

– فى توزيع إجمالى الناتج القومى للعالم كله نجده فى نهاية القرن الماضى ٣١,٥٠٠ مليار، وأن أربعة أخماسه (٢٥,٥٠٦ مليار) من نصيب ١٦,٥٪ من البشر فى حين أن أكثر من أربعة أخماس البشر يحصل على ٥,٩٩٥ مليار. والجديد فى عصر الكوكبة هو تزايد أعداد الفقراء فى الدول الصناعية المتقدمة ذات متوسط دخل الفرد يقارب ٣٠ ألف دولار. فمن المعلن والمعروف أن الفجوة بين دخول حوالى ١٠٪ من أصحاب أعلى الدخول وحوالى ٢٠٪ من أصحاب أدناها لم تكن يوما فى الولايات المتحدة أوسع مما هى عليه الآن.

ومما هو أقل ذيوعا حقيقة أن ٥٪ من أفقر الفقراء (دخل أقل من دولار واحد فى اليوم، وعددهم ١.٤ مليار نسمة) هم من سكان الدول مرتفعة الدخل. فالشاب الألمانى أو البريطانى أو الفرنسى الذى يتخرج من التعليم العالى ولا يجد أى عمل محروم من كل ما تقدمه نظم التأمين الاجتماعى. فمن تزيد سنه على ١٨ سنة يخرج من نطاق التأمين الذى يغطى الأسرة، ولا يمكن أن يدخل هذا النطاق إلا إذا وجد عملا يوفر له دخلا يمكنه من سداد اشتراك التأمين الاجتماعى. وقد ذهلت شخصياً فى أول زيارة لى لنيويورك حين رأيت من ينامون على الأرصفة فى شارع «وول ستريت» قلب التعاملات المالية بالمليارات عبر العالم. ومن أبرز معالم الشركات متعدية الجنسيات فقدها لمعانى الوطنية واستقرار السوق المحلية لدولة المقر. وبحكم امتداد نشاط كل منها فى أقطار تعد بالعشرات قد توقف الشركة أنشطتها فى دولة المقر (وهى لا تنسب لجنسية) لتفتح أو تغزو أنشطة فى دول أخرى حتى ولو كانت بالنسبة لها فى أقصى الأرض. ومن ثم لم يعد لحكومة واحدة قوة ضغط تذكر على شركة متعدية الجنسيات. والواقع أن هذه الشركات استغنت عن كثير من وظائف الدولة القومية، بل وانتزعت منها بعض حقوق السيادة التقليدية مثل الحق فى إصدار العملة (أو خلق النقود بصفة عامة) واعتمدت التعامل ببطاقات الائتمان المقبولة فى معظم الدول (بما فى ذلك كثير من بلاد العالم الثالث) ولا يعرف المتعاملون أى بنك مركزى يراقب حركة التعامل.

وقد دفعت عوامل الضعف حكومات الاتحاد الأوروبى إلى التدخل لصالح الشركات الكبرى بدعوى إخراج البلاد من حالة الركود وتراجع معدلات النمو الاقتصادى. وهكذا خفضت أسعار الضرائب المباشرة، وحرصت على تخفيض أسعار الفائدة أحيانا إلى ١٪ بهدف معلن هو تشجيع الاستثمار الذى سيخلق فرص عمل جديدة ويعيد الاقتصاد إلى معدلات نمو معقولة. ولم ينجح أى من هذه الإجراءات فى تخفيض حجم البطالة المستقرة (غير العارضة) وظلت معدلاتها تتراوح بين ٦ و١٠٪ من القوى العاملة. واستمرار البطالة يعنى تناقص موارد التأمينات الاجتماعية لتراجع أعداد من يدفعون أقساطها من العمال وأصحاب الأعمال. وبدلا من مواجهة هذه الحقيقة استغلت الحكومات العجز فى ميزانيات تلك التأمينات لتنقص من الضمانات التى تقدمها للعاملين ومنها المعاش وتخفيض تكاليف التأمين الصحى. أى أن الثورة العلمية والتكنولوجية لم تقدم للعمال إلا فقدان بعض ما كان حقا لهم منذ ١٩٤٥. والغريب أن كثيراً من الساسة والكتاب يجهلون أو يتجاهلون أن كل تقدم تكنولوجى يعنى زيادة إنتاجية العامل وبالتالى تناقص الطلب على عمالة جديدة، بل الاستغناء عن مئات وآلاف من العاملين بالفعل بدعوى إعادة هيكلة الشــــركة. وكان تحركا فى الاتجاه الصحيح ما قررته من حيث المبدأ حكومة اليسار فى فرنسا من تخفيض ساعات العمل إلى ٣٥ ساعة أسبوعيا. ولكن الحكومة الحالية بصدد التخلى عن هذا القانون[٥].

صــــوت الجنـــــوب

نبدأ بالتذكير بأن منظمة الأمم المتحدة وسابقاتها نشأت فى أعقاب حرب ضروس بهدف منع تكرار الحروب وإعلاء مكانة وأساليب حل المنازعات بين الدول بتسوية سلمية، وليس من التجاوز فى شىء القول بأنها كسابقاتها أيضاً فشلت فى تحقيق هذا الهدف الإنسانى العظيم. واختفاء الحرب بين الدول الكبرى (١٦,٤٪ من سكان المعمورة) لا يسوغ بحال إهدار الواقع الدموى الذى يعيشه معظم شعوب العالم. لقد أجهد احصائيو الغرب أنفسهم فى حصر عدد ضحايا كل من الحربين العالميتين، ولكن أحدا لم يحاول تعداد قتلى الحروب فى العالم الثالث ولا عدد الأطفال المشوهين ولا الأسر المشتتة أو تعيش فى العراء. حتى جهاز إحصاء الأمانة العامة للأمم المتحدة لم يطرح الأمر لمجرد البحث والتقدير. ويزيد الطين بلة إن الشركات متعدية الجنسية (ومقارها دول الغرب) والتى تحقق الأرباح بالمليارات لم تفعل شيئا لمقاومة الأوبئة الفتاكة التى تنتشر فى الجنوب. ويكفى أن نذكر هنا رقما واحداً : عدد المصابين بمرض فقدان المناعة المكتسب (إيدز) فى أفريقيا يتجاوز ثلاثين مليون نسمة مع أن الممارسات الجنسية فى القارة السوداء (كما يسميها أهل الغرب أحيانا) ليست بحال أكثر انتشاراً منها فى بلاد الغرب البيضاء (أوروبا وأمريكا الشمالية) التى قننت اللواط! بل غدت أفريقيا موطنا لأمراض جديدة ذات طبيعة وبائية : ميكروب السل الذى يقاوم كل أنواع المضادات الحيوية، صنف جديد من الملاريا، داء الأبيولا.. وانفرد الغرب بجنون البقر!.

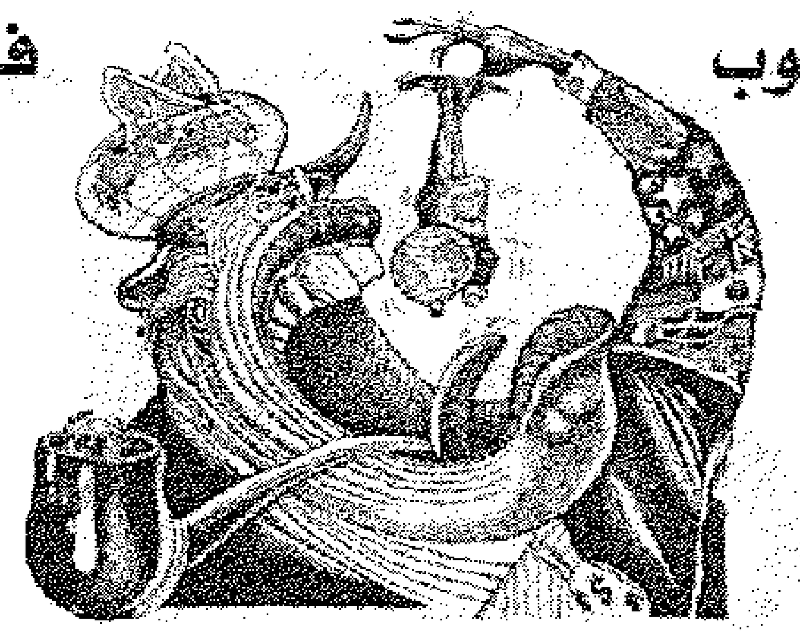
ويضم نسق الأمم المتحدة أكثر من عشر منظمات متخصصة مستقلة عمليا عن نيويورك. ويشكل مجموع مكونات النسق ومكاتبها الإقليمية أو القطرية واللجان الإقليمية أكبر بيروقراطية عرفها البشر لأنه ثمرة التوفيق بين بيروقراطيات الدول الأعضاء. ودون الحط من قيمة أعمال بعض المنظمات فى ظل قيادات معينة (اليونيسيف برياسة الأمريكى جيمس جرانت، الصحة العالمية برياسة الدانمركى ماليهر، برنامج الأمم المتحدة للبيئة برياسة المصرى مصطفى كمال طلبه.. على سبيل المثال) يمكن أن نقول أن ما قدمته فى مجموعها لأغلبية البشر المحرومة قليل للغاية لا يتناسب مع تكلفة أدائها وعدد موظفيها.

ومحظور على الأمم المتحدة أن تنشغل بتطور الاقتصاد العالمى بمختلف مكوناته. فالاقتصاد فى نظر «الدول الصناعية الكبيرة» أخطر بكثير من أن يتدخل فيه كل من هب ودب. وشئونه لذلك محصورة فى أيدى الثلاثى الرهيب : صندوق النقد الدولى، البنك الدولى والأفعى الكبرى منظمة التجارة العالمية. ويجمع بينها أنها لم تسمع عن شىء اسمه السيادة القومية للدول الأعضاء فيها أو غير الأعضاء.

وهذا وضع طبيعى. فالدول التى تعيش الحروب والعنف، أو تفتقد الاستقرار السياسى نتيجة لأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة، والتى لا تملك قوت شعبها، ويسود الفساد فى إدارتها، لا يمكن أن يظهر لها نفوذ سياسى أو تجدد حضارى ناهيك عن مكانة دولية بل إن الحرب والأوبئة والجوع تهدم بدل أن تنمى.

وقد أقلق ثقل خطى الأمم المتحدة وعجزها عن التصدى لأهم مشكلات البشرية الحالية كثيراً من الأوساط فى الغرب. ويلغ الأمر ذروته ببدء التساؤل عن جدوى وجودها ذاته اثر انفراد الولايات المتحدة بكل القرارات الخاصة بالتعامل مع العراق بما فى ذلك الغزو والاحتلال وإعادة تشكيل الدولة والمجتمع فى قالب ترضى عنه واشنطون. وقد وجدت عدداً من الدول متفاوتة القدر لتمشى فى ركابها وأعطت الأمم المتحدة ما يشبه «الاجازة المرضية». ومن قبل ذلك ظهرت أفكار جلها من الجنوب وبعضها من الشمال لعل أهمها ثلاث قضايا : توسيع عدد أعضاء مجلس الأمن الدائمى لعضوية (اليابان، ألمانيا، الهند، البرازيل.. الخ)، وتليها قضية بناء قوة عسكرية دائمة تحت إمرة مجلس الأمن يمكن الاعتماد عليها فى التدخل العسكرى المشروع وفقا للميثاق بدل الاعتماد كليا على حسن استعداد الدول الغربية عسكريا بالاشتراك فى الحرب تحت راية الأمم المتحدة؛ وثالثتها تتعلق بتوفير سلطة قضائية فى

بدأ المجتمــــع المصــرى منــذ سنوات قليلة الحديث عن «التلوث». ولكنــه سـيكتشف شيئاً فشـيئاً خطــر التــلوث الكيميــائى الذى ينشــأ عن استخدام مــواد كيمــاوية كثيرة تضــر بالإنســان والحيــوان والنبات. وهى تصل إليه فى الغــذاء والمــاء والهــواء



بنيان المنظمة لا تحتاج إلى موافقة الطرفين المتنازعين على الاحتكام إليها (كما هى الحال فى محكمة لاهاى)[٦] وللقارئ أن يتساءل: لماذا لا تتحرك دول العالم الثالث وهى من ناحية تمثل أكثر من ٧٠٪ من أعضاء الأمم ومن ناحية أخرى تضم الأغلبية الساحقة من الدول «منخفضة الدخل» كما تنص تقارير البنك الدولى السنوية عن التنمية فى العالم. ولماذا تترك دولنا نسق الأمم المتحدة بأكمله فى قبضة عدد محدود من الدول لا يقضى أمر إلا باتفاقها؟ لا يغنى فى تفسير هذا السلوك أى شكل من أشكال نظرية المؤامرة أو طغيان الأقوياء الأثرياء أو إمبراطورية الشر التى هى القطب الأوحد. إن قوة الأمم ووضعها تنبع من داخلها. للعوامل الخارجية تأثيرها بلا شك ولكن أى عامل خارجى إذا انتصر مرة فلن ينتصر على طول الخط على شعب يريد الحياة (كما قال الشاعر التونسى). وتاريخيا فيما بعد الحرب العالمية دليل على ذلك. لقد دفع لهيب حركة التحرر الوطنى منذ نهاية الأربعينيات من القرن الماضى فكانت باندونج وتحول شعار تصفية الاستعمار القديم colonialism إلى واقع. وكان عام ١٩٧٥ عيداً للتحرر الوطنى، فيه هزم شعب فيتنام أقوى جيش فى العالم بعد أن هزم الجيش الفرنسى، وفيه نجحت أنجولا وموزمبيقا والرأس الأخضر فى الحصول على الاستقلال. وفيه طرح بومدين بصفته رئيس حركة عدم الانحياز عندئذ على الجمعية العامة للأمم المتحدة الدعوة إلى «نظام اقتصادى عالمى جديد». وفى خط مواز للتحرر الوطنى كانت بريونى والحركة التى لم تقتصر على الموقف السلبى من الأحلاف العسكرية مع الدول الكبرى وتجاوزته إلى تحرك إيجابى فى اتجاه التنمية. وفى المؤتمر الأول للحركة (بلغراد ١٩٦٢) طرح عبد الناصر قضية العلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب مؤكداً أن شعوبنا لا يمكن أن تعيش على «معونات» يقدمها الأغنياء للمتخلفين كل حسب مصالحه وسياسته الراهنة.

وفى يوليو ١٩١٣ اجتمع ممثلو عدد كبير من دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فى مصر وأصدروا «بيان القاهرة» تحت «شعار التجارة وليس الإعانة» ودعوا الأمم المتحدة إلى تنظيم مؤتمر دولى لمناقشة هذه القضية. واستجابت الأمم المتحدة وانعقد المؤتمر فى جنيف فى ١٩٦٤ ورأسه د. عبد المنعم القيسونى تقديرا لدور مصر فى هذا المسعى، وانتخب أمينا عاماً أستاذ المئات من أساتذة الاقتصاد الأرجنتينى المجدد راوول بريتش، وانتهى بإنشاء جهاز جديد لهذا الغرض «الانكتاد» UNCTAD . وعقب هذا المؤتمر بقليل نشرت منظمة العمل الدولية اقتراحا باستراتيجية تنمية جديدة تضع فى قمة أهدافها «توفير الاحتياجات الأساسية للإنسان». وذاع هذا التقرير وكثرت جولة المناقشات وقد لعب المصرى د. عباس عمار (نائب مدير المنظمة فى ذلك الوقت) دوراً قائداً فى هذا العمل العظيم.

ثم مر حوالى ربع قرن من الأزمات بدول العالم الثالث ترجع لأسباب متعددة ومتنوعة وتختلف حدة ووهنا من منطقة إلى أخرى. ولم يشذ عن القاعدة العامة جزئياً إلا عدد من الدول محدودة عدد السكان غنية بالنفط الذى ارتفعت أسعاره عدة أضعاف بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط. وانهمرت على تلك الأقطار الصغيرة الحجم أنهار من المليارات، ولكن ليس هنا مكان عرض ونقد السياسات التنموية لها. وفى متوسطات مجموع دول العالم الثالث غير المصدرة للنفط انخفضت معدلات التنمية وانتشر التضخم وتزايد حجم البطالة وتراكمت الديون الخارجية وكان الوجه السياسى لهذه الأوضاع غيبة الديموقراطية وتجذر الفساد وجنوح رؤوس الأموال المحلية للاستثمار فى الخارج. والبعد الثالث للأزمة كان تصاعد الصراعات الداخلية بين جماعات مختلفة إثنيا أو لغة أو قليلة العدد نسبيا فى الظاهر على الأقل. ويكشف التحليل الدقيق لهذه الصراعات التى هوت إلى مستوى الحرب الأهلية والمذابح الجماعية عن جذور اقتصادية واجتماعية وسياسية فى مقدمتها التفاوت الشنيع بين الدخول، والإثراء غير المشروع واستخدام الدولة وأجهزتها فى تحقيق منافع لناس دون آخرين.. ثم كانت الصدمة الكبرى بانهيار الاتحاد السوفيتى وتساقط حكومات دول أوروبا الشرقية المرتبطة به. وقد سارعت نظم الحكم فى العالم الثالث التى كانت تظهر الود لموسكو وتنعم بمساعداتها (وقد تورط الاتحاد السوفيتى فى مساندة نظم فاسدة أو عاجزة لمجرد أنها ليست خاضعة لأمريكا، كما كانت واشنطون تبدى نفس المودة لمن يعلن معاداته للشيوعية..!). وكان موطن العجز لدى كثير من حكام العالم الثالث هو فقدان الثقة فى شعوبهم وقدرتها على العمل والتعلم والإنتاج، ومن ثم فلابد من عون خارجى. ولا ينتظر عون من دولة تنهار، وبالعكس (من يمشى مع السعيد يسعد) كما يقول مثل شعبى. وكان ملف حسن النوايا الذى يقدم استجداء لعطف واشنطون يتضمن الخضوع الكامل لما يطلبه صندوق النقد الدولى والبنك الدولى: والخصخصة والسعى للاعتماد الكامل على تدفق الاستثمار الأجنبى حامل رأس المال وحسن الإدارة والتكنولوجيا المتقدمة فى تنمية الاقتصاد المحلى وتوابع هذا القول الاجتماعية والثقافية حتى تقبل البلد فى قطار الكوكبة والثورة العلمية والتكنولوجية فائق السرعة. ولست بحاجة إلى أى تفصيل فنحن جميعا نرى ما يجرى حالياً فى الوطن العربى: فأقطارنا فى مجموعها تشكو من البطالة والأمية والتضخم والعجز المتزايد فى كل من ميزانية الدولة وميزان المدفوعات، وتنديد إعلامى وسياسى بحضارتنا واستهانة كاملة بقدرتنا، ووصلنا إلى مرحلة الغزو والاحتلال والمزيد من التفتت والإطاحة بحكام والإتيان بغيرهم دون أن يهتم أحد برأى المواطنين أو مشاعرهم وعقائدهم.

ولكن السنوات الأخيرة شهدت أضواء تشق الظلام الذى يخيم على العالم الثالث. وأول علامة مبشرة جاءت من دراسة أجرتها فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى «منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية» OECD التى تضم الدول الصناعية وفى مقدمتها السبع الكبار: الولايات المتحدة، اليابان، ألمانيا، بريطانيا، فرنسا، كندا، إيطاليا، عن أوضاع الاقتصاد العالمى فى ٢٠٢٠ واستخدمت فيها كل الأساليب المعلوماتية الحديثة وانتهت إلى ظهور خمس دول عظمى جديدة إلى جوار السبع القائمة بالفعل، وهى: روسيا الاتحادية، الصين، الهند، إندونيسيا والبرازيل. وتقدم الهند المذهل يفسره أساساً نظام الديموقراطية البرلمانية والقبول بالتعددية فى كل شىء. فى حين شهدت كل من البرازيل وإندونيسيا من عوامل تخفض معدلات النمو وعجز التنمية عن تحسين مستوى معيشة الجميع. وكان مرد ذلك فترات الدكتاتورية العسكرية الطويلة وما ارتبط بقيامها واستمرارها ثم سقوطها من صراعات متنوعة. ومن السمات المميزة لهذه الدول الثلاث اتساع الإقليم وكثرة عدد السكان والقدرة على الوصول إلى معدلات نمو مرتفعة فى سنوات كثيرة وإن لم تكن متتالية إلا فى الهند. ومن الناحية النظرية فى وسع العرب أن يحتلوا مكانا إلى جوار دول العالم الثالث المذكورة لو أخذوا بطريق التنمية التكاملية الذى لا يشقه إلا مجتمع ديموقراطى إلى أوسع حدود الديموقراطية، منذ البداية وفى كل خطوة وعبر كل المراحل. وأخيراً ثمة مجالات نجاح كبير وإن كان غير كامل وليس ثمة ما يضمن اطراده فى دول أصغر حجماً بكثير من الثلاثى الذى يحتوى ١٤١٩ مليون نسمة.

والقبس الثانى يأتى من انتشار العلم وتملك أحدث تقنيات الإنتاج. وتنتصب الهند على رأس المتقدمين. فهى تتساوى مع معظم الدول الصناعية فى مجال المعلوماتية والاتصالات. ومن أدلة هذا التفوق نسوق: الهند ثانى مصدر فى العالم للبرمجيات (ما قيمته ٧ مليارات دولار فى ٢٠٠٢)، تعاقد البنك الدولى مع شركة هندية فى بومباى على معالجة كل حساباته. طلب المستشار الألمانى شرودر من

دفعت عوامل الضعف حكومات الاتحاد الأوروبى إلى التدخل لصالح الشركات الكبرى بدعوى إخراج البلاد من حالة الركود. وهكذا خفضت أسعار الضرائب المباشرة، وحرصت على تخفيض أسعار الفائدة بهدف معلن هو تشجيع الاستثمار الذى سيخلق فرص عمل جديدة ويعيد تنشيط الاقتصاد



البرلمان ترخيصاً استثنائيا بدخول ألمانيا والاستقرار فيها لعشرين ألف مبرمج ومبرمجة من الهند. وفى مجال الاتصالات للهند سبعة أقمار صناعية لكل منها مهمة (رسم الحدود الجغرافية، نقل المواد العلمية إلى المدارس النائية، متابعة الأحوال الجوية.. الخ). وتملك البرازيل عناصر قوة مهمة. فنسبة الأمية فيها ١٥٪ فقط. وتصل إنتاجية العامل الزراع فيها إلى أربعة آلاف دولار. كما تمثل صادرات المنتجات الصناعية ٥٩٪ من إجمالى الصادرات، منها ١٩٪ من منتجات التكنولوجيا الرفيعة. وفى إندونيسيا تبلغ تلك النسب على التوالى ٥٧٪ منتجات صناعية و١٦٪ منتجات تكنولوجيا دقيقة. تلك أمثلة لقفزات تنموية حقيقية يغطى مردودها (بدرجات متفاوتة) عشرات الملايين من المواطنين. ومن السخف الخالص أن يقارن البعض عندنا بين مصر وسنغافورة داعيا لتحويل الوطن كله إلى قطر مفتوح (وينسى فشل تجربة بور سعيد) ومن تستهويه المقارنة يمكن أن يفحص أحوال إمارة دبى بجمهورية سنغافورة. أما مقارنة مجموع الأقطار العربية (٢٧٠ مليونا) فتكون مع واحدة من الثلاث الكبار.

ولكن الشعاع الذى اخترق الدجى مبشراً بفجر قريب هو بداية ترتيب حركة جماعية لدول العالم الثالث توائم أوضاع العالم الحالية وتركز جهودها على حصول شعوبها على نصيب منصف من الناتج العالمى فى مواجهة طغيان وجشع الرأسمالية العالمية فى عصر الكوكبة، وقد تجسد هذا التوجه فى أمرين بالغى الأهمية. الأول: الاتفاقية التى وقعتها الهند وجمهورية جنوب أفريقيا والبرازيل للعمل سويا على جمع دول العالم الثالث الأعضاء فى منظمة التجارة العالمية للتصدى لسيطرة الدول الغربية على سلطة تحديد قواعد التجارة الدولية الحرة: تحتفظ لنفسها بما تشاء (دعم الزراعة) وتحرم بقية العالم من يدعم زراعة الكفاف ليبقى سائلا عن معونات غذائية من الشمال، تطبق على صادرات العالم الثالث الشروط الصحية والبيئية القاسية وتصدر لنا الملوث ومنتهى الصلاحية والسيارات المستعملة والمسروقة. وليس فيما أقول بلاغة إنشائية لأن لدى الوقائع الموثقة على كل ما قلت ولكن لا يتسع المجال لتفصيلها هنا. والأمر الثانى نجاح تجمع من عشرين دولة من الجنوب (وانضمت إليها الصين) فى رفض اتفاقية الاستثمار التى كانت دول الشمال تحرص عليها كل الحرص وانفض مؤتمر كانكون الذى دعت إليه منظمة التجارة العالمية عاجزاً عن إصدار أى قرار أو حتى توصية.. ويضاف إلى ذلك أن اتفاقية الثلاث تدعو إلى تعظيم التعاون بين دول الجنوب فى كل المجالات الإنمائية وبصفة خاصة فى الحرب ضد الفقر والجهل والمرض. وأخيراً، وليس ذلك أقل الأمور أهمية، هو الدور النشيط الذى يلعبه رئيس البرازيل. فقد أخفقت الجهود التى بذلتها حركة تصفية الاستعمار ثم حركة عدم الانحياز فى الحصول على دور فاعل من أمريكا اللاتينية. كما ماتت فى المهد حركة «القارات الثلاث» التى تصدر العمل من أجلها الشهيد العربى الكبير المهدى بن بركة ولم تحصل على تأييد كامل إلا من كوبا. وما أقدم عليه «لولا» يعكس تغيراً سياسياً عميقاً فى بلاده أوصله وهو عامل ونقابى مناضل دون حزب سياسى إلى منصة الرياسة التى كانت حكراً على أبناء الطبقة العليا المعتزين بأصولهم الأوروبية وبما يملكون من مساحات شاسعة من الأرض الزراعية latifundia. لقد عشنا طويلا على التضامن الأفرو أسيوى ونحن نشهد الآن تضامنا على مستوى القارات الثلاث. ومن أبرز معالم هذه الظاهرة توجه البرازيل نحو العرب، والدفاع عن حقوق الفلسطينيين، وزيارة لولا لأهم البلاد العربية (التى مرت غير ملحوظة فى مصر) ودعوة الرئيس البرازيلى لمؤتمر عربى. أمريكى لاتينى وطلب فتح مكتب للجامعة العربية فى العاصمة برازيليا.

وأرى أن تضع الحركة الجديدة فى رأس جدول أعمالها تطوير الإطار المؤسسى للجماعة الدولية. لقد كانت كل المنظمات التى أشرنا إليها من صنع الدول الغربية. وحتى هذه اللحظة تصدر هنا وهناك اقتراحات بإصلاح قطعة من هذه الآلة العملاقة. وتتركز أهم مطالب الجنوب على ضرورة وجود عضو دائم فى مجلس الأمن من دول الجنوب / ثم تثور الخلافات حول اختيار عضو واحد من العالم الثالث كله أو عضو من كل قارة من القارات الثلاث. وهنا تشتد المنافسة حول من يمثل هذه القارة أو تلك.. الخ.

وأدعو لجنة الثلاث إلى أخذ المبادرة بيد دول الجنوب. وأن تجمع خبرات متنوعة من أهله لوضع تصور شامل لمنظمة جديدة مهيأة للتعامل مع قضايا القرن الحادى والعشرين، وليس مجرد منع الحروب وإقرار سياسة التسوية السلمية. وفيما يلى بعض القضايا المهمة التى يجب أن تتصدر أهداف المنظمة الجديدة:

(١) الحروب الأهلية والإقليمية: الأسباب وسبل معالجتها، والآليات التى تصلح لهذه المهمة. ومن العبث أن تنجح فى وقف حرب أهلية استمرت عدة سنوات وتترك المجتمع فى حال أسوأ بكثير مما كان عليه قبل الحرب ولذا يجب أن يتلو الحرب فترة تنمية شاملة ومطردة وذات معدلات عالية وكذلك حكم ديموقراطى. ويجب بث روح التعاون والتكامل بل والوحدة بين الدول المتجاورة.

(٢) الحملات المنظمة لإخراج المليارات من البشر الذين يعانون الفقر والجهل والمرض والقهر السياسى والعسكرى والتدخل الأجنبى، من أوضاع الحرمان المطلق والإذلال المؤبد ليتحقق الحد الأدنى من المساواة بين البشر.

(٣) قضايا البيئة العامة (أزمة المياه، أزمة زراعة الأغذية، ارتفاع حرارة الجو، طفح البحار على أراضى مأهولة الآن) وقضاياها الإقليمية (مثل التصحر) أو المحلية (التلوث بانبعاثات محلية).

(٤) مشكلات الطاقة بإساءة الاستخدام والحرمان الكامل فى آن (فى التجمعات السكانية المحرومة من الكهرباء) وضرورة الاستثمار بكثافة حيث لا يتصور أن يمول ملوك النفط والغاز طاقات منافسة لما يبيعون أى الطاقات النظيفة.

(٥) تخفيض الإنفاق العسكرى وتحويل جزء كبير منه إلى التعليم والصحة.

(٦) مقاومة الجريمة المنظمة: تجارة المخدرات، الرشوة الدولية، غسيل الأموال غير المشروعة الاتجار فى البشر وبصفة خاصة النساء والأطفال.

والقائمة طويلة وهى من بنات أفكار فرد لا يدعى إطلاقا القدرة على حصر مشكلات العالم.

وأخيراً يجب أن يدخل فى اهتمامات المنظمة الجديدة بعض الأنشطة غير الحكومية وبصفة خاصة: سياسات الشركات متعدية الجنسية التى تشكل نوعاً من السلطة فوق القومية لا يوازنها سلطة سياسية كما هى الحال فى الدول القومية من ناحية، والنشاط الأهلى المعادى للغزو والحرب وللكوكبة الرأسمالية من الناحية الأخرى. وبفضل ثورة المعلومات والاتصالات اكتسبت حركات الدفاع عن البيئة وعن حقوق الإنسان وعن السلام ومناصرة الفقراء والمحرومين.. الخ طابعاً عالمياً سجل مواقف تاريخية يكفى أن نذكر منها تشتيت اجتماع سياتل لمنظمة التجارة العالمية، ومظاهرات ١٥ فبراير ٢٠٠٣ ضد غزو العراق التى لم تخل دولة منها.

فى متوسطات مجموع دول العالم الثالث غير المصدرة للنفط انخفضت معدلات التنمية وانتشر التضخم وتزايد حجم البطالة وتراكمت الديون الخارجية وكان الوجه السياسى لهذه الأوضاع غيبة الديموقراطية وتجذر الفساد وجنوح رؤوس الأموال المحلية للاستثمار فى الخارج

هوامش:

(١) العولمة «خطأ فادح فى اللغة العربية فالصيغة مشتقة من كلمة عالم بفتح اللام وجمعه عالمون ولا صلة له بفعل علم يعلم فهو عالم بكسر اللام. وهو اسم مكين أى غير مشتق من فعل معين.

(٢) فى التجمعات الدولية الحكومية أو الأهلية حتى الآن ينقسم الأفارقة السود إلى مجموعتين: Fransophon, Anglophone

(٣) على اسم Sir John Cecil Rhodes الذى توصل إلى جمع الجزء الجنوبى من أفريقيا على اختلاف عرقياته ودياناته تحت التاج البريطانى (١٨٥٣ - ١٩٠٢).

(٤) انظر: د. عصام الحفناوى: «قضايا البيئة والتنمية فى مصر، الأوضاع الراهنة وسيناريوهات مستقبلية»، مكتبة «مصر ٢٠٢٠»، الناشر

(٥) انظر فى اتجاه مختلف: World Bank: Globalization, Growth and Poverty Building an Inclusive Society ٢٠٠٣

(٦) انظر عرضاً علمياً ونقدياً للأفكار الإصلاحية

Brian Urquhart: Between Sovereignty and Globalization where Does the United Nations fit in Development dialogue, 2000: 1-2

عندما تصبح المرأة عجوزا

ج.م. كوتسى

■ تزور ابنتها الآن فى نيس، زيارتها الأولى لها منذ سنوات. سوف يطير ابنها من الولايات المتحدة ليقضى بضعة أيام معهما، فى طريقه إلى مؤتمر من تلك المؤتمرات التى يحضرها. يروق لها هذا التصادف فى المواعيد. تتساءل إن كان ثمة تواطؤ من نوع ما، أو خطة ما يدبرانها، أو اقتراح يعرضانه عليها، من تلك النوعية من الاقتراحات التى يطرحها الأبناء على أمهاتهم عندما يشعرون أنهن لا يستطعن الاعتناء بأنفسهن. عنيدة للغاية، سيقول أحدهما للآخر: عنيدة للغاية، صعبة المراس للغاية، شديدة التشبث برأيها. كيف سنتغلب على عنادها ما لم نتعاون معاً؟

يحبانها بالطبع، وإلا ما كانا ليحيكان الخطط لأجلها. ومع ذلك تشعر وكأنها أحد الأرستقراطيين الرومان، ينتظر أن يعطى الشراب القاتل، ينتظر أن يقال له بأكثر السبل تعاطفاً وبعثاً على الثقة أنه من أجل الصالح العام عليه أن يتجرعه دون جلبة.

لقد كان ابنها وابنتها دائماً طيبين ومطيعين مقارنة بالأبناء عموماً. أما إذا كانت هى كأم على نفس القدر من الطيبة والالتزام بواجباتها فتلك مسألة أخرى. ولكننا لا نحصل دائماً فى هذه الحياة على ما نستحقه. فطفلاها عليهما الانتظار حتى حياة أخرى، أو تجسد آخر، إذا أرادا أن تتعادل الكفتان.

تدير ابنتها جاليرى للفن فى نيس. وهى الآن من الناحية العملية تحمل الجنسية الفرنسية. أما ابنها، فمع الأخذ فى الاعتبار زوجته الأمريكية وأولاده الأمريكيين، فسرعان ما سيصبح من الناحية العملية أمريكياً. وهكذا عندما هجرا العش، طارا بعيداً. بل قد نظن، إذا تأملنا الأمر بصورة أفضل، أنهما طارا بعيداً ليبتعدا عنها.

أياً كان الاقتراح الذى سيعرضانه عليها، من المؤكد أنه مليء بالمتناقضات: الحب والرجاء من جانب، وقسوة القلب العملية من جانب آخر، والرغبة فى رؤية نهايتها. حسناً، يجب ألا تزعجها المتناقضات. لقد كانت تتعيش من المتناقضات. أين كان المآل سينتهى بالفن القصصى لو لم تكن هناك معان مزدوجة؟ ما الذى كانت ستنتهى إليه الحياة نفسها لو كان هناك أبيض وأسود فقط ولا شيء بينهما.

«ما أراه غريباً، وأنا أتقدم فى العمر»، تقول لابنها، «إننى أسمع كلمات تخرج من بين شفتى اعتدت أن أسمعها من العجائز وكنت أقسم لنفسى أننى لن أتفوه بها ما حييت. أشياء من قبيل ما الذى جرى فى الدنيا. على سبيل المثال لم يعد أحد يعى الأخطاء النحوية التى ترتكب فى تصريف الأزمنة. ما الذى جرى فى الدنيا؟ يسير الناس فى الشارع وهم يأكلون البيتزا ويتحدثون فى التليفون. ما الذى جرى فى الدنيا؟».

إنه يومه الأول فى نيس، ويومها الثالث: يوم من أيام يونيو الصافية الدافئة، تلك الأيام التى تجتذب كسالى الإنجليز المترفين خاصة إلى تلك البقعة من الساحل. انظر ها هما، كلاهما، يتمشيان فى بروميناد ديز انجليز (متنزه الإنجليز) كما كان يفعل الإنجليز منذ مائة عام وهم يحملون مظلاتهم وقبعاتهم، ويأسون لجهود السيد هاردى الأخيرة، ويأسون للبوير.

«بأسى» تقول: «كلمة لا يسمعها المرء كثيراً هذه الأيام. لا يوجد أى شخص على قدر من العقل يأسى، إلا إذا كان يود أن يجعل من نفسه أضحوكة. الأسى كلمة ممنوعة، وسلوك ممنوع. إذن ما الذى يمكن عمله؟ هل على المرء أن يكبت أساه حتى يصبح وحده مع العجائز من أمثاله ثم يطلق له العنان؟».

«يمكنك أن تعبرى عن أساك معى إنما المشى والأكل والكلام فى نفس الوقت هو ما أجده فجاً».

«أوافقك الرأى، هذا فج أو على الأقل غير راق. وماذا غير ذلك؟».

«يكفى هذا. ما آسى له ليست له أهمية فى حد ذاته. المهم هو أننى أقسمت منذ سنوات أننى لن أفعله، وها أنا أفعله. لماذا استسلمت فى آخر المطاف؟ إنى آسى لما آلت إليه الدنيا. إننى آسى لمسار التاريخ. آسى له من كل قلبى. ومع ذلك عندما أنصت لنفسى، ماذا أسمع؟ أسمع أمى تأسى للتنورة القصيرة، وتأسى للجيتار الكهربائى. وأتذكر حنقى «نعم يا أمى»، كنت أقول لها، كنت أجز على أسنانى وأرجو منها أن تغلق فمها. وهكذا...».

«وهكذا تظنين أننى أجز على أسنانى وأطلب منك أن تغلقى فمك».

«نعم».

«أنا لا أفعل ذلك. من المقبول جداً أن تأسى لما يجرى فى الدنيا. أنا نفسى آسى له فى دخيلتى».

تفهم. إنك تظن إننى أسخر من نفسى بينما لا أفعل ذلك. المسألة شديدة الجدية! هل تفهم أنها يمكن أن تكون شديدة الجدية؟».

«بالطبع أفهم. فأنت تعبرين عن نفسك بوضوح شديد».

«ولكنى لا أفعل! لا أفعل! هذه مجرد كلمات، وكلنا سئمنا الكلمات الآن. الطريقة الوحيدة المتبقية لكى تثبت أنك جاد هى أن تتخلص من نفسك. أن تسقط على سيفك. أو تطلق الرصاص على رأسك. ومع ذلك فبمجرد أن أتفوه بالكلمات ترغب أنت فى الابتسام. أعرف. لأننى لست جادة، لست جادة بالكامل. إننى عجوز بدرجة لا يمكن أن أكون معها جادة. أقتل نفسك فى سن العشرين فتكون خسارة مأساوية. أقتل نفسك فى سن الأربعين فتكون المسألة تعليقاً جاداً على ما يجرى فى الدنيا. ولكن أقتل نفسك فى سن السبعين سيقول الناس، «يا للعار، لابد أنها كانت مصابة بالسرطان».

كيفما شئت، يا أمى، يقول لها جون، ابنها الطيب المطيع. «سوف أومئ برأسى متعاطفاً ولن أسخر منك. ما الذى تودين أن تأسى له اليوم بجانب البيتزا؟».

«إننى لا آسى على البيتزا، فالبيتزا طيبة ولا بأس بها فى مكانها المناسب،

«إنها التفاصيل يا جون، التفاصيل! إننى لا آسى للتاريخ برمته، بل للتفاصيل - السلوكيات السيئة، والنحو السيئ والصوت العالى! مثل هذه التفاصيل التى تخنقنى هى التى تدفعنى لليأس. غير مهم على الإطلاق. غير مهم على الإطلاق! هل تفهم؟ من المؤكد إنك لا

«لكنك لم تهتمى أبداً بما يقوله الناس».

«لم أهتم أبداً بما يقوله الناس لأننى كنت أؤمن دائماً بكلمة المستقبل. فالتاريخ سوف يؤيدنى. ذلك ما كنت أقوله لنفسى. لكننى أفقد إيمانى بالتاريخ، بالصورة التى أضحى عليها التاريخ اليوم. أفقد إيمانى بقدرته على إظهار الحقيقة».

«وما الذى أضحى عليه التاريخ اليوم، يا أمى؟ وما دمنا بهذا الصدد، هل تسمحين لى أن أقول بأنك ناورت معى فى الكلام حتى وجدت نفسى مرة أخرى فى موقف الرجل المستقيم أو الولد المستقيم، وهو وضع لا أستمتع به بشكل خاص».

«أنا متأسفة، أنا متأسفة. هذا من جراء العيش وحدى. معظم الوقت يتحتم على أن أدير تلك الحوارات فى ذهنى، إنه نوع من الترويح عن النفس أن آتى بأشخاص أستطيع أن أتحاور معهم».

«متحاورون. وليس أشخاص. متحاورون».

«متحاورون أستطيع أن أتحاور معهم».

«تجعلينهم يتحاورون على هواك».

«متحاورون أجعلهم يتحاورون على هواى. أنا متأسفة، سأكف عن هذا الحديث. كيف حال نورما؟».

ولد جون ماكسويل كوتسى عام ١٩٤٠ فى مدينة «كيب تاون» بجنوب أفريقيا لوالدين من أصول إنجليزية وبويرية مختلطة. وعلى الرغم من اهتمامه المبكر بالأدب والشعر، إلا أنه امتهن برمجة الحاسبات الآلية فى أوائل الستينيات إلى أن اتجه إلى دراسة الأدب وتدريسه فى جامعات بريطانيا وأمريكا وجنوب أفريقيا.

صدرت أولى روايات كوتسى عام ١٩٧٤، ولكن شهرته الدولية تحققت عام ١٩٨٠ من خلال روايته «فى انتظار البرابرة». وهو يعد الأديب الوحيد الذى فاز بجائزة بوكر البريطانية مرتين، الأولى عام ١٩٨٣ عن رواية «زمن مايكل ك»، والثانية عام ١٩٩٩ عن رواية «العار».. ندد كوتسى من خلال رواياته بشرور سياسة الأبارتهايد التى سادت فى وطنه، كما يعرفه العرب بدفاعه عن الشعب الفلسطينى ضد السياسات الإسرائيلية، وتأييده لقيام الدولة الفلسطينية.

فى ديسمبر الماضى، منحت أكاديمية نوبل ج.م.كوتسى جائزة نوبل فى الآداب لعام ٢٠٠٣ مشيدة بخصائص رواياته التى تتسم بالبناء المحكم وثراء الحوار، والتحليل الذكى، كما أشادت بنقده اللاذع للحضارة الغربية فى قسوة عقلانيتها وفراغ أخلاقياتها التى تتجمل بها.

ترجمة: هانى حلمى حنفى

نيويورك ريفيو أوف بوكس

«نورما بخير. وترسل تحياتها. والأولاد على ما يرام. ما الذى آل إليه التاريخ؟»

«لقد فقدت ربة التاريخ صوتها. فـ كليو، التى كانت فى سالف الزمان تعزف على قيثارتها وتصدح متغنية بأعمال العظماء من الرجال، أصبحت ضعيفة وتافهة، كأسخف عجوز من العجائز. على الأقل هذا ما أظنه فى بعض الأوقات. أما بقية الوقت فأظن أنها وقعت أسيرة فى قبضة عصابة من السفاحين يعذبونها ويجعلونها تقول أشياء لا تعنيها. لا يمكن أن أفضى إليك بكل الأفكار السوداء التى تنتابنى بشأن التاريخ. لقد أصبح هاجساً».

«هاجساً. هل يعنى هذا أنك تكتبين عنه؟»

«لا، لا أكتب. لو كنت أستطيع الكتابة عن التاريخ لكنت فى طريقى الآن للتمكن منه. لا، كل ما أستطيع عمله هو أن أنفس عن غضبى إزاءه، أنفس عن غضبى وآسى. آسى لنفسى أيضاً. لقد وقعت فى حبائل مقولة مبتذلة، ولا أعتقد أن التاريخ سيستطيع تغيير تلك المقولة المبتذلة».

«أية مقولة؟»

«لا أريد أن أخوض فى ذلك، إنه مما يبعث على الاكتئاب بشدة. إنها تلك المقولة المبتذلة عن الأسطوانة المشروخة، التى لا تصدر صوتاً له معنى لأنه لا يوجد إبر للجرامافون، هذا أن كان هناك جرامافون أصلاً. الكلمة التى يتردد صداها فى أذنى من جميع الأرجاء هى كلمة «كئيب». رسالة ربة التاريخ للعالم كئيبة بلا رحمة. ما الذى تعنيه كلمة كئيبة؟ إنها كلمة تطلق على مشهد شتائى لكنها غدت مرتبطة بى على نحو ما. كأنها كلب هجين صغير يتبعنى، لا يكف عن النباح، ولا يمكن التخلص منه. إنه يقفو أثرى. وسوف يطاردنى حتى القبر. وسوف يقف على شفا القبر محملقاً وينبح كئيبة، كئيبة، كئيبة!»

«إذا لم تكونى أنت الكئيبة، إذن من أنت: يا أمى؟»

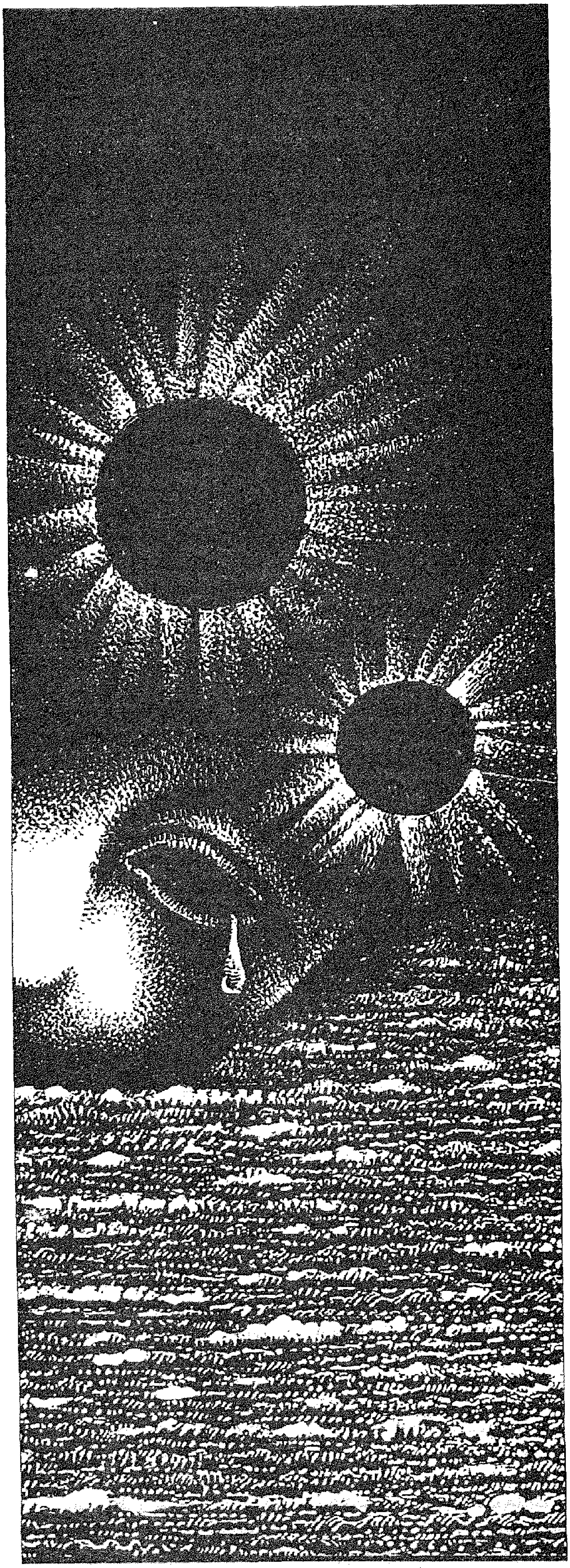
«أنت تعرف من أنا يا جون».

«بالطبع أعرف. ومع ذلك فلتنطقى بها. انطقى الكلمات».

«أنا من اعتادت أن تضحك ولكنها كفت عن ذلك. أنا من تبكى».

ابنتها هيلن تدير جاليرى للفن فى المدينة القديمة. ويعتبر الجاليرى بكل المعايير ناجحاً نجاحاً كبيراً. هيلن لا تمتلكه. لكنها تديره لحساب مالكين سويسريين ينزلان من عرينهما فى برن مرتين فى العام لمراجعة الحسابات ووضع الأرباح فى جيوبهما.

هيلن، أو هيلين (كما تنطق مشددة بالفرنسية) تصغر جون عمراً لكنها تبدو أكبر. حتى عندما كانت طالبة كانت لها سمات النساء فى منتصف العمر: بتنانيرها المنسابة ونظاراتها المستديرة كعين البومة وشعرها المعقود للخلف. ذلك النمط من النساء الذى



يوسع له الفرنسيون الطريق ويولونه الاحترام:

«كيف تودين أن تعيشى هنا، يا أمى؟» قالت هيلن على حين غرة.

«هل تقصدين هنا فى الجبال؟»

«لا، أقصد هنا فى فرنسا. فى نيس. هناك شقة فى المبنى الذى أقطنه ستكون شاغرة فى أكتوبر. يمكن أن تشتريها، أو نشتريها مشاركة. فى الطابق الأرضى».

«هل تريدين أن نعيش معاً، أنت وأنا، هذه مفاجأة، يا عزيزتى. هل أنت واثقة أنك تعنين ما تقولين؟»

«لن نقيم معاً باستمرار. فسوف تكونين مستقلة تماماً. ولكن فى حالة حدوث أى طارئ سوف يكون لديك شخص تتصلين به».

«شكراً لك يا عزيزتى، ولكن لدينا أناساً طيبين جداً فى ميلبورن مدربين على التعامل مع العجائز فى طوارئهم الصغيرة».

«من فضلك يا أمى، فلنكف عن الألاعيب. أنت فى الثانية والسبعين. ولديك مشاكل فى القلب. ولن تكونى قادرة دائماً على الاعتناء بنفسك. لو........»

«لا تقولى المزيد، يا عزيزتى. أنا واثقة أنك مثلى تجدين الألفاظ اللطيفة المخففة بغيضة إلى النفس. يمكن أن ينكسر حوضى، أو أتعثر فى المشى، ويمكن أن أظل طريحة الفراش لسنوات: هذا صراحة هو ما نتحدث عنه. إذا ما سلمنا بإمكانية حدوث مثل هذه الأشياء، السؤال بالنسبة لى: لماذا أفرض على ابنتى عبء رعايتى؟ والسؤال بالنسبة لك على ما أظن هو: هل ستقدرين على العيش مع نفسك إذا لم تقدمى لى الرعاية والحماية بكل إخلاص ولو لمرة واحدة ؟ هل أعبر عن الأمر بشكل واضح، عن مشكلتنا، مشكلتنا المشتركة؟»

«نعم. اقتراحى يحدوه الإخلاص. وهو عملى أيضاً. فقد ناقشته مع جون».

«لنذا دعينا لا نفسد هذا اليوم الجميل بالدخول فى مشاجرة. لقد قدمت اقتراحك، وقد سمعته وأعدك بأنى سأفكر فيه. ولنترك الأمر عند هذا الحد. إمكانية أن أقبل ذلك ضعيفة للغاية، ومن المؤكد أنك خمنت ذلك. أفكارى تسير فى اتجاه آخر تماماً. هناك شىء يجيده العجائز أكثر من الشباب وهو الموت. جدير بالعجائز (يا لها من كلمة غريبة!) أن يمتن بصورة لائقة، لكى يرين من يأتون بعدهن كيف تكون الميتة اللائقة. هذا هو ما يتجه له تفكيرى. أود أن أركز على الموت ميتة لائقة».

«يمكنك أن تموتى ميتة لائقة فى نيس كما فى ميلبورن».

«ولكن هذا ليس صحيحاً، يا هيلن. فكرى فى الأمر ملياً ولن تجديه صحيحاً. اسألينى عما أعنيه بميتة لائقة».

«ما الذى تعنيه بميتة لائقة يا أمى؟»

عندما تصبح المرأة عجوزا

«الميتة اللائقة هى التى تحدث بعيداً، حيث يتم التخلص من بقايا الميت على يد الغرباء، أى من يعملون بمهنة الموت. الميتة اللائقة هى التى تعلمين بها عن طريق التلغراف: يؤسفنا أن ننعى لكم، إلخ. يا للأسف لم تعد التلغرافات شائعة الآن».

أصدرت هيلن شخرة محنقة. وواصلا الطريق فى صمت. خلفا نيس بعيداً وراءهما: وعلى طريق خال هبطا إلى واد طويل. كان الفصل صيفاً من حيث الاسم فقط لأن الهـــواء كان بـــارداً، وكأن الشمس لم تمس تلك الأعماق أبداً. كانت ترتعش، فأغلقت زجاج السيارة. بدا الأمر وكأن السيارة تسير فى أمثولة ذات مغزى!

«ليس لائقاً أن تموتى بمفردك»، نطقت هيلن أخيراً، «دون أن يمسك يدك أحد. هذا غير اجتماعى. غير إنسانى. ولا يعبر عن الحب. فلتغفرى لى كلماتى ولكنى أعنيها. أنا أعرض عليك أن أمسك يدك. أن أكون معك».

من بين طفليها كانت هيلن دائماً الأكثر تحفظاً، والأكثر ابتعاداً عن أمها. لم تتحدث هيلن على هذا النحو من قبل على الإطلاق. ربما جعلت السيارة الأمر اكثر سهولة، لأنها تتيح لها وهى تقود ألا تنظر فى وجه من تحدثها مباشرة. يجب أن تتذكر ذلك بشأن السيارات.

«هذه رقة منك، يا عزيزتى»، قالت. كان الصوت المنبعث من حلقها خفيضاً على نحو غير متوقع. «لن أنسى ذلك أبداً. ولكن ألن يبدو الأمر غريباً أن آتى بعد كل هذه السنين إلى فرنسا لكى أموت؟ ماذا سأقول للرجل الواقف على الحدود عندما يسألنى عن الغرض من الزيارة، العمل أم الاستجمام؟ بل الأسوأ من ذلك عندما يسألنى عن المدة التى أنوى قضاءهما؟ للأبد؟ حتى النهاية؟ مجرد فترة قصيرة؟»

«قولى الغرض من الزيارة لم شمل العائلة. سوف يفهم ذلك. فهذا يحدث كل يوم. لن يسألك المزيد».

تتناولان الغداء فى مطعم يسمى لو ديز إيرميت (الناسكان). من المؤكد أن هناك قصة وراء هذا الاسم، لكنها تفضل ألا تعرفها. فلو كانت قصة جيدة فأغلب الظن فى كل الأحوال أنها مختلقة. تهب ريح باردة قاطعة كالسكين؛ تجلسان محتميتين خلف الزجاج، تتطلعان إلى قمم الجبال المغطاة بالثلوج. الموسم فى بدايته: بالإضافة إلى مائدتهما، هناك مائدتان فقط مشغولتان.

«جميل؟ نعم، بالطبع إنه جميل. بلد جميل، بلد رائع، هذا لا يقبل الجدال. فرنسا الجميلة. ولكن لا تنسى، يا هيلن، كم كنتُ محظوظة، فلقد كانت مهنتى مميزة. أتاحت لى أن أتجول كما أشاء طوال حياتى. لقد عشت فى أحضان الجمال عندما عن لى ذلك. السؤال الذى يراودنى الآن هو أية فائدة عادت على من ذلك، من كل هذا الجمال؟ أليس الجمال أحد المستهلكات الأخرى مثل النبيذ؟ تحتسيها، وتعبها، فتمنحك إحساساً قصيرا بدوار لذيذ، ولكن ما الذى تخلفه؟ ما الذى يتبقى منه، فلتغفرى كلماتى، سوى البول، ماذا يتبقى من الجمال؟ وما فائدته؟ هل يجعلنا الجمال أفضل كبشر؟»

قبل أن تخبرينى بإجابتك على هذا السؤال، يا أمى، هل أخبرك بإجابتى؟ لأننى أظن أننى أعرف ماذا ستقولين، ستقولين أن الجمال لم يعد عليك بأى فائدة يمكن أن تلمسيها؛ وأنك يوماً ما ستجدين نفسك على أبواب الجنة ويداك خاويتان وعلامة استفهام ضخمة تعلو رأسك. سوف يكون الموقف متوافقاً مع شخصيتك تماماً، أى مع شخصية اليزابيث كوستلو، أن تقولى ذلك وأن تؤمنى به.



«الإجابة التى لن تصرحى بها - لأنها لا تتفق وشخصية إليزابيث كوستلو - هى أن ما أنتجته ككاتبة لا يمتلك جماله الخاص فقط - حتى وإن سلمنا أنه جمال محدود لأنه ليس شعراً، ولكن به جمال وتناسق وصفاء، وإيجاز - بل غير من حيوات الآخرين وجعلهم بشراً أفضل، أو بشراً أفضل قليلاً. لست أنا وحدى من يقول ذلك. بل هناك آخرون، أغراب، يقولون ذلك أيضاً. يقولون ذلك لى، فى وجهى. ليس لأن ما تكتبين ينطوى على دروس ولكن لأنه درس فى حد ذاته».

«مثل متزلقة الماء».

«لا أعرف ما متزلقة الماء»

«متزلقة الماء أو الذبابة ذات السيقان الطويلة. حشرة من الحشرات. تظن متزلقة الماء أنها تصطاد طعامها فقط، بينما حركاتها المتكررة على سطح البحيرة ترسم فى الحقيقة أجمل الكلمات على الإطلاق، وهى اسم الرب. حركات القلم على الصفحة ترسم اسم الرب، كما ترين، وأنت تشاهدين عن بعد، بينما لا يتسنى لى ذلك».

«نعم، إذا راق لك هذا التشبيه. ولكن ما هو أكثر من ذلك: إنك تعلّمين الناس كيف يشعرون. بواسطة الجمال. جمال القلم وهو يتبع حركات الفكر».

بدا لها ما قالته ابنتها عتيقاً، هذه النظرية الجمالية التى تشرحها أرسطية نوعاً ما. هل توصلت لها هيلن بنفسها أم قرأت عنها فى مكان ما؟ وكيف تنطبق على فن الرسم؟ إذا كان إيقاع القلم هو إيقاع الفكر، ما هو إيقاع الفرشاة؟ وماذا عن اللوحات المرسومة بعلب ألوان الرش؟ كيف تعلمنا مثل هذه اللوحات أن نكون بشراً أفضل؟

تتنهد. «رقيق منك أن تقولى ذلك، يا هيلن؛ رقيق منك أن تؤكدى ثقتى بنفسى. فعلى كل حال لم تضع الحياة هباء. بالطبع أنا لست مقتنعة. كما تقولين، لو كنت أستطيع أن أقتنع لكنت شخصاً مختلفاً عن نفسى. ولكن هذا ليس معزياً. لست فى مزاج سعيد، كما ترين. فى حالتى الراهنة، تبدو الحياة التى عشتها خطأ من البداية للنهاية، بل وليست شيقة بصورة خاصة على أى وجه. إذا كان المرء يود حقاً أن يكون إنساناً أفضل، من المؤكد أن هناك سبلاً للوصول إلى هناك، كما يبدو لى الآن، أقصر من تسويد آلاف الصفحات بالنثر».

«طرق مثل؟»

«هيلن، هذا ليس حديثاً لطيفاً. فحالات الذهن الكئيبة لا تنتج أفكاراً شيقة، على الأقل فى حدود خبرتى»

«هل يجب أن نصمت إذن؟»

«نعم، دعينا نصمت. دعينا نمارس شيئاً عتيقاً حقاً بدلاً من ذلك. دعينا نجلس هنا فى صمت ونصغى إلى طائر الوقواق».

ثمة وقواق يغرد فى الحديقة، فى الأيكة الواقعة خلف المطعم. إذا واربا النافذة قليلاً يأتى صوت الوقواق جلياً مع الريح: جملة موسيقية من نغمتين، جهيرة وخفيضة، تتكرر مرة تلو الأخرى. عبقة، تفكر. كلمة من كلمات كيتس - عبقة برائحة الصيف واسترخاء الصيف. طائر كريه، ولكن ياله من منشد، ياله من كاهن! كوكو، هو اسم الرب بلغة الوقواق. عالم من الرموز.

يفعلون الآن شيئاً لم يفعلوه معاً منذ أن كان الأطفال أطفالاً. يجلسون فى شرفة شقة هيلن فى الدفء العليل الذى يلف ليل البحر المتوسط ويلعبون الورق، يلعبون البريدج الثلاثى؛ يلعبون اللعبة التى اعتادوا أن يسموها سبعات Sevens، والتى تسمى فى فرنسا رامى Rami، كما قالت هيلن/هيلين.

كانت فكرة قضاء أمسية فى لعب الورق من اقتراح هيلن. فى البداية بدت الفكرة غريبة، متكلفة؛ ولكن ما أن اندمجوا فى اللعب حتى اعتراها السرور. كم كان حدساً جميلاً من جانب هيلن: لم تكن تتخيل أن هيلن لديها هذا الحس الحدسى.

ما يدهشها الآن كيف انسلوا إلى تلك الشخصيات التى تلعب الورق التى كانوا عليها منذ ثلاثين سنة، تلك الشخصيات التى ظنت أنهم تخلصوا منها للأبد عندما هربوا من بعضهم البعض: هيلن طائشة لا مبالية، جون متجهم قليلاً، يمكن التنبؤ بأفعاله قليلاً، وهى بشكل يبعث على الدهشة شديدة التنافس، مع الأخذ فى الاعتبار أنهما لحمها ودمها، ومع الأخذ فى الاعتبار أن البجعة تمزق صدرها وتشقه لكى تطعم صغارها. كانوا إذا لعبوا على مراهنات، تحصد نقودها بملء كفيها. ما الذى يشى به ذلك فيما يخصها؟ ما الذى يشى به فيما يخصهم جميعاً؟ هل يعنى ذلك أن الشخصية لا تتغير ويصعب تشكيلها؛ أم يعنى فقط أن الأسر، الأسر السعيدة، يتحقق تماسكها بواسطة مجموعة من الألعاب يتم لعبها من وراء أقنعة؟

«يبدو أن قواى لم تهن» تعلق بعد جولة أخرى تخرج منها فائزة.

«فلتغفرا لى. ياله من موقف محرج» هذا كذب بالطبع. فهى غير محرجة على الإطلاق. إنها منتصرة. «غريب أمر تلك القدرات التى نحتفظ بها عبر السنين وتلك التى نشرع فى فقدانها».

القدرة التى تحتفظ بها، القدرة التى تمارسها فى هذه اللحظة، هى القدرة على التخيل. فبدون أدنى جهد عقلى تستطيع أن ترى الورق فى أيدى طفليها، كل ورقة. تستطيع أن تنفذ إلى أيديهم؛ تستطيع أن تنفذ إلى قلوبهم.

«أى قدرات تشعرين انك تفقدينها، يا أمى؟» يسأل ابنها بحذر.

«أفقد، » تقول فى مرح»، قدرتى على الرغبة.» فليكن ما يكون.

«لا أوافقك الرأى فى أن للرغبة قدرة»، يجيب جون فى حسم، ممسكاً بدفة الحديث. «ربما كثافة. طاقة كهربية. ولكن ليس قدرة، أو قدرة بالحصان. الرغبة تجعلك تريدين أن تتسلقى جبلاً ولكنها لن توصلك للقمة».

«ما الذى سيوصلك للقمة؟»

«الطاقة. الوقود. ما اختزنته تأهباً واستعداداً».

«الطاقة. هل تود معرفة نظريتى عن الطاقة، علم الطاقة الخاص بامرأة عجوز؟ لا تقلق، ليس فيها شىء شخصى يحرجك، ولا ميتافيزيقا أيضاً، ولا حتى ذرة منها. بل هى مادية بقدر ما تسمح النظريات. هاهى. عندما نشيخ، يتدهور كل جزء من أجسادنا أو يعانى من الذبول، حتى الخلايا نفسها. هذا ما تعنيه

الشيخوخة من وجهة النظر المادية، حتى في الحالات التي تتمتع فيها الخلايا العجوز بالصحة، فإن ألوان الخريف تمسها (هذه استعارة، أوافق، ولكن قليلاً من الاستعارة هنا وهناك لن يؤدي إلى ميتافيزيقا). وهذا ينطبق على كثير من الخلايا، بل وكثير من خلايا المخ أيضاً».

«فكما يستشرف الربيع فصل الصيف، كذلك الخريف يتطلع إلى الماضي. فالرغبات التي تتخيلها خلايا المخ الخريفي رغبات خريفية، تحن للماضي، وتتراكم طبقات في الذاكرة. ليس لها حرارة الصيف؛ فأي كثافة تمتلكها تلك الرغبات هي كثافة متعددة المعاني، معقدة، أكثر توجهاً نحو الماضي وليس نحو المستقبل».

«هذا هو جوهر نظريتي، إسهامي في علم المخ. ما رأيك؟»

«أوافقك، أنها إسهام حقاً»، يقول ابنها اللبق، «في فلسفة العقل، في الفرع النظري من هذه الفلسفة، أكثر منها في علم المخ. لماذا لا تقولين ببساطة أنك تشعرين بمزاج خريفي وكفى؟»

«لأنه لو كان الأمر مجرد مزاج لتغير، كما تتغير الأمزجة. كانت الشمس ستشرق، وكان مزاجي سيصبح أكثر إشراقاً. ولكن ثمة حالات للروح أكثر عمقاً من الأمزجة. الحنين إلى الطين، على سبيل المثال، ليس حالة مزاجية ولكنه حالة كينونة. السؤال الذي أطرحه الآن، هل الحنين في الحنين إلى الطين يخص العقل أم المخ. إجابتي هي، المخ. المخ الذي لا يكمن أصله في عالم الأشكال بل في التراب، في الطين، في الوحل البدائي، الذي يتوق للعودة إليه عندما يتدهور به الحال. وهو توق مادي ينبع من الخلايا ذاتها. دافع للموت أعمق من الفكر».

يبدو وقع الكلام طيباً، يبدو كما ينبغي له أن يكون تماماً، مجرد ثرثرة، لا يبدو كلاماً مجنوناً على الإطلاق. ولكن ليس هذا ما تفكر فيه. ما تفكر فيه هو: من تتحدث إلى أطفالها على هذا النحو، أطفالها الذين قد لا تراهم مرة أخرى؟ ما تفكر به الآن أيضاً، نفس الأفكار التي تجتاح المرأة في خريفها. كل شيء أراه، كل شيء أقوله، به لمسة من تلك النظرة المتطلعة للوراء، ما الذي تبقى لي؟ أنا من تبكي.

«هل ذلك ما تشغلين نفسك به هذه الأيام، علم المخ؟» تقول هيلين. «هل هذا ما تكتبين عنه؟»

سؤال غريب؛ متطفل. هيلين لا تكلمها مطلقاً عن أعمالها. ليس الموضوع من المحرمات بينهم على وجه الخصوص، ولكن من المؤكد أنه خارج نطاق أحاديثهم.

«لا»، تقول. «مازلت أقتصر على كتابة الروايات، سيريحك سماع ذلك، فأنا لم انحدر بعد لمستوى الترويج لآرائي. آراء إليزابيث كوستللو، طبعة منقحة».

«رواية جديدة؟»

«ليست رواية، بل قصص. هل ترغبين في سماع إحداها؟»

«نعم، أود ذلك. منذ فترة طويلة لم تروي لنا قصة».

«حسناً جداً، قصة قبل النوم. كان يا ما كان في سالف الأزمان، ولكني أعني زماننا، وليست الأزمان القديمة، كان هناك رجل، سافر إلى مدينة غريبة لإجراء مقابلة للحصول على وظيفة. ومن غرفة الفندق الذي يقيم فيه، حيث يشعر بالضجر، ويشعر بالرغبة في المغامرة، ويشعر بما لا نعرفه، يتصل هاتفياً بفتاة من فتيات الهوى. تصل الفتاة وتقضي وقتاً معه. يمارس حريته معها كما لا يفعل مع زوجته، ويطلب منها أشياء بعينها».

«تسير المقابلة في اليوم التالي على ما يرام. تعرض عليه الوظيفة ويقبلها وفي الوقت المناسب، في القصة، ينتقل لهذه المدينة، وبين العاملين في مكتبه الجديد، فتاة تعمل سكرتيرة أو موظفة أو عاملة تليفون، يتعرف فيها على نفس الفتاة، فتاة الهوى التي طلبها بالتليفون، وتتعرف عليه بدورها».

«وماذا بعد؟»

«لا أستطيع أن أروي لكما المزيد».

«ولكن هذه ليست قصة، إنها مجرد مخطط لقصة. إنك لا تكونين قد حكيت قصة ما لم تكملي ما حدث بعد ذلك».

«ليس من الحتمي أن تكون الفتاة سكرتيرة. تعرض الوظيفة على الرجل فيقبلها وينتقل إلى المدينة الجديدة وفي الوقت المناسب يقوم بزيارة لأحد أقاربه، لأحد أبناء أعمامه لم يره منذ كانا طفلين، أو أحد أبناء أعمام زوجته. تدخل ابنة العم الغرفة، و يا للعجب، إنها نفس فتاة الفندق».

«استمري ماذا حدث بعد ذلك؟»

«كل شيء ممكن. ربما لا يحدث شيء آخر. ربما القصة من النوع الذي ينتهي ببساطة».

«كلام فارغ. علام تعتمد القصة؟»

الآن يتكلم جون. «كل شيء يتوقف على ما دار بينهما في غرفة الفندق. يتوقف على الأشياء التي طلبها منها كما قلت. هلا كشفت، عن تلك المطالب، يا أمي؟»

«نعم، سأفعل».

الآن كلهم صامتون. ما سيفعله صاحب الوظيفة الجديدة، أو ما ستفعله الفتاة التي تتخذ من الدعارة عملاً إضافياً، سوف يتراجع فاقداً أهميته. القصة الحقيقية تدور في الشرفة، حيث يواجه ابن وابنة في منتصف عمرهما أمهما التي لم تستنفد بعد قدرتها على إزعاجهما وإخافتهما. أنا من تبكي.

«هل ستخبريننا ماذا كانت تلك المطالب؟» تسأل هيلين بتجهم، لأنه ليس هناك ما تسأل عنه غير ذلك.

فات الأوان ولكن لم يفت كثيراً. لم يعد أي منهما طفلاً. في كل الأحوال، خيرها وشرها، هم معاً الآن في القارب المثقوب المسمى الحياة، بلا اتجاه وبلا أوهام تساعد على الخلاص في بحر من ظلمات لا تبالي. (يالها من استعارات تلك التي تستخدمها الليلة!) هل يستطيعون أن يتعلموا العيش معاً دون أن يأكل أحدهم الآخر؟



«المطالب التي يفرضها رجل على امرأة وأجدها مروعة. ربما لن تجداها مروعة، لأنها تأتي من جيل مختلف. ربما يكون العالم قد أبحر بعيداً في هذا الاتجاه وخلفني وراءه على الشاطئ، أشعر بالأسى. ربما يتكشف أن هذا هو صلب القصة: فبينما الرجل، الرجل الكبير، يحمر خجلاً عندما يواجه الفتاة، نجد أن ما حدث للفتاة في غرفة الفندق مجرد جزء من مهنتها، جزء من طبيعة الأشياء، جزء من الحياة.

«مستر جونز... العم هاري... تشرفنا!»

الطفلان اللذان لم يعودا طفلين يتبادلان النظرات. هل هذا كل ما في الأمر؟ كأنهما يقولان: ليست قصة جيدة.

«الفتاة التي في القصة جميلة للغاية»، تقول. «وردة حقيقية. أستطيع أن أوضح ذلك لكما. مستر جونز، أو العم هاري، لم يتورط في شيء من هذا القبيل من قبل، أي في إذلال الجمال، والحط منه: لم تكن هذه خطته عندما قام بالمكالمة التلفونية. لم يكن يدرك أن لديه هذه الخطة بداخله. لقد أصبحت الخطة خطته فقط عندما ظهرت الفتاة نفسها أمام عينيه ورأى أنها، كما قلت، وردة. بدا الأمر وكأنه إهانة له أنه افتقد كل هذا الجمال طوال حياته، وانه من المحتمل أن يفقده منذ الآن وإلى الأبد أيضاً. عالم بلا عدالة! كان سيصبح في دخيلته، ويواصل حياته منذ تلك اللحظة شاعراً بالمرارة. إجمالاً، هو ليس بالرجل اللطيف.

«كنت أظن أن لديك شكوكك حول الجمال، حول أهميته. كنت تسمينه عرضاً ثانوياً».

«حقاً؟»

«تقريباً».

يمد جون يده ويضعها على ذراع أخته. يقول، «الرجل في القصة، العم هاري أو مستر جونز - مازال يؤمن بالجمال. مازال واقعاً تحت سحره. لذلك يكرهه ويحاربه».

«هل هذا ما تعنينه، يا أمي؟» تسأل هيلين.

«أنا لا أعرف ماذا أعني. فالقصة لم تكتب بعد. عادة أقاوم إغراء الحديث عن القصص قبل أن يكتمل خروجها من الزجاجة. الآن أعرف السبب». رغم أن الليلة دافئة، إلا أنها ترتعش قليلاً.

«يحدث تدخل كبير في ما أكتبه؟».

«الزجاجة»، تقول هيلين.

«لا عليك».

«هذا ليس تدخلاً»، تقول هيلين. «إذا جاء هذا من الآخرين فقد يكون تدخلاً. ولكننا معك. من المؤكد أنك تعرفين ذلك».

معك؟ ياله من هراء. الأطفال ضد آبائهم وأمهاتهم، وليسوا معهم. ولكن هذه أمسية خاصة في أسبوع خاص. من المحتمل جداً ألا يلتقوا معاً مرة أخرى، ثلاثتهم، ليس في هذه الحياة. ربما، هذه المرة فقط، يجب أن يتجاوزوا ذواتهم. ربما تكون كلمات ابنتها نابعة من القلب، القلب الصادق، وليس القلب الكاذب، نحن معك. ورغبتها هي في أن تحتضن تلك الكلمات. ربما تكون نابعة من القلب الصادق أيضاً.

«إذن أخبريني ماذا أقول بعد ذلك»، تقول.

«يحتضنها»، تقول هيلين. «أمام العائلة كلها دعيه يأخذ الفتاة بين ذراعيه ويحتضنها. مهما بدا الأمر غريباً. ودعيه يقول «اغفري لي ما عانيته بسببي». واجعليه يركع على ركبتيه أمامها. «دعيني أعبد فيك جمال العالم مرة أخرى». أو كلمات بهذا المعنى».

إنه يوم جون الأخير في نيس. سوف يرحل مبكراً صباح اليوم التالي إلى دوبروفنيك لحضور مؤتمره، حيث يناقشون، كما يبدو، قضية الزمن قبل بداية الزمن، والزمن بعد نهاية الزمن.

«في سالف الزمان كنت مجرد طفل يحب التحديق في التليسكوب»، يقول لها. «الآن

على أن أعيد تشكيل نفسى كفيلسوف. بل كلاهوتى. تغير جذرى فى حياتى».

«وما الذى تأمل فى أن تراه، عندما تنظر من خلال تلسكوبك فى الزمن قبل الزمن»، تقول.

«لا أعرف» يقول. «ربما أرى الرب، الذى ليس له أبعاد، مختبئاً».

«حسناً، أتمنى أن أراه أنا أيضاً. ولكن يبدو أننى لا أستطيع أن أراه. بلغه تحياتى. وأخبره إننى سأنتقل إلى جواره فى يوم من الأيام».

«أماه!»

«أنا متأسفة. أنا متأكدة أنك تعرف أن هيلن اقترحت على أن أشترى شقة هنا فى نيس. فكرة جيدة، ولكنى لا أعتقد أننى سأقبلها. وتقول أن لديك اقتراحاً خاصاً بك. كل هذه الاقتراحات محيرة حقاً. كأنه تتم مغازلتى مرة أخرى. ما الاقتراح الذى لديك؟»

«أن تأتى لتقيمى معنا فى بالتيمور. فالمنزل كبير ومساحته واسعة، ونقوم الآن بتركيب حمام إضافى. سيحب الأطفال وجودك معنا. ومن المفيد لهم أن تكون جدتهم بالقرب منهم».

«قد يحبون ذلك وهم فى سن التاسعة والسادسة. ولكن لن يحبوه عندما يبلغون الخامسة عشرة والثانية عشرة ويصطحبون أصدقاءهم معهم للمنزل فيرون جدتهم وهى تجرجر قدميها فى الشبشب فى أرجاء المطبخ، وتغمغم لنفسها ويطقطق طقم أسنانها، وربما تفوح منها رائحة غير طيبة. شكراً لك ياجون، ولكنى أرفض».

«لست مضطرة لاتخاذ قرار الآن. فالعرض قائم. وسيظل قائماً دائماً».

«جون، إننى لست فى وضع يسمح لى بالوعظ، ولا سيما أننى قادمة من استراليا التى تذل نفسها لتنفذ أوامر سيدها الأمريكى. ومع ذلك، ضع فى حسبانك إنك تدعونى إلى مغادرة البلد الذى ولدت فيه لكى استقر فى بطن الشيطان الأكبر، وربما تكون لى تحفظاتى فى أن أقوم بذلك».

«فلتأت أياً كان الوضع» يقول، «رغم كل تحفظاتك أوافقك، أن هذا الزمن ليس الأفضل على الإطلاق، ولكن فلتأت. بروح التناقض. وإذا سمحت لى بأبسط وأرق كلمات النصح، فلتحذرى المقولات الكبيرة. فأمريكا ليست الشيطان الأعظم. أولئك المجانين فى البيت الأبيض ليسوا إلا ظاهرة عابرة فى التاريخ. سوف يطاح بهم ويعود كل شىء إلى طبيعته».

«ومن ثم من حقى أن أشعر بالأسى فقط ولكن يجب ألا استنكر؟»

«الاستقامة الأخلاقية، يا أمى، هذا ما أشير إليه، نبرة الاستقامة الأخلاقية وروحها. أعرف أن الأمر يغرى، بعد حياة كاملة كنت تزنين فيها كل كلمة قبل كتابتها، بأن تستسلمى لتلك الروح وتدعيها تجتاحك؛ ولكنها تخلف مذاقاً كريهاً. يجب أن تعى ذلك».

«روح الاستقامة الأخلاقية. سوف أتذكر تلك التسمية التى أطلقتها عليها. سوف أمنح الأمر بعض التفكير. هل تسمى هؤلاء الرجال مجانين. بالنسبة لى لا يبدون مجانين على الإطلاق. على العكس، هم يبدون لى فى منتهى الدهاء، وبكامل عقولهم. بل ولديهم طموحات تاريخية على مستوى العالم أيضاً. أنهم يريدون أن يعكسوا مسيرة سفينة التاريخ، وإذا فشلوا فى ذلك يغرقونها هل هذه صورة مجازية مفخمة بالنسبة لك؟ هل تخلف مذاقاً كريهاً؟».

تأخذ ذراعه؛ ويواصلان نزهتهما فى صمت. ولكن الأمور بينهما ليست على ما يرام. تستطيع أن تستشعر تجهمه، وضجره. طفل كئيب، تتذكر. كل الذكريات تفيض عائدة إليها، الساعات التى كانت تقضيها فى ملاطفته لتخرجه من إحدى حالات اكتئابه. ولد كئيب، ابن والدين مكتئبين. كيف يمكن أن تحلم بأن تحتمى به وبزوجته الصموتة المتذمرة تلك؟

تفكر، على الأقل لا يعاملانى باعتبارى حمقاء.

«كفانا شجاراً»، تقول (هل تتملق الآن؟ هل تتوسل؟) «دعونا لا نتعس أنفسنا بالحديث عن السياسة. نحن هنا على شواطئ البحر المتوسط، مهد أوروبا القديمة، فى ليلة صيف عليلة. دعنى أقول ببساطة، إذا لم تستطع أنت ونورما والأولاد أن تتحملوا أمريكا أكثر من ذلك، أن تحتملوا عارها، فالمنزل فى ميلبورن منزلكم، كما كان دائماً. يمكنكم المجىء للزيارة، أو كلاجئين، أو للم شمل العائلة، كما تقول هيلن. والآن ما رأيك فى أن نأتى بهيلن ونتمشى حتى ذلك المطعم الصغير الذى تفضله فى شارع جامبيتا ونتناول وجبة أخيرة لذيذة معاً».

هذا الابن، ابنها، توقف وتوقفت بجانبه على أرض المتنزه. يبدو وكأنه يتأمل كلماتها، ويستخدم معها ذلك المزيج من العجين والمادة الهلامية فى جمجمته الذى وهب إياه منذ مولده قبل أربعين عاماً، مازالت خلاياه قوية لم تجهد بعد، قوية بما يكفى لتناول الأفكار الكبيرة والصغيرة على شاكلة الزمن قبل الزمن، والزمن بعد الزمن، وكيف يعامل أماً عجوزا. ■

كتاب الزاوية


٥ ـ مذكرات الإمام محمد عبده

نهضة جمال الدين

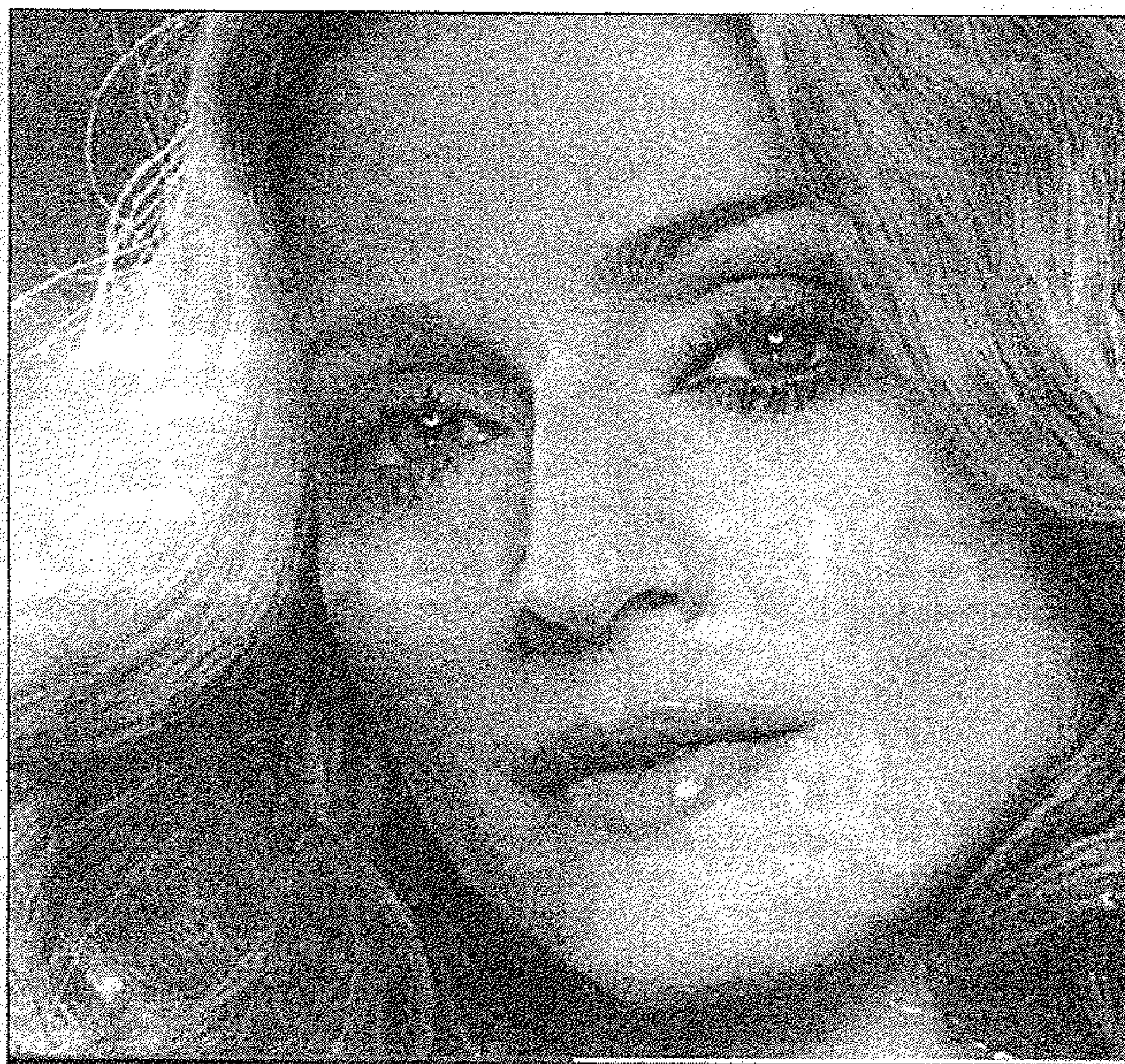
جاء إلى هذه الديار فى سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ ميلادية) رجل بصير فى الدين، عارف بأحوال الأمم، واسع الاطلاع، جم المعارف، جرىء القلب واللسان. وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى، اختار الإقامة فى مصر، فتعرف إليه فى بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعيًا إلى رغبة الناس فى الاجتماع به لتعرف ما عنده.

وكانت مدرسته بيته.. فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم. وهو فى جميع أوقات اجتماعه بالناس، لا يسأم من الحديث فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معانى الأمور، أو يلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها. فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصًا القاهرة.

وأخذ الشيخ جمال الدين الأفغانى فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير، وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية فى موضوعات مختلفة، فأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه فى عالم خيال، أو أرض غير هذه الأرض.

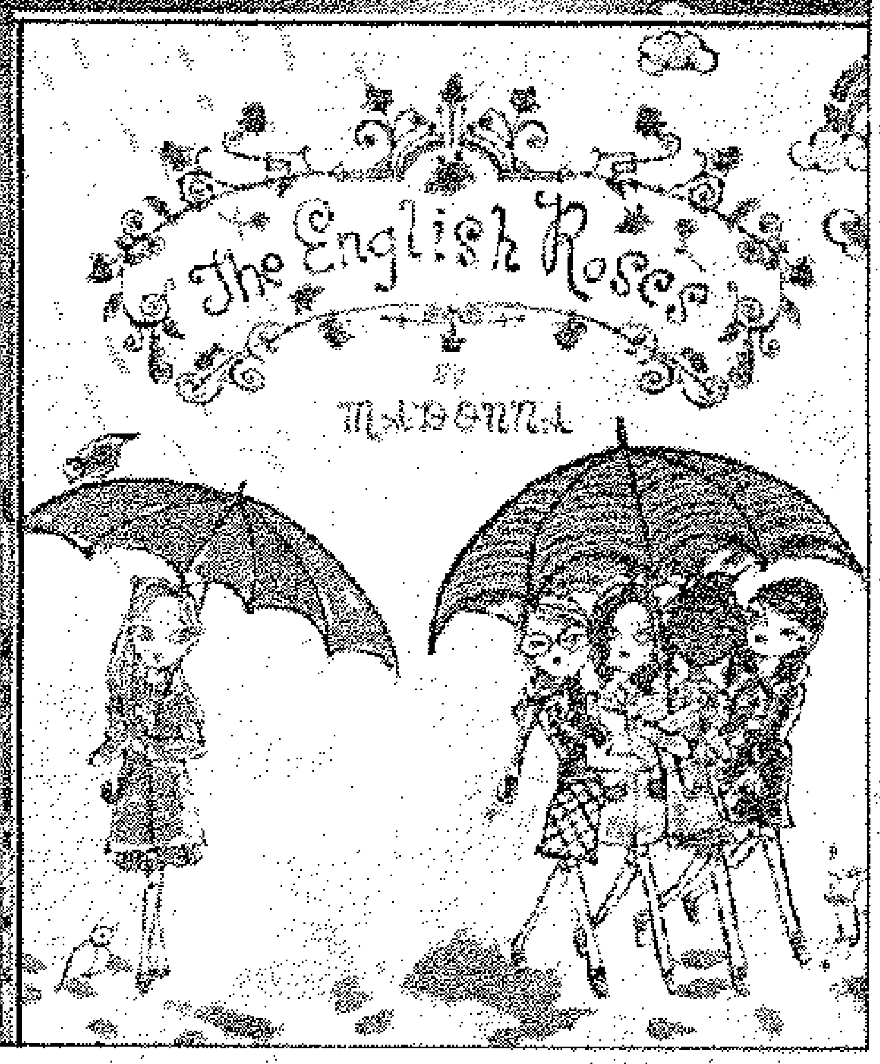


٣ مليــون مصــرى
بيتكلموا من القلب
مع موبينيل
...ولسّه
لأن مصر هى اللى فى القلب ...
يكفينا فخـراً بأن نكـون
شبكة المحمول الأولى فى مصر
موبينيل



مادونا فى أحوالها المختلفة سعى دائم نحو الإبهار والدهشة





مادونا وكتاباها للأطفال تفاحات السيد بيبادى والورود الإنجليزية

مادونا
من إباحية الجنس إلى
أدب الطفل!

هديل غنيم

■ الظاهرة هى «مادونا فيرونيكا لويزا تشيكونى»، المغنية الأمريكية الشهيرة. وقد أصبحت عنوانًا للعديد من المقررات الدراسية فى الجامعات الغربية، لا باعتبارها ظاهرة غنائية أو موسيقية، وإنما لكونها ظاهرة ثقافية تجسد تطورات مهمة لحقت بالعالم فى نهاية القرن العشرين. لهذا تم صك وتداول مصطلح Madonna Phenomenon (ظاهرة مادونا) فى الدراسات الإعلامية ومناهج النقد الثقافى والدراسات النسوية. بل امتد الاهتمام الأكاديمى بمادونا إلى الدراسات اللاهوتية، حيث يقاس عليها مفاهيم مثل التفانى، والتقديس، والرمزية الأيقونية.

إن ما خلفته مادونا ليس مجموعة من الأغنيات، وإنما مجموعة من الصور. فقد ولدت مادونا. الظاهرة على شاشة محطة الـ M.T.V عام ١٩٨٣، أى بعد عامين من انطلاق تلك القناة باعتبارها أول قناة موسيقية تليفزيونية. ومن هناك بدأت ثورة أغنيات الفيديو كصناعة جديدة تعتمد على الصورة بأكثر مما تعتمد على الصوت واللحن والعزف، صناعة تنتج فيها الأغنيات كما تنتج الإعلانات التليفزيونية التجارية مستبدلة المطربة أو المطرب بالسلعة المعلن عنها.

كذلك فإن صعود نجم مادونا فى عقد الثمانينيات ارتبط «بالحقبة الريجانية»، التى سيطرت فيها صورة إعلامية أخرى، هى صورة الرئيس الأمريكى اليمينى المحافظ، فكانت تلك الحقبة بالتحديد هى الشاهد على تصاعد هيمنة كل من الآلة السياسية والآلة الإعلامية الأمريكية لتصل إلى مرحلة جديدة من السيطرة على المواطنين فى داخل الولايات المتحدة وفى سائر بلدان العالم.

وقد أجادت مادونا التلاعب بصورتها التليفزيونية إلى أقصى حد، واحترفت إعادة صياغة نفسها فى صور جديدة كل حين، بحيث حافظت على دهشة الجماهير الذين ينتظرون منها المزيد والغريب وغير المتوقع.

فعند بداية ظهورها فى أوائل الثمانينيات صدمت مادونا الجماهير وصعدت إلى نجومية صاروخية باتخاذها مظهر الفتاة الوقحة الخليعة والمتمردة التى لا تخشى إظهار أنوثتها فى أشكال مثيرة. ولهذا ابتعدت بسرعة عن صورة نجمات الإغراء التقليديات مثل مارلين مونرو التى اعتقد البعض أنها تقلدها خاصة عندما أصدرت فيديو أغنية «فتاة مادية».

ثم دخلت «مادونا» فى أوائل التسعينيات مرحلة أيقونة الجنس بأشكاله التجريبية المتعددة من سادية ومازوخية ومثلية أيضاً. وقد ظهرت تلك المرحلة من خلال أغنيات وأفلام وكتب منها فيلم «فى السرير مع مادونا» وكتاب عبارة عن ألبوم من الصور بعنوان «جنس». فأصبح لمادونا جماهير عريضة بين الشواذ، والسود والمنحدرين من أصول أسبانية، بعد أن كان جمهورها فى المرحلة السابقة مقتصراً على المراهقات من البيض.

وفى السنوات الماضية التى شهدت زواجها وإنجابها لطفلتين، وتخطيها سن الأربعين ظهرت مادونا بهوية جديدة أعادت بها تسويق صورتها وأغنياتها. فأصبحت فى أحاديثها الصحفية تتحدث عن الأسرة والحياة المنزلية والأمومة، بل أظهرت اهتماماً بالجانب الروحانى من الحياة حينما بدأت منذ عام ١٩٩٧ تتلقى دروساً فى القبالاة أو التصوف

1- The English Roses

(الورود الإنجليزية)

Madonna

Jeffrey Fulvimar (رسوم)

Callawy Editions, 2003, 48 PP., $19.95

(للأطفال من ٤ . ٨ سنوات)

2- Mr. Peabody's Apples

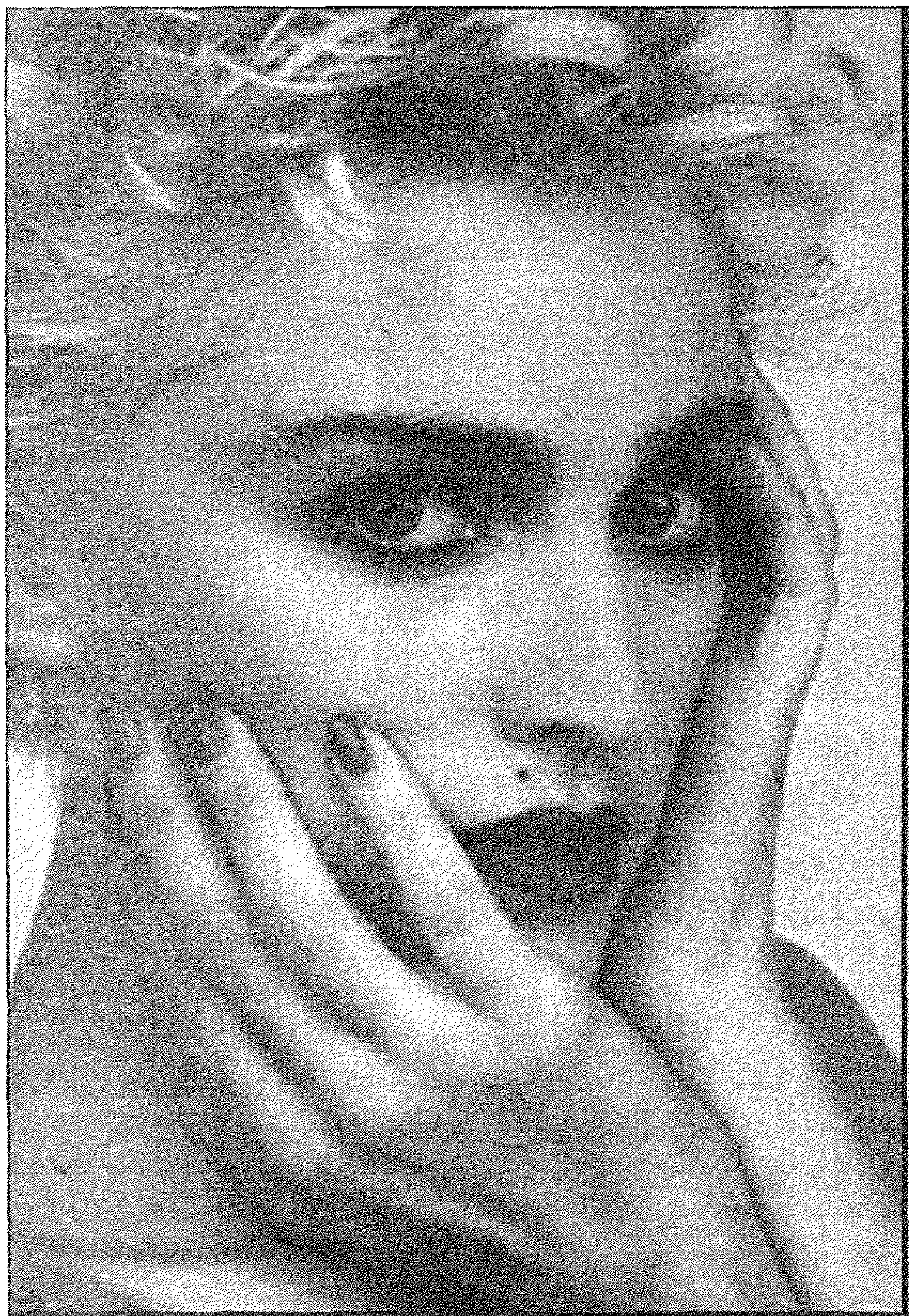
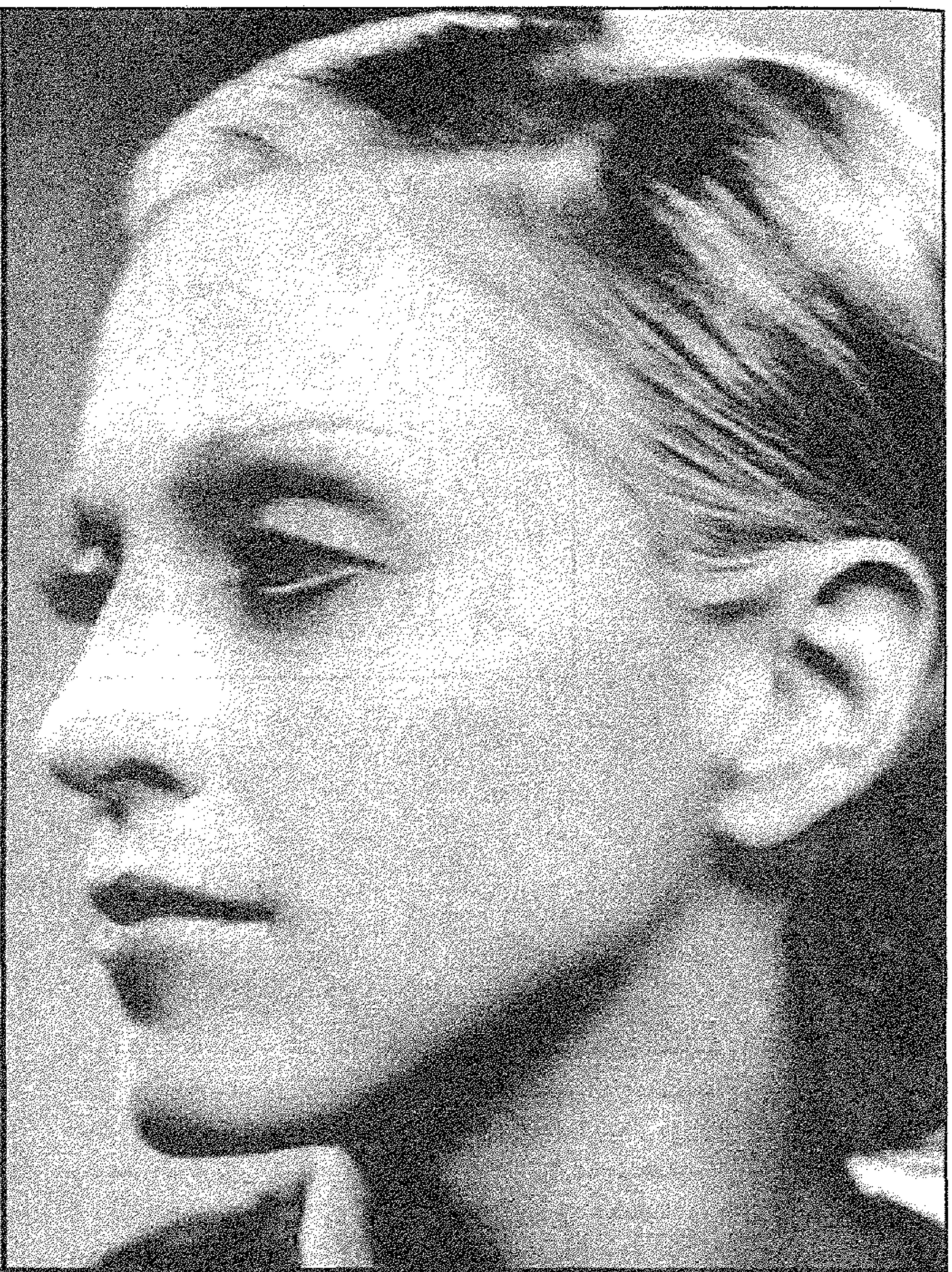
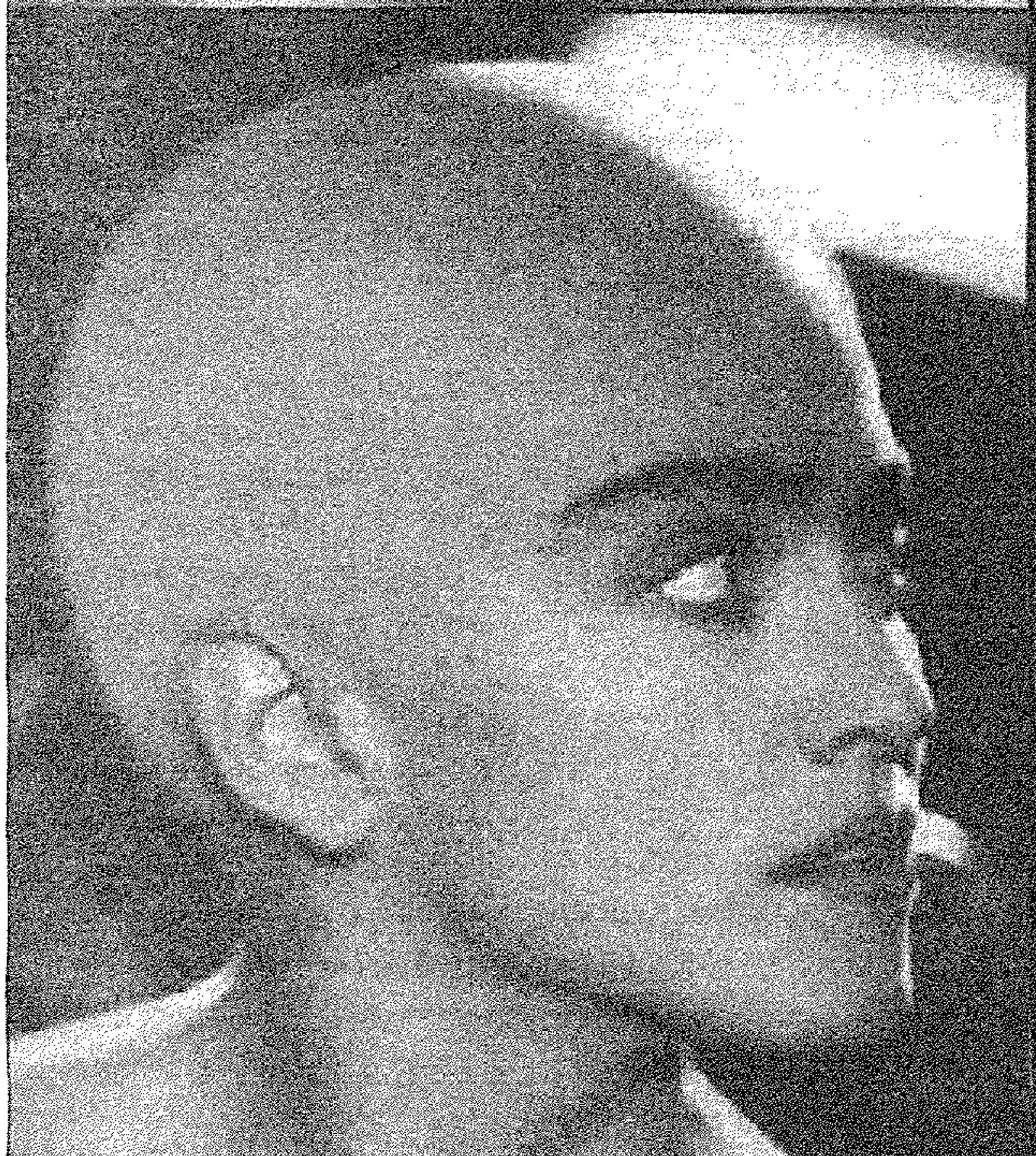
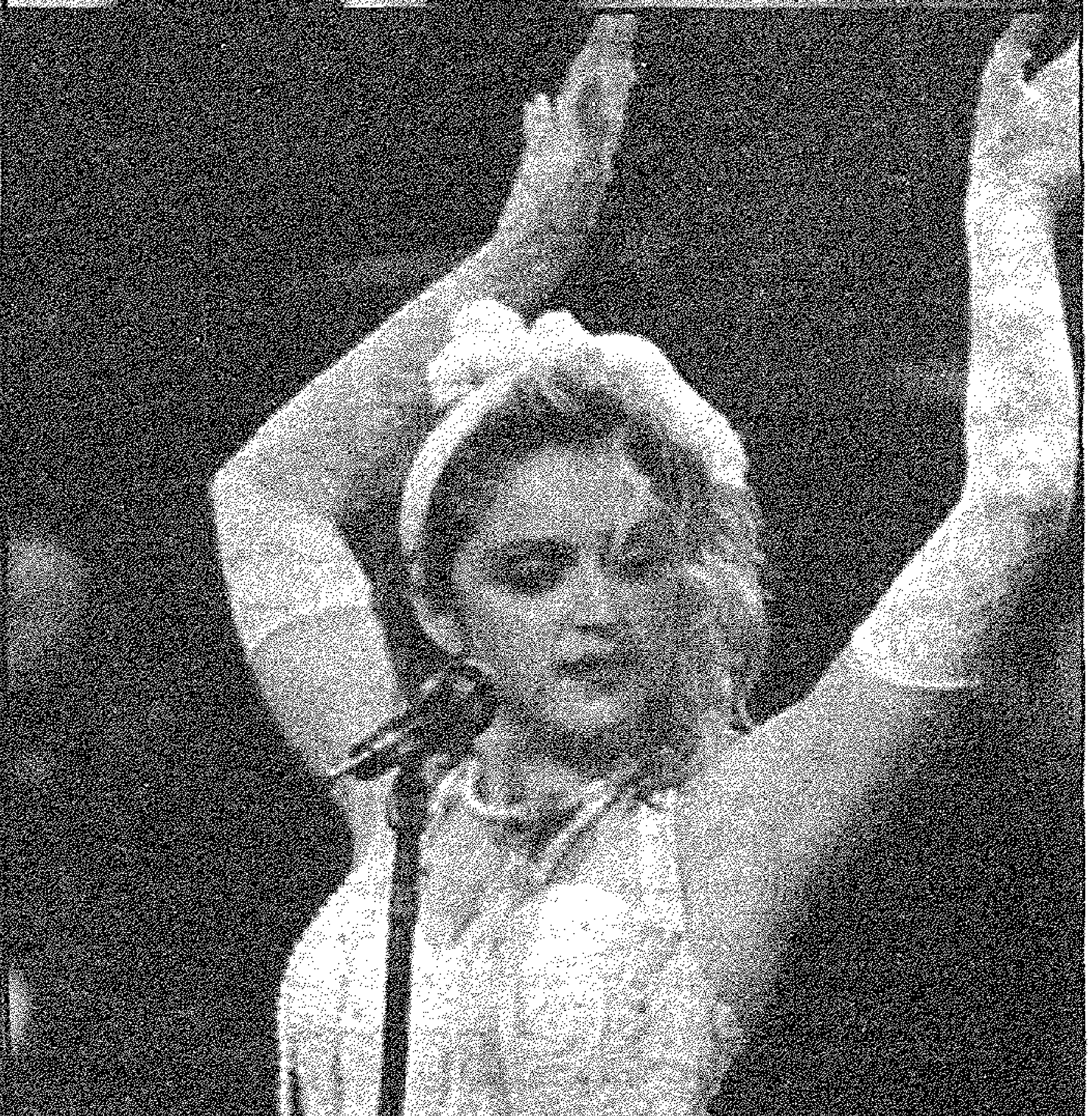
(تفاحات السيد بيبادى)

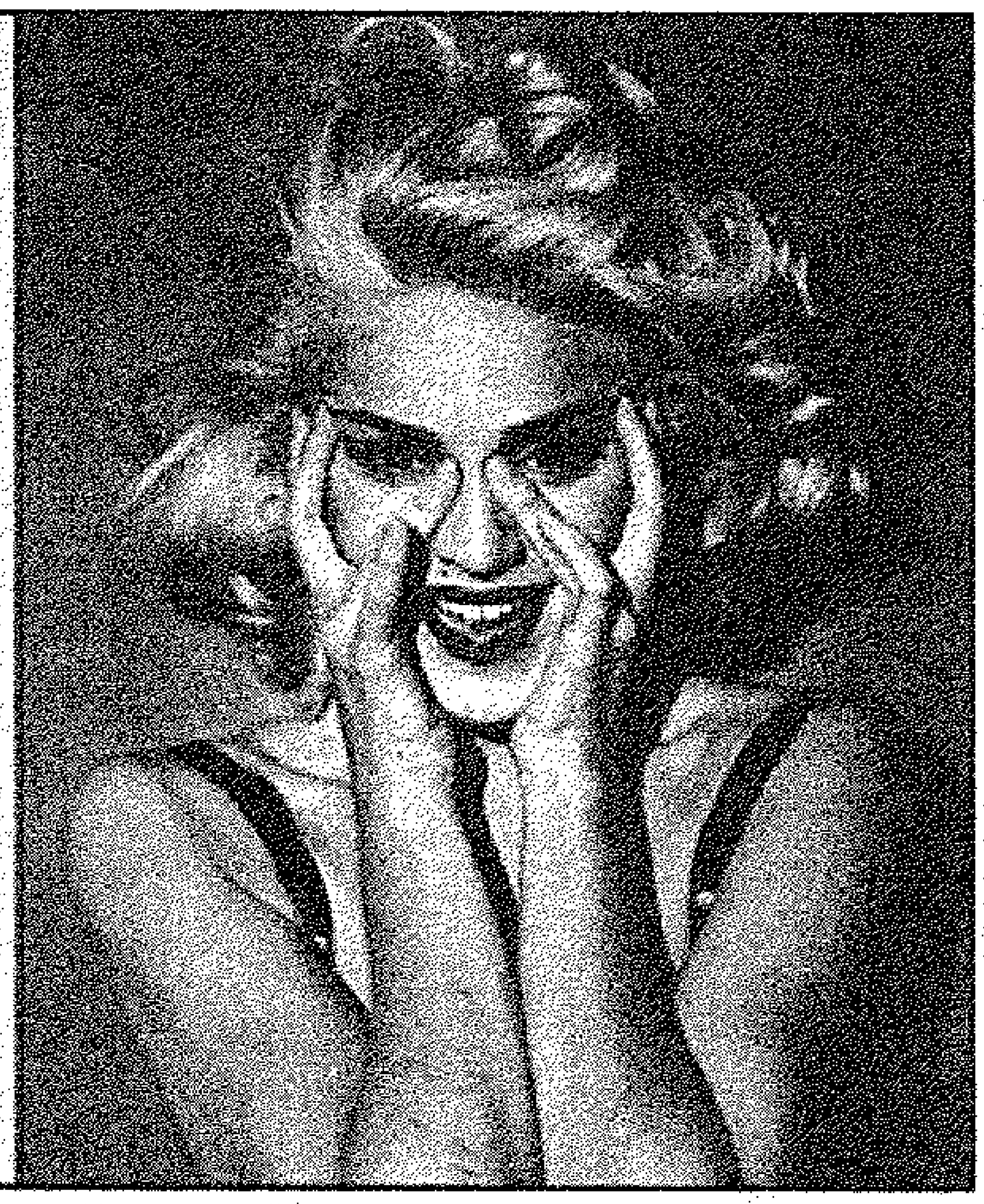
Madonna

Loren Long (رسوم)

Callawy Editions, 2003, 30 PP., $19.95

(للأطفال من سن ٩ . ١٢ سنة)




مادونا.. ورسم بورتريه لها بريشة رسام كتاب «الورود الإنجليزية»

مـــــادونـــــا

اليهودى. وفى هذا الإطار اكتشفت مادونا فى نفسها موهبة جديدة أو صورة إعلامية مختلفة هى صورة الأديبة كاتبة قصص الأطفال!

ووسط ضجة إعلامية كبيرة فى نهاية الصيف الماضى أعلنت مادونا أنها تعتزم إصدار سلسلة من خمسة كتب للأطفال. وقد صدر حتى الآن كتابان من تلك السلسلة، ظهر الأول فى سبتمبر الماضى بعنوان «الورود الإنجليزية» يروى قصة أربع فتيات إنجليزيات صغيرات يشعرن بالغيرة تجاه فتاة خامسة تدعى «بينا» بسبب جمالها وتفوقها، لهذا يتجاهلن «بينا» ويدبرن لها المكائد إلى أن يتكشف لهن واقعها البائس، فقد ماتت والدتها وتركتها ترعى شئون والدها والمنزل بمفردها. وهكذا يتعاطفن معها وتنضم «بينا» لصداقة الورود الإنجليزية.

قالت مادونا عن هذه القصة التى تدور حول الغيرة، إنها مستقاة من طفولتها الشخصية وطفولة ابنتها «لولا»، فعندما كانت طفلة كانت تشعر بالغيرة من زميلاتها اللاتى يتمتعن بالجمال أو الثراء أو حتى الأمهات (ماتت أم مادونا متأثرة بالسرطان وهى فى الخامسة) أما لولا ابنتها، فتعانى من غيرة زميلاتها لأنها ابنة نجمة مشهورة وبالتالى يعتقد الجميع أن لديها كل شىء وأنها لا تحتاج إلى اهتمامهم.

أما القصة الثانية، فصدرت بعد شهرين من ظهور «الورود الإنجليزية» بعنوان: «تفاحات السيد بيبادى». وقد استوحت مادونا هذه القصة من التراث الصوفى اليهودى القديم، حيث يعود أصلها إلى حكاية أوكرانية عمرها ثلاثمائة عام تنتسب إلى تعاليم «بعل شيم طوف» الذى أنشأ الطريقة الحاسيدية اليهودية الصوفية فى القرن الثامن عشر. وقد قامت مادونا برواية القصة وإعادة تقديمها فى قالب أمريكى حيث تدور حول مدرس ألعاب رياضية طيب القلب ومحبوب من أهالى المدينة الصغيرة، ولكن عندما يشاهده أحد الصبية يأخذ تفاحة من المتجر دون أن يدفع ثمنها، يعود وينشر إشاعة فى أرجاء المدينة بأن السيد بيبادى المحبوب سارق ولص. ثم، بعد أن يكتشف براءة المدرس، يأتى الصبى نادماً إلى مدرسه معتذراً عن سوء الفهم الذى تسبب فيه، فيطلب منه السيد بيبادى أن يشق وسادة من الريش ويبعثر محتوياتها فى الهواء ثم يلتقطها مرة أخرى. هنا يدرك الصبى والقارئ معه أنه من المستحيل إصلاح ما قد تتلفه إشاعة واحدة بعد انتشارها.

وسوف تظهر فى الخريف القادم القصة الثالثة لمادونا والتى اختارت لها عنوان «ياكوف الإسكافى واللصوص السبعة» مما يشير إلى استمرار سيطرة الوحى اليهودى على روح مادونا الأدبية. وقد اختلفت ردود أفعال المراقبين اليهود تجاه تبنى مادونا للرموز اليهودية. فقد ظهرت فى فيديو أغنية حديثة لها وقد زينت جسدها بحروف عبرية ورموز يهودية، مما أثار غضب بعض قادة الطوائف اليهودية الأرثوذكسية منددين باستخدام الدين فى تسويق صورة إعلامية جديدة لمادونا. ولكن فى الوقت نفسه وجد بعض اليهود الليبراليين أن هذه دعاية مجانية «للقبالاة» اليهودية التى لم يكن يعرفها الكثيرون. والآن ساهمت مادونا فى جعلها «موضة» جديدة رائجة بين الشباب.

إن هذه ليست المرة الأولى التى تثير فيها مادونا استياء مؤسسة دينية. فمنذ عشر سنوات قامت ضجة فى الكنيسة الكاثوليكية التى تنتمى إليها مادونا بعد أن ظهرت النجمة المتمردة فى فيديو أغنية Like A Prayer (مثل صلاة) فى بناء يشبه كنيسة كاثوليكية بداخله صلبان مشتعلة بالنار، وتتقدم مادونا فى مشية متبجحة مرتدية ملابس أكثر تبجحاً نحو المذبح ثم تلتفت إلى تمثال أسود «للسيد المسيح» محاولة إغواءه بالرقص أمامه، فيبدو وقد تحول من تمثال إلى إنسان حى. فى ذلك الوقت اتهمها أحد الأساقفة بأنها عدو المسيحية بل ادعى أنها المسيخ الدجَّال نفسه!

إن القصص التى تقدمها مادونا للأطفال، قد تحتوى على معان وقيم جميلة، كما أن رسومها بديعة. وقد وجدت نجاحاً كبيراً ورواجاً فى العالم كله، فترجمت إلى مجموعة كبيرة من اللغات. وصرح الناشر أنه ينوى إصدارها باللغة العربية أيضاً. ولكن بعض الآباء والأمهات ومعهم مجموعة من التربويين يداخلهم الشك فيما إذا كان من الممكن تقديم القصص للأطفال الصغار دون أن ترتبط فى أذهانهم بالصورة الإعلامية للمؤلفة ذائعة الصيت؟ فمادونا لم تكف عن تصرفاتها الشاذة التى تعشق بثها من وقت لآخر. وكان آخرها فى حفل توزيع جوائز غنائية أذيع على شاشات التليفزيون العالمية فى الصيف الماضى، حيث بهت المشاهدون عندما قامت مادونا بتقبيل المغنية بريتنى سبيرز بصورة غير لائقة. هكذا تبدل مادونا صورتها الإعلامية بسرعة مذهلة، حتى وإن تناقضت الصور مع بعضها. وسوف يستمر بعض الباحثين منشغلين بتحليل العلاقة بين صورة مادونا فى أغنياتها، وصورتها فى الإعلام، وهويتها الحقيقية. والأهم من هذا تأثير كل ذلك على جماهيرها من الشباب الذى يستهلك كل هذه الصور. فلا شك أن المنتجات الثقافية الإعلامية تساهم فى تشكيل قيم، ووعى، وإدراك الجمهور المتلقى لها دون أن يشعر.

لم يضايق دخول مادونا عالم أدب الطفل النقاد كثيراً ولم يشعر الكثيرون بالشفقة تجاه الأطفال. ولكن دخول مادونا عالم السياسة هو الذى أثار حنق النشطاء اليساريين المقاومين للعولمة إلى أقصى درجة. فقد فوجئ هؤلاء وقد طلعت عليهم مادونا بأغنية American Life (الحياة الأمريكية) وفى خلفيتها صورة المناضل الشهير «تشى جيفارا» بينما تشكو «الفتاة المادية» من الحياة المادية التى تعيشها داخل الحلم الأمريكى.

فيا له من تبجح أن تقوم إحدى رموز رأسمالية صناعة الترفيه بسرقة الشعارات اليسارية لتسويق وبيع صورة إعلامية جديدة! أما آخر ضحايا مادونا الذى يستحق الشفقة فعلاً فهو الجنرال ويزلى كلارك التى اعلنت مادونا تأييدها له فى حملته الانتخابية لرئاسة الولايات المتحدة. فقد اعتقد أن «صورته» الإعلامية سوف تتحسن عندما تزينها صورة النجمة الحسناء، ولكن يبدو أن الظاهرة المادونية أجهزت عليه فخرج من السباق ملوماً محسوراً.



نحو قانون لحماية الأخلاقيات البيولوجية

أحمد فتحي سرور

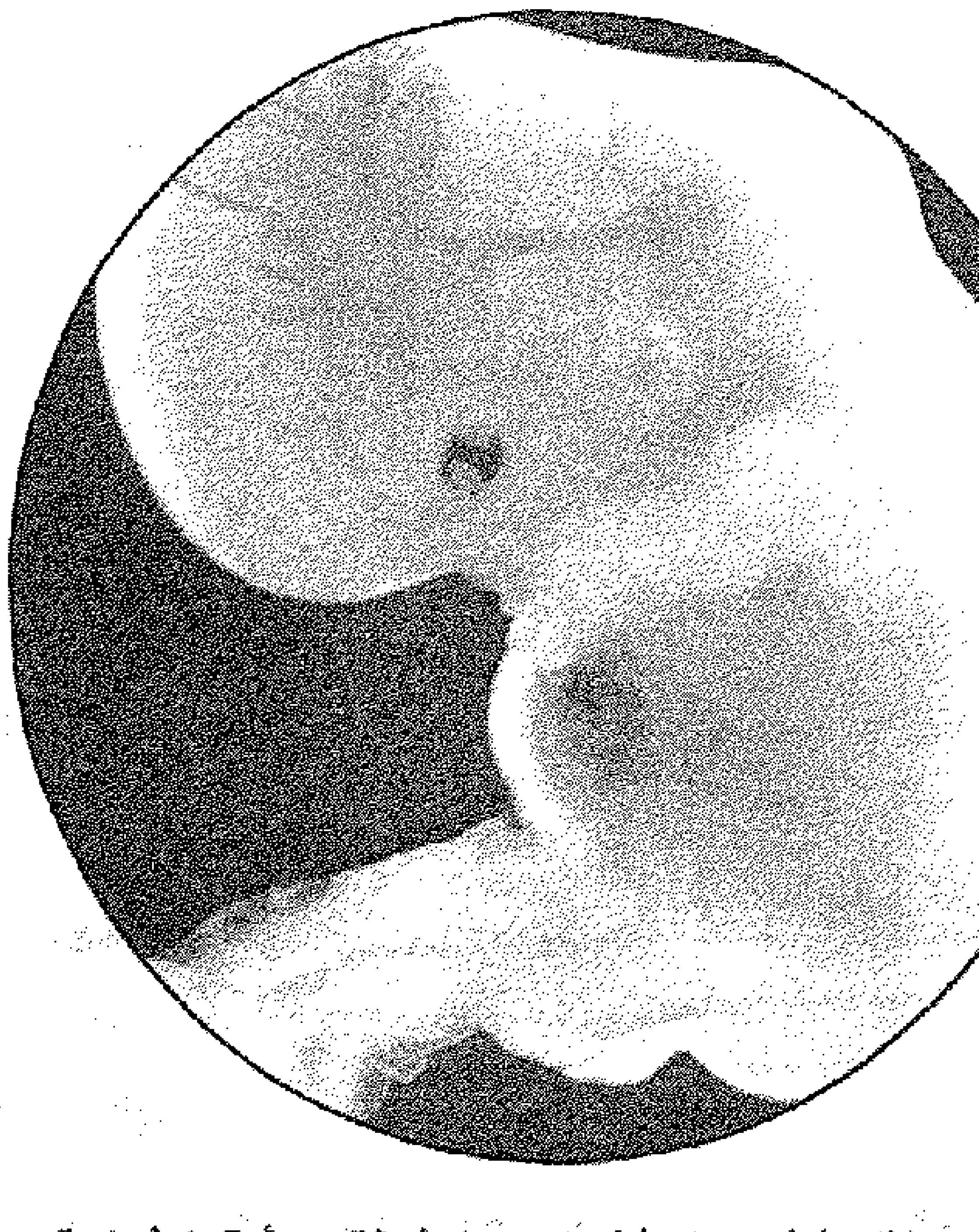
يحظى موضوع أخلاقيات العلوم البيولوجية باهتمام عالمي واسع فى ضوء الثورة العلمية الهائلة وتطبيقاتها التكنولوجية المختلفة التى أصبحت تهدد حقوق الإنسان، وعلى رأسها الحق فى الحياة والحق فى سلامة الجسم فضلا عن مساسها بالقيم الأخلاقية والدينية.

فالتقدم العلمى والتكنولوجى وخاصة فى العلوم البيولوجية جزء من تراث الإنسانية، ويجب أن يتم تحليله بصورة متعمقة وموضوعية فى ضوء التوازن بين مختلف القيم الإنسانية لصالح أجيال الحاضر والمستقبل من منظور أخلاقى وفقا لمعايير وضوابط قادرة على التوفيق بين حرية البحث العلمى والمحافظة على كرامة الإنسان. ويمكن لهذه المعايير والضوابط أن تكون فى مجموعها قانونا للأخلاقيات البيولوجية، لكى يحكم التطبيقات الطبية للعلوم البيولوجية.

ويجدر التنويه فى هذا الشأن بالتراث العلمى الذى خلفه المصرى القديم فى مجال العلوم البيولوجية والتى شملت وصفا دقيقا لأمراض العيون والجلد والأطراف والقلب والشرايين. ونشير إلى أن العديد من البرديات ونقوش المعابد والآثار قد أظهرت وصفا تفصيليا لعمليات جراحية بأدواتها الدقيقة وبالعقاقير الطبية المستخرجة من المواد المعدنية والنباتات والمركبات الحيوانية. وقد عبر عن هذا التراث العلمى ديودور الصقلى فى قوله «إن المصريين كانوا يعالجون الأمراض طبقا للقواعد المقررة التى وضعها كبار الأطباء ودونوها فى السفر المقدس وكان على الطبيب أن يسير بمقتضاها. وعند ذلك لا يتعرض للمساءلة حتى لو مات المريض. أما إذا خالفها فإنه يعاقب بالإعدام، لأن المشرع كان يرى مثالية فى العلاج الذى يضعه أساطين الطب فى تلك العصور».

ولم تقتصر ممارسات العلوم البيولوجية عند المصريين القدماء، بل كانت ممارسات الآشوريين والبابليين جديرة بالتسجيل وكانت النصوص الواردة فى شريعة حمورابى بالغة التشدد فى التعامل مع الأطباء، حتى أن هيرودوت كان قد ذكر أنه قد أصبح من النادر وجود أطباء فى بابل بعد ثمانية عشر قرنا من ذلك التاريخ.

وعلى نحو مماثل فقد تفاوتت أشكال ممارسات الطب وغيره من العلوم البيولوجية عند الإغريق والرومان والعرب وغيرهم، وأجمعت كلها على معاقبة الطبيب المخطئ وإلزامه بواجباته وتوقيع العقوبة عليه إذا ما ثبت خطؤه أو إهماله فى أداء واجبه.



ولعل قسم أبقراط هو أشهر قسم عرفه التاريخ، فهو القسم الذى يقسم به كل ممارسى الطب وأبرز ما جاء فيه الالتزام بالامتناع عن كل شىء ضار أو مؤذ لمرضاه وعدم إعطاء دواء لأى شخص إذا طلب منه ذلك، والالتزام فى ممارسة مهنته على الطهارة وعفة النفس، وتوخى منفعة المريض والامتناع عن أى فعل إرادى يستهدف الأذى أو الفساد. وقد قامت الجمعية الطبية العالمية فى جنيف والتى تأسست عام ١٩٤٧ بوضع قسم مرادف لقسم أبقراط، اعتمد فى إيطاليا عام ١٩٨٣، وأبرز ما جاء فيه:

«سأقوم بممارسة مهنتى بضمير وشرف وستكون صحة مرضاى أول اعتبار بالنسبة لى وسأحترم الأسرار التى أؤتمن عليها حتى بعد موت المريض وسأحافظ بكل الوسائل التى أملكها على شرف مهنة الطب وتقاليدها النبيلة».

ولقد شهد العالم منذ أكثر من عشرات السنين تقدما مذهلا فى مجال العلوم البيولوجية التى تتصل بصحة الإنسان وحياته. ورغم هذا التقدم، فقد زاد التخوف من آثاره السلبية على الإنسانية ومن عواقبه على الإنسان. لقد أسفر التقدم العلمى البيولوجى عن إمكان إعطاء الحياة كما هو الحال فى الإنجاب بغير طريق الوسائل الطبيعية، وإمكان إنقاذها من خلال نقل الأعضاء والأنسجة، بل وصل الأمر إلى إمكان تغيير التركيب الجينى بدعوى تنمية وتطوير قدرات الإنسان، وإمكان تغيير السلوك الإنسانى والشخصية الإنسانية، أو غير ذلك مما يتصل بصحة وسلامة الإنسان وتوازنه النفسى والبيولوجى.

تساؤلات مهمة:

ولا شك أن المهنة فى المجالات البيولوجية التى تضم الممارسين والباحثين العلميين لا يمكنها أن تعتمد بنفسها على قواعد السلوك المهنى أو قواعد الأخلاقيات المهنية، بل يجب مراعاة الآثار السلبية التى تهدد كرامة الإنسان من وراء التقدم العلمى البيولوجى. وفى هذا الشأن تثور مجموعة من التساؤلات:

* كيف يمكن حماية الجنين الذى تم إنجابه من خلال استخدام وسائل غير طبيعية للإنجاب مثل التلقيح الصناعى وإخصاب الأنابيب؟

* ألا يفتح تشخيص العيوب الخلقية -فى الأجنة قبل زرعها- الباب أمام تحسين الأجنة بطرق انتقائية وهو ما يجر إلى التحكم فى نوع الجنين وقد يصل الأمر إلى التخلص من كل الأجنة غير السليمة؟

* ما جدوى اختبارات الخصائص الوراثية، وخاصة أن الأمر ليس مقصورا على اختبارات التنبؤ التى يمكن أن تبين ما إذا كان الشخص يحمل جنينا يكشف اضطرابا فى الشخصية أو مرضا معينا، ولما تثيره هذه الاختبارات من مشكلات حول المحافظة على الأسرار؟ وربما تثير مشكلات سياسية حول الخصائص الوراثية لجنس معين وادعاءات حول تميزه عن الأجناس الأخرى؟!

* وما حجم النتائج السلبية المترتبة على استحداث كائن حى يتطابق وراثيا تمام المطابقة مع الكائن الأصلى وهو ما يعرف بالاستنساخ. ألا يمكن أن يؤدى ذلك الاستنساخ إلى فتح الأبواب أمام عيوب اجتماعية مدمرة تخل بالتوازن الكونى بين الرجل والمرأة، وسمة التنوع الذى قامت عليه البشرية، وإفساد العلاقات الاجتماعية، وإمكان استخدامه فى تحقيق أغراض شريرة منها تشجيع الاتجار فى القطع البشرية فضلا عن كثير من الأضرار الصحية الأخرى.

* ويثور التساؤل من الناحية الاجتماعية حول التمييز بين الإنسان على أساس المعايير الاقتصادية التى تدور

لا يجوز أن تختفى عيون الباحث وراء ضوابط القواعد العلمية والتكنولوجية، بل يجب أن يضع فى اعتباره احترام حقوق الإنسان وعدم تعريضها للخطر

حول القدرة على تحمل نفقات العلاج والحاجة إلى حماية المجموعات المصابة وبخاصة فى الدول النامية وغيرهم من الأشخاص المصابين وبخاصة الأطفال العاجزين، وكذلك أولئك المحرومين من حريتهم والمرضى فى حالات الطوارئ؟

❖ ما هى احتمالات التأثير فى الطابع الوراثى مما ينعكس على الفروع عند علاج الأمراض الوراثية فى ضوء اختبارات الخصائص الوراثية؟

❖ وبالإضافة إلى ذلك يثور القلق حول احتمال التجارة فى الأعضاء فى مجال نقل الأعضاء.

❖ حول مشكلات الاتجار فى ملكية المعلومات المتعلقة بالجينات البشرية، وما يرتبط بها من مشكلات حول حقوق الملكية الأدبية على الأدوية، واحتمالات تعريضها الحياة الخاصة وأسرارها للخطر، ومدى إمكان استخدامها عند الالتحاق بالعمل.

❖ كما تثور المشكلة حول الرضاء فى حالة نقل الأعضاء سواء من المنقول منه أو المنقول إليه، أو فى إجراء التجارب الطبية والشروط الواجب توافرها لصحة هذا الرضاء، وكذلك الشأن فيما يتعلق بالرضاء للخضوع لاختبارات الخصائص الوراثية.

مفتاح الإجابة على التساؤلات:

يثير تقدم العلوم البيولوجية أسئلة محيرة حول موقف الإنسان فى مواجهة طاقة العلم البيولوجى وقوته بل سيطرته.

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على التوازن بين قيمتين أساسيتين :

الأولى هى : قيمة العلم وترتبط كل الارتباط بحرية البحث العلمى.

والثانية هى : قيمة الكرامة الإنسانية وتنبع عنها حقوق الإنسان. وبهذا التوازن بين القيمتين ينبغى أن تكون حرية البحث العلمى حرية مسئولة عن احترام حقوق الإنسان، وأهمها الحق فى الحياة والحق فى حرمة جسم الإنسان وارتباط هذين الحقين بكرامة الإنسان يتطلب التزام الجميع باحترام حقه فى الحياة وفى سلامة الجسم، وعدم جواز التصرف فى هذين الحقين، وعدم جواز إفشاء الأسرار الخاصة بجسم الإنسان. لقد خضعت قضية التوازن بين هاتين القيمتين لكثير من الجدل الذى انشغل به الفلاسفة ورجال القانون ورجال الدين بل والمجتمع بأسره، وأصبح كل هؤلاء شركاء فى هذه القضية ولم يعد الطبيب أو الباحث العلمى صاحب الرأى الأوحد تحت ستار حرية البحث العلمى، ولقد بدا الفراغ الأخلاقى واضحا فى هذه القضية متمثلا فى محاولة تغليب قيمة العلم وحرية البحث العلمى على قيمة الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان.

وقد تعددت المدارس الفكرية فى هذا الشأن بغية عدم تغليب الضمير الأخلاقى للممارس والباحث لكى يكون هو العنصر الحاكم فى الممارسة أو البحث العلمى، والنظر إلى الرؤية العامة والممارسات الأخلاقية المتعارف عليها بدلا من انفراد الممارس أو الباحث بالقرار بنفسه.

وقد ظهر تفاوت فى الرأى بين العديد من الممارسين وبين رجال الدين مما جعل الخلاف فى الرؤى قضية ينشغل بها الرأى العام والمجتمع الدولى والمجتمع الوطنى معا، الأمر الذى زاد من صعوبة توحيد القرار والتوفيق بين مختلف وجهات النظر. وفى نطاق العديد من النظريات التى بزغت فى ظل الحوارات والمجالات حول المعايير الأخلاقية فى العلوم البيولوجية ظهرت أنواع من النظريات هى نظريات النتائج ونظريات الصواب والخطأ. فإذا ما نظرنا إلى النوع الأول من النظريات نجد أنه يقوم على تقييم الممارسات من وجهة نظر نفعها وعائدها. وبديهى أن ينشأ الحوار والجدل حول من هم أصحاب النفع من ناحية والطريقة التى يتحقق بها هذا النفع. ويحاول كل من يتبنى نظريات من هذا النوع أن يصل إلى أرضية مشتركة «comman plat form» وتوحيد المعايير لتسهيل تقارب وجهات النظر والاتفاق عليها.

أما أصحاب نظريات الصواب والخطأ، فإنهم يعتقدون أن النتائج فى حد ذاتها لا تكفى للحكم على الممارسات لأن بعضها قد تشمل عنصرا غير أخلاقى حتى وان كانت نتائجها جيدة. ولعل أبسط مثال على ذلك، هو إخفاء جزء من الحقيقة أو الحقيقة كاملة عن المريض أو ذويه ولو بشكل مرحلى أثناء العلاج. ويرى أصحاب هذا النوع من النظريات عدم إجازة هذا السلوك ولو كان فى صالح المريض أو متلقى الخدمة الصحية بعكس ما تراه نظريات النتائج.

وواقع الأمر، إن التنمية على اختلاف مجالاتها لابد أن تستهدف أولا وأخيرا خدمة الإنسان وحماية حقوقه وضمان أمنه. وتستمد شرعية الحرية التى يتمتع بها الباحث العلمى من الهدف الإنسانى لهذا البحث. ومن هنا فلا يمكن حل قضية الأخلاق البيولوجية عن طريق القواعد المهنية الفنية وحدها بل يجب أن تستند إلى محاور التناسب بين حرية البحث العلمى وحقوق الإنسان. فلم يعد مقبولا لأى عالم مهما كان قدره أن يطور علمه بما يؤدى إلى إلحاق الضرر بالإنسان أو بالمجتمع. وكما قال البعض يجب على كل عالم أن يضع فى اعتباره عما إذا كانت القواعد العلمية أو التكنولوجية التى يطبقها سوف تستخدم لبناء المستشفى أم لبناء حجرة لتعذيب الإنسان. ولا يمكن للعالم أن يغلق عينيه عن الهدف الذى سوف تحققه التجربة العلمية التى يقوم بها.

والواقع من الأمر، فإنه إذا كان المبدأ الرئيسى الذى يحكم الأخلاقيات العلمية هو مبدأ الالتزام بالصدق، فإنه لا يصلح وحده فى البحوث الطبية. ففى هذا النوع من البحوث ومنه قسم أبقراط أصبح البحث العلمى فى العلوم البيولوجية خاضعا لمعايير أخلاقية أخرى تضاف إلى معيار الأمانة والالتزام بالصدق. ومع ذلك، فإن هذا القسم لا يعتبر الآن كافيا ولا صالحا لمواجهة المشكلات الجديدة التى تخلق موضوعات ذات طبيعة أخلاقية. ولا يقتصر الأمر على ذلك، فقد لوحظ أن معظم الهيئات العلمية لا تلتزم بأى صيغة أخلاقية تحكم سلوك العلماء. فعالم الكمبيوتر، والمهندس، وعالم الطبيعة، والكيميائى، كل هؤلاء رغم الأثر الاجتماعى لأبحاثهم، فإنهم يفتقرون إلى مدونة سلوكية تلزمهم بمراعاة قيم أخلاقية معينة. نعم، لقد زاد الإحساس بالحاجة إلى المدونات السلوكية، التى شغلت جمعيات العلماء والمتخصصين فى مختلف المجالات لإعداد المدونات الأخلاقية التى تحكم سلوكهم. إلا أن هذه المدونات مازالت إلى حد كبير ليست لها طبيعة إلزامية. وقد ترتب على تخلف الطابع الإلزامى لهذه المدونات، أن الباحثين فى مجالات تخصصهم تمادوا فى أبحاث تعرض حياة الإنسان وصحته للخطر. ومن قبيل ذلك البحث العلمى لإنتاج أسلحة الدمار الشامل على مختلف أنواعها، والبحث العلمى فى مجال علوم السموم وما قد يؤدى إليه عند إنتاج بعض المبيدات تعرض العامل الزراعى والنظام البيئى الزراعى للسموم. كما أن البحث العلمى فى مجال العلوم البيولوجية الزراعية قد يؤدى رغم فائدته فى تحسين الإنتاج وجودته إلى مخاوف الإضرار بالإنسان والبيئة.

وقد أدت النتائج السلبية التى تمس حقوق الإنسان بسبب تطور العلم والتكنولوجيا، أن تجعل أمر تقيد العلماء فى جميع فروع العلم بمدونة للسلوك تلزم باحترام حقوق الإنسان. ولهذا تم التأكيد على أن الهدف من تطبيق العلم يخرج عن حدود العلم ذلك، فمهما كان البحث العلمى صادقا أمينا، فلا يجوز أن تختفى عيون الباحث وراء ضوابط القواعد العلمية والتكنولوجية، بل يجب أن يضع فى اعتباره احترام حقوق الإنسان وعدم تعريضها للخطر.

حرية البحث العلمى واحترام حقوق الإنسان:

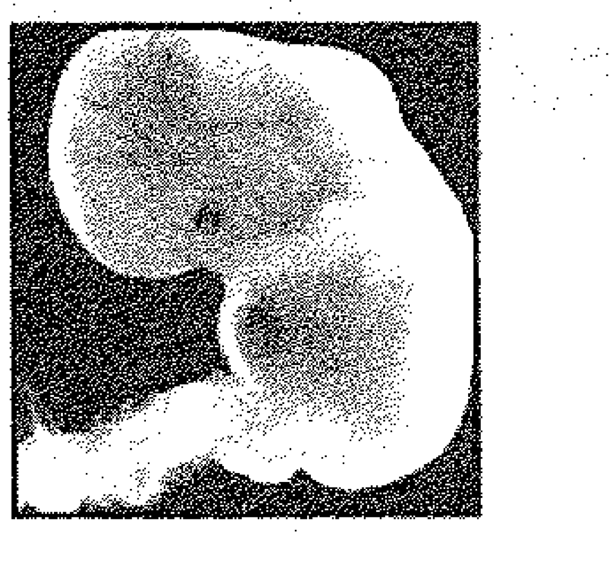
نعود إلى السؤال الذى طرحناه فى مستهل محاضرتنا حول الحاجة إلى التوازن بين قيمتين أساسيتين هما : قيمة العلم التى تتبنى على حرية البحث العلمى وقيمة الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان النابعة عنها.

وتبدو دقة هذا التساؤل فى ضوء تطور تطبيقات التقدم العلمى والتكنولوجى على الإنسان وخاصة فى البيولوجيا والطب، منذ منتصف القرن العشرين.

إن هناك ارتباطا وثيقا بين الإنسان وكرامته، فحقوق الإنسان تستمد أبعادها من ارتكازها على كرامة الإنسان. فهذه الكرامة هى الركيزة التى تقوم عليها فلسفة حقوق الإنسان، حتى أطلق عليها البعض بأنها الحق فى حقوق الإنسان، وأنها هى السبب فى وجود حقوق الإنسان. وعلى هذا الأساس فإن كرامة الإنسان تتخذ مكانتها فى وضع أكثر عمقا فى جوهر الإنسان. وبناء على ذلك فإن الكرامة تعنى إنسانية الإنسان.

ويعتبر جسم الإنسان هو العلامة المميزة لإنسانيته وليس مجرد عقله أو إدراكه أو قدرته على حرية الاختيار، فإن الاقتصار على الجانب العقلى والإرادى فى الإنسان ينكر الطبيعة الإنسانية على من يفقد شعوره أو إدراكه أو عقله لفترة طالت أو قصرت. ومن هنا يجب التأكيد على أن جسم الإنسان جزء لا يتجزأ منه، ويتمتع صاحبه بكافة حقوق الإنسان.

ومن الناحية الفلسفية، فإن كرامة الإنسان ليست شيئا آخر يختلف عن قيمة الانتماء الإنسانى. وإذا كان كل أفراد البشر يكونون



الإنسانية، فذلك لأنهم جميعا يملكون هذه القيمة وهى الكرامة. وإذا كانت الحرية فى عالم القانون هى جوهر حقوق الإنسان، فإن الكرامة هى جوهر الإنسانية ولهذا قضت محكمة النقض الفرنسية بأن الحق فى التقادم الذى يحول دون المحاكمة الجنائية عما يرتكب من جرائم لا يعتبر من حقوق الإنسان فى الجرائم التى تقع ضد الإنسانية.

إذا كان كل أفراد البشر يكونون الإنسانية، فذلك لأنهم جميعا يملكون هذه القيمة وهى الكرامة. وإذا كانت الحرية فى عالم القانون هى جوهر حقوق الإنسان، فإن الكرامة هى جوهر الإنسانية

القانون

وقد نالت قضية الأخلاق فى العلوم البيولوجية اهتمام المجتمع الدولى. فمن الناحية التاريخية، أثيرت المبادئ الحاكمة لهذه الأخلاقيات لأول مرة، ليس على المستوى الوطنى، وإنما على المستوى الدولى. نبعت من الحكم الذى أصدرته المحكمة العسكرية فى ١٩ و ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٤٧ فى نورمبرج، والذى قضى بإدانة ستين طبيباً وباحثا علمياً قضى على سبعة منهم بالإعدام. وقد أعلنت بعد ذلك محكمة نورمبرج المبادئ التى تسرى على التجريب الطبى على الإنسان وقد تضمنت هذه المبادئ الشروط الواجب توافرها فى هذه التجارب حتى تتفق مع احترام الحقوق الأساسية للفرد، والشروط التى تضمن الموافقة المسبقة لمن يكون محلاً للبحث العلمى، وضرورة التناسب بين الأخطار المتوقعة، وعدم إجراء تجارب تنطوى على خطر الموت أو الإعاقة، وحق الشخص الذى سبق له الموافقة أن يسحب موافقته فى أية لحظة خلال البحث.

ومن مجموع هذه المبادئ صيغ ما يسمى بتقنين نورمبرج (Code de Nuremberg) والذى تضمنه إعلان هيلسنكى سنة ١٩٦٤ بواسطة الجمعية الطبية العالمية (M.M.A) وقد أصبح هذا التقنين فيما بعد نواة لنشأة قانون دولى للأخلاقيات البيولوجية، وأعيد النظر فيه بمقتضى إعلان طوكيو سنة ١٩٧٥ وقد تأكدت الخطوط العامة لإعلان هيلسنكى فى العديد من الإعلانات الدولية فيما بعد، مثل إعلان مانيلا الذى أقره مجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية (IOMS) سنة ١٩٨١. كما أشارت إلى الأخلاقيات البيولوجية بعض الوثائق الدولية المهمة المتعلقة بحقوق الإنسان، منها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨ (المادة الخامسة)، والاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان (المادة ٣) والتى بتحريمها الالتجاء إلى التعذيب أو المعاملة القاسية أو غير الإنسانية أو المهينة قابلة للتطبيق فى مجال الممارسة الطبية.

وفى مارس سنة ١٩٩٣ أقرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة قرارا نصت فيه على الحاجة إلى تعاون دولى من أجل ضمان أن البشرية بأسرها تستفيد من علوم الحياة والحيلولة دون استخدامها لأى هدف آخر سوى خير البشرية. وفى أكتوبر سنة ١٩٩٣ أنشأ المؤتمر العام لليونسكو لجنة دولية للأخلاقيات البيولوجية للتجاوب مع أهم الاهتمامات الأخلاقية التى تثيرها علوم الحياة. وأصبحت هذه اللجنة مسئولة عن تحديد القيم المشتركة للإنسانية التى تحقق التوازن بين التقدم العلمى والتكنولوجى مع حقوق وحريات الإنسان. وفى عام ١٩٩٧ شكلت على المستوى الدولى اللجنة الدولية لأخلاقيات المعارف العلمية والتكنولوجية.

وقد أشارت ديباجة ميثاق الأمم المتحدة إلى الحقوق الأساسية للإنسان فى كرامته، كما اتخذ كل من العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية، والعهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (١٩٦٦) الكرامة الإنسانية أساسا لحقوق الإنسانية من خلال الإشارة إلى أن هذه الحقوق تنبع من الكرامة المتأصلة فى الشخص الإنسانى وقد أكدت عدة وثائق دولية ارتكاز حقوق الإنسان على الكرامة الإنسانية منها الاتفاقية الدولية لإلغاء جميع أشكال التمييز العنصرى (سنة ١٩٦٥)، واتفاقية مناهضة التعذيب والعقوبات والمعاملة القاسية وغير الإنسانية والمهينة (١٩٨٤) وجاء إعلان فيينا وبرنامج العمل الذى أقره المؤتمر العالمى لحقوق الإنسان سنة ١٩٩٣ فنص على تمتع كل شخص بالحق فى التمتع بفوائد التقدم العلمى وتطبيقاته وتقدمه وخاصة فى الطب البيولوجى وعلوم الإنسان وتكنولوجيا المعلومات، ثم أشار إلى النتائج السلبية التى قد تتعرض لها من جراء ذلك الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان. ودعا إعلان فيينا المذكور وبرنامج العمل الخاص به إلى التعاون الدولى لضمان الاحترام الكامل لكرامة الإنسان وحقوقه.

وقد أكدت مجموعة من الإعلانات التى تحتوى على مبادئ أساسية تحكم البحوث العلمية فى المجال الطبى، ومن أهمها إعلان هيلسنكى الذى أقرته الجمعية الطبية العالمية سنة ١٩٦٤ والذى أعاد النظر فيه، إعلان طوكيو سنة ١٩٧٥، وإعلان فيينا سنة ١٩٨٣، وإعلان هونج كونج سنة ١٩٨٩. وبالإضافة إلى هذه الإعلانات يقف بجانبها إعلان جنيف الصادر من الجمعية الطبية العالمية سنة ١٩٤٨ والذى أعيد النظر فيه سنة ١٩٦٨ ثم فى سنة ١٩٨٣، والإعلان الصادر من هذه الجمعية فى رانشو ميراج بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٩٠ ثم إعلان هامبورج من ذات الجمعية سنة ١٩٩٧، وتكون هذه المبادئ الأسس الواسعة للإرشادات الأخلاقية الدولية للبحوث الطبية الحيوية التى تتعلق بالإنسان والتى أقرها فيما بعد مجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية سنة ١٩٩٣ بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية. وكلها تؤكد ضرورة احترام كيان وذاتية الإنسان.

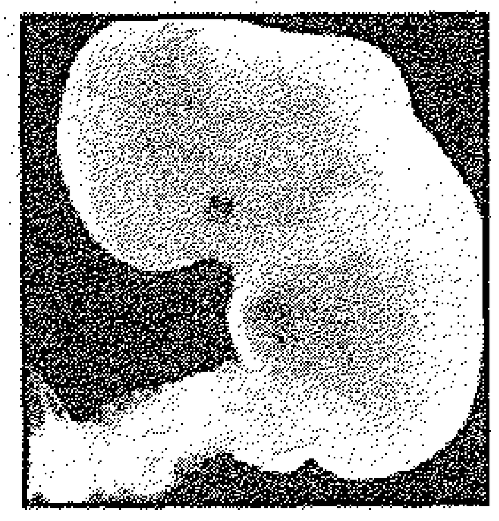
ومن أبرز الإعلانات التى صدرت فى هذا الشأن الإعلان العالمى للجينوم الإنسانى وحقوق الإنسان، والذى أقره المؤتمر العام لليونسكو فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩٩٧ ثم أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٩ من ديسمبر سنة ١٩٩٨ بمناسبة الذكرى الخمسين للإعلان العالمى لحقوق الإنسان. وبمقتضى هذا الإعلان اعتبر مخالفا للكرامة أى عمل يهدف إلى استنساخ الإنسان (المادة ١١). وفى الدورة الخامسة والخمسين للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة فى جنيف أصدرت فى ٢٨ من أبريل سنة ١٩٩٩ بناءً على اقتراح فرنسا، قراراً تحت عنوان (حقوق الإنسان والأخلاقيات البيولوجية) أشار صراحة إلى إعلان اليونسكو. ومن ناحية أخرى أصدرت منظمة الصحة العالمية إعلاناً يتفق مع المبادئ التى وردت فى إعلان اليونسكو وأقرت الجمعية العمومية لهذه المنظمة سنة ٢٠٠٠.

وجاءت الاتفاقية الخاصة بحقوق الإنسان والطب الحيوى التى أقرها مجلس أوروبا فى أوفيدو (إسبانيا) فى ٤ من أبريل سنة ١٩٩٧ فنصت فى مادتها الأولى على حماية الإنسان من كرامته وفى هويته واحترام حقوقه وحرياته الأساسية فى مواجهة تطبيقات البيولوجيا والطب. وقد دخلت هذه الاتفاقية حيز التنفيذ فى أول ديسمبر سنة ١٩٩٩.

وعلى المستوى البرلمانى:

عنى المؤتمر البرلمانى الدولى الثالث والتسعون المنعقد فى مدريد (أسبانيا) فى الفترة من ٢٧ مارس إلى أول أبريل سنة ١٩٩٥ بالتأكيد على احترام مجموعة من القيم الثقافية والاجتماعية والدينية التى يقتضيها احترام الكرامة الإنسانية، وتتمثل فيما يلى :

- عدم انتهاك الجسم البشرى وعدم المساس بميراث الجينات الخاصة بالأجناس البشرية.
- حظر أن يكون جسم الإنسان وأى أجزاء منه بما فيها الجينات البشرية وترتيبها محلا للتجارة أو خاضعا لادعاء حق الملكية، وتحريم الحصول على أى مكسب مادى يكون مصدره الجسم البشرى أو أى من أجزائه مع مراعاة الاستثناءات المنصوص عليها فى القانون.
- عدم الكشف عن هوية المانح أو المستفيد فى حالات التبرع بالأعضاء أو نواتج الجسم البشرى مع مراعاة بعض الاستثناءات التى قد تنص عليها القوانين الوطنية.
- الالتزام بالحصول على موافقة حرة وواضحة ممن تجرى عليهم تجارب طبية بيولوجية وتحديد القواعد التى تكفل حماية المجموعات المصابة وبخاصة فى الدول النامية وغيرهم من الأشخاص المصابين وبخاصة الأطفال العاجزين وكذلك أولئك المحرومين من حريتهم والمرضى فى حالات الطوارئ.
- الحيلولة دون تحسين الأجنة الانتقائى بما فيها التحكم فى نوع الجنين.
- حظر تسجيل الاختراعات بشأن الجينات البشرية.



حق الجميع في المشاركة في فوائد التقدم العلمي وتطبيقاته دون تمييز.

وقد نبه هذا المؤتمر البرلماني إلى أمرين مهمين:

(الأول): التوصية بتدريس علم الأخلاقيات الطبية في جميع مراحل التعليم.

(الثاني): مطالبة البرلمانات الوطنية بتحديد إطار قانوني ينظم من منظور أخلاقي البحوث الطبية البيولوجية والبحوث البيولوجية وآثارها بالنسبة إلى الأفراد.

وقد عنى البرلمان الأوروبي بأن يصدر في ٦ من يولية سنة ١٩٩٨ توجيهات بشأن الحماية القانونية للاختراعات البيوتكنولوجية، تضمنت الشروط الواجب توافرها في الاختراعات التي ترد على الإنسان الحي. كما أصدر البرلمان الأوروبي قرار في سنة ١٩٩٩ حول البرنامج الخمسي للمجتمعات الأوروبية يستبعد فيه كل تمويل مجتمعي لصالح الأبحاث التي تهدف إلى استنساخ الإنسان أو تعديل التراث الجيني للإنسان من خلال تغيير الخلايا الجينية.

الجهود الوطنية:

وعلى المستوى الوطني شكلت العديد من اللجان الوطنية للأخلاقيات البيولوجية من أمثلة ذلك مركز الأخلاقيات البيولوجية الذي أنشأته كندا سنة ١٩٧٦ في معهد البحوث الإكلينيكية في مونتريال. كما أنشئت في عام ١٩٨٨ الجمعية الكندية للأخلاقيات البيولوجية. وفي فرنسا أنشئت في سنة ١٩٨٣ اللجنة الاستشارية الوطنية للأخلاقيات، كجهاز يضم الفلاسفة والعلماء ورجال القانون لتقديم مقترحاتها في المسائل القانونية والأخلاقية التي تنبعث من التطور في مجال الطب والبيولوجيا. وفي مصر أنشئت سنة ١٩٩٦ اللجنة الوطنية للأخلاقيات والبحوث الحيوية واشتمل تكوينها على تخصصات متنوعة في الزراعة والطب وعلوم الوراثة والشريعة والقانون والاجتماع والإعلام. وجاء المؤتمر البرلماني الدولي الثالث والتسعون المنعقد في مدريد (أسبانيا) في الفترة من ٢٧ مارس إلى الأول من أبريل سنة ١٩٩٥ فأصدر قرارا يحث الدول على إقامة لجان قيم وطنية لمراقبة حماية واحترام كرامة الفرد وحريته وهويته ونزاهته في البحوث الطبية والبيولوجية بالتعاون مع اللجنة الدولية للأخلاقيات البيولوجية التابعة لليونسكو.

في مصر أنشئت سنة ١٩٩٦ اللجنة الوطنية للأخلاقيات والبحوث الحيوية واشتمل تكوينها على تخصصات متنوعة في الزراعة والطب وعلوم الوراثة والشريعة والقانون والاجتماع والإعلام

التنوع الثقافي ومفهوم حقوق الإنسان:

وفي صدد تحديد الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان النابعة عنها والتي يجب وضعها كقيد على ممارسة البحث العلمي تسهم العقيدة الدينية بدور هام في ضبط القيم التي تحدد المفهوم الديني للكرامة الإنسانية، وقد حددت الشريعة الإسلامية موقفها في هذا الشأن، فقد كرم الإسلام الإنسان روحا وجسدا، فقال الله تعالى في سورة الإسراء (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)، وقال تعالى في سورة النساء (ولا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً. وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)، وقال تعالى في سورة المؤمنون (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).

وواقع الأمر، فإن التنوع الثقافي يلعب دورا في تحديد حقوق الإنسان التي يجب مراعاتها في مواجهة حرية البحث العلمي. ويتأثر هذا التنوع بالعقيدة الدينية. ولا تناقض بين تأثير التنوع الثقافي على مفهوم حقوق الإنسان وبين عالمية هذه الحقوق، لأن هذه العالمية تتطلب تمتع الجميع بها دون تمييز. ولا تتأتى المساواة بهذا التمتع إلا مع مراعاة الخصوصيات الثقافية لكل شعب والتي تتأثر بتعاليم العقيدة الدينية وأحكامها الشرعية.

ومن هنا، فإن المعايير الدولية للأخلاق البيولوجية يجب مراعاتها في التشريعات الوطنية في ضوء التنوع الثقافي للشعوب والتي تتأثر بالعقيدة الدينية والتقاليد والقيم الأخلاقية للمجتمع. وهو ما يوجب الحذر عند النقل من التشريعات الوطنية التي تصدر وفقا لبيئتها الثقافية. وهو ما يجب مراعاته في مصر بوجه خاص لأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع وفقا للمادة الثانية من الدستور.

وإذا كنا قد عرضنا فيما تقدم لقضية التوازن بين حرية البحث العلمي واحترام الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان وما يتفرع عنها من مبادئ عامة تحكم الأخلاقيات في العلوم البيولوجية، فيهمنا أن نعرض الآن لبعض القضايا التي أثارت الاهتمام وخاصة في مجال القانون.

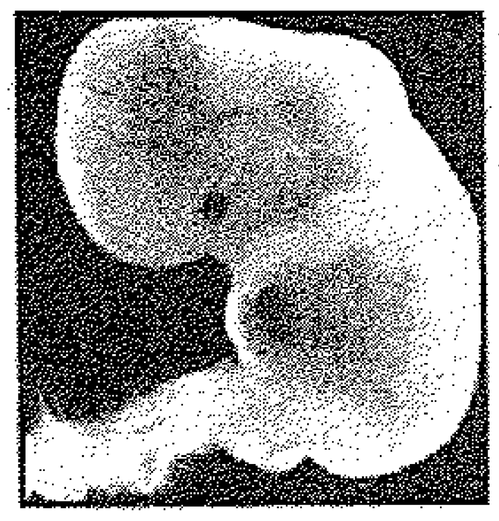
(١) قضية الإجهاض:

وتثير هذه القضية مشكلة التوازن بين حماية حقوق المرأة الأم في اختيار وتقرير ما يتعلق بجسدها وبين حماية حق الجنين في الحياة في مواجهة حرية البحث العلمي، وبطبيعة الحال، فإن المشكلة لا تثور عندما تتعرض حياة الأم لخطر محقق من جراء استمرار الحمل، مما يوجب إباحة الإجهاض إنقاذا لحياة الأم. وتطبيقا لذلك قضت المحكمة الدستورية الإيطالية سنة ١٩٧٥ بعدم دستورية نص في قانون العقوبات يحظر الإجهاض في حالة تعرض الأم الحامل لخطر جسيم. وفي ضوء هذا الحكم صدر قانون (القانون رقم ١٩٤ لسنة ١٩٧٨) يسمح بالإجهاض لأسباب طبية وإجرامية واجتماعية. وأكدت المحكمة الدستورية الإيطالية (١٩٨٩) أن من واجب المشرع الالتجاء إلى التجريم الجنائي لحماية القيم الضرورية اللازمة لتحقيق الشروط الأولية للحياة داخل المجتمع، تاركا للمشرع اختيار ما يراه من وسائل لحماية القيم الاجتماعية الأقل ضرورة. وقد أكد المجلس الدستوري الفرنسي (١٩٧٥) أن مبدأ حماية حق الإنسان في الحياة لا ينصرف إلى أجنة المختبرات (embryons in vitro)، وأن حماية هذه الأجنة متروك للسلطة التقديرية للمشرع وليست له قيمة دستورية، وذلك باعتبار أنه لا يوجد التزام بالمحافظة على هذا النوع من الأجنة التي وجدت بطريقة صناعية، مهما كانت الظروف التي تمر بها، ومهما كانت مدة حفظها، استنادا إلى أنه لا ينطبق على هؤلاء مبدأ المساواة بالإنسان الذي يتعين المحافظة على حقه في الحياة. فضلاً عما ذهب إليه البعض من أن الجنين هو مجرد منتج بيولوجي يشترك في الحياة مع كافة الخلايا الإنسانية أو مجموعاتها. وأنه لا يتمتع بصفته الإنسانية إلا منذ اللحظة التي ينشأ له فيها جسم، وتقدر بحوالي ستة أسابيع.

ومن ناحية أخرى أكد المجلس الدستوري الفرنسي دستورية عدم اعتبار الإجهاض الاختياري جريمة إذا مارسته الأم الحامل في حالة الضرورة (كما إذا تعرضت صحة الأم الحامل للخطر أو وجد احتمال قوي بولادة الطفل مصابا بمرض جسيم لا شفاء منه) وقد أضاف القانون الأسباني لهذه الحالة حالة إذا كان الحمل ثمرة اغتصاب الأم، على أساس أن الإجهاض يكون حماية لكرامتها الإنسانية وحماية لشرفها ولخصوصيتها الشخصية. وقد أجاز القانون البرتغالي الإجهاض في الأسابيع العشرة للحمل كأساس للتوازن بين حق الأم في حرية قيمة جسدها وبين حق الجنين في الحياة.

(٢) قضية تهوين الموت أو (القتل الرحيم) (Euthanesia):

وهي مشكلة برزت في المجتمعات الغربية بصفة أساسية بسبب الاتجاه السائد بين عدد من الأطباء وبعض قطاعات الرأي العام الذي يطالب بإقرار حق المريض في اختيار الموت إذا كان مريضا مرضا ميئوسا من شفائه أو مؤديا حتما إلى الموت، والسماح للأطباء بالاستجابة لاختيار المريض في الموت إما بإيقاف وسائل علاجه أو بوصف أدوية معينة لتسريع الموت دون ألم. وقد ارتكزت آراء المؤيدين لهذا الاتجاه على عدد من الحجج أهمها ضرورة احترام حقوق واختيارات الإنسان المريض في الموت على استمرار المعاناة والألم بسبب مرض لا شفاء منه، انطلاقا من حق الفرد المطلق في الاستقلال الذاتي وتقرير مصيره وتحديد مجرى ونمط حياته الشخصية طالما لا يؤثر ذلك على حريات حقوق الآخرين. بينما لقي هذا الاتجاه معارضة استندت



هذه التجارب لا يجوز أن تجرى على الفقراء استغلالا لحالتهم المالية، مما يتعين معه ألا تمثل الحوافز أية أنواع من الاغراءات التى لا يخضع لها سوى المحتاجين

إلى أن إقرار حق المريض فى اختيار الموت يقلل من قدسية حقه فى الحياة، وأن السماح للأطباء بمساعدة المرضى على وضع حد لحياتهم، حتى وإن استهدف تحقيق أغراض نبيلة، إلا أنه يتناقض مع الأسس الأخلاقية لمهنة الطب والعهد الذى يأخذه الأطباء على أنفسهم بعلاج المرضى وإنقاذ حياتهم. هذا بالإضافة إلى تعارض هذا الاتجاه مع القيم الدينية، على أساس أن الحياة هبة من الله لا يملكها الفرد.

وقد ذهبت المحكمة العليا الأمريكية سنة ١٩٩٧ إلى أنه طالما كان رضاء المريض شرطا عاما لخضوعه للعلاج فمن حقه رفض إنقاذ حياته واستعجال موته. وقد ميزت المحكمة بين تمكين المريض من الموت Making the Patient Die وبين ترك المريض يموت Letting a patient die وهو ما يعنى التمييز بين المساعدة على الانتحار assisting a suicide، ورفض إعطاء العلاج بناء على طلب المريض، وأن الفعل الأول يعتبر جريمة نظرا لوجوب الالتزام باحترام الحق فى الحياة، بخلاف الفعل الثانى فإنه يتم بناء على حق المريض فى رفض العلاج لإنقاذ حياته بل وحقه فى الموت. ويسمى الفعل الأول بمساعدة المريض على الموت بينما يسمى الفعل الثانى بالسماح للمريض بالموت. بل وصل الأمر إلى أن المحكمة العليا الأمريكية أجازت للوالدين إيقاف أجهزة التنفس الصناعى لابنهما المريض الذى دمرت خلايا مخه الرئيسية تماما، وقالت المحكمة فى أسباب حكمها بأن الوالدين قد اقتنعا بأن ابنهما يفضل الموت على استمرار حياة صناعية مستمرة. ويذهب عدد من الأطباء فى الولايات المتحدة إلى إباحة المساعدة على الموت فى حالة المرض الميئوس منه، وهو ما يعارضه البعض الآخر. وقضت المحكمة العليا فى كاليفورنيا فى قضية امرأة امتنعت عن الطعام والشراب بقصد الموت، بأن من واجب المشرع أن يقدم لهذه المرأة وسيلة أكثر سرعة وأكثر إنسانية للموت بدلا من الموت جوعا. ولاشك عندنا أن السماح للأطباء بمساعدة المرضى على وضع حد لحياتهم مهما كان نبل الغرض إنما يتناقض مع حق الإنسان فى الحياة، وهو حق لا يجوز التصرف فيه مما يتناقض مع إعطاء الإنسان حقا نقيضا له يسمى الحق فى الموت.

(٣) قضية الهندسة الوراثية:

وتعتبر هذه القضية من أكثر القضايا إثارة للجدل فى الوقت الراهن لما تثيره من البحوث والتجارب بالمساس بحقائق الخلق والحياة، ونظرا لما تنطوى عليه من تهديد للقيم الإنسانية والدينية التى تحدد مضمون الكرامة الإنسانية فيجب ألا تجمع حرية البحث العلمى على نحو يقفز على حقوق الإنسان. ولابد أن تخضع تطبيقات الهندسة الوراثية إلى الضوابط التى تتطلبها حماية كرامة الإنسان. ولا يجوز أن ننسى موقف الإسلام من خلق الإنسان وقوله تعالى (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) مما لا يجوز معه خلق إنسان آخر شبيه بالإنسان الأصلى الذى خلقه أحسن الخالقين.

واحترام الكرامة الإنسانية يتطلب احترام خصوصيات الإنسان وذاتيته وعدم جواز الاختلاط بين الأنساب.

(٤) نقل وزراعة الأعضاء:

لقد أثارت هذه القضية جدلا كبيراً، إلا أن هذا الجدل مهما تفرع وتشعب يجب أن يجد حله وفقاً لمعيار التوازن بين حرية البحث العلمى واحترام حقوق الإنسان النابعة من الكرامة الإنسانية. وفى صدد احترام حقوق الإنسان يجب مراعاة التوازن بين حق كل من المريض المنقول إليه والمنقول منه فى الحياة مع سلامة الجسم. وإذا كان رضاء كل من المنقول إليه والمنقول منه شرطا لنقل وزراعة الأعضاء البشرية، إلا أنه شرط عام فى جميع الأعمال الطبية ولا ينفرد به نقل وزراعة الأعضاء البشرية، وإنما يتعين توافر شروط أخلاقية أخرى تنبع من احترام حقوق الإنسان وأهمها عدم جواز الاتجار فى الأعضاء وضرورة التأكد من أن هذا النقل أو الزرع هو الوسيلة الوحيدة لعلاج المريض وألا يترتب عليه تهديد جسيم لحياة أو صحة الشخص المنقول منه، وتقتضى حماية حقوق الإنسان استثناء أعضاء لا يجوز تعويضها.

وننبه إلى ما تثيره بعض البحوث العلمية حول لحظة وفاة الإنسان قبل نقل الأعضاء منه والقول بأنها تتم بموت جذع المخ، وهو أمر لا يعرفه القانون. ولا يمكن أن يتورط القانون فى تحديد لحظة الوفاة، فهذه مسألة طبية يحسمها الطبيب المختص ويتحمل مسئوليته الجنائية إن هو أخطأ فى التقدير. ومن ناحية أخرى فإن الموت الإكلينيكى لا يؤدى بصورة آلية إلى فقد حقوق الإنسان، مادام جسده لا يزال نابضاً بالحياة. ففى الفترة التى يفقد الإنسان فيها إدراكه أو يقترب فيها من الموت، فإن الجسم لازال معترفًا به بأنه جسم إنسان، وبهذه الصفة يظل الإنسان متمتعاً بحقوقه على جسمه.

ويجب أن نراعى ضرورة توفير ضمانات معينة للتحقق من احترام حقوق الإنسان، تتمثل فى أنواع المستشفيات التى تجرى هذا النوع من العمليات، والجهة التى يصدر منها القرار بالنقل أو الزرع ضمانا للحيدة، ونوع الصلة بين المنقول منه والمنقول إليه وغير ذلك من الضمانات التى يراد بها تفعيل حقوق الإنسان الواجب حمايتها. وكل ذلك يتطلب وجود تشريع صارم يحدد الضوابط ويرسم الجزاء الرادع عند مخالفتها.

(٥) قضية التجريب الطبى:

من المعروف أن التجارب الطبية لا مفر منها للبحث العملى عند وسائل العلاج أو اختراع عقاقير جديدة، ونظراً للمخاطر التى يتعرض لها الإنسان من جراء إجراء التجارب عليه يجب احترام كرامته الإنسانية. ويتطلب ذلك احترام حقه فى الحياة وفى سلامة الجسم، وفى ضرورة اشتراط رضائه الحر المسبق مع إحاطته علما بالمخاطر التى قد يتعرض لها.. إلا أن هذه التجارب لا يجوز أن تجرى على الفقراء استغلالا لحالتهم المالية، مما يتعين معه ألا تمثل الحوافز أية أنواع من الاغراءات التى لا يخضع لها سوى المحتاجين.

الخلاصة:

لقد عرضت فيما تقدم معالم الأخلاقيات فى العلوم البيولوجية وهى قضية شائكة تم تناولها من زوايا مختلفة ترتد جميعها فى نظرنا إلى محورين هما:

- حرية البحث العلمى.
- الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان.

من خلال المحور الأول تتحقق قوة العلم وتطوره على نحو غير مسبوق.

ومن خلال المحور الثانى يبدو خطر المساس بحقوق الإنسان، وهى القضية الأكثر إلحاحا وتشابكا وتعقيداً.

ولما كان العلم ليس مجرداً لذاته وإنما جاء لخدمة البشرية، فلا مجال لعلم غير نافع، أو لعلم يهدد حياة الإنسان أو سلامة جسده، أو لعلم يهدد الكرامة الإنسانية فى مختلف مجالاتها. ومن هنا فإن التوازن بين المحورين هو أساس الأخلاقيات فى العلوم البيولوجية. وعلى أساس من هذا التوازن تتحدد ضوابط الأخلاقيات، ولما كانت الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان رغم عالمية حمايتها تتأثر بالتنوع الثقافى، فإن القيم الدينية والاجتماعية تسهم بدور مهم فى صياغة بعض مفاهيم حقوق الإنسان التى تقتضى عند وضع ضوابط هذه الأخلاقيات ألا نكون مجرد ناقلين لتشريعات أجنبية استمدت من ثقافات أخرى، وإنما يجب مراعاة ذاتية ثقافتنا التى تحدد مفهوم الكرامة الإنسانية عندنا لكى نصوغ فى ضوئها مفاهيم حقوق الإنسان وأخصها الحق فى الحياة والحق فى سلامة الجسم الواجب احترامها.

ولهذا ننادى بوضع مدونة لأخلاقيات العلوم البيولوجية تستمد من قضية التوازن بين حرية البحث العلمى واحترام الكرامة الإنسانية وسائر حقوق الإنسان فى ضوء المفهوم المستمد من خصوصيتنا الثقافية. ويجب أن تنعكس مخالفة أحكام هذه المدونة فى نصوص قانون العقوبات.

ومما يثير الدهشة عدم وجود نصوص خاصة بالتجريم فى مجال الأخلاقيات البيولوجية، فأصبحت انتهاكات هذه الأخلاقيات تخضع للقواعد العامة فى التجريم. ومع ذلك فتجدر الإشارة إلى نص الفقرة الثالثة من المادة (٢٤٠) من قانون العقوبات المصرى التى شددت العقوبة إلى السجن المشدد لمدة لا تقل عن خمس سنين، إذا وقع الفعل المؤدى إلى عاهة مستديمة من طبيب بقصد نقل عضو أو جزء منه من إنسان حى إلى آخر، وتصل العقوبة إلى السجن المؤبد إذا نشأ عن الفعل وفاة المجنى عليه. ويشترط لذلك أن يقع الفعل المشار إليه خلسة.

ويجدر وضع مجموعة من الجرائم التى تقع انتهاكاً لهذه الأخلاقيات حماية لحقوق الإنسان فى مواجهة التجاوز فى حرية البحث العلمى والممارسة الطبية بناءً على ما يحرزه هذا البحث من تقدم. ■



كوالالمبور ((ماليزيا))
رحلات مباشرة
مع مصر للطيران
بالتعاون مع الخطوط الماليزية
القاهرة / كوالالمبور / القاهرة
يومى الخميس و الأحد
بأحدث طرازات الطائرات
للحجز و الأستعلام : مكاتب مصر للطيران او وكيلك السياحى
وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg



حــــــول الـــديــن والمعــرفة

طـــــــارق البشـــــرى

بمناسبة ما نُشر وينشر تعليقًا على تقرير التنمية الإنسانية العربية لسنة ٢٠٠٣، هذه هى الورقة الخلفية التى كنت قدمتها لواضعى التقرير.

وكنت حاولت فيها بإيجاز وتركيز أن أرسم الصورة العامة لما أظنه التضاريس الكلية للموقف الثقافى الإسلامى، بالنسبة لصلة المعتقد بالواقع وبالعقل وبالتربية البشرية، وبالنسبة لمظان البحث فى هذا الشأن عقليًا ووجدانيًا.

وأترك للقارئ أن يقدِّر مدى ما يكون ما ورد بالتقرير متوافقًا مع هذا النظر أو غير متوافق. ومن ناحيتى فأظن أن التقرير لم يستفد واضعوه مما كتبت. أو أنهم لم يوافقوا عليه.

ولا أدعى صواب نظرتى إزاء ما يراه آخرون، ولكننى أترك للقارئ أيضًا، وللدارس بصفة خاصة، أن يقرر: هل سيكون من الملائم أن يذكر اسم شخص فى تقرير دون أن ينشر ما قدمه، ودون أن يظهر لما قدمه أثر فيما نُشِر؟

طارق البشرى

يقوم الفكر العقيدى على مسلمات أولية، ولفظ «عقيدة» يرد من عقَدَ عقدة، والعقدة هو ما تنضم أجزاؤه بعضها إلى بعض فتتماسك، والعقيدة هى ما انعقد فى النفس أو العقل، أى ما تراصت أجزاء فكرته فصار بعضها يشد بعضًا ويوثقه، ونحن نسميها عقيدة لأن دليلها يدور فى داخلها، وبعبارة أخرى هى مسلَّمة، لأنها تحتضن دليلها فى ذاتها وتستمده من ذاتها وتدور معه.

والفكر الفلسفى بعامة لا يخرج عن هذا الإطار، إلا أنه يطرح بدائل مستجدة أو مستحدثة أو يعرض للبدائل القائمة، وهو إما «يفترض» مسلمات جديدة أو يتحدث ويعرض للمسلمات القائمة. وهو فى كل الأحوال ينشغل بما تنشغل به العقائد من حيث أصل الوجود أو صلة الإنسان بالكون وموضعه فيه وغير ذلك، وهو فى النهاية يعرض «مسلمات» بديلة أو مقترحة.

والدين يعتمد على الاعتقاد بوجود الذات الإلهية الغيبية، أى التى لا يمكن العلم بكنهها، ولكن يمكن إدراك آثارها مع الاعتقاد بأنها مطلقة القدرة ومطلقة القوة ومطلقة فى تنزيهها عن الشبيه والمثيل، وأنها واجبة الطاعة والعبادة بالطريقة التى رسمها للبشر. والدين بذلك يرد من المطلق ليحكم النسبى ويأتى من الثابت ليحكم المتحرك ويأتى من الدائم ليحكم المؤقت.

وإن البعض من مفكرى الإسلام يعرِّفون الدين بأنه وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات وإلى الخير فى السلوك والمعاملات. ومن هنا ترد الصلة بين الدين بوصفه معتقدًا يتصل بالمطلق والثابت والدائم والمنزه، وبين الدين بوصفه حاكمًا لأوضاع الواقع المتغير والمتحول. ومن هنا أيضًا ترد مسألة صلة المعتقد بالمعرفة وكسبها، أى صلة المعتقد وتعاليمه بالتعامل مع الواقع.

ولا أريد أن أستطرد كثيرًا، ولكن فارقًا أساسيًا هنا بين أصول الاعتقاد فى المسيحية وأصولها فى الإسلام، فالمسيحية حسبما تبلورت لدى المسيحيين فى القرون الأولى التالية للسيد المسيح، صنع معتقدها على نحو يقبل القسمة والتمييز بين الرؤية الاعتقادية وبين ممارسة الواقع ومعايشته.

وبهذه المكنة أمكن بعد ذلك زحزحة مجالات النشاط عن بعضها البعض على ما يتابع من بعد فى العصر الحديث فى أوروبا، فوجد الدين، وبجواره ليس متصلاً به ولا متفرعًا عنه وُجِد النظر المعرفى الوضعى. وساعد على ذلك أن السيد المسيح (لدى المسيحيين) لدى مسيحيى القرون التالية كان هو ذاته ذا الوضع الإلهى، وهو الكلمة، وقد رفع فلم يبق فى الأرض.

أما فى الإسلام فالتصور العقيدى مختلف، إن ما يقابل مسيح المسيحيين فى إسلام المسلمين هو القرآن، لأن القرآن هو كلمة الله، وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن باق على الأرض، وهو لا ينظم المعتقد الإسلامى فقط من حيث صلة الإنسان بالله، ولكنه يحكم سلوك المسلم ومعاملاته، بما أورد من أحكام تشريعية وبما أحال إليه من أحاديث وسنن رسول الله التى بقيت بالرواية ثم بالتدوين.

ومن هنا ثارت مسألة كيف يمكن للنص الثابت الذى يشكل وضعًا إلهيًا أن يحكم الواقع المتغير للبشر، وكيف يمكن للنص المحدد فى إطار ألفاظه المعدودة أن يحكم الواقع المتنوع على مدى الزمان. من هنا جاءت جهود التفسير لتضبط مناهج النظر المعرفى إلى الواقع المتغير وموقف الإنسان تجاه هذا الواقع المتغير، موقفه تجاهه من خلال النصوص الإيمانية الثابتة.

وكان ذلك مما شغل علم الفقه من أول قرون الإسلام، إذ انتشر الإسلام فى الأمصار والأصقاع وصارت أحكامه واجبة التطبيق على أقوام شتى وشعوب متعددة وبيئات متنوعة، وصار مطلوبًا أن تحل المشاكل المستجدة فى هذا المجال، ثم لما تعددت حالات التطبيق وتكاثرت الحلول واختلفت أساليب التفسير، صار مطلوبًا أن تتحدد وتتعين مناهج للتفسير تضبط تلك الأساليب، وصار ذلك ما عرف بعلم «أصول الفقه».

ثم جاءت مسألة أخرى هى حدود معرفة الإنسان فى أى زمان ومكان، إن ما يعرفه تتولى مناهج أصول الفقه استخراج الأحكام بشأنه، ولكن ما هو الضابط النفسى والسلوكى الذى يضبط الحدود بين المعلوم والمجهول، وما كان أكثر

من الأوراق الخلفية لتقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٣

عندما يقال أن لولى الأمر أن يحسم خلافًا وينفذ رأيه فيه، فإن ذلك لا يعنى تجرده من المسئولية والتبعة، ولكن معناه أن الأمر ينتقل من مجال المشروعية الدينية إلى مجال المسئولية السياسية عن إدراك صوالح الناس بمعايير واقعهم المعيشى

المجاهيل التى تحيط بالإنسان على مر قرون عديدة، وهنا ظهرت محاولات علم التصوف وممارساته للتمييز بين الأمر المدرك الذى يمكن للإرادة الإنسانية أن تدبر الشأن فيه، وبين غير المدرك وغير المعلوم الذى تكله الإرادة البشرية على المعبود سبحانه.

وبالنسبة لأصول الفقه، فقد عنى أول ما عنى بإيضاح ما هى مصادر التشريع الإسلامى وأن مصدريه الأساسيين المجمع عليهما هما القرآن الكريم والسنة النبوية والركيزة الأساسية للتصديق بهما هى ركيزة إيمانية، ولكن علم أصول الفقه اقترب من هذا المجال الإيمانى بمنهج عقلى يتعلق «بالثبوت» والثبوت مسألة معرفية، فقالوا إن القرآن الكريم ثابت بطريق «التواتر»، وعرفوا التواتر بأنه ما يقول به جماعة يستحيل اتفاقهم على كذب، وهذا منهج عقلى أشد صرامة مما نقول به الآن عن «المعرفة الاجتماعية» التى تصل للفرد منا ويصدق بها بغير أن يختبر بنفسه أدلة صوابها وثبوتها، مكتفيًا بأنها تنتقل إليه من مصادر شتى، مثل دوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس، ومثل وجود أية بلدة لم يرها الشخص بنفسه. ثم أجروا معايير التحقيق العقلى على الأحاديث الشريفة التى لا تتوافر لثبوتها درجة التواتر، وهى من حيث الضبط والتحقيق أكثر صرامة فى نسقها العقلى من أساليب تحقيق الوقائع التاريخية، وهنا نلحظ أن النصوص الأساسية هذه، وهى إيمانية فى التصديق بها، فقد صارت عقلية فى ثبوتها، وقد تخللها العقل من هذا الوجه المعرفى، ثم بدأ من هذا التخلل يفرض سلطانه على ما يتلو هذين المصدرين من مصادر أخرى ومن مجالات أعمال.

ومن المعروف أن النصوص محدودة، سواء نصوص القرآن الكريم أو نصوص السنة النبوية الشريفة، فظهرت مصادر أخرى تالية، وفى غالبها نلمس دورًا ناميًا وفعالاً للعقل فى تفاعله مع الواقع المعيش.

فمثلاً «القياس» الذى قال به الإمام الشافعى منذ اثنى عشر قرنًا وصار مهمًا وواسع التطبيق، هو يتعلق بإدراك وجه الشبه الفعال بين الظواهر التى وردت عنها أحكام فى القرآن أو السنة، والظواهر التى لم ترد عنها أحكام فيهما، والمهم هنا هو المنهج المعرفى الذى وضع لإدراك الشبه الفعال، وهو منهج يعمل الاستقراء لإدراك خواص الظواهر ولتبين الخاصة التى تعتبر «علة» الحكم أى سببه وهو ما أسموه «المناط». وهنا نلحظ وجوه تجريب واستقراء وملاحظة، ثم استخلاص للصفة العلة وبلوغ المشترك الحاكم لما يمكن أن نعتبره متماثلاً.

ومثلاً «الاستصحاب» وهو منهج عقلى معرفى، ومؤداه هو بقاء الحال على ما كان حتى يقوم دليل يغيره، فهو يتعلق «بالإدراك» البشرى للواقع، ومؤداه أنه عند التيقن من وجود أمر ما، فنحن نتصرف على أساس أنه موجود بعد ذلك حتى يتبين لنا أن ثمة تغييرًا أو تعديلاً حدث. وما ثبت باليقين من ذلك لا يزول إلا بيقين مغاير. وقد سمى الفقهاء هذا الأمر أنه مصدر تشريعى، وفى الحقيقة هو منهج معرفى مكمل للإدراك البشرى، يسد الفجوة بين تيقن حدث وتيقن آخر طرأ بعد مدة.

ومثلاً «الاستصلاح» أو المصالح المرسلة، وهى التصدى المباشر للواقع الحادث والعمل بما فيه مصلحة الناس، وذلك فيما ليس فيه أمر دينى أو نهى دينى ورد بالقرآن أو السنة. والنظر فى هذا الشأن يكون بملاحظة أن كل الأوامر الدينية والنواهى الدينية هى مقررة من الله سبحانه لنفع الناس ولإصلاح شئونهم أيضًا.

وفى مجال الخلاف فى مدى كل من الأوامر والنواهى التى مصدرها القرآن والسنة، فإن الخلاف يكون فى غير الأحكام ذات الدلالة القطعية، يكون فيما هو ظنى، وهو ينقسم بين رأى راجح ورأى مرجوح، وهذا الانقسام إنما يكون بالدليل العقلى والواقعى، ويحسمه ما تتقبله الجماعة وترضى به، ويحسمه أيضًا ولى الأمر فيما يراه.

وتنبغى ملاحظة أنه عندما يقال أن لولى الأمر أن يحسم خلافًا وينفذ رأيه فيه، فإن ذلك لا يعنى تجرده من المسئولية والتبعة، ولكن معناه أن الأمر ينتقل من مجال المشروعية الدينية إلى مجال المسئولية السياسية عن إدراك صوالح الناس بمعايير واقعهم المعيش. وشأن ذلك أيضًا شأن ما يسمونه «السياسة الشرعية» وهى أوامر ولى الأمر ونواهيه التى قصد بها صلاح الأمة فيما ليس فيه أمر ولا نهى فى الشريعة المُنزَّلة، فإن هذه السلطة لولى الأمر لا تنفلت عن الشرعية ولكنها تخضع لاعتبارات المصالح.

وأنا لا أريد أن أستطرد أكثر من هذا فى هذه النقطة، إنما قصدت سوق الأمثل للأساليب والمناهج التى يتفاعل بها الفكر الدينى بنصوصه الثابتة، مع مناهج إعمال العقل من ناحية ومع أساليب التعرف على الواقع ومناهجه من ناحية أخرى.

الفقه لا يستطيع إلا أن يكون واقعيًا لأنه يحكم أوضاع الناس ومعاملاتهم ويتصدى لمشاكلهم المعيشة يومًا بيوم

وما أريد أن أوضحه أن هذه الأمثلة وغيرها، لم تحتج منى إلى إسناد بالمراجع، لأن المادة التى اعتمدت عليها هى من المعروف المشتهر لدى المطالعين والعارفين بهذا الأمر، وما سقته إنما كان جهدى فيه هو الربط والاستخلاص للدلالة التى تستفاد فى صدد الموضوع المعروض. وهذه الأسس هى مما يشكل البنية التحتية للتكوين الفكرى الفقهى بالنسبة للإسلام.

وبالنسبة للضابط الخاص بسلوك الإنسان بين المعلوم والمجهول لديه، فإننا هنا نجد جهود نفر من ذوى الفكر الصوفى تحدثوا فى هذا الشأن وشاع حديثهم وتعاليمهم حتى وجدت لها بين العامة مكانها وانعكست فى سلوكهم. وأن النظر الذى ساد فى كتابات وأحوال ذوى الأثر فى البنيان الفكرى والمعرفى الذى ذاع بين الناس، ليس هو إنكار الحقائق الواقعية أو البعد عن التعرف عليها، ولكنه يتعلق بكيفية بناء الإنسان على أساس من القدرة على البذل والعطاء وإنكار الذات وعدم تعلق القلوب بمغريات الحياة.

وبالنسبة للنظر إلى القدر، فهو نظر يتعلق بما وراء المعرفة الكسبية والعلم الكسبى، فما نعرفه من حقائق الحياة نتعامل معه بما صيغت به النفس والوجدان من ترويض ومن بذل وعطاء. وما لا نعرفه هو ما يدبر الإنسان أمر نفسه فيه على التقبل والرضا، وهذه المعانى نراها بصياغات كثيرة وأساليب تعبير شتى فى الكتابات الذائعة لكبار مفكرى هذا المجال مثل الجنيدى والقشيرى وابن عطاء الله وغيرهم.

وقد أكتفى فى بيان الموقف الفكرى الإسلامى بهذين المجالين، مجال الفقه الإسلامى وأصوله، ومجال التصوف. وذلك لأنه فى تصورى أن هذين المجالين هما أكثر مجالات الفكر التى صيغت بها العقلية الإسلامية، منظورًا فى ذلك إلى مثقفيهم ذوى الثقافة الإسلامية، وإلى العامة أيضًا.

وبالنسبة للفقه، فإن المفكرين الاجتماعيين المحدثين وباحثيهم ومؤرخيهم، لا يهتمون بهذا الجانب اهتمامهم بالجوانب الأخرى الاقتصادية والأدبية والتعليمية وغيرها. رغم أنه من أكثر الجوانب



التى تعكس أوضاع المجتمعات واقعًا وفكرًا، ولا أقصد بذلك الفقه الإسلامى فقط ولكنى أقصد أيضًا الفقه الوضعى، إنه بالنسبة لفروع علم الاجتماع، مثل فن العمارة بالنسبة لفروع الفنون التشكيلية. لأنه الفرع الأكثر مساسًا بالناس فى حياتهم اليومية، والفقه لا يستطيع إلا أن يكون واقعيًا لأنه يحكم أوضاع الناس ومعاملاتهم ويتصدى لمشاكلهم المعيشة يومًا بيوم.

والمجال الثانى هو الصوفية، وقد كان حتى الوقت الحاضر القريب يمثل أكثر المجالات أثرًا فى الصناعة الدينية للوجدان الشعبى، وكان يقوم بنظراته الإنسانية مقام علوم النفس الآن، وكان يقوم فى تشكيله للوجدان الشعبى بما تقوم به فنون الأدب والقصة والمسرحية، وله انتاجه الأدبى فى الشعر والحكم والدعاء، وفيه وجدت الموسيقى والغناء الدينى موضعهما.

ذكرت من قبل الملامح العامة لتضاريس ما أظنه البنية الأساسية للتفكير الدينى الإسلامى فى بلادنا. وهذا لا يخل طبعًا بما وجد ويوجد من وعورة تعوق السير ومن طرق مسدودة وغير ذلك. إنما ما قصدت إظهاره أن البنية التحتية الأساسية تبقى فى توصيفها الأخير على الصورة العامة التى ذكرتها، وأن ذلك من شأنه أن هذا الفكر مهما اعتراه من جمود أو غيره فإن فى بنائه الذاتى ما يمكنه من إصلاح شأنه فى تصديه للواقع المحيط فى كل ظرف، وذلك بمراعاة ما يلى على سبيل التمثيل:

أولاً: إذا كان منهج الاعتبار بالمصالح ومنهج اتصال النص مع الواقع واستخراج الحكم، إذا كان كل ذلك من الأمور المقررة، فإن المشكل يحدث لا من افتقاد القدرة المنهجية المتاحة لرؤية الواقع وإدراك المصالح، ولكنه يحدث من جهة القدرة الذاتية على رؤية الواقع، أو من جهة تنوع المصالح وتعارضها وصياغة الواقع فى إطار نظرة محددة ومسبقة للواقع، أو الرغبة فى عدم الاعتراف بواقع حادث استبقاءً لأوضاع قائمة، وكل ذلك تعرفه العلوم الاجتماعية، وهو يرد فى تحليله لا إلى افتقاد المنهج المعرفى ولكن إلى عجز الرائى عن الرؤية لعدم تقديم الواقع إليه من خلال الخبرات والبيانات والمعلومات الدالة، أو إلى عدم رغبة الرائى فى الاعتراف بواقع حادث.

قويت المحافظة فى مواجهة حركة التجديد بما أسبغته على الناس من روح التحصن ضد الغريب الوافد، وبما صار لها من وظيفة إيجابية فى التصدى ودعم الصمود والمقاومة على المستوى السياسى والاجتماعى. وضعفت حركة التجديد لأنها لم تستطع فى هذا الوقت المبكر لها أن تميز نفسها وقضاياها الجادة عن حركة التغريب الوافدة

ثانيًا: إن مؤسسات الفكر الدينى كانت ذات استقلال نسبى، أو بعبارة أدق كان لها تميزها الذاتى وحركتها الذاتية ودرجة لا بأس بها من التعبير عن الذات. وكان ذلك على مشارف المرحلة المعاصرة التى بدأت فى القرن التاسع عشر فى بلادنا، وكان الفكر الدينى يتصف بقدر ملحوظ من الجمود، ولكن جموده فى ظنى كان يتأتى من جمود حركة الواقع وحركة المجتمع، لم يكن فى مجتمعاتنا حتى نهايات القرن الثامن عشر، دفع بالواقع الاجتماعى السياسى إلى شيء من التجديد أو التغيير، فلم تكن ظهرت مستجدات ولا تحديات تتطلب استجابات مستحدثة وتطرح على الفكر أن ينفتح لها وأن ينظم ما تستدعيه من أنماط تعامل وقيم سلوك ملائمة.

ثم لما ظهرت هذه الحاجات على مدى القرن التاسع عشر، وواكبها التفاعل الفكرى وتحديات الاحتكاك بالحضارة الأوروبية والأطماع الغربية، ظهرت محاولات الانتعاش الفكرى وظهرت دعاواه ورجاله، ومتابعة التطورات الفكرية فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تظهر وتكشف عن هذا الأمر، ولكن ظهرت مسألتان عقدتا هذا المسار.

ثالثًا: المسألة الأولى أن حركة التجديد تواكبت زمنيًا مع الوفود الأجنبى الغربى فى صوره الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية، وكان الوفود الثقافى الأجنبى المؤيد بوقائع الغزو والسيطرة مما جعل المحافظة الدينية الفكرية ذات وظيفة فعّالة فى المقاومة واستدعاء روح الصمود والتصدى، كما أن هذا الوفود الأجنبى فى المجال الفكرى والسلوكى قد استنفر مشاعر الخصام ودعم رد الفعل المتحصن فى روح المحافظة.

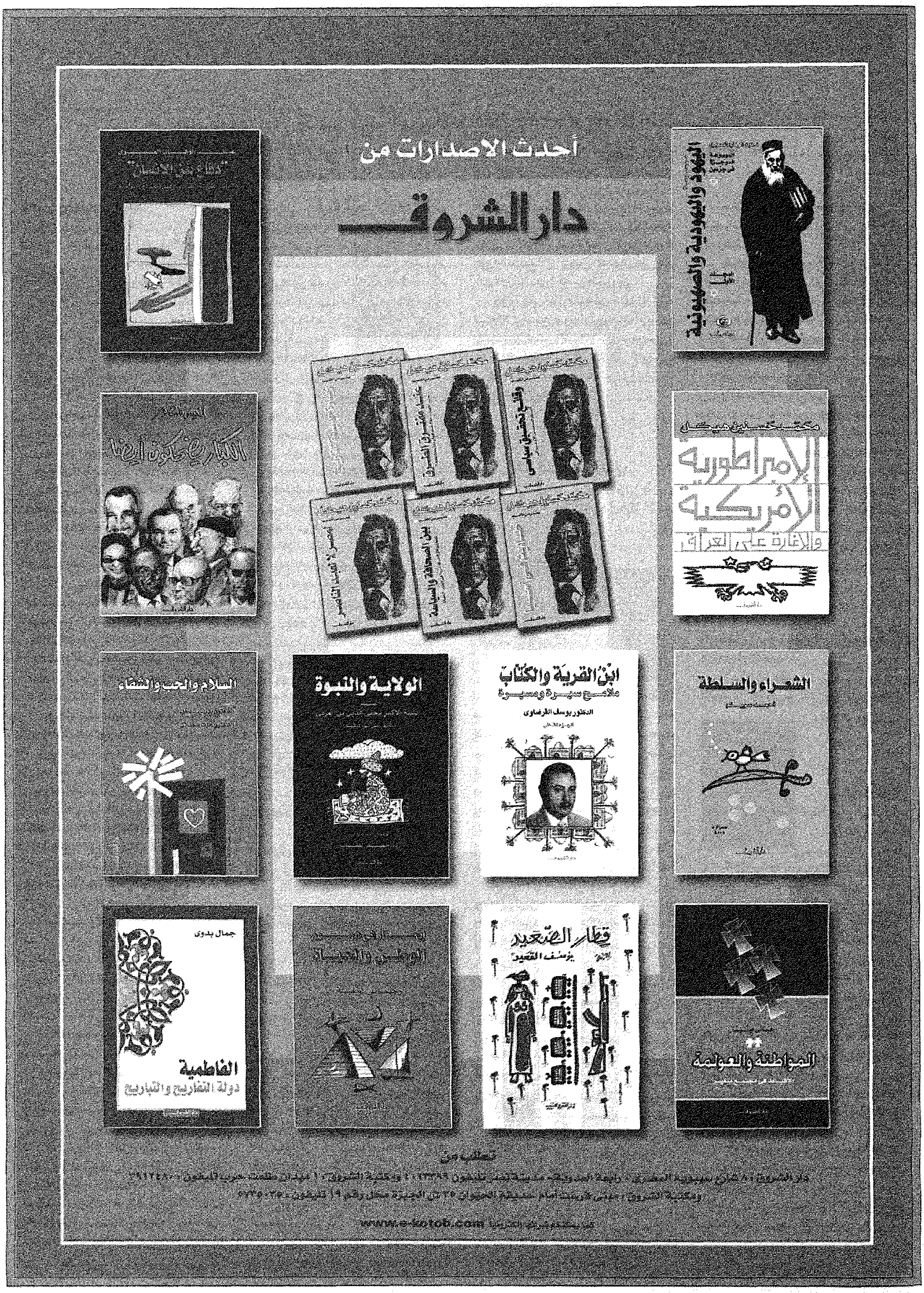
قويت المحافظة فى مواجهة حركة التجديد بما أسبغته على الناس من روح التحصن ضد الغريب الوافد، وبما صار لها من وظيفة إيجابية فى التصدى ودعم الصمود والمقاومة على المستوى السياسى والاجتماعى. وضعفت حركة التجديد لأنها لم تستطع فى هذا الوقت المبكر لها أن تميز نفسها وقضاياها الجادة عن حركة التغريب الوافدة.

رابعًا: المسألة الثانية تتعلق بالمؤسسة الدينية، وهى على مدى القرن العشرين على نحو خاص، قد فقدت ما يمكن أن نسميه تميزها المؤسسى الذاتى أو استقلالها النسبى، وذلك فى مواجهة الدولة المركزية الحديثة التى أرسيت جذورها فى عهد النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأخذت فى النمو والتوسع على حساب هيئات المجتمع المدنى والمؤسسات ذات الاستقلال النسبى أو التميز الذاتى، وذلك من منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين. ثم طفرت طفرة واسعة فى السيطرة والهيمنة فى النصف الأخير من القرن العشرين.

وبهذه الطفرة الأخيرة اكتمل للدولة المركزية الحديثة أن تكون هى التنظيم الأوحد، وأن تتعامل مع الوحدات الأهلية مثل الجمعيات والأوقاف والطرق الصوفية، ومع الهيئات ذات الاستقلال النسبى مثل الجامعات والأزهر، سواء منها الحديث كالجمعيات والجامعات، أو التقليدى كالأوقاف والأزهر، أن تتعامل مع ذلك كله، إما بالإلغاء كالأوقاف، أو بالهيمنة والوصاية على التكوين المؤسسى كالجمعيات أو بالإلحاق كالجامعات والأزهر.

ومع ذلك فقد صارت المؤسسات الدينية إما تابعة للدولة كالمساجد التى اتبعت جميعها لإدارة الدولة على مدى السنوات العشرين الماضية بصفة خاصة أو ألحقت بالدولة مثل الأزهر والمعاهد الدينية وكذلك الطرق الصوفية. وصارت التغيرات الفكرية فى هذا المجال تجرى فى إطار التعبير عن سياسات الدولة. وصارت الدولة وأجهزتها الأخرى هى من يمد المؤسسات الدينية بالرؤية الخاصة بالواقع الاجتماعى أو السياسى، وهى الرؤية التى يتعامل معها فقه الأحكام وتصدر بها التفسيرات.

ولذلك فإن الفكر الدينى غير المعبر عن سياسات الدولة، صارت له منابره الأهلية البعيدة عن هذه السيطرة، وذلك فى حركة المجتمع الفكرية والثقافية والسياسية الاجتماعية غير المتمأسسة، وهى بتلقائياتها وزخمها صارت الأبعد أثرًا وأنفذ إلى قلوب الناس وتشكلاتهم الدينية فى المجال الوجدانى أو الفكرى الثقافى، وكل ذلك يستقى من البنية التحتية التى سبق أن أشرت إليها، ومن الرؤى الواقعية السياسية والاجتماعية للحركة التلقائية للأهالى ولمفكريهم وذوى الأثر فيهم. ■



أحدث الاصدارات من
دار الشروق
اليهود واليهودية والصهيونية
محمد حسنين هيكل
الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق
السلام والحب والشقاء
الولاية والنبوة
ابن القرية والكتاب
ملامح سيرة ومسيرة
الدكتور يوسف القرضاوى
الشعراء والسلطة
جمال بدوى
الفاطمية
دولة التفاريح والتباريح
قطار الصعيد
يوسف القعيد
المواطنة والعولمة
تطلب من
www.e-kotob.com

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الكبار يضحكون أيضًا

أنيس منصور

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٧٩٠ صفحة



ليس الهدف الوحيد من هذا الكتاب أن تضحك، وإن كنت ستضحك فعلاً، على الكبار ومعهم.

وإنما ثمة أهداف أخرى مضمرة، أن ترى عالم هؤلاء على طبيعته، فتعرف أن العقاد ليس جهمًا طوال الوقت، وأن أم كلثوم بنت نكتة، وأن طه حسين خفيف الروح رائق البصيرة، وأن كثيراً من الزعماء السياسيين في مصر والعالم، يتوقون إلى ابتسامة يروحون بها عن أنفسهم وسط انشغالاتهم بالكون ومصيره.

وأن كثيراً من الكبار بارعون في إلقاء النكات، وآخرين بارعون في اختراعها، وصنف ثالث لا يزعجه أن يكون هو نفسه نكتة، أو أن تثار حوله الشائعات والأقاويل فلا يكترث، ويضحك مع الضاحكين: كما كان توفيق الحكيم مثلاً، الذي طلب منه أنيس منصور أن ينصحه فقال له: النوم أرخص حاجة في الدنيا.

وقد اضطر أنيس منصور أن يعتذر للإمام أحمد ملك اليمن عن شيء أضحكه ولم يضحك الإمام، فقد سأله: كم يبلغ عدد سكان اليمن؟ فقال الإمام: ما شاء الله بين خمسة ملايين وأربعين مليونًا، فضحك ولم يضحك الإمام.

أما سبب الاعتذار فكانت جلسة في مجلس الشورى ودارت مناقشات حول عدد المصريين العاملين في الخارج وقال وزير القوى العاملة أنهم خمسة ملايين وقال وزير الداخلية أنهم مليون ونصف، وأكد الأعضاء أنهم ستة ملايين.

أما أن المصريين في الخارج يتراوح عددهم بين مليون وستة ملايين.

أي أننا بعد نصف قرن مازلنا نفكر على طريقة الإمام. وكان بين أم كلثوم والأخوين مصطفى أمين وعلي أمين ود دائم وتقدير كبير، إلا أنهما لم يكونا أصحاب ذوق في الفن والسمع، فكانت أم كلثوم إذا سألتهما عن أغنية لها حدثاها عن أشياء لا علاقة لها بالأغنية، ووعدت أم كلثوم أصدقاءها ساخرة، أن تكتب على باب المسرح الذي تغني فيه: ممنوع دخول الصم والبكم والأخوين مصطفى أمين وعلي أمين.

وتبقى مدهشة تلك الصراعات التي تدور بين الكبار في دهاليز الصحافة كما في ساحات الجامعة.

وكيف سخر الفيلسوف الوجودي عبدالرحمن بدوي من أستاذ الاجتماع علي عبدالواحد وافي الذي كان يكره بدوي جداً ولم يكن يعرف شيئًا عن الوجودية.

وما علاقة طه حسين بالصراع بين الاثنين.

ثم سخرية العقاد من كل الوجوديين والشيوعيين واعتبارهم شواذ، واعتبار تلاميذهم والمقتنعين بأفكارهم مجرد «حمير بذيول».

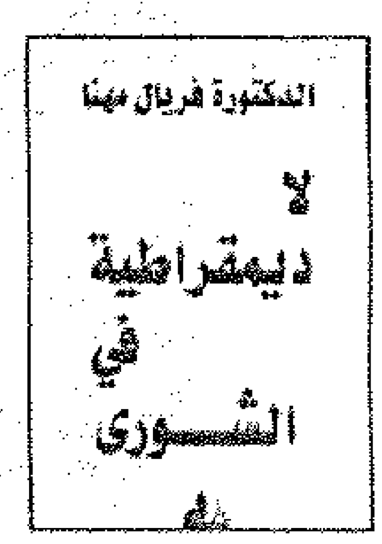
وكان هذا الوصف الذي خرج به طلبة كلية الفلسفة الذين جاءوا ليسمعوا الأستاذ العقاد في ندوته الأسبوعية وهو يحدثهم عن الوجودية.

حكايات كثيرة عن ساخرين وحكماء وزعماء، مصريين وعرب وأجانب، تتقافز البسمة بين سطورها، وترسم ملامح لزمن وشخوص عاصرهم المؤلف وعاش بينهم.

لا ديمقراطية في الشورى

فريال مهنا

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة



اختلف المجتهدون، السابقون والمعاصرون، حول حدود الشورى في الإسلام، فقد ذهب أبوالأعلى المودودي إلى أنها غير ملزمة للحاكم، إن شاء أخذ بها وإن شاء لم يأخذ، وميز آخرون مثل توفيق الشاوي وفهمي هويدي بين الاستشارة والشورى، واعتبروا الأولى شأنًا خاصًا، فيما الثانية ملزمة وتعبير عن شكل لنظام سياسي أقرب للصيغة الديمقراطية كما عرفت في شكلها الغربي، لكن المؤلفة تنحاز إلى ما قال به محمد سعيد البوطي، من أن تحميله الشورى معنى الديمقراطية أشبه ببناء شاهق فوق أساس غير مستعد لاحتماله، أي أن الشورى لا تتضمن ديمقراطية، لكنها من ناحية ثانية، تشير إلى خطأ الاعتقاد بتجاهل الإسلام للحريات الفردية لحساب حقوق الجماعة.

أو أن هذه الحريات تذوب في إطارها، وتدلل بعشرات الآيات والشواهد على أن الإسلام منح الإنسان الفرد حقوقًا وحريات قصوى في إطار مسئوليته الفردية أولاً قبل مسئولياته الاجتماعية، وهو ما يوسع أفق الجدل الديمقراطي في الإسلام متجاوزًا معنى الشورى.

هذه بعض أفكار تنطلق منها المؤلفة لسجالات أوسع حول أطروحات الإسلام المستنير وإشكاليات الحرية والديمقراطية والأقليات في المجتمع المسلم وغيرها مما يقترن بالمشروع الحضاري الإسلامي.

شمس مصر تشرق من جديد

خميس البكري

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤



سلسلة من الحوارات تستشرف مستقبل مصر في مجالات عدة، لذا جاء المتحاور معهم من اتجاهات واهتمامات متعددة، بينهم المفكر الإسلامي رشدي فكار والعالم الجيولوجي رشدي سعيد والمفكر السياسي عبدالوهاب المسيري وعالم البيئة عبدالفتاح القصاص وعالم الوراثة أحمد مستجير والفقيه اللغوي إبراهيم مدكور والفنان التشكيلي صلاح طاهر ووزير الإسكان الأسبق حسب الله الكفراوي، ورئيسا الوزراء السابقان عبدالعزيز حجازي، وعاطف صدقي، وآخرون غيرهم في مجالات الفكر والعمل المختلفة.

ما بعد الامبراطورية

إيمانويل تود

ترجمة: محمد مستجير مصطفى

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٤، ٢٧٥ صفحة



تنبأ المؤلف في كتابه الصادر عام ١٩٦٧ بانهيار الاتحاد السوفيتي.

حمل كتابه آنذاك عنوان «السقوط النهائي.. بحث في تفكك الاتحاد السوفيتي».

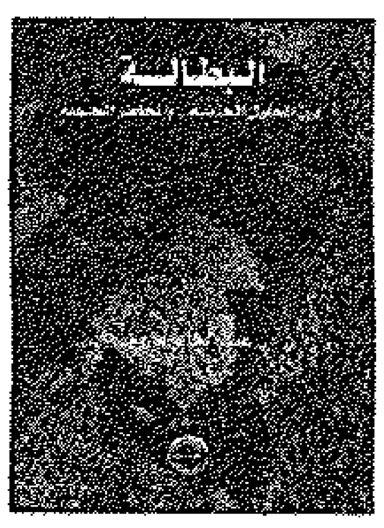
وقبل ٦ سنوات أصدر كتابه «الوهم الاقتصادي.. بحث في ركود المجتمعات المتقدمة». وفي هذا الكتاب يبشر بانهيار الامبراطورية الأمريكية، حيث ستتحلل قوى هذه الامبراطورية، برغم الأداء العسكري المسرحي الذي يمد أذرعه في أطراف العالم.

والفكرة التي يبني عليها المؤلف نظريته، هي أنه ما من بلد نجح في القرن العشرين في زيادة قوته بالحرب أو بالقدرات العسكرية، وهو يدعو أمريكا أن تركز أكثر على المشكلات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات، وأن تدع حروبها الزائفة ضد ما تسميه بالإرهاب، وينبه إلى أن إصرارها على استراتيجية القوى الشاملة لن يؤدي إلا إلى كشف عجزها أمام العالم.

البطالة بين الحلول الجزئية والمخاطر المحتملة

عبدالخالق فاروق

القاهرة: المحروسة، ٢٠٠٤، ١٢٨ صفحة



شغلت قضية البطالة ومازالت المجتمع المصري حكومة وشعباً.

وهي واحدة من الانعكاسات السلبية للسياسات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مصر طوال ربع القرن الأخير، وزيادة وتيرة الخصخصة والاتجاه نحو السوق المفتوح والاندماج في السوق العالمي.

وقد اتجهت جهود عديد من المراكز البحثية الرسمية وغير الرسمية، نحو البحث عن مخرج لهذه الإشكالية الكبرى التي تهدد أمن المجتمع كله.

ولكن المحصلة جاءت فقيرة وبلا جدوى تقريباً، حتى بدت المشكلة وكأنها بلا حل.

المؤلف يقدم جهده في هذا الإطار معتمداً مدخلاً يراه صحيحاً لتشخيص المشكلة وتقدير حجمها، يتوقف عند الإطار المفاهيمي لأدوات القياس المستخدمة في هذا الإطار.

شيوخ بلا خناجر

عبدالعاطي محمد

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٤، ٢٨٥ صفحة



تمر الحركة الإسلامية بمرحلة انتقال بين القديم والجديد، يجعلها في انعطافة بالغة الأهمية في مسارها الذي بدأ قبل ثلاثة أرباع القرن في تجليها الأخير على يد الإمام حسن البنا.

والكتاب تتبع التطور الذي مرت به الحركة الإسلامية في مصر في ربع القرن الأخير، مع التركيز على حالة الحركة في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، بهدف رصد أهم قضاياها وتتبع ممارساتها وفق منهج نقدي يركز على حالة الحصار التي عانتها الحركة في فترة من تاريخها ومحاولاتها لفك هذا الحصار بالتحالف مع من كانوا أعداء بالأمس. ويناقش المراجعات الفكرية التي قامت بها الجماعة الإسلامية في مصر في السنوات الأخيرة، وانعكاس هذه المراجعات على الجماعة الأم (الإخوان المسلمين)، والاتجاه المتزايد نحو الوسطية، وغيرها من القضايا التي تشغل بال المتابعين لمسار الحركة الإسلامية، أو ما بات يعرف بتيار الإسلام السياسي.

■

الإسلام وأوروبا تعايش أم مجابهة

انجمار كارلسون

ترجمة: سمير بوتاني

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ١٩٧ صفحة



مؤلف الكتاب هو رئيس قسم التحليل والتخطيط بوزارة الخارجية السويدية، وقد كتب مقالاته كما يقول، رداً على المقولات التبسيطية التي سعت إلى استبدال الإسلام بالشيوعية، بوصفه خطراً ماثلاً يتعين مواجهته بكل السبل، إذا أريد للحضارة الغربية المستنيرة أن تواصل إشعاعها، وقد وجدت هذه الأفكار التبسيطية في مقولات هنتنجتون سنداً لها، أما المؤلف فهو يحلل العوامل الكامنة لتنامي الأصولية الإسلامية وتعاظم تأثيرها السياسي في العالم حالياً، كما يتناول في فصلين النظام السياسي والاقتصادي في الإسلام، ثم يحلل دور الإسلام في دول آسيا الوسطى التي استقلت أخيراً عن الاتحاد السوفيتي، ويلقي أضواء على العوامل الدينية في حرب البوسنة، وينتهي - على عكس ما يروج الغربيون - إلى أن تعاظم الظاهرة الأصولية ليس دليلاً على خطة شاملة لاجتياح الغرب تحت راية الجهاد، ويشير بوضوح إلى أن العنصرية وعدم التسامح والقومية المتزمتة التي يتعاظم تأثيرها في أوروبا كرد فعل على الهجرة من البلاد الإسلامية، هي السبب فيما يشعر به الأوروبيون تجاه الإسلام والمسلمين.

إنه صوت عاقل في البرية الغربية، ربما يُسمع.

■

وعرفت الإخوان

محمود جامع

القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة



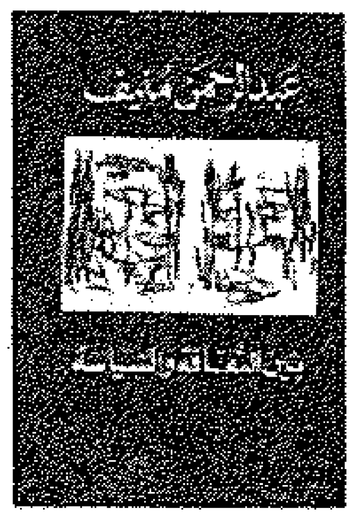
ليس الكتاب تأريخاً لمسيرة الإخوان المسلمين وإنما رؤية لمتعاطف معها كان يوماً واحداً من المنخرطين في نشاطاتها حتى أواسط الخمسينيات، ومن ثم فهو يجمع الشخصي والعام في آن معاً. ويناقش عديداً من القضايا والمحطات التي شهدتها تلك الجماعة التي لعبت دوراً بارزاً في الساحة السياسية والدينية المصرية والعالمية، منذ أواخر عشرينيات القرن الماضي وحتى اليوم، يناقش المؤلف البدايات الأولى للإخوان ونشأة جهازهم السري، واغتيال المستشار أحمد الخازندار واغتيال حكمدار القاهرة، واغتيال الإمام حسن البنا.. ودورهم في حرب فلسطين، ثم دورهم في ثورة يوليو ١٩٥٢ وانقلاب الثورة عليهم، ويقدم رؤيته للعلاقة بين عبدالناصر والإخوان وكذلك علاقة السادات بهم وعلاقتهم بالجماعات الإسلامية.

ثم تحت عنوان عرفت هؤلاء الدعاة يتناول علاقته بسيد قطب والشيخ عبدالحليم محمود والشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق والشيخ الشعراوي والشيخ كشك.

وبرغم انتهاء العلاقة العضوية بين المؤلف والإخوان المسلمين في ١٩٥٤، إلا أنه مازال يرى أن دعوة الإخوان هي الأصلح لقيادة المنطقة، بل والعالم.

■

المثقف ضحية الإعلام ومرهون بمزاج السياسي



نهاية مؤسفة. ومنطقية أيضاً. لمثقف مغترب، تلك التي آل إليها الروائي الراحل عبد الرحمن منيف، فبعد شتات في عدة عواصم أوروبية وعربية، دُفن الأديب الكبير في «دمشق» بدلاً من وطنه الأم «السعودية». ممثلاً لآلاف من المثقفين العرب الذين أجبروا على النزوح من ديارهم تحت وطأة استبداد السلطة وضيق أفقها ورفضها الصارم للاختلاف، خصوصاً في مواجهة المناوئين للثنائية البائسة والخالدة أيضاً: العصا والجزرة.

عاش منيف حياته ممزقاً بين الثقافة والسياسة، ولا يمكن قراءته روائياً إلا وفق هذا المنظور، واستناداً إلى جدلية لا يغيب عنها الواقع التاريخي بتحولاته الانعطافية المهمة خصوصاً في منطقة شبه جزيرة العرب.

ومن هنا تبدو أهمية الآراء الواردة في هذا الكتاب، كونها تشير بجلاء لا يتخفى خلف أقنعة لشخوص متخيلين ضمن سرد روائي، إلى رؤيته لهذه العلاقة الآثمة الملتبسة بين المثقف والسياسي.

في أزمنة الرخاء ومادام السياسي قادراً على تسخير الثقافة لخدمة عمله اليومي، ومادام المثقف راضياً بهذه المهمة، فإن تعايشاً من نوع ما يخيم على العلاقة بينهما، أما إذا تمرد المثقف على الدور المسنود إليه، أو لم يقم. كما يجب. بوظيفة الإفتاء والتبرير، فإن شرخاً يصيب العلاقة بين الطرفين.

فإذا كانت الأزمة مما يمكن تسويته بتقديم بعض التنازلات، فإن السياسي يلجأ «تكتيكياً» إلى التراجع قليلاً فاسحاً المجال أمام المثقف لأن يحتل موقعاً ولأن يكون شريكاً.

وهكذا يتداخلان، ليس عن قناعة بأهمية الشراكة بينهما، وإنما لضرورات فرضت منطقها وشروطها، لكن هذه الحالة، تبقى هشة ومؤقتة، أقرب إلى التواطؤ الصريح أو الضمني، وعرضة للتقلبات ومجالاً لسوء الظن.

وغالباً ما تنتهي بافتراق لاحق، أو بتدجين الضعيف في هذه العلاقة، وهو المثقف والثقافة في معظم الأحيان.

يشير منيف في موضع آخر من الكتاب إلى أن الدولة والأحزاب بما تمتلكانه من وسائل وإمكانيات، حلا مكان المثقف كفكر وصيغة، وصادرتا دورة الفرد، واستبدلتا بالثقافة والفكر مجموعة من المقولات والشعارات، وحولتا الثقافة إلى بنية مهترئة، تداخلت. بشكل أنقص كثيراً من جدواها وفاعليتها. مع فنون الإعلام والإعلان.

وتوازى الاثنان وتشابكا. الإعلام والثقافة. إلى حد ألقى بالمثقف في وهدة السلطة وبين أجنحتها.

وصار المثقف أمثولة في حالة الرضا والقبول، فإذا شمله الرضا فإن كل وسائل الإعلام الحديثة مسموعة ومقروءة ومرئية تحت تصرفه، ويمكن أن يتحول بين ليلة وضحاها إلى نجم، أما إذا حصل العكس فإن التغييب والتجويع والملاحقة بداية محاولة الترويض، وإن لم تجد فالسجن والاضطهاد والإقصاء هي ما ينتظره، حماية للأمن القومي.

يضيف منيف: إن أبرز سمتين تميزان الدولة العربية في الوقت الحاضر: القمع والرشوة، وتتضح هاتان السمتان أكثر ما يكون في وسط الفكر والثقافة، وتطال المثقفين بشكل خاص، وقد برز هذا وتضاعف عشرات المرات بعد فورة النفط عام ١٩٧٣.

ويقول في موضع آخر إن الإعلام في هذه المرحلة ليس موجهاً لغسل الدماغ فقط، بل باستبعاد أي أفق مستقبلي، وما يعني الإعلام ليس الوصول إلى الحقيقة، وإنما الدفاع عن موقف.

بعبارة موجزة، فإن إخضاع الثقافة لمقاييس الإعلام واعتبارها أداة من أدواته، يفقدها أهميتها ودورها، ويحولها إلى ثقافة سرية أو معادية، الإعلام في المحصلة الأخيرة، انعكاس لواقع موجود بيننا، بينما مهمة الثقافة صنع واقع أفضل، والمعركة الحقيقية تجاه واقعنا السيئ وتجاه العدو المتربص، هي معركة ثقافية حضارية في المقام الأول، وبقدر ما نتهيأ لها وفق هذا المفهوم، بقدر ما تتأكد. أو تتباعد. احتمالات النجاح فيها.

بين الثقافة والسياسة

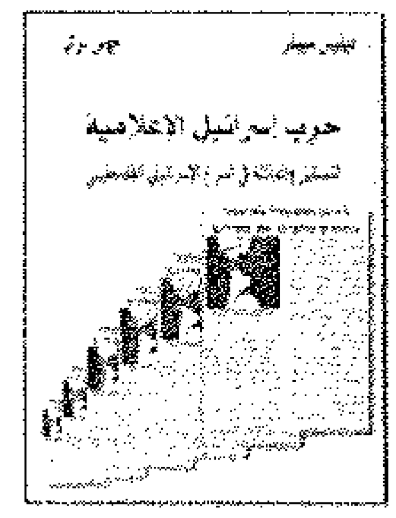
عبد الرحمن منيف

الدار البيضاء: بيروت

المركز الثقافي العربي، المؤسسة العربية للدراسات، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة

حرب إسرائيل الإعلامية

دينيس سيفير، جوس دراي
ترجمة: غازي أبوعقل
دمشق: الأهالي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٢٠٧ صفحات

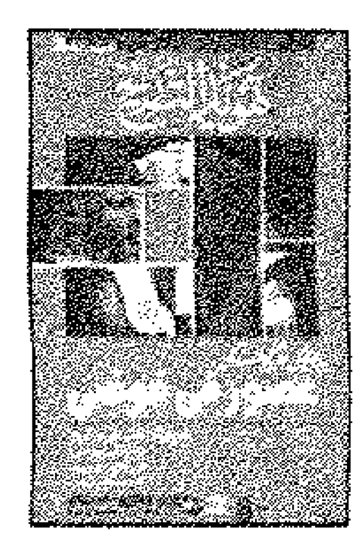


لا يمكن التثبت دائماً أن ما يُمارس على الأرض، هو ذاته ما تعكسه وسائل الإعلام، هنا (في الشرق) أو هناك على الجانب الآخر، بل إن الفكرة الأقرب للصواب، هي أن البون شاسع بين الحقيقة كما هي، والوقائع كما يتم الإعلان عنها للناس، وليس أدق تعبيراً عن هذه الحالة سوى الصراع العربي الإسرائيلي وحقيقة الوجود الصهيوني الاستعماري في فلسطين المحتلة. ربما هذا هو ما جذب المؤلفين إلى محاولة فضح هذا التضليل الإعلامي المستمر، خصوصاً في الصحافة الفرنسية. والمؤلفان يحاولان فك رموز هذه القراءة الإعلامية المخادعة التي استمرت شهوراً قبل وبعد توقيع اتفاقات «أوسلو ١٩٩٣»، ثم شهوراً قبل وبعد فشل محادثات كامب ديفيد بين الفلسطينيين والإسرائيليين في يوليو ٢٠٠١، وهي حملة تضليل واسعة شارك فيها عشرات من الكتّاب والمفكرين والصحافيين بإيعاز من لوبي يهودي ضاغط، وبهدف تحميل الفلسطينيين بالكامل مغبة فشل المحادثات، وجذب الأنظار بعيداً عما يجري من انتهاكات في فلسطين، إنها حرب الإعلام التي لا تقل خطراً وأهمية عن حروب ميادين القتال، والتي يتم التلاعب فيها بالمصطلحات والدلالات، فتصبح «المقاومة» إرهاباً، والمستوطنون أصحاب حقوق، وأصحاب الأرض الأصليون «لاجئين» محرومين من العودة.

■

تهويد التاريخ

إيمانويل فيلكوفسكي
تحرير: أحمد الطويل
القاهرة: العروبة للدراسات والأبحاث ٢٠٠٤، ٤ مجلدات



يقدم فيلكوفسكي نظرية متكاملة لتهويد التاريخ الطبيعي والسياسي.

في «عوالم في تصادم»، يتحرك مذنب تكون بشكل ما في منظومة كوكب المشتري ويصطدم بالأرض والمريخ. ويترتب على هذه الكارثة الكونية اضطراب مسار كوكب الأرض، وتغير الأرض طبيعة دورانها مما ينتج عنه تيه اليهود في الصحراء، وتؤدي الكارثة إلى انشقاق البحر الأحمر، وينتهز موسى والإسرائيليون الفرصة ويعبرون البحر فراراً من فرعون، وتتوقف الأرض عن الدوران بأمر من يشوع بن نون.

وعندما اعترض العلماء على هذه النظرية.

قدم فيلكوفسكي في كتاب «الأرض في اضطراب» بحثاً عن الأدلة الجيولوجية التي تؤكد صحة نظريته.

تهويد التاريخ الطبيعي للعالم، هو مدخل المؤلف لتهويد التاريخ السياسي لمصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم، وبعد أن يحول الروايات اليهودية إلى أحداث تاريخية، يختلق تاريخاً جديداً، ويعيد ترتيب القوائم الزمنية للتاريخ القديم مختصراً ستة قرون من التاريخ المصري بوصفها من أخطاء التاريخ.

وهكذا يصبح الملك شاؤول هو محرر مصر من الهكسوس وليس أحمس، وحتشبسوت هي ملكة سبأ التوراتية المنبهرة بحضارة أورشليم، وتحتمس الثالث ليس سوى لص نهب كنوز الثقافة والفن الإسرائيلي.

ويشير المترجمون إلى أن التيار الذي يمثله فيلكوفسكي لم يتوقف بعد موته، بل إن أشياعه وتلاميذه استمروا في تطوير نظريته، وهم يصدرون مجلة ربع سنوية منذ عشر سنوات تحمل اسم «الفيلكوفسكية».

لهذا كله يرى المترجمون أهمية عرض أفكاره وإخضاعها لمعايير النقد العلمي والسياسي.

■

معجزة الهرم الأكبر

زاهي حواس
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٤، ١٨٠ صفحة



تمثل أهرامات الجيزة واحدة من معجزات الدنيا على مر العصور، ويمثل الهرم الأكبر بالذات معجزة فريدة من حيث أسلوب بنائه وعمارته ونسبه الهندسية الدقيقة، وهو ما دفع حضارات عديدة إلى محاكاته أو إلى ادعاء أنها ساهمت في بنائه.

المؤلف وهو عالم أثري يعد من أشهر الأثريين في العالم يتناول هذه المعجزة الماثلة، ويقدم معلومات جديدة حول هرم خوفو للمرة الأولى، فهو يتحدث عن تاريخ خوفو ويحلل كتابات المؤرخين عنه وعن عناصره المعمارية، ويكشف كثيراً من الغموض الذي أحاط بالممرات والحجرات الموجودة داخل الهرم، وما أثير من نقاش حول اكتشاف مراكب الشمس ووظيفتها، وحقائق حول المهووسين بالأهرامات في العالم كله.

■

هموم اقتصادية مصرية

إبراهيم العيسوي
القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٤، ٢٧٢ صفحة



بعد مرور عشر سنوات على ما بات يُعرف ببرنامج الإصلاح الاقتصادي في مصر، فإن الأزمة مازالت قائمة، بل إنها استفحلت في السنوات الثلاث الأخيرة، واشتدت وطأتها على الناس بصورة كبيرة. والمؤلف من منطلق فكري وسياسي مغاير، يطرح تصوراته لتجاوز الأزمة، التي يراها في الأساس أزمة تنمية وليست مجرد أزمة سيولة أو ركود أو تحولات في الاقتصاد العالمي كما تحاول أن تصورها المعالجات الحكومية في استنساخها للنماذج الليبرالية للإصلاح الاقتصاد. وبديلاً عن هذه النماذج، يطرح المؤلف نموذجاً للتنمية المستقلة، يعالج. أو يسعى إلى علاج. الاختلالات الهيكلية في الاقتصاد المصري.

ويعيد قراءة أزمته بمدخلات واستنباطات مختلفة عن دور الدولة والقطاع العام وتحرير التجارة وحماية الاقتصاد الوطني في زمن العولمة، والبطالة والاستثمار ونقص المدخرات.

■

سيد درويش (جزءان)

إعداد: إيزيس فتح الله - محمود كامل - حسن درويش
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣



يمثل هذا الكتاب الإصدار الثالث في المشروع القومي للحفاظ على تراث الموسيقى العربية، وهو يأتي ضمن موسوعة الأعلام التي صدر منها حتى الآن أم كلثوم وسلامة حجازي.

ويضم تفاصيل إنتاج سيد درويش الغنائية وتبويبها وفقاً للقالب الخاص بكل منها، موضحاً بها مطلع الأغنية واسم المؤلف والمؤدي والمقام وتاريخ الإنتاج، واستعراضاً للنصوص التي لحنها من أوبريتات ومسرحيات وطقاطيق وأناشيد وأغنيات، فضلاً عن مدونات موسيقية لتلك الأعمال ليستفيد منها المتخصصون.

وسيد درويش الذي عُرف بلقب فنان الشعب، ولد بالإسكندرية في مارس ١٨٩٢ وعاش حياة قصيرة، إذ توفي في سبتمبر ١٩٢٣، إلا أن حياته كانت رحلة من الكفاح المستمر، على المستوى الشخصي ضد الفقر والجهل والعوز، على المستوى الوطني ضد المحتل الإنجليزي، الذي أنشد سيد درويش في مواجهته عشرات الألحان التي رددها المصريون في سنوات المقاومة، وربما كان أشهرها نشيد بلادي وهو النشيد الوطني المصري، والكتاب يعرض بصورة مختصرة لسيرة سيد درويش، الذي يمكن اعتبار موسيقاه فاصلاً بين عهدين في التأريخ للموسيقى العربية.

■

بين الأدب والسياسة

علي الراعي
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٤، ٣٥٧ صفحة



يتضمن هذا الكتاب مجموعة من المقالات والدراسات التي كتبها الناقد الراحل الدكتور علي الراعي قدمت لها ابنته، وهي دراسات لا تتوقف عند المتابعات النقدية التي كانت الشاغل الأساسي للناقد الكبير، وعبرها قدم عشرات من الأسماء الجديدة التي صارت الآن تحتل مكانتها اللائقة في المشهد الثقافي العربي، وإنما أيضاً كتابات تحمل رؤاه السياسية الجادة الملتزمة، وأفكاره التي دافع عنها طوال حياته وظل ممسكاً بها كالقابض على الجمر.

في السياسة مثلاً، مقالات عن عبد الناصر وثورة يوليو، البلطجي الأمريكي، نكون أو لا نكون، حكايات من العهد الملكي، قاهرة الأربعينيات، درس الخوميني، أما في الأدب والمسرح فيكتب عن ألفريد فرج وفتحي رضوان وفاروق عبد القادر ومحمد عودة ولطيفة الزيات وآخرين.

■

عصر التشهير بالعرب والمسلمين

جلال أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ١٤٠ صفحة



كما انطلقت القاذفات تضرب بلاد العرب والمسلمين (فى أفغانستان والعراق) عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

انطلقت حملات التشويه والتشهير لتصم العرب والمسلمين، بكل نقيصة، فهم إرهابيون متخلفون مستبدون معادون للمرأة وللحضارة الإنسانية.

ويجزم المؤلف، أن لا صلة أكيدة بين هذه الحملات والهدف من ورائها، فالهدف هو مزيد من إحكام السيطرة على مقدرات المنطقة، ومضاعفة أرباح الدول الاستعمارية وشركاتها العابرة للقارات.

ولا بأس فى سبيل تحقيق هذه الأهداف من ادعاء فقدان دول المنطقة للديمقراطية ولنظم سياسية رشيدة تقبل بالحريات وتحترم حقوق الإنسان، أو الحديث المتكرر عن امتهان المرأة واستبعادها من الحياة السياسية.

المؤلف يتناول هذه الحملات الظالمة، ويحلل أهدافها ويكشف عن وسائلها فى السياسة والإعلام والتعليم وغيرها، من خلال ١٠ دراسات تبحث جميعها فى الإطار ذاته.

ملامح القرن الجديد

هدايت عبدالنبى

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٤، ١٤٤ صفحة



حوارات أجرتها المؤلفة مع عدد من الشخصيات العالمية البارزة التى صاغت بأفكارها وفعاليتها النشطة ملامح القرن الجديد.

بينها حوارات مع مارى روبنسون مفوضة حقوق الإنسان فى الفترة من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٢، حديث مع مايك مور مدير عام منظمة التجارة العالمية ١٩٩٩ - ٢٠٠٢.

لقاء مع سيرجيو بأنرفيردوجو رئيس الاتحاد البرلمانى الدولى.

ولقاءات أخرى تتناول قضايا مهمة عن الأسرى والمفقودين الكويتيين، والإنسان والفن، وفاعلية الأمم المتحدة، وما بقى من القومية العربية.

تحولات السياسة والمجتمع فى إسرائيل

عبدالعليم محمد

القاهرة: المحروسة للنشر، ٢٠٠٤، ١١١ صفحة



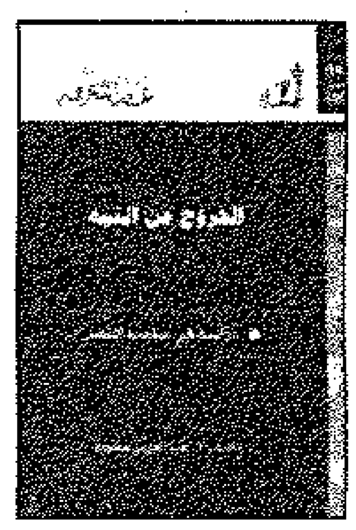
يعالج المؤلف تطور السياسة الإسرائيلية إزاء القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٩٦ وحتى اليوم، وبالذات منذ صعود نتنياهو إلى الحكم فى إسرائيل فى أعقاب الانتخابات التى تلت اغتيال اسحق رابين، أى أنها تتناول فترة تتميز بعدم الاستقرار السياسى، والتقلب بين خيار التسوية وخيار فرض الأمر الواقع.

والمؤلف إزاء تلك المراوحات يسعى لتقديم تفسيرات تستند إلى فهم عميق للمجتمع الإسرائيلى من ناحية، ومتابعة المستجدات الإقليمية والدولية وتأثيرها على المجتمع الإسرائيلى من ناحية ثانية.

الخروج من التيه

عبدالعزيز حمودة

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ٣٨٠ صفحة

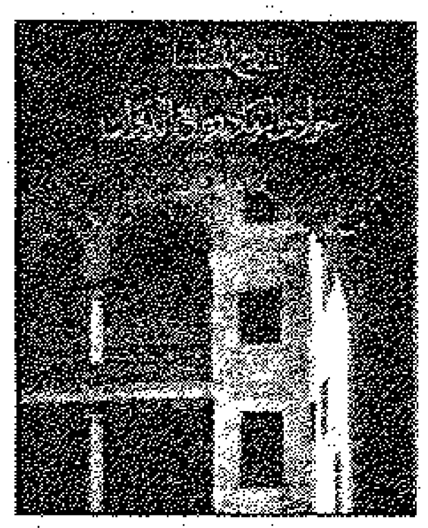


بعد كتابه «المرايا المقعرة» الذى حاول فيه المؤلف وضع أسس لنظرية نقدية عربية بديلة، فى مواجهة نظريات ما بعد الحداثة التى جاءت بها علينا المدارس النقدية الغربية.

يأتى هذا الكتاب الذى يتابع المحاولة السابقة بالعودة إلى النص وتأكيد سلطته.

على أساس أن تأكيد سلطة النص هى محور أى عملية تحديث للعقل العربى، بعد أن تاه النص فى خضم ثقافة مهيمنة أفرزها نظام دولى جديد يسعى لابتلاع الثقافة القومية.

اكتشاف أول مخطوطة عن برلمان الحملة الفرنسية



بالصدفة تم اكتشاف هذا المخطوط فى فرنسا، إذ كانت إحدى السيدات تنوى بيع منزلها، وجال بخاطرها أن تفرز محتويات مخزنه الذى لم تقترب منه منذ أن اشترت المنزل، وأثناء عملية الفرز عثرت على المخطوطة المكتوبة بلغة عربية قديمة نسبياً يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر، كانت المخطوطة فى حالة رثة، وقد تآكلت أطرافها بفعل الزمن، وبفعل الفئران التى أتت على بعض صفحاتها.

المهم أن المخطوطة وصلت فى نهاية المطاف إلى «أندريه ريمون» الباحث المشهور بدراساته المعمقة عن تاريخ القاهرة، والذى شغل منصب مدير المركز الفرنسى فى دمشق، والذى بدأ التعاون مع الدكتور محمد عفيفى أستاذ التاريخ المتخصص فى تلك المرحلة فى تحقيق المخطوط بعد ٢٠٠ سنة من مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر، وكانت مفاجأة أن المخطوط يتناول وقائع الديوان الثالث الذى أنشأه الجنرال «مينو»، أو عبدالله مينو كما لقبه المصريون، وهو ثالث قواد الحملة الفرنسية على مصر، وهو «البرلمان» الذى تولى تسيير أمور الدولة.

وميزة هذا المخطوط، أنها المرة الأولى التى يعثر فيها على النص الأصلى لوقائع ما دار فى الديوان، وقد استفاد «الجبرتى» مما كتبه «الخشاب» كما استفاد مما كتب السابقون عليه عن ديوانى بونابرت وكليبر.

وهذا الديوان ليس فقط جزءاً من تاريخ مصر، وإنما كذلك من تاريخ فرنسا، ويشير عفيفى إلى عدة مزايا للمخطوط، أولها أن الديوان يمثل مراجعة لكتابات الجبرتى، فبرغم أن الجبرتى نفسه يذكر كراريس الخشاب التى استفاد منها، إلا أنه فى معظم ما كتب، بقى متحيزاً للطبقة الوسطى المثقفة التى ينتمى إليها، متجاهلاً الكثير مما ذكره الخشاب، ويلاحظ عفيفى أن ذكر الجبرتى لم يرد فى وقائع الديوان برغم أنه كان أحد أعضائه إلا مرتين فى واقعتين تتعلقان بأملاكه، وبقى على حالة الحذر التى لازمته، لا يتدخل فى الديوان كى يبقى على علاقة وطيدة برجالات الديوان والحملة معاً، وقد أضير معظم المشايخ الذين شاركوا فى الديوان وانقلب عليهم الفرنسيون أما الجبرتى فلم يمسسه شىء.

من ناحية ثانية، فإن الديوان بوقائعه يمثل أول جدل بين عقلية العلماء والعقلية الفرنسية، وعديد من مناقشاته بدت سابقة لأوانها، كالنقاش حول فكرتى الشريعة والقانون. أو المقاومة السلبية، كما يشير الديوان إلى ظهور مفاهيم سياسية جديدة فى الفكر السياسى العربى عبر هذا الجدل.

وتشير وقائع الديوان إلى إشكاليات التواصل بين الشرق والغرب، والتى مازلنا نعانى منها حتى اليوم، وفى هذا الوقت كانت اللغة عائقاً أساسياً، إذ كانت الترجمة بين القادة الفرنسيين والعلماء المصريين يتولاها مترجم شامى، وكثير مما نقله أدى إلى سوء فهم وأحياناً سوء تفاهم، وتؤكد الوقائع التى كتبها الخشاب أن الفرنسيين تنبأوا بأن مصر ستصبح مطمعاً للمستعمرين، وهو ما جرى تماماً بعد ذلك، منذ مجىء الحملة سنة ١٧٩٨ وحتى رحيل الإنجليز فى ١٩٥٤ والوقائع تؤكد أيضاً أن المصريين عرفوا شكلاً ما من الشورى أو البرلمان المصغر قبيل مجىء الحملة، وليس كما قال لويس عوض أنهم هم الذين عرّفوا المصريين بهذا الشكل من أشكال الحكم، كما يكشف الديوان عن الأسلوب الذى اتبعه العلماء فى مواجهة الحملة، والخطاب الذى اعتمدوه فى مواجهتهم، والذى قام أساساً على قدر من التحايل والنفاق المشروع كى تتحقق الأهداف.

أخيراً، فإن اكتشاف هذا المخطوط بالصدفة، يبعث الأمل ليس فى مزيد من الصدف التى تعيد كتابة تاريخنا، وإنما فى اكتشافات أخرى يضطلع بها باحثون مصريون متخصصون، ينقبون عن الوثائق الضائعة داخل مصر وخارجها.

حوادث الزمان ووقائع الديوان لإسماعيل الخشاب

تحقيق/ محمد عفيفى وأندريه ريمون

القاهرة/ المعهد العلمى للآثار الشرقية، ٢٠٠٤

عماد الغزالى

الفاطمية.. دولة التفاريح والتباريح

جمال بدوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ١٥١ صفحة



تتميز المناسبات الدينية عند المصريين بمظاهر احتفالية خاصة، وترتبط كل مناسبة بنوع معين من الطعام والحلوى كالقطايف والكنافة، وطبق عاشوراء، فضلاً عن مواكب وأناشيد الاحتفال.

والمصريون يمارسون ذلك كله وأكثرهم لا يعرف أن هذه المظاهر هى ابتكارات أصيلة للدولة الفاطمية التى وفدت إليهم من المغرب العربى بمذهبها الشيعى.

وفى سعيها لنشر المذهب بين المصريين وهم سنة فى أغلبهم، أقامت لهم الجامع الأزهر، وكى تحببهم فى المناسبات ذات الصلة بآل البيت اخترعت لهم صنوفاً من الحلوى وأطايب الطعام، مثل طبق عاشوراء الذى يؤكل فى ذكرى مقتل الإمام الحسين فى كربلاء.

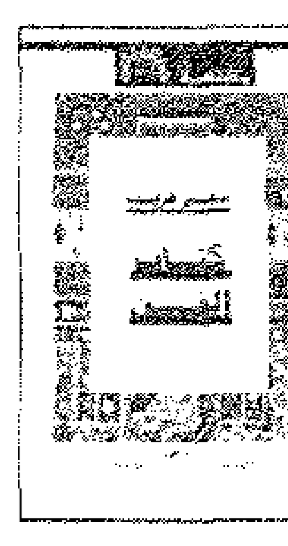
إلا أن المصريين استمتعوا بالطعام والحلوى وظلوا على مذهبهم السنى كما أن الأزهر تحول بمرور الزمن إلى مرجعية سنية ومدافع أصيل عن الوسطية الإسلامية.

والكتاب لا يقدم تاريخاً للدولة الفاطمية، لكنه يتوقف عند محطات بعينها، تشير إلى السياسة التى اتبعها الفاطميون وطريقتهم فى إدارة الدولة.

كتاب الفن

سمير غريب

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ٤٦٠ صفحة



يجمع الكتاب دراسات فى الفن والنقد التشكيلى كتبها المؤلف فى الفترة من أواخر السبعينيات وحتى عام ٢٠٠٢، استكمالاً لما ضمنه كتابيه السابقين «كتابات من زمن الحرية» و«كتابات الزمن الآخر».

والدراسات متنوعة، فهى لا تقتصر على الفنانين المصريين والعرب، كما لا تتوقف عند مدرسة فنية أو اتجاه دون آخر، فهو يتناول بالنقد معارض لآدم حنين وسونيا يونان وفاروق حسنى وطه حسين والبهجورى وحامد عبدالله ونازلى مدكور ومصطفى الرزاز وفرغلى عبدالحفيظ وصالح رضا ومنير كنعان وغيرهم.

كما يتنقل بين مدارس واتجاهات الفن التشكيلى من كلاسيكية إلى تأثيرية إلى سوريالية وتجريدية، ويكتب كذلك عن فن التصوير الإسلامى والخط العربى والتشكيل الفرعونى والفن القبطى والخزفيات والأرابيسك.

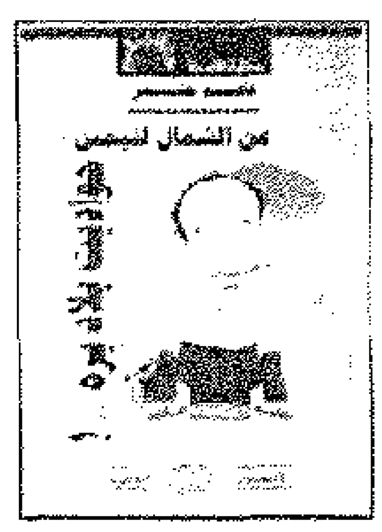
وفى الكتاب رؤية واعية لأعمال هنرى مور وفرنسيس بيكون وبولوك وشاجال وبيكاسو وهنرى ماتيس. فضلاً عن قضايا وإشكاليات تواجه الفن التشكيلى على مستوى الإبداع والتلقى فى آن معاً، منها مثلاً ما يكتبه ضمن سجال دار حول سؤال كنا نظن أن إجابته حسمت منذ قرون: هل الفن حلال أم حرام.

وهو بعد استشهاد بعديد من مواقف علماء الدين المستنيرين من أمثال الإمام محمد عبده، وبعد الاستدلال بآيات وأحاديث نبوية صحيحة، ينتهى إلى أن القرآن الكريم والحديث الشريف لم يحرما الفن تصويراً ونحتًا، لكن على العكس، وجدت آيات أخرى كثيرة تحض على الإبداع والتفكير والتأمل.

من الشمال لليمين.. حواديت بلاد بره

عاصم حنفى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ١٩٧ صفحة



يمثل المؤلف حلقة فى عنقود الكتابة الساخرة التى عرفت رموزاً لها فى مصر بينهم الراحلون محمد عفيفى، جليل البندارى، ويوسف عوف..

ومن رموزها الباقين محمود السعدنى وأحمد رجب.

وهى نوعية من الكتابة تحتاج إلى مواصفات وقدرات خاصة قائمة على الملاحظة والاستنتاج واختيار القالب الساخر لقضية قد تكون بالغة الجدة.

وفى هذا الكتاب يحكى المؤلف عن عديد من المشاهد والمواقف التى جرت فى زيارته لعدة مدن أوروبية فى سويسرا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا.

فيكتب عن جماعات التطرف الجنسى التى تخصصت فى خطف الأطفال وتقديمهم للشواذ من الأغنياء، وهى الشبكة التى ألقى القبض عليها فى بروكسل.

ويكتب عن حرب الاسباجيتى فى روما والحرب الضروس التى دخل فيها أغنياء العرب كى لا يأكلوا لحماً غير مذبوح على الطريقة الإسلامية: هم الذين يمارسون هناك كل الرذائل من زنى إلى قمار إلى شرب الخمر، إلا أكل اللحم على غير الطريقة الشرعية.

كما يحكى عن تجربة مدينة برن السويسرية فى مكافحة المخدرات، بإتاحتها فقط فى أماكن مخصصة لذلك، مثل الحدائق العامة المفتوحة، وهى التجربة التى قلدتها عدة مدن أوروبية.. هذه المشاهد وغيرها يتناولها المؤلف بأسلوب ساخر وعميق فى آن معاً.

سحر الكوميديا فى الفيلم المصرى

وليد سيف

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ٢٠٠ صفحة



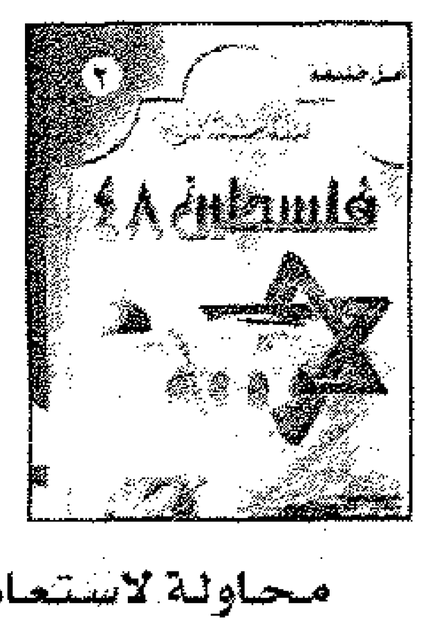
يسعى الكتاب إلى رصد تطور وتدهور اللغة السينمائية فى الأفلام الكوميدية المصرية، وهى التى تحظى بالإقبال الجماهيرى فى مصر حالياً، حتى ليكاد أن يكون الإنتاج السينمائى كله حالياً. إلا قليلاً. من هذه النوعية، كما أن نجوم هذا النوع هم الأكثر شعبية بين نجوم السينما المصريين.

يتابع المؤلف مسيرة الكوميديا منذ نجيب الريحانى وحتى المضحكين الجدد، مشيراً إلى السمات التى تميز بها كل منهم والتى ميزت الفيلم الكوميدى على مر العقود.

ماذا حدث فى فلسطين (جزءان)

أمل خليفة

الإسكندرية: دار المدائن، ٢٠٠٣



محاولة لاستعادة الذاكرة، وشحذ ذهن الأجيال الجديدة التى لا ترى على الخريطة السياسية للمنطقة ذكراً لدولة فلسطين وإنما دولة إسرائيل، وأما المدن فقد تغير اسمها وصار «الخليل» «حبرون»، و«أم الرشراش» «إيلات» و«يافا» «تل أبيب».. وهكذا، والمأساة لم تبدأ من قرار التقسيم ولا من حرب ١٩٤٨ التى لا يعرف أحد تفاصيل ما جرى فيها سوى نتيجتها المروعة، وتصحيح المفاهيم التى روج لها الصهاينة الأوائل استناداً إلى تفسيرات سياسية لما جاء فى التوراة مثل شعب الله المختار وأرض إسرائيل الموعودة.. إلخ، والأفكار الأولى لإقامة دولة لليهود فى فلسطين دون غيرها، ثم فلسطين المسلمة، ففلسطين تحت الانتداب، وصولاً إلى قرار التقسيم ومقدمات حرب ١٩٤٨، التى يبدأ منها الكتاب الثانى فى محاولة علمية لمعرفة ما جرى وفق المصادر الموثوقة المتاحة.

المفاوضات الدولية بين العلم والممارسة

محمد بدرالدين زايد

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ١٢٧ صفحة



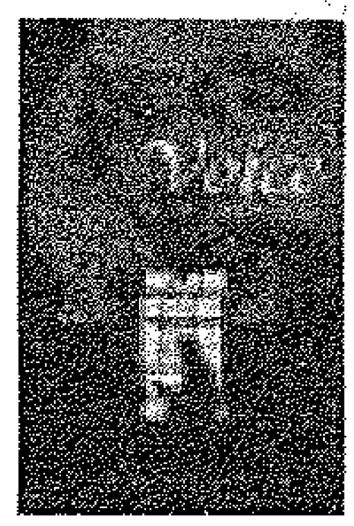
فى تقديمه للكتاب، يقول وزير الخارجية المصرية أحمد ماهر أن البشرية عرفت طريقين لحل المنازعات الفردية والجماعية، الطريقة الأولى عن طريق العنف، والطريقة الثانية بالحوار وصولاً إلى حل وسط، والمفاوضات الدولية تحتل مكانة مهمة فى الساحة الدولية، حتى إذا بدا أحياناً أن منطق العنف هو الذى يسود، وهدفها هو تحقيق هذا الحل الوسط.

والمؤلف، استناداً إلى خبرة عملية تراكمت عبر سنوات عمله الدبلوماسى، وصقلها بدراسات أكاديمية توجها بالحصول على درجة الدكتوراة فى العلاقات الدولية. يسعى عبر الكتاب إلى المزاوجة بين العلم والممارسة فى هذا المجال الحيوى المهم، دون أن يثقل على القارئ غير المتخصص بتعريفات علمية دقيقة، عارضاً لكيفية التفاوض وآليته ولغته، بدءاً من كيفية إعداد ملف التفاوض إلى بحث تأثيرات البيئة الخارجية، ويقدم فى النهاية مجموعة من النصائح لا يدعى أنها وصفة سحرية للمفاوض وإنما مجرد معالم فى طريق التفاوض، ومنها: تجنب الأحكام المطلقة، التحليل الدقيق للمشكلة، تحديد أهداف التفاوض، المعرفة العميقة بالعوامل التى تشكل السلوك التفاوضى، التحلى بالصبر والقدرة على التواصل، تركيز الانتباه لأهداف وتحركات الطرف الآخر.. إلخ.

Voice of an Exile: Reflections on Islam

(صوت من المنفى: أفكار عن الإسلام)

Nasr Abu Zaid, Esther R. Nelson
Praeger Pub, 2004, 232pp., $39.95



من المنتظر أن يصدر هذا الكتاب خلال الشهر الحالى، متضمنًا ليس فقط أفكار نصر حامد أبو زيد عن الإسلام، كما يدل العنوان، وإنما السيرة الذاتية لحياة نصر حامد أبو زيد، إذ يكتب عن طفولته فى قرية «قحافة»، ووفاة والده المبكرة وعنايته بإخوته، ثم تعليمه وسفره إلى الخارج، وزيجاته، والأحداث التى أدت إلى نفيه، وحياته فى المنفى طوال السبع سنوات الماضية.

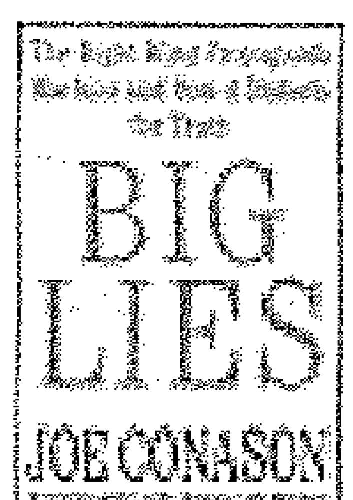
وخلال كل ذلك، يتعرض أبو زيد للتطورات السياسية المختلفة التى مرت بمصر، وللقضايا الأكاديمية التى استحوذت على اهتمامه، وأفكاره عن القرآن الكريم وتأويله وتفسيره..

يتناول أبو زيد قضايا مثل تعدد الزوجات وضرب الزوجات، والميراث والربا، ويؤكد على ضرورة فصل الدين عن الدولة لحماية الدين من ألاعيب السياسة.

Big Lies

(أكاذيب كبرى)

Joe Conason
St. Martin Press, 2004, 245PP., $ 24.95



يرد المؤلف فى هذا الكتاب على العديد من المغالطات والأكاذيب التى يروج لها اليمينيون المحافظون فى الولايات المتحدة الأمريكية.

سواء تلك التى يستخدمونها فى الهجوم على الديمقراطيين الليبراليين أو تلك التى يتخذونها كشعارات لهم فى الحملات الانتخابية.

يتناول الكتاب عشرة من الادعاءات التى كثيرًا ما يرددها الجمهوريون المحافظون مستغلين فى ذلك سيطرتهم شبه الكاملة على وسائل الإعلام ثم يتعرض لها بالنقد والتحليل ويفندها الواحدة تلو الأخرى مستعينًا بالوثائق والإحصائيات التى تثبت زيفها.

فعلى سبيل المثال يشير الكاتب إلى زعم الجمهوريين المحافظين أن مصلحة المواطن البسيط على رأس أولوياتهم، ومن أهم مشاغلهم ويدللون على ذلك بسعيهم الدائم لتخفيض الضرائب على العكس من الديمقراطيين.

ولكن الكاتب يكشف أن ٤٣٪ من تخفيضات الضرائب التى طبقها الرئيس جورج بوش عقب انتخابه استفاد منها الـ١٪ الأكثر دخلًا وثراء.

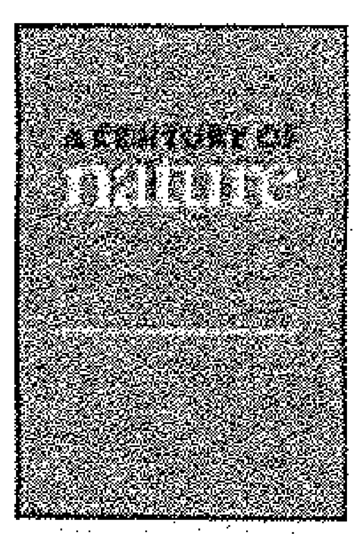
ويرى الكاتب أن تيار اليمين المحافظ كثيرًا ما يستخدم الادعاءات والأكاذيب كوسيلة لترهيب المنافسين السياسيين خاصة الديمقراطيين الليبراليين وقد تجلى ذلك بوضوح فى الشهور التى سبقت الحرب على العراق حين اتهم بعض المحافظين كل من يعارض سياستهم الخارجية بأنهم «خونة» و«طابور خامس» وبأنهم لا يدعمون القوات المسلحة ويتهربون من أداء الخدمة العسكرية، ولكن المؤلف يؤكد أن الديمقراطيين ليسوا أقل وطنية من غيرهم بدليل أنه فى الدورة الـ١٠٧ لمجلس الشيوخ كان عدد الديمقراطيين الذين خدموا سابقًا فى القوات المسلحة يزيد بقليل عن عدد نظرائهم من الجمهوريين.

ويعد هذا الكتاب بمثابة دفاع عن التيار الليبرالى فى الولايات المتحدة بعد الهجوم العنيف الذى تعرض له فى عدد من الكتب التى صدرت العام الماضى مثل كتاب «تشهير» لآن كولتر، و«انحياز» لبرنارد جولدبرج.

Century of Nature: Twenty A One Discoveries that Chaneged Science and the World

(قرن من مجلة نايتشر: واحد وعشرون اكتشافًا غيرت من مجرى العلم والعالم)

Laura Garwin & Lincoln
Chicago University Press, 2003, 288PP., $ 25.00



تفخر مجلة «نايتشر» (Nature) الأمريكية المتخصصة فى العلوم بكون أكثر الاكتشافات العلمية فى القرن العشرين قد نشرت لأول مرة على صفحاتها. من هذه الاكتشافات، العثور على أول حفرية تدل على صلة ما بين الإنسان والقرد عام ١٩٢٥، وتحديد أول كوكب خارج مجموعتنا الشمسية عام ١٩٩٥، والإعلان عن مولد النعجة دوللى المستنسخة عام ١٩٩٧.

ويأتى هذا الكتاب الآن ليعيد نشر واحد وعشرين مقالًا أو تقريرًا كانت بمثابة فتح جديد فى أحد المجالات العلمية، ويصاحب كل مقال مقال آخر معد خصيصًا للكتاب لشرح أهمية الإسهام العلمى الذى جاء به، يضعه فى السياق التاريخى والحياتى الأشمل.

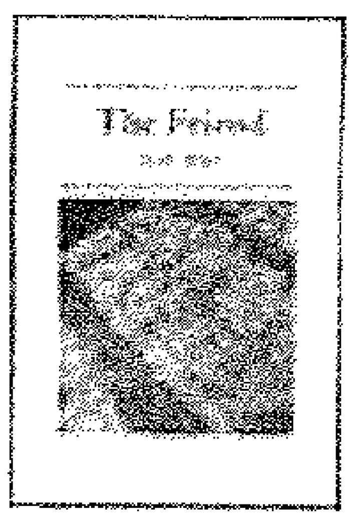
تلك المقالات الشارحة يكتبها علماء مرموقون، من بينهم أربعة حائزون على جائزة نوبل.

ويقول العالم الشهير ستيفن وينبرج فى تقديمه للكتاب أن المقالات المختارة من قبل محررى مجلة نايتشر تعد سجلًا مهمًا للتطور العلمى فى القرن العشرين، من الانشطار النووى وثقب الأوزون إلى الجينوم والنيوترون والدنا. علامات فارقة، ترتب عليها طرق جديدة فى التفكير وأثرت بعمق فى المجتمع الإنسانى.

The Friend

(الصديق)

Alan Bray
Chicago University Press, 2003, 392pp., $40.00



يبحث الكتاب فى تطور فكرة ومعنى الصداقة بين الرجال فى إنجلترا على مدى الألف عام الماضية. ويصل المؤلف إلى استنتاجاته من خلال ملاحظة شواهد القبور وما يكتب عليها، الكتابات الأدبية واللاهوتية والفلسفية الإنجليزية المختلفة. ويبين الين براى (الأستاذ الفخرى فى بحوث التاريخ الاجتماعى بجامعة بيركبيك بلندن والذى توفى العام الماضى فقط) كيف أن التعبير العام عن تلك العاطفة الخاصة كان أمرًا عاديًا جدًا فيما قبل العصر الحديث.

وقد وجد براى أن أخلاقيات الصداقة قد اختلفت عبر القرون، من التركيز التقليدى على قيمة الإخلاص والولاء، إلى فكرة الخلق القويم المتأثرة بفلسفة كانط، ثم قيمة الجنس التى تم التركيز عليها فى العصر الحديث. فهو يعترض على كثير من المؤرخين المحدثين الذين يفسرون علاقات الصداقة المختلفة بين الرجال فى التاريخ تفسيرًا جنسيًا بالضرورة، مؤكدًا أن الرغبات الجنسية المثلية لم تكن دائمًا ركنًا من أركان علاقة الصداقة بين الرجال.

Revolution day.. The Human Story of the Battle for Iraq

(يوم الثورة.. القصة الإنسانية لمعركة العراق)

Rageh Omaar
Viking, 250PP., £17.99



بالنسبة لملايين الأشخاص الذين كانوا يتابعون أحداث الحرب الأمريكية فى العراق والتى انتهت بسقوط بغداد فى ٩ أبريل الماضى، كان راجح عمر مراسل تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية «بى بى سى» هو الوجه المميز لتلك الحرب فقد اختارته نسبة كبيرة من المشاهدين خاصة فى بريطانيا كأحسن مراسل حربى غطى حرب العراق.

كان عمر واحدًا من ١٠٠ مراسل صحفى اختاروا البقاء فى بغداد أيام ما قبل الحرب وكان الأمر أقرب إلى الجنون حسب وصف زملائهم الآخرين الذين غادروا العراق. وقد أقام هؤلاء المراسلون الشجعان الذين أصروا على البقاء بالعراق فى فندق فلسطين، وبينما كان ربع مليون جندى أمريكى يتجهون إلى بغداد لم يكن هؤلاء المراسلون يعلمون ما إذا كان العراق سيستخدمهم كدروع بشرية، كما حدث فى حرب الخليج الأولى أم لا.

لقد أراد عمر أن يروى قصته فى بغداد فى هذا الكتاب وهو لم يقترب كثيرًا من السياسة وأمورها الشائكة خاصة موقف الحكومة البريطانية الداعم بشدة للحرب وللموقف الأمريكى، ولذلك عندما تحدث عن أسلحة الدمار الشامل على سبيل المثال فإنه يكتفى بالقول.. حتى الآن فإن ما نعرفه هو أنه لم يتم العثور على دليل يثبت وجود تلك الأسلحة.. لكن عمر يدرك تمامًا أن مسألة المفتشين الدوليين بشأن أسلحة الدمار مسألة جانبية وأن القرار بشأن الإطاحة بصدام حسين تم اتخاذه فى واشنطن قبل تفجر الأزمة بوقت طويل.

وعلى عكس معظم المراسلين الغربيين، فإن عمر الصومالى الأصل يتحدث العربية ولذلك فقد كان يمضى أوقاته فى مقاهى شارع الرشيد ويحاول أن يعرف العراق بعمق وليس على السطح كما يبدو الأمر فى تقارير المراسلين الغربيين.

ويكتب عمر.. بدا الأمر كما لو كانت المدينة كلها (بغداد) تتجه وهى نائمة نحو الحرب. فالشعب العراقى لا حول له ولا قوة وهو محصور بين سلطة ديكتاتورية لا تهتم إطلاقًا برأيه وقوى غربية لا يعرفون عنها شيئًا.

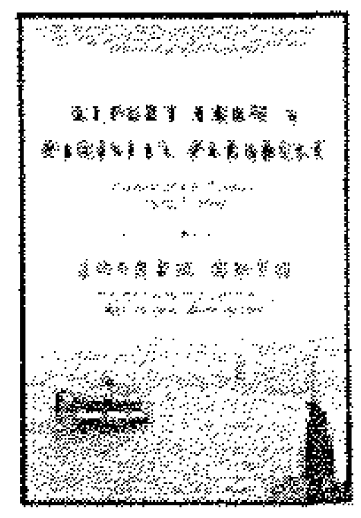
ويتناول الكتاب تأثيرات الحصار

الغربي على العراق وخاصة على الأطفال ويتحدث عن النقص الشديد في الأجهزة الطبية..

وعن فقر الحياة الثقافية والعلمية في العراق نتيجة هجرة العقول فراراً من بطش صدام.

وعن البطالة الواسعة النطاق التي تفشت ولذلك لم يكن غريباً أن يقابل مهندساً يعمل سائق سيارة أجرة ومدرساً يبيع السجائر.

أمريكا في عصر الحداثة.. والأوروبيون تجاوزوها



The Breaking of Nations.. Order and Chaos in the 21st Century

(انفراط عقد الأمم.. النظام والفوضى في القرن الحادي والعشرين)

Robert Cooper

Atlantic Monthly Press: 180PP., $18.95

روبرت كوبر مؤلف هذا الكتاب دبلوماسي بريطاني كان من أقرب مستشاري السياسة الخارجية لرئيس الوزراء البريطاني بلير ثم عمل تحت رئاسة سولانا الممثل الأعلى للسياسة الخارجية والأمن في الاتحاد الأوروبي.

والكتاب يمثل محاولة من جانب كوبر في تضييق الفجوة الأيديولوجية بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والتي ظهرت بشكل واضح خلال أزمة احتلال العراق الأخيرة.

ويبدأ كوبر، الذي يعمل حالياً مديراً عاماً للشئون السياسية والعسكرية في المجلس الوزاري الأوروبي، بتقسيم عالم ما بعد الحرب الباردة إلى ٣ أقسام، فهناك العالم ما قبل الحديث مثل الصومال وليبيريا حيث انهارت الدولة القومية وتركت الفوضى في أعقابها.

القسم الثاني هو العالم الحديث حيث يبقى نظام الدولة الكلاسيكي هو الأساس. وفي هذه المناطق التي يطلق المؤلف عليها العالم الحديث هناك يسود نوع من السلام كما في الخليج وشرق آسيا، إما بسبب توازن القوى أو وجود قوى خارجية كالولايات المتحدة.

القسم الثالث حسب المؤلف هو العالم ما بعد الحديث وتحت هذا التصنيف يوجد الاتحاد الأوروبي فقط، بينما تحاول اليابان الانضمام إلى هذا العالم. إن كوبر لا يؤمن بأن الاتحاد الأوروبي يمكن أن يتحول إلى دولة قومية واحدة لكنه على الأرجح سيصبح كياناً ما بعد قومي حيث تتلاشى الحدود بين السياسة الداخلية والخارجية.

إن ما سبق قد يعني أن الاتحاد الأوروبي الذي هو حسب المؤلف في مرحلة «ما بعد الحداثة» وليس في مرحلة الحداثة، كما هو الأمر بالنسبة للولايات المتحدة، أعلى أخلاقياً من أمريكا إلا أن المؤلف يعود فيقول إن الفضل يعود فيما حققه الأوروبيون إلى الولايات المتحدة فهي التي دعمت أمن أوروبا من خلال القوة المسلحة، ويقول كوبر إن الأوروبيين يحتاجون إلى العودة إلى طرق وأساليب أكثر حدة تعود لعصور سابقة من القوة والهجمات الاستباقية والخداع وكل ما هو ضروري لمواجهة هؤلاء الذين لازالوا يعيشون في عالم القرن التاسع عشر والذي كانت فيه كل دولة تعمل لصالحها فقط.

كما أن كوبر يرى أن أساليب السياسة القديمة التي كانت تقول إن على الدولة ألا تتدخل في الشئون الداخلية لدولة أخرى لم تعد أيضاً صالحة لعالم ما بعد الحداثة.

ويرى المؤلف أيضاً أن سيطرة دولة واحدة على العالم ربما تكون مهمة أكبر حتى من قدرات الولايات المتحدة ويستطرد محذراً أن فكرة وجود دولة لا يمكن محاسبتها لا يمكن الموافقة عليها وهو يدعو الولايات المتحدة إلى أن تحصل على الشرعية لأي عمل تقوم به من خلال الأمم المتحدة.

وفي الوقت الذي يتعين فيه على الأمريكيين أن يكونوا ما بعد حداثيين قليلاً فإن على أوروبا أن تكون أقل ما بعد حداثية قليلاً عن طريق زيادة إنفاقها العسكري أو على الأقل التنسيق بين البرامج العسكرية لدولها. ولتحقيق الهدف الطويل الأمد وهو قيام عالم تحكمه القوانين وليست القوة، فإن كوبر يخلص إلى أننا نحتاج إلى كل من القوة العسكرية وشرعية العمل المتعدد الأطراف.

إن ما سبق لا يمكن رفضه لكن السؤال هو هل ذلك يمكن تحقيقه؟ في عديد من المجالات تكون الإجابة بنعم، فالولايات المتحدة تحتاج إلى الانصياع تحت مظلة العمل الجماعي عندما يتعلق الأمر مثلاً بقواعد منظمة التجارة العالمية بينما يحتاج الأوروبيون إلى استخدام القوة عندما يتعلق الأمر بوقف التطهير العرقي، كما حدث في البلقان.. لكن المشكلة تأتي من حالات صعبة قد لا يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

ماكس بوث

باحث في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي. هيرالد تريبيون

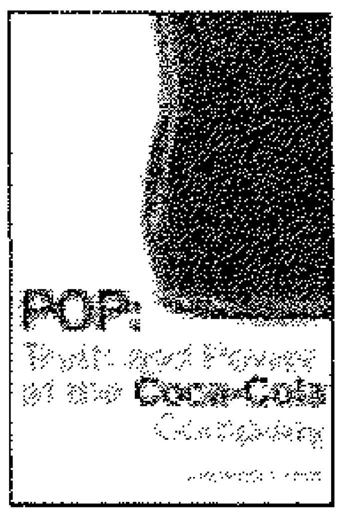
▪

POP: Truth and Power at the Coca Cola Company

(حقيقة ونفوذ شركة كوكاكولا)

Constance Hays

Hutchinson, 398PP., £18.99



هناك نكتة شهيرة تقول إن الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان كان نائماً في الليل عندما اتصل به أحد مساعديه قائلا:

إن الروس هبطوا على سطح القمر فنهره ريجان قائلا:

عد إلى نومك مرة أخرى لكن بعد ساعة اتصل هذا المساعد مرة أخرى ليقول له سيدي الرئيس. لقد لون الروس نصف سطح القمر باللون الأحمر لكن ريجان لم يكترث ثم اتصل المساعد مرة ثالثة ليقول:

الروس أكملوا تلوين سطح القمر باللون الأحمر فرد ريجان هذه المرة قائلاً: إذن ارسل أحد الأشخاص إلى القمر ومعه لون أبيض حتى يكتب على سطح القمر كوكاكولا.

إن هذه النكتة السابقة تظهر كيف ارتبط اسم كوكاكولا بأمريكا.. إنها ليست مجرد مشروب لكنها أقرب إلى نموذج حياة.

وفي هذا الكتاب يروي كونستانس هايس كيف صعدت شركة كوكاكولا إلى القمة من أصل متواضع للغاية لكنها تعرضت لمشاكل كثيرة في عقد التسعينيات من القرن الماضي.

يأخذ المؤلف حيزاً كبيراً من الكتاب في الحديث عن نشأة الشركة وكيف أن أحد الصيادلة الأمريكيين ويدعى جون بمبرتون ابتكر تركيبة صودا معينة لمشروب عام ١٨٨٦ ثم باع التركيبة لبائع نشيط يدعى أسا كاندلر.

وبحلول عام ١٨٩٥ كان المشروب يباع في كل أمريكا.

لكن المحاميين بنجامين فرانكلين توما وجوزيف وايتهيد هما من ابتكرا اسم كوكاكولا وحصلا على امتياز البيع من كاندلر.

ثم تطورت كوكاكولا لتصبح السلاح السري للولايات المتحدة في العالم خاصة في عصر الحرب الباردة. وكان من العلامات المميزة للأسلوب الأمريكي في الحياة إضافة إلى الجينز والوجبات السريعة.

▪

Orwell: The Life

(أورويل.. حياة)

DJ Taylor

Vintage, 2004, £ 8. 99



كانت رغبة الأديب البريطاني الراحل جورج أورويل التي عبر عنها مراراً هي أن يبتعد كتاب السير الذاتية عنه وألا يعيروه اهتمامهم.

لكن هؤلاء الكتاب للأسف لم ينفذوا وصية أورويل وتتالت الكتب التي تتحدث عن حياة هذا الأديب والكاتب المتميز. وخلال نصف القرن الماضي الذي تلى وفاة أورويل كتب مؤلفون كثيرون عن أورويل. ومن أحدث هذه الكتب ما قدمه المؤلف البريطاني دي جي تايلور بعنوان «أورويل.. حياة»، وفيها يرى أن أورويل واسمه الحقيقي أريك بلير عمل بشكل جاد من أجل أن يقدم للعالم شخصية مستقلة التفكير هي الروائي وكاتب المقالات جورج أورويل وذلك بتصوير نفسه كشخصية بسيطة ومباشرة. إلا أن المؤلف يقول إن أورويل كان قادراً على إخفاء تعقيدات شخصيته.

ويشير المؤلف إلى أن أي سيرة ذاتية عن أورويل لابد أن تأخذ في اعتبارها ذلك التعقيد أو التناقض في شخصيته فهو إنسان يكره الإمبريالية، لكنه بدأ حياته العملية عضواً في بوليس الهند الإمبريالي.

وهو رجل اليسار الذي يستخف بل يحتقر زملاءه الاشتراكيين لأنهم حسب رأيه لا يريدون أن يعترفوا بالواقع.

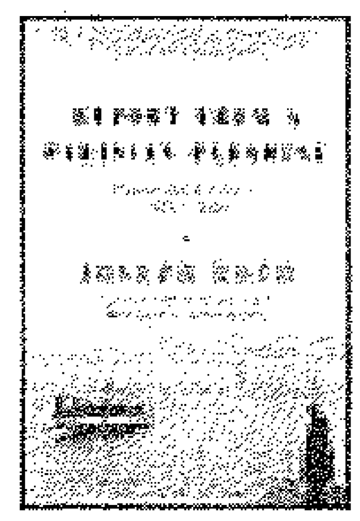
وهو أيضاً الرجل الذي رسم صورة عن نفسه بأنه زاهد متقشف لا يرغب في الانغماس في هذا العالم وهي صورة تتناقض مع رغبته الداخلية في أن يكون له دور أساسي.

ويحاول تايلور أن يجمع تفاصيل وتناقضات هذه الشخصية العبقرية ويقدم للقارئ صورة يعتقد أنها تعبر عن أورويل.

▪

Report From A Parisian Paradise.. Essays From France, 1925-1939
(جنة باريس)

Joseph Roth
Translation and Introduction by Micheal Hofmann. Illustrated.
301pp., $24.95. w.w Norton



يعيد هذا الكتاب القارئ إلى أجواء باريس عاصمة النور والجمال والفن فى فترة لن تتكرر.

حينذاك كانت باريس محط أنظار العالم وهى فترة تمتد من عشرينيات القرن العشرين حتى عام ١٩٣٩.

أى قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية واحتلال العاصمة الفرنسية بعد ذلك على أيدى النازى.

ومؤلف هذا الكتاب صحفى ألمانى عاش فى عاصمة النور فى الفترة من ١٩٢٥ حتى ١٩٣٩ عندما توفى.

وكان يراسل صحيفة ألمانية من باريس حتى عام ١٩٣٣.

كانت كتابات جوزيف روث مليئة بالإثارة والمتعة والإعجاب بعظمة باريس التى أصبح عاشقًا لها.

وهو يقول: باريس عاصمة العالم ولابد من زيارتها. لقد كانت المدينة التى يحلم بها.

وخلال تلك السنوات الطويلة رسم المؤلف لوحة ضخمة لباريس وللمدن الفرنسية الأخرى مزج فيها الشخصى بالموضوعى.

وكان مفتاح كل تلك الموضوعات التى كتبها هو الحب لباريس.

لكنه وسط ذلك لم ينس أن يتحدث عن الطبقة السياسية الفرنسية آنذاك ورغبتها فى تجنب الصدام مع هتلر بأى ثمن حفاظا على مصالحها وحياتها الباذخة.

ولأنه يهودى فقد تحدث كثيراً عن اليهود وتوقع أن يصطدم بهم هتلر الذى تولى الحكم فى ألمانيا عام ١٩٣٣.

وعند هذا العام شعر روث أنه لم يعد قادراً على نشر ما يرسله فى ألمانيا وتحول إلى الكتابة فى صحف ألمانية فى المنفى.

وكانت كتاباته فى تلك الفترة يغلب عليها التشاؤم والنزعة المناهضة لألمانيا.

وبالطبع فإن الكتاب قد صدر بداية بالألمانية ثم ترجمه إلى الإنجليزية مايكل هوفمان.

Arab Mass Media: Newspapers, Radio, and Television in Arab Politics
(الإعلام العربى الجماهيرى: الصحف والراديو والتليفزيون فى السياسة العربية)

William A. Rugh
Praeger, 2004,
280 PP., $49.95



يعمل ويليام روج مؤلف هذا الكتاب رئيساً لمنظمة الخدمات التعليمية والتدريبية الأمريكية فى الشرق الأوسط (AMIDEAST).

وهو يجيد اللغة العربية، كما عمل قبل ذلك سفيراً للولايات المتحدة فى كل من اليمن ودولة الإمارات العربية المتحدة. وهذا هو كتابه الثانى عن الإعلام العربى، بعد كتاب «الإعلام العربى: الصحافة والعملية السياسية فى العالم العربى» الذى صدر عام ١٩٨٧.

فى كتابه الجديد، يقدم روج نظرة أوسع على الإعلام العربى بما يشمله من صحافة وإذاعة وتليفزيون وقنوات فضائية، كما تختلف رؤيته عما هو شائع فى الكتابات الغربية التى ترصد وتحلل الإعلام العربى من خارج المنظمة العربية.

يسلم ويليام روج بشدة السيطرة الحكومية على الإعلام فى العالم العربى مقارنة بأوروبا والولايات المتحدة.

إلا أنه مع ذلك يؤكد على وجود قدر كبير من التنوع فى الإعلام العربى، يفوق بكثير ما يتصوره غالبية الناس فى الغرب.

ويعنى روج فى تحليله بوضع تقسيمات تاريخية مختلفة لإبراز مراحل التطور.

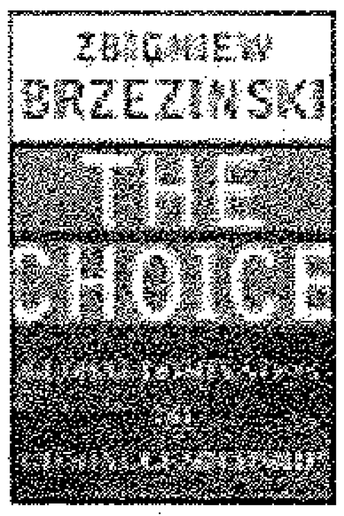
وهو يتخذ من عام ١٩٩٠ عاماً حاسماً فى تطور التليفزيون العربى بشكل عام.

وفى النهاية يخلص الكتاب إلى أن ظهور قنوات التليفزيون ذات الملكية الخاصة فى العالم العربى كان أمراً إيجابياً عكس التعددية والتباين فى الآراء التى تسرى فى الشارع العربى.

بل ويعتقد روج أن عصراً جديداً من الليبرالية الإعلامية قد بدأ بالفعل فى العالم العربى مما سوف يكون له دور إيجابى فى عملية التحول.

The Choice: Global Domination or Global Leadership
(الاختيار: سيادة عالمية أو قيادة عالمية)

Zbigniew Brezezinski
Basic Books, 2004, 242PP., $ 25.00



اتخذ المحلل السياسى المخضرم بريجنسكى موقفاً معارضاً للسياسة الخارجية التى ينتهجها الرئيس بوش منذ رد الفعل الأمريكى لهجمات سبتمبر. وقد حظيت انتقاداته باهتمام خاص لسببين.

الأول: انتماء بريجنسكى للمؤسسة السياسية بصفته مستشارا سابقا للأمن القومى الأمريكى فى عهد الرئيس كارتر،

والثانى: انتماؤه لمدرسة الصقور الأمريكية إن جاز التعبير، فهو صاحب مواقف حربية سابقة اتسمت بالشدة والصرامة فى استخدام القوة العسكرية الأمريكية، أثناء العداء مع الاتحاد السوفيتى.

لهذا ينظر لانتقادات بريجنسكى باعتبارها قائمة على حكمة سياسية وخبرة استراتيجية طويلة. وفى هذا الكتاب يدلل بريجنسكى على أن تصرفات الإدارة الأمريكية تمضى فى طريق زوال القيادة الأمريكية للعالم. فالقيادة السياسية والاقتصادية فى زمن العولمة تتطلب شركاء وحلفاء وتبادلا للمصالح المشتركة، أما محاولة فرض الهيمنة والسيادة الأمريكية باستخدام القوة فلن تؤدى سوى إلى هدم أساس الأمن المشترك الذى صنعته أمريكا مع حلفائها فى السابق.

يعتقد بريجنسكى أن رد الفعل الأمريكى تجاه هجمات سبتمبر كان مبالغًا فيه.

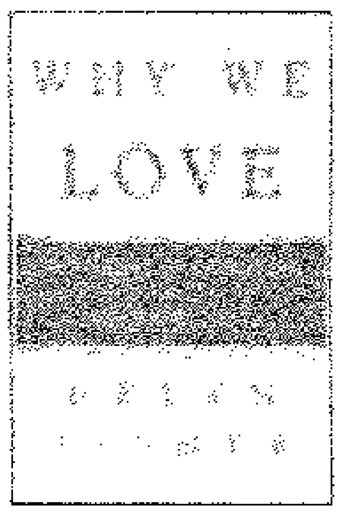
كما ينتقد اتخاذ ما سمى بالإرهاب هدفًا حربيًا.

وهو يتعجب من إصرار الإدارة الأمريكية على تجاهل السياق السياسى للإرهاب، بعدم الربط بين طبيعة التورط الأمريكى فى الصراع العربى الإسرائيلى لصالح إسرائيل، وبين زيادة الكراهية والعداء ضد أمريكا.

إن بريجنسكى يدعو إلى مراعاة توازن القوى من أجل الحفاظ على الأمن والاستقرار العالمى الذى هو الضمان الحقيقى لقدرة أمريكا على قيادة العالم سياسيًا واقتصاديًا فى ظل مناخ العولمة.

Why We Love: The Nature and Chemistry of Romantic Love
(لماذا نحب؟ طبيعة وكيمياء الحب الرومانسى)

Helen Fisher
Henry Holt & co., 2004,320PP., $ 25.00



لماذا نحب؟ الإجابة فى النوربينفرين والدوبامين، وهما مادتان كيماويتان اختبرتهما الباحثة الأنثروبولوجية هيلين فيشر بعد أن قامت بعدة مسوح على البشر والحيوانات على السواء. وجدت فيشر أن الشعور بالحب والسلوك الرومانسى، بل والحب من أول نظرة، متوطن فى الإنسان وغيره من الطيور والحيوانات الثديية، حيث يتفاعل المخ كيميائيًا محدثًا طاقة مصدرة للعاطفة والبهجة والغيرة والاستحواذ.

وضعت الباحثة أربعين شخصاً يعانى الحب فى جهاز يصور ويراقب نشاط المخ، وسجلت ما يطرأ على مخ البنى آدم عندما توضع أمامه صورة الحبيب. وهى تستخدم نتائج أبحاثها العلمية والأنثروبولوجية لتشرح بالتفصيل ما يحدث للإنسان حين يمر بخبرة الحب، ولماذا يختار شخصاً بعينه دون الآخر، وكيف يؤثر الحب الرومانسى على الغريزة الجنسية. كما تحاول بعد ذلك تقديم بعض النصائح حول كيفية الحفاظ على الشعور بالحب أطول مدة ممكنة، وكيفية التصرف حين يواجه الإنسان آلام الانفصال أو الرفض.

وفى هذا الخصوص، تحذر فيشر من استخدام العقاقير المضادة للاكتئاب مثل دواء البروتزاك الشهير.

حيث إن مثل هذه العقاقير التى تحفز السيروتونين تؤدى إلى تبلد المشاعر على المدى الطويل، مما يضعف من إمكانية الاستجابة الشعورية الطبيعية حين يأتى الشريك المثالى، حيث لن يلاحظه المريض إذا كان مستهلكًا لهذا النوع من مضادات الاكتئاب.

قــــــراءة ..

حـــــــــديث المبـــــادرة

وأستأذن الأستاذ هيكل ابتداء في عنوان هذه الكلمات. وهو في الأصل عنوانٌ لكتاب له صدر قبل سنوات تناول فيه مبادرة السادات الشهيرة (١٩٧٧). وهي. رغم صلة غير خافية على أحد. غير تلك «المبادرة» التي تاه المثقفون والسياسيون العرب في تلافيفها منذ أن أعلنها الأمريكيون قبل أسابيع لصياغة «شرق أوسط جديد». لتنطلق إثرها موجة من «المبادرات المضادة»، لا أحد يعلمُ أين كانت. ولماذا الآن.. والآن فقط؟!

على طاولة، كان لابد لها أن تكون واسعةً بما فيه الكفاية، وضعت أمامى كومةَ المبادرات؛ التى أُعلنت أو تسربت، جديدُها وقديمها، ما جاء منها من الغرب وما جاء أيضا من الشرق. وما جاء بعد ذلك. وليس قبله. من الداخل؛ رسمياً أو غير ذلك. موصوفًا «بالشرعية» أو موصوماً بغيرها. والتى انهمرت بنودُها ونصوصُها فجأة على منطقتنا، أو تفجرت. على غير موعد. من وديانها وصحراواتها التى بدا لعقود أنها أجدبت أو خلت من كل نبتٍ جديد.

كانت الديباجاتُ والبنودُ كثيرةً، وكانت المقارنةُ «بين النصوص». لا النوايا. مثيرة. وإن كنتُ لا أظنها مفاجئة للكثيرين. فعدا مقولة الداخل والخارج، و«بيدنا لا بيد عمرو» لا تبدو الاختلافات «فى الكلام» كبيرة. يتساوى فى ذلك الذين طالما تحالفوا مع حكومات فى المنطقة مشكوك فى ديموقراطيتها، مع أولئك الذين جبلوا. بالتعريف والموقع. على معارضة تلك الحكومات. بل ويبقى مثيراً أن نجد ذلك كله لا يختلفُ كثيراً (نصوصاً لا نوايا) عما أصبحت الحكوماتُ ذاتها تقولُ به. فجأة. من أهمية «للإصلاح السياسى».

وإن كان التشابه. بل والتطابق. فى الشعارات واللافتات والعناوين مثيراً، يبقى موقف الأنظمة والحكومات ذاتها أكثر إثارة. إذ يستغربُ المتابعُ أولاً: حين لا يدرك طبيعةَ العائق الذى منع «من بيدهم الحل والعقد» من أن يحققوا الإصلاح الذى يتنادون إليه اليوم. ويستغرب ثانياً: أن يبادر أولئك. وبغض النظر عن شعاراتهم الجديدة. فيرفضون ابتداءً (بالاستنكار أو حتى بالاعتقال) أن يسمعوا لآخرين فى مجتمعاتهم؛ وقعوا بيانات أو أعلنوا مبادرات. وذلك تحت لافتةٍ بدت كالحةً بعد أن عرّتها رياحُ المرحلة: «من له حق الكلام».

يحتدمُ «حديثُ المبادرة». ويشتبكُ الجميع: المرتبكون، والخائفون. الذين ينحنون «لعلها عاصفة وتمضى»، والذين لا يطيقون أن يسمعوا كلاما حسنًا من أعداء الأمس. يشتبكُ الجميع، وتختلط الألفاظ والمصطلحات والدلالات والمعانى فى زعيقٍ يحسبونه حواراً. وقبل أن يذهب «الزبد»، تطلُ طائرةٌ إسرائيلية «أمريكية الصنع» على المشهد، وبدم بارد يطلقُ طيارٌ «شجاع» من مقصورة قيادته الوثيرة «الآمنة» ثلاثةَ صواريخ. لا رصاصة واحدة. على شيخ مُقعَد ساعةَ خروجه (على كرسيه المتحرك) من صلاة الفجر فى أحد مساجد غزة الصابرة، فتتناثر أشلاء كرسيه المتحرك مع أشلاء تسعة من المصلين. وتُلطخُ الدماءُ عباءته.. وبوابة المسجد. وتسكتُ الصواريخُ «الثلاثة» صوتَه الواهن «وتحسبونه هيناً.. وهو عند الله عظيم».

وفى حين يخرج الشارعُ «كله» بتلقائية مدهشة معبراً عن موقفه المتوحد. إن فى غزة أو نواكشوط أو بغداد «المحررة». يظل المشتبكون والمرتبكون على صفحات الصحف، وفى قاعات المؤتمرات، يدورون حول الحقائق.. وحول أنفسهم.

وفى حينٍ لا يعرفُ على الأرجح الذين كانوا اعتزموا الذهاب إلى تونس خطوتهم المقبلة. نعرفُ حقيقةَ أن اغتيال ياسين ليس «نزقة غضب» كما قد يتصور البعض قانعاً بالوصف والتفسير. بل هو ركن أصيل فى استراتيجية شارون المعلنة للفصل من جانب واحد أو فلنقل «غزة أولاً. وربما أخيراً».

١ - فبانسحابه من غزة يريدُ شارون. وبغض النظر عن التفصيلات المرتبطة بالأرض والسيادة... إلخ. مقاربةَ رؤية بوش «الطوباوية» شكلاً والقائلة بدولتين متجاورتين.

٢ - وباغتياله ياسين/ الرمز يريد شارون المضطرُ فعلياً للانسحاب من القطاع ذى الكثافة السكانية العالية أن يكسرَ شوكة حماس معنوياً. وإلا يكرر خطأ باراك حين انسحب من الجنوب اللبنانى معطياً زخماً قوياً للمقاومة الإسلامية متمثلة فى حزب الله الذى اعتبر الانسحاب انتصاراً له. وهو ما لا يريد له شارون أن يتكرر فى غزة معقل حماس وميدان مقاومتهم الرئيس.

٣ - كما أنه بجريمة تجاوزَ بها الخط الأحمر يريد أن يترك غزة على صفيح ساخن قد لا تملك السلطة له تبريداً فى المدى المنظور على الأقل.

٤ - و باستهداف رجل مشلول طاعن فى السن على باب المسجد عند الفجر ويضمانه سكوتًا أمريكياً عن فعلته، يريد شارون. معنوياً. أن يعرف العرب الذاهبون إلى قمتهم؛ أين مكانهم فى «شرق أوسط جديد».. وأين يقف حلفاؤهم.

فى الذكرى الأولى للاجتياح الأمريكى لعاصمة عربية. وعلى باب قمة عربية مفترضة بدا المشهدُ كأنه يتلخصُ فى جملٍ ثلاث: يتباهى الأقوياءُ بقوتهم، ويتسلى الطيارون بصواريخهم، ويتلهى المرتبكون بحديث المبادرة.

ولكن على هامش المشهد. أو بالأحرى فى القلب منه. يخرجُ المتظاهرون فى كربلاء «الشيعية»، احتجاجاً على اغتيال الشيخ «السنى» فى غزة. يهتفون «لا.. لأمريكا». ولكنهم يعرفون أن الشعار لا يعنى أبداً ما يحاول البعض أن يسمعوه قسراً وعسفاً: «نعم للاستبداد والفساد». بتلقائية مدهشة يدركون «أن لا صلة». ويعلنون بوضوحٍ رفضَهم لعسف المقايضة.

رغم كل شىء، وبغض النظر عن دوافع رافضى الاصلاح: حسنى النية أو غيرهم، يبقى صحيحاً تماماً أن الاحتلال الإسرائيلى وليس «اللا ديمقراطية» هو العائق الأول أمام الاستقرار فى المنطقة، إلا أننى لا أتفق مع المتمسكين أو «المتذرعين» بالربط القسرى «إجرائياً» بين المسألتين. إذ يعلم القاصى والدانى أن الصراعَ «التاريخى» بين العرب وإسرائيل؛ المجدول بالأساطير والعقائد والتاريخ والجغرافيا، هو فى حقيقته صراعٌ قديمٌ ومتشعبُ الأبعاد، ولا تبدو له. فى المدى المنظور على الأقل. نهايةٌ «حاسمة». وعليه فإن تأجيلَ الحقوق والاستحقاقات انتظاراً لتلك النهاية، يُذكِّرُنا. مع افتراض حسن النوايا. بأولئك القانعين بالتفرغ لرصد علامات يوم القيامة. كما أن الإقرار بحقيقة أن الانبعاث الحرارى يؤدى إلى اتساع ثقب الأوزون «لو صحت» لا يعفينا أبداً من مسئولية الحفاظ بيئياً على مياه النيل وحمايته من التلوث.

كما أننى لم أفهم على كل حال ما كتبه البعض من أن المبادرة «أخلت بالتفاهم الضمنى بين الحكومات العربية والولايات المتحدة.. هذا التفاهم الذى ألزم الأمريكيين بتحقيق السلام بين العرب وإسرائيل مقابل التزام الدول العربية المختلفة بالإصلاح داخل أوطانها لتنظيم علاقة الحاكم بالمحكوم...». إذ يبقى من الطبيعى أن نفهم أن التزام الحاكم بالإصلاح الديمقراطى هو التزام حيال من قُدر لهم أن يكونوا من محكوميه، وليس حيالَ أى طرف خارجى أيا كان. وعليه فإن هذا الالتزام يظل قائماً بغض النظر عن سلوك أطراف هى بحكم المنطق والتعريف القانونى ليست طرفاً فى هذه العلاقة.

لا يعنى أى من ذلك أبداً أن الولايات المتحدة الأمريكية مبرأة من القصد والهوى فى مشروعها لشرق أوسط كبير. فأصحاب البيت الأبيض لم يزعموا يوماً أنهم يديرون جمعية خيرية؛ بل دولة كبرى لها كما لأى دولة فى عالمِ اليوم سياسات ومصالح، وبحكم أنها الأكبر والأقوى و«المتفردة» تتشعبُ سياساتها وتمتدُ مصالحها لتشمل ربما كل بقعة فى تلك الأرض. (للولايات المتحدة اليوم قواتٌ عسكرية فى حوالى مائة دولة).

كل هذا صحيح، وربما أكثر. فالأمريكيون. وهم لا ينكرون ذلك بل يعلنونه كل صباح. يقصدون تغييراً جذرياً يهزُ. إن لم يقتلع. كل ثابت مستقر؛ صالحه وطالحه. بداية من ديكتاتورية الفرد وحتى نمط الحياة الأسرية.. وصولاً إلى استيعاب «الكيان» الإسرائيلى المتفوق نوعياً فى «وسط جديد» تفسحُ فيه مفاهيمُ القومية والعروبة وصلةُ الدين والدم مكانَها لقيم المصلحة والحداثة بمفهومها الغربى.

وبغض النظر عن طوباوية القصد أو مَكره، وبغض النظر عن الخطر الحقيقى الذى يتهدد قيمنا وثوابتنا، يبقى أن ليس كل ما يصفُ به الأمريكيون مجتمعاتنا ظلماً وبهتاناً. خاصةً إذا كان الحديثُ عن الديمقراطية (الحقيقية) وحقوق الإنسان.

وإنى لأستغربُ أن يذهبَ العداءُ للسياسات الأمريكية ببعض مثقفينا إلى حد التشيع للديكتاتورية والفساد وانتهاك حقوق الإنسان نكاية فى الأمريكان. إذ كان الأولى بهم أن يدافعوا عن مفاهيم هى فى التحليل النهائى «بضاعتُنا رُدَّت إلينا».

أيا ماكان، فهذه ذروة المشهد.

تصادمت المبادرات، ففشل العرب فى عقد قمتهم «التونسية»، بعد أن كانوا قد حزموا أمتعتهم فعلا إليها، هاربين من الاستحقاقات، ومن «الحقائق» على الأرض.. وربما أيضاً من «حصة الإملاء»! فلا العراقيون «تحت الاحتلال» حضروا قمة، ولا «ردٌ مستحيلٌ» على اغتيال الشيخ المقعد، ولا حديثٌ صعبٌ عن الديموقراطية.. أو «المبادرة»!

لا قمة للعرب.

بعد أن قرر مضيفهم «فجأة» أن يتجنب الحرج و«أشياء أخرى»، وأن يكفيهم شر الاقتتال.. والقتال.. والمبادرة.

أيمـــن الصيـــاد

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 65 - June 2004

مجلة شهرية . العدد الخامس والستون . السنة السادسة . يونيه ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

تأجيل الإصلاح دعوة للمجهول ! / أحمد كمال أبو المجد

نون : الوجه الآخر للإرهاب / سلامة أحمد سلامة

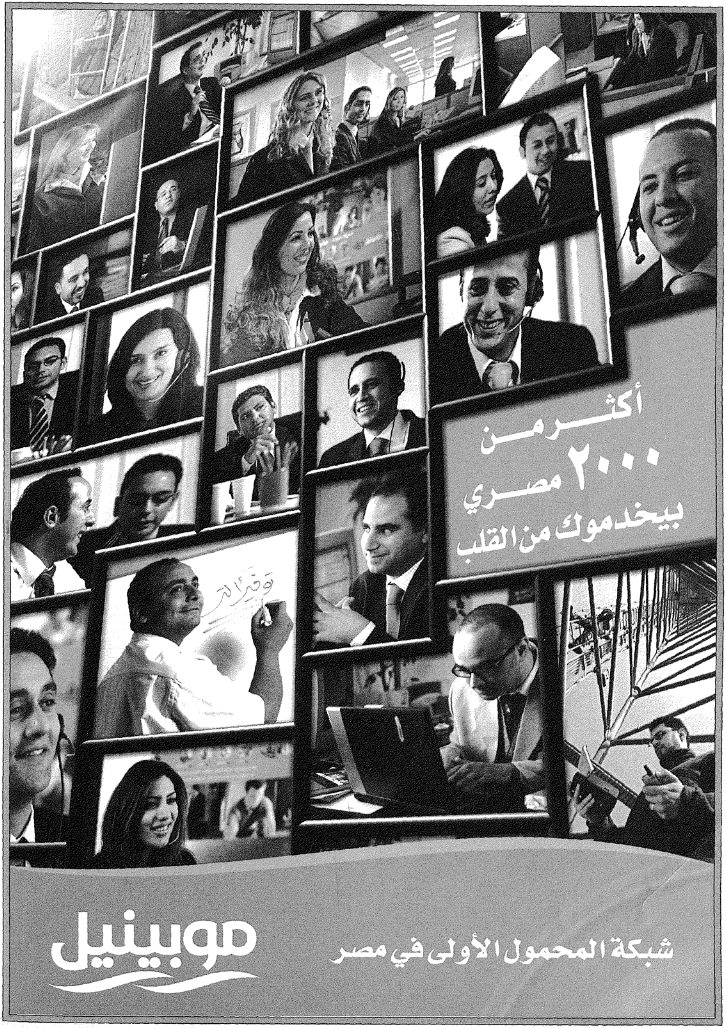
مصر والإسلاميون الجدد / مازن النجار

لماذا قامت الحرب ؟! / هانز بليكس

الخيبة !! / توماس باورز




ضاعف مدخراتك
من خلال
الوثيقة ذات العائد المدفوع مقدماً
OCTOBER
عائد شهرى لمدة ٣ سنوات
الوثيقة ذات العائد المتعدد العملات
أعلى عائد مع ضمان صرفه بالعملات الأجنبية
وثيقة الأمان
المستقبل آمن
إدخر وأمن مستقبلك
وثيقة الإدخار الذهبية
جنيه ذهب لكل ٢٥ ألف جنيه
RESALA
وتمتع بإمكانية
إصدار بطاقات البنك العربى
الإقتراض
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفيّة عربيّة
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
www.arabbank.com


أكثر من
٢٠٠٠ مصري
بيخدموك من القلب
موبينيل
شبكة المحمول الأولى في مصر

السنة السادسة
العدد الخامس والستون
يونية ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد كمال أبو المجد.. أستاذ القانون بجامعة القاهرة ونائب رئيس المجلس القومى لحقوق الإنسان.
- إيلان بابيه .. أستاذ التاريخ بجامعة حيفا.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- توماس باورز.. كاتب أمريكى.
- جاكلين روز.. أستاذة الأدب الإنجليزى بجامعة لندن.
- جوزيف جيليوتى.. باحث فى المنتدى الاستراتيجى القومى بشيكاغو.
- رنا حايك .. صحفية.
- سامية حبيب.. باحثة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عُبادة كُحيلة.. أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة.
- عبد الرءوف الريدى.. سفير مصر الأسبق فى واشنطن.
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس.
- فاروق شوشة.. شاعر وإذاعى.
- فكرى أندراوس .. كاتب مصرى مقيم بالولايات المتحدة.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- محمد السماك.. كاتب لبنانى.
- محمد فؤاد الذاكرى.. باحث فى التراث العلمى، من سوريا.
- محمود المراغى.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى. نبيل تاج. سعد الدين شحاتة. أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا ـ ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

أبـو غـريـب.. الـوجـه الآخـر لـلإرهـاب

لماذا تخضع الشعوب للطغيان والخداع بصوره وأشكاله المختلفة، دولاً وأفراداً، ديمقراطيات وديكتاتوريات، شمالاً وجنوباً، شعوباً متحضرة نالت حظها من الديمقراطية والحرية وأخرى متخلفة مازالت تتخبط فى ظلمات الفقر والتخلف؟ وكيف يمكن أن تتهاوى قيم الحضارة والتقدم على نحو ذريع وبالسرعة الجارفة التى تهاوت بها سمعة ومكانة أقوى دولة فى العصر الحديث خلال أسابيع بل خلال أيام، فوجدت نفسها فوق فوهة بركان تناثرت حممه فى أرجاء العالم، يلعنها أعداؤها، ويتبرأ منها أصدقاؤها وحلفاؤها، ويجلل الخزى والعار أبناءها؟

فى واحد من أعمق النصوص التى حفظتها الأدبيات السياسية من القرن السادس عشر، وهو القرن الذى ولد فيه أتين دى لابويسيه. صاحب هذا النص الذى ترجمه وقدم له بالعربية الدكتور مصطفى صفوان. إذ شهدت فيه أوروبا طفرة نقلتها من العدم إلى الوجود، ومن ظلمة العصر الوسيط إلى النور، ومهدت للثورة الصناعية واتساع التبادل التجارى والحضارى والثقافى، وظهرت النظريات السياسية فى الحكم والحقوق المدنية ومبادئ العدالة والحرية والمساواة، يتحدث لابويسيه فى مقاله «العبودية المختارة» عن ظاهرة الطغيان فى حياة الشعوب. وكيف يمكن أن نرى الملايين من البشر يحتملون أحيانًا طاغية فرداً واحداً أو طغيان أقلية أو طغيان دولة بعينها. وكيف تتحول السيادة المبنية على استغلال الإنسان للإنسان إلى تكريس لطغيان نظام أو دولة.. وهو ما نراه يحدث الآن فى طغيان قوة عظمى هى الولايات المتحدة الأمريكية على جميع الأصعدة، عسكرياً واقتصادياً وسياسياً وإعلامياً وثقافياً وتكنولوجياً!

يقدم لابويسيه تفسيراً لذلك يقول فيه: إن ضعفنا نحن البشر كثيراً ما يفرض علينا طاعة القوة. ونحن محتاجون إلى وضع الرجاء فى الإرجاء مادمنا لا نملك دائماً ألا نكون الأقوى.

الشعوب فى رأى لابويسيه. هى التى تترك القيود تكبلها. أو قل إنها تكبل نفسها بنفسها مادام خلاصها مرهونًا بالكف عن خدمة سيدها، طاغية كان أو دولة أو نظاماً. الناس مفطورون على حب الحرية. ولكن الاستعباد متى دخل وخضع له جيل من الأجيال، استسلمت له الأجيال التالية استسلامها لوضع طبيعى، يصبح عندها عادة ثانية لا ترى فيه غرابة مادامت قد ولدت فى ظله ولم تخبر وضعًا غيره. (انظر حال الأمة العربية).

هل يقدم هذا تفسيراً لما نراه الآن من انصراف الأجيال الجديدة فى المجتمعات العربية عن العمل السياسى، وعزوفها عن تحمل المسئولية والمشاركة فى العمل العام، وشيوع حالة من اليأس بين النخب المثقفة والطبقة المتوسطة، التى حملت فى مرحلة سابقة راية التنوير والتحديث وناضلت من أجل الحرية والاستقلال؟

بل هل يقدم تفسيراً لما تشكو منه مجتمعات غربية. أوروبية وأمريكية. من شيوع حالة من الاسترخاء السياسى وعدم المشاركة فى العملية السياسية إلا بنسب متدنية تكشف عنها معدلات التصويت فى الانتخابات العامة، بفضل ما خبرته من رخاء اقتصادى وحقوق اجتماعية أزالت كثيراً من الفوارق بين الطبقات، وحولت الصراع الاجتماعى إلى منافسة اقتصادية فى ظل رأسمالية متوحشة، واحتكارات استثمارية عملاقة عابرة للقارات؟



إن ظاهرة الطغيان فى القرون الوسطى وما تلاها فى عصر الثورة الصناعية، كانت أكثر ارتباطًا بالحاكم الفرد أو الأمير أو الديكتاتور (نابليون، بسمارك، هتلر، موسولينى، ستالين، فرانكو وفى العالم الثالث لا عدد ولا حصر لهم)، ولكنها فى عصر الثورة التكنولوجية والتفوق الاقتصادى والعسكرى باتت أشد ارتباطًا بالدولة وبالنخب الحاكمة فيها وبالقوى السياسية المؤثرة بحكم الثروة ومستوى التعليم وغيرها من العناصر، وهو من نتائج التطور الخطير الذى أفرزته الحرب العالمية الثانية، وما أعقبها من نهاية الحرب الباردة، وانهيار موازين القوى بين المعسكر الشرقى الشيوعى بزعامة روسيا، والمعسكر الغربى الرأسمالى بزعامة أمريكا، وتحولت أمريكا فى غضون ذلك إلى عملاق عسكرى واقتصادى وتكنولوجى.. تساوره طموحات هائلة فى فرض «الباكس أميريكانا» Pax Americana، النظام العالمى الجديد الذى يتفق مع الرؤى الأمريكية وأهدافها ومصالحها وتصورها للعالم.

لم تظهر تجليات هذا النزوع الأمريكى إلى استخدام القوة فى فرض إرادتها السياسية والعسكرية على العالم، إلا فى عهد إدارة الرئيس بوش. وهو ما دعا كثيراً من المحللين الغربيين إلى التساؤل الآن. وفى ضوء الانهيار الأخلاقى والقانونى المفاجئ فى نظام ظل يعتمد بقيمه ومبادئه فى الحرية والعدالة بعد فضائح جرائم التعذيب فى العراق، وتورط قيادات سياسية وعسكرية فى جرائمها. عما إذا كانت القيم والمبادئ التى تبنتها إدارة بوش فيما يسمى بحربها ضد الإرهاب، هى التى أسهمت فى تشكيل الحالة العقلية والنفسية للمؤسسة العسكرية الراهنة؟ الإجابات التى يجمع عليها معظم المحللين هى أن إدارة الرئيس بوش التى ولدت من رحم قوى يمينية دينية صهيونية محافظة، لها جذور ضاربة فى الحرب الأهلية الأمريكية، هى أن هذه الإدارة لم تخف منذ البداية احتقارها للنظام الدولى القائم، وللدور الدولى الذى تلعبه الأمم المتحدة، واستهانتها الشديدة بالقانون الدولى ومعاهداته ومواثيقه، فاعتبرتها قيوداً على السيادة الأمريكية. وفى كل الأحوال عائقًا يقف فى وجه المصالح الأمريكية والدفاع عنها.. حتى قبل وقوع أحداث سبتمبر ٢٠٠١.

ومن هنا لم تتورع فى حرب أفغانستان عن شحن أسرى الحرب من طالبان والقاعدة إلى جوانتنامو.. عدة مئات أو ألوف لا أحد يدرى، وضعوا فى معازل حيوانية، دون تحقيق، ضاربة عرض الحائط باتفاقيات جنيف، واختلقت لهم مصطلحاً غير معروف هو «المقاتلون الأعداء» الذين لا تطبق عليهم قوانين أسرى الحرب، ولا أوليات العدالة الأمريكية.

وقد شجع واشنطن على المضى فى هذا الاتجاه، ما لمسته من تقاعس عالمى واستخذاء، يفسره قول لابويسيه: بأن الضعف.. ضعف النظام الدولى أو ضعف الشعوب هو الذى يفرض طاعة القوة.. حيث تراجع الإعلام الأمريكى عن القيام بدوره، والتزمت معظم الدول الأوروبية الحليفة فيما يعرف بالعالم الديمقراطى الحر، الصمت والدهشة. بل وحين سعت أمريكا إلى استصدار قرار من مجلس الأمن. يتجدد عاماً بعد عام. يعفى قواتها العسكرية المشاركة فى مهام باسم حفظ السلام، من أى التزام بالاتفاقيات الدولية، ومن المحاكمة بسبب جرائم الحرب، لم يتردد المجلس فى منحها هذا الاستثناء الغريب الذى لم تنله قوات أى دولة أخرى تشارك فى عمليات عسكرية لحفظ السلام.

ولم يقف الأمر عند حد التواطؤ الدولى، وانتشار حالة من الخوف والجبن اجتاحت الدول الأوروبية الحليفة، بعد أن هددت واشنطن باتخاذ إجراءات انتقامية سياسية واقتصادية ضد أقرب حلفائها. فرنسا وألمانيا. اللتين اتهمتا بأنهما تمثلان أوروبا القديمة، وتعجزان عن مواكبة روح العصر والنظام العالمى الجديد الذى تقوده واشنطن، بل إن نزعات التطرف والاستعلاء بالقوة التى ميزت سلوك المحافظين الجدد فى إدارة بوش، أخذت تتصاعد إلى شكل من أشكال إرهاب القوة العظمى فى المحافل الدولية على لسان رامسفيلد ووولفوفيتز وبيرل وغيرهم، تروج لمقولة أن التاريخ يصنعه الأقوياء، وأن من حق الصفوة الحاكمة أن تقود شعوبها إلى ما فيه مصلحتها حتى ولو كان بأساليب الخداع والتضليل! وهو ما يعتبر نوعًا من طغيان الأقلية.

وتحقق ذلك فعلاً باستخدام أكثر أساليب الخداع والتضليل الإعلامى وحملات الأكاذيب الملفقة، واستخدام شبكات التليفزيون التى تسيطر على إنتاج وتطوير تكنولوجيا المعلومات فى العالم، للوصول إلى أهداف ملفوفة غامضة فى ثوب أيديولوجيا دينية متعصبة يصعب سبر أغوارها، وتخدم رؤى التحالف الصهيونى المسيحى، والمركب الصناعى العسكرى فى أوساط شعب أمريكى يتسم بالسذاجة وحسن النية، بسبب انعزاله فى حدود قارة عامرة بالرخاء والثراء والاكتفاء الذاتى.

ولعل هذا ما حدا بإدارة بوش إلى

سلامة أحمد سلامة

الاندفاع فى الدعوة إلى ضرورة «تغيير النظم» التى لا ترضى عنها بالقوة. وتقسيم العالم إلى دول طيبة وأخرى شريرة (نفس التقسيم الذى تستخدمه القاعدة وإن بألفاظ أخرى). وإلى دمغ بعضها بأنها جزء من محور الشر لأنها تمتلك أسلحة دمار شامل تهدد المصالح الأمريكية. ومن ثم فلابد من القضاء عليها. وكانت تلك هى المقدمات التى استخدمت فى الحرب ضد العراق، وفى تزوير الأدلة والبراهين على وجود أسلحة دمار شامل يخفيها النظام العراقى، وفى الضغط على فرق التفتيش الدولية التابعة للأمم المتحدة ولوكالة الطاقة الذرية لتزييف الحقائق خدمة لأهدافها.. إنها نفس العقلية الإرهابية التى لا تختلف عن إرهاب بن لادن والظواهرى.

وفى إطار هذه الحملة المدبرة، التى بدأت بالأكاذيب وكان لابد أن تنتهى بالأكاذيب والتلفيقات والانتهاكات التى تكشفت فظائعها فى دهاليز سجن أبو غريب، كان من الضرورى أن تختلف لغة الخطاب الأمريكى إلى العالم.. فهناك شعوب وأمم. هى بحكم ثقافتها وتراثها الدينى المتخلف. لا تعرف معنى الديمقراطية والحرية وهى شعوب والغة فى بحار التطرف والدماء والتعصب، لن تجدى معها غير القوة وإزاحة أنظمتها السياسية من الحكم. وهى أدنى شأنًا وأحرى أن تعامل معاملة الشعوب المريضة التى لن ينصلح حالها إلا بالتدخل الخارجى.. لتقويم نظم الحكم فيها، وتعليمها، والنهوض باقتصادياتها، وتمكين المرأة وتحريرها.. وهو ما انعكس بجلاء فى كتابات المفكرين الأمريكيين الذين وصموا ثقافة هذه الشعوب بأنها «ثقافة إرهابية» يمكن أن تستبعد خارج التاريخ وتجتث من جذورها. وظهرت لهذا السبب مشروعات «الشرق الأوسط الكبير» ودعاوى الإصلاح المفروض من الخارج.

ولابد هنا من الإشارة إلى ما صاحب هذا التطور من صعود نفوذ «المركب العسكرى الصناعى» الأمريكى الرأسمالى على السياسات الأمريكية، وسيطرته شبه الكاملة على صناعات الطاقة والبترول والصناعات الاستراتيجية الكبرى مثل الفضاء وحرب الكواكب.. وقد أصبح هذا المُركّب بأمواله وتبرعاته ورجاله فى دوائر الحزبين الرئيسيين، ودوائر صنع القرار وجماعات النفوذ والمصالح اليهودية وغير اليهودية، من أقوى العوامل الحاسمة فى تحديد نتائج الانتخابات الرياسية والتشريعية الأمريكية.

ومن ثم كانت تلك الفكرة الجهنمية التى انكشفت عندما سقطت الأستار عن فضائح التعذيب فى السجون الأمريكية فى العراق وغيرها. وهى تشغيل «مقاولين مدنيين» فى أنشطة مخابراتية وفى عمليات التعذيب والمهمات الخاصة. وهؤلاء فى الأغلب ممن خدموا الجيش الأمريكى والمخابرات ولا يخضعون فى الوقت نفسه لأى نظم أو لوائح تلزمهم بقواعد «الاشتباك العسكرى» وتستدعى مساءلتهم فى حالة ارتكاب انتهاكات وجرائم. فهم الأداة المثلى لعقلية تؤمن بالجريمة المنظمة..



وفى التقرير المسهب الذى نشره سيمور هيرش فى مجلة «نيويوركر» عن البرنامج السرى الذى وضعه رامسفيلد، إثر بدء الهجوم على أفغانستان، وتحلل فيه من القيود القانونية والأذونات العملياتية بغية تمكين قوات خاصة من عبور حدود أى دولة عند الضرورة، واستجواب المعتقلين فى محتجزات خاصة، وإعطاء السيطرة كاملة للمخابرات الأمريكية على السجون والمعتقلين بشكل يسهل عملية استجوابهم.. ما يقطع بأن شكلاً من أشكال الانحراف الإجرامى والعقلية السادية والنزوع السرى إلى ممارسات إرهابية مدانة قد تلبس القيادات العسكرية والسياسة الأمريكية، واستقر أسلوبًا معمولاً به فى حرب العراق. وكانت «الصدمة والرعب» عند انكشافه تعادل «الصدمة والرعب» التى انطلقت فى أعقاب تفجيرات سبتمبر ٢٠٠١. وأصبحنا وأصبح العالم أمام «إرهاب أكبر» تمارسه دولة عظمى أمام «إرهاب أصغر» ابتدعته شراذم مضللة من تنظيمات أصولية محدودة العدد والعتاد، أنشأتها ودربتها أجهزة المخابرات الأمريكية بيديها!

التساؤل عن موقف العالم العربى من هذه التحولات المأساوية الكبرى، من الإرهاب الأصولى إلى الإرهاب الأمريكى الذى يعيث فى الشرق الأوسط فسادًا وتدميرًا، لا جدوى منه ولا غناء فيه.. فالدول العربية مازالت مجبولة على ردود الفعل، وليس من المتوقع أن تسفر القمة عن توجهات جديدة.

ولكن يا ترى كيف يمكن أن ينتهى هذا الانحراف الخطير فى سلوك أكبر قوة فى العالم؟ وإلى أى حد سوف تتزايد موجات العنف والفوضى والعدوان، الذى تتسع دوائره فى الشرق الأوسط والمنطقة العربية، على نحو يعرض العالم كله للخطر؟

إن تململ الشعوب والحكومات الأوروبية فى مواجهة السياسات الأمريكية الانفرادية، ومعارضتها المتزايدة على مستوى الأحزاب والقوى السياسية، قد لا يكفى بحد ذاته لحمل الولايات المتحدة الأمريكية على انتهاج سياسات جديدة تتدارك بها أخطاءها، وتوقف حالة الضياع والانهيار الأخلاقى الذى هز ضمير الشعب الأمريكى وضمير العالم، مما حدا بواحد من أكثر المعلقين الأمريكيين الذين أيدوا وساندوا مشاريع الحرب التى قادتها إدارة بوش فى أفغانستان والعراق، توماس فريدمان، إلى التساؤل بجدية عما إذا كانت هناك أدنى فرصة للنجاح فى تغيير النظام فى العراق بدون تغيير النظام الأمريكى ذاته؟

والإجابة على ذلك تأتى فى احتمالين:

الأول: أن تعترف أمريكا بأخطائها، ويتخلص بوش من أعوانه الذين روجوا لهذه السياسات ومارسوها بكل غطرسة وسرية، من أجل استرداد بعض مكانتها الضائعة. وهو ما قد يقتضى التخلص من رامسفيلد ومساعديه فى البنتاجون من الصقور والمدافعين عن المصالح الإسرائيلية فى الإدارة، ومحاكمة بعض كبار المسئولين فى المؤسسة العسكرية الأمريكية.. والتراجع عن المخططات الأمريكية فى العراق وتمكين الأمم المتحدة من تحمل المسئولية فى نقل السلطة إلى العراقيين وانسحاب القوات الأمريكية، وتشكيل قوة دولية تتولى الإشراف على الأمن خلال فترة انتقالية.

وهو احتمال لن يحدث.. لأن معناه أن يقدم بوش على ما يشبه الانتحار السياسى ويفقد أى فرصة لإعادة انتخابه. وأغلب الظن أن تواصل الإدارة الأمريكية سياسة الهروب إلى الأمام، بتقديم موعد الانسحاب ونقل السلطة أو الدخول فى مواجهات عنيفة مع الشعب العراقى والمقاومة الشيعية.

الثانى: أن تستمر فترة التخبط والاضطراب والفوضى فى العراق، وهو ما سوف يؤدى إلى سقوط بوش فى الانتخابات الرياسية القادمة. وفى كلا الاحتمالين، فإن أوضاع المنطقة تنذر بأسوأ العواقب، ليس فقط بالنسبة للأوضاع الخارجية للدول العربية، ولكن أيضًا على أوضاعها الداخلية.

وكما بدأت السحب تتكاثف فى أفق إدارة الرئيس بوش، فلاشك أن حليفه الرئيسى وتابعه المخلص تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا أصبح يواجه عاصفة شديدة وضعته فى مهب الريح، وأصبح الحديث عن البديل له فى قيادة حزب العمال حديثًا مفتوحًا جهير الصوت فى دوائر الحزب وخارجه.

ربما يكون هذا التطور هو أفضل ما يمكن أن يحدث على المدى الطويل لو لفظت انتخابات الرياسة القادمة بوش وإدارته فى قمامة التاريخ. ولكن على المدى القصير فإن المحك يكمن فى قدرة الشعب العراقى على استمرار المقاومة، وفى مدى ما تستشعره الشعوب. فى أمريكا وبريطانيا بالذات. من أنها وقعت ضحية خداع منهجى منظم من جانب الحكومات التى اختارتها وأسلمت لها قيادها. وهذا هو الفرق فى النهاية بين شعوب نشأت فى أحضان الديمقراطية وقد تتعرض لفترات اختراق وتضليل يذهب قدرتها على الحكم السليم، ولكنها لا تفقد قدرتها على مقاومة الطغيان واستعادة زمام المبادرة، وتمتلك الآلية الديمقراطية فى إحداث التغيير عن طريق صناديق الاقتراع، وبين شعوب أخرى لم تزل تؤمن بأن طاعة الحاكم وأولى الأمر من طاعة الله، ولا تملك غير الطاعة والرجاء والدعاء والاستسلام!

الإرهـــــــــــاب فــــى

محمــــــــــد الســــــماك

> **العنف يكون جريمة عندما يتعمّد إلحـاق الأذى بالضحية بصـورة مباشـرة، أى عندما تكون الضحيـة هى الهـدف أولا وأخيراً، أمـا الإرهـاب فيسـتخدم العنـف أداة ليس لإلحـاق الأذى بالضحيـة**

على الرغم من أن ظاهرة الإرهاب ترافق حياة الإنسان منذ نشأته الأولى (قابيل وهابيل) فإنها لم تتبلور كعامل من العوامل المؤثرة فى صناعة القرار السياسى إلا فى عام ١٧٩٣ عندما وظفها بعض فلاسفة الثورة الفرنسية أمثال روبسبير وسان جيست وكوثون وغيرهم على نطاق واسع. فقد عُرفت الفترة من مارس ١٧٩٣ حتى يوليو ١٧٩٤ بعهد الإرهاب أو عهد الرهبة، وتمّ خلالها قطع رؤوس ٤٠ الف شخص بالمقصلة واعتُقل ٣٠٠ ألف شخص آخر. يومها كان عدد سكان فرنسا لا يزيد على ٢٧ مليون نسمة[1].

منذ ذلك الوقت لم تغب هذه الظاهرة عن أى فترة من فترات المسيرة التاريخية المعاصرة للإنسان. ورغم أن ممارستها تكاد تصبح تقليداً من تقاليد العمل السياسى، إلا أن ربط الإرهاب بالجريمة كان ولا يزال موضع جدال فقهى وقانونى وسياسى داخل الأمم المتحدة وخارجها على حد سواء.

الجريمة، الإرهاب، الكفاح المسلّح، الثورة، تلك عناوين تبدو مترابطة ومتداخلة رغم تمايز كل منها فى معناه وفى استراتيجيته، وفى عقيدته، وفى هدفه، إلا أن محورها جميعاً أو القاسم المشترك بينها هو العنف.

فالعنف يكون جريمة عندما يتعمّد إلحاق الأذى بالضحية بصورة مباشرة، أى عندما تكون الضحية هى الهدف أولا وأخيراً.

أما الإرهاب فيستخدم العنف أداة ليس لإلحاق الأذى بالضحية، إنما لتوظيف الأذى فى ممارسة ضغط معنوى على جهة أخرى أو على شخص آخر.

إنه تكتيك تلجأ إليه عادة جماعة ضعيفة - خلا الدولة - ضد جماعة معادية لها تتمتع بقوة أكبر، وذلك من أجل تحقيق هدف سياسى تعجز عن تحقيقه بوسائل أخرى. من هنا لا تطلق عادة صفة المجرم بالمطلق على الإرهابى، فالمجرم يتعمّد قتل أو إلحاق الضرر بضحية محددة إما انتقاماً، أو لأى سبب شخصى آخر. أما الإرهابى فإنه غالباً ما يجهل ضحيته. وغالباً ما يعرف أن ضحيته بريئة، إلا أنه غالباً ما يؤمن بأن الإساءة إلى هذه الضحية البريئة هى الطريق الوحيد لتوصيل رسالة إلى طرف ثالث.

المجرم يرتكب جريمته لحسابه الخاص. أما الإرهابى فيعتبر نفسه جندياً مكلفاً بمهمة شريفة، لا تلحق إدانته بها أى عار أو تجريح، بل على العكس فهو يعتبر أداءها عملاً بطولياً يؤهله لاحتلال موقع مرموق، أو ذكرى خالدة، فى مجتمعه.

منذ مطلع الستينيات فقط بدأت دراسة ظاهرة الإرهاب مادة مستقلة فى موضوع العنف السياسى. وقد تطلب ذلك التمييز ليس فقط بين الجريمة والعنف، أو بين العنف والإرهاب، إنما بين الإرهاب والكفاح المسلح والثورة. فالعمل الثورى قد يكون إرهابا وقد يكون عنفاً، وقد يكون الاثنين معاً، وقد لا يكون شيئاً من ذلك. هو لا يكون عنفاً عندما لا يهدف إلى إيذاء ضحاياه المباشرين، وهو لا يكون إرهاباً عندما لا يهدف إلى الضغط على ضحايا غير مباشرين. إنه اداة تغيير تستخدم العنف والإرهاب معاً. إن طبيعة العلاقة بين الضحية والطرف الثالث هى التى تحدد صفة العمل العنفى إرهابياً، أو جريمة[2].

من أجل ذلك يطرح الإرهاب والعنف السياسى قضايا سياسية معقدة وقضايا أخلاقية أشد تعقيداً، ولا يمكن معالجة هذه القضايا إلا من خلال تركيب معادلة سياسية - اجتماعية - سيكولوجية - أمنية متكاملة. ذلك أن توقع الإرهاب، والوقاية منه، ورد الفعل عليه، عملية متداخلة ومتكاملة بإحكام.

فالتعرّف على دوافع العمل الإرهابى، والانفتاح عليها ومعالجتها، هى أقل كلفة من كبتها وتجاهلها حتى تصل إلى درجة الانفجار؛ والتعرّف على سيكولوجية الإرهاب عن قرب يوفر فرصاً أفضل للتنبؤ باحتمال وقوعه، ويوفر، من ثم، الإمكانات لسحب فتيل انفجاره، أو على الأقل لاتخاذ الاستعدادات لملاقاته ولابتداع الوسائل المناسبة لاحتواء ردّات فعله.

لأن الإرهاب شىء، والكفاح المسلح شىء آخر، فإن منظمة الأمم المتحدة حرصت فى مواثيقها وإعلاناتها وقراراتها على تأكيد هذا التمايز مشرعة حق الكفاح المسلح من أجل تقرير المصير، أو تحرير أرض محتلة، أو استرجاع استقلال مغتصب. ذلك أن العالم إذا كان يشكو من « إرهاب المنظمات» السرية والعلنية، فإنه يشكو فى الوقت نفسه وربما بنسبة أكبر من « إرهاب الدول».

عندما قام الكولونيل ت. أ. لورنس بشن سلسلة العمليات الإرهابية ضد الأتراك فى العالم العربى، فنسف الجسور وخطوط السكك الحديدية، برّر رئيس الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت تلك العمليات بقوله: «إن القوات التركية تعتمد على خط سكة الحديد فى العمليات التى تقوم بها ضد القوات البريطانية فى مصر، أن هذا الخط الحديدى الضيق يمتد مئات الأميال وسط الصحراء، فإذا قطع بصورة نهائية، فإن القوات التركية سوف يقضى عليها».

أعطى هذا المنطق التبريرى مقياساً عاماً للفلسطينيين فى السبعينيات من القرن الماضى، لخطف ونسف الطائرات الإسرائيلية فى صحراء الأردن. لم تكن مهمة لورنس ضرب الأتراك فقط، ولكنها كانت تتوسل ضربهم للوصول إلى الهدف الأبعد. وهذا الهدف الأبعد حدده لورنس نفسه فى برقية وجهها فى عام ١٩١٦ إلى جهاز الاستخبارات البريطانية حول ثورة الشريف حسين ضد الأتراك. وجاء فى هذه البرقية الوثيقة، كما وردت فى كتاب تاريخ الشرق الاوسط الحديث للكاتب الإنجليزى ديزموند ستيوارت: «إن ثورة الحسين فى الحجاز ستكون مفيدة لبريطانيا لأنها تتمشى مع الاهداف الحالية: تحطيم الكتلة الإسلامية، والتغلب على الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها. أما الدول التى ستقام لتخلف الأتراك فستكون غير ضارة بنا كما كانت تركيا قبل أن تصبح آلة فى يد الألمان. بل إن العرب هم أقل استقراراً من الأتراك، فإذا أحسنت معالجتهم ظلوا فى حالة تفرق سياسى، ولايات صغيرة متحاسدة عاجزة عن الاتحاد».

إن هذا النوع من الإرهاب السياسى، أى الإرهاب الذى يتوخى إعادة تركيب منطقة ما كالشرق الاوسط، وإعادة رسم جغرافيتها السياسية، وبالتالى التلاعب بمصير شعوبها تحقيقاً لمصالح قوى خارجية، هو الذى يولد الإرهاب المعاكس، أى الإرهاب الذى يتوخى التحرير وممارسة السيادة الوطنية.

من هنا تبدو مشاريع الشرق الأوسط الجديد، والشرق الأوسط الكبير استمراراً لمدرسة قديمة فى التعامل مع هذه المنطقة من العالم، أى إعادة رسم جغرافيتها السياسية والتلاعب بمصير شعوبها، الأمر الذى لا بد أن يؤدى إلى ردود فعل لن يكون مفاجئاً أن تطلق عليها صفة الإرهاب.

إذا كان كل ضحايا العمل الإرهابى هم حكما من الأبرياء، فإن بعض ضحايا العمل الإرهابى المعاكس قد يكونون من الأبرياء أيضاً. صحيح أن الخطأ حتى إذا كان شاملاً لا يصحح بخطأ حتى ولو كان محدوداً، إلا أن الصحيح كذلك، هو أن الإرهاب بكل أشكاله وأيا كان القائمون به، هو عمل لا إنسانى ولا أخلاقى، إلا أنه مع الأسف أصبح قاعدة ثابتة من قواعد لعبة الأمم.

يقول الكاتب الأمريكى آرثر كوستلر فى كتابه «ظلام الظهيرة» أن تاريخ الإنسانية يصنعه قاتلون لا مصلحة شخصية لهم فى ارتكاب جرائمهم.

فى عام ١٩٠١ اغتال واحد من هؤلاء القتلة الرئيس الأمريكى وليم ماكينلى.

العمـــــل الســـــياسى!



وفى عام ١٩٦٣ اغتال آخر الرئيس جون كيندى. وبين عامى ١٨٩٠ و ١٩٠١، تمكن أمثال هؤلاء من اغتيال إمبراطورة النمسا ورئيس جمهورية فرنسا، وملك إيطاليا ورئيس حكومة إسبانيا.

وفى عام ١٩١٤ اغتال وطنى صربى ولى عهد النمسا وزوجته فى مدينة سراييفو مما أشعل نار الحرب العالمية الأولى التى سقط فيها أكثر من عشرة ملايين إنسان. ليس الإرهاب مجرد عمل عنف عشوائى لا هدف له ولا نتيجة.

فبالإرهاب اضطرت بريطانيا للانسحاب من أيرلندة الجنوبية وبالإرهاب الذى مارسته عصابات الشترن والهاجانا والأرجون اليهودية، قامت إسرائيل فى عام ١٩٤٨، وبالإرهاب تستمر وتتوسع.

وهل بغير الإرهاب استقلت الولايات المتحدة عن بريطانيا؟ وهل بغير الإرهاب توحدت فى دولة واحدة من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى؟.

ألم تلجأ الصين إلى الإرهاب لتستعيد حريتها ووحدتها ومن ثم لتعيد بناء شخصيتها من خلال ما سمى بالثورة الثقافية حتى تمكنت الآن من أن تصبح دولة نووية كبرى وأن تطلق مركبة مأهولة إلى الفضاء الخارجى؟.

إن للإرهاب رواداً ومنظرين اقتفت آثارهم حركات سياسية تدين بأديان مختلفة.

فخلال الحملة التى شنتها الكنيسة الكاثوليكية ضد الهراطقة، قبل سبعة قرون تقريباً، سأل جندى أحد الأساقفة المقاتلين فى جبال الألب: «كيف يمكن تمييز الكاثوليكى عن الهرطوقى»؟ فرد الأسقف بقوله: «اقتلهم جميعاً، فإن الله يعرف ما يريد»[٣].

وما العمليات الإرهابية التى بدأت فى نيويورك وواشنطن فى سبتمبر ٢٠٠١، ثم انتقلت إلى دول عربية وإسلامية من السعودية إلى المغرب، ومن الجزائر إلى باكستان وتركيا، سوى مظهر آخر من مظاهر نظرية «اقتلهم جميعاً فإن الله يعرف ما يريد».

لا يعرف التاريخ قائداً سياسياً عمل بقول السيد المسيح «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر». ولكن ثمة لائحة لامتناهية من القادة السياسيين الذين يعملون بموجب نظرية فريدريك هاكر التى يقول فيها: «أفضل لنا ان نرهب الآخرين من أن يرهبنا الآخرون».

اتهام الإسلام بالإرهاب:

ترافق اعتماد مبدأ مكافحة الإرهاب باعتباره ركناً من أركان السياسات الخارجية فى الولايات المتحدة والاتحاد الروسى وبريطانيا والهند والمجموعة الأوروبية وسواها، مع اعتبار الظاهرة الإرهابية أولاً على أنها ظاهرة عربية، (منذ حوادث اختطاف الطائرات الإسرائيلية إلى الأردن)، ثم على إنها ظاهرة إسلامية (منذ نشوب الثورة فى إيران وخاصة بعد الاعتداء على مبنى التجارة الخارجية الدولية فى نيويورك، أولاً فى عام ١٩٩٣ ثم فى سبتمبر ٢٠٠١).

«ومع أن إسرائيل هى أول من مارس القرصنة الجوية فى المنطقة العربية (الاعتداء على مطار بيروت - ديسمبر ١٩٦٨، إسقاط الطائرة المدنية الليبية فى سيناء ٢١



ـ فبراير ١٩٧٣) فإن الإعلام الأمريكى والأوروبى، ورغم إدانة الأمم المتحدة لتلك الجرائم ـ لم يصف ما قامت به إسرائيل بأنه إرهاب إسرائيلى أو يهودى».

ولم تظهر سوى إدانات خجولة فى الإعلام الغربى للمجازر الإسرائيلية التى ارتكبت أثناء غزو لبنان ١٩٧٨ و ١٩٨٢، أو لما سبقها من مجازر داخل فلسطين (دير ياسين والقبية والقدس وغيرها) ومصر (بحر البقر) حتى تونس.

وبصرف النظر عن أسباب وأهداف بعض العمليات الإرهابية، فإن الإعلام الغربى لا يقول مثلاً عن أعمال الجيش الأحمر بأنها إرهاب يابانى أو بوذى، ولا يقول عن أعمال «منظمة العمل المباشر» بأنها إرهاب فرنسى، أو كاثوليكى. ولا يقول عن أعمال بادرماينهوف بأنها إرهاب ألمانى أو بروتستانتى.. الخ.. ولكن هذا الاعلام نفسه يتصيد أى حادث أمنى ليتحدث بتطويل وتركيز عما يسميه الإرهاب العربى أو الإرهاب الإسلامى قاصداً من وراء ذلك ليس إدانة الإرهاب كإرهاب، إنما تشويه الإسلام كدين وطعن القضايا العربية العادلة فى الصميم.

فى كتابه «الإسلام والحرب» يطرح رئيس مركز الأبحاث الاستراتيجية فى جامعة السوربون جان بول شارنيه Jean Paul Charney نظرية يقول فيها[4]:

«يتضمن الإسلام (شأنه شأن كل الأديان والفلسفات الكبرى، باستثناء تلك المنبثقة عن اتجاه سلمى تام، أو المنبثقة عن الفكرة الجوهرية للسلام الأبدى) نصوصاً دينية تعود إلى الحقبة الكلاسيكية فى التاريخ الاسلامى. هذه النصوص سعت إلى تحديد وتعريف الشروط التى تحفز المسلمين وتخولهم الدخول فى حالة حرب، أو بشكل أكثر سعة وتحديداً : الشروط القاضية بممارسة العنف الشرعى والمبرر دينياً من جهة، ودرجة هذا العنف الذى يمكن لنا ممارسته وفق حدود الشرعية الدينية التى لا نستطيع تجاوزها، حتى عند انخراطنا فى حرب أو ثورة ما، من جهة أخرى». ويعيد هذا الأمر إلى الأذهان نظرية القديس اغسطين حول الحرب المبررة التى قال بها فى الأدبيات المسيحية Justified War.

إن الإسلام إذاً، ليس دين حرب بحد ذاته، بل هو، كمعظم الأديان والفلسفات الكبرى، يقبل فعل الحرب، مضطراً أو كارهاً لها. بيد أن هذا القبول يتم ضمن حدود حالات خاصة يقرها الشرع الدينى الذى يسمح بحصول الحرب، شريطة أن تكون حرباً عادلة.

أما الصورة الشائعة فى البلدان الأوروبية، وفى العالم الغربى عن الإسلام، فهى صورة تحمل «علامة مسجلة» إذا جاز التعبير، أفرزتها سياسات بلدان معينة أو ممارسات بعض من الحركات التى ينضوى تحت لوائها أعضاء يكون مصدرهم الأيديولوجى هو الإسلام. فمن الواضح بأن هذه السياسات والممارسات قد ساعدت على تكوين انطباع لدى الرأى العام الغربى مؤداه بأن الإسلام دين ينطوى على قدر معين أو أكيد من العنف الذى يمكن استخدامه أو الإفادة منه داخل اللعبة السياسية، وبخاصة فى المجابهات التى يعتبر الانخراط فيها قضية عادلة.

لأن الإرهاب شىء، والكفاح المسلح شىء آخر، فإن الأمم المتحـــدة حرصـــت على تأكيد هـــذا التمايز مشـــرعة حق الكفاح المســـلح من أجل تقرير المصير، أو تحرير أرض محتلة، أو اســـترجاع استقلال مغتصب

وينبغى التمييز فيما إذا كانت هذه الممارسات، سواء العنيفة منها أو العنفية الإرهابية، ملتزمة بالتطبيق الصحيح للشريعة الإسلامية أو لا. ففى هذه الحالة، توجد بالطبع تفسيرات متباينة، لأن بعض الحركات الإسلامية، أو بعض الأفراد الإسلاميين، يمارسون نمطاً من العنف ينبثق ويتطابق، كما يبدو لى، مع الشريعة الإسلامية فى مستواها النصى الواضح والطبيعى، أى من حيث إقرارها بالعنف شرط أن يمارس من أجل قضية عادلة يقرها الدين الإسلامى، بينما تبدو بعض الممارسات العنفية وكأنها جاوزت الحدود. إن مثل هذه الممارسات تنخرط داخل الفعل العنفى، مبررة نفسها وفق تفسيرات حسنة ومقبولة للشريعة الإسلامية ذاتها بركنيها الأساسيين : القرآن والحديث النبوى.

وتقودنا هذه الحالة إلى وضع تناقضى، تفرزه ممارسات المجموعات والأفراد الذين يطبقون الإسلام وفق أسلوب متطرف. فمن خلال معرفتى البسيطة بالفقه الإسلامى، أرى أن مثل هذه الجماعات تقف فى ممارساتها فى مكان بعيد عن حقيقة الإسلام، باسم الدفاع عن الإسلام نفسه. ويتمثل هذا الابتعاد فى عدم احترام هذه الجماعات للتفسيرات السلمية والموضوعية لكل من الشريعة والفقه الإسلاميين.

أما فيما يتعلق بحدود الحرب وحدود الثورة وفق قاسم مشترك هو العنف، فإن المفهوم القديم لمفردة (الجهاد) التى تمتلك محتوى ابتمولوجيا (اشتقاقياً) عميقاً، فهو يتضمن معنى الجهد الذى نبذله ضد الذات أو ضد الآخرين، وهو مفهوم نص عليه القرآن، ويكتسب قدسيته من التحديد القرآنى له. وقد دمجت بعض البلدان الإسلامية، أو هى زاوجت بين مفهومى الجهاد والثورة، وذلك عبر ممارستها السياسية والعسكرية للحرب العادلة. وفى هذه الحالة، يكون مفهوم الثورة متضمناً لمعنيين دالين :

ففيما يشير الأول إلى التغيير والتطوير الحاصلين فى البنى السياسية ـ الاجتماعية ـ الاقتصادية، يدل الثانى على إحياء القيم الأخلاقية والمعنوية وتنقيتها وتطهيرها. وعلى هذا المستوى، يمكن للثورة أن تكون فعلاً عنيفاً، ولكن يتوجب على هذا الفعل احترام الشروط الشرعية داخل فعاليته، أو تحقيق توافق مع الشريعة والفقه الإسلاميين.

موقع الأمم المتحدة من الإرهـــاب :

«يعود نشوء الإرهاب السياسى إلى أعمال القمع التى تمارسها الأنظمة الاستعمارية والعنصرية والأجنبية ضد الشعوب التى تناضل من أجل تحررها وحقوقها المشروعة فى تقرير مصيرها واستقلالها وفى حرياتها الأساسية الأخرى».

[الأمم المتحدة ١٩٧٣ ـ من تقرير اللجنة الخاصة حول الإرهاب الدولى]

لقد حرم ميثاق الأمم المتحدة استخدام القوة أو التهديد باستخدامها فى ميدان العلاقات الدولية. وورد هذا التحريم فى عدة مواد من الميثاق سيما فى الفقرة الأولى من المادة الأولى. إلا أن الميثاق أجاز استخدام القوة أو التهديد بها فى حالتين أساسيتين :

الحالة الأولى : الأمن الجماعى وما يتطلبه من إجراءات عسكرية (كما ورد فى المادتين ٤١ و ٤٢ من الميثاق)، وخاصة إذا فشل مجلس الأمن الدولى فى التصدى لعملية خرق للأمن الدولى.

الحالة الثانية : الدفاع الشرعى عن النفس (كما ورد فى المادة ٥١ من الميثاق). وحق الدفاع عن النفس يمكن أن تقوم به الدولة المعتدى عليها منفردة أو بالتعاون مع مجموعة من الدول تحت مظلة مجلس الأمن الدولى. ولم يحدد ميثاق الأمم المتحدة مفهومه للأعمال التى يعتبر أنها تهدد السلم الدولى، إلا أن الجمعية العامة وافقت، فى عام ١٩٤٩، على القرار ٣٧٥ الذى يتضمن إعلاناً بحقوق الدول وواجباتها. تنص المادة التاسعة من هذا الإعلان على أن من واجب كل دولة الامتناع عن اللجوء إلى الحرب أو التهديد بالقوة فى سياستها القومية. كما أن من واجب كل دولة الامتناع عن خرق حرمة أراضى أية دولة أخرى أو تهديد سلامتها أو انتهاك استقلالها أو القيام بأى عمل يتنافى مع القانون والنظام الدوليين، وحظرت المادة العاشرة من الإعلان تقديم المساعدات لأى دولة لا تحترم مضمون المادة التاسعة. مع الأسف لم تحترم هذه المواثيق الدولية حتى فى حدها الأدنى.

يحدد قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، رقم ٣٣١٤ (عام ١٩٧٤)، تعريف العدوان فى ثمانى مواد. وبموجب هذا القرار يعد عدواناً :

١ـ استخدام القوة المسلحة ضد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسى لدولة أخرى. (من ثوابت السياسة الإسرائيلية).

٢ـ اجتياح إقليم تابع لدولة أخرى وضمه، أو احتلاله. (الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان وفلسطين).

٣ـ قصف القوات المسلحة التابعة لدولة ما إقليم دولة أخرى. (وهو ما تفعله إسرائيل بصورة مستمرة مع لبنان منذ مطلع عام ١٩٦٩، وهو ما فعلته حتى الولايات المتحدة مع ليبيا فى عام ١٩٨٦).

٤ـ قيام القوات المسلحة لدولة ما بغزو دولة أخرى (الاجتياح الإسرائيلى لمصر فى عام ١٩٥٦ ولمصر وسورية والأردن



لا يعرف التاريخ قائداً عمل بقول المسيح «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر». ولكن ثمة لائحة لامتناهية من القادة يعملون بموجب «أفضل لنا ان نرهب الآخرين من أن يرهبنا الآخرون»

فى عام ١٩٦٧، وللبنان فى عامى ١٩٧٨ و ١٩٨٢. احتلال إيران للجزر العربية الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى التابعة لدولة الإمارات العربية).

وأجازت الأمم المتحدة ـ تحت شعار حق الدفاع عن النفس ـ للدولة المعتدى عليها استعمال القوة لرد العمل العدوانى الذى تعتبره المنظمة الدولية جريمة بحق السلام الدولى. واستعمال القوة مجاز كذلك للشعوب المغلوبة على أمرها، والتى تناضل من أجل تقرير مصيرها والحصول على استقلالها وممارسة حريتها، كما ورد فى المادة السابعة من الإعلان.

فى الأساس، ليس صحيحا أن الإرهاب يخلق قضايا عادلة. ولكن الصحيح هو أن الظلم والقهر والاستعباد هى التى تقود إلى الإرهاب عندما يعجز أصحاب القضايا العادلة عن الدفاع عن حقوقهم بوسائل أخرى.

فى أعقاب حادث المدينة الأولمبية فى ميونيخ ١٩٧٢، اقترح الأمين العام للامم المتحدة على الجمعية العامة دراسة الإجراءات الدولية الواجب اعتمادها لمكافحة الإرهاب.

وقد تجاوبت الجمعية العامة مع الاقتراح ولكنها حرصت على ضرورة التركيز فى الدراسة على أسباب الإرهاب ودوافعه. ووضعت الجمعية عنواناً للدراسة ينص على :

«تدابير لمنع الإرهاب الدولى الذى يعرض للخطر أو يودى بأرواح بريئة أو يعرض الحريات الأساسية للخطر. ودراسة أسباب مختلف أشكال الإرهاب وأعمال العنف التى تكمن فى البؤس والإحباط والإحساس بالظلم واليأس، والتى تدفع بعض الأفراد إلى ازهاق أرواح بما فى ذلك أرواحهم. من أجل إحداث تغييرات جذرية».

من الواضح أن الهدف من وراء هذا العنوان الذى قد يكون الأطول لأى مشروع دراسة هو البحث فى الأسباب وليس فى العقاب فقط.

شكلت الجمعية العامة لجنة من ٣٥ عضوا لإعداد الدراسة. بدأت اللجنة أعمالها فى عام ١٩٧٣، وانتهت فى عام ١٩٧٩، حيث قدمت تقريرها إلى الدورة ٣٤فى فبراير من ذلك العام.

وبعد أن تبنّت الجمعية العامة تقرير اللجنة الفرعية، أصدرت التوصيات الآتية(٥):

● إدانة جميع أعمال الإرهاب الدولى التى تعرض للخطر أرواحاً بشرية أو تودى بها أو تهدد الحريات الأساسية.

● حث جميع الدول على الإسهام، فرادى وبالتعاون مع الدول الأخرى وكذلك مع هيئات الأمم المتحدة المعنية بالأمر فى القضاء التدريجى على الأسباب الكامنة وراء الإرهاب الدولى.

● مطالبة جميع الدول بالوفاء بالتزاماتها وفقاً للقانون الدولى بالامتناع عن تنظيم أعمال الحرب الأهلية أو الأعمال الإرهابية فى دولة أخرى أو التحريض عليها، أو المساعدة أو المشاركة فيها، أو قبول تنظيم نشاطات فى داخل إقليمها تكون موجهة إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال.

● مناشدة جميع الدول التى لم تفعل ذلك أن تنضم إلى الاتفاقيات الدولية القائمة المتعلقة بجوانب مختلفة من مشكلة الإرهاب الدولى والتى سبق الإشارة إليها.

● حث جميع الدول على التعاون بصورة أوثق خاصة عن طريق تبادل مايتصل بالموضوع من معلومات متعلقة بمنع ومكافحة الإرهاب الدولى، وإبرام معاهدات خاصة أو تضمين المعاهدات الثنائية المناسبة أحكاماً خاصة، ولا سيما فيما يتعلق بتسليم أو محاكمة الإرهابيين الدوليين.

● أن تدرس الجمعية العامة ضرورة إبرام اتفاقية أو اتفاقيات دولية إضافية تقوم فى جملة ما تقوم عليه على مبدأ تسليم أو محاكمة ومكافحة أعمال الإرهاب الدولى التى لم تشملها بعد اتفاقيات دولية مماثلة أخرى.

● تولى الجمعية العامة ومجلس الأمن من أجل الإسهام فى القضاء على الأسباب الكامنة وراء الإرهاب الدولى ومشكلة الإرهاب الدولى، اهتماماً خاصاً لجميع الحالات بما فى ذلك الاستعمار والعنصرية والحالات التى تنطوى على الاحتلال الأجنبى، أى الحالات التى قد تدفع إلى الإرهاب الدولى.

حددت دراسة اللجنة الفرعية أسباباً سياسية واقتصادية واجتماعية للإرهاب(٦):

أ ـ من الأسباب السياسية :

ـ سيطرة دولة على دولة أخرى (الاستعمار)
ـ التمييز العنصرى.
ـ استخدام القوة ضد الدول الضعيفة.
ـ التدخل فى الشئون الداخلية لدول أخرى.
ـ الاحتلال الأجنبى (كلياً أو جزئياً)
ـ ممارسة القمع والعنف لتهجير أو للسيطرة على شعب معين.

ب ـ من الأسباب الاقتصادية :

ـ عدم التوازن فى النظام الاقتصادى العالمى.
ـ الاستغلال الأجنبى للموارد الطبيعية للدول النامية.

ج ـ من الأسباب الاجتماعية :

ـ انتهاك حقوق الإنسان (بالتعذيب أو السجن أو الانتقام)
ـ الجوع والحرمان والبؤس والجهل.
ـ تجاهل معاناة شعب ما يتعرض للاضطهاد.
ـ تدمير البيئة.

سبق هذه الدراسة صدور عدة قرارات عن الجمعية العامة للأمم المتحدة تدعو إلى الامتناع عن ممارسة الإرهاب أوتشجيع الإرهابيين وحمايتهم.

ففى الدورة الخامسة والعشرين صدر عن الجمعية العامة القرار رقم ٢٦٢٥ الخاص بإعلان مبادئ القانون الدولى بشأن العلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة الذى نص على وجوب الامتناع عن تنظيم أو تشجيع تنظيم القوات غير النظامية أو العصابات المسلحة، بما فى ذلك المرتزقة للاغارة على إقليم دولة أخرى. وكذلك وجوب الامتناع عن تنظيم أعمال الحرب الأهلية أو الأعمال الإرهابية فى دولة أخرى، أو التحريض عليها أو المساعدة او المشاركة فيها أو قبول تنظيم نشاطات فى داخل إقليمها تكون موجهة إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال، عندما تكون الأعمال المشار إليها فى هذه الفقرة منطوية على تهديد باستعمال القوة أو على استعمال لها.

وتضمن إعلان تدعيم الأمن الدولى الصادر بقرار الجمعية العامة رقم ٢٧٣٤ فى الدورة نفسها فى ١٦ ديسمبر ١٩٧٠ فى فقرته الخامسة ما يلى : «تمتنع جميع الدول عن استخدام القوة أو التهديد باستخدامها ضد الوحدة الإقليمية والاستقلال السياسى لدولة أخرى، ولا يجوز احتلال دولة ما بالقوة أو الاستيلاء عليها أو على جزء منها نتيجة استخدام القوة، وإن مثل هذا الاستيلاء لا يعترف بشرعيته قانونا، وعلى كل دولة الامتناع عن تنظيم ومساعدة أعمال الإرهاب الموجهة ضد دولة أخرى».

وبعد انتهاء الحرب الباردة واعتلاء الولايات المتحدة عرش النظام العالمى الجديد، تبلورت معادلات أمنية وسياسية جديدة. وقامت مؤسسات قضائية دولية جديدة لمحاكمة ومعاقبة مجرمى الحرب والمعتدين على السلام العالمى وعلى حقوق الإنسان. ولقد طرحت أمام المحكمة الدولية التى شكلها مجلس الأمن الدولى لمحاكمة مجرمى الحرب فى البوسنة أسئلة حول تعريف الحرب العادلة. متى تكون العمليات الحربية عمليات بطولية؟ ومتى تكون عمليات إجرامية وحشية؟ ومتى يكون الحافز إلى الحرب أخلاقياً وقيمياً ومتى كون مجرد استجابة لمصالح ومكاسب مادية؟.

الردع الاستباقى للإرهاب :

تنطلق أهمية الإجابة عن هذه الأسئلة بوجوهها المتعددة من دخول الشرق الأوسط مرحلة تعثر محاولات التسوية السياسية بين إسرائيل والدول العربية. وهى مرحلة تحتم تقرير ما إذا كانت الجرائم التى ارتكبت خلال الحروب العربية ـ الإسرائيلية سيتم تجاوزها وإغفالها، أم أنه لا بد من تصفية ذيولها بمحاكمة أبطالها بدءاً بمجازر الرملة ودير ياسين والقبية فى فلسطين فى عام ١٩٥٨،



الإســـلام ليس ديــن حـــرب بل هــو، كمعظــم الأديــان والفلسـفات الكـبرى، يـقبـل فعل الحـرب، مضطراً أو كـارهـاً لـهـا. بيد أن هذا القبـول يتم ضمـن حــدود حالات خاصة يقرها الشرع

مروراً بمجزرة مدرسة بحر البقر وقتل الجنود المصريين المستسلمين ودفنهم أحياء فى مقابر جماعية قرب العريش فى عام ١٩٦٧، مروراً بمجزرة مخيمى صبرا وشاتيلا فى بيروت فى عام ١٩٨٢ أثناء الاجتياح الإسرائيلى للبنان، ومن ثم مجزرة قانا فى جنوب لبنان ١٩٩٤، وما يتلوها حتى اليوم من مجازر فى غزة ومدن الضفة الغربية (جنين ـ رام الله ـ نابلس ـ بيت لحم).

أكدت محاكمات نورمبرج التى جرت أثر هزيمة ألمانيا النازية فى الحرب العالمية الثانية ربما لأول مرة فى التاريخ الحديث أن ثمة جرائم ضد الإنسانية : وأنه يجب محاكمة أبطال هذه الجرائم وإدانتهم. وطرحت هذه المحاكمات أسئلة أخلاقية مستحدثة حول ما إذا كان يجوز تبرير ارتكاب جرائم ضد الإنسانية تنفيذا لأوامر من سلطة عليا. كما طرحت أسئلة حقوقية ودستورية حول شرعية سلطة الدولة وهى فى حالة حرب.

وعندما بدأ انتشار السلاح النووى واستحدثت نظرية الردع النووى، طرح موضوع شرعية استخدام سلاح الدمار الشامل فى الصراعات السياسية، أو شرعية إنتاجه وتطويره كرادع ضد استخدامه من طرف عدو معلن أو محتمل. وهو ما ينطبق اليوم أيضا على العلاقات بين الدول العربية ـ وكلها دول غير نووية ـ مع إسرائيل التى لم يعد ثمة شك فى أنها تملك ترسانة نووية كبيرة. (اعترافات الخبير النووى الإسرائيلى مردخاى فاعنونو الذى اختطف من بريطانيا إلى إسرائيل وحُكم عليه بالسجن بعد إدانته بكشف أسرار عسكرية).

كل الجرائم الكبرى التى ارتكبت ضد الإنسانية والتى لم يحاكم المسئولون عنها ولم يعاقبوا بسبب ما اقترفته ايديهم، توالدت فيما بعد من خلال سلسلة من الجرائم المماثلة التى ارتُكبت كردَات فعل انتقامية على غرار ما جرى فى البلقان منذ العام ١٨٧٠ وحتى اليوم وعلى فترات متقطعة. أما الجرائم التى عوقب مرتكبوها كما حدث فى ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية فقد أدت إلى عدم تحويل المجرمين بحق الإنسانية إلى أبطال قوميين، وبالتالى ساهم عقابهم فى احتواء ردات الفعل وأخمد جذوة الرغبة فى الانتقام. ويعود جزء من الفضل فى قيام تعاون ألمانى ـ فرنسى، الذى يشكل قاعدة الوحدة الأوروبية الحديثة، إلى انتعاش روح الوفاق التى اطلقتها معاقبة المجرمين فى نورمبرج وإدانة مبادئهم الفاشية على أنها ضد الإنسانية. وينطبق ذلك بالقدر نفسه على علاقات اليابان مع الولايات المتحدة رغم مجزرة بيرل هاربور من جهة، والقاء قنبلة نووية أمريكية على كل من هيروشيما وناجازاكى قبيل انتهاء الحرب. ولولا إدانة المسئولين السياسيين والعسكريين فى اليابان وبالتالى عدم تحويلهم إلى إبطال أو إلى ضحايا وطنيين، لما كانت دول شرق وجنوب شرق آسيا وافقت على مدّ يد المصالحة إلى طوكيو بعد المجازر التى ارتكبتها قواتها هناك خلال الحرب وقبلها. وقد ذهبت الحكومات اليابانية إلى حد الاعتذار علناً عن تلك الجرائم الأمر الذى رتب عليها الالتزام بدفع تعويضات لعائلات ضحاياها، وخاصة فى كوريا والفلبين.. وهو ما فعلته ألمانيا التى اعتذرت لليهود عن الجرائم التى ارتكبها هتلر بحقهم وبحق مواطنين أوروبيين آخرين فى معسكرات الاعتقال، كما قدمت تعويضات مالية ضخمة لإسرائيل بحجة أنها وريثة الضحايا من اليهود، مما ساعدها على بناء اقتصادها فى سنوات إنشائها الأولى. إلا أن إسرائيل (التى هى ثمرة من ثمار أزمة الضمير الأوروبى التى تفاعلت إثر عمليات الاضطهاد التى تعرض له اليهود فى روسيا القيصرية الأرثوذكسية، وفى فرنسا الملكية الكاثوليكية، وفى بريطانيا الإنجليكانية، وفى ألمانيا النازية) مارست العديد من الجرائم بحق الإنسانية بما فى ذلك التطهير العرقى والدينى الذى استهدف فلسطينيى ١٩٤٨ و١٩٦٧، ولبنانيى القرى السبع التى ضمتها إسرائيل إليها، ولا شك فى أن العقاب الجماعى الذى أنزلته إسرائيل بأهالى الضفة الغربية وغزة طوال فترة ثورة الحجارة، وفى جنوب لبنان منذ نشوب المقاومة الأهلية ضد الاحتلال، شاهدان حديثان على الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الانسان وللمواثيق الدولية خلال الحرب. فمن يحاكم الإرهابيين المجرمين الذين ارتكبوا هذه الجرائم ؟ وكيف؟.. ومتى؟ وقبل ذلك كله هل سيفتح سجل المحاكمة؟ وهل ستطالب الدول العربية بوجوب فتحها؟.. وهل سيتحرك مجلس الأمن الدولى ذاتيا كما حدث بالنسبة للبوسنة، فيبادر إلى تشكيل محكمة دولية خاصة للنظر فى الجرائم الإسرائيلية بحق الإنسانية؟ أم أن ملفات هذه الجرائم سوف تطوى كشرط من شروط التسوية؟. إذا حدث ذلك بالفعل فإن ذاكرة الشعوب التى تعرضت للقهر والتنكيل ستبقى متحفزة للانتقام عند أول مفصل من مفاصل التحولات التاريخية المقبلة... كما حدث مراراً بين شعوب البلقان.

من أجل ذلك استُبعد كبيرا الصرب رادوفان كاراديتش وراتكو ملاديتش عن مباحثات السلام التى جرت فى دايتون بالولايات المتحدة. وكان من شروط عقد اتفاقية السلام إبعادهما كذلك عن أى منصب وعن أى دور سياسى أو أمنى أو حتى إدارى فى دولة البوسنة الاتحادية المستحدثة أو حتى فى الدولة الصربية الجديدة.

وطبعاً استُثنيت إسرائيل من هذه الشروط والقواعد. فمناحيم بيجن أحد مجرمى الحرب وزعيم عصابة شترن الإرهابية (والذى كان مطلوبا للعدالة فى بريطانيا بتهمة الإشراف على عملية نسف فندق الملك داود فى القدس فى عام ١٩٤٨) هو الذى فاوض ووقع مع الرئيسين السابقين أنور السادات وجيمى كارتر على معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية فى حديقة البيت الأبيض بواشنطن فى عام ١٩٧٩ كما أن إسحق شامير بطل جريمة اغتيال الوسيط الدولى (السويدى) الكونت برنادوت وأحد مؤسسى عصابة الهاجاناه الإرهابية، هو الذى مثل إسرائيل فى مؤتمر مدريد فى عام ١٩٩١ بصفته رئيسا للحكومة. فالجرائم التى ارتكبها بيجن وشامير لا تقل فظاعة ووحشية عن الجرائم التى ارتكبها كاراديتش وملاديتش. ومع ذلك فقد عوقب كبيرا الصرب وكرِم كبيرا إسرائيل إلى حد منح بيجن ـ مشاركةً مع السادات ـ جائزة نوبل للسلام بعد التوقيع على معاهدة السلام.

ويحفل سجل رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق إسحق رابين بالجرائم الجماعية ليس فقط من خلال دوره العسكرى فى حرب ١٩٦٧ ولكن من خلال دوره فى ميليشيا بالماخ التى كان يتزعمها إيجال الون. وهو، مثلاً، بطل عملية نسف الباخرة تالينا التى كانت تنقل أسلحة ومعدات عسكرية إلى منظمة أرجون المنافسة لبالماخ. ولا شك فى أن رئيس الحكومة الإسرائيلية الحالى الجنرال شارون هو أكثر المسئولين الإسرائيليين سفكاً للدماء حيث ارتكب العديد من المجازر فى فلسطين ومصر ولبنان.

تبرز أهمية المقارنة بين الجرائم الإرهابية التى ارتكبت فى البوسنة وتلك التى ارتكبتها وترتكبها إسرائيل من خلال لائحة الاتهامات التى اعدها رئيس المحكمة الدولية غولستون حول الجرائم التى ارتكبت فى البوسنة ضد الإنسانية وهى تدور حول المحاور التالية :

- الاغتصاب، لقد تعرض الشيخ مصطفى الديرالى الذى خطفته القوات الإسرائيلية من منزله فى مدينة بعلبك اللبنانية للاغتصاب أثناء أسره، كما أعلن ذلك أمام المحكمة الإسرائيلية التى لم تجد ما تدينه سوى أنه ضد الاحتلال الإسرائيلى للبنان.
- المجازر الجماعية، وفى هذا الشأن نجد ان سجل المجازر التى ارتكبتها القوات الإسرائيلية فى أعوام ١٩٤٨ فى فلسطين، و ١٩٥٦ فى مصر، ١٩٧٦ فى الضفة الغربية وغزة، ١٩٨٢ فى لبنان، لا تقلَ وحشية عن المجازر التى ارتكبها الصرب فى سرايفو وسيبرينتشا وغوراجدة وغيرها من المدن الإسلامية فى البوسنة.
- استعمال القنابل العنقودية ضد المدنيين. إن سجل العمليات العسكرية الإسرائيلية حافل باستخدام القنابل العنقودية خاصة فى جنوب لبنان. كانت القذائف المسمارية الإسرائيلية تنهمر على قرى الجنوب والبقاع الغربى وقد جمعت شظايا من المسامير كدليل مادى



قدم إلى المرجعيات الدولية. وفى عام ١٩٨٢ استخدمت إسرائيل أثناء حصار بيروت القنبلة الفراغية التى لم يسبق استخدامها إلا فى التجارب العسكرية.

● احتجاز المدنيين كرهائن. وهنا أيضا نجد أن القوات الإسرائيلية احتجزت عددا كبيرا من المدنيين كرهائن للمساومة عليهم سواء فى الضفة الغربية وغزة، أو فى الجنوب والبقاع الغربى اللبنانيين.

● إقامة معسكرات الاعتقال. لا شك فى أن أشهر وأكبر معسكرات الاعتقال التى أقامتها إسرائيل فى لبنان هو معسكر أنصار (نسبة إلى قرية فى جنوب لبنان أقيم المعسكر بالقرب منها) ومعتقل الخيام.

بل إن القوات الإسرائيلية والميليشيات المحلية المتعاونة معها فى القسم المحتل من جنوب لبنان اعتقلت عناصر من قوات الأمم المتحدة نفسها التى أرسلت إلى لبنان فى عام ١٩٧٨ بموجب القرار ٤٢٥ الصادر عن مجلس الامن الدولى والذى نص على وجوب انسحاب القوات الإسرائيلية دون قيد او شرط. والعشرات من عناصر هذه القوات الذين قتلوا فى الجنوب قضوا بقذائف المدفعية والطيران الإسرائيليين، ومجزرة قانا الشهيرة وقعت فى مركز تابع لقوات الأمم المتحدة لجأ إليه القرويون اللبنانيون للاحتماء فيه من القصف الإسرائيلى الذى استهدف قراهم. تؤكد ذلك تقارير الأمم المتحدة نفسها، واعتذارات إسرائيل المتكررة بأن القوات الدولية لم تكن مقصودة وأن الإصابات القاتلة التى وقعت حدثت خطأ(؟).

وتكفى الإشارة إلى الحصار التجويعى الذى تواجهه مدن الضفة الغربية وغزة، بما فى ذلك حصار الرئيس الفلسطينى فى بيت لحم بحيث تحولت هذه المدن إلى معسكرات اعتقال جماعية.

المهم أن تصنيف الجرائم التى شكل مجلس الامن الدولى على أساسها المحكمة الدولية لمحاكمة مجرمى الحرب فى البوسنة يماثل نوعية الجرائم التى ارتكبتها القوات الإسرائيلية أيضا. مع ذلك يحاكم الصربيون وتقدم جوائز نوبل للسلام إلى الإسرائيليين؟

تداعيات ١١ سبتمبر ٢٠٠١:

بتاريخ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تعرضت الولايات المتحدة إلى عمل إرهابى لا سابق له فى تاريخها. إذ ذهب ضحيته حوالى ثلاثة آلاف شخص فى حادث سقوط برجى التجارة الخارجية فى نيويورك، إضافة إلى تدمير جزء كبير من مبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) فى واشنطن.

أدى هذا الحادث الإرهابى إلى رد فعل أمريكى اتخذ أبعاداً استراتيجية تمثل فى:

١. اعتماد «مبدأ بوش» (الرئيس الأمريكى) الذى يقول بالحرب الوقائية والمبررة Justified & Preventive war

٢. تجاوز الأمم المتحدة مؤسسة وميثاقاً عندما تتعارض مواقفها مع سياسة الولايات المتحدة ومصالحها.

٣. احتلال القوات الأمريكية لأفغانستان وإسقاط نظام الطالبان.

٤. احتلال العراق وإسقاط نظام حزب البعث بقيادة صدام حسين.

٥. اتهام الإسلام بالإرهاب فى الإعلام الأمريكى، وفى سلوك الإدارة الأمريكية.

٦. فرض قيود على حركة تنقل المسلمين والعرب داخل الولايات المتحدة.

٧. التضييق على ممارسة الحريات العامة على قاعدة الأمن أولاً.

فى الأساس كانت الحرب على الإرهاب ضرورية وواجبة الوجوب خاصة بعد العمل العدوانى الذى تعرضت له نيويورك وواشنطن فى ١١ أيلول ـ سبتمبر ٢٠٠١. وبسبب هوية المجرمين الذين ارتكبوا ذلك العدوان المذهل، فقد كان يتعين أن تكون حرباً إسلامية ـ غربية مشتركة وحرباً عربية ـ أمريكية منسقة ضد الإرهاب. غير أن الغطرسة الأمريكية أدت إلى نقل العالم العربى ـ الإسلامى من دور الشريك المفترض منطقياً فى الحرب إلى دور المتهم بلا منطق، وذلك من خلال وصف الإرهاب بأنه إرهاب إسلامى افتراء وتضليلاً. وبدلاً من أن يكون العالم العربى فى خندق واحد مع الولايات المتحدة ومع العالم الغربى لمكافحة الإرهابيين، تعاملت واشنطن مع العالم العربى وكأنه «قفص جوانتانامو كبير».

كرس فشل الولايات المتحدة فى حربها على الإرهاب، تحولها إلى الحرب على العراق بحجج واهية لا تحترم سوى مصلحة إسرائيل واستراتيجيتها فى تقسيم المنطقة إلى دويلات طائفية ومذهبية وعرقية. وأدت إدانتها العشوائية للإسلام بالإرهاب وسوء معاملتها لرعاياها المسلمين إلى تراجع التعاطف معها وإلى انحسار الالتزام بالتضامن معها، بل إن هذا السلوك أضعف الاعتدال واستنفر التطرف. وزاد الطين بلة فشلها فى وضع حد للاجتياح الإسرائيلى للضفة الغربية وغزة وتغطيتها الجرائم ضد الإنسانية التى ارتكبتها القوات الإسرائيلية. ذلك أنه فى الوقت الذى كانت القوات الأمريكية تجتاح المدن العراقية، كانت القوات الإسرائيلية تجتاح المدن الفلسطينية، أو البقية الباقية من هذه المدن والمخيمات. وكان من الصعب، بل من المستحيل تجاهل التكامل فى الاجتياحين ليس فقط من حيث التنسيق الأمريكى ـ الإسرائيلى، بل وفوق ذلك، من حيث أن هذا التنسيق يستهدف ظلماً العرب والمسلمين. ولعل الجريمة التى وقعت فى الرياض ثم فى الدار البيضاء كانت ثمرة من ثمار هذا الفشل الذريع. ونخشى أن لا تكون الثمرة الأخيرة.

فالأيدى العابثة قد تضرب أى مدينة أخرى. ذلك أن الذين لم يحترموا حرمة المكان لن يتورعوا عن استهداف أى مكان. من هنا فإن الحرب على الإرهاب لا يمكن أن تنجح إلا إذا كانت حرباً مشتركة. وإذا كانت قد فشلت حتى الآن فلأن الولايات المتحدة خاضتها منفردة وبأسلوب خاطئ أدى إلى صبّ المزيد من الزيت على نار الإرهاب.

لقد تحمّل العالم العربى ـ الإسلامى وزر الاتهام الأمريكى الجماعى بالإرهاب. وتحمّل وزر شنّ الحرب على الإرهاب على قاعدة هذا الاتهام، وها هو يتحمّل وزر فشل هذه الحرب واستمرار الارهاب

لقد تحمّل العالم العربى ـ الإسلامى وزر الاتهام الأمريكى الجماعى بالإرهاب. وتحمّل وزر شنّ الحرب على الإرهاب على قاعدة هذا الاتهام، وها هو يتحمّل وزر فشل هذه الحرب واستمرار الإرهاب. فالعدوان على أى إنسان برىء هو عدوان على الإنسانية جميعها. وترويع أى مدينة آمنة سواء كانت الرياض أو نيويورك أو الدار البيضاء، هو ترويع لكل مدينة فى العالم ولكل مدينة عربية وإسلامية. من هنا وجوب اعتماد مبدأ الحرب الشاملة على الإرهاب.

وعندما ارتفع فى الولايات المتحدة السؤال الكبير بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١: لماذا يكرهوننا ؟، طلع المستشرق الأمريكى برنارد لويس (أستاذ التاريخ فى جامعة برنستون ومؤلف ٢٠ كتاباً معظمها عن الإسلام والشرق الاوسط) بنظرية معاكسة. تبرر نظريته من جهة أولى كراهية المسلمين للغرب على أساس أن العالم العربى ـ الإسلامى هو عالم فاشل ومهزوم وأن العالم الغربى وعلى رأسه الولايات المتحدة هو عالم ناجح ومنتصر ؛ وتطرح نظريته من جهة ثانية سؤالاً آخر يؤكد عليه وهو لماذا لا يخافوننا ولا يحترموننا ؟.

وعلى أساس هذين الأمرين يقول لويس إن غياب عامل الخوف من الغرب هو الذى أدى الى تحوّل الكراهية إلى الإرهاب. وبالتالى فإن القضاء على الإرهاب يتطلب فى الدرجة الأولى تخويف العالم العربى ـ الإسلامى. لقد كان برنار لويس من منظرى احتلال العراق على قاعدة وجوب التخلى عن مبدأ الاحتواء(٧) Doctirne of containment، واعتماد مبدأ المواجهة المباشرة Doctrine of confrontation الذى قال به لويس ـ وبموجب هذا المبدأ يتم تخويف وإرهاب العالم العربى الإسلامى ـ وتغيير الشرق الاوسط عن طريق غرس بذور الديموقراطية فيه و بالقوة. وقد أصبح مبدأ لويس عملياً الأساس الذى قامت عليه السياسة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة(٨).

أمران أساسيان تبدلا بعد الحرب البادرة :

الأمر الأول هو أن الإرهاب حلّ محلّ موسكو كعدو عالمى للولايات المتحدة.

الأمر الثانى هو أن الولايات المتحدة أصبحت القوة العالمية الكبرى الوحيدة بعد سقوط الاتحاد السوفياتى وتمزقه.

يعنى الأمران أن الولايات المتحدة فى مواجهة العدو الجديد ليست مضطرة إلى اعتماد مبدأ الاحتواء، بل إنها مدعوة إلى، بل ومحكومة، باعتماد مبدأ المواجهة لالحاق

الـهـزيـمـة بـالإرهـاب ومـن ثـم لـفـرض تغييرات جذرية فى القيم والمفاهيم التى تشجع تعتقد أنها على الإرهاب وتدعو له.

ويرى لويس أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتبوأ موقعها المؤهلة له على عرش النظام العالمى الجديد ما لم تتمكن من إلحاق الهزيمة بالإرهاب وبالتالى من تحقيق هذه التغييرات البنيوية فى المجتمعات العربية - الإسلامية.

لقد تبنت الإدارة الأمريكية برئاسة الرئيس جورج بوش نظرية برنارد لويس(٩) التى يقول فيها إنه يمكن فرض ثقافة سياسية على أى مجتمع بالقوة العسكرية. وكانت إسرائيل قد تبنت هذه النظرية التى طرحها لويس لأول مرة فى معهد دايان فى إسرائيل فى عام ١٩٨٠، الأمر الذى شجعها على غزو لبنان فى العام ١٩٨٢. ورغم الفشل الذى منيت به إسرائيل فى لبنان، فإن الولايات المتحدة تتخذ من هذه النظرية نبراساً لها فى احتلال العراق اليوم. فالاحتلال يرهب العرب، وفرض ثقافة سياسية جديدة يستأصل الإرهاب من جذوره الفكرية الإسلامية.

لم يكن ملف الإرهاب الدولى يحتاج إلى هذا الحادث المروع الذى تعرضت له الولايات المتحدة حتى يصبح الإرهاب الشغل الشاغل للعالم كله سياسياً وعسكرياً وثقافياً، وحتى دينياً. ذلك أن ملف الإرهاب ينتفخ فى أدراج المنظمات الدولية عاماً بعد عام إثر كل حادث إرهابى دون أن تُتخذ قرارات ومواقف حاسمة سواء لجهة تعريفه أو لجهة تحديد كيفية التعامل معه، أو حتى لجهة معاملة كل مرتكبى الإرهاب بالمثل.

فالإرهاب ليس اختراعاً عربياً، ولا هو بدعة إسلامية. إنه ظاهرة نافرة ومنفرة من مظاهر الاضطراب السياسى فى العصر الحديث.

ومع تطوير المدنية تطور العمل الإرهابى، فـفـى عـام ١٩٥٦ أقـدمـت السلطات الفرنسية على اختطاف طائرة مدنية ترفع العلم المغربى وعلى متنها خمسة من قادة الثورة الجزائرية. بينهم أحمد بن بلا. كانوا فى طريقهم من الرباط إلى تونس لحضور مؤتمر يشترك فيه ممثلون عن الحكومة الفرنسية نفسها للبحث عن حل للقضية الجزائرية. وقد احتفظت فرنسا بقادة الثورة أسرى لديها حتى استقلال الجزائر فى عام ١٩٦٢. لقد كان حادث القرصنة هذا أول حادث من نوعه تقوم به دولة كبرى.

وبعد عامين وبالتحديد فى ١١/٣/ ١٩٥٨، نظمت الولايات المتحدة حادث اختطاف طائرة كوبية مما أدى إلى مصرع ١٧ شخصاً. وخلال الفترة من عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٤ تمَ اختطاف ٤٠ طائرة كوبية، وكان المختطفون يُستقبلون كالفاتحين فى المطارات الأمريكية. كانت الولايات المتحدة تريد تجريد كوبا (فيدل كاسترو) من أسطولها الجوى، ولذلك شجعت وموّلت عمليات الاختطاف وحرّضت على إحراق الطائرات المختطفة فى المطارات الأمريكية، أو تفكيكها وبيعها قطع غيار لشركات الطيران المحلية الأمريكية.

وفى عام ١٩٦٨ قامت إسرائيل بغارة على مطار بيروت الدولى فدمرت وأحرقت جميع طائرات الأسطول الجوى المدنى اللبنانى التى كانت جاثمة على أرض المطار وعددها ١٣ طائرة.

الآن وبعد العمل الإرهابى الذى استهدف واشنطن ونيويورك والذى أصاب الكرامة الأمريكية فى الصميم، لا بد من التساؤل كيف يمكن التصدى لهذه الحالة الخطيرة التى يواجهها العالم.

للإجابة على هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى أنه جرت ثلاث مبادرات مختلفة ومتباينة :

المبادرة الأولى قامت بها الولايات المتحدة منفردة بواسطة قواتها العسكرية قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وبعده : :

- غزو جرانادا ١٩٨٣
- قصف ليبيا ١٩٨٦
- اقتحام عاصمة بنما واعتقال رئيسها ١٩٨٩.
- احتلال افغانستان بتفويض من الامم المتحدة وبمشاركة من حلف شمال الاطلسى ٢٠٠٢.
- احتلال العراق بالتحالف مع بريطانيا ومن ثم بمشاركة عدة دول أخرى. وإسقاط النظام واعتقال رئيسه وكبار أركانه - ٢٠٠٣ - دون العودة إلى الامم المتحدة.

المبادرة الثانية تمثلت فى مؤتمر دولى عقد فى شرم الشيخ بمصر ١٩٩٨ دعت إليه الولايات المتحدة وحضره الرئيس السابق بيل كلنتون والرئيس حسنى مبارك إلى جانب عدد من المسؤولين العرب والدوليين، إضافة إلى رئيس حكومة إسرائيل السابق إيهود باراك ورئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات. تبنى المؤتمر وثيقة لمكافحة الإرهاب، إلا أن هذه الوثيقة سقطت فى أول تجربة تعرضت لها فى الأراضى الفلسطينية المحتلة.

وفى مطلع فبراير ٢٠٠٤ عُقد مؤتمر آخر فى بالى بأندونيسيا (حيث وقع حادث إرهابى فى أكتوبر ٢٠٠٢ ذهب ضحيته ٢٠٢ قتيل معظمهم من الأستراليين) حضره ممثلون عن ٣٣ دولة آسيوية. وقد أجمع المجتمعون على إنشاء مجموعتى عمل لجمع الأدلة وتنسيق معلومات الاستخبارات وتشجيع تبادل المتهمين بالإرهاب وتحسين التنسيق بين أجهزة الشرطة فى دول منطقة آسيا - المحيط الهادى. ودعوا إلى تحسين الإجراءات الأمنية فى مجالى الطيران والبحرية ووقف تدفق الأموال إلى المنظمات الإرهابية وحظر تسرب المواد التى تدخل فى إنتاج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية. كما اتفقوا على إنشاء أطر قانونية وتبادل المعلومات لمحاربة الإرهاب وتبييض الأموال.

ولا بد من الانتظار لمعرفة النتائج العملية لهذا التوافق الجديد.

المبادرة الثالثة اتخذتها الامم المتحدة فى عام ١٩٧٢ فى أعقاب حادث ميونيخ الذى أودى بحياة عدد من الرياضيين الإسرائيليين الذين كانوا يشتركون فى دورة الألعاب الأولمبية. جاءت المبادرة أساساً من الأمين العام للامم المتحدة ودعت إلى إعداد دراسة حول الإجراءات الدولية لمكافحة الإرهاب. تبنّتها الجمعية العامة على النحو الذى أشرنا إليه سابقاً.

مع الأسف لم تُحترم المواثيق الدولية حتى فى حدها الأدنى. فالولايات ٢١قدعاسلا تمدق قسحتلاالبريطانيا أثناء حربها ضد الأرجنتين (١٩٧٠)، وبريطانيا قدمت المساعدة للولايات المتحدة أثناء قصفها ليبيا (١٩٨٦) ثم تحالفت معها فى الحرب على العراق ٢٠٠٢. ورغم الخرق الإسرائيلى للقانون الدولى بالاعتداء على لبنان واحتلال جزء منه وتدمير عاصمته فى عام ١٩٨٢. ورغم احتلال إسرائيل لكل فلسطين وارتكاب المجازر الجماعية بحق الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وغزة. ورغم احتلالها مرتفعات الجولان السورية خلافاً لقرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و ٣٣٨، فإن المساعدات العسكرية والاقتصادية التى تتدفق على إسرائيل من عدة دول وخاصة من الولايات المتحدة تسجل خطاً بيانياً تصاعديا.

مراحل التصدى للإرهاب:

يمكن تقسيم استراتيجية مكافحة الإرهاب إلى مرحلتين أساسيتين :

مرحلة ما قبل الحرب الباردة، وقد فشلت لأسباب سياسية عدة أهمها :

أولا. الخلط بين مفاهيم الإرهاب والعنف والكفاح المسلح.

ثانيا. قدرة المنظمات المسلحة على التكيف مع الإجراءات الأمنية التى كانت تتخذ لردعها.

ثالثا. ممارسة بعض الدول الكبرى للإرهاب السياسى (الاجتياح السوفياتى لأفغانستان()) الاجتياح الأمريكى لجرانادا وبنما والتورط العسكرى فى لبنان وليبيا والحرب على العراق فى عام ١٩٩١ بعد غزوه للكويت).

رابعا. وجود مساحة دائمة من السلامة توفرها الصراعات الدولية بين الشرق وحلف وارسو من جهة والغرب وحلف شمال الاطلسى من جهة ثانية. ولعل أوضح مثلين هما الدعم السوفياتى لفيتنام فى حربها التحريرية ضد الولايات المتحدة، والدعم الأمريكى لأفغانستان فى حربها التحريرية ضد الاتحاد السوفياتى.

فى ضوء هذه الوقائع لم تؤد المحاولات الدولية لمكافحة الإرهاب والعنف المسلح إلى أية نتيجة فعالة مما حمل كلا من الرئيس المصرى حسنى مبارك والرئيس السورى الراحل حافظ الأسد على اقتراح عقد مؤتمر دولى بإشراف الأمم المتحدة لوضع اتفاقية جديدة تحل محل كل الاتفاقات القائمة، وتتضمن تعريفاً محدداً للإرهاب ومن ثم التزامات الدول فى معالجة أسبابه والتصدى له.

النزاعات المسلحة فى العالم

عدد الصراعات المسلحة	نوعها	تاريخها
١٠ ٩	محدودة أقل من ألف قتيل فى المجموع	١٩٩٩ ٢٠٠٠
١٣ ١٢	متوسط أقل من ألف قتيل فى العام الواحد	١٩٩٩ ٢٠٠٠
١٤ ١٢	واسعة أكثر من ألف قتيل فى العام الواحد	١٩٩٩ ٢٠٠٠

● يبلغ عدد النزاعات المسلحة فى العالم بين عام ١٩٨٩ و ٢٠٠٠، ١١١١ نزاعاً منتشرة فى ٧٤ موقع.

وفى مرحلة ما بعد الحرب الباردة فقدت المنظمات الإرهابية كل مظلة، بعد أن تبادلت الدول التى كانت تدعم بعض هذه المنظمات وتشجعها، الملفات السرية المتعلقة بها أشخاصاً وعمليات. إلا أنه سرعان ما تبين أن عالم ما بعد الحرب الباردة لا يتمتع بمناعة ضد التعرض للعمل الإرهابى، ليس فقط لأن الولايات المتحدة تمسك وحدها بتلابيب النظام العالمى الجديد بل لأنها تمسك بتلابيبه، ولأنها تضع الإرهاب والكفاح المسلح فى سلة واحدة. بل إنها - وفيما يتعلق بإسرائيل - تعتبر عملياتها الإرهابية دفاعاً عن النفس، فيما تعتبر عمليات المقاومة الفلسطينية إرهاباً.

إن استقراء الأحداث التى عصفت بالمجتمع الدولى خلال هذه المراحل التى مرت بها محاولات كبح جماح الإرهاب الدولى تثبت أمرين أساسيين :

الأمر الأول، تصعيد فى عمليات الإرهاب الدولى، وتوسع فى إطار ممارساتها، وارتفاع فى عدد ضحاياها من الأبرياء. وكان آخرها ومن أبشعها العملية التى استهدف الولايات المتحدة يوم الحادى عشر من أيلول - سبتمبر ٢٠٠١، والتى أشعلت فتيل الحرب العالمية الثالثة على النحو الذى أعلنه الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن، نفسه.

الأمر الثانى، تأكيد المجتمعات العالمية المختلفة التى تفتقر إلى القدرة - أو التى جردت من القدرة على المشاركة فى صناعة القرار الدولى - على حقوق الشعوب الصغيرة المغلوبة على أمرها فى حق تقرير المصير (مبادئ الرئيس ولسون فى فرساى بعد الحرب العالمية الأولى)، وتنديدها بالممارسات التى تقوم بها أى دولة سواء كانت إسرائيل أو الولايات المتحدة ضد هذه الشعوب، الأمر الذى أساء إلى سمعة الولايات المتحدة وإلى صدقيتها الدوليتين. حتى أن زبيجنيو بريجنسكى مستشار الأمن القومى الأمريكى الأسبق للرئيس جيمى كارتر (١٩٧٧ - ١٩٨٠) يقول فى محاضرة ألقاها فى مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية فى واشنطن : «من الواضح تماماً أن الولايات المتحدة باتت إثر نجاحاتها العسكرية فى كل من أفغانستان والعراق، القوة الوحيدة التى تملك قدرات عسكرية عالمية. فليست هناك دولة أخرى تملك قدرات بهذا الحجم. لكن المفارقة هى أنه فى الوقت نفسه، واستناداً إلى مؤشرات كثيرة، وإلى استطلاعات الرأى عبر العالم، وإلى ردود فعل الحكومات الأجنبية، وإلى تقارير الصحافيين الأمريكيين المنتشرين فى العالم، يمكن القول إن أمريكا تفتقر إلى الصدقية الدولية التى تتماشى مع مكانتها وإمكاناتها، مما يجعل هذه المكانة، بالمعنى السياسى، تقف فى نقطة منخفضة لم يسبق أن بلغتها فى أى وقت مضى. لقد كان الجزم المطلق بأن العراق يملك أسلحة دمار شامل سبباً أساسياً لتدمير الثقة بالولايات المتحدة وبكلمتها فى العالم. وفى يقينى أن هذا الأمر يشكل تطوراً خطيراً يؤثر سلباً على دور الولايات المتحدة فى العالم»[١٠].

ولأن هذا الأمر الثانى بقى نظرياً فقد كان طبيعياً أن يفرض الأمر الأول نفسه حقيقة جديدة من حقائق السياسة الدولية، وركناً أساسياً من أركان لعبة الأمم. وفى ظل اللانظام الدولى الجديد لم يكن مستغرباً أن يشهد العالم تعبيرات إرهابية عن عدم الرضى على استمرار الظلم وتجاهل معاناة المسلوبين من حقوقهم. ورغم بشاعة جريمة واشنطن ونيويورك، ورغم الحق الشرعى للولايات المتحدة فى معاقبة المجرمين - الذين لم يجر تحقيق قضائى بعد لتحديدهم ومحاكمتهم -، فإن الحرب ضد الإرهاب ليست صراع حضارات. فالإرهاب لا يمتّ إلى أى حضارة أو إلى أى دين بصلة، خاصة عندما يستهدف أبرياء ومواقع مدنية آمنة. بل إن من مستلزمات مكافحته قيام حوار حضارى فى إطار الاحترام المتبادل. و يبقى فى الحسابات الاخيرة أن القمع لا يمنع الإرهاب. يمنع الإرهاب رفع الظلم وتحقيق العدالة وإنصاف المظلومين. ■

الـــهــــوامـــــش:

(١) Walter laqueur, Terrorism , Boston , Little Brown.

(٢) الإرهاب فى العمل السياسى - أدونيس عكرة - بحث فى أصول الظاهرة وأبعادها الإنسانية - دار الطليعة - بيروت ١٩٨٣ - ص ١٠٢

(٣) Herald Tribune - ١٩٨٤/١٢/١٨ .

(٤) مجلة المستقبل العربى - العدد ١٠٥ - ١٩٨٧ (مقابلة أجراها معه د. علاء طاهر)

(٥) وثائق الجمعية العامة للأمم المتحدة - تقرير اللجنة الخاصة بالإرهاب - ملحق ٣٧ - (١/٣٤-٣٧) الفقرة ١١٨

(٦) وثائق الجمعية العامة للأمم المتحدة - اللجنة الخاصة للإرهاب الدولى - مستند AC/A /١٦٠ /٤ - ٢٩ فبراير ١٩٧٩

(٧) قال بهذا المبدأ جورج كانان فى مقالة نشرتها له مجلة فورن افيرز الأمريكية فى عام ١٩٤٧ واعتمدته الإدارات الأمريكية المتعاقبة فى التعامل مع الاتحاد السوفياتى السابق .

(٨) ــــ Peter Waldman, Wall Street Journal , Feb ٣ , ٢٠٠٤.

(٩) عدد من أقطاب هذه الإدارة هم من تلامذة الدكتور لويس والمتأثرين به أمثال : اليوت ابرامز رئيس قسم الشرق الأوسط فى مجلس الأمن القومى الأمريكى وهارولد رود مستشار وولفويتز للشئون الإسلامية .

(١٠) جريدة النهار - ٢٠٠٤/٢/٤

كتـــاب الـزاويـــة

١ - حيـــاتى

أحمـــــد أمـــين

فى الثلاثين من مايو الماضى، مرت الذكرى الخمسون لوفاة الدكتور أحمد أمين رائد الدراسات الإسلامية فى العصر الحديث الذى أرخ للحياة العقلية والفكرية للإسلام فى سلسلة مؤلفاته الشهيرة التى قال عنها طه حسين: «من ألف فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام أبقى على الأيام من أن يدركه الموت».

ولد أحمد أمين فى حى الخليفة بالقاهرة عام ١٨٨٦ ميلادية، وكان أبوه مدرسًا فى الأزهر وفى مدرسة الإمام الشافعى وإمام مسجد ، فتأثر بولعه بالكتب وبقوة عاطفته الدينية،كما تأثر بحياة الحارة القاهرية الصميمة التى نشأ فيها. وقد تنقل أحمد أمين فى تعليمه بين الكتاتيب التقليدية ومدرسة أم عباس الابتدائية بنظامها الحديث، ثم بين الدراسة الدينية الخالصة بالأزهر إلى مدرسة القضاء الشرعى التى أنشأها الإمام محمد عبده برعاية سعد زغلول باشا لتقوم بتدريس الثقافة الدينية والثقافة اللغوية الأدبية إلى جانب الثقافة القانونية العصرية والثقافة العلمية الحديثة. فتغير به طريقه من الأزهر إلى القضاء الشرعى إلى الجامعة، حيث أصبح فيها أستاذًا بكلية الآداب ثم عميدًا لها.

ومن آثاره الثقافية والوطنية المهمة تأسيسه للجنة التأليف والترجمة والنشر ومجلة «الثقافة»، و«إنشاؤه الجامعة الشعبية» (قصور الثقافة الآن). وقد أنهى أحمد أمين الجزء الثانى من مذكراته «حياتى» قبل عام من وفاته، والتى يروى فيها عن مراحل تفتح وعيه الدينى والسياسى والوطنى والمعرفى.

من الذى يكذب؟!

تقرير الإرهاب الأمريكى

محمود المراغى



■■ صدمتنى الكلمة «مصاحف مفخخة»!.. قرأتها مرة أخرى وتأكدت أنها ليست سيارات مفخخة وليس الحديث عن أشخاص انتحاريين يلفون المفرقعات حول جسدهم! هو القرآن، كتاب الله.. أما المصدر فهو: وزارة الخارجية الأمريكية، وعبر وثيقة جرى تدقيقها وهى تقرير «نماذج من الإرهاب فى العالم»، والذى تصدره الوزارة فى (أبريل.مايو) من كل عام، والعبارة جاءت فى آخر تقرير ومن خلال مقدمة كتبها السفير كوفر بلاك منسق محاربة الإرهاب.

أراد السفير أن يستفز القارئ فقال فى مقدمة حديثه إن الإرهابيين قد استهدفوا الكنائس والمساجد. خلال عام التقرير وهو ٢٠٠٣. والدليل ما جرى فى أفغانستان والعراق!؛ ثم يكمل أنه «من بين ما تم ضبطه لدى إرهابيى القاعدة فى العام الماضى نسخ من القرآن تضم قنابل.. مما يوضح.طبقًا لتعبيره.كيف أن هؤلاء يعادون كل البشر بصرف النظر عن العقيدة»!

هكذا قال الرجل، وهكذا علت علامات الاستفهام فإن كان الحديث صدقًا فلسنا أمام جماعات دينية، بل هى جماعات سياسية وهو صراع سياسى، وإن كان الكلام كذبًا.وهو ما أرجحه.فلماذا تكذب واشنطن فى هذه القضية الحساسة، ومن يصدق كذبتها الكبرى: مصحف مزود بالقنابل!

ويبدو أن ذلك العام سواء كان (٢٠٠٣) أو (٢٠٠٤) أو حتى ما قبل ذلك وابتداء من (١١) سبتمبر عام (٢٠٠١).. يبدو أنه عام.أو أعوام.الكذب والخديعة، لا نقولها نحن، ولكن يقولونها هم.. والمفتاح دائمًا «الإرهاب»، أى ما يتحدث عنه هذا التقرير.

صدر التقرير فى أبريل الماضى وبدأ تداوله فى مايو وسط انتباه الرأى العام للطرف الأخير من قصة الذين أطلقت عليهم واشنطن كلمة (إرهابيين) وهم.هذه المرة.«الذين يقاومون الاحتلال فى العراق»!

كان الحديث كله حول صور التعذيب فى العراق، لكن ذلك استدعى للأذهان صورًا أخرى لم تنشر وجرى إخفاؤها، وصورًا لم تتسرب بعد وتكشف موقعًا آخر، ربما يكون هو الأخطر لأنه وراء ستار حديدى فى جزيرة كوبية اسمها جوانتانامو، ويضم كثيرين ممن اختطفتهم واشنطن من دول عدة وليست أفغانستان وحدها!

لم تتسرب صور جوانتانامو وإن أفادت شهادات الذين تم الإفراج عنهم. وبينهم بريطانى يتحدث لصحيفة «الأوبزرفر» بأن هناك تسجيلات بالفيديو لما جرى، وأن إدارة السجن تحتفظ بهذه التسجيلات لترفعها إلى رؤسائها فى البنتاجون!

فى كل الأحوال كان خيط الكذب ممتدًا، فالرئيس ونائبه ووزير دفاعه ينكرون معرفتهم بما جرى فى سجن أبو غريب، والشهادات التى حصل عليها الكونجرس تقول إنهم كانوا يعلمون بل إن خطة التعذيب قد تم التصديق عليها من كل المستويات.

ورغم أن الكذب فى المجتمع الأمريكى جريمة كبرى حوسب عليها رئيس سابق هو كلينتون فإن مسلسل الصدمات التى تعرض لها بوش قد بدأ وانتهى بكلمة «إرهاب» وما تلا ذلك من تداعيات، فقرار العراق جرى التفكير فيه فى اليوم التالى لضربة سبتمبر، وعندما قال ريتشارد كلارك مستشار البيت الأبيض للإرهاب حينئذ: إنها القاعدة وليست العراق، قال بوش.طبقًا لرواية الأخير فى كتابه الذى هز الولايات المتحدة.«بل ابحث عن دور صدام حسين». وعندما قيل للجنرال (أبى زيد): استعد للعراق، ولم يكن قد استقر به الحال فى أفغانستان أزبد وأرغى فكيف يحارب فى جبهتين فى وقت واحد، لكنها الأوامر والتى اضطر لتنفيذها.

فى وقت لاحق، جاءت ثلاثة كتب مهمة أصدرها وزير المالية السابق بول أونيل الذى عمل شهورًا مع بوش، وكلارك الذى نتحدث عنه، وبوب وودوارد الصحفى الشهير الذى أسقط نيكسون بفضيحة (ووترجيت).. والكتب الثلاثة أفصحت عما جرى وأن قرار الاحتلال للعراق كان يجرى التحضير له قبل ١١ سبتمبر، وأنه لا علاقة له بأسلحة دمار شامل أو تنظيمات إرهابية، وعلى عكس ذلك يجئ تقرير (الإرهاب فى العالم) هذا العام ليشير إلى أن أول مكاسب الحرب فى العراق هو القضاء على الإرهاب، بل إن عملية «تحرير العراق» وهذا هو الاسم الأمريكى للحملة «هى الآن العملية المركزية للحملة العالمية على الإرهاب». هكذا تنظر الخارجية الأمريكية لاحتلال دولة عربية، وهى فى تقريرها تشير لثمرات أولى حين جرى القبض على صدام حسين، وحين جرى إغلاق معسكر للتدريب تابع للقاعدة.كما يقولون.فى شمال العراق إضافة لمطاردة رجال مصعب الزرقاوى الذين تدربوا على الحرب الكيماوية وإضافة للغارات التى كانت قد قصفت فى بداية الغزو معسكر (أنصار الإسلام).

حملة العراق، طبقًا للخارجية جزء من حرب الإرهاب التى دخلتها واشنطن متأخرة طبقًا للشهادات الأخيرة التى أدلى بها (كلارك) وقال فيها أن معلومات كانت متوافرة قبل ١١ سبتمبر وأن هذه المعلومات كانت تشير لحادث جلل سوف يجرى بواسطة الطيران.

ومرة أخرى ردت الإدارة الأمريكية بأنها «لم تعلم» و«لم تقصر» و«لم تتآمر»، واختلفت الآراء: من الذى يكذب؟ الرئيس بوش أم الرجال الذين عملوا معه؟

على أى حال وأيًا كان الصدق والكذب فى عام الانتخابات، فقد كان علينا أن نصدق الكثير مما جاء فى تقرير الإرهاب لأنه (شهادة المفعول به) فى بعض الأحيان فقد كانت هناك عمليات عنف أغلبها ضد الولايات المتحدة، وكانت هناك عمليات رصد لعمليات أخرى مما يتيح لنا أن نتساءل عن حصيلة عامين ونصف من حرب الإرهاب.. وأن نعرف العائد والتكلفة؟.. ماذا كسبت أمريكا؟.. وماذا كسب العالم؟.. وما هى الخسائر التى تحققت عن طريق (الإرهابيين) أو كتكلفة دفعتها الجيوش ودفعتها الدول؟

فى بند الخسائر البشرية يأتى الرقم الأول الذى يذيعه التقرير، فقد بلغ عدد العمليات المصنفة كإرهاب دولى خلال عام ٢٠٠٣: (١٩٠) عملية. كانت آسيا فى المقدمة، واحتلت المركز الأول فى عدد العمليات منتزعة الأولوية من أمريكا اللاتينية التى شهدت القسط الأكبر من العمليات فى السنوات الماضية.

وكان عدد القتلى طبقًا للتقرير هو (٣٠٧) أشخاص، والجرحى (١٥٩٣)، أما

The Year in Review:
Patterns of Global Terrorism
نماذج من الإرهاب فى العالم
Office of the Coordinator for Counterterrorism, Us Department of State, April 29, 2004

الذى تلقى أكبر قدر من الضربات وكالمعتاد منذ فترة طويلة فهى الولايات المتحدة الأمريكية التى جرى استهدافها فى ٨٢ حادثًا وهو ما لم يصب دولة أخرى فى العالم.. ولكن ضحايا الولايات المتحدة من قتلى لم يتجاوزوا ٣٥ شخصًا، بدت قصصهم. بسبب ضآلة العدد. كأنها مبارزة بالسيف فى زمن اختفت فيه السيوف، أو كأنها صيد للعصافير فى غابة طارت منها كل العصافير فلم يبق غير هذا العدد المحدود.

القتلى فى كل العمليات وطبقًا للتقرير ٣٠٧ أشخاص، بينهم ٣٥ أمريكيًا: ميشيل رينيه ذو الواحد والعشرين ربيعًا الذى تم قتله برصاص قناص فى الكويت، وتوماس جانيس قائد الطائرة التى أسقطتها جماعة القوات المسلحة فى كولومبيا، ووليم هايد الذى قتلته قنبلة فى انفجار بمطار بالفلبين.. و.. هكذا اهتم التقرير بتسجيل أسماء الضحايا واحدًا بعد الآخر مع ذكر ملابسات كل حادث.

ولكن، يلفت النظر أنه من بين الـ ٣٥ قتيلاً كان هناك واحد وثلاثون قد سقطوا فى دول عربية، واثنان لقيا مصرعهما فى أفغانستان.

أيضًا، يلفت النظر أن نصف الذين ماتوا فى دول عربية قد سقطوا فى عمليات فلسطينية، بينما سقط تسعة فى السعودية، وخمسة فى العراق.. و.. لا يهم التركيز على هذه القصة، لكن المهم هو دلالة الأرقام فقتلى الولايات المتحدة، بل وقتلى مختلف الجنسيات فى جميع أنحاء العالم لا يعادل قتلى غارة أمريكية واحدة فى العراق أو أفغانستان.

التقرير يخلو من ذكر أى شىء عن خسائر الأطراف الأخرى التى أصابتها حرب الإرهاب، حتى لو كانت الخسائر. وهى الحقيقة. على جبهة المدنيين فى معظم الأحوال.

وهكذا بدت الصورة لما جرى عام ٢٠٠٣، والذى جرت نسبته لـ ٣٧ جماعة وصفها التقرير. طبقًا لتعريف يحدده القانون الأمريكى. بأنها «إرهابية»، إضافة لأربعين جماعة أخرى كامنة أو باتت على الهامش.

فى التفاصيل. والهجمات أكثر من عدد القتلى. كان هناك خلال العام ٤٦ هجومًا على أهداف أمريكية فى أمريكا اللاتينية حيث المصالح البترولية الأمريكية فى الأساس، وحيث تحرص التنظيمات المعادية (ومعظمها ماركسى) على ألا تصيب البشر (فالإنذار المادى يكفى لتبليغ رفضهم لواشنطن). بعدها، وطبقًا للتقرير جاء دور غرب أوروبا وفيها جرى استهداف ١٦ موقعًا أمريكيًا، ثم جاء الشرق الأوسط: ١١ موقعًا، فآسيا: ٦ مواقع.. ومعظم الهجمات كانت بالقنابل، وأقلها حوادث خطف. أيضًا، كانت دوائر الأعمال هى الأكثر استهدافًا، وكانت الأهداف العسكرية هى الأبعد منالاً.

الأهم هى الصورة العامة التى وصفها منسق شئون الإرهاب بأنها جيدة (لأن العمليات تتراجع)، والصورة التى نعنيها هى منحنى العمليات طوال الفترة الماضية، قبل وبعد سبتمبر، قبل وبعد حرب الإرهاب، التى باتت حربًا عالمية من طراز جديد.

كانت عمليات العنف بين صعود وهبوط طيلة العشرين عامًا الماضية. بلغت ذروتها عام ١٩٨٧: (٦٦٥) عملية وبلغت أدناها فى العام الماضى: (١٩٠) عملية. صعدت فى عام تحرير الكويت فسجلت (٥٦٥) عملية عام ١٩٩١. ثم تراجعت فى العام التالى إلى ٣٦٣ عملية، وعادت للصعود حتى بلغت ٤٢٦ عملية عام ٢٠٠٠ وبدأ الاتجاه للنزول طيلة السنوات الثلاث التالية أى قبل حرب الإرهاب وبعدها.

خلال ذلك لم يكن أكبر عدد من الضحايا فى حادث ١١ سبتمبر، بل كان قبلها فى أفريقيا حيث بلغ عدد ضحايا أفريقيا (بين قتيل وجريح) (٥٣٧٩) عام ١٩٩٨. بينما بلغت ضحايا أمريكا الشمالية عام ٢٠٠١: (٤٤٥٩)، ونلاحظ هنا أن التقديرات الخاصة بـ ١١ سبتمبر قد تراجع فيها عدد القتلى أكثر من مرة حيث بدأ بستة آلاف وهبط فى التقرير الأخير لما دون الثلاثة آلاف.

السؤال: وماذا عن الشرق الأوسط الذى تثار حوله الضجة، والذى شهد أحداثًا جسيمة على أرض السعودية والمغرب وتونس، إضافة لما هو ناشب من حروب فى العراق وفلسطين.

التصاعد جاء دائمًا مصاحبًا لتزايد الضربات الإسرائيلية على أرض فلسطين، ومع احتلال العراق ومع تفجر تناقضات داخلية فى بعض الأنظمة، والارتباط بالعوامل السياسية هنا واضح حتى أن نشأة التنظيمات التى تمارس العنف. والتى يصفها التقرير بأنها إرهابية. قد جاءت مصاحبة لتطورات القضية الفلسطينية. فى أواخر الستينيات. وبعد حرب ١٩٦٧. نشأت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية، وفى عام ١٩٧٤. بعد حرب ٧٣. جاءت حركة (أبو نضال)، وفى عام ١٩٨٢. ومع احتلال لبنان. جاء حزب الله ثم جاءت حركة حماس عام ١٩٨٧، وجاءت كتائب شهداء الأقصى مصاحبة للانتفاضة الفلسطينية الأخيرة، ولم تبدأ الجماعة الإسلامية المسلحة فى الجزائر نشاطها. طبقًا للتقرير. إلا فى عام ١٩٩٢ بعد الواقعة المشهودة بكسب التيار الإسلامى لانتخابات المحليات ثم التدخل لإجهاض هذا المكسب.

السياسة إذن هى الأصل، وهو الأمر نفسه فى معظم التنظيمات التى جرى تصنيفها كجماعات إرهابية. (الباسك) فى إسبانيا تريد الانفصال. وجماعة (أبو سياف) فى الفلبين تريد دولة إسلامية مستقلة فى جنوب البلاد، وهو ما تطلبه أيضًا جماعة (أنصار الإسلام) فى المنطقة الكردية بالعراق وحتى وقت قريب هو (ديسمبر ٢٠٠١). أما الجيش الأيرلندى فقصته معروفة، ونفس الشىء بالنسبة لحزب العمال الكردستانى.. وغيره.

السياسة هى الأصل، والخلاف العرقى أو المذهبى. والذى نحمله معنا منذ عشرات السنوات. سبب رئيسى للعنف الذى طالما عالجته الدول بأساليب شرطية بعيدًا عن استخدام الجيوش والطائرات وإعلان الحروب. لكن التقرير ينكر ذلك، ولا يقترب منه بل إنه يتجاهل كل أسباب العنف التى باتت حافزًا لكثير من الحركات فى العالم. ينكر وجود مظالم وحالات احتلال واضطهاد عرقى، وكلها عوامل تحرك العنف دون شك، لذا فإن التقرير بعد اجتيازه لأزمة المصداقية التى تواجه كل الأدبيات الرسمية فى الولايات المتحدة وعبر معلومات بعضها حقيقى وبعضها يثير علامات استفهام، بعد ذلك يدخل إلى أزمة ثانية هى أزمة المفاهيم.

تشير التقارير المتوالية حول الإرهاب الدولى والتى تصدرها وزارة الخارجية الأمريكية إلى أنه لم يحظ أى تعريف للإرهاب بقبول دولى، ومع ذلك. يقول: «فإنه من أجل الغرض من هذا التقرير اخترنا تعريف الإرهاب الذى تتضمنه المادة ٢٢ من القانون الأمريكى القسم ٢٦٥٦» ويقول: «إن الإرهاب يعنى العنف المتعمد بدوافع سياسية ويجرى ارتكابه ضد أهداف غير محاربة بواسطة جماعات شبه قومية أو عملاء سريين، ويفسر غير المحاربين بأنه يتضمن المدنيين والعسكريين الذين يكونون وقت الحادث غير مسلحين أو خارج الخدمة وكذلك المنشآت العسكرية أو العسكريين فى حالة عدم

فى كل الأحوال كان خيط الكذب ممتدًا، فالرئيس ونائبه ووزير دفاعه ينكرون معرفتهم بما جرى فى سجن أبو غريب، الشهادات التى حصل عليها الكونجرس تقول إنهم كانوا يعلمون بل إن خطة التعذيب قد تم التصديق عليها من كل المستويات

وجود أعمال عدائية في تلك المواقع مثل التفجيرات ضد القواعد الأمريكية في أوروبا والفلبين وأماكن أخرى».

هذا هو التعريف الرسمي، وليست القصة هي (التقرير) لكن القصة هي (القرار) فعندما يجرى تصنيف جماعة ما بأنها إرهابية يجرى استباحة دم أعضائها، ويجرى الحصار القانوني والمالي من حولها، وهو الأمر الذي دعا الخارجية الأمريكية لأن تشير لمساندة العراق للنشاط الإرهابي وتشجيعه بسبب قرار اتخذه صدام حسين بصرف إعانة تتراوح بين عشرة آلاف وخمسة وعشرين ألف دولار لكل أسرة استشهد عائلها في فلسطين، بل إن نفس الأمر هو الذي دفع كلاً من الأردن والكويت بأن تجمد . طبقًا للتقرير . أموال منظمة حماس، فهل كانت مقاومة الاحتلال على أرض فلسطين عملاً إرهابياً رغم ما ينص عليه القانون الدولي وتنص عليه قرارات الأمم المتحدة حول (حق مقاومة الاحتلال بكافة الوسائل)؟ الإجابة واضحة. إنها أزمة المفاهيم، فكلهم عند الولايات المتحدة (إرهابيون) ولا تبرئ واشنطن ساحتهم إلا عندما يضعون السلاح وتصبح إسرائيل وحدها في الساحة!

يقول السفير فرانسيس تايلور المنسق السابق لمكافحة الإرهاب وحين سئل في مؤتمر صحفي حول سوريا ولبنان ارتباطًا بهذه المفاهيم «لقد أخبرنا سوريا بما نشعر به حول سلوكها كدولة راعية للإرهاب، وبالنسبة للبنان فهم يعتبرون حزب الله حركة تحرير ونحن نعتبرها إرهابًا»، وقد تطور ذلك كما هو معلوم بالنسبة لسوريا التي جرى فرض العقوبات عليها أخيرًا بسبب إيوائها لمكاتب منظمات فلسطينية إضافة لمساندة حزب الله والاتهام بحيازة أسلحة كيماوية.

(أزمة المفاهيم) . كما قلت . ليست مشكلة التقرير، لكنها مشكلة (القرار) فقد تحكمت في الخطط الأمريكية وغير الأمريكية رغم أنها مجرد امتداد تلقائي للخطط الأمنية الجديدة في الولايات المتحدة والتي يشير جزء منها للتالي:

● أولاً: ألا تكون هناك قوة في العالم تهدد الولايات المتحدة أو تقترب من قوتها . تستوي في ذلك الدول . أعداء وأصدقاء . وتستوي الجماعات والأفراد التي تملك قدرات عسكرية.

● ثانيًا: إنه في حالة «الاشتباه» بوجود خطر، أو وجود قوة صاعدة تهدد فإن الجيش الأمريكي يقوم بحرب إجهاضية أو استباقية، يذهب فيها للخصم فيعذبه في معقله قبل أن يتحرك.

● ثالثًا: إن الشرعية التي يستند عليها تحرك الولايات المتحدة هي شرعية (الأمن القومي الأمريكي)، ومن ثم فإنها . وفي التطبيق العملي . هي شرعية القوة في مواجهة شرعية القانون وما قد يفرضه المجتمع الدولي.

على أساس هذه القواعد الثلاث، وبانتشار عسكري أمريكي واسع في جميع أنحاء العالم، دخلت واشنطن ما أسمته حرب الإرهاب التي وصفتها منذ البداية بأنها حرب ممتدة زمنيًا (ربما عشر سنوات) وجغرافيًا (إلى كل مكان يتواجد فيه الإرهاب).

لقد سقطت فكرة الحدود السياسية والسيادة الإقليمية للدول وحتى توفر واشنطن غطاءً دوليًا لحملتها الأولى ضد أفغانستان فقد راحت تستثمر ١١ سبتمبر وكما يقول تقرير الإرهاب عن عام ٢٠٠٢ فإن:

● هناك ١٣٦ دولة عرضت مساعدات عسكرية على الولايات المتحدة

● و ٨٩ دولة منحت حق التحليق للطائرات العسكرية

● و٧٦ دولة منحت حق الهبوط لهذه الطائرات

● و٢٣ دولة وافقت على استضافة القوات الأمريكية وقوات التحالف المشاركة في حرب أفغانستان.

● وقد عززت قوات من ٥٥ دولة القوات الأمريكية في المجهود الحربي!

إنها حرب عالمية بالفعل، وإن كانت من طرف واحد لأن الطرف الآخر مجرد أفراد وجماعات هائمة على وجوهها في الجبال والصحاري والكهوف والشقق المفروشة، وهم أفراد وجماعات . وإن كانت بعض حركاتهم عابرة للحدود . لكنهم عاشوا معنا نطاردهم بالشرطة إن تصادموا مع أهداف المجتمع، ونحتفي بهم إن لعبوا دور (نائب الفاعل) في مواجهة عدوان إسرائيلي أو غير إسرائيلي.

إنها حرب (اللامعقول) اختارت لها واشنطن موقعين هما الأضعف في العالم. أفغانستان التي لم تجد تقارير البنك الدولي أكثر من سطور كمعلومات متوافرة عما يجري بها، والعراق التي أنهكها حصار وحرب الـ ١٢ عامًا ومنذ عام ١٩٩١ . و.. بينما استطاعت واشنطن (تجييش) العالم معها في الحرب الأولى وبدعوى حماية الحضارة الإنسانية، لم تتمكن من ذلك في العراق وإن استمر الخلط بين (حرب إرهاب) وحرب (احتلال أرض ونفط وشعب).

ولكن، وما بين الحربين أرست واشنطن سوابق حديثة في العلاقات الدولية. أرست قاعدة القتل بالاشتباه، وأرست قاعدة المرجعية الدولية لعاصمة واحدة يكون لها حق القبض على مواطني الدول الأخرى، وترحيلهم. ربما بواسطة حكوماتهم. وإخضاعهم للاعتقال والاستجواب وعزلهم عن العالم!

و.. هكذا جرى تسليم الكثيرين للولايات المتحدة ممن حددت هي أسماءهم، وهكذا أيضًا . وطبقًا للروايات الصحفية . تم نقل عدد منهم لتعذيبه واستجوابه في عواصم عربية لانتزاع الاعترافات منه، بل وهكذا خرجت طائرة أمريكية تابعة للمخابرات الأمريكية وبدون سائق لتقصف سيارة يمنية وتقتل مشتبهًا فيه اسمه (سفيان الحارثي) ومن معه دون اعتراض من الحكومة اليمنية. كان ذلك في أواخر عام ٢٠٠٢ . وحين سألوا رامسفيلد عن مقتل الحارثي حينذاك كان تعليقه (إن التخلص منه أمر طيب للغاية).

ماذا فعل الحارثي؟.. ولماذا لم تقبض عليه حكومته وتحاكمه إن كان قد خالف القانون؟

إنها عينات من حرب الإرهاب التي يقول تقرير الخارجية الأمريكية إنها قد خططت لها بعناية، دبلوماسيًا، وقانونيًا، ومخابراتيًا، وماليًا، وعسكريًا، ووفق مبادئ محددة لأزمة لهزيمة المنظمات (الإرهابية) ومن خلال «مهاجمة ملاجئهم، قياداتهم، مواصلاتهم، دعمهم المادي.. مع رفض قبولهم كلاجئين وحصار الدول التي تشجعهم أو تؤويهم. دخل اللعبة حلف الأطلنطي وأنشأ قوة أمنية تعمل في أفغانستان، كما وفر رصدًا لما يحدث في البحر الأبيض، ووحدة دفاع بيولوجي وكيماوي ونووي، ووحدة مخابرات، وفي عام ٢٠٠٣ وافقت قمة إيفيان للدول الصناعية على تأسيس مجموعة عمل ضد الإرهاب، ومثل ذلك فعلته الدول الأمريكية ومجموعات دولية أخرى، كما أنشأت الولايات المتحدة مركزًا متكاملاً للعمل ضد الإرهاب، ومركزًا آخر للرصد وتزويد الشاشات بالمعلومات، وطبقًا للتقرير فإن ١٧٣ دولة قد أصدرت أوامر بتجميد أصول يشتبه ملكيتها لعناصر إرهابية، ومائة دولة أصدرت تشريعات بخصوص الحصار المالي.

وهكذا فإن العمل جرى على جميع الجبهات، والاعتمادات المالية مفتوحة ومن ثم فقد أصبح . طبقًا للتقرير . «معظم قيادات القاعدة بين قتيل أو سجين، وبلغ عدد من تم اعتقاله منهم . حتى ديسمبر الماضي . ٣٤٠٠ شخص، وكان من أبرز العمليات القبض على خالد شيخ محمد في مارس ٢٠٠٣، وقد تم اعتقاله في باكستان وجرى تسليمه لواشنطن كما تم . في أغسطس القبض



إن الشرعية التي يستند عليها تحرك الولايات المتحدة هي شرعية (الأمن القومي الأمريكي)، ومن ثم فإنها. وفي التطبيق العملي. هي شرعية القوة في مواجهة شرعية القانون وما قد يفرضه المجتمع الدولي

على شريك له. طبقًا لدعاوى التقرير. وهو رضوان بن عصام الدين (حمبلى) وكان ذلك فى تايلاند وجرى تسليمه، والأول متهم بالتخطيط لـ ١١ سبتمبر والتى لم تعقد لها محاكمة شاملة حتى الآن) والثانى متهم فى هجمات جزيرة بالى بإندونيسيا.

الحملة إذن مستمرة، وكما يقول السفير كوفر بلاك أنها قد «أحرزت تقدمًا كبيرًا لكن النجاح الكامل يتوقف على إرادة سياسية دولية وبناء قدرات فعالة».. و.. فى مجال بناء القدرات وبعد الإشادة بجهود دول عربية مثل اليمن والسعودية ومصر يشير التقرير أنه خلال العشرين عامًا الماضية قامت الولايات المتحدة بتدريب ٣٦ ألف مواطن من ١٤٢ دولة على مكافحة الإرهاب.

.. السؤال هنا: وماذا أسفرت عنه هذه الجهود؟.. وماذا كان العائد لانتقال أسلوب المواجهة من أعمال شرطية عرفتها بلاد كثيرة مثل مصر؛ إلى أسلوب المواجهة بالجيوش والطائرات واحتلال الأراضى؟

كان عدد الهجمات التى تعرض لها العالم عام ١٩٨٢: ٤٨٧ هجومًا، وارتفع العدد إلى ٦٦٥ هجومًا عام ١٩٨٧ ثم تراجع تدريجيًا إلى أن بلغ ١٩٠ هجومًا فى العام الماضى.

لقد انخفض عدد العمليات لكنها ازدادت ضراوة وجرى تزويدها بالتكنولوجيا المتقدمة ابتداء من الحواسب الإلكترونية وامتدادًا لما تقدمه الأسلحة الكيماوية والبيولوجية.

حدثت مواجهات كثيرة، وغاب الحوار.. بل جاءت الحرب وغابت السياسة، فهل كانت حرب الإرهاب التى أعلنتها واشنطن. ورغم وجود ظاهرة عنف تصيب كثيرًا من الأبرياء وتهز بعض المجتمعات. هل كانت الحرب الخطأ، فى المكان الخطأ، فى التوقيت الخطأ؟.. هل كانت قضية حق يراد بها باطل؟.. وهل كانت مقصودة لذاتها، أم أنها كانت حلقة فى بناء الإمبراطورية الأمريكية، وحجة تتسلل من عباءتها الجيوش لتعبر الحدود وتنشر القواعد.. وتنشر الرعب أيضًا؟.. وأى عنف من الاثنين. عنف الدولة وعنف الأفراد. استدعى الآخر؟

مع حملة الإرهاب، جاء. كما أسلفنا «القتل بالاشتباه». ومعها، سقط حكم القانون، ومن خلالها برز ما يمكن تسميته بدبلوماسية الأوامر، حيث تريد واشنطن إعادة صياغة سياسات الدول الأخرى متذرعة بما أسمته الإرهاب، وهو الحال مع سوريا التى تستضيف عدداً كبيراً من اللاجئين الفلسطينيين، والتى باتت تهمتها: رفض سياسة إسرائيل فى الاحتلال والتوسع وإذا لم ترتدع فهى العقوبات و(قانون محاسبة سوريا).

حرب الإرهاب مازالت مستمرة، وقد طلبت القوات الجوية الأمريكية (وليست وزارة الخارجية) دراسة من مؤسسة راند البحثية حول مناخ الشرق الأوسط ومستقبله من الناحية الأمنية، فجاءت نتيجة البحث الذى صدر مؤخرًا لتقول إن عوامل «عدم الاستقرار هى السائدة فى السنوات القادمة»، فهل يرجع ذلك لجماعات العنف. وقد اتسعت أعمالها. أم يرجع للوجود الأجنبى والممارسات الظالمة وحرب الإبادة التى تتم فى بلدان كثيرة وليست أفغانستان أو العراق أو فلسطين فقط؟

الارتباط قائم بين الأمرين، ولكن بعد عامين ونصف من حرب أفغانستان مازال تنظيم القاعدة، بل عناصر من طالبان يطلان على الساحة. أيضًا، وبعد عام وبضعة أسابيع على حرب العراق مازالت القيادة العسكرية تطلب تعزيزات جديدة وتعجز فى إخماد المقاومة.

إنها الحرب المفتوحة والمقصودة، فالجيش الأمريكى الذى يزيد عدده على المليونين والذى لا ينافسه فى العالم غير الجيش الصينى لابد أن يكون فى حالة عمل دائم. هذه هى الفلسفة، وهى السياسة منذ كانت حرب الخليج الثانية. الجيش لابد أن يعمل. وامتلاك القوة يغرى باستخدامها، أما الأهداف وأما إرهاب الدولة فتلك قصة أخرى. ■



الخيبــــــــــــة!

تــومــــاس بـــــاورز

[١]

■ تمر وكالة المخابرات المركزية هذه الأيام بأزمة طاحنة - وهى الثانية خلال نصف قرن منذ إنشائها فى ١٩٤٨ بهدف أساسى وهو خدمة الرئيس. والآن لا يتم تنصيب مديريها إلا بموافقة مجلس الشيوخ، وهم ملزمون بتقديم تقارير منتظمة حول نشاطاتهم إلى لجان الاستخبارات فى الكونجرس. ولكن هذه الرقابة لم تحد من سلطات الرؤساء لاستغلال وكالة المخابرات المركزية كما يشاءون. فى العهود الماضية استغل الرؤساء وكالة المخابرات المركزية لتنفيذ حروب ضد الشعوب الأجنبية ولاغتيال الزعماء الأجانب ولجمع الأموال من أجل القيام بحروب سرية وحتى - كما فى فضيحة وترجيت- لمحاولة إبطال تحقيقات مكتب التحقيقات الفيدرالى فى نشاط فريق سطو على المنازل يديره البيت الأبيض. والأزمة الحالية نتيجة حملة يديرها البيت الأبيض لتبرير الإطاحة بصدام حسين وذلك بالاستشهاد بتقارير استخباراتية تتحدث عن ترسانة عراقية من أسلحة الدمار الشامل وتطوير برامج لصناعة المزيد. ولكن بعد سقوط بغداد فشل فريق من الوكالة مؤلف من أكثر من ألف شخص فى إيجاد أسلحة الدمار الشامل مما حدا برئيسهم ديفد كاى بعد ستة أشهر من العمل الميدانى إلى استنتاج توقف أبحاث وبرامج تطوير العراق منذ سنوات طويلة.

بترتيب مع: نيويورك ريفيو أوف بوكس (٢٩ أبريل ٢٠٠٤)

ترجمة: بثينة الناصرى

إن هذا الفشل الجلى للاستخبارات الأمريكية هو موضوع تحقيقات متعددة مستمرة ومن المتوقع أن يكون موضوعا مثيرا للجدل لسنوات عديدة قادمة. وقد ضاعف من هذه الخيبة عثور فريق كاى فعلا على مخازن فارغة ومصانع ومعامل معطلة إضافة إلى شواهد واضحة على أن النظام كان فى سنواته الأخيرة يعانى من الفساد، واليأس والتفكك. ويبدو أن وكالة المخابرات المركزية لم تكن فقط غافلة عن حقيقة الأوضاع فى بغداد حيث كان يتم استغلال برامج أسلحة دمار شامل وهمية لابتزاز مبالغ طائلة من صدام حسين، ولكن قسم التقديرات فى الوكالة قد ذكر أيضا فى أكتوبر ٢٠٠٢ و بثقة عالية وجود مخاطر حقيقية ومرعبة وماثلة للعيان و لكن لم يكن لها وجود فى الواقع. وينصب الجدل الشعبى وتحقيقات الكونجرس على هذين الخيبتين. كيف يمكن لوكالة المخابرات المركزية بميزانيتها التى تقدر بالمليارات ويعمل فيها حوالى ٢٠ ألف موظف أن تخطىء هذا الخطأ الشنيع؟ ولكن هناك سؤالين منفصلين هما فى رأيى أكثر أهمية وقد تجنبهما المراقبون والمحققون على السواء. هل استجاب مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت والمسئولون الكبار فى الوكالة لضغوط البيت الأبيض من أجل تقديم تقديرات تخدم تصميم الإدارة على شن الحرب؟ هل كانت الإدارة تنوى منذ البداية استخدام هذه التقارير الاستخباراتية المخيفة كأداة فظة من أجل انتزاع موافقة الكونجرس على الحرب؟

فى كتابه الجديد، وصف ريتشارد أى كلارك وهو موظف حكومى مسئول عن جهود البيت الأبيض لمحاربة الإرهاب أثناء إدارتي كلينتون وبوش، الحرب فى العراق بأنها مغامرة عسكرية غير ضرورية على الإطلاق وقد اتهم إدارة بوش بالتلكؤ فى إدراك التهديد الذى يمثله أسامة بن لادن. فى كتابه «ضد كل

«الأعداء» يقول كلارك إن الرئيس بوش حوّل الوضع من سيئ إلى أسوأ بكثير بقيامه بغزو غير مبرر للعراق ساحبا معه الولايات المتحدة على طريق اضعفنا وعزز الجيل القادم من القاعدة.

ولكن أكثر الأسئلة التى يثيرها كلارك إحراجا هو كيف أن وكالة المخابرات المركزية وقد حذرت إدارة بوش بشكل عاجل من هجمة إرهابية قادمة فى صيف ٢٠٠١، قد اتبعت هذا الإنجاز الماهر بادعاءاتها المتكررة والواضحة بأنها وجدت أسلحة دمار شامل عراقية لم تكن موجودة أصلا؟ و جواب كلارك على هذا التساؤل يجب أن يدفع كل أمريكى إلى التأمل.

فى اليوم التالى على الهجمات المدمرة على البنتاجون ومركز التجارة العالمى، يقول كلارك إنه دخل فى سلسلة مناقشات حول العراق فى البيت الأبيض ولم تكن حول القضاء على القاعدة على العكس أدركت وأنا أشعر بألم عضوى حاد بأن رامسفيلد وولفوفتز ينويان استغلال كارثة قومية لتسويق أجندتهم حول العراق.

إن المضمون واضح: لقد جاءت مسألة «القضاء على العراق» حسب تعبيرات رامسفيلد على لسانه أولا ثم تبعها بعد ذلك بشهور طويلة فى خريف ٢٠٠٢ ما قدمته وكالة المخابرات المركزية من دلائل حول أسلحة الدمار الشامل.

إن التحقيق فى أصول حرب العراق سيكون مؤلما ومحرجا ولكن إذا أخذ بمأخذ الجد فإن ذلك سيعلم الأمريكيين الكثير حول نوعين من المخاطر تمثلها الهيئات الاستخباراتية للأمم التى تستخدمها. الأول معروف ومفهوم للجميع وهو الاستخبارات الخاطئة عن قضايا مهمة. فى أوائل نصف قرنها أخطأت وكالة المخابرات المركزية فى أشياء كثيرة. فى عام ١٩٤٨ وجه إليها الكثير من النقد لفشلها فى التنبؤ بانقلاب فى كولومبيا نتجت عنه حرب أهلية لم تنته حتى الآن. فى عام ١٩٥٠ فشلت فى توقع تدخل الصينيين فى الحرب الكورية. وهو خطأ كاد أن يطيح بالجيوش الأمريكية خارج شبه الجزيرة تماما. فى ١٩٦٨ فوجئت الوكالة بالغزو الروسى لتشيكوسلوفاكيا. وهو خطأ تكرر فى ١٩٧٩ عندما فشلت الوكالة فى توقع الغزو الروسى لأفغانستان. وعلى مدى السنوات العشر التالية استمر المخمنون فى إصدار تحذيرات جديدة من القوة والنوايا السوفيتية تقريبا حتى اللحظة التى سقط فيها جدار برلين الذى اعتبر النهاية الحقيقية للحرب الباردة، وهو حدث تبعته مفاجأة أخرى، الانهيار الحقيقى للاتحاد السوفيتى ذاته وتفككه.

ولم يتبع أى من هذه الخيبات كارثة كبرى بحجم بيرل هاربور، وأعتقد أن الجميع كانوا صادقين اعتمادا على القراءة الخاطئة لأوراق الشاى(١). ليس من الصعب أن تتوقع حتمية حدوث أشياء ولكن من الصعب جدا أن تعرف متى. لقد صارعت وكالة المخابرات المركزية طويلا مع صعوبة التوقع ولكنها لم تجد أبدا طريقة لتخمين احتمالية حدوث الأشياء الكريهة التى يخشاها الجميع. وقد تعلم المخمنون اختيار الحذر كأفضل سبيل، رغم حتمية وقوع أخطاء فى أوقات متفاوتة. ومن قائمة توقعات الأحداث المرعبة الطويلة تتحقق بعض هذه التوقعات أحيانا.

نوع ثان من المخاطر التى تمثلها هيئات الاستخبارات وهو أصعب فى إثباته وأصعب فى الإقرار به خاصة فى دولة ديمقراطية. وهو استغلالهم من قبل الهيئة التنفيذية فى الحكومة كأدوات للقهر الداخلى. كان الرئيس ريتشارد نيكسون يؤمن دائما بأن وكالة المخابرات المركزية منحازة إلى الليبراليين ولهذا أمدت جون كنيدى بالمعلومات التى ساعدته على كسب انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٠. ولكنى لم أستطع الحصول على معلومات تؤيد ذلك رغم أن ذلك لايعنى أن نيكسون كان مخطئا. ويمكن أن نجد مثالا أوضح فى صيف ١٩٦٤ عندما فوضت إدارة الرئيس ليندون جونسون وكالة المخابرات المركزية للقيام بعمليات عدوانية من أجل إنزال فرق تخريب فيتنامية جنوبية فى فيتنام الشمالية فى حين كانت المدمرات الأمريكية تقوم بدوريات قريبة فى خليج تولكين. وربما يكون الفيتناميون الشماليون قد هاجموا المدمرات فى ليلة من ليالى أوائل شهر أغسطس ولكن بالتأكيد كانت الهجمة الثانية خيالية ولكنها استخدمت كمبرر لشن هجمات جوية على فيتنام الشمالية واستغلت للدفع باتجاه إصدار قرار متسرع من الكونجرس قيل فيما بعد إن الرئيس جونسون استند إليه كتفويض لشن الحرب على فيتنام.

إن الوكالة تعمل فى خدمة البيت الأبيض بنفس الطريقة التى تخدم بها وكالة الاستخبارات العسكرية وزير الدفاع ولم يشك أحد ممن قرأ تخمينات وكالة الاستخبارات العسكرية حول برامج الصواريخ السوفيتية خلال الحرب الباردة أن الهدف من التهديد هو تبرير شراء وبناء وتطوير أى شىء مدون على قائمة رغبات وزير الدفاع. هل يمكن أن نسمى تضخيم ما يريدونه عملا غير شريف إذا كان محتوما لايمكن تفاديه؟

يمكن كتابة كتاب كبير حول هذا الموضوع ولكن لأغراضنا هنا نكتفى بالقول بأنه لا يمكن لامرئ أن يفهم ناهيك عن أن يتوقع سلوك وكالة المخابرات المركزية إذا لم يكن يدرك أن الوكالة تعمل من أجل خدمة الرئيس. ولم أقع على أى استثناء من هذه القاعدة. وعمليا هذا يعنى أن الوكالة فى النهاية سوف تحنى هامتها لرغبات الرئيس وطالما ظل مدير الوكالة يلبى أهواء الرئيس فإن الحال سوف يستمر بهذا الشكل. وتنطبق القاعدة العامة على الاستخبارات والعمليات: إن ماتقوله الوكالة وماتفعله سوف يتكيف بمرور الوقت مع رغبات الرئيس. عندما لايحب الرؤساء ما يقال لهم، يتجاهلونه وعندما يريدون شيئا يظلون يضغطون حتى يحققوه. وبصفتها منظمة منضبطة فهى لاتتشكى أو تقاوم. بتعبير آخر إنها تستجيب.



جاءت مسألة «القضاء على العراق» حسب تعبيرات رامسفيلد على لسانه أولا ثم تبعها بعد ذلك بشهور طويلة فى خريف ٢٠٠٢ ما قدمته وكالة المخابرات المركزية من دلائل حول أسلحة الدمار الشامل

إن فهم هذه القاعدة العامة يفتح نافذة مضيئة على السلوك الأمريكى فى العالم. وعادة لايخفى الرؤساء ما يدور فى رؤوسهم: كان كنيدى يتحدث بصوت عال عن قلقه من خطة فيدل كاسترو لتصدير الثورة الكوبية فى الستينيات من القرن الماضى. وقد حذر نيكسون وريجان بالحاح من بناء الصواريخ السوفيتية فى السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضى. أما بوش فهو يعلن على الملأ عن قلقه من الجهود الإيرانية لتطوير القنابل الذرية الآن. ونحن نفهم أولويات أجندة الشخص رقم واحد فى الدولة مما يصرح به الرؤساء ومستشاروهم. أنه طريق ذو اتجاهين: إذا علمت بما تفعله وكالة المخابرات المركزية، فإنك تعلم بما يريد الرئيس أن يفعله.

إن التعبير عن القاعدة العامة بالكلمات يجعلها مفهومة. لماذا قد تهمل وكالة المخابرات المركزية ما يريده أو ما يؤمن به الرئيس؟ لماذا قد يتحمل رئيس الولايات المتحدة وكالة مخابرات مركزية تملك أجندتها الخاصة؟ ولكن فى بعض الأحيان تتسبب القاعدة العامة فى أسئلة مثيرة للقلق من النوع الذى تكرهه الدول الديمقراطية. فى الثمانينيات من القرن الماضى، علم أن وكالة المخابرات المركزية كانت تدعم بهمة قوات الكونترا فى نيكاراجوا فى انتهاك صارخ للحظر الذى فرضه الكونجرس. وكانت القاعدة العامة ستقول إن الرئيس ريجان لم يكن يعرف فقط بهذه الجهود ولكنه كان أيضا يشرف عليها. من غيره؟ ولكن هذا الاستنتاج البديهى تجنبه المحقق الخاص لورنس والش ومحققو الكونجرس وقد أودع عموم المؤرخين ملف فضيحة إيران كونترا فى سرداب مظلم من التاريخ الأمريكى والذى يخزن فيه عادة القضايا المحرجة والتى اتفق على استحالة الكشف عنها. وقد توقع مهندسو وكالة المخابرات المركزية مثل هذه اللحظات المحرجة بإرساء سياسة الإنكار القابل للتصديق، فهم يخططون لعمليات سرية حساسة على بعد خطوات من البيت الأبيض حتى يمكن للرؤساء أن ينكروا مصادقتهم أو حتى علمهم بأى شىء يصل إلى علم وسائل الإعلام. لقد كان هناك العديد من مناسبات النفى والإنكار هذه على مدى السنوات الماضية ولكن الادعاءات بأن البيت الأبيض كان خارج الحلقة فى كل مرة مسألة يصعب تصديقها.

إن التحدى الذى يواجه المحققين الآن والمؤرخين فيما بعد، هو توضيح كيف أمكن استغلال أدلة أسلحة الدمار الشامل العراقية التى جمعتها وكالة المخابرات المركزية واتضح أنها كانت معلومات خاطئة، من قبل الرئيس بوش ومستشاريه الكبار لوصف الخطر الداهم والمتنامى الذى اتخذ تبريرا لشن حرب استباقية. هل يمكن للبيت الأبيض أن يقنعنا بأن قراءته الخاطئة الصارخة للأدلة لم تكن تدفعها عوامل التصميم على شن الحرب؟ هل يمكن للرئيس أن يقنعنا بأن سياسة الحرب لم تكن نابعة منه وأنه لم يكن يعرف وأن المتحدثين باسمه كانوا يبالغون فى تقدير المخاطر التى يتذرعون بها؟ هذه هى الأسئلة التى تحدد الأزمة التى تواجه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

[٢]

أضر فشل محققى مجلس الشيوخ والصحفيين والمؤرخين للتعرف ومحاسبة أولئك المسؤولين عن مؤامرات اغتيال كاسترو و(تجاوزات) مماثلة فى الستينيات -وهم الرؤساء الذين تعمل تحت إمرتهم وكالة المخابرات المركزية- بالوكالة التى شعرت بطبيعة الحال أنها تعاقب لأدائها واجبها. وليس من الصعب إدراك السبب الذى جعل الرؤساء يبعدون اللوم عنهم لما يجرى من أخطاء وفشل ويلقونه على الآخرين، وإنما المشكلة هى لماذا سمح لهم أولئك الذين يجب عليهم متابعة هذه الأمور: السياسيون والصحفيون والمؤرخون على السواء - أن الخارجية مادلين أولبرايت لرتشارد كلارك بأنه لم يكن من الصعب تفسير السلوك العدوانى السلبى للوكالة: «إنها مصابة بعارض الطفل المضروب»، ويعزى سبب فشل الوكالة فى قتل أو خطف أسامة بن لادن فى السنوات التى سبقت ١١ سبتمبر - إلى النكوص العملياتى للوكالة الذى بدأ فى منتصف الثمانينيات.- وهو تردد عن القيام بالواجب ذكره كلارك مراراً فى كتابه (ضد كل الأعداء). ولكن كلارك يمنح وكالة المخابرات المركزية ميزة إصدار تحذيرات عاجلة متكررة طوال صيف ٢٠٠١ ويحتفظ بنقده اللاذع لفشلين ارتكبتهما إدارة بوش - عجزها عن فهم الخطر الملح الذى تمثله القاعدة قبل ١١ سوف تتأفف وكالة المخابرات المركزية والوكالات الأمنية الأخرى بسبب المخاطر المحتملة التى يمكن أن تصيب مصادرهم وطرق عملهم لدى الكشف عن التقارير الاستخباراتية، ولكن لابد من التوصل لاحقاً إلى إجراء آمن وسيجد المحققون أنفسهم وقد غرقوا فى بحر من الورق والوثائق. وسوف يشرح الخبراء التقنيون كيف يمكن قراءة الصور أو مراقبة الهواتف النقالة. وسوف يصطف المختصون ليوضحوا سبب اعتقادهم بأن الشاحنات الجرارة التى اكتشفوها فى شمال العراق بعد الحرب كانت أو لم تكن مختبرات أسلحة بيولوجية متنقلة. وسوف يفعل متخصصون آخرون الشىء ذاته مع



لن يحتاج المحققون إلى تعليمات فى كيفية إجراء دراسة عن الخيبات الاستخباراتية فى العراق، وسوف تعرقل السياسة بالتأكيد وربما تمنع تماماً الجهود لشرح الأسباب الأعمق حول مدى كذب المعلومات الاستخباراتية التى استخدمت لتمهيد الطريق إلى الحرب وأسباب ذلك

ينجوا بفعلتهم. فى التحقيق الذى تناول فضيحة وترجيت ركز مجلس الشيوخ والكونجرس على مسألة (التعتيم) وتغافلوا عن الجرائم الأكثر شناعة وهى ضغط إدارة نيكسون على وكالة المخابرات المركزية لمساعدة سباكى البيت الأبيض فيما عرف بعد ذلك بأنه اقتحامات غير قانونية. وكذلك عرقلة تحقيق مكتب التحقيقات الفيدرالى. وحدث مثل ذلك تقريبا خلال تحقيق الإيران كونترا عندما واجه مسئولو وكالة المخابرات المركزية السجن وأتعاباً قانونية قاصمة للظهر فى حين سمح للرجل المسئول عن هذه المغامرات الأجنبية الرئيس ريجان بادعاء فقدان الذاكرة.

إن هذا النمط من تحميل وكالة المخابرات المركزية وزر ما يأمر به الرؤساء هو أهم سبب لظهور ثقافة (النفور من المخاطر) داخل الوكالة - وهو حذر أملته التجربة بسبب القيام بعمليات من النوع الذى على مسئولى الوكالة توضيحه أو إنكاره فيما بعد على منصة الشهود وتحت القسم. وقد قالت مرة وزيرة سبتمبر وخطئها اللاحق فى شن الحرب على العراق. ويكرس كلارك أقوى انتقاداته للآثار التى نجمت عن هذا الخطأ الذى حول القدرات الأمريكية وانتباه البيت الأبيض عن الخطر الحقيقى وهو القاعدة، فى نفس اللحظة أتاح النصر فى أفغانستان فرصة لتسديد الضربة القاضية للمنظمة الإرهابية.

و فى الوقت الذى شغلت إدارة بوش نفسها بشن حرب لنزع سلاح صدام حسين، كان تنظيم القاعدة قد نال فرصة سنة لاستعادة قوته وإعادة تنظيمه وتنفيذ عمليات إرهابية جديدة. ولكن يبدو أن النمط الراسخ يعيد نفسه عند تركيز التحقيق على فشل المعلومات الاستخباراتية لوكالة المخابرات المركزية وإغفال استحواذ هاجس العراق على البيت الأبيض الذى وصفه كلارك باستفاضة فى كتابه.

سيجد المحققون أن الروتين الراهن سيأخذ وقتا طويلا طالما أنهم يقتصرون فى تحقيقهم على أساليب جمع وتقدير المعلومات الاستخباراتية. فى أول الأمر حكاية أنابيب الألومنيوم التى ربما كانت ولكن بالتأكيد لم تكن مخصصة للطرد المركزى. وسوف يشرح كتاب التقارير التقديرية الإجراء المتعمد لإنشاء تقدير الأمن القومى الخاص SNIE فى أكتوبر ٢٠٠٢ حول أسلحة الدمار الشامل العراقية ولماذا كان لدى وكالة المخابرات المركزية الثقة الكبيرة بأن هذه الأسلحة كانت تمثل خطرا متناميا، وثقة مهزوزة بتوقع ما يمكن أن يفعله صدام حسين بالأسلحة.

ستتطلب هذه التحقيقات وقتا طويلا، ولن يقدم البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية شيئا، وستكون هذه القضايا معقدة فى الواقع وسوف تقدم الشهادات بجمل طويلة، متعددة الفقرات. وسيكون هناك حديث طويل حول الأدلة الجزئية والتقارير الغامضة والتصرف بأفضل ما لديك، وبذل أقصى جهودك. وبعد نهاية اليوم سوف يصفون فى تقرير سميك كنت تتوقع منه ان يكشف عن «خطأ غير مقصود» - صورة للعالم اتضح فيما بعد أنها لم تكن

صحيحة، رغم الأجهزة المكلفة وضياع الألوف من ساعات العمل و المشاورات المطولة. أما الأشياء التى ظهرت فى أول الأمر واضحة، فستبدو ضبابية فى آخره. وستلحق بالتقرير أعداد هائلة من التوصيات حول قواعد جديدة للتنظيم وتطوير أساليب العمل والتأكيد مرة أخرى على التدريب وبالطبع المزيد من التمويل.

ولكن هذا النوع من الجهد سوف يتجنب الأسئلة المزعجة والصعبة التى يثيرها استخدام المعلومات الاستخباراتية لإقناع الكونجرس للتصويت لشن حرب غير ضرورية من أجل تنفيذ سياسة غير معلنة لايدركها المشرعون، وبدون توفير فرصة لمناقشتها.

من أجل أن تكون التحقيقات الراهنة جادة وشاملة كما تكون الجهود الإضافية التى سيضطلع بها المؤرخون لاحقاً، يجب أن تشمل التحقيقات القضايا التالية:

١- التعاون الوثيق بين المخابرات الامريكية والبريطانية التى قدمت الذرائع للرئيس بوش ورئيس الوزراء تونى بلير لشن الحرب وفى نفس الوقت جنبتهم الإجابة على أسئلة محرجة. ويجب أن ينظر المحققون على الأخص فى مصدر الوثائق المزيفة التى ذكرت بأن العراق كان يحاول شراء اليورانيوم وهو ما اصطلح على تسميته بالكعكة الصفراء من النيجر، والادعاءات البريطانية بأنهم يمتلكون دليلا آخر حول شراء الكعكة الصفراء، ومن قدم

أو يفهم منها أنها كانت ضغوطا لتحوير تقديرات استخباراتية. وقد أنشأ البنتاجون بعد أحداث ١١ سبتمبر مباشرة مكتبا خاصا لإعادة النظر فى المعلومات الاستخباراتية عن العراق كان مسؤولا عنه دوجلاس فيث نائب وزير الدفاع للشؤون السياسية. وقد تلقى هذا المكتب تقارير عديدة عن أسلحة الدمار الشامل العراقية من المؤتمر الوطنى العراقى الذى يرأسه أحمد الجلبى، الذى كان مدعوما وممولا من وزارة الدفاع. يجب على المحققين أن يقتفوا خطى انتشار هذه التقارير التى أغفل معظمها فيما بعد على أساس أنها مختلقة ومن أجل تحديد إذا كانت هذه التقارير قد دُفعت «عبرمدخنة الموقد» وهو تعبير

اختارت أن توجه الانتباه والقوى من أفغانستان قبل أن تتمكن من القبض على بن لادن ومسؤولى طالبان. من أجل غزو العراق، متى ولماذا اختارت لتبرير الحرب بالإشارة إلى أسلحة الدمار الشامل العراقية، كيف ومتى نوقش قرار الحرب مع الحلفاء خاصة بريطانيا وماذا كانت الإدارة تأمل أن تحققه من غزو العراق. إن هذا الهاجس العراقى يقدم أفضل تفسير لفهم الضغوط التى مورست على وكالة المخابرات المركزية من أجل إيجاد برنامج أسلحة دمار شامل مكثف لم يكن موجودا.

سوف يقاوم البيت الأبيض محاولة الإجابة على هذه الأسئلة على أساس صلاحيات الرئيس، وسوف تقاومها وكالة المخابرات المركزية على أساس تفاهمها مع المخابرات البريطانية حول عدم الإفصاح عن معلومات مشتركة مع الطرف الآخر بدون موافقة مسبقة منه وعلى الأكثر فإن البريطانيين سوف يرفضون ذلك. لم يسبق هذه الإدارة أى إدارة أمريكية أخرى فى الانفراد فى إحاطة مشاوراتها فى القضايا الحساسة بالسرية التامة، ومن المحتمل أن المحققين الرسميين والصحفيين والمؤرخين لن يعرفوا ماذا كانت بواعث وطموحات الرئيس ومستشاريه وهم يستعدون للحرب. ولكن الحاجة إلى تفسير ما حدث تزداد الآن إلحاحا بالانهيار الواضح للذرائع الرسمية لتبرير الغزو. لابد أن واحدا من شيئين قد حدث - إما أن تكون وكالة المخابرات المركزية قد أخطأت فى قراءة الأدلة وشاركت فى حرب غير ضرورية، أو أن الإدارة قررت خوض الحرب لأسباب خاصة بها وأصرت على أن تختلق وكالة المخابرات المركزية أفضل ما يمكنها من ذرائع من أقل ما فى جعبتها من معلومات. لن تجد هيئة رسمية تضع الاختيارات بهذه الجرأة والوضوح، وسوف يكون كتاب التقارير أقل رغبة فى قراءة الإيحاءات.

ولكن لابد أن خطأ فظيعا حدث وأمريكا تناقش الحاجة إلى شن الحرب قبل عام مضى وكل من التفسيرات الممكنة يثير أسئلة خطيرة تتعلق بالثقة - إما أن الوكالة لا يمكن الوثوق بها لتمييز الأخطار الحقيقية من الخيالية أو أن الوكالة جعلت من نفسها أداة مطواعة بيد الرئيس الذى استغلها لتلفيق حجته لشن الحرب.

تحميل وكالة المخابرات المركزية وزر ما يأمر به الرؤساء هو أهم سبب لظهور ثقافة (النفور من المخاطر) داخل الوكالة - وهو حذر أملته التجربة بسبب القيام بعمليات من النوع الذى على مسئولى الوكالة توضيحه أو إنكاره فيما بعد على منصة الشهود وتحت القسم

لا أقصد الإيحاء بأن لسياسة الإدارة مقاصد خبيثة. إنى أصدق كلمات الرئيس حين يقول إن هدفه هو توفير الأمان لأمريكا. ولكن مسائل الحرب والسلام تؤثر فى البلاد بأكملها، والدستور بشكل خاص يشترط مشاورة الكونجرس وليس فى قانون وكالة المخابرات المركزية مايشير إلى أن الرئيس وحده هو الذى يجب أن يستفيد من مجهودات الوكالة. من المفترض أن يكون النقاش صادقا، وفى هذه الحالة لم يكن النقاش أبعد من ذلك فى أى وقت مضى. إن إغفال التحقيق فى استغلال الإدارة للاستخبارات يستدعى المزيد من هذه التجاوزات.

لن يحتاج المحققون إلى تعليمات فى كيفية إجراء دراسة عن الخيبات الاستخباراتية فى العراق، وسوف تعرقل السياسة بالتأكيد وربما تمنع تماماً الجهود لشرح الأسباب الأعمق حول مدى كذب المعلومات الاستخباراتية التى استخدمت لتمهيد الطريق إلى الحرب وأسباب ذلك. ولكن ربما لايحدث ذلك.

لوزير الخارجية كولن باول التقرير البريطانى المزيف حول الهيئات الاستخباراتية العراقية والتى ذكرها باول فى الأمم المتحدة قبل يومين من اكتشاف الصحفيين بأن التقرير كان مستندا إلى مادة اقتبست من مصادر متاحة للجميع (الإنترنت)، وتعاون وكالة المخابرات المركزية مع مسئولى الاستخبارات البريطانية فى إنشاء ملف استخباراتى حول مسئولية القاعدة فى هجمات ١١ سبتمبر، ومحتوى كل الاتصالات بين مسئولى الاستخبارات البريطانية والأمريكية فى الأشهر بين ظهور الرئيس بوش أمام الأمم المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠٢ واندلاع الحرب فى شهر مارس التالى، وتعاون البريطانيين والأمريكيين فى التجسس على الأمين العام للأمم المتحدة كوفى عنان وأعضاء مجلس الأمن.

٢- الاتصالات التى جرت مع وكالة المخابرات المركزية من قبل مسئولين فى البنتاجون ومكتب نائب الرئيس ومجلس الأمن القومى مما يمكن أن يقصد منها

يعنى تصعيد التقارير إلى المراكز العليا بدون فحصها وتمحيصها إلى وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ووزير الخارجية كولن باول الذى يمكن أن يكون اعتمد عليها فى خطابه يوم ٢٠٠٣/٢/٥ أمام الأمم المتحدة. أو موظفى مجلس الأمن القومى الذين يعدون خطب الرئيس.

٣- أساس تسلط هاجس العراق الذى استحوذ على إدارة بوش منذ يناير ٢٠٠١، وهو هاجس أفرد له كلارك مجالا واسعا فى كتابه الجديد، وفى الكتاب الحديث حول وزير الخزانة السابق بول اونيل «ثمن الإخلاص»، وفى كتاب بوب وودوارد الذى صدر فى العام الماضى «بوش فى الحرب» وفى كتاب وودوارد الجديد وصف كلارك هاجس العراق بأنه هوس فكرى، إيمان راسخ، حكم مسبق، وقرار اتخذ بالفعل قبل ثمانية أشهر سبقت هجمات ١١ سبتمبر. ومازال ينقص السجل العلنى شرح موثوق به حول أسباب تصميم الإدارة على غزو العراق فى الوقت الذى لم يكن هناك أى ذكر لأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة. ثم فيما بعد، لماذا

هامش:

(١) قراءة أوراق الشاى هى طريقة للتنبؤ مثل قراءة فنجان القهوة - المترجمة

جامعات الحرب الباردة

عبد العظيم أنيس

السياسة ظلت عنصراً فاعلاً فى شئون الجامعة بأمريكا خصوصاً فى فترة «الفزع الأحمر» أى الفترة المكارثية فى الخمسينيات، وكان هذا غالباً بسبب مواقف مديرى الجامعات وأساتذتها وليس طلابها. فمديرو الجامعات كانوا حريصين على التخلص من الأساتذة اليساريين وذلك للاحتفاظ بتمويل الحكومة الفيدرالية والقطاع الخاص

بنهاية الحرب الباردة تبدو ملامح الحياة الأمريكية المرتبطة بها - من أمثال سباق التسلح وميزانية الدفاع المتضخمة، والمركب العسكرى الصناعى الذى حذر منه أيزنهاور فى خطاب وداعه - وكأنها من أشياء الماضى.

لكن بينما كانت أربعون سنة من الحرب الباردة قد لعبت دورها فى تشكيل جامعات البحوث الأمريكية والعلم الأمريكى عموماً، إلا أن قوى أخرى ليست مرتبطة بالحرب الباردة كانت تساهم فى تشكيل الجامعات الأمريكية أيضاً، وهى قوى ومشاكل وتناقضات سبقت الحرب الباردة. والأكثر من ذلك أن خصائص المجتمع الأمريكى إبان الحرب الباردة قد لا تتلاشى بالضرورة عند انتهائها، فمن غير المحتمل أن تعود الجامعات الأمريكية إلى وضعها ودورها الذى لعبته قبل بداية الحرب الباردة عندما كانت أقرب إلى الأبراج العاجية.

ومن الواضح أن جامعات البحوث فى الولايات المتحدة قد تغيرت جوهرياً نتيجة الحرب الباردة فيما يتعلق بدورها فى المجتمع وبدلالة الأنظمة العلمية المطبقة داخلها. فقبل الحرب العالمية الثانية كان دور الجامعات هامشياً من زاوية الاقتصاد السياسى الأمريكى،

Creating the Cold War University:
The Transformation of Stanford
(خلق جامعة الحرب الباردة: تحول جامعة ستانفورد)
Rebecca S. Lowen
University of California Press,
1997, 316PP.

وكانت الجامعات ملتزمة فقط بتطوير «طريق العلم» واكتشاف ودراسة «الحقيقة».

وبينما كانت بعض الجامعات تشير إلى خدمة المجتمع كجزء من رسالتها فإن كل الجامعات لم تكن تنظر إلى هذا العمل كخدمة مباشرة للحكومة الفيدرالية. فالاستقلال عن الحكومة الفيدرالية كان فى الواقع شيئاً مركزياً فى تعريف الجامعة وما يدور داخلها من بحوث.

وبالمثل كان مفهوم استقلال الجامعة يمتد إلى قطاع الصناعة الخاص، بل وقطاع التجارة أيضاً، وهذا ما ميز الجامعات (قبل الحرب العالمية الثانية) عن معاهد التكنولوجيا. فالجامعات بهذا الوضع كانت أبراجاً عاجية إلى حد كبير.

لكن خلال الحرب الباردة تحركت الجامعات القيادية فى أمريكا من الوضع الهامشى إلى مركز الاقتصاد السياسى: وعند كلارك كير Clark Kerr مدير جامعة كاليفورنيا (بيركلى) فإن جامعات ما بعد الحرب العالمية الثانية كانت مؤسسات جديدة تماماً، جامعات مستجيبة لاحتياجات المجتمع الأمريكى حتى أصبحت جزءاً أساسياً منه، ولقد اعترف كير بأثر الحرب الباردة على الجامعات الأمريكية. فالتكنولوجيا الحربية، مثل الصواريخ الموجهة وأنظمة التوجيه العسكرى والقنبلة الهيدروجينية والرادار... إلخ تطلبت خبرة ومهارة علماء ومهندسين على قمة التقدم العلمى. وفى أوائل الستينيات كانت الحكومة الفيدرالية تنفق حوالى عشرة بلايين دولار سنوياً على البحوث والتطوير. وكان نصيب وزارة الدفاع ومؤسسة الطاقة الذرية حوالى نصف هذا الإنفاق، ونصيب الجامعات عشر هذا المبلغ - أى حوالى بليون دولار - وبالتالى أصبحت هذه الجامعات معتمدة على دعم الحكومة الفيدرالية لتغطية حوالى نصف ميزانيتها السنوية.

لكن كير رأى أيضاً جامعات ما بعد الحرب العالمية كنتيجة لقوى أوسع كانت تحول المجتمع الأمريكى من حالة المجتمع الصناعى إلى حالة المجتمع ما بعد الصناعى، من اقتصاد كانت مدخلاته الأساسية هى العمالة والمواد الخام إلى اقتصاد المعرفة الماهرة وهى مفتاح نموه وازدهاره.

وكان أكبر مثال على ذلك عند كلارك كير التحول الذى حدث فى الجغرافيا الصناعية. فشركات التكنولوجيا العالمية كانت تتجمع حول مقرات جامعتى بيركلى وستانفورد فى منطقة خليج سان فرانسسكو، كما كانت تجتمع حول جامعتى هارفارد، وM I T فى ماسوشوستس وجامعة شيكاغو فى الشرق. وهذه المناطق العلمية Science regions كما كانت تسمى هى شاهد على أهمية الجامعات الأمريكية فى اقتصاد ما بعد الحرب.

وإذا كانت علاقة الجامعة بالمجتمع تغيرت بعد الحرب، فقد ترتب على ذلك حدوث تغيرات داخلية فى الجامعات كذلك. فقد أنشأت معامل ضخمة امتلأت بباحثين مشتغلين على أجهزة ضخمة ممولة من الحكومة الفيدرالية. وليست عليهم أى مسئوليات تعليمية (ومثاله معمل الميكروويف فى جامعة ستانفورد).

ولقد افتتحت الجامعات مجالات جديدة فى البحث مثل الهندسة النووية والدراسات السوفيتية، وتحولت أنظمة العلوم الاجتماعية التقليدية من اهتمامها بالبحوث الوصفية إلى البحوث الكمية، ومن السلوك الفردى إلى السلوك الاجتماعى. وكان هذا واضحاً خصوصاً فى جامعة ستانفورد.

وكما أوضح كير فإن جامعات ما بعد الحرب قد اعتمد التقدم المهنى فيها على البحث والنشر، وهذا بدوره قد ارتبط بتطور دعم الهيئات الخارجية. وهكذا فإن التدريب فى مرحلة ما بعد الحرب لم يجد الاهتمام الكافى لأن الأساتذة كانوا أكثر اهتماماً بالبحوث المتعاقد عليها.

وإذا كانت جامعة ما قبل الحرب مجتمعاً من العلماء الباحثين المعزولين نسبياً فإن جامعة ما بعد الحرب - فى وصف كير - أصبحت تجمعاً هشاً من المقاولين الأكاديميين، وهم علماء وباحثون يقدمون أنفسهم وأبحاثهم لمموليهم الكبار.

ولقد أكد جودكن Godkin فى سلسلة محاضرات فى جامعة هارفارد عام ١٩٦٣ نفس المعانى التى سبق أن شرحها كير، وجمعت محاضرات جودكن بعد ذلك فى كتاب بعنوان «استخدامات الجامعة».

كان هناك اتفاق إذن بين الباحثين على طبيعة التغيرات التى حدثت للجامعات بعد الحرب العالمية الثانية. لكن ما أصبح مجالاً للاختلاف بين هؤلاء الباحثين هو ما إذا كانت هذه



التغيرات تمثل تقدمًا للجامعات أو تراجعًا لها.

ففى الخمسينيات والستينيات كان هناك شبه إجماع على أن التغيرات التى حدثت فى الجامعات هى جزء من تيار تقدمى أوسع، وبقى كتاب «استخدامات الجامعة» نموذجًا لهذا التفكير، وبينما كان كير آسفًا على ما فقدته الجامعات من شعور بالجامعة كمجتمع واحد ومن الإخلاص للتعليم فى مرحلة ما قبل البكالوريوس، إلا أنه كان يرى أيضًا المكاسب التى حققتها الجامعة فى وضعها الجديد.

وعلى عكس ذلك تعرضت أفكار كير للهجوم فى العقد الذى تلى نشر كتاب «استخدامات الجامعة». وقاد هذا الهجوم روبرت نيسبت Nisbet ، وهو عالم اجتماع محافظ، رأى أن الجامعة قد تدهورت رسالتها بتأكيدها على دور الخدمة العامة وبعلاقتها بالحكومة الفيدرالية والشركات الخاصة. وقد ركز نيسبت هجومه على زملائه الأكاديميين متهمًا إياهم بالتخلى عن مسئوليتهم فى التعليم والبحث العلمى من أجل الشهرة والمال.

ومع أن نهاية الحرب الفيتنامية أنهت معظم الصراع الساخن داخل الجامعة حول دورها، إلا أنه ظلت هناك تجليات من عدم الرضا داخل الجامعة فى منتصف الثمانينيات. لقد تم الهجوم على الجامعة من اليمين لإهمالها طلاب المرحلة الأولى Undergraduates وتركز هذا الهجوم على عدد من أساتذة الجامعة الذين كانوا طلابًا راديكاليين فى الستينيات. لكن كان هناك أيضًا نقد من كتاب اليسار الناقدين للزيادة فى ميزانية الدفاع المتدفقة نحو معامل الجامعات، وللعلاقة بين الباحثين المدعومين من الحكومة الفيدرالية وبين باحثى القطاع الخاص.

وفى هذا الكتاب بينما نجد أنه بشكل عام ناقد لجامعة الحرب الباردة - ونموذجها الأكبر هو جامعة ستانفورد - إلا أنه لا يتصدى بالتحليل والانحياز لأى من طرفى اليمين واليسار وإنما يحاول أن يبحث بدقة كيف حدثت هذه التغيرات فى الجامعات، واهتمامه الأول هو شرح التغيرات التاريخية التى أدت إلى الوضع الحالى لجامعة الحرب الباردة.

ومؤلفة الكتاب حريصة مع ذلك أن توضح أنها لا تفضل جامعات ما قبل الحرب العالمية الثانية لأنها فى رأيها كانت مؤسسات معيبة بشكل عميق، خصوصًا الجامعات الخاصة التى كانت معروفة برفض قبول اليهود والسود والنساء فى هيئات التدريس وكطلاب أيضًا.

وأخيرًا فإن أحداث هذا الكتاب تتوقف عند منتصف الستينيات، ولذا لم يتعرض للأحداث عندما تحولت الجامعات إلى تنظيم الاجتماعات السياسية الواسعة خلال المراحل النهائية لحرب فيتنام. وكما يوضح الكتاب فإن السياسة ظلت عنصرًا فاعلاً فى شئون الجامعة خصوصًا فى فترة «الفزع الأحمر» أى الفترة المكارثية فى الخمسينيات، وكان هذا غالبًا بسبب مواقف مديرى الجامعات وأساتذتها وليس طلابها. فمديرو الجامعات كانوا حريصين على التخلص من الأساتذة اليساريين وذلك للاحتفاظ بتمويل الحكومة الفيدرالية والقطاع الخاص.

والمثال الأوضح على ذلك ما جرى فى قسم العلوم السياسية فى جامعة ستانفورد الذى حرص على تعيين الأستاذ مالفورد سيبلى Sibley الذى كان أستاذًا فى جامعة مانيسوتا، وكان حاصلاً على جائزة العلوم السياسية عام ١٩٥٢، ولم يكن سيبلى شيوعيًا، وإنما كان معاديًا للحروب من ناحية المبدأ وكان يقول عن نفسه إنه اشتراكى مسيحى.

ومع ذلك فقد استمات ترمان Terman مدير ستانفورد حتى لا يتم تعيينه، ولجأ فى ذلك إلى تغيير رئيس قسم العلوم السياسية. لكن لدهشة ترمان فقد أصر رئيس القسم الجديد على تعيين سيبلى. ولجأ ترمان إلى كل الحيل لإفشال هذا التعيين، وهذا ما تم فى نهاية الأمر.

ولقد اهتمت مؤلفة الكتاب بدراسة معمقة لجامعة واحدة - هى جامعة ستانفورد - بأمل أن توضح تفاصيل هذه الدراسة فهم القوى التى تؤثر على كافة الجامعات التى مرت بتجارب مماثلة. ولقد كانت جامعة ستانفورد اختيارًا واضحًا لما سماه كير «جامعة التمويل الفيدرالى» وما تسميه المؤلفة «جامعة الحرب الباردة». فخلال الحرب الباردة كانت ستانفورد واحدة من أكبر الجامعات التى حظيت برعاية وزارة الدفاع، وكانت أيضًا من أوائل الجامعات التى ارتبطت بعلاقات وثيقة مع القطاع الخاص.

وفى الثمانينيات أصبحت ستانفورد الجامعة النموذج لجامعات الحرب الباردة وهى أيضًا الجامعة التى ارتبطت بتطوير وادى السيلكون. ومع ذلك فإن ستانفورد كانت أيضًا أول جامعة تقوم الحكومة الفيدرالية بمراجعة حساباتها فى أوائل التسعينيات بعد اتهامات وجهت إليها بإساءة استخدام أموال الحكومة الفيدرالية.

إن جامعة ستانفورد هى جامعة خاصة أقيمت فى أواخر القرن التاسع عشر بأموال وهبات بارون لص. وهى من هذه الناحية تشبه جامعة جونز هوبكنز وجامعة شيكاغو.. ولكن على عكس هاتين الجامعتين فإن ستانفورد فى أوائل القرن العشرين كان ينقصها السمعة العالية والتأثير الكبير.

والواقع أن ستانفورد لم تظهر كمؤسسة عالية السمعة إلا فى الستينيات عندما أصبحت ضمن «أعلى عشر» جامعات أمريكية كما أنها من الجامعات التى استحوذت على معظم معونات الحكومة الفيدرالية.

وهذا التحول السريع نحو الشهرة كان مرتبطًا بعقود الجامعة مع وزارة الدفاع وبالنهضة الاقتصادية العامة لولاية كاليفورنيا. وكل هذه الظروف جعلت دراسة ستانفورد كجامعة الحرب الباردة أمرًا جذابًا، وأصبح من السهل أن يرى الباحث ماذا كان يتغير فى الجامعة ولماذا.

وحديثًا أكد العديد من المؤرخين على الشكوك العميقة التى كانت لدى العلماء والخبراء تجاه أى تحالف دائم مع الحكومة

كتاب الزاوية

٢ - حياتى

فى طفولتى..

حدث مرة أن أخذنى والدى إلى المسجد بجوار بيتنا ليصلى ولم يكن بالمسجد غيرنا. فخلع والدى جبته وجوربه وشمر أكمامه وذهب إلى «الميضأة» ليتوضأ. والميضأة حوض ماء نحو ثلاثة فى ثلاثة يملأ بالماء من حين لآخر. وفى العادة يملأ من بئر بجانبه ركبت عليها بكرة، وعلق فيها حبل فى طرفيه دلوان، ينزل أحدهما فارغًا ويصعد الآخر ملآن.

ومن أراد أن يتوضأ من الميضأة جمع الماء بين كفيه وغسل وجهه ثم يعود الماء إلى الميضأة بعد الغسل كما أخذ، وكانت هذه الميضأة مصدر بلاء كبير، فقد يتوضأ المريض بمرض معد كالرمد ونحوه فيتلوث الماء ويعدى الصحيح، هذا إلى قذارته، فالمتوضئ يغسل وجهه بعد أن غسل من قبله رجليه ولكن الاعتقاد الدينى يغطى كل هذه العيوب والأخطار، فلما دخل القاهرة نظام جرى الماء فى الأنابيب والحنفيات لم تعد حاجة إلى الميضأة، وأصبحت الحنفيات أنظف وأصح، ولكن إلف الناس للقديم جعلهم يحزنون لفراق الميضأة، ولذلك كان مما أخذ على الشيخ محمد عبده وعيب عليه أن أبطل ميضأة الأزهر وأحل محلها الحنفيات، وهكذا يألف الناس القديم الضار ويكرهون الجديد النافع ويدخلون فى الدين ما ليس فى الدين.

توضأ أبى وذهب يصلى، وبقيت أنظر إلى البئر وإلى الميضأة وأتجول بينهما فتزحلقت وغرقت فى الميضأة، وغمر الماء رأسى ولولا أن أبى كان قريبًا منى وسمع الحركة وأسرع إلى الميضأة وانتشلنى ما كنت من ذلك الحين من الأحياء.

جامعات الحرب الباردة



الفيدرالية. فمعظم العلماء نظروا إلى هذه العلاقة كخطر يهدد الاستقلال المهنى، ويخضع عملهم لأجندة سياسية.

وفى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية بحث علماء الجامعة عن روافد الرعاية المالية من الصناعة الخاصة وهبات الأشخاص الأثرياء. ومن جانبها أظهرت الحكومة الفيدرالية عدم ثقة فى الخبراء غير الخاضعين لسلطتها ورفضت فى الثلاثينيات نداءات بتمويل التعليم الأكاديمى.

لكن هذا الجو من الشكوك سرعان ما تبخر فى بداية الحرب العالمية الثانية عندما دعت الحكومة الفيدرالية العلماء - وخصوصًا الفيزيائيين - إلى مساعدتها. وخلال تطور تكنولوجيا الحرب أدرك العسكريون والفيزيائيون مزايا الاتصال الدائم بينهم.

ثم تدعمت العلاقة خلال الحرب الباردة - خصوصًا خلال الحرب الكورية - وبينما تركز الاهتمام فى أول الأمر على جماعة الفيزيائيين فإن الغرض العام هو أن العلاقة التى نشأت أصلاً بين الدولة والفيزيائيين قد امتدت إلى علماء أكاديميين آخرين، بل إلى علماء البحوث الاجتماعية وإن كان معظم تمويلهم قد أتى من مؤسسات خاصة مثل مؤسسة فورد وروكفللر وراند وغيرهما.

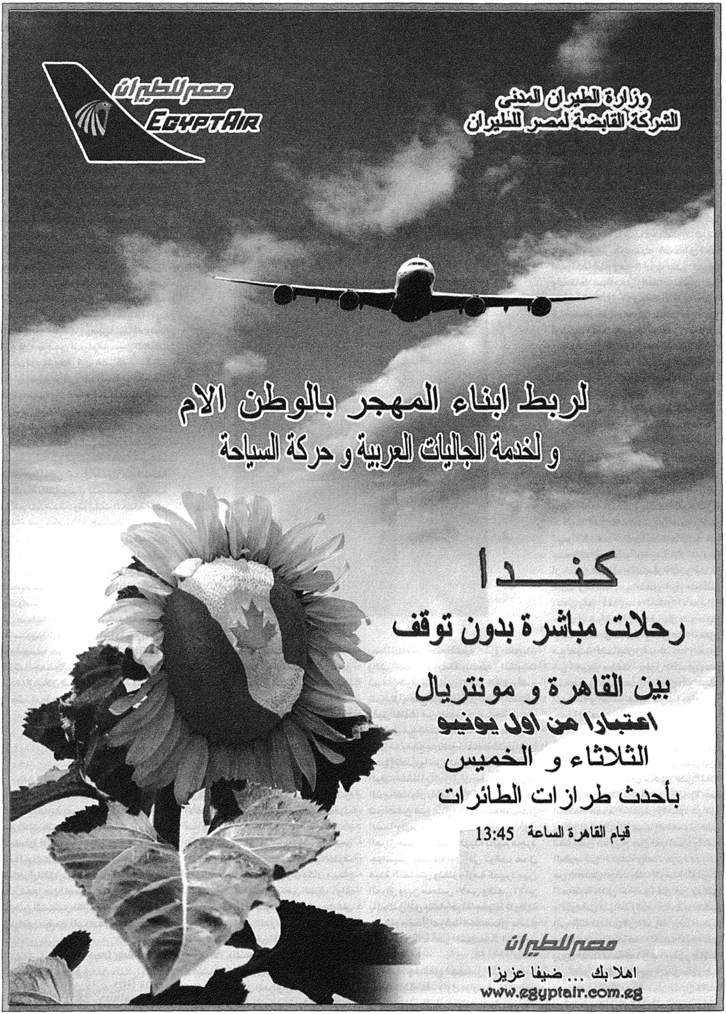
ولقد أدركت الدولة وتلك المؤسسات الخاصة فائدة البحوث الاجتماعية فى قيادة الحرب الباردة، وأدرك علماء العلوم الاجتماعية الشهرة التى تمتع بها الفيزيائيون فحاولوا تقليدهم بتنمية صلاتهم مع أجهزة الدولة والمؤسسات الخاصة مثل فورد وراند وغيرهما.

وفى هذا الجو العام ظل مديرو الجامعات قادرين على تعيين وفصل من يشاءون من الأكاديميين أو التصرف فى موارد الجامعة المالية، وبهذا لعبوا دورًا أساسيًا فى خلق جامعة الحرب الباردة. ولقد أثبتت أحداث الخمسينيات دور مديرى الجامعات فى التعاون مع لجان الكونجرس وأجهزة المخابرات فى ضمان الانضباط الثقافى داخل الجامعة.

ويكفى أن نشير إلى الدور الذى لعبه المدير فردريك ترمان Terman فى جامعة ستانفورد. لقد كان ترمان فى الأصل مهندسًا كهربائيًا، لكن لا يستطيع أحد أن يتجاهل دور ترمان فى توجيه ستانفورد إلى الطريق الذى سلكته وفى الارتفاع بها إلى تفوقها الوطنى. لكن من المهم أن نتذكر أن ترمان لم يكن الشخص الوحيد المسئول عن إعادة تشكيل ستانفورد. أضف إلى أنه من الخطأ اعتبار ترمان وكأنه مقاول أكاديمى. فهذا التعبير الذى استخدم بكثرة ليس كافيًا لوصف سلوك مديرى الجامعات الذين بحثوا عن التمويل الخارجى. فأمثال ترمان كانت توجههم قناعات أيديولوجية، وكان لترمان آراء واضحة فى تطوير البحوث بالجامعة، أى أنه كان أكبر من مجرد مدير جامعة يبحث عن تمويل خارجى.

فى هذا الإطار يصبح ترمان شخصية تاريخية مهمة، ولقد كان معجبًا بهربرت هوفر - رئيس أمريكا السابق وأحد أوصياء جامعة ستانفورد. وهو ابن لويس ترمان، صانع ومطور اختبارات الذكاء، ولقد سعى ترمان إلى إدخال الصياغة الكمية فى العلوم الاجتماعية. وعند ترمان فإن الحرب الباردة وفرت الفرصة لتحقيق رؤية ناجحة للتنظيم الاجتماعى والاقتصادى، وفى تحقيق نموذج اجتماعى ناجح وجعل الجامعة جزءًا منه وهو ما سماه «مشاركة ثلاثية الطرق» أو علاقة «مكسب، مكسب، مكسب» Relation, Win, Win, Win، بمعنى أن الأطراف الثلاثة - الحكومة الفيدرالية، القطاع الخاص، الجامعة - جميعها تحقق مكاسب من هذه العلاقة بينها.

وأخيرًا فإن النتيجة بالنسبة لستانفورد هى سمعة أكاديمية عالية ومال كثير. وبالنسبة للبعض فإن قصة ستانفورد هى قصة ارتفاعها إلى مستوى العظمة، وبالنسبة للبعض الآخر هى قصة انحدار، هى قصة مواهب علمية أهدرت عن طريق دولة الحروب. ■



مصر للطيران
EGYPTAIR
وزارة الطيران المدني
الشركة القابضة لمصر للطيران
لربط ابناء المهجر بالوطن الام
و لخدمة الجاليات العربية و حركة السياحة
كنـــدا
رحلات مباشرة بدون توقف
بين القاهرة و مونتريال
اعتبارا من اول يونيو
الثلاثاء و الخميس
بأحدث طرازات الطائرات
قيام القاهرة الساعة 13:45
مصر للطيران
اهلا بك ... ضيفا عزيزا
www.egyptair.com.eg

هانز بليكس:

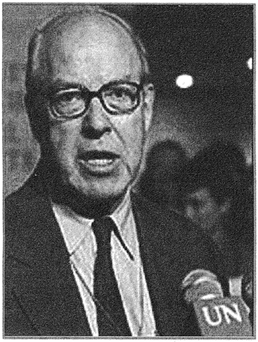
عبد الرءوف الريدي

■■ كان هانزبلكس وزوجته إيفا فى رحلة سياحية بالقطب الجنوبى عند ما جاءه اتصال من وزير الخارجية السويدية أن كوفى أنان أمين عام الأمم المتحدة يطلب إليه أن يكون رئيساً لهيئة التفتيش على الأسلحة العراقية UNIMOVIC بعد إعادة تشكيلها.

كانت تلك هى نقطة البداية فى رحلة أخذت هانز بلكس من القطب الجنوبى إلى قلب العاصفة التى تتابعت حلقاتها حتى انتهت إلى الحرب على العراق، حيث يحكى فى كتابه «نزع سلاح العراق» Disarming Iraq الذى ظهر أخيراً بالأسواق تفاصيل هذه الرحلة بعد أن عاد مرة أخرى إلى بيته وعكف على كتابة مذكراته عن هذه الدراما التى اختتم بها حياة عملية حافلة.

قابلت هانزبلكس أول مرة فى نيويورك عام ١٩٥٨ فى حفل غداء أقامه بروفيسور فيليب جيسيب أستاذ القانون الدولى بجامعة كولومبيا آنذاك ودعا إليه تلاميذه من الدبلوماسيين الشبان الذين درسوا معه. كان هانز قد سبقنى بعدة سنوات فى الدراسة بجامعة كولومبيا وأصبح بعد ذلك أحد المستشارين القانونيين لوزارة الخارجية السويدية.وكنت أنا فى بداية عملى ببعثة مصر لدى الأمم المتحدة بنيويورك، ثم توطدت العلاقة بيننا أثناء عملنا فى تمثيل بلدينا فى اللجنة السادسة «القانونية» للجمعية العامة للأمم المتحدة.. وتوثقت الصلة أكثر ابتداء من عام ١٩٦٤ حيث عملنا سوياً فى لجنة تقنين مبادئ القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الودية بين الدول.. وقد نشأت من خلال العمل فى هذه اللجنة علاقة حميمة بين الذين عملوا بها، واستطاعوا فى النهاية أن يتوصلوا إلى صياغة إعلان قانونى مهم تضمن تطويراً للمبادئ القانونية التى تضمنها ميثاق الأمم المتحدة، وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذا الإعلان فى عيدها الخامس والعشرين (١٩٧٠).

وفى أواخر السبعينيات تم انتخاب بلكس مديراً عاماً للوكالة الدولية للطاقة الذرية بفيينا. وكان بلكس دائماً هو ذلك «السويدى» المشوش ابن الحضارة الغربية المنفتح على بلدان العالم الثالث وقضاياها.. والمتفهم لمشاعر أبنائها.. وقد اختار بلكس للعمل معه عدداً من المصريين كان من بينهم كل من السفير دكتور محمد شاكر والدكتور محمد البرادعى الذى خلفه



فيما بعد فى منصب مدير عام الوكالة، ثم جمعت بينهما مهمة التفتيش على نزع أسلحة العراق فى تلك الفترة الحرجة التى سبقت الحرب، وأصبح هذا الثنائى بلكس - البرادعى وجهاً مألوفاً على شاشات التليفزيون طوال فترة الأزمة السابقة على الحرب.

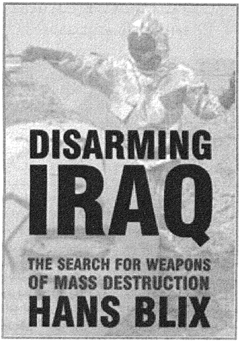
كان العراق قد عاش طوال فترة الثمانينيات فترة علاقة حميمة مع الولايات المتحدة وكانت تلك هى فترة الأعوام الثمانية التى خاض فيها الحرب مع إيران.. وقد استخدم صدام هذه السنوات فى بناء برنامجه لإنتاج أسلحة الدمار الشامل وكان الغرب يغض الطرف عنه لأنه كان يحارب إيران وكان صدام يشترى معداته وسلاحه من الغرب.. ولم تكتشف الوكالة الدولية آنذاك ما كان يجرى على أرض العراق، ولم تكن الدول الغربية تضغط على الوكالة كما تضغط عليها الآن بالنسبة لإيران لأن تفعل شيئاً لاكتشاف ما يجرى فى العراق ثم انتهى شهر العسل بين العراق والغرب بانتهاء الحرب العراقية الإيرانية، وقيام صدام بعد ذلك بحماقته الكبرى بغزو الكويت، والتى انتهت بهزيمته وبتحرير الكويت ثم كان قرار مجلس الأمن الذى وضع شروطاً أخضع فيها العراق لنظام تفتيش دقيق للتأكد من خلوه من أسلحة الدمار الشامل مع إخضاعه لنظام العقوبات وإلزامه بدفع مبالغ باهظة لتعويض الذين تضرروا من الغزو. إلا أنه بمضى الوقت استطاع العراق أن يخترق صفوف التحالف، وأن يلتف حول نظام العقوبات ثم أعلن فى عام ١٩٩٨ التوقف عن السماح لهيئة التفتيش (انسكوم) بدخول العراق متهماً أعضاء الهيئة بأنهم مجرد جواسيس وهو ما أدى إلى توقف عمل هيئة التفتيش ونشوء أزمة كبيرة بين العراق وبين مجلس الأمن وانتهى الأمر بالمجلس إلى إنشاء هيئة جديدة للرقابة بنظام معدل عرفت اختصاراً باسم UNIMOVIC. هى التى عهد لبلكس برئاستها.

جاء بلكس للعمل فى رئاسة UNIMOVIC (أول مارس ٢٠٠٠) فى وقت كان العراق قد استعاد بعض عافيته وأعلن أنه لن يتعاون مع هيئة التفتيش، إلا إذا تم إلغاء نظام العقوبات.. وبالتالى بقى بلكس فى مكتبه فى الدور الحادى والثلاثين من مبنى الأمم المتحدة دون أن يتمكن هو والفريق الذى شكله من أن يؤدى عمله فى التفتيش على أسلحة الدمار الشامل فى العراق ويكتب بلكس عن هذه الفترة، أنه استمتع فيها بأجواء مدينة نيويورك والتردد على مسارحها ومتاحفها.. وظل الحال كذلك إلى أن وقع الزلزال الأكبر فى نيويورك وواشنطن، أى أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى بدلت الحال وبدأت إدارة بوش حربها على الإرهاب، ووجد المحافظون الجدد فى إدارة بوش فرصتهم لتحقيق أحد أهم أهدافهم وهو الحرب على العراق وإسقاط صدام بل وإحداث تغيير فى خريطة الشرق الأوسط بدءاً بالحرب فى أفغانستان. وجرى البحث عن مبرر أو ذريعة للقيام بحرب على العراق، ويعترف بول وولفوتز أحد صقور الحرب بأن موضوع أسلحة الدمار الشامل كان افضل مبرر rationale لهذه الحرب.

ظل العراق حتى بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر يرفض التعاون مع هانز بلكس وكان وزير الخارجية العراقى يصف هيئة التفتيش بأنها مجرد شىء لا قيمة له non entity وأن هانز بلكس ليس إلا أحد التفصيلات details فى هذه الهيئة عديمة القيمة. إلا أنه بعد أن تبين لنظام صدام أن الأمر جد لا هزل، وخاصة بعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ وبدء الحشود الأمريكية حول العراق، وأن الطريق الوحيد لإمكان تفادى الحرب يكمن فى التعاون مع هيئة التفتيش، عندئذ بدأ العراق فى تغيير موقفه، وقبل التعاون مع بلكس والبرادعى.. إلا أن الولايات المتحدة واصلت حشد قوتها وواصلت حملة التصعيد، وسارت حملة التصعيد الإعلامى والسياسى للحرب على العراق، أما فى مجلس الأمن فقد كان هناك بالطبع الفريق الآخر الذى يرى أن الحرب يجب أن تكون هى الملاذ الأخير الذى لا يتم اللجوء إليه إلا بعد استنفاد مهمة التفتيش وفشلها فى نزع سلاح العراق وإلا بعد الحصول على تفويض صريح من المجلس، ولكن الحرب فى النهاية وقعت دون تفويض من المجلس. وبعد تلك الرحلة الطويلة الصعبة التى خاضها كل من بلكس والبرادعى بنزاهة وشجاعة. عاد بلكس إلى بيته الهادئ فى السويد بعد الحرب وعكف على إعداد هذا الكتاب المهم الذى يروى فيه القصة كما رآها، وظهر الكتاب فى نفس الوقت تقريباً الذى ظهر فيه عدد من الكتب الأخرى مثل كتاب ريتشارد كلارك وكتاب أونيل وزير

Disarming Iraq
(نزع سلاح العراق)
Hans Blix
Bloomsbusy, 285PP., $ 16.99

لماذا قامت الحرب؟!



الخزانة السابق وهو يؤيد ما ذهب إليه كلارك من أن فريق المحافظين الجدد كان يعمل منذ مجيئه مع إدارة بوش في يناير ٢٠٠١ على جر الولايات المتحدة إلى غزو العراق أي قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

يرى بلكس أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كان لها الأثر الأكبر في دفع إدارة بوش إلى نهج الحرب وعدم إعطاء الوقت الكافي لفريق المفتشين لاستكمال مهمته، وقد ردد بلكس هذا الرأي في أكثر من موضع من كتابه.. وفي اعتقادي شخصياً أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر لم تكن بذاتها هي التي دفعت إلى الحرب على العراق، ولكنها جاءت لتقدم فرصة ذهبية لفريق المحافظين الجدد بما خلقته من حالة الذعر والرعب لدى الشعب الأمريكي فاستغل المحافظون الجدد هذه الأجواء من أجل تمرير سياساتهم وتسويقها وإقناع الرئيس الجديد والرأي العام الأمريكي بها، فقد كانت الحرب على العراق أحد أهم أهدافهم منذ البداية. وقد تصادف أنني دعيت للمشاركة في مؤتمر في واشنطن بعد أسبوعين أو ثلاثة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر وعدت من هذه الرحلة واثقاً أن الدور على العراق سيأتي بعد أفغانستان.

في هذه الأيام كان بول وولفتز نائب وزير الدفاع أحد أهم الصقور يتحدث ليس فقط عن حروب مع دول بل عن إنهاء دول «ending states» ولو كان الأمر متروكاً للمحافظين الجدد بالكامل لما كانوا قد اهتموا كثيراً باللجوء إلى مجلس الأمن للحصول على تفويض الحرب على العراق ولكانوا قد ذهبوا إلى هذه الحرب بدون الأمم المتحدة، ولكنهم لجأوا إلى المنظمة الدولية نزولاً على رأى كل من توني بلير وكولين باول ولأنهم تصوروا أنهم سيستطيعون استخدام الأمم المتحدة في الحصول على قرار يضفي الشرعية على الحرب. ومن هنا كانت أهمية فريق التفتيش الذي رأسه هانز بلكس والبرادعي، وأهمية المواقف التي اتخذاها.

كانت المشكلة الرئيسية تتمثل في أن هناك مواد كان قد ثبت أنها كانت في حوزة العراق قبل عام ١٩٩١، وهي مواد تكفي لإنتاج كميات من الأسلحة البيولوجية والكيميائية وكان العراق قد ذكر أنه قد تم تدمير هذه المواد ضمن ما تم تدميره من أسلحة دمار شامل في هذا العام إلا أنه لم يستطع أن يثبت أنه قد قام بالفعل بتدميرها، ولم تكن لديه السجلات التي تؤكد سبق تدميرها، وكان الأمريكان يعتبرون أن عدم تقديم الدليل على تدمير هذه الأسلحة يعني أن العراق أنتج هذه الأسلحة وأنها في حوزته، في حين أن بلكس كان يرى أن عدم وجود دليل على تدمير الأسلحة لا يعني بالضرورة أن هناك أسلحة دمار شامل لدى العراق. لم يكن بلكس يقول أن عبء الإثبات يقع على الولايات المتحدة طبقاً لقاعدة أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته، ولكنه كان يقول أن الأمر مازال يحتاج إلى وقت لإجراء مزيد من البحث والتقصي ولا يمكن القفز إلى القول بأن غياب الدليل يعني أن هذه المواد قد استخدمت في إنتاج أسلحة دمار شامل، أو أن هذه الأسلحة موجودة بالفعل في حوزة العراق، كان ذلك هو صلب الخلاف بين فريق الحرب وبين فريق المفتشين. إلى أن قامت الولايات المتحدة بالحرب ثم تبين بعد ذلك أنه لا توجد أسلحة دمار شامل بالعراق.

وفي هذا يتساءل بلكس: ماذا كان يمكن أن يكون عليه الموقف الآن أي بعد أن تبين أنه لا توجد أسلحة دمار شامل بالعراق؟، ماذا كان سيكون عليه الوضع لو أن فريق التفتيش بقيادته وبقيادة البرادعي كان قد انصاع للضغوط وأعلن ما كان يراد منه أن يعلنه من استنتاجات تدعم الادعاء بأن العراق يملك أسلحة دمار شامل في وقت لم يتبين لهما وجود هذه الأسلحة وفي وقت كانت العراق تبدي كل صور التعاون مع فريق التفتيش من أجل إثبات خلوها من هذه الأسلحة... هذا هو السؤال المهم الذي طرحه بلكس والذي ينبغي أن يظل دائماً في الأذهان...

ضمّن بلكس كتابه فحوى مقابلاته وأحاديثه مع بوش، وبلير، وتشيني، وباول، وكونداليزا رايس.. وغيرهم كما تحدث عن الاجتماع الأخير لمجلس الأمن يوم ٧ مارس٢٠٠٣ وقد انعقد هذا الاجتماع في وقت كان العراق قد أبدى فيه تعاوناً كاملاً مع فريق التفتيش، هذا بينما كانت الولايات المتحدة تعمل جاهدة للحصول على قرار من المجلس يفوضها باللجوء للحرب.. وكانت هناك كلمات لو كان بلكس والبرادعي قد تفوها بها لاستغلها فريق الحرب من أجل استصدار القرار الذي كانوا يعملون المستحيل لاستصداره، ولعل هذه المسئولية الكبيرة التي كانت تعني حرباً أو سلاماً هي التي جعلت الرجلين يحرصان على وزن كل كلمة يتفوهان بها بميزان الذهب.

كان الموقف أكثر وضوحاً بالنسبة للملف النووي.. مما جعل البرادعي يعلن في المجلس إنه بعد ثلاثة أشهر من التفتيش الدقيق فإن الوكالة لم تجد أي مؤشر على أن العراق قد أعاد بناء برنامجه النووي، وأن الأمر مع ذلك قد يحتاج إلى عدة أشهر أخرى للتيقن تماماً من ذلك.. أما بلكس الذي كان مسئولاً عن الملف البيولوجي والملف الكيميائي فكان الأمر بالنسبة له أكثر تعقيداً خاصة مع عدم وجود أدلة لدى العراقيين تثبت أن هذه المواد سبق تدميرها.. إلا أن بلكس مع ذلك قال في المجلس أن الأمر لا يحتاج إلى سنوات ولكنه قد يحتاج إلى شهور من أجل التثبت من خلو العراق من هذه الأسلحة... كان المطلوب إذن هو إعطاء مزيد من الوقت لفريق التفتيش، وعدم الاندفاع إلى حرب في ظل عدم وجود الدليل... ولكن الولايات المتحدة كانت قد حزمت أمرها، وأصبح وجود القوات محتشدة حول العراق عاملاً استغله فريق المحافظين الجدد الذين كانوا يرددون دائماً أنه لا يمكن ترك هذه القوات في الصحراء حتى بلوغ فصل الصيف إرضاءً لفريق المفتشين والمعارضين إصدار قرار التفويض بالحرب... فكان الاندفاع نحو الحرب...

وقد فند بلكس في كتابه مجموعة الدعاوى التي أثارها الأمريكان واستخدموها كمحاولة لإقناع مجلس الأمن والرأي العام بامتلاك العراق لأسلحة دمار شامل... وكان أبرز هذه الدعاوى ما جاء على لسان الرئيس الأمريكي في خطابه أمام الكونجرس عندما قال أن البريطانيين قد علموا أن العراق حاول الحصول على كميات كبيرة من اليورانيوم من إحدى الدول الأفريقية.. ثم اتضح بعد ذلك عدم صحة هذه الدعوى، وقد أوضح البرادعي آنذاك - أن العقد الذي قيل أنه تضمن صفقة شراء يورانيوم بين العراق وإحدى الدول الأفريقية «النيجر» هو عقد مزور.. وقد تبين فيما بعد ذلك صحة ما قاله البرادعي عندما أوفدت الولايات المتحدة أحد سفرائها إلى هذا البلد الأفريقي للتحقق من هذه الواقعة فعاد ليقول أنها غير صحيحة.. بل والأكثر من ذلك عندما اعترف كولين باول بعد الحرب بشهور بأن الكثير مما قاله نقلاً عن المعلومات الاستخبارية في جلسة مجلس الأمن الشهيرة يوم ٥ فبراير ٢٠٠٣ قد تبين له فيما بعد أنه كان غير دقيق وتلك هي الجلسة التي كان جورج تينت رئيس وكالة المخابرات المركزية يجلس فيها خلف كولين باول أثناء إلقائه بيانه المشهور.

قدم بلكس في كتابه عرضا شاملاً لتطور موضوع



لماذا قامت الحرب؟!

لماذا ترك العراق الشكوك لتنمو حول امتلاكه لأسلحة دمار شامل؟ بينما لم تكن لديه هذه الأسلحة؟، لماذا ظل لا يتعاون مع لجان التفتيش لعدة أعوام؟

التفتيش والصراع الذى دار بين الدول الثلاث (الولايات المتحدة وإنجلترا وأسبانيا) التى كانت تدفع فى اتجاه الحرب قبل انتهاء مهمة التفتيش وبين الدول الأخرى التى أصرت على أنه طالما أن المفتشين مازالوا يقومون بمهمتهم فإنه ينبغى تمكينهم من إنهاء هذه المهمة فإذا لم يتمكنوا أو لم يمكنهم العراق من تنفيذها على النحو الأكمل فسيكون من الممكن عندئذ اللجوء للقوة، كان ذلك هو فحوى الصراع بين بوش وبلير من ناحية وبين شيراك وشرودر وبوتين من ناحية أخرى. ولعله مما سيكتب يوماً فى هذا الشأن وسيكون موضع فخر أولئك الذين مازالوا يعتقدون أنه مازال للشرعية الدولية دور فى تسيير شئون العالم أن الولايات المتحدة رغم جبروتها وقوتها عجزت عن أن تحصل على أصوات دول تدور أساساً فى فلكها مثل المكسيك وشيلى... ودول أخرى صغيرة مثل أنجولا والكاميرون للموافقة على قرار يخولها أو يفوضها بالقيام بالحرب، وهو ما بين لنا أو يجب أن يبين لنا أن الطريق ليس دائماً مفروشاً بالورود أمام أصحاب العصا الغليظة، وها هو الزمن يدور دورة أخرى وتجد الولايات المتحدة نفسها اليوم تلجأ إلى الأمم المتحدة «لمساعدتها» فى الخلاص من ورطتها فى العراق!! تلجأ إلى هذه المنظمة الدولية التى طالما احتقرها المحافظون الجدد فى إدارة بوش واعتبروها مجرد «مكلمخانة».

تحدث بلكس فى كتابه مطولا عن أسلوب تعامل العراق مع هيئة المفتشين، سواء فى ذلك هيئة التفتيش الأولى «أنسكوم» التى رأسها أيكيوس (السويدى) ثم رأسها بعده ريتشارد باتلر (الاسترالى) وهى الهيئة التى أنهى العراق التعاون معها فى عام ١٩٩٨ أو الهيئة الجديدة برئاسته وأوضح بلكس أن العراق بدأ فى التعاون معها فقط عندما تبين أن التهديد بالحرب جدى تؤكده القوات المحتشدة والتهديدات الرسمية بما فى ذلك قرار مجلس الأمن رقم (١٤٤١) الذى استخدم عبارة «النتائج الوخيمة» التى تنتظر العراق إذا لم يتعاون مع فريق التفتيش تعاوناً تاماً ويثبت خلوه من أسلحة الدمار الشامل. وكيف أن التعاون العراقى وصل فى مرحلة ما قبل الحرب مباشرة إلى نوع من التلهف على قبول كل مقترحات بلكس والبرادعى بما فى ذلك تدمير صواريخ «صمود ٢» فى سابقة لم تحدث فى التاريخ وهى أن تقوم دولة بتدمير أهم ما لديها من سلاح وهى ترى العدو يحتشد على أبوابها ويستعد لغزو أراضيها...

ويتساءل بلكس بعد أن تبين أنه لم يكن لدى العراق أسلحة دمار شامل، لماذا ترك العراق الشكوك لتنمو حول امتلاكه لأسلحة دمار شامل؟ بينما لم تكن لديه هذه الأسلحة؟، لماذا ظل لا يتعاون مع لجان التفتيش لعدة أعوام؟... ويحاول بلكس أن يجيب على هذا السؤال بطرح عدة أسباب افتراضية.. من بينها أن العراق لم يكن لديه دافع قوى للتعاون مع فرق التفتيش طالما أنه لم يكن هناك ربط بين التعاون وبين رفع العقوبات.. إلا أنه أضاف سبباً آخر أعتقد أنه السبب الأهم لأنه يتفق مع عقلية وشخصية صدام التى أصبحت معروفة منذ بدأ فى ارتكاب حماقاته بغزو إيران عام ١٩٨٠ وهى العقلية التى تسيطر عليها روح الغرور الأجوف والكبرياء الزائفة.. التى اتسمت بها تصرفات صدام. ويتمثل ذلك باختصار فى أن صدام ربما وجد فى ترك الانطباع ينمو بأنه يمتلك أسلحة دمار شامل ما يجعله يظهر وكأن العراق أصبح يستعيد قوته العسكرية مرة أخرى وربما تصور أن هذا الانطباع قد يشكل فى حد ذاته ردعاً عن الغزو.. وأذكر اننى شاهدت طارق عزيز على شاشة التليفزيون قبل أن تقبل العراق التعاون مع فريق التفتيش يقول رداً على سؤال: « من السخف أن تقوم العراق بالتخلى عما لديها من أسلحة دمار شامل فى الوقت الذى قد تتعرض فيه لعدوان من الخارج».. قال طارق عزيز ذلك فى الوقت الذى كان يعلم فيه أنه لا توجد لدى العراق أسلحة دمار شامل.. ولقد شبه بلكس موقف العراق هنا بمن يضع لافتة على مزرعته كتب عليها «احترس من الكلاب» فى الوقت الذى لا توجد فيه كلاب فى المزرعة!!.

يتبين من خلال قراءة الكتاب أن بلكس كان يأمل ويعمل من أجل تفادى الحرب وقد اتبع فى سبيل ذلك سياسة ذات شقين، فهو من ناحية كان يضغط على العراق لإبداء مزيد من التعاون مع فريق التفتيش ويستخدم وسائل الإعلام فى ممارسة هذا الضغط، فكان يقول للعراقيين دائماً أنه لم يتبق سوى دقائق على منتصف الليل (أى ساعة شن الحرب) فى نفس الوقت الذى كان يوضح فيه للجانب الأمريكى والبريطانى أن المعلومات التى قدموها له باعتبارها معلومات استخبارية عن مواقع إنتاج وتخزين أسلحة الدمار الشامل فى العراق هى معلومات فى أغلبها الأعم معلومات زائفة ومغلوطة. ولم يتورع الرجل عن أن يصرح بذلك فى مجلس الأمن حيث كان يصر على أن التفتيش لإزالة أسلحة الدمار الشامل مازال يسير قدما ويحقق نتائج.. ويجب استمراره.. وأنه ليس هناك ما يبرر إيقافه... قبل بلوغ أهدافه طالما أن العراق يتعاون تماما مع فريق التفتيش.

هذه السياسة التى اتبعها بلكس فى الضغط على الجانبين بأمل منع الحرب لم تكن بطبيعة الحال تروق للصقور فى واشنطن الذين كانوا يتحرقون شوقاً لشن الحرب.. بل لقد جلبت عليه غضبهم فصاروا يهاجمونه عن طريق وسائل الإعلام فضلاً عما تعرض له من انتقاد مباشر من جانب نائب مساعد وزير الخارجية جون وولف فى أحد الاجتماعات الخاصة بهيئة التفتيش.

ولقد أذاع بلكس سراً لم يكن معروفاً من قبل وهو أنه حاول إرسال رسالة إلى صدام عندما التقى بعمرو موسى فى الأمم المتحدة. وكان قد أعلن أن موسى سيذهب إلى بغداد لمقابلة صدام.. وكان ذلك قبل الحرب بأقل من أسبوعين... وتمثلت الرسالة فى اقتراح أن يقوم صدام بعمل درامى يجتذب انتباه العالم، بأن يعلن عن استعداده للتعاون الكامل مع فريق المفتشين وأنه سيفتح لهم كل المواقع دون استثناء، وأنه يسمح للمواطنين العراقيين بمقابلة المفتشين والتحدث معهم بدون أى رقيب.. الخ. وأنه يدعو بلكس والبرادعى للحضور إلى بغداد ومقابلته لتلقى هذه التأكيدات.. وبعد أن اتفق بلكس مع موسى على هذه الرسالة جاء الإعلان عن إلغاء زيارة بعثة الجامعة العربية لبغداد.

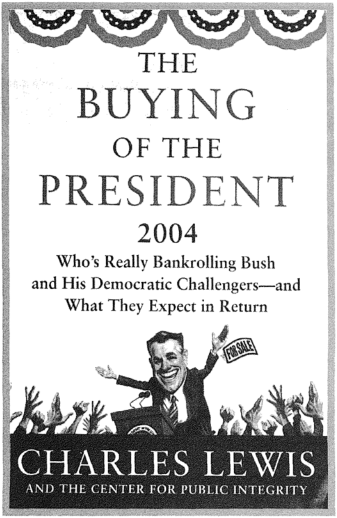
لقد قدم بلكس فى هذا الكتاب شهادة للتاريخ وللرأى العام.. وأبرأ ذمته، ولا شك أن أهمية هذا الكتاب لا تقتصر على قيمته التاريخية... ولكنه يقدم حالة دراسة «Case Study» تدرّس فى الجامعات ضمن مواد التنظيم الدولى والقانون الدولى حول الصراعات والضغوط التى يمكن ان تتعرض لها الموظف الدولى International Civil Servant... وما يجب أن يفعله ليحافظ على روح الأمانة والمصداقية التى لو تخلى عنها لعاد ذلك بأوخم العواقب على ما يمثله نظام الأمم المتحدة من قيمة.

ذكرنى كتاب بلكس أثناء قراءتى له... بموقف رجل آخر... هو أيضاً سويدى وكان سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة، وهو داج همرشلد الذى وقف معارضاً العدوان الثلاثى الذى شنته كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦.. وقد استخدمت آنذاك وسائل أخرى لتضليل الرأى العام الدولى وتزييف الحقائق... ولكن همرشلد وقف مدافعاً عن أحكام ميثاق الأمم المتحدة. وهدد بالاستقالة من منصبه وكان لموقفه أكبر الأثر فى إعلاء قيمة الأمم المتحدة ونجاحها فى وقف العدوان.. لقد مات همرشيلد بعد ذلك ولكن ذكراه بقيت لا تنسى وأصبحت مواقفه تدرس فى الجامعات والمعاهد ويضرب بها المثل فى الدفاع عن قيمة الأمم المتحدة وميثاقها.

وإذا لم يكن بلكس والبرادعى قد استطاعا إيقاف عجلة الحرب.. فإنهما على الأقل أنقذا مصداقية نظام الأمم المتحدة وما كان يمكن أن تتعرض له من «عار» لو أنهما تخليا عن روح الأمانة. لقد أثبتا للعالم أنه مازال هناك رجال شرفاء... قادرون على التمسك بالقيم والمبادئ ضد أعتى القوى... وفى أصعب الظروف. ■



كارت مرحبا موجود في كل مكان
سنترالات
أكشاك
سوبر ماركت
تخفيض
على المكالمات
يصل إلى
٣٠٪
٥٠٠٠ منفذ بيع خارجي
بالإضافة إلى سنترالات
المصرية للاتصالات..
و كمان فترة الصلاحية زادت
لكروت مرحبا و مرحبا بلس..
محافظات .. محمول .. و دولى كمان
خدمة العملاء ١١١
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا
١٥٠ عاما في خدمة مصر



شراء الرئاسة الأمريكية 2004

فكرى أندراوس

■■ هناك ملاحظتان أود التوقف عندهما قبل البدء فى عرض هذا الكتاب المهم، ومناقشة أفكاره.

أولاهما: الدور المحورى الذى يلعبه اللوبى الأمريكى «جماعات الضغط» فى تسيير شئون السياسة الأمريكية، والدفع بها فى اتجاه معين، على الصعيدين: الداخلى والخارجى، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

لوبى المزارعين، ولوبى الصناعات المختلفة ولا سيما صناعة السلاح، ولوبى العمال وحقوق المرأة، ولوبى المسنين، ولوبى البنوك ورجال الأعمال، واللوبى اليهودى المناصر لإسرائيل.

وتسهم هذه الجماعات إسهاماً كبيراً فى تمويل الانتخابات الأمريكية المهمة كافة، الأمر الذى ينعكس - على نحو واضح - فيما تتخذه دوائر صنع القرار من سياسات إلا أن هذا التمويل ليس إلا رشوة تم تمويهها أو التغطية عليها بأسماء ودعاوى مختلفة، صرفاً للأنظار عن ماهيتها الحقيقية. وإن كنا فى العالم العربى لا نولى اهتماماً يذكر إلا للوبى اليهودى، وذلك لأسباب لا تخفى، إلا أن الفساد السياسى المصاحب لتمويل الانتخابات فى الكونجرس الأمريكى أو فى رئاسة الدولة له تأثير أكبر بكثير من اللوبى اليهودى. غير أن الأخير ليس إلا واحداً من ظواهر عديدة تبين لنا بجلاء كيفية التأثير، وأحيانا التحكم فى عمليات اتخاذ القرار.

ثانيتهما: من المعروف أن هناك فروقاً تقليدية بين الحزبين الرئيسيين: الجمهورى والديمقراطى فى الولايات المتحدة الأمريكية. إذ يمثل الحزب الجمهورى المحافظ مصالح رجال الصناعة والمال والتجارة والصناعات الحربية، بينما يمثل الحزب الديمقراطى مصالح العمال والمدرسين والأمريكان الأفارقة والمرأة، وجهود المحافظة على البيئة وتشجيع البحث العلمى. وهو حزب يتأرجح بين الليبرالية والوسط. غير أن من اللافت للنظر أنه منذ النصف الثانى من القرن الماضى، حدث تحول فى بنية الحزب الديمقراطى وتوجهاته أفضيا إلى اتجاه بعض أعضاء الحزب إلى تمويل حملاتهم الانتخابية من حافظة رجال الصناعة والمال، وأصبحت أفكارهم تنحو منحى الوسط أو اليمين. وقد وضع «رالف نادر» العربى الأصل ومرشح الرئاسة فى الانتخابات الرئاسية المقبلة، كتاباً قيماً أشار فيه إلى التغيير سالف الذكر، وانعكاساته على الحزب الديمقراطى دعاه باسم «Crahsing the party» كما نوه نعوم تشومسكى «الأستاذ الشهير(MIT) إلى حقيقة مفادها أنه لم يكن هناك اختلاف كبير يثير الانتباه بين مرشح الحزب الجمهورى «بوب دول» وبين «بيل كلينتون» مرشح الحزب الديمقراطى لانتخابات سنة ١٩٩٢، بل إن كلينتون كان المرشح الأفضل والأقرب إلى أباطرة الصناعة الأمريكية الذين دعموه ومنحوه ثقتهم.

نأتى بعد ذلك إلى الكتاب الذى نحن بصدده والذى صدر أوائل هذا العام، واشترك فى تحريره وتجميع مادته خمسون باحثاً وصحفياً، واشتمل على أكثر من ٦٠٠ تحقيق وبحث، عدا مئات الآلاف من التقارير الخاصة بحكومتى الفيدرالية والولايات وقد نشرت المؤسسة المسئولة The center for public integrity قبل صدور هذا الكتاب - مائتين وخمسة وعشرين تقريراً وأحد عشر كتاباً، وحصدت عنها خمس عشرة جائزة من جهات تتمتع بالحيدة والموضوعية، وتحظى بالاحترام من الأوساط كافة.

والكتاب الذى نتناوله الآن، هو الثالث فى قائمة إصدارات هذه المؤسسة عن انتخابات الرئاسة، التى حرصت على أن يأتى تحت العنوان ذاته، إذ كان الكتاب الأول عن انتخابات عام ١٩٦٩، والثانى عن انتخابات عام ٢٠٠٠. وربما لا يعرف الكثيرون أنها مؤسسة لا تستهدف الربح ولا تتاجر فى الكتب، وأغلب مطبوعاتها موجودة على الإنترنت، على الموقع التالى:

(١) www.public integrity. Org

(٢) www.Bob2004.Org

The Buying of the President 2004
(شراء الرئاسة الأمريكية ٢٠٠٤)
Charles Lewis, and
Center For Public Integrity
Harper Collins pub., 2004, 507pp

منذ عام ١٩٧٦، يفوز المرشح، الذى يتمكن من جمع أكبر تمويل مالى لحملته الانتخابيـــة، بترشيح الحزب له أو بتصـــديقه على ترشيحه، بصـــرف النظـــر عن مبـــادئه ومـــدى مصـــداقيتها، أو قـــدرته علـــى الوفـــاء ببرنامجـــه

وكتابنا الذى نقدمه اليوم يقع فى خمسمائة صفحة، ويباع بخمسة عشر دولاراً أى بسعر تكلفته. وهو كتاب يثير القلق ويستدعى الخوف على مستقبل الديمقراطية الأمريكية التى يعدها البعض المثل والأنموذج اللذين يتعين على العالم أن يقتدى بها، ويسير على نهجها، فما ورد به من معلومات عن قوائم ممولى الانتخابات لكل مرشح للرئاسة، والأموال المدفوعة فيها، ومدى تأثير ذلك على القرارات التى تتخذها الدولة، وعلى المواطن الأمريكى، يدحض - لاشك - المزاعم التى تدعيها لنفسها فى هذا الصدد، ويكشف محتوى ديمقراطية جاهزة الإعداد والتصدير لشعوب العالم الثالث، وأنها وسيلة من وسائل الضغط على حكوماتها.

بيد أن مأثرة هذا الكتاب الكبرى أنه فى تعرضه بالبحث والدراسة لما يجرى ويدور فى أروقة الحملات الانتخابية للرئاسة، يستدعى إلى الذهن صورة انتخابات الكونجرس الأمريكى التى تعد صورة مصغرة لها، وتجليـاً لفضائح انتخابات الرئاسة. وهى أمور تحجم شركات الإعلام الكبرى عن ذكرها، بل تغض الطرف عنها، وتعلم الأوساط الأمريكية أنه منذ عام ١٩٧٦، فإن المرشح الذى يتمكن من جمع أكبر تمويل مالى لحملته الانتخابية، يفوز بترشيح الحزب له أو بتصديقه على ترشيحه، بصرف النظر عن مبادئه ومدى مصداقيتها، أو قدرته على الوفاء ببرنامجه. فالفائز الحقيقى فى الانتخابات هو الممول الذى يقف خلف مرشحه، الذى يرد الدّين له بطريقة أو بأخرى من خلال التسهيلات الممنوحة له، أو المناصب المهمة التى تذهب إليه وإلى أنصاره، أو عبر التشريعات التى تسن لصالحه. وهناك مقولة أمريكية قديمة تقول: «إن أحسن استثمار عندنا هو شراء الكونجرس الأمريكى» «We have a congress the best money can bye».

ومن البديهى أن شراء الرئاسة سيكون أفضل لمن يملك أموالاً أكثر. لكن المؤسف حقاً فى هذا السياق، هو تقلص دور الفرد العادى، وتصاعد نفوذ الأغنياء والشركات الكبرى فى إقرار مجريات الانتخابات الأمريكية وإن كان دور الإنترنت سوف يتعاظم بشدة فى التأثير على مسيرة الانتخابات فى المستقبل، إلا أن هذا سيكون مقصوراً على القادرين على استخدام الإنترنت، مما يؤدى إلى استبعاد الفقراء ومن نالوا قسطاً محدوداً من العلم.

غير أن أخطر ما يلفت النظر فى موضوعنا هذا، هو ذلك الدور الذى تلعبه شبكات التليفزيون والراديو وبعض الصحف الكبرى، التى أصبحت تحت سيطرة شركات كبيرة ذات نفوذ قوى، فى تشكيل وعى المواطن وتعبئته خلف مرشح بعينه، ومن نافل القول إن الإعلان فى التليفزيون يكلف الكثير، ولا يستطيع أن ينهض به إلا من كان يملك التمويل القوى.

أجل.. لقد تغيرت معالم انتخابات الرئاسة منذ النصف الثانى من القرن الماضى، وتغيرت الأساليب التى كانت سائدة فيما سلف من عهود، وتم استبدالها بوسائل الإعلام الحديثة التى أصبحت تهيمن على شتى جوانب الحياة فى العالم. ولعلنا نتذكر ما جرى فى انتخابات سنة ١٩٦٠ بين المرشحين الرئاسيين: نيكسون وكيندى فى الانتخابات التمهيدية، وكيف استطاع كيندى تسويق برنامجه الانتخابى والترويج له بذكاء على شاشة التليفزيون، على الرغم من أنه لم يبدأ حملته إلا خلال أسابيع قليلة قبل ترشيح الحزب له، ولم يزر سوى سبع ولايات فقط، وذلك على عكس ما هو متبع الآن، حيث تستغرق الانتخابات التمهيدية ما بين عام أو عامين، فضلاً عن احتياجها لتمويل مادى كبير، ومؤازرة معنوية ضخمة.

وإن كانت الشركات الكبرى تمول الحزب الجمهورى أكثر من تمويلها للحزب الديمقراطى، إلا أن التمويل قد يتساوى بين الحزبين فى حالة سيطرة الحزب الديمقراطى على الكونجرس، فمثلاً شركات الادوية دفعت مليونين ونصف مليون دولار للجمهوريين سنة ١٩٩٢. و ٢.٤ مليون دولار للديمقراطيين، عندما كانت الأغلبية لهم، وبعد تغير الأمر لصالح الجمهوريين، حيث صارت لهم الأغلبية، قامت شركات الادوية بدفع ١٦.٣ مليون دولار للجمهوريين، و ٤.٤ مليون دولار للديمقراطيين. إن الشركات تدفع للنواب المهمين بصرف النظر عن هويتهم الحزبية، إذا كانوا سيساعدونها والشىء ذاته يقال عن الكثير من الشركات الصناعية. خذ مثلاً آخر على ذلك وهو شركات التعدين التى دفعت ٢.٤ مليون دولار لتمويل انتخابات سنة٢٠٠٢، ذهب ٩٠٪ منها للجمهوريين، و١٠٪ منها إلى الديمقراطيين، وكانت النتيجة أن الجمهوريين قدموا تسهيلات فى قوانين التحكم فى التلوث البيئى حتى تقل مصاريف الشركات، بالتغاضى عن ٣ بلايين لتر من نفايات تلك الشركات. وقد أصبح المسئول عن لوبى شركات التعدين، أكثر ملوثى البيئة، هو Marc Raciot رئيس الحزب الجمهورى. كما دفعت شركات الجاز مبلغ ٧ ملايين دولار لبوش وللحزب الجمهورى، وحصلت مقابل ذلك على الحق فى استخراج الجاز من الحدائق القومية.

إن تمويل الحملات الانتخابية، والفساد السياسى المرتبط بها، جعلا الترشيحات تكاد تكون مقصورة على الاغنياء. غير أن حوالى ٤٠٪ من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى وبعض محافظى الولايات، مليونيرات، قبل أن يبدأوا حياتهم السياسية. إن أكثر من ٩٩٪ من الشعب الأمريكى لا يملك تلك الثروات الطائلة، للدخول فى مغامرات سياسية. ومن لا يملك التمويل فعليه أن يجده عند آخرين، على أن يدفع المطلوب فى المستقبل. لقد قال جيمى كارتر الرئيس الامريكى الأسبق، والحاصل على جائزة نوبل للسلام: إننا الديمقراطية الغربية الوحيدة التى اصاب نظامها الانتخابى هذا السرطان.

ونتيجة لما يبدو من قلة مشاركة وتأثير المواطن الأمريكى العادى فى الحياة السياسية فقد أحجم ما يقرب من ١٠٠مليون أمريكى (٤٠٪) عن المشاركة فى الانتخابات، وبذلك فقدت الديمقراطية الحقيقية دورها ويبدو أن الكثير من الأمريكان لا يعلمون أو حتى لا يهمهم أن يعلموا ذلك.

لقد أثار تمويل الانتخابات اهتمام الكثيرين داخل وخارج الكونجرس، ورأى الرئيسان السابقان فورد وكارتر وآخرون أن أفضل طريقة للخروج من هذا المأزق، هى أن تمنح شركات الاعلام أوقاتاً ومساحات متساوية لكل مرشح وعلى الرغم من وجاهة هذا الاقتراح، الا أن هناك مشكلتين: الأولى هى: «من هو المرشح الذى يحق له أن يأخذ هذا الوقت الإعلامى بدون أجر؟» والثانية هى: ما الذى يدفع شركات الإعلام إلى منح هذا الوقت أو المساحة الاعلامية بدون أجر؟ علماً بأن الحملات الانتخابية تكاد تكون مستمرة، وتمثل دخلاً كبيراً لشركات الإعلام.

وعلى الرغم من النظرة المتشائمة إلى الديمقراطية الأمريكية إلا أن البعض يرى أنه فى إمكان مجموعات صغيرة من المتحمسين لقضية عادلة ومهمة أن يؤثروا ويصلحوا المسار. إن المجتمع الأمريكى مازال فى دور الشباب، وهو مجتمع ديناميكى، وقد يتمكنون من إيجاد طريقة أفضل لمسيرة الانتخابات، وللحفاظ على الديمقراطية.

هناك سؤالان يهم القارئ العربى معرفة إجابة عنهما. السؤال الأول: ما موقف المرشح الديمقراطى أو الجمهورى من القضية الفلسطينية؟ والكتاب لم يذكر أى شىء عن ذلك. إلا أننى لا أعتقد أن هناك أى فارق كبير بين المرشحين فى هذه القضية، خاصة من لديهم فرصة للفوز. والدليل على ذلك، هو سياسة أمريكا فى نصف القرن الماضى. أما السؤال الثانى فهو: هل النموذج الأمريكى الحالى للديمقراطية هو ما تريد أمريكا أن تفرضه على العرب؟ والإجابة طبعاً: نعم، ليس من جانب أمريكا فقط، بل، أيضاً من جانب الشركات الاحتكارية الكبرى فى ظل نظام العولمة. والسؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا اذا كنا لا نريد النموذج الأمريكى للديمقراطية فأى ديمقراطية ننشد؟ ■

دولة تحتضر

جاكلين روز

▪▪ فى رواية ديفيد جروسمان الصادرة فى عام ١٩٩٨ «كونى سكينى» Be My Knife، يبدأ بائع للكتب القديمة النادرة مراسلة عاطفية مع امرأة لمحها بالكاد على الطرف الآخر من إحدى الغرف. وتسمح لهما ظروف علاقتهما غير المحتملة ومزيجها غير العادى من الحميمية والبعد بأن يقولا، أو بالأحرى، بأن يكتبا أشياء لم يسبق لأحدهما أن اعترف بها من قبل. وبما أن كلاً منهما كان مستغرقًا فى الآخر، فقد بدا الأمر وكأنهما انقطعا عن العالم. إلا أنك تلمح فحسب من حين لآخر كيف أن ذلك الشكل الغريب والعزيز من الجنون قد لا يمكن فصله عن الدولة التى خلقت قصة حبهما. يقول يائير فى إحدى رسائله: «فى مكان ما من الكون: لابد أن يكون هناك ذلك العالم الآخر الذى تحدثنا عنه ذات مرة، وأعنى به عالم النور». غير أن بعض الناس غير الجديرين بهذه المنحة الكريمة والخير الوفير سيجدون أن ذلك العالم غير محتمل وسوف ينتحرون. ثم يسأل ما هذا المكان الذى نحن فيه. أهو مستعمرة ذلك العالم العقابية»؟ ربما كل إنسان هنا: «رجلاً كان أم امرأة، لا يهم، عجوزًا كان أم شابًا»، قد انتحر بالفعل.

طوال عقدين تقريبًا يقلب جروسمان فى ذهنه فكرة أن إسرائيل. وهى الدولة المعجزة كما تحب أن ترى نفسها. قد تكون فى واقع الأمر دولة تُحتَضَر. وقد قال مؤخرًا فى مناقشة مع عاموس أوز: «كى تحافظ على الثقافة، وكى تحافظ على الديمقراطية بشكل خاص، لابد من نوع ما من الوهم»، وفى إسرائيل الآن تفسخت طبقة الثقافة «مما يجعل الأوهام اللازمة للحفاظ على نسيج حياة محتمل بصورة أو بأخرى أمرًا ممكنًا». فإيمانك بنفسك وبعالمك وهم، مع أنه وهم نحن بحاجة إليه كى نستمر فى حياتنا اليومية. ويرى جروسمان أن هذا يمزق اللحظة التى تشهدها أنت شر ممزق. ومنذ ذلك الوقت غالبًا ما يكون الشىء الذى تخشاه، أو ينبغى أن تخشاه، ليس هو احتمال أن تنتهى حياتك نهاية عنيفة فى أى وقت من الأوقات. وهى الخوف الذى بات حقيقيًا الآن بالنسبة لكل مواطن فى دولة كان المقصود بها أن تجعل الشعب اليهودى آمنًا. بل هو أنك مت بالفعل. وهو يكتب فى «الموت طريقةً للحياة»: «دولة بكاملها. ستة ملايين إنسان سمحوا لعقلهم وإرادتهم وحكمهم بالهبوط إلى درك السلبية الإجرامية المستفزة». و«حين نخرج من تلك الشرنقة التى تحتوينا، ربما يكون الوقت قد فات». إن كتابة جروسمان رد على كل من يقولون إنه من السهل إلى حد كبير أن تنتقد إسرائيل من الخارج؛ فهو يسجل من داخل أقدس مدينة فى البلد، وأكثر ما يُتنازع عليه من مدنها، خيبة أمل فى الدولة؛ فإسرائيل دولة تُخَيِّب الآمال.



أحمد اللباد

ولكن ماذا عن الدولة التى لا يمكنها إنقاذ ابنها؟ من المستحيل ألا تقرأ قصة كازيك الطفل المعجزة فى إحدى روايات جروسمان باعتبارها قصة رمزية لمولد إسرائيل ونموها، حيث يجده زوجان عقيمان ويشيخ بسرعة ليصبح رجلاً عجوزًا حين يموت بعد اثنتين وعشرين ساعة. وفى نهاية «كونى سكينى» تخالف ميريام اتفاقها مع يائير وتندفع إلى بيته حين يوضح لها فى مكالمة هاتفية أنه تشاجر مع ابنه، وأن الصبى يتجمد ببطء خارج البيت فى المطر، وأنه لابد أن يحطم إرادة الصبى (ليس واضحًا فى نهاية الرواية إن كان أى من الابن أو الأب قد بقى على قيد الحياة). ويُنظر إلى إسرائيل باستمرار على أنها تكافح من أجل البقاء؛ فهذا هو مبرر وجودها. وعلى عكس الخطاب السائد، يقدم لنا جروسمان دولة يتضح أنها. من خلال سلوكها العنيف والعنيد الذى تضر به نفسها. مصممة على تدمير نفسها.

وما من دولة، وما من ديمقراطية، يمكنها العيش بدون أوهام. وإذا كان جروسمان محقًا فى ربطه بين علل الدولة وعلل أبنائها، فلابد أن نبحث فى شباب إسرائيل. مفخرتها. عن الشروخ التى على السطح وعن الاعتلال الذى فى الروح. وفى الوقت الذى أكتب فيه هذا الكلام، حكمت محكمة يافا العسكرية بالسجن لمدة سنة على خمسة من اليافعين الرافضين لأداء الخدمة العسكرية فى الأراضى المحتلة. وسبب ذلك هو أنهم جهروا بتخلصهم من الوهم

١. Someone To Run With
(شخص تهرب معه) قصة
David Grossman
Farrar Strous and Giroux 2004

٢. Israel Ten Years After Oslo: death as a way of life
(إسرائيل.. عشر سنوات بعد أوسلو)
David Grossman
Farrar Strous and Giroux 2003

بترتيب مع: لندن ريفيو أوف بوكس
ترجمة: أحمد محمود

بالقدر الذى جعلهم أول من يحاكمون عسكرياً إذ صدرت ضد الآخرين أحكام إدارية أو أطلق سراحهم. إلا أن هؤلاء الذين يخدمون، ثم يتحدثون، يقضون على وهم الحياة المتحضرة. ويتحدث الرقيب أول ليران رون فورر عن تجربته فى غزة فى كتابه «متلازمة نقطة التفتيش» فيقول: استبد بى احتمال أن أتصرف بأكثر الأساليب بدائية وعفوية. وبمرور الوقت أصبح السلوك... معيارياً... دون خوف من العقاب وبلا رقيب... إنه مكان لاختبار قيودنا الشخصية؛ ما مقدار ما يمكن أن نكون عليه من قسوة ومن موت للمشاعر ومن جنون». وهو يصر على أنهم مجموعة توحشت من «الأولاد الطيبين» الذين تخرجوا للتو من الجامعة. فقد أصبح فورر سادياً. وهو يشعر أن ذلك هو ما كان متوقعاً، دون أن يعلَن عن ذلك شىء من قبل. ولكن ليس هناك من يرغب فى الاعتراف بهذا؛ فلا أحد يرغب فى رؤيته وهو لم ينجح فى نشر كتابه داخل إسرائيل فى العام الماضى إلا بشق الأنفس.

مع أن جروسمان أمضى سبعة أشهر فقط مشاركاً فى المفاوضات التى أدت إلى اتفاق جنيف، الذى كتب هو مقدمة نسخته العبرية، يبدو مهماً أنه جمّع مقالاته فى اللحظة التى رأى فيها أن الأمل مات وأنه على حافة اليأس («شىء داخلى يموت»). ويبدو الأمر وكأنه بناء على أفضل أحكامه، أو أسوئها، مازال يؤمن بأنه لابد لإسرائيل أن تنظر فى داخل أعماقها كى يمكن انقاذها. وهو يجعل من نفسه معالجاً لروح الدولة، وكأنه محلل نفسى؛ حيث يزخر قاموسه بكلمات من قبيل «الإنكار» و«الكبت». ويغلق الإسرائيلى العادى عقله أمام كل الأشياء التى غالباً ما يحتاج بشدة إلى معرفتها. ذلك أنه ليست لديه أية فكرة عن أعماق المهانة والمعاناة الفلسطينية التى تسببها أعمال إسرائيل فى المناطق. ولجهله بالتفاصيل، فهو يعتقد خطأً أن أوسلو قدمت للفلسطينيين دولة قادرة على البقاء. وحين يتحدث رابين عن الرغبة فى السلام، تزداد الانطباعات قوة، ويكتب جروسمان فى عام ١٩٩٥، أى بعد عامين من أوسلو، أن الاتفاق «يعنى فى واقع الأمر ترتيباً أمنياً موسعاً لحبس الفلسطينيين داخل مناطق حبس تتمتع بالحكم الذاتى تحيط بها وتفصلها عن بعضها شبكة كثيفة من الطرق وحواجز الطرق والمستوطنات الإسرائيلية». (وفى المقال ذاته يتكهن جروسمان بتجدد الانتفاضة فى «المناطق اليائسة المخنوقة، وسوف تتسم هذه المرة بعنف لم نره من قبل».) ويعزل الإسرائيليون أنفسهم عن العرب الذين يعيشون فى وسطهم، مع ما لهم من حق فى الهوية المستقلة. ويضم كتاب «النوم على السلك» الذى كتبه جروسمان عام ١٩٩٣ مجموعة من الحوارات مع فلسطينيين داخل إسرائيل، حيث يقول أحدهم: «لا يعرف اليهود ما يكفى عنا. بل إنهم لا يرغبون فى معرفة أن هناك أمة أخرى فى هذا المكان».

ويرسم جروسمان صورة لعالم من الإنكار والتفكك يعوم فى مخاوفه. لم كانت حكومة نتنياهو تتصرف فى كثير من الأحيان وكأنها «جماعة أقلية مضطهدة»، وكأنها لم تكن تؤمن حقاً بشرعيتها؟ وكتب جروسمان وقتها أن حكومة الوحدة الوطنية عام ٢٠٠١ برئاسة شارون سوف تلملم تسوية لا صلة لها بالواقع، وتعرضها على الفلسطينيين، وهى أن إسرائيل سوف تجرى من جديد مفاوضات افتراضية بين نفسها ونفسها، وبين نفسها ومخاوفها». ولا يهون جروسمان أبداً من ميراث الخوف الرهيب الخاص بإسرائيل، إلا أنه لا يراه ذلك الرد العظيم الذى يُخرس أى نقد. فالخوف ليس نهاية المطاف؛ بل إنه يفتح الصندوق. فإلى أين يقود هذا الخوف؟ إن جروسمان يعرى جراح النفسية اليهودية ليكشف عن النسيج الندبى الذى لن يسمح للأمة بالتنفس، إن هو تيبس.

وفى تغطية لعقد مضى منذ أوسلو، يخصص جروسمان كثيراً من المقالات فى كتاب «الموت طريقة للحياة» لرسم خريطة لصعود زعيم إسرائيل الحالى إلى السلطة، وانتخابه وإعادة انتخابه، ويشير جروسمان، بشكل جزئى إلى أنه ينضح سلطة. وهو يقول عنه: «ألبسه عباءة وسوف يبدو وكأنه إمبراطور رومانى...» (يبدو أن هذه الصورة، بكل إيحاءاتها القوية وبطشها وتاريخها فيها شىء ما يروق للناس). وفى ديسمبر من عام ٢٠٠١، ورداً على تفجير انتحارى، أوقف شارون المفاوضات مع عرفات الذى كان مجمعه فى رام الله محاصراً، وأرسل الطائرات لضرب الضفة الغربية. وفى مقالته عن هذه الإستراتيجية، التى يضعها جروسمان مثلها مثل كل ما يختلقه شارون، فى مكان ما بين البشع والفاجع، يستشهد بدراسة نُشرت فى مجلة «نيتشر» Nature عن «آلية خطيرة فى النظام البصرى البشرى» تسمح للمخ برفض تسجيل ما تراه العينان بالفعل. وتقول الدراسة: «منذ اللحظة التى يقرر فيها المخ تأييد تفسير معين للصور التى يتلقاها من العينين، تختفى كل المحفزات التى تدعم أى تفسير آخر فحسب». ولكون عرفات يجرى «محوه»، وهو ما يعنى أن «الشعب الفلسطينى قد مُحى كذلك، ومعه رغباته وطموحاته المبررة» (بالنسبة لهذه العملية صك باروخ كيمرلينج بالجامعة العبرية فى القدس المصطلح politicide أى الإبادة السياسية). وشارون يَعْمِى نفسه؛ وهو ما قد يكون طريقة للاعتراف بأنه، كما هو حال أوديب، مرتكب الجريمة الفظيعة. ويقول جروسمان: «لقد أعمت الحرب والعنف عيوننا، وحولت البعض منا إلى قتلة، وجعلت كثيرين غيرهم متواطئين صامتين مع القتلة».

كتب إدوارد سعيد فى صحيفة «نيشن» Nation فى فبراير من عام ٢٠٠٢: «فيما عدا عدد قليل من الإسرائيليين (أحدثهم ديفيد جروسمان)، لم يخرج أحد ليقول صراحة إن إسرائيل تضطهد الفلسطينيين». ولم يتردد جروسمان قط فى إدانة الاحتلال باعتباره «مشوهاً وغير أخلاقى وظالماً». وليس هناك لف ولا دوران فى الكلام. فتلك هى موهبته الخاصة فى أن يتمكن من عمل ذلك فى نفس الوقت الذى يعترف فيه بذلك الفيض من البهجة والسرور الذى ينتاب الشباب الإسرائيلى حين يتلقى أوراق الاستدعاء إلى الخدمة العسكرية لأول مرة، حتى ولو كان من بين من تظاهروا ضد الاحتلال. (بنفس الروح يستحضر الشحنة الشهوانية الخاصة بدخول أرض الغير والاستيلاء عليها، حين يقول: «الولوج المفاجئ وانتهاك المحظور... أتذكر تماماً الإحساس الجسمانى، ذلك الإحساس بالقوة». ويبدو أنه يطلب منك أن تفصل نفسك عن إثارتك. غير أن هذا ليس بالأمر الهين. ولم يقلل جروسمان فى يوم من الأيام من قيمة ما يقف ضده الناقد أو المعارض الداخلى. وهو يقول فى «الريح الصفراء»: «فى إسرائيل، الواقع هو أنه أيسر على المرء أن يغير ديانته، وحتى جنسه، من أن يغير آراءه السياسية بأية طريقة حاسمة». وعند محاكمة الخمسة المعارضين لأداء الخدمة فى الأراضى المحتلة بمحكمة يافا العسكرية فى شهر ديسمبر، وصفهم ممثل الادعاء بأنهم «مجرمون أيديولوجيون»؛ من «أسوأ صنف»، بل «الحقيقة أنهم أشخاص مثاليون ولابد من حشد الشخصيات الإيجابية ضدهم بأية طريقة كانت».

تنساب بعض اتهامات جروسمان ضد السياسة الحالية كأنها مناجاة للنفس. فهو يقول إن مفهوم «القنبلة الموقوتة»، الذى يستخدمه الجيش لتبرير سياسته الخاصة بالاغتيالات المستهدفة، ينبغى تطبيقه بشكل عارض فقط حين يكون شخص ما فى سبيله لشن هجوم وإلا فإنه سوف يُنظر الآن إلى كل من يُشتبه فى أنه خطط أو يخطط لهجمات، إلى جانب أى مدنيين محيطين به، على أنه هدف مشروع. وبينما أكتب هذا الكلام، تتمتع جماعة الفوضويين المعارضة للجدار بسمعة سيئة بعد أن صاح أحدهم «لا تطلقوا النار، نحن إسرائيليون» قبل أن تطلق قوات الدفاع الإسرائيلية النار عليه وتصيبه بجرح خطير. فعند الإيحاء بأنه لا بأس من إطلاق النار على الفلسطينيين وهو الإيحاء الذى ينكره الفوضويون بشدة. عن طريق كشف حقيقة أن الجيش يميز بين «دم وآخر»، وإن لم ينجح فى ذلك دائماً. تثير هذه الصرخة الفظيعة أزمة الحقيقة.

وتحكى هذه المقالات قصة كارثة. ففى الوقت الذى نصل فيه إلى النهاية، نجد أن إسرائيل «أكثر تشدداً وقومية وعنصرية من أى وقت مضى». فأى نوع من الانتصار مادام بالإمكان القول بأن إسرائيل تضرب الفلسطينيين. ذلك الذى يترك البلاد «أسوأ بكثير مما



كانت عليه طوال الخمس والثلاثين الماضية» حيث يتدهور الأمن والاقتصاد والروح المعنوية؟ وما نوع ذلك الانتصار الذى يؤدى إلى معاناة ربع الفلسطينيين من سوء التغذية وتزايد عدد الأطفال الذين يقال إنهم يخاطرون بحياتهم بالتسلل عبر الخط الأخضر كى يصبحوا متسولين داخل إسرائيل؟ وفى نهاية «الريح الصفراء»، يطرح جروسمان سؤالاً أخيرًا يمكن أن يكون كذلك تقفيلة للمقالات المجمعة فى هذا الكتاب، وهو هل الشعور بأن الموقف لا يمكن أن يستمر للأبد يضمن أنه سوف يتغير فى النهاية؟

لكن جروسمان لا يدين دولته فحسب وإلا فسيكون هناك خطأ ما إن هو فعل ذلك. فهو مرعوب بشىء واضح من عرفات، ويرى أن الزعيمين حبيسا شبح تشددهما. وبينما يصبح الاتهام الموجه لإسرائيل أعلى صوتًا مع تقدم المقالات، فإن ميزان الحكم يتحول بطريقة تكاد تكون ملحوظة. فبعد اندلاع الانتفاضة الثانية فى عام ٢٠٠٠، نجد أن عدد الفظائع التى ارتكبت ضد إسرائيل والمتضمنة فى المذكرات الافتتاحية للمقالات تزيد على تلك التى ارتكبت على الجانب الآخر. إذ يُعرض قتل اثنين من أفراد الاحتياط، ضلا طريقهما بالقرب من رام الله فى أكتوبر من عام ٢٠٠٠، فى مناقشة لجروسمان مع أوز على أنه لحظة حرجة «بالنسبة لنا جميعًا». وإحدى أعظم مواهب جروسمان هى دقته والمدى غير العادى الذى يقطعه كى يعطى الطرف الآخر الفرصة للتعبير عن رأيه؛ فكل من «الريح الصفراء» و«النوم على الأسلاك» ملتزمان بذلك. وهو يستهل روايته الخاصة بطرد سكان الكهوف فى الخليل فى ديسمبر من عام ١٩٩٩ بقول محمود حمامدة: «لقد ولدت هنا فى هذا الكهف». وبعد ذلك تصبح اللغة أكثر غموضًا؛ فقد رد الفلسطينيون على زيارة شارون لجبل المعبد باندلاع أعمال عنف لا حد لها» حيث أدت أعمال الشغب التى اندلعت فى اليوم التالى إلى وفيات كثيرة. وقوبلت موجة العنف التى سادت أنحاء الضفة الغربية وغزة بقوة كاسحة من جانب قوات الأمن الإسرائيلية. ولكن وفيات من؟ هل كان من قاموا بأعمال الشغب مسلحين؟ إن عبارة «موجة العنف» تحتاج إلى فاعل وتتركنا فى حيرة من أمرنا. وفى أبريل من عام ٢٠٠٢ نجد أن الفلسطينيين هم الذين «أحدثوا هذا التصعيد الذى لا يمكن التغاضى عنه. فهو نتيجة لاختيارهم استخدام سلاح التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين».

يمكن أن تدين التفجيرات الانتحارية بأنها إجرامية وذات أثر عكسى، وهو رأى كثير من الفلسطينيين كذلك، إلا أننا مازلنا نشير إلى أن هناك تراجعًا ما فى اللهجة (وهو دليل آخر. إن كانت هناك حاجة إلى أى دليل. على أن التفجيرات تقوض الأساس الأخلاقى للفلسطينيين، أو «البومرانج» حسب تعبير جروسمان). ولنقارن هذا بما قيل فى عام ١٩٩٧، بعد أول تفجير انتحارى، ولكن قبل أن تترسخ الإستراتيجية: «يصعب اليوم التحدث عن الفلسطينيين على أن لديهم أى أمل. ولا تدرك غالبية الإسرائيليين عمق اليأس الفلسطينى... الذى سببته سياسات الحكومة الإسرائيلية. وفى ظل هذه الظروف، من الواضح الآن أن أحدًا لن يطيق أرواح الإسرائيليين بنفس القدر الذى لا تُطاق به أرواح الفلسطينيين».

فما الذى تغير إذن بالنسبة لجروسمان؟ ربما يشعر بأن كتابته أخفقت فى تحقيق ما أراد؛ ذلك أن عقدًا من توضيح هذا كله بأقصى جهد ممكن وبكل ما أوتى من شجاعة ليس له أى تأثير على قرائه بالتحديد. وهو يقول: «أعرف جيدًا لم انضممت إلى مبادرة جنيف؛ لأننى أشعر أن كل يوم يمر بدون تغيير يدفع إسرائيل سنتيمترات أخرى نحو الهوة السحيقة».

ويؤكد منتقدو اتفاقية جنيف على أن الفلسطينيين تخلوا عن حق اللاجئين فى العودة فى الوقت الذى لم تتحمل فيه إسرائيل مسئولية حل مشكلة اللاجئين (فهو كما أشار إيلان بابا لا يترك للفلسطينيين سوى ١٥ بالمائة فقط من أرضهم الأصلية). وما يدعو للتشاؤم أكثر هو ما قاله البعض عن أن الفرق الوحيد بين الاتفاق وهدف شارون الخاص بالانسحاب من جانب واحد وفرض الأمر الواقع على ضم المناطق هو أن الفلسطينيين يُمنحون فرصة للموافقة على الخطة. كما انتُقد الاتفاق كذلك لإعطائه المشروعية لطابع الدولة الصهيونى. ولكن هذا ليس صحيحًا تمامًا، كما أوضح سالم تمارى. فاتفاق جنيف لا يعطى مشروعية لإسرائيل باعتبارها «دولة الشعب اليهودى»؛ فهو يتحدث عن «حق الشعب اليهودى فى أن تكون له دولة والاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى أن تكون له دولة»، دون أى تحيز فيما يخص «الحقوق المتساوية لمواطنى كل من الطرفين» (وهو كما يشير تمارى كذلك صدى بغيض لوعد بلفور يشير إلى الحقوق المدنية والدينية وليس إلى حقوق «الطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين»).

وهذه الأيام يتزايد الكلام عن الدعوى إلى ازدواجية القومية؛ وكان ذلك هو الحل الذى رغب فيه إدوارد سعيد فى النهاية. وإذا كان هذا الحل يثير انتقادًا شديدًا، فإن له كذلك مؤيدين غير محتملين داخل إسرائيل لا نسمع عنهم كثيرًا فى الغرب. أحد هؤلاء الكاتب دانييل جفرون الذى ظهر كتابه «الجانب الآخر من اليأس: العرب واليهود فى أرض الميعاد» فى إسرائيل فى شهر نوفمبر الماضى. ويرى جفرون الذى يسمى نفسه «صهيونى عمالى أرثوذكسى من التيار العام» أن هذه الرؤية تنبع بشكل منطقى من طابع العالم القديم متعدد الأعراق. وهو يقول: «إذا صدقنا التوراة فإن الملك داود استولى على أورشليم من اليبوسيين (قبيلة كنعانية) ثم شاركهم المدينة. كما أنه اتخذ له موظفين من الكنعانيين، وكان لديه قائد حثّيى من بين قادة الجيش، وكانت له علاقات طيبة بالفينيقيين، ونشر وحدات فلسطينية فى جيشه، وهى الجلادون والسعاة». ومع أنه يرغب فى حدوث شىء كهذا الآن، بينما لا يزال اليهود هم الأغلبية ولهم اليد العليا، فهو غير آبه بالمخاوف الديموغرافية، حيث يقول: «لا أرى موقفًا يصبح فيه فجأة للعرب ٦١ عضوًا بالكنيست، بينما يكون لنا نحن ٥٩ فقط، وحينئذ يستديرون علينا ويذبحوننا فى فراشنا».

أما جروسمان فيرى أنه لم يعد يبدو الآن أن هناك مجرد احتمال، ذلك أن رغبة الأغلبية اليهودية الواضحة فى الاحتفاظ بالتفوق العددى هى الرغبة التى تنبض فى قلب كل أمة... ولا أريد أن أكون ضمن أقلية يهودية فى إسرائيل. وهو يعترف بأن هذا «تباين لا حل له» فى الديمقراطية التى يرغب فيها الشعب اليهودى. وبسبب الخطر الذى يمثله حق الفلسطينيين فى العودة لطابع الدولة اليهودى الذى لا رجعة فيه، فإن هذا الحق هو النقطة التى يتوقف عندها جروسمان؛ و«نقطة اللاعودة» هو عنوان مقال كتبه فى يناير من عام ٢٠٠١ اقتبس بعض ما جاء فيه. فهو يقول فى النهاية «لا بد لنا من» محاولة «تحقيق عدالة جزئية لكلا الطرفين». وقد نعيد الصياغة لتصبح: العدالة جزئية. وحتى إذا كانت العدالة فى صف أحد الجانبين . أى فى جانب الفلسطينيين، وهو ما يتضح أنه كذلك فى ظل القانون الدولى . فلا يمكنك تحقيقها، لأنها ستدمر حلمى أنا. وبما أن الحلم يتحطم أو يتلاشى باطراد، كما تبين هذه المقالات، فإن هذا يزيد من كونه ليس الأقل اقناعًا. فقد كانت إسرائيل معجزة وفرصة سانحة، واليوم يعيش الإسرائيليون على

طوال عقدين تقريبًا يقلب جروسمان فى ذهنه فكرة أن إسرائيل. وهى الدولة المعجزة كما تحب أن ترى نفسها. قد تكون فى واقع الأمر دولة تُحتَضَر

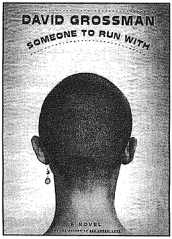


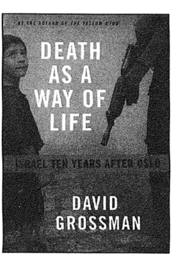
طريق الحياة الجانبي الذى كان مخصصاً لنا، ولابد من تذكيرهم بما كانوا عليه فى يوم من الأيام. «هل هناك حالياً من الإسرائيليين من يحيا الحياة التى يريدها؟» يبدو الأمر وكأن البلاد قد جرى تحويلها عن مسارها بشكل مؤقت. «هذه العاصفة... تجعل بوصلتنا تضل الاتجاهات». وكأن العنف كان انحرافاً وليس جزءاً أصيلاً من إنشاء إسرائيل باعتبارها دولة قومية، حيث كان جروسمان أول من يعترف بذلك.

شقت اللغة فى التاريخ اليهودى كلا الطريقين. ويرى جروسمان أن خطر معاداة السامية المتجددة هو أنهم يعيدون اليهودى إلى رمز خاص به. ويقول جروسمان فى مناقشته مع أوز: «اليهودى الذى جاء إلى أرض إسرائيل وبنى دولة كى يرتبط...بوجود ملموس، أصبح فجأة رمزاً لشىء آخر من جديد. وعلى أية حال فقد كان اليهودى دوماً ضرباً من المجاز... إذ لم يتصوره أحد قط الشىء نفسه». وهذا الخطر وجودى، إلا أن هناك كذلك ضرراً أصاب العقل اليهودى. فالإحساس المخدر الخاص بالمصير القربانى يعود ويحجب العالم، إذ «يبدو أن الأحاسيس المأساوية الخاصة بالمصير تتكالب علينا من جديد» (فى لندن، وصف جروسمان العام الماضى الإحساس اليهودى بكون الإنسان ضحية على أنه «إغراء»). وتتعلق الجماعة بنفسها بقوة وتشبث. وكان فرويد قد كتب فى عام ١٩٣٠ إلى حاييم كوفلر رئيس الوكالة اليهودية: «كان الأمر سيبدو لى أكثر معقولية لو أننا أقمنا وطناً يهودياً على أرض أقل عبئاً من الناحية التاريخية. فأنا لا يمكننى أن أثير تعاطفاً بأى حال من الأحوال مع تدين أسىء توجيهه يحوّل قطعة من سور بناه هيرودس إلى أثر قومى».

إن جروسمان عالمى النزعة. ففى «الموت طريقة للحياة» تنشر من حين لآخر تقريباً ملاحظات من قبيل «أنا لا أنتمى إلى هؤلاء الذين يعتقدون أن الهولوكوست كان حدثاً يهودياً صرفاً. والأمر كما أراه هو أن على كل الأشخاص المتحضرين وأصحاب العقول النزيهة أن يطرحوا على أنفسهم أسئلة جادة بشأن الهولوكوست. وهذه ليست أسئلة يهودية. إنها أسئلة عالمية». وفى ذلك ما يخالف السمة الأساسية للتفكير اليهودى. ورغم كل الطاقة التى كرسها لاتفاقية جنيف، فهو لا يؤمن فعلاً بالحكومات. وهو يكتب فى آخر «الريح الصفراء»: هناك أرض متنازع عليها، وهى مكان ميت، مما يفصل الألم الشخصى، أى الإنسان ومشاعره، عن ذلك المكان الذى تقرَّر منه الأشياء وتُصاغ فيه الاتفاقيات وبرامج الأحزاب وكلمات المديح الرسمية». وهو يكره الجماعات. فهو يقول فيما يتعلق بالهولوكوست: «هناك أسئلة بشأن الروح الإنسانية التى يسهل منعها من الكلام بصفتها «أنا» وجعلها تبدأ فى الحديث بأعلى صوت عن «نحن».

وشيئاً فشيئاً، أو بالأحرى فيما بين السطور، يمكن سماع صوت شديد الاختلاف صادر عن الشخص الذى يعلن عن تحقيق إسرائيل لأسوأ مصير لها. إنه صوت جروسمان، كاتب الروايات الرائعة التى «تذيب» و«تزعزع» كل أفضل دفاع فى حياته. والرواية ليست تعزية، بل إن «حرية الفنان نفسها هى التى تحرمه من الخيالات التى تعزيه». ويجعل هذا رأى جروسمان عن الرواية أقرب إلى تصوره عن الحرب. ولكن الرواية تنقذ كذلك. وهو يقول: «حين أكتب لا أكون ضحية للحظة». ذلك أن الكتابة «عمل من أعمال تعريف الذات فى وضع يهدد بمحوى بالمعنى الحرفى للكلمة». وعلاوة على ذلك، يجبرك الأدب على الدخول فى عقول الناس. وهو يجبرك على إقامة الصلات. فالقدس مدينة بها مركز للكلاب الضالة وليس بها مركز للأطفال التائهين؛ وكان كشف هذه الحقيقة بشأن الحياة الحديثة فى إسرائيل هو إلى حد ما السبب وراء كتابة جروسمان لأحداث روايته. وإذا كانت تمار تنقذ روحها، فليس ذلك بإنقاذ شقيقها فحسب، بل بالغناء فى حالة من الرعب لأغراب فى الشارع. وهى تقول: «ليس لدى الشجاعة كى أفعل ذلك. لست بقادرة على التخلى عن نفسى كهذا للأغراب». ولكنها تغنى. ولأنها تغنى، وتغنى بشكل جيد، فإن حيلتها تفلح. إذ يلتقطها المجرمون الذين استولوا على كل أطفال المدينة الفنانين ومنهم شقيقها وينقلونها فى سيارة.





تقع رواية «شخص أفر معه» ضمن فئة روايات اليافعين. وقد حققت نجاحاً كبيراً فى إسرائيل، وربما كانت أكثر أعمال جروسمان نجاحاً من الناحية التجارية، حيث بيع منها ١٠٠ ألف نسخة على الفور. وبما أنه يكتب عن الأطفال منذ البداية، يبدو من اللائق أن يكون الأطفال. أو بالأحرى من لم يعودوا أطفالاً. هم جماعة القراءة المستهدفة الخاصة به. فهل سيعيش هذا الجيل من بعد موت آبائه؟ هذا سؤال خاص بأية ثقافة، ولكنه سؤال له أهميته الملحة فى حالة إسرائيل. فقدس جروسمان مدينة للفارين ومدمنى المخدرات والمتسربين من التعليم، الذين هجر معظمهم أولياء أمورهم، سواء أكان ذلك نتيجة خيبة الأمل أو بسبب الإهمال. ومرة أخرى تخيب الدولة آمال ابنها. فلا أحد ينظر. ذلك أن العمى الأبوى يحاكى عمى الدولة. والرائى الوحيد فى الكتاب هو تيودورا، الراهبة اليونانية التى لا ترى شيئاً فى الواقع لأنها حُبست فى منزل بوسط المدينة منذ اختيارها وهى طفلة صغيرة كى تسافر إلى الأرض المقدسة وتنتظر حجاج ليكسوس (الذين لن يأتوا أبداً، لأن الجزيرة اختفت تحت البحر فى عام ١٩٥١). ولكنها الشخص الوحيد الذى يفهم تمار وعساف اللذين يعثران على بعضهما بشكل غير متوقع وبالتعاقب عند بابها.

ورغم ذلك فهذه إحدى أكثر روايات جروسمان شدة فى تفاؤلها؛ فإذا كان هؤلاء الأطفال مفقودين، فقد أطلق سراحهم كذلك (لقد فشلنا، والآن جاء دوركم). وربما كانت الحقيقة المجردة الخاصة بالكتابة لهذه المجموعة من القراء هى طريقته الخاصة بضمان مستقبل يزداد هو نفسه. استناداً إلى مقالاته. شك فيه. وسوف تجد صعوبة كبيرة فى التعرف على القدس الخاصة بالمقالات من هذه الحكاية. فكل شىء يتحرك بسرعة كبيرة (إحدى الطرق كى توفر على نفسك عناء اليأس السياسى، أو أى نوع من اليأس فى الواقع، هى ألا تثبت أبداً فى مكانك). وتبدو «شخص ما أفر معه» وكأنها دعوة ملحة ضد أشد مخاوفها سوءاً. إذ يُنْقَذ شقيق تمار، وتعثر هى على الحب وعلى كلبها المفقود. وفى ذروة الدراما، تخرج تيودورا إلى الشارع حين يبدو أن حياة تمار فى خطر. بينما لم تفلح ١٩٦٧ ولا اغتيال رابين فى عام ١٩٩٥ فى اقناعها بالحركة. «كأنها طفلة صغيرة شاخت على الفور دون ان تمر بمراحل الحياة». ذلك أن تيودورا تكرار لكازيك فى «انظر أسفل، إنه الحب». ذلك أن من ذوت وشاخت قبل الأوان يمكن أن تعثر على الحياة. وسوف تبقى المدينة؛ وإن لم يكن هذا ما تريده الأمة للمدينة (حين يوشّج جروسمان بين تيودورا وتمار وعساف، فهو يقترب فى ذلك من خيال جويس الخاص بـ «اليهودى اليونانى» فى رواية «عوليس»).

ولا يتظاهر جروسمان بأنه سعيد. فقد يكون الاغتباط درجة من درجات الاكتئاب، إلى جانب كونه المقابل له. وقد ظهرت «الموت طريقة للحياة» و«شخص ما أفر معه» فى العام الماضى. وتتسم كتابة جروسمان بالغزارة ويحزنها المثير للدهشة. وليس انتقاداً له أن يشار إلى أنه يبدو فى بعض الأحيان وكأنه الطفل الذى خاب أمله. وفى رأيى أنه ليس هناك إسرائيلى آخر تُرجمت أعماله إلى الإنجليزية يقترب كل هذا الاقتراب من لُب الموضوع.



إســـرائيل الكبـــرى؟؟

إيــــلان بـابيـــه

■■ بعد يومين من اغتيال زعيم حماس فى غزة عبد العزيز الرنتيسى، أجرت الإذاعة الإسرائيلية حوارا مع يوفال شتاينتز. وهو الليكودى رئيس لجنة الشئون الخارجية والدفاع فى الكنيست. وقبل ذلك كان يدرس الفلسفة الغربية فى جامعة حيفا حيث كانت رؤيته المعرفية للعالم قد تشكلت بفضل قوميين رومانسيين أمثال جوبينو وفختة اللذين كانا يؤكدان على نقاء العرق كشرط للتميز القومى.

إن تطبيق هذه الأفكار الأوروبية حول التفوق العنصرى على إسرائيل أصبح واضحا حالما سأله المحاور حول خطط الحكومة بالنسبة لبقية الزعماء الفلسطينيين. وقد ضحك المحاور والضيف واتفقا على أن السياسة ستكون كما ينبغى أن تكون، وهى اغتيال أو طرد الزعامة الحالية برمتها: أى كافة أعضاء السلطة الفلسطينية - حوالى ٤٠ألف شخص. قال شتاينتز: «أنا سعيد جدا أن الأمريكيين قد عادوا أخيرا إلى صوابهم وبدأوا يدعمون سياساتنا بالكامل».

وعلى شاشة التليفزيون كرر بينى موريس من جامعة بن جوريون دعمه للتطهير العرقى للفلسطينيين مدعيًا أن هذه هى أفضل الوسائل لحل الصراع فى فلسطين. وكانت صحيفتا نيويورك تايمز ونيو ريبابلك من بين المنابر العديدة التى دعى إليها موريس ليردد وجهات نظره.

إن الآراء التى كانت تعتبر هامشية فى افضل حالاتها وجنونية فى أسوأ حالاتها، أصبحت الآن جوهر الإجماع اليهودى الإسرائيلى وتنشر من قبل أكاديميى المؤسسات فى أوقات الذروة التليفزيونية باعتبارها الحقيقة الوحيدة. إسرائيل فى ٢٠٠٤ هى مجتمع عصابى يقوده صفوة من السياسيين المتطرفين المصممين على إنهاء الصراع بالقوة والدمار مهما كان الثمن الذى يدفعه المجتمع الإسرائيلى أو الضحايا المحتمل سقوطهم. وعادة لا يدعم هؤلاء الصفوة سوى الإدارة الأمريكية، فى حين أن بقية العالم يتفرج مذهولا بدون حول أو قوة.

مثل إسرائيل اليوم مثل طائرة تطير بالطيار الآلى. خط السير مرسوم مسبقا وكذلك السرعة. الوجهة هى خلق إسرائيل الكبرى والتى ستضم نصف الضفة الغربية وجزءاً صغيراً من قطاع غزة (حوالى ٩٠٪ من فلسطين التاريخية) وهذا ما يجعلها إسرائيل الكبرى بدون تواجد فلسطينى ومع جدران عالية تفصلها عن السكان الأصليين لفلسطين الذين سيحشرون فى معسكرى سجن كبيرين فى غزة وما بقى من الضفة الغربية. أما الفلسطينيون داخل إسرائيل فأمامهم إما المغادرة والانضمام إلى ملايين اللاجئين الذين يذبلون فى المخيمات أو يخضعون إلى نظام ابارتهايد ينطوى على التمييز العنصرى والإذلال. فى أجزاء كثيرة من العالم الغربى مازالت وسائل الإعلام تصف هذا بأنه الطريق الأفضل للسلام والاستقرار. وتبدو محادثات السلام التى تضطلع بها الرباعية: الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وروسيا والأمم المتحدة - منذ وجدت خارطة الطريق، وكأنها تغشى عيون العديد من المراقبين الموضوعيين الذين مازالوا يعتقدون أن هذا النهج معقول. ولكن كان يجب أن يكون واضحا منذ زمن بعيد أن إسرائيل تتجه نحو كارثة.

كان اقتراح اريل شارون الأخير - وهو خطة مدمرة أخرى تتنكر بقناع خطة سلام - ملائما بشكل طبيعى لتاريخ محادثات السلام فى فلسطين منذ أوسلو. بدأت العملية بجهد صادق لخلق دولتين مستقلتين فى فلسطين وإسرائيل ولكن تحولت إلى الوسط الصهيونى فى إسرائيل ليفرض رؤيته حول إسرائيل الكبرى مع بانتوستين فلسطينى بجانبها بدون أن يكون للفلسطينيين حق العودة. فى صيف ٢٠٠٠ طالبت إسرائيل والولايات المتحدة الفلسطينيين بدعم هذه الرؤية لمستقبلهم.

قد لاتكون خطة شارون للسلام بعيدة كثيرا عن الخطط الصهيونية السابقة ولكن يبدو أن الأمور فى إسرائيل آخذة فى التدهور خلال الأسابيع القليلة الماضية. ويعتبر اغتيال الشيخ ياسين والرنتيسى مع دعم أمريكا لخطط شارون مؤشرات مرعبة. مثل الشعور بأنك محصور فى طائرة تتبع خط سير سوف ينتهى بكارثة للمواطنين الإسرائيليين فى الطائرة وسوف يصفى فى طريقه الفلسطينيين.

ومع ذلك يبدو أن هذا النهج قد حظى بموافقة واشنطن ولم يعد يثير الجدل فى إسرائيل. فالأصوات المعارضة داخل وخارج البلاد وهنت أو تلاشت، والمحاولات السابقة لفرض رؤية إسرائيل الكبرى تحت ذريعة خطة سلام قد انتهت: اعتاد الكثيرون على رفض تلك السياسات أو على الأقل التردد قبل دعمها علنيا. ولكن هذا قد تغير: لقد تلاشت الغرائز النقدية للمثقفين والصحفيين فى السنوات الأربع الماضية. وهناك الآن فراغ أخلاقى يسمح للحكومة بالمضى فى قتل الفلسطينيين العزل وتجويعهم بفرض منع التجول والإغلاق لفترات طويلة. وأسوأ من ذلك أنها تشجع السياسيين والمثقفين المعروفين للدعوة إلى التطهير العرقى والمزيد من الخراب لفلسطين وشعبها.

كانت الحكومات الأمريكية السابقة تساند سياسات إسرائيل مادامت تحوز على الإجماع اليهودى ودون الأخذ بعين الاعتبار تأثيرها على الفلسطينيين أو كيف ينظر إليها هؤلاء. ولكن هذه المساندة كانت على كل حال تتطلب مفاوضات وبعض الأخذ والعطاء. وحتى بعد اندلاع الانتفاضة الثانية فى أكتوبر ٢٠٠٠ حاول البعض فى واشنطن أن يبعد أمريكا عن ممارسات إسرائيل تجاه الانتفاضة. ولفترة بسيطة بدا الأمريكيون وكأنهم غير مرتاحين حول حقيقة مقتل العديد من الفلسطينيين فى اليوم الواحد لاسيما أن أغلبهم من الأطفال. كذلك كان هناك شعور بالحزن لاستخدام إسرائيل العقاب الجماعى وتهديم المنازل والاعتقالات. ولكنهم اعتادوا على ذلك وعندما أجمع الشعب اليهودى على تأييد العدوان العسكرى فى الضفة الغربية فى أبريل ٢٠٠٠ - وهى واقعة وحشية غير مسبوقة فى تاريخ الاحتلال البشع - عارضت أمريكا فقط الأفعال التى من جانب واحد لضم المستوطنات التى كانت محظورة فى خطة الطريق التى صادقت عليها الولايات المتحدة وبريطانيا.

والآن بعد سنتين تماما طلب شارون مساندة أمريكية بريطانية لخطة الاستيطان فى الضفة الغربية. وهذه التى تعتبر فى إسرائيل خطة سلام، رفضها الأمريكان أول مرة باعتبارها غير مثمرة (وقد أدانها بقية العالم بأوصاف أشد). ولكن الإسرائيليين يأملون أن التشابه فى السلوك الأمريكى فى العراق والسياسات الإسرائيلية فى فلسطين سوف يدفع الموقف الأمريكى إلى التغير.

لقد وقفت طائرة شارون فى المطار ثلاث ساعات و شارون داخلها يرفض الانطلاق إلى واشنطن قبل أن يحصل على الموافقة الأمريكية على خطته الجديدة. قال إنه لن يكون قادرا على توحيد الشعب اليهودى الإسرائيلى خلف برنامجه لفك الارتباط بدون الدعم الأمريكى. كان الأمر فى الماضى يستغرق بعض الوقت حتى تخضع الولايات المتحدة لحاجة السياسيين الإسرائيليين للإجماع (وفى هذه الحالة حاجة شارون إلى إقناع الرأى العام الإسرائيلى للوثوق به فى وجه المحاكمة القادمة التى قد يحكم عليه فيها بجريمة الفساد الشخصى) ولكنه هذه المرة لم يستغرق الأمر سوى بضع ساعات.

وكان يجب على الإدارة الأمريكية أن تأخذ المزيد من الوقت من أجل هذا. ففى جوهر الأمر كان شارون يطلب من بوش أن ينقض كل ما التزم به الأمريكيون تجاه فلسطين. والخطة تعرض انسحابا إسرائيليا من غزة (رغم أن الإسرائيليين غادروها منذ ١٩٩٣) وإغلاق بعض المستوطنات التى بقيت هناك إضافة إلى العديد منها فى الضفة الغربية مقابل ضم معظم المستوطنات فى الضفة الغربية إلى إسرائيل. وهذا سوف يحدث فقط بعد أن تعزل إسرائيل كامل الضفة الغربية بجدار سيستغرق إنهاؤه سنوات والذى تعتقد معظم الدول انه يشكل انتهاكا لحقوق الإنسان الفلسطينى. وقد طالب شارون أيضاً برفض أمريكى واضح لحق العودة للفلسطينيين - وهو حق

بترتيب مع لندن ريفيو أوف بوكس
ترجمة: بثينة الناصرى

أقرته الأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٤٨. ولأول مرة أعطت واشنطن دعمها لخارطة طريق تترك معظم الضفة الغربية فى أيد إسرائيلية وبقاء كل اللاجئين فى المنافى.

لقد تأثر بوش بالصهاينة المسيحيين الذين يرون فى الخطة الإسرائيلية خطوة أخرى باتجاه تحقق سيناريو يوم القيامة الذى سوف يعجل بالظهور الثانى للمسيح. أما مستشاروه من المحافظين الجدد الأكثر علمانية فهم معجبون بالحرب ضد حماس التى تواكب وعود إسرائيل بالطرد والسلام، ويرون فى عمليات إسرائيل التى تبدو ناجحة دليلا ضمنيا على أن حرب أمريكا على الإرهاب سوف تنتهى بالنصر. ولكن (نجاح) إسرائيل الذى يطبل له كل يوم وزير الدفاع هو تشويه للحقائق على الأرض. فالانخفاض النسبى لأعمال العنف والإرهاب قد تحقق بسبب حظر التجول والإغلاق وبسجن أكثر من مليونى شخص فى منازلهم بدون عمل أو طعام لفترات طويلة من الوقت. حتى المحافظين الجدد يجب أن تكون لهم القدرة على رؤية أن هذا ليس حلا طويل المدى للعداء والعنف الذى تثيره السلطة المحتلة سواء فى العراق أو فلسطين.

لقد وافق خبراء التآمر فى إدارة بوش على خطة شارون حيث يستطيعون أن يقدموها على أنها خطوة أخرى فى سبيل السلام إضافة إلى أنها تصرف الأنظار عن الفشل فى العراق. وقد تكون مقبولة أيضا للمستشارين الأكثر اعتدالا الذين بلغ يأسهم لرؤية أى تغيير إلى أن يقنعوا أنفسهم بأن الخطة تقدم فرصة للسلام والمستقبل الأفضل. لقد نسى هؤلاء الأشخاص منذ زمن بعيد التمييز بين القوة السحرية للغة والواقع الذى تريد أن تصفه هذه اللغة. فمادامت الخطة تحتوى على الكلمة السحرية (انسحاب) فلا بد أن تكون شيئا طيبا كما يراها الصحفيون فى الولايات المتحدة وكما يراها أيضا زعماء حزب العمل الإسرائيلى (والذين يميلون إلى الانضمام إلى حكومة شارون باسم الإجماع المقدس) وحتى كما يراها الزعيم المنتخب حديثا لحزب اليسار الإسرائيلى يوسى بيلين.

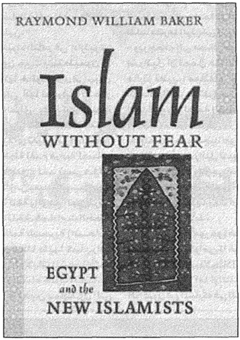
لقد أوضح اثنان من أساتذة العلوم السياسية فى جامعة تل أبيب، أن حماس نقلت مقرها الرئيسى إلى دمشق، وهكذا – ويرجعانه إلى مصادر موثوق بها – على إسرائيل أن تعمل هناك أيضا (نشرت هاآرتز تقريراً مماثلاً). وقد قدرا أيضا أنه مادام الأمر يستغرق سنوات لإنهاء بناء الجدار حول الضفة الغربية، فلن يكون هناك انسحاب حقيقى من قطاع غزة لمدة طويلة. والخبر الجيد هو أن الانتفاضة قد انتهت وأن إسرائيل لديها الوقت لتقرر بدون أى ضغط خارجي خاصة من قبل الولايات المتحدة، ماهى أفضل طريقة لبناء مستقبلها بعد أن قضى على فلسطين إلى الأبد.

إن مفتاح الأمور هو (ضغط خارجى). فحكومات أوروبا وأمريكا غير راغبة أو غير قادرة على إيقاف الاحتلال ومنع تصفية الفلسطينيين. أما أولئك الإسرائيليون الراغبون فى المشاركة فى الحركة المناهضة للاحتلال فهم قليلو العدد، وعاجزون فى وجه هيمنة الإجماع. إن المسئولية تقع على عاتق المجتمع المدنى فى أوروبا والولايات المتحدة لعمل كل مايستطيعه من أجل إفهام الإسرائيليين أن سياسات مثل تلك التى ينتهجها شارون لها ثمن: من المقاطعة الأكاديمية إلى العقوبات الاقتصادية، و يجب الأخذ بعين الاعتبار كل وسيلة يمكن استخدامها فى الغرب: إن حكوماتهم ليست أقل مسئولية من إسرائيل عن الكوارث الماضية والحاضرة والمستقبلة التى حدثت وتحدث للشعب الفلسطينى. يجب فعل ذلك ليس لأسباب أخلاقية أو تاريخية ولكن أيضا من أجل أمن أوروبا وحتى ديمومتها. وكما أوضح لنا العنف الذى أعقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وبشكل مؤلم أن الصراع الفلسطينى يمكن أن يقوض النسيج متعدد الثقافات للمجتمع الأوروبى، حين يدفع الولايات المتحدة والعالم الاسلامى شيئا فشيئا إلى كابوس لاينتهى. إن فرض ضغوط على إسرائيل هو ثمن بخس لشراء السلام العالمى والاستقرار الإقليمى والمصالحة فى فلسطين. ■

مـــــــازن النجـــــار

▪▪ مع انحسار المد الاستعمارى الغربى فى أواخر القرن العشرين، بدأت العلوم والدراسات الاجتماعية والإنسانية فى الغرب فى التحرر من تحيزاتها القديمة إزاء العالم الثالث، سواء تلك التى تعود إلى التمركز حول الذات الأوروبية أو تلك التى لا ترى تاريخ العالم وحضاراته إلا فى سياق الحضارة الأوروبية والتاريخ الأوروبى. فلا يمكن فصل السياق التاريخى للدراسات الاجتماعية الغربية بأى حال عن التجربة الاستعمارية (الأوروبية)، ودور تلك الدراسات فى المشروع الاستعمارى. ولعل الأنثروبولوجية هى النموذج الأوضح على دور تلك (الدراسات) فى خدمة المشروعات والإدارات والممارسات الإستعمارية. ورغم ضآلة الدور الذى تلعبه دراسات الشرق الأوسط فى الغرب فى تشكيل السياسات الغربية (والأمريكية خصوصا) إزاء هذه المنطقة من العالم بسبب تجاهل مؤسسات صنع القرار لها واعتمادها توجهات صراعية ونافية فى التعاطى مع العرب والمسلمين، إلا أن هذه الدراسات هى المثال الأكثر بروزا على التحرر من التحيز باتجاه فهم موضوعى لتاريخ المنطقة وحضارتها وقضاياها. لذلك أصبحت أقسام دراسات الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة هدفا للمحافظين الجدد المسيطرين على الإدارة والسياسة الأمريكية. فمع مطلع هذا العام، شن أكاديميون صهاينة كدانيال بايبس (الذى عينه الرئيس الأمريكى رئيسا لمعهد السلام فى غيبة الكونجرس) ومارتن كريمر وأضرابهم هجوما متعدد الجبهات على أقسام دراسات الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكية ومن فيها من أكاديميين وباحثين، واتهموهم بالإخفاق والفشل والتبرير للأصوليين الإسلاميين، كما طعنوا فى وطنيتهم بسبب عدم مشاركتهم فى ما يسمى بالحرب على الإرهاب، وبسبب تبنيهم لأفكار ومناهج تدرك خطورة وخطل تفكير ومقولات الاستشراق التقليدية. بل وصل الأمر إلى حد أن شهادات الأكاديميين الصهاينة أمام لجان الكونجرس الأمريكى تعرضت بالطعن والإسفاف لأطروحات المفكر الفلسطينى - الأمريكى الراحل إدوارد سعيد حول دور الاستشراق فى بناء وتشكيل التحيزات الغربية إزاء الشرق، وهذه الأطروحات لقيت قبولا عاما فى الأوساط الأكاديمية الغربية. بل إن تعديلا قانونيا (عرف بالمادة السادسة Article 6) فى التشريعات - التى تنظم المنح الدراسية - قد ضيق كثيرا من الميزانيات المتاحة لتدريس

Islam Without Fear: Egypt and the New Islamists
(إسلام بلا خوف: مصر والإسلاميون الجدد)
Raymond William Baker
Harvard University Press,
2004, 309PP.




أحمد كمال أبو المجد


طارق البشرى


فهمى هويدى


محمد سليم العوا


محمد الغزالى


يوسف القرضاوى

اللغة العربية والدراسات الإسلامية فى الجامعات وكذلك المنح المقدمة لطلاب هذه الدراسات.

مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور ريموند وليم بيكر، وهو أستاذ العلوم السياسية فى كلية ترينيتى وفى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وأقام بها سنوات من حياته الأكاديمية. لم يأت هذا الكتاب خارج سياق موضوعه وزمانه؛ فمنذ أواخر عام ٢٠٠٢، تم إطلاق عدد من المبادرات الأمريكية والأوروبية للإصلاح الديمقراطى والاجتماعى والثقافى فى الشرق الأوسط كان أهمها المشروع الأمريكى المعروف بمبادرة الشرق الأوسط «الكبير». انطلقت بعض هذه المبادرات من تفكير مفاده أن أحداث سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ وما وراءها من تطرف وعنف لدى بعض المسلمين هو نتاج لثقافة تعصب وانغلاق ورفض، لا تؤمن بقيم الحضارة العالمية المعاصرة من حوار وتسامح وقبول بالآخر وديمقراطية سياسية وتحرير للمرأة، وغيرها. غطت المبادرات الرسمية على عدد من الجهود غير الرسمية لمؤسسات البحث ومراكز التفكير فى أوروبا والولايات المتحدة، والتى قدمت بدورها مقاربات موازية لقضايا تعزيز الديمقراطية والمشاركة السياسية وتحرير الاقتصاد والمرأة. تناولت بعض تلك الجهود إصلاح الفكر والخطاب الإسلامى، بينما حاولت جهود أخرى أن تتحاور مع «إسلاميين» يؤمنون بالتعددية السياسية والثقافية والتداول الديمقراطى على السلطة والتسامح إزاء المرأة والأقليات ودور المجتمع المدنى. دعت هذه المحاولات عددا من رموز التيار الإسلامى الإصلاحى غير مرة من أجل الحوار حول تلك القضايا وغيرها.

فى المنهج

يأتى منهج هذا الكتاب على عكس كل المقاربات «القمعية» التى لا تسمح للظواهر بالتحدث عن ذاتها أو الإفصاح عن مضامينها، بل هى فى بعض جوانبها محاكاة للآخر البعيد، وقد تشى - أحيانا - بدوغما أيديولوجية. ينطلق المؤلف فى تعاطيه مع الظواهر الإسلامية والعربية والمصرية من إدراك عميق لخصوصيات كل ظاهرة ومحاولة لاستكناه سياقات ومعانى تلك الظواهر. فبينما يوظف محمود إسماعيل أدوات التحليل الماركسى - خاصة مفهوم صراع الطبقات - فى مشروعه الفكرى لفهم الإسلام فى أطوار النشوء والازدهار، يحلل سامى زبيدة العلاقة بين الإسلام والدولة والجماهير باستخدام أدوات التحليل السوسيولوجى، فيما يستخدم نصر حامد

والإســــــلاميون الجــــــدد

أبو زيد أدوات المنهج البنيوى كمفاهيم السياق والتأويل فى مقاربة النص القرآنى. وقد سبقهم محمد عابد الجابرى الذى استخدم أدوات ميشيل فوكو فى تحليل الخطاب العربى والإسلامى، ومحمد أركون الذى كان بمثابة صدمة ثقافية حين طبق المنهج ما بعد البنيوى والتفكيكى فى التعامل مع الفكر الإسلامى فى توقيت يكاد يكون معاصراً لديريدا نفسه وبطريقة تبسيطية ومباشرة فى ذات الوقت.

يتجاوز المؤلف فى سعيه لتقديم ظاهرة «الإسلاميين الجدد» بمنهجيته ورؤيته وبصيرته معظم تلك المحاولات القاصرة، فهو يسعى حثيثا إلى استنطاق هذه الظاهرة وقراءتها فى مختلف سياقاتها التاريخية والثقافية والسياسية، وتحليلها على أكثر من مستوى، وبدون التعسف الذى تشى به الدراسات الأكاديمية ذات الأجندة السياسية، أو تلك الدراسات المتمحورة حول ذات وتجربة المركز الغربى، أو غيرها من الدراسات التى تنطلق من نظريات أو مناهج بحث يراد تطبيقها على كافة التجارب بصرف النظر عن محدوديتها أو قصورها أو عدم قدرتها على التفسير.

وعندما يصف المؤلف كتابه فى المقدمة بأنه «قصة الإسلاميين الجدد» فإن ذلك يشير إلى أنه لا يتعامل مع موضوعه بصفته مجرد باحث فى الأوراق يكتب عن الإسلام نتيجة تراكم معرفى أو معلوماتى أو لمجرد توافر المصادر والمراجع التى يعود إليها الباحثون فى توثيق موضوعاتهم ومقولاتهم، بل إنه عاصر كثيراً من القصص والأحداث التى يتناولها بالسرد والتحليل. فالكتاب يتخذ شكلا سرديا يسّر للمؤلف عرض أفكار الإسلاميين الجدد من خلال سجالاتهم ونقاشاتهم مع ممثلى التيارات السياسية والفكرية الأخرى. وفى هذا أيضاً نلمح إصرار هذا الأستاذ الأمريكى على الخروج على المناهج الغربية التقليدية ليقترب من المناهج العربية والإسلامية فى دراسة الظواهر الحضارية والتاريخية، وذلك من ناحية إبراز سلطة النص ومحاولة استنطاقه واستكشاف مختلف سياقات وآليات إنتاجه. تفصح هذه الطريقة فى البحث والتأليف عن نقلة نوعية فى المناهج والأدوات رافقت تلك النقلة الكمية فى الكتابة عن الإسلام منذ بداية الثمانينيات الماضية، وهى تعبير آخر عن انحسار الإمبريالية الأكاديمية. المفارقة أن هذه النقلة النوعية فى المنهج والأدوات لدى الباحثين الغربيين لم تجد طريقها بعد إلى مؤلفات وأعمال الكثير من الباحثين والأكاديميين العرب.

أسـلـوب العـرض

يتخذ المؤلف من الحوارات والنقاشات التى خاضها الإسلاميون الجدد، مع التيارات الفكرية والسياسية المصرية الأخرى، ساحة أو منصة لسرد أو عرض أفكار ورؤية الإسلاميين الجدد فى مصر فى مختلف القضايا. فهذه الأفكار، كما يؤكد - تظهر خلال الحوارات والنقاشات التى يشتبك فيها الإسلاميون الجدد مع بقية التيارات الفكرية والسياسية فى مصر. فإذا أردنا رسم أو تحديد الموقع الفكرى للإسلاميين الجدد فسوف نجده فى المناظرات التى تدور بينهم وبين ممثلى أقوى تيارين فى الساحة الفكرية والسياسية المصرية، وهما تيار العلمانية وتيار التطرف (الدينى). وقلما تجد المؤلف يستخدم مصطلح «الأصولية» فى كتابه، ولا حتى مصطلح «العلمانية»، فى محاولة واعية منه لعدم اختزال مضامين المذاهب الفكرية فى الأشخاص أو التيارات السياسية، ولتجنب الخوض فى جدالات نظرية، يمكن أن تذهب به بعيداً عن واقع الحالة الفكرية وتسلمه إلى عزلة فكرية مجردة. فمن الجلى أن الدكتور بيكر يفضل بدلاً من ذلك أن يقدم صورة حية عن المناظرات الفعلية التى جرت بين الإسلاميين الجدد مع كل من العلمانيين والمتطرفين. وحتى عندما قام بتصوير هذه المناظرات فإنه قلما سمح لنفسه بالخروج عن سياق ما حدث فعلياً خلال هذه المناظرات، ليتحول نحو مناقشة مجردة لوجهة النظر المذهبية لكل فريق. بل حاول بشكل يدعو للتقدير أن يلتزم بنص العبارات والكلمات وتسلسل ورودها خلال المناظرة. ورغم أن الكاتب قد حرص فى تصويره للمناظرات والحوارات التى قدمها على تجنب التحيزات التى قد تصدر عن صلاته الشخصية الطيبة مع كثير من الإسلاميين الجدد، ورغم أنه قد يتوافق - أحيانا على الأقل- مع موقف الإسلاميين الجدد بشكل شخصى، إذ تشيع بين سطور الكتاب لمسة من المحبة الشخصية للموضوع بصورة لا تخطئها العين. ومن الواضح أن الكاتب قد تابع بنفسه الكثير من المناظرات والحوارات التى صورها فى كتابه، مما فرض عليه عبئاً كبيراً فى مسألة التوثيق والاسترجاع. ولذا فقد جاءت استشهاداته واقتباساته من أقوال شخصيات الكتاب فى كثير من الأحيان خلواً من التوثيق التقليدى.

يخلو تصوير المناظرات والحوارات بين الإسلاميين الجدد وممثلى بقية التيارات الفكرية والسياسية من الملل أو الإرهاق الذهنى. فقد وفق المؤلف لأسلوب سلس لا يمله القارئ، من ناحية. كما تجنب التعمق الزائد عن الحد والذى قد يفضى بالقارئ العادى إلى الإرهاق الذهنى. ويخلو متن الكتاب تماما من الهوامش أو الحواشى، وهو ما يدل على إصرار الكاتب على اتباع أسلوب السرد القصصى الحر ورفض تقنيات التحليل العلمى (التقليدية) بشكل متعمد.

لا يخفى المؤلف أن اهتمامه بدراسة مصر يأتى نتيجة إدراكه لأهميتها ومحوريتها فى العالم العربى والإسلامى معاً. فهى من أكثر الدول العربية تحديثاً، فضلاً عن كونها ملتقى لكثير من الحضارات المختلفة التى تعاقبت عليها عبر العصور. فأفواج الزوار التى تأتى إلى مصر فى العصر الحالى؛ والحملات العسكرية التى نزلت إليها فى العصور السابقة قد أدت إلى نشوء عملية احتكاك وتفاعل بين المصريين والآخر الأجنبى. كانت هذه الاحتكاكات هى السبب الرئيسى فى ظهور عدد من التيارات الفكرية والسياسية المهمة التى هبت للدفاع عن الهوية الإسلامية والقومية لمصر. فمنذ الحملة الفرنسية والمفكرون المصريون تشغلهم قضية الاحتكاك مع الآخر بشكل قلما تجده فى أى دولة أخرى. وعلى صفحات الجرائد المصرية تجد أخبار الآخر تطغى على أخبار المحليات. لذا فإن دراسة تطور الحركات الإسلامية فى مصر هى بمثابة استشراف لمستقبل الحركات الإسلامية فى عالم تسوده ظاهرة العولمة. وذلك على عكس ما يجده الباحث من دراسة الإسلام فى أى منطقة أخرى كأفغانستان مثلاً. فدراسة الإسلام فى مصر تمنح الباحث فرصة جيدة للإجابة عن السؤال الهام التالى: ما هى محصلات تفاعل الإسلام مع المسائل الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى يفرزها النظام العالمى الجديد؟

> دراسة تطور الحركات الإسلامية فى مصر هى بمثابة استشراف لمستقبل الحركات الإسلامية فى عالم تسوده ظاهرة العولمة

خـارطـة الكـتـاب

ينقسم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة أبواب رئيسية،هى:

١. الثقافة، وهو يتناول رؤية الإسلاميين الجدد فى مبحثين رئيسيين حول إصلاح التعليم وتبنى الفنون.

٢. المجتمع، وهو يتناول وجهة نظر الإسلاميين الجدد فى مبحثين حول بناء المجتمع (المسألة الاجتماعية) وصياغة نظام اقتصادى (المسألة الاقتصادية).

٣. السياسة، وهو يتناول وجهات نظر الإسلاميين الجدد فى مبحثين حول النضال من أجل تجديد إسلامى (فى الممارسة السياسية الداخلية مع التركيز على الأحزاب والديمقراطية والحقوق والحريات المدنية)، والتعاطى مع العالم (أى الممارسة السياسية الدولية من ناحية قضايا الهوية القومية والإسلامية والاستجابة للهيمنة الغربية والأمريكية).

صدّر الدكتور بيكر بداية كل باب من هذه الثلاثة بصفحة فكاهية وضع فيها طرفة قصيرة ساخرة عن حالة كل من الثقافة والمجتمع والسياسة فى مصر. فافتتح بداية باب الثقافة بطرفة للكاتب أحمد بهجت عن تدنى الحالة الثقافية فى مصر إلى الاقتصار على الثقافة الشعبية التى تركز على الراقصات والفنانات أكثر مما تركز على المفكرين والمصلحين.

وصدر بداية باب المجتمع بوصف مقالة ساخرة كتبها «جلال أمين» عن نبوءاته لحالة المجتمع المصرى فى العام ٢٠٤٠، حيث لاحظ كيف أن انتشار الحجاب بين الفتيات المصريات فى السبعينيات سرعان ما جر وراءه انتشار النقاب، حيث تأثرت الفتيات واقتدين ببعضهن فى ذلك. ومن هنا تخيل جلال أمين أنه فى عام ٢٠١٠ بدأ الرجال أيضاً يفكرون فى تغطية أجسادهم دفعاً للإغراء واقتداء بالنساء فقرروا لبس الحجاب الرجالى، الذى ما لبث أن جر وراءه النقاب الرجالى، حتى أصبحت القاهرة بحلول عام ٢٠٤٠ عبارة عن خيام متحركة. فقد تغيرت طريقة اللباس بينما لم يتغير أى شىء آخر فى أذهان الناس.

وصدر باب السياسة بوصف مقال للدكتورة منار الشوربجى تتكلم فيه عن ظهور ما تصفه بحزب جديد هو حزب الصابون، الذى يجوب مندوبوه الأحياء الشعبية باحثين عن مواطنين يحتفظون بأكياس فارغة لإحدى ماركات الصابون ليمنحوهم عنها جوائز من ذهب. فهى ترى أن هذا الحزب يمنح أتباعه الأمل فى الحصول على جوائز ذهبية. وهذا ما تفشل غالبية الأحزاب الأخرى فى منحه للناس.

من هم الإسلاميون الجدد؟

الإسلاميون الجدد الذين يحددهم الكاتب هم: أستاذ القانون/ أحمد كمال أبو المجد - الكاتب والصحفى/ فهمى هويدى - المحامى/ محمد سليم العوا - الشيخ/ محمد الغزالى - المستشار/ طارق البشرى - الشيخ/ يوسف القرضاوى. شكل هؤلاء الإسلاميون تيارا فكريا جديدا تميز بوسطيته، وبأنه امتداد حقيقى للتيار الإسلامى الأوسع. وتنطلق هذه المجموعة من رؤية إيجابية تستند إلى أكثر التقاليد الإسلامية رسوخا على مستوى الفكر والممارسة بدلا من التفكير المتخندق فى المخاوف. وقد حرص الكاتب على وضع صورة فوتوغرافية لكل منهم فى الكتاب فى الصفحات التى يتكلم فيها عنهم وعن سجالاتهم ومناظراتهم مع بقية التيارات الفكرية فى مصر. وهو يؤكد أن كل واحد من هؤلاء يتمتع بشهرة طيبة للغاية فى العالم العربى والإسلامى، مما يعنى أنهم يقدمون ما يشبه القدوة لجيل قادم إن لم يكن للجيل الحالى من المسلمين فى المنطقة العربية. أعلن الإسلاميون الجدد عن صياغة اتجاههم فى بيان أصدروه فى بداية الثمانينات، وتداوله المثقفون آنذاك بشكل واسع. وبسبب الظروف غير المواتية، لم يجد ذلك البيان طريقه إلى النشر إلا عام ١٩٩١ بواسطة مؤلفه الرئيسى الدكتور أحمد كمال أبوالمجد، فقيه القانون الدستورى المعروف دوليا. أثار البيان (كتاب «رؤية إسلامية معاصرة») مناقشات وأصداء واسعة.

وكمثال على شخصية ومنهج تفكير الإسلاميين الجدد، يذكر المؤلف قصة اعتداء المتطرفين الإسلاميين على الكاتب الروائى الكبير نجيب محفوظ، وكيف أن الإسلاميين الجدد سارعوا وبقوة إلى إدانة المتطرفين الذين ارتكبوا ذلك الاعتداء. وقد سارع الشيخ محمد الغزالى إلى زيارة نجيب محفوظ فى المستشفى للاطمئنان عليه، واعتبر الاعتداء «جريمة ضد الإسلام»، رغم أن أنه ذاته كان قد انتقد رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» التى كانت الدافع وراء اعتداء المتطرفين. من ناحيته، يرى المؤلف

الإسلاميون الجدد



أن جذور مثل هذا التطرف تكمن فى قصور النظام التعليمى ومؤسساته من مدارس وجامعات عن مواكبة حركة التربية والتعليم فى العالم أو تأهيل الخريجين للحصول على فرص عمل جيدة. ويكشف المؤلف عن سعى العلمانيين المتطرفين لقمع منهج الاعتدال الذى يدعو له الوسطيون عن طريق تصنيفهم أو اعتبارهم فى نفس السياق مع المتطرفين. وحيث أن مثل هذه المشكلات الاجتماعية لا يمكن حلها بين ليلة وضحاها، يقترح الإسلاميون الجدد مشاركة الناس بدعم المدارس والمستشفيات والانضمام إلى جهد جمعى فى إصلاح المجتمع. كما يرفضون التأويلات الضيقة التى تهمش دور المرأة فى المجتمع، وينتقدون «الدراويش» الذين يركزون على العبادات الفردية ويغفلون المجتمع. وبسبب الارتباط بين الدراويش والصوفية، لا يخفى موقفهم النقدى من التصوف (فى عهود انحطاطه على الأقل).

وعلى مدى صفحات الكتاب الممتدة، يبين المؤلف، وبإعجاب واضح، كيف يجادل الإسلاميون الجدد من أجل تأويل عقلانى معاصر للقرآن الكريم رافضين الدروشة وكل ما يمكن اعتباره غير عقلانى بالنسبة للعقل المعاصر. ورغم أن موقفهم النقدى من الدروشة والاقتصار على العبادات الفردية والسلبية إزاء قضايا إصلاح المجتمع له ما يبرره، إلا أن حاجة العالم المادى الاستهلاكى المعاصر إلى التصوف الحقيقى لا زالت قائمة. ولعل إقبال بعض الغربيين على الإسلام من باب التصوف والروحانيات دليل على ذلك.

ويعارض الإسلاميون الجدد أولئك الذين يسلمون بالوجود العسكرى الأمريكى فى العالم الإسلامى، كما يخالفون الذين يدعمون بشكل مطلق كافة أشكال المقاومة لذلك الوجود العسكرى. بل تتسم مناقشتهم لهذه القضايا بالعمق والحنكة، وعلى نفس المستوى الذى يقدمه معلقون سياسيون من أمثال نعوم تشومسكى. لكن موقفهم لا يقبل التوسط عندما يتعلق الأمر بالقدس؛ فالقدس بالنسبة لهم ليست مجرد مدينة فى بلاد تدعى فلسطين، بل إن فلسطين هى بلاد فى مدينة تدعى القدس. وتتوازن الرؤية أكثر لدى فهمى هويدى الذى يقول أنه إذا كان التخلى عن القدس من الخطورة بمكان، فإن التخلى عن حق العودة هو أخطر من ذلك.

الإسلاميون الجدد والعلمانيون

ترصد مقدمة الدكتور بيكر السجال الذى دار بين المفكر المصرى السيد ياسين ومؤلف الكتاب (الدكتور أبوالمجد) على صفحات جريدة الأهرام. نوه السيد ياسين بأن الإسلاميين الجدد (وعلى العكس من غيرهم) لا يدعون أنهم الناطقون باسم الإسلام وأنهم يقدمون أفكارهم على أنها ببساطة وجهة نظر قائمة ومطروحة للنقاش؛ لكنه لم ير شيئا «جديدا» أو حتى «إسلاميا» بشكل خاص فى الكتاب؛ كما عاب السيد ياسين على مؤلفى الكتاب (البيان) ثلاث نقاط أساسية غالباً ما تثار لدى انتقاد الإسلاميين المعتدلين، وهى:

- السكوت على العنف الصادر عن بعض الجماعات الإسلامية المتشددة، وعدم إدانته، والسلبية فى مواجهته.
- النزعة الانتقائية والتوفيقية التى تسود أفكار الإسلاميين الجدد؛ ذلك أنهم كثيراً ما يبدو أنهم يحاولون التوفيق أو التقريب بين اتجاهات متناقضة أو متعارضة.
- الإخفاق فى بلورة نظرية متكاملة للأمن القومى المصرى تصلح للتعامل مع عالم اليوم الذى يتسم بالتعقيد والإضطراب وتشابك المصالح وتشوش التحالفات.

رد الدكتور أبو المجد على الانتقادات بأن البيان هو نداء من أجل الإنقاذ، وأسف لأن السيد ياسين أخفق فى الاستجابة للطرح الذى يقدمه هذا البرنامج المعتدل مفضلا القيام بهجوم جديد على المتطرفين. وأكد أن السيد ياسين يعرف عن مؤلفى البيان موقفهم الرافض للعنف. وهنا يرى بيكر أن هذا السجال المشحون بين الكاتبين يفصح عن القضايا الرئيسة للتدافع حول الإسلام بين المسلمين العلمانيين والمعتدلين والمتطرفين العنفيين. استقطب السجال على الفور انتباه الطبقة السياسية فى مصر.

يبدو أن مأزق المتطرفين العنفيين هو تركيزهم على الغاية دون الوسيلة. فالغاية التى يسعون إليها من إرساء القيم الإسلامية فى المجتمع غاية نبيلة، ولكنهم فشلوا فى اختيار الوسيلة المناسبة للوصول إليها. وهنا يختلف الإسلاميون الجدد عن غيرهم من التيارات الفكرية فى مصر. فالإسلاميون الجدد يركزون على الغاية والوسيلة معاً، ولا يضحون بإحداهما فى سبيل الأخرى. فهم على خلاف المتطرفين العنفيين، يرون أن وسيلة العنف لا تتلاءم مع رقى الغاية التى يسعون إليها والتى هى إرساء القيم الإسلامية فى المجتمع. كذلك لا يرى الإسلاميون الجدد إعطاء اليد العليا للوسيلة على حساب الغاية، مثلما يفعل العلمانيون، الذين يركزون على طبيعة الوسائل (سلمية وعقلانية)، ويغفلون عن الغايات والقيم الإسلامية الأساسية التى يجب أن يقوم عليها المجتمع وتؤدى إليها الوسائل.

من ناحية أخرى، يرى بيكر أن ظاهرة الإسلاميين الجدد قد جاءت تعبيراً عن إخفاق أو جمود جماعة الإخوان المسلمين عند مرحلة لا تتلاءم مع متطلبات العمل والتغيير السياسى المعاصر. ورغم أن الإسلاميين الجدد يدينون بالكثير لجماعة «الإخوان المسلمون»، وكثيراً ما يعبرون عن تعاطفهم مع أفكار حسن البنا (مؤسس الجماعة)، إلا أنهم يرفضون إستراتيجية الحركة فى تغليب التوجهات الشعبوية (التعبوية) على النزعات العقلانية. فالإسلاميون الجدد يرفضون الشعارات الشعبوية شكلاً وموضوعاً. لدرجة أنهم لا يقبلون الشعار الأكثر شهرة (الإسلام هو الحل)، ليس لما يحمله من مضمون ولكن لما يعبر عنه من قطعية وحصرية.

مـنـاظـرات

الإسلاميين الجدد

يعرض الكتاب لإحدى أهم المناظرات بين الإسلاميين الجدد والعلمانيين، وهى مناظرة الشيخ محمد الغزالى والكاتب المصرى فرج فودة ضمن فعاليات معرض القاهرة الدولى للكتاب عام ١٩٩٢. وليس خفياً على الكثيرين ما دار فى هذه المناظرة، إلا أن المؤلف فى عرضه للمناظرة عمد إلى تصوير مشاعر الجماهير التى حضرت المناظرة، ورد فعل الشيخ محمد الغزالى إزاءها. فقد شرع الحضور يهتفون ببعض الشعارات الإسلامية تعبيراً منهم عن رفض موقف فرج فودة، إلا أن الشيخ الغزالى طلب منهم التوقف عن الهتاف، ليسود المناظرة جو من الموضوعية بدلاً من أن تسيطر عليها الروح الغوغائية. وبذلك يلمح الكاتب إلى حقيقة مفادها أن الإسلاميين الجدد يتمتعون بقدر لا بأس به من تأييد الجماهير، لكنهم لا ينساقون وراء ذلك، بل يعمدون إلى كبح جماح الجماهير عندما تسيطر عليهم النزعات الديماجوجية التى

تجعلهم يحيدون عن قواعد الحوار الموضوعى مع الآخر المختلف، وقد يتبنون موقفاً لاعقلانياً يقدم الانفعال على الإقناع. وقد ساد الكتاب كثير من تفاصيل ما حدث خلال مناظرات الإسلاميين، وكان أكثرها يبرز موقف الإسلاميين الجدد على أنه «وسط» بين موقف الجماهير وموقف المعارضين لهم. وهو فى ذلك يقدم للقارئ - ربما بشكل غير مباشر - انطباعات أو صور من ملامحها:

- أن الجماهير أكثر تشدداً فيما يخص المسائل الدينية من الإسلاميين الجدد، وهذا يؤكد على وجود قدر من الاختلاف بين وجهة نظر الجماهير ووجهة نظر الإسلاميين الجدد، وخاصة فيما يتعلق بأسلوب وروح الحوار. (يذكرنا هذا بثنائية التقليد الإسلامى التى طرحها إرنست جلنر فى دراساته الأنثروبولوجية منذ عقدين وهى تتكون من التقليد العلمى أو النخبوى الذى يمثله العلماء والمفكرون المسلمون عبر التاريخ الإسلامى، وتقليد التدين الشعبى الذى يمثله العامة بمختلف فئاتهم.) وعلى ذلك فالإسلاميون الجدد ليسوا قادة شعبويين. ككثير من رجال الدين. ولكنهم مصلحون؛ وهم لا يمارسون الخطابة، بل يمارسون الإقناع.
- أن الإسلاميين الجدد يقومون بتهدئة الجماهير بدفعها إلى العقلانية والحوار ونبذ العنف.
- أن الإسلاميين الجدد ينبذون وسائل استثارة الجماهير والغوغاء التى يبرع فيها بعض من يعملون تحت مسمى الإسلام.

لا يذكر المؤلف هذه الانطباعات صراحة، ولكنه يضمنها حكاياته عن سير المناظرات والحوارات بين الإسلاميين الجدد والتيارات الفكرية الأخرى. وهذا يؤكد على اختياره الحاسم لأسلوب القص والسرد المنبسط الذى تتسلل عبره الانطباعات بشكل عفوى وطبيعى، وذلك عوضاً عن الأسلوب الأكاديمى الذى يستخدم التحليل الواعى.

لم تسفر مناظرة محمد الغزالى وفرج فودة عن خروج طرف منتصر وآخر يجر أذيال الهزيمة، إلا أن أهم ما فى الأمر هو أن الجماهير استمعت إلى وجهتى النظر المختلفتين بصدد الإسلام والسياسة، والدين والعلمانية. وبهذا هدأ الحماس الشعبوى وبدأت روح الموضوعية والحوار تسرى بين الناس. وهذا فى حد ذاته إنجاز كبير، وهو ما يؤكد عليه المؤلف. ورغم أنه يفيض كثيراً فى سرد تفاصيل الحوار بين الإسلاميين الجدد والمفكرين الآخرين، إلا أننا نلحظ من وراء ذلك كله أنه لا يقصد مجرد تدوين أو توثيق ما حدث بقدر ما يقصد إلى التأكيد على روح الحوار والموضوعية التى يتسم بها الإسلاميون الجدد، والتى يبدى إعجابه الشديد بها، ويرى فيها - وليس فى أفكارهم ذاتها بالضرورة - التجديد الأصيل الذى يحسب لهم. فما يراه ريموند بيكر فى الإسلاميين الجدد هو وسطيتهم واعتدالهم واعتمادهم لغة الحوار بدلاً من العنف، الذى يظن الغرب أنه قرين الإسلام. ونلمس فى كتابه رغبة صادقة فى تصحيح صورة الإسلام والإسلاميين لدى الغرب.

الوسطية الإسلامية

يؤكد المؤلف على أن أفكار الإسلاميين الجدد تنبع من اتخاذهم موقفاً وسطاً بين الإسلاميين المتشددين والعلمانيين. فهم يتخذون الوسطية مذهباً لهم، يعينهم على تحديد مواقفهم بدقة؛ لكن هذا يتم بالطبع مع التزام مسبق بمبادئ الإسلام. والوسطية كحركة وفكر ترفض كلا من التطرف الإسلامى والعلمانى، وتقدم الإسلام فى سياق حديث هو بدوره مفارق لرؤية التقليديين. ففيما يتعلق بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية يؤكد الدكتور بيكر على رأى الدكتور أبوالمجد من أن القوانين المصرية الوضعية تتفق فى كثير من نصوصها وروحها مع الشريعة الإسلامية. وأن دعوة بعض المتشددين الإسلاميين لإلغائها واستبدالها بالشريعة الإسلامية لا لزوم لها. فقد يكون هناك حاجة لتعديل بعض نصوص القوانين «الوضعية» المصرية، ولكن يجب أن يتم ذلك تدريجياً وبشكل ديمقراطى فى ظل المؤسسات والظروف الحالية، دون حاجة إلى زعزعة استقرار المجتمع والمؤسسات التشريعية.

كذلك يوفق الإسلاميون الجدد بين قيم الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية. وهم فى ذلك يتبعون فكر الإمام محمد عبده فى محاولته للتوفيق بين «الإسلام والمدنية». فهم يدعون العالم الإسلامى إلى الاستفادة من منجزات الحضارة الغربية فيما يتعلق بقيم حقوق الإنسان والديمقراطية والتفكير العلمى التى طورها الغرب عن أصل تلقاه من الحضارة الإسلامية. فمثلا لم يجد الشيخ محمد الغزالى غضاضة فى كتابه «جدد حياتك» من الاقتباس من أفكار «ديل كارنيجى» والإعجاب بها صراحة.

وعلى العكس من التيارات الإسلامية المتشددة التى «تفرعت» عن فكر سيد قطب، والتى تدعو إلى تكفير مؤسسات الدولة وتحض أتباعها على مقاطعة (الجاهلية) من بنوك وقطاعات السياحة وبعض مظاهر العصر، فإن الإسلاميين الجدد يحضون على الأخذ بأسباب الحضارة المعاصرة، لكن مع عدم الوقوف منها موقف التقليد التام، بل مع تطويرها وتوجيهها لما فيه مصلحة المجتمع الإسلامى.

هكذا يرى المؤلف أن الإسلاميين الجدد باتجاههم الوسطى يختلفون كثيراً سواء فى تفكيرهم ووسائلهم واستراتيجياتهم عن ما يعتقده الغرب عن الإسلاميين الذين يرفضون الحوار ولا يعرفون سوى العنف بديلا.

البديل عن العنف

يبدو أن معرض القاهرة الدولى للكتاب فى العام ١٩٩٢ كان المناسبة التى خرج فيها الاتجاه الإسلامى الجديد عن صمته فأعلن عن وجوده للجماهير فى المجال العام وبشكل مكثف. وفى هذا يستشهد المؤلف بآراء الدكتور أبوالمجد فى كلمته التى شارك بها فى هذا المعرض حول أولئك الذين يخلطون بين الإسلام وموجة التطرف التى شهدتها مصر فى عقد الثمانينيات وبداية التسعينيات، ويبخسون التيار الإسلامى المعتدل حقه كثيراً. فليست الساحة الإسلامية مقصورة على المتطرفين الذين يسيئون لصورة الإسلام وقيمه الحضارية، بل إن بديل الوسطية الإسلامية موجود على الساحة وبشكل متزايد يصعب إنكاره. فليس التطرف سوى الوجه الغاضب لمجموعات من شباب المسلمين الذين ضلوا طريقهم إلى التغيير والإصلاح بلجوئهم إلى التكفير والعنف. ومن هؤلاء يذكر حالة المتطرف التائب عادل عبد الباقى، ٣٣ سنة، الذى انخرط فى عدد الجماعات الإسلامية المتطرفة لمدة ١٦ سنة، مارس خلالها أشكال مختلفة من العنف ضد المجتمع المصرى، حتى تم اعتقاله، وظهر على شاشة التليفزيون المصرى، فى مارس/آذار ١٩٩٤، ليجهر بتوبته، ويحذر الشباب من الوقوع فى مصيدة التطرف التى اكتوى بنارها. وفى حديثه التليفزيونى ندد عادل عبد الباقى بممارسات المتطرفين وأفكارهم، التى هى ليست من الإسلام فى شىء.

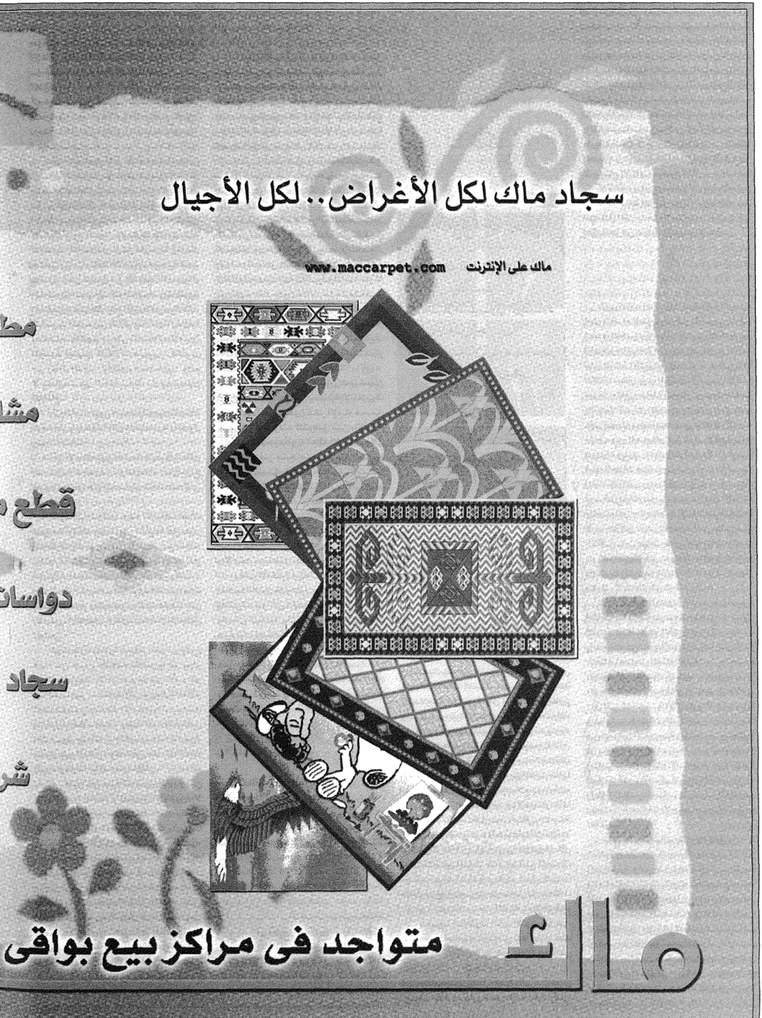
على مدى صفحات الكتاب الممتدة، يبين المؤلف، وبإعجاب واضح، كيف يجادل الإسلاميون الجدد من أجل تأويل عقلانى معاصر للقرآن الكريم رافضين الدروشة وكل ما يمكن اعتباره غير عقلانى بالنسبة للعقل المعاصر

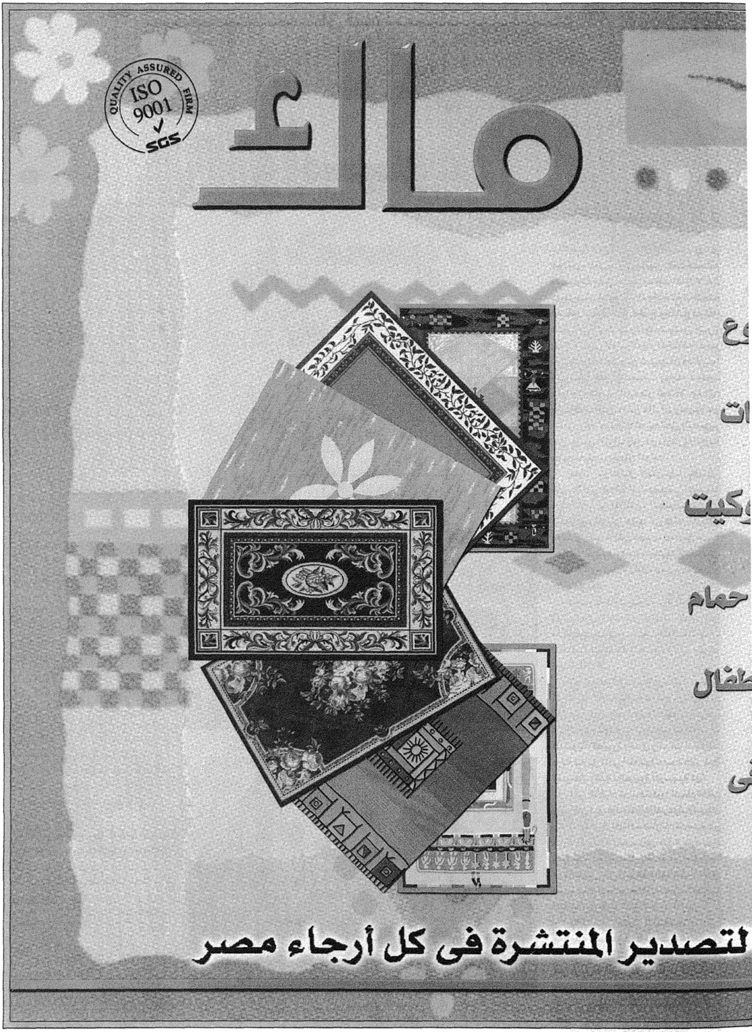
وعندما سئل عادل عبدالباقى عن أفضل وسيلة للقضاء على خطر التطرف، أوضح أن هناك نوعين من المتطرفين: النوع الأول يشمل ذوى الأذهان الضعيفة والنوايا الحسنة، وهؤلاء يتسمون بضعف التفكير وليس بضعف النفوس، فنفوسهم بريئة ولكن أفكارهم المغلوطة قادتهم إلى العنف. والنوع الثانى يشمل ذوى النفوس الخبيثة والأفكار الملتوية وهؤلاء ينخرطون فى الجماعات المتطرفة حبا فى ممارسة العنف والتسلط والتكسب باسم الإسلام. قد تكون أفضل طريقة للتعامل مع النوع الأخير هى العنف المضاد من قبل الدولة؛ أما النوع الأول فهو لا يحتاج إلا إلى تصحيح أفكاره، وذلك عن طريق تطوير برامج ومناهج التربية والتعليم واستخدام لغة الحوار. وتلك بالضبط هى الوسائل التى يدعو الإسلاميون الجدد إلى اعتمادها فى عملية الإحياء الإسلامى.

لقى كتاب «إسلام بلا خوف» قبولا حسنا لدى القراء الغربيين فى الشهور الأولى لصدوره. فمن بين مئات الكتب الصادرة عن الإسلام والمتوافرة لدى شركات توزيع الكتب على شبكة الإنترنت الدولية، حظى هذا الكتاب بمكان بين الكتب الأربعين الأكثر مبيعا. ولعل بساطة العرض وسهولة اللغة والنمط السردى القصصى الشيق الذى غلب على فصوله وموضوعاته دور مهم فى إتاحته للجمهور العريض من قراء الإنجليزية بسهولة ويسر. ولعل للتوقيت دلالته أيضا؛ فبعد أحداث سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، والحملة الهائلة التى روجت لها دوائر ومؤسسات ووسائل إعلام غربية عديدة ضد الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية، كانت الساحة فى أمس الحاجة إلى مثل هذا الكتاب. ومن عوامل نجاح هذا الكتاب قيام دار نشر عريقة هى مطبعة جامعة هارفرد باختياره وتقديمه لقراء الإنكليزية، كإسهام معرفى لا جدال فى قيمته وأثره.

غير أن هذه السهولة واليسر فى أسلوب الكتاب وطريقة عرضه لم تكن بلا ثمن. فتوجه المؤلف نحو القارئ غير المتخصص، وانصرافه عن المصطلحات المركبة التى تميز مختلف مدارس الفكر الإسلامى، وتجنبه الخوض فى الأصول الفكرية والفقهية لتيار الوسطية وهى راسخة فى التقليد الإسلامى أدى إلى شخصنة الأفكار والاجتهادات وربطها بشخصيات الإسلاميين الجدد بدلا من أصولها الأكاديمية والمذهبية. ويخشى أن يكون ذلك أيضا سببا لزهد المختصين (بالدراسات العربية والإسلامية) فى الكتاب، فهم يتوقعون تأصيلا أوسع للأفكار والآراء وإطارا تنظيريا مركبا لتفسير الظواهر وتحليل الحركات الاجتماعية والتيارات الفكرية.

وفى كل الأحوال، يقدم الكتاب قراءة ثقافية واجتماعية وسياسية هامة لمصر المعاصرة، وخارطة لمختلف تياراتها واتجاهاتها الثقافية والسياسية، وعرضا لأهم قضايا الصراع حول روح الإسلام ومصر بين المسلمين العلمانيين والمعتدلين والمتطرفين. وإن كان لسائل أن يسأل فى أعقاب أحداث سبتمبر/أيلول ٢٠٠١: هل هناك مسلمون معتدلون؟ وهل يتوافق الإسلام مع العالم المعاصر؟ فإن ريموند وليام بيكر قد أجاب على هذه الأسئلة وغيرها بجدارة. ■


سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
متواجد فى مراكز بيع بواقى


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
حمام
لتصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

أبيض وأسود

وجوه ذلك الزمان

رنـــا حـــايـــك

■■ كما السينما.. وربما قبلها، تظل الصورة الفوتوغرافية شاهدًا على العصر. شخوصه، ومشاهيره، وأزيائه، ومقاييس جمال حسناواته. بل وبعض من ملامح ثقافته التى تسمح أو لا تسمح..

لسبعين عامًا كاملة من القرن الفائت ظلت عدسة هذا المصور ترسم بالضوء والظل وجوهًا من هذا الزمان.

شيئًا من تلك الظلال، جمعته الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى كتاب.. ومعرض وقصة الواقف خلف الكاميرا صورها فيلم تسجيلى عن الرجل.

(المحرر)

فيليب. أرماند. غارو. فان ليو. وصورة بالأسود والأبيض معلقة على جدار ماضٍ قريبٍ فى أستوديو معتم فى أحد شوارع القاهرة الصاخبة.

آخرهم كان هو (نفسه) ليفون إسكندر بويارجيان، الأرمنى الأصل، المصور الذى نزحت أسرته الأرمنية من تركيا إلى القاهرة، هربًا من أبشع مذابح القرن العشرين.

كعادتها، سقت القاهرة بذور الموهبة ونمتها. وكعادة الوافدين الممسوسين بالفن، أبدع فان ليو فى ربوعها. فهنا، فى إحدى عمارات شارع ٢٦ يوليو، كان ستديو حبس فان ليو نفسه فيه بين سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٩٧ حين اعتزل. هنا أرخ، من خلال صور البورتريه المستطيلة الشكل الشديدة الخصوصية فى محتواها، لنماذج من شرائح اجتماعية مختلفة ومن جنسيات متنوعة عكست أهم التحولات الاجتماعية والسياسية التى عرفتها مصر خلال هذه الفترة الغنية بالتأملات.

فان ليو رصد تنوع البشر، وداعب أحلام النساء المتعطشات للظهور بمظهر فاتنات هوليوود كفيفيان لى أو سكارليت أوهارا، وذلك من خلال تلاعبه بالإضاءة وبالظلال لإضفاء رونق هوليوود على بورتريهاتهن. فقد قصدته الكثيرات ممن حلمن بمجد الفن لأخذ بورتريهات لديه بأزياء وأوضاع مختلفة تصلح لتقديمها لمخرج ومنتج يملك مفتاح الشهرة، وتضمن إبراز صلاحيتهن لأداء الأدوار المختلفة. صور الكثيرات، منهن شريهان وداليدا وبرلنتى عبد الحميد.. ورجاء محمد سراج (وصفها البعض بملكة جمال) وميرفت أمين، التى قال أن وجهها هو أحلى وجه صوره لأنه يحتمل التصوير من جميع الزوايا دون أن (تؤثر) الزاوية على مستوى جمال الوجه.

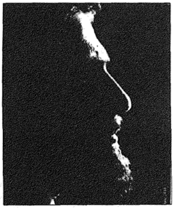
وفان ليو عشق السينما، وفتش طويلاً فى غرفة التحميض المعتمة خاصته، عن التأثير الضوئى لمشهد تحول جيكل إلى هايد فى فيلم «جيكل ومستر هايد» التى تجسد تحقيق مبدأ حرية الفرد بعد فصل جانبيه المظلمين. وعندما وجدها، كانت صورة صديقه الأرمنى نوبار.

صور فان ليو أفراد الجيش الإنجليزى والفنانين الأجانب الذين أتوا للترفيه عنهم عندما حولت الحرب العالمية الثانية القاهرة إلى مركز استقطاب فنى.

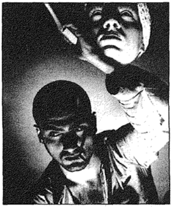
ثم رحلت الملكية ورحلت معها الجاليات الأجنبية، فاقتصر زبائن فان ليو على المصريين، بسطائهم ورموزهم فى السياسة والفن والمجتمع، و... الحركة النسوية، فصورة إحدى رائدات الحركة، درية شفيق التى أخذتها عدسة فان ليو، أصبحت أشبه بالصورة الرسمية لها.

لكن الأفراد لم يحتكروا البطولة فى صور فان ليو. فالحضارة الفرعونية أسرته. وكذلك فعل تراكم الحضارات المتجسد فى تراث المدينة المعمارى، فكانت صورة أهرامات الجيزة التى أخذت من استراحة ميناهاوس، من الغرفة ذاتها التى التقى فيها قادة العالم خلال الحرب العالمية الثانية: روزفلت، تشرتشل وستالين.

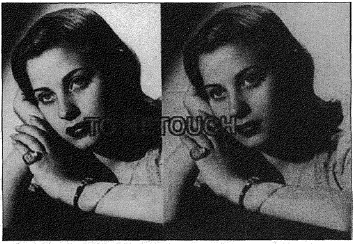
وكانت صور أخرى لقلعة صلاح الدين ومدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وغير ذلك... فان ليو خلف عالمًا من النور والعتمة، وأضاء من حوله مساحة من الوهج كانت كافية لتحقق له شهرة لدى



فان ليو سنة ١٩٤٥



فان ليو سنة ١٩٤٤



رتــــوش

Van Leo: Portraits of Glamour

فان ليو: وجوه من السحر

A Zeitouna Book,
The AUC Press, 1997

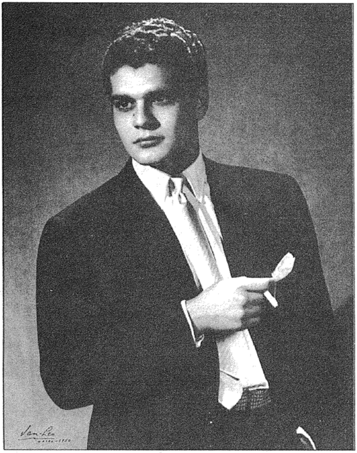
Her + Him, Van Leo

هى + هو، فان ليو

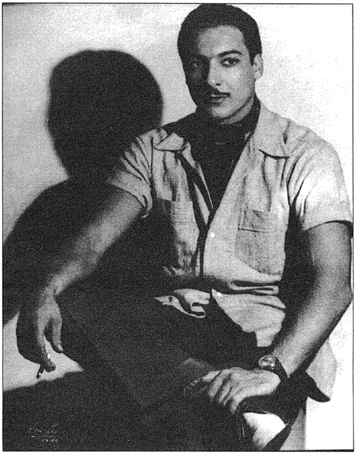
Akram Zaatari
Video Still, 32 min. 2001



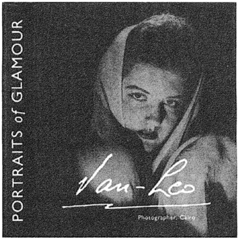
دريــة شـــفيق ١٩٥٠



عمـــر الشـــريف ١٩٥٠



رشـــدى أباظـــــة



غـــلاف الكتـــاب

المواطنين العاديين من حوله ولو تخللهم بعض الرموز.

وككل مبدع فى العالم العربى، حاز فى حياته مكانته التى يستحقها فى الضمير الجماعى للأفراد الذين أحاطوا به وأولئك الذين عرفوا بأمره من خلالهم فقصدوه. وذلك كله فى غياب دولة ومؤسسات.

فمن أدرك فان ليو قبل رحيله؟

أدركته المؤسسة العربية للصورة سنة ١٩٩٩ حين زاره المخرج اللبنانى أكرم زعترى فى إطار مشروع كانت تقوم المؤسسة من خلاله بدراسة أعمال أهم المصورين فى العالم العربى فأسفرت المقابلة عن إنتاج فيلم أخرجه أكرم بعنوان Her + Him + Van Leo، كما أسفرت الأبحاث عن ترشيحه لجائزة الأمير كلاوس فى التصوير التى حصل عليها سنة ٢٠٠٠.

ثم أدركته مكتبة الكتب النادرة فى الجامعة الأمريكية فى مصر حين تنازل لها عن مجمل أعماله ليضمن حفظها وإعادة ترميمها بعد مماته. فكان المعرض الذى أقامته له سنة ٢٠٠١ ثم كان الثانى سنة ٢٠٠٢، قبل وفاته بعدة أشهر.

وأدركته هى، إحدى الصديقات التى زارته فى الأستديو بعد أن رأت أعماله فى المعرض فأعجبتها.

قرعت الجرس ذات يوم وانتظرت بضع دقائق. فُتِحَ الباب. ووقف هو بوجه عابس:

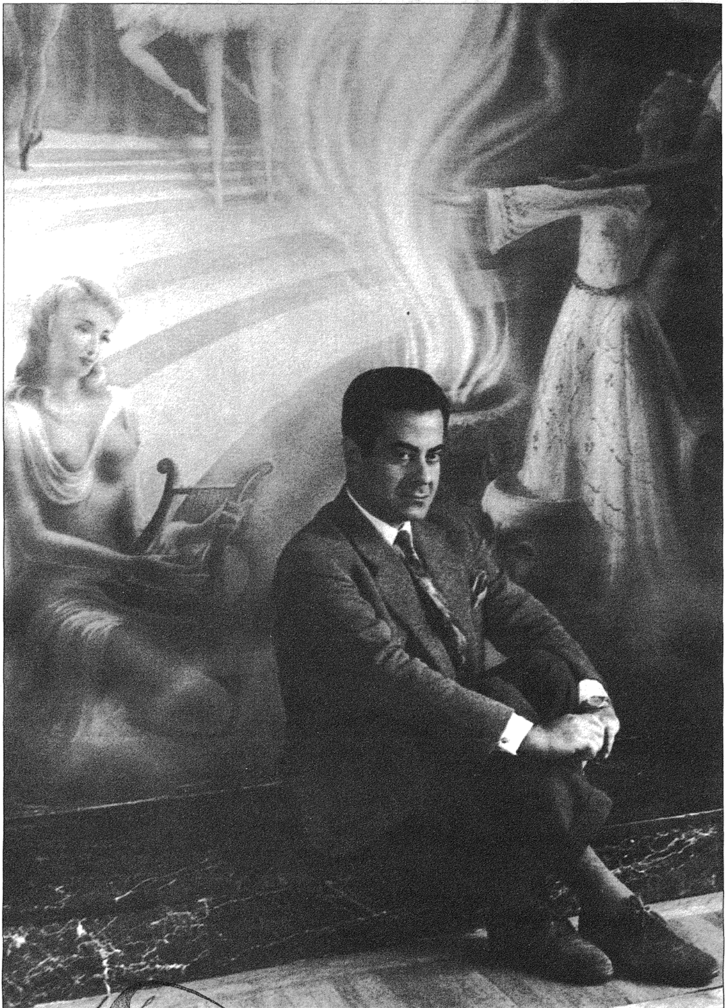
. عايزة إيه؟

حافظت على رباطة جأشها وقالت له: بورتريه.

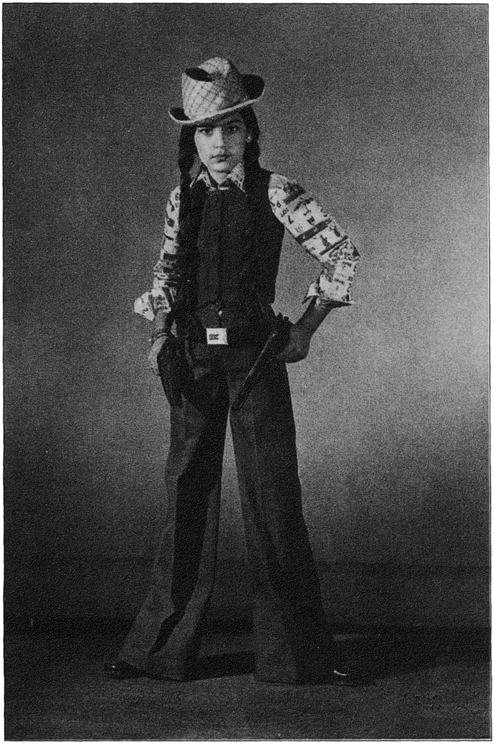
. حيكلفك. بعدين أنا بصور أبيض وأسود والمصريين مابيحبوش ده.

فقالت له وهى تبتسم: بس أنا مش مصرية.

كان ذلك فى أوائل التسعينيات. بعد أن شهد هذا الكهل مراحل كثيرة انتهت بهبوب عاصفة الانفتاح والتحديث التى جلبت معها

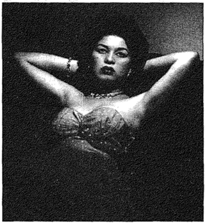


فـــريـــد الأطـــرش ١٩٥٧





فاطمة رشدي ١٩٥٠



رجاء ١٩٥٨



مرسيدس ١٩٤٥

شريهان ١٩٧٦

أبيض وأسود

بدعة الألوان لمجال التصوير الفوتوغرافى فحاول التماشى معها رغماً عنه، مع احتفاظه بفئة صغيرة من الزبائن الذين مازالوا يقدرون صورة الأبيض والأسود. هذه المقابلة التى بدأت مشحونة بقدر كبير من الجفاء من قِبَلِه انتهت «بدردشة» «حميمة» وبتبادل أرقام الهاتف.

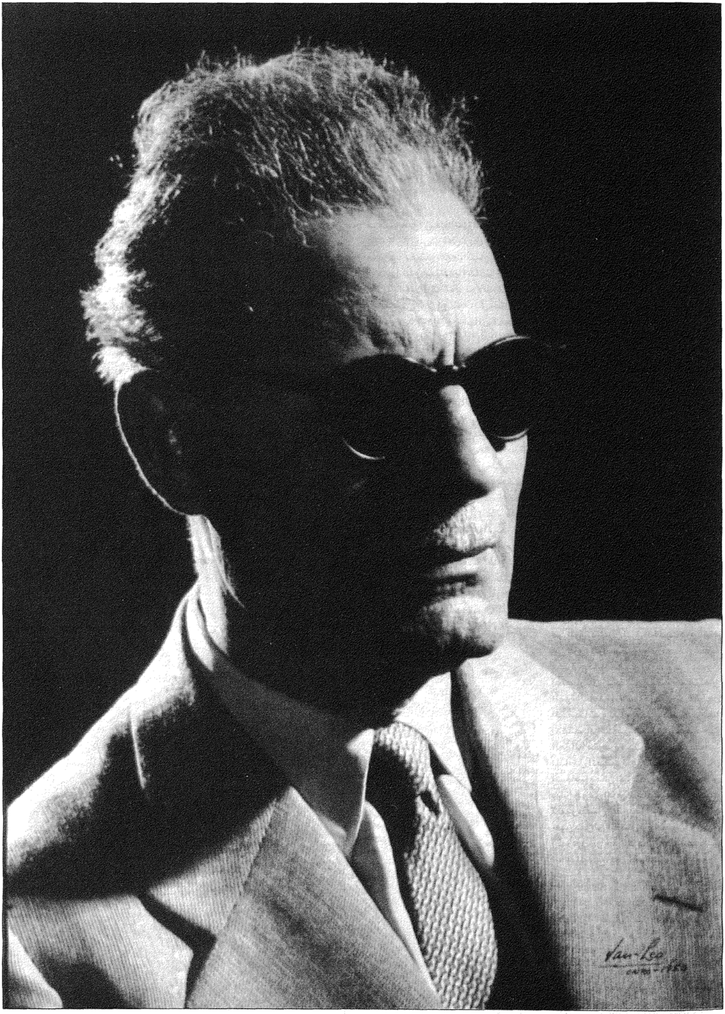
فان ليو فعل الشىء نفسه مع أكرم حين ذهب هذا الأخير لمحاورته. لعله مزاج الفنان بشكل عام. أم لعله التجسيد الجزئى لثقافة الأقليات الانعزالية التى ترتدى قناعاً من الجفاء يخفى قدراً كبيراً من التأقلم يفرض نفسه رغم جهود إخفائه.

قال فى الحوار المصور الذى شكل المادة الأساسية فى الفيلم الوثائقى «Her + Him + Van Lioâ: سنة ٥٢ ولعوا البلد، خلصنا من ده، بعد ٦ شهور عملوا ثورة ومشوا الملك. خلصنا من دول، طلعت لنا حكاية فلسطين. كل شوية. عملوا ٣ - ٤ حروب مع إسرائيل ما كسبوش حاجة. طيب. غير كده، الإرهاب آخر ١٠ سنين بالبلد. البلد مش ماشى طبيعى. أنا مامشيتش عشان الأستديو بتاعى هنا. بس أنا بحب مصر. بحب تاريخها ومتعود أعيش فيها. كان عندى ٣ سنين لما هربنا من تركيا ووصلنا الإسكندرية.

فان ليو تكلم بثلاث لغات خلال الحوار، يتقن اثنتين منها تماماً ويتلعثم فى الثالثة التى هى العربية. عاش فان ليو بثلاث لغات، زبائنه كانوا فى كل بلدان العالم، جاليات أجنبية فى مصر أو أجانب قصدوه فى الخارج.

لكنه مات مصرياً. مات إنساناً.

ولم يفرق الموت، الذى عاش معه خلال مشواره الإبداعى الطويل ظلالاً على صوره وهاجساً فى داخله وأسود كاحل فى غرفة التحميض بين لغاته الثلاث وانتماءاته التائهة، فالموت وطن لا لغة فيه ولا حوار. ■



طــه حســـين ١٩٥٩

الـــــرِّق

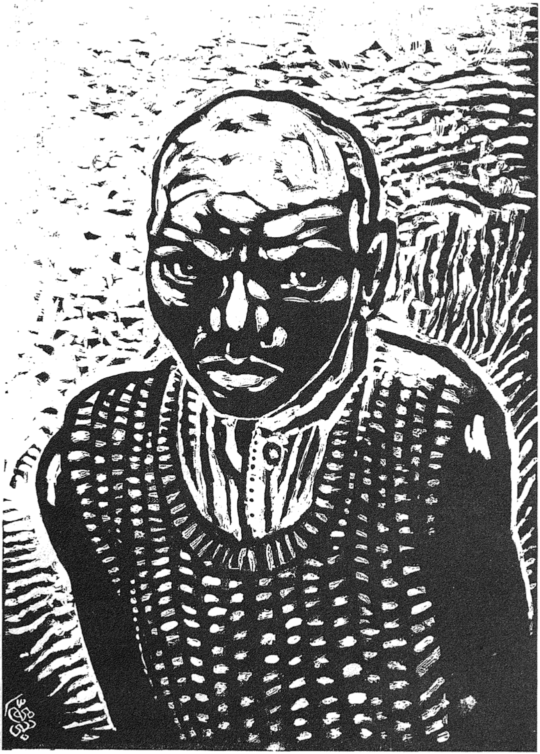
ذكرت وزارة العدل الأمريكية أن عصابات الجريمة المنظمة تجلب نحو ١٧ ألفًا و٥٠٠ شخص سنويًا إلى الولايات المتحدة، وأن هؤلاء الأشخاص يضطرون إلى ممارسة الأعمال الشاقة والدعارة أو كخدم فى المنازل الأمر الذى يشير إلى أن الرق لازال موجوداً فى الولايات المتحدة رغم إلغائه رسمياً منذ ١٣٠ عاماً. وقالت الوزارة، فى تقرير لها، إن الإتجار فى البشر جريمة مروعة وانتهاك لحقوق الإنسان.

رويترز- ١٩مايو ٢٠٠٤

■■ مع إعلان تحرير العبيد الذى أصدر عقب نهاية الحرب الأهلية الأمريكية فى ستينيات القرن التاسع عشر، اعتقد العالم أن ممارسة الرق التى استمرت آلاف السنين انتهت إلى غير رجعة. ورغم مرور ما يقرب من قرن ونصف على هذا الحدث المهم إلا أن كيفن بيلز يقدم فى كتابه الجديد «أشخاص يمكن التخلص منهم: الرق الجديد فى الاقتصاد الكونى» الحجة على أن الرق مازال قائماً، وأنه فى وقتنا هذا أزمة على نفس القدر من الإلحاح الذى كانت عليه فيما مضى. ويقدر بيلز أنه يوجد حالياً ما يزيد على ٢٧ مليون عبد؛ وهو رقم يزيد على عدد كل الأفارقة الذين نقلتهم تجارة الرق عبر الأطلنطى. فقد تطور الرق فى العصور الحديثة، إلا أنه مازال وحشياً وخالياً من المشاعر الإنسانية. كما أن العنف والقهر من عناصره الأساسية، فى الوقت الذى تلاشت فيه البنى الشكلية والملحوظة. وهكذا نجد أن هذا الرق الجديد على قدر من المخادعة والمطاوعة يزيد عما كان عليه سابقه، وهو بذلك أكثر قدرة منه على البقاء. لقد ولت أيام الرق من المهد إلى اللحد التى كان الجنوب الأمريكى نموذجاً لها. إذ حل محله شكل مختلف من الرق. ذلك أن الرق الحديث فرع فاسد من فروع الرأسمالية، وهو يعطى قيمة كبيرة جداً لتحقيق الأرباح عن طريق اعتصار كل زيادة فى قيمة العمل من القوة العاملة (الأسيرة) بغرض تقليل النفقات. وبناء على ديموغرافيا الاقتصاد الكونى الجديد، أصبحت العمالة متوفرة بكثرة فى العديد من المناطق الفقيرة، وبذلك بات العمال أشخاصاً يمكن التخلص منهم. ويلخص بيلز جوهر الرق الحديث باستعماله تعبير «يمكن التخلص منهم». ذلك أنه حين يمرض العمال أو يصابون، أو حين يتمردون، أو حين لا يصل إنتاجهم إلى الحد المتوقع، فإن أسيادهم يتخلصون

Disposable People: New Slavery in the Global Economy
(العبودية الجديدة فى اقتصاد العولمة)
Kevin Bales
University of California Press, 2000

بترتيب خاص مع
National Strategy Reporter
ترجمة: أحمد محمود



... هـــــل انتهـــــى؟!

جـــوزيف جيـــليوتّى

منهم فحسب. ومن المؤسف أن هذا «التخلص» كثيراً ما يكون له جانب مميت؛ وبالتالي دائم.

ويرى بيلز أن أحد أسباب استمرار الرق الحديث الأساسية هو أن أحداً لا يكاد يصدق أنه موجود. فالناس في الغرب يفكرون في الرق على أنه ظاهرة تاريخية؛ أي أنه مؤسسة محيت في القرن التاسع عشر.

وهذا هو السبب الذي دعا بيلز إلى أن يكتب هذا الكتاب. فالغرض منه هو دحض ذلك الافتراض الشائع رغم خطئه. وكما سنرى لاحقاً، فإن بحث بيلز يثير قضايا مؤلمة بالنسبة للقارئ في مجتمعات أمريكا الشمالية وأوروبا المادية التي تنعم بالراحة.

يعرض الكتاب ثلاثة أنواع من الرق، وذلك بشيء من التفصيل في فصله الأول. والرق المنقول هو أول هذه الأنواع، وهو الشكل الحديث للرق القديم. وهو ينطوي على علاقة من المهد للحد بين العبد وسيده ويستلزم كل معايير الملكية والأملاك المعروفة لأي دارس للجنوب الأمريكي في فترة ما قبل الحرب الأهلية.

وتشكل عبودية الدين (بين الدائن والمدين)، وهي توليفة من نظام المزارعة التقليدي والقمع العنيف، الشكل السائد للرق، وهي بذلك النموذج الذي يركز عليه بيلز في كتابه. وأحد ملامح عبودية الدين الغريبة هو أنه بينما لا يزعم «السادة» أنهم «يملكون» ما لديهم من «عبيد»، يضمن تحويل الدين بقاء ذرية العبد أملاكاً للسيد، مثلهم مثل الذين ولدوا في ظل الرق المنقول.

وأخيراً يستخدم الرق التعاقدي العقد الحديث وسيلة لاستعباد من لا يخامره الشك، وبالقانون. وطبقاً لهذا النظام، يتعاقد الناس. وهم في الغالب من أهل الريف الذين يسهل على عديم الضمير خداعهم، على العمل ويخضعون لشروط استعبادية. وفي حال احتجاج هؤلاء العمال لا يكون هناك سوى إلقاء القبض عليهم بواسطة قوة شرطة متواطئة في كثير من الأحيان لمخالفتهم شروط العقد.

ويقدر بيلز ما يولده حوالي ٢٧ مليون عبد في أنحاء العالم من أرباح سنوية تبلغ ١٣ مليار دولار أمريكي. ولكي لا يبدو هذا الرقم زهيداً، حيث يعترف بيلز بأنه يقل عما ينفقه الهولنديون سنوياً على السياحة، فالأمر يستحق أن نستذكر أثر أسعار الصرف. فعندما نعتبر أن العامل المستعبد في الهند يمكن استعباده بمبلغ زهيد (بالمعيار الأمريكي) قدره ٣٩ دولاراً، فإن مبلغ الثلاثة عشر مليار دولار يمثل قدراً لا يصدق من النفوذ الاستغلالي.

ويستخدم العبيد للقيام بمجموعة كبيرة من الأعمال تبدأ من الدعارة إلى رعاية الأطفال إلى التشييد والبناء إلى التصنيع. ويبدو أن القائمة لا تنتهي. والملمح الأساسي لأشكال الرق كافة هو أن الأشخاص في كل الحالات يحتجزون بالعنف وضد إرادتهم بغرض الاستغلال. وبهذا المعنى يحتفظ الرق الحديث بصلته بالصورة القديمة للرق. إلا أن ما يختلف فيه الاثنان هو أن الفروق القديمة التي كانت تستخدم للتمييز بين السيد والعبد، وأبرزها الجنس race، قد اختفت. فبدلاً من ذلك، أصبح المال هو الذي يرسم الحدود الجديدة. فمن يملك المال يستعبد غيره، ومن لا يملكه يصبح هو العبد.

ويعكس هذا الشكل الجديد في جوهره نتائج العولمة المدمرة. فبينما تتعدى الروابط الاقتصادية الحدود القومية بشكل متزايد، يُلقى بتلك الدول العاجزة عن التنافس في جحيم الفوضى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ويرى كثيرون في تلك الدول «النامية» أن التطور بمثابة نذير بانهيار الشبكات الاقتصادية والاجتماعية التقليدية. فكما تُطعم الزراعة الحديثة المزيد والمزيد من الناس، على سبيل المثال، فإنها تزيد كذلك من عدد السكان. ونعرف أن تعداد سكان الهند زاد بمقدار ٦٠٠ مليون نسمة على مدى الخمسين سنة الماضية ليصل حالياً إلى ٩٥٠ مليوناً. وكانت نتيجة ذلك انخفاض قيمة العمالة، وندرة الأراضي الصالحة للزراعة، كما زاد عدد الفقراء من سكان المناطق الحضرية زيادة سريعة. وسرعان ما تعدت ضغوط إطعام تلك الأعداد الضخمة وإيجاد فرص عمل لها قدرة حكومات تلك الدول النامية، لتخلق بالتالي مناطق رمادية في المجتمع جاهزة لأن يستغلها الجشعون.

ويشير بيلز إلى ملمح من ملامح الرق الحديث الأساسية، وهو طابعه الدولي. فبينما استعبد الأمريكيون الأفارقة في يوم من الأيام لإنتاج القطن والأرز وغيرهما من السلع، يستعبد التايلانديون الآن التايلانديين، تماماً مثلما يستعبد الباكستانيون الباكستانيين والبرازيليون البرازيليين. وكثيراً ما يتحدث الاقتصاديون عن كيفية تحريك المنافسة الشرسة «السباق نحو القاع»، حيث تسعى الشركات إلى منافسة بعضها في الأسعار، لتكسب بالتالي حصة في السوق. وقد نشأ الرق الحديث، بالمعنى شديد الواقعية، من عجز الدول النامية عن مجاراة المستحدثات التكنولوجية الخاصة بالاقتصادات الصناعية الحديثة. وبما أنه لم يتبق لدى اقتصادات بكاملها سوى الميزة الاقتصادية الوحيدة التي بحوزتها، وهي العمالة الرخيصة، فقد أصبح توجهها نحو الاستغلال.

ويتضمن كتاب بيلز دراسات حالة عن الرق في تايلاند وموريتانيا والبرازيل وباكستان والهند. وهي ذات قيمة كبيرة لنفاذها داخل ثقافات تلك الدول بقدر ما، لكشفها لنوع الرق الذي نحن بصدده من قيمة. ويمزج بيلز في كل هذه الدراسات رواياته الشخصية بالوصف التحليلي كي ينسج صورة غنية للبلد موضع البحث. ولما يتسم به بيلز من دقة، فبإمكان القارئ رؤية الرق من منظور العبد ومن زاوية من يملكه. ويتجمع الغذاء ووجود الشرطة والدين والطائفة والنوع gender لتخلق جميعاً صورة حية لما يعنيه أن تكون عبداً وسيداً.

العيب الوحيد في تلك الروايات المفصلة هو أن بيلز يحمّل إحساس القارئ بالغضب ما لا يطيق. فبعد استيعاب الحكاية الخاصة بالشابة التايلاندية التي بيعت في سوق البغاء، على سبيل المثال، تبدو حياة العبد الموريتاني المنقول أقل مأساوية إلى حد ما. وبالمثل تبدو عبودية الدين الخاصة بالفلاح الهندي أشبه باتفاق عمل ينطوي على الاستغلال أكثر من كونها عبودية. ومن الغريب أن الخدرة التي يبدأ القارئ في التعود عليها مع تقدم الكتاب تثبت حجة بيلز. ذلك أن الرق الحديث باق في الغالب لأنه من الصعب على المراقبين الخارجيين إدراك حجم الأزمة وإدماجها في تصورهم الخاص بالتراتبات الاقتصادية في العالم النامي. كما أن خطر العنف (وتكرار استخدامه) هو القاسم المشترك في دراسات الحالة. إلا أن هناك الكثير من المتغيرات والفروق في تصور بيلز الخاص بالرق الحديث بحيث يصعب تقدير حجم الرعب والقمع. وتقدم كل دراسة حالة نمطاً مختلفاً من أنماط الرق: سواء عن طريق التصنيف، مثل الرق المنقول مقابل عبودية الدين، أو طبقاً لنوعية العمل، مثل صناعة الطوب مقابل الدعارة. والأثر النهائي لهذا العرض هو جعل الرق أكثر غموضاً في طابعه، وبالتالي أقل خطورة.

أخيراً، يبين بيلز الضرورة الأخلاقية لاستمرار السعي للقضاء على الرق. كما أنه يقدم الخطوط العامة للإجراءات العملية الخاصة بتحقيق هذا الهدف. وتعتمد حجة بيلز من الناحية الأخلاقية على لفت النظر إلى أن المجتمع الحر الذي يسمح بوجود الرق ليس مجتمعاً منافقاً فحسب، بل إنه ليس بمجتمع حر حقاً. ومن الناحية العملية، يحدد بيلز جوهر قوة بقاء الرق الحديث على أنه المال. ويقول بيلز إنه لولا الربحية لمات الرق.

وتعد العقوبات التي فرضت على النظام العنصري الحاكم في جنوب أفريقيا، وما أعقب ذلك من زوال التفرقة العنصرية، النموذج المثالي الأساسي الذي يستند إليه بيلز. وتتضمن حجته كذلك المزيد من النماذج المحددة، مثل حملة «رجمارك» Rugmark. وبما أن الهدف منها هو محاربة الرق بين نساجي السجاد في دول مثل باكستان، فقد أصر الموزعون البارزون في الولايات المتحدة وأوروبا (بينما كانت بريطانيا استثناءً ملحوظاً وغريباً، نظراً لتاريخها فيما يخص معارضة العبودية) على التعامل فقط مع المصانع التي تلتزم بمعايير العمل التي حددتها «رجمارك». وبعد ذلك كانت تلك السلع توضع عليها بطاقات تدل على هذا، ومن ثم تسمح للزبائن باستبعاد المصانع التي لا

الـرق.. هـل انتـهى؟!

تلتزم بتلك المعايير. وكان هذا الشكل من الاحتجاج باستعمال الشخص لحافظة نقوده هو وصفة بيلز الأساسية للقضاء على الرق، وهى وصفة جيدة.

إلا أن الشىء الذى نلاحظ غيابه هو الترويج لاستراتيجية «المبادرة المباشرة» للقضاء على الرق. فطوال الكتاب يكرر بيلز حقيقة أن الناس فى أنحاء الأرض يعيشون فى ظروف مزرية وربما مميتة (وهو ما يتضح بشكل خاص فى الفصل الذى يتحدث فيه عن صانعى الطوب الباكستانيين) لأنهم مدينون بأجورهم تلك الأجور تعد ضئيلة للغاية بالنسبة لأى أمريكى عادى من الطبقة الوسطى. وما يقيد الغالبية العظمى من عبيد الدين، سواء أكانوا عاهرات أم فلاحين أم صانعى طوب، هو أن الواحد منهم مدين بما يقل عن ٥٠ دولاراً أمريكياً. ومع أن بيلز يستعرض لقارئه أسعار الصرف المختلفة، فإن العلاج الواضح الذى لم يأت له ذكر فيما قال هو: «اشتروا الدين عن المستعبدين».

وبالنسبة للغربيين الذين يرغبون حقاً المساعدة فى القضاء على الرق، قد لا تكون المقاطعة وفرض العقوبات هى الإجراء الوحيد. فتسديد ديون العمال المقموعين من خلال تجميع للقروض الصغيرة أو المنح غير المشروطة. وبالتالى تحريرهم. هو الحل الذى لا يبحثه بيلز (على الأقل ليس فيما يتعلق بتدخل المجتمع الدولى). ويكون هذا السهو هو الأبرز حين نأخذ فى اعتبارنا أن ما قاله عن الهند لا يبحث جهود الحكومة (إحدى أكثر الحكومات تقدمية فى الحرب على الرق) للقضاء على عبودية الدين بإلغاء الديون ومنح قروض للعمال.

ربما كان السبب فى سهو بيلز عن إستراتيجية شراء ديون المستعبدين هو أنه غير مستعد لعبور الحد الفاصل بين المحلى والدولى. فبيلز راض كل الرضا عن توبيخ المجتمعات والحكومات الأجنبية لسماحها بهذه الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان داخل حدودها. كما أنه يكيل الاتهامات بالفساد والعجز ضد الكثير من النخب فى تلك المجتمعات. إلا أن بيلز لم يربط بين حقوق الإنسان العالمية ومسئوليات حقوق الإنسان العالمية. فالرق مازال موجوداً بسبب مبدأ الرأسمالية القاسى الخاص بالميزة النسبية وبسبب آثار النزعة الكونية التى تتسم بالفوضى على المجتمعات المحلية.

وحيثما يتفسخ نسيج المجتمعات التقليدية تحت الضغط الاقتصادى الدولى، وحيثما يصبح الفساد وسيلة لإدارة الأعمال التجارية بدلاً من أن يكون عائقاً فى سبيلها، وحيثما يصبح العنف هو العملة السائدة، فإن الرق ينتعش. ورغم ذكر بيلز لميراث الرق فى الولايات المتحدة وبريطانيا وأوروبا، فإن تركيزه الحقيقى على الدول النامية؛ أو «العالم الثالث». فهناك الدول والمجتمعات التى لا يمكنها التعامل مع هذا الموقف والغارقة بشدة فى طغيان لا يعرف القوانين. وتلك المجتمعات على وجه التحديد هى التى ينبغى استهداف المجتمع الدولى لها بالتدخل إذا كان يريد بالفعل القضاء على الرق.

ولا يؤيد بيلز التدخل إلا بالمعنى الاقتصادى شديد التجرد. فشراء السجاد الذى يحمل علامة «رجمارك» من باكستان لفتة لا بأس بها، ولكنها ليس إلا لفتة فحسب. والواقع أن النزعة الاستهلاكية التى يحركها الضمير لدى الأمريكيين والأوروبيين لا يمكنها فى واقع الأمر تغيير حال الرق فى المجتمعات التى على ذلك القدر الذى عليه المجتمع الباكستانى أو الموريتانى من تحطم. وفى

تاريخ.. وفلسفة.. وعقائد

■ الكاتب العجوز أحمد فؤاد بلبع، عرفناه قبل عشرات السنين مترجماً، لكنه مترجم من نوع خاص، إذ أنه لا يكتفى بالترجمة، إنما هو يلحق بها تعقيبات وتعليقات وحواشى وذيولاً، ولا يتوقف عند إضاءة النص، بل يملأ فراغا، ربما يغيب عن ذهن المؤلف نفسه. ثم إنه فى هذه المترجمات المتنوعة يحلق فى عوالم شتى، تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية وأنثروبولوجية، ولا تشعر وأنت تطالع مترجماته بكونها مترجمات، وقد يساورك هاجس بأنها مؤلفات، وهذه فضيلة.. وأية فضيلة.

مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة

الجزء الأول: من نشأة الرق حتى مطلع الإسلام

المؤلف: أحمد فؤاد بلبع

الناشر: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣

لعل من أهم مترجماته كتاب «الإسلام والوثنية» لمؤلفة السردار بانيكار، وإنى لأعجب كيف تمر ترجمة هذا الكتاب . وقد نشر قبل عشر سنوات . دون تنويه من أحد، فمع كونه كتاباً كلاسيكياً تقادم العهد به، إلا أنه لا يزال مصدراً لا غنى عنه لتاريخ القارة السوداء. وقد بذل المترجم جهداً فائقاً فى ترجمته تلك، لأن الكتاب يغص بنقول من مصادر عربية، طبعت منذ سنوات بعيدة، ويعسر الظفر بها، كما أن المؤلف لم يهتم كثيراً بتوثيق هذه النقول، مما أهم المترجم لأن يردها . وهى حفيلة . إلى أصولها.

تمضى سنوات العمر، ويشعر الفارس . وقد استبدت به الترجمة بحاجته . لأن يدلى بدلوه فى مجال التأليف، فيتطرق بجسارة إلى موضوع صعب مرتقاه، ربما يحتاج إلى أعمار عدة، وليس عمراً واحداً.. وهو موضوع الرق. والحق إننى . ومن منطلق التخصص . أشفقت عليه لدى ولوجه موضوعاً يضرب فى الزمان وفى أعماق المكان، تتعدد مساربه، وتتباعد مذاهبه، ويكتنفه الغموض فى أحيان لنزارة المادة، ويكتنفه الغموض فى أحيان أخرى لغزارتها، وربما يحار المؤلف، فلا يدرى من أين يبدأ وكيف يبدأ، وإلى أين ينتهى به المسير، والأهم أنه يجد نفسه مضطراً إلى أن ينهل من موارد معرفية متباينة بطبيعتها، وتتطلب قدرات خاصة فى التعامل معها، وهو أمر ليس بيسير، ثم إنه . إلى ذلك . يطرق أبواب موضوعات مسكوت عنها، فظاهرة الرق التى صاحبت التاريخ الإنسانى حتى نهاية القرن التاسع عشر، جاورتها ديانات سماوية



كل البلاد التى تناولها البحث، سوف يكون حل مشكلة الرق الحقيقى هو التدخل لفرض معايير حقوق الإنسان العالمية التى تدعم حجة الكتاب. إلا أن هذا هو جوهر المشكلة. ذلك أنه إذا كان لابد للمجتمع الدولى (أو بالأحرى الغرب) أن يتدخل فى بلد مثل البرازيل أو الهند، اللتين حُكم على كل منهما بأنها ديمقراطية مستقرة إلى حد ما، ألن يكون ذلك عملاً ينطوى على الغزو؟ وهل يجب فرض حقوق الإنسان العالمية على حساب آلاف السنين من التراث؟ وهل لابد من التضحية بالثقافة لمصلحة المعايير «العالمية»؟

يجب أن تكون الإجابة عن تلك الأسئلة هى «ربما». فالإيمان بحقوق الإنسان العالمية فى الأصل ترف خاص بالغرب المزدهر. ذلك أن الحديث عن الكرامة الإنسانية العالمية والفرصة السانحة يكون أسهل بكثير حين يكون الشخص منتميًا إلى إحدى الدول الغنية والمزدهرة كالولايات المتحدة، أى ذلك الشخص الذى لم يكن فى يوم من الأيام ضحية للغزو المتكرر (الهند) أو الكوارث الطبيعية المخيفة (موريتانيا) أو العنف الدينى المستمر (باكستان). ففى كثير من الأحيان تطورت الأنظمة السوسيواقتصادية لتلك الدول بالشكل الذى تطورت به بسبب ظروف معاكسة استمرت قرونًا. والإعلان أن كل الكائنات البشرية لها «حقوق عالمية» فحسب هو التزام ذو مبادئ سامية والتزام يجب ألا نتخلى عنه لمجرد أن تنفيذه يبدو صعبًا. ولكن مثل هذه الإعلانات قد تتسم بالغطرسة وبالخواء. فهى قد تكون متغطرسة بمعنى أن الظروف السوسيواقتصادية ليست متعدية؛ إذ إن ما هو ممكن فى الولايات المتحدة أو غيرها من الديمقراطيات الصناعية قد لا يكون ممكنًا فى العالم النامى. فهل من الإنصاف أن نتوقع من تلك الدول الالتزام بمعايير يفرضها عليها الأغراب الذين يفتقرون فى الغالب إلى فهم العادات والتقاليد المحلية؟ وعلى سبيل المثال، كم من الأمريكيين يفهم حق الفهم معنى كراهية شخص ما لمجرد أنه ينتمى إلى الميثودية وليس المعمدانية؟ بينما الشيعة والسنة يقتلون بعضهم كل يوم فى باكستان بسبب الخلافات الدينية. وبناء على ذلك فمن الخطأ افتراض أن مجرد إعلان معيار عالمى لحقوق الإنسان سوف يكون له أى أثر مستدام. فكثير من الثقافات مهتمة بانقسامات المحلى بالقدر الذى يمنعها من التفكير فى معايير العالمى.

ويمكن أن تبدو تلك الإعلانات خاوية لسببين. أولاً: هناك الحقيقة التاريخية التى تقول إن نمو أمريكا الشمالية وأوروبا اعتمد إلى حد ما على العمال العبيد. ولا تزال العنصرية موجودة فى كثير من تلك المجتمعات. ثانيًا: لابد أن نسأل أنفسنا فحسب ما هو الشوط الذى لدى الغرب الاستعداد لقطعه كى نقضى على العبودية. ونظرًا للتحديات التى نواجهها فى الداخل، وهى التشرد والفقر شديد الوضوح، ناهيك عن ٤٤ مليون مواطن بلا رعاية صحية مناسبة، هل من الواقع الإشارة إلى قبول الأمريكيين للمخاطرة أو التضحية الضخمة كى يضغطوا على الدول الأخرى لتمحو الرق بكل أشكاله؟ فما الذى بقى لنا إذن فى النهاية؟ وإذا كنا باعتبارنا مجتمعًا دوليًا لا نستطيع التدخل لوقف الظروف الاجتماعية المعاكسة التى تشجع على نمو الرق، أو لسنا على استعداد لذلك، فهل لا يزال الأمر يستحق منا عناء الاحتجاج على الرق فى سياق حقوق الإنسان العالمية؟ بكل تأكيد. فمن غير المحتمل أن توصم الحكومات المتواطئة مع تلك الانتهاكات بالعار. ذلك أن الدول لا ترغب فى النظر إليها على أنها منبوذة؛ حتى وهى تعترض على التدخل الخارجى. وحينئذ لا ينبغى النظر إلى كتاب «أشخاص يمكن التخلص منهم» على أنه بيان لمشكلة مستعصية، بل على أنه تذكير بأن الاعتماد الاقتصادى المتبادل يحمل فى طياته مسئولية أخذ كل تكاليف إنتاج السلعة. البشرية والنقدية. فى الاعتبار.

إن «أشخاص يمكن التخلص منهم» كتاب يستحق الاهتمام، ليس بسبب أبحاثه المفصلة لثقافة الرق وعلم اجتماع الرق فحسب، بل كذلك لبحثه المتأنى للفروق داخل المجتمعات التى لم يزل الرق قائمًا فيها فحسب، بل يزدهر. ويقوم بيلز بعمل رائع يوازن بين الحجج من الناحية الأخلاقية وبين الجوانب العملية الخاصة بالتصدى لهذا التحدى. والكتاب قصة إنسانية زاخرة بالألم والمعاناة، ولكن بيلز يترك القارئ وقد اقتنع بأن نهاية القصة. أى القضاء نهائيًا على الرق. قد تُروى فى يوم من الأيام. ■

موسوعة الرق

عبادة كحيلة

وغير سماوية، اتخذ بعض من ينتمون إليها أو يقومون عليها مواقف من هذه الظاهرة، قد لا يرضى عنها ذوو الضمائر المهمومون بالإنسان وحقوق الإنسان، مما يفضى إلى حرج لكاتب ينتمى إلى إحدى هذه الديانات.

المحزن فى الكتابة عن الرق، شأنها شأن الكتابة عن الغجر (وكاتب هذه السطور معنى بهؤلاء الأواخر) أنه لا تتوافر لدينا. على الأقل فيما يختص بالعصور القديمة. مصادر منسوبة إلى الرقيق أنفسهم، لأنه لم تتوافر لديهم إمكانية الكتابة عن أنفسهم، وربما توافرت هذه الإمكانية فى عصور تالية، فثورة شهيرة كثورة العبيد بزعامة سبارتاكوس، نقف على أخبارها كلها عند خصومهم الرومان.. لذا فلا مندوحة من الاعتماد على كتب الأغيار من الأحرار، وبعضهم يصدرون فيما يكتبون عن منازع عنصرية أو غير موضوعية يشوبها الانحياز من غير جهة.

أخيرًا فالموضوع. بطبيعته. يفرض على الكاتب أن يكون محلقًا، لا أن يكون محدقًا، لكن الغريب أنه جمع الخصلتين معًا، فكان محلقًا بقدر ما كان محدقًا.

قبل أن تغرب شمس العام ٢٠٠٣ صدر السفر الأول من هذا العمل الكبير، ويختص بالعصور القديمة، أى العصور





السابقة لظهور الإسلام، باعتباره نقطة مفصلية فى تاريخ البشرية.

يبدأ المؤلف كتابه بفقرة ربما تكون دالة على ظاهرة الرق وموقفه منها فيقول: «الرق ليس ظاهرة تاريخية عبرت ثم ولت، ولا هو ظاهرة عاشت على حواشى المجتمعات البشرية، دون تأثير فاجع وملموس أو تبعات لا يؤبه بها، وإنما هو ظاهرة لازمت البشرية منذ فجر حضارتها، وضربت بجذورها عميقة راسخة فى بنيتها الاجتماعية، وأصبحت أحد معالمها الصارخة، وذلك منذ أن استقر الإنسان، وأصبح له وطن، ومنذ أن أدرك قيمة العمل، وتبين له أنه سبيله إلى تحقيق حياة أفضل، ومنذ أن اكتشف القوى أن بإمكانه أن يعفى نفسه من أعباء العمل ومشاقه، وأن يلقى بها على عاتق غيره».

«والرق مازالت له حتى يومنا آثار وتداعيات همجية وبغيضة وشائبة ورواسب وبقايا مروعة، خفية ومقنعة، جلية وفاضحة، مما يؤرق كل ضمير حى، ويستصرخ كل همة تقاعست عن دورها وخانت ضميرها، وتخلفت عن مسئولياتها».

بطبيعة الحال تكون البداية هى تعريف الرق، ويأتى الكاتب بتعريفات عدة، المشترك بينها هو أن الرقيق إنسان مملوك لغيره، يعامل معاملة السلعة المملوكة، مع بضعة فوارق تقتضيها الطبيعة البشرية.

لما كان الرق ظاهرة تاريخية، فهو ظاهرة حادثة وليست أزلية، وهى مسئولية الإنسان المتحضر، وليس الإنسان البدائى، فقبل التاريخ لم تكن ثم عبودية، لأن الإنسان يجد حاجاته متوافرة فى الطبيعة حوله، وليس من ضرورة لجهد كبير يبذله فى سبيل الوصول إليها، وعليه فلا ضرورة كذلك لأن يستعبد غيره، وحتى عندما كانت تحدث صراعات على الموارد، فإن المنتصر كان يكتفى بأكل لحم المنهزم دون أن يسترقه.

بعد عملية تاريخية طويلة، شرع الإنسان فى الاستقرار، وازدادت أعداده، ولم تعد الموارد متاحة كما هى، سيما بعد اختراع الزراعة واكتشاف المعادن، وتوجب عليه بذل جهد أكبر، حتى يؤمن لنفسه ما يحتاجه، وبذا عدل عن أكل لحم المنهزم، واستبدل به استثماره كقوة عمل.. ومن هنا ظهر الرق.

ظهور الرق إذن تحدد بظهور أول مصادره وهو أسير الحرب، وقد ظل الأسر على مدى التاريخ مصدرًا مهمًا للرق، بل المصدر الأهم فيما يختص بالعصور القديمة.

ترتب على هذا المصدر مصدر آخر، هو أرقاء الميلاد، أى الأرقاء الذين ولدوا فى الأسر، بعد استرقاق آبائهم الأسرى.

بيد أن هذين المصدرين . أسرى الحرب وأسرى الميلاد . لم يعودا بكافيين لمجتمع استمرأ الاسترقاق، وأضحى جزءاً من نسيجه، فظهرت مصادر أخرى داخلية وليست خارجية، أى أن يكون الأرقاء من أبناء المجتمع نفسه، وليسوا وافدين عليه، فقد يبيع الفقير نفسه أو أولاده، من أجل أن يكفل له ولهم حاجاتهم الدنيا، أو أن يبيع المدين نفسه، لأنه لا يستطيع أداء دينه، أو أن يبيع المجتمع السارق عقوبة له على جريمة ارتكبها.

بمرور الوقت ظهر مصدر آخر هو الاختطاف الذى تطور إلى ما يعرف بتجارة الرقيق، وقد أضحت هناك منافسة بين هذه التجارة والحرب كمصدر أهم للرقيق، فربما يتم افتداء الأسير، وربما تنقطع الحرب سنة أو سنوات على أنه فى أحيان كان يتجاور المصدران، فكان النخاسون . لا سيما اليهود . يتبعون الجيوش الغازية، ليتولوا هم بأنفسهم بيع أسرى الحرب.

فى عصر الإمبراطورية الرومانية أحرزت جزيرة ديلوس اليونانية شهرة عالية باعتبارها المركز الرئيسى لتجارة الرقيق فى العالم القديم، وكان يباع بها كل يوم ألف عبد، وفيها كما فى المدن الكبرى كان النخاس يعرض بضاعته البشرية فى مكان مخصوص، ويعلق فى رقبة الواحد من الرقيق قطعة من الجلد (الرق) تتضمن خصائصه ومزاياه، ويبذل ما وسعه من جهد للتعمية على عيوب بضاعته، حتى يتسنى له بيعها بالثمن الذى يريده.

هذه هى المصادر الأصلية للرقيق، وهى مصادر مشتركة بين الحضارات القديمة جميعها، لكن هذه المصادر فى حضارة منها، كانت تتسم بملامح خاصة، تختلف عنها فى حضارة أخرى، ففى فارس كان الرقيق فى معظمهم يؤتى بهم من خارجها، فتوجب على كل ولاية من ولايات الإمبراطورية أن تمدها بحاجتها منهم، وكانت الحال فى مصر قريبة من ذلك، أما عن العبرانيين فلم يكن يجوز استرقاق أحدهم، إلا لأسباب محددة ولمدة محددة، وعلى نحو مشابه كانت الحال فى بلاد اليونان، حيث كان مكروهاً استعباد اليونانى لليونانى، أما فى روما فكان الأصل أن المواطن لا يسترق داخل أسوارها، وإذا كان لابد من استرقاقه، فليكن خارج هذه الأسوار.

من عجب أن الفلاسفة ساروا على نهج مواطنيهم فى نظرتهم إلى الرقيق، وهم لم يقفوا عند حد قبول هذه الظاهرة وتبريرها، إنما دعوا إلى الصرامة فيها

فى بلاد الهند ارتبط الرق فى مجمله بنظام الطبقات، وهو نظام له وشائجه بالعقائد الدينية السائدة، فكان المجتمع ينقسم إلى أربع طبقات، كانت الطبقة الرابعة وهى طبقة الشودرا تنظم الصناع والخدم والعبيد، إلى جانب من لا طبقة لهم، وهم المنبوذون وجميعهم عبيد.

قبل أن تكتمل مصادر مؤسسة الرق كانت قد بدأت تتضح معالم مؤسسة الرق، ولم تكن هذه المعالم موحدة فى الأحوال كافة، إنما كانت تتفاوت بين مجتمع ومجتمع آخر، ثم بين حضارة وحضارة أخرى. على أنه فى بداية العهد بهذه المؤسسة لم تكن أعداد الرقيق كبيرة، إذ كانت الحياة ماتزال بسيطة، كما كان الرقيق يعامل كأنه فرد من أفراد الأسرة.

فى بلاد ما بين النهرين (العراق) كان هناك رق عام يضم غالب الأرقاء، فيصيرون ملكًا للمعابد أو للقصر. ورق خاص، وكان الابن يتبع فى حال الحرية أو الرق حال أمه دون أبيه، وهو تقليد أخذه عنهم العبرانيون، على أن حمورابى أكد أن من يولدون من جارية السيد يصيرون (وأمهم) أحراراً بعد موت أبيهم، وهو نظام قريب من النظام الإسلامى. كما اعترفت الشرائع بقدر من الشخصية القانونية للرقيق، فيصير من حقه مقاضاة الآخرين، والاستقلال بسكن خاص والتزوج بامرأة حرة، وله أن يحتفظ ببعض مما يتكسبه من عمله.

إذا انتقلنا إلى مصر، فلن يكن الرق فى معظم عصورها مؤسسياً، لأن الزراعة ذات التكنولوجيا المتقدمة لا تستقيم مع وجود الرق، ويذهب البعض إلى أنها لم تعرف الرق الخاص، وإن عرفت الرق العام من أسرى الحرب الأجانب، وكانت أعدادهم قليلة، ومع ظهور الإمبراطورية فى عصر الدولة الحديثة ازدادت أعداد الرقيق مع استمرار كونهم أجانب، وصاروا عرضة للبيع والشراء، مما أفضى إلى ظهور الرق الخاص. وقد أتاحت الشرائع للرقيق بعضاً من التصرفات القانونية كالمثول أمام القضاء وحقه فى الاحتفاظ بأسرته، كما كان يجوز رفع الأمة إلى مرتبة الزوجة، ولم يكن فى إمكان أحد من العوام قتل عبده، فقد كان ذلك من حق النخبة حكاماً وكهنة، وعلى عكس ما كانت عليه الحال فى بابل، فالابن يتبع فى حال الحرية أو الرق حال أبيه دون أمه.

وصاحب الرق تاريخ العبرانيين منذ نجومهم، ووردت بشأنه آيات فى سفر التكوين، وهو أول أسفارهم، بيد أنه لم يعم انتشاره إلا فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، عندما أغاروا على بلاد كنعان فاسترقوا أهلها، وبخلاف ما كانت عليه الحال فى العراق وفى مصر كانت الشريعة اليهودية شديدة القساوة على الرقيق، وإذا كان مشرعوهم قد أعطوا الرقيق فى بعض الأحيان بعض الحقوق، مثل أن يستريحوا فى اليوم السابع، فقد كان منطلقهم هو أن يعطوا . أى الرقيق . أفضل ما عندهم. وكانت عبوديتهم فى معظمهم مؤبدة، وقد اتخذت هيئة عنصرية، فلا يجوز استرقاق اليهودى، وفى حال حدوثه فإن استرقاقه لا يدوم سوى ست سنوات، أو ينتهى بحلول سنة اليوبيل اليهودى.

أما عن العرب قبل الإسلام فلم تكن مؤسسة الرق عميقة الجذور بينهم، لأن قلة الموارد لا تسمح بإعالة أعداد كبيرة من الرقيق، لكنه عندما كانت تتوافر هذه الموارد على نحو ما فى المناطق الحضرية، كان الرقيق يزاولون الزراعة وغيرها من الأعمال التى يأنف منها سادتهم المتفرغون للحرب، ودرجت الحال على أنه لدى قتل الحر عبداً، فلا قصاص وإنما دية أو تعويض يؤدى إلى مالكه.

استكملت مؤسسة الرق أركانها فى بلاد اليونان، وصار الرقيق يشكلون غالب سكانه، بحيث لم يكن اليونانى يتصور مدينة يونانية واحدة تخلو منهم، وكان هو نفسه يمتلك رقيقاً واحداً أو اثنين وربما أكثر. وفى زمن أفلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد، وصلت أعداد الرقيق فى أثينا وحدها إلى أربعمائة ألف، فى مقابل المائة ألف من المواطنين الأحرار، وأنيطت بهؤلاء الرقيق الأعمال كافة، فى حين حرموا من الحقوق كافة، فليست للواحد منهم شخصية قانونية ولا ذمة مالية.

من عجب أن الفلاسفة ساروا على نهج مواطنيهم فى نظرتهم إلى الرقيق، وهم لم يقفوا عند حد قبول هذه الظاهرة وتبريرها، إنما دعوا إلى الصرامة فيها. وكان أفلاطون . ومن بعده أرسطو . من منطلق إيمانه بالتفاوت الطبيعى بين البشر يؤمن بأن على الفرد مزاولة العمل الذى تؤهله له طبيعته، بل إنه أدان النظام الديمقراطى فى وطنه أثينا، لتهاونه فى التعامل مع رقيقه، وبلغت به العنصرية مداها، إذ لم يكن يتصور استرقاق أحد من أبناء قومه على أيدى أبناء قومه، حتى لو كان أسير حرب.

وعلى نهج اليونان سار الرومان، بل إن مؤسسة الرق عندهم صارت أكثر اتساعاً، مما كانت عليه لدى سابقيهم. وإذا كان أفلاطون يعتبر الرق نظاماً طبيعياً، فإن سنيكا اعتبره حالة نفسية من حالات الضمير، فيمكن للعبد إذا كان عاقلاً أن يعيش حراً فى الواقع، أما العبد الحقيقى، فهو من كان أسير شهواته.

وصلت الحال بالرقيق عند الرومان إلى أن تم التوسع فى حقوق السادة تجاه عبيدهم، بل حقوقهم فى قتلهم، كما وصلت الحال إلى دفعهم لمنازلة الوحوش الضارية أو منازلة بعضهم البعض حتى الموت فى احتفالات المجالدين التى كان الإمبراطور ورجال دولته وجمهور شعبه شغوفين بمتابعتها، ولم تفلح قوانين سنها أباطرة متأثرون بالفلسفة الرواقية كأنطونينوس بيوس (الورع) فى الحد من هذه الظاهرة.



مع مقدم المسيحية بدت بوادر تحسن تطرأ فى أحوال الرقيق، فقد كان المسيح عليه السلام وتلامذته يحضون الناس إلى أن يعاملوا الناس بما يحبون أن يعاملوا، وكانت الكنيسة فى الصدر الأول تحث على عتق الرقيق، بل إنها أتاحت الفرصة لهم للانخراط فى صفوف الرهبان، فيصيرون أحراراً حالما يدخلون الدير.

على أن هذه الأفكار المثالية لم تلبث أن فارقت الواقع فى عصور تالية، فصارت المساواة عند الكنيسة مساواة فى الروح أمام الله، أما الجسد فعليه أن يخضع لكل ذى سلطان. ولم يعترض القديس أوغسطين. ومن بعده القديس توما الأكوينى. على الرق، بل إنه كان يزكيه، ويردد مقولات أرسطو بكونه حالة طبيعية، أما القديس أيسيدور فكان يذهب إلى أن المسيحى باسترقاقه، يصير حسابه يسيراً يوم القيامة، لأنه خدم مولاه الذى فى السماء، مثلما خدم مولاه الذى فى الأرض.. وظلت هذه حال الكنيسة حتى القرن التاسع عشر.

ارتبطت ظاهرة الرق بظاهرة الحجاب، فقد كان الأصل عند المرأة هو السفور، لكنه مع ظهور مؤسسة الرق وازدياد أعداد الأرقاء من النساء، أضحت هناك ضرورة للتمييز بينهن وبين الحرائر، فبدأت ظاهرة الحجاب

وترتبط ظاهرة (أو مؤسسة الرق) بمجموعة من الظواهر (أو المؤسسات)، أولاها ظاهرة الخصاء، وهى ظاهرة نشأت نشأة مستقلة، فقد كان من الأحرار من يتم خصاؤهم لأسباب دينية (قمع الشهوة) أو عقابية (الزنى) إلا أن الكثرة الغالبة من الخصيان صاروا يتخذون فيما بعد من الرقيق. وكانت للخصاء طريقتان، طريقة «الجب» وهى قطع القضيب والانثيين، فيعرف الخصى بالمجبوب و«الوجر» أى سل الانثيين فقط، فيعرف الخصى بالموجور، وكانت توكل إلى المجابيب من الخصيان مهام حفظ النساء. وقد بلغت أعداد الخصيان فى بعض العصور مبلغاً كبيراً، فكانت بابل تدفع إلى فارس فى عهد إمبراطوريتها بخمسمائة من الخصيان فى كل عام.. وجدير بالذكر أنه مثلما برع اليهود فى تجارة الرقيق، فقد برعوا كذلك فى مهنة الخصاء.

ثانية هذه الظواهر هى ظاهرة القنانة، وكان يجرى أحياناً الخلط بين الظاهرتين للتشابه الواقع بينهما. ويختلف القنّ serf عن العبد slave بكونه يقع فى المنزلة بين المنزلتين العبودية والحرية، وهى حال تفرد بها غالب الفلاحين فى غالب المجتمعات الزراعية.. وكان هؤلاء الأقنان يحوزون الأرض حيازة انتفاع من السيد، نظير رسوم ثابتة تؤدى عيناً أو نقداً، أو على هيئة خدمات، وللسيد حقوق أخرى على أقنانه لا تقابلها بالضرورة حقوق لهم تجاهه، وقد ظل هذا النظام موجوداً إلى أن انتهى فى غضون القرن التاسع عشر مع نهاية الرق.

ترتبط ظاهرة الرق كذلك بظاهرة العنصرية، وهى ظاهرة لم يعرفها الإنسان فى عصوره التاريخية المبكرة، لكنه مع تفشى الاسترقاق وازدياد أعداد الأرقاء صار يؤتى بهم أحياناً من بلاد بعيدة ومن أعراق غالباً ما تختلف عن أعراق الأحرار من السكان، وكتبرير لاستمرار هذه الظاهرة. ظاهرة الرق. بعد أن أضحت ضرورية فى مجتمع كالمجتمع اليونانى أو المجتمع الرومانى، صارت هناك علاقة عضوية أو تطابق بين مفهوم الأرقاء وبين مفهوم البرابرة (الأجانب) من حيث كونهم المستودع الذى يأتى منه الأرقاء.. وبذا لازمت العنصرية مؤسسة الرق، ثم عاشت بعدها، ولا نزال نحن نعانى من تبعاتها.

لا يخفى أيضاً ما جرى من ارتباط بين ظاهرة الرق وبين ظاهرة أخرى هى ظاهرة البغاء، وقد نشأت بدورها شأنها شأن الخصاء. نشأة مستقلة، وتتصل مثلها ببعض الممارسات الدينية القديمة (عاهرات المعبد) إلا أنه مع تنامى مؤسسة الرق صارت هذه المؤسسة رافداً، بل الرافد الأهم للبغاء، وزاد منها ما شاع فى بعض المجتمعات من امتهان للمرأة، حتى لو كانت حرة، وأضحى السادة يرغمون إماءهم على ممارسة البغاء كوسيلة لجلب المال، وكن عند العرب قبل الإسلام يضعن على أبواب بيوتهن رايات تيسر الوصول إليهن.

أفضت ظاهرة البغاء بدورها إلى ظاهرة أخرى، هى شيوع الترف والانحلال وتفشى علل اجتماعية وأدواء، كان لها أثرها المدمر فى بنية الحضارات القديمة، خصوصاً الحضارتين اليونانية والرومانية، وأعان على تفاقمها ما درجت عليه الحال من الركون إلى الرقيق فى مزاولة ما ينأى عنه الأحرار من أعمال، يقوم على أساسها المجتمع ورفاهة هذا المجتمع.

أخيراً فقد ارتبطت ظاهرة الرق بظاهرة الحجاب، فقد كان الأصل عند المرأة هو السفور، لكنه مع ظهور مؤسسة الرق وازدياد أعداد الأرقاء من النساء، وتحدد وضع بعضهن كسرائر أو حظايا، وتحدد وضع بعضهن الآخر كبغايا، أضحت هناك ضرورة للتمييز بينهن وبين الحرائر، فبدأت ظاهرة الحجاب التى كانت قصراً عليهن (أى الحرائر) دون غيرهن. وربما كانت البداية الأولى للحجاب فى فارس، حيث ألزم الأرقاء من النساء بالسفور، كما ألزم الأرقاء من الرجال بحلق شعور رءوسهم وذقونهم وشواربهم، تمييزاً لهم جميعاً عن الأحرار.

ومع ما شاع من كون الرق حالاً مؤبدة، إلا أنه ظهرت فى لحظات بعينها ضوابط هيأت الفرصة لعتق الأرقاء أى تحريرهم، وأقدم تشريع تناهى إلينا فى هذا الشأن يعود إلى حمورابى الذى يقرر بأن أبناء السيد من أمته يعتقون مع أمهم عند موته، كما يتيح الفرصة للعبد لاتباع حريته، ويحدد استرقاق المدين بثلاث سنوات يطلق بعدها. ووصل العتق إلى مرحلة متقدمة فى مصر، إذ كان من حق الرقيق الذى يشكو من معاملة سيده أن يهرب منه، ويلوذ بأحد المعابد، فتتحقق له حريته، وأجاز العبرانيون تحرير العبد إذا أصابه سيده بعاهة، وإن ذهب البعض من فقهائهم إلى تحديد هذا المبدأ بالعبيد من العبرانيين دون سواهم.

عندما ظهرت المسيحية كانت تحض فى البداية على عتق الرقيق، خصوصاً من كانوا يدينون بها، لكنها لم تعد تكترث بهم فى عهد قوتها، بل إن البابا جريجورى الأول (أو الكبير) كان يمتلك أعداداً كبيرة من الرقيق يقدرهم البعض بالمئات.

عندما كان يتم تحرير الرقيق، فإنه كان ينتقل من مؤسسة الرق إلى مؤسسة أخرى هى مؤسسة الولاء، أى تصير له علاقة من نوع ما مع سيده السابق، فكان من واجبه أن يؤدى إليه بعض الخدمات، كما كان من حق هذا السيد أن يرده فى أحيان إلى حاله الأولى، حال الرق. وكان العتقاء فى بلاد اليونان لا يكتسبون حقوق المواطنة، وإنما يعاملون فى المدينة اليونانية معاملة الأجانب الغرباء.

لم تصبح ظاهرة العتق ظاهرة شائعة، فكان مقرراً على العبيد فى معظمهم أن يظلوا عبيداً مهما طال بهم الزمن.. لذلك بزغت فى فترة مبكرة ظاهرة إباقهم، وقد تصدت بابل لمواجهتها، فكان من المتوجب وضع علامات معينة على أجساد العبيد لإعاقة هربهم، كما أمر حمورابى بعقوبة القتل على من يؤوى أحداً من العبيد الآبقين.

ظاهرة الإباقة إذن كانت ظاهرة محدودة، وكان البديل عنها هو الثورة، ونعلم أن لها شروطاً من الواجب توافرها لقيامها ثم لنجاحها، وهو ما لم يتيسر فى معظم الأحوال، لذلك فليست لدينا معلومات عن ثورات قام بها العبيد فى حضارات الشرق القديم، لكن لدينا معلومات عن ثورات قاموا بها فى إيطاليا فى عهد الجمهورية الرومانية، أهمها الثورة التى تزعمها سبارتاكوس فى سنة ٧٠ ق. م. وبدأت شرارتها فى مدرسة من مدارس المجالدين بمدينة كبوا أسفرت عن هرب أعداد من العبيد، ولحق بهم إخوان لهم من أنحاء شبه الجزيرة، إلى أن وصلت هذه الأعداد إلى مائة وعشرين ألفاً.

قاد سبارتاكوس جموع العبيد، وزحف بهم شمالاً إلى جبال الألب، يحدوه الأمل فى إعادتهم إلى أوطانهم التى أتى بهم منها، لكنه وجدهم غير جادين فى تحقيق هذه





الغاية، بل إنهم انصرفوا إلى أعمال السلب والنهب حيثما ذهبوا، دون هدف محدد يصبون إليه، مما اضطره إلى أن يعدل وجهته إلى الجنوب ليعبر البحر إلى صقلية وأفريقيا، وصمد أمام الهجمات التى شنها ضده القائد الرومانى كراسوس، وبعد أن توافت إلى هذا الأخير تعزيزات من القائد بومبى دارت معركة انتهت إلى هزيمة سبارتاكوس، وصلبه صحبة ستة آلاف من العبيد على طول الطريق من كبوا إلى روما.

وبعد.. فهذا عرض سريع لكتاب من الكتب المقتحمة.. لدينا بعده وقفة مع الكاتب، فقد نهج فى كتابه نهجاً مكانياً، إذ يبدأ رحلته من اليابان فى أقصى المشرق، ويمضى منها إلى أقصى المغرب، وعليه فهو يجعل ما كتبه عن الرق عند العرب قبل الإسلام سابقاً لما كتبه عن الرق عند قدماء المصريين. وهذا نهج لا نحبذه، والأوفق منه أن يكون نهجاً زمانياً يرتبط بالزمان أو موضوعياً يرتبط بموضوعات الكتاب. ومع اعترافنا بكون اليابان ثم الصين حضارتين قديمتين، إلا أنه من المتفق عليه عند الجمهور أن بلاد الرافدين (العراق) ومصر هما الأقدم فى مجال الحضارة، لذا يكون من المنطقى أن يبدأ الكاتب بهما ثم يثنى بغيرهما مما أتى بعدهما.

ومع حرص الكاتب على معاودة مصادر أصلية ووثائق تتصل بموضوعه، إلا أنه كان ينقل مادته فى أحيان من مراجع حديثة (راجع على سبيل المثال الصفحات ٧٨، ٩٧، ٩٨، ١٢٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٦، ١٨٩) ربما نهج أصحابها فى تعاملهم مع مقتبساتهم من الأصول نهجاً انتقائياً، يأخذون ما يتواءم مع أفكارهم المسبقة وانتماءاتهم ويتركون ما عداه.

الكاتب.. إلى ذلك يتطرق إلى موضوعات معينة، استغرقت مساحات واسعة من كتابه، وكان الأجدى له أن يأتى عليها باختصار، أو أن يشير إليها من بعيد، فموضوعنا هو الرق بالمعنى الفنى الدقيق لهذا المصطلح، وهذه الموضوعات وإن تقاطعت فى أحيان مع موضوعه، إلا أنها بذاتها موضوعات مستقلة، مثل الزواج والطلاق والمرأة والأسرة وطبقات المجتمع وأمراضه من تمييز واضطهاد دينى وبغاء واغتصاب ولواط وما إلى ذلك. وإذا سار المؤلف على هذا النهج فى السفر الثانى من كتابه، لاتسع موضوعه ليشمل الاستعمار الذى هو فى جوهره استغلال الإنسان للإنسان، مثلما الرق هو استغلال الإنسان للإنسان.

يتعسف المؤلف أحياناً فيأتى بظواهر، لا ندرى مدى علاقتها بظاهرة الرق، مثل قتل بعض خاصة الملك لدى موته فى بلاد الصين، وحرق المرأة لدى موت زوجها فى بلاد الهند، ووأد البنات فى بلاد العرب قبل الإسلام، فالظاهرتان الأولى والثانية مصدرهما عقائد دينية، والظاهرة الأخيرة مصدرها الفقر ومغبة العار، ولا علاقة مباشرة بين هذه الظواهر وظاهرة الرق.

لدينا ملاحظة أخرى تختص بموارد المؤلف من تشريعات ومجموعات قانونية، ومع أن التشريع لا ينفصل عن المجتمع الذى أنتجه، خصوصاً إذا ما كان تطوراً لأعراف سادت قبله، إلا أن التشريعات شأنها شأن الفقه، تعبر فى المحل الأول عما كان يجب أن يكون من وجهة نظر واضعيها، ولا تعبر بالضرورة عما كان كائناً بالفعل، لذا كان من الواجب على المؤلف أن يقتصد فى اعتماده على التشريعات، أو أن يدعم ما انتهت إليه هذه التشريعات بمواد وردت فى المصادر التاريخية المتاحة، وهو ما نحا إليه فى أحيان وعدل عنه فى أحيان.

ولا ندرى لماذا لم يعاود المؤلف الأعمال الأدبية التى تنتمى إلى المرحلة التى يؤرخ لها، فالأدب. لا مشاحة. مورد مهم من موارد التاريخ، وكان فى إمكانه أن يجد فى الأدب اليونانى وفى غيره من آداب الأمم القديمة مادة وافرة تفيده فى موضوعه.

أخيراً ينسى الكاتب سبباً مهماً لاستكانة الرقيق فى غالبهم، وعدولهم عن الإباقة وعدولهم كذلك عن الثورة.. هذا السبب يكمن فى أن الرقيق وقبل أى شىء إنسان، والإنسان. أى إنسان. لديه ميل فطرى إلى الانتماء. ولما كان الرقيق فى غالب الأحوال قد اقتلع من وطنه صبياً صغيراً، أو ولد فى الأسر خارج هذا الوطن، فإنه لا يعرف وطناً غير وطن سيده، وأياً كانت المعاملة التى يتلقاها منه، أى من سيده، فإنه كان يشعر على نحو أو آخر بأن لا بديل له عنه، بل إنه عندما يتم تحريره، فعادة ما كان يتقبل علاقة الولاء برحابة صدر، انطلاقاً من هذا الميل الفطرى إلى الانتماء. وفى التاريخ حكايات عن وفاء العبيد (ثم الموالى) لسادتهم أكثر من حكاياته عن غدرهم بهم ونكولهم عنهم.

تحية لكاتبنا فى سفر كتابه الأول، وأملاً متجدداً فى سفر كتابه الثانى. ■

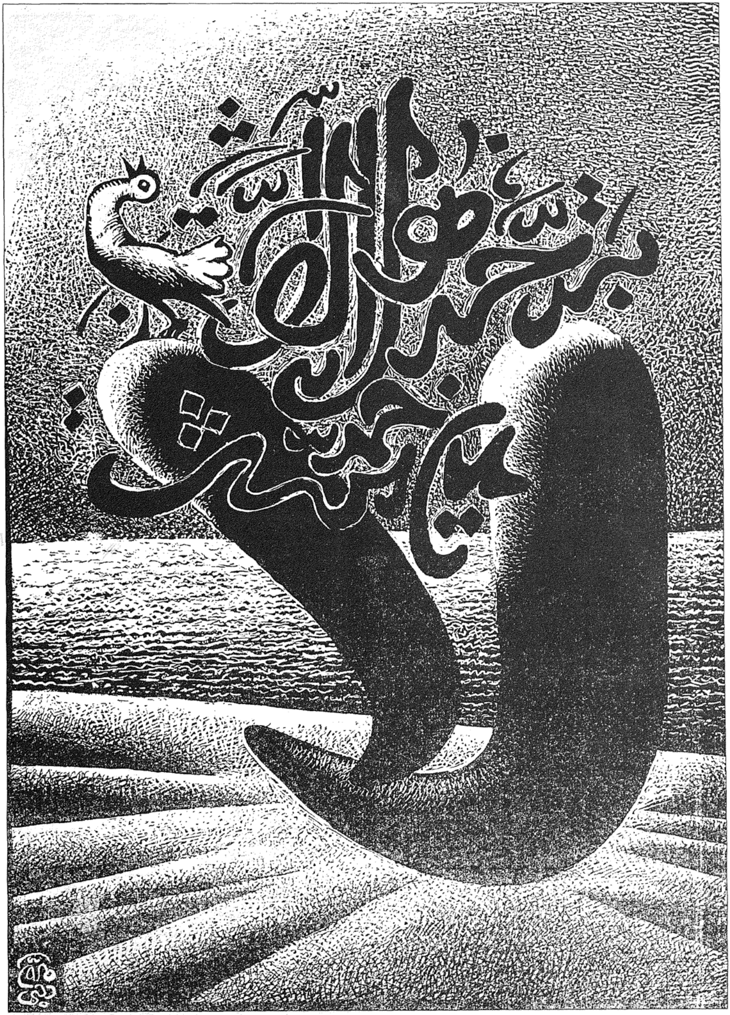
كتاب الزاوية

٣ - حياتى

أسباب ضعف المسلمين

تعرضت مرة وأنا فى السنة الثالثة لحادث خطير كاد يفصلنى من المدرسة التى لم أدخلها إلا بعد عناء. ذلك أنه أقيم سنة ١٩١٠ احتفال فى المدرسة لعيد رأس السنة الهجرية، وعهدت إلىّ لجنة الاحتفال اختيار موضوع، فاخترت «أسباب ضعف المسلمين» وبنيت محاضرتى على أن أسباب ضعفهم ترجع إلى شيئين رئيسيين: الأول فساد نظام الحكم فى البلاد الإسلامية وما جرّه ذلك من ظلم للرعية وعسف بحريتها، واستغلال الحكام لمالها وتسخيرهم قواها لملاذهم الشخصية، والثانى رجال الدين فقد شايعوا الحكومات الظالمة وأيدوها، وتآمروا معها وبثوا فى نفوس الشعب الرضا بالقضاء والقدر والاعتماد على نعيم الآخرة إذ حُرموا نعيم الدنيا. كل هذا أضعف من نفوس المسلمين وأذلهم وأنهك قواهم، ولا أمل فى صلاحهم إلا بصلاح رجال الحكومة ورجال الدين إلخ.

فلما أتممت الخطبة دوى المكان بالتصفيق، ولكن راعنى أن استدعانى عاطف بك إلى جانبه، وقال لى: هل جننت؟ أمثل هذا يقال؟ وطلب منى المحاضرة فسلمتها إليه ورأيته يسر إلى الشيخ الخضرى كلاماً، فيقوم يعقب علىّ ويقول إن المحاضر - بالطبع - يقصد الحكومات الماضية ورجال الدين الماضين، أما الحكومة الحاضرة فلا مأخذ عليها، وهى العادلة الحازمة، وهى التى رعت مدرسة القضاء وأنفقت عليها وعلمت طلبتها وغمرتهم بالخيرات، وأما رجال الدين اليوم فمثال للنزاهة والطهر والرقى.



هل هانت علينا لغتنا الجميلة؟

شهادتان ونبوءتان

هل كان شاعر النيل «حافظ إبراهيم (١٨٧٢ . ١٩٣٢) يستقرئ المستقبل، ويرى بعين الغيب ما سوف يحدث بعد مائة عام، عندما نشر فى عام ١٩٠٣ قصيدته «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها»، مقدمًا شهادته على واقع هذه اللغة، وما أصابها من ضعف وهوان على ألسنة أهلها وأقلامهم، وعينه على لغة الصحافة أو الجرائد. بحسب تعبيره. وما امتلأت به من «مزالق»، وكيف سرت «لوثة الإفرنج» فى اللغة المرقعة التى كان يستعملها الناس فى زمانه، مستهل القرن العشرين؟ وهل كان على حق فى كل انتقاداته، وفى غضبته الهائلة وهو يقول:

رجعت لنفسى فاتهمت حَصَاتى[1]
وناديت قومى، فاحتسبتُ حياتى[2]
رمونى بعقم فى الشباب، وليتنى
عقمتُ فلم أجزع لقول عداتى[3]
ولدتُ، ولَمّا لم أجد لعرائسى
رجالاً وأكفاءً وأدتُ بناتى
وسعتُ كتاب الله لفظًا وغاية
وما ضقتُ عن آى به وعظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصفِ آلة
وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ؟

ثم يجئ بيته الجميل، المحكم الصياغة، الذى اتخذته شعارًا لبرنامج «لغتنا الجميلة» منذ سبعة وثلاثين عامًا:

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى؟

وفى الديوان أيضًا: فهل سألوا بدلاً من فهل ساءلوا

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى
ومنكم إن عزّ الدواءُ أُساتى[4]
فلا تكلونى للزمان فإننى
أخاف عليكم أن تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزًا ومنعةً[5]
وكم عزّ أقوام بعز لغاتِ
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننًا
فيا ليتكم تأتون بالكلماتِ

حتى نصل إلى قوله وهو يشخص الواقع السيئ والحال المتدنية للغة العربية فى زمانه:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقًا[6]
من القبر يدنينى بغير أناةِ[7]
وأسمع للكتاب فى مصر ضجةً
فأعلم أن الصائحين نُعاتى[8]
أيهجرنى قومى . عفا الله عنهمو .
إلى لغة لم تتصل برواةِ
سرت لوثة[9] الإفرنج فيها كما سرى
لعابُ الأفاعى[10] فى مسيل فرات[11]
فجاءت كثوبٍ ضم سبعين رُقعةً
مُشَكّلة الألوان مُختلفات

ثم يتجه حافظ إبراهيم بندائه الأخير . من أجل إنقاذ اللغة وبعثها من مواتها . إلى معشر الكتاب وإلى الجمع الحافل أى المجتمع كله، قائلاً:

إلى معشر الكتاب والجمع حافل
بسطت رجائى بعد بسْط سكاتى
فإما حياة تبعث الميت فى البلى
وتنبتُ فى تلك الرموسِ[12] رُفاتى
وإما ممات لا قيامة بعده
ممات لعُمرى لم يُقس بمماتِ

ولم يقتصر الأمر . فى التنبيه والتحذير والالتفات إلى واقع اللغة العربية . على صيحة شاعر النيل حافظ إبراهيم، فقد دخل معركة اللغة العربية شاعر القطرين خليل مطران (١٨٧٢ . ١٩٤٩) بعد أكثر من عقدين من الزمان، من خلال نصين شعريين أولهما يحمل عنوان: «عتب اللغة العربية على أهلها، وقد آثروا عليها اللغات الأخرى، إنها تستجير بالدكتور «طه حسين بك».

يقول مطران متحدثًا باسم اللغة العربية كما فعل حافظ إبراهيم:

سمعت بأذن قلبى صوت عتب
له رقراق دمعٍ مُستهلٍ
تقول لأهلها الفصحى: أعدل
بريكمو اغترابى بين أهلى
ألست أنا التى بدمى وروحى
غَذت منهم، وأنمت كل طفل
أنا العربية المشهودُ فضلى
أأغدو اليوم، والمغمور فضلى؟
إذا ما القوم باللغة استخفوا
فضاعت، ما مصير القومِ؟ قُلّ لى
وما دعوى اتحاد فى بلاد
وما دُعوى ذمار[13] مُستقلٌ
فساد القول فيه دليلُ عجزٍ
فهل معه يكونُ صلاح فِعلِ؟
بُنياتُ الحمى أنتن نسلى
فإن تُنكرننى أتكنَّ نسلى؟
ويا فتيانه إن أخطأتنى
مبرتكم، فإن الثكل ثُكلى
يُحاربنى الأولى[14] جحدوا جميلى
ولم تردعهمو حُرساتُ أصلى
وفى القرآن إعجاز تجلت
حلاى[15] بنوره أسنى تجلٍ
وللعلماء والأدباء، فيما
نأت غاياته مَهدت سُبلى
إذا ما كان فى كلمى صعابٌ
فلا تأخذ كثيرى بالأقل
وهل لغة قديمًا أو حديثًا
تعد بوفرة الحسنات مثلى؟

ويغير مطران من قناعه الشعرى متحدثًا بأم اللغات العربية ليصبح صوتًا ثانيًا يخاطب اللغة، ويطمئنها إلى أبنائها الميامين الذين يهبون لنصرتها والحفاظ عليها، وفى طليعتهم «طه» أى الدكتور طه حسين الذى يضربه مثالاً لمهيئى النهضة وباعثى الروح فى شباب العصر. يقول مطران:

فيا أم اللغات عداك منّا
عقوق مَساءة وعقوق جهلِ
لكِ العودُ الحميدُ، فأنت شمسٌ
ولم يحجب شعاعَكَ غيرُ ظلٍّ
دعوتِ فهب من شتى النواحى
ميامين أولو[16] حزمٍ ونبلِ
برأيٍ فيك يكفل أن تردى
مُكرّمةً إلى أسمى تحلٍّ
يُنور شعرهم فى كل واد
ويزهر نثرهم فى كل حقلِ
و«طه» فى طليعة من أجابوا
يهيئ نهضةً فى المُستهلٍّ
بموفوريه[17]: من أدب وفن
ومذخوريّه[18] من عقلٍ ونقلِ
يفيض كما يفيض النيل خصبًا
ويحيى الحرثَ فى حزن[19] وسهلِ
ويبعث فى شباب العصر رُوحًا
هو الروح الذى يبنى ويُعلى
إذا ما حاول الفرسان جلّى[20]
وخلف شقة[21] دون المُصلى[22]
فكيف به إذا ماشن حربًا
على بدع[23] الضلول أو المُضلٍّ

فما الذى أراده هذان الشاعران الكبيران؟ وهل هاتان الشهادتان مقبولتان على علتيهما؟

من الواضح أنهما متفقان على ما يمكن تسميته باغتراب اللغة أو غربة اللغة بين أهلها. الأمر الذى يذكرنا بقول المتنبى . شاعر العربية الأكبر . فى وصف حاله وهو يخترق شعب بوان فى بلاد فارس.

ولكن الفتى العربى فيها
غريب الوجه واليد واللسان

هذه الغربة التى يحذر منها الشاعران مصدرها شيوع كلمات أجنبية فى جسم اللغة العربية، أو ثوبها كما قال حافظ. وهى بالتأكيد ألفاظ الحضارة الحديثة أو ألفاظ الحياة العامة ومصطلحات العلوم التى لم يكن من استخدامها بُد حين يتعذر المقابل العربى. وحافظ يركز على لغة الجرائد باعتبارها «المزلق» ومنطقة السقوط والزلل، فى شيوع هذه الكلمات ودورانها فى الاستعمال. وهو يطلق على الظاهرة «لوثة الإفرنج»، ولو كان بيننا الآن لوجدها . أى الظاهرة . أوسع شيوعًا وأكثر ترددًا وانتشارًا، نتيجة لانفجار المعرفة وحلول عصر العلم، وامتلاء الصحف . وأجهزة الإعلام جميعًا . بالجديد من الكلمات والمصطلحات والتعابير.

ومادامت اللغة قد اتسعت للبيان القرآنى وإعجازه، فهى . فى رأيه . غير عاجزة عن وصف الآلات وتنسيق الأسماء للمخترعات. ونسى حافظ، كما نسينا نحن، أننا لن نفرض أسماءنا على هذه المخترعات إلا إذا كانت من صنعنا وابتكارنا نحن. وما دمنا لا نخترع شيئًا، ولا نضيف إلى كتاب العلم المعاصر شيئًا . كما أضاف السلف العظيم فى الماضى . فستبقى مشكلات تعريب ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم قائمة حتى يوم القيامة!

بينما يبدو شاعر القطرين خليل مطران، أكثر وعيًا وإدراكًا لحقيقة تطور اللغة، وتغير معجمها، واتساعها لنهضة مواتية يصنعها أبناؤها الميامين من الكتاب والمبدعين. وحين يضرب مثلاً بالدكتور طه حسين، فإنه يكشف عن نزعته المستقبلية، وعن ثقته فى أمثال طه، من أنهم . وهم أصحاب الأساليب . هم الذين يطورون اللغة ويُحيونها، متكئين على ثقافة تراثية أصيلة مستنيرة هى ثقافة النقل، ووعى عصرى منفتح على تطور المجتمعات والأمم وثقافات الآخرين هو وعى العقل، وبالنقل والعقل معًا يتحقق مشروع النهضة اللغوى كما يراه مطران. ولا شك أن ثقافة مطران الغربية . والفرنسية على وجه الخصوص . كانت وراء نظرته المتقدمة كثيرًا على نظرة حافظ، وإن كان حافظ يظل صاحب الطلقة الأولى، والتحذير

الأول، الذى سار فى غباره كثيرون فى طليعتهم مطران.

ويُفصح مطران عن توجهه التجديدى فى النظرة إلى اللغة، وعن نزعته إلى التطوير والتحديث، فى مناسبة شعرية أخرى، يكشف فيها عن جملة رأيه فى وضوح ساطع وتحديد قاطع حين يقول تحت عنوان: «فى تقدم اللغة العربية والعيب فى الجحود»:

ماذا يريد من الحقيقة مُسقط
تكليفها عن نفسه بتوهم
ماذا يريد من المعالى نائم
والنجم مزدهر لغير النومِ
لنعش معاش زماننا، ولننتهز
فُرص النجاحِ نفُز به أو نَسلمِ
لن ترجع العربية الفصحى إلى
ما كان منها فى الزمان الأقدمِ
ما لم يعد ذاك الزمان وأهله
والعاد والأخلاق حتى جُرهمِ
للجاهلى لسانُه، ومن الذى
ينقى من الفصحى لسان مُخضرم؟
إن التجدد للسان حياته
ومن الذى يحييه غير المُقدمِ؟
فى عصرنا للضاد فتح باهر
فريدت به فخراً، فهل من مأثم؟
من فَرق الأخوين يستبقان من
طُرق لرفعتها أليس بمجرم؟

هنا مطران العصرى، الذى يطلق شعار: لنعش معاش زماننا، مذكراً بأن للجاهلى لسانه ولنا ـ نحن أيضاً ـ لساننا وكأنه يصنع صنيع بعض اللغويين المعاصرين وهم يفرقون فى مستويات الفصحى بين مستويين رئيسيين، تراثى، مثله الأعلى فى الماضى، وصفاته صفات الفصحى التقليدية القديمة، وعصرى أو معاصرة مثله الأعلى فى المستقبل، وصفاته متجددة لأن التجدد للسان حياته . فى رأى مطران . الذى يرى أن عصره عصر فتح باهر للضاد، فريدت به فخراً، فمن الذى يؤثم هذا الازدهار أو يعترض عليه؟

المبدعون هم صُناع اللغة:

فى سياق هاتين الشهادتين وهاتين النبوءتين لشاعرين كبيرين ومبدعين عظيمى المكانة والتأثير. والمبدعون هم صُناع اللغة الحقيقيون لا علماء اللغة. نجد شهادات متتابعة للدكتور طه حسين نفسه، الذى اعتبره مطران نموذجا وقدوة، وهو يتحدث عن الأدب العربى. إبداع اللغة العربية الحقيقى. وعن خصائصه وسماته وما ينبغى له حتى يستمر فى محافظته على هذه الخصائص والسمات حين يقول: «فأدبنا العربى لا يُهمل الأسماع إهمالاً قليلاً أو كثيراً، وإنما يُعنى بها أشد العناية، فهو أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدباً مكتوباً مقروءاً. وهو من أجل هذا حريص على أن يلذ اللسان حين ينطق به، ويلذ الأذن حين تسمع له، ثم يلذ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تُصغى إليه»(٢٤).

ثم يضيف الدكتور طه حسين: «وليس أدل على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يُعنوا بشىء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقة الأسلوب ورصانته. وقد جعلوا الإعراب واصطفاء اللفظ والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسر على اللسان نطقه، ويزين فى الأذن وقعه، أساساً لكل هذه الخصال».

وتستوقف العالم اللغوى الدكتور إبراهيم أنيس. رائد الدراسات اللغوية الحديثة. ظاهرة «الجرس» فى اللغة، واهتمام القدماء بها، وحرصهم عليها فى إطار عنايتهم بموسيقى الكلام، فيقدم تفسيراً هو بمثابة شهادته فى كتابه «دلالة الألفاظ» حين يقول: «عنى العرب القدماء بموسيقية الكلام، لأنهم لم يكونوا أهل كتابة وقراءة، بل أهل سماع وإنشاد. والموسيقى لازمة لمن يصغى فيحسن الإصغاء، أو ينشد فيحسن الإنشاد ويستحوذ على الأسماع. فهى إذن لغة أذن وليست لغة عين. ولغة الأذن تخاطب دائماً الجوانب الموسيقية فى النفس وتعتمد على الجرس: جرس الكلمة واللفظة، وجرس الجملة أو العبارة. ومن هنا كانت المحسنات اللفظية والبديعية، وكان السجع: السجع اللفظى والسجع الذهنى، فى مجتمع تسوده الأمية، وينتقل فيه التراث من جيل إلى جيل بالرواية والرواة.

والدكتور إبراهيم أنيس يسوق أمثلة من بين شعراء تراثنا العربى لمن تجسدت فى إنتاجهم هذه الخاصية الموسيقية فيقدم تحليلاً لشعر الأعشى (صناجة العرب) وأبى العلاء المعرى (صاحب اللزوميات). ثم يؤكد أن الذين حرموا نعمة الإبصار من الأدباء والشعراء يكونون عادة أكثر اهتماماً بإبراز الجوانب الموسيقية. فهم يعنون بجرس الألفاظ ووقعها الموسيقى، وكثيراً ما تشغلهم موسيقى الكلام عن مراميه وأهدافه، فيغمرون المعنى القليل بفيض من الألفاظ والعبارات المتكررة ذات المعنى الواحد أو المتشابه فى الدلالة».

ولم يكن أديبنا الكبير يحيى حقى بعيداً عن هذا كله، وهو يطلق دعوته المدوية فى كتابه «خطوات فى النقد» عن «حاجتنا إلى أسلوب جديد» منادياً بما أسماه بالأسلوب العلمى الذى يعتمد على تحديد المعانى، ومن ثم اختيار ألفاظ محددة لها. ألفاظ حتمية، بحيث لا يكون المكان صالحاً إلا للفظ واحد، ويتعذر أن يُستبدل به لفظ آخر. فإذا فعلنا ذلك أزلنا دفعة واحدة. عن أسلوبنا . كل علل الزيف والتبرج الفارغ والتزويق الذى لا طائل تحته».

وفى رأى يحيى حقى أنه متى تحددت الألفاظ وأصبحت حتمية، زال الاستطراد، وعيب الإضافة، ومال الأسلوب إلى الجمل القصيرة التى ترتبط برباط ذهنى لا لفظى، فتقل بذلك الزيادات. وهى عوائق لا داعى لها . من كثرة حروف العطف فإن سير الذهن فى الأدب ليس خطواً متتابعاً رتيباً. بل هو توثب يفرض على ذهن القارئ توثباً مثله يخرجه من سكون إلى حركة، وسنخرج أيضاً من الإطالة والإفاضة إلى الإيجاز النبيل الكريم، وهو سر البلاغة فى العربية.

ويحيى حقى. فى هذه الشهادة العميقة الوعى والاستنارة. يؤكد أنه لا يقصد بهذا الكلام الأسلوب التلغرافى الذى نادى به آخرون (منهم سلامة موسى)، بل هو يتكلم عن الأسلوب الأدبى، الجمال من شروطه الأساسية التى لا غنى عنها، ولا يوجد فن بلا صنعة.

ثم هو لا ينكر موسيقية الأسلوب، إنه على العكس يتمسك بها، ويحرص عليها حرصاً شديداً. لكنه يقصد بها الموسيقى الهارمونية لا موسيقى الدفوف التى تعزف لحناً واحداً، هذه الموسيقى الهارمونية لها إيقاعات مختلفة لكل مجال فى النص الواحد، متشابكة، ولا يتمشى فيها من أولها إلى آخرها لحنها الأساسى الأوحد المتعدد الألوان، بحيث تستمد موسيقى الأسلوب لا من الأثر البدائى الآلى الذى يولد ويموت عند التلفظ بالكلمات والانبهار بأول رنينها، بل تستمد من روح الكاتب أو الشاعر من نفسه ومزاجه وشعوره، وفيضه وانطلاقه، هى موسيقى تسمو عن الأثر الساذج الفقير البسيط إلى لحن غنى أعمق متشابك، ينشأ بالتأمل الشامل والصبر، ستكون هذه الموسيقى فى حقيقة الأمر، وليس الألفاظ. مهما حذقت. المعبرة عن المعانى.

لقد جاءت دعوة يحيى حقى إلى



هل هانت علينا لغتنا الجميلة؟

نسى حافظ، كما نسينا نحن، أننا لن نفرض أسماءنا على هذه المخترعات إلا إذا كانت من صنعنا وابتكارنا. وما دمنا لا نخترع شيئاً، فستبقى مشكلات تعريب ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم قائمة حتى يوم القيامة!

أسلوب جديد، مستندة إلى ركائز أساسية فى رأيه، هى التحديد والحتمية والعمق، فى مواجهة ظواهر مرضية شائعة، هى الميوعة والسطحية والسذاجة. وهى بعض أمراض هذا الزمان، وبعض الظواهر السلبية فى واقعنا اللغوى الآن.

فى هذا السياق أيضًا، وهو سياق حافل، يأتى الهجوم الذى نشرته مجلة ديوجين مصباح الفكر التى تصدرها مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعاته (عدد ٥ مايو سنة ١٩٧٤) فى صورة بحث للأستاذ أنطوان مطر عنوانه: «اللغة العربية والظروف الحاضرة، وما ينتظر تحقيقه من آمال، فى مستقبل عالم المتكلمين بها». وقد ترجم هذا البحث إلى العربية الأستاذ على أدهم.

والاهتمام بهذا البحث وما يثيره من قضايا، من شأنه أن يكمل صورة اللغة العربية. فى عيون الكتاب والأدباء والباحثين والمبدعين واللغويين. ويضيف إلى الشهادات السابقة وثيقة حافلة بالانتقادات والسلبيات. فالباحث. أنطون مطر. يرى أن اللغة العربية ليست لغة حديثة، وهى لا تستطيع بحالتها الراهنة أن تستخدم باعتبارها وسيلة صالحة لثقافة تقدمية إنسانية، إلا بطريقة تعسفية. وأن الإعلام الجماهيرى. مثل الإذاعة والصحافة. قد أنقذها. فى تردد وجزئيًا. من جمودها. وذلك بأن أرغمها على قبول تطور إيجابى ولكنه ليس كافيًا، لأنه لا يؤثر إلا فى القليل، فى بعض ألوان الإنتاج الأدبى مع استبعاد المجالات العلمية والتقنية.

ويقدم البحث أسبابًا لعدم إمكان استعمال العربية، وهى أن لها طابعًا دينيًا، وأنه ليس للعرب لغة قومية علمانية، وأن العربية مرتبطة بالقديم فكأنها للتعبير عن التاريخ، وأن التطور الاجتماعى تجاوز العالم العربى. وهو يبنى على هذا أن العربية قد حرمت المصطلحات الفنية اللازمة لتقدمها، وأن وسائل الاتصال بالتقدمية الحديثة لا تتأتى فى مجتمع يكتب لغة لا يتحدث بها، أو يتكلم بعدة لهجات تنشأ عن لغات قومية لا تُكتب.

ومن أخطر ما يقدمه هذا البحث الانتقادى الهجومى إحصائية لليونسكو، يبين جدولها أن نسبة الإنتاج العلمى فى الإنجليزية ٢٢٪ وفى الفرنسية ٩٪ وما انخفض عنها موزع بين الإيطالية والإسبانية والصينية والإسكندنافية. فأما الإنتاج العربى فليس بشىء تقريبًا، والعربية ليست ذات إنتاج علمى له قيمة فى كل علم نظرى وتطبيقى وعلم اجتماعى بسبب بطء تقدمها.

نعيبُ لغتنا والعيبُ فينا

السهام. إذن. تنهال على اللغة العربية من أبنائها وأعدائها معًا. أما الأعداء فموقفهم معروف ومفهوم. لكن أبناء العربية وموقفهم من لغتهم الأم، أمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب. إذ يبدو أنهم لم يسمعوا بقول الشاعر القديم: نعيب زماننا والعيب فينا، وما لزماننا عيب سوانا، وعلى غراره يقال: نعيب لغتنا والعيب فينا. أما هذا العيب فأسبابه شتى وتجلياته لا تخطئها العين. نحن. أولاً. لم نقض على عار الأمية، لا فى مصر، ولا فى كثير من المجتمعات العربية، بالرغم من أن برامج مكافحة الأمية تعود إلى أربعينيات القرن الماضى فى مصر. وبالرغم مما تدعيه الدولة. ممثلة فى وزارة المعارف أو التربية والتعليم أو التعليم (أيًا كانت التسمية) فإن الأمية لاتزال عارًا وطنيًا وقوميًا. ولاتزال نسبة التسرب من التعليم الأساسى فادحة، وعجز المدارس عن استيعاب من يسمون بالملزمين فى مراحل التعليم الأولى قائمًا، بل إن هذا العجز فى تزايد، بالرغم من الإعلان المستمر عن خطط عاجلة لبناء مدارس جديدة. كيف نتوقع إذن وجودًا حيًا للغة العربية، واحترامًا لها واهتمامًا بها فى مجتمع يضم هذه الكثرة من الأميين؟

هذا عن «الأمية» بمعناها الشائع البسيط، أمية القراءة والكتابة فما بالنا بأمية ثقافية، ينتجها تعليم لا يؤدى إلى التثقيف ولا يحض عليه، لا يشجع على القراءة ولا يعتبرها مقومًا أساسيًا من مقوماته. وغاية ما يُحدثه مثل هذا التعليم. نتيجة لمناهجه وكتبه وطرق تدريسه ونوعية مدرسيه ومستوى إعدادهم وسوء اختيار نصوصه وموضوعاته. غاية ما يحدثه هذا النفور الذى نلمسه لدى النشء المتعلم من كل ما يتصل بالعربية من قريب أو بعيد، والانقطاع عن القراءة بالعربية، وإيثار القراءة بغيرها. إن أمكن. والرطانة. على سبيل التباهى. ببعض ما علق باللسان من مفردات هذه اللغة الأجنبية أو تلك. لن أشير بالطبع إلى مستوى ثالث من الأمية، هو ما يتصل الآن، بالعجز عن استخدام الكمبيوتر وشبكة الإنترنت، والدخول إلى عصر المعلوماتية والاتصال بمجالات المعرفة العالمية.

هى إذن مستويات ثلاثة من الأمية، لا ندعى. حتى الآن. أننا انتهينا من عار مستواها الأول، وتفرغنا لمستوييها الثقافى والمعلوماتى، وهو عار يمتد بنا ويلقى ظلاله على تعليم العلوم فى الجامعة، والعجز عن تعليمها بالعربية، كما فعلت كل الدول الحريصة على لغتها القومية، لأنها لغة الفكر، ولغة التعبير ولغة الإنجاز والإضافة فى مجال المعرفة الإنسانية وبدون تعليم العلوم وتعلمها بالعربية، ستبقى هذه الثنائية التى تعوق علاقتنا الحقيقية بالعلم، لأننا نقرأ ونتكلم فيه بلغة، ونفكر فيه بلغة، ونعبر المسافة بين اللغتين. فى عقولنا. عن طريق ترجمة ركيكة، تقرب إلينا الأشياء، بشكل سطحى وهامشى، ولا تجعلنا فى قلب لغة العلم الحقيقية، التى لابد أن تكون لغتنا القومية، التى نحسن امتلاكها، والإبداع بها، فى كل مجال.

ونتطلع إلى ما حولنا فى كل موقع. العاميات واللهجات المحلية تسعف الناس فى قضاء مصالحهم دون حاجة إلى «عنت» استخدام العربية الصحيحة. يحدث هذا فى الوزارات والمؤسسات والشركات والمصالح الحكومية وفى شئون الإدارة المحلية والأجهزة الشعبية. لا يتوقف أحد أمام لغة هابطة، أو استعمال خاطئ أو تعبير غير مناسب. واللغة التى أشاعها العسكريون فى مصر وفى كثير من البلدان العربية. منذ عام ١٩٥٢. لغة هشة حافلة بالأخطاء اللغوية والصرفية والصوتية. فضلاً عن جعل العامية. واللهجات المحلية. لغة للخطاب الرسمى، فى خطب الرؤساء والوزراء وكبار المسئولين، فى المواقف التى لم يكن يسمع فيها. فيما مضى. غير صوت العربية الصحيحة، فى أرقى صورها وأجمل مستوياتها، يوم كانت خطب الزعماء وكلماتهم وتصريحاتهم، ولغة القضاء والمحاماة، ولغة الكتاب والأدباء، ولغة الغناء والتمثيل. فى السينما والمسرح. لغة عالية المستوى، لا تهبط أبدًا إلى العامية المبتذلة أو السوقية، لأن الحرص على اللغة، والاهتمام بتجويدها، كانا من سمات الشخصية المصرية. المؤثرة فى الحياة العامة، والتى ينظر إليها. دومًا. باعتبارها القدوة والمثال.

اعتماد «العامية» و«اللهجات المحلية» لغة خطاب وطنى وقومى، فى المجالات السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية، أدى إلى منزلق خطير فى المستوى المتداول من اللغة، وهو مستوى عامية الأميين، ولغة السيم، التى تزحف بفجاجتها على الألسنة والأقلام، وتمتلئ بها حناجر المغنين، الذين يرددون كتابات نوعية «أمية» من مؤلفى الأغانى، أمية الوجدان والتثقيف والتكوين، وتصدمنا ونحن نستمع إليها فى الأفلام والمسرحيات والمسلسلات والإعلانات، باعتبارها فتحًا لغويًا يواكب العصر، وهو فى حقيقته فتح لأبواب التدنى والهبوط، لا يعبر إلا عن عصر يفتقد نخوة الكبرياء، والشعور الأصيل بالكرامة، فأدى به الهوان إلى هوان لغته، والتندر والسخرية مما كان. ذات يوم. نماذج رفيعة سامقة فى الشعر العربى والغناء العربى والفن العربى.

ونتطلع إلى ما حولنا أكثر وأكثر. التسميات الأجنبية تلاحقنا فى كل خطوة وفى كل مكان: المحلات، الفنادق، الشركات، المؤسسات، القرى السياحية، أماكن اللهو والمتعة، البرامج فى الإذاعات والتليفزيونات، كلها ترتدى زيًا أجنبيًا وتختفى تحت اسم أجنبى، إمعانًا فى الرقى والتقدم وجلبًا للوجاهة والمستوى الأرفع، والمسألة فى حقيقتها إحساس بالدونية، والنقص، والتخلف. ورغبة عارمة فى التزيى بزى الآخرين، لعلنا نصبح منهم، أو شبيهين بهم، أو أقرب ما نكون إلى رغباتهم وتوجهاتهم. ونسينا أن هؤلاء. الذين نقلدهم. عندما يأتون إلى بلادنا، فإن

لم يكن أديبنا الكبير يحيى حقى بعيداً عن هذا كله، وهو يطلق دعوته المدوية فى كتابه «خطوات فى النقد» عن «حاجتنا إلى أسلوب جديد» مناديًا بما أسماه بالأسلوب العلمى الذى يعتمد على تحديد المعانى، ومن ثم اختيار ألفاظ محددة لها

كتـــاب الـزاويـــة

٤ - حيـــاتى

النشـــوء والارتقـــاء

شغفت أيامًا بنظرية النشوء، والارتقاء لدارون، فقرأت فيها كتب شبلى شميل بالعربية، وبعض الكتب الإنجليزية التى تعرض للموضوع عرضًا مبسطًا. وأعددت محاضرتين فيهما ألقيتهما على طلبة مدرسة القضاء وبعض أساتذتها وبحضور ناظرها وكانت إحدى المحاضرتين فى معنى مذهب النشوء وما يرمى إليه، والثانية فى تطبيق نظرية النشوء على الأخلاق، كما اتجه إلى ذلك سبنسر وغيره، وأحدثت هاتان المحاضرتان دويًا: كيف يلقى مثل هذا الموضوع على طلبة القضاء الشرعى؟ وكان من نتيجته أن أرسل شيخ الجامع الأزهر إلى ناظر المدرسة يسأله: كيف أباح لمدرس فى المدرسة أن يلقى محاضرات فى مذهب الزنديق دارون؟ فأهمل الناظر السؤال ولم يرد عليه.

.. وقد أثر فىّ عاطف بركات ناظر المدرسة أثرًا كبيرًا من ناحية تحكيم العقل فى الدين، فقد كنت إلى هذا العهد أحكم العواطف لا العقل، ولا أسمح لنفسى بالجدل العقلى فى مثل هذه الموضوعات، فالدين فوق العقل، فإن جاء فيه ما لا يدركه العقل آمنا به، لأن علم الله فوق علمنا، وهو أعلم بما يصلحنا وما يضرنا، وهو يأبى إلا تحكيم العقل والبحث عما لا نفهم حتى نفهم، وكان له غرام بالبحث، وصبر على الجدل، وطول نفس فى المناقشة.. كان من أثر هذا الجدل الدينى أنى أعملت عقلى فى تفاصيل الدين وجزئياته، أما جوهر الدين من إيمان الله وجلاله وعظيم قدرته فظل ساكنًا فى أعماق قلبى لم ينل منه أى جدل ولم يتأثر بأى قراءة، وكل ما فى الأمر أنى صرت أكثر تسامحًا مع المخالفين، وأوسع صدرًا للمعارضين.



هل هانت علينا لغتنا الجميلة؟

عيونهم تتجه. أول ما تتجه. إلى الحسين والأزهر وخان الخليلى والفيشاوى والغورية والقلعة والآثار الفرعونية والقبطية والإسلامية والمملوكية وغيرها، لأنهم يريدون حقيقة مصر، لا الوجه الزائف المستعار الذى يفتّن فى صنعه أبناء الطبقة الجديدة من المستثمرين وأصحاب المشاريع. المتأوربين والمتأمركين . الذين يستخدمون قُبعة «لغوية» تلائم هذه النزعة المنافية لهوية مصر وروحها وميراثها الحضارى عبر العصور.

الوقفة القومية ضرورة:

لابد إذن. وهوان لغتنا الجميلة علينا قد بلغ هذا الحد. من وقفة قومية تقوم بها الدولة، إذا كانت واعية بأن التنمية اللغوية مدخل حقيقى لكل ألوان التنمية الأخرى: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبشرية. ولابد لهذه الوقفة القومية من «تشريع» ينص على الاهتمام بهذه اللغة، والمحافظة عليها، والحرص على استخدامها فى كل مجالات الدولة: فى الوزارات والشركات والمؤسسات والنقابات والإدارة المحلية والأجهزة الشعبية، فى الوثائق والتعاملات، والعلاقة مع الجمهور فى الداخل ومع الدول الأجنبية كما ينص على الارتقاء بها فى مجال الفنون المختلفة، وفى وسائل الإعلام، باتساع المساحة المخصصة للتعامل بالعربية الصحيحة، والبعد عن استخدام المستويات المبتذلة والهابطة من العامية.

ولا مفر من أن يكون تعليم هذه اللغة وتعلمها، باعتبارها لغة حية، مسموعة منطوقة، يجيد النشء المتعلم النطق بها، والتفكير به، والكلام بها، والتعبير بها، عودة إلى نظام الهوايات فى المدارس، يوم كانت حصة الهوايات مُناسَبةَ لممارسة اللغة الحية الصحيحة فى الصحافة المدرسية والتمثيل والخطابة والمناظرة وتشجيع الكتابات الأولى للموهوبين من الطلاب، وحثهم على القراءة الخارجية بالمسابقات والجوائز. ولا مفر من أن يستعيد الإنسان المصرى والعربى اعتزازه بنفسه ووطنه وهويته ولغته التى هى وعاء ذلك كله، نافضاً عنه كل ما يعيش فيه ويمارسه من صور الهوان، وما يتقبله من صور القمع والتنكيل وما يسكت عنه من صور التخلف والتغييب والتراجع. شجاعة العربية. التى نادى بها علماء اللغة الأولون. بحاجة إلى إنسان شجاع، ولا يمكن أن تتحقق إلا على يد قوم يمتلكون القدرة على المغامرة والاقتحام والتجديد. يقتحمون العصر ولا يتخلفون عنه، يتحاورون معه ويأخذون ويضيفون. يرفعون شعارات العلم والتقدم، واللغة العصرية التى تغتنى بالمعرفة الجديدة، ومخزون المعلوماتية، وثورة الاتصالات، ويتسع مَكْنزُها للجديد المنهمر فى كل يوم. عندئذ لن يكون حال كل منا كحال المتنبى فى بيته المشهور:

غريب الوجه واليد واللسان. فغربة الوجه ضياع وامتهان فى زحام الأجناس والشعوب، وغربة اليد فُقدان للطاقة والقدرة والإمكانية، وغربة اللسان هى هذا الذى نعانيه ونحس بوطأته وندعو إلى مواجهته والتصدى له، ونحن نتساءل بصوت مسموع: هل هانت علينا لغتنا الجميلة؟ وأولى بنا أن نقول: هل هُنَا نحن على أنفسنا إلى هذا الحد؟ هذا هو السؤال! ■

الـــهـــوامـــش

(١) الحصاة: الرأى والعقل.
(٢) احتسبت حياتى: ادخرتها عند الله.
(٣) العِداة والعُداة بكسر العين وضمها: الأعداء.
(٤) الأساة: جمع الأسى، وهو الطيب.
(٥) المنعة: العزة والقوة والحماية
(٦) المزلق: مكان السقوط والزلل
(٧) أناة: التأنى والإبطاء
(٨) النعاة: جمع الناعى وهو من يخبر بالموت.
(٩) اللوثة: عدم الوضوح والإبانة.
(١٠) لعاب الأفاعى: سُمها
(١١) الفرات: الماء العذب
(١٢) الرموس: جمع رمس وهو القبر
(١٣) الذمار: ما تجب حمايته من وطن وحِمى.
(١٤) الأولى: أى الذين
(١٥) حلاى: بلاغتى وبيانى وجمالياتى
(١٦) أولو: أولو حزم: أهل حزم
(١٧) بموفوريه: بما يمتلكه من الأدب والفن الوفيرين
(١٨) مذخوريه: ما يختزنه من عقل ونقل (أى تراث وتجديد)
(١٩) الحزن: الأرض الصعبة.
(٢٠) جلَى: سبق وجاء أولاً
(٢١) شقةً: مسافة
(٢٢) المُصلى: من يجئ ثانياً فى الترتيب
(٢٣) البِدع: البدعة والضلالة
(٢٤) انظر كتاب: مع طه حسين لسامى الكيالى (سلسلة اقرأ . دار المعارف)


Three Men from Baghdad
Tales of Thieves and Robbers
New Horizons Award
Denys Johnson-Davies
The Companions of the Prophet Muhammad
The Jar Of Olives
Zaynab The Beautiful
On a Desert Island
The Cat and the Artist
The World's Greatest Traveller Ibn Battouta
Tales from Syria
SUNFLOWER BOOKS
Sebek The Lonely Crocodile
A Desert Adventure
The love story of Antar and Abla
Denys Johnson-Davies
The Magic Horse
Denys Johnson-Davies
The Acrobats of Marrakesh
Denys Johnson-Davies
The Two Abdullahs
Denys Johnson-Davies
Walid Taher
A Special Smile

المرأة.. وتأسيس

غالبيتهن شاميات.. وزوجات

سامية حبيب

إن الإطلالة. ولو العابرة. على التاريخ الأدبي العربي، يؤكد أن الإسهامات الإبداعية للمرأة في مختلف المجالات الأدبية تأخرت كثيراً، حيث لم تكن ملحوظة على نحو كاف إلا في الأونة الأخيرة.

لكن هذا الوضع لم يمنع ظهور أصوات نسائية متميزة وإن كانت نادرة وبخاصة في الإبداع الشعري، بقيت متناثرة ومتباعدة في صفحات التاريخ مثل صوت «الخنساء» التي اشتهرت بمرثياتها لأخيها «صخر» كما عرف الأدب العربي من الجواري والإماء والمحظيات في بلاط الخلفاء ورجال الدولة، مقطوعات شعرية غنائية إلى جانب المطارحات والمناظرات ذات الطبيعة العاطفية الحسية مع غيرهم من شعراء البلاط، ولقد عرفت هذه الأشعار طريقها إلى المصنفات الأدبية مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

ولكن مع بداية القرن العشرين، تغيرت أوضاع المرأة الاجتماعية تدريجياً تحت تأثير عملية الاحتكاك الحضاري لأوروبا وثقافتها، فتوالت الدعوات والأطروحات النظرية التي تحاول مجاوزة الظروف والملابسات التاريخية الموروثة بما شابها من تهميش لدور المرأة الاجتماعي واستلاب لحريتها، فطالبت الدعوات بحق المرأة في التعليم والعمل والمساواة بالرجل على المستوى الاجتماعي والسياسي.

وفي هذا الإطار مع التسليم باختلاف السياق التاريخي لدعوات تحرير المرأة العربية عن مثيلتها الأوروبية، صدرت الصحف والمجلات التي أعطت مساحات لهذه القضايا وما يرتبط بها من تفصيلات، ومن بينها مجلات شهرية وأسبوعية نسائية في اهتمامها وتوجهاتها وفي مادتها الأدبية، مما عمق الدعوات وطورها، وكان لها أثرها وتداعياتها في الواقع الاجتماعي الفعلي. فظهرت «عائشة التيمورية» كشاعرة متميزة، ومن الصحفيات والمفكرات كانت ملك حفني ناصف ومي زيادة واقترن اسم «نازك الملائكة» بحركة التجديد الشعري ومحاولات التمرد والثورة على القالب التقليدي الموروث للقصيدة العربية وتقنياته.

ومع بداية الخمسينيات اتسعت الرقعة التي ساهمت فيها المرأة بالإبداع في خريطة الحياة الأدبية وتعددت مجالات المساهمة، لتضيف إلى جانب الكتابة الصحفية والشعر والقصة والدراسات الجامعية، كتابة الدراما، فنجد المسرح المصري يشهد بين عامي ١٩٥٠م، ١٩٥٥م أول مسرحيات الكتابة العربية. وهي مرحلة متقدمة سبقتها مشاركة تامة في كل عملية الإنتاج المسرحي من تمثيل وإخراج وتلحين وغناء ورقص وغيرها من مظاهر انخراط الفنانة المصرية في المسرح.

إن الدور الثقافي للمرأة المصرية في المجتمع المصري مؤثر عبر مراحل التاريخ المختلفة، لكن الناظر بعين البحث لهذا الدور سيجد أن هذا الدور سار في خطوات تتأرجح بين الصعود والهبوط، بل أقصى الصعود وأدنى الهبوط، بحيث كانت مرحلة الكفاح والمثابرة لتحقيق منجزات تعقبها انتكاسات تهدم كل المنجزات، التي ما لبث أن قام جيل آخر لتحقيقها.

النشاط المسرحي الخاص (الأهلي):

إن مجال البحث في المسرح والتمثيل وكل الفنون المرتبطة بالعملية المسرحية في جانبها النظري، التأليف المسرحي والكتابات النقدية والمذكرات الفنية. تؤهلنا في جانبها العملي لدرس ما يخص كل عناصر عملية العرض المسرحي وجمالياته وتطورها.

وبالتخصيص تهتم هذه الدراسة بدور المرأة في هذا جميعه ليس بمعزل عن العناصر الأخرى، وخاصة الفنان المسرحي صاحب الإسهام الأول في وجود هذا الفن في الثقافة المصرية. ولكن التأكيد أن الفنان والفنانة كانا الأساس الذي قامت عليه فنون العرض في الشرق كله وهو أمر شاق البحث نظراً لاهتمام الأبحاث والدراسات والتوثيق طوال عقود طويلة بدور الرجال فقط في المسرح، بينما توارى في الظل دور المرأة. وهو دور كان مؤكد الوجود، لأن المسرح فن الحياة، منها يأخذ مادته ومشاعره وعناصر صراعه، فلم يكن من المنطقي إغفال طرف دون الآخر، بينما الطرفان كما خلقهما الخالق هما صانعا الحياة، بل المرأة هي سبب الوجود مانحة الحياة في الأساس.

إن التتبع التاريخي لدور المرأة في المسرح يبدأ من الفرق الأهلية والخاصة التي مدت جسور هذا الفن في الشرق بجهود فردية، واتخذت مساهمات الفنانات الأوائل على النحو الذي رصدته الدراسة.

اهتمت الأبحاث والدراسات والتوثيق طوال عقود طويلة بدور الرجال فقط في المسرح، بينما توارى في الظل دور المرأة. وهو دور كان مؤكد الوجود، لأن المسرح فن الحياة، منها يأخذ مادته ومشاعره وعناصر صراعه، فلم يكن من المنطقي إغفال طرف دون الآخر

١. المساهمة الأولى:

يعكس دور المرأة في المسرح المصري والعربي صورة متأرجحة ما بين صعود وهبوط، صعود إلى أعلى سلم المجد، هبوط إلى أسفل درك الفن. حتى نكاد نرى هذا التناقض يلف حياة المسرحيات لفاً كبيراً طول قرن وربع من الزمان منذ عرف العرب المسرح بالصورة الغربية له، تلك الصورة التي بدأت في الشام ثم انتقلت إلى الاسكندرية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وحتى وصل المسرح إلى القاهرة قادماً من الإسكندرية.

ففي المرحلة الأولى للمسرح في مصر عندما كان يعقوب صنوع يقدم مسرحياته على مسرح حديقة الأزبكية نجده يكتب عن عمل الفنانات معه في مسرحه وهما (ليزة وماتيلده) بعد أن علمهما بنفسه القراءة والكتابة والتمثيل في أقل من شهر ويقول (كان لظهورهما على المسرح رنة عظيمة، واستقبلهما الجمهور بتصفيق شديد وحياهما تحية حارة مما دعاهما إلى مواصلة التمثيل وحفظ أدوار أطول وأهم).

إن هذه العبارة التي يذكرها صنوع جرت عام ١٨٧٠، وقد واصل عمله مع هاتين الممثلتين كما يتضح من حادثة الخلاف مع الخديوي إسماعيل، والتي على إثرها أُغلق المسرح وهي حادثة مسرحية (الضرتين) حيث كانت تعارض تعدد الزوجات، كانت الضرتان امرأتي رجل واحد جعلتا منه زوجاً شقياً بغيرتهما ومطالبهما. وهو ما يعني أنه كانت هناك ممثلتان تقومان بدوري الزوجتين للزوج التعس، وفي مسرحية له تحمل اسم (البنت العصرية) تصوير مدى التقليد الأعمى للعادات الأوروبية من كل فتاة عصرية. وله أيضاً مسرحية (الأميرة الإسكندرانية) عن سيدة مصرية متفرنجة، فنجد أنها تيمات درامية تتطلب بالضرورة ممثلة مصرية مدربة للقيام بأدوار ذات أبعاد درامية كهذه الأدوار.

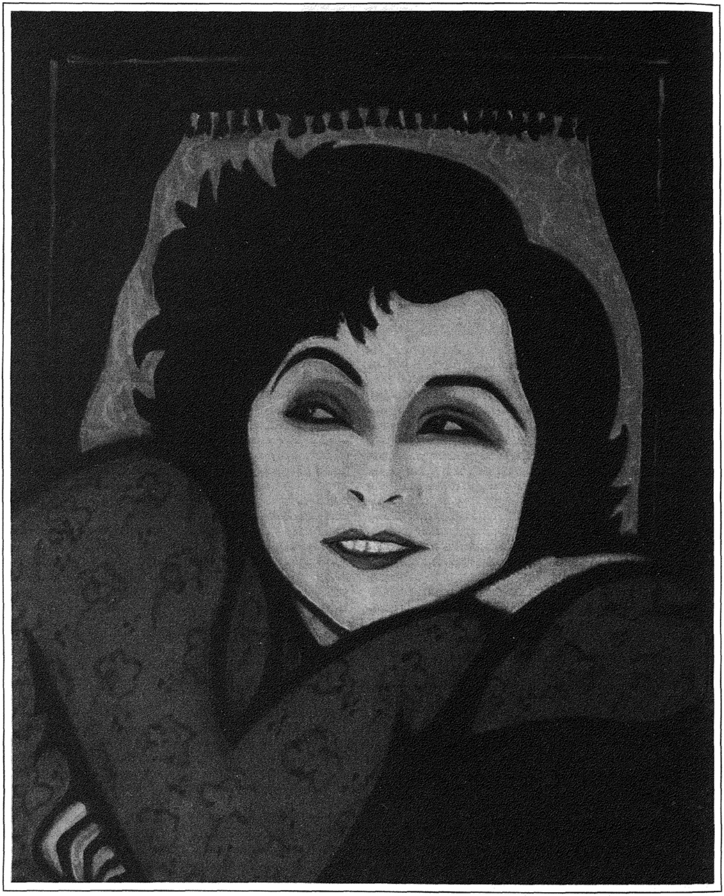
ونتقدم خطوة تجاه فرق أخرى لنجد فرقة يوسف الخياط (في فبراير من عام ١٨٧٩ تترك الإسكندرية وتأتي إلى القاهرة وتمثل الأوبرا رواية الظلوم وخصص دخل هذه الليلة للممثلة الأولى بالفرقة) وعلى الرغم من عدم ذكر أسباب حول هذا التخصيص هل كانت تمر بظروف تحتاج إلى المال أم كانت تشترط على الفرقة دخلا ماديا كبيرا أم غيرها من الأسباب؟ إلا أنها معلومة تدل على مكانة ما للممثلة الأولى داخل الفرقة.

وفي الفرقة نفسها نجد في تاريخ متقدم بضع سنوات وبالتحديد في ٢/٧/١٨٨٥ تقدم الفرقة مسرحية (شارلمان) للفنانين الشيخ سلامة حجازي وفتح الله الرياوي والممثلة هيلانة بيطار.

وفي فرقة أخرى هي فرقة أحمد أبو خليل القباني، نجد معلومة تقول (في أبريل ١٨٩٠ ذهبت الفرقة لتقديم عروضها في المنيا بعد أن ضمت إلى أعضائها الممثلتين الشقيقتين مريم ولبيبة سماط).

واسم مريم سماط سوف يستمر معنا لمدة خمسة وعشرين عاماً، كما سوف تكتب في مذكراتها التي سنتوقف عندها بعد قليل بصفتها أول مذكرات لممثلة مع الثقافة العربية ككل.

وتصفها المراجع بأنها (من أولى الممثلات اللاتي ظهرن



بورتريه «فاطمة رشدى» لوحة زيتية للفنان حلمى التونى من معرض «وجوه جميلة من زمن جميل» ١٩٩٨

المسرح العربى



على المسرح فكانت جميلة رشيقة القوام قوية الصوت سليمة العبارة. اضطلعت بأدوار البطولة فى أغلب روايات الشيخ سلامة حجازى، وقامت بدور تسباو أم هملت ومارى تيودور وغيرهما). وقد استمر عملها حتى ساهمت فى وجود أول فرقة تقوم على يد ممثل متعلم وهو چورچ أبيض (ولمّا كوّن أبيض فرقته الأولى كانت هى ممثلة الفرقة الأولى وقامت فى رواية الافتتاح (أوديب ملكا) بدور الملكة چيوكاست فأدته كأقوى الممثلات فى الغرب).

إننا إن توقفنا حتى عام ١٩١٥، نجد أن ممثلات الرعيل الأول كن كما تذكر المراجع:

١. من أصول غير مصرية غالباً شامية.

٢. من ديانة غير إسلامية، منهن يهوديات ومسيحيات غير مصريات أيضاً ويتضح ذلك من أسمائهن.

٣. عدد الممثلات العاملات بالفعل لم يكن كبيراً، بل كان عدداً محدوداً فى أسماء بعينها كن ينتقلن بين الفرق، لعدم وجود غيرهن.

٤. من الواضح أن الممثلات الأوائل كن يؤدين أدواراً محددة، أى لم تكن الموهبة أو الدراسة غير المتوفرة تؤهلهن لتنوع وتعدد الأدوار، فنجدهن ذكرن فى المراجع بنوعية معينة من الأدوار، فحتى عام ١٩١٥ نجد الممثلات اشتهرن بأدوار محددة:

- مليا ديان: إجادة الإلقاء والشعر.
- لبيبة مانيلى: أدوار الدراما والتراجيدى.
- مريم سماط: أدوار الملكات.
- هيلانة سماط: الأدوار البسيطة الساذجة.
- لطيفة: أدوار المزاحمات.
- وردة هيلان: أدوار الملكات والعجائز.

أما عن الوضع الاقتصادى فنجد رواتب الممثلين تتراوح بين (١٥٠) قرشاً و(٧٥٠) قرشاً فى الشهر، فى حين نجد رواتب الممثلات تتراوح بين (٣٥٠) قرشاً وعشرين جنيهاً.

أى أن العائد الاقتصادى للنساء الفنانات يزيد كثيراً عن الرجال ولم يوضح المرجع أسباب هذا التفاوت الكبير. هل يعود هذا إلى ندرة العنصر النسائى مع أهمية ذلك فى عملية الإنتاج المسرحى ككل، أم يعود ذلك إلى مراعاة تكلفة تحضير نفسها للدور، فهل كانت الممثلات يقمن بإنتاج ملابس أدوارهن أم هناك أسباباً أخرى؟!؟

ونجد فى أحد المراجع معلومات عن أجر الممثلات والممثلين فى فرقة چورچ أبيض حتى عام ١٩١٧، قد تلقى لنا مزيداً من الأضواء حول الوضع الاقتصادى لفنانة المسرح (ولما التحق عزيز عيد بفرقة جورج أبيض تقاضى أربعة عشر جنيهاً شهرياً، وتقاضت روزاليوسف اثنى عشر جنيهاً مثل زميلاتها اللائى كن أكبر منها سناً وخبرة، وهن نظلة مزراحى (١٢ جنيهاً) وألمظ وأختها إبريز ستاتى، ومريم سماط (١٠ جنيهات)، وإستر شطاح (٨ جنيهات)، وسارينا إبراهيم (١٠ جنيهات)، وزكية إبراهيم (٨ جنيهات) باستثناء واحدة هى ميلياديان التى تتقاضى خمسة وعشرين جنيهاً).

من الواضح من هذا أن أجر الممثلات كان يخضع للخبرة والأقدمية فى المهنة عامة والفرقة بصورة خاصة، فنجد ملياديان وهى من الممثلات اللاتى بدأن العمل منذ مطلع القرن العشرين تحصل على أعلى أجر، ويذكر أن روزاليوسف حصلت على أجر مماثل لمن هن أكبر منها سناً، مما يعد الأمر سابقة غير معمول بها فى نظم الفرق.

أجـر الممثـلات كان يخضـع للخبـرة والأقدميـة فى المهنـة عـامة والفـرقة بصـورة خاصـة، فنجـد ملياديان وهـى مـن الممثـلات اللاتـى بـدأن العمـل منـذ مطـلع القـرن العشـرين تحصـل علـى أعـلى أجـر

أما عن علاقة هذه الأجور بأجور الممثلين من الرجال، فنجد حسبما يرد من المرجع نفسه أنه كان راتب زكى طليمات ١٢ جنيهاً، وعباس فارس وعبد الوارث عسر وعبد العزيز خليل وأحمد فهيم مثله؛ أى أن هناك تفوقاً للممثلات المخضرمات أو نجمات الفرقة فى المرتب على زملائهن الرجال.

٢ـ تبــادل الأدوار:

إن دراسة تاريخ التمثيل فى المسرح المصرى منذ الثلث الأخير من القرن الثامن عشر وحتى الثلث الأول من القرن التاسع، يقدم لنا ظاهرة جديرة بالتوقف والبحث وذلك لأن السيدات والأنسات المصريات لم يقمن بالتمثيل على خشبة المسرح فى هذه الحقبة. فقد ظل العنصر النسائى بعيداً عن المسرح خلال المرحلة الأولى من هذا العنصر حيث كان ظهور المرأة على المسرح ومطارحتها الغرام يعتبر خروجاً عن الدين والأخلاق، فكان يعهد بأدوار النساء إلى شبان صغيرى السن.

إن مريم سماط تؤكد هذا صراحة عندما تتحدث عن الفترة التى بدأت العمل بها فى أواخر القرن الثامن عشر تقول: (وكان يشتغل بالتمثيل فيها لذاك العهد جوقان عاملان أولهما تديره جماعة المعارف ويرأسها محمود أفندى رفقى والثانى جوق الرجل الجليل المرحوم أبى خليل قبانى. وكان يقوم بأدوار النساء فى كلا الجوقين شبان من الممثلين لم تظهر شواربهم لعدم إقبال الفتيات على التمثيل وقلة جرأتهن على الوقوف على المسارح).

تقدم مريم سماط سببين يجب وضعهما فى الاعتبار لكونها أقدمت على هذا العمل فى إطار هذه الظروف التاريخية التى أحكمت فيها التقاليد على إقبال الفتيات المصريات على التمثيل.

إلى جانب قلة جرأة الفتيات على مواجهة الآخر تلك المواجهة التى تأخذ شكل اللقاء والحديث مع الآخر الذى هو بالضرورة الرجل. فكيف تستطيع الفتيات فى ذلك العصر فعل هذا وهن من اختفين خلف حجاب من الملابس والمبانى أى البيوت ذات المشربيات التى لم يكن يسمح لرجال من الأغراب أو الأقارب أيضاً باختراقها.

فما بالنا ونحن نتحدث عن المسرح، حيث اللقاء بين الفتاة وعشرات من الجمهور الذى كان غالباً من الرجال. إن الأمر يبدو فى إطار ذلك العصر من الأمور المستحيلة.

لذا كان تمثيل الشباب أو الأطفال لأدوار الفتيات وارداً، أما الممثلات فكان الرجال يقومون بتمثيل أدوارهن أو يتم الاستعانة بالممثلة الشامية. ومن الحوادث الظريفة التى نقرأ فى إحدى الدراسات أن الموسيقار محمد عبد الوهاب كان أحد هؤلاء الأطفال فى تلك الفترة التاريخية فمسرحية الموت المدنى لفرقة عبد الرحمن رشدى ١٩١٧، تضمنت دوراً لفتاة صغيرة تدعى «أداة» فأسند هذا الدور إلى محمد عبد الوهاب وهو بعد لا يزيد على تسع سنوات، فكانوا يلبسونه فستاناً قصيراً زاهى الألوان ويربطون شعره بالأشرطة الحريرية.

ويبدو أن تبادل الأدوار بين الممثلين الرجال والممثلات المصريات السيدات قد استمر حتى نهاية العشرينيات على الأقل.

إننا نستمع إلى حديث الفنانة أمينة رزق عن بداياتها فى فرقة رمسيس التى بدأت بالفعل عام ١٩٢٣ فى مارس بالتحديد، تقول: كان أجرى أربعة جنيهات فى الشهر وكل أدوار الأولاد فى الروايات كانت من نصيبى.. وأذكر من هذه الروايات الولدان الشريدان وجاكى الصغير والبلياتشو، وتمثيل أدوار الرجال أو الصبيان فى ذلك الوقت لم يكن بدعة جديدة، فأول ممثلة أدت أدوار الرجال على خشبة المسرح منيرة المهدية عندما مثلت دور (وليم) فى رواية صلاح الدين، وقد أحدث قيامها بهذا الدور ضجة كبيرة فى الوسط المسرحى.. ثم جاءت بعدها روزاليوسف عندما قامت بتمثيل دور (ديفيد كوبر فيلد) فى رواية الذهب. فنجحت نجاحاً كبيراً، فتشجع من جئن بعدها من الممثلات على اقتفاء أثرها وجاءت بعدها فاطمة رشدى التى أدت دور الشريد فى رواية الشريدان والنسر الصغير.

إن حديث الرائدات عن تمثيلهن أدوار الرجال موجود فى أكثر من مرجع ورواية فتقول فاطمة رشدى فى مذكراتها عن قرارها تمثيل دور (قيس العامرى) فى مسرحية مجنون ليلى بعد أن اختلف الفنان عزيز عيد مخرج الرواية مع بطلها أحمد علام صاحب الدور فى الأصل، حول أحقية كل منهما فى أداء الدور أمامها، حيث كانت تمثل دور (ليلى العامرية)، فاتخذت القرار الجرئ الذى تقول عنه (فعلموا أننى أنا من سأمثله وعجبوا أولاً كيف تمثل (فتاة دور عاشق بدوى، ثم زال عجبهم عندما ذكروا أننى مثلت قبل اليوم هملت والنسر الصغير وروكامبول (..) وقامت زميلتى زينب صدقى أمامى بدور ليلى).

إن هذه الحقائق التاريخية تضعنا أمام صورة للمسرح المصرى تتواصل مع بدايات هذا الفن فى كل الثقافات تقريباً.

أولاً: تم إسناد أدوار المرأة إلى ممثلين رجال وهو ما حدث من قبل فى (المسرح الإفريقى والإيزابيثى والمسرح الدينى فى العصور الوسطى، حيث يتنكر الرجال فى أثواب النساء ويتحدثون بصوتهن). وهو ما حدث بالفعل فى المسرح المصرى.

ثانياً: تمثيل الممثلات الأوائل لأدوار الرجال فى بداية ظهورهن على خشبة المسرح وهو ما ذكرته المراجع عن منيرة المهدية وروزاليوسف وفاطمة رشدى وأمينة رزق وربما غيرهن ممن سقطن من ذاكرة التاريخ. وهذا الأمر يحيلنا إلى تفسيرات متعددة، منها ظروف الإنتاج التى وضعت منيرة المهدية محل فنان رجل هو سلامة حجازى. ومنها الخوف من مواجهة التقاليد التى مازالت تمسك بزمام حياتهن، منها رغبة كامنة فى إثبات الذات والموهبة الفنية التى خلقتها رغبة تحدى التقاليد وتكسر ما تعارف منها



على منع المرأة من كثير من المهن والأعمال الفنية خاصة.

ثالثًا: تدعونا هذه الحقائق إلى النظر فى أمر الطرف الآخر من العملية المسرحية وهو الجمهور، إن تمثيل صبية لأدوار صبايا وتمثيل فتيات لأدوار رجال فى مسرحيات أمر استمر سنوات ليست قليلة، فكيف كان قبول هذا الجمهور لها؟

نستطيع أن نتبين من خلال استمرار هذا الوضع طوال سنوات قبول الجمهور وإلا توقفت الفرق والممثلات عن العمل. فهل يرجع هذا إلى تفهم الجمهور لما يشوب مسرحه من قصور نتيجة لظروف اجتماعية حكمت عصره. أم أن هذا الجمهور كان من الوعى، بحيث قبل الوهم المسرحى فى داخل اللعبة المسرحية بكل شروطها ولم يحاول أن يقلل من متعته الفنية التى كان يبحث عنها.

يقول جرجى زيدان عن جمهور الفرق المسرحية فى مطلع هذا القرن: (اضطر أصحاب هذه الفرق إلى تمثيل الروايات التى تلفت انتباه العامة وتسترعى أسماعهم، فوجدوا الجمهور يميل على الخصوص إلى الصوت المطرب والنكت المضحكة، فوجهوا عنايتهم إلى انتقاء أطرب المنشدين وتمثيل الروايات المضحكة، ثم أخذت هذه الفرق ترتقى تدريجيًا بارتقاء أذواق المشاهدين).

ولم يكن الجمهور من الرجال فقط، بل كان من النساء أيضًا خاصة جمهور فرقة الشيخ سلامة حجازى الذى من الواضح أن حب سماع صوته كان له أثر كبير على المسرح فى مصر. فقد ارتاده الرجال والسيدات من جميع الطبقات (أما السيدات فكن محجبات ويشاهدن التمثيل من مقصورات خاصة مغطاة بستائر تحجبهن عن أعين النظارة، ومع ذلك فقد كانت طبقة السيدات اللاتى يشاهدنه محدودة جدًا).

وفى مرحلة تالية سوف يتم العناية اللازمة بأماكن السيدات المتفرجات على المسرح. وعن تنظيم عبد الرازق عنايت صاحب فرقة دار التمثيل العربى بحديقة الأزبكية فى ١٩١٢. يقال إنه (أنفق بسخاء فى تنظيم وإعداد مسرحه وخصص الدور الثانى من المقصورات للسيدات وجعل الدخول إليه من باب خاص بسلم خاص).

إننا بهذه الحقائق أمام جمهور من الرجال والسيدات رغم محدوديته. إلا أنه جرت العناية والاهتمام بوجوده فى المسرح، وبالتالى مراعاة ذوقه ووجود من يمثلنه من الممثلات وهو التطور الذى سيجد ترحيبًا اجتماعيًا.

تقول أمينة رزق: (لعلنى لا أبالغ إذا قلت إن التمثيل كان إلى ما قبل ظهور فرقة رمسيس منظورًا إليه نظرة مهانة لا تتفق مع كرامة الفن والقائمين به، فلم تكن ترضى أسرة كريمة أن يكون واحدًا من أفرادها أو واحدة من بناتها ممن يقفون على خشبة المسرح وأمام أنظار الجمهور.. فلما اقتحم يوسف وهبى وهو ابن تلك الأسرة الكريمة العريقة ذلك الميدان كسب المسرح المصرى شيئًا من الكرامة وحسن التقدير).

إن هذا التقدير الذى تتحدث عنه الفنانة الرائدة كان بلا شك دافعًا على الاستمرار والعطاء، كما كانت نظرة المهانة دافعًا للتعويق والحظر والمنع من قبل.

مما سيجعل الفنانات الأوائل يتقدمن خطوة نحو تثبيت دعائم فنهن عندما يقمن بتأسيس فرق مسرحية كاملة تحمل أسماءهن، أو يكن حجر زاوية فى بناء فرق راسخة مثل فرقة رمسيس كما سنرى.

إن توقفنـــا حتى عـــام ١٩١٥، نجد أن ممثـلات الرعيـل الأول كن:
١ـ من أصــــول غيـــر مصـــرية غالبًا شـــامية.
٢ـ من ديانة غيـــر إســـلامية، منهـن يهوديات ومسـيحيات غير مصــــريات أيضًـا ويتضــح ذلك مـــن أســـمائهن

٣ـ صاحبات فرق مسرحية:

عندما وقفت الباحثة على مرحلة لاحقة لدور المرأة فى المسرح فى مصر، وجدت تقدمًا كبيرًا قد لحق بهذا الدور فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، حيث كونت أكثر من فنانة فرقة مسرحية تحمل اسمها، تنتج وتمثل فيها مع مجموعة من زملائها، وما سبب ذلك لهن من مشكلات فنية واقتصادية بل واجتماعية أثرت على المسرح وعلى حياتهن الشخصية:

أ ـ صاحبات الفرق: تأتى أولاهن منيرة المهدية التى أسست عام ١٩١٧م فرقة خاصة بها تم حلها فى مطلع العشرينيات، ثم تكون فرقة أخرى من ١٩٢٥م وحتى ١٩٣٨م قدمت طوال هذه المدة الأوبرا والأوبريت، وهذا يعود لكونها مطربة صاحبة صوت جميل. ولم تكن المهدية صاحبة لقب أول ممثلة فقط، بل وأول صاحبة فرقة أيضًا.

ب ـ فرقة فيكتوريا موسى، وهى ممثلة وزوجة عبد الله عكاشة صاحب فرقة أولاد عكاشة مع أشقائه. وقدمت عددًا كبيرًا من المسرحيات التراجيدية التى تتفق مع ميولها كممثلة فقط (بعد انفصال عبد الله عكاشة وزوجته فيكتوريا موسى عن شركة ترقية التمثيل العربى كونا فرقة مسرحية تحمل اسم فرقة فيكتوريا موسى فى أغسطس عام ١٩٢٦م على مسرح الماجستيك).

ج ـ فرقة فاطمة رشدى، حيث أسست الفرقة مع أستاذها وزوجها عزيز عيد بعد انفصالهما عن فرقة رمسيس. وقاما بإنتاج مسرحيات ضخمة دخلت فى منافسة طويلة مع فرقة رمسيس وظلت الفرقة تعمل طيلة ثمانية مواسم حتى عام ١٩٣٣م. وكان من أهم الأحداث بها قيام فاطمة رشدى بإخراج مسرحية (أنا كارنينا) بإرشاد من عزيز عيد وتعلق فاطمة على هذا العمل (وقد علمتنى التجربة أن الإخراج عمل شاق يحتاج إلى جلد الرجال أولاً).

د ـ فرقة تحية كاريوكا، وهى فرقة عملت فى الستينيات والسبعينيات من هذا القرن، وتعد فرقة معاصرة، قدمت مسرحيات ذات اتجاه سياسى. بدأت بمسرحية (ياسين ولدى) ١٩٧١م وانتهت فى مطلع الثمانينيات بمسرحية (شقلباظ) ١٩٨٢م.

هـ ـ أسهمت فنانات بالتمثيل أو الغناء فى أكثر من فرقة قامت فى الفترة الزمانية نفسها مثل علية فوزى وعزيزة أمير ودولت أبيض فى فرقة ترقية التمثيل العربى (١٩١٧ ـ ١٩٢٦) وبديعة مصابنى وفتحية أحمد فى فرقة الريحانى وأمين صدقى التى تكونت عام ١٩٢٥م. وفى فرقة على الكسار كانت البطولات النسائية للفنانة رتيبة رشدى (شقيقة فاطمة رشدى) وعند انفصال رتيبة عن الفرقة أسندت البطولة النسائية للفنانة علية فوزى التى لم تستمر بالفرقة سوى عام واحد، ثم حلت محلها الفنانة عقيلة راتب.

وتحت مسمى (اتحاد الفنانين) تأسست فى عام ١٩٣٤م فرقة تعمل بنظام اقتسام الأرباح بين أعضائها نقرأ أسماء الممثلات دولت أبيض وزينب صدقى وعلوية جميل وفردوس محمد، بل ونجد مسرحية قام الممثل عمرو وصفى ببطولتها وإخراجها باسم (دولت) من تأليف وبطولة دولت أبيض، وهى خطوة كبيرة فى حينها.

ونجد يوسف وهبى يورد فى مذكراته تحت اسم لوحة الشرف لمؤسسى فرقة رمسيس أسماء الممثلات. (روزاليوسف ـ سرينا إبراهيم ـ إحسان كامل ـ زينب صدقى ـ فاطمة رشدى ـ نعمات كمال ـ فردوس حسن).

إن الباحثة فى إطار هذا الاستعراض التاريخى لابد أن تتوقف أمام حقائق عدة:

أولاً: أهم هذه الحقائق أن هذه الفرق الخاصة بصاحباتها أو المشاركة فى تأسيسها اعتمدت بصورة أساسية على الرجل مخرجًا ومديرًا ومترجمًا وممثلاً.

ثانيًا: إن شريك الفنانة الأول كان زوجها وهو فنان بالضرورة:

- منيرة المهدية ـ زوجها محمود جبر ـ مدير الفرقة
- فاطمة رشدى ـ زوجها عزيز عيد ـ مدير ومخرج الفرقة
- فكتوريا موسى ـ زوجها عبد الله عكاشة ـ شريك الفرقة
- علية فوزى ـ زوجها زكى عكاشة ـ صاحب فرقة عكاشة
- دولت أبيض ـ زوجها جورج أبيض ـ صاحب فرقة
- روزاليوسف ـ زوجها محمد عبد القدوس ـ ثم زكى طليمات
- بديعة مصابنى ـ زوجها نجيب الريحانى ـ صاحب الفرقة
- عقيلة راتب ـ زوجها حامد مرسى ـ مطرب فرقة الكسار معها
- علوية جميل ـ زوجها محمود المليجى ـ الممثل
- تحية كاريوكا ـ زوجها فايز حلاوة ـ شريك بالفرقة

ثالثًا: حدث تطور فى وضع المرأة، فلم تعد ممثلة أو مطربة، بل بدأت محاولات تأليف قامت بها دولت أبيض أو إخراج قامت بها فاطمة رشدى كما قدمنا، وهى محاولات لم يكتب لها الاستمرار فى هذا الجيل وإن كان جيل تال فى مطلع الخمسينيات قام بالتأليف والإخراج وتواصل مع أجيال أخرى حتى وقتنا هذا وهو ما سيأتى ذكره.

رابعًا: إن الكساد الاقتصادى فى النصف الأول من الثلاثينيات أثّر فى وجود كثير من هذه الفرق، فتفككت منها فرقة فاطمة رشدى التى تقول عن توقف فرقتها عام ١٩٣٣م:

(ألفت فرقة صغيرة لا ترهقنى نفقاتها أقدم بها لونًا خفيفًا وجديدًا فى الفن المسرحى وبدأت فى نهاية عام ١٩٣٣م موسمًا جديدًا... ولكننى لم أستطع مقاومة الكساد فتوقفت أنا الأخرى مرغمة). ■

وقف الرجل وقد بدا عليه التعب والإرهاق بحضرة الخليفة العباسى المتوكل، وبعد حوار طويل ومتشعب، أرهف الجميع أسماعهم بانتظار قرار المتوكل، كانت كلمات قليلة صادرة كافية بأن تنفذ حكم الإعدام وتزهق روح رجل وصفه المستشرق (لوسيان لوكلرك) بأنه: (أقوى شخصية أنجبها القرن التاسع الميلادى، بل من أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقاً، فنطاق أبحاثه الشاسع الأطراف واختلاف أنواعها وامتيازها وأهميتها، والمحن التى تحملها بشجاعة ونبل فى بدء حياته العملية وفى أثنائها، مما يبعث الاهتمام ويجذب القلوب إليه وهو وإن لم يكن باعث النهضة فى الشرق إلا أن أحداً لم يشارك فى تلك النهضة مشاركة فعالة وراسخة ومثمرة كما فعل).

ولكن الحكم المنتظر لم يصدر وعاش الرجل ليروى لنا حكاية لا تتكرر.



فى ميدان التقاء الثقافات
حنين بن إسحق

محمد فؤاد الذاكرى

ولد حنين بن إسحق العبادى (١٩٤هـ/٨١٠م) من أسرة عربية نصرانية، وتجمع أغلبية المصادر على أنه ولد ونشأ فى الحيرة وتقع على الشاطئ الغربى لنهر الفرات مما أهلها أن تكون ميناء مهماً ترسو فيه السفن العابرة من الشرق فى الخليج، ويقدر بعض المؤرخين أن إمارة الحيرة نشأت ضمن التاج الفارسى فيما بين عام ١٦٥ وعام ٢١٢م، وذلك مع قيام الدولة الساسانية فى إيران، وتتصف بأنها رقيقة الهواء عذبة الماء صافية الجوار ارتفع مكانها عن عمق أرياف العراق وانخفض عن ارتفاع ما جاورها من صحراء، واتصلت بالمزارع والجنان والمتاجر العظام وكانت على حافة العراق وحافة البادية، وكان فيها من مبانى العرب الجاهليين قصور عظيمة منها قصر الخَوَرْنَق.

اختلف العلماء فى معنى اسم الحيرة: فقيل أنها سميت الحيرة لأن تُبَّعاً الأكبر (من ملوك اليمن وينسب إليه كثير من الفتوحات) لما أقبل بجيوشه فبلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحير فسميت (الحيرة)، ويرى بعضهم أنها من أصل آرامى بمعنى المعسكر والحصن، بينما ذهبت طائفة إلى أنها من (الحير) مأخوذة من كلمة (حيرانا) السريانية التى أطلقت فى الأصل على معسكر عرب فارس المتنقل والحيرة الآرامية والحير العربى من أصل سامى واحد، إذ أن المضرب والمعسكر والحمى ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد. انقسم عرب الحيرة فى أوائل القرن الثالث الميلادى إلى ثلاثة أصناف: تنوخ وينزلون غربى الفرات بين الحيرة والأنبار وهم أصحاب المظال وبيوت الشعر والوبر، والأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها والعبَّاد هم الذين سكنوا الحيرة واتبعوا فيها المساكن والأديرة وعرفوا بذلك لأنهم كانوا يعبدون الله أو لأنهم اتخذوا (يا آل عباد الله) شعاراً لهم عندما حاربهم سابور الأكبر، وقيل أيضاً فى تعليل هذا الاسم أنه وفد على كسرى خمسة منهم، وكانت أسماؤهم تبتدئ بكلمة عبد وهم: عبد المسيح، وعبد يا ليل وعبد يسوع وعبد الله، وعبد عمرو، فقال كسرى: أنتم عباد كلكم. فسموا العبَّاد، والمقصود بالعباد هم عرب الحيرة النصارى الذين كانوا يعبدون الله فى كنائسهم، وقد سكن اليهود الحيرة وبقوا بها حتى الفتح الإسلامى، بالإضافة إلى النبط والفرس، وأفل نجم الحيرة، بعد بناء الكوفة على بعد ٥ كم منها سنة (١٧هـ). كان «إسحق» والد «حنين» صيدلانياً، ومفهوم الصيدلة يومذاك صناعة العقاقير بتركيبها من الحشائش والنباتات وبيعها بطريقة تستوجب الحنكة والدراية بأمور الطب، وفيها شىء من المتاجرة بالنقد واستبداله.

نشأ «حنين» مولعاً بصناعة الطب كأبيه، كما أن مبادئ العلم الأولى تلقاها فى مسقط رأسه، فأصبح متمكناً من السريانية لغة كنيسته، حتى أنه لبس الزنار فكان شماساً، رغب بعدها فى دراسة الطب فانتسب إلى أكاديمية الطب المشهورة فى «جنديسابور» وهى «بيت لافاط» قاعدة إقليم الأهواز، ثم توجه بعد ذلك إلى بغداد فلزم مجلس الطبيب (يوحنا بن ماسويه) (١٦١-٢٤٣هـ) الجنديسابورى الأصل وكان من أطباء البلاط العباسى والمهيمن على التعليم الطبى فى ذلك العهد، فبدأ يعامل تلميذه (حنين) بجفاء وغطرسة، لأن أطباء (جنديسابور) كانوا يتوارثون احتراف الطب ويتسمون بعدم ميلهم إلى تعليم مهنة الطب إلى الغرباء وينحرفون عن أهل الحيرة (المنصرفين لأعمال التجارة والصيرفة)، كما كان «حنين» يتصف بأنه صاحب سؤال ودائم الاستفسار عما يقرأ بالكتب الطبية، لجوجاً فى المعارضة، وحدث أن أوغر صدر أستاذه «يوحنا» بسؤال صعب حول كتاب طبى يونانى فاندفع يطرده بنوبة غضب قائلاً: «ما لأهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب».

بعد هذه الصدمة المبكرة هجر «حنين» مجلس «يوحنا» الطبى واختار الرحيل إلى بلاد الروم لدراسة اليونانية ومكث هناك مدة لا يمكن تحديدها، كما أن الأماكن التى قصدها والمدارس التى درس فيها غير معروفة.

دامت هذه الرحلات فى طلب العلم مدة ست سنوات زار «حنين» خلالها بلداناً عديدة مثل الشام والإسكندرية وبلاد الروم وفارس فأتاحت له اكتساب ثقافة فكرية زاخرة كما انكب على دراسة الطب وجمع الكتب القديمة وبذلك أصبح يجيد اللغة العربية واليونانية والفارسية والسريانية لغته الأصلية.

انتقل حنين إلى بغداد حوالى (٢١١هـ/٨٢٦م) على الأرجح، وكان عمره حينئذ سبعة عشر عاماً تقريباً حيث بدأ نشاطه العلمى بترجمة كتاب طبى لجالينوس فى التشريح، لكبير الأطباء فى بلاط الخليفة المأمون (جبرائيل بن بختيشوع) متوفى (٢١٤هـ/٨٢٩م) الذى أثنى عليه ووضعه تحت رعايته.

كما أقر له بالفضل والمعرفة أستاذه القديم (يوحنا بن ماسويه) بعد ما اطلع على شىء من ترجمته فأعجب بدقتها وفصاحتها، فتحول الأمر بينهما إلى صداقة واحترام متبادل تابع بعدها حنين دراسته الطبية بإشرافه.

وكانت تلك المرحلة بمثابة الإعداد للمستقبل إذ قرَّبه (جبرائيل بن بختيشوع) من الخليفة المأمون الذى كان مهتماً بنقل الكتب من طب وفلسفة ومنطق لأرسطو وغيره من الحكماء اليونانيين إلى العربية وذلك فى «بيت الحكمة»، وهو مؤسسة للترجمة وأكاديمية للتعليم ومركز لجمع الكتب. وعلى أثر ما تبين من فصاحة ومقدرة حنين وذيوع شهرته على صغر سنه، فقد انتدبه كثير من أهل العلم وذوى اليسار والجاه فى بغداد للترجمة ونقل الكتب ومنهم بنو «موسى بن شاكر» وهم: محمد وأحمد والحسن، فهؤلاء العلماء الإخوة الثلاثة كانوا يرعون النشاط العلمى ويهتمون بجلب المخطوطات اليونانية والإشراف على ترجمتها.

وبالإضافة إلى ترجمة كتب أبقراط وجالينوس وغيرها من الكتب الطبية والفلسفية عن اليونانية، كان «حنين» يقوم بتصحيح وتحقيق بعض النصوص التى يترجمها غيره، والتعليق على بعض الكتب باللغة اليونانية أحياناً مع مقابلتها بنصوص أخرى لتوثيقها، كما يروى (ابن أبى أصيبعة) أنه شاهد بعض هذه الكتب بخط (الأزرق) كاتب «حنين»، وعليها تعليقات كتبها «حنين» بخطه باليونانية وعليها ختم المأمون.

تولى الخليفة المتوكل الحكم سنة (٢٣٢هـ/٨٤٧م) وكان حنين فى تلك المدة (أمره يقوى وعلمه يزداد وعجائبه تظهر بالنقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلم ومعدناً للفضائل، فلما انتشر ذكره بين الأطباء اتصل خبره بالخليفة) المتوكل الذى أكرمه وجعله طبيبه الخاص، إلا أنه أراد امتحانه لكثرة شكايات الحساد ووشاياتهم به وحتى يتأكد من عدم وجود مؤامرة يدبرها له ملك الروم عن طريقه طلب منه أن يصف له سماً لقتل أعدائه مقابل خمسين ألف درهم، فرفض «حنين» فسجنه الخليفة فى إحدى القلاع ووكل به من يرفع خبره إليه وقتاً بعد وقت، فمكث سنة فى حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف وهو غير مكترث بما هو فيه حتى تبين للخليفة

مدى إخلاصه لعمله ومهنته، فأمر بإحضاره وطلب تفسيرًا لرفضه فأجابه: (شيئان هما الدين والصناعة، فالدين يأمر بفعل الخير والجميل، والصناعة تمنع من الإضرار بالناس، لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم..) فاستحسن الخليفة جوابه وأطلق سراحه، وبدأت شهرة حنين بوصفه طبيبًا للمتوكل، مترافقة مع شهرته كمترجم قدير، فقد انتدبه المتوكل للإشراف على الترجمات وبلغ قمة مجده كطبيب ومترجم، وكون مدرسة منتظمة في الترجمة والنقل إلى العربية ولكن الشهرة التي حققها والإكرام الذي لقيه أثار نفوس حاسديه ومنافسيه وأكثرهم من الأطباء، ويسرد «حنين» المحن التي لاقاها مع الاضطهاد والأهوال التي نالها من خصومه وذلك في رسالة طويلة بعنوان (فيما أصابه من المحن والشدائد من الذين ناصبوه العداوة من شرار أطباء زمانه المشهورين).

كشف فيها عن الأساليب الملتوية والوشايات الكاذبة التي لفقها خصومه، ومن جملة ما شكاه منهم تعصبهم الذميم ضده وعداؤهم له لأنه برع في الطب وتفوق عليهم ونقل إليها علومًا ومعارف لا يحسنونها ولا يهتدون إليها ولا يعرفون شيئًا منها في عبارة واضحة فصيحة، فأخذوا بالتشنيع ضده بأنه مجرد ناقل ومترجم للكتب يأخذ أجرته (كما يأخذ الصناع الأجرة على صناعتهم) وكان في طليعة أعدائه ومنتقديه الطبيبان (ابن زكريا الطيفوري) و(بختيشوع بن جبرائيل) حتى أصابته من جرائهم محن وشدائد كثيرة، وتعرض للسجن مرة ثانية في قصة حول أيقونة مسيحية ثم أخرج بريئًا وأكرم، وهي تلقي بعض الضوء على تفكير حنين الديني واتجاهه الرافض لتقديس الصور، ومن الراجح أن هناك شيئًا من العلاقة بين حنين وحركة تحريم الصور الدينية (Iconoclasm) التي مرت بمرحلتين: الأولى من ٧٢٦م إلى ٧٨٠م وانتهت رسميًا بانعقاد المجمع المسكوني السابع، أما الثانية فامتدت من ٨١٣م إلى ٨٤٣م. وحنين نفسه عاصر هذه المرحلة التي نشأت أول عمرها في الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية. وفي مكيدة أخرى تعرض إلى مصادرة أملاكه وكتبه حتى ظهرت براءته وأعيد إليه اعتباره.

لعب «حنين» بنشاطه العلمي الواسع دورًا في حركة التبادلات الثقافية التي حدثت في بغداد في القرن التاسع الميلادي وهيأت ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في القرن التالي.

إن المظاهر الثقافية في شخصية حنين تتجلى فيما يلي:

١. ميدان التقاء الثقافات، حيث التقت ثلاث ثقافات في شخصه:

أ. الثقافة العربية: بعد إتقانه اليونانية قفل راجعًا إلى البصرة وكانت في ذلك الوقت أكبر معهد لعلوم اللغة العربية وملتقى أقطابها، فأتقن لغة الضاد بالاعتماد على كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، واكتسب من علماء البصرة العلوم النحوية والأدبية، فمن الناحية اللغوية كان حنين وارث الثقافة العربية الإسلامية.

ب. الثقافة السريانية: كان للغة السريانية مقام واضح في الحضارة العربية، ذلك أن السريان الأوائل قد نقلوا الفكر الإغريقي إلى لغتهم السريانية ومن ثم إلى العربية، فكانت لغتهم السريانية مصدرًا من مصادر المعرفة التي تزود بها المسلمون وعرفوا من خلال هذه اللغة فلاسفة الإغريق، ومن أوائل المترجمين السريان (إيباس الرهاوي) توفي ٤٥٧م و(سرجيوس الرأس عيني) وله الفضل في تعريف السريان على مؤلفات أرسطو بتراجمه وشروحه، واشتهر بعد ظهور الإسلام (يعقوب الرهاوي) توفي سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨م، و(توفيل بن توما الرهاوي)١٦٩هـ/ ٧٨٥م). ومن أسباب قيام حركة الترجمة والنقل لدى السريان هو الدافع الديني، فقد كانت كثير من المؤلفات الدينية النصرانية مكتوبة أصلاً باليونانية ومنها الأناجيل لأنها كانت لغة المتعلمين والحكام أيام الدولة اليونانية، فدفع هذا نصارى الشرق وخاصة النساطرة إلى نقلها إلى لغتهم السريانية. لقد تلقى «حنين» المعارف الدينية في أحد الأديرة العديدة الموجودة في الحيرة، فمن الناحية الدينية كان وارثًا للثقافة السريانية المسيحية.

ج. الثقافة اليونانية: إن إقامته في بلاد فيها مدارس ذات ثقافة عالية، وانصرافه للعلم واللغة يجتنيهما على يد أمهر الأساتذة في ذلك العصر، قيضا لحنين أن يتقن اللغة اليونانية ويصيب من الفكر الهلنستي قسطًا وفيرًا ويتمرس على الترجمة ويتقوى في الطب، فاكتسب ثروة فكرية ذاخرة ونهجًا علميًا محكمًا ولغة كانت في غاية الأهمية يومذاك، هي مفتاح الثقافة وقليلون كانوا يمتلكون زمامها لاسيما من العرب.

لقد تمكن حنين من أسلوب نقدي صحيح بالترجمة وأصبح خبيرًا بخفايا الحضارة الهلنستية التي هي عصارة جهد ونبوغ شعوب وأقوام متعددة بعباقرتها ولغاتها وتراثها، منها اليونانية واللاتينية والسريانية والحبشية والقبطية والفارسية، ومنها ما يعود إلى جذور أعمق كحضارات حوض البحر المتوسط والحضارات السامية القديمة وغيرها، فمن الناحية العلمية كان حنين وارث الثقافة اليونانية الوثنية.

إن اختلاط الثقافات الثلاث في شخصيته أدى إلى تكوين ثقافة جديدة غنية جدًا لها صبغة خاصة تميزها عن الثقافات السابقة.

٢. اهتم حنين بجميع فنون المعرفة البشرية في زمانه، فلم يكتف بجميع فروع الطب وخصوصًا طب العيون وعلم الأغذية وعلم الأدوية وطب الأسنان بل اعتنى أيضًا بعلوم أخرى كثيرة، منها الطبيعيات والرياضيات، التنجيم وتعبير الرؤيا، الفلسفة والتاريخ، النحو واللغة.

ففي جميع هذه العلوم ترجم حنين أو ألف كتبًا متعددة تدل على سعة معرفته وتبرز براعته فيها وتثير إعجابنا حتى وقتنا الحاضر.

٣. قيامه بترجمة عدد وفير من الكتب العلمية من اليونانية إلى السريانية أو إلى العربية، فسمح بتراجمه بانتقال جزء كبير من العلم اليوناني القديم، أولاً إلى الشرق العربي الإسلامي في القرن التاسع ثم إلى الغرب اللاتيني المسيحي في القرن الثاني عشر الميلادي عندما تُرجم بعض كتبه إلى اللاتينية.

قُدِّر لي أن أعيش (حنين بن إسحق) في تجربة حياته، وهو واقف على طول قامته تحت الشمس يتحدث بصوت مسموع على أرض بكر لم يسبقه أحد بالوصول إليها، فكان أول الفاتحين وبداية المغامرة العقلية العلمية في أهم تجارب العالم على الإطلاق.. في رحلته المتواصلة في اكتشاف المعرفة بأنواعها والبلوغ إلى غايتها، كان حنين ساعيًا لتحقيق الحلم في نفسه وفي الآخرين، ولكنني حاولت أن أكون رفيقًا وشاهدًا في اكتشاف الحلم ومواصلته في كل تجلياته وتقاطعاته وانتصاراته وانكساراته منذ أن حملته أقدامه الصغيرة من مدينته الحيرة إلى بغداد مدينة الحلم الذهبي.

في صبيحة صيف عام (٢٦٠هـ. ٨٧٣م) وجدته (أم إسحق) لا يزال على مقعده المفضل داخل غرفته بعد أن رفض الاستلقاء على حشية الفراش، كان ينام بشكل متقطع لساعة أو أكثر، يستيقظ بعدها لينادبها بصوت خافت، اقتربت منه لتعدل رأسه المتمايل، حدقت فيه وهو لا يزال في وضعيته التي رقد فيها، فأثار شفقتها.

كان مستسلمًا للنوم، كاستسلامه للواقع الذي أمضى حياته يحاوره ويداوره، يبحث عن ذاته في تحد بائس، وتساءلت: ألم يكن من الأفضل أن يضع رأسه على الوسادة.. لم تعرف تمامًا نوع الألفة التي تربطها به، لم يكن زوجها فحسب، بل ممتلئًا بكل أشكال الحياة التي تتقاطع فيها انعكاسات النور وهي تعانقه بحرارة، حدثها البارحة ضاحكًا: ألم أخبرك عن الموت؟ إنها الطريقة الوحيدة للطبيعة لتخبرك بأن عملك غير مناسب... انشغلت بترتيب الأوراق المبعثرة على الأرض، ثم التفتت إليه، كان رأسه يتدلى على صدره ثم يميل على كتفه، شعرت بأصداء الانهيارات والإعياءات في دهاليز الروح المظلمة.. أحست بثقل الوقت، أشبه بجبل من الجليد، واللحظات تمر متماهلة حاملة الصدى الكئيب ودون أن تنفرج شفتاه ليقول بصوته الواهن: أين أنت؟ كعادته.. كان جسده ملتصقًا بمقعده، لكن روحه قد فارقته هذه المرة وحلقت بعيدًا في الفضاءات البعيدة، لقد انهار الجسد الذي ظل يترنح كقصبة فارعة في كف الريح. شعرت بنداء خفي من أقاصي السماوات التي حلقت روحه باتجاهها، فهي ستبقى عالقة في الكون الفسيح، وسيدفن الجسد المتعب في جوف الثرى بعد أن يلقي نظرته الأخيرة على مياه دجلة والفرات وسهول الحيرة ليحدثنا عن بيت الحكمة وتلال المخطوطات والمعارف المتنوعة المزروعة داخل تلافيف دماغه، يشكو كل الفظاظة واللامبالاة والبلادة، كل ما كان يكرهه، كل متاعبه سيدفنها معه في بقعة من التراب ليدون آخر سفر من أسفاره. ■

المصادر

(١) مهرجان إفرام وحنين. مطبوعات مجمع اللغة السريانية. ١٩٧٤م.

(٢) حنين بن إسحق: في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها. تحقيق ودراسة محمد فؤاد الذاكري. دار القلم العربي. حلب ١٩٩٦.

(٣) حنين بن إسحق: دراسة تاريخية ولغوية. أحمد الدبيان. مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

الخطر يدق أبوابنا

أحمد كمال أبو المجد

■■ إنه تحد كبير أن يتحدث المرء عن الإصلاح بعد أن قدمت بشأنه مقترحات ومشروعات عديدة. فالكل يصيح ويهلل ويرفع راية الإصلاح السياسى. ولكن التحدى الحقيقى لكل مكوِّن من مكونات «إعلان الإسكندرية» هو الانتقال من الإعلان إلى الإعمال from declaration to implementation. ذلك أن البون شاسع جداً بين القدرة على صياغة وثيقة بليغة وجريئة وبين إمكانية بث الروح فى هذه الوثيقة وتنفيذها على أرض الواقع. وحين أتحدث عن الإصلاح السياسى، لا أود التنظير ولا أريد الحديث عن مفاهيم مجردة، بل أريد الدخول فى مواجهة مباشرة مع القضايا. وأنا أطرح رأيين لست مسئولاً عن سواهما.

أولاً: أنا مقتنع كل الاقتناع بأنه لا يمكن بحال من الأحوال تحقيق إصلاح اقتصادى أو اجتماعى بدون الإصلاح السياسى. كما أنه لا يمكن تغيير المجتمع بمجرد إشراك علماء الاقتصاد المتازين، ولا يمكن تغيير المجتمع بتكليف ثلاثين أو أربعين وزيراً جيدين، ومعهم أربعون من الموظفين التكنوقراطيين والبيروقراطيين. فلابد من تحقيق تنمية مستدامة، ولابد من إشراك الجماهير. ولا يمكنك إشراك جماهير غير معترف بها ولا تحظى بالتقدير أو الاحترام؛ بل هى مفروغ من أمرها ومهمشة وتتلقى التوجيهات ليل نهار. كلا، لا يمكنك ذلك. فلا بد أن يكون لدينا شعب فعال، يؤمن بأن له مصلحة فيما يجرى سواء بالخير أو الشر. وبذلك يكون مفهوم الإصلاح السياسى هو السعى لخلق الشروط اللازمة لأى تغيير فعال فى المجتمع وتفعيل هذه الشروط. هذا هو كل ما فى الأمر. ولنكن صرحاء. فنحن عاجزون. وأعنى بنحن هنا الدول العربية كافة. لأن أجندة الإسكندرية أو بيان الإسكندرية. وأود أن أسميه كذلك، لأنه موجز ودقيق ومحدد وعلى قدر كبير من الشجاعة. موجَّه إلى العالم العربى كله ويتحدث عن العالم العربى كله. وكان ثلث المشاركين من المصريين وكان الثلثان عرباً. وما يَصْدُق على بلد قد يصدق بدرجة مختلفة على غيره، إلا أن هناك قواسم مشتركة وظروفاً سائدة. فقد تكون إحدى الدول أكثر ديمقراطية، وقد تكون دولة أخرى أكثر تقدماً، وربما تكون دولة ثالثة أغنى من غيرها، ولكن يظل هناك طابع مشترك لكل الجهود والممارسات يكتنف العالم العربى من النواحى السياسية والاقتصادية، بل والثقافية.

أما الرأى الثانى، وهو ليس رأياً وإنما بالأحرى جوهر مكونات الإصلاح السياسى، فهو أننى أتحدث دائماً عن مثلث الديمقراطية. والمثلث يتكون من ثلاثة مكونات أساسية. أول هذه المكونات هو المشاركة الفعالة والعريضة من خلال التصويت والعملية الانتخابية وصناديق الاقتراع. ولنكن صرحاء. صحيح أن هناك أشكالاً من الانتخابات، ولكن معظم الحكومات العربية باتت تدمن التدخل فى سير الانتخابات الصحيح، وبذلك أصبحت الانتخابات موضع سخرية. فقليل جداً من الناس يذهبون للإدلاء بأصواتهم، لأنهم يشعرون مقدماً أن أصواتهم لا يُعمل لها أى حساب ولن يكون لها أى أثر. ولذلك فإنهم يبقون فى بيوتهم ولا يشاركون فى الانتخابات من باب احترام الذات، وتوفيراً للجهد الذى لا طائل من ورائه. وشيئاً فشيئاً يفقدون الإحساس بكونهم مشاركين، أو حتى بكونهم معترفاً بهم. وينتهى بنا الحال إلى أن يكون لدينا شكل من أشكال الديمقراطية، غير أنه شكل خال من أى معنى أو أى جوهر، وبذلك نفقد التأييد الفعال لقاعدة السلطة power base وهى - فى كل نظام ديمقراطى - جماهير الناس المشاركين فى النظام السياسى والمؤيدين له.

يشمل العنصر الثانى إصلاحات أخرى، وخاصة إصلاحات نظام الأحزاب السياسية. ذلك أن التعددية هى اسم لعبة الديمقراطية. والتعددية قد تكون اسمية، وربما تكون تعددية حقيقية. فحينما تكون لدينا أحزاب سياسية تخلو من أية فاعلية، وليس لديها أى أمل فى أن تشارك يوماً ما فى إدارة الأمور، فلابد حتماً أن تصل إلى إحدى نتيجتين مفجعتين: فإما أن تصبح مهلهلة ومترهلة وغير فعالة ولا أمل لها فى المشاركة، أو أن تصبح متشددة، وقد تهجر فى يوم من الأيام القنوات التى ثبت عدم جدواها إلى قنوات أخرى غير مشروعة ولا يخلو استخدامها من المخاطر.

لذلك فإننا حين نتكلم عن الإصلاح، لابد أن نفعل ثلاثة أشياء. من هذه الأشياء إصلاح النظام الانتخابى نفسه، أى أن نجعله نيابياً بقدر الإمكان؛ وإن كنت لا أظن أن هذه هى أول النقاط المهمة. ففى الولايات المتحدة حزبان سياسيان. ربما لا يكون الفرق بينهما كبيراً. ولكن جوهر اللعبة الديمقراطية هو التوازن. فهناك حزب ما ينتقد وحزب آخر فى السلطة. وهذه الثنائية الخاصة بالمحاسبة والوجود فى موقع السلطة تخلق الاستقرار، وتوجد رادعاً ما، وتحقق الشفافية التى هى ضمان للجميع. ولكنك حين تُضْعِف الأحزاب الأخرى، فإنه ينتهى بك الحال وقد خلقت احتكاراً للسلطة السياسية. وأخطر ما يمكن أن يحدث لدولة من الدول هو احتكار مراكز السلطة السياسية بالقدر الذى يقضى على دور الأغلبية الحقيقية للشعب ويؤدى إلى استبعادها. ولذلك فلابد لنا من تغيير أو إصلاح نظامنا الانتخابى، مع أنه ليس شديد السوء. بل ليس سيئاً. ولكن الأمر الأكثر

مقتطفات من محاضرة عن الإصلاح السياسى ألقاها الدكتور كمال أبو المجد فى غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة

ترجمة: أحمد محمود

تأجيل الإصلاح دعــوة للمجهـول!

أهمية هو إحياء التنوع، ومراجعة نظام الأحزاب السياسية، والقانون الخاص المنظم له. واسمحوا لى أن أقدم لكم مثالاً يدل على مدى كون التعددية غير حقيقية. فهناك شرط فى قانون الأحزاب فى مصر ينص على أنه لكى يتم الاعتراف بأى حزب جديد، ولكى يشارك هذا الحزب فى الحياة السياسية، لابد لهذا الحزب الجديد من إبداء قدر كاف من الاختلاف عن الأحزاب السياسية القائمة بالفعل. إلا أن اللجنة التى تناقش هذا الاختلاف الذى يبرر تأسيس حزب جديد لا تتعامل مع البرنامج كحزمة واحدة، بل تتعامل مع كل بند على حدة. ولنفترض أننا أردنا الآن تأسيس حزب يسمى «الحزب التقدمى»، على سبيل المثال. فماذا ستفعل اللجنة؟ إنها لن تقارن أهدافك أو برنامجك أو توجهك أو إستراتيجية الإصلاح الخاصة بك بما لدى الأحزاب الأخرى، بل ستأخذ البند الأول. تعزيز حرية التعبير. وتقول هذا موجود عند حزب الوفد، أو احترام الأسرة، وتقول إن هذا على قائمة الحزب الفلانى. إذن، فالطريقة الوحيدة للحصول على الموافقة هى انتهاك الدستور أو كل المعايير القانونية والابتعاد عن سائر الجماهير والأحزاب السياسية.

المكوّن الثانى من مكونات الإصلاح السياسى هو ضمان الحقوق الإنسانية والسياسية والمدنية التى ينص عليها الدستور وتنفيذها. ودستورنا متقدم جداً. وهو يضم فصلاً كاملاً عن الحقوق، والواجبات بالطبع، يضارع أكثر الدساتير تقدمًا، مثل الدستور الفيدرالى للولايات المتحدة أو دستور بريطانيا العظمى غير المدون، أو دستور ٥٨ فى فرنسا، أو أى دستور حديث آخر. ولكن ليست هذه المشكلة. فالمشكلة هى تحويل الدستور من برنامج معلن للتطلعات السياسية إلى واقع فى الحياة اليومية. ويتحقق هذا من خلال أمرين: التثقيف السياسى والقضاء المستقل. وهناك حاجة ماسة إلى التثقيف السياسى. وقد اكتشفت من خلال تجربتى الطويلة مع حقوق الإنسان أن ما ينقصنا هو ثقافة احترام حقوق الإنسان. فالشعب، والأفراد، والمحكومون، لم يعلّمهم أحد قط أن يتمتعوا بحقوقهم. ولذلك فإنهم حين يطالبون بها يفعلون ذلك باستكانة، ويشعرون بالذنب أحيانًا، ويتسولون حقوقهم. والحاكم. وأعنى بالحاكم كل من لديه جزء صغير من السلطة. لم يقل له أحد فى يوم من الأيام إن هناك حدوداً قانونية للسلطة وأن الموظف العام مهما علا فى سلم السلطة خادم مدنى وليس سيداً مدنيًا، وإن عمله هو خدمة الناس وليس السيطرة عليهم. ولذلك فإنه فيما بين طرفى المعضلة هذين، لم يقل أحد للمجتمع إن له حقوقًا يدافع عنها أو يطالب بها، ولم يقل أحد للسلطة إن هناك بالفعل حدوداً وإنها تخضع للمحاسبة طبقًا للدستور. صحيح أن هناك فرقًا كبيراً بين بلد وآخر. ولكننى أعمم كى أصف الوضع. ولكننا، حتى هنا فى مصر، أمامنا شوط طويل لابد أن نقطعه، ولابد أن تكون لدينا الجرأة كى نعبر عما يدور فى عقولنا.

المكوّن الثالث هو حكم القانون. وحكم القانون معناه ببساطة، حسب المصطلح المستخدم فى مجال القانون ومجال العلوم السياسية، هو تحويل نظام الحكم من حكم الرجال والنساء إلى حكم القوانين a government of laws not of men. وفى ظل حكم القانون، يشعر الناس بالأمان. وبدون الشعور بالأمان، فإن جماهير الناس تلجأ إلى العصيان المدنى، بغض النظر عن قوة الحكومة، ومهما كانت قوة وزير الداخلية أو أى وزير غيره، لأن الأفراد لديهم دائمًا وسائلهم للتعبير عن الاستياء من خلال العصيان المدنى بالصياح غير مبالين باحتياجات المجتمع وبقضية التنمية.

تلك هى المكونات الثلاثة لمثلث الديمقراطية. والنقطة التى أريد أن أختم بها كلامى هى أن أحد أخطر الأشياء التى تواجهنا هو تلك العادة السيئة القديمة الخاصة بالإنكار denial. فنحن لدينا ثقافة خاصة بالرضا عن الذات وأحلام اليقظة والتفكير بالتمنى. ولذلك فإنه حين يبدأ شخص ما بالنقد، يُقال له «إنك تبالغ. أنت متشائم. كل شىء على ما يرام». وبين الحاضرين فى هذا التجمع أطباء. وهم يعرفون أن أخطر ما يقال لشخص يعانى من علة ما إنه على أحسن ما يرام «زى الفل» وليست هناك أية مشكلة. فتلك هى بداية الطريق إلى الكارثة. ذلك أن معرفة المشكلة هى الخطوة الأولى نحو حلها. وأغامر بالقول بأننا نواجه فى مصر والعالم العربى، سواء أدركناه أم لم ندركه، واحداً من أخطر الأوضاع المأزومة فى تاريخنا الحالى. فالخطر يدق أبوابنا، سواء سمعنا دقاته أم لم نسمعها. والتفرق العربى قد بلغ مداه بل تجاوز كل مدى وعبر عن حجمه الحقيقى فى اجتماعات القمة الأخيرة بما لا يحتاج إلى شرح أو إضافة أو انتحال للمعاذير. وأى تأخير فى مواجهة التحدى وفى تفعيل برامج الإصلاح وتنفيذها قد يكون الحد الدقيق الفاصل بين المستقبل الزاهر الآمن المستقر وبين استدعاء المجهول. وأكررها: أى تأخير فى مواجهة التحدى وفى تنفيذ الإصلاح الاقتصادى والثقافى والسياسى قد يكون اجهاضا لكل الآمال الخاصة بالرفاهية ودعوة للمجهول.

وأنهى كلامى بكلمة بسيطة، وهى أن الضمان الحقيقى والوحيد للأمن والاستقرار هو الحفاظ على ما تبقى من قنوات ديمقراطية مفتوحًا لا يعوقه شىء. أما إذا ما سُدت تلك القنوات، فسوف يكون ذلك دعوة صريحة للعمل غير الشرعى ودعوة غير مسئولة للمجهول، لا سمح الله ولا قدّر. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

قضايا أدبية عامة

إيمانويل فريس - برنار موراليس

ترجمة: لطيف زيتونى

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٤، ٢٨٥ صفحة



يتطرق الكتاب إلى قضايا أدبية عامة لم تبحثها النظرية الأدبية البنيوية، وينشغل بقضايا مثارة فى الراهن الثقافى من نوع: ما هو تأثير العمل الأدبى فى محيطه؟ وما هو الأثر الأدبى؟ من هو المؤلف؟ كيف يمكننا التعامل مع المشاريع غير المنجزة والمسودات التى يخلقها بعض الكتاب قبل رحيلهم؟ ما أثر الرقابة فى عمل الكاتب؟ وما هى المعارف التى ينقلها العمل الأدبى؟

عبر فصول أربعة يناقش المؤلف هذه القضايا دون أن يزعم أنه يقدم إجابات حاسمة، لكنه يثير الاهتمام بها استناداً إلى أبحاث سوسيولوجية تم إنجازها فى أواسط السبعينيات، ولذا فهو لا يقتصر على بيئة أدبية بعينها وإنما يبحث قضاياه فى فضاء مفتوح لا ينتمى إلى أدب بعينه، وفى إطار هذا التحليل ينتقد المرتكزات النظرية التى سيطرت ومازالت على أساليب التعاطى مع النص الأدبى، ويطرح وعياً نقدياً جديداً يولد قدراً من الحيوية الفكرية نحو مزيد من الإنجاز فى الإطار ذاته.

هو لا يقدم للقارئ نظرية أدبية جاهزة أو خريطة ومبادئ استرشادية فى الدرس الأدبى، لكنه يقدم درساً فى بناء النظرية.

أصل السلطة السياسية وطبيعتها

محمد عبد الشفيع عيسى

القاهرة: دار الكلمة، ٢٠٠٤، ١٣٧صفحة



فى أعقاب الغزو الأمريكى للعراق أثيرت عشرات الأسئلة، ومازال سؤال الديمقراطية هو أكثر هذه الأسئلة إثارة ليس فقط على صعيد غيابها. أى الديمقراطية. وهى بالفعل غائبة، وإنما كذلك عما تعنيه حتى داخل الدول التى تدعى الديمقراطية وفى طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وقد كشفت الأحداث الأخيرة عن ضلوعهما فى قضايا تعذيب وحشية وانتهاك صارخ لحقوق السجناء العراقيين، وهو ما يتنافى تماماً مع كل دعاوى الديمقراطية وحقوق الإنسان التى تتشدق بها الدولتان.

المؤلف يقدم مساهمة تستحق النقاش فيما يتصل بموضوع الديمقراطية بعيداً عن المثلية السياسية التى صبغت أغلب الطروحات حولها أو حتى الانتهازية التى ميزت اجتهادات أخرى، وهو يجعل الديمقراطية مشروطة بمحددات اجتماعية معينة، بينها طبيعة تقسيم العمل الاجتماعى ومستوى التطور الطبقى والقومى.

والمؤلف فى سعيه لتقديم هذه الاستخلاصات يستعين بالأنثروبولوجيا والفلسفة، وينتهى إلى أن التقدم التاريخى يتحقق تلقائياً أو مجانياً، ولكن بتوفير مقومات الإرادة الإنسانية التى تمارس دورها من خلال الجدل الاجتماعى للإرادات.

المقاومة والعالم

عبد الخالق فاروق

القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٤، ٢٣١ صفحة



الفرضية التى يطرحها المؤلف هنا مفادها أن العالم بصدد تشكل ملامح علاقات دولية جديدة، ترسى قسماتها الأساسية المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأنجلو أمريكى، وهو يشير إلى أن هذه العملية التاريخية لن يكتب لها النجاح مالم تتحل المقاومة ببعض المقومات والعناصر الأساسية التى تدعم مواقفها وتوحد صفوفها فى مواجهة الاحتلال، ويقدم المؤلف عدداً من السيناريوهات لما يمكن أن تسفر عنه المواجهة: السيناريو الأول، أن تنجح الولايات المتحدة فى «عرقنة» الصراع أى تحويله إلى صراع داخلى بين الطوائف والفرق العراقية المختلفة، وهذا السيناريو يوفر منفذاً آمناً للولايات المتحدة كى تنسحب من العراق على خلفية المشهد الدموى ودعاوى الحرب الأهلية، السيناريو الثانى، أن تنجح الأمم المتحدة فى الضغط على أمريكا فى ظل إدارتها الجديدة عام ٢٠٠٥ كى تدير عملية سياسية حقيقية تقوم على التوافق بين القوى السياسية الفاعلة فى العراق، وهذا السيناريو يواجه احتمالات استمرار المقاومة مادامت قوات الاحتلال باقية، كما أنه يواجه تناطح القوتين الكبيرتين فى الساحة العراقية الجديدة وهما حزب البعث والتيار الدينى من سنة وشيعة، ويقوم السيناريو الثالث على افتراض نجاح المقاومة العراقية فى صياغة برنامج سياسى توافقى يجبر قوات الاحتلال على الانسحاب، ويشير المؤلف إلى تداعيات كل من هذه السيناريوهات ونتائجها، على أنه يؤكد فى النهاية على أن صدقية الأمم المتحدة واستعادتها لدورها يبقى مرهوناً بمدى فاعليتها وتواجدها فى الشأن العراقى.

عـــذراء أورليان

فريدريش شيللر

ترجمة: عبد الرحمن بدوى

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون، ٢٠٠٤



من خلال مطالعات شيللر لتاريخ العصور الوسطى لفت انتباهه شخصية جان دارك، تلك الفتاة الصغيرة التى كانت ترعى الغنم، والتى قادت الشعب الفرنسى إلى النصر والثورة ضد الاحتلال الإنجليزى، والتى تمسكت بالعدالة واختارت الموت حرقاً بعد أن حكم عليها بالكفر والإلحاد، نتيجة الجهل والخيانة، بعد أن كشفت أردية الزيف والشعارات الكاذبة التى تطلقها السلطة السياسية والعسكرية والدينية، واكتسبت شعبية كبيرة بين أبناء وطنها، والحكمة الأساسية التى تشير إليها المسرحية والتى أكد عليها شيللر، أن على الأمم المتحدة إذا أرادت أن تتحرر وتواجه الأطماع الخارجية أن تصلح ما بينها أولاً، فالاتحاد هو الذى يصنع إرادة الأمم ويحقق مجدها.

حبر على ورق

نوال مصطفى

القاهرة: الأمل للنشر، ٢٠٠٤، ٢٢٣ صفحة



صور قلمية لمشاعر وذكريات ومواقف عاشتها الكاتبة، وهى فى مجملها ذات صبغة إنسانية تخاطب الوجدان وتناشد فى الإنسان أنقى ما بداخله، كما أنها دعوة للتفاؤل ومواجهة صعوبات الحياة بالأمل والتطلع للمستقبل.

من أجواء الكتاب: الحياة أن تعيش طفلاً منطلقاً، وتتأمل ما حولك بحكمة فيلسوف، وتتخذ قراراتك بحرية زعيم متمرد، ولا تنظر وراءك لتبكى على ما فاتك، وأن تتطلع إلى القادم من الأيام بروح متوثبة إلى أمل جديد حتى لو كان صغيراً، يجعل للحياة معنى وللأيام طعماً.

دوايـــر

شريف مليكة

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٤، ٨٠ صفحة



ديوان جديد لطبيب مصرى يقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عشرات السنين، كتبه بالعامية المصرية مازجاً بين الروح النقدية الساخرة فى النقد الاجتماعى والسياسى التى تميز بها بيرم التونسى وسلاسة ورشاقة صلاح جاهين، مع احتفاظه بأسلوب مميز.

من أجواء الديوان: الفقر دابح/ ونا دمى سايح/ وغضبى جامح/ على كارو سارح/ أبيع موالح/ بالعافية رابح/ قام جانى القارح/ ده ليلة إمبارح/ قال الوايح/ ليك ما أبقى لامح/ من يوم ورايح/ وبلاش فضايح/ حنبدل مطارح بأجمل ملامح/ ونبنى المسارح/ هجموا الجوارح/ عسكر يكافح/ ع الحرب رايح/ ومسكنى ناطح/ لدماغى فاتح/ وكرامتى ماسح/ قوللى يا ناصح/ إن كنت لامح/ عن حل واضح.

المواطن العربى والوعى القومى

حميد فهوى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٣٩١ صفحة



عبر أساليب البحث العلمى الميدانى ينتهى الكتاب إلى أن الوعى القومى عند المواطن العربى العادى موجود فى حالة كمون، وهو يظهر فى اتجاهات سلبية وإيجابية تبعاً لنوعية الأحداث والظروف القومية والقطرية، فيما تجبر الأحداث اليومية وسعى المواطن العربى اللاهث خلف لقمة العيش هذا الاتجاه على الاستكانة، وتشير الدراسة كذلك إلى وعى المثقف القومى بالتحولات الجارية وانفتاحه على الخطابات المنافسة وإدراكه لمخاطرها مثل ظاهرة العولمة.

السجون والتعذيب من العصر الفرعونى حتى ثورة يوليو ١٩٥٢

عادل زناتى
القاهرة: جمعية حقوق الإنسان لمساعدة السجناء، ٢٠٠٤، ١٨٢ صفحة



تقدم هذه الدراسة الطريفة والجادة فى آن معاً رؤية شاملة لأوضاع السجون فى مصر، وهى لا تكتفى باستعراض أوضاع السجون والمساجين وإنما تبحث أيضاً فى الأوضاع التشريعية والقضائية التى سادت فى كل مرحلة.

والمصادر التى تم استقاء النظام القانونى منها، وأنواع الجرائم فى كل عصر والعقوبات التى وقعت على مرتكبيها، وعمليات التعذيب التى مورست ضد السجناء.

وفى هذا الإطار تشير الدراسة إلى عقوبات الإعدام والعقوبات الشرعية وعقوبات القصاص والدية فى العصر الإسلامى، وكذلك العقوبات السالبة للحرية وعمليات التعويق فى زمن المماليك، ثم خطوات إصلاح القضاء وتنظيم المحاكم فى مصر العثمانية، ويشير إلى نوعيات من الجرائم التى ربما لم تكن معروفة قبل العصر العثمانى أو لم تحدد لها عقوبات واضحة مثل جرائم الوظيفة العامة والجرائم الاقتصادية وجرائم الآداب العامة والجرائم المتعلقة بالجهاز العسكرى.

ويتناول الأوضاع التشريعية ونظم التقاضى فى عهد محمد على وخلفائه، وصولاً إلى أوضاع السجون والمساجين منذ الاحتلال وحتى ثورة يوليو.

محمد مؤسس الدين الإسلامى ومؤسس إمبراطورية المسلمين

جورج بوش
ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن الشيخ
الرياض: دار المريخ، ٢٠٠٤، ٦٦٨ صفحة



مؤلف هذا الكتاب هو الجد الأكبر للرئيس الأمريكى جورج بوش، وقد كان واعظاً وراعياً لإحدى الكنائس فى أنديانا بولس وأستاذاً فى اللغة العبرية والآداب الشرقية فى جامعة نيويورك، وله مؤلفات وأبحاث فى شروح أسفار العهد القديم من أهمها كتابه هذا، الذى ينطوى على بذاءات وافتراءات نجدها فى عديد من كتب المستشرقين غير الأمناء، والذين تعميهم أغراضهم عن رؤية الحقائق.

والكتاب صدر للمرة الأولى عام ١٨٣٠، وهو يكشف عن أحد مصادر الفكر العنصرى الأمريكى المتطرف الذى كان متداولاً فى دوائر البحث العلمى والأكاديمى ولايزال.

والكتاب. حسبما يؤكد محققه. نموذج صارخ على كراهية الأديان الأخرى وتحريض فج على العنصرية، فالمؤلف لا يكتفى بمهاجمة الإسلام ونبى المسلمين، وإنما يهاجم كل المذاهب المسيحية الشرقية.

موسوعة الحركات الإسلامية فى الوطن العربى وإيران وتركيا

أحمد الموصلى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٤٩١ صفحة



تهدف هذه المجموعة إلى تزويد القارئ بالمبادئ والمفاهيم والعقائد الخاصة بالجماعات الأصولية الإسلامية

أسس ومفاهيم اتخاذ القرار

نظم دعم اتخاذ القرار والأنظمة الذكية

على فهمى
القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع - ٢٣١ صفحة - ٢٠٠٤



عبر تاريخ الحضارة الإنسانية الطويل مروراً بعصر الزراعة وعصر النهضة ووصولاً إلى العصر الحالى عصر المعلومات تعددت الوسائل المتاحة لجمع البيانات ومعالجتها بصيغ مختلفة للحصول منها على المعلومات التى ساعدت الإنسان فى التصدى لمشاكله المختلفة وتقدمه فى شتى المجالات. وقد ساهمت الاختراعات والاكتشافات المختلفة فى بناء تكنولوجيات متعددة وظهور علوم حديثة. علوم وتكنولوجيا نظم دعم اتخاذ القرار تأتى فى مقدمة هذه التكنولوجيات فهى تعتبر بحق واجهة تكنولوجيات نظم المعلومات والشبكات لمن يقود البشرية، ألا وهم القادة ومتخذو القرار.

يشهد علم دعم اتخاذ القرار تغيرات كثيرة ويرجع الفضل فى ذلك إلى التطور المذهل فى علمى الشبكات والذكاء الاصطناعى. لقد ولد دعم اتخاذ القرار من خلال التكامل بين علوم الإدارة وعلوم بحوث العمليات وعلوم الإدراك. والآن ينمو هذا العلم فى ظل التكامل مع نتائج البحوث المتقدمة فى مجال إدارة قواعد البيانات وفى مجال شبكات الإنترنت وشبكات الأنترانت وشبكات الإكسترانت وفى مجال النظم الخبيرة وفى مجال الشبكات العصبية والخوارزميات الجينية والمنطق الغازى.

علوم الإدارة وعلوم بحوث العمليات وعلوم الإدراك هى التى أرست المفاهيم الأساسية لعلم دعم اتخاذ القرار حيث نجد مفهوم القرار وعملية اتخاذ القرار ومفهوم النماذج المختلفة لدراسة عملية اتخاذ القرار، وحيث نجد كيفية تمثيل ومحاكاة النظم الحقيقية (Moodeling and simulation) من خلال النماذج الكمية والنماذج الوصفية والأساليب الرياضية المختلفة المستخدمة فى حل هذه النماذج مثل أساليب البرمجة الخطية وغير الخطية ونظريات الأرتال والصفوف.

علوم إدارة قواعد البيانات الحديثة تقع الآن فى قلب نظم دعم اتخاذ القرار، حيث نجد مفاهيم حديثة مثل قواعد البيانات الشيئية والتى تتيح التعامل مع البيانات بجميع صورها: النصوص، الرسومات، الصور، الصوت، الفيديو. ونجد أيضاً الوسائل الفورية لتحليل البيانات (OLAP) والتعامل مع مستودعات البيانات (Data Warehouses) الموزعة على الفروع المختلفة للمؤسسة.

ودخلت علوم الذكاء الاصطناعى بثقلها لرفع كفاءة وجودة القرار ورفع كفاءة عمليات البحث بين بدائل الحلول المتعددة. فالنظم الخبيرة ساعدت فى صياغة نماذج اتخاذ القرار فى ظل التأكد (Uncertainty) وعدم وجود المعلومات الكافية (Uncompleted) وساعدت فى نقل خبرة المتخصصين فى التعامل مع المشاكل إلى نظم الدعم. أما نظم الشبكات العصبية الاصطناعية (Artificial Neural Networks) فهى تستطيع التغلغل داخل آلاف سجلات البيانات (Data Mining) لاستنباط العلاقات البينية الدفينة داخل هذه البيانات. وهى تساعد متخذ القرار فى الربط بين خصائص المشكلة والمشكلة نفسها وتساعده أيضاً فى التعرف على الفرص المتاحة من خلال قدرتها على التعلم. أما تكنولوجيات الخوارزميات الجينية والمنطق الغازى فقد بدأت فى شق طريقها داخل أنظمة دعم اتخاذ القرار بغرض مساعدة متخذ القرار فى الوصول إلى الحل الجيد وشبه الأمثل بكفاءة عالية وفى صياغة ما لديه من معرفة بديهية (Common Sense) عن النظام الحقيقى ومعالجة المشاكل واستغلال الفرص.

تكنولوجيا الإنترنت ساهمت بشكل كبير فى بلورة نظم دعم اتخاذ القرار الجماعية من خلال عقد جلسات اجتماع افتراضية (virtual) وجلسات عصف الأفكار (Brain Storming) دون الحاجة إلى التواجد الفعلى فى مكان واحد. كما أفرزت تكنولوجيا الإنترنت تكنولوجيا الوكيل الذكى (Inteligent Agent) لمساعدة متخذ القرار فى القيام بالأعمال الروتينية طبقاً لنمط وسلوكيات متخذ القرار فى العمل. فهى تتمتع بخاصية التعلم والمواءمة وتزداد كفاءة مع كثرة الاستخدام.

الغرض الرئيسى لهذا الكتاب هو تعريف الدارس العربى بهذه التكنولوجيات المختلفة والتى يطلق عليها مجمعة تعبير نظم الدعم الإدارى.

أو حركات الإسلام السياسي في الوطن العربي وإيران وتركيا، وتتضمن الشخصيات الرئيسية والثانوية للحركات الإسلامية بالإضافة إلى الأصوليين المستقلين.

كما تتضمن الموسوعة دراسة شاملة بعنوان «الخطابات الأيديولوجية والسياسية الإسلامية الحديثة والمعاصرة» تقدم ثلاثة مداخل فكرية نظرية وسياسية حول رؤية الحركات الإسلامية لطبيعة المعرفة ومبادئها، والتطورات الحاصلة فيما يتصل خصوصاً بالتعددية والديمقراطية.

■

قبل الفجر بساعة

جيمي كارتر

ترجمة: كمال السيد

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٤، ٢٨١ صفحة



في هذه المذكرات يحكي الرئيس الأمريكي الأسبق عن طفولته في عصر الكساد الكبير قبيل حركة الحقوق المدنية التي قلبت أمريكا رأساً على عقب.

ويقدم لوحة إنسانية عن حياة الريف التي عاشها مع أسرته وخمسة أشخاص أثروا في تشكيل عقله ووجدانه بينهم ثلاثة من السود بأسلوب روائي سلس.

هذه المذكرات تقدم الوجه الإنساني للرئيس كارتر في مراحل تنشئته الأولى وقبل وصوله للبيت الأبيض والإنجازات التي حققتها إدارته في الفترة من ١٩٧٧ وحتى ١٩٨١.

وأهمها اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل ومعاهدات قناة بنما ومعاهدة سولت ٢ مع الاتحاد السوفيتي وإعادة العلاقات الدبلوماسية مع الصين.

فضلاً عن التزامه بحقوق الإنسان ودعمه للحركات الداعية للحرية في مختلف أنحاء العالم.

تجربة الرئيس كارتر ثرية وتمثل حياة مئات الأسر الأمريكية في مرحلة مهمة من مراحل تطور أمريكا.

كما أنها تعكس تأثير اللبنات الأولى على شخصيته التي وصمت، أحياناً من باب السخرية، بأنها أخلاقية أكثر مما ينبغي لمشتغل بالسياسة، وربما يمكن اعتبار سياسة بوش هي النقيض تماما لتوجهات كارتر الأخلاقية

■

لماذا الوحدة العربية؟ وكيف؟

شبلي العيسمي

دمشق: المؤلف، ٢٠٠٤، ٤٥١ صفحة



في هذا الجزء الثاني من الكتاب يجيب المؤلف عن سؤال كيف، وهو يقر منذ البداية بأن تأثير الفئات المنادية بالوحدة العربية والعاملة من أجلها تضاءل إلى حد كبير، فيما تصاعد إلى حد بعيد أثر القوى المعادية لها، وصارت أكثر جراة في تسفيهها واستبعادها، إلى الحد الذي تمارس فيه نوعاً من الإرهاب الفكري وتصف المنادين بالوحدة بأنهم واهمون.

والمؤلف يركز على توضيح الوسائل التي يراها من وجهة نظره عملية وممكنة لبناء الوحدة العربية بصيغتها الاتحادية الفيدرالية، ضمن أسس ومضامين تجعلها قابلة للنجاح وفي مقدمتها الديمقراطية التي اعتبرها شرطاً لازماً لتحقيق الوحدة، ويقدم المؤلف محاولة لتعديل الخطاب الوحدوي الذي ساد في العقود الأخيرة واتسم بكثير من الانفعال والارتجال.

■

الإسلام في مواجهة الاستئصال

حلمي محمد القاعود

القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٤، ١٩١ صفحة



مجموعة من الدراسات التي تتناول قضايا مختلفة يجمعها خيط مشترك هو التصدي لمحاولات استئصال الإسلام من حياة الناس وواقعهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وتناول المؤلف يبدو متشعباً يبدأ من الخطر اليهودي الذي يستأصل الإسلام في فلسطين، حتى محاولات تخريب التعليم والتدخل في مناهج التربية الدينية في عديد من الدول العربية، مروراً بالحرب الدامية التي يشعلها المتآمرون في أرجاء العالم الإسلامي، فضلاً عن محاولات تشويه الفكرة الإسلامية وتحويلها إلى حالة دموية ضد الفطرة والإنسانية وجعلها مرادفاً للإرهاب.

■

راكوتي

رئيس التحرير: مينا بديع عبد الملك

القاهرة: جمعية مارمينا العجايبي للدراسات القبطية، ٢٠٠٤



هذا هو العدد الثاني من هذه الدورية التي تعنى بالدراسات القبطية والفنون القبطية في الحاضر والماضي، وقد اعتبرناها فور صدور عددها الأول إضافة جديدة ومهمة للدوريات المتخصصة في مصر، وفي هذا العدد يكتب الدكتور ميشيل بديع عن موسيقى وألحان الكنيسة القبطية، وفي الباب الخاص بالرسائل الجامعية عرض لرسالة عن العمارة القبطية، ويكتب الدكتور صبحي عبد الملاك، عن الأقباط في عصر الولاة، كما يكتب الدكتور عزيز سوريال عطية عن الإسكندرية في العصر القبطي، ودراسة عن طريقة الحساب في العصر القبطي يكتبها عادل فخري صادق، بالإضافة إلى أبواب المجلة الثابتة ومنها حفائر قبطية ومختارات من المكتبة القبطية.

■

أمريكا التي تعلمنا الديمقراطية والعدل

فهد العرابي الحارثي

الرياض: المؤلف، ٢٠٠٤، ٤٩٠ صفحة



يعرض الكتاب للسياسات الأمريكية في المنطقة وفي العالم قبل أحداث ١١ سبتمبر وما بعدها، ويقدم صوراً للممارسات الأمريكية قديماً وحديثاً داخل أمريكا وخارجها، في محاولة للكشف عن النوايا الأمريكية الحقيقية تجاه العالم كله، مؤكداً أن عقيدة الصقور لم تتغير منذ التأسيس وحتى عصر الهيمنة الحالي، فسيادة أمريكا على العالم بحسب هذه العقيدة هي إرادة إلهية، ويخلص المؤلف إلى أنه كان بمقدور الولايات المتحدة أن تقود العالم بدلاً من أن تسعى إلى قهره واضطهاده، والقيادة تختلف جذرياً عن الهيمنة، فالأولى تحمل معنى المشاركة والإحساس بالدور والواجب تجاه الإنسانية في مرحلة مهمة من تاريخها، فيما تبقى الثانية عند حدود الاستغلال والاستنزاف، الأولى هي منطق الدول الكبرى والحضارات العظيمة أما الثانية فهي منطق قطاع الطرق والغزاة والمستعمرين. والكتاب يعتمد على تاريخ الولايات المتحدة المكتوب ووثائقها الرسمية، فضلاً عن تصريحات كبار المسئولين فيها وخطبهم، وتحليلات المثقفين والأكاديميين الأمريكان.

■

ثمانية عشر رجلاً وامرأة واحدة

سيد خميس

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ٢٨٨ صفحة



هي طريقة ما في كتابة المذكرات، أي أن تكتب عمن عرفت وعاشرت، وبعض هؤلاء عايشهم المؤلف. رحمه الله. واقترب منهم إلى الحد الذي يجعل الكتابة عنهم سرداً لسيرته وسيرتهم معه.

ولأنهم شخوص فاعلون في الحياة الثقافية والعامة المصرية، وأصحاب مواقف ورؤى، فإن الكتابة عنهم تبدو رصداً للواقع المصري في تحولاته السياسية والاجتماعية واختياراته الثقافية والفكرية، في مراحل بعينها.

أما الثمانية عشر رجلاً الذين اختار أن يكتب عنهم، من بين مئات ممن عرف من مصريين وعرب كما يقول في مقدمته فهم: صلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودي وسيد حجاب وأمل دنقل وسليمان فياض وإبراهيم أصلان ومحمد سيد كيلاني وخالد محمد خالد ومحمد حافظ رجب وآدم حنين وجودة خليفة ومحمد جاد الرب ورضوان الكاشف وبيرم التونسي ونهاد بهجت وعبد القادر حاتم والفنان الفلسطيني مصطفى الحلاج والمناضل الفلسطيني صبري البنا (أبو نضال)، أما السيدة الوحيدة التي رأى المؤلف أنها تستحق الذكر في كتابه فهي أمه شوق منصور الوليلي.

والملاحظة الأساسية هنا فيمن اختارهم المؤلف من أصدقاء يوردهم في سيرته أو يحكي عنهم، أن ثلثهم تقريباً من الشعراء وبينهم شاعر فصحى واحد (أمل دنقل) أما البقية فهم كتاب وفنانون، وليس بينهم سوى مفكر ديني واحد كان مشهوداً له بالاستنارة واتساع الأفق ودفاعه المجيد عن الديمقراطية والحريات في مواجهة الرئيس عبد الناصر حين كان في عز صولجانه وجبروته.

ولعل مثقفي الجيل الذي ينتمي إليه المؤلف قد تأثروا جميعاً بكتابه المهم «من هنا نبدأ» الذي كان صرخة في وجه

الطغيان والاستبداد والتنظيم السياسى الواحد.

كما أن الوحيد من المسئولين التنفيذيين الذين عنى المؤلف بالحديث عن تجربته معهم، وتجربته فى القطاع الذى تولى إدارته والإشراف عليه، فهو عبد القادر حاتم الذى تولى إدارة التليفزيون المصرى فى بداية ظهوره.

أما المرأة الوحيدة التى اختار أن يكتب عنها (الأم) فمن الواضح أن تأثيرها على المؤلف كان كبيراً ومستمراً.

وهى كما ظهرت فى الكتاب امرأة عادية مثل ملايين من الأمهات فى قرى مصر ونجوعها، إلا أنها استثنائية فى اعتزازها بكبريائها وكرامتها ورفضها العنيد لمنطق المجتمع الذكورى وكل ما يحاول أن يفرضه باسم الدين والتقاليد، كما أنها كانت تحفظ مئات من أبيات الشعر العامى والأساطير والحكايات الشعبية التى أرضعتها لأبنائها، وقد أثر ذلك على توجهات المؤلف الذى شغلت الميثولوجيا والأدب الشعبى حيزاً كبيراً من كتاباته.

■

ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة

محمد الجوادى

القاهرة: جهاد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٢٤٠ صفحة



يستعرض الكتاب ثلاثية العلاقة بين السياسة والتاريخ والأدب والتأثيرات المتبادلة بينها، من خلال عدد كبير من أدبائنا الكبار ومفكرينا الذين أثروا حياتنا بما قدموه فى مجالات إبداعية مختلفة، وهو يقدم من ناحية ثانية الوجه الآخر لهؤلاء المبدعين من خلال مواقف بعينها، وبدون هذا الجانب الخفى فإن معرفتنا بهم تظل ناقصة أو مشوشة فى أحسن الفروض.

يتحدث المؤلف مثلاً عن سر حكمة توفيق الحكيم وشخصيته الحقيقية بعيداً عما شاع عنه أو أشاعه هو عن نفسه، بهدف إضفاء هالات من الضوء حوله تسهم فى تأكيد شهرته، كالحديث عن بخله أو عداوته المفرطة للمرأة أو انبهاره بارتداء البيريه الفرنسى والعصا.

ويتناول العداء بين العقاد والملك فؤاد وكيف تطور هذا الموقف حتى دخول العقاد السجن، وفى الفصل الثالث يقدم الوجه الآخر لطه حسين، وفى الرابع يروى قصة زواج عبد الحميد جودة السحار من خلال نصين من كتبه.

كما يتناول ثنائيات العلاقة بين بعض أقطاب حياتنا الأدبية، كالعلاقة بين أحمد أمين وطه حسين وصدى هذه الخلافات فيما كتبه لويس عوض وعبد الرحمن بدوى ومحمود أمين العالم وغيرها من القضايا.

ويقدم صورة غير معهودة للظلم الذى تعرض له بعض الأدباء فى مقابل الإنصاف الذى واجه آخرين.

وفى موضع آخر يستعرض ملامح الحياة الاجتماعية فى مصر من خلال بعض النصوص الأدبية، ويخصص لهذه الفكرة ثلاثة فصول من الكتاب، فضلاً عن موضوعات عديدة ذات صلة بموضوع الكتاب.

■

قوم لا يتطهرون

محمد كامل حسين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٦١ صفحة



ولد الدكتور محمد كامل حسين (١٩٠١ - ١٩٧٧) فى إحدى قرى المنوفية، وظهر تفوقه الدراسى منذ بواكير حياته وظل أول فرقته فى كلية طب قصر العينى حتى تخرج فيها ولم يتجاوز عمره الثانية والعشرين.

ثم أوفد فى بعثة دراسية إلى بريطانيا حيث نال إجازة الزمالة فى كلية الجراحين الملكية ثم تخصص فى طب العظام وعرف بأنه رائد طب العظام فى مصر.

وفى عام ١٩٥٠ اختاره الدكتور طه حسين أول مدير لجامعة عين شمس.

وقد عرف الدكتور حسين بين مثقفى زمنه وقراء الأدب بوصفه مؤلف القصة الطويلة «قرية ظالمة» التى تدور أحداثها فى الأيام الأخيرة للسيد المسيح.

وقد أثارت قصته اهتماماً بالغاً عند المثقفين واشتهرت على نطاق واسع، وترجمت إلى لغات عديدة كالإنجليزية والفرنسية والإسبانية والهولندية والتركية.

ونال عنها جائزة الدولة فى الأدب عام ١٩٥٧ كما نال جائزة الدولة فى العلوم عام ١٩٦٧، فأصبح أول مصرى يجمع بين جائزتى الدولة فى العلوم والآداب.

وكتب محمد كامل حسين فى مجالات عديدة: فى الطب والأدب والشعر والتاريخ، ومن أهم كتبه التى لم تحظ بشهرة «قرية ظالمة»: «متنوعات» و«الوادى المقدس» و«التحليل البيولوجى للتاريخ» و«الذكر الحكيم»، بالإضافة إلى جهوده الكبيرة فى تيسير اللغة العربية أثناء اشتغاله فى مجمع اللغة العربية.

وكتابه هذا يتضمن مجموعة من القصص التى نشرت فى دوريات أدبية مثل مجلة الهلال ومجلة القصة ومجلة الإذاعة والتليفزيون وهى قصص تشى بموهبته الساطعة واهتمامه البالغ بالأدب وفنونه وتضم المجموعة ثمانى قصص.

■

مبدعون ومجددون

أحمد زلط

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٠٣ صفحات



منذ بدأت مصر نهضتها فى أعقاب رحيل الحملة الفرنسية، تواصلت جهود عدد كبير من المفكرين وأصحاب الرؤى العظيمة من مختلف الاتجاهات، وتواكبت معها جهود أخرى بطول الوطن العربى واتساعه.

ولم يكن جهد هؤلاء ينحصر فقط فى الإبداع الفكرى والأدبى، لكنه كان يصب فى نهاية المطاف فى مصلحة المنجز الاجتماعى الأشمل.

وعلى هذا النحو لم يكن ما كتبه الطهطاوى مثلاً عن باريس وشوارعها النظيفة وعادات الفرنسيين وأساليب معيشتهم واحترامهم للإنسان وتقديسهم لحقوقه وعشقهم للنظام والإتقان فى العمل، مجرد انبهار بواقع مغاير، وإنما كان الهدف من المقارنة هو إذكاء الغيرة الوطنية وشحذ الهمم نحو ضرورة التغيير كى تصير حياة الناس أجمل وأكمل.

وكى ينتقل المجتمع المصرى كله إلى آفاق أكثر مدنية وحضارة.

وقد أسهمت صيحات التجديد تلك فى تحقيق الإفاقة التى تمنتها مصر وسيرها فى طريق الإصلاح والنهضة.

والمؤلف فى هذا الكتاب يستعرض سيرة ومسيرة عدد ممن ساهموا فى هذه النهضة فى العصر الحديث فى مجال الأدب وهم:

الشيخ رفاعة الطهطاوى والشاعر محمود سامى البارودى وأمير الشعراء أحمد شوقى وشاعر القطرين خليل مطران والشاعران العراقيان محمد مهدى الجواهرى وبدر شاكر السياب والشاعر التونسى أبو القاسم الشابى والأدباء المصريون نجيب محفوظ ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم ويحيى حقى وكامل كيلانى.

■

الواقع والأسطورة..

دراسات فى الشعر العربى المعاصر

ماهر شفيق فريد

القاهرة: دار البستانى، ٢٠٠٤، ٢٤٠صفحة



يعالج الكتاب قضايا مختلفة مثل الحب فى الشعر العربى المعاصر.

وكيف عبر الشعر عن ثورة يوليو وكيف أثرت سياسات الثورة على الإبداع الشعرى، وما الذى قاله الشعراء عن القناة وتأميم قناة السويس.

ويتعرض المؤلف لتجارب شعراء السبعينيات، كما يتضمن دراسات مهمة عن عدد من الشعراء الكبار فى مصر والعالم العربى.

فيكتب عن أدونيس وموقعه فى الشعر العربى الحديث، ونزار قبانى بين الأسطورة والشعر، وقراءات فى شعر صلاح عبد الصبور، كما يكتب عن أحمد عبد المعطى حجازى وبدر شاكر السياب وصلاح جاهين وأمل دنقل ومحمد إبراهيم أبو سنة وفاروق شوشة وحسن فتح الباب.

والناقد الدكتور ماهر شفيق فريد عرف بدراساته فى الأدب الإنجليزى والأمريكى المعاصر وخصوصاً دراساته عن «تى إس إليوت» إلا أنه يواكب حركة القصة والشعر فى مصر وقد قدم كثيراً من الأصوات الشعرية فى سنوات السبعينيات والثمانينيات، كما تابع إصدارات عديد من كتاب القصة المرموقين فى مصر.

■

أسرار حرب اكتوبر فى الوثائق الأمريكية

ويليام بير

ترجمة: خالد داود، ٢٠٠٤، ٤٣٤ صفحة



تكشف هذه المجموعة المهمة من الوثائق التى أفرج عنها مؤخراً كثيراً من الأسرار، مثل:

إخفاق وتخبط المخابرات الأمريكية فى التنبؤ بالحرب، ووصول تحذيرات مبكرة لإسرائيل عن هجوم مصر، ونصيحة كيسنجر لها بتفادى القيام بعمليات استباقية، وقرارات كيسنجر

المبكرة بتقديم مساعدة عسكرية لإسرائيل مع استمرار اتصاله بإسرائيل لخداعهم، وتحريضه إسرائيل لتحدى قرارات الأمم المتحدة.

وخطاب بريجنيف الذى دفع أمريكا لإعلان حالة التأهب النووى، واتصالات أمريكا ومنظمة التحرير الفلسطينية خلال الحرب.

وتوفر هذه الوثائق معلومات بالغة الأهمية عن السياسة الأمريكية وتصوراتها عن الحرب وردود أفعالها على ما ترتب عليها.

ولكن ذلك لا يعنى أن هذه الوثائق المفرج عنها تمثل الحقيقة كاملة فيما يتصل بمجريات الحرب ويومياتها.

إذ أن قانون حرية الاطلاع على المعلومات الذى سمح بنشر هذه المعلومات السرية، يعطى الحق لوكالة الأمن القومى فى فرض السرية على وثائق معينة لو كانت ستؤثر على المصالح الحالية للولايات المتحدة الأمريكية.

بما يعنى أن فترة الثلاثين عاماً التى يسمح بعدها بنشر المعلومات السرية، لا تعنى أنها تسمح بنشر كل المعلومات عن الحرب.

والوثائق التى تم الإفراج عنها أخيراً والتى يتضمن الكتاب بعضها، عبارة عن مذكرات رسمية وتقارير سرية كتبها المسئولون فى وزارة الخارجية الأمريكية ومجلس الأمن القومى وسفارات الولايات المتحدة فى كل من مصر والسعودية والأردن وإسرائيل، وكذلك محاضر جلسات رسمية ضمت نيكسون وبريجنيف وكيسنجر وحافظ إسماعيل مستشار الرئيس السادات للأمن القومى وجولدامائير وغيرهم من الشخصيات التى لعبت بدرجة أو بأخرى أدواراً فى حرب أكتوبر قبل ثلاثين عاماً.

وفى انتظار المزيد من الوثائق التى ربما يفرج عنها قريباً، سيظل كثير من أحداث حرب أكتوبر بحاجة إلى جلاء.

■

نيران صديقة

علاء الأسوانى

القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٤. ٢١٠ صفحات



براعة الأسوانى القصصية لا تستند إلى حداثية أساليب السرد ولا إلى ميله إلى الغريب والشائع من مفردات اللغة، وإنما إلى الغوص فى أعماق النفس الإنسانية وكشف تناقضاتها وحيلها السلوكية، وميلها إلى المداراة والتحايل، إما بزعم التكيف ومقاومة ما يفرضه عليها واقع حاد بالغ القسوة والدناءة، أو لرغبتها فى التظاهر بعكس ما تبطن كى تبدو فى صورة نقية مخاتلة، قد تكون مناقضة تماماً لصورتها الحقيقية.

الرواية القصيرة «الذى اقترب ورأى» تلخص إلى حد بعيد هذه المعانى.

فبطلها «عصام» شخص وعى وأدرك أكثر كثيراً من المحيطين حوله، وانتهى به وعيه إلى العزلة، ثم الجنون فى نهاية المطاف.

أما العزلة فقد قاده إليها إدراكه العميق للدوافع الحقيقية لسلوك المحيطين به، ما جعلهم جميعاً يبدون بالنسبة له فى حالة انكشاف كامل، يفضح تواطؤ المريض واستجاباتهم العمياء لقيم وأفكار بائدة، من وجهة نظره على الأقل.

فالأم المريضة تستكثر على أمها أن تعيش حتى الثمانين من عمرها، والجدة تدرك بوعيها شبه الغائب حقيقة مشاعر الابنة فتبادلها حدة بحدة، بل وتتعمد إحراجها والإساءة إليها أمام الضيوف، فتختار بعناية وقت زيارات الضيوف كى تتبول على نفسها فتشبعها الابنة بالإهانات وتكسب هى. الجدة. تعاطف الضيوف، وتتحين الجدة فرصة مناسبة كى ترد الإهانة للابنة، فترفع عنها غطاء الرأس فيبدو رأسها الذى تساقط شعره كله تقريباً بفعل العلاج الكيماوى، وتسألها فى تشفٍ خبيث: هو شعرك راح فين؟

وتتمنى الأم أن تموت ابنة خادمتها كى تتفرغ لرعايتها برغم ما تبديه من عطف تجاهها، وتتواطأ الأم فاسحة المجال لابنها كى يضاجع الخادمة، وتحسن الخادمة من جانبها تقدير الموقف واستغلاله كى تحصل على بغيتها من الاثنين وتحولهما فى لحظة مناسبة إلى عبيد أو خدم، دون أن تخفى سعادتها بتبديل المواقع.

أما ميله إلى الحضارة الغربية واحتقاره لكل ما هو مصرى أو شرقى، والذى تترجمه علاقته بالفتاة الألمانية «يوتا»، فإنه يدفعه دفعاً إلى الهذيان فالجنون.

على هذا النحو العجيب والعادى فى آن معاً تمضى علاقات الشخوص داخل الرواية ويمضى معها المؤلف كاشفاً عن ألاعيبها السلوكية وغلظتها وشراستها المغلفة بغلالات من الأحاسيس المصطنعة.

بقية قصص المجموعة لا تبعد كثيرا عن هذا الملمح الرئيسى حيث يعنى المؤلف كما أشرنا إلى كشف الحيل السلوكية التى يتخفى خلفها الناس.

■

تبسيط المعارف فى سلسلتين جديدتين للأطفال

الحيوان صديقى فى أفضل حال

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤





سلسلتان جديدتان صدرتا أخيراً عن دار الشروق، تتميزان بجمال التصميم والإخراج وسهولة الفكرة، والاثنتان معنيتان بتقديم المعلومة العلمية فى قالب مشوق بسيط، الأولى تحمل عنوان «الحيوان صديقى» وصدرت منها: أريد فيلا، أريد أسداً، أريد درفيلاً، أريد كنجارو. والقصص التى كتبها آن جوتمان ورسمها اجزافييه دينو، تقوم أساساً على كلمات قليلة وتخاطب خيال الطفل برسوم ذات خطوط واضحة وألوان بديعة، وبالإضافة إلى المعلومات التى يجدها الطفل عن الحيوانات موضوع القصص، فإن هذا النوع من القصص ينشئ رابطة من نوع ما بين الطفل والحيوان، ويقيم حالة من التواصل ترى فى الحيوان رفيقاً مفيداً لا وحشاً يبعث على النفور ويستدعى الرهبة، وبرغم الموضوع الواحد فإن بطل القصص ليس الطفل نفسه، فهو فى «أريد فيلاً» فتاة صغيرة جميلة، وكذلك الحال فى «أريد درفيلاً» ولكنه فى «أريد كنجارو» طفل أسمر اللون ينتمى إلى بيئة الكنجارو ذاتها، وهو اختيار مقصود بطبيعة الحال يمنح الحكاية صدقية أكبر.

نقرأ فى «أريد كنجارو»:

ماما أريد كنجارو/ كنجارو له جيب كبير يكفى/ أخبئ فيه كل شىء عندى.

ولن أفقد ثانية عروستى أبداً/ سأضعها فى جيب الكنجارو دائماً.

وسوف أشعر بالدفء والسلام/ عندما أكون فى حضن الكنجارو أنام.

وسيلعب معى فى حوض الرمل/ ويساعدنى كثيراً فى الحفر.

ومعه لن أحتاج إلى عربتى/ فسأتنزه فى جيبه أنا وعروستى.

ولن أحتاج للسلم فى الصعود/ نطة واحدة وللبيت نعود.

والآن يا ماما كما ترين/ أنا أحتاج فعلاً إلى كنجارو.

أما السلسلة الثانية فتحمل عنوان «فى أفضل حال» وصدرت منها: الطعام، النوم، النظافة، الأمراض، المخاطر.

وأبطال هذه السلسلة هم ليلو ورامى وعفريت صغير، وهم يقدمون عبر مغامراتهم الشقية معلومات علمية مفيدة، ويجيبون عن تساؤلات تشغل الطفل ربما لا يجد الكبار وقتاً للإجابة عنها.

كتاب الأمراض مثلاً يجيب عن عدد وافر من الأسئلة منها: ما الفيروس، كيف نحمى أنفسنا من الجراثيم الشريرة، ما فائدة التطعيم، ما الحساسية، متى نذهب إلى قسم الطوارئ، ما الفحوصات التى قد يطلبها الطبيب، ما معنى وراثى، من يعالجنا، وهكذا.

والمسألة ليست فى هذا الكم المفيد من المعلومات بقدر ما هى فى طريقة العرض الذكية، إذ يذهب الأولاد بصحبة والديهم إلى الدكتور عارف الذى يعرفهم بجسم الإنسان وبالطريقة المتبعة فى الكشف على المريض، وهو حين يشرح لهم معنى الفيروس فإنه يحكى لهم عن رحلته فى جسم الإنسان وكأنها حكاية عن صراع يستعد الأولاد للانتصار فيه، ثم يتم تأكيد المعلومة عبر تقديمها بشكل علمى موجز كى ترسخ فى ذهن الطفل، يقول لهم الدكتور عارف: الفيروسات جراثيم وتسمى أيضاً ميكروبات، وهناك عائلتان من الجراثيم: الفيروسات والبكتيريا، ولرؤيتها لابد من جهاز خاص هو الميكروسكوب، ويواصل: هناك جراثيم فى كل مكان: فى الماء والهواء وفى أجسامنا.

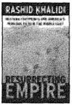
ويشرح لهم أن البكتيريا مفيدة وهى تساعدنا على هضم الطعام، إلا أن بعض الميكروبات خطر ولذلك توجد فى الجسم وسائل تتصدى لها وتمنعها من الدخول إلى جسم الإنسان، كما أن النظافة المستمرة هى الأسلوب الأمثل لمقاومة الميكروبات.

وعلى هذا المنوال وبأسلوب يمزج بين الدقة العلمية والخفة المناسبة للمرحلة العمرية التى يخاطبها المؤلف، يمضى السرد فى الكتاب.

Resurrecting Empire: Western Footprints and America's Perilous Path in the Middle East

(بعث الإمبراطورية: آثار الأقدام الغربية وطريق أمريكا الخطر في الشرق الأوسط)

Rashid Khalidi
Beacon Press, 2004, 223pp.



يتناول كتاب الدكتور رشيد الخالدى تاريخ التدخل الغربى فى منطقة الشرق الأوسط.

ويحلل النتائج التى يتوقع أن يسفر عنها التدخل الأخير للولايات المتحدة الأمريكية.

ويبين الكتاب أهمية قراءة التاريخ والتقاط دروسه.

ويستخلص أن من يخفق فى ذلك يكون معرضًا لتكرار أسوأ ما فيه، تمامًا كما تتصرف حاليًا الإدارة الأمريكية برئاسة الرئيس «جورج بوش» التى تمضى معصوبة العينين فى طريق الصراع والاحتلال والاستعمار دون الالتفات لدروس الخبرات السابقة.

يقدم رشيد الخالدى تحليله للموقف الحالى لأمريكا فى الشرق الأوسط فى حربها ضد العراق ودورها فى فلسطين من خلال عدة مداخل ثقافية وتاريخية.

الدكتور رشيد هو أستاذ كرسى إدوارد سعيد للدراسات العربية بجامعة كولومبيا ومدير معهد الشرق الأوسط بنفس الجامعة.

Love for Sale: A World History of Prostitution

(حب للبيع: تاريخ البغاء فى العالم)

Nils Johan Ringdal
Richard Daly (مترجم)
Grove, 2004, 480PP., $26.00



ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية من اللغة النرويجية، وهو لمؤرخ نرويجى يقوم بتناول تاريخ البغاء فى العالم وعبر الثقافات المختلفة. ونتيجة لاتساع نطاق الدراسة التاريخية لا تحظى الحقب الزمنية المختلفة ومناطق العالم المتفرقة بنفس القدر من المعالجة.

يهتم المؤلف بإظهار التأثير الأوروبى عبر الاستعمار فى تقديم أشكال من البغاء دخيلة على المجتمعات التى اقتحمها.

فعلى سبيل المثال، تحولت العادة الآسيوية المتمثلة فى عقد زيجات مؤقتة تحت التأثير الأوروبى إلى دفع نقدى مباشر فى اللقاءات المفردة.

وفى أفريقيا يعتقد المؤلف أن حملات التبشير الأوروبية ضد تعدد الزوجات والأزواج أدت إلى زيادة عدد النساء المنخرطات فى أعمال البغاء.

كذلك يحاول المؤلف أن يحلل العوامل الاقتصادية والثقافية والأخلاقية التى تدفع بالنساء إلى البغاء.

كما يحاول تقديم مداخل (ثقافية ومجتمعية) متعددة فى طرق النظر والتقييم للبغاء وللفاحشة بشكل عام. وأخيرًا يعبر المؤلف عن صعوبة تحليل ظاهرة الاختيار الحر المرتبطة بالبغاء فى العالم المعاصر وعلاقة ذلك بنتائج تحرير المرأة.

The Da Vinci Code

(شفرة دافنشى)

Dan Brown
Doubleday, 2003, 454PP, $24.95



تصدرت هذه الرواية قوائم الكتب الأكثر مبيعًا فى الولايات المتحدة منذ أن صدرت قبل ١٣ شهرًا.

وقد بيع منها ملايين النسخ، وترجمت إلى أربعين لغة، وتجرى مفاوضات الآن لتحويلها إلى فيلم سينمائى مع المخرج رون هوارد.

لكن الأهم من النجاح الجماهيرى للرواية، هو القلق الذى سببته فى الأوساط المسيحية الأمريكية، حيث تزرع «شفرة دافنشى» الشك فى المعتقدات المسيحية الأساسية مما دفع بالكنائس وأساتذة اللاهوت بإصدار كتب ومنشورات تفند ادعاءات الرواية وترد على تساؤلات قرائها.

تدعى الرواية التى تنتمى لفئة الروايات البوليسية أن الديانة المسيحية تأسست على أكذوبة، وأن الكنيسة تآمرت لعدة قرون من أجل إخفاء الدليل على بشرية السيد المسيح، وكونه قد تزوج من ماريا المجدلية وأنجب منها أطفالاً يعيش نسلهم فى فرنسا!

يقول مؤلف الكتاب دان براون، وهو مدرس ثانوى سابق، أنه يعتقد شخصيًا فى صحة النظريات التى يناقشها أبطال الرواية، وأنه اعتمد على أدلة أثرية تتم مناقشتها فى نطاق العلماء الضيق، مثل لفائف البحر الميت التى اكتشفت فى خمسينيات القرن العشرين، ونصوص نجع حمادى التى وجدت فى مصر عام ١٩٤٥. وتبين «شفرة دافنشى» أن الإمبراطور الرومانى قسطنطين الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى هو الذى أخفى المخطوطات الإنجيلية القديمة من أجل أهداف سياسية، وأنه هو الذى فرض عقيدة الوهية المسيح عام ٣٢٥ ميلادية.

Who Are We: The Challenges to America's National Identity

(من نحن: تحديات الهوية الوطنية الأمريكية)

Samuel P. Huntington
Simon & Schuster, 2004, 448PP., $27.00



فى كتابه الشهير «صدام الحضارات» تنبأ عالم السياسة الأمريكى صامويل هانتنجتون بمعركة الولايات المتحدة مع الجماعات الإسلامية المسلحة. وفى هذا الكتاب، يحول هانتنجتون أنظاره إلى صدام الحضارات داخل الولايات المتحدة ذاتها. فهو يرى خطرًا كبيرًا يهدد الهوية الوطنية الأمريكية متمثلاً فى تزايد عدد المهاجرين من مختلف أنحاء أمريكا اللاتينية الذين يتحدثون اللغة الإسبانية ويدينون بغير المسيحية البروتستانتية.

تلك الثقافة الفرعية التى نمت داخل الولايات المتحدة يعتبرها هانتنجتون مصدرًا لانقسامات داخلية تضر بمستقبل أمريكا ومصالحها القومية. فهانتنجتون يشدد على ضرورة محافظة أمريكا على هويتها المسيحية البروتستانتية وثقافتها الأنجلو مركزية. إما أن تضم أمريكا ألوفًا من المهاجرين الجدد الذين لا يشعرون بالحاجة إلى تعلم اللغة الإنجليزية أو الاندماج فى الثقافة الأمريكية بفضل شيوع اللغة الإسبانية فى الشارع، والكنيسة وأماكن العمل وغير ذلك من الحياة العامة خارج المنزل، فذلك من شأنه أن يؤدى إلى إضعاف وتفكيك الولايات المتحدة الأمريكية.

The Mold in Dr. Fiorey's Coat: The Story of Pencillin and the Modern Age of Medical Miracles

(قصة البنسلين والعصر الحديث للمعجزات الطبية)

Eric Lax
Holt, 2004, 352PP., $25.00



يهدف هذا الكتاب إلى تصحيح الفهم الشائع بأن ألكساندر فيلمنج هو أول عالم يكتشف البنسلين وأول من قدم إلى العالم عقار المضاد الحيوى الذى أنقذ آلاف الأرواح وتشكل به عصر طبى جديد.

فبالرغم من أن فلمنج هو الذى صك مصطلح «البنسلين»، إلا أن أبحاثه الترجيحية حول الفطر لم تسفر سوى عن نتائج محدودة

وفى عام ١٩٤٠ بعد أكثر من عشر سنوات من توقف أبحاثه، قام فريق باثولوجى من جامعة أكسفورد برئاسة هوارد فلورى وأرنست تشاين ونورمان هيتلى بمزاولة أبحاث فلمنج الأولية إلى أن توصلوا إلى أول عقار مضاد حيوى.

وقد حاز كل من فلمنج وفلورى وتشاين على جائزة نوبل عام ١٩٤٥.

إلا أن الإعلام والذاكرة الشعبية نسبت الفضل كله إلى فلمنج، الأمر الذى يحيله المؤلف إلى الميل الشعبى «الهوليوودى» إلى البطولة الملحمية المنفردة.

An Enduring Love

(حب خالد)

Farah Pahlavi
Patricia Clancey (مترجمة)
Miramax Books, 2004, 447PP., $24.95



بالرغم من مرور ربع قرن على قيام الثورة الإسلامية فى إيران وخلع الشاه محمد رضا بهلوى، إلا أن الإمبراطورة الحسناء فرح ديبا بهلوى، آخر زوجات الشاه، لازالت تعيش فى حالة من الرفض للواقع. وفى مذكراتها التى صدرت بالفرنسية فى ديسمبر الماضى، ثم تبعتها الترجمة الإنجليزية منذ شهرين، تتحدث

الشاهبانو عن ظلم التاريخ لزوجها الراحل، وبطلان كل ما كتبه المؤرخون والمعاصرون عنه باعتباره قائدًا ضعيفًا، ومترددًا، وانفعاليا.

فهي تتجاهل على سبيل المثال أن عودة الشاه لعرشه عام ١٩٥٣ احتاجت لانقلاب دبرته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما تقلل من الدور الإرهابي الذى كان يقوم به «السافاك» البوليس السرى للشاه الذى كان يتجسس على خصوم الشاه ويعذبهم ويقتلهم.

وتدافع فرح ديبا عن الاحتفال الباذخ الذى أقامه الشاه عام ١٩٧١ بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على الإمبراطورية الفارسية والذى تكلف ٢٠٠ مليون دولار، قائلة أن تلك الاحتفالات كانت مناسبة رائعة لممارسة العلاقات العامة.

وهكذا يمضى كتابها . سلسلة من المرافعات للدفاع عن حكم الشاه، والهجوم على الثورة التى تراها لا كثورة شعبية وحدت جميع طبقات المجتمع ضد الشاة، وإنما مؤامرة استخدم فيها الشيوعيون الدين لكى يؤلبوا الشعب.

ويرى البعض أن السبب الذى دفع بالإمبراطورة السابقة أن تكتب هذا الكتاب فى هذا التوقيت هو حشد التأييد العاطفى لإعادة التاج لابنها رضا، الذى يتزعم الآن حركة معارضة للجمهورية الإسلامية من مكتبه ومنزله بواشنطن . ومن خلال موقع على الإنترنت . وكان رضا قد نصب نفسه شاهًا فى احتفال صغير أقامه فى مصر عام ١٩٨١ عندما أتم عامه العشرين.

The Undressed Art: Why We Draw

(الفن الطبيعى: لماذا نرسم)

Peter Steinhart

Knopf, 2004, 272PP., $23.00



يعتقد البعض أن شيوع التصوير الفوتوغرافى وانتشار الكاميرات زهيدة الثمن قد أدى إلى انحسار الرسم كنشاط إنسانى أساسى.

هذا الكتاب يثبت خطأ هذا الاعتقاد ويؤكد أن الرسم يزدهر بين الأفراد، الذين يكون بعضهم مجموعات خاصة لممارسة هذا النشاط جماعيًا.

ومن ضمن هؤلاء الأفراد المؤلف نفسه، الذى هو ليس بالرسام المحترف، إلا أنه يمارس هواية الرسم مع مجموعة من الأصدقاء ويتناقشون فى التقنيات المختلفة ويتبادلون الرسومات.

ينتقل المؤلف بسرعة من خبرته الشخصية إلى تاريخ فن الرسم، وعلمه، وحياة الرسامين الكبار والرسامين الذين عرفهم.

وهو من خلال دراسته الفاحصة للرسم باعتباره ممارسة ثقافية للتعبير عن الذات يكتشف أنه أكثر من هذا بكثير . فالرسم رد فعل جماعى لحاجة بشرية متأصلة فى نفس الإنسان.

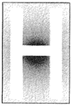
ويهتم المؤلف برسوم الأطفال ويتناول العلاقة المعقدة بين اليد، والذهن، والعين، وموضوع الرسم خاصة فى رسم وجوه وأجسام البشر.

The Hype About Hydrogen: Fact and Fiction in the Race to Save the Climate

(الضجة حول الهيدروجين: الحقيقة والخيال فى سباق إنقاذ المناخ)

Jaseph A. Romm

Island, 2004, 240PP., $ 25.00



روج الرئيس بوش فى خطابه إلى الأمة الأمريكية العام الماضى لفكرة «اقتصاد الهيدروجين»، مما جعل الاهتمام الإعلامى والجماهيرى يزداد بقضية الطاقة التى يتلاعب بها السياسيون فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول التى تضغط فيها الجماعات والأحزاب المدافعة عن البيئة.

وفى هذا الكتاب يقوم جوزيف روم، الذى كان قد عمل فى وزارة الطاقة أثناء إدارة كلينتون بإظهار مدى اللغط والخلط الحادث فى قضية إحلال الطاقة.

فبداية، يؤكد جوزيف روم على أن الهيدروجين هو حامل للطاقة وليس مصدرًا للطاقة (على الأقل حتى يتم ترويض الاندماج النووى).

ثم يشير المؤلف إلى أنه على الرغم من إمكانية استخراج الهيدروجين من مياه البحر، إلا أنه الآن يتم استخراجه بالأساس من الغاز الطبيعى . والذى يصدر عنه غازات ملوثة تمامًا مثل الوقود العادى.

أما بالنسبة لاستخدام الهيدروجين لإحلال وقود السيارات، فإن روم يعبر عن عبث هذه الفكرة وصعوبتها الشديدة التى قد تحتاج لعشرات السنين لكى يتم الاستعداد اللازم لها . هذا بالرغم من أن بعض شركات تصنيع السيارات قد بدأت فى الترويج للسيارة التى تسير بوقود الخلايا الهيدروجينية . فالهيدروجين يتسبب فى تلف الحديد، كما أن عاصفة كهربائية على بعد أميال يمكنها أن تشعل الهيدروجين، بل حتى شحنة الكهرباء فى التليفون المحمول قد تتسبب فى إشعال حريق بالسيارة!

I am no one you know

(أنا شخص لا تعرفه)

Joyce Carol Qates

Ecco, 2004, $24.95



يقول النقاد أن جويس كارول مؤلفة هذا الكتاب اعتادت أن تكتب رواية جديدة كل عدة شهور . والكتاب الجديد يضم مجموعة قصص قصيرة قد يكون من الصعب أن تكون الواحدة منها رواية كاملة لكن كل قصة مليئة بالأحاسيس والقدرة المذهلة للمؤلفة على إمتاع القارئ بل وجعله يتابعها باهتمام كبير . وكما يقول النقاد فإن هذه القصص تتمتع بلغة غنية وجذابة وهى متنوعة الموضوعات، حيث تتناول عدة أمور مثل الاستغلال غير القانونى للأطفال والاغتصاب . والآباء غير المستقرين ذهنيًا . والقصص ترتكز على حياة الإنسان العادى وعلاقة البيض والسود فى المجتمع الأمريكى.

All- Night Party: The Women of Bohemian Greenwich Village and Harlem

(حفلة طول الليلة)

Andrea Barnet



كثيرًا ما يتبادر إلى الأذهان عندما يأتى ذكر مدينة نيويورك أمور كثيرة مثل الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمسارح والفن وكذلك الجريمة والعصابات (حتى ستينيات القرن الماضى) . لكن هذا الكتاب يتحدث عن الحركة الأدبية فى هذه المدينة العالمية فى فترة مهمة من تاريخها أى من ١٩١٣ حتى ١٩٣٠.

وتأكيدًا على أهمية نيويورك الفكرية، فإن الكاتب والشاعر والفنان الطليعى الإنجليزى مينا لوى قال بعد قليل من وصوله إلى نيويورك عام ١٩١٦ مقولته الشهيرة:

من لم يعش فى نيويورك فإنه لم يعش فى العالم الحديث:

فقد كانت بالمدينة مجمعات هائلة للمفكرين والأدباء والفنانين وكانت تعج بالأفكار والمسرحيات والأفلام والصحف بشكل غير مسبوق فى أى مدينة أخرى.

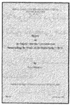
وفى هذا الكتاب وهو الأول لمؤلفته، عرض لحياة مجموعة من النساء غير التقليديات اللاتى لعبن دورًا كبيرًا فى الحركة الفكرية والأدبية فى الفترة من ١٩١٣ حتى ١٩٣٠.

The Report of the Inquiry into the Circumstances Surrounding the death of Dr. David Kelly, CMG

(تقرير عن التحقيق فى ملابسات وفاة د . ديفيد كيلى)

by: Lord Hutton

London: Her Majesty's Stationery office, 740pp, 70£



لورد هاتون قاض بريطانى جليل تولى رئاسة لجنة شكلتها الحكومة البريطانية لمعرفة ملابسات وفاة خبير الأسلحة البريطانى ديفيد كيلى الغامضة قبل عدة شهور.

وقد فجر التقرير ضجة كبيرة فى بريطانيا والعالم نظرًا لارتباطه بقضية حساسة للرأى العام هى الأسباب التى أدت إلى غزو العراق من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا.

بدأت القصة عندما أذاع أندرو جليجان مراسل هيئة الإذاعة البريطانية «بى بى سى» فى ٢٩ من عام ٢٠٠٣ تقريرًا إذاعيًا قال فيه نقلاً عن مصادر فى المخابرات البريطانية:

أن الحكومة البريطانية بالغت وضخمت فى الادعاء بأن العراق يمكنه أن يستخدم بعض أسلحة الدمار الشامل التى بحوزته خلال ٤٥ دقيقة.

وعلى الفور تحركت الحكومة البريطانية لمعرفة هوية هذه المصادر.

وبعد ذلك بأيام جرى العثور على جثة خبير الأسلحة ديفيد كيلى الذى شارك فى التفتيش على أسلحة العراق والذى تبين بعد ذلك أنه التقى مع جليجان.

وبعد أن شكلت الحكومة البريطانية

لجنة هاتوك عملت اللجنة عدة شهور واستدعت شهوداً عديدين بينهم رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير ووزير دفاعه جيف هون.

ثم أصدرت اللجنة تقريراً ضخماً برأت فيه بشكل عام الحكومة البريطانية وأدانت عدم التزام هيئة الإذاعة البريطانية بالمعايير المهنية وأكدت أن كيلى توفى منتحراً.

وكانت النتائج التى توصلت إليها اللجنة مفاجأة للرأى العام الذى اتهم لورد هاتون بأنه انحاز للحكومة وعاقب «بى بى سى» وأصرت نسبة كبيرة من الرأى العام من خلال استطلاعات الرأى على أنها تثق بهيئة الإذاعة البريطانية أكثر من حكومة بلير.

المشكلة أن التقرير فجر الوضع داخل «بى بى سى» التى شعرت بأنها فقدت كثيراً من مصداقيتها فاستقال مديرها العام ثم رئيسها.

وقد صدر تقرير لور هاتون فى كتاب ليكون بمثابة سجل لحدث مهم قد يكون له تأثير خطير فى مستقبل الحكومة البريطانية ورئيسها تونى بلير.

Alexandria: A History and A Guide

(الإسكندرية)

E. M. Forster

Cairo-Auc Press, 2004



مؤلف هذا الكتاب عاش فى الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية أيام كانت المدينة تضم طوائف وفئات وجنسيات شتى وهو فى هذا الكتاب يتحدث عن عصر الإسكندرية الذهبى. فقد كانت الإسكندرية مركز العلم والفن والأدب فى العصر القديم حباها الله موقعاً عظيماً ومناخاً رائعاً وبشراً جعلوها تتفوق على كثير من مدن العالم.

ويتحدث المؤلف فورستر فى كتاب عن شعراء المدينة وفلاسفتها وعلمائها حتى القرن السابع الميلادى عندما فتح العرب مصر.

كما يضم الكتاب مجموعة من المقالات عن فراعنة مصر وتاريخ الإسكندرية الفلسفى والدينى. والكتاب بذلك يضاف إلى مكتبة كبيرة بلغات عديدة تتناول حياة تلك المدينة وتأثيرها الكبير على حضارة العالم ومدى التغير الذى لحقها عبر الزمن.

John F. Kerry: The Complete Biography

(جون إف. كيرى: السيرة الكاملة)

by: The Boston Globe reporters

Public Affaris, 2004, 448PP., $14.95



لم يأت جون كيرى المرشح الديمقراطى للرئاسة الأمريكية إلى بؤرة الأحداث من المجهول، فقد كان أحد أبرز أعضاء مجلس الشيوخ الذين حملتهم ولاية ماساشوستس إلى واشنطن علاوة على أنه بطل أمريكى حارب فى فيتنام ثم انخرط فى الحملة المطالبة بوقف الحرب بعد ذلك.

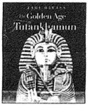
وهذا الكتاب تجميع لـ ٧ حلقات نشرتها صحيفة «بوسطن جلوب» الأمريكية الشهيرة عن جون كيرى تتناول كافة تفاصيل حياته وبشكل خاص حياة كيرى السياسية فى بوسطن عاصمة ماساشوستس. ويرسم الكتاب صورة لكيرى باعتباره رجل متناقضات فهو ابن دبلوماسى ترعرع فى عالم من الثراء والامتيازات لكنه يشعر دائماً بأنه لا ينتمى إلى هذا العالم، وهو سياسى يجد نفسه فى قيادة الحملات السياسية والضغط من أجل الكشف عن الفساد، لكنه موصوف بالانتهازية السياسية وهو أيضاً ارستقراطى خجول، لكنه جرىء فى الحرب والسياسة.

The Golden Age of Tutankhamun

(عصر توت عنخ أمون الذهبى)

Zahi Hawass

Cairo-AUC Press, 2004, LE 120



مازال توت عنخ آمون الفرعون المصرى الصغير يبهر العالم منذ اكتشاف هوارد كارتر البريطانى الشهير لمقبرته فى وادى الملوك عام ١٩٢٢.

لقد أصبح هذا الفرعون المجهول فى التاريخ المصرى القديم والذى ليس له أمجاد تذكر من أشهر الفراعنة فى العالم نظراً لأن مئات الآلاف بل ملايين الأشخاص ربما تنطبع فى ذاكرتهم صورة التابوت الذهبى لهذا الفرعون أكثر من أى أثر آخر للحضارة الفرعونية.

ومؤلف الكتاب هو الدكتور زاهى حواس أمين عام المجلس الأعلى للآثار فى مصر وأحد أبرز علماء الآثار المصريين وهو يحكى قصة هذا الملك الذهبى والعصر غير العادى الذى عاشه. والكتاب يضم ١٢٠ صورة ملونة.

The Lamp of Umm Hashim and other Stories

(قنديل أم هاشم وقصص أخرى)

Yahya Hakki

Translated by Denys Johnson Davies

Cairo-Auc Press, 2004, LE 50



تعد «قنديل أم هاشم» أحد أبرز أعمال الكاتب الكبير الراحل يحيى حقى إن لم تكن أشهرها على الإطلاق.

وقد سبق حقى فى هذا العمل روائيين كثيرين عندما استكشف روائياً أبعاد العلاقة بين الشرق والغرب من خلال الشاب المصرى الذى ذهب لدراسة الطب فى الغرب ليعود وقد أصبح حاملاً لكل قيم الغرب ساخطاً على مجتمعه المتخلف وغاضباً على مواطنيه الذين طال عليهم الأمد فى الكسل واللامبالاة والتأخر.

ويعد هذا العمل، الذى قامت الجامعة الأمريكية فى القاهرة بإصداره مترجماً إلى الإنجليزية رائداً بكل المقاييس وقد احتفى به النقاد والقراء العرب منذ صدوره قبيل عدة عقود.

Inside Putin's Russia

(داخل روسيا بوتين)

Andrew Jack

Granta, 2004, 352PP. 20 £.



أدى الرئيس الروسى فلاديمير بوتين خلال الشهر الماضى اليمين الدستورية كرئيس للبلاد لفترة رئاسية ثانية وكان بوتين قد فاز قبل ذلك بأغلبية ساحقة فى الانتخابات الرئاسية التى ليس من المبالغة القول إن الجميع كان يعرف أن بوتين سيفوز بها ولذلك فقد تراجع الكثيرون عن منافسته.

كيف وصل بوتين إلى هذه الدرجة من القوة؟ هذا ما يحاول أن يجيب عليه هذا الكتاب الذى ألفه أندرو جاك مراسل صحيفة فايننشال تايمز البريطانية فى موسكو.

ويقول المؤلف إنه عندما هبط بوتين على رئاسة روسيا فى اليوم الأول للألفية الجديدة بعد استقالة بوريس يلتسين علق أحد المحللين قائلاً:

نكرة جاء من المجهول ليكون رئيساً

ومن الواضح أن بوتين أصبح رئيساً نتيجة لصفة شخصية وحيدة فيه، وهى ولاؤه التام لرؤسائه السابقين.

فبعد أن انتهى عمله فى المخابرات السوفيتية «كى جى بى» بعد انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١، خدم بوتين تحت رئاسة عمدة سان بطرسبرج أناتولى شوباك قبل أن ينتقل إلى موسكو عام ١٩٩٦ ليلتحق بإدارة يلتسين. وكان موظفاً ذا كفاءة عالية، لكن أحداً لم يكن ليتوقع أن يترقى ليصبح رئيساً بهذه السرعة.

لكن الظروف التى ظهرت عام ١٩٩٩ جعلت الحلم المستحيل واقعاً فصحة يلتسين تتدهور والانتخابات الرئاسية وشيكة ومعظم المقربين من أسرة يلتسين قيد التحقيق باتهامات التورط فى الفساد. والأسرة والنظام والمقربون فى حاجة إلى وريث يمكن الثقة فيه بشكل مطلق مع ملاحظة أنه سبق لبوتين أن ساعد شوباك فى الهرب إلى باريس لتجنب المحاكمة.

وتوصلت حاشية يلتسين إلى أن بوتين الشخص المناسب. وكان أول قرار أصدره كرئيس هو مرسوم يحمى يلتسين من المحاكمة.

وعقب ذلك أصبح بوتين زعيم روسيا بدون منازع والتف الروس حوله باعتباره زعيماً قوياً أعاد للبلاد هيبتها بعد سنوات من الضياع والفساد والتراجع المخزى داخلياً وخارجياً.

وطبق بوتين سياسة داخلية تقشفية وتعقب الفاسدين والتزم بنصائح صندوق النقد والبنك الدوليين، الأمر الذى ساعد على استقرار الاقتصاد الروسى إلى حد ما.

ودعم بوتين الرئيس الأمريكى جورج بوش بشدة بعد أحداث ١١ سبتمبر فزادت مكانته الدولية وتغاضى الغرب عن ميله إلى تجميع كل السلطات فى يديه وضمه للمؤسسات الإعلامية المستقلة والمعارضة، كما تغاضى عن الحرب الشرسة التى يقودها فى الشيشان والتى لم تنجح حتى الآن فى وقف المقاومة الشيشانية.

نللي حنا تعلق: مآخذ على المآخذ

قدمت «وجهات نظر» في عدد مايو الماضي عرضاً نقديا لكتابي «ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية (ق ١٦ - ق ١٨)» الذي نشر بالإنجليزية بالولايات المتحدة وصدرت له طبعة عربية بالقاهرة. وقد أثار صاحب العرض بعض التساؤلات التي تقتضي مني أن أقدم إجابة لها، ليقف القراء على حقيقة ما توصلت إليه في هذا الكتاب من نتائج، وما طرحته من تساؤلات قد تفتح الباب لغيري من الباحثين لتقديم دراسات تلقي المزيد من الضوء على ما لازال غامضا منها، وخاصة أن العصر العثماني لم يحظ إلا باهتمام متواضع من جانب الباحثين.

وتعود قلة الاهتمام بذلك العصر إلى واقع مصر قبله وبعده، فقد كان العصر السابق عليه عصر الإمبراطورية المملوكية، التي كانت مصر قاعدتها، كما كانت مركز الخلافة العباسية بعد إحيائها في القاهرة إثر سقوطها في بغداد على يد المغول. وجاء بعد تلك القرون الثلاثة من الحكم العثماني عصر محمد علي، الذي طبق سياسات حديثة، ودعم دور مصر الإقليمي بعدما كانت ولاية عثمانية طوال تلك القرون الثلاثة. لذلك طغى الاهتمام بالعصر المملوكي وعصر محمد علي على الاهتمام بدراسة القرون من السادس عشر إلى الثامن عشر، واكتفى مؤرخونا الرواد - كما لاحظ صاحب العرض - باستمداد معلوماتهم عنه من كتابات المستشرقين من أمثال هاملتون جب وغيره، في وقت كانت كتابات هؤلاء تهدف إلى تقديم التبرير الأكاديمي للهيمنة الأوربية على الشرق عامة، والدولة العثمانية خاصة. وقامت كتابات هؤلاء المستشرقين برسم صورة قاتمة للمجتمع الإسلامي/ العثماني، فهو «تقليدي» و«راكد» و«متخلف».

وكان لهذا الاعتماد على الكتابات الاستشراقية ما يبرره طالما كانت المصادر الأرشيفية غائبة، وكانت مخطوطات العصر - ولا تزال - مبعثرة بين مكتبات بلاد الشرق وأوروبا دون أن يكون هناك حصر شامل لها، لا في تلك المكتبات فحسب، بل وفي دار الكتب المصرية، ناهيك عن غيرها من المكتبات في البلاد العربية وتركيا.

وعندما أصبح الاطلاع على سجلات المحاكم الشرعية في العصر العثماني متاحا منذ نحو ثلاثة عقود، بدأ البحث العلمي الجاد في تاريخ هذا العصر، وإن ظل عدد المشتغلين به قليلاً.

وكنت من بين الباحثين الذين أحسوا من خلال دراستهم للمصادر الأرشيفية بأن هناك تعميمات سحبت على العصر كله كشفت الوثائق بطلانها. وشغلت على مدى ربع القرن بإجراء دراسات عميقة تنقيبية في تلك الوثائق، كانت ثمارها ثلاثة كتب «بيوت القاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر» الذي نشر بالفرنسية وترجم إلى العربية وكتاب «تجار القاهرة في العصر العثماني - سيرة أبي طاقية شاه بندر التجار» الذي نشر بالإنجليزية والعربية، ثم أخيرا كتاب «ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية» موضوع العرض المشار إليه.



حين كانت مصر تبحث عن الحداثة

خالد فهمي

وكان من دواعي هذا الاهتمام ما أجري من بحوث كثيرة عن عصر محمد علي، بينت ما توصل إليه من إعادة تنظيم الموارد الاقتصادية بحيث تخدم مشروعه السياسي، ومن تطور مؤسسات تعليمية وثقافية كجزء من السياسات الإصلاحية. كنت وما زلت مقتنعة بأن استعانة محمد علي في مشروعاته بالخبرة الأوروبية (قد كشفت الدراسات الدقيقة لوثائق محمد علي أن المبادرة والخيار كانا في يده وأن دور الخبرة الأوروبية جاء في حدود ما كان مطلوباً منه فقط) لا تفسر لنا تطورات القرن التاسع عشر وأنه لا يمكن فهم هذه التطورات سواء في المجال الاقتصادي أو في المجال الثقافي دون فهم ما سبقه من تطورات تاريخية.

هذه مقدمة طالت بالقدر الذي يعين القارئ على تبين موقع الكتاب الأخير من مشروع علمي ممتد، وليقف على حقيقة المجال الذي يضعه هذا المشروع في بؤرة الاهتمام. لا من قبيل التباهي به، فلم يولد بعد من يدعي تقديم القول الفصل في أي مجال معرفي، وادعاء ذلك يعني الجهل البين، لأن العلم لا حدود له. ولكني أردت بهذه المقدمة بيان ما لدي من معرفة بما أكتب عنه.

يذهب صاحب العرض في انتقاده للكتاب إلى طرح ثلاثة مآخذ: أولها أنني أهملت البعد العثماني في دراستي للموضوع، وركزت على مصر وحدها، فلم أهتم ببيان أثر «المركز» العثماني على ثقافة «الطرف» مصر. والمأخذ الثاني يتصل بعدم قيامي بتحديد الدور السياسي للطبقة الوسطى في القاهرة واستانبول وقد ختمه بسؤال غريب حول سبب عدم حدوث ثورة بورجوازية في مصر كالثورة الفرنسية. والمأخذ الثالث ذهب فيه إلى أن حرصي - ومن هم على شاكلتي من المؤرخين من أمثال عفاف لطفي السيد وبيتر جران وغيرهم - على نقض فكرة «المركزية الأوروبية» أدى إلى ارتكابنا خطيئة استخدام نفس مصطلحات دعاتها.

ويثير المأخذ الأول تساؤلاً حول كيفية قراءة صاحب العرض للكتاب، ومدى معرفته بطبيعة الحكم العثماني في الولايات العربية، وانعكاسه على الواقع الثقافي. فالفصل الأول من الكتاب يبحث في العوامل المؤثرة في الثقافة، وتكوين الطبقة الوسطى بمختلف أبعادها السياسية والاقتصادية، بما في ذلك العلاقة بين القاهرة واستانبول التي

ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية (ق ١٦م - ق ١٨م)
تأليف: نللي حنا
ترجمة وتقديم: رءوف عباس
الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣.

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

بينت آثارها على الواقع الثقافى فى مصر. ولا أعتقد أن الثقافة العثمانية هيمنت على ولاياتها، فالسلطة العثمانية فى استانبول لم تتدخل فى أمور الناس ولا فى حياتهم الثقافية.

وقد تعمق الكاتب فى أكثر من فصل فى هذا البعد الإقليمى وأبرزت أهمية العوامل المشتركة بين بلاد شرق حوض البحر الأبيض المتوسط وتأثير هذه العوامل على التعليم والثقافة ودرست الظروف المادية مثل انتشار تجارة الورق وتأثير ذلك على انتشار الكتاب، وأكدت مراراً على أن التاريخ الثقافى والتعليمى لا يسير وفق الحدود الجغرافية للتاريخ السياسى. وقلت أن التطور الرأسمالى التجارى الذى لعب دوراً فى تشكيل ثقافة الطبقة الوسطى فى القاهرة أيضاً له تأثير فى مدن الشام والأناضول.

وقد استغربت كيف يقول إن الكتاب لا يشير إلى الأثر الثقافى على الحياة السياسية وإنى صورت الثقافة فى واد والسياسة فى واد آخر، هذه العبارات تعكس رؤية ضيقة للغاية عن العمل السياسى وكأنه لابد أن يكون مرتبطاً بأشكال معينة أو تصرفات محددة فى حين أنى اعتبرت أن العمل السياسى الذى قام به أفراد من الطبقة الوسطى أخذ أشكالاً متعددة بالكلمة والكتابة من مقاومة السلطة وهنا أيضاً اعتبرت أن السلطة ليست هى السلطان فقط ولكنها تشمل أيضاً هؤلاء المجموعات الذين يفرضون أو حاولوا أن يفرضوا سيطرتهم على المجتمع.

وقد استخدم صاحب العرض نموذجا لا يصلح لدعم هذا المآخذ على الكتاب، عندما أشار إلى دراسة ليزلى بيرس عن «عينتاب»،وهذا النموذج لا يصلح لسببين أولهما: أن المقارنة بين القاهرة وتلك المدينة الكردية / التركية، التى تقع على تخوم الأناضول الجنوبية مقارنة فجة، وثانيهما أن دراسة الأمور الإدارية تختلف عن دراسة الثقافة ويصعب أن نستخدم النموذج الخاص بعلاقة القاضى والشهود فى «عينتاب» بالسلطان فى استانبول كمنهج لدراسة التطورات الثقافية.

والمأخذ الثانى يطرح فيه توصيفى المنهجى للطبقة الوسطى وثقافتها، ويعجب لاتباعى فى توصيف الطبقة لمفاهيم غربية، ولما أثبت من تأثير ثقافة الطبقة الوسطى على كتابات علماء النخبة المقربين من السلطة والملتفين حولها، وأن هذا التأثير امتد إلى المماليك. وأوضحت كيف أدى ذلك فى مرحلة تالية إلى بروز مثقفين من الطبقة الوسطى عبروا عن مقاومتهم للسلطة الحاكمة بأقلامهم، وليس بالمظاهرات الشعبية التى يغرق الجبرتى فى وصفها. ثم يتساءل صاحب العرض عن الأسباب التى حالت دون ثورة بورجوازية فى مصر على نحو ما حدث فى فرنسا.

هذا السؤال يكشف عن خطأ منهجى من حيث إنه يبحث عن أنماط يحاول تطبيقها فلكل مجتمع حركته التى يحددها واقعه الفعلى،صحيح أن الطبقة الوسطى عبرت عن نفسها من خلال ثقافتها – وعلى استحياء– منذ أواخر القرن السابع عشر، لكن عوامل – شرحتها بالكتاب– أجهضت دون شك حركة تلك الطبقة. ولا أود أن أشارك صاحب العرض هذا الأسلوب فى الحوار فأسأله أن يخبرنا لماذا وقعت الثورة الاشتراكية فى روسيا ثم فى الصين، ولم تقع فى بريطانيا حيث بلغت الرأسمالية المرحلة التى تنبأ فيها كارل ماركس بقيام الثورة الاشتراكية عندها ؟ أو لماذا وقع التحول الرأسمالى فى اليابان – مثلا – على يد النخبة العسكرية الحاكمة، ولم يقع على يد البورجوازية التجارية وحدها ؟ وهذه التساؤلات بعيدة عن موضوع بحثى وعن أهداف الكتاب.

والمأخذ الأخير، لم يخصنى صاحب العرض به وحدى، ولكنه جمع فيه كوكبة من المؤرخين الأفذاذ الذين يسعدنى ويشرفنى أن أحشر فى زمرتهم، وذلك عندما ذهب إلى أن من يرفضون «المركزية الأوروبية»، وينقضون دعوى ارتباط «الحداثة» بالتأثير الأوروبى، ويرفضون التسليم بأن مصر كانت غارقة فى الجهل حتى شع نور الحملة الفرنسية فنقلها من الظلمات إلى النور، وقعوا فى فخ دعاوى المركزية الأوروبية. تلك فرية أثبتت الدراسات الحديثة عن العصر العثمانى – ومن بينها دراستى – افتقارها إلى الصواب. إن ادعاء صاحب العرض أننا باستخدامنا المفاهيم المنهجية الغربية فى دراسة تاريخ بلادنا نرى أنفسنا بعيون الغرب، ادعاء باطل وظالم، لأن المنهج العلمى أداة تستخدم فى البحث شأنها شأن غيرها من الأدوات، وعندما استخدمناها خرجنا بنتائج تناقض ما ذهب إليه دعاة «المركزية الأوروبية». وإذا كان صاحب العرض يعتبر أن المجتمع المدنى سمة من سمات الحضارة الغربية أو الأوروبية فإنى لا أشاركه هذا الرأى، ويعضدنى فى ذلك كثير ممن يدرسون تاريخ هذه الفترة.

ويكفى أن أذكر هنا دراسات ناصر أحمد إبراهيم عن الحملة الفرنسية، وناصر عثمان عن الحياة الثقافية فى العصر العثمانى، وصبرى العدل عن علم الفلك فى مصر العثمانية وعن الطب أيضا، وغيرهم من شباب الباحثين الذين يعملون بجد وفى صمت منذ عشر سنوات تحت جناح سيمنار التاريخ العثمانى بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

الغريب هو تصور صاحب العرض للدولة العثمانية، وعلاقة الدولة بولاياتها وخاصة الولايات العربية. فهو يعتقد أن الدولة العثمانية دولة مركزية وأن الولايات العربية كان شأنها شأن الوحدات الإدارية فى الدولة المركزية، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فالعثمانيون اكتفوا من الولايات العربية بحقوق السيادة بما يتبعها من علامات كجباية الخراج وتعيين القاضى باعتبار القضاء وإقامة العدل من تلك العلامات. وفيما عدا ذلك لم تتدخل السلطة العثمانية فى استانبول فى أمور الناس، فتركتهم يحيون الحياة التى اعتادوها فى مؤسساتهم الاجتماعية (الطوائف). ولم تتدخل فى حياتهم الثقافية من قريب أو بعيد، ولكن ذلك لا يعنى أن المراكز الثقافية كانت لا تتواصل مع بعضها البعض فى استانبول وغيرها من المراكز كالقاهرة ودمشق وحلب وتونس. ولذلك تمتعت المؤسسات الاجتماعية والثقافية بقدر كبير من الاستقلالية وحرية الحركة التى لا تتوافر فى الدولة المركزية بالمفهوم الاصطلاحى لها.

وفى مجال التجارة لا شك أن المصالح التجارية كانت أداة وصل بين مختلف حواضر الدولة وبعضها البعض، مما جعل لتطور الرأسمالية التجارية قسمات مشتركة هنا وهناك، ووفر الظروف الموضوعية لقيام «طبقة وسطى» كانت لها ثقافتها الخاصة بها وكان لها تأثيرها الكبير على ثقافة «النخبة» ممثلة فى الطبقة الحاكمة والعلماء. وتلك افتراضات بديهية، لكنها تحتاج إلى المزيد من البحث لواقع الحال فى الولايات العثمانية، لعلها تلفت أنظار الباحثين الجادين الذين لا ينظرون من فراغ، لكى يثروا الموضوع بالمزيد من الدراسات الأصيلة.

نللى حنا

الصفــر.. والقمــة

أمـــــة فــى خـطـــــر

حين كنت أحيانًا أنتقد حال الصحافة المصرية أمام أستاذها وأستاذنا «هيكل»، كان يرد دائمًا بما معناه بأنك تظلمها حين تنظر إليها خارج السياق.. فهى فى النهاية ابنة شرعية للواقع: محيطها ومجتمعها. تذكرت قول «الأستاذ» هذه الأيام مرتين. مرة حين نقلت الأنباء خبر الصفر الذى كان من نصيب مصر فى التصويت لاختيار الدولة الأفريقية «المؤهلة» لاستضافة وتنظيم كأس العالم فى كرة القدم سنة ٢٠١٠، رغم الضجة الترويجية التى جعلت المصريين «يصدقون» أنهم الفائزون لا محالة. فكان أن جاءت النتيجة، رغم ما بدا فيها من مفاجآت «ابنة شرعية لواقعها».

ومرة حين انتهت قمة العرب «التونسية» إلى ما انتهت إليه. رغم أن الأمر. كسابقه. لم يكن فيه كثير من المفاجأة.

والحاصل أنه لا الواقع المصرى «الذى تآكل فتراجعت المكانة» كان يؤهل لأن يحصل البلد «العريق» على أكثر مما حصل عليه فى التصويت «الدولى» فى جنيف. ولا الواقع العربى الذى تردى بادئًا انكساره فى سبعينيات القرن الماضى كان يبشر بأكثر مما انتهت إليه القمة «الخجول» فى تونس.

وبالضبط كما كانت نتائج القمة، بنت واقعها. كان الصفر نتاج الواقع. بداية من تآكل القيمة السياسية الذى أثر بدوره على القيمة التاريخية، ونهاية بأن ارتفاع الأرصفة فى شوارع القاهرة غير مطابق للمواصفات. مرورًا بحال التعليم والديموقراطية والاقتصاد وحقوق الإنسان وإنتاجية العامل ومستوى خريج الجامعة... وكل ما هو معلوم أو مسكوت عنه، أو بالأحرى مختف خلف زحام الشعارات البراقة واللافتات والمانشتات المتبارية دومًا فى المبالغة وإهانة اللغة و«الأرقام».

«أمة فى خطر».. التعبير. وهذه المفارقة الأولى. أمريكى. وضعه الرئيس الأسبق رونالد ريجان قبل عقدين من الزمان على رأس تقرير مهم عكف على إعداده عشرات من الباحثين استشعروا خطرًا أشارت إليه دراساتهم التربوية المقارنة والتى أفضت بهم «بأمانة مع النفس ومع الحقيقة» إلى أن الطالب فى أمريكا أصبح ترتيبه متخلفًا فى بعض المجالات عن قرينه اليابانى أو الأوروبى وحتى بعد عينات مجتهدة وجادة من طلاب الهند والصين.

«أمةٌ فى خطر».. لا نقصد هنا طبعًا أمريكا التى هى سيدة العالم «سلمًا وحربًا» بلا منازع. بل الحديث عن أولئك الذين لا ينظرون بعيدًا فيستشعرون الخطر قبل أن يجدوا نتائجه أمامهم. عن أمة العرب، ومصر فى القلب منها «بالتاريخ والجغرافيا».

كما اطمأن المصريون إلى لافتات وشعارات تتحدث عن جدارة أحفاد «الفراعنة» بتنظيم مونديال ٢٠١٠، استخرج المجتمعون فى تونس من معجمهم اللفظى الفخم مسمى «العهد والوفاق» ليضعوه على وثيقة اكتفوا بالتأشير عليها. وزاريًا لا رئاسيًا. بالأحرف الأولى، بعد نصف قرن من «توافقهم وتعاهدهم» على إقامة كيانهم الجماعى هذا. ووقفت صحفيةٌ فى المؤتمر الصحفى الختامى، لا لتسأل كما هو حال تلك المؤتمرات، بل لتستحضر بنى تميم فى خطبة شعرية حماسية.

وواقع الحال أن المصوتين فى جنيف قبل أسابيع، لم يأبهوا بأمجاد الفراعنة «الذين كانوا». كما لن يعير المجتمعون فى جورجيا بعد أسابيع اهتمامًا يُذكر بديوان الحماسة، ولا بدقة ترجمة العنوان الكبير «العهد والوفاق». فالزبد. ونحن بحكم اللغة والدين أول العارفين. يذهب جفاء.. وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض.

لأسباب يعود بعضها إلى العجز، وبعضها إلى «العَجَز» بدأت قمةُ العرب بثلاثة عشر زعيمًا من أصل واحد وعشرين. وانتهت بثمانية. ولأسباب «سيادية» يذهب العرب (أو من سيذهب منهم) إلى قمة «السادة» فى جورجيا «فرادى» بعد أن غابت آليات المتابعة التى طالبت بها مصر، وطالب بها الأمين العام. كما غابت ضمانات ألا تذوب جامعة العرب فى أمواج المتوسط التى تلوح عاليةً صاخبةً فى الأفق.

هل كان الأمين العام متجاوزًا فى جرأته حين تحدث بصدق غير مألوف بروتوكوليًا عن أبعاد الأزمة العربية؟ وهل كان «الأخ العقيد» رغم كل التحفظ، مبالغًا حين تساءل عن جدوى ما يجرى داخل القاعة مذكرًا الموقعين بالأحرف الأولى على وثيقة العهد والوفاق، أنهم وقعوا بالأسماء الكاملة، وصدقت مؤسساتهم التشريعية قبل سنوات طويلة على «ميثاق الدفاع المشترك» الذى لم ينفذ أبدًا.

هرب العرب من الاستحقاقات الصعبة، ومن ضغوط المطالبة بالإصلاح إلى لغتهم الثرية. فتخندقوا مطمئنين خلف «إعلان ووثيقتين» لا تختلف واقعيًا فى معظم اللفظ والمعنى. وهى إن اختلفت فى «عنوان المرسل إليه»، إلا أن الموقعين أو المؤشرين بالأحرف الأولى أو بأسمائهم الكاملة، ليسوا بضامنين قطعًا. رغم جهد الصياغة. أن رسائلهم ستجد من يفض مظاريفها أصلاً. هذا إن وجدت «ساعى البريد».

وفى تونس عجز العرب. لأسباب مفهومة عديدة. عن تفعيل فضيحة أبوغريب قانونيا أو دوليًا، فى حين نجحت آليات «الديموقراطية الغربية» من حرية للصحافة وضمان لتدفق المعلومات فى تفجير الفضيحة وتفعيلها بطريقة تكاد تؤثر على مجرى الأمور فى العراق. وكان ذلك لافتًا و«دالاً».

حلُم المصريون بأن تتجه إليهم أنظار العالم فى ٢٠١٠، ولم يكن ذلك بحكم الواقع ممكنًا. ويحلم العرب بأن لا تتجه إليهم أنظار العالم الذى تجتمع أركان قمته فى جورجيا فى العاشر من هذا الشهر. ولن يكون ذلك أيضًا بحكم القوى الحاكمة ممكنًا.

اعتقد المصريون أن بوسعهم التطلع بعيدًا إلى ٢٠١٠. ولم يكن ذلك. بحكم القدرة والممكن. متاحًا. فكان الاعتقاد خاطئًا. وظن عربُ تونس أنه يكفيهم النظر إلى ما تحت أقدامهم، ولم يكن ذلك عند الآخرين واردًا. فكان الظن خادعًا.

ولأن الظن. فى الحالتين. «لا يغنى من الحق شيئًا».. باتت النتيجةُ مؤلمةً.. والأفقُ معتمًا.

يبقى فى هامشٍ. ذى صلة. أن مصر والسعودية تنافستا يومًا على كرسى مدير اليونسكو، فذهب لليابان. وأن أربع دول عربية تنافست على المونديال، فذهب لجنوب أفريقيا.

ويبقى. بالضبط. كما فعل المصريون العائدون بخفى حنين من جنيف، فعل العرب العائدون من تونس. حيث امتدت أصابع الجميع إلى الجميع بالاتهام.

وبدا ملخص المشهد كله كالآتى: بعد أن تآكل ما كان للبعض من مكانة: تدفع وتدافع وتؤثر.. كانت تونس. وإليها. أخيرًا. ذهب العرب، الذين حاولوا من البداية الهرب من قمتهم: تارة بلغطٍ مبكرٍ حول مكانها (اقرأ صحف يناير الماضي) ثم بتأجيلٍ مفاجئ لانعقادها. ثم بمحاولات شتى لإجهاضها.

بهدف «دعها تمر» لا أكثر، ذهبوا.. ثم عادوا هاربين أو غافلين عن السؤال الأهم: هل ينسلخ البعضُ توقيًا لسيف الإصلاح فينزلقُ إلى الأوسطية، فتصبح تونس واقعيًا آخر قمم العرب. أو آخر مشوارهم المنظور على الأقل؟!

يبدو السؤالُ الصادمُ لأول وهلة مستحيلاً. ولكن بعد بغداد، والرئيس الخارج من الحفرة، و«صفر مصر»، لم تعد العنقاءُ ذاتها من مستحيلات المشهد العربى.

«أمةٌ فى خطر».. ماذا بعد؟

لابد لمن يناصبون أمريكا (الصاحبة الأصلية للشعار) العداء، إن برفض إصلاحٍ يأتى عبر الأطلنطى، أو ببيانات تقنع من يتلوها أكثر ممن يسمعها، أن يدركوا أن ذراع أمريكا الطويلة لا تعنى فقط مدفعًا رشاشًا تدوى رصاصاته فى شوارع بغداد أو النجف، فوراء القوة والذراع الطويلة، علمٌ متقدمٌ وتكنولوجيا متطورة، والعدد الأكبر من جوائز نوبل فى الفيزياء والكيمياء والفسيولوجيا، وآليات (داخلية) للديمقراطية والمساواة واحترام القانون، وعشرات من الجامعات نرسل إليها أبناءنا لنضمن أنهم سيتعلمون علمًا حقيقيًا. ومصحات نفضل الاستشفاء فيها. وعلى من يهمه الأمر أن يعرف حق المعرفة أن هذا العلم وتلك الديمقراطية هما الساقان اللتان يقف عليهما «سيد العالم» وأنه بقدر ما نتغافل أو نتجاهل تلك الحقيقة الساطعة كالشمس، بقدر ما نفرط فى أمننا القومى. ليس الآن فقط، بل لعقود قادمة.

أما إذا ما اطمأننا إلى أننا أجدنا صياغة اللافتات فخمة المصطلحات ونمنا فى ظلالها. فلن نصحو قبل أن يكون الكلب على باب الكهف قد تحول إلى عظام.

ماذا بعد..

على المصريين. والعرب معهم. أن يقرأوا محاضرة محمد حسنين هيكل قبل حوالى العامين «المستقبل يبدأ الآن».

وعلى العرب. والمصريين من بينهم. أن يفعلوا (لا أن يقرأوا) مقررات قمتهم الأخيرة.

أيمـــن الصيـــاد



في مواجهة جميع الأعداء

من داخل حرب أمريكا على الإرهاب

Against All Enemies

Inside America's War on Terror

رتشارد كلارك Richard A. Clarke

تعريب : وليد شحادة

لقد بَدَّدت إدارة بوش فرصَة اجتثاث القاعدة.. فقد برزت «قاعدة» جديدة ونَمَت شوكتها وقويت وكان ذلك في جزء منه بسبب أسلوب عملنا أو تقاعسنا عن العمل. إنها عدو أشرس من التهديد الأوّل الذي واجهنا قبل 11 أيلول/ سبتمبر، وعدم قيامنا بما يجب علينا فِعْلُه لتحصين أمريكا من التهديد. لا أحد يملك صلاحيّة هذا الادّعاء أكثر من رتشارد كلارك، «الإمبراطور» السابق لمكافحة الارهاب في إدارتي بل كلنتون وجورج دبليو بوش، والذي يعرف عن أسامة بن لادن وعن القاعدة أكثر من أي شخص آخر في الولايات المتحدة، وكَرَّس عقدين من حياته المهنية لمصارعة الإرهاب. لقد خدم رتشارد كلارك في إدارات سبعة رؤساء وعمل داخل البيت الأبيض في إدارة جورج بوش (الأب)، وبل كلنتون، وجورج دبليو بوش، حتى استقال في آذار/ مارس 2003. إنّه خير من يعلم عن النجاح والفشل الخفيين في سنوات كلنتون، وخير من يعلم عن فشل الحيلولة دون وقوع 11 أيلول/ سبتمبر، وخير من يعلم ردّة فعل الرئيس بوش على الهجمة وما الذي حصل خلف مسرح الأحداث في الأيام التي تلت. وهو يعلم حقاً إن كان العراق يُهَدِّد الولايات المتحدة ويعلم إن كان هناك ثمن خفي لغزو العراق. إن أكثر ما يقلق في بَوْح كلارك هو انعدام اهتمام إدارة بوش في القاعدة قبل 11 ايلول/ سبتمبر. فمنذ اللحظة الأولى التي تولى فيها فريق بوش الإدارة وقرّروا إبقاء كلارك في منصبه «إمبراطور» مكافحة الإرهاب، وما برح كلارك يحاول إقناعهم لأخذ القاعدة على محمل الجد كما فَعَل بل كلنتون من قبل. وقد حُرِمَ شهوراً من فرصة شرح رأيه إلى بوش، واصطدم مع مسؤولين رئيسيين في الإدارة أعطوه انطباعاً أنهم لم يسمعوا قط عن القاعدة من قبل؛ فقد كانوا يركّزون بمثابرة لا تهدأ على العراق؛ ودَعَموا نظريّة مؤامرة عارية عن الصحّة عن تورّط صدّام في هجوم سابق على الولايات المتحدة. كان كلارك مديراً لأزمة الأمة في 11 ايلول / سبتمبر، وأدار مركز الأزمات في البيت الأبيض ـ إنّه مشهد يوصف في هذا الكتاب لأوّل مَرّة ـ ثم راقب بفزع مجرى الأحداث. فبعد تجاهل جورج بوش للمخطط القائمة لمهاجمة القاعدة عند استلامه الإدارة، كانت قراراته كارثة عندما أَوْلَى الأمْرَ اهتمامه فيما بعد. إن الكلام الصادر عن رجل عُرِفَ عنه أنه الرجل الصلب في وجه الارهاب في كتابه **في مواجهة جميع الأعداء** قد جاء تأريخاً قوياً لعقدين من زماننا حافلين بمواجهة الإرهاب واتهاماً صارخاً للإدارة القائمة الآن. رتشارد كلارك: عَيَّنه الرئيس كلنتون كمنسق قومي أوّل للأمن، وحماية البنية التحتية، ومواجهة الإرهاب في أيار/ مايو 1998 وبقي في موقعه تحت إدارة جورج دبليو بوش وبقي حتى آذار/مارس 2003 عضواً تنفيذياً رئيسياً في الخدمات الأمنية الاتحادية. بدأ عمله سنة 1973 في مكتب وزير الدفاع مُحلّلاً لشؤون السلاح النووي والأمن الأوروبي. وفي إدارة ريگان كان نائب وزير الخارجية المساعد لشؤون الاستخبارات. وفي إدارة بوش الأول كان مساعداً لوزير الخارجية للشؤون العسكرية ـ السياسية.

مقطع من الكتاب: ... قَطّب وُلفوڤتز واضطرب... «أنا لا أعرف لماذا نبدأ بالحديث عن هذا الرجل الواحد بن لادن». أجبته قائلاً: «إننا نتحدّث عن شبكة إرهابية اسمها القاعدة وقد صادف أن قادها بن لادن، ونحن إنما نتحدث عن الشبكة لأنها هي، وهي وحدها، تشكل تهديداً حقيقياً ومباشراً للولايات المتحدة. التفت وُلفوڤتز إليّ وقال: «لقد أعطيت بن لادن أهميّة كبرى. إنه لا يستطيع أن يفعل كل هذا مثل هجوم سنة 1993 على نيويورك، لا يمكنه أن يفعل ذلك دون دولة تدعمه. إن فشل مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية في إيجاد الصلة لا يعني أنها غير موجودة». لم أكد أُصدِّق ما أسمع، لقد كان ولفوڤتز. يطلق نظرية لوري ملروي Laurie Mylroie التي تقول إن العراق كان وراء الشاحنة المُفَخّخة سنة 1993 في مركز التجارة العالمي، تلك النظرية التي تمّ تَحَرِّيها سنوات طويلة فوجدناها باطلة بكاملها.

❖ **ثمن النسخة (مجلد) $14.50 ❖ ثمن النسخة (غلاف) $12**



إنرون : الأحلام الجوفاء

جشع شركة إنرون وأنانيتها وزوالها

Pipe Dreams

Greed, Ego, and the Death of Enron

روبرت برايس Robert Bryce

تعريب : مروان أبو جيب

إنرون Enron كلمة أصبحت مرادفة لاحتيال سوق الأوراق المالية وول ستريت Wall Street وطمعها وتجاوزاتها، غير أن الأمر لم يكن كذلك على الدوام، إذ كانت إنرون ذات يوم شركة راسخة الجذور تدرّ أرباحاً وتملك أصولاً من أحسن الأصول في عالم الطاقة، لكن التغيير نزل بساحتها في أواخر تسعينيات القرن العشرين. لا شك أنكم سمعتم عن بعض الصفقات الالتفافية والممارسات المحاسبية الشريرة التي طلعت علينا بها شركة إنرون، لكن الذي لم يصل إليه التفسير هو لماذا؟ لماذا تفجر البركان من داخلها بصورة مفاجئة بعد أن كانت شركة مزدهرة مُبدعة تمتلك سيولة نقدية راسخة؟ الجواب هو أن الممارسات السيئة في شركات الأعمال تنطلق بمبادرة من الإنسان، كما كشف عن ذلك المحرر الصحفي القادم من تكساس والمتخصص بشؤون الشركات روبيرت برايس في كتابه الواضح والممتع. **الأحلام الجوفاء** كتاب غير تقليدي لا يصيبكم بالضجر في سعيه وراء الشركات، فهو ثرثرة تحليلية فكاهية تدور حول السبب الذي أودى بشركة إنرون إلى الهاوية، وتتابع مجرى تحولها من شركة محلية صغيرة تعمل في مجال أنابيب الغاز إلى شركة عملاقة متوحشة في مجال الطاقة... ثم يتابع الكتاب مسيرتها خطوة بعد خطوة وقراراً بعد قرار وَزيجَةً إثر زيجة، وكيف أن الفساد دبّ في أرباب القيادة فيها. يسرد كتاب الأحلام الجوفاء على مسامعنا القصة الخبيثة للجشع والجنس والاحتيال التي قضت على سابع أكبر الشركات في أمريكا من خلال مقابلات مع عدد فاق مئتين من عمال سبق لهم أن عملوا لدى شركة إنرون أو ما زالوا يعملون لديها، وكذلك مع محللين من سوق الأوراق المالية وول ستريت Wall Street، ومن خلال عشرات من محفوظات الشركة لدى هيئة مراقبة أسواق الأوراق المالية، ويتناول بين دفتيه أوغاد الشركة الرئيسيين، ومنهم كين ليه Ken Lay وَجيف سكيلينغ Jeff Skilling وأندرو فاستو Andrew Fastow وَلو باي Lou Pai الكتوم صاحب البراعة التجارية العظيمة الذي باع أكبر عدد من الأسهم - بلغت قيمتها مئتين وسبعين مليون دولار - وتفوّق بذلك على غيره من مديري شركة إنرون الكبار. هناك أيضاً سرد للصورة المدمِّرة التي طلعت علينا بها ريبيكا مارك Rebecca Mark اللاعبة التي أحاطت بها الجهالة الجُهْلاء في ملحمة إنرون البطولية وحَمَّلت المستثمرين تكاليف بلغت مليارَي دولار أمريكي بسبب صفقاتها السيئة في الهند والأعمال التي قامت بها في مجال المياه. الأحلام الجوفاء كتاب - مليء بتفسيرات الخدع المالية في شركة إنرون والتي لا يسهل فهمها إلا بمزيد من الصدمات - يتحفنا بتفسير للطريقة التي دمَّرت بها الشركة ذاتها من خلال تجاهل القواعد الأساسية لإدارة الأعمال وإنفاق الأموال كما لو كانت تصكها صكاً (ولقد كانت في بعض الأحيان تفعل ذلك). هل علمتم أن شركة إنرون ابتاعت قبل أقل من تسعة أشهر على إفلاسها طائرة نفاثة من نوع غلفستريم Gulfstream جديدة لم يسبق لأحد أن استخدمها ودفعت فيها 41,6 مليون دولار أمريكي؟ كما أن أحد مديري الشركة الكبار اشترى دراجة نارية بمبلغ ثلاثين ألف دولار أمريكي دُفعت بالطبع من أموال الشركة لِيُزيِّن بها مكتبه الجديد. وإذا رغبتم في فهم موجة الفضائح المالية الجديدة التي تدمِّر مجموعة أسهمكم - ناهيكم عن الاقتصاد الأمريكي وحياة الناس ومعيشتهم - فعليكم أن تدركوا الأحداث التي وقعت في شركة إنرون. إن برايس Bryce يربط التقارير الخاصة بها مع العاطفة والطرافة حتى يحكي لنا الحكاية ويخرج بنتيجة هي عدم قدرتكم على ترك قراءة الكتاب عند البدء به إمعاناً في ذات الاسلوب الشيّق الذي اتّسم به كتاب **البرابرة عند البوابة** Barbarians at the Gate وكتاب **الحفلة الراقصة التي أقامتها الحيوانات المفترسة** The Predators Ball.

❖ **ثمن النسخة (مجلد) $13.50 ❖ ثمن النسخة (غلاف) $10.50**

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 66 - July 2004

مجلة شهرية . العدد السادس والستون . السنة السادسة . يوليو ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات




مناقشة كبير الأساقفة / البيت والأطفال أولا / القاهرة الخديوية

طارق البشرى - سليم العوّا - سمير مرقس - يوسف عدس / كلوديا واليس - هدى الصدّة / سهير حواس

نون : ثورة ثقافية تقتحم عالم السياسة

سلامة أحمد سلامة


خدمات إلكترونية فريدة
الخدمة المصرفية عبر الإنترنت
تعامل على حسابك بأمان
فى أي وقت ومن أى مكان
خدمة البنك المحمول
خدمة مصرفية محمولة
على مدار ٢٤ ساعة
داخل وخارج مصر
خدمة البنك الناطق
تعامل على حسابك
آليا فى اى وقت
من خلال رقم ٣٠٣٢٦٦٠
خدمة الصراف الآلى
خدمة تقبل جميع انواع
البطاقات مع توفير
السحب بالدولار للعملاء
RESALA
وتمتع بإمكانية
الإقتراض
إصدار بطاقات البنك العربى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يوميا من ٩ صباحا حتى ٩ مساءً
www.arabbank.com


أكثر من
٢٠٠٠ مصري
بيخدموك من القلب
موبينيل
شبكة المحمول الاولى في مصر

السنة السادسة
العدد السادس والستون
يولية ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد :

كتّاب العدد :

- آلن ميخائيل.. مدرس بقسم التاريخ بجامعة كاليفورنيا.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- لورد كارى.. كبير أساقفة كانتربرى (١٩٩١ . ٢٠٠٢).
- رشيد الخالدى.. أستاذ كرسى إدوارد سعيد ومدير معهد الشرق الأوسط بجامعة كولومبيا.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- سمير مرقص.. باحث معنى بقضايا المواطنة والحوار الإسلامى المسيحى.
- سهير زكى حواس.. أستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة.
- سو هالبيرن.. روائية وأستاذ زائر بميدلبورى كوليدج.
- صبرى حافظ .. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- طارق البشرى .. كاتب ومؤرخ.
- كلوديا واليس.. صحفية.
- لورا سيكور.. كاتبة تعيش فى نيويورك.
- محمد سليم العوا.. كاتب إسلامى ومحام.
- محمد يوسف عدس .. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- هدى الصدة.. أستاذة الأدب الإنجليزى ورئيس ملتقى المرأة والذاكرة.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.
- يوسف إبراهيم.. مدير المجموعة الاستراتيجية للطاقة بدبى.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى - أحمد اللباد - محمد العكش

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وافريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

ثــورة ثقافية تقتحم عـالم السياسة..

▪▪ يتحول المشهد الثقافى العالمى الآن، ونحن فى مطلع القرن الواحد والعشرين إلى صناعة معقدة، تمثل ثورة عميقة الجذور متعددة الأبعاد، تشبه تلك الثورة الثقافية والمعرفية التى عرفها العالم فى أعقاب اختراع المطبعة، التى تكفلت بنقل ثمرات التقدم الفكرى والعلمى والحفاظ عليها ونشرها فى أرجاء المعمورة. وكانت عاملاً مهمًا من عوامل قيام الثورة الصناعية التى غيرت وجه البشرية، وأفضت بدورها إلى الثورات الاجتماعية والاقتصادية التى مازالت تتفاعل وتتوالد فى أطوار مختلفة حتى اليوم.

ومنذ تنوعت وتعددت وسائل الاتصال ووسائط نقل الثقافة ونشرها بأساليب تتقاطع وتتوازى بأشكال وتركيبات مدهشة، من الطباعة إلى الراديو والتليفزيون، ثم ما طرأ عليها من تنويعات عديدة: من الفيديو إلى شبكات الإنترنت، ومن أفلام وثائقية، إلى مسرحيات غنائية وعروض كلاسيكية وغير كلاسيكية، ينفق على إنتاجها أموال ضخمة، تعيد إنتاجها فى ظل قوانين العولمة التى اخترقت الحواجز والدول، ظهرت وظائف جديدة لمعنى الثقافة بمفهومها الأوسع، وطبيعة تأثيرها على المجتمعات الإنسانية.. هى التى باتت تميز العالم اليوم، وتزعزع أركان السلطة مهما بلغت قوتها وجبروتها، وتشكل شبكات اتصال تغطى جماعات وتجمعات متناثرة هنا وهناك. تؤثر فى مشاعر الناس وأنماط تفكيرهم وسلوكياتهم، وتحدد طرائق حياتهم ومواقفهم من الحياة ومن المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجارية.

حدثت تغيرات هيكلية ثقافية، ليس فقط فى الأشكال والأجناس الثقافية، ولكن أيضًا فى أذواق الناس والشعوب والنخب الثقافية، وفى طريقة تقبلهم واستيعابهم لهذه الأشكال الثقافية الجديدة. لم يعد استعداد الناس أو حماسهم للأدب الكلاسيكى وفنون الشعر والفنون التقليدية.. وذخائر الفكر الإنسانى كما كانت عليه فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين، يستمدون منها حكمة الحياة وعصارة التجربة الإنسانية، ويضبطون على إيقاعها مبادئ الخير والشر، والجمال والقبح، والتقدم والتخلف التى تشكل منظومة القيم فى أى مجتمع.. بل أصبح من الضرورى أن يعاد إنتاجها وإخراجها بأساليب متجددة، تلائم عصر الاستهلاك السريع لمنتجات الحضارة، سواء كانت فى أشكالها المادية والصناعية والحياتية، أو فى تجلياتها الفنية والعلمية والتكنولوجية. فلم تعد أذواق الناس وثقافتهم فى الطعام والشراب مثلاً هى التى كانت سائدة قبل نصف قرن، بل دخلت على أذواقهم معايير ومشارب جديدة، تتفق مع مستويات وعيهم بالأوامر والنواهى الصحية والحفاظ على مقاييس الجمال، وتتجاوب مع مقتضيات عصر السرعة ونمو طبقة متوسطة عاملة تخضع لضوابط صارمة تحكمها قوانين العمل فى المجتمعات الرأسمالية المهيمنة، ولا تسمح للموظف أو العامل بأن يفقد من وقت العمل ما يؤثر على عجلة الإنتاج أو تكاليفه ولو كانت فترة استراحة الغداء القصيرة أوقات العمل.

ويمكننا أن نلاحظ كيف ترتب على ذلك ظهور «ثقافة جديدة» تقف على التخوم الفاصلة بين الجمال والصحة، بين مقاييس الجمال التى يحتفل بها المجتمع بالنسبة للمرأة أو الرجل، وبين ما تؤدى إليه ثقافة الوجبات السريعة وعدم الاهتمام بمفردات الطعام وقيمته الغذائية من مؤثرات على ما يعانيه إنسان العصر من أمراض السمنة والسكر وأوجاع القلب وغيرها.

هذا مجرد مثل لثقافات من نوع جديد. لا تقل أهمية وتأثيراً عن الثقافة بمفهومها التقليدى. والكلاسيكى، الذى ساد العالم ويسود مجتمعاتنا العربية الآن. وقد دخلت هذه الثقافات على استحياء إلى المجتمعات المتقدمة فى بادئ الأمر، ولكنها تحولت خلال السنوات الأخيرة إلى ثورة جارفة فى الفضاء الثقافى العالمى.. طبعت بطابعها فنون العمارة والإسكان والبيت وإنشاء التجمعات السكنية.. وامتدت إلى فنون الرسم والتصوير وفنون الأزياء ومقاييس الجمال الأنثوية، وأناقة الرجل وتأثير ذلك على أدائه السياسى وفى الحياة العامة.. وقدمت صوراً جديدة لفنون تمضية أوقات الفراغ وإجازات الصيف والاستمتاع بالحياة سواء فى مجتمعات الوفرة أو فى مجتمعات الفقر.. ثم فى فنون التسلية واللهو وما تقدمه من إغراءات جنسية وعروض للرقص الحديث تقدمت فيها أساليب الإخراج والمؤثرات الضوئية والصوتية على نحو باهر غير مسبوق، حيث تستثمر أموال طائلة لإنتاجها فى شرائط الفيديو والوسائط الإلكترونية المتعددة من التليفزيون إلى الإنترنت.

وبعبارة أخرى، فلا يوجد الآن مجال من مجالات الحياة العامة والنشاط الإنسانى إلا وتشكلت له خلال العقود القليلة الماضية، خلفية ثقافية حديثة تستند إلى دراسات وبحوث ونظريات، وإلى تطبيقات عملية تترجم فى برامج وكتب ووسائط معرفية واسعة الانتشار. وهذه الثقافات المتنوعة هى التى تغير أذواق الناس وسلوكياتهم. وتؤثر على مجالات السلوك والميول والعواطف، بقصد إحداث التغيير الاجتماعى أو السياسى أو الدينى الذى يسهم فى تطوير المجتمع وتقدمه أو تأخره، ويضبط درجة الانسجام الداخلى بين أفراده وشرائحه وطبقاته.

لم تعد الثقافة إذن بمفهومها الحديث مقصورة على ما يملأ العقول والأفكار والمدارك، ويزحمها بينابيع الحكمة والدراسات القديمة وعيون الشعر والتراث العقلى والفكرى الذى أبدعته العقول والتجارب الإنسانية فى عصور سابقة.. ذلك أن هذا المخزون وإن ظل قابعًا فى الوعى الإنسانى نعيد استحضاره ومراجعته ومذاكرته واستنطاق معانيه ومدلولاته، إلا أنه يظل محصوراً فى دائرة ضيقة من ذوى الاختصاص الذين تنحسر دائرة تأثيرهم عند حدود ضيقة. فإذا امتلك أحدهم ملكة الإبداع والتواصل مع العصر، تحولت المادة الثقافية بتنويعاتها المختلفة بين يديه إلى عجينة سحرية من نوع خاص، تمتزج مع أشكال الثقافات الجديدة وتنويعاتها. وتصل إلى المتلقى العصرى فى مجتمعات الوفرة والسرعة والاستهلاك فى ثوبها الجديد، حتى ليكاد المرء ينكر أصولها القديمة ولا يتعرف عليها. وهو ما يعبر عن نفسه بشكل خاص فى فنون الإخراج المسرحى والسينمائى، عندما تتماهى الأبعاد الفلسفية والتاريخية فى دراما الصراع الإنسانى وتطرح القضايا الفكرية والإنسانية بل والمشكلات العلمية والتكنولوجية التى تواجه إنسان العصر الحديث، لتحوله إلى عمل سينمائى أو مسرحى خلاق قادر على تجاوز الواقع بتفصيلاته الجزئية، وتسجيلاته الوثائقية، وسير الحياة الشخصية، وما رصدته نشرات الأنباء وأفلام الفيديو وصور التليفزيون.. إلى آخر هذا الكم الهائل من ملايين الوقائع والأحداث والمعلومات التى تتدفق على المتلقى ليل نهار.

وأقرب مثال على هذا المفهوم الجديد للثقافة الجديدة، ذلك الفيلم الوثائقى «فهرنهايت ٩/١١» الذى حاز به المخرج مايكل مور على جائزة السعفة الذهبية فى مهرجان كان، وأثار ضجة عالمية كبرى مازالت تتردد أصداؤها فى العالم، ولن ينتهى أثرها على الأرجح فى القريب العاجل، إلا بما قد تفضى إليه من خروج جورج بوش من البيت الأبيض.

هذا الفيلم الوثائقى الذى تضافرت فيه عناصر متباينة ذات أجناس ثقافية مختلفة، من الفيديو إلى الصورة إلى الكلمة إلى الوثائق التاريخية، يحكى برصانة تمتزج بالسخرية كيف واجه بوش أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وكيف نجح فى الكذب على الشعب الأمريكى ليرسل بأبنائه إلى الحرب فى العراق. وأخفى الرئيس علاقة أسرته بأسرة بن لادن المالية والتجارية. وهذا النوع من «الثقافة» المفتوحة التى تنهل منها كل الطبقات، وتدخل غرف النوم فى منظومات من الشبكات التى أتاحها «مجتمع المعرفة» لتؤثر على حياة الناس وأفكارهم وردود فعلهم، وتجعل من المجال الإعلامى بمعناه الواسع ميدانًا لمعارك الأفكار والإرادات والسياسات، هو المعترك الثقافى الحقيقى الذى يمكن أن يجرى على أرضيته صراع الثقافات ولقاء الحضارات وأشكال الحوارات المختلفة بين الفلسفات والديانات والعقائد، بما يعرى نوازع التفس البشرية وبأس الحروب واختلاف الأمزجة والعقائد، وهو ما كانت تقوم به فنون الرواية والقص.

ويمكن أن نضع فى السياق نفسه فيلم «آلام المسيح» بكل ما فجره من مناقشات ومجادلات، وما أعاد تفسيره من وقائع تاريخية ولاهوتية، وصراعات سياسية ودينية.. انعكست حتى على الحاضر الدموى الذى تجرى فصوله فى فلسطين وفى الصراع العربى الإسرائيلى. غير أن الأهم من ذلك أنه مثل هذا الفيلم، وهو يتحول من خلال التفاعل الحر والحوار المنطلق بغير قيود، يصبح عملاً ثقافيًا بالدرجة الأولى ويصل إلى دائرة واسعة من

سلامة أحمد سلامة

الأذواق والثقافات والمستويات، تتجاوز بكثير أفق الكتاب ووسائل النشر التقليدية التى مازلنا نعيش عليها فى ظل فضاء ثقافى عربى مغلق.

ثقافة «مجتمع المعرفة» إذن ثقافة مختلفة عن الثقافة التقليدية، بمعطياتها وأدواتها وتقنياتها المتقدمة التى أتاحت استخدام التقدم الذى طرأ فى مجال العلوم السلوكية والطبيعية، وفى مجال علوم الاتصالات وثورة المعلومات والسرعة الفائقة فى التقاطها وبثها فى جميع أنحاء الكرة الأرضية. وهو ما أعطى للملايين حول العالم، ربما لأول مرة فى التاريخ، فرصة الدخول بضمائرهم وأحاسيسهم إلى غرف التعذيب فى سجن أبو غريب ليروا بعيونهم كيف تتم عمليات القتل المنظمة لكرامة الإنسان وامتهانه.. وكيف كانت تتدلى الأسلاك الكهربائية من أجسام المسجونين، أو يجرى سحلهم على الأرض والعبث بأعضائهم التناسلية واغتصابهم. وبعبارة أخرى فقد تهيأ من خلال هذه الثقافة الجديدة.. ثقافة المعلومات المباشرة، الفرصة الكاملة لاستعادة ما جرى فى غرف التعذيب النازية، وحقول الموت الصربية، وفظائع فيتنام الجنوبية. وأصبح الفرد . مهما كان بعيداً عن الحدث . شريكاً وفاعلاً ومسئولاً عنه أمام ضميره الأخلاقى والإنسانى. وهذه فى المحصلة النهائية هى مهمة الثقافة التى ترتقى بالوعى الإنسانى، وتفتح له آفاق الوجود، وتحصنه من البلادة والجمود والتعصب، وتجعله أكثر قدرة على فهم السلوك الإنسانى وضبط نوازعه.

أين نحن من هذا الانفجار الثقافى الجديد؟ وأين يوجد الإنتاج الثقافى العربى الذى يضعنا فى قلب هذه الثورة الثقافية الهائلة التى تجتاح العالم من حولنا؟

هذا هو السؤال الذى يلح علىّ كثيراً، وأنا أنظر من حولى إلى ضآلة ما ينشر فى فضاء الثقافة العربية من كتب ودوريات ودراسات، وما يجرى إنتاجه من مسرح ومسلسلات تليفزيونية وأفلام، وما تغرق فيه صناعة الفيديو نفسها من برامج التسلية والخلاعة والإسفاف. ولا أحد يعترض على صناعة اللهو والتسلية فهى جزء من «الثقافة الحديثة» بمعناها الواسع، ولكنك لا تجد إلى جانبها عندنا ما يخاطب العقل أو يدعو إلى التفكير أو يرتفع بمستوى الإدراك والمعارف. أو يضع أحداث التاريخ ويوثقها فى رؤية سياسية نقدية اجتماعية كما فى «فهرنهايت ٩/١١».

ويضاعف من الشعور بالاختناق والحصار، أن حركة الترجمة فى العالم العربى مازالت دون المستوى، ليس فقط فى عدد ما يتم ترجمته ولكن أيضاً فى فروع الإنتاج المعرفى المختلفة التى مازالت مقصورة على الآداب واللغات والدراسات التاريخية والدينية، وبالأخص ما يعيد منها اجترار الجوانب المضيئة من التراث الثقافى والإسلامى التى قام بها مستشرقون أو باحثون فى جامعات ومراكز بحث أجنبية.. وربما بدرجة أقل فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والمالية والتجارية، وبدرجة أقل وأقل فى مجالات العلم وفروعه المتقدمة فى الطب والكيمياء والفيزياء، ومازلنا نحبو فى مجالات الكمبيوتر وتقنية الاتصالات والمعلومات.

إن ما يثير قلق المتأمل للمشهد الثقافى العربى، من أمثالنا الواقفين على شاطئ البحر، هو أنه بينما تتحرك دوائر الإنتاج الثقافى فى العالم بسرعة هائلة، وتتنوع وتتداخل وتتكاثر وتمتزج لتخرج أشكالاً ثقافية جديدة تعبر عن هموم الغرب وأشواقه بأكثر مما تعبر عن همومنا وأشواقنا نستمتع بها عن بعد، فإن حالة الثقافة فى بلادنا مازالت تدور فى حلقاتها المفرغة التى اعتادت عليها منذ القرن التاسع عشر، أى منذ بداية النهضة الفكرية والثقافية التى قادتها كوكبة المستنيرين منذ رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده ومن تبعهم من المفكرين من أمثال طه حسين ومصطفى عبد الرازق وغيرهم من الرعيل الأول، الذى أرسى دعائم النهضة الثقافية الحديثة، ولم تلبث أن فقدت قدرتها على المد والتوسع والانفتاح على آفاق العصر. وكما نشهد الآن فقد عجز المد الثقافى فى تلك الحقبة عن اختراق حواجز الجمود العقلى والدينى واصطدم فى أيامنا هذه بعقليات أكثر جموداً وأقل تطوراً عن تلك التى فرضت وجودها على المشهد الثقافى فى العقود الماضية. وكانت النتيجة هى أن معظم الأسئلة والمشاكل التى أثيرت فى القرن الماضى مازالت على مائدة العقل العربى، يعاد طرحها من جديد. ولا تنفك الندوات والمناقشات واللقاءات الثقافية تعيد بحثها ومحاولة استكناه أسرارها وتحليل مضامينها، دون خطوة إلى الأمام.

ربما كانت الإضافة الوحيدة التى طرأت على الحياة الثقافية فى العالم العربى، هى تعدد منابر الحوار ومؤسسات تطلق على نفسها مؤسسات الفكر العربى، انتشرت واستشرت فى العواصم العربية تحت مسميات مختلفة، وبمساعدة سخية من ذوى اليسار. وكأن سخاء الإنفاق سوف يفضى إلى سخاء الأفكار ونماء الحريات وتعدد الثقافات وكسر القيود على حرية التفكير والإبداع. أما مبادرات الفكر الفردية، وتجريب الأشكال الثقافية الجديدة، ومحاولة ابتداع أنواع منها تجتذب دوائر جديدة فى المجتمع، وتكسر حاجز الأبراج العاجية التى يعيش فيها المثقفون يمارسون نفاق الأنظمة ويقتاتون من فضلاتها، فمازالت محدودة الانتشار ولا تمثل غير نسبة ضئيلة من الفئات الاجتماعية المتعلمة ونصف المتعلمة، المثقفة ونصف المثقفة، المسيسة ونصف المسيسة.

إن المجتمعات العربية مهددة، إن لم تكن تعيش بالفعل، فى ظل انشقاق ثقافى ومعرفى عميق يقسم هذه المجتمعات إلى نصفين: إلى لغتين رغم أنها لغة عربية واحدة، وعقلين رغم وجود عقل جمعى وفكرى واحد، وثقافتين رغم عباءة ثقافية وحضارية وقيمية واحدة. ولا يهم هنا أن تكون لغة عامية أو محلية أو فصحى، ولكنها لغة أو لغات الخطاب التى تسود المجتمع. والتى تتفاوت بسبب تفاوت المستويات الثقافية والتعليمية فى مجتمعات عربية لم تنجح فى القضاء على الأمية بنسب تصل إلى ٤٠ و ٥٠ بالمائة. مما أعطى للخطاب الدينى فى صوره البدائية البسيطة سلطان السحر على العقول والأفهام لدى الأغلبية. وخلق تربة صالحة للتعصب وضيق الأفق والأخذ بالخرافات.

يتحرك المثقفون داخل دوائرهم المغلقة بحرية زائفة بلغت درجة الإدمان، وتتحرك جموع الجماهير فى مساراتها التقليدية القديمة أشبه بقطار عتيق يسير على قضبان بالية. وهو ما يؤدى إلى نوع من «ثقافة الجماهير الواسعة أو ثقافة الدهماء» mass culture التى تتوالد وتنتشر وتتكرس المفاهيم والمعانى فيها من خلال التليفزيون والراديو والفيلم. وذلك فى مقابل ما يمكن أن يطلق عليه «الثقافة العامة» Popular culture التى يرى العلماء أنها تتوالد وتنتشر وتتكرس بمفاهيمها من خلال ديناميات عملية اجتماعية، تتفاعل فيها الآراء والأفكار، ويكون من حق أى فرد من أفراد المجتمع أن يكون جزءاً منها ويشارك فيها. وهذه هى الديمقراطية بمفهومها الحقيقى. حيث يصبح التفاعل الثقافى جزءاً من العملية الديمقراطية، وتصبح العملية الديمقراطية هى البيئة أو السياق الصالح للتفاعل الثقافى الذى يرتفع بمستوى الحراك الاجتماعى، ويجعل من الانفتاح على الثقافات الأخرى فريضة حاضرة وليست غائبة ولا مذمومة فى مجتمعاتنا العربية، ويضفى على الخطاب الثقافى قدراً من الانسجام والتصالح والتسامح، يقضى على مظاهر الاستقطاب والتضاد التى باتت تشق معظم المجتمعات العربية شقاً حتى النخاع.

إن أكثر ما يؤخذ على الاتجاهات الثقافية القائمة فى العالم العربى، هو أنها مازالت تحبس نفسها فى البحث عن أشكال الكتابة وأساليب التعبير الحديثة فى أضيق حدود صور الإنتاج الأدبى والروائى دون غيره. بينما تجلجل فى العالم أصداء ثورة ثقافية عارمة، دخلتها واقتحمتها عناصر ثقافية جديدة، صنعتها ثورة الاتصالات والمعلومات ومبادئ الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، وسوقتها آليات «مجتمع المعرفة» بفضل قوانين العولمة، اعتماداً على شبكة عالمية واسعة معقدة أشبه بشبكات الجهاز العصبى فى جسم الإنسان. وهذا هو الانقلاب الثقافى الحقيقى الذى يجب أن يسعى المثقفون إلى توظيفه.. أما الوقوف على أطلال ما تبقى من الحضارة العربية القديمة ومحاولة إحيائها، وإعادة اجترار الماضى وكيل المديح للذات باعتبار ما كان، والجمود على الموجود دون حركة إلى الأمام، فهو دعوة إلى الانتحار الثقافى أو الموت البطىء فى مقابر المجد الغابر! ■

إن المجتمعات العربية مهددة،
إن لم تكن تعيش بالفعل، فى ظل انشقاق
ثقافى ومعرفى عميق يقسم هذه المجتمعات
إلى نصفين: إلى لغتين رغم أنها لغة عربية واحدة،
وعقلين رغم وجود عقل جمعى وفكرى
واحد، وثقافتين رغم عباءة ثقافية
وحضارية وقيمية واحدة

المـرأة

إلــــى البـــــيـــت: غـــــــربًـا
إلـــــى الخــــارج: شــــــرقًـــا

فى الوقت الذى تحتل فيه شعارات «تمكين المرأة.. وتحريرها.. ومساواتها بالرجل فى فرص العمل» مكانًا متقدمًا على لائحة مصطلحات هذه الأيام، تخرج مجلة Time «الأمريكية» بموضوع غلاف ينادى بعودة المرأة للبيت «لتضمن تربية جيل جديد صحيح».

هل يبدو فى المشهد شىء من المفارقة. البعض يرى ذلك مشيرًا إلى أنه فى حين نسمع فى الغرب دعاوى عودة المرأة للبيت، تعقد الندوات والمؤتمرات فى الشرق ترويجًا لمفاهيم مختلفة.

ورغم المتجادلين على الناحيتين، ينظر الكثيرون - أو الكثيرات على الأحرى - للمسألة على أنها «ترف فكرى». فبعضهن على الأقل لم يخترن العمل إهمالاً للأبناء. بل على الأغلب اضطررن إليه. (٢٢٪ من الأسر المصريةعلى سبيل المثال تعولها امرأة بمفردها)

ونظرة واحدة حولنا إلى الأسواق والحقول قد يكون فيها الكفاية.

المحــــرر

الغرب يعود.. البيت والأطفال أولا

كـــلــــوديــــا والــــيـــــس

ذات نهار صحو فى بلدة كمبردج الإنجليزية الأنيقة تقضى هيلين باول (٣٣ عاماً) وقتا من أحلى أوقات حياتها. فى ٦٠ دقيقة تنفخ حمام السباحة المطاطى، تجمع الديناصورات البلاستيكية من أطراف الحديقة، تصنع قالب جاتوه من الصلصال و تبنى قاربا من المكعبات البلاستيكية الكبيرة الملونة. فى غرفة المعيشة يمرح ابنا باول - جاك ٥ سنوات- وتوم ٣ سنوات. يلهوان بالبيانو قبل الانضمام إلى والدتهما فى القارب لممارسة بعض من الإبحار الخيالى. «يجب أن تبعث شركات الاستشارات الإدارية بموظفيها إلى العائلات لتدريبهم». تقول هيلين وهى تأخذ رشفة من الشاى بينما يتجه ولداها إلى الحديقة، «يمكن للأم إدارة الوقت مثل أى شخص آخر على الأرض».



قبل ست سنوات كانت هيلين محامية متخصصة فى شئون التقاعد فى إحدى شركات المحاماة فى مدينة لندن بينما كان يعمل زوجها كمحاسب. عندما كانت باول حاملاً فى شهرها الثالث بدأ قلقها من مستوى الحياة وازداد مللها من «مواعيد تسليم العمل التى كانت تسبب لها المغص». لذا فقد قررت التركيز فقط على كونها أماً، فتركت العمل الذى كان يربحها ٧٦ ألف دولار سنوياً. أما الآن فبالإضافة لإدارة شئون عائلتها و مجموعة اللعب التى تضم الأطفال فى حيها، فإنها تشرف أيضاً على مكتبة لاستعارة الألعاب.

«من الغريب» كما تقول «أن ما تعلمته كمحامية أعدنى لأشياء أخرى بطرق كثيرة غير متوقعة. إن الدبلوماسية اللازمة للتعامل مع العملاء تشبه مهارات التفاوض اللازمة للتعامل مع الأطفال».

بما أن جاك فى سنته المدرسية الأولى ويقى لتوم ١٨شهرا على هذه الخطوة الرئيسية فإنها تفكر فى العودة إلى العمل و تأتيها رسائل إلكترونية من زملائها السابقين كل فترة يقولون فيها كم سيسعدهم ذلك.

ولكنها لا تظن أن ذلك سيحدث «حتى وإن عرضوا على المرء ساعات عمل محددة فإن ذلك سيعنى أنه من الممكن العودة إلى المنزل فى السادسة مساء. سأظل خارج المنزل طوال الوقت الذى يكون فيه الأطفال مستيقظين» إن أكثر ما يقلقها هو ما يمكن أن يفوتها خلال وجودها فى المكتب فى يناير الماضى، بعد سقوط الثلج، أخذت جاك من المدرسة على زحافة زرقاء «كانت النجوم ساطعة والقمر ظاهراً لقد كان وقتاً ذهبياً. إننى متأكدة أنى سأعود إلى العمل إلا أن ذلك سيكون صعبا بسبب ساعات العمل». تتذكر بأسى: «المجال المهنى إما أن يأخذ الوقت كله أو لا يكون» كان الأمر يبدو سهلا منذ ١٠ أو ١٥ سنة، تأتى باللحم إلى المنزل، تقليه فى المقلى ثم تقتسم وردية العمل الثانية مع رجل حساس يتبنى أفكار العصر الحديث. ثم تغير إيقاع العمل، الحياة، المرح بالنسبة للمهنيات من أمثال هيلين باول. بالطبع لقد منحت الدول الأوروبية المرأة الحق فى إجازة وضع وفى بعض الأحيان دعماً سخياً للعناية بالأطفال وسمح الفرنسيون لأسبوع

The Mommy Myth

(خرافة الأمومة)

Susan Douglas, Meredith Michaels
Fee Press, 2004, 400 Pages

The Time Bind: When Work Becomes Home and Home Becomes Work

(عندما يصبح العمل هو المنزل والمنزل هو العمل)

Arlie Russell
Owi Books, 2001, 336 Pages

ترجمة : نيرمين نزار

عن Time Magazine



تصوير: أيمـــن الصيـــاد ـ ١٩٨٩.. من مجموعة منظمة الأمم المتحدة للطفولة والأمومة (unicef)

عمل من ٣٥ ساعة. ولكن لا يزال من المعتاد أن يكون معدل ساعات العمل للموظفات الأوروبيات ٥٠ ساعة فى الأسبوع و ٥٥ ساعة للموظفين حسبما تقول المجموعة الأمريكية للأبحاث والاستشارات كاتاليست المهتمة بأمور المرأة فى مجال الأعمال. بالنسبة لكبار الإداريين فى الشركات الكبرى يصل العمل إلى ٦٠ و ٧٠ ساعة أسبوعياً. لقد زاد إجمالى ساعات العمل للعائلات الأمريكية التى يعمل فيها الطرفان من ٨١ ساعة أسبوعيا سنة ١٩٧٧ إلى ٩١ ساعة أسبوعياً سنة ٢٠٠٢ حسبما تقول مؤسسة العائلات والعمل.

فى السنوات الأخيرة بشر البريد الإلكترونى والهواتف المحمولة وأجهزة النداء الآلى بإمكانية العمل من المنزل. وكانت تلك نهاية المنزل كمكان آمن؟

فاليوم تنتشر أجهزة النداء الآلى على أطراف ملاعب الأطفال لكرة القدم، وتهتز الهواتف المحمولة فى مسرحية المدرسة ونعود للبريد الإلكترونى بعد حدوتة قبل النوم، هذه الحقيقة بالذات على نفس القدر من العولمة مثل الأعمال التجارية نفسها. تقول مريديث مور مديرة الأبحاث فى كاتليست عن العراقيل التى تواجه النساء الإداريات فى أوروبا والولايات المتحدة «أدهشتنا قلة التنوع التى وجدنها. فى الوقت ذاته ازدادت سرعة الإيقاع على الجبهة المنزلية حيث اتسعت وظيفة الأم لتشمل إدارة جدول ضخم من الأنشطة المدعمة للطفل».

سوزان دوجلاس أستاذة دراسات الاتصال جامعة ميتشجان ومرديث مايكلز مدرسة الفلسفة فى كلية سميت بماستشوستس فى كتابهما الجديد (أسطورة مامى) تسميان الظاهرة الجديدة «الأمومة الجديدة» وتصران على أن الثقافة فى الوقت الحالى تؤكد على أنه على المرأة إن كانت تريد أن تكون محترمة ولو بقدر ضئيل أن توهب كامل كيانها الجسمانى والعاطفى والفكرى ٢٤ ساعة فى اليوم لأطفالها.

بالنسبة لأغلب الأمهات -والآباء أيضاً- لا يوجد خيار سوى الصمود على الجبهتين. إن ٧٢ ٪ من أمهات الأطفال الأصغر من ١٨ عاماً هن جزء من القوى العاملة الأمريكية - وهذا الرقم قد ارتفع بشدة منذ عام ١٩٧٥ حين كانت النسبة ٤٧٪ و لكنه ثابت منذ عام ١٩٩٧، فى ألمانيا تعمل ٦٤٪ ما بين أعمار ١٥ سنة و ٦٤ سنة.

أما فى الطبقات الإدارية والمهنية حيث تتيح الدخول الأعلى اختيارات أكثر فإن هناك ثورة متململة فى الطريق.

إن النساء الإداريات أقل استعداداً للعبة الموازنة بين الأدوار خاصة بشكلها السريع الحالى وهن أكثر استعدادا للتضحية بالمرتب والوضع الاجتماعى مقابل وقت أكثر مع عائلاتهن.

كما هو الحال مع هيلين باول فإن أغلب هؤلاء النساء يخترن التوقف المؤقت، وليس الخروج كلياً من سوق العمل، عادة بنية كبيرة فى الرجوع مرة أخرى وشعارهم فى ذلك: يمكنك الحصول على كل الأشياء و لكن ليس فى نفس الوقت. وعلى عكس بعض التقارير فإن هؤلاء النساء لم يعتنقن طراز الأمومة فى الخمسينيات وإنما طريق غير منتظم إلى قمة الهرم الوظيفى مع الإصرار على العودة إلى شكل ما من العقلانية.

تقول أرلى هوشايلد عالمة الاجتماع و مؤلفة كتاب (تطويق الوقت: عندما يصبح العمل منزلاً و المنزل عملاً) «إن ما تبعد عنه هذه المجموعة هو الأسبوع المكون من ٨٠ ساعة عمل. إنهن ملتزمات بالعمل ولكن كثيرات منهن قد شاهدن أمهاتهن و آباءهن يطحنهم العمل ويودون بالتالى إعطاء أبنائهم أكثر مما أخذوه. إنهم يريدون تحقيق توازن بين العمل والعائلة».

تبلغ إجازة الوضع فى بريطانيا حالياً ١٢ شهرا وتحصل الأمهات على راتب كامل لأول ٦ شهور وفى السويد يتقاسم الوالدان إجازة وضع تصل حتى ١٦ شهراً بنسبة من الراتب تصل إلى ٨٠٪ و لكن القليل من الناس يأخذون كامل مستحقاتهم بسبب ضغوط التنافس.

لقد عادت أنيكا سيفنسون مديرة قسم الأصول الثابتة إلى العمل بعد ١٣ شهرا من ميلاد طفليها، تقول : «لقد شعرت أنه ليس لدى خيار سوى العودة إلى العمل و إلا سأجد رجلاً عند البوابة لأخذ وظيفتى».

فى ألمانيا حيث تستطيع الأمهات العودة إلى وظائفهن حتى ثلاث سنوات بعد الوضع - وأحياناً حتى عيد الميلاد الثامن للطفل- تريد الكثير من الأمهات العودة إلى العمل ولكنهن يبقين فى المنزل بسبب قلة سبل العناية البديلة بالأطفال.

و تكشف الإحصائيات الأمريكية عن ارتفاع عدد الأمهات اللاتى يبقين فى البيت من حملة الشهادات العليا أو الشهادات المهنية - نفس النساء اللاتى كان مقدراً لهن اختراق السقف الزجاجى المتوقع لهن - فالآن يوجد ١٢٪ منهن بالمنزل مع الأطفال. وجدت دراسة لكتاليست أن واحدة من كل ٣ حاصلات على ماجستير إدارة أعمال لا تعمل وقتاً كاملاً (الرقم يصل إلى واحد من كل ٢٠ عند أمثالهن من الرجال) ترى الاقتصادية والمؤلفة هيوليت التى تدرس فى جامعة كولومبيا بنيويورك أن هناك إهدارا للعقول بين أفضل ١٠٪ من القوى العاملة النسائية (من يربحون أكثر من ٥٥ ألف دولار) تقول: «إن ما اكتشفناه بالنظر إلى هذه المجموعة هو أن النساء اللاتى يملكن بعض الاختيار يتوقفن عن العمل».

يرى بعض الخبراء الآخرين أن معدل التوقف عن العمل لا يزداد ولكنه يصبح ملاحظاً بشكل أكبر لأن هناك عدداً أكبر من النساء فى وظائف عليا.

فى عام ١٩٧١ حصلت النساء فى الولايات المتحدة على ٩٪ فقط من شهادات الطب ٧٪ من شهادات المحاماة و ٤٪ من شهادات الماجستير فى إدارة الأعمال. بعد ٣٠ عاماً أصبحت الأرقام بالتوالى ٤٣٪، ٤٧٪، ٤١٪ و من الأصعب العثور على الأرقام الأوربية، و لكن كاثرين حكيم عالمة الاجتماع فى لندن سكوول أوف ايكونوميكس تقول أن هذه الظاهرة أكثر تطابقاً للأجيال الأصغر و تقول سيسكا درسيلهايز (٦٠ عاماً) رئيسة تحرير الصحيفة النسوية الهولندية الشهيرة «البداية كانت من صنع جيلى والآن نرى أن بناتنا لديهن كل هذه الاختيارات التى لم تكن متاحة لنا. ماذا نختار؟ بالإمكان اختيار كل شىء ولكن هذا كثير بالنسبة لشخص واحد».

عامل الجيل

بالنسبة لمجموعة المهنيات الأكبر عمراً مثل درسيلهايز، اللاتى كبرن على سماع زمجرة هيلين ردى، تبدو هجرة النساء الأصغر عمراً رجعية بشكل مزعج. فاى كلايتون ٥٨ عاماً، الشريكة فى مكتب محام صغير بشيكاغو راقبت بتذمر خسارة شركتها المكونة من ١٥ شخصاً لثلاث شابات تركن العمل بعد الإنجاب وإن كانت إحداهن قد عادت للعمل نصف الوقت. تقول فاى كلايتون: «أخشى أن هناك شقاقا بين الأجيال و ربما خطوة للوراء بالنسبة للنساء الأصغر سناً».

أخريات يأخذن موقفاً أكثر تفاؤلاً. تقول جوان برنداج ٥١ عاماً المديرة التنفيذية لمنظمة (مذر آند مور) الداعمة للأمهات بـ ٧٥٠٠ عضو و ١٨٠ فرعاً فى الولايات المتحدة «إن الأمهات الأصغر عمراً لديهن توقعات أكبر بالنسبة للموازنة بين العمل و الحياة».

بينما كانت السيدات المولودات فى الخمسينيات يخشين التحدث عن أولادهن فى العمل خوفاً من أن يبدون غير جادات مهنياً، ترى النساء الأصغر: «أن هذه ليست طريقة للحياة. ما فائدة الحصول على كل هذه الأموال إن لم تكونى قادرة على التمتع بحياة عائلية طبيعية؟».

تقول سيدة من بروكسل لا تشاء ذكر اسمها إنما كانت تعرف أن مسارها المهنى المبشر كمحامية لدى الاتحاد الأوروبى كان فى طريقه للزوال. عندما عادت إلى العمل بعد انقطاع لمدة سبع سنوات رأت العمل غير مشبع فتركته ثانية لم يكن لديها شك أنها بدون أطفال كانت ستحصل على راتب أعلى ووظيفة أهم. ولكنها تختلف مع التعاريف التقليدية للعمل الشاق والإنجاز. «لا أعرف الكثير من النساء اللاتى يرين إنجازا فى الجلوس إلى مكتب والطيران حول العالم فى مدة ٨٠ ساعة فى الأسبوع. أنا أراه إنجازا وأعتقد أن أغلب النساء يرين ذلك حماقة» وتضيف أن الكثير من الطموح المهنى مجرد خيلاء. رغبة فى لقب وسيارة الشركة ولكن من يأبه لذلك. «تقول هذه

«الكثير من الطموح المهنى مجرد خيلاء.
رغبة فى لقب وسيارة الشركة ولكن.. ماقيمة ذلك..؟
إن تربية الأطفال تكمن فيها «القوة والسيطرة الحقيقية على مستقبل العالم»

السيدة أن تربية الأطفال تكمن فيها«القوة والسيطرة الحقيقية على مستقبل العالم».

كشفت دراسة لكاتاليست عام ٢٠٠١ على ١٢٦٣ رجلاً وامرأة أن الجيل المعروف بـ «جيل إكس» «لم يريدوا أن يقدموا نفس التنازلات التى قدمتها الأجيال السابقة. لقد رفضوا الضغوطات والتضحيات» كما تقول بوليت جركوفتش من كاتاليست: «لقد أعطى النساء والرجال معا أولوية أعلى للأهداف العائلية من الأهداف المهنية.»

وتخطط كاتاليست لبحث ميدانى مماثل فى أوربا.

تقدم دراسة أخرى قامت بها مجموعة ريتش أدفيسورز للتسويق أدلة أكثر على التغير فى المواقف. قال الآباء والأمهات فى جيل إكس (من ولدوا بين ٦٥- ١٩٧٩) إنهم يقضون وقتاً أكبر فى تربية الأطفال من الآباء و الأمهات من بيبى بومرز (من ولدوا بين ٤٥-١٩٦٤) ومع ذلك فإن (جيل إكس) أكثر شكوى من البومرز فى إنهم يحتاجون لوقت أكثر.

يقول جيمس تشانج رئيس (ريتش أدفيسورز) «فى البدء تساءلنا هل هم جيل من الشكائين؟ ولكنهم فعلاً يريدون تمضية وقت أكبر مع أبنائهم».

وجدت ريتش أدفيسورز أن ٥١٪ من أمهات جيل إكس من الفئة الأعلى دخلاً (أكثر من ١٢٠ ألف دولار) لا يعملن خارج المنزل بالمقارنة بـ ٣٣٪ من أمهات البومرز من نفس الشريحة، ولكن هناك احتمالاً أكبر أن تختار النساء الأصغر سناً اللاتى لا يعملن خارج المنزل العودة إلى العمل. ٤٦ ٪ من جيل إكس عبرن عن هذا الهدف فى مقابل ٣٤٪ من اليومرز.

يتوقع تشانج وآخرون أن يكون من الممكن تفسير الاختلاف فى الموقف جزئياً بالقوى المشكلة لكل جيل.

فبينما سعت الأمهات من جيل بومرز لفرص عمل لم تكن متاحة لأمهات ربات البيوت فإن جيل إكس عانوا من كونهم أبناء لآباء مطلقين كما أن مساراتهم المهنية كانت عثرة بين تقلبات الاقتصاد التى هزت ثقتهم فى الإشباع فى العمل.

لقد قضت بام بلا (٣٥ سنة) من سولت ليك سيتى بولاية يوتا سنوات فى التقدم المهنى فى مجال الإنشاءات الذكورى حتى وصلت إلى منصب مهندس مواقع إنشائية فى شركة كبرى ولكن بعد ولادة ابنتها قبل ١٢ شهرا قررت البقاء فى المنزل. تقول بام: «لم تكن أمى تستطيع العناية بنا لأنها كانت تعمل، كانت تتركنا وحدنا فى المنزل فنخاف ونختبىء تحت حوض المطبخ إذا دق جرس الباب».

تريد بام العودة إلى العمل عندما تدخل ابنتها إلى المدرسة و لكنها تأمل ألا تعاقب على السنوات التى قضتها فى المنزل. تقول:«أشعر أنه سيكون على البدء فى وضع أقل مما كنت عليه عندما تركت العمل. إن هذا يبدو غير عادل».

رغبات وشكوك الأمومة

ويرغم الشكوك فإن أغلب النساء اللاتى يتركن العمل يجدن متعاً متوقعة على الجبهة المنزلية هذا بالإضافة إلى الارتياح الذى يسببه عدم القلق من التقصير مع الأولاد. منذ ست سنوات أصبحت الحياة غير محتملة للكاتبة الدنمركية لوته جابرز البالغة من العمر ٣٦ سنة حالياً. فقد كانت تدير ميكروسوفت الدنمارك نهاراً وتقسم مشاوير الحضانة مساء مع زوجها لإحضار ابنيهما راسموس (١١ سنة) وجوناس (٨ سنوات) تقول: «لقد اكتشفت أنى لا أحب هذه الحياة مطلقاً» فهى اليوم صاحبة ثلاث روايات و كومبيوتر محمول يطن بهدوء فى ركن المنزل المشمس فى إسبرجراد، ٤٠ كيلو متراً شمال كوبنهاجن. فى غرفة المعيشة يصنع جوناس خيمة مع صديقه بتغطية بعض كراسى موضوعة بشكل دائرى بملاءة وتساعدهم لوته فى إعادة بنائها كلما انهارت وتقول «لا أتصور العودة إلى العمل فهذا يتطلب حياة مبرمجة منذ الصباح الباكر حتى وقت متأخر مساء. أنا أحب أن يقضى أبنائى أياما هادئة معى».

وهناك آخرون يقدرون الإيقاع الاكثر هدوءاً وأن يكونوا حاضرين حين يسأل الطفل سؤالا صعبا. فى ماكلين بولاية فرجينيا سأل ديلان (٨سنوات) ابن أوكى راسل فجأة «ماما من هو أبو الله؟»، تقول راسل (٤٥ سنة) التى تركت وظيفة الأحلام كإدارية بمحطة تليفزيون:«تغنيين وأنت واقفة أمام الحوض ويداك منهمكتان بغسيل الصحون. هذا أمر ممتع جداً» وتتحدث عالمة النفس دافنى دى مارتيف عن هذه المتع الخاصة فى كتابها رغبات الأمومة الذى سيصدر فى بريطانيا فى سبتمبر. ترى دى مارتيف أن أنصار الحركة النسوية والمجتمع الأمريكى عامة قد تجاهل رغبة أغلب الأمهات الأساسية فى قضاء وقت ذى معنى مع أبنائهن.

إن الكتاب يضفى على البقاء فى المنزل لمعة ومثالية ولكنه يمكن أن يتسبب فى ألف استقالة.

إن ما تغفله دى مارتيف بشكل كبير هو الإحساس بالفخر الذى تجنيه النساء من عملهن. فالنساء اللاتى يتوقفن عن العمل يجدن فقدان الهوية أصعب من فقدان الدخل. بعد ولادة ابنيها التوام منذ ٦ سنوات قررت أجاثا برجيه (٣٤سنة) المراقبة المالية بشركة أرثر أندرسن بباريس أن تنتقل إلى قسم آخر داخل الشركة للتقليل من ضغط العمل ثم أتى طفلها الأصغر تشارلز بعد عامين فاختارت العمل نصف الوقت فى نفس الشركة ولكنها كانت تفتقد أولادها فتقول «ببساطة لم أكن أراهم وهم يكبرون وكان هذا أمراً يشغل فكرى دوماً».

فى عام ٢٠٠٣ اختارت ترك العمل كلياً وكانت سعيدة لقضائها وقتاً أطول مع الأطفال ولكنها وجدت حنينا لهويتها وقت العمل. و هى الآن تبحث عن عمل نصف الوقت و تقول «فى الحقيقة إن العمل ليس المال أو القوة ولكنه الوجود. إن المجتمع ينظر بدونية للمرأة التى تبقى فى المنزل».

و تقول برونوين تول (٤١ سنة) التى تخلت عن وظيفتها فى واشنطن لتبقى مع ابنيها «أنا لست نادمة على تركى العمل و لكن شيئاً كبيراً منى قد اختفى.» الآن عندما تحضر دعوة لها علاقة بالعمل مع زوجها رايموند الذى يعمل فى الغرفة التجارية الأمريكية تشعر أنها مهمشة. تقول تول «الجميع يتحدث عما يعملون وعندما تقولين أنا أم ولا أعمل خارج المنزل فإن هذا يقتل الحديث».

فى العام الماضى عندما دخل أصغر أبناء تول إلى الحضانة عادت قليلاً إلى عالم العمل فوجدت عملاً نصف الوقت فى شركة معمارية تقدمية التفكير ولكنها تأمل فى العودة إلى مجالها قريبا و تضيف «أتمنى لو كان هناك عمل أكثر نصف الوقت أو بالمشاركة مع آخرين.

إنها رغبة تشاركها فيها الكثير من الأمهات العاملات سابقاً فى الولايات المتحدة. ولكنه واقع فى أغلب أوربا لقد بدأت الحكومة الهولندية فى تشجيع العمل نصف الوقت كطريقة لمواجهة البطالة. ويحصل العاملون نصف الوقت على نفس الامتيازات و فرص التدريب والتعلم المتاحة لمن يعملون كامل الوقت. الآن يعمل ٢٠٪ من الرجال الهولنديين و٧٣٪ من النساء الهولنديات نصف الوقت



بالمقارنة بـ ١٧٪ من الأمهات اللاتى لديهن طفل أصغر من ١٨ سنة فى الولايات المتحدة. و يوجد عاملون لنصف الوقت بهولندا أكثر من أى مكان فى العالم الصناعى.

ولقد أصبح لخيارات العمل نصف الوقت شعبية لدرجة أن ١٠٪ من الآباء والأمهات يختارون العمل لكل منهم ٤ أيام فى الأسبوع. بعد أن أنجبت الصحفية بيتزيل جروين ٣٢ سنة العاملة فى أمستردام ابنتها كيكا (سنتان ونصف) خفضت هى وشريكها توبس باردمان أيام عملهما إلى ٤ أيام أسبوعياً لكل منهما. تقول جروين «لقد كان قراراً سهلاً فعطلة نهاية الأسبوع وحدها ليست كافية لقضاء وقت مع ابنتى».

ولدى باردمان الذى يبدأ إجازته الأسبوعية الآن مساء الخميس نفس الشعور إذ يقول «أنا سعيد جداً فأنا الآن قادر على المضى فى مسارى المهنى بشكل جدى ويكون عندى الوقت لعمل أشياء أخرى فى حياتى» ولكن ليس كل الأوروبيين مرتاحين لفكرة العمل جزءاً من الوقت فتقول الأم السويدية سيفنس:«أنا مقتنعة انى إذا طالبت بساعات عمل مخفضة فسأنقل إلى وظيفة أقل أهمية كما أن الآباء الأوروبيين يخشون أن يخسروا موقعهم لخصومهم إذا استفادوا من إجازة الأبوة».

البناء على المنحدرات

«إنها حرب حول الموهبة» كما تقول كارولين بلك لوس الشريكة فى شركة إرنست و يونج للمحاسبة و التى تشارك أيضاً فى رئاسة فريق العمل. فالعشرون عاماً الماضية مثلت النساء نصف من تم توظيفهم فى إرنست أند يونج تلحظ لوس أن الشركة ليست فقط حريصة على الاحتفاظ بهن و لكن أيضا على إعادة جذب من تركن العمل لرعاية أطفالهن. فى هذا الربيع أطلق ديلويت تو شيه توهماتسو برنامج المسعى الشخصى الذى سيتيح لمن يكون أداؤهم فى العمل أعلى من المتوسط أن يحصلوا على إجازة بدون مرتب لمدة ٥ سنوات لأسباب شخصية. ومع أن أغلب الامتيازات ستتوقف إلا أن الشركة التى كانوا يعملون فيها ستستمر فى دفع الرسوم السنوية للتراخيص (لممارسة المهنة) لمن يقومون بالإجازة وستدفع أيضاً تكاليف إرسالهم لدورات تدريبية لمدة أسبوع سنوياً للحفاظ على مهاراتهم. ولقد أطلقت هذه المجهودات مصطلحاتها الخاصة فالمهنيون الذين يعودون لأصحاب العمل مرة أخرى يعرفون بالـ (البومرانج) و الجهود لإعادتهم للعمل تعرف بشئون الخريجين. وتدفع الأسباب الديموغرافية الشركات لأخذ الأمر بجدية. فالبومرز يقتربون من سن التقاعد مما يهدد بنقص مقداره ١٠ ملايين عامل فى العام ٢٠١٠ فى الولايات المتحدة.

هل ستنجح هذه البرامج؟

هل ستكون الوظائف لجزء من الوقت فعلاً؟ أم ستكون وظائف نظامية مدفوعة جزئياً؟

هل يمكن للمهنيين الذين سينتقلون إلى الطريق الأبطأ أن يزيدوا من سرعتهم عندما يكبر الأولاد؟ و الأهم هو هل ستتطور ثقافة الشركات إلى الحد الذى سيجعل الموظفين يشعرون بجرأة حقيقية عند استخدام هذه الخيارات؟

ولكن المنحدرات الصاعدة والطرق البطيئة والاختيارات المرنة وكل المسارات المماثلة لا تأتى بسرعة كافية للأمهات اللاتى يرغبن فى إرساء مثال وتقديم اختيارات للجيل التالى. تارى لافلين (٣٨ سنة) أستاذة علم النفس فى جامعة نبراسكا سابقاً والتى لا تعمل حالياً انزعجت جداً منذ عدة أسابيع حين أعلنت ابنتاها ارين (٨ سنوات) ومولى (٦سنوات) نيتهما فى الزواج من رجال «لديهم ما يكفى من المال لنبقى فى المنزل» و تقول لافلين «أريد أن أتأكد من أنهما تدركان أن البقاء فى المنزل شىء رائع ولكنه واحد من عدة اختيارات. ما أتمنى أن أوضحه لهما هو أننى فى وقت ما يمكننى أن أعيد خلق نفسى والعودة إلى العمل». ■

المـــرأة

ما أشبه الليلة بالبارحة!

هدى الصدة

■ شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر تطورات سريعة على المستوى السياسى والاجتماعى والثقافى. فبعد إنشاء مطبعة بولاق فى النصف الأول من القرن سنة ١٨٢٠، ثم انتشار المطابع الخاصة، انتشر التعليم حيث بدأ التوسع فى إنشاء المدارس الحديثة الى جانب الكتاتيب، ونشطت حركة الترجمة، وزاد عدد الصحف الصادرة فى مصر بشكل ملحوظ، ولا سيما المجلات النسائية التى أفسحت الطريق لأعداد كبيرة من النساء للتعبير عن همومهن.، ومن ثم ازدهرت وانتشرت المنابر الثقافية والسياسية المكرسة للتحاور والجدل. ومع إعلان الحماية البريطانية على مصر سنة ١٨٨٢ بدأ عصر الاحتلال البريطانى. ومع الاحتلال زادت الامتيازات الأجنبية واتسع النفوذ الأوروبى فى مصر. احتدم الجدل فى الأوساط الثقافية والسياسية حول العلاقة المرغوبة بين التراث والمعاصرة، بين الشرق والغرب، ودارت معارك فكرية وسياسية حول شكل المجتمع الحديث، حول الصورة الأمثل للرجال والنساء فى الوطن، حول قضايا اللغة والأنواع الأدبية والفنون، حول الانتماءات الأيديولوجية والتحالفات السياسية. تعقدت القضايا واختلطت الهموم بسبب التدخل المستمر لممثلى الاحتلال الإنجليزى فى الشأن المصرى والعربى.

ومن القضايا الرئيسية التى طرحت بقوة على الساحة الثقافية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، قضية وضع المرأة فى المجتمع. ارتبطت هذه المسألة بمشروع تحديث المجتمع بسبب شيوع فكرة أساسها أن وضع المرأة العربية «المتخلف» هو من أهم أسباب تخلف المجتمعات العربية، وأن تحسين هذا الوضع هو شرط أساسى لقيام الدولة الحديثة. كان لممثلى الاستعمار الفضل فى الترويج لهذه الفكرة، واستخدمت حجة معاناة المرأة العربية من القهر الواقع عليها بسبب سطوة المجتمع الذكورى العربى لتبرير «ضرورة» استمرار قوات الاحتلال البريطانى فى حكم مصر لأن رجالها غير قادرين على توفير العدل والمساواة لكافة أفراد الشعب. المهم أن هذه الفكرة الاستعمارية كان لها أثر بالغ على جميع الأطراف، واختلفت ردود الأفعال، ولكن نجد أن معظم الفاعلين اتفقوا على أهمية التركيز على تحسين وضع المرأة فى المجتمع. ولذا، نجد أن جميع مفكرى النهضة بلا استثناء تطرقوا بطريقة أو بأخرى لمسألة المرأة، والقواعد التى سوف

من مقدمة الكتاب الذى إصدره ملتقى المرأة والذاكرة (القاهرة) عن عائشة التيمورية

القصد هو توضيح أن هذه الأفكار التى تحول المنزل إلى المكان «الطبيعى» للنساء، وتجعل الوظيفة الأساسية للنساء هى خدمة الزوج والأولاد، هى أفكار تم بلورتها ونشرها على نطاق واسع نتيجة للتفاعل الذى حدث بين الثقافة العربية والثقافة الغربية

تحكم علاقتها بالرجل وفق المتغيرات الجديدة التى يأتى بها المجتمع الحديث.

كان من تداعيات هذه الفكرة أن سادت واستقرت فكرة أخرى بالغة الخطورة، مفادها أن المجتمع الحديث جاء بكل الحقوق للنساء، فلقد أتاح للنساء التعليم وفرص الخروج للعمل والظهور فى المجال العام، وأن جميع الانحيازات أو المشاكل التى تواجه نهضة النساء هى من بقايا العهود القديمة التى عزلت النساء وحرمتهن من حقوقهن الإنسانية. استشرت هذه الفكرة فى القرن العشرين وتأصلت فى جميع المحافل التى تركز على إنجازات النساء فى العصر الحديث، وظهور أول طبيبة وأول مدرسة وما إلى ذلك. يستند خطاب الأوائل هذا إلى فرضية أن هذه المهن، على سبيل المثال لا الحصر، لم تمارسها النساء إلا فى العصر الحديث حين حصلن على حقوق لم تكن متاحة لهن من قبل. هذا الخطاب مبنى على مغالطة تاريخية تركز فقط على فترات الانحسار وتتجاهل انخراط النساء فى مجتمعات ما قبل العصر الحديث، وتنفى عنهن مساهماتهن فى صنع التاريخ والحضارة الإنسانية. ومع اعتبار أن المجتمع الحديث أتاح فرصة التعليم لأعداد كبيرة من النساء والرجال، وأن هناك تطورات وإضافات على مستويات كثيرة فى الحياة الاجتماعية والثقافية لا يمكن إغفالها، ولكن، الإصرار على فكرة أن جميع الإيجابيات فى حياتنا هى نتاج العصر الحديث، وجميع السلبيات هى تراث الماضى تؤدى الى مغالطات جسيمة. أولا، إن المبالغة فى تمجيد العصر الحديث والمفاهيم الحداثية التى تدعم من التعارض بين الجديد والقديم، أدت فى مجال تاريخ النساء مثلا الى إغفال مساهمات لنساء قدمن خطابا مغايرا للخطاب الحداثى السائد، أو حاولن تقديم رؤى لا ترى حتمية هذا الصراع بين القديم والجديد. ثانيا، يؤدى هذا الإصرار على إيجابيات العصر الحديث إلى التعمية على المشاكل والسلبيات التى استجدت فى حياتنا وثقافتنا مع قدوم هذا العصر الحديث، بل والأدهى من ذلك، نجد أن أفكارا حديثة مناهضة لحقوق النساء والتى لم يكن لها وجود قبل القرن التاسع عشر قد أضفى عليها صبغة ثقافية وأصبحت تقدم بوصفها جزءاً أصيلاً من ثقافتنا العربية. ثالثا وأخيرا، أدت هذه المبالغة فى طرح قضية المرأة بوصفها رمزًا للمجتمع الحديث أن أغفل المحللون تناول «قضية الرجل»، أو بعبارة أخرى، لم يلتفت كثيرا الى أن أى محاولات لتعريف ماهية الأنوثة فى سياق ثقافى تنطوى على محاولات لتعريف ماهية الرجولة، ومن ثم المواقف المعلنة بصفة متكررة تجاه قضية المرأة هى مواقف مستترة من مأزق الرجل العربى فى العصر الحديث. وتكون النتيجة خلطًا مفزعًا للأوراق حينما نتحدث عن مسألة المرأة.

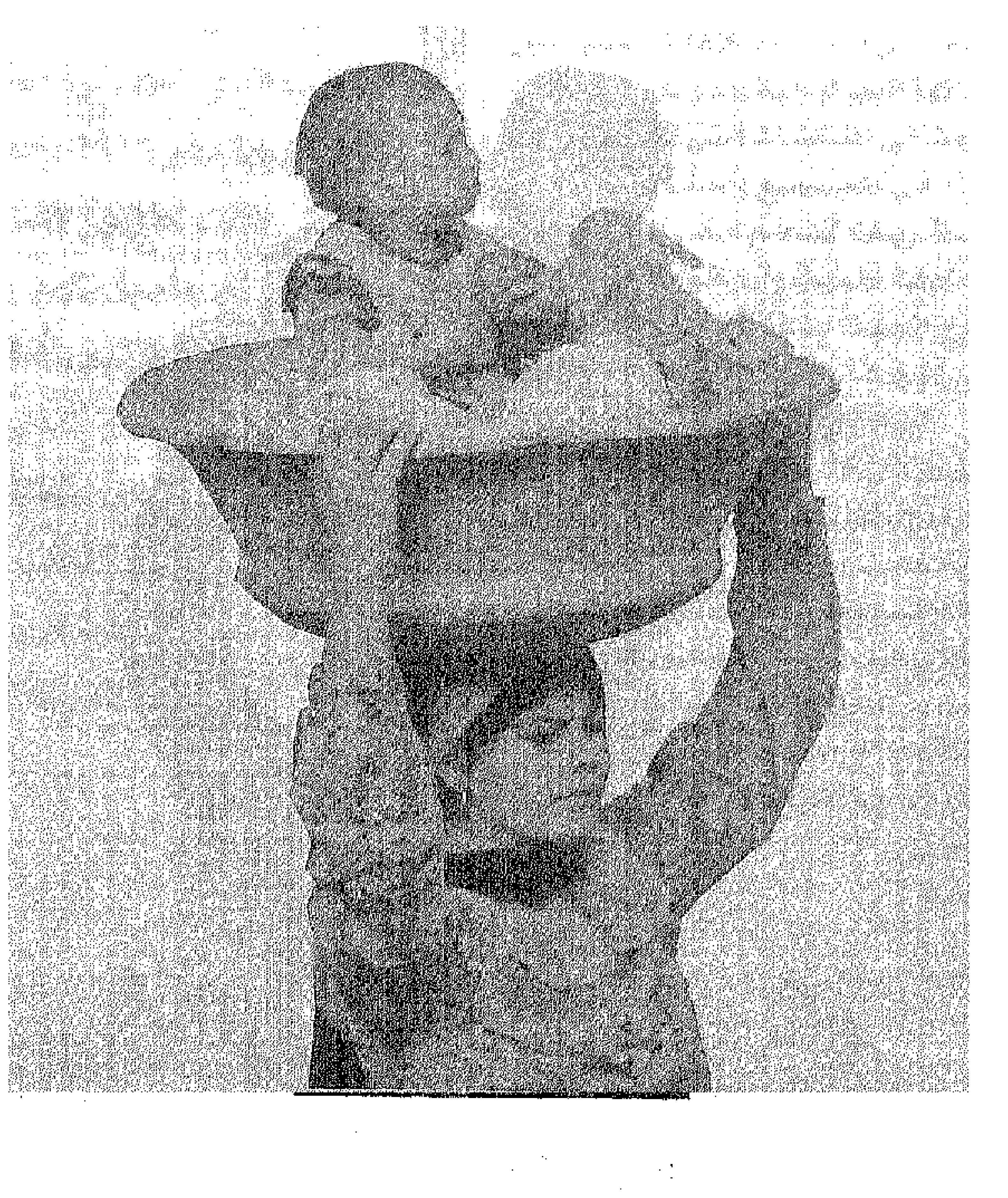
سوف أتعرض بإيجاز شديد لفكرتين أو أسطورتين على درجة عالية من الشيوع تم استحداثهما فى العصر الحديث وكان لهما سطوة بالغة، وما زال، فى التأثير على تعريفات الأنوثة والرجولة، والطرح الثقافى والاجتماعى لقضية المرأة: أسطورة أن البيت هو مملكة المرأة، وأسطورة أن الرجل متفوق بيولوجيا، ومن ثم عقليا على المرأة.

البيت: مملكة المرأة

من أعتى المعوقات التى تقف أمام النساء فى سعيهن نحو الحصول على المساواة فى الحقوق والواجبات إلى يومنا هذا افتراض أن المكان الطبيعى للمرأة هو المنزل وأن وظيفتها هى رعاية الزوج والأولاد، وأن هذا النمط من الحياة هو النمط المعبر عن ثقافتنا العربية. فمن القضايا التى احتلت حيزا كبيرا على الساحة الثقافية قضية وضع المرأة وعلاقتها بالمجال العام. وضمن مشروع وطنى لتحديث المجتمع والنهوض بمستوى جميع أفراده طرحت هذه الأسئلة: هل يمكن للمرأة أن تخرج للعمل مثل الرجل، أو أن مكانها الأمثل هو البيت؟ هل مطلوب من النساء المشاركة فى المجال العام، أم أن وظيفتهن الأساسية هى رعاية الأسرة والأطفال؟ هل النساء قادرات على القيام بأعمال الرجال؟ هل هن مؤهلات لحمل أعباء الحياة الثقيلة، أم أن طبيعتهن لا تسمح لهن بذلك؟

فكرة أن البيت هو مملكة المرأة فكرة حديثة بالدرجة الأولى. فلقد كان للثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر فى أوروبا بعض الآثار العميقة على حياة النساء فى إنجلترا على سبيل المثال. أفرزت الثورة الصناعية أشكالا جديدة من العمل وأظهرت أنماطا من العيش لم تكن شائعة من قبل. فقبل قيام هذه الثورة الصناعية، كان النساء والرجال يعملون جنبا الى جنب فى الحقول مثلا، ولم يكن هناك هذا الفصل الصارم بين ما هو داخل المنزل وما هو خارجه. مع بدايات القرن التاسع عشر، تبلورت سمات الطبقة المتوسطة الصاعدة التى ارتبطت حياتها بمقومات الإنتاج الصناعى الحديث وبأشكال العمل الجديدة القائمة أساسا على مفهوم «تقسيم العمل». فنجد الأسرة التى يذهب الزوج فيها الى العمل خارج المنزل فى المصنع أو المكتب، ويترك المنزل تحت رعاية زوجته. فى هذه اللحظة تبلور مفهوم المجال العام والمجال الخاص، وارتبط المجال العام بعمل الرجال الدفوع الأجر خارج حدود المنزل، وتحدد المجال الخاص بعمل النساء غير المدفوع الأجر داخل حدود المنزل. وبالتدريج، تشكلت أيديولوجية جديدة عن ماهية الأنوثة، بحيث أصبحت المرأة مكلفة برعاية بيتها وأولادها فى أثناء ذهاب زوجها للعمل خارج المنزل. وتحددت خصائص هذه الأنوثة الأصيلة بصورة مثالية عن امرأة الطبقة المتوسطة التى تحافظ على بيتها فى غياب زوجها ولا تضطر للقيام بأعمال شاقة خارج المنزل. وفى عصر الملكة فيكتوريا (١٨٣٧-١٩٠١) انتشرت هذه الأيديولوجية الجديدة واستقرت متأثرة بالصورة المثالية التى قدمت للناس عن الملكة فيكتوريا راعية الأسرة ورمز الأمومة المثالية. ومع ازدهار الصحافة والتوسع الذى شهده القرن التاسع عشر فى صدور المجلات النسائية، انتشرت هذه الأيديولوجيا وأثرت على قطاعات كبيرة من الناس. وعلى الرغم من أن هذه الصورة المثالية لامرأة الطبقة المتوسطة القابعة فى مملكتها الصغيرة لم تكن ممكنة أو متاحة لأغلبية النساء من الطبقات الفقيرة اللاتى كن يعملن ليعلن أسرهن، إلا أن هذه الأيديولوجية استقرت واستشرت الى درجة أنها أصبحت تمثل النموذج القيمى لسلوك المرأة وعلاقتها بالمجتمع. ومن الكتب الشهيرة التى روجت لهذه الصورة كتاب جودى أو Godey's Ladies Book الذى صدر سنة ١٨٥٠، أما كتاب السيدة بيتون أو Mrs. Beeton's Book of Household Management الصادر سنة ١٨٦١، فكان من الكتب الأكثر مبيعا لمدة خمسين عاما. ثم، طغت هذه الأيديولوجية على محتوى المجلات النسائية فامتلأت هذه المجلات بنصائح لربة المنزل الحديثة ترشدها الى كيفية إدارة شئون منزلها على أكمل وجه. ومن الجدير بالذكر أن نلحظ التزامن بين ظهور هذه الأيديولوجية الطاردة للنساء من المجال العام، وبين نمو حركات المطالبة بحقوق النساء ودخولهن المجال العام فى إنجلترا وبلدان العالم.

انتقلت هذه الفكرة إلى العالم العربى من خلال الكتب والصحف والمجلات. فمن تجليات الاهتمام



العميق بوضع المرأة فى المجتمع، أن اهتم رواد النهضة بصورة المرأة الأوروبية، وعقدت مقارنات عديدة بينها وبين المرأة المصرية، وقامت معظم الصحف والمجلات بالحديث عن حياة هذه المرأة الغربية باعتبارها نموذج المرأة العصرية الحديثة. تنوعت المادة المقدمة، فقدمت المرأة الغربية وهى تقتحم مجالات «جديدة» غير متاحة للمرأة المصرية فى ذلك الوقت، وامتلأت الصحف بصور لهذه المرأة الجديدة. وفى نفس الوقت، تم تقديم مادة مستوحاة من المجلات الغربية التى تقدم نصائح عن تدبير المنزل، وكيفية رعاية الأطفال. نرصد هنا أبوابا استقرت بعد ذلك فى الصحف والمجلات عنوانها «المرأة والطفل»، «تدبير المنزل»، وغير ذلك من الأبواب التى تكرس لنمط حياة لنموذج محدد من النساء المنتميات للطبقة المتوسطة، وتروج لهذه الأيديولوجية المستحدثة عن البيت بوصفه المكان الأمثل للنساء. ومن الجدير بالذكر أن كثيرا جدا من المجلات التى صدرت فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اعتمدت على ترجمة موضوعات مأخوذة من مجلات غربية، أو استوحت موضوعات وطوعتها لتناسب السياق العربى، هذا بالطبع الى جانب نشر الموضوعات والقضايا النابعة من الواقع العربى. ليس الهدف من هذا الطرح القول بأن الصحافة النسائية المصرية مثلا وقعت تحت أسر أفكار غربية وقدمتها، ولكن القصد هو توضيح أن هذه الأفكار التى تحول المنزل الى المكان «الطبيعى» للنساء، وتجعل الوظيفة الأساسية للنساء هى خدمة الزوج والأولاد، هى أفكار تم بلورتها ونشرها على نطاق واسع نتيجة للتفاعل الذى حدث بين الثقافة العربية والثقافة الغربية.

وعندما نادى قاسم أمين (١٨٦٣-١٩٠٨) بتحرير المرأة، كان يتحدث عن امرأة الطبقة المتوسطة التى تعيش فى المدينة. فهذه المرأة هى التى اعتبرها سبب تخلف المجتمعات العربية لأنها لا تتساوى مع زوجها فى التعليم ولا تعرف مقداره. وبالتالى، وفقا لقاسم أمين، فهى لا تكسب احترامه لأنها تفشل فى إدارة منزله وتفشل فى رعاية أولادها حسب قواعد التربية الحديثة ولا تستطيع أن تكون شريكة الحياة والروح التى يتطلع لها الرجل المصرى الحديث. أيضا، تشكلت حياة هذه الطبقة فى العصر الحديث وفقا للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى أفرزت أشكالا جديدة من العمل خارج المنزل، وحصرت نساء هذه الطبقة داخل المنزل. فنجد أن قاسم ركز على إتاحة التعليم الابتدائى للنساء لكى يساعدهن على القيام بوظيفتهن الأساسية فى رعاية الزوج والأولاد. أدرك قاسم أمين أن هذه الفجوة بين الزوج وزوجته هى من خصائص عائلة الطبقة المتوسطة، وليست موجودة بين الفلاح والفلاحة، حيث تعمل الفلاحة جنبا الى جنب مع زوجها، كما تتساوى مع زوجها فى مستوى التعليم والثقافة. ولكن، تجاهل قاسم أمين وضع المرأة الفلاحة المنتجة ولم يعتبرها النموذج المعبر عن وضع النساء فى المجتمع، وركز على نساء الطبقة المتوسطة وصاغ خطابا ليبراليا عن تحرير المرأة يستوحى حياة طبقة بعينها ليعممه على جميع النساء. أما عبدالله النديم، فعلى الرغم من توجهه إلى عامة الناس فى كتاباته؛ إلا أنه يروج لقيم وأخلاقيات الطبقة المتوسطة ويتجاهل واقع حياة النساء والرجال من الطبقات الفقيرة حيث تعمل النساء مع الرجال وحيث تتلاشى ثنائية العام والخاص خاصة فى الريف. أى أن النديم يروج هو أيضا لأيديولوجية مستحدثة فى العصر الحديث قوامها أن البيت مملكة المرأة وأن المرأة الفاضلة هى التى لا تخرج عن حدود بيتها.

أسطورة التفوق البيولوجى

من النظريات التى كان لها تأثير قوى على صياغة وبلورة الأيديولوجية الحداثية عن البيت بوصفه المكان الطبيعى والمفضل للنساء، هى نظرية تعرف الآن بالعنصرية العلمية. يرجع تاريخ نشأة هذه النظرية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ويمتد ليصل إلى ذروته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. تشمل هذه النظرية اتجاهات مختلفة أو تيارات فكرية متعددة ولكنها فى النهاية تصب فى رافد واحد وهو التأصيل العلمى لتراتب هرمى بين الحضارات والأجناس والأعراق والأنواع حيث تقدم الأبحاث والنظريات العلمية مبررا «علميا» للممارسات العنصرية أو الاستعمارية التى تميز بين الأجناس والشعوب بدعوى التمايز فى درجة الرقى أو الحضارة أو التطور. وإذا حاولت تقديم أهم الاتجاهات التى ظهرت ضمن هذه النظرية العلمية باختصار، يمكننا رصد اتجاهين أساسيين. الاتجاه الأول هو ما يطلق عليه monogenesis القائل بوحدة الأصل أو أن جميع الأجناس والأعراق تأتى من أصل واحد ولكنها تختلف فى درجة التطور أو فى مرحلة التطور، حيث يحتل الجنس الأبيض أعلى مراتب التطور ومن ثم يحق له إرشاد بقية الأجناس إلى طريق الحضارة والمعرفة. أما الاتجاه الثانى فيطلق عليه polygenesis أى أن الأجناس المختلفة تأتى من أصول مختلفة ومن ثم لها خصائص وقدرات مختلفة، وبهذا يحتل الرجل الأبيض المكانة الأعلى ولكن يتقلص أمل بقية الأجناس فى الوصول إلى نفس درجة التطور لأنها، وفقا لهذا الاتجاه، لا تملك الخصائص المؤهلة. يرصد روبرت يونج Robert Young مسار هذه الاتجاهات المتعددة فى سياق تاريخى اجتماعى، فيذهب إلى أنه فى أوائل القرن التاسع عشر، تأثرت الأيديولوجيا العنصرية بالفكر التبشيرى المسيحى الذى تعامل مع التوسع الاستعمارى من منطلق نشر قيم مسيحية من شأنها تحقيق السمو الأخلاقى ومن ثم الحضارى للشعوب، كما تأثرت النظرية بحركات تحرير العبيد التى علا صوتها خاصة فى أمريكا والتى نادت بالمساواة بين البشر من حيث القيمة الانسانية. ولكن، فى منتصف القرن، خاصة فى ١٨٥٠ مع ظهور كتاب روبرت نوكس Robert Knox الأجناس البشرية (The Races of Man) انتشرت نظرية تعدد أصول الأجناس ووجدت صدى واسعا خاصة فى أمريكا ضمن دوائر مناهضة حركة تحرير العبيد، وأيضا عند منظرى التوسع الاستعمارى الذى نشط فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وكما يقول يونج، أصبح الجنس (race) المحدد الأساسى للحضارة والشخصية والتاريخ. كان لهذه الاتجاهات تداعيات علمية ونظرية عديدة، فمثلا استحدث

الإصرار على فكرة
أن جميع الإيجابيات فى حياتنا
هى نتاج العصر الحديث، وجميع السلبيات
هى تراث الماضى يؤدى
الى مغالطات جسيمة



فرانسيس جالتون Francis Galton، وهو من أقارب داروين، نظرية الـ eugenics حيث قام بالترويج لضرورة تشجيع الأشخاص الذين يملكون جينات أفضل على التناسل من أجل تحسين مقومات البشرية، وهى أفكار دعت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة الى التخلص من الأشخاص أو الأجناس «الأدنى»، ويرى كثير من المحللين أن هذه النظرية ساهمت بشكل أساسى فى صياغة الأيديولوجية النازية فى ألمانيا فى النصف الأول من القرن العشرين. أما اوجست كونت Auguste Conte وهو مؤسس علم الاجتماع، فلقد استخدم أيضا نظريات العنصرية العلمية للقول بأن للرجل خصائص عقلية تميزه عن الحيوان وأن هذه الخصائص فى درجة أعلى عند الرجل مقارنة بالمرأة ومن ثم فإن الدعوة الى المساواة بين الجنسين تتعارض مع الطبيعة البيولوجية والاجتماعية للإنسان.

وجدت هذه النظريات العنصرية طريقها الى الشرق والعالم العربى بطبيعة الحال من خلال كتابات ومفكرين كثيرين نهلوا من المصادر العلمية الغربية ونقلوا النظريات والأفكار من أجل إثراء الواقع الثقافى العربى. ومن المهم فى هذا المقام التأكيد على أهمية الدور الذى لعبه هؤلاء المفكرون فى التقريب بين الشرق والغرب وسعيهم نحو نهضة الشرق بواسطة نقل أحدث النظريات العلمية اليه، وهو هدف جليل فى مشروع النهضة العام. ولكن، أحاول هنا التدقيق فى فحوى بعض هذه النظريات، لا بهدف التشكيك فى المشروع الثقافى ككل، ولكن بهدف تفكيك مقولة أن كل ما جاء مع الحداثة كان جيدا ومساندا لحركة تحرير النساء.

سوف أعرض باختصار لمقالة كتبها شبلى شميل سنة ١٨٨٦ ونشرها على صفحات المقتطف، عنوانها: «المرأة والرجل وهل يتساويان». درس شبلى شميل (١٨٥٠-١٩١٧) الطب فى سوريا وباريس ثم جاء الى مصر حيث مارس مهنة الطب وانخرط فى الحياة الثقافية المصرية. ويعد شميل واحدا من مفكرى القرن التاسع عشر الذين آمنوا بأهمية العلم والنظريات العلمية الحديثة فى توضيح بعض القضايا الثقافية والاجتماعية وإيجاد حلول لها. وكما فعل أوجست كونت، استخدم شميل نظريات عنصرية علمية للترويج لمقولة أن هناك اختلافات «طبيعية» بين الرجل والمرأة مرتبطة برحلة التطور والارتقاء بحيث يحتل الرجل مرتبة أعلى من المرأة. يقول فى نهاية مقالته:

والخلاصة من جميع ما تقدم أن غلبة الأنثى على الذكر لا ترى إلا فى بعض أنواع الحيوانات السفلى أو فى بعض فروع البشر السفلى ولا يرى تساويهما إلا فيما كان فوق ذلك قليلا كما فى بعض الأنواع الحيوانية والفروع البشرية السافلة وكما فى أحداث الأمم المتمدنة ومشايخهم إذ أن الطرفين يتساويان فى كل أمر وأما فى الأنواع الحيوانية العليا وفى فروع البشر المرتقية وفى منتهى النمو فالغلبة دائما للذكر جسديا وعقليا وأدبيا ولا تكون غير ذلك إلا إذا انقلب الموضوع وانعكس المطبوع. وعليه فنطلب فى المستقبل ألا يقدر لنسائنا أن يتغلبن على رجالنا أو يساوينهم ولا نظن أن نساءنا يرضين غير ما طلبنا بناء على ما عهدن من سنن الارتقاء.

وجدت هذه الأفكار صدى واسعا خاصة ضمن الدوائر العلمية الثقافية وقام بعض الأطباء والمتخصصين فى العلوم الطبيعية بابداء رأى العلم فى القضايا الاجتماعية. وفى ١٨٩٤، عندما أرسل أحد القراء رسالة الى مجلة الهلال يسأل فيها رأى المفكرين فى شرعية حركة المطالبة بحقوق النساء، أحال جورجى زيدان الرسالة الى أمين خورى، وهو طبيب، لابداء رأيه فى هذا الخصوص. استخدم أمين خورى النظريات العنصرية مرة أخرى لمناهضة دعاوى المساواة، واستمر الجدل حول هذا الموضوع ستة أشهر، واشترك فيه النساء والرجال. والنقطة الأساسية فى هذا الموضوع أن هذه النظريات «العلمية» عن طبيعة المرأة، وعن العلاقة الحتمية بين صفاتها البيولوجية وقدراتها المجتمعية أدرجت فى المناقشات التى دارت حول دور المرأة فى المجتمع واستخدمت هذه النظريات لدعم مقولات أن المرأة مخلوقة للبيت وأن خروجها للعمل خارج البيت يتنافى مع «طبيعتها البيولوجية».

الخلاصة أننا نجد أنفسنا أمام أفكار ونظريات مناهضة لحقوق النساء ظهرت وتبلورت فى العصر الحديث، أى أنها ابتدعت مع قدوم رياح الحداثة. ومع هذا، وإلى يومنا هذا، نجد كثيراً من هذه المقولات فى خطابنا المعاصر ولكنها تقدم بوصفها أفكاراً أصيلة نابعة من تراثنا وثقافتنا. أو، نجد أنه ما زال هناك اتجاه قوى يمجد كل ما هو حديث بدون تمحيص. ■

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

ترجمة: خليفة محمد التليسي

ولد شاعر الهند العظيم رابندرانات طاغور عام ١٨٦١ بمدينة كلكتا في أسرة هندوكية معروفة بالمكانة العلمية والوجاهة الاجتماعية ، ويصف طاغور عائلته البنغالية بكلماته على أنها نتاج «الاندماج بين ثلاث حضارات، الهندوكية والإسلامية والبريطانية» . فالانتماء الطائفي لأسرته لم يمنع مواطني بنجلاديش -وأغلبهم من المسلمين- من الشعور بالتوحد مع طاغور وأفكاره ، ولا تزال أشعاره وأغانيه تتردد في أنحاء الجزء الشرقي من الهند وفي كل أنحاء بنجلاديش، كما أن رواياته ومقالاته لا تزال تقرأ على نطاق واسع بالرغم من وفاته عام ١٩٤١.

وقد درس طاغور في انجلترا قليلاً، ولكنه طاف بها وبأوروبا كثيراً ، ونشأت بينه وبين شعراء أوروبا وأمريكا علاقات وثيقة، خاصة عزرا باوند ووليام بيتس. وفي عام ١٩١٤ نال طاغور جائزة نوبل للآداب عن ديوانه «جنتجالي» (قربان الأغاني) فكان أول شاعر شرقي يحظي بها. وفي العام التالي، منحته الحكومة البريطانية لقب «سير» و هو اللقب الذي أعاده لها احتجاجًا على الأعمال القمعية التي قامت بها عام ١٩١٩ بإقليم البنجاب.

كانت لطاغور فلسفة خاصة في التعليم وقد أسس مدرسة ثم جامعة تتلمذ فيها نوابغ الهند المعاصرون مثل عالم الاقتصاد الشهير أمارتيا سين. وهو يجمعه بين الفلسفة والقيادة الفكرية والثقافية في شبه القارة الهندية وبين موهبته في الشعر والكتابة والرسم يعد من أندر شعراء العالم في العصر الحديث.

المختارات التالية من المجموعة التى صدرت فى ثلاثة أجزاء عن الدار العربية للكتاب بطرابلس عام ١٩٨٩.

يبحث عن النتائج الممكنة

لورا سيكور

يطالب قرار مجلس الأمن رقم ١٥٤٦ الأخضر الإبراهيمى، بوصفه المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى العراق، بالقيام بـ «دور رئيسى» للمساعدة على عقد مؤتمر وطنى خلال شهر يوليو الجارى، وتقديم المشورة والدعم إلى «الحكومة المؤقتة، اللجنة الانتخابية المستقلة، والجمعية الوطنية الانتقالية» من أجل تسهيل، وإتمام، عملية نقل السلطة إلى العراقيين.

ويدعو، هذا القرار الصادر - بإجماع دولى فى العاشر من يونيو المنصرم - الأمين العام للأمم المتحدة إلى تقديم تقرير، فى غضون ثلاثة أشهر، عن «عمليات بعثة المنظمة الدولية وما تم إنجازه على طريق إجراء انتخابات مباشرة قبل يناير عام ٢٠٠٥.

وهذا التقرير، الذى أعدته Laura Secor واختارت The Pragmatist عنوانًا له(١)، يرسم ملامح دقيقة للأخضر الإبراهيمى ورؤيته لدوره فى العراق، ومدى قدرته على تحقيق رؤيته هذه وخاصة فى التقائها أو تعارضها مع «الرؤية الأمريكية» ومع الحقائق على أرض الواقع. لكن هذا التقرير - وقد كتب قبل تشكيل «حكومة إياد علاوى» واختيار غازى عجيل الياور رئيسًا انتقاليًا للعراق - يحمل أيضًا إجابة واضحة على سؤال من شقين: هل ينجح الإبراهيمى فى «رتق ما اهترأ»، والوصول بسفينة المفاوضات إلى شاطئ السلام والاستقرار وسيادة القانون، أم أن رجل مهام الأمم المتحدة الشاقة حول العالم، بات يدرك أن مهمته فى العراق «محددة» و«محدودة»؟

(المحرر)

الأخضر الإبراهيمى. السياسى المحنك فى مهام الأمم المتحدة، من هايتى إلى الكونغو، واليمن ثم ليبيريا ونيجيريا والسودان، وأفغانستان مؤخرا، هو المكلف الآن بمهمة الإصلاح فى

بترتيب مع:
Atlantic Monthly

ترجمة: جمال إسماعيل

«البراجماتى»

العراق: الصعوبة فى هذه المهمة لا تحتمل المبالغة: فرغم الالتزام الأمريكى بنقل نوع ما من السيادة إلى العراقيين فى ٣٠ يونيو، يبدو من غير الممكن إجراء انتخابات قبل شهر يناير ٢٠٠٥. وإضافة إلى الفوضى التى يعيشها العراق إن أى إدارة انتقالية مؤقتة لن تملك السلطة الفعلية لإدارة شئون العراق، وتكون فرصتها ضئيلة للقبول بها كحكومة شرعية وممثل حقيقى للشعب.

الإبراهيمى شديد المراس والذى يعمل رسميًا تحت مسمى المستشار الخاص للأمين العام للأمم المتحدة فيما يتعلق بالموقف السياسى فى العراق هو الند الغريب لمشروع إدارة بوش «الويلسونى»(٢) فى العراق، وهو لا يرى أن من بين مهامه «هندسة» الديمقراطيات الجديدة أو فرض «رؤى» خارجية على مجتمعات رافضة لها. بل على العكس من ذلك. فإنه واقعى يحترم ويفهم معادلات القوة، تعامله مع المواقف المعقدة يبدأ بتحديد من مِن اللاعبين يملك سلطة على الأرض، وسبل تحقيق الحد الأدنى من مطالب هؤلاء. فى أفغانستان. على سبيل المثال. حيث فاوض بنجاح من أجل سلام بين مجموعات مسلحة متناحرة بعد الغزو الأمريكى عام ٢٠٠١، كسب الإبراهيمى خصومة المدافعين عن حقوق الإنسان عندما سمح لـ «لوردات الحرب» القتلة، ليس بالنجاة من العدالة فحسب، بل وأن يتحولوا إلى مسئولين فى الحكومة الجديدة. وفى تفسيره لذلك أوضح الإبراهيمى أن ضمان السلام والاستقرار أولوية تفوق إقرار العدل، وأن الطريق الآمن لسرعة استعادة السلام يأتى من خلال جعل لوردات الحرب يمسكون بزمام الأمور فى الحكومة الجديدة.

فى مفاوضات الأفغان التى رأسها فى بون، وبدأت فى نوفمبر ٢٠٠١، توصل الإبراهيمى إلى إدارة مؤقتة تدعو إلى عقد مجلس قبائل «معروف باسم لويا جيرجا» طارئ خلال سبعة أشهر تكون مهمته اختيار حكومة تقود أفغانستان لسنتين قادمتين.

إن مجلس القبائل الذى نظم بواسطة لجنة من الأفغان تحت رعاية الأمم المتحدة، أثبت أنه أحد أكثر «المشاريع» إثارة للجدل فى الحياة المهنية الطويلة للإبراهيمى البالغ من العمر ٧٠ عامًا. ويقول نادر نادرى، وهو أفغانى من نشطاء الدفاع عن حقوق الإنسان خلال الحقبة التى حكمت فيها طالبان أفغانستان، وعمل فى لجنة مجلس القبائل، أن الأفغان فى اللجنة وضعوا خطوطًا هادية صارمة لاستبعاد أى فرد يعرف عنه أنه منتهك لحقوق الإنسان، من عضوية المجلس. «لكن السيد الإبراهيمى والحكومة المؤقتة، أصروا على دعوة لوردات الحرب. لقد دفع باللجنة إلى انتهاك قوانينها ولوائحها الداخلية».

وسواء كان مجيء لوردات الحرب قد تم بمبادرة من الإبراهيمى أو من وزارة الدفاع الأمريكية، فالأمر يظل موضع جدل. لكن الإبراهيمى دافع عن الفكرة فى حوارات معه فى ذلك الوقت، وفى مقابلات إعلامية لاحقة. لقد أوضح الإبراهيمى للأفغان أن عدم دعوة لوردات الحرب سيدفع بهم إلى عدم قبول قرارات مجلس القبائل. وأشار إلى أن لوردات الحرب، وهم الذين سلحتهم ودعمتهم الولايات المتحدة فى الحرب ضد طالبان، يسيطرون بالفعل على أنحاء كبيرة من أفغانستان، ولا يمكن. بالتالى. استبعادهم.

بعد أربعة أشهر، وفى محاضرة «متلفزة» حول «المفاوضة» نظمتها كلية الحقوق فى جامعة هارفارد، قال الإبراهيمى إن القادة المدنيين، ورغم ادعائهم بأنهم الأحق بتمثيل الشعب الأفغانى من لوردات الحرب، إلا أنهم كانوا بلا قواعد شعبية تدعم هذا الادعاء. «نعم. إنهم شرفاء ويريدون الخير لبلادهم. لكنك إذا قلت إنهم يمثلون الشعب فإن سؤالى هو: كيف؟ ولا تستطيع أن تقارن إن كان الآخرون أكثر تمثيلاً أم لا».

واقع الأمر أن لوردات الحرب لم يشاركوا فى مجلس القبائل «اللويا جيرجا» فحسب، بل احتلوا أيضًا مقاعد الصف الأمامى ولم يبالوا بما يجرى من أمور مهمة داخل جلسات الحكومة. لقد كانت نقطة تحول فى أفغانستان الجديدة. وقال منتقدو الإبراهيمى أن فرصة مواتية قد أهدرت. ورغم اعتقاد بعض الخبراء أن لوردات الحرب كان يجب استبعادهم من العملية السياسية، إلا أن من تحدثت إليه من هؤلاء ظن أن الإبراهيمى والولايات المتحدة، والأمم المتحدة، عملوا على تقوية لوردات الحرب فى وقت كان باستطاعتهم إضعافهم. ويرى فيكرام باريخ Vikram Parekh الباحث المقيم فى كابول لجماعة دولية لا تسعى للربح وتعمل فى مجال حل الأزمات، أن الإبراهيمى أخطأ فى عدم استعانته إلا بالقليل من خبرة أعضاء طاقمه الخاص الذين ربما أخبروه بأن بعض لوردات الحرب كانوا «نمورًا من ورق وتواجدهم غير ملحوظ». ويستعيد نادر نادرى وقائع حضوره انتخابات ما قبل مجلس القبائل فى مزار الشريف لاختيار مجموعة من اللجان الإقليمية باقتراع سرى بين مرشحين يبلغ عددهم ٦٠ من الوجهاء المحليين. كان الجنرال عبد الرشيد دوستم من بين المرشحين وهو أحد لوردات الحرب المرهوبى الجانب المشهور بقسوته، ولأول مرة كان طريقه إلى السلطة مشكوكا فيه. «عندما بدأ فرز الأصوات رأيت أن يديه ترتعشان. كان فى غاية التوتر وبدا وكأنه مهموم بالسؤال: ماذا سيحدث لو أنه خسر. لكنه لم يخسر». يرجع نادرى الأسباب إلى الحضور الواضح لمعاونى دوستم. لكن الأكثر إحباطًا لمعارضيه تمثل فى الشرعية التى منحت لمن هم على شاكلة دوستم عن طريق مجتمع دولى رآهم ليس كعلامات تتلاشى فى ماضى أفغانستان القبيح، بل كشركاء حاسمين فى تحديد مستقبلها.

يقول نادرى: «لقد غادر الجنرال دوستم خيمة مجلس القبائل كشخص مختلف. قبل بضعة أيام كانت خيمة مجلس القبائل كشخص مختلف. قبل بضعة أيام كانت يداه ترتجفان. ويغادر الخيمة الآن الشخص نفسه الذى كان فى عام ١٩٩٢. لقد نال شرف المجتمع الدولى والحكومة».

إن المشكلة فى رؤية الإبراهيمى تمثلت فى أن الاستقرار والعدل لا

.. لا عــــن المعجـــــــــــزات



ينفصمان. ولم يكن من المفاجئ أن لوردات الحرب أداروا وزاراتهم كما يدير القبضايات أعمالهم الخارجة عن القانون. لقد أدى تحصنهم السياسى والاقتصادى فى السلطة، جنباً إلى جنب مع فشلهم فى نزع السلاح، إلى استحالة قيام الحكومة المركزية بفرض سيادة القانون فى نطاق واسع على البلاد. ورغم طغيان الأنباء المأساوية عن التمرد وتعذيب السجناء فى العراق، يظل الوضع فى أفغانستان يتدهور بانتظام.

فى الواقع، ومع اقتراب نهاية رئاسته لبعثة الأمم المتحدة فى أفغانستان، بدا الإبراهيمى وكأنه أدرك عدم استطاعته ضمان أمن طويل المدى هناك إذا كان الذين يتولون المناصب الوزارية الرئيسية من المجرمين الذين يصعب تطبيق القانون عليهم. لقد قال لى مصدر دبلوماسى أن الإبراهيمى اقتنع بأن استمرار وجود لوردات الحرب سيقود أفغانستان إلى كارثة وبدأ يعطى اهتماماً أكبر لقضايا حقوق الإنسان. «لقد أعاد النظر فى أفكاره وأدرك أن العملية لن تنتهى بشكل جيد ما لم يتوفر شكل من دستور ونزع سلاح وسيادة قانون. وقبل مغادرته أفغانستان بوقت قصير، فى يناير من ذلك العام، ألقى الإبراهيمى خطاباً مثيراً بهذا المعنى أمام مجلس القبائل الدستورى.

بخلاف الدروس القريبة فى أفغانستان، جاء الإبراهيمى بمجموعة واضحة من القيم والخبرات المتميزة إزاء الموقف فى العراق. فهو، بداية، لديه ارتياب متأصل فى أى شىء يدعو إلى هيمنة استعمارية سواء باحتلال أمريكى صريح، أو بإدارة قبضتها قوية من الأمم المتحدة. هذا أمر منطقى فى ضوء معرفتنا بخبرته السياسية التى تشكلت داخل حركة استقلال الجزائر. لقد ولد الإبراهيمى عام ١٩٣٤ لأسرة ريفية ثرية جنوب الجزائر العاصمة، وكان طالباً فى باريس، خلال الخمسينيات، حيث شارك فى تأسيس اتحاد الطلبة الجزائريين وكان النواة التى ضمت الصفوة السياسية الجزائرية لعقود تالية لاستقلال الجزائر عام ١٩٦٢.

ما بين الستينيات والسبعينيات، عمل الإبراهيمى سفيراً للجزائر فى مصر أولاً، ثم لدى بريطانيا. وفى عام ١٩٨٩، وعندما كان أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية، فاوض من أجل عقد اتفاق الطائف «فى السعودية» الذى وضع نهاية للحرب الأهلية الطائفية فى لبنان. وكان إنجازاً ميزه كواحد من الدبلوماسيين الأصعب مراساً والأكبر تأثيراً فى العالم العربى، كما ميزه كواقعى على استعداد للتفاوض حتى مع الأشرار. بعد ذلك بسنوات يستعيد الإبراهيمى ذكريات ما جرى ويقول إن بعض رموز المجتمع المدنى اللبنانى وجهوا إليه اللوم لأنه كان يتفاوض مع الأشرار. وكان يجيب قائلاً: «لقد حضرت إلى لبنان لمقابلة هؤلاء الأشرار. الطيبون يعيشون هناك، فى باريس».

فى أعقاب الطائف ذاع صيت الإبراهيمى عالمياً، لكن صيته داخل الوطن، فى الجزائر، حيث عمل كوزير للخارجية بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٣، سرعان ما أصبح ملبداً بالغيوم. ومع فوز جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٢، فرضت جبهة التحرير الجزائرية الأحكام العرفية وشكلت لجنة أمنية من ستة أعضاء لإدارة البلاد كان الإبراهيمى أحد أعضاء هذه اللجنة ودافع عن شرعيتها بقوله إن جبهة الإنقاذ الإسلامية ما كان ينبغى منحها الشرعية.

عندما استقال الإبراهيمى من عمله كوزير

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

دُمى

ما أسعدك أيها الطفل الصغير
وأنت جالس فوق التراب
تلعب طوال الصباح بغصنٍ صغير
إنى أضحك من لهوك هذا بذلك
الغصن المكسور
أما أنا فمستغرق استغراقًا كاملاً
فى جمع أرقامى، ساعات وساعات
ربما رمقتنى مفكرًا ساخرًا قائلاً فى ذهنك
يا لها من لعبة غبية يضيع فيها الصباح
أيها الطفل، لقد نسيت فن اللعب
بأكوام الوَحل والعصيّ
إنى أبحث عن دُمى غالية
وأجمع أكوامًا من الذهب والفضة
وأنت تستطيع خلق ألعابك المفرحة
بكل ما يقع تحت يدك
أما أنا فإنى أبدد وقتى وقواى
فى سبيل أشياء لا أنجح أبدًا
فى الحصول عليها
وأجهد نفسى وزورقى البدائى الخفيف
لعبور بحر الشهوات وأنسى
أن زورقى هو الآخر

.. مجرد لعبة

يدرك الأخضر الإبراهيمى أن السلام والعدل قد يصعب تحقيقهما فى العراق ولعل هذا ما يجعل منه الرجل المناسب الذى تحتاجه البلاد

للخارجية تعاقدت معه الأمم المتحدة وأسندت إليه عبر سنوات متعاقبة مهام تسوية بعض أكبر الصراعات المتعثر تسويتها فى العالم، الأمر الذى حقق شهرته كمفاوض داهية لا يعرف الكلل. وفى وقت كانت الأمم المتحدة تعانى فيه من احتقار واسع النطاق بسبب عدم فاعليتها فى البوسنة ورواندا، حظى الإبراهيمى باحترام واسع نظراً لاستقلاليته وتعاملاته الصريحة. فى عام ٢٠٠٠ كلف برئاسة هيئة مستشارين لتقييم ماضى ومستقبل قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة. وقد اقترح الإبراهيمى فى تقرير كشفت عنه وثائق الهيئة فيما بعد، إجراء تغيير وتجديد شاملين لكافة عمليات قوات حفظ السلام. ودعت توصياته إلى تأسيس إدارة مركزية للمعلومات والتحليل، إنشاء قوة انتشار سريع لحفظ السلام، وإعادة النظر فى الموقف الحيادى للأمم المتحدة. وأكد واضعو التقرير أن عدم التحيز يجب أن لا يبلغ حد التآمر مع الشيطان.

تقرير الإبراهيمى، وحسب ما وصفه لى مسئول سابق فى الأمم المتحدة، كان بمثابة علامة مهمة بشأن دور عمليات حفظ السلام فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة: «لقد عكس التقرير مستوى عالياً من الطموح والتفاؤل إزاء ما يمكن للأمم المتحدة أن تقوم به فى المستقبل». لكن الوهن أصاب «توصيات» أكثر التقارير طموحاً ربما بسبب نقص فى الموارد أو الإدارة السياسية.

كيف يمكن للإبراهيمى أن يستفيد من خبراته فى أفغانستان، ومناطق أخرى، إزاء ما يواجهه من تحديات فى العراق؟ إن درس المدافعين عن حقوق الإنسان المستفاد من تجربة أفغانستان يلخصه سام ظيا ظريفى، كبير الباحثين فى «هيومان ريتس ووتش» لحقوق الإنسان فى كلمات قليلة: «إذا عولت على الأشرار: لوردات الحرب، القادة العسكريين، وحزب البعث، لضمان أمن قصير المدى للتعويض عن نقص مبكر فى موارد أو تخطيط من جانب الولايات المتحدة سيكون من الصعب جداً التخلص من هؤلاء الأشرار». ويبدو أن الإبراهيمى فهم هذا الدرس وحفظه عن ظهر قلب. لقد اقترح، فى إيجاز له أمام مجلس الأمن فى ٢٧ أبريل الماضى، حكومة انتقالية مؤلفة من تكنوقراط ومهنيين ليس لديهم طموحات سياسية أو انتخابية. وفى إطار هذه الخطة لن يكون للسياسيين وقادة الميليشيات أى دور سياسى، وهم الأطراف التى لها فاعلية على الأرض وقوة لتخريب السلام.

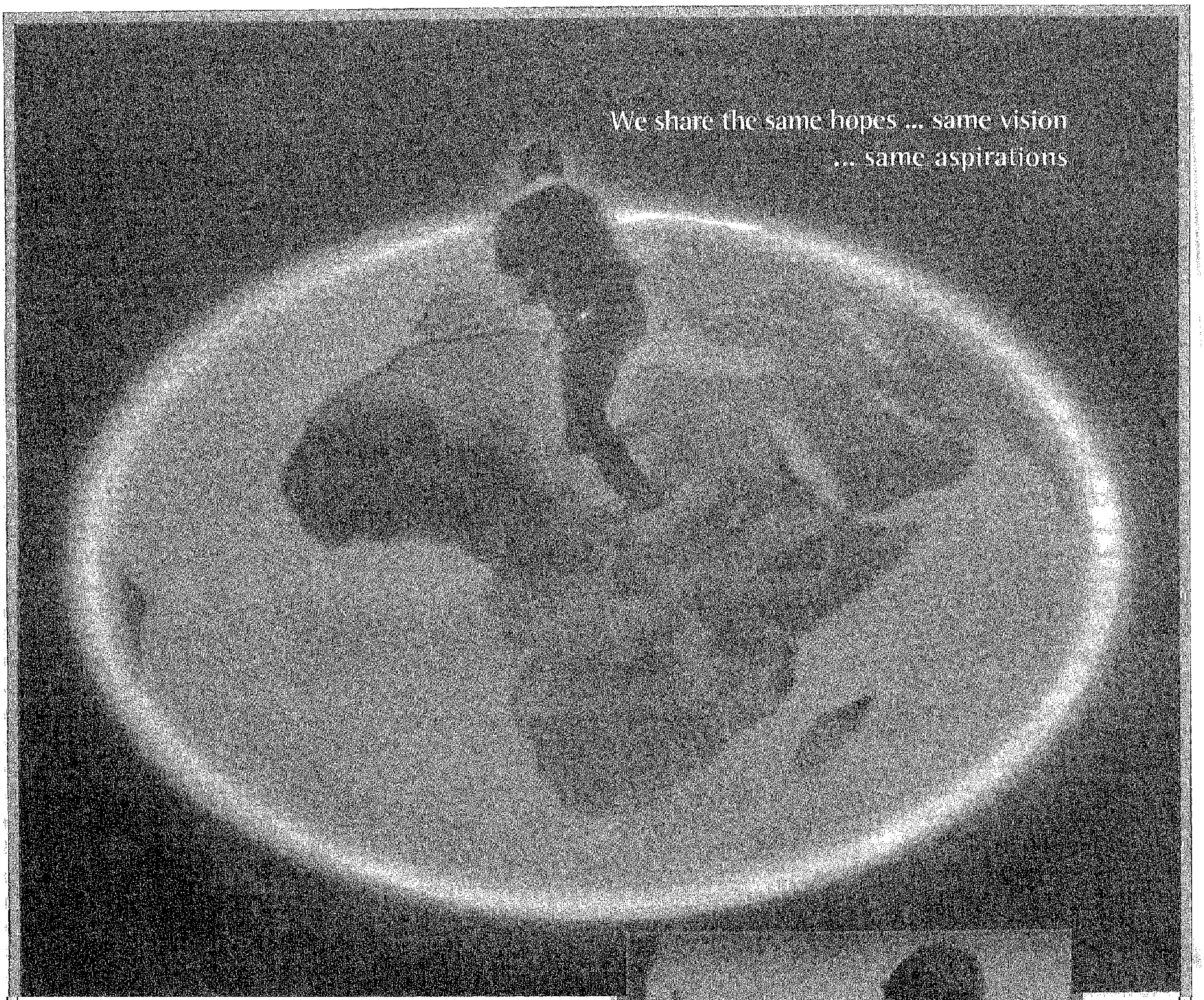
وقت كتابة هذا التقرير تتواتر أنباء عن معارضة الولايات المتحدة لهذه الخطة وممارستها للضغوط على الإبراهيمى لكى تشمل الحكومة الانتقالية أعضاء من مجلس الحكم الحالى. وسواء كسب الإبراهيمى هذه المعركة أم خسر، فإن خطته الأساسية تعكس إدراكه لمدى محدودية المهمة المكلف بها فى العراق. ويبدو أن رهانه الحالى يتمثل فى المعادلة التالية: كلما قل تظاهر الحكومة الانتقالية بأن مهمتها أكبر من كونها حكومة قصيرة المدى للوصول بالعراق إلى انتخابات وإنهاء الاحتلال، قل احتمال أن ترسخ نفسها أو أن تثير السخط الجماهيرى على عدم فاعليتها.

ريما يكون للإبراهيمى فرصة أفضل من غيره كى يفاوض من أجل سلام، حتى وإن كان غير كامل، بين قوات التحالف والميليشيات المسلحة للسنة والشيعة، أو ترتيب اقتسام السلطة بين كتل سياسية وأخرى عرقية فى العراق. لكن التوصل إلى حكومة عراقية مؤقتة مسلوبة السلطة تجعل الإبراهيمى يضع فى اعتباره ليس دروس أفغانستان فحسب، بل . وفى النهاية . ضآلة ما يمكنه عمله، ومحدودية المطلوب منه فعله، فى العراق. ■

الهوامش

(١) البراجماتى هو الشخص المؤمن بفلسفة الذرائع وبأن قيمة الأفكار وصدقها يقاس بالنتائج (معجم وبستر).

(٢) نسبة إلى الرئيس الأمريكى الراحل وودرو ولسن (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤) والذى كانت لديه رؤية مثالية لتغيير العالم من خلال دور أمريكى فعال ونشط فى هذا التغيير.


We share the same hopes ... same vision
... same aspirations



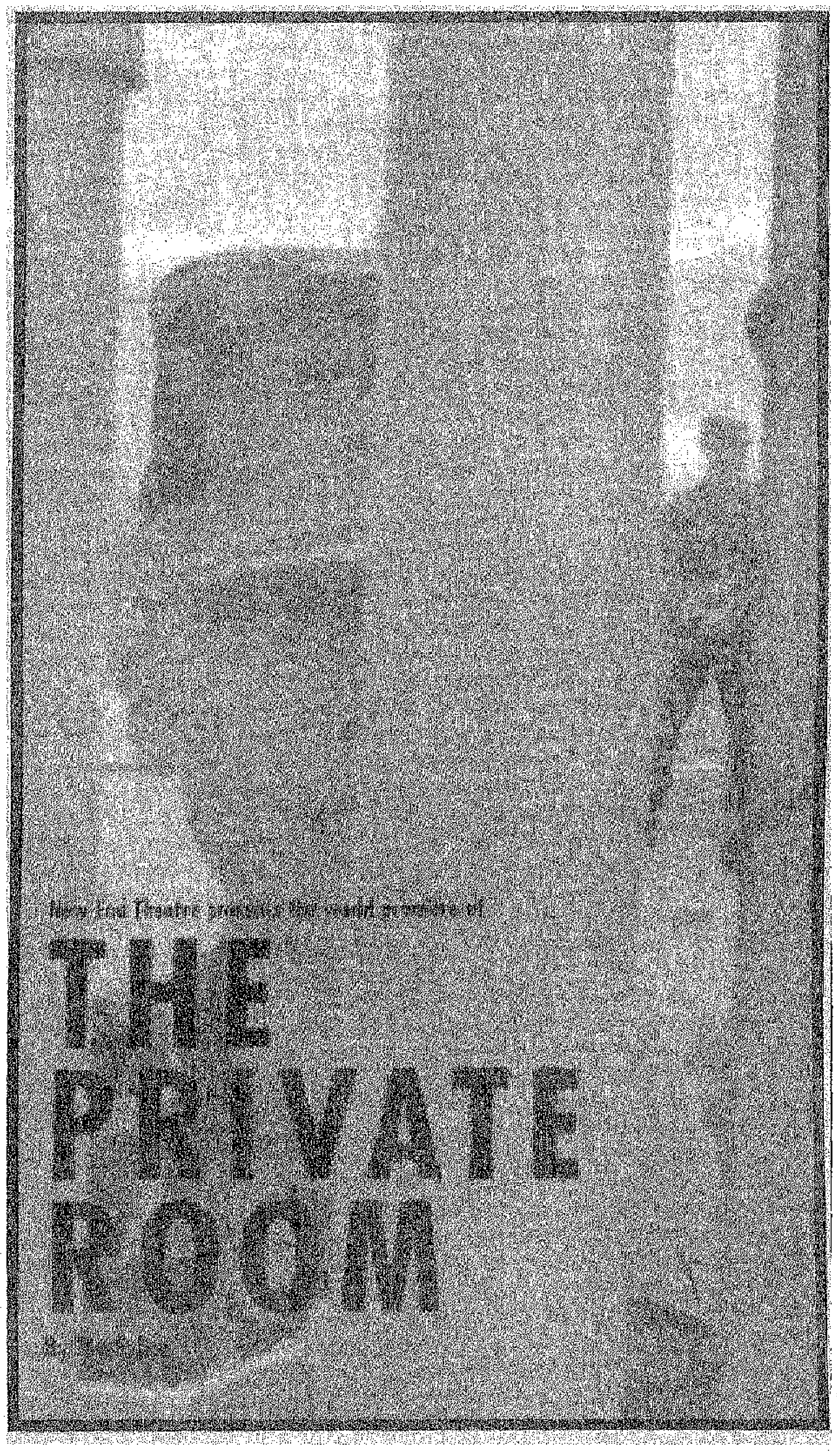
الاستجواب.. والتعذيب

مأساة «جوانتانامو»

صبري حافظ

■ تعرض الآن على المسرح الانجليزى مسرحيتان تحظيان باهتمام واسع، أدى إلى انتقال إحداها من المسرح الصغير الذى بدأت فيه إلى أحد مسارح «الويست إند»، حى المسارح الشهير فى لندن. لأنهما تتناولان موضوع معتقل «جوانتانامو» باعتباره وصمة عار فى جبين الحضارة الغربية فى مفتتح القرن الحادى والعشرين. وخطوة على طريق تراجع الإنسانية عما أنجزته من معايير وقوانين لحماية حقوق الإنسان وصيانة كرامته. والواقع أن أى تناول فنى أو درامى لهذا المعتقل الكابوسى يهم كل القراء فى كل بقاع الأرض، ولكنه يهم القارئ العربى والمصرى بشكل أساسى لسببين. أولهما أنه إذا كنا نحن العرب من ضحايا هذه الحرب البشعة التى شنتها أمريكا ضد ما تسميه «الإرهاب» ندرك بشاعة ما تمخضت عنه هذه الحرب، لأننا عانينا ولازلنا نعانى من تبعاتها الرهيبة فى فلسطين المحتلة والعراق المستباحة ظلما وعدوانا، فإن الرأى العام الأمريكى وقطاعا كبيرا من الرأى العام الأوروبى الذى أيد هذه الحرب، سرعان ما بدأ يشك فى قيمتها القانونية والسياسية والأخلاقية بعد كل ما تمخض عنه معتقل «جوانتانامو» من حقائق مقلقة للضمير الغربى، ومؤرقة للكثيرين من الذين يؤمنون بنزاهة الغرب ورقيه والتزامه بالحد الأدنى من العدالة والقانون، واحترامه لحقوق الإنسان. وثانيهما أن المسرحيتين مع تباينهما من حيث المنهج والموقف والاتجاه، واعتمادهما بنيتين مسرحيتين مختلفتين، فإن كلا منهما على حدة بادرت باتهام دولة عربية (مصر)!! بمشاركة الولايات المتحدة بالتغاضى عن حقوق الإنسان والمساعدة فى تعذيب المعتقلين، وهو الأمر الذى تتصنع الولايات المتحدة الترفع عنه. وهو اتهام غريب وبالغ الخطورة ويستدعى كثيراً من التساؤلات حول ملابساته وتوقيته. خاصة أنه يتردد فى المسرحية الأمريكية القادمة من وراء المحيط الأطلسى، بنفس القوة التى يتردد بها فى المسرحية الإنجليزية التى يعرضها أهم مسرح للدراما السياسية الوثائقية فى لندن، وهو «مسرح الترايسكل Tricycle Theatre». إذ تقول المسرحيتان أن مصر تقوم بالدور القذر الذى لا تريد أمريكا الاعتراف بالتدنى إلى حضيضه أو التلوث بأوحاله. وأن المعتقلين الذين يستعصون على المحققين الأمريكيين فى «جوانتانامو» يرسلون إلى دول عربية لاستنطاقهم بطرق الاستنطاق الجهنمية. وهو اتهام لو كان صحيحا، لألصق بنا عارا نحن فى غنى عنه، وإن كان غير صحيح فلابد من حملة إعلامية واسعة لتفنيد هذه الاتهامات القذرة ورفع الدعاوى على مروجيها. خاصة أننى قبل مشاهدة أى من المسرحيتين كنت قد شاهدت برنامجا إخباريا فى التليفزيون الانجليزى عن مواطن أسترالى من أصول مصرية يدعى «ممدوح حبيب» اتهمته الولايات المتحدة بأن له علاقة ما بتنظيم «القاعدة». وبدلا من أن تطلب من استراليا ترحيله إلى الولايات المتحدة لمحاكمته أو التحقيق معه، طلبت منها ترحيله لمصر التى عذب فيها حسب شهادة زوجته «مها حبيب» التى ظهرت فى هذا البرنامج، وأخبرتنا أن زوجها أصر على براءته من التهم الموجهة إليه، وأصر أكثر على تمسكه بجنسيته الاسترالية، ورفضه أن يعامل كمصرى، فاضطرت حكومة مصر إلى ترحيله إلى الولايات المتحدة، التى أرسلته بدورها إلى معتقل «جوانتانامو» الشهير.

وسرعان ما أخذت تداعيات هذه القضية فى التطور فى الإعلام البريطانى حتى نالت أصابع الاتهام فيها عددا لابأس به من البلاد العربية وغير العربية. لأن الصحافة البريطانية ـ وجزء كبير منها يملكه الصهاينة ـ مغرمة بكل ما يشوه سمعة العرب، وبكل ما يثير قراءها ضدهم، ويبرهن على ما يروجونه عن تخلفهم. وإذا كانت الصورة التى نتجت عن هذه الحملة الإعلامية التى لاتزال فصولها تتتابع فى الإعلام البريطانى والأوروبى تدين العرب وتشوه صورة مؤسساتهم الحاكمة، فإنها تكشف فى الوقت نفسه عن الوجه القبيح للعولمة، وهى عولمة السجن والتعذيب بإدارة أمريكية مركزية، وحوافز باهظة فى عدد كبير من السجون السرية التى يمارس فيها التعذيب بالنيابة عن أمريكا ووفقا لأوامرها. ويبدو أن ما بلغنا عن صور التعذيب التى تمارسها قوات الاحتلال الأمريكية فى سجن «أبوغريب» ما هو إلا



١. **The Private Room**
(الغرفة الخاصة)
mark lee
London: New End theatre,

٢. **Guantanamo: Honor Bound to Defend Freedom**
(جوانتانامو: ملتزماً بالشرف للدفاع عن الحرية)
Victoria Brittain and Gillian Slovo
London: Tricycle Theatre,

فى مسرحيتين بريطانيتين

فى الوقت الذى تتزايد فيه الضغوط الغربية مطالبة الدول العربية بالإصلاح، وتخصص فيه النيوزويك الأمريكية موضوعها الرئيس للتأكيد على أن مصر «يجب أن تصبح قاطرة الركب العربى على هذا الطريق..»، وفى الوقت الذى تتفاعل فيه - أمريكيًا - فضيحة سجن أبو غريب، تخرج إلى خشبة المسرح (بالمعنى الحقيقى لا المجازى) مسرحيتان «أمريكية وبريطانية» تتهمان مصر ودولاً عربية أخرى بالمشاركة فى عمليات استجواب و«تعذيب» معتقلين فى جوانتانامو. ويصبح لافتًا للانتباه أن الاتهام أو صداه كان قد وجد طريقه أيضًا إلى غير صحيفة أوروبية وأمريكية.

وفى هذا الزمن «العولمى»، والذى أصبحت فيه «حقوق الإنسان» بندًا ثابتًا على كل أجندة «ترغيبًا وترهيبًا»، قد لا تصبح سياسة «الأذن الصماء» ملائمة.

وجهات نظر

الجزء الظاهر من جبل الجليد العائم كما يقولون. وأن ما خفى كان أعظم! لأن شبكة السجون والتعذيب تمتد كالأخطبوط فى عدد من البلدان التى تحكمها حكومات حليفة أو عميلة للولايات المتحدة، منذ اندلاع ما يسمى بالحرب الأمريكية على «الإرهاب»، ومع امتدادها إلى مناحى المعمورة. فلا يقتصر الأمر على اتهام مصر وحدها فى هذا المجال، وإنما تمتد أصابع الاتهام إلى الأردن وسوريا والمغرب والسعودية وعمان وقطر وأذربيجان وتايلاند. وهى كلها بلاد إسلامية باستثناء تايلاند. وهو أمر مثير للمفارقة المؤسية، لأن أبرز عواقب ما يسمى بالحرب على «الإرهاب» هو تشويه صورة الإسلام والمسلمين فى الرأى العام الغربى. وها هى حفنة من البلدان الإسلامية تتعرض لتشويه أكبر بسبب تعاونها مع الولايات المتحدة فى هذه الحرب، وكسرها للقوانين الدولية من أجل إرضائها. بمعنى أننا فى موقف الخاسر دائما أبدا، سواء تحالفت حكوماتنا مع الولايات المتحدة أو عادتها. وهو أمر يحتاج منا إلى المزيد من التأمل والتدبر والعمل.

جولاج أمريكى رهيب

ليس بعيدا عن هذا ما فاجأتنا به أيضا جريدة الأوبزرفر البريطانية فى تحقيق صحفى لجاسون بيرك Jason Burke (عدد ١٣ يونيو ٢٠٠٤) عن أن هناك أكثر من ثلاثة آلاف مشتبه بهم معتقلين بلامحاكمة فى شبكة من السجون الأخطبوطية تشرف عليها الولايات المتحدة، ولكنها لاتقع تحت سلطة القانون الأمريكى، ويتعرض عدد كبير منهم للتعذيب. وأن عددا من هؤلاء قد اختفى فى هذه السجون دون أن يخلف وراءه أثرا. وأنه قد تم نقل بعضهم من سجن إلى آخر بمعرفة الشرطة السرية الأمريكية والشرطة العربية وبعض شرطات الشرق الأقصى، دون أن يخضع هذا النقل للقواعد الدولية والقانونية المتعلقة بتبادل المشتبه فيهم، وضمان حقوقهم القانونية التى ينظمها الانتربول. وكشف هذا التحقيق عن وجود «جولاج» أمريكى واسع - و«الجولاج» هو اسم اشتهر بعد أن نشر الكاتب الروسى الشهير الكسندر سولجينتسين عام ١٩٧٣ روايته الشهيرة (أرخبيل الجولاج) التى تناولت شبكة المعتقلات السياسية السرية فى الاتحاد السوفيتى - تمتد شبكته العنكبوتية فى مناطق كثيرة من كرتنا الأرضية. وليس تعبير الجولاج الأمريكى من ثمار خيالى، ولا هو استعارة أدبية راقتنى، ولكنه التعبير الذى وصف به سيدنى بلومنتال - أحد مستشارى الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون - هذه الظاهرة الأمريكية الجديدة. حينما قال «لقد خلق جورج بوش فى حقيقة الأمر جولاجا يمتد من سجون أفغانستان إلى العراق، ومن جوانتانامو إلى سجون وكالة المخابرات المركزية التى تنتشر فى كل أنحاء العالم». وهى ظاهرة خلق سجون أو مناطق يعلق فيها القانون الدولى، بل القانون الأمريكى ذاته، وتمنح فيها الشرائع والقوانين المتعارف عليها محليا ودوليا أجازة مفتوحة. وتتحول هذه المناطق إلى مجال تتجلى فيه أحط الممارسات الإنسانية من قهر وظلم وتعذيب.

وإذا كان معتقل «جوانتانامو» فى كوبا هو أشهر هذه السجون الأمريكية التى تسعى للتملص من قبضة القانون الأمريكى بدعوى أنها لاتقع فى الأرض الأمريكية ولا تنطبق عليها بالتالى قوانينها، فإن هناك أكثر من «جوانتانامو» لأنه إذا كان «جوانتانامو» هو فى حقيقة الأمر معتقل فى قاعدة عسكرية أمريكية خارج الأرض الأمريكية، فإن هناك عددا كبيرا من السجون المماثلة. سواء فى قاعدة دييجو غارسيا فى المحيط الهندى أو فى القاعدة الأمريكية فى قطر أو عمان. بل هناك عدد آخر من السجون السرية فى بعض سفن الأسطول الحربى الأمريكية فى المحيط الهندى. وقبل الإشارة إلى بقية شبكة هذا الجولاج العنكبوتى الرهيب علينا أن نعرف حقيقة سجن «جوانتانامو» هذا، لأنه أصبح النموذج الدال على ظاهرة واسعة وخطيرة ضمن جولاج العولمة الأمريكية. و«جوانتانامو» هى قاعدة من قواعد الأسطول الأمريكى تقع فى الركن الجنوبى لجزيرة كوبا، وتبعد عن مدينة ميامى بولاية فلوريدا الأمريكية التى يحكمها جيب شقيق «جورج بوش» حوالى أربعمائة ميل جوى. وهى أقدم القواعد الأمريكية فى أعالى البحار. أبرمت معاهدة استغلالها عام ١٩٠٣، واستأجرت الولايات المتحدة بمقتضاها خمسة وأربعين ميلا مربعا من الأرض، بشرط تزويد كوبا لها بالماء لتستعملها كمحطة لتموين سفن الأسطول بالفحم أيامها. ثم جددت المعاهدة عام ١٩٤٣ مانحة الولايات المتحدة حق استئجار القاعدة مقابل دفع إيجار سنوى مقداره ألفا دولار ذهبى (وهوما يعادل الآن أربعة آلاف دولار) ومانحة كوبا وشركاءها التجاريين حق حرية الملاحة فى خليج «جوانتانامو».

لكن هذه المعاهدة الجديدة اشترطت ضرورة موافقة كلا الطرفين على إنهاء عقد الإيجار، ونصت على أنه لايحق لأحد الطرفين إلغاؤه وحده. وهذا هو السر فى بقاء هذه القاعدة فى أيد أمريكية بالرغم من تغير النظام فى كوبا واستعار العداء بين البلدين لعشرات السنين. لكن فيديل كاسترو - الذى وجد نفسه مكتوف الأيدى بمعاهدة ١٩٤٣ - استغل فرصة تغريم الأسطول الأمريكى عددا من الصيادين الكوبيين لصيدهم فى الخليج، وقطع الماء والكهرباء عن القاعدة منذ ٦ فبراير عام ١٩٦٤. فما كان من الولايات المتحدة إلا أن بنت معملا رهيبا لتحلية مياه البحر - ينتج ثلاثة ملايين ونصف مليون جالون من الماء العذب يوميا - ومحطة توليد الكهرباء - تنتج ثمانمائة ألف كيلو وات فى الساعة - لتحقيق الاكتفاء الذاتى للقاعدة. ومنذ عام ١٩٩١ - أى فى عهد بوش الأب - تم توسيع القاعدة بسبب مرور أربعة وثلاثين ألفا من اللاجئين الهايتيين بها، وتوسيع «معسكر أشعة إكس» للاعتقال، وهو الاسم الرسمى لسجنها الرهيب كى يستوعب ما يزيد على ثلاثمائة معتقل فى السجن الانفرادى. وفى ٢٨ أبريل عام ٢٠٠٢ تم إنشاء سجن إضافى هو «معسكر دلتا» والذى يتكون من ٦١٢ وحدة سجن انفرادى تتكون كل منها من زنزانة مساحتها ٢,٤ × ١,٨ متر وارتفاعها متران، مصنوعة من إطار من الصلب وحوائط من شبكة مخرمة من الصلب، مما يجعل المحتجز مكشوفا لحراسه من جميع الجهات آناء الليل وأثناء النهار.

هذا التاريخ نفسه هو السر فى الموقف الملتبس لسجن «جوانتانامو» الشهير، لأنه بسبب أبدية عقد إيجاره يعد أرضا أمريكية من وجهة النظر العسكرية، تمتد عليها سلطات الرئيس الأمريكى الاستثنائية. إذ يمنح الدستور الأمريكى الرئيس المسئولية الأولى عن أحوال الاتحاد، ويخول له سلطات مطلقة لضمان أمن الولايات المتحدة فى أى ظروف قهرية غير متوقعة.

وهذا النص الدستورى هو ما

شبكة السجون والتعذيب تمتد كالأخطبوط فى عدد من البلدان التى تحكمها حكومات حليفة أو عميلة للولايات المتحدة، منذ اندلاع ما يسمى بالحرب الأمريكية على «الإرهاب»

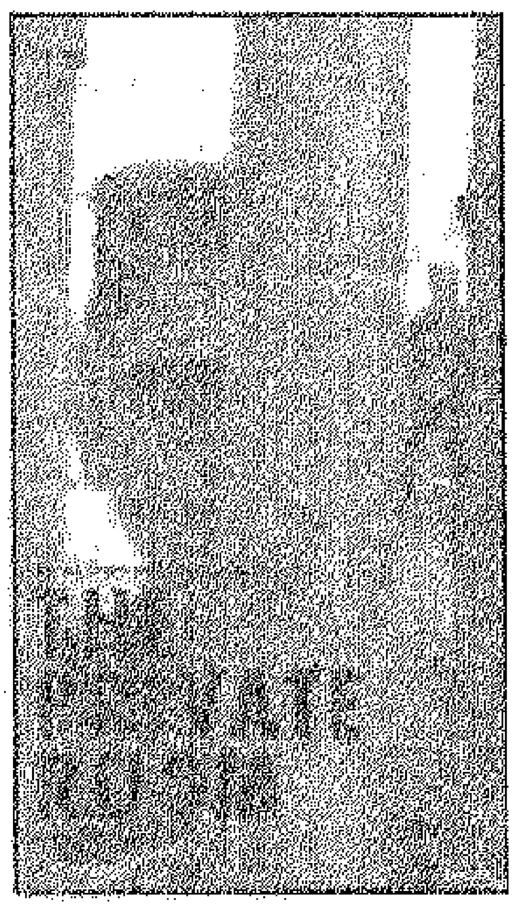
تعتمد عليه الإدارة الأمريكية فى تبرير ما يدور فى «جوانتانامو»، وما يضمن عبره وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» الذى طالب محامى وزارته بإعداد وثيقة قانونية تعتمد على هذا النص الدستورى، كى تضمن حرية موظفيه فى العمل، وتضعهم فوق القانون العادى وتحميهم من أى اتهام.

هذا من الناحية الدستورية، أما من الناحية الدولية فإن الإدارة الأمريكية تجد أن «جوانتانامو» يقدم لها تبريرا آخر بأنه ليس جزءا من الأراضى الأمريكية، وأن من تسميهم «مقاتلين معادين enemy combatants » لا أسرى حرب prisoners of war لاتنطبق عليهم قوانين أسرى الحرب الدولية ومعاهدات جنيف فى هذا المجال. وهذا ما يجعل ما يدور هناك من أكثر الأمور الملتبسة من الناحية القانونية، خاصة أن الإدارة الأمريكية تحرص على ربط المعتقلين فيه بما دار فى الحرب الأمريكية على أفغانستان، والتى لم تكن حربا بين جيشين نظاميين على عكس الحرب مع العراق. وهناك بالإضافة إلى هذه السجون الأمريكية عدد آخر من السجون فى البلدين اللذين احتلتهما أمريكا مؤخرا أثناء حربها على الإرهاب وهما أفغانستان والعراق. ففى أفغانستان هناك قاعدة «باجرام الجوية» والتى تقع شمال عاصمتها كابول وتعد أكبر هذه المعتقلات جميعا وأكثرها بشاعة. ناهيك عن مجموعة أخرى من السجون الأفغانية التى تستخدمها الحكومة لخدمة المصالح الأمريكية هناك. أما فى العراق، فحدث عنه ولا حرج. فبالإضافة إلى سجن «أبوغريب» الذى تقول آخر تقارير الصليب الأحمر الدولى أن به عشرة آلاف معتقل دون محاكمة ودون أن توجه لهم أى اتهامات، وأنه نموذج بشع للتعذيب فى جولاج السجون الأمريكية. هناك سجن مطار بغداد الدولى والذى تخصصه إدارة الاحتلال الأمريكى لمن تعترف لهم بحق «أسرى الحرب» مثل صدام حسين نفسه وقيادات نظامه الذين شكلوا أوراق «الكوتشينة» الشهيرة وعدد آخر من المعتقلين المهمين. وهناك أيضا عشرات السجون الأخرى فى مدن العراق المختلفة والتى تضم عشرات الآلاف من المعتقلين حسب أكثر التقديرات الغربية محافظة.

لكن كل هذه السجون التى تخضع للإشراف المباشر للأمريكيين ليست هى كل ما تنطوى عليه شبكة الجولاج الأخطبوطية. ربما لا يعنينا هذا كثيرا ولكن ما يجب أن نهتم بالرد عليه هو ما ذكره تحقيق الأوبزرفر عن أن هناك سجونا أخرى تحت أمرتهم فى بلد حليف. حيث أودعت الولايات المتحدة عشرات من معتقليها فى سجن الاستجواب الشهير فى «تمارا» الذى يقع خارج العاصمة المغربية الرباط. والذى أودعت فيه العديد من الذين قبضت عليهم السلطات الباكستانية، وسلمتهم للأمريكيين. ومن بينهم «عبدالله تبارك» المعتقل منذ عام ٢٠٠١ والذى يشتبه فى أنه كان أحد حراس «أسامة بن لادن» الشخصيين. وقد قبض عليه الباكستانيون، وسلموه للأمريكيين الذين نقلوه إلى «باجرام» ثم إلى «جوانتانامو» وأخيرا انتهى به المطاف فى «تمارا». أما فى سوريا فإن المعتقلين الذين ترسلهم لها الولايات المتحدة يرسلون إلى الجناح الفلسطينى فى إدارة الأمن العام السورية، أو إلى سجن «السادنية» بدمشق. وهذا هو الحال بالنسبة لمصر التى يحاول الاعلام هناك الترويج بإلحاح أنها تلقت عددا كبيرا من المقبوض عليهم، وتم نقلهم فى طائرات خاصة تابعة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأنهم يرسلون إما إلى إدارة المباحث العامة فى لاظوغلى أو إلى ملحق سجن مزرعة طرة السياسى الشهير. كما استخدمت الولايات المتحدة سجون عمان فى الأردن أو سجونا أصغر فى البادية إلى الشرق من العاصمة الأردنية. وقد أرسلت الولايات المتحدة آخرين إلى «باكو» فى أذربيجان، وإلى أماكن مجهولة أخرى فى تايلاند. وهناك العشرات الذين يعتقد أنهم معتقلون فى القاعدة العسكرية الأمريكية فى قطر، وآخرون فى المملكة العربية السعودية التى يعتقد أن ممثلى وكالة المخابرات الأمريكية يسمح لهم بحضور عمليات الاستجواب بها. وفى جل الحالات الأخرى فإن مسئولى الأمن فى هذه البلدان يزودون الولايات المتحدة بملخصات لعملية الاستنطاق، وما يدلى به المعتقلون تحت التعذيب من أقوال.

لكن ما أفزع محرر جريدة «الأوبزيرفر» هو أن بعض المشتبه بهم، والذين انتهى بهم الأمر إلى هذه السجون الرهيبة مواطنون بريطانيون تم نقلهم بناء على رغبة أمريكية إلى بلد ثالث، كى يمكن تعذيبهم واستنطاقهم بالعنف والوحشية. وأن ما يسفر عنه هذا الاستنطاق ينقل إلى الولايات المتحدة، وأحيانا وليس دائما إلى أجهزة المخابرات البريطانية. وكشف أحد مسئولى المخابرات المركزية فى هذا التحقيق عن أن عددا من الذين تفرج عنهم المحكمة، إما فى بريطانيا أو حتى فى الولايات المتحدة، يرسلون إلى بلد ثالث، إذا ما اعتقد المحققون الأمريكيون أن «المعاملة القاسية» المحظورة فى الولايات المتحدة يمكن أن تأتى بالنتائج التى يرجونها بمثل هذا الأسلوب فى الاستنطاق. وسرعان ما أدركت أن قصة «ممدوح حبيب» ما هى إلا واحدة من عشرات القصص المشابهة. فقد كان حظه أفضل من حظ عربى آخر هو السورى «ماهر عرار» وهو كندى من أصل سورى اعتقلته السلطات الأمريكية عام ٢٠٠٢ أثناء مروره بنيويورك للاشتباه فى قيامه بأعمال إرهابية. وبعد عدة أيام من الاستجواب تم نقله إلى الأردن حيث أودعه الأمريكيون فى أيدى سلطات الأمن التى اعتدت عليه أكثر من مرة، قبل نقله برا إلى سوريا، حيث أمضى عدة شهور فى الحبس الانفرادى والتعذيب، قبل أن يفرج عنه بعدما اكتشفت الولايات المتحدة أنها اعتقلته بالخطأ. وكانت الكلمة التى أثارت اشمئزاز كل من كتب حول هذا الموضوع، بما فى ذلك المسرحيتان اللتان تناولتاه هى كلمة render أو rendition التى تعنى الضغط عليهم حتى تذوب إرادتهم، أو تتحلل شخصيتهم ذاتها. لأن الكلمة تعنى تسييح الدهون أو تذويبها، أو هى أقرب إلى الكلمة العامية «توضيب» وأمثالها من الممارسات التى كانوا يتهمون بها النظم الشمولية من قبل. والتى ترعى أمريكا الآن ممارستها فى أكثر من عشر دول على امتداد الخريطة.

مأساة جوانتانامو



إننا بإزاء مسرحية مقلقة بحق، وقادرة على طرح عدد من الأسئلة الحرجة عن جوهر القيم التى ينهض عليها المجتمع الأمريكى نفسه

الغرفة الخاصة

هذه المقدمة التى طالت قليلا هى أمر ضرورى للكشف عن طبيعة السياق الذى كتبت فيه المسرحيتان. وللكشف عن سبب القلق الأخلاقى والسياسى الذى يسرى فيهما. فإذا بدأنا بالمسرحية الأولى، وهى مسرحية (الغرفة الخاصة The Private Room) التى تعرض الآن على مسرح «نيو إند New End Theatre» فى هامبستد، وهى مسرحية أمريكية كتبها مارك لى Mark Lee وأضطر إلى أن يجىء بها للعرض فى لندن بعد أن استحال عليه عرضها فى الولايات المتحدة الأمريكية، ورفضها ثمانية عشر مسرحا أمريكيا، الواحد تلو الآخر، سنجد أننا بإزاء مسرحية مقلقة بحق، وقادرة على طرح عدد من الأسئلة الحرجة عن جوهر القيم التى ينهض عليها المجتمع الأمريكى نفسه. وقبل الحديث عن أسباب رفضها علينا أولا أن نتعرف على المسرحية وكاتبها الذى يكتب المسرح منذ ما يقرب من عشرين عاما، وقدمت له العديد من المسرحيات، فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة. فقد عرضت مسرحيته الأولى (قتال الكلاب فى كاليفورنيا) على المسرح الأمريكى فى كل من نيويورك ولوس أنجلوس، ثم جاء بها إلى لندن لتعرض على مسرح «بوش Bush Theatre» عام ١٩٨٥. ثم تتابعت بعدها مسرحياته، وكان من أشهرها (القراصنة Pirates) و(قصة حب أمريكية An American Romance) و(مدينة القرن Century City) و(جيوش المتمردين تتوغل فى تشاد Rebel Armies Deep into Chad). فهو كاتب يهتم بالسياسة، وسبق له أن غطى عددا من

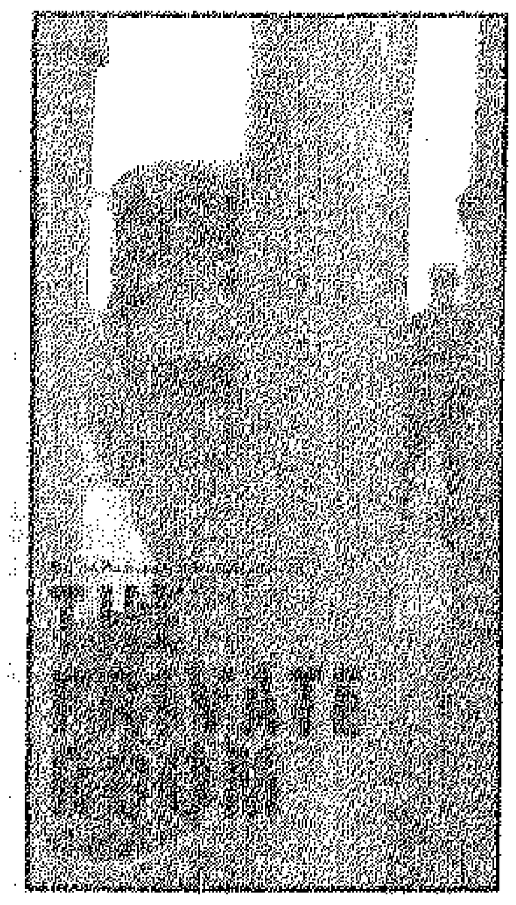
للحروب أو الورطات الأمريكية فى أفريقيا، وكتب بالإضافة إلى المسرح روايتين، كما أنه نائب رئيس نادى القلم الأمريكى.

مستهل المسرحية مشهد صامت أقرب ما يكون إلى عرض البانتومايم يضع المسرحية كلها فى قبضة هذا المشهد الكابوسى من البداية، ويلفها بقدر من الغموض. وهو مشهد معتقل «جوانتانامو» بزى المعتقلين البرتقالى الشهير فيه، معتقل مكبل بالسلاسل يؤدى الصلاة. ثم تنتقل بعد هذا المشهد الاستهلالى إلى أحداث الفصل الأول التى تقع فى نيويورك، وتشكل مفارقة صارخة مع المشهد الأول أن ثنائية نقيضة له. ويدور هذا المشهد لمرارة المفارقة فى الحى الذى اندلعت منه الأحداث التى أدت إلى حرب «جورج بوش» الابن على ما يسميه «الإرهاب»، حى «وول ستريت»، حى المال والتجارة الذى كانت تشرف عليه بناية برجى التجارة العالمية اللذين تفجرا فى الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ عندما اصطدمت بهما طائرتان من طائرات الركاب الضخمة.

تبدأ المسرحية فى «الغرفة الخاصة» وهى غرفة العنوان، بأحد مطاعم هذا الحى الفخمة الذى نعرف أن زوجين أسساه بعناية ومثابرة، ووصلا به إلى حد أن أصبح أحد أشهر المطاعم التى يتردد عليها كبار السماسرة فى هذا الحى. فالمطعم نفسه نموذج للمشروع الأمريكى الخاص، والغرفة الخاصة، وهى غرفة بالمطعم تحجز لكى تتناول فيها مجموعة صغيرة وجبة عمل يناقشون خلالها صفقات معينة فى حميمية توفرها هذه الغرفة الخاصة، نموذج أيضا لغذاءات العمل الشهيرة التى تعقد فيها الصفقات، وتسير فيها أمور البورصة. حيث يدعو كل من «لورانس» وهو شاب طموح صعد بسرعة فى سلك السمسرة فى بورصة «وول ستريت» حتى أصبح من كبار السماسرة، وزميله أو مساعده «تومى»، إحدى السكرتيرات وهى «باربرا» لرشوتها، أو بالأحرى لشراء صمتها على ما اكتشفته من تزوير ضرورى فى إحدى الصفقات. وتجىء «باربرا» إلى المطعم، وتكشف لهم ليس فقط عن معرفتها بما اقترفاه من مخالفات قانونية لتمرير الصفقة فحسب، ولكن أيضا عن احتفاظها بصور من كل المستندات التى تسجل هذه المخالفات وتدينهما، وربما تقضى على مستقبلهما المرموق، وما يصاحبه من دخل كبير يصل إلى أكثر من ربع مليون دولار فى السنة. وحينما يهددانها، تسخر من تهديدهما الفارغ، وتتكشف عن صلابة نادرة تزرى بكل شراسة السماسرة.

فهى الأخرى نموذج للفتاة الأمريكية الجديدة التى تقتنص الفرص من أجل

مأساة جوانتانامو



تنجح «باربرا» بالفعل فى كسر طوق الصمت الذى ضربه «سلمان» حول نفسه من خلال استخدام تقنيات التحقيق النفسية، ومن خلال التهديد والوعيد

الصعود السريع. وسبق لها أن عانت من الاضطهاد ولكنها عرفت كيف تصعد وتصل إلى غايتها، وهى وإن كانت مجرد سكرتيرة ناشئة ذات مرتب تافه، إلا أنها تدرك أن لديها الإمكانيات التى تجعلها سمسارة تكسب آلاف الدولارات فى اليوم الواحد. وها هى الفرصة قد جاءتها ساعية، ولذلك فلن تفوتها أبدا. وهى فضلا عن هذا كله قد انضمت إلى الجيش الاحتياطى، وتدربت على القتال الشرس، وتمارس هذه الشراسة فى حياتها اليومية بعيدا عن الجيش، كى تصعد سلم النجاح الأمريكى قفزا. وتفاوضهما بحنكة سمسار عريق، حيث تطلب أن يسعى «لورانس» لتعيينها سمسارة فى البورصة مقابل سكوتها عن مخالفاته، وأن هذا هو الثمن الوحيد الذى يوقفها عن تسليم ما لديها من مستندات للسلطات. ولايجد السمساران المحنكان مناصا من التسليم بكل شروطها، والرضوخ لكل مطالبها. ويكشف لنا هذا القسم الأول من المسرحية عن مدى استشراء الفساد فى بنية المؤسسة المالية الأمريكية، وعن طموح الشخصيات الأعمى للنجاح السريع، ورغبتها جميعا فى دفع ثمن هذا النجاح السريع من تخل عن القيم، أو مخالفة للقوانين، شريطة أن يدفع كل منهم ثمن التغطية على هذه المخالفات. وأن يحافظ كل بأنانية مطلقة على مصالحه، ومكاسبه التى تتنامى يوما بعد يوم. فنحن فى عالم سعار الأرقام المحمومة، والمكاسب الضخمة التى يمكن أن تتحقق بين عشية وضحاها. ولا تكتفى المسرحية بهذا الجانب العملى من حياة شخصياتها الثلاث، ولكنها تمزجه باستمرار بالجانب الشخصى، حيث نتعرف على حياة «لورانس» الأسرية، وعلى نمط العلاقات المادية بينه وبين زوجته الحريصة على تحقيق كل علامات النجاح فى مثل هذا المجتمع الوالغ فى سعار الاستهلاك والأنانية الفردية والخداع، بما فى ذلك الخيانة الزوجية بالطبع.

ثم ينتقل بنا الفصل الثانى إلى معسكر «جوانتانامو» حيث تم استدعاء «باربرا» للخدمة العسكرية، وأرسلت إلى معتقل «جوانتانامو» للتحقيق مع المعتقلين. وفى «غرفة خاصة» أخرى هى غرفة الاستجواب هذه المرة، وفق الشروط التى وفرتها المؤسسة العسكرية للمحققين كما بينّا من قبل، يعهد إليها بالتحقيق مع «سلمان بشير» وهو شاب باكستانى فى مثل عمرها أعتقلته السلطات الباكستانية بعدما عبر الحدود الأفغانية، وسلمته للجيش الأمريكى، الذى عثر معه على بعض أقراص الكومبيوتر، التى أصبحت دليل إدانته. وسرعان ما نقله الجيش الأمريكى إلى معتقل «جوانتانامو» لاستجوابه، ولكنه يعد من الحالات الصعبة لأنه أصر على الالتزام باتفاقية جينيف، ولم يقدم سوى اسمه، واعتصم بالصمت، ورفض الإجابة على أى من الأسئلة التى وجهها له المحققون. ويعهد «جون» قائد الوحدة التى تعمل بها «باربرا» إليها بالتحقيق معه، لأنه يعتقد، حسب فهمه للإسلام، أن المرأة تستطيع أن تكسر إرادته أكثر من أى رجل. حيث يشعر «سلمان بشير» أمامها بالخجل والهوان كمسلم، هكذا يقول لنا. ويبدأ التحقيق الذى يتكون من عشرين سؤالا على «باربرا» أن تحصل منه على إجاباتها الواحد بعد الآخر. وتنجح «باربرا» بالفعل فى كسر طوق الصمت الذى ضربه «سلمان» حول نفسه من خلال استخدام تقنيات التحقيق النفسية، ومن خلال التهديد والوعيد. التهديد بأنها إن أخفقت فى مهمتها فسوف يرسله رئيسها إلى مصر كى ينتزعوا منه اعترافا بما ارتكب وبما لم يرتكب، وبكل ما يريدونه أن يعترف به، مهما كانت براءته. هكذا تقول لنا المسرحية. والوعيد بعدد من الحيل والرشوات البسيطة مثل إتاحة الفرصة له لأن يكتب خطابا لأمه. أو استثارة حنينه إلى أهله، وشفقته على ما يعانونه من حيرة لعدم معرفتهم أى أخبار عنه من اعتقاله قبل وقت طويل.

ونعرف من خلال هذا التحقيق الذى يكشف لنا عن شخصية «سلمان» بقدر ما يكشف عن الإنسان الكامن فى «باربرا» ومدى ما تعانيه من وحدة ويتم، أنه برىء من كل ما ينسب إليه. فكل ذنبه أنه إنسان طموح، سبق له أن سافر إلى بريطانيا عندما استدعاه عمه المقيم فيها منذ سنوات طويلة، ومناه بالدراسة بها. وبالفعل ذهب والتحق بأحد معاهد الكومبيوتر لدراسة البرمجة، ولكنه اكتشف أن السر فى دعوة عمه له أنه يريده زوجا لابنته التى لم ينسجم معها، ومعاونا يساعده فى إدارة الدكان الذى يملكه فى الحى الذى يعيش به. وهو الأمر الذى ينفر منه «سلمان»، لأن كل ما يهمه هو دراسة الكومبيوتر، والاهتمام بأمور دينه. لذلك يقرر العودة من جديد إلى باكستان، حيث يعمل فى أحد مكاتب الكومبيوتر، ويرشحه صاحب المكتب لإصلاح كومبيوتر فسد مخزن المعلومات hard disk به فى أفغانستان. ولكنه قبل أن يصل إلى هدفه، تم القبض عليه، ولم يكن معه سوى أقراص البرامج الخاصة بإصلاح «مخزن المعلومات». لأن الجيش الأمريكى يشك فى أنه ذاهب لإصلاح أحد كومبيوترات «القاعدة»، وهو لايعرف شيئا عن القاعدة، ولا عن الكومبيوتر الذى أرسل لإصلاحه، ولم يصل حتى إليه. والواقع أن فصل التحقيق هذا من أكثر فصول المسرحية درامية وثراء، لأنه يكشف لنا عن المشترك الإنسانى بين كل من «سلمان» و«باربرا»، وانجذاب أحدهما الحذر للآخر، برغم وعى كل منهما بالسدود الفاصلة بينهما، بقدر ما يكشف لنا عن المختلف بينهما ثقافيا ونفسيا. ويلمس هذا الفصل مسألة التأثير المزدوج

لعملية الاستجواب، لأنها وإن كانت تؤثر سلبيا على المستجوب، بفتح الواو، وتستهدف كسر إرادته، فإنها تؤثر كذلك على المستجوب، بكسر الواو، وتدفعه للمقارنة الدائمة بين موقفه وموقف خصمه، وماذا يكون رد فعله لو انقلب الوضع. خاصة أن «سلمان» وثق في «باربرا» وصدق كل وعودها، ووضعها هذا التصديق في امتحان صعب.

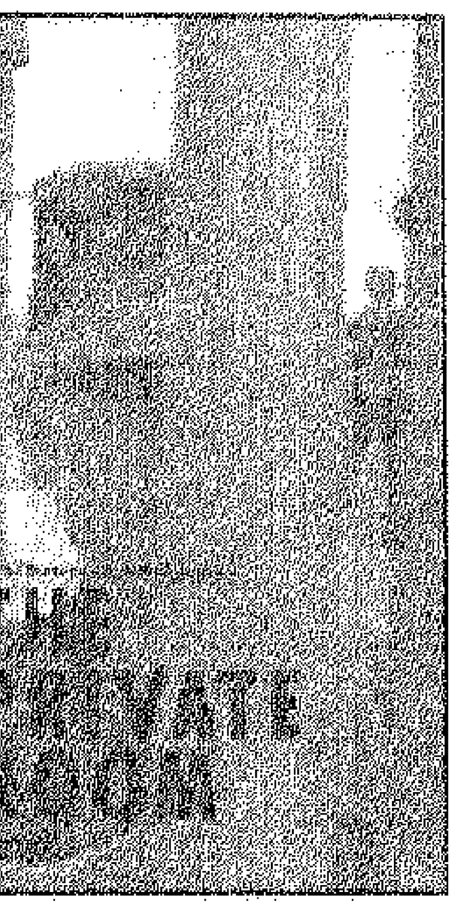
لأن المؤسسة العسكرية التى تعمل «باربرا» فيها لم تثق فيها ولم تحترم وعودها لها. ومن هنا تكتشف «باربرا» حقيقة الخواء الأخلاقى الذى يعشش فى قلب المؤسسة العسكرية الأمريكية، لأن الطريقة التى تتعامل بها المؤسسة العسكرية معه، بعد أن ائتمن «باربرا» على أسراره، تقوم على الغش والخداع. وتدفع «باربرا» إلى فقدان الثقة فى المؤسسة، وإعادة التفكير فى كل شىء فى حياتها العملية والشخصية على السواء. وفى كل ما مارسته من غش وخداع من أجل تحقيق مكاسب شخصية صغيرة، بينما يتحمل «سلمان» الإهانات والعذاب دون أن يقدم أى تنازلات يمكنها أن تضر بالآخرين. ألم تغض الطرف عن خداع «لورانس» الذى أضر برئيسها بينما أتاح لها ذلك أن تحقق المكاسب لنفسها وتترقى؟ ومن خلال المواجهة بين الإيثار والأثرة التى يمارسها «سلمان»، تشعر بالقلق والاضطراب. فهذا الفصل هو فى الوقت نفسه فصل التحول فى العمل الدرامى، وفصل الاستقطاب بين القيم والمواقف بالصورة التى تخرج منها القوة الغاشمة مهزومة أخلاقيا برغم انتصارها المادى. ويعلل رئيسها «جون» ما انتابها من قلق بأنها قد اقتربت بشكل أكثر من اللازم من المعتقل، وهذا ما يجعلها تنسى أنه فى نهاية الأمر عدو، وليس إنسانا مثلهما. لكنه هو لم ينس ذلك، وقد قرر أن يرسل «سلمان» - برغم نجاحها فى الحصول على أجوبة لكل الأسئلة العشرين التى طلب منها الحصول على أجوبة عليها - إلى مصر للتحقيق معه هناك بأسلوب مغاير. وهو القرار الذى يشكل صدمة الإفاقة بالنسبة لها.

ولذلك ما إن تراها فى الفصل الثالث وقد جاءت إلى موعد جديد مع نفس سمسارى الفصل الأول وفى نفس غرفة المطعم الخاصة، فى بنية دائرية تعود فيها الأحداث إلى متابعة ما جرى فى الفصل الأول، حتى تدرك فداحة هذه الصدمة. فبعد أن أمضت عاما كاملا فى الخدمة العسكرية، وعادت من جديد إلى عملها السابق محاطة بهالة من المجد الزائف والغار، حتى نكتشف أننا بإزاء «باربرا» جديدة. دفعتها تجربة العمل فى «جوانتانامو» ورؤية أخطاء المؤسسة العسكرية من الداخل إلى طرح الأسئلة التى لا تطرح، وإلى الشك فى المسلمات الشائعة التى تنهض عليها القناعات الأمريكية الثابتة. وقبل وصولها ندرك مدى تدهور أحوال «لورانس» الاجتماعية بعد أن انفصلت عنه زوجته التى عثرت على قطعة ملابس داخلية لإحدى عشيقاته فى سيارته، فطلبت الطلاق منه. وحصلت على البيت والأولاد والمدخرات. وتركت له الديون وحدها. لدرجة أن صاحبة المطعم تهدده إن لم يسدد ما عليه من ديون بلغت عدة آلاف من الدولارات، بأن تسلط عليه مساعديها وعمالها. ويحاول تخفيف حدة غضبها عليه، بأنه ينتظر واحدة من الأبطال الذين حاربوا ضد «الإرهاب». وأن هذا شرف لمطعمها. وهو أمر توافق عليه، بل يسعدها. وما أن تصل «باربرا» وتعرف صاحبة المطعم أنها شاركت فى الحرب على «الإرهاب»، حتى تفتح زجاجة «شمبانيا» على حساب المطعم على شرفها، وهى التى رفضت قبل لحظات أن تقدم لـ«لورانس» زجاجة بيرة.

لكن المفاجأة أن «باربرا» ترفض عقب وصولها أى مزاعم للبطولة. لأن كل ما قامت به خلال عملها هو النقيض الكامل للبطولة، وينهض على الخسة والدناءة وإهانة الآخر، والتعذيب النفسى والخداع. وتكشف لزميليها، وصاحبة المطعم معا، شيئا من أساليب التعذيب النفسى الجهنمية لإثبات تفوق الأمريكى على أعدائه، وسيطرته الكلية عليه، وإصابة المعتقل بالخلل أو الخبال. ويتحدث معها زميلاها اللذان يعانيان من الحيرة فى تفسير سبب طلبها مقابلتهما عن مستقبلها فى الشركة، وكيف يمكن أن تطلب الترقى إلى وظيفة أعلى، وإن كانت أدنى قليلا من وظيفة «لورانس». ولكنها تخبر الزميلين أن رئيس الشركة عرض عليها فعلا وظيفة «لورانس» التى يصل دخلها إلى ربع مليون دولار فى السنة، ولكنها طلبت منه أن يعطيها مهلة للتفكير. فيصابان بالدهشة وعدم الفهم، لأن الأمر فى نظرهما لايحتاج لأى تفكير أمام فرصة كهذه لا تأتى إلا مرة واحدة فى العمر كما يقول «تومى». وقد طلبت لقاءهما ذلك، لتخبرهما أنها لن تقبل هذه الوظيفة. لأنها قررت أن تكشف كل ماقاموا به من خداع وتزوير فى الماضى، وتسلم كل ما لديها من أوراق لمكتب التحقيقات الفيدرالى. فيقع عليهما هذا القرار وقع الصاعقة. ويحاولان إثناءها عنه، لأنها ستضار هى الأخرى منه قبلهما. فتخبرهما بأنها تدرك ذلك، ولكن قرارها نهائى ولارجعة فيه، وتغادر «الغرفة الخاصة» وقد تركتهما فى ورطة كما تركت «سلمان بشير» فى زنزانته فى «جوانتانامو» ولم تستطع مساعدته.

وكل ما يمكن الخلوص إليه من هذه النهاية أن مثالية «سلمان» وصموده وحرصه على ألا يخون مبادئه قد دفعتها لطرح الأسئلة المقلقة على نفسها عن ممارساتها السابقة واللاحقة على السواء. وقد شاهدت هذه المسرحية فى

مأساة جوانتانامو



تكتشف «باربرا» حقيقة الخواء الأخلاقى الذى يعشش فى قلب المؤسسة العسكرية الأمريكية، لأن الطريقة التى تتعامل مع سلمان بعد أن ائتمن «باربرا» على أسراره، تقوم على الغش والخداع

عرض خاص نظمه نادى القلم الدولى، وتحدثت مع المؤلف الذى أكد لى أن كل المسارح التى عرضها عليها رفضتها لأسباب سياسية، واعتبرت أنها تسىء إلى المشاعر الأمريكية، وتنتقص من صورة الجيش الأمريكى وبطولاته. لأن رفض «باربرا» للزعم بأنها قامت بأى بطولة يشكل صدمة للجمهور الأمريكى الذى ارتفعت حدة شوفينيته فى السنوات الأخيرة. ويعامل أبطال «الحرب على الإرهاب» بشىء من التقديس. وأن تشكيك المسرحية فى أخلاقية الحرب الأمريكية الراهنة سيدفع الجمهور إلى الثورة على المسرح الذى يقدم مثل هذه المسرحية، والتخلى عن دعمه له. صحيح أنه ليس ثمة رقابة فى الولايات المتحدة تمنع المسرحيات من العرض، ولكن «مارك لى» مؤلف المسرحية كشف لى أن معظم المسارح الصغيرة تعيش على ما يدعوه بالتذاكر السنوية التى يشترى فيها المشاهد تذاكر موسمية بأثمان كبيرة تتيح له مشاهدة كل عروض الموسم، وتتيح للمسرح الأموال التى ينفق منها مقدما على إعداد عروضه. فإذا ما كان بها عرض من هذا النوع فإن أصحاب التذاكر السنوية سيردون تذاكرهم للمسرح غضبا، مما يؤدى إلى إغلاقه بسحب الأموال التى تمكنه من الإنفاق على هذه العروض. وحينما قلت له أن هذا يشكل نوعا جهنميا من الرقابة غير تلك التى تعانى منها المسارح فى البلدان غير الديموقراطية، وافقنى على هذا الرأى، وأكد أن هذا النوع هو أسوأ أنواع الرقابة، لأنه يمكن الجمهور، أو بالأحرى الشريحة الثرية منه، من فرض رقابتها ورؤيتها السياسية المتخلفة على المسرح.

جوانتانامو: لاشرف ولاحرية

والواقع أننى تعجبت كثيرا من هذا الموقف، وفى بلد يدعى أنه بلد الحريات، لأن نقد المسرحية للمؤسسة الأمريكية شديد الرقة، يثير الأسئلة أكثر مما يوجه الاتهامات. خاصة إذا ما قورن بالنقد الجارح الذى تنطوى عليه المسرحية الانجليزية (جوانتانامو: ملتزما بالشرف دفاعا عن الحرية Guantanamo: Honor Bound to Defend Freedom) التى كتبتها فيكتوريا بريتين وجيليان سلوفو Victoria Brittain & Gillian Slovo وتعرض الآن على مسرح «الترايسكل» فى لندن، وسوف تنتقل منه إلى «الويست إند» بعد النجاح الكبير الذى لاقته. ومسرح «الترايسكل» من المسارح الانجليزية الجادة التى تخصصت فيما يمكن دعوته بالدراما السياسية الوثائقية.

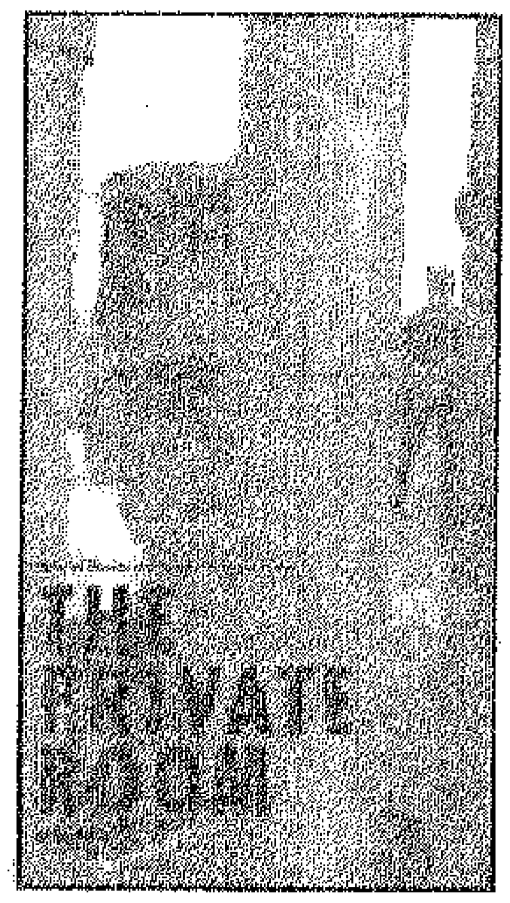
أما الكاتبتان فلكل منهما باع طويل فى العمل الصحفى والسياسى والكتابة

الأدبية والدرامية على السواء. فڤيكتوريا بريتين صحفية لامعة عملت لأكثر من عشرين عاما في جريدة (الجارديان) الانجليزية حتى أصبحت محررة الشئون الخارجية بها. وعاشت سنوات عديدة من عمرها في واشنطون وسايجون والجزائر ونيروبي قبل أن تستقر أخيرا في لندن. كما أنها راعية لجنة التضامن مع فلسطين وعضو هيئة تحرير مجلة (العرق والطبقة) وهي من المجلات الجادة. أما جيليان سلوفو فقد ولدت في جنوب أفريقيا، وهي ابنة جو سلوفو المناضل المعروف ضد نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، والذي سجنه النظام الأبيض فيها برغم أنه من البيض، ولما أفرج عنه انتقل إلى الحياة في لندن مع أسرته قبل تحرر جنوب أفريقيا من الحكم العنصري بزمن غير قصير.

وإذا كانت مسرحية مارك لي مسرحية ذات حبكة درامية، حاولت الربط بين ما يدور في المؤسسة الملخصة لجوهر الحضارة الأمريكية، والمسئولة عن تزعمها لنظام العولمة الراهن: مؤسسة «وول ستريت» وبين ما يدور في هذا المعتقل الجهنمي، وكشفت عن أن كلا منهما وجه للآخر، فإن مسرحية (جوانتانامو: ملتزما بالشرف دفاعا عن الحرية) تنتمي إلى المسرحية التوثيقية التي تنهض على بنية المنولوجات المتقاطعة. حيث يتخلق التوتر الدرامي المثير للقلق والتفكير من الحوار المستمر بين هذه الأصوات والمنولوجات المتقاطعة. فقد اختارت المسرحية أن تعرض علينا هذه القضية الشائكة من خلال انتقائها لعينة مختارة، أو بالأحرى ممثلة، ممن انتهى بهم حظهم التعس إلى هذا المعتقل الجهنمي، وعينة دالة أخرى من المجتمع الانجليزي تمثل استجاباته العملية لضحايا هذا المعتقل. وحصرت هذا الاختيار في الحالة الانجليزية وحدها، واعتمدت فيه على شهادات معتقلي جوانتانامو من البريطانيين الذين أفرج عنهم مؤخرا، وشهادات أسرهم، وأسر من كانوا أسوأ منهم حظا ولم يفرج عنهم حتى الآن. كما اختارت مع شهادات المعتقلين وأسرهم، عينة من شهادات الانجليز الذين وضعتهم ظروفهم المهنية في علاقة مباشرة مع هذه الحالة. لأن هذه العينة تنطوي على السياسي، والمحامي الذي يمثل أحد المعتقلين، والناشط في إحدى منظمات حقوق الإنسان، والقاضي الذي يتعامل مع شرائع القوانين. وإذا كانت المسرحية تعتمد على الشهادة الوثائقية لتخليق الدراما فيها، فإنها تعتمد كذلك على المفارقة الساخرة المرة التي يشي بها عنوانها الفرعي «ملتزما بالشرف دفاعا عن الحرية» لإذكاء حدة الدراما من ناحية، ولدفع المشاهد لتأمل ما تعرضه عليه بشكل عقلي خالص من ناحية أخرى.

وإذا كان العنوان هو عتبة النص

مأساة جوانتانامو



عدم تطبيق القوانين في «جوانتانامو» يشكل انتهاكا للحقوق القانونية الأساسية من الحوار المستمر بينه، حيث يقوم العسكريون بدور المحقق والمحامي والنيابة والقاضي والجلاد إن لزم الأمر

الأساسية، فإن المسرحية قد اختارت عنوانا موفقا في هذا المجال، يجمع بين كلمة «جوانتانامو» التي أصبحت عنوانا على التحلل من أي التزام أخلاقي أو قانوني أو دولي، وبين شعار الجيش الأمريكي البراق «الالتزام بالشرف دفاعا عن الحرية» لتعمق بذلك من حدة المفارقة بين الموقع والشعار، وبين ممارسات الجيش الأمريكي المخزية وأوهام أمريكا عن الشرف والحرية أو دعاوى جيشها المغوار. وتبدأ المسرحية بمحاضرة، بالأحرى مقتطفات من محاضرة ألقاها يوهان ستاين، قاضي الاستئناف الأعلى ـــ وهو من أعلى المناصب القضائية في بريطانيا ـــ ثم تنتهي بمقتطفات أخرى منها في محاولة لتأطير العرض الدرامي كله بهذا الإطار القانوني الذي يدعو إلى التأمل. وهي محاضرة فعلية ألقيت في ٢٥ نوفمبر عام ٢٠٠٣ في سلسلة محاضرات «مان» القانونية الشهيرة. وتبدأ المحاضرة بالتذكير بأن بريطانيا احتجزت سبعة وعشرين ألف شخص في الفترة بين ١٩٣٩ و١٩٤٥ بسبب الحرب، واستبعدت سبعة آلاف آخرين، وأنه ثبت فيما بعد أن معظم هذه الاحتجازات تفتقر إلى التبرير القانوني. وهذا نفسه ما فعلته الولايات المتحدة بالنسبة لليابانيين الأمريكيين الذين ثبت فيما بعد أن كل ما اتخذ ضدهم من إجراءات افتقر للأساس القانوني وكان نتيجة سعار الخوف والشوفينية. ثم يذكرنا بأن هذا كله كان وراء تأسيس الأمم المتحدة، وبلورة الميثاق الدولي لحقوق الإنسان. ثم تتناول المحاضرة كيف أن عدم تطبيق القوانين في «جوانتانامو» يشكل انتهاكا للحقوق القانونية الأساسية من الحوار المستمر بينه، حيث يقوم العسكريون بدور المحقق والمحامي والنيابة والقاضي والجلاد إن لزم الأمر، وفي هذا انتهاك لكل الأعراف والقوانين الإنسانية. ولا تتوفر للمتهم أدنى حقوقه القانونية في الدفاع عن نفسه. والواقع أن المسرحية تستخدم مقتطفات من هذه المحاضرة القانونية القيمة والمقنعة لا تتجاوز الدقائق الخمس، وإن نشرت نصها الكامل في برنامجها المطبوع.

وفي داخل هذا الإطار القانوني تطرح المسرحية نماذجها الأساسية الثلاثة من المعتقلين، في الوقت الذي تحف بجانبي المسرح زنازين «جوانتانامو» الشهيرة التي تشبه أقفاص الحيوانات الخطرة، وفي كل زنزانة معتقل لا يمارس إلا بعض التمارين الرياضية المحددة بمساحة الزنزانة التي نعرف أنها متران في مترين، والصلاة. كما نكتشف، وهذا أمر وثقته المسرحية جيدا، أن المعتقل يبقى في هذه الزنزانة مرتديا إضافة إلى الزي البرتقالي الشهير، «حلة من ثلاث قطع» وهو اسم القيد الحديدي الذي يتكون من ثلاثة أجزاء، يلتف أولها حول خصره، ويقيد ثانيها يديه وثالثها رجليه بقيد مربوط إلى حلقة الخصر المركزية، تطول السلسلة التي تربط قيد الساقين أو تقصر وفقا لنوعية المعاملة التي تجبر المعتقل على البقاء في وضع انحناء دائم أثناء الحركة في الزنزانة أو خارجها، أو تسمح له بأن «يفرد طوله» حسب التعبير الدارج. هذا التأطير الواقعي الإضافي بعد التأطير القانوني يضع المشاهد أمام حقيقة أن ما تعرض عليه المسرحية قصصهم إنما هم مجرد عينة ممثلة للمئات الذين تغص بهم زنازين هذا المعتقل الكابوسي الشهير. ويوشك كل واحد من الثلاثة أن يمثل نمطا من الأنماط المتعددة التي انتهى بها حظها العاثر إلى هذا المعتقل. أولهم مسلم بريطاني من أصول هندية ـ حيث تنتمي لها أغلبية المسلمين في بريطانيا ـ يحكي لنا أبوه «عظمة بيج» قصته. وكيف أنه كان شابا مثاليا، تأثر كثيرا بما يعانيه أطفال أفغانستان إبان حكم طالبان، وعرف أنهم يعانون من نقص المياه النقية، ولأنه مسلم ومتخصص في صناعة المضخات اليدوية والفلاتر، قرر الذهاب إلى هناك لمساعدتهم في استخراج ماء صالح للشرب، وفتح مدرسة لتعليمهم، وقد قبض عليه هناك ونقل إلى هذا المعتقل، دون أن يكون قد اقترف أي ذنب.

ويخبرنا «عظمة بيج» أن ابنه «معظم بيج» قد عانى إبان طالبان التي تشككت فيه ولم تشجع مشروعه، ولاحقته. لكنه عانى أكثر من الاحتلال الأمريكي لأفغانستان الذي انتهى به إلى هذا المصير التعس. وتعتمد المسرحية على عرض الأب لقصة ابنه، بينما الابن في «جوانتانامو» يجسد لنا الحالة الكابوسية التي يعيشها فيها. ولا سبيل إليه سوى كتابة رسائل قليلة تتعرض للرقابة والحذف من السلطات العسكرية الأمريكية باستمرار. ومن هنا تكتمل تفاصيل القصة من خلال المزج الدرامي بين معاناة الأب وتخبطه بين ردهات السلطات الانجليزية التي لا تساعده حقا في الحصول على معلومات عن ابنه أو في الإفراج عنه. خاصة أنها قد نجحت في الإفراج عن خمسة من المواطنين البريطانيين العشرة الذين كانوا في «جوانتانامو». وبين التجسيد الدرامي للحالة التي يعيشها ابنه في «جوانتانامو» ولمحاولاته المخفقة لتمرير تفاصيل الوضع الذي يعيش فيه إلى أسرته، والاطمئنان على مصير زوجته وابنه اللذين تركهما وراءه في أفغانستان. ولأن الحكومة البريطانية قد أخبرت الأب بأن ابنه من الذين قد تقدمهم السلطات

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

حرية

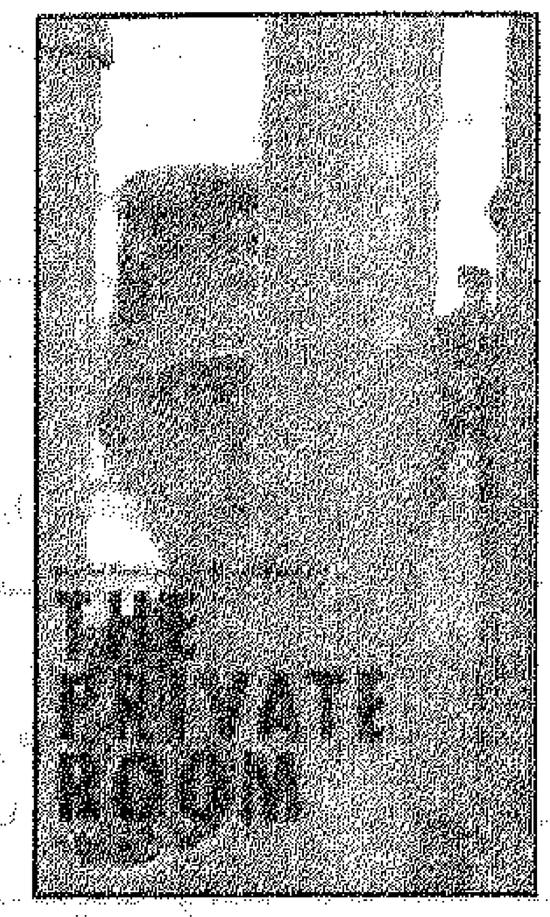
التحرر من الخوف
هو التحرر الذى أطلبه لك
يا وطنى العزيز
الخوف، ذلك المارد الخيالى
الذى صاغته أحلامك المعوجة
التحرر من أثقال السنين
التى تحنى رأسك
وتكسر ظهرك
وتعمى عينيك
عن نداء المستقبل الساحر
التحرر من جذوع الكسل والخمول
التى تقيد بها نفسك إلى جمود الليل
مرتابًا فى نجمة الليل التى تشير
إلى طريق المغامرة فى سبيل الحقيقة
التحرر من نقيصة الإقامة فى
عالم من الدمى توجه حركاتها
خيوط بلا عقل، ومكررة بلا معنى
بحكم العادة والمألوف
حيث الشخوص تقف فى طاعة سلبية
منتظرة محرك الدمى
يوقظها برهة قصيرة
من غفوتها، لتقلد الحياة تقليدًا هزيلاً

الأمريكية للمحاكمة، فإنه يطلب لابنه العدل لا الرحمة. إنه يطلب أن يحاكم أو أن يفرج عنه، لأنه ليس من حق أحد احتجازه هكذا دون محاكمة. فإن كان لدى الولايات المتحدة أى أدلة ضده، تزعم أنها سبب اعتقالها له، فعليها تقديمها للمحكمة وإتاحة فرصة محاكمة عادلة لابنه بدلا من بقائه فى «جوانتانامو» فى هذا الوضع الغريب.

وأما النموذج الثانى الذى تقدمه المسرحية فهو للعربى الذى تصور أنه قد نجا من الحياة القاسية فى العالم العربى، وهيأ لنفسه حياة مغايرة فى الغرب. إنه هنا «عبدالوهاب الراوى» الذى ينحدر من أسرة عراقية ثرية، تركت العراق منذ عشرين عاما وعاشت فى بريطانيا، وتجنس كل أفرادها بالجنسية البريطانية، إلا أصغر الأبناء «بشير» الذى ظل محتفظا بالجنسية العراقية، بالرغم من أنه عاش أغلب سنى حياته فى بريطانيا. فقد أرادت أسرته أن يبقى أحد أبنائها عراقيا، حتى يستطيع استرداد ممتلكات الأسرة التى استولى عليها حزب البعث فيما إذا سقط النظام الحاكم فى بغداد. ولأن الأخين من أسرة ثرية، ولأن أصغرهما قد تربى فى بريطانيا كلية، فإنهما قد تشبعا بالروح الانجليزية فى ارتياد الآفاق التجارية الجديدة. ولذلك قررا إقامة مشروع استثمارى فى جامبيا لاستخراج الزيت من الفول السودانى، الذى يزرع بكثرة هناك، بينما يعانى السوق المحلى من شح الزيوت. وقد شكت الإدارة البريطانية فى أن له نشاطا مشبوها بعد أحداث سبتمبر، وقبضت عليه واستجوبته، ثم أطلقت سراحه لعدم كفاية الأدلة. بل سمحت له بتصدير كل معدات المشروع إلى جامبيا، حيث اشترى فيها أرضا وأقام بها فيلا، وبدأ فى بناء مصنع استخراج الزيوت مع شقيقه «بشير» وشريك أردنى آخر هو «جميل البنا». لكن السلطات الأمريكية طلبت من جامبيا القبض عليهم من جديد. فقد اتهمتهم الولايات المتحدة بأن مشروعهم بها من مشاريع الاستثمار التى تستخدم لتمويل منظمة القاعدة. وطلبت من جامبيا ترحيلهم إليها.

وبعد وصولهم إلى «جوانتانامو» أفرج عن «عبدالوهاب الراوى» بسبب جنسيته البريطانية، وعدم ثبوت أى دليل عليه، بينما ظل أخوه «بشير الراوى» وشريكهما فى نفس المشروع «جميل البنا» معتقلين فيها حتى الآن، لأن السلطات البريطانية تذرعت بأنه ليس من حقها التدخل قانونيا لصالح شخص ليس من رعاياها، حتى ولو عاش أكثر من عشرين عاما على أرضها كما هى الحال مع «بشير الراوى»، أو عشرة أعوام كما هى حال «جميل البنا». ولأن كل هذه الشخصيات حقيقية، يضم برنامج المسرحية صورة من خطاب مؤثر

مأساة جوانتانامو



تكتمل تفاصيل القصة من خلال المزج الدرامى بين معاناة الأب وتخبطه بين ردهات السلطات الانجليزية التى لا تساعده حقا فى الحصول على معلومات عن ابنه أو فى الإفراج عنه

كتبه الطفل انس ابن جميل البنا إلى كل من تونى بلير رئيس الوزراء، والأمير تشارلز ولى العهد يرجوهما فيه العمل على الإفراج عن أبيه وإعادته. كما تضم صورة الخطاب الذى وجهته البارونة سايمونز وزيرة الدولة للشئون الخارجية لمحامى بشير وجميل البنا تخبره فيه بأن القانون الدولى لا يتيح لوزارتها التدخل لصالحهما، وأنه لو استطاع العثور على نص قانونى فى القانون الدولى يبرر ذلك فإن عليه أن يوجهها إليه وستعيد التفكير فى موقفها. لكن المثير فى الموضوع هو أثر ما جرى على مشروع الثلاثة فى جامبيا واستثماراتهم فيها. فبعد أن انتهى الأمر بثلاثتهم فى هذا المعتقل الكابوسى. استولت السلطات الفاسدة فى جامبيا على ممتلكاتهم ومعدات المشروع تحت حماية أمريكية.

أما النموذج الثالث الذى يمثل المسلمين السود فى بريطانيا، فيمثله «جمال الحارث» الذى كانت تهمته الوحيدة أنه بعدما شب عن الطوق، بدأ يتلمس الطريق نحو معرفة دينه الإسلامى، وقاده هذا الطريق إلى التعرف على الواعظ البريطانى الشهير «أبوقتادة»، وإلى السفر إلى أفغانستان. وهناك قبضت عليه حكومة طالبان وأودعته أحد سجونها. ومع أن الاحتلال الأمريكى لأفغانستان حرره من سجنه، إلا أنه انتهى به إلى سجن آخر ملأته تجربته فيه بالمرارة، وإن تم الإفراج عنه منه بعد شهور قليلة. وهو يكشف لنا عن الأثر الدامى لتجربة السجن تلك عليه، وكيف أنها دمرت ثقته فى نفسه وفى حكومته على السواء. وفى مواجهة هذه النماذج الملونة الثلاثة تقدم المسرحية عددا من النماذج البيضاء التى تتولى مهمة الدفاع عنها مثل المحامين وناشطى حقوق الإنسان، أو طرح الأسئلة الحرجة بشأن ما يدور فى هذا المعتقل مثل الصحفيين. وعدد آخر يمثل السياسيين الذين يبررون الاعتداء على حريات هذه الأنماط وحقوقها من «جاك سترو» وزير الخارجية البريطانى، إلى «دونالد رامزفيلد» وزير الدفاع الأمريكى. وتكشف المسرحية فى مشهديهما مدى ضيقهما بإلحاح الصحفيين وأسئلتهم ومدى تناقض إجاباتهم على أسئلة الصحفيين الحرجة. كما تجسد لنا غضب تلك المحامية التى تزداد ثورة عندما تعرف أن موكلها قد بعث به إلى مصر لتعذيبه فيها وانتزاع اعتراف منه بما لم يرتكبه من جرائم. وتشير المسرحية بأصابع الاتهام إلى المؤسسة البريطانية وتقاعسها فى الدفاع عن مواطنيها، وتخليها عن عدد منهم بسبب تحالفها غير المقدس مع أمريكا.

لكن المسرحية تشير كذلك إلى قضية أخطر، وتعتبر تناولها لموضوع «جوانتانامو» مجرد مدخل لها، ألا وهى مدى تآكل الحريات العامة فى ظل حكومة العمال الراهنة، ومدى تتابع التشريعات التى تتيح للسلطات حرمان الكثيرين من حرياتهم وحقوقهم تحت مجموعة من الذرائع الغريبة التى تعد أكثرها غرابة «الحرب على الإرهاب». وتربط المسرحية بين ما يدور فى «جوانتانامو» وما يدور فى سجنى «بلمارش Belmarsh» فى جنوب لندن و«وايتهيل Whitehill» بالقرب من مدينة ميلتون كينز اللذين تحتجز فيهما الحكومة البريطانية عددا من المشتبه بهم، وفق استثناء من قوانين حقوق الإنسان الأوروبية طلبته بريطانيا عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بحجة أن قربها الوثيق من الولايات المتحدة يجعلها أكثر من غيرها عرضة للخطر، ولذلك عليها الحصول على هذا الاستثناء، وقد منحها إياه الاتحاد الأوروبى مما أتاح لها أن تحتجز العشرات من ذوى الأصول العربية والمسلمين فى هذين السجنين دون محاكمة، ودون أى التزام حتى بالكشف عن الأسباب التى أدت إلى اعتقالهم لمحاميهم أو لغيرهم من الهيئات القانونية أو الدولية. وتتخذ من هذا الأمر مدخلا لتناول عدد من التشريعات التى تنتقص من الحريات الفردية والتى تتابعت فى السنوات الأخيرة.

وما أن تعود المسرحية بعد هذا كله إلى المحاضرة التى افتتحت بها حتى نتعرف على مدى التناقض بين ما جسدته أمامنا المسرحية وبين ما نصت عليه اتفاقات جينيف الأربعة المتعلقة بمعاملة الجنود، والبحارة، وأسرى الحرب، والمدنيين. وحتى يكتشف المشاهدون أن حرياتهم الشخصية فى خطر، لأن كل النماذج التى عرضتها علينا قد عوملت بمقلوب القاعدة القانونية المقدسة التى تنص على أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته، فقد عوملت جميعها على أنها مذنبة حتى تثبت براءتها. وهذا ما كان الغرب الرأسمالى يأخذه فى الماضى على الدولة الشمولية، وكان يستخدم نزاهته القانونية فى احتلال الموقع الأخلاقى الأعلى. لكن بعد سقوط الدول الاشتراكية ها هو الغرب ينحدر إلى نفس المباءة التى أدت إلى انهيارها. وها هو الانحدار يبث الخوف فى نفوس مواطنيه أنفسهم وهم يرون ما جرى لمواطنين مثلهم، كان كل ذنبهم أنهم من ديانة مختلفة هى الإسلام! لكن المسرحية لاتريد للمشاهد أن يستنيم إلى دعة أنه لو لم يكن مسلما لنجا من هذا العبث القانونى، لأنها تذكره بالتشريعات الجديدة التى سنت ضد المشاغبين من مشجعى كرة القدم، والتى تمكنت من سحب جوازات سفرهم ومنعهم من السفر، باعتبار أن طريق الانحدار يبدأ دائما بخطوات صغيرة، ولكنها قد تفضى فى النهاية إلى هذا الكابوس الرهيب المسمى «جوانتانامو». ■

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

أورباشى

أيتها المرأة
لست من خلق الله وحده
ولكنك أيضًا من خلق الرجال
الذين يجعلونك بقلوبهم
جميلة
فالشعراء نسجوا لك شبكة
من خيوط الأخيلة الذهبية
والرسامون أعطوا دومًا
لهيئتك خلودًا جديدًا
والبحر يقدم إليك لؤلؤة
والمناجم ذهبها
وبساتين الصيف تمنحك زهورها
لكي توشيك وتكسوك
وتجعلك على الدوام
ثمينة غالية
وشوق قلوب الرجال
بسط مجده
على شبابك
فصرت نصف امرأة
ونصف حلم

اقتفـــاء خـــطى الإمبراطـــورية..

لم يكد يبدأ القرن العشرون إلا وكانت كلٌ من بريطانيا وفرنسا قد استكملتا فرض سيطرتهما المباشرة وغير المباشرة على الشرق الأوسط بكامله تقريبا، سواء بقوة السلاح أو بوسائل أخرى. كانت هيمنتهما على المنطقة تامة على كافة الأصعدة العسكرية والاقتصادية والتقنية. وبالمثل، قامت الولايات المتحدة فى بداية القرن الحادى والعشرين باجتياح العراق، أحد أهم البلدان العربية، وفرضت فيه احتلالا عسكريا لأجل غير مسمى. كان ذلك مباشرة بعد غزوها الصاعق واحتلالها لأفغانستان. وكما فعلت بريطانيا من قبل، فقد تربعت الولايات المتحدة إستراتيجيا على كل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلنطى وحتى آسيا الوسطى، مع نشر قوات برية وبحرية وجوية ضخمة فى كثير من الدول، إلى جانب نفوذ اقتصادى وثقافى مهيمن.

وهناك الكثير من الاختلاف بين موقف كل من القوتين، ولكن ربما ليس بالقدر الذى قد يبدو للوهلة الأولى. فرغم أن بريطانيا كانت هى القوة المهيمنة طوال قرن ونصف من الزمان حتى الحرب العالمية الثانية، فهى لم تحظ أبدا بالوضع الفريد الحالى للولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة وطليقة بعد انتهاء الحرب الباردة. فطوال احتفاظها بأكبر إمبراطورية عالمية ذات قاعدة أوروبية فى العصر الحديث، كان لزاما على بريطانيا دائما أن تتعامل مع عالم متعدد الأقطاب أو - على الأقل - ثنائى الأقطاب، مثلها فى ذلك مثل العثمانيين والبرتغاليين والأسبان والهولنديين والفرنسيين والنمساويين والهنغار والألمان. وعلى النقيض من ذلك تماما فقد أصبحت الولايات المتحدة أقوى بدرجة هائلة من أى دولة أخرى، وذلك منذ أن تخطت المنافسة العنيدة مع الاتحاد السوفيتى الذى كان نداً لا يستهان به، رغم أن خصومه كانوا عادة ما يبالغون فى قوته. ولم يتكرر هذا الوضع سابقا إلا فى أزمنة غابرة مثل أوج ازدهار الصين تحت حكم أسرة «تانج» ومثل المغول والإمبراطورية الرومانية. ونظرا لأن الهيمنة الأمريكية الحالية تطوق الكرة الأرضية كلها، فإن هذا الوضع - من نواح عديدة - ليس له سابقة فى التاريخ البشرى. ومع ذلك فليست تلك الهيمنة مطلقة، كما لا تعنى أن السطوة الأمريكية غير محدودة.

Resurrecting Empire

(بعث الإمبراطورية)

Rashid Khalidi

Beacon Press, 2004, 192PP.

> **«لازالت أمامنا فى الشرق الأوسط سنوات عديدة من الاضطرابات والمحن، وأصبـح من الواضـح تمـامـا أن الجبروت الأمريكى هو إحدى أكبر المشاكل فى المنطقة. ومـن الصعوبة بمكان بالنسبة لأمـريكا أن تتوقـع إصـلاح مـا ترفـض فـى الأصـل أن تـراه بوضـوح»**
>
> إدوارد سعيد ٢٠٠٣
>
> من كتاب Resurrecting the Empire

ولم يؤد القلق والارتباك والريبة لدى الكثير من الأمريكيين من رجال الدولة وواضعى السياسات والمفكرين تجاه كيفية التعامل مع التفوق العسكرى والاقتصادى الساحق لبلدهم على المستوى العالمى، خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة، لم يؤد كل ذلك سوى إلى مزيد من طغيان الثقة بالنفس لدى أولئك - داخل و خارج إدارة بوش - المعتنقين لمبدأ التفوق الأمريكى الكامل والمطلق والذى يسميه البعض منهم بـ«الهيمنة الأمريكية الحميدة» بينما لا يخجل البعض الآخر من تسميته بـ«الإمبراطورية». ومع ذلك فليس كل من ينظر بإنصاف إلى العالم الجديد الرائع بعد انتهاء الحرب الباردة هو من دعاة الانتصار الإمبراطورى الأمريكى. وفى الأعمال التى تقدم مفاهيم ووجهات نظر متباينة، فإن أصواتا واعية مثل «جون ميرشايمر John Mearsheimer» و«جوزيف ناى Joseph Nye» و«نيل سميث Neil Smith» و«كلايد بريستوويتز Clyde Prestowitz» يحذرون من ضحالة وسطحية وسذاجة هذا المنظور المتغطرس الذى لا يأبه بالتاريخ. فهم يؤكدون على وجود تنافس قوى وثيق ومستمر حتى فى هذه الحقبة الحديثة، كما ينبهون إلى حاجة الولايات المتحدة لأن تدرك أن هيمنتها ليست مطلقة، ويشيرون أيضا إلى سيناريو السلوك الإمبراطورى الأمريكى فيما بين بداية القرن العشرين وحتى بداية القرن الحادى والعشرين. وتأتى من أوروبا - وخاصة فرنسا - انتقادات أخرى مضادة للمرحلة الجديدة تناهض سطحية النظرة الانتصارية الأمريكية تجاه العالم. فمفكرون مثل «الان جوزيه Alain Joxe» و«إتيان باليبار Etienne Balibar» و«إمانويل تود Emmanuel Todd» يدللون على حتمية وجود قوى أخرى تحقق التوازن مع الولايات المتحدة.

لقد كانت هناك اختلافات جوهرية بين حال الولايات المتحدة فى بداية القرن الحادى والعشرين وبين أحوال القوى الاستعمارية الأوروبية فى أوج مجدها. فقد حظيت طموحات الاستقلال لدى العديد من الأمم الخاضعة قسرا للسيطرة الأجنبية بدعم كبير فى أعقاب الحرب العالمية الأولى عند صدور إعلان «وودرو ويلسون Woodrow Wilson» ذى النقاط الأربع عشرة، والذى كان موجها فى الأساس إلى الدول الأوروبية ولكن صداه الواسع تجاوزها إلى كل مكان آخر رغم ذلك. كما تفاعل الكثير فى المستعمرات لدى اندلاع الثورة البلشفية الواعدة لتحرير الشعوب التى عانت كثيرا تحت نير القياصرة. ونتيجة لكل تلك العوامل وغيرها، فقد اكتسب الفكر الإمبراطورى والاستعمارى بالتدريج سمعة سيئة على مستوى العالم، بل وحتى داخليا فى بعض الأوساط فى قلب الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية العظمى.

ورغم ذلك فإن رغبة النخب الأوروبية فى السيطرة على «عدد أقل من الشعوب» ظلت قوية لجيل آخر على الأقل، فبقى الاستعمار الأوروبى مهيمنا على معظم أنحاء العالم حتى الحرب العالمية الثانية. ورغم أن الأبواب الأمامية ظلت موصدة أمامه ظاهريا، فقد تمكن الاستعمار الأوروبى من التسلل خلسة من الأبواب الخلفية إلى بعض مناطق الشرق الأوسط التى ظلت منيعة على الاحتلال لوقت طويل، وذلك عن طريق الانتداب من قبل عصبة الأمم. وفى الحقيقة فقد شهدت فترة ما بين الحربين ذروة المد الاستعمارى التقليدى فى الشرق الأوسط وفى الكثير من بقاع العالم الأخرى، حيث فرضت عصبة الأمم الانتدابات الاستعمارية العصرية، كما شهدت تلك الفترة الاجتياح الإيطالى لأثيوبيا واليابانى لمنشوريا. وقد بقى الوضع على ما هو عليه حتى مع بدء عهد جديد من المقاومة للاستعمار وتزايد قوى الضغط المطالبة بالاستقلال.

وبالمقارنة، يبدو الاستعمار الآن وكأنه شىء من الماضى، على الأقل فى معظم أفرع الثقافة العامة الأمريكية وبين الساسة الأمريكيين الذين يصر الكثيرون منهم على الترديد والتكرار بأن الولايات المتحدة - بخلاف القوى العظمى الأخرى - لم تسع أبدا فى الماضى أو فى الحاضر لتكوين إمبراطورية. وتستنكر تلك الأوساط أية مزاعم بأن الولايات المتحدة تسلك نهجا استعماريا، بل عادة ما تصم مروجى تلك المزاعم بـ«معاداة أمريكا» و«الافتقار إلى الوطنية». وعلى النقيض من ذلك، تحظى فكرة الإمبراطورية اليوم ببعث جديد مساير للعصر بين قطاعات معينة من صفوة المفكرين الأمريكيين الذين أسكرهم ظهور سطوة أمريكية لا حدود لها. ورغم ذلك فقد نشأت بعض التعقيدات بسبب النفور السوى للشعب الأمريكى تجاه فكرة الإمبراطورية. فكاتب مثل «نيال فيرجسون Niall Ferguson» - وهو أحد المؤيدين المتحمسين لدور إمبراطورى أمريكى صريح - يعلق بحسرة «الأمريكيون..... لقد كانوا دوما متحفظين تجاه الدور العالمى لأمتهم» أو كما كتب مؤلف آخر فـ«هناك حياء شديد تجاه تسلم زمام قيادة العالم أصبح سمة ثابتة فى الثقافة السياسية الأمريكية. و نتيجة لذلك، فحتى أولئك العاملين داخل إدارة بوش الذين قد يضمرون أملا شخصيا فى نظام عالمى يتحقق طوعا حول «ولايات متحدة» منتصرة ومهيمنة، والذين أغوتهم [illegible] ات البراقة الكاذبة

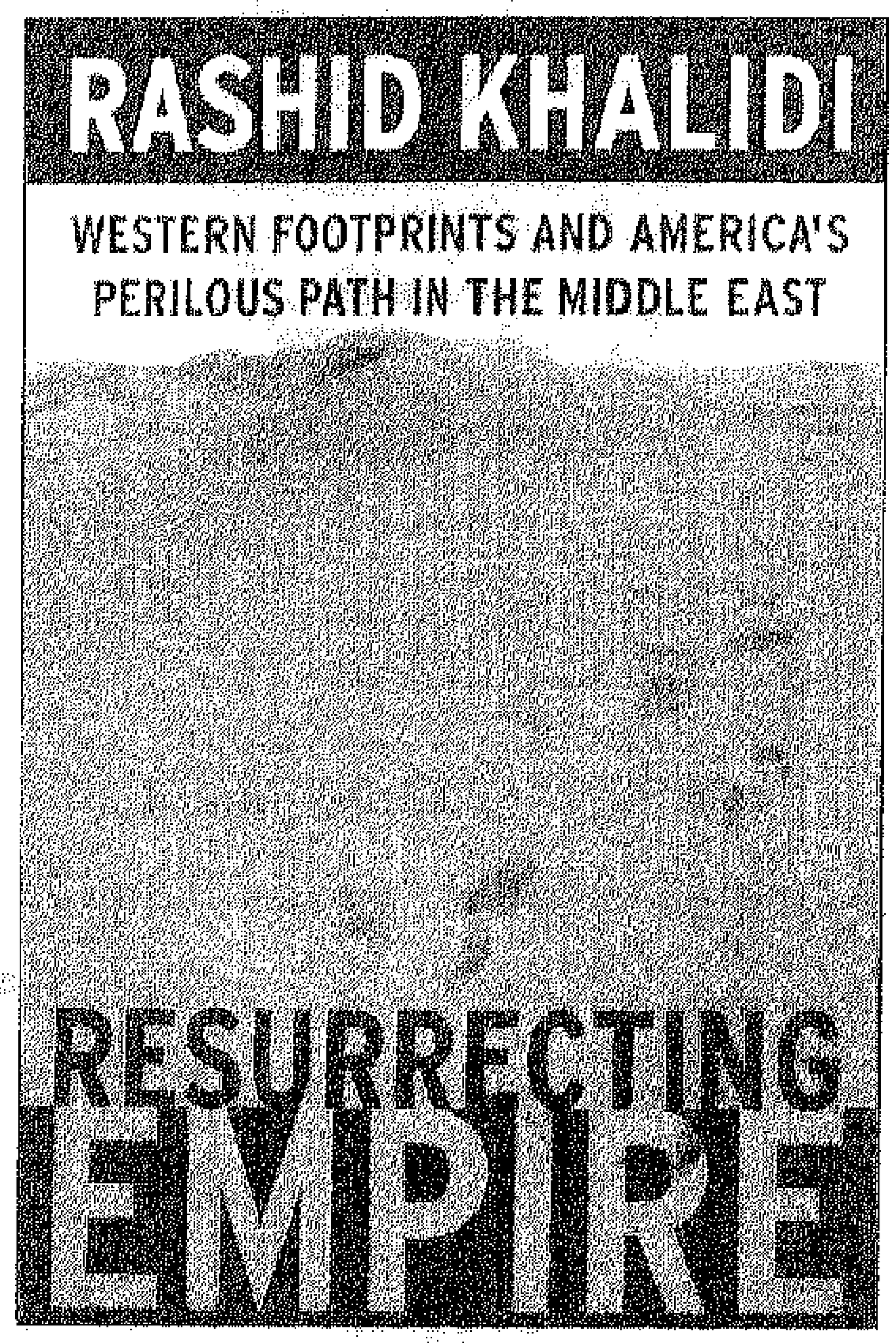
الطـــريـق الأمـــريكـــى الخطـــر!

رشـــــيـد الخــــالـدى

للمفكرين الذين يحثونهم على قبول العبء الإمبراطورى الأمريكى عن طيب خاطر، والذين يفوح من بياناتهم السياسية الرسمية عبق الخيلاء الإمبراطورى، حتى أولئك عادة ما يحرصون على تجنب الظهور بمظهر الهيمنة الصريحة.

حرص المسئولون فى مواقع السلطة بواشنطن على المجاهرة دوما قبل وأثناء وبعد حرب الخليج الثالثة (باعتبار أن الحرب العراقية الإيرانية بين ١٩٨٠ و١٩٨٨ كانت الأولى، وأن حرب ١٩٩١ فى أعقاب غزو العراق للكويت هى الثانية) بأن العراق ملك للعراقيين وأن نفط العراق هو ملكية خالصة للشعب العراقى. بل أنهم استنكروا على الفور استخدام تعبير «احتلال» لوصف الوجود العسكرى الأمريكى فى العراق بعد اجتياحه، وأصروا بدلا من ذلك على أن ما حدث هو «تحرير» وليس «احتلال»، وقد ردد المعلقون هذا الادعاء فى حينه فى قناة «فوكس» للأخبار وفى الكثير من وسائل الإعلام الأخرى. ولحسن الحظ انتصرت الحقيقة. فى النهاية على الأقل - على الأكاذيب المستمرة لإدارة بوش حول القضية، فبعد شهور من انتهاء الحرب، بدأت تظهر للعيان الهوة السحيقة بين الحقيقة وبين مزاعم إدارة بوش المبالغ فيها أو المختلقة فيما يخص القدرات العسكرية النووية وغير التقليدية الأخرى للعراق وكذلك صلاته بتنظيم القاعدة. وفى النهاية فقد قبلت إدارة بوش على مضض بتعبير «احتلال» كمصطلح وحيد يصلح لوصف الوجود العسكرى الأمريكى فى بلد أجنبى.

وقد كانت هناك اختلافات أخرى بين حالتى الغزو العسكرى الغربى للشرق الأوسط فى بدايتى قرنين متعاقبين. فعندما أنشأت بريطانيا نظام سيطرتها الجديد فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى استعانت بالمستكشفين والجغرافيين والعلماء واللغويين وعلماء الآثار وغيرهم من الخبراء، والذين تجمع الكثير منهم أثناء الحرب فى المكتب العربى (أنشئ المكتب العربى فى القاهرة عام ١٩١٦ وهو عبارة عن خلية من ضباط استخبارات بريطانيين مهمتهم تنسيق أنشطة التخابر للإمبراطورية البريطانية فى الشرق الأوسط). أما الولايات المتحدة فلم يكن لها عند منعطف القرن الحادى والعشرين هيئة



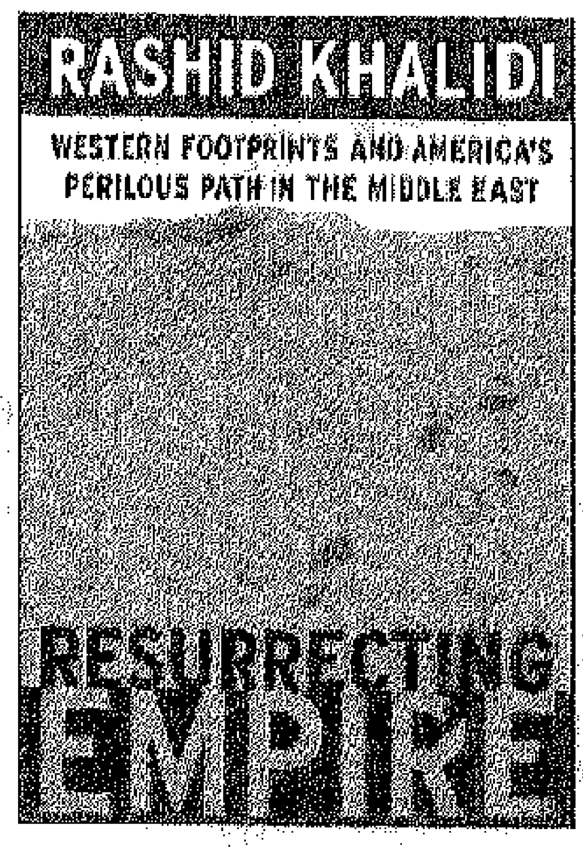
مماثلة من الخبراء الإقليميين المرموقين لتقديم النصح المخلص للنخبة من واضعى السياسات. كان هناك بالطبع العديد من خبراء الشرق الأوسط المهرة والمدربين تدريبا عاليا والأكفاء لغويا والذين عملوا فى مختلف الأفرع فى خدمة الحكومة الأمريكية، سواء فى وزارة الخارجية أو وكالة المخابرات المركزية أو مجالات أخرى فى مجتمع الاستخبارات أو فى القوات العسكرية النظامية، ومع ذلك فطبقا لـ «روبرت باير Robert Baer» وهو ضابط عمليات سرى سابق بوكالة المخابرات المركزية، فإن العديد من هؤلاء الخبراء يعانون من نواقص، فحسب كلامه فإن «قليل من المسئولين الأمريكيين بقوا على اتصال بالشارع العربى، ويتطلب ذلك معرفة باللغة وسنوات من الدراسة والترحال. فلا توجد طرق مختصرة لفهم الشرق الأوسط». ولا يمكن أن يقال الشىء نفسه بالنسبة للخبراء البريطانيين الذين وفروا النصح لحكومتهم فى بداية القرن العشرين، قد نشكك فى سلامة توصياتهم السياسية، ولكنهم فى الواقع قضوا جزءا كبيرا من حياتهم فى هذه المنطقة، وتعمقوا فى سياساتها، وكان لديهم معرفة لا يستهان بها بثقافتها.

بل لقد حدث ما هو أهم من ذلك منذ بداية ولاية بوش «الابن». فقد تعلم المسئولون المتمرسون وضباط الجيش واسعو الخبرة بالشرق الأوسط، سريعا أن يخفضوا رؤوسهم فى ظل المناخ السائد فى واشنطن حيث تركزت السلطة فى أيدى سياسيين جدد قليلى الخبرة عدوانيين ذوى كلمة مسموعة ورافضين تماما للرأى الآخر. لقد طوق هؤلاء المتطرفون بإحكام «دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld» وزير الدفاع و«ديك تشينى Dick Cheney» نائب الرئيس، وهما الشريكان الرئيسيان فى رسم السياسات الخارجية والأمنية للإدارة، كما حظى مناصرو السياسيين الجدد بالمناصب الهامة الأخرى فى الجهاز الحكومى. وتصف «كارين كويتكوسكى Karen Kwiatkowski» العقيد السابق بالسلاح الجوى الأمريكى والتى كانت حتى أبريل ٢٠٠٣ من العاملين بمكتب «دوجلاس فيث Douglas Feith» نائب وزير الدفاع للشئون السياسية، وربما كانت العقل المفكر لجماعة السياسيين الجدد، كما أنها الآن مسئولة عن إعادة إعمار العراق، تصف كيف أن أعضاء تلك الجماعة «كانوا يفضلون العمل فقط مع من يوافقهم الرأى من غير ذوى الخبرة فى الدوائر الأخرى بدلا من المحللين المحنكين فى نفس تلك الدوائر أو فى وكالة المخابرات المركزية». وهى تضيف أيضا «ما رأيته كان عجيبا ومنافيا للمنطق والنظام. وإذا أراد المرء معرفة لماذا ترد فى الخطب الرئاسية لمحات استخبارية محاطة بهالة من القدسية، أو لماذا اتسم احتلال العراق بعد سقوط صدام حسين بالفوضى والخطوات المتعثرة، فلن يحتاج إلى النظر أبعد من داخل مكتب وزير الدفاع».

ولأعضاء تلك الشبكة القوية من السياسيين الجدد المتفقين فى الرأى آراء منحازة ونافذة فيما يخص الشرق الأوسط، رغم أن معظمهم ليس لديه معرفة حقيقية يعتد بها بالمنطقة. وقد اتضح ذلك على سبيل المثال فى الجهل المطبق بالنسبة للهاشميين والشيعة - وهما من الركائز الأساسية للواقع الشرق أوسطى طوال القرون الاثنى عشر الأخيرة على الأقل - والذى ورد فى التقرير الذى شارك فى كتابته «ريتشارد بيرل Richard Perle» ذو التأثير النافذ والأب الروحى لكثير من هؤلاء المحافظين الجدد صغار السن. وإذا ما كان هؤلاء على هذا القدر من الجهل تجاه تلك الأساسيات، فلا يوجد بالشرق الأوسط ما يمكن القول بأنهم خبراء به. بل إن هؤلاء المستشارين الذين أصبحوا خبراء بين ليلة وضحاها، ينظرون إلى الخبرات الواقعية الحقيقية المجسدة فى خبراء الحكومة الأمريكية المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط على أنها - باستثناء قلة من الموثوق بهم - مشكوك بها من الأساس وأنها - بديهيا - مؤشر على ضلال سياسى بين.

لقد أصبحت كلمة «مستعرب» التى يوصف بها المتخصصون فى شئون الشرق الأوسط من العاملين بالإدارة الأمريكية، أصبحت حقا لفظا نابيا داخل أروقة الإدارة لدرجة أفزعت المسئولين الأكفاء بوكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية مما دفعهم لإفساح المجال لغيرهم. وكان ذلك نتيجة لحملة مدروسة ومتفق عليها مسبقا قام بها السياسيون الجدد بالتنسيق مع المنادين بسياسة الانقضاض ضمن شبكة منيعة من المراكز العلمية التقليدية الممولة بسخاء مثل «معهد المشروعات الأمريكى American Enterprise Institute» و«معهد هدسون Hudson Institute» و«معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى Washington Institute for Near East Policy» ورغم عدم تمتع معظم هؤلاء العلميين بخبرة حقيقية فيما يخص الشرق الأوسط، أو كما قال أحد الهزليين فإنهم «لم يتمكنوا من معرفة طريقهم من المطار إلى فندق هيلتون فى معظم عواصم الشرق الأوسط دون الاستعانة بمرشد سياحى»، رغم ذلك فبإمكانهم بكل سهولة وبلا قيود الوصول إلى كافة موجات التليفزيون التى

تهيمن عليها قناة فوكس للأخبار المسيطرة على سوق كوابل البث التليفزيوني، وكذلك الصحف والمجلات المملوكة لأقطاب الإعلام أمثال «روبرت ميردوخ Robert Murdoch » و «كونراد بلاك Conrad Black » وغيرهم من معتنقي الآراء نفسها. ومن خلال وسائل الإعلام تلك نجحوا في خلق مناخ فاسد من التحيز والتضليل فيما يتعلق بالشرق الأوسط، وهو ما كان شرطا مسبقا ضروريا لضمان نجاح السياسات التي تبناها شركاؤهم في العقيدة داخل الإدارة.



تحظى فكرة الإمبراطورية اليوم ببعث جديد مساير للعصر بين قطاعات معينة من صفوة المفكرين الأمريكيين الذين أسكرهم ظهور سطوة أمريكية لا حدود لها

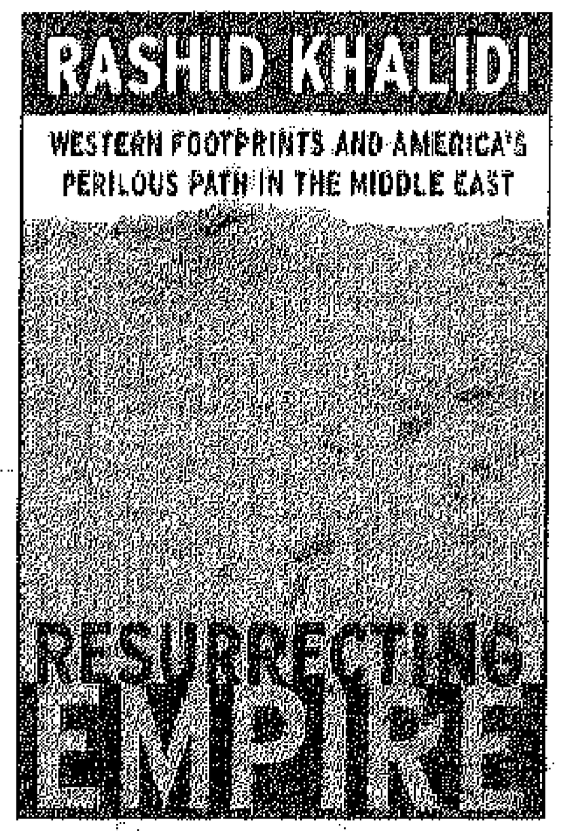
الواقع أن الخبراء في دوائر الجهاز الحكومي الدائم في واشنطن لم يكونوا دائما بعيدي النظر أو على صواب فيما يتعلق بالشرق الأوسط. فلقد فشل معظمهم في توقع الثورة الإيرانية؛ كما أنهم - وبصورة أكثر عمومية - لم يقدروا أهمية ظهور الحركات السياسية الإسلامية المتطرفة في الشرق الأوسط وأماكن أخرى من العالم الإسلامي منذ أواخر السبعينيات حق قدرها، وقد طالت تلك الإخفاقات أيضا العديد من الخبراء الأكاديميين. ويمكن أن نعزو أخطاء أخرى وسوء فهم إلى خبراء الشرق الأوسط بالحكومة. ورغم ذلك فأثناء خلافاتهم مع رؤسائهم من السياسيين الجدد، كان السياسيون القدامى عموما ضحايا للأخطاء أكثر من كونهم مرتكبين لها. لقد أصبح ذلك تقليدا راسخا في واشنطن منذ فضيحة إيران - كونترا أثناء ولاية ريجان، عندما قُدم مسئول كبير بالاستخبارات كبش فداء للفشل الذي منيت به الخطط اللامعقولة التي ابتكرها العقيد «أوليفر نورث Oliver North » ومجموعة الهواة المتواطئين معه. وبالمثل فقد عارض خبراء الشرق الأوسط في الحكومة الأمريكية التأييد الأعمى الذي قدمته إدارة ريجان لإسرائيل أثناء وبعد اجتياحها لبنان عام ١٩٨٢، عندما تدخلت القوات الأمريكية لدعم صنائع إسرائيل هناك. لقد تم تخطي هؤلاء الخبراء بواسطة صناع القرار في القمة مما أدى إلى عواقب مروعة على مشاة البحرية والدبلوماسيين الأمريكيين في لبنان حيث دفع الكثير منهم حياته ثمنا للأخطاء الفادحة التي ارتكبها رؤساؤهم.

ولقد أصبح هذا النمط من الولاء الأعمى المطلق الذي لا يفي الخبرة حقها، واضحا تماما في أسلوب إدارة بوش للحشد من أجل الحرب على العراق عام ٢٠٠٣، ويسود الآن بين المراقبين المنصفين شعور بأن فريق بوش تجاهل بكل بساطة خبراء ومحترفي الاستخبارات الذين كانت لديهم الشجاعة لتقديم بيانات تخالف الآراء المعلنة للفريق. بل إن أعضاء الفريق ومندوبيهم في وسائل الإعلام، وكذلك أقطاب الفكر اليميني، صبوا جام غضبهم على أولئك المحترفين الذين انشقوا عن المعتقدات الراسخة التي فرضوها. وعلى ذلك قامت إدارة بوش ببساطة باصطناع نتائج الاستخبارات عن نظام صدام حسين بما يتفق مع تصوراتها الموضوعة مسبقا، ما بين امتلاك العراق لأسلحة غير تقليدية إلى صلاته بالإرهاب. لقد خدعوا الاستخبارات مثلما نجحوا في خداع الجميع، وكانوا من السذاجة بحيث توقعوا أن الحقائق ستكون طوع أيديهم في النهاية بحيث تتوافق مع خيالاتهم الفكرية الملهمة، وأنه لن تكون هناك عواقب يتوجب عليهم مجابهتها لاحقا. والمحصلة حتى الآن في العراق أكبر دليل على فداحة الخطأ الذي وقعوا فيه، بينما كان الجنود الأمريكيون وعمال الإغاثة الدوليون والمدنيون العراقيون هم من دفعوا ثمنا باهظا لتلك الحماقات.

يمكن الجدل بأن خبراء الشرق الأوسط الحكوميين في واشنطن لم يكن عليهم سوى التعامل مع القضية بنفس الأسلوب الذي يتعامل به دائما المسئولون في كل الديمقراطيات، ألا وهو أن يسمعوا رؤساءهم من الساسة ما قد لا يرغبون بسماعه. ولكن تلك كانت قضية شائكة بوجه خاص في إدارة بوش الابن فيما يختص بالسياسة الخارجية عموما، حيث إن الذين عينهم في المناصب العليا كانوا عامة راغبين في سماع نغمة معينة وحيدة تتفق مع آرائهم وليس لحنا طويلا يكشف الحقائق بصورة أفضل. كان من الواضح بالنسبة للشرق الأوسط على وجه الخصوص أن العديد من أكبر المسئولين في تلك الإدارة لديهم آراء انفعالية وأهواء متأصلة قديمة جعلتهم يصمون آذانهم عن الحقائق أو الآراء التي تخالف معتقداتهم الراسخة.

وعلى العكس من ذلك، فعندما اكتمل صرح الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، فإن كبار صناع القرار البريطانيين أمثال «أسكويث Asquith» و«لويد جورج Lloyd George» و«جراي Grey» و «كيتشنر Kitchener» و«تشرشل Churchill » و «كورزون Curzon» تلقوا نصحا مخلصا من رجال من داخل حكوماتهم ذوي خبرات كبيرة بالمنطقة، وكذلك من رجال (وامرأة أو امرأتين) من داخل وخارج الجهاز الحكومي ممن أمضوا سنوات عديدة عيشا وعملا في الشرق الأوسط. قد نلقي اللوم على أشخاص لعبوا دور كبار المستشارين مثل «ت.إ. لورانس T.E. Lawrence » و «جيرترود بيل Gertrude Bell » و «بيرسي كوكس Percy Cox» والرائد «د. إ. هوجارث D.E. Hogarth » والعقيد «جلبرت كلايتون Gilbert Clayton » و «هـ. سانت جون فيلبي H. St. John Philby » بسبب أهوائهم المتحيزة وإخلاصهم للرؤية الإمبراطورية لبريطانيا ولأخطائهم العديدة. ولكن لا يمكن إنكار معرفتهم الطويلة المباشرة بالشرق الأوسط وبلهجاته وشعوبه وتاريخه. لقد أصدر بعضهم أعمالا علمية وأدبية عن الشرق الأوسط يمكن الرجوع إليها والاستفادة منها حتى اليوم.

وإذا عدنا إلى الساحة الأمريكية نجد أن الخبراء القدامى بالحكومة عادة ما يفضلون، بدلا من مشاهدة تحريف وتحوير آرائهم بواسطة مؤسسي الجهاز الحكومي كما يحدث في واشنطن اليوم، أن يقدموا تقاريرهم ونصائحهم بصفة شخصية إلى وزراء الحكومة مباشرة الذين يتحملون المسئولية الكاملة عن قرارات السياسة الخارجية، بالإضافة إلى أنهم أنفسهم لديهم في أحيان كثيرة خبرات شخصية واسعة بالشرق الأوسط. ومن بين وزراء الحكومة البريطانية الذين أعادوا تشكيل الشرق الأوسط أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، قضى عدد منهم مثل «كيتشنر» و «تشرشل» و «كورزون» جزءا كبيرا من حياتهم في الشرق الأوسط ووسط وجنوب آسيا، كما درسوا تلك المناطق بعناية وكتبوا عنها بإسهاب. هؤلاء الثلاثة كانوا كلهم إمبراطوريين حتى النخاع، ولا يمكن القول بأنهم فضلوا مصالح الشعوب الخاضعة لسيطرتهم على مصالح بريطانيا العظمى، ولكنهم على الأقل كانت لديهم خبرات مباشرة بكثير من مناطق الإمبراطورية مترامية الأطراف. ولا يمكن أن يكون التناقض أوضح مما هو الآن مع حالة إدارة بوش؛ فمعظم كبار صناع القرار بها - باستثناء «كولين باول» - ليست لديهم خبرات مباشرة مؤثرة أو طويلة بالعالم خارج حدود الولايات المتحدة، وقد تم تحصينهم بعناية ضد سماع نصائح



الخبراء التى تتعارض مع معتقداتهم الفكرية المسبقة.

إن المعضلة التى تواجهها الولايات المتحدة اليوم لا تتعلق بالخبرة وحدها، رغم أنه قد اتضح تماما حتى الآن نتيجة للمشاكل التى واجهت قيادة الاحتلال الأمريكى فى بغداد أن هناك نقصا فادحا فى الخبرات الحقيقية لدى أعلى الدوائر فى الحكومة الأمريكية تجاه أحداث العراق. وهناك تعارض آخر بين إطلاق إدارة بوش العنان لحملة متهورة لاحتلال أفغانستان والعراق وربما دول أخرى بالمنطقة والسيطرة عليها، وبين الشعور الطبيعى لدى تلك الشعوب ضد أن يحكمهم غرباء حتى لو كانوا قد خلصوهم من أنظمة ممقوتة. ولا يمكن لأى قدر من معسول الكلام عن الديمقراطية - حتى لو كان صادقا أحيانا - أو اللعب على أوتار الشرور التى ارتكبتها طالبان وحزب البعث - حتى وإن كانت كلها حقيقية - والتى انتهت لحسن الحظ بعد تدخل الولايات المتحدة، أن يتوازن مع هذا التناقض الهائل. والشعوب - كقاعدة عامة - لا تقبل أن يحكمها آخرون قادمون من أقصى الأرض، حتى لو توفرت لديهم النوايا الحسنة. وعلى الأمريكيين الذين كان استقلالهم أيضا نتيجة لمشاعر مماثلة أن يكونوا قادرين على تفهم هذه الحقيقة البسيطة.

قامت إدارة بوش ببساطة باصطناع نتائج الاستخبارات عن نظام صدام حسين بما يتفق مع تصوراتها الموضوعة مسبقا، ما بين امتلاك العراق لأسلحة غير تقليدية إلى صلاته بالإرهاب

ويبدو أن أكثر ما يؤلم ذوى المعرفة الحقيقية بالمنطقة هو عدم استعداد من بيدهم مقاليد الحكم فى واشنطن للاعتراف بأن الولايات المتحدة - عامدة أو غافلة - تحل الآن فى هذه المنطقة الشاسعة من العالم محل القوى الإمبراطورية السابقة، وأن ذلك ليس بالشىء الطيب ويستحيل بالتالى تحقيقه بطريقة صائبة. وبالمثل، يبدو - فيما يخص المغامرة العراقية - أن هناك حتى الآن إعراضا كاملا من قبل معظم كبار صناع القرار فى إدارة بوش عن البدء فى قراءة متأنية لتاريخ الشرق الأوسط، أو أخذ القوى السياسية المؤثرة فى المنطقة على محمل جدى. لقد كان من الممكن تجنب الكثير من النكبات التى أصابت المنطقة والولايات المتحدة والعالم لو روعيت حقائق الشرق الأوسط بالقدر الذى تستحقه بدلا من الاستجابة لإلحاح المتطرفين ذوى النفوذ داخل وخارج الإدارة الأمريكية والذين كانوا يروجون صورة زائفة وجاهلة لتلك الحقائق. ومع ذلك فلو روعى هذا الآن لأمكن تجنب عواقب أكثر سوءا فى المستقبل.

إن الولايات المتحدة والعالم يواجهان الآن فى العراق موقفا ليس لصعوبته سابقة. فهناك استياء شديد بين العراقيين - بمن فيهم الممتنون للإطاحة بنظام حكم البعث - بسبب شهور الفوضى فى العراق منذ نهاية الحرب ولامبالاة سلطات الاحتلال الأمريكى تجاه تلك الفوضى، وبسبب بطء وتيرة التحرك تجاه تشكيل حكومة عراقية وطنية حقيقية. وكمعظم جيوش الاحتلال، وكما حدث للبريطانيين فى العراق من قبل بعد الحرب العالمية الأولى، قوبل الجنود الأمريكيون فى العراق بعداء مطرد تحول فى النهاية إلى مقاومة مسلحة واسعة النطاق. ومما زاد الطين بلة الشلل الذى أصاب السلطات الأمريكية فى بغداد والذى يعكس شلل الحكومة فى واشنطن بسبب تنازع مختلف الأطراف فى الإدارة على إصدار القرارات فى العراق، وانتهاج خط فكرى متشدد أدى عكسيا فى النهاية إلى انتشار الروح الانهزامية. وقد أدى الاعتماد فى تشكيل الحكومة العراقية على المنفيين بالخارج الذين تفضلهم وزارة الدفاع الأمريكية بينما يعافهم معظم العراقيين حيث يعتبرونهم دخلاء، أدى ذلك بالفعل إلى زعزعة مركز الولايات المتحدة فى العراق، وقد يؤدى إلى ما هو أسوأ عندما يبدأ رد الفعل الذى لامناص منه ضد الاحتلال. وكما اتضح من تقارير وسائل الإعلام غير الأمريكية عن الأوضاع على أرض العراق، فإن ما ظهر حتى الآن هو فقط قمة الجبل الجليدى الذى لم تكشف وسائل الإعلام الأمريكية بعد عن كامل كتلته، رغم أن أعداد القتلى الأمريكيين فى العراق و بقاء الجنود النظاميين والاحتياط لفترات طويلة هناك قد ألقى بظلاله فى النهاية على الرأى العام الأمريكى.

ويجب أن يتضمن أى حل للقضية العراقية التعرف إلى بعض الحقائق الأساسية. أول تلك الحقائق أنه كانت فى العراق، مثلما الوضع فى معظم بلاد العالم اليوم - دولة مصطنعة طورت - مثلهم - هوية قومية قوية وحسا وطنيا صمد فى حرب ضروس لمدة تسع سنوات ضد جارتها الكبيرة إيران. إن تجاهل الشعور الوطنى عمل غير حكيم على الإطلاق، وهو بالضبط ما فعله مجلس الحكم الانتقالى. وثانى الحقائق أن دولة العراق أنشئت طبقا لمعاهدات دولية وعلى يد عصبة الأمم وهى الهيئة الدولية الموجودة آنذاك، رغم أنه يبدو أن المجتمع الدولى قد نسى هذه الحقيقة منذ زمن طويل. ومعنى ذلك أن القضية العراقية هى مسئولية عالمية. وثالث الحقائق أن لدى العراقيين وغيرهم فى الشرق الأوسط حسًا قويًا بالتاريخ. وبالإضافة إلى أنهم لم ينسوا أبدا تجربتهم مع الاحتلال البريطانى، فهم يتذكرون بوضوح شديد تاريخ كل احتلال سابق لبغداد، بما فى ذلك احتلال عام ١٢٥٨ عندما نهبها المغول. ومن الأمثلة الواضحة على الاستخفاف بمشاعر الشعب العراقى ما فعلته الولايات المتحدة من إشراك فرقة رمزية من الجنود المغول ضمن قوات التحالف.

إن الولايات المتحدة تتمتع فى الشرق الأوسط وفى معظم بقاع العالم الأخرى بالسيطرة الاقتصادية والهيمنة الثقافية والقوة العسكرية الضارية. ورغم قدرتها على تقطيع أوصال الشرق الأوسط بسهولة فقد كشفت الولايات المتحدة مرة بعد مرة عن عجزها عن التأثير على بعض المقدرات هناك والتى تأتى على قمة سلم أولوياتها. وإذا كان ذلك يشكل درسا فهو درس فى مدى محدودية تلك القوة الضارية وفى قدرة الحقائق المحلية البسيطة والعنيدة على الإطاحة بأكثر المخططات الفكرية تعقيدا. من الواضح أنه لا يوجد فى الشرق الأوسط من هو قادر على المقاومة المباشرة للقدرة العسكرية للولايات المتحدة، وكمثال واضح على ذلك فقد لقى الجيش العراقى أمامها هزيمتين ساحقتين خلال اثنى عشر عاما. ورغم أن بريطانيا وفرنسا لم تقهرا معظم بلدان المنطقة بهذه السهولة، فقد انتصرتا فى النهاية على مقاومة القوات العسكرية التقليدية مثل المماليك، وجيش عرابى، والعثمانيين فى فلسطين وبلاد ما بين النهرين، والملك فيصل فى دمشق. ومع ذلك فلم تتمكن أى من القوتين من السيطرة المباشرة على معظم بلدان المنطقة لمدة طويلة دون أن تدفع ثمنا باهظا. ويجب علينا كأمريكيين أن نفكر كثيرا بالثمن المتوجب دفعه، والذى يشمل الأرواح والثروات والسمعة، قبل أن نستسلم لقرع طبول من يحاولون إقناعنا أن الإمبراطورية سهلة ورخيصة وأنها فى جميع الأحوال تستحق الثمن المدفوع فيها. ■

للفـــــــئران..

□□ باستثناء الهَمَستَر (Hamster) ذلك الحيوان القارض، الشبيه بالفأر، والذى استؤنس وسَمَح له «بعض أطفال» الغرب بمشاركتهم اللعب، مثله فى ذلك مثل الطيور والحيوانات الأليفة، يظل العداء مستمرًا بين الإنسان وكل فصائل الفئران المكروهة البغيضة والمطلوب إبادتها لأنها تخيفنا وتكاد تأكل أطفالنا وتنقل إلينا الأمراض، وأخطرها الطاعون. وهذا المقال يلخص فصول كتابين جديدين، صدر أحدهما العام الجارى ويصدر الثانى العام المقبل، ويتناولان فئران المدن والعلاقة الجدلية التاريخية بينها وبين المكان والإنسان، ويجسدان نوعًا من السرد الإبداعى للأبحاث والتجارب العلمية والحقائق التاريخية للبيئة والكائنات الحية، ويحقق فى أسواق النشر العالمية أعلى المبيعات ويضع كتابه فى مصاف «الأوسع انتشار» فى عالم الإبداع.

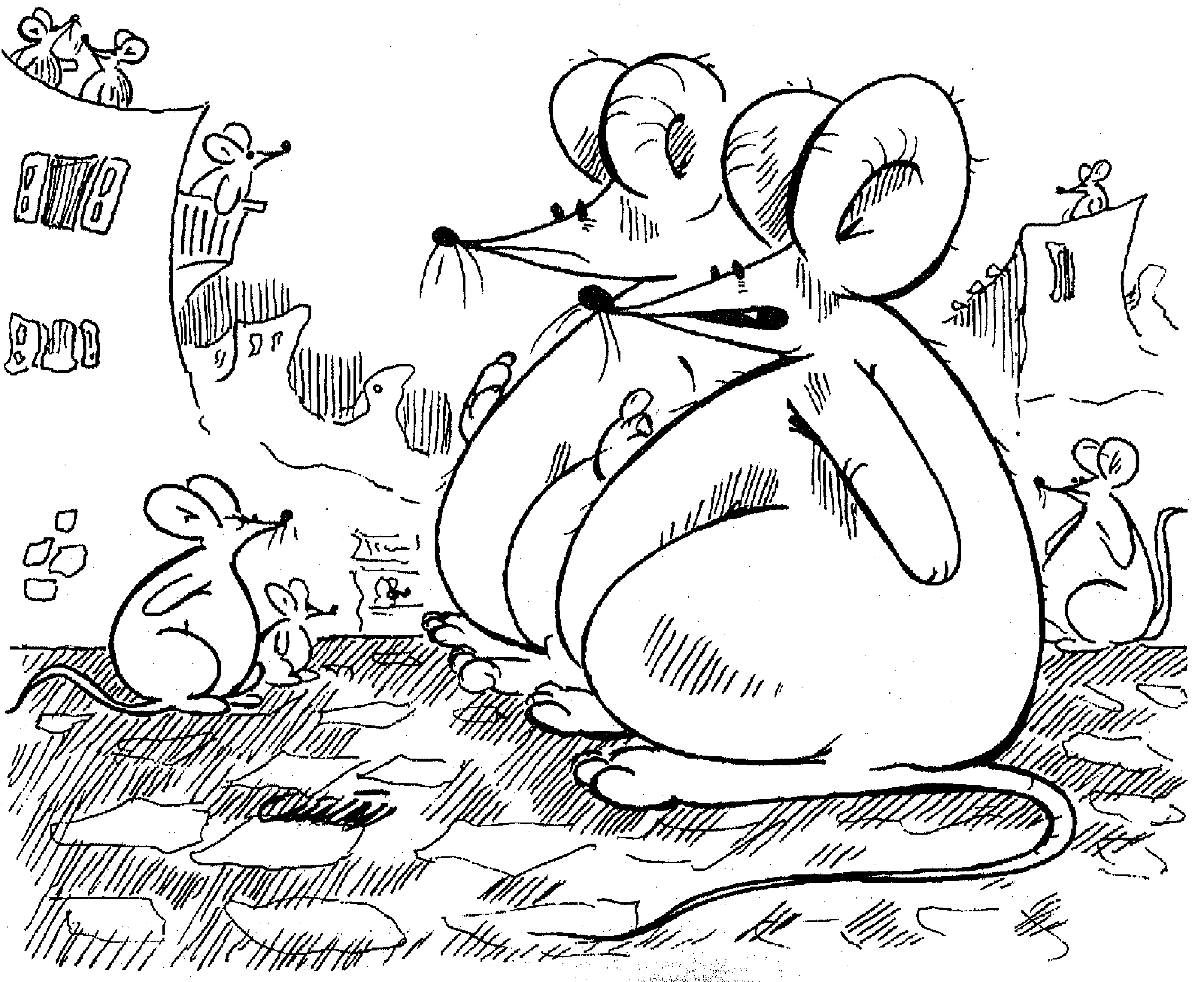
المحـــرر

[١]

فى الأمس القريب، وأنا أعبر فناء مدرسة ابنتى، لمحت أحد طلبة الصف الرابع يداعب أنف فأر مستأنس. لحظتها تذكرت صغيرتى وهى تقول لى. قبل سنوات . إن فأرًا تسلل إلى فراشها وكاد يعضها. كنا وقتها نعيش فى مدينة نيويورك، وكان اقتراب الفأر من سرير ابنتى من بين الأسباب التى أقنعتنى بأن الوقت قد حان كى نهجر المدينة. والحقيقة أنه لا توجد مدينة بدون فئران تسعى بدأب إلى «الازدهار» والتناسل فى أماكن تمكنها من ممارسة «هوايات» من بينها عض الصغار، ربما بسبب بقايا وآثار الطعام التى تعلق بوجوههم. فالفأر لا يكون فأرًا ما لم ينتهز الفرص. وفى رائعته الكلاسيكية «فئران الواجهة المائية» Rats on the Water Front، التى نشرت لأول مرة عام ١٩٤٤ فى مجلة The New York Ker وسلطت الأضواء على «فئران المدن» أثبت جوزيف ميتشل Joseph Mitehell أن فئران مدينة نيويورك تتميز عن فئران المزارع بالذكاء وسرعة البديهة وأنها «أبعد نظرًا من أى إنسان لم يقم بدراسة عاداتها».

هذا العام ٢٠٠٤ خرج علينا روبرت سوليفان Robert Sulivan بدراسة منهجية بديعة «الفئران: ملاحظات حول تاريخ وبيئة سكان مدينة غير مرغوب فيهم». وفيها يبدأ من حيث توقف جوزيف وأنهى أنشودته القديمة. ويبدو أن سوليفان يصنع تاريخه المهنى وسط النفايات متنقلاً بين القاذورات. فبعد أن وضعه كتابه الأول «أرض الأعشاب والطحالب» The Meadow Lands فى مصاف الكتاب الأوسع انتشارًا، يقول عن كتابه الثالث. ويفسر الدوافع وراء هذا المشروع. بـ«وجود قواسم مشتركة بينه وبين الفئران تتمثل فى النزوع الطبيعى إلى مناطق مائية لا تستطيع السفن الاقتراب منها. مناطق يراها بعض محبى الجمال غير جميلة، وفاسدة: المستنقعات ومستودعات النفايات عند قاع المدينة والأماكن المظلمة النتنة القريبة من مصادر المياه الراكدة كريهة الرائحة. ومثله مثل هواة التاريخ الطبيعى أمضى سوليفان سنة كاملة بين الحيوانات الثديية الأكثر إثارة للتقزز والتجاهل، التى لم يجد لها أى ذكر فى المراجع التى استعان بها. وباستثناء فئران مقاطعة «البرتا» الكندية، تعرف فئران «سوليفان» والفأر الذى تسلل إلى فراش ابنتى، وكل فئران نيويورك، بل وأمريكا الشمالية بشكل عام، بأنها نوع من الفئران يطلق عليها اسم الفئران النرويجية وهى رمادية أو بنية اللون، جسمها يمتد إلى مسافة «القدم» دون حساب لطول الذيل، ووزنها يقارب «الرطل» ونراها أحيانًا مندفعة فوق قضبان مترو الأنفاق أو حول نفايات المطاعم. تشير «التسمية» إلى أنها جاءت من النرويج، والواقع أنها نشأت فى جنوب شرق آسيا وانتقلت إلى سيبيريا عبر الصين ومنها إلى روسيا حيث عبرت نهر الفولجا وبحر البلطيق. ومع مجيء القرن السادس عشر «الميلادى» استقر الفأر البنى اللون فى إنجلترا وساد اعتقاد أنه وصلها عبر النرويج داخل السفن المتقاطرة على الجزر البريطانية؛ ولهذا سمى بـ «النرويجى» وربما يكون جاء من الدانمرك مالكة النرويج فى ذلك الوقت. المهم أنه عبر المحيط الأطلنطى مع البريطانيين إبان الثورة الأمريكية. ولم يبدأ فى التوسع والانتشار إلا بعد أن خمدت بوقت طويل. ولقد نجح فى الوصول إلى كل ولاية أمريكية وأسس لفصيلته «مقرًا» فى جزيرة مانهاتن. نيويورك فى العام ١٩٢٦.

أول مكان وطأته أقدام «الفأر البنى» كان ميناء نيويورك. هناك، وفى أحشاء المدينة بدأ سوليفان تتبع خطواته على



1- Rats: Observations on: History and Habitat of the City's most Unwonted inhabitants
(الفئران.. ملاحظات حول تاريخ وسكان مدينة غير مرغوب فيهم)
Robert Sulivan
Blooms bury
2 - Animals in Translation
(محاولة لفهم الحيوانات)
Temple Gradin & Catherine Johnson
تحت الطبع عام ٢٠٠٥

بترتيب مع
The New York Review of Books
ترجمة: جمال إسماعيل

تاريخ!!

سو هالبيرن

هدى خطوات جوزيف ميتشيل، كى يلقى نظرة قريبة على الفئران المتوحشة فى محيطها الطبيعى (المدينة). ولأن الفئران لا تنشط إلا فى الظلام، يتسلح سوليفان بمعدات الرؤية الليلية ويبتاع من «الأدوات» ما يساعده على إقامة نقطة مراقبة فى منطقة عقارات مهملة تعرف باسم Edens Alley (الزقاق أو الممشى الذى تكتنفه الأشجار) الذى تبدو حجارة طرقاته كالأسنان المهترئة ويبدو كالمكان المنسى فى مركز المدينة.

أخذ الزقاق اسمه عن ميدسف إيدن Medcef Eden المالك القديم للعقارات التى تقع اليوم فيما يطلق عليه Times Squar، على مقربة من مركز التجارة العالمى الذى كان لايزال شامخاً ببرجيه (قبل ١١ سبتمبر) عندما بدأ سوليفان دراسته فى المكان الذى يعد مرتعاً نموذجياً للفئران ومصدراً لغذاء وفير لها بفضل وجود أحد المطاعم الصينية وحانة أيرلندية، وسوبر ماركت كبير.

كان أول ما لاحظه سوليفان، فى هذه المنطقة، أن الفئران محبة للتلاصق وتحتاج دائماً لأن تكون أفخاذها لصق الحائط الذى تتحرك حوله، وعادة ما تتجمع فى الناحية نفسها، قرب الممر المؤدى إلى مصدر الغذاء. حرص سوليفان على مراقبة مدى قدرة الفأر على الحركة السريعة فسجل سرعة تصل إلى ٦ أميال فى الساعة. حاول، مع بعض رفاقه اصطياد أحدها لمزيد من الملاحظة عن قرب. واستعان من أجل ذلك، بزبدة فول الصويا، ملفوف ورق العنب، السردين، والسيد «ديريك» أحد «رفاق» الزقاق وهو من المشردين وأصحاب الدراسات «الخاصة جداً» حول الفئران بحكم المجاورة فى المكان. وقد راح ديريك يجهز لما بدا وكأنه هجوم مباغت وعنيف ضد مائة من الفئران التى اندفع خلفها عبر مجارى المياه الضيقة بينما وقف سوليفان ورفاقه يراقبون وقد تحولوا . ريما بفعل الخوف. إلى «أفخاذ» ملتصقة بالجدار:

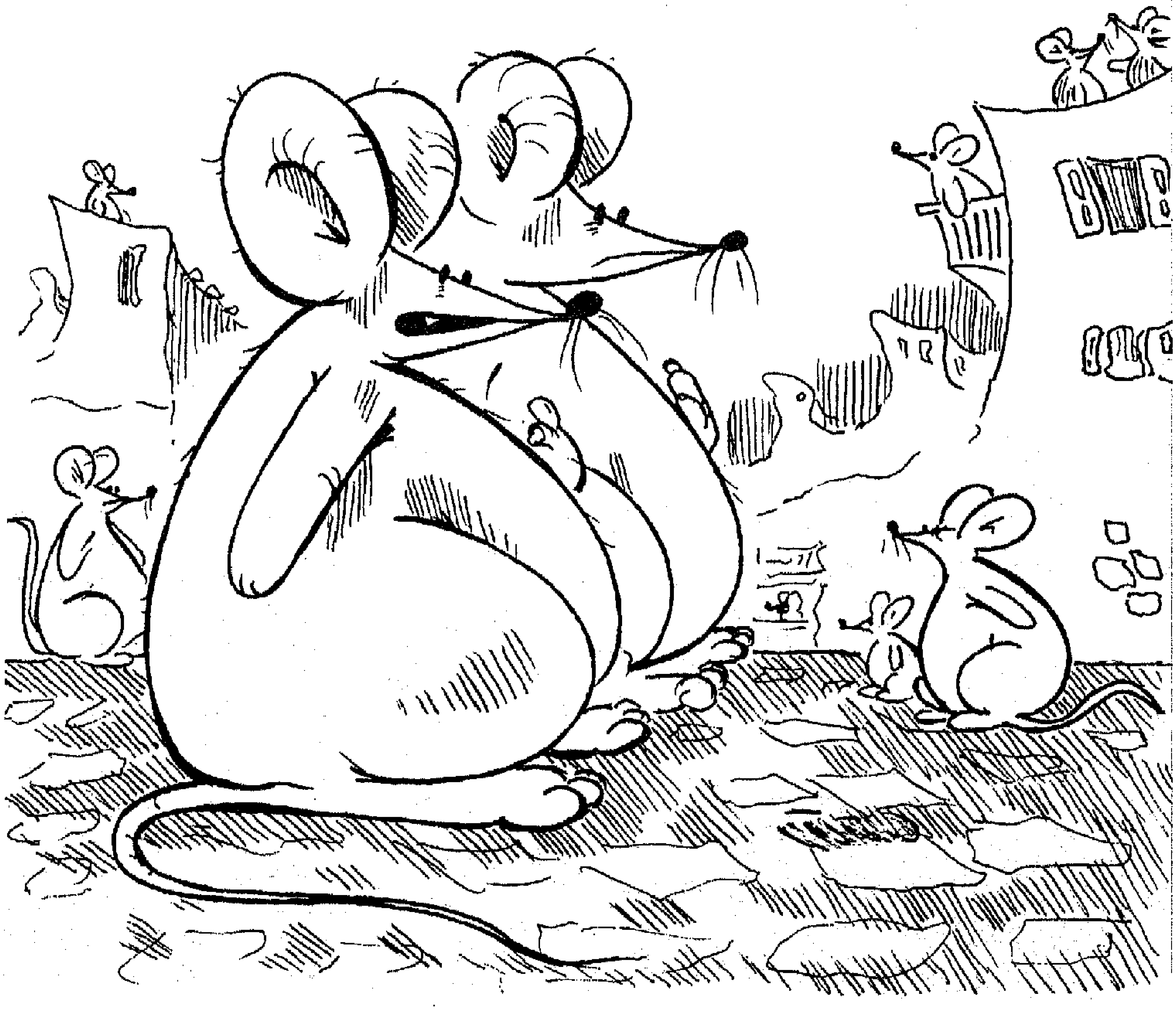
«تحركت الفئران كسرب قطيع.. ثم تدافعت وراح كل فأر يحاول تجاوز الفأر الذى أمامه.. منهم من سقط وانقلب على ظهره.. ومنهم من قفز يجرى فوق ظهور الرفاق. بينما وقفت ومعى Matt ËDave، لصق الحائط ويدونا وكأننا قطع لحم التصقت حول سيخ شواء نراقب المشهد بدهشة ممزوجة بهستيريا صادمة، وقررنا . بالغريزة على ما اعتقد . أن البقاء دون حراك أفضل كثيراً من العدو جرياً بعيداً عن المكان.

وبالإضافة إلى ديرك، استعان سوليفان برهط من الخبراء الآخرين سبق لمعظمهم العمل فى فرق إبادة الفئران التى تعد أعمالها، وخبرات رجالها، تحظى باحتفاء أو تمجيد. ويرى سوليفان أن «الصحفى المتخصص فى الفئران» يمكن أن يتعلم من العاملين فى حقل المبيدات أكثر مما يتعلمه وهو جالس فى مكمنه يسجل الملاحظات:

«الساعة الآن الخامسة و٢٤ دقيقة. احتسيت القهوة وبعد ساعات من المراقبة رأيت أول فأر يظهر هذه الليلة. دار حول البناء ثم عاد مرة أخرى عبر الممشى باتجاه موقع قمامة الحانة الأيرلندية إلى جوار المطعم الصينى. حاولت السيطرة على نفسى للحفاظ على حد من القدرة على المتابعة والتحليل. ورغم ذلك حدث ما هو حادث الآن: لقد تسمرت فى مكانى بفعل حركة تلقائية تشبه حركة الفأر نفسه فى تشبثه بالحائط واحتضانه له، وربما بسبب أن الظهور المفاجئ للفأر كان بالنسبة لى كظهور معجزة ضالة.. وشريرة.. وفى السادسة و٣ دقائق أخرجت الحانة الأيرلندية المزيد من نفاياتها داخل كيس قمامة ألقى به إلى الأرض فرقد فى وضع يغرى الفئران بالقرض».

كان مبيدو الفئران الذين استعان بهم سوليفان، يشعرون بملل كبير رغم احتمال حصولهم على مقابل أكبر لعملهم. إلا أن هذا العمل محكوم عليه بالفشل. «الفشل» كلمة تعنى «نجاح» واستمرار ازدهار أعمالهم. وإذا أنت قضيت على الفئران قضيت على حاجتك إلى صائد فئران. لكن هذا «القضاء» لن يتحقق، فى المستقبل المنظور. و«عدم التحقق» لا يتعلق هنا بنجاح الرجال أو فشلهم بقدر ما يتعلق بعمليات التناسل والحسابات الخاصة بقدرة الفئران على إنتاج المزيد من الفئران. القاعدة هى أن الفئران عندما لا تكون مشغولة بالأكل تكون مشغولة بممارسة الجنس والتناسل. ويستطيع الفأر أن يجامع ربما ٢٠ مرة فى اليوم. الفأرة تمارس الجنس مع أكبر عدد ممكن من الفئران. الذكر. ويستطيع الفأر المسيطر القوى أن يجامع ٢٠ فأرة خلال فترة لا تتجاوز ست ساعات. والفئران الضعيفة، التى تطردها فئران قوية بعيداً عن أماكن تواجد الإناث، تلجأ إلى العيش فى مستعمرات ذكورية وتجامع، وتتناسل، فئراناً ذكورية. زوج واحد من الفئران يستطيع إنتاج ١٥ ألف فأر. على التوالى . فى عام واحد.

هذه القدرة الفائقة، على الجماع والتناسل، لدى الفئران، روجت لاعتقاد سائد مفاده أن هناك فأراً لكل مواطن فى مدينة نيويورك. «الأرقام» واضحة سواء فى بحث جوزيف ميتشيل المُهدى إلى هيئات الصحة العامة، أو فى تقارير ووثائق الأمم المتحدة، ومنذ تلك الدراسة التى أعدها ديفيد ديفز David Davis، الملقب بـ «الأب الروحى للفأر» وفيها قدر أن النسبة عام ١٩٤٩ كانت فأراً واحداً لكل ٣٦ مواطناً. كل هذه الأرقام تجسد أن لدى الفئران قدرات لا يستطيع الإنسان العادى تخيلها وأن



تتميز فئران مدينة نيويورك، عن فئران المزارع بالذكاء وسرعة البديهة وهي أبعد نظراً من أي إنسان لم يقم بدراسة عاداتها

تلك القدرات أكثر أهمية من شفافية الأرقام ذاتها. إن الفئران تخيفنا، ترهبنا، وتتحدانا بوقاحة. إنها تعيش داخل بيوتنا وتأكل بين جدراننا وتقرض أطفالنا وتنقل إلينا الأمراض. والأمراض. بدورها. تصيبنا بالهلع.

ولأن الطاعون هو الوباء الأكثر اقتراناً بالفئران. ومعها البراغيث. فقد قدم لنا سوليفان جرعات مكثفة عن الوباء وكيف ذكر في الإنجيل، ومسبباته، بعملية جاذبة، وبغزارة الكاتب العارف. لكن اللافت هنا أن الطاعون، أو ذلك الوباء الذي أبحر كثيراً حول الكرة الأرضية، تفشى في الولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٠٠.. وهو العام الذي صادف أنه «عام الفأر» حسب التقويم الصيني. وتزداد الدهشة إذا علمنا أن أول حالة وفاة بالطاعون وقعت في بيت بالحي الصيني في سان فرانسسكو والغريب أن وجهاء المجتمع الصيني. الأمريكي قرروا إحاطة نبأ تفشي الوباء بطوق من السرية وعاونهم على ذلك نخبة من رجال أعمال المدينة الذين خافوا من انعكاسات المعلومات الحقيقية على رواج بضائعهم فدفعوا الأموال إلى الأطباء لكي يكذبوا، وإلى رجال الصحافة لكي يكتبوا معلومات مضللة، ونجحوا في إبعاد العناصر الفاعلة في المكافحة للعدوى إلى خارج المدينة.

وما حدث في سان فرانسسكو تكرر حدوثه في مدينة نيويورك مع عودة الوباء عام ١٩٤٣، فرضت السرية التامة نفسها وإن اختلفت الأسباب وقد تبين بعد سلسلة من التحريات أن السفينة وايمنج Wyoming، القادمة لتوها من شمال أفريقيا، حيث كان الطاعون قد تفشى، قد سمح لها بأن ترسو في ميناء نيويورك وتفريغ شحنتها. ووسط براميل النبيذ وطرود الدخان تم العثور على بقايا فئران وتبين. معملياً. أنها حاملة للبكتيريا العضوية المسببة للطاعون رغم أن السفينة تم تعقيمها بدخان مطهر قبل الدخول إلى الميناء. وقتها أعرب المسئولون عن الصحة العامة عن خشيتهم من احتمال تسلل بعض الفئران من السفينة إلى الميناء، وشنوا حملة بحث مضنية، لكنها فشلت، بين فئران الواجهة المائية لمنهاتن، ستاتن إيلاند، بروكلين، وكل مكان رست فيه السفينة. وفي العام ١٩٤٤ كشف النقاب لأول مرة عن فوضى ما حدث عندما نقل جوزيف ميتشل عن روبرت أولين Robert Olesen، من هيئة الصحة العامة، قوله: كان همنا أن نمنع الصحف من النشر حتى لا يصاب الناس بالهلع من الطاعون.

[٢]

الخوف من الطاعون هو نفسه الخوف من الفأر. ويبدو أن هذا الخوف العميق يحجب عنا ما بيننا وبين الفئران من قواسم مشتركة. من بين تلك «القواسم» أننا نحب الطعام نفسه المحبب لدى الفئران، مع ملاحظة وجود فارق وحيد يتمثل في ما لدى الفئران من قدرة فائقة في الفكين تسمح لها بضغط كميات هائلة من الحجارة والأسلاك النحاس و«خلطات» غذائية متنوعة كوجبات سريعة. وخلال دراسة بعنوان «تحليل أولي للنفايات التي تعد طعاماً للفأر» أحضر مارتن شين Martin Schein، الباحث في سلوكيات الفئران، أكياس قمامة متنوعة المحتوى، وراقب ما فعلته الفئران وما تركته خلفها. وأظهرت الدراسة أن الفئران لم تقدم على أكل الشمندر (البنجر) غير المطبوخ، لم تقترب من الكرنب والقرنبيط والجزر وغير ذلك من ثمرات نيئة، وأقبلت . كالأطفال. وبنهم واضح على السبانخ المطهية.

ومن «الأمور المشتركة»، الأكثر أهمية، بيننا وبين الفئران أنها أول الحيوانات الثديية التي استخدمت، وتستخدم. في تجارب وأبحاث تصنيع الدواء المعالج لأمراض الإنسان. وفي تقرير علمي حديث «نشرته مجلة Nature في أبريل ٢٠٠٤» تبين أن البشر والفئران لا يتفقان في عدد الجينات فحسب، بل إن معظم الجينات متماثلة من حيث وظائفها داخل كل من الإنسان والفأر. أضف إلى ذلك أن تمبل جراندين Temple Grandin، أستاذة علم الحيوان في جامعة كولورادو أثبتت في كتابها الذي يصدر العام المقبل ٢٠٠٥، بعنوان Animals Translation، أن الإنسان والحيوان يتشابهان في «الخلية العصبية» وإن اختلفا في سبل استخدامها. ويذكر عن «بروفيسور جراندين» أنها بمثابة «الأب الروحي» والمعلم المرشد في «صناعة إدارة الحيوان» نظراً لاهتماماتها الواسعة وإسهاماتها العلمية التي جعلت من المجازر و«السلخانات» داخل أمريكا، وخارجها أيضاً، أماكن «أكثر إنسانية» وقد ذاع صيتها بعد أول كتاب لها عن داء التوحد Outism، عنوانه «التفكير في صور» Thinking in Pictures وحظي باهتمام بالغ ليس فقط لأن جراندين نفسها تعيش داء التوحد Outistic ولكن لأن هذا التوحد الذي تعيشه هو العنصر الحاسم والأساسي وراء فهمها المتفرد للحيوان، وقدرتها الفائقة على التواصل معه والإحساس به إلى درجة تمكنها من أن «تضع نفسها في مكانه» وتتقمص حاله بقوة. ويروي الناقد الأدبي أوليفر ساكس Oliver Saks كيف استطاعت، في شبابها، تجهيز ماكينة تصدر عنها أصوات من شأنها تهدئة وتخفيف قلق الأبقار وآلام توترها وهي تساق إلى منطقة الانتظار قبل ذبحها.

يبدو «التوحد» وكأنه «محطة» في منتصف الطريق ما بين الحيوان والإنسان. وفي كتابها الغني الجديد، ومعها كاثرين جونسون Katherine Johnson تقول جراندين بوضوح وجرأة:

«إن التوحد هو الذي يضعني في الموقع المثالي لترجمة ما يقوله الحيوان إلى لغة إنجليزية واضحة لإبلاغ الناس لماذا يقدم الحيوان، أو لا يقدم، على القيام بفعل ما».

تستند جراندين، فيما تقوله، إلى رؤية علمية لبيئة الحيوان وما بها من سلبيات، وذلك في سياق متفرد، وتضيف:

«لن أقول لك إن البقرة قالت إنها رأت فنجاناً أبيض اللون وبه قهوة.. هناك فوق الحشائش. لكنني أدرك أن ظلاً بعينه يسقط فوق مدخل الحظيرة هو الذي أجبر البقرة على التوقف وعدم المضي في طريقها. إن الإنسان «المتوحد»، وكذلك الحيوان، لا يدرك الأفكار التي وراء الأشياء. إنه يرى الأشياء ذاتها. «المتوحدون» يرون التفاصيل التي تصنع العالم، بينما يرى الإنسان الطبيعي تلك التفاصيل كـ «كتلة ضبابية» داخل نظرته العامة للعالم».

لقد احتاج روبرت سوليفان إلى أسابيع وشهور عديدة قبل وبعد تمركزه عند «ممشى ايدنز» لكي «يركز» و«يميز» ويرى الفئران. ولقد رآهم بعقله أكثر مما رآهم بعينيه لأن عقله هو الذي سبق ومارس رؤيتهم «في مخيلته». وعلى النقيض من ذلك نرى «المتوحدون»، وكذلك الحيوانات، في غير حاجة إلى «التركيز» على الشيء لكي يرونه. وربما كان هذا هو حال «فئران الممشى» إزاء روبرت سوليفان. إن إدراك «بروفيسور جراندين» العلمي، للعالم العضوي، عبر عقلها «المتوحد» أتاح لها أن تصل إلى تفسيرات منطقية لسلوكيات الحيوان، في صياغات بسيطة تبدو كمشاعر رقيقة إلى درجة تجعل بعضنا يظن أنها بعيدة عن المنطق.

إن مشاعرنا الذاتية تستغرقنا وتكبلنا إلى درجة تجعلنا نفشل في فهم حدود، ومدى محدودية هذه المشاعر، ومدى عدم قدرتنا على الفهم. ودون أن تجرفها العواطف المفرطة التي تبدت في كتاب «جيفري ماسون» الأخير «الخنزير الذي



يستطيع الفأر القوى أن يجامع ٢٠ فأرة خلال فترة لا تتجاوز ست ساعات. وبإمكان زوج واحد من الفئران إنتاج ١٥ ألف فأر فى عام واحد

غنى للقمر.. الحياة العاطفية لحيوانات المزارع» تؤكد تمبل جراندين أن مشاعر الحيوان شبيهة بمشاعر الإنسان وإن كانت أكثر وضوحاً وصلابة، وأقل تشوشاً. وهذا، على ما يبدو، من القواسم المشتركة بين «المتوحدين» والحيوان. وتقول:

«إن ما يسعدنى كـ «متوحدة» هو أننى غير مضطرة إلى التعامل مع كل «الجنون العاطفى» الذى يعيشه تلاميذى، ومعه يعيشون تزايد حدة مشاعر الخوف الذى يكاد يسود كرتنا الأرضية. «المتوحد» يغلق «نظام الخوف» داخله، وهذا «الإغلاق» لا يعرفه الإنسان الطبيعى، فهو لديه قدرة أكبر على «كتم الخوف» واتخاذ القرارات لمواجهته بصورة لا يعرفها الحيوان أو الإنسان «المتوحد» والفرق الوحيد بينهما. هنا. أن الإحساس النشط بالخوف لا يكون غامراً أو محبطاً بالنسبة للمصابين بداء التوحد. لكن الخوف الزائد هو الذى يحفظ حياة الحيوان فى عالم سالب لحياته».

تظهر الدراسات حول الفئران إن الخوف الذى ينشط عندما يشتم الفأر رائحة قطة، هو الذى يجعله يرجح أن القطة ربما تعود إلى المكان، فيولى الأدبار منسحباً. والحق إن الإنسان، سواء فى نيويورك أو أى مدينة أخرى، هو العدو الرئيسى للفأر. ولأن الإنسان فى كل مكان فإن الفأر يعيش «الخوف الدائم». ومن المحتمل أن نظاماً جيداً، يتعلق بمكونات أملاح الكالسيوم الجبرية، هو الذى يجعل الفئران على درجة كبيرة من الذكاء. (العكس هو الصحيح عند الإنسان: فالكوليسترول إفراز كيميائى ناجم عن الضغط ويحد من القدرة على التعلم). ويتجلى ذكاء الفئران فى قدرتها على تجنب تلك الأعداد الهائلة من الشراك الخداعية بكل تصميماتها الجديدة المتعاقبة. هذا الأمر لا يثير دهشة تمبل أو كاثرين لاعتقادهما بأن أفضل صائد فئران، وكما فى الحكايات الشعبية، هو الذى يفكر كالفئران. بل إن أفضلهم على الإطلاق هو الذى يفهم، ولو بشكل عام، عقلية الفأر القارض المفترس. فى طليعة هؤلاء يأتى بوبى كوريجان Bobby Corrigan، الملقب بـ «الزعيم» وصاحب كتاب «السيطرة على القوارض» ومن الكتاب الرئيسيين فى الدورية العلمية «تكنولوجيا السيطرة على الأوبئة» ومعروف عنه عشقه لرعاية الحدائق وكتابة الشعر. ويقول روبرت سوليفان: «ينتابك الإحساس وأنت تقرأ كتاب كوريجان أنه نجم النجوم فى فنون السيطرة على القوارض لأنه يعرف كل ما يجب معرفته عن الفئران. إنه يدرسهم بصبر واضح، وبرؤية تجسد مفهومه الخاص: الفأر الضارى لم يولد بعد. الفأر ليس شريراً. وفى فن السيطرة على القوارض يظل الفأر فأراً». وفى الجزء المعنون فى كتابه بـ «فأر فى تجويف المرحاض ينقل سوليفان عن كوريجان صورة يرسمها بالكلمات لإنسان يقف أمام المرحاض، وفى يده وعاء ملىء بالسم القاتل، وينظر إلى قاع التجويف ويلمح الفأر يبدأ فى الظهور. يحاول الإنسان أن يبقى رابط الجأش. هادئاً. عملاً بنصيحة الخبراء فى إبادة الفئران.. وفى النهاية فشل.

تأتى الفئران إلى منازلنا عبر دورات المياه. هناك حيوانات أخرى أكثر خطراً وتلازمنا لكنها لا تعيش بهذا القرب الشديد منا كما تفعل الفئران. فبين قصتنا وقصتها رقائق من الألومنيوم. تاريخ الفئران فى بيئاتها الطبيعية هو التاريخ الطبيعى للفئران فى بيئتنا الطبيعية. ويقدم سوليفان عبر فصول كتابه، مدينة نيويورك ومراحلها التاريخية والفئران فيها، فى نسيج سردى بعيد إلى الأذهان أدوار بطولة فعالة لعبتها الفئران فى أحداث تاريخية مثل إضراب دافعى الإيجارات وإضراب عمال الصحة العامة فى الستينيات. ففى إضراب المستأجرين، عام ١٩٦٣ فى حى هارلم، رعا «جيسى جراى» أحد منظمى الإضراب، سكان الحى إلى التوجه إلى قاعة المحكمة وفى يد كل منهم فأراً حياً أو ميتاً. استجاب سكان الحى وكان المشهد مثيراً وكان للفئران الفضل الأول فى إنهاء الإضراب. وبعد خمس سنوات، فى إضراب عمال جمع القمامة لم يلجأ أحد إلى الفئران، بل لجأوا إلى طعام الفئران. فقد حمل المتضررون من الإضراب كميات كبيرة من أكياس القمامة التى صنعت تلالاً عالية على جانبى الطريق المؤدية إلى عمدة المدينة الذى أعلن حالة الطوارئ الصحية وطالب الحاكم بإنهاء الإضراب وتحقيق مطالب عمال جمع القمامة وزيادة مرتباتهم.

يسلط روبرت سوليفان الأضواء على طبقات من الخبرة المتراكمة تحت الأرضيات الخشبية للأبنية، وتحت حجارة الطرقات، عبر «تشريح عضوى» للمدينة. يسترجع، وهو ينقب فى الأرشيف والخرائط القديمة للمدينة، كلمات همس بها إليه أحد عمال قسم المبيدات فى نيويورك، ويدعى «لارى آدمز» ومفادها أن الناس لا تعرف كيف يبدو الحال هنا.. تحت الأرض.. الناس لا تدرك أننا نعيش فوق طبقات متراكمة تبدو كالمستعمرات، ومنها ما يصعب على الناس الوصول إليها مثل مستعمرات الفئران». يكتشف سوليفان أن شارع جولد Gold Street الواقع عند نهاية ممشى ايديز هو نفسه مكان «الورشة» التى أنشأها أول صائغ فى المدينة خلال السنوات التى تلت الثورة الأمريكية. يلاحظ سوليفان أن «شارع جولد» لم يسم هكذا نسبة إلى صائغ الذهب Gold Smiths، بل إلى الرابية التى كانت مزروعة بالحنطة وتكسوها سنابل القمح فتلمع كلمعان الذهب، تحت أشعة الشمس، وكان الهولنديون أول من أطلقوا على المكان اسم «التل الذهبى» Golden Hill فى يناير عام ١٩٧٠.

وفى السنوات التى سبقت وصول الفأر النرويجى البنى اللون أطلق على مكان التل اسم «ممشى ايدنز» وهو نفسه المكان الذى شهد، وطبقاً لرواية سوليفان، اندلاع المناوشات بين «أبناء الحرية» وثكنات الجنود البريطانيين. وفى امتداد طبيعى وتطويع ساحر للسجلات التاريخية، يستدعى سوليفان تلك المناوشات كأول معركة فى الثورة الأمريكية، لكنه يصفها بـ «الانفجارة غير المجيدة» و«الحركة الشبيهة بحركة الحيوان» والتى قادت مباشرة إلى بداية تحقق «الصورة الأمريكية»، وكانت أيضاً «مدخل تعارف بين نيويورك والفئران النرويجية». وهذا تجسيد بديع لمدى تداخل الدوائر ما بين الإنسان والفئران.

فى بداية عامه «الخاص بالفأر» سافر سوليفان إلى صعيد منهاتن لزيارة موقع سبق وعاش فيه الفنان التشكيلى جون جيمس أودبون Audubon. كانت الزيارة بمثابة تحية لأودبون الذى له أيضاً دراسة عن الفئران. (وكان حصل من عمدة نيويورك على ترخيص بقتل الفئران على طول الواجهة المائية للمدينة). اهتم سوليفان بذكر أن أودبون ولد فى جمهورية الدومينيكان، وأن محيط جيرانه القدامى فى نيويورك كان عبارة عن مقاطعات «دومينيكانية». وقد يرى البعض أن ما قاله سوليفان عن أودبون مجرد معلومات ثانوية، لكنه أوردها فى سياق أضفى عليها من الجمال ما يجعلك تدرك أن الحقيقة الإنسانية البسيطة عند سوليفان ليست أن «كل الأمور متصلة» فحسب، بل إن كل الأمور من حولنا على صلة بالفئران. ■



القاهرة الخديوية

سهير زكي حواس

□□ ما أكثر أن يتحرك الناس فى شوارع القاهرة.. دون تفكير مدقق فى تفاصيل ما يرونه من مبان تحيط بالفراغ من حولهم.. أو معان لأسماء شوارع وميادين

القاهرة الخديوية
رصد وتوثيق عمارة وعمران القاهرة منطقة وسط المدينة
د. سهير زكى حواس
القاهرة - مركز التصميمات المعمارية ٢٠٠٢

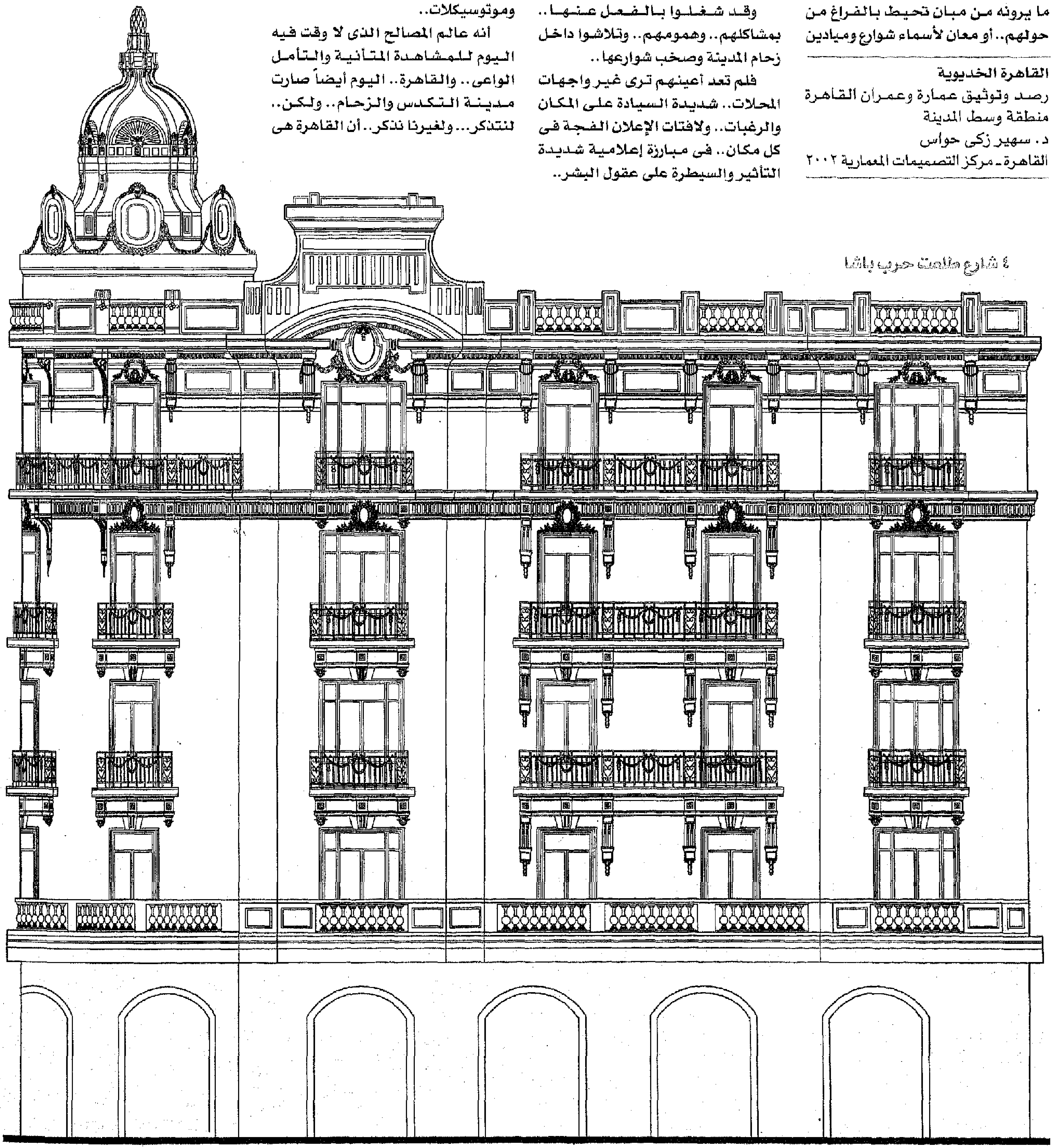
عريقة الأصول.. ينطقون بها ويستدلون بواسطتها لأماكن وصولهم..

وقد شغلوا بالفعل عنها.. بمشاكلهم.. وهمومهم.. وتلاشوا داخل زحام المدينة وصخب شوارعها..

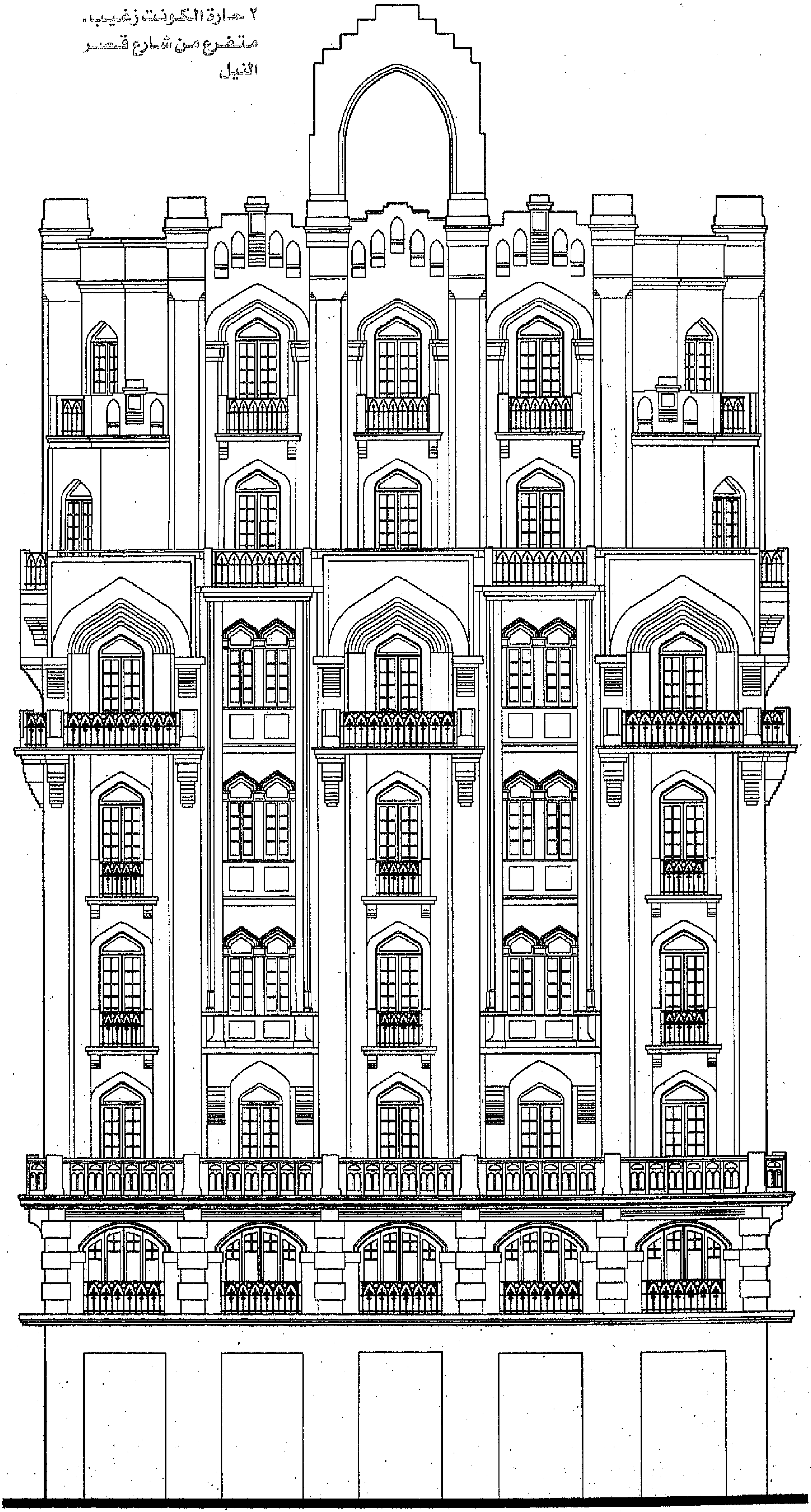
فلم تعد أعينهم ترى غير واجهات المحلات.. شديدة السيادة على المكان والرغبات.. ولافتات الإعلان الفجة فى كل مكان.. فى مبارزة إعلامية شديدة التأثير والسيطرة على عقول البشر..

صاروا لا يسمعون غير أصوات سير المركبات.. من سيارات وأتوبيسات وموتوسيكلات..

أنه عالم المصالح الذى لا وقت فيه اليوم للمشاهدة المتأنية والتأمل الواعى.. والقاهرة.. اليوم أيضاً صارت مدينة التكدس والزحام.. ولكن.. لنتذكر... ولغيرنا نذكر.. أن القاهرة هى



٤ شارع طلعت حرب باشا



٢ عمارة الكونت زغيب. متفرع من شارع قصر النيل

المدينة العريقة.. الشاهدة على تاريخ البلاد.. تحكى بمبانيها.. وشوارعها وميادينها حدوتة المصريين على مر العصور.. إنها ملحمة عمرانية تاريخية.. عبرت آلاف السنين دون أن يضيع سحرها الخاص.

وهذا الكتاب هو مقطع فى هذه الملحمة.. يلقى الضوء على النهضة العمرانية العظيمة التى شهدتها مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

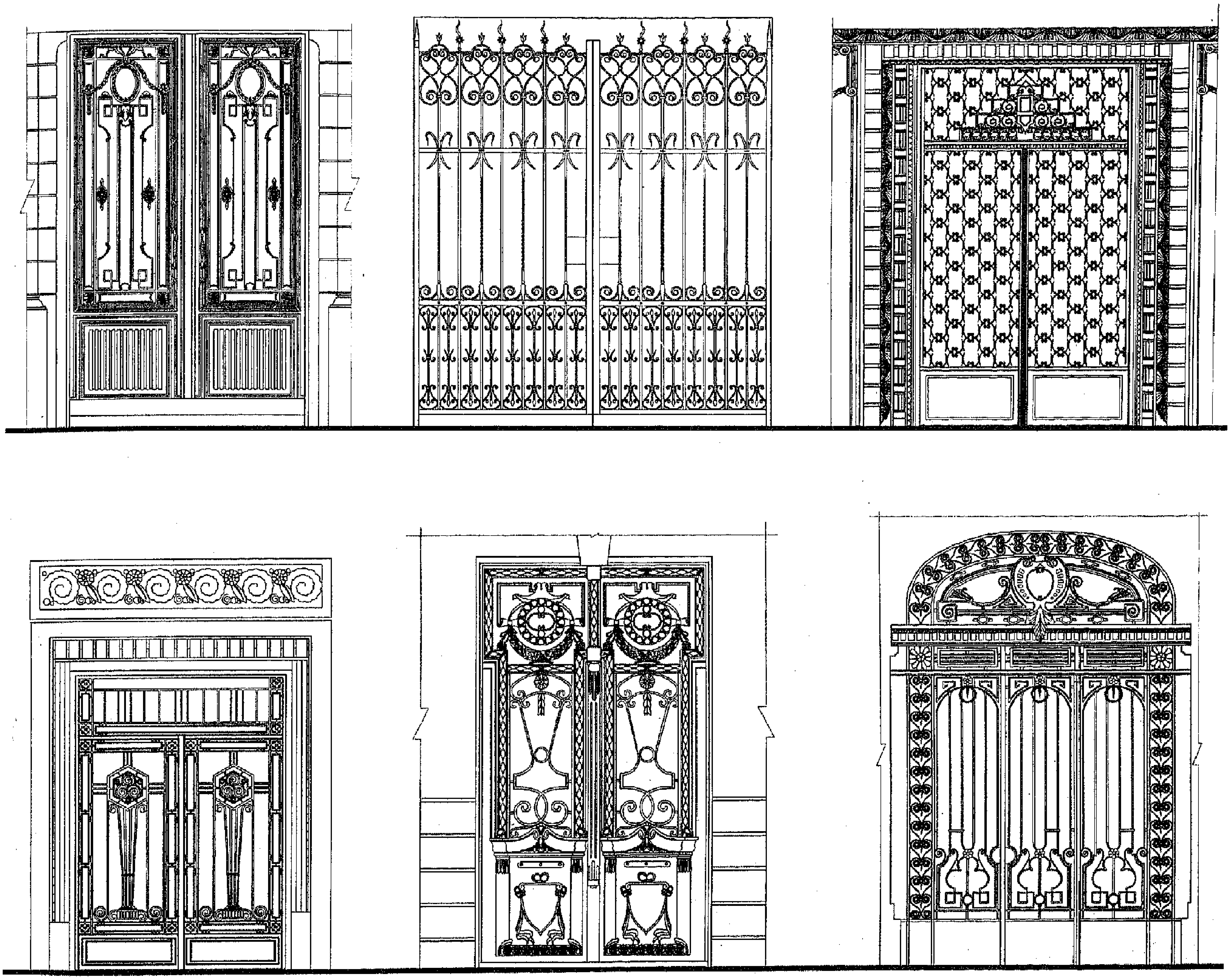
والشواهد تقول.. إن « محمد على باشا » هو واضع نواتها الأولى.. وقد أراد الارتقاء والتحديث.. للبلاد.. وتوالت الإنجازات وحركة البناء والتعمير مع ولاية أبنائه من بعده.. حتى «عصر إسماعيل».. الذى نتوقف عنده فقد جاء ومعه طموحاته العظيمة.. من أجل الارتقاء بمدينة ملكه..

وأثرى مدينة القاهرة - القاهرة الخديوية - بكنوز من العمارة ذات الطابع الأوروبى. ونحن هنا نوالى اهتماماً برصد وتوثيق عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين بمنطقة وسط المدينة، حيث يتمركز عمران عصر «إسماعيل» بتخطيطه ومبانيه. كما نهتم بإلقاء الضوء على مقطع آخر من ذاكرة الأمة بتتبع المعانى وتعريف الشخصيات التى وراء أسماء شوارع وميادين القاهرة الخديوية.. من أجل التوثيق التاريخى لأحداث وطنية وسياسية واقتصادية واجتماعية وفنية.. بتخليد ذكرى رجال عظام شاركوا فى صياغة تاريخ مصر..

المدلول التراثى

وتتميز منطقة وسط المدينة عمرانيا ومعماريا عن بقية أحياء «القاهرة». فهى ذات طابع خاص يدركه زائر المكان للوهلة الأولى ويستطيع أن يتخيل حدوده. كما تتمتع بثراء وعمق مدلولها التراثى الذى يتضح من خلال استقراء القيم التاريخية والمعمارية العمرانية والوظيفية للمنطقة.

ويعود تاريخ تخطيط المنطقة إلى ولاية عهد الخديوى «إسماعيل» الذى وضع أسس تخطيطها، فهى تمثل بداية العمران المصرى فى صورته الحديثة خلال النصف



أبواب مداخل العمارات

القاهرة الخديوية

الثانى من القرن التاسع عشر. ويقترب عمر المنطقة من المائة والأربعين عاماً..

فقد أمر الخديوى «إسماعيل» ببناء قصر عابدين فور توليه حكم مصر فى عام ١٨٦٣م لنقل مقر الحكم من القلعة إليه. وفى نفس الوقت الذى يشيد فيه القصر أمر «إسماعيل» بتخطيط القاهرة على النمط الأوروبى الذى بهره فى مدينة باريس من ميادين فسيحة، وشوارع واسعة ومستقيمة، وقصور ومبان، وجسور على النيل، وحدائق غنية بالأشجار والنباتات النادرة. فتحولت «القاهرة» إلى تحفة حضارية تنافس أجمل مدن العالم فى ذلك العصر.. وهى باقية حتى يومنا هذا.. تراها ونسير فى شوارعها ونستمتع بعبق التاريخ فيها.

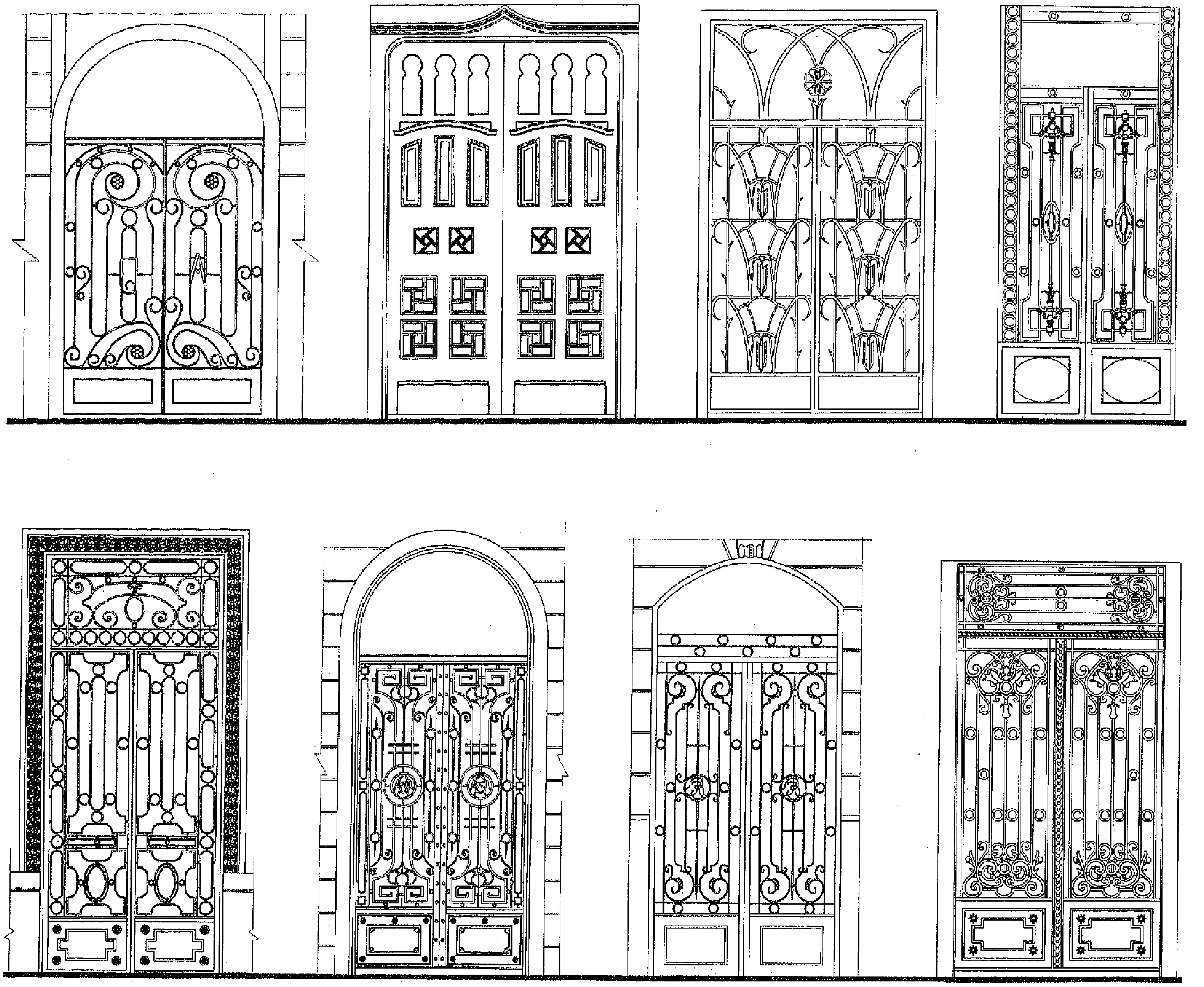
وتعد منطقة وسط المدينة بمثابة متحف حى ومفتوح لتراث إنسانى يمثل مصر منذ بدايات تحديثها وعصر نهضتها.. ويتضمن هذا المتحف رصيداً هائلاً من المبانى التراثية يتعدى الثلاثمائة مبنى داخل نطاق مساحة تقدر بحوالى ٧٠٠ فدان.

والمبانى المعنية هنا يعود تاريخ إنشائها إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وهى جامعة للطرز المعمارية المختلفة.. مثل «الكلاسيكى» Classic وعصر «النهضة» Renaissance ، «والأرت ديكو» Art Deco ،و«الفن الجديد» Art Nouveau وهو ما عرف فى ألمانيا بال Jugendstil ،و«الباروك» Baroque بغزارة زخارفه، و«المدرسة التعبيرية» Expressionism ، و«المدرسة العقلانية» Rationalism ، «الإسلامى المتطور» Neo-Islamic ... ، ويلاحظ تعدد الطرز فى واجهات بعض المبانى وهو ما يميز هذه المبانى بالثراء فى تصميم وزخرفة واجهاتها.

ومن الخصائص العامة لمبانى وسط المدينة أنها فى معظمها مبان ضخمة (كان يشترط ألا تقل تكلفة المبنى عن ٢٠٠٠ جنيه لضمان التميز والفخامة)، متوسط الارتفاعات يتراوح ما بين ٦-٧ أدوار قد تزيد أو تقل أحياناً. واجهاتها غنية بالزخارف تصل فى بعض المبانى إلى التكدس الشديد. وتتنوع الزخارف وأحياناً لا تتكرر الوحدة الزخرفية نفسها فى الواجهة الواحدة كما فى عمارات الشوريجى ناصية شارع عبد الخالق ثروت وشارع عماد الدين. وعمارة شركة التأمين ناصية شارع رمسيس وشارع ٢٦ يوليو على سبيل المثال.

والزخارف المتنوعة تتميز بالدقة المتناهية فى التنفيذ واستخدام قوالب صب مرنة حتى تكون أكثر تجسيماً وهو أسلوب يندر استعماله حالياً لارتفاع تكلفته.

كما أن العديد من المبانى تظهر فى واجهاتها المشغولات الحديدية المختلفة وأيضاً فى البلكونات وأبواب المداخل مما



أبواب مداخل العمارات

يزيد من فخامة وجمال ورزانة المبانى. والمبانى فى مجملها فى إطار التخطيط الحديث تكون معاً طابعاً عمرانياً أوروبى الملامح والشخصية.

ويمكن القول أن منطقة وسط المدينة بوصفها متحفًا مفتوحًا وحيًا للعمارة التراثية تمثل أيضاً معرضاً لأعمال المعماريين الأجانب الذين استُدعوا من فرنسا وإيطاليا والنمسا وبريطانيا كما أنها أيضاً تحتوى أعمالاً معمارية عديدة تمثل جيلاً أحدث من المعماريين والمبانى يمثلون الرواد الأوائل من المعماريين المصريين الذين ظهرت أعمالهم المعمارية خلال النصف الأول ومنتصف القرن العشرين.

القيم التراثية للعمارة والعمران:

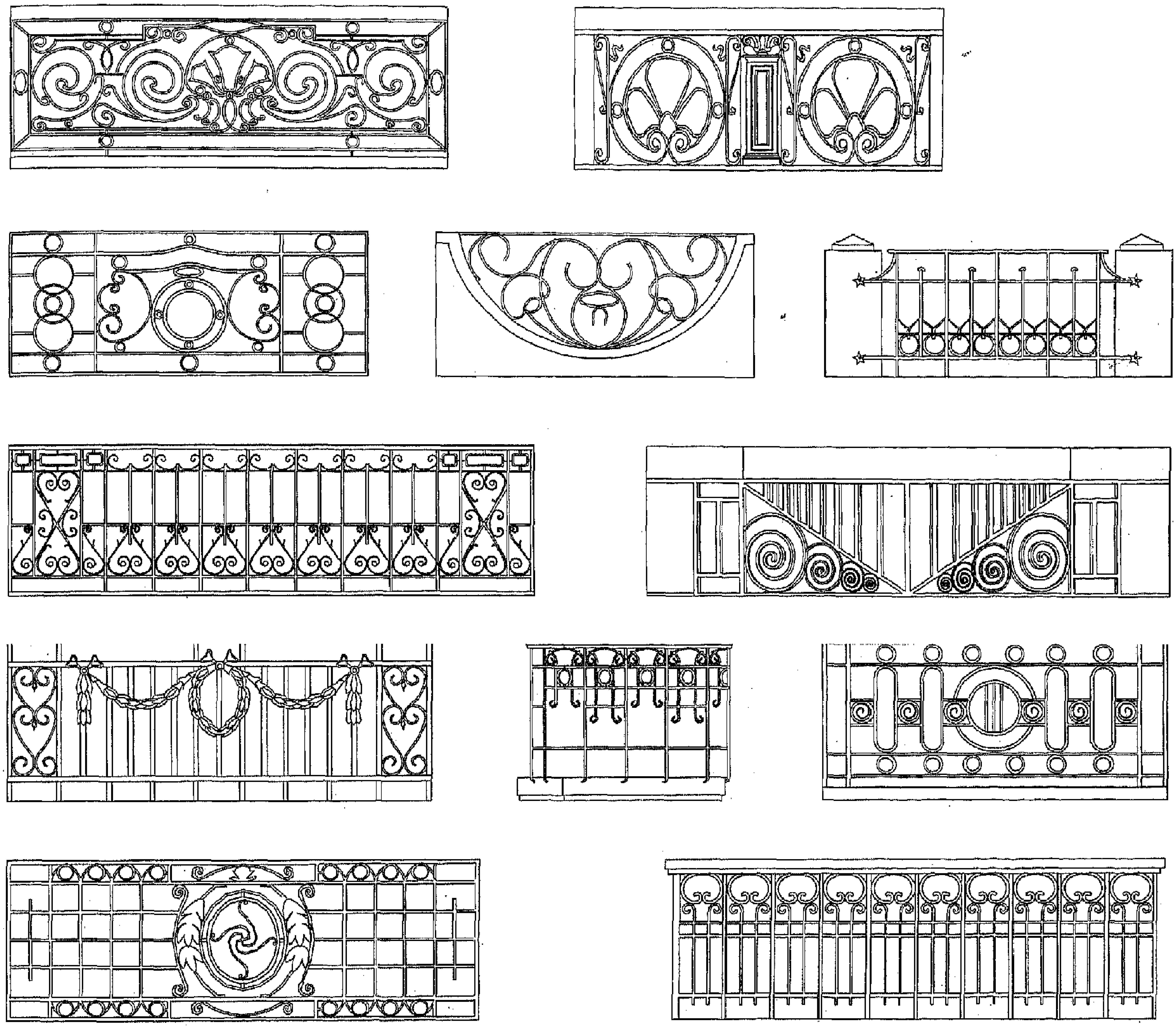
لو تخيلنا شخصاً فاقداً للذاكرة فسوف يكون إنساناً بلا هوية أو شخصية، بلا كيان أو مضمون. فإذا كانت ذاكرة المدن هى مبانيها وأحياؤها التاريخية القديمة فإن الحفاظ عليها وإطالة عمرها نابضة بالحياة يعنى الاحتفاظ بذاكرة المدن قوية منتعشة، مما يحافظ على تراثها وكيانها الحضارى متجدداً عبر الأجيال. وحتى الدول التى بلا ماض أو تراث، أى خاوية الذاكرة فإنها تصنع لنفسها ماضياً وتختلق تراثاً لتؤكد أصالتها وتنبت لنفسها جذوراً عميقة عبر الزمان.

وقد بدأت الشعوب والبلاد تعى هذا المضمون منذ أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر فأصبحت الدول تتسابق فى إحياء تراثها. وانتعشت حركة التجديد والارتقاء بالأحياء القديمة. وتعددت مفاهيم الصيانة والحفاظ وكيفية التحكم فى العمران بهدف حماية وإحياء المبانى التراثية والمناطق ذات القيمة التاريخية، حتى صار أهم ما يميز الدول المتحضرة هو الوعى بمفاهيم القيم التراثية والحفاظ عليها، فاستطاعت أن تجسد من أرصدتها التراثية بشكل عام والعمرانى منها بشكل خاص، قيماً متفردة تشهد على ماضيها العريق بتاريخه الحضارى وتسلط الضوء على فترات ازدهارها المتعاقبة. وقد كانت دول أوروبا رائدة فى هذا المجال مثل إنجلترا وإيطاليا وفرنسا وسويسرا والنمسا وهولندا وبولندا..

ويمكن القول أن غياب هذا الفكر الواعى بقيمة التراث فترة طويلة فى بلادنا قد أضر بعمران «القاهرة»، والذى واجه بالفعل حملة اغتيالات لمبان وقصور قديمة أُزيلت تماماً من مواقعها من أجل استثمار أراضيها حيناً، أو بغرض الرغبة فى التحديث حيناً آخر.

ونجد فى العديد من الأحياء ذات الجذور التاريخية مثل وسط المدينة «القاهرة الخديوية»، وجاردن سيتى، والزمالك، ومصر الجديدة، والعباسية، والمعادى.. وغيرها من الأحياء التى شهدت ثراءً معمارياً يعد حالياً رصيداً تراثياً عظيماً، أنها تعانى من تشويه ماضيها. ويمكن القول أنه لولا الوجود الدبلوماسى للعديد من السفارات الأجنبية والشركات والبنوك فى مبانى جاردن سيتى والزمالك على سبيل المثال، ولولا قلة من أولئك الذين اتخذوا من القصور والمبانى القديمة مقاراً لإقامتهم، لما دام هذا الرصيد التراثى الحالى من المبانى حتى اليوم.

ولحسن الحظ أن الدولة بدأت بالفعل نشاطاً مكثفاً خلال السنوات القليلة الماضية من أجل حماية التراث العمرانى بوقف هدم القصور والفيلات، وأيضاً حماية مناطق بأكملها المصنفة ذات قيمة تاريخية والتى يدخل ضمنها منطقة وسط المدينة «القاهرة الخديوية» موضوع الكتاب. ■



المشغولات الحديدية بالشرفات

القاهرة الخديوية

للمهتمين بالعمارة والعمران

■ يضيف الكتاب الذى فاز بجائزة خاصة من «منظمة المدن والعواصم الإسلامية» فائدة أخرى غير التوثيق.. تخدم العاملين فى مجال العمارة والعمران من أجل تيسير ترجمة روح الماضى إلى فكر هذا العصر.

فالرسومات والتفاصيل المعمارية مرسومة حديثاً بواسطة الكمبيوتر بناءً على رفع ميدانى حديث للمبانى. دقيقة فى تفاصيلها.. مع إضافة صفحات خاصة بعرض التفاصيل المعمارية والزخرفية للواجهات ليسهل الاستعانة بها فى تصميمات حديثة معاصرة.

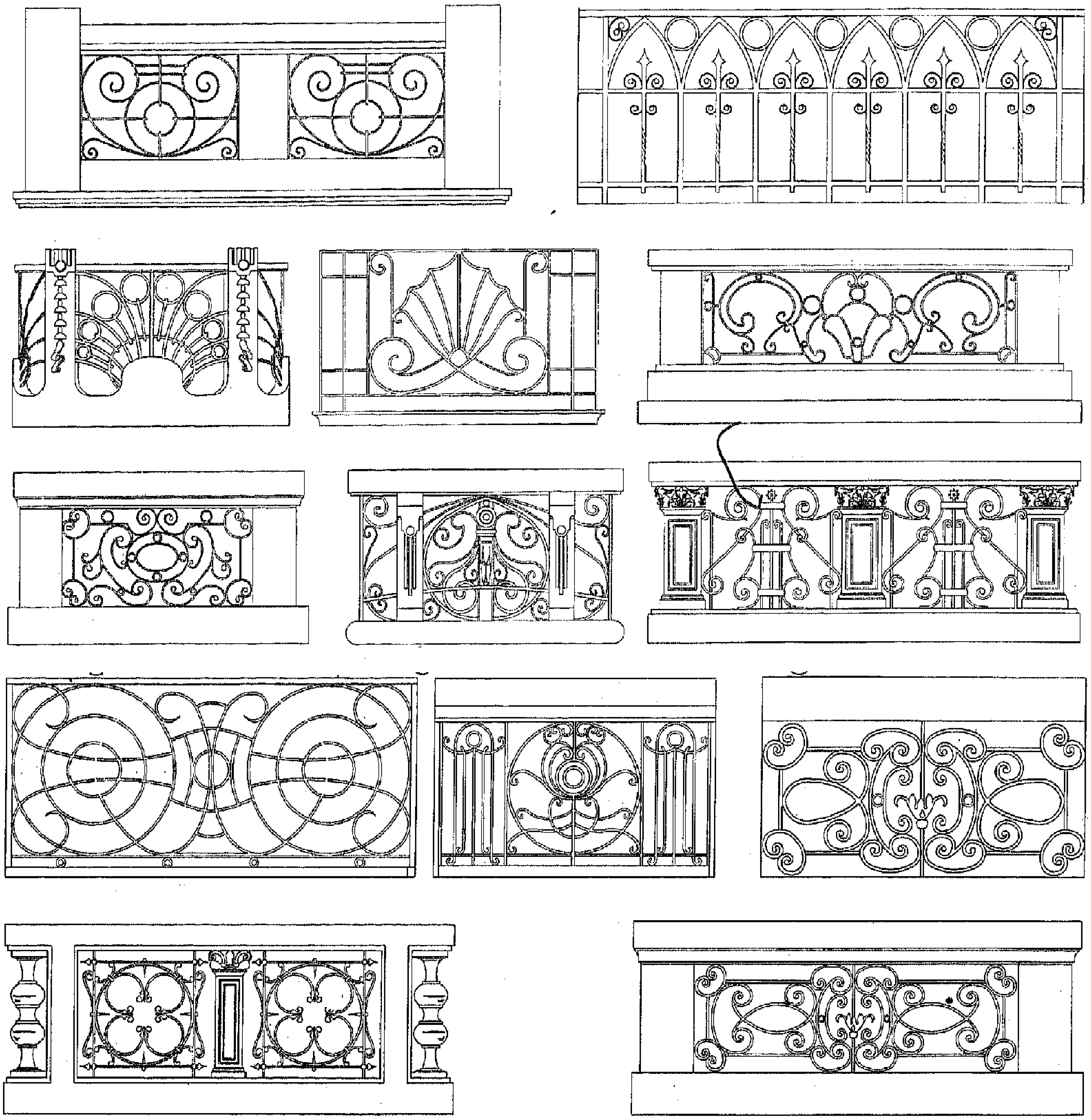
أيضاً تم الارتكاز على شق كبير من المعلومات التى جاءت بمراجع أصيلة. منها على سبيل المثال لا الحصر الكتاب الألمانى «Kairo» لمحمد شرابى المصرى الجنسية.. وكتاب «القاهرة عمرها ٥٠ ألف سنة» للمعمارى الكبير د.سيد كريم.. وكتاب «شوارع لها تاريخ» لعباس الطرابيلى... و«موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام» للدكتور عبد الرحمن زكى..

ويرصد الكتاب ٣٥ شارع وميدان فى منطقة وسط المدينة، بالإضافة إلى الشوارع الفرعية المتصلة بها، وتتبع تاريخها فى الماضى والحاضر منذ إنشائها وحتى اليوم، وأسباب إطلاق الأسماء السابقة والحالية عليها والمدلول التاريخى لتلك الأسماء.

كما تم رصد وتوثيق المبانى التراثية بكل شارع وميدان بواسطة التصوير الفوتوغرافى، مع تحديد مواقعها على خريطة المنطقة، وإضافة البيانات الخاصة بكل مبنى بأسلوب مختصر، متضمناً العنوان وتاريخ البناء، والمعمارى، والمساحة، وعدد الأدوار، وأيضاً الطراز المعمارى له. وإن كانت الصور الفوتوغرافية الحديثة لم تأت على المستوى المطلوب وذلك لاعتماد الكتاب على هواة للتصوير لا محترفين. ولعل هذه هى نقطة الضعف الرئيسة فى هذا العمل الجيد.

ويهدف الكتاب إلى عمل قاعدة بيانات توثيقية للمبانى التراثية بمنطقة وسط المدينة بغرض حمايتها. كما يهدف إلى إعطاء صورة مرجعية للمنطقة، لتكون فى متناول المتخصصين والمصممين ومتخذى القرار الذين لهم علاقة بأى عمل يرتبط بالمجالات الخاصة بالحماية والحفاظ والارتقاء الحضرى، أو وضع تصميمات لمشروعات مستقبلية بالمنطقة.

ويذكر أن الكتاب قد نوه إلى أن مشروع رصد وتوثيق مبانى المنطقة بالرفع والرسم مستمر ولم يتوقف مع إصداره تمهيداً للعرض فى إصدار آخر بإذن الله. ■



المشغولات الحديدية بالشرفات

معمـــــــاريون

■ من أشهر المعماريين الذين سجلت بصماتهم من خلال أعمالهم المعمارية بالمنطقة المعنية على سبيل المثال وليس الحصر:

● «أنتنيو لاشياك» Antonio Lasciac
معماري نمساوي، من أهم أعماله: بنك مصر (١٩٢٧م) بشارع محمد بك فريد رقم ١٥١، والعمارات الخديوية (١٩١١م) بشارع عماد الدين، ومبنى «نادى ريسوتو» (١٨٢٩م) بميدان مصطفى كامل رقم ٣.

● «مارسيل دورجنون»
Marcel Dourgnon
معماري نمساوي، من أعماله في القاهرة مبنى المتحف المصري خلال ١٨٩٧-١٩٠٢م بميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير حالياً).

● «أوسكار هوروفيتس»
Oskar Horowitz
معماري يهودي نمساوي، درس العمارة في النمسا، وجاء إلى القاهرة في الفترة ١٩١٣-١٩١٥م بنى خلالها المبنى التجاري «تيرنج» Taring بميدان العتبة الخضراء.

● «أ. كاستامان» Castaman . A
وهو المعماري الذي بنى عمارة «جروبي» ميدان سليمان باشا وعنوانها ٢١ شارع محمود بسيوني، وذلك خلال الحربين العالميتين، وقد احتوت حديقة كبيرة كانت تعزف فيها الفنون الموسيقية.

● «أدوارد ماتاسك» Eduard Matasek
معماري نمساوي، من أعماله في القاهرة «المعبد اليهودي» بشارع عدلي يكن باشا رقم ١٧. والمبنى يتميز في عمارته بطراز الفن الجديد.

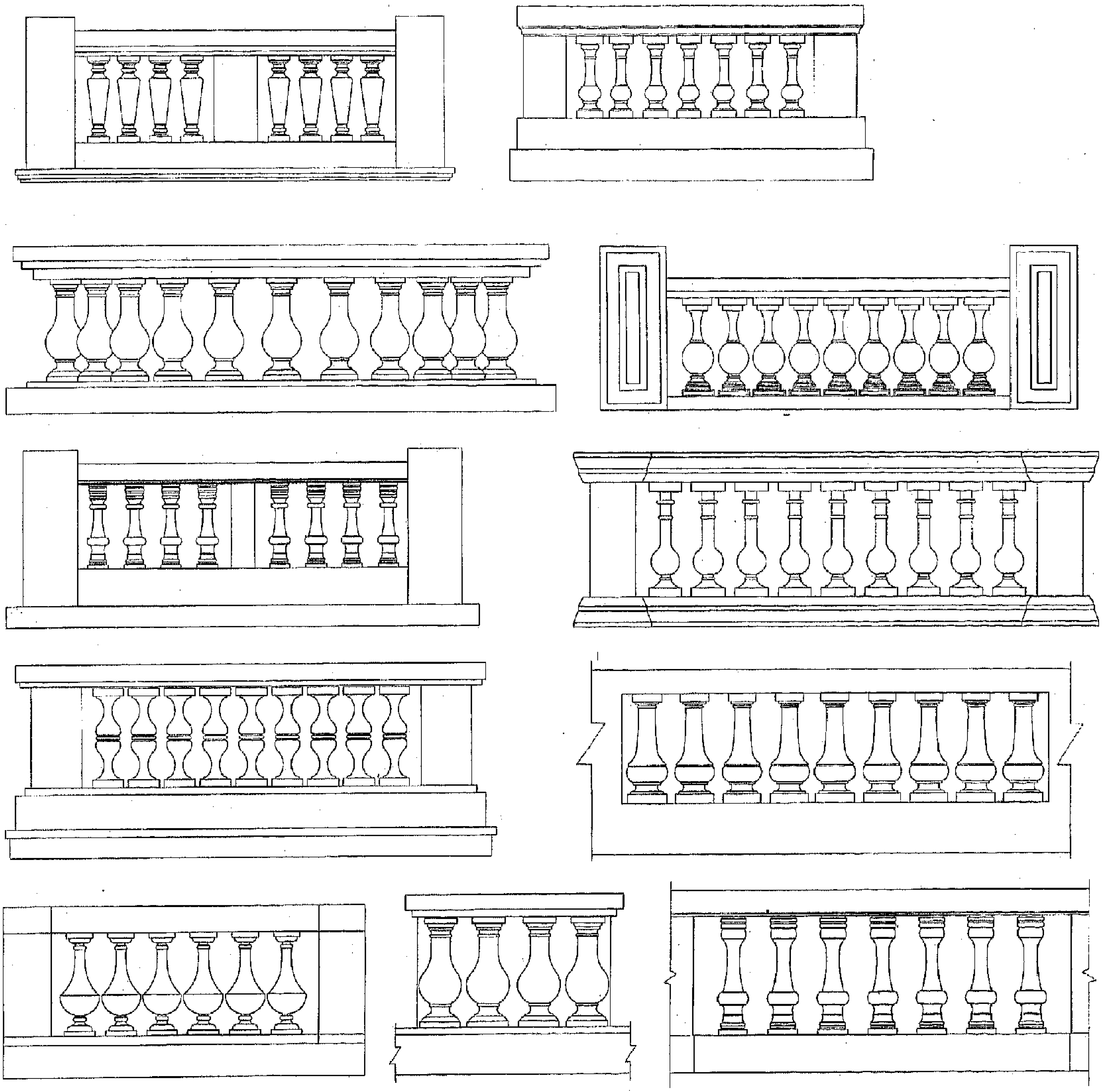
● «جـــورا» Gorra
من أهم أعماله عمارة رقم ٢ بشارع الجمهورية ذات الواجهة العريضة المطلة على ميدان الأوبرا (إبراهيم باشا سابقاً)، وطرازها نيوباروك.

● «ماريو روسي» (١٨٩٧-١٩١٦م)
Mario Rossi
معماري إيطالي وكان كبير مهندسي وزارة الأوقاف خلال السنوات ١٩٢٠-١٩٥٠م. شارك في بناء عدد من الجوامع الشهيرة منها جامع «عمر مكرم» بميدان التحرير و«جامع صلاح الدين» عند مدخل كوبري الجامعة..

● «ج. باليان» Balian .G
من أعماله العمارة السكنية / التجارية (١٩٣٤م) بشارع طلعت حرب رقم ٣٤. وقد جمع في تصميمها أكثر من طراز: الأرت ديكو، والتعبيري.

● «أريستيد ليونوري»
Aristide Leonori
من أعماله كنيسة «القديس يوسف للإفرنج الكاثوليك» بشارع محمد بك فريد رقم ١٠٢. وعمارتها ذات الطراز التجميعي ويغلب عليه طابع العمارة المحلية الإيطالية.

● «فرانسسكو باتيجلي»
Francesco Battigelli
أشهر معماري إيطالي عمل في مصر وعاصر الملك «فؤاد الأول»، كما كان المعماري المفضل لديه. ومن أعماله الشهيرة فندق «سافوي» بميدان سليمان باشا، الذي هدم في أعقاب الحرب العالمية



برامق الشرفات

القاهرة الخديوية

الأولى. وقد كان ملكاً للأمير «محمد جمال طوسون» ثم اشتراه مستر «شارل بهلر» فى مطلع القرن ٢٠.

• «ج. مازا» G. Mazza

معمارى إيطالى، من أعماله المميزة مبنى «صيدناوى سليمان باشا» (١٩٢٥م) بشارع قصر النيل رقم ١٧ والمطل على كل من ميدان سليمان باشا (طلعت حرب باشا) وشارع محمد صبرى أبو علم. وهو مبنى غنى بالتفاصيل المعمارية والزخارف وطرازه المعمارى «أرت ديكو».

• «أ. مارسيل» A.Marcel

من أهم أعماله «النادى الدبلوماسى» (نادى محمد على، ١٩١٠م) وعند تقاطع شارع سليمان باشا (طلعت حرب باشا) مع شارع عبد السلام عارف. وقد قام مؤخراً بأعمال الترميم والتجديد للمبنى المكتب الاستشارى للأخوة عصام وهشام وطارق فتحى.

• «يوسف أربان» Joseph Urban

كان عمره ١٩ سنة عندما كلف بأعمال توسعة «قصر عابدين» بعد احتراق جزء منه فى عام ١٨٩١م.

• «جوسب تافرالى» Guiseppe Tavarelli

من أهم أعماله عمارة رقم ١ بشارع محمد مظلوم باشا (١٩٢٨م) والمطلة على ميدان باب اللوق (الفلكى).

وتتميز بالقبة التى تعلو ناصيتها كما يظهر بها تأثير عمارة حوض البحر الأبيض المتوسط.

• «سيرجنت» و «تسوليكوفر» Serjeant & M. Zollikofer. P.J

من أهم أعمالهما مبنى «البنك المركزى» فى ٢٤ شارع شريف باشا و٧ شارع علوى ويقع عند ناصية شارع شريف باشا وشارع قصر النيل.

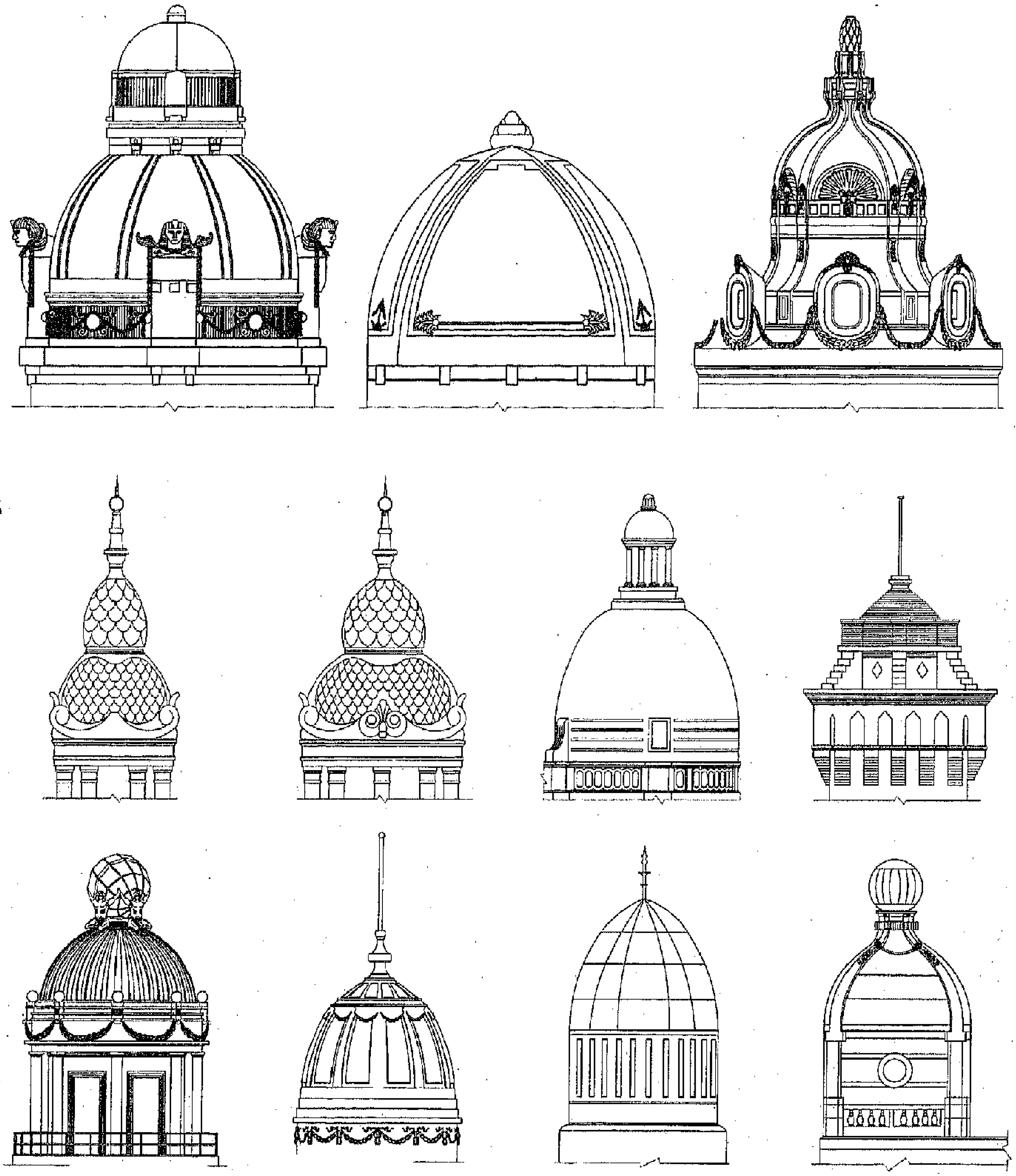
• «أ. زارب» A. Zarb

من أعماله العمارة السكنية / التجارية (١٩٣٧-١٩٣٨م) فى ٣٣ شارع عبد الخالق ثروت عند ناصية عبد الخالق ثروت مع محمد بك فريد.

وتتميز عمارتها بالاتجاه نحو الطراز الدولى فى بساطة واجهاتها، وتمثل بدايات التغير فى الفكر المعمارى الذى ساد عمارة منطقة وسط البلد.

• «ج. بارك» G. Park

من أعماله العمارة السكنية / التجارية (١٩٢٨م) بشارع سراى الأزبكية رقم ١٤.



القباب

• «مـــاردى» Mardy

كان شريكاً للمعمارى «ج. بارك» فى بناء عمارة «شركة التأمين» الشهيرة بعمارة «الأميريكين» (١٩٣٦م) بشارع ٢٦ يوليو رقم ٧.

• «ماكس روليكوكس»
Max Rollicoocks

من أعماله عمارة «شركة الجنفواز» بشارع ٢٦ يوليو المطلة على ميدان دار القضاء العالى وبجوارها سينما ريفولى.

• «فرانس باشا» Franz Pasha

كبير مهندسى الأوقاف الذى عهد إليه «الخديوى إسماعيل» مشروع «دار الآثار العربية».

إلا أن المشروع صادفه بعض العقبات فلم يفتتح إلا فى ديسمبر من عام ١٩٥٣م.

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢م أطلق عليه اسم «متحف الفن الإسلامى».

• مصطفى فهمى بك

كان وكيل مصلحة المبانى (١٩٢٣ م) عندما كان المهندس «عثمان محرم» وزيراً للأشغال. ومن أعماله مبنى جمعية المهندسين بشارع رمسيس، وعمارة بشارع عماد الدين رقم ٣١ (١٩٣٠) يعلوها قبتان وهى ذات طراز يرتكز على التزاوج بين العمارة الفرنسية فى مطلع القرن ٢٠ والإسلامى.

كما وضع تصميم ضريح «سعد زغلول باشا» على الطراز الفرعونى.

• على لبيب جبر بك (١٨٩٨ - ١٩٦٦)م

حصل على دبلوم الهندسة بقسم العمارة فى عام ١٩٢٠م. وبكالوريوس العمارة من جامعة ليفربول فى عام ١٩٢٤م، وحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون فى عام ١٩٦٢م، ووسام الجمهورية فى عام ١٩٦٣م.

• محمد شريف نعمان بك (١٩٠٤ - ١٩٨٣)م

تخرج فى جامعة القاهرة بقسم العمارة فى عام ١٩٢٦م، وحصل على درجة الماجستير من إنجلترا ليفربول فى عام ١٩٢٩م وتولى منصب عميد كلية الهندسة جامعة القاهرة ورئيس قسم العمارة خلال الفترة ١٩٥٥ - ١٩٦٤ م.

• دكتور سيد كريم (١٩١١)م

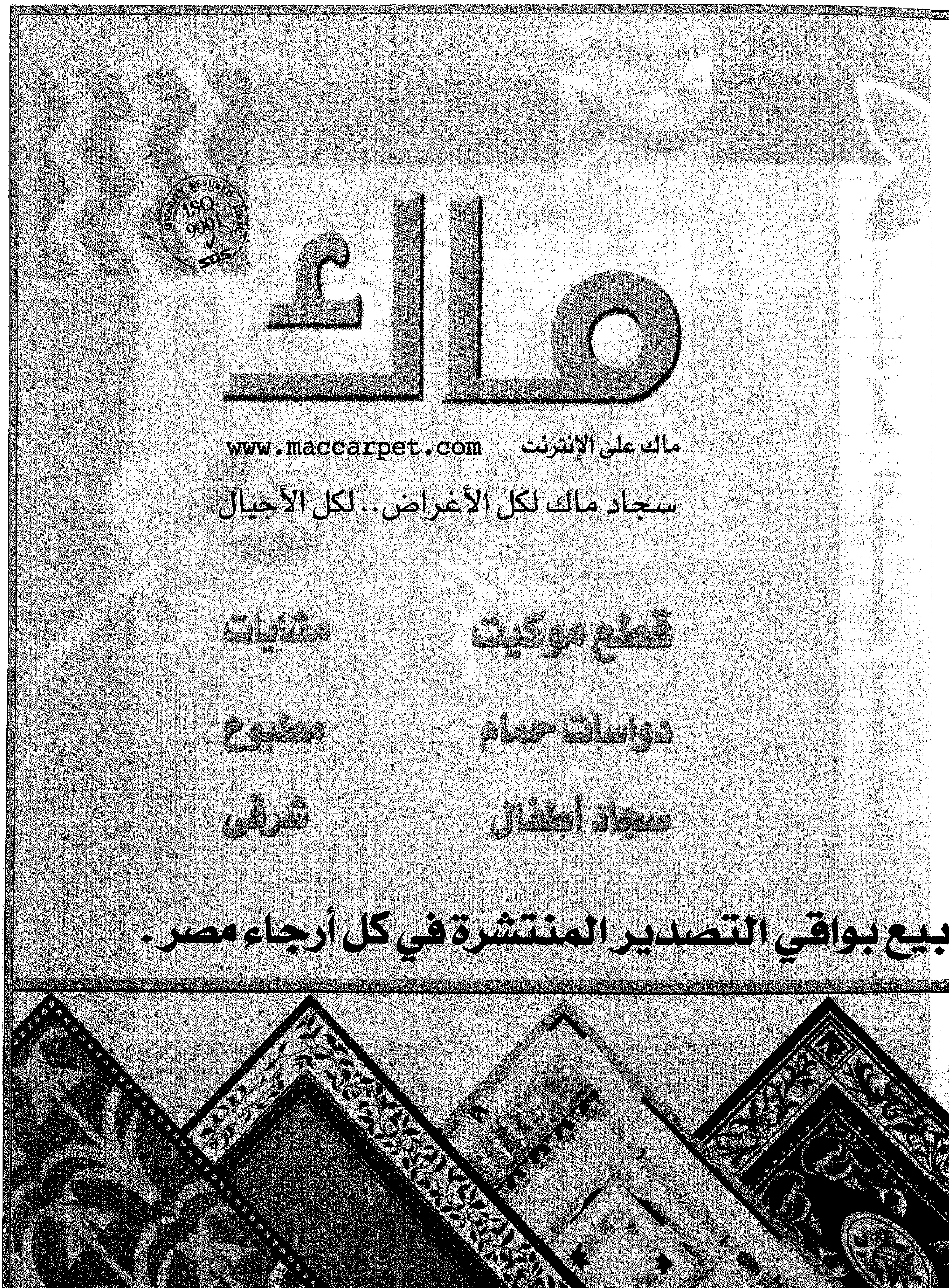
أول مصرى يحصل على شهادة الدكتوراه فى العمارة من جامعة زيورخ «H. T. E» فى عام ١٩٣٨ م. سجل أول مكتب استشارى فى مصر، وأصدر أول مجلة للعمارة والفنون فى عام ١٩٣٨م.

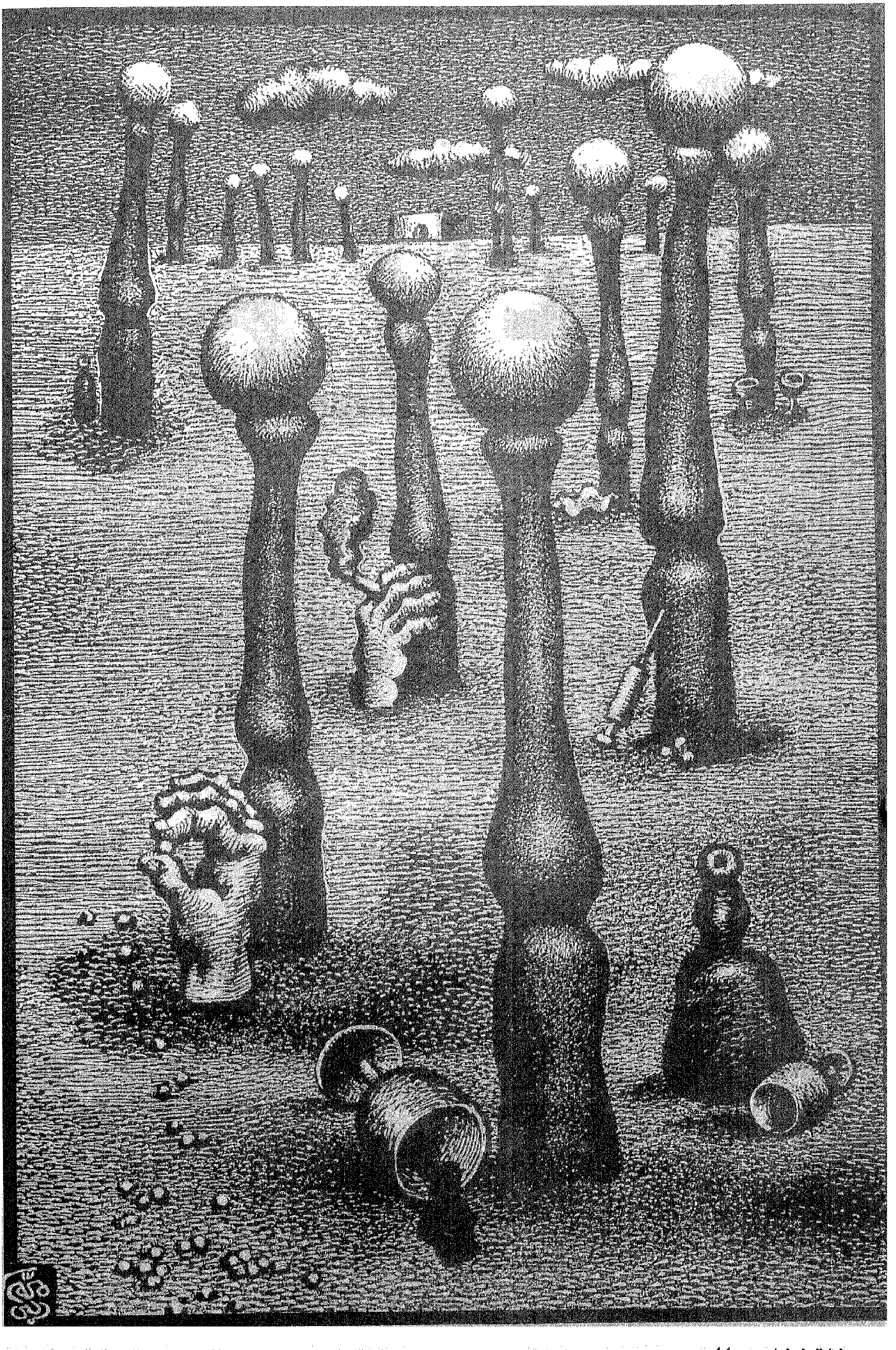
وهو أول مهندس مصرى يعين مستشاراً خبيراً للتخطيط المدنى فى الأمم المتحدة. حصل على جائزة الدولة التقديرية لرواد العمارة فى عام ١٩٥٨م.

• أبو بكر خيرت (١٩١٠ - ١٩٦٣)م

موسيقى ومهندس معمارى وكان أول الخريجين من مدرسة المهندسخانة (قسم العمارة). أرسل فى بعثة وحصل على الدبلوم فى عام ١٩٣٥م فى مدرسة الفنون الجميلة العليا بباريس. شغل منصب أول عميد لمعهد الكونسرفتوار، كما كان أول من ألف سيمفونية مصرية. شارك كمهندس فى تنفيذ «دار الأوبرا الجديدة» وصمم «معهد الباليه» والكونسرفتوار، وصالة سيد درويش، والمعهد العالى للفنون المسرحية». حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الموسيقى فى عام ١٩٦٠م. ■


متواجد في مراكز


ISO 9001
SGS
ماك
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
مشايات
دواسات حمام
مطبوع
سجاد أطفال
شرقى
بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل أرجاء مصر.



الإدمان

قـــــراءات ومــراجعـــات

يحيى الرخاوي

قبل المقدمة:

ظاهرة الإدمان هي ظاهرة بيولوجية، نفس. اجتماعية، مرتبطة بحركية الوعي (الفردي والجماعي)، وهي مرتبطة أيضا بالفترة التاريخية التي تظهر فيها، وبالظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تميز تلك الفترة، كما أن لها علاقة مباشرة وغير مباشرة بالاستعداد الوراثي (ليس مقصوراً على الاستعداد للإدمان بالذات)، ولها دلالات ومعان مختلفة باختلاف الأفراد والثقافات.

أصبحت الظاهرة تمثل «ثقافة فرعية» احتجاجية في ظاهرها، وإن كانت محصلتها سلبية، احتجاجية ربما في مواجهة الاغتراب المتمادي في الحياة الكمِّية التي تروج لها الشركات العملاقة العابرة فوق. المركزية الأعلى، المتجاوزة للسلطات التقليدية.

الإدمان هو لعب ضار بالوعي البشري، لعب مُقحَم مصطَنَع، يحقق تغيرا نوعيا، مؤقتا، سرعان ما ينقلب إلى احتياج لحوح للتكرار، ومن ثَمّ التمادي فيه على حساب مستويات الوعي المتخلق المُنتِج المتكامل.

ظاهرة الإدمان ليست مرادفة لتعاطي المخدرات، حيث إنها مرتبطة بتعاطي أي مادة تؤثر في الدماغ فتغير الوعي سواء كانت مخدرة أم مثيرة.

مقدمة:

تحتاج ظاهرة الإدمان لأكثر من قراءة، وهو أمر يختلف عن تقديمها كميا أو رقميا. و قراءة ظاهرة ما ليست بالضرورة مرادفة للبحث فيها بالمناهج العلمية التقليدية الشائعة، فالظواهر حقائق قد تحضر في الواقع كما تحضر في وعي الناس بصفتها حقائق تاريخية أو آنية، مما تحتاج معه إلى قراءة موضوعية لها منهجها الخاص.

الممارس الإكلينيكي المتأني، الذي يهتم بالمتابعة والمعنى مثل اهتمامه بالرصد المستعرض، وتحديد نسب التواتر، قد يصل إلى حقائق وملاحظات، من خلال قراءة إكلينيكية مباشرة تكمل (ولكنها لا تغني عن) الحقائق الكمية المستعرضة.

هذا ولا يبدو للمتابع لظاهرة الإدمان مؤخرا، أن الأبحاث المتعددة والجادة، الكمية والوصفية، قد أعانت في مقاومة الظاهرة، أو هدت المسئولين إلى طريق أفضل للحيلولة دون مزيد من انتشار الظاهرة.

وظاهرة الإدمان ليست إشكالا طبيا خالصا. لاينبغي أن يعامل الإدمان كما يعامل مرض طارئ مثل الملاريا أو مرض قائم مثل تليف الكبد، ولا باعتباره مخالفة للأخلاق ينبغي أن تقوم لا أكثر، أو مخالفة للقانون ينبغي أن تجرم، مثل أي جريمة.

للإدمان قراءات كثيرة منها:

أولا: قراءات مبدئية

سوف أبدأ بعرض بعض الفروض التي تكونت لدينا من خلال الممارسة الإكلينيكية (خاصة في السنوات العشرين الأخيرة) على الوجه التالي:

١. إن ظاهرة الإدمان ظاهرة مرتبطة بحركية الوعي بقدر ارتباطها بالأوضاع الاجتماعية.

٢. وهي ظاهرة نفسية يمكن أن تصاغ باستعمال أبجدية الصحة والمرض.

٣. وهي ظاهرة فيها إشارات يمكن أن تقرأ بما يشير إلى مسار تطور الجنس البشري (مع تطور حضارته) أو تهديدات انقراضه.

٤. وهي تعلن في نفس الوقت طبيعة مجتمع بذاته، وإن كان الإعلان يختلف في تفاصيله من مجتمع إلى آخر.

٥. كما أنها تشير إلى ماهية الاحتياجات غير المشبعة وبعض طرق إشباعها السلبية، مع الحاجة إلى إشباع إيجابي بديل.

٦. وهي أيضا تلزمنا بضرورة البحث عن بديل لها، بقدر حرصنا على التخلص منها.

ونحن نحاول الإنصات لما تقوله هذه الظاهرة، استطعنا أثناء العلاج الممتد، والتتبع الطويل، أن نقوم بترجمة مبدئية لبعض المعاني التي بدا لنا أن هذه الظاهرة تعلنها من خلال انتشارها بهذا التواتر، وأنها تؤكدها من خلال إظهارها لكل هذه المقاومة أثناء العلاج، ومن ذلك

١. إن الإدمان يعلن الحاجة إلى «المعنى»:

ففي الوقت الذي يبدو فيه المدمن «هاربا من....» نتبين أنه «هارب إلى»......

(أ) هارب «من» التهميش في الاغتراب «إلى» غموض الضياع (مثلا).

(ب) هارب «من» الإهمال والإنكار، «إلى» الكذب الكيميائي المغلف باللذة.

(جـ) هارب «من» «اللامعنى» «إلى» حذف أو إنكار الجدوى، أو نفي احتمال وجود معنى من الأساس.

(د) هارب من تشتت الوعي وتعدّد الأسياد والسلطات المتناوبة عليه، إلى أوهام التماسك من خلال تعتيمه لمستويات الوعي معا، حتى تبدو واحدا وهي لا شيء.

٢. كما يعلن الافتقار إلى الفكرة المحورية الشخصية. (المشروع الذاتي الوجودي. اللاشعوري عادة):

ومع أن هذه القضية ليست خاصة بالمدمن وحده، بل هي متضمنة في نوع سائد من الحياة المعاصرة، المجزأة والمغتربة، إلا أن المدمن:

أ. يكاد يدرك هذا النقص ويرفضه، (تحت الشعور وليس مثل الشخص العادي في «اللاشعور»).

ب. ثم هو: ما يكاد يهم بالبحث عنه، حتى يجهض احتمال العثور عليه أو تخليقه أصلا، فيرفضه قبل أن يبدأ تشكيله.

جـ. فهو يرتد أكثر خواء وأبعد عن الغائية المحورية الضامة، في وجود متصلب بارد.

د. فيلجأ إلى ملء خوائه بهذه الكيمياء الطبيعية أو المصنَّعة.

هـ. وفي نفس الوقت: هو يحرك جموده بهذه القلقلة الكيميائية المباشرة.

و. وهو بلجوئه إلى هذا الملء الزائف، وإلى التحريك المفتعل يحقق نوعا من التقارب بين بعضه وبعضه، وبالتالي يحقق نوعا من التقارب بين بعض ذاته، وبين ذوات من حوله الذين أسقط بُعوضه عليها، فالتقارب في الداخل له ما يقابله من شبه تقارب في الخارج (مع ملاحظة أنه لا يقترب فعلاً من آخرين، إنه لا يقترب إلا من نفسه ومن أبعاضها، أو تعددها، في إسقاط خفي).

ز. لكنه سرعان ما يفقد التوجه المحوري نحو ذاته المفروض أنها تتشكل بتوجهه الخلاّق، وذلك نظرا لعجزه عن المثابرة، ونتيجة لطبيعة التصنع والافتعال بالكيمياء المثيرة والمفسدة والخادعة في آن.

المدمن يعلن الافتقار إلى الفكرة المحورية، وفي نفس الوقت يهم بتعويض ذلك، إلا أنه يقع في اتباع أسلوب كيميائي متعجل، سرعان ما يقوضها منذ البداية.

٣. والمدمن يعلن الحاجة إلى المخاطرة بالكشف:

المدمن وهو يعيش في وعيه الملوث بالكيمياء المقحمة ينتقل من حالة وعي إلى أخرى بما يسمح له. خصوصا في البداية. أن يستعيد قدرته على الدهشة، واستقبال العالم، ونفسه، بطزاجة جديدة، الأمر الذي لا يجده في حالة الوعي العادي إلا أن هذه الطزاجة سرعان ما يثبت أنها أقرب إلى لسعة النار منها إلى نور البهر، لكن يظل الاغراء يتكرر لعل وعسى.

(ثم سرعان ما يحدث التورط ويتمادى):

٤. والتعاطي (فالإدمان) يلوّح بإبداع ما:

فمن خلال الافتقار إلى المعنى، والبدايات المتجهة إلى الفكرة المحورية، يلوح له في مساحة ما من وعي غائر أنه «باللعب الكيميائي» في مساحات الوعي المتبادلة، يمكن أن تجري محاولة إعادة تنظيم على مستوى أعلى (إبداع)، إلا أن هذا في أغلب الأحيان يتكشف عن وعد كاذب. وإن كان في قليل من الأحيان يصدر عنه إبداع حقيقي في ظروف خاصة كما يشاع عن بعض المبدعين أحياناً، إلا أن هذا يندر. إن لم يمتنع نهائيا. في أنواع الإبداع العلمي، والفكري الممتد، الذي يحتاج. في مرحلة الصياغة الختامية. إلى ترابط شديد الإحكام، ومثابرة طويلة المدى، لا يصلح معها. بل يفسدها. أي تحريك صناعي مفتعل.

٥. كما أن بعض الإدمان قد يخدم الحاجة

(الحقيقية) إلى الآخر، مع إحياء تواصل سطحي بديل:

ففي الوقت الذي لاحظنا فيه ما يبدو أنه دفء التواصل بين أفراد هذه الفئة بعضهم ببعض، وبينهم وبين غيرهم من المرضى، تبينا قصر عمر هذا الدفء ولا جدواه في نهاية النهاية، اللهم إلا في تسهيل التقمص والاعتماد على منطق جماعي يبرر هذا الحل (الإدمان) على مستوى ما من مستويات الشعور.

الحاجة للآخر عند المدمن تتحرك في إلحاح (ربما أكثر من الشخص العادي)، لكنها حركة بدئية على مستوى غير ظاهر، وهي حاجة حقيقية عارية ملحة عادة، ثم إنها تعلن أهم شروطها وهي أن يكون التواصل حقيقيا منذ البداية (!!!).

ورغم ظاهر الصدق الفطري في هذا الإعلان الذي لمحناه وراء الظاهرة، إلا أنه مصاحَبٌ بما يشكك في حقيقة أصالته، فالمدمن - مع ذلك - لا يتحمل دفع متطلبات هذا النوع من التواصل، وكأنه يريده من الخارج إليه، أكثر مما يسعى هو إلى ذلك، وهـــو في نفس الوقت لا يتراجع أمام الوعي بالصعوبة، فيظل الإلحـــاح يتمادى، ثم يتطور الأمر:

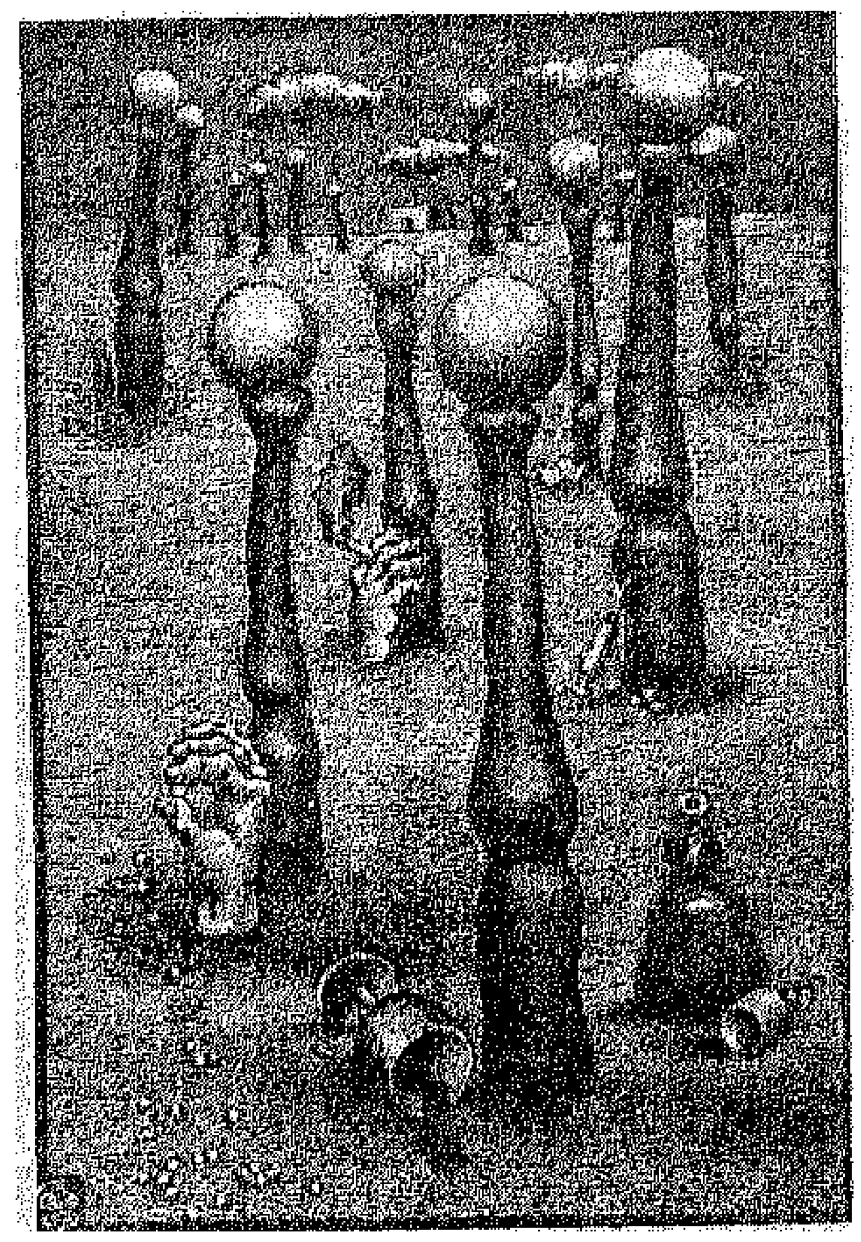
أ - فيلجأ إلى هذا «التسـهيـل الكيميائي » الذي يحقق نوعا من التغافل عن شـــروط التواصل، وبالتالي هو يحقق تسهيلا للاندفاعة نحو الآخر، وبذلك هو يكسر الوحدة (ظاهريا) في نفس الوقت الذي يخفف من غلواء الحقيقة.

لكن ذلك كله أو أغلبه سرعان ما يكشف خواءه باختبار الواقع، وتحديات المثابرة، بمعنى أن هذه العلاقات الحميمة تظل كذلك وهي تورى انتماء سهلا غير مكلف، ولكنها تتساقط بسرعة هائلة تحت اختبارات الواقع، وتصاعد المسئولية.

ب - ثم إن نوعا آخر من الحل يطرحه المخدر على من تلح عليه حاجة التواصل هذه، وهو حل الاستغناء، وتفسير ذلك المحتمل هو أنه بعد تعتعة ذوات الداخل، تتاح فرصة الرى الذاتي (كله يدلع نفسه!!!) دون حاجة إلى آخر خارجي!!!

٦ - والإدمان يلوح بتدين كيميائي، ويعد بجنة أقرب:

لاحظنا أن المدمن قد يظهر من الطقوس والولاء العقائدي لموقفه من الإدمان (وثلة الإدمان) ما أثار عندنا فكرة أن الإدمان قد يقوم بدور المكافئ لما هو تدين سلبي بشكل أو بآخر، وهذا ما أسميناه بالتدين الكيميائي، وتكملة لهذا الفرض وجدنا أن الجنة التي يعد بها هذا التدين الكيميائي - إن صح التعبير - هي جنة أقرب، تحقق له فورا وعيانيا ما تعد به، والمدمن لا يستطيع الانتظار إذ هو عاجز عن التأجيل وبعد النظر عادة،



وبالتالي: فالآن الجاهز عنده حالا هو القابل للتصديق فورا.

٧ - وبعض الإدمان يبدو نوعا من العلاج الذاتي:

والعلاج هنا لا يعني علاجا حقيقيا، ولكنه يعني أساسا تخفيف أو إزالة الألم، بما يشمل تحوير الأعراض، أو تأكيد التدهور، والأبحاث التي أجريت لتحقيق هذا الفرض أظهرت كيف تتميز بعض العقاقير الإدمانية في التخفيف عن مظاهر أمراض بذاتها، وإن كانت خبرتنا لا تحدد الأمر بهذه الصورة، وإنما وجدنا أن هذه المواد تعمل كعلاج (بالمعنى السابق) في المراحل الإرهاصية المنذرة لمرض بذاته، مثل الوعي بالألم النفسي قبيل الاكتئاب، أو إدراك التهديد بالتناثر قبيل الفصام، وهذه العقاقير تؤجل ظهور المرض القادم، بل وقد تحوّل مساره من مشكلة مواجهة مرضية صريحة إلى مشكلة سلوكية سماتية (وأحيانا مشكلة قانونية وأخلاقية)، ويثبت هذا الزعم بدراسة التاريخ الأسرى ونوع الاستهداف من ناحية، كما قد يثبت بتحديد نوع المعاناة والمرض اللذين يظهران بعد الانقطاع، من ناحية أخرى.

٨ - وأحيانا ما يكون الإدمان مكافئا للثورة وبديلا عنها:

وهو في ذلك لا يختلف إلا قليلا عن كثير من غائية بعض الذهانات في بداياتها، إلا أن الحال هنا يبدو أكثر دلالة، وأخطر قياسا:

ذلك لأن الثورة الزائفة جميعا، التي تتمثل في الإدمان تتحقق المرة تلو المرة، ليُعلن فشلها المرة تلو المرة، فهي تتحقق بشمة، أو شكة، يعلن المدمن من خلالها الرفض والاحتجاج والرغبة في التغيير والوعد بالتطوير وربما الاستيلاء على السلطة إلى آخر أبجدية أغلب الثورات الحقيقية والزائفة لكن المدمن للأسف - من واقع ما لاحظناه - لا يتعلم من فشله بعد كل شكة / شمة (ثورة!!) فهو يتصور - في مستوى ما من شعوره أن الثورة فشلت لأسباب خارجة عنه، وأنها - فقط - تحتاج إلى جرعة أكبر، أو محاولة متكررة أكثر، وهكذا إلى غير نهاية.

يجدر بنا هنا أن نميز هذا الزيف الثوري عن ثورة - المريض النفسي (الذهاني خاصة) المحكوم بفشلها منذ البداية. المريض الذهاني إذ يهم بثورته الزائفة، يتمادى - بالأعراض - في طريقها، ويدفع ثمنها: عزلةً وألماً وتمزقاً ونفياً، وهو إذ يتبين زيفها بعد حين يكون الظلام قد عم حتى لا يعود يميز بين ما هو ثورة وما هو انقلاب إلى أدنى، أما المدمن فهو الثائر المتكرر بلا جدوى، وبلا توقف.

٩ - وكثيرا ما يكون الإدمان توقيفا للزمن، وتعميقا للحظة، بقدر ما يكون إلغاء لها:

فبقدر ما لاحظنا موقف المدمن العدمي من الزمن كمتغير واحد، لاحظنا سهولة معايشته للـ«هنا والآن» في العلاج الجمعي.

وقد عرفنا من هذا وذاك أن معايشة الـ«هنا والآن» عند المدمن ليست مبادرة لاختراق الاغتراب العادي (في الماضي والمستقبل) بقدر ما هي إلغاء للخبرة السابقة من ناحية، وتهرب من رؤية العواقب من ناحية أخرى.

إن هذا يتناقض (لدرجة العكس) مع المعنى الإيجابي المؤكَّد على ضرورة مواجهة الواقع «الآني» كما هو، وضرورة البدء في الحركة هنا حالا، شريطة أن تكون اللحظة الراهنة هي حلقة واضحة في التواصل التتابعي الذي يُدْخلها في كلية المسار الزمني دون أن تنسلخ عن نفسها (اجترارا أو تأجيلا).

وبألفاظ أخرى: في حين أن المدمن يعمق «الهنا والآن» هربا من الوعي ببعد الزمن، فإن العلاج الجمعي الإيجابي يسعى إلى توليد الماضي والمستقبل معا في عمق المواجهة الآنية بتعميق «هنا والآن» ثم تفعيل ما يتولد منه حالا.

١٠ - والمدمن يختصر - بإدمانه - رحلة نموّه، إذ هو يسير خطى النمو المزعومة من أقصر السبل وبأسرع إيقاع، فإذا به يضل عنها وهو يصر أنها هي، فلا نضج ولا نمو أصلا.

ذلك أننا لاحظنا أن المدمن لا يستسلم بسهولة لتجمد النمو (كما قد يحدث حتى في الحياة الراتبة العادية)، لكنه بدلا من أن يمضي قُدما في «جدل الاستمرار»، يروح يختصر الطريق بتحريك زائف نحو مطلق جاهز، فيشعر - من خلال هذا التحوير الكيميائي، ومع إلغاء الزمن - أنه حقق التكامل في اللانهائي (غاية غايات النمو) بهذه القفزة العملاقة الخادعة، وهو ساكن في المحل.

خلاصة الملاحظات الإكلينيكية

خلصنا من الممارسة الاكلينيكية، ومحاولات القراءة فيها لمدة سنوات، ثم التتبع المثابر، للتأكد من رجاحة الفروض، خلُصنا إلى ضرورة إعادة النظر في هذه الظاهرة برمتها، ليس من المنظور الطبي أساسا، إذ ثبت لدينا أنه يأتي في مقام متأخر حسب ترتيب الدلالات، وإنما من منظور تطوري وحضاري أشمل - من خلال هذا المنطلق رحنا نراجع ونرتب المواقف المتصلة بالظاهرة حسب شيوع قيمتها، ومنطق دلالاتها، وحقيقة دورها، فكان الجزء التالي:

ثانيا: مراجعات ومواقف مترتبة

من البديهي أنه لا تصح هذه الانطباعات الإكلينيكية في ذاتها، إلا إذا كانت بداية لنشاطات علمية متعددة في

اتجاهات مختلفة، وقد تعمدت أن أورد كلا من الملاحظات والانطباعات كرؤوس مواضيع دون تفصيل حسب ما يتيح المقام، بل دون ربط مباشر بالأجزاء التالية.

وهذا هو ما أطل علينا من خلال الممارسة فيما أسميته «مواقف» أو مراجعات مواقف، أحاول أن أدرج أهمها فيما يلى:

١ - الموقف الطبى

تبدو ظاهرة الإدمان - برغم النفى المتكرر - وكأنها ظاهرة طبية فى المقام الأول، وبالتالى فهم يزعمون أنها لا تحتاج إلا إلى علاج بواسطة طبيب، فى مستشفى عادة، يا حبذا لو كان مغلقا، وبواسطة عقاقير بديلة، أو شافية.. الخ، وللأسف - فقد تبين لنا بالممارسة - أن كل ذلك يحتاج إلى وقفة مراجعة فى أكثر من اتجاه، ومن بعض ذلك:

١ - إن المدمن عادة ما يقبل على الإدمان توقيا للمرض النفسى القادم، أو المهدد، أو المنذر، بمعنى:

إن الإدمان هو إجهاض للمرض قبل أن يكون إعلانا لمرض بديل، فكأن الإدمان من هذا المنطلق هو بديل المرض النفسى، أكثر منه مرضا فى ذاته مما ينبغى معه أن يقل الحماس للمبادرة باعتباره مشكلة طبية أساسا؟

٢ - إن الاضطراب الغالب مع، وخلف، الإدمان، هو من نوع اضطراب الشخصية (دون العصاب أو الذهان)، وهذا النوع فى عمقه يعتبر مشكلة اجتماعية (وقانونية أحيانا) أكثرمنه مشكلة طبية، ولا يوجد - إذن - مايبرر غلبة التطبيب على غيره من سبل المعالجة والعلاج.

٣ - إن الإدمان قد يأخذ شكلا ما هو بديل التطبيب مما سمى «التداوى الذاتى»، وقد أشرنا حالا إلى أن ثمة عملية انتقائية يمكن رصدها بالنسبة لاختيارات المدمنين على اختلاف أمراضهم النفسية الكامنة أو الظاهرة على سبيل العلاج الذاتى الانتقائى (مثل الهيروين للإكتئاب مثلا). إذا بالغنا فى قبول هذا الاحتمال على علاته فإنه يجرنا إلى احتمال اعتبار الإدمان طبا بديلا أكثر منه مرضا بديلا.

٤ - إن اندفاعات الطب النفسى المعاصر نحو ما يسمى بالنموذج الطبى (وهو فى الحقيقة: النموذج الكيميائى الكمى) هو موقف قد يساهم فى نشر ظاهرة الإدمان، لا فى التقليل منها، ذلك لأن هذا النموذج الطبى المزعوم يؤكد - بشكل مباشر وغير مباشر - على ضرورة الإدمان الكيميائى (الطبى) بوجه خاص، وإن اختلفت المسميات، وتفاوتت المضاعفات، يفعل ذلك تحت عناوين العلاجات الطويلة المدى، أو حتى مدى الحياة.

وبألفاظ أخرى يمكن القول بأن أكبر مروجى المفاهيم المباشرة الكامنة وراء ظاهرة الإدمان هو ما يسمى الطب النفسى الدوائى الحديث، ليس فقط بما يعطى للناس (المرضى!!) من أطنان المؤثرات الكيميائية الطبية على الوعى، أو بما ينفق من مليارات العملة على التداوى الكيميائى، وإنما أساسا بإشاعة وتأكيد المفهوم الكمى الكيميائى للوجود البشرى (وليس فقط للمرض النفسى)، مفهوم التسكين والرفاهية حتى ولو سمِّىَ بالاسم الجديد الأكثر التباسا تحسين «نوعية الحياة».

المـــــواجـــــهـــــة

فى مواجهتنا لظاهرة الإدمان: نحن نحتاج إلى تعديل جذرى لهذا الموقف الطبى، ومن ذلك:

١ - ينبغى تحديد وضع مشكلة الإدمان بالنسبة للممارسة الطبية، باعتبار أن الطب الدوائى يتناول بعض مضاعفات الإدمان العاجلة دون جوهرها الراسخ،

٢ - ينبغى أن نقف موقفا نقديا شاملا فى مواجهة هذه الشائعات شبه العلمية التى تقول بأن الحياة العصرية، تحتاج أول ما تحتاج إلى مهدئات كيميائية عصرية!!!!!!

٣ - ومن ثَمَّ على الطبيب ألا يُستدرج إلى مهرجانات الترهيب والترغيب الإعلامية بما تشمل من دعاية ضمنية لمن لم يختبر من المواطنين، وبما تقوم به من تخويف فاشل لمن وقع فى المستنقع (الإدمان) فلم يعد يخيفه شىء أصلاً.

٤ - وأخيرا، فعلى الطبيب ألا يكتم مشاهداته الإكلينيكية منتظرا تقييمها كميا بمنهج علمى محدد، منهج قد يختزلها أو يشوهها، بل إن واجبه الأول أن يقدمها إلى الباحثين المنهجيين - فى صورة فروض عامة، كما يقدمها إلى التربويين والسياسيين فى صورة شهادة من جوف المعمعة ليس له حق كتمانها، ولو فى صورتها الفجة.

٢ - الموقف «البحث علمى»

تكاد تكون ظاهرة الإدمان - مثل الكثير من الظواهر النفسية - غير قابلة للبحث بالطرق التقليدية، ولعل هذا من أهم الأسباب التى جعلت نتائج الأبحاث عاجزة عن الإسهام الحقيقى فى مواجهة الظاهرة، لدرجة أنها تكاد تصبح سببا فى الانتشار، لا بمعنى أنها محدثة للإدمان، ولكن بمعنى أنها خدعت المهتمين بالظاهرة حين وجهت نتائج الأبحاث اهتمام «من يهمه الأمر» نحو التركيز على جوانب ثانوية، أو القياس بمقاييس ظاهرة، لم تسبر غور الظاهرة، ولا فهمت لغتها أصلا.

وأهم ما يوقعنا فيه المنهج البحثى السائد هو ما يلى:

١ - إننا نعتمد على تقييم لفظى فى أغلب الأحوال .

٢ - إننا نهتم بالنتائج العاجلة، وأحيانا ما نرضى بها طويلا.

٣ - إننا نهتم بالتغيرات والآثار الكمية (دون، أو لدرجة أقل من، النتائج الكيفية).

٤ - إننا نركز على اختفاء ظاهرة ما (أو أعراض ما) دون أن نبحث - فى نفس اللحظة - عن مواكبة هذا الاختفاء مع تحريك أعراض وسمات قد تكون أخفى وأخطر.

٥ - إننا نركز تركيزا مبالغا فيه ونحن نبحث عن أسباب الظاهرة، (السببية الحتمية) وهو أمر ليس هينا مهما بدا الترابط ظاهرا ومؤكدا بين متغير وآخر، لأنه مع التعقيد التكثيفى للظاهرة البشرية يكاد يستحيل فى مجال الشخصية واضطرابها تحديد السبب أو الأسباب التى أدت إلى هذا الانحراف أوذاك السلوك، وكل ما يمكن الإشارة إليه دون يقين فى أغلب الأحيان - هو تزامن أو تتابع أو ترابط متغيرين بدرجة ما .

وحتى يقوم نشاط البحث العلمى، فى بلدنا هذا، فى وقتنا هذا، بما نتوقع منه فى الإسهام فى توجيه مسارنا ومعالجة صعوباتنا بالنسبة لظاهرة الإدمان خاصة، لا بد أن نراعى الاختلاف الجوهرى بين ظهور هذه الظاهرة فى مجتمعاتنا، وبين ظهورها فى مجتمعات أخرى مختلفة، وأشير هنا إلى بعض التنبيهات الواجب الالتفات إليها بشكل أو بآخر فى هذا الصدد:

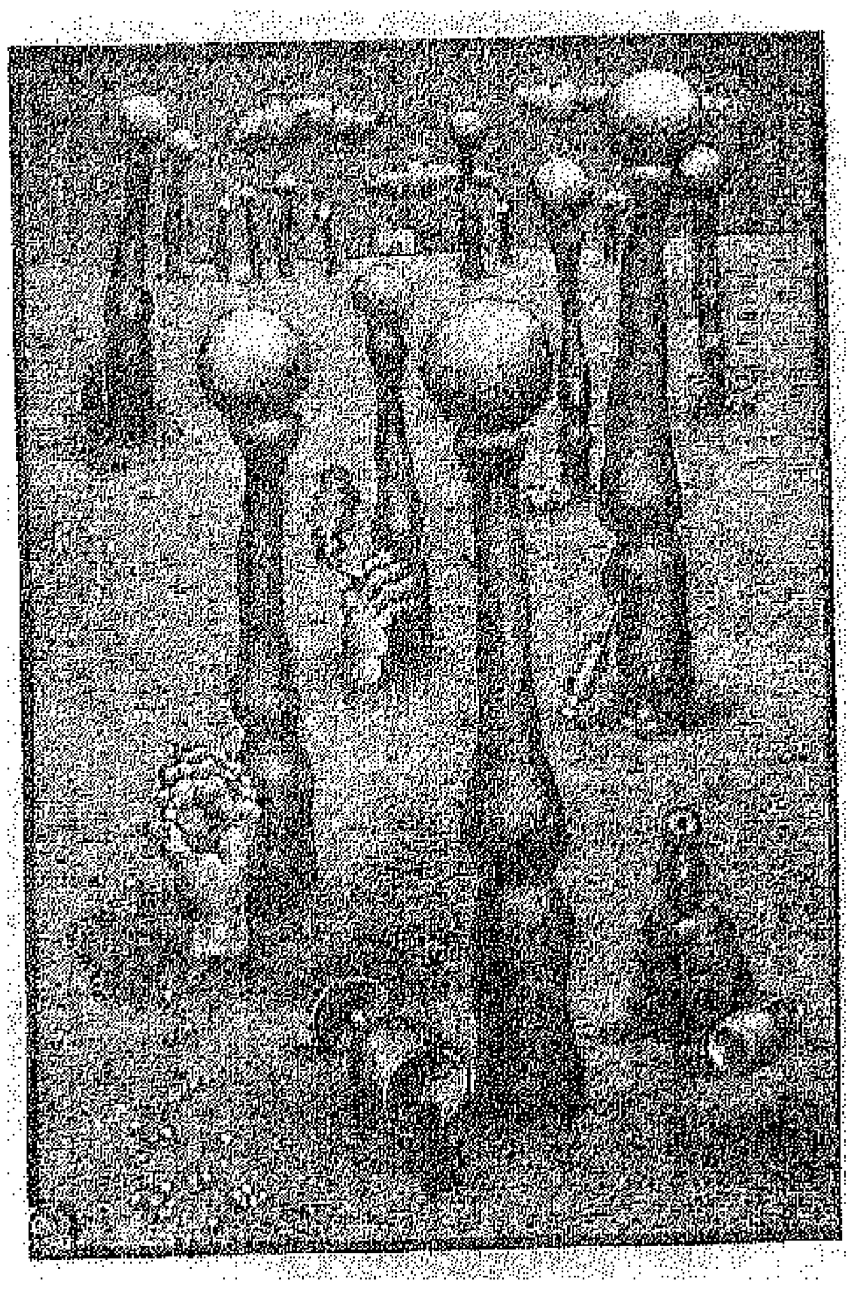
١) لا ينبغى أن يقتصر النشاط البحثى على نسخ المنهج الشائع والمتاح، لمجرد أنه محكم أو ممكن،

٢) كما لا ينبغى أن تقرأ النتائج قراءة تعلن ترابطا ما بين متغير ومتغير، فهذه هى أبجدية المعلومات الأساسية للظاهرة المعنية، المطلوب هو أن نحسن صياغة «جملة مفيدة » من هذه الأبجدية، وهذه الجملة المفيدة لا يمكن أن تتكون إلا من خلال وعى بشرى موضوعى أمين مبدع مهتم.

٣) البحث العلمى عامة، وفى مثل هذه الظاهرة خاصة يحتاج إلى باحثين أخلاقيين سياسيين فى المقام الأول، وهذا لا يتفق مع الإشاعة شبه المنهجية التى تؤكد على «حياد الباحث»، وانفصال ذاته وتحيزاته عن موضوع البحث، فالمطلوب من الباحث هو أن يكون صاحب موقف يرصد به تحيزاته ويخفف منها، لا ينكرها أو يتنكر لها.

٤) لا بد إذن من تنشئة باحثين على وعى سياسى (بالمعنى الأشمل للكلمة)، وبالتزام أخلاقى يجعلهم مؤرقين شخصيا - إذ

لا ينبغى أن يعامل الإدمان كما يعامل مرض طارئ مثل الملاريا أو مرض قائم مثل تليف الكبد، ولا باعتباره مخالفة للأخلاق ينبغى أن تقوّم لا أكثر، أو مخالفة للقانون ينبغى أن تجرم، مثل أى جريمة



يواجهون الظاهرة. تقشفا حضاريا، وبانتماء إيمانى يسمح بالإبداع ويحدد أولويات ومستويات التوافق بحركية دائبة.

٥) من خلال مثل هؤلاء الباحثين سوف تتخلق مناهج جديدة للبحث العلمى، لا تستبعد الانطباعات الذاتية (ومنها الإكلينيكية) ولكنها تضعها فى موضعها المناسب فى سياق الجهاد المعرفى الأكبر، ويتم تقييم المصداقية من خلال مصداقية الباحث والأداة، ليس فقط فى مجال البحث المحدود، وإنما فى مختلف أنواع وجودهم الإنسانى.

٦) كل ذلك يمكن أن يسمح لنا باستلهام فروض جديدة، نابعة عادة من الممارسة الإكلينيكية، ومن الظواهر الاجتماعية والسياسية والدينية على حد سواء، فروض تنبع من ظروفنا شديدة الخصوصية، فلا يقتصر البحث العلمى على مجرد محاولة إعادة تحقيق فروض واردة من مجتمع آخر له ظروف أخرى فى مرحلة مختلفة.

٧) كما ينبغى تقييم النتائج المجردة للأبحاث بفائدتها الحقيقية متى وضعت توصياتها موضع التنفيذ، مع التتبع والتعديل من واقع الممارسة، وإلا فما جدوى البحث العلمى أصلا؟

٣ - الموقف السياسى

لا تستعمل كلمة السياسة هنا بالمعنى الشائع المتعلق بنظام حكم معين أو بنوع إدارة سلطة بذاتها، وإنما تستعمل بالمعنى الأعمق والأدق الذى يؤكد على أن كل وجود إنسانى يتدرج فى نظام عام له حقوق وعليه واجبات يتم تنفيذها من خلال حركة مجاميع الناس وحوارهم، هو وجود سياسى فى المقام الأول مهما كانت تسميته الشائعة.

من هذا المنطلق، وبكل المسئولية، فإن مشكلة الإدمان هى مشكلة سياسية أساسا، ولن يكون لهذه المشكلة حل حقيقى إلا بتغيير جوهرى. على مستوى الوطن، وعلى مستوى العالم، تغيير يقع بشكل أو بآخر تحت ما هو مسئولية سياسية، تصب. إن آجلا أو عاجلا. فى مسيرة تطور الإنسان مهما اختلفت التسميات.

معنى ذلك أن مهمة التصدى لمشكلة الإدمان هى مشكلة الدولة والناس كافة، قبل وبعد أن تكون مشكلة طبية أو اجتماعية أو طبية. إن إحالتها برمتها إلى رجال الطب، أو مختصى النفس، أو متحمسى الوعظ، هو اختزال للمشكلة وتغافل عن حقيقة معناها.

بناء على ذلك فإن كفاءة نظام سياسى معين، قد تقاس ضمنا بمدى كفاءته فى القضاء على مثل هذه الظاهرة، سواء كدليل على قوته وإحكام قبضته، أو كدليل على نجاحه فى تحريك الانتماء وتنمية المسئولية الجماعية (والفردية ضمنا)، فعلا يوميا وناتجا حضاريا.

ثم أكتفى بالتنبيه على ما أوحته إلينا انطباعاتنا الإكلينيكية السالفة الذكر فى هذا الموقف الأشمل على الوجه التالى:

١ . على الموقف السياسى أن يقود فعلا، لا أن تكون مهمته مزيدا من الاغتراب، يقود مستلهما كل المواقف الأخرى (الطبية، والبحث علمية، والدينية، إلى آخره).

٢ . تتوقف تفاصيل مهمة القيادة السياسية فى هذه الحرب الحضارية والتطورية على متغيرات كثيرة، ليس هذا مجال شرحها هنا، ولكنها تأخذ فى الاعتبار سلطة الحكم، ودرجة النضج، وقبضة القانون، وهيبة الدولة، مما يختلف من بلد لبلد، ومن مرحلة إلى مرحلة.

وبصفة عامة، على من يريد أن يتحمل مسئوليته فى مواجهة هذه الظاهرة من ساسة وحكام ومسئولين مختصين، أن يعامل هذه الظاهرة. على المدى القصير. معاملة «حالة الحرب» (على المستوى الإجرائى الآنى)، من حيث الوسائل والغايات جميعا.

أما على المدى الطويل فلا بد أن تعامل معاملة مواجهة التهديد بالانقراض، انقراض النوع البشرى ككل، (الانقراض على المستوى الحضارى والتطورى معا).

٣ . ثم لا أترك هذه النقطة دون أن أذكر أن العمل السياسى . إذا كان له أن يكون مسئولية حضارية . هو ليس من اختصاص السلطة دون الناس. كل نظام له موقف خاص فى نفى أو تنظيم وسائل وأشكال تنظيم هذه الحركة بين السلطة والناس، وطبيعة التمثيل بينهما، وكل ذلك هو الذى يعطى للنظام مشروعيته، و فى نفس الوقت لا يخلى الناس من مسئوليتهم.

٤ - الموقف الدينى

لا بد أن نفرق ابتداء بين الاستخدام السطحى للدين وبين التدين الحقيقى الذى يمشى على أرجل: عبادات، و خلقا، ومعاملات، وجهادا داخليا وخارجيا فى حوار متصل، فى ظل اجتهاد لا يفتر، نحو إبداع الذات والحوار المفتوح النهاية مع الوعى الكونى بلا حدود أو تحديد، بمعنى أنه لا بد أن نفرق بين استعمال اللغة الدينية فى ألفاظها المعجمية على ناحية واتباع تعليمات السلطة الدينية، وبين حركية الإيمان الإبداعى على الناحية الأخرى، ففى الحالة الأولى تكثر الأصوات وتقل الممارسة إلا ممارسات القمع والتلقين، وفى الحالة الثانية تزيد الممارسة الإبداعية ويصبح الإيمان فعلا متجددا مغيراً للشخص والناس فى اتجاه التطور.

على أن هذه التفرقة ليست دعوة لإلغاء الشكل لحساب جوهر غامض بقدر ما هى دعوة لتتكامل الصورة السلوكية والتنظيمية العباداتية، مع الموقف الإيمانى الحياتى الأعمق فى دوره الإبداعى الخلاق.

إن أهمية هذا التوضيح هى التأكيد على الاستفادة مما هو دين وتدين وإيمان على مستويات متعددة، حرصا على النفع الحقيقى من كل ما هو دين حقيقى.

نلاحظ فى هذا الصدد كيف تشيع صورة تسكينية للتدين، قد تأتى بنتيجة عاجلة حسنة الشكل، ولكن ينبغى النظر فى حقيقة مدى فاعليتها، وطول بقائها، إذا ما تذكرنا مستويات حاجات من يلجأ إلى الإدمان وهو يبحث عن تغيير فى الوعى وتحريك له . لا مجرد تسكين عابر، كما أنه يبحث عن المعنى، وعن الامتداد، وعن الحق بما يشبه الثورة فى البداية، لا مجرد طمأنة من الظاهر.

إن القيم الأبقى التى تستطيع أن تغنى عن الإدمان يمكن أن يحصل عليها الفرد من جهاد إيمانى حقيقى يقلب وجودنا الجاف المنقطع (كالجسم الغريب فى الكون) إلى وجود نابض إيقاعىٍّ نام ممتد فى التناسق الكونى والمعنى الحقيقى.

إن تنمية الجانب الإبداعى فيما هو إيمان، هو أمر جوهرى و أساسى، ليس فى مقاومة ظاهرة الإدمان فحسب، وإنما فى مجرى المسار الحضارى والتطورى بشكل عام.

من هنا وجب التنبيه على سطحية التوقف عند معنى سلبى لما هو «النفس المطمئنة» حين ننسى أن «ادخلى فى عبادى» جاءت بين رجوع النفس المطمئنة وبين دخولها الجنة«وادخلى جنتى».

ثالثا: المخرج
ضبط جرعة الرؤية
مع كفاءة القدرة

إذا ما استشرت ظاهرة بهذه الجسامة وتلك الخطورة، ثم تعذر حلها فى مختلف الظروف، وتحت سائر النظم، فلا بد من التوقف للنظر فيما تعنى من منطلق أكثر شمولية، وأبعد غورا، إذ لا يعود يكفى أن نقدم توصيات جزئية بعلاج هذا، أو نصح ذاك، كما قد لا يكفى أيضا أن نستمع إلى ما تقوله الظاهرة متفرقا عن بعضه البعض.

لهذا وذاك فسأحاول أن أقدم فى نهاية هذه المداخلة بعض الدلالة العامة التى قد يشير إليها تواتر الظاهرة وانتشارها عالميا ومحليا إلى هذه الدرجة، وفى نفس الوقت امتناعها. نسبيا. عن

الاستجابة الكافية لأغلب وسائل المقاومة والعلاج.

قبل ذلك لا بد من الاعتراف أن جذور المشكلة ليست جديدة تماما، كما أن فرط التعميم لا يقدم عونا عمليا في مسألة تفصيلية كهذه، فمسألة حاجة الإنسان إلى الاستعانة بكيمياء ما: تعتم وعيه السائد من جهة، وتفجر وعيه الكامن من جهة أخرى هي قديمة قدم محاولات الإنسان للتكيف على مستويات من الوعي متبادلة، ومداخل للمعلومات محدودة.

إلا أن الجديد في المواجهة مما سبق الإشارة إليه في هذه المداخلة يمكن ترتيبه على الوجه التالي:

أولا: إن الظاهرة تنتشر بأسرع وأخطر من تاريخها السابق.

ثانيا: إن المواد الطبيعية والمصنعة المستعملة في التأثير على الوعي (طبيا وعشوائيا) تتنوع وتتطور بشكل سريع ومهدد، بحيث يكاد يختفي الحد الفاصل بين الاستعمال الآمن، والاستعمال المدمر.

ثالثا: إن الطب النفسي الدوائي الأحدث، يروج لمبدأ التسكين ترويجا يتعدى الاستعمالات الطبية إلى شيوع قيمة ضرورة التخدير، وبالتالي ضرورة الاعتماد على الأدوية اعتمادا ممتدا (مدى الحياة أحيانا) مما يعد نموذجا بشعا لما يجري في موازاته مما أسميناه التطبيب الذاتي عن طريق الإدمان.

رابعا: إن المعالجات الجزئية لظاهرة الإدمان لا تستطيع أن تلاحق خطورة الانتشار وتمادي التدمير لكل ذلك:

علينا أن نبحث عن مدخل آخر، وتناول آخر يستطيع أن يتحمل مسئولية المواجهة، لا لشكل الظاهرة في حدودها الطبية والقانونية فحسب، ولكن لدلالاتها العامة وما يبلغنا من خلالها من رسائل متنوعة.

وليس هذا مجال تفصيل عرض خطة شاملة لمثل ذلك، لكن علينا أن نتذكر أن المطلوب هو أن نقبل التحدي، بما في ذلك إمكانية أن نعترف بالفشل في مرحلة أو أخرى، وأن نقسم مهمتنا من خلال هذا وذاك إلى مستويين: الأول: محاولة التقدم أثناء الوقاية والعلاج، من خلال فهم الظاهرة وحسن الإنصات لما تعنيه وما تشير إليه، والثاني: محاولة الإلمام بالمعنى الشامل وراء التفاصيل المتعددة، بحيث يمكن أن نحاول أن نستجيب بطريقة أفضل لنفس الحاجات ولكن بسبل أخرى كما ذكرنا منذ البداية.

تعقيب

أولاً: إن ظاهرة الإدمان، بما وصلت إليه من هذا العنف التدميري، قد تكون بمثابة إعلان نهاية مرحلة بيولوجية في تاريخ الجنس كأحد مظاهر التمادي في الاستغراق في مقومات انتحار البشرية.

ثانياً: قد تكون الظاهرة نذيرا مهما ينبه إلى ضرورة احترام حاجات الإنسان غير المشبعة وبالتالي فإن هذا النذير يدعونا إلى محاولة إشباعها بوسائل أكثر إيجابية وأقدر استمرارا.

هذا الاحتمال الثاني هو الأرجح عندي، وهو ما أفصله فروضاً، على الوجه التالي:

١. إن الإنسان في مرحلته الحالية. أكثر من أي وقت مضى. قد ملك أدوات معرفة أكثر فأكثر: معرفة نفسه وخارجه على حد سواء، فأصبح مهددا بجرعة من الوعي لم يتهيأ لها بقدرات تستطيع استيعابها في حركة إبداعية مناسبة.

٢. يضاف إلى اتساع مساحة الرؤية ومداها، أن محتواها أصبح زاخرا بكل ماهو باهر وخطير، من حيث القدرة على التنبؤ بمصائب قادمة، وتدهورات محتملة، وعلاقات مضروبة، وحيوات مهدرة.

٣. ثم إن الميكانيزمات النفسية العادية (الحيل النفسية) قد عجزت عن إغلاق نوافذ هذا الوعي المنتشر للتخفيف من واقعية وموضوعية (وربما حتمية) تلك الأخطار الزاحفة.

الاحتمالات والمسئولية:

١) ثمة محاولة طبنفسية، تجارية استهلاكية، خطرة تروج للتمادي في الإفراط في التداوي بالعقاقير، معظم الوقت أو طول الوقت. (شركات الدواء)

تواكبها وتوازيها محاولة تخدير ذاتي متزايد حتى يصل إلى نهاية إدمانية مدمرة. (الإدمان)

وكلتا المحاولتين تسعى بنا إلى التقليل من حدة الوعي الملاحق بالرؤية المتزايدة: في مداها ومحتواها جميعا.

٢) إذا نحن سلمنا بذلك، صار لزاما علينا. ابتداء. أن نسعى إلى القبول بالأمر الواقع في محاولة الاعتراف بضرورة التخدير من حيث المبدأ، لكن لابد: من التسليم بأن هذا القبول هو مرحلي بالضرورة.

٣) إن هذا الاعتراف ينبغي ألا يكون أكثر من خطوة تكتيكية في استراتيجية ممتدة، حيث أن التسليم بضرورة الحد من الرؤية، بما يعني ضرورة التخدير، لا يعني الإقرار باستعمال مواد كيميائية تنتهي إلى تعمية الوعي وتزييفه، بقدر ما يدعو إلى البحث عن وسائل تسمح «بتناسب القدرة مع الرؤية» في مراحل النمو المختلفة.

٤) إن ذلك يستلزم إمعان النظر في طبيعة مسار نمو الإنسان من منظور الإيقاع الحيوي، لندرك أن نمو الإنسان لا يسير في شكل خطي مسلسل، وإنما يتم في جدل إيقاعي متناوب تناوب الليل والنهار، وتناوب النوم واليقظة، وتناوب الحلم والنوم غير الحالم.

إن ضبط جرعة الرؤية مع كفاءة القدرة لا بد أن يسير بنفس الإيقاع. فإذا كان الإنسان في حاجة إلى تخدير مؤقت مناسب، بالطرق الطبيعية، في مرحلة بذاتها (مرحلة تحصيل المعلومات وترتيبها)، فهو في حاجة في مرحلة أخرى إلى تحريك موجه من خلال إطلاق قدرته الإبداعية لاستيعاب جرعات متزايدة من الرؤى والبحث (وهذه هي مرحلة البسط المتناوبة مع مرحلة التحصيل).

٥) بما أن التخدير الكيميائي (طبيا، أو إدمانيا) يحمل مخاطر لا يمكن ضبطها، وجب علينا من منطلق سياسي وتربوي، وإلى درجة أقل من منطلق ديني وطبي أن نتقبل و ننمي مخدرات سلوكية طبيعية بطريقة مرنة تسمح بالخلاص منها في مرحلة لاحقة

وتعريف المخدرات السلوكية يحتاج إلى تفصيل لا يسمح به المجال هنا الآن، فأكتفي بالإشارة إلى ما أعنيه بذلك من بعض العادات الحميدة والمفيدة التي قد تصبح ملحة لدرجة الإدمان الإيجابي، كذلك بعض العبادات الراتبة المنظمة التي تؤدي نفس الوظيفة، أي أن بعض التسليم الطيب لأعمال مكررة، دون تساؤل لحوح عن معناها وجدواها، يمكن أن يقوم بدور مرحلي مطمئن ناجح، وهذا هو المقبول بهدف التسكين المرحلي، شريطة أن يكون مجرد مرحلة يليها ويتناوب معها مرحلة البسط الإبداعي

٦) يتمثل البسط الإبداعي في تحريك الوعي في توجه هادف مسئول، يحاول تنظيم المعلومات التي حصل عليها الوجود البشري أثناء ما أسميناه بالتخدير الجيد الهادئ، وهذا ما يقابل تحريك الوعي الذي قد يلجأ إليه المدمن بشكل أو بآخر إقحاما وافتعالا، فإذا نحن نجحنا أن نحقق من خلال انتظام الإيقاع الحيوي، مع الاستعداد له بتنمية قدرات الإبداع حتى يمكن أن يستوعب الجرعات المتزايدة من الرؤية والمواجهة، فإن الإنسان لن يحتاج إلى تعتيم وعيه، أو تحريكه بوسائل صناعية طبية قامعة، أو عشوائية خطرة.

خلاصة القول:

إن «ظاهرة الإدمان» تصرخ فينا أن ننتبه إلى ما آلت إليه «ظاهرة الإنسان».

الظاهرة البشرية هي أرقى وأجمل ما تخلّق من الوعي الكوني، وتعميقها لتتطور أرقى، يبدأ بسبر غورها المرة تلو المرة، من منطلقات متعددة، متكاملة بالضرورة. ■

على من يريد أن يتحمل مسئوليته في مواجهة هذه الظاهرة من ساسة وحكام ومسئولين مختصين، أن يعامل هذه الظاهرة. على المدى القصير. معاملة «حالة الحرب»

ملوك الغابة

يوسف إبراهيم

أمريكا وشركاتها النفطية لم تعد ملوكًا في الغابة النفطية. والوصف الأكثر دقة هو أنها أصبحت مثلها مثل غيرها مستهلكة تقف مع هؤلاء الآخرين، وربما «خلف» هؤلاء الآخرين، في طابور محطة البنزين الكونية

كان القرن العشرون قرنًا أمريكيًا بكل المقاييس فيما يتعلق بسياسة النفط والطاقة. فقد اكتشف الأمريكيون النفط في بلادهم وفي الخارج. كما أنهم امتلكوه، وحددوا الأسعار التي يباع بها، واستخدموا تدفق الذهب الأسود إلى داخل أمريكا في بناء ثورة صناعية غير مسبوقة. سيارات وآلات وطرق سريعة وشبكات كهرباء وصناعة أسلحة ضخمة. جعلت الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم.

وأوضحت أمريكا أنها سوف تدخل الحرب لحماية امتيازاتها النفطية في الجزيرة العربية والخليج. كما فرضت هيمنة لا سبيل إلى تحديها على منطقة الخليج التي يقع معظم نفط العالم تحت صحاريها اللامتناهية. ودعمت هذا كذلك بتحالفات لا تتزعزع مع نظام الشاه الراحل، رجل الخليج العربي القوي في ذلك الوقت، كي تضمن بذلك السيطرة الاستراتيجية على شبه الجزيرة العربية. وأقامت واشنطن صداقة أسطورية مع العائلة المالكة السعودية، فضمنت بذلك التدفق المستمر لهذا النفط الرخيص في مقابل توفيرها حماية الرياض من الأعداء داخل المنطقة.

المثال الأكثر وضوحًا لكيفية اكتمال تلك السيطرة هو أنه حتى أوائل السبعينيات كانت أربع شركات نفط أمريكية فقط. إكسون وموبيل وشيفرون وتكساكو. تمتلك النفط السعودي الموجود تحت الأرض امتلاكًا فعليًا وتضخه وتشحنه وتحدد سعره، ثم تدفع للسعوديين مجرد ضريبة على كل برميل.

لم تكن أوبك، (منظمة الدول المصدرة للبترول) موجودة كي تقلب هذه الترتيبات اللطيفة. إذ لم تأت أوبك إلى الوجود إلا في أواخر الستينيات لتصبح «قوة» فقط في منتصف السبعينيات، وحتى ذلك الوقت كان عالم النفط بحيرة أمريكية تنعم بالسلام. فقد كان عالمًا لطيفًا يتسم بالتنظيم جديرًا بأن يعول عليه، ولا وجود فيه للمشاكل.

بعد ذلك أخذت الأمور تتغير. إذ نشأ نظام نفطي عالمي جديد كان بمثابة طائر صغير يخرج من البيضة. وجاءت مع هذا النظام المشاكل التي غيرت تلك السبعين عامًا من الترتيب القديم التي كان يسودها السلام.

في البدء تشكلت أوبك مع توجه كل دولة من الدول، ومنها المملكة العربية السعودية، نحو تأميم نفطها، والشروع في تحديد أسعار مرتفعة له كان لابد للشركات التي تقلص دورها إلى مجرد التشغيل أن تدفعها، وهذا هو الجانب الأسوأ في الموضوع.

وبعد ذلك أُطيح بشاه إيران الصديق لتحل محله شخصية أسطورية ثورية، هي آية الله الخميني الذي أطلق على أمريكا اسم «الشيطان الأعظم» وخفض إنتاج إيران من النفط بمقدار النصف ليصبح ٣ ملايين برميل يوميًا، في نفس يوم وصوله إلى طهران في شهر فبراير من عام ١٩٧٩ كي يستولي على السلطة. لقد كان قرن النفط الأمريكي يتداعى. وفي الوقت الذي غزا فيه الأمريكيون العراق، كانوا قد فقدوا السيطرة على النفط في الخليج بالكامل، بما في ذلك داخل العراق نفسه.

يتجه القرن الحادي والعشرون إلى أن يكون لعبة مختلفة كل الاختلاف. ومن المؤكد أنه لن يكون قرنًا أمريكيًا. والأرجح أنه قد يكون قرنًا نفطيًا آسيويًا، أو ربما أوروبيًا كذلك. بل إنه حتى الدولار، تلك العملة الأمريكية التي كان يجري بها تسعير النفط طوال ٧٠ عامًا تتعرض للضغط لمصلحة عملة الاتحاد الأوروبي العملاقة الجديدة، اليورو. فقد أخذ كثيرون داخل الأوبك يناقشون تسعير النفط بعملة غير الدولار. ربما باليورو الذي تزيد قيمته على الدولار، أو بسلة عملات تشمل الدولار دون أن يقتصر الأمر عليه وحده بعد الآن.

فما هي أسباب انتهاء هيمنة أمريكا النفطية؟

أحد الأسباب أن أمريكا وشركاتها النفطية لم تعد ملوكًا في الغابة النفطية. والوصف الأكثر دقة هو أنها أصبحت مثلها مثل غيرها مستهلكة تقف مع هؤلاء الآخرين، وربما «خلف» هؤلاء الآخرين، في طابور محطة البنزين الكونية.

إن الشركات الفرنسية والإيطالية والبريطانية والهولندية والروسية والصينية والنرويجية والأسبانية تدفع بالأمريكيين خارج المشهد النفطي العالمي.

أما من الذي سيبقى ومن الذي سيخرج فهي المسألة التي نقترح بحثها. ولكن دعونا أولاً نطالع السيناريوهات الناشئة المختلفة، والأهم من ذلك الظروف الإستراتيجية والسياسية الناتجة عن تلك التغيرات.

سوف يضيع الإستراتيجيون في العالم العربي، الذين لا يعون الدروس المستفادة من هذه التغيرات، فرصًا ذهبية لجعل التغييرات التالية في مصلحتهم السياسية.

١. ما من شك في أن الصين والهند تعتبران أكبر مستهلكين للنفط في آسيا، وتشكلان كذلك هذا القرن باعتباره قرنهما النفطي. ومع استمرار هذين النمرين الآسيويين في النمو بمعدلات اقتصادية ضخمة، تتراوح بين ٨٪و٩٪سنويًا، فإن صناعتهما ومستويات المعيشة فيهما تتطلب المزيد من النفط. ومعظم الإستراتيجيين متأكدون من أنه خلال عقد أو أقل من الزمان سوف تحل الصين محل أمريكا باعتبارها أكبر مستهلك للنفط. وتحمل هذه الحقيقة وحدها في طياتها تغيرات في المجالات الإستراتيجية والاقتصادية، والأهم من ذلك السياسية، لتغير بالفعل ميزان القوة بين المستهلكين والمنتجين.

فعلى سبيل المثال، فإنه طبقًا لما ذكرته وكالة الطاقة الدولية بباريس، التي تمثل ٢٦ دولة صناعية كبرى، سوف يرتفع الطلب في الصين وحدها بمقدار ١٤ بالمائة هذا العام ليصبح ٦.٢٨ مليون برميل يوميًا. فالصين ليس بها نفط، ولابد لها من استيراده. وفي الهند قفز الطلب بنسبة ١١.٣ بالمائة في مارس ليسجل ٢.٥٧ مليون برميل يوميًا. والهند كذلك ليس بها نفط، ولابد أن تستورده. وسوف يكون هناك المزيد من الطلب على النفط مع استمرار ما يسمى بالعالم الثالث في التصنيع. إلا أن المعروض من النفط لا يزداد. فالواقع أنه بلغ ذروته.

٢. العالم به ما يكفي من النفط لتلبية هذا الطلب الجديد من آسيا وغيرها، حيث مازال الاقتصاد العالمي يتوسع. وسوف يرتفع الطلب العالمي على النفط هذا العام إلى أعلى مستوياته منذ ١٩٨٠ كما يشير أحدث تقارير وكالة الطاقة الدولية، التي يذكر القارئ أن الذى أنشأها هو وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر لتكون سلاح الدول الصناعية التي تحارب به الدول المنتجة للنفط في عام ١٩٧٣. وكان المقصود بها أن تكون سلاح الغرب الأساسي في مواجهة أوبك، منظمة الدول المصدرة للبترول. غير أنها الآن تستجدي أوبك كي تنتج المزيد من النفط. ولم تفشل وكالة الطاقة الدولية في أن تفعل ذلك فحسب، بل إنها تواجه الآن موقفًا يتنافس فيه الكثير من أعضائها فيما بينهم على الواردات المتدنية من النفط، وكذلك ضد الصين. والواقع أن نصيب الصين كان ٤٠ بالمائة مما يقدر بـ ١.٢ بالمائة زيادة في الطلب على النفط هذا العام. ويستهلك العالم أجمع حوالي ٨١ مليون برميل يوميًا من النفط. ومن المتوقع أن يستمر معدل النمو حتى عام ٢٠١٥. وعليك أن تحسب.

٣. في ظل هذا النمو، سيزداد الطلب على النفط، إلا إذا عُثر على بديل له ليكون وقودًا لوسائل النقل، وسوف يكون التنافس شديدًا جدًا على هذه السلعة الإستراتيجية.

وهذا واقعي إلى أقصى حد في ضوء حقيقة أنه لم يُكتشف خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة حقل نفط واحد على قدر كبير من الأهمية في أنحاء العالم. وليست منطقة بحر قزوين التي اكتشفت فيها بعض الشركات الأمريكية النفط مستقرة سياسيًا، كما أنها غير مضمونة من الناحية الجيولوجية. وقد يثبت أنها أصغر كثيرًا مما يظنه كثيرون من ناحية ما تحمله في جوفها من نفط. وفي الولايات المتحدة، بلغ حقل النفط في الاسكا ذروته وهبط بمقدار النصف، بحيث بات ينتج مليون برميل يوميًا مقابل مليوني برميل يوميًا منذ عقد مضى. كما أن بحر الشمال في سبيله لأن يبلغ ذروته. وهو مازال ينتج، ولكنه بدأ في الانحدار.

ولكي نوضح هذا في إطار رؤية شاملة،

هذه بعض الأرقام المثيرة للاهتمام: بحلول نهاية عام ٢٠١٠ سوف تنتج منطقة بحر قزوين بكاملها ٤ ملايين برميل نفط يومياً حسب أكثر السيناريوهات تفاؤلاً. وحينذاك سيكون ما يستهلكه العالم يومياً أكثر ١٠٠ مليون برميل. ومن المؤكد أن أكثر من ٦٠ بالمائة من هذه الكمية سوف يأتي من منطقة الخليج التي تشمل إيران والمملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وقطر. ويوفر هذا رؤية صحيحة بشأن الوزن الحقيقي الكامن في النفط والغاز الطبيعي. والمحصلة النهائية هي أنه بينما يتزايد الطلب على النفط، فإن هناك مكاناً وحيداً للحصول عليه منه، وهو الخليج حيث يرقد ثلثا نفط العالم وغازه تحت رماله. ويحمل هذا في طياته قدراً كبيراً من النفوذ السياسي.

٤ . تضاءل حجم شركات النفط الأمريكية التي كانت في يوم ما من الخمسينيات تسيطر على نفط العالم، كما تضاءلت مكانتها وقيمتها المالية.

لم تعد الأسماء الكبيرة، مثل إكسون وموبيل وشيفرون وتكساكو، تلك الشركات الأربع التي كانت تملك كل نفط المملكة العربية السعودية في الأربعينيات؛ تملك النفط السعودي أو تنتجه. فالنفط السعودي تملكه شركة النفط الوطنية السعودية أرامكو. وكذلك الحال بالنسبة لكل دول أوبك التي تملك شركات النفط الوطنية بها، وهي مستقلة الآن. ذلك أن شركات النفط الآن ليست سوى «مشغلين» للإيجار. وهي تواجه تنافساً من بعضها البعض ومن شركات النفط الوطنية. ولم تعد معظم شركات النفط العملاقة الآن من الولايات المتحدة الأمريكية. فعلى سبيل المثال، لا تشمل قائمة كبرى شركات النفط العالمية في الوقت الراهن سوى شركة أمريكية واحدة على القمة، هي إكسون موبيل.

يلي ذلك الأوروبيون والروس والآسيويون. ومن بين هذه الشركات بريتش بتروليوم البريطانية، ورويال دتش شل (ملكية هولندية بريطانية) وتوتال (ملكية فرنسية)، وإي إن آي (إيطالية) ولوك أويل وأوكوس (ملكية روسية)، وسينوبك (صينية) وستات أويل (نرويجية)، وغيرها. ولدى كل هذه الشركات نفس التكنولوجيا المتقدمة التي كان الأمريكيون يحتكرونها في يوم من الأيام. وجميعها لديه مليارات من الدولارات التي يستثمرها. والأهم من ذلك كله أنها تحظى بالترحيب، بينما الوضع ليس كذلك بالنسبة للأمريكان، كما هو الحال في إيران، بل وفي المملكة العربية السعودية نفسها.

٥ . نصل بذلك إلى العامل الأخير في عالم النفط المتغير، أي السياسة، وهو في الواقع أكثر العوامل أهمية.

لا يرغب معظم منتجي النفط الكبار أن تحتكر شركات النفط الأمريكية صناعاتهم، لأن سياسة أمريكا باتت تتسم بالعشوائية والعدوانية وتخضع للعقوبات.

فعلى سبيل المثال، ألغت المملكة العربية السعودية، صاحب أكبر احتياطي نفطي في العالم (٥٠٠ مليار برميل من النفط)، كل عقودها للتنقيب عن الغاز التي كادت تُعطى منذ ثلاث سنوات لشركات النفط الأمريكية. وقد حل الأوروبيون والصينيون والروس محل الأمريكان في الصيف الماضي.

والواقع أن العقوبات الأمريكية التي فُرضت خلال العشرين سنة الماضية على إيران، وهي من أكبر منتجي النفط والغاز في العالم، وحتى وقت قريب على ليبيا، ألحق الضرر بالأمريكان. فقد دخل الفرنسيون والإيطاليون والنرويجيون للقيام بدور الشركات الأمريكية وشغل المكان الذي كانت تحتله، ومن غير المحتمل أن يخرجوا الآن، حيث ثبتوا أنفسهم بقوة كمشغلين وأصبحوا يحظون بثقة تلك الدول، على عكس الأمريكان الذين يبدو أن سياستهم تحكم أعمالهم التجارية.

على خلفية هذه التغيرات الأساسية، دعونا نمحص الحقائق التي تؤدي إلى النتيجة القائلة بأن العالم في سبيله لدخول حقبة من حروب النفط الجديدة، أي التنافس على الوقود بصورة لم نشهدها من قبل.

طبقاً لما جاء في تقرير وكالة الطاقة الدولية الصادر في الشهر الماضي، فإن الاستخدام اليومي للبنزين والديزل وغيرهما من أنواع الوقود في العالم أجمع يزيد بمقدار ٢.٣ مليون برميل، وهو ما يفوق التوقعات السابقة التي كانت ٣٦٠ ألف برميل يومياً على الأقل، مما يجعل إجمالي الطلب العالمي على النفط يصل إلى ٨١.١ مليون برميل هذا العام.

يفسر هذا سبب بلوغ أسعار النفط مستويات قياسية تزيد على ٤٠ دولاراً للبرميل. فقد أفاق العالم على الحقيقة. فحين كانت الصين والهند والبرازيل دولاً فقيرة ومتخلفة، كانت أمريكا تتمتع بمطلق الحرية. أما الآن، فهذه الدول العملاقة آخذة في الارتفاع، كما أن مفاتيح أسواق الطاقة وقعت في أيدي المستهلكين والمنتجين الجدد. وفي نهاية الأمر، فإن المنتجين الرئيسيين هم هؤلاء الذين في الشرق الأوسط ومنطقة الخليج. بعبارة أخرى، وكما يقول التعبير الأمريكي: العالم في سبيله للعودة إلى ماما.

ويعد ذلك هناك أثر السياسة والإرهاب على أسعار النفط، وهو الجهد الذي أسهم فيه الأمريكان وأسامة بن لادن معاً إسهاماً كبيراً.

فبالهجوم على الولايات المتحدة وبالرد على هذا الهجوم، خلق الأمريكان وبن لادن ما أسميه «عامل القلق النفطي» وأثاروا شبح الهجوم على منشآت النفط كشكل من أشكال مقاومة الولايات المتحدة. وعلى سبيل المثال، فبدلاً من أن يحسّن غزو امريكا للعراق إنتاج النفط العراقي أدى إلى انخفاضه. ذلك أن إنتاج العراق قبل الغزو كان ٣.٥ مليون برميل يومياً. أما اليوم فلا يكاد يمر



النفطية

يوم دون تفجير لخط من خطوط الأنابيب، أو إحدى محطات الضخ، أو ميناء لتصدير النفط، مما جعل إنتاج العراق من النفط يهبط إلى ١.٨ مليون برميل يوميًا. وهو ما يقل عن نصف ما كان هذا البلد ينتجه قبل الاحتلال الأمريكي.

والآن يصل تخريب المنشآت النفطية إلى المملكة العربية السعودية، أهم منتج للنفط في العالم. فالهجمات التي وقعت الشهر الماضي في ينبع والخبر شديدة الخطورة، ذلك أنه ما إن ينطلق مفهوم استهداف المنشآت النفطية حتى لا ندري بحال من الأحوال متى يتوقف. وهناك هجمات على الوافدين في المملكة العربية السعودية، وقد استهدفت القاعدة عمال نفط أجانب مهمين داخل المملكة العربية السعودية. وغايتها من ذلك هي طردهم. وسوف يؤثر خروج العاملين الذين لا يمكن الاستغناء عنهم من صناعة النفط السعودية تأثيرًا عميقًا على إنتاج النفط، وسوف يزداد أثر ذلك فيما بعد؛ وهو ما يعني قدرًا أقل من النفط في المستقبل. ولم يعد الأمر سوى مسألة وقت قبل أن تهاجم المنشآت النفطية السعودية نفسها. وفي حال حدوث ذلك، سوف يصل سعر النفط إلى مستويات لم تخطر ببالنا قط.

لا يرغب معظم منتجي النفط الكبار أن تحتكر شركات النفط الأمريكية صناعاتهم، لأن سياسة أمريكا باتت تتسم بالعشوائية والعدوانية وتخضع للعقوبات

في المملكة العربية السعودية والعراق يطارد إرهابيو القاعدة الوافدين الأمريكيين والغربيين ويقتلونهم. وهؤلاء الأشخاص لابد منهم لإعادة الإعمار وتوسيع صناعة النفط. فإن هم رحلوا، فسوف تضار قدرة المملكة العربية السعودية والعراق على زيادة الإنتاج لتلبية الطلب العالمي. ومن المؤكد أن المقلدين سوف يتوالون، ذلك أنه ما إن تطرح فكرة مهاجمة المنشآت النفطية حتى لا يكون لإيقافها من سبيل. فما بالك بالذي يمكن أن يحدث في الكويت حيث يتمركز الآلاف من الجنود الأمريكيين؟ وماذا عن قطر التي بها مقر القيادة المركزية الأمريكية؟ أليس من الطبيعي أن تستهدفهما القاعدة؟ وماذا عن إيران؟ إنها قوة لا يمكن تجاهلها إن هي سمت لدخول القتال ضد الأمريكان.

الحقيقة المجردة هي أن منطقة الخليج بكاملها، حيث يوجد ثلثا نفط العالم تحت رمالها، هي كذلك واحدة من المناطق غير المستقرة سياسيًا فوق الرمال؛ ففي العراق، وفي المملكة العربية السعودية، وفي إيران، وفي أنحاء الدول الصغيرة الهشة المنتجة للنفط مثل قطر والإمارات العربية المتحدة، يتزايد السخط ويعلن الإرهاب عن نفسه بطرق لم نشهدها من قبل.

ما إن يختلط النفط بالسياسة حتى تزداد المراهنة على استقرار الأسعار بشكل كبير.

قد يكون ٤٠ دولارًا للبرميل رقمًا قياسيًا في الارتفاع، غير أن ذلك ليس هو آخر الجولة. فالواقع أن هناك «زيادة خوف» قدرها ٥ دولارات للبرميل مضافة إلى السعر الحالي، وهي زيادة تطال الجميع. وترتفع قيمة زيادة الخوف مع كل هجوم إرهابي.

وبما أن النفط سياسة، فهناك سعر سياسي لابد من دفعه مقابل ذلك. فبعد نقطة معينة، يُترجم سعر النفط إلى قرار سياسي في الديمقراطيات الغربية.

على سبيل المثال، إذا كانت ربة البيت الأمريكية العادية تتكلف ٨٠ دولارًا لملء السيارة الرياضية بالوقود، فإن السيارات المريحة العملاقة التي يعشقها الأمريكيون قد تكلف الرئيس جورج دابليو بوش منصبه. وما إن نصل إلى تلك الأسعار حتى يبدأ النفط في التأثير على حياة الناس، ووظائفهم، وقدرتهم على الإنفاق، ورفاهيتهم الاقتصادية، ومدخراتهم. كما ترتفع أسعار كل السلع من المنتجات البلاستيك التي على أرفف السوبر ماركت إلى السلع الغذائية التي تنقلها الشاحنات إلى تذاكر الطيران ارتفاعًا مطردًا.

هذه حقيقة سياسية أثبتها الزمن في واشنطن العاصمة. فما إن يتعدى سعر برميل النفط حاجز الثلاثين دولارًا حتى يدخل المكتب البيضاوي في البيت الأبيض باعتباره قضية سياسية.

وإذا توصل رجل الشارع الأمريكي إلى نتيجة مؤداها أن رئيسه لا يمكنه فعل الكثير بشأن تخفيض أسعار النفط، وفي ظل الاختيار بين السيارات الصغيرة والراتب الأقل، سوف يذهب الأمريكيون لشراء رئيس جديد يجعلهم يمتلكون السيارات الكبيرة ويحصلون على راتب أكبر.

وأخطر قضية في هذا كله هي أن الأمر لم يكن سهلاً طوال هذا الوقت. وليس هناك الكثير الذي يمكن لأي شخص القيام به لخفض أسعار النفط. فالوضع

حـروب النفـط الجديدة

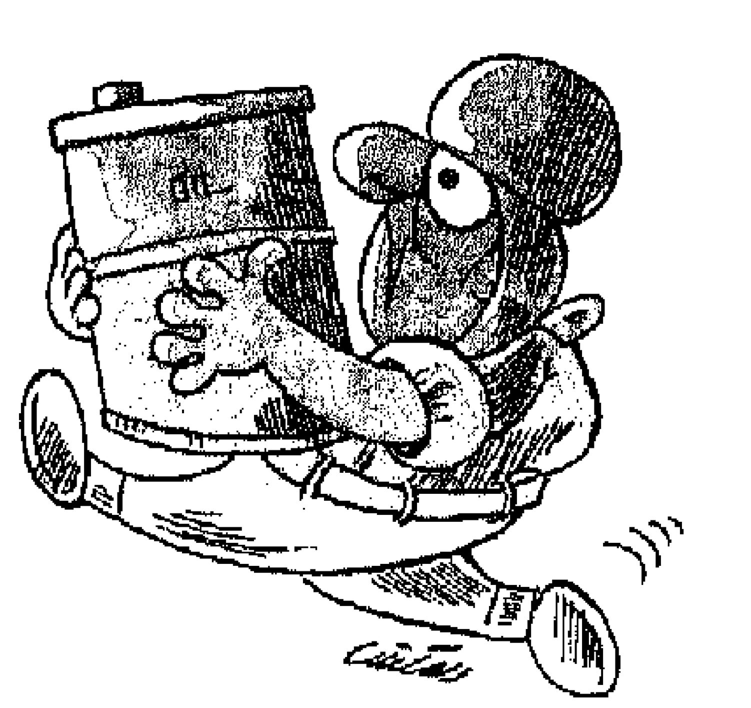
الجديد جزء من تحول ملحوظ في عالم الطاقة الكونية. وطبيعي أن ترتفع الأسعار وتنخفض، ولكن الاتجاه طويل المدى يسير في اتجاه واحد فقط، وهو الارتفاع. ولا يمكن حتى لما تتمتع به القوة العظمى الوحيدة من نفوذ سياسي أن يغير ذلك.

لقد كانت الولايات المتحدة قبل غزو العراق الأسد الذي يزأر والناس تستمع إليه. ولكن الفشل التام في العراق جعل من امريكا أسداً بلا أسنان. فلم نعد نسمع الآن من واشنطن عن «تغيير الأنظمة الحاكمة» في سوريا أو إيران. وذلك لأن أمريكا تحاول فحسب الخروج من العراق. كما لم نعد نسمع عن الرخاء النفطي العراقي الجديد الذي سوف يوفر للمستهلكين الأمريكيين نفطاً رخيصاً. فالواقع هو أن أمريكا نجحت في تخفيض إنتاج النفط العراقي.

تحمل تلك الحقائق في طياتها نتائج جيوبوليتيكية ضخمة.

إحدى هذه النتائج هي: من يخاف من امريكا؟ هل ستزيد المملكة العربية السعودية الإنتاج إذا طلبت منها امريكا ذلك؟ هل ستفعل إيران ذلك؟ هل ستفعل ليبيا ذلك؟

ينظر معظم دول الخليج المنتجة للنفط شرقاً في اتجاه آسيا. فالصين على أي الأحوال قوة عظمى ذات أسلحة ونفوذ سياسي. كما أنها تتطلع إلى روسيا باعتبارها قوة نفطية جديدة تنتج مقدار ما تنتجه المملكة العربية السعودية بالإضافة إلى الأسلحة. كما أن روسيا تنتعش في مجال الصناعة. الأمر الذي



يعني أنها سوف تبدأ في استخدام كمية أكبر من نفطها بدلاً من تصديرها. وهذا بدوره يعني المزيد من القوة لأوبك وأية قوة عالمية أخرى لخلق توازن في مواجهة النفوذ الأمريكي.

إلا أن هناك بديلاً آخر يتمثل في الاتحاد الأوروبي، وهو وافد كبير آخر يظهّر على مسرح الطاقة. وبينما يبدأ الاتحاد الذي جرى توسيعه بدول مثل بولندا والجمهوريات السلافية وغيرها في زيادة اقتصاداته، فسوف يحتاج إلى المزيد من النفط كذلك. إنه على وجه التحديد بديل لأمريكا باعتباره سوقاً وكذلك قطباً جيوبوليتيكياً.

من هنا تنشأ فكرة حروب النفط الجديدة.

فالأمر هو أنه ليس هناك ما يكفي منه فحسب. ولن يكون هناك أي بديل للنفط باعتباره الوقود الأساسي لاقتصاد العالم طوال العقدين المقبلين على الأقل. فهل يمكن أن تكون الطاقة الشمسية وخلايا الوقود والمحركات المهجنة هي البديل؟ لا تزال كل هذه البدائل في طفولتها المبكرة. ولابد أن يصل سعر النفط إلى ٥٠ دولاراً للبرميل أو أكثر من ذلك كي يدفع الرأسماليين المغامرين إلى مزيد من بحث تلك البدائل.

إحدى طرق إدارة الأمور هي الحوار الأفضل بين المستهلكين والمنتجين، إلا أن هذا الحوار تجهضه السياسة غير الواقعية العدوانية والعسكرية التي تتبناها الإدارة الأمريكية برئاسة جورج دابليو بوش والمحافظين الجدد المحيطين به الذين حاولوا الاستيلاء على النفط بالقوة في العراق، بل وتحدثوا عن احتلال حقول النفط السعودية. ومن الواضح أن هذا لن يشجع النوايا الطيبة لدى المملكة العربية السعودية أو منظمة الدول المصدرة للبترول، أويك.

إن ما يكتشفه العالم مرة أخرى هو أن النفط ليس مجرد سلعة أخرى. كالبن أو الكاكاو أو عصير البرتقال، يستجيب للعرض والطلب. فهو يستجيب كذلك للسياسة والتخطيط الإستراتيجي وتوازن القوى.

النفط «إستراتيجي» كذلك، بمعنى أنه يمثل الدخل الرئيسي لمنتجيه. ولذلك فلابد أن تكون لهم السيطرة على سعره لتلبية احتياجاتهم الاقتصادية التي توازن بحرص شديد الأرقام لكي لا تضر الاقتصاد العالمي الذي تعتمد عليه.

إنه مزيج صعب. وهو مزيج لا يمكن أن يديره رعاة بقر من تكساس، وإنما الساسة المهرة والحوار.

ومادام جورج دابليو بوش رئيساً للولايات المتحدة، فإن الشيء الوحيد الذي يمكن أن نتنبأ به بكل تأكيد بشأن سعر النفط هو أنه كلما ازداد عدد الدول التي يغزوها ارتفع سعر النفط أكثر. ولذلك فاربطوا أحزمة مقاعدكم واستعدوا. ■

ترجمة: أحمد محمود

القاموس والاستشراق

آلن ميخائيل

على رف أى مكتبة نجد قاموسا لأن القاموس كتاب أساسى لأى كاتب أو باحث أو قارئ وعندما لا نفهم معنى كلمة فى مقالة أو كتاب أو فى أى نص لا بد أن نبحث عنها فى هذا المرجع الموضوعى. لكن الغرض من هذا المقال هو تفكيك هذه الفكرة، أى فكرة أن القاموس مصدر موضوعى، وذلك من خلال تحليل واحد من أكبر الأعمال الاستشراقية من القرن التاسع عشر وهو (القاموس العربى-الإنجليزى) للمستشرق الكبير إدوارد ويليم لين.

وُلد إدوارد لين فى بريطانيا فى عام ١٨٠١ وسافر إلى مصر للمرة الأولى فى عام ١٨٢٥ وقبل وصوله إلى ميناء الإسكندرية كتب فى يومياته أنه شعر بأنه مثل العريس الشرقى الذى يكشف نقاب عروسه ويرى وجهها للمرة الأولى فى «ليلة الدخلة». فمن بداية حياته الاستشراقية فى مصر نلاحظ أنه قرن الشرق بالجنس وبغرائب الأمور والمغامرة ويشاركه فى هذا الاعتبار العديد من أقرانه المستشرقين. وألف إدوارد لين عديدا من الكتب ومن بين أشهرها (المصريون المحدثون وعاداتهم) وترجم (ألف ليلة وليلة) وأجزاء من القرآن الكريم. وعندما سكن إدوارد لين فى مصر عاش حياته محاولا تقمص الشخصية المصرية فعكف على تعلم اللغة العربية الفصحى والعامية معا والتزم بارتداء ملابس مصرية وانعزل عن الجالية الأوروبية التى عاشت فى القاهرة فى ذلك الوقت وأخذ يصلى فى الجامع كل يوم جمعة ولكن بالرغم من كل هذه الممارسات من الممكن القول إن تصرفاته كانت متكلفة لان إدوارد لين لم يتخل عن عقيدته المسيحية أو عن اعتبار ثقافته أحسن وأحدث وأفضل من الثقافة المصرية والعربية غير أنه حاول أن يعاشر المصريين بقدر الإمكان ليسهّل على نفسه إجراء وتدوين ملاحظاته عن الثقافة المصرية وعن حياة وتصرفات المصريين.

وقبل تناول قاموس إدوارد لين لا بد أن نتحدث قليلا عن مفهوم القاموس فى حد ذاته ومن وجهة نظرى فإن مشروع كتابة القاموس مثل عملية تخطيط المدينة إذا اعتبرنا هاتين العمليتين نوعا من الرسم الخيالى. فكما يستخدم السائح الذى يزور مدينة جديدة للمرة الأولى الخريطة لكى يتجول فى المكان ولكى يعرف أين هو وإلى أين سوف يذهب نحن أيضا نستعمل القاموس كخريطة لكى نتجول فى اللغة. وأحيانا يتوه السائح فى المدينة الجديدة لان ما يراه على الخريطة مختلف تماما عن المكان الذى يمشى فيه حتى لو كانت الخريطة تشير إلى أنه فى المكان الصحيح، أى المكان الذى يريده السائح. مشكلة السائح هى أنه اعتمد على الخريطة لكى تفسر حقائق المدينة ولكن العلاقة بين أسماء شوارع المدينة وعناوين المبانى وحتى وجود المدينة نفسها وبين الخريطة علاقة تمثيلية واصطناعية لأن الخريطة بالأساس شىء مصنوع بيد إنسان وهذا الإنسان اختار شكلا معينا للخريطة وقرر أن يتخلى عن بعض تفاصيل المدينة من أجل الوضوح وسهولة الفهم أو ما إلى ذلك، فمن اللازم أن ندرك انعدام أى صلة مباشرة بين حقائق المدينة والخريطة وان ندرك أيضا أن الخريطة، مثل أى عمل علمى آخر، ليست موضوعية على الإطلاق، بل هى مشوبة بالإيديولوجية والسياسة. وأعتقد أنه يمكننا أن نستخدم نفس الوصف لعلاقة كلمات أى لغة بالقاموس وإذا فكرنا قليلا فى مفهوم القاموس والخريطة سوف نلاحظ أن كلا منهما ليس صورة حقيقية أو إشارة مباشرة للغة أو للمدينة. فالقاموس يحاول أن يعطى صورة أو خريطة حقيقية لاستخدام كلمات اللغة ولكن كما نعلم أن العلاقة بين المدينة والخريطة مصنوعة ومخلوقة بواسطة الشخص الذى رسم الخريطة فيجب علينا أن نعترف أن العلاقات بين كلمات أى لغة ومعانى هذه الكلمات أيضا علاقة تمثيلية واصطناعية وغير حقيقية. وهى علاقة أكثر تعقيدا من الارتباط بين المدينة والخريطة وذلك لأن اقتران الكلمات بمعانيها جاء بعد سنوات طويلة من استخدام وممارسة اللغة وتطوره المستمر. وفكرة القاموس بالأساس هى تثبيت معانى كلمات لغة ما فى وقت ما.

وأعتقد أن الوصف الأدق والأنسب لمفهوم القاموس ليس فى أقسام الأدب أو البلاغة أو علم اللغة فى الجامعة بل فى المستشفى لان عملية كتابة القاموس تشبه التشريح أو الجراحة فى مشروع القطع. ولكى نوضح هذه الفكرة نحتاج

An Arabic - English Lexicon

(قاموس عربى . إنجليزى)

Edward William Lane

Williams and Norgate,

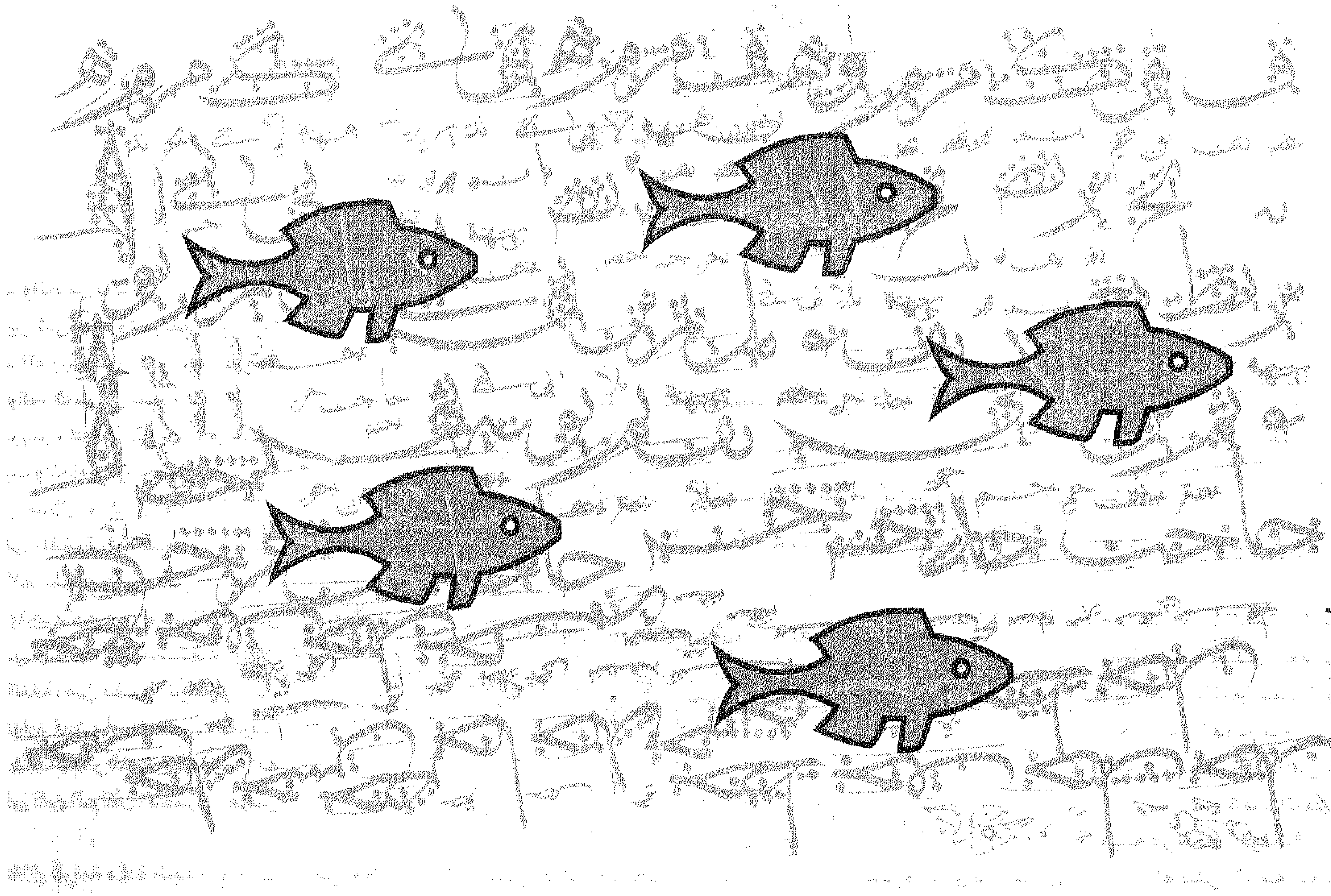
1863 - 1893, 8 Volumes, 3664 Pages

Cambridge: Islamic :طبعات أحدث)

(Texts Society, 1984

Cairo: Tradigital, 2003 (CD-ROM)

... ومن أنقذها!؟

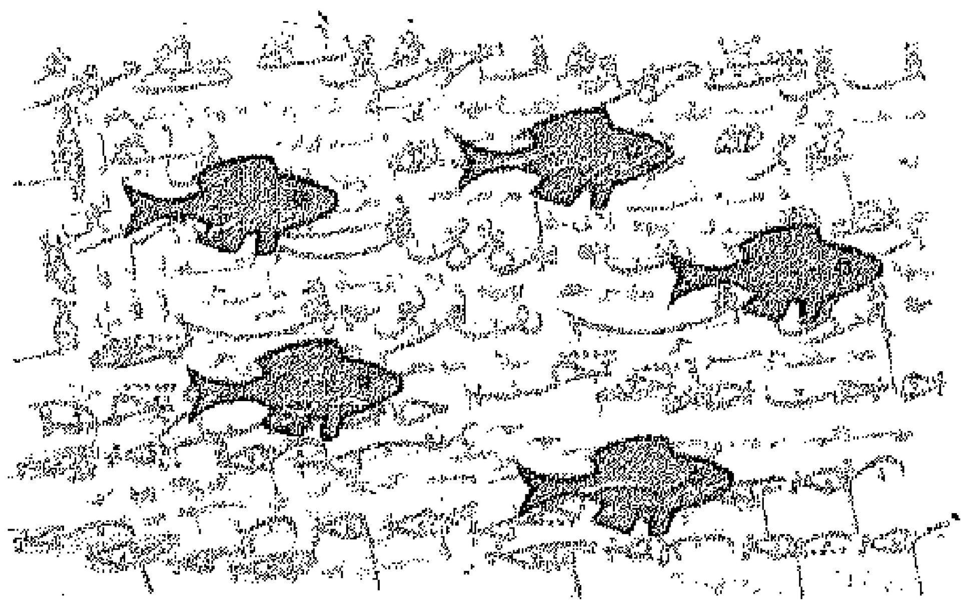


أن نفتح قاموسنا نحن ونمشى قليلا فى مدينة اللغة العربية. فإذا بحثنا فى القاموس عن كلمة (تشريح) وقرأنا الكلمات حول هذه كلمة، أى من نفس الجذر، سوف نجد بجانب كلمة (تشريح) على خريطة القاموس فى مدينة اللغة كلمة (شرح). والعلاقة بين هاتين الكلمتين ليست مجرد علاقة لغوية فحسب، بل هذه العلاقة الحميمة الجذرية تدل على أن هناك ارتباطًا فكريًا وثيقًا بين التشريح باعتباره عملية قطع جسد الإنسان والشرح فى المدارس أو فى أى كتاب علمى لان الشرح فى حد ذاته نوع من التشريح أيضا لأنه عندما نشرح شيئا لطالب أو لطفل تحاول أن نبسّط الأمور لكى يفهمنا الطالب ولكن هذا التبسيط يجبرنا على تجاهل بعض المعلومات الصعبة أو الأمور التى نعتبرها هامشية ويجبرنا أيضا على قطع الأجزاء المهمة من النصوص فى هذا المجال لنقدمها للطالب. وهناك أمثال لغوية كثيرة تعكس هذه العلاقة بين التشريح والجراحة من جانب ومن جانب آخر العلم والشرح والمعرفة، مثلا نستعمل كلمة «تحليل» فى السياق الأدبى (تحليل النص) أو فى السياق الدراسى (تحليل أسباب فشل محاولة الصلح) ولكن نستخدمها أيضا فى السياق العلمى (تحليل كهربائى) أو فى السياق الطبى (تحليل الدم) وفى نفس المجال نستخدم كلمة «عملية» بمعنى عملية جراحية (يعنى اليوم عمل عملية فى المستشفى) وأيضا بمعنى عملية كتابة البحث أو القاموس أو ما إلى ذلك. والشىء المشترك بين كل هذه الكلمات التى ذكرتها هو فكرة القطع والتقسيم والتبسيط والتشريط ونعلم كما كتب المفكر الكبير الفرنسى ميشيل فوكو فى واحد من أهم كتاباته وهو المقال بعنوان «نيتشه وعلم الأنساب والتاريخ» أن: «ليست المعرفة للفهم، بل هى للقطع».

ونلاحظ هذه العلاقة بين التشريح والشرح على صعيد الفكر واللغة معا فى مشروع «القاموس العربى-الإنجليزى» لإدوارد لين. الذى بنى معظم قاموسه على معرفته بالقاموس العربى الشهير «تاج العروس» وخلال عمله على قاموسه استند إلى «تاج العروس» بشكل أساسى ولا نبالغ فى القول إن أجزاء كبيرة وكثيرة من قاموس إدوارد لين هى ترجمة من «تاج العروس» وهذه الحقيقة ليست إهانة أو انتقادًا إنما هى معلومة مهمة لكى نفهم مشروع القاموس. إذن إدوارد لين، مثل الجراح فى المشرحة، قطع أجزاء كثيرة من «تاج العروس» وقواميس أخرى ليكوّن جسدا جديدا واصطناعيا بشكل قاموسى ولكن فوق ذلك كله شوّه إدوارد لين معانى بعض الكلمات العربية لقرائه. وهذه التغييرات التى قام بها إدوارد لين تعطينا الفرصة لنحلل دور الكاتب فى تكوين أى عمل علمى سواء كان خريطة أو قاموسا لأننا سوف نرى كيف وأين تدخلت إيديولوجية إدوارد لين وسياسته الاستشراقية.

فإذا بحثنا فى قاموس إدوارد لين عن مادة الجذر: ع، ر، ب نجد إنها طويلة جدا ويجرى نص المادة تقريبا لخمس صفحات كاملة وصفحات هذا القاموس كبيرة جدا. والمعنى الأول فى هذه المادة يقول إن العربية لغة ويضرب إدوارد لين مثلا لهذا المعنى «عَرُبَ لسانه» بمعنى أنه بدأ يتحدث اللغة العربية ويركز بشكل أساسى فى هذه المادة على أن أهم المشتقات من هذا الجذر تتعلق باللغة. ومن ثم يعطى إدوارد لين معانى كثيرة للكلمات المشتقة من هذا الجذر، فيكتب على سبيل المثال أنه يمكننا أن نقول الجملة «عَرِبَتْ معدته» ويكتب إدوارد لين أنه من الممكن أن نستخدم هذا المشتق لنعبر عن الجمل أو جرح أو انتفاخ الرئة وهناك أيضا من مشتقات هذا الجذر الفعل «عرّب» بمعنى «عرّب الفرس»، أى فتح حافر الحصان بالسكين، أو «عرّب البقرة»، أى جعل البقرة تريد أن تمارس الجنس». ويستمر إدوارد لين فى هذه المادة بسلسلة المشتقات، فيقول إن الفعل «استعرب» يُستخدم فى سياق الجمل أيضًا مثلا «استعرب جربا» ويقول إن الفعل «تعرّب» يُستخدم بمعنى «تعربت لزوجها»، أى تصرفت بشديد العاطفة لتعبر عن حبها لزوجها. وبعد أن انتهى من أكثر من نصف المادة يكتب إدوارد لين إن هذا الجذر أيضا يشير إلى العرب، أى واحدا من شعوب العالم، والمكان الذى وضع فيه إدوارد لين هذا المشتق، بل ترتيب المادة ككل، مهم جدا لأنه يعطينا ملامح الاستشراق وأعتقد أن تفسير هذا الترتيب مفتاح فهم القاموس.

أولا من الواضح أن إدوارد لين يفضل أن يعطى أمثلة لاستخدام مشتقات هذا الجذر مأخوذة من عالم الحيوانات والجنس ولذلك نلاحظ على سبيل المثال تكرار إشاراته إلى الجمل والبهائم. واستعمال تيمات



الحيوانات والجمل بالتحديد فى كتابات المستشرقين شىء معروف ولقد كتب كثير من النقاد العرب وغير العرب على هذه الظاهرة وكما قلت فى بداية هذا المقال اعتبر«العريس» إدوارد لين الشرق خلطا بين الغريب والمغامرة والجنس ورأيه هذا واضح من خلال تحليل الأمثلة التى ضربتها فى الفقرة السابقة. وبتركيزه على البهائم يلمّح إدوارد لين أن العرب وحياتهم وتجربتهم من جانب والجمل والبقر من جانب آخر مشتقة، مثل مشتقات اللغة، من نفس الجذر ويأتى اعتراف إدوارد لين بأن الشعب العربى أيضا من هذا الجذر فقط بعد إشاراته المتعددة إلى البهائم كأن الاعتراف فُرض عليه.

من خلال قراءة مادة الجذر«ع، ر، ب» ندرك أن إدوارد لين أعطى أهمية مكان وأمثال المادة للغة لأن وظيفة المستشرق فى حد ذاتها وظيفة لغوية بمعنى أن المستشرق يعيش فى عالم الكتب والنحو والكلمات وليس فى عالم التاريخ أو الواقع أو البشر ولذلك هناك مسافة شاسعة بين الدنيا الخيالية التى يعيش فيها المستشرق ويكتب عنها وبين أرض الواقع. فإذا قرأنا معانى هذا الجذر فى المصدر الأساسى لقاموس إدوارد لين وهو «تاج العروس» فسوف نجد أن أول معنى فى هذه المادة هو «جيل من الناس»، فبالمقارنة بإدوارد لين فإن مؤلف «تاج العروس» قرر أن يعطى المكان الأول والأهم فى المادة لكى يعبر عن فكرة العرب باعتبارهم شعبًا أو «جيلاً من الناس». والشىء المهم والمفيد هنا ليس السؤال التالى: هل من المفروض أن نعتبر اللغة العربية أو الشعب العربى أهم مفهوم أو معنى لبناء مشروع تناول العالم العربى وثقافته؟ هذا السؤال بسيط وتافه إلى حد كبير لأن المسألة ليست مجرد اختيار المعنى الأفضل من بين عدة معان. أعنى إن إدوارد لين لا يكذب فى كتابة قاموسه لأن كل المعانى الواردة فى قاموسه صحيحة. فالسؤال الأحسن والأنسب هو: هل ندرس وندرّس تاريخ العرب وثقافتهم وأدبهم وواقعهم وما إلى ذلك من خلال كتب قديمة أو وثائق أو مقابلات أو أفلام أو الآثار أو من خلال دراسة طقوس الناس ولغتهم وعواطفهم وتصرفاتهم؟ أو بشكل أوسع ما هى العلاقة بين الكلمات التى نقرأها على صفحات الكتب أو الوثائق وأرض الواقع التى من المفروض أنها تتناوله؟ كيف نربط الخريطة بالمدينة؟ كيف نقرأ ونفهم؟ السؤال الأخير هو من أكبر وأصعب وأهم الأسئلة فى تاريخ العلم والفكر؟

أعتقد أن الوصف الأدق والأنسب لمفهوم القاموس ليس فى أقسام الأدب أو البلاغة أو علم اللغة فى الجامعة بل فى المستشفى لأن عملية كتابة القاموس تشبه التشريح أو الجراحة فى مشروع القطع

قرر إدوارد لين أن يشرح العرب من خلال اللغة لأنه وصل فى أواخر حياته إلى الفهم أو الإدراك بأن اللغة العربية هى أساس ومفتاح وجوهر معرفة المستشرق عن الشرق ولذلك قضى آخر خمس وثلاثين سنة من حياته فى العمل على القاموس وهذا بالمقارنة بأعماله الأولى التى تشبه دراسات علم الإنسان من حيث التركيز على تصرفات المصريين وعلى كيف يعيشون حياتهم اليومية وعلى ما يلبسون وكيف يتناولون الغذاء وما إلى ذلك. ففى بداية أعماله الاستشراقية كان يهمه شكل المصريين والأماكن التى يعيشون فيها وكل الذى يتعلق بالشكل الخارجى ولكن فى عمله الأخير ركز إدوارد لين بالأساس على الباطن، أى ما اعتبر باطن الشرق العربى، وهو اللغة العربية بسبب إدراكه أن الشىء الذى يمكنه أن يفيد العلم الاستشراقى أكثر من أى عمل آخر هو القاموس لأنه سوف يورث بعد إكماله جوهر المعرفة الاستشراقية عن الشرق لأجيال المستشرقين المستقبليين.

فإذا رجعنا إلى المشرحة فيمكننا أن نشبّه مفهوم أن اللغة العربية جوهر الشرق بتشريح الجثة بعد الموت لأنه من عملية التشريح نعلم كل شىء عن الجسد والأمراض والأعضاء والأنسجة والدورة الدموية ولكن لكى نصل إلى هذا العلم عن الجسد لا بد أن نقطع ونفتح الجثة الميتة. والمقصود هنا هو أن إدوارد لين نظر إلى اللغة العربية كأنها جثة ميتة على طاولة التشريح وكأنه من خلال تشريحها يمكننا أن نصل إلى المعرفة الكاملة عن طبيعة الشرق. فإذا كانت اللغة العربية جثة ميتة فالسؤال المطلوب هو: كيف ماتت اللغة العربية؟ ويجيب إدوارد لين على هذا السؤال فى مقدمة قاموسه حيث يشبّه تاريخ اللغة العربية بحياة الإنسان، فوفقا لإدوارد لين كانت اللغة العربية فى الجاهلية فى مرحلة الطفولة ولكن مع قيادة الرسول للأمّة وقوة نزول القرآن الكريم وازدهار الإسلام أصبحت اللغة العربية مُراهقا ولكن سرعان ما وصل هذا المُراهق إلى قمته فى أواخر أيام الرسول ويكتب إدوارد لين أنه فى ذلك الوقت كانت اللغة كاملة وعفيفة ونظيفة. ومن ثم بدأت اللغة العربية تدهورها المهول إلى مكان حقير حتى ماتت أخيرا ولكن لا يحدد إدوارد لين فى نص مقدمته متى ماتت بالضبط ولكن على كل نعلم إن كانت اللغة ميتة عندما عرفها إدوارد لين فى القرن التاسع عشر. وبالإضافة إلى أن اللغة العربية جثة ميتة منذ وقت طويل يقول إدوارد لين إن اللغة التى استُخدمت بعد أيام الرسول هى ليست لغة عفيفة ولكنها لغة همجية وضمنيا من الذى يتكلم بهذه اللغة الهمجية هو واحد من الهمجيين أو حتى واحد من الحيوانات كما قلنا من قبل.

ولكن هل كانت اللغة العربية فعلا ميتة فى ذلك الوقت؟ بالتأكيد الإجابة «لا». لم تكن اللغة العربية ميتة فى القرن التاسع عشر أو فى أى وقت آخر منذ أيام الرسول ويدل على ذلك كل الأعمال الأدبية والعلمية والدينية والطبية والشعرية وما إلى ذلك من إبداعات العصر العباسى أو حتى من العصر العثمانى وكل كتب التاريخ من أيام الرسول إلى المقريزى وإلى ابن إياس وإلى الجبرتى وغيرهم. ولذا أعتقد أن السؤال المطلوب هو ليس كيف ماتت اللغة العربية، بل هو من قتل اللغة العربية؟ والإجابة هى أن إدوارد لين وكل أجداده المستشرقين شاركوا فى عملية القتل هذه لكى يحصلوا على جثة لمشارطهم وسكاكينهم. والشىء الغريب والمتناقض هو أن إدوارد لين والمستشرقين الآخرين قتلوا اللغة العربية وأنقذوها معا، بمعنى أنهم قتلوا اللغة لكى ينقذوها لأن العمليتين متلازمتان.

فإذا نجحت فى تفكيك فكرة أن القاموس مرجع موضوعى، فهذا لا يعنى أنه يجب علينا أن نترك القاموس على رف المكتبة ولا نستخدمه أبدا لأنه إذا فعلنا هذا فسوف نتخلى عن كل الأعمال العلمية فى يوم من الأيام لأنها كلها تمثيلية واصطناعية إلى حد ما. لكن المهم هو أن ندرك أن كل شىء مصنوع بيد الإنسان له تاريخ وأيديولوجية وسياسة ومن اللازم أن نفهم عملية تكوين أى عمل علمى واستخدامه عندما نتعامل معه. ■

في أجواء «الاستقطاب» و«الثنائية» التى بدا أن العالم يستدرج إليها يوماً بعد يوم، ألقى اللورد كارى الذى كان كبيراً لأساقفة الكنيسة الإنجليكانية (كانتربرى) سلسلة من المحاضرات (أربع) أثارت ثالثتها (ألقاها فى جامعة جريجوريان فى مارس الماضى) لغطاً كبيراً وذكرت تقارير صحفية أنه وجه فى محاضرته اتهامات غير مقبولة للإسلام كديانة وللمسلمين. وكالعادة فى مثل هذه المواقف وفى مثل تلك الأجواء المحتقنة خرجت من الناحية الأخرى بيانات ومقالات تستنكر ما قاله الرجل، أو بالأحرى «ما نقل عنه». وتستغرب أن يأتى مثل هذا الكلام من رجل بهذه المكانة وله هذا الاسم.

والتزاماً بدقة واجبة وموضوعية لازمة، حرصت «وجهات نظر» على أن تنشر هنا ترجمة «النص الكامل» للمحاضرة/ الأزمة مع الإشارة إلى حيث يمكن للقارئ أن يعود إلى الأصل الإنجليزى لو أراد. قبل أن تطلب من عدد من كتابها مناقشة ما قاله. خاصة أن للرجل قيمته. ولكلامه بالتالى أهميته.

المحـــرر

صدام أم لقاء؟

المسيحية والإسلام

لورد كارى

Christianity and Islam: Collision or Convergence?

(المسيحية والإسلام: صدام أم لقاء)

Lecture by:
Lord Carey of Clifton
،Rome - Gregorian University
March 2004

للاطلاع على النص الأصلى
www.timesonline.co.uk/article / 0,,1-1052165,00.html

ترجمة: محمد يوسف عدس

■ موضوع البرنامج الدراسى الذى أقوم به فى جامعة جريجوريان هو: «الوحدة والعمل التبشيرى» ولكن ليس هذا البرنامج وحده هو الذى حفزنى إلى تقديم هذه المحاضرة عن العلاقات المسيحية الإسلامية، وإنما كانت رغبة تراودنى خلال السنوات العشر الماضية وذلك بحكم موقعى كقائد مسيحى.

أود هنا أن أقرر بصراحة ووضوح أننى لست بأى معنى اصطلاحى خبيراً فى الإسلام ولا متخصصاً فى أى علم من علومه، ولكنى أزعم أننى خلال عدة سنوات قضيت وقتاً طويلاً مع بعض الأسماء المهمة فى عالم الإسلام، مثل الدكتور طنطاوى ود. حسن الترابى والملك حسين والأمير حسن والملك عبد الله و«بروفيسور» أكبر أحمد، وكثير غيرهم من القادة والعلماء المسلمين، وكنت فى هذا أحاول بناء جسور من التفاهم بين العقيدتين العظيمتين (يقصد الإسلام والمسيحية).

وبعد أن تقاعدت من وظيفتى فى الكنيسة واصلت انخراطى فى الحوار، فى إطار «عملية إعلان الكسندر» (الإسكندرية فى يناير ٢٠٠٢) التى تحاول جمع قادة المسلمين واليهود والمسيحيين معاً فى إسرائيل وفلسطين.

أما المشروع الثانى الذى أنشط فيه فهو مبادرة ذات طابع اقتصادى نشأت فى إطار «المنتدى الاقتصادى العالمى»، حيث اشتركت مع الأمير تركى (من السعودية) فى رئاسة مجلس مكون من مائة قائد فى مختلف التخصصات، هدفه تقوية الروابط بين الغرب والإسلام.

وقد اعتدت أنا وزوجتى زيارة الكثير من البلاد المسلمة، ونحن نقدر قوة الإسلام وعمقه.. وأعتقد أننى أستطيع أن أقول بشىء من الثقة أن لدى فكرة معقولة عن التحديات التى يمثلها الإسلام بالنسبة للمسيحية وللغرب، وكذلك التحديات التى يواجهها الإسلام اليوم.

❖ أحد الأسئلة الملحة فى وقتنا الحاضر هو: ما إذا كانت الأديان والثقافات المختلفة يمكن أن تجد سبيلاً للتعايش بعضها مع بعض فى توافق وسلام. وحين نقول إننا نعيش فى أيام مضطربة وخطيرة ربما يكون تعبيرنا هذا جد متواضع بالنسبة لما حدث فى ٢٠٠١/٩/١١م فمنذ هذا التاريخ والعنف الإرهابى لا ينم عن شىء من التراجع.

ومحاولة تدمير شبكة القاعدة ومطاردة قائدها «أسامة بن لادن» وكذا الحرب العراقية والصدام الدائر فيها، ومأساة الصراع المرير فى الأراضى التى تعتبرها الأديان الثلاثة العالمية أراضى مقدسة، والبيانات التى تتردد فى تصريحات قادة الدول من أن العنف على المستوى الذى انفجر فى مدريد ينبغى أن تتوقعه الدول الغربية.. كل هذا وغيره يجعل موضوع المحاضرة بالغ الأهمية.

مركز اهتمامى فى هذه المحاضرة هو الإسلام: عقيدة وحضارة وثقافة، وهى عقيدة يتسارع نموها فى كل جزء من أجزاء العالم، وحضارة أسهمت بالكثير للأسرة الإنسانية ولاتزال لديها الكثير لتقدمه، وثقافة ذات نسيج متميز تحوز إعجاب الملايين فى أنحاء العالم.

مناقشة كبير الأساقفة

ومع ذلك فحيثما قلّبت النظر يبدو لك الإسلام متورطًا فى صراع مع الأديان والثقافات الأخرى. فمن الناحية العملية نجد الإسلام متنافرًا مع كل دين عالمى آخر: مع اليهودية فى الشرق الأوسط، ومع المسيحية فى الغرب ونيجيريا وفى الشرق الأوسط، ومع الهندوسية فى الهند، ومع البوذية خصوصًا منذ تدمير معابدهم فى أفغانستان.

لذلك فنحن فى حيرة كبيرة بالنسبة للإسلام: لماذا هو مقترن بالعنف فى أنحاء العالم؟ هل التطرف مرتبط ارتباطًا لا فكاك منه بعقيدته التى عرفنا خصائصها الحقيقية؟، أم أن الأمر هو أن النضال من أجل جوهر الإسلام جارٍ ويحتاج عقيدة عظيمة أخرى كالمسيحية لمساندة وتشجيع الأغلبية الكبرى من المسلمين الذين يقاومون المطابقة بين عقيدتهم وبين الإرهاب؟

مما لا شك فيه أن اقتران الإسلام بالإرهاب يطرح تحديًا هائلاً لجميع الذين يبحثون عن عالم آمن مزدهر.

أنصت إلى صامويل هنتنجتون، وهو صاحب أحد الأصوات المهمة فى هذه القضايا، فقد نشر مقالاً مثيرًا للجدل بعنوان صدام الحضارات يذهب فيه إلى أن انهيار الشيوعية أعطى إشارة بنهاية المعارك الأيديولوجية ذات الطابع السياسى حيث أصبحت الرأسمالية الغربية هى المهيمنة، ثم يزعم أن المعركة التالية ستكون صدام حضارات فى عالم تتنازعه حضارتان: الإسلامية والمسيحية.

لقد رفض هذه الفكرة علماء وكتاب ورجال دين باعتبارها فكرة خاطئة، وكان هذا الرفض لأسباب تاريخية ودينية وفكرية مفهومة. ولكن هنتنجتون لم يأبه لهذا الرفض كثيرًا، وإنما توسع فى مقالته فجعلها كتابًا أصدره سنة ١٩٩٧. عدّل فيه قليلاً ولكنه أبقى على حجته الأساسية وهى أن الصدام بين الثقافتين الكبيرتين لا مفر منه.

وبإصرار غريب ادعى أن الحدود الإسلامية دموية وكذلك داخله، وأن مشكلة الغرب الأساسية ليست الأصولية الإسلامية وإنما الإسلام نفسه.

فالإسلام حضارة مختلفة تؤمن شعوبها بتفوق ثقافتهم من ناحية، ويستبد بهذه الشعوب شعور بالدونية تجاه قوة الغرب من ناحية أخرى.. وهذه كلمات نافذة مقلقة بل صارمة.. فهل هى صحيحة كالحقائق؟، مما لاشك فيه أن أحداث ١١ سبتمبر تعزز مقولة هنتنجتون من أننا نشهد فى أيامنا هذه صدام حضارات ونتعامل مع وجهتى نظر متناقضتين عن هذا العالم.

ولكى نغوص أكثر فى أعماق هذه القضية اسمحوا لى أن أسأل الأسئلة الأربعة الآتية:

١. ما هى الأسباب التى جعلت الإسلام مقترنًا بالإرهاب والموت؟

٢. ما هى التحديات التى يواجهها الإسلام نفسه؟

٣. أى تحد يمثله الإسلام بالنسبة للغرب فى عمومه وللمسيحية بصفة خاصة؟

٤. كيف يمكننا أن ننتقل من حالة الصدام إلى حالة التلاقى وصولاً إلى احترام وتفاهم متبادلين؟

الإسلام والإرهاب:

من المهم بادئ ذى بدء التأكيد على الجوانب الإيجابية قبل أن ننتقل إلى السلبيات: فالإسلام هو ثانى أكبر ديانة فى العالم، والاسم معناه (الاستسلام لله)، ويوجد فى العالم أكثر من بليون مسلم، غالبيتهم العظمى أناس مسالمون أخيار، يهتمون بتربية أبنائهم لكى يحيوا فى وفاق مع الآخرين. والإسلام شأنه كشأن المسيحية أبعد ما يكون عن النزعة الأحادية، وهو أيضًا يضم جماعات كثيرة وطوائف مختلفة، وبين شعوبه مسلمون علمانيون إلى جانب المسلمين المتدينين، وكذلك يوجد مسلمون بالاسم فقط، وكما لاحظ جى. إى. وليامز فى كتابه «عالم الإسلام»: «يوجد جانب علمانى فى الإسلام رغم أن الصحوة الإسلامية (منذ ١٩٧٠) كانت تحجب هذه الحقيقة».

وسواء كان المسلم متدينًا حقيقةً أو مسلمًا بالاسم فقط ينبغى أن نقرر أن غالبية المسلمين العظمى مثل المسيحيين أناس شرفاء وخيرون ويكرهون العنف، ويسوؤهم أن ينظر إليهم الآخرون كأنهم كتلة واحدة من الأشرار المضللين، كما يعتقدون أنه لا يصح إدانتهم أو إلصاق صفة الشر بعقيدتهم الدينية.

هناك إذن معركة دائرة الآن حول جوهر الإنسان.. ولكن يبقى السؤال: لماذا يقترن الإسلام بالعنف والإرهاب؟

على سبيل الإيجاز سأحاول الاقتراب من الإجابة من خلال منظور تاريخى: لقد توافق المسيحيون والمسلمون توافقًا ملحوظًا فى بلاد عاشوا فيها معًا جنبًا إلى جنب مع جيرانهم اليهود، ولكن جاءت فترات من الزمن عمدت فيها كل عقيدة إلى توسيع أراضيها، وهنا حدث تصادم مرير، وكانت الحروب الصليبية مثلاً واضحًا على هذا الصدام، حيث جرت محاولات لاستعادة الأراضى المسيحية السابقة، وترتب على ذلك نتائج مؤسفة لكل من الديانتين.

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر عمد الإسلام المحارب إلى غزو المجر وبولندا وأوكرانيا.. حتى وصل إلى أبواب النمسا، ومثل هذه الحقائق التاريخية تتعارض مع ما ذهب إليه محمد مهدى شمس الدين فى مؤتمر عالمى انعقد فى «جامعة جريجوريان» خلال شهر مايو ٢٠٠٠م، حيث زعم أن العدوان كان مسيحيًا كله أو معظمه وكان موقف الإسلام دفاعيًا كله أو معظمه.

ولا ينبغى لنا أن نندهش إذا لجأ كل من المسيحية والإسلام إلى مثل هذه الصدامات العسكرية، فالحقائق تؤكد أنه لا تستطيع أى من العقيدتين الادعاء بأنها كانت ملتزمة دائمًا بموقف أخلاقى واتهام العقيدة الأخرى باستخدام أسلحة الدمار.

فإذا تجاوزنا هذه الصدامات المعروفة نجد أن أتباع الديانات العالمية الثلاثة استطاعوا أن يعيشوا معًا فى سلام، مع الأخذ فى الاعتبار أن كثرة من المسيحيين واليهود دفعوا ثمن ذلك عندما اضطروا لقبول أن يعيشوا فى وضع الذميين.

لقد شهدت البلاد المسلمة تدهورًا مستمرًا ابتداء من القرن الثامن عشر وصولاً إلى القرن العشرين، فبينما كانت البلاد المسيحية تتمتع بثمرات الثورة الصناعية كان معظم الشرق الأوسط يتقهقر على طول الخط. وأذكر أننى عندما كنت شابًا أقضى فترة التجنيد العسكرى فى العراق خلال الخمسينيات كنت ألاحظ (وأفهم السبب) أن كثيرًا من شباب جيلى كانوا ينظرون إلى هذه المجتمعات نظرة سطحية، إذ اعتبروا الإسلام دينًا متخلفًا فى مجتمعات متخلفة ترزح تحت مشكلات هائلة من الأمية والفساد.

اعتبر الكثيرون سنة ١٩٦٧ نقطة تحول فى عقول الكثرة من المسلمين، ففى هذه السنة قامت البلاد العربية (سوريا ومصر والأردن) بهجوم مفاجئ ضد إسرائيل، وكانت النتيجة هزيمة موجعة (للعرب) حيث ضاعت منهم مساحات كبيرة من الأراضى فى سيناء وغزة والجولان.

منذ هذا التاريخ بدأ المسلمون فى تحليل أسباب هزيمتهم على يد الإسرائيليين.. حفرت هذه الهزيمة فى أعماق ذاكرتهم وأصبحت بحق نقطة تحول فى حياتهم، ووجد الكثيرون أن العودة إلى بساطة العقيدة الإسلامية والاتباع المخلص للقرآن ضرورة حياة، أما اتباع الغرب وتقليد أساليب حياته فهو طريق إلى التدهور والانحطاط.

وهكذا بدأت حركة تجديد وإصلاح إسلامى فى الظهور، كانت رغم ما تضمنته من تباينات ذات هدف واحد مشترك وهو إعادة مجد الإسلام.

وأمام احتقار السلبية السياسية للإسلام التقليدى المحافظ من ناحية، وشغف الحداثيين المسلمين بالعلمانية من جهة أخرى كانت الحركات الإسلامية تتشبث برغبتها فى إعادة أسلمة المجتمعات المسلمة، وخرجت تقاتل زحف العلمانية والمادية القادمة من الغرب.

ورغم أنه من المفهوم وصف هذه الجماعات بالأصولية إلا أن هذا المصطلح مستعار من العالم المسيحى وهو يعنى (التفسير الحرفى للإنجيل)، ولذلك فهو مصطلح غير مناسب فى تطبيقه على الجهات المتطرفة فى الإسلام.، وفى هذا المجال يميز جى. إيه. وليامز بين المجددين أصحاب حركة الإحياء، الذين جعلوا هدفهم مساعدة المسلمين للعودة إلى أصول العقيدة الإسلامية، وبين النشطاء المتطرفين الذين ينادون بشن حرب على الكفار، ولذلك فالأصح هو أن نطلق على النشطاء المتطرفين الذين يتجهون إلى إحداث ثورة بواسطة العنف بأنهم إرهابيون.

وفى هذا استباق للأحداث حيث يجب علينا الاستمرار فى البحث عن أسباب ظهور هذه الجماعات إلى الوجود.

إذا كانت سنة ١٩٦٧ تمثل بداية التسييس الحقيقى للإسلام فى قلوب وعقول كثير من المسلمين، فإن من واجبنا أن ننظر إلى العربية السعودية قلب الأراضى الإسلامية لنتعقب أحد المصادر الأساسية للفكر الإسلامى المتطرف.

فمنذ مائتى عام مضت اجتاحت هذه البلاد حركة إصلاحية مدفوعة بأفكار محمد بن عبد الوهاب متآزرًا مع محمد بن سعود (وكان زعيمًا قبليًا قويًا)، حيث استطاعا إخضاع القبائل الأخرى وفرض ما أطلق عليه «جون إسبوزيتو» شكلا من أشكال الإسلام (البيوريتانى) النقى.

وهنا ينبغى أن نشير إلى أن تطبيق هذه «البيوريتانية» الوهابية اقتضى تدمير القبور المقدسة لمحمد وأصحابه فى مكة والمدينة.

وما يتم اليوم تصديره

صدام أم لقاء؟

إلى مجتمعات وبلاد العالم الإسلامى هو الشكل الوهابى للإسلام. وهو شكل ينطوى على معتقدات استبدادية متعصبة تتوافق مع عقول سهلة القولبة تبحث عن اليقين.

وقد اكتمل تسييس الشبان السعوديين فى أيامنا هذه من خلال عقد المقارنة بين عقم البلاد الإسلامية والغرب الذى يقال عنه إنه منحط بسبب ماديته. وعندما أصبح السعوديون أغنياء ببترولهم كان عليهم أن ينفقوا الأموال لهزيمة الغرب بأسلحته ووسائله الخاصة، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن بعضهم من القيام بهذه المهمة.

وإذا كان عام ١٩٦٧ هو عام المهانة بالنسبة لكثير من المسلمين فإن عام ١٩٧٩ كانت له دلالة أخرى مهمة بالنسبة للإسلام، حيث ظهرت فيه اتجاهات المقاومة المسلحة، لتعطى مصداقية مبهمة لفكرة أن العنف أداة يجب استخدامها. وكانت المناسبة المستفزة الأولى لهذه الاتجاهات هى غزو السوفييت لأفغانستان الذى أهاج العالم الإسلامى بأسره.

وكما عبر لى أحد الأصدقاء المسلمين لم يكن الروس كفاراً فقط، بل كانوا أسوأ من هذا (كفارا ملحدين).. وهكذا تبلورت فكرتا «الكفر ودار الحرب» حقيقتين واقعتين، وتبلورت معهما دعوة إلى الجهاد وتنادى المجاهدون للقتال حتى الموت.

وفى هذا الخضم رأينا نقطة تحول فى حياة رجل غنى طويل القامة سعودى شاب هو «أسامة بن لادن»، الذى استخدم ثروته فى إقامة معسكرات تدريب فى أفغانستان لقتال السوفييت. وهكذا كان الغزو السوفيتى لأفغانستان دافعاً لتحويل نخبة من الشباب السعوديين إلى متطرفين، ومن سخرية الأقدار أن الأمريكيين هم الذين اكتشفوا خصائص القيادة فى «أسامة بن لادن» وأهمية ذلك فى التصدى للغزو السوفيتى، ومن ثم أمدته الولايات المتحدة وأصحابه فى شبكة القاعدة بالتدريب والمال والسلاح والمؤن.

كذلك كان عام ١٩٧٩ على قدر كبير من الأهمية أيضاً بالنسبة للعالم المسلم بسبب قيام الشيعة فى إيران بتقويض النظام العلمانى، فى انقلاب مدو، أعقبه قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وفى عام ١٩٨٩ حدث انقلاب آخر فى السودان استولى على أثره الكولونيل عمر البشير على السلطة فى البلاد، وهب لمساندته المفكر القوى حسن الترابى (الذى تخرج من السوربون فى القانون) وهو مفكر لامع يتمتع برؤية واضحة تتجه إلى فرض الإسلام على العالم كله وجعل الشريعة إلزامية وهو الهدف الذى استطاع تحقيقه بشكل أو آخر فى السودان.

وفى سنة ١٩٩٤ جاء من مكان ما جماعة من الطلاب كانوا يعيشون على الحدود الباكستانية عرفوا باسم «طالبان» استولوا على أفغانستان وادعوا القيادة الروحية، وفرضوا شكلاً من أشكال الوهابية الأكثر تحفظاً على دولة ممزقة كانت تحتاج إلى رؤية مستنيرة لا رؤية قصيرة النظر مغلقة على نفسها مثل رؤية طالبان.

فى سنة ٢٠٠٠م. وقد أصبح أسامة بن لادن معزولاً تماماً من أمريكا والغرب. أعلن تشكيل جبهة إسلامية عالمية للجهاد ضد الأمريكيين والصليبيين (يقصد المسيحية). ربما كان السبب وراء هذا السلوك هو الشعور القوى بالخيانة الأمريكية، حيث بدا للأفغان أن الأمريكيين قد تخلوا عنهم بعد ما بذلوه من تضحيات فى قتال السوفييت، وكانت آثار هذا فى العالم بالغة الخطورة.

فبالنسبة لـ«بن لادن» والمجاهدين أصبح للجهاد معنى واحد هو القتال حتى الموت فى سبيل الإسلام، وتوارى المعنى البديل والأساسى للجهاد، والمتمثل فى النضال من أجل أن يكون المسلم صالحاً مسالماً خلال ممارسته الأساليب الأخلاقية والدينية، هذا المعنى أصبح فى خطر الضياع.

وفى سبتمبر ٢٠٠١ ضربت الجبهة الإسلامية العالمية من خلال شبان مخلصين كانوا على استعداد للموت والقرآن بجانبهم يهتفون «الله أكبر».. قادوا طائرات ضخمة ودمروا مركز التجارة العالمى والبنتاجون، ومعهما قُتل عدة مئات آخرين، كانوا يمارسون حياتهم العادية المشروعة والخيرة.

وتبع هذا انتهاكات أخرى كثيرة فى إندونيسيا حيث هجم ١٢ مسلماً من الميليشيات المسلحة على قرية يسكنها الصينيون والمسيحيون عند الفجر وهم يهتفون «الله أكبر» فقتلوا الرجال واغتصبوا النساء اللاتى وقعن فى قبضتهن.

وبعد عام من واقعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حدثت مقتلة أخرى لمئات من الأبرياء كانوا يمارسون متعة اللهو فى بالى بإندونيسيا ولم يكن ما حدث فى مدريد مؤخراً سوى حلقة من مسلسل دراما الإرهاب الإسلامى.

وهنا يبرز لنا السؤال بإلحاح أكبر: ألا يتلاعب بالإسلام أناس أشرار مُضللون لا يشيعون الاضطراب فى عالمنا فقط بل ينزعون عن الإسلام نفسه المصداقية؟!

التحديات التى تواجه الإسلام

. فى يناير الماضى حضرت منتدى الاقتصاد العالمى وظهرت على نفس المنصة مع رئيس الوزراء الماليزى السابق د. محاضر محمد وكان على وشك التقاعد من (منصبه)، حيث قدّم تقييماً متزناً عن الإسلام، مؤكداً أنه مالم يتهيأ الإسلام للتغيير فإنه سوف يتدهور أكثر مما هو الآن، وقال إنه «من الصعب على أن أكون متفائلاً بالنسبة للمسلمين فى القرن الواحد والعشرين فقليل جداً من المسلمين يستوعبون الواقع، ولا يفهم (أكثرهم) أن التوافق مع العولمة هو أكبر التحديات التى تواجههم.. وأنه لا سبيل أمامهم للهرب».

أما الرئيس الإندونيسى السابق عبد الرحمن واحد الذى ترأس مؤتمراً فى عمان فقد عبر عن مخاوف مشابهة حين قال: «العالم الإسلامى على مفترق طرق فإما أن يبقى متابعاً لإسلام تقليدى جامد أو يعيد صياغة إسلامه فى إطار نظرة عالمية أكثر فعالية وتعددية».

التحديات إذن فى نظر مثل هؤلاء المفكرين المسلمين كثيرة ومختلفة وسوف نركز على أربعة تحديات بعينها:

❖ أول هذه التحديات فى نظرى بالنسبة للمجتمعات المسلمة هو أن يدمجوا عقيدتهم وممارساتهم فى إطار. مؤسسات ديمقراطية، وبالتأكيد ستصبح الديمقراطية. بشكل متزايد. هى التحدى الأساسى إذا أخذنا فى الاعتبار أن مزيداً من الشباب المسلم يقبلون على التعليم ومن ثم يزيد حرصهم على أن يشاركوا فى تسيير شئون بلادهم.

ويتساءل الإنسان متعجباً: لم هذا الغياب المفجع للديمقراطية فى البلاد المسلمة خصوصاً فى الشرق الأوسط!.. من حقنا أن نتعجب لذلك.. لقد قيل إن خبرة المسلمين الحداثيين تؤكد أن الإسلام والديمقراطية لا يتوافقان، ولكنى لا أدرى سبباً جوهرياً لذلك، وتركيا تعتبر. بالتأكيد . مثالاً على أنه لا يوجد تناقض من حيث المبدأ (بين الإسلام والديمقراطية).

ومع هذا نجد فى الشرق الأوسط وفى شمال أفريقيا أنظمة تسلطية بها قيادات استبدادية متشبثة بمقاعد الحكم، وصل بعضها إلى السلطة خلال انقلابات عسكرية واحتفظوا بها عن طريق الاستخدام المكثف لقوات الأمن.. وسواء كانت هذه ديكتاتوريات عسكرية أو حكومات تقليدية، يبدو أن كل حاكم قد وطن نفسه على الاستئثار بالسلطة والامتيازات لنفسه إلى الأبد.

وحتى عندما تقدم بعض أشكال من الديمقراطية كالحال فى قطر والبحرين نراها ديمقراطية متواضعة إلى أقصى حد حيث تظل السلطة الحقيقية فى قبضة الأمراء.

❖ التحدى الثانى يكمن فى الظروف الاقتصادية المضطربة التى تنهض ضد المجتمع المدنى واستقراره، وتزعزع قيم دين عظيم وأخلاقياته، حيث تدل المؤشرات السكانية على أن الدول المسلمة ستخضع (بصفة متزايدة ومع مرور الوقت) لمصير مجهول مالم تتخذ إجراءات للتعامل مع الأمية المزمنة، وسوف تؤدى الأرقام السكانية المتصاعدة إلى اضطرابات اجتماعية مع تفاقم البطالة.

فمنح السلطة للشعب فى حكومة ديمقراطية لن يكون وحده كافياً إذا غابت عوامل الاستقرار الاقتصادى والتعليم العام وحقوق الإنسان، ذلك لأن غياب هذه العوامل من شأنه أن يعجل بالثورة أو إثارة حفيظة المسلمين تجاه الثراء والوفرة التى يتمتع بها الغرب.

❖ ملاحظتى الثالثة هى أن العلوم الدينية الإسلامية تواجه تحدياً أيضاً أن تصبح مفتوحة للفحص والنقد، وللمسيحية واليهودية تاريخ طويل فى الدراسات النقدية.. ويجب أن نعترف أن هذا لم يكن خالياً من الآلام، ولكن كانت هناك أيضاً مكاسب عظيمة.

أما بالنسبة للإسلام فرغم أن الجميع يعترفون بعظمة (محمد) الدينية إلا أنه كان رجلاً أمياً.. قيل أنه تلقى كلام الله بطريقة مباشرة كلمة كلمة من الملائكة ثم سجلها الكُتّاب بعد ذلك.

ولأنها نزلت مباشرة من عند الله فقد قيل للمؤمنين بأنه لا ينبغى أن تكون محل شك أو مراجعة.

وقد واجه هذا التحدى علماء المسلمين فى القرون الأولى للإسلام (بعلم الكلام)، ولكن تراجعت الدراسات النقدية خلال القرون الخمسة الأخيرة مؤدية إلى مقاومة قوية للحداثة.

وفى هذا المجال أعتقد أن لعلماء اللاهوت والمعلمين المسيحيين دورين يقومون بهما تجاه الفكر الإسلامى.

الدور الأول هو تشجيع الحوار الدينى بين المسيحية والإسلام، وفى هذه الناحية أود أن أحيى الإسهام الكبير الذى يقدمه «مجلس الفاتيكان للعلاقات الدينية» وعلى

الأخص العمل الذى يضطلع به رئيس الأساقفة «مايكل فيتز جيرالد».

أما الدور الثانى فهو أن يقوموا (دون تدخل فى دين آخر) بتشجيع دراسات دقيقة لوضع برامج تعليم للأئمة (المسلمين)، ذلك لأن مزيداً من الانفتاح فى هذا المجال سيعود بالفائدة علينا جميعاً.

❖ أما التحدى الرابع الذى يواجه المسلمين المعتدلين فهو أن يقاوموا مقاومة جادة محاولة النشطاء المتطرفين الاستيلاء على الإسلام، وأن يعلنوا . بالنيابة عن الملايين الكثيرة من إخوانهم فى الدين عن سخطهم على العنف الذى يمارسه هؤلاء المتطرفون باسم الله.

إننا نتوقع منهم إدانة للانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم والإرهابيين الذين يستخدمون الإسلام سلاحاً لتدمير حياة الأبرياء.

ومن المؤسف حقاً أن قلة ضئيلة من قادة المسلمين هم الذين أدانوا بوضوح وبلا تحفظات ممارسة الهجمات الانتحارية التى تؤدى إلى قتل الأبرياء.

نريد أن نسمع إدانة صريحة للآراء الدينية التى تقرر أن الانتحاريين شهداء وأن جزاءهم هو جزاء الشهداء.. نريد أن نسمع مسلمين يعبرون عن غضبهم وإدانتهم لهذا الشر..

لقد عدت مؤخراً من القدس وأستطيع أن أتعاطف مع أولئك الذين يشعرون على أحسن الأحوال بيأس من أى تحسن فى الموقف بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وعلى أسوأ الأحوال الذين يرون أن الاستقطاب أصبح شديد العمق وأن العنف الدائر والضحايا الذين فقدوا حياتهم ويفقدونها هو المستقبل المظلم لهذه المنطقة لسنوات قادمة.

مع كل هذا فنحن نتحدث عن شعبين عظيمين تعايشا بسلام فى الماضى.. نتحدث عن وضع لا نستبعد فيه الوصول إلى حل سياسى، إذا استطعنا أن نجد طريقة لإنهاء العنف.. إننا نتحدث عن وضع يستحق فيه اليهود والعرب كلاهما السلام والعدالة.

فإذا توقف الفلسطينيون عن تكتيك الانتحار، وهو أمر أعتقد أنه ضرورى وواجب أخلاقى، كما أعتقد أنه على اليهود (حينذاك) الامتناع عن استخدام قوتهم بطريقة غير مبررة لنفس السبب.

إنه من المستحيل أن تمر عبر حواجز الطرق ونقط التفتيش كما حدث لنا فى إجازة الأسبوع الماضى وفى مناسبات أخرى عديدة، من المستحيل أن يمر الغريب بهذه الخبرات دون أن يتصور مدى تأثيرها فى إثارة الغيظ والحنق بين الفلسطينيين الذين يرون أنفسهم سجناء فى بلادهم.

إن التكتيكات التى يقوم بها جيش الدفاع الإسرائيلى والقتل الذى تمارسه الدولة ضد المشتبه فى صلتهم بالإرهاب، وقتل القادة الفلسطينيين مثل الشيخ أحمد ياسين لا يليق بمجتمع متحضر، وهو عار على إسرائيل.

والجدار الهائل الذى يقام حالياً قد يمنح إسرائيل بعض التخفيف، ولكنه يزيد من نفور الفلسطينيين.. لقد رأيت كتابات على جزء من الجدار الذى يفصل القدس عن الضفة الغربية يقرأ:

«هذا هو جيتو وارسو».

فحيثما توجد قوة. سواء كانت قوة دولية أو قوة فرد. موجهة إلى فرد آخر بواسطة بندقية أو قنبلة فهى كما يقول «راينهولد نيوبور»: (السم الذى يعمى العيون عن الرؤية الأخلاقية ويعوق حركة الإرادة عن هدفها الأخلاقى).

ما هو التحدى الذى يواجه الغرب بصفة عامة ويواجه المسيحيين بصفة خاصة؟

لاشك أن فى ملاحظات الرئيس الإيرانى محمد خاتمى بعض الحقيقة عندما أشار إلى أن ديمقراطيات العالم اليوم تعانى من خواء أساسى هو خواء الروح.

من الصعب أن نرفع إصبع اتهام إلى ما نعتبره عوامل ضعف فى الحكومات المسلمة عندما نرى (بيننا) فساداً اقتصادياً مريعاً، كالذى تكشف فى شركات «إنرون» و«ورلد كوم» و«باماالات»، والذى يرفع الغطاء عن عوامل الجشع والاستغلال والفساد الذى يكمن فى مجتمعاتنا المتقدمة، ويقوض مزاعمنا بأننا ندير مجتمعاتنا بأساليب أخلاقية حكيمة.

مستويات الجريمة والانحراف التى تسير جنباً إلى جنب مع تدهور فى المعايير الأخلاقية وانهيار مؤسسات الزواج والأسرة.. كلها أسباب تجعل الغرب متحفظاً عندما يتشدق بأنه يملك مستوى أخلاقياً رفيعاً.. نعم ينبغى أن نعترف بعيوبنا ونقائصنا، وأن نأخذ من ثراء عقيدتنا وتقاليدنا ما نقوى به كل ما نعتز به من قيم.

والالتزام الثانى بالنسبة لنا هو أن ندعم القيم الغربية المؤسسة. بلا شك. على التقاليد الأخلاقية والثقافية المسيحية.

وبالرغم من عيوبنا (لا ينبغى أن ننسى) على الأقل أن الحضارة الأوروبية والأمريكية هى مستودع العدل والقيم الليبرالية، والديمقراطية باعتبار إحدى هذه القيم هى زهرة جميلة هشة تحتاج منا إلى الدعم والتقدير والحماية. إنها تسمح بالمعارضة وحرية التعبير وبحقوق الجميع على السواء. ولا يصح أن نستسلم لدعاوى أن البلاد الإسلامية تتفوق أخلاقياً وروحياً وثقافياً على الحضارات والثقافات الكبرى.

فإذا كان من واجبنا أن نعترف بالفضل لأصحابه فإننا ندين بالكثير للإسلام الذى منح الغرب كنوز الفكر الإغريقى ومبادئ حساب المثلثات، والفكر الأرسطى، خلال الفترة المعروفة فى الغرب باسم العصور المظلمة، إلا أنه من المؤسف حقاً أننا لا نستطيع أن نتحدث عن إبداع ملحوظ ظهر فى البلاد المسلمة منذ مئات السنين.

وهذه مسألة محيرة فالشعوب المسلمة لا تفتقر إلى العقول الذكية ولديهم الكثير مما يسهمون به فى الأسرة الإنسانية.. ونحن نتطلع إلى التعاون الجاد الذى يجعل هذا ممكناً.

نعم إن الغرب لديه ما يفخر به ولابد أن نعلن هذا بقوة، كما يجب أيضاً أن نشجع المسلمين الذين يعيشون فى الغرب أن يكونوا فخورين به، وأن يتحدثوا عن ذلك إلى إخوانهم وأخواتهم الذين يعيشون فى أماكن أخرى من العالم.

وينبغى علينا أيضاً أن نبرز حقيقة استمرار الغرب فى الإسهام الهائل الذى يقدمه إلى الدول المسلمة الفقيرة، وأن نجعل هذه الحقيقة معروفة لأكبر عدد من الناس، فقد ظهرت دراسة حديثة فى مصر علمنا منها أن ٦٪ فقط من المصريين يعترفون بفضل أمريكا عليهم رغم أن مصر تعتبر ثانى أكبر دولة تتلقى مساعدات من الولايات المتحدة بعد إسرائيل.

وكثير من المصريين لا يعرفون أن المعونات الأمريكية والبريطانية وراء إقامة نظام الصرف الصحى بالقاهرة وكذا إمدادات المياه والكهرباء.

ومهما يكن الأمر فينبغى أن نعترف أن الغرب أمامه الكثير لكى يتعلم من الإسلام وأن يقدر التقاليد العظيمة لهذا الدين.

ماذا عن العلاقة بين الكنيسة والمسجد؟

من المهم أن تعرف ماذا يمثل الإسلام.. ما هى مواطن القوة ومواطن الضعف فيه؟، وأكثر من هذا أهمية أن تتعرف على بعض المسلمين وأن تصادقهم.. وسوف تجد أنهم يحملون نفس المخاوف من ناحيتنا مثلما نحمل مخاوف من ناحيتهم.. وسترى أن كثيراً منهم أناس خيرون يريدون ببساطة أن يكونوا مواطنين صالحين.

فى الإسلام كثير مما يعجبنا: بساطة العقيدة والالتزام بالعبادة، فالإسلام ليس ديناً معقداً، وربما نحن الذين جعلنا المسيحية معقدة أكثر مما ينبغى.. ويمكننا أن نُكبر فى المسلمين التزامهم بدينهم ورغبتهم فى الترويج له، ونُكبر فيهم ارتباطهم بقيمهم التقليدية.. قيم الأسرة والأطفال والسلام.

ولا ينبغى الخوف من الإسلام فالمسلمون يقدرون الشرف والإخلاص، ولا يحترمون المسيحيين الذين ينظرون إلى الأديان كلها كشىء واحد لأنهم يعرفون أن الأديان ليست كذلك، وإنما يحترمون الناس الذين يدافعون عن دينهم ويتحدثون عنه بطريقة طبيعية، ومن ثم على المسيحيين أن يكونوا أكثر ثقة وأن يجادلوا عن عقيدتهم فى أرجاء العالم كما يجادل الآخرون عن عقيدتهم.

خلال فترة رئاستى (للكنيسة الإنجليكانية) كان هذا هو موقفى:

إن الترحيب الذى منحناه فى الغرب للمسلمين وما تضمنه من حرية العبادة وبناء المساجد، يجب أن يقابل فى البلاد المسلمة على نفس المنوال؛ إلا أننا نرى أن هذه الحرية ليست على نفس المستوى المتبادل، ففى بعض البلاد المسلمة توجد علاقات قوية وحميمة ولكن فى بلاد أخرى يجد المسيحيون قليلاً من الحرية، ويتعرضون لاضطهاد أحياناً، فلا يمكنهم بناء كنائسهم إلا بشق الأنفس.

فالسعودية لا تسمح للمسيحيين بالعبادة ولا يسمح للقسس بالعمل بحرية فيها.. وكثيراً ما يقول قادة المسلمين للمسيحيين واليهود إنه «لا إكراه فى الدين» وهذه للأسف نصف حقيقة، ذلك لأنه إذا كان غير المسلم ليس مجبراً على اعتناق الإسلام فإن المسلمين ليسوا أحراراً فى اختيار عقيدة أخرى، وفى هذا نرى بعض الإكراه.

كيف نتحرك من الصدام إلى التلاقى فى الأمور التى نشترك جميعاً فى الاعتزاز بها؟

بروفيسور «أكبر أحمد» أحد علماء المسلمين البارزين وأستاذ علم الأنثروبولوجيا بالجامعة الأمريكية فى واشنطن.. قال فى أحدث كتبه «الإسلام تحت الحصار»: «يبدو أن أحداث سبتمبر قد دفعت العالم تجاه فكرة صراع الحضارات.. ولكنها أطلقت رسالة أخرى ملحة تتضمن دعوة إلى الحوار، فالمشاركة الخلاقة فى حوار الحضارات لإيجاد توازن داخلى بين احتياجات وتقاليد

صدام أم تلاقٍ؟

المجتمعات المحلية وبين عالم تهيمن عليه بصفة متزايدة المنظمات الدولية والهموم السياسية، والبحث الملتزم عن حلول عالمية لما تواجهه المجتمعات الإنسانية، والسعى لإيجاد نظام عادل ورحيم وآمن، سيكون هو التحدى الحقيقى الذى يواجه الحضارات الإنسانية فى القرن الواحد والعشرين.. أن تواجه هذا التحدى هو فى الحقيقة تحقيق لإرادة الله.. وأن تجمع الإنسانية كلها فى جهد مشترك كهذا هو تحقيق لرحمة الله». يالها من كلمات تمس شغاف القلوب!

لست ممن يقبلون فكرة أن المستقبل هو مستقبل عنف متواصل يعمق المرارة، وجدل منكر بين أديان وثقافات لا سبيل إلى أن تتلاقى.

دعنى أستعرض بعض نقاط للمناقشة والتأمل:

١ . علينا بتعميق التعاون والتفاهم بين الأديان؛ فالدين لن يتلاشى من حياتنا، قد نستطيع الحديث عن عالم ما بعد الحداثة ولكننا بالتأكيد لن نستطيع أن نتحدث عن عالم ما بعد الدين. إلا أن الدين قد يستغل لأغراض سيئة أو لأغراض صالحة، فهو فى يد أناس أشرار يستخدم أحيانًا كسلاح للقتل والقهر كما حدث من وقت لآخر فى تاريخ المسيحية الطويل. وعلى القادة الدينيين أن يقوموا بدور مهم جنبًا إلى جنب مع القادة السياسيين، فلا يزال يوجد فى الدوائر السياسية قصور فى الفهم لقوة العقيدة الدينية، وهناك مجال لتسخير الخيال الدينى والطاقة الدينية لتحقيق السلام.

ينبغى أن نركز على الأسباب الأساسية للاضطراب الذى تتصادم فيه الأديان ونبحث عن علاج لجروح الماضى.. علينا أن نواجه الشعور العميق بالظلم الذى يعانيه المسلمون العاديون فى كثير من بلاد العالم النامى، من استبداد قادتهم ومن تفاقم الفجوة بين الفقراء والأغنياء، وما يراه الناس من دعم هائل من جانب الغرب لأنظمة الحكم المعادية للإسلام.

وإسرائيل كما ذكرت من قبل هى نقطة مشتعلة بخطر الاضطرابات، ولأمريكا دور رئيسى ينبغى أن تقوم به فى معالجة جراح هذه الأرض التى تتعلق بها قلوب أتباع ديانات العالم الثلاثة، ولا يتوقع المسلمون منها حيادًا فى معاملة الفلسطينيين أو القضية الفلسطينية. وإسرائيل . بطبيعة الحال . لها الحق فى وطن وفوق كل شىء فى السلام، ولا أحد ينازع فى هذا، فالمسيحيون من جميع الشعوب ينبغى أن يحترموا الروابط الدينية الخاصة التى تربطهم بالشعب اليهودى.

ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بأن الفلسطينيين ليسوا أقل من هذا استحقاقًا، فلهم الحق فى دولة قابلة للحياة ذات حدود آمنة وحكومة مستقلة.

قوموا بحل هذه المشكلة الملحة وسوف ترون أن كثيرًا من مرارة المسلمين وسخطهم يذوب بالتدريج ويسود مكانه التفاهم.. هذا الصراع الأطول عمرًا فى العصر الحديث يستحق من الغرب عناية عاجلة.

٢ . التفاهم والتراحم هما الأداة الوحيدة التى يمكن بها معالجة العنف والكراهية، ولن ينفع الغرب كثيرًا إذا اعتقد أن العلاج يكمن فى وضع نهاية لأسامة بن لادن، بل يجب أن نضع حدًا للظروف والتشويه والمعلومات الخاطئة التى صنعت أسامة بن لادن وأمثاله الكثيرين.

إنها معركة أفكار يجب أن ننتصر فيها، ولا يصح أن نتفاخر أمام المسلمين المجروحين الحزانى بأننا أقوى منهم.. فى هذه المعركة على علماء اللاهوت المسيحى والمدرسين والقسس والناس جميعا واجب لابد من أدائه.

بين المسيحية والإسلام كثير من المشتركات، والعمل من منطلق المطالب الأخلاقية المشتركة: من حيث التزامنا المشترك بالحياة الأسرية والقيم الدينية، واتفاقنا فيما يتعلق بأهمية عبادة الله، وتعليم الناس أن يقيموا حياتهم على أساس من القيم الخالدة الثابتة.. كل هذا سوف يمنحنا الثقة لخلق علاقات دائمة فيما بيننا.

فإذا لم نفعل فسوف يبقى المستقبل خطرًا مهددًا، وكما قال كريستوفر كوكر فى كتابه «Twilight of the West» وهو يتأمل تهديد الإرهاب فى العالم الحديث: «الذى يجعل الأصولية الإسلامية بهذه الخطورة هو جاذبية العلوم والتكنولوجيا فى الخيال الإسلامى الحديث..».

لقد تعلمنا . فى الحقيقة . الكثير من حادثة ١١ سبتمبر.. نعم إننا نعيش فى وقت عصيب، ولكننا أيضًا وبنفس القدر نعيش فى وقت يمكن للإرادة الخيرة والتفاهم والصراحة القائمة على الاحترام والتسامح . يمكن لكل هذا أن يمنحنا مستقبلاً مثيرًا.

دعونا نتطلع إلى يوم لا نتحدث فيه عن ديانات متصادمة، ولكن عن إسلام ومسيحية يتلاقيان فى رغبة مشتركة لخلق عالم من التسامح والسلام، وبناء مجتمعات على هذه القيم التى تجعلنا أناسًا قادرين على الأخذ والعطاء من نعمة الحب الإلهية. ■

اللورد.. ومحاضراته الأربع

□□ اسم لورد كارى رئيس أساقفة كانتربرى (الكنيسة الإنجليكانية) البريطانية، والذى تخلى عن منصبه وأصبح مهتمًا بموضوع حوار الأديان، مرتبط . عندنا . بما يسمى «عملية الإسكندرية» التى جمعته مع شيخ الأزهر والحاخام الإسرائيلى، وصدر عنها بيان وقع فى يناير سنة ٢٠٠٢م. ومحاضرته تلك التى ألقاها بجامعة جريجوريان فى روما هى الثالثة فى سلسلة محاضرات عن موضوع «الإسلام والغرب» وكانت قد لفتت الانتباه بعد أن جلبت انتقادات شديدة من أطراف عديدة، انعكست فى محاضرته الرابعة والأخيرة التى ألقاها فى جامعة ليسستر (١٢ مايو ٢٠٠٤)، وعلى هذه المحاضرة بالذات أسجل ملاحظاتى التالية:

ترد فى صدر هذه المحاضرة الرابعة عبارة غريبة يقول فيها: «قررت فى الخريف الماضى أن أقدم أربع محاضرات فى مختلف جوانب موضوع «الإسلام والغرب». والسبب كما يقرره: «أن أعمق فهمى للإسلام». وغرابة هذا الكلام أن الإنسان لا يحاضر لكى يعمق فهمه الشخصى وإنما لكى يفهم الآخرين ويعلمهم!، وهناك ملاحظة أخرى هامشية إذ يبدو أن لورد كارى تنبه أو نُبّه إلى أن عبارة «الإسلام والغرب» تنبو عن القسمة المنطقية الصحيحة التى تستلزم أساسًا واحدًا مشتركًا، فنحن نفهم أن تكون المقارنة بين الإسلام وأى دين آخر، كما نفهم أن يكون الحديث عن شرق وغرب إذا كان الأساس هو المنطقة الجغرافية مثلاً، ولأن لورد كارى تنبه متأخرًا إلى خطئه قال فى تبرير ذلك كلامًا غامضًا ولا أقول فارغًا من المعنى!

أنتقل إلى بعض ملاحظات أكثر أهمية حول محاضرته الرابعة:

١ . رغم الانتقادات الشديدة والعديدة لمحاضرته الثالثة جاءت محاضرته الرابعة تحمل نفس الأفكار والتوجهات السابقة دون تعديل جوهرى. فيما عدا أنه أسقط الفقرات التى تحدث فيها عن ضرورة تطوير فكر نقدى للشريعة الإسلامية، ودعوته علماء المسلمين أن يتعلموا من علماء اللاهوت المسيحيين واليهود!.. وهو كلام ينم عن عدم معرفة بالعلوم الشرعية خصوصًا أصول الفقه وعلم الحديث، والكلام فى هذا يطول.

٢ . أسقط أيضًا عبارة نقدية موجهة إلى تطبيق الآية القرآنية «لا إكراه فى الدين» حيث علق قائلاً: «إنها تعبر عن نصف الحقيقة»...

٣ . لا يمل لورد كارى من الإشارة إلى «ارتباط الإسلام بالإرهاب» وكلامه عن أن غالبية المسلمين ليسوا من الإرهابيين هو . عندى . من قبيل القدح فى صورة المدح، إذ كان الأولى به أن يحدد الإرهاب فى شراذم قليلة على هامش التيار العام للمجتمعات المسلمة، ونحن فى زمن يشهد إرهاب دول تمارسه أنظمة سياسية على نطاق واسع ولا أحد يصفه بأنه إرهاب مسيحى أو يهودى.

٤ . كلامه فى المحاضرة الرابعة (الفقرة السادسة) عن العقيدة الإسلامية من أنها ليست شيئًا واحدًا وإنما فيها اختلاف وتنوع يدل على فهم غير متعمق تؤكده الأمثلة التى ساقها عن وجود مدارس أربع فى الفقه وعن وجود الشيعة والسنة وفرق أخرى.. وهو كلام يحتاج إلى مناقشة وتحقيق.

٥ . فى الفقرة التاسعة يُرجع التعصبات على كلا الجانبين إلى فترة الحروب الصليبية.. ويبرر الحروب الصليبية بأنها كانت لاستعادة أراضٍ مسيحية استولت عليها الجيوش الإسلامية من قرون سابقة ولكى تفتح أوروبا طريق الحج إلى الأراضى المقدسة، وكأن طريق الحج كان مغلقًا بفعل المسلمين، المهم أنه يسلم بهذه المزاعم على أنها حقائق تاريخية فى حين أنها لا تثبت أمام البحث التاريخى النزيه، ولو أنه تعمق قليلاً فى البحث لوجد أن الفتوحات الإسلامية كانت عملية تحرير حقيقية للشعوب المقهورة وليست تحريرًا زائفًا كما يحدث الآن فى العراق وأفغانستان.

٦ . الإضافة الوحيدة فى محاضرة لورد كارى الرابعة هى الإشارة إلى قضية الفضائح والتعذيب الذى يمارسه الجنود الأمريكيون فى سجن أبو غريب بالعراق، وفيما عدا هذا تبقى المحاور الأساسية فى فكر لورد كارى واحدة وثابتة فى محاضراته وعلى رأسها: كف العمليات الاستشهادية أو كما يصفها «الانتحارية» ضد إسرائيل.. وضرورة إدانتها من قبل القيادات الدينية المسلمة إدانة صريحة واضحة قوية ومستمرة. وأن تفتح البلاد المسلمة وعلى الأخص «السعودية» أبوابها للنشاط التبشيرى وتسمح ببناء الكنائس الأجنبية وألا يتعرض أى مسلم يعتنق المسيحية للاضطهاد.

عجبت . فى مسألة حوار الأديان . لحماس لورد كارى له، فهو الرجل نفسه الذى رفض رفضًا قاطعًا إدانة الإرهاب الوحشى والتطهير العرقى والمجازر التى ارتكبها الصرب ضد المسلمين فى البوسنة متوافقًا فى ذلك مع سياسة حكومة جون ميجور العنصرية المتحيزة، كما عجبت بنفس القدر لمن يذهبون من عندنا إلى الحوار وهم يجهلون خلفيات محاوريهم الثقافية وتعصباتهم، ولا يدركون حقيقة القوى التى تقف وراءهم وتساندهم، ولم أعجب أن تأتى نتيجة مثل هذا الحوار غير المتكافئ بالارتباك والإذعان المهين! ■

محمد يوسف عدس

للاطلاع على النص الكامل للمحاضرة الرابعة:
http://ebulletin.le.ac.uk/news/press-releases/2000-2009/2004/nparticle-gyw-zx7-fxc

سياسى لا ثقافى

ما بيننا وبينهم

طارق البشرى

[١]

الصراع القائم معنا الآن هو صراع سياسى، ولا يختلف أحد فيما أظن، فى أنه صراع متولد عن استعمار استيطانى فى فلسطين، وعن سيطرة عسكرية واقتصادية وسياسية فى الخليج العربى، وعن احتلال عسكرى لأفغانستان، وعن غزو للعراق الآن احتلال له، وعن سيطرة سياسية على الكثير من بلادنا العربية وغيرها، يتمثل فى استتباع أجهزة الحكم ورجاله لقوى الهيمنة الدولية، وللولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد.. وإذا لم يكن كل ذلك «سياسة» فماذا تكون السياسة؟

ولكن أجهزة الفكر والإعلام السياسى الأمريكية . على وجه الخصوص . تصوغ الأمر على أساس أن الصراع الدائر هو فى مجال الثقافة، وهو صراع ثقافى، هكذا أعلنها هنتنجتون وغيره، وهكذا يجرى وصفه وتصويره الآن. والسبب فى ظنى يرد من أنه إذا وصفت طبيعة الصراع باعتباره صراعاً سياسياً، فإنه يظهر مباشرة من فيه المعتدى ومن فيه المعتدى عليه. لأن المكافحة بشأنه تدور على الأرض العربية وأراضى شعوب المسلمين وليس فى غيرها، وهى تدور بين العرب والمسلمين فى بلادهم وبين الأمريكيين ومن تحالف معهم من دول الغرب. ولأن حجم الضحايا من العرب والمسلمين فى بلادهم أضعاف حجم الضحايا من جيوش الغزو والاحتلال، ولأن موطن الثروات الطبيعية المطموع فيها هى أرض العرب والمسلمين، ولأن الحل الوحيد الحاسم لهذا الصراع هو أن يعود الغريب الأجنبى إلى بلده وأن ترتفع الأيدى عن أرض الغير وشعوبها.

إنما إذا وصفت المسألة وصفاً ثقافياً، ووصف الصراع بأنه صراع فكرى أو ثقافى أو حضارى، فإن ذلك معناه أن شعوباً وأناساً بسبب ما يدينون به من دين وما يقتنعون به من آراء وأصول فكرية، إنما يمسكون بالسلاح ويقتلون الآخرين، وأن ما يفعله الأمريكيون الآن هو ذاته ما فعله الإنجليز من قرن مضى. والعدوان المادى يحتاج إلى صياغة فكرية مواتية، والحديث عن الصراع الثقافى يخدم هذه الصياغة، يصير العدوان دفاعاً عن النفس. وفى هذا السياق علينا أن نقرأ محاضرة اللورد كيرى «المسيحية والإسلام: صدام أم لقاء»، وصحة المسألة هى «الغرب الأمريكى والعرب المسلمون: صدام أم لقاء»، فبداية الحديث من عنوانه يخفى حقيقة الصراع ويزيف طبيعته.

إن المحاضرة ليست بذات مستوى ثقافى رصين. وإذا كانت المصادر الإسلامية لمعارفه عن الإسلام هى «الدكتور طنطاوى والملك حسين والأمير الحسن والملك عبد الله...» فهى فيما يبدو لى ليست مصادر يعول عليها فى الحكم على الإسلام. ومحاضرته مليئة بالتعميمات الفجة والأحكام المتحيزة، والعبارات التى ظاهرها الحيدة ومحاولة الإنصاف وباطنها الاتهام والتشنيع. وهو يتكلم عن حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحادث مدريد دون أن يشير إلى أى من وقائع الغرب مع المسلمين على مدى مائتى سنة الأخيرة، ولا إلى ما حدث لأفغانستان والعراق وما يحدث فى فلسطين أخيراً. ويقول إن الإسلام «يبدو لك» متورطاً فى صراع مع الأديان الأخرى، ومنها اليهود فى الشرق الأوسط، ولا يشير إلى إسرائيل والصهيونية، ويتكلم عن تدمير معبد للبوذيين فى أفغانستان ولا يشير إلى هدم الهندوس لمساجد المسلمين فى الهند. ثم يتكلم عن الحملات الصليبية الأوروبية لبلاد المسلمين بحسبانها «محاولات لاستعادة الأراضى المسيحية السابقة»، أما الإسلام فهو من حاول غزو المجر وبولندا.. إلخ. ويصف مطلق المسيحيين بأنهما أناس شرفاء وخيرون ويكرهون العنف «أما هذا الوصف فيلحق «غالبية المسيحيين العظمى»، بمعنى أن ليس فى المسيحيين صنف آخر، أما المسلمون ففيهم صنف آخر، وعندما يتكلم عن فترة الاستعمار الغربى الأوروبى لبلاد المسلمين، لا يتكلم عن استعمار ولا استعباد ولا غزو ولا احتلال، ولكن يصف هذه البلاد بالتدهور «المستمر» بينما البلاد المسيحية «تتمتع بثمرات الثورة الصناعية» رغم أنه كان ضمن عساكر الاحتلال البريطانى فى الخمسينيات من القرن العشرين، ولم يدرك من حقائق الأوضاع العراقية وما يفعله جيش الاحتلال البريطانى فيه من قمع، لم يدرك إلا أن زملاءه بنظرتهم السطحية اعتبروا الإسلام دين تخلف فى مجتمع متخلف. وهو يدين الأعمال الاستشهادية فى فلسطين ويطلب من المعتدلين المسلمين أن يدينوا هذه الأعمال ويعتبر ذلك تحدياً «يواجه الإسلام» ولكنه لا يطلب ذات الطلب من معتدلين يهود بالنسبة لقتل الشيخ أحمد ياسين، ولا يعتبر ذلك تحدياً يواجه اليهودية.

والخلاصة أن المحاضرة ليست محايدة وأحكامها ليست عادلة، ووقائعها فيما ذكرت وفيما لم تذكر ليست أمينة. وهى لا تجاوز فى مستواها الثقافى كتابات الدعاية الإعلامية. وما كنت لأناقشها لولا أننى وجدتها مناسبة للحديث عن الشأن الثقافى والشأن السياسى، وعن وجوب التمييز بينهما، وعن أثر الخلط بينهما فى قلب الحقائق حول من هو المعتدى ومن هو المعتدى عليه.

[٢]

فى الستينيات من القرن العشرين، كان صدر كتاب لمفكر شاب اسمه «فرانز فانون»، وكان الكتاب بعنوان ثورة على الثورة، صدر فى ظروف انتصار الثورات الاجتماعية فى أوروبا وآسيا، وفى ظروف انتصار حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وكان الكتاب يتحدث عما اعترى الكثير من هذه الثورات من جمود وترهل وما أنتجت من ظهور طبقات حاكمة جديدة تخلت عن مثالياتها وتوجهاتها الشعبية. وكتب مقدمة الكتاب جان بول سارتر، الفيلسوف الفرنسى المعاصر الذى اشتهر وقتها بمواقفه شديدة التعاطف مع حركات تحرير شعوب العالم الثالث.

ومن أهم ما حفظته ذاكرتى من حديث سارتر فى هذه المقدمة، ملاحظته أن شعوب آسيا وأفريقيا ومفكريها، كانوا عندما يتكلمون يخاطبون الغرب والغربيين. وكان الغرب هو من يوجه إليهم حديث هؤلاء. وأن ثمة جديداً ظهر فى الستينيات من ذلك القرن، مع حركات التحرر والاستقلال، وهو أن شعوب هذه البلدان ومفكريها صاروا يتخاطبون مع بعضهم البعض، لم يعودوا يخاطبون الغرب ولا الغربيين، وصار الغرب وأهله يتسمعون أحاديث هؤلاء وهم يتحدثون معاً. هذه الملاحظة الذكية التى أبداها سارتر، احتفظت بها فى وجدانى، لأنها ذات دلالة مهمة على تحرر «الوعى والإدراك» لدى شعوبنا التى كانت محتلة ومستعمرة، والتى كان الاستعمار تغلغل لدى مثقفين من أهلها حتى ارتبط لديهم الوعى والإدراك برباط التبعية والإلحاق.

والتبعية والإلحاق هنا تفضى إلى أن ننظر إلى أمورنا لا كما هى عندنا، ولكن ننظر إليها كما

سياسى لا ثقافى

يراها الغربيون، وأن ترى أنفسنا بعيون غربية، وأن نصنف مشاكلنا بمثل ما يصنف به الغرب مشاكله، ونرتب أولوياتنا بالترتيب الذى يضعه هو، وأن نحكم على أنفسنا وأمورنا بميزانه، وأن نثير من الأمور ما يثيره، وأن نسمى أنفسنا بما يطلقه علينا من أسماء، وأن نضع الأمور بالطريقة التى يضعها هو، وأن تثير أمورنا وفق جدول الأعمال الذى يصفه لنا. فإذا قال أن مسألة المساواة بين الرجل والمرأة أهم من مسألة حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها، استجبنا له، وإذا قال أن حرية الإبداع الفنى والأدبى أهم من حرية الشعوب فى سعيها للاستقلال، نسجنا على منواله.. وهكذا.

والحاصل أن ملاحظة سارتر السابقة، لا نكاد نراها اليوم بذات ظهورها القديم، وعلى وجه الخصوص فيما أسفرت عنه الأوضاع الثقافية الظاهرة فى المنابر الرسمية والحكومية وأجهزة الإعلام المدعومة من الخارج أو من الحكومات التابعة للمصالح الاستعمارية اليوم. وصرنا نسمع النفخ فى النفير يأتى من ناحية الغرب، وبخاصة الغرب الأنجلو سكسونى، وبوجه أخص من غرب المحيط الأطلسى من الولايات المتحدة الأمريكية. ونحن نتحرك بهذا النفخ ويتراقص كثيرون على نغمات النفير. ولولا ذلك لما كان هذا الاهتمام العجيب الذى لا ينتهى بمقولات هانتنجتون عن صراع الحضارات، أو مقالات فوكوياما عن نهاية التاريخ. ولولا ذلك لما كان هذا الاهتمام الأعجب والأحدث بفكرة «الشرق الأوسط الكبير» وبفكرة «تجديد الخطاب الدينى»، و«الحداثة» و«العولمة»، وكلها موضوعات وجداول أعمال صدرها لنا الغرب، فصارت هى جدول أعمال لمفكرين ومثقفين ذاهلين عن أنفسهم ومتطلبات شعوبهم فى الاستقلال وتحرر الإرادة السياسية لدولهم التابعة وكفالة أمنهم القومى من المخاطر الخارجية وتنمية الاقتصاد بما يكفل إشباع الحاجات الأساسية للشعوب.

كم أتمنى أن يعكف بعض الدارسين على إحصاء عدد الندوات والمؤتمرات وخطب المسئولين وغيرهم وأحاديث الصحف ومناقشات الإذاعة والتليفزيون والمقالات والكتب، التى جرت كلها فى بلادنا العربية فى السنوات الأخيرة بعد أن نفخت الولايات المتحدة فى النفير من تجديد الخطاب الدينى وعن صراع الحضارات وعن التعامل مع الآخر. استهلكت طاقاتنا الفكرية وما أكثرها وما أحوجنا إليها لإصلاح شئوننا، استهلكت فى موضوعات لم تكن ذات أولوية فى الأهمية لدينا وكانت مفروضة علينا من الخارج.

وهل يمكن أن نعود إلى ممارسة ما لاحظه جان بول سارتر، عندما كنا يكلم بعضنا بعضاً، ونهتم بشئوننا الذاتية وفقاً للأولويات التى نراها وحسب جدول الأعمال الذى نضعه نحن لأنفسنا.

[٣]

كان أحمد لطفى السيد، المفكر المرموق فى بداية القرن العشرين، ومن أطلق عليه أهل جيله من المحدثين المصريين وقتها «أستاذ الجيل»، كان رحمه الله أستاذ الحداثة ورائد النزعة العلمانية بين مصريى هذا الجيل، وهو من قاوم مفهوم الجماعة الإسلامية بوصفها جماعة سياسية وحبذ النظر إلى مصر فى الإطار القطرى المصرى، وسوى بين التبعية للخلافة الإسلامية العثمانية وبين التبعية للإنجليز. ومن ثم فهو لا يتهم أبداً بأنه ذو نزعة إسلامية سياسية، ولا يتهم بعصبية دينية إسلامية.

أقول ذلك قبل أن أنقل عنه عبارة كتبها فى مقال نشره فى صحيفته «الجريدة» فى ٩ أبريل ١٩٠٨ بعنوان «نحن والاستقلال»، كتب يقول «كنا نظن أن إشاعة التعصب الدينى وإيهام أوروبا أن فى مصر خطراً يجب الاستعداد له كانت من بنات أفكار اللورد كرومر يستعين بها فى الدفاع عن نفسه وتبرير أعماله أمام أعدائه وأعضاء البرلمان الإنجليزى، ولكن يظهر أن هذه مودة إنجليزية يلبسها الإنجليزى كما يلبس رداءه الواسع وحذاءيه الثقيلين، وأن تهمة التعصب يظهر أنها قاعدة سياسية يعتنقها الإنجليز ليعملوا بها فى مصر، فإنها عندهم تساوى قاعدة الباب المفتوح فى التجارة، أو قاعدة الفرار من النظريات إلى العمليات فى العلوم».

أثبت هذه العبارة لأوضح بها للقارئ أن ما يقال اليوم عن الإسلام والتعصب له وأقرانه بما يسمونه فى الغرب عنفاً أو جموداً أو تخلفاً، هو جزء من سياسات الغرب التوسعية فى بلادنا، يرد مع مبدأ الباب المفتوح فى التجارة لغزو بلادنا واستتباعها اقتصادياً، أو مبدأ حرية التجارة الآن و«الجات».. إلخ.

ولا أريد أن أستطرد بذكر ما كان فى حادث دنشواى الذى أعدم فيه الإنجليز عدداً من المصريين بغير جريرة، وبرروا ذلك بتعصب المسلمين من المصريين.

وما ينبغى أن نتنبه إليه أن التهم التى تقال علينا فى هذا الشأن إنما هى نوع من ممارسة العدوان، فإن استباحة الحدود بالعدوان المسلح يصاحبها استباحة السوق بحرية التجارة (أو الباب المفتوح أو الانفتاح)، ويصاحبها استباحة العقول بالطعن فى العقائد والقيم بغية تغييرها والإحلال محلها ولا يعقل ألا يصاحب فعل العدوان العسكرى والاقتصادى فعل عدوان فكرى، بالتشنيع على المعتدى عليهم وتصويرهم بالصور المزرية ونعتهم بالهمجية أو الجمود أو التخلف أو التعصب ولا يعقل أن يمتدح المعتدى أى شىء لدى المعتدى عليه وهو يمارس العدوان عليه. إن المتلاكمين والمتصارعين فى حلبات الضراب يتشاتمون وهم يمارسون الضرب والركل وغيرها.

أقصد بهذا الحديث أن أخطأ ما نقع فيه من خطأ، هو أن نستدرج إلى مناقشة هذه الأمور، وأن نتصور أن دفاعنا عن عقائدنا وقناعاتنا هو مما يمكن أن يقنعهم بالحق. حقنا. فيحترموه أو يسلموا به. إن هذا الاستدراج بذاته يشغلنا بأمور ليست هى ما يتعين أن تكون له الأولوية، إذا رتبنا احتياجاتنا بما يستجيب لحقيقة مشاكلنا وأوضاعنا. فهو نوع من تبديد الطاقة أو الإلهاء بالأقل أهمية، وفضلاً عن ذلك فإن الانصياع للحديث والدفاع عن الذات فيه قدر من الاعتراف بالتهمة وفيه معنى التسليم ببعض ما يثار وفيه أيضاً قبول لحاكمية الآخر والاحتكام إلى مسلماته والتوسل إلى قناعاته. مع أن الأمر كله أمر عدوان ثقافى يستر عدواناً سياسياً من ساسة ذوى أطماع وأهداف أنانية فى السيطرة والتحكم.

[٤]

وفى إطار أن يتحاور بعضنا مع بعض فى شئوننا الذاتية لنفهم وقائعنا وحقائق أوضاعنا وما نعالج به شئوننا، فأظن أننا نحتاج إلى إدراك عدد من الأمور:

أولها: أحسب أن مذهباً فكرياً أو مدرسة فكرية لا تظهر فى ظرف اجتماعى وتاريخى معين، إلا أن تكون تعبيراً عن ظاهرة حاضرة فى هذا الظرف الاجتماعى والتاريخى، قوية كانت هذه الظاهرة الحاضرة أو ضعيفة، وصائباً كان هذا التعبير أو خاطئاً. فهى تكون معبرة عن رؤية للظاهرة ووجهة نظر معينة فى تحديد ما ينشأ عنها من مشاكل، ووجهة نظر معينة فى تبين جوانب الاستجابة والحلول لهذه المشاكل.

وإن كل جماعة ثقافية وهى تتعامل مع ما جدّ فى حاضرها من مواجهات إنما تتعاطى من مخزون ثقافتها وتسحب من رصيدها الفكرى العام المتراكم عبر العصور والذى يتكون منه التشكل العقلى والنفسى لهذه الجماعة، عقائد ومواريث وخبرات تاريخية. ونحن نعرف أن حركات تحرير الشعوب المستعمرة وحركات مقاومة الغزو الأجنبى والعدوان، إنما اتخذت تعبيرات شتى مع اختلاف عقائد الشعوب وتجارب الأمم. فاتخذت حركة غاندى فى الهند تعبيراً يستمد أصوله من الهندوسية، واتخذت ذات حركة التحرير المهدية فى السودان تعبيراً مستمداً من إسلامية الشعب السودانى، وكذلك كان فكر الأفغانى والحزب الوطنى فى مصر، فلما حدث الازدواج الحضارى الثقافى فى مصر وبلاد الشام مع العشرينيات من القرن العشرين، ظهر تعبيران عن الحركات الوطنية، مثل التعبير الوفدى العلمانى فى مصر وتعبير الإخوان المسلمين فى مصر أيضاً.. وهكذا.

وفى أوروبا مثلاً، فإن بناء النموذج الديمقراطى فى فرنسا أوائل القرن التاسع عشر استدعى رصيداً تاريخياً من نظم الإغريق المسماة بالديمقراطية، وعلى خلاف ذلك فإن بناء الدولة القومية الموحدة لألمانيا وولاياتها المبعثرة فى منتصف القرن التاسع عشر استدعى رصيداً تاريخياً من نظم الإمبراطورية الرومانية القديمة. وحتى النظم الفاشية والنازية التى عرفتها أوروبا فى النصف الأول من القرن العشرين، فقد ظهرت فاشية إيطاليا فى العشرينيات من خلال بعث الأمجاد الرومانية، وظهرت

نازية ألمانيا فى الثلاثينيات من خلال الفكر الاشتراكى السائد وقتها، ويقال إنه عندما ظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية حركة شبيهة وقتها إنما تسربلت بالفكر الليبرالى الحر، وكذلك حدث مع مكارثى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الخمسينيات.

ثانياً: إن كل تيار فكرى أو سياسى إنما يحتوى على إمكانات غلو وإمكانات اعتدال. وأن الواقع المعيش أو الظرف التاريخى أو موقف جماعة معينة ورؤيتها فيما يتضمنه هذا التيار، إن أياً من ذلك هو ما يُنعش أياً من إمكانات الغلو أو الاعتدال أو يضمرها، كما أنه فى كل من الحركات السيساسية تقوم إمكانات لاستخدام العنف وإمكانات لاتباع الأساليب السلمية. وإن الغلو والاعتدال يتعلقان بالأهداف المبتغاة، وهو يقاس بتقدير مدى الفروق بين أوضاع الحاضر فى رؤية تيار سياسى محدد وبين الأهداف المطالب بها، وكلما اتسعت الفجوة بين رؤية الحاضر وبين الهدف المطلوب كان التيار أجنح للغلو، وكلما ضاقت الفجوة كان أجنح للاعتدال، كما أن العنف والسلم يتعلق بالوسائل المتخذة لبلوغ الأهداف، فحيث لا يكون ثمة مناص من استخدام العنف يتخذ العنف سبيلاً، وحيث ترى أى حركة سياسة إمكان تحقيق الأهداف بالتداخلات الاجتماعية والتخلل الاجتماعى والسياسى، تتبع وسائل ذلك. واستخدام العنف يقتضى مفاصلة ومفارقة بين حركة التعبير وبين هيئات المجتمع ومؤسساته، واستخدام الوسائل السلمية يقتضى الاندماج والاشتباك والتخلل لمؤسسات المجتمع وهيئاته. وهكذا.

وكل ذلك هو «سياسة»، وكل ذلك تقوم فيه الخيارات على أساس تقدير الواقع وفق رؤية تيارات بعينها أو حركات معينة فى الزمان والمكان المعينين. والتفكير السياسى فى كل ذلك إنما يظهر من «واقع» ويستدعى «مخزوناً ثقافياً».. ومن هنا ندرك التباين الواسع بين ما اتصف به فى مصر كل من الحزب الوطنى وحزب الوفد فى بدايات القرن العشرين، ما اتصف به كلٌ منهما بين النشاط المعتدل والسلمى أحياناً وبين النشاط المغالى والعنيف فترات ليست طويلة ولكنها موجودة، وبين سلوك أى منها طريق الدعوة السياسية السلمية وبين ظهور منظمات سرية لأى منها فى فترات ما. كما ندرك التباين فى الثلث الأخير من القرن العشرين، داخل الحركات الإسلامية المصرية بين نمط الإخوان المسلمين المعتدل والسلمى الثابث، وبين نمط الجهاديين والجماعة الإسلامية المغالى والمستخدم للعنف، وكل ذلك أساسه النزوح فى النظرة السياسية والاختلاف فى رؤية الواقع المعيش.

كما نلحظ خارج مصر، حركات وطنية اعتمدت على حروب العصابات مثل الصين وفيتنام، وحركات اعتمدت على الوسائل السلمية مثل الهند، وحركات اشتراكية اعتمدت على العنف وكانت مغالية مثل شيوعيى روسيا وحركات اشتراكية اعتمدت على السلمية مثل إيطاليا وغيرها. وكذلك الشأن بالنسبة للحركات القومية. وبالنسبة للحركات الإسلامية نفهم التباين بين حركة تحرير أفغانستان الإسلامية العنيفة ثم حركة طالبان وما انعكس فى ذلك من الواقع الجبلى القبلى للبلاد، التباين بين ذلك وبين الحركات الإسلامية فى تركيا البلد الأوروبى الآسيوى والمسلم الوارث لبيزنطة منذ عهد العثمانيين، وما تتصف به هذه الحركات من مرونة وسلمية وقدرة على الالتفاف.

ثمة تنوع هائل وتعدد فى الرؤى السياسية ووجهات النظر الاجتماعية، حسب ظروف الزمان وظروف المكان، وحسب نوعية المشاكل المطروحة ونوع الصراع الذى يقوم وأطرافه الآخرون، وحسب توجه الجماعة السياسية الاجتماعية التى تتبلور على يديها حركة معينة.

وهذا النظر المركب هو ما يتعين به أن نفهم ظواهرنا وندرك أوضاعنا، بصرف النظر عما يراه اللورد كارى.. وأن الأستاذ المحاضر عندما يسقط الوصف السياسى عن الصراع الدائر، يكون أسقط كل ما يمكن به أن يكون حديثه مجال حوار معنا. لأنه يكون أدخل نفسه فى مجال آلة الدعاية الأمريكية الإنجليزية المصاحبة لحملات العدوان العسكرى علينا، أى يكون عمله هو من أعمال العدوان الإعلامى والثقافى علينا. ■

التكافؤ لا التمايز

ملاحظات على الحوار

سمير مرقص

(١) كان الحادى عشر من سبتمبر نقطة تحول فارقة فى منظومة العلاقة الكونية بين الحضارات. الثقافات والأديان. فما كان يطرحه على المستوى النظرى صاموئيل هانتنجتون منذ العام ١٩٩٣، وعقب انتهاء الحرب الباردة، حول صدام الحضارات وضمنا الأديان كخلفية فكرية للسلوك الذى يجب أن تأخذ به القوة المنتصرة فى هذه الحرب، بات واقعاً عملياً ملموساً. بيد أن هذا لم يمنع أن يطلق الغرب الأمر ونقيضه أى «المبادرات المكثفة إلى الحوار» و«المسارعة الشرسة إلى الصدام»، حيث وجدنا حركة نشطة ودعوية للقاءات تعقد فى الجهات الأربع للنقاش حول حوار الحضارات، ومن جهة أخرى نجد آلة حربية مستنفرة تحت غطاء فكرى وأيديولوجى تصب نيرانها فى اتجاه الصدام بين الحضارات.

(٢) والمفارقة أن هذين الأمرين المتناقضين مصدرهما الغرب، ولعل السؤال الذى يفرض نفسه كيف يستقيم كل من «الحوار» و«الصدام» فى نفس الوقت، وإذا كان هذا التناقض يمكن أن يكون مقبولاً فى الإطار الغربى الداخلى، فهل يكون مقبولاً فى العلاقة مع الآخر الحضارى. الثقافى والدينى.

(٣) فى هذا السياق ينبغى التعامل مع كلمات. محاضرات رئيس أساقفة كانتربرى المتقاعد، حول العلاقة بين الإسلام والغرب من جهة والإسلام والمسيحية من جهة أخرى. ولكن قبل أن نعلق على بعض ما جاء فى هذه الكلمات. المحاضرات، ربما يكون من المفيد إلقاء الضوء على تاريخية الحوار من جانب، كذلك أهم الاتجاهات الحالية التى تحرك الحوار الدائر الآن، وأين تقع كلمات. محاضرات رئيس أساقفة كانتربرى منها.

الحوار: خلفية تاريخية

(١) كان الحوار، فى الأغلب الأعم، حواراً غير لين، سجالياً فى المجمل، يركز على الجوانب العقائدية، اللاهوتية. الفقهية، سرعان ما دخل فى طور صراعى إبان غزوات الفرنجة للمنطقة وذلك ما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر، ثم أثناء المرحلة الاستعمارية بداية من القرن التاسع عشر. ولم يظهر مفهوم الحوار بالمعنى الذى عرف بعد ذلك إلا بعد أن ظهرت الحاجة داخل المسيحية الغربية المتعددة المذاهب إلى الحوار، وفى نفس الوقت بدا أن هناك ضرورة تحت ضغط المتغيرات الدولية وتبلور مصالح عالمية. اقتصادية فى المقام الأول. إلى الانفتاح على الخارج أو الآخر غير الغربى (المسيحى والمسلم على حد سواء).

(٢) وكانت ردة الفعل المحلية تجاه دعاوى الحوار بحكمها خبرة تاريخية تعود إلى أن مبادرات الحوار بين الأديان «غربية» فى الأساس، وأنها فى البداية اتخذت أشكالاً تحمل تهديداً للعقائد (الإسلامية والمسيحية الشرقية على حد سواء)، ذلك أن الذاكرة التاريخية (الإسلامية والمسيحية الشرقية) كانت تحمل حقيقة مفادها أن الوفود الغربى جاء بداية بتمهيد ثقافى من خلال الإرساليات التبشيرية التى هدفت إلى تنفيذ عملية «تحويل» Conversion دينى للمسلمين، واقتناص Prosylitism للمسيحيين الشرقيين، وظلت هذه الخبرة نافذة فى الفكر والوجدان الشرقيين، وربما إلى الآن مع تجدد الموجات التبشيرية مرة أخرى.

(٣) ومع مرور الوقت، ومن خلال المبادرات التى تبنتها مؤسسات دولية بدأ قبول دعاوى الحوار وإن بدرجات متفاوتة، وخاصة أن بعض هذه الدعاوى جاء ليخدم مصالح الغرب الصاعد وفى إطار الهيمنة الغربية، وفى هذا الصدد يقول الجابرى: «إن العقل الأوروبى لا يتعرف على (الأنا) إلا عبر (الآخر)، والإثبات لا يقوم إلا عبر النفى،...»؛ ويضرب أمثلة على ذلك مثل: ثنائية الشرق والغرب، وحلول الآخر الشيوعى محل الشرق. أى أن

التكافؤ.. لا التمايز

الغرب يتعرف على نفسه من خلال نقيضه، الذى تارة يكون الشرق، وتارة يكون الشيوعية أو الخطر الأحمر، ثم بات الآخر. بعد الحرب الباردة. متمثلاً فى الخطر الأخضر أو الإسلام، أو بحسب هانتنجتون الحدود الدموية.

(٤) ومع عمليات التجديد الداخلى التى مارستها المؤسسات المسيحية الغربية، شقت فكرة الحوار طريقها وحاولت هذه المؤسسات أن تضع قواعد جديدة، تتجاوز القواعد التاريخية من ذلك الأخذ «بالتكافؤ الحوارى» وليس «التمايز»، والتأكيد على التعددية التى تندرج فى مقاصد الله البشرية. ومثلت هذه الجهود نقلة كيفية فى مسيرة الحوار وفتحت باباً للتواصل بالرغم مما حدث عقب الحرب الباردة والترويج لـ «الخطر الأخضر». ويلخص لنا رضوان السيد مسيرة الحوار، بقوله: إن بدايات الحوار جاءت من ضمن استراتيجية غربية.. كان النقاش من جانب المسلمين نقاشاً عقائدياً لا يجوز التنازل فيه، ومن جانب المسيحيين الغربيين باعتباره تواصلاً مفيداً فى نطاق السيطرة العالمية للغرب حيث جذب المسلمين فى مواجهة الشيوعية.. حتى إذا أطلت الثمانينيات سيطرت موضوعات حقوق الإنسان والديمقراطية على النقاش مع غلبة الطابع الرسمى المؤسسى، ثم اتسعت بيئات الحوار لتشمل أناساً مهتمين».

(٥) لقد وصل الحوار فى لحظة تاريخية معينة. منتصف التسعينيات. إلى مقام تجاوز بداياته الأولى التى كانت محل ريبة، ومراحله الوسيطة التى كانت ذات طابع مؤسسى رسمى وظف بعضها فى الصراع الأيديولوجى الكونى، حيث أصبحت أطراف الحوار ذات طابع مدنى قاعدى يتجاوز الدينى إلى الثقافى غير مستبعد للدين بل مستلهماً قيمه، وأصبحت مناطق الحوار حول ما هو نسبى مشترك بين البشر وليس حول مطلق كل طرف، وأصبح اللقاء من أجل الحوار وليس السجال.

(٦) بيد أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر قد أعادت مرة أخرى إلى الوجود. كما قدمنا. البدايات الأولى للحوار، وجعلت من مقولات هانتنجتون أساساً فكرياً كما سنرى فى قراءتنا لكلمات. محاضرات رئيس أساقفة كانتربرى المتقاعد لاحقاً. فلقد أظهرت هذه الأحداث أن العنوان الرئيسى لمضمون التوجهات والممارسات الكونية أصبح «الغرب والإسلام» تارة و«المسيحية والإسلام» تارة أخرى، وهو ما تجلى فى ردة فعل الإدارة الأمريكية. تصريحاً وتلميحاً وفعلاً. من جهة وانتفاضة كثير من المؤسسات الأوروبية الرسمية وشبه الرسمية من أجل الحوار، ولكن بشروط تعيده إلى مراحل سابقة حيث «التمايز» وليس «التكافؤ» جوهرها. وبالرغم من أن التحرك الغربى بشكل عام والأمريكى بشكل خاص كان يحمل أهدافاً اقتصادية وسياسية، إلا أن الخطاب الذى ساد قد ركز على الحضارى . الثقافى والدينى، وهو ما لا نميل إلى الأخذ به حيث يتم اختزال الأمر فى العلاقة ذات الطبيعة الدينية أو الحضارية . الثقافية. صداماً كانت أو حواراً. وإنما إلى إدراك الأسباب الحقيقية وراء الإصرار على جعل العلاقة ذات طبيعة دينية وحضارية . ثقافية والخلط بين مفاهيم الثقافة والحضارة والدين من دون تمييز، وعدم تحرى أسباب وجذور الظواهر وإحالة التفسير إلى مقولات جاهزة يتم استدعاؤها من التاريخ، والأمر لدينا يبدو وكأنه مقصود «لتغطية المصالح» الحقيقية.

ثلاث رؤى غربية حاكمة
للحوار بعد ٩/١١

من الأهمية بمكان ضرورة التمييز بين ثلاث رؤى تحكم الفكر الغربى الحالى فيما يتعلق بقضية الحوار.

هذه الرؤى هى كما يلى:

(١) الرؤية الاستشراقية/ المناطقية (القديمة/ الجديدة).

(٢) الرؤية الاستشراقية المعدلة.

(٣) الرؤية المدنية/ القاعدية.

(١) الرؤية الاستشراقية/ المناطقية (القديمة/ الجديدة):

يمكن القول إن هذه الرؤية تتأسس على أن هناك صراعاً تاريخياً بين عالم الغرب وعالم الإسلام، والضارب بجذوره إلى أكثر من ألف سنة، بحسب فريد هاليداى، بدءاً من فتح إسبانيا فى القرن السابع مروراً بالحروب الصليبية (والمعروفة بالفرنجة) ثم النزاعات العثمانية الأوروبية والصراعات العرقية فى عالم ما بعد الحرب الباردة فى القارة الأوروبية. ويحدد أنور عبد الملك أكثر هذا الأمر حيث يربط بين بداية الاستشراق وبداية الفتوحات الغربية، ويبدو أن الاستشراق يستعاد، وما مع لحظات التوسع الغربى الاقتصادى المباشر وهو أمر متكرر منذ القرن الخامس عشر وانتقال مركز الثقل الكونى إلى الغرب وتأسيس ما يعرف بالمركزية الغربية، وتقوم الفكرة الاستشراقية أو المناطقية بالتعبير الحديث Area Studies على قاعدتين هما:

(أ) التباين المطلق بين الشرق والغرب. الإسلام والغرب.

(ب) الجالية التاريخية بين الشرق والغرب. الإسلام والغرب.

لذا فليس من المستغرب أن تكون أعمال هانتنجتون مصدراً أساسياً لاستعادة الاستشراق الجديد بالإضافة إلى كتابات برنارد لويس ثقافات فى صراع Cultures In Conflicts قبل الحادى عشر من سبتمبر ثم كتابيه: What Went Wrong? ËThe Crisis of Islam.

وذلك بعد الحادى عشر من سبتمبر بالإضافة إلى كم غير قليل من الكتابات تحمل مضمون المدرسة الاستشراقية القديمة. الجديدة. حيث:

* التركيز على العوامل الثقافية وحدها، دون غيرها باعتبارها مسئولة عن الواقع السياسى والاقتصادى.
* التأكيد على ثنائية «نحن» و«هم».
* إحالة أسباب تخلف الشرق/ الإسلام إلى العوامل الجغرافية والعرقية.
* التأكيد على مقولة «الغرب والآخرون» The West And the Rest.

(٢) الرؤية الاستشراقية المعدلة:

وهى مدرسة تدعو للحوار بين الثقافات والحضارات والأديان انطلاقاً من أن الصدام الحضارى ليس صداماً حول السيد المسيح، أو محمد (ص)، أو كونفوشيوس بقدر ما هو صراع سببه التوزيع غير العادل للقوة والثروة والنفوذ، والازدراء التاريخى الذى تنظر به الدولة والشعوب الكبرى إلى الصغرى. وفى نفس الوقت يعيد أبناء هذه الرؤية النظر إلى الثقافة باعتبارها وسيلة للتعبير عن المنازعات وليست سبباً فيها. بيد أنه بالرغم من محاولة التمايز عن الرؤية الاستشراقية ببعديها القديم والجديد، إلا أن هاجس وجود عدو وضرورة تحديد هويته يبقى أمراً مشتركاً بين الرؤيتين. وتضع هذه المدرسة مبادئ مرجعية للقياس عليها وتخلص إلى أن من يقف ضد هذه المبادئ سيصبح عدواً بالضرورة ويمكن إيجاز هذه المبادئ فيما يلى:

(أ) الرأسمالية والسوق الحرة.

(ب) حقوق الإنسان والديمقراطية الليبرالية العلمانية.

ولا يتردد أصحاب هذا الاتجاه فى توجيه بعض الانتقادات للنظام الغربى كما يقبلون بعض الانتقادات التى يوجهها «الآخرون» من العالم الثالث. الشرق للممارسات الغربية، وهو ما يعنى وجود مساحة حوارية بين الغرب والآخرين، ولا يمانع أيضاً أنصار هذه الرؤية من الأخذ بمفردات ومفاهيم بعض الاتجاهات النظرية لمدرسة التبعية من نوعية المركز والأطراف، أو مفاهيم الشمال والجنوب.. إلخ.

وتحاول هذه المدرسة تفهم الأوضاع الاقتصادية التى ربما من أسبابها الغرب نفسه، وإلى تفهم إشكاليات عمليات التحديث. بيد أن أنصار الرؤية المعدلة يقاومون بكل قوة الاستقلال التام عن الغرب بل وضع ذلك وضرورة اتباع النموذج الغربى الذى أثبت نجاحه وعليه تطرح هذه الرؤية مهام على الغرب أن يؤديها وذلك كما يلى:

(أ) مراجعة القيم والمفاهيم الغربية لتواكب المتغيرات.

(ب) ترك العالم الثالث يسلك طريقه نحو التحديث، كل حسب الطريقة التى يختارها، والتفاعل بصورة إيجابية مع الدول التى تحقق تقدماً اقتصادياً فى الإطار الغربى.

(ج) مساعدة الدول التى لا تستطيع تحقيق التقدم بحسب النموذج الغربى حتى لا تقوم مواجهة بين الغرب والآخرين.

إن أنصار هذه الرؤية ينتجون قدراً من الحركة والحرية للآخرين ولكنهم يؤكدون على مرجعية النموذج الغربى فى النهاية (من رموز هذه المدرسة جون إسبوزيتو وجراهام فولر..).

(٣) الرؤية المدنية. القاعدية:

هناك فى داخل المنظومة الغربية من هم متحررون من التراث الكولونيالى، ويجاوزون فكرة الحضارة. الكتلة والتى تعنى تماثل العناصر المكونة لها فى مواجهة حضارة. كتلة أخرى. وهؤلاء الذين كان لهم فضل تطوير المسيرة الحوارية وشدها إلى مناطق بعيدة عن المصالح السياسية كذلك الجوانب السجالية، كما أعطتها بعداً مدنياً . قاعدياً وليس رسمياً . قمياً، ويدخل فى هذا الإطار حركات مناهضة العولمة وحركات العولمة من أسفل وتتجاوز عن التنميط الحضارى السابق التجهيز. فهناك ولاشك من يمكن أن يتعاطف مع قضيتى فى الغرب بقدر احتمال أن يكون هناك من يتجنب من بنى حضارتى ودينى لرؤية الغرب وممارساته.

وبعد فى ضوء ما سبق أين تقع كلمات. محاضرات رئيس أساقفة كانتربرى المتقاعد؟ وما هى أهم الملاحظات التى يمكن رصدها على خطابه الفكرى؟

ملاحظات منهجية
على محاضرتين

يمكن القول إن خطاب «لورد كارى» ينتمى إلى المدرسة «الاستشراقية المعدلة»، حيث يحاول فى محاضرتيه (نعتمد على محاضرة ألقيت فى ٢٠٠٤/٣/٢٥ بعنوان: المسيحية والإسلام: صدام أم لقاء؟ وأخرى ألقيت فى ٢٠٠٤/٥/١٢ بعنوان: الإسلام والغرب) أن يتفهم الإسلام وحالة المسلمين ولكن بأسس

ومعايير غربية.. كيف؟ سوف تحمل الإجابة عن هذا السؤال الملاحظات التالية:

ملاحظة أولى: الإسلام ليس شأناً واحداً بسيطاً:

لعل أول ما نطالعه عند قراءة النصين هو التعامل مع الإسلام كأنه «شأن واحد بسيط» ولكنه فى الحقيقة وبحسب إدوارد سعيد فى كتابه القيم تغطية الإسلام. «وهم فى بعضه أو تعميم أيديولوجى فى بعضه، وهو تحديد بسيط جداً للإسلام فى بعضه الآخر وذلك كما هو مستخدم اليوم فى الغرب». ويضيف سعيد عبارة مهمة متصفة أنه «لا تقوم أى مقابلة مباشرة على أى درجة من الأهمية الحقة، بين الإسلام بسكانه وحدوده الشاسعة وبالعشرات من مجتمعاته ودوله وتواريخه وجغرافيته وثقافاته». إن الإسلام كعقيدة من جانب والمسلمين الذين ينتمون إليه من جانب آخر أكثر تعقيداً من اختزالهم فى رؤية واحدة قد تكون مستعادة عن التاريخ. فالجامع الدينى الموحد للمسلمين لا ينفى التنوع الداخلى الذى يحمل مركبات ثقافية وحضارية وتاريخية متعددة.

ملاحظة ثانية: التمييز الوجودى والمعرفى معوق للحوار

القارئ للمنهج الاستشراقى الكلاسيكى فى تناول القضايا يجد أنه أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودى ومعرفى بين الغرب والشرق وبين الغرب والإسلام؛ فمن الناحية التاريخية نجد جمهوراً كبيراً جداً من الكتاب وبينهم شعراء، وروائيون، وفلاسفة، ومنظرون سياسيون، واقتصاديون، ورجال دين..، وقد تقبل هذا التمييز بوصفه نقطة انطلاق لسلسلة محكمة الصياغة من النظريات، والملاحم، والروايات، والأوصاف الاجتماعية، والمسارد السياسية التى تتعلق بالشرق/ الإسلام وسكانه، وعاداته وعقله، وقدره ما إلى ذلك. وهذا التمييز نجده فى ثنايا النصين اللذين نحن بصددهما بداية من صياغة العناوين وما جاء فى المحتوى.

ملاحظة ثالثة: هل الحضارات أو الأديان تتصارع أم الناس؟

إن المقاربات الموضوعية التى تناولت العلاقة بين الحضارات والأديان، تشير إلى أن الحضارات والأديان لا تتصارع أو تتحاور، بل «الناس» هم الذين يتصارعون ويتحاورون لأسباب تتعلق بالمصالح فى المقام الأول. وأن مواقفهم لا تنبع من معطياتهم الحضارية والدينية بقدر ما تنبع من مواقعهم فى البناء الاجتماعى القومى أو العابر للقوميات. فالحضارات والأديان ليست «كتلاً» تعمل كل منها وكأنها آلية منتظمة فى ذاتها، صماء فى طبيعتها. وتأتى أهمية ما سبق لدحض فكرة أن التوسع فى جوهره يقوم على أساس دينى وهو ما جاء فى النص ودلل على ذلك بالحروب الصليبية، من دون الأخذ فى الاعتبار الأسباب الاقتصادية والسياسية لأى توسع والذى قد يتستر وراء الدين أو يوظفه. ولا يفسر لنا لماذا انحازت المسيحية الشرقية إلى الإسلام فى موقفها من هذه الحملات بالرغم من التوافق الدينى الذى كان يفترض عكس ذلك. التأسيس الفكرى على الطبيعة الدينية للصراع أمر غاية فى الخطورة. حتى التدليل التاريخى على التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود يحيله ضمناً إلى البعد القيمى من دون النظر إلى أن التعايش ربما يكون قد فرضته المعاناة المشتركة بين جماهير المسلمين والمسيحيين واليهود أو التحدى الخارجى، معاناة من قبل حاكم ظالم أو تحديات وافدة استعمارية وتبشيرية مثلاً.

ملاحظة رابعة: استبعاد السياق التاريخى

جاء فى سياق النص الأول مقولتان، الأولى حول التزامن بين تدهور البلاد المسلمة وتمتع البلاد المسيحية بثمرات الثورة الصناعية بداية من القرن الثامن عشر. ها هو مرة أخرى. ربما من دون أن يدرى. يقسم العالم إلى معسكرين إسلامى ومسيحى من جهة وفى نفس الوقت لا يفسر لنا كيف نهضت أوروبا.. هل بفضل عوامل داخلية تخص أوروبا فقط، أم بفضل الموجات الكشفية التى نزحت ثروات لا حصر لها. نقول ذلك ونحن نعى مدى الوهن الداخلى الذى طال الدولة العثمانية آنذاك لاعتبارات تخص البنية الداخلية لهذه الدولة.

أما المقولة الثانية فهى حرصه على عدم نسيان أن الحضارة الأوروبية والأمريكية هى مستودع العدل والقيم الليبرالية، والديمقراطية.. والخروج باستنتاج عدم الاستسلام لدعاوى تفوق البلاد الإسلامية أخلاقياً وروحياً.. مرة أخرى لا نفهم كيف وصلت أوروبا وأمريكا لما هما عليه الآن وهل كان ذلك لاعتبارات عرقية أو جنسية مثلاً أو دينية. وهل وصلت إلى ذلك بقرار سيادى أم بحركة على أرض الواقع وهو ما ينبغى إدراكه عند الحديث عن ضرورة الأخذ بالديمقراطية فى واقعنا حيث يقترب لورد كيرى من الأخذ بالمنطق السياسى الذى يتم الترويج له من خلال الوثائق الخاصة بالإصلاح الأمريكية والأوروبية حتى أنه أخذ بالتقسيم الوارد فى هذه الوثائق ألا وهو الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وجدير بالذكر أن مفهوم الشرق الأوسط هو مفهوم سياسى وليس جغرافياً، يتم استخدامه باعتباره منظومة سياسية مفتوحة تضم دولاً قابلة للحذف وقابلة لاستيعاب دول داخلها وهكذا قمنا بتأجيل هذا الأمر فى كتابنا: الحماية والعقاب.. الغرب والمسألة الدينية فى الشرق الأوسط.

بالعودة إلى الديمقراطية فإنه يضعها كأنها «قرار يتخذ» وليست وليدة حركة المواطنين، وأنها «منحة» تستكمل بالاستقرار الاقتصادى والتعليم وحقوق الإنسان لأنه بغير ذلك تحدث الثورة وإثارة حفيظة المسلمين تجاه ثروة ووفرة الغرب. إنه منطق الديمقراطية النموذجى Model ؛ المحددة ملامحها سلفاً وهو منهج يتفق مع ما يطرحه الأمريكيون ولعل ما جاء فى كتاب فريد زكريا مستقبل الحرية أو ما أسماه بالديمقراطية الليبرالية المرتبطة بالسوق الحرة والمقيدة سياسياً، وفى كل الأحوال يبدو الأمر وكأنه ضرورة لحماية الغرب بالأساس وليس حقاً طبيعياً لشعوبنا.

ملاحظة خامسة: أين موقع المسيحية الشرقية فى طرح لورد كارى؟ مسيحيو الشرق ليسوا أهل ذمة أو أقلية.

يثنى لورد كارى على هانتنجتون بالرغم من تحفظ البعض على مقولاته ويجعلها منطلقاً لحديثه فهو يقبلها ضمناً من دون نقد وأن أحداث ١١ سبتمبر قد عززتها وهو ما يستقيم مع ما قدمنا له. بيد أن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن النصين أهملا أن هانتنجتون قد وضع المسيحية الأرثوذكسية (الشرقية) فى نفس الخندق مع الإسلام ويقول ما نصه:

«أخذت خطوط الانقسام بين الحضارات تحل محل الحدود السياسية والأيديولوجية للحرب الباردة باعتبارها نقاطاً تفجر الأزمات والمذابح. فقد بدأت الحرب الباردة عندما قسم الستار الحديدى أوروبا سياسياً وأيديولوجياً. وانتهت الحرب الباردة مع انتهاء هذا الستار. ومع اختفاء الانقسام الأيديولوجى لأوروبا، فإن الانقسام الثقافى لأوروبا بين المسيحية الغربية من ناحية، والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام، من ناحية أخرى، قد عاود الظهور».

ويلاحظ أنه فى النص الإنجليزى يميز بين المسيحية الغربية وبين الأرثوذكسية بشكل واضح، حيث لم تتضمن الترجمة العربية للكتاب هذه الأسطر، حيث قال هانتنجتون نصاً: «Several Scholars distinguish a separate orthodox Civilization centered in Russia and Separate from western Christendom»

«العديد من الباحثين يميزون حضارة أرثوذكسية منفصلة، مركزها روسيا، عن العالم المسيحى».

وهنا العالم المسيحى هو العالم الغربى، بالنسبة له، فالغرب يعنى العالم المسيحى الغربى، ويضيف أن الحضارة الغربية هى حضارة أوروبية تاريخية، وفى الوقت الحالى هى حضارة أوروبية أمريكية أو شمال أطلنطية، وهو ما يأخذ به لورد كيرى فى نصيه. إذن فإن المسيحية الشرقية مستبعدة من ذهن لورد كيرى وفى نفس الوقت وبالرغم من رجوعه إلى هانتنجتون لم يشر إلى تقسيمه الذى يضعها مع الإسلام. يضاف إلى ما سبق هو تركيزه فى نصيه على قبول المسيحيين أن يعيشوا كأهل ذمة (النص الأول) ونظرته إليهم إجمالاً كأقليات (النص الثانى)، وهو ما يحتاج إلى مراجعة حقيقية حيث إن. على الأقل فى الحالة المصرية. كانت العلاقة بين المسلمين والأقباط خاضعة للحركة المجتمعية حيث النهوض كان يعنى التماسك والاندماج وتراجع الدولة كان يعنى حدوث التوتر، كما أن المعاناة المشتركة والحركة الوطنية فى مواجهة الوافد حاكماً ومستعمراً ومبشراً قد ساهمت فى تجاوز مفهوم الذمة ما جعل كثيراً من الفقهاء المحدثين يقولون بأن عقد الذمة ليس مؤبداً وأن الحركة الوطنية الجامعة قد أنهت وضع الذمة. وربما يكون من المفيد عند تناول هذا الأمر أخذ كل حالة على حدة بغير تعميم كذلك الحرص فى عدم تقسيم المجتمعات على أساس دينى بين أغلبية تدين بدين وأقلية تدين بدين آخر.

ملاحظة سادسة: منهج «التقابل»:

النصان يحكمهما إلى حد كبير منهج «التقابل»، حيث الثنائيات تسود على مدى النصين، وهو منهج استشراقى بامتياز حيث يمكن رصد سمات أربع أساسية لهذا المنهج وذلك كما يلى:

(١) رسم صورة تبدو دقيقة للواقع زاخرة بالتفاصيل وعامرة بالمعلومات.

(٢) بناء بنية من التقابلات بين الشرق/ الغرب، الإسلام/ المسيحية، الإسلام/ الغرب، فى ضوء التفاصيل والمعلومات التى تنتقى بعناية وربما تكون فى غير سياق ولكنها تبرر الأفكار الأساسية المطلوب تبريرها.

(٣) تمرير مجموعة من الأفكار المعدة سلفاً والتى تصب فى توجهات أو استراتيجيات محددة.

(٤) الخروج بعدد من الصيغ العلمية المكتوبة برصانة وحسم.

لذا فليس من الغريب أن يعود إلى برنارد لويس مطولاً فى النص الثانى خاصة فى قضايا حساسة، وهو ما نقده إدوارد سعيد يوماً ورصد المنهجية الاستشراقية خاصة فى استخدامها لمنهج التقابل، وقال: «إن جهد لويس هو جزء من البيئة السياسية أكثر من البيئة الفكرية الصرفة». ويدلل على ذلك بالمثال التالى: «خذ كمثال نموذجى التناظر الذى يقيمه بين نقدى للاستشراق وبين هجوم مفترض على دراسات العصور الكلاسيكية القديمة، وهو الأمر الذى يعتبره ممارسة

التكافؤ.. لا التمايز

حمقاء. الشق الأخير سيكون صحيحًا بطبيعة الحال، لولا أن الاستشراق والهيللينية لا يقبلان. وعلى نحو جذرى. أية مقارنة. فالأول محاولة لوصف منطقة بأسرها من العالم كملحق ملازم للفتح الاستعمارى لتلك المنطقة، أما الثانية فلا تدور إطلاقًا حول الفتح الاستعمارى المباشر لليونان فى القرنين التاسع والعشرين. أضف إلى ذلك أن الاستشراق يعبر عن كره غريزى للإسلام، والهيللينية تعبر عن التعاطف مع اليونان».

أتصور ان ما قدمه إدوارد سعيد من جهد أكاديمى فى هذا المقام جدير بأن يستعاد فى سياق تعاملنا مع نص لورد كارى خاصة أنه فى تقديرنا يستخدم ذات المنهج ولعل استشهاداته بنوعية معينة من الأكاديميين تؤكد ذلك.

ملاحظة سابعة: غلبة الرؤية المؤسسية:

أتصور ان الخبرة الحوارية التى لدى لورد كارى هى خبرة مؤسسية وضعت من الخبرات التى سردها والأسماء التى ذكرها وهذه النوعية من الخبرة تفرض رؤى وتوجهات معينة، حيث يؤكد تاريخ الخبرة الحوارية أن كلما اتجه الحوار بعيدًا عن المؤسسية وعن القمية أو ما أسميته «بالمدنية. القاعدية» تحرر من الحسابات والتوازنات الضيقة أثمر وانجز. ودائمًا كانت الحوارات ذات الطابع المؤسسى محل قلق كما أسلفنا فى المقدمة، ويمكن هنا الإحالة إلى مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل المعنون «الفرانكوفونية» حيث إشارته المهمة حول بدايات الحوار والسياقات التى تحرك فيها.

ملاحظة ثامنة: المقاومة كيف لا تكون مشروعة؟

كرر اللورد كارى فى نصيه موقفه من المقاومة الفلسطينية حيث صنفها إجمالاً بأنها إرهابية وهو أمر لا يستقيم مع مواقف كثير من رجال الدين المسيحى فى الشرق والغرب الذين يدركون مدى بشاعة الاحتلال ويعطون مشروعية للمقاومة، ولعل ما يتعرض له رجال الدين المسيحى فى القدس حتى الذين يمثلون كنائس غربية من عنت يكون كفيلاً بتغيير ما جاء فى هذين النصين. فالوضع على أرض الواقع جد خطير ولابد من تفهمه وعدم الحكم بمعايير وجدانية برفض العنف أو المساواة بين الغاصب والمغتصب.

نحو حوار متحرر من السياسة:

موضوعى وممتن من البشر

(١) وفى النهاية وبعد أن حاولنا أن نقدم خلفية تاريخية لمسيرة الحوار وللرؤى الغربية الحاكمة له بعد ٩/١١ ثم رصدنا عددًا من الملاحظات حول محاضرتى رئيس الأساقفة المتقاعد جورج كارى، فإننا ندعو لحوار حقيقى يتجاوز آثار ٩/١١ مدنى. قاعدى حول قضايا الناس بدون الوقوع فى فخ الحوار ذى الطابع السجالى أو التقابلى خاصة إذا ما ارتبط بالمطلق حيث يؤدى هذا إلى أن ينتهى الحوار لحظة بدايته ويمتنع التواصل الذى يهدف إلى البناء المشترك ولعل من المفيد تذكر ما طرحه يومًا أستاذنا وليم سليمان قلادة حول قواعد الحوار هو ضرورة فهم الآخر كما يريد أن يكون مفهومًا، هذه قاعدة أولى، والثانية أن الحوار دعوة لأن يزداد الشخص تفهمًا لدينه كى يستطيع عرضه للآخر بأسلوب مقنع. أما القاعدة الثالثة أن التميز لا يظهر فى الجدال العقائدى أو فى من هو أفضل بل فى العمل لصالح الإنسان. وأخيرًا الحوار الناجح هو الذى يؤدى إلى اتخاذ الأطراف المتحاورة موقفًا عمليًا مشتركًا يضاف إلى ما سبق أن السياق التاريخى والأخذ بالأسباب من شأنه أن يلقى الضوء على الحاضر وأن ما نراه الآن ليس قدرًا أو نتاجًا فجائيًا بل هو نتاج لمسيرة تاريخية تفاعلت وتداخلت فيها كثير من الظروف والأطراف كما أن تغييرًا لا يمكن فرضه أو قسره أو هندسته بشكل ميكانيكى وبمنطلق «الاستزراع» بل ينبغى أن يكون وليد الواقع وثمرة جهد الناس، وهذه هى الخبرة الغربية.

(٢) إن التقدم والنهوض لا يمكن فرضهما بالمنطق الاستشراقى القديم. الجديد، أو المعدل، حيث إنه تاريخيًا تم إجهاض كل منهما بالتوسع الذى تم منذ القرن السادس عشر بحسب بيتر جران ووالر شتاين وآخرين. إن الانتصار الغربى فى الحرب الباردة، والنزوع الإمبراطورى الأمريكى قد دعم فكرة الأخذ بالنموذج المنتصر وإن ثم ذلك قسرًا، وهو أمر يحمل تناقضًا ذاتيًا بين حرية اكتساب حقوق المواطنة وبلوغ الديمقراطية وتحقيق المجتمع العادل وبين فرض ذلك جبرًا بحسب نموذج معتمد، والإصرار على أن التحديث يعنى التغريب بالرغم من المراجعات الغربية فى هذا المقام.

(٣) فى هذا السياق تأتى أهمية الرؤية المدنية القاعدية حيث إمكانية أن تأخذ كل تجربة سياسية مداها فى ضوء واقعها كذلك إمكانية قبول وجود مركزيات أخرى غير غربية وعليه يستقيم الحوار، وهذا يتطلب منا أن نمد جسور الحوار مع القوى المدنية القاعدية فى الغرب والتى تتبنى رؤية فى الواقع تتفق مع مصالحنا، والتى تمس أوضاع الناس بشكل مباشر وعدم الوقوع فى فخ تحويل النظر عن هذا الأمر تحت مظلة الحوار/ الصدام الحضارى أو الدينى. ■

هذه عيوبنا

الديمقراطية هى الرد

محمد سليم العوا

عرفت الدكتور جورج كارى رئيس أساقفة كانتربرى السابق (اللورد كيرى الآن) فى نوفمبر سنة ٢٠٠١ عندما تلقيت منه دعوة للمشاركة فى حوار إسلامى. مسيحى عقد فى المقر الرئيسى للكنيسة الإنجليزية Lambeth Palace يومى ١٧ و١٨ يناير سنة ٢٠٠٢.

شارك فى هذا اللقاء رجال دين وعلماء ومفكرون وأساتذة جامعيون من أهل الدينين. وكان عنوانه «بناء الجسور» Building Bridges. وكان هدفه. كما حدده رئيس الأساقفة فى خطاب الدعوة التى وجهت إلى المشاركين فيه هو «النظر بسعة أفق إلى الأمل فى أن يشترك الحاضرون فى الوصول إلى فهم وشعور متبادلين حول تاريخ ديننا العظيمين وتطورهما، ومكانتهما فى العالم الحديث».

وكان اللقاء علميًا، جادًا، صريحًا. ورحّب اللورد كارى بالمشاركين فى جلسة افتتاحية تحدث فيها أيضًا رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير الذى كان مشاركًا فى استضافة هذا اللقاء.

وحضر اللورد كارى جلسات اللقاء كافة على امتداد يوميه، وتناول الغداء وتبادل فى أثنائه الحديث مع المشاركين جميعًا تقريبًا. ولم أجد فى كلمته الافتتاحية، ولا فى مداخلاته فى أثناء الجلسات، أو فى المحاورات الجانبية التى شاركت فيها أو استمعت إليها أى تعليق يمكن أن يعتبر سلبيًا من وجهة نظر إسلامية.

لذلك كان مثيرًا للعجب أن أطالع فى عدد من الصحف العربية تعليقات ناقدة. بحدة أحيانًا. لمحاضرة ألقاها اللورد كارى فى ٢٥ مارس ٢٠٠٤ فى جامعة جريجوريان فى روما تحت عنوان: المسيحية والإسلام: صدام أم لقاء؟

ولم يتح لى نص المحاضرة إلا عندما تفضل الاخوة فى «وجهات نظر» بإرسالها إلىَّ. ومعها نص محاضرة أخرى ألقاها اللورد كارى نفسه فى جامعة ليستر فى بريطانيا فى ١٢ مايو ٢٠٠٤ بعنوان: الإسلام والغرب: تحدى الإنسانية (!) (علامة التعجب من عندى).

فى هذه المحاضرة الأخيرة يفتتح اللورد كارى حديثه بقوله إنه أراد أن «يعمّق فهمه الشخصى للإسلام فقرر أن يُعِدّ . ويلقى. أربع محاضرات عن جوانب مختلفة من علاقة الإسلام بالغرب. ولم تثر المحاضرتان الأوليان أى انتباه(!) بينما نالت المحاضرة الثالثة، التى ألقيت فى جامعة جريجوريان، اهتمامًا كبيرًا بسبب تقارير صحفية ذكرت أنه كان فيها معاديًا بصورة خاصة للعالم الإسلامى».

والقراءة المتأنية للمحاضرتين معًا. محاضرة مارس فى روما ومحاضرة مايو فى ليستر. تكشف أن المحاضر، كما يقرر هو نفسه فى محاضرة روما، ليس بأى معنًى فنى خبيرًا فى الإسلام أو متخصصًا فى فرع من فروع المعرفة الإسلامية. ولكنه. لسنين عديدة . أمضى أوقاتًا غير قصيرة مع بعض الأسماء المهمة فى العالم الإسلامى. وضرب أمثلة لهذه الأسماء: الدكتور طنطاوى (أظنه يقصد فضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوى)، والدكتور حسن الترابى، والملك حسين، والأمير حسن، والملك عبد الله والأستاذ أكبر أحمد وآخرين من القادة والعلماء. الإسلاميين. فى محاولة لبناء جسور التفاهم بين الدينين العظيمين.

ولا شك أن هذه الأوقات، مع تلك الشخصيات تتيح للورد كارى أن يتعرف إلى بعضهم. أو كلهم. عن قرب. وهى معرفة تعتمد على نوع الحوارات التى جرت بينه

وبينهم، وعلى قدر ما اتسمت به من صراحة وصدق، وعلى مقدار ما تحلى به كل من الطرفين من شجاعة فى عرض ما عنده، أو انتقاد ما يَعرِضُهُ شريكه فى ذلك الحوار. وهى معرفة، مهما بلغ عمقها، لا تتيح لمن حصل عليها أن يكون كلامه فى الشأن الإسلامى حجة؛ أو أن يقرر فى نصف سطر طبيعة العلاقة بين المسلمين وبين غير المسلمين فيما كان يطلق عليه «عقد الذمة»؛ أو أن يقول بلا تردد «إن النضال من أجل جوهر الإسلام جار ويحتاج عقيدة عظيمة أخرى كالمسيحية لمساندة وتشجيع الأغلبية الكبرى من المسلمين الذين يقاومون المطابقة بين عقيدتهم وبين الإرهاب»؛ أو أن يقترح ضرورة أن يعاد النظر فى العقيدة الإسلامية بطريقة فاحصة وانتقادية على نحو ما جرى فى اليهودية والمسيحية (!) أو أن ينتقد الاعتقاد الإسلامى بأن القرآن الكريم غير قابل للمراجعة أو النقد مقرراً أن الإعراض عن هذه المراجعة وذلك النقد هو الذى أدى منذ خمسمائة عام حتى الآن إلى مقاومة الحداثة (!!) وأن يرى أن السبيل إلى تحقيق ما يريد يمر عبر قيام رجال الدين والمعلمين - الدينيين - المسيحيين بتشجيع الحوار المتبادل مع علماء المسلمين؛ ومن خلال تطوير برامج جريئة ومناهج مطورة لإعداد الأئمة(!).

هذه الملاحظات . وغيرها . تثير بغير شك اعتراض كل مسلم عالم بخصائص دينه مؤمن به . وهى، وإن لم ترد فى سياق عدائى فى محاضرة روما، فإنها بذاتها لا يمكن أن تفهم على أنها ملاحظات ودية أو محايدة. ولذلك عبّر بعض منتقدى اللورد كارى عن موقفه بقولهم «إن الرجل يمثل خط الاعتدال فى العالم الغربى، ولذلك كان الاهتمام بكلامه واجباً...» وأنه «بدا متجاوباً مع فكرة ارتباط الإسلام بالإرهاب...» و«..لنا عتاب عليه..» ونحو هذه العبارات التى تدل على عناية بالكلام وقائله، وعلى حرص على الجدال بالحكمة اللائقة بحديث يدار مع زعيم دينى مسيحى له تقديره ومكانته (راجع فهمى هويدى: المجلة، عدد ٢٠٠٤/٦/١٩ ص ٣٢).

وفى محاضرته الرابعة التى ألقاها لورد كارى فى جامعة ليستر حاول تعقب بعض الانتقادات التى وجهت إليه وخصص لذلك أكثر من نصف محاضرته الرابعة، الأمر الذى يدل على اهتمامه الحقيقى برأى ناقديه المسلمين فيما تضمنته محاضرة روما . وهو اهتمام يجب أن يحمد لصاحبه، لأن الحوار، وتكراره، وتبادله هو الذى يؤدى إلى الوقوف على الحقائق وتصويب الأخطاء والتقريب بين العقلاء الذين يستطيعون منع الحمقى من تدمير الحياة الإنسانية بالكراهية التى ينسبونها إلى الدين بدلاً من بنائها بالاستفادة من التعددية الدينية وما تصنعه من تنوع فكرى.

وأبدأ بمسألة الحوار. لأن عرض اللورد كارى لها يخالف ما ندافع عنه ونمارسه نحن فى عالمنا العربى، حيث عاشت المسيحية إلى جوار الإسلام، وعاشت اليهودية معهما، قروناً طويلة فى وئام خلاَّق هو الذى صنع على مدى ألف سنة تقريباً ما يعرفه العالم بالحضارة العربية الإسلامية. وهى حضارة ساهم فى صنعها أهل الشرق كافة، ولم يقعد بأحد اختلاف إيمانه الدينى عن العطاء المستمر فى مختلف جوانبها.

الحوار عندنا يجرى بين أهل الأديان، لا بين الأديان نفسها . فعندما نَصِفُ حواراً بأنه إسلامى . مسيحى فإننا نعنى أنه حوار بين مسلمين ومسيحيين لا بين الإسلام والمسيحية. فالإسلام والمسيحية، بل الأديان كافة، والمذاهب داخل كل دين، هى فى نظر المؤمنين بها مسلَّمات مطلقة تمثل الحقيقة كاملة، ولا تحتمل جدلاً لإثبات خطأ بعض جوانبها . ولو قيل بعض المؤمنين أن فى عقيدتهم خطأ أو نقصاً لما بقوا على الإيمان بها أصلاً . والدعوة إلى الحوار الذى يؤدى إلى مراجعة نصوص الدين وانتقادها وتعديلها هى دعوة إلى ترك الدين جملة. ولا يوجد مسلم يقبل هذه الدعوة. ولا يوجد ذو دين . أياً كان . يسلِّم بأن نصوص دينه، التى هى مصدر عقيدته وأساسها، قابلة للمراجعة والنقد والتعديل.

ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم أحد جوانبها أنه أمىٌ لا يقرأ ولا يكتب نُزِّل عليه النص الوحيد فى الدنيا الذى حفظه التاريخ دون زيادة حرفٍ فما فوقه أو نقص حرفٍ فما فوقه. والقرآن نفسه ينطق بهذه الحقيقة «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون» (العنكبوت: ٤٨).

والدراسات القرآنية الحديثة تثبت . بمناهج البحث الغربية أو الأوروبية . صحة نسبة كل حرف من القرآن الكريم إلى الله تبارك وتعالى، بإثبات صدق محمد . صلى الله عليه وسلم . وتواتر النص القرآنى عنه إلى يوم الناس هذا . أحدث ما كتب فى هذا الموضوع هو: Al-Azami, The. History of The Qur'anic Text, A Comparative Study with the Old and New Testaments, U.K. Islamic Academy, Leicester . 2003,

والهدف الذى يرمى إليه الحوار بين المسلمين والمسيحيين فى بلادنا هو أن يتحقق مفهوم «العيش الواحد» الذى يعنى . فيما يعنيه . أن الصديق صديق لأهل الوطن كافة، مسلميهم وغير المسلمين، وأن العدو عدو لهم أجمعين. وأن الخيرات فى الوطن حق للجميع مثلما تشمل المعاناة أهله بلا استثناء.

والهدف الذى يرمى إليه الحوار بين المسلمين وغير المسلمين من أبناء حضارات شتى وبلاد تنتمى إلى ثقافات متنوعة . كالحوار بيننا وبين المسيحيين الغربيين . هو إنشاء مفهوم «العيش المشترك» الذى يعنى . فيما يعنيه . قبول الطرفين بفكرة اتساع الدنيا، وفضل الله ونعمه، لخلق الله كافة. وأن التعاون على استثمارها وإعمارها هو الغاية الجامعة للناس أجمعين دون تمييز بينهم فى ذلك بسبب الدين، أو المذهب أو الطائفة داخل الدين.

وليس وراء هاتين الغايتين للحوار بين المسلمين والمسيحيين شىء آخر. فلا نحن نحاول، ولا نقبل أن يحاول أحد، دفع المسيحيين إلى مراجعة عقائدهم أو فحصها، أو إعداد وعاظهم ودعاتهم على نحو معين. ولا نحن نقبل، أو نرضى من أحد أن يحاول، إقناعنا بإعادة النظر فى القرآن الكريم أو العقيدة النابعة منه. ودستورنا فى ذلك مستمد من القرآن الكريم نفسه: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (العنكبوت: ٤٦).

ويقترن بمسألة الحوار على النحو الذى يدعو إليه لورد كارى، ولا نقبله نحن المسلمين، مسألة «احتياج المسلمين إلى عقيدة عظيمة أخرى كالمسيحية لمساندة وتشجيع الأغلبية الكبرى من المسلمين الذين يقاومون المطابقة بين عقيدتهم وبين الإرهاب».

هذا الكلام نفسه غير مفهوم. فما وجه الحاجة إلى العقيدة المسيحية لتبرئة الإسلام من تهمة الإرهاب؟! ومن الذى يطابق بين الإسلام والإرهاب سوى بعض الساسة الغربيين والقادة الصهاينة فى إسرائيل وخارجها، ووجهة نظرهم عرضها اللورد كارى بصورة توحى بقبوله لها: إن لم يكن من حيث الأصل المقرر ديناً فى الإسلام، فمن حيث الأمثلة التى ضربها ولم يفرِّق فيها بين المقاومة المشروعة للمحتل وجيوش الاحتلال . كما يحدث فى فلسطين والعراق وأفغانستان . وبين الجرائم التى يسميها الغربيون «إرهاباً»، واسمها فى حضارتنا وفقهنا الإسلاميين «حرابة»، وعقوبتها هى أشد العقوبات فى النظام القانونى الإسلامى: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنفَوا من الأرض، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم» (المائدة: ٣٣).

واللورد كارى يطالب العلماء والمفكرين المسلمين بإدانة الجرائم التى تصيب المدنيين، ويُدخل فيها أعمال المقاومة الفلسطينية للاحتلال الصهيونى . ولو كلف اللورد كيرى نفسه بقراءة ما ينشر فى مواقع الإنترنت وفى الصحافة الصادرة فى بريطانيا، وسائر أنحاء أوروبا، من فتاوى العلماء وآراء المفكرين المسلمين فى هذه المسألة لراجع ما قاله فيها مراجعة جادة تليق بجديته فى محاولة التعرف على الإسلام تعرفاً عميقاً.

إن المقاومة الفلسطينية . فى نظر المسلمين والمسيحيين من أهل بلادنا . عمل مشروع ضد محتل لا سند لاحتلاله، وكثير من هؤلاء العلماء والمفكرين المسلمين والمسيحيين يلحقون بذلك المقاومة فى العراق . مادامت موجهة ضد قوات الاحتلال . والمقاومة فى أفغانستان.. وفى كل أرض محتلة أخرى.

وهذا كله لا يدخل عندنا تحت مسمى الحرابة، ولا نقبل أن يصفه أحد بأنه إرهاب. وإسرائيل بالذات مجتمع عسكرى كله ليس فيه مدنى واحد، وإذا أصيب طفل يهودى فإنه يصاب تبعاً لاستهداف مكان عسكرى أو مستعمرة مما يسميه الصهاينة (مستوطنات). أما الأطفال الرضع والنساء والشيوخ

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

متى؟ ولماذا؟

حين أحمل إليك، يا طفلى الصغير
دُمى متعددة الألوان
فإنى أفهم سر وجود العديد من الألوان
فى الغيوم والماء
وأفهم لماذا كانت الزهور ملونة
وحين أغنى لترقيصك
أفهم حقًا لماذا توجد موسيقى
فى أوراق الشجر
والأمواج ترسل أناشيد
أصواتها المائية حتى تبلغ قلب الأرض المصغية إليها
حين أقدم الحلوى إلى يديك الشرهتين
أفهم لماذا يوجد العسل
فى أكمام الزهر
ولماذا كانت الفواكه مليئة
بالعصير اللذيذ
وحين أقبلك من أجل أن تبتسم
يا حبيبى، أفهم يقينًا
تلك البهجة التى تنثال من السماء
فى ضوء الفجر، وأى متعة
يمنحها نسيم الصيف إلى كيانى الجسدى
حين أقبلك من أجل أن تبتسم

الفلسطينيون، والمساجد والورش والأسواق الفلسطينية، فإنها تقصف عمداً ومع سبق الإصرار والترصد. ولا أتحدث عن الشهداء من أمثال الشيخ أحمد ياسين والدكتور عبد العزيز الرنتيسى والمهندس يحيى عياش؛ أو محاولة اغتيال خالد مشعل، فهذه جرائم عرفها الكافة، ولا يجوز لمن يريد أن يبقى على مصداقيته أن يتجاهلها، أو يكتفى بإدانة العنف الذى يصيب «المدنيين» بعبارة موهمة يستوى فى الدخول تحتها المعتدى الظالم والمعتدى عليه المظلوم.

وإشارة اللورد كارى إلى أن كثرة المسيحيين واليهود دفعوا ثمن العيش فى سلام مع المسلمين «عندما اضطروا لقبول العيش فى وضع الذميين» إشارة تنقصها الدقة التاريخية، ويعوزها المتابعة للتطور الفقهى الإسلامى المعاصر.

تنقصها الدقة التاريخية لأن الذمة كانت «عقداً» بين المسلمين وبين غير المسلمين، ولم تكن «وضعاً» لغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى. بمقتضى هذا العقد كان المسلمون يتولون الدفاع عن الوطن المشترك، وكان غير المسلمين يدفعون مبلغاً من المال (لم يزد على دينارين فى أعلى حالاته، ونزل إلى دراهم معدودة فى معظم الأحيان) مقابل إعفائهم من الانضواء تحت لواء جيش إسلامى. ولذلك كان الذين يعملون فى خدمة الجيش، ولو فى أعمال غير عسكرية، يعفون من هذه الجزية. ولذلك أيضاً، عرف التاريخ عقوداً تبادلية بين المسلمين وغيرهم لم تستعمل فيها كلمة الجزية ولا كلمة الذمة.

وتعوزها المتابعة للتطور الفقهى المعاصر الذى يقرر أن الذمة من حيث هى عقد قد انتهى بزوال المتعاقدين اللذين أبرماه، وحلت محل هذا العقد فكرة دستورية عصرية هى فكرة المواطنة التى نشأت نتيجة التحام المسلمين وغير المسلمين فى مقاومة الاحتلال الأجنبى والحصول على الاستقلال الوطنى - راجع كتابنا: فى النظام السياسى للدولة الإسلامية، دار الشروق ١٩٨٩- والغريب فى عدم تنبه اللورد كارى إلى هذا التطور الفقهى المعاصر الذى يتفق عليه الفقهاء والمفكرون المسلمون المحدثون بلا استثناء يذكر، أنه قد طرح على بساط البحث فى اللقاء الذى دعا هو إليه عام ٢٠٠٢، ولما تبين أحد الأساقفة المرموقين فى الكنيسة الإنجليزية (الأسقف نظير على) هذا الاجتهاد قال إنه لا حاجة إلى مناقشة قضية الذمة والجزية مجدداً، مادام هذا هو الموقف الفقهى المعاصر منها، بل يجب على المسيحيين تجاوز هذا المفهوم وأن ينظروا إلى أنفسهم كمواطنين كاملى المواطنة لهم حريةٌ وحقٌ فى التعبير والاعتقاد والعبادة كسائر المواطنين. راجع الكتاب الذى صدر عن هذا اللقاء الإسلامى المسيحى بعنوان: Road Ahead a Christian-Muslim Dialogue, Edited by Michael Ipgrave, Church House Publishing, London 2002.

ويذهب كارى إلى أن بداية التسييس الحقيقى للإسلام كانت بهزيمة ١٩٦٧، وقد ردَّ فهمى هويدى، فى مقاله سالف الذكر، على هذا القول رداً كافياً، لكن اللورد كارى، فى السياق نفسه يشير إلى أن الحركة الوهابية «دمرت القبور المقدسة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه فى مكة والمدينة». وهنا أمران غير صحيحين. فلا الوهابية دمرت قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا قبور أصحابه، وهى باقية إلى اليوم فى المسجد النبوى، وفى البقيع، وفى مقابر مكة المكرمة. ولا المسلمون يقدسون أى قبر أصلاً، إنما تزار القبور للعبرة بمصير من سبقنا إلى لقاء الله، ولتذكر الآخرة التى إليها مصيرنا جميعاً. ووصف اللورد كارى لهذا الأمر دليل على صدقه فى وصف نفسه بأنه ليس مختصاً فى الإسلام ولا خبيراً فيه بأى معنًى فنيّ.

وفى محاضرته معاً يسلِّم اللورد كارى بأن «الإسلاميين» هم الذين قادوا الطائرات التى ارتكبت جرائم ٩/١١ فى الولايات المتحدة؛ ويضيف. من عنده. أنهم كانوا يضعون القرآن بجانبهم ويهتفون «الله أكبر».

ولا تَسَلْ كيف عرف أن القرآن كان بجانبهم، ولا كيف سمع هتافهم؟! لكن الأهم من ذلك أنه ليس تحت يد أحد. كائناً من كان. دليل من أى نوع على أن الذين ارتكبوا هذه الجرائم هم المتهمون بارتكابها. وتكشف الحقائق كل يوم أن المعلومات التى قدمت للعالم فى هذا الشأن كانت فى أحسن أحوالها ظنوناً، وفى بعض أحوالها اختراعات محضة. وآخر ما نشر من ذلك، على لسان الأمريكيين أنفسهم أنه، خلافاً لادعاءات الرئيس جورج بوش، ليس فى المعتقلين فى قاعدة جوانتانامو معتقل واحد يمكن تصنيفه قائداً فى «القاعدة» أو من كبار ناشطيها الميدانيين. وأن الأدلة ضد هؤلاء المتهمين ضعيفة لدرجة أن (١٥) منهم فقط عرضوا على المحكمة العسكرية! «الحياة ٢٢/ ٢٠٠٤/٦ نقلاً عن شهادات لعدد من كبار

هـــــذه عيـوبنـــــا

المسئولين في الجيش الأمريكي والاستخبارات نشرتها صحيفة نيويورك تايمز.

وقس بالمعيار نفسه حديث اللورد كاري عما فعله مرتكبو حادثة «بالى» في أندونيسيا وغيرها من الحوادث التى ذكرها في محاضرتيه؛ فكله منقول بلا تدقيق ولا تحرٍ عن الإعلام الغربي الذى لا يعنى بنشر تصحيح أو تكذيب إلا في النادر القليل، وبعدما تكون التهمة قد تقررت في أذهان آلاف القراء وكأنها حقيقة لا تقبل جدلاً.

يتحدث اللورد كارى عن المعونات التى تقدمها الولايات المتحدة وبريطانيا، لمصر بوجه خاص، باعتبارها يجب أن تكون سبب امتنان واعتراف بالجميل من جانب المصريين. وهو في هذا ينسى ما قاله قبل قليل في المحاضرة نفسها من أن الحكومات في الشرق الأوسط تفتقر إلى الديمقراطية وتمثل الاستبداد، بل إنه يقول: «يتساءل الإنسان متعجباً: لم هذا الغياب المفجع للديمقراطية في البلاد المسلمة خصوصاً في الشرق الأوسط». فالمعونات. إذن. تقدم إلى هذه الحكومات غير الديمقراطية لتمكن لها في الأرض، وتعينها على استمرار السيطرة وإحكامها على شعوبها، فلماذا تعترف الشعوب بالجميل؟ وكيف تكون ممتنة لمن يقوى الحكومات التى غياب الديمقراطية فيها مفجع؟؟

ويدافع اللورد كارى عن الهدف من الحروب الصليبية، أو الدافع من ورائها. مع إقراره بأنه يدينها. في محاضرته الرابعة التى ألقاها في ١٢ مايو ٢٠٠٤ بجامعة ليستر بقوله إن هذه الحروب قامت لتستعيد الجيوش المسيحية المدن التى احتلها المسلمون ولفتح الطرق أمام الحجاج المسيحيين لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية. وهذا القول عارٍ كله من الصحة. فإن الأراضى التى يسميها لورد كيرى (مسيحية) لم تفتحها الجيوش الإسلامية عنوة ولم تخرج منها مسيحياً واحداً. وإنما فتحت هذه البلاد (أى بلاد فلسطين) صلحاً بعقد بين عمر بن الخطاب وأسقف بيت المقدس. ولا يستطيع أحد أن يجد حادثة تاريخية واحدة منع فيها المسلمون مسيحياً أو يهودياً من زيارة بيت المقدس أو بيت لحم أو الناصرة أو أى مكان آخر يقدسه أهل الديانتين الكتابيتين. وما قاله آية الله محمد مهدى شمس الدين في جامعة جرجوريان سنة ٢٠٠٠ من أن الحروب الإسلامية كانت في معظمها دفاعية والحروب الصليبية (نسميها نحن حروب الفرنجة) كانت في معظمها هجومية هو الصحيح، لا ما حاول لورد كارى أن يرد به عليه في محاضرتيه معاً.

الأمر الذى يجب أن أقرر اتفاقنا فيه. جملة وتفصيلاً. مع اللورد كارى هو ما كرره في محاضرتيه مما يمكن أن نسميه «الديمقراطية هي الحل»!

إن هناك كثيراً من المعانى الصحيحة والإيجابية في المحاضرتين. واللورد كارى صادق مع نفسه: فهو مسيحى مخلص، يرى الارتباط الوثيق بين المسيحية واليهودية، ويرى في الوقت نفسه المظالم التى يتعرض لها أهل فلسطين ويُدينها. بل إنه يختم محاضرته الرابعة. في جامعة ليستر. بقوله: «على الرغم من أن هذه المحاضرة يمولها يهودى مرموق (يقصد السير سيجموند سترنبرج) فإنى يجب أن أقول، بحزن، إن السياسة التى تتبعها الحكومة الحالية في إسرائيل نحو الفلسطينيين لا يمكن الدفاع عنها. والانحياز الأمريكى إلى جانب إسرائيل يستثير ملايين الناس في العالم كله... لقد أصبح الفلسطينى مهاناً ومحتقراً (في فلسطين)... ومن معاناة خمسين سنة انفجر غضب غير قابل للتحكم فيه وهو محور مشكلتنا الحاضرة».

ومع ذلك تبقى ملاحظته الجوهرية. بالنسبة إلينا. هى غياب الديمقراطية وفقدان الحرية. وهما قيمتان، ونظامان للحياة والتفكير، ما لم تستعدهما فإن مشاكلنا كلها مرشحة للبقاء حيث هى أو للتفاقم المدمر.

نستطيع أن نوجه نظر لورد كارى، وغيره، من أهل المسيحية المخلصين لها إلى ما لم يقفوا عليه من مصادر الإسلام التى تعبر عنه التعبير الصحيح.

ونستطيع أن ننتقد بحق وصدق أخطاءهم في الواقع والتاريخ والفقه على السواء.

ولكننا لا يجوز لنا أن نخفى رؤوسنا في الرمال، ونغض الطرف عن عيوبنا ونكف الأيدى القادرة عن إصلاحها. وهذا هو أهم ما تقدمه لنا تعجبات اللورد كارى المتكررة عن فقدان الديمقراطية في بلاد الشرق الأوسط المسلمة. ■

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

جنى الثمار

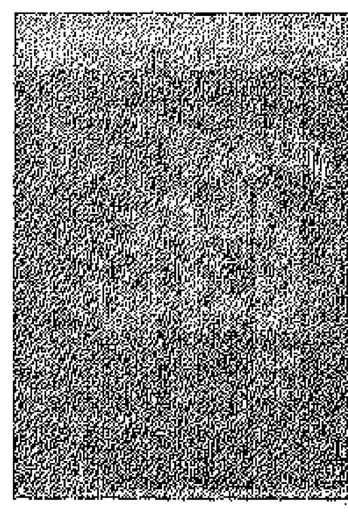
هذه السلسلة المرصعة بالجواهر
إنها تزيننى
لتسخر منى
وحين تطوق عنقى
تؤلمنى
وتخنقنى حين أحاول نزعها
إنها تقبض على حلقى
وتخنق غنائى
لو كان فى وسعى أن أهبها لك
يا مولاى
حينئذ فقط سأكون حرًا
فانزعها عنى
وعوضًا عنها شدنى إليك
بإكليل من أكاليلك
لأنى أشعر بالخجل
لأن أقف أمام سدتك
بهذه السلسلة المرصعة بالجواهر
التى تطوق عنقى

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشـكـر الناشـريـن والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الغرب والعالم الإسلامى.. نظرة إسلامية

ستة مؤلفين من العالم الإسلامى

ألمانيا: معهد العلاقات الخارجية فى شتوتجارت، ٢٠٠٤، ٧٣ صفحة



يحاول هذا الكتاب أن يقدم لوحة بانورامية لعلاقة العالم الإسلامى مع الغرب، من خلال رؤية ستة مؤلفين ينتمون إلى ست دول إسلامية.

تنطلق هذه الرؤية من فرضية أساسية وهى: أن النظر إلى العالمين الإسلامى والغربى بوصفهما قطبين متعارضين ومتناقضين، أمر خاطئ لأنه يتجاهل الاختلافات الداخلية فى كلا العالمين، كما يهمل حقيقة أن الثقافات والمجتمعات فى حالة تغير دائم وليست كيانات ثابتة، وعلاوة على ذلك لا يضع فى حساباته التداخل الدائم بين الثقافات. وبناء على هذه الفرضية، فإن تاريخ العلاقات بين الطرفين اتسم بقدر كبير من العداء من ناحية، وبثراء الارتباط السلمى من ناحية أخرى. فهو تاريخ حافل بالأحداث الدرامية المثيرة، يبدو فى أحد المستويات ملىء بالدماء المراقة حيث قتل الآلاف على الجانبين باسم الدين، بينما يمتلئ على المستوى الآخر بأمثلة التعاون المشترك فى مجالات الفلسفة والفنون والتكنولوجيا.

ويراهن الكتاب على أن الاستشراق لعب دوراً كبيراً فى انتشار التصورات الخاطئة عن الإسلام فى الإعلام والثقافة والسياسة فى دول الغرب، وإضفاء طابع شيطانى على المسلمين وتبرير غزو أراضيهم، وتقديم الإسلام كعدو للحداثة الغربية باعتباره ديناً غير أصيل وكاذب وزائف.. وفى نفس الوقت فقد لعبت الأصولية دوراً سلبياً فى تنحية تراث التسامح والإيمان بالتنوع فى العالم الإسلامى.

وقد أدت هجمات ١١ سبتمبر وعواقبها إلى توسيع فجوة سوء الفهم والصراع، وقلصت من إمكانيات الارتباط السلمى بين الغرب والعالم الإسلامى، ورغم أن الهجمات الإرهابية الإجرامية تعد من الأسباب الجوهرية للإحساس بالقلق الشديد الذى ينتاب الغرب، لكنها لا ينبغى أن تؤدى إلى البارانويا المستمرة فى الخطاب الغربى، حيث وقعت الولايات المتحدة بصفة خاصة فى هذا الشرك، كما أصبحت هجمة «الحرب على الإرهاب» أداة لتبرير الأفعال الغاشمة ضد سيادة الدول الوطنية دون أى اعتبار أو احترام للقانون الدولى أو الأمم المتحدة.

وأدى سوء الحكم وتعثر التنمية فى كثير من بقاع العالم الإسلامى إلى تعقيد العلاقات مع الغرب، حيث ولد ذلك خللاً هائلاً فى موازين القوى، مما سهل على الغرب الأقوى خاصة أمريكا اتباع سياسة التلاعب والهيمنة والظلم ضد العالم الإسلامى الأضعف، وإلى اتباع الغرب المعايير المزدوجة التى يستخدمها بوضوح فى تعاملاته مع قضايا المسلمين الكبرى.

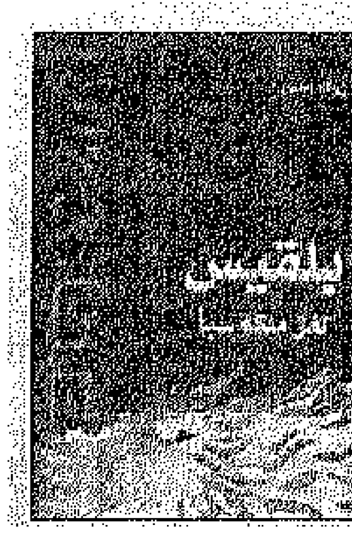
وينتهى الواقعية يعترف مؤلفو الكتاب أن العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامى قضية مركبة ومعقدة ولا يمكن إيجاد حل سريع لها، فعبء التاريخ ثقيل، وافتقاد الإرادة السياسية على الجانبين شديد الوضوح، إلا أن التحرك نحو الأمام هو الطريق الوحيد من أجل بناء مستقبل أكثر إيجابية وهو ما يفرض على الجانبين النظر إلى التاريخ باعتباره مصدراً للحكمة وليس سبباً لإثارة النزاعات، وإشعال الخلافات حول الحملات الصليبية على القدس أو حصار العثمانيين لفيينا.

■

بلقيس لغز ملكة سبأ

زياد منى

سوريا: دار قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٣٣٤ صفحة



ما يقرب من ثلثى صفحات هذا الكتاب، خصصها المؤلف لتتبع شخصية بلقيس، وكيفية تجليها فى التراث العربى فى العصور الأولى، ثم فى طبيعة شخصيتها فى التراث العربى الإسلامى والمسيحى، والحبشى المسيحى، وفى التراث الدينى اليهودى.

كانت الكثير من الكتابات التى رجع إليها المؤلف تضم أساطير وخرافات، اعتبرها دليلاً على حيوية ذهنية وخيال شعبى هائل.

وما يزيد من لغز بلقيس اشتعالاً، هو أن روايات العرب حفلت بالكثير من التناقضات حول شخصيتها بما يفتح الباب أمام إمكانية دمج الروايات التى تناولت شخصيات العديد من الملكات أو الحاكمات اليمانيات فى شخصية واحدة.. هى شخصية بلقيس.

كانت بعض هذه الروايات تتحدث عن أن ساقها كانت حافر حمار، بينما اكتفى بعض الرواة الآخرين بالقول بوجود شعر كثيف أو خفيف على ساقها، وهى روايات تشير إلى وجود دور يهودى فى رسم تلك الصورة القبيحة للملكة العربية بلقيس التى اقتحمت تراث معظم شعوب العالم بصفتها مثال الجمال والحكمة والسلطان والثروة. كما أن العرب عرفت قديماً قصصاً وأساطير عن ملكات حكمن سبأ، واكتسبت إحداهن وهى بلقيس شهرة واسعة بسبب حكمتها وقوة ومنعة حكمها وثروة بلادها، وهو ما سهل أن تتفوق شخصيتها على الملكات الأخريات، وعندما جاء الإسلام كرم تلك الملكة أعظم تكريم بالقول إنها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وفى مرحلة لاحقة من تطور المجتمع الإسلامى حديث التشكل تم طرح العديد من الأسئلة الاجتماعية والسياسية منها مسألة دور المرأة فى المجتمع أو بالأحرى الدور الذى أريد للمرأة أن تلعبه.. فبلقيس وقصتها تمثل برأى المؤلف إشارة إلى مجتمع تسنمت فيه المرأة أعلى المواقع القيادية عن جدارة واستحقاق والذى يقال فيه أن بلقيس خلصت شعبها من «الرجس الجائر» لكن هذا لم يرق للبعض الذى زعم أن أصولها تنتمى إلى عالم الجن أى إلى أصول شيطانية، وهو الموقف التوراتى المعادى للمرأة، حيث كانت بلقيس فى التراث الدينى اليهودى ممثلة للشيطان بل هى الشيطان نفسه.

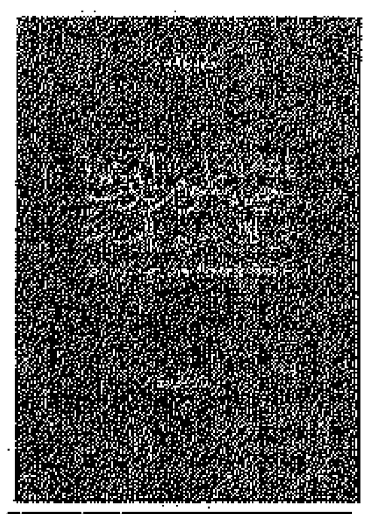
ويقول المؤلف إن تغيير الموقف من المرأة العربية يستدعى قلب وتثوير المجتمع نفسه، مشيراً إلى أن بعض المجتمعات العربية تمارس عادات همجية فعلاً بحق المرأة لا علاقة لها بالقرآن من قريب أو من بعيد. ويعود السبب فى ذلك إلى الأسس الاقتصادية التى استندت إليها التأويلات التى تنتقص من المرأة وحقوقها فى الجذور الأولى لتشكل المجتمع العربى الإسلامى، أى فى طبيعته الاقتصادية القائمة على التجارة دون المشاركة فى تقديم إنتاج حقيقى، وهو نفس المجتمع الذى شهد بعد ذلك حروباً أهلية ضارية أنهكتها روحياً وهذا ما أدى إلى تهميش المرأة التى لا تمارس دوراً فى ذلك المجتمع المعسكر إلا بكونها مصدراً لإنتاج الجند. وعندما ساد الهدوء أخيراً فى المجتمع الجديد بعد فترة طويلة من الفتوحات والمعارك والحروب، كانت القيم التى اتبعتها المرحلة السابقة قد تثبتت فى وعى الجماهير وأضحت من البديهيات غير القابلة للنقاش.

■

إحياء علوم الدين فى القرن الواحد والعشرين كتابة معاصرة لموسوعة الغزالى

سعاد الحكيم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٦٩٥ صفحة



ترى الكاتبة أنه لا ازدواجية بين «الأنا» الزمانية المتجددة وبين «الأنا» المؤمنة المناضلة.. كما أنه لا تعارض أيضاً بين فعل الإيمان اللازمنى وممارساته، وبين المعاصرة والحداثة وممارساتهما، وتؤمن بأن أحدهما يولد الآخر دون انقطاع.

وتأسيساً على هذا الجدل المتواصل بين الزمنى واللازمنى فى الإسلام ترى الكاتبة أن «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى يمكن تصنيفه فى لائحة «الكتب التى لا تموت» أو بالأحرى. كما تقول. فى لائحة الكتب «التى يجب أن نحرص على ألا تموت»، ففى «الإحياء» استطاع الغزالى بمهارة علمية عالية أن يلملم علوم الفقهاء، وعلوم الصوفية، وعلوم المتكلمين والمحدثين والفلاسفة فى كتاب واحد.

وكما تقول المؤلفة استطاع الغزالى فى مرحلة عمرية قصيرة نسبياً وفى شروط معرفية صعبة أن يقدم عشرات الكتب المهمة فى فروع العلوم الإسلامية.

وفى الثامنة والعشرين من عمره ترك الغزالى مقاعد التعلم ليتقدم إلى منابر الأستاذية، وقبيل الأربعينيات من عمره دخل مرحلة الشك ونقد التجربة فترك بغداد وخرج إلى الحج، ثم قصد إلى دمشق حيث أتم هناك كتابة الإحياء بعد أن مكث فترة فى بيت المقدس. واطلع الغزالى على أمهات الكتب الصوفية فى زمنه، ثم أعاد إنتاج التراث الصوفى فى مشروعه الإسلامى. حيث قسم علوم الصوفية إلى قسمين: علم المعاملة وعلم المكاشفة.. والفقيه عنده اهتم بصحة المعاملة، فى حين أن الصوفى اهتم بآدابها وأسرارها لتكون هذه المعاملة مقبولة من الله عز وجل، لا صحيحة الشروط والأركان فقط.. والمسلم يسعى لأن تكون معاملته صحيحة ومقبولة معاً.. فأى قيمة لصلاة صحيحة الأركان والشروط، والعابد فيها لاه عن صلاته مشغول بأفكار وخواطر دنيوية؟! كما أن علوم المعاملة سواء أكانت فى نصوص الفقهاء أم فى نصوص الصوفية فإن مرجعيتها مثبتة بالأدلة الشرعية: القرآن والسنة.

أما علم المكاشفة فيراه الغزالى رزقًا إلهيًا لإنسان بعينه وهو بالتالى ليس فرض عين على كل مسلم، والإنسان فى المكاشفات رهن بما يرد عليه، فقد يقضى عمره متعبداً مجاهداً مرتاضاً دون أن يكاشف بشىء من العلوم.

وتؤكد الكاتبة على أن العلم هو حاجة إنسانية ملحة، فالإنسان لا يطيق صبراً على عدم معرفته بأمر من الأمور، ومن هذا المنطلق تظهر قيمة العلم فى الإسلام، هذا العلم الذى به ينتقل الإنسان من حال إلى حال.. من الجهل إلى المعرفة من ظلمة الشرك إلى نور التوحيد، فالعلم ليس فقط عبادة فى طلبه وتعلمه وتعليمه، بل هو الأساس الذى تبنى عليه كل عبادة.. وهذا هو ما دفع بالإمام الغزالى لأن يستهل كتابه «الإحياء» بباب عن العلم، وخصه بكونه أول الأبواب المخصصة للعبادات.

وبهذه العقلية التى اجتمعت فى كتابات الإمام الغزالى، يستعرض الكتاب آراءه فى كل قضايا المسلم الدنيوية والأخروية.. فى الصلاة والصوم والزكاة والحج، وفى الصمت وفضائله، وفى الجوع والحسد والغضب وغيرها من أمور الدنيا حتى الموت وآدابه وكيفية التحضير له.

تزييف الوعى
أسلحة التضليل الشامل

صلاح الدين حافظ

القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٤، ٤٦٥ صفحة



يلعب الإعلام فى كثير من الأحيان دوراً خطيراً فى تضليل الرأى العام وتزييف وعيه حتى فى الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها أمريكا.

ويستشهد المؤلف بما قاله الكاتب الأمريكى هربرت شيللر فى أحد كتبه «إن قادة الإعلام الأمريكى مضللون لعقول المواطنين، وهم يعمدون إلى الترويج لأفكار واتجاهات لا تعبر عن الحقائق الاجتماعية السائدة، ذلك أن تضليل عقول الناس هو أداة أساسية للقهر الاجتماعى، وأداة فى يد النخبة الحاكمة للسيطرة الاقتصادية على المجتمع».

ويستعرض المؤلف عدداً من وقائع التضليل التى مارستها الآلة الإعلامية الأمريكية الجبارة، سواء فى تعاملها مع حرب الخليج الثانية، أو فى انتخابات الرئاسة بين آل جور والرئيس جورج بوش، وكيف تحولت هذه الانتخابات إلى ساحة للمعارك بين الحيتان الكبيرة فى المجتمع الأمريكى.

وفى مصر، يقول الكتاب فى أحد فصوله أنه فيما بين صحافة الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد، وصحافة الحزب الوطنى الديمقراطى مائة عام من التحولات، ورغم ذلك كان التشابه قائماً فى الكثير من القضايا التى طرحتها صحافة المرحلتين.

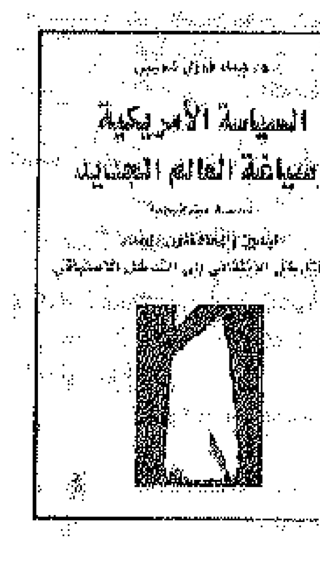
فقبل مائة عام كانت الصحافة تطرح قضايا الاحتلال وحرية المرأة وحرية الشعب فى حكم نفسه بنفسه، وحرية الصحافة فى وجه القوانين المغلظة للعقوبات وانتشار الفقر والفساد بالإضافة إلى ظاهرة تزويغ النواب من البرلمان «مجلس شورى النواب».. وهى نفس القضايا التى تطرحها صحافتنا الآن.

ويتساءل الكاتب: هل معنى ذلك أن مصـــر لم تتغير وتتطـــور؟ ويجيب بالنفى مؤكداً أنها تقدمت فى نواح شتى، لكن العالم من حولنا تغير بمعدلات أسرع.

السياسة الأمريكية وصياغة العالم الجديد

د. عماد فوزى شعيبى

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٣، ١٤٣ صفحة



يغوص هذا الكتاب بمهارة شديدة فى ثنايا المشهد السياسى والأيديولوجى الذى يحكم أمريكا تحت إدارة الرئيس جورج بوش.. ليخرج فى نهاية المطاف بأن هدف هذه الإدارة أو بالأحرى التيارات التى تحركها، هو إعادة صياغة العالم كله طبقًا للمفهوم الأمريكى سياسيًا واقتصاديًا.

وهذا الهدف تتبناه ثلاثة تيارات يمينية متمايزة عن بعضها البعض وهى تيار المسيحيين الأصوليين (ومنهم جون أشكروفت وزير العدل) وتيار «التمامية» البروتستانتية الآتى من الولايات الجنوبية والتى يتفرع منها ما يسمى بالحزام التوراتى وهو الأكثر دعماً لإسرائيل انسجاماً مع أوهام حول عدم إمكانية عودة المسيح إلا بتواجد اليهود فى فلسطين.

أما التيار الثالث فهو ما يسمى باليمين الجديد، والذى يتزعمه فلسفيًا العلمانى اليهودى «ليوشتراوس»، والذى يرى أن العالم كله لابد أن يكون ليبراليًا ديمقراطيًا فى كل المؤسسات والنظم السياسية، أما فى القيم الاجتماعية فإن الهدف هو ضبط المجتمعات عبر منظومة من القيم الدينية!! وأصحاب هذا التيار يبررون هذه البراجماتية باعتبار أن الدين هو الوسيلة الوحيدة لملء الفراغ لدى الجمهور الواسع بما يساعد على فرض النظام.

وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر لتقدم الفرصة لهذا التيار لكى يزعم بصحة نظريته المطالبة بالقضاء على الأنظمة المحافظة والإسلامية التى يحكمها طغاة لأنها تشكل خطراً على مصالح وأمن الولايات المتحدة.

وقد جاءت الحرب على العراق كتجسيد لرؤية اليمين الجديد، من أجل نشر الديمقراطية فى العراق بالقوة، وللتأكيد على أن الولايات المتحدة التى أصبحت تتمتع بوضع لم يسبق له مثيل فى التاريخ عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، تجد نفسها أمام ضرورة تصفية كل تركة الحرب العالمية الثانية التى تقاسم فيها المنتصرون من الحلفاء مناطق النفوذ فى العالم.

فهذا العالم لابد أن لا يكون تابعًا لقيادتها فحسب، بل عليه أن يكون جزءاً لا يتجزأ منها!

وبالتالى، فإن الولايات المتحدة لا تتعامل مع الموضوع العراقى منفرداً، ولكن باعتباره «ساحة عمليات» تستعرض من خلالها قوتها أمام العالم الذى ينبغى أن يعترف بأن أمريكا هى القطب الأوحد والتى تمتلك وحدها أيضًا شرعية استخدام القوة فى أى مكان على الأرض.

وقد جاء اختيار العراق «الأضعف» فى المعادلة الإقليمية، ليذكرنا باختيار الولايات المتحدة لليابان لحظة كانت تطلب شروط الاستسلام فى الحرب العالمية الثانية، لكى تضربها أمريكا بأول قنبلتين نوويتين فى العالم، كى تقول للدول التى خرجت لتوها من الحرب بأن صياغة العالم يجب أن تخضع لنتائج هذا العمل العســكرى الذى يتمتع بقدرة فائقة.

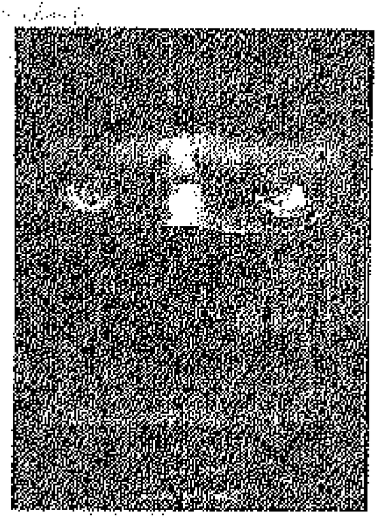
فأمريكا لا توجه ضرباتها الوقائية إلا فى الأماكن الأضعف وبصورة براقة وصادمة، لتحقق أهدافها السياسية بأقل تكاليف، تحت وقع الذهول الذى مارسته هذه القوة الفائقة فى أضعف مكان!

ويؤكد المؤلف أن هذه النزعة الإمبريالية الأمريكية سوف تصطدم مع ميراث السياسة المؤسساتية فى أمريكا نفسها ومع الديمقراطية الداخلية ومع عداء عالمى لها رسمياً وشعبياً فى كل دول الأرض، فالكاتب يرفض هذه التصورات اليمينية الأمريكية لشكل العالم الجديد، فإذا كان مشهد العولمة والشركات متعددة الجنسية تعددياً يسود العالم اليوم، فإنه من الصعب أن يكون النظام السياسى الدولى أحادياً، فهو بالضرورة سيكون متعدداً.

الإرهاب.. والاغتيالات السياسية عبر التاريخ

لواء دكتور: السيد أبو مسلم

القاهرة: ٢٠٠٤، ٣٧٠ صفحة



بين دفتى هذا الكتاب، تقع عشرات من محاولات الاغتيال بدءاً من يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م وحتى السادات عام ١٩٨١.

لم يقتصر جهد الكاتب فقط على حشد هذه الاغتيالات التى راح ضحيتها قياصرة وملوك وزعماء سياسيون فى كتاب واحد، ولكنه سرد أيضاً الكثير من التفاصيل التى أحاطت بكل عملية اغتيال والتى ربما تكون غير معروفة للقارئ العادى..

كما تناول فى كتابه أيضاً المفاهيم والتعاريف المتناقضة للإرهاب، بالإضافة إلى أشهر المنظمات الإرهابية فى العالم منها بادرماينهوف والألوية الحمراء وجيش التحرير الأيرلندى ونمور التاميل والقاعدة وغيرها.

يتناول الكتاب فى أحد فصوله المحاولات الفاشلة التى استهدفت اغتيال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والتى كان وراءها أفراد من جماعة الإخوان المسلمين المتأثرين بالمفكر الإسلامى سيد قطب.

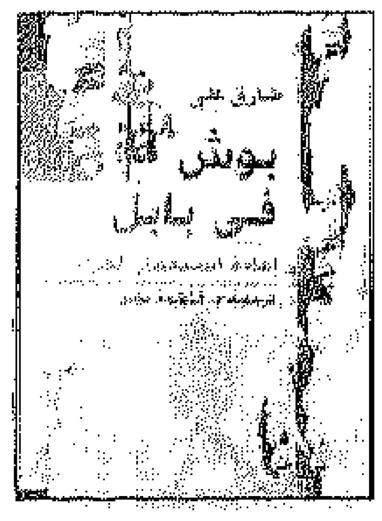
ويشير الكتاب إلى الإرهاب فى أمريكا، الذى يتمثل فى التنظيمات المسلحة السرية والتى تتكون من خلايا عنصرية مسلحة بأخطر أنواع الأسلحة والمتفجرات وتتمركز فى معسكرات يتم فيها تدريب عناصر هذه التنظيمات فى انتظار اليوم الذى يشنون فيه الحرب على الحكومة الفيدرالية فى واشنطن، التى يرون أنها خانت أسلوب الحياة الأمريكية ويتعين القضاء عليها.

ويؤكد الكاتب أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن أقدم نماذج النشاط الإرهابى كانت من صنع اليهود الذين ناهضوا الحكم الرومانى فى القدس خلال الثلث الأول من القرن السابق على ميلاد المسيح عليه السلام، عندما ظهرت حركة دينية أطلق عليها «سيكارى» ضمت عدداً من المتطرفين اليهود، وكانوا يستخدمون سيوفًا قصيرة يقتلون بها أعداءهم من الرومان أو حتى اليهود وسط الزحام.

وكانت هذه الجماعة تؤمن بأن الله وحده هو الحاكم وأنه لا ولاء لأى سلطة دنيوية كما كانوا يرفضون الكهنة والحاخامات.

بوش فى بابل
إعادة استعمار العراق

طارق على
ترجمة: د. فاطمة نصر
القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٣، ٢٧٥ صفحة



كانت هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ هدية السماء لإدارة بوش التى تؤمن بالحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة على العالم واستخدام القوة فيما وأينما كانت ضرورية حتى لو اعترضت أوروبا على ذلك.. فبعد يوم واحد من هذه الهجمات عقد اجتماع لمجلس الأمن القومى ليبحث ما إذا كان الهجوم سيشن على العراق أم أفغانستان، واختيرت الأخيرة بعد جدل طويل. وفى عام ٢٠٠٢ كان قد تم الانتهاء من وضع اللمسات الأخيرة على الحملة على العراق كأول تجربة لتفعيل هذه الخطة الجديدة التى استهدفت تدمير نظام البعث والإطاحة بصدام حسين، ليكون هذا هو أفضل برهان على التحول الأمريكى إلى تلك الاستراتيجية الإمبريالية الهجومية.

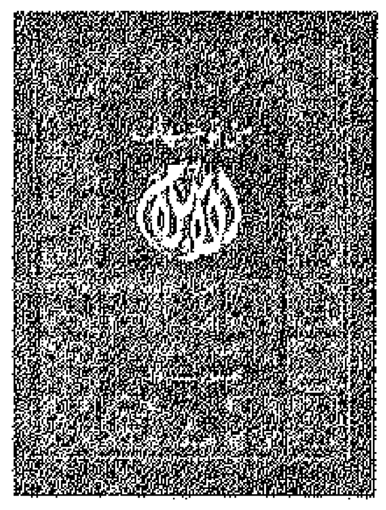
ورغم فشل صقور إدارة بوش فى تقديم أى تفسير واضح لاستهداف العراق، فليس ثمة غموض حول الحسابات التى دفعت بوش للقيام بهذا الهجوم.. فاقتصادياً، يمتلك العراق ثانى أكبر احتياطى من النفط الرخيص، بالإضافة إلى قرار العراق عام ٢٠٠٠ بتسجيل فواتير صادراته باليورو بدلاً من الدولار كان يوجه ضربة للاقتصاد الأمريكى خاصة إذا حذت فنزويلا شافيز وإيران الملالى حذوه، كما أنه رؤى أن خصخصة آبار البترول العراقية تحت سيطرة الولايات المتحدة ستعمل على إضعاف الأوبك.

واستراتيجياً، كان وجود نظام عروبى مستقل فى بغداد مصدر ضيق للجيش الإسرائيلى، ومن ناحية أخرى كان هذا الهجوم يوجه رسالة إلى العالم أجمع وعلى وجه الخصوص دول الشرق الأقصى: الصين، كوريا الشمالية وحتى اليابان، أن الولايات المتحدة لديها الإمكانات لفرض إرادتها بالقوة.

وكما يؤكد الكتاب، فإن الأجندة العدوانية الأمريكية سوف تستمر، مالم يتم تطوير مقاومة سياسية مناسبة للتصدى لسطوتها الجامحة، ولن تكون الحركة المطلوبة مؤثرة إلا إذا كانت كوكبية، وإلا إذا أدركت هذه الحركة أن السيقان النيوليبرالية التى يسير عليها العملاق الإمبريالى ليست بالقوة التى يوحى بها العرافون الرأسماليون.

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٤٧١ صفحة



القصد من الدين هو تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح فى الأرض على أساس قوى متين من ربط الإنسان بخالقه الذى يعلم سره ونجواه.. وكل ذلك يظهر فى تشريعات الإسلام، الذى أطلق بعد ذلك للعقل حريته، فلم يلزم الناس بتشريعاته الجزئية فى كل شىء، بل ترك لهم كثيراً من الشئون، يشرعون فيها بما يرونه محققاً للمصلحة تبعاً لما يجود به الزمن، ولم يكلفهم بشىء سوى الشورى وتبادل الرأى.

هذا المنهج الذى يعلى من قيمة العقل فى الفكر الإسلامى، هو الذى اتبعه الإمام الأكبر محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ فى كتابه الذى استعرض من خلاله عشرات القضايا الإسلامية التى لا تزال تشتبك مع واقعنا الراهن، وتفرض نفسها ـ بالضرورة ـ على خيارات الأمة المستقبلية.

فقضايا الكتاب لا تزال تحتفظ بسخونتها وطزاجتها، ويأتى على رأسها الدين والدولة والنظرية السياسية فى الإسلام، وهو يؤكد أنه إذا كانت الشورى هى أساس الحكم، فإن الإسلام ترك شكل هذه الشورى ومداها للأمة حسب مصلحتها فى كل زمان ومكان. كما أنه إذا كان الحاكم وكيل الأمة، فإن من حق الأمة أن تختاره وأن تعزله، فخليفة المسلمين عند الفقهاء فرد عادى لا يمتاز عن أى فرد آخر إلا بثقل المسئولية التى يتحملها كوكيل عن الأمة، فيؤخذ بالقصاص إذا قتل عمداً، ويحتمل المغارم التى يلحقها بالناس، والأمة صاحبة الولاية عليه، تقيم عليه الحدود وتنفذ عليه الأحكام.

كما أن الدولة لا تملك حق تقييد حريات الأفراد إلا فى شروط محددة يسىء من خلالها هذا الفرد إلى دينه أو وطنه أو يعتدى على الآخرين.. إلخ، فإذا قيدت حرية شخص ما بلا موجب، فلا طاعة لها عليه.

كما يقدم الكتاب صورة مضيئة لدور المرأة الحقيقى فى الإسلام، فهى ليست مخلوقة من أجل مهمة خاصة للرجل، فأحكام الشريعة الإسلامية تقدمها فى إطار واحد، فهى مطالبة مثل الرجل بالقيام بالأعمال الجادة النافعة وتقديم الآراء الصائبة الحكيمة، لا أن تتخذ باسم الحرية وباسم الأنوثة خطوات تبعدها عن جوهرها الإنسانى الحقيقى.

عشر سنوات غيرت العالم

د. محمود سليمان
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٤، ٢٩٨صفحة



أدى انهيار التوازن الدولى فى العقد الأخير من القرن الماضى، إلى تداعيات خطيرة عبرت عن نفسها بتهميش التنظيم الدولى وتنحيته عن مباشرة مهامه، وفى مقدمتها حفظ السلام والأمن الدوليين، وتواكب مع ذلك هيمنة نظام القطب الأوحد، حيث أصبحت أمريكا هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم إثر انهيار الاتحاد السوفيتى وانفراط عقده وتفكك إمبراطوريته.

يسرد الكتاب طبيعة البعد الإسرائيلى فى المشهد العراقى، ويبين أن إسرائيل هى المستفيد الأول من اجتياح العراق واحتلاله، سواء على الصعيد الإستراتيجى بالإجهاز على قوة العراق وتهديد وحدة أراضيه، أو على الصعيد الاقتصادى، بإبرام إسرائيل عقوداً تجارية عديدة مع سلطات الاحتلال.

أما على الصعيد الفلسطينى، فيؤكد الكتاب أن حكم اليمين المتطرف فى إسرائيل يندفع فى تنفيذ مخططه لاغتصاب نحو ٦٠٪ من أراضى الضفة الغربية فى نفس الوقت الذى يحلق فيه الإرهاب وشبحه فوق رؤوس الجميع، والذى تم توظيفه كذريعة لتحقيق أهداف التحالف الأمريكى الصهيونى.

حوارات المنفيين

برتولد بريخت
ترجمة: يحيى علوان
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٢، ١٥٨ صفحة

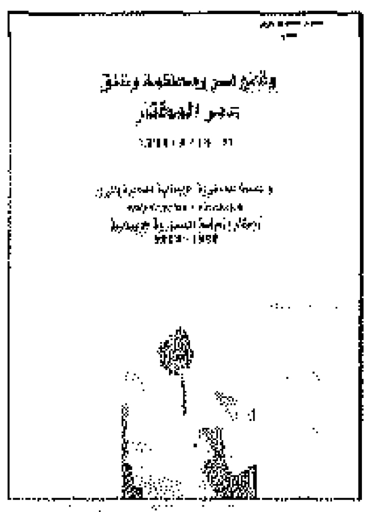


فى هذا الكتاب خاض بريخت معاركه ضد النازية بأسلحة مختلفة، استخدم خلالها أساليب التهكم والفكاهة. فهذا النص ليس مسرحية أو قصيدة أو مقالة فى علم الجمال كما يقول مترجمه. لكنه نص جديد لم يألفه القارئ العربى المتابع لأعمال بريخت، فهو نص نثرى فريد من نوعه، يجسد معاناة فنان أمضى القسم الأكبر من حياته الفنية ـ الإبداعية فى المهجر منفياً بعيداً عن وطنه وجمهوره وتعذر عليه البقاء فى ألمانيا بعد أن جاء النازيون إلى السلطة فى مطلع ١٩٣٣.

وفى نص «حوارات المنفيين» الذى كتبه فى فنلندا عام ١٩٤١ ونشر بعد وفاته، واصل بريخت تعرية الفاشية والسخرية منها والحط من شأنها، من خلال شخصين غريبين لاجئين من ألمانيا النازية يلتقيان فى مطعم بمحطة القطار فى هلسنكى.

وقائع أسر ومحاكمة وشنق عمر المختار

عمران محمد بورويس
بنغازى ـ ليبيا: ٢٠٠٣، ٢٩٥ صفحة



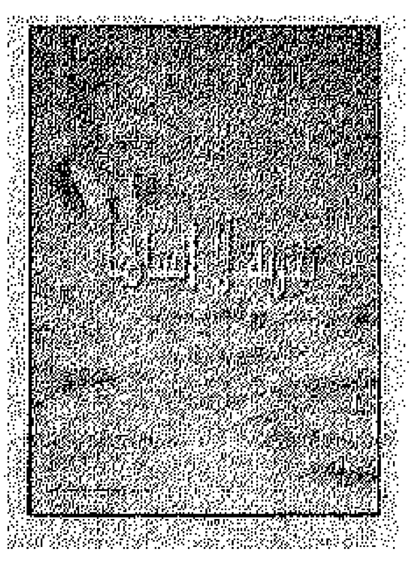
عام ١٨٦٢، ولد عمر بن المختار بن فرحات من عائلة غيث التى تنتمى لقبيلة بريدان إحدى بطون قبيلة المنفه. امتاز بذكاء متوقد وبحضور البديهة، وكان مثقفاً واسع الاطلاع، عاش فقيراً طيلة أيام حياته. ومنذ عام ١٩٢٢ إلى أن تم القبض عليه أسيراً فى ١٩٣١/٩/١١.

يستعرض الكتاب مدعوماً بالوثائق والصور الفوتوغرافية، تفاصيل المسرح السياسى الإقليمى والدولى الذى أحاط بالمشهد الليبى، إبان الاحتلال الإيطالى.

ويستعرض الكتاب وقائع معركة «عين لافو» بالجبل الأخضر حيث وقع عمر مختار فى الأسر صباح يوم الجمعة ١٩٣١/٩/١١، وتآمر قادة الاحتلال الإيطالى لإجراء محاكمة سريعة له والحكم عليه بالإعدام وتنفيذه فى مشهد عام، وهو ما تم فعلاً فى صباح يوم الأربعاء ١٩٣١/٩/١٦ بحضور ٢٠ ألف مواطن ليبى.

تجربة لا أنساها
مواقف وأسرار

فريق/ يوسف عفيفى
القاهرة: دار الصفوة، ٢٧١ صفحة



عندما تولى الفريق يوسف عفيفى موقعه كمحافظ للبحر الأحمر فى يناير ١٩٨١، لم يكن بتلك المحافظة النائية أى مشروع يذكر، وكانت تشكو الإهمال

والغياب الكامل للمرافق والخدمات، إلا أنه بروح المقاتل العنيد بدأ معركة التنمية في المحافظة كامتداد لمعاركه العسكرية في خط النار ضد العدو الإسرائيلي.

وفي خلال عدة سنوات تغير وجه الحياة في البحر الأحمر، بعد أن فرضت نفسها على خريطة السياحة العالمية، محققة أعلى معدل تنمية واستثمار في نموذج فريد يجمع بين روح الكفاح والتصميم والإبداع.

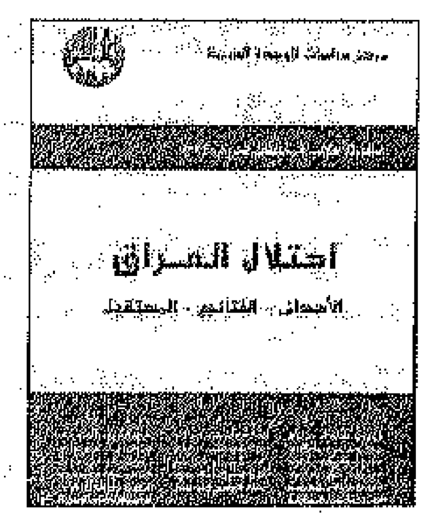
يلقي الكتاب الضوء على البحر الأحمر أو «بحر مور» عبر التاريخ منذ عهود الفراعنة والعصر الروماني والفتح الإسلامي، كما يستعرض المشروعات التي قام بها الفريق عفيفي منذ توليه المنصب حتى تركه عام ١٩٩١ كمحافظ للجيزة.

ويضم الكتاب أيضاً عشرات المقالات التي كتبها كبار الكتاب والصحفيين عن الإنجازات التي تحققت خلال هذه السنوات العشر.

احتلال العراق: الأهداف.. النتائج.. المستقبل

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية
سلسلة كتب المستقبل العربي (٣٢)، ٣٥٨ صفحة، ١٠ دولارات أو ما يعادلها



يشكل غزو العراق واحتلاله من قبل القوات الأمريكية ـ البريطانية منعطفاً حاسماً وخطيراً في التطور السياسي للعراق ولمجمل المنطقة العربية والعلاقات الدولية، فهو يمثل مقدمة دراماتيكية لهجمة استراتيجية شاملة على مجمل الوطن العربي آذن بها اليوم مشروع «الشرق الأوسط الكبير» الذي تطرحه الإدارة الأمريكية إطاراً إقليمياً جديداً لإعادة صوغ كيان المنظومة العربية بعد توسعتها لتضم بعض دول الجوار الإسلامي فضلاً عن الكيان الصهيوني.

واليوم، وبعد عام على الاحتلال، إذ يحاول الشعب العراقي أن يدافع عن وجوده واستقلاله ووحدته ببسالة وطنية نادرة، فإن الأمة العربية وأمم العالم أجمع مطالبة بالبناء على هذه الصحوة الوطنية العراقية من خلال تقديم ردود سياسية فعالة تكف الاندفاعة العدوانية الأمريكية المنفلتة من كل عقال، وتفرض عليها قيد القانون الدولي.

تنصرف مادة هذا الكتاب إلى تناول تلك القضايا جميعاً التي أثارها الاحتلال، ومجمل الذيول والتداعيات التي أطلقها على أكثر من صعيد في الداخل العراقي وفي الوطن العربي، وفي المحيطين الإقليمي والدولي.

محمد فلسطين

مصر: دار بردي

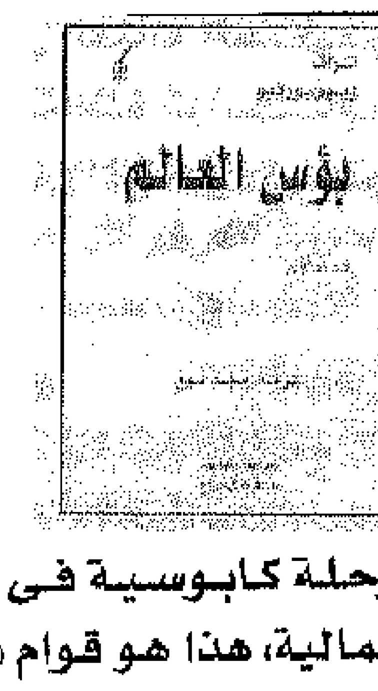


قصة احتلال الصهاينة لفلسطين، يحكيها هذا الكتاب عبر لوحات تشكيلية للفنان محمد فلسطين التي يرفض من خلالها هذا الظلم الذي تعرض له هو وأهله، ويؤكد ـ من خلالها أيضاً ـ رفضه القاطع والمستمر لأن يصبح ـ وهو في وطنه ـ بلا وطن وبلا جنسية!

تشي لوحات الكتاب بطقس إنساني ـ نضالي نبيل، يواجه من خلاله الأطفال ببراءتهم، جبروت قوة غاشمة اغتصبت أرضهم ولكنها فشلت في أن تخمد داخل نفوسهم عشق وطنهم ورغبتهم الجامحة في العودة إليه.

بؤس العالم (٣ أجزاء)

إشراف: بيير بورديو
ترجمة: محمد صبح ـ سلمان حرفوش ـ رندا بعث
مراجعة: د. فيصل دراج
دمشق: دار كنعان، ١١٤٦ صفحة



رحلة كابوسية في أرجاء عوالم الرأسمالية، هذا هو قوام «بؤس العالم» الكتاب الضخم الذي أنجزه بيير بورديو ومعاونوه من الباحثين الاجتماعيين.. وحسب ما يقول د. فيصل دراج الذي قام بمراجعة ترجمة الكتاب وتقديمه، فإن بورديو يوظف المعرفة من أجل خدمة البشر المضطهدين، ويعطي درساً نموذجياً في إنتاج المعرفة الصحيحة، من خلال حوار البشر وقراءة الشروط الموضوعية التي يعيشون فيها.. لأن المعرفة تتراءى في أرجاء الحياة اليومية ولا تستولد من صفحات الكتب الجاهزة.

يبحث الكتاب في مكونات العنف الاجتماعي، الصادر عن أرواح مكبوتة ومحرومة أو عن حرمان يراكم الكبت قبل أن يطلقه عنيفاً وقاسياً. يقر بورديو في كتابه أيضاً أن بؤس العالم يتبدى في وعي مغترب وفقير يردد ما لقنته «شروط حياة» تفتقر إلى الحياة، وتستند إلى «رأسمالية جديدة» أو «ليبرالية جديدة» تضع الدولة في مكان ملغز، ترى منه البشر ولا تراهم أيضاً: تراهم وهي تضع سياسات اقتصادية وثقافية وإعلامية مجحفة.. ولا تراهم وهم يتفككون في حاضر لا أفق له..

ولأن «اقتصاد السوق» لدى الليبرالية الجديدة أصبح المسيطر عملياً ونظرياً على المستوى الكوني، فمن الطبيعي ـ كما تزعم ـ أن تخضع كل الظواهر الاجتماعية المختلفة له، سواء الثقافة أو الفن، في حين ينبغي أن تمارس السياسة دورها بما يحفظ استقلال السوق وعقلانيته.

إلا أن هذه الأفكار/ الوقائع التي تروج لها الليبرالية الجديدة تتصادم مع واقع مرير، فبعد أن كان التفاوت في توزيع الثروة بين ٨٠٪ من سكان الأرض لا يتجاوز حدود نسبة الواحد إلى اثنين قبل الثورة الصناعية، أضحت هذه النسبة بعد قرنين من التوسع الرأسمالي على المستوى العالمي تساوي واحداً إلى ستين، في الوقت الذي أصبح فيه سكان المراكز الرأسمالية العالمية يمثلون ٢٠٪ فقط من سكان العالم.

ويشير الكتاب إلى أن النظر النقدي والمدقق على الحديث المتواتر عن ثورة الاتصالات، يؤدي إلى دلالة واحدة وهي: تأمين حركة رؤوس الأموال ومراقبة فعالة للأسواق المالية من أجل تصحيح كل ما يعوق الربح أو يبطئ مساره، كأن التقنية المتطورة، وهي إبداع إنساني عام، قد كرست لأهداف نخبة عالمية تقف فوق البشر وعليهم في آن، ولهذا فإن «زمن الاتصالات» هو بالمعنى الإنساني العام زمن «غياب الاتصالات»، ذلك أن الفضائيات والإنترنت تدفع بالإنسان إلى عزلة متزايدة، وتنتج جمهوراً جديداً ينظر صامتاً إلى ما تبثه الأجهزة السمعية ـ البصرية المتطورة. وفي هذه الحدود يتطاير تماماً معنى الديمقراطية، ولا يبقى أمام الجماهير إلا عملية الانتخابات التي تحولت إلى طقس شكلاني يوهم الفرد بين فترة وأخرى أنه قادر على اختيار السياسيين الذين يمثلونه.

ورغم سوداوية الرحلة الكابوسية التي رصدها الكتاب، فإن ما يدعو إلى الأمل في المستقبل، هو أن الكتاب نفسه بيع منه أكثر من ١٠٠ ألف نسخة في فرنسا وحدها وترجم إلى لغات عدة، وتحولت أجزاء منه إلى عمل مسرحي، كما أعيد طبعه في فرنسا في طبعة شعبية.. وكل هذا في حد ذاته يؤكد أن مقولات الليبرالية الجديدة تواجه مقاومة حقيقية، وأن الانتصارات النهائية التي تقول إنها حققتها على المستوى الكوني محل شك، إن لم تكن سلسلة من الأكاذيب.

فلسفة التكامل والتعدد.. رحلة استكشاف في التاريخ المعاصر

د. طارق علي حسن
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤، ٣٩٠ صفحة



من الصعب تصنيف كتابات د. طارق.. فهي تنتقل بين الفلسفة والدراما والتأملات، إلى الدراسات الاجتماعية والإنسانية والعلمية، إلى مجالات الفن والموسيقى والأدب.

وهذا الكتاب «فلسفة التكامل والتعدد» لا يشذ عن هذه القاعدة، فهو يصول ويجول في العديد من فروع الفن والأدب والمعرفة في تاريخنا المعاصر.

فالكتاب يرفض التاريخ الذي يكتبه ويسجل أحداثه المنتصر، فهذا عين التزوير، الذي يؤدي إلى غياب القدرة على التعلم من أخطاء الماضي، كما أن الحضارة الغربية الراهنة بامتلاكها أجهزة الإعلام وتفوقها في ثورة العلوم والتكنولوجيا أقنعت شعوبها وشعوب العالم، أنها المرجع الذي ينبغي أن يقاس عليه أي تقدم في كل بلاد الأرض الأخرى. فهذه الحضارة بهذا المفهوم تحطم الآخر.

طلال بن عبد العزيز آل سعود ـ الرؤية والمنهج

صابر عبد الرحمن طعيمة
بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠٠٣، ٢٣٢ صفحة



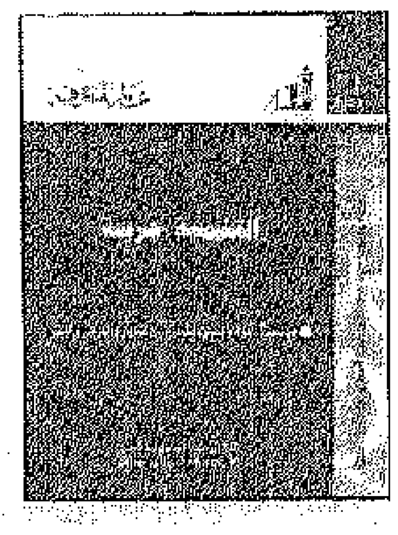
تبوأ الأمير طلال بن عبد العزيز العديد من المناصب والمهام داخل المملكة العربية السعودية. وفي هذا الكتاب يلقي المؤلف الضوء على علاقة الأمير طلال بجمال عبد الناصر وكيف أنه أيد دعوته في الكفاح ضد الاستعمار وآمن بدعوته للقومية العربية، وإن كانت له تحفظات على الحريات والتأميم في التجربة الناصرية. كما يستعرض الكتاب آراء الأمير طلال في الكثير من القضايا منها: السلام مع إسرائيل، والإسلام السياسي، والقومية والإسلام، والعولمة

وعلاقة الإسلام بالغرب، ومشكلات المرأة في الوطن العربي ودورها السياسي والاجتماعي.

التنمية حرية

أمارتيا صن

الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٤



صدر العدد ٣٠٣ من سلسلة عالم المعرفة تحت عنوان «التنمية حرية: مؤسسات حرة وإنسان متحرر من الجهل والمرض والفقر». والكتاب هو الأول لأمارتيا صن بعد فوزه بجائزة نوبل للاقتصاد عام ١٩٩٨. يتضمن الكتاب اثني عشر فصلاً يقدم من خلالها المؤلف رؤيته للعلاقة بين التنمية والحرية معتبراً أن الحريات الإنسانية هي أساس تقييم التنمية والتطوير.

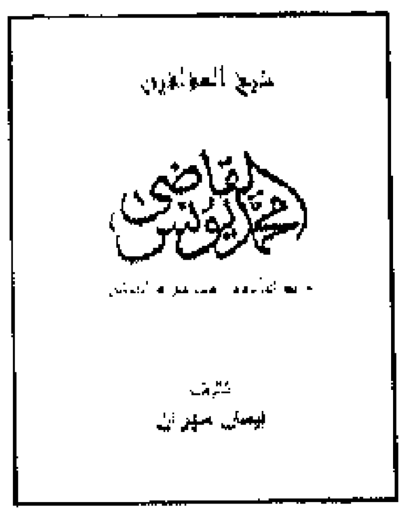
ويلتقي علم الاقتصاد بالفلسفة في هذا الكتاب الثري الذي يعرف الحرية بكونها عاملاً للتنمية وهدفاً أساسياً لها. الجديد الذي يحمله الكتاب هو البعد الإنساني الذي غالباً ما تفتقر إليه الدراسات الاقتصادية الأخرى، حيث يقدم «أمارتيا صن» رؤيته الاقتصادية من منظور أخلاقي، وهو أمر غير معهود بالنسبة للدراسات التي تبحث في التنمية الاقتصادية.

إن تفاؤل أمارتيا صن واقتراحاته الجادة تجعلنا متطلعين إلى حلول محتملة لمشكلة العالم الأولى: اللامساواة.

شيخ المؤلفين محمد يونس القاضي رائد التأليف المسرحي والغنائي

إيمان مهران

القاهرة: ٢٠٠٤، ٢٨١ صفحة



جهد كبير بذلته الفنانة والناقدة إيمان مهران في جمع مادة هذا الكتاب الذي يدور حول شخصية مجهولة الاسم لدى أبناء الجيل الحالي، رغم أن إبداعاتها تجري على كل لسان..

فالقاضي هو صاحب كلمات النشيد الوطني «بلادي.. بلادي» وكلمات أغاني «زوروني كل سنة مرة» و«أنا هويت وانتهيت» و«أهو دا اللي صار» و«خفيف الروح بيتعاجب» وأيضاً أغاني «إرخي الستارة اللي فريحنا» و«بلح زغلول» و«أبوها راضي وأنا راضي» و«تعالى يا شاطر نروح القناطر».

ولد القاضي عام ١٨٨٨ وتوفي عام ١٩٦٩، وحسب رصد المؤلفة فقد تعدت أعماله المسرحية ٥٨ عملاً اجتماعياً وفكاهياً ذات محتوى سياسي، مما أدى بقوات الاحتلال الإنجليزي إلى اعتقاله ١٩ مرة، كما أمر الاحتلال بوقف عرض بعض مسرحياته.

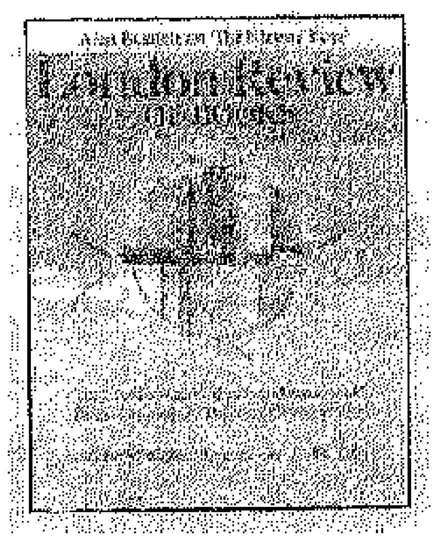
وكان المسرح الغنائي في مفهومه «جريدة سياسية» يضع خلالها المعاني والأغاني التي تلهب حماس المتفرجين لتخرج المظاهرات بعد العرض تطالب برحيل الاحتلال والحصول على الاستقلال ومنها مسرحية «كلها يومين» التي منعها الرقيب الإنجليزي بعد أن أثارت حماس المتفرجين الذي هتفوا بسقوط بريطانيا بمجرد إسدال ستارة نهاية العرض، في مظاهرة حاشدة جابت شارع عماد الدين ووسط القاهرة.

دوريات

London Review of Books

(مجلة لندن لعروض الكتب)

Volume 26, Number 11 - 3 June 2004



في هذا العدد من مجلة عروض الكتب الإنجليزية، التي يصدر منها عددان كل شهر، اهتمام واضح بالمذكرات والسير. فنجد عرضاً لمذكرات الروائي الكولومبي جابريل جارسيا ماركيز «أن نعيش لنحكي» كتبه الناقد الإنجليزي مايكل وود، ومقال طويل حول حياة وأعمال السينمائي الشهير أورسون ويلز من خلال كتاب حديث يتناول أعماله التي كتبها أو أخرجها أو مَثّل فيها. ومن أروع ما يحتويه العدد في هذا المجال قطعة من السيرة الذاتية كتبها خصيصاً للمجلة آلان بنيت، الكاتب المسرحي الشهير التي تعرض له في لندن حالياً مسرحية (History Boys) فيأتي في مقالته بسرد لذكرياته الشخصية عندما كان يدرس التاريخ في أوكسفورد، وكيف أثرت خبرته الحياتية في كتابته لهذه المسرحية. الأمر الذي لا يخلو من نقد لأوضاع التعليم الحالية في بريطانيا.

ومن ناحية أخرى، وفي مجال التعليق على الشئون السياسية يكتب إسحق لاور الروائي الإسرائيلي المقيم في تل أبيب، مقالا قصيرا عن وحشية سلطات الاحتلال الإسرائيلية في التعامل مع الفلسطينيين في مدينة رفح، محذراً من تحول المدن الفلسطينية إلى مجموعة من «الجيتو» المنفصلة عن بعضها والمعزولة عن باقي العالم.

وأخيراً، يختتم العدد بمقال طريق يحتوي على تحليل ونقد اجتماعي لثقافة الرجال المعاصرة في بريطانيا من خلال مراجعة قام بها الروائي والناقد أندرو أو هايجن لعدد من المجلات الرجالية (٩ مجلات) المتخصصة.

أدب ونقد

القاهرة: حزب التجمع، يونيو ٢٠٠٤



حفل عدد شهر يونيو من المجلة بالعديد من الموضوعات المتميزة منها قراءة في كتاب مجهول للشيخ علي عبد الرازق بعنوان «الإجماع في الشريعة»، ومقال للدكتور محمود إسماعيل «فقهاء الرب وفقهاء السلطان» وآخر للدكتور حسين مروة بعنوان «صفحات من كتاب النزعة المادية في الفلسفة العربية الإسلامية». اشتمل العدد أيضاً على موضوعين عن الفنانة التشكيلية الشابة الراحلة مها طلعت الشايب، ودراسة عن الفنان الراحل محمود مرسي.

جريدة الفنون

القاهرة، العدد ٤١، مايو ٢٠٠٤



يتضمن هذا العدد من جريدة الفنون، عدداً من القضايا الفنية التي ترتبط بالواقع الآني، من أبرز هذه القضايا ما ذخرت به القنوات الفضائية من برامج اتفق على تسميتها بتليفزيون الواقع، مثل «ستار أكاديمي»، «على الهوا سوا»، «الرئيس».. وغيرها، وهي البرامج التي تناولها بالتحليل د. مدحت أبو بكر، كما تضمن العدد أيضاً موضوعات عن المسرح في رومانيا وفي العراق بالإضافة إلى الأبواب الثابتة.

الثقافة العالمية

الكويت: مايو - يونيو ٢٠٠٤



صدر العدد ١٢٤ من مجلة الثقافة العالمية، وهو يحفل بعدة مواضيع متميزة أهمها، ملف العدد «من القطب العالمي الثاني؟» الذي يثير تساؤلات عدة حول الدولة التي تستحق الحصول على لقب القطب العالمي بعد الولايات المتحدة.

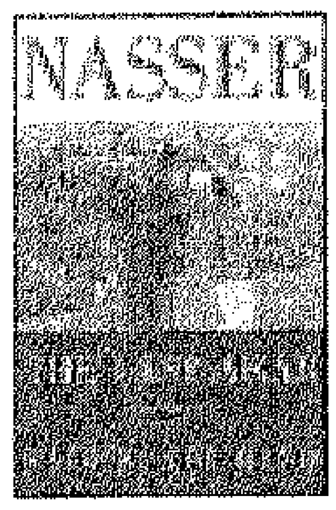
يتضمن العدد أيضاً سبعة مقالات أخرى مهمة منها «تطور الأغذية المعدلة وراثياً» و«الأهداف الجديدة للجغرافيا الفضائية».

Nasser: The Last Arab

(ناصر: العربى الأخير)

Said Aburish

St. Martin's Press, 2004, 432PP., $ 29.95



يقول الصحفى الفلسطينى المقيم فى لندن سعيد أبو الريش أن كتابه هو الثامن والعشرون من بين الكتب التى تناولت سيرة حياة الرئيس جمال عبد الناصر. الأمر الذى يدلل على استمرار جاذبية الزعيم المصرى الذى أخرج الملك فاروق من البلاد وأخرج البريطانيين من قناة السويس، وتزعم حركة الوحدة القومية العربية، بل ويعتبر المؤلف أن جمال عبد الناصر أهم زعيم ظهر فى المنطقة العربية بعد محمد رسول الله والناصر صلاح الدين.

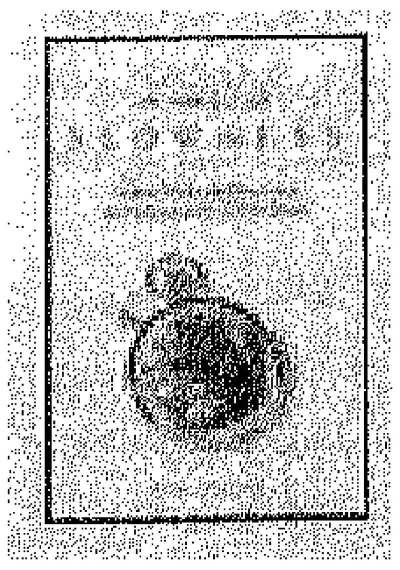
تتركز مقولة المؤلف الرئيسية التى يوجهها للغرب فى هذا الكتاب، أن محاربة الغرب لمشروع عبد الناصر القائم على كيان سياسى عربى موحد ودولة علمانية حديثة باعتباره تهديداً للمصالح الغربية كان خطأ كبيراً. وهذا الخطأ هو الذى جعل القوى الغربية تدعم الإسلام السياسى كبديل عن المشروع العربى مما أفرز الجماعات الإرهابية المسلحة التى تهدد أمن المنطقة والعالم كله الآن.

In Praise of Slowness

(فى مدح التمهل والتأنى)

Carl Honore

Orion, 310PP., £ 16.99



فى عالم يقول العلماء عنه أنه شديد التغير بشكل لم يحدث من قبل ويلهث فيه الإنسان من أجل اللحاق بعمله وتعليم أولاده والحصول على رزقه، هل النصيحة، بأن يتأنى الإنسان فى خطواته وأن يهدئ من روعه وأن يبطئ (بالمعنى الحرفى) من مشيه، تكون فى غير محلها؟ إن مؤلف هذا الكتاب، وهو صحفى كندى يجادل بأن العكس هو الصحيح وأن الحل فى المعاناة التى يواجهها الإنسان فى عالم اليوم هو أن يتأنى فى كل شىء ويتمهل.

لقد أصبحت لدينا عادات فرضها التطور غير المسبوق فى شتى المجالات، ولذلك تجاوز الإنسان حتى أحلامه فى القرون السابقة وأصبح لديه شعور وثقة بأنه يستطيع أن يحقق ليس فقط ما يريد ولكن أيضاً بسرعة فائقة.

ويقول المؤلف إن إنسان العصر الحديث أقل سعادة وصحة بل وإحباطاً وأكثر توتراً بسبب هذا الاندفاع واللهث نحو تحقيق الرغبات.

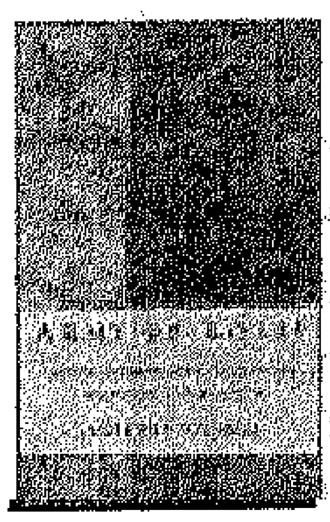
ويشير المؤلف إلى أن الإنسان الحالى أصبح لديه هوس بالسرعة. ويلاحظ أن الأب يضغط على أولاده لكى يقوموا بأعمالهم بشكل سريع دون أن يدركوا عواقب ذلك. ولذلك فإنه، أى المؤلف، يطالب بأن يعاد النظر فى أساليب التعليم بحيث يكون الإنجاز هو الأساس وليس السرعة فى الإنجاز.

Army of Roses: Inside the World of Palestinian Women Suicide Bombers

(جـيـش الـورود.. داخـل عـالـم الفدائيات الفلسطينيات)

Barbara Victor

Constable, 307PP., £ 8.99



يجد الغربيون صعوبة كبيرة فى فهم دوافع أن يقوم فلسطينى ما بتفجير نفسه فى موقع إسرائيلى سواء كان ذلك الموقع مدنياً أم عسكرياً. وهم يجدون صعوبة أكبر لو كان هذا المفجر أو الفدائى أو الانتحارى «حسب الوصف الغربى فتاة أو سيدة».

ومؤلفة هذا الكتاب صحفية أمريكية قامت بتغطية الأحداث فى فلسطين وأعدت برنامجاً تليفزيونياً وثائقياً عن المرأة الفلسطينية والعمليات الانتحارية. وكتابها هذا يدور حول نفس الموضوع. وهى من البداية ترفض هذا الدور للمرأة الفلسطينية وتتهم الرجال بجعل الفتيات والسيدات الفلسطينيات يقمن به. وتنقل المؤلفة عن فدائية فلسطينية قولها: «أنتم السيدات الأمريكيات تتحدثن دائماً عن المساواة. حسناً يمكنكن أن تأخذن درساً عملياً عن المساواة من المرأة الفلسطينية. إننا نموت بأعداد متساوية مع الرجال فى المعركة ضد المحتلين».

وقد أخذت المؤلفة عنوان كتابها من كلام الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات فى يناير ٢٠٠٢ عندما خاطب مجموعة من الفتيات الفلسطينيات قائلاً أنتن جيش من الورود ستقهرن الدبابات الإسرائيلية.

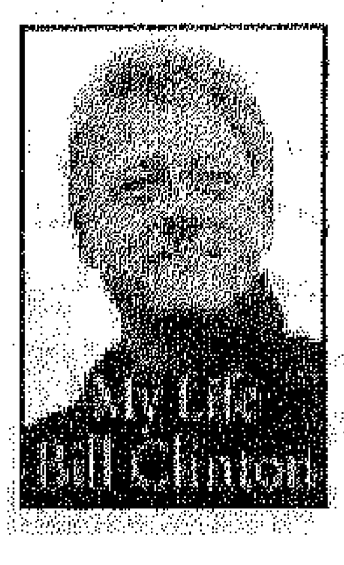
وتتحدث المؤلفة عن مجموعة من العمليات الفدائية التى قامت بها فتيات فلسطينيات ودوافعهن وراء ذلك والخلفيات الاجتماعية السياسية لهذه الأعمال، كما تتحدث عن ردود فعل الجنود الإسرائيليين وكيف أنه حسب زعمه يمكن اكتشاف الشخص الذى سيقوم بالعمل الفدائى. ويقول أحد جنود الاحتلال: إن الشخص الذى يوشك على تفجير نفسه لا يبدو مثل الشخص العادى، ولذلك فإن رجالنا وفتياتنا تدربوا على اكتشاف أى تغيير ولو طفيف يمكن من خلاله اكتشاف هؤلاء الأشخاص أو الفتيات ورغم هذا الادعاء فإن عمليات كثيرة تمت وقام بها شباب وفتيات دون أن يستطيع الجيش الإسرائيلى كشفهم.

My Life

(حيـــاتى)

Bill Clinton

Alfred A. Knopf, June 22, 2004, 900Pages, $ 35.00



انتظر العالم بفارغ الصبر مذكرات بيل كلينتون من كثرة الدعاية التى قامت بها الصحف والإذاعات منذ أن تم الاتفاق بين الناشر والرئيس الأمريكى الأسبق على هذا الكتاب. وفى أحاديثه التى سبقت نزول الكتاب إلى الأسواق، أغرى بيل كلينتون القراء بأن عدة أمور سيتم الكشف عنها لأول مرة فى كتابه الذى يحتوى على أكثر من تسعمائة صفحة. وبالفعل فإن ظروف إصدار هذا الكتاب تمثل ظاهرة جديدة فى عالم النشر، فبالرغم من أن تاريخ نزول الكتاب للأسواق كان ٢٢ يونيو، إلا أنه قد تم طلب كميات هائلة منه قبل هذا التاريخ بأسابيع عن طريق مكتبة أمازون الإلكترونية على الإنترنت، فتصدر قوائم الأكثر مبيعاً حتى قبل أن يقرأه أحد!

إن الكثيرين يعترفون بأن كلينتون ليس رئيساً أمريكياً عادياً، فهو أول رئيس ديمقراطى يفوز بفترتين رئاسيتين منذ فرانكلين دوايت روزفيلت. وعندما ترك الرئاسة وهو مازال فى الثالثة والخمسين من عمره، ظل فى دائرة الضوء من خلال تأسيسه لمنظمة دولية تحارب مرض الإيدز. ثم يأتى هذا الكتاب الذى هو فرصة لكلينتون للحديث عن فلسفته السياسية ونظرته للأحداث التى مضت.

تبدأ مذكرات كلينتون بطفولة ونشأة ملحمية، حتى أنه لا يصل إلى الرئاسة إلا فى صفحة ٤٧٦، وقد انصب هجومه على كينث ستار ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالى (FBI) لويس فريه الذى قال عنه أنه «دمر عمليات السياسة الخارجية الأمريكية».

ويروى كلينتون تفاصيل لقاء جمعه بالرئيس الأمريكى الحالى بوش قبل مغادرة كلينتون فى مكتبه بالبيت الأبيض بقليل، فقد نصحه فى هذا اللقاء بزيارة كوريا الشمالية والاتفاق معهم ولكن بوش غير الموضوع بسرعة، كما حذر كلينتون بوش فى هذا اللقاء من خطر بن لادن والقاعدة باعتبارها المشكلة الأمنية الأولى التى تواجه أمريكا بينما قال له أن العراق تأتى فى المرتبة الخامسة.

ويعترف كلينتون بأخطائه الأخلاقية التى افتضحت أثناء قضية مونيكا لونسكى ويروى كيف أثر ذلك على زواجه، فقد اضطر للنوم على أريكة لمدة شهرين، كما خضع مع هيلارى لعملية من الاستشارات النفسية لإنقاذ زواجهما لمدة عام كامل.

ومن بين ما يكشف عنه الكتاب السبب الذى جعل كلينتون يعفو عن مارك ريتش قبل أن تنتهى مدة رئاسته بأيام قليلة، حيث يذكر كلينتون أن هذا كان تلبية لطلب من إيهود باراك رئيس وزراء إسرائيل آنذاك.

Elections in the Middle East.. What do they Mean?

(الانتخابات فى الشرق الأوسط.. ماذا تعنى؟)

Edited by Iman Hamdy

AUC Press, 2004,



هذه الأوراق البحثية تغطى موضوعاً مهماً للغاية، وهو الانتخابات البرلمانية والرئاسية فى مصر والسودان والأردن وتركيا ولبنان وإسرائيل والجزائر. وتتناول الأوراق هذه الانتخابات فى سياق التحديات الكبرى التى تواجه المنطقة كالديمقراطية والاستقرار السياسى والمشاركة السياسية.

وتبدو أهمية هذه الأوراق فى وقت تطالب الولايات المتحدة والدول الغربية بإصلاح سياسى وديمقراطى حقيقى فى دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من خلال المشروع الأمريكى الذى أصبح يعرف بالشرق الأوسط الأوسع. وإذا كانت الانتخابات هى العنصر الأهم فى العملية الديمقراطية إلا أنها تبقى جزءاً فى إطار

منظومة شاملة لابد من اتباعها لكي يمكن القول إن هناك ديمقراطية حقيقية.

وتبدو التجارب التي شملتها الأوراق متنوعة بدرجة كبيرة لكنها تبقى في إطار حالة لم تصل بعد إلى مرحلة الديمقراطية التي تتطلع إليها دول المنطقة.

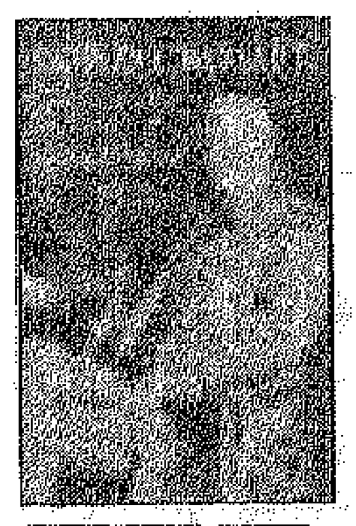
■

Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul

(لورد كرومر، الإمبريالي الفيكتوري والقنصل الإدواري)

Roger Owen

Oxford University Press, 2004, 436PP



كان إيفلنج بارنج، الذي أصبح لورد كرومر عام ١٨٩٢، حاكم مصر الفعلي لمدة تصل إلى ربع قرن، من ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧، وفي تلك السنوات التي كانت فيها القاهرة وكلكتا تمثلان قطبي النفوذ البريطاني في آسيا وأفريقيا، عبّر الحضور الطاغي لكل من لورد كرومر ولورد كرزون عن روح الحكم الإمبريالي في أوج الإمبراطورية البريطانية.

يقول روجر أوين، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة هارفارد، عن الأسباب التي دفعته للكتابة عن اللورد كرومر، أن منها تشابه الظروف العالمية في تلك الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى بموجة العولمة التي تمر بعالمنا الآن، ففي ذلك الوقت سيطرت الأفكار الاقتصادية الليبرالية والاتجاه نحو الانفتاح على التجارة الدولية، وخفض الجمارك والضرائب، وإدارة الديون الوطنية إدارة مالية دولية. كذلك أراد المؤلف أن يجرب أدواته في الاقتراب بشكل إنساني من سيرة حياة ذلك الرجل الذي كرهه المصريون وأن يقترب من الأفكار التي كانت سائدة حول التفوق العنصري، وشعور المحتل الأوروبي بواجب تطوير الشعوب المحتلة ماديًا وحضاريًا.

يتناول الكتاب نشأة إيفلنج بارنج، وتعليمه، وبداية حياته المهنية، سنواته في الهند وزواجه الأول ثم الثاني (يكشف الكتاب لأول مرة عن وجود ابنة غير شرعية للورد كرومر). وفي سنوات كرومر الطويلة في مصر، يبين الكتاب من خلال منزل اللورد، كيف كان أسلوب الحياة والعمل، والمعارك السياسية والأزمات التي دخل فيها كرومر وأسلوبه في بسط سيطرته ونفوذه، سواء على الخديوي ورجال الحركة الوطنية والوزراء، أو على غرمائه من الساسة البريطانيين.

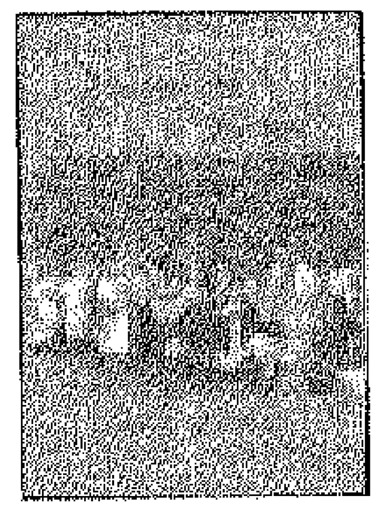
■

The Infidel Within: Muslims in Britain Since 1800

(غير المسيحيين.. المسلمون في بريطانيا منذ ١٨٠٠)

Humayun Ansari

Hurst, 438PP., £ 14.95



حتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت الطبقة أهم من العرق في بريطانيا، ولذلك كان المسلمون الأرستقراط موضع ترحيب كبير في هذه البلاد بينما كان المسلمون الفقراء يعانون من شظف العيش بل والموت جوعًا في الموانئ البريطانية.

ويسرد هذا الكتاب تاريخ المسلمين في بريطانيا منذ عام ١٨٠٠ حيث بدا التواجد الإسلامي محسوسًا هناك لكن ذروة التواجد كانت عقب الحرب العالمية الأولى عندما هاجر عشرات الآلاف من المسلمين إلى بريطانيا للعمل في صناعة الغزل والنسيج وكان معظمهم قادمًا من الدول التي كانت تحتلها بريطانيا، وظلت الهجرة مفتوحة أمام المسلمين من هذه البلدان إلى أن بدأت لندن تفرض القيود في الستينيات من القرن العشرين.

وقد جاء معظم هؤلاء المهاجرين من مناطق ريفية ولم يكن لديهم خلفية تعليمية جيدة وكان أكثر ما يشغلهم بالإضافة إلى المال وتحسين أحوالهم المعيشية، أن يقوموا ببناء مؤسساتهم الإسلامية كالمساجد حتى يمكن أن يؤدوا فرائضهم فيها يوميًا.

ويشير المؤلف إلى أن هؤلاء المسلمين ظلوا دون أي تأثير سياسي في بريطانيا حتى منتصف السبعينيات عندما بدأت الصورة تتغير قليلاً، فقد بدأت عناصر من الجالية الإسلامية (غالبيتهم من الهنود والباكستانيين) في المطالبة بالاعتراف بالهوية الثقافية والدينية لهم. على المستوى الاقتصادي ظلت الجالية الإسلامية عمومًا تعاني من نسبة عالية من البطالة خلال الثمانينيات والتسعينيات وحتى الآن.

لكن العامل الجديد الذي طرأ على هذه الجالية هو ظهور الإسلام السياسي الذي أدى إلى بروز احتجاجات الشوارع والمظاهرات المناهضة للحرب في العراق ولأي كتاب يناهض الإسلام كما حدث مع كتاب سلمان رشدي «آيات شيطانية».

ويقول المؤلف أنه في الوقت الذي تتيح فيه الديمقراطية البريطانية حرية التعبير والتظاهر لهؤلاء النشطاء الإسلاميين إلا أنه للأسف لم يؤد ذلك إلى تجدد الفكر الليبرالي داخل الجالية الإسلامية في بريطانيا بل زاد التشدد والتطرف لدى فئة كبيرة من أبنائها.

■

Bitter Revolution: China's A Struggle With the Modern World

(ثورة مريرة: صراع الصين مع العالم الحديث)

Rana Mitter

OUP, 357PP., £ 18.99



بالنسبة لكثير من الصينيين فإن العصر الحديث يبدأ في ٤ مايو ١٩١٩ عندما تظاهر الطلاب الوطنيون احتجاجًا على التنازل الصيني لصالح اليابان في اتفاقية فرساي، وساروا عبر شوارع بكين القديمة وهاجموا منزل أحد الوزراء الذي اتهموه بالخيانة وحطموا كثيرًا من العقارات.

وعقب ذلك، كما يقول المؤلف وهو محاضر في جامعة اكسفورد، اندلعت تحركات كثيرة للطلاب أشهرها ما حدث بعد حوالي ٧٠ عامًا أي في ٤ يونيو ١٩٨٩ في ساحة ميدان السلام السماوي في قلب بكين عندما خرج الطلاب من أجل الحرية وارتكب البوليس ضدهم مذبحة بشعة.

وما بين هاتين التظاهرتين وما بعدهما، لعب الطلاب والمثقفون دورًا كبيرًا في حياة الصين وفي نظرتها إلى العالم الحديث. يجري المؤلف مقارنة بين الصين واليابان ولماذا نجحت الثانية وظلت الأولى تعاني من المشاكل والتخلف حتى سنوات قليلة مضت. ويشير إلى أن الانغلاق الصيني وعدم رغبة الحكام في الانفتاح، كما أنه كانت هناك ثقافة سائدة باسم النهر الأصفر تدعو إلى الانغلاق والتقوقع وحاول كثيرون تغييرها من أجل ثقافة المحيط الأزرق العميق أي بدلاً من النظر إلى النهر في داخل الصين لابد من النظر أعمق إلى العالم من خلال المحيط.

وفي كل الأحوال فإن الطلاب لعبوا دورًا كبيرًا في هذه التغيرات ودفعوا ثمنًا باهظًا من أجل رفاهية وحرية الصين.

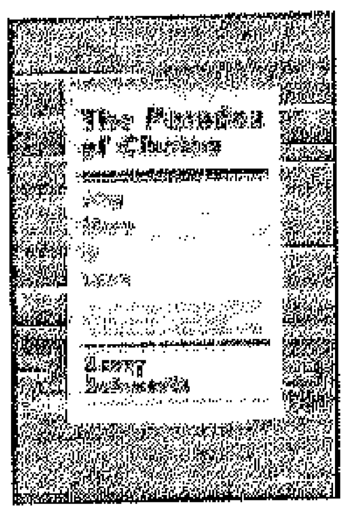
■

The Paradox of Choice: Why More is less

(معضلة الاختيار: لماذا يصبح الأكثر أقل؟)

Barry Schwartz

Ecco, 2004, 288PP.



يبين أستاذ علم النفس باري شوارتز في هذا الكتاب كيف أن الحياة الحديثة خاصة في البلدان التي تنتشر بها السلع الاستهلاكية توهم الفرد بأن أمامه اختيارات متعددة بينما في الواقع هي لا تقدم سوى خيارات محدودة في تنوعها واختلافها. كما أن وجود هذا الكم من البدائل في كل صغيرة وكبيرة يجهد ذهن الإنسان ويرهقه بدلاً من إسعاده بوجود المنتج الذي يناسب احتياجاته تمامًا. وبينما يرى البعض أن الإنسان الفرد يجد حريته في تعددية الاختيارات إلا أن شوارتز يرى أن كل هذه الاختيارات تؤثر سلبيًا على الصحة النفسية للإنسان وتقيده، فعملية اتخاذ قرار الشراء من بين عدد من المنتجات لنفس السلعة تتطلب وقتًا وجهدًا وشكًا وخوفًا، مما يشل الإنسان عن الفعل. لذلك يقدم المؤلف للقارئ في نهاية الكتاب مجموعة من الخطوات العملية في كيفية تقليل التوتر الناجم عن عملية اتخاذ القرارات.

■

Eats, Shoots & Leaves: The Zero Tolerance Approach to Punctuation

(لا تسامح مع الخطأ في علامات الترقيم!)

Lynne Truss

Gotham Books, 2004, 240PP.



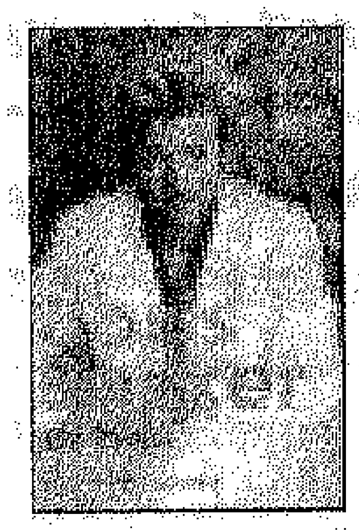
لم يتوقع أحد أن كتابًا حول علامات الترقيم يمكن أن يحقق كل هذا النجاح الذي ناله كتاب المؤلفة الإنجليزية لين تروس.

فقد فزعت المؤلفة من الانحطاط النحوي الذي أصاب مستخدمي اللغة الإنجليزية في بريطانيا، خاصة في تجاهل علامات الترقيم أو استخدامها استخدامًا خاطئًا، الأمر الذي يستحيل

معه توصيل المعانى. الكتاب يمتلئ بالفضائح النحوية فى علامات الترقيم التى تمتلئ بها صحف وكتب ولافتات المطاعم والإعلانات فى بريطانيا، إلى جانب إرشادات وقواعد لكيفية استخدام علامات الترقيم بصورة صحيحة. وتؤرخ لين تروس أيضاً لعلامات الترقيم، فتذكر أن الفاصلة دخلت اللغة الإنجليزية فى القرن السادس عشر، بينما ظهرت أول فاصلة منقوطة عام ١٤٩٤.

ويرى الكثيرون أن عنوان الكتاب اللافت كان عامل جذب رئيسياً للكتاب، فهو نموذج لعبارة تبدل معناها تماماً لمجرد وضع علامات الترقيم فى غير موضعها الصحيح. العبارة جاءت من موسوعة عن الحيوانات، تذكر عن حيوان الباندا أنه يأكل الأعشاب وأوراق الشجر (eats shoots and leaves) ولكن لأن المحرر أساء استخدام علامات الترقيم فجاء المعنى أن الباندا: يأكل، ثم يطلق الرصاص، ثم يرحل!

The Player: Autobiography
(اللاعب.. سيرة ذاتية)
By: Boris Becker With Robert Lubenoff and Helmut Sarge
Bantam Press, 2004, 306PP., £17.99



يعد اللاعب الألمانى بوريس بيكر أحد أهم نجوم التنس فى العالم ورغم أنه اعتزل اللعب منذ فترة إلا أنه مازال حاضراً على الساحة الرياضية وأصبح حالياً من مشاهير العالم فى الرياضة. وقد بدأت شهرته عقب الإبهار الذى قدمه فى بطولة ويمبلدون الشهيرة للتنس عام ١٩٨٤.

ومؤخراً أصدر بيكر كتاباً عن سيرة حياته بمساعدة اثنين من الصحفيين الألمان، وهو فى هذا الكتاب يروى سيرة حياته وولعه بالتنس والمشاكل التى تعرض لها خاصة الإصابات التى جعلته يقلع عن التنس فى عمر صغير نسبياً.

الكتاب يتحدث عن التنس ليس كمجرد لعبة يهواها أشخاص ذوو قدرات خاصة وخلفيات اجتماعية معينة ولكن كرياضة تدخلت فيها عوامل عديدة بما فى ذلك الكمبيوتر بحيث لم يعد الأمر يتعلق بلاعب ومضرب وكرة تنس وملعب فقط، بل صناعة عالمية تدر الملايين على أصحابها. وبالفعل فإن بيكر الذى يعد من أصحاب الملايين سواء من حصيلة الجوائز التى فاز بها أو الإعلانات أو الأنشطة الأخيرة يعد خير ممثل لرياضة التنس فى عهدها الجديد.

A Call To Service: My Vision For A Better America
(نداء الواجب: رؤيتى لأمريكا أفضل)
John Kerry
Viking, 2003, 202PP, $ 24.95



أصدر جون كيرى هذا الكتاب عندما قرر خوض الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠٠٤ و ذلك لتعريف الناخبين بالأهداف التى يسعى لتحقيقها و القيم التى يؤمن بها والتى شكلت رؤيته لأهم التحديات التى تواجه المجتمع الأمريكى وكيفيه تصديه لها.

وفى مجال حديثه عن التحدى الأول وهو توفير الأمن للمواطن الأمريكى يؤكد كيرى أن إستخدام القوة العسكرية يجب أن يلازمه إستخدام الوسائل الدبلوماسية وإحترام القانون الدولى ولذلك فهو يرى أن الإدارة الأمريكية الحالية قد إرتكبت خطأ جسيما عندما اختزلت السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى إستخدام قوة الجيش الأمريكى فقط، و فيما يتعلق بالمسألة العراقية يؤكد كيرى أن التصرفات الأحادية الجانب للرئيس بوش وتجاهل إرادة المجتمع الدولى أدى إلى عزل أمريكا عن العالم وضعف نفوذها ولذلك فإنه يدعو إلى بناء التحالفات مع الدول الصديقة و إعطاء دور أكبر للأمم المتحدة فى عملية إعادة الإعمار.

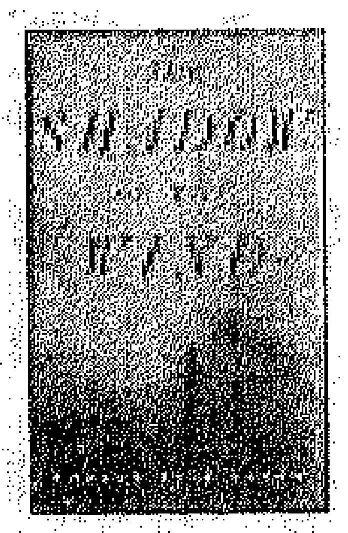
ومن النقاط القليلة التى يتفق فيها كيرى مع بوش هى ضرورة توفير الدعم الكامل لإسرائيل بإعتبارها الحليف الأول لأمريكا فى الشرق الأوسط وهو إن كان يرى أن الضمان الوحيد لأمن إسرائيل هو تحقيق السلام الشامل فى المنطقة إلا إنه مثل بوش يهاجم عرفات ويدعو الفلسطينيين إلى إختيار قيادة سياسية جديدة ملتزمة بالسلام.

ويرى كيرى أن دول الشرق الأوسط تعانى من عدة مشكلات تجعلها أرضا خصبة للإرهاب لذلك فهو سيستمر فى محاربة الشبكات الإرهابية مع الإصرار على التعاون المطلق فى ذلك المجال من كل الأنظمة العربية بالإضافة إلى البدء فى عملية الإصلاح والتحديث فى المنطقة من خلال إستراتيجية شاملة تتضمن أن تعرض أمريكا على الدول العربية إبرام إتفاقية للتجارة الحرة فى مقابل التخلى عن سياسة المقاطعة الإقتصادية تجاه إسرائيل والتوقف عن دعم الإرهاب وإحترام حقوق الإنسان.

ويخصص كيرى معظم الفصول فى كتابه للحديث عن أهدافه وخططه بالنسبة للسياسة الداخلية ففى المجال الاقتصادى يتعهد كيرى بإلغاء التخفيضات الضريبية التى منحها بوش لأكثر شرائح المجتمع الأمريكى دخلا بالإضافة إلى العمل على خفض العجز فى الموازنة العامة إلى النصف فى السنوات الأربع القادمة.

وفيمايختص بالطاقة والبيئة فهو يريد لأمريكا أن تتحرر من الإعتماد الزائد على البترول والذى يتركز ٦٥٪ من احتياطه فى الشرق الأوسط وهو ما يمثل بالنسبة لكيرى خطر يهدد إقتصاد أمريكا وأمنها القومى كما أنه ذو آثار مدمرة للبيئة لذلك فهو يدعو إلى مشروع قومى لتشجيع الإستثمار فى مجال الطاقات النظيفة والمتجددة.

The Shadow of the Wind
(ظل الريح)
Carlos Ruiz Zafon
Translated by: Lucia Graves
Penguin Press, 2004, 480P

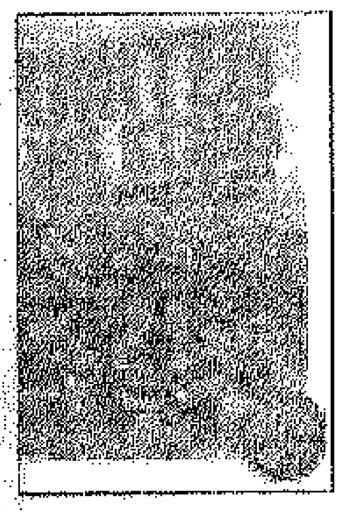


«ظاهرة روائية إسبانية جديدة»، هكذا قال أحد النقاد عن هذه الرواية التى تصدرت قائمة الروايات الأفضل مبيعاً فى إسبانيا طوال العام الماضى وترجمت حتى الآن إلى عشرين لغة حول العالم.

تدور الرواية فى مدينة بارشلونة الإسبانية فى الخمسينيات من القرن العشرين أثناء حكم فرانكو، عندما يأخذ بائع كتب عجوز ابنه الشاب الصغير إلى «مقبرة الكتب» ليختار منها كتاباً، فيسحر الشاب برواية اسمها «ظل الريح» ويقرأها ليكتشف مدى خطورتها، حيث يوجد شخص مخيف يقوم بإحراق أى نسخة يجدها من ذلك الكتاب. وهذا الشخص يحمل اسم أحد الأبطال الشياطين فى الكتاب.

تتشابك فى الرواية العديد من الشخصيات التاريخية والخيالية والواهية، حيث تتلامس حياة شخوص الأحداث مع حياة المؤلف الميت الغامض وأبطال روايته الغامضة فى جو من الغموض والجريمة والرومانسية.

United We Stand: A History of Britain's Trade Unions
(تاريخ نقابات العمال البريطانية)
Alastair J Reid
Allen Lane, 2004, £ 25.00



تواجه نقابات العمال البريطانية فى الوقت الحاضر تراجعاً غير مسبوق فى نفوذها وقدراتها. والبعض ينسب هذا التراجع إلى أخطاء ارتكبتها النقابات فى كيفية تعاملها مع الحكومات البريطانية والتطور التكنولوجى والصناعى الحديثين.

لكن البعض الآخر يعتقد أن هذا التراجع هو دليل على تراجع مكانة بريطانيا ذاتها فى العالم.

وقد تعرضت النقابات العمالية خلال ربع القرن الأخير إلى ضربتين شديدتين، الأولى من حكومة المحافظين بزعامة مارجريت تاتشر فى الثمانينيات عندما أنهت بالقوة إضراب عمال الفحم وقلصت من النفوذ الكبير الذى كانت تتمتع به النقابات فى المجتمع البريطانى، ثم جاء حزب العمال الجديد بزعامة تونى بلير رئيس الوزراء الحالى ليفصم عرى العلاقة الوطيدة بين الحزب والنقابات وليقلل إلى حد كبير من «التقاسم» فى السلطة الذى كان للنقابات داخل الحزب.

إلا أن المؤلف يعود للوراء فى كتابه ليتحدث عن تاريخ النقابات وهو يتوقف عند فترات معينة صعد فيها نجم النقابات وأخرى خبا فيها هذا النجم.

نموذج الصعود يتمثل فى الفترة من ١٨٩٠ حتى ١٩١٨، عندما دخلت معظم فئات المجتمع البريطانى فى عضوية النقابات وأصبح العمال قوة مؤثرة فى الحياة السياسية فى البلاد وترافق ذلك مع ظهور حزب العمال البريطانى كدليل حاسم على أن العمال أن لهم أن يقوموا بدورهم فى شتى شئون المجتمع.

عقب تلك الفترة الذهبية مرت نقابات العمال بفترات هبوط وصعود خاصة عقب الحرب العالمية الثانية مع تغير نمط علاقات العمل الصناعية والخلافات بين النقابات والحكومات وداخل النقابات نفسها.

تمر النقابات حالياً بأزمة، ففى عام ١٩٧٩ كان عدد أعضائها ١٣ مليون شخص، أما الآن فوصل العدد إلى النصف تقريباً ولم تظهر فى الأفق أى محاولة لمواجهة هذه الأزمة.

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

شكر

أولئك الذين يسلكون طريق الكبرياء
ساحقين تحت أقدامهم المخلوقات المتواضعة
مغطين خضرة الأرض الغضة
بآثارهم الدموية
يبتهجون ويرفعون الشكر إليك
يا إلهى
لأن هذا اليوم يومهم
ولكنى أشكرك لأنك جعلت
نصيبى مع الفقراء المتواضعين
الذين يتعذبون
ويتحملون عبء التسلط
موارين وجوههم
خانقين خفقات قلوبهم فى الظلام
ذلك أن كل خفقة من خفقات آلامهم
قد نبضت فى الهاوية الخفية من ليلك
وكل إهانة قد حواها صمتك الكبير
إن الغد لهم
أيتها الشمس
لتشرقى فوق القلوب الدامية
التى تتفتح فى أزهار الصباح
وفوق فجور الكبرياء الليلى
الذى تحول إلى رماد

الكتاب وجهات نظر

تـرحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

ظاهرة مادونا

تعليقًا على المقالة المنشورة بمجلة الكتب.. وجهات نظر عدد شهر أبريل والمعنونة «مادونا من إباحية الجنس إلى أدب الطفل».

أود إبداء الدهشة لأن المقالة بدأت بذكر أن مادونا تمثل ظاهرة ثقافية تجسد تطورات مهمة لحقت بالعالم فى نهاية القرن العشرين ثم صورت هذه التطورات على أنها عملية إعادة تسويق وليس تطور ونضج، وكذلك تزداد الدهشة مع اعتراف المقالة بأن إنتاجها الأدبى للأطفال «قد» يحتوى على معان وقيم جميلة كما أن رسومها بديعة مع النهى الضمنى عنها لأن مؤلفتها مغنية عالمية لها شهرتها كرمز للإثارة والجنس والإباحية منذ عقد الثمانينيات وهو ما قد يمنع عرض مؤلفات وأفلام معظم المبدعين على المستوى العالمى وربما يمنع عرض سيرة معظم مشاهير العالم وربما بعض رموزه الدينية أيضًا. كما تزداد الدهشة من حساسية المقالة الواضحة لاستخدامها قصصًا من التراث اليهودى القديم رغم الإقرار باحتوائها على قيم نبيلة ومن ذكر تصوير أغنيتها مثل الصلاة (والتى مر عليها أكثر من عشر سنوات) ضمن تحليل كتابها الثانى المنشور عام ٢٠٠٣، وتأتى الدهشة مرة أخرى عند ذكر أغنيتها الأخيرة الحياة الأمريكية وتحللها المقالة باعتبارها تبجحًا من رمز رأسمالية صناعة الترفيه وسرقة الشعارات اليسارية! رغم النص على الظاهرة المسايرة للتطورات فى بداية المقالة وتنتهى المقالة بصورة كاريكاتورية عما وصفته بآخر ضحايا مادونا وهو مرشح للسباق الرئاسى فى أمريكا بتبرير هزيمته فى السباق الانتخابى بإعلان مادونا تأييدها له وهو استكمال للمعالجة التى تبنتها المقالة وهى أقرب ما يكون للاستخفاف بمادونا عن تحليل تاريخها والتطورات المهمة التى لحقت بها.

إن إعجابى بمادونا كان محدودًا منذ الثمانينيات إلا أن التطورات الأخيرة التى طرأت على شخصيتها والتى انعكست على صورتها وإنتاجها استثارت اهتمامى ونالت تقديرى الشديد وليس هناك ما هو أكثر من اعترافها «وهى رمز الرأسمالية» بأنها كانت حمقاء وأنها أضاعت عمرها على حلم وهمى مدعاة لتناول الأمر بجدية أكثر مما جاء بمقالتكم.

ونهاية أتمنى ألا يضيق صدركم بهذا التعليق الذى أرجو ألا يكون حادًا وأن يدعوكم لإعادة قراءة المقالة برؤية مختلفة، مع التأكيد على احترام وجهات النظر المختلفة ومتعة قراءة مجلتكم المميزة.

أحمد زهران

ملاحظتان

قرأت عدد شهر إبريل الماضى من (وجهات نظر)، ولاحظت فى مقال حسن أبو طالب، استخدامه العبارة الإنجليزية (الأجندة) التى شاعت وذاعت وأصبحت على طرف لسان كل متحدث فى هذه القنوات التى تملأ الفضاء من حولنا، وهذا لا يصح فى مقال ينشر فى مجلة راقية.

ثم لاحظت فى مذكرات محمد عبده التى نشرتم أجزاء منها، ورود الاصطلاح القديم (مديرية البحيرة)، والصحيح أن يقال (محافظة)، لأن المديرية اصطلاح كان سائدًا فى العهد السابق على انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ولم يرد ذلك فى متن

المذكرات حتى تبقى كما هى دون تغيير، وإنما ورد فى التقديم الذى كتبه المحرر.

عبد القادر الإدريسى
مسئول الإعلام بالإيسيسكو

أسباب العجز العربى

علينا الاعتراف المبدئى بأن هناك عادات فى التراث العربى تعودنا أن نتقبلها ونتعايش معها مع العلم الأكيد بأن الكثير منها تقف عقبة صلبة فى طريق التفكير العقلانى الحر وتمنعه من النمو البشرى والتطور.

أولاً: عدم القدرة على الدخول طواعية فى حوار ذاتى صادق مع النفس، الهدف منه التقييم الموضوعى للأفعال سواء الفردية أم الجماعية بدون الهرب من الإجابة أو التزييف فيها، وبالتالى الاعتراف بالنواقص أو بالذنب كأنما نحن منزهون عن أى عيب أو خطأ.

ثانياً: المبالغة والتضخيم فى كل ما يتصل بحياتنا وبموروثاتنا وقيمنا فهى الأفضل والأجمل، هذا إلى جانب ما نضيفه من أمجاد لا شىء يضاهيها وتبلغ حد الكمال.

ثالثاً: الخلط ما بين التقاليد والدين بحيث أضفينا القدسية الدينية لنتقبل الكثير من العادات السيئة والقبيحة التى تسىء إلى الدين وإلينا كبشر مثل عادة قتل الشرف الموجودة فى الكثير من الأقطار الإسلامية.

رابعاً: الولاءات العائلية والعشيرية التى تقف فى طريق التعامل الحر القائم على المصلحة المتبادلة مع الغريب.. أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.

خامساً: نتقبل الطبقية ونرضى بالفوارق كأنما قسمنا مجتمعاتنا طواعية إلى أسياد وعامة.

سادساً: الخوف من الخروج عن المألوف.. أو الخروج عن التفكير الجماعى.. حتى وإن كان تفكير هذه المجموعة وأسلوبها الخاطئ يضر بالمصلحة العامة.

سابعاً: الخوف من تعارض أية فكرة جديدة عن المفهوم الدينى أو الثقافى الذى ينبع من الدين، حرمت على الكثيرين الدخول فى حوارات تعتمد الحرية الفكرية والموضوعية.

ثامناً: الرفض المطلق لكل من يختلف عنا أو يخالفنا الرأى ورفض الآخر المختلف عنا ديناً أو جنساً أو عرقاً أو لغة..

تاسعاً: إعلاء المصلحة الفردية فوق مصلحة المجموعة.. مما أدى إلى تبرير الفساد والرشوة تحت مبررات الفقر والخوف من المستقبل.

أضف إلى كل ذلك القبول الطوعى للمكانة الدونية للمرأة بحيث حرمت من حقها المتساوى فى كل ما يختص بأمور حياتها.

التعليم وحده غير كاف لإحداث التغيير المطلوب للتقدم يجب أن تتوفر الإرادة الصلبة التى تريد التغيير لما فيه مصلحة المجموعة، ومصلحة الأجيال القادمة.. الخروج من ظاهرة العنف التى استولت على العقول وأبدت ظاهرة فى كل مفارق الحياة للفرد المجتمع.. الخروج من حالة التحدى المستمر سواء من الفرد أو من المجموعة على أننا متميزون أو مختلفون عن بقية البشر.

أحلام أكرم
ناشطة وباحثة فى حقوق الإنسان

تصويب

تحرص «وجهات نظر» دوماً على تحرى الدقة فيما يصل إلى القارئ بين غلافيها. وهنا نعتذر عن خطأ غير مقصود اعتور باب كتاب الزاوية العدد قبل الماضى فى قصيدة شوقى الشهيرة زَحْلَة. ونعيد هنا نشر البيتين بشكل صحيح:

يا جارة الوادى، طربت وعادنى
ما يشبه الأحلام من ذكراك

مَثَّلتُ فى الذكرى هواك وفى الكرى
والذكريات صدى السنين الحاكى

وقد جاء هذا الخطأ نتيجة لاعتمادنا على طبعة لديوان الشوقيات صادرة عن شركة دار الأرقم بن أبى الأرقم (بيروت).

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

أيتها الأرض

أيتها الأرض
لتقبلى اليوم تحيتى
آخر تحية
ترفع إليك فى هيكل اليوم الذى يزول
أنت بطلة، يتحقق فرحك فى الأبطال
أنت جميلة وقاسية
امرأة ورجل فى وقت واحد
تزعزعين حياة الإنسان بصراعات لا تطاق
باليد اليمنى تملئين الكأس بالرحيق
وباليسرى تبددينه بدداً
وفى مكان لهوك يتردد صدى السخرية الصاخبة
إن حياة البطل، وريث الحياة النبيلة
ترهقينها وتجعلينها قاسية
إنك تجعلين من العسير بلوغ الخير
وليس فى قلبك رحمة للبائس
إن الصراع من أجل البقاء الذى أخفيته
فى أشجارك
يظهر انتصاره فى الثمار والغلال
أيها العالم
أنت محبوب وقاس، قديم، وجديد على الدوام

قـــــــراءة ..

يحـــــدث غـــــــداً!

اليوم.. الأول من يوليو ٢٠٠٤، تنتقل «السيادة» بمعناها الاصطلاحى المبتكر إلى «العراقيين».

أى سيادة.. وأى عراقيين؟

تتباينُ الإجابات كما ألوانُ الطيف. فلم يعد العراقُ واحداً ولم تعد السيادةُ، كما عرفناها منذ عرفنا الدولةَ الحديثة، والقانونَ الدولى، وعلبةَ الكبريت الشامخة فى مانهاتن. حيث شهدنا، فى العام الرابع من القرن الواحد والعشرين، وزيرَ خارجيةَ العراق يقفُ أمامَ مجلس الأمن ليرفض أن تتولى حكومته الإشراف على عمليات قوات «الاحتلال» الموجودة فى أرضه! كما رفض أن يكونَ لحكومته حق الاعتراض على تلك العمليات!

لا غرابةَ، ولا مجالَ حقًا لعلامات التعجب. فى عصر التطبيع مع ما لم يكن قابلاً للتصديق قبل الحادى عشر من سبتمبر الذى أرادوه - عنوةً - أن يكون مفصليًا فى التاريخ. وكان لهم - حتى الآن على الأقل - ما أرادوا.

أى سيادة.. وأى عراقيين؟!

لم يعد العراقُ واحداً؛ بالمحاصصة والتريص والتذبيح. ولم تعد السيادةُ محددةً؛ بالتعريف. ولم يعد بعضُ «ما يحدث غداً» - رغم حقيقة أن الكلَ يقفز إلى المجهول - فى بطن الغيب.

الكولونيل مايك تيرنر كان مساعداً شخصيًا للجنرال شوارتسكوف، قبل أن يعمل «مخططًا سياسيًا» فى هيئة الأركان المشتركة فى البنتاجون ضمن فريق الجنرال ويسلى كلارك (الذى كان مرشحًا فى الانتخابات التمهيدية لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية) كتب ملحًا على إعادة رسم الخريطة: «من أجل سلام يدوم فى الشرق الأوسط، يجب تقسيم العراق إلى ثلاث دول..».

يقول المخطط السياسى، والذى نشرت تقريرَه أكثر من صحيفة أمريكية: ان إعادة تشكيل العراق كدولة ديمقراطية واحدة داخل حدودها التى «فرضها البريطانيون من عام ١٩١٨» مهمةٌ مستحيلة. وأن الحلَ البسيط، والذى يمكن أن يخرج إدارة الرئيس بوش مما هى فيه ويحققُ رؤية باول، دولة ذات هدف سياسى قابل للتحقيق، وهدف عسكرى محدود فى الشمال، وخطة خروجٍ سهلة من العراق، وضمان للتأييد الدولى، يتمثل فى الذهاب إلى ما يبدو بعيداً «رغم أنه على أطراف أصابعنا»: أن نسمحَ بإقامة ثلاث دول منفصلة تضم ما نطلق عليه العراق الحديث؛ الأكراد فى الشمال، والسنة فى الوسط، والشيعة فى الجنوب.

يظن تيرنر أن هذا الحل «البسيط جداً» يمثل مفهوماً عمليًا يتناسب أكثر مع الأوضاع الإقليمية. ويجنبنا أنهاراً من الدماء تتجمعُ عند المنبع. حيث الثقافات والطموحات تتباين وتتعارض. وحيث يتجذر فى التاريخ تراثٌ من الثأر.

وحسب تخطيط تيرنر - وهى وظيفته على أية حال - فإن الأكراد ستسعدهم «كردستان» التى ستضم كركوك المدينة الرئيسية فى إنتاج النفط. وحينها يمكن للأمريكيين أن ينسحبوا من بقية العراق الرافض لهم ليتمركزوا شمالاً «حيث لا عداء، بل مشاعر ود، وأزهار ورياحين حقيقية استقبلت جنودَنا هناك..». أما الأتراك فلن يغامروا بوضعهم فى حلف الأطلسى. كما أنهم ربما اطمأنوا إلى العازل الأمريكى الشمالى، الذى سيضمن قطعًا هدوء الأوضاع هناك.

ولا يرى تيرنر الذى يعتقد أن الشيعة سيتحالفون مع إيران على أى حال، مشكلةً إقليميةً فى دولة شيعية فى الجنوب، حتى وإن تحالفت مع جارتها المزعجة الكبيرة. لاسيما مع ازدهار دولة كردية فى الشمال، لها أيضًا حدودها (وامتداداتها الثقافية) مع إيران.

أياً ما كان حظ سيناريوهات مايك تيرنر على المسرح الذى يُفتَح عنه الستارُ اليوم، فإن بعض المشاهد «الفعلية» فى الكواليس تظلُ مهمةً وموحية.. ودالة:

١. رسالة مسعود بارزانى وجلال طالبانى إلى الرئيس بوش عشية تشكيل الحكومة الجديدة (نُشر النص كاملاً فى الثامن من الشهر الماضى).

٢. أصدرت محكمة عراقية مذكرة باعتقال «عضو مجلس الحكم الانتقالى» سابقًا عبد الكريم المحمداوى.. فى قضية قتل ضابط شرطة.

٣. تقارير الصحف الأمريكية (منها الواشنطن بوست ونيويورك تايمز) عن إياد علاوى. وتهكم رجال المخابرات الأمريكية الذين عمل معهم فى السابق على تعهده بالعمل على إيقاف التفجيرات وأعمال العنف.. مذكرين بأنه نفسه كان مسؤولاً عن حملة تفجيرات ضد المنشئات المدنية العراقية فى أوائل التسعينيات.

٤. تأكيد بريماكوف رئيس الوزراء الروسى الأسبق وصاحب العلاقات العراقية المتميزة مؤخراً على أن صدام عقد اتفاقا مع الأمريكيين عشية الحرب وأنه سلم نفسه قبل وقت طويل من إعلان اعتقاله.!

٥. ما يجرى من «تكريد» للأقليات فى كركوك كوجه آخر لمشروع صدام لتعريب الأقليات ونزع هوياتها.

٦. حيث تختلط المقاومة المشروعة بالثأر، وحتى بالجريمة غير المشروعة، تبقى حقيقة أن المقاومة العراقية بدون وجه سياسى، وبالتالى بدون برنامج سياسى.

٧. الدماء.. والدماء فقط تكاد أن تكون العامل المشترك الوحيد بين قطع «البازل» المتناهية تلك والتى تبدو عصيةً على التركيب. فمعظم الرصاص الذى اعتاد العراقيون أزيزَه اليومى، لا تعرفُ مصدره أو هدفه. من قتل مثلاً عالمة الكيمياء أو عميدة الحقوق مع أسرتها قبل أيام.

٨. صار العراقُ - فعليًا - أرضًا مفتوحة لكل من له ثأرٌ مع أمريكا. مهما تباينت الدوافع والأسباب. وصارت أرضُه مقبرة تفتحُ كُوتها كل يوم بعد أن صارَ القتل على الهوية ولمجرد الاشتباه.

بحكم الجغرافيا يعرفُ العراقُ وجيرانُه ماذا تفعل الرمالُ المتحركة فى «الربع الخالى». هل يختلفُ الحالُ كثيراً عما يجرى فى العراق؛ أرضًا ومشهداً. حيث لا شىءَ مستقراً.

حتى المصطلحات والمفاهيم التى استقرت معانيها فى الكتابات والقواميس لعشرات السنين مادت بها الرمالُ المتحركة. فمفاهيم «السيادة» التى عرفناها فى كتبِ السياسة والقانونِ الدولى منذ كنا طلبة، ليست هى السيادةُ التى سيتمتعُ بها العراقيون بدءاً من اليوم. و«الاحتلال» لم يعد هو بالضبط منذ أن ذهب «المحررون» لاحتلال العراق (الوصف القانونى قال به الأمريكيون لا غيرهم). وكذلك «المقاومة» التبست معانيها وأصاب ثوبَها الطاهر - بحكم التعريف - كثيرٌ من الشبهات. بعد أن صارت إراقة دماء «العراقيين» - لا غيرهم - من الطقوس اليومية هناك. حتى صدام الذى وحَّدَهم يوماً تحت الخوف، اختلفوا عليه. فإياد علاوى قال: «نتسلمه بعد الثلاثين..» وأيده البريطانيون. أما بوش فقد قال بصراحة: ليس الآن.. وإنما فى «الوقت المناسب» الذى يبقى ككل مصطلحات الحالة بلا تعريف. هذا على ضفة من يريدون رأسه. وعلى الضفة الأخرى ما كان المشهدُ ليبدو مختلفاً. محمد رشدان المحامى الأردنى قال: نحن محاموه «حصريًا». وجاك فيرجيس الفرنسى الأشهر أكد مطمئنًا: أن بحوزته وكالةً من ٤٢ من عائلة الرئيس (المخلوع/ السابق/ الشرعى... إلخ) لك أن تختار ما يحلو لك.. ولا تثريب. فحتى الصفةُ مختلَفٌ عليها. وكلُ المصطلحات قد باتت بلا تعريف.

أيمـــن الصيـــاد

الكتب

وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 67 - August 2004

مجلة شهرية . العدد السابع والستون . السنة السادسة . أغسطس ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات



الإمارة سيف ومنسف .. دولة القبيلة العربية

مازن النجار

بينوكيو .. الولد الطيب الشرير

تانيا ل. جرين

الطباخ .. الفنان .. الضحية .. سيرة حياة غير عادية

مصطفى الرزاز

حين تصبح الحرية أداة للقهر

جلال أمين



فقط مع البنك العربى .. قروض ميسرة تصل إلى
٢٥٠,٠٠٠ جنيه مصرى
٥٠,٠٠٠
٥٠,٠٠٠
قرض السيارة الجديدة
قرض السيارة المستعملة
القرض النقدى
قرض موظفى البنوك
قرض الأطباء
برنامج چيت كاش
وتمتع بإمكانية
الحصول على خدمات إلكترونية فريدة
إصدار بطاقة صراف آلى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفيّة عربيّة
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٢٢ ٣٣١٩٩
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً
www.arabbank.com
** أحقية الحصول على القروض ترجع إلى سياسات وقرارات البنك العربى
RESALA


شكراً
rejoignez nous
2 millions d'abonnés
تتقدم شركة أوراسكوم تيلكوم بخالص الشكر والاعتزاز لكل الفنانين العرب الذين شاركونا
الاحتفال فى الجزائر بوصول عدد مشتركى شبكة جازى جى إس إم إلى ٢ مليون مشترك
نشكركم لدعمكم الثقافى والفنى الذى كان له أثره العظيم فى قلوب شعب الجزائر الشقيق
Sponsorisé par
Djezzy جازي GSM
Membre du groupe Orascom Télécom
Feel The World
ORASCOM TELECOM
The Communication Community of the Middle East

السنة السادسة
العدد السابع والستون
أغسطس ٢٠٠٤

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أليسون لورى.. أستاذة اللغة الإنجليزية بجامعة كورنيل.
- أندرو هاكر.. مدرس العلوم السياسية بكلية كوينز بالولايات المتحدة.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تانيا ل. جرين.. باحثة بمنظمة «نساء من أجل أمريكا».
- جلال أمين... أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- جينى أجلو.. كاتبة إنجليزية.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- ستيفن واينبرج .. أستاذ العلوم بجامعة تكساس وحاصل على جائزة نوبل فى الفيزياء ١٩٧٩.
- عبد الرشيد الصادق محمودى.. أستاذ الأدب العربى فى جامعات فرنسا.
- عبد العظيم انيس.. أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- مصطفى الرزاز.. فنان تشكيلى وكاتب.
- نادر فرجانى.. مدير مركز المشكاة للدراسات.
- نبيل على.. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.
- ويليام ماكنيل.. أستاذ التاريخ بجامعة شيكاغو.
- ياسر علوى.. باحث فى الاقتصاد السياسى والعلاقات الدولية.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى - سعد الدين شحاته - أحمد اللباد

لوحة الغلاف للفنان حلمى التونى/ ٢٠٠٤ / زيت على قماش/ ٧٠× ٦٠سم

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

الحـــــــريــــــة...

جـــــــلال أمـــــــين



■■ هذا كتاب اجتمع له كثير من شروط النجاح، ولكنه نجاح من نوع معين، ليس فى رأيى أفضل الأنواع. فمؤلفه أستاذ مرموق عمل منذ أواخر الخمسينيات مدرسًا ثم أستاذ بجامعة إنجليزية عريقة هى جامعة كامبردج، ونشر خلالها وبعدها الكثير من الكتب التى تجمع جمعًا موفقًا للغاية بين الاقتصاد والسياسة والفلسفة والأخلاق، ومن ثم حظى بتقدير واسع بين طلبة علم الاقتصاد وأساتذته، وعلى الأخص بين المشتغلين بقضايا الرفاهية الاقتصادية وقضايا التنمية والعلاقة بينهما، بعد سنوات من التدريس فى جامعة كامبردج انتقل للتدريس فى جامعات مرموقة أخرى، كجامعة لندن ثم أكسفورد وأستاذًا زائرًا فى جامعات هارفارد وكاليفورنيا (بيركلى) وستانفورد ومعهد ماساشوستس للتكنولوجيا الشهير. واتصل اتصالاً وثيقًا بالأستاذ الباكستانى الشهير أيضًا «محبوب الحق»، وتعاون الاثنان فى صياغة وتطوير مفهوم التنمية الإنسانية (Human Development) الذى تبنته الأمم المتحدة وأنشأت مكتبًا بهذا الاسم تابعًا لبرنامج الأمم المتحدة للإنماء وتوج هذا كله بحصوله على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى سنة ١٩٩٨.

هذا هو الأستاذ الهندى الأصل «أمارتيا سن» (Amartya Sen)، والكتاب هو (التنمية كحرية Development as Freedom، Oxford University Press، ١٩٩٩ وترجم مؤخرًا إلى العربية تحت عنوان: التنمية حرية (ترجمة شوقى جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مايو ٢٠٠٤).

الأستاذ مرموق، والموضوع مهم، والعنوان جذاب، وجائزة نوبل تغرى أى شخص بقراءة ما يكتبه الحاصل عليها. وعلى الرغم من هذا كله، كان يعترينى أثناء قراءة الكتاب شعور قوى بعدم الارتياح، كان يزداد قوة كلما زاد ما قرأته

التنمية كحرية
أمارتيا سين
ترجمة: شوقى جلال
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٤

أداة للقهـــــــر !!

ما المكسب الذى نحققه من النظر إلى الفقر وسوء الحالة الصحية، وانفراد حزب واحد بالحكم، وموقف بعض التقاليد، فى بعض الثقافات، موقفاً سلبياً من خروج المرأة إلى العمل، وكأنها مجرد صور مختلفة لشىء واحد هو فقد الحرية؟

منه. فلما طلبت منى مجلة «وجهات نظر» أن أكتب عرضاً للكتاب قبلت بل ورحبت بالطلب، إذ كانت فرصة لاكتشاف ما الذى يعجبنى فى الكتاب بالضبط، رغم كل ما ذكرته من شروط النجاح المتوفرة له. فلما أعدت القراءة فيه عثرت على ما أبحث عنه، بل هالنى ما وجدت من أسباب تدعو لعدم الارتياح بل والغضب. وهاأنذا أعرض على القارئ ما وجدت:

لا يشك أحد فى أن الإنسان كثير الحاجات والرغبات. قد يكون الاقتصادى مبالغاً عندما يصف هذه الحاجات والرغبات بأنها «غير محدودة»، ولكنها بلا شك كثيرة جداً حتى ليصعب حصرها. الإنسان يحتاج إلى أشياء مادية وغير مادية، من مأكل وملبس ومأوى، إلى وسائل الانتقال من مكان لآخر إلى وسائل للدفاع عن نفسه وللاتصال بالآخرين ولتكوين علاقات اجتماعية.. إلخ.

قد يكون كل هذا من قبيل «الحاجات» الضرورية التى لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها، ولكن هناك أيضاً الكثير مما يرغب فيه الإنسان ويطمح إليه دون أن يكون ضرورياً بهذا المعنى. فهو يرغب فى الحصول على مختلف وسائل الترفيه عن النفس والتخفيف من عناء العمل، وعلى ما يمكنه من المباهاة أمام الآخرين أو التفوق عليهم، أو حتى ما يمكنه من السيطرة عليهم وإثارة الغيرة فى نفوسهم. وهو يرغب فى التعبير عن مكنون نفسه بممارسة نوع أو آخر من الفنون، ويريد الشعور بالطمأنينة والتخلص من كل ما يخيفه من المستقبل، كالموت أو فقد شخص عزيز عليه، أو الفقر أو البطالة أو الوحدة.. إلخ.

قد تكون حاجات الإنسان الضرورية ثابتة لا تتغير كثيراً، ولكن رغباته دائمة التجدد والتغير، مع تغير الظروف والأحوال، فهى فى مجتمع صغير غيرها فى دولة كبيرة، وفى القرية غيرها فى المدينة، وهى فى مجتمع بدوى غيرها فى مجتمع زراعى مستقر أو مجتمع صناعى.. إلخ.

والحاجات والرغبات الإنسانية، وإن كان منها الثابت والمشترك بين الناس جميعاً، كثيراً ما تختلف بين فرد وآخر بحسب مزاجه وميوله، وبحسب قدراته العقلية والجسمانية، وبحسب ما إذا كان رجلاً أو امرأة، صغيراً أو كبير السن، مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً.. إلخ.

ولكن مادامت الحاجات والرغبات الإنسانية كثيرة ومختلفة على هذا النحو، فالقيود التى يمكن أن تفرض عليها وتمنع الإنسان من إشباعها، لابد أن تكون كثيرة بدورها ومتنوعة. فهناك الفقر مثلاً، كقيد أو مانع من موانع إشباع الحاجات، وهناك ضعف الصحة الذى قد يمنعك من ممارسة كثير من رغباتك، وهناك الجهل وقلة المعلومات مما قد يمنعك من الوصول إلى غرضك الذى يتطلب الوصول إليه حداً أدنى من المعرفة. وهناك الاستبداد الذى قد يمارسه شخص آخر ضدك فيمنعك من إشباع حاجاتك أو تحقيق رغباتك. ولكن الاستبداد قد يأتى فى صور كثيرة، ومن مصادر مختلفة، فهو قد يصدر من الدولة ضد شعبها، أو من الرجل ضد المرأة، أو الأب ضد أولاده، أو رب العمل ضد العاملين فى مؤسسة، وقد يأتى من المؤسسة الدينية بل ومن العرف والتقاليد الاجتماعية السائدة التى قد تشعرك بالعار إذا قمت بإشباع بعض رغباتك، ناهيك بالطبع عن «الإرهاب» الذى شاع حديثاً الكلام عنه وإضافته إلى ما يمكن أن يحرم الإنسان من فرص إشباع حاجاته وتلبية رغباته.. إلخ.

ومع ذلك فلابد أن نلاحظ أيضاً أن نفس هذه الأشياء التى يمكن أن تكون سبباً فى حرمانك من إشباع بعض حاجاتك قد تكون أيضاً، بل وفى نفس الوقت، مصدراً من مصادر إشباع حاجات أخرى. فالدولة قد تحرمك من أشياء، كالسفر إلى خارج البلاد مثلاً، ولكنها قد تتيح لك أشياء أخرى مرغوباً فيها، كالوظيفة الثابتة مثلاً أو الحماية من الإرهاب. والتقاليد السائدة قد تشعرك بالعار من تلبية رغبات معينة، ولكنها قد تفرض على الآخرين مساعدتك عندما تبلغ سن الشيخوخة مثلاً، وقد يحدث العكس بالضبط فى ظل تقاليد أخرى تحررك من الشعور بالعار إذا قمت بأعمال معينة، ولكنها تحرمك من هذه المساعدة فى الشيخوخة.. إلخ.

كل هذا يبدو أوضح من أن يحتاج إلى ذكر، وليس فيه أى جديد مما لا يعرفه القارئ، بل قد تحتاج فقط إلى تذكيره به.

الجديد فقط هو فى طريقة الأستاذ «أمارتيا سن» فى التعبير عنه، وهذا هو بالضبط ما دعانى إلى البدء بالتعبير عنه بطريقة مختلفة.

ففى هذا الكتاب الذى نتكلم عنه (التنمية حرية) اختار المؤلف أن يعبر عن هذا كله باستخدام فكرة الحرية. فالحاجات والرغبات الإنسانية عبر عنها، كلها تقريباً، تعبيراً يجعلها مرادفة للرغبة فى الحرية. إشباع حاجتك إلى الطعام أصبح لديه «حريتك فى أن تأكل أو لا تأكل إذا جعت» وكذلك حاجتك إلى الملبس والمأوى والمعرفة والتنقل من مكان لآخر.. إلخ. كلها تحولت إلى حريتك فى أن تحصل على هذا أو ذاك أو لا تحصل عليه، أو حريتك فى أن تفعله أو لا تفعله. إذا كان الأمر كذلك، فإن كل الموانع والعقبات التى قد تحرمك من الحصول على هذه الأشياء التى تحتاجها أو ترغب فيها، يمكن أن تعبر عنها بدورها بالقول بأنها «قيود على الحرية». الفقر قيد على حريتك فى الحصول على الكثير من ضروريات الحياة وكمالياتها، وضعف الصحة يصبح قيداً على حريتك فى الحصول على كل ما يتطلب توفر صحة جيدة، والجهل أو عدم وجود فرصة أمامك للذهاب إلى المدرسة أو الجامعة، يصبح قيداً على حريتك فى أن تحصل على المعرفة، وكذلك استبداد الدولة وفرض المؤسسة الدينية رأيها وتفسيرها الخاص للدين، وسيادة تقاليد أو أعراف معينة تصعب مخالفتها، وكذلك قهر الرجل للمرأة أو الأب لأولاده.. إلخ.

هذا المسلك الذى اختاره الأستاذ سن قد يبدو للوهلة الأولى مقبولاً ولا غبار عليه، بل قد يبدو للوهلة الأولى أيضاً جذاباً ومفيداً. فهناك بالطبع جاذبية رد أشياء كثيرة ومختلفة إلى أصل واحد، كما فى رد إشباع كل الحاجات والرغبات الإنسانية إلى شىء واحد هو «التمتع بالحرية». وهناك أيضاً الجاذبية المستمدة من فكرة الحرية نفسها. فالنظر إلى مختلف أنواع الإشباع لمختلف أنواع الحاجات والرغبات على أنها كلها تتضمن تحقيق هذا الهدف السامى والرفيع «الحرية»، فيه إعلاء وتفخيم لهذه الحاجات والرغبات، ويزيد من مقتنا لأى صورة من صور الحرمان من إشباع أى حاجة أو رغبة من حاجاتنا ورغباتنا.

ولكن هذا المسلك له أيضاً مثالبه وعيوبه الخطيرة، هى السبب على الأرجح فيما شعرت به من عدم الارتياح لدى قراءة الكتاب لأول مرة، دون أن أدرك على الفور سببه، ثم تبين لى مع التفكير فى الأمر، وهذا هو ما سأحاول الآن أن أبينه للقارئ.

ما المكسب الذى نحققه من النظر إلى الفقر وسوء الحالة الصحية، وانفراد حزب واحد بالحكم، وموقف بعض التقاليد، فى بعض الثقافات، موقفاً سلبياً من خروج المرأة إلى العمل، وتدخل الدولة فى نظام السوق بفرض أسعار جبرية لبعض السلع، أو توجيه الخريجين إلى نوع من الوظائف دون غيرها.. إلخ، ما المكسب الذى نحققه من النظر إلى كل هذه الأشياء، المختلفة أشد الاختلاف، وكأنها مجرد صور مختلفة لشىء واحد هو فقد الحرية؟ أليس هذا المسلك فى الحقيقة مجرد تلاعب بالألفاظ يحجب من الحقيقة أكثر مما يكشف عنها؟

نعم، فى الفقر حرمان من الحرية، بصورة أو بأخرى، كما أن تدخل الدولة بفرض بعض الأسعار الجبرية، فيه أيضاً حرمان من الحرية، بصورة أو بأخرى، ولكن ألا ترى الفوارق الشاسعة بين هاتين الصورتين من صور «فقدان الحرية»؟ هناك أولاً الفارق فى درجة الخطورة. ففى الحالة الأولى (الفقر) يتمثل فقدان الحرية فى فقد حرية الاختيار بين الحياة أو الموت، إذ قد يصبح المرء «مضطراً» إلى الموت جوعاً، أو فقد الحرية بين



الزعم بأن نظام السوق هو النظام الأكثر كفاءة هو نفسه محل جدل، خاصة إذا فهمنا الكفاءة بمعنى واسع يشمل اعتبارات أخلاقية وجمالية، بالإضافة إلى الاعتبارات الكمية والمادية البحتة

العيش كآدمي والعيش كحيوان، أو بين الشعور بالكرامة وبين الذل أمام الغير، أما في الحالة الثانية (تدخل الدولة بفرض أسعار جبرية) فالحرمان من الحرية يتعلق بحرمان منتج السلعة من اقتضاء أعلى ثمن ممكن، ومن الاتجاه إلى إنتاج السلع الأكثر ربحاً، وحرمان بعض المستهلكين الأكثر ثراء من الحصول على السلع التي خفضت أسعارها.. إلخ. بل إن الحرمان من الحرية الذي يصيب بعض الأشخاص في حالة فرض أسعار جبرية لبعض السلع قد تقابله زيادة في درجة الحرية المتاحة لأشخاص آخرين، هم الفقراء من المستهلكين الذين لم يكونوا قادرين على استهلاك هذه السلع قبل تخفيض أسعارها.

بالإضافة إلى ذلك هناك اختلافات كبيرة بين درجة الشعور بالقهر الذي يتضمنه الحرمان من الحرية في الأحوال المختلفة. فالشعور بفقدان الحرية الذي يلازم الفقر مثلاً، هو شعور شديد الوطأة بالمقارنة مثلاً بشعور المرء الذي يحرم من تحويل أكثر من كمية معينة من عملته الوطنية إلى عملة أجنبية. إذن فالحديث على هذه الأنواع المختلفة من الحرمان أو من عدم إشباع الحاجات أو الرغبات وكأنها كلها مجرد صور مختلفة لشيء واحد هو «الحرمان من الحرية»، قد يتضمن تمييعاً للأمور وخلطاً فيما بينها قد يكون ضرره أكبر من نفعه.

هناك أيضاً الضرر الناتج عن التسرع في حسم قضايا لازال يحتدم عليها الخلاف بشدة، وذلك بتصوير المشكلة في كل هذه القضايا على أنها في نهاية الأمر مجرد اختلاف بين أنصار الحرية وأعدائها. وحيث أننا جميعاً، فيما يبدو، مستعدون للتسليم بأن الحرية شيء مرغوب فيه دائماً، وهدف نبيل في جميع الظروف والأحوال، فما أسهل أن نقع في الفخ بأن نتصور أننا لابد أن ننحاز إلى صف ذلك الطرف الذي ينتصر للحرية ضد أعداء الحرية، في حين أن المشكلة قد تكون أعوص من هذا بكثير، وحلها ليس بهذه السهولة.

خذ مثلاً مناقشة مؤلف الكتاب للخلاف بين أنصار نظام السوق وأنصار تدخل الدولة في فصل بعنوان «الأسواق والدولة والحرية الاجتماعية». إنه يعترف على عجل بأن الدولة قد يكون تدخلها ضرورياً لتحقيق درجة أكبر من العدالة، كلما أخل نظام السوق بها، ولكن تقوم بإنتاج ما يسميه الاقتصاديون بالسلع العامة (Public Goods) ويقصد بها السلع والخدمات التي لا يعود النفع من استهلاكها على شخص معين أو مجموعة محددة من الأشخاص، بل على المجتمع بأسره، كخدمة التعليم مثلاً أو الدفاع أو الخدمات الصحية أو الحدائق العامة.. إلخ، حيث قد لا يكفي حافز الربح وحده لضمان إنتاج هذه السلع العامة، يعترف الأستاذ سن بهذا على عجل، ولكنه يجعل التأكيد الأكبر في هذا الفصل، والرسالة الأساسية التي يخرج بها القارئ منه بأن نظام السوق، أي عدم تدخل الدولة فيما يتخذه الأفراد من قرارات الإنتاج والاستهلاك، هو النظام الأفضل. ويبرر ذلك ليس فقط بالدفاع التقليدي عن نظام السوق بأنه يحقق درجة أعلى من الكفاءة (أي معدلاً أكبر لنمو الإنتاج) ولكن أيضاً بأن نظام السوق، بمقتضى تعريفه نفسه، يترك الناس أحراراً في عقد الصفقات واتخاذ القرارات، فنظام السوق له إذن، في رأي الأستاذ سن، تلك الميزة الإضافية، بصرف النظر عن ميزة الكفاءة، وهي تحقيق هذا الهدف الأسمى وهو «الحرية».

الأمر، معروضاً على هذا النحو، يبدو إذن محسوماً لصالح نظام السوق. ولكن الحقيقة هي أنه أبعد ما يكون عن الحسم. ففضلاً عن أن الزعم بأن نظام السوق هو النظام الأكثر كفاءة هو نفسه محل جدل، خاصة إذا فهمنا الكفاءة بمعنى واسع يشمل اعتبارات أخلاقية وجمالية، بالإضافة إلى الاعتبارات الكمية والمادية البحتة، وبمعنى يشمل مصلحة الأجيال القادمة كما يشمل مصلحة الجيل الحالي، وكل هذا قد يبرر تدخلاً كبيراً من جانب الدولة. فضلاً عن ذلك، فإن مساهمة نظام السوق في توسيع دائرة الحرية أمام الناس هي نفسها أمر مشكوك فيه ويحتاج إلى مزيد من التأمل. فترك الأفراد أحراراً في اتخاذ قراراتهم دون تدخل من الدولة قد يبدو للوهلة الأولى، وبالضرورة، أكثر تحقيقاً للحرية من نظام يخضعهم لمختلف أنواع الأمر والنهي، ولكن تفاعل قرارات الأفراد «الحرة»، قد ينتج عنه نظام أسوأ بكثير، حتى من حيث الحرية نفسها، من التدخل ابتداء بالأمر والنهي، تماماً كما أن قانون الغابة، القائم على ترك الحرية المطلقة لسائر الحيوانات قد ينتهي إلى نتيجة أسوأ مما يمكن أن يحدث لو أسبغت من البداية حماية للحيوانات الأضعف. قد يقال إن هذا تدخل فيما يقصده «سن» بتدخل الدولة لتحقيق العدالة (equity)، ولكن اعتبار العدالة، إذا أخذ بمعنى حماية الضعيف من اعتداء القوى، هو اعتبار أوسع بكثير مما يصوره سن في هذا الكتاب، ومما قد يتصوره القارئ. ففي كل خطوة نخطوها نجد حالة من الحالات التي قد تستدعي بعض التدخل لحماية الطرف الأضعف، ونجد أن ترك الحرية للأفراد دون ضابط من شأنه أن يقلل من درجة الحرية المتاحة للبعض دون البعض الآخر. المسألة لا تقتصر على حماية المستهلكين والعمال من سطوة المشروعات الاحتكارية، ولا على ضرورة تدخل الدولة لتوفير التعليم الأساسي لأفراد لن يحصلوا عليه لو ترك ميدان الاستثمار في التعليم خاضعاً لحافز الربح، بل قد يشمل أيضاً التدخل في نوع المقررات التي يطلب من التلاميذ أن يتعلموها في كافة مراحل التعليم، والتدخل فيما يتعرض له مشاهدو التليفزيون من إعلانات تجارية، بل والتدخل لوضع حد لانتشار نمط من الحياة يعلي من قيمة الاستهلاك على كل ما عداها. فسطوة الإعلانات ومروجي السلع على وسائل الإعلام، وما تؤدي إليه من تشجيع سيادة النمط الاستهلاكي للحياة، وهو ما يؤدي إليه بالضرورة نظام السوق، قد يتضمنان افتئاتاً على الحرية قد لا يقل خطورة عن التدخل الشديد من جانب الدولة. إني لست الآن بصدد الدفاع عن تدخل الدولة في هذا الأمر أو ذاك، ولكني فقط أريد أن ألفت النظر إلى أن نظام السوق، إذا كان يعطيك بعض الحريات باليد اليمنى، فهو قد يسلبك حريات أخرى باليد اليسرى. والأرجح أن هذا القول ينطبق على أي نظام، وليس على نظام السوق وحده، فالزعم بأن نظاماً كنظام السوق يتيح للناس بالضرورة قدراً أكبر من الحرية مما يتيحه نظام تدخل الدولة، هو زعم خاطئ ومتسرع.

أو فلنأخذ طريقة مناقشة الأستاذ سن لموضوع تلاقي الحضارات أو الثقافات، وعلى الأخص تعرض ثقافات بلاد العالم الثالث لغزو الثقافة أو الحضارة الغربية، في فصل بعنوان «الثقافة وحقوق الإنسان».

هنا أيضاً يعترف الأستاذ سن على

نوح

يعاود سلامة أحمد سلامة كتابة مقاله بعد عودته إن شاء الله

الحـــــــريـة.. أداة للقهـــــــر!!

عجل بأن الموضوع له بعض الخطورة، ويتظاهر بأنه يقدر وجاهة رأى المتخوفين من «غزو» ثقافة الغرب للثقافات الوطنية لمختلف أمم العالم الثالث، بل ويرى بعض الشبه بين نتيجة هذا الغزو وما يتعرض له بعض أنواع الحيوانات من خطر الانقراض. ولكن ما الرسالة التى يخرج بها القارئ من هذا الفصل؟ الرسالة هى أنه لا خطر هناك فى الحقيقة ولا داعى البتة للخوف. ولماذا يا ترى؟ أولاً لأن الحضارات والثقافات تتفاعل دائماً فيما بينها، ويندر أن تجد سمة من سمات حضارة أو ثقافة بعينها «نقية» مائة بالمائة، ولم تدخل فى تكوينها عناصر من ثقافة أخرى. حتى المأكولات الهندية غزت المطاعم البريطانية والمطبخ الإنجليزى. وكل القيم التى نعتز بها، كالتسامح والديمقراطية، والتى هى نفسها عادة للغرب، موجودة بدرجة أو بأخرى فى كثير من الثقافات الأخرى كالهندية أو الإسلامية. فما الذى يستخلص من هذا؟ يستخلص أن الهند تغزو الغرب بثقافتها مثلما يغزو الغرب الهند (وإن كان المثل الذى يضربه لغزو الهند للغرب هو غزو طبق دجاج المارسالا للمطاعم البريطانية). والأشياء التى يغزو بها الغرب الهند كثيراً ما تكون بضاعة الهند ردت إليها. فما وجه الشكوى إذن؟

هناك رسالة أخرى يريد المؤلف أن ينقلها من خلال هذا الفصل، وهى أن الحل فى هذه الأمور، مثله فى سائر فصول الكتاب ليس إلا أن نترك للناس حرية الاختيار. فها هى الثقافات المختلفة معروضة على أمم العالم الثالث، ثقافة الغرب وثقافاتهم الخاصة، وما على هذه الأمم إلا أن تختار من بينها ما يجدونه الأفضل، أو ما تجد مزاياه أكبر من مساوئه، أى أن يجروا فى ميدان الثقافة أيضاً حساباً للمنافع والنفقات، مثلما يجريه الاقتصاديون عند حساب الربح والخسارة، ويختاروا ما كانت منافعه الصافية موجبة.

هل هذا كلام مقبول من مفكر اقتصادى كبير، اعتاد الجمع بين علم الاقتصاد والسياسة والفلسفة والأخلاق؟ هل يجوز لمثل هذا المفكر أن يتجاهل تلك الحقيقة الصارخة، التى تصدمنا يوماً، وهى حقيقة عدم التكافؤ الذى يجرى فى ظله هذا الصراع (أو هذا الغزو) بين ثقافة الغرب ومختلف ثقافات العالم الثالث، وهو عدم تكافؤ فى القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والدعائية التى تصاحب هذا الغزو من ثقافة لأخرى؟ هل يجوز فى مثل هذه الظروف أن نكتفى بدعوة الناس إلى ممارسة حرية الاختيار بين الثقافات متظاهرين بأنهم يتمتعون بالفعل بهذه الحرية؟ وإذا كان الأمر كذلك ألا يذكر هذا الأمر الأستاذ سن بما يجرى فى ميدان الاقتصاد من عدم تكافؤ وقلة عدالة، مما جعله يعترف بوجاهة التدخل لتصحيحه وإن كان قد ذكر هذا الاعتراف بسرعة ودون تأكيد عليه؟ فلماذا لا نعتبر عدم التكافؤ فى حالة غزو ثقافة لأخرى، على هذا النحو، مبرراً للتدخل أيضاً، ليس فقط أو بالضرورة تدخلاً من جانب الدولة، بل ربما تدخل المثقفين والمصلحين العاملين فى النشاط المدنى، ممن يقلقهم بشدة ما يهدد ثقافات العالم الثالث من تصدع وانهيار فى مواجهة حملات الغزو العاتية من ثقافة ليست بالضرورة أرقى أو أكثر سمواً من الناحية الأخلاقية أو الجمالية، ولكنها فقط مدعومة بقوة أكبر اقتصادية وسياسية وعسكرية.

فلننظر أيضاً إلى طريقة الأستاذ سن فى مناقشة قضية المرأة، أو ما شاع تسميته «بتمكين المرأة» (Women empowerment) هنا أيضاً كم يبدو الأمر بسيطاً والحل سهلاً. فالمرأة فى العالم الثالث مقهورة وتخضع لمختلف صور التمييز ضدها. والمطلوب رفع القهر عنها والقضاء على مختلف صور التمييز ضدها؛ لأن النجاح فى ذلك، كما يقول سن، يحقق مزايا كثيرة. ففضلاً عن أنه يلغى صوراً مهمة من صور الاعتداء على «الحرية»، فإن تمكين المرأة على هذا النحو من شأنه تحقيق مزايا إضافية، كتخفيض معدل الخصوبة، ورفع مستوى صحة وتعليم الأطفال، خاصة الإناث منهم، بل وقد يساهم فى دعم التقدم الاقتصادى والسياسى والاجتماعى بصفة عامة، بما فى ذلك حماية البيئة، إذ أن هناك بعض الدلائل على أن المرأة إذا أوكلت إليها هذه المهام لا تقل كفاءتها فى القيام بها عن كفاءة الرجل إن لم تزد عليه. من ذلك مثلاً ما عثر عليه الأستاذ سن من إحصاءات عن بعض الولايات الهندية، التى تدل على وجود علاقة بين ارتفاع نسبة النساء إلى الرجال، وانخفاض نسبة ارتكاب الجرائم العنيفة.

لا نريد أن نناقش مدى قوة هذه الأدلة من الناحية الإحصائية، فهناك بعض الأسباب المنطقية التى تدفعنا إلى تأييد اعتقاده، وإن لم تكن أسباباً حاسمة. المهم أن نلاحظ أن كل الأمثلة التى يقدمها الأستاذ سن على قهر المرأة أو التمييز ضدها هى أمثلة من العالم الثالث، مما يخرج منه القارئ بانطباع قوى بأن قضية المرأة قد تم حلها، أو كاد يتم حلها، فى البلاد الصناعية أو الغربية، والفضل فى ذلك بالطبع يرجع إلى قوة حركات تحرير المرأة فى هذه البلاد وما أحرزته من نجاح.

ولكنى واحد من الناس الذين يختلفون مع الأستاذ سن فى أنهم لا يميلون مثله، فيما يبدو فى مواضع كثيرة من كتابه، إلى الاعتقاد بأن الأشياء الطيبة تأتى دائماً معاً، والأشياء السيئة تأتى دائماً معاً أيضاً، كالاعتقاد بأن التقدم الاقتصادى والتكنولوجى يصحبه فى العادة تقدم فى سائر جوانب الحياة الأخرى، بما فى ذلك درجة الحرية التى يتمتع بها الناس، أو الاعتقاد بأن الديكتاتورية تضر دائماً بمعدلات النمو الاقتصادى، والعكس بالعكس. إنى مثلاً واحد من هؤلاء الذين يعتقدون، بعكس الأستاذ سن فيما يبدو، بأن الحصول على مزيد من الحرية فى ميدان معين قد يكون على حساب ما يتمتع به المرء من حرية فى ميدان آخر. وقد رأينا بالفعل مثلين على هذا فيما سبق: نظام السوق يزيد الحرية فى جانب وينتقص منها فى جانب آخر، وانفتاح ثقافة من ثقافات العالم الثالث على ثقافة الغرب، على النحو الذى يحدث به الآن، يوسع من حرية الاختيار أمام شعوب العالم الثالث فى جانب، ولكنه يضيقها فى جانب آخر. هذه الخسارة التى تصاحب إتاحة المزيد من الحرية فى بعض الميادين، قد تكون خسارة فادحة، ومن ثم لابد أن تؤخذ فى الاعتبار وأن تناقش عند تناول موضوع نظام السوق وتدخل الدولة، وعند تناول قضية الغزو الثقافى الغربى لثقافات العالم الثالث، وهو ما لم يفعله الأستاذ سن إلا على نحو عارض جداً وبالغ التسرع، وكذلك لم يفعله عند الكلام عن قضية المرأة.

ذلك أن تحرير المرأة اقتصادياً، ورفع صور القهر المألوفة عنها، وإلغاء الصور الشائعة للتمييز ضدها، على النحو الذى فعله الغرب خلال المائة عام الماضية، ولم تقطع فيه مجتمعات العالم الثالث شوطاً كبيراً، قد يصاحبه، بل وكثيراً ما ترتب عليه، صور أخرى من صور قهر المرأة وتقييد حريتها لا يذكرها الأستاذ سن البتة. وأقصد على الأخص أمرين: القهر الذى زاد تعرض المرأة الغربية له من جانب المؤسسات التجارية ومروجى السلع ونمط المجتمع الاستهلاكى بوجه عام، مما سمح باستخدام المرأة كرمز للجنس وشجع عليه، بأكثر مما كان مألوفاً فى الماضى، والقهر الذى زاد بتعرض المرأة له نتيجة ما أصاب الأسرة الغربية من تفكك وتصدع خلال الخمسين عاماً الماضية مع زيادة ما حصلت عليه المرأة من استقلال اقتصادى، بل وعلى الأرجح، كنتيجة لزيادة هذا الاستقلال الاقتصادى. إنى لا أقول أى الأحوال أفضل، ولا أدعو إلى حرمان المرأة مما حصلت عليه من حريات اقتصادية، ولكنى فقط ألفت النظر إلى أن المسألة ليست بالبساطة التى يصورها الأستاذ سن، أى تصوره أن مزيداً من التحرر الاقتصادى للمرأة، أمر محمود على طول الخط، ومفيد مائة بالمائة، وأن ما فعله الغرب فى هذا الشأن جدير بالاقتداء من جانب مجتمعات العالم الثالث دون أدنى تحفظ.

والمدهش فى تجنب الأستاذ سن السير إلى أبعد من هذا فى مناقشة قضية المرأة، أن الأمر لا ينطوى على مجرد تحقيق مكسب فى ميدان الحرية وتحقيق بعض الخسارة فى ميدان أو ميادين أخرى، بل إنه ينطوى على كسب وخسارة فى ميدان الحرية نفسه. فالمرأة التى أصبحت مضطرة لسبب أو آخر إلى أن ترعى أولادها وحدها، بسبب ما أصاب الأسرة من تصدع، هى امرأة أكثر حرية من غيرها فى جوانب، ولكنها أقل حرية فى جوانب أخرى. إذن فنحن إذا أثرنا موضوع ما يترتب على تفكيك الأسرة وضعف روابطها من آثار سيئة لا نغادر قط ميدان الحرية المحبب لدى الأستاذ سن، ومن ثم كان الأجدر به أن يلتفت هو أكثر من غيره إلى مناقشة هذه الآثار الأخرى التى تقيد من حرية المرأة.

من المحزن أن يفكر المرء فيما يمكن أن يكون الواقع

كتاب الزاوية

سندباد إلى الغرب

حسين فوزى

ولد الدكتور حسين فوزى «السندباد» بحى الحسين فى ١١ يوليو عام ١٩٠٠ لأب يهوى المعرفة وأم لا تعرف القراءة والكتابة، وتلقى أول دروسه فى كتاب الشيخ سليمان جاويش. حصل على بكالوريوس الطب عام ١٩٢٣ وتخصص فى طب العيون وتم تعيينه طبيبًا فى مصلحة الصحة فى وزارة الشعب الأولى، وزارة سعد باشا. وقد سافر حسين فوزى أول مرة عام ١٩٢٥، حين أرسلته الحكومة المصرية فى بعثة لدراسة الأحياء المائية ومصائد الأسماك. وكان يراسل المجلات المصرية من فرنسا، فنشر مقالاته بمجلة «السفور» ومجلة «الجريدة».

كان الدكتور حسين فوزى أول عميد لكلية العلوم بجامعة الإسكندرية حين تولى هذا المنصب عام ١٩٤٢. وفى عهد الثورة، شغل منصب وكيل وزارة الثقافة حين كان الدكتور ثروت عكاشة وزيرها، فساهم فى تأسيس العديد من المشروعات الثقافية المهمة مثل أوركسترا القاهرة السيمفونى وأكاديمية الفنون، كما كان صاحب الجهد الأساسى فى تأسيس إذاعة «البرنامج الثانى» التى أنشئت عام ١٩٥٨ بهدف الارتفاع بذوق الجماهير فى الأدب والفن والموسيقى الرفيعة.

تولى الدكتور حسين فوزى الصفحة الأدبية بجريدة «الأهرام» عام ١٩٦١ بعد أن ترك الوزارة، وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٦. له مؤلفات عديدة منها: سندباد عصرى، سندباد مصرى، سندباد فى رحلة الحياة، الموسيقى السيمفونية، وقد أوصى بمكتبته الأدبية لجامعة القاهرة ومكتبته الفنية إلى أكاديمية الفنون قبل وفاته فى شهر أغسطس من عام ١٩٨٨.

الحقيقى الذى أدى بالأستاذ سن إلى أن ينحو هذا المنحى فى كتابه، وأن يسلك هذا المسلك الذى يختلف بدرجة واضحة عن المسلك الذى كان يتخذه فى الستينيات والسبعينيات، عندما كان يعبر عن تعاطف أكبر بكثير مع تدخل الدولة، وعندما كان يولى اهتمامًا أكبر بكثير بقضية عدالة التوزيع وللاعتبارات الأخلاقية التى قد تبرر التضحية ببعض الحريات الفردية فى سبيل تحقيق مصلحة أهم للمجتمع ككل. نحن الآن، وقد ودعنا القرن العشرين، ودخلنا قرنًا جديدًا، نعيش فى عالم مختلف تمامًا، أفضل فى جوانب كثيرة مما كان عليه منذ مائة عام، ولكنه أيضًا أسوأ كثيرًا فى جوانب أخرى. والمتوقع من مثقف كبير بحجم الأستاذ أمارتيا سن، يجمع فى اهتماماته بين عدة فروع مهمة من فروع المعرفة والعلوم الاجتماعية، أن يوجه أكبر قدر من جهده إلى التنبيه إلى أهم ما يواجه العالم الثالث من أخطار، وينشغل بتحليلها وبيان آثارها. ولكن الذى فعله الأستاذ سن فى كتابه الأخير هذا «التنمية حرية» أو «التنمية كحرية» كان عكس هذا بالضبط.

نظر الأستاذ سن فوجد العالم كله يتكلم عن الحرية والديمقراطية، وعن انتصار نظام السوق الحر على كل ما عداه، وعن العولمة وتحول العالم الكبير إلى قرية كبيرة واحدة، وعن تمكين المرأة وتحريرها من سلطة الرجل. فما الذى يمكن أن يكون أنسب للاقتصادى من أن يكتب كتابًا أو يلقى مجموعة من المحاضرات تتحول فيها قضايا العالم الثالث كلها إلى قضية واحدة هى قضية «الحرية»؟ إذا فعل ذلك فإنه يكون قد ضرب عصافير كثيرة بحجر واحد: يكون قد دافع عن الديمقراطية السياسية، وعن نظام السوق، وعن العولمة وعن المرأة، وفى نفس الوقت، بين للعالم الثالث أنه لا تعارض بالمرة بين هدف التنمية النبيل، وهذه الأهداف النبيلة الأخرى، فكلها تصب فى إناء واحد هو إناء الحرية. وهكذا يبدو للعالم جميلاً حقًا، أو على الأقل يبدو وكأن العالم رغم بعض الأشياء القليلة غير الجميلة الموجودة حاليًا، يسير فى الاتجاه الصحيح، فى هذه الميادين كلها: فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية، بل وحتى فى العلاقات الدولية بين الجزء المتقدم من العالم



> **إنى مثلاً واحد من هؤلاء الذين يعتقدون، أن الحصول على مزيد من الحرية فى ميدان معين قد يكون على حساب ما يتمتع به المرء من حرية فى ميدان آخر**

والجزء المتخلف، إذ ليس أمام هذا الجزء المتخلف ما يخشاه من الجزء المتقدم، لا اقتصاديًا ولا سياسيًا ولا ثقافيًا. فالعولمة ليست فقط حتمية بل هى فى التحليل الأخير فى صالح الجميع، بشرط أن تحدث بعض التدخلات البسيطة لتحسين حال المهمشين، وبشرط أن تمارس شعوب الجزء المتخلف من العالم حقها بحرية فى الاختيار بين مختلف الثقافات المعروضة عليهم، والتى ليست على أى

حال، إلا محصلة تفاعل قديم بين هذه الثقافات جميعًا.

العالم الذى يرسم الأستاذ سن صورته فى هذا الكتاب، هو عالم جميل حقًا، لا يستحق منا كل هذا الغضب، ولا من أعداء العولمة محاربتها، ولا من كارهى نظام السوق التنديد به، ولا ممن تعذبهم رؤية ثقافاتهم الوطنية تنهار أمام غزو الثقافة الغربية أن يبتئسوا كل هذا البؤس. نعم هناك حاجة إلى رتوش بسيطة لمزيد من التجميل هنا وهناك، ولكن الصورة فى الأساس بديعة، وليس فى الإمكان، على أى حال، أبدع كثيرًا مما كان.

إذا كانت هذه هى فعلاً الرسالة الأساسية التى يبعثها كتاب «التنمية حرية»، إلى القارئ، أو على الأقل إحدى الرسائل الأساسية التى يحاول توصيلها، فكيف لا يشعر بعدم الارتياح قارئ مثلى يعتقد عكس هذا بالضبط؟ إذ يرى أن العالم يمر الآن بمرحلة خطيرة يتعرض فيها للتهديد الكثير من القيم الإنسانية الأساسية: الحرية تعيش بها الشركات الدولية العملاقة فى داخل الدول المتقدمة صناعيًا والدول الفقيرة على السواء، وهذه الشركات تستخدم سياسيى وجيوش دولها لخدمة هذا العبث بالحريات فى الداخل والخارج، والديمقراطية لا تعيش أزهى عصورها، على الرغم من كل ما يقال بعكس ذلك، بل تتحول أكثر فأكثر إلى نقيضها بفعل وسائل اللعب بالأدمغة وفقدان الأفراد، شيئًا فشيئًا، لقدرتهم على مقاومة ما بيد الدولة والمؤسسات الكبيرة من وسائل القهر. ونظام السوق الذى ينتشر تطبيقه، أكثر فأكثر، مع شيوع الاتجاه نحو الخصخصة وفتح الأبواب على مصارعها أمام تنقل السلع والخدمات ورؤوس الأموال، يصبح أكثر فأكثر توحشًا وقسوة فى داخل الدول الصناعية وخارجها على السواء. والثقافات الوطنية تتعرض لمزيد من القهر خاصة بعد أن انتهت الحرب الباردة وانفراد ثقافة بعينها بكل الوسائل التى تمكنها من السيطرة على وسائل الإعلام وتغيير نظم التعليم والتدخل حتى فى أشد جوانب الحياة خصوصية، بما فى ذلك عقيدة المرء الدينية.

لقد فضل الأستاذ أمارتيا سن أن يتجاهل كل هذا عندما دعا فى سنة ١٩٩٦ إلى إلقاء مجموعة من المحاضرات على كبار الموظفين بالبنك الدولى، فاختار أن يرسم هذه الصورة الزاهية للعالم، ثم قام بجمع هذه المحاضرات فى كتاب «التنمية كحرية»، الذى نُشر لأول مرة بالإنجليزية فى سنة ١٩٩٩. ولابد أن المحاضرات قد أدخلت السرور على قلوب المسئولين فى البنك، بل وعلى قلب كل من له صلة «بالمؤسسة» بأوسع معانى «المؤسسة»، أى بمعنى الأفراد والهيئات والمنظمات والشركات المتحكمة فى مصير هذا العالم، سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا وإعلاميًا، بل ولابد أنها أدخلت السرور أيضًا على كل من يهمهم أمر الإمبراطورية الأمريكية التى يجرى الآن، ومنذ سقوط الكتلة السوفيتية، تثبيت دعائمها وترسيخها.

وقد حصل الأستاذ أمارتيا سن على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى سنة ١٩٩٨، أى فيما بين إلقائه لهذه المحاضرات وبين ظهور الطبعة الأولى من الكتاب. ومن الخطأ فى رأيى القول بأن اتخاذ هذا الموقف من جانب أمارتيا سن فى هذه المحاضرات وغيرها من محاضرات وكتابات فى العشرين سنة الأخيرة، هو سبب حصوله على جائزة نوبل. ولكن من الخطأ أيضًا فى رأيى أن ننفى وجود أى علاقة بين الأمرين. فالمرء لا يحصل على جائزة نوبل لمجرد أن «المؤسسة» راضية عنه، إذ لابد أن يكون قد أثبت جدارته العلمية أو الفنية بالمقارنة بأقرانه فى فرع تخصصه، ولكنه على الأرجح لا يحصل على هذه الجائزة إذا كانت «المؤسسة» غير راضية عنه.

إذا كان الأمر كذلك، فلابد أن يبدو الاسم الذى اختاره الأستاذ أمارتيا سن لمحاضراته وكتابه (التنمية كحرية)، داعيًا إلى شىء من السخرية. إذ هاهى الحرية تستخدم كوسيلة للقهر، أو بعبارة أدق، هاهو شعار الحرية يستخدم للدفاع عن نمط للحياة تزدهر فيه مختلف صور القمع والقهر. ولكن هذه ليست المرة الأولى على أى حال التى يستخدم فيها شعار الحرية كقناع لممارسة القهر: حدث هذا من قبل فى روسيا السوفيتية، وفى ألمانيا النازية، وفى إيطاليا الفاشية، وتستخدمه الآن بنشاط كبير أمريكا الديمقراطية. ■

كتـــاب الـزاويــــة

سـندباد إلى الغـرب

جولة فى لوندره ما بعد الحرب

أخيرًا هذه هى لوندره، بحدائقها السندسية البهيجة، وأبنيتها السوداء القبيحة، وازدحامها المرهق، وأوتوبوساتها الفرحة بلونها الأحمر، الشامخة بطابقيها، وحركة المرور المعكوسة المقلقة باتجاهها إلى يسار الطريق بدل يمينه، وبوليسها ذى القبعات الناقوسية الكحلية.

كلا لم أنس لوندره منذ سنة ١٩٣٨. فلم يمض علىّ فيها يومان حتى وجدتنى أعرف من أحيائها وطرقها ودورها وآثارها ما عرفت من قبل. ولم أقض ساعة بين أهلها حتى اعتدت ذلك الهدوء البارد، وشعور «عدم المبالاة بالآخرين»، والحدود الموضوعة للسلوك فى البيع والشراء والاتصال بالناس.

ها هم الإنجليز بوجوههم التى لا تنم عن شعور، إلا أن يكون شعور من يشكو الإمساك المستعصى، ولكن النساء أكثر أناقة وعناية بجمالهن، وربما كن أشد صلفًا واعتدادًا، بينما يبدو رجالهم أشد تعبًا وإنهاكًا.

هذا الشعب المنتصر يعيش على شفا الجوع، يقتر عليه فى الخبز واللحم. ويحسب عليه الكساء وأدوات النظافة. هذا الشعب الذى استولت الدولة على معظم إيراده لترد عنه غوائل المعتدى يرى نفسه فى آخر المطاف غالبًا يصرف بعض إيراده على المغلوب ويعيش ثلاثة أرباعه على الربع الباقى. فالدولة تأخذ من الغنى لتعطى الفقير. ومهما كثر ما تأخذ من الغنى فهو أبعد من أن تجعل من الغنى فقيرًا ومن الفقير غنيًا، ولكنها خطوات فى طريق التحرير، تحرير البشرية من العوز، طريق العدالة الاجتماعية، عدالة المساواة لا أمام القانون وحده، بل أمام الاقتصاد أيضًا.

«الإمـارة سـيف ومنسـف»:

مـازن النجـار

هذا الكتاب هو في الأصل مجموعة مساهمات بحثية متكاملة، وإن لم تكن شاملة، لعدد من الأكاديميين (في أوروبا) من المهتمين بالتاريخ والسياسة والاجتماع في المشرق العربي الإسلامي. تقارب هذه المعالجات بنية ووظائف قبائل العراق وإيران وكردستان وليبيا والمغرب والمملكة العربية السعودية وأوضاعها الراهنة، وما طرأ عليها من مستجدات وتطورات في القرن الماضي، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين القبيلة والسلطة، وخلفيات وحركيات هذه العلاقة. كما تعالج مساهمات الباحثين أثر السياسات والتنظيمات المركزية والتقنيات الحديثة واقتصاد السوق على أحوال القبائل، وما أحدثته من تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية. ومن خلال دراسة بعض الحالات، تستعرض المساهمات تعقيدات بنيان وعلاقات القرابة والنسب وأثرها على تشكيل العصبيات القبلية وقيام إمارات القبائل واندحارها.

تبنت المنطقة العربية، وجوارها شرق الأوسطي عموما، في حقبة ما بعد الاستقلال في أعقاب الحربين العالميتين، نموذج الدولة القومية (الحديثة) بشكلها وحدودها ومؤسساتها وبعض آلياتها. ومن خلال ذلك أرادت بعض النخب الحاكمة أن تتدرج في عملية التحديث متجاوزة الأشكال التقليدية للاجتماع السياسي، وفي مقدمتها وأهمها القبيلة. لكن بعد مرور عقود طويلة على تأسس الدولة الحديثة في الشرق الأوسط، أثبتت القبيلة أنها عصية على الاقتلاع، وأنها ما زالت حجر الأساس في كثير من البلدان. ذلك أنها لم تختف من المسرح السياسي العربي والشرق أوسطي، رغم ما بدا من غياب أو تغييب لها. لقد كانت القبيلة دوما هناك في خلفية المسرح تلعب أدواراً مركزية في السياسة والسلطة، ويشهد اليوم صعودا متميزا للقبيلة وتموضعا جديدا لها في قلب المجتمع أو قلب السلطة.

يطرح هذا الوضع أسئلة كثيرة: كيف حدث هذا؟ لماذا يرتد المجتمع والسياسة العربيان إلى عصبيات إثنية وقبلية في عصر العولمة وانهيار الحدود والولاءات الضيقة؟ هذه الأسئلة وتفريعاتها الكثيرة هي بعض ما يتطرق إليه الكتاب، غير أن السؤال المركزي الذي يطرحه الكتاب، وينعكس على معظم مساهمات الباحثين المشاركين هو كيف استمر حضور القبيلة بشكل طاغ في السياسة العربية؟ ولماذا؟

دور القبيلة بعد قرن من نشوء الدولة الحديثة

تنطلق الفكرة الأساسية للكتاب من التجربة العراقية حيث أعيد إحياء القبائل في مطلع تسعينيات القرن العشرين، رغم أن العراق كان يُعرف في القرن التاسع عشر بأنه مقبرة القبائل بينما كانت الجزيرة العربية تعتبر ملاذ أو جنة القبائل. فقد كانت هناك سلطة مركزية قوية في العراق، بينما كانت غائبة في الجزيرة العربية. فحيثما تقوى السلطة المركزية تضعف القبيلة، والعكس صحيح. ولكن بعد مرور حوالي قرن على نشوء الدولة المركزية، أعيد إنشاء القبائل بسهولة كبيرة في العراق. وهكذا ينطلق السؤال من العراق ليمتد إلى منطقة الشرق الأوسط ككل في محاولة للدراسة المقارنة مع المغرب والجزيرة العربية وكردستان تركيا وإيران والعراق. كما يقدم الكتاب دراسة لحالة إيران في إطار مقارنة بعموم البلاد العربية إضافة إلى بعض البلاد المجاورة، وإن لم يحالف التوفيق بعض هذه المقارنات.

سيبقى العامل السياسي محوريا وهاما في دول الشرق الأوسط الحديثة، وخاصة في العراق. فمن هذه الناحية يتواصل الكتاب مع الأعمال الأنثروبولوجية والسياسية عن القبائل، والتي كتبت عن منطقة العراق والأردن والجزيرة العربية. وهو إضافة مهمة لهذه الدراسات، وتبقى الرسالة الأصلية للكتاب هي استمرارية القبيلة، ولكن في نفس الوقت هناك أيضا تغير وتطور هائل بحيث إنها أصبحت وحدة اجتماعية تختلف تمام الاختلاف عما كانت عليه تاريخيا. فقد كانت القبيلة تاريخيا وحدة اجتماعية لها تركيب خاص، وكان تركيبها متعلقا بالاقتصاد، خاصة الاقتصاد الرعوي، وتربية الإبل. زال هذا التركيب الاقتصادي في العصر الحديث، فصارت للقبيلة وظائف اجتماعية أخرى، تختلف تمام الاختلاف عما كانت عليه تاريخيا، وهي كوحدة اجتماعية أيضا اختلفت تماما. ولكن كيف تطورت وتغيرت وحدة القبيلة في ظل الدولة المركزية مقارنة بما كانت عليه؟

ينتقد الكتاب نظرية التطور التي ترى أن القبيلة تبدأ مع الاقتصاد الرعوي، وتتفتت عندما تنتقل للاقتصاد الزراعي، وتتلاشى عندما تنتقل للاقتصاد المديني أو الصناعي أو التجاري. لكن الواقع التاريخي يقول أنها لم تنته لدى انتقالها من حالة اقتصادية إلى أخرى، فتعلق التنظيم القبلي بالاقتصاد الرعوي ليس عضويا أو حتميا. فقد تغيرت أنماط الاقتصاد، وتغيرت أنماط التنظيم الاجتماعي والسياسي أيضا؛ ولكن القبيلة كقبيلة بقيت على الأقل من ناحية الاسم والكيان والزعامات. فمن الملاحظ أن القبيلة في الاقتصاد الرعوي هي تقريبا دولة؛ لأن البذرة تحتوي على شجرة في خلية، تصير غصنا في خلية، تصير جذورا في خلية، وتصير جذعا. فالقبيلة لها قوتها العسكرية، وقانونها غير المدون بالطبع، وثقافتها الشفهية، ونطاقها الجغرافي (الأرض)، ومصادر مياهها؛ ولها أيضا تحالفاتها ومعاهداتها العسكرية، كأنما هي دولة مصغرة، سوى أن الزعامة السياسية غير موجودة فعلا كمؤسسات سياسية. وقد تطورت بعض القبائل إلى إمارات، كما حصل في إمارة شمّر في الجزيرة العربية أو كما حصل في حالة الدولة السعودية الأولى. كذلك نشأت بعض الإمارات الكردية من اتحادات وزعامات قبلية قوية وحدت القبائل وأخضعت مناطق. هذا الشكل الكلاسيكي انتهى، ولم يعد موجودا بسبب الاقتصاد الحديث والهجرة إلى المدن وغير ذلك.

لكن بقيت بعض الفرضيات حول هذا الموضوع. فهناك من يعتقد أن القبيلة ككل بقيت كثقافة، بمعنى الارتباط بالقبيلة وجدانيا، ودفع الديات نيابة عنها، والدفاع عنها، والاستجابة لمطالب ومبادرات شيخ القبيلة. فهي علاقة تضامن معنوية أكثر منها علاقات مادية. وهناك من يرى أن ما بقي من القبائل هو البيوتات والأفخاذ الصغيرة والعشائر.

ولكن السؤال الكبير وربما الفضفاض والذي تتوزع إجابته في مختلف فصول الكتاب: هل صمود وحدة القبيلة رغم قيام الدولة المركزية، هو بسبب قوتها الذاتية الداخلية؟ أم هو بسبب فشل الشكل الجديد للدولة الحديثة في المنطقة العربية والشرق الأوسط في تحقيق هوية أو رابطة أو انتماء يحل محل القبيلة؟

بعد مرور عقود طويلة على تأسس الدولة الحديثة في الشرق الأوسط، أثبتت القبيلة أنها عصية على الاقتلاع، وأنها ما زالت حجر الأساس في كثير من البلدان

Tribes and Power: Nationalism and Ethnicity in the Middle East
القبيلة والسلطة: القومية والإثنية في الشرق الأوسط
Faleh A. Jabar, Hosham Dawod (Editors)
London: Al Saqi Books, 2003; 360 pp

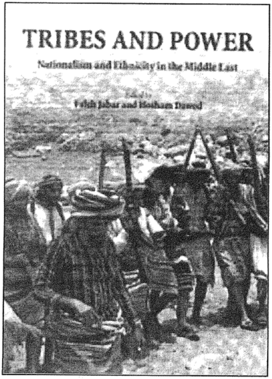
دولة القبيلة العربية

بيد أن المسألة ليست فشل الدولة الحديثة حصريا، لأنه من فعاليات الدولة الحديثة إنشاء تماسك اجتماعى داعم للدولة، وهذا يقتضى أن تستخدم القبيلة فى معظم الأحيان لأجل خلق هذا التماسك والدعم. فالقبيلة صار لها إستراتيجية تعنى تواجدا مختلفا لوحدات القبيلة، وهى خطة استراتيجية مبنية على أيديولوجية القرابة والنسب. ولكن فى نفس الوقت، يتم استعمال القرابة والنسب فى سبيل مصالح زعماء وأفخاذ القبيلة. فالقبيلة كوحدة تغيرت، ورغم أن النسب والقرابة هما أيدلوجية القبيلة، انحصرت الوحدات الفعالة فى القبيلة فى تلك التى لها مصالح تتماسك مع بعضها البعض. وبالطبع هناك فى بعض الأحيان خلافات ونزاعات وصراعات بين مختلف الرئاسات فى نفس القبيلة.

النموذج التفسيرى الخلدونى

يكاد ابن خلدون أن يكون الحاضر الذى لا يغيب عن فصول الكتاب، خاصة المقولات والنظريات الخلدونية الشهيرة حول «النسب والعصبية والرياسة ودورات الملك». وترى بعض مساهمات الكتاب أن أهمية النظرية الخلدونية فى فهم وتفسير مركزية العصبية (القبلية) فى التاريخ العربى لا تتوقف على تفسيراته التاريخية والاجتماعية للحقبة التى عاشها وما سبقها، بل تمتد تطبيقاتها الهامة إلى التاريخ الحديث والمعاصر.

لاحظ ابن خلدون أن صراع العصبيات القبلية الصغرى يتم حسمه لصالح عصبية غالبة، يؤول إليها الملك، وتعمل من خلاله على إعادة صياغة الولاءات والعصبيات الصغرى بحيث تؤسس ولاء وروحا جماعية بين عصبيات القبائل المتصارعة، مستندة إلى شرعية المقدس المتمثل بدعوة دينية وما لها من فعاليات فى التنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى. لكن ديناميكية وحراك العصبيات الصغرى يخفت ويشتد بالتوازى مع منعة ووقوة العصبية الغالبة التى ستنخرط حتما فى دورة الملك الذى ما أن يصل ذروته حتى يبدأ بالهبوط والانحدار الناتج عن فساد يولده الترف والدعة. فى تلك الأثناء تكون عصبية أخرى ترقب الانحدار لتتلقف راية الرياسة، وتصعد لتأخذ مكانها فى دورة التدافع التى تتابع الدوران.



يتفق ويختلف الباحثون المساهمون فى الكتاب مع ابن خلدون فى بعض الجوانب من نظريته، لكنهم لا يستطيعون إغفالها، خصوصا فى الفصل الذى كتبه بيير بونت حول «القبائل والدول: ابن خلدون والأنثروبولوجية المعاصرة»، فهو يدرس دورات قيام الدول والتحالفات القبلية وأثرها على القبيلة والدولة. ولكن ما هى دلالة فكر ابن خلدون فيما يخص دراسة القبيلة والسلطة؟ وهل يمكن لقراءات وتفسيرات الاجتماع البشرى فى القرن الثالث عشر والرابع عشر أن تفسر واقع الاجتماع البشرى الحديث أو المعاصر؟

دلالة النموذج التفسيرى الخلدونى هى فى الاستمرارية التاريخية لظاهرة القبيلة كأحد ظواهر الاجتماع البشرى. فالدولة الحديثة فى المنطقة لم تنشأ إلا فى بداية القرن العشرين مع الإصلاحات العثمانية، وإصلاحات محمد على باشا، والثورة الدستورية فى إيران (المشروطية). قبل ذلك كان هناك استمرارية تاريخية للتوازن بين القبائل وبين الدولة، وتعرف هذه الحالة فى المغرب بالدولة «المخزن». وقد لاحظت دورة الاجتماع الخلدونية أن قبائل البدو تتضامن وتكون كل ثلاثة أجيال قوة عسكرية هامة تقتحم المدن لتؤسس دولة، تدوم بدورها لثلاثة أجيال، ثم تتحلل الأواصر بين الغزاة، لتضعف شوكتهم، ثم تتفكك تحت ضغط تحالف بدوى (قبلى) جديد أكثر التحاما. لكن العثمانيين كسروا الدورة الخلدونية عندما دخلوا عصر البارود والمدفعية، وغيروا علاقات القوى بين المدينة والقبيلة لصالح الدولة (الإمبراطورية). فالتحول الأهم فى العهد العثمانى هو انقطاع صيرورة الصراع بين البداوة والمدينة التى هى أساس النظرية الخلدونية، وانكسار الدورة الخلدونية؛ إذ كانت أى مدينة محصنة بأسوارها وقلاعها ومدافعها الموجهة من فتحات الأسوار قادرة غالبا على صد هجمات البدو. يؤكد هذا الانكسار فى الدولة الخلدونية إخفاق عدد من محاولات الانسلاخ عن الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر، وكانت تلك المحاولات قائمة على عصبيات وتحالفات قبلية، كإمارة الشيخ ضاهر العمر فى إقليم عكا، وإمارة فخرالدين المعنى الثانى فى جبل لبنان، والدولة السعودية الأولى فى نجد، وإمارة الشيخ صفوق بن فارس الشمرى فى عراق منتصف القرن التاسع عشر. وكانت آخرها إمارة الشيخ خزعل فى الأهواز جنوب غرب إيران والتى انتهت بهزيمته أمام رضا شاه ونفيه من الأهواز.

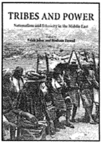
كذلك، يتناول بيير بونت جانبا جديدا وهاما. فالدارس لابن خلدون يجد تفسيرات لتماسك القبيلة وعدم تماسك المدينة، وكيف أن القبيلة تنتقل إلى المدينة وتسيطر عليها، ثم يبدأ الانحلال وغيره من مناحى الضعف. غير أن بيير بونت يدرس البنية الهرمية التراتبية داخل القبيلة وفيما بين القبائل التى تنشأ منها الزعامة؛ فهى ليست بنية مستقرة، بل هى بنية احتراب وصراع داخل القبيلة، لا يقل حدة عن الصراع بينه وبين القبائل الأخرى، وعلى الأخص الصراع بين البيوتات القوية على الزعامة، وكذلك داخل البيت المتزعم، لأنه لا يوجد نظام ثابت لتوارث الزعامة. فعندما يموت شيخ القبيلة يرثه أبناؤه أو إخوته أو أبناء إخوته، فالوراثة إما أن تكون أفقية أو عمودية. وهنا ينشأ الصراع بين خطوط الوراثة (بين الأبناء والأعمام) أو داخل كل خط (فيما بين الأبناء أو بين الإخوة)؛ وهى مسألة مهمة يعالجها بيير بونت.

الإدارة البريطانية والقبيلة

فى الفصل الذى كتبه توبى دودج عن أثر الاستعمار البريطانى وعلاقته مع القبيلة، يعرض دودج لرؤية حنا بطاطو حول أن الاستعمار البريطانى أنقذ القبيلة من انحدار كان شبه حتمى، وأنه حاول استغلال شيوخ القبائل حتى يساعدوه فى إدارة العراق كقوة إدارة محلية؛ وبهذه العملية هو أنقذها من انحلال كان متوقعا بسبب دخول الحداثة وفعاليات عملية التحديث. كانت رؤية حنا بطاطو حول علاقة الإدارة البريطانية بالقبائل قد لقيت قبولا أكاديميا واسعا لعقود طويلة، إلا أنه بعد صدور دراسات كثيرة حول التاريخ الاجتماعى للعراق، احتاجت هذه الرؤية إلى تعديل.

كان حنا بطاطو يعتقد أن العثمانيين فى عهد التنظيمات وفى سياق

القبيلة والسلطة



كان بريطانيون آخرون - مثل جلوب باشا - ينظرون إلى القبيلة نظرة رومانسية؛ ويشعرون بالقلق إزاء تراجع الحياة القبلية، وما تنطوي من نقاء وعفوية، تفتقدها الحياة الغربية الحديثة

سعيهم نحو بناء إدارة مركزية، كانوا يدمرون الرؤساء والزعامات، ويفتتون القبائل. وعلى العكس من السياسات العثمانية السابقة على التنظيمات، كانت الأخيرة تعتمد الحكم المباشر، ولا تؤمن بتفويض وسطاء من القبائل والزعماء المحليين للاعتماد عليهم في إدارة المناطق. ولهذا فقد كانت علاقتهم عدائية مع القبائل، بل تعرضت القبائل والقبلية بشكل عام لانتكاسات متوالية في العهد العثماني بسبب مركزية السياسة والتحديث القسري والفوقي الذي فرضه الباب العالي على أكثر من مجال من مجالات الحياة.

لكن البريطانيين لم يوقفوا تفتت القبائل، بل أوقفوا تدمير شيوخ القبائل. استخدمت الإدارة البريطانية في العراق الشيوخ لثلاثة أسباب. السبب الأول هو عدم ثقتها بالمدن ورغبتها في إيجاد توازن «بريطاني» بين القبيلة والمدينة. السبب الثاني أن السير بيرسي كوكس (المعتمد البريطاني في الخليج) أقام عام ١٩١٦ نظاما سماه «قانون فض المنازعات» الذي أسس شيوخ القبائل باعتبارهم شرطة وجهازا عدليا (قضائيا)، ولأول مرة أصبح لشيخ القبيلة قوة شرطة مسلحة خارج إطار القبيلة، وتخضع القبيلة نفسها. يعني تحول شيخ القبيلة إلى شرطي وإلى جهاز عدلي، فهذه كانت سيطرة قليلة التكلفة. السبب الثالث هو تحول شيوخ القبائل إلى إقطاعيين، واستمرت عملية تفتت القبائل، لم توقفها ترتيبات إعادة تأهيل الشيوخ التي لم تشمل القبائل. فالشيوخ تحولوا إلى إقطاعيين وكبار ملاك، بينما تحول أبناء القبائل إلى فلاحين أقنان عندهم. أدى ذلك إلى هروب الفلاحين من الأرض، وتفاقمت بالتالي عملية تفتت القبائل؛ فلم توقفها إجراءات الإدارة البريطانية، بل عززتها. كان الاختلاف بين السياستين البريطانية والعثمانية هو أن بريطانيا أنقذت شيوخ القبائل بتحويلهم إلى ملاك وإقطاعيين.

جاءت مغالطة بطاطو حول هذه المسألة من قياسه على الحالة الكردية، فقد كان الضباط البريطانيون يتصلون ببعض القرى الكردية ويسألونهم إلى أي عشيرة ينتمون. فإذا أخبرهم الفلاحون أنهم لا ينتمون إلى عشائر، قال البريطانيون لا بد لكم من الانتماء إلى عشائر. لكن الحقيقة أن هناك نوعين من التنظيم الاجتماعي في المنطقة الكردية: مجتمعات زراعية (فلاحية) في القرى، وقبائل. وثمة دراسات كثيرة حول هذه القضية. لكن هذا المسئول البريطاني لم يكن يعلم أنه في بعض المناطق لا توجد قبائل بالأساس، ولم يكن الموقف تعبيرا عن دعم بريطاني للقبلية.

لم يقتصر الموقف البريطاني من القبائل في العراق على التوظيف الإداري لشيوخ القبائل، بل كان جزءا من رؤية داروينية أوسع لفكرة الارتقاء التي ترى أن انضباط القبيلة ودخولها في طاعة الامبراطورية يؤهلها للعب دور قيادي في الانتقال بالمجتمعات التقليدية والبسيطة من البدائية إلى «الحضارة» والحداثة. عبر عن ذلك اللورد لوغارد، أحد رجالات الإدارة الاستعمارية، الذي رأى أن الشعوب «البدائية» - خصوصا الأفريقية منها- لا بد لها من الارتقاء وفقا لمسار معين ينقلها بالتدريج وعبر مراحل انتقالية من التخلف إلى الحضارة. وكان ينظر إلى القبيلة كمجتمع أبوي قسري على أنها إحدى المراحل الانتقالية بين البدائية والحضارة. ولذا، فإن تأهيل الإدارة البريطانية لشيوخ القبائل والاعتراف بسلطتهم وتوظيفهم في ضبط أوضاع قبائلهم هو من وجهة نظره يقرب القبيلة خطوة واسعة من التحضر بعيدا عن البدائية. تفسر هذه الرؤية الداروينية سبب احتقار لوجارد للنخب الأفريقية المتغربة لأن أفرادها «يحرقون» مراحل التطور، ويتجاوزون منحنى عملية التغيير بشكل يربكها أو يعرقلها. بينما كان بريطانيون آخرون - مثل جلوب باشا في شرق الأردن- ينظرون إلى القبيلة نظرة رومانسية؛ ويشعرون بالقلق إزاء تراجع الحياة القبلية، ومنظومتها الأبوية، وما تنطوي من نقاء وعفوية وقيم، تفتقدها الحياة الغربية الحديثة.

بيد أن السلطات الاستعمارية البريطانية لم تكن -على أي حال- تثق بالقوى السياسية الوطنية والقومية الحديثة، بل كانت تخشاها؛ فوظفت القبائل كعامل توازن ضد القوى السياسية الحديثة، ونشوء الدولة والقوى السياسية الحديثة. لم يقتصر هذا التوظيف لزعامات القبائل على الإدارة الاستعمارية فقط، بل إن الدول والحكومات الوطنية فيما بعد استخدمت أيضا القبائل والعصبيات القبلية والإثنية ضد القوى السياسية الحديثة، واستمر ذلك إلى عهد البعث. لكن في عراق منتصف القرن العشرين، نرى أن تطور ونضوج الحركات السياسية قلل من أهمية القبلية والإثنية. وفي العهد الجمهوري (عهد عبد الكريم قاسم) مثلا، أدى نظام الإصلاح الزراعي إلى إضعاف القبائل والقبلية بصورة عامة، ولكنها عادت بعد زوال نظام قاسم وصعود البعث إلى السلطة في ١٩٦٨، رغم أن الأيديولوجية القومية (الحديثة) في مراحلها المبكرة والتي انبثق عنها البعث كانت مضادة للقبلية؛ فتماسك الوطن والشعب والأمة يجب أن يكون على أساس المواطنة والانتماء العام، وليس على أساس القبلية.

الدولة العراقية الحديثة ومسألة السلطة والقبيلة

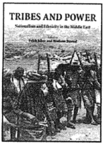
يتناول جزء الكتاب - الذي هو بعنوان «التوليتارية والقبلية»- علاقة السلطة البعثية بالقبائل في العراق تحديدا كحالة دراسية، وكيف تمت «بعثنة» القبيلة أو تحزيب القبيلة بعثيا، وفي الوقت ذاته اتخذت السلطة طابعا قبليا. وهذا الموضوع هو محور الكتاب بدون شك لأنه يركز على علاقة القبيلة والسلطة في العراق الحديث.

ففي الفصل المعنون «شيوخ وأيديولوجيون»، ويتناول تفكيك وإعادة تركيب القبائل العراقية تحت توتاليتارية البعث «الأبوية»، يقدم فالح عبد الجبار تقسيما وظيفيا لأنماط القبلية. فهناك «القبلية الثقافية» Cultural Tribalism وتعبر عن شبكات قرابة قوية أو أيديولوجيا قرابة قوية، وعن قيم ومنظومات ثقافية دون أن يوجد وراءها تنظيم قبلي كلاسيكي كما هو في السابق. فهي قبيلة أصبح جزء منها مزارعين، وآخر لا زال في البادية، وآخر انتقل إلى الاستقرار في المدن ولا يرتبطون ببنية قبلية محددة، بل تربطهم بعض عهود وعلاقات تراحم وتكافل في أمور الزواج والوفاة والقضايا والوساطات. وهذه القبلية نراها في المدن وهي تتباين وتتفاوت بين حالة (قبيلة) وأخرى.

رغم أن التناقض بين الخطاب القومي وهو بطبيعته يتسع ويتجاوز القبائل والإثنيات والمناطق وبين الخطاب القبلي الذي هو ضيق وحصري بمجموعة بشرية معينة، استعانت المجموعة البعثية الحاكمة منذ ١٩٦٨ - بسبب ضعفها ووضعها الأقلوي داخل حزب البعث- بأفراد قبيلتها لملء المناصب الحساسة في الجيش والأجهزة الأمنية؛ فسميت هذه الحالة «قبلنة» الدولة Tribalization of State أو قبلية «حكومية» Etatized Tribalism أي أن الدولة صارت محاطة بشبكات من القرابة لحمايتها. وعندما استخدمت الأحزاب الكردية القبائل الكردية القوية لأغراض عسكرية، سميت الحالة قبلية عسكرية Military Tribalism لأن الأحزاب الكردية اشترت الخدمات العسكرية للقبائل مما أحيا سلطة القبيلة وليس فقط سلطة زعماء القبائل، وهؤلاء الزعماء تحولوا بدورهم إلى رأسماليين كبار يملكون مشروعات صناعية وفنادق وعمارات بفضل هذه التحولات.

أما القبلية «الاجتماعية» في الجنوب، فهي تعبير عن حالة المهاجرين من الريف للمدينة وما بينهم من تضامن

القبيلة والسلطة



ما لا يقل عن ثلث القيادات العسكرية الرفيعة، ونخب رجال الأعمال الذين أثروا خلال عهد البعث بالعراق، وقيادات بعض المؤسسات الأمنية الحساسة، تنتمى فى معظمها إلى قبيلة أو قبيلتين

وتكافل. فنتيجة لتدمير أو إضعاف منظومات المجتمع الأهلى التى هى شكل التعبير عن انتماء الفرد إلى مجموعة أو أمة أو طبقة، نشأ فراغ بين الدولة والفرد. وهذا الفراغ ملأته شبكات التضامن الأسرية ومنها القبلية فهى قبلية «اجتماعية».

الدور السياسى للقبائل العربية

غابت صورة القبيلة فى بلدان عربية أخرى كاليمن أو الأردن عن الكتاب، وهذا أحد أوجه النقد الذى يوجه للكتاب؛ فدراسة القبيلة فى هذه البلاد تساعد على الوصول إلى مقارنات واكتشاف خطوط التوازى والتباين مع ما حدث للقبيلة فى العراق والجزيرة العربية والمغرب. فالقبلية فى اليمن والأردن لها أوضاع رسمية أكثر فى السياسة وفى ترتيب الدولة، خاصة فى اليمن. وتطور المجتمع والاقتصاد والدولة فى اليمن يختلف عنه فى البلاد العربية الأخرى مثل مصر. لذلك استمرت أهمية القبيلة، كما استمر التنظيم الاقتصادى والتاريخى لبعض القبائل. ولازال النظام العسكرى للدولة يتداخل مع العصبيات القبلية. لذلك تتجاوز أهمية القبيلة والقبلية فى اليمن تلك الأهمية فى بلاد العرب الأخرى. أما فى الأردن، فالقبيلة لها دور سياسى مباشر ينعكس على أى انتخابات عامة والتى عادة ما تكون مسبوقة بانتخابات داخل القبيلة، والتى ترشح بدورها من يمثلها فى الانتخابات البرلمانية أو البلدية. وهذا بدوره يكرس شرعية القبيلة أو الوضع الرسمى للقبلية فى الأردن، مع اختلاف الحالة هناك عنها فى اليمن. أما فى العراق، فقد ضعفت القبلية حوالى منتصف القرن العشرين، ثم قويت واستعادت عافيتها مرة أخرى بعد توظيفها من قبل حكومة البعث. وفى آخر عهدها استخدمت حكومة البعث القبائل لتقوية السيطرة الاجتماعية للدولة، فقد ضعفت آليات الدولة فى الأقاليم والمناطق مما فتح المجال لانبعاث دور القبائل فيها.

فى دراسته للقبلية والدولة فى العراق، يسجل كايكو ساكاى ملاحظاته حول دور القبلية فى الجيش والوزارات والبرلمان فى الحالة العراقية. ما يلفت النظر هو ذلك التناقض الذى يبدو أحيانا فى توجهات حزب البعث الحاكم نحو القبلية. فمن ناحية، قامت حكومة الحزب بشطب اسم الأسرة أو العشيرة أو الناحية من أسماء الأشخاص ربما لصرف النظر عن الصبغة القبلية لأفراد النظام ذاته أو لمصادرة الشعور بالانتماء والقرابة والتضامن والتعارف بين أبناء القبائل الأخرى المنافسة. من ناحية أخرى، أدت سياسات النظام إلى انبعاث دور القبيلة فى العراق بعد ذبول وانكفاء طويل، كما أدت إلى اعتماد الجيش للتشكيلات القبلية.

فما لا يقل عن ثلث القيادات العسكرية الرفيعة من مستوى قيادة الفرق فما فوق، ونخب رجال الأعمال الذين أثروا خلال عهد البعث، وقيادات بعض المؤسسات الأمنية الحساسة تنتمى فى معظمها إلى قبيلة أو قبيلتين؛ والسبب الأساسى وراء ذلك هو إضفاء عامل التلاحم على النخبة الحاكمة. تسببت السياسات القبلية للبعث، والانتقال من الخطاب القومى الموجه للأمة إلى الخطاب القبلى الضيق إلى مأزق أيديولوجى حاول بعض الأيديولوجيين فى حزب البعث حله حلا براجماتيا لتسويق القبلية فى المجتمع العراقى باعتبار أن القبيلة التى تقوم بنيتها على القرابة ونقاء النسب هى وحدة بنائية تمتد كلبنة او مكوّن داخل العائلة العربية الكبرى. وبذلك، لا يكون هناك تناقض بين أيديولوجية البعث القومية التى تقوم على فكرة الدولة وبين أيديولوجية القبيلة التى تقوم على النسب والقرابة؛ مع أن ساطع الحصرى وميشيل عفلق أقاما مفهوم الأمة بشكل أساسى على الرابط اللسانى والتاريخ المشترك وليس على رابطة العرق أو النسب.

القبيلة فى المغرب

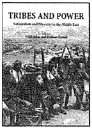
فى الفصل الذى كتبه كنيث براون حول «الدولة والقبيلة فى المغرب»، يتناول براون علاقة القبائل المغربية والصحراوية بالدولة المغربية أو «المخزن» كما هى التسمية التاريخية المعروفة. كذلك، يرصد الباحث التحولات الديمجرافية المتسارعة بين الريف والمدن. فمع مطلع القرن العشرين، بلغ سكان الريف والصحراء فى المغرب ضعف سكان المدن تقريبا. لكن لدى الوصول إلى عقد التسعينيات الماضية، أصبحت نسبة سكان الريف والصحراء حوالى ٤٠٪ من عدد سكان البلاد. أدى ذلك لا محالة إلى ضعف أوضاع القبائل فى المغرب، ويسر للحكومة المركزية السيطرة على البلاد فى عهد الاستقلال. لم تشهد مناطق القبائل أى تحركات أو انتفاضات ضد الدولة منذ نهاية السبعينيات الماضية، مما يؤشر على قدرة الدولة المركزية على إحكام السيطرة وتصفية مراكز القوى القبلية التى يمكن أن تشكل تحديا لها منذ بداية الثمانينيات الماضية. وإضافة إلى ذلك، تمكنت الدولة من حيازة كافة الأدوات والوسائل التى تكفل لها تشكيل التوجهات والأوضاع القبلية، بما يضمن لها سيطرة شبه تامة على هذه الأوضاع. ورغم أن القبيلة المغربية لا زالت تحتفظ ببعض خصائصها ووظائفها التاريخية كثقافتها التى تميزها عن غيرها من التشكيلات الاجتماعية، وتقاليدها التى تستقطب ولاء أفرادها، وسدنتها لمقامات بعض الأولياء، فإن قوتها السياسية قد اضمحلت إلى حد كبير.

يشكك براون فى الرؤية التقليدية السائدة حول القبيلة باعتبارها وحدة إثنية وتاريخية، بل قد تكون وحدة قبلية جهوية أو جغرافية، حيث تقدم روابط الجوار والسكنى للقاطنين فى تلك المناطق أساسا للانتماء والرابطة القبلية. وبناء على ذلك، تصبح القبيلة مركبا اجتماعيا معقدا، تدخل فيه مكوناته البشرية بشكل طوعى، وتمارس القبيلة سلطتها وتقاليدها على هذه المكونات كما تضفى عليها حمايتها.

يتفق براون مع ملاحظة إدوارد كونت (مؤلف الفصل الأول) أن القبلية هناك ليست بالضرورة علاقة دم أو علاقة قرابة عن طريق الأب، إذ تخضع هذه المسألة لتداخلات وتشابكات من ناحية النسب. وكثيرا ما آلت زعامة بعض القبائل إلى عائلات من الأشراف الهاشميين لا تنتسب بقرابة الدم إلى القبائل ذاتها. بل إن شرعية العرش المغربى نفسها تستمد من النسب الهاشمى الفاطمى للأسرة العلوية المغربية المالكة. والحقيقة أن هذه الملاحظة قد تصدق أيضا فى المشرق، فقد اختارت قبائل شمر فى القرن السادس عشر الشيخ سالم بن الشريف محمد بن بركات (الجربا) زعيما لها، وظلت زعامة شمر فى ذريته إلى اليوم، ويقال كذلك أن زعامة قبيلة مطير من آل الدويش هم أصلا من الأشراف الهاشميين. وهناك أمثلة أخرى على ذلك.

والواقع أن أيديولوجية القرابة لا تتفق دائما أو بالضرورة مع الأوضاع القائمة على الأرض، وكثيرا ما تكون للقبائل رؤية استراتيجية وخطط مترتبة عليها، مما ينعكس فى تقاليد ومرويات شفهية حول أنساب وقرابات افتراضية (غير حقيقية)، لكنها ضرورية لترتيب الأوضاع الاستراتيجية والمعيشية للقبيلة. فهى إذن حالة رمزية تعبر عن أوضاع بنيوية وإشكالات استراتيجية. ورغم تشابه ثورة القبيلة والأيديولوجية القبلية فى المشرق والمغرب، يختلف التشكيل الاجتماعى للقبيلة فى المغرب عنه فى المشرق، خصوصا من ناحية علاقة القبيلة بالطرق الصوفية. وهى مسألة موجودة فى قبائل كردستان ولكن بترتيب مختلف.

القبيلة والسلطة



قانون الانتخاب العصبوى

فى الفصل الذى كتبته مضاوى الرشيد حول «الكونفدراليات والإمارات القبلية فى الجزيرة العربية»، تحاول المؤلفة أن ترصد تطور علاقة السلطة والقبيلة فى الجزيرة العربية، وتتابع نشوء إمارات آل الرشيد وآل سعود وعلاقة كل منهما بالقبائل الأخرى. فقد سيطرت اتحادات القبائل العربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على مناطق البدو الرحل الشاسعة بينما سيطرت إمارات صغيرة على الواحات ومناطق استقرار القبائل فى نجد والحجاز والإحساء وعسير. أدت التغيرات المستمرة فى ولاءات وتحالفات القبائل وتبدل المصالح وأنماط الاقتصاد إلى تغيرات مقابلة (مناظرة) فى سلطة ونفوذ الإمارات المستقلة. ومن ناحية أخرى، كان ازدياد قوة ونفوذ تلك الإمارات تنعكس على قدرتها على المناورة والتلاعب بالتحالفات والاتحادات القائمة بين القبائل. استمرت هذه الحركية كأحد أهم العوامل المؤثرة فى العلاقة بين القبيلة والسلطة فى الجزيرة العربية حتى قيام المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢.

وكثيرا ما تستدعى الباحثة مقولات ابن خلدون، فتناقشه وتخالفه فى مسألة الأيديولوجية والعصبية الدينية. فهى لا ترى أن ثنائية العصبية القبلية والشرعية (الدعوة) الدينية شرطا حتميا لقيام الملك أو الرياسة فى حالة إمارات الجزيرة العربية. فقد قامت إمارات تتمتع بأحد طرفى الثنائية دون الآخر، كإمارة آل الرشيد -التى تحققت بالعصبية القبلية دون الدعوة الدينية- فى حائل (١٨٣٥-١٩٢١)، أو إمارة آل سعود فى الدرعية (١٧٤٤-١٨١٨)، والتى غلبت شرعيتها الدينية على عصبيتها القبلية.

ولكن ثنائية العصبية القبلية والدعوة الدينية تبقى ذات دلالة فى فهم آليات وحركيات قيام الإمارات ذات الأساس القبلى واندحارها. فهل كان لدعوة ابن سعود الدينية دور فى رفع قدرته على الحشد وإيقاع الهزيمة بآل الرشيد الذين افتقدوا الأيديولوجية الدينية. وهل أدى افتقاد آل الرشيد لنظام توريث مستقر -وهو إخفاق فى تنظيم واستدامة العصبية القبلية- إلى حدوث فراغ سياسى وقيادى فى إمارة آل الرشيد بحائل، فاقمه الصراع داخل آل الرشيد على زعامة الإمارة، مما أتاح لابن سعود فرصة الانقضاض عليها وإنهاء ملك آل الرشيد؟

تؤشر هذه الدراسة وغيرها إلى أنه من رحم القبيلة تنشأ الدولة، أى الدولة السلالية (الوراثية) بالتحديد، وليست الدولة الحديثة، بدليل نشوء إمارة شمر فى جبل شمر ونشوء إمارة آل سعود فى الدرعية وجوارها قبل أن تتوسع لتصبح مملكة فيما بعد. وهى تشير إلى قانون الانتخاب العصبوى داخل القبيلة؛ فأقوى شخص فى أقوى بيت لأقوى فخذ لأقوى عشيرة هو الذى يؤسس إمارة. وعندما تنشأ أكثر من إمارة، فإن أقوى إمارة هى التى تصنع دولة حديثة. وهى تلاحظ بحق أن الفرق بين تنظيم القبيلة التقليدى وتنظيم القبيلة التى تتحول إلى إمارة يتجلى فى تشكيل وتنظيم القوة المسلحة. فالانخراط فى القوة العسكرية للقبيلة هو حالة طوعية، لكنها لم تعد مسألة طوعية فى القبيلة التى تحولت إلى إمارة. بل تصبح القوة العسكرية للإمارة منفصلة عن القبيلة، ويضاف إليها عبيد كالذين استحضروا من بلاد الحبشة وبلاد القوقاز إلى إمارة آل الرشيد، وبعض هؤلاء العبيد يرضعونهم مع أبناء الشيخ حتى يصبحوا أخوة لأولاده بالرضاعة، أخوة رمزية بالطبع، ويصبحون قوة مسلحة لإخضاع القبائل الأخرى ولإخضاع قبيلتهم. لذلك، تقول الخبرة العربية (القبلية) أن «الإمارة سيف ومنسف»؛ فالسيف هو رمز القوة، والمنسف -الذى هو اللحم والثريد- رمز الكرم والمشاركة الاقتصادية.

وهذا التحليل يشير أيضا إلى نموذجين تفسيريين: النمط الخلدونى البسيط والنمط الخلدونى المركب، لقبيلة تعتمد على أيديولوجيا القرابة، وإمارة تعرض الأمن كسلعة بين القبائل، فتصبح بدورها وسيطا.

الخبرة القبلية

فى إيران وكردستان

يرسم الفصل الذى كتبه فاريان صباحى حول «برنامج الخيمة البيضاء فى إيران» بعض المتوازيات؛ إذ يتناول القبيلة فى الحالة الإيرانية، ويناقش برنامج تأهيل وتعليم البدو (الخيمة البيضاء) ونقلهم من البداوة إلى التحضر. من المفارقات أن هؤلاء البدو الذين تعلموا وتحضروا ما بين انهيار حكومة مصدق عام ١٩٥٣ وسقوط نظام الشاه عام ١٩٧٩، التحق كثير منهم بثورة الخمينى الإسلامية ضد النظام ذاته الذى قاد عملية تأهيل وتحضير البدو. كان هؤلاء من البدو المهاجرين للمدن. وهناك فى المدينة تعلموا، واتسعت آفاقهم، وعلت توقعاتهم، ولكنهم لم يجدوا أعمالا، فأقاموا إخوانيات أو تعاونيات لم تهتم بها الدولة، واهتم بها رجال الدين الذين قدموا لها المساعدات الغذائية والاجتماعية، فالتحقوا بهم. وفى غياب الأحزاب والمؤسسات الدينية الحديثة، أصبح هؤلاء المهاجرون موالين للقوى الدينية. فكأنما هى صيرورة التحديث الذى يستتبع عمليات ونتائج تاريخية معاكسة تضاد أهداف وغايات القائمين عليه فى المقام الأول.

وهى ظاهرة تاريخية عامة تنطبق على أكثر من بيئة وتجربة. فهناك عدد من الدول التى أطلقت مشروعات تعليم وتحديث واسعة أملا فى تسريع معدلات التقدم وفى كسب دعم الشعب، ومن ثم الاستقرار السياسى. ولكن التعليم وما يستتبعه من تنوير وتوسع الآفاق الفكرية والثقافية للناس يطلق قدرا هائلا من التوقعات العالية، ويؤدى إلى مناخ خصب لأفكار التغيير والمعارضة وتجاوز الأنظمة القائمة. وربما ينطبق هذا المثال على بعض دول الخليج الحالية، فالطفرة النفطية ووفرة الموارد ورأس المال أتاحت الفرصة لإطلاق عمليات تعليم وتحديث كثيفة، علمت أجيال جديدة على نطاق واسع، وأزالت الحواجز بين هذه الأجيال وبين العالم الحديث، بكل ما ينطوى عليه ذلك من مؤثرات وتحديات شكلت وعى الأجيال الجديدة واستثارت فيها استجابات متعددة.

وقد تفسر هذه التجارب بعض ما تشهده منطقة الخليج من توجهات راديكالية واندلاع لموجة العنف ضد الغرب، وخاصة الولايات المتحدة. كذلك، تطرح هذه الظاهرة تساؤلات كبيرة حول صوابية التشخيص الأميركى لأسباب تصاعد العنف والرفض ضد الولايات المتحدة لدى قطاع من الأجيال الشابة فى منطقة الخليج، والتى بلغت ذروتها بهجمات ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١. فقد ظنت الرؤية الأميركية الرسمية أن تلك الهجمات وما وراءها من تطرف وعنف هو نتاج لثقافة تعصب وانغلاق وعزلة عن فكر وقيم الحداثة وواقع الحضارة العالمية المعاصرة. لذلك، قامت الإدارة الأميركية بترويج بعض المبادرات للإصلاح الديمقراطى والاجتماعى والثقافى فى الشرق الأوسط، ولا تخفى نيتها أو رغبتها فى تغيير المناهج التعليمية وإحداث انقطاع مع الموروث الدينى والثقافى من أجل مزيد من التحديث والعصرنة، كما لا تخفى استعدادها لتغيير الأنظمة التقليدية فى المنطقة، إذا أمكنها ذلك. اللافت هنا أن الموروث الثقافى والدينى الذى يلقى عليه بلائمة

تقول الخبرة العربية (القبلية) أن «الإمارة سيف ومنسف». فالسيف هو رمز القوة، والمنسف الذى هو اللحم والثريد. رمز الكرم والمشاركة الاقتصادية

العنف والتطرف استمر سائدا عقودا أو قرونا، قبل برامج التعليم وعمليات التحديث الواسعة التى شهدتها المنطقة فى العقدين الماضيين، بدون أن يسبب أى توجهات راديكالية أو يولد عنفا، خاصة إزاء الغرب. لذلك، قد لا تؤدى إزاحة الموروث القديم ورفع وتيرة ومعدلات التحديث وإسقاط منظومة القيم والأفكار المحافظة إلا إلى مزيد من الراديكالية والرفض والعنف العدمى!

مسألة السلطة والقبيلة فى كردستان يتناولها مارتن فان برونيسين فى فصل حول «الأكراد والدول والقبائل»، ويركز على صلابة القبيلة الكردية التى تعرضت لمحاولات تفتيت مختلفة فى تركيا وإيران والعراق. ومع ذلك تعيد القبيلة الكردية إنتاج نفسها وإثبات فعاليتها. فتنظيم القبيلة الكردية يختلف فى بعض جوانبه عن تنظيم القبيلة العربية التى لا يجمع فيها شيخ القبيلة بين وظيفة دينية وأخرى دنيوية، كما هو الحال فى كردستان. كما تحولت قبائل كردية بأكملها إلى زعماء (أغوات)، فهم يسيطرون على إقليم من ثمانمائة قرية ويتقاسمون عائلاتها، فليس هناك مجتمع زراعى خارج نطاق القبائل فى كردستان. وهذا ليس له نظير فى القبائل العربية إلا فى حالة شيوخ جنوب العراق الذين تحولوا إلى إقطاعيين وأصبح أفراد قبيلتهم فلاحين فى الأرض. وبسبب وعورة المنطقة الجبلية فى كردستان، لم تتمكن الطرق الحديثة ونظم الاتصال من اختراق المنطقة بسرعة، مما تسبب فى عزل قبائل كردستان عن مؤثرات وأفكار وتيارات المجال المحيط بهم. لذلك، كانت هناك مناطق عديدة فى كردستان لم يطبق فيها الإصلاح الزراعى الذى قوض سلطة شيوخ القبائل الإقطاعيين فى جنوب ووسط العراق، لكنه بالكاد مس هذه الطبقة فى كردستان. فقد كان الأغوات الإقطاعيون فى كردستان أقوياء ومتنفذين جدا، لا يجرؤ أحد على التقدم لأخذ أراضيهم، أو كانوا دهاة جدا إذ وظفوا مبدأ التفاوض. فتفاوضوا مع فلاحيهم ومع أحزاب يسارية فى المنطقة، وعطلوا الإصلاح الزراعى من خلال عملية التفاوض وتقديم بعض التنازلات وتوزيع بعض المكاسب.

خاتمة

وبعد قرن من المخاض الذى شهده المشرق العربى الإسلامى، وما مر على المنطقة من تيارات وأوضاع ومتغيرات سياسية واجتماعية وأيديولوجية، أخفقت الدولة القومية الحديثة فى خلق بديل عن القبيلة وما تمثله من قيم تقليدية فى الانتماء والعصبية والتضامن، ونسيج اجتماعى كثيف، وفضاء للحراك والتفاعل الاجتماعى؛ وهى الوسائط التى لا يستطيع الفرد أن يعيش أو يتفاعل خارجها مجردا من معنى الهوية وقاعدة الإسناد. فأساس البناء الاجتماعى الذى تستند إليه الدولة الحديثة هو مبدأ المواطنة الذى يفترض فيه أن يقيم هوية وانتماء وطنيا يعلو على ما سواه من انتماءات جهوية أو إثنية أو ثقافية أو غيرها، لكن القهر والقمع والتسلط الذى جاءت به الدولة الشمولية المتسلطة (الحديثة) بدد أية أوهام حول إمكانية أن يسود مفهوم المواطنة بديلا عن غيره من الانتماءات، أو أن تصبح الدولة الحديثة هى المشترك الذى يجمع الإثنيات والهويات المختلفة. بل إن التسلط والقمع قد أدى إلى اضمحلال المجتمع الأهلى (التقليدى) من أوقاف ونقابات وطرق صوفية ومؤسسات ثقافية وأدبية ومشروعات خيرية وروابط اجتماعية، فلم يبق من ملاذ للأفراد والمجموعات أمام تغوُّل الدولة إلا العودة إلى أكناف القبيلة أو العشيرة أو العائلة، وما توفره هذه الكيانات من حماية وعصبية وانتماء. فممارسات الدولة الشمولية هى التى أدت بشكل غير مباشر إلى إعادة الحيوية للقبيلة.

وإذا كان للكائنات العضوية دورة حياة تبدأ بالميلاد وتنتهى بالوفاة مرورا بالطفولة والشباب والهرم، فإن الكيانات والتشكلات والظواهر الإثنية والاجتماعية والثقافية هى حالة تاريخية لا تموت عضويا. وهى قد تضعف أو تذوى أو تتكيف مع بعض الظروف غير المواتية أو تصبح فى حالة كمون بانتظار انفراج تاريخى يعيد لها حيويتها وسيرورتها، ويمنحها دورها وصيرورتها. تبقى القبيلة وكأنها الثابت الوحيد الذى يطوى المتغيرات السياسية والأيديولوجية والأنظمة والنخب والظواهر فى المشرق العربى الإسلامى. ■

كتاب الزاوية

سندباد إلى الغرب

جولة فى باريس ما بعد الحرب

كل ما رأيته فى فرنسا لم أتوقعه. والذنب فى هذا واقع على الصحافة العالمية التى تعيش بمال المنتصرين، وبأغراض الطامعين فى تراث أم الحضارة وزينة الحضارة.

توقعت أن أرى فرنسا غافلة عن أمسها الذليل فى ظل الصليب المعقوف، لتنسج لنفسها لبوسًا من البطولة الزائفة والجعجعة الفارغة. فوجدت الفرنسيين يواجهون الحقائق المرة بشجاعة، ويعترفون فى أحاديثهم وحياتهم بسنوات الضعة والانكسار. لهم فى ذلك قولة مشهورة: سنوات الاحتلال النازى هى أيضًا من تاريخ فرنسا العريق. وفى هذا التاريخ صفحات المجد والذلة والفخار والاندحار.

توقعت أن أرى فرنسا فرحة بتحريرها فحسب، فوجدتها مطأطئة الرأس واجمة، تبحث فى شعاب نفسها عن طريق الخلاص من أسباب نكبتها، تسائل التاريخ والاجتماع والاقتصاد والعلم عن منهج جديد فى حياتها.

توقعت أن أرى فرنسا مهدمة فقيرة قذرة تقتحمها العين. فرأيت شعبًا جريحًا يضمد جراحه، أنيقًا يرتق ثيابه، نشيطًا إلى البناء، متحفزًا إلى النهوض من كبوته، أكثر ما يكره الوقوف بالأطلال والبكاء على الزمن.

دخلت المعارض وقاعات الصور والمسارح، وارتدت المكاتب العامة وبيوت النشر، والمعامل ودور الحكم، وطالعت وراء سطور الصحف السياسية والأدبية والفنية، فإذا الشعوب لا تعيش بالخبز والزبد وحدهما ولا تموت بالحديد والنار فحسب.

هنا عرفت للمرة الأولى بعد المائتين سر رقى الشعوب، وهو فى فكر الفيلسوف ومعمل العالم، وريشة المصور وقلم الكاتب والموسيقى.

نزيف العقول

نبيل علي

مقدمة

نزيف العقول، أو هجرة الأدمغة من مواطنها الأصلية، مشكلة مزمنة تعددت الآراء بشأنها، وبلغ البعض منها إلى حد اعتبار أن ما تقوم به الدول المتقدمة حاليا من نهب للثروات البشرية للشعوب لا يقل فى بشاعته. إن لم يزد. عما قامت به الدول الاستعمارية فى الماضى من نهب الموارد الطبيعية لمستعمراتها، ومع النقلة النوعية التى تشهدها المجتمعات الإنسانية صوب مجتمع المعرفة وتسارع حركة العولمة زاد نهم الدول المتقدمة لالتهام نخب عقول الدول النامية لتتضاعف. بالتالى. حدة المشكلة ولتصبح ساحة ساخنة لتنافس الكبار، وقيدا ثقيلا يحد من قدرة الصغار على اللحاق أو النضال من أجل البقاء ولا غرابة فى ذلك، فالعقل هو صانع المعرفة وصاحب القدرة على تحويلها إلى أصول وسلع وخدمات عالية القيمة، وعلى توظيفها لحل مشاكل المجتمع المعاصر: مجتمع بات فيه التعقد هو أبرز سماته وقدرة عقول أبنائه على مواجهة هذا التعقد هى أهم متطلباته.

والارتباط الوثيق بين هجرة العقول والعولمة يبدو متسقا مع نزعتها الاحتكارية وتكثيف الموارد الرأسمالية، فكما أدت العولمة إلى تزايد هجرة رأس المال المادى بحثا عن أكبر عائد استثمارى أينما كان، أدت أيضا إلى تزايد هجرة رأس المال الذهنى إلى حيث يتاح له أكبر فرص لاستثماره ويحقق أقصى عائد، مادى وأدبى، لعمالته الذهنية، وإن كانت هجرة رأس المال المادى يسودها طابع الدفع Push، فهجرة رأس المال الذهنى يسودها طابع الجذب Pull، والكشف عن جوانب التفاعل المختلفة بين قوتى الدفع والجذب هاتين يعد مدخلا أساسيا لفهم اقتصاد المعرفة الذى ما زال لغزا.

تناولت عدة دراسات سابقة مشكلة نزيف العقول العربية فى خطاب غلب عليه طابع العمومية وتأثره بتكنولوجيا الصناعة. تسعى هذه الدراسة إلى رؤية هذه القضية من منظور معلوماتى، فالرؤية المعلوماتية أقدر من غيرها على إماطة اللثام عن طبيعة العلاقة بين أصحاب المال وأصحاب الأفكار ويزعم الكاتب. أن هذه العلاقة، فى كثير من جوانبها، هى صدى لثنائية المادى والذهنى التى قامت عليها تكنولوجيا المعلومات ونقصد بها ثنائية العتاد hardware وثنائية البرمجيات software.

هذا من حيث توجهها أما من حيث إطارها العام فقد انتهجت فيه التسلسل التالى:

❖ أولا: تكنولوجيا المعلومات وهجرة العقول

❖ ثانيا: تكالب الدول المتقدمة على عقول الدول النامية

❖ ثالثا: قنوات امتصاص عقول الدول النامية

❖ رابعا: بعض ملامح المشهد العربى فيما يخص نزيف العقول

❖ خامسا: بعض منطلقات مقترحة لمواجهة المشكلة

وقبل أن نبدأ، ربما يثير حديثنا عن هجرة العقول العربية حفيظة البعض لدينا على أساس أنها هجرة فرضت على أصحاب هذه العقول، فلو بقوا فى أوطانهم ما كان لهم أن ينجزوا لعدم توفر البيئة المواتية وغياب الطلب الاجتماعى على البحث العلمى والتكنولوجى، وهم فى مهجرهم يساهمون بمشاركتهم على المستوى الإنسانى مما سيعود بالنفع على الجميع، ولا يمكن لأحد أن ينكر ما فى هذا الرأى من وجاهة، ونحن لا نقصد بحديثنا توجيه اللوم إلى علمائنا المهاجرين، فيكفى أن كثيرا منهم يقدم وجها مشرقا للعقل العربى الذى يتهمه البعض بالعجز والتخلف. إن ما تهدف إليه هذه الدراسة هو الحث على خلق الظروف الملائمة للحد من نزيف العقول ومحاولة استعادة بعض أصحابها، وذلك تلبية لمطالب ملحة يفرضها مجتمع المعرفة الذى حل بنا بالفعل.

أولا: تكنولوجيا المعلومات وهجرة العقول

تشترك ظاهرة هجرة عمالة تكنولوجيا المعلومات ذات المهارة العالية، فى كثير من سماتها، مع عمالة التكنولوجيات المتقدمة الأخرى، إلا أن لها بعض ملامحها وأبعادها المميزة والتى من أبرزها:

❖ تقلص طلب الدول المتقدمة على عمالة المهارات الدنيا نتيجة لما أدت إليه تكنولوجيا المعلومات من انتشار الأتمتة automation، والتوسع فى استخدام الروبوت، فى نفس الوقت الذى تصاعد فيه طلبها على العمالة الأجنبية ذات المهارات العالية (HSFW) من أجل زيادة القدرة التنافسية لهذه الدول فى مجتمع اقتصاد المعرفة.

❖ الفجوة الرقمية digital divide التى تفصل بين العالم المتقدم والعالم النامى من حيث مدى توفر وسائل النفاذ إلى موارد المعلومات والقدرة على استغلالها تنمويا، والتى يؤكد الجميع أن لا حل لها إلا من خلال زيادة قدرة الدول النامية على تنمية مواردها البشرية والحفاظ عليها.

❖ تعمل تكنولوجيا المعلومات فى المجتمعات المتقدمة على حشد العقول وتضافرها لينبثق نوع من الذكاء الجمعى collective intelligence يقاس به الأداء الكلى للمجتمع، ويحدد موقعه على الخريطة الجيو_معرفية، وعلى العكس من ذلك تؤدى تكنولوجيا المعلومات فى كثير من المجتمعات النامية إلى تشتت العقول وتضارب المواقف، وقد يصل الأمر أحيانا إلى حد الفوضى وذلك بسبب عجز هذه المجتمعات عن الاستيعاب التكنولوجى والامتصاص المعرفى.

❖ تعمل تكنولوجيا المعلومات، وما أفرزته من عولمة، وتكثيف لرأس المال وتكتلات تكنولوجية، على احتكار الدول المتقدمة لسوق العمل فى مجالات الابتكار العلمى والتكنولوجى، ويعنى ذلك أن الدول المتقدمة لا تكتفى فقط بسلب عقول الدول النامية، بل تعمل أيضا. بصورة مباشرة وغير مباشرة. على تضييق الخناق على من بقى منهم متمسكا بوطنه مما يحد من قدرتهم على ممارسة رسالتهم، وكسر قيود الاحتكار التى تزداد وطأة يوما بعد يوم، وهو وضع يمكن اعتباره بمثابة «نزيف داخلى» للعقول بعد أن تم تحجيمها عن مزاولة الاكتشاف والابتكار والإبداع، وكمثال على ذلك أن معظم التوجهات الحديثة لتكنولوجيا البرمجيات تعمل على حرمان متخصصى الدول النامية من المساهمة الجادة فى أعمال البحوث والتطوير، ومن أبرز هذه التوجهات ما يطلق عليه «التوجه نحو المكونات البرمجية component-ware» فبدلا من أن يقيموا للبرمجيات نموذجها الاقتصادى الخاص بها نظرا لطبيعتها الذهنية، أرادوا لها أن تخضع لذات النموذج الذى أفرزته الصناعة التقليدية، حيث تنتقل صناعة البرمجيات حاليا من إنتاج البرامج الكاملة إلى تجميع هذه البرامج من مكونات برمجية قياسية؛ تماما كما يتم تجميع نظم العتاد hardware من مكونات قياسية كالمقاومات والمكثفات والشرائح الإلكترونية. لتدخل بذلك صناعة البرمجيات عالم اقتصاديات الحجم من أوسع أبوابه، وتسعى المؤسسات العملاقة حاليا إلى احتكار هذه الصناعة الحيوية؛ وذلك من خلال تحويل عملية إنتاج المكونات البرمجية هذه إلى صناعة كثيفة التكنولوجيا وكثيفة رأس المال. ولا يمكن لأحد أن ينكر مزايا التوجه نحو إنتاج المكونات البرمجية من حيث أنه يسرع من عملية تطوير برامج التطبيقات النهائية، ويخفض. بالتالى. من كلفة هذا التطوير، علاوة على احتياجه إلى مهارات أقل. وهذه الميزة الأخيرة هى أخطر ما ينطوى عليه التوجه صوب المكونات البرمجية، والذى يعنى. فى جوهره. تفتيت مهارات البرمجة deskiling، وهو ما يؤدى إلى إبعاد مصممى النظم ومخططى البرامج تدريجيا عن التفاصيل الفنية الداخلية، لتستحيل بذلك البرمجيات هى الأخرى إلى صناديق سوداء، وهكذا يستبعد المصممون والمخططون فى الدول النامية من المساهمة فى صناعة البرمجيات «على المستوى الثقيل» لتضمر. نتيجة لذلك. قدرتهم على حل المشكلات المستجدة. وما أكثرها. والتى لا يتوفر لها عادة. بحكم طبيعتها غير النمطية. المكونات البرمجية القياسية التى تحتكر إنتاجها الشركات الكبرى.

ثانيا: تكالب الدول المتقدمة على عقول الدول النامية

❖ خلال القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية والولايات المتحدة تعمل على اجتذاب العقول فى مجالات العلوم والتكنولوجيا من كل حدب وصوب، إلا أنها كادت أن ترتد عن ذلك بعض الشىء فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، عندما فكرت الإدارة الأمريكية. بالفعل. فى إصدار قرار يحرم الطلبة الوافدين من الدول النامية، مستهدفا أبناء الدول العربية والإسلامية بشكل خاص، من الحصول على درجات الدكتوراه فى بعض المجالات العلمية الحساسة كالبيولوجيا الحيوية، وهندسة البرمجيات المتقدمة، ولم يوقفهم عن اتخاذ مثل هذا القرار إلا بعض ذوى الحكمة الذين أوضحوا لإدارتهم السياسية ما ينطوى عليه هذا الإجراء من تهديد لوضع أمريكا كقائدة للعالم فى مجال العلم والتكنولوجيا، مما يزعزع. بالتالى. قيادتها له سياسيا واقتصاديا وعسكريا.

لقد بنى هؤلاء «الحكماء» توصيتهم هذه على أساس إحصائيات تشير إلى أن ما يقرب من ٣٠٪ من طلبة الدكتوراه فى الولايات المتحدة من الأجانب، وأن هناك عزوفا متناميا عن الدراسات العليا لدى أغلبية الخريجين من أبناء البلد، وربما

العربيـــــــة... رؤيـــة معلـومـاتيـــة

يرجع السبب فى ذلك إلى طابع «اقتصاد الكازينو»، اقتصاد المضاربات والصفقات، الذى يتيح فرصا عديدة للثراء، أسرع وأسهل. بلا ريب. من الجهد الشاق الذى يتطلبه البحث العلمى.

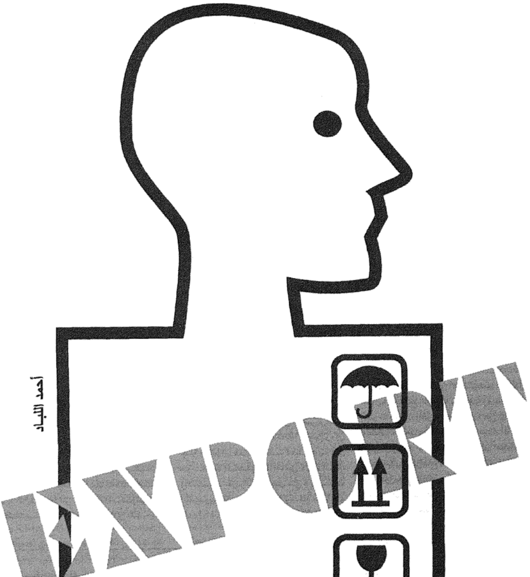
❖ تتصارع الدول الكبرى الأعضاء فى منظمة التعاون الاقتصادى من أجل التنمية OECD على اقتناص أكبر قدر من غنائم الثروة البشرية للدول النامية، وبينما كانت دول المنظمة تحظر تغيير نوع تأشيرة إقامة الطلبة بعد حصولهم على درجتهم العلمية، ها هى ترفع الحظر، بل وتسهل اندماج الأجانب الحاصلين على درجة الدكتوراه فى أسواق عملها. ولهذا . بالطبع. مبرراته الاقتصادية القوية حيث تخصص هذه الدول نسبا عالية من إجمالى ناتجها المحلى فى الاستثمار فى مجالات المعرفة، ومن الطبيعى أن يؤمنوا هذه الاستثمارات بتوفير عناصر البنية التحتية لها، وعلى رأسها العنصر البشرى، إلا أن مؤسساتها التعليمية والتدريبية لا تستطيع أن تواكب سرعة التطور نتيجة التغير المعلوماتى، وأن تلبى مطالب سوق العولمة الذى يزداد اتساعا وتنافسا. وما زال البعض منا يذكر ما أدى إليه الاندفاع الرهيب لإنشاء شركات الإنترنت والمعروفة باسم «دوت كوم com» ، من تزايد لهفة الشركات الأمريكية على العمالة الأجنبية حتى أصبح وادى السيلكون الأمريكى من أكبر مصايد عمالة المعلوماتية.

❖ من أجل الصمود أمام المنافس الأمريكى، وإيقاف الزحف التكنولوجى القادم إليه من الشرق، يسعى الاتحاد الأوروبى إلى تحصين نفسه. قدر المستطاع. ضد نزيف العقول من داخله، وزيادة قدرته على اجتذاب العقول من خارجه، ولا تخلو برامج الشراكة الأوروبية، من دوافع مستترة لاصطياد العقول.

❖ لم تكتف ألمانيا بعد توحدها بما أهدته إياها ألمانيا الشرقية من عقول ومواهب، فراحت تطلب المزيد من خلال تخفيف قيود هجرة العمالة الأجنبية ذات المهارات العليا وتطويع قوانينها بحيث تصبح أكثر انتقائية للعمالة المتميزة، فى نفس الوقت الذى تحاول أن تتخلص فيه بكل الوسائل من العمالة التركية ذات المهارة المنخفضة وهى العمالة التى ساهمت بقسط وافر فى النهضة الاقتصادية لألمانيا ما بعد الحرب.

❖ وحتى اليابان التى عرف عنها موقفها الصارم من الهجرة الوافدة نظرا لكثافتها السكانية العالية، ها هى تراجع فى عام ١٩٨٩ قوانين هجرة العمل المؤقتة وتخفف من قيودها مما أدى إلى ارتفاع ملحوظ فى نصيبها من هذه العمالة منذ بداية التسعينيات.

وموقف الدول المتقدمة فى هذا الخصوص يمثل تناقضا صارخا، فبالرغم من أنها تدرك تماما قيمة الموارد البشرية، وما سيؤدى إليه امتصاصها لموارد الدول النامية، إلا أنها. فى نفس الوقت. ترفض تعويض هذه البلدان عما لحق بها من ضرر جسيم، وتكتفى بتقديم معونات لا تغنى ولا تسمن من جوع، يستهلك خبراؤها، فى كثير من الحالات، قسطا كبيرا من ميزانياتها فى تقديم الاستشارات ودراسة المشروعات ويجنى موردوها الربح الوفير من وراء إمداد المعدات والبرامج اللازمة لتنفيذها، ويكفى شاهدا أن نشير هنا إلى موقف الدول المتقدمة الرافض لتخفيف ديون العالم الثالث، وقد شهدت القمة العالمية لمجتمع المعلومات، التى عقدت مؤخرا فى جنيف فى ديسمبر ٢٠٠٣، موقفا لا يقل تناقضا، فقد



رفضت الدول الكبرى المساهمة فى إنشاء صندوق عالمى للتنمية المعلوماتية فى العالم النامى، فقد فضلوا ـ على ما يبدو ـ أن يتركوه نهبا لأطماع مورديهم وجشع مقاوليهم، يعانى من قصور الموارد وارتفاع كلفة هذه التنمية، سواء من حيث إنشاء البنى التحتية، أو تطوير نظم المعلومات التى تبنى عليها.

وهل للمرء أن يغفل هنا عن موقف منظمة التجارة العالمية WTO، فبينما تعطى أقصى درجات الأولية لموضوع الملكية الفكرية وتسعى ـ ما وسعها الجهد ـ لتوسيع نطاق الحماية ليشمل أيضا الاكتشافات العلمية، بينما تفعل ذلك لحماية مصالح الكبار، نراها تلتزم الصمت التام حيال نهب العقول، ذات العقول التى تساهم مساهمة فعالة فيما تسعى الملكية الفكرية لحمايته.

أما مسعى الكبار فيما يخص تضييق الفجوة الرقمية بين العالم المتقدم والعالم النامى فلا يتعدى كونه شعارا فارغا، ولا نبالغ إن قلنا إنه يبطن قناعة الكثيرين من أغنياء عالمنا بسياسة «قارب النجاة الذى لا يتسع للجميع»، وما على شعوب العالم المتخلفة إلا الرضا بمصيرها المحتوم، ومازال فى الجعبة الكثير، فمن منا يمكنه أن يثق فيما أعلنته الولايات المتحدة على لسان آل جور ـ نائب الرئيس الأمريكى السابق ـ من ضرورة تضييق الفجوة الرقمية عالميا، وكيف يتسق هذا مع ما يتردد من أصوات أمريكية تنادى ـ تحت دعوى محاربة الإرهاب ـ بالتحول من مبدأ الحق فى المعرفة right-to-know إلى توفير المعرفة بقدر الحاجة إليها need-to-know، وغالبا ما سيؤول ذلك فى النهاية إلى نقل المعرفة إلى الدول النامية بالقدر الذى يكفى استيعاب مستهلكيها لمنتجات صناعة المعلومات كثيفة المعرفة، بقول آخر معرفة من أجل تنمية الأسواق لا تنمية العقول.

ومشكلة نزيف العقول ليست مقصورة على الدول النامية بل تشكو منها أيضا بعض البلدان المتقدمة، فهاهى دول الاتحاد الأوروبى تظهر قلقا شديدا من هجرة علمائها، خاصة فى مجال التكنولوجيا المعلوماتية والتكنولوجيا الحيوية، إلى الولايات المتحدة بحثا عن فرص أكثر للإنجاز العلمى والتكنولوجى، وهو الأمر الذى يؤكد مدى توحش النزعة الاحتكارية لرأسمالية أيامنا، رأسمالية التكنولوجيا المتقدمة كما يسميها البعض، حيث لا تتوانى قمة المعسكر الرأسمالى عن احتكار موارد حلفائها من داخل المعسكر ذاته، وقد ظهرت بوادر التذمر من هذه الاحتكارية المفرطة فى سوق تكنولوجيا المعلومات فيما قام به الاتحاد الأوروبى مؤخرا من التصدى لاحتكارية شركة ميكروسوفت، وهى الاحتكارية التى باتت تشكو منها كبرى شركات البرمجيات فى الولايات المتحدة نفسها، إنها بحق الاحتكارية فى صورتها القصوى، احتكارية اقتصاد المعرفة القائمة على احتكار للعقول الصانعة لهذه المعرفة، وقد أظهرت ـ على عكس المتوقع ـ منتجات صناعات المعرفة، كصناعات البرمجيات والدواء على سبيل المثال، قابلية غير مسبوقة للاحتكار وذلك بفعل القوى السياسية والاقتصادية التى توجه حركة التقدم العلمى والتكنولوجى.

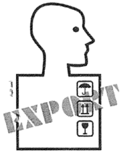
ثالثا: قنوات امتصاص عقول الدول النامية

هناك عدة قنوات لامتصاص العقول، منها ما هو تقليدى سابق على انتشار تكنولوجيا المعلومات، ومنها ما هو مستحدث ومبتكر نتيجة لانتشارها، خاصة فيما يتعلق بالإنترنت، ونورد فيما يلى قائمة بهذه القنوات التى تمتص العقول عبر مسالكها، بفعل «مضخة» شفط» هائلة، لتصب فى النهاية فى عدد محدود من مراكز الاحتكار المعرفى: للعلمى والتكنولوجى والإبداعى.

(أ) الهجرة الدائمة لعمالة المهارات العليا، ومن أكبر مصادرها استبقاء المبعوثين، ولا تختلف عمالة المعلوماتية هنا عن غيرها من عمالة التكنولوجيا المتقدمة، وقد أخذت تتوارى الهجرة الدائمة تدريجيا لظهور بدائل أسرع وأقل كلفة كما سنوضح أدناه.

(ب) الهجرة المؤقتة للعمل، وكمؤشر على معدل تزايد هذه الهجرة يوضح الجدول أدناه عدد فيزات الإقامة التى استصدرتها بعض كبرى الشركات الأمريكية فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لاستضافة العمالة الأجنبية وذلك خلال الفترة من أكتوبر ١٩٩٩ إلى فبراير ٢٠٠٠(*).

وفى هذا الصدد تتميز تكنولوجيا المعلومات، خاصة البرمجيات، باختلاف جوهرى عن غيرها، وهو قابلية عمالتها الشديدة للتنقل ما بين أماكن العمل job mobility، يرجع ذلك إلى التوحيد القياسى لبيئة عمل المتخصصين المعلوماتيين، فهم يستخدمون ـ بغض النظر عن موقعهم الجغرافى ـ نفس المعدات، ويرجعون إلى نفس الوثائق



والأدلة الفنية، ويتعاملون مع نفس بيئة البرمجيات من نظم تشغيل وأدوات زيادة الإنتاجية (من أشهر الأمثلة فى ذلك نظامى التشغيل WINDOS و UNIX). يعنى ذلك أن العمالة المهاجرة تشرع فى العمل فور انتقالها دون حاجة إلى إعادة التدريب أو التأهيل، بل ولا حتى التوجيه orientation فى كثير من الأحيان. إنها عمالة «سابقة التجهيز» إن جاز القول، فقد تلقت تعليمها فى مؤسسات التعليم العالى لأوطانها، واكتسبت خبرات العمل فى مؤسسات التطوير المحلية، وكما يسلم مقاولو الدول المتقدمة مشاريعهم للدول النامية بأسلوب «تسليم مفتاح» turn key، تهدى الدول النامية فى المقابل عمالتها المعلوماتية بنفس الأسلوب، وفى أحيان كثيرة يزور المهاجر بلده بعد مغادرته لها بقليل كخبير للشركة الأجنبية التى انتمى إليها، لتحاسبنا عليه الشركة الأجنبية مثله مثل أى خبير أجنبى آخر، بالرغم من كون هذا المهاجر لم يكتسب بعد خبرة تفوق بكثير ما هاجر حاملا إياها، إنها بحق عملية «إعادة تصدير» فى صياغة عولمية.

(ج) العمل فى المكاتب المحلية والإقليمية للشركات المتعددة الجنسية، وهو توجه ينمو بسرعة مع انتشار العولمة وتنفيذ اتفاقيات منظمة التجارة العالمية، وتعمل هذه المكاتب عادة على «ضخ» الأفكار من المتخصصين المحليين لتصب فى أنشطة التطوير الرئيسية فى مراكز إدارة هذه الشركات، وهنا يبرز اختلاف جوهرى آخر متعلق بتكنولوجيا المعلومات، مرجعه ـ هذه المرة ـ إلى تنامى التوجه الثقافى والاجتماعى لتطبيقات المعلوماتية الحديثة، ومن أمثلتها البرمجيات التعليمية والثقافية ونظم الحكومة الإلكترونية وما شابه، وهو توجه ـ بحكم التعريف ـ يعطى ثقلا أكبر للجوانب المحلية، وهكذا تصبح المكاتب المحلية لكبرى شركات البرمجيات بمثابة شبكة موزعة تقوم بتجميع الشق المحلى من مناطق شتى حاملا معه عصارة فكر أصحاب العقول المحليين وخلاصة خبراتهم المحلية، ليؤول كل هذا فى نهاية المطاف إلى مراكز التطوير الرئيسية لهذه الشركات لتقوم بوضعه فى صورة حزم برمجية عامة universal software packages يدعى مطوروها أنها ذات عمومية على المستوى العالمى تجعلها صالحة لجميع الأسواق ملبية لمطالب كل محلى وخاص، وعلى المستهلك فى كل مكان أن يدفع أعباء هذه العمومية، وما أكثر الحالات التى تعجز فيها عن تلبية مطالبه الخاصة، وإن كانت هذه الحزم البرمجية قد حققت ـ حتى الآن ـ نجاحا تسويقيا رغم ارتفاع كلفتها إلا أن الكثيرين يتوقعون انحسارها مع تزايد ثقل الشق المحلى فى تطبيقات المعلوماتية وتوجه تكنولوجيا المعلومات والاتصالات صوب المنزل وصوب الجامعات.

(د) استخدام الإنترنت لاجتذاب عمالة الدول النامية وهم قابعون فى أوطانهم دون حاجة إلى هجرة: دائمة كانت أم مؤقتة، حيث يمكن لهذه العمالة المحلية أن تشارك عبر الإنترنت مع فريق العمل الجماعى للشركات الأجنبية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «نزيف العقول عن بعد»، ومن المتوقع أن تتوسع المؤسسات الأجنبية فى هذا التوجه

	التخصص الغالب	عدد الفيزات
شركة إينتل	صناعة الشرائح الإلكترونية	٣٦٧
شركة موتورولا	صناعة الشرائح الإلكترونية	٦١٨
شركة ميكروسوفت	تطوير برمجيات	٣٦٢
شركة أوراكل	تطوير برمجيات	٤٥٥
شركة سيسكو للنظم	اتصالات	٣٩٨

القليل الكلفة، والذى يحمى ديموغرافية بلدانهم من هجرة العمالة الوافدة إليها من العالم النامى والتى يرى فيها البعض لديهم نوعا من «التلوث السكانى» إن جاز التعبير.

(هـ) المشاريع المشتركة فى مجال التكنولوجيا المتقدمة بين مؤسسات الدول الكبرى ومؤسسات الدول النامية، هى وسيلة أخرى لامتصاص رحيق عقول الدول النامية، والتى غالبا ما يمثل فيها الشريك المحلى الجانب الأضعف وصاحب النصيب الأقل فى العوائد المادية والمزايا الفنية، بالرغم من كونه . فى كثير من الأحيان . هو صاحب المساهمة الأكبر فى إنجاز المشروع.

(و) تقوم الجامعات الأمريكية والبريطانية والكندية بحملات تسويق لاجتذاب أكبر عدد ممكن من الطلبة الأجانب، وقد لحقتها أخيرا بعض من الجامعات الأوروبية، وهكذا تمتزج عملية تفريخ العقول مع دوافع الاستحواذ عليها من المنبع، حيث تسعى كثير من الجامعات المستضيفة إلى استبقاء خيرة خريجيها من الطلبة الأجانب. وتشير الإحصائيات إلى أن ٥٠٪ من الطلبة من الحاصلين على الدكتوراه فى الولايات المتحدة يرجعون إلى بلادهم فى حين تبلغ هذه النسبة فى بريطانيا ٤٠٪.

(ز) وأخيرا وليس آخرا، فقد قيل إن الإنترنت قد ساهمت فى زيادة عدد البحوث العلمية التى يقوم بها باحثون أمريكيون بالمشاركة مع باحثين من الدول النامية، ورغم كونه توجها حميدا بلا شك إلا أنه هو الآخر يطرح تساؤلا فيما يخص نزيف العقول، مؤداه: من هو المستفيد النهائى من هذه الإنجازات العلمية المشتركة؟ فالمستفيد . بحكم المنطق . هو الدول المتقدمة التى تمتلك القاعدة التكنولوجية التى تستطيع من خلالها تحويل الإنجاز العلمى إلى تطبيقات عملية تدر عائدا استثماريا، علاوة على ذلك فالشريك الأقوى، الأمريكى فى حالتنا، غالبا هو الذى يحدد مجالات البحث العلمى المشترك وفقا لمطالب مجتمعه، والتى يقبلها باحثو الدول النامية عن طيب خاطر للهفتهم على النشر العلمى فى الدوريات العلمية العالمية وتعزيز مكانتهم الأكاديمية.

ربما يرى البعض فى حديثنا السابق أننا كدنا أن نسد جميع السبل أمام فرص التعاون العلمى التكنولوجى بين العالم المتقدم والعالم النامى، وهذا . بالقطع . ليس هدفنا بالمرة، فنحن نؤمن بأهمية هذا التعاون بل وضرورته، وندرك تماما أن لكل تكنولوجيا لها مخاطرها، وكلما زادت سطوة هذه التكنولوجيا . كما هو الحال فى تكنولوجيا المعلومات . كلما زادت هذه المخاطر، وهذا يعنى أن عملية تقديم التكنولوجيا واقتنائها لا بد أن يتوازى معها جهد جاد للكشف عن آثارها الجانبية على المدى البعيد والقريب، وأن يجيد مخططوها ومنفذوها فى الدول النامية كيفية الموازنة بين منافعها ومضارها، ومزاياها وأوجه قصورها، وكيفية وضع السياسات التى ترشد استخدام الموارد والاختيار الأمثل ما بين البدائل التكنولوجية المتاحة. خلاصة القول، نحن مع التعاون العلمى والتكنولوجى إلى آخر مدى طالما كان ذلك تحت الشعار الذى رفعه مناهضو العولمة فى سياتل: «تجارة عادلة لا تجارة حرة fair trade not free trade» وهو ما يعنى فى حالتنا تعاونا علميا تكنولوجيا مثمرا ومنصفا لجميع الأطراف.

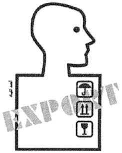
رابعا: ملامح المشهد العربى فيما يخص نزيف العقول

كل ما قيل حتى الآن من حديث نزيف العقول فى العالم النامى ينطبق . بداهة . على وطننا العربى لكونه جزءا من هذا العالم، وسنركز فى هذه الفقرة على بعض الملامح الخاصة بالمشهد العربى، وقد ضمنت الفقرة أيضا بعض الجوانب التى أرجأنا تناولها فى الشق العام حيث فضلنا طرحها فى السياق العربى لإبراز مغزاها الخاص بنا.

(أ) تختلف هجرة الأدمغة العربية عن تلك الهجرة التى تشكو منها بعض دول أوروبا بل وبعض دول جنوب شرق آسيا، فمعظم عقولنا العربية المهاجرة ترحل عنا بلا تذكرة عودة، وتؤكد الإحصائيات مدى تدنى نسبة عودة «طيورنا النادرة» مقارنة بالصين والهند وماليزيا بل وحتى تركيا.

(ب) لا أمل فى إحداث تنمية عربية مستدامة دون توفر أهم عناصر بنيتها التحتية ألا وهو العنصر البشرى، خاصة عمالة المهارات العليا، ويتطلب تضييق الفجوة الرقمية بين البلدان العربية والعالم المتقدم. أول ما يتطلب . عقلا عربيا قادرا على قيادة ركب التنمية المعلوماتية، وقد أيقن الجميع تعذر إحداث هذه التنمية المستدامة باستيراد الحلول الجاهزة واستدعاء الخبراء الأجانب، وذلك فى ظل ما سبق أن أشرنا إليه بخصوص تنامى التوجه الثقافى والاجتماعى لتطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والتى تفترض القدرة على الجمع بين المحلى والعولمى، وعلى تطويع التكنولوجيا وتوطينها فى التربة العربية.

ومن المفارقة أنه بينما تسعى الدول المتقدمة إلى استيراد عمالة المعلومات ذات المهارات العالية تسعى بعض الدول العربية غير النفطية، مثل مصر والأردن وسوريا، إلى تصدير هذه العمالة النادرة بحجة



توفير فرص العمل أو توفير العملة الصعبة، وسرعان ما سنكتشف أننا نقايض كنوزنا البشرية بأبخس الأسعار، وسيؤدى ذلك فى نهاية الأمر إلى ترسيخ التبعية التكنولوجية فى مجال التنمية المعلوماتية، وذلك بالرغم من كل ما عانيناه فيما مضى من هذه التبعية التى كانت وراء إجهاض معظم مشاريع التنمية الصناعية العربية، وإن جاز قبولها وعلى مضض فى الماضى؛ فلا سبيل لنا لتحقيق التنمية المعلوماتية إلا بالتخلص من هذه التبعية المترسخة؛ فما أبهظ كلفتها المادية وغير المادية، ويجب أن ينطلق مسعانا فى هذا الشأن من إدراكنا الدقيق للفروق الجوهرية بين تكنولوجيا المعلومات وما سبقها من تكنولوجيات، ومن أهم هذه الفروق . بالنسبة لسياقنا الحالى . اعتمادها على الموارد البشرية فى المقام الأول، وكون موارد المعلومات تنمو . لا تنضب . مع زيادة استهلاكها على خلاف الموارد المادية والطبيعية حيث تتغذى المعرفة على نفسها، لذا فنزيف العقول يعنى استهلاكا أقل، وبالتالى تقليلا لهذه الميزة التضاعفية.

(ج) يفرض التحدى المعلوماتى الإسرائيلى والفجوة الرقمية بينها وبين البلدان العربية مزيدا من الاهتمام بقضية نزيف العقول، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

- إسرائيل من أعلى دول العالم من حيث نسبة العلماء والمهندسين إلى إجمالى عدد السكان.
- تركز إسرائيل على التكنولوجيا المتقدمة خاصة فى مجالى المعلوماتية والتكنولوجية الحيوية. وقد حصنت موقعها على الخريطة الجيو . معلوماتية سواء على مستوى العتاد hardware أو البرمجيات أو الاتصالات.
- شبكة العلاقات الوثيقة التى أقامتها إسرائيل مع علمائها فى الخارج.
- توفير إسرائيل لعدد كبير من الحضانات incubators خاصة لتشجيع العلماء والمهندسين المهاجرين إليها من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق.
- هناك العديد من مشاريع التطوير المشترك والاتفاقيات والتحالفات مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى، وكثير من مؤسسات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المتعددة الجنسية.

(د) تسعى كبرى شركات البرمجيات الأمريكية إلى احتكار تكنولوجيا اللغات عالميا، ومن أهمها اللغة العربية، وتمثل تكنولوجيا اللغات حاليا واحدة من أهم فروع المعلوماتية وهى تشمل . على سبيل المثال لا الحصر . نظم الترجمة الآلية، وتحليل مضمون النصوص، وتدقيق الوثائق وتصنيفها وتلخيصها أتوماتيكيا، ونطق الكلام وتمييزه آليا، وينظر البعض إلى تكنولوجيا اللغات بمثابة نقلة نوعية فى تطوير البرمجيات وإكسابها خاصية الذكاء الاصطناعى وملكة التعلم ذاتيا؛ وهو الأمر الذى أدى بهذه الشركات إلى اجتذاب كثير من المتخصصين المتميزين للعمل فى مراكز تطويرها الرئيسية فى الولايات المتحدة أو فى أحد فروعها الرئيسية فى أوروبا. المشكلة هنا أن معظم شركات البرمجيات هذه تضع اللغات السامية العربية والعبرية تحديدا، فى سلة واحدة (أمثلة: ميكروسوفت سياتل . فرع شركة أمريكا . أون. لاين AOL فى دبلن)، وهو ما يتيح لخبراء العبرية فرصة النفاذ إلى أدق التفاصيل فيما يخص تكنولوجيا اللغة العربية، والتى ستجد طريقها . إن عاجلا أو آجلا . إلى إسرائيل، وكما هو معروف تتمتع إسرائيل بميزة تنافسية عالية من حيث قدرتها على اختراق مجال تكنولوجيا اللغة العربية وذلك بالاستفادة من الكتلة السكانية العربية الكبيرة داخل الكيان الإسرائيلى.

(هـ) من الفرص المتاحة لسد الفجوة الرقمية وتقليل

كتـــاب الـزاويـــة

ســندباد إلى الغــرب

مادية الغرب وروحانية الشرق

أنا خائن لوطنى، أفاق منافق، جبان إذا ترددت لحظة فى أن أبوح بما تجيش به نفسى فى هذه السنوات الأخيرة، وهو: إذا فقدت مصر إيمانها بمقومات الحضارة الحديثة، فإن ذلك نذير بأن ترتد مصر إلى أظلم عهودها.

ويجئ الحمقى منا فيشيرون إلى أوروبا المريضة، ثم إلى أوروبا الصريعة ليتبجحوا قائلين: أهذه هى الحضارة التى دافعتم وتدافعون عنها؟ أين هذا من.. روحانية الشرق؟

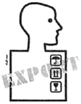
الكلمة الأخرى التى أخشاها، لا لكذبها، فهى صادقة، ولكن لأنها، هى أيضًا، من الكلمات الخطيرة التى تلقى ظلها خارج النفس، فينقلها الجهلاء من حقيقة داخلية فلسفية إلى الواقع، ثم يتخذون هذا الواقع دليلاً على.. مادية الغرب!

وما هى هذه الحضارة التى لا تبدو للعيون فى صورها المادية؟ ففى صميم حضارات الشرق والغرب والشمال والجنوب ناحية روحية، فى فكر الفيلسوف والعالم، وإلهام رجل الفن والأدب، ولكن هذه الحضارات تبدو أكثر ما تبدو فى مظاهرها المادية.

قال المفكر اللبنانى، فيلسوف وادى الفريكة: «أنا الشرق، عندى فلسفات، فمن يبيعنى بها طيارات». وآسف للعودة مرة أخرى - وبعد وفاة ذلك الرجل الكبير - إلى هذه الكلمة الخطيرة التى ظلت تسرى فى ناحيتنا من العالم حتى تأثر بها بعض رجال الفكر عندنا.

أغلب ظنى أن إجابة صاحب الطيارات على هذا العرض الكريم هى: يفتح الله! فصاحب الطيارة لن يرضى بيعها مقابل فلسفات العالم مجتمعة..

نـــزيف العقـــول العربيـــة



الكلفة المتصاعدة لاستيراد البرمجيات اللجوء إلى البرمجيات ذات المصدر المفتوح OSS: Open Source Software، التى توزع مجانا مصحوبة بكل التفاصيل الدقيقة لكود لغة البرمجة التى صيغت بها، وهو ما يسمح بتطويعها للمطالب المحلية، ومداومة تطويرها وإمكانية إدماجها ضمن نظم أخرى، وذلك على عكس البرمجيات التى يتم شراؤها بثمن غال من شركات البرمجيات التجارية والتى تبيعها كصناديق سوداء منغلقة المصدر على طريقة «خذها كما هى أو اتركها take it or leave it»، والتى لا تسمح بأى منفذ إلى تفاصيلها الداخلية مما يتعذر معه إدخال التعديلات ومداومة التحديث.

وكما هو معروف، يتطلب استخدام البرمجيات ذات المصدر المفتوح مهارات محلية عالية حيث عادة ما تأتى دون دعم فنى من مانحيها، ودون ضمان باستمرارية تطويرها، لذا فإن هجرة العقول العربية فى مجال البرمجيات ستحرم العرب من استغلال هذا المورد المعلوماتى الهام: المورد الذى ينظر إليه الكثيرون على أنه مناط الأمل فى كسر احتكارية شركات البرمجيات الكبرى لسوق المعلوماتية العالمى.

(و) أخيرا وليس آخرا، فهناك هجرة لعمالة المعلومات ذات المهارات العالية ما بين البلدان العربية، وفى رأينا أن هجرة العقول ما بين البلدان العربية سلاح ذو حدين، فهى - بلا شك - تحرم البلدان المصدرة من نوعية عمالة هى فى أمس الحاجة إليها، وقد أشار تقرير التنمية الإنسانية العربية الأول (٢٠٠٢) إلى وجود فجوة رقمية ما بين دول الخليج وباقى البلدان الأخرى، وفى المقابل فإن البلدان العربية المستوردة توفر - علاوة على المزايا المالية - إمكانات فنية عالية، وبيئات عمل متقدمة، لا تتوفر عادة فى الدول المصدرة، وهو ما يكسب العمالة الوافدة خبرات يصعب الحصول عليها فى بلدانهم. من جانب آخر فإن العمالة الوافدة فى البلدان العربية غالبا ما تعود إلى أوطانها، خاصة فى ظل القيود الصارمة التى تفرضها معظم الدول العربية على منح جنسياتها للوافدين.

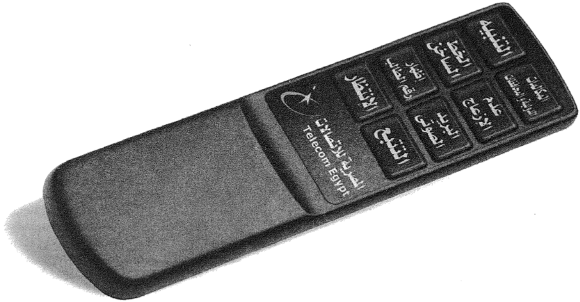
خـامـسـا: مـنـطـلـقـات مقترحة لمواجهة المشكلة

لن نضيف جديدا بقولنا إن مشكلة نزيف العقول العربية هى مشكلة متعددة الجوانب أفرزتها عوامل عدة: اقتصادية وسياسية واجتماعية وعلمية وتكنولوجية، ولا يعنى ذلك أن نقف مكتوفى الأيدى تجاهها، بل يجب أن تحظى بأكبر قدر من الاهتمام من قبل واضعى الإستراتيجيات العربية على المستوى الإقليمى والقطرى، وسنكتفى هنا ببعض منطلقات مقترحة للتصدى لهذه المشكلة:

- دفع حركة التنمية التكنولوجية عموما والتنمية المعلوماتية خصوصا، أسوة بما فعلته الصين من أجل استعادة عقولها المهاجرة.
- نشر الوعى بخطورة القضية على مستوى القيادات السياسية والاقتصادية والإعلامية من منظور ضرورة تضييق الفجوة الرقمية بين الوطن العربى والعالم المتقدم.
- وضع استراتيجية عربية للتنمية المعلوماتية تقوم على أساس مبدأ المشاركة فى الموارد وتوفير الحوافز المادية اللازمة لاستبقاء ذوى المهارات العالية.
- إنشاء أكبر عدد من الحضانات فى الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث العربية وذلك لتشجيع العلماء والمهندسين على استثمار أفكارهم عمليا، وتجربة الجامعات البريطانية فى هذا الصدد جديرة بالدراسة.
- تشجيع الاستثمار فى مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ومازال القطاع الخاص العربى عازفا عن الاستثمار فى هذا المجال إلا أنه تلوح فى الأفق حاليا بوادر مشجعة تشير إلى تحول فى هذا الموقف.
- زيادة مساهمة القطاع الخاص فى تدريب عمالته وربط ذلك بعقود عمل مرنة تضمن الاستفادة من عائد الاستثمار فى التدريب.
- التزام الحرص فى صياغة البنود المرجعية لمشاريع التطوير المعلوماتى التى تكلف بها أو تساهم فيها شركات أجنبية بحيث تلزم هذه الشركات بعدم محاولة الاستيلاء على العمالة المحلية. ■

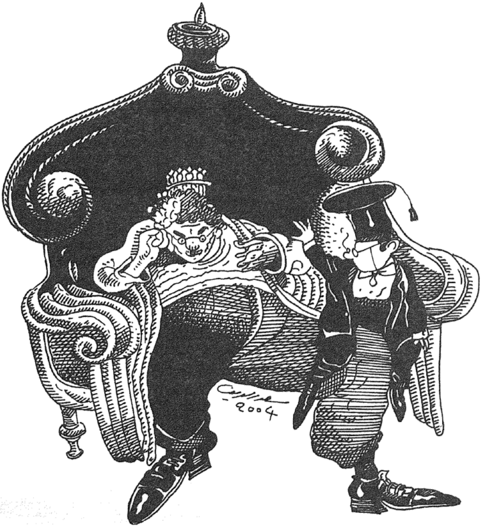
هـــــامـــــش:

(•) جميع البيانات والإحصائيات الواردة فى هذه الدراسة مستقاة من عرض POWER POINT للدكتور صلاح سليمان الأستاذ بكلية الزراعة - جامعة الإسكندرية، وقد ساهم هذا العرض فى إثارة كثير من الأفكار التى وردت فى الدراسة الحالية.


Telecom Egypt

من الأمير إلى الخبير؟

ياسر علوى



[١] كان القرن العشرون بامتياز قرن التخصص الدقيق والعصر الذهبى للخبراء الفنيين فى جميع مجالات المعرفة الإنسانية، وهو ما اعتبره المؤرخون قفزة هائلة للأمام نحو إحكام سيطرة الإنسان على ظروفه الطبيعية والاجتماعية، وتحولا هائلا فى آليات صنع واتخاذ القرار، ينقلها من الارتهان لرغبات الأمير وتقلباته المزاجية، إلى الاستناد على رصانة الخبير وحساباته العلمية.

غير أنه كان أيضا القرن الذى اكتشف فيه الإنسان أن ثمة قضايا مصيرية من الخطورة والأهمية بحيث لا يمكن معها أن تترك للخبراء الفنيين بمفردهم دون مشاركة من أوسع قطاعات ممكنة من المجتمع فى مناقشتها، والاستعداد لها، واتخاذ القرارات بشأنها، باعتبار أن المجتمع بأسره سيتحمل نتائج هذه القرارات بحلوها ومرها.

فقد أبرزت تجربة حربين عالميتين حقيقة أن الحرب بتكاليفها البشرية والمادية الباهظة أخطر من أن تترك للجنرالات، فعمل هؤلاء يجب أن يأتى تحقيقا لغايات يضعها المجتمع -عبر ممثلين سياسيين منتخبين، هم أقدر من غيرهم على تحديد الهدف والأولويات، وتقدير مدى استعداد الجماهير لدفع الثمن اللازم لتحقيقها- وتحت رقابته الصارمة. وكانت هذه قفزة ثانية للأمام، تنتقل بموجبها القرارات المصيرية التى تؤثر فى حياة الملايين إلى يد الجماهير، والتى يعمل تحت إشرافها كل خبير أو أمير يناط به اتخاذ وتنفيذ هذه القرارات.

وما يمكن قوله عن الحرب الأخطر من أن تترك للجنرالات، يمكن أيضا أن يقال عن الاقتصاد والقرارات الاقتصادية. فالقرار الاقتصادى فى الكثير من الأحيان يكون أوسع تأثيرا من القرار العسكرى، ومن ثم فإن قرارات السياسة الاقتصادية يفترض أيضا أن تكون أخطر من أن تترك للاقتصاديين

Enter Economism, Exit Politics: Experts, Economic Policy, and the Damage to Democracy

(ليدخل الاقتصاد ولتخرج السياسة: الخبراء، والسياسة الاقتصادية، وإفساد الديمقراطية)

Teivo Teivainen
London: Zed Books, 2000.

Rule of Experts: Egypt, Techno-Politics, Modernity

(حكم الخبراء: مصر والسياسات الفنية والحداثة)

Timothy Mitchell,
Berkley: University of California Press, 2000.

والخبراء الفنيين. إلا أن المفارقة المذهلة التى شهدها القرن العشرون هى أن الاقتصاديين نجحوا فيما يبدو فيما أخفق فيه الجنرالات. فما أن يأتى الحديث عن قضايا التنمية أو إدارة أى شأن اقتصادى حتى تتم الإحالة الفورية إلى رأى الفنيين، بل إن تطورات عديدة فى العقود الماضية أدت إلى إخراج القرارات الفنية - فى المسائل الاقتصادية - من دائرة الإشراف السياسى (مثال: التوجه نحو زيادة «استقلالية» البنوك المركزية، أو نقل عملية صنع القرارات الاقتصادية فى العديد من الدول النامية من البرلمانات إلى الأجهزة التنفيذية «المتخصصة»)، ووصل الأمر فى بعض الحالات إلى إخضاع العمل السياسى وكافة شئون المجتمع إلى اعتبارات الكفاءة الاقتصادية بالمعنى الفنى الضيق (بلغ ذلك فى بعض الأحيان مستويات فجة فى بعض دول أمريكا اللاتينية عندما كان يتم حل برلمانات بدعوى أنها تتخذ قرارات غير رشيدة اقتصاديا، على نحو ما سنرى لاحقا).

ويثير ذلك بطبيعة الحال أسئلة من نوعية: كيف تم ذلك؟ وما هى تداعيات هذا الانتصار للخبراء الفنيين فى مجال السياسة الاقتصادية؟ غير أن السؤال الأخطر، والذى ينبغى أن نجيب عنه أولا هو: وما الضرر فى هذا النجاح للخبراء الاقتصاديين؟ أليس الأولى أن نعطى الخبز لخبازه على نحو ما يجرى المثل الدارج؟ ثم هل يمكن أن ينجح الساسة فى تحقيق ما فشل فيه الخبراء؟ بل هل يمكن أن يفشل الخبراء أصلا؟

والواقع أن إجابة الفكر الاقتصادى والتنموى خلال العقود الخمسة الأخيرة عن السؤال الأخير كانت بالنفى القاطع. فالاستعانة «بأهل الخبرة» هى أول ما ينصح به كل من يتصدى للعمل العام وبالذات فى قضاياه الاقتصادية، وغياب «أهل الخبرة» هو المشجب الذى تعلق عليه عادة أسباب الفشل، فيقال عندئذ، لابد أن الحكومة اختارت «أهل الثقة» وحابتهم، ونسيت دور «أهل الخبرة».

ومن البديهى أن هذا المنطق يفترض أن الاستعانة بأهل الخبرة مسألة مضمونة النجاح. فالحل «العلمى» الذى يعرفه الخبراء بالضرورة أكثر من غيرهم هو الحل الأمثل لمشاكل المجتمع. والمتأمل لتجربة التنمية فى مصر خلال العقود الخمسة الماضية على سبيل المثال، يلحظ هذا الإلحاح على فكرة وجود حل «علمى/فنى» لجميع مشكلات المجتمع، وبصرف النظر عن توجهات الدولة الاقتصادية والتنموية. فتعبير «الاشتراكية العلمية» الذى استخدم فى مصر الستينيات، لم يكن يشير إلى المعنى الماركسى للمفهوم، وإنما لمعنى آخر يفترض أن الاشتراكية تمثل اختيارا فنيا أكثر كفاءة وعلمية لإدارة شئون المجتمع، وبنفس المنطق كان يقال أن مشكلة مصر هى مشكلة إدارة، وأنه لا توجد إدارة اشتراكية وإدارة رأسمالية، وإنما إدارة ناجحة وأخرى فاشلة. وفى السبعينيات، تم طرح سياسة الانفتاح الاقتصادى باعتبارها ضرورة فنية لحل مشكلات المجتمع الذى لم تعد تجدى معه الأساليب القديمة. ويمكن أن يقال نفس الشىء عن الخطاب المفسر للسياسات الاقتصادية المتبعة فى ظل برنامج الإصلاح الاقتصادى منذ عام ١٩٩١، والذى يتحدث بفخر عن «تجاوز عمليات تسييس الاقتصاد ونهاية الأيديولوجيات»، وأن الاقتصاد لا يدار اليوم وفقا لاعتبارات أيديولوجية أو مواقف سياسية وإنما وفقا لمقتضيات العلم، ونصائح الخبراء.

وللأسف فإنه فى دول عديدة - فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وبدرجة أقل فى آسيا - لم يكن نصيب «الحلول الفنية» التى يضعها الخبراء لمشاكل هذه الدول التنموية من النجاح أفضل من الحال فى مصر. وقيل فى تفسير ذلك العديد من المبررات التى تدور فى مجملها حول عدم كفاءة الخبرات التى تمت الاستعانة بها، أو عن الكيفية التى تسلل بها الساسة ليتدخلوا فى عمل الخبراء الذين نجحوا - بشكل يحسدون عليه- فى تفادى تحمل أية مسئولية عن فشل السياسات الاقتصادية التى نصحوا باتباعها.

وتكمن قيمة الكتابين اللذين يعرض لهما هذا المقال فى أنهما طرحا السؤال: متى يمكن أن يفشل الخبراء؟ وهل «الحل الفنى لمشاكل المجتمع» مجرد أسطورة لا وجود لها فى الواقع؟ وهل آن الأوان ليخضع الخبراء الاقتصاديون لما سبق أن خضع له الجنرالات؟ وبعبارة أخرى، هل حان الوقت لكى ندرك أن النجاح فى مواجهة تحدى التنمية لا يحتاج فقط إلى نقل القرار الاقتصادى من الأمير إلى الخبير، وإنما أيضا -وبالأساس- إلى أن يخضع كلاهما لقرار وإرادة الجماهير؟

يقدم كتاب تيفو تيفينين قصة مشوقة - وبحبكة تكاد تماثل الروايات البوليسية - لتجارب دولة بيرو المتكررة خلال القرن العشرين مع وصفات الإصلاح التى يقدمها الخبراء، وكيف ساء الوضع فى كل مرة أسفرت فيها هذه التجارب عن نتائج كارثية على اقتصاد ومجتمع بيرو، وأدت لخروج الخبير طريدا من بيرو، ليعود هو -أو خبير آخر- بعد أعوام قليلة بوصفة تكاد تكون متماثلة وتتكرر التجربة من جديد. أما كتاب تيموثى ميتشل فيتضمن مجموعة من الدراسات -نشر أغلبها من قبل فى صورة مقالات أو فصول فى كتب محررة- تتناول الأبعاد السياسية والاجتماعية لقضايا فى تاريخ مصر الحديث تبدو فنية صرفة، من مواجهة وباء الملاريا إلى ظهور الملكية الفردية للأراضى فى مصر، وصولا إلى برنامج التكيف الهيكلى المتبع منذ بداية التسعينيات.

وما يجمع الكتابين هو همٌ واحد يتمثل فى محاولة استخلاص عبر أعم وأوسع نطاقا من دراسات الحالة التى يتناولانها، والإجابة عن ثلاثة أسئلة أساسية، هى: هل هناك فعلا حلول فنية - محايدة سياسيا - للمشاكل الاقتصادية التى تواجهها الدول النامية؟ كيف نشأ وتمكن هذا الإيمان الأعمى بالخبراء الفنيين؟ وما هى الخصائص المشتركة للوصفات الفنية التى تقدم للدول النامية؟

وبينما يركز كتاب تيفينين على تفاصيل التجربة البيروانية، وينشغل ببحث تأثير هيمنة الخبراء والحلول الفنية على التطور الديمقراطى فى بيرو، ودول العالم النامى بشكل عام، فإن كتاب ميتشيل يبدو أكثر إدراكا للأسس الفلسفية التى يستند إليها الخيار الفنى لحل المشاكل الاقتصادية والسياسية، وإن كان أقل ثراء من حيث التفاصيل التاريخية. فالأول يروى بتفصيل وإحكام قصة واحدة، أما الثانى فيضم فصولا متفرقة يجمعها هم التأسيس لأطروحة نظرية طموحة تعيد النظر فى المشروع الحداثى ككل. وهما معا يتكاملان ويحكيان أطرافا من قصة ممتدة قد تكون هى جوهر مأساة التنمية فى دول العالم الثالث، ويطرحان السؤال المثير: هل هناك حلول فنية لمشاكل دول العالم الثالث؟

ظهرت فكرة الخبير المحايد القادر على مساعدة الدول على مواجهة أزماتها الاقتصادية فى أوائل القرن الماضى، وكانت البداية مع اقتصادى أمريكى شهير من جامعة برينستون هو إدوين ولتر كيمرر Edwin Walter Kemmerer، والذى كان يعرف باسم «طبيب الأموال the money doctor» القادر على حل الأزمات المالية للدول. وكان كيمرر يؤكد دائما أنه لا شأن له بالسياسة ويقدم نفسه باعتباره حاملاً لوصفة علمية لحل مشاكل موازين المدفوعات للدول النامية. ولن يندهش القارئ عندما يعلم أن الوصفة كانت انكماشية (على غرار وصفات صندوق النقد الدولى فى أيامنا هذه) تعلى من شأن الانضباط المالى والنقدى على أية اعتبارات أخرى، حتى أن تيفينين أسماه فى دراسته «رجل واحد يقوم بعمل صندوق النقد One-man IMF». وتنقل كيمرر خلال العقود الأولى من القرن العشرين فى عدد من دول أمريكا اللاتينية - من بينها بيرو - مقدما وصفته التقشفية. وبلغ إيمان كيمرر بعلمية وصفته، وصلاحيتها لكل دولة وفى كل وقت، أنه قدم ذات النصائح الانكماشية لدول أمريكا اللاتينية فى مواجهة الكساد الكبير فى نهاية العشرينيات من القرن



ميتشل يتحدى التصور الشائع عن تراجع مستويات الدعم فى مصر خلال التسعينيات ويدفع بأن ما حدث فقط هو تغير الشرائح الاجتماعية المتلقية للدعم

الماضى. وليس من الصعب تخيل النتائج الكارثية لهذه النصائح، حيث أشهرت كل دول أمريكا اللاتينية والوسطى - باستثناء هايتى - إفلاسها بحلول عام ١٩٣٣، وتم - بطبيعة الحال - الاستغناء عن خدمات السيد كيمرر.

غير أن هزيمة كيمرر الشخصية لم تؤد إلى التشكيك فى فكرة الحلول الفنية التى لا يعرفها سوى الخبراء. فبيرو تعطى مثالا غريبا للإصرار على تكرار ذات الخطأ، فبعد عقدين على تجربتها مع كيمرر أخضعت بيرو نفسها لصندوق النقد، وكانت أول دولة لاتينية توقع اتفاق تثبيت مع المنظمة عام ١٩٥٤، ومنذ ذلك الوقت يمكن رصد نمط متكرر تقوم بموجبه حكومة بيروانية بتوقيع اتفاقات انكماشية بإرشاد من خبراء صندوق النقد الدولى، واقتصاديين محافظين (من جامعة شيكاغو الأمريكية فى أغلب الأحيان)، مما يؤدى إلى زيادة تفاقم الأزمة الاقتصادية وارتفاع درجة الاحتجاج الاجتماعى، وسقوط الحكومة، التى لا تلبث خليفتها أن تدخل فى نفس الدورة مجددا.

ولا يمكن تفسير هذا الخطأ المتكرر، بمجرد افتراض حماقة صناع القرار الاقتصادى، وإصرارهم على تكرار الخطأ، فالحماقة، كما يقول أستاذ العلوم السياسية الأمريكى الشهير ستيفين كرازنر، ليست وحدة تحليلية صحيحة Stupidity is not a valid analytic category. ومن هنا يحاول تيفينين أن يفسر لنا هذه الحلقة الخبيثة عن طريق البحث عن المصالح السياسية الكامنة وراء هذه الوصفات المحايدة التى قدمها الخبراء واتبعها بكل إخلاص السياسيون، ويخلص من خلال تحليل التغير فى توزيع الدخول للشرائح الاجتماعية المختلفة إلى نتيجة فى منتهى الأهمية، فبرامج الخبراء الانكماشية والقائمة على الانسحاب المستمر للدور الاقتصادى للدولة لم تؤثر بالسلب على الجميع، وإنما أدت لخدمة شرائح اجتماعية معينة كانت فى تحالف مستمر مع الحكومات المتعاقبة، ومن هنا فالمسألة لم تكن مجرد خطأ فى الحساب الفنى، أو إصرار أحمق على تكرار الأخطاء، وإنما كانت خيارا اجتماعيا وسياسيا واضحا بخدمة مصالح معينة واستبعاد مصالح أخرى.

ونفس النتيجة تظهر بشكل متكرر فى الفصول المختلفة المتضمنة دراسات ميتشل فى التاريخ الاقتصادى لمصر، والتى يسوق خلالها أمثلة عديدة من حقب مختلفة، لعل أكثرها طرافة ذلك الخاص بقضية الدعم الحكومى، والمناظرة الدائرة حول جدواه الاقتصادية. فميتشل يتحدى التصور

من الأمير إلى الخبير



إن كل قرار فنى هو بالضرورة قرار سياسى يدعم مصالح معينة ويهمش مصالح أخرى. وبالتالى، فإن المفاضلة بين البدائل المختلفة لصنع القرار ينبغى أن تقوم على حسم الخيارات الاجتماعية المضمرة فى كل قرار فنى. فلا يوجد حل فنى بلا تكلفة اجتماعية

الشائع عن تراجع مستويات الدعم فى مصر خلال عقد التسعينيات فى ظل برنامج الإصلاح الهيكلى، ويدفع بأن ما حدث فقط هو تغير الشرائح الاجتماعية المتلقية للدعم. وهنا تكمن مفارقة تقليدية فى الخطاب الإعلامى حول موضوع الدعم، فالدعم الذى يتم الحديث عنه عادة هو الدعم المقدم للفقراء، بينما تسقط منه كافة أشكال الدعم المقدمة للأثرياء (يشير كتاب ميتشيل منها إلى الإعفاءات الضريبية، أو منح عقود مجزية من الحكومة أو من مشروعات المعونة الأمريكية لبعض رجال الأعمال، أو شق طريق سريع موصل لمشروع سكانى يرتبط النجاح فى بيع وحداته بالدفع بقربها من العاصمة...إلخ). ولذا فإن الكاتب يرى أن الجدل الفنى حول حكمة الإبقاء على الدعم الحكومى أو تقليصه يصبح غير ذى دلالة، إذ أن ما يحدث ليس مناظرة فنية حول الدعم، وإنما خيار اجتماعى بتغيير الشرائح المتلقية له. والخلاصة التى يؤكد عليها الكتابان هى أنه لا توجد حلول مدرسية textbook solutions لمشاكل المجتمع، فكل قرار فنى يعبر بالضرورة عن خيار سياسى واجتماعى ينحاز لمصالح معينة ويستبعد مصالح أخرى.

ولكن إذا كان لكل قرار فنى أساس سياسى، فكيف نشأ هذا الإيمان العميق بفكرة وجود حلول فنية؟ تطرح الدراستان ثلاثة أسباب لتفسير هذه الظاهرة، سببان سياسيان، وأما السبب الثالث فهو فلسفى يتعلق بمقولات وأطروحات فلسفة الحداثة فى أكثر أشكالها تطرفا.

فعلى الصعيد السياسى، كانت هذه الفكرة ملائمة لمصالح أطراف عديدة. فالخطاب الفنى يتيح عادة إخفاء التحيزات الاجتماعية للقرارات والسياسات الاقتصادية المختلفة، ما دام يصاغ بلغة «شبيهة بحياد لغة النشرات الجوية» على حد التعبير الشهير ليوجين بلاك، رئيس البنك الدولى الأسبق، والذى لا أشك أن القارئ يتذكر دوره الشهير فى أزمة تمويل السد العالى وتأميم قناة السويس، حين دفع بأن بنكه فنى لا شأن له بالسياسة، وأن سحب تمويل السد كان لأسباب اقتصادية بحتة، وشبهه الرئيس السابق جمال عبد الناصر فى خطاب التأميم الشهير بفرديناند دليسبس. ومن ناحية أخرى، فإن الدفع باعتبارات فنية يمثل أفضل وسيلة للتحلل من الوعود الانتخابية بتحسين الأوضاع المعيشية. ففى بيرو مثلا، جاء الرئيس فوجيمورى بحملة انتخابية ذات صبغة يسارية، ولكنه تبنى أكثر البرامج الاقتصادية محافظة، مبررا هذا التحول بوجود ضرورات فنية لإصلاح الاقتصاد البيروانى ومطالبا الناخبين بتحمل التضحيات التى لابد منها، وظل يتمسك بهذا البرنامج المحافظ، والخطاب الفنى لتبريره، حتى اضطر تحت وطأة الاحتجاج الشعبى إلى الاستقالة والهروب إلى اليابان -موطن أسلافه الأوائل- عام ٢٠٠٠.

أما أخطر الأسباب فهو الذى يشير إليه ميتشل فى دراسته، فجوهر أسطورة الحل الفنى فى رأيه مرتبط بأكثر صور الفكر الحداثى تطرفا، والتى ترى أن التاريخ الإنسانى ما هو إلا عملية سيطرة متنامية للإنسان على المادة، وتعرفه على القوانين العلمية التى تتيح له التحكم والسيطرة على الكون. وتنظر هذه الصيغة للفكر الحداثى لتاريخ المجتمعات بشكل خطى linear يفترض أن هناك مسارا «علميا» واحدا لتطور جميع المجتمعات، ومن ثم فإن نقل خبرة التحديث التى شهدها الغرب إلى المجتمعات «المتخلفة» ممكن وضرورى، باعتبار أن هذه الخبرة هى ثمة قوانين «علمية» صالحة لكل زمان ومكان. وهذه فى الواقع هى مهمة الخبراء الفنيين.

ويذهب ميتشل خطوة أبعد، فيلفت نظر قارئه إلى أنه ولفترات تاريخية طويلة كانت ثنائية الخبراء والتحديث الخطى هى جوهر أيديولوجية الاستعمار المعروفة باسم «عبء الرجل الأبيض»، فينقل عن أحد رجال الإدارة البريطانية فى الهند قوله «لا أجد سببا للاعتقاد بأن المبادئ التى لا شك فى صحتها فى كل مكان، لا يمكن تطبيقها فى البنغال»!! ولا أشك فى أن القارئ الآن يسمع أصداء لهذه الأفكار لتبرير «العبء الجديد للرجل الأبيض» لإصلاح وتحديث المنطقة العربية ودمجها فى شرق أوسط كبير أو موسع أو متضخم...إلى آخر ما تجود به قريحة «الخبراء» الغربيين وينقله عنهم للأسف الشديد الكثير من باحثينا بلا تدقيق.

وإذا كان الراحل العظيم إدوارد سعيد قد كشف واحدا من أخطر أوجه الاستشراق، باعتباره خطابا أسطوريا عن «المجتمع التقليدى» فى الشرق، ومكونا أصيلا لأيديولوجية «عبء الرجل الأبيض» (وهو ما تجد أصداء له فى الفصل الخاص بتاريخ الملكية الزراعية فى مصر فى كتاب ميتشل)، فلازالت هناك حاجة ماسة لتفكيك أسطورة «الخبير الفنى المحايد» الذى سينقل «القوانين العلمية» الصالحة لكل زمان ومكان، باعتبارها الوجه الثانى لنفس الأيديولوجية.

يرصد الكتابان ثلاث قواعد أساسية يقوم عليها عمل الخبراء الفنيين، هى:

أولا: تصوير الظروف الاجتماعية فى «المجتمعات التقليدية» على أن لها وجودا طبيعيا وأزليا. فالتفاوت فى

ملكية الأراضى مثلا يجد أصوله فى ظاهرة الملكية الفردية للأراضى التى تعد ظاهرة طبيعية موجودة من قدم التاريخ، والمجتمع الريفى فى مصر مثلا لم تتغير أوضاعه منذ آلاف السنين، ولا يمكن لها أن تتغير إلا بتدخل «علمى» لزرع قوانين التحديث فى هذا المكان المستعصى على التحديث. ويصور ميتشل فى أحد أكثر فصول كتابه طرافة الكيفية التى يتم بها كتابة تاريخ أسطورى لحال المجتمع الريفى فى مصر، يتجاهل أن هذا المجتمع مر بتحولات هائلة أخطرها إدخال نظام الملكية الفردية للأرض الزراعية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وأن كثيرا من ظروفه ومشاكله ليست نتاجا لتقليديته وإنما لظروف تاريخية معينة، وفى أحيان كثيرة، لأنماط تحديث مشوهة.

ثانيا: تحديد «مناطق فنية آمنة» يختص بها الخبراء وحدهم ولا ينبغى أن يتطرق إليها الساسة.

ثالثا: التأكيد على ضرورة «الواقعية» وقبول أية مشاكل ناجمة عن تطبيق سياسات الخبراء (كتفاقم الخلل فى توزيع الثروة، أو ارتفاع معدل البطالة)، باعتبارها كلفة إنسانية لابد منها حتى تؤتى السياسات «العلمية» ثمارها، وليست نتيجة لانحياز اجتماعى كامن فى هذه السياسات العلمية ذاتها.

وبين المطالبة بالواقعية، وبناء المناطق الفنية الآمنة، تتحقق هذه المتتالية المأسوية التى عاشتها كثير من الدول النامية: ففى البدء يتم فصل الحيز الاقتصادى عن أية اعتبارات سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية، باعتبار أن المسائل الاقتصادية ذات طبيعة فنية بالأساس، ثم يتم إعادة تعريف الاقتصاد، بحيث لا ينظر إليه كأحد جوانب الحياة، وإنما - على حد تعبير الاقتصادى الشهير جارى بيكر الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٩٢- كمنطق علمى للتفكير وحساب الجدوى يمكن تطبيقه على كافة مجالات الحياة، ومن ثم يتم إسقاطه على سائر قضايا المجتمع لتخضع جميعها لحسابات الربح والخسارة (هل يخطر مثلا على بال القارئ الحديث المحجوج عن عدم «استفادة» مصر من التزامها العربى وتضحياتها من أجل القضية الفلسطينية؟)، لتكتمل الحلقة التى تبدأ بإخراج الاقتصاد من دائرة رقابة المجتمع، وتنتهى بعودته للهيمنة على كل مقدرات المجتمع. وتضرب لنا التجربة البيروانية فى عهد الرئيس ألبرتو فوجيمورى (١٩٩٠-٢٠٠٠) مثالا بالغ الدلالة لهذه الحلقة الخبيثة: ففى البدء يتحلل الرئيس فوجيمورى من وعوده الانتخابية ويتبنى برنامجا محافظا بدعوى أن هذه هى مقتضيات الإصلاح الاقتصادى، ثم يدفع بأن قضايا الاقتصاد هى قضايا فنية لا ينبغى أن يتحدث فيها غير المتخصصين، وعندما اعترض البرلمان المنتخب على هذه السياسات، قام فوجيمورى بحل البرلمان عام ١٩٩٢ بدعوى أنه يعوق الإصلاحات!! وهكذا فإن ما بدأ بإخراج السياسات الاقتصادية من نطاق إشراف البرلمان المنتخب، انتهى بأن تصبح الاعتبارات الاقتصادية «الفنية» معيارا لتحديد صلاحية البرلمان المنتخب للاستمرار فى الحكم!!

للقارئ عذره إن سأل: هل هذا المقال - والكتب التى يعرض لها - دعوة لإحلال أهل الثقة محل أهل الخبرة والكفاءة؟ فالواقع أن هذه الثنائية، على ما بها من أوجه ضعف منهجية عديدة، لا تزال مهيمنة على واقعنا العربى. فالحديث مستمر عن الحلول الفنية التى سيضعها الخبراء، وأى تشكيك فى جدوى الخيار الفنى لمواجهة مشاكل المجتمع يصور وكأنه دعوة شمولية لتقديم أهل الثقة والولاء.

وحتى الكتابات القليلة التى شككت فى هذه الثنائية التبسيطية كانت تنحو عادة منحى اعتذاريا، كأن يقال أن كثيرا من أهل الثقة هم أهل خبرة أيضا (مثال: فى أى خانة يمكن تصنيف محمد حسنين هيكل أو عزيز صدقى مثلا؟) أو أن كل دول العالم تعتمد على نسبة معينة من أهل الثقة (مثال: السفراء الأمريكيون المعينون سياسيا من خارج السلك الدبلوماسى).

ومشكلة هذا النوع من النقد هو أنه يبقى مسلمة أهل الخبرة خارج نطاق الشك، دون أن يطرح السؤال الأخطر وهو: هل هناك خبرة فنية محايدة؟ أو حل فنى لمعضلة سياسية أو اجتماعية؟ فليست القضية هنا دعوة - لا يمكن أن يقبلها ذو عقل - لتفضيل أهل الولاء على أهل العلم، بل على العكس، فكل ما يقوله أمثال الكاتبين اللذين عرضنا لهما هنا هو أن تأسيس وعى علمى ونهضوى سليم يقتضى إدراك أنه لا توجد حلول مدرسية لمشاكل مجتمعية معقدة، وأن كل قرار فنى هو بالضرورة قرار سياسى يدعم مصالح معينة ويهمش مصالح أخرى. وبالتالى، فإن المفاضلة بين البدائل المختلفة لصنع القرار ينبغى أن تقوم على حسم الخيارات الاجتماعية المضمرة فى كل قرار فنى. فلا يوجد حل فنى بلا تكلفة اجتماعية، والمسألة هنا هى فى حسم من يتحمل هذه التكلفة، وفى إشراك هذا الطرف المضحى فى اتخاذ القرار الذى نطالبه بأن يتحمل تكاليفه. هو دعوة إذن لأن يخضع كل من الأمير والخبير لرقابة الجماهير. وهذا هو بيت القصيد. ■

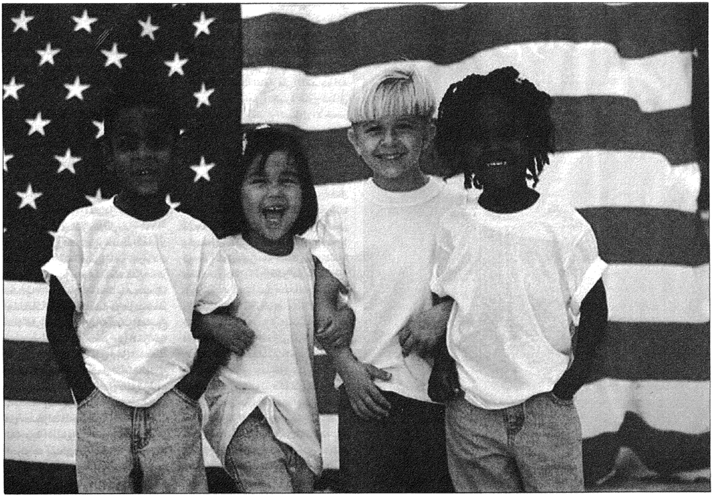
اللعـــب علـى أوتـــار الوطنيــــــة

■■ يستهل «صامويل ب. هانتنجتون Samuel P. Huntington» كتابه بإعلان أنه يكتب من منطلق «وطنى»، وهو ما يجعله فى شدة القلق على وحدة وقوة وطنه. وهو يخشى أيضا من أن «الوطنية» أصبحت عاطفة مهددة بالانقراض. ويرى «هانتنجتون» أن «حب الوطن» كان دوما من أسمى الفضائل. وينزع المحافظون - أكثر من الليبراليين - إلى تعليق الشارات على ياقاتهم ووضع أيديهم على قلوبهم عند عزف النشيد الوطنى. ومع ذلك فإن أمريكا التى يحبونها لها شكل محدد: اقتصاد يضع الأولوية دائما للكسب المادى مع الاستعداد الكامل للتجاوز عن الظلم الناتج عن ذلك، وسطوة عسكرية يرهبها العالم كله، مع التشديد على أهمية العقيدة الدينية بكل ما يتبعها من قيود. ومع ذلك يحذو المحافظون نهج «وليام بينيت William Bennett» فى الترويج لـ «المثالية المتفوقة لأسلوب الحياة الأمريكى». وعلى ذلك فكون المرء وطنيا يلزمه بالضرورة أن يؤمن بأن الولايات المتحدة تتفوق على كافة المجتمعات الأخرى (وإياك أن تحاول الجدل بأن الفنلنديين مثلا يؤدون بعض الأشياء بطريقة أفضل).

ويود «روبرت ب. رايش Robert B. Reich» أن يصنف أيضا ضمن الوطنيين. ولكنه يؤكد أن وطنيته من النوع «الإيجابى» الذى يختلف عن «الوطنية السلبية المستبدة». وهو يضيف بأن الكثير من الليبراليين «التزموا الصمت تجاه الوطنية» أو - على الأقل - شعروا بالارتباك نحوها. ولا يثير الدهشة أن مظاهر الحياة الأمريكية التى يكن لها «رايش» أسمى درجات التقدير ليست لها نفس الأولوية فى قائمة المحافظين. وهو عندما ينادى بـ «حقنا الديمقراطى فى المعارضة» يتبع ذلك بتوجيه قدر كبير من الانتقاد إلى الظلم الفادح الناتج عن اقتصاد السوق الذى يأمل بإصلاحه بالإقلال من الظلم على سبيل المثال وبتوفير رعاية صحية شاملة وزيادة الاستثمار فى التعليم الجيد. وهو يصرح فى نفس السياق بأن أمريكا التى يحبها تؤكد على أن «كلا منا مدين للآخرين، باعتبار أننا أعضاء فى نفس المجتمع».

لطالما جادل الليبراليون أمثال «رايش» بأن أهم التقاليد الأمريكية تأتى من الدستور والضمانات التى يوفرها للمعارضة، والتى تؤدى بالتالى إلى الإصلاح والتغيير البناء. ولسوء الحظ فليس من المرجح أن تلقى محاولات الوصول إلى وطنية ناقدة وناكرة للذات

... من هو الأمريكى؟



طبقا لتوصيات «رايش» قبولا لدى من نصبوا أنفسهم حماة لمتناقضات «هانتنجتون». وسواء رضينا ذلك أم لا، فقد أصبح الكسب المادى والقوة العسكرية والورع الدينى من السمات الثابتة للشخصية الأمريكية شبه الرسمية. أما الاستبداد الذى يقلق «رايش» فقد انتشر داخل أمريكا وخارجها على السواء. ولا يتورع المحافظون عن اتهام منتقديهم ذوى الميول «شبه» اليسارية بـ «معاداة أمريكا» وبأنهم يفتقرون إلى بعض الخصائص الأمريكية الخالصة، والتى لم يتجشم المحافظون عناء وضع تعريف لها.

وقد اختار «هانتنجتون» سؤال «من نكون؟» عنوانا لكتابه. ورغم أنه قام بطرح السؤال، إلا أنه فرض إجابة لا تقبل الشك. فهو يرى أن هوية الأمة قد تشكلت يوم أن اكتشفها المستعمرون البريطانيون الذين جلبوا معهم ثقافة مميزة تتضمن اللغة الإنجليزية والقيم البروتستانتية والنزعة الفردية والالتزام الدينى واحترام القانون.

وفى كل صفحات الكتاب تقريبا نجد تلميحات إلى الفطرة «الأنجلو ـ بروتستانتية» والتى يسبغ عليها «هانتنجتون» كل الفضائل عدا الشرعية الدستورية، وذلك رغم الاستعداد الكامل الأمريكيين اليوم يدعون أن أسلافهم هم فى الأساس أو الغالب الأعم من البريطانيين أو الإسكوتلانديين أو من «ويلز» أو أيرلنديين. سكوتلانديين. ورغم عدم توافر إحصائيات موثوقة حول العقيدة فمن الواضح أن وصول الكاثوليك واليهود وكذلك الأفارقة والآسيويين قد أعاد تشكيل البنية الثقافية بطرق عديدة ومختلفة. وفى الحقيقة فإن البروتستانت الأنجلو ـ ساكسون البيض قد اضمحلوا فى أمريكا منذ زمن طويل ولم يعد لهم ذكر سوى فى مسرحيات «أ. ر. جورنى A.R Gurney» و روايات «جون شيفر John

اليوم حوالى ٦٢ مليون أمريكى ذوى أصول مختلطة، وقرابة الـ ٥٤ مليونًا بدون أصول على الإطلاق، وكذلك هناك ٢١ مليونًا تقريبا يعتبرون أنفسهم ببساطة «مواطنين أمريكيين». ومجموع كل هؤلاء يساوى تقريبا رقم الـ ١٤٣ مليون أمريكى الذين مازالوا يفاخرون بالانتساب إلى دولة واحدة أو أصل وحيد. ولكن لماذا تعتبر الأصول «البروتستانتية» عنصرا رئيسيا فى الهوية الأمريكية اليوم؟ من الصحيح أن البروتستانتية كانت ديانة كل المستكشفين تقريبا. ومع ذلك فإن «حركة الإصلاح الدينى» كانت موجودة لأكثر من قرنين من الزمان قبل

أمريكا التى يحبها المحافظون لها شكل محدد: اقتصاد يضع الأولوية دائما للكسب المادى مع الاستعداد الكامل للتجاوز عن الظلم الناتج عن ذلك، وسطوة عسكرية يرهبها العالم كله، مع التشديد على أهمية العقيدة الدينية بكل ما يتبعها من قيود

والليبراليون من جهتهم تنقصهم فعلا مثل هذه الصفات، وحتى لو ترك لهم الخيار ما كانت لتتوفر لديهم رغبة كبيرة فى انتحالها. ويلمح «رايش» إلى أن الكلمة التى اختارها عنوانا لكتابه « Reason » تتضمن سبب هذا العزوف.

للاندماج والانصهار والذى أبداه المهاجرون من أصول أخرى. وقد يجادل المؤرخون بأن تاريخنا قد تغير كثيرا منذ أن استوطن أول المستعمرين فى خليج «ماساتشوسيتس». وفى الحقيقة، فكما تظهر الأرقام، فإن أقل من ٢٥ بالمائة من

Who Are We? The Challenges to America's National Identity
(من نكون؟: التحديات التى تواجه الهوية القومية الأمريكية)
Samuel P. Huntington
Simon & Schusher, 2004,
428pp., $27.00

Reason: Why Liberals Will Win the Battle for America
(العقل: لماذا سيكسب الليبراليون معركة أمريكا)
Robert B. Reich
Knopf, 2004, 257pp., $24.00

On Paradise Drive: How We live Now (And Always Have) in the Future Tense
(سعيا نحو الفردوس: كيف نعيش الآن -كما عشنا دوما- فى صيغة الزمن المستقبل)
David Brooks
Simon & Schusher, 2004,
304pp., $25.00

The Two Americas: Our Current Political Deadlock and How to Break It
(أمريكتان: الجمود السياسى الحالى وكيف نكسره)
Stanley B. Greenberg
St. Martin's Press, 2004, 400pp.,
$25.95

The Working Poor: Invisible in America
(العمال الفقراء: الذين لايراهم أحد فى أمريكا)
David K. Shipler
Knopf, 2004, 319pp., $25.00

عن مجلة:
New York Review of Book

ترجمة: عادل فتحى

Cheever»، وبالتالى لم تعد لهم السيادة فى مجالات مثل البنوك والقضاء أو جامعة «هارفارد».

ومع ذلك فلدى «هانتنجتون» حجة قوية بأنه إلى وقت قريب على الأقل فإن «الآخرين من غير البيض البروتستانت الأنجلو. ساكسون لم يصبحوا أمريكيين إلا بعد أن اعتنقوا القيم الثقافية والسياسية الأنجلو- بروتستانتية الأمريكية». وفى الحقيقة فإن من وصلوا إلى أمريكا بعد ذلك لم يتكيفوا تماما فقط، بل وتخلوا بمرور الوقت عن كثير من سماتهم المميزة. فرغم أن الألمان مثلا هم أكبر الجماعات المهاجرة من أوروبا، فمن الصعب اليوم أن تجد لهم أثرا يذكر، حتى فى مدن مثل «ميلووكى» و«سينسيناتى». وفى «نيويورك» كانت الأعداد الكبيرة للأيرلنديين الإسكوتلانديين تكفى للسير فى موكب «الرجال البرتقاليين» (منظمة سرية بروتستانتية أيرلندية) ولكنهم الآن انصهروا وذابوا أيضا. وبسبب الزواج المختلط والعلاقات الأخرى وجدنا فى الأجيال المتعاقبة أعدادا متزايدة من الأمريكيين ينحدرون من أصول مختلطة. بل إن تأجيل التفكير فى الزواج أو حتى «تجاهله» تماما سمح للأمريكيين الشباب باختيار شركائهم بدون وصاية من الأهل.

ويرى «هانتنجتون» فى الأمريكيين من أصل أوروبى «نهاية للعرقية». فهناك

اكتشاف أمريكا، وكانت قيمها قد اندمجت تماما فى الحياة الأوروبية والأمريكية بحلول ذلك الوقت. وعلى ذلك فإن فرض عنصر دينى محدد على ثقافتنا السياسية الأمريكية يصيبنى بالصدمة، ليس فقط لأنه لا لزوم له، وإنما أيضا لأنه باعث على الفرقة. ورغم كل شىء، فالذى وقع إعلان الاستقلال (عام ١٧٧٦) كان كاثوليكيا، والمؤتمر الدستورى (١٧٨٧) كان يضم بين أعضائه التسعة والثلاثين اثنين من الكاثوليك. وفى جميع الأحوال فإن «هانتنجتون» نفسه لم يحاول فى كتابه أن يعزل على وجه الخصوص العناصر البروتستانتية للهوية الأمريكية.

وأكثر مايقلق «هانتنجتون» هو مايسميه بـ «الأسبنة» (نسبة إلى معظم سكان أمريكا اللاتينية والوسطى والجنوبية والذين ينحدرون من أصول أسبانية)، والتى يعتقد أنها تطوق أجزاء كبيرة من أمريكا. وعلى النقيض من ذلك فليست لديه مخاوف مماثلة تجاه المهاجرين الآسيويين، لأنهم ـ حسب قوله ـ يزدادون «ابيضاضا» ولأن «قيمهم تنسجم مع القيم الأمريكية» وبسبب «المستوى المرتفع لتعليمهم ولمراكزهم الوظيفية». وأعتقد أن الكثيرين سيقولون أن خلفيتهم الآسيوية ساعدتهم فى اكتساب قيمهم الحالية.

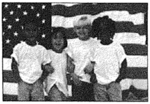
بل إن «هانتنجتون» يقرر أن «لون جلودهم يتحول

للبياض، رغم أنه لا يذكر مصدرا لهذا التأكيد. وفي الواقع أن مجموع الأمريكيين الآسيويين يزداد «اسمرارا» بعض الشيء نظرا للانخفاض الإجمالي لأعداد المهاجرين الصينيين واليابانيين والكوريين منذ منتصف التسعينيات، بينما زادت أعداد القادمين من باكستان والهند، والذين لا يعود تراثهم بالتأكيد إلى التاريخ البروتستانتي و«المبدأ الأخلاقي» الذي وصفه «ماكس ويبر Max Weber» (عالم اجتماع واقتصاد ألماني، ١٨٦٤-١٩٢٠).

وفي التعداد السكاني لعام ١٩٧٠، شكل الأمريكيون الأسبان الذين ترجع أصولهم العائلية إلى دول أمريكا اللاتينية نسبة ٤.٥ بالمائة من السكان. أما في تعداد عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ١٢.٥ بالمائة. وجاء ٥٨,٥ بالمائة من هؤلاء من أصول مكسيكية، بينما جاء مواطنو بورتوريكو في المرتبة الثانية بنسبة ٩.٦ بالمائة، يليهم منهم يحتفظون بالأسبانية كلغتهم الأم، ويطالبون بفصول دراسية ثنائية اللغة لأبنائهم، ويختارون العيش في أحياء خاصة بهم، وكثيرا ما يقضون أجازاتهم الطويلة في المكسيك ودول أمريكا اللاتينية الأخرى. وهو يشير كمعيار جوهري إلى أن ٣٣ بالمائة فقط من المهاجرين المكسيكيين يصبحون مواطنين مقابل ٧١ بالمائة من الكوريين و٧٦ بالمائة من الفلبينيين. ولا يذكر «هانتنجتون» هنا أن ٤٠ بالمائة فقط من المهاجرين الكنديين يصبحون مواطنين أمريكيين. ويتباكى «هانتنجتون» أيضا على مايعتبره احتلالا كوبيا لـ «ميامي» والذي يزعم أنه أدى إلى نزوح ١٤٠ ألف أمريكي أبيض منها فيما بين عامي ١٩٨٣ و ١٩٩٣، وهو يستشهد بملصق على إحدى السيارات هناك يقول «نرجو من آخر الأمريكيين المغادرين أن يقوم بإنزال العلم قبل أن يرحل» (في الحقيقة أن رقم ١٤٠ ألف رقم غير صحيح بالمرة. فالإحصاءات تكشف عن أن عدد السكان يسمع «هانتنجتون» أبدا بأناس يتحدثون إحدى اللغات في المنزل ولغة أخرى في المدرسة أو العمل ويكونون في الوقت نفسه مواطنين صالحين محبين لوطنهم؟ من الغريب على وجه الخصوص أن «هانتنجتون» لا يقدم من الدراسات الحقيقية ما يعضد به استنتاجاته.

وقد كتب «لويس مينناند Louis Menand» في معرض مراجعته النقدية لكتاب «هانتنجتون» والمنشورة في مجلة «نيو يوركر New Yorker» بتاريخ ١٧ مايو ٢٠٠٤ أن «هانتنجتون» لا يبدو على وعي بالنتائج الأخيرة التي توصل إليها عالمي الاجتماع «ريتشارد ألبا Richard Alba» و «فيكتور ني Victor Nee» والتي تشير إلى أنه في عام ١٩٩٠ «كان ٩٥ بالمائة من الأمريكيين المكسيكيين الذين تتراوح

إلى الأمريكيين الأقدم عهدا؟ إن أرباب العمل يقومون - في معظم الحالات - بتشغيل المكسيكيين لأنهم يقبلون العمل بأجور متدنية مما يؤدي بالتالي إلى خفض التكلفة وتوفير السلع والخدمات للمستهلكين بأسعار أقل. فإذا ما قامت محال غسل وكي الملابس والمطاعم ومواقف انتظار السيارات بتوظيف عمال أمريكيين بالأجور المعتادة فإن رواد هذه المرافق سيتوجب عليهم دفع مبالغ أكبر مقابل تلك الخدمات، مما سيؤدي في معظم الأحوال إلى انخفاض الطلب عن العرض مما يقلل من عدد الوظائف المتاحة. ومن المعروف فعلا أن الأمريكيين يفضلون شراء الأجهزة الكهربائية والإلكترونية المستوردة من الخارج عوضا عن المصنعة محليا. وكما يشير «دافيد شيبلر David Shipler» في كتابه «العمال الفقراء»، فإن المهاجرين الذين يقصون العشب ويغسلون السيارات هم في واقع الأمر قوة عاملة تابعة للعالم الثالث ولكنها تعيش بين ظهرانينا.



لا يوجد حلم «أمريكي/مكسيكي»، بل فقط حلم «أمريكي/أنجلو- بروتستانتي»، وعلى الأمريكيين المكسيكيين إن أرادوا المشاركة في هذا الحلم أن يحلموا باللغة الإنجليزية

الكوبيون بنسبة ٣.٥ بالمائة، ثم خليط من أمريكا الوسطى بنسبة ٤.٨ بالمائة، وأمريكا الجنوبية بنسبة ٣.٨ بالمائة. وخلال تلك الفترة انخفضت نسبة الأمريكيين البيض من ٨٣.٣ بالمائة إلى ٦٩.١ بالمائة. وبالنسبة للمستقبل، فإن العائلات الأسبانية لديها ٢.٧ طفل في المتوسط بينما يدور الرقم عند العائلات الأمريكية البيضاء حول ١.٨ طفل والذي يقل حتى عن الحد المطلوب للحفاظ على معدل الإحلال.

ويختلف دفق المهاجرين الأسبان عن غيره نظرا لقرب الولايات المتحدة جغرافيا من المكسيك والدول الأخرى المتحدثة بالأسبانية مثل جمهورية الدومينيكان وغيرها. فمن الواضح أن هذا القرب الجغرافي يسهل الهجرة إلى الولايات المتحدة، وخاصة غير الشرعية، والتي تمثل - كما يقول «هانتنجتون» - ما يقرب من ٤٥ بالمائة من الأسبان الموجودين على الأرض الأمريكية فعلا. ولكن قربهم من أوطانهم الأصلية يمكن أيضا أن يضعف من ولائهم الوطني لأمريكا حتى عند الجيل الثاني والثالث. ويزعم «هانتنجتون» أن العديد البيض في ميامي قد انخفض بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٩٠ من ٦٧,٢٤٩ نسمة إلى ٤٤,٠٩١ نسمة. وكان عددهم بحلول عام ٢٠٠٠ هو ٤٣.١٩٥ وهو تقريبا نفس العدد الذي كان موجودا قبل عقد من الزمان).

ويشن «هانتنجتون» في كتابه حملة شعواء على الأمريكيين المكسيكيين الذين يمثلون الآن ٧١.٦ بالمائة من المواليد الأسبان. فعلى ضوء اتساع مساحة وطنهم الأم والسهولة النسبية لدخول الولايات المتحدة، فمن المرجح وصول المزيد منهم. ويرى «هانتنجتون» أن «الهجرة المكسيكية سوف تؤدي إلى تحولات سكانية عكسية في المناطق التي استولت عليها أمريكا من المكسيك بالقوة في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر». وهو لا يعني بذلك أن يصل الأمر إلى انفصال مساحات كبيرة في جنوب غرب الولايات المتحدة بعد أن تتحول إلى مستعمرات محلية لهؤلاء الدخلاء. وهو يرفض مقولة أن القيم الأمريكية قادرة على استيعاب التقاليد والثقافة اللاتينية، ويؤكد أنه لا يوجد حلم «أمريكي/ مكسيكي»، بل فقط حلم «أمريكي/أنجلو- بروتستانتي»، وأن على الأمريكيين المكسيكيين إن أرادوا المشاركة في هذا الحلم أن يحلموا باللغة الإنجليزية.

إن ذلك يبدو من قبيل التسطيح. ألم

أعمارهم ما بين الخامسة والعشرين والأربعين والمولودين في الولايات المتحدة يجيدون التحدث باللغة الإنجليزية». وقد استخلص «ألبا» و«ني» أن الاستيعاب اللغوي للأسبان كان «واسع الانتشار» (راجع كتابهما «إعادة توجيه المسار الأمريكي: الانصهار والهجرة المعاصرة Remaking the American Mainstream: Assimilation and Contemporary Immigration»). وربما ساعد على ذلك أن ٢٨.٣ بالمائة منهم مقترنون بأزواج من أصول أخرى. ومما يثير الدهشة أيضا أن «هانتنجتون» لا يشير من قريب أو بعيد إلى أية علاقة وثيقة له بأحد من أولئك الأسبان أو أنه على استعداد لزيارة عائلاتهم والاستماع إلى وجهة نظرهم حول مفهوم «الوطنية» أو أي موضوع آخر. من الواضح أن «هانتنجتون» يكتب عن أناس لا يعلم عنهم الكثير، وربما كان ذلك هو السبب في الإحساس بوجود شيء من التوجس لديه عند تناوله إياهم بالدراسة.

يقول «هانتنجتون» في كتابه أنه «إذا ما توقفت هجرة المكسيكيين فجأة فإن أجور الأمريكيين ذوي الدخل المنخفض سوف تتحسن». لا يمكن إثبات هذه المقولة بسهولة رغم أنها تتردد كثيرا. فإذا ما توقفت الهجرة، فكم من الوظائف التي يحتلها الآن الوافدون الجدد ستؤول

أما الأمريكيون في كتاب «دافيد بروكس David Brooks» سعيا نحو الفردوس» فقد نالوا أكثر مما يستحقون من الاهتمام والتحليل. لقد قام بدراستهم بعناية في كتابه السابق الذي نعتهم فيه بالبرجوازية الجديدة والذين تأثرت رفاهيتهم سلبا بسبب الصرعات البوهيمية المتوارثة من حقبة الستينيات (كتاب «البوهيميون البورجوازيون في الفردوس: الطبقة العليا الجديدة وكيف وصلت إلى هناك Bobos in Paradise: The New Upper Class and How They Got There»). إنهم في العادة خريجو جامعات ولديهم وظائف رائعة ويعيشون في ضواح آمنة وسط جيران يشابهونهم إلى حد كبير. وأكثر ما لفت انتباه «بروكس» فيهم هو ولعهم الشديد بتملك أحدث ما وصل إليه العلم واكتساب مهارات جديدة مثل حضور ندوة عن الطهي في «سيينا» بإيطاليا أو الاشتراك في مغامرة لمراقبة النمور في الهند أو قضاء أسبوع بين كروم العنب في «بوردو» بفرنسا.

في واقع الأمر أننا لا نعرف الكثير عن أحوال الأمريكيين السياسية فيما عدا أنهم غير متعلقين بحزب معين أو عقيدة سياسية واضحة. ويوحي التجاهل الشديد لميولهم السياسية من قبل «بروكس» بأنه لم يدرسهم جيدا أو

يتعرف إليهم عن قرب. وبدلا من تقصى آرائهم حول القوة العظمى لأمريكا وفئاتها الاجتماعية والأحزاب السياسية والزعماء السياسيين بها، يأخذنا «بروكس» فى رحلة مثيرة لدراسة المجتمعات البشرية. يقول «بروكس» فى كتابه «لن نتمكن من فهم سكان الضواحى بصورة صحيحة ما لم نقدر التأثير الثقافى القوى للعبة الجولف حق قدره. ليس لأن الجميع هناك يلعبون تلك اللعبة، وإنما لأن الجولف يرمز لـ «النموذج الفردوسى» حيث ملاعب الجولف هى «قطع ممتدة من الجمال الناعم» بينما ضربات اللاعبين هى «الحالة المثالية القصوى من السعادة والراحة والألفة».

يتبنى «بروكس» فى البداية لهجة متسامحة حيث ينادى بألا نقسو على الوافدين الجدد الذين يسعون لشق طريقهم فى الحياة. ولكن مع كل فصل من فصول الكتاب، يضع «بروكس» معيارا أعلى لقطاع من المجتمع متميز نسبيا. الأساس الذى بنى عليه هذا الأمل، فرغم رحلاته العديدة إلى الضواحى فهو لا يستطيع أن يذكر لنا محتويات المثل والرؤى التى وجدها فى قلوب الضواحى. ويرى «بروكس» أن سكان فردوسه قد يكونون محبين للتملك، ولكن أفضل ما يمكن فعلا أن يصفهم به هو أنهم لا يأبهون كثيرا بالمكانة الاجتماعية ولا يطمحون للوصول إليها.

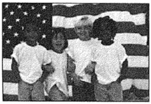
يقول «بروكس» أن أمريكا ليست مكانا كهنوتيا. وهذا صحيح إلى درجة ما إذا كان المقصود من ذلك أننا لم ننشئ طبقات اجتماعية أو حواجز صارمة تحد من الحركة. ولكن ما أن يقول «بروكس» ذلك حتى يبدأ فى القلق من أن هناك كهنوتًا من نوع جديد يبرز الآن فى صورة «نظام طائفى تعليمى متوارث». والسبب

فبينما ينحدر لأسفل المجتمع بعض أبناء غير القادرين، نجد مواهب جديدة من نفس الطبقة تصعد للأعلى (أجرى «توماس هيرتز Thomas Hertz» مؤخرا دراسة عن أطفال العائلات المدرجة فى شريحة العشرين بالمائة الأعلى من حيث الدخل. وعندما وصلت تلك الذرية إلى سن الرشد لم يبق منهم فى نفس الشريحة سوى ٣٧.٤ بالمائة. راجع فصل «أسمال وثروات وسباق» فى كتابه «فرص غير متكافئة: الخلفية العائلية والنجاح الاقتصادى Unequal Chances: Family Background and Economic Success)». وحتى بغض النظر عن الجينات الوراثية، فإننا نجد النشء المتنعم فى رفاهية الجيل الثانى أقل استعدادا لبذل نفس الجهد الذى كان على والديهم أن يقدموه.

ومن أهم نقاط القوة فى كتاب «سعيا نحو الفردوس» اللقاءات العديدة التى أجراها المؤلف مع أناس حقيقيين، رغم أن إصراره على اختياره لأسئلة معينة أمر

الديمقراطيين والجمهوريين». لقد أوقعت انتخابات العام ٢٠٠٠ الأمة فى «مأزق سياسى تاريخى». كانت نتيجة الأصوات العامة ٥٠.٩٩٩.٨٩٧ صوتا لصالح «آل جور Al Gore» مقابل ٥٠.٤٥٦.٠٠٢ صوتا لـ «جورج دبليو بوش George W. Bush» بفارق نصف بالمائة لصالح «جور». أما الفارق بين أصوات المجمع الإنتخابى (٢٧١ و ٢٦٦ لصالح «بوش») فكان الأقل منذ عام ١٨٧٦ عندما نال الرئيس «هايس Hayes» ١٨٥ صوتا مقابل ١٨٤ لـ «تيلدين Tilden». ومع ذلك فالقول بأننا فى مأزق تاريخى ليس مجرد محصلة حسابية. ففارق الأصوات لصالح «جون كينيدى John Kennedy» عام ١٩٦٠ كان أقل من ذلك، فهو لم يفز على «ريتشارد نيكسون Richard Nixon» سوى بفارق سدس من واحد بالمائة. ومع ذلك فإن الصراعات فى ذلك العام (١٩٦٠) لم تكن عسيرة أو طويلة الأمد كما هى الآن.

هناك منذ بعض الوقت تلميحات



إن فكرة وجود جين وراثى خاص بالنجاح هى فكرة قديمة تعود إلى «أفلاطون Plato»، ويبدو أن التفكير فى تحسين نسل الجنس البشرى لا ينتهى أبدا

وبنهاية الكتاب يكون «بروكس» قد قدم لنا صورة بعيدة تماما عن المجاملة. فهو يستشهد على سبيل المثال بمقالات نشرت بمناسبة احتفالات لم الشمل الجامعية كتب فيها الخريجون الأوائل فقرات «شديدة الملل تصيب القارىء بالذهول لفرط تبلدها». وفى بعض الأحيان يلقى «بروكس» بتعليقات شبه ماركسية عندما يسرد مثلا أثر قيم الـ «بيزنس» على الشخصية الأمريكية، فيقول: «تتحول الشخصية إلى وسيلة بيع، والصداقات تصبح معاملات، والحافز للتطوير ينحدر إلى مجرد جشع، ويصبح المال هو معيار النجاح، وتوظف معظم الطاقات الفكرية لأبحاث السوق الخارجية فلا يبقى منها شىء للتأمل الداخلى، وتطغى لغة التجارة على المفردات الأخلاقية».

لو كان الكتاب قد توقف هنا لاعتبرناه مجرد تحديث لكتاب «دافيد ريزمان David Riesman» «الحشد الموحش» الذى يؤكد فيه أن نصف القرن الماضى لم يشهد تغييرا يذكر. ولكن «بروكس» يذهب إلى أبعد من ذلك، فهو يواصل التأكيد بأن التطواف فوق المروج والمتنزهات البديعة إنما هو رؤى غيبية سامية». ويقول «بروكس»: «آمل لو أن شعاعا مثاليا ضرب كل بقعة فى أمريكا». ولكن «بروكس» لا يذكر لنا أبدا الرئيسى لهذا التغيير هو انتقاء المدارس والمهن الممتازة التى يكون معيار التوظيف والترقية فيها هو الجدارة التى تحقق المساواة بين الجنسين. وعلى ضوء المواهب والطباع المتشابهة فليس من غير المألوف لمن يفوزون بتلك الوظائف أن يلتقوا ويقترنوا ببعضهم البعض: «إن الآباء والأمهات الناجحين يتزوجون ويربون أطفالا يصبحون بدورهم نماذج ناجحة ويجنون الكثير من المال ويأتون هم أيضا بأطفال على شاكلتهم يتحولون إلى قوالب ناجحة».

إن فكرة وجود جين وراثى خاص بالنجاح هى فكرة قديمة تعود إلى «أفلاطون Plato»، ويبدو أن التفكير فى تحسين نسل الجنس البشرى لا ينتهى أبدا. وحسب رأى «بروكس» فلو كان كلا الوالدين يملك المقومات المؤهلة لدخول جامعة «برنستون Princeton» مثلا، فإن الاحتمالات تكون جيدة لأن يرث نسلهم تلك القدرات. المشكلة الوحيدة هنا أن التجارب السابقة نادرا ما تؤكد صحة هذه الفرضية. فبينما يولد أحيانا أطفال موهوبون لأزواج مرموقين، فإن معظم أطفال العائلات الوجيهة لا يصلون إلى المكانة نفسها التى وصل إليها آباؤهم أو أمهاتهم. ويفسر ذلك ما يسميه خبراء الإحصاء بـ «انتكاسة للوراء». وبالفعل فهذا عرف سائد فى المجتمعات المفتوحة:

غير مفهوم على الإطلاق. أما استعانته بالمراجع المطبوعة فكانت مضللة أحيانا. فهو يذكر على سبيل المثال أن دائرة الإحصاء اكتشفت أن ٢٥ بالمائة فقط من المراهقين يتوقعون الاستمرار بالعيش فى المدن التى نشأوا فيها. قد يكون ذلك هو شعورهم فعلا، ولكن لا يمكن أن يرد ذلك فى إحصاء رسمى لأن دوائر الإحصاء لا يمكن أن تسأل مثل هذه الأسئلة. ويقول «بروكس» أيضا أنه «يوجد الآن بالمدارس أقل من ثلاثة عشر طالبا مقابل كل مدرس». وهذا القول أيضا باطل لأن الرقم الحقيقى يقترب من ستة عشر طالبا لكل مدرس، ويدخل ضمن ذلك أيضا فصول الطلبة المعاقين التى لا يزيد العدد فيها على خمسة أو ستة. أما الفصول العادية فيتراوح عدد الطلاب بها بين واحد وعشرين طالبا فى المرحلة الابتدائية وأربعة وعشرين فى المرحلة الثانوية.

كتب «ستانلى جرينبرج Stanley Greenberg» صاحب استطلاعات الرأى الذى يعمل عادة لحساب الديمقراطيين، كتب يقول «إن ولاء الناخبين الأمريكيين انقسم الآن بالتساوى تقريبا بين لانقسام البلاد. ولقد شطرت الانتخابات المتلفزة لعام ٢٠٠٠ البلاد إلى ما أطلق عليه المعلقون السياسيون ولايات «حمراء» وأخرى «زرقاء». ومن السخرية أن اللون الأحمر كان من نصيب الجمهوريين، وهو أمر كان يمكن أن يؤدى منذ جيل مضى إلى رفع قضية تشهير. كما أصبح لدينا أيضا الليبراليون مقابل المحافظين، والصقور مقابل الحمائم، وكان هناك أيضا انقسام حول بعض القضايا مثل حقوق الشواذ والإجهاض وحتى الموقف تجاه الأمم المتحدة، وقد تجنب «بروكس» التعرض لكل هذه الموضوعات. ويرى «جرينبرج» أن من بين المستجدات أن الحزبين الرئيسيين منقسمان الآن بشدة حول ما كان فى السابق مجموعات متناثرة من القضايا. وهو يقول أن «المتحزبين أصبحوا أكثر حزبية، والحياة السياسية أكثر استقطابا». ومع أنه لا يزال هناك بعض الوسطيين الأقل تشددا، إلا أنه يصعب الوصول إليهم، كما أنهم عادة ما يقررون البقاء فى منازلهم فى نوفمبر. فأقل من ٤٠ بالمائة من مجموع الأمريكيين الذين لهم حق الانتخاب يتقدمون لصناديق الاقتراع فى الانتخابات التكميلية، بينما يتقدم أكثر قليلا من النصف إلى الانتخابات الرئاسية.

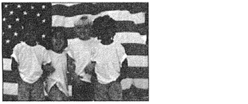
وبالنسبة لـ «جرينبرج»

فإن الرؤساء الأمريكيين يتم اختيارهم بواسطة الحملات التسويقية. فهناك الملايين من الزبائن/الناخبين المحتملين، والتحدى هنا هو أن تتمكن من جعل المنتج/المرشح للرئاسة أكثر جاذبية من المنتج/المرشح المنافس. والحقيقة أن الناخبين كثيرون جدا ومتنوعون (أكثر من مائة مليون الآن) ولا يمكن لأسلوب واحد أن ينجح فى استقطابهم جميعا. ويقسم «جرينبرج» الناخبين إلى فئات يجب مغازلة كل منها باستراتيجية مختلفة. فهناك سبع فئات للجمهوريين، بما فى ذلك «سكان الريف» و«سكان الضواحى الفاخرة» و«الشباب العصاميون المتزوجون غير الجامعيين». ولديه أيضا ست مجموعات للديمقراطيين، مثل «النساء ذوات التعليم الممتاز» و«المحاربين العلمانيين» (الذين لا يذهبون أبدا إلى الكنيسة ولا يحملون الأسلحة النارية) و«العائلات الاتحادية».

وكما جاء فى كتاب «أمريكتان»، فإن الجمهورى. اعتبار الحزب الديمقراطى «فعالا». فالمرشحون الديمقراطيون يترشحون على نفقتهم الخاصة بدون مساعدة تذكر من أى منظمة قومية، ويجب عليهم إعادة حشد الجماهير بأنفسهم عند كل انتخابات. وفى الوقت نفسه فإن الاعتماد على الوطنية وحدها قد يصبح مشكلة بالنسبة للجمهوريين. فعندما بدأت تسوء أحوال الحرب فى فيتنام انسحب بعض أقوى مؤيديهم خلسة من الميدان. وهناك بالفعل من الدلائل ما يشير إلى أن ذلك هو بالضبط ما يحدث الآن فى العراق.

إن كتاب «أمريكتان» يقدم نفسه ككتاب «إرشادى» حافل بالنصائح الموجهة لكلا الحزبين. وهو يفترض أنه إذا ما صيغت الرسائل الموجهة إلى جماعات بعينها بدقة فمن المرجح أن تسترعى عشرين ألف دولار سنويا، وهو ما يقارب إعانة البطالة. ولكن ما لا تذكره الإحصائيات دائما هو كم منهم لديه أطفال، أو هل كلا الزوجين يعملان، أو هل غير المتزوجين يعيشون مع شركاء من نفس الجنس أم من الجنس الآخر. لقد كان باستطاعة أرباب العمل دائما العثور على من يقبلون أجورا أقل نتيجة لأن العديد من الناس. أكثر من أى وقت مضى. أصبحوا لا يعولون سوى أنفسهم أو يعيشون مع شركاء قادرين بدورهم على الكسب. فالمستخدمون الصغار الذين نلتقيهم فى محلات «بارنس ونوبل Barnes & Noble» عادة ما يقتسمون تكاليف الحياة مع شركائهم فى السكن، بينما النساء الأكبر سنا العاملات فى «وولمارت Wal-Mart» يكون لديهن فى العادة أزواج عاملون أو متقاعدون.

سرعان ما يتضح لنا أن أسباب الفقر لدى هؤلاء العمال ليست دائما اقتصادية. يحكى «شيبلر» عن رجل فى حياتهم العائلية. ومعظم من التقاهم «شيبلر» هم من الأمهات الوحيدات اللواتى يعلن أطفالا. وبفضل ما يطلق عليه «تحرر الرجال» يمكن لأى رجل أن ينجب أطفالا ثم يختفى من حياتهم فجأة دون التعرض للوم وبقليل من الكلفة المالية فى العادة أو حتى بدون كلفة على الإطلاق (راجع كتاب «الاقتصاد الأمريكى: الدخل والثروة والفاقة The American Economy: Income, Wealth, and Want» تأليف «ستانلى ليبرجوت Stanley Lebergott»). ونتيجة لذلك يتوجب على النساء وحدهن تحمل مسئولية تربية الأطفال. وبسبب المبالغ التى اقتطعها «كلينتون Clinton» من برامج الخدمة الاجتماعية فإن عليهن الآن البحث عن عمل. ويحكى الكتاب عن امرأة كانت فى بحبوحة من العيش وكان من المقدر لأحوالها المالية الجيدة أن تدوم لو لم يفشل زواجها. ورغم أن زوجها السابق لديه دخل جيد فإنه لم يدفع لها أية



بنظرة إلى قائمة «فوربس Forbes» للمليارديرات نجد أن الفائزين فى أمريكا يصلون إلى القمة أسرع من أى بلد آخر. أما الخاسرون فيسقطون أيضا بمعدل أكبر

معظم من أدلوا بأصواتهم فى الانتخابات الرئاسية هم من ذوى الدخول العالية. وحتى لو لم يكونوا من الأغنياء، فهم ما زالوا يعتبرون أنفسهم أعضاء فى الطبقة المتوسطة المحترمة. فالقليل منهم عاطلون عن العمل أو يخشون فقدان وظائفهم. والناخبون من كلا الحزبين يشترون السيارات الرياضية متعددة الأغراض ويتناولون عشاءهم خارج المنزل ويخططون لرحلات تتكلف آلاف الدولارات. والحقيقة أن غياب أو قلة المتاعب المالية قد يفسر لماذا يأخذ الناخبون اليوم على محمل الجد قضايا عقائدية مثل الإجهاض، ناهيك عن مستنقع الحرب فى دول أجنبية. وقد تشكل أسعار الدواء مشكلة كبيرة هى الأخرى. فقد دفعت لتوى مائة دولار ثمنا لأربع عشرة كبسولة مضاد حيوى لا يشملها تأمينى الصحى، فماذا عن الملايين العديدة من العمال الأمريكيين الذين ليس لديهم أى تأمين صحى على الإطلاق؟

ويوضح كتاب «جرينبرج» أيضا إحدى الخصال التى يتمتع بها الجمهوريون. فمن بين مؤيديهم يميل الكثير من شديدى الولاء لقبول «جورج بوش» الابن كما هو. وعلى العكس من ذلك يواصل الديمقراطيون تقطيع أوصال مرشحهم كما لو أنه لم يستطع تمثيل نفسه بجدارة. ومن الصعب. مقارنة بالحزب انتباهها ويترجم ذلك إلى أصوات انتخابية. ومع ذلك فإن قلة من الناخبين يهتمون فعلا بالسياسة، وليس لديهم بالطبع أى استعداد لتحمل سماع خطب المرشحين أو دعاياتهم.

شرع «دافيد شيبلر David Shipler» فى أواخر التسعينيات التى كانت فترة ازدهار حقيقى، شرع يبحث عن العمال الذين «نسيهم الجميع». وهو يقدم لنا العشرات ممن قابلهم، بما فى ذلك الأزواج أو الفرادى من الآباء أو الأمهات، من مختلف الأعراق والبيئات، وكذلك من المواطنين الأصليين أو من المهاجرين الجدد. هم جميعا ممن يكسبون عيشهم أو يحاولون البحث عن عمل لائق. وكلهم فى الوقت نفسه يعيشون على حد الكفاف. ومع نهاية كتاب «شيبلر» لا نجد بارقة أمل فى أن يتمكنوا يوما ما من تخطى ظروفهم القاسية ما لم يتم تطبيق برامج اجتماعية طموحة.

ليس من الضرورى أن يكون المرء من ذوى الدخل المحدود حتى يعد من بين العمال الفقراء. إن «شيبلر» لا يقدم لنا العديد من الإحصائيات، لأن الأرقام لا تلقى ضوءا على الظروف المحيطة بكل فرد. فعلى سبيل المثال نحن نعلم أنه من بين حوالى مائة مليون رجل وامرأة ممن يعملون بدوام كامل فى أمريكا هناك ١٨.٦ بالمائة يقل راتبهم عن ولاية نيو إنجلاند يعمل بإصلاح الأسقف ويصل دخله فى الأعوام الجيدة إلى ثلاثين ألف دولار، بينما زوجته لا تعمل، ولديهما ثلاثة أطفال. وهو مضطر لقيادة سيارته خمس ساعات يوميا للذهاب للعمل والعودة منه، وهكذا يلتهم الوقود عدة مئات من الدولارات شهريا. كما نرى كلا الزوجين عاجزين تماما عن تنظيم حياته، ناهيك عن التقيد بميزانية معينة. وتتضمن أوجه الصرف الشهرية لديهم «مائتى دولار لغسيل الملابس بسبب تعطل غسالتهم، ومائتى دولار أخرى لتناول الطعام بالخارج لأن شركة الغاز قطعت عنهم إمدادات الغاز لحين دفع أربعمائة دولار قيمة فواتير متأخرة». كما أنهما يدفعان أيضا أثمان السجائر ومقابل استئجار الأفلام وشراء ملابس لحضور حفل زفاف وتذاكر لحضور الحفلات الموسيقية. وعندما يذهب أحد أفراد الأسرة إلى غرف الاستقبال بالمستشفيات للعلاج الطبى تصلهم الفواتير وتتراكم مع غيرها من المتأخرات. يقول أحد الأخصائيين الاجتماعيين لـ «شيبلر»: «يجب إجبار هذين الزوجين على طلب النصح لدى مستشار لتخطيط الميزانيات». ولكن لا وجود لمثل هذا المستشار، وليس هناك من ضمان أنهما سيعملان بنصيحته لو كان موجودا. ونجد العديد من البالغين غير قادرين. لأسباب مختلفة. على لم شتات نفقة، وتكفل فقط بدفع عشرة آلاف دولار سنويا كنفقة للطفلين انتهت حالما وصل أصغرهما لسن الثامنة عشرة. وحيث إن الأم لديها مواهب و لكن بدون مهارات، فقد قنعت بوظيفة فى مطبعة جامعية تدر عليها ثلاثة وعشرين ألف دولار سنويا. وبمعنى آخر فإنها قبلت بوظيفة تناسب شخصا بدون أعباء وفى مقتبل حياته العملية وليس امرأة فى منتصف العمر وتعول طفلين.

ويتوقف «شيبلر» متسائلا: «لماذا يتوجب على هؤلاء النسوة المكافحات أن يلدن الأطفال ويحتفظن بهم؟ فما دام إنجاب الأطفال يتطلب طرفين منذ البداية، فمن الظلم إلقاء التبعة كلها على النساء وحدهن. فى الواقع أنهن فى حالات كثيرة قد أنجبن الأطفال فى وقت كانوا يظنون فيه أن عرى الزوجية لن تنفصم. عادة ما تكون النساء فعلا المتسببات بالطلاق، ولكن ذلك لا يكون سهلا خاصة مع احتمال انخفاض الدخل نتيجة لذلك. وبعض الأرقام قد توضح الكثير. فمتوسط الدخل السنوى لـ ٩.٤ مليون عائلة تعولها أمهات وحيدات هو ٢٢.٦٣٧ دولارا بما فى ذلك أى إعانات مالية من أى جهة. أما بالنسبة للعائلات

المكونة من زوجين وأطفال فيصل متوسط الدخل بالمقارنة إلى ٦٥.٣٩٩ دولار أى ثلاثة أضعاف تقريبا. وحتى مع الأخذ فى الاعتبار مصروفات الزوجين، فيبدو أن الزواج أو أى علاقة مشابهة هو الطريق الأفضل لدرء الفقر. وأى شخص يتفحص الإحصائيات يود لو كانت هناك وسيلة لإبقاء الزوجين معا، ولكنى لم أر حتى الآن دلائل تذكر على أن الندوات ومكاتب استشارات الزواج قد حققت سوى نجاحات هامشية.

أمريكا هى غالبا أكثر مجتمع تنافسى شهده العالم، والمنافسة جزء لا يتجزأ من نظامها الاجتماعى. حتى الأطفال يُنشَّأون ليتنافسوا فيما بينهم، وذلك بدءا من أول نجمة ذهبية توزع عليهم فى رياض الأطفال

يحمل أحد فصول كتاب «العمال الفقراء» عنوان «حصاد العار» وفصل آخر يحمل عنوان «استيراد العالم الثالث». وكلا الفصلين يشير إلى أن الأجور المتدنية تعتبر ملائمة تماما للمهاجرين سواء كانوا شرعيين أم لا، وخاصة الجدد منهم. فعلى سبيل المثال يتحصل الزوجان «هيكتور وماريبل ديلجادو» معا على قرابة ثمانية وعشرين ألف دولار سنويا مقابل عملهم فى جنى وتعبئة الخضروات فى ولاية كارولينا الشمالية. وبفضل أجرهما المتدنى فنحن ندفع أقل مما كان يتوجب علينا دفعه ثمنا لـ «الخيار» و«البطاطا الحلوة». وهناك أيضا «جانج هى لى» التى كانت فى السابق أمينة صندوق فى بنك بكوريا، وهى الآن تعمل نادلة على الطاولات ستة ليال فى الأسبوع وتجنى أقل من تسعة عشر ألف دولار سنويا. وذلك أيضا يجعل أسعار الوجبات التى تقدمها منخفضة.

وتبرز هنا قضية شائكة: ما هى التزامات المجتمع تجاه المهاجرين الجدد؟ إن معظمهم يصل إلى هنا وهم يتوقعون أجورا منخفضة، بل أنهم يتوقون للعثور على مثل هذه الوظائف. وبالطبع يمكن - كما يشرح «شيبلر» - أن يساء استغلال هؤلاء بدرجة كبيرة فى ظروف عمل بائسة بكل المقاييس. ومع ذلك فإن أمريكا - أكثر من معظم الدول الأخرى - توفر للوافدين الجدد فرصا للتقدم والاندماج. ولا يفارقنى الإحساس والأمل بأن «جانج هى لى» لن تبقى طويلا فى عملها الحالى كنادلة. فهى حصلت - مثلها فى ذلك مثل كثير من المهاجرين الآسيويين - على تعليم أساسى نظامى، ومن المؤكد أنها اكتسبت بعض الخبرات المطلوبة من واقع عملها السابق فى بنك. والآسيويون الذين ينتقلون من المجمعات السكنية الحقيرة المزدحمة إلى المنازل الفسيحة فى الضواحى ليسوا استثناء من النمط العام. ولكن ماذا عن مهاجرين مثل عائلة «ديلجادو»؟ لم يكونوا أمناء صناديق بالبنوك، وهم - حسب قول «شيبلر» - ليسوا متمرسين بـ «أساليب العالم الكبير». ومع ذلك فأرقام الإحصائيات تطرح قصة مختلفة. فلقد تضاعف عدد العائلات الأسبانية فى ولاية كارولينا الشمالية أكثر من أربع مرات بين عامى ١٩٩٠ و ٢٠٠٠، قافزا من ٢١.٥٣٣ إلى ٩٣.٤٩٩ نسمة، مما يشير إلى قدوم العديد من المهاجرين الجدد. وعلى ذلك فمن الممكن أن كثيرا ممن كانوا هناك عام ١٩٩٠ لم يعودوا يجنون الخضروات ويعبئونها ضمن طابور المهاجرين. وقد كشف إحصاء عام ٢٠٠٠ فعلا عن أن ٦.٣٨ بالمائة من العائلات الأسبانية بالولاية قد زاد دخلها السنوى عن أربعين ألف دولار، مما يشير - على الأقل - إلى أن أوضاع الكثيرين منهم كانت تتحسن. ولذلك فإنى أقترح على «شيبلر» أن يحاول العودة بعد عدة سنوات ليرى أحوال عائلة «ديلجادو» (وقد يستفيد «صامويل هانتنجتون» أيضا من القيام بزيارة).

ويعترف «شيبلر» فى مقدمة كتابه أن «الولايات المتحدة غير متأكدة من الأسباب الحقيقية للفقر». والحقيقة أن كتابه يشير إلى العديد من العوامل مثل التصدع والعجز من النوع الذى وصفه فى حكاية مصلح الأسقف من كونيكتيكت. ومع ذلك فإن أمريكا هى غالبا أكثر مجتمع تنافسى شهده العالم، والمنافسة جزء لا يتجزأ من نظامها الاجتماعى. حتى الأطفال يُنشَّأون ليتنافسوا فيما بينهم، وذلك بدءا من أول نجمة ذهبية توزع عليهم فى رياض الأطفال. وبنظرة إلى قائمة «فوربس Forbes» للمليارديرات نجد أن الفائزين هنا فى أمريكا يصلون إلى القمة أسرع من أى بلد آخر. أما الخاسرون فيسقطون أيضا بمعدل أكبر من الدول التى تتشابه أساليبها فى الحياة معنا، وذلك نراه فى معدلات وفيات الأطفال وأمية المتعلمين واحتمالات قضاء جزء من العمر بالسجن. ومن مزايا الفقر أنه جرس إنذار ينبه الباقين منا إلى محاولة إقناع أنفسنا أننا لن نكون أبدا جزءا من طبعة منقحة لكتاب «شيبلر». ■

المشـــــــروع الـــزنجـــــــى.. خطـــــة

لم يكن السؤال حول من هو الأمريكى؟
أو مـــن يحـــق لـــه أن يكـــــون كــــذلــك
غائبــا عــن التاريــخ الأمـــريكى بطـــوله. ولـــم يكـــن
صمـــويـــل هانتنجتـــون فى كتـــابه الأخيـــر
أول مـــن طـــرح القضيـــــة



«... قَدْ جَعَلتُ قُدَّامَكَ الحَيَاةَ وَالمَوْتَ. البَرَكَةَ وَاللعْنَةَ. فَاخْتَرِ الحَيَاةَ لِتَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ». (سفر التثنية ١٩:٣٠)

فى يوم مشمس ومنعش من أيام فصل الخريف أثناء الاحتفال بيوم كولومبوس عام ١٩٩٩، اقترب منظمو مسيرة «قوة القرار» من سُلَّم المحكمة الأمريكية العليا، وأوقف المتظاهرون الذين كانوا فى الغالب من القساوسة السود والعامة مظاهرتهم التى دامت ثلاثة أيام عند نُصُبَين تذكاريين هما مدرسة «براون ضد مجلس التعليم» المناهضة للتمييز العرقى (١٩٥٤) و«أنثى ضد الإخصاب» المؤيدة للإجهاض (١٩٧٣). تركزت أهمية هذين النصبين - الأول يتعلق بالمساواة فى الحقوق لكل الأمريكيين والثانى بـ «حقوق» الإجهاض - فى إعلان القس چونى م. هنتر وهو راعى المظاهرة والمدير القومى لشبكة حق الحياة والتعليم والموارد (LEARN) وهى أكبر منظمات السود المؤيدة لحق الحياة حيث إنه «ليس للحقوق المدنية معنى يُذكر بدون الحق فى الحياة!».

جاء احتجاج هنتر وغيره من المتظاهرين على النسبة العالية وغير المتكافئة من حالات الإجهاض بين جماعات السود، فهذه النسبة العالية ليست من قبيل الصدفة. أما الأمر الذى لم يكن كثيرٌ من الأمريكيين من السود والبيض على السواء يدركونه فهو مشروع مارجريت سانجر لتنظيم الإنجاب بين الزنوج. دَشَّنَت سانجر هذا المشروع عام ١٩٣٩ بعد أن غيَّرت المنظمة اسمها من الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل (ABCL) إلى اتحاد أمريكا لتنظيم النسل (BCFA).

كان الهدف من هذا البرنامج هو الحد من النمو السكانى للسود بل يرى الكثيرون أن الهدف هو القضاء على هؤلاء السكان تماماً. عَمَدَت سانجر إلى تنفيذ خطتها بمهارة تحت دعوى «الصحة الأفضل» و«تنظيم الأسرة». ومما يثير الدهشة أكثر خداع سانجر وتضليلها للنخبة السوداء فى أمريكا - وهى النخبة ذات النفوذ والمتمتعة بقسط وافر من التعليم والثراء - لحملهم على تنفيذ خطتها؛ فكان من بين أوساط النخبة السوداء مَنْ يؤمن بتنظيم النسل كوسيلة للوصول للتمكين الاقتصادى والرفع من مستوى السود واكتساب احترام البيض. لقد ترك هذا المشروع الزنجى آثاراً

من:
Concerned Women for America - www.cwfa.org

ترجمة علاء الدين محمود

القضاء على الأمريكان السود

تانيا ل. جرين

عميقة فى مجتمع السود، وهو ما عبر عنه هنتر بهتافه فى مسيرة «قوة القرار» قائلاً: «لقد أصبحنا ضحايا التطهير العرقى بأيدينا».

انحازت مارجريت سانجر إلى صف العلماء اليوجينيين الذين سادت أيديولوجيتهم فى أوائل القرن العشرين. يؤيد هؤلاء العلماء فكرة التفوق و«النقاء» العرقى بشدة لاسيما العرق «الآرى»، كما كانوا يأملون فى تنقية روابط الدم وتحسين العرق بتشجيع «الأصلح» على الإنجاب ووضع القيود على نسل «غير الصالح» والسعى لاحتواء العناصر أو الأعراق «الأدنى» عن طريق العزل العرقى والتعقيم وتنظيم النسل والإجهاض.

وقد اعتنقت سانجر «يوجينيا مالتوس». وكان توماس روبرت مالتوس الذى عمل كاهناً وأستاذاً فى الاقتصاد السياسى فى القرن التاسع عشر يؤمن بأن قنبلة السكان الموقوتة تهدد وجود الجنس البشرى. نظر مالتوس إلى المشكلات الاجتماعية كالفقر والحرمان والجوع كدليل على هذه «الأزمة السكانية». ووفقاً للكاتب جورج جرانت، أدان مالتوس الأعمال الخيرية وغيرها من صور الإحسان لأنها حسب رأى الأخير لا تزيد إلا من حدة المشكلات. وكان الحل من وجهة نظره يكمن فى وضع حد للنمو السكانى لفئات معينة من البشر، وأصبحت نظرياته عن النمو السكانى والاستقرار الاقتصادى أساس السياسة الاجتماعية قومياً ودولياً.

ويستشهد جرانت بواحد من أهم أعمال مالتوس وهو «بحث فى مبدأ السكان» الذى نُشر فى ست طبعات من عام ١٧٩٨ إلى ١٨٢٦، يقول فيه:

لابد أن يهلك بالضرورة كل المواليد الذين تزيد أعدادهم عن الحد المطلوب لوصول السكان إلى المستوى المرغوب فيه مالم يتوفر لهم مكان بوفاة البالغين. ينبغى علينا العمل على تسهيل عمليات الطبيعة فى الوصول إلى هذا العدد من الوفيات بدلاً من المحاولات الحمقاء والبائسة للحد منها.

ويعتقد تلامذة مالتوس بأن بقاء الحضارة الغربية رهنٌ بقمع وعزل بل وأحياناً التخلص من المعاقين أو غير المؤهلين جسدياً و«الفقراء مادياً» والمرضى نفسياً أو روحياً و«الأدنى عرقياً» وغير الأكفاء عقلياً. كما أحس هؤلاء التلامذة أن مناهج التعليم الأكثر «علمية» ودقة و«منع الحمل والتعقيم والإجهاض» ما هى إلا وسائل أكثر «عملية وقبولاً» للتخفيف من ضغوط ما يطلق عليه اسم الانفجار السكانى.

ويرى نقاد مالتوس أن تلك الجماعة «أنتجت مجموعة من مفردات لغة جديدة مبهمة بشكل مقصود؛ فجميعها مفردات واقعية وعلمية وقاسية»، بالإضافة إلى أن الحقائق التاريخية أثبتت عدم دقة نظرية مالتوس الحسابية بخصوص الانفجار السكانى، رغم أن الكثيرين لا يزالون يؤمنون بها.

ورغم فساد دعاوى مالتوس بشأن الانفجار السكانى، فإن سانجر تعمقت فى يوجينيا مالتوس، وكتب جرانت أنها دَعَت إلى تنظيم النسل مستعينة بالحجة «المؤكدة علمياً» من تهديد الفقر والمرض والتوتر العرقى والانفجار السكانى كخلفية لحجتها. وظلت مجلة سانجر «دورية تنظيم النسل» (التى تأسست عام ١٩١٧) تنشر بانتظام مقالات مؤيدة للتطهير الجينى كتبها يوجينيون من أمثال إرنست رودن. ورغم توقف سانجر عن إصدار «دورية تنظيم النسل» عام ١٩٢٩، فإن الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل ظلت تستعين بها كمنبر للأفكار اليوجينية.

أسست سانجر الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل وأخيراً منظمة تنظيم الإنجاب على أساس أفكار الحركة اليوجينية ومواردها. ويردف جرانت قائلاً إن «كل أعضاء مجلس إدارة المنظمة كانوا من اليوجينيين». وموّل اليوجينيون المشروعات الأولى للمنظمة بدءاً من فتح عيادات لتنظيم النسل إلى نشر المطبوعات «الثورية».

عمل اليوجينيون كمتحدثين فى المؤتمرات أو أدباء أو مقدمى خدمات «بلا استثناء تقريباً»، واحتضنت مكاتب جمعية اليوجينيين العمل الدولى لبرنامج تنظيم الإنجاب منذ البداية، وتضافرت جهود المنظمتين لعدة سنوات.

أصبحت الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل هيئة قانونية يوم ٢٢ إبريل ١٩٢٢ فى نيويورك. وقبل ذلك، أدارت سانجر عيادة لتنظيم النسل بشكل غير قانونى فى أكتوبر ١٩١٦ فى قسم براونزفيل بحى بروكلين فى نيويورك، وأُغلقت تلك العيادة فى النهاية. كانت هذه العيادة تخدم المهاجرين الفقراء الذين اكتظت بهم المنطقة - أى أولئك الذين اعتبروا «غير صالحين أو مؤهلين» للإنجاب.

وتعكس كتابات سانجر الأولى تأثير مالتوس بوضوح، فقد كتبت:

ليست الأعمال الخيرية المنظمة فى حد ذاتها إلا عَرَضاً لمرض اجتماعى خبيث؛ فتلك المنظمات الضخمة والمعقدة والمتشابكة فيما بينها الهادفة إلى الحد من البؤس والعَوَز وكل الشرور النابعة من هذه التربة المُخصّبة بالفساد لهى أكبر دليل على أن حضارتنا أفرزت ولا تزال تفرز بل وتعمل بشكل مستمر على زيادة أعداد المختلين عقلياً والمنحرفين ومن هم عالة على غيرهم.

وفى فقرة أخرى، تصف سانجر عبء «النفايات البشرية» على المجتمع:

فهى (أى الأعمال الخيرية) تشجع القطاعات الأكثر صحة ومثالية فى العالم على تحمل عبء رغبات الآخرين التى لا يحكمها تفكير أو تمييز مما يؤدى إلى حمل ثقيل من النفايات البشرية. فبدلاً من أن تقوم الأعمال الخيرية بتقليل الفئات الأشد ضرراً على مستقبل الجنس البشرى والعالم والعمل على التخلص منها، فإنها تجعلها مسيطرة بصورة تنذر بالخطر.

وختمت سانجر كلامها بالقول بأن:

أخطر تهمة يمكن أن توجه إلى وجوه العمل «الخيرى» فى العصر الحديث هى تشجيعه على استمرار المختلين عقلياً والمنحرفين ومن هم عالة على غيرهم. هؤلاء من أخطر العناصر على أمن المجتمع العالمى، وأشد نقمة على التقدم والتعبير الإنسانى.

وطبعت الدورية مقتطفاً من كلمة ألقتها سانجر عام ١٩٢٦ حيث تقول:

لم يبقَ أمام الحكومة الأمريكية الآن سوى أن تضرب مثلاً حياً للعالم بمنح مكافأة أو معاش سنوى للزوجين اللذين يتضح عدم صلاحيتهما للإنجاب ويقرران أن يعقما أنفسهما باستخدام الوسائل العلمية وغير الضارة. وبتلك الطريقة لن يكون للأغبياء والمرضى نسلٌ يورثونه تعاستهم وشقاءهم. سيقل عدد البلهاء ومن ثَمّ يُرفع عبء ثقيل عن كاهل الصالحين للإنجاب.

وأضافت أن «المكافأة المالية ستكون «عقلانية ومفيدة» كما أنها طريق «الخلاص للحضارة الأمريكية». عرضت سانجر أفكارها على مستر س. هارولد سميث (من صحيفة «نيويورك إيفننج وورلد») بخصوص «لجنة الرفاه» بنيويورك، وقالت إنه «لابد من مساعدة الآخرين حتى يستطيعوا مساعدة أنفسهم»؛ فأى خطة أو برنامج يجعل من هؤلاء الناس «عالة على الإعانات الحكومية والصدقات والأعمال الخيرية» هو برنامج «مقيد للحريات والمسئوليات» وبالتالى لن يكون له «أى قيمة دائمة». وضمنت سانجر بحثاً (وهو ما اسمته «برنامج الرفاه العام») بعنوان «لابد أن نربى عرقاً من الطراز الأول».

طرحت سانجر فى هذا البحث رأيها بضرورة إنشاء عيادات أو مكاتب تنظيم النسل «حيث يتعلم الرجال والنساء علم الإنجاب وعلم تربية الأطفال» لأن ذلك هو الطريق «لتخليص العرق من آفات الأمراض المعدية والخلل العقلى والفقر ومخالفة القانون والجريمة... نظراً لتناقص أعداد هذه الفئات من البشر بدلاً من توالدها ونموها كالأعشاب الضارة.

ودعا ذلك البرنامج النساء إلى العمل على استشارة تنظيم النسل فى الحالات والمواقف المختلفة التى تتضمن ما يلى:

- إصابة الرجل أو المرأة بمرض «معدٍ» مثل الجنون والبله والصرع والزهرى، الخ.
- ألا يكون الأطفال المواليد «أسوياء» أو فى حالة إصابتهم «بالبله».
- ألا يكون دخل الأب «كافياً»... لأن يعول أطفالاً آخرين».

وذكرت سانجر أن «هذه الخطة من شأنها... أن تقلل معدل المواليد بين المرضى والضعفاء والطبقات شديدة الفقر والمناهضة للنظام الاجتماعى القائم وتلك العناصر العاجزة عن التكفل بنفسها. وبالتالى ذلك العبء الذى نضطر جميعاً لتحمله». لقد اعتنقت سانجر يوجينيا مالتوس علانية ودون مواربة، تلك العقيدة التى شكلت سلوكها فى السنوات القادمة.

عيادة هارلم

فى عام ١٩٢٩، وقبل عشر سنوات من تأسيس سانجر لمشروعها الزنجى، وضعت الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل حَجَر الأساس لإنشاء عيادة فى هارلم، وهو حى بمدينة نيويورك معظم ساكنيه من السود. كان ذلك فى بداية الكساد العظيم الذى كان يعنى مضاعفة البؤس والمعاناة بالنسبة للسود. واجه السود ظروفاً من الكساد الاقتصادى والحرمان أكثر قسوة نظراً لسيادة التمييز العنصرى. ووفقاً لرؤية الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل، شكل حى هارلم البيئة المثالية لهذه «العيادة التجريبية» التى افتتحت رسمياً فى ٢١ نوفمبر عام ١٩٣٠. وسعى الكثير من السود إلى الهرب من ظروفهم الصعبة وبالتالى لم يدركوا الهدف اليوجينى الخفى من العيادة. اعتمدت العيادة على ما تغدقه عليها المؤسسات الخاصة من أموال لتظل قائمة. بالإضافة إلى اعتبار السود العرق «الأدنى» الذى لا تمثله الطبقة الدنيا بشكل مناسب،



يعتقد تلامذة مالتوس بأن بقاء الحضارة الغربية رهنٌ بقمع وعزل بل وأحياناً التخلص من المعاقين أو غير المؤهلين جسديا و«الفقراء مادياً» والمرضى نفسياً أو روحيا و«الأدنى عرقياً» وغير الأكفاء عقلياً

اتصف السود فى هارلم وفقاً لملفات العيادة المستخدمة لتبرير «عملها» بأنهم:

- معزولون فى منطقة مكتظة بالسكان (٧٦٠. ٢٢٤ من ٠٠٠. ٣٣٠ من سكان نيويورك من السود كانوا يعيشون فى هارلم فى أواخر العشرينيات والثلاثينيات).
- يشكلون نسبة ١٢٪ من عدد السكان بمدينة نيويورك، إلا أنهم يمثلون ١٨.٤٪ من نسبة البطالة فى مدينة نيويورك.
- يصل معدل وفيات المواليد بينهم إلى ١٠١ حالة لكل ١٠٠٠ حالة ولادة مقارنة بـ ٥٦ حالة لكل ١٠٠٠ حالة ولادة بين البيض.
- يصل معدل الوفاة بينهم بسبب مرض السل إلى ٢٣٧ حالة لكل ١٠٠.٠٠٠ نسمة، وسُجِّل أعلى معدل فى وسط هارلم دون أى منطقة أخرى فى نيويورك.

ورغم أن العيادة كانت تخدم البيض والسود على حد سواء، فإنها «تأسست لصالح الملونين». هذا ما كتبته سانجر فى رسالة بعثت بها إلى الدكتور دبليو. إيه. بيرجهارت دوبوا، أحد أقطاب السود فى تلك الفترة. وقد عمل الكاتب وعالم الاجتماع دوبوا على تأسيس الاتحاد الوطنى لتقدم الملونين (NAACP) عام ١٩٠٩ لتحسين الظروف المعيشية للأمريكان السود.

ويبدو أن معاناة السود من التمييز والتفرقة بشكل مفرط بما أسهم كثيراً فى محنتهم جاء ليدعم مبرر الحد من نموهم السكانى، ورأى الكثيرون أن الحل يكمن فى تقليل الإنجاب، كما ألمحت سانجر إلى أن حل مشكلتى الفقر والانحطاط يتمثل فى أعداد أقل من السود حيث أقنعت جماعات السود المدنية بهارلم «بفوائد» تنظيم النسل تحت عباءة برنامجى «الصحة الأفضل» (أى الحد من وفيات الأمهات والمواليد وأخذ الوقت الكافى بين إنجاب طفل وآخر) و«تنظيم الأسرة». وتمكنت سانجر - بالتعاون مع تلك الجماعات وبدعم من صحيفة «أمستردام نيوز» (وهى صحيفة مهمة من صحف السود) - من تأسيس فرع هارلم التابع لمكتب بحوث عيادة تنظيم النسل، وأكدت الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل لمجتمع السود أن تنظيم النسل هو الحل لمحنتهم.

استخدمت سانجر بمهارة فائقة نفوذ السود البارزين فى المجتمع لتوصيل هذه الرسالة إلى الجماهير؛ فقد دعت دوبوا وعدداً من أقطاب مجتمع السود فى هارلم من الأطباء والاخصائيين الاجتماعيين ورجال الدين والصحفيين لتشكيل مجلس استشارى مهمته المساهمة فى توجيه العيادة «حتى يكون العمل فى حقل تنظيم النسل قوة بناءة فى المجتمع». كما أنها كانت على دراية بأهمية وجود المتخصصين من السود فى كلٍ من المجلس الاستشارى والعيادة؛ وذلك لعلمها بأن السود سيشكون بطبيعة الحال فى رغبة البيض فى تقليل عددهم، كما عملت لاحقاً على الاستفادة من هذه المعرفة لتنفيذ مشروعها الزنجى.

بلغت قوة حجة سانجر فى إقناع المجتمع درجة جعلت الكنيسة المعمدانية الأرثوذكسية - وهى أكبر كنائس هارلم - تعقد اجتماعاً فى القداس تتحدث فيه سانجر، إلا أن هذا الاجتماع قوبل بالنقد حيث قام «أحد كبار رجال الدين الذى ينتمى لطائفة أخرى غير المعمدانية»على الأقل بانتقاد سانجر. وتلقى الدكتور آدم كلايتون باول الأب كاهن الكنيسة المعمدانية الأرثوذكسية «نقداً لاذعاً» من قبل ذلك القس (المجهول) الذى «اندهش لسماح الأول باستضافة تلك المرأة البغيضة فى كنيسته».

تنظيم النسل هو الحل

فتحت عيادة هارلم وما تبعها من مناظرة تنظيم النسل آفاق الحوار بين السود حول الوسيلة المثلى لتحسين وضعهم المتردى. فنظر البعض إلى تنظيم النسل كحل عملى قابلٍ للتطبيق؛ لذا تعنى النسبة العالية من الإنجاب وفقاً لهؤلاء المزيد من الفقر والانحطاط، بينما بدا آخرون شغوفين بالتغيير فى تقبل «منطق» تنظيم النسل، واعتنق القليل فكرة اليوجينيا. وفى عدد شهر يونيو لعام ١٩٣٢ من «دورية تنظيم النسل» المسمى «بالعدد الزنجى» نُشرت سلسلة من المقالات كتبها عدد من السود حول «فضائل» تنظيم النسل.

وطرح رئيس تحرير العدد المذكور السؤال التالى: «هل ما يريدونه هو الكم أم الكيف بالنسبة لأطفالهم؟ هل يأتون بالأطفال إلى العالم ليجعلوا أصحاب الأعمال والأطباء أكثر ثراء ويوفروا فرص عمل للإخصائيين الاجتماعيين وموظفى السجون، أم أنهم ينجبون أطفالاً ليكونوا دعامة للمجتمع الأمريكى؟ وجاءت الإجابة أن «معظم)السود(لاسيما النساء سيختارون الكيف... لو عرفوا الطريق إليه».

أشار دوبوا فى مقاله «السود وتنظيم النسل» إلى «صراع المُثُل الحتمى بين هؤلاء الزنوج الساعين إلى تحسين وضعهم الاقتصادى وأولئك الذين يرون من خلال إيمانهم بالدين أن تحديد عدد الأطفال خطيئة». وانتقد دوبوا «جموع الزنوج الجَهَلَة» الذين يسعون إلى إنجاب الأطفال «بلا مبالاة وبشكل ينذر بكارثة حيث أصبحت هذه الزيادة فى أعدادهم.... تتمثل فى ذلك القسم من السكان الأقل ذكاءً وصلاحيةً للإنجاب، بل والأقل قدرة على تربية الأطفال بشكل صحيح».

نادى دوبوا «باتجاه أكثر ليبرالية» بين كنائس السود، وذكر أنها مفتوحة أمام «الدعاية الذكية من أى نوع»، كما أن على الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل وغيرها من الجمعيات إعداد المتحدثين باسمها فى المحافل الكنسية ونشر آرائهم فى صحف الزنوج.

وكتب تشارلز إس. چونسون - وهو أول رئيس زنجى لجامعة فيسك - أن «التفرقة اليوچينية» ضرورية بالنسبة للسود، كما قال إن المعدلات المرتفعة من وفيات الأمهات والمواليد إلى جانب الأمراض كالسل والتيفود والملاريا والأمراض التناسلية المعدية جعلت من إعالة الأسر كبيرة العدد لنفسها أمراً صعباً، وأضاف أن «وضع الزنوج كعمال مهمشين، واقتصارهم على قطاعات الصناعة الأقل أجراً، وضرورة عمالة الأمهات والأطفال لتحسين ميزانياتهم الهزيلة كلها عوامل لا تؤكد على الحاجة إلى تخفيف العبء عن أنفسهم فحسب بل وعن المجتمع الذى يضطر لتوفير الدعم الإضافى لهم على شكل إعانات». عمل چونسون فيما بعد فى المجلس الاستشارى القومى لاتحاد أمريكا لتنظيم النسل الذى أصبح جزءاً لا يتجزأ من المشروع الزنجى.

ووصف الكاتب والتر آيه. تيرپيننج إنجاب طفل زنجى فى عالم من الكراهية بأنه أمر «مثير للشفقة»، وكتب فى مقاله «أطفال الرب» قائلاً:

إن ولادة طفل ملوّن ولو كان أبواه قادرين على رعايته بالشكل الكافى أمر مثير للشفقة بسبب المعاملة البعيدة عن مبادئ المسيحية والديموقراطية التى يحتمل أن يتعرض لها على يد الأغلبية من مجتمع البيض؛ ولا يمكن وصف انعدام اختيار الإنجاب لدى هذه الطبقة من البؤساء بأقل من أنه شىء بربرى.

نظر تيرپيننج إلى تنظيم النسل بالنسبة للسود باعتباره «الظرف الأكثر إنسانية» و«الأكثر يوچينية» مما هو الحال بين البيض، وأحس بضرورة نشر معلومات تنظيم النسل أولاً بين السود أكثر من نشرها فى أوساط الطبقة العليا البيضاء. لكن تيرپيننج أخفق فى ملاحظة التوجهات الإشكالية وسلوك المجتمع وكيف عملت كل منها على قهر السود، كما أنه لم يقترح أية حلول لرفع الظلم والعنصرية البغيضة التى يعانى منها السود.

ومن المحزن أن تتحقق نبوءة دوبوا حينما قال إن كنائس السود «ستفتح أبوابها أمام الدعاية الذكية»، وتمثل ذلك فى دعوة القسس من السود لسانجر للحديث أثناء اجتماعاتهم المستقلة. كما عُنيت بعض المطبوعات الخاصة بالسود مثل «الأفرو الأمريكى» و«شيكاغو ديفندر» بكتاباتها. وبدلاً من التعرض للأسباب الجوهرية لوفيات الأمهات والمواليد وتفشى الأمراض والفقر والبطالة وغيرها من الأدواء الاجتماعية الأخرى - ليس أقل

منها العنصرية - فإن سانجر اهتمت بتأييد تنظيم النسل. وكان الكثيرون يرون أن من الأفضل للزنجي ألا يولد أصلاً بدلاً من معاناة هذه الحياة القاسية.

وفي هذا السياق، فَتَنَت سانجر أبرز زعماء مجتمع السود بخطتها حتى حملتهم على قبولها رغم ما تنطوي عليه من ضرر لهؤلاء القادة. روّجت سانجر لبضاعتها الملفوفة في صناديق أنيقة مكتوب عليها «الصحة الأفضل» و«تنظيم الأسرة». ولا يمكننا بطبيعة الحال إنكار فوائد الصحة الأفضل والمقدرة المالية على تربية الأطفال أو أخذ الوقت الكافي بين إنجاب طفل وآخر، إلا أن حل المشكلات الحقيقية التي تواجه السود لا يكمن في تقليل أعدادهم، بل في مواجهة قوى المجتمع التي تقف حجر عَثْرةٍ في طريق تقدمهم. ولعل الأهم من ذلك كله ضرورة الانتباه إلى دافع سانجر وراء تأييدها لتنظيم النسل في المجتمع، مع العلم أنه ليس دافعاً نابعاً عن حب الآخرين.

صحة أفضل

لثلاثة عشر مليون نسمة

تمثلت الدعاية للمشروع الزنجي في القول بأن تنظيم النسل يعني صحة أفضل. وبناء على هذه المقدمة، صمم اتحاد أمريكا لتنظيم النسل «برنامجي مسيرات للمشروع الزنجي في الجنوب، لبيان «مدى قدرة تنظيم النسل الخاضع للإشراف الطبي بتكامله مع خدمات الصحة العامة القائمة على تحسين الرفاه العامة للزنوج وتأسيس برنامج توعية لهم في جميع أنحاء الولايات المتحدة».

افتتح اتحاد أمريكا لتنظيم النسل أول عيادة بمركز بيت لحم في مدينة ناشفيل بولاية تينيسي الأمريكية (التي لا يشكل السود فيها سوى ٢٥٪ فقط من عدد السكان) في ١٣ فبراير ١٩٤٠، ولهذا الموقع أهميته خاصةً لقربه من كلية ميهاري الطبية التي دربت أكثر من ٥٠٪ من الأطباء السود في الولايات المتحدة.

كشف تحليل جماعة ناشفيل للدخل أن «دخل أي أسرة - مهما كان حجمها - لا يزيد على ١٥ دولاراً في الأسبوع. ومن الجلي أن الخدمة وصلت إلى فئة الدخل التي صُممت تلك الخدمة من أجلها»، مما يشير إلى هدف المشروع. ذكر التقرير أنه ألقى «الضوء على الأمراض الخطيرة وإمكانية معالجتها و... أن ٥٥٪ (٣٥٤ من ٦٣٨) من المرضى الذين عولجوا باستخدام وسائل تنظيم النسل قد استخدموها بشكل دائم وبنجاح». إلا أن ذلك التقرير لم «يذكر أية أرقام محددة... لبيان مدى استفادة المجتمع».

وافتتح اتحاد أمريكا لتنظيم النسل العيادة الثانية في مقاطعة بركلي الريفية بولاية ساوث كارولينا تحت إشراف دكتور روبرت إيه. سيبلز، رئيس لجنة رعاية الأمومة في اتحاد ساوث كارولينا الطبي. وجاء اختيار اتحاد أمريكا لتنظيم النسل لهذا الموقع «نظراً للاستعداد الذي أبدته القيادات في الولاية تجاه التجربة؛ فساوث كارولينا هي ثاني ولاية أمريكية تجعل من تشجيع المسافة الزمنية الفاصلة بين طفل وآخر جزءاً من برنامجها للصحة العامة بعد إجراء مسح ميداني على وفيات الأمهات بالولاية أوضح أن ٢٥٪ منهن من بين النساء غير المؤهلات جسدياً للحمل». مرة أخرى تخرج لنا الرسالة التالية: تنظيم النسل - في ظل رعاية عادية قبل الولادة - قلل معدل وفيات الأطفال والأطفال.

ورغم أن ٧٠٪ من سكان مقاطعة بركلي من السود، فإن العيادة تعرضت للنقد بسبب انتماء أعضاء هذه العيادة «إلى الأغلبية الساحقة». وأكد سيبلز لكلود بارنيت أن هذا غير صحيح بقوله «ببساطة... قمنا بتقديم يد المساعدة إلى مَنْ كان لديه الرغبة في تلقي مساعدتنا، وهؤلاء غالباً من الزنوج».

وقد استطاعت سانجر بحلول عام ١٩٤٩ دفع أفضل وألمع العناصر بين السود الأمريكان للاقتناع «بفوائد» تنظيم النسل «للحفاظ على الحياة»، حيث نجحت نجاحاً مبهراً في إقناع شبكة كاملة من مؤسسات السود الاجتماعية والمهنية والأكاديمية بدعم منظمة تنظيم الإنجاب اليوجينية.

ولم يكن نجاح سانجر في الخداع يعني بأي شكل من الأشكال أن السود كانوا سذجاً، فلاشك في أن السود كانوا يريدون تقليل معدل وفيات الأمهات والمواليد وتحسين الصحة في المجتمع بوجه عام؛ وبالتالي تقبلوا فكرة سانجر تماماً لأنها بدت مبشرة بالرخاء والقبول الاجتماعي، كما أنها استغلت نقاط ضعفهم وجهلهم (بأجندتها المخفاة عمداً) لمصلحتها. وبغض النظر عن تنظيم النسل، لم تقدم سانجر أية حلول طبية أو اجتماعية أخرى لما يعانونه من مشكلات. من المؤكد أن السود لم يكونوا ليقبلوا المشاركة في مشروعها بهذا الشكل إذا فطنوا إلى نواياها الحقيقية. وبالنظر إلى الدور الذي لعبته اليوجينيا في بداية حركة تنظيم النسل - واعتناق سانجر لهذه الأيديولوجية - كان من اللازم التعامل بمزيد من الحرص مع مفهوم تنظيم النسل باعتباره الحل «الوحيد» للمشكلات التي أصابت السود.

العنصرية العلمية

خطا برنامج تنظيم الإنجاب خطوات واسعة لرفض الاعتراف بأصول البرنامج اليوجينية، مُنكِراً بشدة يوجينية سانجر أو عنصريتها على الرغم من الدليل الواضح على العكس. ونظراً لتوقف سانجر عن تحرير «دورية تنظيم النسل» عام ١٩٢٩، حاولت تلك المنظمة أو البرنامج الفصل بينها وبين المقالات اليوجينية والعنصرية التي نشرت بالدورية بعد ذلك التاريخ. إلا أن ملخص إحدى الخطب التي ألقتها سانجر في عام ١٩٣٢ والذي نُشر بالدورية في نفس العام كشف عن ميلها المستمر نحو اليوجينيا.

في مقالها «خطة من أجل السلام»، اقترحت سانجر على الكونجرس إنشاء إدارة خاصة لدراسة المشكلات السكانية وتعيين «برلمان سكاني». أحد أهم أهداف هذا «الكونجرس السكاني» العمل على «رفع مستوى السكان وزيادة الوعي العام لديهم»، ولن يتحقق ذلك إلا بتطبيق «سياسة صارمة ومتشددة من التعقيم والفصل الاجتماعي (بالإضافة إلى تضييق قوانين الهجرة) على تلك الفئة من السكان التي يتسم نسلها بصفات غير مرغوب فيها، أو ممن لديهم القابلية لتوريث مثل تلك الصفات إلى الأجيال القادمة». ويمكننا أن نستنتج أن سانجر بصفتها رئيساً لبرنامج تنظيم الإنجاب - حتى بعد عام ١٩٢٩ - لن تسمح بنشر أي أفكار لا تخضع لتأييدها.

يرى مؤيدو سانجر أنها لم ترغب سوى في توعية السود «بالفوائد الصحية» لتنظيم النسل، غير أنها عدت الناس الذين أرادت «توعيتهم» بين أولئك «غير المؤهلين» للإنجاب ممن ينبغي تحديد نموهم السكاني.

وقد باءت هذه التبريرات بالفشل أيضاً بسبب ما أسماه جرانت «بالعنصرية العلمية»، ويستند هذا الشكل من العنصرية إلى الجينات بدلاً من لون البشرة أو اللغة. ووفقاً لجرانت، «ليست المسألة خاصة بلون البشرة»، أو «لهجة اللسان»، بل بنوع الجينات». وبناء على ذلك، «طالما أن السود واليهود والأمريكيين من أصل أسباني يكشفون عن «مستودع جيني ذي نوعية جيدة» - وطالما أنهم «يتصرفون ويفكرون كالبيض» - عندئذ يمكن اعتبارهم مساوين للعرق الآري. وبما أنهم «أفضل العناصر بين بني عرقهم»، كما قالت مارجريت سانجر، يمكننا إذاً (اعتبارهم) مواطنين ذوي أهمية. ومن نفس المنطلق، ينبغي أيضاً على «البيض» الذين يتسمون بأي «خلل جيني» بأن يُخضعوا خصوبتهم «للسيطرة إلى جانب غيرهم من الأعراق «الأدنى وغير المرغوب فيها»».

كتب جرانت - باختصار - أن «العنصرية العلمية نوع من التفرقة العرقية مع تكافؤ الفرص». لذا فأي شخص يعاني من «خلل في مستودعه الجيني» معرضٌ للاتهام، بينما يُقْبَل أي شخص يملك مستودعاً جينياً واعداً بين أوساط النخبة. ولا تخفى النبرة اليوجينية على أحد، حين علّق جرانت بحق بقوله: «القاعدة الأساسية هي أن برنامج تنظيم الإنجاب نُظِّم بشكل واعٍ - إلى حد ما - لتدعيم وتعزيز التفوق الأبيض... إنه برنامج عنصري صراحةً وضمناً منذ البداية».

وصية سانجر

من المحال فصل ماضي منظمة تنظيم الإنجاب عن حاضرها؛ فلا تزال سياسة الأكاذيب والدعاية تتسلل إلى مجتمع السود. بل إن السم أشد فتكاً لأن منظمة تنظيم الإنجاب - إلى جانب تنظيم النسل - دعت إلى الإجهاض كحل للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي رزئ المجتمع بها. ففي أعقاب إنشاء تلك المنظمة فقد مجتمع السود وحده أكثر من ١٢ مليون نسمة، وهذا ما تعكسه سجلات المنظمة نفسها. فعلى سبيل المثال، كشف تقرير عام ١٩٩٢ أن ٢٣,٢٪ من النساء اللاتي أجهضن في الأماكن التابعة للمنظمة من السود - رغم أن السود يمثلون نسبة لا تزيد على ١٣٪ من إجمالي عدد السكان. وفي عام ١٩٩٦، ذكرت شعبة البحوث في منظمة تنظيم الإنجاب أن «السود الذين يشكلون نسبة ١٤٪ من إجمالي عدد السيدات الحوامل، يحتلون نسبة ٣١٪ من كل عدد حالات الإجهاض، بينما تبلغ تلك الحالات نسبة ٦١٪ بين البيض اللاتي يمثلن ٨١٪ من إجمالي عدد السيدات في سن الحمل».

ويذكر القس هنتر من (LEARN) أن «الإجهاض هو السفاح رقم واحد بالنسبة للسود في أمريكا، إذ أننا نفقد من شعبنا ١,٤٥٢ نسمة يومياً، وهذا ليس إلا تطهيراً عرقياً محضاً. في حين يؤكد تأثير (سانجر) وكل الآراء المتجمدة التي طرحتها منظمة تنظيم الإنجاب على مجتمع السود... على أنه لا بأس من تنظيم النسل بهدف تدمير شعبكم. وقد انطلت علينا هذه الأكاذيب وهذه الدعاية».

وصل الأمر ببعض السود بأن جعلوا «حقوق» الإجهاض مرادفةً للحقوق المدنية، وعلى هذا يعبر هنتر عن أسفه: «إننا ندمر مصير ومستقبل غيرنا ممن كان لابد أن يكونوا بيننا. من يعرف كم فقدنا من الموسيقيين؟ وكم من القادة العظماء لمجتمع السود فقدنا؟ وكم من العقول العظيمة والمفكرة فقدنا في مجال الاقتصاد؟ وكم من المعلمين الأفاضل؟، ثم استشهد بمثل

> **من بين أكثر من مائة عيادة لتنظيم الإنجاب مقامة فى المدارس التى افتتحت فى أنحاء أمريكا فى العقد الأخير، لا تقع عيادة واحدة فى المدارس التى يمثل البيض فيها أغلبية ساحقة**

أفريقى قديم قائلاً: «لا أحد يعرف أى رحم يحمل زعيم القبيلة».

ولاحظ هنتر شخصياً آثار الماضى اليوجينى لمنظمة تنظيم الإنجاب على مجتمع السود اليوم حين قال: «حينما أطوف أرجاء البلاد... لا يمكننى أن أذكر سوى (أننى رأيت) عيادة إجهاض واحدة فى أحد أحياء الأغلبية البيضاء؛ فأغلبية عيادات الإجهاض توجد فى أحياء السود».

وأشار هنتر إلى الجدل الذى دار منذ سنتين فى ولاية لويزيانا الأمريكية بشأن العيادات الصحية فى المدارس. ولم تخف النبرة العنصرية على أحد أثناء ذلك الجدل، وجادل المسئولون فى منطقة باتون روج حول وضع العيادات فى المدارس الثانوية. تمتعت هذه الفكرة مبدئياً بتأييد النائبة السوداء للولاية «شارون ويستون بروم». إلا أنها أعربت فيما بعد عن قلقها بخصوص توفير العيادات لوسائل منع الحمل والاستشارة الطبية بشأن الإجهاض. أوصت بروم بضرورة «أن تشجع العيادات على التقشف والعفة». وحينما علم هنتر برغبة المسئولين فى قصر العيادات على مدارس السود فقط، دعا النائبة السوداء إلى وضع العيادات فى مدارس البيض أيضاً. ويؤكد هنتر أنه بمجرد تقدم بروم بهذا الاقتراح، «سحبت» مقترحات إنشاء العيادات فى المدارس «على الفور».

أشار جرانت إلى نفس اللعبة منذ عشرين عاماً فى كتاباته: «أثناء الثمانينيات حينما تحولت بؤرة اهتمام منظمة تنظيم الإنجاب من العيادات على مستوى المجتمع إلى العيادات المقامة فى المدارس، عادت تلك المنظمة إلى استهداف مناطق الأقليات داخل المدن». وأضاف قائلاً: «إنه من بين أكثر من مائة عيادة مقامة فى المدارس التى افتتحت فى أنحاء البلاد فى العقد الأخير، لا تقع عيادة واحدة فى المدارس التى يمثل البيض فيها أغلبية ساحقة، ولا تجد عيادة واحدة فى مدارس أحياء الطبقة الوسطى. إنها جميعاً تتركز فى مدارس السود والأقليات العرقية».

وفى عام ١٩٨٧، رفع مجموعة من القساوسة وأولياء الأمور والمعلمين السود قضية ضد مجلس التعليم بشيكاغو. ولم يكتف هؤلاء باتهام عيادات المدارس بالمدينة بمخالفة قوانين الزنى بالولاية فحسب، بل وبممارسة التمييز والتفرقة ضد السود. ادعت القضية أن تلك العيادات ما هى إلا «جهد خبيث ومدبر سلفاً لتدمير نسيج الحياة الأسرية (بين) الآباء والأمهات السود وأبنائهم».

ذكرت إحدى الأمهات فى المجموعة أنها «صدمت» عندما رأت ابنتها بعد عودتها من المدرسة إلى البيت ومعها بعض مطبوعات منظمة تنظيم الإنجاب، وقالت: «لم أكن أدرك مدى عنصرية أولئك الناس حتى قرأت (المعلومات التى تسلمتها ابنتى فى عيادة المدرسة). إنهم أسوأ من عصابات الكلو كلاكس كلان... نظراً لبراعتهم وتطورهم. فهم يخفون تعصبهم الأعمى وراء ثوب أنيق من الإحصائيات والأبحاث الميدانية، لكن بالغوص تحت السطح قليلاً نرى أنه لا يقل قبحاً عن الفصل العنصرى (الأبارتهايد)».

وكشفت رواية أحدث عن توزيع إحدى الجهات التابعة لمنظمة تنظيم الإنجاب للواقى الذكرى على الرجال من سكان أحد أحياء السود الفقيرة فى أكرون بولاية أوهايو. وتسلم هؤلاء السكان «حقيبة متطورة» تضم بين محتوياتها مادة مكتوبة عن الوقاية من الأمراض التى تنتقل عن طريق الجنس، واختبارات أمراض النساء والحمل، وسلسلة مفاتيح تحتوى على واق ذكرى أخضر فاتح وكوبون. ويمكن استبدال هذا الكوبون فى ثلاث عيادات ريفية بولاية أوهايو باثنى عشر واقياً ذكرياً وشهادة بهدية من ماكدونلدز بقيمة خمسة دولارات. وتحتوى كل هذه الأشياء على أرقام تليفونات منظمة تنظيم الإنجاب.

قد تحتج الجهة التابعة لمنظمة تنظيم الإنجاب بأنها تستهدف المناطق ذات معدلات الحمل المرتفعة، إلا أن استجابتهم تفترض سلوكاً تدميرياً من جانب الجماعة المستهدفة. ولطالما أحجمت تلك المنظمة عن تشجيع أو تعزيز العفة أو الابتعاد عن الجنس باعتباره صمام الأمان الوحيد ضد حمل المراهقين

والأمراض التى تنتقل عن طريق ممارسة الجنس، على أساس أنها وسيلة «غير واقعية».

وشنَّ القس ريتشارد ويلتش، رئيس منظمة الحياة الإنسانية فى فرنت رويال بولاية فرجينيا «هجوماً عنيفاً» على الجهة التابعة لمنظمة تنظيم الإنجاب لاستهدافها أحياء الأقليات من محدودى الدخل بحقائب تنظيم النسل. وقال إن هذا الأمر يكشف عن «العنصرية الكامنة فى التشجيع على الإجهاض ومنع الحمل فى أحياء الأقليات بالدرجة الأولى». ثم انتقد منظمة تنظيم الإنجاب بقوله: «إنها حين انبثقت عن أحلام عنصرية لأمرأة مصرة على تطبيق الإجهاض ومنع الحمل على اليوجينيا والتطهير العرقى، فإنها ظلت متمسكة بنفس الاستراتيجية إلى اليوم».

التخلص من شباك الخداع:

ظل قادة السود فى صمت إزاء مؤامرات مارجريت سانجر الخبيثة ضد مجتمعهم لمدة طويلة للغاية، كما وقفوا صامتين إزاء الآثار المدمرة للإجهاض فى مجتمعهم – رغم اتجاهاتهم نحو الحفاظ على الحياة. ويرى هنتر أن «أغلبية (السود) يؤيدون حق الحياة أكثر من أى شيء آخر. فالسود لم ينشأوا على قتل أطفالهم على الإطلاق، حتى فى عصر

المشروع الزنجى..



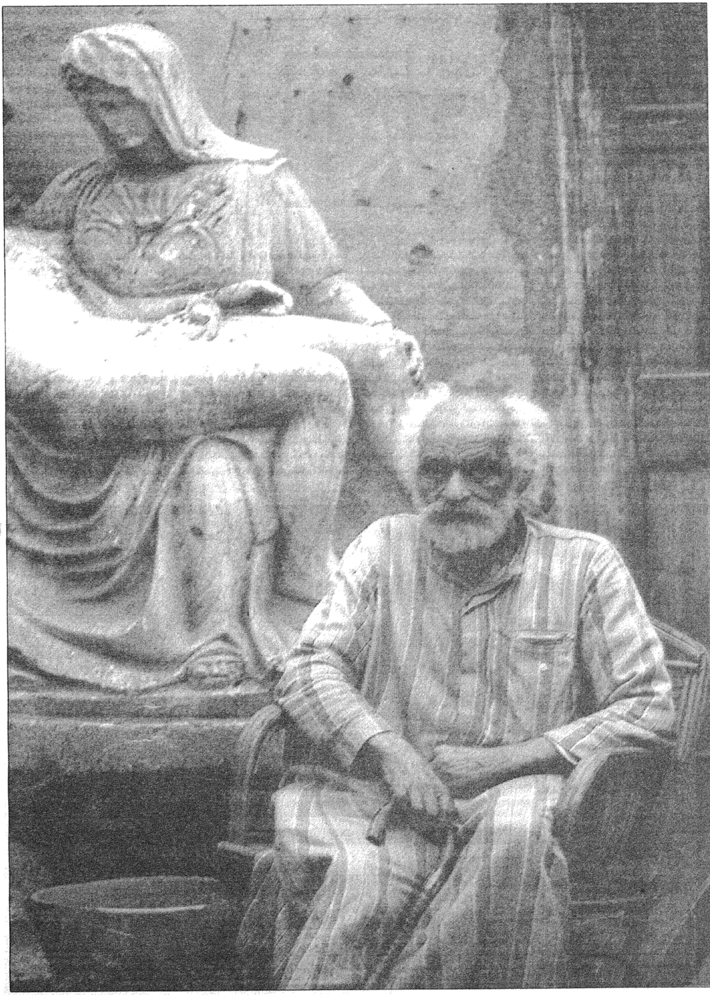
العبودية عمل السود جاهدين على التمسك بأطفالهم». بينما ذكرت لافيرن تولبرت، عضو مجلس إدارة منظمة تنظيم الإنجاب السابقة أننا «لا نعزو صمت السود إزاء هذه القضية إلى اللامبالاة، بل إلى جهلهم بالحقيقة. إن القضية هى... توعية شعبنا».

يسعى اليوم عدد متزايد من السود المؤيدين لحق الحياة إلى التخلص من شباك الخداع التى نسجتها سانجر، ويستعين هؤلاء بالحقائق لإلقاء الضوء على الأكاذيب. وليست مسيرة «قوة القرار» إلا نموذجاً واحداً لغرس بذور النشاط المؤيد لحق الحياة. بينما وضع المتظاهرون ١٤٥٢ وردة على سلَّم المحكمة – إحياء لذكرى عدد الأطفال الذين يتم إجهاضهم يومياً من السود – ذكر المتحدث دايمون أوينز: «هذا من شأنه لفت الانتباه إلى مشكلة (الإجهاض) على المستوى القومى، كما أنه يمنح الفرصة للسود للحديث مع مواطنيهم من السود الآخرين، إلا أن ذلك لن يحل كل مشكلاتنا. لكننا لن نحل مشكلاتنا الأخرى بالإجهاض».

ويتصل مؤيدو حق الحياة من السود أيضاً بإخوانهم المؤيدين لهذا الحق من البيض، فجماعة الأمريكان السود من أجل الحياة (BAL) جماعة رفاه اجتماعية تنتمى إلى اللجنة القومية لحق الحياة (NRLC) وهى منظمة تطوعية توجد بواشنطن C.D.. وتشجع منظمة (NRLC) على التواصل بين البيض والسود من ناشطى حق الحياة، ويؤكد إرنست أولهوف، مدير الرفاه الاجتماعية بالمنظمة قائلاً: «هدفنا هو حشد كل الناس من مختلف الأعراق والألوان والأديان للمشاركة فى قضايا حقوق الحياة. ليست جماعة الأمريكان السود من أجل الحياة جماعة مشابهة للمنظمة؛ لذا فإننا نرغب فى مساعدة الأمريكان السود على الاتصال والانخراط عملياً فى الحركة المؤيدة لحق الحياة».

نجد صدى هذا الإحساس عند السيدة بيفرلى لاهاى، مؤسس ورئيس جمعية نساء مهتمات من أجل أمريكا، حيث قالت: «مهمتنا هى حماية حق الحياة لكل أفراد الجنس البشرى. وترحب نساء مهتمات من أجل أمريكا بكل النساء والرجال الذين يشاركوننا الرأى، من مختلف الاتجاهات والميول، للانضمام إلينا فى هذا الكفاح».

وتتمتع نساء مهتمات من أجل أمريكا بتاريخ طويل فى محاربة الأجندة الخبيثة لمنظمة تنظيم الإنجاب، فهذا المشروع الزنجى أشبه بركن مظلم، لكن لابد من إلقاء الضوء عليه. لم تَبِع مارجريت سانجر إلى الأمريكان السود إلا الوهم. والآن وبعد أن انقشعت غمامة الخداع، فإن بإمكان الأمريكان السود «اختيار الحياة... التى ستحياها الأجيال القادمة». ■



الطباخ.. الفنان.. الضحية!

عبد البديع عبد الحى

سيرة حياة غير عادية

مصطفى الرزاز

ولد النحات الراحل عبد البديع عبد الحى فى ديروط. المنيا فى ٣٠ يونيو ١٩١٦ ولقى نحبه مقتولاً الثلاثاء السادس من يوليو ٢٠٠٤ وكانت حياته سيرة ذات نوعية فريدة، وقيمة تاريخية تتخطى أهميته الشخصية، إلى كونه شريحة نادرة من الطبقة الفقيرة، شق طريقًا غير اعتيادى، خروجًا عن الطريق المرسوم لحياة من مثله، حيث كان يعمل طباخًا فى مسقط رأسه عند إحدى العائلات، وقد صادفته أحداث عابرة كانت تحدث تكرارًا لمن فى مثل طبقته الاجتماعية ولكنها لم تعبر معه مثلهم، فعندما أخبره الضابط الإنجليزى المسئول عن التجنيد أنه غير لائق للجندية لأن عينيه بهما حول، استنكر فضربه الضابط بالكرباج، فخدش الكبرياء الصعيدى وأصر على قتله، ولكن تخطيطه تبدد نتيجة للاستحكامات الأمنية. وفى طريق العودة إلى السكن حصل على قرن جاموسة فنحته بسكين الطباخ على شكل صورته يصرع الضابط البريطانى وكأنه يستعيد تلقائيًا تقاليد حفر السكاكين الظرائية فى عهود ما قبل الأسرات المصرية التى تصور صاحبها منتصرًا يصرع عدوه، ثم يتقدم للمتحف الحربى بالقاهرة عام ١٩٤٢ بعدد من التماثيل التى صنعها حيث يصور فيها نفسه فى ملابس جندية من أسلحة مختلفة؛ لقد حز فى نفسه كثيرًا رفضه فى التجنيد، بعكس اتجاه أبناء جيله إلى الفكاك منه بدفع «البدلية» أو بقطع إصبعه، قبل المتحف هدية عبد البديع مما رفع من معنوياته، وعندئذ مسه هاجس الفن الذى حول حياته على النحو الذى عرفناه بها.

فى عام ١٩٤٤ يقرأ عبد البديع عن مسابقة محمود مختار التى أنشأتها الرائدة النسائية «هدى هانم شعراوى» والمسيو «بول فيس» بعنوان «ست الحسن» فيستخدم عتبة باب رخامية وقطعة مبرد قديم وشاكوش تكسير السكر فى صنع تمثال لفتاة تمشط شعرها، ليفوز بالجائزة الأولى فى المسابقة التى يشارك فيها أهم النحاتين الوطنيين، فيلفت نظر السيدة هدى شعراوى وتلحقه طباخًا فى دائرتها بملوى، وقبلت إهداءه إياها تمثال ست الحسن الفائز، ويحصل على الجائزة الأولى فى النحت فى العام التالى وعلى نفس الجائزة فى ذات المسابقة عام ١٩٤٨ بفضل تميزه فى ترويض الأحجار الصلبة وتعبيره عن الموضوعات البيئية والاجتماعية فى تماثيله.

وعندما عرضت عليه السيدة هدى شعراوى أن تمول منحته ليدرس فى إيطاليا، وعندما عرض عليه الدكتور طه حسين بعد أن تولى وزارة المعارف أن يبعث به إلى فرنسا للدراسة وزيارة المتاحف والمراسم فضل البقاء بمصر وطلب الالتحاق بمرسم الأقصر.

عندما كان فى سن السابعة والعشرين ألحقته السيدة هدى شعراوى بالقسم الحر بمدرسة الفنون الجميلة، ففاز بمنحة وجائزة مرسم الأقصر بين عامى ١٩٤٠ . ١٩٥٠ كان يعمل فى مهنة صب النماذج بينما ينحت وجوهًا مصرية وأطفالاً يلعبون، وطيورًا وحيوانات بيئية. كالبط. والقطط تصارع ثعابين تارة، وتلتهم سمكًا تارة أخرى. فضلاً عن تماثيل لشخوص فلاحية، وعارية فى أوضاع مثالية متكتلة تتبع هيئة الحجر المتاح له، وكأنها نحت بارز متعدد الأوجه، تميزت تلك المنحوتات بالواقعية وتدفق التعبير وقوة الملاحظة والحرص على الصقل التام.

فى عام ١٩٦٢ حصل على جائزة ثالثة فى معرض «الثورة فى عشر سنوات» الذى أقامته جمعية محبى الفنون الجميلة، وفى عام ١٩٧٢ حصل على جائزة الدولة التشجيعية للفنون، ووسام العلوم والفنون، كما منحته أكاديمية الفنون شهادة الجدارة عام ١٩٨٢ وفى عام ٢٠٠٢ تم تكريمه فى الدورة السابعة لسمبوزيوم النحت الدولى بأسوان كما تم إعداد فيلم وثائقى عنه بعنوان «نشيد الحجر».

فى أثناء العمل فى كتلة من البازلت سقطت منه بلطة على ساقه، استدعى الأمر علاجًا طال لثلاث سنوات ومن حينها أصبحت الجلابية هى رداؤه المريح والدائم. كما أن شظايا الجرانيت والبازلت المتناثرة أثناء النحت قد أصابت أسنانه وعينيه، وقد أجرى له الدكتور «على المفتى» عملية ناجحة فى عينيه، ولكن عندما أجرى عملية



الصورة للفنان المصور
رضا سالم



جراحية أخرى لعينيه عام ١٩٩٥ فى ألمانيا تدهور بصره بصورة حادة.

وقد أصبح عبد البديع عبد الحى وجهًا مألوفًا فى الحركة الفنية، يشاهد فى افتتاح المعارض والندوات وحفلات التكريم، وفى مقر النقابة وموقع الأتيليه وجمعية محبى الفنون الجميلة. وأصبح مقره المتواضع مزارًا للذواقة والمحبين والعظماء ورجال الدولة، الذين رأوا فيه رمزًا وطنيًا للطموح والإصرار والإرادة.

عصر الرعاة المستنيرين:

كان عبد البديع نموذجًا يوضح دور نوعية من الرعاة الوطنيين للفن الذين حفظوا كرامة الفنان وعززوا شموخه، وفتحوا أمامه سبل التقدم والتوهج، كان هؤلاء الرعاة صنفين: الأول عنى بصفة خاصة بتأسيس مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨، ورعاية تلاميذها وبعث المتميزين منهم للدراسة فى أوروبا، مثل الأمير «يوسف كمال» الذى أسس المدرسة فى أحد قصوره فى «درب الجماميز»، وأوقف عليها وعلى البعثات المخصصة لأوائل الأقسام الفنية أراضى وعقارات. ومثل «محمد محمود خليل بك» الذى تبنى اقتناء مجموعة نادرة من فنون القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أعمال التأثيريين خاصة، والذى عمل جاهدًا بوصفه رئيسًا لمجلس النواب على استصدار القرارات الملكية بتأسيس لجان رعاية الفنون، وتكوين مجموعة قومية من أعمال الفنانين المصريين والأجانب لتكون نواة لمتحف الفن الحديث وتأسيس جمعية محبى الفنون الجميلة التى تكاتف أعضاؤها من الرعاة فى تنمية الحركة الفنية المصرية وإنشاء صالون القاهرة السنوى للفنون.

أما الصنف الثانى من الرعاة فقد كانت دوافعهم وطنية خالصة، معنية بالرموز المعززة لأهداف ثورة ١٩١٩ التى قادها الزعيم «سعد زغلول» ورفاقه، الذين تبنوا مشروع «محمود مختار» لإقامة تمثال نهضة مصر مخالفين هوى القصر والإنجليز والبيروقراطية المصرية، حين تفتق الذهن عن عمل اكتتاب شعبى لجمع القروش والجنيهات لتمويل التمثال، فى مظاهرة سياسية وطنية تكافلية فريدة من نوعها فى تاريخ الفن المصرى الحديث، كما يلتقى سعد زغلول بالفنانين «يوسف كامل» و«راغب عياد» من فنانى جيل الرواد فى مصحة كان يعالج فيها فى مدينة جنيف، وعندما علم بأمر تبادلهما الأدوار فى التدريس مقابل أن يتناوبا البعثة للدراسة فى إيطاليا، قال لهم «لقد أثبتم ما أردت إثباته أفضل منى يا أولادى» فقد أعطيتم مثلاً على وحدة وتكافل عنصرى الأمة المسلمين والأقباط، وعند عودته إلى مصر تبنى قضيتهم فى البرلمان وألزم الحكومة الصرف على بعثتين لهما.

ومن هذا النوع كانت الزعيمة الوطنية النسائية «هدى هانم شعراوى» التى تبنت الفنان «عبد البديع عبد الحى»، وأسست مصنعًا للخزف لبعث الطراز الوطنى كما فعلت «أمينة هانم إلهامى»، عندما أسست المدرسة الإلهامية لبعث الطراز الفرعونى والإسلامى فى الأثاث والزخارف، وأرسلت البعثات على نفقتها ورعت الفنانين المصريين فى مصر وفى أوروبا أثناء البعثة، وأشركتهم فى التظاهرات والمؤتمرات السياسية والاجتماعية التى كانت تمثل مصر فيها، وتولت رعاية الفنان يوسف كامل الذى شاهده المسيو «بول فيس» يرسم فى الشارع بمنطقة «درب التبانة» فقال له إن السيدة هدى شعراوى تحب أن تتعرف على الفنانين المصريين الشبان، وقدمه إليها وعندما التقت به فى روما أثناء دراسته هناك قام برسم العلم المصرى ذو الهلال والنجمات الثلاثة، وقامت زميلاته بالأكاديمية بتطريزه ليرفع على مقر المؤتمر الذى شاركت فيه فى العاصمة «روما»، ووعدته إن تميز على نظرائه، ليثبت مكانة وكفاءة المصريين، أن ترسله فى منحة للدراسة فى باريس على نفقتها وقد فعلت.

الأمير يوسف كمال ومحمد محمود خليل بك من ناحية، والزعيم سعد زغلول والسيدة هدى شعراوى من ناحية أخرى، يمثلان فقط نماذج دالة من مجتمع أرستقراطى وطنى، يؤمن بمواهب أبنائه ويبذل الجهد والعطاء فى سبيل شق الطريق الصحيح وفتح آفاق المستقبل أمامهم، ولذلك وبالذات شعر عبد البديع عبد الحى، فيما بعد، بأن طبقة الأغنياء وأصحاب القرار قد خذلوه، وتنكروا لمشوار حياته الذى يمثل بالقطع شريحة ذات دلالة عميقة فى التاريخ المصرى الحديث، وعلامة فارقة بين عصرين من الرعاية إلى التنكر للمواهب الوطنية.

سنوات الغضب:

فى الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة من حياته انتابت عبد البديع حالة غضب شديدة، ألحت عليه مشاعر الجحود والإهمال وما ترتب عليها من فاقة وشظف العيش، الأمر الذى يهدد كرامته التى لا تقبل الخدش ولا الإحسان من أحد.

عانى من البيروقراطية الجديدة ومن تجاهل المسئولين فى المحافظة لمكانته وطبيعة عمله، وتسلطهم عليه فى مقره الذى هو نوع من الحكر، يفاجئونه من آن لآخر بفواتير لا قبل له بها واجبة السداد دون جيرانه فى ذات الحكر، فقد جلبت له صورة الصحف ووسائل الإعلام نقمة، إذ سلطت الأعين عليه بين جيرانه البسطاء الذين اعتبروه محظوظًا وصاروا يظنونه مقترًا على نفسه مع كل هذا العز المتوهم. وضح من الحلول التى وجدتها وزارة الثقافة ملائمة لشكواه، سواء بمنحه التفرغ، أو شراء عدد من أعماله عن طريق المقتنيات، أو تكريمه فى هذا الموقع أو ذاك من وقت لآخر، فقد كانت تلك الحلول فيما يرى نوعًا من العطف وهو لا يتسول، ولذا كان يتقدم لإدارة التفرغ بطلب سنوى ساخر قائلاً «أرجو تجديد تسولى عامًا آخر».

وكان يعانى من روح الشللية والطبقية فى الحركة الفنية التى كان يتصور أن مجموعة من «الحرامية» تسيطر عليها، معبرًا عن مرارته من سيطرة «الدكاترة» وأصحاب المناصب وسياسة توزيع المنح والجوائز والمقتنيات وفقًا للمقامات البيروقراطية والأكاديمية.

وفى زيارة للمتحف الحربى بالقلعة يصرح ساخراً من التماثيل التى عملها الدكاترة موجهاً حديثه لأحد الضباط المسئولين: «أحسن حاجة فى هذا المتحف هى نظافة البلاط».

ويستهجن استنساخ الآثار فى المتاحف متصوراً أنها نوع من التزييف والتزوير، وكان يغضب لإغلاق قاعة عرض كقاعة باب اللوق ويحتج بعنف، وكان يطالب بأن يحضر إليه الوزير بنفسه باعتباره زميلاً قبل أن يكون وزيراً، ومن ثم كان كثيراً ما يهدد بتحطيم كل أعماله ليحولها إلى تراب خشية أن يستنسخوها لأغراض التجارة، وكان يهدد بالانتحار قائلاً: «خايف إيدى تنشل من الرقدة، أنا هنتحر، وهأحرق كل إللى انت شايفه ده وأنا فوق منه». هكذا صرح فى حديث صحفى.

ويقول: «لقد أديت واجبى كفنان منذ عام ١٩٣٤ وحتى الآن، ومع ذلك التقى فى الشارع بمن يحاول أن يمد يده لى بصدقة، أنا مش شحات الواحد تعبان والموضوع كبير ومش هايتحل.. أنا مش عارف بيعملوا معايا كده ليه؟».

المشهد الختامى.. الاغتيال:

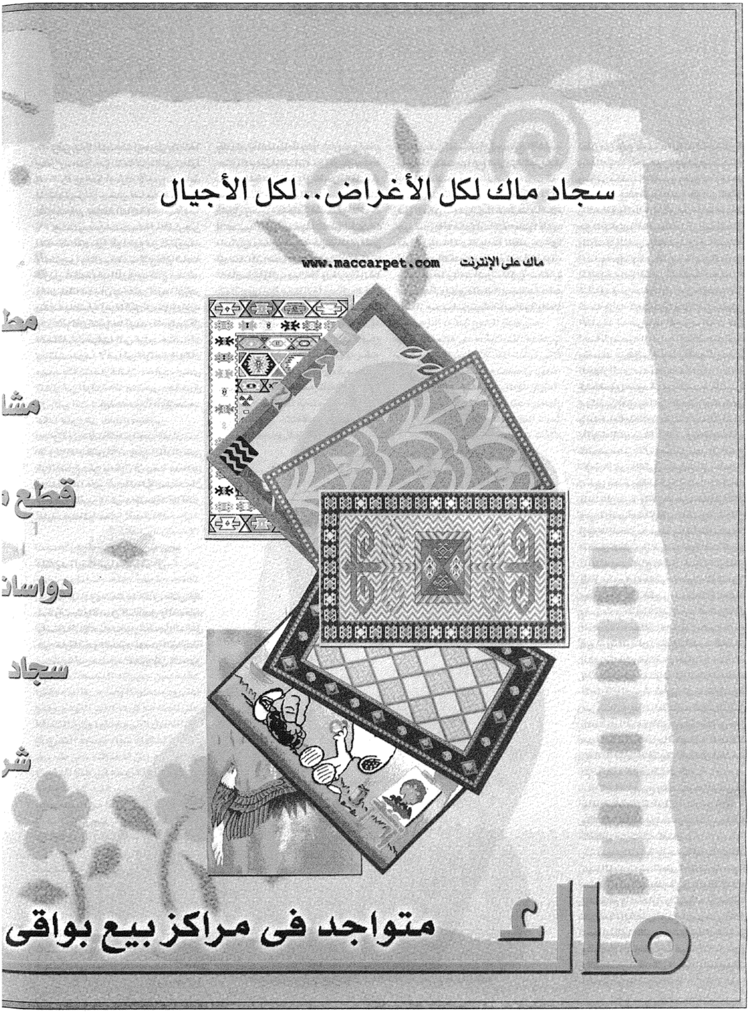
فى منزله ومحترفه الذى عاش فيه سنوات طوالا من التأمل والنحت واستقبال الأحباء بجوار مطحن الدقيق فى خارطة أبو السعود بمصر القديمة وبمقربة من مسجد عمرو بن العاص ومنطقة الفسطاط وهو عبارة عن أرض حكر أقام فيها الفنان مدة طويلة يواجه تهديد المحافظة من آن لآخر بالطرد أو بسداد مبالغ طائلة، المكان عبارة عن ممر طويل وحجرة داخلية مكدسة بالأشياء الحميمة التى جمعها الفنان لعشرات السنين، ونسخ جصية من تماثيله التى أودعت المتاحف والمجموعات الفنية الخاصة وقوالب صالحة وأخرى تالفة لنماذج يونانية مغطاة بأسمال، إذ كان عبد البديع عبد الحى شغوفاً مثل العديد من الفنانين بتجميع الأشياء وإحاطة نفسه بها مع كتل من الجرانيت والبازلت هنا وهناك.

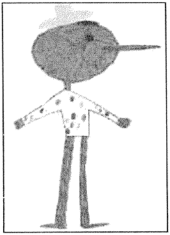
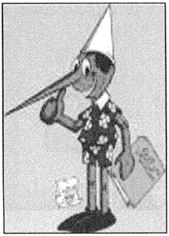
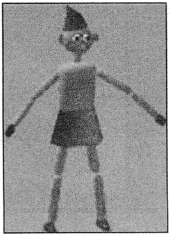
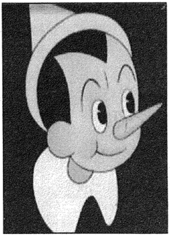
فى الحجرة الداخلية يقبع الفنان فى الركن بجلبابه المخطط بأقلام عريضة زرقاء مكوماً ساقيه محنياً ظهره ثم تقع رأسه المنهكة واهنة البصر موجهاً أذنه نحو القادم، وبمجرد سماع صوته يتعرف عليه مباشرة. ذاكرة سمعية مدهشة. ويهم ناهضاً مستنداً على العكاز محبباً بابتسامة إنسانية رائعة تطل من بين لحيته الكثيفة وشاربه وتجاعيد الصدغين، يهلل ببشاشة ويحيى بكلتا الكفين على يد وكتف الزائر، ومع الجلوس يشيع جو من البشر والدماثة وأكواب الشاى يتخللها نوبات من الشكوى والغضب مما آل إليه الحال بالبلد وبالناس وبالمسئولين وبالحركة الفنية، وتتوالى ذكرياته عن الناس الكاملة، وعن الناس الناقصة، ويصرح لزائره بصراحة وبأدب عن موقعه فى نفسه ورأيه فيه. بدون زعل. فى زياراتى القليلة له فى هذا المحراب الذى كان أحياناً يسميه الخرابة، استمعت إليه وتمسك ببقائى معه، يطلعنى على الجهاز الذى صممه بنفسه، وهو بمثابة كشاف ذى ضوء قوى وعدسة مكبرة مركبتين بعضهما فى البعض تركب على رأسه كسماعة الأذن وفيما رأيت كان أشبه بأدوات التعذيب فى القرون الوسطى، قال هذه هى الآن وسيلتى بعد أن أضاع الأطباء غير المكترثين معظم نور العين. إذ أرى بصعوبة بمعونة هذا الكشاف وتلك العدسة، ولكن ما هى الفائدة؟ لقد وهن ذراعى أيضاً وكفى، وأصبحت أحمل أدوات النحت بصعوبة بالغة، كان شديد القلق عظيم الغضب مما آلت إليه أحواله بعد كفاح طويل جداً، وكان المقر الذى يقيم فيه مفتوحاً طوال الوقت ولا يحميه إلا باب خشبى رمزى هش للغاية، وفى يوم أسود دلف إليه شقيقان التبسهما شيطان الجشع، ووهم الطمع فى ثروة قد تكون مكنونة عند الفنان الذى تتداول سيرته وحواراته شاشات التليفزيون وسماعات الإذاعة والصحف المحلية والعربية، تصوروا أن بالمكان ثروة من المال وربما الذهب، فضلاً عن التماثيل القيمة التى سمعا عنها، وحين هم بالتحية رداها بالطعنات الجبانة القاتلة فأردياه قتيلاً كأبطال الملاحم الإغريقية غارقاً فى دمائه.

كان قد أصبح وحيداً بعد أن غربت عنه رفيقة حياته منذ أسابيع قليلة، وكانت راعيته وونسه وكانت نموذجه المفضل فى شبابه كفنان.

وبهذه النهاية الملحمية لحياة الفنان عبد البديع عبد الحى اختتمت حياة حافلة وطويت صفحة من تاريخ الإبداع والكفاح والدعاية والتجاهل كأنها شريحة دالة على تاريخ مصر من خلال أحد أبنائها الذين عاشوا تبدل المشاعر وساعات الزهو وساعات الانكسار والغضب والزهد فى الحياة واستهداف اللصوص والقتلة. ■




سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
ماك
متواجد فى مراكز بيع بواقى

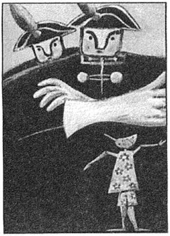





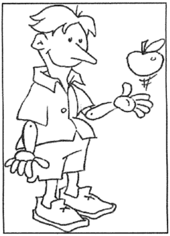
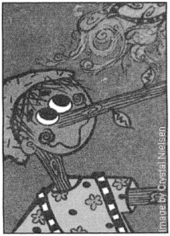
مــــاذا نـعــــــرف عــــــن

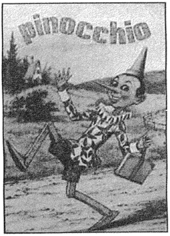
بينوكيو

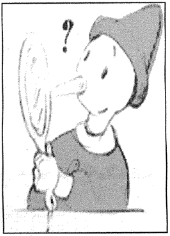
الــولد الطـــيب الشـــقى؟

ألـيســــون لـــــورى

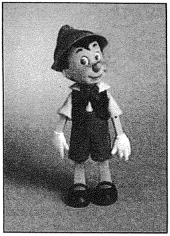
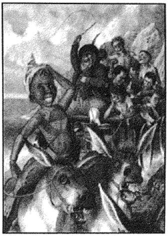


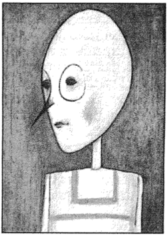
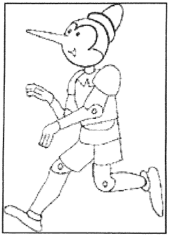



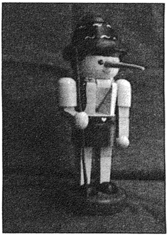


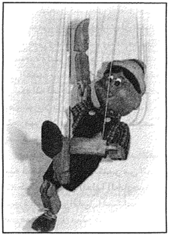
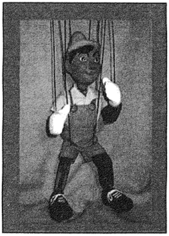


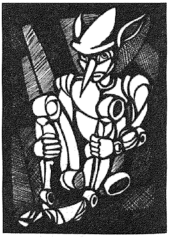


بينوكيو

العديد من الناس لديهم اليوم وهم أنهم يعرفون من هو «بينوكيو»، إنهم يعتقدون انه دمية خشبية أصبحت صبيا آدميًا وأن سمكة كبيرة ابتلعته وأن انفه تكبر حين يكذب (وكنتيجة لهذه الواقعة الأخيرة فقد صور السياسيون فى الكاريكاتير بأنوف طويلة عندما يكذبون علنا على مدى المائة سنة الماضية - خاصة ريتشارد نيكسون الذى كانت أنفه فى الأصل تشبه أنف بينوكيو).

إن هؤلاء الناس على حق ولكن بشكل محدود فهم يعرفون بينوكيو من نسخة ديزنى المبسطة والانفعالية، أو النسخة المختصرة التى اتفق على أنها أكثر ملاءمة للأطفال. إن الرواية الأصلية التى كتبها كارلو كولودى تحيا الآن فقط فى نسخ أكاديمية أطول وأكثر تعقيداً وإثارة للاهتمام ولكنها أيضاً أكثر قتامة قال عنها الناقد جلوكو كامبون إنها واحدة من الأعمال الأكثر تأثيرا فى الأدب الإيطالى (الآخران كما يرى هما الكوميديا الإلهية لدانتى والمخطوب لمانزونى) فبالنسبة له وللآخرين الذين يعرفون النسخة الأصلية، مغامرات بينوكيو ليست خرافة مسلية وخفيفة بل أمثولة حول الفن والحياة. أنها قصة حول النضوج وبشكل أساسى هى قصة حول أن يكبر المرء فقيراً وإيطالياً.

ولد كارلو كولودى وأسمه الحقيقى كارلو لورينزينى فى فلورنسا عام ١٨٢٦ وهو الابن الأول لعائلة من خدم المنازل. عندما تفوق فى المدرسة المحلية دفع صاحب المنزل الذى يعمل لديه والداه تكاليف إتمام دراسته على أمل أن يصبح قسيساً. ولكن هذا لم يحدث. على العكس فبعد تخرج لورينزينى ذهب إلى العمل مع بائع كتب وأصبح فى النهاية صحافيا ليبراليا يتشكك فى التعليم والكنيسة. ففى بينوكيو يخشى كل الأولاد المدرسة والدين يكاد لا يذكر.

نشرت بينوكيو أصلاً على حلقات فى جريدة الأطفال Il giornale per i bambini وظهرت على ثمانية أجزاء بين يوليو وأكتوبر عام ١٨٨١ ثم على أحد عشر جزءاً بين فبراير ١٨٨٢ ويناير ١٨٨٣



وكتبت على غرار روايات التشرد وربما بدافع من ضغوطات ذلك الوقت بعض فصولها أكثر إبداعاً واندماجا فى مجمل العمل. بعض تلك المشاهد حذفت من النسخة الإنجليزية المختصرة. مثل تلك التى يقابل فيها بينوكيو أفعى ضخمة ويقع فى فخ ثم يجبر على الخدمة ككلب حراسة ويركب على ظهر حمامة ويظن البحار العملاق ذو الشعر الأخضر أنه سمكة.

ويحذف من فيلم ديزنى المزيد من القصة ويغيرها جذرياً فيبدوجبيتو والد بينوكيو بالتبنى أنه صانع ألعاب ميسور وتبدو المدينة التى يعيش فيها وكأنها سويسرا أو بفاريا كما تمتلئ ورشته باللعب الموسيقية والساعات، أما فى القصة الأصلية فإنه نحات خشب إيطالى، جبيتو شديد الفقر، عندما يبدأ

الفيلم يكون بينوكيو لعبة خشبية بدون حياة ولا توهب لها الحياة إلا عندما تحقق جنية لجبيتو أمنيته فى طفل. أما فى الكتاب فبينوكيو حى منذ البداية. ومع أنه ليس إلا قطعة خشب للنار بدون اسم فى ورشة النجار السيد أنطونى إلا أنه يستطيع الكلام وعندما يضرب السيد أنطونى قطعة الخشب بالفأس فإنها تصرخ «أخ! إنك تؤلمنى!» يرتعب النجار ويعطيها إلى صديقه جبيتو الذى يريد صناعة دمية. وتستمر قطعة الخشب فى التصرفات الشاذة فتسخر من جبيتو وتضرب السيد أنطونى وتتسبب فى مشاجرة بين الأصدقاء القدامى.

وعندما يصل جبيتو إلى منزله يبدأ فى نحت الدمية ولكن ما أن يفرغ من فم بينوكيو حتى يبدأ الأخير فى الضحك من جبيتو وإبراز لسانه له وعندما تظهر

له يدان ينزع باروكة جبيتو وعندما يفرغ من صناعة ساقيه يهرب.

منذ البداية نجد أن بينوكيو لكولودى ليس فقط أكثر ذاتية من الولد اللطيف فى الكارتون ولكنه أيضا أقل بساطة بكثير. وهو ليس فقط ساذجًا ولكنه انفعالى وأنانى وعنيف. وبالتعبير اللاهوتى فإنه بدأ حياته فى حالة الخطيئة أما من وجهة النظر النفسية فإنه يمثل الطفل اللاأخلاقى الذاتى دون رقابة على النفس.

وبدون القدرة على السيطرة على انفعالاته يستنفد بينوكيو السيطرة الخارجية فبينما يركض فى الشارع وخلفه جبيتو يوقفه شرطى ويعيده إلى والده بالتبنى وفوراً فى مبادرة يعرفها كل آباء الأطفال الصغار يرتمى بينوكيو على الأرض ويعلن أنه لن يسير بعد ذلك. ويجتمع حشد من الناس حولهم ويبدءون فى لوم جبيتو على جنوح بينوكيو (كما يفعل بعض المتخصصين فى لوم الأطفال فى الوقت الحالى) وفى النهاية يقنعون الشرطى بوضع جبيتو فى الحبس. ويقول كولودى إن القانون دائما غبى وغالبا فاسد وعادة ما يعاقب الضحية وليس المجرم. (فى وقت لاحق من القصة يذهب بينوكيو إلى المحكمة ليشكو أنه تعرض للسرقة ولكن القاضى وهو غوريلا يرسله إلى السجن بدلا من المجرمين ولا يطلق سراحه إلا بعد أن يعترف زوراً بأنه مجرم)

يرجع بينوكيو إلى المنزل بعد الإفراج عنه فيقابل ما عرف الكثير من القراء أنه ضميره أوالأنا العليا الخارجية فى صورة صرصور الليل المتكلم. يوبخ صرصور الليل بينوكيو على هروبه ويحذره من مخاطر البطالة. إن لم يذهب إلى المدرسة فسيتحول إلى حمار عندما يكبر ولكن بينوكيو يرفض أن يستمع إليه ويقول إن العمل الوحيد المناسب له هو «الأكل والشرب والنوم والاستمتاع والحياة كمتشرد من الصباح حتى الليل». وعندما يعلق صرصور الليل بأن: «كل من يتبع هذه المهنة لابد أن ينتهى به الأمر إما فى ملجأ الفقراء أو فى السجن» يغضب بينوكيو ويرميه بمطرقة خشبية فيقتله. ولكنه يظهر ثانية فى القصة أولا كطبيب غامض يرتدى الأسود وأخيراً كشبح.

يظهر ضمير بينوكيو الخارجى فى فيلم ديزنى ولكنه يتم تحويله إلى شخصية فكاهية ويعاد تسميته جيمنى

عن مجلة:
New York Review of Books
ترجمة: نرمين نزار

إن بينوكيو بطاقته ووقاحته وازدرائه للمؤسسات وطيبته الكامنة هو ابن العم الإيطالى لتوم سوير. وهو كما الحال مع توم ولد شقى يتحول فى النهاية إلى مواطن صالح

كريكت (فالاسم إشارة أمريكية واضحة للسيد المسيح، ويرتدى جمينى كريكيت قبعة ممثلين الفودفيل ويغنى ويرقص. يكون عتابه مسلياً فى أغلب الوقت ولكن بلا جدوى ويكاد بينوكيو أن لا يستمع إليه ولكنه لا يؤذيه.

ترى بينوكيو عند ديزنى طفل فى حوالى الخامسة أو السادسة ويبقى بريئاً أو بسيطاً طوال القصة كالطفل المثالى فى الأدب الرومانسى.

إنه خال من الوقاحة أو الخبث وما يوقعه فى مشاكل هو الفضول والملل. أما بطل كولودى فهو أكبر بعدة سنوات يمتلئ عدوانية وبغريزة التمرد. التى لن يتم ترويضها حتى نهاية القصة. وهنا يتذكر شخصية كلاسيكية فى أدب الأطفال الأمريكى فى نهاية القرن التاسع عشر وهو الولد الطيب الشقى. كان أول ظهور مهم لهذه الشخصية فى قصة ولد شقى (١٨٦٩) لتوماس بايلى الدريتش. إن بطل الدريتش الذى رسم على غرار طفولته هو شقى فقط بالمقارنة بزملائه فى المدرسة المتزمتين الذين يفتقدون لروح المغامرة والمرح. فهو وأصدقاؤه يهربون من المدرسة ويقومون بمغامرات ولكنهم لا يذهبون بعيداً. أكتسب الكتاب شعبية كبيرة وقلد عدة مرات بعد ذلك أشهرها «توم سوير» لمارك توين.

إن كان كولودى قد قرأ قصة توم سوير أو لم يقرأها (نشرت لأول مرة عام ١٨٧٦) فإن هناك تشابهاً بين القصتين، فالبطل فى الكتابين يخوض مغامرات يتعلم من أخطائه، ويتصالح مع المجتمع فى نهاية الكتاب. كما هو الحال مع بينوكيو(ولكن على عكس ولد ألدريتش الشقى فإن توم سوير منحرف حقاً. إنه يكذب ويسرق ويدخن ويهرب من المدرسة يسبب الفوضى فى الكنيسة يهرب من أولياء أمره ويرتبط بشركاء مريبين. هو يحب الحرية والمتعة ويتوق إلى المغامرة. إنه انفعالى، طائش ومشاغب وفى نفس الوقت فإن توم مثل بينوكيو طيب القلب فى الأساس يتعلم من أخطائه وفى نهاية الكتاب تسامحه وتصالحه عائلته والمجتمع.

إن بينوكيو بطاقته ووقاحته وازدرائه للمؤسسات وطيبته الكامنة هو ابن العم الإيطالى لتوم سوير. وهو كما هو الحال مع توم ولد شقى يتحول فى النهاية إلى مواطن صالح. ولكن عالم بينوكيو أكثر قتامة بكثير من عالم توم فإن العمة بولى ليست غنية بأى حال من الأحوال ولكنها تملك بيتاً بحديقة أما جبيتو والد بينو كيو بالتبنى فإنه فقير جداً ويعيش فى غرفة مظلمة تحت السلم الأمامى لمبنى ودائم القلق على مصدر وجبته التالية.

عالم كولودى أكثر خطورة من بلدة هنيبال فى ميزورى (التى تدور فيها أحداث توم سوير ـ المترجم) إنه ملىء بالأشخاص الغاضبين المخادعين الذين يريدون استغلالك وسرقتك وحتى قتلك.

عندما يهرب توم سوير وهاك فين من المنزل فإنهم يقابلون شخصيات جيدة وسيئة. مع أن هناك طائراً وسمكة يساعدون بينوكيو فإنه لا يقابل إلا أشخاصاً عدوانيين وبالنسبة له فإن مملكة الحيوانات خطرة. إن أهم أعدائه حيوانات، ويوجد مقابل لاثنين منهم فى أعمال توين هؤلاء هم الثعلب والقط ـ نصابان مدعيان وهما دنيئان وشديدا الشبه بالملك والدوق فى هاكلبرى فين (١٨٨٤) (بما أن بينوكيو لم تترجم حتى عام ١٨٩٢ فيبدو أن هذه ليست إلا حالات تكرار شخصيات مألوفة منذ خرافات إيثوب وتكرر ظهورها فى الأدب) يلقى النصابان نهاية سيئة فى كلا الكتابين ولكن فى حين يشفق هاك عليهما فإن بينوكيو يمر بهما فى صمت. فى هذا المجال تقترب القصة من نموذج الحدوتة الشعبية الأوربية التقليدية التى يندر أن ينصلح فيها حال الشرير ولا تكون هناك حاجة لمسامحته.

فى جزء من توم سوير يهرب توم من المنزل إلى جزيرة جاكسون فى نهر المسيسيبى حيث يستمتع مع أصدقائه دون تدخل من الكبار ومع أنهم يغيبون لأيام معدودة فقط فإن الحنين يغلبهم ويعودون إلى هنيبال حيث يتم استقبالهم كالأبطال، ويبدو أن الدرس المستفاد هنا هو أنه بالإمكان الهروب من المدرسة وإصابة أقربائك بالخوف والقلق ثم تفلت من العقاب.

بينوكيو أيضا يسافر مع أولاد آخرين إلى نوع ما من جنة الأطفال تسمى فن لاند (أرض المرح) حيث لا توجد مدرسة «وتمضى الأيام فى لعب وأوقات سعيدة من الصباح حتى الليل» ولكن هذه الإجازة تستمر مدة أطول كثيراً من إجازة توم. إنه يعيش فى فن لاند لخمسة أشهر بدون أن يمل منها أو يفتقد جبيتو ولكنه يتحول إلى حمار هو وصديقه المقرب لام بويك كما تنبأ صرصور الليل فيبيعهم سائقو العربات الأشرار فى الأسواق والملاهى مع زملائهم كما كانوا يريدون حين استدرجوهم إلى فن لاند للكسب من تحولهم الحتمى. يذهب بينوكيو إلى السيرك حيث يجبر على القيام بحيل ويضرب ويجوع وعندما يصاب بالعرج يباع إلى تاجر الجلود الذى يحاول إغراقه.





تصبح هذه الأحداث أمثولة وتحذيراً ويؤكد كلودى على ذلك عندما يعلق أن: «الأولاد السذج يتحولون إلى حمير عند اللعب كل الوقت وعدم الدراسة» أما المغزى (وهو حقيقى اليوم كما كان وقت كلودى) الأولاد الفقراء الذين يتركون المدرسة ويتسكعون يتحولون إلى عمال مستغلين وقد يموتون.

إن تحولات بينوكيو مخيفة ولكنها مثيرة للاهتمام فخلال الكتاب يتحول من مملكة النبات إلى مملكة الحيوان ويصعد تدريجياً فى كل فئة. إن اسمه الذى يعنى بلغة توسكانا القديمة «الصنوبر» يربطه بالنبات. إنه يبدأ حياته كقطعة خشب خالية من الملامح (ربما خشبة صنوبر) ويتحول إلى دمية خشبية وفى النهاية يكتسب الصفات الإنسانية. إنه نفس التحول الذى نراه فى الأطفال الذين يبدءون ككمادة هامدة بشكل ما ثم يصبحون كتلا جاهلة وإن كانت محبوبة من الحاجة والطمع ذات تركيز قصير ورغبة فى استكشاف العالم دون أخذ المخاطر فى الاعتبار. فيما بعد يقاومون القيود ويعيشون فى الحاضر يبحثون دوما عن الأكل والمتعة كما الحيوانات.

وبعيداً عن هذه التوازيات المحتملة، لماذا اختار كلودى أن يكون بطله دمية وليس مجرد ولد شقى؟ ربما لأنه فى المسرح توجد مزايا لما يسميه الدارسون «الأشياء المؤدية» -الدمى، العرائس، المريونيت، الإنسان الآلى، خيال الظل، والديكورات المتحركة- لا توجد لدى الممثلين من البشر. إن الممثلين لا يكونون مطابقين للأدوار التى يلعبونها ومهما كانت مهاراتهم فى التمثيل فإننا دائما واعون بالشخص الحقيقى القابع تحت التخفى. فى المقابل فإن الدمى يمكنها أن تبدو تجسيداً خالصاً لفرد أو نوع من البشر (لهذا السبب عبر منسق المناظر المسرحى جوردن كريج عن أمله فى أن يتم استبدال جميع الممثلين مستقبلاً بدمى).

يرى بعض القراء أحياناً، خاصة من يفكرون أولاً فى نسخة ديزنى، أن بينوكيو قصة خيالية كلاسيكية. إن كانت كذلك فهى قصة من نوع خاص فى أغلب القصص الخرافية التى يكون فيها البطل رجلا، يترك البطل الشاب عائلته الأصلية ويقوم بمغامرات ثم ينتهى به الأمر بالزواج من أميرة وتكوين عائلة جديدة. على

بينوكيو



النقيض فإن قصة بينوكيو هي مما يسمى قصة طفولة مثل «جاك وشجرة الفاصوليا» أو «هانزل وجريكل» والبطل هنا لا يبدأ عائلة جديدة في المقابل إنه يعود إلى منزله وإلى والد أو والدة محبين. نفس هذا النمط نجده في ثاني أشهر قصص الأطفال الإيطالية الكلاسيكية «غزو الدببة الشهير لصقلية» لدينوجوزاتي حيث تقوم العلاقة المركزية بين أب وابنه أيضاً ويكون أحد أهم أسباب الغزو الذي يقوم به الملك ليانارد هو البحث عن ابنه تومي (مما يثير الانتباه أننا عندما نجد تومي يعمل كبهلوان عند بعض الأشخاص ـ أي أنه نوع من الدمى).

في العديد من القصص الشعبية يساعد البطل أو البطلة أحد المخلوقات الخارقة مثل قزم أو حيوان متكلم أو امرأة حكيمة أو عرابة. في بينوكيو تلعب الجنية الزرقاء، والتي تتميز بلون شعرها، هذا الدور. أن الشعر الأزرق أو الأخضر من الصفات التقليدية للمخلوقات الخارقة التي تكون خيرة أو محايدة أحياناً مثل الرجل الأخضر أو الأطفال الخضر في الفلكلور البريطاني وفي أحيان أخرى تكون شريرة مثل ذي اللحية الزرقاء. تظهر الجنية الزرقاء في بينوكيو على أشكال كثيرة. فهي أولاً. فتاة صغيرة بيضاء الوجه تعلن أنها ميتة. ولكنها سرعان ما تثبت أنها قادرة على إنقاذ بينوكيو من موت وشيك. وتستدعي ثلاثة أطباء لمعالجته. وعندما يفترقون تدعي أنها أخته الكبرى. في جزء لاحق من القصة على هيئة امرأة عاملة صغيرة السن تأخذ بينوكيو إلى منزلها فتطعمه وتعلن أنها ستكون أمه. بعد ذلك نراها على هيئة بجعة بشعر قرمزي وأخيراً تظهر في حلم على هيئة جنية جميلة تحوله إلى طفل بشري.

ولكن يبدو أن كولودي ينفي فكرة أن بينوكيو قد تكون أقصوصة رومانسية منذ بداية الكتاب

«كان يا ما كان هناك... «ملك» سيقول قرائي الصغار فوراً.. لا يا أطفال إنكم مخطئون.. كان يا ما كان قطعة خشب لم تكن قطعة خشب ثمينة ولكنها قطعة خشب عادية أخذت من كومة خشب في الشتاء ووضعت في المدفأة».

بمعنى آخر فإن لهذه القصة أساساً في حقائق الحياة القاسية للطبقة العاملة الإيطالية في آخر القرن التاسع عشر وليس في عالم الخيال. إنه الفقر الذي لا يجعله شيئاً محتملاً إلا الحب والتضحية. يبدأ بينوكيو حياته كولد صغير متمرد لا يراعي مشاعر الآخرين وذاتي يعارض الكبار ويتجاهل القوانين فبدلاً من أن يذهب إلى المدرسة مثلا فإنه يبيع الكتاب المدرسي الذي اشتراه له جبيتوليشتري بثمنه تذكرة لمسرح العرائس. وهناك يحتجزه محرك عرائس مخيف ويكاد أن يحرق في نيران المطبخ. إن خلاص بينوكيو الأخير يكمن في استعداده للعمل والتضحية من أجل الآخرين ففي المسرح يهرب من الموت عندما يعرض بشكل عفوي استبداله بدمية أخرى مشئومة فيمس بذلك قلب محرك الدمى لبرهة. وتحوله الأخير نتيجة لقبوله العمل لساعات طويلة في مهنة مرهقة لكسب المال من أجل والده بالتبني جبيتو المريض ووالدته الخرافية الجنية الزرقاء.

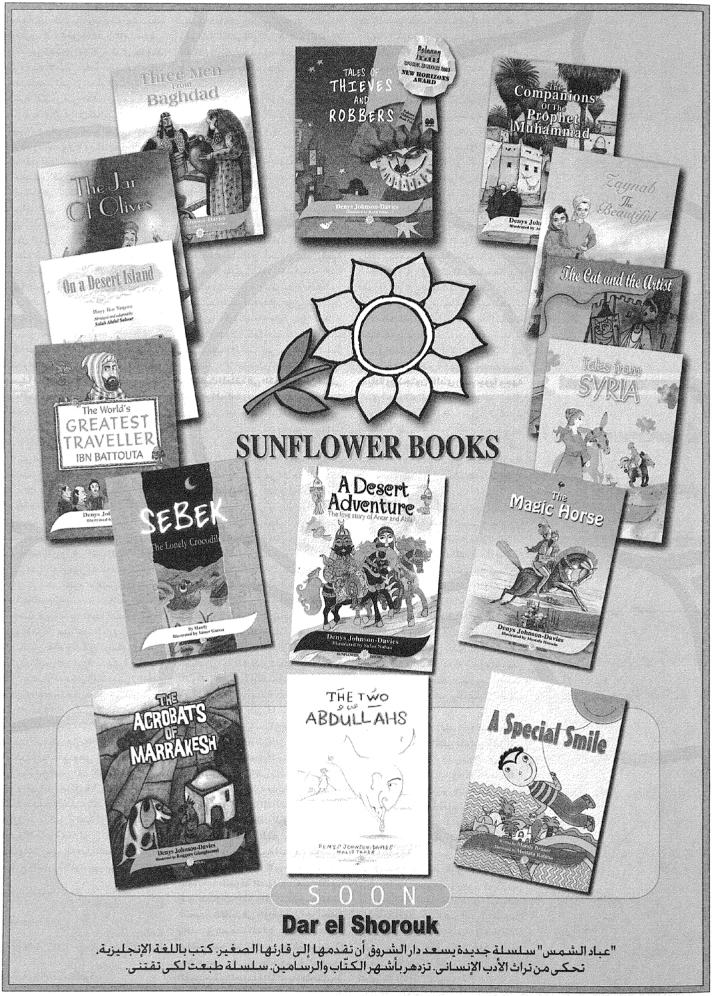
في فيلم ديزني توقع قلة الخبرة والنصائح السيئة بينوكيو في المشاكل وليس الأنانية وعدم الطاعة فإن اثنين من الأشرار هما الثعلب والقط يقودانه إلى مسرح العرائس. بعد أن يعداه ـ في لمسة هوليوودية ـ بالشهرة والمال في أغنية يكرر مذهبها: «عظيم أن تكون مشهوراً» (طبعاً قد أصبح بينوكيو مشهوراً نوعاً ما على يد ديزني) كما أنه أصبح ميسوراً في الفيلم. في النسخة الأصلية ينجح بالكاد وعن طريق العمل الجاد في مساندة أباه بالتبني ـ مع أن الجنية الزرقاء تحول غرفته الرثة إلى كوخ مريح وتمنحه ٤٠ عملة ذهبية. ولكن الأمر الأهم هو أن بينوكيو يصبح Un ragazzino per bane وهي عبارة تحمل معنى مزدوجاً بالإيطالية (ولداً صالحاً، ولداً حقيقياً) كما تشير الناقدة الإيطالية أن لوسن لوكس.

هل سيستمر بينوكيو في أن يكون ولداً صالحاً؟ وإذا حدث هذا فهل سيستمر القراء في الاهتمام به؟ إن الكتاب يتكون من ٣٦ فصلاً ولا يتصرف بينوكيو بشكل جيد إلا في الفصلين الأخيرين إن الانحراف والثورة أكثر إثارة لاهتمام القارئ ومتعة في القراءة من التميز الأخلاقي وكما يقول لويس كانس فإن بينوكيو «محبوب أكثر لجنوحه» وهوفي ذلك يذكرنا بأبطال آخرين من عينة الولد الطيب الشقي في الخيال وفي الحياة الحقيقية. وربما يكون هذا النموذج محبوباً بشكل خاص في إيطاليا. حيث ينظر للرجل البالغ ذي القلب الدافئ والمحب للمغامرة ولقليل الصبر على القوانين الاجتماعية والقيود على أنه ساحر ومغر. إذا بدأ شخص مثل هذا أسفاً (حتى ولو بشكل مؤقت) حقاً على أخطائه فإن أصدقاءه وأقاربه سيسامحونه بشكل متكرر كما هو الحال مع الخاطئين في الكنيسة الكاثوليكية.

إن بينوكيو قصة إيطالية في العديد من النواحي مليئة بالمناظر من شمال إيطاليا وبالمأكولات الإيطالية مثل سمك البربوني في صلصة الطماطم والكرشة بالجبن البراميزان اللذين يأكلهما الثعلب والقط على حساب البطل. وهو أيضا يجسد الاعتقاد الإيطالي بأن للعائلة أهمية مركزية سيمكنك الاستمتاع بوقتك مع الأصدقاء ولكن لا تثق إلا بالأقارب. وأن الآباء الصالحين سيضحون بأنفسهم من أجل أولادهم دون تردد كما يفعل جبيتو حين لا يجد طعاماً بالمنزل سوى ثلاث ثمرات من الكمثرى فيسمح لبينوكيو بالتهامهم بطمع وأنانية (تم إزالة هذا الجزء وأجزاء أخرى من فيلم ديزني). كما سيضحي الأولاد الطيبون من أجل آبائهم كما يفعل بينوكيو عندما يهرب هو ووالده من بطن الحوت كما في قصة يونس ويحمل جبيتو على ظهره حتى يخرجه من البحر.

ويرى بعض النقاد متوازيات أخرى بين بينوكيو والأساطير المسيحية فيعلقون على أن البطل هو ابن بالتبني لنجار يدعى جيوفاني (النطق الإيطالي لاسم يوسف) وإنه يموت ويحيى ثلاث مرات (يموت في إحداها معلقاً على شجرة). كما ألمح البعض أن الجنية الزرقاء هي نسخة ما من العذراء التي ترتدي الأزرق عادة في الفن ـ مع أن ملابس العذراء مريم عادة زرقاء سماوية بينما يصف كولودي شعر الجنية بأنه قرمزي.

بالنسبة لبعض القراء فإن بينوكيو ضحية بينما يراه آخرون على أنه بطل ثائر من الطبقة العاملة تتحدى مغامراته القواعد الاجتماعية. ويرى علماء النفس هروبه من الحوت كنوع من إعادة الميلاد ويلمحون أن أنفه الذي يكبر يقول لنا الكذب أمر ذكوري. وكما هو الحال مع العديد من الأعمال العظيمة في أدب الأطفال فإن قصة بينوكيو تخضع لتفسيرات عديدة ومتنوعة وستستمر في ذلك مستقبلاً. ■


Three Men From Baghdad
Tales of Thieves and Robbers
New Horizons Award
Denys Johnson-Davies
The Companions of the Prophet Muhammad
The Jar of Olives
Zaynab the Beautiful
On a Desert Island
Hayy Ibn Yaqzan
Salah Abdul Sabour
The Cat and the Artist
The World's Greatest Traveller Ibn Battouta
Tales from Syria
SUNFLOWER BOOKS
Sebek The Lonely Crocodile
A Desert Adventure
The love story of Antar and Abla
The Magic Horse
The Acrobats of Marrakesh
The Two Abdullahs
A Special Smile
SOON
Dar el Shorouk
"عباد الشمس" سلسلة جديدة يسعد دار الشروق أن تقدمها إلى قارئها الصغير. كتب باللغة الإنجليزية،
تحكى من تراث الأدب الإنسانى. تزدهر بأشهر الكتّاب والرسامين. سلسلة طبعت لكى تقتنى.

Goya

(جـــويــا)

Robert Hughes
Knopf Pub. Group, 2003, 448 pp.

ترجمة: أحمد محمود

جويا رسام الملوك .. ولاعِنُهم أيضا

جـــيـنـي أجـــلـــو

■ تتسم رواية روبرت هيوز لحياة جويا وفنه بأنها مذهلة، ومربكة، وشديدة الخصوصية. ونحن نعلم أن أزمة ما في حياة هيوز كانت وراء سعيه الذي بدأ منذ زمن بعيد لاستكشاف عبقرية جويا المظلمة؛ فقد تعرض لحادث سيارة رهيب تبعته شهور من الألم والعمليات الجراحية. ولكنه أدى كذلك إلى اعتراف عميق، وهو أن «الكاتب الذي لا يعرف الخوف، واليأس، والألم قد يمكنه معرفة جويا المعرفة التامة».

بعبارة أخرى، هذه دراسة للسيرة الذاتية. وهي تبدأ بشباب المؤلف في أستراليا التي كانت فيها كلمة «محفورات» etchings تعني مستنسخات لوحات نورمان لينزي من النوع الماجن الخفيف المعلقة في صالات الحانات وقاعاتها الخلفية، حيث اشترى هيوز، بالصدفة تقريباً، مستنسخاً للوحة جويا «نوم العقل يجلب المسوخ»، حيث هبط فيها الرجل جالساً على مكتبه بينما البوم الذي ينظر إليه شزراً يحوم حول رأسه.

تحوم «نوم العقل» في عقولنا باعتبارها تقديما شابا لجويا، وبصفتها تجسيداً للألغاز التي يقدمها لنا جميعاً. فهو واقعي يعرف قوة اللاعقلاني، وعالم الأحلام والكوابيس المضاد، والواقع أن تصويره للخرافة والسحر والعفاريت جزء من «الواقعية» الخاصة به. وحين يناقش هيوز المستنسخ الذي نحن بصدده، باعتباره الأشهر من بين caprichos جويا، فهو يحلل موضوع الصورة بحرص، مشيراً إلى كيفية موازنة البوم، رمز الغباء، بالوشق (القط البري) الحذر، وهو المخلوق الذي كانوا يعتقدون أنه «يمكنه الرؤية في أشد الظلام حلكة ويميز على الفور بين الصواب والخطأ». أما المفكر الذي غلبه النعاس فهو جويا نفسه؛ وتقدم له البومة طباشير الفنان.

يضع هيوز حياة جويا العملية بقوة وحيوية داخل صراعات التاريخ والثقافة الأسبانيين. فقد ولد فرانثيسكو دي جويا إي لوثينتيس في قرية صغيرة في عام ١٧٤٦، وكان والده كبير المُذَهِّبين (الذين يطلون بالذهب)، وهو صانع من ثاراجوثا، أما والدته فكانت من الإيدالجو، وهي طبقة النبلاء الدنيا في أسبانيا التي عانى الريف الأسباني من عجرفتها المصحوبة بالفقر. وقد ذهب وهو شاب إلى مدريد للدراسة مع صهر المستقبل فرانثيسكو بايو، وبعد زيارة إيطاليا في عام ١٧٧٠ وجد عملاً مع بايو حيث كان يصمم رسوم كارتون شديدة المرح لستائر داخل القصور الملكية الخاصة بكارلوس الثالث. وكانت موضوعات رسوماته هي التسالي المشهورة، ومسرح الشارع، والموسيقيين، والأسواق التي كان هو نفسه يحبها. كان جويا يعشق حياة الريف، وبالأخص الصيد، وهو الميل الذي كان يشاركه فيه الملك، إلا أنه كان كذلك يجد متعة في المدينة، بمن فيها من ضحايا حب فرنسا من الفتيات الجميلات maja وشركائهن الأقوياء majo. (يرتدي جويا في بورتريه رسمه لنفسه سترة majo قصيرة).

وضع جويا قدميه على أول الطريق. وسرعان ما رسم الملك نفسه، وكذلك عائلته. وكان كارلوس الثالث غليظاً ومستبداً، إلا أنه كان كذلك، إلى حد قليل جداً، ملكاً «ليبرالياً»، وكان معظم رعاة جويا رجالاً ونساء مستنيرين يسعون إلى دفع أسبانيا إلى عصر التنوير الجديد، حيث كانوا يحاولون إصلاح الزراعة، وإدخال الصناعة، والتحايل على رقابة محاكم التفتيش ببناء المكتبات الخاصة وجمع أعمال فولتير وديديرو ومستنسخات هوجارث وورولاندسون وجيلاري. وقد اتسعت رؤية جويا للعالم من خلال هؤلاء. كما تعلم باعتباره فناناً من الأدباء الساخرين الإنجليز الشرسين. إلا أنه تعلم كذلك من لوحات بيلاثكيث المعلقة في القصور، ومن فناني القصور المعاصرين له أنطون مينجز الكلاسيكي الجديد الذي أضفى سمات أخلاقية على أعماله، وتييبولو ذلك العجوز الخيالي. وتوالت عليه التكليفات وتطورت تكنيكاته بسرعة كبيرة. ويكتب هيوز كلاماً مدهشاً عن المتعة الحسية لبورتريهاته الأولى ويقدم لمحات سريعة عن الشخصيات التي رسمها في لوحاته مثل دوقة أوسونا الرائعة، التي لم تخش مناصرة قضايا تتراوح بين سجون النساء وتعليم الأطفال والتطعيم.

كان جويا يكسب مالاً كثيراً، ويشتري العربات السريعة، ويشم النجاح. إلا أن المرض أصابه في عام ١٧٩٢، وكان في السادسة والأربعين، فغادر مدريد إلى الجنوب. وكان من الصعب تحديد مرضه، فربما كان شلل الأطفال أو الالتهاب السحائي، ولكنه ظل شهوراً يعاني من الدوخة والحرارة المرتفعة والعمى الجزئي، وحين عاد كان قد أصابه الصمم التام. وقد عاش في صمت حتى نهاية حياته. وكان الظلام يصعد إلى السطح في صور الغرف الخاصة بمصارعة الثيران (سحر العمر) واللصوص والسجون والمجانين. ومع ذلك فقد استعاد مكانته في عهد الملك الجديد كارلوس الرابع وزوجته ماريا لويسا واستمر في رسم بورتريهاته المتألقة لدوقة ألبا. وعرض جويا أحد تلك البورتريهات، وهو «الدوقة البيضاء» الذي يشبه لوحات جينزبورو وتظهر فيه الدوقة مرتدية فستاناً شفافاً ومعها كلب صغير، عرضاً عاماً. أما «الدوقة السوداء»، حيث تشير إلى عبارة Slo Goya المكتوبة تحت قدميها، فكانت في الواقع من أجل جويا وحده. ورغم هذا الدليل على انشغاله، يرفض هيوز فكرة وجود علاقة غرامية، وهو مُصر على أن «الجميلة العارية» الصريحة و«الجميلة الكاسية» المحتشمة التي رسمها بعد بضع سنوات تشتركان في كتلة من خصلات الشعر السوداء لدى الدوقة القوية. بل إنه يقول إن الجميلة هي عشيقة مانويل جودوي الطموح، وهو الوزير الأول وحبيب الملكة المزعوم.

كان جويا لا يزال قادراً على رسم السعادة، مثل ملائكته الوردية المحلقة في كنيسة القديس أنطوني بمعرض بادوا، إلا أن تشاؤمه كان قد تأصل في ذلك الوقت. ونحن نشعر به شعوراً قوياً في المستنسخات الداكنة الوحشية للوحات Caprichos التي رسمها في ١٧٩٦ - ١٧٩٧ وتنتقد بشدة الزواج القائم على النفاق، والعاهرات المستغلات، والأطباء المزيفين، والخرافة المريعة، وتعذيب محاكم التفتيش، و«الأسطورة السوداء» التي كان جويا يكرهها كراهية «الإنساني سريع الغضب». ولم تكن تلك المستنسخات تُباع منها أعداد كبيرة. ولكنها كانت تُنشر على الأقل، على عكس سلسلة «كوارث الحرب» اليائسة الشجاعة. وقد رسم هذه السلسلة بعد عقدين من الزمان، بعد أن دمر أسبانيا الغزو النابليوني أولاً، ثم حرب شبه الجزيرة التي حارب فيها البريطانيون بقيادة ويلنجتون (الذي رسم جويا وجهه الذي أجهدته الحرب) إلى جانب رجال حرب العصابات المخيفين. وتزايدت الفظائع على الجانبين. وكان جويا يرى، كما تبين لوحة «كوارث»، أنه لا مجد في الحرب؛ فليس هناك سوى أحشاء خارجة، ويتامى، وإعدام بلا محاكمة، واغتصاب، وألم، ودم، ويأس.

ظهرت بارقة أمل لليبراليين الأسبان مع دستور ١٨١٢، الذي احتفى به جويا بلوحة الملائكة فيها تشع ضوءاً. إلا أن هذا البارقة اختفت كذلك. فبعد عامين عاد فرناندو السابع. ولكي يقضي جويا ساعتها على أدنى إشارة إلى التعاون، ألح في طلب رسم اللحظة المجيدة التي هبت فيها مدريد ضد الغزاة. وفي لوحة «الثالث من مايو ١٨٠٨»، يبدو أن الرجل ذا القميص الأبيض الذي يرفع ذراعيه كاشفاً رقبته لفرقة إعدام مجهولة ينذر بكل تلك الصراعات التي ستحدث ويواجه فيها الناس وحشية الحرب الحديثة الميكنة.

كان جويا في ذلك الوقت قد بلغ السبعين تقريباً. في البداية فر إلى منزله الريفي خارج مدريد، الذي كانت تغطي جدرانه «اللوحات السوداء» الكبيرة، وكأنه يعيش في عالم، رفاقه الحقيقيون فيه هم العفاريت، والغوغاء الصارخون، والآباء آكلو لحوم البشر المخيفون. وفي النهاية فر إلى مكان أبعد، حيث غادر بلاده الحبيبة ليعبر الحدود إلى فرنسا التي توفي فيها في عام ١٨٢٨.

ولكن إذا كان جويا، كما يبين هيوز في هذه الدراسة الدقيقة والمؤثرة، أسبانياً كأشد ما يكون، حيث عبر الخط الفاصل بين «أسبانيا القديمة» وأحلامها المستنيرة، فإن فنه يعبر كل الحدود؛ حدود الزمان والمكان، والعقل واللاعقل، والحياة البهيجة والموت العنيف. ■



الماخـــا (تفصيل) ^

الثالث من مايو ١٨٠٨ (تفصيل)



الفلسفة

عبدالرشيد الصادق محمودى

آراء حسن طلب تظل فى مأمن من النقد طالما اقتصرت على هذه الطرق المعبدة واكتفت بإيراد الحجج المسفهة لنظرية المعجزة اليونانية. غير أنه بطبيعة الحال لا يكتفى بهذه الحجج السلبية، بل يقدم نظرية إيجابية مضادة، وهى أن الفكر الفلسفى نشأ فى مصر قبل أن ينشأ فى اليونان

الأمر الشائع بين مؤرخى الفلسفة أنها نشأت فى اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد. ففى ذلك التاريخ ظهر فى مدينة ملطية بأيونيا على شاطئ بحر إيجه من آسيا الصغرى (تركيا حاليا) ثلاثة فلاسفة هم طاليس وأناكسمنس وأنكسمندر، وتكونت منهم المدرسة الأولى من الفلاسفة قبل سقراط. وكان اهتمام الفلاسفة الأول منصبا على الطبيعة، أو على مادتها الأساسية (أو عنصرها الأول) التى (أو الذى) تكونت منها (أو منه) سائر العناصر والأشياء. ولذلك وصف فلاسفة أيونيا بأنهم «طبيعيون».

وكانت للفلاسفة قبل سقراط مؤلفات مكتوبة لم يبق منها إلا شذرات ترد على سبيل الاستشهاد فى كتب المتأخرين بداية من أفلاطون وأرسطو (القرن الرابع ق.م). فيروى عن طاليس أنه قال إن الماء هو أصل الأشياء جميعا؛ وإن الأشياء ملأى بالآلهة، وإن المغنطيس حى أو له «نفس». ويروى عن أناكسمنس أنه قال إن أصل العالم هواء؟

أما أقوال ثالث الأيونيين أنكسمندر فهى تسترعى الانتباه وتثير الخيال. فالمادة الأساسية التى تكونت منها الأشياء ليست ماء ولا هواء ولا أيا من العناصر، بل هى مغايرة لكل شىء وليست لها طبيعة معروفة. لذلك سماها «تو أبيرون» أى اللامحدد أو اللامحدود، ووصفها بأنها لا تفسد ولا تموت، ورأى أنها متحركة ونامية بذاتها. والأغرب من ذلك تلك العملية التى تنشأ بها الأشياء وتفنى. فبفضل الطاقة التى تعتمل فى «اللامحدود» تكونت العناصر عن طريق الانفصال؛ ومن العناصر تكونت الأشياء المألوفة؛ ولكن هذه الأشياء تعود فتفنى فيما نتجت عنه. وذلك أن نشأة أى شىء تنطوى على نوع من العدوان على شىء آخر، ومن ثم يلقى المعتدى عقابه بأن يفنى فيما نشأ عنه. يقول أنكسمندر فى الشذرة الوحيدة المتبقية من كتاباته: «الأشياء تفنى فى تلك الأشياء التى تولدت عنها، وذلك طبقا لما قضى به؛ فهى تعوض أحدها الآخر وتدفع جزاء ما ارتكبت من ظلم طبقا لترتيب الزمان».

وكانت آراء هؤلاء الفلاسفة الأول إيذانا بانطلاق موجة فكرية عارمة. ففى غضون قرنين من الزمان بعد تلك البداية وضعت الفلسفة اليونانية أسس المذاهب الرئيسية من واحدية (تؤمن بالتغير دون ثبات أو بالثبات دون حركة أو تغير) وتعددية وذرية وعقلانية وسفسطائية متشككة نسبية ومثالية إلى آخر القائمة. حتى إذا انتهى الأمر إلى أرسطو بلغت الفلسفة اليونانية أوجها؛ فقد جمع «المعلم الأول» كل الروافد السابقة وألف عن طريق تحليلها ونقدها نسقا شاملا نظم فيه كل المعارف وأسس منها كل العلوم فيما عدا الرياضيات (المنطق والميتافيزيقا والطبيعة والحياة وعلم النفس والأخلاق والسياسة ونقد الخطابة والشعر). ومن ثم كانت الفلسفة بوصفها أم العلوم.

ولقد أثارت نشأة الفلسفة الجدل منذ القدم. فبداية من أفلاطون وأرسطو على الأقل أصبح اليونانيون يدركون ضخامة الظاهرة الجديدة وأهميتها ويحرصون على انتسابها إليهم؛ وظهر القول بأنها كانت يونانية خالصة. وفى العصر الهلنستى ظهر القول بأنها ترجع إلى أصول شرقية. وما زال الجدل مستمرا حتى يومنا هذا. فما هى الحضارة التى يحق لها ادعاء ذلك الشرف العظيم؟

أصل الفلسفة.. حول نشأة الفلسفة فى مصر القديمة وتهافت نظرية المعجزة اليونانية
حسن طلب
القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣

نظرية المعجزة اليونانية

يرى الدكتور حسن طلب - الشاعر المرموق وأستاذ الفلسفة - فى كتابه أصل الفلسفة أن الفلسفة لم تنشأ فى اليونان، بل نشأت فى مصر الفرعونية. وهو يدير فى كتابه نقدا مطولا لما يسمى نظرية «المعجزة اليونانية»، وهى نظرية يؤمن أصحابها - فيما يقول - بأن الحضارة اليونانية والفلسفة منها خاصة نتاج خالص للعبقرية اليونانية، وإنجاز طارئ غير قابل للرد إلى أصول أخرى سابقة عليه، خاصة الأصول الشرقية، والمصرية منها على نحو أخص.

وللنظرية أنصار كثيرون، ولكن المؤلف يركز نقده على بيرنت فى كتابه عن بواكير الفلسفة اليونانية. ومن المهم فى البداية أن نتبين أمرا لم يوضحه حسن طلب ولا بيرنت، وهو منشأ النظرية وسر تسميتها. وذلك أن صاحب الفكرة الأولى فى النظرية وأول من أطلق عليها ذلك الاسم الذى اشتهرت به هو الفرنسى الشهير إرنست رينان فى «صلاته» ذائعة الصيت على الأكروبول: «... فها هى المعجزة اليونانية قد أتت لتقف أمامى إلى جانب المعجزة اليهودية، وهى شىء لم يوجد إلا مرة واحدة، ولم ير من قبل قط، ولن يرى بعد ذلك أبدا، ولكن آثاره ستبقى إلى الأبد، أو لنقل إنها نوع من الجمال الأبدى الذى لا تعلق به شائبة محلية أو وطنية».

ومعنى ذلك أن فكرة المعجزة اليونانية نشأت فى أحضان الوضعية الفرنسية كما عبر عنها رينان، وهو ما يساعدنا على فهم ما انطوت عليه النظرية من مغالاة فى مناصرة العلم (النزعة العلموية) وتقديس لليونان (مع تداعياته العنصرية). فأصحاب النظرية وعلى رأسهم بيرنت ينكرون أن تكون للفلسفة أصول شرقية أو مصرية، لأنهم يعتقدون أن الفلسفة كما نشأت فى اليونان كانت ذات طابع «علمى» و«عقلانى» و«نظرى خالص»، فى حين كانت المعارف فى الحضارات الشرقية بصفة عامة وفى مصر بصفة خاصة مشوبة بالأساطير والمعتقدات الدينية والمنافع العملية. ولنلاحظ كيف يؤكد بيرنت على «الطابع العلمى» للفلسفة الأيونية وعلى أنها لم تكن مجرد تخمينات، بل كانت شأنها شأن العلوم الوضعية الحديثة تقوم على المشاهدة والتجربة. ولقد كان اليونانيون فى رأيه هم منشئو العلم الوضعى فى الأصل. وكانت الفلسفة الأيونية «علمانية» فيما يدعى.

وهناك نقطة مهمة أخرى ينبغى إبرازها لأنها ليست واضحة تماما فيما يقوله حسن طلب، وهى أن أصحاب هذه النظرية يعتقدون أن الفلسفة اليونانية لم تقطع الصلة بالتراث الأسطورى والدينى فى بلاد الشرق ومصر فقط، بل قطعتها مع التراث اليونانى المماثل أيضا. فقد كان لدى اليونان تراث حافل بالأساطير والمعتقدات الدينية كما ورد فى هوميروس وهزيود وغيرهما من الشعراء والمفكرين من المفكرين الذين عنوا بأصل العالم وأنساب الآلهة؛ ولكن الفلسفة اليونانية - كما يدعى أصحاب النظرية - نأت بنفسها عن كل ذلك وتحررت منه تماما. من هنا كان بيرنت يقول: «وفى كل ذلك ــ أى فى آراء الأيونيين - لم يكن هناك أثر للتأمل اللاهوتى. فقد رأينا أنه كان هناك انقطاع كامل عن الدين الإيجى المبكر، وأن تعدد الآلهة الأوليمبية لم يكن له قط أى سيطرة محكمة على العقلية الأيونية. ومن الخطأ بناء على ذلك أن يبحث عن أصول العلم الأيونى فى الأفكار الأسطورية من أى نوع». بل إنه يدعى فى موضع آخر أن أيونيا كانت بلادا بلا خلفية من التقاليد الموروثة ولا ماض.

وباستطاعتنا إذن أن نفهم فكرة المعجزة كما تستخدم فى هذا السياق. فقد كانت نشأة الفلسفة اليونانية وفقا للنظرية المذكورة خرقا لمجرى الأمور المألوفة ولم يكن لها أصل فى التاريخ؛ فكأنها حدث من خارج التاريخ. وفى هذا الصدد يقول مؤرخ فرنسى فى معرض التعبير عن هذه النظرية: «لم تكن نشأة الفلسفة اليونانية تغيرا فى الاتجاه الفكرى، أو تغيرا عقليا، بل كانت إلهاما حاسما ونهائيا هو: اكتشاف العقل. ويترتب على ذلك أن من العبث البحث فى الماضى عن أصول التفكير العقلانى.

فالفكر الحقيقى لا يمكن أن يكون له أصل إلا ذاته. هو خارج عن التاريخ... ولما كانت الفلسفة مسافرا دون متاع، فمن المفترض أنها تأتى إلى العالم دون ماض، ودون والدين، ودون أسرة؛ إنها بداية مطلقة».

أما الشواهد على ما فى النظرية من عنصرية وإيمان بالمركزية الأوروبية فهى متعددة. ومن الواضح أن بيرنت لم ينج من هذه التركة الرينانية؛ فهو يعبر عنها دون التباس. ومن ذلك أنه يبذل قصاراه لكى يثبت أن كل المؤثرات الأجنبية الإيجابية التى ساعدت العبقرية اليونانية على أن تتطور بحرية جاءت من الشمال (لا من الشرق أو الجنوب)، وهى التأثيرات التى حدت من تسرب الخرافة إليهم كما حدث فى مصر وبابل.

ونحن إذن بإزاء نظرية متطرفة. فهى تدعى أنها ذات طابع علمى فى حين أنها تفترض أن الفلسفة نشأت فى فراغ ودون أسباب أو مقدمات، ولأنها تؤمن بتفوق أحد الأجناس على الأجناس الأخرى. وحسن طلب لا يجد صعوبة فى دحضها بمجموعة من الاعتراضات المعقولة والمقبولة. فهو يفترض عن حق أن الفلسفة لا يمكن أن تكون قد نشأت فى فراغ. وهو يرى صراحة وعن وجه حق أن الفلسفة من حيث هى تفكير نظرى لا بد كانت متصلة بما سبقها من أساطير وأفكار دينية واهتمامات عملية، وأنها كانت استمرارا لذلك كله. وهو يرفض ما تنطوى عليه النظرية من أفكار عنصرية.

ساحة المعركة الحقيقية

وآراء حسن طلب تظل فى مأمن من النقد طالما اقتصرت على هذه الطرق المعبدة واكتفت بإيراد الحجج المسفهة لنظرية المعجزة اليونانية. غير أنه بطبيعة الحال لا يكتفى بهذه الحجج السلبية، بل يقدم نظرية إيجابية مضادة، وهى أن الفكر الفلسفى نشأ فى مصر قبل أن ينشأ فى اليونان، وأنه انتشر - كما انتشر غيره من مظاهر الحضارة - إلى اليونان. وهو يرى أن هذا الانتشار كانت له معابر؛ فقد انتقل التأثير المصرى عن طريق كريت، وآسيا الصغرى، والعبرانيين، ووقع على اليونان مباشرة. وبالإضافة إلى هذه الآراء الأنثروبولوجية والتاريخية يقدم المؤلف دراستين إحداهما عن ارتباط الفلسفة بالأساطير والمعتقدات الدينية، والأخرى تقارن بين الفكر المصرى والفكر اليونانى فى مجال القيم الدينية والأخلاقية والجمالية، وذلك لتثبت أن الأصول المصرية كان لها ما يشبهها ويتفرع عنها فى اليونان.

وسوف أرجئ مناقشة هذه الحجج إلى موضع آخر من المقالة لأننى ألاحظ منذ الآن أن المؤلف فى كل حجاجه قد أغفل إيراد الحجة الحاسمة التى تقضى على أسطورة المعجزة اليونانية قضاء مبرما، وهى أن نصوص الفلاسفة الأيونيين التى تستند إليها تكذبها. وذلك أن أقوال طاليس عن العالم المليء بالآلهة وأقوال أنكسمندر عن العدالة التى تعاقب الكائنات الطبيعية على ما ارتكبت من ظلم لا يمكن أن تكون علمية ولا بد أنها مشوبة بالأساطير والعقائد الدينية. وسوف نفصل القول فى هذه الفكرة فيما يلى. ولكن من الغريب أن مؤلف أصل الفلسفة يتجاهل تماما موضوع البحث الأساسى، وهو أصول الفلسفة اليونانية كما ظهرت فى أيونيا فى القرن السادس قبل الميلاد، وكما عبر عنها الفلاسفة اليونانيون الأول فى نصوصهم المتبقية. كيف كانت علاقة أولئك الفلاسفة بالتراث الدينى والأسطورى السابق؟ هل من الصحيح أن آراءهم منقطعة الصلة بهذا التراث أم كانت بمعنى ما استمرارا له؟ هل كانت تلك الآراء «علمية»، وبأى معنى؟

وحقيقة الأمر أن هذه الآراء ذات طابع إشكالى واضح. فهم يصنفون بوصفهم فلاسفة «طبيعيين» أو «ماديين» أو «علماء» أو آباء للعلم. ولكن من الواضح أنهم كانوا يستندون إلى تراث من الأساطير والمعتقدات الدينية. ونحن إذن بإزاء نقطة مفصلية فى تاريخ الفكر: نقطة التحول

فرعـــونيا!





من الأسطورة إلى الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة. وعلى هذه النقطة ينبغي أن ينصب البحث أولا لكي يحدد مدى إسهام مصر - إذا كان لها أي إسهام - في ذلك التحول. هل تضمن التراث الديني والأسطوري الذي استند إليه أولئك الفلاسفة عناصر مصرية؟ هل كانت المصادر التي تأثر بها هؤلاء الفلاسفة عند تحولهم إلى التفكير الفلسفي بالمعنى الدقيق للكلمة مصرية؟ هل ساعدت مصر على ذلك التحول؟

غير أننا نبحث عبثا في كتاب حسن طلب عن أي جهد مركز على هذه الساحة؛ فهو لا يناقش الفلاسفة الأوائل في نصوصهم، ولا يناقش نشأة الفلسفة اليونانية كما وقعت في سياقها التاريخي، وهو لا يناقش تأثير مصر - إذا كان لها تأثير - على هؤلاء الفلاسفة الرواد. ولكننا نراه بدلا من ذلك يوسع نطاق البحث ويتناول قضايا عامة ليس لها صلة مباشرة بالموضوع المحدد. فهو يستعين بالنظريات الأنثروبولوجية عن الانتشار الثقافي، والنظريات التاريخية عن المعابر التي انتقلت عن طريقها المؤثرات المصرية إلى اليونان؛ ويتناول بصفة عامة العلاقة بين الأسطورة والفلسفة؛ ويقارن بصفة عامة بين القيم المصرية وبين مثيلاتها في اليونان. ولكن ذلك كله لا يمس صميم الموضوع، ولا يمكن أن يثبت على نحو قاطع أن الفلسفة اليونانية نشأت أصلا في مصر أو كانت لها أصول مصرية أو أنها تأثرت بفلسفة مصرية أو حتى بأساطير مصرية. وأقصى ما يمكن إثباته هو أن من المحتمل أن تكون بعض الأفكار المصرية قد انتقلت إلى اليونان وأثرت فيها على نحو أو آخر.

إن إيثار مؤلف أصول الفلسفة للتحرك على نطاق واسع بدلا من مواجهة الموضوع في نطاقه الطبيعي المحدود قد ترتب عليه ترك ساحة المعركة الحقيقية مفتوحة لنظريات منافسة ليس لديه رد عليها. فقد استند أصحاب هذه النظريات إلى تحليل دقيق ودراسة شاملة لنصوص الفلاسفة المعنيين في سياقها التاريخي؛ وتمكنوا بناء على ذلك من نقض النظرية المتطرفة بأدلة قاطعة ومن سد الطريق أمام نظرية المؤلف فيما يتعلق بالأصول المصرية للفلسفة.

نظرية الأصول اليونانية

قلنا إن نظرية المعجزة اليونانية نظرية متطرفة. وهي رغم كثرة أشياعها لم تكن موضع إجماع بين المؤرخين الغربيين. وقد تعرضت للنقد - على الأقل منذ أن عرضها بيرنت. وهناك فيما أعلم بديلان عنها. وأول البديلين نظرية ترمي إلى أن تثبت أن الفلسفة اليونانية الناشئة كانت بالفعل امتدادا لتراث من الأساطير والمعتقدات الدينية والممارسات الاجتماعية ولكن هذا التراث كان يونانيا على سبيل الحصر أو في المقام الأول. ويترتب على ذلك أن الفلسفة ترجع في نهاية المطاف إلى أصول يونانية وليست شرقية ولا مصرية. وسوف أسمي هذه النظرية نظرية الأصول اليونانية على أن يفهم من هذا الأصول الأسطورية والدينية وما إلى ذلك من تقاليد سابقة على الفلسفة.

ومن الغريب أن مؤلف أصل الفلسفة يغفل ذكر هذه النظرية المعتدلة رغم أنها معروضة في بعض مراجعه. فهو يشير إلى دراسة كورنفورد التي عنوانها من الدين إلى الفلسفة.[3] ولكنه لا يشير إلى ما هو واضح ومشهور، وهو أن كورنفورد هو المفند الأول والأعظم لنظرية المعجزة اليونانية. ورغم أن كورنفورد لا يذكر النظرية بالاسم بل ولا يشير إلى بيرنت إلا على نحو عارض، فإنه لا يدع مجالا للشك في أنه يعمل على تقويض آراء الرجل من أساسها. فهو ينص على أن الفلسفة لم تنشأ في اليونان من فراغ. ولا ينبغي لنا - فيما يقول - أن نتخيل أن طاليس أو أنكسمندر كانا مثل آدم يوم خلق لأول مرة دون تقاليد يستند إليها ودون مخطط موروث للأشياء، وأنه كان يفتح عينيه البريئتين على عالم من الانطباعات الحسية التي لم تنسق بعد في أي بنية من المفاهيم. ولم تكن نشأة الفلسفة في رأي كورنفورد عن طريق القطيعة مع التراث الأسطوري والديني السابق، بل كانت تفترضه وتعتمد عليه. فالدين والفلسفة - كما يقول - ليسا مجالين متميزين للفكر بينهما نوع من حرب الحدود. ومن الممكن النظر إليهما بالأحرى بوصفهما مرحلتين متعاقبتين أو طريقتين من طرق التعبير عن مشاعر الإنسان ومعتقداته عن العالم.

وتطبيقا لهذه المبادئ يثبت كورنفورد أن أقوال أنكسمندر تنطوي على بنية عميقة من المفاهيم تتمثل في الإيمان بأن العالم يخضع لنظام شامل لا ينفصل فيه شيء عن أصله ويصبح مستقلا إلا عن طريق السطو والعدوان، وأن المعتدي لا بد أن يدفع تعويضا عما ارتكب من ظلم بحيث يفنى فيما نشأ عنه. وهو يعلق على قول أنكسمندر «كاتا تو كريون» (أي طبقا لما قضى به، أو القضاء باختصار) فيقول إن الفكرة تجمع بين مفهومي «القدر» و«الحق»، وأنها القوة التي تقضي بما لا بد أن يكون (بحكم الواقع) وبما ينبغي أن يكون. ويرى من ثم أن الفكرة ذات طابع أخلاقي. وهو يرجع الفكرة إلى جذورها في الأساطير اليونانية كما ترد في هوميروس وهزيود، وإلى فكرة «المصير» (مويرا). فرغم أن آلهة الأوليمب خالدة وقادرة على خرق قوانين الطبيعة، فإنها ليست قديمة قدم العالم وليست قادرة على كل شيء لأنها محدودة بالمصير الذي ليس من صنعها ولا تستطيع أن تقف في وجهه.

ويرى كورنفورد أن تلك البنية كانت راسخة متحكمة في معتقدات اليونان عن آلهة الأوليمب. وهو يستخلص من ثم أن آراء أنكسمندر عن طبيعة العالم ونظامه لم تكن إلا صياغة جديدة بعبارات عقلانية لوجهة نظر للعالم سابقة على التفكير العلمي.

ولا يكتفي كورنفورد بتعقب الأفكار اليونانية الأولى إلى أصولها الأسطورية والدينية، بل ينتقل إلى مستوى أعمق من التقصي فيرى أن تلك البنية من المفاهيم هي من قبيل التصورات الجماعية - بالمعنى الذي يريده دوركايم - لدى اليونان القدماء. وهي تصورات عميقة الجذور مستقلة عن إرادة الأفراد تورث لهم وتتحكم في كل ما أنتج اليونان من فكر بمختلف أشكاله.

النظرية الاستشراقية

وهناك نظرية أخرى منافسة لنظرية حسن طلب، سأسميها نظرية الاستشراقيين أو نظرية الأصول الشرقية، وهي النظرية التي يرى أصحابها أن الفلسفة اليونانية ترجع إلى أصول شرقية. والواقع أن كورنفورد يترك الباب مواربا لمثل هذه النظرية. فهو يلاحظ - كما سأبين فيما بعد - وجود أوجه شبه عديدة بين الأساطير اليونانية والأساطير الشرقية، دون أن يجزم بوجود علاقة من التأثير والتأثر. أما الاستشراقيون فيتعمقون في البحث شرقا؛ ولعلهم يجزمون بأن التأثير الشرقي قد وقع بالفعل؛ بل إن بعضهم يجزم بأنه وقع على الفلاسفة اليونانيين أنفسهم.

ويشير بيرنت إلى أنه وجد لهذه النظرية منذ عصر البطالمة أنصار يحاولون على نحو متعسف أن يرجعوا الفلسفة اليونانية إلى مصادر مصرية ويهودية. ويقال إن بعض الباحثين الألمان في القرن التاسع عشر قد حاول أن يقيم علاقات مباشرة بين الفلسفات اليونانية قبل سقراط وبين الحضارات الشرقية: بين فيثاغورث والصين، وبين الإيلياتيين والهند؛ وبين أمبيدوقليس ومصر؛ وبين هرقليطس وزرادشت؛ وبين أنكساجوراس وبني إسرائيل.

ولكنني لن أتوقف طويلا عند هذه الآراء المتطرفة. وسأكتفي بالإشارة إلى نظرية استشراقية معاصرة لأنها بدورها

أثارت نشأة الفلسفة الجدل منذ القدم. فبداية من أفلاطون وأرسطو على الأقل أصبح اليونانيون يدركون ضخامة الظاهرة الجديدة وأهميتها ويحرصون على انتسابها إليهم؛ وظهر القول بأنها كانت يونانية خالصة. وفي العصر الهلنستي ظهر القول بأنها ترجع إلى أصول شرقية

كان المصريون القدماء يعتقدون أن بداية العالم المطلقة شيء لا يمكن فهمه أو تعريفه؛ فهو نوع من الخواء أو العماء أو لنقل العدم. وقد ظهر الوجود فى أولى تجلياته على شكل ماء: محيط أزلى كان الإله الخالق مستقرا فيه مغمورا فى حالة من الكمون

تتميز بالاعتدال وتتخذ نقطة انطلاقها من نصوص الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط. والنظرية التى أعنيها لمستشرق بريطانى يدعى إم. إل. وست له كتاب يضم مجموعة من الدراسات عن بواكير الفلسفة اليونانية والشرق. وجدير بالذكر أن وست لم ينشر بحوثه إلا بعد أن أتقن الهيروغليفية والعبرية والأفستية والبهلوية والسنسكريتية وغيرها من اللغات ذات الأهمية العارضة - على حد تعبيره. وقد رأى أن يدرس هذه اللغات لأنه أراد أن يقرأ النصوص الأصلية فى الحضارات المختلفة وأن يقارن بينها. وهو يتوصل إلى بعض النتائج المثيرة. ومثال ذلك أنه يعتقد نتيجة للمقارنة أن مؤثرات فارسية قد وقعت على أنكسمندر، ويرى مثلا أن فكرة «الأنوار اللامحدودة» التى ترد فى أحد النصوص البهلوية المقدسة ما يقابل فكرة أنكسمندر عن «اللامحدود».

غير أن النتائج التى توصل إليها هذا الباحث الشجاع ليست فى صالح حسن طلب. فهو أى وست لا يرجع المؤثرات إلى مصر فقط، ولكنه يرجعها إلى عدة مصادر أخرى شرقية، وأهمها - حسب رأيه - مصادر فارسية. وهو يرى فى نهاية المطاف أن أفكار الفلاسفة الذين درسهم تختلف عن الأفكار الدينية والأسطورية الشرقية التى تأثرت بها ويسلم لهؤلاء الفلاسفة بالطابع «العلمى» لآرائهم. وكأنه يريد أن يقول: ليس هناك انقطاع كامل بين الأفكار الدينية والأسطورية الشرقية من ناحية وبين الأفكار الفلسفية اليونانية من ناحية أخرى. ولكن الفلسفة اليونانية الأولى تمكنت من تحويل تلك المواد الشرقية وفقا لمنطقها «العلمى» أو «العقلانى» كما حدث فى حالة المواد الأسطورية والدينية اليونانية. وبهذا المعنى تظل الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة صناعة يونانية فى نظر هذا المستشرق.

لقد قصّر حسن طلب عندما أغفل ذكر هاتين النظريتين المعتدلتين: نظرية الأصول اليونانية ونظرية الأصول الشرقية المتعددة. وهو يكتب كما لو كانت ساحة النقاش قد خلت إلا من النظرية المتطرفة - نظرية المعجزة اليونانية - التى تفترض أن الفلسفة اليونانية نشأت دون أصول على الإطلاق، وعلى نظريته التى هى بدورها متطرفة لأنها تفترض - دون دعم من دراسة النصوص ذات الصلة- أن الفلسفة اليونانية ترجع إلى أصول مصرية على سبيل الحصر.

ولو أننا تمعنا فى الأمر قليلا لبدا لنا أن مؤلف أصل الفلسفة كان مضطرا من الناحية المنطقية إلى تحاشى النصوص ذات الصلة وإهمال النظريتين المعتدلتين اللتين تقومان على دراسة هذه النصوص، وذلك أن السير فى هذا الطريق ينتهى إلى سد الباب تماما أو بصفة جزئية أمام التأثير المصرى. فالنظرية الأولى لا تورد لهذا التأثير ذكرا؛ أما النظرية الثانية فتعده على أفضل تقدير رافدا من بين عدة روافد شرقية أثرت على الفلسفة اليونانية على نحو مباشر أو غير مباشر دون أن ينال ذلك من تجديدها وأصالتها. والدرس الرئيسى الذى يمكن أو يجب استخلاصه من دراسة النصوص كما أجريت حتى الآن هو أن الفلسفة اليونانية - وقد ثبت أنها تستند إلى أصول أسطورية يونانية وغير يونانية - قد نجحت فى استيعاب كل ذلك وطبعه بطابعها الأصيل. ولم يبق أمام حسن طلب إذن إلا أن يلجأ إلى حجج عامة فضفاضة مستمدة من الأنثروبولوجيا والتاريخ وإلى آراء عامة عن صلة الفلسفة بالأسطورة والدين ومقارنات عامة تظهر أوجه شبه بين الفكر المصرى والفكر اليونانى.

ويبدو فى ظل الأوضاع المعرفية التى أشرنا إليها أن أقصى ما يمكن لنظريات حسن طلب أن تفضى إليه هو أن من المحتمل أن تكون الحضارة المصرية قد أسهمت مع حضارات شرقية أخرى فى نشأة الفلسفة اليونانية دون أن يقلل هذا الإسهام من جدة هذه الفلسفة من حيث هى فلسفة.

فلنأخذ مثلا أقواله فى العلاقة بين الفلسفة والأساطير بصفة عامة. لقد أصبح من الواضح أن القضية لا يمكن أن تحسم عن طريق نقاش نظرى عام، وذلك لأن العلاقة كما يتبين من دراسة النصوص المعنية ذات طابع إشكالى وما زالت موضع خلاف بين الباحثين.

أما المقارنات التى يعقدها صاحب أصل الفلسفة بين الفكر المصرى والفكر اليونانى فى مجال القيم، فإنها بدورها لا يمكن أن تفضى إلى نتائج حاسمة. فوجود أوجه التشابه بين طرفى المقارنة لا يثبت بالضرورة أن ثمة علاقة من التأثير (المصرى) والتأثر (اليونانى). يصدق هذا بصفة خاصة على النزعات الميتافيزيقية والمادية والمثالية والارتيابية التى يرى المؤلف أنها وجدت أصلا فى مصر ونشأت لها فروع فى اليونان. فقد يقال إن اليونانيين قد تأثروا فى هذه المجالات بحضارات أخرى، أو أنها نشأت لديهم على نحو مستقل لأنها خليقة بأن توجد فى أى حضارة لها حظ من التفكير.

التشابه المراوغ

للتدليل على أن الاعتماد على التشابه لا يمكن أن يؤدى إلى نتائج حاسمة يمكننا أن ننظر فى تلك المقارنة المهمة التى يعقدها المؤلف بين مفهوم «الماعت» (أى العدل) المصرى وبين ما يناظره فى الفكر اليونانى. وترجع هذه الأهمية إلى أن التشابه بين طرفى المقارنة يبدو صارخا فضلا عن أن من الممكن توثيقه بالنصوص. فمفهوم «الماعت» المصرى يقابله ويناظره على نحو لافت للنظر مفهوما «العدل» (ديكيه) لدى الفلاسفة اليونانيين و«القدر» أو «النصيب» (مويرا) فى الأساطير اليونانية. وذلك أن فكرة «الماعت» المصرية كما يبين المؤلف تلعب دورا جوهريا ومتشعبا فى الحياة الدينية والأخلاقية المصرية القديمة، ولها تاريخ طويل ومدلولات متعددة. فهى قد تعنى النظام والتوازن الكونى، كما قد تعنى العدالة أو الحق أو سواء السبيل أو نقيض الباطل بالمعنى الخلقى أو النظام الخلقى أو القومى إلى غير ذلك من الدلالات. وهو محق تماما عندما يشير إلى ما يناظر مفهوم «الماعت» لدى اليونان: لدى شعراء مثل هوميروس وهزيود، ولدى فلاسفة مثل أفلاطون. بل وينبغى أن نضيف إلى هذه القائمة بعض الفلاسفة الطبيعيين قبل سقراط، وعلى رأسهم أنكسمندر. فالنص الذى استشهدنا به من أنكسمندر وشرحه كورنفورد يتضمن معنى موروثا للعدل (بوصفه دفع تعويض)، كما يتضمن فكرة العدل بوصفه مرادفا للنظام الكونى. وهذه بدورها فكرة مركبة، فعبارة «وفقا لما هو مقضى» (كاتا تو كريون) تعنى وفقا للنظام القائم (ما هو ضرورى بحكم الطبيعة) ووفقا لما تمليه الأخلاق (وفقا لما ينبغى أن يكون). وغنى عن الذكر أن فكرة العدل تكتسب لدى أفلاطون وأرسطو معانى أخرى تناسب المجالات الدينية والسياسية والقانونية والأخلاقية الفردية.

وقد يغرينا هذا التشابه كما أغرى مؤلف أصل الفلسفة بأن نستنتج أن اليونانيين لا بد قد نقلوا مفهومهم عن العدل بمعانيه المتعددة أو فى بعض معانيه عن المصريين. ولكن كل ذلك قد يتحول إلى سراب إذا تذكرنا ما أوضحه كورنفورد نفسه من أن فى الحضارات الهندية والصينية والفارسية مفاهيم مماثلة.

الجوانب الإيجابية

غير أننى لا أنكر أهمية البحوث الفضفاضة التى يتسع فيها نطاق الاهتمام على نحو ما فعل صاحب أصل الفلسفة. فهو - بصرف النظر عن تطرفه فى الدفاع عن الإسهام المصرى - يدخل فى نطاق البحوث الاستشراقية التى راجت مؤخرا - مثل كتاب أثينا السوداء - والتى تشمل مختلف جوانب الحضارات المدروسة وتستعين بعلوم الأنثروبولوجيا والتاريخ والآثار ومقارنة الأساطير والأديان. وصحيح أن هذه البحوث لا تستطيع بحكم اتساع نطاقها أن تفضى إلى نتائج حاسمة فيما يتعلق بنشأة الفلسفة ولا أن تنال من أصالة الفلسفة اليونانية، ولكنها قد تستطيع أن تثبت أن الحضارات غير اليونانية قد حققت «معجزات» أخرى - فى مجال العلوم مثلا - وبذلك تساهم فى مقاومة النعرات الأوروبية. بل ان من

ليس هناك انقطاع كامل بين الأفكار الدينية والأسطورية الشرقية من ناحية وبين الأفكار الفلسفية اليونانية من ناحية أخرى. ولكن الفلسفة اليونانية الأولى تمكنت من تحويل تلك المواد الشرقية وفقا لمنطقها «العلمى» أو «العقلانى» كما حدث فى حالة المواد الأسطورية والدينية اليونانية



الممكن أن يقال إن النتائج المحتملة التى تتوصل إليها فى المجال الضيق للفلسفة لا تخلو من قيمة لأنها قد تحفز على إجراء مزيد من البحوث طلبا لدرجة أكبر من اليقين. وينبغى أن نتذكر فى هذا الصدد أن باب الاجتهاد لم يغلق؛ فدراسة تاريخ العلوم والأساطير والفلسفات فى الحضارات الشرقية- ومن بينها مصر - ما زال يتقدم ويزدهر.

التحول من الأسطورة إلى الفلسفة

كان المصريون القدماء يعتقدون أن بداية العالم المطلقة شىء لا يمكن فهمه أو تعريفه؛ فهو نوع من الخواء أو العماء أو لنقل العدم. وقد ظهر الوجود فى أولى تجلياته على شكل ماء: محيط أزلى كان الإله الخالق مستقرا فيه مغمورا فى حالة من الكمون. فلما أفاق الإله أو ظهر بعد كمون لم يجد شيئا ثابتا يقف عليه أو يجلس إلى أن وجد تلا أو زهرة لوتس أو بيضة. ومن ثم بدأ الإله الخالق بتكوين الأشياء بخلق آلهة أخرى مساعدة.

إن هذا المشهد الأول فى تاريخ الكون يذكرنا بإلحاح بأقوال الفلاسفة الأيونيين: المادة الأولى التى هى أصل كل الأشياء؛ والماء فى حالة طاليس وعالمه الملىء بالآلهة أيضا؛ و«اللامحدود» فى حالة أنكسمندر. العنصر المشترك بين المشهد المصرى والمشهد اليونانى هو التفكر فى بدء الوجود بعد أن لم يكن (بعد العدم). وهو أيضا الحرص على أن تكون المادة الأولى قريبة من العدم وإن كانت خصبة غنية بإمكانيات النشوء. ومن ثم كانت تلك المادة السائلة (السابقة على المواد الصلبة) التى هى الماء. ونحن نرى الإمعان فى هذا الحرص فى افتراض أناكسمنس للهواء الذى هو مادة ألطف من الماء (وأقرب إلى نقطة البدء المطلقة) وأغنى بالإمكانيات، وفى افتراض أنكسمندر للامحدود المفعم بالحركة، فهو أحرى بأن يكون أصل كل العناصر والأشياء المعروفة لأنه مختلف عنها وأقرب إلى الأساس أو البداية المطلقة (التى هى العدم).

فنفترض إذن على سبيل الجدال أن فلاسفة أيونيا قد استندوا إلى قصة التكوين المصرية (وغيرها من قصص التكوين الأخرى فى الحضارات الشرقية القديمة التى تعد الماء هو المادة الأولى للخلق). عندئذ يمكننا أن نقول إن الفلسفة تستعير من الأسطورة الاهتمام بالمسائل الأساسية التى تشغل الإنسان: الوجود والعدم والإلوهية. (ومن الممكن أن نستطرد فنضيف إلى القائمة مسائل أساسية أخرى مثل وجود الإنسان فى الكون وحياته وموته وواجباته ومسئولياته).

الفلسفة فرعونيا

وقبل أن ننتقل إلى أوجه الاختلاف بين الأسطورة المصرية والفلسفة اليونانية لنلاحظ مدى رقى التصور المصرى من الناحية الميتافيزيقية؛ فهو لا يبدأ بالماء بوصفه المادة الأولى قبل أن يلقى نظرة على العدم، وكأنه يتضمن التساؤل: كيف كان وجود بعد أن لم يكن ثمة شىء؟

ولكن مشهد التكوين المصرى لا يلبث أن يكشف عن طابعه الأسطورى. يحدث هذا عند نقطة الإله الذى يظهر بعد كمون. وبداية من هذه النقطة نرى أننا بإزاء قصة تروى عن الإله وأعماله كما تتعاقب فى الزمان. وكذلك كانت الأساطير اليونانية تعنى بأنساب الآلهة وتسلسل سلالاتهم وأعمالهم. أما فى حالة الفلسفة الأيونية، فقد اختفى طابع القص المتسلسل وانتهى الاهتمام بالأحداث التى وقعت للآلهة. بل لقد بدأ زوال الآلهة الأسطورية من الصورة. فآلهة طاليس التى تملأ العالم حسب قوله لا دور لها إلا بوصفها قوة مجردة تمثل حركة الطبيعة أو نموها أو حياتها. وهى إذن تسهم فى الهم الأساسى للفلسفة الأيونية وهو تفسير نشأة الأشياء بناء على خواصها الذاتية.

وأقول «بدأ زوال الآلهة الأسطورية من الصورة» لأنها لم تزل تماما فى حالة طاليس، وبقى منها شىء. ولكنها أزيلت تماما فى حالة أنكسمندر؛ فأصل الأشياء هنا يتضمن مبدأ الحركة فى ذاته. ومن الملاحظ أيضا - كما رأى كورنفورد - أن أنكسمندر قد استأصل زيوس وصحبه من آلهة الأوليمب عندما استعاد فكرة القدر (مويرا) القديمة: فالقدر وفقا لهذه الفكرة الأسطورية يعلو حكمه إرادة الآلهة. ومن الممكن بناء على ذلك أن نقول على سبيل الإجمال إن الإسهام «العلمى» و«العقلانى» فى الفلسفة الأيونية يتمثل فى أنها سعت إلى تكوين تصور للطبيعة بوصفها نظاما قائما بذاته له خواصه وخاضع لضروراته الذاتية. وهو إسهام علمى وعقلانى لأنه يقترب من فكرة الطبيعة بوصفها نظاما خاضعا للسببية والقوانين العامة ويمكن للإنسان فهمه بقواه العادية.

والواقع أن القرآن الكريم حقق إنجازا مشابها من وجوه ومختلفا من وجوه أخرى فى مجال العمل على إزالة الأساطير وتمهيد الطريق للفكر الفلسفى عندما دفع بفكرة التوحيد إلى أوجها. فقد قضى على تعدد الآلهة (الشرك) وفصل فصلا حاسما بين الله وبين الطبيعة، وجعل من الطبيعة نظاما مستقلا عن إرادة الإنسان لأنه يجرى على سنن ثابتة. ولم يكن القرآن بطبيعة الحال كتابا فى الفلسفة، ولكن علم الكلام والفلسفة الإسلاميين ما كان يمكن أن تقوم لهما قائمة بدون ذلك الإنجاز. بل وما كان للفلسفة اليونانية أن تؤثر فى مفكرى الإسلام - وقد كان تأثيرها عليهم ضخما بلا شك - لولا أن وجدت لديهم تربة ثقافية موائمة. وبفضل القرآن أساسا استطاع العرب أن يمتلكوا علوم اليونان.

ولكن ليكن لذلك حديث آخر. ولنعد الآن إلى الإنجاز اليونانى. لقد أصاب هيجل عندما رأى أن اليونانيين قد تلقوا البدايات الأساسية لديانتهم وثقافتهم من آسيا وسوريا ومصر؛ وإن كانت التعديلات التى أدخلوها على هذه الموارد تخولهم الحق فى أن تكون ملكا لهم. فهل يعنى ذلك أنه ينبغى عند دراسة الفلسفة اليونانية أن نهمل دراسة تلك البدايات؟ هنا أعتقد أن هيجل قد أخطأ - بل لعله ناقض نفسه - عندما اعتقد بناء على رأيه ذاك أن من الممكن فهم ما حققه اليونانيون بمعزل عن الحضارات الأخرى. فحقيقة الأمر أننا لا نستطيع فهم الفلسفة اليونانية فهما كاملا أو أن نقدرها حق قدرها إلا إذا رأينا كيف غيرت ما استعارت وكيف جعلته ملكا له. ومن المؤسف أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك فى جميع الحالات لا لأن اليونانيين قد محوا الكثير بفضل جهودهم الإبداعية فقط، بل لأن تقلبات الزمان وكوارثه قد أتت على الكثير أيضا.

وينبغى أن نقول بالإضافة إلى ذلك: «ربما كان الزمان ما زال يخفى الكثير». فالنتائج التى توصلنا إليها هنا قائمة فى ظل الشواهد المتاحة. وليس من المحال أن تكشف جهود الاستشراقيين وعلماء المصريات عن مفاجآت تغير من كل ذلك وتقلب كل الموازين. أقول ذلك وفى ذهنى ما حدث وما يحدث من تقدم فى هذه الدراسات مما يضيق عنه المقام هنا.

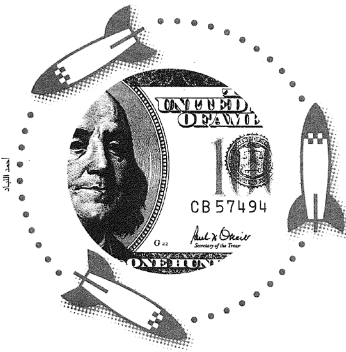
والغريب أن حسن طلب يدرك على نحو ما أن ثمة فارقا بين الأسطورة والفلسفة. فهو يتحدث عن «الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة»، ولكنه يمتنع عن تحديد ما يريده بذلك ليظل الأمر غامضا وتبقى الحدود غائمة. فهو يقر لليونانيين «بإضافاتهم وتطويراتهم العظيمة»، وبأنهم «أقاموا صرحا ممردا» على الأسس التى استعاروها. وفى رأيى أن «الإضافة» كلمة تنطوى على تقتير وتتنافر مع الاعتراف بالصرح الممرد. والعدل يقتضى أن نقول إن تلك الحركة الفكرية التى انتهت إلى تخليص مفهوم الطبيعة من الأساطير وتأسيس العلوم التى كانت متاحة لعقل الإنسان آنذاك لم تكن مجرد إضافة إلى ما سبقها. بل كانت نقلة نوعية أو طفرة أو معجزة إذا شئت، لا بمعنى أنها لم ترتكز على مقدمات وسوابق، بل بمعنى أنها كانت إبداعا أصيلا وفذا. ■

لقد أصاب هيجل عندما رأى أن اليونانيين قد تلقوا البدايات الأساسية لديانتهم وثقافتهم من آسيا وسوريا ومصر؛ وإن كانت التعديلات التى أدخلوها على هذه الموارد تخولهم الحق فى أن تكون ملكا لهم

أبحاث الفضاء

أم

مرضى الأرض؟!



ستيفن واينبرج

■■ منذ تأسيس الإدارة القومية لأبحاث الطيران والفضاء (ناسا) والجزء الأكبر من مواردها يذهب إلى إرسال الرجال والنساء إلى الفضاء. وفى الرابع عشر من يناير من العام الحالى، أعلن الرئيس بوش عن «رؤية جديدة لاستكشاف الفضاء» تزيد من كثافة تركيز ناسا على رحلات الفضاء المأهولة، التى تحمل رواد فضاء على متنها. وسوف تكتمل المحطة الفضائية الدولية، التى يجرى إنشاؤها منذ ١٩٩٨، بحلول عام ٢٠٠١، وسوف تظل فى الخدمة حتى عام ٢٠١٦، حيث تركز الأنشطة الأمريكية من الآن فصاعداً على الدراسات الخاصة بالآثار طويلة المدى لرحلات الفضاء على رواد الفضاء. وسوف تستمر سفينة الفضاء المسماة مكوك الفضاء فى الطيران حتى عام ٢٠١٠، وستظل تستخدم لصيانة المحطة الفضائية. وحينذاك سوف يستعاض عن المكوك بمركبة فضاء مأهولة جديدة ينتهى صنعها واختبارها بحلول عام ٢٠٠٨، وفيما بين ٢٠١٥ و٢٠٢٠ سوف تستخدم مركبة الفضاء الجديدة لإرسال رواد الفضاء إلى القمر، حيث سيعيشون ويعملون لفترات متزايدة. وساعتها سنكون مستعدين للخطوة التالية، وهى المهمة البشرية إلى المريخ.

مهمة ستكون باهظة التكاليف. ورغم عدم تحديد الرئيس التكلفة التقديرية، إلا أن جون ماكين رئيس لجنة التجارة والعلوم والنقل بمجلس الشيوخ أشار إلى أن المبادرة الجديدة سوف تتكلف ما بين ١٧٠ مليار دولار و٦٠٠ مليار دولار. وطبقاً لما جاء فى نشرات ناسا، فالمقصود بمبلغ المائة وسبعين مليار دولار أن يكفى ناسا حتى عام ٢٠٢٠ فقط، وهو لا يشمل تكلفة مهمة المريخ نفسها. وبعد إعلان الرئيس بوش الأب عن مبادرة مشابهة فى عام ١٩٨٩، قدرت ناسا تكلفة إرسال رواد فضاء إلى القمر والمريخ بأنها إما ٤٧١ مليار دولار أو ٥٤١ مليار دولار بقيمة ١٩٩١، حسب طريقة الحساب. ومهما كان تقدير ناسا لتكلفة المبادرة الجديدة، فمن المتوقع أن تتعدى التكلفة ما هو محدد، مثلما يحدث فى كثير من الأحيان بالنسبة لبرامج ناسا. (فى عام ١٩٨٤ قدرت ناسا أنها سوف تتكلف ٨ مليارات دولار لوضع المحطة الفضائية الدولية فى مدارها، إلا أنها لم تحسب تكلفة استخدامها. وقد اطلعت على أرقام خاصة بتكلفتها تتراوح بين ٢٥ مليار دولار و٦٠ مليار دولار، ومازال هناك وقت طويل حتى تكتمل المحطة). دعونا لا نساوم على مائة مليون دولار أكثر أو أقل؛ ذلك أننى أقدر تكلفة مبادرة الرئيس الجديدة بحوالى تريليون دولار.

ولنقارن هذا بمبلغ ٨٢٠ مليون دولار الذى تكلفه إرسال كل من الإنسان الآلى «سبيريت» والإنسان الآلى «أوبورتونيتى» مؤخراً إلى المريخ، وهو ما يساوى واحد على ألف من تكلفة مبادرة الرئيس. فوجود بشر ضمن أية مهمة فضائية يجعل التكلفة حتماً أعلى بكثير جداً. فالبشر بحاجة إلى هواء وماء وطعام. ولا بد من حمايتهم من الأشعة الكونية، التى يحمينا منها ونحن هنا الغلاف الجوى للأرض. كما أن رواد الفضاء أثناء الرحلة إلى المريخ سيكونون بعيدين عن المدى الوقائى لمجال الأرض المغناطيسى، وبذلك سيكون من اللازم حمايتهم من الجزيئات المشحونة التى ترسلها الشمس أثناء الاندلاعات الشمسية. وعلى عكس الإنسان الآلى، سوف يرغب رواد الفضاء فى العودة إلى الأرض. وعلاوة على ذلك، فإنه لا يمكن التغاضى عن فقدان رواد الفضاء مثلما يحدث فى حال ضياع الإنسان الآلى. ولذلك سوف تتسبب أية خسائر عند استخدام مركبة الفضاء الجديدة فى تعطيل البرنامج بصورة مكلفة، كما حدث بعد الحادثين المأساويين للمكوك «تشالنجر» فى عام ١٩٨٦ والمكوك «كولومبيا» فى فبراير ٢٠٠٣.

وهكذا تحتم علينا مبادرة الرئيس الجديدة أن نطرح مرة أخرى السؤال الموجود معنا منذ مغامرات الفضاء الأولى، وهو ما هى قيمة إرسال كائنات بشرية إلى الفضاء؟ وهناك صراع خطير حول هذه النقطة. فعلماء الفلك وغيرهم من العلماء عموماً يَشُكُّون فى قيمة رحلات الفضاء المأهولة، وكثيراً ما يعربون عن استيائهم من الطريقة التى تتعارض بها مع البحث العلمى. بينما عادة ما يرى مديرو ناسا ورواد الفضاء ومقاولو الفضاء والساسة رحلات الفضاء المأهولة على أنها رائعة. وقد أوضح مكتب ناسا لعلوم الفضاء أن «الهدف الأساسى لرؤية الرئيس هو تقدم المصالح العلمية والأمنية والاقتصادية الأمريكية من خلال برامج استكشاف الفضاء النشطة». ولذلك فلننظر إلى الطريقة التى تطور بها رحلات الفضاء المأهولة تلك المصالح.

يتذكر الكثير من الأمريكيين ما شعرنا به من قلق على الأمن القومى الأمريكى على نطاق واسع حين أطلق السوفييت القمر الصناعى غير المأهول سبوتنك فى أكتوبر من عام ١٩٥٧. وأثير ذلك القلق بشكل أكبر فى عام ١٩٦١ حين انطلق رائدا الفضاء السوفييتيان يورى جاجارين وغيرمان تيتوف إلى الفضاء. ودارت مركبة تيتوف سبع عشرة دورة حول الأرض، مرت فى ثلاث منها فوق الولايات المتحدة لأول مرة. ووصف توم وولف رد الفعل الأمريكى فى كتابه The Right Stuff «الشىء الصحيح»:

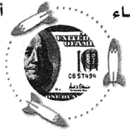
مرة أخرى، وفى أنحاء البلاد كافة، بدا الساسة والصحافيون على قدر كبير من الفزع والانزعاج، وعُرضت الرؤية المخيفة، وهى افتراض أن رائد الفضاء مسلح بقنابل هيدروجينية يلقيها حين يمر فوقنا، كأنه الإله ثور يلقى بالصواعق.... وساعتها سوف تختفى توليدو من على وجه الأرض.... وكنساس سيتى.... وليول...

وكما اتضح، فقد كان

بترتيب خاص مع:
نيويورك ريفيو أوف بوكس

ترجمة: أحمد محمود

أبحاث الفضاء أم مرضى الأرض



للقدرة على إرسال صواريخ إلى الفضاء أهمية عسكرية ضخمة. إذ حلت الصواريخ الباليستية التى تسافر فوق الغلاف الجوى للأرض تقريبًا محل القاذفات باعتبارها الوسيلة المفضلة لحمل الأسلحة النووية الأمريكية أو السوفيتية إلى أرض الخصم. وحتى فى الحروب غير النووية التى تدور رحاها الآن، تقوم الأقمار الصناعية التى تلف حول الأرض بدور مهم فى المراقبة والاتصالات والملاحة. إلا أن هذه الأسلحة والأقمار الصناعية غير مأهولة. ولا يمكن إسقاط القنابل من الأقمار الصناعية على سطح الأرض؛ فما أن يوضع شىء فى مدار فوق الغلاف الجوى للأرض حتى يبقى فى مداره ما لم يدفعه صاروخ لأسفل. وحسب علمى، فلم يحدث قط منذ رحلة تيتوف حتى وقتنا هذا أن أعطى إرسال أشخاص إلى الفضاء أية دولة أدنى قدر من التميز العسكرى.

إنى أقول هذا بالرغم من حقيقة أن بعض الأقمار الصناعية العسكرية الذى وضعها فى مدارها هو مكوك الفضاء. وهذا يمكن أن يتم وبنفس القدر من الجودة وبتكلفة أقل بكثير بواسطة الصواريخ غير المأهولة. وكان المأمول هو أنه بما أن المكوك يستخدم مرارًا، فسوف يقلل من تكلفة وضع الأقمار الصناعية فى مدارها. ولكن بينما يكلف استخدام صاروخ غير مأهول لوضع قمر صناعى فى مداره حوالى ٣ آلاف دولار لكل رطل، فإن تكلفة ذلك باستخدام المكوك تبلغ ١٠ آلاف دولار لكل رطل. وأشار عالم الفيزياء روبرت بارك إلى أنه بهذا المعدل، فإنه حتى إذا أمكن تحويل الرصاص إلى ذهب فى المدار، فلن يكون من المجزى إرسال هذا الرصاص بالمكوك. وكان يمكن لبارك أن يضيف أنه فى هذه الحالة ربما ترسل ناسا قوالب الرصاص على متن المكوك بأى حال من الأحوال، ثم تستشهد بالذهب فى النشرات الصحفية كدليل على قيمة المكوك. ولا يبدو أن هناك ما يدعو إلى استخدام المكوك لوضع بعض الأقمار الصناعية العسكرية فى مدارها، إلا إذا كانت ناسا بحاجة إلى طريقة لتبرير وجود المكوك. وكانت ناسا قد أوضحت فى عهد حكومة كارتر لنائب مستشار الأمن القومى أنه ما لم يفرض الرئيس كارتر مهام الأقمار الصناعية العسكرية على متن مكوك الفضاء فسوف يكون الرئيس مسئولاً عن القضاء على برنامج المكوك، ذلك أن المكوك لن يمكنه البقاء إذا كان لابد من تحميل المستخدمين التجاريين التكلفة الحقيقية لرحلات الفضاء.

تنطبق ملاحظات مماثلة على الفوائد الاقتصادية للسفر إلى الفضاء، وما من شك فيما للأقمار الصناعية التى تدور حول الأرض من قيمة عظيمة. فتلك منها ما يمسح سطح الأرض كى يقدم لنا معلومات عن الطقس والمناخ والتغير المناخى من كل الأنواع، وكذلك التحذيرات من الحشود العسكرية وإطلاق الصواريخ. وتبث الأقمار الصناعية البرامج التلفزيونية والاتصالات التليفونية وراء الأفق. ويعتمد النظام الكونى لتحديد المواقع، الذى يحسب مواقع السيارات والسفن والطائرات وكذلك الصواريخ، على توقيت الإشارات الصادرة عن الأقمار الصناعية. ولكن هذه أقمار غير مأهولة، ويمكن وضعها فى مدارها بأرخص التكاليف باستعمال الصواريخ غير المأهولة.

ومن الصعب التفكير فى فائدة اقتصادية مباشرة يمكن الحصول عليها بإرسال الناس إلى الفضاء. وهناك جهد متصل لزرع بلورات معينة فى الجاذبية صفر تقريبًا على قمر صناعى يدور حول الأرض مثل المحطة الفضائية الدولية، أو صنع رقائق من أشباه الموصلات فائقة النقاء فى الفراغ التام تقريبًا نتيجة لإنشاء المحطة الفضائية. وكان الرئيس ريجان قد وافق فى الأصل على المحطة الفضائية أملاً فى أن تحقق فائدة فى نهاية الأمر. ولم تتحقق أية فائدة اقتصادية من هذا، ومن الواضح أن الحكمة كانت تقتضى التخلى عن هذه البرامج فى خطط الرئيس الجديدة الخاصة بالمحطة الفضائية.

وفى الفترة الأخيرة، كان هناك كلام عن إرسال رواد فضاء هليوم ٣ النظائرى الخفيف من على القمر، حيث اختُزن عبر مليارات السنين من تعرض سطح القمر للريح الشمسية. والمهم هو أن التفاعلات الحرارية النووية المألوفة بشكل أكبر التى تستخدم نظائر الهيدروجين كوقود تنتج عنها أعداد كبيرة من النيوترونات التى قد تضر بالمواد المحيطة وتجعلها مشعة، بينما ينتج عن التفاعلات الحرارية النووية التى تشمل الهيليوم ٣ عدد أقل من النيوترونات، ومن ثم يكون الفاقد الإشعاعى أقل. وقد يسمح كذلك المفاعل الحرارى النووى الذى يستخدم الهليوم ٣ بتحويل أكثر كفاءة للطاقة النووية إلى كهرباء، إذا استطعنا جعله يعمل.

ومن المؤسف أن هذا مجرد احتمال. فأحد الأشياء التى تجعل صنع الطاقة الحرارية النووية شديد الصعوبة هو ضرورة تسخين الوقود إلى درجة شديدة الارتفاع كى تصطدم النويات ببعضها بالسرعة الكافية للتغلب على القوى المنفرة بين الشحنات الكهربية التى تحملها النويات. وتحتوى نويات الهليوم ضعف الشحنة الكهربية الموجودة فى نويات الهيدروجين، وبذلك تكون درجة الحرارة اللازمة لإنتاج التفاعلات الحرارية النووية المتضمنة للهليوم ٣ ونظائر الهيدروجين أعلى بكثير من الحرارة اللازمة للتفاعلات المتضمنة لنظائر الهيدروجين وحدها. وحتى الآن لم يتمكن أحد من إحداث تفاعل حرارى نووى ذاتى الاستدامة ومفيد باستخدام نظائر الهيدروجين. وإلى أن يحدث ذلك، لا يبدو أن هناك أهمية كبيرة لتحمل تكلفة كبيرة على القمر لاستخراج وقود سوف يجعل استخدامه توليد الطاقة الحرارية النووية أكثر صعوبة.

وفى كلمته التى ألقاها فى الرابع عشر من يناير، أكد الرئيس بوش على أن برنامج الفضاء يحدث «تقدمًا تكنولوجيًا أفاد البشرية جمعاء». صحيح أن السعى لتحقيق مهمة ملحة مثل وضع بشر على القمر يمكن أن تحقق فوائد غير مباشرة فى هيئة تكنولوجيات جديدة، غير أنى أظن أنه فى هذه النقطة كذلك ربما تكون المهام غير المأهولة أكثر إنتاجية. وفى محاولة للتفكير فى بعض النتائج الفرعية المستقبلية للمهام الفضائية التى قد تفيد البشرية بالفعل، أجد أنه من الصعب أن يطلعوا علينا بأى شىء يبشر بقدر أكبر من الخير يزيد على تجربة تصميم إنسان آلى لازم لمهام الفضاء غير المأهولة. ذلك أن هذه التجربة تساعدنا فى بناء إنسان آلى يمكن أن يوفر على البشر عناء الأعمال الخطرة والمتعبة هنا على الأرض. وإذا كانت المفاجآت ممكنة الحدوث دائمًا، فأنا لا أرى كيف ينتج أى شىء ذو قيمة مساوية عن ابتكار التقنيات اللازمة للحفاظ على حياة الناس أثناء المهام الفضائية.

لقد أكد الرئيس بوش فى عرضه لمبادرة الفضاء الخاصة به أهمية الحصول على المعرفة العلمية. وربما يتخيل بعض من يقرأ كلمته رواد الفضاء على متن المكوك أو المحطة الفضائية وهم ينظرون إلى الكواكب والنجوم من خلال التلسكوبات، أو يتجولون على القمر أو المريخ ويقومون باكتشافات تتعلق بالمجموعة الشمسية. إلا أن الأمر لا يجرى بهذه الصورة.

لا شك فى أن المراصد الموجودة فى الفضاء أدت إلى حدوث زيادة ضخمة فى المعرفة الفلكية. وإذا أخذنا مثالاً واحدًا فقط، نجد أنه فى أوائل التسعينيات قامت الأجهزة الموجودة على القمر الصناعى مستكشف خلفية الموجات القصيرة الكونية Cosmic Microwave Background Explorer بعمل قياسات لخلفية ضعيفة من تشوش راديوى قصير الموجة اكتشف فى عام ١٩٦٥. وهذا الإشعاع باق منذ زمن كان الكون فيه لا يزيد عمره على أربعة آلاف سنة. وأظهرت المادة الجديدة أن كثافة هذا الإشعاع بأطوال موجات مختلفة كانت هى فقط ما تصدره المادة شبه المعتمة عند درجة حرارة ٢,٧٢٥ مئوية فوق الصفر المطلق. وكانت

يكلف استخدام صاروخ غير مأهول لوضع قمر صناعى فى مداره حوالى ٣ آلاف دولار لكل رطل، فإن تكلفة ذلك باستخدام المكوك تبلغ ١٠ آلاف دولار لكل رطل

أبحاث الفضاء أم مرضى الأرض



تلك هى المرة الأولى فى تاريخ علم الكون التى قيس فيها أى شىء بأربعة أرقام مهمة. والأهم من ذلك أنه اتضح أن كثافة هذا الإشعاع ليست موحدة توحداً كاملاً، بل هى مكتلة تكتلاً طفيفاً. فالكثافة المرصودة تختلف من جزء لآخر من السماء بحوالى جزء واحد من المائة الف بالنسبة لاتجاهات تفصلها بضع درجات من القوس. وهذا القدر من التكتل هو ما كان متوقعاً على وجه التحديد، على فرض أن هذه الفروق فى خلفية الموجات القصيرة الكونية نشأت عن التقلبات الكمية فى التوزيع المكانى للطاقة فى الكون شديد القدم، وهى التقلبات التى أدت فى النهاية إلى ظهور تركيزات من المادة. المجرات وحشود المجرات. التى يراها علماء الفلك فى أنحاء الكون.

وأعقب ذلك عقد من أعمال الرصد شديد الدقة لخلفية الموجات القصيرة الكونية من على قمم الجبال والبالونات والقطب الجنوبى، ولكن الأثر المشوه للغلاف الجوى للأرض يحد من الدقة الى يمكن الحصول عليها بقياسات ولو من على أكبر ارتفاع يمكن أن تصل إليه البالونات. وأخيراً حققت تلك الدراسات تقدماً ضخماً فى عام ٢٠٠٢ بواسطة مهمة فضائية جديدة رائعة، وهى مسبار ويلكنسون اللاتناحى للموجات القصيرة Wilkinson Microwave Anisotropy Probe. وبعد الدوران مراراً حول الأرض لحشد السرعة، سافر هذا المسبار إلى نقطة فى الفضاء تُعرف بـ L_2، تقع على بعد حوالى مليون ميل عن الأرض (أربع أضعاف المسافة التى بين الأرض والقمر)، فى الاتجاه المقابل للشمس. وأى شىء يوضع فى L_2 يدور حول الشمس بنفس السرعة اللازمة لبقائه فى L_2. وهناك، فى الفضاء البارد الهادئ الذى بين الكواكب، كان من الممكن عمل مخطط لتكتل خلفية إشعاع الموجات القصيرة الكونية بمستوى غير مسبوق من الدقة. وأكدت مقارنة هذه القياسات بالنظرية أفكارنا العامة بشأن ظهور التقلبات فى الكون شديد القدم، وأظهرت أن الكون حالياً يتكون من حوالى ٤ بالمائة من الذرات العادية، وحوالى ٢٣ بالمائة من المادة المظلمة ذات الطابع الغريب التى لا تتفاعل مع الإشعاع، والباقى بعض من «الطاقة المظلمة» الغامضة ذات الضغط السلبى، كما حددت عمر الكون فيما يتراوح بين ١٣,٥ و ١٣,٩ مليار سنة.

إنه بحث مثير يحق لناسا أن تفخر به. وقد جعلت الأبحاث التى من هذا النوع من عصرنا هذا عصراً ذهبياً لعلم الكون. ولكن لا مستكشف خلفية الموجات القصيرة الكونية أو مسبار ويلكنسون اللاتناحى للموجات القصيرة يحمل على متنه رواد فضاء. فلم تكن هناك حاجة إلى بشر. بل على العكس من ذلك، فقد كانوا سيحدثون أخطاء فى هذه القياسات من خلال حركاتهم وحرارة أجسامهم، إلى جانب تلك الزيادة الكبيرة فى تكاليف هاتين المهمتين. وينطبق الشىء نفسه على كل مرصد من المراصد الفضائية التى وسعت معرفتنا بالكون من خلال رصد الأشعة فوق البنفسجية، أو الأشعة تحت الحمراء، أو أشعة جاما الآتية من خارج الغلاف الجوى للأرض. وقد وضع المكوك بعض تلك المراصد فى مداره، بينما حملت صواريخ غير مأهولة غيرها (بما فى ذلك مستكشف خلفية الموجات القصيرة الكونية ومسبار ويلكنسون اللاتناحى للموجات القصيرة)، وهو ما كان يمكن أن يحدث فى كل المهام.

ويعد التلسكوب الفضائى هابل حالة خاصة. ذلك أن هابل، مثله مثل كل المراصد الدوارة، يعمل عن طريق التحكم من بعد، ودون أن يسافر معه أحد. ولكن على عكس تلك المراصد الأخرى، فإن هابل لم يطلقه المكوك فحسب، بل قام رواد فضاء جاء بهم المكوك بعمل الصيانة له مرات عديدة. وأسهم هابل إسهاماً عظيماً فى علم الفلك، وهو الإسهام التى يتجاوز مجرد التقاط صور ملونة رائعة للكواكب والسُدُم. والأمر الأعظم هو أن هابل نفذ بالتنسيق مع المراصد الموجودة على الأرض برنامجاً لقياس المسافات والسرعات الخاصة بالمجرات البعيدة. وفى عام ١٩٩٨ أظهرت تلك القياسات أن تمدد الكون لا يحد من سرعته التجاذب المتبادل الخاص بمادته، كما كان يُظن، بل إنه يتسارع، الأمر الذى يُفترض أنه رد فعل للتنافر بين المادة والمادة المضادة الخاص بالطاقة المظلمة التى ذكرتها من قبل. وربما منح هابل ناسا أقوى حجة للقيمة العلمية لرحلات الفضاء المأهولة.

ولكن تلسكوب هابل الفضائى، شأنه شأن المراصد الفلكية الأخرى، كان يمكن أن تحمله الصواريخ غير المأهولة. وكان سيكفى روادَ الفضاء خطرَ رحلات المكوك، وكان سيصبح أرخص كلفة. وقدر ريكاردو جياكونى، المدير السابق لمعهد علوم التلسكوبات، أنه باستخدام الصواريخ غير المأهولة بدلاً من مكوك الفضاء، كان يمكننا إرسال هابل بدون زيادة التكلفة الإجمالية للمهمة. وحينذاك ما كان ليصبح من الضرورى إجراء أعمال صيانة لهابل؛ ذلك أنه حين تكتشف عيوباً فى التصميم أو أن أجزاء قد بليت، كان يمكننا إرسال هابل آخر.

فماذا عن التجارب العلمية التى قام بها علماء الفضاء على مكوك الفضاء أو المحطة الفضائية؟ طلبت مؤخراً الاطلاع على قائمة بالتجارب التى كلفت بها ناسا رواد الفضاء على متن مكوك الفضاء كولومبيا أثناء دخوله الغلاف الجوى للأرض. ومن المحزن القول بأنها ليست قائمة رائعة من التجارب. فقد كان نصفها تقريباً يتعلق بأثر البيئة الفضائية على رواد الفضاء. وهذا على الأقل نوع من العلوم لا يمكن عمله بدون وجود رواد الفضاء، إلا أنه لا أهمية له ما لم يكن هناك تخطيط لوضع البشر فى الفضاء لفترات طويلة لسبب آخر.

وكان جزء كبير من النصف الآخر من تجارب مكوك الفضاء كولومبيا يتعامل مع نمو البلورات وتدفق السوائل عند الجاذبية صفر تقريباً، وهى بدائل ناسا القديمة التى لم تلق الضوء على القضايا الأساسية للعلم ولم تؤد إلى تطبيقات عملية. ومن الخطر دائماً بالنسبة للعالم فى أحد المجالات أن يحاول الحكم على قيمة العمل الذى قام به الاختصاصيون فى المجالات الأخرى، ولكنى أظن أننى كنت سأعرف إذا كان هناك بالفعل ما ينتج عن تلك التجارب أم لا، غير أنى لم أسمع. وجزء كبير من البرنامج «العلمى» الذى يكلف به رواد الفضاء على متن مكوك الفضاء والمحطة الفضائية له نكهة المشروعات التى يجرى عملها من أجل مسابقات المواهب العلمية فى المدارس الثانوية. فقد يبدو جزء من العمل لافتاً للانتباه، إلا أننا لا نرى سبباً فى أن يقوم به بشر. فعلى السبيل المثال، كانت هناك تجربة واحدة فحسب على كولومبيا مخصصة لعلم الفلك، وهى قياس مفيد للفروق فى الطاقة الصادرة عن الشمس. وأبلغنى الباحث الرئيسى أن التدخل الوحيد من رواد الفضاء عبارة عن تشغيل الجهاز وغلقه.

لابد أن نسأل ونحن ننظر إلى المستقبل عن العمل العلمى الذى يمكن أن يقوم به رواد الفضاء على المريخ. إن بإمكانهم التجول والنظر إلى طبوغرافيا الكوكب وإجراء بعض التجارب على الصخور، بينما يبحثون عما يدل على الماء أو الحياة. ولكن هذا كله يمكن أن يقوم به الإنسان الآلى. كما يمكنهم جلب عينات من الصخور، كتلك التى أتى بها رواد أبوللو من على القمر. غير أن هذا كذلك يمكن أن يقوم به الإنسان الآلى. وكانت عينات صخور القمر قد جاءت بها إلى الأرض كذلك مهام قمرية سوفيتية غير مأهولة. ويقال أحياناً إن العيب الكبير فى استخدام الإنسان الآلى فى مهام إلى المريخ هو أنه يتحكم فيه أشخاص على الأرض مع الانتظار فترة طويلة (أربع دقائق على الأقل) كى تسافر الإشارات الراديوية من الأرض إلى المريخ. وسوف تكون هذه فى الواقع مشكلة خطيرة فى حال إرسال الإنسان الآلى إلى المريخ كى يلعب التنس مع أهل المريخ، إلا أن ليس هناك

ما العمل الذى يقوم به رواد الفضاء على المريخ. إن بإمكانهم النظر إلى طبوغرافيا الكوكب وإجراء التجارب على الصخور، بحثا عن الماء أو الحياة. ولكن هذا يمكن أن يقوم به الإنسان الآلى

أبحاث الفضاء أم مرضى الأرض



الكثير مما يحدث هناك الآن، ولا أرى سبباً في عدم ترك الإنسان الآلي كي يعمل بتدخل من الأرض عند اقتضاء الحاجة. وأية ميزة هامشية قد يتمتع بها رواد الفضاء على الإنسان الآلي في استكشاف المريخ سوف تقضي عليها إلى حد كبير التكلفة الضخمة للمهام المأهولة. ذلك أنه يمكننا بتكلفة وضع بضعة أشخاص في موقع واحد على المريخ أن يكون لدينا عدد من الإنسان الآلي لدراسة الكثير من المواقع المختلفة على الكوكب كله.

يفهم الكثير من العلماء وبعض مديري ناسا كل هذا فهماً جيداً. وقد قيل لي مراراً إنه لابد من الدفاع علناً عن برامج رحلات الفضاء المأهولة بأي حال من الأحوال، لأن الناخبين ونوابهم المنتخبين لا يأبهون إلا بدراما البشر في الفضاء. (ذكرني ريتشارد جاروين بمثل رواد الفضاء القديم No bucks without Buck Rogers (لا دولارات بدون باك روجرز). والمأمول هو أنه في الوقت الذي تنفق فيه أموال كثيرة على رحلات الفضاء المأهولة، فإن القليل من المال يوجه صوب العلم الحقيقي. وأظن أن هذا الموقف ينطوي على الإضرار بالذات. فحين تقع ناسا في مشاكل، فإن أول من يحتمل التضحية به أولاً هو العلم. وبعد أن دفعت ناسا ببرنامج أبوللو إلى النقطة التي توقف عندها الناس عن مشاهدة الهبوط على القمر على شاشات التلفزيون، ألغت أبوللو ١٨ و١٩، وهما المهمتان اللتان كانتا مخصصتين على وجه التحديد للبحث العلمي.

صحيح أن الإدارة تتوقع حدوث زيادة قدرها ٥ بالمائة سنوياً في ميزانية ناسا للسنوات الثلاث المقبلة. ولكن حتى الآن مازال التمويل كما هو بالنسبة للتلسكوب الفضائي الكبير التالي، بينما تجري زيادته بالنسبة لبعض البرامج العلمية الأخرى، ومنها مهام الإنسان الآلي إلى الكواكب وأقمارها. إلا أننا نرى ضرراً يلحق بالبرامج غير المرتبطة باستكشاف المجموعة الشمسية، وخاصة بالبحث في علم الكون. صحيح أن دراسة أصل الكواكب أمر مهم، ولكنه ليس أهم من دراسة أصل الكون.

بعد يومين من تقديم الرئيس بوش لمبادرته الخاصة بالفضاء، أعلنت ناسا أن المهمة المكوكية التي كانت تعتزم إرسالها لصيانة هابل في عام ٢٠٠٦ سوف تلغى. وكانت تلك المهمة ستتولى استبدال الجيروسكوبات والبطاريات اللازمة لإطالة عمر هابل حتى العقد المقبل، وكانت ستضع جهازين جديدين (صنعا بالفعل وتكلفا ١٦٧ مليون دولار) لزيادة قدرات هابل. وكان أحد هذين الجهازين سيسمح لهابل بمسح السماء بالأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية، كي يكشف الكثير عن تكوين أقدم النجوم والمجرات. وكان الجهاز الثاني عبارة عن مرسمة طيف spectrograph تعمل بالأشعة فوق البنفسجية، وكان سيقوم باستكشاف مادة ما بين المجرات في الكون القديم. وكان هابل سيحقق باستخدامه الأجهزة القديمة تقدماً كبيراً في برنامج قياس مسافات المجرات وسرعاتها، حيث يحدد تفاصيل الطاقة المظلمة التي تسرع اتساع الكون. إلا أنه بدلاً من ذلك سوف يتوقف عن العمل بعد حوالي ثلاث سنوات، حين لا يكون بمقدور جيروسكوبات هابل توجيهه بدقة. وسوف يجعلنا هذا بدون تليسكوب فضائي حتى عام ٢٠١١ على الأقل. وأخيراً، فإنه قبل أن ينزل سحب الغلاف الجوي للأرض عند أعلى نقطة له التليسكوب هابل، سوف يرسل صاروخ غير مأهول إلى هابل لإخراجه من المدار وإيداعه المحيط دون أن يحدث أي ضرر. وسوف يكون جزء من زيادة إنفاق ناسا على العلوم عبارة عن ٣٠٠ مليون دولار لتدمير هابل.

والسبب المعلن لإنهاء ناسا مهمة هابل، في الوقت الذي يستمر فيه العمل على المحطة الفضائية، هو أن صعود المكوك إلى هابل أخطر من صعوده إلى المحطة الفضائية. وعلى سبيل الافتراض، فإنه إذا اكتشف رواد الفضاء على المكوك أن ضرراً ما قد أصاب ألواح الحماية الخاصة بالمكوك أثناء الإطلاق، فسوف يمكنهم البقاء في المحطة الفضائية انتظاراً للإنقاذ، بينما لن يكون ذلك ممكناً أثناء المهمة المتجهة إلى هابل. إلا أن هناك أخطاراً أخرى كثيرة يتعرض لها رواد الفضاء، سواء أكان المكوك متوجهاً إلى المحطة الفضائية أو إلى التليسكوب الفضائي هابل. ومن بين هذه الأخطار حدوث انفجار أثناء الإطلاق، كذلك الذي دمر المكوك تشالنجر في عام ١٩٨٦. وحمل موقع صحيفة «نيويورك تايمز» على الإنترنت تقريراً من مهندس مجهول الاسم من ناسا يتحدى إعلان ناسا أن رحلة المكوك إلى هابل سوف تكون أكثر خطورة من الرحلة إلى المحطة الفضائية. ويشير هذا المهندس أو المهندسة إلى أن المكوك سوف يكون أقل تعرضاً للنيازك الدقيقة والحطام المداري عند ارتفاع هابل مما هو عليه الحال عند ارتفاع المحطة الفضائية المنخفض.

وحتى إذا أخذنا في اعتبارنا احتمال الضرر الذي يصيب ألواح الحماية، فربما لا يكون هناك فرق كبير في مخاطر الذهاب إلى هابل أو المحطة الفضائية. وقد ناقش مجلس تحقيقات حادث كولومبيا مشكلة السلامة هذه، إلا أنه أوصى بخلق ناسا للقدرة على إصلاح ألواح المكوك في الفضاء، سواء أكان راسياً في المحطة الفضائية أم لا، ولم ينته إلى أنه لابد من التخلي عن هابل. ولكي نكون متأكدين بالقدر المعقول من إنقاذ رواد الفضاء، حتى إذا اتضح أن الضرر الذي لحق بالمكوك لا يمكن إصلاحه في الفضاء، يمكن الترتيب بقدر من التكلفة الإضافية أنه حين يصعد مكوك لصيانة هابل يكون هناك مكوك آخر في وضع الاستعداد على الأرض. وعلى سبيل المثال، يمكن التخطيط لمهمة صيانة هابل قبل إحدى مهام صيانة المحطة الفضائية المخطط لها. واستجابة لضغط من الكونجرس والمجتمع العلمي، وافقت ناسا على إعادة النظر في هذا القرار. وليس لدي ما يكفي من العلم عن مسائل السلامة للحكم على هذه المسألة بنفسي، غير أنني أشارك شكاً واسع الانتشار في أنه يجري التضحية بهابل لتوفير التمويل لمبادرة الرئيس، وخاصة لكي لحفظ كل الرحلات على جدول المكوك المحدود لغرض واحد هو نقل رواد الفضاء إلى المحطة الفضائية والعودة بهم منها.

سوف يؤثر إرسال بشر إلى القمر والمريخ باهظ التكلفة سلباً على الدعم المناسب للرعاية الصحية، والأمن القومي، والتعليم وغير ذلك من المصالح العامة

ربما يعود السبب في اجتذاب قرار هابل اهتماماً عاماً كبيراً إلى توقيت هذا القرار، غير أن هناك قرارات صدرت مؤخراً عن ناسا لا علاقة لها بالسلامة، وهي بذلك تقدم أدلة أكثر وضوحاً على استعداد ناسا والإدارة الأمريكية للتضحية بالعلم توفيراً للمال من أجل رحلات الفضاء المأهولة. وفي يناير من عام ٢٠٠٣، وبعد سنوات من اتخاذ العلماء قرارات صعبة بشأن أولويات الإدارة القومية للطيران والفضاء، أعلنت ناسا مبادرة جديدة تسمى «ما بعد أينشتاين» لبحث بعض الظواهر الأكثر غرابة التي تنبأت بها نظرية النسبية العامة لأينشتاين. وتشمل هذه المبادرة قمراً صناعياً (يجرى صنعه بالاشتراك مع وزارة الطاقة) يمكن أن يطل على عدد أكبر من المجرات من على مسافات كبيرة بغرض الكشف عن طبيعة الطاقة المظلمة من خلال اكتشاف إذا ما كانت كثافتها تتغير مع اتساع الكون أم لا. وعلى نفس القدر من الأهمية بالنسبة لعلم الكون، سوف يكون هناك مسبار آخر يدرس استقطاب خلفية الموجات القصيرة الكونية لاكتشاف الآثار غير المباشرة لموجات الجاذبية الصادرة عن الكون القديم. (الصلة التي تربط موجات الجاذبية بالجاذبية العادية هي نفسها التي تربط الموجات الضوئية بالمجالات الكهربية والضوئية؛ فهي ذبذبات كافية لنفسها في المجال المغناطيسي تولد خلال الفضاء الخالي بسرعة الضوء.)

ويشمل «ما بعد أينشتاين» كذلك قمراً آخر مخصص للبحث عن الثقوب السوداء، إلى جانب منشأتين كبيرتين أخريين إحداهما منظومة تليسكوبات تعمل بالأشعة السينية تسمى «الكوكبة إكس» Constellation-X يمكنها رصد المادة الساقطة داخل الثقوب السوداء،



والأخرى تسمى «ليسا» LISA أو الهوائى مقياس التداخل الفضائى الذى يعمل بالليزر. وسوف يتكون هذا «الهوائى» من ثلاث مركبات فضاء غير مأهولة تدور حول الشمس يفصل بين كل منها حوالى ثلاثة ملايين ميل. وسوف تُقاس التغيرات التى تطرأ على المسافات التى بين المركبات الفضائية الثلاث باستمرار بدقة تقل عن واحد على المليون من البوصة عن طريق تجميع أشعة الليزر المارة بينها. وسوف يمكن لهذه القياسات فائقة الدقة الكشف عن وجود موجات الجاذبية المارة خلال المجموعة الشمسية. وسوف يكون لدى ليسا ما يكفى من الحساسية للكشف عن موجات الجاذبية الصادرة عن النجوم التى تتحطم أثناء سقوطها داخل الثقوب السوداء أو عن الثقوب السوداء وهى تندمج فى بعضها، وهى الأحداث التى لا يمكن رؤيتها بالتليسكوبات العادية. ولدى ناسا برنامج آخر قليل التكلفة إلى حد كبير يسمى «إكسبلورر» Explorer يدعم المراصد الصغيرة والمتوسطة مثل «مستكشف الخلفية الكونية» و«مسبار ويلكنسون اللاتناحى للموجات القصيرة».

ومما يؤسف له أن مكتب علوم الفضاء التابع لناسا يعلن الآن أن برنامجى ما بعد أينشتاين وإكسبلورر «لا يدعمان أهداف رؤية الرئيس الخاصة باستكشاف الفضاء دعماً واضحاً»، ولذلك فقد جرى تخفيض تمويلهما بصورة كبيرة. كما أُرجئ تمويل مهام أينشتاين الصغيرة الثلاث خمس سنوات، وأُجل «ليسا» عاماً أو أكثر، وسوف يُختصر مجال إكسبلورر خلال السنوات الخمس المقبلة، ولن يكون هناك تفكير فى مقترحات جديدة لمهام إكسبلورر لمدة عام أو عامين. وأى من هذه الأضرار لا سبيل إلى إصلاحه، غير أن الإنفاق على «الرؤية الجديدة» الخاصة بالرئيس قد بدأ بالفعل. وينذر هذا التأجيل، إلى جانب وقف صيانة هابل، باستيعاب مهام القمر والمريخ المزيد والمزيد من المال، وبأن العصر الذهبى لعلم الكون سوف يقضى عليه من أجل تزويدنا بمشهد أشخاص يذهبون إلى الفضاء ليس لأى سبب بعينه.

حين ينفد ما لدى المدافعين عن الرحلات المأهولة من حجج خاصة بمساهمتها فى «المصالح العلمية والأمنية والاقتصادية»، فإنهم يستعينون بروح الاستكشاف والحديث عن «درب أوريجون» (بوش الأب) أو ليويس و كلارك (بوش الابن). وكشأن كثيرين غيرى، فأنا لست محصناً ضد إثارة رؤية رواد الفضاء يسيرون على المريخ أو القمر. فقد مشينا مراراً على المريخ فى قراءتنا؛ مع دانتى وبياتريس أثناء زيارة كوكب الشهداء والأبطال، ومع سكان الأرض عند راى برادبرى وهم يعثرون على آثار وأشباح حضارة المريخ المختفية، ومنذ فترة أقرب مع رواد كيم ستانلى روبنسون الذين يحولون المريخ إلى وطن جديد للبشر. وآمل أن يسير الرجال والنساء على سطح المريخ. ولكن قبل أن يحدث ذلك، لابد أن نشعر بالرضا.

وأحد شروط ذلك هو أنه لابد أن يكون هناك ما يفعله الناس على المريخ ولا يمكن أن يفعله الإنسان الآلى. فإذا سافر بضعة رواد فضاء إلى المريخ وغرسوا العلم ونظروا إلى الصخور وضربوا بضع كرات جولف، ومن ثم عادوا، فسوف تكون تلك لحظة مثيرة فى البداية، ولكن بعد ذلك، حين لا يحدث ما يزيد كثيراً عن هذا، سوف يتبقى لنا إحساس مرير بخيبة الأمل، تماماً مثلما حدث بعد انتهاء مهام أبوللو. وربما يحدث بعد إرسال المزيد من الإنسان الآلى إلى مواقع مختلفة على المريخ أن نجد ما يشجع على الدعوة إلى الدراسة المباشرة التى يقوم به بشر. وإلى أن يحين ذلك، فليس هناك ما يدعو إلى ذهاب بشر إلى هذا الكوكب.

الشرط الضرورى الآخر هو حدوث إعادة توجيه للتفكير الأمريكى بشأن الإنفاق الحكومى. ويبدو أن هناك انطباعاً عاماً بأن الإنفاق الحكومى يضر الاقتصاد بسحبه أموالاً من القطاع الخاص، وهو ما يوجب الإبقاء عليه دائماً فى حده الأدنى. ومادام الجمهور يفكر فى الإنفاق الحكومى على أنه يتطفل على الاقتصاد الخاص، فإنه على عكس ما يسمى دائماً بالعلم الكبير، التليسكوبات التى تدور فى الفضاء، ومُسرِّعات الجسيمات، ومشروعات الجينوم. سوف يؤثر إرسال بشر إلى القمر والمريخ باهظ التكلفة سلباً على الدعم المناسب للرعاية الصحية، والأمن القومى، والتعليم وغير ذلك من المصالح العامة، بينما بدأ بالفعل فى التأثير سلباً على الإنفاق على العلوم.

كانت دراستى هى الفيزياء، ولذلك فإنى أتردد فى إطلاق تصريحات بشأن الاقتصاد. ولكن يتضح لى أن إنفاق الحكومة دولاراً واحداً على المنافع العامة يؤثر على النشاط الاقتصادى والتوظيف إجمالاً، بنفس الطريقة التى تخفض بها الحكومة الضرائب بمقدار دولار واحد فينفق حينئذ على المنافع الخاصة. فالفرق الأساسى هو نوع المنافع التى يحققها الاقتصاد؛ هل هى عامة أم خاصة. وليست مسألة نوع المنافع التى نحتاجها أكثر من غيرها مسألة خاصة بالعلوم الاقتصادية وإنما بالأحكام القيمية التى يمكن أن يصدرها أى شخص. وفى رأيى أن أسوأ مشكلة تواجه مجتمعنا ليست هى أن هناك ندرة فى المنافع الخاصة. المأكل أو الملبس أو السيارات الرياضية أو الإلكترونيات الاستهلاكية. بل هى وجود مرضى لا يحصلون على الرعاية الصحية، ومدمنى مخدرات لا يدخلون فى برامج إعادة التأهيل، وموانئ معرضة للهجمات الإرهابية، وموارد غير كافية للتعامل مع أفغانستان والعراق، وأطفال أمريكيين يتيمون. وقد قال جستيس هولمز: «الضرائب هى ما ندفعه للحصول على مجتمع متحضر». ولكن مادام المجتمع على هذا القدر الشديد من البُغض لدفع الضرائب، فسوف تكون هناك أموال أقل سواء لتخفيف تلك المشاكل المجتمعية أو القيام بأبحاث علمية حقيقية إن نحن أنفقنا مئات المليارات من الدولارات على إرسال بشر إلى الفضاء.

أخذت فيما سبق مبادرة الرئيس الفضائية مأخذ الجد. وقد تكون تلك هى غلطتى. فقبل الإعلان عن «الرؤية الجديدة»، واجهت الحكومة خطر حدوث ضرر سياسى نتيجة لحادث مكوكى مدمر جديد مثل كارثة كولومبيا منذ أقل من سنة. ويمكن الحد من هذه المشكلة بإلغاء رحلات المكوك قبل انتخابات الرئاسة لعام ٢٠٠٤، والسماح بما يكفى فقط من الرحلات بعد ذلك لبناء المحطة الفضائية. وتشكل المحطة الفضائية مشكلة أخرى؛ فلم يعد هناك من يثيره ما أصبح «ديك رومى مدارى كبير». وبينما تحول التعهدات تجاه المقاولين المحليين والشركاء الدوليين دون التخلص منها على الفور، فلابد من خفض تكاليفها الجامحة. إلا أن مجرد خفض نفقات المكوك والمحطة الفضائية سوف يكون أمراً غاية فى السلبية، ولا يتماشى بحال من الأحوال مع ما قد يكون متوقعاً من «رؤية الرئيس». ولذلك فلنعد إلى القمر وإلى المريخ! فمعظم هذه المهام غير المأهولة سوف يحين وقتها بعد ترك الرئيس لمنصبه فى عام ٢٠٠٥ أو ٢٠٠٩، ويمكن تغطية النفقات الزائدة قبل ذلك بشكل جزئى عن طريق خفض نفقات أشياء أخرى لم يهتم بها أحد فى البيت الأبيض بحال من الأحوال، مثل البحث عن الثقوب السوداء وعلم الكون. ومن الذى سيهتم بعد انتهاء فترة الرئيس؟ فإذا لم يكن الرؤساء القادمون غير مستعدين لتمويل هذه المبادرة، فحينئذ سيكونون هم من يتحمل وصمة الرؤية المحدودة. ولذلك فإننا إذا نظرنا إلى الجانب المشرق، فإنه بدلاً من إنفاق ما يقرب من تريليون دولار على المهام المأهولة المتجهة إلى القمر والمريخ، فقد ينتهى بنا الحال إلى إنفاق جزء يسير فقط من هذا على لا شئ بالمرة. ■

> **أسوأ مشكلة تواجه المجتمع الأمريكى ليست هى أن هناك ندرة فى المنافع الخاصة. المأكل أو الملبس أو السيارات الرياضية أو الإلكترونيات الاستهلاكية. بل هى وجود مرضى لا يحصلون على الرعاية الصحية**

«الأنفلونزا الكبرى» أخطر

ويليام ماكنيل

قبل أيام، أعلن علماء أمريكيون وصينيون أن سلالة «مخيفة» من الفيروس المسبب لمرض «أنفلونزا الطيور» القاتل للإنسان، تمر حاليًا بطفرة ويمكن أن تتفشى بين البشر ما لم يتم السيطرة عليها حيث ظهرت إصابة بين «البط» ويجب التحرك الفعلي لمنع انتقالها إلى الدجاج. وفي اليوم الأول من يوليو «تموز» هذا العام أعلن في فيتنام أن نحو ٤٥٠٠ دجاجة نفقت «خلال الأشهر الثلاثة الماضية» بسبب وباء أنفلونزا الطيور. وهذا المقال يلخص القصة الملحمية التي كتبها جون باري عن هذا الوباء، عندما تفشى ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ واستحق أن يوصف بأنه الوباء الأكثر فتكًا في التاريخ.

(المحـــرر)

[١]

■ رواية «جون باري» عن وباء الأنفلونزا الذي تفشى ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩. وقتل من البشر أكثر مما قتلتهم بنادق وحراب الحرب العالمية الأولى، رواية رائعة مفعمة بالحياة زاخرة بالمعلومات ويتعين أن تثير اهتمامًا غير عادي في عام ظهور نوع فتاك من «أنفلونزا الطيور» ينتقل إلى البشر ويتفشى في شرق آسيا وقد يكون على وشك اجتياح العالم على نطاق واسع كما فعل سلفه «وباء ١٩١٨». في ذلك العام، لم يكن أحد يعرف سبب الوباء، الأمر الذي أدى إلى فشل جهود إيجاد الدواء. أما اليوم فإن المشتغلين بالطب، وكذلك هيئات الصحة العامة، في وضع استعداد أفضل كثيرًا عما كان عليه الحال عام ١٩١٨. إنهم يعرفون الآن طرق تحصين الإنسان ضد فيروس الأنفلونزا. رغم ذلك، ومع كل الخبرات والمهارات المتراكمة، يظل الشك قائمًا في قدرة المؤسسة العلاجية المعاصرة على تقديم المصل الضروري، في التوقيت الصحيح، وبالقدر الكافي، لإحباط زحف أمراض وموت مشابه لما حدث قبل ٨٦ عامًا.

يروي «باري» قصة الوباء في فصول تبحر عبر أزمنة بعيدة وقريبة، وتفاصيل مثيرة لذكريات بداية تفشي الأنفلونزا في ولايات أمريكية. يتعرض للمحاولات المعملية والجهود الحثيثة، وإن فشلت، لمجموعة من الأطباء الأمريكيين سعت إلى العثور على الجرثومة المسببة للمرض، بهدف إيجاد المصل المضاد للوباء الذي خمد في نهاية المطاف وانحسر نتيجة عوامل خاصة بالدورة الطبيعية للجرثومة وتطورها، والعلاقة الأزلية ما بين الكائنات الحية والبيئة وارتفاع مستويات المقاومة داخل خلايا الدم عند الإنسان، والتغير المهم المفاجئ للمورثات، والذي يجرد الفيروس من خاصيته المميتة.

خمد الوباء لأسباب لم تكن مفهومة زمن تفشيه، ودون أي تدخل طبي يعترض عملية التفاعل الطبيعي بين الفيروس الطفيلي وجسم الإنسان. لكن رواية «باري» تستفيد من الاكتشافات العلمية اللاحقة، وتستند إلى فهمه المتجدد المثير للإعجاب والذي يضفي تفردًا وهيبة، على الصور التي يرسمها لـ «ديناميكية» العدوى والوباء، ووظيفة الفيروس ومحاولة الأطباء ومسئولي الصحة العامة مواجهة الخراب والتعامل مع الموقف. يرصد «باري» الأخطاء ويبدي تقديره لـ «الجهد»، ويعيد بناء دورة العدوى وطبيعة الوباء في ضوء مستويات الفهم العلمي الحالية، ويقول إنه احتاج لكي ينجز كتاب «الإنفلونزا الكبرى» إلى ٧ سنوات، وهي ضعف الفترة التي توقعها لإنجازه، وإن بعض أسباب «التأخير» تعود إلى توسعه في فصول الكتاب عندما قرر دراسة الأوضاع المؤسفة لصناعة الدواء الأمريكية قبل العام ١٩١٨ كي يتوصل إلى فهم أفضل للموقف الذي كان على العلماء والأطباء مواجهته عندما تفشى وباء الإنفلونزا في ذلك العام. ويشير باري إلى سبب آخر يكمن في صعوبة الحصول على مادة مفيدة عن الوباء ويقول: «كان من السهل تتبع حكايات الموت. لكن اهتمامي الأكبر انصب على حكايات أولئك الذين حاولوا ممارسة بعض سيطرة على الأحداث. وكل من فعل ذلك كان في عجلة من أمره، وفي حالة ارتباك شديدة إلى درجة أن أحدًا لم ينتبه إلى ضرورة تدوين الأحداث وحفظها في سجلات».

السجلات هي، بلا شك، أول ما ينهار تحت وطأة تفشي الوباء. وظني إن عاملاً آخر له تأثيره في هذا السياق ويتمثل في وجود أسباب خاصة تدفع الذين نجوا من الوباء إلى قمع ذكريات معاناتهم. وهذا العامل يفسر، في اعتقادي، ندرة الأرقام في الذاكرتين العامة والخاصة عن وباء إنفلونزا عام ١٩١٨، رغم ضخامة الإحصاء الذي سجل حوالي ٦٧٥ ألف حالة وفاة في الولايات المتحدة، وما بين ٢٠ إلى ٥٠ مليون حالة حول العالم، معظمها في الأسابيع الاثنى عشر الأخيرة لعام ١٩١٨. إن كل من عاش تلك الأسابيع الأخيرة، والى أن دار الوباء دورته، خاض تجربة الخوف من الموت أو من السقوط مريضًا، أو عانى معاناة حادة مع المرض. لقد كنت من هؤلاء الناجين لكنني لا أتذكر شيئًا إذ كان عمري وقتها ١٣ شهرًا عندما سقطت أمي صريعة المرض في شيكاغو. كانت حاملاً في شقيقتي التي وضعتها في الرابع عشر من ديسمبر ١٩١٨، قبل موعد ولادتها بأسابيع. أصبت، ووالدي، بالأنفلونزا، وكان والدي خريجًا جامعيًا مفلسًا وجد نفسه، وأمي، وحيدان في مدينة مشلولة وبلا أقرباء أو عون خارجي. لم يسجل والدي معاناتهما في كتاب. ولم أسمعهما يتحدثان. فيما بعد. عما تبقى لديهما من ذكريات. بدت التجربة الأكثر رعبًا في حياتهما وكأنها تعرضت لمحو ذاتي منظم لكي يبقى ما جرى بالفعل، وصراعهما من أجل البقاء، مجهولاً بالنسبة لي. لكنني علمت من كتاب «باري» أن وباء الإنفلونزا كان أقل فتكًا في شيكاغو مع حلول شهر ديسمبر عام ١٩١٨، عما كان عليه بداية تفشيه داخل معسكرات الجيش بالساحل الشرقي والمدن القريبة. «أصيب الشرق والجنوب بالوباء مبكرًا وبقوة أعنف من تلك التي أصابت الساحل الغربي.. وفي وسط البلاد كانت المعاناة قليلة». وهذا يفسر لي نجاة والدتي، وكذلك شقيقتي، رغم أن الأشهر الستة الأولى من عمرها كانت محفوفة بالمخاطر. وعندما لجأت أسرتي خلال الصيف إلى مسقط رأس أبي في مزرعته بكندا، أنقذت الشمس المشرقة، ورعاية جدتي، أمي وشقيقتي من أهوال شهر ديسمبر. انزوت الأهوال بعيدًا في زوايا النسيان وبقيت النهايات السعيدة تعاد وتروى دون ذكر لتفاصيل آلام الوحدة والخوف واليأس والمعاناة.

لدى كل من عاني وشفي من وباء الأنفلونزا ذكريات مشابهة مقموعة. ويرى «باري» أن كتاب الصحافة والدراما في العشرينيات لم يذكروا إلا القليل عن معاناة البشر أيام الوباء. وأذكر أن الشخص الوحيد الذي تحدث معي عنه، في المحيط الذي تربيت فيه، كان صبيًا

> الرسالة الواضحة هي أن عودة انتشار الموت بفعل الأنفلونزا لاتزال قائمة رغم كل المعرفة العلمية المعاصرة، ورغم كثرة المنظمات العالمية المنوط بها مقاومة الأوبئة

The Great Influenza: The Epic Story of the Deadliest Plague in History

الأنفلونزا الكبرى: القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكًا في التاريخ

John M. Barry

Viking Books, 2004, 560pp

المصدر:

The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

ســــلاح دمــــار شـــامـــل

القصـــة الملحميـــة للـوبــــاء الأكثـــر فتكـــا فــى التـــاريــخ

مات والده فى معسكر للجيش. وما نقلته إليه أمه لم يكن فيه الكثير عن وباء الأنفلونزا بقدر ما فيه عن الحرب التى اعتبرتها سبب وفاة زوجها. الجديد عند «بارى» هو عثوره على ما يشبه رواية يوميات تسجل حالة الإصابة بالوباء فى كتاب بعنوان «فرس شاحب.. فارس شاحب» نشرته «كاترين آن بورتر» عام ١٩٣٩، وكانت نفسها ضحية المرض. وينقل «بارى» عن «بورتر» قولها: «...راحت تغرق وتغرق فى ظلمات عميقة. رقدت كحجرة فى قاع الحياة مدركة أنها لم تعد ترى أو تسمع أو تتكلم. لم تعد تشعر بأعضاء جسدها. انسحبت إلى نقطة بعيدة عن اهتمامات البشر ولم تتبين سوى لحظة احتراق وحشية فى بؤرة من كينونتها لعلها شكلت الدافع الوحيد وراء إرادة عنيدة لكى تقاوم الانهيار دون حراك أو مساعدة أو خطة...». هذه المشاعر تبدو زائفة بالنسبة لى فقد أصبت، فى الخمسينيات، بالتهاب رئوى (وهو القاتل الفعلى لمعظم ضحايا وباء الأنفلونزا). وربما شعرت وقتها بـ «قاع ظلمات وانسحابات» بورتر. لكننى لم أشعر بتلك «الإرادة المشتعلة» للحياة. فى المقابل، وبفضل «البنسلين» أصابنى الشحوب ورقدت فى حالة إغماء وصحوت فى اليوم التالى خائر القوى بدرجة لم أعرفها من قبل.

آلام الحمى تعقبها حالة إغماء، وبعدها إما أن نشفى أو نموت. وأظن أن هذا هو ما خبره معظم ضحايا وباء الأنفلونزا ما بين عامى ١٩١٨. ١٩١٩. لا يوجد الكثير لكى يقال ويذكر. ولا يقول كتاب «بارى» الكثير عن كيف كان الحال عند الإصابة بالأنفلونزا الوبائية فى تلك الفترة. لكنه، وبصياغات أدبية غير عادية، وبراعة مثيرة للإعجاب فى عرضه لكل جديد فى علم الأوبئة، يقوم بعملية تنشيط قوية للذاكرة المعاصرة فى وقت قويت فيه التهديدات من أشكال جديدة لفيروس أنفلونزا مميت ظهر ويثير قلق المختصين والعامة على نطاق واسع.

[٢]

يعد وباء الأنفلونزا من أخطر الأوبئة التى تهدد البشرية. وتكمن خطورته فى أن الفيروس المسبب له يكون فى حالة تغير مستمرة خلال انتقاله ما بين الطيور والخنازير والكائنات الحية. وكل موسم جديد من مواسم «الأنفلونزا» يحمل تحديات جديدة للمختصين الذين عليهم أن يحددوا، وعلى وجه الدقة، نوع سلالة الفيروس التى يمكن استخدامها لإعداد المصل المضاد الملائم، وكذلك تحديد نوع الجرعات التى يمكن لملايين الأطفال والمسنين تعاطيها لمنع العدوى. ومواجهة هذه التحديات لا تزيل التهديد الذى يظل قائماً ويتمثل فى أن كل نوع يظهر فجأة من فيروسات الأنفلونزا يكون على درجة من الاختلاف عن ما قبله، تجعله قادراً على مقاومة المصل وكل المضادات الحيوية المتراكمة داخل أنظمة التحصين عند الطيور والخنازير والبشر.

وتتميز الفيروسات، كشأن كل الكائنات الحية، بقدرة على التحول والتغير واستمرار افتراسها. بلا رحمة. لخلايا أجسادنا. ونحن. كبشر. لدينا قدرات فريدة تمكننا من مقاومة أشكال هائلة لأنواع أخرى من فيروسات الأنفلونزا، إضافة إلى قدرة على استفزاز مصادر الطاقة الكامنة داخلنا. ونجد. فى المقابل. أن فيروس الأنفلونزا مقيد، بشكل محدود، ويعتمد. كما أشرنا. على إمكانية التحول المفاجئ والناجح إلى طفيل يصيب الطيور (المصدر الأساسى لتغذية الفيروس) كما يصيب مختلف الثدييات مثل الخنازير والبشر بالدرجة الأولى. هكذا يقدم «بارى» فى كتابه، أكثر التفسيرات وضوحاً لكيفية تمكن نوع بعينة من فيروس الأنفلونزا من اختراق الخلايا البشرية والتكاثر داخلها، وخلال ما يقرب من عشر ساعات، إلى آلاف الفيروسات المنبعثة من الخلية الميتة والمستعدة القادرة على تكرار الدورة المميتة.

أوضح بارى كيفية تغير الفيروس عبر ما يسمى بـ «تحول الجسم المضاد» وبصياغات دقيقة ومحكمة وأسلوب بسيط يسهل فهمه. فالسرعة التى تتكاثر بها فيروسات الأنفلونزا وتنتشر بنجاح داخل أجسادنا هى التى تزيد من وطأة المرض وشدته. ورغم قدرة الأجسام المضادة، داخل الجسد البشرى، على كبح هذا التكاثر، إلا أن نوعاً ثانوياً من البكتيريا يغزو الحنجرة والرئة ويتكاثر ويكون القاتل الفعلى لمعظم ضحايا الأنفلونزا.



يسوق «بارى» فى كتابه ملاحظات كثيرة وجيهة حول انعكاسات سلبية لحالة التعبئة الأمريكية النشطة فى الحرب العالمية الأولى، على وباء عام ١٩١٨. فى مقدمة هذه الملاحظات أن الآلاف من الجنود الصغار كانوا أكثر عرضة للعدوى عندما فرضت التعبئة للحرب تكدسهم بالآلاف داخل معسكرات ضيقة وعشوائية. هذه الحقيقة كانت معروفة لمجموعة صغيرة من الأطباء الذين تتبع «بارى» تاريخهم المهنى مثل ويليام هنرى ويلش، سيمون فيلكستر، ويليام كراوفورد جورجاس، ويليام بارك، أوزوالد أفيرى، وبول لويس. بعض هؤلاء، وخاصة جورجاس، ويلش، وفيلكستر، كانوا فى وضع سمح لأصواتهم المحذرة بأن تصل إلى القيادات لكن ضرورات الحرب، الحقيقية أو المبالغ فيها، أدت إلى تجاهل جهودهم الرامية إلى عزل ومحاصرة المرض الوبائى فى بداية تفشيه. وتفيد إعادة ترتيب الإحصاءات بأن عدد الجنود الذين لاقوا حتفهم بسبب العدوى أكثر من عدد هؤلاء الذين قتلتهم إصابات الجروح. كما أن الأمصال المضادة لأمراض مثل التفوئيد والكوليرا، والتى جاءت ثمرة تطورات علم الجراثيم عام ١٩١٧، هى التى ساعدت على نجاة ملايين البشر داخل الخنادق على الجبهة الفرنسية، فى وقت كان فيه الجنود الروس يموتون بالتيفوس وأوبئة مماثلة، على الجبهة الشرقية لتلك الحرب البعيدة كان الطبيب جراح كراوفورد جورجاس يعرف ذلك جيداً عندما عين برتبة جنرال بالجيش الأمريكى بعد أن ذاع صيته لنجاحه فى

السيطرة على وباء الحمى الصفراء فى هافانا ومنطقة القنال (فى كوبا). لقد عمل جورجاس على إنتاج وتخزين كميات كبيرة من الأمصال والمضادات الحيوية والمحاليل. رغم ذلك، وعندما تفشى وباء الحصبة فى ولايتى جورجيا وتكساس ما بين سبتمبر ١٩١٧ ومارس ١٩١٨, تبين أن استعداداته لم تكن كافية وتسجل الإحصاءات ٥ آلاف و٧٤١ حالة وفاة بالحصبة فى معسكرات الجيش الموبوءة. لكن هذا الرقم سرعان ما تضاءل أمام أرقام ضحايا هجوم الأنفلونزا الذى بدأ فى الشهر الذى خمد فيه وباء الحصبة. ففى مارس ١٩١٨ بدأ وباء الأنفلونزا يتفشى فى معسكر «فنستون» بولاية كنساس. كانت الوفيات قليلة فى البداية، ولم يبدأ الاهتمام الواسع المشوب بالخوف إلا فى شهر يوليو عندما حصدت موجة ثانية من الوباء المزيد من الأرواح مع ظهور أعراض حادة تشير إلى أنها أنفلونزا غير عادية، وتزامن تفشيها فى كل من برست بفرنسا، فرى بورت بسيراليون، وبوسطن ماستشوستس. وسرعان ما راح ينتشر فى أنحاء العالم تحمله السفن والطرق الحديدية ليصل ذروته فى سبتمبر وأكتوبر ثم يبدأ فى الانحسار تدريجيًا بعد توهجات متواترة.

يُرجع جديد الأبحاث نشأة وباء أنفلونزا عام ١٩١٨, داخل الولايات المتحدة على الأقل، إلى سلالة خبيثة لفيروس أصاب بعض أهالى ريف كنساس فى فبراير من ذلك العام، وأن العدوى انتقلت إلى معسكر «هاكسل» بواسطة ثلاثة رجال طُلبوا لأداء الخدمة العسكرية فى ذلك الشهر وقبل بداية موسم الحصاد فى كنساس. ونحن نعرف أن نشأة وباء أنفلونزا الطيور الجديد وتفشيه (بداية العام الجارى) كانت فى ريف شرق آسيا. ففى الريف يعيش الإنسان عادة على قرب شديد من الطيور والخنازير.

المصدر الأكيد للوباء القديم (١٩١٨) لم يتحدد بعد. لكن «بارى» ركز انتباهه على سلسلة أحداث مترابطة ومنتقاة عن مسار الوباء وانتشاره فى الولايات المتحدة وبعض أجزاء من العالم. وقد لوحظت أهم إصابات الوباء مع نهاية أغسطس وخلال الأيام الأولى من سبتمبر فى معسكر ديفنس بولاية ماستشوسيتس حيث تكدس ما يقرب من ٤٥ ألف رجل فى المعسكرات العشوائية وسجلت أيام الذروة ما يقرب من ألف و٥٤٣ إصابة، وحوالى ٢٠٠ حالة وفاة كل يوم. كان الأطباء والممرضات الأكثر عرضة للعدوى، وسقط العديد منهم بين مرضى وموتى، وسرعان ما انهار مستشفى المعسكر وأعلن المتحدث الرسمى له، يوم ٢١ سبتمبر، أنه لن يُسمح بدخول المزيد من المرضى مهما كانت حالاتهم. كادت الرعاية الصحية تنعدم تمامًا إلى أن ظهر الدكتور ويليام هنرى ويلش على مسرح الأحداث باعتباره «البطل الأمريكى» الرئيسى الذى أنشأ مختبرًا علميًا للدواء، على الطريقة الألمانية، ووصفه بارى فى كتابه بأنه «زعيم الحركة التى أوجدت أكبر مؤسسة علمية للدواء، وربما أعظم مؤسسة علمية فى العالم كله». وقت ظهور الدكتور ويلش كان أكثر من ستة آلاف جندى قد حشروا داخل المستشفى صمم لاستيعاب ما لا يزيد على ٢٥٠٠ مريض. واختفت المرضات وتزايدت المخاطر مع تزايد الأمراض. أنوف وآذان نازفة، وجوه زرقاء، ورئات محطمة بصور غير معهودة، جنبًا إلى جنب مع جثث الموتى المتراكمة كالحبال والأخشاب. هذه الصور الدامية اقنعت ويلش ورفاقه بأن «هذا لابد أن يكون نوع جديد من العدوى أو الطاعون». لكن ويلش، وبعض العلماء، سرعان ما تخلوا عن هذا الاعتقاد وتوصلوا إلى أن سبب الوباء يكمن فى نوع خبيث جديد من الأنفلونزا مركب من «تشكيلة» من الأوبئة الأخرى. ويبقى السؤال يبحث عن إجابة محددة: ما هو سبب وباء الأنفلونزا؟

أوضحت أبحاث حديثة، فى مجالات وباء السل وأوبئة بكتيرية أخرى، أن معرفة الوباء تتطلب أخذ مسحات من الأغشية المخاطية للمرضى والموتى، ثم محاولة إنماء البكتيريا العالقة بتلك المسحات فى المختبرات على أمل تحديد هوية الكائن الحى المسئول، أو المسبب للمرض. وتستند هذه النظرية إلى فرضية أن كائنًا شديد الدقة، متناهى الصغر، لا يرى إلا تحت المجهر ويدعى «الفيروس المترشح»، ربما يكون مسبب المرض. وكان الدكتور لويس، أهم أبطال رواية «بارى» ميالاً إلى هذه النظرية خاصة وقد أثبت من قبل أن فيروسًا مشابهًا يكمن وراء «شلل الأطفال». لكن تسمية المسبب غير المرئى باسم جديد دون تحديده، تعد أمرًا شديد الشبه بأن نرجع سبب مرض ما إلى «بخار عفن منبعث من مستنقعات»! وهذا هو ما فعله أكثر أطباء أوروبا إطلاعًا، فيما قبل الثمانينيات، عندما أثبت الطبيب الألمانى روبرت كوتش، نظرية «الجرثوم المنافس»، وأعلن أن أنواعًا محددة من البكتيريا الدقيقة التى يمكن رؤيتها تحت المجهر، هى التى تتسبب فى وبائى السل والكوليرا. تمكن كوتش من تطوير طرق إنماء هذه البكتيريا فى معمله ثم قتلها وإعداد أمصال مضادة. ولا يمكن لهذه الخطوات أن تتم طالما بقيت الفيروسات غير مرئية. لهذا لم يكن أمام أطباء وعلماء عام ١٩١٨ إلا تركيز جهودهم الساعية إلى إيجاد علاج لوباء الإنفلونزا، على ضرورة اكتشاف البكتيريا العضوية المسئولة عن الوباء. وفى ألمانيا، عندما تفشى نوع بسيط من وباء الأنفلونزا، أعلن طبيب محترم يدعى ريتشارد بفيفر أنه اكتشف نوع جديد من هذه البكتيريا قال إنها تنمو داخل حناجر المرضى وتسبب ما أسماه بـ «الأنفلونزا البكتيرية». ويبدو أن الدكتور بفيفر ظن أن موقعه كمدير لمعهد برلين للأمراض الوبائية سيجعل «اكتشافه» جديرًا بالتصديق. إذ أن العثور على تلك البكتيريا الجديدة فى حناجر المصابين بالأنفلونزا كان أمرًا شديد الصعوبة. إضافة إلى فشل د. بفيفر فى إيجاد الوسائل المعملية الكفيلة بإنماء هذه البكتيريا ومحاولة إعداد أمصال مضادة للمرض.



ومن المؤكد . علميًا . أن ما حدث عام ١٩١٨ هو أن مجموعة متنوعة من البكتيريا غزت حناجر ورئات الأشخاص الذين تحللت أو دمرت أغشيتهم المخاطية نتيجة إصابتهم بفيروس الأنفلونزا الخبيث. هذا الفيروس الذى أحكم سيطرته وأحدث تلفيات وردود أفعال لأنظمة المناعة داخل جسم الإنسان، وغمر الرئة بخلايا ونفايات فيروسية. هذه هى الأسباب . المرجحة . وراء معظم الوفيات. أما بكتيريا الدكتور بفيفر فقد ظلت غير واضحة إلى أن تحسنت وسائل الفحص المعملى وتم اكتشافها فى مسحات أغشية مخاطية، الأمر الذى دفع د. بول لويس إلى التخلى عن فكرة وجود فيروس واحد وراء العدوى واللحاق بالفريق الذى يعتقد أن بكتيريا د. بفيفر هى المسبب للمرض. لكن هذا الاعتقاد انتهى بإعداد مصل يستفيد من جثث الموتى لكنه عديم الجدوى فى مكافحة الأنفلونزا. عدم فاعلية هذا اللقاح، وكل جهد بذل فى إطار نظرية بفيفر، أنعش من جديد نظرية الفيروس الواحد إلى أن جاءت الأربعينيات بالمجهر الإلكترونى القادر على أن يجعل الفيروس مرئيًا وأصبح من الممكن تمييز مختلف الفيروسات ودراسة سلوكها. لقد كان على الفهم المعاصر لفيروس الأنفلونزا، وقدراتنا الحالية على إعداد المصل المضاد، أن ينتظر اختراع المجهر الإلكترونى. ويقودنا الحديث إلى جهد مواز بذل ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ وكان أكثر نجاحًا فى إيجاد المصل المضاد للالتهاب الرئوى رغم أن فاعلية هذا المصل كانت مقصورة على التعامل مع بعض سلالات الجراثيم التى تصيب الرئة، وأدت صعوبة تصنيعه إلى إنتاج كميات ضئيلة منه لم تكن متوفرة إلا قبل النهاية «الطبيعية» للوباء. رغم ذلك، وكما يقول «بارى» فى كتابه، تبين أن تلك الأبحاث والتجارب التى أجراها د. أوزوالد حول جراثيم الرئة هى التى قادت عام ١٩٤٣ إلى الاكتشافات الأولية

للحمض النووي DNA في التركيب الوراثي.

حكايات «باري» عن بكتيريا الدكتور بفيفر وجهوده المعملية لإيجاد علاج للإنفلونزا، حكايات زاخرة بالمعلومات وتنويرية يرويها بإعجاب ويضفي أبعاداً درامية في تناول كل جهد لكل عالم أو طبيب من أبطال روايته. رغم ذلك يعاني كتابه من أوجه نقص تجعل روايته عن وباء الإنفلونزا غير شاملة، ركز باري على ما حدث داخل الولايات المتحدة لكنه لم يخبرنا. عملياً. إلا بما حدث في مكانين فقط بـ الموقف الكارثي في معسكر ديفنس بولاية ماستشوستس والذي اقترن برواية أطول عن ما حدث في فلاديلفيا. قفز باري فوق مدن أخرى مثل نيويورك وبوسطن حيث كان للوباء القدر نفسه من الشلل والفتك.

أما إشاراته إلى تفشي الوباء في أجزاء أخرى من البلاد فقد جاءت متناثرة وشحيحة. ولم يقل «باري» شيئاً عن أوروبا. وما قاله. بالفعل. حفل بمغالطات ناجمة عن رغبته في التعظيم من خطر الإنفلونزا. يقول. على سبيل المثال. إن الهجوم الألماني في ربيع عام ١٩١٨ ربما يكون توقف بسبب تفشي الإنفلونزا وأن «القائد الألماني» لودندورف نفسه «لام الوباء الذي أفقده المبادءة». ثم يتراجع قائلاً إن لودندورف ربما يكون اتخذ من سقوط جنود الحلفاء مرضى بالإنفلونزا ذريعة أو حجة لوقف الهجوم.

وفي السياق نفسه يأتي قول «باري» أن هجمة إنفلونزا في عام ١٩٢٠ «أضعفت عقل وجسد الرئيس ويلسون إلى درجة دفعته إلى إنهاء صراعه مع كليمنصو ولويد جورج حول شروط معاهدة فرساي للسلام».

هكذا يُحمل باري الإنفلونزا مسئولية قرارات سياسية وحربية من المؤكد أنها تأثرت باعتبارات أخرى أكثر إلحاحاً. كذلك عاني كتاب باري من قصور ملحوظ في تصويره لمدى وحجم تفشي الوباء في بقية أنحاء العالم. جملتان فقط هما كل ما كرسه للصين، البلد الأكثر تعداداً في السكان، تلتهما صفحة من الوصف المبالغ فيه عن الوباء في الهند: «لم يكن هناك إلا الموت في شبه القارة الهندية، القطارات تغادر حاملة الأحياء وتعود كل يوم محملة بالموتى والموت». وفي تصوير آخر مفعم بالدراما يقول «اندفع الفيروس بعنف مخترقاً السنغال، سيراليون، إسبانيا، وسويسرا، مخلفاً الدمار الحاد وفارضاً ضريبة موت زادت في بعض المناطق عن ١٥٪ من إجمالي عدد السكان». معلومات مبهمة عشوائية وتكاد تكون بلا معنى.

يضاف إلى ذلك أن باري يتمسك بمجموعة من المشتغلين بالطب كأبطال لروايته رغم أن تجاربهم المعملية لم تخرج بشيء يذكر لمقاومة الإنفلونزا. ويبدو أن النجاحات اللاحقة في اكتشاف الفيروس جعلت باري لا ينظر إلى جهود أخرى، غير فعالة أيضاً، وإن كانت مريحة ومساعدة، بذلها آخرون في مواجهة المرض وللحد من الوباء. لقد قلل من شأن أطباء فعلوا ما يفعله أمثالهم من مهنيين عبر قرون مضت: تقديم علاجات غير مفيدة. لكنهم. ومع ذلك. أكدوا للناس أن شيئاً ما يحدث وأن أطباء «باري» ليسوا أفضل منهم.

يعرب «باري» عن أسفه للسياسة الحكومية والإعلامية التي حاولت التقليل من حقيقة الوباء، أو إنكارها. وينقل. بسخرية. عن مفوض الصحة العامة قوله: «إن من واجبنا إبعاد الخوف عن الناس، فالقلق يفتك بأعداد أكثر من تلك التي يفتك بها الوباء». وهذه مجرد أكاذيب أو أنصاف حقائق صممت لطمأنة الناس، وقد تكون سمحت للمجتمع الأمريكي بالاستمرار في أداء وظائفه قبل وبعد تفشي الوباء، وحافظت على «السلوك العادي» في العديد من القرى والمدن. ومن المهم ملاحظة أن اقتصاد المجتمع الأمريكي في عام ١٩١٨ كان يقوم ويعتمد على تدفق السلع والخدمات عبر البلاد. وكل إعاقة لحركة التدفق هذه تعد تهديداً للحياة. فلا توجد مدينة تستطيع أن تحيا دون إمدادات متواصلة من الغذاء والسلع الضرورية الأخرى. وقد زاد المجهود الحربي من قابلية هذه الأوضاع للانكسار بأن حشد ملايين الجنود في معسكرات جيش عشوائية. وكان من الضروري الحفاظ على «روتين» عمل يومي. وربما يكون الإنكار الرسمي لاقتراب الوباء القاتل من هذه المدينة أو تلك قد ساعد في تحقيق الأهداف المرجوة. لكن «باري» يظن أن مثل هذه السياسات الرسمية أوجدت عدم الثقة. وفي المقابل لا تذكر فصول الكتاب شيئاً عن دور رجال الدين والجهد المنوط عادة بالقساوسة ورؤساء الكنائس لطمأنة رعاياهم وقت الأزمات. ومن المؤكد أن هؤلاء جابوا البلاد ما بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ لتقديم العون التقليدي عبر إقامة الصلوات والاحتشاد وأداء شعائر وطقوس وخدمات دفن الموتى. هذه الجهود لم تقدم الدواء لكنها طمأنت الخائفين وساهمت في الحفاظ على تماسك المجتمع الأمريكي، ولو لبعض الوقت.

لقد شيد باري نصاً شديد البراعة يبدأ وينتهي بلقطات فوتوغرافية للدكتور بول لويس وهو يتحدى المرض الجديد داخل مستشفى فلاديلفيا عام ١٩١٨، ثم وهو يعاني سكرات الموت بالحمى الصفراء عام ١٩٢٩ في البرازيل.

جعل «باري» من الدكتور لويس النموذج والرمز للجهود «غير المجدية» التي حاولت إيجاد علاج للوباء في المختبرات العلمية. وصفه بأنه «أذكى من عرفهم» لكنه، وفي كل مرة يتحدث فيها عنه كان يكرر وصفه بالعبارة نفسها التي بدت وكأنها شعار أو «موتيفة» لشركة لإنتاج الأفلام. وفي السياق نفسه صاغ العناوين الرئيسية لفصول كتابه وكأنها ترديدات «كورس» في فرقة إنشاد: «هذه أنفلونزا.. مجرد أنفلونزا»، «الحرب هناك والوباء هنا»، «ولم يكن هناك وقت»، لكن هذه الصور البلاغية أضفت ظلالاً شبه ملحمية على النص. ولعل هذا هو سبب اختيار «باري» للعنوان الفرعي لكتابه: «القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكاً في التاريخ». ولأن هذه العبارات توحي بالملحمية وتكرسها نرى «باري» قد أكثر من اللجوء إليها فساوى بذلك. في كتابه. ما بين الأبطال والمخادعين. وهنا قد تكمن حقيقة الأنفلونزا ذاتها: فوباء عام ١٩١٨ قتل من البشر أكثر من الذين قتلهم أي وباء سابق. لكن «حجم الفتك» وفداحته كان بسبب كثافة بشرية مكنت الفيروس من العثور على من يتغذى بهم. وفي النتائج النهائية فإن هذا الوباء يكاد يكون من الأوبئة العادية إذا ما قورن بـ «الموت الأسود» الذي تفشى في أوروبا وآسيا في القرن الرابع عشر، أو الطاعون الذي تلاه. فكلاهما كان له التأثير الأبقى والأقوى على المجتمعات البشرية، وحصد من الناس حصة أكبر مما حصدها وباء أنفلونزا عام ١٩١٨. ١٩١٩.



وطوال فصول كتابه يريدنا «باري» أن نرتجف من الموت والمعاناة وأن نُعجب بأبطاله في المختبرات العلمية ونستهين بشأن هؤلاء الذين حاولوا تهدئة الأمور وطمأنة الناس بالكلمات والعلاجات غير الكافية وقد يؤخذ عليه أنه بدأ في بعض الفصول كمحرر إعلانات يريد أن يملأ شاشات التلفاز بالمبالغات والإثارة. لكن فهمه الموسوعي لعلم الأوبئة المعاصر، وتفسيره البارع لكيفية عمل الفيروس داخل جسم الإنسان، يطغيان على بعض صياغاته التي جنحت إلى المغالاة.

ويبقى النص رسالة واضحة تجعل كتابة الكتاب الأكثر جدارة بالقراءة.. ذلك أن عودة انتشار الموت بفعل الأنفلونزا لاتزال قائمة رغم كل المعرفة العلمية المعاصرة، ورغم كثرة المنظمات العالمية المنوط بها مقاومة الأوبئة. ■

تعمد «وجهات نظر» إلى فتح نوافذ نقدية على أعمال أدبية غاب عنها الضوء لأسباب بعضها مفهوم. أملاً فى أن تتسع دائرة الاهتمام والتى تحدد بدورها دائرة التلقى والجمهور، لتصبح أكثر رحابة وسعة. وتصبح معها الأرض أكثر خصباً ونماءً.

أشجان العاشق

حلمى محمد القاعود

■■ «أشجان العاشق» هى الرواية الأخيرة فى ثلاثية العشق التى كتبها «على أبو المكارم» على مدى سنوات مضت، استغرقت نحو خمسة عشر عاماً بدأت مع مطلع عقد التسعينيات فى القرن العشرين. كانت الرواية الأولى «الموت عشقاً»، والثانية «العاشق ينتظر» وقد تناولتهما فى دراسة أخرى مع التركيز على الثانية التى تعرض للفساد الثقافى الذى يعيشه المجتمع، ومع أن الأولى ركزت على الفساد السياسى ومقاومة المجتمع له، فإن الرواية الأخيرة فى الثلاثية تعرض لما يمكن أن نسميه تجليات الاستبداد على قطاعات الشعب المختلفة، مع إضافة عنصر الهيمنة الأمريكية وتجلياتها العنصرية الاستعلائية.

ولا ريب أن استخدام مفردة «العاشق» فى عناوين الروايات الثلاث، لم يأت اعتباطاً، ولكن دلالته لا تخفى على القارئ الواعى، فالعشق هنا، ليس الغرام الذى يكون بين المرأة والرجل، ولكنه غرام من نوع آخر، يتوحد مع الوطن وهويته وتراثه وحاضره ومستقبله. إنه عشق الصوفية للذات الإلهية، حيث لا يشغلهم عن حبه شاغل، ولا يبعدهم عنه طارئ من الطوارئ، إنه حب دائم ومستمر إلى ما شاء الله.. وفى إهدائه للرواية الأخيرة: «إلى حبيبتى: غيرى على السلوان قادر»، نجد تأكيداً على هذا الحب الذى لا يبلى بفعل الحوادث والأحزان والأشجان.. بل إن الفقرات الثلاث التى يصدر بها المؤلف الرواية تصب فى هذا السياق مصحوبة بالدعوة إلى حماية الوطن أو الحبيبة، والمقاومة مهما كانت التضحيات، فالحب يفرض المقاومة والتضحيات معاً.

إن الفقرة الأولى من فقرات المقدمة، تأتى فى إطار أقرب إلى السريالية، ولكنه يستدعى الهمجية الوحشية للمستعمرين الذين قصفوا هيروشيما بالقنابل الذرية، وقصفوا «البصرة» باليورانيوم المنضب، واحتلوها ووصلوا إلى كرسى الرشيد فى بغداد وجلسوا عليه، وتقدم لنا الفقرة أداء شعرياً جميلاً ينقل نصاً من نقش جدارى فى المعرض الدائم لمركز الزراعة التاريخى فى هيروشيما/ البصرة، عن احتراق «اللوحة الحجرية» لفيكاى الكبير، والنص يبشر بالثورة والتمرد ونشر ألحان حمراء تقضى على العفن والظلم والصمت.

فى الفقرة الثانية ذات الإيقاع الموسيقى والأداء الشعرى يستدعى الكاتب زارادشت/ فيتنام، وجيفارا، بوصفهما من أبرز رموز المقاومة والمواجهة مع الهمجية الوحشية الاستعمارية، ويبشر بالمولود المنتظر الذى سيأتى ويتوجع، ويبكى ويفزع: «قطعاً هو آت، رأيته فى هداة الموت يغنى فى عين الإعصار، يخرج منها عملاقاً يتحدر، شباباً يتفجر، يقبل، يتكلم، يتعلم، يكمل الحرف الناقص، يصحح لفظ الجملة، يمنحها المعنى الكامل، يزيل ضباب الصورة بضربة رأس ذات أصابع بشرية».

تأمل حديث الكاتب عن الجملة والكلمة والحرف، ودلالة ذلك فيما يرمز إليه من معانى المقاومة والفداء، وفيما يعود إلى الكاتب ذاته من اهتمام عملى باللغة، حيث يعمل أستاذاً للنحو واللغة فى الجامعة.

أما الفقرة الثالثة فهى تستدعى وصية «لقمان الحكيم»: «ابداً لا تشرك، تظلم نفسك إذ تشرك، كذب المشرك». إنها دعوة إلى الإيمان بقضية الوطن، والاستمرار فى المقاومة. لأن النصر آت، وكما قال فى الفقرة الثانية «قطعاً هو آت»، وها هو يؤكد أمله بمجىء النصر، واكتمال النص مهما كانت المعوقات: «مازال الراوى يتكلم، سيبقى يتكلم، قد يتأثر، قد يتعثر، قد يتلعثم، قد يتألم، قد ينزف قطرات من دم، قد لا يفهم، لكن يكفى أن يتكلم. حتماً يكتمل النص».

لقد ظهرت هذه الرواية عقب غزو العراق من جانب الهمجية الوحشية الاستعمارية، وسقوط عاصمة الخلافة تحت سنابك الغزاة، فى ظل هيمنة أمريكية بشعة على العرب والعالم، ودعاوى كذب وخداع ومكر، لا أساس لها على أرض الواقع، وكان على الكاتب أن يبرز هذه البشاعة الاستعمارية، فلم يلجأ إلى التعبير المباشر عن الغزو والاحتلال، ولم يشر إلى العراق بكلمة سوى كلمة «البصرة». اسم المدينة العراقية المعروفة. مقترنة باسم هيروشيما التى تعيد إلى الأذهان صورة الوحشية الاستعمارية فى أبشع تجلياتها التى لا تمحى، ثم ركز على الداخل الشعبى فى بلادنا ليكشف الخلل الخطير الذى أصاب المجتمع فى ظل الهيمنة الاستعمارية وتجلياتها العنصرية الاستعلائية، وإذلالها للعرب والمسلمين بصورة تجاوزت الاحتلال والغزو، وتسربت إلى التفاصيل الدقيقة فى حياتهم وسلوكهم.

يقوم بناء الرواية على أساس مجموعة من الفصول يبلغ عددها ثلاثة وعشرين فصلاً، وهى فصول مرقمة، بدون عناوين، وكل فصل يضم نوعية معينة من الشخصيات تكشف عن جانب أو قطاع من قطاعات المجتمع فى المرحلة الراهنة وطريقة تفكيره وطبيعة القضايا التى تشغله أو تؤرقه، وتبدو الفصول الأولى تكاد تكون منفصلة عن بعضها، ولكن حين تصل الأحداث إلى الذروة تترابط الخيوط، وتتجمع الأحداث فى حدث واحد يكشف أزمة المجتمع وعمق المحنة التى يعيشها من القاع إلى القمة. فى الفصول الأولى يجرى حوار بين راكبين متجاورين على ظهر الطائرة التى تقل الشخصيات الروائية جميعاً، وغالباً ما يكون المتحاوران متقاربين عائلياً أو فكرياً أو مهنياً، ونتعرف على ملامح الشخصيات وتاريخها من خلال الحوار أو تيار الوعى الذى يبدو حاضراً بكثافة شديدة على امتداد الرواية.

فى الرحلة الجوية الطويلة التى تستغرق تسع ساعات بين مدينة أمريكية والقاهرة، نطالع صورة أول شخصية من شخصيات الرواية، حيث نرى مناضلاً (يسارياً) سابقاً يستعرض تاريخه ومواقفه وخلافاته مع رفاقه، وأساه على الماضى القديم، وحين يطلب من المضيفة كأس «ويسكى»؛ فإنها تخبره بأن الطائرة لا تقدم مشروبات روحية، فيسعى إلى الثرثرة مع امرأة تحمل وليداً عمره أربعة شهور، ولكنها تنشغل عنه بوليدها، وواقعها المأساوى حيث تزوجت شخصاً يعمل فى الغربة (بأمريكا) من أجل المال، ولا يعنيه الشرف أو العرض أو أهله الذين تركهم فى مصر.

ونتعرف على اثنين من علماء الدين لهما علاقة بالتنظيمات الإسلامية، أحدهما كان يسارياً، وانضم إلى جماعة إسلامية، ويمثل الانتهازية فى أجلى

أشجان العاشق (رواية)
على أبو المكارم
القاهرة: دار الهانى للطباعة، ٢٠٠٣، ١٨٧ صفحة



صورها، كما كان شراً على الجماعة حيث أحدث انقساماً فى صفوفها.

وفى ركن من الطائرة (الدرجة الأولى) نلتقى بشخصية كبيرة (معالى الباشا) يتحاور مع «سيادة اللواء» حول طريقة تعامله مع الأمريكان، وكيف تعد السفارة (سيناريو) ليسير وفقه فى تعامله وتحادثه، ولكن معاليه يبدو معتداً بنفسه وذكائه، فينسى السيناريو والتعليمات الدبلوماسية، وينطلق على سجيته، ومعاليه حريص دائماً على إشعار سيادة اللواء بدونيته وتبعيته له.

ويزيد اللواء دونية وتبعية ما يستشعره تجاه المرأة الأمريكية التى تعمل صحفية، وهى فى حقيقة الأمر ضابط اتصال بين الأمريكان والحكومة المصرية من خلال الوفود العسكرية المصرية التى تفد إلى أمريكا للمباحثات أو التدريب، حيث تبدو الأمريكية عالمة بتاريخ مصر القديم وحضارتها وتشرح له كثيراً من حقائق هذه الحضارة وذلك التاريخ، مما يضعه فى صورة «الجاهل» الأحمق!

نرى فى ركن آخر (الدرجة السياحية) رجلاً وامرأة معهما طفل رضيع يتشاجران. الرجل معيد يعود مع المرأة (زوجته) إلى الوطن، بعد حصوله على الدكتوراه فى اللغة العربية، وهى حانقة عليه بسبب عودته إلى مصر، وتركه فرصة ذهبية لجمع المال، ومثاليته التى لا تقدر حقائق الواقع الوطنى المرير!

وفى مشاهد أخرى فى أركان أخرى من الطائرة نجد نماذج بشرية عديدة أبرزها الطفلة التى تتحدث عن أبيها العربى وأمها المصرية التى طُلقت، وزوجة أبيها الأمريكية، ثم الباحثان اللذان يتحدث أحدهما عن البعد الخامس، وينشغل الآخر بالبحث عن جهاز لتلميع الأظفار يشتريه، ثم مؤلف الأغانى والتاجر المنتج أو المخرج اللذان يسعيان إلى الكسب من خلال تأليف الأغانى البذيئة الهابطة، ثم المذيعة (الساقطة) ذات النفوذ والكاتب الصحفى الذى يكتب من الباطن لرؤسائه، ويفكران فى تقديم برنامج تليفزيونى يستضيف البارزين فى التخصصات المختلفة للحديث عن قصص نجاحهم، ومواجهتهم من خلال (المونتاج) بالقصص الحقيقية الموثقة..

هذه النماذج التى نراها على امتداد نصف صفحات الرواية تقريباً، تلتقى أو تتجمع روائياً مع بداية تعقد الأحداث وتوترها، عندما يلتقى «السوبر فايزر». كبير المضيفين. ذو الأصل المتواضع مع المضيفة ذات الأصل الرفيع، ويخبرها أن الوجبات الموجودة على ظهر الطائرة أقل عدداً من الركاب، مما يعنى أزمة خطيرة وهو ما يقتضى معالجة الموقف بطريقة ما، وتُطرح الحلول على أساس التمييز بين الركاب المصريين والأجانب والوفود العسكرية، أو إقناع بعض الركاب بالتنازل عن وجباتهم لصالح الآخرين. وتسعى المضيفة لإقناع الوفد العسكرى الذى يرأسه معالى الباشا للتدخل من أجل حل المشكلة، فيشكل معاليه لجنة للتوزيع، ويتحفظ على الوجبات فى مكان آمن! ويحول الوفد العسكرى المسألة إلى «معركة» تحتاج إلى التخطيط والإنذار وقرار هجوم، ويصير الأمر أقرب إلى سخرية كاريكاتيرية، حين يستدعى الموقف خطباً حماسية من خلال حوار معالى الباشا وسيادة اللواء، ويتطور الموضوع للبحث عن الصحفى الموجود مع المذيعة لصياغة بيان باسم معاليه لكسب الوقت قبل توزيع الوجبات، ووضع الجمهور بين اليأس والرجاء حتى لا يتحرك بالغضب والثورة، مع رفع شعار الديمقراطية الموسعة..

وتتداعى الأحداث، لتشتبك السيدة الأمريكية (ضابط الاتصال) مع سيادة اللواء فى حوار عنيف، تذهب على أثره إلى معالى الباشا، وتتمسك بما تعده حقاً لها، وتصر على المشاركة برجالها فى تأمين الطائرة، ويستسلم معاليه لإرادتها، وتتكشف من خلال الحوار صرامة تقاليد الجيش المصرى فى حرصه على مصلحة الوطن، بينما يبدو جهاز الشرطة أقرب إلى الولاء للسلطة أياً كانت!

ضابط الاتصال الأمريكية تمارس الهيمنة والغطرسة، وتقدم لمعاليه مطالب مذلة ومهينة للكرامة الوطنية، وتهدد باستخدام القوة من خلال (المارينز) القوة الأمريكية على ظهر الطائرة، ويستسلم معاليه، فالمفارقة قائمة بين المصريين والأمريكان. الأولون قواتهم مجردة من السلاح، والآخرون مسلحون دائماً، لأن تسليحهم الدائم شرط متفق عليه بين الحكومتين الأمريكية والمصرية.

حين يبدأ الحوار الديمقراطى «الموسع» من أجل حل مشكلة الوجبات ينكشف الخلل الحكومى والهيمنة الأمريكية من خلال الصفقات، وسذاجة التيار الإسلامى، والفكر التافه والأدب الرخيص.

وتقتبس الرواية نصوصاً من التاريخ تتوازى مع الواقع المتهرئ وما فيه من تأله وعبودية ومظالم وتخبط وكلام إنشائى بلا عائد، وإحباط يشيع لدى الجميع.. كما تستدعى الرواية فوازير لا حل لها تدخل فى إطار الخيال (الفانتازيا) وتعبر عن الخلل والعقد التى تحكم حياتنا.

وتنتهى أحداث الرواية بإسقاط الطائرة أو فقدانها فى الحادثة المشهورة التى وقعت قبل سنوات بمثلث الخطر وعلى متنها ثمانون ضابطاً مصرياً فى تخصصات دقيقة، عدا المدنيين والأمريكان والأجانب وطاقم الطائرة، ولم تصل التحقيقات إلى نتيجة محددة حتى الآن، وإن كان الموضوع قد أغلق رسمياً.

وبالتأكيد فإن حادثة الطائرة، وما جرى على متنها، تشير إلى رمز واضح جلى، لا يخفى على قارئ الرواية، بما فيها من شخصيات وأحداث تمثل أو توحى بالواقع المعيش، وتكشف ما يعتمل بداخله من تصورات وسلوكيات وصراعات.

إذاً الطائرة هى المكان، وهى مكان مصغر، ومن خصائص هذا المكان أن يمثل المكان المكبر، وتجتمع فيه جزئياته وخصائصه، فهى صورة للمجتمع الكبير وما يمور فيه من شخصيات وأحداث. كما سبقت الإشارة. والسؤال هو: لماذا الطائرة مكاناً للأحداث والشخصيات الروائية؟

لا ريب أن اختيار الكاتب للطائرة كان اختياراً موفقاً، لأنه يربط مصير الطائرة بمصير ركابها، وهذا المصير حيوى للغاية، على أساس أن كل حركة على ظهر الطائرة محسوبة، وتؤثر على الجميع، وهو ما تبدى فى معالجة مشكلة نقص الطعام مع طول الرحلة واستغراق المسافة زمناً طويلاً (تسع ساعات)، فإيثار فريق بالطعام دون غيره يخلق مشكلة تهدد الطائرة والركاب جميعاً، وفساد قائد الطائرة، وبلاهة معالى



أشجان العاشق

الباشا أو استسلامه، ونفاق سيادة اللواء، وشراسة الأمريكان وسذاجة الركاب وتفاهة تفكيرهم سواء كانوا من هذا التيار أو ذاك، وعناصر الإفساد (كاتب السلطة والمذيعة التليفزيونية الساقطة) وخداع الركاب.. كل هذا يؤسس للمصير البائس الذى ينتظر الجميع، وكأن الرواية تهيب بأفراد المجتمع كله أن يهبوا لإنقاذ مجتمعهم، وفقًا لأسس التعامل التى ينبغى أن تقوم على العدل والمساواة والشورى والنظافة الخلقية والقوة المادية والإرادة الحقيقية وعدم إعطاء الفرصة للغرباء كى يهيمنوا أو يسيطروا أو يتغطرسوا.. وإلا فالنهاية ستكون انهيار المكان (الطائرة/ المجتمع) كما سقطت الطائرة بفعل مجهول فى المثلث الخطر، أو مثلث الخطر.

قد تستدعى الرواية عن طريق تيار الوعى بعض الأماكن هنا، أو هناك، وهى بلا شك تقدم دلالة على طبيعة الحياة أو البشر، مثلاً نرى إشارة إلى أمريكا. المكان وما يجرى فيه من سلوك وعلاقات، وهى علاقات أو سلوك يكشف تصورات بعض الناس وطريقتهم فى الحياة، فالمصرى أو المصرية الذى يشعر أن الانتماء إلى المكان الأمريكى بالحصول على الجنسية يمثل فائدة مادية كبيرة على أكثر من مستوى، والمرأة المصرية العائدة إلى وطنها، تقول لأخرى:

«لدينا ولد أمريكى ينفعنا حتى بعد حصولنا مستقبلاً على الجنسية (تقصد الجنسية الأمريكية)، يقدمون معونة غذائية، بالإضافة إلى الطبية له ولأمه، ويجب أن تحصلى على هذه المعونة..»

والحصول على المعونة للأم والولد، ليس هو الفائدة الملموسة فقط، إن الجنسية الأمريكية للولد، أو الوالدين فيما بعد، هى صمام أمان، ليس فى أمريكا فقط، ولكن فى الوطن الأصلى ذاته، حيث يصبح حاملها محصنًا ضد أى عدوان من الأفراد أو السلطات، إذ أن أمريكا لا تتوانى قط عن الدفاع الأمثل عن كل من ينتسب إليها سواء كان أمريكيًا بالميلاد أو أمريكيًا بالتجنس..

أيضًا نرى إشارة أخرى إلى المكان تكشف لنا عن طبيعة الشخصية وتكوينها الاجتماعى أو تاريخها القديم، فهذا اليسارى السابق، الانتهازى، الذى صار من أقطاب بعض الجماعات الإسلامية، نعلم أنه ولد فى حى عشوائى جعله تاريخه فيه يتحول تحولاً مثيرًا:

«من كان يظن أن صبى عزبة الهجانة الذى اشتغل منذ الثامنة ناضورجيًا، واغتصبه زينهم العجلاتى وهو فى العاشرة، بدلاً من أن يصبح وفقًا لكل التوقعات هجامًا، يصل إلى ما لم يصل إليه أحد. يجتمع العلماء والمفكرون والمخططون فى مركز بحثى من أهم مراكز الجامعة المشهورة على بعد آلاف الأميال، ليستمعوا إليه ويروا المستقبل من خلاله..».

المكان إذًا له تأثيره وله مواصفاته، حتى لو كان ذلك بشكل افتراضى، فصبى عزبة الهجانة يفترض أن يصبح «هجامًا»، أما أن يصبح داعية إسلاميا مشهورًا يشار إليه بالبنان، فهو ما يخالف الافتراض..

والمكان قد يكون ذا دلالة عنصرية بمعنى تفوق شعب على شعب أو بشر على بشر، فالشعب الرومانى مثلاً يتميز على الشعوب العربية، لأنه ضحى بأعداد كثيرة من الأفراد لينال حريته، ويحقق استقلاله وكرامته «.. أين تضحياتكم مما حدث فى رومانيا مثلاً حين قتل أكثر من ستين ألفًا فى يوم واحد من أجل إسقاط النظام..» «.. أنتم تريدون السلطة على طبق من ذهب، تريدون أن تدفعوا غيركم ليقاتل معركتكم ولا تقدمون التضحيات اللازمة..».

الزمان لا يختلف عن المكان فى إعطاء دلالات ذات أهمية سواء الزمان التاريخى أو الزمان الروائى، فالزمان التاريخى يعالج واقعًا نعيشه بالفعل لا يبعد عنا ولا نبتعد عنه، إنه السنوات الأخيرة أو الماضية القريبة والممتدة فى أيامنا الراهنة بكل احتقاناتها وخللها ومتاعبها وعسرها، ومعالجة هذه الفترة فى حد ذاتها تمثل جرأة محمودة من الكاتب، لأنه يواجه الواقع بشراسته وقسوته ومضاعفاته وانعكاساته، وهى فى مجملها غير سارة بل غير آمنة سواء للكاتب، أو لغيره من أفراد المجتمع، كما تشير معالجة هذه الفترة إلى الكارثة التى تنتظر المجتمع إن لم يتدارك أخطاءه، ويبادر إلى إصلاحها أو تصحيحها.

وبالنسبة للزمن الروائى، فإنه يمتد إلى نحو بضع ساعات قليلة منذ ركوب الطائرة من أحد مطارات أمريكا، حتى سقوطها فى مثلث الخطر! تكثيف الزمن الذى يسبق سقوط الطائرة يصب فى دائرة الإلحاح على الخطر الذى يتربص بالمجتمع، ويصيب أفراده جميعًا، لا يفرق بين معالى الباشا الذى صار آمرًا ناهيًا فى الطائرة، ولا عامة الركاب سواء الذين فى الدرجة الأولى أو الدرجة السياحية أو درجة رجال الأعمال، حتى أولئك الأمريكان بغطرستهم وعنجهيتهم التى تبدت على ظهر الطائرة، معرضون للخطر، وهذا ما كشفت عنه تداعيات الأحداث على أرض الواقع، وتكشف عنه يوميًا، حيث لا يستطيعون مدافعة هذا الخطر مع كل ما يملكونه من أسباب القوة وتجلياتها وهيمنتها (والعراق نفسه مثال واضح على ذلك!).

ومع أن الزمن الروائى يبدو أقرب إلى زمن القصة القصيرة، فإن استخدام الرواية لتيار الوعى، أتاح للكاتب أن يرتد إلى الوراء ليكشف تاريخ العديد من الشخصيات أو بعض جوانبه المهمة على الأقل، أو يشير إلى الماضى (التاريخ) ليقارن بين واقع مزيف ردىء، وماض أصيل جميل، كما جرى بالنسبة لشاعر العامية النرجسى الأفاق الذى لا يعرف شيئًا عن أحمد شوقى وأحمد رامى وأضرابهما من شعراء الأصالة والجمال.

شخصيات الرواية كثيرة ومتنوعة، فهم ركاب طائرة من طبقات مختلفة ونوعيات متعددة، يمثلون المجتمع فى هيكله العام بدءًا من عامة الناس حتى من بيدهم السلطة، لذا لم تتوقف الرواية كثيرًا عند تفصيلات حياتهم وواقعهم، وقدمتهم لنا شخصيات «جاهزة» تباشر أعمالها أو تبدى آراءها، أو تمارس سلوكها وهى واقفة عند المستوى التربوى والتعليمى والخلقى الذى وصلت إليه، فلا هى تتغير، ولا هى تنمو، فهى ثابتة وراسخة الملامح والقسمات.

وكما رأينا من قبل هناك «اليسارى» السابق، والمرأة البسيطة التى تحمل طفلها عائدة إلى الوطن بعد أن فجعت فى زوجها الذى لا يهمه غير المال ولو ضحى بعرضه وشرفه، وعالما الدين اللذان يبدوان أقرب إلى السذاجة السياسية، ومعالى الباشا وسيادة اللواء اللذان يرأسان وفدًا عسكريًا عائدًا بعد مهمة فى أمريكا، والمعيد الذى يتشاجر مع زوجته بسبب رغبتها فى البقاء فى أمريكا من أجل المال، وضابطة الاتصال الأمريكية وآخرون من المارينز، واثنان من الباحثين أحدهما مشغول بالعلم ومعرفة البعد الخامس، والآخر مهموم بالبحث عن جهاز لتلميع الأظفار، ومؤلف الأغانى التافه وتاجر أو منتج الكاسيت أو الشرائط الغنائية، والمذيعة الساقطة وكاتب السلطة، والسوبر فايزر ذو الأصل المتواضع والمضيفة ذات الأصل الرفيع، وقائد الطائرة الأنانى الذى لا يعنيه إلا نفسه..

هذه الشخصيات الكثيرة، تمثل أغلب قطاعات المجتمع المؤثرة والمهمة، وقد أتى بها الكاتب فى إطار يمكن تسميته «بالمفارقة»، حيث نرى الشخصية فى مقابل الشخصية النقيض، أو الشخصية التى تبرز جوانب الشخصية الأخرى، لذا فمعظم الشخصيات الروائية لا تمثل بطولة مطلقة، أو تقوم بالدور الرئيسى فى الأحداث باستثناء شخصية «معالى الباشا» الذى صنعت منه الأزمة الخاصة بالوجبات، حاكمًا عامًا على الطائرة، ومعه تابعه المنافق المتزلف «سيادة اللواء»، وإن كانت ضابطة الاتصال الأمريكية التى تقود المارينز، وتنتمى رسميًا إلى المخابرات، تبدو الحاكم العام الفعلى على الطائرة بما تمتلكه من قوة عسكرية، ونفوذ مهيمن، وعجرفة عنصرية، وسلاطة متوقحة.

حينما يبحث معالى الباشا عن صحفى على ظهر الطائرة، يقدمون له



أشجان العاشق

«كاتب الباطن» ليقوم بدور «كاتب السلطة» على ظهر الطائرة، فيكتب بيان معاليه الذى يذيعه على الركاب حيث تبدأ المناقشة «الديمقراطية الموسعة!»، كان يحلم أن يصل يوماً إلى رئيس صفحة، يكتب اسمه على رأسها، وها هو معالى الباشا يفتح له الأبواب مع أنه يسميه «الولد الصحفى»، ويرى أنه أحق أن يكون «كاتب السلطة الأول»، فهو أفضل من الأشرم الجاهل الذى يرأس مؤسسة كبرى ويعزف بأقلام غيره، والمخبر الذى صار صنوا له فى مؤسسة أخرى تصدر العديد من الصحف والمجلات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، والـ... إنه أحق من هؤلاء جميعاً، ويبدو أن الأمل فتح أبوابه ليكون كبيراً وقريباً من أهل القرار.

كاتب الباطن ينجح فى خدمة معالى الباشا عن طريق عمل مزيج بين اليأس والأمل لدى الركاب، حتى لا يثوروا. اليأس وحده يدفعهم إلى التحرك. والأمل وحده يجعلهم يتحركون. أما التوازن بين اليأس والأمل، فإنه يجهض التفكير فى الثورة!

وقد حظى برضا الباشا الذى أنعم عليه بوجبة ليكتب بعدها البيان!

أما معيد الجامعة الذى تخصص فى اللغة العربية وعاد مع زوجته إلى أرض الوطن بعد حصوله على الدكتوراه، فإن زوجته ساخطة عليه، وكانت ترفض العودة لأن الأحوال فى الوطن سيئة، وترى أنه لا تصح العودة حتى لا يمدوا أيديهم لأحد، وحين يخبرها أنه سيكون مدرساً بالجامعة تسخر منه، «مدرس عربى يا حسرة، لا فاتح مكتب ولا عيادة، ناقص يقول لله يا محسنين.. عيب.. عيب فعلاً.. التطورات الاقتصادية قلبت الأوضاع، وأخلت بالموازين، وحولت قيم المجتمع».

إنها صورة مخيفة حقاً حين يصير أستاذ الجامعة على وشك التسول، وخاصة من لا يملك مكتباً ولا عيادة ولا صيدلية، ليغطى بدخلها احتياجاته ونفقاته، وإن كان الراوى من خلال تيار الوعى يبدو متفائلاً بأن هذا كله لن يستمر، وأن هذا يمثل ظاهرة مرضية زائلة مهما بدت مستقرة، مهما كانت شرسة وأنها كلما زادت حدة دل ذلك على اقتراب الفجر وانبلاج النور..

إن شخصيات الرواية لا تحمل أسماء. يشار إليهم عادة بوظائفهم ومهنهم: الباشا. اللواء. العميد. ضابط الاتصال. المذيعة. الشيخ. الولد الصحفى. المناضل. المرأة التى تحمل طفلاً. السوبر فايزر. المضيفة. قائد الطائرة....

وهذا التعميم أو التجهيل، يشى بأن المسألة ليست محدودة، ولكنها شائعة وموجودة فى خلايا المجتمع، وإن كانت بصور أخرى، وملامح أخرى، كلها أو معظمها يفضح فساداً أو استبداداً وانتهازية وتفاهة وانحطاطاً، وابتذالاً.. ولعل هذا كان من وراء ما يشبه القصائد الشعرية التى تأتى عبر تيار الوعى، ترفض هذا الواقع البائس وتبشر بالأمل، على النحو الذى رأيناه عند تناول حال «أستاذ الجامعة» على سبيل المثال.

لغة «على أبو المكارم» شاعرية. لأنه فى الأساس شاعر وإن كان مقلاً، وفى روايتيه السابقتين مقاطع كثيرة يمكن أن تكون قصائد، فهى تكتمل فنياً من حيث الوزن والصورة والعاطفة والتجربة.. وقد أشرت إلى ذلك تفصيلاً عند تناولهما، ولكن الأمر يختلف مع هذه الرواية، فقد خطا خطوة جديدة تماماً، وهى اعتماد العامية لغة للحوار، واختار من العامية الألفاظ أو اللهجة الجديدة التى طرأت على الألسن فى السنوات الأخيرة، وهى اللهجة التى تنضح بصورة الواقع الراهن وما فيه من ابتذال وسوقية وانهيار خلقى وانحطاط ذوقى.

ومع ذلك فقد ظلت لغة السرد شاعرية تفيض رقة وعذوبة، به الكثير من المقاطع المكثفة التى ترقى إلى مستوى الشعر، وقد ساعد تيار الوعى، على التدفق الأسلوبى والصياغة المجنحة فى العديد من المواضع.

وتجنح اللغة السردية فى «أشجان العاشق» إلى السخرية أحياناً من بعض الظواهر القائمة على ظهر الطائرة، كما نرى فى وصفه للغة الإدارة التى تقوم على الإنشاء الأجوف والعبارات النمطية، وتشكيل اللجان للأمور التافهة. فمن قبيل العبارات النمطية المكرورة التى فقدت دلالتها «.. العبقرية الوطنية التى تتجلى دائماً فى المواقف الصعبة والتاريخية، والتى تؤكد مقدرة المواطن على مواجهة التحديات بفضل التزامه المطلق بالتوجيهات السامية لقيادته الرشيدة. وقد التزمت اللجنة فى عملها بتوجيهات معاليه، وكان سيادة اللواء يشرف بنفسه على مراحل العمل وخطواته وينقل توجيهات معاليه إلى العاملين فى اللجنة، فقد أشار إلى ضرورة تحريك المقعد الأول ليتوسط القاعة، كما أشار إلى أن المقاعد الأخرى يجب أن تقسم بحيث يوضع قسم منها أمام المقعد الأول فى شكل نصف دائرة، ويوضع القسم الآخر فى شكل... إلخ»؟

واعتقادى أن الكاتب رأى أن الحوار بالعامية، وخاصة بما يتضمنه من ألفاظ هابطة هو أصدق تعبير عن الواقع الردىء المتهرئ، الذى افتقد فيه الناس الطهارة والأخلاق والعدل والحرية، وإن كنت أعتقد أن للفصحى. والمؤلف قادر عليها. روعتها ورونقها حين تنقل هذا الواقع بأدائها ودلالاتها، وفى كل الأحوال، فإن غاية الكاتب من التعبير بالعامية فى الحوار، من وجهة نظرى، تعد صرخة لانتقاد ما يجرى بصوت عال وحاد، لعل أحداً يسمع صوته فى البرية الموحشة.

على الجانب الآخر، يقتبس الكاتب، أو يوحى بالاقتباس، من كتب تراثية لغتها جزلة وقوية، فيها من الدلالات ما ينبئ عن صورة الواقع المعاصر بصورة ما، فالراكبان المتجاوران يتناقشان، ولكن الراكب القارئ يرفض المشاركة فى الاستطلاع الذى تجريه لجان معالى الباشا حول أزمة توزيع الطعام على ظهر الطائرة، ويتابع قراءته فى كتابه الأثير «عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات» ومنه:

«وكان مما يختبر به الخاقان الأكبر إخلاص رجاله ما كان يسمى باختبار الترقى، وهو ذو درجات سبع، ويتم الانتقال فيه من الأولى إلى ما يليها مما هو أسفل منها، ويلتحق الجدد الذين يختارهم الخاقان لخدمته عند أول عهدهم بالدرجة الأولى، وكلما ازداد الواحد منهم جداً فى خدمة مولاه وتقرباً إليه انتقل إلى الدرجة السفلى منها، فإذا بلغ السابعة من الدرك الأسفل فقد بلغ الغاية، ووصل إلى النهاية، وحاز قصب السبق، وصار من أهل الحظوة.

قال بعض المحققين: الحظوة بالحاء المهملة والظاء المعجمة، وقد التبست على بعض صغار التلاميذ فكان يقرؤها بالخاء المعجمة والطاء المهملة، وذلك شىء آخر مختلف عما نحن فيه، نذكره إن شاء الله فى موضعه من كتابنا المسالك فى دروب المهالك..».

إن التضمين بالأمثال الشعبية والأغانى فى ردود الفعل حول خبر ضياع الطائرة وسماع الانفجارات حيث اقتربت من منطقة مثلث الخطر، وتعدد الروايات حول وجود الانفجارات من خارج الطائرة أو داخلها، تشير إلى وعى الناس المغلف بالمجاز، وإدراكهم للمأساة دون أن يفصحوا، أو يتعاملوا مع الواقع بصورة مباشرة: «اللى خلف ما متش».. «أهو شنبر ودق وخد بعضه وزق».. «طب كل دا كان ليه..».

لقد استفادت الرواية من حدث إسقاط الطائرة فى مثلث الخطر استفادة كبيرة، ووظفته لتطلق دلالات عديدة ومتنوعة تصب جميعاً فى الخوف من المجهول الذى ينتظر الجميع ما لم يتداركوا إصلاح أنفسهم وواقعهم.

إنها تكشف عناصر الخطر الداخلى وعناصر الخطر الخارجى، وما الطائرة إلا صورة مصغرة للمجتمع الكبير الممتد الذى ينخر فيه سوس الفساد، ويوشك أن يقوضه، ويهدم بنيانه، ويُطمِع فيه الأعداء.

وقد جاء بناء الرواية على هيئة مشاهد أقرب إلى السيناريو ليصور ملامح الواقع فى لقطات دالة ومؤثرة، من خلال لغة شاعرية راقية موحية، حتى فى صورتها العامية التى تشير إلى عصر الانهيار وتجلياته المحزنة. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الحركة القومية العربية بعيون عثمانية (١٩٠٨-١٩١٨)

حسن قايالى

ترجمة: فاضل جتكر

سوريا: دار قدمس، ٣٧٠ صفحة



يستهدف المؤلف من كتابه المساهمة فى تفاعل البحوث التاريخية العربية والتركية حتى تتقدم معرفتنا أكثر بتاريخ المنطقة، الذى تعرض فى كثير من فصوله إلى تأثيرات متبادلة بين الطرفين: العربى والتركى.

ومع أن كاتبه ليس عربيًا، إلا أن كتابه يفتح المجال أمام إعادة النظر فى الكثير من المسلمات والبديهيات التى سكنت العقل السياسى العربى، فالكتاب يطلعنا - للمرة الأولى على بعض وثائق الدولة العثمانية وهى فى نزعها الأخير وتوزيع ممتلكاتها العربية على الإمبرياليتين البريطانية والفرنسية، ودخول الإمبريالية الأمريكية والحركة الصهيونية بمطامعهما فى المنطقة العربية.

يستعرض الكتاب شهادات بعض المؤرخين التى تزعم أن العرب الحاصلين على التعليم فى المدارس الأوروبية التبشيرية، امتلكوا نظرة علمانية موالية للغرب، فكانوا طلائع الحركة القومية العربية.. بالإضافة إلى اهتمام الحداثيين الإسلاميين بأمجاد أوائل المسلمين ما لبث أن تمخض عن تمجيد العرب بوصفهم حملة العقيدة الإسلامية، كرد على الاجتياح الإمبريالى، دون أن تتمكن هذه الحداثة من أن تتحول إلى برنامج سياسى مؤهل لنسف مشروعية الدولة العثمانية.. فى حين يرى آخرون أن شريحة واسعة من القادة العرب اندمجت بالنخبة العثمانية الحاكمة خلال الفترة الحميدية، إلا أن الإطاحة بالسلطان عبد الحميد من قبل تركيا الفتاة تمخضت عن استبعاد العرب، وهو ما أفضى إلى تسييس النزعة العروبية، والابتعاد عن تركيا تمامًا.

ويقول أحد التفسيرات التركية لبزوغ هذه النزعة العروبية أن ولاء العرب للخلافة الإسلامية المتجسدة بسلاطين آل عثمان، شهدت تصدعًا هائلاً حين أقدم فرسان تركيا الفتاة العلمانيون صراحة على الانفصال عن الممارسة العثمانية تجاه ممتلكاتها فى الدول العربية، ويقول المؤرخ التركى شريف ماردين أنه من المعقول افتراض أن شرائح ذات توجهات غربية من النخبة العثمانية كانت منجذبة إلى مفهوم الدولة القومية الذى كان سائدًا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولكن ليس بأى معنى عرقى، فهذه النخب واجهت فى مساعيها الرامية إلى بناء دولة تركية على طراز الدول القومية ثلاث مشكلات أدت جميعها إلى إثارة مسألة العلاقة بين المركز والأطراف وهى: إذابة الشعوب غير الإسلامية فى البوتقة العثمانية، وإدماج الأطراف الإسلامية المؤلفة بأكثريتها من الأقاليم العربية، وتوحيد هذين العنصرين فى نظام سياسى حديث.

ورغم أن الكاتب يأخذ على ما يسمى بـ «الثورة العربية الكبرى» خلال الحرب العالمية الأولى أنها تحالفت مع القوى الأوروبية المعادية للخلافة فى تركيا، إلا أن الكتاب أيضًا تغاضى عن التحالف الذيلى الذى أقامته تركيا الأتاتوركية مع القوى الأوروبية ذاتها، وهى قضية ربما تحتاج من المؤلف إلى كتاب آخر.

■

على ضفاف الأصيل - ديوان شعر

معروف الخضر

طرطوس: دار قرطاج للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ١٠٩ صفحات



١٢ قصيدة تحتويها دفتا هذا الكتاب، تنضح كلها بالشجن الجميل وخاصة فى قصيدة «طقوس سجينة» التى تبدأ بأبواب مغلقة على الشاعر الذى يلملم ذكرياته كأيقونة تزدان فى صدره، وتنتهى بآمال كبار تنتظر مواسم تفتح فيها الأبواب للفرح البهى.

والديوان فى مجمله يقدم تجربة إنسانية غنية بالمشاعر الفياضة، ترصد الأحزان الآنية، وتحاول أن تتجاوزها وكأنها على موعد مع أفراح قادمة فى زمن تمتزج فيها مواويل الصباح مع قوافل المطر.

■

الجسد فى الرواية العربية المعاصرة

د. سعيد الوكيل

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة «كتابات نقدية»، ٢٠٠٤، ٣٣٦ صفحة، ٣ جنيهات



ينطلق هذا الكتاب/ الدراسة من افتراض أساسى وهو أن الجسد فى التصور الإنسانى ليس جسدًا واحدًا، حيث تتفاوت أشكاله وصوره فى الفن والأدب.

فالجسد الذى يقدم فى الروايات ليس جسدًا واقعيًا، بل هو تمثيل رمزى للجسد عبر اللغة حيث ينفتح باب الاختيارات على مصراعيه.. فقد يكون الجسد وسيلة للتعبير عن العلاقة الملتبسة بالوطن، وقد ينشغل الكاتب بالجسد بوصفه وسيلة للتعبير عن العلاقات الوجودية بالكون والأفراد وقد يحرص الكاتب على الاعتماد على الميتولوجيا فى بناء نصه، ومن ثم يكون تمثيل الجسد معتمدًا على لغة خاصة به.

الكتاب يتناول بالدراسة ثلاث روايات من أقطار عربية مختلفة، وهو «وليمة لأعشاب البحر» لحيدر حيدر و«البئر» لإبراهيم الكونى و«مدينة اللذة» لعزت القمحاوى، وهو ما جعل الكتاب يتميز بطابعه التطبيقى، بحثًا عن ملامح التمايز فى طرق الإبداع للتعبير عن تناول قضية الجسد داخل النص الأدبى.

■

الإسلام فى مواجهة الاستئصال

د. حلمى محمد القاعود

القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٤، ١٨٩ صفحة



يرى الكاتب أن الأمة الإسلامية تعيش فترة عصيبة غير مسبوقة فى تاريخها الطويل، انتشر فيها «المتآمرون» الذين يسعون لغاية واحدة وهى استئصال الإسلام، والقضاء عليه مبنى ومعنى، شكلاً ومضمونًا، تاريخًا ومستقبلاً. وهم يفعلون ذلك ليس بالجيوش المسلحة الجرارة وحدها ولكن باستخدام ما هو أكثر فتكًا وقتلاً، من خلال الغزو الهادف لتفريغ المسلم من عقيدته وأخلاقه وصموده وجهاده وحريته، وتحويله إلى كيان هش ذليل يتبع «المتآمرين» ويكون ذيلاً لهم.

وعبر فصول الكتاب، يحاول المؤلف البرهنة على صحة وجهة نظره، رغم اعترافه شخصيًا بأن هذه الفصول قصيرة، تعالج فى مناسبات معينة معالم استئصال الإسلام فى أوجه حياتنا المختلفة.

■

الماضى الخرافى (التوراة والتاريخ)

توماس طمسن

ترجمة: عدنان حسن

مراجعة: زياد منى

سوريا: دار قدمس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤، ٦٠٧ صفحات



يرفض المؤلف اعتبار الكتاب المقدس وما جرى فيه من قصص وأحداث على أنه تاريخ.. ولكنه كتاب ملىء بالأمثولة وقصص العبرة، فهو لاهوت وليس تاريخًا على الإطلاق.

فالكتاب المقدس من وجهة نظر المؤلف يقدم تراثًا يحمل رسالة، يمكن استخدامه دعمًا لآمال معقودة فى المستقبل على الدوام.

ويركز المؤلف على طبيعة اليهودية المبكرة، ويقدم قراءة جديدة للمناخ السياسى الذى كان سائدًا إبان صراع اليهود مع أعدائهم فى فلسطين، كما جاء فى العهد القديم، ويعتمد المؤلف فى دراسته هذه على علم الآثار محاولاً تقليل التشوهات التى تحيط بفهمنا للماضى واستعمال تاريخنا لأغراض أدت لاشتعال العنف وزيادة الشرور فى حياتنا المعاصرة.

يتناول الكتاب تاريخ اليهود فى ثلاثة أجزاء، الجزء الأول عن: كيف تتحدث قصص الكتاب المقدس فى الماضى، والثانى: كيف يختلق المؤرخون ماضيًا، والثالث: مكانة الكتاب المقدس فى التاريخ.

ويأتى هذا الكتاب ليكون العاشر فى سلسلة مؤلفات توماس طمسن فى الدراسات التاريخية، وهو حاليًا يعمل

رئيساً لتحرير العديد من الصحف المتخصصة بالدراسات الكتابية، وقد حصل على شهادة الدكتوراة عام ١٩٧٤ من جامعة تمبل بأمريكا، وكان قد تقدم برسالة للدكتوراة عام ١٩٧١ عن موضوع الآباء الأولين لكن إدارة جامعة بتجن رفضتها، وهو حالياً يعيش فى الدانمارك حيث يعمل أستاذاً محاضراً فى كلية اللاهوت بجامعة كوبنهاجن.

■

درامية التغيير.. دراسات مختارة فى المسرح الملحمى

برتولت بريشت

اختيار ومراجعة: قيس الزبيدى

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٤، ٢٥٥صفحة



عرفت المكتبة العربية مسرح بريشت عن طريق تراجم لدارسين ليبراليين عديدين، قدموه من منطلقات مختلفة، لم تكن قادرة فى مجملها على تقديم مسرحه وفكره كما أراد له هو أن يكون، لأن دارسيه ومؤوليه فى الغرب قدموا مسرحه الدرامى الجديد بمعزل عن فكره الماركسى، الذى قاد تطور مسرحه الملحمى إلى جمالياته النوعية المميزة والمختلفة، وكانت أغلب تلك الدراسات تقبل الدرامى فى مسرحه، وترفض ما هو ماركسى فيه الذى جاءت أهميته، كما قيل، من إلباس الماركسية ثياباً مسرحية.

يقدم الكتاب عبر العديد من الأبحاث، المفاهيم الأساسية لفكر بريشت المسرحى والتى يقول هو بنفسه عنها: «إن المسألة عنده ليست مجرد تفسير العالم بل تغييره».

■

العمارة الإسلامية والبيئة.. الروافد التى شكلت التعمير الإسلامى

د. م. يحيى وزيرى

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٤



يطرح المؤلف فى هذا الكتاب ما وصلت إليه العديد من الأبحاث والكتابات المؤثرات البيئية فى العمائر والمدن الإسلامية فى محاولة لإظهار ردود فعل العمارة والفكر الإسلاميين تجاه معطيات البيئة، خصوصاً فى المناطق الصحراوية من العالم الإسلامى، ولكن يلاحظ أن أغلب هذه المحاولات تركز على المؤثرات المناخية فقط، التى بلا شك تمثل أحد أهم جوانب البيئة الطبيعية؛ كما أن هذه الدراسات غالباً ما تركز على عمارة المسكن الإسلامى دون سائر الأنواع الأخرى من المبانى، التى على رأسها المسجد.

والعمارة الإسلامية لا يمكن فهمها إلا بنظرة أكثر شمولية وأكثر عمقاً، فالعمارة الإسلامية شكلتها وأنضجتها عدة روافد دينية وحضارية ومناخية.. وهذه الروافد فى مجملها تمثل الرؤية الأكثر شمولاً لمفهوم البيئة، التى يجب ألا تقتصر على العوامل المناخية فقط، ولكن تتعدى لتشمل أيضاً البيئة الدينية والاجتماعية والثقافية.

■

النظام السياسى فى الإسلام

د. برهان غليون ـ د. محمد سليم العوا

دمشق: دار الفكر، سلسلة «حوارات لقرن جديد»، ٢٠٠٤، ٣١٢ صفحة



كل كتاب من هذه السلسلة يتضمن رأيين لكاتبين ينتميان إلى تيارين متباينين، يكتب كل منهما بحثه مستقلاً عن الآخر، ثم يُعطى كل بحث للآخر ليعقب عليه، ثم تنشر إسهاماتهما فى كتاب واحد.

وفى هذا الكتاب، كانت منطلقات الكاتبين مختلفة، إلا أن مساحات الالتقاء بين أفكارهما كانت تتقارب فى الكثير من الأحيان.. الدكتور غليون يشير إلى أن الإسلام لم يولد السياسة والدولة من حيث أنهما ضروريتان للإيمان، والدولة لم تكن مطلباً دينياً، ولكنها كانت مطلباً دنيوياً نزع إلى تحقيقه المسلمون بموازاة تحولهم إلى جماعة سياسية دنيوية فاعلة على مسرح التاريخ.

فى حين يرى د. العوا أن الإسلام لم يأت بنظام حكم معين العالم محدد التفاصيل، وأن القرآن والسنة لا يتضمنان نصاً عن كيفية اختيار الحكام، وكيفية محاسبتهم، وعزلهم. وهو يرى أيضاً أن عبارة دين ودولة عندما يوصف بها الإسلام لا تصح إلا على محمل واحد، هو وجوب اجتهاد العلماء المؤهلين لذلك فى المسائل السياسية، مما يتصل بسلطات الدولة الثلاث أو مما يتصل بعلاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول والمراد من «الدين والدولة» فى الإسلام هو قبول المرجعية الإسلامية العامة التى تسمح بتعدد الآراء وتنوعها فى الشأن السياسى، كما تسمح بتعددها وتنوعها فى كل شأن إسلامى آخر، وبهذا الفهم يتجنب المسلم المعاصر الوقوع فى القول بالفصل التام بين الدين والسياسة، وهو فصل غير صحيح نظرياً وغير واقع عملياً مع فهم «الدين» على أنه الشريعة الحاكمة لمعاملات الناس الدنيوية، ويتجنب الوقوع فى وهم أن النظام السياسى المقبول إسلامياً هو نظام بعينه لا يصح الاختلاف حوله ولا اجتهاد فى تفاصيله.

أما د. غليون فهو يراهن على الآفاق المفتوحة اليوم فى الفكر السياسى الإسلامى أمام تطور القيم الديمقراطية، وتنامى تيار يعبر عن ديمقراطية إسلامية حقيقية تساهم فى إخراج الفكر العربى من محنة التعارض المرعب بين علمانية رخيصة استهلاكية واستعمالية، وأصولية عقيمة وارتدادية تنحو إلى المحافظة وتجميد الهوية الدينية بل تحجيرها.

ومع وجود جوانب اتفاق فى الرؤى بين الكاتبين، كانت أيضاً محاور مفصلية للخلافات بينهما تمثلت فى دور التفسير والتأويل فى فهم النص القرآنى، وفى تحديد السلوك السياسى عند المسلمين.

■

حمار المسيح.. الأصولية اليهودية ـ الحاضر والجذور

سفى رخلافسكى

ترجمة: إسماعيل دبج

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٣، ٢٥٨ صفحة



جاء اغتيال اسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق، ليدشن صعود الأصولية اليهودية وسيطرتها على الحكم والتوجهات السياسية فى إسرائيل، والتى خاض خلالها «كاملو الإيمان» فى إسرائيل حرباً لإبادة «عملاق»، وهو اليسار الإسرائيلى، عن طريق هزيمته فى الانتخابات، لأن آثام هذا اليسار الذى يدفع الروح إلى الخطأ، أكبر من آثام النازيين الذين لم يفعلوا أكثر من إبادة الجسد!

ويؤكد الكتاب أن هذا الصعود الأصولى فى إسرائيل ارتبط بانتشار مقولات دينية متطرفة مثل «إن التوترات الدائمة على الحدود يجب النظر إليها كنعمة من السماء»، لأن الرب قال «لا يوجد سلام للأشرار»، ومن هذا الكلام فهم المتطرفون اليهود أنه لا يوجد خطر يوازى خطر اليسار الذى سيجلب السلام، لذلك على اليمين البقاء فى السلطة حتى لا يحل السلام، وحتى يبقى العلمانيون الأشرار يقتلون كجنود على الحدود، بحيث لا يتسنى لهم الوقت لضرب الحريديم.

كما ظهرت أيضاً العديد من الفتاوى الخطيرة كان أخطرها على الإطلاق فتوى تعتبر أن «حكم اليسار هو عملياً حكم إهدار دم» بمعنى أن حكم الشريعة يجيز قتل يهودى دون محاكمة من قبل من يستطيع وقف الاضطهاد والظلم، والاضطهاد هو حكم اليسار.

يستعرض الكتاب أيضاً موقف الحريديين من الصهيونية التى ينظرون إليها باعتبارها حنثاً بالعهد مع الرب بالاتيان بأفعال من أجل إعادة المسيح، بدلاً من انتظاره كما هو مفروض دينياً، فالرب يبعث المسيح من خلال أعمال الإحسان وبوسائل روحية لا بقوة عمل عسكرى عالمى استيطانى، كما أن ما يزيد من آثام الصهيونية هو أن من يقودها علمانيون خطاة.

وفى ظل هذا المناخ، يؤكد المؤلف أن هناك ثلاث مقولات يمكن اعتبارها المسئولة عن انهيار الديمقراطية الإسرائيلية الحديثة أمام عنف الأقلية، وهى: غياب طبقة وسطى لها ثقافتها المتماسكة، وغياب الاقتناع بالمسلمات القانونية والواقعية فى المجتمع، والاختلاف حول تعريف مفهوم النجاح السياسى فى الانتخابات، خاصة أن بعض التيارات الدينية المتطرفة تعطى طابعاً إلهياً لانتصاراتها السياسية فى البرلمان.

■

العراق والمنطقة بعد الحرب: قضايا الإعمار الاقتصادى والاجتماعى

مجموعة أبحاث

لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٢٣٣ صفحة، ١٠ دولارات أو ما يعادلها



يضم هذا الكتاب أعمال ورشة العمل التى عقدت عن «العراق والمنطقة بعد الحرب: قضايا حول إعادة الإعمار الاقتصادى والاجتماعى» فى بيت الأمم المتحدة فى الفترة من ٩ إلى ١١ تموز/ يوليو ٢٠٠٣، وحضرها مشاركون من كندا ومصر والعراق وألمانيا ولبنان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة.

وينشر مركز دراسات الوحدة العربية هذا الكتاب لصالح لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا.

والهدف الرئيسى لورشة العمل هذه هو بحث سبل العمل البديلة التى يمكن أن تعتمدها الحكومات والشعوب فى المنطقة،

ومنها العراق، وسبل العمل المتاحة للمفكرين والمنظمات غير الحكومية فى مواجهة تحديات إعادة الإعمار الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والإنسانى، وكذلك الجهود الإنمائية الأبعد مدى، فى بلد مزقته الحرب، وفى منطقة تعانى الحروب وعدم الاستقرار. ويعد هذا المؤتمر الموسع الذى عقدته اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا (الإسكوا) واحداً من أوائل النشاطات الفكرية التى عقدت لمواكبة أحداث احتلال العراق، كما يعتبر ما انتجه من استنتاجات وتوصيات وأفكار وتقارير دليلاً لا يمكن تجاوزه لزمن طويل لدى كل معنى بالشأن العراقى، وإطاراً متعدد الأبعاد والمزايا لمتابعة الأحداث والقضايا والإشكاليات التى يمر بها العراق والوطن العربى ككل.

الفضاء العربى.. الفضائيات والإنترنت والإعلام والنشر

مجموعة من المؤلفين

إشراف: فرانك مرمييه

ترجمة: فردريك معتوق

سوريا: دار قدمس، ٢٠٠٤، ٥٩١ صفحة، ١٥ يورو



يضم هذا الكتاب معظم الأبحاث التى قدمت أثناء الحلقة الدراسية التى ناقشت موضوع «العولمة ووسائل الإعلام والاتصال الجديدة» فى مدينة ليون الفرنسية عام ٢٠٠١.

ترصد هذه الأبحاث من مختلف الزوايا والمجالات الإعلامية، تطورات المشهد الإعلامى العربى خاصة عقب حرب الخليج الثانية، وما شهدته المجتمعات العربية من تطور تقنيات الاتصال الجديدة، انطلاقاً من «ديناميات» نابعة من داخل هذه المجتمعات استجابة لمؤثرات عالمية.

ويستعرض الكتاب المشهد الإعلامى فى العديد من الدول العربية، ويرصد فشل الحكومات فى الحد من استخدام «أطباق الدش»، كما يرصد أيضاً دور القنوات الفضائية فى استعراض أفكار المعارضين لحكوماتهم فى العالم العربى، وكذلك دور الإنترنت الذى يزداد انتشاره فى العالم العربى.

يتناول الكتاب أيضاً تأثيرات العولمة على دور النشر العربى فيما يتعلق بحقوق المؤلف وحق الملكية الفردية وما يعنيه ذلك على مأسسة مهنة الناشر.

كما يتناول بالإشارة أيضاً ضعف القدرة الشرائية فى البلدان العربية الأكثر كثافة سكانية (مصر والعراق وسوريا والمغرب والجزائر والسودان) مع وقع الرقابة الثقيل، مع تضافر ارتفاع أسعار الرسوم الجمركية وضعف شبكات التوزيع والعدد المحدود للمكتبات وانتشار القرصنة، فى تغذية الأزمات المتكررة التى يعيشها قطاع النشر، ويؤكد أيضاً أن سوق الكتاب فى العالم العربى يتأثر دائماً بالتوترات الإقليمية والظروف الدولية أيضاً.

كما تلعب الرقابة دوراً فى زيادة الإقبال على الكتاب، فمنذ أن منعت مصر عام ٢٠٠٠ رواية «وليمة لأعشاب البحر» للسورى حيدر حيدر تضاعفت مبيعاتها فى الدول العربية الأخرى.

وقد كان لانتشار التقنيات الجديدة وقع كبير على النشر العربى، فإلى جانب الكتاب المطبوع، انتشرت المنتجات الإلكترونية التى بدأت بإنتاجها وتسويقها بعض دور النشر العربية.

عشاق الدير (رواية)

د. محمد الدروبى

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٣، ٢٥٩ صفحة



بأحداثها التى تكتسى بصبغة ملحمية، يعود الدكتور الدروبى فى هذه الرواية إلى التاريخ.. تاريخ قريب مدون فى مخزونه المعرفى، منطلقاً من قرية وادعة فى بادية الشام، تستكين بأحضان دير يبعث الرهبنة والتقديس فى أرواح أهلها على اختلاف مذاهبهم، ليعرى عبر سرد روائى شفاف هشاشة اليقين والثوابت.

ومن هناك يمضى عبر توظيف درامى محكم إلى تاريخ آخر بعيد.

ورغم تأكيد الدروبى على حقيقة الأحداث ودقتها كما وردت لدى المؤرخين، إلا أن انتقاءها لتلك الأحداث بقريبها وبعيدها، يشى بموقف نقدى مكنون يفضح الوعى المزيف.

ويؤكد أن بإمكان نص إبداعى مخاطبة العقل وتحريضه، رغم انعتاقه من أغلال الوعظ والمباشرة.

وهو فى كل ذلك ربما يعطى إجابة ما، لوظيفة الأدب والإبداع التى عليها أن تستبطن موقفاً وتحقق متعة فى نفس الوقت.

والدروبى فى معماره الروائى حقق ذلك بامتياز إذ ترك لخياله وخيال القارئ دوراً أساسياً فى فهم ما يجرى حولنا.

عائشة تيمور: تحديات الثابت والمتغير فى القرن التاسع عشر

تحرير: هدى الصدة

القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة، ٢٠٠٤، ١٩٧ صفحة



عائشة تيمور (١٨٤٠ - ١٩٠٢) هى ابنة الطبقة الأرستقراطية التى قرضت الشعر بثلاث لغات كانت تجيدها إجادة تامة وهى العربية والفارسية والتركية، كما كتبت أعمالاً نثرية يعدها النقاد من بشائر الأدب القصصى فى العصر الحديث.

كانت أمها معتوقة شركسية وكان أبوها من أصل كردى تركى وهو الذى لعب فى حياتها دوراً مؤثراً للغاية، فقد ساعدها على التمرد على الأعمال النسوية المنزلية مثل تعلم فنون الرسم والتطريز، ووفر لها الفرص التى تمكنها من تحقيق طموحاتها فى حضور مجالس العلماء، حيث أحضر لها أستاذين، الأول علمها الفقه والخط وحفظها القرآن الكريم، والثانى كان يعلمها النحو والصرف واللغة الفارسية، وبعد وفاة أبيها وزوجها واصلت التعلم على يد سيدتين هما: فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية حتى أتقنت دراسة النحو والعروض وتفرغت بعد ذلك للكتابة الشعرية والنقدية وعملت مترجمة فى البلاط الخديوى.

تركت عائشة ديوان شعر باللغة العربية بعنوان «حلية الطراز» عام ١٨٨٤ تضمن قصائد فى الغزل والرثاء والمديح، وديواناً آخر بالفارسية، وأعمالاً نثرية وهى «نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال» و«مرآة التأمل فى الأمور» و«اللقاء بعد الشتات»، ورواية أخرى بخطها غير كاملة.

وهذا الكتاب يقدم مجموعة من الأبحاث التى قدمت فى مؤتمر «عائشة تيمور» الذى انعقد عام ٢٠٠٢، والتى تلقى الضوء على التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية التى شهدتها مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وهى الفترة التى شهدت انتشار المطابع الخاصة ونشاط حركة الترجمة والتوسع فى إنشاء المدارس الحديثة بجانب الكتاتيب، وارتفاع عدد الصحف والمجلات، ولاسيما المجلات النسائية التى أفسحت المجال لأعداد كبيرة من النساء للتعبير عن همومهن.

كما شهدت هذه الفترة أيضاً معارك فكرية وسياسية حول شكل المجتمع الحديث وحول الصورة الأمثل للرجال والنساء فى الوطن، وحول قضايا اللغة والأدب والفنون، خاصة بعد الاحتلال البريطانى لمصر وزيادة الامتيازات الأجنبية واتساع النفوذ الأوروبى.

ومع المبالغة فى تمجيد المفاهيم الحداثية آنذاك، أدى ذلك إلى إغفال مساهمات نساء قدمن خطابا مغايراً، وكانت كتابات عائشة خير مثال على ذلك، فمن خصائص الكتابة الشعرية والنثرية لها أنها امتداد للأسلوب العربى القديم الذى استخدمته وطورته للتعبير عن قضايا معاصرة، ومن ثم تم التقليل من أهمية أعمالها الأدبية والتركيز على الشكل الحديث الممثل فى رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل.

وباستثناء موقفها المعادى للحركة العرابية، كان لعائشة تيمور دور كبير فى عمليات التنمية الاجتماعية خاصة فى مجال تعليم المرأة، والعلاقة بين الرجل والمرأة ومناقشة حقوق وواجبات كل طرف إزاء الآخر، كما استخدمت الأدب أيضاً كأداة للتغيير الاجتماعى، بالإضافة إلى التعبير به عن أحاسيسها كامرأة وهو ما عرضها لهجوم حاد من الكثيرين سواء فى حياتها أو بعد مماتها.

والكتاب فى مجمله يقدم محاولة جادة لإعادة النظر فى بعض المفاهيم الثقافية التى استقرت فى وعينا الثقافى من خلال رصد وتحليل التراث النقدى والأدبى الذى تركته عائشة تيمور.

السينما والرقابة فى مصر (١٨٩٦-١٩٥٢)

محمود على

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة «آفاق السينما»، ٢٠٠٤، ٢٤٧ صفحة



يكشف هذا الكتاب التاريخ السرى والمجهول لعلاقة السينما بالرقابة فى مصر خلال الفترة من عام ١٨٩٦ حتى ١٩٥٢، والرقابة كما ينظر إليها المؤلف على أنها عبارة عن جهاز يمثل منظومة أشمل من أجهزة الدولة، ويعبر عنها فى تعامله مع السينما كوسيلة تعبير أكثر انتشاراً وتأثيراً، كما أن جهاز الرقابة يخضع كغيره من الأجهزة لمنظومة سياسية أشمل هى التى تحدد له ما يجب وما لا يجب إجازته..

يستعرض الكتاب تطور التشريعات المنظمة لعمل النقابة والصراع بين وزارتى الداخلية والشئون قبل ثورة ١٩٥٢ على الرقابة على الأفلام السينمائية وأيهما أحق بهذا الدور. كما استعرض عدداً من تقارير الرقابة على بعض الأفلام.

هيكل بين الجريدة والكتاب

د. وحيد عبد المجيد
القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٤، ٢١٥ صفحة



أثار قرار محمد حسنين هيكل بالانصراف عن الكتابة فى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ لدى بلوغه الثمانين، ردود أفعال واسعة ليس فقط فى مصر ولكن فى العالم العربى كله.

وفى هذا الكتاب قام د. وحيد برصد ردود الأفعال العربية على قرار الأستاذ بالانصراف، وهو يضعها تحت منظور النقد والتحليل. فحول ما يقوله بعض خصوم الأستاذ السياسيين عن أنه فقد مصادره الإخبارية التى كان يستمدها من قربه إلى السلطة، وأنه وجد نفسه فى محنة حقيقية بعد رحيل عبد الناصر... كانت وجهة نظر د. وحيد أن هيكل كان يكتب من أجل مصر والأمة العربية وللقارئ فى كل مكان من بلاد العرب، وصحيح أنه آمن بأن عبد الناصر هو الذى جسد حلم العرب والعروبة، وكانت كتابات هيكل من أجل ما طمح إليه عبد الناصر وشاركه هو طموحه فيه، بل يعرف كثيرون أن مشاركة هيكل تجاوزت ذلك إلى القيام بدور يعتد به فى صنع هذا الطموح، منذ أن وضع الأفكار الأساسية التى قام عليها كتاب «فلسفة الثورة»، وهناك فرق شاسع بين أن يكتب الكاتب من أجل هدف يؤمن به ويشارك فى صنعه ويعتقد أن زعيمًا بعينه هو المؤهل للعمل من أجل تحقيقه، وبين أن يكتب من أجل هذا الزعيم. فالعلاقة بين الرجلين لم تكن مجرد صلة بين رئيس دولة ورئيس أكبر صحيفة فى مصر، ولكنها كانت علاقة سياسة وفكر وحوار، ولعب هيكل دورًا كبيرًا فى إنارة الطريق أمام عبد الناصر، ولم يكن أبدًا صوتًا لعبد الناصر، بل للرؤية التى شاركه فيها، كما كانت له مبادرات فى تطوير هذه الرؤية اعتمد فيها على مكانته ككاتب وليس على علاقته مع الرئيس.

وتغيرت هذه الأوضاع عندما لم تعد ثمة رؤية يشارك فيها هيكل الرئيس أنور السادات بعد حرب ١٩٧٣، فآثر الأستاذ فيها الانصراف عن المشاركة فى صنع سياسة، وترك الأهرام عام ١٩٧٤ مع أن الأمر لم يكن يقتضى أكثر من أن يبدى بعض المرونة كى يبقى صاحب حظوة لدى السادات، إلا أن هيكل أكبر من ذلك، وقد رأى كل ذى عينين أن مكانة هيكل ازدادت بعد أن ترك المنصب وتخفف من أعباء الإدارة، وأقبل ناشرون غربيون كبار عليه فكتب بالإنجليزية العديد من الكتب حققت انتشارًا.

يتناول الكتاب أيضًا تجربة الأستاذ هيكل الفريدة فى الكتابة بلغتين، ويسرد الكثير من المواقف التى تناولتها كتب هيكل بطبعتيها العربية والإنجليزية والتى احتوت على الكثير من القضايا الساخنة التى عاشتها المنطقة عقب حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣.

■

مراجعات فى الفكر القومى

د. محمد جابر الأنصارى
الكويت: وزارة الإعلام، كتاب العربى العدد ٥٧، ١٥ يوليو ٢٠٠٤، ١٩١ صفحة



الدكتور الأنصارى من المثقفين الذين عاشوا التجربة العربية حلمًا وكابوسًا، إلا أنه بخلاف العديد من المثقفين العرب لم يترك نفسه لليأس والغضب، ولم يمارس جلد الذات، فهو يرى أنه من الممكن اجتياز هذه الهوة التى يعيشها العرب حاليًا، بجسر من إعمال العقل وتدعيم الذات العربية المكلومة.

وهذا الكتاب يجمع بعضًا من حصيلة ٣٦ عامًا من المقالات التى كتبها د. الأنصارى فى مجلة العربى، وهى تبين أهم المنعطفات التى تواصلت خلال تطوره الفكرى، كما أن العديد منها كان يحمل الكثير من الأفكار التى تحولت إلى كتب مستقلة من ضمن الـ ١١ كتابًا التى أصدرهما قبل هذا الكتاب.

وكما يقول د. الأنصارى فإنه قد تبين له بعد هزائمنا العربية المتوالية أن أخطر ما نفتقده هو التأسيس المعرفى لقضايانا، قبل الترويج الأيديولوجى لها.

ويأتى هذا الكتاب ليلقى الأضواء على فكرة د. الأنصارى المركزية فى دراسته لأزمة الفكر العربى، والتى يراهن من خلالها على تجاوز الفكر التوفيقى فى العقل العربى الحديث منذ ما عرف بفجر النهضة وحتى الآن، والتى تمثلت فى «حالة اللاحسم» والتعارض بين الاضداد ما بين «الوطن وما دون الوطن» وبين «الوطنى والقومى»، وبين «القومى والدينى»، وبين الدينى والعصرى، إلى آخر هذه السلسلة من الثنائيات غير المحسوم بينها فى الحياة العربية الحديثة.

وخلال فصول أو مقالات هذا الكتاب يوضح د. الأنصارى جوهر مشروعه البحثى الذى يدعو لتجاوز التوفيقية، بعد تشخيصها ونقدها، منطلقًا من فرضية أساسية وهى أنه على الرغم من التألق الروحى والعقلى والعمرانى للحضارة العربية الإسلامية، فإن تاريخها السياسى وفكرها السياسى ظلا أضعف عناصرها على الإطلاق وأشدها ارتباكًا. وأن الخروج من هذه الوضعية السياسية المرتبكة يتطلب فى المقام الأول فتح المجال أمام القوى المدنية الوطنية للعمل السياسى المعقلن الحديث فى وجه العصبيات السياسية التقليدية، ومالم يتم تمدين هذه القوى ودمجها فى مجتمع مدنى الطابع، فإن الحديث عن الديمقراطية فى البلاد العربية سيبقى حديث خرافة.

■

العالم الإسلامى فى عصر العولمة

د. عبد العزيز بن عثمان التويجرى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٢٨ صفحة



عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، تصاعدت فى الغرب موجات الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين، فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه القوى الصهيونية الاستعمارية واليمين المسيحى الواقع تحت تأثيرها انحيازها الكامل والمطلق لدولة إسرائيل العنصرية والمارقة عن القانون الدولى والتى تمارس ضد الشعب الفلسطينى أبشع الجرائم.

ويؤكد هذا الكتاب، أن هذه الحرب المعلنة ضد الإسلام والمسلمين فى هذه المرحلة من التاريخ، ارتبطت بمحاولات فرض نظام العولمة على المجتمعات الإنسانية، تحت زعم أنه نظام عالمى بينا هو فى حقيقته وطبيعة سياساته وأهدافه نظام أحادى، تستهدف قوى دولية من وراء فرضه على أنه أمر واقع للسيطرة على العالم كله.

وقد أصبح واضحًا أن نظام العولمة المفروض بقوة النفوذ السياسى والاقتصادى للقوى الدولية المهيمنة على السياسة الدولية فى المرحلة الراهنة، يشكل تحديًا بالغ الضراوة والشراسة، لا تستطيع الدول التى لا تمتلك شروط المناعة الصناعية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية التصدى له ولتأثيراته الخطيرة عليها. ومع اشتداد الحصار الذى تضربه العولمة على الدول النامية لكى تحد من قدراتها على تحقيق مصالحها وضبط موازين سياساتها الوطنية فى الاتجاه الذى يخدم هذه المصالح.. فإن التعامل مع العولمة ينبغى أن يتم بفهم آليات هذا النظام وفلسفته وإدراك السياسة المحكمة فيه، ومحاولة تحقيق التوازن بين ضغوط العولمة وبين المصالح الوطنية لهذه الدول النامية.

والمؤلف يؤكد أنه لا سبيل لتجاوز الواقع الذى يفرض نفسه فى السياسة الدولية فى هذه المرحلة العصيبة التى يمر بها العالم، إلا بالتكيف مع هذا الواقع والاندماج فى معتركه والتعامل مع حقائقه بموضوعية شديدة، لكى ندخل فى طور مواكبة متغيرات العولمة دون أن نضطر إلى مواجهتها.. وهى المواجهة المستحيلة بحكم الحسابات الواقعية، خاصة أن الصراع فى الفكر الغربى المعاصر له جذور عميقة تعود إلى الحضارتين اليونانية والرومانية.

ويشير الكتاب إلى أن الأمة الإسلامية تمتلك شروط النهوض الحضارى لاستئناف دورها فى بناء الحضارة المعاصرة والإسهام فى إنقاذ البشرية مما يتهددها اليوم من خطر التفكك والانهيار، وهى مؤهلة أكثر من غيرها من الأمم لتؤدى دورًا بالغ التميز، بشرط أن تقوم بتصحيح أوضاعها الداخلية، ونبذ خلافاتها الهامشية وتفعيل قدراتها الكبيرة فى إطار التضامن الإنسانى وبروح القوة الإسلامية.

■

أيام فى العراق

أنور الياسين - جمال بخيت
الكويت: عالم المستقبل للخدمات الإعلامية، العدد ٣٠٥، ٢٠٠٤



يظل العراق الرقم الصعب فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر فمنذ مطلع السبعينيات وأحداث العراق تفرض نفسها على الساحة السياسية والاقتصادية والإعلامية والثقافية.. من حرب إلى أخرى ومن أزمة إلى أخرى.

والكتاب يرصد رحلة لزميلين من الصحافيين اللذين تابعوا عملية تحرير العراق منذ البداية بحثًا عن الحقيقة وكشف بعض وليس كل المنظمة السرية التى كان يقودها صدام.

يرصد الكتاب فى الباب الأول مجموعة من الفصول عن حزب البعث، وصدام حسين وكيفية وصوله للحكم، والعلاقات مع الأمم المتحدة. ويستعرض الفصل الثانى المعارضة العراقية وحوارات معها ويشرح الفصل الثالث التحضير للحرب، ثم مشاهدات حية خلال رحلات المؤلفين إلى العراق، أما الفصل الرابع فيتناول عملية حرية العراق وليلة سقوط بغداد وسيطرة بريطانيا والولايات المتحدة على كامل العراق فى أيام.

والكتاب ملحق به مجموعة كبيرة من الصور توثق مجموعة الرحلات التى قام بها المؤلفان وهما يرصدان هذه الأحداث التى مرت بالعراق والتى باتت أكيدة

سيكون معها تأثيراتها الكبرى على مستقبل المنطقة بكاملها.

■

العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية.. لبنات أساسية فى صرح الحضارة الإنسانية

دونالد ر. هيل
ترجمة: أحمد فؤاد باشا
الكويت: عالم المعرفة، العدد ٣٠٥، ٢٠٠٤، ٢٣٠ صفحة



يعرض الكتاب لأهم إنجازات الحضارة الإسلامية فى علوم مختلفة كالرياضيات والفلك والفيزياء وغيرها، مركزًا على الجانب التقنى من خلال عرض واف للآلات والأجهزة والإنشاءات الهندسية التى تميزت بها الحضارة الإسلامية.

يقدم المؤلف موجزًا لتأثير الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية. وتحديدًا الحضارات الهلينستية والرومانية والبيزنطية، ويعرض للدور الذى لعبته حركة الترجمة فى انتقال المعارف والعلوم إلى المسلمين. كما يتناول انتقال الرياضيات الهندية إلى الحضارة الإسلامية ودورها فى تطور الرياضيات عمومًا. ودور العلماء المسلمين، كالخوارزمى، فى هذا التطور، ويعرض لحساب المثلثات باعتباره من أهم إسهامات المسلمين فى مجال الهندسة. ويستعرض الكتاب علم الفلك والفيزياء والكيمياء وأهم الآلات التى صنعها المسلمون مثل طواحين الهواء والماء والمجانيق، بالإضافة إلى أنواع الجسور التى أقاموها على أراضيهم وغير ذلك من العلوم.

■

البلدة الأخرى

إبراهيم عبد المجيد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٨٣صفحة



فى مناخ يمتزج فيه الحلم بالألم، تحكى هذه الرواية قصة شاب قام بالسفر إلى إحدى دول النفط، علّه يجد فيها ما يعوضه عما يعانيه فى بلده. وهناك انفتحت أمامه دنيا جديدة، شاهد فيها صراعات ساخنة تدور من حوله، وبداخله أيضًا.. تنفجر شلالات من الأسئلة الحائرة كان أهمها: هل يستمر فى غربته أم يسرع بالعودة؟.. ولم تكن الإجابة سهلة على الكثيرين الذين يقعون فى حيرة الموازنة بين المعاناة فى الغربة والمعاناة فى الوطن.

كان بطل الرواية مؤمنًا بأن الحياة جميلة جديرة بأن تعاش، إلا أن عمله بالتدريس لن يتحرك به خطوة للأمام وانتظاره للإعارة وفقًا لجدول وزارة التربية والتعليم، يعنى الانتظار حتى يجف النفط، وتفقد فكرة السفر معناها وجدواها. فقد كان عليه أن يسافر، لأنه لا يوجد أحد يرفض فرصة سهلة كهذه، وهو ما يحسده عليه الناس، كما قالت له أمه، ومع السفر والعودة، كانت هناك لحظات حلوة وأخرى مرة.. وكانت هذه الرواية التى كتبها الأديب إبراهيم عبد المجيد بين عامى ١٩٨٦ و١٩٨٧.

دوريات

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، يوليو ٢٠٠٤، ٣ جنيهات



يتضمن هذا العدد من مجلة المستقبل العربى التى يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية ملفًا شاملاً بعنوان: «العراق إلى أين؟» أما الافتتاحية فقد كانت بعنوان: «فى تأبين يوسف صايغ: عقل اقتصادى عربى رائد» كتبها خير الدين حسيب. وفى العدد أيضًا دراسة تفصيلية لـ «أطروحات الأكاديمية الصهيونية جدلية الزيف التاريخى وتعاكسية الاستخلاصات والنتائج» أعدها محمد صلاح العطار، والمنطقة الرمادية: كيف انتقل برنامج سرى للبنتاجون إلى أبو غريب» وهى مقالة كتبها سيمور هيرش تكشف النقاب عن جذور فضيحة سجن أبو غريب. وفى باب «من التراث» تنشر المستقبل العربى «حكومة الانتداب» وهى قصيدة قديمة شهيرة لمعروف الرصافى.

■

الآداب

بيروت: ٢٠٠٤، ٩٦ صفحة، ٧ جنيهات



يحتوى هذا العدد ملفًا شاملاً عن الشعر الحديث فى إيران. كما يتضمن حوارًا مع المثقف الأمريكى جول بينن حول مشروع الشرق الأوسط الكبير، بالإضافة إلى عدد من الأبحاث حول المقاومة الشاملة، والكلاسيكية فى الخطاب التاريخى العربى المعاصر، وهيمنة الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية.

■

جريدة الفنون

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والآداب والفنون، يوليو٢٠٠٤



حرصت جريدة الفنون، فى عددها الأخير أن تنعى الفنانة القديرة الراحلة مريم الغضبان، من خلال ملف يحوى مسيرتها الفنية.

على جانب آخر احتفت الفنون بالفنان العراقى العالمى حسن شاكر آل سعيد، صاحب الفن الجدارى المعروف. ويقدم باب المسرح قراءة نقدية فى إحدى مسرحيات المبدع سليمان الحزامى، أما باب السينما فقد اشتمل على متابعة لفعاليات الأسبوع السينمائى الفلسطينى كذلك احتوى الباب على قراءة لاثنين من الإبداعات السينمائية الكويتية وهما المهرجون «لناصر كرمانى»، و«المغول رعاة السهول» لعبد الله المخيال.

■

الثقافة العالمية

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، يوليو - أغسطس٢٠٠٤



يحفل عدد الثقافة العالمية ١٢٥ (يوليو - أغسطس٢٠٠٤) بالعديد من المقالات المهمة. يأتى على رأسها ملف العدد «الحرب على الإرهاب» الذى يضم خمسة مقالات، يعالج كل منها قضية الإرهاب من زاوية مختلفة. أما بقية مقالات العدد التسع فهى تتنوع فى مقالاتها بين المجال العلمى إلى التكنولوجى والطبى، ومن الوثائقى إلى الروحانى. ومن هذه المقالات «تأملات فى الشأن الدينى» و«أنت مراقب» و«أسطورة الحوسبة الآمنة».

■

أدب ونقد

القاهرة: حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، يوليو ٢٠٠٤



اشتمل هذا العدد على عدد من الموضوعات المتميزة، منها دراسة عن المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون الذى توفى هذا العام عن ٨٩ عامًا، بالإضافة إلى موضوعين عن ثورة ماو الثقافية، ودراسة عن الشخصية العربية بين التقليدية والحداثة.

وفى هذا العدد ملف عن الكاتب الأردنى مؤنس الرزاز، ودراسة عن السينما الإيرانية.

■

How Israel Lost the Four Questions

(كيف خسرت إسرائيل القضايا الأربع)

Richard Ben Cramer

Simon and Schuster, 2004, 307PP., $ 24.00



يقول مؤلف هذا الكتاب وهو صحفى أمريكى قام لسنوات طويلة بتغطية شئون الشرق الأوسط لصحيفة أمريكية، إن أى يهودى غير إسرائيلى يمكنه أن يحل النزاع الإسرائيلى الفلسطينى خلال ١٠ دقائق من التفكير المركز.

ويعتقد المؤلف، الفائز عام ١٩٧٩ بجائزة بوليتزر الأمريكية إن انسحاب إسرائيل من جانب واحد من الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧ وعودتها إلى خطوط الهدنة عام ١٩٤٨ والاعتذار للفلسطينيين من شأنه أن يؤدى إلى إحلال السلام فى المنطقة وأن تعود إسرائيل لتحتل مكانتها اللائقة فى العالم.

ويحمل المؤلف إسرائيل مسئولية فشل اتفاقيات أوسلو ويصف حركة حماس بأنها أكثر جماعات المقاومة الإسلامية نجاحاً، قائلاً: إنه رغم أن هدفها هو إزالة إسرائيل إلا أنها فى الواقع تقاوم الاحتلال. ويشير إلى أن العنف الذى يمارسه الفلسطينيون ضد اليهود بدأ بعد أن احتلت إسرائيل الأراضى الفلسطينية عام ١٩٦٧ وكثفت من برامج إنشاء المستوطنات والاعتقالات ضد الفلسطينيين.

ولأن المؤلف شديد الوضوح فى إبراز الأسباب التى يعتقد أنها تؤجج الصراع فى المنطقة ولا تحل ولأنه يحمل إسرائيل مسئولية ذلك، فإنه تعرض لانتقادات شديدة فى الولايات المتحدة واتهمه صحفيون عديدون بأنه يبسط الأمور بشكل مخل ويحمل إسرائيل كل شىء دون أن ينظر إلى مسئولية الطرف الآخر، وهم الفلسطينيون عن المشكلة. إلا أن المؤلف من خلال خبرته الطويلة فى تغطية شئون الشرق الأوسط وفى اللقاءات العديدة التى أجراها مع إسرائيليين وفلسطينيين والتفاتاته الكثيرة إلى التاريخ يعتقد أن إسرائيل هى التى تتحمل المسئولية وبشكل واضح.

■

Churchill's Folly.. Imperialism and the Creation of Modern Iraq

(حماقة تشرشل.. الإمبريالية ونشوء العراق الحديث)

Cristopher Cather Wood

Constable 267PP. £12.99



ظهر العراق الحديث على أنقاض الإمبراطورية العثمانية وكان من الصعب، كما يرى الكاتب، تحديد مما يتكون العراق بالضبط كما هو الأمر الآن تحت حكم الأتراك كان يتألف من ٣ ولايات متمركزة حول مدن الموصل وبغداد والبصرة، وكل منها يمثل أعراف مختلفة الأكراد والعرب السنة والعرب الشيعة. وقرر البريطانيون المحتلون أن تكون هذه الولايات تحت حكم واحد وهو الملك فيصل. ويتناول الكتاب كيفية اختيار فيصل. ومؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ الذى أسفر عن تثبيت فيصل على حكم العراق وشقيقه عبد الله على إمارة شرق الأردن دون حل للمسألة الفلسطينية وبذلك أعاد البريطانيون رسم خريطة الشرق الأوسط.

ويقول المؤلف إن تشرشل مال إلى اختيار فيصل لأسباب اقتصادية فهو كان يريد أن يقلل عدد القوات البريطانية فى العراق. إلا أنه من المعروف أن المقاومة العراقية للاحتلال البريطانية كانت شرسة لدرجة كبيرة أزعجت البريطانيين أنفسهم ويدافع المؤلف كثيراً فى الكتاب عن دور تشرشل وسياسته آنذاك عندما كان وزيراً للمستعمرات البريطانية.

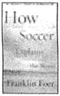
■

How Soccer Explains the World: An Unlikely Theory of Globalization

(كيف تفسر العالم من خلال كرة القدم؟.. نظرية فى العولمة)

Franklin Foer

Harper Collins Pub., 2004, 261PP. $ 24.95



تفرغ الصحفى الأمريكى فرانكلين فوير لمدة ستة أشهر كي يجوب عواصم كرة القدم فى العالم كله، ليثبت نظريته فى أننا نستطيع من خلال دراسة لعبة كرة القدم أن نفسر معظم الظواهر السياسية والاقتصادية والثقافية فى العالم. بالتحديد دراسة آثار العولمة على الهويات القومية والانتماءات المحلية.

يبين الكتاب العلاقة بين متعصبى كرة القدم فى صربيا وبين المذابح التى تمت فى كرواتيا والبوسنة بأوائل التسعينيات. فقد قام أحد هؤلاء المتعصبين ويدعى «آركان» بتجنيد مجموعة من مشجعى فريق «النجم الأحمر» لكي يكونوا أحد فيالق «ميلوسوفتش» وقاموا بذبح ألفى بوسنى وكرواتى على الأقل.

ويذهب المؤلف إلى سكوتلاندة حيث يلعب الصراع المذهبى بين البروتستانت والكاثوليك دوراً مهماً فى مدرجات مدينة جلاسكو. وفى إيران، يرى فرانكلين فوير أن العالم لم ينتبه للثورة المضادة التى قامت بها النساء عام ١٩٩٧ عندما أصررن على المشاركة فى الاحتفال بانتصار الفريق القومى فى إحدى المباريات الدولية المهمة، فقمن بمظاهرة عندما تم منعهن من دخول أرض الإستاد المخصصة للرجال فقط. الأمر الذى يراه المؤلف دليلاً على علاقة كرة القدم بالسياسة والدين وكل شيء.

■

Alexandria, Real and Imagined

(الإسكندرية: الواقع والمتخيل)

Anthony Hirst and Michael Silk

Ashgate/ Kings College, 2004, 432PP. £ 55.00



يقدم هذا الكتاب الضخم صورة مركبة لمدينة غير عادية، منذ أن تأسست فى القرن الرابع قبل الميلاد وحتى يومنا هذا: مدينة تعرف بتاريخها وتنوعها الاثنى والثقافى، كما تعرف بآثار عظمتها القديمة من عهود الإمبراطوريات العثمانية والعربية والبيزنطية والرومانية واليونانية. ويحتفى الكتاب أيضاً بصورة الإسكندرية في ذاكرة ومخيلة الكتاب والفنانين والشعراء السكندريين وغيرهم من زوار المدينة.

يتضمن الكتاب مجموعة كبيرة من المقالات والدراسات لمؤلفين تنوعت رؤاهم وتخصصاتهم من تاريخ الفن والتحليل الاجتماعي والثقافي إلى قراءات جديدة لكفافى وكاليماخوس، ومن انطباعات الرحالة الأجانب إلى سجلات أقسام الشرطة، ومن صورة الإسكندرية لدى ديوريل وفورستر إلى صورتها فى الرواية العربية فى القرن العشرين.

■

America Alone: The Neoconservatives and the Global order

(أمريكا وحيدة: المحافظون الجدد والنظام الكوكبى)

Stefan Halper and Jonathan Clarke

CUP, 2004, 369PP., $ 20.00



يجادل المؤلفان فى هذا الكتاب بأن السياسة الخارجية الأمريكية تعرضت للاختطاف من جانب عصابة من المحافظين الجدد الذين سيطروا على جدول أعمال الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ويقول المؤلفان إن المحافظين الجدد كانوا مستعدين بخطة عمل تفصيلية لكيفية استجابة الولايات المتحدة للأحداث. والمشكلة أن هذه الخطة كانت معدة قبل ١١ سبتمبر بسنوات ولأسباب مختلفة وفى سياق مختلف وضد دولة مختلفة، لكن المحافظين الجدد لم تكن لديهم مشكلة رغم هذه الاختلافات فطبقوا الخطة على الأحداث بعد سبتمبر وهو ما جلب المشاكل على الولايات المتحدة.

لقد بدأ المحافظون الجدد كقوة يحسب لها حساب فى بداية السبعينيات عندما انقلب تيار الوسط والمحافظون الديمقراطيون فى الحزب الديمقراطى على قيادة الحزب الليبرالية بزعامة جورج ماكجنورن. والتف هؤلاء المنشقون حول السيناتور هنرى جاكسون المعارض لسياسة الانفراج مع الاتحاد السوفيتى.

وزادت الهوة بين هؤلاء المحافظين الجدد والمحافظين فى الحزب الجمهورى مع نهاية الحرب الباردة وانتقد المحافظون الجدد عدم دخول القوات الأمريكية بغداد عام ١٩٩١ وإزاحة صدام عقب حرب تحرير الكويت ووجد المحافظون الجدد فرصتهم مع وصول الرئيس بوش الابن للسلطة وبدأوا فى تطبيق أجندتهم. ويشير المؤلفان إلى أن سياسات هؤلاء الجدد كانت مثار جدل شديد داخل وخارج الولايات المتحدة، بل إنهم خرقوا الثوابت الأمريكية وعلى سبيل المثال فإنه لا توجد إجابة شافية على سؤال لماذا اتحد المحافظون الجدد

مع الليكود فى إسرائيل بدلاً من حزب العمل الذى كان الحليف الطبيعى للولايات المتحدة.

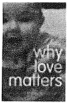
■

Why Love Matters: How Affection Shapes a Baby's Brain

(أهمية الحب: كيف تشكل العاطفة مخ الرضيع)

Sue Gerhardt

Routledge, 2004, 264PP. $ 9.99



فى دراسة أجريت على مجموعة من الأيتام فى رومانيا تركوا وهم رضع يبكون طويلاً دون أن يلتقطهم أو يحملهم شخص بالغ، اكتشف الباحثون أن هؤلاء الأطفال يحدث لهم خلل في نمو الفص الأمامي بالمخ، وهو الجزء المسئول عن التحكم في المشاعر والعواطف، والإحساس بالآخرين، والشعور بالمتعة وتقدير الجمال.

هذا الكتاب يؤكد النتيجة نفسها؛ أن الخبرة الشعورية والعاطفية للأطفال الرضع في الشهور الأولى بعد الولادة لها تأثير خطير وبعيد المدى على نمو المخ وبالتالى على الشخصية التى يصير عليها الطفل بعد البلوغ والنضوج.

وقد احتاجت المعالجة النفسية ومؤلفة هذا الكتاب سوجيرهارت إلى شجاعة كبيرة لكى تنشر هذا الكتاب واستنتاجاته، لما لهذا الموضوع من حساسيات سياسية تمس وضع المرأة والسياسات الحكومية المشجعة لعمل المرأة وإنشاء حضانات رعاية الأطفال الرضع فى بريطانيا. ولهذا كانت مثل هذه الدراسات تهاجم بشدة فى الستينيات من قبل الحركات النسوية.

تبين سو جيرهارت أن العامل الأساسى فى هذه الدراما السيكولوجية هو هورمون الكورتيسول، والذى يفرز من غدة معينة بالمخ عندما يشعر الطفل بالأسى والتوتر. فإذا زادت نسبة الكورتيسول كثيراً بسبب طول فترات الحزن والتوتر يحدث خلل بالمخ، يجعل من الطفل إما يفرز كمية قليلة للغاية من الهرمون أو كمية زائدة، الأمر الذى يجعل منه فى الحالة الأولى عنيفاً وبارد عاطفياً، وفى الحالة الثانية مكتئباً وخائفاً.

■

The Right Nation.. Conservative Power in America

(أمة اليمين.. قوة المحافظين فى أمريكا)

John Micklethwait and Adrian Wooldrige

Penguin, 2004, 450PP.,$25.00



يكرس المؤلفان هذا الكتاب للحديث حول الحركة المحافظة التى أعادت تشكيل السياسات الأمريكية خلال العقد الأخير. والكتاب مقسم إلى ٤ أجزاء حول تاريخ الحركة وواقعها ومستقبلها والمشاكل التى تواجهها. ولأن المؤلفين بريطانيان فإنهما يحاولان إرجاع الحركة المحافظة فى الولايات المتحدة إلى أصول بريطانية تعود إلى القرنين الثامن والتاسع عشر.

ويشير الكتاب إلى أن هناك أنواعاً متعددة للمحافظة داخل الحزب الجمهورى تؤثر فى سياسات هذا الحزب بأشكال عديدة ولا يكتفى المؤلفان بالحديث عن التاريخ بل إنهما يحاولان أن يقدما رؤية واقعية للمحافظين على الأرض من خلال زيارة التجمعات المحافظة والالتقاء بمواطنين عاديين يؤمنون بهذه الأفكار. ويتحدث المؤلفان بشكل خاص عن أسرة أو سلالة بوش ومدى تجذر الفكر المحافظ فيها.

■

Willing Slaves: How the Overwork Culture is Ruling our Lives

(عبيد بإرادتنا: كيف تتحكم ثقافة العمل فى حياتنا)

Madeleine Bunting

Profile Books, 2004, 370PP.

£ 12,99



تحذر المؤلفة من أثر طغيان العمل على حياة الفرد وحريته الشخصية فى المجتمع الحديث.

فالشركات الكبيرة تؤسس للعاملين بها ثقافة فرعية وهمية وانتماءات وظيفية لكى يعملوا أكثر وينتجوا أفضل، فهى توهمهم بأنهم «أسرة»، وتركز على قيم الوفاء والولاء وكأنها ديانة أو مذهب أو طائفة دينية. وتشير المؤلفة أن هذه ليست ظاهرة جديدة، ففي القرنين الثامن والتاسع عشر كان المشروع الصناعي وقتذاك فى أوروبا يعتمد على المذهب البروتستانتي الذى كان يلقن الناس أن «العمل المجد عبادة للرب».

ومع هذا فإن هناك عنصراً آخر يفسر إقبال الناس على العمل لساعات طويلة شاقة، وهو الرغبة الاستهلاكية التى نمت بشراهة فى السنين الأخيرة. الأمر الذى يجعل الفرد ينهك نفسه طواعية ويقلل من حريته الشخصية التى تنحصر بعد ذلك فى قدرته على الاختيار من بين سلعة استهلاكية وأخرى. بينما هو فاقد السيطرة على نوعية الحياة التى يعيشها وفاقد لأي سيطرة على الوقت والزمن.

■

State Building: Governance and World Order in the 21st Century

(بناء الدولة: الحوكمة والنظام العالمى فى القرن الواحد والعشرين)

Francis Fukuyama

Profile Books, 2004, 194PP.

£ 15.99



معروف عن المفكر الأمريكى. اليابانى الأصل. فرانسيس فوكوياما اتجاهاته المحافظة، ويعتبره البعض مفكر وزارة الخارجية الأمريكية حيث عمل مستشاراً للسياسات فى وزارة الخارجية الأمريكية بواشنطن لسنوات عديدة، وهو الآن أستاذ الاقتصاد السياسى الدولى بجامعة جونز هوبكنز.

فى كتابه الأخير، يتناول صاحب مقولة «نهاية التاريخ» المتغيرات الدولية مركزاً على دور «المؤسسات» ودور «الدولة» خاصة فى بلاد العالم العاجزة عن إدارة الدولة مثل الصومال وكامبوديا والبوسنة ورواندا وبالطبع السودان والعراق.

ويحذر فوكوياما من أن تلك الدول الضعيفة هي أخطر تهديد للنظام الدولى لأنها مصدر انتهاكات حقوق الإنسان، ومصدر أفواج المهاجرين، ومأوى الإرهابيين، وموطن الكوارث الإنسانية.

لهذا السبب، تحول الاهتمام الغربى من التركيز على الأسواق والتقليل من دور الدولة الذى كان سائداً فى الثمانينيات إلى اهتمام بمؤسسات الدولة وحسن الإدارة (أو الحوكمة كما قرر مجمع اللغة العربية فى ترجمة كلمة Governance).

بالطبع فإن الاهتمام الغربى - والأمريكى خاصة - ببناء الدولة والمؤسسات فى بلاد العالم يستدعى درجات متفاوتة من التدخل وانتهاك السيادة الوطنية لهذه البلاد.

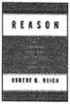
■

Reason.. Why Liberals Will win the Battle of America

(لماذا سينتصر الليبراليون فى المعركة من أجل أمريكا)

Robert B. Reich

Alfred A. Knopf, $24.00, 257PP



مؤلف هذا الكتاب عمل وزيراً للعمل فى عهد إدارة الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون، وهو أيضاً مؤلف لعديد من الكتب عن موضوعات مختلفة أهمها من إدارة كلينتون إلى الاقتصاد الجديد.

وهذا الكتاب دفاع عن الليبرالية الأمريكية فى ظل ما يخشى منه المؤلف من الهجوم الذى تتعرض له الولايات المتحدة من جانب المحافظين الجدد ويفند المؤلف كثيراً من الأفكار المغلوطة حول مسائل التصنيع وتوفير الوظائف والضرائب. ويتحدث المؤلف أيضاً عما يسميه المعايير المزدوجة لدى المحافظين الجدد فهم مثلاً يبالغون فى التعبير عن الغضب الشديد بشأن قضايا انتقائية مثل الزواج المثلى إلا أنهم لا يتحدثون مثلاً عن فساد الشركات ومرتبات رؤساء مجالس الإدارات الخيالية وعن سياسات التدمير الشخصى.

ويقول المؤلف إن المجتمع الكريم هو الذى ينجح فى دمج أبنائه من خلال تقاسم الخبرة المشتركة وتوفير الوظائف الجيدة ويوفر المساعدة لهؤلاء المحتاجين إليها.

ويقدم المؤلف اقتراحات عديدة لتحسين صورة الليبراليين فى الولايات المتحدة من خلال الانحياز إلى المواطنين العاديين بدلاً من التركيز على الشركات الكبرى ورأس المال كما يفعل المحافظون الجدد.

■

في البـدء كـان ديـوفـانتيـس الـسـكـنـدرى

Fermats Last Theorem
(نظرية فيرمات الأخيرة)
Simon Singh
Fourth Estate, 1977, 384p.

يستحيل أن يتحدث أحد عن تاريخ «نظرية فرمات الأخيرة» دون العودة إلى الرياضى السكندرى ديوفانتيس.

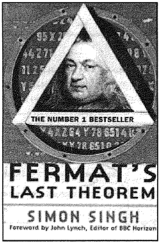
وليس هناك الكثير المعروف عن حياة ديوفانتيس. فلا أحد يعرف هل ولد بالإسكندرية أم أنه جاء إليها من اليونان. لكن هناك شبه يقين بأنه عاش بالإسكندرية عام ٢٥٠ بعد الميلاد، وهذا يثبت أن مدرسة الإسكندرية التى كانت المركز الثقافى العالمى كانت مازالت حية ونشيطة حتى ذلك الوقت.

ولقد عرف ديوفانتيس بكتابه العظيم «الحساب» Arithmatica وهو الكتاب الذى وصل إلى بغداد فى العصر العباسى الأول، واستفاد منه العلماء العرب. ومع ذلك فقد دمرت أجزاء من هذا الكتاب فى الحرائق التى جرت بالإسكندرية ولم يبق منه غير ستة أجزاء فحسب من أجزائه الثلاثة عشر.

لقد كان إقليدس أعظم رياضيى مدرسة الإسكندرية، وقد عرف بكتابه الشهير «الأصول» The Elements الذى ظل يدرس فى أوروبا تقريبًا كما هو حتى القرن التاسع عشر، ومع اهتمام إقليدس بنظرية الإعداد واهتمامه على وجه الخصوص بالأعداد الأولية والأعداد غير النسبية مثل جَذر ٢، إلا أن ثمانية أجزاء من كتاب إقليدس بأجزائه الثلاثة عشر كانت تتعلق بالهندسة المستوية والفراغية.

أما كتاب ديوفانتيس فيتعلق كله بالحساب وبالحلول الصحيحة للمعادلات. وحتى اليوم يطلق اسم «معادلات ديوفانتيس» على معادلات كثيرات الحدود التى معاملاتها أعداد صحيحة.

ولقد احتفظت كاتدرائية القسطنطينية بكتاب ديوفانتيس ضمن كتب أخرى حتى استولى العثمانيون على المدينة وعندئذ هربت كتب كثيرة إلى الغرب وهكذا





وصل كتاب ديوفانتيس (مكتوبًا باليونانية) إلى فرنسا ورياضيى حتى عصر النهضة وفى مقدمتهم فرمات.

كان فرمات قاضيًا بالمهنة لكنه كان محبًا للرياضيات يصرف كل أوقات فراغه فى البحث فيها، وعندما وصله كتاب ديوفانتيس مترجمًا من اليونانية إلى اللاتينية التى كان يجيدها انكب على دراسته واهتم على وجه الخصوص بثلاثية الأعداد الصحيحة التى ترتبط ببعضها.

لقد كان معروفًا منذ فيثاغورس أن هناك عددًا ضخمًا من هذه الثلاثيات مثل

$١٠^٢ = ٨^٢ + ٦^٢$

أى ١٠٠ = ٦٤ + ٣٦

أو $١٣^٢ = ١٢^٢ + ٥^٢$

أى ١٦٩ = ١٤٤ + ٢٥

ثم استطاع إقليدس من أن يثبت أن هذه الثلاثيات المربعة لا نهائية.

ولذا كان من الطبيعى أن يثير ديوفانتيس إن كان من الممكن العثور على أعداد صحيحة مكعبة تحقق نفس الخواص. وبمعنى آخر يبقى السؤال هو: هل للمعادلة $ع^٣ = س^٣ + ص^٣$ حلول أعداد صحيحة؟

هل يمكن تقسيم ١٢٥ ($٥^٣$) إلى مجموع مكعبين صحيحين؟

لقد فشل ديوفانتيس فى الحصول على مثل هذه النتيجة، واقتنع فرمات من بعده أن المعادلة $ع^٣ = س^٣ + ص^٣$ ليس لها حلول صحيحة.

ولكن ما هو برهان ذلك؟ تلك هى المسألة التى استمرت دون حل ٣٥٠ سنة.

ولقد توهم فرمات أنه حصل على برهان وذكر ذلك فى الكتاب لكنه قال إنه لضيق الهامش لا يستطيع أن يكتب البرهان. وبعد ذلك بأيام مات فرمات وسميت هذه النظرية بنظرية فرمات الأخيرة.

ولمدة ٣٥٠ عامًا حاول أعظم رياضيى العالم. ومنهم أويلر. برهان نظرية فرمات دون جدوى. ولقد وصل الأمر فى التدليل على صعوبة المسألة إلى الأدب الحديث. ففى عام ١٩٥٨ دخلت نظرية فرمات فى أقاصيص فاوستيه عنوانها «صفقات مع الشيطان»، وكانت إحداها أقصوصة صغيرة عنوانها «الشيطان وسيمون فلاج» وموضوعها. إن الشيطان طلب من سيمون أن يطرح عليه سؤالاً. ويمهله ٢٤ ساعة. فإذا استطاع أن يجيب على السؤال الإجابة الصحيحة قبض روح سيمون وإن فشل دفع لسيمون مائة ألف دولار.

ووافق سيمون وكان سؤاله للشيطان «هل نظرية فرمات صحيحة؟».

وعاد الشيطان بعد يوم كامل واعترف لسيمون بهزيمته. وقال إنه سأل أعظم رياضيى الكواكب الأخرى فلم يستطيعوا أن يردوا على هذا السؤال، بل إنه قابل فى زحل مخلوقًا جسمه مكون من فطر على قوائم خشبية ويستطيع أن يحل معادلات تفاضلية جزئية دون أوراق، ومع ذلك اعترف أنه غير قادر على الإجابة على سؤال سيمون.

وفى الختام كان أندرو وايلز الإنجليزى عندئذ، وفى الزمن الحديث جدًا يظهر أندرو وايلز Andrew Wiles الصبى الإنجليزى الذى كان يهوى حل الألغاز والتى عثر على نظرية فرمات فى مكتبة الحى. وأصبح حلمه فى الصبا والشباب أن يبرهن نظرية فرمات وعندما كبر التحق بجامعة كمبردج وتخصص فى الرياضيات ثم ذهب إلى جامعة بريستون أستاذًا. وعندئذ قرر تخصيص سبع سنوات من حياته لحل هذه المسألة. واشترط على زوجته عدم إدخال تليفزيون بالمنزل حتى يركز فى عمله، بل حتى زملائه فى الجامعة أخفى عنهم بحوثه.

وفى عام ١٩٩٣ استطاع أندرو وايلز أن يحصل على هذا البرهان واختار أن يذهب إلى جامعة كمبردج التى تخرج منها ليلقى المحاضرة التى يقدم فيها البرهان.

وغنى عن البيان أنه استقبل بعاصفة من التصفيق من الحاضرين. ثم تبين بعد ذلك أن ثمة خطأ فى البرهان.

وتوفر أندرو وايلز سنة كاملة لعلاج هذا الخطأ واستخدم فى سبيل «دعوى شيمورا وتانى ياما» وهما يابانيان اكتشفا هذه الدعوى لكنهما عجزا عن برهانها. ولقد استطاع وايلز أن يبرهن هذه الدعوى وأن يستخدمها فى تصحيح الخطأ الذى كان فى البرهان.

وهكذا سلم علماء الرياضيات فى نهاية الأمر أن أندرو وايلز نجح فى برهان نظرية فرمات الأخيرة بعد ٣٥٠ سنة من المحاولات.

عبد العظيم أنيس

نادر فرجاني يناقش دور الإبراهيمى والأمم المتحدة

قليل من المثالية.. يرحمكم الله

■■ نشرت مجلة «وجهات نظر» فى عدد «يوليو» مقالا مترجما عن كاتبة أمريكية نشر فى مجلة «الأتلانتيك مانثلى» يمكن أن يعد دفاعا عن «الأخضر الإبراهيمى»، ويغيب عن المقال تفنيد لأى ادعاءات تستوجب الدفاع. وهكذا يبطن المقال أن «الأخضر الإبراهيمى» يتعرض لاتهام ما دون إفصاح عنه. وبهذا يصبح المقال دفاعا معلقا فى فضاء، أو إعلانًا ترويجيًا. ويثير الالتباس كذلك شخص المدافع، وساحة الدفاع. غير أن إحقاق الحق يقتضى الإقرار بأن المقال المردود عليه قد كتب قبل تبلور الأحداث التى ينصب عليها المقال الحالى، فهل كان بمثابة «دفاع استباقى»؟

وليس غرض هذا المقال تقديم لائحة اتهام «الأخضر الإبراهيمى»، أو اغتيال شخصه. وإنما المساهمة فى مناقشة، تطمح لأن تكون موضوعية، لبعض القضايا العامة التى يذكر بها هذا الدفاع - الاتهام، من منظور عربى، وقد تفضى المناقشة، عرضا، إلى حكم مسبب على الشخص.

على أى حال، الذى يعنينا أساسا فى الموضوع هو أن «الأخضر الإبراهيمى» هو المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى العراق، وقبلها لأفغانستان. وقد علق البعض آمالا على قيام الرجل، وهو عربى من بلد عربى مناضل مجيد، بهذا الدور المحورى فى واحدة من أكثر الأزمات العربية المعاصرة أهمية وتأثيرا على مقدرات الأمة بكاملها. وقد أذكى هذا الأمل تصريحات للمبعوث نفسه قبل أن تسفر التطورات الفعلية عن توارى دوره وغلبة النفوذ الأمريكى المدعوم بجيش أجنبى ضخم ما زال يدنس أرض العراق.

وتكمن أهمية العراق وأفغانستان فى كونهما محطتين مهمتين فى المشروع الإمبراطورى الأمريكى الذى يجعل من إعادة تشكيل منطقة «الشرق الأوسط الكبير»، أو «الأوسع»، منطلقا أول فى مخطط المحافظين الجدد المعروف باسم «القرن الأمريكى الجديد»، والذى هيمن على سياسات وأفعال الإدارة الأمريكية الحالية مسكونا بفهم مغلوط للإسلام والعروبة ومتبنيا منطقا معوجًا يخلط بين «الإرهاب» والمقاومة المشروعة للاحتلال، ولا يتورع عن اقتراف فعل الاحتلال وإهدار الإرادة الشعبية والحرية بذرائع لا تخفى الأطماع الاستعمارية إلا عند من فقدوا البصيرة وإن أبصروا.

على صعيد نسق الحكم العالمى، سعت الإدارة الأمريكية الحالية لاستغلال منظمة الأمم المتحدة، وبوجه خاص مجلس الأمن الدولى، الذى تحتفظ فيه بالعضوية الدائمة، وحق النقض، لتحقيق أغراض مشروع «القرن الأمريكى الجديد»، وإن بالتجاوز للشرعية الدولية كما استقرت فى ميثاق الأمم المتحدة، احتماء بغطرسة القوة الأعظم فى العالم. وتبلور هذا فى مبدأ «بوش» الأمنى الذى أدخل منطق الضربات العسكرية الاستباقية الذى يتبلور شبه إجماع من فقهاء القانون الدولى على مخالفته لميثاق الأمم المتحدة نظرا لغياب دافع التهديد المباشر للأمن القومى كمبرر للعمل العسكرى، الذى يفترض، فى عرف الميثاق، أن يكون دفاعيا فى الأساس.

وقد عانت البلدان العربية من هذا التحول فى دور المنظمة الدولية أكثر من أى منطقة من العالم، نتيجة لمزيج من الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، وضعف المنظومة العربية وفرقتها. فتعرضت بلدان عربية للعدوان العسكرى من قبل الولايات المتحدة فى السودان وليبيا، وفى العراق حتى قبل غزوه، بالتعاون مع حليفها الأول، المملكة المتحدة، على صورة مناطق حظر الطيران والضربات الاستباقية من دون غطاء من الشرعية الدولية.

وعندما لم تفلح الإدارة الأمريكية الحالية فى توظيف الأمم المتحدة خدمة لأغراضها، كما حدث فى واقعة غزو العراق واحتلاله، تجاوزت المنظمة الدولية تماما، فغزت العراق من دون غطاء من الشرعية الدولية، بل فى تقديرى فى إهدار جسيم لمبدأ الشرعية الدولية ذاته، ولمصداقية الأمم المتحدة وفعالية دورها فى الحفاظ على الأمن والسلم فى العالم كافة.

بل وصل الأمر بالإدارة الأمريكية الحالية إلى العمل على تقويض أسس الشرعية الدولية، والمثال الأهم على هذا فى تقديرى هو عمل الإدارة الأمريكية الحالية الدءوب على المحكمة الجنائية الدولية فى تناقض صريح مع إجماع عالمى تبلور فى «قانون روما» وما فتئت الإدارة الأمريكية الحالية تسعى بشتى السبل لإعاقة المحكمة من خدمة أغراضها النبيلة بوجه عام وفى ضمان حصانة لمواطنيها من المحاكمة الجنائية لا نجد له تفسيرا إلا فى عزم الإدارة الأمريكية الحالية على اللجوء لجميع وسائل إنفاذ مشروع «القرن الأمريكى الجديد»، ولو بانتهاك حقوق الإنسان وارتكاب جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية، تتكاثر الدلائل على اقترافها فعلا فى أفغانستان والعراق، ناهيك عن «معسكر دلتا» فى قاعدتها فى خليج «جوانتانامو» والذى لم تجد المحكمة العليا الأمريكية مناصا من الاعتراض على أسلوب إدارته مؤخرا.


يبحث عن النتائج الممكنة
.. لا عن المعجزات

لورا سيكور

فى هذا السياق المعقد والخطير، الذى تواجه فيه الأمة العربية مخاطر حالة وكوارث داهمة، والذى يثير قضايا محورية، يتعين تقييم دور «الأخضر الإبراهيمى»، ونرى أن المنظور الأولى بالاعتبار هنا هو حرية الأوطان وعزة الوطن العربى، والقضايا المثارة بشأنها.

الفرد والمؤسسة

من أسف أن استشرى فى البلدان العربية التركيز على الأشخاص عوضا عن القضايا والأوطان. وكم رأينا بلدانا عربية تنسب إلى شخص قائد قد لا يكون فوق مستوى الشبهات، حتى لا نقول الإدانة، خاصة فى منظور الحكم الصالح.

لا ريب أن للأشخاص دورًا محوريًا فى التاريخ. ولكن دور الأشخاص يزداد فى النظم غير المؤسسية حتى يصبح تحجيم دور الفرد، وتقييده بالبنى المؤسسية الفاعلة والقواعد القانونية، مطلبا لازما فى العمل على إصلاح نظم الحكم، سواء كان ذلك على المستوى القطرى أو الإقليمى أو العالمى. ومن هنا كان اهتمامنا فى مطلع المقال بالبنية المؤسسية على الصعيد العالمى، وكيف يؤدى اختلالها إلى إهدار الحقوق المشروعة للعرب فى الاستقلال والتحرر الوطنى فى ظل قوة أعظم غشوم لا تتورع حتى عن إهدار المبادئ السامية التى تتشدق بها بل تتذرع بها أثناء إهدارها خدمة لأطماعها، فى ممارسة خبيثة للنفاق والمخاتلة.

إلا أنه ما بقيت المؤسسية ضعيفة وهشة، سيظل الأفراد فى صدارة الاهتمام. ومن هنا سيبقى من الضرورى تقييم أدوار الأفراد، خاصة فيما يتصل بأثرهم على مصائر الأوطان. ولكن يتعين فى نظرى أن يدور النقاش حول القضايا وأن يجرى الاحتكام إلى معايير موضوعية قدر الإمكان.

ليس ملاكا

إن كان يمكن أن يكون فى السياسة ملائكة على الإطلاق، فإن «الأخضر الإبراهيمى» تأكيدا ليس من بينهم.

فالرجل مثلا، ووفقا لمقال الدفاع، رغم تاريخ مجيد، كان ضمن ستة أعضاء فى اللجنة الأمنية التى شكلت لإدارة الجزائر بعد إلغاء الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٢، ودافع عن شرعية اللجنة بقوله «إن جبهة الإنقاذ ما كان ينبغى منحها الشرعية». وهل هناك من يمنح الشرعية غير الشعب؟

وقد يقول البعض إن الملائكية ليست من صفات الساسة. ونضيف أن البراجماتية ليست بالضرورة من الصفات الصانعة للمناضلين السياسيين.

غير أننا لا يجب، على أى حال، أن نستبعد وجود «أشباه ملائكة» فى ساحة

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

السياسة، انظر فى حالة «نلسون مانديلا» مثلاً، وإلى أين أوصلت جنوب أفريقية التى تنازلت مصر لها مؤخرا، وبحق فى تقديرى، عن مقر البرلمان الأفريقى!

هل «البراجماتية» ميزة؟

فى ظل علاقات قوة قهرية وفاسدة، يمكن أن تكون البراجماتية ميزة. ولكن فقط لصاحبها. إذ أنها تأتى على الأغلب وبالا على المبادئ ومصالح المستضعفين حيث تسود فى النهاية قيم ومصالح القوى المهيمنة على هذه البنى القهرية والفاسدة.

لكن يتعلل البراجماتيون دوما، بحكمة عدم إضاعة الممكن من أجل المستحيل (المعجزات بلغة المقال).

هكذا كانت دعوة « نيكولو ميكيافيللى» فى إهداء كتابه «الأمير» إلى أمير ذلك العصر حين قال «إن الرجال التواقين لنيل رضا أمير يتقدمون له، فى كل الأحوال تقرباً بالأغلى مما فى حوزتهم، أو بالأشياء التى يعلمون أنها تسعده بوجه خاص ... والآن، أنا تواق لأن أتقدم لعظمتكم بشاهدٍ على إخلاصى لكم ... أمور درستها بدأبٍ شديد، ومحصتها لزمن طويل، والآن بعد أن لخصتها فى كتابٍ صغير، أرسلها لفخامتكم».

وعلى غرار ذلك القربان سيئ السمعة، جرت على الصعيد العربى دعوة «تجسير الفجوة بين المثقف والأمير» فى الثمانينيات.

ولا مراء أن البراجماتية قد جرت على الأمة العربية كوارث لا تعد وتحصى.

باسمها تدافعت أنظمة عربية للتصالح مع إسرائيل، مع بقائها عنصرية توسعية وعدوانية، حتى أصبحت تعمل جهارا على الحلم القديم من « النيل للفرات»، بتغلغلها فى العراق، خاصة فى شماله فى تحالف وثيق مع الأكراد، واستمرار سيطرتها على الأراضى الفلسطينية المحتلة، بما فى ذلك غزة ولو انسحبت منها صوريا. كل ذلك والعرب غارقون فى البراجماتية، يلهثون وراء الممكن الذى لا يشفى للشعب العربى غليلا.

وباسم البراجماتية أيضا تتدافع الأنظمة العربية على التخضع للقوى المهيمنة على الصعيد العالمى، خاصة القوة الأعظم، حتى امتشقت قيادات عربية أسلوب «الاستسلام الاستباقى»، ويعمل بعضها على تقويض جامعة الدول العربية، على علاتها، وأضحت مجموعة الثمانى بقيادة الولايات المتحدة تقدم بدائل مؤسسية للتنظيم الإقليمى العربى، تُدمج إسرائيل، من موقع متميز، فى نسيج المنطقة، تمييعا للهوية العربية فى محيط إقليمى أوسع ينطلق من هوس «الإرهاب الإسلامى».

ماذا جرى فى العراق؟

لاشك عندى فى أن غزو العراق واحتلاله يمثل بداية المخطط الأمريكى لإعادة تشكيل المنطقة العربية، والعالم عبرها، خدمة لمشروع «القرن الأمريكى الجديد».

فقد تهاوت كل ذرائع احتلال العراق المعلنة، ولم يبق منها إلا الاستيلاء على ما يمكن أن يتحول إلى أكبر مخزون نفطى فى العالم، وضمان أمن إسرائيل، ومقاومة الإرهاب فى منابعه، كما يتصورها سادة الإدارة الأمريكية الحالية. وعلى وجه الخصوص أضحت تعلة التحرير والازدهار لشعب العراق، مزحة سخيفة لا تضحك.

ومن هنا فإن الحالة العراقية تتعدى حدود العراق إلى التأثير على مقدرات الوطن العربى بكامله. فماذا جرى؟

على حين بدا (فى منتصف أبريل) أن الولايات المتحدة على استعداد لقبول خطة مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة لنقل السلطة للعراقيين، والتى تتحلل من استمرار نفوذ مجلس الحكم الانتقالى لصالح تكوين حكومة عراقية من شخصيات مشهود لها تمهد لانتخابات فى مطلع ٢٠٠٥، تحت رعاية المنظمة الدولية. تعالت أصوات (٢٠ أبريل) من الإدارة الأمريكية الحالية تقلل من قدرة العراقيين على حفظ الأمن، من دون مساعدة خارجية (الحاكم الأمريكى «بريمر»)، وأن رعاية الأمم المتحدة لا تشكل حلا سحريا لمعضلات الأمن فى العراق (مستشارة الأمن القومى «رايس»).

وفى نهايات مايو ٢٠٠٤، تقدمت الولايات المتحدة وحليفتها المملكة المتحدة، بمشروع قرار لمجلس الأمن بشأن العراق. وتضمن المشروع- الذى قُدِّم قبل تشكيل الحكومة العراقية المؤقتة- فقرة تنص على أن هذه الحكومة ستتقدم بطلب لمجلس الأمن لبقاء قوة متعددة الجنسيات فى العراق.

وكان مشروع القرار ينص على أن تبقى قوة متعددة الجنسيات، تحت قيادة أمريكية، فى العراق على الأقل لمدة عام، قابل للتجديد.

فى البداية كان المشروع ينص على أن للحكومة العراقية أن تطلب إنهاء تواجد القوة فى العراق وينظر مجلس الأمن فى الطلب (ومفهوم أن هذا يعنى أن بقاء القوة سيتوقف على ما تريده الإدارة الأمريكية بسبب امتلاكها لحق النقض- الفيتو فى المجلس). ويتيح للقوة أن «تتخذ جميع الإجراءات اللازمة للحفاظ على الأمن والاستقرار فى العراق، بما فى ذلك منع الإرهاب»، ولكن اختلفت الأقوال والاتجاهات بعد ذلك حول مدى صلاحية الحكومة العراقية الآتية فى تحديد مدة بقاء القوة أو التحكم فى عملياتها. وقبل انتهاء مداولات المجلس، أعلن وزير الخارجية الأمريكى، منفردا، أن الحكومة العراقية المؤقتة لن يكون لها حق الاعتراض على العمليات العسكرية للقوة متعددة الجنسيات. وينص المشروع كذلك على ترتيبات مماثلة فيما يتعلق باستمرار الإشراف الدولى على عائدات النفط.

وقد أسفرت تعيينات الحكومة العراقية المؤقتة (نهاية مايو ٢٠٠٤) عن غلبة المرشحين وثيقى الصلة بالإدارة الأمريكية الحالية، خاصة أجهزة استخباراتها، ومجلس الحكم الانتقالى المعين من قبل سلطة التحالف، على حين توارى دور المبعوث الخاص للأمين العام للأمم المتحدة. ما يثير الخشية أن تُستغل المنظمة الدولية فى تدويم نفوذ تحالف الاحتلال الأمريكى- البريطانى تحت مظلة مُدوَلة وبوسيط عربى، الأمر الذى يقلل من مصداقيتها فى لعب الدور المأمول منها فى بناء مجتمع الحرية والحكم الصالح فى البلدان العربية وفى ضمان حقوق العرب المشروعة فى التحرر الوطنى على وجه الخصوص. كما قام تشكيل الحكومة على نسق التقسيم الطائفى والمللى الذى اعتمد فى تشكيل مجلس الحكم من قبل سلطة تحالف الاحتلال، ما ينبئ عن تكريس الطابع الفسيفسائى للعراق، بدلا من وحدة المواطنة العراقية، بعد انتقال السلطة لأيدى عراقية.

وصدر قرار مجلس الأمن (١٥٤٦) بالإجماع (٩ يونيو) مفوضا القوات متعددة الجنسيات باتخاذ جميع الإجراءات والتدابير اللازمة للحفاظ على أمن واستقرار البلاد، وحارما الحكومة العراقية من الاعتراض على عملياتها العسكرية. وحدد موعد إجراء الانتخابات بنهاية يناير ٢٠٠٥.

هكذا، جاءت النتائج، خاصة فيما يتصل بطبيعة الحكومة العراقية المؤقتة، وشخوصها، مخالفة لكل ما دعا إليه «الأخضر الإبراهيمى» واستبشر به كثير من العرب. فرضت الإدارة الأمريكية كل خياراتها، وأذعن لها «الأخضر الإبراهيمى» دون احتجاج أو اعتراض. حتى أصبح العراق بعد تسليم «السلطة» نسخة مكررة من أفغانستان. نقلت السلطة إلى العراق فى مسرحية جرت فى غرفة ضيقة شارك فيها عدد محدود من الأفراد، وتسلم فيها عميل للاستخبارات الأمريكية قصاصة ورق ممضاة من موظف أمريكى دون المستوى الرفيع كان حاكما للعراق الجليل لأكثر من عام، وأى مهانة!

وقام نظام حكم مغلول اليد يأتمر بأمر الأمريكان فى واشنطون وفى عموم العراق، وسعيد بهذه الحال، يتسيد فيه عملاء ليس فقط للإدارة الأمريكية ولكن لأجهزة استخباراتها. على وجه التحديد، وصارت يد جيش الولايات المتحدة، وحلفائه مطلقة فى البلد. ويطالب «وزير» خارجيته بهذه المكانة الدونية للحكومة «ذات السيادة» فى المحافل الدولية، بل ويهدد، فى مشهد مضحك مبك، بإطلاق الجيوش الأجنبية على دول الجوار. وهل رأيتم من قبل كلبا يهدد بإطلاق صاحبه الممسك بلجامه على الجيران!.

فماذا كسب العراق أو الوطن العربى من براجماتية «الأخضر الإبراهيمى» أو غيره.

يقال أن هذا كان هو الدور المرسوم للبراجماتى، وقد لعبه بحذافيره سابقا فى أفغانستان، وأن هذا هو بالضبط ما أهله للمهمة ذاتها فى العراق. وسواء كان مرسوما أم لم يكن، فهذا هو ما جرى.

ويقول المدافعون أنه خُدع أو أخطأ التقدير. وليكن، فليس لنا فى كل هذا من عزاء.

خاتمة

إن الوطن العربى يجتاز لحظة تاريخية لا تقبل التوفيق. هى لحظة انتقال من واقع قمىء إلى مستقبل نرجو أن يكون أفضل، وإلا فالبديل هو استمرار التردى. هناك قوى اجتماعية تسعى إلى تدويم الحالى وأخرى تتوق إلى، وتعمل من أجل بديل أرقى إنسانياً. إلى الأولى ينتمى الحكم الراهن، والغرب المسيطر، والبراجماتيون العرب، وإلى الثانية ينتمى الشعب ومثقفو الجماهير.

ويتطلب منظور تجاوز الواقع العربى المر، أن يكون المثقفون حراباً تهتك أستار العفن الكثيفة التى تغلف الوجود العربى فى الحقبة الراهنة، توقاً إلى بديل إنسانى أرقى للشعب العربى. وهذا دور طليعة المثقفين: مثقفى الجماهير. فالحراب دوما اختراق وتجاوز.

وليست هذه، تأكيدا، دعوة إلى المثالية المطلقة، أو للتخلى عن الواقعية.

وإنما بدون قليل من المثالية لا يمكن حتى بدء النضال المطلوب من أجل إصلاح بنى القهر والفساد، بدءا من الواقع المعاش- وهذا هو المفهوم الوحيد الذى نقبله للواقعية فى منظور النضال من أجل الحرية فى الوطن العربى.

فى النهاية، وبعد أن تجرعنا علقم البراجماتية طويلا، فلنجرب قليلا من المثالية وكثيرا من النضال، لعلنا نصلح به حال الأمة.

نادر فرجانى

حوار مع رئيس التحرير

قرأت فى عدد المجلة الصادر فى يوليو ٢٠٠٤ المقال الافتتاحى للعدد بقلم الأستاذ سلامة أحمد سلامة الذى أتابع قراءته دائماً بكل الجدية والاحترام، نظراً لما تتميز به مقالاته من الشمول والعمق، والإدراك العميق لمسئولية الكلمة خصوصاً عندما تنطلق من انتماء وطنى وحس موضوعى واستقلال عن منابر السلطة ومراكز القوى، وحرص على أن تكون دائماً شعاعاً مضيئاً وهادياً للقارئ فى زمن تداخلت فيه الرؤى وتضاربت وتناقضت حتى استحالت أمامه إلى سديم من الظلام والأوهام والضلالات. لكل ذلك أردت أن أتحاور معه فى بعض ما ورد فى مقاله وذلك على الوجه التالى:

إن ثورة الاتصالات وما يطلق عليه العولمة حقيقة لا معنى لإنكار أو تجاهل وجودها، ولا مفر من التعايش معها والاستفادة من منجزاتها التكنولوجية، والتفاعل مع ما تطرحه من أفكار وهو ما اتفق عليه مع الكاتب، ولكن هل يعنى ذلك أن تتخلى الشعوب عن هويتها الثقافية والحضارية وتتنازل عن انتماءاتها الوطنية والقومية، وتضع على قائمة أولوياتها السياسية والاقتصادية والثقافية ما تطرحه العولمة عليها من مقترحات؟ ذلك مالا أتفق معه فيه.

إن تصوير الأمر على ذلك النحو يجعل من العولمة قدراً حتمياً لا مفر من الرضوخ لكل أحكامه، إذ ماذا تجدى المقاومة وطوفان العولمة قادر على زعزعة أركان السلطة مهما بلغت قوتها وجبروتها، بل وقادر على اختراق الحواجز والدول. وما أفهمه أن العولمة هى التجلى العصرى لآخر مراحل الرأسمالية حيث الشركات متعددة الجنسيات تتجاوز الحدود القطرية للدول، وتهيمن على السوق العالمى استنزافاً لموارده وطاقاته، وسعياً إلى التغلغل الثقافى والإعلامى فى عقول البشر فى كل القارات، بحيث يتحولون إلى جمهور من المستهلكين الباحثين عن متعة الطعام الجاهز والمعلب، والموضات المتجددة للملابس، وأوهام الرفاهية، وطموحات التطلع الفردى للامتلاك جرياً وراء ادعاء العصرية، المنعزلين دائماً داخل انتماءات ضيقة أسرية أو عائلية أو طائفية، والذين تختلط عندهم وفق برامج دعائية مقصودة الثوابت والمتغيرات وما هو جوهرى وما هو عرضى.

ويشير الكاتب إلى أن ثقافة مجتمع المعرفة ثقافة مختلفة عن الثقافة التقليدية بمعطياتها وأدواتها وتقنياتها المتقدمة، ويكتب إن صناعة اللهو والتسلية هى جزء من الثقافة الحديثة.

وتعليقى على ذلك أن الثقافة بالمعنى الضيق تشمل العقائد والأفكار والرؤى والمفاهيم، والثقافة بالمعنى الواسع تشمل كل ما أبدعته الشعوب من رؤى سحرية وأسطورية وفلكلورية، أما ما يطلق عليه الكاتب اسم الثقافة الحديثة فيتضمن ما توفره التقنيات التكنولوجية من عوامل الإبهار والإثارة والمتعة البصرية والسمعية وشطحات الخيال الذى توفره أجهزة الكمبيوتر وهو مالا يصنع ثقافة حقيقية تثرى عواطف الإنسان وعقله ووجدانه، وترقى بذوقه وحسه الأخلاقى والحضارى، وتعمق انتماءاته الوطنية والإنسانية، وتمنحه القدرة على الارتفاع فوق التعصب والجمود العقائدى وعبادة الذات واحتقار الآخر.

أما بالنسبة لما طرحه الأستاذ سلامة بشأن مبادرات الفكر الفردية أن ذلك يتجاهل البعد السياسى للموضوع الذى أدى إلى تحجيم ومحاصرة تأثير المثقفين المبدعين الوطنيين التقدميين الذين يترفعون عن نفاق الأنظمة أو التهافت على فضلات موائدها، فأود أن أقول إن هناك عديداً من المثقفين الجادين المحبين لمصر شعباً ووطناً وتاريخاً والذين يعرفون قدرها موضعاً وموقعاً وقدرة على التأثير فى محيطها، والذين يملكون من الرؤى والأفكار ما هو كفيل بانتشالها من أزماتها واختناقاتها لكنهم محرومون من فرص التواجد والتأثير على الجمهور العريض من خلال منابر ثقافية وإعلامية مستقلة.

مات الدكتور شكرى عياد الأستاذ الجامعى والمبدع والناقد والباحث والحاصل على جائزة الدولة التقديرية دون أن يتمكن - بسبب عراقيل أمنية - من الحصول على ترخيص بإنشاء شركة للطبع والنشر كان يخطط من خلالها لإصدار مجلة ثقافية جادة.

محمود عبد الوهاب
قاص وناقد أدبى

طاعة الله وطاعة الحاكم

قرأت مقال الأستاذ سلامة أحمد سلامة فى عدد (يونيو الماضى) عن الوجه الآخر للإرهاب والاختلافات بين الدول الغنية والدول النامية فى أسلوب مقاومته. واتفق مع الكاتب فى أن القوة الوحيدة على الأرض التى يمكن أن تصحح الموقف الخاطئ هى الشعب. لكنى لم تعجبنى نهاية المقال عندما قال الكاتب إن الناس لازالوا يعتقدون أن طاعة الحاكم من طاعة الله. وأنا لا أجد خطأ فى ذلك طالما كان الحاكم عادلاً. وفى الإسلام لا طاعة لمن يسلك غير ذلك.

محمود هلال
سائق تاكسى

طاعة الحاكم من طاعة الله إذا كان هذا الحاكم يحكم بشرع الله لا يوالى الصهاينة ولا يسالمهم ويمكنهم من العبث بأمن بلاده تحت دعوى السلام..
إذا كانت زوجته حقاً تمثل النساء المسلمات ولا تستنكف من لبس الحجاب الذى فرضه الله على النساء كافة دون تمييز لا أن تأمر بمنع ارتداء الحجاب فى المؤتمرات التى تحضرها هى لرفع الحرج الذى أصابها عند سؤال إحدى الغربيات لها عن السبب فى عدم ارتداء الزى الإسلامى.

عـزة
طبيبة أسنان

الهند والولايات المتحدة

بالإشارة إلى مقال رئيس التحرير فى عدد مارس الماضى عن الهند أود أن أبدى إعجابى الشديد بالمقال وكتابات الأستاذ سلامة بشكل عام.

إن المقال الذى كتبه الأستاذ سلامة عظيم حقاً. إن هناك ما يسمى الآن تصدير الوظائف الأمريكية إلى الهند الأمر الذى يدر مليارات الدولارات على الهند.

وقد استفادت الشركات الأمريكية فى الطفرة السريعة فى الاتصالات والإنترنت فاستأجرت الهنود وهم فى وطنهم لكى يعملوا لديها.

وبذلك توفر هذه الشركات فى المرتبات وفى الضرائب. مع أجمل تحياتى للكاتب.

حسان عوض حسان
رجل أعمال مصرى
مقيم فى أمريكا

أعجبنى تحليل الأستاذ سلامة أحمد سلامة الموضوعى جداً فى مقاله فى عدد يوليو الماضى، لكن بصراحة أصبت بخيبة أمل حيث لم أجد الدواء الشافى للمأساة الجماعية من الخليج إلى المحيط، كان بودى أن يقدم الحل الأمثل والطريق إلى تطبيقه عملياً عملياً على مستوى الأفراد والجماعات بعد أن انقطع الرجاء من الساسة القادة.

هل الحل هو الهروب من المجتمع وانتظار الدجال الأكبر بعد أن شبعنا من صغار أتباعه أو المهدى المنتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر أم الحل إنشاء خلايا للقاعدة بعد أن عسر التنسيق معها بسبب الحصار أم هناك حل آخر.

علـى داوود
الإسكندرية

وجهات نظر
رسائل الكتب

aljazeera.net

للتعليق على ما تنشره المجلة يمكنكم زيارة موقعنا على «الجزيرة نت»:
http://www.aljazeera.net/wejhat/comments.asp

الصفر والقمة

قرأت مقال الأستاذ أيمن الصياد فى عدد يونيو الماضى بعنوان: الصفر والقمة.. أمة فى خطر، ولم يزدنى المقال إلا إحباطًا عما هو موجود لدى بالفعل لما آل إليه حالنا كعرب ومسلمين، لكنى أريد أن أسأل الكاتب، أما آن الأوان لكى يعرف الجميع عبر أعلام حر مواقف الدول العربية كل على حدة وبصراحة مما يدور حولنا وما نحن فيه؟ لقد سئمنا أخبار اللا أخبار التى يصدرها المسئولون فى كل مكان من بلادنا العربية، وأنتم تدعون إنكم عالمون ببواطن الأمور نريد أن نعرف لأنه من حقنا أن نعرف ليكون بكل فرد قناعته ورأيه الشخصى فيما يحدث من حوله، لدى الكثير من الأسئلة، ولدى الكثيرين أكثر وأكثر، أرجو ألا أكون قد أطلت وشكرًا.

■

كيف نبدأ

رغم أننا نعرف تمامًا أين هى المشكلة ونعرف أيضًا ما هو الحل.. إلا أننا لا نعرف كيف نبدأ ومن أين يكون إصلاح الحال؟ نتفق على أن البقاء يجب أن يكون دائمًا للأصلح ولكن كيف فى ظل ما هو سائد من نظم وموروثات من فساد وواسطة وقيم تغليب الخاص على العام.. سيدى الفاضل إن الأمر يحتاج لثورة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. يكفى هذا ربما لن تقرأ هذا.

عماد فاروق
مقدم برامج التليفزيون

■

اكتشفتكم اليوم

لقد اكتشفت اليوم المجلة وكم سعدت بها بدرجة لا تتخيلوها وأطلب منكم أن لا تتوقفوا ولا تذهبوا بعيدًا فبفضلكم تظل صلتى بالعالم العربى مازالت قريبة، وبصراحة احترم كل ما تقومون به من عمل.. أنا لا أعدل عليكم أو أضيف عليكم أى شىء ولكن أنتم من المجلات التى لها صدى فى الوطن العربى كله لذا سأقترح على سيادتكم اقتراحًا هو أن تقترحوا على المكتبات المصرية أن تشجع الشعب المصرى على القيام بأعمال تطوعية فى المكتبة ولو يوم واحد فى الأسبوع تشجيعًا على اتساع الثقافة وشغل الشباب الصغير فى شىء مفيد هذه من الأفكار التى رأيتها هنا وكم أحب أن أرى مصر العزيزة تقوم بها.

نسرين رضا
سكرتيرة

■

السلام عليكم أشكركم على اهتمامكم بالشئون العربية والإسلامية. بعد ذلك أرجو منكم التكرم بقبول طلب بسيط مفاده: توفير نسخة من مجلة الكتب.. وجهات نظر» على العنوان التالى: مختار محمد محمود. ص. ب: ٣٤٨٣ جيبوتى.

مختار محمد محمود
طالب

■

جزاكم الله خيرًا على هذه النظرة الثاقبة وأكثر الله من أمثالكم فى هذه الأمة المنكوبة فأنتم أملنا.

وديع
مواطن موريتانى

■

كتاب الزاوية

سندباد إلى الغرب

مدينة للنساء

ألم تلاحظ أبدًا امرأة مغرمة؟ أرأيت كيف تزداد تعلقًا بجمالها وكيف يكاد الحب يضىء كل ركن من أركان كيانها؟ ثم هل رأيت المرأة فى بهو وقد أحاط بها المعجبون؟ إن لم تكن رأيت هذه أو تلك فإنك لم تر امرأة جميلة فى حياتك. فالجمال ليس صورة أو دمية. الجمال حركة وتيارات وإشعاعات أكثر مما هو تناسق.ومن الإشعاعات ما ينبعث من المرأة نفسها، ومنها ما ينبعث من مشاعر الرجال حولها.

والمرأة فى بوخارست هى أجمل نساء العالم، لا لأنها تحوز جائزة الجمال العرفى، بل لأن حركاتها وتياراتها وإشعاعاتها ناشئة عن إيمانها بفضيلة واحدة.. هى الفضيلة الوحيدة فى ناموس المرأة.. تلك هى فضيلة الحب، لا حب الشعراء مصفرى الوجوه، ولكن حب الرجل الذى يفهم الجمال ويقيس فضيلة المرأة بمقياسين: مقياس اهتمامها باجتذاب جنس الرجل أولاً، ثم مقياس جمالها المطلق ثانيًا.

هل لاحظت أن النساء اللاتى اشتهرن بتدويخ الرجال لسن من الجمال بالدرجة التى تتناسب مع الأدوار الخطيرة التى لعبنها؟ ذلك لأننا لا نراهن غالبًا إلا فى الصور، ولأن الجمال كما قلت لك لا يقاس بمقياس واحد، وهو ما أسميه الجمال المطلق، وإنما بمقياس أكبر خطرًا، هو ملكة اجتذابهن للرجل.

قـــــــــراءة ..

القـــــانون.. والقـــــوة.. والعـــــدل

طيبون هم أولئك الفقهاء ذوو الشعر الأبيض، الذين يمضون الساعات الطوال - والأشهر بطولها أحياناً - في جدل حول دقة مصطلح هنا أو لفظة هناك لتخرج النصوص التي تشكل بتراكمها ما اصطلح على تسميته «قانوناً دولياً»، في عبارات «جامعة مانعة» كما يقول المناطقة العرب. طيبون هم. ربما - أو مفرطون في مثاليتهم حينما يحتجون في القرن الحادي والعشرين بنصوص من قبيل «عدم شرعية احتلال أراضي الغير بالقوة.. أو التدخل في الشئون الداخلية للآخرين..». لاحظ ما جرى ويجرى وسيجرى في فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والبوسنة والسودان.. إلى آخر قائمة مرنة لا تبدو لها نهاية.

يعرف الدارسون لفلسفة القانون أنه يصدر لتقنين وضع قائم، أو لتقرير ما اتفقت عليه الجماعة الخاضعة له أو المستفيدة من وجوده، تنظيماً لأمورهم وتحديداً للموازين والخطوط الفاصلة بين حقوقهم وواجباتهم. ويعرفون أن لا فائدة من قانون لا توجد آلية لتطبيقه. ويعرف التاريخ أدوات مختلفة للاضطلاع بتلك الآلية؛ من جنود فرعون، إلى رجال حمورابي، إلى المحتسب في عهد الخلافة، إلى الشرطة في العصر الحديث، أو حتى «الشريف» في الغرب الأمريكي.

والأصل أن يطبق «رجال تنفيذ القانون» قانونهم المحلي. والذي يتضمن بالضرورة ما أضيف إلى مواده من اتفاقات ومعاهدات صدقت عليها الجهات التشريعية للدولة المعنية.

وكانت المشكلة دائماً في القانون الدولي، بعد أن ظهر مفهومه واستقرت أوضاعه تتمثل في آليات تطبيقه. ومن ثم في الجهة (الشرطة) التي من المفترض أن تضطلع بالتنفيذ.

ولزمن - طال أو قصر - بدا أن توازن القوى بوسعه أن يتكفل بالمهمة، وإن «ردعاً لا عقاباً». وبدا أن «الأمم المتحدة» قد تنظم الأمر بدرجة أو بأخرى. وكانت «المحكمة الجنائية الدولية» التي احتاج إنشاؤها لجهد وسنوات خطوة بدت لازمة لتثبيت دعائم هذا النظام.

ثم كان أن جاء قرن جديد. والنظام الدولي «المتوازن» تنهار دعائمه واحدة بعد أخرى. ورويداً رويداً لاح في الأفق - عبر الأطلنطي - ما بدا أنه حكومة «مركزية» أو فلنقل «عولمية». وسرعان ما أعلن القائمون عليها، بالقول وبالفعل، وبصراحة يحسدون - أو نحسد نحن - عليها، أنهم ماضون لأخذ كل الأمر بأيديهم. وكان أن ارتدوا - علناً - شارة «شرطي العالم»: «لدينا مهام في أربع وستين دولة..» كما قال جورج دبليو بوش، الذي اعتقل كويتيين في باكستان وأرسل طائرته لتعدم - دون محاكمة - مشتبهاً فيهم يستقلون سيارة على طريق في صحراء اليمن. ثم هاهو يدق الطبول على الطريق إلى دارفور.

نظرياً.. بدا وكأن القانون «الدولي» قد صارت له «شرطة دولية». إلا أن الواقع لا يأتي عادة مطابقاً للأوراق. كما أنه - بطبيعة الحال - ليس «ناتجاً لحساب» الأمنيات. فها هو «الشرطي الدولي» تحكمه ثقافته.. وبراجماتيته. وجوهرها منذ أن نشأت دولتهم قبل مائتي عام فقط يتمثل في «إعلاء القوة» شعاراً.. وقانوناً غير مكتوب. ولكنه معروف للكافة. تعرفه شوارع نيويورك وفيافي تكساس زمن البدايات، وثقافة: «أنت تملك من الأرض بقدر قدرة حصانك على الركض.. وقوة سلاحك في الحفاظ عليها». ويحذره مفكرون «أمريكيون» كثيرون ينبهون إلى «ثمن» الإفراط في القوة.

اهتز ميزان القوة والقانون أكثر من مرة هذا الشهر:

١ - في لاهاي أصدرت محكمة العدل «الدولية» قرارها بإجماع الآراء (عدا العضو الأمريكي) بعدم شرعية جدار الفصل الإسرائيلي «العنصري» في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وبتعويض الفلسطينيين المتضررين. تعليقاً على القرار خرج ايريل شارون معلناً «أننا مستمرون في البناء..». وبلع الأمريكيون السنتهم. واستهزأ مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة بالجمعية العامة التي تمثل «قانوناً» الشرعية الدولية.

٢ - في نيويورك تقدمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى مجلس الأمن بطلب تجديد القرار رقم ١٤٢٢ والذي يعطي الحصانة عملياً لمواطني الولايات المتحدة (دون بقية سكان هذا العالم الواحد) من الملاحقة القضائية أمام المحكمة الجنائية الدولية في حال اتهامهم في قضايا الابادة الجماعية أو بجرائم الحرب أو بتلك التي توصف بأنها ضد الانسانية. وكانت الجهود الأمريكية لإعطاء جنودها تلك الحصانة لم تتوقف على مدى الأعوام الماضية. بتواطؤ معيب من دول خائفة أو طامعة. وهي الجهود التي وصفتها منظمة العفو الدولية في تقرير أخير بأنها «يمكن أن تقوض النظام الجديد للعدالة الدولية».

٣ - في واشنطن قررت المحكمة العليا الأمريكية (أخيراً) أن سلطة القضاء الأمريكي تصل إلى المعتقلين في خليج جوانتنامو. وأنه يجب إعطاء المعتقلين فرصة تحدي أسباب اعتقالهم أمام قاض فيدرالي أو «صانع قرار محايد». لتكشف كيف أن «روح القانون توارت لثلاث أعوام كاملة أمام طغيان القوة المدفوعة بمشاعر الثأر والانتقام». والتعليق لكاتب أمريكي في الواشنطن بوست.

٤ - في بغداد وفي أولى الجلسات الإجرائية لما وصفه البعض - استباقاً - بأنه سيصبح محاكمة القرن، وفي تلك القاعة «السرية» في مكان ما من العاصمة العراقية، طفت تساؤلات سقراط الأزلية عن «نسبية العدل» وخرج صدام إلى شاشات التليفزيون ببدلته البالية وبدون رباط عنق ليتساءل: «هل أنا مجرم لأنني غزوت الكويت. وبوش بطل لأنه غزا العراق؟».

وبغض النظر عن السؤال الذي بدا شكسبيرياً، فقد كان مثيراً أن تجد أصداءه في كتابات أمريكية تساءلت عن الفارق بعد أن قررت لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ الأمريكي أن التقارير التي تحدثت عن وجود أسلحة دمار شامل في العراق، والتي بحجتها ذهب الجنود الأمريكيون إلى الحرب «كانت خاطئة وكاذبة». وبعد أن اعترف دونالد رامسفيلد - بكل جراءة - أمام مشاهدي «فوكس نيوز» أن الإعلان عن وجود تلك الأسلحة وبالصورة التي تم تقديمه بها إلى الأمم المتحدة «افتقد الدقة.. وكان وهمياً».

«ما الفارق؟.. من الأخيار ومن الأشرار؟» يتساءل كريستوفر ديكي في النيوزويك، مقرراً أن «سيادة القانون» أصابها الوهن عند كل خطوة على الطريق إلى بغداد».

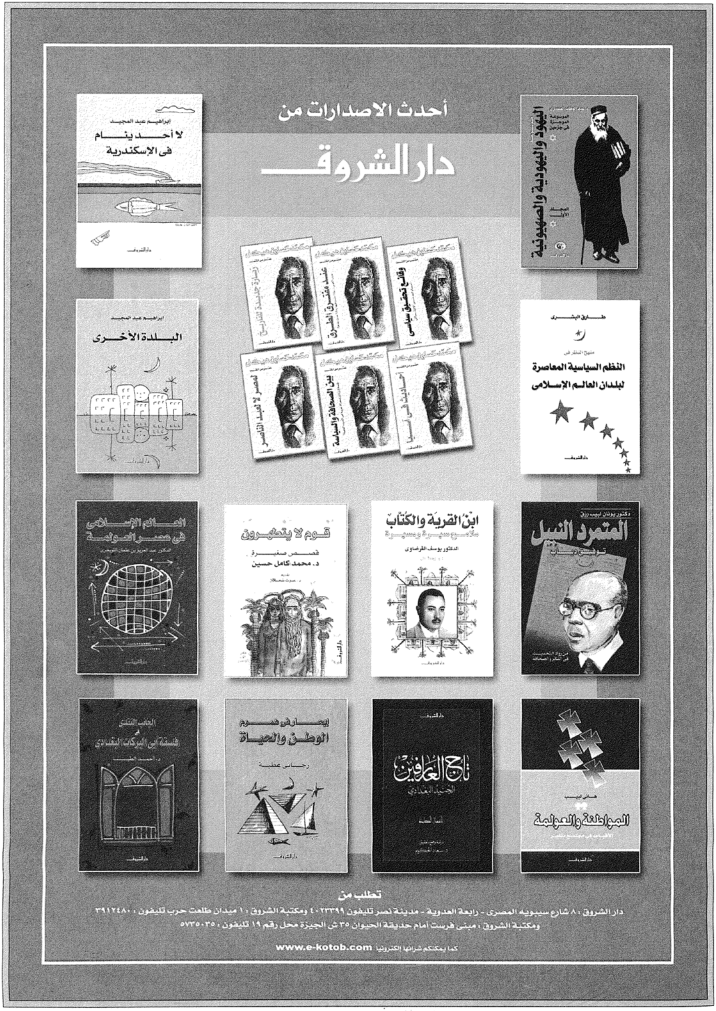
شريعة الغاب هي إذن. لا فرق - تقريباً - بين عدي «المتوحش» ورامسفيلد «الحداثي»، أو قائده الميداني في العراق. فذات يوم وجد الأول في محاكمة عمه حسين كامل المجيد بتهمة الخيانة العظمى، ترفاً لا لزوم له، فغدر به وقضى عليه في مذبحة عائلية دموية شهيرة. وفي الموصل - حيث اختبأ - وجد الـ Terminator أن لا معنى لمحاكمة «أوراق الكوتشينة» فاستسهل إطلاق ٢٠ صاروخاً وعشرات القذائف على «الشقيقين» وطفل في الرابعة عشرة من عمره، في مذبحة عائلية «أكثر عدلاً وأكثر حداثة»!.

كأن لافرق - دموياً - بين الغابة والحداثة. بين ماكان وماهو حاضر الا في التفاصيل. فالسلاح هو لغة التعامل الوحيدة تقريباً. ومادمت الأقوى، فلك أن تستعمل قوتك «الآن وفوراً». فسواء كنت صدام أو رامسفيلد أو شارون أو الزرقاوي، لن تصبح بحاجة الى ترف القانون والمحاكمات المملة السخيفة. فمادامت يدك على الزناد، يصبح القانون قانونك. أو بالأحرى تصبح القوة قانونك. ويتجسد القاضي في إصبعك على الزناد.. وعذراً لأصحاب الأرواب السوداء.

هل يمتثل شارون «القوي» لما قررته محكمة العدل الدولية؟ وهل يدفع بوش «الأقوى» ثمن إشعاله حرباً غير شرعية، وبمبررات ثبت كذبها؟ وهل يقبل الأمريكيون أن يتساووا ببقية البشر أمام المحكمة الجنائية الدولية في حال ارتكابهم لجرائم ضد الإنسانية؟ وهل يعرف حاملو السواطير الذين جاءت بهم السياسات الأمريكية الخرقاء إلى العراق أن للدم الإنساني حرمته؟

الإجابات معروفة. ومعها يصبح القلق من أن تحتل القوة الطاغية مكان العدل مشروعاً. بل ويصبح الأكثر مدعاة للقلق (لاحظوا الالتفاف الأمريكي على قانون المحكمة الجنائية الدولية بتشريعات بديلة) أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه القانون نفسه قانون المنتصر .. أو بالأحرى قانون القوة. وهذا للأسف درس التاريخ.

أيمـــن الصيـــاد


أحدث الاصدارات من
دار الشروق
لا أحـد ينـام فى الإسكندرية
ابراهيم عبد المجيد
البلدة الأخرى
اليهود واليهودية والصهيونية
النظم السياسية المعاصرة لبلدان العالم الإسلامى
طارق البشرى
محمد حسنين هيكل
زيارة جديدة للتاريخ
عند مفترق الطرق
وقائع تحقيق سياسى
لمصر لا لعبد الناصر
بين الصحافة والسياسة
أحاديث فى آسيا
العالم الإسلامى فى عصر العولمة
قوم لا يتطهرون
قصص صغيرة
د. محمد كامل حسين
ابن القرية والكتّاب
ملامح سيرة ومسيرة
الدكتور يوسف القرضاوى
المتمرد النبيل
توفيق دياب
دكتور يونان لبيب رزق
الجانب النقدى فى فلسفة أبى البركات البغدادى
إبحار فى هموم الوطن والحياة
رجائى عطية
تاج العارفين
الجنيد البغدادى
هانى لبيب
المواطنة والعولمة
تطلب من
دار الشروق : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق : ١ ميدان طلعت حرب تليفون : ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق : مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون : ٥٧٣٥٠٣٥
كما يمكنكم شرائها إلكترونيا www.e-kotob.com